



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمران
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

رَبِّهِمْ بِالْقَوْلِ

إِلَى الْأَذْهَانِ

أَيُّهَا الْعُلَمَاءُ الْأَكْبَرُ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْخِ الشُّرَيْكِيِّ

(أَعْلَى الْمَنَاقِبِ)

١-٣

دار الفکر للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقريب القرآن الى الازهان

كاتب:

محمد الحسينى الشيرازى

نشرت فى الطباعة:

ايمان

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٢	تقريب القرآن الى الازهان
١٢	اشارة
١٢	الجزء الأول
١٢	المقدمة
١٢	اشارة
١٤	كيفية الإعجاز
١٦	الإعجاز لغة و اصطلاحا
١٧	بعض مزايا القرآن الكريم
١٩	الشيعة و الاهتمام البالغ بالقرآن الكريم
٢١	القرآن و أهل البيت عليهم السلام
٢٦	أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن
٢٦	فيمن نزل القرآن
٣٠	لمحة تاريخية عن علوم القرآن
٣٤	بعض مفسرى الشيعة
٣٦	علم التفسير أساس علوم القرآن
٣٨	أنواع التفسير
٣٩	الطريقة الجديدة فى تفسير القرآن الكريم
٤٠	القرآن يفسره الزمان
٤٢	هذا التفسير
٤٥	السيد صاحب التفسير أعلى الله مقامه
٥٤	المصادر
٥٦	مقدمة

- المدخل ٥٤
- كتاب كل عصر و مصر ٥٤
- تطبيق الفكر و العمل على القرآن ٤٠
- فلسفة كاملة عن الحياة ٤٣
- ١ سورة الفاتحة مكية- مدنية/ آياتها (٧) ٤٤
- ٢ سورة البقرة مدنية/ آياتها (٢٨٧) ٤٥
- ٣ سورة آل عمران مدنية/ آياتها (٢٠١) ١٤٧
- ٤ سورة النساء مدنية/ آياتها (١٧٧) ٢٠١
- ٥ سورة المائدة مدنية- آياتها ١٢١ ٢٤٨
- الجزء الثاني ٣٠٤
- [تتمة سورة المائدة] ٣٠٤
- ٦ سورة الأنعام مكية- مدنية/ آياتها (١٦٤) ٣٢٠
- ٧ سورة الأعراف مكية/ آياتها (٢٠٧) ٣٤٩
- ٨ سورة الأنفال مكية، مدنية/ آياتها (٧٤) ٤٢٩
- ٩ سورة التوبة مدنية/ آياتها (١٢٩) ٤٥٨
- ١٠ سورة يونس مكية/ آياتها (١١٠) ٥١٣
- ١١ سورة هود مكية/ آياتها (١٢٤) ٥٤٨
- ١٢ سورة يوسف مكية/ آياتها (١١٢) ٥٨٧
- الجزء الثالث ٤٠٥
- [تتمة سورة يوسف] ٤٠٥
- ١٣ سورة الرعد مكية/ آياتها (٤٤) ٤٢٤
- ١٤ سورة إبراهيم مكية/ آياتها (٥٣) ٤٤٧
- ١٥ سورة الحجر مكية/ آياتها (١٠٠) ٤٤٨
- ١٦ سورة النحل مكية/ آياتها (١٢٩) ٤٨٧

- ١٧ سورة الإسراء مكية- مدنية/ آياتها (١١٢) ٧٢٦
- ١٨ سورة الكهف مكية/ آياتها (١١١) ٧٦٠
- ١٩ سورة مريم مكية/ آياتها (٩٩) ٧٨٨
- ٢٠ سورة طه مكية/ آياتها (١٣٦) ٨٠٦
- ٢١ سورة الأنبياء مكية/ آياتها (١١٣) ٨٣١
- ٢٢ سورة الحج مدنية/ آياتها (٧٩) ٨٥٤
- ٢٣ سورة المؤمنون مكية/ آياتها (١١٩) ٨٧٦
- ٢٤ سورة النور مدنية/ آياتها (٦٥) ٨٩٥
- ٢٥ سورة الفرقان مكية/ آياتها (٧٨) ٩١٩
- الجزء الرابع ٩٢٣
- أتممة سورة الفرقان ٩٢٣
- ٢٦ سورة الشعراء مكية/ آياتها (٢٢٨) ٩٣٥
- ٢٧ سورة النمل مكية/ آياتها (٩٤) ٩٥٩
- ٢٨ سورة القصص مكية/ آياتها (٨٩) ٩٧٧
- ٢٩ سورة العنكبوت مكية أو مدنية/ آياتها (٧٠) ١٠٠١
- ٣٠ سورة الروم مكية/ آياتها (٦١) ١٠١٦
- ٣١ سورة لقمان مكية/ آياتها (٣٥) ١٠٣١
- ٣٢ سورة السجدة مكية/ آياتها (٣١) ١٠٤١
- ٣٣ سورة الأحزاب مدنية/ آياتها (٧٤) ١٠٤٨
- ٣٤ سورة سبأ مكية/ آياتها (٥٥) ١٠٧٦
- ٣٥ سورة فاطر مكية/ آياتها (٤٦) ١٠٩٠
- ٣٦ سورة يس مكية/ آياتها (٨٤) ١١٠٣
- ٣٧ سورة الصافات مكية/ آياتها (١٨٣) ١١١٧
- ٣٨ سورة ص مكية/ آياتها (٨٩) ١١٣٧

- ١١٥٢ سورة الزمر مكية/ آياتها (٧٦)
- ١١٧١ سورة غافر مكية/ آياتها (٨٦)
- ١١٨٩ سورة فصلت مكية/ آياتها (٥٥)
- ١٢٠١ الجزء الخامس
- ١٢٠١ [اتمة سورة فصلت
- ١٢٠٣ سورة الشورى مكية- مدنية/ آياتها (٥٤)
- ١٢١٩ سورة الزخرف مكية/ آياتها (٩٠)
- ١٢٣٤ سورة الدخان مكية/ آياتها (٦٠)
- ١٢٤١ سورة الجاثية مكية آياتها/ (٣٨)
- ١٢٤٩ سورة الأحقاف مكية/ آياتها (٣٦)
- ١٢٤١ سورة محمد مدنية/ آياتها (٣٩)
- ١٢٧١ سورة الفتح مدنية: آياتها (٣٠)
- ١٢٨٠ سورة الحجرات مدنية/ آياتها (١٩)
- ١٢٨٧ سورة (ق) مكية/ آياتها (٤٦)
- ١٢٩٥ سورة الذاريات مكية/ آياتها (٦١)
- ١٣٠٢ سورة الطور مكية/ آياتها (٥٠)
- ١٣٠٨ سورة النجم مكية- مدنية/ آياتها (٦٣)
- ١٣١٥ سورة القمر مكية/ آياتها (٥٦)
- ١٣٢٠ سورة الرحمن مكية أو مدنية/ آياتها (٧٩)
- ١٣٢٧ سورة الواقعة مكية/ آياتها (٩٧)
- ١٣٣٥ سورة الحديد مدنية/ آياتها (٣٠)
- ١٣٤٣ سورة المجادلة مدنية/ آياتها (٢٣)
- ١٣٥١ سورة الحشر مدنية/ آياتها (٢٥)
- ١٣٥٩ سورة الممتحنة مدنية/ آياتها (١٤)

- ١٣٦٦ ٦١ سورة الصف مدنية/ آياتها (١٥)
- ١٣٧٠ ٦٢ سورة الجمعة مدنية/ آياتها (١٢)
- ١٣٧٣ ٦٣ سورة المنافقون مدنية/ آياتها (١٢)
- ١٣٧٧ ٦٤ سورة التغابن مدنية/ آياتها (١٩)
- ١٣٨١ ٦٥ سورة الطلاق مدنية/ آياتها (١٣)
- ١٣٨٦ ٦٦ سورة التحريم مدنية/ آياتها (١٣)
- ١٣٩١ ٦٧ سورة الملك مكية/ آياتها (٣١)
- ١٣٩٦ ٦٨ سورة القلم مكية/ آياتها (٥٣)
- ١٤٠٣ ٦٩ سورة الحاقة مكية/ آياتها (٥٣)
- ١٤٠٨ ٧٠ سورة المعارج مكية/ آياتها (٤٥)
- ١٤١٢ ٧١ سورة نوح مكية/ آياتها (٢٩)
- ١٤١٦ ٧٢ سورة الجن مكية/ آياتها (٢٩)
- ١٤٢١ ٧٣ سورة المزمل مكية- مدنية/ آياتها (٢١)
- ١٤٢٤ ٧٤ سورة المدثر مكية/ آياتها (٥٧)
- ١٤٣١ ٧٥ سورة القيامة مكية/ آياتها (٤١)
- ١٤٣٤ ٧٦ سورة الإنسان مدنية/ آياتها (٣٢)
- ١٤٣٩ ٧٧ سورة المرسلات مكية/ آياتها (٥١)
- ١٤٤٣ ٧٨ سورة النبأ مكية/ آياتها (٤١)
- ١٤٤٨ ٧٩ سورة النازعات مكية/ آياتها (٤٧)
- ١٤٥٣ ٨٠ سورة عبس مكية/ آياتها (٤٣)
- ١٤٥٦ ٨١ سورة التكويم مكية/ آياتها (٣٠)
- ١٤٥٩ ٨٢ سورة الإنفطار مكية/ آياتها (٢٠)
- ١٤٦١ ٨٣ سورة المطففين مكية- مدنية/ آياتها (٣٧)
- ١٤٦٤ ٨٤ سورة الانشقاق مكية/ آياتها (٢٦)

- ١٤٦٦ سورة البروج مكية/ آياتها (٢٣) ١٤٦٦
- ١٤٦٩ سورة الطارق مكية/ آياتها (١٨) ١٤٦٩
- ١٤٧٠ سورة الأعلى مكية/ آياتها (٢٠) ١٤٧٠
- ١٤٧٢ سورة الغاشية مكية/ آياتها (٢٧) ١٤٧٢
- ١٤٧٥ سورة الفجر مكية/ آياتها (٣١) ١٤٧٥
- ١٤٧٨ سورة البلد مكية/ آياتها (٢١) ١٤٧٨
- ١٤٨٠ سورة الشمس مكية/ آياتها (١٦) ١٤٨٠
- ١٤٨٢ سورة الليل مكية/ آياتها (٢٢) ١٤٨٢
- ١٤٨٤ سورة الضحى مكية/ آياتها (١٢) ١٤٨٤
- ١٤٨٦ سورة الشرح مكية/ آياتها (٩) ١٤٨٦
- ١٤٨٧ سورة التين مكية/ آياتها (٩) ١٤٨٧
- ١٤٨٨ سورة العلق مكية/ آياتها (٢٠) ١٤٨٨
- ١٤٩١ سورة القدر مكية أو مدنية/ آياتها (٦) ١٤٩١
- ١٤٩٢ سورة البينة مدنية أو مكية/ آياتها (٩) ١٤٩٢
- ١٤٩٤ سورة الزلزلة مدنية أو مكية/ آياتها (٩) ١٤٩٤
- ١٤٩٥ سورة العاديات مدنية أو مكية/ آياتها (١٢) ١٤٩٥
- ١٤٩٦ سورة القارعة مكية أو مدنية/ آياتها (١٢) ١٤٩٦
- ١٤٩٧ سورة التكاثر مكية/ آياتها (٩) ١٤٩٧
- ١٤٩٨ سورة العصر مكية/ آياتها (٤) ١٤٩٨
- ١٤٩٩ سورة الهمزة مكية/ آياتها (١٠) ١٤٩٩
- ١٥٠٠ سورة الفيل مكية/ آياتها (٦) ١٥٠٠
- ١٥٠١ سورة قريش مكية/ آياتها (٥) ١٥٠١
- ١٥٠٢ سورة الماعون مكية أو مدنية/ آياتها (٨) ١٥٠٢
- ١٥٠٣ سورة الكوثر مكية أو مدنية/ آياتها (٤) ١٥٠٣

- ١٥٠٤ سورة الكافرون مكية أو مدنية/ آياتها (٧)
- ١٥٠٥ سورة النصر مدنية/ آياتها (٤)
- ١٥٠٥ سورة المسد مكية/ آياتها (٤)
- ١٥٠٦ سورة الإخلاص مكية أو مدنية/ آياتها (٥)
- ١٥٠٧ سورة الفلق مدنية/ آياتها (٤)
- ١٥٠٨ سورة الناس مدنية/ آياتها (٧)
- ١٥٠٩ المصادر و المراجع
- ١٥١٠ تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

تقريب القرآن الى الازهان

اشارة

سرشناسه : شيرازى، محمد
 عنوان و نام پديد آور : تقريب القرآن الى الازهان / محمد شيرازى
 مشخصات نشر : قم: ايمان، [١٣؟].
 مشخصات ظاهرى : ١٦٨ ص.
 عنوان ديگر : تقريب القرآن الى الازهان
 موضوع : تفاسير شيعه
 موضوع : تفاسير -- قرن ١٤
 رده بندي كنگره : BP٩٨/ح٤٦٤٦١٥٠٧٠٤٢١٥١٣٠٠ى
 رده بندي ديويى : ٢٩٧/١٧٩
 شماره كتابشناسى ملي : م٦٥-٢١٧٦

الجزء الأول

المقدمة

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله الذى أنزل القرآن و جعله شفاء و رحمة للمؤمنين، و الصلاة و السلام على أشرف الخلق و سيد الأنبياء و المرسلين، سيدنا و مولانا أبى القاسم محمّد و على آله الغرّ الميامين أهل بيت الوحي، و موضع الرسالة، و مختلف الملائكة، و مهبط الذكر و التنزيل، خزّان العلم، و منتهى الحلم، و أصول الكرم، و قادة الأمم، و أولياء النعم، و عناصر الأبرار، و دعائم الأخيار، و أبواب الإيمان، و أمناء الرحمن، و سلاله النبيين، و صفوة المرسلين، و عترة خيرة ربّ العالمين.
 و بعد:

فحيث إنّ الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الرسل بشرا يوحى إليهم كانت الحاجة إلى آيات و دلائل تبين صدقهم فيما يبلغون عن ربهم، و يهدون، و يعلمون. من هنا كانت المعجزة قرينة الرسالة، و لولا المعجزة لأشكل الأمر على الناس، و خالط الشكّ اليقين، و التبس الصدق و الكذب، و بالتالى تشوّشت أفكار الناس فى تمييز الصادق من الكاذب، و النبى من المنتحل.
 و من هنا فإنّ الظاهر أنّه لم يرد لفظ المعجزة كاصطلاح إلّا فى الفترة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦

المتأخّرة عن رسول الوحي صلّى الله عليه و آله و سلّم بعد نزول القرآن، و إنّما عبّر عنها فى الآيات و الروايات بالآية تارة قل إنّما الآيات عند الله «١» و بالبينه تارة قد جاءتكم بيّنة من ربكم «٢» و بالبرهان تارة ثالثة فذانك بُرهانان من ربك إلى فوعون «٣» و بالسلطان رابعة فأتونا بسُلطانٍ مُبين «٤» لما فى هذه الألفاظ من اندماج بين وحي اللفظ و بصيرة العقل و قوّة الحجّة و منطق البرهان، فتحاكى وجدان الإنسان و قلبه و عقله و فطرته و بصره و بصيرته بما يقطع أمامه سبل الشكّ، و يزيح ظلمات الوهم.

فآيات علائم و دلالات ظاهرة، كما أن دلالاتها واضحة سواء كانت دلالة عقلية أو حسية، و البرهان إظهار للحجة بموازين العقل و الحكمة، و هو أوكد الأدلة المحفزة لكوامن الصدق و التصديق؛ لذلك يقتضى الصدق لا محالة، و السلطان لما فيه من سلطنة و هيمنة على القلب و العقل تدعو إلى الإيمان، و تدفع الشكوك و الأوهام، و لا يبعد أن تكون الآية لعموم الناس؛ لأنّ الحب طريقهم إلى الإيمان و اليقين غالباً، و البينة فى مواقع إظهار ما يخفى على الناس معرفته، و البرهان لمن كان من أهل العقول و الأفكار، و السلطان لتسلطه على أهل العلم و الحكمة من الناس. هذا من حيث خصوصيات كل لفظ منها.

و أمّا من حيث الهدف و المضمون فالجميع يشترك فى تصديق النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و تثبيت حقايقه دعواه، و استقامة طريقه، و صحة أهدافه و نواياه.

و لعلّ من هنا اتفقت الكلمة على انحصار طريق معرفة صدق دعوى الأنبياء عليهم السلام بظهور المعجز على أيديهم كما يظهر من أقوال المحققين كقولهم: «و طريق معرفة صدقه ظهور المعجزة على يده». (٥)

(١) الأنعام: ١١٠.

(٢) الأعراف: ٧٤.

(٣) القصص: ٣٣.

(٤) إبراهيم: ١١.

(٥) تجريد الاعتقاد: ٢١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧

و عليه فإنّ طريق التصديق بالنبوة و الإيمان بها ينحصر بالإعجاز الذى يظهره النبى صلى الله عليه و آله و سلم شاهداً مطابقاً لدعواه. و لعلّ هذا هو المرتكز فى أذهان البشر و فطرتهم كسيل قد يعد وحيداً، أو الأكثر قوة، و الأسرع أثراً فى التصديق و الإيمان؛ و لذا كان أول نداء يطلقه الكافرون فى مواجهة دعوات الرسل و الأنبياء عليهم السلام هو المطالبة بإظهار الآيات و المعاجز، و كلّ قوم كانوا يطلبون من رسولهم ذلك حتّى و إن أقروا بغيره من الأنبياء السابقين.

قال تعالى: بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ «١».

ففى الوقت الذى أثبتت الآية التقارن التام بين رسالات الرسل و الآيات البينة كشفت عن إيمان اللاحقين بدعوات السابقين حتّى و إن كذبوا من أرسل إليهم من الأنبياء، فطالبوهم بإظهار الآيات.

و كانت هذه الآيات هى الحجة التى تنهض للمطالبيين الصادقين فى دعواهم لجذبهم إلى الإيمان، كما تثبت على المعاندين لو أصروا و ظلّوا فى غيهم يعمهون.

و لعلّ ممّا يشهد لذلك آيات متضافرة فى الكتاب العزيز، بعضها يثبت وقوع الإعجاز مقارنة لدعوى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و بعضها يبيّن نوع الإعجاز و تفاصيل حدوثه.

و ربّما يعدّ من الأولى قوله سبحانه: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ «٢».

ففى الوقت الذى تثبت دلائل الأنبياء الكافية فى اليقين و الإيمان

(١) الأنبياء: ٦.

(٢) الروم: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨

تهدّد المنكرين الذين عاصروا الرسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعايشوه بمصير يشبه مصير السابقين في مواقفهم من الرسل، وقد جمعت هذه الآيات مع الآيات التي في سياقها قبلا وبعدا بين الدلائل المادّية والمعنويّة، فحيث تحدّثت ما قبلها عن آية الرياح و ما لها من آثار هائلة و نافعته تقوم عليها حياة الناس حيث إنّها:

١- تأتي لهم بالسحاب المثلث بالغيث الذي يسقى الأرض العطشى، فينبت رزقهم و كلاً مواشيهم.

٢- توازن حرارة الجو فتعطيهم برودة في المناطق الحارّة و دفئا في الباردة.

٣- تنقى الهواء و الفضاء من الأوبئة و الغازات الضارّة.

٤- تلقح الأشجار فتعطي ثمارها، و الأزهار فتعطي أريجها و جمالها، و تنشر البذور من البيادر إلى الأراضي الجرداء فتغدو خضراء ممرعة ترعاها الأغنام و المواشى، و تضيء على الحياة بهجته و روعته.

٥- تحرك الفلك و السفن في البحار و الأنهار فتربط بين البشر، و تجمع بين حاجاتهم و احتياجاتهم فيتكافلون و يتكاملون و يتعاونون

..

و غيرها من آيات و براهين و دلائل تقوم عليها حياة الناس، و تدلّ على سعة رحمة الله عزّ و جلّ و عميم فضله و خيره و عظم بركته؛ و لذا قال سبحانه بعدها: وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «١».

و أمّا الدلائل المعنويّة التي هي أيضا من آثار رحمة الله و خيره و بركته فقد جاءت مقارنة لتلك لتشمل كلّ جوانب الإنسان، و تسدّ كلّ احتياجاته الجسديّة و الروحيّة؛ إذ لا يكفي الإنسان أن يعيش ناعما، يبات شعبانا،

(١) النحل: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩

و يغدو و فيرا روبا، فإنّ ذلك مهما بلغ و كثر و لذ و طاب لا يسدّ حاجاته الأكبر و الأوسع في تحقيق الآمال، و اللفهفة إلى النجاح في مختلف شؤون الحياة، بل لو لا الأمل و النجاح يصبح نهار الإنسان ليلا، و حلوه مرّا؛ لقصور الدنيا بما فيها من شهوات و غرائز و لذات و مطائب عن إشباع روح الإنسان و عقله و فكره، فحتى تتمّ النعمة و تكتمل الحجة و يتمّ البرهان كان لا بدّ من إشعال و قده الأمل في قلبه، و إنارة طريقه على المستقبل و الغد الناجح الوفير، فقال سبحانه: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ «١».

و على خلاف ذلك ما سيلاقه الكفار المعاندون من أيام شديدة و ساعات سوداء مدلهمة، و منها قوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٢» و المستفاد منها هو أنّ لكلّ رسول و نبيّ آية قد أحكمها الله تعالى و تولّاها بالحقّ و الصدق و الثبات في الموقف و الغاية، يمتنع عنها الريب، و لا تخالجهما شكوك الشيطان و تشكيكاته، و هذه أيضا تضمّنت آيات الظاهر و الباطن، فالأولى تنسف خطط الشيطان، و تعود بالناس إلى الإيمان، و الثانية تطمئن الرسل بمستقبل مشرق يعيش فيه الإيمان بأصنافه و شعبه.

(١) الروم: ٤٨.

(٢) الحج: ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠

و من الثانية: آيات متضافرة أيضا شرحت بوضوح ودقة و عمق كَيْفِيَّةِ الإعجاز و أنحائه لعل منها:

١- قوله سبحانه: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ «١» و هى اليد و العصا، و الحجر، و البحر، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم دلائل خارقة ظاهرة.

٢- قوله تعالى: وَ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ «٢».

٣- قوله تعالى: وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ.

«٣» ٤- قوله تعالى: وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَ رَوَاحُهَا شَهْرًا وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ «٤».

٥- قوله تبارك و تعالى: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ «٥» و غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى قد نصر أنبياءهم عليهم السلام بالمعجزة، و لم يوكل عموم الناس الذين يقنعهم بالإيمان عادة الشاهد

(١) الإسراء: ١٠٢.

(٢) آل عمران: ٥٠.

(٣) الأعراف: ٧٤.

(٤) سبأ: ١٣.

(٥) الأنبياء: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١

المادى الظاهر على صدق الأنبياء أكثر من قدرتهم الروحية و حالاتهم المعنوية و العقلية؛ لأن هذا قد لا يدركه عموم الناس كما لم ينحصر لطفه عز و جلّ بإخبارات النبى السابق عن ظهور نبى فى اللاحق، و ذكره لعلامات النبوة و سيماء النبى القادم؛ و ذلك لأنه حتى لو وصلت هذه الإخبارات و العلامات للأمم اللاحقة على نحو التواتر إلا أنها قد لا تلزم من لا يتدين بدين أصلا، أو لا يعتقد بنبوة ذلك النبى، فلا تتم الحجّة عليه.

و لعلّ قوله سبحانه فى سورة الحديد: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ «١» يحاكي أصحاب العقول المتفتحة و الآراء المتطلعة لجمع الدين بالدنيا و الفكر و التطبيق حتى فى مثل مجالات السياسة و الاجتماع و الاقتصاد و نحوها، حيث جمعت بين ثلاثة دلائل واضحة تشكّل العناصر الأساس لقيام أى مجتمع و دولة، و هى:

١- البيّنات كحجج على الإيمان ٢- الكتاب كحجّة على التقنين و التنظيم ٣- الميزان كحجّة على التطبيق و الممارسة مادّيًا و معنويًا. و من الواضح أن كلّ دولة و أمية تقومان على العقيدة و النظام و السلطة، و يجمعهما الهدف المشترك، و هو العدل، ثم يأتى بعد ذلك الحديد و القوّة لحمايتهما من الاستهانة أو الاستلاب، و بهذا يبنى الأنبياء عليهم السلام حضارة إنسانية رائعة يسودها الأمن و السلام، و يحكمها العدل و النظام فى شتى المجالات، و قد جمع هذه جميعا القرآن الكريم، فاحتوى كلّ رسالات الأنبياء و أهدافهم، فوصفه ربّه و منزله:

(١) الحديد: ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ «١» و وصفه من حملة و بلغ به و بشر: «هو الدليل يدل على خير سبيل» «٢» ..

و بالتالى فإنّ كلّ حرف و كلمة و جملة و آية و سورة بل كلّ حركة و سكنة و رفع و نصب فيه يدلّ على إعجاز و إعجاز و علوّ و سمو، فهو كما قالوا عنه:

ليست معجزة واحدة فحسب، بل موسوعة معجزات، فاجتماعيات معجزة لعلماء الاجتماع، و سياسيات معجزة للسياسيين، و أخلاقيات معجزة للأخلاقيين، و عسكريات معجزة للعسكريين، و اقتصاديات معجزة للاقتصاديين، و تربويات معجزة للتربويين، و أداء معجزة للأدباء، و لكلّ اختصاصيّ معجزة فى اختصاصه، بل إنّ القرآن معجزة لكلّ إنسان فى الجانب المنسجم مع أولويات ذلك الإنسان، فهو معجز بعدد الخلائق، أو ليست الطرق إلى الله سبحانه بعدد أنفاس الخلائق؟ فهو معجزة للناس أجمعين.

و فوق ذلك أنّه معجزة الفلسفة، فهو كتاب أعطى الفلسفة الكاملة الصحيحة للبشر، فهو كتاب الكون، بل هو عدل الكون؛ إذ الكون كلّ كلمة من كلمات الله، و القرآن كلمة أخرى من كلمات الله، فهى و تلك كلمتان مترادفتان، الكون قرآن و لكن بشكل، و القرآن كون و لكن بشكل آخر، و بعد ذلك و قبله فإنّ من القرآن ما فيه شفاء و رحمة للعالمين، و لا يزيد الظالمين إلّا خساراً. كما ستبقى صور الإعجاز و أشكاله تتجلّى فى كلّ عصر، و مع كلّ جيل مهما نضج البشر، و تنامت عقولهم، و تراكمت تجاربهم، و تنوّرت أفكارهم.

فإنّ القرآن يفسّره الزمان كما فى بعض الأخبار لا- تنقضى عجائبه، و لا- تنتهى غرائبه؛ لأنّه كلام الله سبحانه، و فيض من علمه اللامتناهى، و كلامه عزّ و جلّ مظهر لعلمه، و علمه مظهر لذاته، و كلّها لا متناهية و فوق ما لا يتناهى،

(١) الإسراء: ١٠.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ٥٩٩، ح ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣

فكيف يدركه بشر، أو يحيط بكنوزه محيط أو عالم؟ و بهذا يظهر مدى التجافى عن الحقيقة الدامغة فيما يدّعيه بعض أعداء الإسلام من أنّ القرآن من صنع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و أنّ القرآن لم يوح إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بأكمله، بل كان يوحى إليه رؤى قصيرة و وصايا، و أمثال و قصص ذات مغزى، أو أحاديث فى أصول العقيدة. و يكفينا فى ردّ زعم هؤلاء ما صدع به الحقّ تبارك و تعالى فى قوله عزّ من قائل: **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ** (١).

و

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام «و كفى بالكتاب حجيجا و خصيما»

«٢».

فإنّ كلمات القرآن و آياته و حروفه و كلّ ما فيه ينطق بأنّه وحى ممّن خلق الأرض و السماوات العلى، و ما خلقته عقول بشر، أو فاهت به ألسنتهم.

الإعجاز لغة و اصطلاحاً

المعجز فى اللغة له أكثر من معنى إلّا أنّ الأقرب منه إلى الفهم العرفى ما ذكر فى أقرب الموارد، و هو: أعجز فلان فلانا أى صيره عاجزا «٣».

لكن فى مجمع البحرين فسّره بالمعنى المصطلح، و كأنّه تفسير بالمصداق، فقال: المعجز: الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى المقرون بالتحدّى، و قد ذكر المسلمون للنبي صلى الله عليه و آله و سلم ألف معجزة منها القرآن «٤».

و قد فقد عرّف بتعاريف مختلفة بعض الشيء باختلاف قيودها.

(١) العنكبوت: ٥٠.

(٢) نهج البلاغة: ص ١١٢، الخطبة ٨٣.

(٣) أقرب الموارد: ج ٣، ص ٤٨٢، «عجز».

(٤) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢٥، «عجز».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤

ففى تجريد الاعتقاد: و طريق معرفته صدقه ظهور المعجزة على يده، و هو ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفى ما هو معتاد مع خرق العادة و مطابقة الدعوة «١».

و قريب منه ما فى مجمع البيان: و حاصله أن يأتى المدعى لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق النواميس الطبيعية و يعجز عنه غيره شاهدا على صدق دعواه «٢».

و ينبغى إضافة قيد التحدى لهذين التعريفين لينطبق على موازين الحدّ التام المنطقى بدهاه دخول الكرامة و نحوها فى التعريف، فلا يصبح حينئذ مائزا بين ما يظهر على أيدي الأنبياء و الأولياء عليهم السلام، و لا يبعد أن تكون جميع هذه التعاريف ناظرة إلى أمر واحد و إن كان ربّما لم يستظهر من بيانها، و هو أن المعجز أمر خارق للعادة و ليس لضوابط العقل؛ إذ لا يمكن الجمع بين النقيضين حتى بالإعجاز لامتناع الموضوع.

و عليه فليس الإعجاز فى تبديل الممتنع بالذات إلى ممكن، بل هو اختصار مراحل الإمكان الاستعدادى للممكن بإرادة الله سبحانه، أو بقوة النبى المعنوية التى منحها الله سبحانه إياه لإيجاده؛ و لذا يسمّى خارقا للعادة، فيمكن إثمار الشجرة غير المثمرة فى آن؛ لأنّ تحقّق الاثمار عادة يتوقّف على شرائط لا تتحقّق عادة إلّا بعد مضى زمان، و لكن ربّما تحصل هذه الشرائط فورا بالإعجاز، و هذا هو معنى خرق العادة أى المعتاد المألوف فى الكون أو عند الناس.

هذا و هناك شروط أخرى ينبغى توفّرها فى الإعجاز منها: مطابقة المعجزة للدعوى، و أن لا يكون هناك من يعارض مدعى النبوة فيما يتحدّى

(١) تجريد الاعتقاد: ص ٢١٤.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥

به، بحيث يستطيع غيره أن يأتى بمثل ما أتى به؛ إذ لا- يكون حينئذ ما أتى به ذلك النبى معجزا، و منها غير ذلك ممّا فضّله علماء الكلام.

بعض مزايا القرآن الكريم

و لعلّ من المناسب أن نشير هنا إلى بعض مزايا القرآن الكريم التى اتفق أهل الرأى فيها على أنها إعجاز:

١- أن القرآن الكريم معجز من حيث اختصاصه بمرتبة عليا فى الفصاحة و البلاغة خارقة للعادة لا يمكن لأحد أن يأتى بمثلها أو أن يدانيها.

٢- من حيث كونه مركّبا من نفس الحروف الهجائية التى يقدر على تأليفها كلّ أحد و مع ذلك عجز الخلق عن تركيب مثله بهذا

التركيب العجيب، و النمط الغريب من قوة اللفظ، و سحر البيان، و دقّة المعنى، و سلاسة التعبير، و قوة الترابط بحيث إنّ كلّ تغيير أو تصرّف فيه يخرجّه عن عدوّته، و يشير إلى وجود خلل في العبارة.

٣- من حيث امتيازّه عن غيره من كلام العرب بامتياز مليح، فإنّ أيّ كلام في هذه اللغّة مهما كان فصيحاً و بليغاً إذا زين بالقرآن الكريم تجد القرآن ممتازاً عنه متفوقاً عليه بما لا يقبل القياس أو التقويم.

٤- من حيث اتّصافه بنظام فريد، و أسلوب و حيد غير معهود في جميع الأزمنة، لا شعراً و لا نثراً؛ لذلك نسبة أدباء الكفّار إلى السحر؛ و ذلك لأخذه بمجامع القلوب و اتّصافه بالجاذبيّة الخاصّة.

٥- بالرغم من سعة مضامينه و وفرة آياته و كثرة سورته فهو خال عن الاختلال و التناقض و التهافت أ فلا يتدبّرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (١).

(١) النساء: ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦

فلا- تجد فيه كلمة خالية عن الفصاحة، و لا آية مخالفة لآية أخرى، بل جميعه موصوف بغاية الجودة، و متّصف بما لم تجر بمثله العادة.

٦- من حيث اشتمال القرآن الكريم على أحسن الآداب، و أمتن الحكم، و أكمل المواعظ، و أصوب القوانين، و أتم الأحكام في العبادات و المعاملات و المعاشرات في أمور الحياة و الأسرة و المجتمع، و في الحدود و الأقضية في السفر و الحضر و الأمن و الخوف و السلم و الحرب و العسرة و الغلبة و كلّ ما يحتاجه الإنسان في أصوله و فروعه بشكل ليس فيه أدنى خلل.

فجعل الله تعالى هذا القرآن مشتملاً على كلّ ما تحتاج إليه الأمم، و هادياً إلى التي هي أقوم، كما جعل بيانه و تبيانه عند مهبط وحيه و خزّان علمه و ترجمانه في خلقه النبيّ الأمين صلّى الله عليه و آله و سلّم و أهل بيته الأطهار عليهم آلاف التحية و الثناء تكريساً للاقتداء، و تعظيماً للإمامة و ما يترتب عليها من فوائد كبيرة في دنيا الناس و دينهم.

٧- من حيث ما تضمّنه من الأخبار في قضايا الأمم السالفة، و خفايا القصص الماضية، و دقائق القرون الخالية، مثل أخبار آدم عليه السّلام و ابنه، و مسائل نوح عليه السّلام، و أمور إبراهيم عليه السّلام، و قصّة أصحاب الكهف، و قضايا موسى ممّا لم يطّلع عليها أحد إلا- بعض خواصّ الأخبار و الرهبان الذين لم يكن النبيّ الأعظم صلّى الله عليه و آله و سلّم معاشراً لهم، بل كان بعيداً عن مخالطتهم.

فكتاب كهذا من النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم الذي لم يتعلّم عند أحد يكشف قطعاً عن كونه من الله العالم بجميع الأمور.

علماً بأنّ ما بينه النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم من أخبار القرآن لم يكن اقتباساً من كتبهم، بل نقلاً لحقيقة الأمر و واقعه الموجود عندهم، و إلّا لكانوا يرمونه بالسرقة من كتبهم و هم غير آيين من توجيه التهمة مع توفّر الدواعي الكافية في ذلك.

٨- من حيث اشتماله على الأخبار عن ضمائر المنافقين و بواطن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧

الكافرين و نوايا المشركين الخفيّة التي لم يطّلع عليها أحد حتّى إنهم كانوا يحذرون من أن تنزل فيهم آية تفضحهم، و تكشف نواياهم.

بل أخبر عن الأمور المستقبلية و الحوادث المقبلة و الغيب الصادق و النبأ المطابق ممّا لم يطّلع عليه إلّا علّام الغيوب مع كمال المطابقة و الصدق كما في قوله تعالى: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (١)، و قوله تعالى لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

هذا مضافا إلى إخباراته عن الحقائق العلمية التي لم ينكشف السير منها إلّا في الآونة الأخيرة و القرون المتأخرة على رغم تطوّر العلوم و المعارف.

٩- من حيث خواصه المعنوية و خصائصه الذاتية في التأثير على الأرواح، و شفائه للقلوب و الضمائر، و علاجه للأجسام، و طمأنته للقلوب، و بركاته في النفوس، فضلا عن الآثار الوضعية الأخرى التي تلازمه في النظر و القراءة و الاستشهاد و الاحتفاظ و نحو ذلك.

١٠- من حيث طراوته و حلاوته و عدم الملل منه عند تلاوته و قراءته مهما زادت و تكررت، و بعد كلّ ذلك فإنه لا يخلق على طول الأزمان، و لا يبلى، بل يستفاد منه في كلّ قراءة جديدة نكتة جديدة، و يجد القارئ المتدبر فيه إمعانات و إشارات و حقائق و لطائف لم تظهر له من قبل،

فهو كلام الله البالغ، و حكمه الساطع، و هو نور لا يطفأ، و سراج لا يخبو كما ورد في خطبة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة

«٣».

إلى غير ذلك من جهات و أسرار لا يسع المجال لبيانها هنا.

(١) القمر: ٤٦.

(٢) الفتح: ٢٨.

(٣) نهج البلاغة: ص ٣١٥، الخطبة ١٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨

الشيعه و الاهتمام البالغ بالقرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم أحدث في الحياة البشرية أعظم انقلاب و تغيير شمل كلّ مناحى الحياة، و امتدّ شعاعه إلى أبعد الأصقاع، و أذهل أقوى الأدمغة، و اكتسح أعظم الحضارات، و أقام فوق ركامها أنظف حضارة و أجمل حياة و أكمل سيادة و سياسة.

هذا و قد كان للشيعه اليد الطولى و السهم العظيم في الاهتمام به، و العمل على دراسته و تفسيره، و بيان معانيه و مضامينه، و اكتشاف أسراره و آياته و بيناته بهدى من أئمتهم عليهم السلام الذين هم عدل القرآن و أهله الذين أنزل القرآن في بيوتهم.

فكتبوا و نشروا و حثّوا أيما حثّ على قراءته و حفظه و نشره و تجويده و الاستناد إليه في كلّ حقول المعرفة، و كان السبب في اهتمام الشيعه بالقرآن في الدرجة الأولى هو أهميّة القرآن نفسه و عظمت أمره، ثمّ الاقتداء بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم و الأئمة من أهل بيته عليهم السلام في ذلك.

فمن ينظر إلى الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام و التي تحدّثوا فيها عن القرآن الكريم يواجه عناية بالغه و كبيرة منهم بهذا الكتاب الإلهي الخالد، ثم من يطّلع على بقيه أحاديثهم في شتى جوانب الدين يجدها مليئة بالاستدلالات من القرآن الكريم ممّا يكشف عن شدّة حرصهم على البقاء إلى جانب القرآن و الانطلاق منه و الرجوع إليه، و يشهد بذلك ما ألفه علماء الإمامية سدّدهم الله تعالى و روايتهم حول فضل القرآن و خصائصه و علومه و مزاياه و في شتى المجالات. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩

ما يلي:

١- كتاب فضل القرآن ليونس بن عبد الرحمن من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام.

٢- كتاب فضل القرآن لمحمد بن الحسن الصفار المتوفى سنة ٢٩٠ هـ.

٣- كتاب نواذر القرآن لعلی بن إبراهيم بن هاشم في القرن الثالث الهجري.

٤- كتاب فضل القرآن لمحمد بن مسعود العياشي في القرن الثالث الهجري.

٥- كتاب فضائل القرآن لأحمد بن محمد بن عمّار المتوفى سنة ٣٤٦ هـ.

كما عقد جمع من علماء الإمامية أبواباً خاصة حول القرآن في كتب الحديث مثل:

١- كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من (أصول الكافي) للكليني.

٢- كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من موسوعة (من لا يحضره الفقيه).

٣- كتاب القرآن في الجزء الرابع من موسوعة (وسائل الشيعة).

٤- كتاب القرآن في الجزء الأول من (مستدرک وسائل الشيعة).

٥- كتاب القرآن في الجزء الثاني والتسعين من موسوعة (بحار الأنوار).

وهذا يدلّك على مدى اهتمام الشيعة بالقرآن الكريم، كما أنّ التأريخ يشهد لهم مدى تفانيهم وبذلهم لأرواحهم على مدى التأريخ

في سبيل القرآن الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام. وقبل كلّ ذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠

هو أوّل من سمع القرآن من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وخالجه آياته، وهو أوّل من جمعه بأمر رسول الله صلّى الله عليه

وآله وسلم وكتب تفسيره وتأويله وشأن نزوله كما في متضافر الأدلّة «١».

أمّا في علوم التفسير فكان الشيعة لهم القدم الأوّل في ذلك، وقد ذكر الشيخ الذهبي من علماء الأزهر في كتابه التفسير والمفسرون

عدداً من ذلك بعد أن استعرض بنحو مجمل من كتب في العصر الإسلامي الأوّل، وعدّ على رأسها تفسير الإمام عليّ بن أبي طالب

عليه السلام، فهو أوّل من كتب في التفسير، ثم قال في كتابه: وقد عدّ السيوطي في الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، و

من سماهم ابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم ... ثم قال: أمّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام فهو أكثر

الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير «٢».

وفي مكان آخر قال: جمع عليّ عليه السلام إلى مهارته في القضاء والفتوى علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفي معانيه، فكان

أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب

عليه السلام. «٣» وليس الذهبي منفرداً في هذا القول، فقد ذكر هذا الكثيرون غيره «٤».

أمّا أوّل من صنّف في التفسير فهو ترجمان القرآن عبد الله بن العباس المتوفى سنة ٦٨، ثم تلميذه سعيد بن جبیر الذي قتله الحجاج

عام ٩٤ «٥»، وقيل: سنة ٩٥ وكان من المشهورين في التفسير، بل روى عن قتادة أن

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣١٦-٣١٧؛ الذريعة: ج ٤، ص ٢٣١.

(٢) التفسير والمفسرون: ج ١، ص ٦٣-٦٤.

(٣) التفسير والمفسرون: ج ١، ص ٨٩-٩٠.

(٤) بين الجدران: ج ١، ص ١٧-١٨؛ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٥٢.

(٥) الذريعة: ج ٤، ص ٢٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١

سعيداً كان أعلم معاصريه بالتفسير «١». وأسند أبو عمر الكشي في كتاب الرجال عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: سعيد

بن جبير كان يأتّم بعليّ بن الحسين عليه السّلام، و كان عليّ بن الحسين عليه السّلام يشي عليه. و ما كان سبب قتل الحجاج له إلّا على هذا الأمر - يعنى التشيع - و كان مستقيماً «٢».

و قد اهتمّ الشيعة اهتماماً كبيراً بالتفسير، و كتبوا فيه الكثير من الكتب، منها فى تفسير كل القرآن، و منها فى بعضه.

القرآن و أهل البيت عليهم السّلام

إنّ من يتتبع أحاديث العترة النبويّة الطاهرة يجدها تسير جنباً إلى جنب مع القرآن، تتمسك بآياته، و تستدلّ بإشاراته، كما أنّ القرآن الكريم نفسه يشيد بمواقفهم و أقوالهم عليهم السّلام؛ إذ وصفهم بالطهارة من الرّجس المعنوى و المادىّ ذلك الوصف المؤكّد الذى يقتضى تنزيههم عن أىّ خطأ و خلل، و مخالفة للكتاب، بل يقتضى كونهم مع القرآن فى هدف واحد، و على جادة واحدة، و لا غرابة إذا قيل: إنّهم عليهم السّلام ورثوا الكتاب و علمه و فهمه و فقه أسرارهم و مقاصدهم و أبعادهم و بطونهم دون غيرهم، فذلك أمر قد جرى بعض منه فى الأنبياء السابقين و أوصيائهم كما يصرّح القرآن الكريم بذلك.

و قد صرّح أئمّة أهل البيت المطهّرون عليهم السّلام بهذا الأمر فى تصريحات مستقلّة، مثلما

روى عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السّلام إذ قال

«نحن الذين اصطفانا الله عزّ و جلّ، و أورثنا هذا الذى فيه تبيان كلّ شىء»

«٣» على أنّ العقل يحتّم مثل هذه الوراثة للكتاب و علمه و فهمه و فقهه؛ إذ لو لا - الصفوة التى ترث مسئوليّة الحفاظ على الرسالة لضاعت الرسالة،

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٥٥؛ انظر الإتقان فى علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٣٤؛ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٤.

(٢) رجال الكشي: ج ١، ص ٣٣٥.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٦، ح ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢

و ضاعت جهود صاحبها، و انتقض الغرض من بعثته صلى الله عليه و آله و سلّم.

و من البديهي أنّ أولى الناس بذلك هو من يرتبط بصاحب الرسالة بوشائج القربى، و يكون على درجة عالية من الطهر و التقى و الورع و الذكاء و النبوغ ليزداد حرصه على الرسالة و على ميراث صاحبها من العلوم و المعارف؛ و لهذا اختصّ نسب الرسول و ذريّته عليهم السّلام بعلم الكتاب العزيز، فهم تحمّلوه و حملوه كمسؤوليه كبرى، و تجشّموا فى سبيل المحافظة عليه عناء كبيراً و نصبا كثيراً، و قاتلوا الناس على تنزيهه، ثمّ قاتلوه على تأويله، ثمّ إنّ البراهين و الأدلّة العمليّة التى قدّمها الأئمّة عليهم السّلام فى مجال تفسير القرآن و فكّ رموزه و بيان بطونه و أبعاده بنفسها خير شاهد على ذلك، و نذكر هنا جملة من الأحاديث الواردة بهذا الشأن تيمّنا و تبرّكا:

-١-

عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم: «إنى تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدى: كتاب الله و عترتى أهل بيتى و إنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض»

«١».

-٢-

عن أبي جعفر عليه السّلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة و كتابه و أهل بيته، ثمّ أمّتي، ثمّ أسألهم ما فعلتم بكتاب الله و أهل بيته»
 (٢).

٣- و

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «هم مع القرآن و القرآن معهم لا يفارقونه حتى يردوا علىّ الحوض»
 (٣).

و لا يخفى على اللبيب دلالة (المعنى و عدم المفارقة) على التلازم و عدم الافتراق أو الاختلاف فى كل شىء حتى يوم القيامة.

(١) مستدرک الوسائل: ج ٧، ص ٢٥٤-٢٥٥، ح ٨١٨١، باب ٤٧ من كتاب الزكاة؛ بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٠٠، ح ٥٩؛ و انظر الإرشاد: ج ١، ص ٢٣٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٦، ص ١٧٠، ح ٢، باب ٢ من أبواب قراءة القرآن.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٥٠، ح ١٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣

٤- و

عن علىّ عليه السّلام قال: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شىء إلّا أخبرتكم به و اسألوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلّا و أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل»
 (١).

٥- و

عنه عليه السّلام قال: «والله ما نزلت آية إلّا و قد علمت فيم نزلت و أين نزلت ... إن ربّى و هب لى قلبا عقولا و لسانا سؤولا»
 (٢).

٦- و

عنه عليه السّلام قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله، فما من آية إلّا و أعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل أرض»
 (٣).

٧- و

عن أبى الصباح قال: و الله لقد قال لى جعفر بن محمّد عليهما السّلام: «إنّ الله علّم نبيّه صلّى الله عليه وآله و سلّم التنزيل و التأويل، فعلمه رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم عليّنا عليه السّلام قال: و علّمنا و الله»
 (٤).

٨- و

عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبى عبد الله الصادق عليه السّلام يقول: «و الله إننى لأعلم كتاب الله من أوّله إلى آخره، كأنه فى كفى، فيه خبر السماء و خبر الأرض و خبر ما كان و خبر ما هو كائن. قال الله عزّ و جلّ: تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ»
 (٥) (٦).

٩- و

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» (٧) قال: هم الأئمة عليهم السلام»
 (٨).

(١) الإتيان في علوم القرآن: ج ٢ ص ١٢٢٧؛ وانظر الغدير: ج ٦، ص ١٩٣؛ بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٧٩، ح ٦١.

(٢) المناقب: ج ٢، ص ٤٣؛ الإتيان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٩٠، ح ٧٤.

(٤) الكافي: ج ٧، ص ٤٤٢، ح ١٥؛ التهذيب: ج ٨، ص ٢٨٦، ح ١٠٥٢، وسائل الشيعة:

ج ٢٣، ص ٢٢٤، ح ٢٩٤٢٦، باب ١٢ من أبواب كتاب الأيمان.

(٥) النحل: ٩٠.

(٦) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٩، ح ٤، وفيه «فيه تبيان كل شيء».

(٧) العنكبوت: ٥٠.

(٨) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٤، ح ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤

و

في رواية أخرى: «هم الأئمة عليهم السلام خاصة»

(١).

١٠- و

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير قول الله عزّ وجلّ: «هَلْ يَشْتَوِي الَّذِينَ يَظُنُّونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (٢) قال عليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون، والذين لا يعلمون عدونا، وشيعتنا أولو الألباب»

(٣).

١١- و

عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك و تعالی طهرنا و عصمنا و جعلنا شهداء على خلقه، و حجّته في أرضه، و جعلنا مع القرآن، و جعل القرآن معنا لا نفارقه و لا يفارقنا»

(٤).

١٢- و

عنه عليه السلام قال: «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد، فينا نزل القرآن، و فينا معدن الرسالة»

(٥).

١٣- و

عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦) قال عليه السلام: «الذكر القرآن، و نحن أهله»

(٧).

١٤- و

عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ «٨» قال عليه السلام: «الثقلان نحن و القرآن»
«٩».

١٥- و

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن»
«١٠».

هذا وقد تواترت الأخبار الدالة على كونهم عليهم السلام عدل القرآن و الثقل الذي أوصى به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله و سلم، و الدال على تلاحمهم المطلق مع القرآن فكرا و قولا و عملا، بل هم القرآن الناطق الذي لا ينطق عن الهوى، و قد وردت أكثر من ثلاثين رواية بهذا الشأن عن طرفنا، و أكثر من ست عشرة

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٤، ح ٥.

(٢) الزمر: ١٠.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٢، ح ١.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ٣٤٣، ح ٢٦.

(٥) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٢٦٩، ح ٥.

(٦) النحل: ٤٤.

(٧) بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ١٨١، ح ٣٧.

(٨) الرحمن: ٣٢.

(٩) بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ٣٢٤، ح ٣٧.

(١٠) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٧، ح ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥

رواية من طرق العامة تدل على ذلك، كما أورده العلامة البحراني «١» و غيره.

و من هنا اتفق أصحابنا على أن تفسير القرآن لا يجوز إلما بالأثر الصحيح عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله و سلم و الأئمة

الطاهرين عليهم السلام، و حرّموا القول فيه بالرأى و الاجتهاد، و هذا ما رواه العامة أيضا

عن النبي صلى الله عليه وآله و سلم أنه قال: «من فسّر القرآن برأيه و أصاب الحق فقد أخطأ»

«٢» و الظاهر أنهم التزموا به من حيث الكبرى و إن خالف جمع غير قليل من مفسّريهم الالتزام بذلك من حيث الصغرى. خصوصا ما

يتعلّق بالآيات الواردة بشأن أهل البيت عليهم السلام و بيان فضائلهم و مقاماتهم الربانية.

و من الواضح أنه لا يجوز أن يكون في كلام الله عزّ و جلّ و حججه المعصومة عليهم السلام تناقض أو تضادّ أو تعارض حقيقى لما

فيه من القبح و نقض الغرض و غيرهما من المحالات.

كيف لا و قد عرفت أنهم عليهم السلام عدله، بل و الناطق من كلماته و آياته، كما أنه الميزان الذي يفصل بين منطقتهم و حديثهم و

منطق و حديث غيرهم، و ممّا يؤكّد ذلك ما

روى عن النبي صلى الله عليه وآله و سلم و الأئمة عليهم السلام: «إذا جاءكم منّا حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله

فخذوه، و ما خالفه فاطرحوه أو ردّوه علينا»

«٣».

و لعلمائنا الأعلام في علمي التفسير و الأصول كلام مفصّل في بيان المقصود من التفسير بالرأى و حلّ بعض التشابه البدوى الذى قد يتصوّره البعض تعارضا واقعا بين الآيات و الروايات بما لا يسعنا المجال لبيانه هنا «٤».

(١) البرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٩-١٥ و ٢٦-٢٨.

(٢) التبيان: ج ١، ص ٤، مقدّمه المؤلّف.

(٣) التهذيب: ج ٧، ص ٢٧٥، ح ١١٦٩.

(٤) من أراد الاطلاع يمكنه مراجعة مجمع البيان: ج ١، ص ٦؛ تفسير الصافى: ج ١، ص ٣٢-٣٥؛ البرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٧-١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦

هذا مضافا إلى ما تواتر نقله في كتب العامة فضلا عن الخاصّة من حديث الثقلين الدالّ على تلاحم القرآن و أهل البيت عليهم السّلام، فقد أوردوا في كتبهم من روايته عن الصحابة الذين سمعوه من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أكثر من ثلاثين صحابيا، و بقى على ذلك متواترا في كلّ عصر إلى العصر الحاضر، و نصّ الحديث هو قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله و عترتي أهل بيتي، و إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (١).

و لا يخفى أنّ لفظ العتره و الأحاديث الكثيرة الصحيحة الواردة في تعيين أهل البيت عليهم السّلام يعينان المراد من أهل البيت عليهم السّلام، فضلا عن دلالة الإجماع و العقل.

و

قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا»

مع

قول صلّى الله عليه و آله و سلّم: «و إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»

يعينان الأئمة الاثني عشر المعصومين عليهم السّلام من عتره الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و ذرّيته كما ذكره العلامة البلاغى (قده) و لعلّ من دلائل ذلك أيضا إجماع المسلمين على أنّ من عداهم عليهم السّلام ليس معصوما، و لا يتّصف بأنّه مثل كتاب الله لا يضلّ من تمسّك به. و هذه أسماء الصحابة السامعين لهذا الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: ١- عليّ أمير المؤمنين عليه السّلام ٢- عبد الله بن عباس ٣- أبو ذرّ الغفارى ٤- جابر الأنصارى ٥- عبد الله بن عمر ٦- حذيفة بن أسيد ٧- زيد بن أرقم ٨- عبد الرحمن ابن عوف ٩- ضميرة الأسلمى ١٠- عاصم بن ليلى ١١- أبو رافع ١٢- أبو هريرة ١٣- عبد الله بن حنطب ١٤- زيد بن ثابت ١٥- أم سلمة ١٦- أم هانى أخت أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام ١٧- خزيمه بن ثابت ١٨- سهل بن سعد ١٩- عدى بن حاتم ٢٠- عقبه بن عامر ٢١- أبو أيوب الأنصارى ٢٢-

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص ٣٤، ح ٣٣١٤٤، باب ٦ من أبواب صفات القاضى و ما يجوز أن يقضى به؛ و انظر الخصال: ج ١، ص

٦٥، ح ٩٧؛ سنن الترمذى: ج ٥، ص ٦٦٣، ح ٣٧٨٨؛ مسند أحمد: ج ٣، ص ١٤ و ١٧ و ٢٦؛ المستدرک على الصحيحين:

ج ٣، ص ١٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧

أبو سعيد الخدرى ٢٣- أبو شريح الخزاعى ٢٤- أبو قدامة الأنصارى ٢٥- أبو لیلی ٢٦- أبو الهيثم بن التيهان. وهؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم من بعد أم هانى قد رواه كل منهم منفردا كمن تقدمه، وقاموا فى رحبة الكوفة مع سبعة من قريش، فشهدوا أنهم سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهؤلاء ثلاثة و ثلاثون، و رواه أبو نعيم الإصبهاني فى كتاب (منقبة المطهرين) مسندا عن جبير بن مطعم، و أسنده أيضا عن أنس بن مالك، و أسنده عن البراء بن عازب، و رواه موفق بن أحمد أخطب خوارزم عن عمرو بن العاص. و قلما يخلو عن رواية هذا الحديث مسندا أو جامع أو كتاب فى الفضائل لأهل السنة من أول ما أخرج الحديث من الحفظ و صدور الحفاظ إلى صحف المحدثين و لا زالت يروى فيها عن صحابى واحد أو أكثر، و ربما روى فى واحد منها عن أكثر من عشرين صحابيا إما مجملا كما فى الصواعق، و إما مسندا مفضلا كما فى كتب السخاوى و السيوطى و السهمودى و غيرهم، و من أراد الاطلاع فليرجع إلى الجزأين المكتوبين فى أسانيد هذا الحديث من كتاب العباة.

كما و رواه الإمامية فى كتبهم و أسانيدهم المتكررة عن الباقر و الصادق و الكاظم و الرضا عليهم السلام، عن آبائهم عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و بالأسانيد الأخر عن أمير المؤمنين عليه السلام و عمر و أبى ذرّ و جابر و أبى سعيد و زيد بن أرقم و زيد بن ثابت و حذيفة بن أسيد و أبى هريرة و غيرهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما فى غاية المرام «١».

أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن

تضافرت الأدلة من الآيات و الروايات بل و هو ممّا يحكم به العقل أيضا فضلا عن الإجماع أن أهل البيت عليهم السلام عدل القرآن الكريم، و هما القيمتان

(١) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج ١، ص ٢٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨

المتكاملتان و المتلاحمتان فى الجوهر و المضمون، و لا يفصل بينهما مكان أو زمان أو رأى أو مفهوم، و لا يوزعهما فكر أو تطبيق، شعاعان من نور واحد، و طريقان فى هدف واحد، يشتركان معا فى إضاءة عقل الإنسان و روحه و قلبه، و يوجهانه إلى حيث سعاده و بناء حياته و حضارته الحرة الكريمة، فلو لا القرآن لم يكن للحياة هدى، و لا للإنسان رشد، و لا علق فى طرفه نور، و لو لا أهل البيت عليهم السلام لم يكن للرشد مرشد، و لا للعلم معلم أو تعليم، و لا للنور شعاع أو مصباح. فالقرآن أصل العلم، و أهل البيت عليهم السلام معرفته و معدنه و بيانه؛ و لذا كان أكثر ما نزل به القرآن ما يرتبط بهم عليهم السلام من قريب أو بعيد، فبعضه فى ولايتهم و موذتهم و طاعتهم عليهم السلام، و بعضه فى فضح أعدائهم، و بعضه فى الأحكام و الفضائل التى لا تصل غايتها و لا تقع مقبولة عند الخالق تبارك و تعالى إلا إذا اقترنت بمحبتهم، و وصلت من طرفهم.

فيمن نزل القرآن

-١-

عن أبى الجارود قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «نزل القرآن على أربعة أرباع، ربع فىنا، و ربع فى عدونا، و ربع فى فرائض و أحكام، و ربع سنن و أمثال، و لنا كرائم القرآن»

«١».

-٢-

عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن القرآن و الفرقان قال: «القرآن جملة الكتاب و أخبار ما يكون، و الفرقان

المحكم الذى يعمل به، و كل محكم فهو فرقان»

«٢».

٣- و

عن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «نزل القرآن أثلاثا، ثلث فينا و فى عدونا، و ثلث سنن و أمثال، و ثلث فرائض و أحكام»

«٣».

(١) تفسير العياشى: ج ١، ص ٩، ح ١.

(٢) تفسير العياشى: ج ١، ص ٩، ح ٢.

(٣) تفسير العياشى: ج ١، ص ٩، ح ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩

٤-

عن محمد بن خالد بن الحجاج الكرخي، عن بعض أصحابه رفعه إلى خيشمة قال: قال أبو جعفر: «يا خيشمة، القرآن نزل أثلاثا، ثلث فينا و فى أحبائنا، و ثلث فى أعدائنا و عدوّ من كان قبلنا، و ثلث سنّة و مثل، و لو أنّ الآية إذا نزلت فى قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقى من القرآن شىء، و لكن القرآن يجرى أوله على آخره ما دامت السماوات و الأرض، و لكل قوم آية يتلونها و هم منها من خير أو شر»

«١».

ولا- تنافى بين هذه الأخبار؛ لأنّ بناء هذا التقسيم ليس على التسوية الحقيقية، و لا على التفريق من جميع الوجوه، بل على أصل التصنيف، فإطلاقه لا- ينفى ما عداه لكونه ليس فى مقام البيان، و عليه فلا بأس باختلاف الأخبار بالثلاث و الترتيب، و لا بزيادة بعض الأقسام على الثلث أو الربع أو نقصه عنهما، و لا دخول بعضها فى بعض.

هذا و قد وردت أخبار جمّة عن أهل البيت عليهم السّلام فى تأويل كثير من آيات القرآن بهم و بأوليائهم و أعدائهم، حتّى إنّ جماعة من أصحابنا صنّفوا كتباً فى تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السّلام فى تأويل آية آية، إمّا بهم أو بشيعتهم أو بعدوّهم على ترتيب القرآن، و قد روى فى الكافى و فى تفسيرى العياشى و على بن إبراهيم القمى و التفسير المسموع من الإمام أبى محمد الزكى أخبار كثيرة من هذا القبيل «٢»، منها ما

رواه فى الكافى عن أبى جعفر عليه السّلام فى قوله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٤) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٥) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «٣». قال: «هى الولاية لأمر المؤمنين عليه السلام»

«٤».

و

فى تفسير الصافى نقلا عن العياشى عن محمد بن مسلم عن أبى

(١) تفسير العياشى: ج ١، ص ١٠، ح ٧.

(٢) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج ١، ص ٢٠٩.

(٣) الشعراء ١٩٤-١٩٦.

(٤) أصول الكافي: ج ١، ص ٤١٢، ح ١. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠

جعفر عليه السلام قال: «يا أبا محمّد، إذا سمعت الله ذكر قوما من هذه الأئمة بخير فحننهم، وإذا سمعت الله ذكر قوما بسوء ممّن مضى فهم عدوّنا»
(١).

و

فيه عن عمر بن حنظلّه عن أبي عبد الله عليه السلام سأله عن قول الله تعالى: قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ
(٢).

قال: فلما رأني أتتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: «حسبك كل شيء في الكتاب من فاتحته إلى خاتمته، مثل هذا فهو في الأئمة عنوا به»
(٣).

وقد أشار الفيض الكاشاني (قدّس سرّه) إلى بعض السرّ فيه في تفسيره، فقال: إنّه لما أراد الله أن يعرّف نفسه لخلقه ليعبده، و كان لم يتيسّر معرفته كما أراد على سنّة الأسباب إلّا بوجود الأنبياء والأوصياء؛ إذ بهم تحصل المعرفة التامة والعبادة الكاملة دون غيرهم، و كان لم يتيسّر وجود الأنبياء والأوصياء إلّا بخلق سائر الخلق ليكون أنسا لهم، و سببا لمعاشهم؛ فلذلك خلق سائر الخلق، ثم أمرهم بمعرفة أنبيائه وأوليائه وولايتهم، و التبرّي من أعدائهم، و ممّا يصدّهم عن ذلك، ليكونوا ذوى حظوظ من نعيمهم، و وهب الكلّ معرفة نفسه على قدر معرفتهم بالأنبياء والأوصياء؛ إذ بمعرفتهم إياهم يعرفون الله، و بولايتهم إياهم يتولّون الله، فكلّ ما ورد من البشارة والإنذار والأوامر والنواهي والنصائح والمواعظ من الله سبحانه فإنّما هو لذلك، و لما كان نبينا سيّد الأنبياء و وصيّ سيد الأوصياء لجمعهما كمالا سائر الأنبياء والأوصياء و مقاماتهم مع مالهما من الفضل عليهم و كان كلّ منهما نفس الآخر صحّ أن ينسب إلى أحدهما من الفضل ما ينسب إليهم لاشتماله على الكلّ، و جمعه لفضائل الكلّ، و حيث كان الأكمل يكون الكامل لا محالة؛ و لذلك خصّ تأويل الآيات بهما، و بسائر أهل البيت عليهم السّلام الذين هم منهما ذريّة بعضها من بعض، و جرى بالكلمة الجامعة التي هي الولاية فإنّها مشتملة

(١) تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٣-٢٤.

(٢) الرعد: ٤٤.

(٣) تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١

على المعرفة والمحبة والمتابعة و سائر ما لا بدّ منه في ذلك.

و أيضا فإنّ أحكام الله سبحانه إنّما تجرى على الحقائق الكلّية و المقامات النوعية دون خصائص الأفراد والآحاد، فحيثما خوطب قوم بخطاب أو نسب إليهم فعل دخل في ذلك الخطاب و ذلك الفعل عند العلماء و أولى الألباب كلّ من كان من سنخ أولئك القوم و طينتهم، فصفوة الله حيثما خوطبوا بمكرمة أو نسبوا إلى أنفسهم مكرمة يشمل ذلك كلّ من كان من سنخهم و طينتهم من الأنبياء والأولياء و كلّ من كان من المقرّبين، إلّا مكرمة خصّوا بها دون غيرهم، و كذلك إذا خوطبت شيعةهم بخير أو نسب إليهم خير أو خوطب أعداؤهم بسوء و نسب إليهم سوء يدخل في الأوّل كلّ من كان من سنخ شيعةهم و طينته محبيهم، و في الثاني كلّ من كان من سنخ أعدائهم و طينته مبغضيهم من الأوّلين و الآخرين؛ و ذلك لأنّ كلّ من أحبّه الله و رسوله أحبّه كلّ مؤمن من ابتداء الخلق إلى انتهائه، و كلّ من أبغضه الله و رسوله أبغضه كلّ مؤمن كذلك، و هو يبغض كلّ من أحبّه الله تعالى و رسوله، و كلّ مؤمن في العالم

قديمًا أو حديثًا إلى يوم القيامة فهو من شيعتهم و محبيهم، و كل جاحد في العالم قديمًا أو حديثًا إلى يوم القيامة فهو من مخالفهم و مبغضهم.

و قد وردت الإشارة إلى ذلك في كلام الصادق عليه السلام في حديث المفضل بن عمر، و هو الذي رواه الصدوق طاب ثراه في كتاب علل الشرائع بإسناده عن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بم صار علي بن أبي طالب عليه السلام قسيم الجنة و النار؟ قال: «لأن حبّه إيمان، و بغضه كفر، و إنّما خلقت الجنة لأهل الإيمان، و خلقت النار لأهل الكفر، فهو عليه السلام قسيم الجنة و النار لهذه العلّة، و الجنة لا يدخلها إلّا أهل محبته، و النار لا يدخلها إلّا أهل بغضه». قال المفضل: يا ابن رسول الله فالأنبياء و الأوصياء هل كانوا يحبونه و أعداؤهم يبغضونه؟ فقال «نعم» قلت: فكيف ذلك؟ قال: «أما علمت أنّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢

النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم قال يوم خيبر: لأعطين الراية غدا رجلا يحبّ الله تعالى و رسوله، و يحبّه الله و رسوله، ما يرجع حتّى يفتح الله على يده؟» قلت: بلى. قال:

«أما علمت أنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لما أوتى بالطائر المشوى قال: اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي هذا الطير و عنى به عليّ؟» قلت: بلى. قال:

«يجوز أن لا يحبّ أنبياء الله و رسله و أوصياؤهم عليهم السلام رجلا يحبّه الله و رسوله، و يحبّ الله و رسوله؟» فقلت: لا. قال: «فهل يجوز أن يكون المؤمنون من أممهم لا- يحبون حبيب الله و حبيب رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم و أنبيائه؟» قلت: لا. قال: «فقد ثبت أنّ جميع أنبياء الله و رسله و جميع المؤمنين كانوا لعليّ بن أبي طالب عليه السلام محبين، و ثبت أنّ المخالفين لهم كانوا له و لجميع محبيه مبغضين» قلت: نعم. قال: «فلا يدخل الجنة إلّا من أحبه من الأولين و الآخرين، فهو إذا قسيم الجنة و النار».

قال المفضل بن عمر، فقلت له: يا ابن رسول الله، فرجت عني فرج الله عنك فزدني ممّا علمك الله تعالى، فقال: «سل يا مفضل، فقلت: أسأل يا ابن رسول الله فعليّ بن أبي طالب عليه السلام يدخل محبه الجنة و مبغضه النار أو رضوان و مالك؟ فقال: «يا مفضل، أما علمت أنّ الله تبارك و تعالى بعث رسوله و هو روح إلى الأنبياء و هم أرواح قبل خلق الخلق بألفى عام؟» قلت: بلى. قال: «أما علمت أنّه دعاهم إلى توحيد الله و طاعته و اتباع أمره، و وعدهم الجنة على ذلك، و أوعدهم من خالف ما أجابوا إليه و أنكره النار؟» فقلت: بلى. قال: «أفليس النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم ضامنا لما وعد و أوعدهم عن ربّه عزّ و جلّ؟» قلت: بلى. قال: «أ و ليس عليّ بن أبي طالب عليه السلام خليفته و إمام أمته؟» قلت: بلى. قال: «أ و ليس رضوان و مالك من جملة الملائكة و المستغفرين لشيعته الناجين بمحبته» قلت: بلى. قال: «فعليّ بن أبي طالب عليه السلام إذا قسيم الجنة و النار عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم، و رضوان و مالك صادران عن أمره بأمر الله تبارك و تعالى، يا مفضل، خذ هذا فإنّه من مخزون العلم و مكنونه لا تخرجه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣

إلّا إلى أهله»

«١»

عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن الحسن بن عليّ عليهما السلام أنّه قال «من دفع فضل أمير المؤمنين عليه السلام فقد كذب بالتوراة و الإنجيل و الزبور و صحف إبراهيم و سائر كتب الله المتزّلة، فإنّه ما نزل شيء منها إلّا و أهمّ ما فيه بعد الأمر بتوحيد الله تعالى و الإقرار بالنبوة الاعتراف بولاية عليّ و الطيبين من آله عليهم السلام»

«٢»

عن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أَنَّهُ قَالَ: مَا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيًّا حَتَّىٰ أَمَرَهُ أَنْ يُوصَىٰ إِلَىٰ عَشِيرَتِهِ مِنْ عَصَبَتِهِ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُوصَىٰ، فَقُلْتُ: إِلَىٰ مَنْ يَا رَبِّ؟ فَقَالَ:

أَوْصِ يَا مُحَمَّدٌ إِلَىٰ ابْنِ عَمِّكَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنِّي قَدْ أَثْبَتَهُ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ، وَكُتِبَتْ فِيهَا أَنَّهُ وَصِيَّكَ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ أَخَذْتُ مِيثَاقَ الْخَلَائِقِ وَمَوَاقِيقَ أَنْبِيَائِي وَرَسُلِي. أَخَذْتُ مَوَاقِيقَهُمْ لِي بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَلَكَ يَا مُحَمَّدٌ بِالنَّبُوءَةِ، وَلِعَلِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالْوِلَايَةِ

«٣».

و

عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في رواية طويلة قال: «فنحن أول خلق الله وأول خلق عبد الله وسبحه، ونحن سبب خلق، و سبب تسييحهم و عبادتهم من الملائكة و الآدميين، فبنا عرف الله، و بنا و خد الله، و بنا عبد الله، و بنا أكرم الله من أكرم من جميع خلقه، و بنا أثاب من أثاب، و بنا عاقب من عاقب، ثم تلا قوله تعالى: وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٦) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ «٤». وقوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «٥».

فرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أول من عبد الله تعالى، و أول من أنكر أن يكون له ولد و شريك، ثم نحن بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم

«٦».

فظهر من جميع ما ذكر أن حقيقة الدين و روح الأحكام معرفتهم

(١) تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٤-٢٦.

(٢) تفسير الإمام العسكري: ص ٨٣، ح ٤٦.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٢٧٢، ح ١١.

(٤) الصفات: ١٦٦-١٦٧.

(٥) الزخرف: ٨٢.

(٦) بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٢٠، ح ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤

و ولايتهم، و جميع الخلق راجع إليهم، فجميع آيات الكتاب تكون فيهم و ما يتعلّق بهم و بشؤونهم في دلالة اللفظية أو اللبئية أو النقلية، فتأمل.

لمحة تاريخية عن علوم القرآن

لقد أدركت الطلائع المؤمنة من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم أهمية العلم، و وعت أن الشخصية الإسلامية عمادها الأساس هو التوحيد، و أن طريق التوحيد هو العلم، فانبرت للعلم تنهله، و تترتاد رياضه، و طلبت العلم ليهدئها إلى حقائق الكون، و لتبلغ المراتب السامية في مدارج الرقي الحضاري، و تنافست في مصداق قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ «١». و تسابقت كسبا للدرجات العليا عند الله تعالى، و نبلا للرفعة و المنزلة السامية لديه ... يَزْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ «٢».

و فهم المسلمون الأوائل البون الشاسع بين الجهل و العلم في اعتبارات القرآن حين ثقفوا قوله تعالى: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ فى الوقت الذى أشاد الله تعالى بشهادة أهل العلم على وحدانيته: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾.

و لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النمير العذب و السلسل الرقراق لمختلف العلوم و المعارف، فأحاط به جمع من الصحابة الأجلاء، يقتبسون منه سناء العلم، و يستضيئون بهداه.

غير أن هذه العلوم القرآنية لم تدون جميعها عند تدوين القرآن فى العهد الرسالى؛ و ذلك لأسباب عديدة عدّ بعضهم منها ما يلى:

(١) الزمر: ١٠.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٣) الروم: ٦٠.

(٤) آل عمران: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥

١- وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، و يبصرهم بحقائق التفسير، و يوجههم نحو المقاصد القرآنية، فهو ... يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ... «١».

٢- قدرتهم على الفهم المباشر و الاستيعاب الصحيح، لفصاحتهم و بلاغتهم العربية الأصيلة؛ و لأن القرآن الكريم: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٤) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٥) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ «٢».

٣- لعسر الكتابة و ندرة أدواتها و قلّة الكتاب للتعلم و التعليم، و بعد أن اختار الله سبحانه و تعالى الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم إلى جواره تبارى المسلمون الغيارى على الدين فى تدوين العلوم و تصنيفها حسبما توفرت لديهم من الوسائل و الأدوات، و لعلّ من أهمّ الأسباب التى دفعتهم إلى التدوين:

أ- الرغبة فى أن يكونوا مصاديق تتحقّق فيهم إرادة الله الأزلية فى حفظ القرآن و تخليده بالبحث فيما احتواه من علوم و ما تضمّنه من معارف لما يترتب على ذلك من هداية و تعليم و تربية.

ب- خدمة الأمة الإسلامية جيلا بعد جيل بإشاعة العلم بينها، و نقله لها دون خطأ أو اشتباه بتدوينه، لا سيّما بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم.

ج- تركية ما لديهم من العلم بنشره بين المسلمين، فإنّ فى نشره زكاة له.

د- نيل الثواب العظيم فى طلب العلم و نشره و ترويجه، حيث رفع الله سبحانه درجات العلماء فى الدنيا و الآخرة، و جعل طلب العلم فى أعلى مراتب المستحبات و المندوبات، و فى بعض مراتبه من أهمّ الفرائض

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) الشعراء: ١٩٤-١٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦

و الواجبات، كما ظلّ أهل العلم بأجنحة ملائكته، و سخرهم للاستغفار عنهم و الدعاء لهم كما هو فى متصافر الأخبار على تفصيل لا يسعنا المجال لبيانه.

هذا و قد كان مولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام الرجل الأوّل، و المحرز لقصب السبق فى مضمار تدوين القرآن و تفسيره و بيان علومه.

قال في الإتقان: أخرج ابن أبي داود من طريق ابن سيرين قال: قال عليّ عليه السّلام: «لما مات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم آليت ألا آخذ عليّ ردائي إلّا لصلاة جمعه حتّى أجمع القرآن».

وكذلك ابن الضريس في فضائله، وابن أشتة في المصاحف من وجه آخر، وفيه أنّه كتب فيه النسخ و المنسوخ «١». و الجدير بالذكر أنّ جمع مولانا أمير المؤمنين القرآن لا يعنى أنّه لم يكن مدوّنا، بل كان مدوّنا في الرقاع و العسب و نحوها، و قام أمير المؤمنين عليه السّلام بتدوينه مصحفا، و ذلك بترتيب (الجذاذات) المدوّن عليها و توحيدها. و المشهور أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام أمر أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) بوضع بعض قواعد اللغّة حفاظا على سلامتها، فكان عليه السّلام أوّل من وضع الأساس لعلم إعراب القرآن.

و أمّا في مضممار التفسير فقد جاء: أمّا الخلفاء فأكثر من روى عنه منهم عليّ بن أبي طالب، و الرواية عن الثلاثة نزره جدّا «٢».

و

عن نصير بن سليمان الأحمسى عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنّه قال: «و الله ما نزلت آية إلّا و قد علمت فيما أنزلت و أين أنزلت، إنّ ربّي

(١) الإتقان في علوم القرآن: ج ١، ص ١٨٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٢٧. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧

و هب لي قلبا عقولا و لسانا سؤولا»

«١».

و

عن الأصغ بن نباته أنّه عليه السّلام قال في خطبه له: «سلوني قبل أن تفقدوني، فو الذي فلق الحبّة و برأ النسمه، لو سألتموني عن آية آية لأخبرتكم بوقت نزولها، و فيم نزلت، و أنباتكم بناسخها من منسوخها، و خاصّها من عامّها، و محكمها من متشابها، و مكّيها من مدنيها»

«٢».

و

عن ابن الطفيل قال: شهدت عليّا يخطب و هو يقول: «سلوني ...

فو الله ما من آية إلّا و أنا أعلم أ بليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»

«٣».

و فتق الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام سائر العلوم القرآنية و صنّفها، فلقد أملى ستين نوعا من أنواع علوم القرآن، و ذكر لكلّ نوع مثلا- يخصه، و هو في كتاب نرويه عنه من عدّه طرق موجود بأيدينا إلى اليوم، و قد أخرجه بتمامه العلامة المجلسي «٤» (قده) في الجزء الأربعين من بحار الأنوار.

و ليس عجبا أن ينال الإمام عليّ عليه السّلام هذه المرتبة، و أن يدخر هذه الكنوز العلميّة، و أن يبلغ هذا الشان؛ لأنّه العلم الهادي و الحجّة في الخلق.

و من هنا يرى البعض أنّه لا يصحّ فيه ما اشتهر قوله: إنّّه عليه السّلام أوّل الصحابة إسلاما، و أقدمهم إيمانا- لأنّ عليّا عليه السّلام هو وصيّ رسول ربّ العالمين، و حجّة الله على خلقه، ولد مؤمنا مسلما معينا من قبل الله تعالى للوصيّة و الخلافة و الإمامة قبل أن يخلق الله الخلق- إلّا على نحو الإضافة أو المجاز على ما هو المستفاد من بعض الروايات، كما أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان

(١) المصدر نفسه.

(٢) الإرشاد: ج ١، ص ٣٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٧٩، ح ٦١.

(٤) هو المحدث الكبير محمد باقر بن محمد تقى الأصفهاني المشهور بالمجلسي (١٠٣٧-١١١٠هـ).

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨

نبيًا قبل أن يخلق في الحياة الدنيا، و من تلك الأحاديث و الروايات التي ذكرت و هي صريحة في عموم أخذ الميثاق للجميع بالنبوة و الولاية في عالم الذر «١».

الحديث الشريف: «كنت نبيًا و آدم بين الماء و الطين»

«٢».

و في آخر: «كنت حيًا و آدم بين الماء و الطين»

«٣». و كذلك

الحديث القدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك»

«٤». إلى غيرها من الروايات و الأحاديث المعتمدة.

و قد ورد في كتاب «إليا» و الذي نشرته دار المعارف الإسلامية في لاهور في باكستان في تموز عام ١٩٥١ م تحت عنوان «أسماء مباركة توصل بها نوح عليه السلام» حيث عثر العلماء السوفيت في منطقة «وادي قاف» على خشبة قديمة قالوا: إنها تعود إلى سفينة نوح عليه السلام مكتوب عليها مجموعة من الحروف باللغة السامانية، و هي أقدم لغات العالم، و ترجم حروف هذه اللوحة إلى اللغة الإنجليزية العالم البريطاني «إيف ماكس» أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانشستر، و لا يخفى أن «إيليا» و «شبر» و «شبير» هي أسماء باللغة السامانية، و معناها بالعربية «علي» و «حسن» و «حسين» و قد

جاء في دعاء النبي نوح عليه السلام بعد ترجمته: «إلهي بلطفك و رحمتك و بالذوات المقدسة محمد إيليا شبر شبير فاطمة خذ بيدي، فإن هؤلاء الخمسة عظماء يجب احترامهم، و من أجلهم خلق الله تعالى هذه الدنيا، إلهي فأمدني ببركة أسمائهم و أنت قادر على هدايتنا جميعا»

«٥».

إن أمير المؤمنين عليه السلام كان حافظا و مستودعا لعلوم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حيث

قال عليه السلام: «كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كل يوم دخله، و كل ليلة دخله، فيخيلني فيها أدور معه حيثما دار، و قد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم

(١) انظر أصول الكافي: ج ٢، ص ٨، ح ١ و ٢.

(٢) عوالي اللآلئ: ج ٤، ص ١٢١، ح ٢٠٠.

(٣) عوالي اللآلئ: ص ١٢٤، ح ٢٠٨.

(٤) مفاتيح الغيب: ص ١٤.

(٥) موسوعة أهل البيت (ع) الكونية: ج ١، ص ٢٣٣. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩

أنه لم يصنع ذلك بأحد غيري ... و كنت إذا سأله أجابني، و إذا سكت و فئت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم آية من القرآن إلا- أقرأنها وأملاها عليّ، فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعمها، ودعا الله أن يؤتيني فهمها وحفظها»
 (١).

و
 عن عبد الله بن مسعود قال: استدعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام فخلا به، فلما خرج إلينا سأله: ما الذي عهد به إليك؟ فقال عليه السلام: «علمني ألف باب من العلم، فتح لي كل باب ألف باب»
 (٢).

ولقد أبان القرآن الكريم عن منزلة أمير المؤمنين عليه السلام ومقامه في آية المباهلة في قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٣).
 فقد أجمع المفسرون على أن المقصود من الأبناء في الآية الشريفة هم الحسنان عليه السلام، والنساء فاطمة عليها السلام، والأنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ عليه السلام إلى غيرها من الآيات الشريفة والروايات المتواترة كما في حديث الثقلين (٤) والمنزلة (٥).

(١) الخصال: ج ١، ص ٢٥٧.

(٢) الإرشاد: ج ١، ص ٣٤.

(٣) آل عمران: ٦٢.

(٤)

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» انظر مسند أحمد: ج ٣، ص ١٤.
 (٥)

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» انظر الكافي: ج ٨، ص ١٠٧، ح ٨٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠.

بعض مفسري الشيعة

من الصحابة الأوائل في التفسير والتأويل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (ت ٦٨ هـ). وهو أول من أملى في تفسير القرآن الكريم، وقد حكى عن أبي الخير قوله في طبقات المفسرين عند ذكره ابن عباس: فهو ترجمان القرآن و حبر الأمة، ورئيس المفسرين (١).
 وقال الزركشي: و صدور المفسرين من الصحابة عليّ ثم ابن عباس، إلا أن ابن عباس كان قد أخذ عن عليّ عليه السلام (٢).
 وقال أيضا كان لعليّ عليه السلام فيه - التفسير - اليد السابقة قبل ابن عباس، و هو القائل: «لو أردت أن أملى وقر بعير عن الفاتحة لفعلت».
 وقال ابن عطية فأما صدر المفسرين و المؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب، و يتلوه ابن عباس رضي الله عنهما (٣).

و
 قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا لابن عباس بقوله «اللهم فقّه في الدين»
 (٤) فخرج بحرا في العلم و حبرا للأمة.

و من المفسرين جابر بن عبد الله الأنصاري (ت ٧٤ هـ) الذي عدّه أبو

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٢، الذريعة: ج ٤، ص ٢٣٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٥٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ج ١، ص ٨.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١

الخير في طبقات المفسرين من الطبقة الأولى «١»، ومنهم عبد الله بن مسعود، ومنهم الصحابي الجليل أبي بن كعب، وهو أول من صنّف في فضائل القرآن، وهو سيّد القراء، و عدّه أبو الخير في الطبقة الأولى من المفسرين، وهو ممّن جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم «٢»، ومنهم سعيد ابن جبير التابعي، وهو أعلم التابعين في التفسير، وقال قتادة: كان سعيد ابن جبير أعلمهم بالتفسير «٣»، وقال خصيف فيه: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيّب، وبالحدّ عطاء، وبالحدّ والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كلّ سعيد بن جبير «٤».

و ممّن اهتموا بعلوم القرآن وعوا بها: أبان بن تغلب (ت ١٤١ هـ)، فهو أول من صنّف في القراءة، ودون علمها، وأول من صنّف في معاني القرآن، وأول من صنّف في غريب القرآن، ومنهم طاووس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ)، وهو من أصحاب الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام، عدّه ابن تيمية من أعلم الناس بالتفسير، ومنهم محمد بن السائب الكلبى من أصحاب الإمام محمد الباقر عليه السلام، وهو أول من صنّف في أحكام القرآن (ت ١٤٦ هـ)، وهو صاحب التفسير الكبير، ومنهم أبو حمزة الثمالي صاحب الإمام زين العابدين عليه السلام وقد ذكر تفسيره ابن النديم.

و من المشاهير المهتمين بعلوم القرآن الفراء يحيى بن زياد فقد صنّف في معاني القرآن، ومنهم عليّ بن إبراهيم القمي، وله كتاب تفسير القرآن،

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٣.

(٢) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣١٩-٣٢٣.

(٣) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٢ فما بعدها؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٧؛ التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٠٢-١٠٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢

وعليه المعول إلى اليوم؛ لأنه تفسير بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام، عاصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وهو من أعيان القرن الثالث.

ومنهم محمد بن أحمد بن جنيد، وهو من الفقهاء الأعظم، أُلّف في الفقه المقارن، وهو أول من صنّف في أمثال القرآن. ذكر ابن النديم في الفهرست ما لفظه: كتاب الأمثال لابن الجنيد. وله مصنفات كثيرة، وهو من معاصري والد الشيخ الصدوق، ومنهم العياشي محمد بن مسعود، فله ما يقرب من مائتي مصنف، منها كتاب التفسير المعروف ب «تفسير العياشي».

والحسن بن عليّ بن فضال، له كتاب «الناسخ والمنسوخ» وكان من خواص الإمام الرضا عليه السلام، وتوفّي سنة (٢٢٤ هـ) ومحمد بن العباس بن عليّ المعروف بابن الحريّام، له في كلّ علوم القرآن كتب مفردة، وله كتاب «ما نزل في أهل البيت عليهم السلام من القرآن» وهو ألف ورقة.

و منهم أبو عليّ الكوفي (ت ٣٤٦هـ) له كتاب «فضائل القرآن» و منهم ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) و تفسيره مشهور باسمه. و منهم ابن عقدة أبو العباس، و هو وحيد دهره في حفظ الحديث (ت ٣٣٣هـ) له كتاب في تفسير القرآن من طريق أهل البيت عليهم السلام.

و في هذا القرن ازداد ازدهار المؤلفات، و كثرت المصنّفات، فظهر منها «البرهان في علوم القرآن» و «البيان في علوم القرآن» للشيخ المفيد محمّد بن النعمان (ت ٤٠٩هـ) و قيل (ت ٤١٣هـ) و كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للسيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) و كتاب «التبيان في تفسير القرآن» للشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) و منهم الشيخ رشيد الدين محمّد بن عليّ بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) له كتاب «أسباب النزول» و كتاب «متشابه القرآن»، و منهم الشيخ أبو الفتوح الرازي له كتاب «روض الجنان في تفسير القرآن» في عشرين مجلداً، و منهم أمين الدين الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) و قيل (ت ٥٦١هـ) صاحب «مجمع تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣

البيان في تفسير القرآن» (١).

ثم استمرّ العلماء في إغناء المكتبة الإسلاميّة بصنوف المؤلفات و الأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم أمثال زبدة البيان للمقدّس الأردبيلي، و كنز العرفان للفاضل المقداد، و تفسير الصافي للفيض الكاشاني، و الميزان للسيد الطباطبائي، و غيرها الكثير الكثير المصنّف في هذا الشأن بنحو جامع شامل أو مختصّ بباب أو مجال من المجالات. و لا يزال البحث و التأليف مستمراً في أصقاع العالم الإسلامي، و العلماء عاكفين على دراسة ما في القرآن الكريم من أصناف المعارف و العلوم، حيث ظهرت بدائع المؤلفات و نفائس المصنّفات التي كشفت عمّا في القرآن الكريم من ذخائر و كنوز المعرفة و العلم، و هو يمدّ البشريّة بأنوار الهداية و الرشاد، و يدلّهم على الطريق المستقيم و الحياة الحرّة السعيدة الكريمة.

علم التفسير أساس علوم القرآن

التفسير في اللغة الكشف و الإظهار و الإبانة، و في الاصطلاح بيان معاني الآيات القرآنيّة و شأنها و ظروفها بلفظ يدلّ عليه دلالة ظاهرة (٢).

و أما التفسير بوصفه علماً فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم بوصفه كلاماً لله تعالى (٣). فالنظر في القرآن الكريم من حيث كونه كلاماً له دلالة و معنى و لله تعالى فيه غرض و قصد، و من أجل بيان هذه الدلالة و شرح المعنى و إيضاح القصد و الإفصاح عن الغرض نشأ علم التفسير الذي تكفّل بتلك الغايات.

(١) لمزيد الاطلاع راجع كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام؛ مجمع البيان لتفسير القرآن، مقدّمه الكتاب.

(٢) أنظر لسان العرب: ج ٥، ص ٥٥، «فسر»؛ مجمع البيان: ج ١، ص ١، كلمة في التفسير؛ دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعية: ج ١١، ص ٤٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعية: ج ١١، ص ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤

و لعلّ على هذا المعنى جاء قوله سبحانه: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (١) و بذلك يختلف عن التأويل؛ لأنّ التأويل من الأول؛ أي الرجوع إلى الأصل كما في مفردات الراغب (٢)، و التفسير أعمّ منه، كما و أنّ أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ و التأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، كما أنّ التفسير أكثره يستعمل في المفردات بينما التأويل في الجمل، مضافاً إلى أنّ التأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهيّة، بينما التفسير قد يستعمل في الأعمّ، و لا يخفى عليك أنّ تفسير القرآن و العلم بتأويله من

أشرف الصناعات و أسمى المعارف، و ذاك لما ثبت في المنطق من أن الصناعات الحقيقية إنما تتشرف بأحد ثلاثة أمور: الأول: شرف موضوعاتها، و هو المشهور الغالب في مختلف العلوم، كما قالوا بأشرفية علم الكلام على الفقه، و الثاني على الأصول؛ لكون الأول يبحث في موضوع المبدأ و المعاد، و هما يعودان إلى الخالق تبارك و تعالى، و في العرف يقولون: الصياغة أشرف من الدباغة؛ لأن موضوعها الذهب و الفضة، و هما أشرف من جلد الحيوان المذكى أو الميتة الذي هو موضوع الدباغة. الثاني: شرف أغراضها و غاياتها، كما شرف علم الطب على غيره؛ لكونه يهدف إفادة صحة الإنسان و سلامته، و الإنسان أشرف مخلوقات الله سبحانه، و كما شرف علم الفقه على غيره؛ لكونه يهدف الرفعة بالإنسان إلى الكمالات المعنوية العالية. و فيه قد قيل: موضوعه فعل المكلفيناغايته الفوز بعليينا «٣».

الثالث: شرف معلومه، و بعضهم أضاف شدة الحاجة إليه؛ لوقوع مسائله كثيرا في محل حاجة العالم و استنفاد أغراضه.

(١) الفرقان: ٣٤.

(٢) مفردات الراغب: ص ٩٩، «أول».

(٣) انظر الذريعة: ج ٧، ص ٢١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥

و هذا ما حازه جميعا علم التفسير؛ و ذلك لأن موضوعه كلام الله سبحانه و تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، و معدن كل فضيلة، و مخزن العلوم و المعارف، و غرضه هداية الناس إلى التي هي أقوم في الدنيا و الآخرة. كما أن معلومه ما أودعه الله سبحانه من قوانين و معان و أسرار في عالمي التكوين و التشريع، فعلم التفسير هو من أجل العلوم قدرا؛ لأنه الموصل إلى فهم مراد الباري عزّ و جلّ في كتابه، و معرفة أحكامه في وحيه و تنزيله، و ما فرضه على عباده، و هذه الغاية من أشرف الغايات و أحسن الطرق لنيل السعادات.

هذا و قد نشأت للتفسير أساليب و مذاهب، و دوّنت للمفسرين شرائط و آداب، و صار المفسرون طبقات.

و لأهمية الدور الذي يمارسه علم التفسير صار هذا العلم أساسا لكافة العلوم و أهمها، و ما من علم إلا و يعول عليه، و لقد بين العلماء الشروط التي يجب توفرها في العالم ليكون قادرا على التفسير، و لعل من أهمها ما يلي:

١- اللغة: ليعرف بها شرح المفردات و مدلولاتها بحسب الوضع، فلا يكفي معرفة اليسير منها.

٢- النحو: بما أن المعنى يتغير و يختلف باختلاف الإعراب فلا بدّ من وجود الإعراب لتحديد المعنى المراد من التركيب بناء على معرفة إعرابه.

٣- التعريف: و به يعرف المفسر أبنية الكلم و موازيتها و صيغها، فإذا وجد كلمة مهمة استطاع تصريفها، فاستطاع معرفة مادتها و معناها.

٤- الاشتقاق: و هو معرفة المصدر الذي صدرت عنه الكلمة، فالاسم إذا كان من مادتين مختلفتين اختلف معناه باختلافهما، كالمسيح مثلا: أ هو من السياحة أم من المسح؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦

٥- علوم البلاغة: و بها يعرف المفسر طريق المعاني، و خواص التراكيب.

٦- علم القراءات: و به يعرف كيف ينطق بالقرآن، و به كذلك يرجح بعض وجوه التفسير المحتملة على بعض آخر؛ لتواتر قراءة، أو شهرتها، أو شذوذها.

٧- أصول الدين: و هي قواعد المتعلقة بذات الله و صفاته و أفعاله و الإيمان به و ما إلى ذلك، و بهذا العلم يستدل المفسر على ما

يستحيل بحقه تعالى، و ما يجب، و ما يجوز.

٨- أصول الفقه: و به يستطيع أن يدرك وجه الاستدلال على الأحكام فيه.

٩- أسباب النزول: إن معرفة أسباب النزول توضّح إلى حد بعيد مرامي تلك الآية و مدلولها.

١٠- الناسخ و المنسوخ: يعلم به الآيات المحكمه و الآيات المنسوخه و ما بطل العمل به و ما بقى و هكذا.

١١- الحديث النبوي: و ما حديث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلا تفسير للقرآن و الشريعة، فكم من حديث فسّر القرآن، و كم من مغلّق فتحه.

١٢- علم الموهبة: و هو علم يورثه الله لمن عمل بما علم، كما ربّما يستفاد من بعض الأخبار.

١٣- علم المنطق: و هو علم مهمّ للغاية يحتاجه المفسّر طريقا إلى الفهم الصحيح، لكونه ضابطا للتفكير.

إضافة إلى كلّ هذا يجب أن يكون المفسّر أدبيا، ذكيا، واسع العقل، كبير القلب، تقيا، صالحا، يخشى الله في السر كما يخشاه في العلانية؛ لأنّ هذه تهيب في نفسه الاستعداد لشروق الروح و صفاء الضمير، فيفيض الباري

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧

عزّ و جلّ عليه من أنواره و عناياته و ألطافه.

أنواع التفسير

ربما ينقسم التفسير إلى نوعين أساسيين:

الأول: تفسير لفظي لا يتجاوز غالبا حلّ الألفاظ و إعراب الجمل و بيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية و إشارات فتيه، و هذا النوع أقرب إلى التطبيقات اللغوية و البلاغية منه إلى التفسير و بيان مراد الله سبحانه من هداياته.

الثاني: تفسير المعنى و هو يجاوز اللغة، و يجعل هدفه الأعلى تجليه معاني القرآن و تعاليمه، و حكمه الله تبارك و تعالى فيما شرع للناس في كتابه العزيز على وجه يزكّي الأرواح، و يفتح القلوب، و يرفع النفوس إلى الاهتداء بهديه، و هذا هو الأصل فيه.

هذا و للمفسّرين في مساعيهم مذاهب مختلفة ترجع إلى اختلاف الهدف أو الجهة التي أراد كلّ مفسّر أن يستنطق القرآن و يستهدى بهديه فيها، و لعلّ من أبرز هذه المذاهب ما يلي:

١- التفسير بالمأثور ٢- التفسير بالدراية، و المراد بالدراية هنا الاجتهاد بعد معرفة المفسّر كلام العرب و أساليبهم في القول، و بعد وقوفه على أسباب النزول و الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه و نحوها من مسائل و فنون مختلفة.

٣- التفسير الباطني ٤- التفسير العقلي الفلسفي أو الكلامي ٥- التفسير الفقهي ٦- التفسير العلمي، و يقصد به التفسير الذي يتحدّث عن تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨

٧- التفسير الاجتماعي ٨- التفسير الأدبي ٩- التفسير التدبري الذي يعتمد غالبا على الفهم العميق و الإدراك المرّكز لمعاني الألفاظ القرآنية بعد إدراك مدلول العبارات القرآنية و فهم دلالاتها فهما عميقا و دقيقا، ثم ربطها بواقع الحياة البشرية، و فهم أبعادها و جوانبها المختلفة في الآمال و الآلام و الطموحات و المشاعر و التفكّرات.

١٠- التفسير الشمولي، و هو الذي يجمع بين كلمات الله سبحانه و كلمات حججه الطاهرة عليهم السلام بما لهما من ظلال و تطابق و تكامل في آن واحد، و يجعل من كلّ منهما ميزانا و مفسّرا للآخر؛ لأنّ القرآن و السنّة نور واحد و رسالته واحدة تجلّي أحدهما في كلمات الوحي الإلهي و الآخر في كلمات رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

مضافا إلى اعتماده في ذلك على تجارب الحياة و عبقرية البشر و طاقاته العقلية و تدبره في مختلف المسائل و الشؤون؛ و ذلك

للتطابق الجوهرى بين النقل و العقل لكونهما يرجعان إلى خالق واحد و نظام واحد و رؤية واحدة.

و بالتالى فإن ما يبينانه من مفاهيم و معان هى عين الحقّ و الصواب لا يخالجه خطأ أو جهل أو قصور، و لعلّ هذا أفضل أنواع التفسير و أكمله و أدقّه لما له من خصوصية فهم القرآن فى أصل معناه أو حدوده أو مصداقه الأكمل على ميزان أهل البيت عليهم السّلام و رؤيتهم، كما أنّ القرآن الميزان الذى يميّز كلامهم عليهم السّلام من غيره المشتبه على الناس فى السند أو فى الدلالة، و هذا ما قد نجده جليًا فى تفسير المرجع الدينى الإمام السيّد محمّد الحسينى الشيرازى (أعلى الله مقامه) حيث جمع بين اللغّة و العقل و النقل الوارد عن المعصومين عليهم السّلام فى فهم معانى الآيات و كشف مضامينها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩

هذا و لا يخفى عليك أنّ إعجاز القرآن لا ينحصر بألفاظه و ظواهره، بل فى رموزه و إشارات و لطائفه و حقائقه، ففى كلّ سورة بحار من المعارف، و تتجلى فى كل آية منه أنوار من الحقائق و الهدايات، و كيف لا- يكون كذلك و قائله عزّ و جلّ لا نهاية لعلمه و كماله، و لا حد لعظمته و جلاله، و ما حصل من التحديدات إنّما هو من مقتضيات الاستعدادات لطفًا بالعباد، لا أن يكون تحديدا منه. و ربّما يتوصّل من يراجع مختلف أنحاء التفاسير أنّه فسّر كلّ صنف من العلماء القرآن بما هو المأنوس عندهم، فالفلاسفة و المتكلّمون فسّروه بمذاهبهم من الآراء الفلسفيّة و الكلاميّة، و العرفاء و الصوفيّة على طريقتهم، و الفقهاء فسّروا ما يرتبط بغرضهم فى فقه الأحكام و المسائل، و المحدثون فسّروه بخصوص ما ورد من السنّة الشريفّة من الآيات، كما أنّ الأدباء فسّروه من زاويتهم الأدبيّة، و هكذا أهل المعارف و العلوم الإنسانيّة و الطبيعيّة.

و مع كلّ ذلك يظهر العجب فى أنّه كلّما كثر فى هذا الوحي المبين و النور العظيم من هذه البيانات و التفاسير فهو على كرسى رفعة لا ينقص، و جماله يزداد على مر العصور تلوًا و جلالًا، فما نجده من مزايا و خصوصيات لبعض التفاسير إنّما هى قضيّة نسبيّة تعتمد على ذكاء المفسّر وسعة اطلاعه و طول باعه فى العلوم المختلفة، و هذا ما امتاز به الإمام الشيرازى (قدّس سرّه)؛ إذ له فى كلّ فنّ معرفة، و له فى مختلف مجالات الثقافة و الفكر رؤية و منهج، و من هنا كانت له إشراقات و إلماعات ربّما لم يصل إليها قبله مفسّر أو يسبقه إليها ذهن عالم أو أديب، كما ستجد ذلك جليًا من خلال مطالعتك لهذا السفر القيم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠

الطريقة الجديدة فى تفسير القرآن الكريم

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ص ٩٩

إنّ مفسّرى القرآن و بالأخصّ القدامى منهم أبلوا بلاء حسنا فى تفسير الآيات الشريفّة المتعلّقة بالعقائد و الأحكام، و خصوصا مواضع التوحيد و الشرك و النبوّة و الإمامة و نحوها، و التى تشكّل جوهر الإسلام، و العنصر الذى اتّفقت عليه الشرائع الإلهيّة، لكن الملحوظ أنّ منهج القدماء قام على أساس التسلسل السورى فى القرآن؛ إذ أخذوا فى تفسيرهم سورة بسورة و آية بآية؛ لذلك لم يبحثوا مجموع الآيات الواردة حول موضوع واحد دفعه واحدة إلّا نادرا، مما أدّى إلى توزيع الكثير من المضامين و المعانى فى الشىء الواحد على مختلف السور و الآيات، فصار الطالب يحتاج إلى المزيد من الجهد و التّبع حتّى يحصل على الحقيقة كاملة جليّة على الرغم من وجود نقاط قوّة عديدة فى هذا النهج.

أمّا طريقة التفسير الجديدة فهى جاءت تكملة لجهود المتقدّمين و إغناء لتجاربههم و دراساتهم لتعطى لنا صورة بالغة الوضوح و مكملّة لما أعدّه السابقون من المفسّرين، و هذا التفسير يسمّى «التفسير الموضوعى» و هو يعنى بتفسير آيات القرآن الكريم حسب الموضوعات و المفاهيم، أى حسب التّبويب و التقسيم الموضوعى للقرآن الكريم.

و تتلخّص هذه الطريقة فى جمع الآيات المتعلّقة بالموضوع الواحد فى مكان واحد، ثمّ تصنيفها على حسب التسلسل الموضوعى، ثمّ

القيام بعملية جمع بين الأصناف لاستنباط نظرة واحدة متكاملة و فكرة جامعة شاملة من مجموع هذه الآيات، خصوصا أن القرآن الكريم تبيانا لكل شئ «١» كما أننا نستفيد فائدة أخرى من هذا الجمع لمجموع الآيات المتعلقة بموضوع معين بالإضافة إلى فائدة الوقوف على النظرة القرآنية المتكاملة، و هي أننا

(١) النحل: ٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١

ربما يصعب علينا فهم آية ما من الآيات، أو معرفة الهدف منها لابتعادنا عن عصر الوحي و عدم اطلاعنا على ملابسات نزول تلك الآية بنحوها الكامل و القرائن الحالية أو المقامية و نحوها السائدة في المجتمع الإسلامي آنذاك، فيأتي أسلوب «جمع الآيات إلى جانب بعضها» ليساعدنا على رفع بعض الغموض و إزالة شئ من الإبهام، و تنكشف لنا بسبب هذا الجمع ملامح الحقيقة من خلال غيوم الاحتمالات و سحب الأوهام التي قد تكتنف آية من الآيات؛ و لهذا قيل: «إن القرآن يفسر بعضه بعضا»

و «١»

ورد عن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام تأكيد لذلك: «كتاب الله تبصرون به و تنطقون به، و تسمعون به، و ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض»

«٢».

هذا و التفسير الشريف الذي نتحدث عنه و إن كان قد جرى طرق القدامى في نهجه و طريقته إلا أنه حاول فيه المصنّف (أعلى الله مقامه) أن يقترب بعض الشيء إلى الطريقة الجديدة، فسعى إلى إيجاد ربط بين الآيات المختلفة، و أشار إلى الجهات الأخرى المكملّة لمعاني الآيات المفسّرة في موردها، و في بعضها أشار إلى عنوانها، و بذلك يكون قد سهّل على القارئ الوصول إلى بعض الحقيقة كاملة، و كان موفقا في ذلك؛ لأن من أصعب ما يجده الكاتب في مثل هذا النوع من الكتابات أن يجمع المعاني المتعددة في عبارة موجزة و مختصرة، خصوصا و أنه يفسر القرآن.

القرآن يفسره الزمان

إنّ تطور الزمن و تقدّم العلوم أكسب المحقّقين و المفكرين نمطا جديدا من الرؤية، حيث تتأكد هنا أهميّة و ضرورة التفسير الموضوعي، فقد أصبح كلّ فريق من هؤلاء المفكرين و المحقّقين و بالاعتماد على هذا النوع من التفسير يستخرج من القرآن الكريم مفاهيم و أمورا علمية جديدة تطابق

(١) بحار الأنوار: ج ٥٤، ص ٢١٨، تبين.

(٢) نهج البلاغة: ص ١٩٢، الخطبة ١٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢

اختصاصه، فالاستفادة من القرآن الكريم على الأصعدة الاجتماعية و السياسية و الأخلاقية في تصاعد و اتّسع مستمرين. و قد استخرج المحقّقون الإسلاميون المعاصرون بفضل ما أتوا من الطرق الحديثة المبتكرة في البحث العلمي و الدراسة و التحليل حقائق مهمّة من القرآن الكريم ربما لم تخطر على بال المفكرين و المحقّقين القدامى، فأضافوا على علوم القرآن الكثير، كما اكتشفوا من المعاني و المضامين الشئ الكثير.

إنّ القرآن الكريم كتاب أبدى خالد ينطوى على أبعاد مختلفة، و بطون متنوّعة، بحيث يمكن للعقل البشرى المتطوّر أن يكتشف في كلّ مرّة معنى جديداً فيه، و بحيث يمكن لدارسيه من أهل التحقيق أن يكتشفوا في كلّ عصر بعداً جديداً من أبعاده في شتى مجالات المعارف الإنسانية، و من هنا اتّفتحت الكلمة على أنّ الاستفادة من القرآن الكريم لا- تنحصر بالعرفاء و الفقهاء و الفلاسفة و أبواب العلوم القديمة و الإلهيات خاصّة.

إنّ استنباط نكات دقيقة و جديده من القرآن من قبل علماء الطبيعة و الرياضيين و رواد العلوم الإنسانية كعلم النفس و علم الاجتماع و علم فلسفة التاريخ خير دليل و أفضل شاهد على أنّ هذه المعجزة الخالدة تنطوى على بطون عديدة و أبعاد متنوّعة، و أنّها تتّسع لمفاهيم واسعة كثيرة يضيق عن استيعابها أو تحصيلها أيّ تصوّر بشرى و ذهن إنساني و برنامج ثقافى عادى مهما ادّعى من الشمولية و الغزارة و الإحاطة.

إنّ مرور الزمن و تقدّم العلوم لم يمنح علماء الطبيعة و حدّهم إمكانيّة استنباط حقائق و أبعاد مهمّة و جديده عن القرآن في حقول علوم الطبيعة و خلقه الإنسان و الأرض و السماء و غيرها من الظواهر الطبيعيّة، بل و مكّن المفسّرين أيضاً من استخراج حقائق مهمّة و جديده من هذا السفر الإلهي الخالد جنباً إلى جنب مع توسّع العلوم و اتّساع نطاق المعارف و تفتّحها و ظهور المناهج العلميّة الإنسانيّة الجديدة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣

و الآن نحن نشاهد شروع التحقيقات العلميّة حول القرآن من طريق أجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) و قد كشفت للأجيال الحاضرة و القادمة الكثير من الحقائق و الآفاق التي عجز العقل و الذهن البشرى العادى عن اكتشافها و التوصل إليها بمجرّده، فبواسطة هذا الجهاز العجيب تمكّن العلماء من إزالة الكثير من نقاط الإبهام التي دارت سابقاً حول مضامين بعض الآيات و الروايات بسبب قصور الناس عن دركها، و سيأتي زمان أيضاً يفسّر لنا الكثير من الغوامض فيهما التي ربّما تصوّرها بعض الناس أنّها شيء من الغريب أو المستهجن، فإنّ للقرآن الكريم معاني و درجات و صوراً و حقائق، و حينما يتّصل عقل الإنسان بنور الوحي يزداد انشراحاً و بهاءً و تألقاً و معرفة، فتفتح له من العلم أبواب و أبواب.

قال سبحانه و تعالى: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» (١) و قال عزّ من قائل: «هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (٢) و

جاء في الحديث الشريف عن الصادق عليه السلام «كثره النظر في العلم يفتح العقل»

«٣» و

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سلوني عن القرآن فإنّ في القرآن علم الأولين و الآخرين، لم يدع لقائل مقالاً، و لا يعلم تأويله إلاّ الله و الراسخون في العلم»

«٤» و

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمتة إلاّ أنزله في كتابه، و بيّنه لرسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم»

«٥» لكن المشكلة في البشر أنفسهم لعجزهم و قصورهم أو تقصيرهم في الإمعان فيه و اكتشاف أسرارهم و غوامضهم، لكن كلما سعى البشر في فهمه و دراسته وصل إلى

(١) العنكبوت: ٤٤.

(٢) الجاثية: ٢١.

(٣) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٥٩، ح ٣٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ١٧٩، ح ١١.

(٥) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٨٤، ح ١٦؛ تفسير الصافي: ج ١، ص ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤

مطلوبه؛ لأنّ القرآن كتاب هدى و نور، و من الهدى الإيصال إلى المطلوب.

و لعلّ ممّا يؤيد ذلك ما ورد في بعض الأخبار من أنّ القرآن الكريم يفسّره الزمان، و الذي قد يكون من معانيه أمور:

١- أنّ القرآن الكريم صالح لكلّ عصر و زمان، و يتناسب مع أيّ تطوّر حضارى و علمى و تاريخى، بل هو الأساس فى دعم أيّ حضارة و أيّ مدنيّة مؤمنة بأهداف إنسانية، و يعطيها الروح و الديمومية.

٢- أنّ تطوّر العلم و التكنولوجيا الحديثة كشف الكثير من الحقائق القرآنيّة، و لعلّ من ذلك أنّ الشمس ورتدت فى القرآن الكريم (٣٣) مرّة و بمعان فلكية رائعة تحكى الحقيقة العلميّة بكلّ وضوح، و لعلّ أهمّها تلك الآيات التى تتحدّث عن حركاتها الكثيرة و بأسلوب علمى جمالى يخلب الألباب ... و تلك الآيات التى تتحدث عن هرم الشمس و شيخوختها و موتها فى آخر الأمر كبقية المخلوقات التى نشرها الله تعالى فى كونه الكبير ... ورتدت الشمس كما ورتدت بقية الأجرام الكونية و الظواهر السماوية الأخرى ضمن أسلوب و هدف القرآن ككلّ، و هو الهداية و إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم و الحياة؛ و لأنّ القرآن ليس كتابا علميا خاصا لم يتعرّض إلى قطرها، و لا إلى حجمها، و لا إلى كثافتها، و لا إلى درجة حرارتها أو جاذبيتها، و لا لأى رقم علمى محدّد ممّا تعرّض له الدراسات الكونية المعاصرة. و لكن يمكن لقارئ القرآن و الباحث فى الآيات الكونية أن يحصل على معلومات ممتازة عن الشمس لكن فى حدود، و يمكن أن يأتى باحث آخر و يلتقط معلومات أخرى و ضمن حدود معينة أخرى، و يبقى الباحثون الجادون غائمين فى بحر القرآن كلّ يلتقط ما يستطيع من لآئه، مستفيدين من علوم عصرهم، فهى أضواء إضافية تثير الطريق للغوص فى طرق الشمس و الآيات الكونية الأخرى الزاخرة فى القرآن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥

الكريم «١». فإنّ ما يتوصّل إليه العلماء فى مجال الفلك فى هذا العصر الحديث الملىء بالاكتشافات الباهرة حول هذا الجرم السماوى هو يؤكد و يؤيد يوما بعد آخر ما ذكره ديننا الإسلامى حول الشمس فى جميع خصوصياتها.

٣- أنّ عقول البشر فى تطوّر و نموّ، و الحياة سائرة نحو المزيد من العلم و المعرفة، و التجارب تتراكم على كشف الكثير من الأسرار، و كلّما تطوّر الإنسان توصّل إلى مراق و آفاق جديدة فى القرآن لم يكن قد وصلها من قبل، بل لم يكن يدركها لقصوره و عجزه، فكّلما تطوّر الزمن و تطوّر معه الإنسان توصّل إلى حقائق و أبعاد جديدة فى فهم الآيات، و استنار بهديها، فكلّ جيل منهم يختلف عن السابق كما سيختلف عن اللاحق حتّى تكتمل العلوم باكمال الإنسان فى عصر ظهور ولى الله الأعظم (عجل الله فرجه الشريف)، فحينئذ يصل إلى درجات سامية من المعرفة و الفهم و الإدراك.

هذا التفسير

مهما كانت الدوافع الكامنة وراء كتابة التفسير و ضمن الشروط التى ذكرناها فيما تقدّم و التى يجب أن تتوفر فى المفسّر فإنّ ما كتب فى هذا المجال يعدّ إنجازا علميا له خصائصه و مميّزاته، حيث إنّ كلّ تفسير كتب- و ضمن الشروط الموضوعية و المقرّرة لذوى الاختصاص- يضيف معلومات جديدة و فئا و ذوقا آخر لهذا العلم الذى لا ينضب، لكن تبقى لمن اتّخذ أهل البيت عليهم السلام نهجا و طريقا و مدرسة و تألقا و علوا و ارتفاعا فيما يستنبط من آراء و يبنى من أفكار و يؤسّس من رؤى السمة العليا فى ذلك، و هذا ما اتّسم به السيد الراحل أعلى الله مقامه، و تميّزت به كتبه الوفيرة، و خصوصا هذا

(١) موسوعة أهل البيت الكونية: ج ٢، ص ٣٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦

التفسير، حيث زانته من ضمن ما زانته اعتماده المطلق على ما ورد منهم عليهم السلام، مسلماً لهم، منقاداً إليهم فيما يقولون و يعملون و يهدّبون، و هذه سمة لا ينالها إلاّ الفائزون الناجحون، و العالمون الصادقون؛ لأنهم صلوات الله عليهم باب الله الذي منه يؤتى، و هم عبية علمه، و حبله المتين، و صراطه المستقيم، و عندهم عليهم السلام جوامع الكلم و العلم كما ورد عن ابن عباس أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول: «أعطاني الله خمسا، و أعطى عليا خمسا، أعطاني جوامع الكلم، و أعطى عليا جوامع العلم»
«١».

و

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إننا أهل بيت عندنا معادل العلم و أبواب الحكم و ضياء الأمر»
«٢».

و

عن الصادق عليه السلام قال: «عندنا أهل البيت أصول العلم و عراه و ضياؤه و أواخيه»
«٣» «٤».

فالاعتماد عليهم صلوات الله عليهم يكشف الكثير من الحقائق و المعارف مع تطوّر الزمن و الاكتشافات؛ حيث أشاروا صلوات الله عليهم و بينوا جميع الأمور للبشرية، و بقى علينا أن نجد أكثر و نسعى لإظهار هذه الحقائق و الاعتراف من منهلهم العذب، و هذا لا يأتي إلاّ بالمعرفة النائة لأهل البيت عليهم السلام، معرفة المؤمنين بهم و بمقاماتهم السامية و المستسلمين في مدرستهم بكل خشوع و انقياد؛ و ذلك لأنّ العلم نور يقذفه الله سبحانه في قلب من يشاء، و ليس ذلك إلاّ من تنور بمحبّتهم عليهم السلام، و تواضع لعظمتهم، و اقتدى بهم، و تعلّم في مدرستهم، و قد ورد عن الصادق عليه السلام: «فمن عرف

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٢٨، ح ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٣٠، ح ٤٢.

(٣) الأخية و الآخية - بالمد و التشديد - واحدة الأواخي: عود يعرض في الحائط، و يدفن طرفاه فيه، و يصير وسطه كالعروة تشدّ إليه الدابة. أى بنا يشدّ و يستحكم أمر الدين و لا يفارقنا علمه. انظر لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٣، «أخا»؛ بحار الأنوار: ج ٢، ص ٢١٤، ح ٣.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٣١، ح ٤٤. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧

من أمية محمد صلى الله عليه و آله و سلم واجب حقّ إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه، و علم فضل طلاوة إسلامه؛ لأنّ الله تبارك و تعالى نصب الإمام علما لخلقهم، و جعله حجّة على أهل مواده و عالمه، و ألبسه الله تاج الوقار، و غشاه من نور الجبار، يمدّ بسبب إلى السماء ... إلى أن قال: حجج الله و دعواته و رعاهته على خلقه، يدين بهديهم العباد، و تستهلّ بنورهم البلاد، و ينمو ببركتهم التلاد ... فليس يجهل حقّ هذا العالم إلاّ شقى، و لا يجحده إلاّ غوى، و لا يصدّ عنه إلاّ جرى على الله جلّ و علا»
«١».

و

فى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «يا سلمان، من عرفهم حق معرفتهم و اقتدى بهم ... فهو والله منا، يرد حيث نرد، و يسكن حيث نسكن ...»

«٢» و إلى ذلك

أشار الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «ما جاءكم منا مما يجوز أن يكون فى المخلوقين و لم تعلموه و لم تفهموه فلا تجحدوه، و ردوه إلينا»

«٣».

و

عن الإمام الباقر عليه السلام «هم و الله نور الله الذى أنزل، و هم و الله نور الله فى السماوات و فى الأرض»

«٤».

و

عن أبى ذرّ (رضوان الله عليه) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «خلقت أنا و على بن أبى طالب من نور واحد»

«٥».

و

فى رواية أنهم جميعا عليهم السلام من نور الله الأعظم

«٦».

كما أن علمهم عليهم السلام و ورثه من النبى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فعن أبى جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن على بن أبى طالب كان هبة الله

(١) أصول الكافى: ج ١، ص ٢٠٣-٢٠٥، ح ٢.

(٢) إلزام الناصب: ج ٢، ص ٣٣٣.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٣٦٤، ح ١.

(٤) أصول الكافى: ج ١، ص ١٩٤، ح ١.

(٥) بحار الأنوار: ج ١٥، ص ١١، ح ١٢.

(٦) انظر إرشاد القلوب: ج ٢، ص ٤٠٤. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨

لمحمد، و ورث علم الأوصياء و علم من كان قبله»

«١».

و

عن أبى عبد الله عليه السلام فى حديث جاء فيه «و ربّ الكعبة و ربّ البيت - ثلاث مرّات - لو كنت بين موسى و الخضر عليهما السلام لأخبرتهما أنى أعلم منهما، و لأنبأتهما بما ليس فى أيديهما؛ لأنّ موسى و الخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان و لم يعطيا علم ما هو كائن، و أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطى علم ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة، فورثناه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وراثته»

«٢».

فمن هنا كانت مدرسة أهل البيت عليهم السّلام هي الأولى والأخيرة في هداية البشر ونقلهم إلى شاطئ الأمان، والتاريخ هو خير دليل وشاهد على ذلك.

و أعظم مدرسة للإسلام كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام حيث كانت جامعة كبرى شملت كل العلوم والفنون والمعارف، و قد خرّجت الكثير من العلماء الذين قدّموا للبشرية والحضارة الإنسانية بكل إخلاص وتفان الشيء الكثير.

و الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السّلام هو سادس أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، و قد تهيأت له عليه السّلام الظروف السياسيّة في نشر علومهم و تأسيس دعائم العلم في مختلف المجالات حتّى أقام تلك الجامعة العظيمة التي لا زالت إلى يومنا هذا تخرّج الفطاحل من العلماء ممّن ينتسبون إليها.

فإنّ الذي يتتبع كتب الرجال و تاريخ الأعلام يجد أنّ لعلماء الشيعة الذين ورثوا علوم أهل البيت عليهم السّلام دوراً أساسياً و مهمّاً في تأسيس فنون المعرفة، حيث تقدّموا في تأسيس العلوم في الصدر الأوّل، و برعوا، و سادوا في حضارتهم و علمهم على جميع المعاهد و الجامعات، و علومهم مبتنيّة على أسس الأخلاق و مكارمها التي ورثوها عن آل محمّد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين. و كما يقال: إنّ المحروم من حرم منهم عليهم السّلام.

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٤، ح ٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٧، ص ١٤٤-١٤٥، ح ٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩

السيد صاحب التفسير أعلى الله مقامه

إنّ الأمم الحيّة و الشعوب اليقظة في كلّ عصر من عصور التاريخ و على امتداد الأرض المعمورة تعرف بتقديرها للعلم و احترامها للعلماء و الأخذ عنهم و الاعتراف من مناهلهم العذبة الرويّة، فهم المقياس الحقّ لحياة الأمم و الشعوب أو موتها. و أمّتنا الإسلاميّة أشرف الأمم، و يزخر تاريخها بالمكانة السامية التي يحتلّها العلماء في نفوس الناس، و المنزلّة الرفيعة التي بلغوها في قلوبهم، و بالأخصّ العلماء الذين تخرّجوا من تلك المدرسة العظيمة التي بنى أساسها الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السّلام، كما و نجد القرآن الكريم يعطي العلماء منزلة تجعلهم في مصافّ الملائكة المنزهين فيقول:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «١» كما نراه جلّ و علا يمنحهم منزلة الخشيّة منه سبحانه و تعالى على سبيل الحصر، فيقول جلّ و علا: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ «٢».

و هو بعد هذا و ذاك يرفعهم درجات فيقول: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ «٣» إلى كثير من الآيات القرآنيّة التي تكشف عن مكانة العلماء عند الله سبحانه و تعالى.

و هكذا برز العلماء، و خرّجت الحوزات العلميّة المقدّسة الفطاحل منهم الذين تركوا آثاراً و تراثاً استقوه من فكر و نهج أهل البيت عليهم السّلام، ينير البشرية جمعاء، و من بين هؤلاء النوادر الذين أثروا المكتبة الإسلاميّة بمؤلّفاتهم و علمهم صاحب هذا التفسير العظيم «تقريب القرآن إلى الأذهان» المرجع الديني الكبير الإمام السيّد محمد الحسيني الشيرازي (أعلى الله

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) فاطر: ٢٩.

(٣) المجادلة: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠

درجاته)، المولود في عام ١٣٤٧ هـ و المتوفى في شوال عام ١٤٢٢ هـ، فهو (رضوان الله عليه) من أجلى مصاديق

قول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم «إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام تلمة لا يسدها شيء»

«١» وما ذاك إلا لأن العالم في الأمية كالروح من الجسد، وما هو إلا المثل الصالح في زهده و ورعه و تقواه و السمات الإسلامية الفاضلة و الصفات الحميدة، جليل القدر، عالى المنزلة، جمع إلى جانب العلم الغزير الأخلاق الفاضلة، و السلوك الحسن، و السيرة العطرة، و حب الناس، و علو الهمة، و مكارم الأخلاق.

و بعد ذلك كله فهو حامل هموم المسلمين و هدفية الإسلام، و قرنها بشجاعة و إقدام فائقين يعجز عن بلوغهما الأبطال الأشاوس في مختلف المجالات و الأصعدة. لقد تميز الإمام الشيرازي (قدس سره) بفكره المعطاء الغنى المختصر بالتجارب، و المفعم بالنضج و النظرة الواقعية إلى الأمور، و الأصيل المستلهم من الكتاب الكريم و السنة المطهرة، و الذى يعالج شتى القضايا الحيوية و مشاكل العصر.

و رغم الحياة الصعبة و القاسية جدا التى كان يعيشها الإمام الراحل (قدس سره) طوال حياته الشريفة و الظروف التى ألمت به من كل حدب و صوب من البعيد و ربما القريب كان كما قالوا عنه: نادرة التأليف فى التاريخ و سلطان المؤلفين «٢»، حيث عرف بكثرة الإنتاج و العطاء الفكرى و العلمى و التربوى، حيث تنوعت مؤلفاته من حيث المادة العلمية، و بلغت ألفا و ثلاثمائة كتاب و كتيب و موسوعة، فشملت الفقه و الأصول و الفلسفة و الكلام و البلاغة و النحو و سائر العلوم الحوزوية من جهة، و السياسة و الاقتصاد و الاجتماع و النفس و الحقوق و الإدارة و القانون و البيئة و الأخلاق و التاريخ و الطب و إدارة

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٨، ح ٢.

(٢) لقب أطلقه عليه الاتحاد العام للكتاب العرب بدمشق الشام خلال الحفل التأسيسي الذى أقيم فى سوريا فى الحوزة الزينية (مجلة النبأ العدد ٦٦-١٤٢٣ هـ ص ١٦٨).

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١

الدولة الإسلامية و سائر العلوم الإنسانية المستحدثة من جهة أخرى، حتى عجزت أصابعه عن الإمساك بالقلم من كثرة ما كتب. فكان أعلى الله مقامه يستعين أحيانا بجهاز التسجيل ليحفظ ما يريد كتابته، ثم بعد ذلك يكتب على الورق، و كان (طاب ثراه) لا يضيّع لحظة واحدة من عمره الشريف دون الاستفادة منها، و لا يبالغ من يقول: إنه كان يعمل فى اليوم أكثره، و من العمر كله أو جلّه؛ إذ كان طاقة متفجرة من النشاط و الحيوية و العمل، و لا يعرف الكلل أو الملل، و لا يعيقه عن ذلك مرض أو هم أو ألم، و أرقى ما فى ذلك كله أنه كان مجاهدا مخلصا، و أينا نزيها، لا يطلب فيما يقدم أو يعطى و يوجد إلا رضا الله سبحانه و رضا أوليائه الطاهرين عليهم السلام.

و فى ذلك قال عنه أخوه المرجع الدينى سماحة آية الله العظمى السيد صادق الحسينى الشيرازى (دام ظلّه) الذى رافقه فى جلّ حياته، و شاركه فى همومه و مهامه فى كلمته التى ألقاها بعد رحيله: و كان رحمه الله يمتاز بخصائص جمّة أهمها خصلتان بارزتان كانتا فى حياته (رضوان الله عليه)، و كنت ألمسهما بشكل دقيق:

الأولى: هى إخلاصه التامّ و المطلق لله تعالى و لأهل البيت عليهم السلام، و خير مثال للواقع العملى لذلك تأسيسه العشرات من المؤسّسات و المساجد و الحسينيات و المدارس و المكتبات و دور النشر و فى مختلف أنحاء العالم، و لم يسمّ أيا من هذه باسمه، و قد أصرّ الكثيرون من الذين تبرّعوا أن يذكروا اسمه، فكان يرفض ذلك رفضا شديدا و يقول: أنا ذاهب و الله سبحانه و أهل البيت عليهم السلام باقون، فالأفضل أن تسمّى هذه المراكز جميعا باسمهم عليهم السلام؛ و لذلك فإنّه قد سمّى جميع هذه المراكز و

المؤسسات و الحسيّيات و دور النشر و غيرها بأسماء الله سبحانه و أسماء أهل البيت عليهم السلام.

الثانية: نشاطه المتواصل و روحيته العالية، حيث إنَّ المرحوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢

الراحل (قدس سرّه) كان قبل وفاته بلحظات ملئاً بالحيويّة و النشاط رغم مرضه، و لم يتوان عن أىّ شيء، و إذا أردنا تشبيهه بالبركان فإن ذلك فيه خطأ؛ لأنَّ البركان ينفجر ثم يبرد و يهدأ، أمّا بالنسبة للمرحوم الإمام (قدس سرّه) فقد كان لم يهدأ لحظة، فكان يمسك القلم حتّى إبان لحظات عمره الأخيرة، و يستفيد من أىّ فرصة تسنح له بالتأليف و الكتابة و تشجيع الآخرين على أعمال الخير و الاستفادة من فرص الحياة، و كان حتّى في كتابته يستخدم الدقّة في انتخاب نوع القلم الذى يسهل معه الكتابة اختصاراً للوقت «١».

و كان (قدس سرّه) بارعاً بعلوم التفسير، و مطلعاً على ما كتب في هذا المضمار، و قد نقل عن بعض تلامذته «٢» أنّه كان حاضراً في مجلس مع الإمام الراحل (قدس سرّه) و وجه إليه أحد الحاضرين سؤالاً مفاجئاً حول تفسير إحدى آيات كتاب الله العزيز، فأجابته الإمام الراحل (قدس سرّه) ذاكرة عشرة آراء لعشرة كتب من أشهر التفاسير الموجودة من دون استعداد أو تحضير مسبق، و قد حدث مثل هذا كثيراً للسيد (قدس سرّه).

و هذا الكتاب الذى بين يديك هو حصيلة جهد مبارك قام به السيد المؤلّف (قدس سرّه)، حيث ساهم به في إغناء التراث الحضارى و المكتبة الإسلاميّة، و لا يبالغ من يقول فيه: إنّه قليل النظير في خصوصياته و مزاياه، ممّا سيّجعله مصدراً كبيراً، من أهمّ مصادر التفسير في مختلف شؤون المعرفة، و قد تحدّث السيد (قدس سرّه) عن كتابه للمرحوم آية الله السيد أحمد الإمامى (طاب ثراه) قائلاً: عند ما كنت في كربلاء و حينما كنت مشغولاً في كتابة تفسيري هذا «تقريب القرآن إلى الأذهان» رأيت في المنام نورا يخرج من بيتنا، و يسطع في السماء، و حينما استيقظت أيقنت أنّ هذا النور هو تفسير القرآن الكريم،

(١) مترجم عن كتاب قصص و خواطر (باللغة الفارسيّة): ج ١، ص ١٠٨.

(٢) الناقل فضيلة الخطيب الشيخ على حيدر المؤيد دام عزّه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣

ففرحت و سألت الله عزّ و جلّ أن يتقبّل منى العمل.

قلنا فيما تقدّم: لكلّ تفسير مزاياه و خصوصياته، لكن امتاز هذا التفسير الشريف بجمله أمور قلما حظى بها غيره منها:

أولاً: أنّ السيد المؤلّف (قدس سرّه) إضافةً لكونه مرجعاً و زعيماً دينياً متميزاً فإنّه يعدّ أحد رجالات الفكر المعاصرين الذين نظّروا للعالم البشرى في مجالات مختلفة، و طبقت نظرياته و رؤاه الواقعية في العديد من الموارد و الحقول، و هذا ما يجده المتتبع في كتبه القيمة من رؤى حديثة تتناسب مع التطور الحضارى و الفكرى المعاصر، حيث إنّه (طاب ثراه) جمع بين الفكر الجديد و القديم في التفسير، فانعكس ذلك على فهمه للآيات الشريفة في بيانه و شرحه لمضامينها، جامعاً بين أصالة الأمس و حداثة اليوم و تطلّعات المستقبل، و قد وُفق في ذلك إلى حدّ كبير، و هذا أحد دواعى خلود هذا التفسير و عظمتها التى ستكشفها الأيام.

ثانياً: اعتمد السيد المؤلّف (قدس سرّه) بشكل أساسى في تفسيره على منهجيّة أهل البيت عليهم السلام، و على الأخبار و الآثار المرويّة عنهم عليهم السلام، فنأى بعيداً عن شبهة التفسير بالرأى، و نزه كلام الله عن آراء البشر.

ثالثاً: وضوح فى الرؤية و نضوج فى الأفكار، و ردّ للشبهات التى أثّرت أو قد تثار بما يملأ الخافقين علماً و يقينا هنا و هناك، و خصوصاً ما يتعلّق بالآيات الواردة بشأن أهل البيت عليهم السلام.

رابعاً: أنّ أسلوب الكتاب و طريقة بحثه تمتاز بأنّها بعيدة عن العبارات المنمّقة و الاصطلاحات المعقّدة، حيث إنّه بين المعانى بأسهل الألفاظ و الكلمات، كما أنّه امتاز بالاختصار و شموليّة المطلب، و هذه الصفات جعلته سهل الفهم على جميع المستويات، فكان سهلاً

ممتنعا على ما يعبرون، مِمَّا سمح لكل بيت و أسرة مهما كان مستواها و مستوى أفرادها أن تتخذة منارا و معلما و مربيا يغنيها عن الكثير من المصادر و الكتب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤

خامسا: التعرض في تفسير الآيات الكريمة إلى الدقائق العلمية و الأحكام المتعلقة بها و بيان مفرداتها بشكل دقيق و مفصل، كما أنه اعتمد على جانب التدبر في الآيات و استنباط النتائج و قراءة ما وراء الألفاظ بالاعتماد على نهج أهل البيت عليهم السلام، و هذه سمة هامة قلما أتسم بها تفسير.

سادسا: الربط الوثيق بين القرآن و الحياة في مختلف المجالات الشخصية و العامة و العبادية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و غيرها، و هذه محاولة كبيرة تعيد الناس إلى القرآن، كما ترتفع بتعامل الناس معه إلى ما أراده الله سبحانه له أن يكون نورا و هدى و قائدا و مرشدا و مربيا و معلما في مختلف المجالات و الأصعدة، حيث دعا السيد المؤلف (قدس سره) إلى:

١- الأمة الواحدة لتحرير بلاد المسلمين من التفرقة العنصرية و القومية و الإقليمية مستندا في ذلك إلى قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (١) و قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (٢) و علل أفضلية الأمة الإسلامية و أسباب رقيها بخصال ثلاث هي:

أ- الأمر بالمعروف ب- النهي عن المنكر ج- الإيمان بالله سبحانه إيمانا صحيحا.

بلحاظ أن المجتمع إذا خلا عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر يهوى نحو السفلى؛ لما جبل عليه من الفساد و الفوضى و الشغب، فإذا تحلّى

(١) الأنبياء: ٩٣.

(٢) آل عمران: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥

المجتمع بهذين الأمرين أخذ يتقدم نحو مدارج الإنسانية و الحضارة الحقيقية حتى يصل إلى قمة البشرية، و بلحاظ أن الصحيح رأس الفضائل لكونه إدراكا لأعظم حقيقة كونية من جهة، و لكونه محفزا شديدا نحو جميع أنواع الخير، و منفرا قويا من جميع أصناف الشر من جهة أخرى، و هذه في مجموعها تكوّن أهم العناصر التي تقوم عليها سعادة البشرية و أمنها و سلامها.

٢- الأخوة الإسلامية ليزيد في أواصر المجتمع الواحد، و يرفع الحواجز الطبقيّة أو الفئويّة و نحوها، مستندا إلى قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (١) و كذلك قوله سبحانه: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (٢).

٣- الحرّية الإسلامية لكونها غاية البعثة و هدف الرسل و الأنبياء عليهم السلام، و خصوصا خاتمهم و سيدهم صلى الله عليه و آله و سلم، مستندا إلى قوله تعالى: وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (٣) فإنّ النبي الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم خلّص الناس من أغلال الاستبداد و الجاهليّة بصورها المختلفة، و في هذا قال (قدس سره): أغلال: جمع غلّ، و هو ما يقيد الإنسان يده أو رجله أو غيرهما، فإنّ من خواص الإسلام أنه يطلق الحرّيات المعقولة، فالسفر و الإقامة و التجارة و الزراعة و الصناعة و البيع و الاشتراء و الكلام و الكتابة و التجمّع و غيرها كلّها مباحة لا قيود لها إلّا بعض الشرائط الطفيفة التي هي في صالح المجتمع و الفرد، و لا يعلم مدى ذلك إلّا بالمقاييس إلى الأنظمة و المناهج الدنيويّة التي كلّها كبت و استعباد و استغلال (٤).

٤- الشورى على مختلف الأصعدة و المجالات ابتداء من الأسرة إلى

(١) الحجرات: ١١.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٩، ص ٦٢، ذيل الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦

الدولة و نظام الحكم و بالنحو الإسلامى الخاص، مستندا إلى قوله تعالى:

وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ «١» و قد ردّ الطرق الغربيّة و نحوها القائمّة على أساس غير عادل في الانتخاب «٢».

٥- اللا-عنف طريقا و منهجا للتعامل مع الآخرين من أهل الإسلام أو غيره من الأديان و المذاهب، مستندا لقوله سبحانه: ادْخُلُوا فِي

السَّلَامِ كَافَّةً «٣» و قوله عزّ و جلّ: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ «٤».

و من الواضح أنّ هذه هي الأسس البارزة لتكوين الحضارة الصحيحة و الدولة الناجحة و المجتمع السعيد. و الظاهر أنّ هذا الربط و

التكامل و التطابق بين القرآن و الحياة العامّة قلما يلحظ في كتب التفسير حتّى الجديدة منها.

سابعاً: أنّ من خصائص هذا التفسير كذلك و التي تضى على طابعا متميزا آخر هو:

أ- في تفسيره للكلمات و الحروف المقطعة في القرآن الكريم، حيث أجرى استقراء لهذه الحروف و قال في مستهلّ تفسيره عنها: يأتي

زمان يدرك الناس هذا الكنز المعنوي، كما أنّه لا يمرّ زمان إلّا و يدرك الناس كنوزا كونيّة، فإنّ العلوم كلّها قوانين وضعها الله في

الكون، مثل:

قانون جاذبيّة الأرض، و قانون أرخميدس في الماء، و قانون الأطياف في النور و غيرها، و إذا كان رمزا لم يلزم أن يعرفه الكلّ، فإنّ

الرموز بين رؤساء الحكومات و كبار أعضاء الدولة في صلاح الناس و إن كان كلّ

(١) الشورى: ٣٩.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٢٥، ص ٤٧، ذيل الآية ٣٩ من سورة الشورى.

(٣) البقرة: ٢٠٩.

(٤) آل عمران: ١٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧

الناس لا يعرفونها، و في ذلك يقول (قدس سرّه): و هذا رمز بين الله و رسوله و الراسخين في العلم «١».

و على الرغم من ذلك فإنّه لم يقف عند هذا السرّ العظيم بين الله سبحانه و رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم، بل حاول أن يظهر في

كلّ مورد من موارده بعض غموضه، أو يسلط الضوء على بعض لغزه، فمثلا- في سورة يونس: فسّر حروفها المقطعة بالتحدي و

الإعجاز؛ لكون «المر» التي تفتح بها السورة تركّب منها القرآن المعجز، فإنّه من جنس كلام البشر لكنه معجز لا يتمكّن أحد أن يأتي

بمثله، كما أنّ من جنس المعادن و النبات يتركّب الإنسان لكن لا أحد يقدر على أن يأتي بمثله، و كذلك جميع صنع الله سبحانه ...

على الاختلاف في أوائل السور «٢».

و في سورة هود قال عنها أيضا: إنّها رموز بين الله و الخلق «٣».

و في سورة يوسف فسّر لها بالأخصّ من ذلك، فقال عنها: رمز بين الله و الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم كالرموز بين رؤساء

الحكومات و سفرائها «٤».

و في سورة الرعد ذكر أنّ الأقوال في بيان معاني الحروف في فواتح السور تبلغ أربعة عشر قولاً «٥»، لكنّه قال (قدس سرّه): الظاهر أنّه

يمكن الجمع بين كثير منها «٦»، و لعلّ جامعها هو الرمزيّة التي مال إليها بين الله و الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم، فإنّه المتيقّن من

المعاني.

ب- امتاز تفسيره (قدس سرّه) بالترابط الموضوعي بين معاني الآيات،

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٢٦، ص ١٨، ذيل الآية ٢ من سورة الأحقاف.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ٦٤، ذيل الآية ٢ من سورة يونس.

(٣) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ١٦٠، ذيل الآية ٢ من سورة هود.

(٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٢، ص ١١٠، ذيل الآية ٢ من سورة يوسف.

(٥) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٣، ص ٧٠، ذيل الآية ٢ من سورة الرعد.

(٦) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٤، ص ١٤، ذيل الآية ٢ من سورة الحجر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٨

وهذه ميزة قلما فعلها مفسر أو وردت في تفسير إلا في موارد قليلة، فمثلا:

* الآيات (٢٠٥ - ٢٥٤) من سورة البقرة، تعرّضت إلى مواضع عديدة بعضها يرتبط بأحكام الحجّ، وبعضها بصفات الجاهلين و تعصّب بهم، وبعضها بالمنافقين، وبعضها بالمجاهدين، وبعضها بحركة الأنبياء عليهم السلام في داخل المجتمع و علاقة الناس بهم، وبعضها تعرّض إلى وعود الله سبحانه و تعالى للمؤمنين بدرجات الآخرة، وبعضها إلى أسئلة وجهها المشركون إلى رسوله الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم، وبعضها تضمن السؤال عن جملة من المحرّمات، وبعضها تعرّض إلى جملة من أحكام الأسرة و أحكام النساء و أحكام الولادة و الإرضاع، وبعضها إلى حقيقة الموت و الحياة، وبعضها إلى القتال و الجهاد في سبيل الله، و بعضها إلى الإنفاق، و بعضها إلى غير ذلك. هذه العناوين و المواضيع المختلفة التي قد لا تتراءى للناظر بدوا بينها ترابط و وثيق يجمعها السيد (قدس سرّه) بسياق واحد، فيجمع سابقها بالحقها و بالعكس حتى يحصل من الكلام حديث عن صورة واحدة بكل ما يحتف بها من قرائن و شواهد تكمل المعنى و تثير الغرابة و الإعجاب. «١» و الآيات (٦٣ - ٦٥) من سورة المائدة، تعرّضت إلى صفات المنافقين و أهل الكتاب و آثارهم السلبية على المجتمع، و قد امتاز في تفسيره لها، حيث يوضح ظاهرة الازدواجية الثقافية عندهم، و الصفات الانحرافية الأخلاقية الأخرى، و أوجه التشابه بينهم. و كذلك الربط بين قيام الدول و هزيمتها و قوّة التلاحم و التفاهم و ضعف التفرّق و الاختلاف في آيات سورة الأنفال كقوله سبحانه: **وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** «٢» قال (قدس سرّه): إنّ التنازع يوجب تبديد القوى المعنوية بالإضافة إلى تبديده

(١) و لمزيد الاطلاع يمكنك ملاحظة الربط العميق في آيات سورة الحجرات و دور الإيمان في تكوين المجتمع المؤمن. انظر سورة الحجرات: الآية ٢ - ١٩.

(٢) الأنفال: ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٩

و إضاعته للقوى الماديّة، و تذهب ريحكم أي دولتكم، فإنّ الريح بمعناها لغه، و شبّهت بها الدول؛ لأنّ الدولة تشبه الريح لهبوبها و سيطرتها على الأشياء و نفوذ أمرها. يقال: هبت ريح فلان إذا نفذ أمره، و التنازع ليس يقسم القوى إلى سلب و إيجاب فقط، بل فوق ذلك يضعف القوى الإيجابية، فلو فرضنا أنّ طاقة زيد تقدّر بألف مقاتل فإذا خالفه عمرو قدّرت طاقته بخمسائة حتّى إنّ لو كان وحده بدون مخالف لكان قدر على الألف؛ و ذلك لأنّ الخلاف يحدّ من النشاط، و يضعف من القوى، بخلاف التجمّع فإنّه يزيد الطاقة الألفية إلى الألفين؛ و لذا ثبت في علم النفس أنّ الإنسان إذا رأى خلافا فالأفضل أن يصمّ عن المخالف حتّى يبقى على قواه

الذاتية، ولا تحدّ من نشاطه الطاقة المناوئة «١».

ومضافا إلى ذلك كله أوجد ترابطا موضوعيا بين تفسير أول سورة وآخر سورة من القرآن الكريم، والترابط بين السور المتسلسلة والآيات المتسلسلة يجعل سور القرآن وآياته منظومة واحدة مترابطة كجملته واحدة نظمت في غاية الإعجاز في اللفظ والمعنى والإحكام والإتقان «٢».

ثامنا: أورد السيد المؤلّف (قدس سرّه) أسباب تسمية السور قبل الشروع في تفسيرها، ثم بيّن الجو العام للسورة والمحور الكلي الذي تدور حوله آياتها، فعبر عن بعضها أنها بشأن التوحيد، وأخرى بشأن الأسرة، وثالثة بشأن العقيدة، وهكذا، ثم ذكر مائة وعشرين معنى للبسملة في تفسيره هذا، حيث يضيف إليه امتيازا بارزا آخر، فمثلا: في سورة الحمد فسّرَها بالاستعانة، وفي سورة البقرة علّمها بفرض التعليم والتربية على الابتداء في كلّ عمل أو نشاط بالاسم المبارك؛ لما له من الأثر البالغ في الصبر

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ١٩، ذيل الآية ٤٧ من سورة الأنفال.

(٢) انظر التسلسل والربط بين سور الممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحرير والملك والقلم والحاqqة، وهكذا بين سور النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٠

والاستقامة والنجاح «١». وفي سورة الأنفال شرحها بالعلاقة على إحكام ما قبلها وافتتاح ما بعدها من الآيات «٢». وفي سورة يونس علّمها بتلطيف الجوّ وإعطاء الإنسان الأمن والطمأنينة؛ لأنّ الناس اعتادوا أن يروا الظلم والجور من الكبراء فكيف بأكبر الكبراء؟ لكنه سبحانه ليس كذلك؛ لأنه رحمان بعباده، رحيم بالمؤمنين منهم، فلا خوف من ظلمه، ولا خشية من جوره «٣».

وفي سورة النحل جعلها الحد الفاصل بين الإيمان والكفر والمؤمن والكافر، حيث يفتح المؤمن باسم الله خالق كلّ شيء، الجامع لجميع الصفات الكمالية، خلافا للكفّار ومواليهم، حيث يفتحون كتبهم بشيء في غير لونه، أو يفتحون بأسمى الأضنام، وقد جرت عادة من بهرتهم المدينة الحديثة أن يقتدوا أثر أولئك، فلا يفتحون الكتاب إلّا بالمقدّمة أو الإهداء أو الفصل بدون ذكر لاسم الله سبحانه إطلاقا «٤».

وفي سورة هود علّمها بما في الاسم المبارك من الخواصّ المعنويّة على نفس القارئ، ويجعله في حصن وثيق من مساوئ الشياطين وفضائل الأخلاق ومحاسنها؛ ولذا نرى أنّ سماع اسم المحبوب يزيد الإنسان نشاطا، كما أنّ سماع اسم المكروه يزيد الإنسان انقباضا بالإضافة إلى أنّ اسم الله سبحانه يطرد الشياطين، ويوجب عناية الله عزّ وجلّ للذي ذكره، وتركيزا لصفة الرحمة في نفوس الناس، إنّه هو الرحمن الرحيم، فليخلق الإنسان بأخلاقه سبحانه «٥».

(١) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: تفسير سورة الحمد والبقرة.

(٢) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٩، ص ١٠٩، تفسير سورة الأنفال.

(٣) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ٦٣، تفسير سورة يونس.

(٤) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٤، ص ٦٥-٦٦، تفسير سورة النحل.

(٥) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ١٥٩، تفسير سورة هود.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧١

وفي سورة الرعد علّل الابتداء بالاسم دون الذات؛ لأنّ الله سبحانه لا يتبدأ به وإنّما يبدأ باسمه. إنّه الله الرحمن الرحيم الذي أظهر صفاته الرحمة والتفصّل لا الانتقام والعقاب والقوّة والعذاب «١».

و في سورة الحجر قال عنها: نستعين بالله الرحمن الرحيم في أمورنا، و نجعله بدء أعمالنا؛ ليكون عوننا لنا في ختم العمل، و أن يطبع بطابعه، فإن ما لمستته رحمة الله العظيم لا يكون إلا صالحا باقيا موجبا للسعادة، و لنستمطر شآبيب رحمته فيرحمنا بلطفه و إحسانه «٢».

و هكذا يذكر معاني عديدة لأصل البسملة، أو بيانا لفوائدها و أغراضها، و هذه ميزة أخرى من مزايا هذا التفسير العظيم الذي قلما يحظى بمثله تفسير، حيث يكتفى غالبا بذكر بعض معانيها في أول سورة الحمد ثم يوكل إليه في تفسير سائر السور.

تاسعا: تصدى أعلى الله مقامه للإجابة عن جملة من الشبهات التي قد يثيرها البعض تجاه الإسلام في العقائد أو في الأحكام، و لم يتوقف على بيان المعاني الظاهرة للآيات، و هذا نهج جديد قلما نجده في التفاسير، و هو أن يتخذ المفسر نهج الدفاع و الذود عن الشبهات و إبطال الادعاءات الباطلة؛ ليجعل من التفسير معلما و مربيا و محاميا في آن معا، فمن باب المثال: في بيان معنى قوله تعالى: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** «٣» تعرّض إلى فلسفة الحكم بنجاسة الكفار، فيبينها و اختصرها في أمور ثلاثة:

١- الوقاية الفكرية من الخرافة.

٢- الحماية الاجتماعية من التأثير بسلوكه.

(١) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٣، ص ٦٩، تفسير سورة الرعد.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٤، ص ١٣، تفسير سورة الحجر.

(٣) التوبة: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٢

٣- تحفيزه لترك عقيدة الكفر و الالتزام بالإسلام.

يقول (قدس سرّه): النجاسة في الشريعة هي القذارة التي توجب الغسل للشيء الذي يباشره برطوبة، و هذه النجاسة قد تكون لأضرار خارجية كالبول و الغائط، و قد تكون لأضرار معنوية كالكافر، فإنه و إن كان نظيف الجسم إلا أن معتقده السخيف أوجب الحكم بنجاسته، و ذلك خير وقاية للمسلمين من أن يعاشروه فيتلوّثوا بعقيدته الفاسدة، فإنهم إذا عرفوه نجسا و إنه مهما باشر شيئا برطوبة تنجس فورا منه اجتنبوه في المأكل و الملبس، فلا يتعدى إليهم ما انطوى عليه من العقيدة الباطلة، و هو بدوره إذ يعرف أنه عند المسلمين كذلك لا بد و أن يسأل عن السبب، و يريد إزالة هذه الوصمة، و لدى تحقيق ذلك تظهر له خرافة معتقدة مما يسبب تركه له و اعتقاده بالعقيدة الصحيحة.

و هناك بعض المتفلسفين يقولون: كيف يحكم بنجاسة إنسان و لزوم الاجتناب عنه لمجرد انحراف عقيدة و هذا مناف لحرية الآراء؟ و الجواب: أنه كيف يحكم بالاجتناب عن إنسان لمجرد أنه مصاب بالجذام و نحوه لمجرد انحراف مزاج، و هذا مناف لكرامة الإنسان. فإذا كان الخوف على الجسم يبيح الاجتناب فالخوف على الروح أولى بالإباحة «١».

و من ذلك أيضا ما أجاب به أعلى الله مقامه عن بعض مزاعم العامية في فضل الأول استنادا إلى آية الغار من سورة التوبة، و أبطل الدعوى، و علل تصديده لذلك بالدفاع عن حریم القرآن لكيلا يقحم فيه ما ليس منه، و جرّ الآيات إلى الأنظار و الأفكار جرّا بدون دلالة أو برهان بعد أن ورد الذم لمن فسّر القرآن برأيه «٢».

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ٧٣، ذيل الآية ٢٨ من تفسير سورة التوبة «بتصرف».

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ٨٩، ذيل الآية ٤٠ من تفسير سورة التوبة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٣

و في سورة العلق ردّ مزاعم من نسب جمع القرآن إلى الأول و الثالث بما ينفي الشكّ و يزيل الإبهام بعد تصريح القرآن بأنّ الذي

جمعه ورتبه هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (١).

عاشرا: و بعد ذلك كله فإن من سمات هذا التفسير الضخم هو التواضع والإقرار بالعجز أمام كتاب الله سبحانه، ابتداء من عنوانه إلى آخر ما ذكر مصنفه الكبير (قدس سره) في هذا المجال.

فعنوانه تقريب القرآن إلى الأذهان وليس تفسيره، وهو دال على إعظام وإجلال وإكبار للقرآن و تنزيه له من أن تناله عقول البشر؛ و لذا هم بحاجة إلى تقريب لما في التقريب من اعتراف بالقصور عن درك معانيه.

وقد تكرر من السيد المؤلف نفسه (قدس سره) في أكثر من مرة بأن ما يذكره من مضامين مجرد معان محتملة وليست بتفسير (٢)، و هذا منطوق من التزم الحقيقة العارف بقدره الإنسان و حدوده و مدها، و العارف بكلام الله سبحانه اللامحدود في مضامينه و معانيه الذي يستحيل أن يحيط به المحدود، و في مقدمته مصنفه الشريف هذا قال (قدس سره) في توجيه ما ورد في بعض الأخبار: من أن القرآن الكريم له ظاهر و باطن، و لا يعلم تفسيره و لا ظاهره و لا باطنه و لا تأويله إلا الله سبحانه ... إن فهم كل ظواهر الأشياء و بواطنها كذلك، فإن البشر لا يعلم إلا بعض السطحيات، مثلا ما هي حقيقة اللحم و الدم؟ و ما هي حقيقة الماء و الكهرباء؟ و إلى غير ذلك، فإذا رأى الإنسان سيارة لا يعلم ما هي؟ فإنه لا يعلم هل هي حديد أو نحاس (ظاهرها)، و لا يعلم ما ذا في ما كتتها (باطنها)، و لا يعلم ما نفعها (تفسيرها)، و لا يعلم إلى أي شيء يكون أولها (تأويلها)، و كذلك القرآن لا يعرف المراد الكامل من

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٣٠، ص ١٨٧-١٨٨، تفسير سورة العلق.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٣، ص ٤٩، تفسير سورة آل عمران، حيث قال في معنى (آلم): «تقدم ما يحتمل أن يكون تفسيرا له».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٤

ظاهرة و لا من باطنه، كما لا يعرف الفائدة الكاملة منه حالا، و لا أول القرآن للمستمسك به و التارك له.

و السؤال هنا: إذا كان لا يعلم ظاهرها و لا باطنها و لا تفسيرها و لا تأويلها فما فائدة ذلك؟

و الجواب: الإشارة و التلميح و إن كانت الحقيقة مخفية.

مثلا: إنك إذا سمعت من إنسان ما لاقاه من الأحوال في حرب ضروس، و أراك بعض التصاوير التي التقطها من تلك الحرب، فإن الكلام و الصورة لا شك يلمحان إلى حقيقة، لكن هل تدرك بذلك هول تلك الحرب و انفعالات أولئك المحاربين؟ إن نسبة ما نفهم من القرآن إلى حقيقته كنسبة الصور و الكلام إلى حقيقة تلك الحرب، و للحرب ظاهر هي المعركة، و باطن هو الاستعمار الذي يريد التسلط مثلا، و تفسير هو ما تنتجه الحرب الآن من غلاء الأسعار و انسداد الطرق، و تأويل هو ما يترتب من الأثر على هذه الحرب من سقوط إمبراطورية و دخول إمبراطورية أخرى إلى الحياة (١).

أقول: و في الختام فإن ما امتاز به تفسير التقريب (تقريب القرآن إلى الأذهان) عن غيره من التفاسير الشيء الكثير. أشرنا نحن إلى بعض مزاياه و خصوصياته، و سيجد القارئ الكريم الكثير منها أثناء تتبعه و قراءته.

و في الختام أشكر دار العلوم الموقرة و القائمين عليها على اهتمامها بطباعته طباعة جديدة منقحة، و أسأل الله سبحانه لها مزيد التوفيق و التسديد في ترويج معارف القرآن و الشريعة الغراء آمين يا رب العالمين.

كما و أسأله سبحانه و تعالى أن يتغمّد السيد مؤلف هذا السفر القيم برحمته الواسعة، و يجعل القرآن رفيقه و مؤنسه و نوره، و أن يتقبله منه بقبول

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١، ص ٢٤-٢٦، المدخل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٥

حسن، و أن يدخره له في ضمن الباقيات الصالحات التي قام بها في دنياه لأخراه، كما و نسأله سبحانه أن يعفو عن زلّاتنا، و يتقبل ما كتبناه في هذه السطور أداء لبعض حقوقه الكثيرة و الكبيرة التي له طاب ثراه في رقابنا، و أن يهدى ثواب ما بذلناه إلى وليه الأعظم و حجّته على الأمم سيدنا و مولانا صاحب العصر و الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، و أن يرضيه عنا بحقّ محمّد و آله الطاهرين.

فاضل الصّفّار ٢٠- جمادى الثانية من عام ١٤٢٣ هجرية في جوار عقليّة الرسالة السيّدة زينب عليها و على آبائها آلاف التحيات و الصلوات الحوزة العلميّة الزينبيّة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٦

المصادر

- ١- الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٢- اختيار معرفة الرجال المعروف بـ «رجال الكشي»: للشيخ أبي جعفر الطوسي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٤ هـ.
- ٣- الإرشاد: لأبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٤- إرشاد القلوب: لأبي محمد الحسن بن محمد الديلمي، مؤسسة الأعلمي- بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٥- إلزام الناصب: للشيخ علي اليزدي الحائري، مؤسسة الأعلمي- بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- ٦- الأصول من الكافي: لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار صعب و دار التعارف- بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ.
- ٧- أقرب الموارد: لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني، دار الأسوة للطباعة و النشر، الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ ش - ١٤١٦ هـ ق.
- ٨- بحار الأنوار: للشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء- بيروت، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٧
- ٩- البرهان في تفسير القرآن: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة الوفاء- بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣ م - ١٤٠٣ هـ.
- ١٠- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار إحياء الكتب العربيّة- القاهرة، الطبعة الأولى. ١٣٧٦ هـ - ١١
- بين الجدران: للسيد محمد السويج، دار البيان العربي، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- ١٢- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: للسيد حسن الصدر، شركة النشر و الطباعة العراقيّة المحدودة.
- ١٣- التبيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- ١٤- تجريد الاعتقاد: للشيخ أبي جعفر محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي، مركز النشر- مكتب الاعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ق.
- ١٥- تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان: لآية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ١٦- تفسير الصافي: للفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي- بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- ١٧- التفسير و المفسرون: للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
- ١٨- تفصيل وسائل الشيعة: للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

١٩- تهذيب الأحكام: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار صعب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٨

و دار التعارف- بيروت، ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.

٢٠- الجامع الصحيح «سنن الترمذى»: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، المكتبة الإسلامية.

٢١- خواطرى عن القرآن: للشهيد السيد حسن الشيرازى، دار العلوم- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م.

٢٢- دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: لمحسن الأمين، دار التعارف- بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.

٢٣- داستانها و خاطراتى: لآية الله العظمى السيد محمد الحسينى الشيرازى، انتشارات سلسلة، الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ.

٢٤- الذريعة إلى تصانيف الشيعة: للشيخ آغا بزرك الطهرانى، مؤسسة إسماعيليان- قم.

٢٥- علوم القرآن عند المفسرين: لمركز الثقافة و المعارف الإسلامية، مكتب الاعلام الإسلامى، الطبعة الأولى ١٤١٦ ق- ١٣٧٤ ش.

٢٦- عوالى اللآلى العزيزية: لمحمد بن على بن إبراهيم الأحسانى، مطبعة سيد الشهداء- قم، ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

٢٧- الغدير: لعبد الحسين أحمد الأمينى النجفى، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية ١٣٦٦ هـ.

٢٨- الفروع من الكافى: لأبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى الرازى، دار صعب و دار التعارف- بيروت، الطبعة الثالثة

١٤٠١ هـ.

٢٩- كتاب التفسير: لأبى النصر محمد بن مسعود بن عياش السلمى السمرقندى المعروف «بالعياشى»، المكتبة العلمية الإسلامية-

طهران.

٣٠- كتاب الخصال: للشيخ الصدوق أبى جعفر محمد بن على بن الحسين ابن بابويه القمى، منشورات جماعة المدرسين فى الحوزة

العلمية- قم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٧٩

٣١- لسان العرب: لابن منظور، نشر أدب الحوزة- قم، ١٤٠٥ هـ- ١٣٦٣ ق.

٣٢- مجمع البحرين: لفخر الدين الطريحي، مؤسسة الوفاء- بيروت، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

٣٣- مجمع البيان: للشيخ أبى على الفضل بن الحسن الطبرسى، دار إحياء التراث العربى- بيروت، ١٣٧٩ ق- ١٣٣٩ ش.

٣٤- المستدرک على الصحيحين: لأبى عبد الله الحاكم النيسابورى، دار المعرفة- بيروت.

٣٥- مستدرک الوسائل: للميرزا حسين النورى الطبرسى، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث- بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١١

هـ- ١٩٩١ م.

٣٦- مسند أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل، دار صادر- بيروت.

٣٧- مفاتيح الغيب: لصدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى، مؤسسة مطالعات و تحقيقات فرهنگى، الطبعة الأولى ١٣٦٣.

٣٨- مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهانى، الدار الشامية- بيروت، و دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م.

٣٩- مناقب آل أبى طالب: لأبى جعفر رشيد الدين محمد بن على بن شهر آشوب السروى المازندرانى، مؤسسة انتشارات العلامة-

قم.

٤٠- موسوعة أهل البيت الكونية: لمجموعة من المؤلفين، بإشراف فاضل الصفار، سحر للطباعة و النشر- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣

هـ- ٢٠٠٢ م.

٤١- نهج البلاغة: ضبط نصه و ابتكر فهارسه العلمية الدكتور صبحى الصالح، دار الكتاب اللبنانى و دار الكتاب المصرى، الطبعة الثانية

١٩٨٠ م.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين. لعل سبحانه يوفقني لشرح ألفاظ من القرآن الحكيم، ليسبب تسهيلا على الطالب، ويفتح لي سبيل فهم كتابه، الذي هو سبب سعادة الدنيا والآخرة. ويتقبله بقبول حسن، ليكون مصداقا ل: «كتب علم ينتفع بها» في الدنيا، و موجبا للأجر والثواب في الآخرة.

هذا ما يرجوه «محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي» عند افتتاح كتابه التفسير، المسمى ب: «تقريب القرآن إلى الأذهان» والله الموفق، وهو المستعان.

كربلاء المقدسة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٨٣ هجرية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٢

المدخل

كتاب كل عصر و مصر

قد اشتهر عند أتباع المستعمرين من المسلمين الجدد أصحاب الثقافات الشرقية والغربية، أن القرآن لا يلائم العصر من جهة وجود أحكام فيه تصلح لعهد البداوة، مثل قطع يد السارق و جلد الزاني و رجمه، و تقرير الاستعباد و القصاص و حرمة الربا و المكس و الحريات الكثيرة و الأحكام الخاصة بالمرأة، و من جهة عدم وجود أحكام فيه يتطلبها العصر، مثل أحكام السياسة و الاقتصاد و الأمن و ما أشبه ذلك، ثم قالوا بأن الإسلام حيث ينطلق من القرآن فالقرآن أيضا لا يصلح للعصر الحديث، فاللازم فصل الدين عن الدولة، و هذه الفكرة إن لم تعم كافة المتقنين فهي بلا-شك تعم أكثرهم، و حيث أن الاستعمار الفكري يستتبع الاستعمار العسكري، فبلاد الإسلام تعيش في استعمار عسكري صريح أو مغلف، و الواجب الاهتمام لتغيير هذه الفكرة بمختلف وسائل التغيير، فإن الله سبحانه لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ «١» وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ «٢» فإنهم إذا لم يغيروا ما بأنفسهم من أسباب الضعف و الانحطاط أراد الله بهم سوء إرادة تكوينية تابعة لخلق المسببات بعد أسبابها.

(١) الرعد: ١٢.

(٢) الرعد: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٣

و الكلام حول رد هذه الإشكالات طويل نكتفي بالتلميح إليه فنقول:

أما الجهة الأولى فيرد على إشكال قطع يد السارق، أن الإسلام لا يقطع يد السارق إلا بعد توفير أوليات العيش المتوسط له، و إذا وفر له أوليات العيش المتوسط فهل الأفضل أن يردعه- إذا سرق- بعقاب صارم يجعل المجتمع في أمن بعد توفر زهاء عشرين شرطا في السرقة يشترط بها القطع؟ أو أن يجسسه أو ما أشبه الحبس؟ مما لا يكون رادعا، بل أحيانا يكون مشجعا كما لا يخفى على من طالع أحوال المجتمعات الغربية و الشرقية.

و على إشكال جلد الزاني، إن الإسلام لا يجلد إلا إذا اضطر، و إذا عرفنا أن الإسلام يوفر المناخ الملائم للعفة برفع الاضطرار إلى

اقتراف الجنس حراما، كان زنى الرجل أو المرأة خرقا للعفاف الاجتماعى و تعريضا له إلى الانهيار فى أقدم روابطه و هدمها للعائلة، و أيهما خير العقاب الصارم المناسب للذة الزنى- إذ الجلد إيلا م يناسب ما اقترفه الزانى من الإثم- أو عقوبة خفيفة لا تسد هذا الباب الخطر؟

أما الرجم فهو للزانى المحصن، و كل إنسان عاقل يعترف بأنه إذا كانت له زوجة يشبعها جنسيا ثم خانته كان اللازم إنزال أشد العقوبات بحقها، و كذلك العكس و إنما لزم انهيار المجتمع و انهدام العائلة و عدم الأمن و كثرة الطلاق و قلة النكاح و اختلاط الأنساب و كثرة الأمراض الجنسية و توسيع المجال للمستهترين، إلى غيرها من المفاسد التى وقع فيها الشرق و الغرب و قد رفع عقلائهم أصواتهم بوجوب وضع حد لهذه الاستهتارات.

و على إشكال تقرير الاستعباد، إنه أفضل حل لمشكلة أسارى الحرب، بعد الوضوح أن الإمام مخير بين الأسر و بين السجن و بين الفدية و بين الإطلاق كل منها حسب ما يراه من المصلحة، فلنفرض أن المصلحة عدم القتل، لأنه تضييع لقوى بناءة يحتاج إليها المسلمون، و عدم السجن، لأنه إرهاب لكاهل الدولة، و عدم الإطلاق بمال أو بدون مال، لأنه يخشى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٤

من تأمرهم على الدولة الإسلامية، فما إذا يكون الحل المعقول غير استعبادهم بتسليمهم إلى سادة يكونون تحت إشرافهم دائما مع عدم إضاعة قدراتهم البناءة؟ و من السهل نقد الإسلام فى تقريره قانون الرقة، لكن من المحال إيجاد حل أفضل منه، و لذا نرى أن الذين انتقدوا الإسلام فى هذا القانون، لما جاء دور العمل أخذوا يقتلون مناوئهم بالملايين لا- الألو، ففرنسا قتلت مليوناً أو مليونى جزائرى، و أمريكا قتلت خمسة ملايين فيتنامى، و إنكلترا قتلت عشرين مليون صينى، و ألمانيا قتلت ما يقارب الخمسين مليون فى الحرب العالمية الثانية، و روسيا قتلت خمسة ملايين فلاح فى نظام المزارع الجماعية- على ما ذكرت كل ذلك الكتب و الجرائد و الإذاعات-

ثم نظام التعذيب الذى اخترعه الغرب و الشرق أشبع بكثير من نظام الرق بل هو نظام استعباد الشعوب الكامل تحت غطاء الاستعمار مما أوقع العالم كله فى دوامة الثورات و الحروب.

و على إشكال القصاص، إنه أمر طبيعى، فهل يشفى غيظ من فقأ عينه عمدا أن يأخذ المال فى قبال عينه التالفه؟ و هل من الإنصاف أن يترك مثل هذا الإنسان الجانى يعبث بالمجتمع بدون عقاب صارم يردعه و يردع غيره من العابثين؟ خصوصا إذا كان الجانى غنيا لا يهتم بالمال، فقد أجاز الإسلام ذلك فى صورة طلب المجنى عليه، مع إنه أعطى الحق له فى أن يعفو، و أن يأخذ الدية مع إعطاء الصلاحية للحاكم الإسلامى فى تعزيره بما يؤلمه، لأنه خرق حق الله سبحانه. بما يسمى فى الاصطلاح بحق الادعاء العام.

نعم قد لا يكون للقصاص مجال فى الحى، أو فى الميت، كما فى من قطع عضو ميت، حيث أفتى الإمام الصادق عليه السلام بأن ديته كدية الجنين، فيمن قطع رأس ميت- لوضوح اشتراكهما فى أنهما إنسانان لا روح لهما-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٥

فى قصة مشهورة «١» و حينذاك يرجع الأمر إلى الدية و التعزير إن صدرت الجنائية عن عمد، و إلى الدية فقط، إن لم يكن عمد فى البين.

و أما إشكال حرمة الربا، فإنه و إن أورد عليها أن الربا حق معقول، لأن أمر صاحب المال دائر بين أن يتاجر بماله فيربح، و بين أن يدفعه قرضا فيربح من ورائه، و لذا قالوا «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» (٢) لكن هو إشكال غير وارد، لا لما أورد عليه الشيوعيون بأن تجارة غير الدولة سرقة لأتعب العمال، إذ أى حق للتاجر أن يستريح ثم يأخذ لأجل ماله شيئا من أتعب و جهود الكادحين؟ فكل من الربا و الاتجار المربح حرام.

و لا- لما أورد عليه بعض الاقتصاديين الجدد بأن الاتجار مطلقا «سواء كان من الدولة، كما فى الشيوعية، أو من غير الدولة، كما فى

الرأسمالية» حرام، إذ في كلا الحالين استفاد من لم يتعب ممن تعب فهو سرقة تحت اسم القانون، إذ يرد عليهما أنه لا بد من مخزون مالى للقيام بخدمات المجتمع، و أفضل طريق الخزن هو جمع المال عند التجار لئلا يجتمع المال و السلاح و القوة فى مكان، فيكون الظلم و الديكتاتورية كما نشاهدهما بأبشع صورهما فى البلاد الشيوعية .. مع لزوم مراقبة الدولة لأجل إعطاء الناس ما يحتاجون من مسكن و أثاث، حتى لا يبقى فقير، و لأجل عدم إفساد الرأسمالى - كما فى النظام الإسلامى - .

بل لأن الربا على إطلاقه ظلم، إذ ليس كل تجارة مربحة، و ليس كل إعطاء للمال يستحق المعطى أن يأخذ شيئاً فى مقابل الإعطاء و توضيح ذلك أن لمال التاجر أربع صور:

(١) الكافى: ج ٧ ص ٣٤٩.

(٢) إشارة إلى سورة البقرة: ٢٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٦

الأولى: أن لا تكون هناك تجارة يتمكن ما له من التقلب فيها.

الثانية: أن تكون تجارة غير مربحة إطلاقاً، أو مربحة بقدر أقل من التعب، أو بمقدار التعب.

الثالثة: أن يصرف المال فى الحوائج الضرورية، لا فى التجارة.

الرابعة: أن يصرف المال فى تجارة مربحة ربها أزيد من التعب، و الربا أخذ التاجر المال ممن أعطاه المال فى كل الصور الأربعة، مع أنه فى الثلاثة الأولى ظلم.

أما فى الصورة الأولى: فلوضوح أن قول المستشكل «إن أمر صاحب المال دائر بين أن يتاجر بماله فيربح، و بين أن يدفعه قرضاً فيربح» غير تام، إذ المفروض أنه لا يمكن الاتجار بالمال فى هذه الصورة.

و أما فى الصورة الثانية: فإن المال ربح بقدر التعب - على أحسن الفرضين - و الأحق بهذا الربح من تعب لا من لم يتعب.

و أما فى الصورة الثالثة: فإن أخذ التاجر الربح خلاف الإنسانية، لأنه استغلال لحاجة الإنسان فى تدميره، فالمفترض أخذ المال لأجل قوته، أو دواء مريضه، فهل يحق لصاحب المال أن يستغل هذه الحاجة فى إنماء ماله؟

و تبقى الصورة الرابعة فقط مما يحق لصاحب المال أن يأخذ بعض الربح «أخذاً لأجل وجود المخزون المالى الذى هو لأجل المجتمع أيضاً - كما تقدم -» و حل الإسلام له بالمضاربة التى هى أقرب إلى العدالة بالنسبة إلى التاجر و المضارب، أفضل من الربا الذى قد يكون الترحيح فيه لصاحب المال، و قد يكون الترحيح للعامل و كلاهما اعتباراً لا يقره العقل و المنطق.

و يرد على إشكال حرمة المكس، أن غاية ما يقال لتبرير المكس أمران:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٧

الأول: إنه إذا رفع المكس أضر ذلك بالاقتصاد، إذ الدولة تجنى من وراء المكس مقادير كبيرة من المال تساعد فى إدارة شؤون الدولة.

الثانى: إنه إذا رفع المكس لزم تحطم الاقتصاد الوطنى، لأن البضائع الأجنبية ترد فى البلاد بما يوجب تحطم الاقتصاد، و لا يخفى أن هذين الأمرين و إن تما فى الجملة، إلا أن الحرمة الذاتية للمكس لا ترتفع بهما، بل اللازم للدولة الإسلاميه أن تلاحظ الأهمية و تأخذ بالأهم فى البين، فكل من المكس و تحطم الاقتصاد «المذكور فى الأمرين» حرام، فإذا دار الأمر بين الحرامين يجب الأخذ بأقلهما حرمة من باب قاعدة الأهم و المهم.

و منه يعلم أن حرمة المكس ليست مطلقة حتى يستشكل على الإسلام بأنه حرم المكس، و أن الحرمة لا تلائم الدول الحديثة.

و يرد على إشكال الحريات الكثيرة، أن توهم أن الإسلام يعطى حريات تضر بالاجتماع باطل، وجه التوهم أن الإسلام يعطى حرية

البناء و حرية الحركة، و حرية السكنى، و حرية التجارة، إلى غير ذلك، و بذلك يختل النظام، فكل أحد بينى ما يضر الطريق، و كل أحد يترك بدون ملاحظة قوانين المرور، و لمليون مسلم مثلا، أن أتوا للسكنى فى بلد بحيث يضيق بهم هذا البلد، و للتاجر أن يصدر كل بضائعه بحيث يقع أهل البلد فى ضيق، إلى غير ذلك.

و الجواب: أن الإسلام إنما يعترف بالحرية المسؤولة «أى غير الضارة» لا الحرية غير المسؤولة، فليس لأحد أن يستفيد من الحرية الضارة بالآخرين، و يجب على كل مسلم احترام قوانين الدولة الإسلامية الموضوعه تحت نظر المجتهد الجامع للشرائط و إن أضرت القوانين بمصالحه الخاصة، فإذا رأت الدولة أن استيراد هذه البضاعة مثلا تضر بالاقتصاد الإسلامى فمنعت عن ذلك ليس لأحد أن يستورد هذه البضاعة، إلى غير ذلك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٨

لا يقال: فأى فرق بين مثل قوانين أمريكا، و بين قوانين الدولة الإسلامية، إذ كل منهما توضع حسب المصلحة؟

لأنه يقال: الفرق أن قوانين الدولة الإسلامية توضع فى الإطار الإسلامى، بخلاف قوانين مثل أمريكا، فالفرق بينهما كالفرق بين قوانين أمريكا، حيث توضع فى الإطار الرأسمالى و قوانين روسيا، حيث توضع فى الإطار الشيوعى، مع أن كلتا الدولتين تدعى أنها تلاحظ مصالح بلادها.

و يرد على إشكال الأحكام الخاصة بالمرأة أن المنطق و البرهان دلما على صحة تلك الأحكام الخاصة، بحيث إنها لو تساوت مع الرجل فى الأحكام كان خباله مثل تساويها معه فى خصوصيات الجسم، فكما أنه لو كان كل البشر رجلا كان ذلك من أبشع الفساد، كذلك لو كان كل البشر متساوين فى كل الحقوق و الواجبات كان ذلك من أبشع الفساد، و قد فصلنا بعض أسباب الاختلاف بينهما فى جملة من الأحكام فى كتاب «فى ظل الإسلام» «١» و فى «الفقه: الحكم فى الإسلام» «٢» و غيرهما.

و يرد على إشكال القصاص، أنه حكم إنسانى رادع كما تقدم، و الإنسانية و الردع لا توجدان فى الغرامة و السجن، مع أن الإسلام جعل اختيار العفو و أخذ الغرامة بيد المجنى عليه، رخص القصاص، بما إذا كان الجانى عامدا- كما هو واضح-

أليس من الحق أن جانيا عامدا إذا قطع يد إنسان كان جزاءه أن تقطع يده، فيما إذا أراد المجنى عليه ذلك؟ و إذا لم يكن هذا من الحق، لنا أن نسأل الفرق بين المال و النفس، فإذا أخذ السارق منك دينارا كان لك أن

(١) للمؤلف.

(٢) راجع موسوعة الفقه المجلد ٩٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٨٩

تأخذ منه دينارا، و إن قيل فلما ذا لا يقتص فى العرض؟ فإذا زنى زان بزوجة زيد كان لزيد أن يزنى بزوجة الزانى، قلنا الفرق واضح، إذ يكون ذلك اعتداء على برىء هو زوجة الجانى بخلاف القصاص، فإنه رد اعتداء على نفس المعتدى، هذا كله بالنسبة إلى الجهة الأولى.

أما الجهة الثانية فالقول بأن الإسلام ليس فيه اقتصاد و سياسة و أمن، كلام بلا دليل، فالاقتصاد الإسلامى ليس فيه مضار للاقتصاديات الثلاثة الرأسمالية و الشيوعية بفرعها الاشتراكية و الفوضوية «التي تدعى أن لكل نتاجه، و من كل عمله» بينما فيه الاقتصاد المعتدل الذى يعطى كل ذى حق حقه، كما أن السياسة فى الإسلام أفضل سياسة، حيث تجمع بين حكم الله سبحانه و الشورى فى انتخاب الحاكم، و الأمن موجود فى الإسلام لا للكبت بل لجمع المعلومات و إرصاد المخربين و إيقاف المفسدين عند حدهم، و قد ذكرنا طرفا من هذه المسائل الثلاثة «الاقتصاد و السياسة و الأمن» فى كتاب «الفقه: الحكم فى الإسلام» و لذا فلا نعيد التفاصيل.

و حيث أن القرآن مصدر لكل هذه الأحكام، حيث بين فيها الخطوط العريضة للحياة السعيدة، فالقرآن هو الكتاب الوحيد الصالح

لتطبيقه في العصر، و كل كتاب و قانون غير القرآن ليس له هذه الصلاحية، و الظاهر أن العالم أخذ أخذًا حثيثًا نحو السير إلى القرآن و أحكامه، لأنه الكتاب الوحيد الصالح للتطبيق بعد أن ظهر فشل ما عداه في تأمين الحياة السعيدة، فهو مثل الكهرباء بالنسبة إلى النفطيات، حيث إنها تعطى مكانها للكهرباء - تلقائيًا - طال الزمان أو قصر، و لذا قال سبحانه لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ «١».

(١) التوبة: ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٠

تطبيق الفكر و العمل على القرآن

يجب تطبيق الفكر و العمل على القرآن، و ذلك ببيان مقدمات:

الأولى: إن الله سبحانه خلق الكون الواسع بما فيه الدنيا و الآخرة و الحياة و غير الحياة على كيفية خاصة من الحقائق و الأبعاد و الحدود و المزايا و الخصوصيات و هذا واضح لا يحتاج إلى الدليل.

الثانية: إن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي بقي مما أنزله الله سبحانه في أيدي البشر، أما سائر الكتب المنزلة فقد حرفت و بدلت، كما قال سبحانه: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ «١» وَ فَسَّسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ «٢» بل قامت الضرورة منا على عدم تمامية الكتب الباقية، كالتوراه و الإنجيل، بالإضافة إلى فقدان بعض الكتب المنزلة من أساسها بحيث لم يبق منها عين و لا أثر، بالإضافة إلى أنه لم يعلم أن سائر الكتب المنزلة كانت لأجل الهداية الكاملة المستوعبة للفكر و العمل بصورة مطلقاً.

الثالثة: إن القرآن نزل بقصد توجيه الفكر و توجيه العمل، و المراد بالعمل أعمال الجوارح كلها بما فيها اللسان، و قد دلت الأحاديث المتواترة على أن الهداية خاصة بالقرآن - أن من طلب الهداية في غير القرآن أضله الله - أي كان ضالاً و النسبة إلى الله سبحانه باعتبار أن الآله منه سبحانه، و لذا نسب

(١) المائدة: ١٤.

(٢) المائدة: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩١

كل شيء إلى نفسه.

قال سبحانه: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ «١».

و قال: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ «٢».

و قال: أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ «٣».

و قال: كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ «٤».

و قال: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ «٥» على فرض أن يراد به كل عمل الإنسان حتى المعصية باعتبار أن الآله منه سبحانه - و إنما كان يضل من طلب الهداية في غير القرآن، لأنه لا هداية فيما عداه، مثل أن يكون الطريق إلى البلد الفلاني خاصاً بطريق واحد فيقال: أن من سلك غير هذا الطريق ضل، فإن وجهه أنه لا طريق غيره.

الرابعة: أن ظرفية البشر في عالم الدنيا ليست أكثر من القرآن، فإنه و إن احتمل أن يكون الكون - بمعناه العام - أكبر من المقدار المذكور في القرآن، إلا - أن المقدار الذي يستوعبه الإنسان من الكون - استيعاباً في فكره و في عمله - ليس أكثر مما أرشد إليه في القرآن، مثلاً إذا كانت صحراء بمقدار مائة فرسخ، لكن زياداً لا يتمكن من عمران أكثر من عشرين فرسخاً منها، كان مقتضى الحكمة

أن يكون المنهاج الذى يضعه مربى زيد بقدر تعمير عشرين فرسخا فقط، إذ الزائد لغو لا يصدر من الحكيم، و يؤيد أوسع الكون عن مقدار ظرفية الإنسان

قوله عليه السلام «ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر»
إلا أن يقال أن هذا لا يدل على أوسع الكون عن القرآن، لأن

(١) الأنفال: ١٨.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) الواقعة: ٦٥.

(٤) النساء: ٧٩.

(٥) الصافات: ٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٢

للقرآن بطونا، ولأنه لا تفنى غرائبه كما فى الحديث، فلعله سبحانه جعله يتدرج فى الظهور كما جعل حقائق كونه، فى الدنيا و فى الآخرة تتدرج فى الظهور.

و كيف كان فيدل على المقدمة الرابعة عدم وجود الهداية فى ما عدا القرآن كما نص بذلك متواتر الروايات، فلو كان البشر أوسع للزم وجود الهداية فى ما عدا القرآن الأزيد من القرآن لا بد و أن يكون له طريق مستقيم و طريق غير مستقيم، و معرفة البشر الطريق المستقيم فى المقدار الأزيد هداية، و المفروض أنه لا هداية فى ما سوى القرآن.

إذا تحققت هذه المقدمات الأربع قلنا: ثبت أن فكر البشر فى أحوال المبدأ و المعاد و المعاش بكل أصنافه من عبادة و معاملته بأقسام المعاملات، و أخلاق و غيرها لا يعدو القرآن كما ثبت أن أعماله بكل أنواعها لا تعدو القرآن، فاللازم تطبيق فكره و عمله فى إطار القرآن إذ القرآن مرماة للكون و البشر مأمور بفهم هذا الكون و العمل على طبق ذلك الفهم، فمثلا إذا فرضنا أن المريض كان مأمورا بشفاء نفسه و وصف المرض و وصف الدواء كان مكتوبا بكتاب، و قال الأمر: أفهم داء ك و دوائك و أعمل لشفائك، كان اللازم على المريض أن يفهم الكتاب و ألا يبقى مريضا.

و عليه فإذا أفرغ البشر فكره و عمله فى إطار القرآن هدى، و إلا ضل عن سواء السبيل، و للتوضيح نقول: حقيقة المبدأ و حقيقة المعاد و حقيقة المخلوقات، أى خلق السماوات و الأرض و الجبال و الرعد و البرق و الجنة و النار و الموت و الحياة و غيرها، شىء ثابت مسلّم سواء فهمها البشر أم لا.

كما أن سعادة البشر فى الصلاة و الصيام و الزكاة و البيع و النكاح و الحرية و الحدود و القصاص و غيرها، و الواقع فى باب الفهم و أسلوب العمل المسعد فى باب العمل فى القرآن الحكيم، فإن صب البشر فكره فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٣

قال فهم القرآن أدرك الحقائق و إن صب البشر عمله فى قالب العمل الذى أرشد إليه القرآن سعد، و إلا أخطأ فى فكره و شقى فى عمله مثلا قال القرآن:

الإله واحد، و قال: أقيموا الصلاة، فإن لم يصب البشر فكره و عمله فى هذين، لقال بأن الإله اثنان، و لم يصل، و الأول يوجب انحراف فهمه عن الواقع، و الثانى يوجب شقائه حتى فى الدنيا، لأنه كما قال سبحانه: **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** «١» و قال تعالى: **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** «٢».

ثم أن هنا ثلاثة أمور:

الأول: إن للقرآن ظهرا و بطناً، و لبطنه بطن و هكذا، و إذا لا- حظنا ذلك في التكوينات التي خلقها الله سبحانه ظهر نوع شبه لفهم المقصود بذلك، فمثلا التفاح له ظهر هو قشره، و بطن هو لبه، و لبطنه بطن هو نواته، و لنواته بطن هو مخه، و هكذا الإنسان له ظهر هو جلده المرئي منه، و له بطن هو لحمه، و لبطنه بطن هو القلب و الكبد و الكليئة، و كل بطن بمنزلة مخ النواة، و في القرآن مثلا- قال سبحانه: وَ تَرَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٣﴾ فظهره هؤلاء الثلاثة في قبال موسى عليه السلام، و بطنه أمثالهم في قبال محمد صلى الله عليه و آله و سلم ثم أمثالهم في قبال على عليه السلام و هكذا، و يؤيد هذا المعنى ما ورد من أن القرآن كالشمس تجرى كل يوم، فله انطباق في كل زمان على أفراد و أعمال و حالات.

ثم أن من الطبيعي أن يكون القرآن كذلك، لأنه كتاب اللفظ في قبال كتاب الكون، فاللازم انطباق هذا الكتاب على ذلك الكتاب، و إلا لم يكن كامل الانطباق.

(١) الرعد: ٢٩.

(٢) طه: ١٥.

(٣) القصص: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٤

الثاني: ورد بالنسبة إلى بعض أساميه سبحانه أنه لا- يعلم ظاهرها و لا باطنها و لا تفسيرها و لا تأويلها إلا الله سبحانه، كما في دعاء السمات، و قد يظهر من بعض الروايات أن القرآن كذلك كما ذكر في قصة بلوهر مع يوزاسف.

و هنا سؤالان:

السؤال الأول: أنه ما معنى ذلك؟

و الجواب: أن فهم كل ظواهر الأشياء و بواطنها كذلك، فإن البشر لا يعلم إلا بعض السطحيات، مثلا ما هي حقيقة اللحم و الدم؟ و ما هي حقيقة الماء و الكهرباء؟ و إلى غير ذلك، فإذا رأى الإنسان سيارة لا يعلم ما هي؟ فإنه لا يعلم هل هي حديد أو نحاس «ظاهرها» و لا يعلم ماذا في ماكتتها «باطنها» و لا يعلم ما نفعها «تفسيرها» و لا يعلم إلى أي شيء يكون أولها «تأويلها» و كذلك القرآن لا يعرف المراد الكامل من ظاهره و لا من باطنه، كما لا يعرف الفائدة الكاملة منه حالا و لا أول القرآن للمستمسك به و التارك له.

السؤال الثاني: إذا كان لا يعلم ظاهرها و لا باطنها و لا تفسيرها و لا تأويلها فما فائدة ذلك؟

و الجواب: الإشارة و التلميح و إن كانت الحقيقة مخفية، مثلا أنك إذا سمعت من إنسان ما لاقاه من الأحوال في حرب ضروس، و أراك بعض التصاوير التي التقطها من تلك الحرب، فإن الكلام و الصورة لا شك يلمحان إلى حقيقة، لكن هل تدرك بذلك هول تلك الحرب و انفعالات أولئك المحاربين؟ إن نسبة ما نفهم من القرآن إلى حقيقته، كنسبة الصور و الكلام إلى حقيقة تلك الحرب، و للحرب «ظاهر» هي المعركة و «باطن» هي الاستعمار الذي يريد التسلط مثلا، و «تفسير» هو ما تنتجه الحرب الآن من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٥

غلاء الأسعار و انسداد الطرق و «تأويل» هو ما يترتب من الأثر على هذه الحرب من سقوط امبراطورية و دخول امبراطورية أخرى إلى الحياة.

الثالث: قد ورد في باب القرآن أنه لا- تنقضى غرائبه و المراد بذلك، إما بعض حقائقه التي لا نعلم بها، أو أن الطريق الذي أرشد القرآن البشر إليه طريق لا تنقضى غرائبه، مثلا أرشد القرآن البشر إلى السير في الأرض و النظر و العبرة و هكذا يؤدي دائما إلى اطلاع البشر على معلومات جديدة غريبة و اكتشافات حديثة مدهشة، و الله سبحانه العالم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٦

فلسفة كاملة عن الحياة

حيث أن القرآن الحكيم فلسفة كاملة للحياة و لا فلسفة كاملة غيره، لا بد و أن يسيطر على الحياة، إن عاجلا أو آجلا، فإنه إنما يسيطر إذا عرف البشر هذين الأمرين:

إنه فلسفة كاملة و لا فلسفة كاملة غيره:

إذ البشر بحاجة إلى فلسفة كاملة ليسعد، و السعادة هي الغاية المتوخاة لكل بشر، و ليس وراءها مقصد، فإن الذاتى لا يعلل بغيره. أما أن القرآن فلسفة كاملة، فلأنه يعطى شؤون الروح، و يعطى متطلبات الجسد و يستند إلى ما لا يتغير، و هذه العناصر الثلاثة هي التى تشكل السعادة الكاملة لأن الإنسان روح و جسد، و لكل واحد منهما متطلبات، ثم إذا كان متطلباتهما غير مستندة إلى قوة أزلية لا تتغير، كانت محلًا للتغيير، مما يسلب الثقة، و سلب الثقة ينتهى إلى الشقاء، فهو مثل أن تراجع طبيبا لا تثق به أو تركب طائرة أو سفينة لا تثق بهما حيث أن فى الكل احتمال العطب الذى يوجب الشقاء النفسى و شقاء النفس كسعادتها، تسريان إلى الجسد للتفاعل بين الروح و الجسد، و لذا كان القلق يوجب قرحة المعدة، و أمراضا أخرى، و لذا كان أيضا المرض الجسدى يوجب اضطراب العقل، و منه قيل: «العقل السليم فى الجسم السليم».

و على هذا فإذا لم تكن المتطلبات مستندة إلى قوة أزلية توجب الثبات و الاستقرار، كان الإنسان يعيش فى ألم و عذاب، و حيث أن من طبيعته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٧

الإنسان الفرار من الألم كان لا بد له أن يتطلب فلسفة صحيحة ليدفع بها ألمه، و ينتهى به المطاف إلى فلسفة القرآن، التى هى الفلسفة الصحيحة للكون و الحياة، بكلا شقى الحياة: الروح و الجسد، بالإضافة إلى أنها مستندة إلى الله سبحانه، الذى لم يزل و لا يزال و لا تبدل قوانينه فلن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا (١).

إذا ثبت هذا قلنا: أمهات الفلسفات الموجودة فى عالم اليوم خمسة:

١- فلسفة الإسلام، ٢- فلسفة اليهود، ٣- فلسفة النصارى، ٤- فلسفة الرأسمالية، ٥- فلسفة الشيوعية، و ما عدا الإسلام من سائر الفلسفات ليست صالحة للحياة، فلا تبقى إلا فلسفة الإسلام، التى ينتهى البشر فى آخر المطاف إليها.

و لذا قال سبحانه: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (٢) فهو بالإضافة إلى كونه غيبيا، يؤيده المنطق و البرهان.

أما عدم تمكن الفلسفة اليهودية و النصرانية من الصمود أمام الحياة، فلوضوح أنهما مشوبتان بأبشع أنواع الخرافة، و العقل إن سبت ساعة لا- يسبت إلى قيام الساعة، و لذا بمجرد أن ترجم كتابيهما بعض المترجمين، و عرف الغرب و الشرق ما يحتويان من الخرافة لفظوهما، بالإضافة إلى أنهما كانا مصادر لمحاكم التفتيش و ما أشبهها، مما اصطدم بالعلم حين نهوض العلم، فانسجبا عن الميدان بعد مجازر بشرية رهيبه- هذا أولا- بالإضافة إلى أن اليهودية و النصرانية لا تشتملان على قوانين الإنسان فى معاملاته و أحواله الشخصية و سائر شؤونه، بل منطقتهما: «دعوا ما لقيصر لقيصر، و ما

(١) فاطر: ٤٤.

(٢) التوبة: ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٨

لله لله الذى يعيش تحت مظلتها، لا بد له من وضع قوانين لحياته، و حيث أنها ليست مستندة إلى قوة أزلية لا تصلح للإسعاد «كما تقدم بيان ذلك»، و هذا ثانيا.

وقد ظهرت آثار انهزام اليهودية و النصرانية في هذا القرن بما لا يرجى في بقائهما و إن حققتا بآثار الحضارة الحديثة، فالخشبة اليابسة لا تحيي، و إن سقيت بألف كر من الماء.

و أما عدم تمكن فلسفة الشيعوية و الرأسالية من الصمود أمام الحياة، فلأنهما أولا: ناقصتان من حيث عدم وفائهما بجانب الروح، و إنما تتعرضان لجانب الجسد فقط، و لذا كان الغرب القائل بالروح اضطر إلى التشبث باليهودية و المسيحية لأجل إملاء الروح، و لكنهما لم ينفعا أيضا، لخواء ما فيهما من الروحيات، و أسوأ الاثنتين هي الشيعوية التي لا تعترف بالروح أصلا.

و ثانيا: لا يستمدان قوانينهما الجسدية من قوة أزيه، و قد عرفت أن القانون المستمد من الإنسان و نحو الإنسان، مترجج، و لا ينفع استقرار الإنسان و ثقته.

أما أمثال القومية، و البعثية، و الوجودية، و الديمقراطية و الاشتراكية، و نحوها، فهي ليست فلسفات أصلا، و إنما هي فكر منحرفة لبقعة صغيرة من بقع الحياة، فالقومية معناها جمع القوم، و البعثية معناها بعث القوم، و الوجودية إفراط في الفردية مقابل إفراط الماركسية في الدولة، و الديمقراطية حكم الشعب، و الاشتراكية توزيع قسم من الثروة، و من الواضح أن أيا منها ليست فلسفة للحياة، هذا مع الغض مما سبب جملة منها من المآسى للإنسان، إذا .. لم يبق في الميدان إلا القرآن، ففي أي وقت اجتهد حملته في إيصاله إلى العالم، استقبله العالم بكل ترحاب، كما استقبله العالم بكل حفاوة إبان ظهوره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٩٩

١ سورة الفاتحة مكية - مدنية / آياتها (٧)

سميت السورة باسم «الفاتحة» لافتتاح المصاحف بكتابتها و لقراءتها في الصلاة فهي فاتحة لما يتلوها من السور و تسمى ب «الحمد» و من أسمائها «سبع المثاني» و «الواقية» و «الكافية» و ذكروا لها أسماء أخرى و هي مكية و قيل إنها مدنية و لعلها نزلت مرة في مكة و مرة في المدينة.

[سورة الفاتحة (١): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أى أستعين بالله، و إنما لم يقل «بالله» تعظيما، فكأن الاستعانة بالاسم، و الله علم له سبحانه، و الرحمن الرحيم صفتان تدلان على كونه تعالى عين الرحمة، فلا يرهب جانبه، كما يرهب جانب الطغاة و السفاكين، و تكرير الصفة للتأكيد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ١٤٩

[سورة الفاتحة (١): الآيات ٢ الى ٦]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

[٢] الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فإنه هو الذى يستحق الحمد، لأن كل جميل منه، و كل خير من عنده، و هو رب العالمين، الذى أوجدهم و رباهم.

و التربية تطلق على الإنشاء و الاستمرار، و العالمين إشارة إلى عوالم الكون، من جن و ملك، و إنسان و حيوان، و نبات و جماد، و روح و جسد، و غيرها.

[٣] الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تكرار للتأكيد، لإفادة أن الرب ليس طاغيا، كما هو الشأن فى غالب الأرباب البشرية.

[٤] مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ هو الجزاء، فيوم الدين: «القيامة»، و الله مالك ذلك اليوم، لا يشرك فيه أحد (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ

ارْتَضَى) (١).

[٥] إِيَّاكَ نَعْبُدُ أَي عبادتنا و خضوعنا لك، و قدم «إياك» لإفادة الحصر.

وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ أَي نطلب الإعانة، فإنه هو الذى بيده كل شىء، فالاستعانة منه، و الإتيان بالتكلم مع الغير، لإفادة كون المسلمين كلهم منخرطين فى هذين السلكين: سلك العبادة لله، و سلك الاستعانة به.

[٦] اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ غير المنحرف، و الهداية هو إرشاد الطريق،

(١) الأنبياء: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠١

[سورة الفاتحة (١): آية ٧]

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

فإن الإنسان فى كل آن يحتاج إلى من يرشده و يهديه، و إن كان مهديا، و حيث لم يذكر متعلق الصراط المستقيم، دلّ على العموم، فالمسلم يطلب منه سبحانه أن يهديه الصراط المستقيم، فى العقيدة، و العمل، و القول، و الرأى، و غيرها.

[٧] صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ إنه تفسير ل: «الصراط المستقيم» أى إن الصراط المستقيم هو صراط الذين أنعمت عليهم، بهدائيتهم من النبيين و الأئمة عليهم السلام و الصالحين غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ فإن من أنعم الله عليه بالهداية، لا يكون مغضوبا عليه و لَا الضَّالِّينَ أى الضال المنحرف عن الطريق، و الضال يمكن أن يكون مغضوبا عليه إذا كان عن تقصير، و يمكن أن يكون غير مغضوب عليه إذا كان عن قصور، و المسلم يطلب من الله تعالى أن لا يكون من هؤلاء و لا هؤلاء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٢

٢ سورة البقرة مدنية / آياتها (٢٨٧)

[سورة البقرة (٢): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١)

سميت السورة باسم «البقرة» لاشتمالها على قصة البقرة و هى مدنية.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتدأت السورة باسم الله تعالى، لتكرر الاستعانة به، و ليتعلم المسلم كى يبتدى جميع أعماله بهذا الاسم المبارك، و ليركز هذا الاسم الكريم فى الأذهان، فإن للتكرار أثرا بالغا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢ الى ٤]

ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

[٢] الم أى من جنس هذه الحروف المقطعة: «أ»، «ل»، «م».

[٣] ذٰلِكَ الْكِتَابُ و الإشارة بالبعيد، للإشارة إلى كون القرآن سامى المقام، عالى المنزلة لا رَيْبَ فِيهِ أى ليس محلا للريب، و إن ارتاب فيه الكفار، كما أن النهار لا ريب فيه، و إن ارتاب فيه السوفسطائيون، و «لا رَيْبَ فِيهِ» صفة للكتاب هدى للمُتَّقِينَ صفة بعد صفة، أى أن هذا القرآن هداية لمن اتقى، و خاف من التردى، فإنه هو الذى يهتدى بالقرآن، و إن كان القرآن صالحا، لأن يهدى الكل.

[٤] الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ صَفَهُ لِمُتَّقِينَ، و المراد بالإيمان الاعتقاد به، و الغيب هو الذي غاب عن الحواس الظاهرة، أى ما وراء الطبيعة، فالروح غيب، و أحوال القبر غيب، و الله سبحانه غيب، و هكذا وَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ إِقَامَةً الصَّلَاةِ، الإتيان بها دائما على الوجه المأمور بها، و لذا تدل على معنى أرفع، من معنى «صل» وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَ الرزق أعم من المأكل، و الملبوس، و المسكون، و العلم و الصحة، و غيرها، و إنفاق كل شيء بحسبه.

[٥] وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ وَ الْقُرْآنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥ الى ٦]

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ فَإِنْ مِنْ شَرَايِطِ الْإِيمَانِ، الإيثار بكل الأنبياء عليهم السلام (لا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) «١» وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ وَ اليقين بالآخرة هو الاعتقاد بها، و العمل بمقتضاها، و بعض هذه الأمور، و إن كانت داخله فى «الإيمان بالغيب»، لكنها ذكرت لزيادة الاهتمام بها، و ذكر الخاص بعد العام.

[٦] أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ أَى عَلَى بصيرة، و هذه البصيرة أتت إليهم من ناحية الله سبحانه وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الناجحون، فهم فى الدنيا على بصيرة، و فى الآخرة فى زمرة الناجين، ثم أن القرآن لما ذكر المؤمنين، ثنأهم بذكر الكافرين، ثم ثلثهم بذكر المنافقين، فإن كل دعوة، لا بد و أن ينقسم الناس أمامها إلى ثلاثة أقسام: مؤمن بها و كافر بها، و مذذب بين ذلك يجامل الطرفين.

[٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ الْكُفْرُ هُوَ السُّتْرُ، كأن الكافر يستر الحقيقة، و لا يبديها سِوَاءَ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَ المراد ب «الذين كفروا» هنا هم المعاندون منهم، لأنهم المصدق الأجلى للكافر، و إلا فالذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم من الناس كانوا كفارا ثم

(١) البقرة: ٢٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٥

[سورة البقرة (٢): آية ٧]

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

آمنوا، و من المعلوم أن المعاند يتساوى فى حقه الإنذار و عدمه، نعم يجب إنذاره إتماما للحجة، و هذا تسلية للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات.

[٨] خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ طبعها بالكفر، أى جعلها بحيث يصعب إيمانها، لأنها اعتادت الكفر، و عدم الاستماع إلى الحق، و إنما ختم الله، لأنها لم تقبل الهداية، كمن يطرد ولده عن داره بعد ما أرشده مرات، فلم يفد فيه النصح، كما قال تعالى طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ «١» أى بسبب كفرهم، و إنما فسرنا «الختم» ب «يصعب» لبداهة أن الإنسان و لو كان معاندا، لا يخرج عن قابلية القبول و الاهتداء وَ عَلَى سَمْعِهِمْ بمعنى إنهم لا- يستفيدون من السمع، كالأصم، لأن فى سمعهم خلل وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً تشبيه للغشاوة المعنوية بالغشاوة الظاهرية، فكما أن من على بصره غشاوة، لا يرى المحسوسات، كذلك من يعاند يكون على بصره مثل الغشاوة، و هو تنزيل لفاقد الوصف منزلة فاقد الأصل، كما تقول لمن لا ينتفع بالعلم، هو جدار وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فى الدنيا و الآخرة، فإن من ينحرف عن قوانين الله تعالى، يكون له مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى «٢».

(١) النساء: ١٥٦.

(٢) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨ الى ١٠]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

[٩] وَمِنَ النَّاسِ الْمَنَافِقُونَ، وَ هُم الْقِسْم الثَّالِث، فَهُوَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ قَوْلًا بِاللَّفْظِ فَقَطْ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ حَقِيقَةً، فَلَا يَعْمَلُونَ أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ إِنْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ أَيْضًا مُتَقِينَةً بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ.

[١٠] يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَي يَفْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَلَّ الْمَخَادِعَ، الَّذِي يَرِيدُ الْخَدِيعَةَ، فَيُظْهِرُ مَا لَا يَرِيدُهُ، وَ يَرِيدُ مَا لَا يَظْهَرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَيُرُونَهُمْ خِلَافَ مَا يَضْمُرُونَهُ، لَكِنْ عَمَلُهُمْ هَذَا لَيْسَ خَدَعَةً حَقِيقَةً لِلَّهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمَا يَعْلَمَانِ نَوَايَاهُمَا، فَلَا يَتَخَدَعَانِ بِهِمْ، بَلْ وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ إِذْ يَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا، وَ لَا يَشْتَرِكُونَ مَعَهُمْ فِي أَسْرَارِهِمْ، كَمَا لَا يَشْتَرِكُونَ مَعَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ، فَهُمْ مَخْدُوعُونَ مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهُمْ خَادِعِينَ وَ مَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ خَدَعُوا أَنفُسَهُمْ، لِأَنَّهُمْ خَدَعُوا اللَّهَ وَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ لَوْ شَعَرُوا بِأَنَّهُمْ يَخْدَعُونَ أَنفُسَهُمْ، لَمْ يَقْدَمُوا عَلَى مَا ظَنُّوا خَدَعَهُ لغيرهم، وَ الْحَالُ أَنَّهَا خَدَعَهُ لَهُمْ حَقِيقَةً وَ وَاقِعًا.

[١١] فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَإِنْ قَلْبُ الْمَنَافِقِ مَلْتَوُ، وَ نَفْسُهُ مَعُوجَةٌ، لَا تَرِيدُ الْإِسْتِقَامَةَ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا إِذْ نَزَلَتْ آيَاتُ، وَ نَصَبَ الرَّسُولَ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١ الى ١٣]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

أَوْجِبُ أَنْ يَزِيدُوا فِي التَّوَانِهِمْ، لِثَلَا- يَسْلُطُ النُّورُ عَلَيْهِمْ، فَيَعْرِفُوا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَي مُؤَلِّمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ أَي بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ، بِمُخَالَفَةِ ظَاهِرِهِمْ لِباطنِهِمْ، فَإِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْكُذْبِ، وَ إِنْ كَانَ كَلَامُهُمْ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، لَكِنَّهُمْ حَيْثُ أَخْبَرُوا عَنْ إِيْمَانِهِمْ- وَ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ- كَانَ ذَلِكَ كَذِبًا.

[١٢] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَي لِلْمَنَافِقِينَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّ النِّفَاقَ يَلْزِمُ الْإِفْسَادَ، إِذْ يَعْمَلُ الْمَنَافِقُ ضِدَّ الدَّعْوَةِ، وَ يُؤَلِّبُ عَلَيْهَا، وَ هُوَ إِفْسَادٌ حِينَمَا تَرِيدُ الدَّعْوَةَ الْإِصْلَاحَ وَ التَّقَدُّمَ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ فَإِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِفْسَادًا، وَ أَنَّهُمْ بِوَقُوفِهِمْ ضِدَّهَا يَصْلِحُونَ فِي الْأَرْضِ.

[١٣] أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ لِأَنَّهُمْ بِوَقُوفِهِمْ النِّفَاقِي ضِدَّ الْإِسْلَامِ، يَكُونُونَ مُفْسِدِينَ إِفْسَادًا بِالْغَا أَكْثَرَ مِنْ إِفْسَادِ الْكُفَّارِ، وَ لَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى هُمُ الْعَدُوُّ (١) عَلَى نَحْوِ الْحَصْرِ وَ لَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ، بَلْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صِنْعًا.

[١٤] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَي لِلْمَنَافِقِينَ، وَ الْقَائِلُ هُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) المنافقون: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤ الى ١٥]

وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

الَّذِينَ لَا- يَخَافُونَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ إِيْمَانًا لَا يَشُوبُهُ نِفَاقٌ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ يَعْنُونَ بِالسُّفَهَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَقِيقِينَ أَلَا

إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ وَ أَيْهَ سَفَاهَهُ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِ الْإِنْسَانِ حَائِدٍ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ مَعَ كَوْنِهِ مُتَّصِفًا بِصِفَةِ النِّفَاقِ الرَّذِيلَةِ وَ لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ، لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ طَرِيقَتَهُمُ النِّفَاقِيَّةَ، أَصْلَحَ الطَّرِيقَ.

[١٥] وَ إِذَا لَقُوا مِنْ «لَقِيَ» أَيْ التَّقَى الْمُنَافِقُونَ بِ الدِّينِ آمَنُوا قَالُوا لَهُمْ آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ أَيْ أَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا لَهُمْ إِنَّا مَعَكُمْ يَرِيدُونَ بِذَلِكَ إِرْضَاءَ الْجَانِبِينَ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي إِظْهَارِ الْإِيمَانِ لَهُمْ، وَ هَذَا هُوَ دَلِيلُ نِفَاقِهِمْ، وَ إِذَا لَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، بَأَنَّ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ تَقِيَّةً لَمْ يَزِيدُوا عَلَى إِظْهَارِهِ.

[١٦] اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ أَيْ يَفْعَلُ لَهُمْ فَعْلَ الْمُسْتَهْزِئِ، فَيَجْرَى عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا أَحْكَامُ الْإِيمَانِ، وَ فِي الْآخِرَةِ يُجَازِيهِمْ بِجَزَاءِ الْكُفْرَانِ، وَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ إِنَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّارِ وَ يَمُدُّهُمْ إِمدَادَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى، بِعَدَمِ الضَّرْبِ عَلَى أَيْدِيهِمْ كَمَا يَقَالُ: الْمَلِكُ يَمُدُّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٠٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦ إلى ١٧]

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)

قَطَّاعِ الطَّرِيقِ حَيْثُ لَا- يَسْتَأْصِلُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ الطُّغْيَانَ تَجَاوَزَ الْحَدَّ، وَ الْعَمَةُ التَّحِيرُ، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ، كَالشَّخْصِ الْمَتَحِيرِ، وَ إِنَّمَا يَمُدُّهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ اخْتِبَارٍ وَ امْتِحَانٍ، فَلَا جَبْرَ وَ لَا إِجْرَاءَ.

[١٧] أُولَئِكَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَكَانَهُمْ أُعْطُوا الْهُدَايَةَ، وَ أَخَذُوا مَكَانَهَا الضَّلَالََةَ، أَوْ كَانَهُمْ أُعْطُوا أَنْفُسَهُمْ بَدَلَ الضَّلَالََةِ، بَيْنَمَا كَانَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعْطُوا أَنْفُسَهُمْ بَدَلَ الْهُدَايَةَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَنْفَاسَ عَمْرُكَ أَثْمَانَ الْجَنَانِ فَلَا تَشْرِي بِهَا لَهَا فِي الْحَشْرِ تَشْتَلِ

فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ الْمَعْنَوِيَّةَ، بَلْ خَسِرُوا رَأْسَ الْمَالِ الَّذِي هُوَ أَنْفُسُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ وَ الْاِشْتِرَاءِ.

[١٨] مَثَلُهُمْ أَيْ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا اسْتَوْفَدَ بِمَعْنَى أَوْقَدَ، أَوْ بِمَعْنَى طَلَبَ الْوَقُودَ الَّذِي هُوَ الْحَطْبُ وَ نَحْوُهُ، وَ الْمَعْنَى أَشْعَلَ نَارًا لِيَسْتَضِيَءَ وَ يَدْفَأَ بِهَا فَلَمَّا أَضَاءَتْ النَّارُ مَا حَوْلَهُ وَ انْتَفَعَ بِهَا ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ بَأَنَّ أَرْسَلَ رِيحًا فَاطْفَأَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٠

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨ إلى ١٩]

صُمِّمْتُكُمْ عُمَى فَهَمُّ لَمْ يَزَجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعِيدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)

وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ مَا حَوْلَهُمْ وَ إِنَّمَا كَانَ هَذَا مِثْلًا لَهُمْ، لِأَنَّ الْمُنَافِقَ بِإِيمَانِهِ الظَّاهِرِيِّ، يَعْبُدُ لِنَفْسِهِ سَبِيلَ الْحَيَاةِ، وَ يَنُورُ فِي طَرِيقِهِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ نُورًا، وَ سَبَبَ لِهَدَايَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْحَقِّ وَ الْعَدْلِ وَ الْخَيْرِ، فَإِذَا قَبِضَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ تَرَكَهُمْ، كَسَائِرِ الْكُفْرَانِ فِي نَارٍ وَ عَذَابٍ، حِينَ يَقْبِضُ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى نُورٍ أَوْسَعٍ وَ رَحْمَةٍ أَكْبَرَ، فَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ:

[١٩] صُمِّمْتُكُمْ أَعْمَى، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِالْحَقِّ، فَهَمُّ وَ الْأَصْمُ سِوَا بُكْمٍ جَمْعُ أَبْكُمْ، وَ هُوَ الْأَخْرَسُ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ الْحَقَّ فَهَمُّ وَ الْأَبْكُمْ سِوَا عُمَى جَمْعُ أَعْمَى، لِأَنَّهُمْ لَا يَبْصُرُونَ الْحَقَّ، فَهَمُّ وَ الْأَعْمَى سِوَا فَهَمِّ لَا يَزَجِعُونَ عَنْ غِيهِمْ وَ ضَلَالَتِهِمْ، وَ «ف»، لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُمْ حَيْثُ صَمُّوا وَ أَبْكُمْوا وَ عَمَلُوا لَمْ يَرْجِ فِيهِمْ الْخَيْرُ، فَإِنَّهُ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ «١».

[٢٠] أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ مِثَالِ آخِرِ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَثَالَيْنِ، إِنَّ الْمَثَالَ الْأَوَّلَ، كَانَ مِثَالًا لِلْمُنَافِقِ نَفْسِهِ، وَ هَذَا الْمَثَالُ مِثَالُ الْحَقِّ الَّذِي يَغْمُرُ الْمُنَافِقَ، لَكِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَ الصَّيْبُ هُوَ الْمَطَرُ، فَالْحَقُّ الَّذِي يَغْمُرُ هَؤُلَاءِ كَمَطَرٍ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ظِلْمَةُ السَّحَابِ وَ ظِلْمَةُ الْمَطَرِ، لِأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَ بَيْنَ الْأَرْضِ، وَ ظِلْمَةُ

(١) الأنبياء: ٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١١

[سورة البقرة (٢): آية ٢٠]

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

سحاب فوق سحاب وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ من الأمور المخوفة يَجْعَلُونَ أى من ابتلى بهذا الصيب أصابِعُهُمْ فى آذَانِهِمْ مِنْ خَشْيَةِ الصَّوَاعِقِ فَإِن الصاعقة إذا نزلت، قرعت الأسماع بصوتها الشديد حَذَرَ الْمَوْتِ فَإِن الصوت الشديد يوجب انخلاع القلب، فيموت الشخص، لكن هؤلاء المنافقين الذين هم كفار فى الباطن لا- يظنون أنهم يتمكنون الفرار من بأس الله تعالى وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ إحاطة علم و قدرة.

[٢١] يَكَادُ الْبَرْقُ اللَّامِعُ فى السحاب يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ أى أبصار من ابتلى بالصيب، و خطف البصر كناية عن عماه كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ بَأَن أ برق، و رأوا طريقهم مَشَوْا فِيهِ أى فى البرق- بمعنى استفادتهم من نوره فيمشون وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ بَأَن لم يبرق قاموا فى أماكنهم- أى وقفوا- وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ بسبب صاعقة قوية فتصمهم وَ أَبْصَارِهِمْ بسبب برق قوى، إذ النور إذا قوى أوجب ذهاب البصر إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يمنعه أن يحتمى الإنسان بإصبعه، أو بغمض بصره عن أن يذهب بسمعه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٢

[سورة البقرة (٢): آية ٢١]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)

أو بصره، و هذا توضيح المثال بتطبيقه على المورد أن «الصيب» هو الحق النازل على الرسول صلى الله عليه وآله و سلم و «البرق» هو تقدم المسلمين، و ما يسبب لهم إنارة الطريق، و «الرعد و الصاعقة» إيعادات الرسل، و الأحوال المكتنفة بالدعوة، و المنافقون كمن ابتلى بهذا الصيب فى الصحراء، فالحق كالمطر فى الحياة، لكن فيه ظلمات غلبه الكفار، و ذهاب الأنفس و الأموال و الثمرات، و فيه برق ينير طريق الحياة السعيدة، و فيه رعد و صاعقة مواعيد الرسول، و فضيحة المنافقين، و هؤلاء المنافقون تكاد سرعة تقدم المسلمين، تعميهم، فإن العين إذا نظرت إلى ما لا يسرها اضطربت و دمعت، كلما أضاء لهم، بأن غلبوا فى الحرب، و حصلوا على الغنائم، اتبعوا الرسول، و إذا أظلم عليهم، بأن غلب عليهم الكفار، وقفوا و قاموا فى مكانهم، لا يعلمون و لا يتقدمون و هم يخافون من الفضيحة، إن نزلت آية فى شأن المنافقين، فيجعلون أصابعهم فى آذانهم، حتى لا يسمعونها، أو يتغافلون عنها، كى لا يرى أثر الانهزام فى وجوههم، فإن الإنسان المجرم إذا سمع ما يمس إجرامه ظهرت الصفرة و آثار الانهزام على وجهه، لكن الله قادر على إماتتهم، كما هو قادر على فضحهم و الذهاب بسمعهم و بصرهم، فليسوا هم فى راحة من نفاقهم- كما زعموا- بل هم فى أشد ابتلاء و محنة.

[٢٢] يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ كَانَ السَّبَبُ فى الخلق لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أى خلقكم للتعوى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢ إلى ٢٣]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَ إِنَّ كُنْتُمْ فى رَبِّ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) و العبادة، كما قال تعالى وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «١».

[٢٣] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا كالفراش الذى يكون راحة للبدن و زينته و جمالا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً أى مبنيا، و هذا يلائم كون السماء

طبقة تحطم القذائف إلى الأرض، فإن البناء ليس المراد منه أن يكون المبنى من جسم كثيف وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً وَ الْمَراد من السماء هنا جهة العلو، أو المراد من تلك الناحية فَأَخْرَجَ بِهِ أَى بسبب الماء مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فإذا كان الخلق و سائر النعم من الله سبحانه فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا شُرَكَاءَ مِنَ الْأَصْنَامِ أو غيرها وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهَا باطلة، و أنه ليس لله شريك.

[٢٤] وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ بن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، وَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَأْتُوا بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مِثْلِهِ أَى من مثل هذا المنزل، وَ لو كان قصر سورة نَحْوُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ «٢» أَوْ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ «٣» وَ أَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ

(١) الذاريات: ٥٧.

(٢) الإخلاص: ٢.

(٣) الكوثر: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤ إلى ٢٥]

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُنْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

معكم، أن محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ليس بنبي من دُونِ اللهِ أَى كائن ما كان غير الله سبحانه، كما يقال ما دون الله مخلوق إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي رَيْبِكُمْ وَ زَعْمِكُمْ، أن محمدا ليس بنبي، و أن القرآن ليس منزلا من عند الله تعالى، إذ لو لم يكن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ نبيا، لكان إنسانا عاديا، فيمكن الإتيان بمثل كلامه.

[٢٥] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ وَ لَنْ تَفْعَلُوا هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا، إذ القرآن معجز، فلا يمكن الإتيان بمثله فَاتَّقُوا عَاقِبَةَ تَكْذِيبِكُمْ، لرسول الله، و لكتاب الله، التي هي النَّارُ الَّتِي وَقُودُهَا أَى حطبها، و ما يسبب إيقادها النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ جمع حجر و لعل المراد بها أصنامهم، كما قال تعالى إِنْ كُنْتُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ «١» و تخصيص الحجارة بالذكر للتحويل، إذ الحجارة لا تفنى، فتكون النار دائمة أُعِدَّتْ هَذِهِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ هَذِهِ عَاقِبَةُ مَنْ يَكْذِبُ.

[٢٦] وَ بَشِّرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَ أَسْتَنَتَهُمْ

(١) الأنبياء: ٩٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٥

وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجِوَارِحِهِمْ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الْجَنَّةُ بِاعتبار كونها بستانا ذات أشجار و نخيل، تكون أرضها «من تحتها» فالأنهار جارية من تحت الجنة على أرضها كُلَّمَا رُزِقُوا أَى رزق المؤمنون مِنْهَا أَى من الجنات مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا بَأَن أَتَى لَهُمْ بِفَاكِهِةً وَ ثَمَرَةً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فَإِنَّهُمْ يَأْلَفُونَ تِلْكَ الثَّمَارَ لَمَّا رَأَوْا مِنْهَا فِي الدُّنْيَا، و ليسوا كأصحاب الجحيم الذين لا يألفون طعامهم الذي من ضريع، و لا شرابهم الذي من حميم وَ أُنْتُوا بِهِ أَى بذلك الرزق مُتَشَابِهًا يشبه بعضه بعضا في الجودة و الجدة، لا- كأثمار الدنيا، بعضها ناضج، و بعضها غير ناضج، و بعضها جيد، و بعضها رديء وَ لَهُمْ فِيهَا أَى فِي الْجَنَاتِ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ مِنْ الْقَذَارَاتِ الْخَلْقِيَّةِ، كالأوساخ و الدماء، و القذارات الخلقية، كالسب و الشتم و الحسد، و نحوها وَ هُمْ فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ خَالِدُونَ أَبَدًا لا- يموتون، و لا- يتحولون عنها، و حيث قسم الله الناس إلى أقسام ثلاثه، مؤمن و منافق و كافر، و مثل للمنافق، ثم أمر

الناس عامة بالعبادة، ودعاهم إلى حضيرة الإيمان، و ذكر لهم فوائده، واحتج على من أنكر الرسالة، أجاب عن سؤال سأل الكفار و من إليهم تعنتا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٦

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

و هو: أن الله لما ذا يضرب المثل، كما مثل للمنافق هنا، و مثل في سور أخرى بالعنكبوت و نحوها؟ فإن المثل أوقع في النفوس، و موجب لتقريب المطلب إلى الأذهان.

[٢٧] إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْقَبِيحَةِ، أَوْ نَحْوَهَا، وَ لَيْسَ فِي تَمَثِيلِ اللَّهِ الْكَبِيرِ بِالْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ الْحَقِيرَةِ، فِي النَّظَرِ حَيَاءً، أَيْ مِثْلَ كَانَ، وَ هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ «مَا» أَيْ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ، بَعُوضَةً وَ هِيَ الْبَقَّةُ فَمَا فَوْقَهَا وَ لَعَلَّ ذِكْرَ الْبَعُوضَةِ هُنَا لِأَنَّهَا أَصْغَرُ حَيَوَانَاتٍ مَعْرُوفَةٍ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَيْ الْمَثَلُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَتَى بِهِ لِعَرَضِ التَّوْضِيحِ وَ التَّبْيِينِ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَعْتَرِضِينَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا وَ مِثْلًا- تَمَيِّزٌ فِي مَعْنَى «بِهَذَا الْمَثَلِ» وَ لِمَاذَا يَأْتِي اللَّهُ بِهَذَا الْمَثَلِ- غَيْرِ الْمُنَاسِبِ لِجَلَالِ اللَّهِ- فَيُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ يُوْجِبُ انْقِسَامَ النَّاسِ، وَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ «يُضِلُّ...» جَوَابًا عَنِ اعْتِرَاضِهِمْ، أَيْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَثَلِ الْإِضْلالَ وَ الْهَدَايَةَ، لَكِنَّهُ يَنَافِي السِّيَاقَ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالْمَثَلِ لَيْسَ ذَلِكَ، وَ إِنَّمَا التَّوْضِيحُ وَ التَّقْرِيبُ وَ مَا يُضِلُّ بِهِ أَيْ بِالْمَثَلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧ إلى ٢٨]

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)

إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ فَسَقُوا أَيْ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ وَ مَقْتَضَى عَقُولِهِمْ، ثُمَّ بَيْنَ الْفَاسِقِينَ بِإِبْرَازِ سَمَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ:

[٢٨] الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ الْمِيثَاقَ مَا وَقَعَ التَّوْثِيقُ بِهِ، وَ مِيثَاقُ اللَّهِ هُوَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ مِنَ الْإِيمَانِ، أَوْ هُوَ مَا أَوْدَعَ فِيهِمْ مِنَ الْفِطْرَةِ بِعِرْفَانِ الْحَقِّ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنْ صَلَّةِ الْأَرْحَامِ، أَوْ صَلَّةِ الرَّسُولِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْكَفْرِ وَ النِّفَاقِ وَ إِيْتَانِ الْمَحْرَمَاتِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَعْمَارَهُمْ، فَذَهَبَتْ دُنْيَاهُمْ ضَنْكًا وَ آخِرَتُهُمْ عَذَابًا وَ نَارًا.

[٢٩] ثُمَّ عَادَ سَبْحَانَهُ إِلَى حَالِ الْكَافِرِ، وَ وَجْهَ الْخُطَابِ إِلَيْهِ مُسْتَدَلًا عَلَى بَطْلَانِ كُفْرِهِ بِقَوْلِهِ: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا لَا رُوحَ فِيكُمْ، فَإِنَّ أَسْلَ الْإِنْسَانَ التُّرَابَ، ثُمَّ يَكُونُ نَبَاتًا، ثُمَّ يَكُونُ حَيَوَانًا وَ مَا أَشْبَهَهُ، فَيَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ، فَيَتَوْلَدُ مِنْهُ الْمَنِيُّ، ثُمَّ يَصِيرُ إِنْسَانًا، ثُمَّ يَمُوتُ وَ يَرْجِعُ تُّرَابًا، ثُمَّ يَعَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْسَانًا فَأَحْيَاكُمْ نَبَاتًا أَوْ حَيَوَانًا أَوْ إِنْسَانًا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ وَ قَتَ مَوْتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ بَعْدَ الْحَيَاةِ الثَّانِيَةِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ لِتَسَاقُونَ إِلَى الْمَحَاكِمَةِ الْكُبْرَى، وَ كُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

الرجوع إليه، مع إن الإنسان في جميع الأحوال، بدءاً و ختاماً، تحت سلطة الله و قدرته و علمه، باعتبار محاسبته تعالى للإنسان.

[٣٠] هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ لِمَنْفَعَتِكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَمَنْ خَلَقَهَا غَيْرَهُ، وَ كَوْنَ الْخَلْقِ لِلْإِنْسَانِ، لَا يَدُلُّ عَلَى تَحْلِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، فَالْأَسْمَاكُ الْمَحْرَمَةُ، وَ الْحَيَوَانَاتُ الْمَفْتَرَسَةُ لِمَتَمَعِ السَّمْعِ وَ الْبَصَرِ، لَا لِلْأَكْلِ وَ نَحْوِهِ وَ هَكَذَا تَمَّ اسْتَوَى أَى تَوَجَّهَ بِالْخَلْقِ وَ الْأَمْرِ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبَّحَ سَمَاوَاتٍ مَدَارَاتٍ لِلنَّجُومِ السَّيَّارَةِ، فَإِنَّ السَّمَاءَ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْمَدَارِ - هَذَا إِذَا قُلْنَا بِالنَّظَرِ الْفِعْلِيِّ حَوْلَ السَّمَاوَاتِ - وَ يُؤَيِّدُهُ حَدِيثٌ عَنِ الْإِمَامِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَمَا فِي «الْهَيْئَةُ وَ الْإِسْلَامُ» «١» - وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، فَمَنْ كَفَرَ كَانَ اللَّهُ مُطَّلِعاً عَلَيْهِ لَا - يَفُوتُهُ ذَلِكَ، وَ لَا - يَخْفَى أَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ كَانَ أَوَّلًا، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ، كَمَا قَالَ (وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) «٢».

[٣١] وَ حَيْثُ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ قِصَّةَ خَلْقِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، وَ ثُمَّ الْبِنَاءِ، تَوَجَّهَ الْحَدِيثُ إِلَى مَنْ اسْتَخْلَفَ فِيهَا وَ أَذَكَرَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ مَخْلُوقِينَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لَا يَرُونَ بِالْعَيْنِ إِلَّا لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ

(١) للعلامة الشهرستاني.

(٢) النزاعات: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١١٩

[سورة البقرة (٢): آية ٣١]

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً يَخْلِفُنِي فِي الْأَمْرِ وَ النِّهْيِ وَ الْإِرْشَادِ، وَ هَذَا الْحَوَارِ إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ إِظْهَارِ كَوَامِنِ، وَ بَيَانِ حَقَائِقِ قَالُوا أَوْ تَجْعَلُ فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْتَفْسِدُ الدَّمَاءَ وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ حَقِيقِي، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ اسْتِضَاحَ السَّبَبِ، وَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا عَلِمُوا بِذَلِكَ، لَمَّا كَانُوا يَدْرُونَ مِنْ كِدْرَةِ الْأَرْضِ وَ ثِقَلِهَا الْمَوْجِبَةَ لِلْفَسَادِ وَ التَّكْدَرِ، أَوْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ فِعْلِ بَنِي الْجَانِ سَابِقًا وَ نَحْنُ نَسْبِيحُ بِحَمْدِكَ فَمِنَا الْكِفَايَةُ، وَ لَيْسَ هَذَا تَرْكِيَةً، بَلْ كَقَوْلِ الْعَبْدِ الْمُطِيعِ لِمَوْلَاهُ: إِنِّي أَقُومُ بِخِدْمَتِكَ فَلَمَّا ذَا تَأْتَى بِغَيْرِي الَّذِي لَا يَقُومُ بِالْوَجِبِ، وَ مَعْنَى التَّسْبِيحِ التَّنْزِيهِ، وَ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ التَّسْبِيحِ بِحَمْدِهِ، التَّنْزِيهِ الْمَقْتَرَنُ بِالْحَمْدِ، مُقَابِلُ التَّنْزِيهِ غَيْرِ الْمَقْتَرَنِ بِهِ، كَتَّنْزِيهِ الْجَوْهَرَةِ الثَّمِينَةِ عَنِ النَّقَائِصِ، لَكِنِ التَّنْزِيهِ فِيهَا لَا يَقْتَرَنُ بِالْحَمْدِ، إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِهَا بِخِلَافِهِ تَعَالَى الْمَقْتَرَنُ أَفْعَالَهُ وَ أَعْمَالَهُ بِالْإِرَادَةِ وَ تَقْدُّسُ لَكَ أَى أَنْ تَقْدِيسَنَا وَ تَنْزِيهَنَا لِأَجْلِكَ لَا يَشُوبُهُ رِيَاءٌ وَ سَمْعَةٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ الْمَلَائِكَةِ السَّائِلِينَ عَنِ السَّبَبِ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا - تَعْلَمُونَ فَإِنَّ فِي اسْتِخْلَافِ الْبَشَرِ، مَصَالِحَ أَهْمٍ مِنَ الْفَسَادِ الْوَاقِعِ مِنْهُمْ، كَمَا أَنَّ اسْتِخْلَافَهُمْ أَهْمٌ مِنْ اسْتِخْلَافِكُمْ فَإِنَّ مِنْهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ وَ الصَّالِحِينَ مَنْ لَا يَلْحَقُهُ الْمَلِكُ الْمُقْرَبُ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ خَلَقَ يَظْهَرُ مِنْ عِظْمَةِ الصَّانِعِ نَوْعًا جَدِيدًا.

[٣٢] وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِعْلَامَ الْمَلَائِكَةَ بِبَعْضِ مَزَايَا الْبَشَرِ، وَ إِنَّهُ مِنْ جِنْسِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٠

[سورة البقرة (٢): آية ٣٢]

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)

أَرْفَعُ مِنْهُمْ، عَلَّمَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عُلُومًا يَتِمَكَّنُ هُوَ مِنْ فَهْمِهَا وَ هَضْمِهَا، بَيْنَمَا لَا يَقْدِرُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: هَلْ تَتَحَمَّلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؟ فَأَبَدُوا عِجْزَهُمْ، وَ إِذَا رَأَوْا مِنْ آدَمِ التَّحَمُّلَ وَ الْقُدْرَةَ، اعْتَرَفُوا بِالتَّفُوقِ، وَ إِنَّهُ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ، وَ تَوْضِيحُ ذَلِكَ بِمِثَالِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ خَادِمٌ لَا يَقْدِرُ فِطْرَةً عَلَى بِنَاءِ دَارٍ جَمِيلَةٍ، ثُمَّ أَرَادَ اسْتِخْدَامَ مِهْنَدِسٍ، فَقَالَ الْخَادِمُ: لِمَاذَا تَسْتَحْدِمُ غَيْرِي وَ أَنَا حَاضِرٌ؟ يَقُولُ لَهُ السَّيِّدُ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ، ثُمَّ يَسْتَحْدِمُ الْمِهْنَدِسَ، وَ يَبِينُ لَهُ مَا يَرِيدُهُ مِنَ الدَّارِ، فَيَقْدِرُ الْمِهْنَدِسُ مِنْ بِنَائِهَا، بَيْنَمَا لَا يَقْدِرُ الْخَادِمُ عَلَى النُّزُولِ عِنْدَ رَغْبَةِ السَّيِّدِ، وَ هُنَاكَ يَعْتَرَفُ بِالْعِجْزِ، وَ أَنَّ السَّيِّدَ كَانَ عَارِفًا حَيْثُ تَرَكَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَ عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ

السلام الأسماء كلها أسماء الأشياء وعلائمها، وذلك يستلزم تعليم المسميات والمعلومات، فإذا علمت أحدا اسم زيد وعمرو وبكر، كان اللازم تعريفهم له أيضا، ولذا قال ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ يَا تَيَانُ ضَمِير «هم» تغليبا للعقلاء على غيرهم، والعرض على الملائكة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ صدقا خبريا يطابق كلامكم الواقع في أنكم كافين في الاستخلاف، ولعل تعليم آدم كان بالإلهام، وخلق العلم فيه، مما هو قابل له، دون الملائكة، فإنهم لم يكونوا قابلين لهذا العلم والإلهام، فلا يقال لماذا لم يعلم الله تعالى الملائكة.

[٣٣] قالوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ مِنْزَهٌ عَنِ الْقَيْحِ وَالْعَيْبِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

لا علم لنا إلا ما علمتنا فليس لنا هذا العلم الذي لآدم مما هو قابل له، ولنا قابلين له إنيك أنت العليم الحكيم والحكيم هو الذي يفعل الأشياء عن حكمه، بمعنى وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

[٣٤] قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ أَي بِأَسْمَاءِ مَا عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَعَرَفَتِ الْمَلَائِكَةُ كُونَ قَابِلِيَهُ آدَمَ فَوْقَ قَابِلِيَتِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا غَابَ عَنِ إِدْرَاكِكُمْ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ أَي تظهرون وما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ من حسد بعضكم - وهو الشيطان - لآدم عليه السلام: ثم أن مقتضى اللطف العام والرحمة الواسعة أن يخلق الله تعالى أنواع المخلوقات الممكنة، التي لا يمنع عن خلقها مانع، ولذا خلق الملائكة دون البشر، وخلق بعض كل من الصنفين أرفع من البعض الآخر، فلا مجال للتساؤل، فلما ذا لم يجعل الله تعالى هذه القابلية البشرية في الملائكة؟ و ثم خلق آدم عليه السلام، وانتهى كل شيء.

[٣٥] وَأَذْكَرَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ إِمَّا بِأَنْ يَكُونَ هُوَ قَبْلَتَهُمْ وَيَكُونَ السُّجُودُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ السُّجُودُ لِآدَمَ، وَلَا دَلِيلَ عَقْلِي عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، نَعَمْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٢

[سورة البقرة (٢): آية ٣٥]

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)

إلى المسلمين فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ هُوَ الشَّيْطَانُ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ أَي امتنع وأنف و كان من الكافرين التفات، كما نقول نحن «كان أبو جهل كافرا» وليس حكاية، عطفًا على «أبي» حتى يستلزم كونه كافرا من قبل ذلك.

[٣٦] وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حِوَاءَ عَلَيْهَا السَّلَامَ، قَالَ لَهَا ذَلِكَ، بَعْدَ مَا خَلَقَ حِوَاءَ أَيْضًا، خَلَقًا كَخَلْقِ آدَمَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَأُمِّ الْجَنَّةِ هِيَ الْبَسْتَانُ، وَقَدْ كَانَتْ لِلَّهِ تَعَالَى جَنَّةً أَسْكَنَهَا آدَمُ وَحِوَاءَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا أَكْلًا وَاسْعًا، بَلَا زَحْمَةً وَتَكَلَّفَ حَيْثُ شِئْتُمَا مِنْ أَطْرَافِ الْجَنَّةِ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَقَدْ نَهَوَا عَنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا، وَكَانَتِ الشَّجَرَةُ عَلَى قَوْلِ جَمْعِ «الْحِنْطَةُ» وَ قَدْ كَانَ النَّهْيُ إِرْشَادِيًّا، كَنَهَى الطَّيِّبَ مَرِيضَهُ أَنْ لَا يَأْكُلَ مَا يَضُرُّهُ، وَقَدْ كَانَتْ فَائِدَةٌ عَدَمَ أَكْلِهِمَا لَهَا أَنَّهُمَا يَبْقِيَانِ فِي الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى «١» فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَرَّمَ نَفْسَهُ مِنَ الْخَيْرِ، كَانَ ظَالِمًا لَهَا، إِذِ الظُّلْمُ بِمَعْنَى وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، كَمَا إِنَّ الْعَدْلَ بِمَعْنَاهُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ.

(١) طه: ١١٩ و ١٢٠.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)

[٣٧] فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا أَى حمل الشيطان آدم و حواء على الزلّة عن الجنة، بسبب إنه حملهما على الأكل من الشجرة فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ من النعيم وَقُلْنَا اهْبِطُوا الخطاب لآدم و حواء و الشيطان، و الهبوط إما حقيقى، إن كان محل أعلى إلى أسفل، أو رتبى بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِن الشيطان عدوهما، و هما عدوان له و لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ محل القرار و متاع أى استمتاع إلى حِين إلى حين انقضاء الدنيا، أو موت كل أحد، و إذ ارتكب آدم خلاف الأولى بأكل الشجرة، و أهبطه الله تعالى من الجنة تداركته الرحمة.

[٣٨] فَتَلَقَى أَى أخذ آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ تسبب التوبة و الرجوع عن الزلّة، و كان ذلك بتعليم الله تعالى له أن يجرى تلك الكلمات على لسانه، فأجراها فتَابَ اللهُ عَلَيْهِ أَى على آدم إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ أَى كثير القبول للتوبة للرحيم بعباده.

[٣٩] قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا إِنما كرر الأمر بالهبوط توطئة لموضوع آخر، و هو أمر الهداية، بعد ذكر المقر و المتاع، كما يقال: قلت له اذهب تريح، قلت له اذهب تسلم فَإِمَّا أَصْلُهُ «إِن» الشرطية، و «ما»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْتَمِدُوا بِالْحَقِّ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

الزائدة، دخلت عليها لتصحيح نون التأكيد، يعنى فَإِن يَأْتِيَنَّكُمْ أيها البشر الذى فى صلب آدم منى هدى يهديكم إلى الحق فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا- خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فى الدنيا و لا- فى الآخرة و لا- هُمْ يَحْزَنُونَ إذ الخوف الكامل، إنما يكون من أمر مكروه، و لا- يعوض، و كذلك الحزن و مصائب المؤمنين تعوض، فلا- خوف كامل منها، و الفرق بين الخوف و الحزن: أن الأول لأمر مترقب، و الثانى لأمر حادث- غالباً- و لا مانع من الخطاب إلى المعدوم إذا كان المقصود منه الوصول إليه بعد وجوده، هذا مع الغض عن عالم الذر، كما لا مانع من الجمع بين «إِن» و «نون التوكيد» إذ المعنى إن أتاكم إتيانا قطعيا مقابل الإتيان المظنون.

[٤٠] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فلم يؤمنوا بعد أن تمت عليهم الحجّة، و لعل هذا سر قوله «كذبوا» بعد «كفروا» إذ الكفر لا يلزم التكذيب، إذا كان عن قصور أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أبدا و لا يخفى أن المقصر المعاند خالد أبدا أما غيره فيمتحن هناك.

[٤١] و لما أتم القرآن الكريم قصة «آدم» و استخلافه فى الأرض، و جه الكلام إلى «بنى إسرائيل» الذين هم نموذج للجنس البشرى، و قد أتهمهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٥

[سورة البقرة (٢): آية ٤١]

وَآمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)

الأنبياء عليهم السلام «هدى» و أنعم عليهم الله تعالى، فكفروا بالنعمة، و قتلوا الأنبياء، ليكون فذلكه لقصة آدم، و درسا لأمه محمد صلى الله عليه و آله و سلم يا بَنِي إِسْرَائِيلَ هم اليهود، و إسرائيل اسم يعقوب النبى عليه السلام، نسبوا إلى أبيهم الأعلى، كما نسب البشر إلى أبيهم الأعلى، فى قوله يا بَنِي آدَمَ «١» اذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ و حيث لم يذكر المتعلق أفاد العموم، فيشمل كل نعمة مادية أو معنوية و أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ و حيث لم يذكر المتعلق أفاد كل عهد عهده، سواء كان ذلك وقت أخذ موسى عليه السلام عنهم العهد

بالإيمان بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أم كان وقت أخذ الله عنهم العهد في عالم الذر، ثم أودع فيهم الفطرة دليلاً عليه أوفٍ بَعْدِكُمْ بِإِعْطَائِكُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ ضَمَّنَ لِمَنْ وَفَى بِعَهْدِهِ، أَنْ يَعْمَرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ الرَّهْبَةَ هِيَ الْخَوْفُ، يَعْنِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ، لَا مِنَ النَّاسِ.

[٤٢] وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنَ التَّوْرَةِ، فَإِنَّ التَّوْرَةَ الْأَصْلِيَّةَ، كَانَتْ مُصَدِّقَةً، حَتَّى فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا مَا نَسَخَ مِنْهَا، وَالنَّسْخَ لَيْسَ إِبْطَالًا لَهَا، كَمَا أَنَّ نَسْخَ بَعْضِ الْأَحْكَامِ فِي

(١) الأعراف: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٦

[سورة البقرة (٢): آية ٤٢]

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

القرآن- على القول به- ليس إبطالا- له ولا- تكونوا أول كافر به أى أول من يكفر بما أنزلت، وإنما كانوا أول كافر، لأنهم بسبب علمهم كانوا مرجعا للجهال، فيكون كفر الجهال بمرتبته ثانيه ولا تشتتوا بآياتي ثمنا قليلا أى بمقابل آياتي، بأن تعطوا الآيات- بمعنى عدم الإيمان بها- فى مقابل ثمن قليل، هو رئاسة الدنيا وكونها قليلا لانقطاعها وإيائى فاتقون فالتقوى يجب أن تكون منه تعالى، لا أن يكون الاتقاء من غيره، لأن الله بيده النفع والضرر دون غيره، كما قال تعالى قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «١».

[٤٣] وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ اللَّبْسُ هُوَ التَّعْمِيَةُ، أَيْ لَا- تَخْطُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، فَتَأْخُذُوا بِبَعْضِ التَّوْرَةِ الَّتِي هُوَ فِي نَفْعِكُمْ، وَتَتْرَكُوا بَعْضَهَا الَّتِي يَضُرُّكُمْ وَهِيَ بَعْضُ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَرَكُوهَا، وَمِنْهَا التَّبَشِيرُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ الَّذِي هُوَ أَوْصَافُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَعْضُ الْأَحْكَامِ الْآخَرَ، كَمَا قَالَ سَبَّحَانَهُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٢» وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِصَنْعِكُمْ وَأَنَّهُ تَلْيِيسَ الْمُحَقِّقِ بِالْبَاطِلِ، وَكُتْمَانَ الْحَقِّ.

(١) النساء: ٧٩.

(٢) آل عمران: ٩٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)

[٤٤] وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ كَمَا يَأْمُرُ الْإِسْلَامَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ الَّذِينَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ.

[٤٥] أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَمْ تَأْمُرُوا النَّاسَ بِالْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَعْمَلُونَ بِهَا وَالنَّسْيَانُ كِفَايَةُ عَنِ عَدَمِ الْعَمَلِ لِشَبْهِهِ بِهِ فِي النَّتِيجَةِ، كَمَا قَالَ سَبَّحَانَهُ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ «١» فَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ يَخَالِفُونَ أَحْكَامَ التَّوْرَةِ، وَيرْتَشُونَ وَ يفسدون و يكذبون وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ جَمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، أَيْ وَالْحَالُ أَنْتُمْ تَقْرَأُونَ كِتَابَ اللَّهِ، فَالْإِجْرَامُ أَنْ تَكُونُوا أَوْلَ الْعَامِلِينَ بِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَيْ أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ مَا تَأْتُونَ بِهِ قَبِيحٌ؟.

[٤٦] وَاسْتَعِينُوا فِي رَجُوعِكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَإِلْغَائِكُمْ لِرُؤُسَائِكُمْ- بِمَا يَجْرُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ مِنْ سَلْبِ بَعْضِ دُنْيَاكُمْ- بِالصَّبْرِ فَإِنَّكُمْ إِذَا صَبَرْتُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ مِنْ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَادَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ وَالصَّلَاةُ فَإِنَّ الصَّلَاةَ تَوْجِبُ تَهْدِئَةَ النَّفْسِ، وَاطْمِئْنَانَ الْخَاطِرِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ «٢» وَإِنَّهَا أَيْ الِاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

(١) التوبة: ٤٧.

(٢) الرعد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٦ إلى ٤٧]

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ فَإِنِ الصَّبْرُ لَيْسَ أَمْرًا هَيِّنًا، وَ الصَّلَاةُ الْكَامِلَةُ لَيْسَتْ عَمَلًا سَهْلًا، وَ إِنَّمَا قَيْدُنَا الصَّلَاةَ بِالْكَامِلَةِ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَسْتَعَانُ بِهَا، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ الصَّلَوَاتِ الْيَوْمِيَّةَ، وَ هِيَ صَعْبَةٌ جَدًّا إِلَّا عَلَى الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ.

[٤٧] ثم فسر الخاشعين بأنهم الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ الظن إما بمعنى اليقين، وإما بمعنى الرجحان، و لعل السر في هذا التعبير دون اليقين، للإشارة إلى أدنى مراتب الرجحان يوجب الخشوع، فإن من يظن أنه يلاقى الملك لبعثه ذلك على التهيئة، فكيف بمن يظن أنه يلاقى مالك الملوك، و ملاقاته الله كناية عن الحضور للمحاسبة، و إلا فالله سبحانه ليس أدنى إلى الناس في القيامة منه إليهم في الدنيا وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ و الرجوع إليه معنوي كما تقدم.

[٤٨] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ تكرر للتركيز و الإلفات، فإن الإنسان ربما كان غافلاً- حين التذكير الأول، فيذكر ثانيا و ثالثا، بالإضافة إلى أن النفس، إذا كررت عليها الموعظة، رسخت فيها و أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ التفضيل على عالم زمانهم لا على كل العوالم، فإن الظاهر من هكذا تفضيلات هو الاختصاص، فلو قيل أن «الدولة الفلانية أقوى الدول» لم يفهم منه إلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٢٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٨ إلى ٤٩]

وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عِدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

الإقوائية من الدول المعاصرة لها، لأكل دولة أت أو تأتي، ثم أن تفضيلهم على العالمين إنما كان لأجل إيمانهم بموسى عليه السلام، بينما كان العالم بين كافر به عنادا، كفرعون و من تبعه، أو جهلا- كمن كان في البلاد البعيدة التي لم تبلغهم دعوة موسى فكانوا قاصرين.

[٤٩] وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا أَي لَا تَغْنَى، فَلَا تَدْفَعُ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ مَكْرُوهًا، وَ إِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، حَتَّى أَنْ الشَّفَاعَةَ تَكُونُ بِإِذْنِهِ، وَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ- الْقِيَامَةُ- وَ مَعْنَى التَّقْوَى مِنْهُ الْاسْتِعْدَادُ لَهُ وَ لَا- يُقْبَلُ مِنْهَا أَي مِنَ النَّفْسِ شَفَاعَةٌ إِلَّا- إِذَا أذنَ اللَّهُ لِلشَّفِيعِ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أَي مِنَ النَّفْسِ عِدْلٌ أَي فِدْيَةٌ، وَ إِنَّمَا سَمِيَتِ الْفِدْيَةُ عِدْلًا، لِأَنَّهَا تَعَادِلُ الْمَفْدَى وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ فَإِنْ طَرِيقَ الْخِلَاصِ فِي الدُّنْيَا إِحْدَى هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَ لَيْسَتْ شَيْءٌ مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ، إِلَّا إِذَا أذنَ اللَّهُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَ عَدَمَ الْاسْتِثْنَاءِ مِنْ «شَفَاعَةِ» لِأَجْلِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا الشَّفَاعَاتِ الْارْتِجَالِيَّةَ، كَمَا هُوَ الْمَعْتَادُ فِي الدُّنْيَا.

[٥٠] وَ اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَةَ أَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَ مِنَ الْمُتَعَارِفِ، أَنَّ يَنْسَبُ الشَّيْءُ الْمُرْتَبِطُ بِبَعْضِ الْأُمَّةِ إِلَى جَمِيعِهَا، إِذْ يَجْمَعُهُمُ الْعَطْفُ وَ الْهُدَى وَ الْإِنْتِصَارُ، فَيَقَالُ بَنُو تَمِيمٍ قَتَلُوا فُلَانًا، وَ إِنَّمَا قَتَلَهُ بَعْضُهُمْ، أَوْ عَشِيرَةُ فُلَانٍ شَجَعَانُ، وَ إِنَّمَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ كَذَلِكَ، وَ لِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ «نَجَّيْنَاكُمْ» وَ قَدْ كَانَتِ النَّجْيَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٠

[سورة البقرة (٢): آية ٥٠]

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

أسلافهم، والمراد بآل الرجل قومه وخواصه وإن لم تكن بينهم قرابة، كما يقال «آل الله» لأهل البيت عليهم السلام يسومونكم سوء العذاب وسامه خسفا عذابا بمعنى ألقاه فيه، ثم فسر سوء العذاب بقوله يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ التدبيح هو التكثير في الذبح ويشيخون نساءكم أى يدعونهن أحياء، فإن فرعون ملك القبط، لما علم من الكهان، أنه يولد فى بنى إسرائيل - الذين كانوا طائفة خاصة من آل يعقوب عليهم السلام - أمر بذبح الأولاد وإبقاء النساء للاسترقاق والنكاح وفى ذلكم «كم» خطاب فقط، و«ذا» إشارة، فإذا كان طرف الخطاب واحد يقال «ذلك» وإذا كان اثنين يقال «ذلكما» وإذا كانوا جماعة يقال «ذلكم» و«ذا» هنا اسم إشارة إلى سوء العذاب بلائ من ربكم عظيم أنها كانت بالنسبة إلى الله تعالى، لأنه لم يحل بين فرعون، وبين هذا العمل، كما يقال، إن الأب أفسد ولده إذا لم يحل بينه وبين عمله الفاسد، وعدم حيلولة الله تعالى، لأجل الامتحان والاختبار - كما تقدم - والإنجاء، إنما كان بإهلاك فرعون وقومه.

[٥١] واذكروا يا بنى إسرائيل إذ فرقنا بكم البحر أى جعلنا فواصل فى البحر، حتى صارت بين الماء شوارع، و كان عملنا هذا بسببكم ولأجلكم، والمراد بالبحر - البحر الأحمر فى مصر - وقد كان طول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣١

[سورة البقرة (٢): آية ٥١]

وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)

الشوارع التى أسفرت عنها الماء ما يقرب من أربعة فراسخ، فإن موسى عليه السلام وبنى إسرائيل فروا من فرعون فوصلوا إلى البحر و عقبهم فرعون وقومه، فأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضرب فانحسر الماء عن الشوارع حتى عبر بنو إسرائيل، و أتبعهم فرعون وجنوده و لما توسطوا الماء، و خرج موسى عليه السلام وقومه، رجع الماء إلى حالته الأولى، فأغرق فرعون وقومه فَأَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ مَعَ فِرْعَوْنَ، و لم يذكر تغليباً للآل عليه و أنتم تنظرون كيف أغرقناهم لأجلكم، و لا يخفى أن الإعجاز هين بالنسبة إلى الله سبحانه، فتأويل بعض الناس للمعجز انهمزام مادي غربى.

[٥٢] واذكروا يا بنى إسرائيل إذ واعدنا موسى أربعين ليلة واعد بمعنى وعد، و إن موسى عليه السلام قبل، و لذا جىء بصيغة المفاعلة، و لا ينافى كون الوعد هنا أربعين ليلة، و فى آية أخرى ثلاثين، فإن هذه الآية بالنسبة إلى الوعدين، و فى الآية الأخرى بالنسبة إلى الوعد الأول، فقد كان الله سبحانه وعد موسى أولاً ثلاثين، ثم مدده و أضاف عشراً، و الوعد كان لإعطاء الثروة التى فيها أحكام الله، و تنظيم أمور بنى إسرائيل الذى هو نعمة عظيمة ثم اتخذتم العجل من بعده أى من بعد موسى عليه السلام أى وقت ذهابه إلى الطور للوعد، فإنهم بعد ما ذهب موسى عليه السلام، لميقات ربه صنعوا عجلاً من ذهب، و جعلوه إلهاً لهم و سجدوا له، فقابلوا نعم الله عليهم بالكفران، و عبادة العجل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٢ إلى ٥٤]

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

و أنتم ظالمون جملة حالية، و المراد ظلمهم بأنفسهم.

[٥٣] ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لاتخاذ لعلكم تشكرون نعمنا عليكم، فتعملوا بأوامرنا.

[٥٤] واذكروا يا بنى إسرائيل إذ آتينا موسى نبيكم الكتاب و هو التوراة و الفرقان أى الفارق بين الحق و الباطل، فهو أهم من الكتاب

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ و لعل ليس ترجيا من الله سبحانه بل بمعنى عاقبة الترجي.

[٥٥] و اذكروا يا بنى إسرائيل إذ قال موسى لِقَوْمِهِ الَّذِينَ عبدوا العجل وقت ذهاب موسى إلى الطور لتلقى التوراة و الأوامر من الله سبحانه يا قوم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ إِلَهِهَا فَإِنِ اتَّخَذَهُ مَوْجِبًا لِلْغَضَبِ وَ الدُّلَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَتَوْبُوا تَوْبَةً إِلَى بَارِئِكُمْ الَّذِي بَرءَ كَمَ وَ خَلَقَكُم وَ هُوَ إِلَهُكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَن يَقْتُلَ مِنْ لَم يَعْبُدِ الْعِجَلِ مِنْ عِبْدِهِ وَ لَوْ كَانَ قَرِيبًا لَهُ، فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لِلْقَاتِلِ حَيْثُ سَكَتَ وَ لَمْ يَتَكَلَّمْ، وَ لِلْمَقْتُولِ حَيْثُ عَبْدَ الْعِجَلِ ذَلِكَ الْقَتْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

خَيْرٌ لَكُمْ إِذِ الْأَلَمِ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ الدَّائِمِ عِنْدَ بَارِئِكُمْ مُتَعَلِّقٌ بِخَيْرٍ، أَى إِذَا هَذَا الْعَمَلُ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَ فِي حِكْمِهِ وَ إِرَادَتِهِ، وَ ذَلِكَ مُقَابِلُ الْخَيْرِ عِنْدَ النَّاسِ الَّذِي هُوَ بِالْبَقَاءِ وَ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا فَتَابَ عَلَيْكُمْ بَعْدَ مَا سَمِعْتُمُ الْأَمْرَ بِأَن تَبْتُمْ، وَ قَتَلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَ مَعْنَى تَابَ عَلَيْكُمْ، قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ بِكُمْ، فَلَمْ يَغْضَبْ حَتَّى لَا يَقْبَلَ تَوْبَتَكُمْ أَبَدًا.

[٥٦] وَ اذكروا يا بنى إسرائيل إذ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ بِأَن لَنَا إِلَهِهَا خَلَقْنَا وَ بِيَدِهِ أُمُورُنَا، أَوْ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ بِأَنَّكَ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً أَى عَلَانِيَةً وَ عِيَانًا، فَيُخْبِرُنَا بِذَلِكَ، وَ ذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا يَحْضُرُونَ مَعَهُ إِلَى الْمِيقَاتِ، لَمَّا طَلَبَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَ لَمَّا جَاءُوا طَلَبُوا رُؤْيَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هِيَ نَارٌ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ مَادَةٌ مَذَابُهُ مِنَ الْمَعْدِنِ وَ نَحْوِهِ، فَتَصِيبُ الْإِنْسَانَ فَتَقْتُلُهُ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا طَلَبُوا رُؤْيَةَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، نَزَلَتْ صَاعِقَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَتَلَتْهُمْ جَمِيعًا وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ حَالِ نَزُولِهَا، وَ سَبَبُ مَوْتِكُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا لَكُمْ عَلَى ذَنْبِكُمْ وَ خَطَايَاكُمْ وَ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا لَمْ يَعْرِفْ سَبَبَهُ حَتَّى تَقُولُوا إِنَّهُ أَمْرٌ طَبِيعِي.

[٥٧] ثُمَّ بَعَثْنَاكَ أَى أَحْيَيْنَاكَ لَمَّا طَلَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ لثَلَا يَقُولُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَ ظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)

الباقى من بنى إسرائيل، إنه عليه السلام قتلهم فى الطور من بعد موتكم بسبب الصاعقة لعلكم تشكرون نعمنا عليكم.

[٥٨] وَ اذكروا يا بنى إسرائيل، إذ كنتم فى «التيه» حين أمرتم بحرب العمالقة فعصيتم فبقيتم فى الصحراء مدة مديدة، و كنتم تتأذون من حر الشمس، و لم يكن لكم مأكل ف ظللنا عليكم العمام بأن جعلناه ستره لكم تقيكم حر الشمس و برد القمر و أنزلنا عليكم المن و السلوى المن شىء يشبه «الترنجبين» مادة حلوة، كانت تقع على أشجارهم فى أكلوها و السلوى طير السمانى، و إنزال السمانى، إما يكون هذا الطير، كان كثيرا فى التيه، فكانوا يصطادونه، أو بأنه كان ينزل عليهم الطير المشوى، و قلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم طيب مذاقا، و حقيقة لكونه حلالا، لكنهم كفروا بعد كل هذه النعم و ما ظلمونا بكفرانهم، فإنهم لن يضرروا الله شيئا و لكن كانوا أنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ لأنهم أورشوا لأنفسهم ذلة فى الدنيا و عذابا فى الآخرة.

[٥٩] وَ اذكروا يا بنى إسرائيل إذ قلنا لكم بعد أن خرجتم عن التيه ادخلوا هذه القرية بيت المقدس، أو «أريحا» و هى بلدة قريية من بيت المقدس فكلوا منها حيث شئتم من الأماكن أو المآكل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

رَغَدًا وَسَعًا وَأَدْخَلُوا الْبَابَ أَي بَاب الْقَرْيَةِ سَجْدًا جَمَعَ سَاجِدًا، أَي فِي حَالِ كَوْنِكُمْ سَاجِدِينَ وَقُولُوا حِطَّةً أَي سَجُودَنَا لِلَّهِ حِطَّةً لِدُنُوبِنَا، وَمَحُو لِسِينَاتِنَا، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ السَّالِفَةَ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَخَيْرِ الْآخِرَةِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُونَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْوَرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «١».

[٦٠] فَيَدَّلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَقَالُوا «حِنْطَةُ حَمْرَاءَ خَيْرٌ لَنَا» عَوْضُ «حِطَّةً» كَمَا إِنَّهُمْ دَخَلُوا بِأَسْتَاهُمْ عَوْضُ أَنْ يَدْخُلُوا سَجْدًا فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فِيمَا فَعَلُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ الرَّجْزُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَي بِسَبَبِ عَصِيَانِهِمْ.

[٦١] وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ أَي سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَسْقِيَهُمْ، وَذَلِكَ حِينَ كَانُوا فِي الْبَيْتِ،

(١) فاطر: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٦

[سورة البقرة (٢): آية ٦١]

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَأُوْءٍ بَغَضٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّسِيئِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَاءٌ فَظَمُوا فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ وَعَصَاهُ هِيَ الَّتِي صَارَتْ ثَعْبَانًا، وَالْحَجَرُ، إِذَا كَانَ حَجْرًا خَاصًّا، أَوْ مَطْلُوقَ الْحَجَرِ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا بَعْدَ أُسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَبِيلَةً، فَكَانَتْ تَجْرِي لِكُلِّ قَبِيلَةٍ عَيْنٌ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ أَي كُلِّ قَبِيلَةٍ مَشْرِبَهُمْ أَي مَوْضِعَ شَرِبِهِمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ أَكَلَهُمُ الْمَنُ وَالسَّلْوَى، وَشَرِبَهُمْ مَاءُ الْعَيْنِ الْمُنْفَجَرِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ مُفْسِدِينَ حَالَهُ مُؤَكَّدَةٌ.

[٦٢] وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى حِينَ كُنْتُمْ فِي الْبَيْتِ، وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْمَنُ وَالسَّلْوَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ أَي قِسْمٍ وَاحِدٍ مِنَ الطَّعَامِ، وَ لَوْ كَانَ ذِي لَوْنَيْنِ، فَالمراد بالوحدة التكرار في كل يوم فَادْعُ أَي فَاسْأَلْ لَنَا أَي لِأَجْلِ رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ أَي مِنَ نَبَاتِهَا مِنْ بَقْلِهَا الْبَقْلُ أَنْوَاعُ الْخَضَرِ وَقِثَائِهَا الْخِيَارُ وَفُومِهَا الْحِنْطَةُ وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا حَتَّى تَنْتَقِطَ بِهَا وَتَأْكُلَهَا عَوْضُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٧

الْمَنُ وَالسَّلْوَى قَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَي تَتْرَكُونَ مَا هُوَ الْأَفْضَلُ مِمَّا اخْتَارَهُ اللَّهُ لَكُمْ، إِلَى مَا هُوَ الْأَدْوَنُ مِمَّا تَرْغَبُونَ إِلَيْهِ، وَ كَوْنَهَا أَفْضَلُ وَأَدْوَنُ، أَمَا بِاعْتِبَارِ السَّهُولَةِ وَالصَّعُوبَةِ، أَوْ بِاعْتِبَارِ الطَّعْمِ وَاللَّذَّةِ، أَوْ بِاعْتِبَارِ التَّقْوِيَةِ وَالتَّغْذِيَةِ، وَ عَلَى أَيِّ حَالٍ، دَعَا مُوسَى وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ، وَقَالَ لَهُمْ اهْبُطُوا مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ فَإِنَّ لَكُمْ فِي الْمِصْرِ مَا سَأَلْتُمْ مِنَ الْأَطْعَمَةِ وَ لَكِنِ الْيَهُودَ بِسَبَبِ تَمَرْدِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ وَ لِحَاجَتِهِمْ الْمُسْتَمِرَّةَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ فَهُمْ أَذْلَاءُ فِي الْأَرْضِ لِأَنَّ حُكُومَهُمْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِلَّةً وَ لَا عِزَّةً لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ وَالْمَسْكَنَةُ فَإِنَّهُمْ مَعَ ثَرْوَتِهِمْ أحيانًا لَا يَفَارِقُونَ الْمَسْكَنَةَ، حَيْثُ إِنَّهُمْ دَائِمًا التَّشَكَّى لِمَخَافَتِهِمْ مِنَ الْفَقْرِ، وَ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ مَعَاجِزِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ، فَإِنَّ الْيَهُودَ لَمْ تَقْمِ لَهُمْ حُكُومَةٌ مِنْ تَارِيخِ الْقُرْآنِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، إِلَّا- بِجَبَلٍ مِنَ النَّاسِ، وَ اتِّصَالَ بِالْحُكُومَاتِ الْقَوِيَّةِ وَبَأُوْءٍ بَغَضٍ مِنَ اللَّهِ بَاءَ أَي رَجَعُ، وَ الْمَرَادُ أَنَّهُمْ بِعَمَلِهِمُ السَّيِّئِ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنْ ضَرْبِ الذَّلَّةِ وَ

المسكنة، و الرجوع بالغضب بسبب أنهم كانوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ المنزلة على موسى عليه السلام حيث لم يكونوا يطيعون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٢ الى ٦٣]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ تَوَاتَرَتْ إِلَيْهِمْ لَكِثْرَةَ لُجَاظِهِمْ، فَكَانُوا يَقْتُلُونَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى بِغَيْرِ الْحَقِّ قِيدَ تَوْضِيحِي، إِذْ لَا يَكُونُ قَتْلُ النَّبِيِّ حَقًّا أَبَدًا، وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ يَقْتُلُ الْبَشَرَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنْ كُفْرَانِهِمْ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِمَا عَصَوْا أَيَّ سَبَبِ عَصْيَانِهِمْ لِلْأَمْرِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ فَإِنَّ عَصْيَانَهُمْ وَاعْتِدَاءَهُمْ صَارَ سَبَبًا لِلْقَتْلِ وَالْكَفْرِ، وَهُمَا سَبَبَا ضَرْبِ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالغَضَبِ.

[٦٣] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالَّذِينَ هَادُوا أَيْ صَارُوا يَهُودًا بِالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصَارَى الْمُؤْمِنِينَ بَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّابِئِينَ وَفِيهِمْ غَمُوضٌ وَخِلَافٌ، وَرَبَّمَا قِيلَ أَنَّهُمْ عَبَدُوا النُّجُومَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَقِيقَةً وَعَمِلَ صَالِحًا مِمَّا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ - كَمَا تَقَدَّمَ - وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ فَلَا يَبْأَسُ أَحَدٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ مَا دَامَ فِي الدُّنْيَا، إِنَّمَا قِيدُنَا «مَنْ آمَنَ» بِ «حَقِيقَةً» لِثَلَايِنَافِي مَا فِي صَدْرِ الْآيَةِ «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا».

[٦٤] وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ الْعَهْدَ الشَّدِيدَ، وَقَدْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٣٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آخَذْتُمْ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)

تَقَدَّمَ مَكَانَ أَخْذِ الْعَهْدِ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا جَاءَهُمُ بِالْتَّوْرَةِ لَمْ يَقْبَلُوهَا، فَقَطَعَ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِطْعَةً مِنْ جَبَلِ طُورٍ وَرَفَعَهَا فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ مَهْدَدًا، إِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَقْبَلُوا التَّوْرَةَ قَذَفَهَا عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَقَبَلُوا قَبُولَ التَّوْرَةِ مُجْبِرِينَ، وَقُلْنَا لَكُمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ أَيْ بِجِدِّ وَبِقِيْنٍ وَشِدَّةٍ لَا تَحِيدُوا عَنْهُ وَاذْكُرُوا أَيْ احْفَظُوا وَاعْمَلُوا بِمَا فِيهِ أَيْ فِي «مَا آتَيْنَاكُمْ» وَهُوَ التَّوْرَةُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيْ كَيْ تَخَافُونَ، فَإِنَّ الْعَامِلَ بِأُؤْمَرِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ يَكُونُ خَائِفًا مُتَّقِيًا.

[٦٥] ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ أَيْ أَعْرَضْتُمْ أَيَّهَا الْيَهُودُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْمِيثَاقِ الْأَكِيدِ، فَلَمْ تَعْمَلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ، وَلَمْ تَتَّمثلُوا أَوْامِرَنَا فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ حَيْثُ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِالتَّوْبَةِ وَرَحْمَتِهِ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ فَلَمْ يُوَاخِذْكُمْ بِسَيِّئَاتِ عَمَلِكُمْ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ مَنْ يَنْسَلِخُ عَنْهُ الْإِيمَانُ يَكُونُ مِنْ أَخْسَرِ النَّاسِ.

[٦٦] وَلَقَدْ عَلَّمْتُمْ أَيْ عَرَفْتُمْ أَيَّهَا الْيَهُودَ الَّذِينَ آخَذْتُمْ مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ أَيْ جَاوَزُوا حُدُودَ اللَّهِ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَرَمَ عَلَيْهِمْ اصْطِيَادَ السَّمَكِ فِي السَّبْتِ فَكَانَتْ الْأَسْمَاكُ تَأْتِي وَتَتَجَمَّعُ فِي هَذَا الْيَوْمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٠

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٦ الى ٦٧]

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)

لشعورها بأمنها في هذا اليوم، فكان اليهود يحتالون لأخذها بإيصال الماء إلى أحواضهم، فلما تأتي إليها الأسماك يوم السبت سدوا طريقها، ثم يصطادونها يوم الأحد، وكان هذا خرقاً لحرمات الله فقلنا لهم أي للمعتدين كونوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أي مبعدين عن الخير دنيا

و آخرة، فإنكم أيها اليهود الذين شاهدتم هذا المسخ بالنسبة إلى المعتدى منكم كيف تعملون خلاف أوامر الله سبحانه.

[٦٧] فَجَعَلْنَاهَا أَيَّ جَعَلْنَا الْمَسْخَةَ الَّتِي مَسَّحُوا بِهَا، وَالْعُقُوبَةَ الَّتِي عَاقَبُوا فِيهَا نَكَالًا أَيَّ عِبْرَةٍ لِمَا يَبِينُ يَدِيهَا أَيَّ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْيَهُودِ وَالْأُمَّمِ وَمَا خَلَفَهَا الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِمَّا يَسْمَعُونَ بِأَخْبَارِهِمْ، أَوْ يَكُونُ مَعْنَى «نَكَالًا» «عُقُوبَةً» فَالْمَعْنَى جَعَلْنَا الْمَسْخَةَ عِقُوبَةً لِلْمَعَاصِي الَّتِي ارْتَكَبُوهَا مِمَّا كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْ الْمَسْخَةِ، وَهُوَ «الاعتداء» وَمَا خَلَفَ الْمَسْخَةَ مِنْ سَائِرِ الْمَعَاصِي الَّتِي كَانُوا يَرْتَكِبُونَهَا بَعْدَ اعْتِدَائِهِمْ فِي السَّبْتِ وَجَعَلْنَاهَا مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ لِثَلَاثِ يَوْمَاتٍ يَرْتَكِبُونَ خِلَافَ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٦٨] وَاذْكُرُوا أَيَّهَا الْيَهُودُ قِصَّةَ الْبَقْرَةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ وَجَدُوا قَتِيلًا لَمْ يَعْرِفُوا قَاتِلَهُ، فَارْتَجَعُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنْ يَذْبَحُوا بَقْرَةً، ثُمَّ يَضْرِبُوا الْقَتِيلَ بِهَا لِجِيحِ الْقَتِيلِ وَيُخْبِرُهُمُ بِالْقَاتِلِ، وَكَانَ هَذَا اخْتِبَارًا لِإِيمَانِهِمْ، حَيْثُ أَنْ كُونَ ضَرْبَ مِيتٍ بِمِيتٍ مُوجِبًا لِلْحَيَاةِ مِمَّا لَا يَصْدَقُهُ ضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ، وَلِهَذَا جَعَلُوا يَسْأَلُونَ أَسْئَلَةً تَأْفَهُهُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوْلَ الْبَقْرَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٨ إلى ٦٩]

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقْعِ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ (٦٩) إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً لِأَحْيَاءِ الْقَتِيلِ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا أَوْ تَسْخَرُ مِنَّا وَتَتَّخِذُنَا سَخِرِيَةً، فَمَا الرِّبْطُ بَيْنَ الْقَتِيلِ، وَبَيْنَ ذَبْحِ الْبَقْرَةِ، أَوْ كَيْفَ تَكُونُ الْبَقْرَةُ الْمِيتَةَ سَبَابًا لِأَحْيَاءِ الْقَتِيلِ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِالنَّاسِ، فَإِنَّ السَّخِرِيَّةَ مِنْ شَأْنِ الْجَهَالِ وَالسَّفَهَاءِ.

[٦٩] قَالُوا ادْعُ لَنَا أَيَّ اطْلُبْ مِنْ أَجْلِ رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ أَيَّ مَا هِيَ الْبَقْرَةُ، مِنْ حَيْثُ سَنَهَا وَعَمَرَهَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ إِنَّهَا أَيَّ الْبَقْرَةِ يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ الْفَارِضُ الْكَبِيرَةُ الْهَرْمَةُ وَالْبَكْرُ الصَّغِيرَةُ عَوَانٌ أَيَّ وَسَطُ الْعَمْرِ بَيْنَ ذَلِكَ أَيَّ الْمَذْكُورِ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ مِنْ ذَبْحِ هَكَذَا بَقْرَةٍ.

[٧٠] قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ أَيَّ اسْأَلْ مِنْ رَبِّكَ لِأَجْلِ رَبِّكَ لَنَا مَا لَوْنُهَا أَيَّ مَا لَوْنُ الْبَقْرَةِ الَّتِي أَمَرْنَا بِذَبْحِهَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ تَعَالَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٠ إلى ٧١]

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَةَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيءَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتِ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ اللَّوْنُ فَاقْعِ لَوْنُهَا أَيَّ حَسَنَةُ الصَّفْرَةِ لَا تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ لِشِدَّتِهَا، وَلَا إِلَى الْبَيَاضِ لِقَلَّتِهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ إِلَيْهَا أَيَّ تَعْجِبُ النَّظِيرِينَ وَتَفْرَحُهُمْ بِسَبَبِ حَسَنِ لَوْنِهَا.

[٧١] وَلَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ سِنَ الْبَقْرَةِ، وَلَوْنُهَا سَأَلُوا عَنْ صِفَتِهَا قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ الْبَقْرَةُ، أَوْ تَكُونُ مِنَ الْعَوَامِلِ، أَوْ مِنَ السَّوَامِ الَّتِي لَا تَعْمَلُ، فَإِنَّ الْبَقْرَةَ الَّتِي أَمَرْنَا بِذَبْحِهَا تَشَابَهَ أَيَّ اشْتَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّهُ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ إِلَى صِفَةِ الْبَقْرَةِ بِتَعْرِيفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَنَا كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَفِي الْحَدِيثِ

عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُمْ لَمَّا شَدَدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَ لَوْ لَمْ يَسْتَشْنُوا مَا بَيَّنَّ لَهُمْ إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ .(١)

[٧٢] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ إِنَّهَا أَيَّ الْبَقْرَةِ الَّتِي أَمَرْتُمْ بِذَبْحِهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ يَذْلُهَا الْعَمَلُ تُثِيرُ الْأَرْضَ أَيَّ تَعْمَلُ وَتَكْرِبُ لِإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ الْحَرْثُ الزَّرْعُ، فَلَا

(١) مستدرک الوسائل: ج ١٦ ص ٥٤، باب حکم الحلف على ترک الطيبات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

تسقيه بالناعور، والدلاء، والمعنى أن لا تكون عاملة مسيئة أى سالمه لا نقص فيها فهي بريئة من العيوب لا شبيهة من الوشى بمعنى اللون فيها أى لا لون فيها يخالف لونها، وهذا ليس تأكيد لما سبق، إذ كونها صفراء، لا تدل على عدم الوشى فيها قالوا لموسى عليه السلام الآن وبعد هذه التوضيحات لصفات البقرة جئت بالحق الواضح، أو بما هو حق الكلام مقابل الإجمال الذى قاله عليه السلام سابقا بقوله «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً» فَمَذَّبَحُوا أى ذبح اليهود تلك البقرة المأمور بذبحها وما كادوا يفعلون أى كاد، أن لا يذبحوا تلك البقرة لغلاء ثمنها، فإنها انحصرت فى بقرة واحدة، لم يعطها صاحبها إلا بثمن فاحش.

[٧٣] واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ادارأتم بمعنى اختلفتم، وأصله تدارأتم والله مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ من أمر القاتل، وإنه من القاتل، ولماذا قتل.

[٧٤] فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ أى اضربوا القاتل ببعض البقرة المذبوحة التى أمروا بذبحها كذلك أى مثل هذا الإحياء يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى فى يوم القيامة، فإن القاتل لما ضرب بالبقرة قام حيا و أوداجه تشخب دما، وأخبر بسبب قتله، وبالذى قتله وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٤

[سورة البقرة (٢): آية ٧٤]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

الكون و فى أنفسكم، أو بمعنى يريكم معجزاته لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى كى تستعملوا عقولكم، ولعل وجه تأخير آية «و إذ قتلتم» على الآيات السالفة، مع إن النظم يقتضى تقديمها، أن السياق لبيان لجاجة اليهود، وعدم إطاعتهم الأوامر، فكان المقتضى تقديم ما يدل على ذلك.

[٧٥] ثُمَّ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَيْتُمْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَيُّهَا الْيَهُودُ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ أَى غلظت مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ المذكور من آيات الله تعالى، أو من بعد ذبح البقرة، و ما رأيتم من إحياء الله الميت فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ فى القسوة للمعقول بالمحسوس أو أَشَدُّ قَسْوَةً و بين سبب أشدتها قسوة، بقوله وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ الذى يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ فيكون مبعثا للخير نافعاً، بخلاف قلوبكم التى لا يأتى منها إلا الشر وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ أَصله تشقق فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ فيكون عينا، وإن لم يجر، وبهذا يفرق عن السابق، و هو ما يتفجر منه الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا أَى من الحجارة لَمَا يَهْبِطُ أَى ينزل من الجبل و يسقط مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ كُلَّ حِجَارَةٍ تَسْقُطُ، لا بد و أن تكون سقطتها بإذن الله، و من خشيته خشية واقعية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٥ إلى ٧٦]

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَ تَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (٧٦)

أو تشبيهه، كالذى يخشى كثيرا فيسقط على وجهه، و قلوبكم أيها اليهود أفسى من تلك الحجارة، إذ لا تخشى من الله سبحانه، و لا تتواضع لعظمته وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أيها اليهود، فيجازيكم بسيئات أعمالكم.

[٧٦] أَفَطْمَعُونَ أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا أَيُّ يَوْمِنَا أَيُّ يَوْمِنَا أَيُّ لِنَفْعِكُمْ، إِذْ كُلٌّ مِنْ آمَنَ يَكُونُ فِي نَفْعِ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ، أَوْ بِمَعْنَى الْإِيمَانِ بِمَبَادِئِكُمْ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيُّ لَنْ يُؤْمِنَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ بِالْإِسْلَامِ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ أَيُّ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَهَمُّ أَسْلَافِهِمْ، وَإِنَّمَا صَحَّتِ النَّسْبَةُ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ الْأُمَّةَ الْوَاحِدَةَ، وَالْقَبِيلَةَ الْوَاحِدَةَ، تَكُونُ مِثْلَ مِثْلِهَا فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ يَشْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي يَتْلُوهُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ بِالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ لَفْظًا أَوْ مَعْنَى، كَمَا هُوَ الْمَتَعَارِفُ عِنْدَ مَنْ يَرِيدُ نَقْلَ كَلَامٍ لَا يَرْضِيهِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَنْ يَنْقُصَ فِيهِ أَوْ يَزِيدَ - لَوْ وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ - وَإِنَّمَا أَنْ يَفْسِرَهُ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَفَهَمُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ فَكَيْفَ يُؤْمِنُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ بَعْدَ تَعَقُّلِ هَذَا الْعَمَلِ.

[٧٧] وَإِذَا لَقُوا مِنَ الْمَلَاقَةِ، أَيُّ لَقِيَ الْيَهُودَ وَكَانَتْ هَذِهِ خِصْلَةٌ بَعْضُهُمْ نَسَبَتْ إِلَى الْجَمِيعِ، كَمَا هُوَ الْمَتَعَارِفُ مِنْ نَسَبَةٍ مَا يَقُومُ بِهِ الْبَعْضُ إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٦

[سورة البقرة (٢): آية ٧٧]

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

الْجَمِيعِ الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هَذَا مَوْجُودٌ فِي كِتَابِنَا بِوصفه و حليته، و لم يقصدوا الإيمان الحقيقي كسائر المسلمين، و لا- الإيمان الظاهري كالمنافقين، و إنما أريد الإيمان بمعناه اللغوي، و هذا ذم لهم، حيث إنهم اتصفوا بصفات المنافقين و إذا خلا- بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَ جَمَعَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ وَ غَيْرَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْيَهُودِ، مَجْلِسُ خَالٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا أَيُّ قَالَ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَظْهَرُ الْإِيمَانَ لِمَنْ أَظْهَرَهُ أَوْ تَحَدَّثُوا عَنْهُمْ أَيُّ لِمَاذَا تَحَدَّثُونَ الْمَسْلُومِينَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَيُّ بِمَا عَرَفْتُمْ اللَّهَ فِي كِتَابِكُمْ، بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ، يُقَالُ فَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ إِذَا أُرْشِدَهُ إِلَيْهِ وَ عِلْمَهُ بِهِ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَيُّ إِذَا أَظْهَرْتُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ لِلْمَسْلُومِينَ، أَنْ فِي كِتَابِكُمْ صِفَاتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَاجُّوكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ فَيَقُولُ الْمَسْلُومُونَ لِلْيَهُودِ الْمَظْهَرِينَ أَنْتُمْ ذَكَرْتُمْ أَنْ فِي كِتَابِكُمْ صِفَاتُ النَّبِيِّ، فَلَمْ تَتَّعَقِلُوا أَيُّهَا الْيَهُودُ الْمَظْهَرُونَ لِلْمَسْلُومِينَ، أَنْ إِظْهَارَكُمْ سَبَبٌ لَغَلْبَةِ الْمَسْلُومِينَ عَلَيْكُمْ فِي الْحُجَّةِ عِنْدَ اللَّهِ.

[٧٨] أَوْ لَا يَعْلَمُونَ يَعْنِي الْيَهُودَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ يَسِرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا الْفَائِدَةُ فِي أَنْ لَا يَظْهَرُوا صِفَاتِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٨ إلى ٧٩]

وَمِنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

النبي، فإن الله يعلم أنهم يعلمون صفاته، و لا يؤمنون به عنادا.

[٧٩] وَمِنْهُمْ أَيُّ مِنَ الْيَهُودِ أُمَّيُونَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمِّ، بِمَعْنَى مَنْ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ كَأَنَّهُ نَشَأَ تَحْتَ تَرْبِيَةِ أُمِّهِ، لَا تَحْتَ تَرْبِيَةِ الْمَعْلَمِ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ الْأَمَانِيُّ جَمْعُ أَمْنِيَّةٍ، كَالْأَغَانِي جَمْعُ أَغْنِيَّةٍ، وَالْأَمَانِيُّ الْأَحَادِيثُ الْمَخْتَلِفَةُ، أَيُّ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِهَا، وَإِنَّمَا هُمْ جُهَلَاءٌ، يَأْخُذُونَ أُمُورَ الْكِتَابِ عَنْ عُلَمَائِهِمْ مُحَرَّفَةً مَخْتَلِفَةً، فَلَا يَمَيِّزُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَإِنْ هُمْ أَيُّ مَا هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ بِصِحَّةِ مَا يَسْمَعُونَ، وَ لَا يَتَيَقَّنُونَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَطَّلِعُوا الْكِتَابَ بِأَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يَعْرِفُونَ مَا فِيهِ.

[٨٠] فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ أَيُّ لِعُلَمَائِهِمْ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ أَيُّ التَّوْرَةَ بِأَيْدِيهِمْ كِنَايَةً عَنْ أَنَّهَا غَيْرُ مَنزَلَةٍ، وَ إِنَّمَا مَكْتُوبَةٌ مَبْعُوثَةٌ مِنَ الْأَيْدِي لَا الْوَحْيَ وَالْإِلْهَامَ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا الْمَكْتُوبُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنَّهُ مَنزَلٌ مِنْهُ لِيَشْتَرُوا بِهِ أَيُّ بِمَا يَكْتُبُونَهُ ثَمَنًا قَلِيلًا لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَظْهَرُونَ مَا فِي التَّوْرَةِ حَقِيقَةً رَجَعُ مَقْلُودُهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَكُونُوا يَبْدُلُونَ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْاحْتِرَامَ فَوَيْلٌ لَهُمْ أَيُّ لِلَّذِينَ

يكتبون الكتاب بأيديهم مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّهُ يُوجِبُ عَذَابًا، لَأَنَّهُ تَحْرِيفٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٠ إلى ٨١]

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

لكلام الله تعالى وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ من الأموال إزاء تحريفاتهم، فإن ثمن الحرام حرام آخر، وذلك موجب للعذاب فإنه أكل للأموال بالباطل، و الويل أصله الهلاك و العذاب، ثم استعمل في كل واقع في الهلكة.

[٨١] وَقَالُوا أَى قَالَ قِسْمٍ مِنَ الْيَهُودِ لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً فَلَنْ نَعَذَّبَ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، عَلَى تَقْدِيرِ كَفَرْنَا وَعَصِيانًا، فَلَمَّا ذَا نَتْرَكَ رِئَاسَةَ الدُّنْيَا خَوْفًا مِنْ عَذَابٍ قَلِيلٍ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَتَّخَذْتُمْ أَى هَلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا بِذَلِكَ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَزُورًا مَا لَا تَعْلَمُونَ وَ مِنْ أَدْرَاكِمُ أَنَّ الْعَذَابَ أَيَّامًا مَعْدُودَةً.

[٨٢] بَلَى لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالُوا وَ لَكِنْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ لَمْ يَنْقَلِعْ عَنْهَا بَلْ أَحَاطَتْ بِهَا خَطِيئَتُهُ كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَقَعُ فِي دَخَانٍ حَيْثُ يَحِيطُ بِهِ الدَّخَانُ، حَتَّى لَا يَنْتَفِسُ وَ لَا يَبْصُرُ وَ لَا يَسْمَعُ إِلَّا فِي الدَّخَانِ، وَ كَذَلِكَ الْمُشْرِكُ الْمُنْحَرِفُ فِي الْخَطِيئَةِ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِلَى الْأَبَدِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٤٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٢ إلى ٨٣]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣)

[٨٣] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَ أَسْتَتَمُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الْإِسْلَامُ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ بِهَا لَا انْقِطَاعَ لَهَا وَ لَا زَوَالٍ.

[٨٤] وَ اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَهْدَهُمْ الْأَكِيدَ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ، بَأَنَّ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ وَ بَأَنَّ أَحْسَنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَسِيئُوا إِلَيْهِمَا وَ أَحْسَنُوا إِلَى ذِي الْقُرْبَىٰ أَقْرَبَائِهِمْ وَ الْيَتَامَى الَّذِينَ مَاتَ وَالِدُهُمْ وَ الْمَسَاكِينِ الْفُقَرَاءَ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ ذَلِكَ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَ الْإِرْشَادَ وَرَدَ الْأَعْتَادَ بِالْحَسَنِ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ هُمَا فِي سَائِرِ الْأُمَمِ، لَمْ يَكُنَا بِهَذَا الشَّكْلِ الْمَوْجُودِ فَعَلَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ أَعْرَضْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ الَّذِينَ عَمِلُوا بِأَوْامِرِنَا وَ أَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ «تَوَلَّيْتُمْ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ١٩٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٤ إلى ٨٥]

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا- تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتُواكُمْ أَسَارَىٰ تَفَادَوْهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)

[٨٥] وَ اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ عَهْدَكُمْ الْأَكِيدَ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ أَى لَا يَسْفِكُ بَعْضُكُمْ دِمَاءَ

بعض ولا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَى لا يخرج بعضكم بعضا من الديار، بأن يسفرهم و يبعدهم ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ بِذَلِكَ الميثاق، بأن أعطيتمونا العهود بذلك و أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ أَيْهَا اليهود، بوقوع هذا الميثاق بيننا.

[٨٦] ثُمَّ بعد ذلك الميثاق أَنْتُمْ هُوَ لِأَنَّ الَّذِينَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ مَخَالِفَةً لِأَمْرِنَا تَظَاهَرُونَ أَنْتُمْ أَى يتعاون بعضكم مع بعض فى إخراجكم لهم تظاهرا عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ لا إخراجا بالحق و الحال إِنْ يَأْتُوَكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَى كيف يخرج بعضكم بعضا، و يقتل بعضكم بعضا، مع أنكم إذا وجدتم بعضكم أسيرا فى أيدي غيرهم، تعطون الفدية لخلصهم، فإن كان بينكم عدا، فما هذه الفدية، و إن كان بينكم و داد فما هذا القتل و الإخراج. روى عن ابن عباس: أن قريظة و النضير، كانا أخوين، كالأوس و الخزرج، فافترقوا فكانت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥١

[سورة البقرة (٢): آية ٨٦]

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)

النضير مع الخزرج، و كانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقا لما فى التوراة «١»، و روى عن آخر أن اليهود كانوا إذا استضعفوا جماعة آخرين أخرجوهم من ديارهم أَفْتَوْمُنُونَ أَيْهَا اليهود بِبَعْضِ الْكِتَابِ أَى التوراة القائل بوجوب إعطاء الفدية لأسراكم وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضِ الْقَائِلِ بِحُرْمَةِ الْقَتْلِ وَ الإخراج و التظاهر بالإثم و العدوان فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَحْكَمُوا أَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ إِلا خِزْيٌ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بالترفة و الضعف و المهانة عند سائر الأمم وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ بمخالفتهم أوامر الله سبحانه وَ مَا اللهُ أَى ليس الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فإنه يعلم أعمالكم، فيجازيكم عليها.

[٨٧] أُولَئِكَ اليهود الذين خالفوا الأوامر بتلك الأفعال الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فباعوا الآخرة، و أخذوا الدنيا بدلها

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ هناك.

[٨٨] وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ أعطينا التوراة إياه وَ قَفَيْنَا أَى أردفنا و أتبعنا بعضهم خلف بعض مِنْ بَعْدِهِ أَى بعد موسى بِالرُّسُلِ رسول يتبع رسولا وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ جمع بينه، أَى الدلالة الواضحة، و هى المعجزات التى أعطيت لعيسى عليه السلام من إبراء الأكمه و الأبرص، و إحياء الموتى وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ التأييد التقوية، و روح القدس، إما جبرئيل عليه السلام، أو روح قويه من الله سبحانه فيه تقوية على التبليغ و الإرشاد مع كثرة أعدائه أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ أَيْهَا اليهود رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ و لا يمثل إليه من الأحكام اسْتَكْبَرْتُمْ و تكبرتم عن قبول أحكام الله سبحانه فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ كعيسى و محمد صلوات الله عليهما وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ كزكريا و يحيى عليها السلام؟ و هذا استفهام إنكارى عليهم.

[٨٩] وَ قَالُوا أَى قالت اليهود للنبي صلى الله عليه و آله و سلم قُلُوبُنَا غُلْفٌ جمع أغلف، بمعنى إنها فى غطاء و غلاف عن هدايتكم، فلا تصل الهداية إليها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٣

[سورة البقرة (٢): آية ٨٩]

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)

كما فى آية أخرى وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴿١﴾ بَلْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَابْعَدَهُمْ عَنِ الْخَيْرِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا وَ لَمْ يَمْتثلُوا أَوَامِرَ اللَّهِ، ابْعَدَهُمُ اللَّهُ عَنِ الْخَيْرِ، كَمَنْ لَا- يَسْمَعُ شَخْصًا أَمْرَهُ فَيَتْرَكُهُ وَلَا- يَعْتَنِي بِهِ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ لَمَّا رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَظَلَمَتْ نَفُوسَهُمْ بِالْكَفْرِ.

[٩٠] وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَى الْيَهُودِ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ أَى الْكِتَابِ الَّذِى مَعَ الْيَهُودِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَصْدُقُ التَّوْرَةَ الْحَقِيقِيَّ الْمُنزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴿٢﴾ وَكَانُوا أَى الْيَهُودِ مِنْ قَبْلُ أَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ يَنْزَلَ الْقُرْآنُ يَسْتَفْتِحُونَ أَى يَطْلُبُونَ الْفَتْحَ مِنَ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ اللَّهَ، أَنْ يَبْعَثَ الرَّسُولَ، حَتَّى يَكُونُوا أَرْجَحَ كَفْرَهُ مِنَ الْكُفْرِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا أَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِى عَرَفُوهُ بِصِفَاتِهِ وَ مَزَايَاهُ كَفَرُوا بِهِ وَ أَخَذُوا يَحَارِبُوهُ، بَلْ فَوْقَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجِحُونَ الْكَافِرِينَ عَلَى

(١) فصلت: ٦.

(٢) المائدة: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٤

[سورة البقرة (٢): آية ٩٠]

بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

الرَّسُولَ وَ الْمُؤْمِنِينَ قَائِلِينَ (هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا) ﴿١﴾ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ الْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ بِالْقُرْآنِ، وَ هُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ.

[٩١] بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَى بِئْسَ الشَّيْءَ الَّذِى بَاعَ الْيَهُودَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَعْطَوْا أَنْفُسَهُمْ لِلْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ، وَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَدَلَ «مَا» أَى بِئْسَ الْكُفْرَ الَّذِى أَخَذُوهُ مَقَابِلَ أَنْفُسِهِمْ، وَ ذَلِكَ تَشْبِيهِهِ، فَكَأَنَّ الْكُفْرَ وَ الْإِسْلَامَ، سَلَعَتَانِ فَمَنْ أَخْتَارَ أَحَدَهُمَا بَاعَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ الشَّيْءِ، إِذْ يَصْرِفُ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، فَإِذَا بَاعَ نَفْسَهُ مَقَابِلَ الْإِسْلَامِ كَانَ نَعَمَ مَا اشْتَرَى بِهِ نَفْسَهُ، وَ إِذَا بَاعَ نَفْسَهُ مَقَابِلَ الْكُفْرِ كَانَ بِئْسَمَا اشْتَرَى بِهِ نَفْسَهُ، وَ اشْتَرَى هُنَا بِمَعْنَى الْبَيْعِ، كَمَا قَالَ (وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) ﴿٢﴾ بَغْيًا أَى حَسَدًا، وَ هُوَ عَلَةٌ لِاشْتِرَائِهِمُ السَّيِّئِ، أَى كَانَ سَبَبَ شُرَائِهِمُ الْكُفْرَ الْحَسَدَ، الَّذِى كَانَ فِيهِمْ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، حَيْثُ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، لَا مِنْ وَلَدِ جَدِّهِمْ إِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ الدِّينَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ أَنْ يَنْزَلَ، مُتَعَلِّقٌ بـ «بَغْيًا» أَى أَنَّ الْحَسَدَ مِنْ جِهَةِ نَزُولِ الْقُرْآنِ

(١) النساء: ٥٢.

(٢) البقرة: ٢٠٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٥

[سورة البقرة (٢): آية ٩١]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوَّابُونَ أَوْ يَكْفُرُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ

مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

على محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره فبأى رجح اليهود بغضب على غضب فإنهم كانوا مغضوب عليهم من جهة تعدياتهم في زمان موسى وعيسى، و سائر الأنبياء عليهم السلام، فغضب الله عليهم مرة أخرى من جهة كفرهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وللكافرين الذين من أظهر مصاديقهم اليهود عذاب مهين وهو العذاب الذى يذل صاحبه ويهينه.

[٩٢] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَى لِّلْيَهُودِ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ أَى وَرَاءَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَى مَا وَرَاءَ كِتَابِهِمُ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ وَالْجَمْلَةُ حَالِيَةٌ قُلْ إِنَّكُمْ تَكْذِبُونَ فِي قَوْلِكُمْ «نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا» فَإِنَّكُمْ لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ، حَتَّى بِالتَّوْرَةِ وَإِلَّا فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ فِي السَّابِقِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِالتَّوْرَةِ، فَإِنَّ كِتَابَكُمْ حَرَمَ قَتْلَ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَنْتُمْ لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ، لَا بِكِتَابِكُمْ، وَلَا بِمَا بَعْدَ كِتَابِكُمْ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) [٩٣] وَكَيْفَ تَقُولُونَ «نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا» وَعَمَلِكُمْ، يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، فَ لَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ أَى بِالْحُجُجِ الْوَاضِحَةِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ إِلَهَا لَكُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَى بَعْدَ رِوَاحِهِ إِلَى الطُّورِ وَالْحَالِ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِكُمْ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ، فَلَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِمَا نَزَلَ عَلَيْكُمْ، لَمْ تَتَّخِذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا؟.

[٩٤] وَادْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ عَهْدَكُمْ الشَّدِيدِ، بِالْعَمَلِ بِالتَّوْرَةِ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ أَى قِطْعَةً مِنْ جَبَلِ الطُّورِ - كَمَا تَقْدِمُ - وَقَلْنَا لَكُمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ أَى بِشِدَّةٍ، بِمَعْنَى الْعَمَلِ، بِكُلِّ مَا فِي الْكِتَابِ عَمَلًا مُسْتَمِرًّا قَوِيًّا وَاسْمَعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا حِكَايَةَ حَالِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ قَالُوهُ بِلَفْظِهِمْ اسْتِهْزَاءً وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ فَكَمَا أَنَّ مِنْ شَرِبِ الْمَاءِ يَدْخُلُ الْمَاءُ فِي جَوْفِهِ، كَذَلِكَ الْيَهُودَ، دَخَلَ الْعِجْلُ - أَى حَبِّهِ - فِي قُلُوبِهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ بِسْمِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ الَّذِي قَلْتُمْ «نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا» فَإِنَّ الْإِيْمَانَ الَّذِي يَأْمُرُ بِاتِّبَاعِ الْعِجْلِ، لَيْسَ إِيْمَانًا، وَإِنَّمَا هُوَ كُفْرٌ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٤ إلى ٩٥]

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَئِيدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ لَهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا كَرَّرَ «رَفَعَ الطُّورَ» لِلدَّلَالَةِ، عَلَى أَنَّهُمْ عَكَسُوا الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُمْ، حَالِ الرِّفْعِ، بَلِ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا.

[٩٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْيَهُودِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ أَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ لَا يَشْرِكُونَ فِيهَا غَيْرَهُمْ مِنَ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمَا إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ صِفَةُ الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ عِنْدَ اللَّهِ، وَ مِنْ دُونِ النَّاسِ صِفَةُ لِخَالِصَتِهِ، أَوْ لِقَوْلِهِ «لَكُمْ» فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ لِأَنَّ مِنْ يَدْرِى أَنَّ مَصِيرَهُ الْجَنَّةَ، لَا بَدَّ وَأَنَّ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، حَتَّى يَخْلُصَ مِنَ الْآلَمِ الدُّنْيَا وَتُعَابَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي مَقَالِكُمْ وَ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ مَا تَقُولُونَهِ بِالْأَسْتِكْمِ.

[٩٦] ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا صَادِقِينَ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَى الْمَوْتَ أَئِيدًا فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ بِسَبَبِ مَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ وَ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا نَسَبَ التَّقْدِيمَ إِلَى الْيَدِ لِأَنَّهَا الْآلَةُ الظَّاهِرَةُ فِي تَقْدِيمِ الْأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَةِ غَالِبًا وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ فَلَا يَغْتَرُونَ بِمَقَالِهِمْ، أَنْ لَهُمِ الْآخِرَةُ، وَ أَنْهُمْ أَحِبَاءُ اللَّهِ دُونَ سِوَاهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)

[٩٧] وكيف يتمنون الموت، والحال أنك يا رسول الله لتجدنهم أحرص الناس على حياة فإنهم أشد حرصا من سائر الناس على البقاء في الدنيا، لأنهم يعلمون أن آخرتهم إلى النار والعذاب وحتى أنهم أحرص من الذين أشركوا إذ المشرك، يزعم أنه لا شيء وراءه، فيكون حريصا على البقاء لئلا يفنى، وهؤلاء حيث يعلمون العقاب، فهم أحرص من المشركين يود أي يحب أحدهم أي كل واحد منهم لو يعمر و يطول عمره ألف سنة حتى لا- يذوق العذاب عاجلا- والحال ما هو أي ليس التعمير بمزحجه من العذاب زحزه أي نحاه، وقوله أن يعمر بدل «هو» أي ما التعمير بمزحجه من العذاب، فما الفائدة في البقاء ألف سنة لمن عاقبه النار والله بصير بما يعملون من الكفر والسيئات، فيجازيهم عليها يوم القيامة بالنار والعذاب.

[٩٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوكَ وَقَالُوا لَكَ لَوْ أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي يَأْتِيكَ مِكَايِيلَ لَأَمْنَا بِكَ فَإِنَّهُ مَلِكُ الرَّحْمَةِ يَأْتِي بِالسُّرُورِ وَالرِّخَاءِ وَهُوَ صَدِيقُنَا وَجِبْرَائِيلُ مَلِكُ الْعَذَابِ يَنْزِلُ بِالْقَتْلِ وَالشَّدَةِ وَالْحَرْبِ وَهُوَ عَدُونَا فَإِنْ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ جِبْرَائِيلُ لَا تَوَمَّنْ بِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٥٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ لَيْسَ سَبِيًّا فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى تَتَّخِذُونَهُ عَدُوًّا بَلْ إِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَى لِلْكِتَابِ الَّذِي قَبْلَهُ وَهُوَ التَّوْرَةُ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَأَى ذَنْبَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى تَتَّخِذُونَهُ عَدُوًّا وَلَا تَوَمَّنُونَ بِالْكِتَابِ الَّذِي يَأْتِي بِهِ.

[٩٩] مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ أَى يَفْعَلُ فَعَلَ الْمَعَادَى مِنَ الْإِتْيَانِ بِمَا يَكْرَهُهُ سَبْحَانَهُ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ وَإِنَّمَا خَصَمَهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا مَوْضِعُ الْبَحْثِ مَعَ الْيَهُودِ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ إِذْ كُلٌّ مِنْ يِعَادَى أَحَدٍ هَوْلًا يَكُونُ كَافِرًا وَاللَّهُ عَدُوٌّ لِمَنْ كَفَرَ أَى يَفْعَلُ مَعَهُ فَعَلَ الْمَعَادَى مِنَ الْإِهَانَةِ وَالتَّعْذِيبِ وَالْعِقَابِ.

[١٠٠] وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ الْفَاسِقُ هُوَ الْخَارِجُ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦٠

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]

أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

[١٠١] أَوْ كُلَّمَا عَاهَدُوا أَى الْيَهُودَ عَهْدًا نَبَذَهُ أَى نَقَضَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ أَى جَمَاعَةٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَ هَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِى نَقْضِهِمْ عَهْدَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ بِإِطَاعَتِهِمْ وَ نَقْضِهِمْ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِى قِصَّةِ نَضِيرٍ وَ قَرِيضَةَ وَ الْمَرَادُ بِالْإِيمَانِ: إِمَّا الْإِيمَانُ بِالْعَهْدِ وَ إِمَّا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ رَسَلِهِ وَ إِمَّا الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ إِذَا قَالَ أَكْثَرُهُمْ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ آمَنَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ.

[١٠٢] وَ لَمَّا جَاءَهُمْ أَى الْيَهُودَ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ كَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ نَبَذَ فَرِيقٌ أَى جَمَاعَةٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ التَّوْرَةَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ تَرَكُوا أَمْرَهُ بِاتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَى مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ الْإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ.

[١٠٣] وَ اتَّبَعُوا عَوْضَ الْكِتَابِ - السَّحْرِ - فَنَبَذُوا الْكِتَابَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ رَاحُوا يَتَلَقُّونَ بِمَا تَتَلَوْنَ وَ تَقْرَأُ الشَّيَاطِينُ وَ السَّحْرَةُ عَلَى مُلْكِكَ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حَيْثُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ عَلَى لِسَانِ السَّحْرَةِ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦١

زَمَانَ سَلِيمَانَ كَانُوا يَتَلَوْنَ السَّحْرَ لِلنَّاسِ وَ «عَلَى» بِمَعْنَى «فِي» كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ «عَلَى لِلِاسْتِعْلَاءِ وَ مَعْنَى فِي وَ عَنِ» أَى أَنَّ الْيَهُودَ أَخَذُوا يَتَلَقُّونَ بِالسَّحْرِ الَّذِي كَانَ فِي زَمَانِ سَلِيمَانَ يَرِيدُونَ بِذَلِكَ جَلْبَ الْأَمْوَالِ وَ التَّقَرُّبَ إِلَى النَّاسِ وَ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أُوتِيَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ بِسَبَبِ أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ بِالسَّحْرِ فَفَرَدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ وَ مَا كَفَرَ سَلِيمَانُ فَإِنَّ السَّحْرَ مُوجِبٌ لِلْكَفْرِ وَ لَا يَخْفَى أَنَّ الْكَفْرَ عَلَى نَوْعَيْنِ: كَفْرٌ فِي الْعَقِيدَةِ وَ كَفْرٌ فِي الْعَمَلِ، فَالْكَفْرُ فِي الْعَقِيدَةِ هُوَ إِنْكَارُ أَصُولِ الدِّينِ، وَ الْكَفْرُ فِي الْعَمَلِ هُوَ تَرْكُ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلٍ، وَ لِذَا شَاعَ اسْتِعْمَالُ الْكَفْرِ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ وَ فِعْلِ النَّوَهِى كَقَوْلِهِ تَعَالَى وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنِ الْعَالَمِينَ «١» فِي قِصَّةِ الْحَجِّ وَ قَوْلِهِ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ «٢» فِي بَابِ الشُّكْرِ وَ

قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ «كَفَرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَشْرَةٌ»

وَ عَدَّ مِنْهَا النَّمَامَ وَ نَحْوَهُ وَ عَلَى أَى حَالٍ فَسَلِيمَانَ مَا كَانَ سَاحِرًا وَ لَمْ يَنْلِ مَا نَالَ بِالسَّحْرِ وَ إِذَا بِالنَّبِوَةِ وَ الْمَوْهَبَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا بِعَمَلِهِمْ بِالسَّحْرِ وَ تَعْلِيمِهِمْ لِلنَّاسِ إِيَّاهُ وَ الشَّيَاطِينُ أَرْوَاحُ شَرِيرَةٌ تَلْقَى الشَّرَّ فِي النَّفْسِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ أَيْضًا وَ غَيْرِهِ فِي بَابِ التَّحْضِيرِ وَ التَّنْوِيمِ الْمَغْنَطَيْسِيِّ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَ السَّحْرُ أُمُورٌ غَيْرٌ طَبِيعِيَّةٌ تَأْتِي بِعِلَاجِ خَفَى وَ مِنْهُ التَّنَصُّفُ

(١) آل عمران: ٩٨.

(٢) إبراهيم: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦٢

فِي الْعَيْنِ وَ فِي النَّفْسِ وَ فِي الْعَقْلِ فَيُوجِبُ عَدَاوَةً بَيْنَ النَّاسِ وَ مَرَضًا وَ مَا أَشْبَهَ وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ «مَا تَتَلَوْنَ» أَى أَنَّ الْيَهُودَ تَرَكُوا الْكِتَابَ وَ اتَّبَعُوا سَحْرَ الشَّيَاطِينِ وَ سَحْرَ الْمَلَكَيْنِ وَ مِنْ قِصَّتِهِمَا أَنَّ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثُرَتِ السَّحْرَةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَكَيْنِ فِي «بَابِلَ» عَلَى نَبِيِّ ذَلِكَ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْلَمَانَ النَّاسَ إِبْطَالَ السَّحْرِ فَكَانَا يَقُولَانِ لِلنَّاسِ «هَذَا السَّحْرُ وَ هَذَا إِبْطَالُهُ» كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَكْتُبُ كِتَابَ الطَّبِّ فَيَصِفُ الدَّاءَ وَ مَا يَسَبِّبُهُ وَ الدَّوَاءَ الْمَزِيلَ لَهُ فَيَقُولُ مِثْلًا إِنَّ الشَّيْءَ الْفُلَانِي سَمٌ وَ دَوَائِهِ كَذَا فَكَانَ الْمَلِكَانِ يَعْلَمَانِ السَّحْرَ وَ إِبْطَالَهُ وَ يَحْذِرَانِ النَّاسَ أَنْ يَعْمَلُوا بِالسَّحْرِ وَ إِذَا يَصْرَانِ أَنْ يَبْطَلُوا السَّحْرَ فَإِذَا تَعَلَّمَ مِنْهُمَا النَّاسُ أَخَذَ بَعْضُهُمْ بِالسَّحْرِ كَمَا أَنَّ الشَّخْصَ يَقْرَأُ كِتَابَ الطَّبِّ فَيَسْقِي النَّاسَ السَّمَّ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ ذَنْبِ الْمُؤَلِّفِ لِلطَّبِّ وَ إِذَا هُوَ مِنَ الْعَامِلِ بِمَا يَضُرُّ النَّاسَ.

فَقَدْ تَرَكَ الْيَهُودَ كِتَابَ اللَّهِ وَ أَخَذُوا بِالْعِلْمِ الَّذِي أَنْزَلَ - أَى أَنْزَلَ اللَّهُ - عَلَى الْمَلَكَيْنِ الَّذِينَ نَزَلَا بِبَابِلَ وَ هُمَا هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ لَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّهُمَا كَيْفَ يَعْلَمَانِ السَّحْرَ لِلنَّاسِ وَ هُمَا مَلِكَانِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ أَى مَا يَعْلَمَانِ أَحَدَ السَّحْرِ حَتَّى

يقع بالنسبة إلى القرآن الكريم و إنما بالنسبة إلى الكتب السالفة و لذا لا يوجد كثير منها فعلا، أما النسخ فإنه وقع بالنسبة إلى القرآن- على الأشهر- و إلى غيره نأت بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا و إنما يقع النسخ و الإنشاء فيما يؤتى بالمثل لأن المثل أصلح من المنسوخ و المنسى، فمثلا إذا سقطت ورقة مالية عن الاعتبار فيأتى الحاكم بورقة أخرى مثلها فى القيمة، كما أنه قد يأخذ درهما من زيد ليعطيه بدله ديناراً أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْيَهُودَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٧ إلى ١٠٨]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

المنكر للنسخ أن الله على كل شىء قدير فإن اليهود كانوا يلقون الشبهة بأنه كيف يمكن نسخ كتابهم بالقرآن و أنه إن كان كتابهم صالحا فلما ذا ينسخ و إن لم يكن صالحا فلما ذا أنزله الله تعالى، و قد كان الجواب إن عدم النسخ إما لعدم مثل أو أصلح و إما لعدم قدرة الله تعالى على النسخ و كلا الأمرين مفقودان، فالمثل و الأصلح موجودان و الله على كل شىء قدير.

[١٠٨] أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْمُنْكَرُ لِلنَّسْخِ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَوْضَاعِ وَالْأَحْكَامِ كَيْفَ يَشَاءُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أُمُورَكُمْ وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُكُمْ فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَى صِلَاحَكُمْ فِي النَّسْخِ وَالْإِنْسَاءِ فَإِنَّ الْمَصَالِحَ تَخْتَلِفُ حَسَبَ اخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ وَالْأَشْخَاصِ، وَ لَقَدْ كَانَ شَأْنُ آيَاتِ اللَّهِ أَنْ تَنْهَضَ بِالْبَشَرِ مَرْتَبَةً فَمَرْتَبَةٌ حَتَّى وَصَلَتْ النُّبُوَّةَ لِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ وَ هَذِهِ بَدَلَتْ بَعْضَ جُزْئِيَّاتِهَا قَبْلَ تَمَامِهَا وَ كَمَالِهَا تَحْقِيقًا لِلتَّنَاسُقِ بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَ بَيْنَ الْعَصْرِ، حَتَّى إِذَا كَمَلَتْ لَمْ يَبْقَ مَبْرَرٌ أَوْ تَحْوِيرٌ بَلْ تَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ.

[١٠٩] أَمْ تُرِيدُونَ أَيُّهَا الْمَعَاصِرُونَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ مُسْلِمٍ وَ كِتَابِيٍّ وَ مُشْرِكٍ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ أَسْئَلَةً تَعْنَتْ وَ لِحَاجَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦٧

[سورة البقرة (٢): آية ١٠٩]

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَ اصْرِفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

كما سئل موسى من قبل حيث كانوا يقترحون عليه اقتراحات و يسألونه محالات كقولهم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فإن المعاصرين كانوا يسألون ما لا يعينهم أو ما أشبه كقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا «١» فقد زجرهم الله سبحانه لهذه الأسئلة التى لا ترتبط بمقام الرسول و الرسالة من بعد ما تبين لهم الهدى، و قوله «رسولكم» لا يختص بالمؤمنين إذ يكفى فى الإضافة أدنى ملابسة و مَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ بِأَنْ يَأْخُذَ الْكُفْرَ وَ يَتْرَكَ الْإِيمَانَ الَّذِي مِنْ مَصَادِيقِهِ الْأَسْئَلَةُ التَّعْنِيتِيَّةُ إِذْ إِنَّهَا مِنْ سَمَاتِ الْكُفْرِ وَ الْإِنْحِرَافِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ أَى وَسْطَهُ الْمَوْصِلِ إِلَى الْمَطْلُوبِ.

[١١٠] وَدَّ أَى أَحَبَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا فَتَكُونُونَ مِثْلَهُمْ حَسَدًا لَكُمْ كَيْفَ صَرْتُمْ إِلَى حَضْرَةِ الْإِيمَانِ وَ تَقَدَّمْتُمْ فِي الْحَيَاةِ وَ هَذَا الْحَبُّ لَيْسَ مِنْ جِهَةٍ أَنَّهُمْ مُتَدِينُونَ فَيَأْسِفُونَ عَلَيْكُمْ لِمَاذَا تَرَكْتُمْ الْإِيمَانَ بَلِ الْحَبُّ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ تَشْبِيهَا

(١) الإسراء: ٩٣.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٠ الى ١١١]

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَّا يُهَيِّئُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)

و حسب أهوائهم أى أن مبدأ الحب هوى النفس لا الدين مِنْ بَعِيدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فليس ذلك لجهلهم بدينكم و حقيقتكم فأعفوا أيها المسلمون عنهم وَ اضِفُوا عَنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ وَ لَا تَقَابِلُوا إِسَاءَتَهُمْ بِالْمِثْلِ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ فَيَأْذَنَ لَكُمْ فِي الْمُبَارَاةِ وَ الْمَقَاتِلَةِ وَ الْمَقَابِلَةِ بِالْمِثْلِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَيَأْتِي يَوْمَ يَجْعَلُكُمْ أَقْرَبًا فَتَمَكَّنُوا مِنْ مُحَارَبَتِهِ هُوَ لَا الْكُفَّارَ فَيَأْذَنَ لَكُمْ فِي الْمُبَارَاةِ مَعَهُمْ. [١١١] وَ أَمَا إِذَا لَمْ يَأْتِ اللَّهَ بِأَمْرِهِ فَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ لَا تَبَارِزُوا وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الزَّكَاةِ وَ سَائِرِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي هِيَ لِأَنْفُسِكُمْ لِأَنَّهَا تَعُودُ إِلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْأَلْفَةِ وَ فِي الْآخِرَةِ بِالثَّوَابِ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فَلَا يَضِيعُ شَيْءٌ يَصْرَفُ فِي وَجْهِهِ وَ لَا عَمَلٌ يُؤْتَى لِأَجَلِهِ.

[١١٢] وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى قَالَتِ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا الْيَهُودُ، وَ قَالَتِ النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا النَّصَارَى، وَ هُودٌ جَمْعُ هَائِدٍ، كَعُودٌ جَمْعُ عَائِدٍ تِلْكَ الْمَقَالَةُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٦٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٢ الى ١١٣]

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَ قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

أَمَّا يُهَيِّئُهُمْ جَمْعُ أَمْنِيَةٍ أَيْ رَغْبَتِهِمُ الْكَاذِبَةَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَهُمْ هَاتُوا أَى أَحْضَرُوا وَ جِئُوا بُرْهَانَكُمْ وَ دَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَدَّعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي مَقَالَتِكُمْ.

[١١٣] بَلَى جَوَابُ سُؤَالِ تَقْدِيرِهِ أَفَلَيْسَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ وَ مِنْ هُوَ؟ فَقِيلَ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ خَصَّ الْوَجْهَ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ فَإِذَا أَسْلَمَ الشَّخْصَ فَقَدْ أَسْلَمَ جَمِيعَ جَوَارِحِهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فِي عَمَلِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ فَهُوَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سِوَاءَ كَانُ يَهُودِيًّا فِي زَمَانِ مُوسَى أَوْ نَصْرَانِيًّا فِي زَمَانِ عِيسَى أَوْ مُسْلِمًا فِي زَمَانِ مُحَمَّدٍ أَوْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ فِي زَمَانِ أَنْبِيَائِهَا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

و هذا كلام معه دليله إذ معيار الدخول في الجنة الإيمان و العمل الصالح فلا يقال لمن يقول ذلك: هات برهانك.

[١١٤] وَ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَ قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ دِينٍ وَ إِيْمَانٍ وَ تَقْوَى فَكُلٌ طَائِفَةٌ تَجْعَلُ نَفْسَهَا النَّاجِيَةَ وَ غَيْرَهَا الْهَالِكَةَ وَ الْحَالُ إِنْ هُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ وَ التَّالِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٠

[سورة البقرة (٢): آية ١١٤]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

لِلْكِتَابِ لَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ إِذْ كُلُّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَهُ عَلَى بَعْضِ الشَّيْءِ، فَإِنَّ الْيَهُودَ يَعْرِفُونَ أَنَّ النَّصَارَى لَهُمْ إِيْمَانٌ فِي الْجَمْلَةِ وَ كَذَلِكَ النَّصَارَى يَعْرِفُونَ أَنَّ الْيَهُودَ لَهُمْ إِيْمَانٌ فِي الْجَمْلَةِ كَذَلِكَ الْقَوْلُ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْكُفَّارِ مِثْلَ قَوْلِهِمْ وَ هَذَا تَأْنِيْبٌ لِلطَّائِفَتَيْنِ حَيْثُ صَارُوا كَمَنْ لَا كِتَابَ لَهُ وَ هُوَ جَاهِلٌ فَإِنَّ الْجَاهِلَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ لَيْسَ الْيَهُودُ أَوْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ لِأَنَّهُ يَزْعَمُ بِطَلَانِ كِلَيْهِمَا فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُنَاكَ يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ طَائِفَةٍ إِنَّهُ عَلَى شَيْءٍ أَمْ لَا- فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَ لَعَلَّ

تخصيص الحكم بهناك لأن هناك لا تبقى شبهة في الحكم بخلاف حكمه سبحانه في الدنيا فإن من لا يؤمن بالإسلام لا يعترف بحكمه.

[١١٥] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ وَهِيَ عَامَةٌ لِّكُلِّ مَانِعٍ وَإِنْ كَانَ يَنْطَبِقُ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ مَنَعُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَبَحْتِ نَصِيرِ الَّذِي مَنَعَ عَنِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ أَى لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْ هَكَذَا شَخْصٍ وَ الْحَصْرِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْآيَةِ إِضَافِي وَ إِلا فَمَنْ قَتَلَ الْأَنْبِيَاءَ أَظْلَمَ وَ سَعَى فِي خَرَابِهَا خَرَابًا مَعْنَوِيًا بِمَنْعِ الْمُصَلِّينَ عَنْهَا أَوْ خَرَابِ الْعِمَارَةِ وَ الْبِنَاءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧١

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٥ إلى ١١٦]

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)

أَوْلَيْكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَمَنْ يَسْعَى فِي خَرَابِ الْمَسَاجِدِ كَيْفَ يَدْخُلُهَا آمِنًا أَوْ خَائِفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يِعَاقِبُوهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ بِالْعِقَابِ الْإِسْلَامِيِّ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ إِخْبَارٍ بِخِزْيٍ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَنْزِلُ بِمَنْ يَسْعَى فِي خَرَابِ الْمَسَاجِدِ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ حَيْثُ يَذُوقُ النَّارَ مَهَانًا وَ لَعْلَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَيْضًا تَلْمِيحٌ إِلَى فِعْلِ الْيَهُودِ بِمَنْعِهِمْ عَنِ الْمَسَاجِدِ.

[١١٦] وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَكِلْتَا الْجِهَتَيْنِ لَهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَهَا وَ هُمَا مَلِكٌ لَهُ وَحْدَهُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا وَجُوهَكُمْ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ وَجْهَ اللَّهِ جَانِبَهُ أَى أَنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِالْعِلْمِ وَ الْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ نَاحِيَةٍ فَإِذَا تَوَجَّهَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ وَ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَقَدْ تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ، وَ لَيْسَ اللَّهُ جِسْمًا حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَكَانٌ مَعِينٌ يَلْزَمُ التَّوَجُّهَ إِلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَ قُدْرَةٌ لِأَنَّهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْجِهَاتِ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى أَيْةٍ نَاحِيَةٍ، وَ رُبَّمَا قِيلَ بِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَدِّ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا كَيْفَ انصَرَفَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَنِ قِبْلَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

[١١٧] وَ قَالُوا الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَ النَّصَارَى قَالُوا الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا أَمَا بَانَ أَوْلَادُهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٧ إلى ١١٨]

بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَوْ اتَّخَذَ بِعِنَانِ التَّبْنِيِّ سُبْحَانَهُ أَى أَنْزَلَهُ عَنِ ذَلِكَ تَنْزِيهَا بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَمْلُوكُ وَلَدًا إِذِ الْوَلَدُ لَيْسَ مَلِكًا لِلْوَالِدِ، ثُمَّ إِنْ الْمَمْلُوكُ تَحْتَ التَّنْصِيفِ فَالتَّبْنِيُّ لِمَاذَا...؟ كُلُّ أَى كَلٍّ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَهُ تَعَالَى قَانِتُونَ أَى خَاضِعُونَ وَ مُطِيعُونَ.

[١١٨] يَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى مَبْدَعُهُمَا وَ مَنشئُهُمَا وَ خَالِقُهُمَا وَ هَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَنَّهُ «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» وَ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا وَ أَرَادَهُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ أَى لِذَلِكَ الْأَمْرِ الْمُرَادِ كُنْ أَى يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَوْجِدَ فَيَكُونُ أَى فَيَوْجِدُ عَقِيبَ أَمْرِهِ فَالْكَوْنُ بِهَذَا النِّحْوِ طَوْعٌ إِرَادَتِهِ وَ أَمْرُهُ.

[١١٩] وَ بَعْدَ ذِكْرِ اخْتِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ مَنعِهِمْ وَ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْمَسَاجِدِ، وَ شَرَكِهِمْ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ، تَعْرُضُ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ حَوْلَ كَلَامِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرِّسَالَةِ، فَقَالَ، وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَوَازِينَ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَى هَلَّا يَكَلِّمُنَا رَبَّنَا، بِأَنْ يَأْمُرَنَا بِأَوَامِرِهِ، بِدُونِ احْتِيَاجٍ إِلَى وَسِيطٍ، أَوْ يَكَلِّمُنَا بِأَنَّكَ نَبِيٌّ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ وَ مَعْجَزَةٌ حَسَبَ اقْتِرَاحِنَا كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٩ الى ١٢٠]

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

مِثْلَ قَوْلِهِمْ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فِي الْإِنْكَارِ وَفِي الْاِقْتِرَاحِ وَالتَّعْتِ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَكْلِيمِ اللَّهِ، وَلَا إِلَى الْإِتْيَانِ بِخَوَارِقِ اقْتِرَاحِهَا، إِذْ لَوْ كَانَ مَرَادُهُمْ بَيَانِ الْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ، فَقَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مَرَادُهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا إِيْتَامُ الْحُجَّةِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إِنَّمَا خَصَّهُمْ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا.

[١٢٠] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ تَأْكِيدًا لِلرِّسَالِ، إِذْ كُلُّ إِرسَالٍ لِلَّهِ تَعَالَى بِالْحَقِّ بَشِيرًا تَبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعِينَ وَنَذِيرًا تَنْذِرُ الْكَافِرِينَ وَالعَاصِينَ، فَأَنْتَ رَسُولُنَا، وَإِنْ كَانُوا يَشْكُونَ فِي رِسَالَتِكَ، وَيَسْأَلُونَكَ عَن أَشْيَاءِ تَافَهُهُ وَلَا تُسْئَلُ أَنْتَ عَن أَصْحَابِ الْجَحِيمِ فَلَسْتَ أَنْتَ مَكْلُفًا عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ التَّذْكِيرُ فَقَطْ.

[١٢١] وَحَيْثُ أَنْ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَالِ أَنْ كُلُّ صَاحِبِ مَبْدَأٍ لِيَسْتَمِيلَهُ الْخِصْمَاءُ إِلَى نَاحِيَتِهِمْ، وَيَعْدُونَهُ الرِّضَا عَنْهُ، إِذَا مَالَ نَحْوَهُمْ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ، أَنْ ذَلِكَ سَرَابٌ خَادِعٌ وَيَجِبُ أَنْ لَا يَغْتَرَّ بِهِ الْإِنْسَانُ، إِذْ لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى إِلَى الْأَبَدِ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ وَتَدْخُلَ فِي طَرِيقَتِهِمْ، إِذْ كُلُّ ذِي طَرِيقَةٍ لَا يَرْضَى عَن شَخْصٍ إِلَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢١ الى ١٢٢]

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)

بَدْخُولِهِ فِي طَرِيقَتِهِ تَمَامًا وَكَمَالًا قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّ هُدَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ هُوَ الْهُدَى فَقَطْ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَلَئِنَّ آتِبْتَ أَهْوَاءَهُمْ إِشَارَةً إِلَى أَنْ دِينَهُمْ لَيْسَ إِلَّا هَوَىٰ أَنفُسِهِمْ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بِالْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ وَبَطْلَانِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ مَا لَكَ أَى لَيْسَ لَكَ مِنَ اللَّهِ أَى مِنْ طَرَفِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَى فَلَا يَلِيَّ اللَّهُ تَعَالَى أَمُورَكَ وَلَا يَنْصُرُكَ.

[١٢٢] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ الْمُوصُوفِينَ بِكَذِبِهِمْ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ بِالْعَمَلِ بِمَا فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَى بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوِ بِالْقُرْآنِ أَوِ بِالْإِسْلَامِ أَوِ بِكِتَابِهِمْ إِيْمَانًا صَحِيحًا، لَا كإِيْمَانِ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ دُونَ بَعْضٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا، فَلَأَنَّ مِنْهَاجَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ هُوَ الْمَنْهَاجُ الْمُسَعَّدُ فِي الْحَيَاةِ، فَإِذَا عَرَضَ عَنْهُ الْإِنْسَانُ، كَانَتْ مَعِيشَتُهُ ضَنْكًا، وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ، فَلِلْعَذَابِ الْمَعْدُ لِلْكَافِرِينَ.

[١٢٣] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ إِرسَالِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٣ الى ١٢٤]

وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عِدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

الرِّسَالِ إِلَيْكُمْ، وَ إِهْلَاكَ عَدُوِّكُمْ، وَ جَعْلَكُمْ مُلُوكًا وَ تَوْسِيعِ الدُّنْيَا لَكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ فِي زَمَانِكُمْ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ - وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ -.

[١٢٤] وَ اتَّقُوا يَوْمًا أَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُوصُوفِ بِأَنَّهُ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا هُنَاكَ وَ إِنَّمَا تَرَى كُلَّ نَفْسٍ جَزَاؤَهَا الْعَادِلَ، فَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وَزْرَ أَحَدٍ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عِدْلٌ أَى فِدْيَةٌ تَعَادِلُهُ، فَيَفْكَ نَفْسَهُ بِالْفِدْيَةِ وَ الْمَالِ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ بَدُونَ رِضَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَلَا

هُمْ يُنصِرُونَ فلا ينصر أحد أحدا، وقد تقدمت مثل هذه الآية، لكن أريد الانتقال إلى موضوع آخر كرر المطلب السابق تذكيرا و تركيزا.

[١٢٥] وحيث تم بعض الكلام عن اليهود والنصارى والمشركين، انتقل السياق للكلام حول إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وبناء البيت مما يشترك فيه الجميع، وإن تاريخهم قبل تاريخ اليهودية والنصرانية، وقد اعتاد أن يتكلم المتكلم عن الظروف المعاصرة، ثم ينتقل إلى التواريخ الغابرة، واذكر يا رسول الله إذ ابتلى إبراهيم عليه السلام ربُّه فاعل ابتلى، أى امتحن الله إبراهيم بكلماتٍ أى بأمور، فإن الكلمة تقال للأمر، ولا يبعد أن يكون المراد بالكلمة نفس معناها العرفي، فالمعنى ابتلاه بكلمات تكلم الله أو الملك معه عليه السلام حولها لينفذها، ويأتى بمعناها، ولعل الكلمات كانت حول ذبح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٦

[سورة البقرة (٢): آية ١٢٥]

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

إسماعيل عليه السلام، أو حول مجابته نمرود الطاغى فَأَتَمَّهُنَّ بأن أطاع الأمر كاملا غير منقوص قال الله تعالى بعد إتمام الكلمات إنى جعلك يا إبراهيم للناس إماما والإمام هو المقتدى، وحيث أن «الناس» كالجمع المحلى باللام أفاد العموم، ولا منافاة بين كونه عليه السلام سابقا نبيا ورسولا، ولم يكن إماما عاما، ثم صار كذلك جزاء إتمام الكلمات قال إبراهيم عليه السلام سائلا الله تعالى وَمِنْ ذُرِّيَّتِي هل تجعل يا رب إماما؟ وهذا طلب المتأدب يأتى به فى لسان الاستفهام قال لا يتألَّ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ الطَّالِمِينَ وهذا جواب مع زيادة، إذ المفهوم منه، نعم أجعل بعض ذريتك، لكن غير الظالم منهم، وإنما خص هذا بالذكر، لبيان عظم مقام الإمامة.

[١٢٦] واذكر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ بِمَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي هل تجعل يا رب إماما؟ وهذا طلب المتأدب يأتى به فى لسان الاستفهام قال لا يتألَّ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ الطَّالِمِينَ وهذا جواب مع زيادة، إذ المفهوم منه، نعم أجعل بعض ذريتك، لكن غير الظالم منهم، وإنما خص هذا بالذكر، لبيان عظم مقام الإمامة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٧

[سورة البقرة (٢): آية ١٢٦]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

حول مقام إبراهيم فى الحج وعهدنا أى ذكرنا إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: الأب والابن أن طهَّرا بَيْتِي طهارة معنوية، بعدم السماح لنصب الأصنام فيه و طهارة ظاهرية بالنظافة للطائفين أى الذين يطوفون حول البيت والعاكفين الذين يعتكفون فى المسجد الحرام، وللاعتكاف مسائل وأحكام مذكورة فى كتب الفقه «١» وَالرُّكَّعِ جَمْعُ رَاكِعِ السُّجُودِ جمع ساجد، أى المصلين.

[١٢٧] واذكر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

الأمن، و سائر الأمور قليلا فإن

(١) راجع موسوعة الفقه ج ٧٧ ص ١٥١، في أحكام الاعتكاف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٧ إلى ١٢٨]

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

عمر الدنيا قصير، وأمدّها قليل ثُمَّ أَضْطَرُّهُ أَيُّ أَدْفَعُهُ إِلَى النَّارِ بِاضْطِرَارٍ مِنْهُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَرْضَى بِالنَّارِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ أَيُّ بَيْتِ الْمَأْوَى وَالْمَرْجِعِ.

[١٢٨] وَأَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ أَيُّ كَانَ يَبْنِي أُسَاسَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَيَرْفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَعَاوَنُهُ فِي ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ، وَهُمَا يَقُولَانِ فِي حَالِ الْبِنَاءِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا بِنَاءَ الْبَيْتِ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ دَعَاؤُنَا الْعَلِيمُ بِمَا نَعْمَلُهُ وَنَقْصِدُهُ.

[١٢٩] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا، وَالدُّعَاءَ بِالْإِسْلَامِ، لَا يَنَافِي كَوْنُهُمَا كَذَلِكَ قَبْلَ الدُّعَاءِ إِذِ الْإِسْلَامُ كَسَائِرِ الْعَقَائِدِ، وَالأَعْمَالِ بِحَاجَةٍ إِلَى الْإِسْتِمْرَارِ، مِمَّا لَا يَكُونُ إِلَّا بِهَدَايَةِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَكَمَا أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَوْنِهِ سُبْحَانَهُ، كَذَلِكَ الْإِسْتِمْرَارُ، كَمَا فِي اهْتِدَانِ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ «١» وَاجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا وَأَوْلَادِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَالْإِسْلَامُ هُوَ تَسْلِيمُ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْإِعْتِقَادِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَأَرِنَا أَيُّ عَرَفْنَا مَنَاسِكَنَا جَمْعَ مَنْسَكٍ، أَيُّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي

(١) الفاتحة: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٧٩

[سورة البقرة (٢): آية ١٢٩]

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

تتعلق النسك بها، والنسك العبادة، يقال رجل ناسك، أي عابد، وقد استجاب الله دعاءهما، حيث أراهما جبرائيل عليه السلام موضع الصلاة، والوقوف، وغيرها وَتُبْ عَلَيْنَا أَيُّ أَرْجِعْ إِلَيْنَا بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ، وَلِذَا يُقَالُ لِلَّهِ «التَّوَابُ» أَيُّ كَثِيرِ الرَّجُوعِ إِلَى عِبِيدِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا دَلَالَهَ لِلآيَةِ، عَلَى أَنَّهُمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كَانَا قَدْ أَذْنَبْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ بِعِبَادَتِكَ الرَّحِيمِ بِهَمِّ.

[١٣٠] رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ أَيُّ فِي الأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ- الَّتِي طَلَبْنَاهَا مِنْكَ- رَسُولًا مِنْهُمْ مِنْ نَفْسِ الأُمَّةِ، لَا مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ، حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ

الشرف بكون الرسول منهم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ دَلَالَتُكَ، وَبِرَاهِينِكَ، وَأَحْكَامِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ إِمَّا الْمَرَادُ: الْقُرْآنَ، أَوْ الْمَرَادُ: «كِتَابِكَ» عَلَى نَحْوِ الْكَلِيِّ وَالْحِكْمَةِ هِيَ وَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَالْمَرَادُ بِتَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهَا، تَعْلِيمُهُمُ الْعُلُومَ الْكُونِيَّةَ وَالتَّشْرِيعِيَّةَ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ لَا يَتِمَكَّنُ، مِنْ وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا لِجَهْلِهِ بِهَا وَيُزَكِّيهِمْ أَيُّ يَطْهَرُهُمْ مِنَ الأَدْنَسِ وَالْقَذَارَاتِ الأخْلَاقِيَّةِ وَالْأَعْمَالِيَّةِ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ حَقِيقُهُ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِقَلْبِهِ الْوُجُودِ، وَكَثْرَةُ الْإِحْتِيَاجِ، وَاللَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجَمِيعُ الْإِحْتِيَاجَاتِ إِلَيْهِ وَتَخْصِيسُ الْعِزَّةِ هُنَا بِالذِّكْرِ، لِلتَّمْلِيحِ إِلَى كَوْنِ الْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ الْحَكِيمِ فَأَفْعَالُكَ صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَتِهِ، وَمَا طَلَبَاهُ إِذَا كَانَ عَيْنَ الْحِكْمَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٠

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٠ إلى ١٣٢]

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

[١٣١] هذه هي طريقة إبراهيم عليه السلام وَمَنْ يَزَعْبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَى من يعرض عن هذه الطريقة فى التوحيد والتسليم وسائر ما ذكر مما يدل على أنها من أفضل الطرق إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ أَى لا يترك هذه الملة، إلا من ضرب نفسه بالسفاهة والحمق، و هل هناك طريقة أفضل من هذه الطريقة؟ والاستفهام فى قوله «من يرغب» استنكارى وَلَقَدْ اضْطَفَيْنَاهُ جَمَلَهُ حَالِيَهُ، أَى إنا بسبب هذه الطريقة المستقيمة، التى كانت لإبراهيم عليه السلام اخترناه نبيا فى الدنيا وَإِنَّهُ فى الآخرة لَمِنَ الصَّالِحِينَ الفائزين بالدرجات الرفيعة.

[١٣٢] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ هَذَا مَتَعَلَقٌ بِقَوْلِهِ «اصْطَفَيْنَاهُ» أَى اخترناه لما قلنا له أَسْلِمَ فى جميع أمورك لله قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وحده لا- شريك له، ومعنى أسلم استقم على الإسلام، واثبت على التوحيد، كقوله تعالى فَاَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَقْفِرُ «١» وكما يقول أحدنا لمن كان جالسا فى مكان: أجلس هنا حتى الساعة العاشرة- مثلا.

[١٣٣] وَوَصَّى بِهَا أَى بِالْمِلَّةِ وَ الطَّرِيقَةَ التى كانت لإبراهيم عليه السلام

(١) محمد: ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨١

[سورة البقرة (٢): آية ١٣٣]

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)

إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ أَوْلَادِهِ، وَ خَصَّهُم بِالذِّكْرِ، مع أن دعوة إبراهيم عليه السلام كانت عامة، إشارة إلى لزوم دعوة الأهل بصورة خاصة إلى الحق، كما قال سبحانه قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا «١» وَوَصَّى بِهَا يَعْقُوبُ حَفِيدَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ إِسْحَاقَ، بَنِيهِ أَيْضًا وَ خَصَّ يَعْقُوبَ لِأَنَّهُ جَدُّ الْيَهُودِ، وَ كَانَتْ الْوَصِيَّةُ يَا بَنِيَّ أَى يَا أَبْنَاءِي، فَهُوَ جَمْعُ ابْنٍ، وَ أَصْلُهُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى أَى اخْتَارَ لَكُمْ الدِّينَ حَتَّى تَكُونُوا مُتَدِينِينَ، وَ مَعْنَى اخْتَارَ اللَّهُ الدِّينَ لَهُمْ، أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَعْطَاهُم الدِّينَ، وَ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَقَابِلَ بَعْضِ الْأُمَمِ الْوَحْشِيَّةِ الَّذِينَ تَرَكُوا وَ شَأْنَهُمْ، فَلَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةَ الْأَنْبِيَاءِ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَى لا تتركوا الإسلام، فيصافدكم الموت على تركه، وإنما خص الموت، لأنه لو كان غير مسلم قبل ذلك، ثم أسلم و مات مسلما لم يكن عليه بأس.

[١٣٤] أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ أَيُّهَا الْمَدْعُونَ إِنْ الْأَنْبِيَاءُ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى، فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّ يَعْقُوبَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْصَى بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ، فَانْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا حَاضِرِينَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ وَ اقْتَرَبَ مِنَ الْوَفَاءِ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي عَلَى طَرِيقَةِ الاسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِي

(١) التحريم: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٤ إلى ١٣٥]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ جَدُّ يَعْقُوبَ وَ إِسْمَاعِيلَ عَمَهُ وَ إِسْحَاقَ أَبُوهُ، وَ قَدَّمَ إِسْمَاعِيلَ لِأَنَّهُ كَانَ الْأَكْبَرَ سِنًا، وَ الْأَعْلَى مَنْزَلَةً، وَ سَمِيَ الْعَمُّ أَبَا تَغْلِيْبَا، وَ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي الْعَمَّ أَبَا وَ الْخَالَئَةَ أَمَّا إِلَهُهَا وَاحِدًا بغير شريك وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَكَانَ دِينُهُمُ الْإِسْلَامَ، وَ الْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ التَّسْلِيمَ لِلَّهِ فى أوامره و نواهيه و نفى الله

سبحانه كون دين الأنبياء اليهودية أو النصرانية، يراد به نفيها بالمعنى المتداول عند أهل الكتاب، وإلا فلا يهتم الاسم، كما لا يخفى. [١٣٥] ثم بين الله حقيقة هي أن الأمة الماضية ليست تهمكم، أيها المعاصرون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإنما المهم أعمالكم، فكيف كانت تلك الأمم، فإنها قد ذهبت وفت تلك أي إبراهيم وأولاده عليهم السلام أمة قد حلت أي ذهبت ومضت لها ما كسبت فإن أعمالها ترتبط بها لا بكم ولكم ما كسبتم فإن أعمالكم ترتبط بكم لا بهم ولا تسئلون أنتم عما كانوا يعملون فأصلحوا أعمالكم.

[١٣٦] وقالوا كونوا هوداً أو نصارى أي قالت اليهود كونوا يهودا وقالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا للحق وترشدوا قل يا رسول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٣

[سورة البقرة (٢): آية ١٣٦]

قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١٣٦)

الله صلى الله عليه وآله وسلم بل نتبع ملة أي دين إبراهيم الصافي من شوائب اليهودية والنصرانية، وإنما هي الإسلام المصفي، وإن كان فرق بين الإسلام وبين دين إبراهيم عليه السلام في بعض الخصوصيات التشريعية، فالمراد نفي النصرانية واليهودية خيفاً أي مستقيماً عن الاعوجاج وما كان إبراهيم من المشركين كما أنتم أيها اليهود والنصارى مشركون، إذ تقولون عزير ابن الله، أو المسيح ابن الله، وعلى هذا فالمراد بإتباع ملة إبراهيم عليه السلام إتباعها في التوحيد.

[١٣٧] قولوا أيها المسلمون، ما يجب عليكم أن تعتقدوا به، وما هي خلاصة الأديان السابقة واللاحقة، التي تعين زيف العقائد النصرانية واليهودية وغيرهما آمناً بالله وآمناب ما أنزل إلينا من القرآن الحكيم وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط أحفاد يعقوب فإن كثيراً منهم كانوا أنبياء عليهم السلام نزلت عليهم الصحف وآمناب ما أوتى موسى وعيسى وآمناب ما أوتى النبيون قاطبة من ربهم لا نفرق بين أحد منهم أي من الأنبياء عليهم السلام، فإننا نعتز بالجميع ونحن لله أي لله سبحانه مسلمون فإن دين الأنبياء، عليهم السلام كلهم يتلخص في أصول وفروع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٧ إلى ١٣٨]

فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيفكفكمهم الله وهو السميع العليم (١٣٧) صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون (١٣٨)

وأخلاق فالأصول: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمعاد، فإن كل نبي كان يصدق من سبقه وبيشّر بمن يلحقه، كما إن الإمامة بمعنى الوصاية، فإن كل نبي كان له أوصياء، والفروع: الصلاة والصوم والزكاة وما أشبه من العبادات، وأحكام المعاملات - بالمعنى الأعم - وكل الأديان كانت مشتركة فيها مع تفاوت يسير حسب اقتضاء الزمان والأمة، فمثلاً كان صوم الصمت في بعض الأمم وليس في الإسلام وهكذا، والأخلاق: الصدق والأمانة، والوفاء، والحياء، وما أشبه وكلها فطريات نفسه كانت الأنبياء عليهم السلام تأمر بها وتنهى عن أضدادها.

[١٣٨] فإن آمنوا أي آمن غير المسلمين من سائر الأديان والفرق بمثل ما آمنتم به أي كما تؤمنون أنتم أيها المسلمون فقد اهتدوا إلى الحق وإن تولوا عن مثل هذا الإيمان، ولزموا طريقتهم المنحرفة فإنما هم في شقاق أي في خلاف فهم في شق وسيفكفكمهم الله فإن الله يكفيك يا رسول الله وينصرك عليهم وهو السميع العليم بأعمالكم ونواياكم.

[١٣٩] اتبعوا صبغة الله واصبغوا أنفسكم بها، وهي الإسلام، فإن كل طريقه يتبعها الإنسان لون له، لكنه لون غير محسوس، تشبها بالألوان المحسوسة ومن أحسن من الله صبغة وهذا استفهام إنكاري، أي لا أحد أحسن من الله صبغة وديننا ونحن المسلمون لله

عَابِدُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٩ الى ١٤٠]

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)

لا لغيره من الشركاء الذين أنتم تعبدونها مع الله، أو من دون الله، وربما يقال إن وجه التسمية ب «الصبغة» أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم بماء أصفر يعمدونهم فيه، والآية من المشابهة كقوله سبحانه تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ «١».

[١٤٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى وَ غَيْرُهُمْ أ تُحَاجُّونَنَا أَى تَبَاحُثُونَ مَعْنَا فِي دِينِ اللَّهِ وَ إِنَّهُ لَمْ أُنْسخْ أديانكم، و لم اختر من العرب رسولا، و لم أفعل كذا و كذا؟ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ أَى أَنْ اللَّهُ لَيْسَ رَبًّا لَكُمْ فَقط حتى يكون معكم وحدكم إلى الأبد وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ فليس عملنا غير منظور إليه عند الله، و عملكم منظور إليه، كما كانوا يزعمون قائلين نحن شعب الله المختار، و نحن أبناء الله و أودائه وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ إذ لا نشرك به أحدا بخلافكم حيث جعلتم له شريكا.

[١٤١] أَمْ تَبَاحُثُونَ مَعْنَا فِي أَمْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ أَحْفَادَ يَعْقُوبَ الَّذِينَ كَانُوا أَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا هُودًا أَى يَهُودًا أَوْ نَصَارَى وَ هَذَا اشْتَبَاهَ مِنْهُمْ إِذِ الْيَهُودِيَّةُ وَ النَّصْرَانِيَّةُ، تُولَدَتَا بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِبْرَاهِيمَ

(١) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٦

[سورة البقرة (٢): آية ١٤١]

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

أحدهما، كما قال سبحانه وَ مَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ «١» قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَهُؤَلَاءِ الْمُدْعِينَ بِيَهُودِيَّةٍ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ فَاللَّهُ سبحانه يقول لم يكونوا يهودا و لا- نصارى، و أنتم تقولون كانوا وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ أَى لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَكْتُمُ الشَّهَادَةَ الَّتِي عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ سبحانه، فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الْهُدَى حَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ وَ حَوْلَ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ وَ مَا اللَّهُ أَى لَيْسَ اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ الَّتِي مِنْهَا كَتَمْتُمْ الشَّهَادَةَ، ثُمَّ يَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.

[١٤٢] تِلْكَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَ يَتَذَكَّرُونَ لَا يَرْتَبِطُونَ بِكُمْ أَيُّهَا الْمَعَاصِرُونَ لِلرَّسُولِ، فَإِنَّهَا أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ وَ مَضَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ وَ الْأَفْعَالِ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ وَ لَا تُسْأَلُونَ أَنْتُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمْ هَذِهِ الْمَبَاحِثَةُ وَ الْمَحَاجَّةُ وَ الْمَجَادَلَةُ.

(١) آل عمران: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٧

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثاني سورة البقرة من آية (١٤٣) إلى (٢٥٣)

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين، و الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٨٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٢ إلى ١٤٣]

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

[١٤٣] سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ جمع سفيه، و هو الغر و الجاهل، و ناقص العقل مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ أى أى شىء صرف المسلمون عَنْ قِبَلَتِهِمُ السابقة الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا يتوجهون فى صلاتهم، و هى بيت المقدس، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المسلمون كانوا يصلون إلى بيت المقدس، و هو قبله اليهود، ثم فى المدينة حولت القبلة إلى الكعبة، و كان السبب الظاهر لذلك أن اليهود عابوا النبى بأنه يصلى إلى قبلتهم، فحوله الله عنها إلى الكعبة، فأخذ اليهود يهرجون حول تحويل القبلة قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فمتى شاء وجه عبيده إلى حيث يشاء، و ليست القبلة احتكارا حتى لا يمكن تحويلها يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ و كما كان الصراط المستقيم قبلا بيت المقدس حال التوجه، كذلك صار الصراط المستقيم، فعلا الكعبة.

[١٤٤] وَ كَذَلِكَ أى كما أن لله المشرق و المغرب، و أنه لا- مناقشة فى ذلك جَعَلْنَاكُمْ أيها المسلمون، و فى التأويل، إن المراد بالخطاب الأئمة عليهم السلام أُمَّةً وَسِيًّا متوسطا، و الإطلاق و إن كان يفيد الوسطية فى كل شىء فى العقيدة، فلا جمود و لا إلجاء، و فى المكان فهم متوسطون بين شرق الأرض و غربها، و فى التشريع، فليس ناقصا و لا مغاليا، و هكذا إلا أن ظاهر قوله سبحانه بعد ذلك لَتَكُونُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٠

شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا يفيد أن المراد بالتوسط الوسيطة بين الرسول و بين سائر الناس، فالأمة تأخذ من الرسول- و يشهد الرسول عليهم بأنهم أخذوا منه، حتى لا يقولوا ما عرفنا- و سائر الناس يأخذون من الأمة- و تشهد الأمة عليهم بأنهم أخذوا منها، حتى لا يقول الناس لم نعرف- و هذا هو الظاهر من «لام» العلة فى قوله «لتكونوا .. و يكون» و لعل ارتباط هذه الآية بما سبقها من حكم القبلة، و ما لحقها بيان أن المسلمين لهم مكان القيادة، لأنهم الآخذون عن الرسول المبلغون للناس فالذى ينبغى أن تكون لهم سمة خاصة فى شرائعهم، حتى لا يرمون بالذيلية، و الإلتباع لقبلة الآخرين، ثم رجع السياق إلى حكم القبلة فقال سبحانه وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا وَ هى بيت المقدس الذى كان النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يتوجه نحوه فى الصلاة، طيلة كونه فى مكة المكرمة، و مدة بعد الهجرة إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ معنى «لنعلم» أن يتحقق علمنا فى الخارج، بأن يظهر المتبع من المخالف، فإنه قد يقال لنعلم، و يراد به حصول العلم للمتكلم، و قد يقال لنعلم، و المراد به وقوع المعلوم فى الخارج، و فى بعض التفاسير أن قوما ارتدوا على أديارهم لما حولت القبلة «١»، فظهر

(١) مجمع البيان: ص ٤١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩١

[سورة البقرة (٢): آية ١٤٤]

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ

الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

إنهم لم يكونوا يتبعون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حقيقته وإنما حسب الأهواء، والعقب مؤخر القدم، والمعنى التشبيه لمن يرتد كافراً، بمن يرجع القهقري وَإِنْ كَانَتْ مَفَارِقَةُ الْقِبْلَةِ الْأُولَى إِلَى قِبْلَةٍ أُخْرَى لَكَبِيرَةً إِذْ هُوَ خَرَقَ لِاعْتِيَادِ قَدِيمٍ مَتْرَكِزٍ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ إِيَّاهُمْ بِأَنْ قَوَى قُلُوبَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الرَّاسِخُونَ الَّذِينَ اتَّبَعْتُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا تقدير لهم في ثباتهم، و وعد لهم في الجزاء على إيمانهم الكامل، ويحتمل أن يكون جواباً عن سؤال وقع من بعضهم، وهو إنه كيف تكون حال صلواتهم السابقة التي صلوا إلى بيت المقدس، وإن كان الظاهر من كلمة «إيمان» المعنى الأول إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ فلا يضيع أتعابهم وأعمالهم.

[١٤٥] وبعد ما بين الحكم، وأن القبلة تحولت، بين الله سبحانه قصة التحويل، فإنها كالعلة للحكم المتقدم، والعلة دائماً تأتي متأخرة في الكلام، وإن كانت سابقة في التحقيق، كما يقال إنه إنسان طيب لأن تربيته حسنة قَدْ نَرَى «قد» هنا للتحقيق نحو قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ «١» وإن كان الغالب في «قد» الداخلة على المضارع، أن تكون بمعنى التقليل، ولعل سر دخولها، إشراب الفعل معنى التقليل، حيث لا يريد المتكلم

(١) النور: ٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٢

إظهار العلم بالبت، مثله وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى «١» تَقَلَّبَ وَجْهَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ أَي فِي نَاحِيَةِ السَّمَاءِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْلِبُ وَجْهَهُ فِي أَطْرَافِ السَّمَاءِ، فَيَنْتَظِرُ الْوَحْيَ حَوْلَ الْقِبْلَةِ، وَإِنَّ الْيَهُودَ عَيَّرُوهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَائِلِينَ لَهُ أَنْكَ تَابِعَ لِقِبْلَتِنَا فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ خَرَجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَقْلِبُ وَجْهَهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ صَلَّى الْغَدَاةَ، فَلَمَّا صَلَّى مِنَ الظُّهْرِ رَكَعَتَيْنِ، جَاءَ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ فَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْكِعْبَةِ، وَحَوْلَ مَنْ خَلْفَهُ وَجُوهَهُمْ، حَتَّى قَامَ الرِّجَالُ مَقَامَ النِّسَاءِ، وَالنِّسَاءُ مَقَامَ الرِّجَالِ فَلَمَّا قَامَ الرِّجَالُ مَقَامَ النِّسَاءِ قَبْلَهُ تَرَضَّاهَا إِذْ الرَّسُولُ كَانَ يَحِبُّ الْكِعْبَةَ الَّتِي هِيَ بِنَاءُ جَدِّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهَا مَوْطِنُهُ فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الشَّطْرَ الْجَزَاءِ، أَي حَوْلَ وَجْهَكَ نَحْوَ جِزَاءِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَ الْمَسْجِدَ لِكَوْنِهِ مُحِيطًا بِالْكَعْبَةِ يَكُونُ الْمَتَوَجِّهَ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ مِنْ بَعِيدٍ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَذَكَرَ «الوجه» فِي الْمَقَامِينَ، لِأَنَّهُ الشَّيْءُ الَّذِي يَتَوَجَّهُ بِهِ فِي جَسَدِ الْإِنْسَانِ وَإِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يَسْتَشْكِلُونَ عَلَيْكُمْ قَائِلِينَ إِنَّ كَانَتْ الْقِبْلَةَ

(١) سبأ: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٣

[سورة البقرة (٢): آية ١٤٥]

وَلَكِنَّ أَتَيْتَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنَّ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

السابقة حقاً، فهذه باطلة، وإن كانت هذه حقاً، فتوجهكم في السابق إلى بيت المقدس باطل لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ أَي تَحْوِيلَ الْقِبْلَةَ أَوْ هَذِهِ الْقِبْلَةَ حَقٌّ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَعْبُدُهُ عِبَادُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَمَنْ الْجَائِزُ أَنْ يَعْبُدَ الْأُمَّةَ بِتَشْرِيحٍ إِلَى مَدَّةٍ، ثُمَّ يَعْبُدُهُمْ بِتَشْرِيحٍ آخَرَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ أَي يَعْمَلُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْإِرْجَافِ وَبَثِّ الْأَبَاطِيلِ حَوْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةَ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[١٤٦] وَلِئِنْ أَتَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِكُلِّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنْ قَبِلْتَكَ حَقًّا مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ لِأَنَّهُمْ مُعَادُونَ، وَالْمُعَادُونَ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ الدَّلِيلَ وَمَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِتَابِعٍ قِبَلَتُهُمْ بَعْدَ مَا تَعَلَّمُوا أَنْ قَبِلْتَهُمْ مَنْسُوخَةً، كَقَوْلِهِ تَعَالَى لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ «١» وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضِ الْيَهُودِ لَا يَتَّبِعُونَ قِبَلَةَ النَّصَارَى، وَالنَّصَارَى لَا يَتَّبِعُونَ قِبَلَةَ الْيَهُودِ وَلِئِنْ اتَّبَعْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَهْوَاءَهُمْ فِي بَابِ الْقِبَلَةِ وَسَائِرِ التَّشْرِيعَاتِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ بَانَ

(١) الكافرون: ٣-٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٦ إلى ١٤٧]

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ (١٤٧)

طريقتهم باطله إنك إذا لمن الظالمين وهذه الجملة، وإن كانت موجهة إلى الرسول، لكن المقصود منها العموم، ولا تنافي العصمة، فإن الاشتراط يلزم المحال، كقوله تعالى إن كان للرحمن ولما فأننا أول العابدِينَ «١» وقد تقرر في المنطق أن صدق الشرطية إنما هو بوجود العلية ونحوها، لا بصدق الطرفين.

[١٤٧] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَعْرِفُونَهُ أَيُّ الرَّسُولِ، أَوْ هَذَا الْحُكْمِ، أَعْنَى كَوْنِ تَغْيِيرِ الْقِبَلَةِ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ أَقْرَبَ إِلَى سِيَاقِ التَّشْبِيهِ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ فَلَيْسَ عَذْرَ هَؤُلَاءِ جَهْلُهُمْ، حَتَّى يَرْجَى زَوَالَهُ، وَإِنَّمَا الْعِنَادُ الَّذِي لَا عِلَاجَ لَهُ.

[١٤٨] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ أَيُّ الشَّاكِينَ فِيهِ، فَإِنَّ الْمَحْقُ إِذَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ التَّهْجَمَاتُ وَرُمِيَ بِأَنَّهُ عَلَى غَيْرِ حَقٍّ، يَكَادُ يَشْكُ فِيهِ، وَلِذَا يَثْبِتُ اللَّهُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتِنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا «٢».

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) الإسراء: ٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٨ إلى ١٤٩]

وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)

[١٤٩] وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ أَيُّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّةِ طَرِيقُهُ هُوَ أَيُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُوَلِّيُّهَا أَيُّ أَمْرَهُمُ بِالْتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ وَجْهَةٌ خَاصَةٌ فِي قِبَلَتِهِمْ فَاسْتَبِقُوا أَيُّ سَارِعُوا إِلَى الْخَيْرَاتِ تَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنَّ اللَّهَ مُوَلِّيَكُمْ هَذِهِ الطَّرِيقَ، وَلَا تَبِقُوا جَامِدِينَ عَلَى طَرِيقَهُ مَنْسُوخَةً، فَإِنَّ ذَلِكَ انْصِرَافٌ عَنِ الْخَيْرِ إِلَى الشَّرِّ، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ «هُوَ» رَاجِعًا إِلَى «كُلِّ» أَيُّ لِكُلِّ فَرْدٍ أَوْ أُمَّةٍ، طَرِيقُهُ فِي الْعَمَلِ وَالتَّفْكِيرِ فَذَلِكَ الشَّخْصَ مَوْلَى وَمَوْجَهَ نَفْسِهِ إِيَّاهَا، فَلَيْكُنْ هُمْ كُلُّ فَرِيقٍ وَفَرْدٍ أَنْ يَسَابِقَ غَيْرُهُ فِي الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَجَازِيَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَيَتِمُّكَ مِنْ جَمْعِكُمْ، وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ [١٥٠] كَانَ لِتَحْوِيلِ الْقِبَلَةِ نَحْوِ الْكَعْبَةِ أَسْبَابٌ وَعِلَلٌ، الْعِلَّةُ الْأُولَى: رَغْبَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَنْ تَحْوَلَ الْقِبَلَةُ

لما غيرته اليهود، العلة الثانية: أن التحويل كان للحق، و أن يكون للمسلمين ميزة خاصة يمتازون بها عن سائر الأمم، حتى في اتجاه الصلاة، العلة الثالثة: أن التحويل كان لقطع حجة الناس، الذين كانوا يتعجبون من كون المسلمين، يدعون ديناً جديداً، و مع ذلك يتوجهون إلى قبله بنى إسرائيل، و تبعاً لهذه العلة، تكرر الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام، و قال سبحانه و مِن حَيْثُ خَرَجْتَ لِلسَّفَرِ مِنَ الْبِلَادِ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٦

[سورة البقرة (٢): آية ١٥٠]

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَ لَأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

فإنه قبله في السفر كما هو قبله في الحضر، و في هذا فائدة ثانية للتكرار و إنَّه أى توجيه الوجه نحو المسجد الحرام للتحقق الذى جاء من رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ فمن أعرض عن هذه القبلة كان جزاءه سيئاً، و من اتبعها كان جزاءه حسناً.

[١٥١] و مِن حَيْثُ خَرَجْتَ لِلسَّفَرِ مِنَ الْبِلَادِ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ هَذَا لِلسَّفَرِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ هَذِهِ الْآيَةُ، جَمَعَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ، الْآيَةُ: ١٥٠» «وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ الْآيَةُ:

١٤٥» وَ قَدْ عَرَفْتَ إِنَّهُ كَرَّرَ لِفَائِدَةِ الْعِلَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ أَى إِنْ تَحْوِيلَ الْقِبْلَةَ، إِنَّمَا هُوَ لِنَقْطَعِ احْتِجَاجَ النَّاسِ عَلَيْكُمْ حَيْثُ يَقُولُونَ: كَيْفَ إِنْ الْمُسْلِمِينَ يَدْعُونَ إِلَى دِينٍ جَدِيدٍ وَ قَبْلَتِهِمْ هِيَ قِبْلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَإِنْ هُوَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْمَنْطِقُ، فَالْمَعَانِدُ لَا تَفِيدُهُ الْحُجَّةُ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي فَالْحَشْيَةُ، إِنَّمَا تَكُونُ مِمَّنْ بِيَدِهِ النِّفْعُ وَ الضَّرَرُ، وَ هُوَ لَا يَسِيْرُ بِيَدِهِمْ شَيْءٌ مِنْهُمَا، وَ إِنَّمَا كُلُّ ذَلِكَ بِيَدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَا يَخْفَى أَنْ الِاسْتِثْنَاءَ مَنْقُوعٌ كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا فَعَلْتُ الْفَعْلَةَ الْفُلَانِيَّةَ لِيَعْرِفَ النَّاسُ بِالْأَمْرِ، إِلَّا مَنْ يَرِيدُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٧

[سورة البقرة (٢): آية ١٥١]

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُوْلًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

العناد و بعد ذلك فتحويل القبلة إنما كان لِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بتمييزكم عن أهل الكتاب و قطع تعبير اليهود، و إرجاعكم إلى بناء جدكم إبراهيم الذى هو إحياء لذكراكم و لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إلى الحق اهتداء كاملاً، فإن فى تشريف الإنسان بشرف سبباً لتقريبه إلى الهداية الكاملة.

[١٥٢] وَ قَدْ أْتَمَمْنَا النِّعْمَةَ عَلَيْكُمْ بِتَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ بِنِعْمَةِ عَظْمَى فِى أَرْسَلْنَا فِيكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ رَسُوْلًا مِنْكُمْ لَا مِنْ غَيْرِكُمْ، فَاخْتَرْتُمْ لِأَنَّ تَكُونَ رِسَالَتِي بِيَدِ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ قَرَأْنَا تِلَاوَةً وَ يُزَكِّيكُمْ يَطْهَرُكُمْ مِنْ أَدْنَسِ الْجَاهِلِيَّةِ وَ الْقَذَارَاتِ الْخَلْقِيَّةِ، وَ النِّجَاسَاتِ الْبَدَنِيَّةِ - بِإِرْشَادِهِ إِيَّاكُمْ إِلَيْهَا - وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التِّلَاوَةَ غَيْرُ التَّعْلِيمِ، فَزَبَدَ تَالِغٌ غَيْرُ مُعَلِّمٍ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ التَّعْلِيمَ فِيهِ مَعْنَى التَّرْكِيزِ وَ التَّشْيِيطِ وَ الْحِكْمَةَ يَرشُدُكُمْ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَ مَوَاقِعِ الْخَطَأِ وَ الصَّوَابِ، فَالْحِكْمَةُ - كَمَا عَرَفْتُمْ - وَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، فَيَشْمَلُ الْقِصَصَ وَ التَّوَارِيخَ الْمَفِيدَةَ وَ أَحْوَالَ الْأَنْبِيَاءِ، وَ أَحْوَالَ الْمَعَادِ مِمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي دِينِهِمْ وَ دُنْيَاهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٢ إلى ١٥٤]

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

[١٥٣] فَادْكُرُونِي أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَتَنْفِذِ الْأَمْرِ أَذْكُرْكُمْ بِالنِّعْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْجَنَانِ وَأَشْكُرُوا لِي بِإِظْهَارِ النِّعْمَةِ وَالْحَمْدِ عَلَيْهَا وَلَا تَكْفُرُونِ كَفْرًا فِي الْإِعْتِقَادِ، أَوْ كَفْرًا فِي الْعَمَلِ بِأَنْ لَا تَعْمَلُوا بِأَمْرِي.

[١٥٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا فِي أُمُورِكُمُ الَّتِي تَرِيدُونَهَا سِوَاهُ مَا كَانَتْ تَحْتَ إِخْتِيَارِكُمْ، أَمْ لَمْ تَكُنْ كَالصَّحَّةِ وَالغِنَى بِالصَّبْرِ وَتَحْمَلِ النَّفْسِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ تَنْجِزُ بَعْدَ حِينٍ، فَإِذَا صَبَرَ الْإِنْسَانُ تَنْجِزَتْ أُمُورُهُ وَنَعْمَ بَرَاةُ الْبَالِ، وَاطْمِئْنَانُ النَّفْسِ، وَإِذَا لَمْ يَصْبِرْ جَرَى الْقَدْرُ، وَهُوَ مُضْطَرِبُ الْبَالِ كَثِيبٌ وَالصَّلَاةُ فَإِنَّ الصَّلَاةَ تُوَجِّهُ الْإِنْسَانَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالانْتِصَافَ عَنِ الدُّنْيَا مِمَّا يَشِعُ فِي النَّفْسِ الْهَدُوءَ وَالسَّكِينَةَ، وَعَدَمَ الْإِهْتِمَامِ بِمَكَارِهِ الدُّنْيَا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بِاللِّطْفِ وَالْعِنَايَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَهَكَذَا يَهْدِي الْإِنْسَانَ وَالْأُمَّةَ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى مَهْمَتِهِمُ الْعَظِيمَةِ، وَيَمْرَنَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّحْمَلِ، وَلِذَا يَخْطُوا الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ خَطْوَةً أُخْرَى مَعَهُمْ بَعْدَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، قَائِلًا: إِنَّكُمْ لَا بَدَّ وَأَنْ تَتَحْمَلُوا مِشَاقَ الْقِيَادَةِ مِنَ الْقَتْلِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ الَّتِي تَتَعَرَّضُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِصْلَاحَ وَالْإِرْشَادَ، وَلِذَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ:

[١٥٥] وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ فَاَلَمْ يَمُوتْ مِنْ لَا تَأْتِرُ لَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ١٩٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٥ إلى ١٥٦]

وَلَنْبَلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)

فِي الْحَيَاةِ وَلَا اِمْتِدَادٍ، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا كَذَلِكَ بَلْ أَحْيَاءٌ حَيَاةً وَّاقِعِيَّةً فِي الدُّنْيَا بِتَأْثِيرَاتِهِمْ وَامْتِدَادَاتِهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ فِي نَعِيمٍ مُقِيمٍ، وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْتُمْ بِحَيَاتِهِمْ، إِذِ الْحَيَاةُ فِي نَظَرِكُمُ الْحَسَّ وَالْحَرَكَةَ، مَعَ إِذَا مَعْنَى سَطْحَى لِلْحَيَاةِ.

[١٥٦] وَلَنْبَلُوكُمْ أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ كَوْنِهِ شَيْئًا، إِمَّا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يَمْتَدُّ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ، وَإِمَّا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ الْخَوْفَ - غَالِبًا - أَشَدَّهُ وَالْجُوعَ وَ لَمْ يَذْكُرِ الْعَطْشَ لِأَنَّ الْمَاءَ غَالِبًا مُتَوَفِّرٌ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمَبْدُولَةِ فِي الْحَرْبِ، أَوْ مَا يَنْهَبُ مِنْهَا فِي التَّصَادِمِ، أَوْ الضَّيْقِ الْاِقْتِصَادِي، أَوْ مَا أَشْبَهَ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَنْفُسِ مِمَّنْ يَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ بِسَبَبِ النَّهْبِ، أَوْ الْحِصَادِ قَبْلَ أَوَانِهِ مِنْ أَجْلِ الْأَعْدَاءِ، كَمَا وَقَعَ فِي قِصَّةِ الْخَنْدَقِ حَيْثُ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَحْصِدُوهَا، لِثَلَاثِ - يَنْتَفِعُ بِهَا الْمَشْرُكُونَ - كَمَا فِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ - أَوْ بِأَسْبَابٍ أُخْرَى وَبَشِّرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الصَّابِرِينَ فِي هَذِهِ الْمَكَارِهِ.

[١٥٧] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ أَيُّهَا الْمَمْلُوكُونَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَهُوَ مُرْجِعُنَا وَمَعَهُ حِسَابُنَا وَجَزَاؤُنَا، وَفِي هَذِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ص: ٢٤٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٧ إلى ١٥٨]

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

الْجَمْلَةُ تَسْلِيَةٌ لِلْمَصَابِ، إِذِ اعْتِرَافِ الْإِنْسَانِ بِأَنْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ إِذَا هُوَ لِلَّهِ، يَهْوَنُ ذَهَابُ بَعْضِهَا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْمَالِ أَخَذَهُ، كَمَا أَنَّ اعْتِقَادَ الشَّخْصِ، بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَجْزِي يَهْوَنُ الْأَمْرَ، فَإِنَّ مَا فَقَدَهُ سَوْفَ يَعْوِضُ وَ لِذَا مِنْ كَرَّرَ هَذِهِ الْجَمْلَةَ فِي الْمَصِيبَةِ عَارِفًا مَعْنَاهَا مُتَوَجِّهًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فِي التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا، يَجِدُ بَرْدَ الْاطْمِئْنَانِ فِي قَلْبِهِ.

[١٥٨] أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَالصَّلَاةُ هِيَ الْعَطْفُ، فَإِنَّ صَلَّى بِمَعْنَى عَطْفٍ، وَ هِيَ مِنَ اللَّهِ التَّوَجُّهُ بِالْبَرَكَةِ وَالْإِحْسَانِ وَ

رَحْمَةً تَرْحَمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّهَدُونَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا إِلَىٰ وَقَعِ الْأَمْرِ مِمَّا يَنْفَعُ دُنْيَاهُمْ وَعَقْبَاهُمْ، فَبَدَلُوا مَا بَدَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ رَاضِينَ مَرْضِينَ.

[١٥٩] وحيث ألمع سابقا إلى الجهاد، أتى الإلماع إلى الحج، فإنهما صنوان في التعداد والمشتقة- في الجملة- فقال سبحانه إِنَّ الصَّافِيَّ وَالْمُرْوَةَ وَهُمَا جَبَلَانِ قَرِبَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ جَمَعَ شَعِيرَةً، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ اللِّبَاسِ الْمَلْتَصِقِ بِشَعْرِ الْبَدَنِ، فَكُلُّ شَيْءٍ مُرْتَبِطٌ بِشَيْءٍ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا يَدُلُّ عَلَيْهِ يَكُونُ مِنْ شَعَائِرِهِ، فَالْمُرَادُ أَنَّ هَذَيْنِ الْجَبَلَيْنِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، حَيْثُ جَعَلَهُمَا مُحَلًّا لِعِبَادَتِهِ بِالسَّعْيِ بَيْنَهُمَا فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَيْ قَصَدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَالْحَجَّ الْقَصْدَ أَوْ اعْتَمَرَ وَالْعِمْرَةَ هِيَ الزِّيَارَةُ أَخَذَ مِنَ الْعِمَارَةِ، لِأَنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠١

[سورة البقرة (٢): آية ١٥٩]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)

الزائر يعمر المكان بزيارته، والحج والعمرة عملان من أعمال الحج فلا جناح عليهما أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا أَيْ يَسْعَى بَيْنَهُمَا، وَإِنَّمَا عَبَّرَ «لَا جُنَاحَ» لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَحْرَجُوا مِنَ الطَّوَافِ بِهِمَا ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الْمُشْرِكِينَ، حَيْثُ كَانَ عَلَى الصَّافِيِّ صِنْمٌ يُسَمَّى «أَسَافًا» وَعَلَى الْمُرْوَةِ صِنْمٌ يُسَمَّى «نَائِلَةً» فَهُوَ تَرْخِيسٌ فِي مَقَامِ تَوْهَمِ الْحَصْرِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِبَاحَةَ فِي مَقَامِ تَوْهَمِ الْحَصْرِ، وَالنَّهْيُ فِي مَقَامِ تَوْهَمِ الْوُجُوبِ، لَا يَدُلُّانِ عَلَى مَفَادِهِمَا الْأُولَى، لِأَنَّهُ لَإِثْبَاتِ أَسْأَلِ الطَّرْفِ الْآخِرِ، لَا خُصُوصِيَّةَ الْإِبَاحِيَّةِ وَالتَّمْوِيمِيَّةِ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا أَيْ أَتَى بِخَيْرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَفْعَالِ تَطَوُّعًا، وَالتَّطَوُّعُ التَّبَرُّعُ بِالشَّيْءِ مِنَ الطَّوَّعِ بِمَعْنَى الْإِنْقِيَادِ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ لِعَمَلِهِمْ وَمَعْنَى شُكْرِهِ تَقْدِيرُهُ وَجَزَائِهِ لِلْعَامِلِ عَلَيْهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْهَا.

[١٦٠] لعل ارتباط هذه الآية بما ورد قبلها، أن اليهود والنصارى لم يفعلوا مثل ما فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حول الصفا والمروة، فالرسول أبطل كل شيء حول الحج، وأقام كل حق فيه، فالصفا والمروة، حيث كانا حقا أثبتهما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإن ظن الناس أنهما من الباطل، لكن أهل الكتاب حشروا كل ما أتى به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم- مما عرفوه حقا- في زمرة الباطل، ولذا صار الكلام السابق، فاتحةً للتعريض بهم، فهو مثل أن يقول أحدنا اعترفت بالحق، لكنه لم يعترف بما علم من الحق، والله أعلم بموارده إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَيَخْفُونَ الْأَدْلَةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٠ الى ١٦١]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)

الدالة على حقيقة الإسلام، مما نزلت في الكتب السالفة والهدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَيْ يَكْتُمُونَ الْهُدَى الَّذِي يَرُونَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَنْزِلًا وَبَيْنَا أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ يَبْعُدُهُمُ عَنِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، بِتَضْيِيقِ الْأُمُورِ عَلَيْهِمْ هُنَا وَالْعَذَابِ هُنَاكَ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ الَّذِينَ يَأْتِي مِنْهُمْ اللَّعْنُ مِنَ النَّاسِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ.

[١٦١] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْهُمْ وَاتَّبَعُوا الْحَقَّ وَأَظْهَرُوهُ وَأَصْلَحُوا مَا فَسَدَ مِنْ عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَبَيَّنُّوا لِلنَّاسِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ فَالتَّوْبَةُ مَعْنَاهَا الرَّجُوعُ، وَرَجُوعُ اللَّهِ بِمَعْنَى إِعَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ انْقِطَاعِهَا عَنْهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَكُتْمَانِهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ أَيْ كَثِيرُ الرَّجُوعِ، فَإِنَّ الْعَاصِيَ إِذَا عَصَى أَلْفَ مَرَّةٍ وَرَجَعَ أَلْفَ مَرَّةٍ قَبِلَتْ تَوْبَتُهُ، إِذَا تَابَ تَوْبَةً نَصُوحًا الرَّحِيمُ بِالْعِبَادِ.

[١٦٢] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يَتُوبُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا بِالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَإِنَّ الْكُلَّ يَلْعَنُونَ الظَّالِمَ، وَالْكَافِرَ الظَّالِمَ، فَإِنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْهُ اللَّاعِنُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٢ إلى ١٦٤]

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

بالذات، لكنه داخل في عموم اللعن.

[١٦٣] خَالِدِينَ فِيهَا أى فى تلك اللعنة، إذ لعنة الدنيا تتصل بلعنة الآخرة لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ إذ لا أمد لعذاب الله بالنسبة إلى الكافرين ولا هُمْ يُنظَرُونَ فلا ينظر أحد إليهم نظرة رحمة وإحسان، أو لا يمهلون للاعتذار، أو لا يؤخر عنهم العذاب.

[١٦٤] ولما تقدم حال الكافر صار السياق لبيان التوحيد، والأدلة على الوحدانية وإلهكم أيها الناس إله واحد لا شريك له لا إله إلا هو الموصوف ب الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لا كما يصور الإله بعض الكتب السماوية من أنه إله انتقام و غضب و عذاب.

[١٦٥] إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بِهَذَا النظام البديع و الترتيب الرائع و الأَرْضِ بِهَذَا الأسلوب المنظم المتكامل و فى اختلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يأتى أحدهما عقب الآخر خليفه، لتنظيم الحياة على الأرض بأجمل صورة و فى الفُلُوكِ السَّفِينَةَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ فى أسفارهم و تجارتهم و فى ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ جَهَّةَ الْعُلُومِ مِنْ مَاءٍ بَيِّنٍ «ما» فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٤

[سورة البقرة (٢): آية ١٦٥]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)

بالإنبات بَعْدَ مَوْتِهَا أى جمودها و ركودها و بَثَّ أى نشر و فرق فيها أى فى الأرض مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ تدب و تتحرك على وجه الأرض، و كلمة «بث» عطف على «أحيا» أى كان المطر سببا لإحياء الأرض، و انتشار الحيوانات فيها، إذ لو لا المطر لم يكن للحيوان ماء، و لا طعام فيهلك، و لم يبق له نسل و فى تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ أى صرفها و نقلها من مكان إلى مكان لتروح و تذهب بالأمراض و العفونات، و تنقل السحاب من هنا إلى هناك، و لو كانت الرياح راكدة لم تنفع أى شىء و فى السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فإنه بما يكونه من أطنان من الماء، يبقى معلقا بين الجهتين، و يسير إلى كل ناحية لآيات و علامات دالة على الله، و وحدته و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و يعملون عقولهم فى استفادة النتائج من المقدمات و المسبب عن الأسباب، و ينتقلون من العلم بالمعلول إلى العلم بالعلة.

[١٦٦] وَمِنَ النَّاسِ أى بعضهم مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى غير الله أَنْدَادًا جمع ند، بمعنى الأشباه، و المراد بذلك آلهة يجعلها شبيهة لله فى أنه يعبدها، و هى الأوثان يُحِبُّونَهُمْ أى يحب هؤلاء الناس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٥

[سورة البقرة (٢): آية ١٦٦]

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

تلك الآلهة، و إنما أتى بجمع العاقل لكونها ردت مع الله سبحانه، و القاعدة تغليب الرديف على رديفه كقوله تعالى مَنْ يَمِشْطِ عَلَى بَطْنِهِ «١» و قوله وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ «٢» كَحُبِّ اللَّهِ أى كحبهم لله، أو حبا شبيها بما يستحق الله، و على الأول، فالمراد بهم المشركون الذين يعتقدون بالله و الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ من حب هؤلاء لأوثانهم، فالمؤمنين حيث يعرفون أن كل خير من الله يحبونه حبا بالغا و لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا أى لو يرون هؤلاء المشركين يوم القيامة كون القوة جميعا لرأوا مضره فعلهم، و سوء عاقبه شرهم، و حذف جواب لو، تهويلا للأمر، كما تقول لعدوك: لو ظفرت بك و أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

العذاب عطف على «أن القوة».

[١٦٧] إن الرؤية من الظالم للعذاب، إنما يكون إذ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الْقَادَةِ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ هُمُ التَّابِعُونَ لَهُمْ وَ رَأَوْا جَمِيعًا

(١) النور: ٤٦.

(٢) آل عمران: ٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٧ إلى ١٦٨]

وَ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤْنَا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)
يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)

العذاب وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمْ أَى فِيمَا بَيْنَهُمُ الْأَشْيَابُ فَمَا كَانَ فَى الدنیا یسبب وصله بعضهم لبعض من المال و الرئاسة و القرابة و الحلف و أشباهها، تنقطع هناك، فلا داعى لنصرة الرؤساء أتباعهم الذين كانوا يتبعونهم فى الدنيا.

[١٦٨] وَ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا إى التابعین لرؤسائهم لو أن لنا كَرَّةً أى یا لیت لنا عودة إلى دار الدنيا فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ أى من هؤلاء الرؤساء كما تَبَرَّؤْنَا مِنَّا هنا فى القيامة حال حاجتنا إلى العون كَذَلِكَ أى هكذا يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ أى أعمال كل من التابعین و المتبوعین حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ فإن صلاتهم و أعمالهم، كلها ذهبت أدراج الرياح، فيتحسرون لماذا لم يعملوا بأوامر الله سبحانه و ما هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ فإن المشرك یبقى فى النار إلى الأبد، إن تمت علیه الحجة و عانده.

[١٦٩] و إذ تم الكلام حول العقيدة، توجه إلى الحياة التى هى مقصد الإنسان، و إليها يرجع كثير من حركته و سكنونه یا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فَى الْأَرْضِ مِنْ نباتها و حیوانها و مائها و معدنها حَلَالًا طَيِّبًا أى فى حال كون المأکول حلالا طيبا، إلا ما حرم منه، و فى قوله «طيبا»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٩ إلى ١٧٠]

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشَاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَ لَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)

إشارة إلى أن كل حلال طيب، و ليس فيه خبث يوجب انحراف الصحة، أو انحراف الخلق وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَكَأَن الشَّيْطَانِ يخطو نحو الآثام، و من أثم كأنه تتبع خطواته إذ مشى خلفه إِنَّهُ أَى الشَّيْطَانِ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أى عدوا ظاهرا.

[١٧٠] إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ أى الأعمال السيئة وَ الْفَحْشَاءِ وَ هى الأعمال السيئة للغاية، فهو مشتق من الفحش، بمعنى التعدى وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ أى تنسبوا إلى الله ما لا تَعْلَمُونَ من العقائد و الأحكام، و عدم العلم هنا أعم من العلم بالعدم، كما قال سبحانه أَمْ تُتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ «١».

[١٧١] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَ سائر الوحي قالوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أى وجدنا عليه آباءنا من التقاليد، فأنكر الله ذلك عليهم بالاستفهام الإنكارى، بقوله أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَ الدنیا وَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ فإذا

(١) الرعد: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧١ الى ١٧٣]

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)

ظهر لكم أن آباءكم لا يعلمون، فكيف تتبعونهم.

[١٧٢] ثم بين الله سبحانه، أن هؤلاء الكفار لعنادهم و تعصبهم، قد غلقت منافذ السمع و البصر عنهم، فلا يفيد فيهم وعظ و لا تذكير و مثل الذين كفروا بعد ما يروا الآيات، و يسمعون نداءك يا رسول الله كمثل الذي ينعق أي يرفع صوته بما أي بالحيوان الذي لا يسمع و لا يفهم الكلام، و إنما يسمع إلا دعاء و نداء فالحيوان، إذا صحت به، لا يفهم من كلامك إلا مجرد الدعوة و النداء، فهؤلاء الكفار كذلك، إذ لا- ينتفعون بكلامك أبدا، فهم صم جمع أصم بكم جمع أبكم عُمَى جمع أعمى، فإنهم و لو كانت لهم آذان و ألسنة و عيون، لكنها كالمعطله، لأنها لا تؤدي وظيفتها فهم لا يعقلون [١٧٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ تَكَرَّرَ لِمَا تَقْدِمُ لِإِلْحَاقِ مَسْأَلَتِي الشُّكْرَ وَ الْمَحْرَمَاتِ بِهِ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ وَ لَا تَشْكُرُوا سَائِرَ الْأَلْهَةِ، كَالْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَمْطَرُونَ بِالْأَنْوَاءِ، وَ يَرْزُقُونَ بِالْأَلْهَةِ الْمَرْعُومَةَ.

[١٧٤] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ هِيَ الَّتِي لَمْ تَذْبَحْ عَلَى النُّحُو الشَّرْعِيِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٠٩

[سورة البقرة (٢): آية ١٧٤]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)

و الدّم و هو و إن كان مطلقا، إلا إنه مقيد بالمسفوح لقوله سبحانه إلا أن يكون مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا «١» و لحم الخنزير و خص اللحم بالكلام، و إن كانت جملته محرمة، لأن اللحم هو المعظم المقصود في الغالب و ما أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ الإِهْلَالُ فِي الذَّبِيحَةِ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّسْمِيَةِ، وَ قَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ عِنْدَ ذَبْحِهِمْ، يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِتَسْمِيَةِ الْأَوْثَانِ، فَهِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ أَكْلِ ذَبِيحَةٍ ذَكَرَ غَيْرَ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهَا فَمَنْ اضْطُرَّ بِصَيْغَةِ الْمَجْهُولِ، فَإِنْ «اضطر» متعد من باب الافتعال، و حيث لم يكن المقصود، سبب الاضطرار، ذكر مجهولا غَيْرَ بَاغٍ أَيْ لَمْ يَكُنْ بَاغِيًا وَ طَالِبًا لِلذَّهْنِ فِي أَكْلِهِ وَ شَرْبِهِ وَ لَا عَادٍ أَيْ مُتَعَدٍّ فِي الْأَكْلِ وَ الشَّرْبِ، عَنِ حُدِّ الضَّرُورَةِ، أَوْ غَيْرِ بَاغٍ عَلَى إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ، وَ لَا عَادٍ بِالْمَعْصِيَةِ طَرِيقَ الْمُحِقِّينَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي تَنَاوُلِ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ يَسْتُرُ الْعَصِيَانَ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ، فَغَفَرَ بِمَعْنَى سَتَرَ، وَ سَتَرَ الْعَصِيَانَ، عَدَمَ الْمُؤَاخَذَةِ بِهِ رَجِيمٌ بِكُمْ، وَ لَذَا جَازَ تَنَاوُلَ الْمَحْرَمِ فِي حَالِ الْاضْطِرَارِ.

[١٧٥] إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ هُمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا يَكْتُمُونَ الْعَقَائِدَ الْحَقَّةَ الْمَوْجُودَةَ فِي كِتَابِهِمْ، وَ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ

(١) الأنعام: ١٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٠

[سورة البقرة (٢): آية ١٧٥]

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَى وَ الْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَضْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)

الكتاب أحكاما لم توجد فيه، كما قال سبحانه قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١» و لعل ارتباط هذه الآية بما قبلها من جهة الأمور التي كانوا يحرمونها، و لم يكن في كتبهم تحريم لها و يَشْتُرُونَ بِهِيَ أَيْ بِهَذَا الْكِتَابِ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ رِئَاسَةِ الدُّنْيَا وَ أَمْوَالِهَا، فَإِنَّهَا

قليل بالنسبة إلى الآخرة أولئك ما يأكلون في بطونهم أى لا يجرون إلى بطونهم و لعل ذكر فى بطونهم للاحتراز عن الأكل فى بطن الغير، فإن العرب تقول شبع فلان فى بطنه، إذا أكله بنفسه، و تقول شبع فلان فى بطن غيره، إذا أكله من يتعلق به إلا النار فإن ما أكلوه ينقلب نارا تحرق بطونهم فى جهنم ولا يكلمهم الله يوم القيامة فيهملهم ليدوقوا الهوان جزاء ما فعلوا ولا يزكّهم أى لا يطهرهم عن الآثام، فإن البطن إذا ملئ حراما يقسو، فلا يهتدى حتى يتزكى الإنسان و يطهر و لهم عذاب أليم مؤلم.

[١٧٦] أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى أى عوض الهداية، فكان نفس الإنسان ثمن لأحد أمرين الضلالة و الهداية، فهم أعطوا أنفسهم، و اشتروا الضلالة عوض أن

(١) آل عمران: ٩٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١١

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧٦ إلى ١٧٧]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦) لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

يشتروا الهداية و اشتروا العذاب بالمغفرة فعوض أن يشتروا المغفرة لأنفسهم اشتروا العذاب فما أصبرهم على النار تعجب عن صبرهم على النار التي هي عاقبة عملهم، أى كيف أنهم يصبرون على النار حينما فعلوا ما عاقبه النار.

[١٧٧] ذللك العذاب، إنما توجه إليهم بسبب أن الله نزل الكتاب أى التوراة بالحق و إن الذين اختلفوا فى الكتاب بكتمان بعضه و إظهار بعض لفي شقاق و خلاف عن الحق بعيد فهم إنما استحقوا العذاب، لأنهم خالفوا الحق، و كتموا ما لزم إظهاره، و من المحتمل أن يكون المراد بالكتاب «القرآن» أى أن عذابهم بسبب كتمانهم كون القرآن حقا و اختلافهم فيه، بأنه سحر و كهانة أو كلام بشر.

[١٧٨] لَيْسَ الْبِرُّ كُلُّ الْبِرِّ أَيهَا الْيَهُودِ الْمَجَادِلُونَ حَوْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ الصَّارِفُونَ أَوْقَاتِكُمْ فِي هَذِهِ الْبَحْثِ الْعَقِيمَةِ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ فَرَعَىٰ مُرْتَبَطٌ بِتَكْلِيفِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَقَدْ كَلَفْنَا أَنْ نَصْرِفَ الْوَجْهَ إِلَى الْكَعْبَةِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ فِعْلٌ، أَيْ وَ لَكِنْ ذَا الْبِرِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَذَلِكَ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٢

يتفرع عليه أحكام الصلاة و غيرها و آمن ب الملائكة و الكتاب المنزل من عند الله على أنبيائه و آمن ب النبيين كلهم أولهم و أوسطهم و آخرهم و آتى المال أى أعطاه و أنفقه على حبه أى مع أنه يحبه، أو على حب الله تعالى ذوى القربى أى قراباته و أرحامه و اليتامى الذين مات أبوه و المساكين الذين لا يجدون النفقة لأنفسهم و أهلهم و ابن السبيل الذى انقطع فى سفره، فلا مال له يوصله إلى أهله و مقصده، و سمي ابن السبيل، لعدم معرفة أبيه و عشيرته و السائلين من الفقراء الذين يسألون الناس و آتى المال فى فك الرقاب أى اشتراء العبيد أو إعتاقهم، حتى يتحرروا عن رب العبودية و أقام الصلاة أى أداها على حدودها و آتى الزكاة الواجبة و المستحبة و الموفون الذين يفون بعهدهم إذا عاهدوا سواء كان عهدا مع الله كالنذر و البيعة، أو مع الناس كالعقود، و هذا عطف على قوله «من آمن» و الصابرين عطف على من آمن على طريق القطع بتقدير المدح، كما قال ابن مالك:

واقطع أو اتبع أن يكن معينابدونها أو بعضها اقطع معلنا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٣

[سورة البقرة (٢): آية ١٧٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)

و ارفع أو انصب إن قطعت مضمرا مبتدئا أو ناصبا لن يظهرها

فإن عادة العربي أن يتفنن بالقطع رفعا و نصبا إذا طالت الصفات تقليلا للكلل و تنشيطا للذهن بالتلون في الكلام في التأساء البؤس الفقر و الضراء و المضر الموجه و العلة و كل ضرر و حين التأس أي الصابرين حين القتال أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم الذين صيدقوا في نياتهم و أعمالهم، لا من يجادل في أمر كتحويل القبلة و أولئك هم المتقون الخائفون من الله سبحانه، و في هذه الآية الكريمة إلماح إلى حال كثير من الناس حيث يتركون المهام و يناقشون في أمر غير مهم عنادا و عصبية.

[١٧٩] و حيث ذكر سبحانه ما هو البر عقبه ببعض الأحكام التي ينبغي لأهل البر المؤمنين بالله و اليوم الآخر المتصفين بتلك الصفات أن يلتزموا بها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ و معنى كتابته تشريعه إذ الشرائع تكتب في القتلى جمع قتيل، فقد ورد أنها نزلت في حين من العرب لأحدهما طول على الآخر، و كانوا يتزوجون نساء بغير حلال، و أقسموا لقتلنا بالعبد منا الحر منهم، و بالمرأة منا الرجل منهم، و بالرجل منا الرجلين منهم، و جعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك، حتى جاء الإسلام، و أبطل تلك الأحكام، ف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٤

[سورة البقرة (٢): آية ١٧٩]

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

الحر بمقابل الحر يقتل لا مقابل العبد و العبد بالعبد و الأنثى تقتل بمقابل الأنثى لا الذكر يقتل في قبال الأنثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ قَبْلِ أَخِيهِ شَيْءٌ بَأْنِ عَفَى الْأَخِ الْوَالِي لِلْمَقْتُولِ عَنِ الْقَاتِلِ، و بدله بالدية، أو عفى عن بعض الدية، و بقى بعضها الآخر فالواجب على الطرفين، مراقبه الله في الأخذ و الإعطاء، فمن طرف الولي للمقتول فاتباع للقاتل بالمعروف بأن لا يشدد في طلب الدية، و من طرف القاتل و أداء إليه أي إلى العافي بإحسان من غير مطل و تصعيب ذلك الحكم في باب القتل بالمماثلة، أولا، و التخيير بين القتل و الدية و العفو ثانيا تخفيف من ربكم عليكم و رحمة منه بكم، و في المجمع أنه كان لأهل التوراة القصاص أو العفو، و لأهل الإنجيل العفو و الدية فَمَنِ اعْتَدَى عَنِ الْحُكْمِ الْمَقْرَرِ بَعْدَ ذَلِكَ الَّذِي قَرَّرْنَاهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم في الدنيا و الآخرة.

[١٨٠] و لكم في القصاص في باب القتل، بأن يقتل القاتل عمدا حياة للمجموع، لأن كل من افتكر إنه لو قتل قتل ارتدع إلا النادر، أيضا إن القصاص يوجب عدم تعدى أولياء المقتول على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٥

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٠]

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)

أقرباء القاتل، بأن يقتلوا منهم عددا كثيرا، كما كان هو المتعارف في زمان الجاهلية، حتى ربما فويت القبيلة لأجل قتيل واحد يا أُولِي الْأَلْبَابِ جمع لب، بمعنى العقل، أي يا أصحاب العقول لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ القتل، أي شرع القصاص، حتى تتقون من القتل.

[١٨١] و حيث ألمح القرآن الحكيم إلى حكم القتل، أشار إلى ما يرتبط به من الوصية، فقال كُتِبَ عَلَيْكُمْ كِتَابُهُ رَاجِحًا، فإن الكتابة تشمل الواجب و المندوب، و الوصية مندوبة، إلا إذا وجبت بالعارض إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ بَأْنِ رَأَى مَقْدَمَاتِهِ مِنْ مَرَضٍ وَ هَرَمٍ وَ نَحْوِهِمَا إِنْ تَرَكَ خَيْرًا أَي مَالًا فَإِذَا لَمْ يَتْرِكْ الْخَيْرَ، لا داعي للوصية و إن كانت مستحبة أيضا، لكنها ليست مثل تأكيد من ترك الخير الْوَصِيَّةُ نَائِبٌ فَاعِلٌ «كتب» لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ أَي الْأَقْرَبَاءِ بِالْمَعْرُوفِ بَأْنِ يُوَصَّى لِوَالِدَيْهِ وَ أَقْرَبَائِهِ، و لو كانوا وراثا، شيئا من الثلث، و هذا يوجب نشر الألفه و المحبة أكثر فأكثر، و إنما قيده بالمعروف، حتى لا يوصى بما يوجب إثارة الشحنة، كأن يترك الأقرب، و

يوصى للأبعد، أو يفضل بعضاً على بعض بما يورث البغضاء، و المراد بالمعروف، الذى يعرف أهل التميز، إنه لا جور فيه ولا حيف، وهذه الوصية تكون حقاً على الْمُتَّقِينَ الذين يؤثرون التقوى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨١ إلى ١٨٢]

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

[١٨٢] فَمَنْ بَدَّلَهُ أى بدل الإيضاء وغيره وزوره بعد ما سَمِعَهُ أى علمه، فالسمع يستعمل بمعنى العلم فَإِنَّمَا إِثْمُهُ أى إثم التبديل عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ وليس إثم على الذى يأكل المال إرثاً بغير علم، و الذى يأكله زيادة على حصته، من غير علم فإن الغالب، أن يبذل الجيل الأول، و يتصرف سائر الأجيال، بلا علم منهم بالتبديل إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لوصاياكم و أقوالكم عَلِيمٌ بنواياكم و تبديلكم، أو تنفيذكم للوصية، و لعل هناك نكتة أخرى فى قوله «فإنما إثمهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ» هى أن كثيراً من الناس لا يوصون خوفاً من أن يلحقهم إثم التبديل من بعدهم، لأنهم بوصيتهم أعانوا من بدل و مهدوا الطريق له، كما رأيت ذلك متعارفاً فى كلام كثير من الناس، حيث يقولون من أوصى ألقى ورثته فى المعصية، فيكف بعضهم عن الوصية، فأشار سبحانه إلى كون هذا الحكم غلطاً، فإن الموصى فعل خيراً، و إنما المغير هو الذى يتحمل الإثم.

[١٨٣] ثم استثنى سبحانه عن حرمة تبديل الوصية، بأنه إنما يكون حراماً، إذا كان تغيراً من حق إلى باطل، أما إذا كان من باطل إلى باطل، فلا إثم فى التغيير فَمَنْ خَافَ وَ خَشِيَ مِنْ مَوْصٍ أى الذى يوصى جَنَفًا أى ميلاً عن الحق إلى الباطل، بأن أوصى أزيد مما يحق له الإيضاء به أو إِثْمًا بأن حرم ورثته بإيضاؤه، و فى الحديث أن الإثم الخطأ عن عمد، و الجنف الخطأ لا عن عمد فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ أى بين الورثة و الموصى، و الموصى له، بأن رد الزائد إلى الورثة، و أبطل ما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨٣ إلى ١٨٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

فيه الإثم فلا إثم عَلَيْهِ أى على المبدل للوصية إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بمن يأثم، فكيف بمن لا يأثم، و قد ثبت فى الشريعة إن الوصية بما زاد على الثلث لا تنفذ إلا برضى الورثة «١».

[١٨٤] ثم انتقل السياق إلى حكم آخر من أحكام الإسلام- لما ذكرنا من أن القرآن الحكيم، بعد بيان أصول التوحيد، ذكر جملة من الأحكام- فقال سبحانه، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ فإنه مفروض عليكم، فيجب عليكم أن تصوموا كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فليستم أنتم وحدكم أمرتم بالصيام، بل كان الصوم شريعة فى الأديان السابقة أيضاً لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ النار بصيامكم، فالصائم حيث يحس بالجوع و العطش و الضعف يتذكر الله سبحانه فيخبت قلبه و تضعف فيه قوى الشر، و ترق نفسه و تصفو روحه، و كل ذلك سبب للتقوى و ترك المعاصى.

[١٨٥] أَيَّامًا أى إن الصيام فى أيام مَعْدُودَاتٍ أى محصورات، فليست أيام كثيرة لا- تعد، و إنما هى ثلاثون يوماً فقط- و فيه تسلية للصائم- و ليس الصيام على كل أحد فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا مَرَضًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٨

يضره الصوم أو على سَفَرٍ فقد شبه السفر بمركوب لغلبة الركوب فيه، و حد السفر معين في الشريعة فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ أى فليصم في أيام أخر غير شهر رمضان، قضاء لما فاته بالمرض أو السفر وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ أى يطيقون الصيام، بأن يكون آخر طاقتهم و ذلك موجب للعسر، كما لا يخفى، إذ آخر الطاقة عسر، أو أن الذى يطيق الصوم كان فى أول الشريعة مخيرا بين الصيام و الإطعام، ثم وجب الصوم وحده، و ذلك للتدرج بالأمة فِدْيَةٌ أى الواجب عليهم الفداء بدل الصوم طَعَامٌ مَسْكِينٍ واحد و هو مد من الطعام فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا بأن زاد على طعام المسكين فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ و أَنْ تَصُومُوا أيها المطيقون، الذى يبلغ الصوم طاقتكم خَيْرٌ لَكُمْ من الإطعام، فالإنسان إما أن يضره الصوم ضررا بالغا، و هو الذى تقدم أن يفطر و يأتى بعده من أيام أخر، و إما أن يشق عليه إلى حد العسر، و هو الذى يبلغ منتهى طاقته، و هذا يخير بين الصيام و الإطعام و إن كان الصيام خيرا، و إما أن لا يشق عليه و هو الذى يجب عليه الصيام معينا مما بين فى الآية التالية إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لعلمتم أن الصيام خير لما فيه من الفوائد التى ليست فى الإطعام، و ليس مفهومه، إن لم تكونوا تعلمون، فليس الصوم خيرا، بل المفهوم إن لم تكونوا تعلمون، لم تعلموا إن الصوم خير.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢١٩

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٥]

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِيُتَكَبَّرُوا اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

[١٨٦] الأيام المعدودات المفروض فيها الصيام هى شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ مما زاد فى عظمته و حرمة، إذ صار زمانا للنزول أعظم دستور للبشرية إلى الأبد فى حال كون القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ يهديهم إلى الحق و إلى صراط مستقيم وَ بَيِّنَاتٍ أى أمور واضحات مِّنْ جِنْسِ الْهُدَى فليس هدى غامضا يحتاج إلى إثبات و دليل، بل واضح لائح، و من الهدى بيان لبيّنات، إذ يمكن أن يكون شيئا بينا من حيث الشهادة، أو المعاملة أو نحوها وَ مِنَ الْفُرْقَانِ أى يفرق بين الحق و الباطل و الضلال و الرشاد فَمَنْ شَهِدَ أى حضر و لم يغيب بالسفر مِنْكُمُ الشَّهْرَ أى شهر رمضان فَلْيَصُمْهُ إيجابا، و لما كان الحكم عاما استثنى منه بقوله وَ مَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ و إنما كرر تمهيدا لقوله يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ و لذا أمركم بالإفطار فى السفر و المرض وَ إنما شرع عدة من أيام أخر لِيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ أى عدة الشهر، فإن فى صيامه فوائد لا يدر كها إلا من أكملها، فإن لم يتمكن من إكمالها فى نفس شهر رمضان أكملها خارجه و إنما شرع الصوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٠

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٦]

وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

لِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ أى تعظموه بسبب هدايته لكم إلى دينه و شريعته، فالصيام سبب قرب النفس إلى الله سبحانه، فيأتى منها التكبير عفوًا، و فى التأويل، المراد به تكبير ليلة الفطر وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ فالصوم نعمة تستحق الشكر لما فيه من صلاح الدنيا و الدين.

[١٨٧] و حيث أن من عادة القرآن الحكيم أن يخلل الأحكام نفحة موجهة نحو الله تعالى، ليرتبط الحكم بالخالق، و ليشع فى النفس النشاط و العزيمة، أتت أية استجابة الدعاء هنا، بعد طول من بيان الأحكام، ثم يأتى بعدة آيات ترتبط بالأحكام ثانية، بالإضافة إلى أن استجابة الدعاء تناسب شهر رمضان، فإنه شهر دعاء و ضراعة، و

قد ورد أن سائلا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كيف ندعوا، فنزلت وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ إليهم، قرب العلم و الإحاطة و السمع و البصر، لا قرب الزمان و المكان و الجهة، فإنه سبحانه منزه عن كل ذلك أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ الَّذِي يَدْعُونِي إِذَا دَعَانِ و لعل فى هذا القيد إفادة أن الإجابة وقت الدعوة مباشرة فإن «إذا» ظرف، و يفيد تكرار كلمة «دعا» لتركز فى

الذهن تركيزاً فليستجيبوا لى أى يطيعونى فى أوامرى و نواهى، إذ من يجب الدعاء، يستحق أن يستجيب له الإنسان و ليؤمنوا بى إيماناً بذاتى و صفاتى لعلهم يزهدون أى لكى يصيبوا الحق و يهتدوا إليه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢١

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٧]

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

[١٨٨] أَحَلَّ لَكُمْ الطيبات أيها الصائمون لَيْلَةَ الصَّيَامِ التي تصومون غدها الرَّفَثُ أى الجماع إلى نِسَائِكُمْ و إنما عدى ب «إلى» لتعليم معنى الإفشاء، أى الانتهاء إلى زوجاتكم بالجماع. و قد

روى عن الصادق عليه السلام فى سبب نزول هذه الآية أنه قال: كان الأكل محرماً فى شهر رمضان بالليل بعد النوم، و كان النكاح حراماً بالليل و النهار فى شهر رمضان، و كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقال له مطعم بن جبير، أخو عبد الله بن جبير الذى كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كله بفم الشعب يوم أحد فى خمسين من الرماة، و فارقه أصحابه و بقى فى أثنى عشر رجلاً فقتل على باب الشعب، و كان أخوه هذا مطعم بن جبير شيخاً ضعيفاً، و كان صائماً فأبطأت عليه أهله بالطعام، فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حرم على الأكل فى هذه الليلة، فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمى عليه، فرآه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فرق له، و كان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرا فى شهر رمضان، فأنزل الله هذه الآية، فأحل النكاح بالليل فى شهر رمضان و الأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر «١».

هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ فكما أن اللباس يقى البدن و كما أنه ملاصق بالبدن و محرم عليه، كذلك كل من الزوجين بالنسبة إلى الآخر عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ أَيُّهَا الصَّائِمُونَ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ مِنَ الْخِيَانَةِ

(١) عوالى اللآلى: ج ٢ ص ٨٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٢

أَنْفُسِكُمْ أى كنتم تخونونها بارتكاب المعصية فكأن المرتكب لها يخونها إذ يسبب لها خسارة، و كل خائن كذلك يسبب لمن خانه خسارة فَتَابَ عَلَيْكُمْ ما كنتم تأتون به من المحرم فى جماع أهليكم ليلاً و عفا عَنْكُمْ بالنسبة إلى هذا الحكم فمن الآن بَاشِرُوهُنَّ أى يجوز لكم جماعهن ليلاً و الأمر فى مقام نفى لا يفيد إلا الجواز و أَبْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْأَوْلَادِ و اللذة المحللة الموجبة للشواب، و هذا بالنسبة إلى نسخ الحكم بتحريم الجماع و كُلُوا وَاشْرَبُوا أى يباح لكم الأكل و الشرب من أول المغرب حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ بيان الخيطين أى يتضح الفجر الصادق الذى هو فى وسط الظلام كخيط أبيض قرب خيط أسود ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ بالكف عن المفطرات المذكورة فى الشريعة، من أول الفجر الصادق إِلَى اللَّيْلِ و هو المغرب الشرعى، و هذا بالنسبة إلى نسخ الحكم بتحريم الأكل و الشرب لمن نام قبل أن يفطر و لَا تُبَاشِرُوهُنَّ أى لا تجامعوا النساء و أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ليلاً أو نهاراً و الاعتكاف هو اللبث فى المسجد بقصد العبادة و يشترط فيه الصوم، و أقله ثلاثة أيام بتفصيل مذكور فى الفقه، و من أحكام الاعتكاف حرمة مباشرة النساء ليلاً و نهاراً تِلْكَ التي ذكرنا من أحكام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٣

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٨]

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

الصيام (١) وغيرها حُرْمَةُ اللَّهِ التي جعلها لأفعال العباد من الفعل فلا يجوز تركه، و الترك فلا يجوز إقحامه كحدود المدينة و الدار و نحوهما فلا تَقْرُبُوهَا نهى عن الاقتراب، مبالغة في النهى عن الاقتحام و المخالفة كقوله تعالى و لَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (٢) كَذَلِكَ أى مثل هذا البيان الواضح الذى بين أحكام الصيام و غيره يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ دَلَالَةً و أحكامه لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أى لكى يتقوا معاصيه.

[١٨٩] ثم انتقل السياق إلى تشريع آخر له مناسبة ما ب «الأكل» الذى دار الحديث حوله فى مسألة الصيام و لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ بالغصب و ما أشبه، و كان وجه ذكر كلمة «بينكم» أن الأكلين للغصب و نحوه يتآمرون بينهم فى خفاء حتى يبرروا أكلهم و تُدْلُوا الإدلاء أى الإلقاء و الإفشاء أى تلقوا بها أى بتلك الأموال إِلَى الْحُكَّامِ جمع حاكم، بمعنى القضاة بعنوان الرشوة و الهدية ليأخذوا جانبكم فى أكل المال بالباطل لِتَأْكُلُوا عُلَّةً لندلوا أى علة إعطائكم الرشوة أن تأكلوا فَرِيقًا

(١) راجع موسوعة الفقه: ج ٣٧ ص ٢٥١.

(٢) الأنعام: ١٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٤

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٩]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبُرْءَانُ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَ لَكِنَّ الْبُرْءَانَ اتَّقَى وَ اتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

أى قسما مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ بدون حق و أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بأن أكلكم و إرشاءكم باطل و إثم.

[١٩٠] مرت أحكام كلها تحتاج إلى التوقيت من صيام و اعتكاف و محاکمات و غيرها فناسب أن يأتى تشريع الأهلة هنا مع الغض عما تقدم من أن المقصود بيان جملة من الأحكام بعد بيان أصول التوحيد يَسْئَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَنِ الْأَهْلِ وَ عن سبب اختلاف الهلال فى كل شهر من الهلال إلى البدر ثم إلى الهلال حتى المحاق أو عن فائدة هذا الاختلاف و لماذا لم يكن القمر كالشمس فى الانتظام قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى جوابهم هِيَ مَوَاقِيتُ جمع ميعات بمعنى الوقت و الزمان لِلنَّاسِ فى عباداتهم و معاملاتهم و ل الْحَجِّ فمن أقرض إلى شهر أو باع ليقبض الثمن، أو يدفع الثمن بعد شهرين، أو أراد الصيام و الإفطار أو الحج فى أشهره لا بد و أن يكون له معلم يستند إليه و لذلك جعل الله الأهلة، و هذا الجواب ينطبق على السؤال بناء على الوجه الثانى فى معنى «يسألونك» و أما بناء على الوجه الأول و سؤالهم كان عن سبب اختلاف الأهلة، فإن القرآن أعرض عن جوابهم لأن عقولهم ما كانت تتحمل الجواب الفلكى، و لذا عبر عن ذلك إلى فائدة الأهلة التى هم أحوج إليها، كما فى آية أخرى يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ (١) حيث أعرض عن جواب ماهية

(١) البقرة: ٢١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٥

[سورة البقرة (٢): آية ١٩٠]

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)

المنفق أى محل الإنفاق لأن هذا هو الذى يترتب عليه الفائدة و هم بحاجة إليه، و حيث ذكر الحج فى الكلام انتقل السياق إلى ما كان يفعل الجاهليون من أنهم إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها و إنما يدخلونها من ظهورها، فهى عن ذلك، و فى هذا تلميح بأن

السؤال عما لا يهتمكم من الأهلة، مثل إتيان البيوت من ظهورها و كالأكل من القفا و لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا تَدْخُلُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا بِأَنْ تَنْقُبُوا الْبُيُوتَ وَ تَدْخُلُونَهَا مِنَ النُّقَبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِإِتْيَانِ أَمْرِهِ وَ اجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ وَ اتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَ لَوْ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ فِي أَمْرِهِ وَ نَوَاهِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَى لَكى تفلحوا بالوصول إلى السعادة الدنيوية و الأخروية.

[١٩١] و هنا حكم آخر من أحكام الإسلام الكثيرة و هو القتال و الجهاد، و لقد كان بين هذا الحكم و بين «الحج» المتقدم مناسبة، إذ المشركون قد منعوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عن الحج عام الحديبية، فكان على المسلمين أن يستعدوا للجهاد إن اقتضت الظروف وَ قَاتَلُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا لِحَبِّ السَّيْطَرَةِ وَ الْغَلْبَةِ كَمَا هُوَ شَأْنُ مَلُوكِ الدُّنْيَا وَ زَعْمَائِهَا بَلْ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي فِيهَا سَعَادَةُ الْبَشَرِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٦

[سورة البقرة (٢): آية ١٩١]

وَ أَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُواكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)

لا- كل آمن، فمن ألقى سلاحه، و سكن إلى محله، فإن في قتاله إيجاد فوضى و اضطراب لا داعى إليهما و لا تَعْتَدُوا إِذَا قَاتَلْتُمْ مِنْ قَاتِلِكُمْ فَإِنَّ الْقِتَالَ قِتَالُ دِفَاعٍ، فَلَا مَعْنَى لِلْإِعْتِدَاءِ وَ أَنْتُمْ مَرْتَبُوتُونَ بِاللَّهِ الَّذِي تَقَاتِلُونَ لِأَجَلِهِ فَلَا يَصِحُّ الْإِعْتِدَاءُ مِنْ أُمَّثَالِكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ فَهُوَ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ، فَكَيْفَ يَحِبُّ مِنْ أَعْتَدَى وَ بَغَى؟.

[١٩٢] وَ أَقْتُلُوهُمْ أَى الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ أَى وَجَدْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ أَى أَخْرِجُوهُمْ مِنْ مَكَّةَ كَمَا أَخْرَجْتُمُوهُمْ مِنْهَا، فَمَنْ قَاتَلَكُمْ قَتَلْتُمُوهُ وَ مَنْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَخْرَجْتُمُوهُ جَزَاءً وَافِقًا وَ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَثَارَهَا الْكُفْرَانُ بِتَفْتِينِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ دِينِهِمْ وَ إِقْلَاعِ الْإِرْتِيَابِ وَ الشُّكِّ فِي قُلُوبِهِمْ لِيَجْلِبُوهُمْ إِلَى حَظِيرَةِ الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ فَالْقِتَالُ يُوجِبُ ذَهَابَ الدُّنْيَا وَ الْفِتْنَةُ تُوْجِبُ ذَهَابَ الدِّينِ، فَمَنْ تَقَاتَلْتُمْ لَكُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَهْرَبُوا بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَشْهَرُونَ السَّلَاحَ فَإِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْقِتَالَ لِأَنَّهُمْ بَدَأُوا بِالْقِتَالِ لِأَنَّهُمْ فَتَنُوا، وَ

روى أنها نزلت في مسلم قتل كافرا في الشهر الحرام فعاثوا المؤمنين بذلك «١»

، فبين سبحانه أن الفتنة التي تصدر من الكفار أشد من القتل و لا تُقَاتِلُوهُمْ أَى لا تقاتلوا

(١) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٢ إلى ١٩٣]

فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

الكافرين أيها المسلمون عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَى فِي الْحَرَمِ حَتَّى يُقَاتِلُواكُمْ فِيهِ وَ يَبْدُءُوا بِالْقِتَالِ فَإِنْ قَاتَلُواكُمْ بَدُءُوا بِكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ فَاقْتُلُوهُمْ هُنَاكَ كَمَا ذَكَرَ الْكُفْرَانُ الَّذِي مَرَّ مِنْ وَجُوبِ قِتَالِ الْكُفْرَانِ حَيْثُ وَجَدُوا إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [١٩٣] فَإِنْ انْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ بِأَنْ أَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ سَيِّئَاتِهِمْ حَتَّى الَّتِي ارْتَكَبُوهَا قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ مِنَ الْقِتَالِ فَالْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ رَحِيمٌ بَعْدَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

[١٩٤] وَ قَاتِلُوهُمْ أَى الْكُفْرَانُ الَّذِي يُقَاتِلُواكُمْ لَا لِأَجْلِ الْقِصَاصِ فَقَطْ بَلْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ بِأَنْ لَا يَفْتِنَ الْمُسْلِمُونَ عَنِ دِينِهِمْ وَ يَكُونَ الدِّينُ وَ الطَّرِيقَةُ لِلَّهِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُجٌ لِسِوَاهُ أَنْ يَنْتَصِرَ الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ وَ هَذَا هُمَا الْغَايَةُ مِنْ إِجْبَابِ الدِّفَاعِ فَإِنْ انْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ فَلَا عُدْوَانَ أَى تَعْدَى بِالْدِفَاعِ وَ الْقِتَالِ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ الْبَاقِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ، أَى إِذَا انْتَهَى الْمُعْتَدُونَ عَنِ الْفِتْنَةِ وَ التَّعَرُّضِ لِلدِّينِ وَ التَّعَرُّضِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْأَذَى وَ الْقِتَالِ فَلَا قِتَالَ مَعَهُمْ لِأَنَّ الْقِتَالَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الظَّالِمِينَ، وَ سُمِّيَ «عِدْوَانًا» تَشْبِيهًا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ

المقبلة: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٤ إلى ١٩٦]

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَ أَنْتُمُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

[١٩٥] الشَّهْرُ الْحَرَامُ وَ هُوَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ الْمَحْرَمِ وَ رَجَبٍ سَمِيَتْ هَذِهِ الْأَشْهُرُ حَرَامًا لِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِيهَا بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ أَيْ بِمُقَابِلِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَمَنْ انْتَهَكَ حَرَمَهُ الشَّهْرِ الْحَرَامِ بِالْقِتَالِ فِيهِ لَمْ يَحْرَمِ قِتَالَهُ بَلْ يِقَاتِلُ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ كَمَا أَنَّ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ انْتَهَكَ حَرَمَهُ اقْتَصَ مِنْهُ فِي نَفْسِ الشَّهْرِ أَوْ الْمَكَانِ الَّذِي انْتَهَكَ حَرَمَتَهُ وَ لِذَا يَحَارِبُ الْمَحَارِبُ فِي الْحَرَمِ وَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ لَا أَزِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَ سُمِّيَ اعْتِدَاءً لِأَنَّهُ مِثْلُ الْعِتْدَاءِ فَالتَّسْمِيَةُ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَجَاسَةِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَتَجَاوَزُوا الْحُدُودَ وَ لَا تَبَالِغُوا فِي الْقِسْوَةِ وَ الْإِنْتِقَامِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ فَيَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ يَسْعُدُهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

[١٩٦] وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ الْجِهَادَ يَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْفَاقِ فِي تَجْهِيزِ الْجَيْشِ وَ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ السَّبِيلِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ أَيْ لَا تُلْقُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ بَتَرَكِ الْإِنْفَاقِ لِلْجِهَادِ حَتَّى يَتَسَلَطَ عَلَيْكُمْ الْعَدُوُّ وَ أَحْسِنُوا فِي إِنْفَاقِكُمْ وَ جِهَادِكُمْ وَ سَائِرِ أُمُورِكُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

[١٩٧] ثم يرجع السياق إلى أحكام الحج الذي ألمح إليه فيما سبق، لأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٢٩

الحج كان في مقام صلح الحديبية و حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَنْتُمُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ أَيْ اتَّوَّابًا بِهَا تَمَامًا وَ كَامِلًا بِإِتْيَانِ مَنَاسِكِهَا قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا لِأَجْلِ رِيَاءٍ أَوْ سَمْعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ بَأَنْ مَنَعَكُمْ مَانِعٌ عَنِ الْحَجِّ بَعْدَ مَا أَحْرَمْتُمْ فَعَلَيْكُمْ إِذَا أَرَدْتُمْ التَّحَلُّلَ عَنِ الْإِحْرَامِ أَنْ تَقْدُمُوا أَوْ تَذْبَحُوا مَا اسْتَيْسَرَ أَيْ مَا أَمَكَّنَكُمْ مِنَ الْهَدْيِ الَّذِي قَدَّمْتُمُوهُ إِلَى اللَّهِ، وَ الْهَدْيُ هُوَ الْبَقْرُ أَوْ الْإِبِلُ أَوْ الْغَنَمُ وَ لَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ وَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّحَلُّلِ عَنِ الْأَجْسَامِ أَيْ لَا تَحْلِقُوا حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ الَّذِي قَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ مَحَلِّ الْحَصِيِّ أَوْ مَكَّةَ أَوْ مِنْى كَمَا فَصَّلَ فِي الْفِقْهِ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا لَا يَتِمُّكَ مِنْ أَنْ لَا يَحْلِقَ أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ كَأَنْ قَمَلَ رَأْسُهُ فَيَتَأَذَى مِنْ هَوَاتِهِ فَلَا يَتِمُّكَ مِنْ عَدَمِ الْحَلْقِ فَعَلِيهِ إِذَا حَلَقَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْهَدْيَ مَحَلَّهُ فِدْيَةٌ يَقْدِمُهَا بِدَلِّ حَلْقِهِ مِنْ صِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ صَدَقَةٍ لِسِتِّهِ مَسَاكِينَ أَوْ نُسُكٍ أَيْ شَاةٍ يَذْبَحُهَا لِأَجْلِ تَعْجِيلِهِ فِي الْحَلْقِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنَ الْعَدُوِّ الصَّادِ وَ كَذَلِكَ شَفِيتُمْ مِنَ الْمَرَضِ وَ زَالَ الْمَانِعُ فَمَنْ تَمَتَّعَ أَيْ اسْتَمْتَعَ بِالطَّيِّبِ وَ النِّسَاءِ وَ سَائِرِ الْمَلَذَاتِ الَّتِي يَحْرَمُهَا الْإِحْرَامُ بِسَبَبِ إِتْيَانِهِ الْعُمْرَةَ فَإِنَّ الْعُمْرَةَ تَنْتَهَى سَرِيعًا فَتَحُلُّ الْمَحْرَمَاتُ إِلَى الْحَجِّ أَيْ يَكُونُ تَمَتُّعُهُ بِالْمَلَذَاتِ إِلَى أَنْ يَحْرَمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٠

للحج فعليه ما اسْتَيْسَرَ أَيْ مَا تَمَكَّنَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ إِبِلٌ أَوْ بَقْرٌ أَوْ شَاةٌ يَجِبُ عَلَيْهِ ذَبْحُهَا فِي مِنْى أَيَّامِ الْعِيدِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ الْهَدْيَ فَعَلِيهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى بِلَادِكُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ تَكُونُ بَدَلًا عَنِ الْهَدْيِ ذَلِكَ التَّمَتُّعُ الَّذِي يَكُونُ عَمْرَتُهُ مَقْدَمَةٌ عَلَى حَجِّهِ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ كَانَ فِي أَطْرَافِ الْحَرَمِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ أَتْنَى عَشْرَ مِيلًا أَوْ نَحْوَهُ عَلَى خِلَافٍ، أَمَا مَنْ كَانَ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَأَنَّ كَانَ مَحَلَّهُ عِنْدَ أَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ فَفَرْضُهُ الْقُرْآنُ أَوْ الْإِفْرَادُ وَ

في كليهما يقدم الحج على العمرة، و الفرق بينهما أن القارن يعقد إحرامه بسوق الهدى دون المفرد وَ اتَّقُوا اللَّهَ فِي أَحْكَامِهِ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فلا تخالفوا أوامره و نواهيه. و الحج يشتمل على فرضين: (عمرة) هي: «الإحرام و التلبية»، «و الطواف بالبيت»، «صلاة الطواف»، «و السعى بين الصفا و المروة»، «و التقصير». و (حج) هو: «الإحرام»، «و الوقوف بعرفات»، «الوقوف بالمشعر»، «الإفاضة إلى منى»، «رمى جمرة العقبة»، «نحر أو ذبح»، «حلق أو تقصير»، طواف الحج و صلاته و سعى و تقصير و طواف النساء و صلاته «طواف النساء»، «صلاة طواف النساء»، «السعى بين الصفا و المروة»، «طواف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣١

[سورة البقرة (٢): آية ١٩٧]

الْحِجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَ لَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَغْلُمُهُ اللَّهُ وَ تَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ (١٩٧)

الزيارة، «صلاة طواف الزيارة»، «المبيت بمنى ليلة الحادى عشر و الثانى عشر»، «رمى الجمار الثلاث يومى الحادى عشر و الثانى عشر»، و قد أشار الشيخ البهائى إلى هذه الأعمال فى بيته المشهور

أطرت للعمرة اجعل نهج أو و أرنحط رسطر مر: لحج (١)

[١٩٨] الْحِجُّ فِي أَشْهُرٍ مَّعْلُومَاتٍ أَوْ أَشْهُرٍ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ وَ هُوَ شَوَالٌ وَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ فَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهُ مِنْهَا كَمَا كَانَ الْجَاهِلُونَ

(١) الالف: الإحرام لعمرة التمتع عن حجة الإسلام.

الطاء: طواف العمرة.

الراء: ركعتان صلوات طواف لعمرة التمتع.

السين: السعى بين الصفا و المروة عن عمرة التمتع.

التاء: التقصير عن عمرة التمتع لحجة الإسلام فهناك اعمال العمرة لحج التمتع.

الألف: الإحرام لحج التمتع.

الواو الأول: الوقوف بعرفات فى ٩ من ذىحجة لحج التمتع.

الواو الثانى: الوقوف فى مشعر الحرام ليلة العيد الى الصبح لحج التمتع.

الالف: الإفاضة إلى منى يوم العيد.

الراء: رمى جمرة للعقبة فى يوم العيد لحج التمتع.

النون: نحر إبل أو ذبيحة لحج التمتع.

الحاء: الحلق فى يوم العيد لحج التمتع.

الطاء: الطواف عن حجة الإسلام.

الراء: رمى الجمرات الثلاثة فى يوم الحادى عشر من ذى حجة عن حج التمتع.

السين: السعى بين الصفا و المروة لحج التمتع.

الطاء: طواف النساء.

الراء: رمى الجمرات الثلاثة فى يوم الثانى عشر من ذى حجة عن حج التمتع.

الميم: المبيت فى منى ثلاثة ليال عن حج التمتع.

و لا يخفى أن جملة (مر لحج) التي أتى بها البهائي (رحمه الله) تكون لتكملة الشعر فلا تدخل فيما أردناها من المناسك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٢

[سورة البقرة (٢): آية ١٩٨]

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨)

يفعلون حيث يؤخرون الحج، و نزل فيهم إنما النسبى زيادة في الكفر (١) فمن فرض على نفسه فيهن أى فى هذه الأشهر الحج فليعلم أنه لا رفث و هو الجماع و لا فسوق و هو السباب و المفاخرة و لا جدال قول لا و الله و بلى و الله فى الحج أى فى حال الإحرام و ما تفعلوا من خير فى الحج و غيره يعلمه الله و لعل ذكره هنا لكثرة احتياج الحجاج بعضهم إلى بعض فى مختلف الشؤون فأريد التنبيه بأن كل خير يصدر من الإنسان إنما هو بعلم الله سبحانه فيجازه على ذلك و تزودوا من الحج زادا للروح فإن خير الزاد التقوى و هو يحصل بكثرة هائلة فى الحج حيث التجرد و الكف عن الملذات و مقامات الشدائد و الصعوبات، و يحتمل أنها نزلت فيمن لم يكن يأخذ الزاد للحج بادعاء أنه ضيف الله ثم ليستعطى فى الطريق فأمر بأخذ الزاد فإنه قرين بالتقوى دون الاستعطاء الذى فيه منقصة و ذلة و حرمة أحيانا و اتقون أى خافوني فى أعمالكم فلا تغفلوا و لا تتركوا واجبا يا أولى الألباب أى يا أصحاب العقول.

[١٩٩] كانوا يتأثمون بالتجارة فى الحج فنزلت

(١) التوبة: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٩ إلى ٢٠٠]

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠)

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ بِالْأَتِجَارِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَحْرُومٍ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْهَا كَمَا يَنْدَفِعُ الْمَاءُ نَحْوَ الْوَهَادِ فَإِنَّ الْحَجَّاجَ يَنْدَفِعُونَ كَالسَّلِيلِ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَهُوَ الْمَوْقِفُ الثَّانِي وَوَقْتَهُ بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ يَوْمِ الْعِيدِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ أَوْ بِإِزَاءِ هِدَايَتِهِ سُبْحَانَهُ إِيَّاكُمْ لَدِينِهِ وَمَا يَسْعِدُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ أَيْ قَبْلَ الْهُدَى لَمَنِ الضَّالِّينَ عَنْ دِينِهِ.

[٢٠٠] ثُمَّ أَفِيضُوا مِنَ الْمَشْعَرِ إِلَى مَنَى مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِكُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتَهُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ اطْلُبُوا غَفْرَانَهُ وَغَفْوَهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ هكذا يقتضى نظم الآية، لكن ورد أن قريشا لا يقفون بعرفات و لا يفيضون منه و يقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه فيقفون بالمشعر و يفيضون منه، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات و يفيضوا منه كسائر الناس.

[٢٠١] فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ أَوْ أَدَيْتُمْ أَعْمَالَكُمْ فَالْمَنَاسِكُ جَمْعُ مَنْسَكٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠١ إلى ٢٠٢]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

و هو مصدر ميمى بمعنى العمل فأذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً فإن أهل الجاهلية كانوا إذا فرغوا من الحج يجتمعون هناك و يعدون مفاخر آبائهم و مآثرهم و يذكرون أيامهم القديمة و أيادهم الجسيمة فأمرهم الله أن يذكروه عوض ذكرهم آبائهم،

بل يجب أن يذكره أكثر وأحسن من ذكر آبائهم فهو المنعم الحقيقي الذي بيده كل شيء ومنه كل خير، وهنا يكون المجال واسعاً لبيان نموذجين من الناس منهم من يريد الآخرة ومنهم من يريد الدنيا ولذا قال تعالى: **فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا أَىٰ** أعطنا من نعيمها ورفاهها وسعادتها ولا يسأل نعيم الآخرة لأنه غير مؤمن بها إذ كان الحج قبل الإسلام عاماً للمعتقد والمنكر وما له في الآخرة من خلاقٍ أى نصيب.

[٢٠٢] وَمِنْهُمْ أَىٰ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسْبَنَهُ وَفِي الآخِرَةِ حَسْبِنَهُ وَقِنَا مِنْ وَفَىٰ أَى احفظنا من عذاب النار فهو يسأل نعيم الدنيا و نعيم الآخرة و يتعوذ بالله من النار.

[٢٠٣] أَوْلَيْكَ يسألون خير الدنيا والآخرة لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا لأنهم يستحقون ثواب أعمالهم بخلاف الطائفة الأولى فإن كفرهم يمنع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٣ الى ٢٠٤]

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا- إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا- إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)

عن ثوابهم وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فلا يظن الإنسان أن الآخرة بعيدة فإنه لا تمر الأيام والليالي إلا والشخص دفين في التراب وإن طال عمره في الدنيا.

[٢٠٤] وَأَذْكُرُوا اللَّهَ أَيَّامَ الْحِجَاكِ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ وَ هِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ فِي مَنَى فَمَن تَعَجَّلَ النَّفْرَ إِلَىٰ مَكَّةَ مِنْ مَنَىٰ فِي يَوْمَيْنِ بَانَ نَفْرَ يَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ النَّفْرَ بَعْدَ زَوَالِ الثَّانِي عَشَرَ وَمَن تَأَخَّرَ فِي النَّفْرِ فَنَفَرَ فِي الثَّلَاثِ عَشَرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فَيَجُوزُ كُلَّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ لِمَنِ اتَّقَىٰ الصَّيْدَ فِي إِحْرَامِهِ وَإِلَّا- فَإِنْ صَادَ وَجَبَ عَلَيْهِ النَّفْرُ الثَّانِي فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْفِرَ فِي الثَّانِي عَشَرَ وَاتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الْحَشْرُ هُوَ الْجَمْعُ وَ الْمَعْنَى تَجْمَعُونَ إِلَىٰ حُكْمِ اللَّهِ وَ جَزَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٢٠٥] ثُمَّ يَلْتَفِتُ السِّيَاقُ إِلَى الْإِنْسَانِ طَالِحِهِ وَصَالِحِهِ، وَ يَبِينُ خِصَائِصَ الْبَشَرِ، لِيُعْطَىٰ دَرْسًا لِمَنْ أَرَادَ الصَّلَاحَ وَ الرَّشَادَ فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: وَ مِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ لِلْبَاقَةِ وَ فَصَاحَتِهِ وَ كَلَامِهِ الْمَعْسُولِ فَتَسْتَحْسِنُ كَلَامَهُ وَ تَصْغِي إِلَى بَيَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَمَا مُتَعَلِّقٌ ب «قوله»، أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٥ الى ٢٠٦]

وَ إِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَ إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)

قوله فِي شُؤْنِ الدُّنْيَا مُعْجَبٌ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ ب «يعجبك» أَى أَنْ إِعْجَابَكَ إِنَّمَا هُوَ فِي الدُّنْيَا، وَ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ وَ يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ أَبَدًا فَإِنَّهُمْ حَيْثُ يَرُونَ نِفَاقَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ النَّاسَ مُطَّلِعُونَ عَلَى سِرَائِرِهِمْ فَيُؤَكِّدُونَ بِأَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ وَ أَنَّ مَا فِي قَلْبِهِمْ يَطَاقُ مَا عَلَى لِسَانِهِمْ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ الْأَلْدُ هُوَ شَدِيدُ الْخِصُومَةِ وَ الْخِصَامُ جَمْعُ يَعْنَى أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ خِصْمَاتِكَ فِي الْبَاطِنِ.

[٢٠٦] وَ إِذَا تَوَلَّى وَ أَدْبَرَ مِنْ عِنْدِكَ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ مِنْ هُنَا إِلَىٰ هُنَا كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَشَاغِبِ الْمَفْسُدِ لِيُفْسِدَ فِيهَا بِإِثَارَةِ الْفَوْضَى وَ الْاضْطْرَابِ وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ أَى الزَّرَاعَةَ وَ النَّسْلَ أَى الْأَوْلَادَ وَ الذَّرِيَّةَ فَإِنَّ إِثَارَةَ الْفَوْضَى يُوْجِبُ خَرَابَ الزَّرَاعَاتِ لِاسْتِغْثَالِ أَهْلِهَا بِالْكَفَاحِ، وَ فَنَاءُ النَّسْلِ إِذِ الشَّبَابُ دَائِمًا يَقْدُمُونَ عَلَى الْحَرْبِ وَ الْجَلَاءِ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ.

[٢٠٧] وَ إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ فِي عَمَلِكَ فَلَا تُفْسِدُ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ أَى حَمَلَتْهُ عِزَّةٌ وَ حَمِيَّةٌ الْجَاهِلِيَّةُ بَانَ يَأْتِمُّ لِأَنَّهُ لَا يَرْضَخُ لِلْحَقِّ وَ لَا يَعْتَنِي بِهِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ أَى تَمَكِينَهُ جَهَنَّمَ جَزَاءَ لَهُ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ أَى مَحَلَّ الْقَرَارِ، وَ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ أَوْ فِي فِرْدٍ خَاصٍ

منهم يسمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٧ إلى ٢٠٨]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)

الأخنس بن شريق، كان يظهر المحبة للنبي و يبطن الفساد و النفاق، و لعل وجه ارتباط هذه الآيات بالحج أن الكلام انتهى هناك حول من يفتخر بالآباء اعتزازا بالنفس و هذا مثلهم في الاعتزاز و الاعتزاز.

[٢٠٨] وَمِنَ النَّاسِ أَى بَعْضِ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي أَى يَبِيعُ فَإِن كَلَا مِنْ الْبَيْعِ وَ الشَّرَاءِ يَجِىءُ بِمَعْنَى الْآخِرِ نَفْسُهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ أَى لِأَجْلِ طَلَبِ رِضَاةِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ يَرَأْفُ بِهِمْ فَيَجَازِيهِمْ لِعَمَلِهِمُ الْحَسَنَ، وَ لَعَلَّ ذِكْرَ الرَّأْفَةِ لِأَجْلِ أَنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْتَوِي عَلَى أخطاءٍ وَ أضرارٍ، فففيه تنبيه إلى أن الله رؤف يجب البائع الأخطار و الأضرار، و هذه الآية نزلت في الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام حين نام في فراش الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليلة الهجرة.

[٢٠٩] وَ حين ذكر أن من الناس من هو منافق ناسب الإرشاد العام فقال سبحانه يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللِّسَانِ ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ مَعَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ كَافَّةً أَى جَمِيعًا فَاسْتَسَلِمُوا لِلدِّينِ فِي جَمِيعِ شُؤُونِكُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ بِأَنَّ تَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ تَتَّبِعُوا أَمْرَ الشَّيْطَانِ وَ مَا يُوْحَى إِلَيْهِ الْهَوَى إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أَى عَدُوٌّ ظَاهِرٌ لِأَنَّهُ يَأْمُرُ بِالْمَفَاسِدِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى ذَهَابِ دِينِكُمْ وَ دُنْيَاكُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٩ إلى ٢١١]

فَإِن زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَ مَنْ يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

[٢١٠] فَإِن زَلْتُمْ تشبيه للذنوب بمن يزل له قدم من بعيد ما جاءتكم البينات الأدلة الواضحة على الحق فاعلموا أن الله عزيز فلا يمتنع عليه العذاب و العقاب بمن زل حكيماً في فعله ليعفوا عن من يشاء و يعذب من يشاء.

[٢١١] وَ هنا يعود السياق إلى من تأخذه العزة فيقول سبحانه هَلْ يَنْظُرُونَ النظر بمعنى الانتظار أى هل ينتظر هؤلاء المنافقون إلا أن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ حتى يؤمنوا و يقلعوا عن نفاقهم و كفرهم في ظلال من الغمام ظلل جمع ظلّة و هى ما يستظل به من الشمس و سمي السحاب ظلّة لأنه يستظل به من الشمس، و الغمام هو السحاب و قد كانت اليهود تزعم أن الله ينزل في ظلل من الغمام و كذلك الملائكة معه و لذا قال:

وَ الْمَلَائِكَةُ عَطْفًا عَلَى «اللَّهِ» وَ قُضِيَ الْأَمْرُ أَى يَوْمَ تَغْيِيرِ الْكُونِ عَنْ وَضْعِهِ لَا يَبْقَى بَعْدَ مَجَالٍ لِلتَّكْلِيفِ إِنَّمَا هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ وَ يَكُونُ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ حِسَابِ وَ عِقَابِ وَ ثَوَابِ، لَا- يَوْمَ عَمَلٍ وَ شُغْلٍ، فَالآيَةُ تُشِيرُ إِلَى أُسَاطِيرِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَتَهَكِّمًا سَاخِرًا، ثُمَّ يَهْدِدُ وَ يُوْعِدُ بِأَنَّ الْأَمْرَ يَقْضَى فَلَا مَجَالَ بَعْدَ التَّكْلِيفِ.

[٢١٢] وَ حيث أشير إلى أسطورة إسرائيلية، توجه السياق إلى تأنيب بنى إسرائيل الذين كانوا يعاندون في إنكارهم للآيات سل بنى إسرائيل كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ أَى أُعْطِينَاهُمْ أَدْلَةً وَاضِحَةً وَ مَعَ ذَلِكَ عَانَدُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٣٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١٢ إلى ٢١٣]

زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)
كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

ولم يؤمنوا و مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ كَفَرًا فَلَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فليهيئ نفسه لعقابه.

[٢١٣] زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أى الحياة القريبة مقابل الحياة البعيدة و هى الآخرة و التى زينها لهم هى مجموعة عوامل بعضها حق و بعضها باطل فإن الحياة التى خلقها الله جميلة تزين نفسها كما أن الشيطان و النفس و الهوى تزين الحياة لتصرف الناس عن الآخرة و يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا حيث يرونهم منصرفين عنها مقبلين إلى الآخرة- التى لا يعتقد هؤلاء الكفار بها- و الَّذِينَ اتَّقَوْا من المؤمنين فَوْقَهُمْ أى فوق هؤلاء الكفار منزلة و مقاما و رتبة يَوْمَ الْقِيَامَةِ لأنهم عملوا لها فأدركوا خيرها و الكفار لم يعملوا فيبقون هناك سائلين و اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ فالرزق فى الدنيا ليس بالكفر و التوجه إليها حتى يحرم أهل الآخرة منها بل الرزق يصيب الكافر و المؤمن، فالمؤمن منعم فى الدنيا و فوق الكافر فى الآخرة.

[٢١٤] إن كل حركة إصلاحية لا بد و أن تشق صفوف الناس المتصافقة على الفساد و هكذا كان بعث الأنبياء عليهم السلام فقد كان النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٠

اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ لِمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ وَ مُنذِرِينَ لِمَنْ كَفَرَ أَوْ عَصَى وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ قِيدَ تَوْضِيحِي إِذْ كُلُّ إِنزَالٍ مِنَ اللَّهِ بِالْحَقِّ وَ إِنَّمَا أَكَّدَ لِمَقَابَلَتِهِ لِسَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي تَرَسَّلَهَا رُؤَسَاءُ الْحُكُومَاتِ إِلَى رَعَايَاهَا فَإِنَّ مِنْهَا مَا هُوَ حَقٌّ وَ مِنْهَا مَا هُوَ بَاطِلٌ لِيُحْكَمَ ذَاتَ الْكِتَابِ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ أُمُورٍ مَعَامَلَاتِهِمْ وَ سَائِرِ مَعَاشِرَاتِهِمْ وَ الْاِخْتِلَافُ هُنَا لَا يَنَافِي كَوْنِ النَّاسِ أُمَّةً وَاحِدَةً إِذْ وَاحِدَةٌ الْأُمَّةُ تَجْتَمِعُ مَعَ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ ثُمَّ صَارَ نَفْسُ الْكِتَابِ مَحَلًّا لِاِخْتِلَافِ الْأُمَّةِ فِيهِ، لَكِنْ هَذَا الْاِخْتِلَافُ لَيْسَ عَنِ الْوَاقِعِ وَ شَكِّ، لِأَنَّ الْكِتَابَ وَاضِحٌ بَلْ عَنِ حَسَدٍ وَ بَغْيٍ وَ طَمَعٍ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ أَى فِي الْكِتَابِ بِأَنْ فَسَّرَهُ كُلٌّ حَسَبَ نَظَرِهِ وَ هَوَاهُ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ أَى الْأُمَّةُ الَّتِي أُعْطِيَ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ أَى الْأَدْلَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى مَعَانِي الْكِتَابِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ أَى الْاِخْتِلَافُ إِنَّمَا نَشَأَ مِنَ الْبَغْيِ وَ الظُّلْمِ وَ الْحَسَدِ الْحَاصِلِ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا حَقِيقَةً وَ أَرَادُوا اتِّبَاعَ أَحْكَامِ اللَّهِ وَاقِعًا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ أَى لِلشَّيْءِ الَّذِي اخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ فِيهِ بِإِذْنِهِ أَى بَلَطْفِهِ بِهِمْ حَيْثُ هَدَاهُمْ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِمَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١٤ الى ٢١٥]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبُاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَ زُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

معناه الإيصال إلى المطلوب و هو ليس بواجب بالنسبة إلى الجميع و إما معناه إرائة الطريق و معنى من يشاء إنه لو لم يشأ لا يهدى أحد، إذ الهداية لا تكون إلا بإرسال الرسل، و الأول أنسب بالسياق.

[٢١٥] ثم يسأل الله المؤمنين الذين وقعوا فى متاعب هذا الخلاف حيث يحاربونهم الكفار لأجل أنهم اهتدوا بهدى الله أم حَسِبْتُمْ أَى بل حسبتم و ظننتم أيها المسلمون أن تَدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ اعْتَبَا وَ بلا مشقة و حرج و لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا أَى مضوا مِنْ قَبْلِكُمْ أَى لم يأتكم بعد امتحان مثل امتحان الأمم المؤمنة السالفة الذين ثبتوا و صبروا تجاه الأحرار و الكوارث و إنما قال «مثل» لأنهم صاروا مثلاً للصبر و تحمل المكاره مَسْتَهْتِمُ أَى لمستهم البُاسَاءُ الْفُقَرَاءُ وَ الضَّرَّاءُ الْمَرْضَى وَ الْحَرَجُ وَ أشباههما وَ زُلُّوا أَى حركوا بأنواع المحن و

البلايا حتّى وصل الحال إلى أن يَقُولَ الرَّسُولُ لتلك الأمم وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ متى نُصِرُ اللهُ استعجالاً للنصر الموعود و تمنياً للخلاص من الشدائد و المحن، فاستدرك الأمر و أجيب سؤالهم بأنه أَلَا إِنَّ نَصِرَ اللهُ قَرِيبٌ و هذا جواب طبعى يقوله الرسول صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلّم و المؤمنون كلما رأوا البلاء و المحن، و فى الآية تعبير المؤمنين و أنهم إنما يفوزون بسعادة الدنيا و الآخرة بعد مثل هذه الكوارث و المتاعب.

[٢١٦] و يأتى هنا دور أسئلته و جهته إلى الرسول صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلّم أجاب عنها القرآن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٢

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٦]

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَ هُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

الكريم يجمعها الإقلاع عن الملذات و الصبر على الطاعة و بهذا يرتبط السياق بما قبله حيث كان الكلام فى معرض التضحية فى سبيل العقيدة و الإيمان و ما يأتى نوع من التضحية يَسْتَلُونَكَ يا رسول الله ما ذا يُنْفِقُونَ فى سبيل الله من أقسام الأموال قُلْ ليس لهم الإنفاق فإنه أى شىء كان يقبل إذا كان المنفق عليه أهلاً كما أنه لا يقبل إذا كان المنفق عليه غير أهل فمعيار الإنفاق ليس ماهية المنفق و إنما شخص المنفق عليه ف ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فاللازم أن يكون للوالدين و الْمَأَقْرَبِينَ أَقْرَبَائِكُمْ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ أشباه ذلك مما يقصد به وجه الله سبحانه و ما تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ إنفاق أو غيره فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ فيجازيكم بالخير خيراً. و روى أنها نزلت فى عمرو ابن الجموح، و كان شيخاً كبيراً كثير المال فقال يا رسول الله بما ذا أتصدق؟ و على من أتصدق فأنزل الله هذه الآية «١».

[٢١٧] ثم رجع السياق إلى الآية السابقة التى فيها ذكر التضحية و الزلزال كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ مع من تعدى عليكم أو على العقيدة الصحيحة أو على الناس وَ هُوَ كُرْهُ لَكُمْ تکرهونه وَ عَسَى

(١) فقه القرآن: ج ١ ص ٢٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٣

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٧]

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَ مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)

بمعنى «قد» و ما بعده فاعله أن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ و القتال من ذلك فإنه يوجب سيادتكم و سعادتكم وَ عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ و ترك القتال كذلك لما فيه من راحة الجسم و عدم اضطراب القلب لكنه شر لما فيه من زوال السيادة و العزة و تسلط الكفار و الأجانب وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فيه خيركم و شركم وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

[٢١٨] بعث رسول الله بسريه فاتفق أن قاتلت فى شهر رجب و هى تترد فى أن اليوم الذى حاربت فيه من جمادى أو رجب، و شهر رجب من الأشهر الحرم، و لذا كثر صخب المشركين و إنه كيف يقاتل الرسول فى شهر حرام و أتى وفداهم إلى المدينة يسألون الرسول صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلّم عن ذلك فنزلت هذه الآية يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ بدل شهر أى يسألونك يا رسول الله عن القتال فى الشهر الحرام قُلْ قِتَالٌ فِيهِ أى فى الشهر الحرام كَبِيرٌ فى نفسه لا يجوز و لكن ليس كبر ذنبه مثل عظم ذنب ما تفعلونه أنتم أيها المشركون ف صِدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أى المنع عنه بأن لا يسلم أحد وَ كُفْرٌ بِهِ أى بالله سبحانه و صد عن الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لئلا

يحيج المسلمون وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ أَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْهُ كَمَا فَعَلَ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٤

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٨]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ فَكَيْفَ تَوَاحِدُونَ الْمُسْلِمِينَ بِذَنْبِ مَهْمَا عَظُمَ وَتَسُونَ ذُنُوبَكُمْ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْهُ وَالْفِتْنَةُ الَّتِي أَنْتُمْ تَقِيمُونَ عَلَيْهَا مِنْ تَفْتِنِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ وَإِعْرَائِهِمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ الَّذِي صَدَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَالْقَتْلُ يَفْسِدُ دُنْيَا الْمَقْتُولِ وَالْفِتْنَةُ تَفْسِدُ دِينَ الْمَفْتَنِينَ وَأَخْرَاهُ وَلَا يَزَالُونَ أَى لَا يَزَالُ الْكُفْرَانُ يُقَاتِلُونَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَزُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِلَى الْكُفْرِ إِنْ اشْتَبَعُوا أَنْ يَرُدُّوكُمْ وَمَنْ يَزِدُّدُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ عَنْ دِينِهِ إِلَى الْكُفْرِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فِي مَقَابِلِ مَنْ ارْتَدَّ وَرَجَعَ حَتَّى مَاتَ مُؤْمِنًا فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَالْحَبْطُ هُوَ الْإِبْطَالُ وَالْإِفْنَاءُ فَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِإِيمَانِهِمْ السَّابِقِ عَلَى الْكُفْرِ فِي الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُمْ احْتِرَامُ الْمُسْلِمِ وَحَقُوقُهُ وَالْآخِرَةُ فَلَا يَجْزَى بِالْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِلَى الْأَبَدِ.

[٢١٩] وهناك ظن أناس أن القاتل في رجب إن سلم من الإثم لم يكن له أجر لأنه انتهك حرمة الشهر الحرام فأنزل الله إن الذين آمنوا والذين هاجروا بأن قطعوا ديارهم وأهليهم وخلفوا أموالهم لأجل أن يكونوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٥

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٩]

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَجَاهِدُوا أَى أَوْقَعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْجَهْدِ وَالتَّعَبِ، وَأَوْضَحَ أَفْرَادَهُ الْمَقَاتِلَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِكَسْبِ مَرَاذِيهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ يَأْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ غَفُورٌ يَغْفِرُ لِمَنْ زَلَّ وَرَحِيمٌ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَنْقُصُ أَجْرَهُمْ وَ إِنَّمَا قَالَ:

«يرجون» لأن الإنسان لا يدري ما حاله في المستقبل وإنه هل يبقى على الإيمان والصلاح حتى يثاب أم يفتن في دينه حتى يحبط عمله.

[٢٢٠] يَسْتَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْخَمْرِ وَهُوَ كُلُّ مَسْكِرٍ وَأَظْهَرَ أَفْرَادَهُ الْمَسْكِرِ الْمَتَّخِذِ مِنَ الْعَنْبِ وَالْمَيْسِرِ وَهُوَ الْقِمَارُ بِجَمِيعِ أَصْنَافِهِ وَالسُّؤَالُ كَانَ عَنْ حُكْمِهِمَا قُلْ يَا مُحَمَّدُ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ أَى وَزَرَ عَظِيمٌ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الْفَسَادِ الْكَبِيرِ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ فَإِنَّ الْخَمْرَ تَفِيدُ اللَّذَّةَ وَالطَّرْبَ وَفِي الْإِتِّجَارِ بِهَا ثَمَنٌ وَرِبْحٌ وَالْقِمَارُ فِيهِ لَذَّةٌ لِلْعَاطِلِ وَرِبْحٌ لِلْفَائِزِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا إِذْ الْفَسَادُ الَّذِي يَسْبِيَانَهُ فِي الْبَدَنِ وَالْعَقْلِ وَالْمَالِ أَكْبَرُ مِنَ اللَّذَّةِ وَالرِّبْحِ الَّذِي يَحْصُلُ بِسَبَبِهِمَا بِالإِضَافَةِ إِلَى الْعُقُوبَةِ الْآخِرِيَّةِ الَّتِي تَصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ جَرَائِهَا. وَيَسْتَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا يُنْفِقُونَ وَهَذَا جَاءَ الْجَوَابَ طَبَقَ السُّؤَالِ وَإِنَّهُ «مَاذَا» لَا إِنَّهُ «لِمَنْ» فَقَالَ قُلْ يَا مُحَمَّدُ الْعَفْوَ أَى الزَّائِدَ مِنَ الْمَالِ عَلَى النِّفْقَةِ فَإِنَّ مَا يَقْدَرُ نَفْقَةُ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ لَا يَنْفَقُ تَقْدِيمًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٦

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢٠]

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

لِوَأَجْبِي النَّفْقَةَ عَلَى غَيْرِهِ وَهَذَا الْإِنْفَاقُ مُسْتَحَبٌ لِمَا دَلَّ عَلَى حَصْرِ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِي أُمُورٍ مَعْدُودَةٍ كَذَلِكَ أَى هَكَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ كَذَا تَشْبِيهِهُ وَإِشَارَةُ وَالْكَافِ الْمَلْحَقُ بِهَا اللَّامُ لِلخُطَابِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ الْأَدْلَةَ الْمُرْتَبِطَةَ بِالتَّشْرِيعَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ أَى لِكِي

تتفكروا.

[٢٢١] في أمر الدنيا وأمر الآخرة فتجمعوهما في التفكير ثم ترون جمال الأحكام إذ التفكير في الدنيا فقط يوجب شلل قسم من الأحكام فلما ذاب ينفق الإنسان -مثلا- وهو بحاجة إلى المال، كما إن التفكير في الآخرة فقط يوجب شلل قسم آخر من الأحكام فلما ذاب لا ينفق الإنسان جميع أمواله لتحصيل أجر الآخرة وهكذا سائر الأحكام فلا يعرف جمالها إلا إذا افكر الإنسان في كلتا الحياتين و عرف المصلحتين وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ كَيْفَ يَعَاشِرُوهُمْ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾ ذهب كل من عنده يتيماً ليغزل اليتيم في مأكله ومشربه عن نفسه لئلا يبتلى بماله واشتد ذلك عليهم فسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ بَأْنَ يَصْلِحَ الْإِنْسَانُ أَمْوَالِ الْيَتِيمِ وَيَعَاشِرُهُ مَعَاشِرَةَ الْمَصْلُوحِينَ بَدُونَ أَجْرِهِ وَعَوْضَ خَيْرٍ مِنْ عَزْلِهِمْ وَطَرْدِهِمْ وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ بَأْنَ تَخَلَطُوا أَمْوَالَهُمْ

(١) الأنعام: ١٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٧

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢١]

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

بأموالكم و تشاركون معهم بالنسبة و حفظ المقدار فهم إخوانكم في الإيمان و الأخ يعاشر الأخ بالإصلاح و الغبطة و الله يعلم المفسد من المصلح فهو عارف بنية المخالطين للأيتام و إنهم يريدون بالمخالطة الإفساد و أكل مال اليتيم أو الإصلاح و التحفظ على اليتيم حتى يبلغ و يرشد و لو شاء الله لأعنتكم أى أوقعكم فى العنت و المشقة بالنسبة إلى اليتيم بأن يوجب الاجتناب عن أموالهم و اعتزال أموالكم عن أموالهم فحيث أنه لم يفعل ذلك رحمه بكم فلا تأكلوا أموالهم فسادا و طمعا إن الله عزيز فهو يقدر - بعزته - من إعناتكم حكيم لا يفعل إلا الإصلاح و ما تقتضيه الحكمة.

[٢٢٢] ثم انتقل السياق إلى فته من أحكام الأسرة فى النكاح و الطلاق و شؤونها و لعل الارتباط العام بين هذه الآيات و الآيات السابقة أنها انتهت إلى حكم اليتيم، فاللازم بيان العش الذى يترى فيه فراخ الإنسان، و إنه كيف يلزم أن يكون لينشأ الأولاد صالحين أصحاء جسما و عقلا و عاطفة و لا تنكحوا أيها الرجال المسلمون النساء المشركات سواء كن أهل كتاب أم لا فأهل الكتاب أيضا مشركون كما قال سبحانه فتعالى الله عما يشركون ﴿١﴾ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَ يَدْخُلَ فِي الْإِسْلَامِ وَ لَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ تِلْكَ

(١) النمل: ٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٨

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢٢]

وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)

المشركة لجمالها أو مالها أو حسبها أو نسبها و لا تنكحوا المشركين بناتكم أيها المسلمون حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ تَرَوْهُ بِنْتِكُمْ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ ذَلِكَ الْمَشْرِكِ أُولَٰئِكَ الْمَشْرِكُونَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ إِمَّا بِالتَّبْلِيغِ إِلَى الشَّرِكِ وَ إِمَّا بِحُكْمِ دِينِهِمْ فَإِن جَلَسَ الْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُتَدِينٍ لَا بَدَ وَ أَنْ يَسْرِىَ إِلَى جَلِيسِهِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ أَى غَفْرَانِ الذُّنُوبِ بِإِذْنِهِ فَالْمُسْلِمَاتُ وَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ أَخَذُوا مَبَادِئَهُمْ عَنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا بَدَ وَ أَنْ يَدْعُونَ بِلِسَانِهِمْ أَوْ بِحُكْمِ دِينِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ

أحكامه و دلائله لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أى لكى يتذكروا و يتعظوا و يرشدوا.

[٢٢٣] وَيَسْأَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْمَحِيضِ الْحَيْضِ وَ الْمَحِيضِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَ أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ مَقَارَبَةُ النِّسَاءِ فِي حَالَةِ الْحَيْضِ أَمْ لَا قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هُوَ أَى الْمَحِيضِ أَدَى قَدَرِ نَجَسٍ أَوْ مَشَقَّةٍ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَ الاعتزال هو الابتعاد عنهن وَ لَا تَقْرُبُوهُنَّ بِالْجَمَاعِ حَتَّى يَطْهُرْنَ وَ ينظفن عن الدم فَإِذَا تَطَهَّرْنَ عَنِ الدَّمِ فَأَتُوهُنَّ جَامِعُوهُنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٤٩

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢٣]

نِسَاءُكُمْ حَزْتُمْ لَكُمْ فَأَتُوا حَزْتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِمَقَارَبَتِهِنَّ مِنَ الْفَرْجِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الدَّمِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ كَثِيرًا عَنِ ذُنُوبِهِمْ إِلَى النَّدَمِ وَ الاستغفار بمعنى أنهم كلما أذنبوا تابوا و رجعوا و استغفروا و لعل ذكر التواب بمناسبة أن من زل فقارب فى المحيض يقبل الله توبته و إن تكرر منه إذا ندم ندما حقيقيا و تاب توبة نصوحا وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ بالماء عن الأقدار الباطنية و الظاهرية أو بالاستغفار عن الذنوب.

[٢٢٤] نِسَاءُكُمْ حَزْتُمْ لَكُمْ أَى مَزْرَعَةٍ وَ مُحْتَرْتُمْ فَكَمَا يَحْرَثُ الْحَارِثُ الْبَذْرَ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَحْرَثُ الرَّجُلُ فِي زَوْجَتِهِ فَأَتُوا حَزْتَكُمْ وَ زَرَعَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ «أنى» إما زمانية بمعنى أى وقت شئتم، باستثناء أيام الحيض التى سبق أنها لا يجوز و سائر ما استثنى من حال الصوم و الإحرام و شبههما، و إما مكانية أى إتيانها فى قبلها من خلفها أو قدامها أو جانبيها، أو بمعنى الكيفية باركة و نائمة و قائمة، أما أن يراد سياق السبيلان فبعيد عن سياق الآية وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ بالولد فإنه يبقى ذخرا لكم، أو قدموا لأنفسكم بالطاعة حيث ذكرت أوامر و نواهي وَ اتَّقُوا اللَّهَ فى أوامره و نواهيه وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ الملاقاة هنا بمعنى أنه عليكم حساب الملقى لملاقيه وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بأنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ص ٢٩٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٥]

وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

يفوزون بكل كرامه.

[٢٢٥] وَ ناسب قصة النساء حلف بن رواحه حين حلف أن لا يدخل على ختنه و لا يكلمه و لا يصلح بينه و بين امرأته فكان يقول: إنى حلفت بهذا فلا يحل لى أن أفعله، فنزلت الآية مما ناسب قصة العائلة و النساء التى سبقت، و تأتى، فقال سبحانه: وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً أَى معرضا لِأَيْمَانِكُمْ بأن تحلفوا به أن تبرؤا أى لثلا تبرؤا، أى تريدون بالحلف عدم البر وَ تَتَّقُوا وَ تَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ أى و عدم التقوى و عدم الإصلاح، فإن هذه اليمين فاسدة لا تتعد و الله سميعٌ لأيمانكم و أقوالكم عليكم بأحوالكم و نياتكم.

[٢٢٦] لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ وَ لَا يعاقبكم بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ جمع يمين، و يمين اللغو هو ما يجرى على عادة الناس من قول: لا و الله و بلى و الله من غير عقد على يمين يقتطع بها مال و لا- يظلم بها أحد و لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ أى بحث يمين نويتم اليمين الحقيقية حين إجرائها وَ اللَّهُ غَفُورٌ يغفر الذنب حليمٌ يحلم عن العصاة لعلهم يتوبوا، و تكرر كلمة غفور فى كثير من الآيات لفتح باب التوبة أمام العصاة الذين هم كثيرا ما يعصون عن شهوة و نزوات و هوى، فإن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٦ الى ٢٢٨]

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٤) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

الله سبحانه لا يسد عليهم باب التوبة و إن تكررت منهم المعاصي و الذنوب.

[٢٢٧] ثم يرجع السياق إلى أحكام الأسره مع مناسبة للحكم مع الحلف فيقول سبحانه: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَ الإيلاء هو الحلف على ترك وطى المرأة على وجه الإضرار بهن تَرَبُّصُ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ مبتدأ لقوله «للذين» أى توقف أربعة أشهر جائز للذين يؤلون من نسائهم و ذلك لأن للرجل أن لا يطأ زوجته أربعة أشهر و بعد ما تم أربعة أشهر خيره الحاكم بين الوطى و الكفارة و بين الطلاق و إن امتنع عن الأمرين حبسه فَإِنْ فَاءُ وَ رجعوا إلى زوجاتهم بالوطى بعد الأشهر الأربعة فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ لَهُمْ بهذا الحلف رَحِيمٌ بهم.

[٢٢٨] وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَاطْلُقُوا فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِلطَّلَاقِ عَلَيْهِمُ بِالضَّمائِرِ وَ النيات.

[٢٢٩] وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ أى يصبرن بِأَنْفُسِهِنَّ أى يحفظنها عن الزواج و نحوه ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ جمع قرء و هو من ألفاظ الضد يطلق على الحيض و على الطهر و المراد هنا الطهر فإذا طلقت المرأة فى طهر لم يواقعها فيه الرجل كان هذا الطهر و طهران آخران بينهما حيض موجبا لانتظار العدة فإذا رأت الدم الثالث انقضت عدتها وَ لَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٢

يَكْتُمْنَ أى يخفين ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ من الولد و دم الحيض حتى يبطلن حق الرجعة فى الطلاق الرجعى أو يستعجلن العدة إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يوم القيامة، فمن آمن بهما لا بد و أن تستقيم حركاته و سكناته و أقواله و أفعاله، لأنه يعلم أن الله مطلع عليه و أنه سوف يحاسبه وَ بُعُولَتَهُنَّ أى أزواج المطلقات الرجعات أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ إلى أنفسهم فى ذَلِكَ أى زمان التربص إِنْ أَرَادُوا أى البعولة بردهن إِصْلاحًا لا إِضرارًا، و ذلك أن الرجل كان إذا أراد الإضرار بامرأته طلقها واحدة و تركها، حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها و تركها مدة ثم طلقها أخرى و تركها مدة ثم راجعها و تركها مدة ثم راجعها أخرى، و هذا العمل حرام و إن كان يثبت حكم الرجعة به وَ لَهُنَّ أى حق النساء على أزواجهن مِثْلُ الَّذِي لِلأزواج عَلَيْهِنَّ فلكل على الآخر حقوق تتكافأ بِالْمَعْرُوفِ من العشرة و سائر الأمور وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ زيادة دَرَجَةٌ فإن بيده الطلاق و له عليها الطاعة وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ينفذ أوامره حَكِيمٌ جعل أحكامه على طبق المصلحة و الصلاح، و من المحتمل أن يكون قوله تعالى: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بيان حال العدة أى أن لكل من الزوج و الزوجة حقا على الآخر فى حال العدة مع أن الرجل له فضيلة على المرأة بأن الاختيار إلى الزوج فقط.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٣

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢٩]

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

[٢٣٠] الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ للرجل أن يطلق زوجته تطليقتين فالواجب إذا راجعها بعد التطليقتين إمساك و حفظ لها فى حبالته بِمَعْرُوفٍ بالعشرة الحسنه أَوْ تَشْرِيحٌ و طلاق ثالث بإحسان بإعطائها حقوقها و عدم التعدى، و فوق ذلك إنه يحسن إليها جبرا لخاطرها المكسور.

وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَيُّهَا الأزواج أَنْ تَأْخُذُوا فى حال الطلاق و الاستبدال مِمَّا أى من الذى آتَيْتُمُوهُنَّ و أعطيتموهن من المهور شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أى الزوجان أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ من حقوق الزوجية فَإِنْ خِفْتُمْ أَيُّهَا الحكام أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ من حقوق الزوجية فَلَا جُنَاحَ وَ لَا حرج عَلَيْهِمَا أى على الزوجة فى البذل و على الزوج فى قبول البذل فِيمَا أى فى الذى افْتَدَتْ الزوجة بِهِ من المال تِلْكَ الأحكام

المذكورة هي حُدُودَ اللَّهِ و أوامره و نواهيه فلا- تَعْتَدُوهَا و لا- تجاوزوها بالمخالفة و مَنْ يَتَعَدَّ مِنْكُمْ و يتجاوز حُدُودَ اللَّهِ و يخالف أوامره و نواهيه فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٠ الى ٢٣١]

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

[٢٣١] فَإِنْ طَلَّقَهَا طَلَاقًا ثَلَاثًا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ فَإِنَّهَا تَحْرِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ الْمَرْأَةَ الْمَطْلُوقَةَ ثَلَاثًا زَوْجًا غَيْرَهُ وَ يُسَمَّى هَذَا الزَّوْجَ مُحَلًّا فَإِنْ طَلَّقَهَا أَيْ طَلَّقَ الْمَرْأَةَ الزَّوْجَ الثَّانِي وَ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَيْ عَلَى الزَّوْجِ وَ الزَّوْجَةِ وَ الزَّوْجِ الْأَوَّلِ الَّذِي طَلَّقَهَا ثَلَاثَ طَلَقَاتٍ أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَيْ الزَّوْجَانِ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فِي حَسَنِ الصَّحْبَةِ وَ الْمَعَاشِرَةِ وَ إِنْ لَمْ يَظُنَّا صِحَّ الرَّجُوعِ لَكِنَّهُ سَبَبٌ لِلْمَعْصِيَةِ، وَ الْحَاصِلُ أَنَّ الْحُكْمَ الْوَضْعِي الصَّحَّةُ وَ إِنْ كَانَ الْحُكْمُ التَّكْلِفِيُّ الْحَرْمُ كَمَنْ يَغْسِلُ يَدَهُ النِّجْسَةَ بِالْمَاءِ الْمَغْضُوبِ الَّذِي يُوجِبُ طَهَارَةَ يَدِهِ لَكِنَّهُ فَعَلَ حَرَامًا وَ تِلْكَ الْمَذْكُورَاتُ فِي بَابِ الطَّلَاقِ وَ النِّكَاحِ حُدُودَ اللَّهِ أَوَامِرُهُ وَ نَوَاهِيهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْأُمُورَ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ.

[٢٣٢] وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ أَيْ قَارِبْنَ تَمَامِ الْعِدَّةِ وَ إِنَّمَا عَبَّرَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ لِأَنَّ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ يَعْبُرُ عَنْهُ بِانْقِضَاءِ الْأَجْلِ فَمَا يَقَابِلُهُ بُلُوغُ الْأَجْلِ إِذَا قَارَبَهُ، إِذِ الْبُلُوغُ الدَّقِيُّ خَارِجٌ عَنِ مَحَاوِرَةِ الْعَرَفِ فَأَمْسِكُوهُنَّ أَيْ احْفَظُوهُنَّ فِي حَبَالَتِكُمْ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِنَّ فِي عِدَّةِ الرَّجْعَةِ بِمَعْرُوفٍ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْعُقَلَاءُ وَ الْمَشْرُوعُونَ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقُوقِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٥

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٢]

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَغْضُبُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ زَوْجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَنْ أَرْزَقَكُمْ وَ أَطَهَّرَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

الزَّوْجَةَ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ أَيْ اتْرَكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقُضِي عِدَّتَهُنَّ بِمَعْرُوفٍ بِإِعْطَاءِ حَقُوقِهِنَّ كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ إِيْذَاءٍ لِهِنَّ وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ بِأَنْ تَرْجِعُوا إِلَيْهِنَّ ضِرَارًا بِقَصْدِ الْإِضْرَارِ بَهِنَّ لِتَطْوِيلِ الْعِدَّةِ أَوْ التَّضْيِيقِ فِي النِّفْقَةِ- كَمَا تَقْدَمُ- لِتَعْتِيدُوا عَلَيْهِنَّ وَ تَظْلِمُوهُنَّ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْإِمْسَاكُ بِقَصْدِ الْإِضْرَارِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ أَسَاءَ بِسَمْعَتِهِ عِنْدَ النَّاسِ وَ عَرَضَ نَفْسَهُ لِعَذَابِ اللَّهِ وَ سَخَطَهُ وَ لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ أَحْكَامَهُ وَ أَوَامِرَهُ وَ نَوَاهِيَهُ هُزُوعًا بِأَنْ تَسْتَخْفُوا بِهَا وَ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ حَيْثُ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِكُلِّ نِعْمَةٍ، الَّتِي مِنْهَا نِعْمَةُ الزَّوْجَةِ الَّتِي تَسْكُنُونَ إِلَيْهَا وَ تَقْضُونَ مَآرِبَكُمْ بِسَبَبِهَا وَ أذْكُرُوا مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ فَشَرَّفَكُمْ بِتَعْلَمِكُمْ الْأَحْكَامَ وَ إِرْشَادِكُمْ إِلَى مَا يَصْلِحُكُمْ وَ يَهَيِّئْ لَكُمْ حَيَاةً سَعِيدَةً يَعِظُكُمْ بِهِ أَيْ بِذَلِكَ الْكِتَابِ، وَ هَذَا إِمَّا صِفَةً لِلْكِتَابِ أَوْ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ فِي أَوَامِرِهِ وَ نَوَاهِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فَلَا يَفُوتُهُ عَمَلُكُمْ وَ نِيَّتُكُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا لِسَخَطِهِ وَ غَضَبِهِ.

[٢٣٣] وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ أَيْ انْقَضَتْ عِدَّتَهُنَّ- وَ ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٦

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٣]

وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِيدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

بقريته: أن ينكح - فلا - تَعْضُلُوهُنَّ أى لا - تمنعهن ظلماً أن يَنْكِحَنَّ أزواجهن إلى الزوج السابق أو من تريد الزواج به فعلاً وسمى زوجها للأول وربما قيل في وجه النزول أن معقل بن يسار عضل أخته جملاء أن ترجع إلى الزوج الأول وهو عاصم بن عدى حين طلقها وخرجت من العدة ثم أراد أن يجتمعا بنكاح جديد فمنعهما من ذلك، ولو كان كذلك كان المراد بأزواجهن بالمعنى الأول فإنه لا يحق لأحد أن يمنع المرأة الشبية في الرجوع إلى زوجها بنكاح جديد إذا تراضوا بينهما بالمعروف مما أباحه شرع الإسلام من شروط النكاح و آداب العشرة ذلك المذكور من تحريم العضل يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَجْتَنِبُ سَخَطَ اللَّهِ وَيَبْتَغِي رِضَاهُ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي بَابِ الزَّوْجِ أَزْكَى لَكُمْ أَنْمَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِنَفْسِكُمْ فَإِنَّ الزَّوْجَ النَّسْلَ وَالتَّحْصَنَ وَ سِيرَ الْحَيَاةِ إِلَى الْأَمَامِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَهُ وَانْتَهُوا عَنْ زَوَاجِرِهِ.

[٢٣٤] وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ عَنْ أَوْلَادِهِنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ فَإِنَّ الْأُمَّ تَرْضَعُ وَلَدَهَا سِنَيْنِ تَامَتَيْنِ أَرْبَعَةً وَعَشْرِينَ شَهْرًا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ الَّتِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٧

ندب إليها الإسلام و من العلماء من أوجب ذلك و عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ أَى الْأَبِ، و إنما عبر بهذا التعبير إثارة للعاطفة، له فإن الأب قد ولد له الولد فاللازم أن يحنو عليه رِزْقُهُنَّ الإِدَامَ و الطَّعَامَ وَ كِسْوَتُهُنَّ اللِّبَاسَ بِالْمَعْرُوفِ لَدَى الشَّرْعِ و العرف من اللائق بحالها فإن على الأب أن يقوم بهذه الشؤون ما دامت الأم في الرضاع، و قد استفاد أكثر المفسرين من هذه الجملة كون الكلام حول الأم المطلقة و إلا فالرزق و الكسوة على الزوج لأجل النكاح لا - لأجل الرضاع لا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا فكل من الأب و الأم يؤدي واجبه في حدود طاقته فلا تتحمل الأم الرضاع بلا بدل و لا ينتفع الأب بولده في المستقبل مجاناً فسعه هذه أن ترضع ببدل، و سعه ذاك أن يدفع الأجر لما يعود نفعه إليه لا تُضَارَّ وَ الْإِئْتِدَاءُ بِوَلَدِهَا بَأَن تَرْضَعُ مَجَانًا و بلا عوض باستغلال الأب عاطفة الأم للولد فلا ينفق عليها، أو بمعنى أن الوالدة لا يؤخذ منها الولد ليعطى للأجنبية غيظاً من الأب عليها فتضر بفراق ولدها و لا يضر مَوْلُودُ لَهُ أَى الْأَبِ بِوَلَدِهِ بَأَن تستغل الأم عاطفة الأب نحو الولد فتكلفه أكثر من الكسوة و الرزق قبال رضاعها، أو لا يضر الأب بولده بأن يأخذه من الأم و يعطيه للأجنبية، فإن لبن الأم أوفق بالولد، و الأول أقرب إلى السياق و عَلَى الْوَارِثِ لِلأَبِ إِذَا مَاتَ الْأَبُ مِثْلُ ذَلِكَ الرِّزْقِ وَ الكسوة للأم في حال رضاعها للولد،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٨

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٤]

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ وَيَدْرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

و لا - يخفى أن أجر رضاع الصبي مما يرثه الصبي من أبيه لدى موت الأب فإن أراد أي الأب و الأم فصالحاً للولد عن الرضاع بأن يفظماه قبل الحولين عن تراضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ بَأَن تَشَاوُرَ الْأَبْوَانَ وَ تَرْضِيَا فِي فَطَامِ الْوَلَدِ قَبْلَ الْعَامِينَ وَ ذَلِكَ لِثَلَا يَتَضَرَّرَ الصَّبِيُّ إِذَا اسْتَقْلَ أَحَدُهُمَا بِالْفَطَامِ فَإِنَّ الرِّضَا الْمَتَعَبَ لِلْمَشُورَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِنْفِصَالُ صَالِحًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَى عَلَى الْأَبوين فِي هَذَا الْفَطَامِ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَيُّهَا الْآبَاءُ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ بَأَن تَسْتَأْجِرُوا لَهُمْ مَرْضَعَاتٍ غَيْرَ أُمَّهَاتِهِمْ فَلَا جُنَاحَ وَ لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ إِذَا سَلَّمْتُمْ إِلَى الْمَرْضَعَاتِ مَا آتَيْتُمْ وَ وَعَدْتُمْ لَهُنَّ مِنَ الْأَجْرِ بِالْمَعْرُوفِ أَى تسليماً بالمعروف بدون نقصان و مطل و من، و هذا شرط تكليفي لا - وضعي، كما هو كثير في القرآن الحكيم، لغاية الإلفات إلى لزوم كون الأعمال عن صدق و إخلاص و تقوى و اتَّقُوا اللَّهَ فِي أَعْمَالِكُمُ الَّتِي مِنْهَا الْأَحْكَامُ السَّالِفَةُ حَوْلَ الرِّضَاعِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فَلَا يَغِيبُ شَيْءٌ عَنْهُ وَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ،

فلتكن أعمالكم حسب مرضيه و أوامره.

[٢٣٥] وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ أَي الرِّجَالِ الَّذِينَ يَمُوتُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٥٩

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٥]

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُمْ سَيَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا أَي يَخْلِفُونَ زَوْجَاتِهِمْ بِتَرْبِصَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَي يَحْفَظْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَنِ الزَّوْجِ وَ لَعَلَّ فِي قَوْلِهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ النَّفْسَ وَ لَوْ كَانَتْ تَطْمَحُ نَحْوَ الزَّوْجِ لَكِنِ الْوَاجِبُ اصْطِبَارُهَا وَ التَّحْفِظُ عَلَيْهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ يَجِبُ عَلَيْهَا الْحَدَادُ بِتَرْكِ الزَّيْنَةِ وَ الْخِطْبَةِ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهَا وَ انْقَضَتِ الْمُدَّةُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَيهَا الْمُسْلِمُونَ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنَ الزَّيْنَةِ أَوْ الْخِطْبَةِ أَوْ النِّكَاحِ فَإِنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهَا وَ النَّاسِ مُسَلِّطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ بِأَنَّ لَا تَعْمَلُ مَنْكَرًا يَنَافِي الْإِسْلَامَ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَيَطَّلِعُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ إِطَاعَتِكُمْ وَ مَخَالَفَتِكُمْ.

[٢٣٦] وَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْعِدَّةِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَيهَا الرَّاعِبُونَ فِي الزَّوْجِ مِنْهُنَّ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ بِأَنَّ تَلْمَحُوا إِلَى رَغْبَتِكُمْ فِي الزَّوْجِ مِنْهُنَّ وَ تَعْرِضُوا عَلَى ذَلِكَ تَعْرِضًا وَ إِشَارَةً مِنْ طَرَفِ خَفِيِّ، لَا تَصْرِيحًا فَإِنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الْجَوِّ الَّذِي يَحِيطُ بِالْمَرْأَةِ الْمَعْتَدَةِ مِنَ الرِّبْطِ الْبَاقِي بَيْنَهَا وَ بَيْنَ زَوْجِهَا الْأَوَّلِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِأَنَّ أَضْمَرْتُمْ إِرَادَةَ زَوْجِهَا بَدُونَ أَنْ تَصْرَحُوا أَوْ تَلْمَحُوا بِذَلِكَ فَإِنَّ الْكِنَايَةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٠

اللفظية و الإضمار القلبي لا جناح فيهما عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَيهَا الرِّجَالُ سَيَذَكَّرُوهُنَّ وَ هُنَّ فِي الْعِدَّةِ إِرَادَةُ لِلزَّوْجِ بِهِنَّ وَ لَكِنَّ لَا تَصْرَحُوا بِالْخِطْبَةِ وَ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا فِي الْخُلُوعِ فَتَبَدُّوا رَغْبَتِكُمْ فِي الزَّوْجِ بِهِنَّ فِي مَنَآئِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا بِالْكِنَايَةِ وَ التَّلْمِيحِ لَا بِالتَّصْرِيحِ وَ ذَكَرَ مَا يَقْبَحُ ذَكَرَهُ كَمَا كَانَتْ عَادَةً بَعْضِ النَّاسِ.

وَ لَا تَعْرِضُوا أَي لَا تَقْصِدُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ أَي إِجْرَاءَ الصَّيْغَةِ الَّتِي هِيَ كَعَقْدَةِ تَعْقُدِ النِّكَاحِ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ، وَ قَدْ نَهَى عَنِ الْعِزْمِ عَلَى ذَلِكَ مَبَالِغَةً، كَقَوْلِهِ: وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ (١) حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبْنَا فِي بَابِ الْعِدَّةِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا (٢) «أَجَلُهُ أَي أَمَدُهُ، بِأَنَّ تَنْقِضَ الْعِدَّةِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ عِزْمِ النِّكَاحِ فَكَيْفَ بِمَا تَسْرُونَ بِهِ مِنْ نِكَاحِ الْمَعْتَدَةِ سِرًّا فَاحْذَرُوهُ أَنْ تَخْلَفُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَسْتَرُ عَاجِلًا فَلَا يَغْرَنُكُمْ سِتْرُهُ حَلِيمٌ عَلِيمٌ فَلَا يَعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ فَلَا يَسْبَبُ ذَلِكَ جِرَاتِكُمْ عَلَى انْتِهَاكِ حَرَمَاتِهِ.

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) راجع موسوعة الفقه: ج ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٦ إلى ٢٣٧]

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَ إِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِيضَةٌ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَغْفُونَ أَوْ يَغْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَ أَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

[٢٣٧] وَ بَعْدَ بَيَانِ حُكْمِ مَوْتِ الزَّوْجِ، يَأْتِي حُكْمَ الطَّلَاقِ، وَ الطَّلَاقُ إِنْ كَانَ قَبْلَ الدُّخُولِ وَ لَمْ يَذَكَرْ فِي الْعَقْدِ مَهْرَ فَلِلْمَرْأَةِ الْمَتَعَةُ، وَ إِنْ

كان قبل الدخول و ذكر المهر فللمرأة نصف المهر لا جناح عليكم أيها الأزواج إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن بالدخول أو تفرضا لهن فريضة «أو» بمعنى الواو، أى لم يكن شىء من الأمرين لا المس ولا المهر، و يسمى المهر فريضة لأنه يجب إذا سمي، و المعنى أنه يباح الطلاق قبل المس و الفرض، فلا يتوهم أحد أن النكاح لأجل الوطى فكيف يصح الطلاق قبله و متعوهن أى أعطوهن المتعة و هى ما تتمتع به المرأة و يوجب تعويضا يجبر خاطرها الكسير على الموسع أى الغنى يقال أوسع الرجل إذا كثر ماله قدره من دار أو خادم أو نحوهما و على المقتير أى الفقير يقال أقر الرجل إذا افتقر قدره كخاتم أو درهم أو نحوهما متاعا بالمعروف ليس فيه إسراف و لا تقصير حقا على المحسنين الذين يحسنون طاعة الأوامر و الانتهاء عن الزواجر.

[٢٣٨] وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ طَلَاقًا قَبْلَ الدَّخُولِ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً بَأَنْ عَيْنْتُمْ فِي النِّكَاحِ الْمَهْرَ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَى الْمَرْأَةِ نِصْفَ مَا فَرَضْتُمْ نِصْفَ الْمَهْرِ، هَذَا هُوَ الْحُكْمُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٢

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٨]

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)

الواجب إلا أن يعفون أى تعفى المرأة عن نصفها فلا تأخذ شيئا و تهب مالها إلى الزوج أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح يمكن أن يراد به الزوج بأن يعفو عن نصفه فيعطى للمرأة جميع مهر المرأة، و روى أن المراد عفو ولى الزوجة، فيما إذا كان لها ولى مفروض كالصغيرة، أو موكل من قبلها فى الكبيرة و أن تغفوا أقرب للتقوى فإن من يترك حق نفسه تبرعا أقرب إلى التقوى بأن تبقى معصية الله فلا- يطلب ما ليس له و لا- تنسوا الفضل بينكم بأن يتفضل بعضكم على بعض فيتنازل عن حقوقه لأجل صاحبه و لعل الفرق بين العفو و الفضل أن العفو هبة جميع حقوقه و الفضل هبة بعضها إن الله بما تعملون بصير فيجازيكم على أعمالكم إن حسنا و إن سيئا.

[٢٣٩] إن القرآن الحكيم دائما يلطف أجواء الأحكام بتلميح إلى قدرة إله الكون و عظمتة و رحمته و غفرانه و نحوها ليسمو بالنفس و يربط الحكم بالخالق حتى يكون أقرب إلى التنفيذ، و لما طالت آيات الأحكام و بالأخص ما له جو كابت حزين من طلاق و موت و نحوهما أتت آيات الصلاة متداخلة بينها لتشع فى النفس الطمأنينة و الهدوء ألا يذكر الله تطمئن القلوب (١) مع مناسبة لهذه الآيات مع الجو العام لما قبلها

(١) الرعد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٩ الى ٢٤٠]

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أُمْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

و بعدها حيث تعرضت لصلاة الخوف و المطاردة، هذا ما أحتمله أن يكون سببا لذكر هذه الآيات هنا متوسطه أحكام الموت و الطلاق حافظوا على الصلوات كلها و الصلاة الوسطى خاصة و هى صلاة الظهر لأنها تتوسط بين النهار فإن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كان يصلها بالهاجرة فى مسجد مكشوف فكانت أثقل صلاة عليهم و لذا لم يكن يحضرها إلا الصف و الصفان فقط، كما ورد عن بعض الصحابة و قوموا أيها المسلمون لله قانتين أى داعين فإن القنوت هو الدعاء، و منه القنوت فى الصلاة و المراد إما القنوت فى الصلاة أو مطلقا.

[٢٤٠] فَإِنْ خِفْتُمْ فَلَمْ تَمْكُنُوا مِنَ الْمَحَافِظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ بِشَرَائِطِهَا وَ آدَابِهَا، حَيْثُ ابْتَلَيْتُمْ بِالْعَدْوِ الَّذِي لَا يَسْمَحُ لَكُمْ بِالصَّلَاةِ الْكَامِلَةِ

فصلوا رجالا- جمع راجل أى مشاء أو رُكباناً جمع راكب أى على ظهور دوابكم فإذا أمنتُم من الخوف فاذكروا الله صلاة كاملة كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون من أمور دينكم وديناكم.

[٢٤١] ثم رجع السياق إلى تتمه الأحكام السابقة، بعد ما أشعت في النفس الاطمئنان و ندى الجوى بذكر الصلاة و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً «يتوفون» مجازاً بالمشارفة، فإنه كثيرا ما يعبر عن شارف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٤

[سورة البقرة (٢): آية ٢٤١]

وَلِلْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)

أمرا بالداخل فيه، كما يعكس كثيرا فيعبر عن الداخل بالمشارف، نحو «لا تقربوا مال اليتيم» و «لا تغرموا عقدة النكاح» فالمراد الذين يقاربون الوفاء، و لهم زوجات فمن الأفضل أن يوصوا وصية لأزواجهم بأن يمتعن الوصى متاعاً إلى الحول فيعطى النفقة و الكسوة إليهن إلى سنة كاملة غير إخراج أى فى حال كونهن غير مخرجات إخراجا عن بيوت أزواجهن فإن خرجن عن رغبتهن فلا- جناح عليكم أيها الأولياء فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف بالزوج و الزينة بعد انقضاء عدة الوفاء- و هى أربعة أشهر و عشر- فإن قبل ذلك لا يكون معروفا، بل منكر و الله عزيز فيحكم بمقتضى عزته و سلطته حكيم لا يحكم اعتبارا بل عن مصالح و علل، و هذه الآية حسب ما ذكرنا لها من المعنى لا تكون منسوخة بآية «أربعة أشهر و عشر».

[٢٤٢] و لِلْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ يمتعن الأزواج بشىء سواء كن واجبه النفقة أم لا- بِالْمَعْرُوفِ فإن ذلك يسبب رفع الغضاضة حقا على المتقين الذين يتقون مخالفته أوامر الله سبحانه إيجابا كانت أو ندبا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٢ إلى ٢٤٣]

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

[٢٤٣] كَذَلِكَ الذى بين الله لكم الأحكام يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون أى لكى تعقلوا آياته و أحكامه.

[٢٤٤] و من جو الأسرة و امتدادها و انقطاعها ينتقل السياق إلى قصة الحياة و الموت التى تشبه قصة الأسرة فى كونها امتدادا للحياة العائلية و انقطاعا لها فى قصة عجيبة هى: أن أهل مدينة من مدائن الشام كانوا سبعين ألف بيت هربوا من الطاعون فمروا بمدينة خربة قد جلا أهلها عنها و أنفهم الطاعون فترلوا بها فأماتهم الله من ساعتهم جميعا و صاروا رميما يلوح، فمر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له «حزقيل» فبكى و استعبر و قال: يا رب لو شئت لأحييتهم الساعة كما أمتهم، فعمروا بلادك و ولدوا عبادك و عبدوك مع من يعبدك، فأوحى الله إليه أن يقول الاسم الأعظم فقال عليهم فعادوا أحياء ينظر بعضهم إلى بعض يسبحون الله و يكبرونه و يهللونه ألم تر استفهام تقريرى أى ألم تعلم فإن الرؤية تأتى بمعنى العلم كقول الشاعر: «رأيت الله أكبر كل شىء» و قد يستفهم بمثل هذا الاستفهام لإيجاد العلم إلى الذين خرجوا من ديارهم و هم أُلُوفٌ سبعون ألفا كما تقدم حذر الموت و فرارا من الطاعون فقال لهم الله موتوا فأماتهم حيث ظنوا الهرب ثم أحياهم بدعاء النبى حزقيل عليه السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٤ إلى ٢٤٥]

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ كلهم بخلقهم و رزقهم و تدبير أمورهم و لكن أكثر الناس لا- يشكرون نعمه و فضله عليهم بل يقللون

فضله بالعصيان.

[٢٤٥] وَإِذْ عَلَّمْتُمْ أَنَّ الْهَرُوبَ مِنَ الْمَوْتِ لَا يَنْفَعُ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَهْرَبُوا خَوْفَ الْمَوْتِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِقَوْلِكُمْ عَلَيْكُمْ بِنِيَاتِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ.

[٢٤٦] إِنْ الْقِتَالَ بِإِعْطَاءِ الْمَالِ وَالنَّفْسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَيْسَ هَدْرًا وَإِنَّمَا الْمُقَاتِلُ وَالْعَامِلُ لِلْبِرِّ، يَقْرَضُ اللَّهُ بِمَا يَذْهَبُ مِنْهُ ثُمَّ يَرْجِعُهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِ فَمَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا أَىْ أَىِّ شَخْصٍ ذَاكَ الَّذِي يَقْرَضُ اللَّهَ وَيَنْفِقُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ فِي سَبِيلِهِ قَرْضًا حَسَنًا لَا لِرِيَاءٍ وَسَمْعَةٍ وَلَا- بِمَنْ وَإِكْرَاهٍ وَسَائِرٍ مَا يَشِينُ الْقَرْضَ فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً رُبَّمَا بَلَغَتِ الْمَلَائِكَةُ وَمَا ذَا تَخَافُونَ فِي قَرْضِ أَمْوَالِكُمْ هَلْ مِنَ الْفَقْرِ؟ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ فَيَغْنَى فَلَا- يَنْفَعُكُمُ الْبَخْلُ وَلَا- يَضُرُّكُمُ الْقَرْضُ وَالسَّخَاءُ، أَمْ تَخَافُونَ فِي قَرْضِ أَنْفُسِكُمْ لِلَّهِ مِنَ الْمَوْتِ؟ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فَيُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ، قَالَ الْإِمَامُ أَمِيرُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٧

[سورة البقرة (٢): آية ٢٤٦]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

المؤمنين عليه السلام لأحد أولاده «أعر الله جمجمتك» (١).

[٢٤٧] وَهَذَا قِصَّةُ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ أُخْرَى تَنَاسَبَ الْقِصَّةُ السَّابِقَةُ أَلَمْ تَرَ أَى الْمَلَأِ أَيَّ الْجَمَاعَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى النَّبِيِّ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ هُوَ أَشْمُوئِيلُ وَبِالْعَرَبِيَّةِ إِسْمَاعِيلُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا أَى سُلْطَانًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَحْتَ لَوَائِهِ حَيْثُ أَذْلَمُوا الْجَبَابِرَةَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ وَقَتَلْتَهُمْ وَسَيَّتْ ذُرَارِيَهُمْ وَنَسَائِهِمْ وَكَانَ النَّبِيُّ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يَنْظِمُ أُمُورَ الدِّينِ وَالْمَلِكِ وَيَنْظِمُ أُمُورَ الْجَيْشِ وَالسُّلْطَنَةَ قَالَ النَّبِيُّ هَلْ عَسَيْتُمْ أَى لِعَلَّكُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا أَرَادَ بِذَلِكَ أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَقَاتِلَةِ إِنْ عَيْنَ مَلِكٍ لَهُمْ قَالُوا أَى قَالَ الْمَلَأُ فِي جَوَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَى لَيْسَ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَتْرَكَ الْقِتَالَ وَ قَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا أَخْرَجْنَا الْأَعْدَاءَ مِنْ بِلَادِنَا وَأَبْنَانِنَا حَيْثُ قَتَلَ بَعْضُهُمْ وَسَبَى الْبَعْضَ،

(١) نهج البلاغة: ص ٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٨

[سورة البقرة (٢): آية ٢٤٧]

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

فَسَأَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاةً وَعَيْنَ لَهُمْ مَلِكًا وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا أَدْبَرُوا وَ كَرِهُوا الْقِتَالَ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ الَّذِينَ فَرَّوْا مِنَ الْجِهَادِ بَعْدَ طَلْبِ مَنْهُمْ وَإِلْحَاحِ.

[٢٤٨] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَشْمُوئِيلُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ وَعَيْنَ عَلَيْكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا وَكَانَ مِنْ أَبْنَاءِ «بَنِي يَامِينَ» أَخِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ سَبْطِ النَّبُوَّةِ وَلَا مِنْ سَبْطِ الْمَمْلُوكَةِ، فَإِنَّ النَّبُوَّةَ كَانَتْ فِي أَوْلَادِ «لَاوِي» ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْمَمْلُوكَةُ كَانَتْ فِي أَوْلَادِ «يَهُوذَا» ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا أَنَّى أَى كَيْفَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَيَجْعَلُ سُلْطَانًا وَمَلِكًا لَنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ لِأَنَّ مِنْ أَسْبَابِ النَّبُوَّةِ وَالْمَمْلُوكَةِ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ فَهُوَ فَقِيرٌ لَا- مَالَ لَهُ وَالْمَلِكُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَالِ لِيُدِيرَ شُؤُونَ السُّلْطَنَةَ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ

السِّلام في جوابهم إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَصْطَفِي إِلَّا مَنْ هُوَ الْأَصْلَحُ بِحَالِ عِبَادِهِ وَزَادَهُ بَسِطَةً أَيْ سَعَهُ وَزِيَادَةً فِي الْعِلْمِ وَالْمَمْلَكَةِ تَحْتَاجُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٦٩

[سورة البقرة (٢): آية ٢٤٨]

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)

إلى علم الملك ليتمكن به من إدارتها وَالْجِسْمُ فَهُوَ رَجُلٌ سَمِينٌ يَهَابُهُ النَّاسُ، شَجَاعٌ يَخَافُهُ الْأَعْدَاءُ وَهَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ مَقُومَاتُ الْمَلِكِ لَا- الْمَالُ فَإِنَّ الْعِلْمَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْهَيْبَةَ تَأْتِي بِالْمَالِ، وَ لَيْسَ بِالْعَكْسِ وَ لَيْسَ كَوْنُهُ مِنْ «بَنِ يَامِينٍ» نَقْصًا فَكَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْمَلِكُ فِي بَيْتِ «يَهُوذَا» سَابِقًا يَجْعَلُهُ فِي «طَالُوتَ» حَالًا فَإِنَّ اللَّهَ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَ لَيْسَ احْتِكَارًا عَلَى أَحَدٍ وَاللَّهُ وَاسِعٌ قَدْرُهُ وَ عَطَاءٌ فِيهِبُ الْمَلِكُ لِمَنْ يَشَاءُ عَلَيْهِمْ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فَلَا يَجْعَلُ شَيْئًا إِلَّا إِذَا كَانَ صَالِحًا.

[٢٤٩] وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَشْمُوئِيلُ زِيَادَةً فِي الدَّلَالَةِ عَلَى جَعَلِ اللَّهُ «طَالُوتَ» مَلِكًا عَلَيْهِمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ وَ أَنْ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ مَلِكًا أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ وَ هُوَ تَابُوتُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى أُمِّ مُوسَى فَوَضَعَتْ مُوسَى فِيهِ حِينَ أَلْقَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَتَّبِعُونَ بِهَ فَلَمَّا حَضَرَ مُوسَى الْمَوْتَ وَضَعَ فِيهِ الْأُلُوحَ وَ دَرَعَهُ وَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ آيَاتِ النُّبُوَّةِ وَ أَوْدَعَهُ يَوْشَعَ وَصِيَهُ فَلَمْ يَزَلِ التَّابُوتُ بَيْنَهُمْ حَتَّى اسْتَخَفُّوا بِهِ وَ كَانَ الصَّبِيَّانِ يَلْعَبُونَ بِهِ فِي الطَّرِيقَاتِ فَلَمْ يَزَلِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عِزِّ وَ شَرَفٍ مَا دَامَ التَّابُوتُ بَيْنَهُمْ فَلَمَّا عَمَلُوا بِالْمَعَاصِي وَ اسْتَخَفُّوا بِالتَّابُوتِ رَفَعَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ثُمَّ جَعَلَ رَدَّ التَّابُوتِ عَلَيْهِمْ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ جَعَلَ اللَّهُ طَالُوتَ مَلِكًا فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ تَسْكُنُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٠

[سورة البقرة (٢): آية ٢٤٩]

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلًا عَلَبْتُ فَتَنَةً كَثِيرَةً بِأَذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

إليه و تعلمون أنكم منصورون بسببه و يكون دليلًا على ملك طالوت و بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَ آلُ هَارُونَ عصا موسى عليه السِّلام و الألواح و طست خاص بالأنبياء عليهم السِّلام و أشياء أخرى، فإنها وصلت بالإرث إلى آل هذين النبيين المعظمين و هم جعلوها في التابوت تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ حَمَلًا وَاقِعِيًا أَوْ حَمَلًا ظَاهِرًا بِأَنْ رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَلَائِكَةَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَتَتْ بِالتَّابُوتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ التَّابُوتِ الَّذِي رَجَعَ إِلَيْكُمْ بَعْدَ فَقْدِهِ لَآيَةً لِّكُمْ عَلَى كَوْنِ طَالُوتَ مَلِكًا إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ، أَيْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ قَلْبًا، تَصَدِّقُونَ ذَٰلِكَ.

[٢٥٠] فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ التَّابُوتَ صَدَقُوا وَ انْضَمُّوا تَحْتَ لُؤَاءِ طَالُوتَ، وَ تَحَرَّكُوا نَحْوَ الْجِهَادِ مَعَ أَعْدَائِهِمْ وَ لَمَّا فَصَلَ خَرَجَ وَ انْفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ قَالَ طَالُوتُ مَمْتَحِنًا لِلْجُنُودِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مَقْدَارُ صَبْرِهِمْ وَ ثَبَاتِهِمْ عَلَى الْمَكَارِهِ وَ أَنَّهُمْ إِنْ جَاوَزُوا مِنْ نَهْرِ الْمَاءِ عَطَاشًا يُوَثِّقُ بِهِمْ فِي الْحَرْبِ وَ إِنْ لَمْ يَسْمَعُوا وَ لَمْ يَتِمَّكِنُوا مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَطَشٍ قَلِيلٍ فَهَمُّ أَحْرَى بِأَنْ لَا يَصْبِرُوا أَمَامَ السِّبْوَفِ وَ الرَّمَاحِ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ مَمْتَحِنًا بِنَهْرِ مَاءٍ فِي طَرِيقِكُمْ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي مِمَّنْ يَتَّبَعُنِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧١

وَ لِيَنْصَرِفَ وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ أَيْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ ذَلِكَ الْمَاءِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَ يَتَّبَعُنِي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً وَاحِدَةً بِيَدِهِ فَشَرِبَهَا فَقَطْ لَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَشَرَبُوا مِنْهُ مِنَ النَّهْرِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ الَّذِينَ أَطَاعُوا أَمْرَ طَالُوتَ فَلَمْ يَشْرَبُوا إِلَّا غُرْفَةً وَاحِدَةً وَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَطَاعُوا هُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا طَالُوتَ إِلَى الْحَرْبِ أَمَّا مَنْ عَصَاهُ فَلَمْ يَتَّبِعْهُ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ أَيْ جَاوَزَ طَالُوتُ النَّهْرَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِمَّنْ تَبِعَهُ وَ لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ إِلَّا

غرفة قالوا لا- طاقمة لنا اليوم بجالوت و هو رئيس الكفار و جنوده لما رأوا من كثرتهم قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله من أصحاب طالوت، و في قوله «يظنون» إشارة إلى أن الظن بالمعاد كاف في تحفيز الإنسان نحو الجهاد و الأعمال الصالحة، و ملاقاته الله كناية عن القيامة لأنهم يلاقون جزاء الله كم من فئه أي جماعة قليلة غلبت فئه كثيرة بإذن الله أي بنصره و الله مع الصابرين الذين يصبرون على المكاره و يثبتون عند ملاقاته الكفار، و بهذا الكلام شجعوا أنفسهم و أصحابهم لمقابلته جالوت و جنوده.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٥٠ الى ٢٥١]

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَ تَبَّتْ أقدامنا وَ انصُرنا على القوم الكافرين (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جَالُوتَ وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَ لَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)

[٢٥١] و لَمَّا بَرَزُوا أي ظهرُوا في محل الحرب لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ الكثیرة قالُوا أي قال طالوت و المؤمنون رَبَّنَا أفرغ أي أصبب علينا صبراً نكون صابرين في الحرب وَ تَبَّتْ أقدامنا حتى لا نفر وَ انصُرنا على القوم الكافرين فاستجاب الله سبحانه دعاءهم.

[٢٥٢] فَهَزَمُوهُمْ أي هزم طالوت و المؤمنون، جالوت و الكفار بإذن الله و نصره وَ قَتَلَ داوُدُ النبی علیه السلام و هو أبو سليمان عليه السلام جالوت رئيس الكفار فإن داود أخذ حصاة و رماها بالمقلاع نحو جالوت فأصابت جبهته و كانت فيها ياقوته فانتشرت و وصلت إلى دماغه و خر ميتا و هزم الكفار وَ آتَاهُ أي أعطى الله داود عليه السلام الملك وَ الْحِكْمَةَ فَصار نبيا و ملكا وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ من العلوم الدنيوية و الأخروية وَ لَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بأن يدفع الكافرين المفسدين بسبب المؤمنين المصلحين لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ لما يوجدون فيها من القتل و الحرق و السبي و الإفساد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٣

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٢]

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ فيدفع الفاسد بالصالح لتبقى الأرض عامرة و ينمو الزرع و الضرع.

[٢٥٣] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ أي تلك التي ذكرت من إماتة الأحياء دفعة و إحياء الموتى دفعة و تمليك طالوت و نصره المؤمنين على أعدائهم دلالات الله على وجوده و قدرته و علمه و سائر صفاته تَنْلُوهَا نقرؤها عَلَيْكَ يا رسول الله بِالْحَقِّ أي بالصدق فلا كذب فيها و أنزلت لأجل الصدق لا لأجل الباطل و الكذب و الغش وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ حيث تخبر بهذه الأخبار عن غيب بدلالة الله لك و وحيه إياها إليك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٥

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثالث من آية (٢٥٤) سورة البقرة إلى (٩٣) سورة آل عمران

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمّد المصطفى و عترته الطاهرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٧

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٣]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بُرُوحَ الْقُدْسِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَ لَكِنْ اختلفوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا

لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

[٢٥٤] تَلَكَّ الرُّسُلُ الَّذِينَ أُشِيرَ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَهَمَّ وَ إِنْ اشْتَرَكُوا فِي أَصْلِ الرِّسَالَةِ إِلَّا أَنَّهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي الْفَضِيلَةِ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ إِيَّاهُ وَ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ حَيْثُ أَنْ هُنَاكَ مَحَلُّ سَوْأَلٍ: هَلْ يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَرْتَقِيَ هَذَا الْمَرْتَقَى الْعَظِيمَ حَتَّى يَكَلِّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؟ أَلَمْحَتِ الْآيَةُ إِلَى ذَلِكَ قَائِلَةٌ: وَ رَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ لَا دَرَجَةَ وَاحِدَةً، حَتَّى سَبَّبتَ تَلَكَّ الرَّفْعَةِ أَنْ يُمْكِنَ مِنْ مَكَالِمَةِ اللَّهِ مُبَاشَرَةً وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَ أَنَّهُ لَمَنْ تَفَنَّنَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ فِي التَّعْبِيرِ حَيْثُ لَمْ يَصْرَحْ بِاسْمِ مُوسَى وَ صَرَحَ بِاسْمِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْبِنَاتِ هِيَ الدَّلَالَاتُ الْوَاضِحَاتُ عَلَى نُبُوَّتِهِ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَ إِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَ الْأَبْرَصِ وَ أَيْدِنَاهُ أَى قُوَيْنَاهُ فَإِنَّ التَّأْيِيدَ بِمَعْنَى التَّقْوِيَةَ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَى رُوحِ مَقْدَسَةٍ، كَمَا مَرَّ سَابِقًا فَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانًا عَادِيًا وَ لَا خَالِقًا وَ رَبًّا وَ إِنَّمَا نَبِيٌّ مُؤَيَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ حَيْثُ كَانَ هُنَا مَجَالُ سَوْأَلٍ هُوَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حَيْثُ أَتَوْا بِالْأَدْلَالَةِ لَمْ يَكُنْ مَجَالٌ لِتَشْكِيكَ النَّاسِ فِيهِمْ فَكَيْفَ تَقَعُ الْحُرُوبُ بَيْنَ النَّاسِ حَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ إِثْبَاتًا أَوْ نَفْيًا أَوْ إِثْبَاتًا لِنَبِيِّ دُونَ نَبِيٍّ؟ أَتَى السِّيَاقُ مُشِيرًا إِلَى جَوَابِ ذَلِكَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ بَأَنَّ الْجَأَّ النَّاسِ وَ اضْطَرَّهَمُ عَلَى الْإِنْقِيَادِ وَ الْإِهْتِدَاءِ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَى مِنْ بَعْدِ الرَّسْلِ أَى بَعْدَ مَجِيءِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٨

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَ لَا خَلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ أَى جَاءَتِ النَّاسَ الْأَدْلَةُ الْوَاضِحَةُ وَ لَكِنْ اخْتَلَفُوا أَى النَّاسُ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِالرَّسُولِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا تَكَرُّرًا لِلتَّأْيِيدِ وَ أَنَّ الْمَشِيئَةَ الْإِلْجَائِيَةَ لَمْ تَتَعَلَّقْ حَوْلَ التَّشْرِيعِ وَ إِنْ تَعَلَّقَتْ حَوْلَ التَّكْوِينِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ مِنْ إِعْطَاءِ الْإِخْتِيَارِ بِيَدِ الْإِنْسَانِ لِيُؤْمِنَ مِنْ آمَنَ عَنْ إِخْتِيَارٍ وَ يَكْفُرُ مِنْ كَفَرَ عَنْ إِخْتِيَارٍ لِثَبَتِ الْجَزَاءِ وَ الْحِسَابِ وَ لَمْ يَذْكَرِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِأَنَّ الْخُطَابَ مُوجَّهٌ إِلَيْهِ «وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

[٢٥٥] وَ حَيْثُ أَنَّ الْقِتَالَ يَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْفَاقِ يَزَاجُ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ فِي آيَاتِهِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ كَثِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ، وَ لَعَلَّ عَمُومَهُ يَشْمَلُ مِثْلَ التَّعْلِيمِ وَ الشَّفَاعَةِ وَ نَحْوِهَا فَإِنَّ الْعِلْمَ وَ الْوَجَاهَةَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ حَتَّى يَشْتَرِيَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فَيَنْجِيهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ لَا خَلَّةٌ أَى صِدَاقَهُ فَيَرَاعِي الصَّدِيقَ الْمَذْنَبَ لِأَجْلِ صَدِيقِهِ، أَوْ صِدَاقَهُ بَيْنَ اللَّهِ وَ بَيْنَ أَحَدٍ حَتَّى يَرَاعِيهِ وَ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ لَصِدَاقَتِهِ وَ لَا شَفَاعَةَ كَشَفَاعَاتِ الدُّنْيَا حَيْثُ أَنَّ الشَّفِيعَ يَنْبَعُ مِنْ نَفْسِهِ فَيَشْفَعُ لِلْمَذْنَبِ، فَإِنَّ هُنَاكَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٧٩

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٥]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَ لَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَلَيْسَ حَرَمَانَ الْكَافِرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِأَجْلِ الظُّلْمِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَلِ الْكَافِرُ هُوَ الظَّالِمُ الَّذِي اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ بِكُفْرِهِ وَ ظَلَمَ نَفْسَهُ حَيْثُ حَرَمَهَا مِنْ نَيْلِ الْمَثُوبَةِ.

[٢٥٦] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالْأُمُورُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلِّهَا بِيَدِهِ لَا يَشَارِكُ فِيهَا فِعْلًا وَ لَعَلَّ هَذَا هُوَ وَجْهُ الْإِرْتِبَاطِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ الْآيَةِ السَّالِفَةِ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فَلَا يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْهُ الْقَيُّومُ الْقَائِمُ عَلَى الْأُمُورِ يَعْلَمُهَا جَمِيعًا فَلَا يُمْكِنُ الْإِخْتِفَاءُ مِنْهُ.

لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَ هِيَ النُّومُ الْخَفِيفُ الْمَسْمِيُّ بِالنَّعَاسِ وَ لَا نَوْمٌ وَ قَدَمُ الْأَوَّلِ لِتَقَدُّمِهِ فِي الْخَارِجِ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فَهُوَ الْخَالِقُ وَ الْمَالِكُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا يَشَارِكُهُ أَحَدٌ، وَ الظَّرْفُ هُنَا يَتَّبَعُ الْمَظْرُوفَ فَلَيْسَتْ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ خَارِجَتَيْنِ عَنِ الْمَلَكِيَّةِ مَنْ ذَا

أى أى شخص الذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ يوم القيامة إِلَّا يَأْذِنُهُ استفهام إنكارى فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ و ما خَلْفَهُمْ أى ما يقدمون من أعمال خيرة و شر و ما يخلفون من بعدهم كبناء مدرسة أو مخمر يقيان بعده و لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ أى بما يعلمه من الماضى و الحاضر و الآتى إِلَّا بما شاء أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٠

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٦]

لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

بما أراد من اطلاع الناس عليه فإن علم الشخص حتى بالضروريات مما تتعلق به مشيئة الله سبحانه فإنه هو الذى جعل الإنسان بحيث يعلم الأمور فى الجملة وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الكرسى كناية عن السلطة و الملكية يقال: كرسى فلان يسع العراق إذا كان ملكا عليها، أى أن سلطة الله سبحانه تشمل جميع الكون، فإنه لا يخلو من سماء و أرض و لا يُؤدُّه أى لا يشق عليه تعالى، من آده يأده، إذا أثقله و جهده حَفِظَهُمَا أى حفظ السماوات و الأرض بالتربية و التنمية و الإصلاح وَ هُوَ الْعَلِيُّ أى الرفيع مقاما الْعَظِيمُ الشأن.

[٢٥٧] لا- إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ فإن الله لم يلجأ الخلق إلى اعتناق الدين بل جعل فيهم الاختيار و الإرادة فإن شاءوا دانوا و إن لم يشاءوا لم يدينوا قَدْ تَبَيَّنَ أى وضح الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ أى الهداية من الضلالة و الإيمان من الكفر و الحق من الباطل فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ و هو كل ما يعبد من دون الله و يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وحده، و قدم نفى الكفر لأن النفى مقدم على الإثبات كما قدم فى كلمة «لا- إله إلا الله» فَقَدِ اسْتَمْسَكَ أى تمسك و اعتصم و أخذ بِالْعُرْوَةِ و هى «المسكة» لمثل الكوز الوثقى أى الوثيقة التى لا تنفصل فقد شبه الخير بإناء للسقى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٥٧ الى ٢٥٨]

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّى الَّذى يُحْيى وَ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيى وَ أُمِيتُ قَالَ إِبراهيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

أو الطعام له عروة فالإيمان بالله عروة و ثقى للخير لأنه لا انفصام لها و لا انقطاع بل تدوم الاستفادة من الخير بسبب الإيمان فى الدنيا و الآخرة بينما الإيمان بالطاغوت عروة واهية تنفصم إذا فارق الإنسان الحياة الدنيا ينقطع الخير الذى يناله الإنسان- فرضا- بسبب الكفر و الله سَمِيعٌ لأقوالكم عَلِيمٌ بنياتكم و أعمالكم.

[٢٥٨] اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يلى أمورهم و ينصرهم و يعينهم يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ظلمات الحياة و مشاكلها، من ظلمة العقيدة، و ظلمة القول و ظلمة الدنيا كلها إِلَى النُّورِ نور الهداية، و نور الآخرة وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ أى أن جنس الطاغوت يكون أولياء لهم، فإن الطواغيت من الجن و الإنس يتولون أمورهم و ضلالهم و حيث أن الطاغوت أريد به الجنس جاز الإتيان بصيغة الجمع فى «أوليائهم» صفة له يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ الكامن فى فطرتهم، و من نور الدنيا إِلَى الظُّلُمَاتِ ظلمات الكفر و الضلال فى الدنيا و عذاب الله فى الآخرة أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إلى الأبد فلا منجى لهم و لا مخلص [٢٥٩] سبق الحديث عن الإيمان و الكفر، فلتناسب المقام قصة حوار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٢

حول هذا الموضوع بين إبراهيم عليه السلام و نمرود أَلَمْ تَرَ أى ألم تعلم، و قد تقدم أن هذه العبارة تذكر لإفادة العلم إِلَى الَّذى حَاجَّ

من المحاجة بمعنى المجادلة و المخاصمة إبراهيم في ربه أي في باب رب إبراهيم عليه السلام الذي كان يعبد، أو رب الذي حاج و إن كان الأول أقرب أن آتاه الله الملك أي حيث أن الله أعطى نمرود الملك و السلطة بظنك و وجود الخالق و جعل يجادل نبيه إبراهيم عليه السلام حول وجود الله سبحانه فقد قابل الإحسان بالإساءة إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي و يميت في جواب نمرود حيث قال له: من ربك؟ و المراد بالإحياء إحياء الجماد فإن كل حي أصله التراب و الماء إذ التراب بسبب الماء ينقلب عشا و العشب ينقلب نطفة إنسانا أو حيوانا قال نمرود أنا أحيي و أميت فأخرج نفرين من حبسه و ضرب عنق أحدهما و أطلق الآخر و كان هذا مغالطة من نمرود إلا- أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يلزمه بحجة لا- يتمكن حتى من المغالطة فيها ف قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق هكذا يظهر للأبصار سواء دارت هي أو دارت الأرض كما يقوله بعض علماء الفلك فأت بها من المغرب إن كنت إليها خالقا فبهِت الذي كفر أي تحير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٣

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٩]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

نمرود و لم يحر جوابا و الله لا يهدى القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بتعاميهم عن الحق فإنه سبحانه لا يطف لطفه الخاص بمثل هؤلاء و إن أتم عليهم الحجة و أراهم الطريق.

[٢٦٠] أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ أَي أَلَم تَر إِلَى الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، و المعنى إن شئت فانظر إلى الذي حاج و إن شئت فانظر إلى الذي مر على قرية و هو عزيز النبي عليه السلام أو أرميا و هي خاوية على عروشها أي ساقطة حيطانها على سقوفها و أهلها موتى و السباع تأكل الجيف ففكر في نفسه ساعه قال أنى أي كيف يحيي هذه الأموات الله بعد موتها و كان ذلك منه تعجبا لا إنكارا فأمات الله مائة عام حتى بلى و نخرت عظامه ثم بعثه أحياء كما كان قال الله سبحانه له بإيجاد صوت في الجو كم لبثت في ميتك و منامك قال النبي لبثت يوما ثم نظر فإذا هو نام صباحا و الآن قبل غروب الشمس فأضرب قائلا أو بعض يوم قال الله سبحانه بل لبثت مائة عام و قد كان معه طعام و شراب و حمار، فكان الطعام و الشراب باقين كما هما و كان الحمار قد مات و تفرقت عظامه و نخرت دلالة على كمال قدرة الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٤

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٠]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لَكِن لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصِرْهِنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

سبحانه فأنظر إلى طعامك و شرابك لم يتسنه لم تغيره السنون، و الإتيان بلفظ المفرد باعتبار كل واحد منهما و أنظر إلى حمارك كيف مات و نخرت عظامه و لنجعلك أيها الرسول آية للناس أي حجة حيث أحييناك بعد مائة عام حتى يعرف الناس أن الله قادر على بعث الأموات و أنظر إلى العظام لحمارك المتفتته كيف نشزها أي كيف نرفع بعضها إلى بعض لتركب منها الهيكل العظمي للحمار ثم نكسوها أي نلبس العظام لحما حتى يستوى حمارا حيا فلما تبين له أي وضح له إحياء الأموات عيانا قال النبي عليه السلام أعلم أن الله على كل شيء قدير أي علما عيانا و إلا فقد كان يعلم ذلك قبل السؤال.

[٢٦١] و اذكر يا رسول الله إذ قال إبراهيم رب أريني كيف تحي الموتى فإنه عليه السلام رأى جيفة تمزقها السباع فيأكل منها سباع البر و سباع الهواء و دواب البحر فسأل الله إبراهيم عليه السلام فقال: يا رب قد علمت أنك تجمعها من بطون السباع و الطير و دواب البر

فأرني كيف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٥

تحبيها لأعين ذلك قال الله سبحانه أو لَمْ تُؤْمِنِ عَلَىٰ نَحْوِ اسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِ، ليقول آمنت، كقولهم: «ألستم خير من ركب المطايا» قال إبراهيم عليه السلام بلى أنا مؤمن ولكن أسأل ذلك لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي و يكون يقيني عين اليقين فإن الإنسان الذي يعلم أن النار - مثلاً - حارة، يسمى ذلك علم اليقين، فإذا رآها سمى حق اليقين، فإذا أدخل يده فيها فاحترقت سمى عين اليقين، و ورد أنه عليه السلام علم أن الله يتخذ عبداً له خليلاً- إذا سأله إحياء الموتى أحياء فأراد أن يطمئن أنه هو قال الله سبحانه فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ الطَّائِرِ الطَّائِرِ وَ الحمام و الغراب و الديك فاذبحهن و قطعهن و اخلطن بعضاً ببعض فَصِيْرُهُنَّ إِلَيْكَ من صرته بمعنى قطعته و «إليك» إنما هو من مستلزمات القطع، فإن الإنسان إذا أراد أن يقطع شيئاً قطعاً جيداً و يخلطه لا بد و أن يجذبه إليه و لعله كناية عن القطع الجيد و التخليط البالغ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْ عَشْرَةِ جِبَالٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً و إنما ذلك يدل على أن الأجزاء الميته تجتمع من محلات متباعدة وقت الحشر ثُمَّ ادْعُهُنَّ بِأَن تَأْخُذَ بِمَنْقَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّيْرِ الأربعة في يدك و تدعوه باسمه يَا تَيْنَكَ تجتمع الأجزاء من الجبال سِعْيًا مسرعات و اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لَّا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ حَكِيمٌ فيما يفعل فلا- يفعل شيئاً اعتباطاً و عبثاً، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك فتطارت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦١ إلى ٢٦٢]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبْتَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَّا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لَّا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَّا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان و جاء كل بدن حتى نظم إلى رقبته و رأسه فأطلقها إبراهيم عليه السلام فطرن فالتقطن الحب و شربن الماء ثم دعون لإبراهيم عليه السلام.

[٢٦٢] تقدم الكلام في الآيات السابقة عن من يقرض الله قرصاً حسناً، ثم تخلل الكلام دليل التوحيد و الرسالة و المعاد و الآن يرجع السياق إلى الإنفاق مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَّا رِيَاءَ أَوْ سَمْعَةَ وَ شَهْرَةً وَ نَحْوَهَا كَمَثَلِ حَبَّةٍ مِنَ الحنطة أو الشعير أو نحوهما أَنْبَتَتْ أَى أخرجت سَبْعَ سَنَابِلٍ جمع سنبلة و هى مجمع الحبات فى كُلِّ سَبْتَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ فتكون النفقة فى سبيل الله بسبعمائه ضعف و الله يُضَاعِفُ أَى يزيد كل سبعمائه لِمَنْ يَشَاءُ من عباده من المنفقين و الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ يسع علمه و قدرته فيعلم المنفق و الإنفاق، و قد مثل الإنفاق بهذا ليكون أوقع فى النفس و أكثر فى التأثير و التشويق.

[٢٦٣] ثم ذكر شرطاً آخر للإنفاق المثمر الموجب للأجر بقوله تعالى:

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَّا يُتَّبَعُونَ أَى لَّا يعقبون ما أنفقوا مَنًّا على المعطى له بأن يمن عليه فى إنفاقه كأن يقول له: إني

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦٣ إلى ٢٦٤]

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبَعُهَا أذى وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَّا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الأذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَّا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الآخرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صِلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لَّا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ (٢٦٤)

أعطيتك فكن شاكرًا و لا أذى بأن يؤذى المعطى له، كأن يقول:

ابتليت بفلان الفقير لهم أجرهم و جزاء إنفاقهم عند ربهم و لا خوف عليهم من العذاب لأن من ينفق هكذا يكون مخلصاً فى جميع

أعماله، أو لا خوف عليهم من فوت الأجر ولا هم يحزنون وهو يحتمل الأمرين مثل - لا خوف -.

[٢٦٤] قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ بِأَنْ يرد به السائل، نحو الله يعطيك و مَغْفِرَةٌ أَى تجاوز عن السائل فيما إذا أساء خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أذى لَأَنَّ الصَّدَقَةَ كذلك تجرح قلب السائل دونهما، ولأنها تتبع العقاب، لَأَنَّ هكذا صدقة محرمة، بخلافهما و الله غَنِيٌّ فلا يحتاج إلى صدقاتكم أيها المعطون، و إنما أنتم تحتاجون إليها، فحث الله بالإنفاق لكم، لا له حليم حليم عن عقابكم بسبب صدقاتكم التي يتبعها الأذى.

[٢٦٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ عَلَى السَّائِلِ وَالَّذِي لَهُ فَإِنْ فِيهَا إِبْطَالًا لِلصَّدَقَةِ مِنْ حَيْثُ الثَّوَابُ فَلَا ثَوَابَ لَهَا عِنْدَ الْعَرَفِ لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الصَّدَقَةِ لَا تَحْسَبُ جَمِيلًا وَ إِنَّمَا قَبِيحًا بَشْعًا، فَإِنْ مِنْ يَبْطُلُ صَدَقَتَهُ بِالْمَنِّ وَ الْأذى فَهُوَ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ لِأَجْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٨

أَنْ يراه النَّاسُ فَيَمْدُحُوهُ وَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ بِأَنَّ يَكُونُ الدَّاعِي لَهُ إِلَى التَّصَدَّقِ أَمْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَوْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَيْلِدًا الصَّفْوَانُ: الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ، وَ الْوَابِلُ: الْمَطَرُ الشَّدِيدُ الْوَقْعُ، وَ الصَّلْدُ مِنَ الْأَرْضِ مَا لَا يَنْبَتُ شَيْئًا لِصَلَابَتِهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ كَالْحَجَرِ الصَّلْبِ الَّذِي لَا يَرْجَى مِنْهُ خَيْرٌ، وَ مَا يَتَحَفَّظُ بِهِ ظَوَاهِرُهُ بِمَنْزِلَةِ ثَرَابٍ عَلَى الْحَجَرِ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهُ مَحَلٌّ قَابِلٌ لِلنَّبْتِ، وَ الصَّدَقَةُ الَّتِي يَرَائِي بِهَا كَالْمَطَرِ الشَّدِيدِ، فَإِنَّهُ إِذَا نَزَلَ بِأَرْضٍ صَالِحَةً كَانَ مَبْعَثَ الْخَيْرِ وَ النَّبَاتِ لَكِنَّهُ إِذَا نَزَلَ عَلَى الْحَجَرِ الْمَغْطَى بِالْثَرَابِ أَزَالَ ثَرَابَهُ وَ أَظْهَرَ صَلَادَتَهُ وَ عَدَمَ قَبُولِهِ لِأَيِّ إِنْبَاتٍ أَوْ عَشْبٍ، وَ كَذَلِكَ الْكَافِرُ الَّذِي يَظُنُّ بِهِ النَّاسُ بَعْضَ الْخَيْرِ إِذَا أَنْفَقَ رِيَاءً ظَهَرَ عَلَى النَّاسِ حَقِيقَتَهُ الْمُنْحَرِفَةَ فَتَكُونُ الصَّدَقَةُ - الَّتِي هِيَ بِذَاتِهَا سَبَبُ الْخَيْرِ وَ الرَّحْمَةِ - مَعْرِيَةً لِحَقِيقَةِ الْكَافِرِ الْبَشْعَةَ، وَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى أَنَّهَا تَوْجِبُ سَخَطَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلِ فَتَكُونُ مَذْهَبُهُ لَمَّا يَظُنُّ أَنَّهَا حَسَنَةٌ لَهُ مِنْ بَعْضِ أَعْمَالِهِ الْخَيْرِيَّةِ السَّابِقَةِ لَا يَقْبَلُهَا عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا مِنْ مَكَاسِبِهِمُ السَّابِقَةِ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ بَرِيَاءً ذَهَابًا بِهَا كَمَا أَنَّ الْمَطَرَ يَذْهَبُ بِالْثَرَابِ فَلَا يُمْكِنُ إِرجاعه وَ جَمْعُهُ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ فَلَا يَلْطَفُ بِهِمُ اللَّطْفُ الْخَاصُّ لِأَنَّهُمْ أَسْقَطُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْقَابِلِيَّةِ لِجُحُودِهِمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا الْحَقَّ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٨٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦٥ إلى ٢٦٦]

وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ائْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْ بِهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيْ يُوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ أَصَابَهُ الْكِبْرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

[٢٦٦] وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ائْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ أَى لِأَجْلِ طَلْبِ رِضَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ تَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَى لِأَجْلِ تَثْبِيْتِ أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ وَ تَرْكِيزِهَا، تَثْبِيْتًا نَاشِئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَأَنْفُسُهُمْ هِيَ الَّتِي تَوْصِي بِذَلِكَ، لَا كَالْمَرَاثِي الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ رُؤْيَةَ النَّاسِ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» مَقَابِلُ جُمْلَةِ «رِثَاءَ النَّاسِ» فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَى بِسْتَانٍ مَرْتَفِعٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ مَطَرٌ غَزِيرٌ فَآتَتْ أَى أَعْطَتْ أُكْلَهَا وَ ثَمَرَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ كَالْبَسْتَانِ الْوَاقِعِ فِي مَرْتَفَعٍ يَزْهَوُ لِلنَّاسِ وَ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الْاِسْتِفَادَةِ مِنَ الْهَوَاءِ وَ الشَّمْسِ وَ الْمَطَرِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ أَقْرَبَ إِلَى الْخَيْرِ إِذَا تَصَدَّقَ تَكُونُ صَدَقَتُهُ كَالْمَطَرِ الَّذِي إِذَا نَزَلَ بِالْبَسْتَانِ يَوْجِبُ نَمُو ثَمَارِهَا وَ اَزْدَهَارَ أَشْجَارِهَا فَإِنَّ لَمْ يُصِبْ بِهَا وَابِلٌ مَطَرٌ غَزِيرٌ فَيَكْفِي لِإِثْمَارِهَا وَ اِنْضَارِهَا طَلُّ رِذَاذٍ مِنْ مَطَرٍ قَلِيلٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ إِنْ رِيَاءً وَ إِنْ قَرْبَةً.

[٢٦٧] وَ لَمَّا مِثْلُ سَبْحَانِهِ لِصَّدَقَةِ كُلِّ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ، مِثْلُ لِصَّدَقَةِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَمْنُ بِصَدَقَتِهِ فَيَبْطُلُهَا أَيْ يُوَدُّ أَى هَلْ يَحِبُّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٠

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى تَحْتِ أَشْجَارِهَا لَهُ فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْجَنَّةِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ أَصَابَهُ الْكِبَرُ أَى الشَّيْخُوخَةُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا عَاجِزُونَ عَنِ كَسْبِ الْمَأْكَلِ وَ الْمَلْبَسِ فَأَصَابَهَا أَى أَصَابَ الْجَنَّةَ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَأَخْتَرَقَتْ كَلَا لَا يَحِبُّ أَحَدٌ ذَلِكَ إِنْهُ فِي أَشَدِّ أَوْقَاتِ حَاجَتِهِ، فَهَلْ يَرْضَى إِصَابَةَ النَّارِ بِأَمْنٍ مَا يَمْلِكُ؟ إِنْ مِثْلُ مَنْ يَنْفِقُ عَنِ إِيمَانٍ وَ اعْتِقَادٍ مِثْلُ تِلْكَ الْجَنَّةِ، فَإِذَا امْتَنَ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ آذَى السَّائِلَ، يَكُونُ ذَلِكَ نَارًا تَحْرَقُ جَنَّتَهُ فِي أَشَدِّ أَوْقَاتِ حَاجَتِهِ، فَالْإِنْسَانُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى خَيْرِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا امْتَنَ بَقِيَ صَفَرُ الْيَدَيْنِ هُنَاكَ كَذَلِكَ أَى كَهَذَا الْبَيَانِ الَّذِي بَيْنَ أَمْرِ الصَّدَقَةِ وَ غَيْرِهَا يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَ الْمَشَوِّقَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فَتَسْتَقِيمُوا عَلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

[٢٦٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ طَيِّبًا وَاقِعِيًا بِكَوْنِهِ حَلَالًا وَ ظَاهِرِيًا بِكَوْنِهِ جَيِّدًا وَ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩١

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٨]

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

طَيِّبٌ مَكْسَبِكُمْ وَ طَيِّبٌ ثَمَارِكُمْ، فَلَا تُنْفِقُوا مِنَ الرِّبَا وَ لَا مِنَ الْمَاءِ الْآجِنِ وَ لَا مِنَ حَشْفِ التَّمْرِ - مِثْلًا- وَ لَا تَيَمَّمُوا أَى لَا تَقْصِدُوا الْخَبِيثَ الْحَرَامَ الرَّدِيءَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ لِلنَّاسِ وَ الْحَالِ أَنْكُمْ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ فَإِنْ أَرَادَ أَحَدٌ إِعْطَائِكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ تَأْخُذُونَهُ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ أَى تَغْمِضُوا عِيُونَكُمْ كَرَاهَةً لَهُ، فَالْإِنْسَانُ إِذَا اسْتَبَشَعَ شَيْئًا غَمِضَ عَيْنَهُ حَتَّى لَا يَرَاهُ، فَكَيْفَ تُنْفِقُونَ مِثْلَ هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي إِذَا أَرَدْتُمْ أَخْذَهُ غَمِضْتُمْ عَيْنَكُمْ اسْتَبْشَاعًا لَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ صَدَقَاتِكُمْ فَلَا- يَأْخُذُ إِلَّا- الطَّيِّبَ وَ لَا- يَقْبَلُ إِلَّا الْحَسَنَ حَمِيدًا أَى مُسْتَحِقًّا لِلْحَمْدِ عَلَى نِعْمِهِ، وَ مِنْ حَمْدِهِ أَنْ يُعْطِيَ الْإِنْسَانَ الشَّيْءَ الطَّيِّبَ فِي سَبِيلِهِ، فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَرَادَ تَقْدِيرَ شَخْصٍ دَفَعَ إِلَيْهِ أَحْسَنَ مَا يَتِمَكَّنُ، لَا أَنَّهُ يَدْفَعُ الرَّدِيءَ الْخَبِيثَ.

[٢٦٩] الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ إِذَا أَرَدْتُمْ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ إِذَا أَرَدْتُمْ الْإِنْفَاقَ يَقُولُ لَكُمْ: أَنْفِقُوا مِنَ الرَّدِيءِ الْخَبِيثِ، وَ هُوَ قِسْمٌ مِنَ الْفَحْشَاءِ، أَوْ الْمَرَادُ بِهِ الْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ مُطْلَقًا، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذُنُوبَكُمْ بِسَبَبِ الصَّدَقَةِ وَ سَائِرِ الْمَبْرَاتِ وَ فَضْلًا فَيُخَلِّفُ مَا أَنْفَقْتُمُوهُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ لَيْسَ ضَيْقُ الْمَقْدَرَةِ حَتَّى لَا يَتِمَكَّنَ مِنَ التَّعْوِضِ عَلِيمٌ بِمَا تَعْطُونَ فَيَجَازِيكُمْ بِالْحَسَنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٢

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦٩ إلى ٢٧١]

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفَوْهَا وَ تُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكْفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

حَسَنًا وَ بِالسَّيِّئِ سَيِّئًا.

[٢٧٠] إِنْ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الطَّيِّبِ بِلَا رِيَاءٍ وَ لَا مِنْ وَ لَا أذى مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوْضِعَهَا اللَّائِقَ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ لَهُ قَابِلِيَةٌ بِمَا سَبَقَ أَنْ أَخَذَ بِالشَّرِيعَةِ وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَ أَى خَيْرٍ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَعْمَرَ الْإِنْسَانَ دُنْيَاهُ وَ عَقْبَاهُ بِأَخْذِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ انْتِهَاجِهِ الْمُنْهَجَ الْمُسْتَقِيمَ الْمَوْجِبَ لِسَعَادَةِ النَّشْأَتَيْنِ وَ مَا يَذَّكَّرُ أَى مَا يَتَذَكَّرُ وَ لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ أَصْحَابَ الْعُقُولِ فَصَاحِبَ الْعَقْلِ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُ مَا يَنْفَعُهُ وَ يَذَرُ مَا يَضُرُّهُ.

[٢٧١] وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً أَى أَيَّةَ صَدَقَةٍ تَصَدَّقْتُمْ بِهَا أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ أَى مَا أَوْجَبْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ لِلَّهِ سَبَبَ النَّذْرِ

فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ وَ يَكُونُ ذَلِكَ سَبِيلاً لِلْإِحْسَانِ إِلَى النَّفْسِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنفُسَهُمْ بِالشَّحِّ وَ مَنَعَ الصَّدَقَاتِ
الوَاجِبَةَ وَ حَنَثَ النَّذْرَ وَ الْمَنَ وَ الْأَذَى وَ الرِّيَاءَ فِي الصَّدَقَةِ مِنْ أَنْصَارٍ يَنْصُرُونَهُمْ وَ يَخْلَصُونَهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٢٧٢] إِنْ تَبَدُّوا أَى تَظْهَرُوا الصَّدَقَاتِ حِينَ إِعْطَائِهَا، بَأَن تَعْطُوهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٣

[سورة البقرة (٢): آية ٢٧٢]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَ مَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ
إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ (٢٧٢)

جهرًا، بقصد القرية لا بقصد الرياء فنعمة هي أي فنعمة الشيء الصدقة الظاهرة فإنها توجب دفع التهمة و اقتداء الناس و إن تحفوها أي
الصدقات و تؤتوها أي تعطوها سرا الفقراء فهو خير لكم لأنه أقرب إلى القرية و أبعد عن الرياء و أحفظ لصون ماء وجه الآخذ و يكفر
أي يغفر عنكم من سيئاتكم أي بعض ذنوبكم بواسطة إعطاء الصدقة فإن صدقة السر تطفى غضب الرب و الله بما تعملون خبير
فيجازيكم على أعمالكم، فليس التصدق سرا غائبا عن الله سبحانه بل هو بكل شيء عليم.

[٢٧٣] امتنع بعض المسلمين عن التصدق إلى غير المسلم فنزلت لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ فَإِنَّكَ لست مجبورًا بأن تهديهم و إنما عليك
الإرشاد و البلاغ و لكن الله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم، ياراءته الطريق، أو يايصاله المطلوب و ما تنفقوا من خير فلأنفسكم
فإن نفعه الدنيوي و الأخرى يعود إليكم و ما تنفقون أي ليس إنفاقكم إلا ابتغاء وجه الله أي لأجله سبحانه، و أي شيء أحسن من أن
ينفق الإنسان في سبيل خالقه و منعمه و المتفضل عليه و ما تنفقوا من خير يؤف إليكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٤

[سورة البقرة (٢): آية ٢٧٣]

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ
النَّاسَ إِلْحَافًا وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

أي يوفّر عليكم جزاءه و ثوابه و أنتم لا تظلمون فتعطون جزاء إنفاقكم كاملا غير منقوص، فالإنفاق لأنفسكم، و ثوابه يعود عليكم، و
هو في سبيل الله و ما أجمل أن يعطى الإنسان شيئا يعود نفعه إليه ثم يثاب به في الآخرة، و يرضى الله سبحانه عنه بذلك.

[٢٧٤] و لما بين الله سبحانه فضل الصدقة عقبه بأحسن مصارفها بقوله سبحانه: لِلْفُقَرَاءِ أَى أَنْ النِّفْقَةَ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَى مَنَعُوا وَ الَّذِي مَنَعَهُمْ هُوَ أَنفُسُهُمْ، لِأَجْلِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ إِطَاعَتِهِ، فَقَدْ نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي أَصْحَابِ الصِّفَةِ الَّذِينَ تَرَكَوا كُلَّ شَيْءٍ لِأَجْلِ
الإسلام و أحصروا أنفسهم للعبادة و الجهاد بين يدي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لا يستطيعون ضربًا في الأرض أي ذهابا
فيها و عدم الاستطاعة اختيارية لا اضطرارية يحسبهم الجاهل أي يظنهم الذي يجهل حالهم و باطن أمرهم أغنياء من التعفف الامتناع
من السؤال فإن الناس إذا رأوا تعففهم ظنهم أغنياء لما عهدوا من سؤال الفقراء تعرفهم أي تعرف إنهم فقراء بسيماهم أي من
وجوههم و أحوالهم يكون الفقر عليها باد لا يستلون الناس إلحافًا أي كما هو شأن كثير من الفقراء، بمعنى أنه ليس منهم سؤال فيكون
إلحافًا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٤ إلى ٢٧٥]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا
لَا يَقُومُونَ إِلَّا - كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)

لا- إنهم يسألون من غير إلحاف و ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ كُلِّ شَيْءٍ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الْخَيْرُ مِنْ دَارٍ أَوْ عَقَارٍ أَوْ دِرْهَمٍ أَوْ دِينَارٍ أَوْ غَيْرِهَا فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ فَيَجَازِيكُمْ جَزَاءً حَسَنًا.

[٢٧٥] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً بِاللَّيْلِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ إِنْ آيَةٌ وَإِنْ كَانَتْ عَامَةً إِلَّا إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ كَانَتْ لَهُ أَرْبَعَةُ دِرَاهِمٍ فَتَصَدَّقَ بِاثْنَيْنِ مِنْهَا نَهَارًا سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَبِاثْنَيْنِ لَيْلًا سِرًّا وَعَلَانِيَةً «١»، وَ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[٢٧٦] وَ حَيْثُ كَانَتْ آيَاتُ حَوْلِ الْإِنْفَاقِ، نَاسِبُ السِّيَاقِ ذِكْرُ الرِّبَا، فَإِنَّهُ عَكْسُ الْإِنْفَاقِ إِذْ هُوَ اسْتِيْلَاءٌ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مَبْرَرٍ، بِخِلَافِ الْإِنْفَاقِ الَّذِي هُوَ إِعْطَاءُ مَالِهِ لِلنَّاسِ مِنْ غَيْرِ مَكْسَبٍ وَ تِجَارَةِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا وَ أَكَلَهُ كِنَايَةٌ عَنْ أَخْذِهِ وَ إِنْ لَمْ يَتَصَرَّفْ فِيهِ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ الرَّجُلِ الَّذِي مَسَّهُ

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٨٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٦

الشيطان فصرع و تغير حاله و دارت عينه و زال توازن جسده و زيد فمه إذا أراد أن يقوم لبقية ما فيه من الشعور يقوم بعض القيام بكل انحراف و تارجح ثم يسقط على الأرض، و هكذا الإنسان الذي يأكل الربا حتى اعتاد ذلك يكون أشبه شيء في عملية انتهاب أموال الناس بمن تخبطه الشيطان الذي يريد أن يقوم فإن تفكيره تفكير منحرف كتفكير المطروح و عينه تنظر بزيغ إلى أموال الناس كعين المصروع و فيه يلهج حول المال بانحراف كغم المصروع و إذا أراد أن يقوم من كبوته و يترك الربا و يأخذ بالجادة المستقيمة حول المال لا يلبث أن يسقط في الربا كما اعتاد من أكله و صار الابتزاز لمال الناس ملكته، و هذا تشبيه رائع مفزع و هكذا يكونون هؤلاء يوم القيامة.

فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: لما أسرى بي إلى السماء رأيت أقواما يريد أحدهم أن يقوم و لا يقدر عليه من عظم بطنه فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس «١»

، و قد ثبت في العلم أن الأرواح الشريرة قد تدخل في الإنسان فتسبب له صرعا ذلك الأكل للربا الذي اعتادوه بسبب أنهم قالوا ليس في أكل الربا بأس ف إنما البئع مثل الربا كلاهما تعامل برضى الطرفين و ليس كذلك فمنطقهم غلط فقد أحل الله البئع لما فيه من الفوائد و حرّم الربا لما فيه من

(١) بحار الأنوار: ج ١٠٠ ص ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٧

المضار، و يكفي أن نلمح إلى ضرر واحد هو أن معطى الربا إما ساقته الضرورة إلى الاقتراض كمرض أو نحوه مما ألجأ للاقتراض برباء فما أقبح أن يستغل الإنسان أخيه في مثل هذا الموقع مما يجدر به أن يساعده و يسعفه، و إما اقتراض للتجارة و هذا لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة:

الأول أن يخسر و الثانى أن لا يربح و لا يخسر و ما أقيح في هاتين الصورتين أن يأخذ صاحب المال زيادة بينما خسر العامل في الأول و لم يربح في الثانى و الثالث أن يربح، و قد قرر الإسلام المضاربة و الاشتراك في المربح فيما يجبر المقترض أن يدفع بمقدار خاص إلى المقرض بينما قد ربح بمقداره و قد ربح أقل و قد ربح أكثر.

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فِي تَرْكِهِ أَخَذَ الرِّبَا فَانْتَهَى وَ تَابَ فَلَهُ مَا سَلَفَ فَكُلُّ رِبَا أَكَلَهُ النَّاسُ بِجَهَالَةٍ وَ عَدَمِ عِلْمِ بَحْرَمَتِهِ أَوْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

لا يسترد منهم وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا إِلَى النَّاسِ حَتَّى يَقُولَ مِنْ أَعْطَاهُ الرَّبَا: رَدَّ عَلَيَّ مَا أَخَذْتَ مِنِّي، أَوْ أَمْرُهُ فِي قَبُولِ اللَّهِ تَوْبَتَهُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَمَنْ عَادَ إِلَى الرَّبَا بَعْدَ النِّهْيِ وَالْإِسْلَامِ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أَبَدَ الْآبِدِينَ إِلَّا أَنْ يَدْرِكَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ «١».

(١) النساء: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٦ إلى ٢٧٨]

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)

[٢٧٧] يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا أَي يَنْقُصُهُ وَيَتْلَفُهُ وَيُهْلِكُهُ فَمَا ظَنُّ الْمُرَابِي أَنَّهُ سَبَبُ زِيَادَةِ أَمْوَالِهِ يَكُونُ سَبَبًا لِهَلَاكِهِ وَنَقْصَانِهِ فَإِنَّ الرِّبَا يَسَبِّبُ غَضَبَ النَّاسِ وَسَخَطَهُمْ عَلَى الْمُرَابِي مِمَّا يَثِيرُ حَرْبًا أَوْ نَهَابًا مِنَ النَّاسِ أَوْ الْحُكُومَاتِ لِأَمْوَالِهِ فَيَذْهَبُ الْأَصْلُ وَالْفَرْعُ وَيُزِيهِ أَي يَزِيدُ وَيُنْمِي الصَّدَقَاتِ فَإِنَّهُ وَإِنْ ذَهَبَ جُزْءٌ مِنَ الْمَالِ بِالصَّدَقَةِ لَكِنَّا تَسَبُّبُ حُبِّ النَّاسِ وَالتَّفَافُهُمْ وَتَعَاوَنُهُمْ مَعَ الْمُتَصَدِّقِ مِمَّا يَنْجِرُ إِلَى زِيَادَةِ أَمْوَالِهِ، وَهَذَا مَعَ الْغَضِّ عَنِ الْمَحَقِّ وَالنَّمَاءِ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّبِيعَةِ مِمَّا يَشَاهُمَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ عَادِيَةٍ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ كَثِيرٍ الْكُفْرِ أَثِيمٍ أَي مُذْنِبٍ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ آكَلَ الرِّبَا كَفَّارٌ أَثِيمٌ.

[٢٧٨] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْأَصُولِ الْعِتْقَادِيَّةِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بَأَن أَتَوْا بِالْوَجِبَاتِ وَتَرَكَوا الْمَحْرَمَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ تَخْصِيصًا بَعْدَ التَّعْمِيمِ لِأَهْمِيَّتِهِمَا لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ عَدَمِ الْخَوْفِ وَ عَدَمِ الْحَزَنِ.

[٢٧٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا مِنْ عِقَابِهِ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٢٩٩

[سورة البقرة (٢): آية ٢٧٩]

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

مِمَّا كُنْتُمْ تَطْلُبُونَهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَ قَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ كَانَ يَرِبِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ قَدْ بَقِيَ لَهُ بَقَايَا عَلَى ثَقِيفٍ فَأَرَادَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَطَالِبَةَ بِهَا بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِالْإِسْلَامِ حَقًّا فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي يَأْتَمِرُ بِالْأَوْامِرِ وَيَنْزَجِرُ بِالزَّوَالِجِ.

[٢٨٠] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَمْ تَنْقَادُوا إِلَى هَذَا النَّهْيِ بَلْ أَكَلْتُمُ الرِّبَا بَعْدَ النَّهْيِ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَي اعْمَلُوا الْقِتَالَ مَعَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، فَأَكَلَ الرِّبَا يَكُونُ كَمَنْ أَعْلَنَ الْحَرْبَ مَعَ الْإِلَهِ وَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ ذَلِكَ مِنْ أَفْطَحِ الْجَرَائِمِ، وَ عَاقِبَتُهُ خَسْرَانُ الدِّينِ وَ الدُّنْيَا، وَ

حُكْمُ آكَلِ الرِّبَا إِنَّهُ يُؤَدَّبُ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَقْتُلُ فِي الثَّلَاثَةِ كَمَا رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «١»

وَ إِنَّ تُبْتُمْ وَ لَمْ تَأْخُذُوا الرِّبَا فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ دُونَ الزِّيَادَةِ الَّتِي حَصَلَتْ مَوْهَا بِالرِّبَا وَ لَا مَفْهُومٌ لِلآيَةِ بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَتَوَبُوا فَلَيْسَ لَهُمْ رَأْسُ الْمَالِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ لَكُمْ رَأْسَ الْمَالِ فَمَا تَبْغُونَ بِالزِّيَادَةِ لَا تَظْلِمُونَ النَّاسَ بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ مِنْهُمْ وَ لَا تُظْلَمُونَ بِالنَّقْصَانِ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ.

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٠

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨٠ الى ٢٨٢]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ص ٣٤٩

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَثِيهٌ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَاحِبًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَ أَمْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَذْنَى الْآلِ تَزَاتَبُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

[٢٨١] وَإِنْ كَانَ فِيمَنْ تَطْلُبُونَ مِنْهُ - مِمَّنْ ذَكَرَ أَنَّهُ يَرْجِعُ رَأْسَ الْمَالِ - ذُو عُسْرَةٍ بَأَنَّ كَانَ رَأْسَ مَالِكُمْ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ عِنْدَ ذِي عُسْرَةٍ لَا يَتِمُّكَنْ مِنْ أَذَانِهِ لِعُسْرِهِ وَضَيْقِهِ فَالْأَزْمُ نَظْرَةٌ إِلَى انْتِظَارٍ وَتَأْخِيرٍ إِلَى مَيْسَرَةٍ أَى إِلَى حَالِ يَسَارِ الْمَدْيُونِ وَ الْجَمْلَةُ خَبْرِيَّةٌ مَعْنَاهَا الْأَمْرُ، أَى فَانظُرُوهُ إِلَى وَقْتِ يَسَارِهِ وَأَنْ تَصَدَّقُوا عَلَى الْمَعْسَرِ بِمَا عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ بَأَنَّ تَجْعَلُوا طَلْبَكُمْ صَدَقَةً لَهُ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا يَجْلِبُ الْمَحَبَّةَ وَ الْبَرَكَةَ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ فِي الْآخِرَةِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ وَ تَمَيِّزُونَ مَا يَنْفَعُكُمْ مِمَّا يَضُرُّكُمْ لَعَلَّمْتُمْ أَنَّ هَبَةَ الدِّينِ لِلْمَعْسَرِ خَيْرٌ لَكُمْ.

[٢٨٢] وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ فَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا تَوَاطَفُوا الْمَعْسَرِينَ بَلْ تَصَدَّقُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ إِيْتَانَ الْحَرَامِ مُوجِبٌ لِلْعِقَابِ وَ التَّصَدَّقُ مُوجِبٌ لِلثَّوَابِ ثُمَّ تُوَفَّى أَى تُعْطَى وَافِيَا كُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا فَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ كَمَا لَا يَزِيدُ فِي عَذَابِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ اسْتِحْقَاقِهِمْ، وَ مَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ الرَّجُوعُ إِلَى حُكْمِهِ وَ أَمْرِهِ وَ قَضَائِهِ وَ جَزَائِهِ.

[٢٨٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ أَى تَعَامَلْتُمْ بِالدِّينِ وَ دَانَ بَعْضُكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠١

بَعْضًا فِي بَيْعٍ أَوْ غَيْرِهِ بِدَيْنٍ إِمَّا تَأْكِيدٍ وَ إِمَّا لِدَفْعِ تَوْهَمٍ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنَ الْمَدَايِنَةِ الْمَجَازَاةِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ «وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتَجْزِينِي» إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى أَى مَدَّةٌ قَدْ سَمِيَتْ فِي الْعَقْدِ كَمَا لَوْ دَانَتْهُ إِلَى سَنَةٍ أَوْ بَاعَهُ نَسِيئَةً إِلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِثْلًا فَاكْتُبُوهُ أَى اكْتُبُوا ذَلِكَ الدِّينَ فِي صَكٍّ وَ أَنَّهُ إِلَى آيَةٍ مَدَّةٌ لثَلَاثَةِ يَمِينٍ أَوْ جُحُودٍ أَوْ خِلَافٍ وَ لِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ بِالْحَقِّ لَا يَزِيدُ فِي الْمَقْدَارِ وَ الْأَجَلِ وَ الْوَصْفِ وَ لَا يَنْقُصُ مِنْهَا وَ لَا يَأْبَى أَى لَا يَمْتَنِعُ كَاتِبٌ أَى شَخْصٌ كَانَ مِنَ الْمُتَعَامِلِينَ أَوْ غَيْرِهِمَا أَنْ يَكْتُبَ الصَّكَّ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ بَأَنَّ يَخْلُفَ فَلَا يَكْتُبُ، فَالتَّكْلِيفُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ هُوَ فِي مُقَابَلِ أَنْ عِلْمَهُ تَعَالَى الْكِتَابَةَ وَ الْعِلْمُ فَلَا يَثْقُلُ أَوْ يَبْطِئُ أَوْ يَخْلُفَ فَلْيَكْتُبْ الْكَاتِبُ وَ لِيُمْلِلِ بِمَعْنَى لِيَمْلَأْ فَإِنَّ الْإِمْلَالَ وَ الْإِمْلَاءَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ يَلْقَى صَيْغَةَ الْكِتَابَةِ عَلَى الْكَاتِبِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ أَى الْمَدْيُونِ حَتَّى يَقْرَأَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْلًا حَتَّى لَا يَقُولَ زَائِدًا عَلَى الْحَقِّ ثَانِيًا، فَالَّذِي لَهُ الْحَقُّ لَوْ أَمْلَى كَانَ مُعْرَضًا لِأَنْ يَقُولَ الزِّيَادَةَ وَ لِيَتَّقِ اللَّهَ الْكَاتِبُ أَوْ الْمَدْيُونُ رَبَّهُ فَإِنَّهُ رَبُّهُ لَهْ فَكَيْفَ يَخَالَفُ أَمْرَهُ وَ لَا يَبْخَسُ أَى لَا يَنْقُصُ الْكَاتِبُ أَوْ الْمَدْيُونُ مِنْهُ أَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا أَمَا نَقْصُ الْكَاتِبِ فَوَاضِحٌ وَ أَمَا نَقْصُ الْمَدْيُونِ كَأَنَّ يَجْعَلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٢

الدَّيْنَارِ وَ الَّذِي هُوَ مُقَابَلُ ثَوْبٍ فِي مُقَابَلِ ثَوْبَيْنِ فَإِنَّ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا بَحِيثًا لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنَ الْإِمْلَاءِ أَوْ ضَعِيفًا لَجُنُونٍ أَوْ كَبْرٍ أَوْ صِغَرٍ أَوْ نَحْوِهَا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ لِحَرْسٍ أَوْ عَذْرٍ آخَرَ مَعَ عَدَمِ السَّفَاهَةِ وَ الضَّعْفِ فَلْيُمْلِلْ وَثِيهٌ أَى وَلى مِنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْعَدْلِ بَلَا إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ وَ اسْتَشْهِدُوا أَى اطْلُبُوا شَهَادَةَ شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ عَلَى الْمَكْتُوبِ لِيَنْفَعَكُمْ ذَلِكَ عِنْدَ التَّرَافِعِ وَ الْمُخَاصِمَةِ لَدَى التَّخَالُفِ،

ولعل قيد من رجالكم لإخراج الكفار فإن لم يكونوا أي لم يكن الشاهدين رجُلَيْنِ لعدم حضورهما أو عدم إرادة المستشهد فرَجُلٍ و امرأتان يشهدون على الكتابه، أو فليشهد رجل و امرأتان مِمَّنْ تَزْصُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ لوثقتمهم أو عدالتهم إذ لا تقبل شهادة من عداهم لدى المخالفه و التراخ، و إنما جعلت المرأتان مكان رجل واحد لأن المرأة لضعف ذاكرتها كما ثبت في العلم الحديث يتطرق إليها من النسيان ما لا يتطرق إلى الرجل، و لذا قال سبحانه: أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا مِنَ الضَّلَالِ أَى تخطأ و تشتبه و تنسى فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا التى لم تضل الأخرى التى نسيت و ضلت، و «أن» إما بمعنى «لثلا» و تكون جملة «فتذكر» منقطعة، أى إن ضلت تذكر الثانية الأولى، و أما أصلها «إن» بالكسر، صفة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٣

لامرأتان، و الأول أقرب و لا يَأْبُ أَى لا يمتنع الشُّهَدَاءِ الذين يراد إشهداهم للدين- و سموا شهداء بمجاز المشارفة- إذا ما دُعوا لتحمل الشهادة و هذا أمر إيجابى أو استحبابى، أو المراد الأعم من التحمل و الأداء.

و لا تَسِيْمُوا أَى لا تضجروا أيها المتدانيون أَنْ تَكْتُبُوهُ أَى تكتبوا الدين أو تكتبوا الحق صَغِيرًا كان الحق و الدين أو كَبِيرًا و هذا تأديب لمن يترك كتابة الصغير لعدم الاهتمام به، فكثيرا ما يقع التنازع فى الصغير إلى أَجَلِهِ أَى إلى أجل الدين و مدته، و فيه تنبيه إلى أن الكتابة تبقى إلى الأجل فتتفع هناك، أو المعنى كتابة تتضمن إلى الأجل، فيعين فى المكتوب أجل الدين.

ذَلِكُمْ ذَا إِشَارَةَ إِلَى الْكِتَابِ الَّذِى يَكْتُبُ فِي الْمَدَائِنِ «و كم» خطاب إلى الذين آمنوا أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ أَى أعدل، بمعنى أقرب إلى العدل و إلا- فليس فى العدل مفاضلة حقيقية و أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ فيه تقوم الشهادة التى تؤمن عن الزيادة و النقصان و أَذْنَى أَلَّا تَزْتَابُوا أَى أقرب إلى عدم الريب فى المبلغ و الأجل فالله يريد و أنتم لا تشكون، و الشهادة تستقيم، بسبب الكتابة و الصك و ما ذكر من الكتابة عامة لكل مكان إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَعَامِلَةَ- المفهوم من الكلام- تِجَارَةً حَاضِرَةً معجلة غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٤

مؤجلة كغالب التجارات النقدية التى تجرى فى الأسواق تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ إدارة يد بيد، و معنى الإدارة المناقلة، فينقل هذا ماله إلى ذاك و ينقل ذاك عنه إلى هذا فَالَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ و حرج أَلَّا تَكْتُبُوهَا فلا مانع من عدم كتابة التجارة النقدية إذ الكتابة للوثيقة و هنا لا يحتاج إلى الوثيقة و أَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ فَإِنَّهُ يَسْتَحِبُّ لِلْإِنْسَانِ الَّذِى يَرِيدُ الْمَبَايَعَةَ أَنْ يَأْخُذَ الشَّاهِدَ، ففى المعاملة كثيرا ما يقع من نزاع و خصام فإذا كان هناك شهادة يقل و طئ النزاع، و الآية و إن كانت عامة لفظا لكن لا يعد أن لا يراد بها الإطلاق من المعاملات الجزئية اليومية لعدم تعارف الأَشْهَادِ منذ زمان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ لَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَ لَا شَهِيدٌ بَأَنْ يَكْلِفَ الْكَاتِبَ الْكِتَابَةَ وَ يَكْلِفُ الشَّاهِدَ الشَّهَادَةَ فى حال يكون حرجا عليهما و ضررا، كما تعارف الآن عند الحكومات المنحرفة فإنه يحضر الشاهد و يعنت و يضار فإن فى مضاربتها زهادة للناس عن الكتابة و الشهادة وَ إِنَّ تَفْعَلُوا الْمِضَارَةَ بِهَا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ أَى خروج عن أمر الله سبحانه لسببكم أيها المضارون وَ اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَ نَهَاكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ مِصَالِحَكُمْ فَاتَّبِعُوهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَ مَا أَجْدَرُ بِالْجَاهِلِ أَنْ يَتَّبِعَ الْعَالِمَ، عن على بن إبراهيم أن فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٥

[سورة البقرة (٢): آية ٢٨٣]

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى أُوْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَ لِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

سورة البقرة خمسمائة حكم و فى هذه الآية الكريمة وحدها خمسة عشر حكما و الآية كما تقرر فى العلم الحديث من أعجب الآيات فى باب المعاملة.

[٢٨٤] وَ إِنْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمَتَدَانِيُونَ الْمَتَبَاعُونَ عَلَى سَفَرٍ أَى مسافرين و التعبير بلفظ «على» لركوب المسافر غالبا و لَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا يكتب

الدين و المعاملة فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ تقوم مقام الصك و رهان جمع رهن، و هو اسم للوثيقة و لذا جاءت الصفه بالتأنيث و القبض شرط في صحه الرهن، و لذا وصفه بالقبض فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمُ و هو صاحب الحق بَعْضاً و هو من عليه الحق بأن وثق به و أنه يؤدي الدين بدون صك و لا رهن، فأعطاه الدين مجردا عن الأمرين فليؤدِّ اللّٰدِي أَوْ تَمِنَ أَي المديون أمانته فلا ينكر و لا يمطل، كفاء لما رآه أهلا وَ لِيَتَّقِيَ اللّٰهَ رَبَّهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَهِيدٌ و يجازى فإن أنكر أو مطل أو بخس كان معرضا نفسه لعقوبه الله سبحانه و لا تَكْتُمُوا أَيها الشهود الشّهَادَةَ التي تحملتموها و مَنْ يَكْتُمْهَا أَي يخفي الشهاده فلا يحضر لأدائها أو يؤديها على خلاف الواقع فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ فقد عزم القلب على الكتمان و أطاعته الجوارح و اللسان و لأن الكتمان أنسب إلى القلب لكونه في محل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٦

[سورة البقرة (٢): آية ٢٨٤]

لِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللّٰهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

مكتوم و الله بما تعملون من إخفاء الشهاده و إبدائها عليكم فلا تفعلوا ما يوجب عقابه و سخطه.

[٢٨٥] لِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فما تعاطونه من الأملاك ليست لكم إلا مجازا و إنما هي ملك له سبحانه فاعملوا فيها حسب ما أمركم و لا- تخالفوا أمر المالك الحقيقي و إن تُبَدُّوا أَي تظهروا ما في أنفسكم بما تعلمونه و يخفى على غيركم أو تُخْفَوْهُ فتكتموه يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللّٰهُ فإن جميع الأعمال و الأقوال و الأفكار تحت المحاسبه، أو أن الإبداء و الإخفاء لما في النفس محسوب عليهما، و هذا العموم للتناسق مع إبداء الشهاده و كتمانها فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ حسب ما تقتضيه الحكمة البالغة فالغفران و الشفاعة ليسا اعتبارا و إنما ينصبان على المحل القابل و الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ من المغفرة و العقاب و لا يخفى أن العذاب على ما في النفس لا ينافي ما دل على عدم العقاب، على العزم على المعصية لاختلاف المعاصي، و اختلاف أنواع العقاب فلا شبهة في أن من يعزم على المعاصي و إن لم يفعلها أبعد عن قرب الحلال ممن لا يعزم إطلاقا، و هذا البعد هو نوع من العذاب أو يجمع بنحو ذلك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٧

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]

أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

[٢٨٦] و هنا يرجع السياق إلى ذكر التوحيد و النبوة و الشرائع جملة في لباس أنها لا تكلف الناس فوق الطاقة و سؤال المغفرة و العفو لتكون فذلكه للسورة آمن الرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم بما أنزل إليه من ربه فهو أول مؤمن بما أنزل إليه و ليس كرؤساء الأديان المفتعلة و الملوكة و الحكام الذين لا يشملهم القانون و المؤمنون كُلٌّ أى كل واحد منهم آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله فليس المؤمن أن يقتنع بجانب واحد من جوانب الإسلام كما هو كثير في تابعي الأحزاب و المبادئ حيث أن ذا النشاط المتفويض منهم يقتنع منه بجانب واحد و إن ترك سائر الجوانب فإن لسان حال المؤمنين لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ فلسنا كاليهود الذين لا يعترفون بالمسيح عليه السلام و نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و لا كالنصارى الذين لا يعترفون بنبي الإسلام، فلا تكون كمن يؤمن ببعض و يكفر ببعض و قالوا سَمِعْنَا آيَاتِ اللّٰهِ وَ أَحْكَامَهُ وَ أَطَعْنَا وَأَمْرَهُ وَ نَوَاهِيَهُ لَا كَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا، يقولون غُفْرَانَكَ أَي نطلب مغفرتك رَبَّنَا نعلم أن إِلَيْكَ الْمَصِيرُ فاعفِر لنا حتى نكون في ذلك اليوم سعداء.

[٢٨٧] إن الأحكام التي سلفت في السورة و في غيرها ليست مما لا يطاق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٨

فإنه لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرَهَا فَإِنِ أُوَسَّعَ فَإِنِ أَمْرُهُ وَنَوَاحِيهِ مُسْتَطَاعَةٌ لِّلْمَكْلُوفِ وَ لَيْسَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، فلا يظن أحد أن الإيمان السابق ذكره في «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ» يوجب مشقة و عنتا و إرهاقا لها أي للنفس ما كَسَبَتْ من الحسنات فالجزاء الحسن يجزى به من أحسن و عَليها أي على النفس ضرر ما اُكْتَسَبَتْ من الآثام و السيئات و لعل في مجيء الكسب من باين «كسب» و «أُكْتَسَبَ» إفادة أن الطاعة طبعية و المعصية توتى بالتكلف إذ للفظه الاكتساب ظلالات يفيد التعب و الغضب بخلاف الكسب و تويده قاعدة «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى» و هناك يتوجه المؤمنون إلى الله داعين سائلين رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا بِلا نسيان و إنما تصح المؤاخذه فيهما لغلبة كون مقدماتهما اختيارية و ما ينتهي إلى الاختيار يكون بالاختيار رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا أَي ثقلا فإن بعض التكليف قد توجب ظروفها ثقلا و عنتا، فالمؤمن يسأل أن يجنبه الله سبحانه مثل هذا الثقل كما حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا فَإِنَّهُمْ بِلِجَاجَتِهِمْ اسْتَحَقُّوا تَحْمِيلَ الثَّقَلِ كما تقدم في قصة بقره بنى إسرائيل و كما قال سبحانه: فَبَطَّلْنَا مَنِ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ «١»

(١) النساء: ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٠٩

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ و إن كان مقدورا لنا فإن عدم الطاقة ليس بمعنى عدم القدرة حتى يقال: إن الله لا يكلف غير المقدور فما وجه هذا الدعاء؟ و اعْفُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا أَي استرها و لا تبدها و اَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا سِيدِنَا و الأولى بالتصرف فينا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ حتى نغلب عليهم في الحكم كما نغلب عليهم في الحجّة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٠

٣ سورة آل عمران مدنية / آياتها (٢٠١)

[سورة آل عمران (٣): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١)

سميت بذلك لاشتمالها على لفظه آل عمران و قد نزلت بالمدينة.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مرّ تفسيرها في أول سورة الحمد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٢ الى ٤]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)

[٢] الم تقدم ما يحتمل أن يكون تفسيراً له.

[٣] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ فليس له شريك و هو الحي الذي لا يموت و إن كانت الحياة بالنسبة إليه تعالى تخالف الحياة بالنسبة إلينا فإن حياتنا غير ذواتنا و إنما هي صفة قائمة بنا بخلاف الحياة فيه سبحانه فإنه عين ذاته و القيوم هو القائم على كل نفس بما كسبت و على كل شيء [٤] نَزَّلَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ أَي القرآن بِالْحَقِّ لا بالباطل فإن الإنزال قد يكون بالباطل و قد يكون بالحق مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٥] مِنْ قَبْلِ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ، وَ كَلَّ هَذِهِ الْكُتُبَ هُدًى لِلنَّاسِ فَإِنَّهَا تَهْدِيهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ مِنَ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ وَ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْإِشْرَاقِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ الْفَارِقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ هُوَ أَعْمُ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ وَ سَائِرَ مَا أَنْزَلَ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَ رَسَلَهُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ بِحُجُجٍ اللَّهُ وَ دَلَالَتِهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ الْمَرْجُ وَ الْهَرَجُ وَ الْمَشَاكِلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥ الى ٧]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً (١) وَ فِي الْآخِرَةِ بِالْعِقَابِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ لَهُ الْعِزَّةُ وَ الْقُدْرَةُ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ذُو انْتِقَامٍ يَنْتَقِمُ مِنْ حَادِّهِ وَ عَصَاهُ.

[٦] إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ فَلَا يَظُنُّ عَاصٍ أَنَّهُ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكُونِ حَتَّى وَ سَاوَسَ الْقُلُوبَ وَ هَوَاجَسَ الصُّدُورَ.

[٧] هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ أَي يُعْطِيكُمْ الصُّورَةَ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ كَيْفَ يَشَاءُ مِنْ رَجُلٍ وَ امْرَأَةٍ وَ جَمِيلٍ وَ قَبِيحٍ وَ قَصِيرٍ وَ طَوِيلٍ وَ غَيْرِهَا فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ وَ هُوَ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ الدَّقِيقِ فِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ الْمَظْلَمِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُوَ وَحْدَهُ إِلَهُ الْكُونِ وَ خَالِقَهُ الْعَزِيزُ فِي سُلْطَانِهِ الْحَكِيمِ فَمَا يَفْعَلُ شَيْئاً عِثاً بَلْ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ بِالْحِكْمَةِ.

[٨] هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ أَي الْقُرْآنَ مِنْهُ أَي قِسْمٌ مِنَ الْكِتَابِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ غَيْرَ مُتَشَابِهَاتٍ فَالْمَفَادُ مِنْهَا وَاضِحَةٌ لَا يَخْفَى عَلَى أَهْلِ اللِّسَانِ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (٢)

(١) طه: ١٢٥.

(٢) الإخلاص: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٣

هُنَّ أَي تِلْكَ الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ أَي أُصْلَهُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ لَدَى الشُّكِّ وَ الْخِصَامِ وَ الْجِدَالِ.

وَ أُخْرَى أَي آيَاتٌ أُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ وَ الْمُتَشَابَهُ هُوَ الَّذِي يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَوْ وَجُوهًا مِمَّا سَبَبَ عَدَمَ إِدْرَاكِ النَّاسِ كُلِّهِمْ لَهَا، مِنْ تَشَابَهٍ، وَ إِنَّمَا يُؤْتَى بِهِ إِذَا امْتَحَنَّا حَتَّى يَعْرِفَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ أَوْ لِتَقْرِيبِ الْمَطْلَبِ إِلَى أَذْهَانِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَدْرِكُونَ الْحَقَائِقَ ككَثِيرٍ مِنَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَ نَحْوِهَا كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (١) حَيْثُ أُرِيدَ التَّفْهِيمُ مِنْ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، أَوْ كَقَوْلِهِ: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ (٢) أَوْ لِأَنَّ الْمَطْلَبَ دَقِيقٌ لَا تَحْتَمِلُهُ بَعْضُ الْعُقُولِ كآيَاتِ الْجَنِّ وَ الشَّيْطَانِ مِمَّا لَا يَتَحَمَّلُهَا عَقْلٌ مِنَ الْفِ مَادَّةٍ فَيَشْتَبِهَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ أَوْ لِأَنَّهُ جِيءَ بِهِ لِإِعْتِبَارِ كَلَامِي فَاشْتَبَهَ الْأَمْرَ نَحْوَ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (٣) أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَ الْمُتَشَابَهُ مِمَّا لَا بَدَّ مِنْهُ فِي الْكَلَامِ الرَّاقِي كَمَا لَا يَخْفَى بَادِنِي تَأْمَلُ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ أَي مِيلٌ عَنِ الْحَقِّ وَ انْحِرَافٌ إِذَا جَهَلًا أَوْ عِنَادًا فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ اتِّبَاعًا عَلَى خِلَافِ الْمُرَادِ مِنْهُ وَ يُوجِّهُونَ الْمُتَشَابَهَ حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ وَ مُشْتَهَاتِهِمْ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ

(١) القيامة: ٢٤.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) التوبة: ٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٤

بالتجسم من «إلى ربها ناظرة» و بالجبر من و مَنْ يُضِلِّلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (١) و بمعصية الأنبياء عليهم السلام من و عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (٢) و يكون الإسلام خاصا بالعرب من و إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ (٣) و هكذا ائْتِغَاءُ الْفِتْنَةِ أى لأجل تفتين الناس و إضلالهم و ائْتِغَاءُ تَأْوِيلِهِ أى لأجل أن يكون له مجال فى تأويل الكلام على غير المراد منه ليطابق هواه و مشتهاه و ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ التاويل هو ما يؤول و ينتهى إليه الكلام فمثلا ظاهر «إلى ربها ناظرة» إنهم ينظرون إلى الله لكن هذه الجملة تؤول إلى معنى أنهم ينظرون إلى رحمة الله و لطفه و ثوابه، كما يقال فى العرف «إنى أنظر إلى العقل و هو يسير الإنسان» إنه لا يريد النظر بالعين و إنما عرفان ذلك إلا الله فهو سبحانه يعلم المراد من كلامه و الرَّاسِخُونَ أى الثابتون فى العِلْمِ الذين لهم اطلاع على المعلومات و أساليب الكلام و بما يدل عليه العقل و الشرع و هذا ليس ببدع فإن القوانين المدنية لا يعرفها إلا من درسها و أتقنها و أساليب الكلام العربى لا يعرفها إلا من أتقن الأدب و البلاغة و هكذا، إن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه فى حال كونهم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ أى بالمتشابه كما آمننا بالمحكم كَلِّمْ مِنَ الْمُحْكَمِ وَ الْمُتَشَابِهِ

(١) الرعد: ٣٤.

(٢) طه: ١٢٢.

(٣) الزخرف: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٥

[سورة آل عمران (٣): آية ٨]

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا فَإِذَا لَمْ يَظْهَرْ الْمَعْنَى فِى بَادِئِ النَّظْرِ لَا يَنْكُرُونَ وَ لَا يَقُولُونَ بِالتَّنَاقُضِ، فَإِنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ فَضِيلَتِى الْعِلْمِ بِالتَّوْبِيلِ وَ الْإِذْعَانِ بِصَحَّةِ الْمُتَشَابِهِ بِخِلَافِ الْجَهَالِ فَإِنَّهُمْ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الْمُتَشَابِهِ أَوَّلًا وَ يَفْسُرُونَ حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ ثَانِيًا، وَ هَكَذَا نَجِدُ الْآنَ فِى الْعُرْفِ الْعَالَمِ الْوَرَعِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْفَضِيلَتَيْنِ وَ الْجَاهِلِ يَشْتَمِلُ عَلَى الرَّذِيلَتَيْنِ وَ مَا يَذَكِّرُ أَى يَتَذَكَّرُ وَ يَرُدُّ الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ وَ إِلَى مَا دَلَّ مِنَ الْعَقْلِ وَ النُّقْلِ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ أَى أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْحَصِيْفَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ وَرَدَ فِى الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرَّاسِخِينَ النَّبِىَّ وَ الْأئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ لَا يَخْفَى أَنَّهُمْ مِنْ أَجْلِ مُصَادِقِ الرَّاسِخِينَ وَ ذَلِكَ هُوَ الْمُرَادُ لَا الْإِنْحِصَارَ.

[٩] إن الراسخين فى العلم يلتجئون إلى الله سبحانه قائلين رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا أَى لَا تَمَلِّهَا عَنِ الْحَقِّ وَ إِنَّمَا نَسَبَ الزِّيغَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِى هِيَ الْأَسْبَابُ لِيَمْتَحَنَ عِبَادَهُ فَتَرَكَ الْإِنْسَانَ - وَ عَدَمَ اللَّطْفِ بِهِ - حَتَّى يَقَعَ فَرِيْسَةُ الشَّيْطَانِ مِنْ صَنَعِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ كَمَا يَقَالُ أَنَّ الْمَلِكِ أَفْسَدَ الرَّعِيَّةَ لَا يِرَادُ أَنَّهُ أَفْسَدَهُمْ وَ إِنَّمَا يِرَادُ تَرْكَهُمْ حَتَّى يَفْسُدُوا، وَ لَا يَخْفَى الْفَرْقُ بَيْنَهُ سَبْحَانَهُ وَ بَيْنَ الْمَلِكِ لِرَعِيَّتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ حَيْثُ خَلَقَ الدُّنْيَا لِلْإِخْتِبَارِ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَهِيئَ الْوَسِيْلَتَيْنِ لِيُظْهَرَ الْمَطِيْعَ مِنَ الْعَاصِى كَمَا قَالَ: (كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَ هُوْلَاءِ) «١» بِخِلَافِ الْمَلِكِ فَإِنَّهُ لَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَفْسُدَ الرَّعِيَّةَ حَتَّى يَتَرَكَهُمْ وَ مَا يَشَاءُونَ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالصَّلَاحِ وَ الْإِصْلَاحِ كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْبِلُ النِّعَمَ عَلَى الْجَنَاتِ وَ لَا يَعَاقِبُهُمْ عَقُوبَةً ظَاهِرَةً فِى

(١) الإسراء: ٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٦

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٩ إلى ١٠]

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)

الدنيا، وذلك ليس جائز للملوك فإنه يجب إيقاف الجاني عند حده و إجراء العقاب عليه ثم إن الإنسان مهما كان من الرسوخ في العلم فإنه معرض للزلة كما زل «بلعم» قال سبحانه تَبَّ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ «١» ولذا يدعو الراسخون ربهم سبحانه أن لا يقطع عنهم لطفه الخاص و لا يتركهم ليلعب بهم الشيطان كما يشاء، إذ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا إِلَى دِينِكَ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً و لطفًا نثبت بها على دينك و طاعتك إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ الكثير الهبة لمن تشاء بما تشاء.

[١٠] رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ تَجْمَعُهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ و إن شك فيه أناس لا نصيب لهم من العلم و المعرفة و قد تقدم وجهه في أول سورة البقرة إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ أى الوعد الذى وعده أنبياءه و البشر بيوم القيامة، فلا ترغ قلوبنا حتى نكون ذلك اليوم من المطرودين أو هذا إظهار من الراسخين بالاعتراف بالبعث و إنهم جمعوا بين فضيلتي الاعتراف بالمبدأ و المعاد.

[١١] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ الْمِثْلَ وَ غَيْرَهُمْ

(١) الأعراف: ١٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٧

[سورة آل عمران (٣): آية ١١]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ و الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ و اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)
من سائر الكفار لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ كى يعطوها فينجون من عذاب الله سبحانه كما تنفع الفدية في الدنيا و لا أولادهم من الله أى من عذاب الله و سخطه شيئاً فلا- يتمكن أولادهم أن يقفوا ليمنعوا عنهم العذاب و أولئك الكفار هُمْ وَقُودُ الْوَقُودِ الْحَطْبِ و كل ما يوقد به النار النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تتقد النار بأجسامهم كما تتقد النار بالحطب و النفط و نحوها.

[١٢] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ الدَّابِ الْعَادَةِ، أى عادة هؤلاء الكفار فى التكذيب بك و بما أنزل إليك كعادة آل فرعون الذين كذبوا الرسل و كعادة الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من سائر الكفار الذين كانوا يكفرون بآيات الله و يكذبون أنبياءه كَذَّبُوا جَمِيعًا بِآيَاتِنَا أى بدلائلنا الدالة على التوحيد و سائر الأصول فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أى بسبب عصيانهم و معاصيهم، و معنى الأخذ العقاب أى عاقبتهم، كقوله و كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ «١» و اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ فليس عقابه كعقاب سائر الناس، و إنما ناراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا و إِنَّ يَسْتَعْشِرُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ «٢».

(١) هود: ١٠٣.

(٢) الكهف: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢ إلى ١٣]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيِّئَاتُهُمْ وَ تُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَ بَسَّ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ النَّقَاتِ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

[١٣] قُلْ يا رسول الله لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيِّئَاتُهُمْ أى بعد قليل يكونون مهزومين إما فى الدنيا بغلبة الإسلام، كما صار و كما أخبر حيث إن الإسلام غلبهم و أخذ بلادهم وَ تُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و إما فى الآخرة بمعنى أنكم بعد قليل تهزمون أمام أمر الله سبحانه، و

يقبضكم ملك الموت الذى و كل بكم، و بعد ذلك تحشرون إلى جهنم يوم القيامة وَ بئس المهادُ أى بئسما مهد لكم أو ما مهدتم لأنفسكم.

[١٤] و لما بين سبحانه أن الكفار سيغلبون بين لذلك شاهدا محسوسا فى قصة بدر حيث كان المسلمون ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا و الكفار ألف رجل و لم يكن للمسلمين من العتاد إلا شيئا ضئيلا بينما كان الكفار بأكمل السلاح و مع ذلك فقد غلب المسلمون عليهم بنصر الله سبحانه قد كان لكم أيها المسلمون أو أيها الكفار آية أى علامته على صدق الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و إن الله ينصره و يهزم الكفار فى فتنتين أى جماعتين جماعة المسلمين و جماعة الكفار التقتا من الملاقاة إذ اجتمعتا فى بدر ففئة تقاتل فى سبيل الله و هم المسلمون و فئة أخرى كافرة و هم المشركون الذين أتوا من مكة يزؤونهم أى يرى المسلمون الكفار مثليهم أى ضعف أنفسهم رأى العين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣١٩

[سورة آل عمران (٣): آية ١٤]

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ النِّبِينَ وَ القَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الفِضَّةِ وَ الخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الأنعامِ وَ الحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمآبِ (١٤)

فلم يكن ذلك خيالا و إنما واقعا فإن الكفار فى الواقع كانوا أكثر، و مع ذلك فقد غلب المسلمون، و لعل النكتة فى ذكر ذلك بيان أن المسلمين غلبوا مع أنهم كانوا يعلمون بزيادة الكفار عليهم و إن ذلك يدل أن الله نصرهم و إلا فإن الجيش إذا علم أن العدو أكثر منه و هن فى عضده و يسبب ذلك انهزامه فى أكثر الأحيان، و فى الآية أقوال أخر مذكورة فى التفسيرات و الله يؤيد بنصره من يشاء أى يقوى بنصره فلا يضرهم قلة عددهم و عدتهم إن فى ذلك المذكور و هو غلبة المسلمين على المشركين مع أن الكفار كانوا ثلاثة أضعافهم لعجزه أى اعتبار و هى بمعنى الآية و إنما سميت الآية عبرة لأنها تعبر بالإنسان من الجهل و الغفلة إلى العلم و التذكير لأولى الأبصار أى أصحاب العقول، و ليس المراد بالبصر النظر بالعين و إنما النظر بالقلب كما يقال فلان بصير بالأمر أى يعرفها و يدركها.

[١٥] و هنا يتساءل الإنسان ماذا صرف الكفار عن الحق و هم يرونه؟ و يأتى الجواب إن الذى صرفهم هو جمال الدنيا و مالها كما

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «لكنهم حليت الدنيا فى أعينهم و راقهم زبرجها» (١)

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ أى أن حب الإنسان للمشتبهات و الملذات سبب لهم أن تتزين الدنيا فى نفوسهم فيطلبون اللذات و لو

(١) نهج البلاغة: خطبة ٣-١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٠

فى المحرمات و لم يذكر الفاعل، لأنه ليس بمقصود و قد تقرر فى علم البلاغة أن مقتضاه أن لا يذكر الفاعل أو المفعول حيث لم يكن مقصودا من النساء بيان «الشهوات» و البين فإن حب الأولاد يسبب إطاعتهم و التحفظ عليهم و لو بذهاب الدين و القناطر المقنطرة القناطر جمع «قنطار» و هو ملء مسك ثور ذهباً و إنما سمي قنطاراً لأنه يكفى للحياة فكأنه قنطرة يعبر بها مدة الحياة، و المقنطرة بمعنى المجتمعة المكدسة كقولهم دراهم مدرهمه و دنائير مدنرة من الذهب و الفضة فإن الإنسان بجهه للأموال يعصى الله فى جمعه و فى عدم إعطاء حقوقه و الخيل عطف على النساء، و الخيل الأفراس المسومة من سوم الخيل التى علمها و لا تعلم إلا الجيد الحسن منها و الأنعام جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم و الحَرْث أى الزرع فهذه كلها محببة للناس، لكن ذلك كله متاع الحياة الدنيا أى ما يستمتع به فى الدنيا و لا تنفع الآخرة إلا إذا بذلت فى سبيل الله - كل حسب بذله - و الله عنده حُسْنُ الْمآبِ المرجع أى أن المرجع الحسن فى الآخرة منوط بالله سبحانه فاللازم أن يتزهد الإنسان فى الملذات و لا يتناول المحرم منها رجاء ثواب الله و نعيمه المقيم الذى لا زوال له و لا اضمحلال، فلا تسبب هذه المشتبهات عدول الإنسان عن الحق إلى الباطل و عن الرشاد إلى

الضلال.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٥ إلى ١٦]

قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)

[١٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ الَّذِينَ زَيْنَ لَهُمْ حُبُّ الشَّهَوَاتِ أُوْتِبْتُكُمْ أَيُّ هَلْ تَرِيدُونَ أَنْ أُخْبِرَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمَ أَيُّ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ، وَ «كَمْ» خُطَابٌ لِلنَّاسِ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الْمُحْرَمَاتِ وَ عَمَلُوا حَسَبَ أَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيُّ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَ نَخِيلِهَا وَ قُصُورِهَا خَالِدِينَ فِيهَا فَإِنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْجَنَّةَ أَبَدَ الْأَبْدِينَ لَا زَوَالَ لَهُمْ وَ لَا تَحْوِيلَ وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ أَيُّ نِسَاءً طَاهِرَةً مِنَ الْأَفْذَارِ الظَّاهِرِيَّةِ كَالْحَيْضِ وَ الْوَسَاخَةِ، وَ الْأَقْدَارِ الْبَاطِنِيَّةِ كَسُوءِ الْخَلْقِ وَ الْحَقْدِ وَ الْعِدَاوَةِ وَ أَكْبَرَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ رَاضٍ عَنْهُمْ وَ مَتَى شَعَرَ الْإِنْسَانُ بِرِضَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْهُ تَنَعَّمَ بِأَفْضَلِ نِعْمَةٍ نَفْسِيَّةٍ كَمَا لَوْ عَلِمَ فَرْدٌ مِنَ الرِّعِيَّةِ أَنَّ الْمَلِكَ يُحِبُّهُ وَ يَرْضَى عَنْهُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ خَيْرٌ بِأَفْعَالِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ فَيَجَازِيهِمْ حَسَبَ مَا يَفْعَلُونَ.

[١٧] ثُمَّ وَصَفَ سَبْحَانَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ بِقَوْلِهِ «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» فَالْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا أَيُّ صَدَقْنَا بِكَ وَ بِرِسْلِكَ وَ بِمَا أَمَرْتَ وَ وَعَدْتَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا أَيُّ تَجَاوَزْ عَمَّا صَدَرَ مِنَّا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٧ إلى ١٨]

الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْمُتَّقِينَ وَ الْمُسْتَعْفِرِينَ بِالْأَشْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

الخطايا وَ قِنَا أَيُّ أَحْفَظْنَا مِنْ «وَقَى» «يَقَى» بِمَعْنَى حِفْظِ عَذَابِ النَّارِ حَتَّى لَا نَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا.

[١٨] الصَّابِرِينَ صِفَةُ أُخْرَى لِلْمُتَّقِينَ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الصَّابِرُونَ فِي الْمَصَائِبِ وَ عِنْدَ الطَّاعَةِ، وَ لَدَى الْمَعْصِيَةِ وَ الصَّادِقِينَ فِي نِيَاتِهِمْ وَ أَقْوَالِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ وَ الْقَانِتِينَ مِنَ الْقَنُوتِ بِمَعْنَى الْإِطَاعَةِ وَ الْخُضُوعِ وَ الْمُتَّقِينَ لِأَعْمَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ الْمُسْتَعْفِرِينَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ غُفْرَانَ ذُنُوبِهِمْ بِالْأَشْحَارِ جَمْعُ سَحَرٍ وَ هُوَ مَا يَقْرَبُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ آخِرَ اللَّيْلِ.

[١٩] وَ يَنَاسِبُ السِّيَاقَ هُنَا الْإِشَارَةَ إِلَى صِفَاتِ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ تَقَدَّمَ ذِكْرُ مَنْ اتَّقَى وَ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ شَهَادَةُ اللَّهِ لَفْظِيَّةٌ وَ وَاقِعِيَّةٌ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ إِظْهَارَ الْمَطْلَبِ بِاللِّسَانِ وَ قَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَحْدَتَهُ وَ سَائِرَ صِفَاتِهِ بِمَا هُوَ أَقْوَى وَ أَثْبَتَ وَ أَوْلَى مِنَ اللَّفْظِ، وَ هُوَ خَلَقَ الْمَصْنُوعَاتِ الَّتِي تَشْهَدُ جَمِيعَهَا بِصِفَاتِهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ

«وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ..*.. تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ» وَ إِنَّمَا تَشْهَدُ الْمَصْنُوعَاتُ عَلَى الْوَحْدَةِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَعَدَمُ الْفَسَادِ دَلِيلُ الْوَحْدَةِ- كَمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ- وَ الْمَلَائِكَةُ شَهِدُوا بِالْوَحْدَانِيَّةِ شَهَادَةً لَفْظِيَّةً وَ حَقِيقِيَّةً وَ أُولُو الْعِلْمِ أَصْحَابُ الْعِلْمِ الَّذِينَ يَدْرِكُونَ، لَا كُلٌّ مِنْ يَدْعَى الْعِلْمَ، فَإِنَّهُ مِنْ يَنْظُرُ إِلَى الْكُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٣

نَظَرَ عَالَمٍ مُعْتَبَرٍ لَا يَدُلُّهُ مِنَ الْإِذْعَانِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ أَيُّ فِي حَالِ كَوْنِهِ سَبْحَانَهُ قَائِمًا بِالْعَدْلِ، فَإِنَّ الْقِسْطَ بِمَعْنَى الْعَدْلِ، وَ مَعْنَى قِيَامِهِ سَبْحَانَهُ بِالْعَدْلِ أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ بِالْعَدْلِ فَخَلَقَهُ، وَ تَقْدِيرَهُ، وَ تَشْرِيْعَهُ، كُلٌّ بِالْعَدْلِ وَ مَعْنَى الْعَدْلِ الْإِسْتَوَاءُ، مُقَابِلُ الظُّلْمِ الَّذِي هُوَ الْإِعْوَجَاجُ وَ الْإِنْحِرَافُ، فَمَثَلًا جَعَلَ الشَّمْسُ فِي السَّمَاءِ عَدْلًا لِأَنَّهَا تَنِيرُ وَ تَشْرُقُ وَ تَقِيمُ الْمَجْمُوعَةَ الشَّمْسِيَّةَ بَيْنَمَا عَدَمُهَا انْحِرَافٌ وَ ظُلْمٌ، وَ كَذَلِكَ تَقْدِيرُ هَذَا غَنِيًّا وَ ذَاكَ فَقِيرًا، وَ هَذَا رَئِيسًا وَ ذَاكَ مَرءٍ وَسَا بِالْعَدْلِ، وَ مَا يَشَاهَدُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِنْحِرَافِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ التَّقْدِيرِ وَ إِنَّمَا مِنْ سُوءِ اخْتِيَارِ النَّاسِ، وَ كَذَلِكَ تَشْرِيْعُ الصَّلَاةِ وَاجِبَةً، وَ الْخَمْرِ مُحْرَمَةً بِالْعَدْلِ.

يقال أن رجلا سأل كسرى عن سبب عدله قال: لعدة أسباب منها أنى رأيت فى الصحراء يوما كلبا كسر رجل غزال، فما لبث أن رماه إنسان بحجر فكسر رجله فلم يعض على الرجل إلا برهه إذا بفرس رفسه فكسر رجله، فلم تمض على ذلك لحظات إلا بالفرس عشر فانكسرت رجله، وهناك علمت أن الظلم عاقبته وخيمه.... و الإنسان إذا لم يعرف الصلاح و العدل فى بعض الأشياء فليس له أن يعترض، و الحال أنه يجهل أكثر الأشياء، فهو كمن يعترض على أدوية وصفها الطبيب و هو لا يعرف من الطب شيئا، و لفظه «قائما» فيها إيماءة لطيفة، فإن القائم يشاهد ما لا يشاهده القاعد، إذ هو مسيطر مشرف لا إله إلا هو تكرر للتأكيد، فإن العالم قبل الإسلام كان مرتطما فى أو حال الشرك حتى جاء الإسلام فأظهر التوحيد و جدد ما محى من سنن الأنبياء عليهم السلام و إرشادهم حول المبدأ تعالى الغزير في سلطانه الحكيم الذى يفعل كل شىء عن حكمه و علم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٤

[سورة آل عمران (٣): آية ١٩]

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)

[٢٠] و بعد ما تقرر التوحيد و العدل أتى دور الدين الذى أرسله الله سبحانه إلى العباد إن الدين عند الله الإسلام و الدين هى الطريقة التى تؤمن السعادة للبشر دنيا و آخرة، إنه عند الله الإسلام، و إن كان عند غيره اليهودية و النصرانية و المجوسية و غيرها، فإن الله سبحانه لم يرسل إلا الإسلام و الإسلام هو دين الأنبياء جميعا فإنه عبارة عن تسليم منهج الأعمال إلى الله الذى خلق الكون و هو أعلم بالنظام السماوى له الذى إن تبعه البشر عاش سعيدا و مات حميدا، و قد ذكرنا سابقا أن الاختلاف بين الأديان السماوية الواقعية فى شرائط و مزايا لا- فى الجواهر و الأصول و ما اختلف الذين أوتوا الكتاب أى ليس اختلاف أهل الكتاب بعضهم مع بعض و جميعهم مع المسلمين إلا من بعد ما جاءهم العلم فعرفوا الصحيح من السقيم و الحق من الباطل، و إنما اختلفوا بغيأ أى حسدا بينهم فلم يقبل اليهود أن يرضخوا لعيسى عليه السلام حسدا، و لم يقبل النصارى أن يؤمنوا بنبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم حسدا، كما قال سبحانه أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله «١» و من يكفر بآيات الله فلم يؤمن بها فلا يظن أنه ربح و تهنا بدنيا باقية بل خسر و ذهب دنياه و آخرته فإن الله سريع الحساب يحاسب الكفار

(١) النساء: ٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٥

[سورة آل عمران (٣): آية ٢٠]

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

فى الدنيا بأنواع من البلايا و المصائب كما قال و من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا «١» و فى الآخرة بما اقترفوا من الكفر و الآثام، و الآخرة قريبة جدا فإن «من فاته اليوم سهم لم يفته غدا» قال الشاعر:

ألا إنما الدنيا كمنزل راكب أناخ عشيا و هو فى الصبح راحل

[٢١] فَإِنْ حَاجُّوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ جَادَلُوكَ فِى أَمْرِ التَّوْحِيدِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ فَقُلْ لَهُمْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ فَأَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَا أَتَّخِذُ لَهُ شَرِيكًا، وَ إِسْلَامَ الْوَجْهِ كُنَايَةُ عَنِ الْإِسْلَامِ الْمَطْلُوقِ إِذْ تَسْلِيمُ الْوَجْهِ إِلَى نَحْوِ يَدِلِّ عَلَى تَسْلِيمِ الْقَلْبِ وَ سَائِرِ الْجَوَارِحِ وَ مَنْ اتَّبَعَنِ أَى الَّذِينَ اتَّبَعُونِي هُمُ أَيْضًا أَسْلَمُوا وَ جَوْهَهُمْ لِلَّهِ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهِ وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَى أَعْطُوا الْكِتَابَ السَّمَاوِيَّ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ وَقُلْ لِلْأُمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ وَ سَمُوا أُمِّيِّينَ إِمَّا لِجَهْلِهِمْ نَسْبَةً إِلَى الْأُمِّ

و إما لأنهم من أهل مكة- أم القرى- أَسْلِمْتُمْ أى هل أسلمتم وجوهكم لله وحده- بلا جدال و لا نقاش معهم بعد ما تمت عليهم الحجة- فَإِنْ أَسَلَّمُوا و تشرّفوا بدين الإسلام فَقَدْ اهْتَدَوْا إلى

(١) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٦

[سورة آل عمران (٣): آية ٢١]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)
الحق و إلى طريق مستقيم و إن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ أَنْ تَبْلُغَهُمُ الْإِسْلَامَ و ليس عليك إجبارهم حتى لا يتولوا و حتى لا يعرضوا و الله بصيرٌ بِالْعِبَادِ لا يفوته شىء من أعمالهم فهو يجازيهم بكفرهم و ميثاقهم كما يجزيهم على إيمانهم و إطاعتهم.

[٢٢] ثم بين سبحانه أن أهل الكتاب كفروا بالله قديما و قتلوا الأنبياء عليهم السلام، تسلياً للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يضيق صدره بتكذيبهم و لجاجتهم إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ فلا يقبلونها بعد و ضوحها و علمهم بها و يَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ فإن قتل النبي مطلقا ليس بحق و إنما يأتى القيد إفادة لأنه لا حجة لهم فى قتل الأنبياء عليهم السلام حتى أنه ليس هناك حق مدعى أيضا و يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ أى بالعدل مِنَ النَّاسِ فإن أهل الظلم و الباطل الذين تتمثل فيهم القوة غالبا يقتلون من ينهاهم عن ذلك و يأمر بالقسط و العدل فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ و كلمة البشارة استهزاء أو بعلاقة استعمال الضد فى الضد كتسمية الزنجى بالكافور و الأعمى بالبصير، أو للمقابلة نحو فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ و اتَّقُوا اللَّهَ و اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «١»، فإن

(١) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)
المؤمن يبشر بالثواب و الكافر يبشر بالعقاب.

[٢٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمُ الْخَيْرِيَّةُ فإن لكل إنسان أعمال خيرية و إن كان كافرا، و معنى حبط العمل بطلانه و عدم إفادته فى الدنيا فإن كفرهم سبب هدر دمهم فعملهم الخير لم ينفعهم فى حقن دمهم أو أعمال الخير التى تدفع البلايا و الآفات لا تنفع مع الكفر و الانحراف و الْآخِرَةُ فلا تفيدهم أعمالهم الحسنه ثوبا كما قال سبحانه و قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا «١» و ما لَهُمْ أى ليس لهم مِنْ نَاصِرِينَ ينصرونهم من عذاب الله و سخطه.

[٢٤] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و معناه إفادة العلم بهذا الاستفهام إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا أَعْطُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ أى بعضا منه لأنهم بتحريفهم الكتاب قد فقدوا بعضه كما قال سبحانه و نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ «٢» يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يدعوهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى كتاب الله ليجعل حكما بينهم و أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم حق أم لا فقد كان فى التوراه و الإنجيل صفاته صلى الله عليه و آله و سلم، و لذا كان يدعوهم إلى تحكيم كتابهم فى هذا الأمر لكنهم لم يقبلوا

(١) الفرقان: ٢٤.

(٢) المائدة: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ أَى يعرض عن تحكيم الكتاب وإنما قال فريق لأن بعضهم دخل في الإسلام بعد ما تمت له الدلالة والإرشاد كعبد الله بن سلام وغيره وَهُمْ مُعْرِضُونَ عن الحق وعن كتابهم وفي بعض الأحاديث أن الآية نزلت في مسألة زنا وقعت بين يهودى و يهودية و كان حكمهما الرجم فى التوراة و رجعوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لعله يحكم بغير ذلك فحكم الرسول بينهم بما فى التوراة ففكرهوا ذلك.

[٢٥] ذَلِكَ الْإِعْرَاضُ عَنْ كِتَابِهِمْ وَ عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَمِنُوا الْعُقُوبَةَ بِمَا لَفَقُوهُ مِنَ الْكُذْبِ حَيْثُ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ أَى نار جهنم على فرض كفرنا و عصياننا إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ سبعة أيام أو أربعين يوما و هذه المدة القليلة فلا ينبغى ترك الشهوات و الرئاسة لأجلها وَ غَرَّهُمْ أَى خدعهم فى باب دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أَى الذى افتروا و نسبوه إلى الدين من أن النار أيام معدودة فقط خدعهم و غرهم.

[٢٦] فَكَيْفَ حَالِهِمْ إِذَا انْكَشَفَ غُرُورُهُمْ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِى لَا رَيْبَ فِيهِ أَى ليس محل ارتياب و شك وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٢٩

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُدَلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

أى يعطى كل إنسان جزاءه وافيًا غير منقوص وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ بل يجوزون على حسب أعمالهم.

[٢٧] وَ هُنَا يَتَوَجَّهُ السِّيَاقُ إِلَى كَوْنِ الْمُلْكِ لِلَّهِ فَلَيْسَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَحْسُدُوا الرَّسُولَ وَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا أُوْتُوا مِنْ حَوْلِ وَ طَوْلِ وَ عِزَّةٍ وَ مَلِكٍ، وَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ مَا بَشَّرَ الرَّسُولَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ يَفْتَحُونَ مَلِكَ فَارِسَ وَ الرُّومَ، فَاسْتَهْزَأَ الْكُفَّارُ بِذَلِكَ وَ قَالُوا أُنَى يَكُونُ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ أَنْ يَسَيِّرُوا عَلَى تِلْكَ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ اللَّهُمَّ أَى يَا اللَّهُ، وَ الْمِيمُ بَدَلٌ عَنْ حَرْفِ النَّدَاءِ مَالِكِ الْمُلْكِ مَالِكٍ مَنْصُوبٍ عَلَى أَنَّهُ مُنَادٍ مُضَافٌ أَى يَا مَالِكِ الْمُلْكِ فَكُلُّ شَيْءٍ لَكَ وَ حُدُوكَ لَا شَرِيكَ وَ مَلِكٍ مِنْ عِدَاكَ إِنَّمَا هُوَ مُجَازَى عِبْتَارَى تُؤْتِى أَى تَعْطَى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ أَنْ تَعْطِيَهُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ أَنْ تَنْزِعَهُ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْمُلْكَ سُلْطَانًا أَوْ مَلِكًا لِشَيْءٍ كَالدَّارِ وَ الْعِقَارِ وَ تُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ أَنْ تَعْزَهُ عِزَّةً ظَاهِرِيَّةً أَوْ بَاطِنِيَّةً بِالْإِيمَانِ وَ الطَّاعَةِ وَ تُدَلُّ مَنْ تَشَاءُ أَنْ تَذَلَّهُ بِإِدْيَاكَ الْخَيْرِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَتَقْدِرُ عَلَى الْإِعْطَاءِ وَ الْمَنْعِ وَ أَنْ تَعْزُ وَ تَذَلُّ.

[٢٨] تُولِجُ أَى تَدْخُلُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ فَيَأْخُذُ اللَّيْلُ مَكَانَ النَّهَارِ، فِيمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٠

[سورة آل عمران (٣): آية ٢٨]

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَ يَحِذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)

ينقص اليوم و يزيد الليل، أو فيما إذا جاء الليل و ذهب النهار، و هو كناية، إذ ليس الإدخال حقيقة و تُولَجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ بِأحد المعنيين السابقين و تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كما يخرج النبات الحي من الحب الميت و الأرض الميتة، أو يخرج الجنين الحي من الأم الميتة كما قد تموت الأم و يخرج الولد منها حيا و تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كما يخرج الحب الميت من النبات الحي و البيضة الميتة من الدجاجة و الولد الميت من المرأة الحية إذا مات الجنين في بطنها، و في التأويل إخراج المؤمن من الكافر، و الكافر من المؤمن و تَزُوقُ مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ و خلقك بغير حساب أي بغير تقدير كما يقال فلان ينفق بغير حساب، أو بلا حساب من المنفق عليه و إن كان كل شيء عنده تعالى بحساب.

[٢٩] و حيث ثبت أن الملك بيد الله و العزة و الذلة منه ف لا- يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ بَأَن يَصَادِقَ الْمُؤْمِنَ الْكَافِرَ يزعم أنه ينفعه لأن بيد الكافر الملك أو أنه يسبب عزته و شوكرته من دون المؤمنين أي من دون أن يتخذ المؤمنين أولياء بل اللازم أن يتخذ المؤمن المؤمن وليا، و يتخذ من الكافر عدوا و مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْإِتِّخَاذَ لِلْكَافِرِ وَلِيًّا فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ أي ليس ذا قدر عند الله سبحانه إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاهُ أي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحَدَّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) تخافوا من الكفار فلا بأس باتخاذهم أولياء تقياً و يُحَدَّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ أي يخوفكم الله من نفسه فإن من يتخذ الكافر وليا يشمله عقاب الله سبحانه و إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ أي المرجع فمن عصاه يجازيه بالنار و العذاب.

[٣٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ أَوْ تُبْدُوهُ أَي تظهروه يُعْلَمَهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالنَّوَايَا وَمَا فِي الصُّدُورِ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَهُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَهُوَ الْعَالِمُ بِالنَّوَايَا وَالْقَادِرُ عَلَى الْعِقَابِ فَمَنْ الْجَدِيرُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَتَّخِذَ الْكَافِرَ وَلِيًّا أَوْ الْمُؤْمِنَ عَدُوًّا حَتَّى فِي قَلْبِهِ إِذْ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَقْدِرُ عَلَى عِقَابِهِ.

[٣١] اذكروا أيها الناس يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا أَي تَجِدُ كُلَّ أَعْمَالِهِ الْخَيْرِيَّةِ حَاضِرَةً كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا «١» و معنى حضور العمل حضور حساباتها و ثوابها و عقابها أو

(١) الكهف: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٣١ الى ٣٢]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

تجسم الأعمال كما ذهب إلى ذلك بعض و مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ أَي تَجِدُ أَعْمَالَهُ السَّيِّئَةَ حَاضِرَةً تَوَدُّ تِلْكَ النَّفْسُ الْعَاصِيَةَ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا أَي بَيْنَ النَّفْسِ وَ بَيْنَهُ أَي بَيْنَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ أَمِيدًا بَعِيدًا أَي مَكَانًا بَعِيدًا تَشْبِيهِه بِالْأَمْرِ الْمَحْسُوسِ فَكَمَا أَنَّ الْمَتَبَاعِدِينَ لَا يَتَلَقَّانِ فِعْلًا كَذَلِكَ لَوْ كَانَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ بَعِيدًا عَنْ عَامِلِهِ وَ يُحَدَّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ حَتَّى تَخَافُوا مِنْ عِقَابِهِ فَتَتَّقُوهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ ذُو رَأْفَةٍ وَ رَحْمَةٌ بِالْعِبَادِ وَ مِنْ رَأْفَتِهِ يَحَذَرُكُمْ عَنِ الْمَعَاصِي حَتَّى لَا يَأْخُذَكُمْ وَ بِهَا وَ عَاقِبَتِهَا.

[٣٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، أَوْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تُحِبُّونَ اللَّهَ حَقِيقَةً وَ تَصَدِّقُونَ فِي مَقَالَتِكُمْ هَذِهِ فَاتَّبِعُونِي فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ

و أنهى يُحِبِّكُمْ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ إِلَّا مِنْ اتَّبَعَ رَسُولَهُ فِي أَمْرِهِ وَ نَهَاهِهِ وَ إِلَّا مَجْرَدَ دَعْوَى حُبِّ اللَّهِ بِلَا شَاهِدٍ وَ حَقِيقَةً لَا يَكْفِي فِي حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَدْعَى وَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ فَإِنْ مِنْ أَحْسَنَ وَ اتَّبَعَ الرَّسُولَ يَغْفِرْ ذَنْبَهُ وَ يَمْحَى سَيِّئَتَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بَعْبَادِهِ. [٣٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ إِطَاعَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ هِيَ إِطَاعَةُ الرَّسُولِ لَكِنْ ذَكَرَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لِلأَمْرِ وَ إِردَافًا لِإِطَاعَةِ الرَّسُولِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٣

[سورة آل عمران (٣): آية ٣٣]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)

بذلك كما قال قَانَّ لِلَّهِ حُمُسُهُ وَ لِلرَّسُولِ «١» مع أن خمس الله إنما هو للرسول و يحتمل أن يكون ذكر الله و الرسول لإفادة وحدة الجهة أى إن الله و الرسول لهما إطاعة واحدة فهو من قبيل أطع العلماء لا من قبيل أطع العالم أو أطع أباك فَإِنْ تَوَلَّوْا وَ أَعْرَضُوا فَلَمْ يَطِيعُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا- يُحِبُّ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَعْرَضُونَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَعْنَى لَا يَحِبُّهُمْ أَنَّهُ يَبْغِضُهُمْ لَا النَّفَى لِلْحُبِّ فَقَطَّ الْمَجَامِعَ لِعَدَمِ الْبِغْضِ.

[٣٤] وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ حَوْلَ وَاحِدَةِ الدِّينِ وَ أَنَّهُ هُوَ الْإِسْلَامُ وَ التَّعْرِيزُ بِالْكَفَارِ وَ آخِرًا انْتَهَى الْمَطَافُ إِلَى مِيزَانِ حُبِّ اللَّهِ سَبْحَانَهُ نَاسِبِ السِّيَاقِ ذَكَرَ بَعْضُ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَلَيْسُوا هُمْ جَمِيعًا قَادَةَ دِينٍ وَاحِدٍ الْمُنْتَهَى إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَمِنْ اللَّازِمِ أَنْ يَعْرِفُوهُمْ وَ يَقْدُرُوهُمْ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى أَى اخْتَارَ لِرِسَالَتِهِ وَ وَحِيهِ وَ جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ مُرْشِدِينَ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ مِنْ نَسْلِهِ إِسْحَاقَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ يَعْقُوبَ وَ يُوسُفَ وَ عِيسَى وَ مُحَمَّدًا «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ» وَ آلَ عِمْرَانَ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى الْعَالَمِينَ وَ إِنَّمَا خَصَّصَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ، لَكُنْ أَدَمَ أَبُو الْبَشَرِ، وَ نُوحَ وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ بِمَا فِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ- فَإِنَّهُ يُقَالُ آلُ فَلَانَ لِلأَعْمِ مِنْهُ وَ مِنْ آلِهِ- وَ آلُ عِمْرَانَ الَّذِينَ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، أَوْلَا الْعِزْمُ هُمْ مَدَارُ الرِّسَالَاتِ الْعَالَمِيَّةِ.

(١) الأنفال: ٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٤

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٣٤ إلى ٣٥]

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

[٣٥] حَالُ كَوْنِ نُوحٍ وَ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَ آلِ عِمْرَانَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي أَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَ مَنَاصِرَةِ الدِّينِ وَ إِرْشَادِ النَّاسِ، فَإِنْ مِنْ خَرَجَ عَنْ دِينِ آبَائِهِ لَيْسَ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ «١» بِخِلَافٍ مِنْ اتَّبَعِ آبَاءَهُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لَمَّا تَقَوْلُهُ الذَّرِيَّةُ عَلِيمٌ بِضَمِّهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ وَ لِذَا فَضَّلَهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ إِنْ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ ذَوُوا خِصَائِصٍ وَاحِدَةٍ مُورِثَةٍ مِنْ جَدِّهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا تَوَهَّلَهُمْ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الْوَاحِدَةِ الَّتِي هِيَ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ.

[٣٦] وَ فِي هَذَا الْجَوِّ يَأْتِي ذَكَرُ وَالِدَةِ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ أَنَّهَا كَيْفَ كَانَتْ طَاهِرَةً زَكِيَّةً بِحَيْثُ أَهَلَّتْ لِإِبْدَاعِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ عِنْدَهَا، إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ وَ هِيَ حَنَّةُ جَدَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأُمِّ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا وَ ذَلِكَ حِينَ حَمَلَتْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّهَا أَنْثَى فَنَذَرْتُ أَنْ تَجْعَلَ مَا فِي بَطْنِهَا لخدمته المسجد و معنى المحرر الفارغ من الأعمال الدنيوية الصارف جميع أوقاته في خدمة بيت الله سبحانه، و هكذا كان قلب أم مريم عامرا بالإيمان جاعلة أعز شيء لديها لله و في خدمة عباد الله فَتَقَبَّلْ مِنِّي نَذَرِي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ لِدَعَائِي الْعَلِيمُ بِمَا فِي ضَمِيرِي مِنْ صِدْقٍ وَ إِخْلَاصٍ.

(١) هود: ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٥

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٣٦ إلى ٣٧]

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

[٣٧] فَلَمَّا وَضَعَتْهَا أَي وَضَعَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ جَنِينَهَا خَابَ ظَنُّهَا وَرَأَتْ أَنَّهَا أُنْثَىٰ فَ قَالَتْ فِي يَأْسٍ وَ تَبَتَّلَ رَبُّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَ الْأُنْثَىٰ لَا- تَصْلُحُ لِلخِدْمَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْذُ كَانَتْ جَنِينًا فِي بَطْنِهَا بَيْنَمَا هِيَ لَا تَعْلَمُ إِلَّا بَعْدَ الْوَضْعِ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ فَالذِّكْرُ يَأْتِي مِنْهُ الخِدْمَةُ وَ لَا بِأَسْ بِحَشْرِهِ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ فِي الْمَسْجِدِ بِخِلَافِ الْأُنْثَىٰ إِذْ لَا تَلْتَمِسُ الرِّجَالَ وَ لَا تَلْتَمِسُ عَادَتِهَا النَّسَائِيَةَ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ قَالَتْ وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ أَي جَعَلْتُ اسْمَهَا «مَرْيَمَ» وَ هِيَ فِي لُغَتِهِمْ بِمَعْنَى الْعَابِدَةِ وَ إِنِّي أُعِيذُهَا أَي أَجْعَلُهَا فِي حِفْظِكَ وَ حِرَاسَتِكَ بِكَ وَ أُعِيذُ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَي الْمَرْجُومِ بِاللَّعْنِ وَ الْمَطْرُودِ عَنِ الْخَيْرِ.

[٣٨] فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا أَي تَقَبَّلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَرْيَمَ مَعَ أَنْوُثَتِهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ حَيْثُ قَدَّرَ لَهَا السَّعَادَةَ وَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهَا عِيسَى الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا أَي جَعَلَ نَشْوَاهَا نَشْأًا حَسَنًا بِالْفَضِيلَةِ وَ الْأَخْلَاقِ وَ الْعِفَّةِ وَ الطَّهَارَةِ وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا أَي جَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ كَفِيلَهَا زَكَرِيَّا وَ كَانَ زَوْجَ خَالَةِ مَرْيَمَ، وَ هُوَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَإِنَّ أُمَّ مَرْيَمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٦

[سورة آل عمران (٣): آية ٣٨]

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)

ذَهَبَتْ بِهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَ سَلَّمَتْهَا إِلَى الْأَحْبَارِ فَتَنَازَعُوا فِي كِفَالَتِهَا حَتَّى اقْتَرَعُوا عَلَيْهَا وَ خَرَجَتْ الْقِرْعَةُ بِاسْمِ زَكَرِيَّا فَكَانَتْ مَرْيَمَ تَخْدُمُ فِي صِغَرِهَا الْمَسْجِدَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مَبْلَغَ النِّسَاءِ انْفَصَلَتْ عَنْهُمْ فِي غُرْفَةٍ خَاصَّةٍ بِهَا بَنَاهَا لَهَا زَكَرِيَّا فِي وَسْطِ الْمَسْجِدِ عَالِيَةً لَا يُمْكِنُ الْوَصُولُ إِلَيْهَا إِلَّا- بِسَلْمٍ وَ كَانَ يَأْتِي بِحَوَائِجِهَا كُلِّ يَوْمٍ وَ كَانَ مِنْ غَرِيبٍ أَمْرَهَا أَنْ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَ هِيَ غُرْفَتِهَا وَ سَمِيَ مِحْرَابًا لِأَنَّهُ مَحَلُّ مِحَارِبَةِ النَّفْسِ وَ الشَّيْطَانِ وَ جَدَّ عِنْدَهَا رِزْقًا فَكَاهَهُ فِي غَيْرِ حِينِهَا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا أَي مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا الرِّزْقُ قَالَتْ مَرْيَمَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَرْسَلَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَنَّةِ كَرَامَةً لِي إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَي بِغَيْرِ تَقْتِيرٍ أَوْ مِحَاسَبَةٍ مِنَ الْمَرْزُوقِ.

[٣٩] هُنَالِكَ الَّذِي رَأَى زَكَرِيَّا إِكْرَامَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لِمَرْيَمَ نَحْوَ خَرَقِ الْعَادَةِ مِنْ إِرْسَالِ الْفَاكِهِةِ إِلَيْهَا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ أَي مِنْ عِنْدِكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً أَي نَسْلًا صَالِحًا إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ وَ كَانَ زَكَرِيَّا يَأْتِسُ مِنَ الْأَوْلَادِ حَيْثُ كَبُرَ وَ شَاخَ وَ كَانَتْ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا لَكِنْ طَلَبَ وَ دَعَا مَرْيَمَ عَلَى وَجْهِ الْإِعْجَازِ وَ خَرَقِ الْعَادَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

[٤٠] فَنَادَتْهُ أَي نَادَتْ زَكَرِيَّا الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ إِمَّا الْمِرَادِ الْمِحْرَابِ أَوْ نَفْسِ الْمَسْجِدِ وَ سَمِيَ مِحْرَابًا لِأَنَّهُ مَحَلُّ مِحَارِبَةِ الشَّيْطَانِ وَ النَّفْسِ حَيْثُ يَرِيدَانِ صَرْفَ الْإِنْسَانِ إِلَى الدُّنْيَا وَ الْمَسْجِدَ يَصْرِفُهُ إِلَى الْآخِرَةِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى سَمَاهُ سَبْحَانَهُ بِهَذَا الْاسْمِ قَبِيلَ الْوَلَادَةِ فِي حَالِ كَوْنِهِ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ الْمِرَادِ بِالْكَلِمَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَي أَنْ يَحْيَى يَصْدُقُ نُبُوَّةَ عِيسَى، وَ

إنما سمي عيسى عليه السلام كلمه الله لأنه كان بإلقاء الله إياها إلى مريم، كما تلقى الكلمه من الفم و سبداً أى ذو سياده و شرافه و خصوصاً يحصر نفسه عن الملمات، أو عن النساء خاصه بمعنى أنه عليه السلام كان زاهداً، و كون حضور مدحا ليحيى عليه السلام لأسباب خاصه لا- ينافى استحباب الزواج فى الشرائع و نبيًا من الصالحين الذين يصلحون و لا- يكن فيهم فساد كما هو شأن جميع الأنبياء.

[٤١] فاستفسر زكريا عليه السلام عن كيفية حصول الولد هل يرزقه و هما على ما هما عليه من الحاله أم تبدل حالتهما قال زكريا فى جواب الملائكه سائلا عن الله سبحانه رب أنى يكون لى غلام أى كيف يكون لى ولد و قد بلغنى الكبر أى الشيخوخه و أمرأتى عاقراً تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٤١ الى ٤٢]

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٤١) وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)

ليس لها قابليه الولاده قال الملك فى جوابه كذلك أى كالحال الذى أنتما عليه من الكبر و العقر الله يفعل ما يشاء فإنه قادر على كل شىء.

[٤٢] قال زكريا عليه السلام رب اجعل لى آيه أى علامه أعرف بها وقت الحمل لأزيد شكرا و سرورا أو علامه أعرف بها استحبابه دعائى ليظمن قلبى و أجده محسوسا ملموسا بعد ما وجدته سماعا بالبراهه قال الملك، أو الله سبحانه بخلق الصوت فى الفضاء آيتك أى الدليل على ذلك ألا تكلم الناس أى لا تقدر على التكلم معهم كلما توجهت إليهم بالكلام يعقد لسانك ثلاثه أيام إلا رمزا بالإشارة باليد و الرأس و اذكر ربك كثيرا فإن لسانك لا يعقد عن الذكر و التسبيح لله سبحانه و سبح أى نزه البارى تعالى بالعشى آخر النهار و الإبكار أول النهار، من أبكر فهو اسم مفرد لا جمع.

[٤٣] ثم رجع السياق إلى بقيه قصه مريم عليها السلام حيث كانت قصه زكريا عليه السلام توسطت فى الموضوع لمناسبه و اذكر يا رسول الله إذ قالت الملائكه يا مريم إن الله اصطفاك اختارك لعبادته و إطاعته و أن تكونى وعاء لنبىه و طهرتك من الآثام و الذنوب و الأذناس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٣٩

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ اذْكُرِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنْهُمْ

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

و العادات النسائيه و اصطفاك على نساء العالمين و كرر الاصطفاء تأكيدا و مقدمه لذكر نساء العالمين فليس الاختيار لها فى جمله مختارات و إنما هى مختاره على سائر نساء زمانها و عوالمها لأكل العالمين فإن فاطمه عليها السلام هى المختاره المطلقة على جميع النساء و قد تقدم أن مثل هذه العبارة تقال مرادا بها العوالم المعاصره لأكل العوالم كما يقال إن الدوله الفلانيه أقوى جميع الدول يراد الدول المعاصره لها لا كل دوله فى العالم أتت أو تاتى.

[٤٤] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي الْقَنُوتِ الْخُضُوعِ وَ الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ اذْكُرِي مَعَ الرَّاكِعِينَ أى فى جمله الذين يركعون لله سبحانه.

[٤٥] ذَلِكُمْ الَّذِي تَقْدِمُ مِنْ قِصَصِ مَرْيَمَ وَ زَكْرِيَا وَ يَحْيَى مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أى الأخبار الغائبه عن الحواس فإن كل شىء غاب عن الحواس يسمى غيبا نُوحِيهِ إِلَيْكَ أى نلقيه عليك ليدل على أنك من المرسلين فإن الإخبار عما لم يحضره الإنسان و لم يعلمه من طريق التاريخ يدل على كونه بالإعجاز و خارق للعادة و ما كنت يا رسول الله لَدَيْهِمْ أى عند الأخبار و المعاصرين لمريم عليها السلام

إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمُ التي بها كانوا يكتبون التوراة أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ فَإِنْ زوجه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٤٥ إلى ٤٦]

إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)

عمران لما أتت بمریم إلى المسجد اختلفت الأخبار في من يكفلها لأنها كانت بنت إمامهم و صاحب قربانهم فقال لهم زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي فقال له الأخبار: إنها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التي ولدتها و لكن نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه، فانطلقوا و هم تسعة و عشرون رجلا إلى نهر جار فألقوا أقلامهم في الماء فأبرز قلم زكريا و ارتفع فوق الماء و رسبت أقلامهم و لذا أخذها زكريا و ما كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ في شأنها و أن أيهم يكفلها.

[٤٦] و اذكر يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ مخاطبة لمریم عليها السلام يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَي بولد هو كلمة الله تلقى عليك و يخرج منك بصورة عيسى المسيح عليه السلام اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قيل سمي مسيحا لأنه كان يمسح الأرض و يسير فيها، و ذكر في الكلام أمه دحضا لمن يفترى قائلا: أنه ابن الله، في حال كونه وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ أَي ذا جاه و قدر و شرف وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ لله تعالى قرب شرف و جاه لا زمان و مكان.

[٤٧] وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ أَي في حال كونه صغيرا قبل أوان تكلم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٤٨)

الأطفال و المهد هو الموضع الذي يوضع فيه الطفل و يهز من خشب أو حديد أو ثوب أو نحوها وَ كَهْلًا أَي يكلمهم كهلا بالوحي و الكهل ما بين الشاب و الشيخ أو يراد الإخبار عن بقاءه إلى ذلك الوقت وَ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين فيهم الصلاح دون الفساد.

[٤٨] قَالَتْ مريم لما سمعت هذا النبأ المدهش رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ أَي لم يقترب مني على نحو النكاح فإنها كانت دون زوج قَالَ الْمَلِكُ في جواب مريم كَذَلِكَ أَي هكذا بدون المس و الزوج اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فإنه ليس بخارج عن قدره الله سبحانه إِذَا قَضَى أَمْرًا أراد خلقه و تكوينه فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ قولاً أو إرادة بدون تلفظ فَيَكُونُ في الخارج، فَإِنَّ اللَّهَ يوجد الأشياء بصرف الإرادة.

[٤٩] وَ يُعَلِّمُهُ أَي يعلم الله سبحانه الْمَسِيحَ الْكِتَابَ أَي الكتابة أو مطلق الكتاب المنزل من السماء وَ الْحِكْمَةَ حتى يكون حكيما يعرف مواضع الأشياء أو المراد بالحكمة علم الشرائع من الحلال و الحرام و سائر الأحكام وَ التَّوْرَةَ وَ هُوَ كتاب موسى عليه السلام وَ الْإِنْجِيلَ وَ هُوَ الكتاب الذي أنزل على المسيح بنفسه و قد ذكروا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٢

[سورة آل عمران (٣): آية ٤٩]

وَ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَبرئُ الْأَكْمَةَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَنبئُكُمْ بما تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

أن معنى التوراة «التعليم و البشارة» و معنى الإنجيل «البشارة و التعليم».

[٥٠] وَ نجعله رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لإرشادهم من الضلالة إلى الحق، و انتقل السياق إلى كلام عيسى عليه السلام الذي كان يتكلم

به بعد النبوة، فكان يقول لى اسرائيل اُنَى قَدْ جِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ اى بمعجزه و علامه تدل على صدق دعواتى للنبوه و انى رسول اليكم اُنَى اَخْلَقْتُ لَكُمْ اى اصنع لاجلكم من الطين كهيئه الطير اى على صوره الطائر فأنفخ فيه اى فى الطائر المصنوع من الطين فيكون طيراً ياذن الله و ايرادته و قدرته، فصنع صوره خفاس من الطين و نفخ فيه فطار و ابرئى اى اشفى الاكمه الذى ولد اعمى، او مطلق الأعمى و الأبرص الذى اصاب بمرض البرص و هو الوضح و اُحى الموتى كل ذلك ياذن الله فكان يقف على القبر و يقول للميت قم ياذن الله فيقوم ينفض عن جسمه الغبار كأنه لم يميت أصلاً و اُتبتكم اى اُخبركم بما تأكلون اخباراً عن الغيب و ما تدخرون من الادخار فى بيوتكم فكان يقول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥٠ الى ٥١]

و مُصِداً لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ و لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ و جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ و أَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي و رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

للشخص تغذيت بكذا أو حفظت لليل كذا إن فى ذلك الذى ذكرت من المعجزات لآية معجزه داله على صدقى لكم إن كنتم مؤمنين بالله و إنما يقيد بالإيمان لأن من لا يؤمن بالله سبحانه لا يمكن أن يفرق بين المعجزه و السحر.

[٥١] و ذلك فى حال كونه مُصداً لِمَا بَيْنَ يَدَيْ اى ما تقدم على و أنزل قبلى من التوراه فإنه من أسباب لزوم تصدىقى حيث لا أبطل كتاب بنى اسرائيل و لِأَجْلِ لَكُمْ يا بنى اسرائيل بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فى شريعه موسى عليه السلام و هذا التحليل إنما كان لانقضاء ظرف التحريم و جِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ اى بحجه تشهد بصدقى و انى من قبل الله سبحانه، و هى إما إجمال لما فصل فى الآيه السابقه، جمعاً لأعماله عليه السلام فى الأمور الثلاثه، التصديق، و التحليل، و الإعجاز، و إما يراد به آيه أخرى لم تذكر فى القرآن فَاتَّقُوا اللَّهَ و صدقوا برسالتى و أَطِيعُوا فيما أمركم به و أنهاكم عنه.

[٥٢] إِنَّ اللَّهَ رَبِّي و رَبُّكُمْ فَلست أنا ابنا له، قال ذلك ردا على النصارى الذين اتخذوه إلهاً فاعبُدوه وحده و لا تعبدوا من دونه الشركاء كما عبدت اليهود عزيراً، و عبدت النصارى المسيح هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٤

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ و أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ و أَتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)

لا اعوجاج له و لا انحراف بخلاف سائر الطرائق التى هى طرق معوجه منحرفه زائغه.

[٥٣] و بعد هذه الحجج لم يزد بنى اسرائيل إلا عنادا و استكباراً فَلَمَّا أَحَسَّ من الحس اى وجد عيسى عليه السلام مِنْهُمْ الْكُفْرَ و أنه لم تنفعهم الحجة و الدليل قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ الذين ينصرون دينى للوصول إلى ثواب الله تعالى إذ المسلم يقطع طريق الوصول إلى الله لينتهى إلى ثوابه قَالَ الْخَوَارِيُّونَ هو جمع حوارى من الحور بمعنى شدة البياض و سمي خاصة الإنسان بالحوارى لبقاء قلبه و صفاء باطنه نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ الذين نصر دينه و نتابعك على ما أنت عليه آمَنَّا بِاللَّهِ إيماناً لا يشوبه شرك و أَشْهَدُ يا عيسى بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فى أدياننا.

[٥٤] ثم توجهوا إلى الله سبحانه داعين قائلين رَبَّنَا اى يا ربنا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ على رسولك عيسى عليه السلام و أَتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فيما أمر و نهى فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ الذين يشهدون على الأمم كما قال سبحانه لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ و يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «١»

فالرسل

(١) البقرة: ١٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٥

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥٤ إلى ٥٥]

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سُبْحَانَكَ وَالسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ كُلُّهُنَّ حَشْرٌ لِمَا كَفَرْنَا بِكَ وَاللَّهُ عَالِمُ السُّرُورِ (٥٥)

شهداء على أصحابهم وهم شهداء على سائر الناس.

[٥٥] ذلك كان قول أنصار عيسى والمؤمنين به أما الكفار الذين جحدوه وأنكروه فلم يؤمنوا ومكروا لعيسى عليه السلام بأن يقتلوه ومكر الله بإنقاذه منهم وقتل كبيرهم عوضه، والمكر لغه بمعنى تطلب العلاج لأمر ما والغالب يستعمل في الشر، ولعل نسبة المكر هنا إلى الله سبحانه للمقابلة نحو قوله تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ «١» مع أن الله سبحانه ليس له نفس والله خير الماكرين لأنه أعرف بطرق العلاج، وفي بعض التفاسير أنه لما أراد ملك بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام دخل خوخته وفيها كوة فرفعه جبرائيل من الكوة إلى السماء وقال الملك لرجل خبيث من الكفار ادخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه بظن أنه عيسى وكان قتله على نحو الصلب وكما صاح أنه ليس بعيسى لم يفد.

[٥٦] واذكر يا رسول الله إذ قال الله أو ذاك إذ قال، أو ومكر الله إذ قال يا عيسى ابني متوفيك أي آخذك وأفيا فإن معنى توفاه أخذه وأفيا ويقال توفي الله فلان حين يأخذ روحه وأفياه من الوفاء وهو في أخذ الروح والجسد أقرب إلى الحقيقة من أخذ الروح فقط فإنه

(١) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٦

[سورة آل عمران (٣): آية ٥٦]

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَا عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)

بعلاقة الكل والجزء أي آخذك ورافعك إلى فإنه عليه السلام رفع إلى السماء الرابعة كما في بعض الأحاديث وقد يظن أن ذلك ينافي ما اشتهر في العلم الحديث من عدم وجود سماوات ذات حجوم لكنه ظن غير تام إذ السماء حتى لو كان يراد بها المدار - كما هو معناه لغه - تكون هناك سماوات و للتوضيح راجع «الهيئة والإسلام» تأليف «العلامة الشهرستاني» ومطهر ك من الذين كفروا فإنهم أرجاس أنجاس فكما أن الجسم المحاط بالنجاسة إذا غسل يطهر عنها كذلك إن الإنسان الطيب في أناس كفره عصاة إذا أخرج من بينهم كان تطهيرا له في المعنى عن لوئهم وكفرهم وجاعل الذين أتبعوك من النصارى فوق الذين كفروا بك من اليهود إلى يوم القيامة وهذا من معجز القرآن الحكيم فإن النصارى دائما فوق اليهود إلى يومنا هذا وسيكونون كذلك إلى يوم القيامة ثم إلى مارجعكم جميعا أنت وأصحابك الكفار، وذلك يوم القيامة فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من التوحيد والشرك ومن كونك نبيا وسائر الأصول والفروع التي كنت تنادي بها وتبشر من أجلها وكان اليهود يكفرون بها.

[٥٧] فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَعَذَّبْنَا عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

(٥٨)

بضرب الذلة والمسكنة عليهم و إنهم دائما تحت حكم أصحابك و أنه لا تقوم لهم دولة إلا بحبل من الله و حبل من الناس و إنهم مكروهون منفرون أبد الآبدين و الأخره بإدخالهم نارا أحاطت بهم سرادقها و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل و ما لهم من ناصيرين ينصرونهم من بأس الله و عذابه.

[٥٨] و أمّا الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ و بما بشرت به و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مما أمرناهم به و اجتنبوا عن المحرمات، فإنه لا- يقال يعمل فلان الصالحات إلا- إذا اجتنب الآثام إلى جنب إتيانه بالواجبات فَيُؤْفِقُهُمْ أى يعطيهم الله أُجُورَهُمْ كاملة غير منقوصة فإن الوفاء إعطاء المطلوب كاملا و الله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا بالكفر أو بعدم العمل الصالح.

[٥٩] ذَلِكَ المذكور هنا من أخبار زكريا و عيسى و يحيى و مريم عليهم السلام تَنْتَلُوهُ عَلَيْكَ أى نقرأه عليك بسبب الوحي مِنَ الآيات أى من جملة الآيات و الحجج الدالة على صدقتك و أنك نبي يوحى إليه و من الذِّكْرِ إى القرآن الْحَكِيمِ المحكم الذى لا يتطرق إليه بطلان أو زيغ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥٩ الى ٦١]

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)

[٦٠] و هنا تنهياً النفوس لإدراك حقيقة عيسى هل كان بشرا و كيف ولد من غير أب فقال سبحانه إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ فليس ولادة عيسى من غير أب عجيبا و بدعا و لا يدل ذلك على أنه رب، فآدم أعجب منه أليس الله سبحانه خَلَقَهُ أى خلق آدم مِنْ تُرَابٍ صنعه و جسده ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ إنسانا حيا فَيَكُونُ كما قال و مقتضى القاعدة أن يقال «فكان» إلا أن هذه الجملة أخذت صيغته المثالية نحو الصيف ضيعت اللبن، و لذا يؤتى بها على لفظها و قد تقدم أن كلمة «كن» تعبر عن الإرادة الأزلية لا- أن فى اللفظ خصوصية.

[٦١] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ يا رسول الله أى أن قصة عيسى هكذا أو خلقه كذلك حق من ربك فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ أى من الشاكين فإن امترى بمعنى شك و الخطاب و إن كان للرسول لكنه عام لكل أحد، و من المعلوم أن توجيه الخطاب لا يلازم احتمال وجود الصفة، و إنما أكد البيان بجملة «فلا تكن» لكثرة الشك و التشكيك لدى الناس فى مختلف شؤون عيسى عليه السلام.

[٦٢] فَمَنْ حَاجَّكَ و جادلَكَ يا رسول الله فِيهِ أى فى عيسى قائلا أنه ليس بشرا و إنما هو رب انفصل عن الرب، و نزلت الآية فى وفد نجران من المسيحيين الذين جاءوا للمجادلة مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و لم تنفعهم الحجة و الدليل فقرر الطرفان أن يخرجوا إلى الصحراء ليدعو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٤٩

[سورة آل عمران (٣): آية ٦٢]

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)

كل من الطرفين على الكاذب فخرج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يوم الموعد مع على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام فلما رأتهم النصارى أحجموا و قال كبيرهم: إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة و

قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: و الذى نفسى بيده لو لاعنوني لمسحوا قرده و خنازير و لاضطرم الوادى عليهم نارا، و لما حال

الحول على النصارى حتى يهلكوا

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ حَوْلَ قِصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَعَالَوْا أَيُّ هَلْمُوا إِلَى حِجَّةٍ أُخْرَى لَيْسَتْ مَحَلَّ نِقَاشٍ وَ جِدَالٍ نَدْعُ أَيُّ يَدْعُو كُلَّ طَائِفَةٍ مَنَا أُنْبَاءَنَا وَ أُنْبَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا أَيُّ مِنْ هُوَ بِمَنْزَلَةِ أَنْفُسِكُمْ أَيُّ مِنْ هُوَ بِمَنْزَلَةِ أَنْفُسِكُمْ، وَ الْمَرَادُ دَعْوَةُ كُلِّ طَرَفٍ خَوَاصِهِ وَ مَنْ يَقْتَرِبُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُنْبَاءِ وَ النِّسَاءِ وَ مَنْ هُوَ بِمَنْزَلَةِ نَفْسِهِ ثُمَّ نَبَّهَهُ الْاِبْتِهَالُ طَلَبُ اللُّعْنَةِ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَيُّ تَدْعُو كُلَّ طَائِفَةٍ عَلَى الْأُخْرَى قَائِلِينَ: لَعْنُ الْكَاذِبِ، وَ قَدْ يَسْتَعْمَلُ الْاِبْتِهَالُ بِمَعْنَى مُطْلَقِ الدِّعَاءِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا فَجَعَلَ فِي اِبْتِهَالِنَا لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ وَ قَدْ أَجْمَعَ الْمُفْسِرُونَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَخْرُجْ مَعَهُ إِلَّا- اِبْنِيهِ الْحَسَنُ وَ الْحُسَيْنُ وَ بِنْتَهُ فَاطِمَةُ وَ اِبْنُ عَمِّهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

[٦٣] إِنَّ هَذَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِي أَمْرِ عِيسَى وَ غَيْرِهِ لَهُوَ الْقِصَصُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ٣٩٩

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

جمع قصة الحق الذي لا كذب فيه و لا زيغ و ما من إله إلا الله فليس عيسى إلهها كما يزعم النصارى و إن الله لهو العزيز في سلطانه الحكيم في أفعاله فلا يتخذ البشر ابنا له كما يقول اليهود و النصارى.

[٦٤] فَإِنْ تَوَلَّوْا وَ أَعْرَضُوا مَصْرِينَ عَلَى عَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ عَقَائِدَ النَّاسِ وَ أَعْمَالَهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَفْتُونَهُ سَبْحَانَهُ بَلْ هُمْ بَعْلَمُهُ وَ سَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ.

[٦٥] وَ حَيْثُ انْتَهَى السِّيَاقُ مِنْ قِصَصِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَنَاوَلَ الْحَدِيثَ حَوْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ انْحِرَافَاتِهِمْ لِلْعَلَاقَةِ الْوَثِيقَةِ بَيْنَ الْمَوْضُوعِينَ فَقَالَ سَبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ وَ الْمَرَادُ بِهِمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى تَعَالَوْا أَيُّ هَلْمُوا نَجْتَمِعُ جَمِيعًا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَيُّ إِلَى كَلَامٍ عَدْلٍ لَا- مِيلَ لَهُ وَ نَحْنُ جَمِيعًا نَعْتَرِفُ بِهِ وَ نَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَجُوزُ إِلَّا لَهُ إِذْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْكُونَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيْوَانٍ أَوْ جِمَادٍ كَمَا يَصِفُهُ الْمُشْرِكُونَ وَ لَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَيُّ بَعْضُ الْبَشَرِ أَرْبَابًا وَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاتَخَاذِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ إلهًا أَوْ الْمَرَادُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءِ حَاجُّونَ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)

اتخاذ الأجر و الرهبان آلهة في الإطاعة فيما خالف الله سبحانه كما قال: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا «١» فَإِنْ تَوَلَّوْا أَيُّ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ فَقُولُوا لَهُمْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ لله وحده تتبع طريقه و لا نبتغي غير الإسلام دينا.

[٦٦] وَ قَدْ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقُولُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى دِينِنَا فَالْيَهُودِ مِنْهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَهُودِيًّا وَ النَّصَارَى مِنْهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَسِيحِيًّا فَقَالَ سَبْحَانَهُ فِي رَدِّهِمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ أَيُّ لِمَاذَا تُحَاجُّونَ وَ تَجَادِلُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ تَنْسِيهِهِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ وَ النَّصْرَانِيَّةِ وَ الْحَالُ أَنَّهُ مُتَقَدِّمُ زَمَانًا عَلَى كِلَا الدِّينَيْنِ، فإبراهيم جد موسى و عيسى و هو سابق عليهما بقرون فإنه ما أنزلت التوراة على موسى و الإنجيل على عيسى إلا من بعده أي بعد إبراهيم أ فلا تعقلون أ ليس لكم عقل حتى تعرفون التاريخ.

[٦٧] ها تفيد التنبيه أُنْتُمْ هُوَلاءِ يا معشر أهل الكتاب حاججْتُمْ و جادلتم فيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ مما تعلمون كالقبلة

(١) التوبة: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولا كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

و نحوها فَلِمَ تَحِاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ إذ لا تعلمون تاريخ إبراهيم و تجادلون في أنه كان يهوديا أو نصرانيا و الله يعلم تاريخ إبراهيم و دينه و أنتم لا تعلمون فما هذه المخاصمة و المجادلة.

[٦٨] ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً فإنهما طريقتان متأخرتان انحرفتا عن سنن الأنبياء حتى أن المسيح و موسى عليهما السلام لم يكونا متصفين بهاتين الملتين و لكن كان حنيفاً مستقيماً في دينه لا منحرفاً مسلماً لما تقدم من أن الإسلام دين الأنبياء جميعاً و ما كان من المشركين كشرك اليهود الذين جعلوا عزير ابن الله و شرك النصارى الذين جعلوا المسيح إلهاً أو ابن الله.

[٦٩] كانت اليهود تقول نحن أولى بإبراهيم لأنه على ديننا و كانت النصارى تقول مثل ذلك فنزلت إن أولى الناس بإبراهيم الذى يحق أن يفتخر به و يقول أنا على طريقته و أنه رئيس الملة لى للذين اتبعوه في زمانه و بعده إذ التابع يحق له أن يفتخر برئيسه و متبوعه لا من يتبع غيره كاليهود و النصارى الذين خالفوا إبراهيم و هذا النبى و الذين آمنوا عطف على «الذين اتبعوه» فإن هذا النبى و المؤمنين هم الذين اتبعوا إبراهيم و هم على ملته فإن ملته التوحيد و خلع الأنداد و الله و لى المؤمنين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٦٩ إلى ٧١]

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْمَلُونَ لَوْ لَمْ يُضْمَلُوا لَأَنفَسِيَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

يلى أمورهم و ينصرهم على عدوهم.

[٧٠] و دت أى أحببت و رغب طائفة من أهل الكتاب أى جماعة منهم فإن كثيراً من أهل الكتاب لم يكن يعينهم هذه الأمور لَوْ يُضْمَلُونَ عن دينكم حتى تدخلوا في دينهم أو ترجعوا كفاراً و ما يُضْمَلُونَ هُوَلاءِ إِلا أَنفُسَهُمْ فإنهم بتركهم الإسلام و التزامهم أديانهم المنحرفة سبوا ضلالاً لأنفسهم، أو المراد أنه لا يرجع و بال إضلالهم إلا على أنفسهم حيث يوجب ذلك لهم خزيا في الدنيا و عذاباً في الآخرة و ما يَشْعُرُونَ أى ما يعلمون أنهم أضلوا أنفسهم أو ما شعروا بأنه رجوع و بال إضلالهم إلى أنفسهم.

[٧١] يا أهل الكتاب هم اليهود و النصارى، و المجوس و إن كانوا أهل الكتاب إلا أن هذه المباحثات كانت مع الطائفتين فقط كما يستفاد من سياق الآيات لِمَ أى لماذا تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ بدلائله و حججه التى أقامها على التوحيد و الرسالة و سائر الأمور و أنتم تَشْهَدُونَ بلزوم الإقرار بها شهادة فيما بينكم، أو شهادة حسب كتبكم الدالة على التوحيد و رساله محمد صلى الله عليه و آله و سلم و سائر الأمور المختلف فيها.

[٧٢] يا أهل الكتاب و خطابهم بهذا الخطاب إشعار بأنهم ينبغي أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٤

[سورة آل عمران (٣): آية ٧٢]

وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ جَهَّ النَّهَارِ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

لا- يكونوا كذلك إذ هم أهل العلم و الدراية و فيهم نزل كتاب الله سبحانه لِمَ أى لماذا تَلَسُّوْنَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ أى تخلطون الحق بالباطل ففي أعمالكم قسم من الحق و قسم من الباطل فالإيمان بموسى و عيسى حق و الكفر بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم باطل و هكذا بعض كتابهم حق و بعضه الذى حرفوه باطل وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى تعلمون أنه حق فقد كان علماءهم يكتمون صفات الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حتى لا يميلوا نحوه و تذهب رئاستهم.

[٧٣] و قد صدرت مكيدة من أهل الكتاب لتضليل الناس و أن لا يتعلقوا بدين الإسلام، حيث يظهرون عملا يصورهم عند الناس فى صورة المنصف و أنهم إنما لم يتبعوا الإسلام لأنهم لم يجدوه حقا وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ أى جماعة من أهل الكتاب بعضهم لبعض آمنوا أى أظهروا الإيمان بالذى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أى بالقرآن وَجَهَ النَّهَارِ أى أول الصبح، فقولوا إنا آمننا بمحمد و كتابه لأننا وجدناه فى كتبنا وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ أى آخر النهار فقولوا بعد أن آمننا رجعنا إلى صفات محمد ثانيا فوجدناها ليست كما ذكر فى كتابنا، فإن هذا العمل يريكم فى أعين الناس منصفين حيث آمنتم بمحمد بمجرد علمكم بحقيقته، و إنما رجعتم حيث ظهر لكم عدم الحقيقة، فتوهمون الناس أنكم منصفون صادقون تريدون الحق لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى لعل هذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٥

[سورة آل عمران (٣): آية ٧٣]

وَ لَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)

العمل الخداعى يسبب رجوع المسلمين عن إسلامهم حيث يوجب ذلك تشكيكا لهم.

[٧٤] وَ لَا تَتَّبِعُوا أى لا تظهروا الإيمان إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ فإيمانكم وجه النهار يكون عند أهل الكتاب لا عند المسلمين، أو لا تؤمنوا إيمانا صادقا من قلوبكم إلا لأهل الكتاب، فلا تؤمنوا للمسلمين، و معنى الإيمان لمن تبع دينهم أنهم يؤمنون بمثل ما آمن أهل الكتاب قُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْهُدَى الْحَقِيقَى هُدَى اللَّهِ لا هذا الهدى الاصطناعى الذين تريدون به خداع أصحابكم و المسلمين فلسنا فى حاجة إلى هداكم كما لا نخاف من إضلالكم فإن الله إذا هدى شخصا لا يرجع بخداعكم، ثم يرجع السياق إلى كلام اليهود بعضهم لبعض، و لا- تؤمنوا أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ فإنما أوتيتم أيها اليهود هو خير مما أوتى غيركم فلا يكن إيمانكم بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم إيمانا عن قلب أو صدق أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ أى لا تؤمنوا أن يحاجكم المسلمون عند ربكم بمعنى أنه لا يمكن أن يكون ذلك إذ المحاجة لا- تكون من المبطل- و المسلم مبطل بزعمهم- قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ردا على قولهم «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ» إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ فإى مانع من أن يعطى المسلمين مثل ما أعطى اليهود و أفضل منه يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ الْفَضْلَ لا ينفذ فضله بإعطائه لأحد عَلِيمٌ بمصالح الخلق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٦

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

يعلم حيث يجعل رسالته.

[٧٥] يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فإن فضله يتدنى بالخلق و ينتهى إلى حيث لا قابلية فوقه.

[٧٦] و قد جمع بعض أهل الكتاب إلى تلك الرذائل السابقة رذيلة الخيانة وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أى بعض أهل الكتاب- و المراد به من آمن منهم كعبد الله بن سلام- مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ أى تجعله أمينا على قنطار من مال لا- يخونه بل يؤديه إليك عند المطالبة، و قد ورد أن عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا و مائتى أوقية من ذهب فأداه إليه فمدحه الله بهذه الآية وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ

بدينارٍ أى تجعله أمينا على مال قليل كدينار لا يُؤدّه إِلَيْكَ عند المطالبة فإن رجلا من قریش استودع «فخاص» دينارا فخانهُ و لم يردهُ إِلَيْهِ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً بالضغط و الإلحاح و المراقبة ذَلِكَ الاستحلال و الخيانة منهم لأموال الناس بسبب أنهم أى الخائن من أهل الكتاب قالوا لَيْسَ عَلَيْنَا فى الأُمِّيْنَ سَبِيلٌ أى لا سبيل و لا غضاضة علينا فى استحلالنا أموال الأُميين أى العرب حيث أنهم خرجوا عن دينهم أى غير الشرك و قد أودعونا حال شركهم فإذا رفضوا طريقتهم إلى الإسلام سقط

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٧٦ إلى ٧٧]

بلى مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا - أُولَئِكَ لا خلاقَ لَهُمْ فى الآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)
حقهم كذا كانوا يقولون و ينسبونهُ إلى كتبهم وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ فإنه ليس ذلك فى كتبهم، بل اللازم أداء الأمانة إلى البر و الفاجر وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أنهم يكذبون على الله و أن عدم الأداء خيانه و رذيله.

[٧٧] بلى فيه نفى لما قبله و إثبات لما بعده أى لم يجز الله الخيانه بل أوجب الأداء ف مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ أدى الأمانة التى عنده وَ اتَّقَى من عذاب الله فى الخيانه و غيرها فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ لا الخائنين الكاذبين.

[٧٨] إن من يأكل الأمانة و يكذب على الله فقد باع دينه بثمان قليل و الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بمقابل عهد الله الذى هو الكتاب و الدين وَ بَ أَيْمَانِهِمْ أى أقسامهم الكاذبة التى يحلفون بها لأجل الباطل ثَمَنًا قَلِيلًا و قد تقدم أن الأمور الدنيوية مهما عظمت فإنها قليلة بالنسبة إلى الآخرة أُولَئِكَ لا خلاقَ لَهُمْ فى الآخرة أى لا نصيب لهم من رحمة الله و جنته فى الآخرة وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ كلام لطف و حنان و هو كناية عن غضب الله عليهم كما أن من غضب على شخص لا يكلمه وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أى لا يعمهم بلطفه و إحسانه و هو كناية أخرى عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٨

[سورة آل عمران (٣): آية ٧٨]

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

الغضب كالذى يغضب على شخص فلا ينظر إليه يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذلك اليوم الذى يحتاج كل أحد إلى فضله و إحسانه تعالى وَ لا يُزَكِّيهِمْ أى لا يطهرهم من الدنس فإن قلب الخائن الكاذب أقدر ما يكون فلا يشملهُ الله سبحانه بلطفه الخاص الذى يلطف به على المؤمنين وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أى مؤلم موجه.

[٧٩] وَ إِنَّ مِنْهُمْ أى بعض أهل الكتاب لَفَرِيقًا أى جماعة يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ أى يطؤون ألسنتهم عند قراءة الكتاب و طى لسانهم إنما هو بالزيادة و النقيصة فكما أن لى الشىء يخرجهُ عن الاستقامة بالزيادة فى جانب و النقيصة فى جانب كذلك لى اللسان بالكتاب، فإنهم أضافوا على التوراه و الإنجيل فى مواضع و نقصوا منهما فى مواضع لِتَحْسَبُوهُ أَيْهَا المسلمون مِنَ الْكِتَابِ فىكون شاهدا لأباطلهم المخترعة وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتَابِ بل من إضافاتهم و تحريفاتهم وَ يَقُولُونَ هُوَ ما يتلونه باسم الكتاب مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تعالى وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بل من مخترعاتهم الكاذبة وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ فى نسبتهم ذلك التحريف إليه سبحانه وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أنه ليس من الكتاب و أنهم كاذبون.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٥٩

[سورة آل عمران (٣): آية ٧٩]

ما كان لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ الشُّبُهَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ بما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ

الْكِتَابِ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)

[٨٠] وحيث أنه كان من أظهر تلك التحريفات تحريفهم حول المسيح عليه السلام وادعائهم أنه شريك مع الله و أن ذلك موجود في كتابهم، ردهم الله سبحانه بأن ذلك مستحيل في حق المسيح، لأن الله سبحانه لا يعطي النبوة لرجل كاذب يدعى لنفسه الربوبية فإنه ما كان لبشر أن يُؤتيه الله أى يعطيه الكتاب و الحكم بين الناس و النبوة و الرسالة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله أى عبدونى دونه سبحانه، أو المراد عبدونى معه، فإن عبادة الشريك عبادة لمن دون الله، و لأن الشرك معناه عدم عبادة الله إطلاقاً إذ الله لا شريك له، فمن له شريك ليس هو ياله، و فى بعض التفاسير أن سبب نزول هذه الآية أن يهودياً سأل النبى صلى الله عليه و آله و سلم ذلك و نزلت الآية و لكن اللازم على الرسول أن يقول للناس كونوا ربانيين منسوبين إلى الرب ترشدون الناس إلى التوحيد و تعبدون إلها واحداً بسبب ما كنتم أى كونكم تعلمون للناس الكتاب الذى أخذتموه من نبيكم و بما كنتم تدرسون أى بسبب درسكم إياه يعنى أن الرسول يقول للناس إنكم بسبب كونكم علماء معلمين مدرسين يجب أن تكونوا ربانيين منسوبين إلى الرب فقط لا إلى غيره من الأنداد و الشركاء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٨٠ الى ٨١]

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصِدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)

[٨١] و لا- يكون للنبي أن يأمركم عطف على «ما كان لبشر أن يؤتيه الله» أن تتخذوا الملائكة و النبيين أرباباً فإن ذلك محال إذ من يختاره الله للرسالة لا يأمر بالكفر أو يأمركم أى هل يأمركم النبي بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون أسلمتم بإيمانكم بالنبي، و هذا استفهام إنكارى أى لا يكون ذلك أبداً فقد أخرجكم النبي من الكفر إلى الإسلام فكيف يأمركم بالكفر ثانياً بأن تتخذوه شريكاً لله.

[٨٢] و إذ تم الكلام حول عيسى و أنه ليس بشريك لله سبحانه رجع السياق إلى نبى الإسلام و أنه النبى بعد عيسى عليه السلام، و اذكر يا رسول الله إذ أخذ الله ميثاق النبيين عهدهم المؤكد لما آتيتكم من كتاب و حكمه «ما» بمعنى «مهما» أى أخذ الله عهد النبيين أنه مهما أعطاه الله الكتاب و الحكمه و الرسالة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم يراد به نبى الإسلام، أو كل نبى يأتى بعدهم لتؤمنن به هذا جواب «مهما» فالله سبحانه كان يأخذ من النبيين الميثاق أنه مهما أعطى أحدهم الرسالة فإن عليه أن يؤمن برسول الإسلام، أو عليه أن يؤمن بالرسول الذى يتلوه و أن يناصره و يعاضده، و فى الوجه الأول إفادة أن الأنبياء جميعاً أقروا بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و اعترفوا به و آمنوا به و فى الوجه الثانى إفادة أن كل رسول كان يؤمن بالرسول الذى يأتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦١

[سورة آل عمران (٣): آية ٨٢]

فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

من بعده حتى أن الأنبياء كلهم كسلسله واحدة يؤمن سابقهم بلأحقهم و يصدق لأحقهم سابقهم و لتنصرنه و معنى نصره النبى السابق للأحق أن يأخذ له العهد من أمته قال الله تأكيداً لأخذ الميثاق أ أقررتم أى هل أقررتم أيها الأنبياء باستعدادكم للإيمان بالرسول و نصرته و أخذتم على ذلكم الإيمان بالرسول و نصرته إصيرى أى عهدى الأكيد من أممكم حتى يؤمنوا بالرسول و ينصروه قالوا أى قالت الأنبياء فى جواب الله سبحانه أقررتنا بذلك و أخذنا الأمر قال الله سبحانه لهم فاشهدوا بذلك على أممكم أى كونوا شهداء عليهم حتى نحتج على المخالف يوم القيامة بشهادتكم و أنا معكم من الشاهدين فإنى أيضاً شهيد عليهم بأنهم أقروا بأن يؤمنوا بالرسول و ينصروه، و

قد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه لم يبعث الله نبيا آدم و من بعده إلا أخذ عليه العهد بالإيمان بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و أمره بأخذ العهد بذلك من أمته «١».

[٨٣] فَمَنْ تَوَلَّى و أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ و النَّصْرَةَ بَعِيدَ ذَلِكَ الْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ نَبِيهِ مِنْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ إِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَيْثُ نَقَضُوا الْعَهْدَ و خَالَفُوا الْوَعْدَ.

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٨٣ الى ٨٤]

أَفَعَيِّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ و لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ و الْأَرْضِ طَوْعًا و كَرْهًا و إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ و مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا و مَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ و إِسْمَاعِيلَ و إِسْحَاقَ و يَعْقُوبَ و الْأَسْبَاطِ و مَا أُوتِيَ مُوسَى و عِيسَى و النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ و نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)

[٨٤] إن عدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم خلاف عهدهم أولا و خلاف الواجب عليهم ثانياً أفعير دين الله يتبعون أى يطلبون و يريدون غير دين الله و دين الإسلام الذى ثبت بالآيات و الحجج و له أى لله أسلم من فى السماوات و الأرض فكل شىء فى الكون خاضع له سبحانه منقاد لأمره فما بال هؤلاء يخالفون دين الله الذى أذعن له كل الكون طوعاً و كرهاً فإن ذوى العقول من الملائكة و نحوه أسلم لله طوعاً و الجمادات أسلمت كرها بمعنى أنها مستمرة حسب مشيئة الله سبحانه و إليه يُرْجَعُونَ أى إلى حكمه و أمره و ثوابه و عقابه يرجعون عند الموت أو فى القيامة.

[٨٥] هنا يأتى دور إظهار الأمة المسلمة إيمانها بجميع الأنبياء، فإنه مقتضى وحدة الرسالات و مقتضى ما سلف من إيمان كل سابق باللاحق و تصديق كل لاحق للسابق قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِيغَةُ الْإِيمَانِ الَّتِي يَجِبُ الْاعْتِرَافُ بِهَا عَلَى كُلِّ أُمَّتِكَ آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا و بَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ و سائر الأحكام و بَ مَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ و إِسْمَاعِيلَ و إِسْحَاقَ و يَعْقُوبَ و الْأَسْبَاطِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ الَّذِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٨٥ الى ٨٦]

وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ و هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ و شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ و جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ و اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)

كانوا أنبياء و بَ مَا أُوتِيَ أى أعطى موسى من التوراة و عيسى من الإنجيل و بما أعطى النبيون من قبل ربهم لا نفرق بين أحد منهم أى من هؤلاء الأنبياء لا كاليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام و محمد صلى الله عليه و آله و سلم و لا كالنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و نحن له أى لله مسلمون منقادون فيما أمرنا و نهانا.

[٨٦] و مَنْ يَتَّبِعْ يَطْلُبُ و يريد غير الإسلام ديناً من الأديان السماوية أو المفتعلة فلن يقبل منه أبداً فى الدنيا بل تجرى عليه أحكام الكفار و هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ و أَمْوَالَهُمْ و أَهْلِيَهُمْ جَمِيعًا.

[٨٧] إن الذين أدركوا حقيقة وحدة الرسالات و حقيقة محمد صلى الله عليه و آله و سلم و دين الإسلام ثم أنكروا و عاندوا فقد ظلموا أنفسهم و أبعدها عن لطف الله و هدايته فلا- يلطف بهم الله لطفًا خاصًا و لا يهديهم بل يتركهم فى ظلمات كفرهم كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم و المراد بالإيمان علمهم بحقيقة الرسول الإيمان فى الظاهر، إلا إذا أخذنا بما ورد فى بعض التفاسير و الروايات من أنها نزلت فى رجل آمن ثم ارتد ثم ندم فأرسل إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من يسأله عن قبول توبته

فأجاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٤

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

بالإثبات فتاب و حسن إسلامه، و لذا استثنى في آخر الآيات «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقَّ شَهَادَةً وَاقِعِيَّةً وَ إِن لَّمْ يَظْهَرُوا وَ لَمْ يَلْتَمِزُوا بِلِوَاظِمِهَا وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ الْأَدْلَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى صَدَقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ حَقِيقَةُ مَا جَاءَ بِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَى لَا يَلْطَفُ بِهِمُ اللَّطْفُ الْخَاصُ الَّذِي يَلْطَفُ بِهِ بِمَنْ اسْتَقَامَ وَ لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ.

[٨٨] أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ بِإِعَادِهِمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَ مَغْفِرَتِهِ وَ ثَوَابِهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ عَلَيْهِم بِالْعَذَابِ وَ يَلْعَنُونَهُمْ.

[٨٩] خَالِدِينَ فِيهَا أَى يَخْلُدُونَ فِي اللَّعْنَةِ وَ الطَّرْدِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ أَى لَا يَسْهَلُ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ الدَّائِمَ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ أَى لَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ، أَوْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

[٩٠] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا عَنْ كُفْرِهِمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكُفْرِ بِأَنْ آمَنُوا وَ أَصْلَحُوا فِي أَعْمَالِهِمْ أَى عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٥

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٩٠ إلى ٩١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تَوَّأَوْا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) لِكُفْرِهِمْ وَ ذُنُوبِهِمْ رَحِيمٌ بِهِمْ فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ.

[٩١] هذا حال من آمن بعد ارتداده و تاب، أو آمن بعد علمه بالحق و كفره، أما من بقى على كفره بعد الإيمان فجزاؤه ما يأتي إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِالنَّبِيِّ وَ بِمَا جَاءَ بِهِ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا فَإِنَّ الْكُفْرَ يَزِيدُ الْكُفْرَ فَإِنْ كَفَرَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يَكُونُ كَافِرًا فِيهَا يَكُونُ أَكْثَرَ كُفْرًا مِنَ السَّاعَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ، أَوْ الْمَرَادُ أَزْدِيَادُ الْكُفْرِ بِاسْتِحْكَامِهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا يَزِيدُ إِيمَانًا كَمَا رَأَى آيَاتِ اللَّهِ كَذَلِكَ يَزِيدُ كُفْرًا كَمَا أَعْرَضَ عَمَّا يَرَاهُ مِنَ الْآيَاتِ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمُ الَّتِي تَأْتِي مِنْهُمْ حَالِ الْإِحْتِضَارِ فَإِنَّ الْمُحْتَضِرَ حَيْثُ يَرَى حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ يَتُوبُ فِي قَلْبِهِ وَ يَنْدَمُ وَ لَكِنْ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ «١» وَ أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ الَّذِينَ ضَلُّوا طَرِيقَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَ عَذَبُوا فِي الْآخِرَةِ.

[٩٢] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تَوَّأَوْا وَ هُمْ كُفَّارٌ مِمَّنْ لَمْ يَتَّبِعْ حَتَّى فِي حَالِ الْإِحْتِضَارِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ «٢» بَعْدَ الْآيَةِ

(١) النساء: ١٩.

(٢) النساء: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٦

[سورة آل عمران (٣): آية ٩٢]

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

السابقة: «وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ» أَوْ الْمَرَادُ التَّعْقِيبُ عَلَى «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» أَى أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُقْبَلْ تَوْبَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا لَا يَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ

اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِعْطَاءِ الْفَدْيَةِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَوْ مِقْدَارُ مَا يَمَلَأُ الْأَرْضَ مِنَ الذَّهَبِ وَكَوِ افْتِيْدَى بِهِ لَا يَنْفَعُهُ أَوْلِيكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُؤَلَّمٌ وَمَوْجِعٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ.

[٩٣] وحيث جرى حديث الإنفاق وأنه لن يقبل من الكافر يوم القيامة ناسب السياق بيان حكم الإنفاق وأنه لن تنالوا البرّ أى لن تدركووا النفع الذى تأملونه من رضى الله و ثوابه و الجنة و خير الدنيا و غيرها حتّى تُنفقوا ممّا تُحبون لا أن تنفقوا ما لا تحبون كإنفاق ما تعانيه النفس كما قال سبحانه و لستُم بِأخذيه إلّا أن تُعمضوا «١» و ما تُنفقوا من شئٍ قليل أو كثير فى مختلف أصناف الأشياء فإنّ الله به عليم فيجازيكم على قدره.

(١) البقرة: ٢٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٧

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الرابع من آية (٩٤) من سورة آل عمران إلى (٢٤) من سورة النساء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمَصْطَفَى وَ عِترته الطاهرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٦٩

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٩٣ إلى ٩٤]

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا- مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤)

[٩٤] يرجع السياق هنا إلى ما كانت الآيات بصدده من أحوال أهل الكتاب فى أصولهم و فروعهم و عنادهم و جدالهم، و فى بعض التفاسير أنهم أنكروا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تحليل لحم الجوزور و ادعوا تحريمه على إبراهيم عليه السلام و أن ذلك مذکور فى التوراة فأنزل الله سبحانه ردا عليهم هذه الآية كُلى الطَّعام أى كل المأكولات، و المراد ب «الكل» الإضافى فى مقابل ما ادعوا تحريمه كان حلالاً أى حلالاً لىنّى إسرائيل اليهود إلّا ما حرّم إسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه و هو لحم الإبل كان إذا أكله هيّج عليه «الخاصرة» فحرمه على نفسه. و كان ذلك من قبل أن تُنزل التوراة على موسى عليه السلام فليس تحريمه على إسرائيل دليلاً على بقائه على الحرمة فإن التوراة لما نزلت لم تحرمه فلما ذا تقولون أيها اليهود بحرمة قُلى يا رسول الله لهم: فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا حتى يظهر أنه لم تحرمه التوراة كما ذكرت لكم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى دعواكم أن التوراة حرمت الإبل، لكنهم لم يأتوا بالتوراة، فتبين كذبهم، و قد كان اليهود يظنون أن الرسول- لأنه أمى- لا علم له بالتوراة فلماذا كانوا ينسبون إلى التوراة أشياء، لكن الوحي كان يفضحهم.

[٩٥] فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْبُرْهَانُ الدَّالُّ عَلَى عَدَمِ تَحْرِيمِ التَّوْرَةِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِمَنْعِهَا عَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

قُلْ صِدْقَ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)

الهداية و ظلموا غيرهم بمنعهم عن الحق.

[٩٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْيَهُودِ صِدْقَ اللَّهِ فِيمَا نَقَلْتَ لَكُمْ مِنْ عَدَمِ تَحْرِيمِ الْجُزُورِ وَكَذِبْتُمْ أَنْتُمْ، بَلْ تَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا فَاتَّبِعُوا أَيُّهَا الْيَهُودُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا أَيْ مُسْتَقِيمًا، وَمِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ تَحَلَّلَ كُلَّ الطَّعَامِ وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ دَحْضَ لَافْتَاءِ آخِرٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا - وَكِلَاهُمَا مُشْرِكٌ - فَفِي السَّابِقِ نَقَلَ افْتِرَاءَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ فِي قِصَّةِ الطَّعَامِ، وَهَذَا نَقَلَ افْتِرَاءَهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِالْمُشْرِكِ.

[٩٧] إِنْ أَهْلَ الْكِتَابِ دَحَضَتْ حُجَّتَهُمْ فِي بَابِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، وَدَحَضَتْ حُجَّتَهُمْ فِي بَابِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ، كَمَا دَحَضَتْ حُجَّتَهُمْ مِنْ ذِي قَبْلِ فِي سَائِرِ الشُّؤُنِ الَّتِي نَاقَشُوا فِيهَا، وَبَقِيَ الْآنَ لَهُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى هِيَ: أَنَّ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ أَشْرَفَ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَأَنَّهُ مَحَلُّ الْأَنْبِيَاءِ، فَالْقُرْآنُ يَدْحُضُ حُجَّتَهُمْ هَذِهِ بِأَنَّ الْكَعْبَةَ هِيَ أَشْرَفُ لِأَنَّهَا أَوَّلُ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ، وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي تَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي بَنَاهَا، وَلِأَنَّ الْحَجَّ شَرَعَ إِلَيْهَا إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ أَيْ بَنَى لِأَجْلِ انْتِفَاعِ النَّاسِ دِينًا وَدُنْيَا، فَإِنَّ الْأَرْضَ دَحِيتَ مِنْ تَحْتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ بَيْتٌ مَبْنِيٌّ لِلذِّى اللَّامِ لِلتَّأَكِيدِ أَيْ هُوَ الْبَيْتُ الَّذِي بَنَىهُ وَهُوَ اسْمُ آخِرِ لِمَكَّةَ، وَاسْمُ بَكَّةَ لِأَزْدِحَامِ النَّاسِ فِي الطَّوَافِ وَنَحْوِهِ هُنَاكَ، فَإِنَّ بَكَّةَ بِبَيْتِكَ بِمَعْنَى «زَحَمَ يَزْحَمُ» مُبَارَكًا أَيْ كَثِيرَ الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرِ فَإِنَّ فِيهِ خَيْرَ الدُّنْيَا، حَيْثُ الْأَلْفُ وَالِاجْتِمَاعُ وَالِاِقْتِصَادُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧١

[سورة آل عمران (٣): آية ٩٧]

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

وغيرها، وخير الآخرة حيث غفران الذنوب ورفع الدرجات وهدى للعالمين أى سببا لهدايتهم فإنه مذكور بالله سبحانه وفيه ذكريات أنبيائه ومعالم عبادته.

[٩٨] فِيهِ أَيْ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ أَيْ دَلَالَاتٌ وَاضِحَاتٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ وَنَصْرَةِ الْإِسْلَامِ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ أَيْ مَوْضِعُ قَدَمِهِ حَيْثُ كَانَ هُنَاكَ حَجَرٌ يَضَعُهُ إِبْرَاهِيمُ وَيَصْعَدُ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ أَعَالِي الْكَعْبَةِ حَتَّى رَسَخَتْ قَدَمَاهُ فِي ذَلِكَ الْحَجَرِ، فَإِنَّ آيَةَ وَاضِحَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَخَصَّ بِالذِّكْرِ لِأَهْمِيَّتِهِ وَتَقْدِيرِ الْإِبْرَاهِيمِ الَّذِي ضَحَّى بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا إِمَّا ابْتِدَاءً، أَوْ عَطْفًا أَيْ أَنَّ مِنْ آيَاتِ الْبَيْتِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُ حَرَمًا آمِنًا فَمَنْ دَخَلَهُ فَهُوَ آمِنٌ عَلَى عَرْضِهِ وَمَالِهِ وَدَمِهِ لَا يَمَسُّ بِسُوءٍ وَإِنْ كَانَ مُجْرِمًا يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ وَالْحَدَّ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ أَيْ يَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَحْجُوا إِلَى الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا أَيْ مَنْ وَجَدَ إِلَيْهِ طَرِيقًا وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ مَا يَكْفِيهِ ذَهَابًا وَإِيَابًا لِنَفْسِهِ وَلِعَائِلَتِهِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْكِفَايَةِ، مَعَ أَمْنِ الطَّرِيقِ وَصِحَّةِ الْجَسْمِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشُّرُوطِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْفَقْهِ «١» وَمَنْ كَفَرَ فَلَمْ يَحِجْ مَعَ الْاسْتِطَاعَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْكُفْرَ قِسْمَانِ: كُفْرٌ فِي الْاِعْتِقَادِ وَهُوَ انْكَارُ أَصْلِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ، وَكُفْرٌ فِي

(١) راجع موسوعة الفقه ج ٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٩٨ إلى ٩٩]

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصِيدُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

العمل وهو ترك واجب أو فعل محرم. وقد كثر في القرآن والحديث استعمال الكفر بهذا المعنى فإن الله غني عن العالمين فلا يظن العاصي أن كفره يضر الله شيئا.

[٩٩] وَيَرْجِعُ السِّيَاقُ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ أَدْلَتُهُ الْوَاضِحَةُ الدَّالَّةُ عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيِّ

الإسلام و ما جاء به، الذى هو منه شؤون بيت الله الحرام وَ اللَّهُ شَهِيدٌ أَى يشهد و يعلم عَلَى ما تَعْمَلُونَ فيجازيكم عليها.

[١٠٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَى تمنعون الناس عن الإيمان بالله، فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كانوا يرصدون لمن يريد الإيمان فيمنعون، و كانوا يلقون الشكوك حول الإيمان و المؤمنين مَن آمنَ مفعول «تصدون» أى تمنعون من آمن عن سبيل الله، و على هذا فالصد هنا خاص بالمؤمنين إلا أن يراد ب «من آمن» الأعم من المؤمن و من يريد الإيمان تَبْعُونَهَا أى تطلبون السبيل عَوَجًا منحرفا لا سبيلا مستقيما، أو تطلبون سبيل الله عوجا، أى تريدون أن تكون السبيل عوجا بإدخال الشكوك عليها، و العوج مفرد بمعنى الميل و الانحراف وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ فى واقع الأمر و إقرار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعِيدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

نفوسكم على عملكم الباطل وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ بل مطلع عليه عالم به، و سيعاقبكم عليه.

[١٠١] و حيث تقدم أن أهل الكتاب يصدون من آمن عن سبيل الله، خاطب سبحانه المؤمنين أن لا يسمعوا إلى أهل الكتاب حتى يضلوا بتشكيكاتهم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا جَمَاعَةً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَعْطُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ يَرُدُّوكُمْ بَعِيدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ أى يرجعونكم كفارا بعد أن آمنتم، و إنما خصَّ فريقا لأن أهل الكتاب لم يكونوا جميعهم سبب إضلال المؤمنين و إرجاعهم عن الإيمان.

[١٠٢] وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بعد الإيمان وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ فَإِنَّكُمْ قد عرفتم آيات الله و دلائله و علمتم ذلك و مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يكفر وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ الذى يدعو إليه بالبراهين و المعجز، و هذا استفهام إنكارى تعجيبى، جىء به إبعادا لهم عن الكفر و إلفاتا لهم إلى الرصيد الإيمانى الموجود عندهم وَ مَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ أى يتمسك بآيات الله و كتابه و دينه و رسوله، فلا ينخرط إلى الشرك و الكفر و العصيان فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فى الدنيا حيث

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٤

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

يوصله إلى حياة حرة كريمة مرفهة المرافق، و فى الآخرة حيث يسعده فى جنات النعيم.

[١٠٣] كانت الجماعات المنضوية تحت لواء الإسلام بما فيهم الأوس و الخزرج معرضة للتطاحن و التشاحن و قد كان الكفار و أهل الكتاب يستغلون سوابق هؤلاء و طبيعة النفس البشرية فى إلقاء الفتن و التفرقة بينهم ليفتحوا ثغرة للنزاع بين أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لذا نصحهم القرآن بأن يبقوا على وحدتهم و أن لا يتفرقوا و يتقوا الله فيما أمر و نهى و لا يطيعوا أهل الكتاب فى أقوالهم المفرقة و دسائسهم المشتته يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ فَأَطِيعُوهُ فى أمركم و نهاكم حَقَّ تُقَاتِهِ من «وقيت» أى كما يحق أن تتقوه، فإن التقوى من الله سبحانه أمر صعب جدا، إذ يلازم الإنسان فى جميع شؤونه و أحواله وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فلا- يغرركم الشيطان بأن يخرجكم من الإيمان حتى تموتوا كافرين. و لعل المناسبة بين الجملتين أن من لا يتقى ينجر آخر أمره إلى الكفر كما قال سبحانه: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوَاى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ «١».

[١٠٤] وَ اعْتَصِمُوا أى تمسكوا بِحَبْلِ اللَّهِ و حبل الله دينه و قرآنه، شبه بالحبل لمناسبة أن من يتمسك بالحبل لا بد و أن يرتفع به إلى

الأعلى، و كذلك من يتمسك بالإيمان يصعد به في الدنيا إلى المراتب الراقية و في

(١) الروم: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٥

الآخرة إلى جنات خالدة جميعاً أى جميعكم لا بعضكم دون بعض.

و لا تَفَرَّقُوا بأن يتمسك البعض بحبل الله و البعض بحبل الشيطان، و هذا تأكيد لقوله «جميعاً» و اذْكُرُوا أى تذكروا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَبْلَ الْإِسْلَامِ يعادى بعضكم بعضاً فَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ جعلها قريبة بعضها إلى بعض، حيث أدخل الإيمان فيها فخرج ما كان فيها من الضغينة و الإحن و الحسد و العداوة فَاصْبِرْ بِحُتْمٍ أيها المسلمون بِنِعْمَتِهِ أى بسبب نعمة الألفة التي وهبها الله إليكم إِخْوَانًا أحدكم أخ الآخر في الإيمان، له ما لأخيه و عليه ما عليه.

و أن هذه النعمة قد خرقت المقاييس الجاهلية القبلية و العشائرية و العرقية و ما أشبهها.

و كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ الشفا: الطرف، و الحفرة المكان المحفور من الأرض، أى كنتم أيها المسلمون على طرف حفرة من النار، نار الدنيا و هي العقوبات و الاضطرابات، و نار الآخرة التي أوقدت لكم فَانْقَذَكُمْ مِنْهَا بِالْإِسْلَامِ الذى نظم أمور دنياكم و أخراكم، حتى لا تقعوا فيها كَذَلِكَ أى كما بين لكم هذه الأمور واضحة و جلية يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ دلالاته و حججه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٦

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) و لا- تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

إلى الحق و إلى طريق مستقيم.

و ما ورد في بعض الأحاديث أن المراد من حبل الله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو الأئمة عليهم السلام أو القرآن «١»، فإنما هي مصاديق جلية.

[١٠٥] و حيث أنقذكم الله من الهلاك، و هداكم فمن الجدير أن تهدوا سائر الناس و لَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ أى يجب أن يكون منكم جماعة يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ كل خير من الإسلام و الدين و الأحكام و غيرها و يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ و المعروف كل فعل استحسسه الشرع أو العقل سواء وصل إلى حد الوجوب أم إلى حد الندب، و إنما سمي معروفاً لأن الناس يعرفونه و يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ و هو بعكس المعروف، كل ما استقبحه الشرع أو العقل، و سمي منكراً لأن الناس ينكرونه و أولئك الذين يتصفون بهذه الصفات الثلاثة هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى الفائزون الناجون.

[١٠٦] و لا تَكُونُوا أيها المسلمون بعد الألفة و الأخوة كَالَّذِينَ من قبلكم تألفت قلوبهم بسبب الأنبياء ثم تَفَرَّقُوا شيعا و أحزابا و مذاهب و مبادئ و اختلفوا فأخذ كل فريق منهم جانبا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ الأدلة الواضحة على وحدة العقيدة و المبدأ و أركان الإيمان

(١) تفسير العياشى: ج ١ ص ١٩٤ و بحار الأنوار: ج ٣٦ ص ١٥ باب ٢٧، أنه (صلوات الله عليه) حبل الله و العروة الوثقى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) و أمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ اختلفوا و خالفوا الحق منهم لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ حيث بدلوا و غيروا و حرّفوا.

[١٠٧] ثم بين سبحانه أن ذلك العذاب العظيم فى أى وقت يكون؟ إنه يكون فى يَوْمٍ هذه صفته تَبَيُّضٌ فيه وُجُوهُ هِى وجوه المؤمنين الذين آمنوا و عملوا الصالحات و ابيضاض الوجه كناية عن فرحه و نصارته و تنعمه و تَسْوُدُّ فِيهِ وُجُوهُ هِى وجوه الكافرين، و اسودادها حقيقة، فإن الوجه عند الهَمِّ الكبير يميل لونه إلى السواد و الكدرة لتهاجم الدم و نحوه، أو كناية عن كلوحه و بؤسه و همومه فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ يُقال لهم: أَ كَفَرْتُمْ عَلَى نَحْوِ الِاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إما أن يراد ب «الإيمان» الإيمان الحقيقى بأن يكون المراد منهم الذين اختلفوا و تفرقوا و ارتدوا بعد الإيمان، و إما أن يراد به الإيمان الفطرى فإن كل إنسان مؤمن فطرة كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «كل مولود يولد على الفطرة و إنما أبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه» (١) فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أى بسبب كفركم.

[١٠٨] وَ أَمَّا الَّذِينَ بَيَّضَّتْ وُجُوهُهُمْ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَمِلُوا

(١) عدة الداعى: ص ٣٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٠٨ الى ١١٠]

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

الصالحات ففِي رَحْمَتِ اللَّهِ ثَوَابُهُ وَ رِضْوَانُهُ وَ جَنَّتْ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أبد الآبدين.

[١٠٩] تِلْكَ الْأُمُورُ الَّتِي ذَكَرْتَ فِي أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ وَ غَيْرِهَا آيَاتُ اللَّهِ عَلَانِيَةً وَ دَلَالَةً وَ حُجَجُهُ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ فَإِنَّ التَّلَاوَةَ قَدْ تَكُونُ بِالْبَاطِلِ إِذَا كَانَ الْمَتَلَوُّ أَوْ الْغَرَضُ مِنَ التَّلَاوَةِ بَاطِلًا وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ أى لا يريد أن يظلم أحدا. فقد تقرر فى علم الكلام أن إرادة الظلم - كالظلم نفسه - قبيحة، فما يصير إليه حال الكافرين من اسوداد الوجه ليس ظلما لهم، و إنما يكون بالعدل و جزاء لعملمهم.

[١١٠] وَ كَيْفَ يُرِيدُ اللَّهُ ظُلْمًا وَ الْحَالُ أَنَّهُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ الظلم ينشأ من الافتقار و هو الغنى المطلق وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أمور الخلق فإن الله سبحانه يعيد المخلوق ليجازيه، و هذا تشبيه بالرجوع المادى «فى الدنيا» الذى يكون بين الحاكم و المحكوم حيث يساق المحكوم نحو الحاكم ليحكم عليه، و حيث أن الأمر يرجع إلى الله فلا- يظن الكافر أنه يتمكن من الفرار عنه سبحانه حتى لا يعاقب بما عمل من السيئات.

[١١١] وَ يَرْجَعُ السِّيَاقُ هُنَا إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ لُزُومِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَ «كَانَ» لمجرد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٧٩

الربط، لا- بمعنى الماضى خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أى خير جماعة ظهرت للناس فإن كل أمة تظهر للناس فى فترة ثم تختفى و تغيب لتأخذ مكانها أمة أخرى. و إنما كان المسلمون خير أمة لخصال ثلاثة بها تترقى الأمم إلى أوج عزها هى: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنَّ الْمَجْتَمَعَ إِذَا خَلَا مِنْ هَذَيْنِ الْوَاجِبِينَ أَخَذَ يَهُوَى نَحْوِ السَّيْفِ لَمَّا جَبَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ وَ الْفَوْضَى وَ الشَّغْبِ، فَإِذَا تَحَلَّى الْمَجْتَمَعَ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَخَذَ يَتَقَدَّمُ نَحْوَ الْكَمَالِ بِمَدَارِجِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَ الْحَضَارَةِ الْحَقِيقِيَّةِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى قِمَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ إيمانا صحيحا لا كإيمان أهل الكتاب و المشركين، و الإيمان الصحيح بالله رأس الفضائل فإنه مع قطع النظر عن كونه إدراكا لأعظم حقيقة

كونية فإنه محفز شديد نحو جميع أنواع الخير و منفرد قوى عن جميع أصناف الشر و لو آمن أهل الكتاب إيماناً صحيحاً بعدم الشرك و قبول قول الله سبحانه فى نبوة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه و آله و سلم لكان إيمانهم خيراً لهم فى دينهم و دنياهم حتى تنظم دنياهم على ضوء الإسلام فتخلو من الجهل و المرض و الفقر و الرذيلة و يكونون فى الآخرة سعداء ينجون من عذاب الله، و ليس المراد بـ «خير» معنى التفضيل بل هو تعبير عرفى، حيث يظهر للناس أنهم فى خير فى الجملة، و على هذا يكون إيمانهم أكثر خيراً و أفضل.

ثم بين سبحانه أن ليس كل الذين كانوا من أهل الكتاب بقوا على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١١٢]

لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىٌّ وَّ إِن يقاتِلُوكُم يُؤلُّوكُمُ الأَذبارَ ثُمَّ لا يُنصِرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَّ حَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَّ باؤٌ بَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَّ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنةُ ذَلِكَ بَأنَّهم كانوا يكفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَّ يَقْتُلُونَ الأَنبياءَ بِغيرِ حَقِّ ذَلِكَ بما عَصَوْا وَّ كانوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

طريقتهم فإن منهم المؤمنين بالله و بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و بما جاء به كالنجاشى و ابن سلام و غيرهما و أكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله باتباع أهوائهم المضلة و طرائقهم الزائفة.

[١١٢] و لقد كان كفار أهل الكتاب يؤذون المؤمنين منهم خاصة و سائر المؤمنين عامة و كان المؤمنون من حيلهم و مؤامراتهم فى قلق و اضطراب، و لذا هدأ الله سبحانه من روع المؤمنين بقوله: لَنْ يَضُرُّوكُمُ أى لن يضر أهل الكتاب إياكم أيها المؤمنون إِلَّا أذىً يسيراً فإن مؤامراتهم تفشل و حيلهم تخسر و لا تبقى إلا تشويشات و إشاعات و هى مما لا تضر ضرراً معتداً به، أما ما يظن المسلمون أن أهل الكتاب يتمكنون من اقتلاع جذورهم و إبادة دينهم فلن يكون ذلك أبداً بل المسلمون هم المنصورون و إِن يقاتِلُوكُم يُؤلُّوكُمُ الأَذبارَ جمع دبر و هو الظهر، أى ينهزمون فارين ثُمَّ لا يُنصِرُونَ أى لا تنصرهم أقوالهن، لما ألقى فى قلوبهم من رعب الإسلام و خوف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و كان مصب الآية الكريمة اليهود فهم المعنيون بهذا الكلام بقرينة الآية التالية.

[١١٣] ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أى ضربها الله عليهم فهم أذلاء إلى الأبد و هى ثابتة لهم و محيططة بهم، و أية ذلة أعظم من أنه ليست لهم دولة مستقلة و هم مهانون دائماً، و جميع الدول تطاردهم إلا فى ظرف مصلحتها الخاصة فهم كالعبيد المسخرين إن استفاد مولاهم أطعمهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨١

و إلا طردهم أَيْنَ ما تُقِفُوا أى وجدوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ أى إلا إذا تمسكوا بحبل الله تعالى بالإيمان به و بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و بما جاء به حتى يكونوا كالمسلمين لهم ما لهم و عليهم ما عليهم و حَبْلٌ مِنَ النَّاسِ أى تمسكوا بحبل دولة قوية تحميهم، و «الواو» للتقسيم - نحو: الكلمة اسم و فعل و حرف - لا - للجمع و باؤٌ رجعوا بَعْضٌ مِنَ اللَّهِ فكأن الناس جاءوا للاغتراف من مناهل الإسلام و كانت اليهود فيهم فالناس رجعوا بالإسلام و حب الله سبحانه و هؤلاء رجعوا بالكفر و غضب الله تعالى و ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنةُ أى الفقر الروحى الذى هو أعظم أقسام المسكنة فإن أرواحهم تهفو إلى المادة أكثر من روح أى فقير مسكين و هم على ثروتهم الظاهرة من أفقر الخلق نفساً و روحاً ذلك العقاب الدنيوى لهم بسبب أنهم كانوا يكفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ فموسى عليه السلام نبينهم كان منهم فى نصب و تعب فإنهم ما خرجوا من البحر إلا قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، و اتخذوا العجل، و آذوا موسى إلى غير ذلك و يَقْتُلُونَ الأَنبياءَ بِغيرِ حَقِّ أى كانوا يقتلونهم، و «بغير حق» تأكيد، إشارة إلى أنه لم يكن لهم حق فى قتلهم حتى ظاهراً، فإنهم يقتلون الأنبياء لمجرد الدعوة إلى الله و الإرشاد و الوعظ، لا لأنهم قتلوا منهم أحداً أو نهبوا مالا أو نحو ذلك - و إن كان الأنبياء لو فعلوا ذلك كان بأمر الله و بالحق - لكن الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا فعلوا ذلك - كما

قال الإمام الحسين عليه السلام: «فيم تستحلون دمي؟.. أعلى قبيل قتلته منكم

- إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١١٣ إلى ١١٤]

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)

آخر كلامه- «١».

ذَلِكَ أَى كَفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِسَبَبِ مَا عَصَوْا أَى عَصِيَانَهُمْ لِأَوَامِرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ سَبَبِ الْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَهُمَا سَبَبَا نَقْمَةِ اللَّهِ وَ لَعْنَتِهِ وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ بِتَجَاوُزِ الْهَدُودِ الدِّينِيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ.

[١١٤] و لمره أخرى استثنى القرآن الحكيم من آمن من أهل الكتاب، و أنه ليس كغيره ممن بقى على كفره و عناده و قد نزلت- كما قيل- حين أسلم جماعة من أهل الكتاب فقال الكفار منهم أنهم أشرارنا.

لَيْسُوا سَوَاءً أَى لَيْسَ أَهْلُ الْكِتَابِ مَتَسَاوِينَ فِى مَا تَقْدَمُ مِنْ أَوْصَافِهِمْ، ثُمَّ ابْتَدَأَ قَوْلَهُ سَبْحَانَهُ: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الْحَقِّ لَا زَائِفَةٌ زَائِلَةٌ، وَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِسْلَامِ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزِلَةَ فِى الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاعَاتِهِ وَ أَوْقَاتِهِ، فَإِنْ لَقَرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِى اللَّيْلِ أَثْرًا كَبِيرًا حَيْثُ إِنْ هَدَوُا النَّفْسَ وَ هَدَوُا الْجُودَ يُوْجِبَانِ وَقُوعَ الْآيَاتِ فِى النَّفْسِ أَكْثَرَ مِنْهُ فِى النَّهَارِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ وَ يَخْضَعُونَ لَهُ بِالصَّلَاةِ وَ التَّعْفِيرِ.

[١١٥] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا وَ يُؤْمِنُونَ بِ الْيَوْمِ الْآخِرِ عَنْ حَقِيقَتِهِ فَإِنْ مِنْ آمَنَ حَقِيقَةً بِالْحِسَابِ انْقَلَعَ عَنِ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ٣١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١١٥ إلى ١١٦]

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)

وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ فَإِنَّ الْمَعْتَقِدَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ يَسَارِعُ فِى الْخَيْرِ حَيْثُ لَا يَدْرَى أَى يَوْمٍ يَمُوتُ فَيَنْقَطِعُ عَمَلُهُ وَ لَا- يَتِمَّكَنُ مِنَ الْمَزِيدِ «وَ كَانَ الْإِتْيَانُ بِيَابِ الْمَفَاعِلَةِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى تَسَابُقِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» وَ أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَصْلِحُونَ وَ لَا يَفْسُدُونَ، وَ بِتَعْبِيرِ آخِرِ أَعْضَاءِ صَالِحِينَ فِى الْمَجْتَمَعِ، وَ لَيْسُوا كَمَا ذَكَرَ الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ أَشْرَارُهُمْ، بَلْ هُمْ مِنْ أَفْضَلِ الْأَخْيَارِ وَ الصَّالِحِينَ.

[١١٦] وَ مَا يَفْعَلُوا أَى مَا يَفْعَلُهُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ خَيْرٍ مِنْ طَاعَةٍ وَ عِبَادَةٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ أَى لَنْ يَمْنَعَهُمْ جَزَاؤُهُمْ بِخِلَافِ سَائِرِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ تَحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ لِكُفْرِهِمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمِ عَاصِفٍ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ يَعْلَمُ أَحْوَالَهُمْ وَ أَعْمَالَهُمْ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ.

[١١٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَى لَنْ تَفِيدَهُمْ وَ لَنْ تَدْفِعَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ فَالْمَالُ وَ الْوَلَدُ إِنَّمَا يَنْفَعَانِ فِى الدُّنْيَا حَيْثُ يَدْفَعَانِ الْمَكْرُوهَ بِالرِّشْوَةِ وَ الْهَدِيَّةِ وَ الصَّلَاةِ، وَ الْمَدَافِعَةَ وَ الْمَنَاصِرَةَ مِنَ اللَّهِ أَى مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَ عَذَابِهِ شَدِيدًا وَ لَوْ ضَعِيفًا وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ الَّذِينَ يَلْزَمُونَهَا كَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٤

[سورة آل عمران (٣): آية ١١٧]

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفَسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

يقال: صاحب فلان لمن يلازمه هم فيها خالِدُونَ إلى الأبد.

وقد تكرر أن الخلود للمعاند كما

في دعاء كميل «من المعاندين»

أما القاصر فإنه يمتحن هناك كما دلّ العقل والشرع.

[١١٨] وحيث تقدم حال المؤمن وحال الكافر، ذكر حال إنفاق الكافر مقابله لما تقدم من خير المؤمن في قوله: وَمَا يُفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ أى ينفقه الكفار في هذه الحياة الدنيا وكان ذكر «هذه» الخصوصية مع وضوحها للإشارة إلى أن الحياة التي هي مزرعة ومن المقتضى أن تنمو ويبقى أثرها للانتفاع به في الآخرة، لا ينفق الكافر كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ الصر هو البرد الشديد، أو السموم الحارة أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ فإنفاقهم كالحرث، وكفرهم الموجب لبطلانه كالريح السامة ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بأن زرعوا في غير موقع الزراعة في مهب الرياح أو في غير أوانه كالشتاء مثلاً لو زرعوا بذور الصيف، أو المراد ظلموا أنفسهم بالمعصية فسلط الله عليهم الريح كما قال: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١) وإنما أوتى بهذه الجملة لظلم الكفار أنفسهم كظلم صاحب الحرث فَأَهْلَكَتُهُ أى أهلكت الريح الحرث- وهو الزرع- وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ في إبطال نفقاتهم، أو

(١) الأعراف: ٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٥

[سورة آل عمران (٣): آية ١١٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنَّتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)

في إهلاك الريح حرثهم وَلَكِنْ أَنْفَسَهُمْ يَظْلِمُونَ بكفرهم أو بظلمهم، ولا يخفى أن قوله: «مثل ما ينفقون» «كمثل ريح» ليس المراد أن الإنفاق كالريح، بل يضرب المثل فيما كان المجموع من «الأصل والشبه» مرتبطين وإن كانت مفردات الشبه لم تذكر حسب السياق اللفظي، كما تقول: «مثل زيد في تكلمه كمثل صوت الحمار» فالجملة شبهت بالجملة لأن الصوت شبه بزيد، والحمار بالتكلم، كما يقتضيه السياق اللفظي في الترتيب.

[١١٩] وفي سياق الكلام عن أحوال أهل الكتاب وبيان أنهم مختلفون مع المسلمين في العقيدة والعمل يأتي دور أن المسلم لا ينبغي له أن يتخذ صديقاً من هؤلاء يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ أى لا تتخذوا الكفار الذين هم غير المسلمين بطانة، وهي خاصة الرجل الذي يسر إليه بأمره ويستبطن خبره، من «بطانة الثوب» الذي يلي البدن لقربه منه، و«من» للتبيين كأنه قال: بطانة من المشركين، فقد كان المسلمون يواصلون رجالاً من أهل الكتاب لسابق صداقة أو قرابة أو جوار أو نحوها فنهوا عن ذلك.

ثم بين سبحانه سبب ذلك، ويحتمل أن يكون المراد ب «دونكم» المنافقين، كما في بعض التفاسير بدليل قوله: «قالوا آمنا» فإنهم لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا لا يألونكم أى لا يقصرون بالنسبة إليكم، والخبال الفساد، أى هؤلاء البطانة لا يقصرون في فساد أمرهم ولا يتركون جهدهم في مضرتهكم ودؤوا أى أحبوا ما عنتكم أى عنتكم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٦

[سورة آل عمران (٣): آية ١١٩]

هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩)

والعنت المشقة، وهذه كلها من صفات الأعداء قَدْ يَدَّتْ أَى ظَهَرَتِ الْبُغْضَاءُ وَالْعَدَاوَةُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ فَإِنْ فَلَتَاتِ كَلَامِهِمْ تَدَلُّ عَلَى عِدَاوَتِهِمُ الْكَامِنَةَ وَمَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ مِنَ الْحَقْدِ لَكُمْ وَالْعَدَاوَةُ أَكْبَرُ مِمَّا يَظْهَرُ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْآيَاتِ وَالْحَجِجِ الَّتِي تَمَيِّزُونَ بِهَا الصَّدِيقَ مِنَ الْعَدُوِّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ إِنْ كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ وَإِدْرَاكٌ.

[١٢٠] ثم بين سبحانه أنه كيف يمكن أن يحب المؤمن هؤلاء مع أنهم أعداؤه ومع الاختلاف بينهم في العقيدة ها تنبيه أأنتم أولاء أى الذين تُحِبُّونَهُمْ أَى تُحِبُّونَ أَوْلِيَاءَكَ الْكُفْرَانَ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ لَكُمْ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَهَ وَتُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِبَعْضِ الْكِتَابِ، أَمَا الْبَعْضُ الْآخِرُ الَّذِي فِيهِ أَوْصَافُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْإِيمَانُ بِهِ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، أَوِ الْمُرَادُ بِ«كُلِّهِ» أَى جِنْسٍ مَا نَزَلَ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، بِخِلَافِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِذَا لَقُوكُمْ مِنَ الْمَلَقَاءِ أَى رَأَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا نِفَاقًا مِنْهُمْ لَا- أَنْ الْإِيمَانَ دَخَلَ قُلُوبَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ الْكُفْرَانَ، فَإِنْ مِنْ يَتَظَاهَرُ بِالصِّدْقِ كَثِيرًا مَا يَظْهَرُ قَبُولَ مَا عَلَيْهِ صَدِيقُهُ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِصِدْقِهِ، وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى قَوْلِهِ: «مَنْ دُونَكُمْ» لِلْكَفْرَانَ لِلْمُنَافِقِينَ وَإِذَا خَلَوْا أَى خِلَا بَعْضِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٧

[سورة آل عمران (٣): آية ١٢٠]

إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَضَرَّبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

مع بعض عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ أَى يَعْضُونَ أَطْرَافَ أَصَابِعِهِمْ مِنَ الْغَيْظِ عَلَيْكُمْ كَيْفَ تَقَدَّمْتُمْ وَقَوَى دِينَكُمْ.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فَإِنَّ الْغَيْظَ لَا يَرِحُكُمْ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَتَقَدَّمُونَ وَيَسْتَمِرُّونَ فِي أَعْمَالِهِمْ. أَوْ هُوَ دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ الَّتِي تَضْمَنُ النِّفَاقَ وَالْكِيدَ لِلْمُسْلِمِينَ، فَيَجَازِيهِمْ بِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ وَ«بِذَاتِ الصُّدُورِ» بِمَعْنَى: بِتِلْكَ الصُّدُورِ.

[١٢١] وَكَيْفَ تَتَخَذُونَ مِنْ بَطَانَتِهِ وَحَالِ أَنْ صَفَتِهِمْ هَكَذَا إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً أَى يَصِيبُكُمْ خَيْرٌ، مِنْ «الْمَسِّ» بِمَعْنَى الْإِصَابَةِ تَسُوهُمُ أَى تَحْزَنُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ أَى بَلِيَةٌ وَمُصِيبَةٌ بِإِصَابَةِ الْعَدُوِّ مِنْكُمْ أَوْ فَقْرٌ أَوْ مَوْتٌ أَوْ نَحْوَهَا يَفْرَحُوا بِهَا أَى بِسَبَبِهَا- كَمَا هُوَ حَالُ الْعَدُوِّ مَعَ عَدُوِّهِ- وَإِنْ تَضَرَّبُوا عَلَى أَذْيَتِهِمْ، وَعَلَى مَقَاتِعَتِكُمْ إِيَّاهُمْ الَّتِي تَجْرِي إِلَيْكُمْ عِدَائِهِمْ الظَّاهِرِي، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَخَافُونَ مِنَ مَقَاتِعَةِ الْمُنَافِقِينَ لِثَلَا- يَبْتَلُوا بَعْدَانِهِمْ فِي الظَّاهِرِ وَتَتَّقُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ نَصِيرُكُمْ لَا- يَضُرُّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَيْدُهُمْ وَمَكْرَهُمْ وَحِيلَتُهُمْ ضِدْكُمْ شَيْئًا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَنْصُرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ هُمْ جَمِيعًا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُنَافِقُونَ مُحِيطٌ أَى عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٨

[سورة آل عمران (٣): آية ١٢١]

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

كَالْمُحِيطِ مِنَ الْأَجْسَامِ الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْهُ طَرَفٌ مِنَ الْمَحَاطِ، فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

[١٢٢] وَهَذَا يَسْتَعْرِضُ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ قِصَّةَ وَاحِدَةٍ تَدَلُّ عَلَى مَدَى تَطْبِيقِ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي سَبَقَتْ عَلَى الْوَاقِعِ الْخَارِجِيِّ، وَ أَنَّ اللَّهَ كَيْفَ يَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحْرَجِ السَّاعَاتِ وَأَحْلَكِ الطَّرُوفِ، وَ

ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ حِينَ خَرَجَتْ قَرِيشٌ مِنْ مَكَّةَ يَرِيدُونَ حَرْبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَانْتَخَبَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَوْضِعًا لِلْقِتَالِ وَعِبَادَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ بَلَّغُوا سَبْعِمِائَةَ رَجُلٍ فَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَبْرِ فِي خَمْسِينَ مِنَ الرَّمَاةِ عَلَى بَابِ شَعْبٍ فِي الْجَبَلِ لِيَحْفَظُوهُ حَتَّى لَا يَهَاجِمَ الْعَدُوُّ مِنْ خَلْفِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ لَهُمْ:

«لا تبرحوا من هذا المكان و الزموا مراكزكم، إن غلبنا أو غلبنا».

فلما انهزمت قريش و أخذ المسلمون يهبون ثقلهم قال أصحاب ابن جبير له:

قد غنم أصحابنا و نحن نبقي بغير غنيمه. فقال لهم: اتقوا الله فإن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم نهانا أن نبرح أماكننا. فلم يقبلوا منه و أخذوا ينسل الرجل منهم فالرجل حتى خلت المراكز و بقي عبد الله في اثني عشر رجلا، و اغتشم الكفار هذا الأمر فجاء خالد بن الوليد مع أصحابه و فرقوا من تبقي من المسلمين و قتلوهم على الشعب و هجموا على المسلمين من خلفهم و هم مشغولون بالنهب و رجع الكفار فطوقوا المسلمين من جوانبهم ففر المسلمون و لم يبق مع الرسول إلا على عليه السلام و أبو دجانة، و قتل من المسلمين جمع كثير بلغوا السبعين و فيهم حمزة عم النبي صلى الله عليه و آله و سلم أسد الله و أسد رسوله.

وَ إِذْ غَدَوْتَ أَي خَرَجْتَ مِنْ أَهْلِكَ أَي مِنَ الْمَدِينَةِ غَدْوَةً، يَا رَسُولَ اللَّهِ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ أَي تَهَيِّئُ لَهُمْ مَرَكَزَ لِلْقِتَالِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٨٩

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢٢ الى ١٢٤]

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَبَيْنَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذِ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) فِي قِصَّةِ أَحَدٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِكَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْوِيهِ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ وَ الْهِدَايَةِ لِلنَّاسِ عَامَةً.

[١٢٣] إِذْ هَمَّتْ وَ عَزَمَتْ طَائِفَتَانِ أَي جَمَاعَتَانِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَ هُمَا بَنُو سَلْمَةَ وَ بَنُو حَارِثَةَ أَنْ تَفْشَلَا وَ تَجْبِنَا وَ تَرْجِعَا عَنِ الْقِتَالِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ ابْنَ أَبِي سَلُولِ الْمَنَاقِقِ جَبْنَهُمَا عَنِ لِقَاءِ الْعَدُوِّ فَهَمَّ بِالرُّجُوعِ لَكِنَّهُمَا لَمْ يَفْعَلَا وَ اللَّهُ وَبَيْنَهُمَا نَاصِرُهُمَا فَلَمْ يَفْشَلَا وَ الْخَوْفُ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَ التَّوَكَّلُ مَعْنَاهُ تَفْوِضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١».

[١٢٤] وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ بِبَدْرٍ فِي وَقْعِهِ بَدْرٍ وَ هِيَ اسْمُ بَيْتٍ كَانَتْ هُنَاكَ فَسَمِيَتْ الْغَزْوَةُ بِاسْمِهَا وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ جَمْعُ ذَلِيلٍ لِأَنَّ عَدَدَهُمْ وَ عَدَدَهُمْ كَانَتْ قَلِيلَةً لَا تَقْوَى عَلَى الْمَقَاوِمَةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تَتَوَانُوا عَنِ الْجِهَادِ بَعْدَ مَا رَأَيْتُمْ نَصْرَهُ اللَّهِ فِي بَدْرٍ وَ هَذَا لِأَجْلِ تَقْوِيَةِ قُلُوبِكُمْ فِي «أَحَدٍ» وَ تَصَدِيقِ لِقَوْلِهِ: «وَ اللَّهُ وَبَيْنَهُمَا» لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَي نَصْرَكُمْ لَتَقَوْمُوا بِشُكْرِ نِعْمَةِ عَلَيْهِمْ.

[١٢٥] إِذِ تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ

(١) الطلاق: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُواكُمْ مِنْ قُدْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)

أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ ذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ بَيَانَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مَلَائِكَةً لِتَقْوِيَتِهِمْ وَ تَعَزِيزِ مَرْكَزِهِمْ، وَ هَذَا تَذْكَيرٌ لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ بِسَابِقِ نَصْرِ اللَّهِ لَهُمْ مُنْزَلِينَ أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ وَ لَقَدْ حَارَبُوا الْكُفَّارَ وَ قَتَلُوا مِنْهُمْ.

[١٢٦] بَلَى لَيْسَ الْإِمْدَادُ فِي يَوْمِ بَدْرٍ بِثَلَاثَةِ آلافٍ فَقَطْ، بَلْ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ - تَقْوِيَةُ لِقُلُوبِهِمْ -: إِنْ تَصْبِرُوا عَلَى الْجِهَادِ وَ تَتَّقُوا الْمَعَاصِيَ وَ يَأْتُواكُمْ الْكُفَّارُ مِنْ قُدْرِهِمْ أَي فُورَانِهِمْ مِنْدَفِعِينَ عَاجِلًا نَحُوكُمْ هَذَا الَّذِي شَاهَدْتُمُوهُ إِذْ أَتَاكُمْ كَالسَّيْلِ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ خَذَلُوهُمْ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ كَثْرَتِهِمْ يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ وَ الْإِمْدَادُ إِرسَالُ الْمُدَدِ بِخَمْسَةِ آلافٍ أُخَرَ - غير الثلاثة آلاف - مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ مِنْ سَوْمِ الْخَيْلِ إِذَا عَلَّمَهُ بِعَلَامَةٍ، أَوْ عَلَّمُوا أَنْفُسَهُمْ بِعَلَامَةٍ حَيْثُ كَانَتْ عَلَيْهِمْ عَمَائِمُ بِيضٍ وَ أَرْسَلُوا

أذنبها على أكتافهم، و هناك قول آخر هو أن قوله تعالى: «بلى» لموضوع أحد، فإن الكفار هموا بالرجوع مرة ثانية بعد أن نالوا من المسلمين ما نالوا و خالف المسلمون فوعدهم الله تعالى أنهم إن رجعوا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة، لكن السياق يؤيد المعنى الأول، و الله أعلم.

[١٢٧] ثم بين سبحانه أن إنزال الملائكة و الوعد به ليس لأجل أنهم السبب في نصر المسلمين، بل لأجل البشارة و أما النصر فإنه من قبل الله وحده و لو بدون الملائكة، حتى تتقوى قلوب المسلمين في الجهاد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢٧ الى ١٢٨]

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ أَى مَا جَعَلَ إِنزَالَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْوَعْدَ بِهِ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ أَى بشاره لكم أيها المسلمون وَ لَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ أَى بهذا الإنزال وَ الْوَعْدَ وَ مَا النَّصْرُ أَى لَيْسَ الْعَوْنُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ فِي سُلْطَانِهِ الْحَكِيمِ فِي أَمُورِهِ.

[١٢٨] أما حكمه نصر المسلمين على أعدائهم في هذه الغزوة و سائر الحروب فهي ليقطع أي يفصل طرفاً من الذين كفروا الطرف من الأنفس بالقتل، و من الأراضي بالفتح و من الأموال بالغنيمه أو يكتبهم أي يخزيهم حتى يرغموا و تقل شوكتهم فينقلبوا إلى أهلهم خائبين لم ينالوا بغنيمتهم بل انعكس الأمر فكبتوا و أرغموا.

[١٢٩] لَيْسَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْأَمْرِ الْمُرْتَبِطِ بِهِؤَلَاءِ الْكُفَّارِ شَيْءٌ فَإِنَّ النَّصْرَ وَ الْهَزِيمَةَ وَ الْكِبْتَ كُلُّهَا مَرْتَبَةٌ بِإِرَادَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (١) وَ قَالَ:

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ (٢) ثم رجع السياق إلى تميم قوله في الآية السابقة «أو يكتبهم» أو يتوب عليهم بأن تكون نصره المؤمنين على الكفار سببا لهداية جماعة منهم إلى

(١) الأنفال: ١٨.

(٢) الحشر: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢٩ الى ١٣٠]

وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)

الإيمان فيتوب الله سبحانه عليهم فيما فعلوا سابقا من الكفر و العصيان أو يعذبهم بأن تظفروا عليهم فتأسروهم فإنهم ظالمون فتعذيبهم ليس ظلما من الله عليهم بل لظلمهم أنفسهم فالأمر ليس بيدك يا رسول الله، و إنما ينصر الله المؤمنين لأحد أغراض أربعة: قطع طرف منهم، أو هزيمتهم و إرغامهم، أو هدايتهم، أو تعذيبهم. و الاعتراض بجملة «ليس لك» لتركيز كون النصر من عند الله، فإن اعتراض جملة في وسط جملة متسقة توجب إلفات الذهن و تركيز المطلب أكثر من بيان الجملة في موقعها الطبيعي.

[١٣٠] لَيْسَ لَكَ شَيْءٌ وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِمَن يَشَاءُ فَإِنَّهُ تَصَرَّفَ فِي مَلِكِهِ لِحِكْمِهِ وَ غَايَةُ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ مِمَّنْ اسْتَحَقَّ الْغُفْرَانَ بِالطَّاعَةِ وَ التَّوْبَةِ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ مِمَّنْ اسْتَحَقَّ الْعَذَابَ بِالْكَفْرِ وَ الْعَصِيَانِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَتَعْذِيبُهُ أَقْلَ مِنْ غُفْرَانِهِ فَقَدْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ.

[١٣١] و يرجع السياق هنا إلى الربا و الإنفاق مما مر بنا سابقا، لمناسبة أن الربا من أسباب العذاب، و الإنفاق، من أسباب الغفران يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفةً فإن من شأن الربا أن يتضاعف مرات و مرات فإن ربا الألف لو كان خمسينا يصبح ربا

الألف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٣١ إلى ١٣٣]

وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

و الخمسين- فى سنه ثانيه- ألفا و مائه و اثنين و نصف، و هكذا يتضاعف الربا، و يمتص مال الفقراء و عملهم الذى يؤدون به الدين و الربا معا وَ اتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى لكى تفوزوا بالثواب و النعيم.

[١٣٢] وَ اتَّقُوا النَّارَ فَلَا- تفعلوا ما يوجبها الَّتِي أُعِدَّتْ وَ هِيَ آتٍ لِلْكَافِرِينَ الذين يكفرون فى الاعتقاد أو فى العمل، أو المراد الكفار

العقائديون، و التخصيص بهم من أن العصاة أيضا يذهبون إلى النار، و أن دوامها و بقاءها عليهم، أو أنهم معظمهم أهلها.

[١٣٣] وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فيما يأمركم و ينهاكم، و ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ للتعظيم و إفادة أمره أمر الله سبحانه لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى لكى ترحموا فى الدنيا و الآخرة.

[١٣٤] وَ سَارِعُوا أى بادروا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أى سبب المغفرة و هو الأعمال الصالحة الموجبة لغفرانه سبحانه و إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا أى سعتها- لا- العرض مقابل الطول- السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ فهى واسعة و سع السماوات و الأرض التى لا نهاية لها فى التصور- فَإِنَّ الفضاء الذى يعبر عنه بالسماء مما لا يصل الفكر إلى آخره و نهايته- أُعِدَّتْ وَ هِيَ آتٍ لِلْمُتَّقِينَ أى الذين يتقون المعاصى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٤

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٣٤ إلى ١٣٥]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاسِبِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)

[١٣٥] ثم بين المتقين بقوله سبحانه: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أموالهم فى السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ أى فى حالتى اليسر و العسر، أو حالتى السرور و الاغتمام وَ الْكَاسِبِينَ الْغَيْظَ الذين يكظمون غيظهم وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ يعفون عنهم إذا ظلموهم وَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فهو محسن إلى نفسه و إلى الناس وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و لا- يخفى أن المتقى هو الذى يجمع الصفات الحميدة كلها لكنها نثرت فى القرآن الحكيم بمناسبة.

و سوف نفسر «المتقى» فى كل مكان ببعض صفاته.

[١٣٦] وَ الَّذِينَ عَظِفَ عَلَى «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ» أى أن المتقين هم الذين إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أى معصية تفحش، أى تتجاوز الحد أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بما لا يبلغ حد الفاحشة، من سائر أقسام المعاصى، فالفاحشة أخذ من مفهومها كون المعصية كبيرة ذَكَرُوا اللَّهَ أى تذكروا نهى

اللَّهِ وَ عِقَابَهُ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ أى طلبوا غفران الله و ندموا على ما فعلوا وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ هُوَ اسْتِغْفَامٌ استعطافى فالقرآن الحكيم يستعطف المذنبين نحو التوبة و الاستغفار وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْمَعَاصِي، بل أفلحوا و ندموا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أى يعلمون كون الفعل خطيئة، فلا يصرون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٥

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٣٦ إلى ١٣٨]

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) فَذَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سَيْنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

على الذنب مع علمهم به.

[١٣٧] أولئك المتقون الذين هذه صفاتهم جزاؤهم مغفرة من ربهم يغفر ذنوبهم في الدنيا بسترها، وفي الآخرة بالعفو عنها وجنات تجري من تحتها الأنهار أى من تحت نخليها وأشجارها خالدين فيها أبد الأبدين ونعم أجر العاملين فإن الغفران والثواب من أفضل أجر العامل فإن أى أجر لا يبلغ مثل هذا الأمر الدائم الوارف.

[١٣٨] قد خلت أى مضت وسبقت من قبلكم أيها المخاطبون سين جمع سنه بمعنى الطريقة، فقد كانت فى الأمم السالفة طرائق، طريقة الحق وطريقة الباطل، طريقة الخير وطريقة الشر ..

وهكذا فسيروا فى الأرض اذهبوا إلى البلاد التى كانت فيها تلك الأمم المنقرضة فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أى تعرفوا على أخبارهم حتى تعلموا أنهم لم يربحوا وإنما أتوا وكذبوا الرسل وتأمروا ثم ماتوا ودفنوا ولم يبق لهم ذكر طيب فى الدنيا ولم تدم لهم النعمة التى من أجلها عملوا ما عملوا وإنما انتقلوا إلى عذاب الله سبحانه، ليكون فى ذلك عبرة لكم فلا تكونوا من المكذبين بل من المؤمنين المصدقين.

[١٣٩] هذا القرآن، أو هذا الذى ذكرنا من أحوال المؤمن والكافر، وما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٦

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٠]

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْمَأْغُورُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠)

قدمنا من العظة والإنذار بيان للناس دلالة وحجة وتوضيح لهم كيف ينبغي أن يسلكوا ويعملوا وهدى يهديهم إلى الحق وموعظة وعظ وإرشاد للمؤمنين فإنهم هم الذين يستفيدون منه، وإن كان بيانا للناس عامة.

[١٤٠] وهنا يرجع السياق إلى ذكر غزوة أحد، لتشجيع المؤمنين وتصيرهم على تحمل المكاره، بعد ما بين أحوال المؤمن والكافر، حتى تقوى عزيمتهم، وتطمئن قلوبهم ولا تهنوا من الوهن أى لا تضعفوا عن قتال الأعداء ولا تحزنوا مما نالكم من القتل والجرح والهزيمة وأنتم المغلورون الظافرون الغالبون فإن الظفر يذهب بحرارة الخسارة إن كنتم مؤمنين فإن من كان مؤمنا لا يهن ولا يحزن فإن طاقة الإيمان تؤمن الإنسان بالقوة والفرح أما القوة فهى مستمدة من الله سبحانه وأما الفرح فللغلبة أو لثواب الله سبحانه فيما لو غلب.

[١٤١] ثم بين سبحانه أن ما أصابهم من المكاره ليس خاصا بهم بل أصاب الكافرين مثل ما أصابهم فهم فى ذلك سواء، لكن المؤمنين يرجون ثواب الله سبحانه مما لا يترقبه الكافرون فهم أجدر بالصبر والثبات وعدم الوهن والحزن إن يمسسكم أى يصبكم أيها المسلمون فى غزوة أحد قرح جرح وألم فى أحد فقد مس القوم الكافرين قرح مثله فى أحد حيث أصيب الكفار بالألم والجرح أيضا، أو المراد مسهم القرح فى بدر حيث قتل المشركون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٧

وهزموا وتلك الأيام أيام النصر والهزيمة وأيام القرح نداولها أى نصرتها بين الناس فيوم لهؤلاء على أولئك، و يوم لأولئك على هؤلاء، فإذا نصرنا المؤمنين كان ذلك لإيمانهم وإذا هزموا كان امتحانا لهم.

وليعلم الله الذين آمنوا أى أن صرف الأيام لتمييز المؤمن الحقيقي من غيره فإنه

«عند قلب الأحوال تعرف جواهر الرجال»

«١» و

«عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان»

«٢»، ومعنى «ليعلم» أن معلومه سبحانه يقع فى الخارج، لا أنه كان جاهلا- سبحانه- ثم علم، فإن العلم لما كان أمرا إضافيا بين العالم والمعلوم، يقال علم باعتبارين، أما باعتبار العالم فيما كان جاهلا ثم علم، وأما باعتبار المعلوم فيما كان المعلوم غير خارجي ثم صار

خارجيا و ل يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ أى أن مداولة الأيام لفوائد و من جملة تلك الفوائد أن يتخذ الله سبحانه منكم مقتولين يستشهدون فى سبيل الله و يبلغون الدرجات الراقية بالشهادة، أو ليكون جماعة شهداء على آخرين بالصبر أو الجزع، بالثبات أو الهزيمة، فإن إيصال جماعة قابلة إلى مرتبة أن يكونوا شهداء نعمة و غرض رفيع، لكن المعنى الأول أقرب و الله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ الذين يظلمون أنفسهم بالكفر، أو بالهزيمة.

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٦٣.

(٢) غرر الحكم: ص ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٤١ إلى ١٤٣]

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

[١٤٢] و من فوائد تداول الأيام بين الناس أنه لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أى يخلصهم من المنافقين فيتبين المؤمن من المنافق، أو يخلصهم من الذنوب، فإن بالأهوال تذاب الذنوب، و بالشدائد تكفر الخطايا و ل يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ يهلكهم، فإن الكفار ينقصون شيئا فشيئا حتى يهلكوا جميعا.

[١٤٣] ثم يبين سبحانه فائدة أخرى لتداول الأيام و هى أن المؤمن لا يدخل الجنة بمجرد إظهار الشهادتين و إنما اللازم أن يجاهد و يعمل و فى تداول الأيام يحصل هذا العمل و هذا الامتحان المؤهل لدخول الجنة، لكنه جاء الكلام فى صورة الاستفهام تلويحا فى الكلام، و تفننا فى التعبير أَمْ حَسِبْتُمْ أى هل حسبتم و ظننتم أيها المسلمون أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ بمجرد الإيمان بدون الامتحان و لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ أى لم يقع منكم جهاد حتى يتعلق علم الله به و لَمَّا يَعْلَمِ الصَّابِرِينَ فلم يقع منهم صبر حتى يتعلق به علم الله سبحانه و دخول الجنة بدون الجهاد و الصبر لا يكون، فتداول الأيام يوجب جهاد المؤمنين و صبرهم حتى يتأهلوا لدخول الجنة.

[١٤٤] ثم يشير القرآن الحكيم إلى تأنيب المؤمنين فى موقفهم يوم أحد، حيث أن جماعة منهم قبل الغزوة كانوا يتطلعون إلى الجهاد و يتمنون الاستشهاد ثم فروا منهزمين، و فوق ذلك أن إيمان بعضهم كان بدرجته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٣٩٩

[سورة آل عمران (٣): آية ١٤٤]

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

من الوهن حتى أنهم لما سمعوا بموت الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كادوا أن يرتدوا و لَقَدْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ و لقاء الموت كناية عن لقاء مقدماته و الوقوع فى الأهوال المنتهية إليه فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ فى الغزوة إذ رأيتم غلبة الكفار و قتل جماعة من المؤمنين و أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ أى تشاهدون المعركة، و هذا تأكيد لمعنى «رأيتموه» حتى لا يتوهم أحد أن الرؤية كانت بالقلب، فإن «رأى» يستعمل بمعنى «علم».

[١٤٥] و مَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إِلَّا رَسُولٌ أى ليس هو إلها لا- يموت إنما هو بشر اختاره الله للرسالة فيجرى عليه ما يجرى على البشر من الموت و القتل، و ليس بدعا من الرسل بل قَدْ خَلَتْ أى مضت و تقدمت مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ الذين جرت عليهم سنة الله من الموت و مفارقة الحياة أَفَإِنْ مَاتَ مَوْتًا عَتِيَادِيًا أَوْ قُتِلَ و استشهاد انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ استفهام إنكارى توبيخى أى لم يكن حالكم هكذا، حتى ترتدوا بموت النبى، و كنى عن الارتداد بالمشى القهقرى «الانقلاب على الأعقاب» الذى هو رجوع نحو الوراء و

مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ أَى من یرتد عن دینه فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا إِذِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ غَنِى مَطْلَقٌ لَا یَحْتَاجُ إِلَى إِیْمَانِ أَحَدٍ حَتَّى یَضُرَّهُ ارْتِدَادُهُ وَ سَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ الذِّینَ یَشْكُرُونَ نِعْمَةَ الْإِیْمَانِ وَ یَثْبُتُونَ عَلَیْهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ٤٤٩

[سورة آل عمران (٣): آية ١٤٥]

وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا - وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ سَيَنْجِزِى الشَّاكِرِينَ (١٤٥)

فإن الارتداد من أعظم أقسام الكفر، كما قال سبحانه: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ «١».

[١٤٦] و هنا تلميح إلى عتاب آخر موجه للمسلمين لانهم يوم أحد خوف الموت، فلم الفرار؟ أمن خوف الموت، و ليس الموت إلا- بإذن الله تعالى، و ما قدر من أجل للإنسان، فالفرار و عدمه سيان بالنسبة إلى الوقت المحدد لحياة الإنسان و ما كان لنفس أن تموت إن النفوس ليست هملا حتى تموت من تموت و تبقى من تبقى بأسباب عادية من غير توسط مشيئة الباري سبحانه، فإن الموت لا يكون إلا بإذن الله و مشيئته كتاباً مؤجلاً أى كتب الله ذلك الوقت فى اللوح المحفوظ كتاباً ذا أجل و مدة محدودة معلومة و مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ خَيْرَهَا وَ تَعِبَ وَ عَمِلَ لِأَجْلِ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا فَإِنِ الْعَمَلُ يَرَى اللَّهُ نَتِيجَةَ عَمَلِهِ وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَ خَيْرَهَا وَ عَمِلَ لِأَجْلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا عَمِلَ، فَارْغَبُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِي ثَوَابِ اللَّهِ وَ أَجْرِهِ الْآخِرَى بِالْجِهَادِ وَ الثَّبَاتِ وَ لَا تَفَرُّوا كَمَا فَرَرْتُمْ فِي أَحَدٍ وَ سَيَجْزِى الشَّاكِرِينَ جِزَاءً حَسَنًا، وَ مِنَ الشُّكْرِ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ قِيَمَةَ مَا حَوَّلَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَ وَفَّقَهُ لِلْجِهَادِ بَيْنَ يَدَى رَسُولِهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، فَمَنْ شَكَرَ ذَلِكَ يَجْزِى جِزَاءً الشَّاكِرِينَ.

(١) الحجرات: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٤٦ الى ١٤٧]

وَ كَذَآئِنِ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِئِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ تَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَ أَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)

[١٤٧] و ما لكم أيها المسلمون وهتم في غزوة أحد و فررتم؟ ألم يمكنكم الاقتداء بالمؤمنين السابقين الذين كانوا مع الأنبياء يصمدون في وجه الباطل؟ وَ كَآئِنِ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِئِيُونَ كَثِيرٌ فَإِنِ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَاتَلُوا، وَ جَاهَدُوا مَعَهُمْ وَ تَحْتَ لَوَائِهِمْ أَنَسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَبَانِيِّينَ مَنْسُوبِينَ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى بِالطَّاعَةِ وَ الْعِبَادَةِ وَ الْإِیْمَانِ، أَوْ بِمَعْنَى أُخْيَارِ فُقَهَاءِ فَمَا وَهَنُوا أَى مَا فَتَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَ السَّلْبِ وَ الْجُرُوحِ وَ الْقُرُوحِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى شِدَائِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ مَا ضَعُفُوا عَنْ عَدُوهِمْ وَ مَا اسْتَكَانُوا أَى مَا خَضَعُوا وَ لَا تَضَرَعُوا لِعَدُوهِمْ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ الذِّینَ یَصْبِرُونَ فِي الشَّدَائِدِ وَ فِي الْحُرُوبِ.

[١٤٨] وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ أَى قَوْلِ أَوْلَئِكَ الرَّبَانِيِّينَ عِنْدَ الْجِهَادِ وَ مَلَاقَةِ الْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا فَكَانُوا یَسْتَغْفِرُونَ عِنْدَ الْمَلَأَةِ مِمَّا فَاتَتْ مِنْهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ اسْتِعْدَادًا لِلِقَاءِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ طَاهِرِينَ وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا أَى تَجَاوِزَنَا الْحُدُودَ وَ تَفْرِيطَنَا وَ تَقْصِيرَنَا وَ تَبَّتْ أَقْدَامُنَا حَتَّى لَا تَزُلْ أَمَامَ الْأَعْدَاءِ فَتَنْهَزُمْ وَ أَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَمْ جَاهَدُوا وَ جَلِينِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ لَمْ یَطْلُبُوا إِلَّا الْعَفْوَ فِي تَوَاضَعٍ وَ خُشُوعٍ، وَ لَمْ یَقْصِدُوا إِلَّا نَصْرَةَ الدِّينِ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُزِدُواكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩)

[١٤٩] فجزاء على ما سلف منهم من الصبر والثبات و الجهاد في خشوع و تواضع آتاهم الله أى أعطاهم الله سبحانه ثواب الدنيا بالفتح و الغلبة و العزة و الرفاه و حُسن ثواب الآخرة بجنات تجرى من تحتها الأنهار، أى ثواب الآخرة الحسن، و الإتيان بكلمة «حسن» هنا دون «ثواب الدنيا» لعله للإشارة إلى أن ثواب الآخرة هو الذى يوصف بالحسن، أما الدنيا فإنها زائلة فلا قيمة لثوابها، أو المراد «أحسن» أقسام ثواب الآخرة الذى لا يعطى إلا للمجاهدين، بخلاف الدنيا فإن ثوابها عام للبر و الفاجر و الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و محبة الله سبحانه فوق كل ثواب كما قال: وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ «١».

[١٥٠] لما اشتد الأمر يوم أحد أخذ جماعة من المنافقين يدعون الناس إلى الارتداد عن دينهم حتى يستريحوا فأنزل الله فيهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْمَنَافِقِينَ، أو من اليهود و النصارى الذين أخذوا يشيعون أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم قتل فارجعوا إلى دينكم و عشائركم يُزِدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ كَفَارًا كَمَا كُنْتُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ قد خسرتم الدنيا و الدين، فإن دنيا الجاهلية كانت فوضى و فقرا و رذيلة.

(١) آل عمران: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٥٠ إلى ١٥٢]

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

[١٥١] بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ أى هو أولى بكم من الكفار و المنافقين، و هو ينصركم على أعدائكم و هو خَيْرُ النَّاصِرِينَ لأن فى نصرته خيرا للدارين بخلاف نصره غيره.

[١٥٢] سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أى نقذف الخوف و الفرع فى قلوبهم حتى تغلبهم و هكذا ينصركم الله تعالى بما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ أى بسبب شركهم ما لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا أى برهانا و حجة، فإن شركهم كان تقليدا لا عن دليل و حجة و مأواهم أى محلهم و مستقرهم النار فى الآخرة و بئس مَثْوَى الظَّالِمِينَ أى أن النار بئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر. و قد ورد أن الآية نزلت حين هم المشركون- يوم أحد- بالرجوع إلى المسلمين لاستئصالهم عن آخرهم فلما عزموا ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به، و لا- يخفى أن إلقاء الرعب فى قلب الكافر أمر طبعى فإن المسلم يستمد القوة من الله سبحانه أما الكافر فحيث لا يعتقد به سبحانه يكون قلبه هواء فيتسرب إليه الخوف.

[١٥٣] ثم بين سبحانه أن هزيمتهم يوم أحد لم تكن إلا- بسبب مخالفتهم أوامر الله و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و إلا فالله سبحانه نصرهم كما وعد، حتى هزموا المشركين و لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ و فى لكم بما وعد من نصرتمكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٤

على الكفار إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ أى تقتلونهم، فإن «حسّه» بمعنى قتله و أبطل حسّه و حياته، و معنى «بإذنه»: بأمره، فإن الله أذن لهم فى القتال كما قال: أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا «١»، حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ جِبْتُمْ و كفتتم و خالفتم أمر الرسول و تَنَازَعْتُمْ فى الأمر هل يبقى الرماة الخمسون فى الشعب كما أمرهم الرسول أم يخرجوا يجمعون الغنائم؟- كما تقدم- و بالأخر عَصَيْتُمْ أمر الرسول فى لزوم

أما كنكم فتخليتم عن الشعب، فقد تخلى من الخمسين سبع و ثلاثون مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَا تُحِبُّونَ مِنْ هَزِيمَةِ الْكُفَّارِ وَ نَصْرَةَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ هُمُ الَّذِينَ خَالَفُوا الرَّسُولَ طَلَبُوا لِلْغَنِيمَةِ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ هُمُ: عَبْدُ اللَّهِ رَئِيسُ الرَّمَاةِ فِي الشَّعْبِ وَ اثْنِي عَشَرَ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ ثَبَتُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ ثُمَّ صَيَّرَفَكُمُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ أَيُّ عَنِ الْكُفَّارِ، بَلْ تَوَجَّهْتُمْ إِلَى الْغَنَائِمِ عَوْضَ أَنْ تَحْتَفِظُوا بِأَمَاكِنِكُمْ، فَإِنْ فِي حِفْظِ الْمَكَانِ كَانَ تَوَجُّهُا نَحْوَ الْكُفَّارِ لَثَلَا يَرْجِعُوا إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ، بِخِلَافِ التَّوَجُّهِ نَحْوَ الْغَنِيمَةِ فَإِنَّهُ كَانَ صَرَفًا عَنِ الْكُفَّارِ، وَ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ كَسَائِرِ الْإِضَافَاتِ نَحْوِ «وَمَنْ يَضِلَّ» أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنْ الصَّرْفَ كَانَ عَقُوبَةً لَهُمْ عَلَى إِرَادَتِهِمْ لِلدُّنْيَا

(١) الحج: ٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٥

[سورة آل عمران (٣): آية ١٥٣]

إِذْ تُضِيْعِدُونَ وَ لَا تَلُوْنُ عَلٰى أَحَدٍ وَ الرَّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِىْ أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ (١٥٣)

لِيَبْتَلِيَكُمْ أَيُّ يَمْتَحِنِكُمْ وَ يَخْتَبِرِكُمْ، حَتَّى يَظْهَرَ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْكُمْ خَطِيئَتَكُمْ بِمُخَالَفَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَنْصُرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَ يَعْفُو عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَ مَعْنَى الْفَضْلِ: الْمَنِّ وَ النِّعْمَةِ، فَإِنَّهُ يُعْطِيهِمْ فَضْلًا أَيْ فَوْقَ اسْتِحْقَاقِهِمْ.

[١٥٤] وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ إِذْ تُضِيْعِدُونَ أَيُّ تَذْهَبُونَ فِي وَادِيٍّ أَحَدٍ لِلنَّهْزَامِ، فَإِنَّ الْإِصْعَادَ الذَّهَابَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا تَلُوْنُ عَلٰى أَحَدٍ أَيُّ لَا تَلْتَفِتُونَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ وَرَائِكُمْ بَلْ كُلُّ هَمِّكُمْ السَّرْعَةَ فِي الْفِرَارِ حَتَّى لَا- يَأْتِيَكُمْ الطَّلَبُ وَ الرَّسُوْلُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَدْعُوْكُمْ يَنَادِيكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ أَيُّ مِنْ وَرَائِكُمْ، يُقَالُ: جَاءَ فُلَانٌ فِي آخِرِ النَّاسِ أَيُّ مِنْ وَرَائِهِمْ فَأَتَابَكُمْ أَيُّ جَازَاكُمْ اللَّهُ عَلَى فِرَارِكُمْ عَمَّا مَتَّصِلًا بِغَمِّ الْهَزِيمَةِ وَ غَمِّ الْقَتْلِ الَّذِينَ قَتَلُوا مِنْكُمْ- وَ يَحْتَمِلُ فِي اللَّفْظَيْنِ أُمُورٌ- لِكَيْلَا تَحْزَنُوْا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الضَّرْرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا وَقَعَ فِي الشَّدَائِدِ وَ جَزَبَهَا وَ مَارَسَهَا تَصَلَّبَ نَفْسَهُ وَ تَقَوَّى رُوحَهُ فَلَا تَتْرَحَّجُ بِمُصِيبَةٍ وَ لَا تَهْتَرُ بِكَارِثَةٍ، وَ هَكَذَا كَانَتْ هَزِيمَةُ أَحَدٍ دَرَسًا وَ عِبْرَةً حَتَّى يَصْغُرَ فِي نَفْسِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّ مَا يَفُوتُهُمْ مِنْ خَيْرَاتٍ وَ كُلِّ مَا يَصِيبُهُمْ مِنْ شُرُورٍ وَ آلَامٍ وَ اللَّهُ خَبِيْرٌ ذُو خَبْرٍ وَ إِطْلَاعٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٦

[سورة آل عمران (٣): آية ١٥٤]

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعِسًا يُغْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

بِمَا تَعْلَمُونَ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِكُمْ.

[١٥٥] ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ الَّذِي غَشِيَكُمْ لَهْزِيمَتِكُمْ أَمْنَةً أَيُّ أَمْنًا نَاعِسًا أَيُّ نَوْمًا، وَ هُوَ بَدَلُ اسْتِمَالٍ ل «أَمْنَةً» فَإِنَّهُمْ نَامُوا مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ وَ النَّصَبِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ خَوْفُهُمْ وَ ذَهَبَ الْكُفَّارُ، وَ «أَمْنَةً» مُصَدَّرٌ كَالْعِظْمَةِ وَ الْغَلْبَةِ. لَكِنْ هَذَا النَّعَاسُ كَانَ يُغْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ فَقَطُّ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَقٌّ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَتْرُكُهُ وَ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ يُوْجِبُ الثَّوَابَ وَ الْفَائِدَةَ لَهُمْ وَ هُنَاكَ طَائِفَةٌ ثَانِيَةٌ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ مَنَافِقِينَ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَفَكَّرُونَ فِي هَزِيمَتِهِمْ لَا يَنَامُونَ مِنَ الْحُزْنِ وَ الْخَوْفِ حِينَ انْتَشَرَ بَيْنَهُمْ أَنَّ

الكفار عازمون على الرجوع و كانوا يشكون في نصره الله و لذا لم يتمكنوا أن يناموا خوفاً يظنون بالله غير الحق و أنه لا ينصر نبيه ظن الجاهلية من الكفار المكذبين بوعد الله سبحانه يقولون ما في نفوسهم من ظنون الجاهلية: هل لنا من الأمر أمر الغلبة و النصره من شيء في مقام الاستنكار و التعجب أن ينتصروا على الكفار إذا رجعوا قُلْ لهم يا رسول الله: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ينصر من يشاء، فللمسلمين النصر و الغلبة بإعطاء الله لهم إياها يُخْفُونَ هؤلاء المنافقين في أنفسهم النفاق و الكفر ما لا يُتَدُونَ لَكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٧

[سورة آل عمران (٣): آية ١٥٥]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)
 أي لا يتجرءون على إظهاره يقولون لو كان لنا من الأمر أي من النصره و الغلبة شيء و كنا حقيقة منصورين ما قتلنا أي ما قتل أصحابنا هاهنا في غزوة أحد قُلْ يا رسول الله في جوابهم: إن كون الأمر لنا لا يلزم أن لا يقتل منا أحد فإن الإنسان يموت إذا جاء أجله و لو كان في داره و منزله لو كُنتُمْ في بيوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتِيلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ أي خرج الذين كتب عليهم القتل - بأن رقم موتهم في اللوح المحفوظ- إلى مصارعهم. و «مضاجع» جمع مضجع بمعنى محل النوم و لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ يختبر الله ما في صدوركم، فإن ما في الصدور من الإخلاص و النفاق، و الثبات و الوهن، إنما يظهر عند الشدائد و المحن، و هذا عطف على قوله: «ليبتليكم» أو مستأنفة، أي فعل الله سبحانه ما فعل لِيَبْتَلِيَ و لِيَمَحَّصَ أي يخلص ما في قلوبكم بأن يكشفه للناس و لكم، حيث أن الإنسان يظن أشياء فإذا حدث الحادث يظهر له خلاف ما كان يظن بنفسه و الله عليم بذات الصدور فليس الامتحان لأن يعلم هو تعالى، بل لأن يظهر ما يعلمه.

[١٥٦] إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا أُدْبِرُوا وَ انْهَزَمُوا مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٨

[سورة آل عمران (٣): آية ١٥٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦)
 يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ يوم أحد الذي التقى فيه جمع المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بجمع المشركين بقيادة أبي سفيان إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ طلب زلتهم و عصيانهم بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا أي بسبب بعض المعاصي التي كانوا يعملونها فأخذتهم عاقبتها و شؤمها و لقد عفا الله عنهم بعد ما ندموا و رجعوا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يغفر للمذنب إذا تاب حليم لا يعجل بالعقوبة بل يمهل المذنب كي يتوب و يتوب.

[١٥٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا اعْتَادُوا، وَ هُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَا يَدِينُونَ بِمَا وَرَاءَ الْغَيْبِ، أَوْ كَفَرُوا عَمَلًا- وَ هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَشْبَهُهُمْ وَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ فِي الْعَقِيدَةِ، أَوْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، حَتَّى يَشْمَلَ قَوْلَ الْكَافِرِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ قَوْلَهُ: «لِإِخْوَانِهِمْ» أَي قَالُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِخْوَانِ الَّذِينَ سَافَرُوا فَمَاتُوا، أَوْ حَارِبُوا فَقُتِلُوا إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَي ذَهَبُوا لِأَجْلِ التِّجَارَةِ وَ نَحْوِهَا، يُقَالُ: ضَرَبَ فُلَانٌ فِي الْأَرْضِ إِذَا سَافَرَ، وَ تَخْصِيصُ الْأَرْضِ بِالذِّكْرِ، لِكَوْنِ السَّفَرِ غَالِبًا عَنِ طَرِيقِ الْبَرِّ أَوْ كَانُوا غُزًى جَمْعُ «غَزَا»، أَي حَارِبُوا الْأَعْدَاءَ: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مُقِيمِينَ فِي أَوْطَانِهِمْ مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا فَقَدْ حَسَبُوا أَنَّ الْمَوْتَ وَ الْقَتْلَ إِنَّمَا هُمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٠٩

بالأسباب الطبيعية بما وراء المادة و الإحساس. مع أن الموت و القتل لا يكونان إلا بتقدير و قضاء و ليس يفيد في ذلك البقاء، و في هذا رد لإرجاف المنافقين الذين كانوا يلقون تبعه قتل المؤمنين في أحد على النبي و أنه صلى الله عليه و آله و سلم أخرجهم فقتلوا، و معنى القضاء و القدر في الأمور التكوينية: التخطيط و تهيتها الأسباب، فكما أن المهندس الذي يريد بناء دار يخطط شكل الدار المراد

بنائها ثم يحضر مواد البناء من آجر و جص و حديد و خشب، كذلك ما فى العالم من الأمور التكوينية خطت و علمها الله سبحانه و أحضرت موادها. لكن ليس معنى ذلك أن الأمور خارجة عن أيدي البشر و إنما جعل الدعاء و الصدقة و الأسباب الظاهرة مستثنيات للتخطيط و الآلات و الأسباب و كل ذلك أيضا بعلمه سبحانه، و على كل فليس الموت و القتل مما يكون سببها السفر و الغزو كما زعمه الكفار بل هناك أسباب خفية تدير هذين الأمرين إلى جنب الأسباب الظاهرية، فليس كل سفر و غزو موجبا للموت كما ليس كل إقامة موجبا للبقاء، و الكفار إنما قالوا ذلك يريدون تشييط الناس عن الجهاد ليَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ الاعتقاد- المفهوم من الكلام- حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ لما حصل لهم من الخيبة حيث رأوا رجوع إخوانهم من السفر و الجهاد بالريح و الظفر، و من الطبيعي أن يحزن و يخسر الشخص الجامد لما ناله الشخص المتحرك من الخير و التقدم المحتومين، و اللام فى «ليجعل» إما لام الأمر، لبيان التأكيد، أو لام العاقبة، أى كانت عاقبة هذا الاعتقاد الحسرة و الحزن و اللهُ يُخَيِّى الأَرْض و الجماد و الإنسان و يَمِيتُ فليس السفر و الغزو تمام سبب الموت و اللهُ بما تَعْمَلُونَ بصيرٌ فارغوا فى الطاعة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٥٧ الى ١٥٩]

وَلَيْتَ قَاتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَيْتَ قَاتِلْتُمْ لِبِأَلَى اللَّهُ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ إِذْ تَبَرَأْتُمْ مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

و الجهاد، و احذروا من المخالفة و الفرار، فإن الله سبحانه يعلم أعمالكم، و يبصر صنعكم.

[١٥٨] ثم لنفرض أن السفر و الغزو سبب الموت فهل الموت مع المغفرة خير أم الحياة لجمع الأموال التى يحيها الكافر الذى يبقى فى بلده و لَئِن قَاتِلْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ جِهَادِ أَعْدَائِهِ أَوْ مُتُّمْ فِي سَبِيلِ اكْتِسَابِ الرِّزْقِ وَ التِّجَارَةِ وَ الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ حَيْثُ يَغْفِرُ لَكُمْ وَ يَرْحَمُكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ مُطِيعِينَ لَهُ مِمَّا يَجْمَعُونَ أَيْ يَجْمَعُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْبَاقُونَ فِي بِلَدِهِمْ خَوْفًا مِنَ الْخُرُوجِ، فَإِن مِّنْ يَبْقَى يَكْتَسِبُ وَ يَجْمَعُ مَالًا.

[١٥٩] ثم أن الموت و القتل لا يسببان انقطاع الحياة حتى يخشاهما الإنسان و يرفع اليد عن مقاصده العلية من خشيتيهما و لَئِن مُتُّمْ أَوْ قَاتِلْتُمْ لِأَلَى اللَّهُ تُحْشَرُونَ فيجازيكم على أعمالكم فخير لكم أن تطيعوه حتى تكونوا مرادا لثوابه و فضله.

[١٦٠] و هنا يلتفت السياق ليشير فى النبى صلى الله عليه و آله و سلم عاطفته الكامنة نحو المؤمنين حتى يعفو عن خطأهم فى أحد، حيث أدخلوا الشعب حتى سيطر المشركون على المعركة، و فعلوا تلك الأفاعيل بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه من جرح و قتل و تمثيل فيما رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ «ما» زائدة أى بسبب رحمة من الله سبحانه على المؤمنين لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ إِذْ تَبَرَأْتُمْ مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ حَيْثُ يَغْفِرُ لَكُمْ وَ يَرْحَمُكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ مُطِيعِينَ لَهُ مِمَّا يَجْمَعُونَ أَيْ يَجْمَعُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْبَاقُونَ فِي بِلَدِهِمْ خَوْفًا مِنَ الْخُرُوجِ، فَإِن مِّنْ يَبْقَى يَكْتَسِبُ وَ يَجْمَعُ مَالًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١١

[سورة آل عمران (٣): آية ١٦٠]

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

جعل الله سبحانه رحيمًا بهم لينا عليهم و لَوْ كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَظًا جَافِي اللِّسَانِ قَاسِي القَلْبِ غَلِظًا مَعْنَوِيًا وَ هُوَ الَّذِي لَا يَلِينُ وَ لَا يَحْنُو لَانْفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ أَيْ تَفَرَّقُوا عَنْكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ إِذَا أَخْطَئُوا وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَيْ اطْلُبْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْغَفْرَانَ لَمَّا صَدَرَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ إِنْ كَانَ أَرْحَمَ بِهِمْ لَكِنْ ذَلِكَ لَزِيَادَةِ عَطْفِ النَّبِيِّ، فَإِن مِّنْ يَطْلُبُ الْمَغْفِرَةَ لِأَحَدٍ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَزُولَ مِنْ قَلْبِهِ مَا عُلِقَ بِهِ مِنَ الْكِرَاهِيَةِ، وَ لَتَكْثِيرِ مَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَيْثُ يَعْلَمُونَ بِأَنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لِتَأْلِيفِ قُلُوبِهِمْ وَ لتعليمهم المشورة فى أمورهم، فإن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان فى غنى عنهم بما كان يسدده الله سبحانه بالوحى فَإِذَا عَزَمْتَ بَعْدَ الْمَشُورَةِ عَلَى فَعَلِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ لَا تَهْتَمْ بِمَنْ يَخَالَفُ رَأْيَهُ رَأْيَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ الْوَاتِقِينَ بِهِ

المعتمدين عليه الذين يوكلون أمورهم إليه.

[١٦١] إِنْ يُنْصِرْكُمُ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَ ذَلِكَ إِذَا اسْتَحَقَقْتُمْ ذَلِكَ بِإِيجَادِ أَسْبَابِ النَّصْرِ وَ إِطَاعَةِ أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ أَى لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَغْلِبَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ وَ خَذَلَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكْلَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَا يَعِينُهُمْ فِى أُمُورِهِمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يُنْصِرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ اسْتِفْهَامِ اسْتِنْكَارِى، أَى لَا يَكُونُ نَاصِرًا لَكُمْ يَنْصِرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ سُبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٦١ إلى ١٦٢]

وَ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بَشَسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يَتَّقُونَ بِهِ وَ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ.

[١٦٢] لقد كان من أسباب تخلى المسلمين عن مكانهم من الجبل - يوم أحد - خوفهم ألا يقسم لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الغنائم، وقد تكلم بعض المنافقين فى وقعة بدر حول قطيفة حمراء فقدت فقالوا بأن الرسول أخذها، ولذا نزلت الآية نافية أن يغفل الأنبياء و يخونوا و ما كان لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ أى لا يجوز للأنبياء الغلول أى الخيانة، و الخيانة محرمة مطلقا لكن المورد أتى خاصا حيث أن الكلام كان حوله و مَنْ يَغُلُّ شَرِيفًا كَانَ أَوْ وَضِعًا قَلِيلًا كَانَ غُلُولُهُ أَوْ كَثِيرًا يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ

فى الحديث «يأتى به على ظهره»

«١». ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ أَى تعطى جزاء كسبها كاملا- غير منقوص و هُمْ لَا- يُظْلَمُونَ فلا- ينقص من أجورهم شىء و لا يعذبون فوق استحقاقهم.

[١٦٣] أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ بَاتِبَاعِ أَمْرِهِ وَ اجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ كَمَنْ بَاءَ أَى رَجَعَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ فَكَانَهُ رَجَعَ إِلَى أَعْمَالِهِ الدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَعَلِمَ مَاذَا يَرِيدُ، فَقَدْ رَجَعَ مَعَ السَّخَطِ بَيْنَمَا رَجَعَ غَيْرَهُ مَعَ الرِّضْوَانِ وَ مَأْوَاهُ أَى مَرْجِعُهُ وَ مَصِيرُهُ جَهَنَّمُ وَ بَشَسَ الْمَصِيرُ أَى

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٣

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٦٣ إلى ١٦٤]

هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِصَبْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

أن المحل الذى صار إليه محل سيئ، فعلى الإنسان أن لا يفز من الحرب و لا يتخلف عن أمر الله و الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى يبوء بالغضب و السخط و يكون مصيره النار.

[١٦٤] هُمْ أَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَاءُوا بِالسَّخَطِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، ذُوو دَرَجَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ فَلِلْمُؤْمِنِينَ دَرَجَاتٌ رَفِيعَةٌ وَ لغيرهم درجات بذئته، أو أن لكل فريق درجات من حيث القرب و البعد، و حذف كلمة «ذوو» لما تعارف من المجاز فى هذه التعبيرات بعلاقة الحال و المحل فيقال عند العبد: زيد الدرجة الأولى، عمرو الدرجة الثانية، و هكذا وَ اللَّهُ بِصَبْرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ فيجازيهم حسب أعمالهم فلا يزهى الإنسان فى الإحسان لأنه لا يقدر، و لا يجرى العاصى فى المعصية لأنه لا يرى.

[١٦٥] إِنْ النِّعْمَةُ الَّتِى أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّا يُوْجِبُ شُكْرَهَا وَ التَّضْحِيحَةَ فِى سَبِيلِهَا فَهِيَ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ جَدًّا لَا تَمَاتِلُهَا نِعْمَةٌ وَ لَا يَبْلُغُ شَأْنُهَا إِحْسَانَ وَ مَنِيَّةً لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ أَى أَنْعَمَ اللَّهُ، فَإِنَّ الْمَنَّ الْقَطْعَ، وَ تَسْمَى النِّعْمَةُ مَنِيَّةً لِأَنَّهَا تَقْطَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْبَلِيَّةِ وَ الْفَاقَةِ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا خَصُوا بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الْمَنَّةَ عَامَةٌ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اسْتَفَادُوا مِنْهَا دُونَ سِوَاهُمْ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا فَإِنَّهُ أَكْبَرُ النِّعَمِ، وَ لِذَا لَمْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَيَّةِ نِعْمَةٍ سِوَاهَا، فَإِنَّ فِي الْإِرْسَالِ صِلَاحَ الدِّينِ وَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ إِكْمَالَ الْبَشَرِ حَسَبَ قَابِلِيَاتِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ تَذْكَيرٌ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى، إِذْ كَوْنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٤

[سورة آل عمران (٣): آية ١٦٥]

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)

لا الملائكة و الجن - تشریف لهم و إظهار لفضل هذا النوع، و حيث أن السياق حول مؤمن الأنس لا يستشكل بأن المؤمنين أعم من الجن و ليس الرسول من أنفسهم يتلوا الرسول عليهم آياته تلاوة، كما يتلو المعلم الدرس على التلميذ و يُزَكِّيهم يطهرهم من الأدناس الظاهرية بأوامر النظافة و ما أشبهه، و الأقدار الخلقية و الاعتقادية يرشدهم إلى الحق و الفضيلة و يعلمهم الكتاب يفهمهم معانيه، و هو غير التلاوة و الحكمة و هو علم الشريعة، أو مطلقا، بمعنى أنه يعلمهم مواضع الأشياء خيرا و شرها فإن الحكمة كما قالوا: «وضع الشيء موضعه».

وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الرَّسُولُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أَى انحراف واضح في عقائدهم و أخلاقهم و أعمالهم، فعلى المؤمنين أن يضحوا في سبيل هذه النعمة بكل غال و رخيص، فما فعلوا يوم أحد كان خلاف الشكر، و ما ضحوا فيه لم يكن كثيرا مقابل هذه النعمة العظمى.

[١٦٦] أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ أَى هَلْ أَنْتُمْ بِحَيْثُ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ فِي أَحَدٍ وَ الْحَالُ أَنْكُمْ فِي بَدْرٍ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ مِثْلَهَا فَإِنَّ قَتْلَ مَنْكُمْ فِي أَحَدٍ سَبْعِينَ، وَ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ مِائَةً وَ أَرْبَعِينَ إِذْ قَتَلْتُمْ مِنْهُمْ سَبْعِينَ وَ أَسْرَتُمْ مِنْهُمْ سَبْعِينَ فِي وَاقِعِهِ بَدْرٍ قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا أَى مِنْ أَى وَجْهِ أَصَابْنَا هَذَا وَ نَحْنُ مُسْلِمُونَ، وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ «أَوْ لَمَّا ..» اسْتِنكَارِيَّةٌ أَى كَيْفَ تَسْتَنكِرُونَ إِصَابَتَكُمْ بِأَحَدٍ وَ الْحَالُ أَنْكُمْ قَدْ أَصَبْتُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٥

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٦٦ الى ١٦٧]

وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْغُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)

في بدر مثلي ما أصابكم، ثم أن هذه الإصابة كانت لضعف نفوسكم حيث أغراكم المال و أخليتكم أما كنكم في الجبل قل يا رسول الله:

هُوَ أَى مَا أَصَابَكُمْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ الْجَشَعَةُ إِلَى حُبِّ الْغَنِيمَةِ وَ الْمَالِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَقْدِرُ أَنْ يَنْصِرَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ كَمَا يَقْدِرُ أَنْ يَخْذَلَكُمْ حِينَ تَتْرَكُونَ أَمْرَهُ، وَ

في بعض الأحاديث أنهم في بدر خيروا بين أخذ الفدية من الأسرى على أن يقتل منهم في العام القابل سبعون بعدد الأسرى، و بين أن يقتلوا الأسرى و لا يأخذون الفدية.

فطلبهم للمال أوجب اختيار الأول، و على هذا كان ما أصابهم في أحد «من عند أنفسهم».

[١٦٧] وَ مَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ أَى حِينَ تَلَقَى الْمُسْلِمُونَ وَ الْكُفَّارُ فِي يَوْمٍ أَحَدٍ فَيَاذَنْ لِلَّهِ أَى بَعْلَمَهُ، أَوْ بِأَنَّهُ لَمْ يَحِلْ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَ بَيْنَكُمْ حَتَّى أَصَابُوا مِنْكُمْ. وَ هَذَا كَالِإِذْنِ تَكْوِينَا، وَ قَدْ أُذِنَ سَبْحَانَهُ لِفَائِدَةِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَ الْمُنَافِقِ وَ لِيَعْلَمَ أَى يَتَحَصَّلُ عِلْمُهُ فِي الْخَارِجِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاهَدُوا.

[١٦٨] وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَ أَبْطَنُوا النِّفَاقَ وَ هُمُ ابْنُ أَبِي سَلُولٍ وَ جَمَاعَتُهُ حَيْثُ أَنَّهُمْ أَخْذَلُوا يَوْمَ أَحَدٍ نَحْوًا مِنْ

ثلاثمائة رجل قالوا: علام نقتل أنفسنا؟! وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنِ عَمِرُوا بِنِ حِزْمِ الْأَنْصَارِيِّ قَالُوا لَهُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٦

[سورة آل عمران (٣): آية ١٦٨]

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)

أو اذفَعُوا عن حريمكم و أنفسكم فإن الكفار إذا غلبوا نكلوا بكم قالوا أى قال أولئك المنافقون فى جواب المؤمنين: لَوْ نَعَلَّمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ فَإِنِ هَذَا الَّذِي تَخَوُّصُونَهُ لَيْسَ بِقِتَالٍ إِذْ لَوْ كَانَ قِتَالًا لِأَخَذْتُمْ بِرَأْيِنَا فِيهِ، أو تريدون إلقاء النفس فى التهلكة فليس هذا قتالاً يتكافأ فيه الجانبان، هُم أى هؤلاء المنافقون لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ فَكَلِمَا عَمِلَ الْمُنَافِقُ بِالْخِلَافِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ وَ كَلِمَا عَمِلَ بِالْوِفَاقِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَفْوَاهُهُمْ تَنطِقُ بِالْإِيمَانِ وَ قُلُوبُهُمْ تَضْمُرُ الْكُفْرَ وَ الْعِصْيَانَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ فى قلوبهم فيجازيهم حسب نفاقهم المضمرة.

أقول: الظاهر أن قوله: «و ليعلم» إلى آخره، ليس عطفًا على «بإذن الله» إذ يكون المعنى حينئذ أن الإصابة علة للتمييز، و الحال أن إعلان الجهاد كان علة ذلك، فقوله: «ليعلم» جملة مستأنفة، أى أن حرب أحد كانت لأجل التمييز بين المؤمن و المنافق، فى جملة فوائدها الأخرى.

[١٦٩] ثم ذكر سبحانه صفة أخرى للذين نافقوا بأنهم هم الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ أى قالوا حول إخوانهم الذين ذهبوا إلى ساحات الجهاد فقتلوا وَقَعَدُوا أى قعد هؤلاء المنافقون عن القتال لَوْ أَطَاعُونَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٦٩ الى ١٧٠]

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)

فى تركهم الخروج ما قُتِلُوا جملة «لَوْ أَطَاعُونَا ما قُتِلُوا» مقول قولهم. قُلْ لَهُمْ يا رسول الله: فَادْرَأُوا أى اذفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى مقالكم أن البقاء فى البيت موجب لعدم موت الإنسان، فمن أين لكم أن من يبقى فى بيته لا يموت، فكم من الذين بقوا فى بيوتهم و ماتوا و كم خرجوا فى القتال و رجعوا سالمين؟! [١٧٠] و لو فرضنا أن الخارج إلى الجهاد قتل، فما يضره ذلك، فإن من استشهد فى سبيل الله لا تنتهى حياته بل يبقى حيا يرزق و لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا فكما أن هذه الحياة المادية ذات مراتب، فمرتبة منها كاملة فيمن كان سعيدا فرحا، و مرتبة منها ناقصة فيمن كان شقيا حزينا. كذلك من مات يكون على قسمين - بعد بقاء كليهما فى حياة من لون آخر - قسم يكون حيا هناك أى سعيدا فرحا، و قسم يكون ميتا هناك أى شقيا حزينا، فليس للآية الكريمة مفهوم أن غير المقتول لا حياة له هناك بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ حياة غير مادية بل حياة عند ربهم و لهم رزقهم فيها بكرة و عشيا.

[١٧١] فى حال كونهم فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من الحياة الباقية و السعادة و الخير و يَسْتَبْشِرُونَ أى يسر هؤلاء المقتولون فى

سبيل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٧١ الى ١٧٢]

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢)

اللَّهُ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ بقوا فى الحياة و بقوا مِنْ خَلْفِهِمْ و استبشارهم بهؤلاء من جهة أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ إِذْ اللَّهُ

سبحانه يتولى أمورهم ولا- هُمْ يَحْزَنُونَ بالنسبة إلى من خلفهم، فهؤلاء المقتولون جمعوا بين خيرين خير أنفسهم حيث تنعموا بنعمة الله سبحانه وخير إخوانهم الذين من خلفهم حيث علموا بأنهم لا خوف عليهم، وذلك بخلاف من بقى ولم يجاهد فإنهم جمعوا بين شرين مشاكل حياة أنفسهم ومشاكل حياة إخوانهم، حيث لا يعلمون ماذا تكون عاقبة أمر أنفسهم وأمر إخوانهم.

[١٧٢] يَسْتَبْشِرُونَ أى هؤلاء المقتولون يسرون ويفرحون بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ يَنْعَمُهَا عَلَيْهِمْ فى الآخرة وَفَضْلٍ أى الزيادة على قدر استحقاقهم أو على ما يترقبون وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ من علم أن حقه وأجره مضمون فرح واستبشر، فهؤلاء يرون عياناً أن حقهم محفوظ بخلاف الإنسان فى الدنيا فإنه يعلم ذلك دون أن يراه.

وفى تكرار المطلب زيادة تمكين المعنى فى النفس، ومثله كثير فى التحذيرات والترغيبات المستقبلية وبالأخص إذا لم يشاهد الإنسان أمثاله بل كان غيباً محضاً فإن فى التكرار تركيز المطلب فى النفس حتى تعمل تلقائياً كالذى شاهد وحضر.

[١٧٣] لما انصرف أبو سفيان وأصحابه من «أحد» وبلغوا «الروحاء» ندموا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤١٩

[سورة آل عمران (٣): آية ١٧٣]

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)

على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا فيما بينهم قائلين بعضهم لبعض: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتهم، قتلتموهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد وتركتموهم، فارجعوا فاستأصلوهم. فبلغ ذلك الخير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأراد إرهابهم فخرج صلى الله عليه وآله وسلم ومعه من به جرح من أحد حتى بلغ «حمراء الأسد» وبلغ الخبر المشركين فخافوا خوفاً شديداً ولوا منهزمين.

وجه اتصال الآية أنه سبحانه بعد ما بين أجر الشهداء وأنهم يستبشرون بالأحياء ذكر وصف الأحياء الذين يستبشرون بهم المقتولون أنهم أولئك الذين لم تزلزلهم المحنة ولم تقعدهم الجراحات عن مواصلة الكفاح ولم يرهبهم تجمع الأعداء وإرجافهم بهذا التجمع وهم متخونون بهذه الجراحات الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ أطاعوهما فى أمرهما، وقد ذكرنا سابقاً أن ذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للتشريف وأن بيان أمره أمر الله سبحانه وإلا فالأمر واحد من بعد ما أصابهم الْقَرْحُ أى نالتهم الجراحات يوم أحد لِلَّذِينَ أَحْسَبُوا مِنْهُمْ بعد الاستجابة وَاتَّقُوا معاصى الله سبحانه أَجْرٌ عَظِيمٌ لأنهم أطاعوا فى ثلاث دفعات حضورهم فى أحد واستجابتهم ثانياً وإحسانهم وتقواهم ثالثاً.

[١٧٤] ثم وصفهم سبحانه بوصف آخر أنهم هم الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فقد قال الناس لأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٠

[سورة آل عمران (٣): آية ١٧٤]

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)

رجوعهم من أحد: إن «الناس» وهم أبو سفيان والمشركون قد جمعوا لكم، أى جمعوا المشركين لأجل محاربتكم فَاخْشَوْهُمْ أى خافوا منهم لأنهم إذا رجعوا إليكم وأنتم- أيها المسلمون- متخونون بالجراح من أحد لن يبقوا منكم باقية فزادهم تجمع الناس عليهم إيماناً فإن عند كل كارثة يتذكر المؤمن الله سبحانه فتقوى نفسه بمعونته وتشتد عزيمته بنصره وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ أى كافينا الله يكفينا شر أعدائنا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فإنه خير من جعله الإنسان وكيلاً لعلمه بمواقع النفع والضرر وقدرته على جلب النفع ودفع الضرر عن الموكل.

[١٧٥] فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ أى رجع هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تصحبهم نعمة الله وفضله لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ فهم بعد ما خرجوا فى طلب أبى سفيان، هرب أبو سفيان فرجع المسلمون وهم مرهوبو الجانب أشداء

النفوس وَ قَدْ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ فِي تَعَقُّبِ الْمُشْرِكِينَ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ أَمْرَهُ فَهُوَ يَسْعِدُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ بِعَقْبِهِا: «فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ» (١).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٣٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢١

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٧٥ الى ١٧٦]

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)

[١٧٦] إِنَّمَا ذَلِكُمْ «كم» للخطاب، و «ذا» إشارة إلى التخويف من الأعداء أى أن التخويف الذى صدر عن بعض الناس بالنسبة إلى المسلمين من عمل الشيطان فإنه الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَخَافُونَ وَ إِنَّمَا أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ يَخَافُونَ لِأَنَّهُمْ بَانْقِطَاعِ صَلَاتِهِمْ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يَخَافُونَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ فِي وَصْفِ الْمُنَافِقِينَ: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ «١»، فَلَا تَخَافُوهُمْ أَى لَا تَخَافُوا النَّاسَ الَّذِينَ جَمَعُوا لَكُمْ، أَوْ لَا- تَخَافُوا الشَّيْطَانَ وَ أَوْلِيَاءَهُ وَ خَافُونَ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِمَعْنَى إِطَاعَتِهِ وَ تَرَكَ عَصِيَانَهُ فَإِنَّ فِي تَرَكَ ذَلِكَ، النَّارَ وَ الْعِقَابَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يُوجِبُ أَنْ لَا يَخَافُ الْإِنْسَانُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَيْسَ الْمُرَادُ عَدَمَ الْخَوْفِ مُطْلَقًا فَإِنَّهُ قَهْرًا لِلْإِنْسَانِ وَ إِنَّمَا الْمُرَادُ تَرْتِيبَ الْأَثَرِ عَلَى الْخَوْفِ.

[١٧٧] وَلَا يَحْزُنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أَى يَتَسَابِقُونَ فِي أَعْمَالِهِمُ الْكَافِرَةَ كَأَنَّهُمْ فِي سَبَاقٍ مِنْ كَثْرَةِ نَشَاطِهِمْ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ فَإِنَّ دَعْوَتَكَ الَّتِي هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا بَدَّ وَ أَنْ تَنْجَحَ وَ تَتَقَدَّمَ وَ هَذِهِ الْمَسَارِعَاتُ الْكَافِرَةَ لَا تَضُرُّهَا، فَقَدْ نَسَبَ مَوْقِفَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، إِفَادَةٌ لَعْلُوهَا وَ قُوَّةَ الْمُدَافِعِ وَ الْمَتَوْلَى لَهَا شَيْئًا أَصْلًا لَا صَغِيرًا وَ لَا كَبِيرًا، بَلْ إِنَّهُمْ يَضُرُّونَ بِذَلِكَ أَنْفُسَهُمْ فَإِنَّ

(١) المنافقون: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٧٧ الى ١٧٨]

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)

إِعْطَاءَ اللَّهِ الْقُدْرَةَ لَهُمْ فِي أَنْ يَفْعَلُوا مَا يَشَاءُونَ لِأَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَ إِنَّمَا أَرَادَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ كَمَا أَنْكَرَ إِذَا أُدِيتَ إِلَى عَبْدِكَ مَا لَا لِيَتَاجَرَ بِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقَامِرُ بِهِ، وَ أَمَهَلْتَهُ فَلَمْ تَضْرِبْ عَلَى يَدِهِ تَقُولُ: أَرِيدُ أَنْ أَبْدَى سُوءَهُ وَ أَعَاقِبَهُ بِعِقَابٍ كَبِيرٍ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ بِكُفْرِهِمْ وَ مَسَارِعَتِهِمْ وَ نَشَاطِهِمْ ضِدَّ الْإِسْلَامِ.

[١٧٨] إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا أَى بَدَلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ بِتَبْدِيلِهِمُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ شَيْئًا أَى شَيْءٌ أَبَدًا وَ لَهُمْ أَى لِلَّذِينَ بَدَلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا بَدَلُوا.

[١٧٩] وَلَا يَحْسَبَنَّ أَى لَا- يَظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ الْإِمْلَاءَ الْإِمْهَالَ، أَى أَنْ إِطَالَتْنَا لِأَعْمَارِهِمْ وَ إِمَهَالَتْنَا إِيَاهُمْ وَ تَوْفِيرَ الْمَالِ وَ الْجَاهِ لَهُمْ لَيْسَ خَيْرًا لَهُمْ فَإِنَّ الْخَيْرَ هُوَ الَّذِي لَا- يَسْبَبُ شِرَاءَ وَ عِقَابًا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ نَظِيلَ أَعْمَارِهِمْ وَ نَعْطِيهِمْ مَا نَعْطِيهِمْ

لِيُزَادُوا إِثْمًا وَمَعْصِيَةً، فَإِنَّهُمْ يَاعْرَضُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَخَبْثِ بَوَاطِنِهِمْ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ وَالْعَذَابَ لَكِنْ حَيْثُ لَا عِقَابَ عَلَى الْخَبْثِ الْبَاطِنِيِّ فَقَطْ كَانَ الْإِمْهَالُ مَظْهَرًا لِذَلِكَ الْخَبْثِ، فَبَقَاؤُهُمْ مُوجِبٌ لَزِيَادَةِ عِقُوبَتِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ يَهِينُهُمْ عِلَاوَةً عَلَى أَلْمِهِ وَكِرْبِهِ وَرَبْمَا يُقَالُ: إِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٣

[سورة آل عمران (٣): آية ١٧٩]

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

«اللام» في قوله «ليزدادوا» لام العاقبة كقوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا «١».

[١٨٠] ثم يرتد السياق إلى قصة أحد حيث انكشف هناك المؤمن الذي تبع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحرب من المنافق الذي تخلف عن الجهاد كعبد الله ابن أبي سلول بمن تخلف معه ما كان الله أى ليس من سنته سبحانه أن لا يمتحن ليدرك المؤمن أى يدعهم و يتركهم على ما أنتم عليه من ظاهر الإيمان الذى يتساوى فيه المؤمن والمنافق حتى يميز الخبيث من الطيب لكى يظهر ما يضمه كل فريق. وفي بعض التفاسير: أن المشركين قالوا لأبى طالب: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر؟ فإن وجدنا خبره صادقاً آمنا به. فنزلت الآية. «٢» وعلى هذا فمعنى «على ما أنتم عليه» أى حالكم قبل الإيمان، فلا يترك سبحانه المؤمن على كفره بين سائر الكفار وما كان الله ليطلعكم على الغيب حتى تعلموا أن هذا مؤمن وهذا منافق، بدون الاختبار الخارجى المظهر للضمائر ولكن الله يجتبي أى يختار لاطلاعه على الغيب من رسله وأنبيائه من يشاء وهذا كقوله

(١) القصص: ٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٤

[سورة آل عمران (٣): آية ١٨٠]

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

تعالى: فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ «١» ولا ينافى ذلك اطلاع بعض الملائكة والأئمة وبعض المؤمنين على بعض المغيبات إذ الملائكة خارج عن المستثنى منه والباقون إما بتعليم النبى أو بإلهام منه سبحانه وعدم استثنائه لندرته خارجاً، والقضايا الطبيعية- كما نحن فيه- لا تنافيها النوار.

وحيث عرفتم قيمة الإيمان فأمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إيماناً حقيقياً لا يشوبه نفاق وخبث ضمير وإن تُؤْمِنُوا إيماناً صادقاً وَتَتَّقُوا المعاصى وَتَعْمَلُوا الصالحات فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ يبقى إلى الأبد فى جنه عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله.

[١٨١] وحيث تقدم الكلام حول الجهاد والتضحية عقبه سبحانه بذكر المال فهما يذكران غالباً مقترنين إذ الجهاد يحتاج إلى بذل المال والدين إنما يقام ببذل النفس وبذل المال معاً، فقال سبحانه: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أَى أعطاهم سبحانه فضلاً وإحساناً فإن المال وإن اجتهد الإنسان وكد فى جمعه إنما هو فضل من الله سبحانه لأنه من خلقه وصنعه فالنقدان مثلاً- معدنان مخلوقان له وسائر الأموال من نبات الأرض وما أشبه كله له، هذا بالإضافة إلى أن أجهزة الإنسان التى بها يتمكن من كسب المال كلها منه سبحانه. والمراد بالبخل هنا هو الحرام منه مما يجب إعطاؤه فيمنع

(١) الجن: ٢٧-٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٥

هُوَ خَيْرًا لَهُمْ حيث يزعمون أن البخل يوفر عليهم المال فيبقى عندهم ولا يخرج من أيديهم و «خيرا» مفعول «يحسبن» بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ إن ذلك البخل شر لهم يعود عليهم في الدنيا بالشر حيث أن ذلك موجب لسوء السمعة الذي بدوره يوجب عدم التمكن من اكتساب المزيد من المال و يوجب ذهاب الكائن منه بمصادرات الحكام و ثورات الفقراء، و الأسوأ من ذلك أنهم سَيُطَوَّقُونَ ما بَخَلُوا بِهِ أى يجعل المال الذى بخلوا به طوقا فى أعناقهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ و هذا كناية عن لزوم تبعه المال، كما يقال: المرأة طوق فى عنق الإنسان، و الذين طوق فى عنق المدین، و هكذا، و فى الأحاديث الواردة

عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة عليهم السلام أنه «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئا إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعبانا من نار مطوقا فى عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب»
«١» و فى بعضها تفسير الآية الكريمة بذلك.

ثم ما بال هؤلاء يبخلون؟ فإنه لا يبقى المال عندهم إلى الأبد، بل يذهبون و يذرون المال و لله ميراث السماوات و الأرض فكل من يموت فيهما و يخلف شيئا فلا- بد و أن يرثه الله سبحانه حيث تبقى الأموال له و حده بعد فناء الجميع فما بخل به عنه سبحانه و لم يصرف فى سبيله لا بد و أن يرجع إليه، و ليس للخيل إلا الإثم

(١) الكافي: ج ٣ ص ٥٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٦

[سورة آل عمران (٣): آية ١٨١]

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)
وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فما أنفقتم من نفقة يعلمها الله سبحانه فيجازيكم عليها جزاء حسنا.

[١٨٢] و قد كان من بخلاء اليهود من لا- ينفق مما آتاه الله، ثم يزيد على ذلك فيقول: إن الله فقير لأنه يستقرض - تعريضا بقوله سبحانه: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ «١»- و أنا غنى لما لدى من الأموال لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ و يكفيه تهديدا أن الله سمع قوله فلينتظر الجزاء العادل و العقاب الأليم سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا حتى يكون كتابا مسجلا عليهم لا مجال لإنكاره يوم يعطى كل امرئ كتابه، و قد كان منطبق اليهود منحرفا إلى أبعد الحدود، و كيف يكون الله سبحانه فقيرا و هو الذى يملك كل شىء حتى روح هذا القائل؟! و إنما استقرضه امتحان و طلبه المال ابتلاء و اختبار، و كيف يكون هو غنيا و الحال أنه لا يملك روحه فكيف بماله؟! و سنكتب قتلهم أى قتل هؤلاء اليهود الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ و إنما عيرهم الله سبحانه مع أن آباءهم هم الذين فعلوا، لرضاهم بذلك أولا- و لبيان أن هؤلاء خلفا عن سلف مجرمون فلا عجب أن يقول الخلف كفرا بعد ما عمل السلف أفضع من ذلك ثانيا، و دخول «السين» فى سنكتب، لعله لبيان أن الكتابة لا- تثبت إلا بعد أن يموتوا غير مؤمنين بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و إلا فالكتابة لا تضر إذا محيت

(١) البقرة: ٢٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٧

[سورة آل عمران (٣): آية ١٨٢]

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

بالإيمان، وهذا يصح بالنسبة إلى قولهم، أما بالنسبة إلى قتل أسلافهم، وقد كتب قتلهم، فلأن كتابه ذلك عائد على الأخلاف إذا بقوا على الكفر، ولعل العطف على المعنى أى «وكتبنا قتلهم الأنبياء» من قبيل «نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض» وقوله: «علفته تبنا و ماء باردا».

وَقُولُ حِينَ عِقَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ الَّذِي يَحْرِقُ أَجْسَادَكُمْ بِفَعْلِكُمْ وَقَوْلِكُمْ.

[١٨٣] ذَلِكَ الْعَذَابُ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِتَقْدِيمِ الْأَيْدِي لِأَنَّ الْإِنْسَانَ غَالِبًا يَقْدِمُ الْأَشْيَاءَ بِيَدِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ لِلْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ فَأَنْتُمْ عبيده خالفتهم أو امره فاستحققتهم هذا العقاب، و «ظلام» ليست لفظه مبالغة على غرار «علام» وإنما للنسبة نحو «تمار» بمعنى ذى تمر، كما قال ابن مالك:

و مع فاعل و فعال فعل فى نسب أغنى عن اليا فقبل

و لعل اختيار هذه الكلمة لرد التوهم و هو أن الإحراق بالنار إنما يصدر من إنسان كثير الظلم، فيكون الإتيان به للمجانسة اللفظية كقوله:

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخة قلت اطبخوا الى جبه و قميصا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٨

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٨٣ الى ١٨٤]

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُ بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

[١٨٤] إن الذين قالوا إن الله فقير و نحن أغنياء، و الذين قتلوا أنبياءهم، هم الذين لم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم بحجة مكذوبة، فقد قالوا: يا محمد إن الله عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أن الله بعثك إلينا فجئنا بالقربان حتى نصدقك، فنزلت الآية الذين قالوا للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و «الذين» فى موضع الجر عطفًا على «الذين قالوا إن الله فقير»: إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا أَمْرًا وَ وَضَانًا فِي الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ بَأَن لَّا نَصَدِّقُ بِنَبِيِّهِ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ أَى مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ تَأْكُلُهُ النَّارُ تَأْتِي نَارٌ مِنَ الْغَيْبِ فَتَحْرِقُهُ، وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لِّصَدَقِ نَبْوَةِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمْ: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ الْأَدْلَةَ الْوَاضِحَةَ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ مِنَ الْقُرْبَانِ الَّذِي أَكَلْتَهُ النَّارُ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا ذَكْرِيَا وَ يَحْيَى وَ غَيْرَهُمَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى دعواكم أنكم تؤمنون بالرسول إذا جاءكم بقربان تأكله النار؟ و إنما ينسب فعل الأسلاف إلى الأخلاف لأن الطبيعة فيهم واحدة و الاتجاه واحد فلا يمكن أن يقال: إن معاصرى الرسول لم يكونوا يظهرون الرضا بفعل أسلافهم فى قتل الأنبياء.

[١٨٥] فَإِنْ كَذَّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَلَسْتَ بِدَعَا فِي ذَلِكَ وَ لَّا يَضِيقُ صَدْرَكَ بِتَكْذِيبِهِمْ، فَإِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٢٩

[سورة آل عمران (٣): آية ١٨٥]

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُؤَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)

الناس قد كذبوا رسلا قبلك و الحال أنهم جاءوا بالبينات الأدلة الواضحة و الزُّبُرِ أى الصحف التى فيها الأحكام و الشرائع و الكتاب المنير و هو الكتاب الجامع للأحكام. و الفرق بينهما أن الزبر صحائف متفرقة فيها أحكام متشتتة بخلاف الكتاب الذى هو الجامع المتسلسل، كما أنه نزل على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الأحاديث القدسية و القرآن الحكيم ..

و هنا سؤال هو: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يأت بقریان تأكله النار؟ والجواب:

إنهم سألوا ذلك تعنتاً لا- استرشاداً، وإلا فقد كان يكفيهم سائر الأدلة، وليس شأن الأنبياء أن يفعلوا فوق اللازم من المعجزة لكل متعنت و مجادل، وهذا هو السر في رد كثير ممن سأل المعجزة.

[١٨٦] إن عدم الجهاد لخوف الموت، وعدم الإيمان لخوف ذهاب الرئاسة، وعدم الإنفاق لخوف الفقر، مما له عاقبة سيئة هي النار، فكل إنسان يموت و تذهب حياته و رئاسته و ماله، فما أجدر أن يفعل ما يسبب له حسن العاقبة كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ تَذُوقُهُ وَ تَلَاقِيهِ وَ إِنَّمَا تُؤَفَّقُونَ أَيُّهَا النَّاسُ أُجْرُكُمْ الْحَسَنَةُ أَوْ السَّيِّئَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهَذَا عَمَلٌ وَ لَا حِسَابَ وَ غَدَا حِسَابٌ وَ جَزَاءٌ بِمَا عَمِلْتُمْ فَمَنْ زُجِرَ عَنِ النَّارِ أَى بُوْعِدَ عَنْهَا وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ لِأَنَّهُ سُرُورٌ وَ رَاحَةٌ لِأَنَّ انْقِطَاعَ لَهَا وَ لَا تَكْدَّرُ فِيهَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِلذَاتِهَا وَ شَهَوَاتِهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٠

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٨٦ إلى ١٨٧]

لَتَجْلُوَنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْتَمِئَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

إِلَّا مَتَاعَ الْعُزُورِ تسبب غرور الإنسان و غفلته عن الخير الدائم الباقي. فمن الجدير بالإنسان أن يحصل بحياته و رئاسته و ماله تلك الدار الباقية لا أن يغتر بالدنيا و يعصى الله سبحانه حتى يدخل النار.

[١٨٧] إن الدنيا دار محنة و ابتلاء لا دار راحة و سعادة فاعلموا أيها المسلمون لَتَجْلُوَنَ أى تقع عليكم المحن و البلياء بكل تأكيد فى أموالكم بذهابها و نقصانها و وجوب الإنفاق منها و فى أنفسكم بالأمراض و الشدائد و القتل فى الجهاد و نحوه و لَتَسْتَمِئَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ اليهود و النصارى و المجوس و مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا من سائر أقسام الكفار أذى كثيراً سباً و شتماً و تهمةً و وقيةً و استهزاءً وَ إِنْ تَصْبِرُوا فى البلياء و الأذى وَ تَتَّقُوا فلا تحملنكم البلية و الأذى على الابتعاد عن الدين و عمل المحرم فإن ذلك الصبر و التقوى مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أى الأمور التى يجب العزم عليها و المضى فيها. و فى الكلام مجاز إذ نسب العزم الذى هو للإنسان إلى الأمر، مثل نسبة الإصرار إلى الأمر فى قولك: «أصرت الأمر على» لبيان أن الأمر قد صار عزمًا، من شدة لزومه، و فرض وجوبه.

[١٨٨] ثم يأتى السياق إلى ذكر صفة أخرى من أهل الكتاب مناسبة للمقام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣١

[سورة آل عمران (٣): آية ١٨٨]

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) حيث أنهم يعلمون رسالة الرسول و هى موجودة فى كتبهم، لكنهم بدل أن يؤمنوا و يظهرها ذلك للناس يصرون على الجدل و العناد و يخفون الكتاب على الناس و اذكر يا رسول الله إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَخَذَ عَهْدَهُمْ الأکید بواسطة الأنبياء عليهم السلام لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ أى تبينون الكتاب الذى فيه الأحكام و البشارة برسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ أى لا تخفونه فَنَبَذُوهُ أى طرحوا الميثاق وراء ظُهُورِهِمْ كناية عن إهمالهم له و عدم اعتنائهم به كما أن الذى يريد إهمال متاع يلقى وراء ظهره وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أى بدلوا بأحكام الكتاب رئاسة قليلة فى الدنيا و أموالاً- قليلة كانوا يتقاضونها من سائر اليهود فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ من الثمن حيث يستحقون بذلك العذاب الدائم.

[١٨٩] و من الناس من لا- يدخل فى عمل الخير مع العاملين، فإذا خسر العاملون ما أرادوا و صفوا أنفسهم بالحصانة و التعلقل، و إذا ربحوا جعلوا أنفسهم من المؤيدين لهم، و توقعوا أن يثنى عليهم ثناء العاملين، إن أمثال هؤلاء الذين لا يشتركون فيما يجب الاشتراك فيه، لا- بد و أن ينالهم العذاب لتركهم الواجب، و غالباً يكونون من المنافقين، و من الذين يقعدون عن الجهاد، و عن واجب الأمر

بالمعروف و النهى عن المنكر، و لهؤلاء ميزة أخرى و هى أنهم يفرحون بما يأتون من الأعمال حقا كان أو باطلا، بخلاف المؤمنين الذين إذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٢

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٨٩ الى ١٩٠]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)

عصوا استغفروا، و إذا أحسنوا خافوا، كما قال سبحانه: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ (١).

لا تَحْسَبِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا مِنَ الْأَعْمَالِ صَالِحَةً كَانَتْ أَوْ طَالِحَةً وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا أَى يَحْمَدُهُمُ النَّاسُ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ فَلَا تَحْسَبِينَ بَنَّهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْفَوْزِ، أَى النجاة مِنَ الْعَذَابِ فَإِنَّهُمْ يَعَذَّبُونَ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ وَ الصِّفَاتِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُؤَلَّمٌ. وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَمَا تَرَاهَا عَامَةً، فَتَفْسِيرُهَا بِالْمَنَافِقِ أَوْ نَحْوِهِ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْمَصْدَقِ. [١٩٠] أَيْنَ الْمَفْرُوعُ لِهَوْلَاءِ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ الْفِرَارُ مِنْ حُكْمِهِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَلَا يَفُوتُهُ مَا يَرِيدُ وَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

[١٩١] وَ هُنَا يَنْتَهَى السِّيَاقُ بِأَدْلَةِ الْإِيمَانِ وَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنَّ أَعْمَالَ الْكَافِرِينَ فِي انْهِيَارٍ، مَنَاسِبَةٌ لِلْجَوِّ الْعَامِ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي كَانَ فِي الْإِيمَانِ وَ الْعَقِيدَةِ وَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ، وَ مَرْتَبَةٌ بِالْآيَةِ السَّابِقَةِ

(١) المؤمنون: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٣

[سورة آل عمران (٣): آية ١٩١]

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ» إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى فِي إِيجَادِهِمَا بِمَا تَشْتَمِلَانِ عَلَيْهِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَ مَخْتَلَفِ صُنُوفِ الْخَلْقِ وَ الْإِبْدَاعِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ تَعَاقُبَهُمَا وَ مَجِيءِ أَحَدِهِمَا خَلْفَ الْآخَرِ بِكُلِّ إِتْقَانٍ وَ انْتِظَامٍ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ وَ بَرَاهِينٍ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ صِفَاتِهِ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أَى أَصْحَابِ الْعُقُولِ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَثَرِ لَا يَدْرِي أَنَّ الْعَقْلَ وَ جُودَ الْمُؤَثَّرِ وَ كَلِمَا كَانَ الْأَثَرُ أَتَقَنَ وَ أَجْمَلَ دَلَّ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ الْمُؤَثَّرِ وَ قُدْرَتِهِ وَ إِرَادَتِهِ وَ غَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْجَمَالِيَّةِ.

[١٩٢] ثُمَّ بَيْنَ صِفَاتِ أُولَى الْأَلْبَابِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ذِكْرًا بِالْقَلْبِ، أَى تَذَكُّرًا لَهُ سُبْحَانَهُ قِيَامًا فِي حَالِ الْقِيَامِ وَ قُعُودًا فِي حَالِ الْقُعُودِ وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ فِي حَالِ الْاضْطِجَاعِ، يَعْنِي أَنَّهُمْ دَائِمًا فِي التَّفَكُّرِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ ذَكَرَهُ سِوَاءَ كَانُوا قَائِمِينَ أَوْ قَاعِدِينَ أَوْ مُضْطَجِعِينَ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كَيْفَ خَلَقْنَا بِهَذَا النُّحُو الْمُتَقَنِ الْمُدْهَشِ، وَ كَيْفَ جَرَيْتَا، وَ كَيْفَ كَانَتَا، وَ كَيْفَ سَتَكُونَانِ، وَ فِي حَالِ التَّفَكُّرِ وَ الدَّهْشَةِ لِسَانَ حَالِ هَوْلَاءِ يَقُولُ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا الْكُونَ، وَ الْخَلْقَ بَاطِلًا عَثَا وَ لَعْوَا، بِلَا غَايَةٍ وَ مَقْصُودٍ سُبْحَانَكَ أَى أَنْتَ مَرْءٌ عَنِ الْبَاطِلِ وَ اللَّغْوِ، وَ هُوَ مَفْعُولٌ لِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، أَى نَسْبِحُكَ سُبْحَانَكَ فَقِنَا أَى احْفَظْنَا مِنَ عَذَابِ النَّارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٤

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٩٢ الى ١٩٤]

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

الميعاد (١٩٤)

و لعل دخول الفاء في «فقنا» لبيان أنهم يطلبون جزاء تصديقهم وإيمانهم وتفكرهم.

[١٩٣] ويقولون أيضا: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ فَضَحْتَهُ وَأَهْلَكَتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ مِنْ أَنْصَارٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[١٩٤] رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ هُوَ الرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكُلٌّ مِنَ النَّاسِ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنْ أَوْلَى الْأَلْبَابِ يَعْتَرِفُونَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ بِأَنَّهُمْ اسْتَجَابُوا لِمُنَادِيِ الْإِيمَانِ وَ لَمْ يَلُوكُوا عَنْ نِدَاءِ الْحَقِّ فَقَدْ سَمِعُوا الْمُنَادِيَّ يُنَادِي: أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَلَا تَكْفُرُوا وَلَا تَشْرِكُوا فَا مَّا بَكَ يَا سَيِّدَنَا رَبَّنَا فَاعْفُزْ لَنَا ذُنُوبَنَا الَّتِي صَدَرَتْ مِنَّا وَ كَفَّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ رُبَّمَا يَقَالُ بَأَنَّ الْفَرْقَ أَنَّ الذُّنُوبَ هِيَ الْكِبَائِرُ لِأَنَّهَا ذَاتُ أَذْنَابٍ وَ تَبَعَاتٍ، وَ السَّيِّئَاتُ هِيَ الصَّغَائِرُ لِأَنَّهَا تَسِيءُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَ إِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتُ تَبَعَةٍ لِأَنَّهَا مَكْفَرَةٌ لِمَنْ اجْتَنَبَ عَنِ الْكِبَائِرِ، وَ هُنَاكَ فِي الْفَرْقِ أَقْوَالٌ أُخْرَى، وَ لَعَلَّ التَّكْرَارَ لِلتَّأْكِيدِ إِظْهَارًا لِكَمَالِ الْخَوْفِ مِنَ الذُّنُوبِ وَ تَوَقُّفًا أَيَّ اقْبَضْنَا إِلَيْكَ عِنْدَ مَوْتِنَا مَعَ الْأَبْرَارِ فِي جَمَلَتِهِمْ، وَ الْأَبْرَارُ جَمْعُ «بَرٍّ» وَ هُوَ الَّذِي يَبْرُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ إِيَّاهُ.

[١٩٥] رَبَّنَا وَ آتِنَا أَيَّ أَعْطَانَا مَا وَعَدْتَنَا مِنَ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٥

[سورة آل عمران (٣): آية ١٩٥]

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

على لسان رُسُلِكَ وَ أنبيائك وَ لَا تُخْزِنَا أَيَّ لَا تَفْضَحْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ الَّذِي وَعَدْتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَ خَيْرِ الْآخِرَةِ.

[١٩٦] فَاسْتَجَابَ لَهُمْ أَيَّ لِهَوْلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ دَعُوا بِالْأَدْعِيَةِ السَّابِقَةِ رَبُّهُمْ أَيَّ لَبِي دَعْوَتِهِمْ وَ قَبْلَ كَلَامِهِمْ، قَائِلًا: أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ أَيَّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى فَكُلُّ مُؤْمِنٍ مَحْفُوظٌ عَمَلُهُ لِيُعْطَى جَزَاءَهُ بَعْضُكُمْ أَيَّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَعْضٍ فَكُلُّكُمْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي نَصْرَةِ بَعْضِكُمْ وَ لَسْتُمْ كَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَيْسَ بَعْضُهُمْ بِبَيِّنٍ بَعْضًا فَكُلُّ فِتْنَةٍ مِنْهُمْ لَوْنٌ وَ صِبْغَةٌ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ أُخْرِجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَكَّةَ. وَ الْآيَةُ عَامَةٌ لِكُلِّ مُهَاجِرٍ عَنِ دِيَارِهِ، وَ مُخْرَجٍ مِنْ بِلَادِهِ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي لِأَنَّهُمْ آمَنُوا وَ أَطَاعُوا وَ قَاتَلُوا لِأَجْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ قَاتَلُوا قَتْلَهُمُ الْكُفَّارِ لَأُكَفِّرَنَّ أَيَّ أَمْحُونَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ فَلَا آخِذَهُمْ بِهَا وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيَّ تَحْتَ نَخِيلِهَا وَ قُصُورِهَا- كَمَا تَقَدَّمَ- ثَوَابًا أَيَّ جَزَاءَ لَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَ مَشَاقِقِهِمْ فِي سَبِيلِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٦

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٩٦ إلى ١٩٨]

لَا- يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِنَسِ الْمِهَادِ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ أَيَّ الْجَزَاءِ الْحَسَنِ، وَ لَيْسَ كَغَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ وَ لَا يَمْلِكُ الثَّوَابِ الْحَسَنَ.

[١٩٧] وَ هُنَا يَتَأَمَّلُ الْإِنْسَانُ كَيْفَ يَكُونُ الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ وَ الرَّاحَةِ وَ السِّيَاحَةِ وَ الْأَسْفَارِ وَ الثَّمَارِ، وَ الْمُسْلِمُونَ مُضْطَهَدِينَ يَخْرُجُونَ مِنْ بِلَادِهِمْ وَ يُؤْذُونَ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ نَاصِرُهُمْ وَ ظَهِيرُهُمْ؟ وَ يَأْتِي الْجَوَابُ: لَا يَغْرُوكَ وَ أَصْلُ الْغُرُورِ إِيهَامُ حَالِ السَّرُورِ فِيمَا الْأَمْرُ بِخِلَافِهِ، فَالْمَعْنَى لَا يُوْهِمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّ الْكُفَّارَ فِي سُرُورٍ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ فَإِنَّ تَقَلُّبَهُمْ لَا يَعُودُ إِلَيْهِمْ بِنَفْعٍ.

[١٩٨] فَإِنَّ ذَلِكَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ أَى يَتَمَتَّعُونَ بِذَلِكَ فِى زَمَانٍ قَلِيلٍ ثُمَّ مَا وَاهُمْ مَصِيرُهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْيَهَادُ أَى سَاءَ ذَلِكَ الْمَسْتَقَرُّ لَهُمْ.
[١٩٩] لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ بِأَنَّ آمَنُوا وَأَطَاعُوا فِىنَهُمْ وَإِنْ كَانُوا فِى أَذِيَةٍ وَضَغَطٍ فَعَلُوا لَهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ كَمَتَاعِ الْكُفَّارِ فِى الدُّنْيَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ النَّزْلُ مَا يَعْدُ لِلضَّيْفِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْبِرِّ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ مِنْ تَقَلُّبِ الْكُفَّارِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٧

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٠]

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)
[٢٠٠] ثم يرجع السياق إلى أهل الكتاب الذين تقدم أنهم يكفرون ويمكرون وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله يصدق بوحدانيته ويعترف بما يعترف به المؤمنون وب ما أنزل إليكم من القرآن الحكيم وب ما أنزل إليهم بخلاف سائر أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بما أنزل إليهم إذ أنهم يحلون ويحرمون ويخالفون كتابهم فى أحكامه، فى حال كونهم خاشعين لله سبحانه فيما أمر ونهى لا يشترون بآيات الله أى بمقابل آيات الله ودلائله وبراهينه ثمنًا قليلًا كما كان يفعل ذلك رؤسائهم الذين كانوا يرتشون ويخفون الكتاب لئلا تزول رئاستهم أولئك الذين لهم هذه الصفات الخيرة من أهل الكتاب لهم أجرهم عند ربهم يجازيهم بما فعلوا من الخيرات و آمنوا و صدقوا إن الله سريع الحساب فليس أجرهم بعيدا عنهم فإن أمد الدنيا و لو طال قليل كما قال الشاعر:
ألا إنما الدنيا كمنزل راكب أناخ عشيا و هو فى الصبح يرحل

[٢٠١] و أخيرا يتوجه الخطاب للمؤمنين و تنتهى السورة بهذه العظة البليغة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْمَكَارِهِ وَصَابِرُوا أَى غَالِبُوا فِى الصَّبْرِ، و لعل المراد مصابرة الأعداء فكلما صبر الكفار زاد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٨

المؤمنون صبرا على صبر أولئك حتى يغلبوا و يأخذوا المعركة و رابطوا و هو المرابطة فى ثغور المسلمين للتطلع على أحوال الكفار و اتَّقُوا اللَّهَ فِى أَعْمَالِكُمْ فَلَا تَأْتُوا بِالْمَعَاصِي لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَى كى تفوزوا و تنجحوا فى الدنيا و الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٣٩

٤ سورة النساء مدنية / آياتها (١٧٧)

نزلت كلها فى المدينة على المشهور و سميت بهذا الاسم، لأنها بينت كثيرا من حقوق النساء فى الشريعة الإسلامية.

[سورة النساء (٤): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تقدم تفسيرها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٠

[سورة النساء (٤): آية ٢]

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

[٢] يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ بِإِطَاعَةِ أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَهَذِهِ الْفَاتِحَةُ ثَلَاثُ خَاتَمَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ هِيَ نَفْسُ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَلَقَ مِنْهَا أَيَّ مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ، إِمَّا بِالْخَلْقِ مِنْ فَضْلِهِ طِينَتِهِ، أَوْ الْمَرَادِ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ النَّفْسِ زَوْجِهَا وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَإِنَّ هَذَا الْإِلَهَ الْخَالِقَ الْقَادِرَ حَقِيقًا بِالتَّقْوَى، وَ لَا يَخْفَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنَافِي خَلْقَ زَوْجَتَيْنِ جَدِيدَتَيْنِ لِهَابِيلَ وَقَابِيلَ حَتَّى نَشَأَ مِنْهُمَا أَبْنَاءَ عَمٍّ - كَمَا عَنِ الْأُئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - إِذِ الْكَلَامُ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَبَثَّ أَيَّ نَشْرٍ وَفَرَقَ مِنْهُمَا أَيَّ مِنْ هَاتَيْنِ النَّفْسَيْنِ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَهَذَا أَيْضًا لَا يَنَافِي إِذْ أَصَلَ الْبَثَّ مِنْهُمَا، وَ لَعَلَّ عَدَمَ ذِكْرِ لَفْظَةِ «كَثِيرًا» هُنَا لِمَعْلُومِيَّةِ ذَلِكَ، أَوْ لِتَفَنُّنِ فِي الْعِبَارَةِ وَ الَّذِي هُوَ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ أَيَّ يَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِسَبَبِهِ فَتَقُولُونَ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا مَا فَعَلْتَ كَذَا، وَ صَنَعْتَ كَذَا وَ الْأَرْحَامَ أَيَّ اتَّقُوا الْأَرْحَامَ، وَ تَقْوَى اللَّهِ عَدَمَ مَخَالَفَتِهِ، وَ تَقْوَى الْأَرْحَامِ عَدَمَ قَطْعِهَا، وَ هَذَا مَنَاسِبٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ خَلْقِهِمْ جَمِيعًا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَهَمَّ مُتَشَابِكُونَ مِنْ أَسْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَا يَنْبَغِي لِبَعْضِكُمْ أَنْ يَقْطَعَ بَعْضًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا يَرْقُبُ أَعْمَالَكُمْ وَ أَقْوَالَكُمْ وَ نِيَاتَكُمْ، فَلَا تَفْعَلُوا مَا يُوْجِبُ سَخَطَهُ وَ عَذَابَهُ وَ عِقَابَهُ.

[٣] وَ آتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ أَيَّ أَعْطُوا الْيَتَامَى الَّذِينَ فَقَدُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أُمَّهَاتِهِمْ وَ وَرَثُوا مِنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ الَّتِي بَأَيْدِيكُمْ أَيُّهَا الْأَوْصِيَاءُ، أَوْ كُلِّ مَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤١

[سورة النساء (٤): آية ٣]

وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِمُوا فِي الْيَتَامَى فَمَا نَكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاجِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣)

كَانَ مَالَهُمْ بِيَدِهِ، وَ الْمَرَادُ عَدَمَ أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ، وَ «الْإِتْيَانُ» فِي حَالِ صِغَرِهِمُ الصَّرْفِ عَلَيْهِمْ، وَ فِي حَالِ كِبَرِهِمْ إِعْطَاؤُهُمْ إِيَّاهَا وَ لَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ أَيَّ لَا تَعْطُوهُمْ الرَّدِيءَ فِي مِقَابِلِ الْجَيِّدِ كَأَنَّ تَأْخِذُوا أَرْضِيهِمُ الْجَيِّدَةَ وَ تَعْطُوهُمْ أَرْضِي رَدِيئَةً وَ هَكَذَا وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ أَيَّ بَضْمِهَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ بِأَنَّ تَخَلَطُوا بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ وَ تَأْكُلُوهَا جَمِيعًا إِنَّهُ أَيَّ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ التَّبْدِيلِ وَ الْأَكْلِ كَانَ حُوبًا أَيَّ إِثْمًا كَبِيرًا.

[٤] وَ قَدْ كَانَتْ تَحْتَ وَصَايَةِ الرَّجُلِ يَتِيمَةً فَيَأْخُذُهَا طَمَعًا فِي مَالِهَا، فَهَبَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِمُوا أَيَّ لَا تَعْدِلُوا فِي الْيَتَامَى أَيَّ لَا تَعْمَلُوا بِالْعَدْلِ فِي زَوَاجِهِمْ فَتَظْلَمُوهُمْ - بِبَاقِيَّهَا مَعْلُوقَةٌ - تَرِيدُونَ بِذَلِكَ أَكْلَ أَمْوَالِهِمْ بِحُجَّةِ الزَّوْجِ فَمَا نَكِحُوا غَيْرَهُنَّ مِنْ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَإِنَّ الْيَتِيمَةَ لَعَدَمَ كَفِيلِ لَهَا مَعْرُضَةٌ لِلظُّلْمِ وَ الْحَيْفِ أَمَا غَيْرُهَا فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمَنَاسِبَتِهِ حُكْمُ النِّكَاحِ يَمْتَدُّ الْكَلَامُ إِلَى مَوْضُوعِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ أَيَّ انكحوا اثنتين اثنتين أَوْ ثَلَاثَةَ ثَلَاثَةَ أَوْ أَرْبَعَةَ أَرْبَعَةَ، وَ الْمَرَادُ تَرْوِيجُ نَوْعِ الرَّجُلِ هَكَذَا لَا تَرْوِيجُ كُلِّ فَرْدٍ لِذَلِكَ الْعَدَدِ، إِذْ لَا يَجُوزُ تَرْوِيجُ ثَلَاثَةَ وَ ثَلَاثَةَ - مَثَلًا - فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَ ذَلِكَ مِثْلُ: بَاعَ الْقَوْمُ أَمْتَهُمْ لِأَهْلِ الْبَلَدِ، يَرَادُ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ فِي الْجُمْلَةِ لَا أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ فَعَلَ ذَلِكَ سِوَاءَ فِي طَرَفِ الْبَيْعِ أَوْ الشِّرَاءِ.

وَ لَا يَخْفَى أَنَّ خَوْفَ عَدَمِ الْقَسْطِ لَا يُوْجِبُ حَرَمَةَ النِّكَاحِ وَضَعًا بِمَعْنَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٢

[سورة النساء (٤): آية ٤]

وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَيْنًا مَرِيئًا (٤)

بَطْلَانَهُ إِذَا نَكَحَ بِلِ النَّهْيِ عَنْهُ تَكْلِيفًا، وَ هَلْ هُوَ حَرَامٌ أَوْ إِرْشَادٌ اِحْتِمَالًا، كَمَا لَا يَخْفَى أَنَّ جَوَازَ النِّكَاحِ مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ لِمَنْ أَمِنَ مِنْ نَفْسِهِ وَ أَنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنْ أَنْ يَعْدَلَ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُنَّ مِنَ الْحَقُوقِ فَإِنَّ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ فِي مَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى فَوَاجِدَةً وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَالِ وَ إِلَّا فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَتِمَكَّنُ أَنْ يَعْدَلَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُ أَنْ يَنْكِحَ اثْنَتَيْنِ لَا أَزِيدُ وَ هَكَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الثَّلَاثِ.

وَ هَذِهِ الْآيَةُ لَا تَنَافِي قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَنْ تَشِيءُ تَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ «١» إِذْ الْمَرَادُ بِهَا الْعَدْلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الْمِيلَ الْقَلْبِيَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَيَّ اقْتَصَرُوا عَلَى الْإِمَاءِ فَإِنَّهُنَّ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى الْقِسْمِ وَ نَحْوِهِ مِنَ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الرَّجَالِ فِي مِقَابِلِ الْحَرَاثِ، وَ

الملك نسب إلى اليمين لأن اليد هي الغالبة في العمل، و اليمنى من اليمين أكثر عملاً- من اليسرى ذلك الزواج من الواحدة أو الاقتصار على ما ملكت اليمين أذنى أقرب أَلَّا تَعُولُوا أى لا تميلوا عن الحق ولا تجوروا.

[٥] وَآتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ أى مهورهن نِحْلَةً أى عطية فإن الله سبحانه أعطاهن إياهن فى مقابل الاستمتاع بهن لا على نحو الابتاع و نحوه و لعل فى كلمة «نحله» إشارة إلى تقدير المرأة و رفعها عن مستوى المعاملة فَإِنَّ طِبْنَ لَكُمْ أيها الأزواج

(١) النساء: ١٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٣

[سورة النساء (٤): الآيات ٥ إلى ٦]

وَلا تُوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتُلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسِّرْ تَعْفِيفٌ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)

عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ أى من المهر نفساً تميز ل «طبن» أى أعطين عن طيب نفس لا- بالجبر و الإكراه فَاكْسُوهُ هَنِئًا مَرِيئًا الهنىء الطيب المستساغ، و المرىء المحمود العاقبة.

[٦] و لما تقدم الأمر بدفع أموال الأيتام، عقب ذلك بعدم الدفع إلى السفیه و لا تُوتُوا أى لا تعطوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ و إنما أضاف المال إليهم لأن المال إنما هو للمجتمع بصورة عامة فإذا دفع إلى السفیه أتلفه و كان نقصا بالنتيجة لمال المجتمع. و ليس المراد بكون المال للمجتمع عدم الملكية الفردية بل المراد أن هذا المجموع من الأموال لا تنتفع المجموع فإذا تلف منه شيء كان نقصا على المجموع الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا فَإِنْ بِالْمَالِ يقوم أمر البشر إذ لو لا- المال لم تستقم أمور الناس و معاشهم و المعاملة بينهم وَ ارْزُقُوهُمْ فِيهَا أى فى تلك الأموال، و لعل عدم ذكر «منها» بدل «فيها» مع أنه الأنسب، لإفادة لزوم أن لا يقتطع من المال قطعة ثم قطعة حتى تفنى بل يكون الرزق فى المال بأن يبقى المال على أصله، و ذلك لا- يكون إلا- بتدبيره بالتجار و نحوه حتى لا ينقص منه وَ اكْسُوهُمْ و ذكر هذين من باب المثال و إلا- فاللازم القيام بجميع نفقاتهم وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا بأن تتلفوا لهم فى القول، و ذلك لأن اليتيم و السفیه معرضان للمخاشنة و النهر.

[٧] وَابْتُلُوا أى امتحنوا اليتامى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ أى السن الذى يتمكنون من النكاح و المواقعه فيه و هو سن البلوغ الشرعى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٤

فَإِنْ آنَسْتُمْ أى وجدتم مِنْهُمْ رُشْدًا و الرشد عبارة عن تمكن الشخص من إصلاح أمواله بلا سرف و لا تبذير و لا سفه فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمُ المودعة عندكم وَ لا تَأْكُلُوهَا أى لا تأكلوا أموال اليتامى إِسْرَافًا أى زيادة على قدر أجر تكم فى حفظها فَإِنَّ الإسراف التعدى عن الحد وَ بِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا أى لا تأكلوا أموالهم سريعاً من جهة خوف أن يكبروا فيأخذوها منكم فقد كان بعض الأولياء يتلف مال اليتيم قبل أن يكبر حتى إذا كبر قال له: أنفقتك عليك وَ مَنْ كَانَ مِنَ الأولياء غَنِيًّا يجد مؤونه سنة كاملة فَلْيَسِّرْ تَعْفِيفٌ يقال: استعفف من الشيء إذا امتنع منه، و المعنى: أن الولي الغنى لا يأخذ شيئاً لنفسه من مال اليتيم بعنوان الأجرة و العوض وَ مَنْ كَانَ مِنَ الأولياء فَقِيرًا لا يملك مؤوته لا قوة و لا فعلا فله الحق فى أن يأكل من مال اليتيم بِالْمَعْرُوفِ الذى هو قدر أجرته على حفظ أمواله لا أزيد من ذلك فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهَا الأولياء إِلَيْهِمْ أى إلى الأيتام الذين بلغوا و رشدوا أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ حتى لا ينكروا فى المستقبل فإن الشهود حينئذ يكونون فى جانبكم لدى الإنكار وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا أى محاسباً و شاهداً، فارقوه فى أعمالكم، فإنه يعلم ما تفعلونه بأموال الأيتام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٥

[سورة النساء (٤): الآيات ٧ الى ٩]

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَليَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)

[٨] وقد كان أهل الجاهلية لا- يورثون البنات، فكان الولي يدفع المال كله إلى أولاد الميت دون بناته فنهى الله عن ذلك بقوله: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ أى أقرباء الرجال، فلا يعطى الرجل أكثر من حظه و نصيبه و للنساء نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون فلا- تحرم من نصيبها كما لا تعطى أكثر من حصتها مما قل منه أى مما ترك أو أكثر فالمهم أن يعطى كل واحد نصيبه على أن لا يكون ما يعطى كثيرا أو قليلا نصيباً مفروضاً فرضه الله سبحانه و أوجه فلا يزداد عليه و لا ينقص منه.

[٩] و إذا حضر القسمة أى شهد وقت قسمة التركة أولو القربى أقرباء الميت الذين لا يرثون و اليتامى و المساكين من غير أقربائه فأرزقوهم منه أى أعطوهم شيئا من المال الموروث و قولوا لهم قولا معروفا حسنا غير خشن حتى يطيب خاطرهم و يجبر كسر عدم إرثهم و كسر يثمهم و مسكتهم.

[١٠] ثم بين سبحانه أن من يأكل مال اليتيم أو يظلمه لا- بد و أن يفعل ذلك بذريته اليتامى من بعده و ليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعفا خافوا عليهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٦

[سورة النساء (٤): آية ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

أى يجب أن يخاف ولى اليتيم من أكل ماله فإن الولي لو خلف يتيما من بعده كيف يخاف أولياء يتيمة أن يأكلوا أمواله كذلك فليجتنب هو عن ذلك، و الحاصل أن من كان فى حجره يتيما فليفعل به ما يجب أن يفعل بذريته. و لا يرد على هذا المعنى أنه كيف يزر وازره و زر أخرى، إذ الجواب أن معنى ذلك أن الله سبحانه لا- يعرئ يتيمة حتى لا- يقع فى مخالبا أولياء ظلمة، بل يتركهم يفعلون به ما فعل أبوه بأيتام الناس، و هكذا يفسر ما ورد من عقوبة الأبناء بفعل الآباء، و «ضعاف» جمع ضعيف فليتقوا الله فى أمر الأيتام فلا يأكلوا أموالهم و لا يؤذوهم و ليقولوا للأيتام قولا سديدا صحيحا موافقا للعدل و الشرع، فلا ينهروا الأيتام و لا يخشونو معهم فى الكلام كما جرت عادة كثير من الأولياء.

[١١] ثم هددهم سبحانه بعذاب الآخرة بقوله: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا بِلَا مَبْرَرٍ وَ اسْتَحْقَاقٍ وَ الْقَيْدِ تَوْضِيحِي، لإفاده أن أكل أموالهم ظلم و جور إنما يأكلون فى بطونهم أى يملئون بطونهم نارا فإن مال اليتيم ينقلب نارا و سيصلون يقال: صلى الأمر إذا قاسى شدته و حره سعييرا أى نارا مسعرة مؤججة، و الأكل فى الآية كناية عن التصرف فى المال و لو كان مثل الدار و اللباس فإن الأكل يستعمل بهذا المعنى كثيرا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٧

[سورة النساء (٤): آية ١١]

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَ إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَّرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ ذَيْنَ آبَاؤِكُمْ وَ أبنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمُ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)

[١٢] يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ وَ الوصية منه سبحانه فرض، كما قال سبحانه: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ «١» و معنى «فى أولادكم» أى فى ميراث أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن الابن يرث ضعف البنت و قد كان هذا التقدير دقيقا

جدا حيث أن كلفة الرجل أكثر من كلفة البنت لوجوب نفقة المرأة على الرجل غالبا و في كثير من الأحيان هو يقوم بالنفقة و إن لم تجب عليه فإن كُن المتروكات الوارثات للميت نساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ أى اثنتين فما فوقها، فإن ذلك يعبر غالبا بمثل هذه العبارة، يقال: من له فوق العشرة يؤخذ منه و من له دونها لا يؤخذ منه، يراد العشرة فما فوقها فَلَهِنَّ ثُلثًا ما تَرَكَ فإذا كان للميت بنتان فما فوقهما و كان هناك وارث آخر فى طبقتهم كالأم و الأب كان لهن الثلثان و البقية لسائر الورثة و إن كَانَتْ وَاحِدَةً أى أولاد الميت منحصره فى بنت واحدة فَلَهَا النِّصْفُ من التركة و لِأَبَوَيْهِ أى الأب و الأم للميت اللذين اجتمعا مع الأولاد لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فنصيب كليهما الثلث مِمَّا تَرَكَ الميت إن كَانَ لَهُ أى للميت وَلَدٌ سواء كان الولد واحدا أو

(١) الأنعام: ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٨

متعددا، ذكرا أو أنثى، أو بالاختلاف. و أما تفصيل ميراثهم فموكول إلى كتب الفقه «١» فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أى للميت وَلَدٌ لا صليبا و لا حفيدا و وَرِثَةٌ أبواه الأب و الأم للميت فَلِأُمَّه التُّلْثُ و الثلثان الباقيان للأب فَإِنْ كَانَ لَهُ أى للميت الذى خلف الأبوين بدون الأولاد إِخْوَةٌ من الأبوين أو الأب، و المراد بالأخوة اثنين فما فوق، و الأختان تقومان مقام الأخ، فلو كان للميت أب و أم و أخوان أو أخ و أختان أو أربع أخوات، فما فوق فَلِأُمَّه السُّدُسُ و ذلك لأن الأخوة يمنعون الأم عن السدس و يوفرونه للأب فلا ترث الأم الثلث مع وجود الأخوة. و تقسيم التركة هكذا إنما هو مِنْ بَعْدِ إِنْفَازِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا الميت أو دَيْنٍ على الميت، فأولا يؤخذ الدين من التركة ثم تنفذ الوصية من التركة- إلى حد الثلث- ثم يقسم الباقي بين الورثة كما ذكر، فلو كان للميت عشرة دنانير، و كان عليه دين قدره أربعة دنانير، و وصى بالإنفاق فى الخيرات، مقدار ثلثه، كان للوارث مقدار أربعة دنانير فقط، لأن أربعة خرجت دينا، و دينارين ثلثا، فلم يبق إلا أربعة آباؤكم و آبائوكم لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فلا تميلوا إلى توريث الآباء أكثر من الأبناء بظن أنهم أحق من جهة الأبوة و لا إلى العكس بظن أنهم أحق من جهة الضعف الفطرى الموجود فى الأبناء

(١) موسوعة الفقه: ج ٨٢ و ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٤٩

[سورة النساء (٤): آية ١٢]

و لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ التُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي التُّلْثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

فإنكم لا تعلمون أيهم أقرب نفعاً، و الله الذى هو يعلم الأشياء يقرر الحق كما تقدم فلا تخالفوا تحديده فى أنصبه الميراث جريا وراء العاطفة و الأوهام، فإنكم لا تعلمون أنكم بأيهما أسعد فى الدنيا و الآخرة فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ أى فرض الله هذه الأنصبه فريضة واجبه إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا فهو عالم بالمصالح حكيم فيما يفعل و يقرر.

[١٣] و لَكُمْ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ أى زوجاتكم، فإن ماتت زوجته أحدكم فللزوجة النصف إن لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ أى للزوجات وَلَدٌ سواء كان من هذا الزوج أو من غيره فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ واحد أو متعدد فَلِكُمْ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ من ميراثهن مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ فأولا يخرج الدين ثم تخرج الوصية إلى حد الثلث ثم تقسم التركة فللزوجة الربع و البقية للأولاد وَ لَهُنَّ أى للزوجة التى بقيت بعد وفاة زوجها الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ من الميراث إن لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ وَلَدٌ و قد دلت الشريعة أن

الزوجة لا ترث من الأرض فإن كان لكم ولد واحد أو متعدد،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ٤٩٩

ذكر أو أنثى، من تلك الزوجة الباقية أو من غيرها فلهنَّ الثمنُ مما تركتنَّ من الميراث من بعد وصيته تُوصونَ بها أيها الأزواج أو دين و لعل تقديم الوصية في الآيات - مع أن الدين مقدم في الإخراج - أن الغالب وجود الوصية بخلاف الدين. وإن كان رجلٌ يورث كلاله الكلاله هم: الأخوة سواء كانوا من الأب أو الأبوين أو الأم، والمعنى أنه إن كان الوارث كلاله بأن لم تكن المرتبة الأولى موجودة، فإن الأبوين والأولاد في المرتبة الأولى، والأخوة والأجداد في المرتبة الثانية، والأعمام والأخوال والعمات والخالات في المرتبة الثالثة، والزوجان يرثان مع كل مرتبة. و «كلاله» في الإعراب منصوب على الحالية، فالمعنى إن وجد رجل يرثه قريب له في حال كون ذلك القريب كلاله له أو إن كان امرأة تورث كلاله، أى وجدت امرأة يرثها قريب لها في حال كون ذلك القريب كلاله لها، والحاصل أنه لو مات رجل أو امرأة وله أى لكل واحد من الرجل والمرأة الذين ماتا أخ أو أخت والمراد هنا كلاله الأمى خاصة بأن كان الوارث شريكا مع الميت فى الأم فقط، بأن بقى أخوه أو أخته الأميان فلكل واحد منهما السدس من تركه الميت فإن كانوا أى كانت الكلاله أكثر من ذلك الواحد، بأن كانت الكلاله اثنين فصاعدا فهم شركاء فى الثلث يقسمونه بينهم بالسوية فإن الكلاله الأمى يرثون متساوين،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥١

[سورة النساء (٤): آية ١٣]

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣)

للمذكر مثل حظ الأنثى من بعد وصيته يوصى بها من قبل الميت أو دين فإن الدين والوصية يخرجان من المال ثم يعطى للواحد من الكلاله السدس وللاتنين فصاعدا الثلث غير مزار أى لا يضار الكلاله بأن يحرموه من الثلث، أو يكون المعنى: إنما تنفذ الوصية إذا كان الموصى غير مزار بأن لم يوصى بأكثر من الثلث وإلا - لم تنفذ الوصية فيما زاد على الثلث وصيته من الله أى هذه الأنصبه يوصيكم الله بها وصية والله عليم فيقدر الأنصبه حسب ما يعلم من المصالح حليم لا يعاجل العصاة بالعقوبة فمن خالفه فى الإرث و لم ير عقوبة عاجله فذلك لحلمه سبحانه فلا يعزه ذلك.

[١٤] تِلْكَ الَّتِي بَيَّنَّتْ فِي أَمْرِ الْإِرْثِ حُدُودَ اللَّهِ أَى الْحُدُودِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِمَقَادِيرِ الْإِرْثِ فَلَا يَجُوزُ التَّجَاوُزُ عَنْهَا وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَتَطْبِيقِ أَمْرِهِمَا وَالاجْتِنَابِ عَنِ مَخَالَفَتِهِمَا يُدْخِلْهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشْجَارِهَا خَالِدِينَ فِيهَا فَلَا- زَوَالٍ لَهُمْ عَنْهَا بِالموت أو الإخراج أو ما أشبه وذلك أى نيل الجنة والخلود فيها الفوز والفلاح العظيم الذى لا يماثله شىء فلا يحسب أحد أن الفوز ببعض التركة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٢

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤ الى ١٥]

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٤) وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥)

ظلما شىء يعتد به فإنه لا فوز كفوز الجنة الدائمة.

[١٥] وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِمَخَالَفَةِ أَمْرِهِمَا وَارْتِكَابِ نَوَاهِيهِمَا وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ فَيَتَجَاوَزُ مَا حَدَّ لَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا أَى دَائِمًا. و من المعلوم أن ذلك لمن خالف جميع الأوامر لا بعضها التى دل الدليل على عدم خلوده، و لعل عموم «حدوده» حيث أنه جمع مضاف، يدل على ذلك وله عذاب مهين فيهان فى العذاب حتى يجتمع عليه عذاب الروح و عذاب الجسد.

[١٦] وحيث بين سبحانه حكم الرجال و النساء في باب النكاح و الميراث بين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام فقال سبحانه: وَ اللَّاتِي جَمَعَ «التي» أَى النِّسَاءِ اللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ أَى الزَّانَا، وَ إِنَّمَا سَمِيَتْ بِالْفَاحِشَةِ لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَفْحَشُ وَ يَتَجَاوَزُ الْحُدَّ مِنْ نِسَائِكُمْ سَوَاءَ كَنَّ ذَوَاتُ أَزْوَاجٍ أَوْ لَا فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ أَى اِطْلُبُوا شَهَادَةَ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ أَوْ الزَّانَا كَالْمِيلِ فِي الْمَكْحَلَةِ فَإِنْ شَهِدُوا أَرْبَعَةَ عَدُولٍ عَلَى ذَلِكَ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ أَى فَاحِسُوهُنَّ فِيهَا. وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ حُكْمَ الْإِسْلَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزَّانِيَةِ ابْتِدَاءً حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٣

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦ الى ١٧]

وَ الَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَدُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧)

أى حتى تموت أو يجعل الله لهم سبيلاً أى يجعل لهم أمراً آخر غير الحبس. و قد نزلت آية الحدود و هى قوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ «١» فارتفع حكم الحبس فى البيت. و ما ورد فى الأخبار من أن آية الحد ناسخة لآية الحبس، يراد به أن حكم الحبس ارتفع لانقضاء أمده، لأنه كان مؤقتاً بجعل السبيل.

[١٧] وَ الَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ لَعَلَّ الْمُرَادُ ب «الذنان» اللائط و الملوط به فالضمير يرجع إلى الفاحشة لا بمعناها الأول بل بالمعنى المنطوق، أما تفسيره بالزانيين - فإن لم يرد بذلك حديث عن المعصوم عليه السلام - فبعيد.

فَأَدُوهُمَا الْأَذْيَةُ أَعْمٌ مِنَ الْحَدِّ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْقَوْلِ بِنَسْخِ الْحُكْمِ - إِنْ لَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ حَدِيثٌ مُعْتَبَرٌ - فَإِنْ تَابَا مِنْ فَعْلِهِمَا وَ أَصْلَحَا وَ الْمُرَادُ بِالْإِصْلَاحِ الْإِتْيَانُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا وَ لَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمَا بِسُوءٍ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا.

[١٨] ثم بين سبحانه ممن تقبل التوبة و ممن لا تقبل؟ لمناسبة قوله: «فإن تابا» فقال: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ أَى أَنْ يَقْبَلَ التَّوْبَةَ حَقَّ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ - جعله على نفسه - أو المراد توبه الله أى رجوعه عن المعاصى، فإن كلما من الله و العبد تواب بمعنى راجع إلى الآخر، فإن رجوع العبد بمعنى إقلاعه عن الذنب و رجوع الله بمعنى لطفه و إحسانه

(١) النور: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٤

[سورة النساء (٤): آية ١٨]

وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

و إعادة نظره إلى العبد للذين يعملون الشوء العمل المحرم بجهالة الظاهر أنه ليس المراد بالجهالة الجهل مقابل العلم، بل المراد مطلق العصيان، فإنها و إن صدرت عن عمد، لكن حيث أنها يدعو إليها الجهل بما يترتب عليه الذنب، يصح أن يقال: أنها عن جهل، و ليس القيد احترازا حتى يقال: فما هو السوء بغير جهالة؟ بل فائدته أن السوء لا يصدر إلا عن جهل ثم يتوبون من قريب قبل أن يروا علائم الموت فأولئك يتوب الله عليهم يرجع عليهم بمحو ذنوبهم و إعادة لطفه عليهم و كان الله عليماً بمصالح العباد فيحكم بمقتضى علمه حكيماً يضع الأشياء فى مواضعها حسب ما تقتضيه الحكمة.

[١٩] وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ الْمَقْبُولَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ الْمَعَاصِي، وَ إِنَّمَا سَمِيَتْ سَيِّئَةً لِأَنَّهَا تَسِيءُ إِلَى صَاحِبِهَا حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ بَانَ رَأَى آثَارَهُ مِنْ مَشَاهِدَةِ مَلِكِ الْمَوْتِ وَ نَحْوِهِ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ فَإِنَّهَا تَوْبَةُ الْمَضْطَرِ الَّذِي يَرِيدُ الْخَلَاصَ مِنَ الْعِقَابِ لَا تَوْبَةَ النَّادِمِ الْمَطِيحِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ:

الآن وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾

(١) يونس: ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٥

[سورة النساء (٤): آية ١٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَّبْنَ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)

ولما الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذبن مما آتيتنهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (١٩).
الطائفتان أعتدنا لهن عذاباً أليماً أي هياتنا لهن عذاباً يؤلمهن بسبب ما فعلوا من المعصية، ولا يخفى أنه بالنسبة إلى من عمل السيئات حتى جاءه الموت لا يكون العصيان سبباً موجباً للعقاب، فإن ذلك معلق بعدم الشفاعة والعفو.

[٢٠] ثم انتقل السياق إلى حكم آخر من الأحكام المرتبطة بالعائلة، وهو حكم المهر، فقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالْحُكْمُ وَإِنْ كَانَ عَاماً لِلْمُؤْمِنِ وَغَيْرِ الْمُؤْمِنِ لَكِنِ الْإِصْغَاءَ حَيْثُ كَانَ خَاصاً بِالْمُؤْمِنِينَ تَوَجَّهَ الْخُطَابُ إِلَيْهِمْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ بَعْضُ ذَوِيهِمْ حَسَبُوا زَوْجَتَهُ حَتَّى تَمُوتَ عِنْدَهُمْ وَيَرِثُونَهَا أَوْ يَأْخُذُونَ مِيرَاثَهَا وَ لَمْ تَكُنِ الْمَرْأَةُ تَرِيدُ ذَلِكَ بَلْ تَرِيدُ الزَّوْجَ مِنْ رَجُلٍ آخَرَ فَيَمْنَعُونَهَا عَنْ ذَلِكَ وَلَا تَعْضُلُونَهَا الْعَضْلُ: هُوَ إِسْكَاطُ الْمَرْأَةِ فِي الْبَيْتِ دُونَ تَرْوِيحِهِ، فَإِنَّهُ لَعْنَةٌ بِمَعْنَى الْمَنْعِ لِيَتَذَّبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا لَمْ يَرْغَبُوا فِي زَوْجَاتِهِمْ لَمْ يَطْلُقُوهُنَّ وَ تَرَكَوهُنَّ وَ مَنَعُوهُنَّ عَنِ الزَّوْجِ حَتَّى تَفْتَدِيَ بِبَعْضِ مَهْرِهَا أَوْ سَائِرِ أَمْوَالِهَا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ أَوْ بِمَعْصِيَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنْ زِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٦

[سورة النساء (٤): آية ٢٠]

وَ إِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠)

أو غيره فإنه يحق حينئذ لكم أن تضيقوا عليهن حتى يفتدين ببعض ما آتيتوهن وعاشروهن أي عاشروا النساء - مطلقاً - بالمعروف الذي يعرفه أهل العقل والدين فإن كرهتموهن فلا تعجلوا بالطلاق فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً من ائتلاف وحب في المستقبل، أو أولاد صالحين، أو نحو ذلك. فإنه كثيراً ما تقع نفرة بين الزوجين وتنتهي بوئام وسلام ووداد وحب وألفة.

[٢١] وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ بِأَنْ أَرَدْتُمْ طَلَقَ امْرَأَةٍ وَأَخَذَ امْرَأَةً أُخْرَى مَكَانَهَا وَ آتَيْتُمْ أَيْ أُعْطِيتُمْ مِنْ بَابِ الْمَهْرِ إِخْدَاهُنَّ وَ هِيَ الْمَرْأَةُ السَّابِقَةُ قِنْطَارًا مَلءُ جِلْدِ ثَوْرٍ ذَهَباً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَيْ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْطَى لَهَا مَهراً، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَادَ طَلَقَ امْرَأَةً وَأَخَذَ أُخْرَى مَكَانَهَا ضَيِّقَ عَلَى زَوْجَتِهِ الْأُولَى أَوْ بَهْتَهَا بِفَاحِشَةٍ حَتَّى يُجْبِرَهَا أَنْ تَفْتَدِيَ نَفْسَهَا فَيَجْعَلَ فِدَاءَهَا مَهراً لِلزَّوْجَةِ الثَّانِيَةِ أَوْ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا هُوَ مَصْدَرٌ فِي مَكَانِ الْحَالِ، وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ اسْتِنكَارِيٌّ، أَيْ هَلْ تَأْخُذُونَ بِبَعْضِ مَالِهَا بِالْبُهْتَانِ؟! وَ إِنَّمَا مُبِينًا أَيْ بِالْإِثْمِ الْوَاضِحِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٧

[سورة النساء (٤): الآيات ٢١ إلى ٢٣]

وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رَبَائِبُكُمْ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْيَالِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣)

[٢٢] وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ تُعْجِبُ مِنْ أَخَذَ بَعْضُ مَهْرِ الْمَرْأَةِ بِهَذَا النُّحُوِّ الْمَشِينِ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ، أَيْ وَ الْحَالِ أَنْكُمْ اقْتَرَبْتُمْ مِنْهُنَّ فَذَهَبَ الْمَهْرُ لِمَا حَصَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبُضْعِ، وَ الْإِفْضَاءُ هُوَ الْوَصُولُ إِلَى شَيْءٍ بِالْمَلَامَسَةِ وَ أَخَذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا عَلِيظًا وَ الْمِيثَاقُ هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذْتَهُ الزَّوْجَةُ مِنَ الزَّوْجِ بِالْعَقْدِ لِأَنَّ الْعَقْدَ مَعْنَاهُ مَقَابَلَةُ الْمَهْرِ بِمَا تَسْتَحِلُّ مِنْ نَفْسِهَا لَهُ، وَ قَدْ كَانَ لَازِمًا الْعَقْدَ الْإِمْسَاكِ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ التَّسْرِيحِ بِالْإِحْسَانِ.

[٢٣] وَلَا تَنْكِحُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْكِحُونَ زَوَّجَاتِ آبَائِهِمْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ، فَهِيَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنِ ذَلِكَ سِوَاءِ دَخَلَ الْأَبُ بِهَا أَمْ لَا إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ قَبْلَ إِسْلَامِكُمْ فَلَا تَتَوَخَّضُونَ بِذَلِكَ الذَّنْبِ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، يَعْنِي أَنَّ ذَنْبَ أَخَذِكُمْ نِسَاءَ آبَائِكُمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَعْفُورٌ عَنْهُ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً أَيْ زِنًا فَإِنَّ زَوْجَةَ الْأَبِ مِنْ مُحَارِمِ الْإِبْنِ فَمَقَارِبَتُهَا زِنًا وَمَقْتًا أَيْ مَوْجِبًا لِمَقْتِ اللَّهِ وَ غَضَبِهِ وَ سَاءَ سَبِيلًا فَإِنَّهُ سَبِيلُ الْكُفَّارِ وَ الْعِصَاةِ.

[٢٤] ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ سَائِرَ أَصْنَافِ الْمُحْرَمَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التَّحْرِيمَ يَقُومُ بِالطَّرْفَيْنِ فَكَمَا تَحْرِمُ الْمَرْأَةَ عَلَى الرَّجُلِ كَذَلِكَ يَحْرِمُ الرَّجُلَ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَ قَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُحْرَمَاتُ، مُحَلَّلَاتٍ عِنْدَ بَعْضِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٨

الناس كالمجوس، و لذا صرح القرآن الكريم بتحريمها، فقال:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ هِيَ كُلُّ امْرَأَةٍ يَرْجِعُ نَسَبُهَا إِلَيْكَ بِالْوِلَادَةِ بِنْتًا أَوْ بِنْتِ أَوْلَادِكَ الذُّكُورِ أَوْ الْإِنَاثِ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ هُنَّ اللَّاتِي جَمَعَكَ وَ إِيَاهُنَّ رَحِمٌ أُمَّ أَوْ صَلْبٌ ذَكَرٌ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ هُنَّ أَخَوَاتٌ لَذَكَرٍ يَرْجِعُ نَسَبُكَ إِلَيْهِ مِنْ طَرَفِ الْأَبِّ، كَأَخْتِ الْأَبِّ وَ أُخْتِ الْجَدِّ الْأَبِيِّ، أَوْ مِنْ طَرَفِ الْأُمِّ كَعَمَّةِ الْأُمِّ الَّتِي هِيَ أُخْتُ لَأَبِّ الْأُمِّ وَ خَالَاتُكُمْ وَ هُنَّ اللَّاتِي يَكُنُّ أَخَوَاتٍ لِأَنْثَى يَرْجِعُ نَسَبُكَ إِلَيْهَا مِنْ طَرَفِ الْأُمِّ كَأَخْتِ الْأُمِّ وَ أُخْتِ الْجَدَّةِ الْأُمِّيَّةِ، أَوْ مِنْ طَرَفِ الْأَبِّ كَأَخْتِ أُمِّ الْأَبِّ الَّتِي هِيَ خَالَهَ أَبِيكَ وَ بِنَاتُ الْمَآخِ بِلا وَاسِطَةٍ أَوْ مَعَ الْوَاسِطَةِ كَحَفِيدَةِ الْأَخِّ وَ بِنَاتُ الْأُخْتِ بِلا وَاسِطَةٍ أَوْ مَعَ الْوَاسِطَةِ كَحَفِيدَةِ الْأَخْتِ. وَ هَذِهِ السَّبْعَةُ هِيَ أَصْنَافُ الْمُحْرَمَاتِ بِالنَّسَبِ.

ثم بين سبحانه المحرمات بالسبب فقال: وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُم بِلا وَاسِطَةٍ كَأُمَّكَ بِالرُّضَاعِ، أَوْ مَعَ الْوَاسِطَةِ كَالْأُمِّ بِالرُّضَاعِ لِلْأَبِّ، وَ الْأُمِّ بِالرُّضَاعِ لِلْأُمِّ وَ هَكَذَا وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَ لَمْ يَذَكَرْ الْأَصْنَافَ الْأُخْرَى مِنَ الْمُحْرَمَاتِ بِالرُّضَاعِ كَالْعَمَّةِ وَ الْخَالَهَ، إِمَّا لِفَهْمِ ذَلِكَ مِنَ السِّيَاقِ أَوْ لِدُخُولِهِنَّ فِي «أَخَوَاتِكُمْ» فَإِنَّ الْعَمَّةَ أُخْتِ الْأَبِّ وَ الْخَالَهَ أُخْتِ الْأُمِّ، وَ إِذَا تَحَقَّقَتْ حَرَمَةُ الْأَخْتِ تَحَقَّقَتْ حَرَمَةُ بِنْتِ الْأَخِّ وَ بِنْتِ الْأَخْتِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٥٩

وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ أُمُّ الزَّوْجَةِ مَبْشَرَةٌ كَانَتْ أَوْ لَا، كَأُمِّ أَبِ الزَّوْجَةِ، وَ أُمُّ أُمِّ الزَّوْجَةِ، وَ حَيْثُ أُطْلِقَ سَبْحَانَهُ، تَبَيَّنَ أَنَّهُ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ عَلَى الْمَرْأَةِ تَحْرِمُ أُمَّهَا سِوَاءِ دَخَلَ بِالزَّوْجَةِ أَوْ لَا وَ رَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمُ الرِّبَائِبِ: جَمْعُ «رَبِيبَةٍ» وَ هِيَ بِنْتُ زَوْجَةِ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِهِ سِوَاءِ كَانَتْ قَبْلَ هَذَا الزَّوْجِ أَمْ بَعْدَ هَذَا الزَّوْجِ، وَ قِيدُ «اللَّاتِي» لِلْغَلْبَةِ فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ لَهَا بِنْتُ رَبَاهَا فِي حَجْرِهِ، وَ الْحُجُورُ جَمْعُ حَجْرٍ. ثُمَّ إِنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الرِّبِيبَةِ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ بِلا-وَاسِطَةٍ كَبِنْتِ الزَّوْجَةِ، أَمْ مَعَ الْوَاسِطَةِ كَبِنْتِ الرِّبِيبَةِ، أَوْ بِنْتُ ابْنِهَا، أَوْ أُخْتُ بِنْتِهَا مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ أَيْ حَصَلَ مِنْكُمْ جَمَاعٌ لِهِنَّ، فَإِنَّ الرِّبِيبَةَ لَا تَحْرِمُ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ عَلَى أُمَّهَا، وَ إِنَّمَا تَحْرِمُ لَوْ دَخَلَ بِأُمَّهَا، فَلَوْ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ وَ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا، ثُمَّ فَارَقَهَا بِطَلَاقٍ أَوْ فُسْخٍ أَوْ انْقِضَاءِ مَدَّةٍ فِي الْعِدَّةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، حَلَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِرَبِيبَتِهَا. وَ هَذَا هُوَ الْفَارَقُ بَيْنَ «أُمِّ الْمَرْأَةِ» وَ بَيْنَ «بِنْتِ الْمَرْأَةِ» فَإِنَّ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي نِكَاحِ بَنَاتِهِنَّ، بَعْدَ خُرُوجِ الْأُمَّهَاتِ عَنِ حَبَالَتِكُمْ وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ حَلَائِلُ: جَمْعُ حَلِيلَةٍ، وَ هِيَ الزَّوْجَةُ، أَيْ زَوَّجَاتُ أَبْنَائِكُمْ، سِوَاءِ كَانَ الْإِبْنُ بِلا وَاسِطَةٍ، أَوْ مَعَ الْوَاسِطَةِ كَابْنِ الْإِبْنِ، وَ ابْنِ الْبِنْتِ الَّذِي مِنَ أَصْلَابِكُمْ وَ ذَلِكَ مُقَابِلُ «الدَّعَى» وَ هُوَ مَنْ يَتَبَنَاهُ الْإِنْسَانُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٠

فإنه لا يحرم على الأب المتبنى زوجة الابن الذي تبناه، لقوله سبحانه:

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ «١» أما الابن الرضاعي فإنه بمنزلة الابن النسبي

لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «الرضاع لحمه كلحمه النسب»

«٢».

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْمُخْتَيْنِ أَى يحرم الجمع بين الأختين بأن تكونا في حالته معاً، ويجوز أخذ واحدة ثم إخراجها عن حالته و نكاح الأخرى إلاً ما قَدْ سَلَفَ فَإِنْ أَعْمَلَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالنَّسْبِ إِلَى نِكَاحِ الْمُحْرَمَاتِ غَيْرِ مُؤَاخِذِينَ عَلَيْهَا فِي الْإِسْلَامِ، لَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً يَغْفِرُ ذُنُوبَكُمْ السَّابِقَةَ رَحِيماً يَرْحَمُ بِكُمْ فَلَا يَجْزِيكُمْ بِسَيِّئَاتِكُمْ.

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ص ٣٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الخامس سورة النساء من آية (٢٥) الى (١٤٨)

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَعُتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٣

[سورة النساء (٤): آية ٢٤]

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحِينَ

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤)

[٢٥] وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ أَى النساء اللاتي أحصن بالأزواج، أى حرمت عليكم النساء ذوات الأزواج، يقال: أحصن الرجل زوجته،

أى حفظها من الفجور إلاً ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ و هن الإمام ذوات الأزواج التي يسيبهن المسلمون، فإن السبى يقطع عصمتهم بأزواجهن

الكفار و يحل للمسلم إيقاعهن كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أى كتب الله- تحريم النساء المذكورات- عليكم كتاباً، فهو منصوب على المصدر

بفعل محذوف و أَحِلَّ لَكُمْ أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ المذكور فإن كل امرأة لا يقع عليها أحد العناوين المذكورة سابقاً قريبة كانت

أو لا، فهي محللة على الشخص أن يتزوجها أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ أى تطلبوا بأموالكم- التي تجعلونها مهراً لهم- نكاحهن في حال

كونهم مُحْصَنَاتٍ أَى تحصنون إياهن بالزواج غَيْرِ مُسَافِحِينَ السفاح هو الزنا، بأن لا تبتغوا بالأموال السفاح كما يفعله الزانون حيث

يسافحون بالنساء في مقابل المال، ففي ما وراء ذلك التحريم المتقدم حلال أن تبتغوا النساء بالمال لكن من طريق الزواج لا عن طريق

السفاح فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ «ما» موصوله يراد بها المرأة، و الضمير في «به» عائد إلى «ما» أى النساء اللاتي استمتعتم بهن مِنْهُنَّ أى من

النساء، و هذا بيان «ما» و المراد الاستمتاع طلب المتعة أى اللذة فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ أى: فالنساء اللاتي استمتعتم بهن من طريق الإحصان

و الزواج يجب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٤

عليكم إعطاؤهن أجورهن. و هذه الآية وردت في نكاح المتعة، و المعبر عنه بالنكاح المنقطع، كما ورد بذلك الروايات «١»، و الفرق

بينه و بين الدائم أنه محدد بمدة طالت أو قصرت، فإذا انتهى أمده انفسخ من نفسه، بخلاف الدائم الذي يحتاج فسخه إلى الطلاق أو

نحوه، و يؤيد كون الآية في النكاح المنقطع لا الدائم، ذكر كلمة الاستمتاع التي هي ظاهرة في المتعة، و ذكر الأجور فإن المنصرف

من الأجر ما يعطى لقاء الاستمتاع لا النكاح الدائم، ولا ينافى أن يكون السابق على هذه الجملة عاما يشمل الدائم و المنقطع، و هذه الجملة خاصة للمنقطع، فإنه كثيرا ما يذكر الخاص بعد العام، فالمنقطع مصداق من مصاديق «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» و فى ذلك فائدة لطيفة، حيث تتبّه الآية على عدم الاحتياج إلى الزنا و الحال أن النكاح المنقطع بمكان من الإمكان فَرِيضَةً أى فرضت و وجبت الأجور فريضة فلا يجوز للرجل عدم إعطاء الأجور للمستمتع بها.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْتَمْتَعُونَ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ فِي الْمَقْدَارِ الَّذِي تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ أَيُّ الْمَقْدَارِ السَّابِقِ مِنَ الْمَهْرِ، فَإِذَا تَرَاضَيْتُمْ بِزِيَادَةِ الْمُدَّةِ بَعْدَ جَدِيدٍ أَوْ إِنْقَاصِهَا بِالْهَبَةِ، بِزِيَادَةِ الْمَهْرِ أَوْ نَقْصَانِهِ جَازَ لَكُمْ ذَلِكَ، وَ الْحَاصِلُ أَنَّ مَا تَبَانِيَا عَلَيْهِ سَابِقًا فَرِيضَةً، لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَّا بِرِضَا جَدِيدٍ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِالصَّالِحِ حَكِيمًا فِيمَا شَرَعَ مِنَ الْأَحْكَامِ، الَّتِي مِنْهَا الْمَتْعَةُ الَّتِي تَفِيدُ

(١) الكافي: ج ٥ ص ٤٤٩ ج ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٥

[سورة النساء (٤): آية ٢٥]

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَمَانِكُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْرَادٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تُصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

المسافرين و الغرباء و من لا يتمكن من الدائم، فإن ذلك وقاية للمجتمع من فتح أبواب الزنا و السفاح و اللواط و السحق و ما أشبه إذا ما سد باب المتعة.

[٢٦] وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ طَوْلًا أَى مِنْ جِهَةِ الْغِنَى وَ الثَّرْوَةِ، بَأَنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَكْفِيهِ أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ أَى الْحَرَائِ الْمُؤْمِنَاتِ وَ إِنَّمَا قِيلَ لِهِنَّ مُحْصَنَاتٍ لِإِحْصَانِهِنَّ أَنْفُسَهُنَّ عَنِ الْبَغَاءِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا «١» فَالمرأة العفيفة «محصنة» بالكسر، و «محصنة» بالفتح، بالاعتبارين، و المعنى:

أن الرجل لو كان فقيرا لا يقدر على مهر الحرة و نفقتها فليتكح مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ينكح أمه ملكتها يمين أخيه المسلم من فِتْيَانِكُمْ جمع فتاة و هى المرأة الشابة، و المراد بها هنا الأمة،

فقد ورد «أن الرسول نهى - تنزيها - أن يقول أحد: عبدى و أمتى بل يقول: فتاى و فتاتى»

«٢» جبرا لخاطرهما الْمُؤْمِنَاتِ فَإِنَّ مَهْرَ الْأُمَةِ أَقْلٌ وَ تَكَالَيْفُهَا أَيْسَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ فليس المراد التنقيب عن حقيقة إيمان الأمة المراد تزوجها بل يكفى الظاهر، أما الإيمان الراسخ القلبي فليس إلى ذلك سبيل بل الله أعلم به.

(١) التحريم: ١٣.

(٢) كنز العمال: ج ٣ ص ٦٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٦

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَلَيْسَ الرَّجُلُ الْحُرُّ بِأَعْلَى إِيْمَانًا مِنَ الْأُمَةِ الْمُؤْمِنَةِ بَلِ الْمُؤْمِنُونَ سَوَاءٌ كَانُوا أَحْرَارًا أَوْ عِبِيدًا أُمِّيَّةً وَاحِدَةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، مِنْ طَبَقَةٍ أَعْلَى مِنْ طَبَقَةِ الْآخَرِينَ، وَ إِنَّمَا شَرَعَتْ أَحْكَامَ الْعِبِيدِ وَ الْإِمَاءِ لِمَصَالِحِ خَاصَّةٍ، كَمَا شَرَعَتْ أَحْكَامَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ مُخْتَلَفَةً لِمَصَالِحِ خَاصَّةٍ فَمَانِكُوهُنَّ أَى تَزَوَّجُوا بِالْفِتْيَانِ الْمُؤْمِنَاتِ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ أَى سَادَتِهِنَّ وَ مَوَالِيِهِنَّ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ نِكَاحَهُنَّ بِدُونِ رِضَى السَّادَةِ وَ آتُوهُنَّ أَى أَعْطُوا الْفِتْيَانِ الْمُؤْمِنَاتِ أُجُورَهُنَّ أَى مَهْرَهُنَّ، وَ إعطاء الفتيات لا يراد به إلا الدفع إلى تلك الجهة، و إن كان المولى يستحق المهر بِالْمَعْرُوفِ مِنْ دُونِ عَطَلٍ وَ إِضْرَارٍ، وَ لِيَكُنْ نِكَاحُكُمْ إِيَاهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ فِي حَالِ كَوْنِهِنَّ مُحْصَنَاتٍ عَفِيفَاتٍ

غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ أَى غير زانيات، و إنما قيد بذلك لأن «النكاح» يطلق على الوطاء، كما يطلق على العقد الشرعى، قال سبحانه: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ «١» أَى لا يزنى بها، و لا تزنى به، و قد كان فى الجاهلية من يجبر إمامه على الزنا، فكان نكاحا- أى جماعا- بأجر، بإذن الأهل كما قال سبحانه: وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا «٢» و لعل ذلك لمقابله قوله سبحانه بالنسبة إلى الحرائر: «محصنين غير مسافحين».

(١) النور: ٤.

(٢) النور: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٧

وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ أَى لتكن الفتاة عفيفة غير متخذة لصديق، فإن الأخدان جمع خدن و هو الصديق، و الحاصل أن تكون الأمة التى تريدون الزواج بها غير زانية و لا صديقه لأحد، و قد كن بعض الإماء فى الجاهلية كذلك، فنهى الله سبحانه عن التزوج بهن فإذا أَحْصِنَ أَى تزوجن فأحصنهن أزواجهن فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ أَى بالزنا فعليهن نصف ما على المُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ أَى إن حدهن نصف حدّ الحرّة الزانية و هو خمسون جلده، و قد كان من حكمه الإسلام أن جعل المحاربين مع المسلمين- إذا غلبوا عليهم- عبيدا و إماء، لا أن يقتل الجميع أو يسجنهم، ثم جعل العبودية تمشى فى أعقابهم، حتى لا يجرأ أحد على محاربة المسلمين خوفا من ذلك، أو على الأقل يحدّ من نشاط الحروب، فأى إنسان يسوّغ العبودية؟ مع العلم أن كثيرا من الناس يستسيغون القتل و السجن. ثم بعد ذلك جعل للعبيد أحكاما خاصة تشديدا تارة و تخفيفا تارة أخرى ليقابل التخفيف التشديد، ثم ليكون لهم بصورة عامة ميزة خاصة يعرفون بها عن الأحرار، و تفصيل فلسفة الأمرين يطلب من الكتب الخاصة بهذا الشأن «١».

ذَلِكَ النكاح للإماء لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ العنت هو

(١) فى بعض الاعداد من نشره «الأخلاق و الآداب» الكريلائية تفصيل للجهة الأولى اى فلسفة تشريع العبد و الإماء و انه بمعناه الاسلامى- لا الغربى السائد فى الأذهان- لم يلغ و لا يلغى الى يوم القيامة، كسائر احكام الإسلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٨

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)

الجهد و الشدة، أى خاف أن يقع فى جهد و شدة من جهة ترك الزواج، أو خاف الوقوع فى الزنا لشدة رغبته الجنسية و أن تصبروا فلا تتزوجوا بالإماء خَيْرٌ لَكُمْ فإنه لو اعتاد نكاح الإماء بقيت الحرائر بلا أزواج لقله الكلفة بالنسبة إلى الأمة، و كثرة الكلفة بالنسبة إلى الحرّة، فيقبل الناس على تزوجهن، و ليس أمر العبيد و الإماء و الفروع المتصلة به قصة تاريخية لظروف خاصة، كما يقوله بعض من بهرته الثقافة الغربية، و لو جاز ذلك فى هذا الحكم لجاز فى كل حكم إسلامى، و لم يبقى للإسلام اسم و لا- رسم. وَاللَّهُ غَفُورٌ لَذُنُوبِكُمْ رَحِيمٌ بكم فلا تأسوا من رحمته لما اقترتم من المحرمات المرتبطة بهذا الباب بعد عزمكم على التوبة منها.

[٢٧] ثم بين سبحانه أن هذه المحرمات إنما حرمت لمصلحة البشر لا- اعتبارا فقال: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ أَحْكَامَ دِينِكُمْ وَ دُنْيَاكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ يرشدكم سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ السنن جمع سنه، و هى طريقة الأنبياء عليهم السلام و المرسلين و عباد الله الصالحين وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ أَى يرجع عليكم بلطفه و مته حيث أنكم تعملون بطاعته- بعد ما كنتم فى زمان الجاهلية تعملون بالمعاصى و الآثام- فبين لكم الأحكام لتعملوا بها فيتوب عليكم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِكُمْ حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى.

[٢٨] وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ كَرَّرَ لِفَائِدَهُ الْمَقَابِلَةَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٦٩

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٨ إلى ٢٩]

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ فِي مَوَاقِعِهِ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْحَلِّ وَالْحَرَمَةِ وَالْمَصْلُحَةِ وَالْمُفْسَدَةِ أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ مَيْلًا عَظِيمًا أَيْ انْحِرَافًا، فَإِنْ اقْتَرَفَ مُحْرَمَاتِ النِّكَاحِ مِنْ أَكْبَرِ الْآثَامِ.

وَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ عَامَةً لِكُلِّ بَاطِلٍ وَلِكُلِّ مَيْلٍ إِلَّا أَنْ قَرِينَةُ السِّيَاقِ تَخْصُّصُهَا بِمَا ذَكَرْنَا.

[٢٩] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ فِي أُمُورِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ وَلِذَا أَحَلَّ كُلَّ النِّسَاءِ إِلَّا مَا فِيهِ مَضْرَةٌ، وَيَقْبَلُ تَوْبَتِكُمْ، وَ لَوْ أَرَادَ التَّشْدِيدَ لَمْ يَقْبَلِ تَوْبَتِكُمْ، وَ حَرَمَ عَلَيْكُمْ أَقْسَامًا أُخْرَى مِنَ النِّسَاءِ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ (١) وَ فِيهِ إِفَادَةٌ أَنَّ تَحْرِيمَ مَا ذَكَرَ لَيْسَ تَثْقِيلًا- وَ إِنَّمَا هُوَ تَخْفِيفٌ، فَإِنَّ التَّخْفِيفَ قَدْ يَكُونُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّيْءِ وَ قَدْ يَكُونُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَتَائِجِهِ، وَ تَحْرِيمُ الْمُحْرَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ تَخْفِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّتَائِجِ لِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْمُحْرَمَاتُ مِنَ وَخَامَةِ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الَّتِي مِنْهَا ضَعْفُ النَّسْلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نِكَاحِ الْمُحْرَمَاتِ كَمَا ثَبَتَ فِي الطَّبِ الْحَدِيثِ وَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا فَهُوَ لَا يَصْبِرُ عَلَى شَهَوَاتِهِ وَ يُرِيدُ اقْتِرَافَ آثَامِ الزُّنَا مِمَّا يَضُرُّهُ فِي دُنْيَاهِ وَ آخِرَتِهِ [٣٠] وَ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مُحْرَمَاتِ النِّسَاءِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بـ «الْفَرْجِ»، بَيَّنَّ مُحْرَمَاتِ

(١) النساء: ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٠

الأموال مما يتعلق بـ «البطن»

فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن «من وقى شر لقلقه و قبقبه و ذبذبه فقد وقى الشر كله»

«١»، و المراد بلقلقه:

لسانه و قبقبه: بطنه، و ذبذبه: فرجه. فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَقَدَّمْ أَنْ الْحَكْمَ وَ إِنْ كَانَ عَامَاً لِلْمُؤْمِنِ وَ غَيْرِهِ إِلَّا أَنْ إِصْغَاءَ الْمُؤْمِنِ فَقَطْ أَوْجِبَ تَوْجِيهَ الْخُطَابِ إِلَيْهِ فَقَطْ لَا- تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَ الْمُرَادُ بِالْأَكْلِ مَطْلُوقَ التَّصْرُفِ، وَ أَتَى بِلَفْظِ الْأَكْلِ لِشُيُوعِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّصْرُفِ، فَهُوَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْخَاصِّ وَ إِرَادَةِ الْعَامِ، وَ كَلِمَةُ «بَيْنَكُم» إِنَّمَا أَتَى بِهَا لِإِفَادَةِ أَنَّ الْأَكْلَ بِالْبَاطِلِ إِنَّمَا يَعُودُ ضَرَرُهُ إِلَيْهِمْ أَجْمَعٍ فَلَيْسَ الْأَكْلُ لِمَالِ غَيْرِهِمْ، وَ إِنَّمَا أَكَلَ لِأَمْوَالِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَ يَعُودُ ضَرَرُهُ إِلَى مَجْتَمِعِهِمْ، وَ الْبَاطِلُ هُوَ خِلَافُ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَقْرَهُ الشَّرْعُ وَ الْعَقْلُ، أَمَا أَخَذَ الْخُمْسَ وَ الزَّكَاةَ وَ سَائِرَ الْحَقُوقِ الْمَالِيَّةِ وَ الْوَاجِبَاتِ فَلَيْسَ أَكْلًا بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ الْاسْتِثْنَاءُ مَنْقُطِعٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَكْلًا لِلْمَالِ بِالْبَاطِلِ. وَ كَثِيرًا مَا يَأْتِي مِثْلُ هَذَا الْاسْتِثْنَاءِ فِي الْكَلَامِ فَيُقَالُ:

لَا تَجَالِسِ الْأَشْرَارَ إِلَّا الْأَخْيَارَ، وَ لَا تَأْكُلِ الْمَضْرُورَ إِلَّا الْمَفِيدَ، وَ قَوْلُهُ «عَنْ تَرَاضٍ» يَفِيدُ عَدَمَ جَوَازِ أَكْلِ الْمَالِ مُقَابِلَ التَّجَارَةِ الْجَبْرِيَّةِ بَدُونَ الرِّضَا وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَيْ لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَإِنَّ الْقَتْلَ مَهْمَا وَقَعَ عَلَى الْعَدُوِّ فَإِنَّهُ وَقَعَ عَلَى الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ، وَ الْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ الْقَتْلِ وَ أَكْلِ الْمَالِ، أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ حَرَّمَ انْتِهَاكَ الْأَعْرَاضِ، وَ أَكَلَ الْأَمْوَالِ وَ إِرَاقَةَ الدَّمَاءِ،

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٦٣ ص ٣٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧١

[سورة النساء (٤): الآيات ٣٠ إلى ٣١]

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِنَّ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

فحيث ذكر الأولين، أشار إلى الثالث إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ومن رحمته بكم أن جعل أموالكم وأعراضكم ودماءكم محترمة لا يجوز لأحد أن يتصرف فيها.

[٣١] وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ القتل، أو أكل المال و القتل، أو انتهاك العرض و أكل المال و القتل، و السياق يؤيد المعنى الثالث، و إن كان قرب اللفظ يؤيد المعنى الأول عُدْوَانًا وَظُلْمًا فإنه تعدد للحدود و ظلم للنفس و للغير، و في ذلك إخراج للسهو و النسيان و الخطأ فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ من أصلاهُ أى أدخله، نارا في الآخرة وَكَانَ ذَلِكَ الإدخال في النار لمن فعل ذلك عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا فلا يمنعه مانع و لا يسأل عما يفعل.

[٣٢] إن الإنسان لا بد و أن تقع منه مخالفات، و حيث أن المخالفات مختلفة: من كبيرة، كقتل النفس، و صغيرة ككذبة عفوياً و نحوها.

لذا يختم الله سبحانه تلك الآيات المحذرة عن المحرمات المذكورة بقوله سبحانه: إِنَّ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ كانتهاك الأعراض و أكل أموال الناس بالباطل و إراقته دماء الأبرياء نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ و معنى التكفير: الستر و الغفران، أن نغفر سائر سيئاتكم، و لا نؤاخذكم بما لا بد و أن يقع في الحياة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٢

[سورة النساء (٤): آية ٣٢]

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)

وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا أى مكانا حسنا طيبا يكرم صاحبه فيه، و «كريم» صفة الإنسان، يطلق على المحل بعلاقة الحال و المحل، و المراد ب «المدخل الكريم» الجنة.

[٣٣] و حيث سبق الكلام حول أكل الأموال بالباطل، جرى السياق في موضوع أدق و هو تمنى بعض الناس أن يكون نصيبهم كنصيب الآخرين، و التمنى قد يكون مقرونا بزوال النعمة من الآخر، و هذا هو الحسد المذموم الذى نهى عنه في هذه الآية، و قد يكون طلبا لأن يكون للإنسان مثل ما لأخيه و هذه هى الغبطة، و هذه و إن كانت خلاف الأدب - بالنسبة إلى الأمور الدنيوية - لأنها تكشف عن ضعة في النفس، لكنها ليست بمحرمة.

و ذكر صاحب «مجمع البيان» فى سبب النزول ما لفظه: «قيل:

جاءت وافدة النساء إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: يا رسول الله! أليس الله رب الرجال و النساء و أنت رسول الله إليهم جميعا، فما بالنار يذكر الله الرجال و لا يذكرنا، نخشى أن لا يكون فينا خير و لا لله فينا حاجة. فنزلت هذه الآية. و قيل: إن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزوا الرجال و لا تغزوا النساء. فنزلت الآية. عن مجاهد، و قيل: لما نزلت آية الموارث قال الرجال: نرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث فيكون أجرا على الضعف من أجر النساء. و قالت النساء: إنا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال فى الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم فى الدنيا. فنزلت الآية» (١).

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٣

و على أى حال فقد كان هناك تمنى من أحد الجانبين فهى الله عن ذلك بقوله: وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فَإِنْ

التمنى مع قطع النظر عن عدم جدواه يكشف عن ضعف النفس و عدم تبصر الإنسان بالأمر إذ التفضيل لم يقع اعتباراً، وإنما خلقه كل واحد من الرجال و النساء، و سائر الملابس الاجتماعية، أوجبت هذه المفاضلة من عليم حكيم، فلا يقل أحدكم: ليت ما أعطى فلانا من المال و الجاه و التشريع كان من نصيبى للرجال نصيب مما اكتسبوا من المال و الجاه و العمل و للنساء نصيب مما اكتسبن من الأمور المذكورة. ثم ليس كل ما اكتسبه الرجل له، بل قسم منه لله سبحانه يجب صرفه فى سبيله من مال أو جاه أو طاقة، و لذا قال: «مما اكتسبوا» و كذلك بالنسبة إلى النساء. فهذا النصيب الذى قدره سبحانه هو الذى ينبغى لكل منهما أن يقنع به و لا يتوقع أن يكون له مثل ما للصنف الآخر و سئلوا الله من فضله أن يعطيكم ما تريدون لا أن تحسدوا و تتمنوا زوال نعمه الآخرين و انتقالها إليكم فإنه سبحانه هو القاسم و المعطى إن الله كان بكل شئ عليمًا فيعلم ما تضررونه من التمنى و الحسد، أو ما تنوون فى قلوبكم من الالتجاء إليه سبحانه فى أن يوفر عليكم الناقص الذى تريدون كماله.

ثم إن ظاهر قوله سبحانه: «للرجال .. إلخ» أن التمنى كان بالنسبة إلى الأمور الاكتسابية لا الأمور التكوينية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٤

[سورة النساء (٤): آية ٣٣]

و لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

[٣٤] ذكر سبحانه أن للرجال نصيب مما اكتسبوا و للنساء نصيب مما اكتسبن، أما القسم الآخر من الكسب أى بعض ما اكتسب الرجال و بعض ما اكتسبن النساء، فإنه من نصيب الوارث، و ليس ذلك على وجه الفريضة و إنما على نحو القضية الطبيعية الغالبة جرت على أن يتنعم الإنسان بقسم مما اكتسبه و يخلف قسما آخر من كسبه للوارث و لكل من الرجال و النساء جعلنا موالى هو جمع مولى، من ولى الشئ يلىه ولاية، و هو اتصال الشئ بالشئ من غير فاصل، يعنى جعلنا للصنفين أشخاصا وارثين هم أولى فى التصرف فيما تركا إرثا، و هؤلاء الموالى الوارثون يرثون مما ترك الوالدان و الأقربون كل حسب تشريع الله له قسما خاصا من الإرث، فلكل من الرجال و النساء حق فى الكسب و حق فى الإرث فلا يتمنى أحد ما لغيره فإن الله سبحانه جعل ذلك.

و الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ لعل المراد أن الذين تعاقدتم معهم بالإيمان لإعطائهم حصه من تركتكم فاللازم إعطاؤهم نصيبهم المشروع من دون الثلث إذا كان عقد اليمين غير ملزم، و ما زاد عن الثلث إذا كان العقد ملزما، و على أى حال فليس لهؤلاء إرث، إذ لكل موالى خاصة فلا يزداد عليهم بعقد الأيمان إن الله كان على كل شئ شهيداً أى حاضرا شاهدا، فلا تخالفوا أو امره بجعل غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٥

[سورة النساء (٤): آية ٣٤]

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَىٰ النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ أَهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا كَبِيْرًا (٣٤)

الوارث و ارثا بعقد اليمين، أو عدم إعطاء «الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ» نصيبهم المقرر فى الشريعة.

[٣٥] و حيث تقدم إن لكل من الرجال و النساء نصيب، أراد سبحانه أن يبين علته زيادة الرجل فى نصيب الإرث، و نصيب الأمر و النهى، على المرأة، فقال: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ جمع قوام و هو القائم بالأمر المسلط على الشئ على النساء و من المعلوم أن المراد قوامه الرجل فى الجملة، لا أن كل رجل قريب قوام على كل امرأة قريبة بما فضل الله أى أن القوامه بسبب تفضيل الله سبحانه بعضه على بعض فإن الله سبحانه فضل الرجل على المرأة عقلا و جسما و تحملا- كما هو واضح و قد ثبت فى العلم الحديث- و لم يكن تفضيل الله سبحانه اعتبارا فقد خلقت المرأة لغاية غير ما خلق لها الرجل فمثلها مثل «مركبتين» صغيرة تحمل الركاب، و كبيرة تحمل الحديد و الأخشاب و بسبب ما أنفقوا من أموالهم فإن نفقة الزوجه واجبه على الزوج، و من المعلوم أن هذا الواجب يلزم أن يعوض بحق

فأعطى للزوج القوامه في قبال ما وجب عليه من النفقه، وكذلك بالنسبه إلى المهر.

فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ وَإِذْ تَبْتَ هذه القوامه، فالنساء الصالحات الخيرات سيحافظن على الهدوء و السكون و الموافقه لأزواجهن و يتجنبن الشغب و التمرد و الاستعلاء و تجاوز الحدود

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٦

و النشوز، و القنوت بمعنى الإطاعة، أى فهن مطيعات للأزواج يحفظهن فى حضورهم و غيابهم كما أن ذلك مقتضى كونهن مولى عليهن، و المراد بالغيب حاله غيبوبه الزوج بخروج أو سفر أو نحوهما، فلا يخنهن فى أنفسهن أو أموالهن أو نحو ذلك، و يكون هذا الحفظ منهن لهم بسبب ما حفظ الله لهن من الكرامه و الحقوق، أو مستعينات بحفظ الله تعالى فإن الإنسان لا يتمكن من حفظ شىء إلا إذا شاء الله حفظه، أو بمقابله حفظ الله، كأن يكون حفظ الله عوضا لحفظهن إياهم، فالباء سببيه، أو استعانه أو مقابله.

أما المرأة التى لا تقنت و تريد الاستعلاء على الزوج، و لا تراعى حقوق الرجل، فلها حكم خاص بينه سبحانه فى قوله: وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ مَنْ نَشَزَ إِذَا ارْتَفَعَ، أى عصيانهن، فكأنها ارتفعت عن حدّها فَعَطُوهُنَّ مِنَ الوِعْظِ، بالنصح و الإرشاد، و ما أشبهها وَ أَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ إِنْ لَمْ يَفِدِ الوِعْظُ، و «المضاجع» جمع مضجع، و هو محل النوم و فراشه، و ذلك بتحويل الظهر، أو بعزل فراشه عن فراشها وَ اضْرِبُوهُنَّ وَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنْ الضَّرْبَ بالسواك، و لا يخفى أن هذه المراتب بالتدرج و إن كانت الواو العاطفه لا تفيد ذلك- كما قالوا- كما أن المرأة كثيرا ما تتأدب بالهجر و الضرب الخفيف لأنهما يبعثان فيها العاطفه نحو الزوج و يتطلبان منها تحسين سلوكها ليرجع إليها قلب الزوج فَإِنَّ أَطْعَمَكُمُ و من المقرر فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٧

[سورة النساء (٤): آية ٣٥]

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

الشريعة أن الإطاعة الواجبه على المرأة ليست إلا عدم خروجها بدون إذنه و مطاوعتها له فى الاستمتاع بها متى أراد فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا أى لا تطلبوا لضررهن طريقا، بإيذائهن و عدم القيام باللطف و العطف المترقب من الزوج، بل سامحوهن، فقد قال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم «إن من حق المرأة على الرجل أن يغفر لها إذا جهلت»

«١»، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا فَلَا يَتَعَالَى عَلَيْهِ أَحَدٌ بِقُوَّتِهِ كَبِيرًا فَلَا أَكْبَرَ مِنْهُ.

[٣٦] وَ إِنْ خِفْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الْمُحِيطُونَ بِالزَّوْجَيْنِ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا أَى المخالفه و العداوه بين الزوجين، كأن كل واحد منهما فى شق و جانب، غير شق الآخر و جانبه فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا فَإِنَّ الحَكَمِينَ حيث يعرفان ملابسات الزوجين يتمكنان من فصل الأمر على أحسن الوجوه، و للحكمين الإصلاح و ليس لهما الطلاق إلا برضى الزوج أو كاله سابقه إن يُرِيدَا يعنى الحكمين إِصْلَاحًا بينهما يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا و الضمير عائد إلى الحكمين لقرب اللفظ، و ربما يقال: عائد إلى الزوجين. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بمصالح العباد خبيراً بما يضمره الحكمين و يفعلاه فى أمر

(١) جواهر الكلام: ج ٣١ ص ١٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٨

[سورة النساء (٤): آية ٣٦]

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ بِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْجَارِ الْجُنْبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا (٣٦)

الإصلاح و الإفساد.

[٣٧] ثم يتوجه البيان إلى العلاقات الإنسانية العامة بما فيها الأقربون وغيرهم، بعد ما فرغ من نظام الأسرة، و ربطها بعبادة الله سبحانه الذى أمر بذلك، و يبين ما يجب على الإنسان تجاه الخالق و تجاه المخلوق، فقال: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ مِنْتَهَى الْخُضُوعِ مِمَّا يَطْلُبُ مِنَ الْعَبْدِ قِبَالَ سَيِّدِهِ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ وَالْعَبْدَ مِنْ مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ أَى بِاللَّهِ شَيْئًا أَى لَا تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكَاً مِنْ حَجَرٍ أَوْ مَدْرٍ، أَوْ جَمَادٍ أَوْ نَبَاتٍ، أَوْ مَلَائِكَةً أَوْ بَشَرًا، فَإِنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الَّذِى لَا شَرِيكَ لَهُ وَ أَحْسَنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا فَإِنَّهُمَا وَاسِطَةُ خَلْقِكُمْ، وَ كَثِيرًا مَا يَقْرَنُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمَا بِعِبَادَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لِإِفَادَةِ تَأْكِيدِ لُزُومِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَ أَحْسَنُوا بِذِي الْقُرْبَى الْقَرِيبِ كَالْيَسْرَى مِنَ الْيَسْرِ، أَى أَصْحَابِ الْقَرَابَةِ، وَ هَذَا تَعْمِيمٌ بَعْدَ التَّخْصِيسِ وَ الْيَتَامَى وَ هُمُ الَّذِينَ مَاتَ آبَاؤُهُمْ، أَوْ الْأَعْمَ مِنْهُمْ وَ مِمَّنْ مَاتَتْ أُمُّهُ وَ الْمَسَاكِينِ هُمُ الْفُقَرَاءُ بِصُورَةٍ عَامَةٍ وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَ لِمِثْلِهِ حَقَانٌ: حَقُّ الْجَوَارِ، وَ حَقُّ الْقَرَابَةِ وَ الْجَارِ الْجُنْبِ جَنْبُ بَضْمِ الْأَوْلِيَيْنِ كَعَنْقٍ، صِفَةٌ بِمَعْنَى الْغَرِيبِ، وَ كَأَنَّهُ بِاعْتِبَارِ أَنْ كَلًّا مِنَ الطَّرْفَيْنِ فِي جَنْبٍ وَ الصَّاحِبِ بِالْجُنْبِ أَى صَاحِبِكَ الَّذِى بِجَنْبِكَ، سِوَاءَ كَانَ فِي مَدْرَسَةٍ أَوْ دُكَّانٍ أَوْ سَفَرٍ أَوْ حَضَرَ، أَوْ غَيْرِهَا وَ ابْنِ السَّبِيلِ أَى الْمُنْقَطِعِ عَنِ بَلَدِهِ سِوَاءَ كَانَ ثَرِيًّا أَوْ لَا، وَ يُسَمَّى «ابْنَ السَّبِيلِ» لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٧٩

[سورة النساء (٤): آية ٣٧]

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)

ملايساته إلا السفر، يقال ابن البلد و ابن السبيل و ابن العمل لمن يرتبط بهذه الأمور و ما ملكت أيمانكم من العبيد و الإماء.

و قد أطلق سبحانه الإحسان إلى هؤلاء ليشمل مطلق صنوف الحفاوة و الإكرام، و قد كان تأكيد الإسلام بالإحسان إلى هؤلاء تمشياً مع روحه العامة في توثيق صلة البشر بعضهم مع بعض، و جمعهم في رباط الود و الحب و الوئام إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا المختال: المتبخر المتكبر، و الفخور: الذى يفخر بمناقبه كبرا و اعتزازا و تطاولا- ذكر هذه الجملة هنا بمناسبة أن من أمره سبحانه بالإحسان إلى الأصناف المذكورة كثيرا ما يتناول و يتكبر، فلا يخضع للإحسان، كما هو المشاهد إلى الآن، فنهى سبحانه عن ذلك بعد ما أمر بالإحسان ليؤكد إثباتا و نفيا.

[٣٨] و حيث أن الإحسان إلى هؤلاء كثيرا ما يحتاج إلى بذل المال، ذم سبحانه الذين لا يبذلون أموالهم في سبيل الله بقوله: الَّذِينَ صَفَهُ «مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا» يَبْخُلُونَ فَلَا يَنْفِقُونَ الْأَمْوَالَ فِي سَبِيلِهِ سَبْحَانَهُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ كَانَ هَذَا مَلَاذِمًا لَصِفَةِ الْبُخْلِ فَإِنَّ الْبُخْلَ حَيْثُ جَبَلَ عَلَى حُبِّ الْمَالِ لَا يَتِمُّ أَنْ يَرَى غَيْرَهُ يَنْفِقُ مَالَهُ، وَ قَدْ تَشَدَّدَ هَذِهِ الصَّفَةُ فِي الْبُخْلِ حَتَّى يَبْخُلَ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَوْ أَنْفَقَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ نَهَاهُ وَ أَمَرَهُ بِالْكَفِّ. وَ يَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٠

[سورة النساء (٤): آية ٣٨]

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)

البخلاء يكتُمون أموالهم لئلا يعرفون فيذمهم الناس بعدم إنفاقهم في سبيل المعروف، أما ما اشتهر من «استر ذهباك و ذهابك و مذهبك» فإنه في محل الخوف لا- مطلقا و أعيدنا أى هيننا للكافرين الذين يكفرون بنعم الله سبحانه و لا يعملون بما أمرهم الله سبحانه من إنفاق أموالهم عذاباً مهيناً يهينهم و يكسر كبرياءهم، كما تكبروا في الدنيا و لم يحسنوا إلى من وجب الإحسان إليه، اختيالاً- و افتخاراً، كما قال سبحانه: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «١» [٣٩] و هناك صفة أخرى ملازمة لعدم الإحسان إلى الأصناف السابقة، فإن المختال الذى لا يحسن و يبخل، لا بد و أن يكون إنفاقه رياء و سمعة، لأن كبرياءه يجبره على أن يشوب إنفاقه بما يلائم صفته. فقال سبحانه: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ» يعنى أن إنفاقهم لأجل أن يراهم الناس، حتى يعظمون في نفوسهم، و يمدحونهم بأنهم أهل خير و إنفاق، و المراد بالرياء المثال، و إلا فالسمعة كذلك و لا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَتَّىٰ يَكُونَ حَافِرَهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَرِضَاهُ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ حَتَّىٰ يَكُونَ بَاعْتُهُمْ عَلَى الْبِذْلِ رِجَاءَ الثَّوَابِ وَخَوْفَ الْعِقَابِ.

ثم إنه كثيرا ما يعبر بهذا التعبير عن عدم الإيمان الكامل، لا مطلق الإيمان، أو عدم الإيمان من هذه الجهة، وإن كان هناك إيمان من سائر

(١) الدخان: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨١

[سورة النساء (٤): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يُظَلِّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)

الجهات، إذ أن الإيمان الكامل والإيمان من جميع الجهات، يقتضى أن يكون باعث كل حركة و سكون هو الإيمان لا غيره، وذلك كما يقال: فلان لا يطيع أباه، إذا لم يطعه إطاعة كاملة، أو إطاعة من جميع الجهات، فإنه لا يراد بذلك عدم الإطاعة مطلقا، بل عدم الإطاعة الكاملة من جميع النواحي.

وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا مَقْتَرِنَا، بَأَن صَاحِبِهِ وَلا زَمَهُ وَاتَمَرَ بِأَمْرِهِ فِي الْبُخْلِ وَالرِّيَاءِ وَعَدَمِ الْإِيمَانِ فَسَاءَ قَرِينًا لِأَنَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ الْمَوْجِبَةِ لَذَهَابِ دِينِهِ وَدُنْيَاهِ.

[٤٠] وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ أَى: أَى شَىءٍ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَ أَى ضَرَرٍ يَتَوَجَّهُ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ لَا يَنْفِقُونَ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ! فَإِنَّهُ بِالْعَكْسِ مِمَّا يَظُنُّونَ مِنْ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِنْفَاقَ يَسْبَبَانِ أَضْرَارًا وَ مَشَاكِلَ، إِذِ الْإِيمَانُ يُوْجِبُ الْهُدَى وَ السَّكِينَةَ وَ الْإِطْمِئْنَانَ وَ خَيْرِ الدَّارَيْنِ، وَ الْإِنْفَاقُ يُوْجِبُ تَقَدُّمَ الْمَجْتَمَعِ وَ ازدهاره مما يعود إلى المنفق بأكثر مما أنفقه وَ كَانَ اللَّهُ بِهِمْ أَى بِهِؤُلَاءِ، سِوَاءِ أَنْفَقُوا وَ آمَنُوا، أَمْ لَا عَلِيمًا فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٍّ.

[٤١] إِنَّ اللَّهَ لَا يُظَلِّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ الْمِثْقَالَ الثَّقِيلُ، وَ الذَّرَّةُ هِيَ وَاحِدَةُ «الهباء» الَّتِي يَرَى إِذَا دَخَلَ شِعَاعُ الشَّمْسِ مِنَ الْكُوَّةِ، فَمَنْ أَنْفَقَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٢

[سورة النساء (٤): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

فَلا يَظُنُّ أَنَّ إِنْفَاقَهُ يَذْهَبُ هَبَاءً، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَجَازِيهِ عَلَى إِنْفَاقِهِ وَ لَا يَظْلِمُهُ قَدْرَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكَ الذَّرَّةُ الَّتِي أَتَى بِهَا الْعَبْدَ حَسَنَةً عَمَلًا خَيْرًا يُضَاعِفُهَا فَإِنَّ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا وَ يُؤْتِ لِمَنْ أَحْسَنَ مِنْ لَدُنْهُ دَلَالَةً عَلَى صِدْقِ الْوَعْدِ وَ عَظَمَةِ حَيْثُ أَنَّهُ مِنْ لَدُنْ صَادِقٍ كَرِيمٍ أَجْرًا عَظِيمًا وَ هُوَ الثَّوَابُ الْبَاقِي أَبَدَ الْأَبْدِينَ.

[٤٢] وَ إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَ الْعَدْلِ فَكَيْفَ بِحَالِ النَّاسِ الَّذِينَ انْحَرَفُوا عَنِ الْجَادَةِ، وَ كَفَرُوا وَ بَخَلُوا وَ عَصَوْا إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَ هُمْ أَنْبِيَائُهُمْ وَ مَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ فِي التَّبْلِيغِ وَ بِلَاغِ الْأَحْكَامِ وَ جِئْنَا بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَنْتَ فِيهِمْ شَهِيدًا تَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الرَّهيبِ.

[٤٣] يَوْمَئِذٍ أَى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوْا الرَّسُولَ «الواو» إِمَّا لِلتَّقْسِيمِ، أَى يُوَدُّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، أَوْ لِلجَمْعِ أَى يُوَدُّ الْكَافِرَ الْعَاصِيَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ أَى يَجْعَلُونَ مِثْوِينَ مَعَ الْأَرْضِ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا «١»

(١) النبأ: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٣

[سورة النساء (٤): آية ٤٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

وفي ذلك اليوم لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ أى لا يخفون عن الله حديثاً بل تشهد عليهم ألسنتهم و جوارحهم بكل ما عملوا من الكفر و السيئات و الشرور، ففي مقابل تكبرهم فى الحياة يتمنون بلع الأرض لهم هناك، و فى مقابل كتمانهم الحق فى الدنيا لا يتمكنون من الكتمان هناك.

[٤٤] قد تقدم الأمر بعبادة الله سبحانه فارتد السياق هنا إلى بعض مصاديق العبادة و هى الصلاة و الغسل فقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى و النهى عنه «الاقتراب من الصلاة حال السكر» كالنهي عن نفس الشيء «الصلاة حال السكر» لكن للمبالغة فى التنزيه، كما قال سبحانه: لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ «١» و «سكارى» جمع سكران.

و من المعلوم أنه لا منافاة «تكويناً لا شرعاً» بين السكر الخفيف و الصلاة، و إنما السكر الشديد المزيل للعقل تماماً لا يجتمع مع الصلاة حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ فإن الصلاة إنما شرعت للإقبال و السكران لا يعلم ما يقول و لا يحضر قلبه فيما ينطق به لسانه، و «حتى» هنا تصلح علة للحكم كما تصلح غاية فإذا شرب أحد الخمر- و العياذ بالله- فلا يقبل على الصلاة إلا و قد زال أثرها بحيث يعلم ما يقول و لا تقربوا الصلاة جُنْبًا بالإدخال أو الإنزال إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ أى فى حال

(١) الأنعام: ١٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٤

السفر فإن الغالب أن المسافر- قديماً- كان لا يجد الماء فيصلى جنباً بتييم إذ التيمم لا يرفع جميع أثر الجنابة و لذا لو وجد الماء بطل تيممه و يلزم عليه الغسل حَتَّى تَغْتَسِلُوا أى لا تقربوا الصلاة جنباً حتى تغتسلوا. و الاعتسال: غسل للرأس و الرقبة ثم الطرف الأيمن ثم الأيسر مع النية، أو الارتماس فى الماء دفعةً واحدةً مع النية و إن كُنْتُمْ مَرْضَى جمع مريض، و المراد به المرض الذى يضر معه الماء و إن كان جرحاً أو نحوه أو كنتم على سَفَرٍ أى مسافرين و كان الإتيان بلفظة «على» لما يكون المسافر عليه من الركوب على شىء و قد تقدم أن الكون على السفر لا يبيح بنفسه التيمم، و إنما لغلبة صعوبة الماء فيه- فى السابق- أو جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أيها المريدون للصلاة مِنَ الْغَائِطِ الغائط هو المكان المنخفض من الأرض، و سَمِيَ «البراز» به لعلاقة الحال و المحل، و المراد أن أحدكم لو قضى حاجته ثم أراد الصلاة أو لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ أى جامعتم معهن فإن الملامسة كناية عن الجماع فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً مرتبط بالثلاثة المتقدمة المسافر و المحدث و المجامع فَيَتَيَمَّمُوا أى اقصدوا صعيداً أى أرضاً، سواء كان عليها تراب أو لا طَيِّباً أى طاهراً حالاً إذ كل واحد من النجس و المغصوب خبيث غير طيب. و التيمم هو معناه التقصد ثم غلب فى الشريعة على الأعمال المخصوصة حتى إذا قيل: «تيمم» لا يتبادر منه إلا الأعمال المخصوصة شرعاً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ و أَيْدِيكُمْ و قد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٥

[سورة النساء (٤): آية ٤٤]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرَبُونَ الصَّلَاةَ وَيَرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤)

دلت الشريعة على أن كفيته أن يضرب الإنسان بيديه معا وجه الأرض- ما لم يخرج عن اسم الأرضية لكونه معدناً أو نحوه- ثم يمسح

بهما جبهته من قصاص الشعر إلى طرف الأنف الأعلى، ثم يمسح بباطن الكف اليسرى ظهر الكف اليمنى من الزند إلى رؤوس الأصابع، ثم يمسح بباطن الكف اليمنى ظاهر الكف اليسرى من الزند إلى رؤوس الأصابع. وهناك احتياط بالضرب ثانياً و مسح اليدين. وقد ثبت في الطب الحديث أن الأرض تطهر الجراثيم في مرتبة أدنى من تطهير الماء، فقد كان من حكمة الشارع أن جعلها مطهرة في المشى عليها و التعفير بها، في النجاسة الخبيثة، و التيمم بها في النجاسة الحديثة إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا يُعْفُو عَنِ الذَّنْبِ فِي استعمال الماء، و يظهر جمال العفو إذا قايس الإنسان أحكامه سبحانه بأحكام الملوك و الحكومات و السادة الذين لا يباليون بالناس فهم يطلقون أوامرهم مهما كلف الأمر غفوراً يغفر الذنوب التي يتعرض لها الإنسان في تكاليفه، و هذا كالتسليط لمن أفلت منه ذنب لثلاث يأس من مغفرته سبحانه.

[٤٥] ثم يعود السياق إلى الذين كفروا و عصوا الرسول و أن قسما من أهل الكتاب يبيعون أنفسهم بالضلالة و يحرفون الكلم و يؤذون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَلَمْ تَرَ أَيُّ الْأَتْعَابِ يَتَعَجَّبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ تَنْظُرُ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ أَيُّ قِسْمًا مِنْهُمْ، وَ هُم الْيَهُودُ الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ التَّوْرَةَ وَ إِنَّمَا ذَكَرَ «نَصِيحًا» لِأَنَّهُمْ لَمْ يُعْطُوا الْكِتَابَ - أَيُّ الْأَحْكَامِ - كَامِلًا، وَ إِنَّمَا أُعْطُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٦

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٥ إلى ٤٦]

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ لِيًّا وَ كَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ أَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَ رَاعِنَا لِيًّا بِاللَّيْتِنِيهِمْ وَ طَعْنًا فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أَسْمِعْ وَ أَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

قسما من الأحكام، و البقية الباقية للمسيح عليه السلام و الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ يبيعون أنفسهم بالضلالة فعوض أن يصرفوا أعمارهم و طاقاتهم ليشتروا الهداية بالإيمان بالرسول و العمل الصالح يبيعون أنفسهم و طاقاتهم مقابل الكفر و الأعمال السيئة، و الحال أنهم من أهل الكتاب و يعلمون الحق و يريدون أن تَصَلُّوا أنتم المسلمون السبيل فتحنفوا عن جادة الهداية إلى السبل الملتوية المؤدية إلى الهلاك و الدمار.

[٤٦] وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ مِنْكُمْ فَلَا تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ ظَنَّا مِنْكُمْ أَنَّهُمْ أَحِبَّاؤُكُمْ وَ اغْتَرَارًا بِظَاهِرِهِمْ وَ زَعَمًا بِأَنَّهُمْ ظَهَرَكُمْ وَ سَدَّكُمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ لِيًّا أَيُّ أَنْ وَايَةَ اللَّهِ لَكُمْ تَغْنِيكُمْ عَنْ وَايَةَ الْكُفَّارِ وَ كَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا فنصرته إياكم تكفى عن نصرته الكفار.

[٤٧] ثم ذكر سبحانه بعض صفات هؤلاء الكفار الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ» مِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَ اتَّخَذُوا الْيَهُودِيَّةَ دِينًا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ جَمْعَ كَلِمَةٍ، وَ الْمُرَادُ بِهَا أَحْكَامُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ فَيَضَعُونَ الْحَلَالَ مَكَانَ الْحَرَامِ وَ الْحَرَامَ مَكَانَ الْحَلَالَ وَ هَكَذَا وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا كَلَامَكَ وَ احْتِجَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَ عَصَيْنَا أَوْامِرَكَ لِأَنَّا لَا نَعْتَقِدُ بِكَ نَبِيًّا صَادِقًا. وَ رُبَّمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٧

يحتمل أن يكون المراد عصيانهم عملاً لا قولاً فإن «القول» يراد به تارة الكلام و تارة العمل، يقال: «قال بيده كذا» أى أشار.

وَ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ يَقصدون الدعاء على الرسول بأنه لا يسمع، كما يقال: اسمع لا - أسمعك الله. فإنهم كانوا يقصدون بهذا الكلام السب و الدعاء عليه و يظهر أنهم يريدون معنى آخر و هو: اسمع غير أمور

بالسمع، فإنه يقال: الكلام للرجل العظيم احتراماً و إشعاراً بأن أمره ب «اسمع» ليس أمراً فهو لا يؤمر بالاستماع لأنه أجل من الأمر.

وَ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ لِلرَّسُولِ: رَاعِنَا يَقصدون بذلك السب باطنا و يظهر أنهم يتأدبون حيث أن ظاهر لفظه «راعنا» طلب المراعاة لِيًّا بِاللَّيْتِنِيهِمْ مِنْ «لوى يلوى» إذا حرف و أمال، و الألسنة جمع لسان، و لوى اللسان قد يكون ظاهرياً بأن يحرف لسانه، و قد يكون باطنياً بأن يقول شيئاً ظاهره أمر، و هو لا يريد ظاهره وَ طَعْنًا فِي الدِّينِ فَإِنَّ الطَّعْنَ فِي رَأْسِ الدِّينِ طَعْنٌ فِي الدِّينِ، لَوْ هُنَّ سَبَبٌ وَ هُنَّ رَأْسُهُ.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَيُّ أَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا مَا جُنَّتْ بِهِ، بِأَن صَارُوا مُتَدِينِينَ بِالْإِسْلَامِ وَ أَسْمِعْ بَدُونَ أَنْ يُضَيِّفُوا «غَيْرَ مَسْمِعٍ» وَ

أَنْظَرْنَا عَوْضَ قَوْلِهِمْ «رَاعِنَا» مِمَّا فِيهِ إِيمَانٌ وَأَدَبٌ وَاسْتِقَامَةٌ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ حَيْثُ يَنْعَمُونَ بِرَاحَةِ الْمُسْلِمِينَ وَرِفَاهِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٨

[سورة النساء (٤): آية ٤٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)

و تقدمهم، و في آخرتهم حيث يسعدون بجنات النعيم و أقوم أي أكثر عدلا و استقامة.

و لَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أَي أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَ لَطْفِهِ وَ فَضْلِهِ بِكُفْرِهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَقْبَلِ الْإِيمَانَ بَعْدَ مَا عَرَفَهُ طَرَدَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْ فَضْلِهِ، كَمَا أَنَّ الْأَبَّ إِذَا رَأَى وَلَدَهُ لَا يَقْبَلُ نَصْحَهُ طَرَدَهُ عَنِ الْطَافَةِ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَ أَصْحَابِهِ.

و هذا ليس استثناء من قوله سبحانه «لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ» بل من أصل الكتاب. و قد ذكرنا سابقا أن الاستثناء قد يراعى فيه أصل المطلب من دون النظر إلى قيوده، كقوله تعالى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ «١»، وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ «٢» و من المحتمل مراعاة القيد في «إلا قليلا» أي أن إيمان هؤلاء ممكن تقبله حتى بعد لعن الله لهم إذا تيقظ ضميرهم و رجعوا عن الغفلة إلى الحق.

[٤٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَي نَزَلَ عَلَى نَبِيِّهِمُ الْكِتَابَ السَّمَاوِيَّ وَ التَّرَمَّوْا بِهِ، وَ تَخْصِيصُ الْخُطَابِ بِهِمْ مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِيمَانِ عَامٌ، لِكُونِهِمْ مَحَلَّ الْحَوَارِ وَ الْبَحْثِ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مِنَ الْفُرْقَانِ عَلَى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي حَالِ كَوْنِهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ فَإِنَّ الْقُرْآنَ

(١) النساء: ٣٠.

(٢) الأنعام: ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٨٩

[سورة النساء (٤): آية ٤٨]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨)

يَصَدِّقُ بِالْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا طَمَسَ الشَّيْءَ إِذْ هَابَ أَثَرُهُ فَنَرُدُّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا جَمْعُ «دَبْر» وَ هُوَ الْخَلْفُ، وَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذْ تَطْمَسُ فِيهِ الْوُجُوهُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ حَتَّى تَتَسَاوَى جَمِيعُ أَجْزَاءِ الْوَجْهِ فَلَا- نَتَوَّعُ فِيهَا، ثُمَّ يَجْعَلُ الْوَجْهَ إِلَى الْخَلْفِ، كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ. وَ

في بعض الروايات

طمسها عن الهدى وردّها على أدبارها في ضلالتها

«١» أَوْ نَلْعَنَهُمْ عَاجِلًا- قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقَرْدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَ هُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ بِاصْطِيَادِ السَّمَكِ فَقَلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ «٢» وَ

في بعض الأحاديث أنه في آخر الزمان يتلى بعض الفساق بالمسح

«٣»- وَ الْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا كَأَنَّهَا تَنْظَنُوا أَنَّهُ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَ إِنَّمَا هَذَا مَجْرَدُ تَهْدِيدٍ وَ تَوَعُّدٍ.

[٤٩] وَ لَا يَظُنُّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ إِنْ بَقُوا عَلَى شِرْكِهِمْ حَتَّى مَاتُوا يَشْمَلُهُمْ غَفْرَانُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَيَقْبَلُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَ شِرْكِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ مُشْرِكًا لَمْ يَكُنْ لَهُ الْخَلَاصُ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ أَي دُونَ الشَّرِكِ مِنَ الْمَعَاصِي لِمَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ يَكُونُ أَهْلًا لِلْغَفْرَانِ، فَلَا يَقَاسُ الشَّرِكُ بِسَائِرِ الْمَعَاصِي وَ الذُّنُوبِ

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ١٤١.

(٢) البقرة: ٤٦.

(٣) راجع تأويل الآيات الظاهرة: ص ٥٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٠

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٩ إلى ٥٠]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ يَلِي اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ أَيُّ جَعَلَ لَهُ شَرِيكًا فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا فَإِنَّهُ افْتَرَى عَلَى مَقَامِ الْأُلُوْهِیَّةِ بِأَنَّ لَهُ شَرِيكَ، وَ أَى إِثْمٍ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ. [٥٠] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِبِي إِلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ أَى يَمْدَحُونَهَا وَيَصِفُونَهَا بِالطَّهَارَةِ وَالزَّكَاةِ وَالنِّزَاهَةِ فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَزِيهُونَ وَأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهِ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ فَإِنَّ الطَّهَارَةَ بِيَدِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ غَفَرَ ذُنُوبَهُ وَبَرَّاهُ مِنَ الْعُيُوبِ وَ مَنْ شَاءَ لَمْ يَغْفِرْ ذَنْبَهُ فَيَبْقَى فِي أَدْرَانِ الْمَعْصِيَةِ، إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ أُمَّهُ مَا وَ لَا يَخْتَارُ أُخْرَى وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا الْفَتِيلُ هُوَ مَا فِي شِقِّ النَّوَاةِ مِنْ خَيْطٍ ضَعِيفٍ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ بَعْدَ تَطْهِيرِهِمْ لَا- يَظْلَمُهُمْ وَ إِنَّمَا ذَلِكَ بِسَبَبِ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ وَ عَصْيَانِهِمْ.

[٥١] انظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ- وَ لَيْسَ الْمُرَادُ النَّظْرَ بِالْعَيْنِ بَلْ مَلَا حَظَنَهُمْ، فَإِنَّ النَّظْرَ كَمَا يَقَعُ بِالْعَيْنِ كَذَلِكَ يَقَعُ عَلَى مَلَا حَظَنَةِ الْأَشْيَاءِ بِسَائِرِ الْقُوَى وَ الْحَوَاسِ- كَيْفَ يَفْتَرُونَ أَى يَفْتَرِي هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فِي قَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ شَعْبَةُ الْمَخْتَارِ وَ أَحِبَّاءُهِ وَ لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، وَ إِنَّهُمْ الْمَزْكَونَ مِنْ عِنْدِهِ، وَ فِي تَحْرِيفِهِمْ أَحْكَامَهُ وَ كَفَى بِهِ أَى بِكَذِبِهِمْ عَلَيْهِ سَبَّحَانَهُ إِثْمًا مَعْصِيَةً مُبِينًا وَاضِحًا وَ أَى عَصْيَانٍ أَعْظَمَ مِنَ التَّجْرُؤِ عَلَى سَاحَةِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩١

[سورة النساء (٤): الآيات ٥١ إلى ٥٣]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)

[٥٢] كَانَتْ الْيَهُودُ تَفْضِلُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَ قَدْ قَالَ كَعْب- وَ هُوَ أَحَدُ رُؤَسَائِهِمْ- لِأَبِي سَفِيَانَ: أَنْتُمْ وَ اللَّهُ أَهْدَى سَبِيلًا مِمَّا عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ، فَتَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ هُوَ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِبِي إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا أَى أَعْطُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ وَ هُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمُ الْكِتَابَ فَبَقِيَ بَعْضُهُ فِي يَدِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ هُمَا صَنْمَانٌ لِقْرِيشٍ، فَقَدْ سَجَدَ كَعْبٌ لِلصَّنَمِينِ اسْتِمَالَةً لِقُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَى أَبُو سَفِيَانَ وَ أَصْحَابَهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا أَى أَنْ سَبِيلَ الْمُشْرِكِينَ أَحْسَنُ مِنْ سَبِيلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ حَقُّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ يَفْضَلَ الْكُفَّارَ الَّذِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ حَتَّى بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَشْتَرِكُونَ مَعَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَصُولِ وَ الْفُرُوعِ.

[٥٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أَى أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَ طَرَدَهُمْ عَنِ الْخَيْرِ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا يَنْصُرُهُ فَيُدْفَعُ اللَّعْنَةَ عَنْهُ وَ يَنْجِيهِ مِنْ عِقَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٥٤] إِنْ الْيَهُودَ الَّذِينَ حَكَمُوا بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، لَا قِيَمَةَ وَ لَا وَزْنَ لِحُكْمِهِمْ هَذَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ تَفْضِيلًا حَتَّى يَفْضَلُوا الْكُفَّارَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَ لَوْ فَرَضَ أَنَّهُمْ مَلِكُوا أَنْفَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٢

[سورة النساء (٤): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

المادية لحرمو الناس جميعا من أقل الأشياء و أبخسها أم لهم نصيب من الملك استفهام إنكارى، أى هل لهم شىء من ملك التفاضل حتى يهبوا من يشاءون فضلا؟ كلا- إنهم لا- يملكون ذلك، و إذا فرض أنهم ملكوا شيئا فإذًا لا- يُؤتون الناس نقيرا النقيير هو النقرة الصغيرة التى تكون فى ظهر النواة.

[٥٥] ثم إن تفضيل هؤلاء اليهود للمشركين ليس إلا حسدا للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه أم يحسدون الناس الرسول و أصحابه المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله حيث اختار الرسول للرسالة و هدى المؤمنين إلى الإيمان فلا موقع للحسد، فإن الفضل قد يؤتیه من يشاء و قد من سابقا على إبراهيم عليه السلام و آل إبراهيم لا بالنبوة فحسب بل بالملك و النبوة فقد آتينا آل إبراهيم و قد ذكرنا سابقا أنه قد يقال: «آل فلان» و يراد الأعم منه و من آله- تغليبا- الكتاب و الحكمة علم الشرائع مما يفيد الدنيا و الآخرة فهو أعم من الكتاب و آتيناهم ملكا عظيما حيث جعل بأيديهم أزمه الحياه و جعلهم ملوكا و أنبياء.

[٥٦] فَمِنْهُمْ أَى من الناس، المعلوم من الكلام كقوله: لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ «١» أو من آل إبراهيم عليه السلام من آمن به أى

(١) النساء: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٣

[سورة النساء (٤): آية ٥٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)

إبراهيم عليه السلام و صدق نبوته. و المراد من آل إبراهيم «مرجع الضمير» إما قومه الذين بعث إليهم، أو عشيرته و أحفاده و منهم من صد عنه أى أعرض عن الإيمان أو عن إبراهيم عليه السلام، و هؤلاء اليهود كأولئك فى أن بعضهم آمن بالرسول و بعضهم صد عنه. و كفى بجهنم سعيرا أى يكفى هؤلاء الصادين سعير جهنم، و المراد بالسعير: الاشتعال و اللهب.

[٥٧] ثم ذكر سبحانه عاقبة كل واحد من المكذب و المصدق إن الذين كفروا بآياتنا أى بدلائلنا التى أقمناها على رسولنا و ما جاء به سوف نصليهم نارا من «أصلى يصلى» يقال: أصلاه النار إذا ألقاه فيها كلما نضجت جلودهم و احترقت بالنار بدلتناهم جلودا غيرها أى جعلنا لهم جلودا جديدة مكان الجلود المحترقة ليذوقوا العذاب و لا ينقطع عنهم، و الجلود الجديدة هى الجلود القديمة التى خلقت من جديد، إذ الشىء المحترق تتفرق أجزاءه فى الفضاء فيجمعها سبحانه و يعطيها الصورة الجلدية من جديد، هذا بالإضافة إلى أنه لو خلقت جلود جديدة لم يكن بذلك بأس إذ المتألم هو الروح فلا يقال: بما استحق الجلد الجديد العذاب؟ إن الله كان عزيزا فلا يفوته شىء و لا يمتنع عليه شىء فإن العزة تلازمها الغلبة و القدرة حكيمًا يصنع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٤

[سورة النساء (٤): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدِي لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)

كل شىء بحكمه و يضع الأشياء فى مواضعها، فليس تعذيب هؤلاء بهذه الكيفية خارجا عن نطاق قدرته و لا مخالفا للحكمة و

المصلحة.

[٥٨] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ سَيُدْخِلُهُمْ وَ لَعَلَّ دُخُولَ ل «س» هُنَا وَ «سُوف» هُنَاكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ أَقْرَبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ إِلَى الْكَافِرِينَ، فَإِنَّ الْكُفَّارَ حَيْثُ أَنَّهُمْ يَقْضُونَ بَرَزَخًا مَوْلَمَا يَطُولُ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَقْضُونَ بَرَزَخًا مَرِيحًا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ فِي رَاحَةٍ زَعَمَ أَنَّ الْوَقْتَ انْقَضَى بِسُرْعَةٍ بِخِلَافِ مَنْ كَانَ فِي تَعَبٍ وَ أَذِيَةٍ فَإِنَّهُ يَطُولُ عَلَيْهِ الْوَقْتُ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الْبَسَاتِينَ ذَاتِ الْقُصُورِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا أَنْهَارُ الْمَاءِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا كَمَا أَنَّ الْكُفَّارَ خَالِدُونَ فِي النَّارِ وَ كَلِمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْ بِغَيْرِهَا لَهْمٌ فِيهَا أَى فِي الْجَنَاتِ أَرْوَاحٌ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْقَذَارَاتِ الْخَلْقِيَّةِ وَ الْقَذَارَاتِ الْخَلْقِيَّةِ وَ نَدْخَلُهُمْ ظِلًّا هُوَ الْوَقَايَةُ مِنَ نُورِ الشَّمْسِ وَ نَحْوِهِ ظَلِيلًا أَى لَيْسَ فِيهِ حَرٌّ وَ لَا بَرْدٌ، وَ هُوَ مَبَالِغَةٌ حَسَنُ الظِّلِّ كَقَوْلِهِمْ:

ليل أليل.

[٥٩] إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا تَامَةً غَيْرَ نَاقِصَةٍ، وَ لَعَلَّ الْإِرْتِبَاطَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ مَا سَبَقَهَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ خَالَفُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٥

[سورة النساء (٤): آية ٥٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

مَا أَمَرُوا بِهِ وَ خَانُوا الْأَمَانَةَ الْإِلَهِيَّةَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ «١» فِي حِينِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ الْمَادِيَّةِ، فَكَيْفَ بِأَعْظَمِ الْأَمَانَاتِ الرُّوحِيَّةِ؟! كَمَا أَنَّهُمْ حَكَمُوا بِالْجورِ حِينَ قَالُوا: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، بَيْنَمَا يَحْكُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْحُكْمَ بِالْعَدْلِ وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ فَلَا تَمِيلُوا إِلَى نَاحِيَةٍ دُونَ نَاحِيَةٍ لِمَجْرَدِ الْهَوَى أَوْ الرِّشْوَةِ أَوْ الْعَاطِفَةِ أَوْ مَا أَشْبَهَ إِنَّ اللَّهَ نَعِيمًا يَعِظُكُمْ بِهِ أَى نَعَمُ الشَّيْءِ الَّذِي يَعِظُكُمْ بِهِ وَ هُوَ أَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَ الْحُكْمَ بِالْعَدْلِ وَ ضَمِيرُ «بِهِ» رَاجِعٌ إِلَى «مَا» إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ بَصِيرًا يَبْصُرُ حَرَكَاتِكُمْ وَ أَعْمَالَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِذَا خَتَمْتُمُ الْأَمَانَةَ أَوْ حَكَمْتُمْ بِالْجورِ فَإِنَّهُ لَا يَذْهَبُ ذَلِكَ عَلَى السَّمِيعِ الْبَصِيرِ.

[٦٠] وَ حَيْثُ بَيْنَ سُبْحَانَهُ مَا يَجِبُ عَلَى الْحَاكِمِ مِنَ الْعَدْلِ، بَيْنَ مَا يَجِبُ عَلَى الْأَمَّةِ تَجَاهَ الْحَاكِمِ الْعَادِلِ مِنَ الطَّاعَةِ وَ السَّمْعِ، وَ بَيْنَ الْحَاكِمِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ، بِقَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ بِالْإِتِمَارِ بِأَوَامِرِهِ وَ الْإِنْتِزَاجِ عَنْ زَوَاجِرِهِ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ قَدْ تَقَدَّمَ سَابِقًا أَنَّ إِطَاعَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هِيَ إِطَاعَةُ اللَّهِ وَ إِنَّمَا يَذْكَرُانِ مَعًا تَبْجِيلًا لِلرَّسُولِ وَ لِإِفَادَةِ أَنَّ أَوَامِرَهُ كَأَوَامِرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ أَطِيعُوا أُولَى الْأَمْرِ أَى أَصْحَابَ

(١) الأحزاب: ٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٦

السلطة الذين بيدهم الأمر منكم و قد عيّن أولو الأمر

في غير واحد من الأحاديث أنهم الأئمة الهداة الاثني عشر عليهم السلام و هم: علي أمير المؤمنين، و الحسن، و الحسين، و علي، و محمد، و جعفر، و موسى، و علي، و محمد، و علي، و الحسن، و المهدي «١». أما إطاعة العلماء المراجع فهي طاعة لأولى الأمر، إذ هم نوابهم.

أما من زعم أن المراد بأولى الأمر كل حاكم فهذا يستلزم التناقض، فكيف يمكن الجمع بين من يبيع الخمر، و الله سبحانه الذي

يحرهما؟ وهكذا... ولذا اشترط الشيعة في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والأئمة عليهم السلام العصمة، وفي العلماء العدالة. فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ أَى حَدِثَ بَيْنَكُمْ الْمَنَازَعَةَ وَ الْمَخَاصِمَةَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمُورِ دِينِكُمْ فَزِدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ حَتَّى تَرُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَ السَّنَةَ مَعَ أَى جَانِبٍ. وَ مِنْ حَسَنِ الْحِظِّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ فِي أَى دُورٍ أَنْ مَصِيرُ يَخْلُو مِنْهُ الْكِتَابُ وَ السَّنَةُ، إِمَّا بِالْخُصُوصِ أَوْ بِالْعُمُومِ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ «الرَّد» الرَّجُوعَ إِلَى أَحَادِيثِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ رَجُوعٌ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَنَّ الرَّجُوعَ إِلَى الْعُلَمَاءِ النَّوَابِ لَهُمْ، رَجُوعٌ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «أَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رِوَاةِ حَدِيثِنَا فَإِنَّهُمْ حَجَّتِي عَلَيْكُمْ وَ أَنَا حِجَّةُ اللَّهِ» (٢).

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَمَا الرَّجُوعُ إِلَى غَيْرِهِمَا

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٢٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٧

[سورة النساء (٤): آية ٦٠]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠)

فذلك من مقتضيات الكفر كما قال سبحانه: وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١)، ذلك الرجوع إلى الله و الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في صورة التنازع خير لكم لأن إرشاداتهما لصلاح دينكم و دنياكم وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا أَى مِنْ جِهَةِ الْأَوَّلِ وَ الْعَاقِبَةِ، فَإِنَّ عَاقِبَةَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ عَاقِبَةِ الْبَاطِلِ. وَ الْعَاقِبَةُ تَسْمَى تَأْوِيلًا لِأَنَّهَا مَالُ الْأَمْرِ وَ مَرْجِعُهُ، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: أَنَّهُ أَحْسَنُ مِنْ تَأْوِيلِكُمْ إِيَّاهُ.

[٦١] و لما بَيَّنَّ سبحانه وجوب الرجوع في موارد النزاع إلى حكم الله و الرسول أبدى التعجب من الذين يدعون الإيمان ثم يرجعون في قضاياهم إلى أحكام مخالفة لأحكام الله و الرسول بقوله: أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ لِيَعْبُدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي زَمرة المسلمين وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ فَإِنَّهُمْ يظهرون الإيمان بكل رسل الله و كتبه اتباعا لقوله: وَ مَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ .. (٢)، و هذا لتأكيد أنهم في سمات المؤمنين بكل مقوماتها يريدون أَنْ يَتَحَاكَمُوا أَى يرفعوا مشاكلهم و قضاياهم المتنازع فيها إِلَى الطَّاغُوتِ مبالغه في الطغيان و كل حكم غير

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) البقرة: ١٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٨

[سورة النساء (٤): آية ٦١]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١)

حكم الله سبحانه، فإنه للطاغوت، لأن حكم الله هو العدل و ما سواه زيغ و انحراف و طغيان، فهم ينتحلون الإيمان و يسلكون غير طريق الإيمان يريدون بذلك أن يوفروا على شهواتهم فيظهرون الإيمان ليحققن دماءهم و أعراضهم و أموالهم، و يرجعون إلى الطاغوت ليعطى الحكم لهم حينما علموا أن العدل لا يعطيهم الحكم - إذ هم على الباطل - وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ

سبحانه: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا «١»، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ بِمَا يُزَيِّنُ لَهُمْ أَنْ يُوَضُّعَ لَهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا عن الحق فإن مراجعة الطاغوت ضلال وزيغ.

جاء في «مجمع البيان»: أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودى: أحاكم إلى محمد، لأنه علم أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يقبل الرشوة ولا يجوز في الحكم، فقال المنافق: لا، بينى وبينك كعب بن الأشرف، لأنه علم أنه يأخذ الرشوة «٢». فنزلت الآية.

[٦٢] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ يُصُدُّونَ أَىٰ يَعْزِمُونَ عَنكَ صُدُودًا أَىٰ إِعْرَاضًا.

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٤٩٩

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٢ إلى ٦٣]

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

[٦٣] فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِذَا اضْطُرُّوا لِلرُّجُوعِ إِلَيْكَ، وَكَيْفَ لَا يَخْجَلُونَ فِي مِرَاجِعَتِكَ لِتَخْلِيصِهِمْ مِنْ مَصَائِبِهِمْ، بَعْدَ مَا أَعْرَضُوا عَنْكَ فِي مَنَازِعَاتِهِمْ؟! فِيمَا إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أَى بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ قَدْ تَوَرَّثَ الْمَصَائِبَ وَالنَّكَبَاتِ ثُمَّ جَاءُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَرِيدُونَ مِنْكَ إِسْعَافَهُمْ فِي مَصِيبَتِهِمْ مُعْتَذِرِينَ عَنِ مِرَاجِعَتِهِمْ إِلَى الطَّاغُوتِ مِنْ قَبْلِ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا أَى مَا أَرَدْنَا فِي مِرَاجِعَتِنَا إِلَى الطَّاغُوتِ إِلَّا إِحْسَانًا إِلَيْكَ حَتَّى لَا تَزَاحِمَكَ وَنَأْخِذَ مِنْ وَقْتِكَ وَتَوْفِيقًا بَيْنَ أُمُورِنَا، وَ لَمْ يَكُنْ لَنَا غَرَضٌ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْكَ.

[٦٤] أُولَٰئِكَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَإِنْ قَصَدْتَهُمْ لَمْ يَكُنِ الْإِحْسَانُ وَالتَّوْفِيقُ وَإِنَّمَا الْإِعْرَاضُ عَنْكَ لِأَنَّكَ تَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَلَا تَقْبَلُ الرِّشْوَةَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَلَا تَظْهَرْ لَهُمُ الْقَبُولَ حَتَّى يَتِمَادُوا فِي غِيهِمْ وَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ تَمَكَّنُوا مِنْ إِغْوَاثِكَ وَعِظْهُمْ بِأَنَّ تَبْيِينَ لَهُمْ خَطَأَ طَرِيقَتِهِمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ أَى قُلْ لَهُمْ قَوْلًا يَبْلُغُ قَرَارَةَ نَفُوسِهِمْ، فَإِنَّ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا يَقَالُ وَلَا يَنْفِذُ إِلَى الْقَلْبِ لِعَدَمِ وَجُودِ حَرَارَةٍ وَحِمَاسٍ فِي الْقَوْلِ لِيَعِيَهُ الْقَلْبُ، وَ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا يَقَالُ وَيَنْفِذُ فِي النَّفْسِ فَكَأَنَّ النَّفْسَ مَحَلَّ إِيدَاعِ الْقَوْلِ قَوْلًا بَلِيغًا يَبْلُغُ نَفُوسَهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٠

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٤ إلى ٦٥] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ٥٤٩

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا- لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)

[٦٥] وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَيْسَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِمَجْرَدِ الْوَعْظِ حَتَّى يَرِاجِعَهُ النَّاسُ مَهْمَا شَاءُوا وَيَرِاجِعُوا غَيْرَهُ إِذَا لَمْ يَشَاءُوا مِرَاجِعَتَهُ، بَلْ إِنْ الرَّسُولُ أَرْسَلَ لِإِطَاعَةِ النَّاسِ لَهُ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِمْ فَهُوَ الْمَأْذُونُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَنْ يُطَاعَ، أَى لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَطِيعَ أَحَدًا جَبْرًا إِلَّا إِذَا كَانَتِ السُّلْطَةُ نَاشِئَةً مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَإِذْنَهُ، وَ إِلَّا فَأَيُّ سَيْطَرَةٍ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا مَلَكَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ.

ثم إن الله سبحانه لا يقطع صلته بهؤلاء المنافقين بل يفتح لهم مجال الرجوع والإنابة ولو أنهم أذى هؤلاء المنافقين والعصاة إذ ظلموا

أَنْفُسِهِمْ بِالنِّفَاقِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَإِنَّ الْعَصِيَانَ يَعُودُ ضَرَرُهُ إِلَى الْعَاصِي جَاؤُكَ تَائِبِينَ مَعْتَذِرِينَ فَاسْتَتَفَرُوا اللَّهَ أَي طَلَبُوا غَفْرَانَهُ وَعَفْوَهُ وَاسْتَتَفَرُوا لَهُمْ الرَّسُولُ بَأْنِ وَجَدَهُمْ أَهْلًا لَطَلَبَ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ لَوْ حَرِدُوا اللَّهَ تَوَابًا أَي كَثِيرَ التَّوْبَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ تَوَابًا: أَنَّهُ كَثِيرُ الرَّجْوِ عَلَى عِبْدِهِ الْعَاصِي كَمَا تَابَ الْعَبْدُ وَرَجَعَ رَجِيمًا يَرْحَمُهُمْ وَيَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ.

[٦٦] وَهَذَا يَتَرَدَّدُ سَأَلٌ هُوَ أَنَّهُ: كَيْفَ يُقَالُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ «يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِكَ»؟ أَلَيْسَ إِيمَانُهُمْ حَقِيقِيًّا، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالتَّرَمَّوْا بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ؟ وَالْجَوَابُ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠١

فَلَا- وَرَبِّكَ أَي لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ- قَسَمًا بِرَبِّكَ- يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا- يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا مَرْضِيًّا أَمْرًا بِهِ اللَّهُ وَرَتَّبَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَالثَّوَابَ حَيْثُ يُحْكَمُوكَ أَي يَجْعَلُوكَ حَاكِمًا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ أَي فِيمَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا أَي لَا يَجِدُوا فِي قُلُوبِهِمْ صَعُوبَةً مِنْ قَضَائِكَ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَغْلُوبِينَ فِي الْقَضَاءِ حَيْثُ لَا يَقْبَلُونَ الْحُكْمَ بِسَهُولَةٍ بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْحَاكِمَ بِخُصْمِهِمْ حَقَّهُمْ مِمَّا قَضَيْتَ وَحُكْمَتَ وَيَسْأَلُونَ أَي يَنْقَادُوا لِقَضَائِكَ وَحُكْمِكَ تَسْلِيمًا مُطْلَقًا بِلا صَعُوبَةٍ وَلا حَرَجٍ يَجِدُونَهُ فِي نَفْسِهِمْ.

فَعَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ «لَوْ أَنَّ قَوْمًا عَابَدُوا اللَّهَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ وَحَجَّوْا الْبَيْتَ ثُمَّ قَالُوا لَشَيْءٍ صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ: أَلَا صَنَعْتَ خِلَافَ مَا صَنَعْتَ؟ أَوْ وَجَدُوا مِنْ ذَلِكَ حَرَجًا فِي أَنْفُسِهِمْ، لَكَانُوا مُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ» (١).

وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الزَّبِيرِ وَابْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ حَيْثُ تَنَازَعَا فَحُكِمَ الرَّسُولُ لِلزَّبِيرِ فَخَرَجَا وَقَالَ ابْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ مَتَمَّهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ قَضَى لِابْنِ عَمَتِهِ، وَغَيْرِهِمْ بِذَلِكَ يَهُودِيًّا فَقَالَ: كَيْفَ تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ثُمَّ تَتَهَمُونَ فِي قَضَاءِ قَضَاءِ «٢»؟

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٩٨.

(٢) مجمع البيان ج ٣ ص ١٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٢

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٦ إلى ٦٧]

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا- قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧)

[٦٧] كَيْفَ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ حَرَجًا مِنْ قَضَاءِ قَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْحَالُ أَنَّهُ يَجِبُ إِطَاعَةُ الرَّسُولِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَوْ أَمَرَ بِأَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، كَمَا أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ: فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «١» فَتَابُوا وَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا أَي أَوْجَبْنَا عَلَيْهِمْ أَي عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجِدُونَ حَرَجًا فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَضَيْتَ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَنْ يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَوْ يَقْتُلَ الشَّخْصَ نَفْسَهُ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ بِأَنْ تَهْجُرُوا مَسَاكِنَكُمْ إِلَى بِلَادِ الْغَرْبَةِ، كَمَا خَرَجَ قَوْمُ مُوسَى إِلَى التِّيهِ مِنْ مَنَازِلِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي مِصْرَ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ إِهْلَاكِ النَّفْسِ وَالْمَشَقَّةِ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ مِنْ عَدَمِ الْحَرَجِ فِي قَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَأَحْكَامِهِ لَكَانَ فِعْلُهُمْ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَلَّمَا أَطَاعَ ثَبَّتَ دِينَهُ وَقَوَّى مَلَكَةَ عَقِيدَتِهِ، فَإِنَّ الْعَقِيدَةَ بِتَكَرُّرِ التَّعَقُّلِ وَتَكَرُّرِ التَّذَكُّرِ وَالِاسْتِسْلَامِ تَقْوَى وَتَشَدُّدٍ، فَمَا أَمَرُوا بِهِ لَيْسَ فِيهِ جِهْدٌ قَتْلِ النَّفْسِ وَإِخْرَاجُهَا مِنَ الدِّيَارِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَتَثْبِيْتُ لِعَقِيدَتِهِمُ الْمُؤَدِيَّةُ لِكُلِّ سَعَادَةٍ.

[٦٨] وَإِذَا أَي إِذَا فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَأَتَيْنَاهُمْ أَي أُعْطِينَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَي لَدُنْ أَنْفُسِنَا. وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَفِيدُ تَأْكِيدَ الْوَعْدِ، إِذْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

(١) البقرة: ٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٣

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٨ إلى ٦٩]

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩)

ليس عاجزا لا يتمكن من إنجاز وعده ولا بخيلا أو مخلفا لوعده حتى لا يفى بما قال أجراً عظيماً أى كبيراً. و

فى الأحاديث: إن نعيم الجنة بنحو «لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١).

[٦٩] وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا أى ثبتناهم، وقد تقدم فى سورة الحمد اهدنا الصراط المستقيم أن المعنى «ثبتنا»- بالتقريب الذى سبق- أو المراد هدايتهم صراط يوم القيامة الذى هو جسر على جهنم.

[٧٠] ثم ينتهى السياق إلى القاعدة العامة التى توجب خير الدنيا والآخرة وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ باتباع أوامرهما ونواهيهما بصورة عامة فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فى الدنيا فى المكانة الرفيعة فى القلوب والذكر الرفيع والنصرة، كما قال سبحانه: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا «٢» مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ الصديق هو الملازم للصدق فى أقواله وأعماله، أو هو المداوم على التصديق بما يوجهه الحق والشهداء الذين استشهدوا فى سبيل الله، ويسمى الشهيد شهيداً لشهادة الملائكة والناس له بأنه من أهل الجنة وَالصَّالِحِينَ الفاعلين للصالح الملازمين له وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٩٢.

(٢) غافر: ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٤

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٠ إلى ٧٢]

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَٰلِمًا (٧٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢)

الأشخاص رَفِيقًا أى مرافقين لمن يطع الله والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[٧١] ذَلِكَ التوفيق للإطاعة المعقب لكون رفقاء الإنسان النبيين و سائر من ذكر الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ أى تفضل منه سبحانه لمن اهتدى بمثل هذه الهداية وَكَفَى بِاللَّهِ عَٰلِمًا أى يكفى الله سبحانه عالماً بما يفعله الإنسان من خير و شر، فإنه إذا علم شيئاً رتب عليه الأثر.

[٧٢] وإذا انتهى الكلام حول الإطاعة المطلقة لله والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يلتفت السياق إلى حكم شاق من أحكام الإسلام هو القتال لتدريب المؤمنين على هذا العمل الجهادى العظيم، و تقرير الواجب عليهم فقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- ذكرنا سابقاً أن أحكام الإسلام عامة لكل شخص، و تخصيص المؤمنين بالخطاب لأنهم المستفيدون من ذلك- خُذُوا حِذْرَكُمْ يقال: خذ حذرك، أى احذر و تأهب لملاقاة الأمر بالمكروه، أو المراد بالاحذر: الأسلحة- مجازاً- لأنه آله الحذر فيكون من باب المجاز فَانْفِرُوا تُبَاتٍ أى أخرجوا إلى الجهاد. و «تبات» جمع مفردة «تبه» الجماعة فى فرقة، أى ليكن خروجكم فرقة بعد فرقة، كما تخرج السرايا سرية إلى هنا و سرية إلى هناك، أو جماعة إثر جماعة أو انفِرُوا و اخرجوا جميعاً فى عسكر واحد.

[٧٣] وَإِنَّ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ أى يتأخر عن الخروج استثقلاً من الجهاد، وإرادة للفرار، كما كان ذلك حال المنافقين

فإنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٥

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَلَيْتَنَّا أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)

كانوا لا يريدون الجهاد، ولذا كانوا يستثقلونه رجاء الفرار فإن أصابكم مصيبة من هزيمة أو قتل لبعض أفرادكم قال ذلك المنافق المبطىء وهو مسرور جدلاً: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا أَى شَاهِدًا حَاضِرًا فِي الْقِتَالِ، حَتَّى يَصِيبَنِي مَا أَصَابَهُمْ، وَ هَذَا دَائِمًا عَادَةً الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ، أَنَّهُمْ يَبْطِئُونَ حَتَّى يَذْهَبَ النَّاسُ، وَ يَتْرَقُونَ الْأَنْبَاءَ حَتَّى إِذَا وَجَدُوا فِي الذَّاهِبِينَ كَسْرًا سَرَّوْا بِأَنَّهُمْ كَانُوا بَعْدًا عَنِ الْمَعْرَكَةِ.

[٧٤] وَلَيْتَنَّا أَصَابَكُمْ فِي جِهَادِكُمْ فِي جِهَادِكُمْ فَفُضِّلَ مِنَ اللَّهِ بِالْفَتْحِ وَالْغَنِيمَةِ لَيَقُولَنَّ ذَلِكَ الْمَبْطِئُ مَتَحَسِّرًا - كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ جَمْلَةٌ مَعْتَرِضَةٌ لَيْسَتْ مَقُولَةٌ لِلْقَوْلِ، وَ إِنَّمَا هِيَ حِكَايَةٌ حَالِ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَرِيدُ إِلَّا النِّفْعَ وَالْمَادَةَ، وَ لَا يَخْلُصُ لِلدِّينِ وَ الدَّعْوَةِ -: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ حَاضِرًا فِي الْجِهَادِ، لِأَنَّا مَالًا وَ فَخْرًا فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى الْحُضُورَ لَا لِنَصْرَتِكُمْ بَلْ لِأَن يَفُوزَ هُوَ بِشَرَفِ الْجِهَادِ وَ غَنِيمَةِ الْفَاتِحِينَ.

[٧٥] لَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَبْطِئُونَ عَنِ الْقِتَالِ، بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ مَا هُوَ وَاجِبُ الْمُسْلِمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْمَهْمِ فَقَالَ: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَى لِأَجْلِ أَمْرِهِ وَ إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٦

[سورة النساء (٤): آية ٧٥]

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)

أى يبيعون الحياة القريبه الفانيه بالحياه الآخرة الباقية، فإن من أقدم على الحرب، كان كمن باع نفسه و كل ما يملك لأجل الآخرة وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَأَن تَكُونَ مَقَاتِلَتُهُ لِأَجْلِ إِعْلَاءِ أَمْرِ اللَّهِ وَ تَنْفِيذِ حُكْمِهِ فَيُقْتَلُ يَسْتَشْهَدُ أَوْ يَغْلِبُ يَظْفِرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا فَهُوَ بَيْنَ إِحْدَى الْحَسَنِينَ، الْإِسْتِشْهَادِ وَ الْجَنَّةِ، أَوْ الْغَلْبَةِ وَ الْفَتْحِ.

[٧٦] وَ مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَ تَطْبِيقِ حُكْمِهِ فِي الْبِلَادِ وَ فِي سَبِيلِ نَصْرَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِإِنْقَادِهِمْ مِنْ بَرَاثِنِ الْحُكَّامِ الْجَائِرِينَ وَ السَّادَةِ الظَّالِمِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ بَقُوا مُحْصَرِينَ فِي أَيْدِي الْجَائِرِينَ، فَإِنَّهُ يَحِقُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُقَاتِلَ لِأَجْلِ أَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، وَ لَا يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُقَاتِلَ لِأَجْلِ نَشْرِ السَّيْطَرَةِ وَ الْإِسْتِمَارِ وَ السِّيَادَةِ - كَمَا هِيَ الْعَادَةُ عِنْدَ غَيْرِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْمُحَارِبِينَ - وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا أَى الْمَدِينَةَ الَّتِي هُمْ فِيهَا مِمَّا لَا يَجِدُونَ مَحِيصًا عَنْهَا، فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْهَا لِضَعْفِهِمْ وَ مَنَعَ الظَّالِمِينَ لَهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ، وَ لَا لَهُمْ حَوْلٌ لِدَفْعِ ظَلَمِ الظَّالِمِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ أَى مِنْ عِنْدِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٧

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)

وَلِيًّا يَلِي أُمُورَنَا وَ يَسِيرُ بِنَا بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ عِنْدَكَ نَصِيرًا يَنْصُرُنَا عَلَى الظَّالِمِينَ.

[٧٧] ثم شجع سبحانه المجاهدين بأنهم أقوى من أعدائهم فإن الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لمرضاته و إعلاء كلمته و الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ الَّذِي هُوَ طَاغٍ مَتَجَاوِزٌ لِلْحَدِّ، فإن الذين كفروا لا يريدون بقتالهم إلا الظلم و الطغيان و إبقاء الأنظمة الفاسدة و العادات و التقاليد الزائفة فقاتلوا أيها المؤمنون أولياء الشيطان و أحبائه الذين يتولونه إن كيد الشيطان و مكره و حيلته في سبيل إبقاء أمره و تقوية جيشه كان ضعيفاً فيغلبه نصر الله و ولاية المؤمنين.

و لا مجال لأن يقال: فكيف نرى غلبة الكفار في كثير من الأحيان؟ فإن الجواب: إن ذلك لعدم توفر شروط المقاتلة في المؤمنين، إذ أن الله سبحانه لم يعد النصر مطلقاً بل مشروطاً بأن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة، و أن يصدقوا في الجهاد و المثابرة إلى غير ذلك، نعم مع توفر الشروط لا يفيد الأعداء جمعهم و كثرتهم، كما دلت التجارب على ذلك و صدق الخبر.

[٧٨] كان المسلمون و هم بمكة يطلبون من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الإذن لهم في قتال الكفار حينما كانوا يلاقون منهم الأذى و لما جاء دور القتال في المدينة تولى بعضهم، كما هو العادة عند الناس غالباً حيث أنهم يحرضون الرؤساء على الإقدام فلما أن أقدموا كانوا أول المنهزمين ألم تر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٨

يا رسول الله استفهام تعجبي إلى المسلمين الذين قيل لهم بمكة- و القائل هو الرسول صلى الله عليه و آله و سلم-: كُفُوا أَيديكم أي أمسكوها و اقبضوها عن القتال و أقيموا الصلاة و اتوا الزكاة فإنه لا يجب عليكم الجهاد الآن، و كان النهي عن الجهاد لقتلهم و عدم تمكنهم من مقابلة العدو، و أنهم إن قاتلوا أيدوا و اجتث جذور الإسلام، بالإضافة إلى إرادة رسوخ الإيمان في قلوبهم، فإن الإنسان مهما ابتلى بالمشقات و الشدائد يصفو جوهره و تصقل نفسه فلما أتوا إلى المدينة و كتب عليهم القتال أي فرض عليهم إذا فريق منهم أي من هؤلاء المسلمين الذين كانوا يطلبون الإذن بالقتال يحشون الناس الكفار أن يقتلوهم إذا بارزوا كخشية الله كما يخافون من الله سبحانه أن يميتهم أو أشد خشية إذ خوف الإنسان من الموت غالباً أقل من خوفه من القتل، إذ القتل يكتنف في الأغلب بالأحوال و المرعبات بخلاف الموت.

و قالوا أي قال هؤلاء الفريق: ربنا لم كتبت علينا القتال أي لأي علة فرضت علينا أن نقاتل فعلاً؟! لو لا أخرتنا إلى أجل قريب أي لماذا لم تؤخر الأمر بالقتال إلى زمان آخر قريب، حتى نستعد للحرب. فقد ورد في بعض التفاسير: أنه كان بالنسبة إلى «حرب بدر» حيث كان بعض المسلمين يكرهون ذلك لأنهم لم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٠٩

[سورة النساء (٤): آية ٧٨]

أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَ إِن تَصِبُّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِن تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨)

يستعدوا و يطلبون التأخير إلى أجل قريب ليستعدوا.

قُلْ يا رسول الله لهؤلاء: إن كان خوفكم من الحرب لأجل احتمال القتل فما فائدة البقاء في الدنيا؟ إذ متاع الدنيا أي ما يستمتع به في الدنيا قليل الأمد يفنى بعد مدة و الآخره خير لمن اتقى المعاصي و عمل بالواجبات و لا تظلمون فتيلاً أي مقدار فتيل، و هو ما في شق النواة فإذا قتلتم، لا تهدر أتعابكم و أعمالكم.

[٧٩] ثم لماذا الفرار من القتال، الخوف الموت؟ فإن الموت لا محاله يدرك الإنسان أيما تكونوا من الأماكن يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ أي يلحقكم و ينزل بكم و لو كنتم في بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ البروج جمع برج، و هو القصر أو البناء المستحکم الذي يرصد فيه للأعداء و يشرف منه على القادم و الذهاب، و ال «مشيدة» هي التي شيدت و بنيت بإحكام، أي أن الموت لا يهاب البروج و القلاع و الحصون و المراصد.

ثم وصف سبحانه حاله هؤلاء الضعاف الإيمان من المسلمين الذين قالوا: «لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ» فإن دخائل نفوسهم تتلَوْنَ ولا تبقى في جهة واحدة وإيمان راسخ وذلك لأنه إن تُصِبَهُمْ حَسَنَةٌ من نماء و زرع و بركة و تقدم في الحرب و صحة و ما أشبه يَقُولُوا هَذِهِ الْحَسَنَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ الْمُتَفَضِّلُ الْمُحْسِنُ وَإِنْ تُصِبَهُمْ سَيِّئَةٌ من غلاء و قحط و تأخر و مرض و ما أشبه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٠

[سورة النساء (٤): آية ٧٩]

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فإنه أصابنا بسبيك، كما حكى الله سبحانه عن قدم ذلك، حيث قال سبحانه: وَإِنْ تُصِبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿١﴾.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي يَجْدِبُ وَهُوَ الَّذِي يَخْصِبُ وَهُوَ الَّذِي يَمْرُضُ وَهُوَ الَّذِي يَشْفِي ... وَهَكَذَا، فليس مصدر الكوارث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَى مَا شَأْنُ هَؤُلَاءِ الضعاف الإيمان؟ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا أَى بَعْدَاءَ عَنْ فَهْمٍ مَا نَحَدَّثَهُمْ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ.

[٨٠] و حيث تبين أن مصدر الخير والشر هو الله سبحانه يبقى السؤال: ما هو سبب الشر؟ ولماذا يتلى الله تعالى الإنسان بالشر، والحال أنه سبحانه لا يريد بعباده إلا الخير؟ و يأتي الجواب: ما أصابك أيها الإنسان من حسناته كالزراعة والرخص والصحة والغنى فمن الله إنه يتفضل عليك بلا سبب، وإن كان قسم منها أيضا بسبب الأعمال الصالحة وما أصابك أيها الإنسان من سيئته قحط وغلاء و مرض و ما أشبه فمن نفسك فإن أعمالك الشريرة هي التي سببت ابتلاءك بالسيئات والمصائب وأرسلناك يا رسول الله للناس رسولا فمهمتك تخص التبليغ ولا يرتبط وجودك بالمصائب والآفات - كما

(١) الأعراف: ١٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١١

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٠ إلى ٨١]

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)

يزعم هؤلاء - بل العكس، إنك منبع الخير و مبعث الهداية و الصلاح و كفى بالله شهيدا أى يكفى كون الله شاهدا على رسالتك و أنك لا ترتبط بالشرور، لا يقال: كيف يمكن إثبات أن الله يشهد على رسالته صلى الله عليه وآله وسلم والحال أن أحدا لم يسمع من الله ذلك؟ الجواب: لأننا نقول: إن الشهادة التكوينية بإجراء المعجزة على يديه الكريمتين من أكبر أقسام الشهادة.

[٨١] مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فِي أَمْرِهِ وَ زَوَاجِرِهِ، التي منها أمره بالجهد - كما سبق في بعض الآيات - فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ لِأَنَّ أَمْرَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ هُوَ أَمْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿١﴾ وَ مَنْ تَوَلَّى وَ أَعْرَضَ عَنِ أَمْرِ الرَّسُولِ، فلا يهملك ذلك يا رسول الله ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا تَحْفَظُهُمْ عَنِ الْمَخَالِفَةِ وَ التَّوَلَّى، كما قال تعالى في آية أخرى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢﴾.

[٨٢] ثم حكى سبحانه حال المنافقين الذين تقدم بعض أحوالهم من أنهم يبتغون عن الجهاد، ويقولون: لو لا أخرجنا إلى أجل قريب، و ما أصابتهم من سيئة يطيروا بالرسول و يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ: أَمْرُكَ طَاعَةٌ إِنَّا مُسْتَعِدُونَ لَتَنْفِيذِهِ وَ مُسْتَسْلِمُونَ لَهُ فَإِذَا بَرَزُوا أَى خَرَجُوا

(١) النجم: ٤ و ٥.

(٢) الغاشية: ٢٢ و ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٢

[سورة النساء (٤): آية ٨٢]

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)

مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتْ أَى قَدْرَ لَيْلَا- طَائِفُهُ أَى جَمَاعَهُ مِنْهُمْ أَى مِنْ هَوْلَاءِ الْمُنَافِقِينَ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ فَيَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ بِاللَّيْلِ لِيُخَالِفُواكَ وَ يَنْفُضُوا أَمْرَكَ وَ اللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ أَى مَا يَتَوَاطُونَ عَلَيْهِ لَيْلَا، مِنْ نَقْضِ أَمْرِكَ، فَيَجَازِيهِمْ عَلَى الْمَخَالِفَةِ وَ الْعَصِيَانِ فَأَعْرِضْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْهُمْ فَلَا تَوَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ حَتَّى تَنْشَقَّ صَفُوفَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ إِنْ ظَهَرَتْ خُبَايَاهُمْ شَقُوا الصَّفُوفَ وَ خَالَفُوا وَ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي يَنْصُرُكَ وَ يَعِينُكَ فِي جِهَادِكَ الْأَعْدَاءَ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ كَيْلًا فَمَنْ وَ كَلَّ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ أَمْرَهُ أَنْجَزَهُ أَحْسَنَ إِنْجَازٍ وَ أَكْمَلَهُ أَحْسَنَ إِكْمَالٍ.

[٨٣] فهل يظن هؤلاء العصاة الذين يخالفون الرسول و يبيتون غير ما يقول، أن الرسول يأمر و ينهى عن نفسه، دون أن يكون كلامه من الوحي، و أن القرآن من كلامه لا من كلام الله سبحانه، و لذا يسهل مخالفته؟

فإن كان هذا ظنهم فهو خطأ محض، إذ القرآن الذى يقرأه الرسول إنما هو من عند الله، لا من كلام الرسول أفلا يتدبرون القرآن تدبراً عميقاً حتى يعرفوا أنه فوق كلام البشر و لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله و لو كان من عند غير الله حتى لو كان من عند الرسول- على عظمته- لو وجدوا فيه اختلافاً كثيراً لأن البشر مهما أوتوا من الموهبة لا- بد و أن تختلف تعبيراتهم و تتفاوت أفكارهم حسب الأزمان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٣

[سورة النساء (٤): آية ٨٣]

وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

و الظروف، فعدم الاختلاف فى القرآن من جهة من الجهات، أدل دليل على أنه ليس من كلام البشر و إنما هو من عند إله حكيم.

[٨٤] و يعود السياق إلى حالة هؤلاء المنافقين الذين تقدمت بعض صفاتهم، فقال سبحانه: وَإِذَا جَاءَهُمْ أَى جَاءَ هَوْلَاءِ أَمْرٌ أَى شَىءٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ مِنْ ظَهْورِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عِدَدِهِمْ الْمَوْجِبِ لِلْأَمْنِ، أَوْ انْهِزَامِ الْمُسْلِمِينَ الْمَوْجِبِ لِلْخَوْفِ، وَ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَىءٍ يَوْجِبُ أَمْنًا أَوْ خَوْفًا أَذَاعُوا بِهِ أَى أَفْشَوْهُ فِي الْأَوْسَاطِ، فَقَدْ كَانَتْ الْأَخْبَارُ الْمَخْتَلِفَةُ تَدَاعٍ وَ تَنْشُرُ فِي الْمَدِينَةِ لِعَرَضِ الدَّعَايَةِ لِلْمُسْلِمِينَ أَوْ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ هَوْلَاءِ الضَّعَافِ الْإِيمَانَ يَتَلَفَفُونَهَا فُورًا وَ يَأْخُذُونَ فِي إِشَاعَتِهَا، مِنْ دُونِ نَظَرٍ إِلَى عَاقِبَةِ الْأَمْرِ، وَ إِلَى أَنَّ الْخَبَرَ هَلْ هُوَ صَحِيحٌ أَوْ لَا. وَ مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْحَرَكَاتِ أَنْ تَكُونَ أَخْبَارُهَا طَى الدَّرْسِ عِنْدَ الْقَادَةِ، لِيُرَوا هَلْ مِنَ الصَّلَاحِ إِشَاعَتُهَا أَمْ لَا إِذْ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الْخَبَرُ مَكْذُوبًا وَ كَثِيرًا مَا تَكُونُ إِشَاعَةُ خَبَرِ الْأَمْنِ، ضِدَّ الْمَصْلَحَةِ- وَ لَوْ كَانَ صَحِيحًا- حِينَمَا يَقْتَضِي الْحَالُ الْحَذَرَ وَ الْاسْتِعْدَادَ، وَ كَثِيرًا مَا تَكُونُ إِشَاعَةُ خَبَرِ الْخَوْفِ ضِدَّ الصَّلَاحِ- وَ لَوْ كَانَ صَادِقًا- حِينَمَا يَقْتَضِي الْحَالُ الْأَمْنَ وَ الْأَمَانَ، لَنَلَّا يَجِبُنَ النَّاسَ عَنِ الْاسْتِعْدَادِ وَ الْحَرَكَه.

وَ لَوْ رَدُّوهُ أَى أَرْجَعُوا ذَلِكَ الْخَبَرَ الَّذِي سَمِعُوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ وَ الْمُرَادُ بِهِ الْأُئِمَّةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ الَّذِينَ هُمْ مَعِينُونَ مِنْ قَبْلِ الرَّسُولِ وَ الْأُئِمَّةِ، فَإِنَّهُ لَا أَوْلَى أَمْرٍ إِلَّا هَوْلَاءُ كَمَا تَقَدَّمَ ذَلِكَ لَعَلِمَهُ أَى: لَعَلِمَ ذَلِكَ الْأَمْرَ صِدْقَهُ وَ كَذْبَهُ وَ كَوْنَ الصَّلَاحِ فِي نَشْرِهِ أَوْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٤

[سورة النساء (٤): آية ٨٤]

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)
 كتمانهم الذين يشتمون أي يستخرجونه منهم أي من أولى الأمر فلا يبقى الخبر مرددا بين الصدق والكذب، ولا بين الصلاح في إشاعته وعدمه، ولم يكن محل للظنون والأوهام ولم ترج- بعد- الأكاذيب لأنها تحت الرقابة. ولم يقل «لعلموه» للإشارة إلى علته علمهم وأنهم بسبب استنباطهم يعلمونه.

وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، حيث يرشدكم إلى مواقع الزلل ومهاوى الخطأ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِي مَا يَلْقِيهِ عَلَيْكُمْ مما يوجب بلبلة صفوفكم وانشطار كلمتكم إِلَّا قَلِيلًا من الذين قويت عقولهم فلا يتبعون خطوات الشيطان، حتى إذا لم يكن رسول، كما كان ذلك في زمن الجاهلية حيث أن بعضهم لم يكن يتبع الشيطان بما أوتى من قوة في العقل و سداد في الرأي فليس المراد- لو لا فضل الله إطلاقا- بل المراد الفضل الخاص.

[٨٥] وعند ما بين القرآن سلوك القوم في الجهاد وأن الله هو الذي يتفضل على المؤمنين، يتوجه السياق إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَاتِلًا يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَتَفْيِذِ حُكْمِهِ لَا- تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ فَإِنَّكَ لَا تَضُرُّ بِفِعْلِ الْمُنَافِقِينَ وَإِرْجَافِهِمْ وَمَا يَبْدُو مِنْهُمْ، فَإِنَّكَ لَسْتَ مَكْلُفًا بِأَفْعَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ كَمَا أَنْكَ لَسْتَ مَسْئُولًا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِقَدْرِ نِطَاقِ التَّبْلِيغِ وَالْإِرْشَادِ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ أَي حَثِّهِمْ عَلَى الْقِتَالِ عَسَى اللَّهُ أَي لَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ وَيَمْنَعُ بِسَبَبِ قِتَالِكَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٥

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٥ إلى ٨٦]

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)
 أي شدة الكفار وقوتهم بأن يغلبك عليهم فيعودوا خائبين والله أشد بأساً فأنتم بقوة الله وشدته تتقدمون وهو أشد من الكفار قوة وأشد تنكيلاً أي أشد من حيث العقوبة والنكال.

[٨٦] وحيث تقدم أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يكلف إلا- نفسه، استدرك الأمر بأن ليس المراد بذلك أن الإنسان الوسيط لا يكون له شيء بالنسبة إلى ما توسط فيه بل مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً أي يكون قد شفع صاحبه في الأمور الخيرية، وذلك إما بالتوسط، أو بالتحريض أو بالإرشاد يَكُنْ لَهُ أي للشفيع نصيب و حصه منها أي من تلك الحسنه فإن الدال على الخير كفاعله وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً بَأَنَّ تَوَسُّطَ فِي الْأَمْرِ السَّيِّئِ أَوْ حَرِّضَ أَوْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ يَكُنْ لَهُ أي للشفيع كفل أي نصيب منها لأنه قد تعاون على الإثم والعدوان وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتِنًا أي مقتدرا فهو القادر في أن يعطي الشفيع نصيباً من الحسنه أو كفلاً من السيئه. أو معنى المقيت: المجازي، أي يجازي على الأمرين.

[٨٧] وقد ناسب الكلام الذي هو حول القتال والجهاد، الكلام حول السلام والكف عن القتال، لتقابل الضدين بين الأمر، ويأتي الجو عاماً لا يخص سلام الحرب، بل السلام المطلق، فقال سبحانه: وَإِذَا حُيِّتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ بِتَحِيَّةٍ وَالتَّحِيَّةُ: السلام، يقال: «حَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٦

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٧ إلى ٨٨]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَضِدُّقٌ مِنَ اللَّهِ حَيْثُ دَيْتًا (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أْتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)

يحيى» إذا سلم فحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أي من تلك التحية. والآية عامة تشمل كل تحية. قال في «المجمع»: «فلما أمر سبحانه بقتال المشركين عقبه بأن قال: من مال إلى السلم وأعطى ذاك من نفسه وحي المؤمنين بتحية فاقبلوا منه» (١). أو رُدُّوها بمقدارها فإذا قال أحد لك:

«السلام عليكم» فالرد الأحسن أن تقول: «السلام عليكم ورحمة الله» و الرد المساوى أن تقول: «السلام عليكم» إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا أى حفيظاً محاسباً، فيحسب ردكم إن كان بالأحسن أو بالمساوى ليجازيكم عليه.

[٨٨] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُوَ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ ذُو الصِّفَاتِ الْكَمَالِيَّةِ لَيَجْمَعَنَّكُمْ بَعَثَكُمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَيَحْشُرَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَي إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ لِيَجْزِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ فَمَا عَمَلْتُمْ فِي دُنْيَاكُمْ مِنْ حَرْبٍ وَسَلْمٍ أَوْ غَيْرِهِمَا لَا بَدَّ وَأَنْ تَجَاوَزُوا عَلَيْهِ هُنَاكَ لَا رَيْبَ فِيهِ أَي لَيْسَ مَحَلًّا لِلرَّيْبِ وَإِنْ أَرْتَابَ فِيهِ الْمَبْطُولُونَ، أَوْ أَنَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْوَاقِعِ لَيْسَ فِيهِ رَيْبٌ وَشَكٌّ، فَهُوَ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ مِنْهُ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا فَحَدِيثُهُ صَادِقٌ لَا خَلْفَ فِيهِ، وَ لِيَأْتِيَنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ تَجَاوَزُونَ بِمَا عَمَلْتُمْ فِي الدُّنْيَا.

[٨٩] ثم يرد السياق إلى الجهاد و ما يتخلله من الاختلاف و الانشقاق و يذكر

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٧

اللَّهُ سبحانه المؤمنين بأنه لا ينبغي لهم أن يختلفوا في جهاد الكفار و المنافقين لأعداء واهية، فقال سبحانه: فَمَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ صرتم في المنافقين أمر المنافقين فثبتت فته تؤيد محاربتهم لأنهم كفار واقعا، و فته لا تؤيد لأنهم أظهروا الإسلام في يوم ما و الحال أن اللَّهَ أَرْكَسَهُمْ أَي رَدَّهُمْ إِلَى حُكْمِ الْكُفْرِ بِمَا كَسَبُوا أَي بِسَبَبِ كَسْبِهِمْ لِلنِّفَاقِ وَ الشَّقَاقِ أ تُرِيدُونَ أَي هل تريدون أيها المسلمون أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ أَي: أ تطمعون في هداية هؤلاء المرتدين، و قد أضلهم الله؟ و قد تقدم أن معنى إضلال الله تركهم و ضلالهم، بعد أن عرفوا الحق فأعرضوا عنه و مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَيتركه على كفره و ضلاله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا لِإِنْقَاذِهِ، و كيف يمكن إنقاذه و هو معاند يتعامى عن الحق عمدا.

و

قد روى عن الإمام الباقر عليه السلام: «أن هذه الآية نزلت في قوم قدموا المدينة من مكة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكة، لأنهم استوخموا المدينة فأظهروا الشرك، ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة، فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا فقال بعضهم: لا نفعل فإنهم مؤمنون، و قال آخرون: إنهم مشركون. فأنزل الله فيهم هذه الآية» (١).

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٨

[سورة النساء (٤): آية ٨٩]

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)

و هذا الأمر عام دائما في كثير من الحركات فإن قسما من الذين يؤمنون لا بد و أن ينقلبوا ثم يختلف فيهم الباقون، هل أنهم خارجون حقيقة أم لا، و الآية تبين وجوب وحدة الصف أمام هؤلاء بعد ما ظهر منهم الارتداد. ثم لا يخفى أن تعبير الآية بالمنافقين لا يدل على أنهم لم يكفروا إذ النفاق أعم من الكفر، و من المحتمل أن الآية تريد بيان وجوب وحدة الصف أمام المنافقين، حتى يكون التجنب عنهم عاما و ليقروا بالعزلة، و هذا أقرب إلى ظاهر الآية بمناسبة ما سبق من أحكام المنافقين كما أن صريح الرواية و ظاهر الآية اللاحقة «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» يدل على المعنى الأول، و أنه أريد بالنفاق الكفر.

[٩٠] وَدُّوا أَي أَحَبُّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَنِ الْإِسْلَامِ وَ أَظْهَرُوا الشَّرْكَ لَوْ تَكْفُرُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ كَمَا كَفَرُوا هُمْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فِي الْكُفْرِ وَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْقَسِمَ الْمُسْلِمُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ قَسَمِينَ فَلَا تَتَّخِذُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ أَحْبَاءَ وَ

أخلاء، فإن المسلم لا يصادق الكافر كما قال سبحانه: لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ «١» حَتَّى يُهَاجِرُوا مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَذَلِكَ يَلْزَمُ الْإِيمَانَ، إِذِ الْهَجْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ الْإِيمَانِ فَإِنْ تَوَلَّوْا وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ الْمَلْزَمِ لِلْهَجْرَةِ

(١) المجادلة: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥١٩

[سورة النساء (٤): آية ٩٠]

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَكَوَّشَاءَ اللَّهُ لَسِيْلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوْلُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ أَى أَيْنَمَا أَصَبْتُمُوهُمْ مِنْ حَلٍّ أَوْ حَرَمٍ، وَ لَا إِشْكَالَ فِي مُحَارَبَةِ الْجَانِي فِي الْحَرَمِ، أَوْ الْمَرَادِ أَيْنَمَا كَانُوا مِنَ الْأَرْضِ وَ لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا أَى صَدِيقًا خَلِيلًا وَ لَا نَصِيْرًا أَى نَاصِرًا يَنْصُرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَإِنَّ الْكَافِرَ لَا يَنْصُرُ الْمُسْلِمَ وَ لَوْ نَصَرَهُ فِي الظَّاهِرِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ شَرَهُ.

[٩١] ثم استثنى سبحانه عن وجوب مقاتلة هؤلاء من كان داخلا في حلف قوم بينهم وبين المسلمين معاهدة، فإن دخوله في ذلك الحلف يحقن دمه، و من لا يريد محاربة المسلمين و إنما يريد معاهدتهم، فقال سبحانه - مستثنيا من قوله «فخذوهم ..»-: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ أَى لَهُمْ مُوَاصِلَةٌ وَ أَحْلَافٌ مَعَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ أَى بَيْنَ أَوْلِيَاكُمُ الْقَوْمِ مِيثَاقٌ وَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ هَلَالَ بْنَ عُوَيْمِرَ السَّلْمِيِّ وَاتَّقَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ لَا يَتَعَرَّضُ هُوَ لِأَحَدٍ أَتَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَ لَا يَتَعَرَّضُ الرَّسُولُ لِمَنْ أَتَى هَلَالَ بْنَ عُوَيْمِرَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ نَاهِيًا أَنْ يَمَسَّ مِنْ يَأْتِي هَلَالَ مِنَ الْكُفَّارِ بِسُوءٍ» (١).

أَوْ الَّذِينَ جَاؤُوكُمْ أَى أَتَوْا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَى ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ- وَ السَّبَبُ أَنْ مِنْ يَهْمُهُ أَمْرٌ تَنْتَفِخُ رِثْتَهُ لِتَجْلِبَ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الْهَوَاءِ، لِيرْفَهُ عَلَى الْقَلْبِ الَّذِي حَمَى بِوَأَسْطِهِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٠

غليان الدم، فيضيق الصدر لتوسع الرئة- أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ أَى تَضِيقُ صُدُورَهُمْ مِنْ قِتَالِكُمْ وَ قِتَالِ قَوْمِهِمْ فَلَا يَكُونُونَ لَكُمْ وَ لَا عَلَيْكُمْ.

و

فِي «الْمَجْمَعِ»، قَالَ: «إِنَّمَا عَنَى بِهِ بَنِي أَشْجَعٍ، فَإِنَّهُمْ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فِي سَبْعِمِائَةٍ يَقُودُهُمْ مَسْعُودُ بْنُ دَخِيلَةَ فَأَخْرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَحْمَالَ التَّمْرِ ضِيْفَاءً، وَ قَالَ: نَعَمْ الشَّيْءُ الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَّةِ وَ قَالَ لَهُمْ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: لِقَرَبِ دِيَارِنَا مِنْكَ، وَ كَرِهْنَا حَرْبَكَ وَ حَرْبَ قَوْمِنَا- يَعْنُونَ بَنِي حَمْزَةَ الَّذِينَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَهُمْ عَهْدٌ- لَقَلْتُنَا فِيهِمْ، فَجِئْنَا لِنُؤَادِعَكَ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَ وَادَعَهُمْ فَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ» (١).

وَ كَوَّ شَاءَ اللَّهُ لَسِيْلَطَهُمْ أَى سَلَطَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عَلَيْكُمْ بِأَنْ لَمْ يَلْقَ فِي قُلُوبِهِمْ رَعْبَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخَافُوكُمْ فَيَسَالِمُوكُمْ، فَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مَحَلَّ هَيْبَةٍ وَ مَنَعَةٍ، مَعَ أَنْ عَدَدَكُمْ وَ عَدَدَكُمْ لَا يَقْتَضِيَانِ ذَلِكَ، وَ لَوْ لَمْ يَلْطَفْ بِكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ لَكِنْ حَيْثُ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ فَلَا تَمْدُوا إِلَيْهِمْ يَدَ الْمُحَارَبَةِ فَإِنَّ اعْتَزَلُوكُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرُوا وَ هُمْ «الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ ..» أَوْ «جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ..» فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ الْقَوْلُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ السَّلَامُ يَعْنِي صَالِحُوكُمْ وَ اسْتَسَلِمُوا لَكُمْ

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢١

[سورة النساء (٤): آية ٩١]

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا كُفْرًا وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رُذُودًا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)
فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا فَلَا تَبَاحَ دِمَائِهِمْ، وَلَا أَمْوَالِهِمْ، وَلَا أَعْرَاضَهُمْ.

وما في بعض التفاسير من أن الآية منسوخة، لم يظهر وجهه، إذ الجملة الأولى لا تقبل النسخ فإن المعاهدات تبقى إلى أمدها، و الجملة الثانية في مورد خاص، ومثله لا يقبل النسخ.

[٩٢] سَتَجِدُونَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ جَمَاعَةً آخَرِينَ مِمَّنْ يَبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا كُفْرًا أَيْ يَأْمَنُوا مِنْ طَرَفِكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ أَيْ يَأْمَنُوا مِنْ طَرَفِ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّمَا أَتَوْكُمْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَإِذَا رُذُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ بَانَ رَجْعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْكُفْرِ - وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْفِتْنَةِ هُنَا - أُرْكَسُوا فِيهَا أَيْ وَقَعُوا فِيهَا وَارْتَدَوْا عَنِ إِسْلَامِهِمْ وَالْإِسْلَامَ لَا يَعْتَرِفُ بِهَكَذَا أَنَا، فَإِنْ مَثَلَهُمْ خَطَرُونَ عَلَى سَلَامَةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا - بَدَ وَأَنْ يَحْدُدَ هَؤُلَاءِ مَوْقِفَهُمْ، إِمَّا أَنْ يَعلِنُوا سَلَامَهُمُ الْعَامَ وَاعْتَرَالَهُمْ - حَيَادِيَا - عَنِ الْمَشَارِكَةِ فِي التَّحْرِكَاتِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَشْتَرِكُوا فِي حَرْبٍ عَلَيْهِمْ، فَهَمَّ فِي أَمَانٍ مِنْ جَانِبِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَإِمَّا أَنْ يَحَارِبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ كَسَائِرِ الْكُفَرَاءِ، لَا - فَضْلَ لَهُمْ وَلَا - حَرَمَةَ فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ أَيْ لَمْ يَعْتَرِلْ هَؤُلَاءِ الْكُفَرَاءُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ يُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ بَانَ يَسَالِمُوكُمْ وَيَصَالِحُوكُمْ وَلَا يَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٢

[سورة النساء (٤): آية ٩٢]

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوًّا لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)

بأن لا يشاركوا في حرب وتحرر أي فأسروهم، ولا تراعوا نفاقهم في إظهارهم الإسلام إذا جاءوكم وأقتلوه حيث ثقفتموهم أي أينما وجدتموهم وأولئك أي هؤلاء المذبذبون جعلنا لكم أيها المسلمون عليهم سلطاناً مبيناً أي برهاناً واضحاً، فإنه لا وسط بين الحرب والحياد، فإن أخذوا جانب الحياد فهو، وإلا فالحرب حالهم حال سائر الكفار.

ومن المحتمل أن لا يكون المراد من «يأمنوكم» إظهارهم الإسلام، بل إظهارهم الموادعة والمسالمة، وسوق الآية إلى آخرها - على هذا المعنى واضح - وهذا هو الذي يؤيده

ما في بعض التفاسير من «أن الآية نزلت في عيينة بن حصين الفزاري، أجذبت بلادهم فجاء إلى رسول الله ووادعه على أن يقيم بطن نخل ولا يتعرض له، وكان منافقاً ملعوناً، وهو الذي سماه رسول الله الأحمق المطاع».

وعلى هذا يكون الفرق بينه وبين ما تقدم في قوله سبحانه: «أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ» أن الأولين جاءوا بحسن نية وصدق طويته، بخلاف هؤلاء حيث جاءوا نفاقاً ومكراً، فقبل من أولئك دون هؤلاء.

[٩٣] هذا ما كان حول معارك المسلمين مع غيرهم، وحكم إراقة الدماء بالنسبة إلى الطرفين. أما المسلمون بعضهم مع بعض فلا يحق لأحد أن يريق قطرة من دم أحد وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٣

الاستثناء منقطع، أى لا- يجوز لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا أن يخطأ فى قتله، كما لو أراد قتل حيوان فأخطأ و أصاب الرمى مؤمناً، أو نحو ذلك و مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فعليه أن يكفر عن خطأ ب تحرير رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ أى أن يعتق إنساناً عبداً مؤمناً، و يقال للعبد: رقبته، بعلاقة الجزء و الكل، من باب استعمال اللفظ الموضوع للجزء فى الكل، كما يقال للجاسوس: عين. و عليه دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله الدينة من «ودى يدى»، أى أعطى المال المقابل للدم، و يجب أن تكون «مسلمة» أى يسلمها إلى أهل المقتول كاملة غير منقوصة، و المراد بكون الدينة عليه، و جوب الدينة فى الجملة، لا أنها عليه بالذات، فإنها فى الخطأ على «العاقلة» و هذه الدينة تقسم بين أولياء المقتول إلا أن يَصَّدُقُوا أى يتصدق أولياء المقتول بالدية على القاتل فلم يأخذوها منه، و لا يخفى أن أصل «يصدقوا» يتصدقوا، فأدغمت التاء فى الصاد لقرب مخرجهما على ما هو المعروف فى باب التفعّل.

فإن كان المقتول مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ أى كان من طائفة هم أعداء للمسلمين، بأن كانوا كفاراً محاربين و هو أى القاتل مؤمن و كان قتله له خطأ- كما يقتضيه العطف على الجملة الأولى- فعلى قاتله كفارة هى تحرير رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ أما الدينة فلا تجب إذ ليس للمقتول أهل مسلمون. و من المعلوم أن الحربى لا يرث المسلم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٤

[سورة النساء (٤): آية ٩٣]

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) و إن كان المقتول كافراً ليس بمسلم و لكنه كان من قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ و معاهدة و قتله المسلم خطأ فعلى القاتل دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله أى أهل المقتول و تحرير رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ و ذلك لأنه لا يجوز قتل المعاهد كما لا يجوز قتل المؤمن فَمَنْ لَمْ يَجِدِ العبد و لا ثمنه فعليه صيام شهرين مُتَتَابِعَيْنِ أى متوالين فلا يصح التفريق فى أيام الشهرين، لكن إذا صام شهراً و يوماً كفاه فى التتابع، و جاز أن يصوم البقية بعد زمان غير متصل بالأول تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ أى شرع ذلك فى القتل لأجل التوبة و الرجوع من الله سبحانه على العبد القاتل، و القاتل و إن كان مخطئاً مما يوجب عدم الذنب عليه، إلا أن بعده الطبيعى بسبب هذا العمل القبيح يعدّ ذنباً، فإن بعض الأعمال لها آثار و ضعية، كمن شرب الخمر جهلاً، فإنه يسكر و تصيبه الأمراض الملازمة للخمر و كان الله عَليماً يعلم مصالِحكم حَكِيمًا فيما يأمر و ينهى.

[٩٤] قد تقدم حكم القتل الخطأ و مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ظاهر الآية أن القتل وقع عمداً مقابل قتل الخطأ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا أبد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٥

[سورة النساء (٤): آية ٩٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبْنَا وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَبْنَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) الأبدن، إلا أن تدركه شفاعته أو عفو، و هذا الاستثناء بدليل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يُغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ «١» وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ المراد فى مثل هذه الصفات نتائجها، و إلا فالله سبحانه ليس محلاً للحوادث و لَعَنَهُ أى طرده عن رحمته و أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا وَ فى آية أخرى: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا «٢».

[٩٥] ثم أشار القرآن الحكيم إلى بعض الاحتياطات اللازمة على المجاهدين، لئلا يقتلوا مسلماً خطأ، و ذلك إثر وقوع حادثه و هى أن أسامة بن زيد و أصحابه بعثهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى سرية فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له إلى الجبل و كان قد أسلم فقال لهم: السلام عليكم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فبدر إليه أسامة فقتله و استاقوا غنمه، فلما رجع إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أخبره بذلك، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «أفلا شققت الغطاء عن قلبه، لا ما قال بلسانه قبلت و لا ما فى نفسه علمت» «٣»،

و نزلت الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَي خَرَجْتُمْ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ، فَإِنِ الضَّرْبُ بِمَعْنَى السَّفَرِ، لِأَنَّ الْمَسَافِرَ يُضْرَبُ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ فَتَبَيَّنُوا أَي مَيَّزُوا بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ لِيَكُونَ أَمْرُكُمْ وَاضِحًا مَبِينًا وَ لَا تَفْعَلُوا شَيْئًا بَدُونَ التَّبَيَّنِ وَ التَّأْنِي وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ

(١) النساء: ٤٩.

(٢) المائدة: ٣٣.

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٥ ص ٢٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٦

[سورة النساء (٤): آية ٩٥]

لَا يَشْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)

أى حياكم بتحية الإسلام و أظهر لكم أنه مسلم و اعتزلكم فلم يقاتلكم: لست مؤمناً حقيقه و إنما إيمانك صرف لقلقه لسان خوفا من القتل تبتغون عرض الحياة الدنيا أى هل تطلبون الغنيمه و المال، حيث تنكرون إسلام من ألقى إليكم السلام؟ فيكون الكلام على الاستفهام التوبيخى، أى لماذا تقتلون مظهر الإسلام لغنيمته الزائله التى هى عرض الحياة الدنيا؟ أو أن الاستفهام ليس توبيخيا بل على ظاهره، أى إن كنتم تطلبون المال فعند الله مغنم كثيرة جمع «مغنم» و هى الغنيمه فى الدنيا بما ستحوزونه من الكفار، و فى الآخرة، و فسرت الغنيمه لغه بأنها الفائدة كذلك الذى ألقى إليكم السلام كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ كَفَارًا كَمَا كَانَ هُوَ كَذَلِكَ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بَأَن هَدَاكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، فَكَمَا لَمْ يَصِحْ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ إِيْمَانَكُمْ عَنْ خَوْفٍ، كَذَلِكَ لَمْ يَصِحْ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا: إِنَّ إِيْمَانَ مَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ عَنْ خَوْفٍ، وَ إِذَا عَلِمْتُمْ خَطَاكُمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَتَبَيَّنُوا مِنْ بَعْدِ. وَ قَدْ كَرَّرَ اللَّفْظَ تَأْكِيدًا، وَ لَكِي يَقَعَ الْكَلَامُ مَوْقِعَ الْقَبُولِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ، فَكَانَ «تَبَيَّنُوا» فِي الْأَوَّلِ مُجْرَدَ أَمْرٍ وَ «تَبَيَّنُوا» هُنَا بَعْدَ الدَّلِيلِ وَ الْبُرْهَانِ عَلَى لُزُومِ التَّبَيَّنِ عَقْلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا فَهُوَ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَ بَوَاعِثَهَا، فَراقبوا الله فى كل عمل تقومون به.

[٩٦] ثم يأتى السياق لبيان فضل المجاهدين تحريضا على الجهاد و تحفيزا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٧

للقاعدية على النهوض لا يشتمون القاعدون من المؤمنين الذين يقعدون فى محلهم و لا ينهضون لمقاتلة الأعداء غير أولى الضرر يعنى القاعدية الذين ليس بهم ضرر يمنعهم عن الجهاد كالأعمى و الأعرج و نحوهما، أما من بهم ضرر فهم معذورون ليس عليهم حرج. و لعل المفهوم من الآية أن من به ضرر، و كان مستعدا نفسيا أن يجاهد لو لا الضرر، كان له أجر المجاهدين حسب الحديث المأثور: «نية المؤمن خير من عمله» (١).

و عليه فإن هؤلاء القاعدون لا يستنون و المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم و أنفسهم بأن أنفقوا أموالهم للجهاد و قدموا أنفسهم للقاء الكفار فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام. و سُمى الجهاد جهادا لما يستلزمه من الجهد و المشقة، فإن فى بذل المال و النفس أعظم المشقات فضل الله المجاهدين بأموالهم و أنفسهم على القاعدية إذ المجاهد يفضل على القاعد بالجهاد، و لكن لكل منهما فضل الإيمان و الصلاة و الصيام و سائر شرائع الإسلام و كلاً وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى أى المجاهد و القاعد، فإن الجهاد فرض كفاية، فإذا قام به البعض سقط عن الآخرين، و لذا فكلاهما موعود بالصفة الحسنى من الخير و السعادة و إن كان المجاهد أفضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٨

[سورة النساء (٤): آية ٩٦]

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

و في تفسير «الأصفي» ورد: «لقد خلفتم في المدينة أقواما ما سرتهم مسيرا و لا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، و هم الذين صحت نياتهم و نضجت جيوبهم و هوت أفئدتهم إلى الجهاد، و قد منعهم من المسير ضرر أو غير ضرر». أقول: كان هذا في غزوة تبوك.

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

فقد ورد: «إن فوق كل برٍّ برٌّ إلا الجهاد في سبيل الله» (١)

، كما

ورد: «إن الأجر على قدر المشقة»

«٢»، و

ورد: «ما أعمال البر كلها ... إلا كنفته في بحر لجي»

«٣» و كان قوله «أجرا عظيما» لدفع و هم ربما يتوهم من قوله «درجة» فيقال: أنه لا فرق بين المجاهد و القاعد إلا درجة، فيقال في الجواب: أنه لا أهمية للدرجة في مقابل تعب الجهاد و مشقته فقد جعل الله له أجرا عظيما.

[٩٧] ثم يبين سبحانه الأجر العظيم بقوله: ذلك الأجر هو دَرَجَاتٍ مِنْهُ أى من قبل الله سبحانه، و هذا تعظيم للأمر، فإن الدرجة لو كانت من غيره لكانت هينة، إذ الدنيا عرض زائل أما التي منه سبحانه فإنها شيء عظيم باق. و

في الحديث «إن الله فضل المجاهدين على القاعدين سبعين درجة، بين كل درجتين مسيرة سبعة سبعمائة خريفا للفرس الجواد المضمرة».

«٤» وَ مَغْفِرَةً أَى غفرانا لذنوب المجاهد وَ رَحْمَةً أَى يرحم الله

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٧٥.

(٣) نهج البلاغة: حكمة رقم ٣٧٣.

(٤) كنز الدقائق: ج ٢ ص ٥٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٢٩

[سورة النساء (٤): آية ٩٧]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)

المجاهد بإعطائه النعم الكثيرة و كان الله غفورا رحيما فيغفر للمجاهد ذنوبه السابقة و يرحمه برحمته الواسعة. قال البعض: إن المراد بالدرجة الأولى علو المنزلة، كما يقال: فلان أعلى درجة عند الخليفة من فلان، و أراد بالثانية الدرجات في الجنة التي بها يتفاضل المؤمنون.

[٩٨] ثم يأتي السياق إلى طائفة أخرى من القاعدين الذين لم يعدهم الله الحسنى، بل وعدهم العذاب لأنهم هم السبب في ظلم الكفار لهم و سلبهم حقوقهم إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَى تقبض الملائكة أرواحهم، فإن لملك الموت أعوانا، كما ورد في السنة، و دلت عليه هذه الآية ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ أَى في حال كونهم ظالمين لأنفسهم، لأنهم بقوا في دار الهوان حيث يسومهم الكفار العذاب و يمنعهم من الإيمان بالله و الرسول، و قد كان بإمكان هؤلاء أن يهاجروا إلى دار الإيمان و يؤمنوا. و لعل الآية أعم منهم و من المؤمنين الذين

بقوا في دار الكفر ولا- يتمكنون من إظهار واجبات الإسلام والعمل بما أوجبه الله سبحانه قالوا أى قالت الملائكة لهم عند قبض أرواحهم: فِيمَ كُنْتُمْ أى فى أى شىء كنتم من أمر دينكم، وهو استفهام تقريرى تويخى قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ يستضعفنا أهل الشرك فى بلادنا فلا يتركوننا لأن نؤمن، أو لا يتركوننا بعمل بالإسلام قالوا أى قالت الملائكة لهم: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا حتى تخرجوا من سلطه الكفار، و تتمكنوا من العمل بالإسلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٠

[سورة النساء (٤): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا (٩٩)

و بشرائعه. فَأُولَئِكَ الذين سبق وصفهم مأواهم مرجعهم و محلهم جهنم و ساءت مصيراً أى أنها مصير سيئ لعذابها و أهوالها.

[٩٩] ثم استثنى سبحانه من هؤلاء من لا- يتمكن من المهاجرة فإنه ليس مكلفا، و إنما أمره إلى الله تعالى إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ الذين استضعفهم الكفار فى بلادهم من الرجال العجزة و النساء و الولدان و هاتان الطائفتان فى طبيعتهم العجز عن الفرار و الهجرة لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً أى عاجلا لأمرهم و فكاً لأنفسهم من سلطه المشركين و لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا للفرار و الهجرة.

[١٠٠] فَأُولَئِكَ العاجزون من المستضعفين عسى الله أن يغفو عنهم أى لعل الله سبحانه يغفر لهم ذنبهم، و دخول «عسى» فى مثل هذه الآية للدلالة على كون الأمر بيد الله سبحانه، و أنه كان قادرا أن يأمرهم بما يحرجهم من وجوب خروجهم و إظهار دينهم، و إن بلغ بهم الأمر ما بلغ، و لا- يقال: إن كان المراد بالمستضعفين الكفار فكيف يعفى عن الكفر؟ لأن الدليل العقلى و النقلى قد دل على امتحان الضعفاء و العجزه و البله و من إليهم فى الآخرة، و ذلك بخلاف الكافر المعاند الذى مصيره النار حتما و كان الله غفورا يعفو عن من يشاء غفورا يغفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣١

[سورة النساء (٤): آية ١٠٠]

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

الذنوب. و لعل الفرق بين العفو و الغفران: أن العفو غفران بلا ستر، و الغفران عفو مع الستر، فإن عدم العقاب لا يلازم الستر.

[١٠١] و قد يمنع عن الهجرة خوف أن لا يجد الإنسان فى محله الجديد ما يلائم مسكنه و مكسبه، و لكنه ليس إلا توهما، فإن الأرض واسعة و الكسب ممكن فى كل مكان و مَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللَّهِ لأمره سبحانه و من أجله يَجِدْ فى الأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا «المراغم» مصدر بمعنى «المتحول» و أصله من الرغام و هو التراب و سَعَةً أى فى الكسب و سائر شؤون الحياة و مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا يهجر وطنه و محله، و ينقطع عنه إلى الله و رَسُولِهِ و الهجرة إلى الله بمعنى: إلى محل أمره، و الهجرة إلى الرسول إما حقيقه كما فى زمان حياته صلى الله عليه و آله و سلم، و إما مجازيه كما إذا هاجر إلى بلاد الإسلام حسب أمر الرسول ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ أى يموت فى طريقه فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ لأنه خرج فى سبيله و حسب أمره فأجره و ثوابه عليه سبحانه و كان الله غفورا يغفر ذنوب المهاجر رَحِيمًا يرحمه بإعطائه الثواب.

و فى الحديث «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض و إن كان شبرا من الأرض، استوجب الجنة، و كان رفيق إبراهيم و محمد عليهما السلام»

«١».

و قد ورد فى بعض التفاسير: أن السبب فى نزول هذه الآية أنه لما

(١) بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٢

[سورة النساء (٤): آية ١٠١]

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١)

نزلت آيات الهجرة سمعها رجل من المسلمين كان بمكة يسمى «جندب بن حمزة» فقال: والله ما أنا مما استثنى الله إني لأجد قوة، و إني لعالم بالطريق، و كان مريضا شديد المرض فقال لبيه: والله لا أبيت بمكة حتى أخرج منها، فإني أخاف أن أموت فيها، فخرجوا يحملونه على سرير حتى إذا بلغ التنعيم مات، فنزلت الآية «١».

[١٠٢] و لما أمر سبحانه بالجهاد والهجرة، بين كيفية الصلاة في السفر والخوف إشفاقا على الأمة ورحمة بهم و تفضلا عليهم، و الآية و إن كانت ظاهرة في الخوف فقط لأنه سبحانه قال: «إن خفتهم» لكن القيد على الغالب في ذلك الزمان عند نزول الآية، و إنما الاعتبار بالضرب في الأرض، و قد، كثر في القرآن الحكيم «القيد الغالبى» كقوله تعالى:

وَرَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ «٢» مع أن كونهن «في حجوركم» ليس بشرط، و كقوله: وَلَا تَكْرِهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْضُنًا «٣» و غيرهما.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ أَى سافرتم أيها المسلمون فِي الْأَرْضِ و من المعلوم أن السفر مشروط بأمر أخرى مذكورة في الكتب الفقهية فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ لَيْسَ لَفْظِ «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ» لِلإِيحَاءِ كَمَا هُوَ الظاهر منه، بل في مقام دفع توهم «الحضر»، كقوله: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا «٤» فقد كان التمام واجبا، و في السفر، حيث يتوهم بقاؤه على الوجوب،

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٧١.

(٢) النساء: ٢٤.

(٣) النور: ٣٤.

(٤) البقرة: ١٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٣

[سورة النساء (٤): آية ١٠٢]

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ تَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)

نفى سبحانه وجوبه و أجاز القصر، و ذلك لا ينافى وجوب القصر، على ما دل الدليل عليه، و المراد بالقصر تنصيف الرباعية بأن يصلى الظهر و العصر و العشاء ركعتين، فإذا تشهد التشهد الوسط سلم و لم يبق للركعتين الباقيتين، أما الصبح و المغرب فتبقيان على ما كانتا عليه إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَى خفتهم فتنة الذين كفروا، و الفتنة:

العذاب و القتل و ما أشبهه، فإنهم إذا أرادوا الصلاة أربعا، طال الأمد عليهم و أمكن أن يهجم عليهم الكفار و يعذبوهم أو يقتلوهم، فمن الله عليهم بالقصر ليقبل الأمد و لا يبقى للكفار- في ساحة الحرب- مهلة ينتهزونها للهجوم. و لصلاة السفر و الخوف و المطاردة

تفصيل مذكور في الكتب الفقهية.

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَيْسَ مَعْنَى «كَانَ» الْمَاضِي، بَلْ مَجْرَدُ الرِّبْطِ كَمَا فِي مِثْلِ: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا «١» وَ مَا أَشْبَهَهَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ عَدُوًّا مُبِينًا أَى وَاضِحًا لظهور عداوتهم للمسلمين، فإذا لم تقصروا من الصلاة انتهزوا مدة انشغالكم بها فرصة للعدو أن يفتنكم. [١٠٣] ثم بين سبحانه صلاة الخوف إذا أرادوا أن يصلوها جماعة فإن المجاهدين ينقسمون إلى طائفتين، طائفة تقتدى بالإمام، و طائفة تبقى في الميدان، فإذا سجد الإمام السجدين من الركعة الأولى، تقوم الطائفة المقتدية للركعة الثانية و تأتي بها فرادى و تشهد و تسلم و الإمام بعد

(١) النساء: ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٤

لم يركع، فتذهب هذه الطائفة إلى الميدان و تأتي الطائفة الثانية و تقتدى بالإمام في الركعة الثانية، حتى إذا جلس الإمام للتشهد قامت و أتت بالركعة الثانية فرادى و لحقت بالإمام في التشهد و أتمت الصلاة معه فتطول صلاة الإمام بمقدار صلاتيهما و إذا كُنتَ يا رسول الله فِيهِمْ فِيمَنْ ضَرَبَ فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِ الْجِهَادِ- و من المعلوم أن الحكم لا يخص الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بَلْ هَذَا عَامٌ لِكُلِّ إِمَامٍ فِي الْمَجَاهِدِينَ يَرِيدُونَ الصَّلَاةَ جَمَاعَةً- فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ يَاقْتَدُونَ بِكَ فِي الصَّلَاةِ، وَ تَقُومُ طَائِفَةٌ ثَانِيَةً مِنَ الْمَجَاهِدِينَ فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ وَ لِيَأْخُذُوا أَى الطائفة الذين يصلون معك أَسْلِحَتَهُمْ لِثَلَا يَسْتَسْهَلُ أَمْرَهُمُ الْعَدُوَّ فِيهِجَمُ عَلَيْهِمْ، وَ يَكُونُونَ عَزَلًا فَيُحْرَجُ مَوْقِفَهُمْ. وَ قَدْ اسْتَشْنَى مِنْ كِرَاهِيَةِ حَمْلِ السِّلَاحِ فِي الصَّلَاةِ هَذَا الْمَوْضِعَ، وَ لَمْ يَبَيِّنْ أَخْذَ الطَّائِفَةِ الْمُقَاتِلَةَ أَسْلِحَتَهُمْ لَوْضُوحِ ذَلِكَ. فَإِذَا سَجَدُوا وَ قَمَتِ أَنْتَ لِلرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، أَمَمُوا صَلَاتَهُمْ فَرَادَى وَ ذَهَبُوا مَكَانَ الطَّائِفَةِ الْمُقَاتِلَةَ، وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ إِنَّمَا قَالَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ وَ لَمْ يَقُلْ: «مَنْ وَرَائِكُمْ» بِاعْتِبَارِ صَلَاةِ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ مَعَ الْإِمَامِ، وَ هَذَا لَا يَنَافِي قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ «وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى إِذِ الْمُرَادُ كَوْنُهُمْ وَرَاءَ الْمُصَلِّينَ بِاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا وَ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْمِيدَانِ فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٥

ليكونوا حذرين متأهبين للقتال آخذين أسلحتهم، و لعل إضافة كلمة «حذرهم» هنا بخلاف الجملة الأولى، أن هجوم العدو على هؤلاء أقرب من هجومهم على الطائفة الأولى، لأنه بمجرد الانقسام إلى طائفتين و انسحاب طائفة من الحرب لأجل الصلاة لا يدرك العدو الأمر، و لذا لا يأخذ استعداد الكمال للهجوم- بظن كون الجميع في حال القتال- بخلاف الأمر إذا طال الأمد و تبين الأمر، و أن قسما من المسلمين رفعوا أيديهم عن الحرب لأجل الصلاة. و إنما حكم بانقسام الجيش طائفتين لما بينه سبحانه بقوله: وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْمُحَارِبِينَ لَكُمْ، أَى تَمَنُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ فَلَا تَحْمِلُوهَا وَ أَمْتَعْتِكُمْ فَيَتَبَعُونَ عَنْهَا فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً أَى يَحْمِلُونَ عَلَيْكُمْ حَمْلَةً وَاحِدَةً وَ أَنْتُمْ مَتَشَاغِلُونَ بِأَجْمَعِكُمْ بِالصَّلَاةِ فَيَقْضُونَ عَلَيْكُمْ قَضَاءَ مَبْرَمًا حَيْثُ أَصَابُوكُمْ عَلَى غَرَّةٍ بِسِلَاحٍ يَقِيكُمْ وَ لَا مَتَاعَ يَمْدُكُمْ، وَ لَذَا فَقَدَ أَمَرُوا بِأَنْ يَنْقَسِمُوا طَائِفَتَيْنِ حَالَةَ الصَّلَاةِ وَ يَحْمِلُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَ هُمْ فِي الصَّلَاةِ وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَى لَا حَرَجَ وَ لَا إِجْبَابَ لِحَمْلِ السِّلَاحِ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَيُّهَا الْمَجَاهِدُونَ الَّذِينَ تَرِيدُونَ الصَّلَاةَ جَمَاعَةً أَدَى وَ صَعُوبَةً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ فَلَا تَحْمِلُوهَا فِي حَالِ الصَّلَاةِ لِلِاسْتِرَاحَةِ بِقَدْرِ الصَّلَاةِ مِنْ ثِقَلِ السِّلَاحِ، أَمَا الْمَرِيضُ فَوَاضِحٌ أَذِيَةُ السِّلَاحِ لَهُ، وَ أَمَا الْمَطْرُ فَلَأَنَّ هَطُولَهُ يَثْقُلُ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٦

[سورة النساء (٤): آية ١٠٣]

فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا

(١٠٣)

الإنسان، فإذا اجتمع مع السلاح كان أثقل وأتعب وهكذا بالنسبة إلى حمل الدرع الموصل حال السجود ونحو ذلك ولكن إذا وضعتم سلاحكم لجهة الأذى فخذوا جذركم أي احتسوا عن هجوم الكفار حتى إذا هاجمكم تكونون على استعداد لا أن تكونوا غافلين إن الله أعد للكافرين أي هيا لهم عذاباً مهيناً أي يذلهم، عذاباً في الدنيا بأيديكم وفي الآخرة بالنار والجحيم.

قال في «المجمع»: وفي الآية دلالة على صدق النبي وصحة نبوته وذلك أنها نزلت والنبي بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا فصلى النبي وأصحابه صلاة الظهر بتمام الركوع والسجود فهم المشركون بأن يغيروا عليهم، فقال بعضهم: إن لهم صلاة أخرى أحب إليهم من هذه يعنون صلاة العصر، فأنزل الله عليه هذه الآية فصلى بهم العصر صلاة خوف «١».

[١٠٤] فَإِذَا قَضَيْتُمْ أَى أديتم أيها المجاهدون الصلاة المأتمى بها على نحو الخوف فأذكروا الله قياماً وقعوداً أي في حال كونكم قائمين وقاعدين، وهما جمعان ل «قائم وقاعد» وعلى جنوبيكم أي في حال الاضطجاع فإذا اطمأنتم وذهب الخوف فأقيموا الصلاة كاملة بحدودها وشروطها

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٧

[سورة النساء (٤): آية ١٠٤]

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا أَى كِتَابًا، بمعنى فرضت فريضته مؤقتاً أي ذات وقت محدد لأدائها.

[١٠٥] ثم كرر سبحانه الحث على لزوم الجهاد فقال: وَلَا تَهِنُوا مِنْ «وهن يهن» بمعنى ضعف، أي لا تضعفوا ولا تكاسلوا في ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ أَى طلب الكفار ومحاربتهم إِنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ أَيهَا الْمُسْلِمُونَ تَأْلُمُونَ مِمَّا يَنَالُكُمْ مِنَ الْجَرْحِ وَالْمَشَقَّةِ فِي الْحَرْبِ فَإِنَّهُمْ أَى الْقَوْمِ الْكُفَّارِ يَأْلُمُونَ مِمَّا يَنَالُهُمْ مِنَ الْجَرْحِ وَالْمَشَقَّةِ كَمَا تَأْلُمُونَ فَكَلَاكَمَا سِوَا فِي التَّأْلَمِ وَتَرْجُونَ أَنْتُمْ أَيهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ اللَّهِ أَى مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْفَتْحِ وَالظَّفَرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يَرْجُونَ هُمْ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى أَنْ تَطْلُبُوهُمْ وَتَجِدُوا فِي قِتَالِهِمْ مِنْ أَوْلَائِكُمْ، حَيْثُ لَيْسَ لَهُمْ وَعَدُّ بِالنَّصْرِ وَلَا بِالثَّوَابِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِكُمْ فَأَنْتُمْ بَعْلَمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - كَمَا تَعْتَقِدُونَ - وَهُمْ وَإِنْ كَانُوا بَعْلَمُ اللَّهِ لَكِنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِذَلِكَ حَكِيمًا فَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَنْ تَدْبِيرٍ وَتَقْدِيرٍ.

و

ورد أن المسلمين قالوا يوم أحد للمشركين: لا سواء، قتلتنا في الجنة وقاتلكم في النار، فقال أبو سفيان: نحن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين: قولوا الله أعلى وأجل.

و

روى القمى أن الآية نزلت بعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من واقعة أحد، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما رجع إلى المدينة نزل جبرائيل عليه السلام فقال:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٨

[سورة النساء (٤): الآيات ١٠٥ إلى ١٠٦]

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)

يا محمد إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلا من به جراحه، فأقبلوا يضمدون جراحاتهم ويداوونها فخرجوا

على ما بهم من الألم والجراح

«١».

[١٠٦] و بعد ذكر جملة من الأحكام المتعلقة بالحرب و الجهاد يرجع السياق إلى ما تقدم من لزوم العدل في الحكم كما قال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ «٢» فَإِنَّ الْجِهَادَ لَمْ يَشْرَعْ إِلَّا لِلْعَدْلِ، وَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَبْعَثْ إِلَّا لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ أَيْ إِنزَالًا مَقَارِنًا بِكَوْنِهِ بِالْحَقِّ فَإِنَّ الْإِنزَالَ قَدْ يَكُونُ بِالْبَاطِلِ إِذَا كَانَ مِنْ غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ، أَوْ إِلَىٰ غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ، وَ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ لِيَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْعَادِلَةِ وَ لَا تَكُنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْخَائِنِينَ خَصِيْمًا أَيْ لِأَجْلِ الْخَائِنِينَ خَصِيْمًا عَلَى الْأَبْرِيَاءِ بِمَعْنَى لَا تَأْخُذْ جَانِبَ الْخَائِنِ عَلَى الْبَرِيءِ فَتَعْطِيَ الْحَكْمَ لِلْمُجْرِمِ.

[١٠٧] وَ اسْتِغْفِرِ اللَّهُ أَيْ اطْلُبِ غَفْرَانَهُ، وَ هَذَا تَنْبِيهُهُ لِلْأُمَّةِ حَيْثُ يَرِيدُونَ الْقَضَاءَ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ يَحْتَاجُ إِلَى سِتْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَتَّى لَا يَزِلَّ الْقَاضِي إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا يَسْتُرُ الْعُيُوبَ وَ يَرْحَمُ الْمُسْتَرْحَمَ.

(١) تفسير القمى: ج ١ ص ١٢٤.

(٢) النساء: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٣٩

[سورة النساء (٤): آية ١٠٧]

وَ لَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (١٠٧)

وقد ورد في سبب نزول هاتين الآيتين و ما بعدهما ما مجمله: أن بنى أبيرق المسمون بشيرا و مبشرا و بشرا و كانوا منافقين نقبوا على عم قتادة بن النعمان فأخرجوا طعاما و سيفا و درعا، فشكا قتادة ذلك إلى مؤمنا فخرج عليهم بالسيف، و قال: أ ترموننى بالسرقة و أنتم أولى بها منى و أنتم المنافقون تهجون رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و تنسبون الهجاء إلى قريش، فداروه، ثم جاء رجل من رهط بنى أبيرق و كان منطقياً بليغا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال: إن قتادة عمد إلى أهل بيت منا أهل شرف و حسب و نسب فرماهم بالسرقة، فاغتم رسول الله و عاتب قتادة عتابا شديدا فاغتم قتادة و كان بدريا. فنزلت الآيات تبرئ قتادة و تدين بنى أبيرق، فبلغ بشير ما نزل فيه من القرآن- و أنه الخائن- فهرب إلى مكة و ارتد كافرا

«١».

[١٠٨] وَ لَا تُجَادِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ كَوْنِ النَّهْيِ لِلرَّسُولِ لَا يَنَافِي مَقَامَ الْعِصْمَةِ إِذِ النَّوَهِى تَتَوَجَّهُ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَمَا تَتَوَجَّهُ إِلَى سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَ الْأَوَامِرُ تَعْنِيهِ كَمَا تَعْنِي غَيْرُهُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ اخْتَانًا بِمَعْنَى خَانَ، أَيْ لَا تَخَاصِمُ عَنْ طَرَفِ الْخَائِنِينَ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنفُسَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَرَفَ نَفْسَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ فَقَدْ خَانَهَا، لِأَنَّهَا وَدِيعَةٌ يَجِبُ أَنْ تَرُدَّ، وَ رَدُّهَا بِصَرْفِهَا فِي الطَّاعَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَنْتَهَى الْأَمَدُ وَ يَأْتِيَ الْأَجَلَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا هُوَ «فَعَالٌ» مِنَ الْخِيَانَةِ أَثِيمًا أَيْ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٠

[سورة النساء (٤): الآيات ١٠٨ إلى ١٠٩]

يَسِيْرًا يَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لَا- يَسِيْرًا يَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هُوَ لِأَنَّ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَ كَيْلًا (١٠٩)

عاصياً، و معنى «لا يجب» يكره، لأنه لا واسطة، فالعاصى مكروه و المطيع محبوب.

[١٠٩] يَسْتَخْفُونَ من «استخفى» بمعنى كتم، أى يكتُمون أعمالهم السيئة من النَّاسِ فَإِن السَّرَاقِ فى قصة ابن أبيرق كانوا يكتُمون عملهم من الناس خوف الفضيحة و لا- يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ أى لا- يكتُمون عملهم الإجرامى من الله، و معنى الاستخفاء من الله عدم العمل، لا العمل مكتوما عنه، إذ لا يخفى عليه سبحانه خافية، و إنما جاءت لفظه يستخفون للمقابلة نحو: تَعَلَّمَ ما فى نَفْسِي و لا أَعْلَمُ ما فى نَفْسِكَ «١» و هُوَ مَعَهُمْ أى و الحال أن الله تعالى معهم بالإحاطة و العلم فهو يعلم أفعالهم و أعمالهم إذ يُبَيِّنُونَ أى يدبرون بالليل ما لا- يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ فَإِن أبناء أبيرق دبروا بالليل أقوالا و طبخوها ليتظاهروا بتلك الأقوال عند الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين و كَانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً فهو مطلع على أقوالهم محيط بأعمالهم، و معنى الإحاطة: العلم الشامل بحيث لا يفوته شىء كالمحيط بالشىء الذى لا يخرج منه جانب من جوانب الشىء المحاط.

[١١٠] ها أَنْتُمْ «ها» للتنبية هنا و فى هؤلاء هؤلاء أى أنتم الذين دافعتم و جادلتهم عَنْهُمْ أى عن أولئك المجرمين الذين سرقوا

(١) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤١

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٠ الى ١١١]

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) و مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ و كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١)

فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هنا حيث يمكن الإخفاء و المجادلة بما يظن الناس أنه حق و هو فى الواقع باطل فَمَنْ يُجادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ استفهام إنكارى، أى ليس هنالك من يجادل عنهم فى محضر عدل الله سبحانه الذى يطلع على السرائر و الواقعات أم مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَ كَيْلاً يتوكل عنهم فى إنقاذهم من عملهم الذى صنعوه خفية.

و الاستفهام فى معنى الإنكار، أى ليس هناك و كَيْلاً يدافع عنهم، و لعل الفرق بين «من يجادل» و «من يكون» أن المجادل لا يلزم أن يكون و كَيْلاً فقد يوكل الإنسان من يدافع عنه، و قد يدافع عنه شخص تبرعا.

[١١١] ثم بين سبحانه أن لا يأس من روح الله، و أن الآثم لا يظن أنه قد انقطعت الصلة، بل باب التوبة مفتوح و مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً بَاتِيان معصية تتعداه إلى غيره كالزنا و السرقة أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ بمعصية لا تتعداه، كشرب الخمر و ترك الصلاة. و من المعلوم أن كل ظلم للنفس و كل سوء ظلم، لكن حيث تقابلا فى التعبير فرقنا بينهما بما لعله المستفاد من السياق ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يطلب غفرانه بما أمر من التوبة و التدارك، إن كان للعصيان له تدارك يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً يغفر ذنبه و يتفضل عليه بالرحمة و المن.

[١١٢] و لا يظن الآثم أنه أضر الغير و ربح نفسه، بل بالعكس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٢

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٢ الى ١١٣]

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً و إِثْماً مَبِيناً (١١٢) و لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ و رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْطَلُّوكَ و ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ و ما يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ و أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ و الْحِكْمَةَ و عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ و كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)

فإنه مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ إذ كل خير يفعله الإنسان يعود إلى نفسه، و كل عصيان يأتى به يعود إلى نفسه، و إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «١» و كَانَ اللَّهُ عَلِيماً بما يكسبه الإنسان حكيماً فى عقابه و ثوابه يضع الأشياء مواضعها، فلا يظن أحد أنه يعصى ثم يفر من عدل الله، أو أنه ما الفائدة من الخير الذى لا يعود نفعه إليه؟ إنه سبحانه حكيم، و قد تقدم أن الحكمة وضع الأشياء

مواضعها.

[١١٣] وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا لَعَلَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا كَوْنُ الْأَوَّلِ لَا عَنِّ عَمْدًا، وَالثَّانِي عَنِّ عَمْدًا، وَهَذَا الْفَرْقُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْمَقَامِ حَيْثُ تَقَابَلَا وَإِلَّا- فَالْخَطِيئَةُ تَطْلُقُ عَلَى كُلِّ إِثْمٍ. ثُمَّ يَرْمَى بِهِ بَرِيئًا مِنْ «رَمَى يَرْمِي» أَيْ يَنْسَبُ ذَنْبَهُ إِلَى إِنْسَانٍ بَرِيءٍ، كَمَا سَبَقَ فِي قِصَّةِ ابْنِ أَبِي بَرْقٍ فَقَدْ اِحْتَمَلَ بُهْتَانًا أَيْ إِثْمَ الْبُهْتَانِ، وَهُوَ رَمَى النَّاسَ بِالذَّنْبِ كَذْبًا وَإِثْمًا مُبِينًا أَيْ مَعْصِيَةً وَاضِحَةً، فَهُوَ يَتَحَمَّلُ إِثْمِينَ إِثْمَ الْعَمَلِ وَإِثْمَ الْبُهْتَانِ.

و هذا لا ينافي ما احتملنا في الخطيئة إذ الخطأ ينقلب إثما إذا تمادى الإنسان في توابعه، و لم يتداركه.

[١١٤] فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: أَنْ وَفَدَا مِنْ ثَقِيفٍ قَدَمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ جِئْنَاكَ نَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا نَكْسِرَ أَصْنَامَنَا بِأَيْدِينَا، وَ عَلَى أَنْ نَمْتَعَ بِالْعَزَى سَنَةً. فَلَمْ يَقْبَلِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طَلِبَهُمْ، وَ إِنَّمَا قَبِلَ مِنْهُمْ

(١) الطور: ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٣

الإسلام بجميع شرائطه «١»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: وَ لَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ بِتَأْيِيدِكَ مِنْ لَدُنْهِ وَتَشْيِيتِكَ عَلَى الصَّحِيحِ الْحَقِّ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَيْ قَصَدَتْ وَاضْمَرَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ- وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْمَقْدَرِ، نَحْوُ: وَ لَأَبْوِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ «٢»- أَنْ يُضَيِّعُوا لَكُمْ بِأَنْ تَجِيزَ لَهُمْ مَا أَرَادُوا. وَقِيلَ إِنْ الْآيَةَ مِنْ تَمَتُّةِ قِصَّةِ ابْنِ أَبِي بَرْقٍ وَ مَا أَرَادَهُ الْمَزْكِيُّ مِنْ تَرْكِيَةِ السَّرَّاقِ وَ إلقاءِ التَّهْمَةِ عَلَى الْبَرِيِّ.

وَ مَا يُضَيِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ إِذْ وَبَالَ كَلَامِهِمْ يَعُودُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَهَمَّ يَزِيلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَ يَهْلِكُونَهَا، لَا أَنْهُمْ يَزِيلُونَكَ وَ يَهْلِكُونَكَ، ثُمَّ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ «لَوْ لَا» نَفْيُ تَأْثِيرِ مَا هَمَّ بِهِ أَوْلَيْكَ فِي الرَّسُولِ لَا نَفْيُ هَمِّهِمْ، فَالْمَرَادُ: أَنَّهُ لَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ لِأَضْلُوكَ، لَا أَنْ الْمَرَادُ: لَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ.. وَ مَا يُضَيِّعُونَكَ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَا يَضْرِبُونَكَ- بِكَيْدِهِمْ- فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ، وَ لَا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ أَيْ عِلْمَ وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا وَ تَقْدِيرِ الْأَشْيَاءِ بِأَقْدَارِهَا، فَأَنْتَ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ الْحَكِيمُ فِي التَّطْيِيقِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ إِضْلَالُكَ- كَمَا هَمَّ أَوْلَيْكَ- فَإِنَّ الْإِضْلَالَ يَحْصُلُ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ أَوْ لَا يُمْكِنُ مِنْ وَضْعِ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٨٨.

(٢) النساء: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٤

[سورة النساء (٤): آية ١١٤]

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)

وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنَ الْأُمُورِ الْخَارِجَةِ عَنِ نِطاقِ الْكِتَابِ، فَإِنَّ الْكِتَابَ خَاصٌّ بِعِلْمِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ- حَسَبِ الظَّاهِرِ- وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَظِيمًا وَ ارْتِبَاطُ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ- أَيْ كَوْنِهَا حَوْلَ وَفْدِ ثَقِيفٍ- كَوْنِ الْقِصَّتَيْنِ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ حَيْثُ حَفِظَ اللَّهُ الرَّسُولَ فِي قِصَّةِ السَّرْقَةِ وَ فِي قِصَّةِ الْوَفْدِ حَتَّى لَا يَقُولَ وَ لَا يَعْمَلُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

[١١٥] وَ بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ عَنِ الْمُؤَامِرَاتِ الَّتِي تَجْرِي فِي السَّرِّ، وَ يَتَنَاجَى فِي شَأْنِهَا الْمَبِيتُونَ، وَ حَيْثُ أَنْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا لَا بَدَّ وَ أَنْ تَكْثُرَ النُّجُوى وَ غَالِبَهَا حَوْلَ النُّقْدِ وَ الرَّدِّ وَ الطَّعْنِ، يَذْكَرُ الْقُرْآنُ حُكْمَ النُّجُوى، وَ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ أَيْ حَدِيثِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ سِرًّا وَ ذَكَرَ «كَثِيرًا» إِذَا مِنْ بَابِ الْمُورِدِ، فَإِنَّهُ فِي مِثْلِ الْمَوَارِدِ السَّابِقَةِ يَكْثُرُ النُّجُوى، وَ إِذَا مِنْ الْمَرَادِ: الْكَثِيرُ مِنَ النُّجُوى لَا خَيْرَ فِيهِ،

أما القليل الذي لا بد لكل أحد حيث عنده بعض الأسرار التي يجب الإعلان عنها فلا بأس به، لكن الظاهر المعنى الأول، و أن المفهوم المطلق للنجوى كما قال سبحانه:

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ (١) إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ بِأَى قَسَمٍ مِنْهَا مِنَ الْمَالِ عَلَى الْفُقَرَاءِ، أَوْ الْوَقْفِ، أَوْ الْإِحْسَانِ أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ - وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمَعْرُوفُ مَعْرُوفًا مُقَابِلَ الْمُنْكَرِ

(١) المجادلة: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٥

[سورة النساء (٤): آية ١١٥]

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

الذى هو ما ينكره الناس - أو أمر ب إضلال بين الناس فإن الحاجة غالبا تدعو إلى الإسرار بهذه الأمور لتكامل و لا يمنع عنها مانع و مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ أَى النَّجْوَى فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، أَوْ الْمَرَادِ: مِنْ فَعَلَ أَحَدٌ هَذِهِ الْأُمُورِ ابْتِغَاءً مَرْضَاتِ اللَّهِ أَى طَلَبَ رِضَاهُ سَبْحَانَهُ فَسُوفَ فِي الْقِيَامَةِ نُؤْتِيهِ أَى نَعْطِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ - كَمَا هُوَ كَذَلِكَ فِي كُلِّ طَاعَةٍ -.

[١١٦] و حيث تقدم فى القصتين مخالفة الجماعتين للرسول صلى الله عليه و آله و سلم فيما أرادوا، بين سبحانه أن عاقبة المخالفة و خيمة و مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ أَى يَخَالِفُهُ، و معنى المشاققة أى يكون كل واحد فى شق غير شق الآخر مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ أَى ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ و أن الرسول لا يقول و لا يعمل إلا بالحق - أما من قبل التبيين فالمشاققة معذور لعدم تمام الحجج عليه - وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ أَى غير طريقهم الذى هو دينهم، و هذا أعم من الأول، و إن كان فى مخالفة الدين مشاققة للرسول بالنتيجة نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ أَى نخلى بينه و بين معتقده و عمله فلا نجبره على الرجوع، لأن الدنيا للاختبار و الامتحان و الجبر ينافى ذلك، كما قال سبحانه: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (١) وَ نُصَلِّهِ جَهَنَّمَ مِنْ «أصله

(١) البقرة: ٢٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٦

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)

يصليه» أى أدخله النار، أى نتركه فى الدنيا على حاله و ندخله يوم القيامة النار و سَاءَتْ جَهَنَّمَ مَصِيرًا أَى محلًا يصير إليه المجرمون.

[١١٧] و بمناسبة ذكر مشاققة الرسول، يبين سبحانه أنه لا بأس من رحمة الله تعالى، فمن تاب كان الله غفوراً، فإذا أخطأ أحد فليرجع إلى الله تعالى، ليغفر ذنبه و يتوب عليه إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ إِذَا مَاتَ مُشْرِكًا كَمَا دَلَّ الدَّلِيلُ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ أَى دُونَ الشَّرِكِ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ تَابَ و إن لم يتب فذلك رهن إرادته سبحانه، و الإرادة ليست اعتباطاً، بل حسب النفسيات و الأعمال و القابليات و ما أشبهه و مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ أَى يجعل له شريكا فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا أَى عن طريق الحق.

[١١٨] ثم يبين سبحانه وجه ضلال المشركين بصورة فردية قبيحة فقال تعالى:

إِنْ يَدْعُونَ أَى مَا يَدْعُونَ و يعبدون مِنْ دُونِهِ أَى مِنْ دُونَ اللَّهِ إِلَّا إِنَاثًا جمع أنثى، فإنهم كانوا يعبدون اللات و العزى و مناة و أساف و نائلة، و كان لكل قبيلة صنم تعبده، و كانوا يسمون الأصنام أنثى فيقولون: أنثى قريش و أنثى تميم، و كان الشيطان يكلمهم منها أحيانا، كما أن قسما منهم كان يعبد الملائكة و يقول: إنها بنات الله، كما حكى سبحانه عنهم: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ

الرَّحْمَنِ إِنَانًا «١»

(١) الزخرف: ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٧

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٨ إلى ١١٩]

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيَكْفُرُوا أَوْ لَيُرْتَدَنَّ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)

وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَى مَا يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا أَى مَارِدًا، فَإِنَّ «المريد والمارد والمتمرد» بمعنى واحد، وهو العاصي العاتى، وكانت عبادتهم للشيطان عين عبادتهم للأصنام إذ هى من صنع الشيطان وأمره فلا يستشكل بأنه كيف يجمع بين النفيين؟

[١١٩] لَعَنَهُ اللَّهُ أَى طرد الله الشيطان عن رحمته وقربه، فهؤلاء يعبدون ويطيعون المطرود عن رحمه الله وَقَالَ الشيطان لله سبحانه حين طرده: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ أَى عبيدك نَصِيبًا مَفْرُوضًا أَى معلوما، والمراد من اتخاذه لهم: إضلالهم وإغوائهم عن الإيمان والعمل الصالح، وقد كان الشيطان يعلم ذلك حين قال له سبحانه:

فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ «١» وَلَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ «٢».

[١٢٠] وَلَأُضِلَّنَّهُمْ عن طريق الهداية، وهذا إما عطف بيان لقوله «اتخذن» أو المراد من الاتخاذ الاختصاص أى أختص بجملته من عبادك فأضلهم وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ من الأمانة أى أمنيتهم طول البقاء فى الدنيا وحب الرئاسة والمال حتى يعصون وَلَأَمُرَّنَّهُمْ بالوسوسة والإلقاء فى قلوبهم فَلْيَكْفُرُوا أَوْ لَيُرْتَدَنَّ اللَّهُ أَى «بتك بيتك» بمعنى «قطع يقطع» فقد كان المشركون يقطعون آذان الأنعام علامة على حرمة

(١) الإسراء: ٦٤.

(٢) ص: ٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٨

[سورة النساء (٤): آية ١٢٠]

يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيَنَّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)

ركوبها وأكلها وشرب لبنها، وكان ذلك حراما إذ هو من المثلة و

قد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»

«١» كما أن تحريمهم كان بدعة وتشريعا محرما وَلَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيَكْفُرُوا أَوْ لَيُرْتَدَنَّ اللَّهُ من التغييرات المحرمة كإخصاء العبد وفتق عين الدابة والتمثيل بالأحياء والأموات وما أشبه ذلك. ويستفاد من الآية أن كل تغيير فى الخلق حرام إلا ما دل عليه الدليل.

وبعد ما ذكر سبحانه بعض أقسام وساوس الشيطان التى كانت دارجة فى ذلك الزمان وإلى زماننا هذا، جعل الكل فى إطار عام، وأعطى القاعدة الكلية المنطبقة على كل جزئى بقوله سبحانه: وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا يَلِيْ أُمُورِهِ وَيَطِيعُ أَمْرَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قِيد تَوْضِيحِي لِلتَّهْوِيلِ، لا أنه من الممكن الجمع بين تولى الشيطان وتولى الله سبحانه فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا أَى خسرانا ظاهرا.

[١٢١] يَعِدُّهُمْ أَى يعد الشيطان أولياءه النصر والسعادة إن اتبعوه وَيُمَنِّيَنَّهُمْ بالأمانى الكاذبة الباطلة حتى يركنوا إلى الدنيا ويتركوا الآخرة ويرجحوا الشهوات على الأعمال الصالحة وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا فكل وعوده غرور وكذب يغتر به البسطاء الغافلين.

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٩ ص ١٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٤٩

[سورة النساء (٤): الآيات ١٢١ إلى ١٢٢]

أُولَئِكَ مِآوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

[١٢٢] أولئك الذين اتخذوا الشيطان وليا وناصرًا مأواهم أي مرجعهم ومحلهم جهنم ولا يجدون عنها أي عن جهنم، فإنها مؤنثة سماعية» محيصاً أي مخلصاً ومهرباً، من «حاص» بمعنى عدل وانحرف.

[١٢٣] هذا لمن اتخذ الشيطان ولياً، أما من اتخذ الرحمن ولياً والذين آمنوا بما يجب الإيمان به من أصول الدين وعمِلوا الصَّالِحَاتِ أي الأعمال الحسنة سَيُدْخِلُهُمْ قِيلًا: إن «السين و سوف» بمعنى واحد، وقيل: إن السين للمستقبل القريب، و تستعمل الكلمتان بالنسبة إلى الجنة باعتبارين: فباعتبار أن كل آت قريب تستعمل السين، و باعتبار فصل البرزخ الطويل تستعمل سوف جَنَّاتٍ جمع «جنة» و هي البستان، سمي بها لكونها مستورة بالأشجار من «جن» بمعنى ستر، و منه «الجنّ و الجنين و الجنة» تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أي من تحت أشجارها و قصورها خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا انقطاع لها و لا زوال وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا أي وعد الله ذلك وعداً في حال كونه حقاً، أو متصفاً بكونه حقاً، لا خلف فيه و لا كذب وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا أي من حيث القول، فهو أصدق القائلين، خبيراً و مخبراً، و الاستفهام في معنى النفي، أي لا أصدق من الله، و السبب أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٠

[سورة النساء (٤): آية ١٢٣]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ص ٥٩٩

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) الإنسان مهما أوتى من الصدق، فإنه قد يجهل و قد لا يقدر و قد يشتهه، و الله منزّه عن جميع ذلك.

[١٢٤] ثم يبين السياق القاعدة الكلية للعمل و الجزاء، بعد ما بين ما لمن أشرك و ما لمن آمن؟ فقال سبحانه: لَيْسَ أَمْرُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالسَّعَادَةِ وَالْخُسْرَانِ بِأَمَانِيكُمْ جمع «أمنية» بمعنى رغبة النفس، فلا ينال الإنسان خيراً بالأمانى فيما إذا كان عمله خلاف ذلك، و الخطاب للمسلمين و لا أمانى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي «المجمع» قيل: تفاخر المسلمون و أهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم و كتابنا قبل كتابكم، و نحن أولى بالله منكم. فقال المسلمون: نبينا خاتم النبيين، و كتابنا يقضى على الكتب، و ديننا الإسلام. فنزلت الآية، فقال أهل الكتاب: نحن و أنتم سواء. فأنزل الله الآية التي بعدها «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. ففلاح المسلمون (١)».

مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ فَإِنِ الذِّمَّةُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، أما الأنساب و الأحساب و ما أشبه فلا تنفع إلا بقدر ما يرجع إلى العمل أيضاً كما

قال صلى الله عليه و آله و سلم «المرء يحفظ في ولده»

(٢) و لذا من عمل عملاً سيئاً يجز به. و بما ذكرنا تبين أن حفظ نسب النبي صلى الله عليه و آله و سلم إنما يرجع إلى أتعاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة عليهم السلام.

و لا يجِدُ الْعَامِلُ لِلْسُّوءِ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ غَيْرَ اللَّهِ

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٩٧.

(٢) البحار: ج ٢٨ ص ٣٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥١

[سورة النساء (٤): الآيات ١٢٤ إلى ١٢٥]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا فلا أحد يتولى أمره و ينصره.

[١٢٥] و لما كان الأمر محتملا لأن يشمل أهل الكتاب إذا لم يعملوا سوءا طبقا للمفهوم من الآية السابقة، ذكر سبحانه أن من شروط قبول الأعمال الخيرة الإيمان الكامل و مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ أَى بعض الصالحات فإن الصالحات كلها لا يمكن أن يؤتى بها مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ و لعل التنصيص هنا لإفادة العموم، و لدفع و هم جرى التقاليد الجاهلية، التي كانت تقضى بأكل الرجال ثمار الأعمال الطيبة للنساء، و حرمان النساء من الحقوق وَهُوَ مُؤْمِنٌ بما فى الكلمة من معنى - لا إيمان ببعض الأصول دون بعض فأولئك العاملون المؤمنون يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا أى قدر نقير، و هو النكتة الصغيرة المنخفضة فى ظهر النواة التي منها تنبت.

[١٢٦] ثم بين سبحانه فوائد الإيمان و مزاياه و أنه أحسن من جميع الطرق و المذاهب و مَنْ أَحْسَنُ دِينًا الدين هو الطريقة التي يسلكها الإنسان فى حياته لأجل نيل السعادة، و الاستفهام فى معنى الإنكار أى ليس أحد أحسن طريقة مِمَّنْ أَسْلَمَ و أخضع وَجْهَهُ لِلَّهِ و المراد بالوجه: الذات و النفس، و إنما ذكر الوجه لأن خضوع الوجه كاشف عن خضوع الذات، و معنى إسلام الوجه الإيمان بالله حيث أنه اعترف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٢

[سورة النساء (٤): آية ١٢٦]

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)

به و خضع له وَهُوَ مُحْسِنٌ أى يحسن العمل فيتبع الأوامر و النواهي، و إنما لم يكن أحد أحسن دينا من هذا الإنسان لأن الإيمان اعتراف بالحقيقة الكبرى، و الإحسان، عمل بما هو الأصلح، إذ ما يقرره الإله العليم الحكيم أحسن مما يقرره الإنسان الجاهل ذو الطيش و السفه وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أى طريقته حَنِيفًا أى فى حال كون إبراهيم عليه السلام مستقيما فى الطريق عقيدة و عملا فإيمان و إحسان و اتباع طريقته صحيحة. و قد تكرر فى الكتاب و السنة لزوم اتباع إبراهيم عليه السلام لأن دينه لم يكن يتطرق إليه التحريف الذى تطرق إلى كتابي الكليم و المسيح عليهما السلام بالإضافة إلى أن موسى و عيسى عليهما السلام كانا بعد إبراهيم عليه السلام و أنه عليه السلام بصفته أب المسلمين العرب، كان ذكره محفزا لهم على الإيمان، إنه طريقته جدهم كما قال سبحانه: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ «١» وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا من الخلّة، بمعنى الحب و الود لإبراهيم عليه السلام بإطاعته لله صار خليل الله، فما يمنع الناس أن يتبعوا طريقته إبراهيم، كى ينالوا حب الله و رضاه.

[١٢٧] و أخيرا فمن الأحسن اتباع طريقة الإله الذى له كل شىء و هو العالم بكل شىء و لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فهو المالك لكل شىء، و إذا أراد الإنسان اتباع طريقة للنفع فليتبّع طريقته من له كل نفع و كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا أى إحاطة علمية لا يعزب عنه شىء،

(١) الحج: ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٣

[سورة النساء (٤): آية ١٢٧]

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ

تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)
و إحاطة بالقدرة، إذ المحيط بالشيء يقدر عليه.

[١٢٨] قد سبق قوله سبحانه: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ «١» وقد سبق الكلام في الآيات التالية حول هذا الموضوع مع شيء من الاستطراد. ثم يأتي السياق لبيان بعض أحكام النساء، فإنه من الحكم بين الناس بما أراه الله سبحانه وَ يَسْئَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي النِّسَاءِ أَى يَسْأَلُونَكَ الْفَتَى - وَ هُوَ تَبْيِينُ الْمَشْكَلِ مِنَ الْأَحْكَامِ - فَقَدْ سَأَلُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عَنِ الْوَأَجِبِ لَهُنَّ وَ عَلَيْهِنَّ وَ كَيْفِيَّةِ مَعَاشَرَتِهِنَّ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ أَى فِي النِّسَاءِ وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْجَوَابَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ لِتَقْوِيَةِ إِفَادَةِ أَنَّ الْحُكْمَ لَا يَصِحُّ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ إِطْلَاقًا، وَ قَدْ سَأَلَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ فِي غَيْرِ الْأَحْكَامِ فَجَاءَ الْجَوَابُ بِدُونِ النِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى، نَحْو: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي «٢» يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ «٣» يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ «٤» وَ هَكَذَا. وَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ عَطْفَ عَلَى «اللَّهُ» أَى أَنَّ الْفَتَى فِي بَابِ النِّسَاءِ تَأْخُذُونَهُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بِمَا سِيَأْتِي، وَ تَأْخُذُونَهُ بِمَا تَلَى عَلَيْكُمْ فِي الْقُرْآنِ سَابِقًا، فَقَدْ سَبَقَ فِي ابْتِدَاءِ السُّورَةِ وَ إِنَّ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ «٥»،

(١) النساء: ١٠٦.

(٢) الإسراء: ٨٦.

(٣) البقرة: ٢١٦.

(٤) البقرة: ١٩٠.

(٥) النساء: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٤

وَ آتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ «١» وَ الْحَاصِلُ أَنَّ الْفَتَى - أَى تَبْيِينُ مَسَائِلِ النِّسَاءِ - يَأْتِي فِيهَا يَقُولُ اللَّهُ وَ فِيهَا سَبَقَ. فِي يَتَامَى النِّسَاءِ أَى الْبَنَاتِ الصَّغِيرَاتِ الْيَتِيمَاتِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ أَى لَا تَعْطُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَعْطُونَ الْيَتِيمَةَ صَدَاقَهَا لِتَمْنَعُ هَذِهِ الْعَادَةُ فَقَوْلُهُ «فِي يَتَامَى» مُتَعَلِّقٌ بِ«مَا يَتْلَى»، أَى تَأْخُذُونَ الْفَتَى فِي أَمْرِ النِّسَاءِ مِنَ اللَّهِ وَ مِمَّا تَلَى عَلَيْكُمْ سَابِقًا فِي بَابِ النِّسَاءِ الْيَتَامَى اللَّاتِي تَحْرَمُونَهُنَّ مِنْ مَهْرِهِنَّ وَ تَزْعُمُونَ أَنَّ تَنكِحُوهُنَّ أَى تَرِيدُونَ نِكَاحَهُنَّ لِأَكْلِ أَمْوَالِهِنَّ. ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ «وَ مَا يَتْلَى» بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ لِلِاسْتِمْرَارِ لَا الْاسْتِقْبَالَ. وَ مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ أَى مَا تَقْدَمُ فِي بَابِ الْأَيْتَامِ، وَ هُوَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: وَ آتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ فَإِنَّهُ عَامٌ يَشْمَلُ الْيَتِيمَاتِ أَيْضًا وَ مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فِي أَنَّ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ أَى بِالْعَدْلِ كَمَا تَقْدَمُ فِي قَوْلِهِ «وَ إِنَّ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى وَ عَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ «وَ مَا يَتْلَى» إِلَى «بِالْقِسْطِ» جَمَلَةٌ وَاحِدَةٌ، عَطْفَ عَلَى «اللَّهُ».

و الْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ يَفْتِيكُمْ، وَ مَا تَقْدَمُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتِ الْيَتَامَى

(١) النساء: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٥

[سورة النساء (٤): آية ١٢٨]

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أَخْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنِ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)

يفتيكم به أيضا، ثم جمع سبحانه الكل في إطار عام فقال: وَ مَا تَفْعَلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ خَيْرٍ عَدْلٌ وَ إِحْسَانٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النِّسَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ

كَانَ بِهِ عَلِيمًا يَعْلَمُهُ وَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ بِحَسَنِ الثَّوَابِ.

[١٢٩] ثم توجه السياق إلى بعض أحكام النساء إيفاء لقوله سبحانه: «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» و ذلك حكم خوف النشوز، فقد كانت بنت محمد بن سلمة عند رافع بن خديج و كانت قد دخلت في السن و كانت عنده امرأة شابة سواها فطلقها تطليقة حتى إذا أبقى من أجلها يسيرا، قال إن شئت راجعتك و صبرت على الأثرة، و إن شئت تركتك. قالت: بلى راجعني و أصبر على الأثرة فراجعها، فنزلت وَ إِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا أُيْ مِنْ زَوْجِهَا نُشُوزًا أَوْ رَفَاعًا عَلَيْهَا أَنْ لَا يَعْمَلُهَا مَعَامِلَةَ الْأَزْوَاجِ، بل يعاملها و كأنه أرفع منها أو إغراضاً أي يعرض عنها إطلاقاً، أو طلاقاً، و قد خافت لظهور أمارات ذلك فلا- جُنَّاحَ عَلَيْهِمَا أُيْ عَلَى الزَّوْجَيْنِ أَنْ يُضَيِّحَا بَيْنَهُمَا الضَّمِيرُ فِي «يصلحا» راجع إلى الزوجين، أي يصلحا فيما بينهما ضيحا أي نوع من أنواع الصلح الجائز، فتتنازل هي عن بعض حقوقها ليقى النكاح على حاله و لا تحصل الفرقة، أو نحوها وَ الصُّلْحُ بَيْنَهُمَا بقاء عقد الزواج و الألفه خَيْرٌ مِنَ الْإِفْتِرَاقِ وَ الشَّقَاقِ وَ أَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ الشح البخل و عدم التنازل عن الحقوق، أي أن الأنفس يخالطها الشح، فلا هي ترغب أن تتنازل عن بعض حقوقها لتبقى تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٦

[سورة النساء (٤): آية ١٢٩]

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُضِلُّوهَا فَانَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩)

الألفه، و لا الزوج مستعد لأن يعاشرها معاشره صالحه لئلا ينتهي الأمر إلى الطلاق و إن تحسبوا يحسن أحد الزوجين إلى الآخر و تتقوا فلا تفعلوا ما يوجب سخط الله، فإن الغالب أن يرتكب أحد الطرفين الحرام، فيما إذا حدث بينهما صدام فإن الله كان بما تعملون خبيراً فيجازيكم عليه. و لا مفهوم للآية بأنه «إن لم تحسبوا فلا يعلم الله» كما هو واضح، بل الشرط أتى به للتحريض و الترغيب. [١٣٠] ثم ذكر سبحانه حكم تعدد الأزواج، و أنه لا يمكن التسوية بينهما في الحب و الود، فإذا كان الميل القلبي يميل كلنا إلى جهة، فاللازم حفظ العدالة بين الزوجات، لئلا يبقى بعضهن كالمعلقة و لن تستطيعوا أيها الرجال أبداً أن تعدلوا بين النساء عداله في الموده و الحب، فإنه ليس بأيديكم، و لا بد أن تكون بعض النساء أقرب إلى قلوبكم من بعض و لو حرصتكم في العدالة القلبية فلا تميلوا كل المييل إلى جانب امرأة من زوجاتكم المتعددات فتذروها أي المرأة التي لا تميلون إليها كالمعلقة التي علقت فلا هي مستريحه بالزوج و لا هي مستريحه بعدم الزوج، فتكون في عذاب و شقاء، و إذا لم يكن باستطاعتكم العدالة فباستطاعتكم عدم الميل الكلي.

و

قد روى عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنه كان يقسم بين نساءه و يقول:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٧

[سورة النساء (٤): آية ١٣٠]

وَ إِنِ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)
«اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك و لا أملك»

«١».

و

قد ورد أنه سئل الصادق عليه السلام عن الجمع بين هذه الآيه و بين قوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فإنه عنى في النفقه، و أما قوله: «وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا» فإنه عنى في الموده، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في الموده

«٣».

وَإِنْ تُضَيِّلُوهُمُ بِالتَّسْوِيَةِ فِي الْقِسْمَةِ وَ النِّفْقَةَ الْوَاجِبَتِينَ وَ تَتَّقُوا بِاجْتِنَابِ الْمُحْرَمَاتِ، وَ ذَلِكَ بِتَرْكِ الْمَيْلِ الْكُلِيِّ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا يَغْفِرُ مَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ رَحِيمًا يَرْحَمُكُمْ بِلُطْفِهِ وَ يَسْبِغُ عَلَيْكُمْ فَضْلَهُ.

[١٣١] وَإِنْ يَتَفَرَّقَا فِيمَا إِذَا لَمْ يَصْطَلِحِ الزَّوْجَانِ، بَلْ طَالَبَتْ هَذِهِ بِكُلِّ حَقِّقِهَا وَ أَرَادَ الرَّجُلُ الْمَيْلَ، فَخَيَّرَهَا بَيْنَ الطَّلَاقِ وَ التَّنَازُلِ عَنْ بَعْضِ حَقِّقِهَا، فَاخْتَارَتِ الطَّلَاقَ، فَتَفَرَّقَا وَ وَقَعَ الْإِفْتِرَاقُ يُغْنِي اللَّهُ كُلًّا مِنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ سَعَتِهِ أَى سَعَةُ فَضْلِهِ وَ رَحْمَتِهِ، فَلَيْسَ بِأَبِهِ مَرْتَجَا فِي وَجْهِ أَى مِنَ الطَّرْفَيْنِ، بَلِ الرَّجُلُ يَسْتَعْنِي عَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِأَمْرٍ أُخْرَى وَ عَيْشَةً أُخْرَى، وَ الْمَرْأَةُ تَسْتَعْنِي عَنْ هَذَا الرَّجُلِ بِرَجُلٍ أُخْرٍ وَ سَعَادَةً هَنِئَةً. وَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ لَفْتُهُ مُشْرَقَةً لِجَبْرِ انْكَسَارِ قَلْبِي الطَّرْفَيْنِ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَنْكَسِرُ قَلْبُهُ حِينَ الْإِفْتِرَاقِ، وَ لَوْ كَانَ هُوَ السَّبَبُ

(١) تفسير التبيان: ج ٣ ص ٣٤٩.

(٢) النساء: ٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٨

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣١ إلى ١٣٢]

وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا (١٣٢)

فِي الْفِرَاقِ وَ كَانَ اللَّهُ وَسِعًا فِي فَضْلِهِ حَكِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ وَ يَنْهَى وَ يَفْعَلُ وَ يَرِيدُ، وَ نَسَبَةُ السَّعَةِ إِلَيْهِ يَرَادُ بِهِ السَّعَةُ فِي فَضْلِهِ «مَجَازًا».

[١٣٢] ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِغْنَاءِ الزَّوْجَيْنِ مِنْ فَضْلِهِ وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِ«مَا فِي» الْأَعْمَ مِنَ الظَّرْفِ وَ الْمَظْرُوفِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَى الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسَ وَ غَيْرَهُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ إِشَارَةً إِلَى كَوْنِ الْوَصِيَّةِ لَمْ تَزَلْ مِنَ الْقَدِيمِ وَ إِيَّاكُمْ أَى وَصِيَانِكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ أَى خَافُوا عِقَابَهُ، فَاعْمَلُوا بِالْأَوْامِرِ وَ النَّوَاهِي وَ إِنْ تَكْفُرُوا كَفَرُوا فِي الْعَقِيدَةِ بِانْكَارِ الْأُصُولِ، أَوْ كَفَرُوا فِي الْفُرُوعِ بِالْعَصْيَانِ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُكُمْ وَ عَمَلُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِيمَانِكُمْ وَ لَا إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَ إِنَّمَا أَنْتُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى ذَلِكَ حَمِيدًا أَى مُسْتَوْجِبًا عَلَيْكُمْ الْحَمْدَ لَهُ لِصَنَائِعِهِ الْحَمِيدَةِ.

[١٣٣] ثُمَّ يُؤَكِّدُ غِنَاهُ سَبْحَانَهُ وَ أَنَّ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ بِقَوْلِهِ: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لَيْسَ شَيْءٌ لَغَيْرِهِ، فَإِذَا قَطَعَ عَنْكُمْ رَحْمَتَهُ لَا تَحْصُلُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٥٩

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٣ إلى ١٣٤]

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

عَلَى مَا تَرِيدُونَ مِنْ غَيْرِهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا أَى أَنَّهُ أَحْسَنُ وَ كَيْلٌ وَ أَكْفَى وَ كَيْلٌ، فَلَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى وَكَيْلٍ آخَرَ إِذَا وَكَلَهُ سَبْحَانَهُ فِي أَمْرِهِ. وَ قَدْ قِيلَ فِي وَجْهِ التَّكْرَارِ فِي الْآيَتَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَنَّ الْأُولَى:

لَا يَجِبُ طَاعَتُهُ، حَيْثُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ الْمَالِكُ تَجِبُ طَاعَتُهُ عَلَى الْمَمْلُوكِ، وَ الثَّانِيَةُ: لِأَنَّ الْخَلْقَ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَ هُوَ الْحَمِيدُ الْمَطْلُوقُ، فَنَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَ الثَّلَاثَةُ: لِبَيَانِ أَنَّهُ يَكْفِي تَوَكُّلَهُ مَطْلُوقًا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ.

[١٣٤] إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ فِي غِنَى عَنْكُمْ، وَ قَدْرَتُهُ تَعْمَكُمُ فَنَاءً وَ إِيجَادًا، فَإِنْ أَرَادَ أَذْهِبْكُمْ وَ أَفْنَاكُمْ وَ أَهْلِكْكُمْ وَ يَأْتِ

بِآخِرِينَ أَنَا سَأَ آخِرِينَ يَوْجِدُهُمْ مِنَ الْعَدَمِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاذِهِ.

[١٣٥] ولقد كان المنافقون يتبعون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْغَنِيمَةِ وَلِلتَّحْفِظِ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَحَيْثُ تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَكَرَهُمْ بِأَنَّ الْإِطَاعَةَ تَوْجِبُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَمْ لَا يَسْلُكُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي سَلَكِهَا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا أَوْ مَنَافِعَهَا، فَإِنَّ الثَّوَابَ مِنْ «ثَاب» بِمَعْنَى رَجَعَ، لِأَنَّ الثَّوَابَ جِزَاءُ الْعَمَلِ الصَّادِرِ مِنَ الْإِنْسَانِ، يَرْجِعُ إِلَيْهِ فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِذَا يَمْلِكُ الْجَمِيعَ وَبِيَدِهِ أَزْمَةُ الْكُلِّ، فَلَمْ لَا يَطِيعُونَ حَتَّى يَنَالُوا الْأَمْرَيْنِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا لِأَقْوَالِهِمْ بِصِيرًا بِأَعْمَالِهِمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٠

[سورة النساء (٤): آية ١٣٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

[١٣٦] ولما ذكر سبحانه أن عنده ثواب الدنيا والآخرة، عقبه بالأمر بالعدل وعدم الجور كي ينالوا الثوابين، وقد سبق الأمر بالعدل في قوله: وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ «١» فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْخَطَابَ إِنَّمَا خَصَّصَ بِالْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ السَّامِعُونَ، وَالْإِطَاعَةُ وَالنَّوَاهِي عَامَةٌ لِلْجَمِيعِ كُونُوا قَوَّامِينَ جَمْعُ «قَوَّامٍ» وَهُوَ كَثِيرُ الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ هُوَ الْعَدْلُ، أَيْ كُونُوا دَائِمِينَ فِي الْقِيَامِ بِالْعَدْلِ، بِأَنَّ تَكُونَ عَادَتِكُمْ عَلَى ذَلِكَ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَلَعَلَّ فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ تَنْبِيهُ إِلَى مَا اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ أَنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ أَنْ يَزِيغُوا عَنِ الْعَدْلِ إِذَا تَمَادَتْ بِهِمُ الْأَزْمَانُ، وَلِذَا نَرَى مِنَ الْحُكَّامِ مَنْ يَتَنَزَّهُ عَنِ الْجُورِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا امْتَدَّ بِهِ الزَّمَانُ زَاغَ وَانْحَرَفَ شُهَدَاءُ جَمْعُ شَهِيدٍ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَيْ أَشْهَدُوا بِالْحَقِّ - لِأَجْلِ أَمْرِ اللَّهِ وَرِضَاهُ - وَلَوْ كَانَتْ الشَّهَادَةُ فِي ضَرَرِّكُمْ وَنَفْعِ الْغَيْرِ أَوْ عَلَى الْوَالِدِينَ أَوْ فِي ضَرَرِّهِمَا لِنَفْعِ الْغَيْرِ، إِذَا كَانَ الْحَقُّ مَعَ الْغَيْرِ وَعَلَى الْأَقْرَبِينَ أَيْ مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَيْكُمْ بِنَسَبٍ، فَلَا تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ لِنَزْوَاتِ أَنْفُسِكُمْ، أَوْ مَلَا حِظَةَ مَصْلَحَةِ الْوَالِدِينَ، أَوْ رِعَايَةِ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنُّ الْمَشْهُودُ لَهُ أَوْ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَا تَشْهَدُوا لِلْغَنِيِّ أَوْ لِلْفَقِيرِ بَاطِلًا، مَرَاعَاةً لْغَنَاهُ أَوْ شَفَقَةً عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا إِنَّهُ

(١) النساء: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦١

[سورة النساء (٤): آية ١٣٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

سبحانه أولى بالغنى والفقر وأنظر لحالهما من سائر الناس، ومع ذلك فقد أمركم بالشهادة على الحق فلا بد من ملاحظة أمره، لا مراعاة الغنى لغناه والفقر شفقته عليه فلا تتبعوا الهوى أى هوى النفس فى الحكم الجائر أن تغيدلوا أى لأين تعدلوا، قالوا: وذلك كقولهم:

«لا تتبع هواك لترضى ربك»، أو المعنى: «لا تتبعوا الهوى فى أن تعدلوا من الحق» وَإِنْ تَلَّوْا مِنْ «لَوَى يَلْوَى»، بِمَعْنَى الْإِنْحِرَافِ، أَيْ أَنْ تَنْحَرِفُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - فِي حَالِ الْحُكْمِ - عَنِ الْحَقِّ أَوْ تُعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ إِطْلَاقًا. وَلَعَلَّ الْفَرْقَ أَنَّ «اللَّوَى» الْإِنْحِرَافَ الْيَسِيرَ، وَ«الْإِعْرَاضُ» الْإِنْحِرَافُ مُطْلَقًا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا فَيَعْلَمُ الْإِنْحِرَافَ وَالْإِعْرَاضَ وَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِمَا، كَمَا يَعْلَمُ إِقَامَتَكُمْ لِلْحَقِّ.

[١٣٧] ثم أنه سبحانه بعد أن ذكر لزوم القيام بالقسط، بين لزوم الإيمان الحقيقي عن قلب وعقيدة، ولا يكون ذلك القيام بالقسط إلا إذا توفر فى الإنسان ذلك الإيمان يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فى الظاهر، فإن الخطاب موجه إلى كل من أظهر شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، و من المعلوم أن كثيرا منهم كانوا مؤمنين لفظا فقط آمنوا إيمانا راسخا وعقيدة فى الجوارح والجوانح بالله و

رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَآمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٢

[سورة النساء (٤): آية ١٣٧]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)
أى جنس الكتاب، فإن من شرائط الإيمان، الإيمان بكتب الله جميعاً وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ أَنْ يَجْحَدَهُمْ أَوْ يَعَادِيَهُمْ أَوْ يَنْزِلَهُمْ
عن المنزلة اللائقة بهم وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ وَإِنْ كَانَ بِجِدَادٍ أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ أَوْ أَحَدٍ مِنَ الْكُتُبِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ جَحَدَ أَوْ شَكَ فِي الْمِعَادِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا عَنِ الْحَقِّ كَمَنْ يَضِلُّ الطَّرِيقَ وَيَبْعُدُ عَنْهُ كَثِيرًا، وَذَلِكَ فِي قِبَالٍ مِنْ يَعْمَلُ مُحْرَمًا أَوْ مَا أَشْبَهَ، فَإِنَّهُ قَدْ ضَلَّ ضَلَالًا،
لكن لا بذلك البعد.

[١٣٨] و بعد ما ذكر سبحانه لزوم الإيمان واقعا، بين حالة أولئك الذين لا يؤمنون إلا إيمانا سطحيا، ولذا يميلون مع كل جانب قوى،
فإذا قوى الإسلام آمنوا وإذا ضعف كفروا، وهكذا يراوحوون بين الإيمان والكفر حتى يموتون وهم كفار لتغلب الطبيعة الكافرة فيهم
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا إِذَا كَفَرُوا بِاللَّفْظِ أَوْ بِالْقَلْبِ، فَإِنْ كَثُرَا مِنَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَقْدَمُونَ عَلَى الْإِيمَانِ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِ سَطْحِيًّا، وَ
بمجرد هبوب ريح الكفر يكفرون قلبا، وإن بقوا في الظاهر مؤمنين ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَالِ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لِلتَّكْرَارِ أَرْبَعِ
مرات مزية لا توجد في المرتين، أو في الست، أو ما أشبه ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا أَنْ تَطْبَعَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْكَفْرِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ
لأنهم بقوا كافرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٣

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٨ إلى ١٣٩]

بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَّتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا
(١٣٩)

و إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (١) وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا أَى طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْخَلَاصِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا* إِلَّا طَرِيقَ
جَهَنَّمَ (٢) وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: «أَنَّهُ يَخْذَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا يُلْطَفُ بِهِمْ عِقَابُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ بَعْدَ مَا
تكرر منهم الإيمان والكفر».

[١٣٩] بَشَرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ وَيَبْطِنُونَ الْكُفْرَ - خِلَافًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وَ الْبَشَارَةَ
هنا مجاز للاستهزاء، كما يقال للزنجي: كافور بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا يُؤْلِمُهُمْ جَسَدِيًّا وَنَفْسِيًّا. وَلَعَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الْآيَةِ
المتقدمة في شأن المنافقين، وأن المراد بالكفر، الكفر القلبي الذي كانوا يراوحوه فيه بين الإذعان والكفر، مع التحفظ على ظاهرهم
في الإيمان.

[١٤٠] وَبِمَنَاسِبَةِ النِّفَاقِ، ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَظْهَرَ مِيزَاتِ الْمُنَافِقِ، فَقَالَ:

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ وَأَحْبَاءَ مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَى لَا يَتَّخِذُونَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ، بَلْ يَعَامِلُونَهُمْ مَعَامَلَةَ ظَاهِرِيَّةٍ
فقط لتأمين حياتهم، وإنما قلوبهم مع الكفار و ميلهم إليهم أَلِيَّتُهُمْ أَى هَلْ يَطْلُبُونَ عِنْدَهُمْ أَى عِنْدَ الْكَافِرِ الْعِزَّةَ

(١) النساء: ٤٩.

(٢) النساء: ١٦٩ و ١٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٤

[سورة النساء (٤): آية ١٤٠]

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْتَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)

الديوية، فإن الغالب أن المنافق إنما يوافق تحفظاً على دينه، أى على عزته المزعومة التي يجدها فى ضلال الكفر و بمؤاخاة و صداقة الكافرين فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا إذ بيده الدنيا بجمع ما فيها، فلو آمنوا حقيقةً لكان لهم من العزة ما ليس للمنافقين، لأن دينهم بالإضافة إلى عزتهم الظاهرية حاصله عند المؤمنين، فإن المنافق منبوذ لا عزة له بين المؤمنين.

[١٤١] ثم ذكر سبحانه خصلة أخرى للمنافقين، فقد كانوا يجالسون أهل الكتاب، فيسخر أولئك من القرآن و الرسول، و المنافقون ساكتون حيث يوافقونهم قلباً، بخلاف المؤمنين الذين لم يكن أهل الكتاب يجرءون لمثل ذلك أمامهم، و هذه صفة المؤمن و المنافق فى كل زمان و قد نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَى فِي الْقُرْآنِ فى قوله: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْتَدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «١» بمعنى أنه إذا خاضوا فى غيره حال مجالستهم أن إِذَا سَمِعْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا و الفرق بينهما واضح فإن الكفر بها إنكارها، و الاستهزاء بها السخر و الاستهانة بها فَلَا تَعْتَدُوا مَعَهُمْ بل قوموا و اذهبوا حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ الخوض فى الحديث

(١) الأنعام: ٦٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٥

[سورة النساء (٤): آية ١٤١]

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

الدخول فيه كالخوض فى الماء، و «حتى» للغاية، و هى غير داخله فى المعنى، يعنى يجوز لكم مجالستهم إذا خاضوا فى حديث غير الكفر بالآيات و الاستهزاء بها إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ إذا جالستم الكفار و هم يكفرون و يستهزءون إِذًا مِثْلُهُمْ حيث لم تنكروا عليهم، مع قدرتك على الإنكار، و من رضى بعمل قوم قلباً أو تظاهراً فهو منهم إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا لأن كليهما كافر، و إن كان فى الظاهر تجرى أحكام الإسلام على المنافق.

[١٤٢] ثم وصف سبحانه المنافقين بما هى السمة الظاهرة لهم فى كل حال و زمان الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ التَّبِصُّ الانتظار و الترقب، يعنى أنهم ينتظرون لأمرهم و يراقبون أحوالكم فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ بِالظفر و الغلبة و الغنيمه قَالُوا أَى أولئك المنافقون: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فإننا آمننا و صلينا و عملنا تحت لواء الإسلام، يريدون بذلك التحفظ على أنفسهم فى مستوى المؤمنين جاها و غنيمه و إِنَّ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ بأن تقدم الكفار أو دارت الدائرة على المؤمنين قَالُوا أولئك المنافقون للكافرين الذين كان لهم نصيب: أَلَمْ نَسْتَحْذِ عَلَيْكُمْ أَى نسيطر عليكم و نرشدكم مواقع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٦

[سورة النساء (٤): آية ١٤٢]

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)

صلاحيكم و نَمْنَعُكُمْ مِّنْ بَأْسِ الْمُؤْمِنِينَ بدلاليتكم على مواقع الهلكه، و كنا نلقى الرعب فى قلوب المؤمنين منكم، حتى نلتهم أيها الكافرون ما نلتهم بسببنا، و لذا فلنا ما لكم، يريدون بذلك إشراك أنفسهم فى جاه الكفار و أرباحهم فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ و يعطى كلاً جزاءه، ثم لا يظن المسلمون أن المنافقين يتمكنون بنفاقهم أن يحدثوا ثغرة بينهم، فإن الكافر لا يسلط على المؤمن أبداً لا فى الحجة و لا- فى غيرها، ما دام المؤمنون ملتزمين بشرائط الإيمان عقيدة و عملاً و لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ أَبْداً لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا

نعم إذا خرج المؤمنون عن شرائط الإيمان عقيدة أو عملاً، صار للكفار عليهم سبيل. وقد نرى في طول التاريخ أنه لم يتغلب الكفار على المؤمنين إلا إذا خرج المؤمنون عن طاعة الله ورسوله، كما رأينا في قصة أحد حين ترك الرماة مواقعهم، وهذا لا ينافي تسلط بعض أفراد الكفار على بعض أفراد المؤمنين قتلاً ونحوه، لأن قضية «لن يجعل» طبيعية كسائر القضايا الواردة في مثل هذا المقام.

[١٤٣] ولما ذكر سبحانه أن المنافقين يراوون بين المؤمنين والكافرين لإرضاء كليهما ولأن يهيئوا لهم حياة سعيدة مهما تقلبت الظروف والأحوال، بين أن خداعهم هذا لا ينطلي على الله سبحانه إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٧

[سورة النساء (٤): آية ١٤٣]

مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)

يلزمهم أحكام المسلمين في الدنيا و يجازيهم جزاء الكافرين في الآخرة و من صفاتهم الظاهرة أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى جمع «كسلان» أى متثاقلين، لأنهم لا يعتقدون بالصلاة حتى يقوموا إليها قيام نشاط و فرح كما يقوم المؤمنون إليها يراؤن النَّاسَ أى أن أصل عملهم لأجل الرياء و أن يظهروا للمؤمنين أنهم مسلمون لأجل الله، و لذا لو تمكنوا من تركها تركوها و لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا فى مواقع الشدة و المحنة كما قال سبحانه: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ «١» بخلاف المؤمنين الذين يعتقدون بالله فإنهم ذاكرون له دائما.

[١٤٤] مُذَبِّذِينَ يقال: «ذبذبت» أى حركته، أى أن المنافقين مترددين بين ذلك المجتمع المنقسم إلى المؤمن و الكافر لا إلى هؤلاء المؤمنين، أى لا- مع هؤلاء تماما و لا إلى هؤلاء الكافرين، و دخول كلمة «إلى» باعتبار أن من يكون مع قوم ينتهى إليهم فى حركاتهم و سكناتهم، بخلاف المنافق الذى هو فى الوسط لا ينتهى إلى أحد الجانبين و مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ و إضلاله بترك لطفه الخاص به، بعد ما أراه الطريق فلم يسلكه، و قد تقدم معنى الإضلال من الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا إلى الحق لأنه قد ران على قلبه ما كسبه من السيئات و الإعراض عن الإيمان بالله و العمل الصالح.

(١) العنكبوت: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٨

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٤ الى ١٤٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)

[١٤٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ أى أنصارا و أخلاء يتولون شؤونكم من دُونِ الْمُؤْمِنِينَ بأن تتركوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا السلطان: الحجة و المبين، بمعنى الواضح، فينكل بكم حيث انحرفتم عن طريقته إلى طريقة الكفار، إن المنافقين قد اتخذوا الكافرين أولياء، فأنتم أيها المؤمنون لا تكونوا مثلهم، لتتم عليكم الحجة فيصح عقابكم لأنه جاء بعد البيان و الإنذار، و الاستفهام بمعنى الإنكار، أى لا تجعلوا لله سلطانا عليكم.

[١٤٦] إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ أى فى الطبقة السفلى، و ذلك لأن المنافق شر من الكافر، إذ هو كافر بإضافه أنه فى المسلمين فيطلع على عوراتهم و يعين الأعداء عليهم. و فى آية أخرى قال تعالى بالنسبة إلى المنافقين: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ «١» على نحو الحصر، و لعل السبب فى قبول المنافق بعد العلم بباطنه رجاء زوال نفاقه، و أنه لو وكل الأمر إلى الناس لأخذوا كثيرا من المؤمنين بأنهم منافقين و لَنْ تَجِدَ يا رسول الله لَهُمْ أى للمنافقين نصيراً من بأس الله و عقابه.

(١) المناقون: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٦٩

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٦ إلى ١٤٧]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

[١٤٧] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ نِفَاقِهِمْ وَأَصْلَحُوا نِيَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ أَى تَمَسَكُوا بِهِ وَأَخْلَصُوا طَرِيقَهُمْ لِلَّهِ، بِخِلَافِ الْمُنَاقِ الَّذِي يَبْعُضُ فِي طَرِيقَتِهِ، فَبَعْضُهَا لِلَّهِ وَبَعْضُهَا لِلْأَصْنَامِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَسَوْفَ فِي الْآخِرَةِ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا هُوَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا اِضْمِحَالَ.

[١٤٨] وَلَمَّا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْمُنَاقِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ، بَيَّنَّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَاجَةٍ لَهُ إِلَى عَذَابِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِسُوءِ صَنِيعِهِمْ، فَلَوْ بَدَّلُوا صَنِيعَهُمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي مَعْنَى الْإِنْكَارِ، أَى لَا حَاجَةَ إِلَى عَذَابِكُمْ إِذْ لَا يَنْتَفِعُ اللَّهُ بِذَلِكَ كَمَا لَا يَتَضَرَّرُ بِتَرْكِهِ إِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَهُ سَبْحَانَهُ وَآمَنْتُمْ إِيمَانًا صَاحِحًا وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا لِمَنْ شَكَرَهُ، وَمَعْنَى كَوْنِهِ شَاكِرًا: أَنَّهُ يَفْعَلُ فِعْلَ الشَّاكِرِ مِنَ الْحَفَاوَةِ إِلَى الْمَشْكُورِ لَهُ عَلِيمًا بِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْهَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السادس من آية (١٤٩) من سورة النساء إلى (٨٣) من سورة المائدة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَعُتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٣

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٨ إلى ١٤٩]

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُغْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا (١٤٩)

[١٤٩] وَحَيْثُ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ حَوْلَ النِّفَاقِ وَهُوَ شَيْءٌ رُبَّمَا اشْتَبَهَ فِيهِ النَّاسُ، وَلِذَا نَرَاهُمْ يَرْمِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالنِّفَاقِ، بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْهَرَ الْإِنْسَانُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ الْجَاهِرَ مَظْلُومًا فَإِنَّهُ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَجْهَرَ بِظُلَامَتِهِ فَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْدَى عَوْرَةً غَيْرَهُ حَتَّى فِيمَا إِذَا عَلِمَ، فَكَيْفَ بِمَا لَوْ ظَنَّ أَوْ تَوَهَّم؟ وَفِي آيَةِ أُخْرَى:

اجْتَبَيْتُمْ كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ «١» لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ جَهْرًا أَمَامَ النَّاسِ، وَمَعْنَى «لَا-يحب» أَنَّهُ يَكْرَهُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ فَإِنَّهُ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يَذْكَرَ ظُلَامَتَهُ أَمَامَ النَّاسِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا يَسْمَعُ مَا يَجْهَرُ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْقَوْلِ السَّيِّئِ فِي غَيْرِهِ عَلِيمًا بِصَدَقِ الصَّادِقِ وَكَذْبِ الْكَاذِبِ فَيَجَازِي كُلًّا حَسَبَ جَزَائِهِ.

[١٥٠] وَإِذْ ذَكَرَ تَعَالَى جَوَازَ الْجَهْرِ بِالسُّوءِ لِمَنْ ظَلَمَ، بَيَّنَّ أَنَّ إِبْدَاءَ الْخَيْرِ وَإِخْفَاءَ السُّوءِ أَحْسَنُ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ الْعَفْوُ الْقَدِيرُ، الَّذِي يَعْفُو مَعَ قُدْرَتِهِ إِنْ تُبَدُّوا أَى تَظْهَرُوا خَيْرًا أَى عَمَلًا حَسَنًا جَمِيلًا لِمَنْ أَحْسَنَ أَوْ تُخَفُّوهُ أَى تَتْرَكُوا إِظْهَارَ الْخَيْرِ، أَوْ الْمَعْنَى: تَعَزَمُوا عَلَيْهِ أَى تَتَوَهَّوْهُ. وَ لَعَلَّ الثَّانِي أَقْرَبُ أَوْ تُغْفَوْا عَنْ سُوءٍ فَلَا تَنْتَقِمُوا مِنْ أَسَاءِ إِلَيْكُمْ مَعَ قُدْرَتِكُمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فَفِي الْمَقَامِ

(١) الحجرات: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٤

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥١]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)

لا تجهروا بالقول السيئ بالنسبة إلى من ظلمكم فإنَّ الله كان عفواً كثير العفو عن خلقه ممن أساء و ظلم قديراً على الانتقام منهم، فما أجد أن يتصف الخلق بصفة الخالق.

[١٥١] و لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة حال المنافقين، أتم الكلام في الآيات التالية حول حال الكافرين و المؤمنين، فالناس ينقسمون أمام الدعوة الجديدة إلى مؤمن و كافر و منافق بين أولئك إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ و إن كان كفرا برسول واحد، و الكفر إما بالإنكار أو نحو ذلك و يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ لعلهم طائفة أخرى حيث أنهم يؤمنون بالله و يكفرون بالرسول، فهذه الصفة أنهم يفرقون بين الله بالإيمان و بين الرسل بالكفر و يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ فإن هناك المنكر المطلق و الذي لا ينكر الله و لكن ينكر الأنبياء جملة، و الذي يبغض في الأنبياء و يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ الْحَقَّ الْوَاقِعَ سَبِيلًا طريقاً لا الإنكار المطلق و لا الإذعان المطلق، و إنما يفعلون ذلك لأغراض نفسية و تقاليد بالية.

[١٥٢] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا أَى حقيقته، فلا يخرج إيمانهم ببعض عن كونهم كافرين، كما قد ينطبق على البعض الذين لا يعرفون معيار الكفر و الإيمان، فإن الكفر هو إنكار أحد الأصول و الإيمان هو الإقرار بها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٥

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٢ الى ١٥٣]

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣)

أجمع و أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ أَى هَيْئًا لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا يهينهم و يذلهم.

[١٥٣] و الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ جميعاً و لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ لفظ «أحد» إذا دخل عليه النفي أو كان في معناه أفاد العموم، و لذا صح إدخال «بين» عليه و ليس كذلك إذا كان للإثبات أولئك سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ اللَّهُ أَجْرَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا يَغْفِرُ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ رَحِيمًا يرحم بلطفه و رحمته.

[١٥٤] و إذ تقدم الكلام عن الذين يؤمنون ببعض و يكفرون ببعض، و من أظهر مصاديق أولئك أهل الكتاب الذين آمنوا بالأنبياء السالفة و لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم بحجج واهية، انتقل السياق إلى هؤلاء مبينا أنهم كاذبون في زعمهم الإيمان بموسى عليه السلام بأسئلة و أعمال بشعة، يَسْئَلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْلُ الْكِتَابِ و المراد بهم هنا اليهود أن تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كما نزل على موسى التوراة، مكتوباً جملة، لا أن تأتي الآيات على نحو الوحي.

و في بعض التفاسير: أن كعب الأشرف و جماعة من اليهود قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة جملة «١»

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٦

[سورة النساء (٤): آية ١٥٤]

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)

فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَلْ آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَا آتَاهُمُ الْكِتَابُ مِنَ السَّمَاءِ؟ كَلَّا بَلْ سَأَلُوهُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً حَتَّى نَشَاهِدَهُ بِأَعْيُنِنَا فَأَخَذَتْهُمْ الضَّاعِقَةُ بِسَبَبِ ظَلْمِهِمْ وَتَجَرَّوْهُمْ عَلَى سَاحَةِ قُدْسِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ، فَقَدْ جَاءَتْ صَاعِقَةٌ وَأَمَاتَتْهُمْ جَمِيعًا- كما تقدم في سورة البقرة «١»- ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا عَبْدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ أَى الْأَدْلَةَ الْوَاضِحَةَ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ وَالنَّبُوَّةِ، مِنْ نَجَاتِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَفْرِيقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَ مَا رَأَوْا مِنْ مَعْجَزَاتِ الْعَصَا وَغَيْرِ ذَلِكَ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ بِمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ مِنْ أَمْرِهِمْ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَ لَكِنْ لَمْ يَنْفَعِهِمْ ذَلِكَ أَيْضًا بَلْ بَقُوا مُعَانِدِينَ قِسَاءَ جَفَاءٍ وَ آتَيْنَا مُوسَى أَى أَعْطَيْنَاهُ سُلْطَانًا مُبِينًا أَى حِجَّةً وَاضِحَةً تَبَيَّنَ صِدْقُهُ وَ نُبُوَّتُهُ، وَ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا.

[١٥٥] وَ رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ أَى جَبَلَ الطُّورِ حَيْثُ اقْتَلَعَ جِزءٌ مِنْهُ وَ رَفَعَ فَوْقَ رُؤُوسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَخْوِيفًا لَهُمْ حَتَّى يَأْخُذُوا الْأَحْكَامَ وَ يَقْبَلُوا التَّعَالِيمَ بِسَبَبِ مِيثَاقِهِمْ أَى عَهْدِهِمْ، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ: حِينَ إِرَادَةِ

(١) البقرة: ٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٧

[سورة النساء (٤): آية ١٥٥]

فَبِمَا نَفَضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَ كَفَرْتَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ قَتَلْتَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)

أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْهُمْ وَ قُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ أَى بَابَ الْقَرْيَةِ سَجْدًا أَى فِي حَالِ السُّجُودِ، اسْجُدُوا وَ ادْخُلُوا الْبَابَ وَ قُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا أَى تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ بِاصْطِيَادِ السَّمَكِ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مُحْرَمًا عَلَيْهِمْ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ أَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمَتَقَدِّمِ ذَكَرَهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا أَى عَهْدًا أَكِيدًا بِأَنْ يَسْمَعُوا الْأَمْرَ وَ يَنْزَجِرُوا عَنِ النَّوَاهِي. وَ قَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ الْكَلَامِ حَوْلَ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ.

[١٥٦] ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْيَهُودَ بِأَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةَ اسْتَحَقُّوا عِقَابَ الدُّنْيَا وَ عِقَابَ الْآخِرَةِ أَمَا عِقَابُ الدُّنْيَا فَتَحْرِيمُ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ وَ أَمَا عِقَابُ الْآخِرَةِ فَالنَّارُ الْمَهِيئَةُ لَهُمْ، فَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: «فَبِمَا نَفَضْتَهُمْ .. إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ» مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ ..» فَبِمَا نَفَضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ أَى بِسَبَبِ نَقْضِ الْيَهُودِ مَعَاهِدَتِهِمْ مَعَ اللَّهِ بِأَنْ يَعْمَلُوا بِكُلِّ مَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِغَالِبِ أَحْكَامِهَا أَصُولًا وَ فُرُوعًا وَ كَفَرْتَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى صِدْقِ أَنْبِيَائِهِ كَكُفْرِهِمْ بِأَدْلَةِ نُبُوَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَإِنَّهُمْ كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا يُقْتَلُونَ وَ فَرِيقًا يَكْذِبُونَ وَ كَلَّمَهُ «بِغَيْرِ حَقٍّ» لِلتَّوْضِيحِ لَا لِلتَّأَكِيدِ إِذْ قَتَلَ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَكُونُ بِالْحَقِّ أَبَدًا وَ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ جَمَعَ «أَغْلَفَ» أَى فِي غِلَافٍ مِنْ دَعْوَتِكَ يَا مُحَمَّدَ، فَلَا نَفْهَمُ مَا تَقُولُ، كَالشَّيْءِ الْمَغْلُفِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَارِجِ، فَقَدْ كَانُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٨

[سورة النساء (٤): آية ١٥٦]

وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦)

يَقُولُونَ ذَلِكَ لِلرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَتَّى لَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى. ثُمَّ جَاءَ سَبْحَانَهُ بِجُمْلَةٍ مُعْتَرِضَةٍ فِي الْكَلَامِ رَدًا لِقَوْلِهِمْ «قُلُوبُنَا غُلْفٌ» بِقَوْلِهِ:

بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى الْحَقَّ فَأَنْكَرَهُ وَ تَكَرَّرَ مِنْهُ الْعَصِيانُ يَكُونُ قَلْبُهُ فِي مَعْزَلٍ عَنِ الْحَقِّ، وَ صَارَ الْإِنْكَارَ كَالْمَلَكَةِ لَهُ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ الْحَقَّ كَلَّمَا رَأَاهُ لَكِنَّهُ يَنْكَرُهُ، لَا لِأَنَّهُ لَا يَرَى الْحَقَّ- لِأَنَّ قَلْبَهُ فِي غِلَافٍ- وَ عَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى بِكُفْرِهِمْ: لِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا إِذْ قَلَّمَا يَرْتَدِعُ مِنْ صَارَ الْإِنْكَارَ مَلَكَةً لَهُ بِسَبَبِ غِيهِ وَ ضَلَالِهِ، ثُمَّ إِنْ نَسَبَهُ الطَّبَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِمَّا حَقِيقَةً لِأَنَّهُ

خلق القلب كذلك، بحيث يصير الأمر المتكرر ملكة له، و إما مجازاً يراد بذلك: تركهم و شأنهم.

[١٥٧] و بسبب كفرهم بعيسى المسيح عليه السلام أو المراد: الكفر المطلق، كزر تأكيداً أو هو إرهاب لقلوبهم «و قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ» يريد بذلك أنهم صاروا كفاراً بسبب هذه التهمة لعظمتها و قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ الصديقة المعصومة أم المسيح عليها السلام بُهْتَانًا عَظِيمًا حيث نسبوا إلى الزنا لما ولد عيسى عليه السلام منها من غير أب.

عن «الكلبي» أن عيسى عليه السلام مر برهط فقال بعضهم لبعض:

جاءكم الساحر ابن الساحرة. فقدفوه بأمه فسمع ذلك عيسى فقال:

اللهم أنت ربي و لم آتهم من تلقاء نفسي، اللهم العن من سبني و سب والدتي فاستجاب الله دعوته فمسحهم خزازير.

«١».

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٧٩

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٧ إلى ١٥٨]

و قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَّبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)

[١٥٨] و بسبب قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَ هذا القول موجب لسخط الله تعالى لأنه عليه السلام رسوله، و قوله: رَسُولَ اللَّهِ إما قول اليهود على وجه الاستهزاء، و إما قول الله تعالى، فليس «مقول قولهم» و إما أنه اعتراف منهم بأنه الرسول، كما اعترف أهل الكوفة بأن الحسين إمام و قتلوه لهوى النفس. ثم ردهم الله سبحانه بقوله: وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَّبُوهُ لأنهم كانوا يقولون: قتلناه صلباً و لكن شُبِّهَ لَهُمْ بأن ألقى الله شبه عيسى على بعض اليهود، فقتلوا ذلك الشبه لعيسى عليه السلام لا. أنهم قتلوا نفس المسيح و إِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ أَى فى المسيح عليه السلام هل أنه قتل أم لم يقتل؟ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ فإنهم صاروا فريقين: قسم يقولون قتلناه، و قسم يقولون لم نقتله و إنما قتلنا شبيهاً له، و لم يكن قولهم عن يقين و إنما عن شك و تردد ما لَهُمْ بِهِ أَى لهؤلاء القائلين بقتله مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ هذا الاستثناء منقطع، فإنه كثيراً ما يستثنى من أصل الكلام لا. من قيوده، فكأنه قال هنا: «ما لهم من حالة نفسية حول هذا الموضوع إلا- اتباع الظن» فمن يقول قتلناه يظن ذلك لا أنه يستيقن. و لا يخفى أن الشك بمعناه اللغوي يلائم الظن، و ليس الشك بمعنى تساوى الطرفين حتى ينافى الظن الذى بمعنى ترجيح أحد الطرفين. و مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا أَى: باليقين و القطع لم يقتلوا عيسى.

[١٥٩] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ أَى إلى محل تشريفه و هو السماء، فإنه قد ثبت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٠

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٩ إلى ١٦٠]

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا- لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بَصَدَّوهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)

فى علم الكلام أنه سبحانه لا محل له. ثم إن رفعه له إلى السماء يمكن أن يكون فى بعض الكواكب فإنها- كما فى الحديث «مدن كمدنكم»

«١» وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَا عِزَّةٍ وَ سُلْطَةً يَتِمَكَّنُ مِمَّا أَرَادَ وَ أَمْرٌ حَكِيمًا يضع الأشياء مواضعها و تقديراته عن حكمه و بصيره.

[١٦٠] وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَى ما من أحد من أهل الكتاب من اليهود إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ أَى بالمسيح عليه السلام قَبْلَ مَوْتِهِ أَى قبل موت المسيح عليه السلام ينزل من السماء و يصلى خلف الإمام المهدي عليه السلام فيؤمن به كل يهودى «٢». و من المعلوم أن المراد بكل

يهودى من كان فى ذلك الوقت، لا كل يهود العالم الذين ماتوا من قبل. و هذه العبارة عرفية فيقال: يعرف أهل البلد الفلانى جميعهم حتى إذا خرجت منها، يريد بذلك: من كان منهم فيها، لا كل من مات أو خرج قبل رحلته و يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى الْيَهُودِ شَهِيداً بأنه قد بلغ رسالات ربه، و أنهم آذوه و طردوه و لم يقبلوا منه. و هناك احتمال أن يعود الضمير «به» إلى محمد صلى الله عليه و آله و سلم الذى هو محل البعث مع الكفار، و ضمير «موته» إلى الكتابى، أى كل كتابى يؤمن بالرسول قبل أن يموت حين الاحتضار حيث ينكشف له الواقع. [١٦١] و لما ذكر سبحانه اليهود قال: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا أَى بسبب

(١) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢١٩.

(٢) العمدة: ص ٤٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨١

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦١ الى ١٦٢]

وَ أَخَذَهُمُ الرَّبُّوَا وَ قَدْ نُهُوَا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢)

ظلم اليهود لأنبيائهم و لأنفسهم و لغيرهم. بما تقدم من أقسام الظلم حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ فقد أحل قسم من الطيبات لهم، لكنهم لما ظلموا حرّم عليهم تلك الطيبات جزاء على أعمالهم. و المحرمات هى ما بين فى قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذَى ظُفْرٍ وَ مَنَ الْبَقْرِ وَ الْعَنَمِ .. «١»، وَ بَصِيْدَهُمْ أَى بمنعهم عن سبيل الله كثيراً عطف على قوله: «فبظلم» فإنهم كانوا يصدون عن سبيل الله و يمنعون الناس عن التدين بدين المسيح و محمد عليهما السلام كما كانوا يحرفون التوراه حسب رغباتهم و أهوائهم.

[١٦٢] وَ أَخَذَهُمُ الرَّبُّوَا وَ قَدْ نُهُوَا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ فقد كانوا يأخذون الرشوة فى الحكم و يسيطرون على أموال الآخرين بالمكر أو القوة و أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عَذَاباً أَلِيماً يؤلم أجسامهم و أرواحهم.

[١٦٣] و لما ذكر سبحانه «للكافرين منهم» فهم أن بعضهم ليس كذلك، و قد

(١) الأنعام: ١٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٢

بين ذلك سبحانه بقوله: لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَسَخُوا فِي الْعِلْمِ وَ ثَبَتُوا فِيهِ وَ عَرَفُوا الْعِلْمَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ وَ الْمُؤْمِنُونَ يَعْنَى أَصْحَابَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، وَ الْمَحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ: الْمُؤْمِنُونَ بِمُوسَى حَقِيقَةً، مُقَابِلَ سَائِرِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا إِيمَانَهُمْ مَزِيفاً كاذباً يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ كِتَابِ مُوسَى وَ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بخلاف اليهود الذين لم يؤمنوا إطلاقاً، و كان إيمانهم بالتوراه كذبا، كما قال سبحانه: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْإِمَارِ يُحْمِلُ أَشْفَاراً «١».

و هنا قد يتساءل البعض: أن اليهود إن كان فى طبيعتهم الانحراف كما هو المشهور بين الناس و الظاهر من قوله تعالى: فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً «٢» و قوله: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ «٣» و من أعمالهم مع أنبيائهم و بالأخص موسى عليه السلام،

فكيف يمكن لهم التخلّي عن هذه الطبيعة؟ وكيف يقبلون بالإسلام إذا أسلموا؟
و كيف يمكن التفريق بين من كفر منهم و بين من قال سبحانه عنه «لكن الراسخون ..»؟
و الجواب: أن اليهود لهم جهتا انحراف: الأولى طبيعتهم المتحجرة، و الثانية دينهم الباطل الذى يأمرهم بكل منكر، و تقاليدهم

(١) الجمعة: ٦.

(٢) البقرة: ٧٥.

(٣) المائدة: ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٣

البالية السخيفة. و من المعلوم أن اليهودى إذا أسلم روضت طبيعته و صقلت بالإسلام، كالجبان الذى يشجع نفسه حتى تصبح له ملكة الشجاعة، و الفاسق الذى يسلك الصلاح حتى تحصل له ملكة العدالة.
و كذلك تذهب تقاليد و دينه المحرّف فلا يكون حافز له على الاجرام و الرذيلة، بالإضافة إلى أن الانحراف ليس من طبيعة الكل مطلقا بل الأغلب، كما لا يخفى.

و الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ عطف على «الراسخون» أى الذين يقيمون الصلاة من اليهود فإن لكل دين صلاة، و إنما عطف بالنصب و القاعدة الرفع أى «المقيمون» لأنه نصب على المدح، و هذا تفنّن فى الكلام لإزالة الضجر النفسى الذى يحصل من سبك واحد. و قد كانت إقامة الصلاة الدائمة من أقوى العوامل للإيمان بالرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم لأنها مذكّرة مستمرة توجب ملكة طيبة و الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ فقد كان كل دين يأمر بالزكاة بمعناها الأعم و الْمُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ إيمانا حقيقيا لا صوريا- كما كان عند غالب اليهود- أولئك المتصفون بهذه الصفات سَيُؤْتِيَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَجْرًا عَظِيمًا فى جنات النعيم التى فيها ما تشتهى الأنفس و تلذ الأعين و هم فيها خالدون.

و يمكن أن يكون الكلام من قوله: «و المقيمين» استثناء إلى أن الراسخين فى العلم من اليهود و المؤمنين الذين يقيمون الصلاة- من المسلمين- أولئك نعتهم الأجر العظيم، فلا يكون «المقيمين .. إلخ» من صفات اليهود الراسخين فى العلم، و ربما يؤيد هذا الوجه نصب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٤

[سورة النساء (٤): آية ١٦٣]

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُونسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣)

«المقيمين» كأنه أراد بيان الانقطاع عما قبله و أنه فى حكم الضمير فى «سنؤتيهم» أى سنؤتى المقيمين .. سنؤتيهم أجرا عظيما، كباب الاشتغال.

[١٦٤] ثم ذكر سبحانه أن مجادلات اليهود باطله و أن الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أوحى إليه كما أوحى من قبله إلى سائر الأنبياء، و قولهم بإنزال الكتاب عليهم بحيث قد كثر فى الأنبياء السابقين من أوحى إليه، قال تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ «الوحى» هو الإلقاء فى القلب بواسطة ملك، أو ابتداء بدون ملك فى اليقظة أو المنام كما أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد نوح عليه السلام. ثم ذكر بعض الأنبياء بالاسم تعظيما و إن كانوا داخلين فى عموم النبيين و أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ قَدَّمَ إِسْمَاعِيلَ لِأَنَّهُ أَرْفَعُ شَأْنًا فِي الْإِيمَانِ، و إن كان الثانى أكبر سنا- كما هو المشهور- و يَعْقُوبَ وَ هُوَ حَفِيدُ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ إِسْحَاقَ جَدِّ الْيَهُودِ، كما أن إسماعيل جد الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم و الْأَسْبَاطِ أى: الأنبياء المبعوثون من أولاد يعقوب، و

يسمّون الأسباط لأنهم أحفاد يعقوب كيوسف وغيره عليهم السّلام و عيسى و أيوب و يونس و هارون و سليمان و لم يذكر موسى عليه السّلام لأنه نزل عليه الكتاب من السماء الذي كان محل احتجاج اليهود- كما تقدم- و آتينا داود زبوراً جمع «زبر» أى شيئاً فشيئاً، و لم تنزل على هؤلاء الأنبياء كتاباً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٥

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٤ الى ١٦٦]

و رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

كاملاً بل إما وحياً و إما جزءاً، كداود عليه السّلام.

[١٦٥] و أرسلنا رُسُلًا بالوحي إليهم قَدْ قَصَصْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ كيونس عليه السّلام مِنْ قَبْلُ فِي سائر القرآن وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ فقد كان عدد الأنبياء- على المشهور- مائة و أربعة و عشرين ألفاً «١» وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا فلم يكن كل ما أتاه بشكل الكتاب، فموسى عليه السّلام الذي هو محل احتجاج اليهود كان الله قد كلمه، و الكلام قسم من الوحي، و لا يخفى أن كلام الله سبحانه إنما هو بخلق الصوت في الفضاء لأنه سبحانه منزّه عن الجسمية و لوازمها.

[١٦٦] رُسُلًا مُبَشِّرِينَ لِمَنْ آمَنَ وَ أَطَاعَ بِالثَّوَابِ وَ مُنذِرِينَ لِمَنْ كَفَرَ وَ عَصَى بِالْعِقَابِ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ بل لله الحجة البالغة، و المراد بالناس الغالب لا الكل إذ بعضهم لم تدركه الدعوة كما هو معلوم بالضرورة، و صرحت بذلك بعض الأحاديث وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا مُقْتَدِرًا لِلْعِقَابِ وَ الثَّوَابِ حَكِيمًا يفعل الأفعال عن مصلحة و حكمة.

[١٦٧] إِنْ يَهُودٍ إِنْ لَمْ يَشْهَدُوا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالنَّبُوءَةِ بِحُجَّةٍ مُخْتَلَفَةٍ

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٦

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٧ الى ١٦٨]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْفِرْ لَهُمْ وَ لَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَ شَهَادَةُ اللَّهِ هِيَ إِجْرَاءُ الْمَعْجِزَةِ عَلَى يَدِ الرَّسُولِ وَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ السِّحْرِ وَ الْمَعْجِزَةِ أَنَّ السِّحْرَ يُوصل بِالْأَسْبَابِ إِلَى مَسَبِّاتِهَا وَ لَوْ كَانَتْ الْأَسْبَابُ خَتوماً وَ أورداء، وَ الْمَعْجِزَةُ خرق لنواميس الطبيعة بمجرد إرادة الرسول و من أتاه الله ذلك. و لا- يفرق بين الأمرين إلا- أهل المعرفة، فالرسول يتمكن من إحياء الميت بينما لا يتمكن الساحر من ذلك و هكذا. أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ أى بعلمه أنك أهل للنبوّة، أو أنزله مقترناً بالعلم الذي من لدنه، أو أن الإنزال كان معلوماً لله تعالى لا كما يأمر الأمر و هو غافل أو جاهل أو ناس أو ساه، و الأول أقرب و الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ بما أنزل إليك، و لعل ذكر الملائكة تشريعي، أى بشهادة واقعية و إن لم يكن لها أثر، أو أن الأثر نصره الملائكة كما رأوا في يوم بدر و كما ظهر بعض الآثار لنزول الملائكة وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يشهد بأنك رسوله.

[١٦٨] ثم ذكر سبحانه جزاء الكافرين بالرسول بقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى منعوا الناس عن الإيمان و منعوا الإسلام عن التقدم قَدْ ضَلُّوا طريق الحق ضلالاً بعيداً متباعداً عن الطريق السوى.

[١٦٩] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رسله و ما جاءوا به وَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٧

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٩ إلى ١٧٠]

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)

بالعصيان والناس بالحرمان عن طريق الهداية لم يكن الله ليغفر لهم إذا ماتوا على الكفر، كما يظهر القيد من سائر الآيات ولا ليهدى بهم طريقاً والمراد طريق الجنة.

[١٧٠] إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ جِزَاءَ لِمَا فَعَلُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا زَوَالَ لِلْعَذَابِ وَلَا انْقِطَاعَ. وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْبَعْضُ: وَلِمَ الْعَذَابُ الدَّائِمُ مَقَابِلَ الْعَمَلِ الَّذِي كَانَتْ لَهُ مَدَّةٌ مَحْدُودَةٌ لَهُ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْعَذَابَ لِلشَّرِّ الْكَامِنِ الَّذِي كَانَ لَهُ مَظْهَرٌ، وَذَلِكَ بَاقٍ أَبَدًا، وَلِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» (١)، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا لِقُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ وَسُلْطَانِهِ الْمَطْلُوقِ.

[١٧١] ثُمَّ خَاطَبَ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ النَّاسِ بِوُجُوبِ الْإِيمَانِ وَالتَّنَكُّبِ عَنِ طَرِيقِ الْكُفْرِ بِقَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ أَيْ مَجِيئِهِ بِالْحَقِّ، أَوْ بِالذِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنْ رَبِّكُمْ أَيْ مِنْ طَرَفِهِ وَجَانِبِهِ، فَرَبِّكُمْ هُوَ الْبَاعِثُ لَهُ. وَفِيهِ تَأْكِيدٌ لَوْجُوبِ الْقَبُولِ فَآمِنُوا بِمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْأَصُولِ، وَآتُوا خَيْرًا لَكُمْ أَيْ خَيْرًا تَعُودُ فَائِدَتُهُ إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَلَا تَنْظُنُوا أَنَّ ذَلِكَ يَضُرُّ اللَّهَ تَعَالَى

(١) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٨

[سورة النساء (٤): آية ١٧١]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)

فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَا يَنْقُصُهُ كُفْرُكُمْ شَيْئًا وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِمُصَالِحِكُمْ وَمُفَاسِدِكُمْ، فَالرَّسُولُ آتٍ بِمَا هُوَ الصَّلَاحُ لَكُمْ حَكِيمًا فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ.

[١٧٢] ثُمَّ تَوَجَّهَ السِّيَاقُ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَنْهُمْ، لَكِنَ هُنَا يَرَادُ بِهِمُ النَّصَارَى فَقَطْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ الْغُلُوبُ هِيَ مَجَاوِزَةُ الْحُدُودِ وَالْإِرْتِفَاعُ، وَمِنْهُ «غَلَا فِي دِينِهِ» أَيْ تَجَاوَزَ الْحُدُودَ إِلَى الْإِرْتِفَاعِ، فَقَدْ كَانَ الْمَسِيحِيُّونَ يَقُولُونَ بِتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ:

الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأول هو الله، وبالثاني المسيح، وبالثلث جبرائيل عليه السلام ولا تقولوا على الله أي لا تفتروا على الله بأن تقولوا: إن الله أمرنا بعبادة آلهة ثلاثة، أو المعنى: لا تقولوا بالنسبة إلى الله ما ينافي عظمته من قولكم إن له شريكا إلا الحق وهو أنه لا شريك له ولم يأمر إلا بذلك إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله قيل: إنما سمي بالمسيح لأنه كان يمسح الأرض ويسيح في البلاد، و«عيسى ابن مريم» بيان لقوله «المسيح» يعني أنه ابن مريم، لا أنه ابن الله، و«رسول الله» خبر لقوله «المسيح» وكلمته أي كلمه الله، وهذا تشبيهه، فكما أن المتكلم إذا قال القول، حدث منه في الخارج شبه إلقاء، كذلك الله سبحانه يلقى الأشياء إلى الخارج فهي كلماته، ولذا يقال للمخلوقات «كلمات الله» و«إنما» هنا للحصر الإضافي مقابل النبوة والألوهية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٨٩

أَلْفَاها إِلَى مَرْيَمَ أَيْ أَوْجَدَهَا فِي رَحْمَتِهَا الطَّاهِرَةِ بَدُونَ زَوْاجٍ وَاقْتِرَابٍ مِنْ رَجُلٍ وَرُوحٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَ«الرُّوحُ» هِيَ الْقُوَّةُ - الطَّاقَةُ - الَّتِي

تتحرك و تحرك، و المعنى: أن عيسى روح من قبل الله سبحانه، و لذا يقال له: «روح الله»، و من المعلوم أن الإضافة تشريفية نحو: بيت الله.

فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا بِالْإِذْعَانِ لَوْحِدَانِيَّتِهِ، وَ أَنَّهُ لَا-شَرِيكَ لَهُ وَ لَا-وَلَدٌ، وَ أَنَّ الْمَسِيحَ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ وَ لَا تَقُولُوا أَيُّهَا النَّصَارَى أَنَّ الْإِلَهَ ثَلَاثَةٌ أَبُ وَ ابْنٌ وَ رُوحَ الْقُدُسِ انْتَهَوْا عَنْ هَذَا الْكَلَامِ الْبَشْعِ، وَ اتَّوَا خَيْرًا لَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَ آخِرَتِكُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ التَّنْزِيهِ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَيْسَ الْمَسِيحُ شَرِيكًا لَهُ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ شَرِيكَ لَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا إِذْ الشَّرْكَه تَلَازَمَ التَّرْكِيبَ، وَ التَّرْكِيبُ يَلْزَمُ الْحُدُوثَ، فَإِنْ كُلُّ مَرْكَبٍ لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ مَرْكَبٍ وَ أَجْزَاءٍ سَابِقَةٍ- وَ لَوْ رَتْبَةً- وَ مَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ لَيْسَ بِإِلَهِ سُبْحَانَهُ أَى أَسْبَحَهُ سُبْحَانَهُ، بِمَعْنَى: أَنْزَهَهُ تَنْزِيْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ وَ لَمْدٌ كَمَا قَالَ الْمَسِيحِيُّونَ مِنْ أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَوْ أُرِيدَ بِالْوَلَدِ الْمَعْنَى الْمَتَعَارِفِ مِمَّا يَسْتَلْزَمُ الْوِلَادَةَ، فَإِنْ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْمُمْكِنِ لَا مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِ، إِذْ لَا يَعْتَرِي الْإِلَهَ التَّغْيِيرَ، وَ إِلَّا كَانَ حَادِثًا، وَ لَوْ أُرِيدَ الْمَعْنَى التَّشْرِيْعِي كَمَا يَقُولُ الشَّخْصُ الْكَبِيْرُ لِبَعْضِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٠

[سورة النساء (٤): آية ١٧٢]

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيْحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) النَّاسِ- إِذَا أَرَادَ تَشْرِيْفُهُمْ:- «فَلان وُلْدِي» فَإِنْ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ شَوْؤُهُ كَلْهَاقِ تَوْقِيْفِيَّةٍ، فَقَدْ أُذِنَ أَنْ يَقَالَ: «فَلان خَلِيْلُهُ» وَ لَمْ يَأْذَنَ أَنْ يَقَالَ: «ابْنُهُ أَوْ وُلْدُهُ». وَ الْمَرادُ بِالْآيَةِ هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ.

لَهُ أَى اللَّهُ تَعَالَى مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ مَنْ يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ مَلَكُهُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ وُلْدًا لَهُ، إِذْ الْوَلَدُ مِنْ جَنْسِ الْوَالِدِ، وَ هُوَ جَسْمٌ فَعَلَ اللَّهُ فَلَيْسَ لَهُ نَظِيْرٌ وَ لَا-شَبِيْهُ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ كَيْلًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي نَفَاذِ أَمْرِهِ، وَ هُوَ وَعِيدٌ لِلْقَائِلِينَ بِالتَّثْلِيْثِ.

[١٧٣] ثم ذكر سبحانه أن المسيح عليه السلام يعترف بأنه عبد الله فلم يقول هؤلاء بأنه ابن الله أو شريك الله؟ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيْحُ أَى لَنْ يَأْنِفَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ بَلْ اعْتَرَفَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ وُلادَتِهِ بِذَلِكَ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا «١»، وَ لَمَّا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ الَّذِينَ قَرَّبَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ سَاحَةِ لَطْفِهِ. وَ لَعَلَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى رَدِّ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ اللَّهِ كَمَا حَكَى سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنانًا «٢»، وَ مَنْ يَسْتَنْكِفُ يَأْنِفُ وَ يَمْتَنِعُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرُ فَيُرَى نَفْسَهُ أَكْبَرَ وَ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَعْتَرِفَ لِلَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ

(١) مريم: ٣١.

(٢) الزخرف: ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩١

[سورة النساء (٤): الآيات ١٧٣ إلى ١٧٤]

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِلِيًّا وَ لَا نَصِيْرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا الْحَشْرُ هُوَ الْجَمْعُ، أَى يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمِيعًا لِيُجَازِيَهُمْ بِاسْتِكْبَارِهِمْ. وَ «إِلَيْهِ» لَيْسَ لِلْمَكَانِ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَنْزَهُ عَنْهُ، بَلِ الْمَرادُ: الْمَحَلُّ الْمَعْدُّ لِقَضَائِهِ وَ جَزَائِهِ.

[١٧٤] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَى الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَى يُعْطِيهِمْ عَطَاءً كَامِلًا تَامًا أُجُورَهُمْ التِي وَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أَى يُزِيدُهُمْ عَلَى مَا كَانَ قَدْ وَعَدَهُمْ بِهِ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةَ تَفْضُلًا مِنْهُ وَ كَرَمًا وَ أَمَّا الَّذِينَ

اسْتَتَكْفُوا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَى مَوْلَمَا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَيُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ.

[١٧٥] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَى حُجَّةٌ وَدَلِيلٌ يَدُلُّكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا أَى نُورًا وَاضِحًا وَهُوَ الْقُرْآنُ، فَكَمَا أَنَّ النُّورَ يَهْدِي الْإِنْسَانَ إِلَى طَرِيقِهِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَنَحْوِهِ، كَذَلِكَ الْقُرْآنُ يَهْدِي الْإِنْسَانَ إِلَى طَرِيقِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْحَيَاةِ، وَبِهَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٢

[سورة النساء (٤): الآيات ١٧٥ الى ١٧٦]

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

المعنى يعنى الله نور السماوات والأرض «١».

[١٧٦] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا كَمَا أَمَرَ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ وَاعْتَصَمُوا بِهِ أَى تَمَسَّكُوا بِاللَّهِ فِي أُمُورِهِمْ، أَوْ أَنَّ الضَّمِيرَ «بِهِ» يَرْجِعُ إِلَى النُّورِ فَسَيُدْخِلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْهُ سَبْحَانَهُ يَرْحَمُهُمْ بِهَا وَيُفَضِّلُ عَلَيْهِمُ بِالْجَنَّةِ وَفَضْلٍ أَى زِيَادَةً عَلَى مَا اسْتَحَقُّوا وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ أَى يَرْشُدُهُمْ إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى «٢»، صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا أَى جَادَةً مُسْتَقِيمَةً، فَهَمَّ يَصِلُونَ إِلَى الْحَقَائِقِ وَالسَّعَادَةِ فِي صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، حَيْثُ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا الدَّعْوَةَ وَتَبَوَّأُوا الدَّعَايَ. وَ مَفْهُومُ الْآيَةِ: أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِسِوَاهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا وَيُضِلُّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَ مَا فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ مِنْ تَفْسِيرِ «النُّورِ» بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْأَئِمَّةِ الطَّاهِرِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ أَظْهَرَ الْمَصَادِقِ، كَمَا قَدْ تَكَرَّرَ بَيَانُهُ.

[١٧٧]

فِي حَدِيثِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ مَرِيضًا فَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فَسَأَلَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ قَائِلًا: إِنْ لِي كَلَالَةٌ - أَى أَخْوَاتٌ - فَكَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى مِيرَاثِهِنَّ؟ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ «٣» يَسْتَفْتُونَكَ أَى يَطْلُبُونَ مِنْكَ الْفَتْوَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ لِهَذِهِ الْآيَةُ رُبَطٌ بِمَا سَبَقَ فِي حُكْمِ

(١) النور: ٣٦.

(٢) محمد: ١٨.

(٣) راجع كتاب فقه القرآن: ج ٢ ص ٣٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٣

الْكَلَالَةِ وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً «١»، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ أَى يُبَيِّنُ لَكُمْ الْحُكْمَ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ أَى مَاتَ، وَ لَيْسَ مَعْنَى «الهِلَاكَةِ» مَا يَتَبَادَرُ غَالِبًا مِنْ كَوْنِهِ هَلَاكًا سَيِّئًا بَلْ مُطْلَقًا، كَمَا قَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى إِذَا هَلَكَ «٢»، لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَا أَبَوَانِ حَتَّى لَا يَكُونَ هُنَاكَ مِنْ فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ وَ الْإِجْمَاعُ وَ لَهُ أُخْتُ وَاحِدَةٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ فَرَضًا، وَ النِّصْفُ الْآخِرُ رَدًّا وَ هُوَ يَرِثُهَا أَى الْأَخُ يَرِثُ الْأُخْتِ، لَوْ كَانَتِ الْأُخْتُ مَيْتَةً وَ الْأَخُ حَيًّا يَرِثُ جَمِيعَ أَمْوَالِهَا فَرَضًا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ وَ لَا وَالِدَانِ، وَ هَذَا مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الزَّوْجَيْنِ، وَ إِلَّا فَهَمَّا يَرِثَانِ نَصِيْبَهُمَا الْأَعْلَى وَ الْبَاقِي لِلْكَلَالَةِ.

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ أَى كَانَ لِلرَّجُلِ الْمَيْتِ أُخْتَانِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ فَرَضًا وَ الثُّلُثُ الْآخِرُ قَرَابَةٌ وَ إِنْ كَانُوا أَى الْكَلَالَةُ الَّتِي تَرِثُ الْمَيْتَ إِخْوَةً أَى جَمَاعَةً أَكْثَرَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ رِجَالًا وَ نِسَاءً بَعْضُهُمْ أَخْوَانٌ وَ بَعْضُهُمْ أَخْوَاتٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ لِكُلِّ أَنْثَى سَهْمٌ وَاحِدٌ وَ لِكُلِّ

ذكر سهمان اثنان، و هذا كله فى الأخوة من الجانبين

(١) النساء: ١٣.

(٢) غافر: ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٤

أو من جانب الأب، أما الأخوة من جانب الأم فقد سبق حكمهم فى أول السورة يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ أَنْ تَضَلُّوا أَى لثلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. بمعنى: تخطئوا الحكم فى مسألة الكلاله وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيعلم الصالح و الفاسد و لذا يكون أمره و نهيهِ و تقديره عن حكمة و صلاح.

قال فى «المجمع»: و قد تضمنت الآية التى أنزلها الله فى أول هذه السورة بيان ميراث الولد و الوالد، و الآية التى بعدها بيان ميراث الأزواج و الزوجات و الأخوة و الأخوات من قبل الأم، و تضمنت هذه الآية التى ختم بها السورة بيان ميراث الأخوة و الأخوات من الأب و الأم، و الأخوة و الأخوات من قبل الأب عند عدم الأخوة و الأخوات من الأب و الأم. و تضمن قوله سبحانه: وَ أَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ «١»، أن تدانى القربى سبب فى استحقاق الميراث فمن كان أقرب رحما و أدنى قرابه كان أولى بالميراث من الأبعد، و الله العالم «٢».

(١) الأنفال: ٧٦.

(٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٥

٥ سورة المائدة مدنية - آياتها ١٢١

سميت السورة بالمائدة لاشتمالها على كلمة «المائدة»، و حيث ختمت السورة المتقدمة ببيان الحكم بين الميت و الحى، تبتدى هذه السورة ببيان الحكم بين الأحياء، فقال سبحانه:

[سورة المائدة (٥): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و قد كان لتكرار البسملة أول كل سورة تعليما للناس أنهم إذا أرادوا أن يتبدوا بعمل أن يقولوا هذه الجملة المباركة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٦

[٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا سَبَقَ أَنْ الْأَحْكَامَ عَامَةً، و إنما يخاطب المؤمنون بها لكونهم المستفيدين منها أَوْفُوا بِالْعُقُودِ «الجمع المحلى بأل» يفيد العموم، أى كل العقود و «عقود» جمع عقد، و هو كل التزام و ميثاق بين جانبين، فتشمل عقود الناس بعضهم مع بعض و المعاهدات الدولية و المواثيق التى بين الله و بين خلقه، و حيث كانت المواثيق بين الله و الخلق أولى العهود بالوفاء، ابتداء بها بقوله سبحانه: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ فَإِنَّ الْحَلَالَ وَ الْحَرَامَ وَ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَقُودَ بَيْنَ اللَّهِ وَ الْخَلْقِ، أن يعمل الخلق بالأوامر و يجزيهم الله عوض ذلك الجنة، كما قال سبحانه: فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِأَيْدِيكُمْ بِهِ «١»، و البهيمه من «الإيهام» يراد بها كل دابة، و الأنعام هى الإبل و البقر و الغنم و ما أشبهها كالظبا و اليمور، و سميت بهيمه لأنها لا تميز، و الأنعام من «النعم» لأنها من نعم الله على الخلق، و المراد

ب «الحلية» الحلية ذبحا و أكلا و انتفاعا.

إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ أَى يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مِمَّا هُوَ مُحْرَمٌ وَ هُوَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ «٢»، غَيْرَ مُجْلَى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ حَالٍ مِنْ «أَحَلَّتْ» أَى أَنْ التَّحْلِيلَ فِي حَالِ كُونِكُمْ لَا تَحْلُونَ الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَ هَذَا الْحَالُ اسْتِثْنَاءٌ يَأْتِي بِهَذِهِ الصُّورَةَ كَمَا تَقُولُ: «يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَتَصَرَّفَ فِي أَمْوَالِي فِي حَالِ

(١) التوبة: ١١١.

(٢) المائدة: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٧

[سورة المائدة (٥): آية ٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهُدَى وَ لَا الْقَلَائِدَ وَ لَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صِيدُوا كُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

كونك لا يجوز لك التصرف فى النفائس منها» تريد أن الجواز فى غيرها إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ من تحليل و تحريم و سائر الأحكام مما يراه صلاحا.

[٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ الشّعائر جمع شعيرة، و هى الأمر المرتبط بشىء كأنه من علائمه و مزاياه، فشعائر الحج: الأمور المرتبطة بالحج، و شعائر الله الأمور المرتبطة بالله، و لعل اشتقاقها من «الشعر» بمعنى ما ينبت من الإنسان، كأن الشعيرة تلازم الشىء تلازم الشعر، أو تلازم الشعار- الذى هو الثوب الذى على الجسد مقابل الدثار الذى هو الثوب الفوقانى- لبدن الإنسان. و الشعائر فى الآية- لكونها مطلقة- تشمل كل شىء كان أو أصبح من الأمور المرتبطة بالله مما لم ينه عنه، فمعالم الحج من الشعائر، كما أن تشييد القباب على أضرحة الأئمة الطاهرين من الشعائر. و المراد من عدم إحلال الشعائر: خرق حرمان الله.

و

قد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال «نزلت هذه الآية فى رجل من بنى ربيعة يقال له الحطم، و قيل أنه أتى النبى صلى الله عليه وآله و سلم و سأله عن معالم الإيمان، ثم أخبر النبى صلى الله عليه وآله و سلم بأنه دخل بوجه كافر و خرج بعقب غادر، و لما وصل إلى سرح ساقه معه بها و أقبل فى القابل حاجا قد قلد هديا، فلما قصد الرسول صلى الله عليه وآله و سلم معاقبته نزلت الآية» [١] يريد بذلك «آمين البيت الحرام».

(١) البحار: ج ١٩ ص ١٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٨

وَ لَا تَحِلُّوا الشَّهْرَ الْحَرَامَ بِأَنْ تَقَاتَلُوا فِيهِ، وَ الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ هِىَ: رَجَبٌ وَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ الْمُحْرَمُ وَ لَا تَحِلُّوا الْهُدَى وَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِى يَهْدِيهِ الْحَاجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِلذَّبْحِ مِنْ إِبِلٍ أَوْ بَقْرٍ أَوْ غَنَمٍ، وَ الْمُرَادُ: لَا تَحْوِلُوا دُونَ بُلُوغِ ذَلِكَ إِلَى مَحَلِّهِ وَ لَا تَحْوِلُوا الْقَلَائِدَ وَ هِىَ جَمْعُ قَلَادَةٍ، مَا يَقْلُدُ بِهِ الْهَدَى مِنَ الْإِبِلِ، وَ هُوَ أَنْ يَقْلُدَ فِي عُنُقِهَا شَيْءٌ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ هَدَى لَا يَجُوزُ تَحْلِيلُهَا إِذْ بَعْدَ تَقْلِيدِهَا تَكُونُ لِلَّهِ وَ لَا يَجُوزُ الرَّجُوعُ فِيهَا وَ لَا تَحْوِلُوا حَالِ كُونِكُمْ آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ جَمْعُ «آمٍ» عَلَى وَزْنِ «مَادٍّ» مِنْ «أَمٍّ» بِمَعْنَى قَصْدِ أَى لَا تَتَعَرَّضُوا لِمَنْ قَصَدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لِأَدَاءِ الْحَجِّ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا أَى يَطْلُبُونَ بِقَصْدِهِمُ الْحَجَّ الْفَضْلَ - أَى الزِّيَادَةَ فِي الثَّوَابِ أَوْ الْمَالِ أَوْ

غيرهما- من الله و رضاه مقابل من قصد الحج للإفساد فإن صده جائز.

وَ إِذَا حَلَلْتُمْ عَنْ إِحْرَامِ فَاصْطَادُوا الصَّيْدَ الَّذِي حَرَّمَهُ الْإِحْرَامُ، وَ الْأَمْرُ هُنَا لِلْجَوَازِ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ تَوْهَمِ الْحَضَرِ، وَ هَذَا دَفْعٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «غَيْرَ مُحَلَّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ» فَقَدْ كَانَ السِّيَاقُ لِبَيَانِ الْمَحْرَمَاتِ، وَ لَذَا أُتِيَ الثَّانِيَةَ لِبَيَانِ سَائِرِ الْمَحْرَمَاتِ مِمَّا أُشِيرَ إِلَى بَعْضِهَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَ هُوَ «غَيْرَ مُحَلَّى الصَّيْدِ».

ثم إنه لما أنهى سبحانه عن تحليل تلك الحرمات، بين أن هذه الحرمات لا فرق فيها بين من اعتدى عليكم و بين من لم يعتد عليكم، تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٥٩٩

[سورة المائدة (٥): آية ٣]

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمُوقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيجَةُ وَ مَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَ أَنْ تَشْتَفِسُوا بِأَلْسِنِكُمْ ذَلِكُمْ فَبِئْسَ الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

بقوله: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ أَي لَا- يحملنكم من «جرمنى فلان على أن صنعت كذا» أى حملنى شئان أى بغضاء و عداوة قوم لكم ب أن صدوكم عن المسجد الحرام أى منعوكم عنه كما فى عام الحديبية.

أَنْ تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ بِتَحْلِيلِ الْمَحْرَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وَ تَعَاوَنُوا أَيِهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْبِرِّ أَيِ الْخَيْرِ وَاجِبًا كَانَ أَوْ غَيْرِ وَاجِبٍ وَ التَّقْوَى وَ هُوَ اجْتِنَابُ الْمَحْرَمَاتِ، بِأَنْ يَعِينِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ وَ تَرَكَ الْإِثْمَ وَ لَا تَعَاوَنُوا أَيِهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِثْمِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَعْمَلَ إِثْمًا فَلَا تَعِينُوهُ وَ الْعِدْوَانِ أَيِ الظلم و التعدى، وَ هَذَا مُرْتَبَطٌ بِقَوْلِهِ: «أَنْ تَعْتَدُوا» فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَتَعَاوَنَ النَّاسُ عَلَى الْإِثْمِ وَ الظلم، وَ لَذَا نَهَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ اجْتَنَبُوا مَخَالَفَتَهُ وَ عَصِيَانَهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ خَالَفَهُ وَ عَصَاهُ. [٤] وَ فِي سِيَاقِ الْمَحْرَمَاتِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْحَجِّ- غَالِبًا- ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَسْمًا آخَرَ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ وَ هُوَ مَا اسْتِثْنَاهُ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِقَوْلِهِ: «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» فَقَالَ: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَيِهَا الْمُسْلِمُونَ الْمَيْتَةُ وَ هِيَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ بِسَبَبِ شَرَعِيٍّ مِنْ ذَبْحٍ وَ نَحْرِ وَ غَيْرِهِ، وَ ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ٦٤٩

الأنعام مثلا تحتاج التذكية إلى فرى الأوداج و سائر الشرائط، و فى الصيد رمية، و فى السمك موته خارج الماء، و هكذا.. و المراد بالتحريم: أكلها، فإن التحريم الشرعى يراد منه: بحسب الأمر المتوقع منه، فتحريم الحرير يراد به لبسه، و تحريم الأم يراد به اقترابها، و تحريم المسكن يراد به سكنه و الدَّمُ وَ هُوَ مَا بَيْنَهُ سُبْحَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِقَوْلِهِ: دَمًا مَسْفُوحًا «١»، أما المقدار المتبقى فى اللحم فلا حرمة فيه وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ خَصَّصَ بِالذِّكْرِ مَعَ كَثْرَةِ تَحْرِيمِ اللَّحُومِ لِاعْتِيَادِ النَّاسِ أَكْلَهُ وَ ظَنَّهُمْ طَيِّبَهُ.

ثم لا يخفى أن الحرمات تنقسم إلى قسمين: قسم لما فيه من الإضرار.

أما ما يذكره بعض الناس- الآن من العلم الحديث- من إمكان التخلص من أضرار لحم الخنزير بالتعقيم، فليس بمحرم إذا عقم. فالجواب عنه: أنه أى دليل لعدم وجود أضرار أخرى فيه بعد التعقيم لم يكشف عنها العلم إلى الآن، كما لم يهتد العلم طيلة أربعة عشر قرنا لهذا الضرر الذى اكتشف الآن.

و قسم حرم لجهة معنوية، كالذى لم يسم عليه اسم الله سبحانه، و هذا لا يتوقف تحريمه على الضرر الجسدى بل يحرم لانحرافه عن الميزان المستقيم.

وَ مَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ الْإِهْلَالِ بِالشىءِ الْإِبْتِدَاءَ بِهِ أَيِ

(١) الأنعام: ١٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠١

الذبيحة التي ذكر اسم غير الله عليها عند الذبح - كما تقدم في سورة البقرة (١) «وَالْمُنْحَنِقَةُ» وهي ما خنقت بأى نحو كان وَالْمَوْقُودَةُ الوقذ هو الضرب، أى التي ضربت حتى ماتت وَالْمُتَرَدِّبَةُ التردى:

الوقوع من مكان عال، والمراد بها: التي وقعت من مكان عال فماتت، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون الحيوان بهذه الكيفيات وَالنَّطِيجَةُ وهي التي ينطحها غيرها فتموت وَمَا أَكَلَ السَّعْبُ فريسة السبع: وهي التي أكل الحيوان المفترس بعضها وأبقى بعضا، فإنه يحرم أكل الباقي إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ التذكية لغه هي «تمام الشيء» والمراد بها هنا: تحليل الحيوان بإجراء السنن الشرعية عليه من كون الذابح مسلما، والتوجه إلى القبلة بالذبيحة، وكون آله التذكية من حديد، وذكر الله حالة الذبح، وفري الأوداج الأربعة، والمراد: الاستثناء من «مَا أَكَلَ السَّعْبُ» وإن كان الحكم عاما أى أنه لو أدركتم ما أكله السبع فذكيتموه فهو حلال. وإدراكها ما

عن الباقرين عليهما السلام حيث قالوا: «إن أدنى ما يدرك به الذكاه أن تدركه يتحرك أذنه أو ذنبه أو تطرف عينه» (٢).

وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ جمع «نصاب» وهي الحجارة التي كانوا يعبدونها، أى التي تذبح باسم الأوثان تقربا إليها

(١) البقرة: ١٧٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٢ ص ١٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٢

وَأَنْ تَشْتَقِسَ مُوًّا بِالْأَزْلَامِ الاستقسام طلب القسمة، والأزلام جمع «زلم» وهو القدح أى السهام، فقد كان أهل الجاهلية يشتركون جزورا ثم يكتبون على سهام عشرة أسماء خاصة، فليسهم حصصا واحدة، ولسهم حصتان، وهكذا إلى سبعة حصص، ويتركون ثلاثة أسهم لا حصص لها، ثم يجتمعون عشرة أشخاص فيخرج سهم باسم شخص ويعطى بمقدار حصص السهم لذلك الشخص وهكذا .. بعد ما كانوا يقسمون الجذور ثمانية وعشرين قسما، أما ثمن الجزور فقد كان على من يخرج باسم السهم التى لا حصص لها. وهذا نوع من القمار فحرمه الإسلام.

ذَلِكُمْ أى الاستقسام بالأزلام أو جميع ما سبق من المحرمات، إتيانها فسق و الفسق هو الخروج عن الطاعة و ارتكاب المعصية اليَوْمَ يَيْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ قال فى «مجمع البيان»: ليس يريد يوما بعينه، بل معناه: «الآن يئس الكافرون من دينكم» (١). و روى القمى: إنه يوم نصب الإمام عليه السلام (٢) وهذا هو الأوفق بما تواترت به النصوص و ذكره المفسرون من شأن نزول آية الإكمال، فقد كان الكفار يترقبون أن يترك الرسول الأمر سدى حتى إذا قبض و لم يبق له خلف انقضوا على الإسلام يهدمونونه، فلما نصب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الإمام يسوا من ذلك حيث كانوا يعلمون كفاية الإمام و قدرته العظيمة، و لذا لما مات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و علم الكفار و المنافقين باغتصاب الخلافة انقضوا على الإسلام يريدون

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٧٣.

(٢) تفسير القمى: ج ١ ص ١٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٣

اقتلاع جذوره و قد علم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك حين وصى الإمام بالصبر و إقامت حروب داخلية و خارجية تذهب بالإسلام.

و هنا يتساءل البعض: كيف أن الإمام لما نهض بالأمر نكث طائفة و مرقت أخرى و قسط آخرون؟ و الجواب: أن الظروف التي تقدمت على نهضة الإمام غيرت معالم الإسلام، و لذا احتاج الإمام إلى إرساء قواعد الدين من جديد، و ذلك مما يوجب اضطرابا و اختلافاً شأن الأنبياء حين يدعون أممهم إلى الخير، لكن الخطر الخارجي كان حين ذاك بعيداً حيث أن الكفار انكمشوا و قوى الإسلام- و لو الصوري منه- و الحروب الداخلية لم تكن تؤثر شيئاً بالنسبة إلى انعكاس كفة الإسلام و الكفر، لتميل الكفة الثانية على حساب خفة الكفة الأولى.

فَلَا تَخْشَوْهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا كُنْتُمْ تَخْشَوْنَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَأَخْشَوْنَ فِي أَنْ تَرْتَكِبُوا الْعِصْيَانَ وَ تَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ وَ الرِّسَالِ. الْيَوْمَ أَيُّ يَوْمِ الْغَدِيرِ أَكْمَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ بِنَصْبِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَةً مِنْ بَعْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ أَتَمَّمْتُمْ عَلَيْنِمْ نِعْمَتِي فَإِنَّ نِعْمَةَ الْإِسْلَامِ دُونَ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ بِالْوَلَايَةِ نَاقِصَةٌ وَ رِضَتِي لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَإِنَّ الْإِسْلَامَ ذُو دَرَجَاتٍ، وَ الْيَوْمَ رَقِيتُمُ الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى فَرَضِي اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِالْحَالِ الَّتِي وَ صَلَوْا إِلَيْهَا، وَ «الرَّضَى» هُنَا لَيْسَ فِي مَقَابِلِ السَّخَطِ بَلْ فِي مَقَابِلِ النِّقْصِ الْأَثْرَى، كَمَا أَنْ مَنْ يَرِيدُ بِنَاءَ دَارٍ إِذَا بَلَغَ مَنْتَصِفَهَا يَقُولُ: لَمْ أَرْضَ بَعْدَ، أَيُّ لَمْ يَكْمَلْ رِضَايَ، وَ إِنَّمَا يَقُولُ:

رضيت الآن، إذا تم بناء الدار.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٤

[سورة المائدة (٥): آية ٤]

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)

و قد كان ذلك عند نصب الرسول للإمام أمير المؤمنين خليفته الرسمي بعد منصرفه من حجة الوداع بمحضر مائه و عشرين ألف من الأصحاب من الرجال و النساء،

فصعد المنبر و خطب خطبة طويلة ثم قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره و اخذل من خذله» «١» و هو أخذ بكف علي.

و نزل عن المنبر و أمر المسلمين أن يسلموا عليه بإمرة المؤمنين، و بقوا هناك ثلاثة أيام حتى تمت البيعة ثم قفلوا راجعين إلى المدينة.

فَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ الْمَحْرَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي مَخْمَصِهِ وَ هِيَ «الْقَحْطُ» يُسَمَّى بِذَلِكَ لِإِجَابِهِ خَمَصِ الْبَطُونِ جَوْعًا غَيْرَ مُتَّجَانِفٍ أَيُّ فِي حَالِ كَوْنِ الْمُضْطَرِّ لَمْ يَمَلْ لِإِثْمٍ فَإِنَّ «الْجَنَفَ» بِمَعْنَى الْمِيلِ، فَلَا يَفْرُطُ فِي الْأَكْلِ، كَأَنْ يَكُونَ مَحْتَاجًا إِلَى شَرْبِ نَصْفِ رَطْلِ مِنَ الْخَمْرِ- مَثَلًا- فَيَشْرَبُ رَطْلًا، وَ كَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَيْتَةِ وَ سَائِرِ الْمَحْرَمَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَسْتُرُ هَذِهِ السَّيِّئَةَ الذَّاتِيَةَ بِمَعْنَى عَدَمِ الْعِقَابِ عَلَيْهَا رَحِيمٌ يَرْحَمُ النَّاسَ فَلَا يُجْبِرُهُمْ عَلَى التَّرْكِ حَتَّى عِنْدَ أَشَدِّ الضَّرُورَاتِ.

[٥] و بعد بيان قسم من المحرمات، يأتي السياق لبيان قسم من المحللات لتتبادل الكفتان، و قد ورد في سبب نزول هذه الآية: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمر بقتل الكلاب «٢»، فسئل عن الاستثناء، فنزلت الآية تحلل ما يصطاده

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٩٥.

(٢) فقه القرآن: ج ٢ ص ٢٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٥

الكلاب المعلمة و التي فيها نفع، و نهت عن إمساك ما لا نفع فيه و أمرت بقتل الكلب العقور و ما يضر و يؤذى يَسُدُّ لَوْلَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ الطَّيِّبُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي لَا خَبْثَ فِيهِ مِمَّا لَا يَنْفِرُ مِنْهُ الطَّبَعُ، وَ إِذْنَ الشَّارِعِ فِي بَعْضِ الْمَأْكُولَاتِ دُونَ بَعْضٍ لِهَذَا الْمِيزَانِ، وَ إِنْ لَمْ يَعْرِفِ الْعَرَفُ أَنَّ هَذَا طَيِّبٌ وَ هَذَا خَبِيثٌ، فَمَا أَبَاحَهُ الشَّارِعُ فَهُوَ طَيِّبٌ وَ إِنْ ظَنَّهُ الْعَرَفُ خَبِيثًا، وَ مَا حَرَمَهُ الشَّارِعُ فَهُوَ خَبِيثٌ وَ إِنْ ظَنَّهُ الْعَرَفُ طَيِّبًا.

وَ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدٌ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ وَ حَذَفَ الْمُضَافُ أَيْ «صَيْدٌ» لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: «مِمَّا أَمْسَكْنَا عَلَيْكُمْ»، وَ «الْجَوَارِحُ» جَمْعُ جَارِحَةٍ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْكَلْبُ وَ سَائِرُ السَّبَاعِ لِأَنَّهَا تَجْرَحُ الصَّيْدَ، ثُمَّ خَصَّصَ سَبْحَانَهُ عَمُومَ الْجَوَارِحِ بِقَوْلِهِ: مُكَلِّبِينَ أَيْ فِي حَالِ كَوْنِكُمْ أَصْحَابَ كِلَابٍ مَعْلَمَةٍ، يُقَالُ: «كَلَّبَ الْكَلْبُ» إِذَا عَلَّمَهُ الصَّيْدَ تُعَلَّمُونَ هُنَّ أَيْ الْكِلَابُ الْجَارِحَةُ.

مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَكُمْ تَعْلِيمَهُنَّ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِضَمِيرِ «هِنَّ» الَّذِي هُوَ لِلْمَوْثِ الْعَاقِلِ لِانْسِجَامِ سِيَاقِ التَّعْلِيمِ وَ التَّعَلُّمِ مَعَ ذَلِكَ، وَ إِلَّا فَالْقَاعِدَةُ «تَعَلَّمُوها» كَمَا أَنَّ فَائِدَةَ «مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ» لِإِيقَاطِ الضَّمِيرِ وَ تَوَجِيهِهِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ يَرْبِطُ الْأَحْكَامَ وَ الْقِصَصَ بِذَلِكَ الرِّبَاطِ الْعَامِ وَ هُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَ سَوْقُ النَّفْسِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَ مَنَاسِبَةٍ فَكُلُّوا أَيُّهَا الصَّائِدُونَ مِمَّا أَمْسَكْنَا أَيْ تَقْرِيبَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ١، ص: ٦٠٦

حَفْظُنَّ وَ اصْطَدْنَ تِلْكَ الْكِلَابِ عَلَيْكُمْ أَيْ لِأَجْلِكُمْ لِأَنَّفْسَهُنَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَيْ عَلَى «مَا أَمْسَكْنَا» حِينَ إِرْسَالِ الْكَلْبِ. وَ لَا يَخْفَى أَنَّ بِهَذَا الْقَيْدِ أَيْ «مُكَلِّبِينَ» خَرَجَ صَيْدُ سَائِرِ الْجَوَارِحِ إِذَا لَمْ يَدْرِكِ الْإِنْسَانُ ذَكَاتَهُ.

رَوَى الْحَضْرَمِيُّ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ سَأَلْتَهُ عَنْ صَيْدِ الْبِرْزَاءِ وَ الصَّقُورِ وَ الْفُهُودِ وَ الْكِلَابِ؟ فَقَالَ: «لَا تَأْكُلْ إِلَّا مَا ذَكَيْتَ إِلَّا الْكِلَابَ». فَقُلْتُ: فَإِنْ قَتَلَهُ؟ قَالَ: «كُلْ»، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: وَ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلَّمُونَ هُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُّوا مِمَّا أَمْسَكْنَا عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلْ شَيْءًا مِنَ السَّبَاعِ تَمْسِكُ الصَّيْدَ عَلَى نَفْسِهَا إِلَّا الْكِلَابَ الْمَعْلَمَةَ فَإِنَّهَا تَمْسِكُ عَلَى صَاحِبِهَا»

«١» وَ إِنَّمَا تَعْدَى الْإِمْسَاكُ بِ «عَلَى» لِإِفَادَةِ الْإِمْسَاكِ ثِقَلًا وَ مَشَقَّةً، أَوْ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى «الرَّدِّ» فَالْكَلْبُ يَرُدُّ بَعْضَ الْحَيَوَانَ لِصَاحِبِهِ وَ قَدْ أَكَلَ بَعْضَهُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ «٢».

وَ اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَ نَهَاكُمْ فَلَا تَتَنَاولُوا مَا حَرَمَهُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَ إِنْ ظَنَّ طَوْلَ الْمُدَّةِ فِي الدُّنْيَا وَ أَنَّهُ بَعِيدُ جَزَاؤِهِ، لَكِنْ لَا تَمُضُ إِلَّا مَدَّةٌ يَسِيرَةٌ وَ إِذَا بِهِ يَرَى نَفْسَهُ أَمَامَ الْحِسَابِ.

قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عَمَارًا وَ كَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا» «٣».

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ٣٣٣.

(٢) الأحزاب: ٣٨.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٨٦ ص ٣٨٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٧

[سورة المائدة (٥): آية ٥]

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّلَ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حَلَّلَ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا مُتَّعِدِي أَخْدَانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)

[٦] الْيَوْمَ الَّذِي تَمَّ فِيهِ بَيَانُ كُلِّ الْأَحْكَامِ، وَ نَوْجُ الْمُحَلَّلَاتِ فَنَقُولُ:

أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ هَذَا عام يشمل الطيب من المآكل و المناكح و المساكن و الملابس و غيرها بقريته «و المحصنات» بخلاف الآية السابقة التي كانت خاصة بالمآكل بحكم السياق، و هذه الآية تدل على كون الأصل في كل الأشياء الحل إلا ما خبث، و من المعلوم أن الخبث لا يميز إلا بالشرع أو بالعقل نادرا و طعام الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَى الَّذِينَ أُرْسِلَ لَهُمُ الْكِتَابُ السماوى كاليهود و النصرارى و المجوس حَلٌّ لَكُمْ و الطعام إما المراد به الحبوب، كما هو المروى و المتعارف إلى اليوم، فإن كلمة «باعه الأطمع» أو ما أشبهها تنصرف إلى باعه الحبوب، أو المراد به العام لكل طعام، و قد استثنى من ذلك الذبائح، لقوله سبحانه: وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَبِئْسَ اللَّهُ (١)، و الحق به غيره إجماعا، كما استثنى ما لامسه الكتابى برطوبته لأنهم مشركون لقوله سبحانه: فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢)، و فى آية أخرى حكم بنجاسة المشرك بقوله سبحانه: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٣)، و تفصيل البحث فى الفقه (٤).

و هنا سؤال يفرض نفسه و هو: ما الفائدة من هذا التنصيص و الحال أن طعام غير أهل الكتاب حل أيضا؟ و الجواب: إنه من باب المورد و القيد الغالب لابتلاء المسلمين به غالبا، كما يدل على ذلك و طعامكم حل لهم و من المعلوم أن طعام المسلم حل حتى

(١) البقرة: ١٧٤.

(٢) الأعراف: ١٩١.

(٣) التوبة: ٢٨.

(٤) موسوعة الفقه: ج ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٨

للمشرك الوثنى، ثم لو قلنا: إن الجملة عامة لكل طعام، فهل معنى حلية طعامنا لهم الحلية بالنسبة إلينا أى أن طعامهم حل لنا، أو الحلية بالنسبة إليهم أى يجوز لهم أن يطعموه؟ الظاهر الثانى، و إن كان لا يبعد الأول لأن قاعدة «ألزموهم بما التزموا به» تقتضى كون الحرام عندهم من أطعمتنا كذبائنا بالنسبة إلى اليهود مثلا، لا يجوز لهم أن يطعموه. و فى الكلام مناقشة.

وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْمُحْصَنَاتُ أَى الْعَفِيفَاتِ اللَّاتِي أَحْصَنَ أَنْفُسَهُنَّ عَنِ الْحَرَامِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ بِأَن تَنْكِحُوهُنَّ، أما الزانيات غير العفيفات فالمشهور بين العلماء جواز نكاحهن بالثبته، و لا- مفهوم لآية حتى يمنع عن ذلك، لما ثبت فى الأصول من عدم حجية مفهوم اللقب و إنما خصصن لأنهن من «الطيبات».

وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَى أَعْطُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ هُمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسُ - و المجوس أهل كتاب على الأصح- و قد اختلف العلماء فى جواز نكاحهن نكاحا دائما بعد كون المشهور جواز نكاحهن منقطعا، و لو قلنا بعدم جواز الدائم فهو تخصيص بالسنة، و قد ثبت جواز تخصيص الكتاب بالسنة الواردة إذا آتيتموهنَّ أُجُورَهُنَّ أَى أُعْطِيْتُمُوهُنَّ مَهْرَهُنَّ، و ليس معنى «الإعطاء» الإعطاء الفعلى بل ذلك و إن كان فى المستقبل، و لا مفهوم لآية بالنسبة إلى الحكم الوضعى حتى يكون: «من لا يريد الإعطاء إطلاقا»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٠٩

و لم يعط تحرم عليه المرأة المزوجه» بل المراد: الحكم التكليفى، أى أن ذلك حرام لا يجوز و هذا تحريض للإعطاء. فى حال كونهم مُحْصَنَاتٍ بِالْمَسْلَمَةِ أَوِ الْكُتَابِيَّةِ، بأن كان اقترابكم منهن بالإحصان و النكاح غَيْرَ مُسَافِحِينَ تأكيد لقوله «محصنين» و السفاح هو الزنا و لا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ الْخَدْنُ هُوَ الصَّدِيقُ، و هو أن ينفرد الرجل بالمرأة يزنى بها دائما فهى و هو خدنان، أى أنه لا يجوز للرجل بالنسبة إلى المسلمة و الكتائية ذلك كما لا يجوز العكس. و قد تقدم شبه هذا فى سورة النساء، و معنى الآية جملة: أن مقاربة المرأة المسلمة العفيفة و الكتائية العفيفة يجوز لكم و يطيب، و أعطوا مهورهن، لكن اللازم أن يكون الاقتراب بالنكاح لا بالسفاح أو باتخاذهن أخدانا كما يكثر الأمران عند غير المسلمين.

ثم إن ما ذكرناه من المحرمات و المحللات كلها من مقتضيات الإيمان الواجب التمسك به و مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ تَعْبِيرٍ آخِرٍ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَ الْخُرُوجِ عَنِ الطَّاعَةِ، و لعل الإتيان بهذه اللفظة هنا لإفادة أن الكفر - في باب المحللات و المحرمات - ليس بالأصول وإنما هو بالفروع، و قد تقدم في بعض الآيات أن الكفر قسمان: كفر بالأصول هو الموجب لخروج الإنسان عن كونه مسلماً، و كفر بالفروع، كما قال سبحانه: وَ مَنْ كَفَرَ «١»، و قَالَ وَ لَنْ نَكْفُرْتُمْ «٢»، و هو الموجب لكون

(١) النور: ٥٦.

(٢) إبراهيم: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٠

[سورة المائدة (٥): آية ٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

الإنسان فاسقاً فقد حَبَطَ عَمَلُهُ معنى «الحبَط» عدم استحقاق الثواب على العمل كما قال سبحانه: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «١»، وَ هُوَ الْكَافِرُ بِالْإِيمَانِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ حَيْثُ اسْتَحَقُوا الْعِقَابَ حِينَ اسْتَحَقَّ سَائِرُ الْمُطِيعِينَ الثَّوَابِ.

[٧] و في سياق ذكر الطيبات و الملاذ الجسدية يأتي دور الطيبات و الملاذ الروحية التي من أكثرها طيباً و لذة الصلاة بما لها من طهارة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَى أَرَدْتُمْ إِيَّاهَا فَان الْمُرِيدَ لشيء يقوم إليه ليأتي به، ألا ترى أن الناس يقعدون إلى أشغالهم فإذا أذن المؤذن قاموا إلى الصلاة ليأتوا بها فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ مِنْ قِصَاصِ الشَّعْرِ إِلَى الذَّقْنِ طَوَّالًا، و ما اشتملت عليه الإبهام و الوسطى عرضاً، بالماء الطاهر المباح، غسلاً طبيعياً، من الأعلى إلى الأسفل وَ اغْسِلُوا أَيْدِيَكُمْ وَ لَمَّا كَانَ الْمُنْصَرَفُ مِنَ «اليد»: تمام اليد إلى الكتف، أخرجته بقوله: إِلَى الْمَرَافِقِ فَإِنَّ الْغَسْلَ يَسْتَشْنَى مِنْهُ غَسْلُ الْعُضُدِ وَ لَذَا لَا يَسْتَفَادُ مِنَ «إلى» هذه كونها غاية للغسل بل الاستفادة كونها غاية للمغسول، فإنك لو قلت لمصاب بالمرض: ادهن رجلك إلى الركبة.

لم يستفد عرفاً منه لزوم كون التدهين من الإصبع إلى الركبة بل استفيد كون الفخذ خارجاً عن التدهين، و على هذا فاللازم الابتداء من الأعلى لأنه الغسل الطبيعي الذي وردت به السنة وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ

(١) المائدة: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١١

«الباء» للتبويض أى: بعض رؤوسكم، و هو الربع المقدم من الرأس من المرفق إلى قِصَاصِ الشَّعْرِ وَ امْسَحُوا أَرْجُلَكُمْ وَ المراد بهما ظهرهما إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ هما قبتا القدمين، و إنما قرء بالنصب مع أنه معطوف على المجرور باعتبار المحل، و قد كان الترتيب المجزى قطعاً في باب الوضوء غسل الوجه ثم اليد اليمنى ثم اليسرى ثم مسح الرأس ثم الرجل اليمنى ثم اليسرى، و المسح ببقية بلل الوضوء.

وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا «الجنب» لفظ يقع على المفرد و المثنى و الجمع، و المذكر و المؤنث، بلفظ واحد، هو من «البعث»، كأن الإنسان إذا اعترته هذه الحالة يبتعد من النظافة، و حصول الجنابة بالإنزال أو الإدخال فَاطَّهَّرُوا مِنَ «تطهر» ثم أدغمت التاء في الطاء و جىء بهمزة الوصل لامتناع الابتداء بالساكن، و التطهير هو الاغتسال بالارتماس في الماء مرة واحدة، أو الترتيب بغسل الرأس و الرقبة ثم الجانب الأيمن ثم الجانب الأيسر وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى لَا تَتِمُّونَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ لِلْوَضُوءِ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَى مسافرين - و قد سبق أن ذكر السفر لغلبة عدم وجود الماء فيه - أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ وَ «الغائط» هو المحل المنخفض من الأرض و سمي البراز به بعلاقة الحال و

المحل وذلك كناية عن الحدث أو لَمْسْتُمْ النساء و هو كناية عن الجماع فَلَمْ تَجِدُوا ماءً هذا مرتبط بالسفر والحدث واللمس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٢

فَتَيَمَّمُوا معنى الآية بالجملة: إن مرید الصلاة يلزم عليه الوضوء والغسل إن كان جنباً. وإن كان مريضاً يضره الماء أو مسافراً أو مجامعاً، و لم يجد الماء للغسل أو الوضوء فليتميم و يبقى قوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» فإنه ليس فى مرتبة تلك الأمور، و لعل الإتيان به لمرعاة غلبة التخلي عند إرادة الصلاة.

وقد سبق أن التيمم مصدر باب التفعّل بمعنى القصد، أى اقصدوا صعيداً أى أرضاً طيباً ليس بنجس و لا مغصوب فامسحوا بوجوهكم الباء للتبعيض، أى بعض وجوهكم، و هو من قصاص الشعر إلى طرف الأنف الأعلى و أَيْدِيكُمْ من الزند إلى رؤوس الأصابع منه أى مبتدء بالمسح من ذلك الصعيد، فاللزام أن يضرب باليدين على الأرض ثم يمسح بها ليصدق «منه».

ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ مِنْ ضيق فأمره بالوضوء والغسل و التيمم ليس لأجل التضييق عليكم و لَكِنْ يُرِيدُ اللَّهُ سبحانه لِيُطَهِّرَكُمْ و ينظفكم من الأدران و الأوساخ الظاهرية و الباطنية، أما تطهير الغسل و الوضوء من الأدران فظاهر، و أما تطهير التيمم فقد ثبت فى العلم الحديث أن التراب يقتل الجراثيم بمرتبة أضعف من مرتبة الماء و لِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بإرشادكم إلى مصالحكم كلها بعد ما أرشدكم إلى أكبر النعم و هو الإيمان لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إياه بما أنعم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧ إلى ٨]

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِي و اتَّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ اطَّعْنَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)

عليكم و أرشدكم إلى مصالحكم و ما يقربكم منه سبحانه.

[٨] و إذ أتم سبحانه نعمته عليكم ف اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا مِيثَاقَهُ الَّذِي و اتَّقْتُمْ بِهِ أى عهده الذى عاهدكم به من الإيمان و السمع و الطاعة، فقد أخذ سبحانه ميثاق الأمم على يد الأنبياء إذ قُلْتُمْ بعد ما آمنتتم: سَمِعْنَا وَ اطَّعْنَا فعليكم حسب المعاهدة السمع و الطاعة و على الله الإسعاد فى الدنيا و الآخرة، و الله سبحانه فعل ما عليه فعليكم أن تفعلوا ما عليكم و اتَّقُوا اللَّهَ فلا تخالفوا أوامره و نواهيه إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فى «ظلال القرآن» قال: و «ذات الصدور» أى صاحبة الصدور الملازمة لها اللاصقة بها، و هى كناية عن النيات المقيمة و الأسرار الدفينة و المشاعر التى لها صفة الملازمة للقلوب و الاستقرار فى الصدور و هى على خفائها هناك مكشوفة لعلم الله و الله بها عليم.

[٩] ثم يرجع السياق إلى لزوم الجادة و عدم الاعتداء - كما سبق - فى قوله:

وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ «١»، كما تجد مثل ذلك كثيرا فى القرآن الحكيم حيث يلفظ الجو بذكر الصلاة و نحوها ثم يرجع إلى المطلب السابق بعد ما لطف الجو و ربطه بالطابع الإلهى العام و أخرج الكلام عن كونه مملاً. ثم إن ما يأتى هو من الميثاق الذى و اتق الله

(١) المائدة: ٣

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٤

[سورة المائدة (٥): آية ٩]

وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)

عباده به يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ أَي كَثِيرِي الْقِيَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَرِضَاهُ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ أَي بِالْعَدْلِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ أَي لَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ أَي: عداؤهم لكم على أَلَّا تَعْدِلُوا فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ وَعِنْدَ مَخَالَطَتِهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَادَى شَخْصًا لَا يَعْدِلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ - غَالِبًا - انْتِقَامًا وَ شَفَاءً لِمَا فِي صَدْرِهِ مِنَ الضَّغِينَةِ عَلَيْهِ، وَ لَذَا كَانَ مِنْ أَسْوَاقِ الْإِسْلَامِ قَوْلُ الْحَقِّ فِي الرِّضَى وَ الْغَضَبِ اعْدِلُوا هُوَ أَي الْعَدْلُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَيْسَ الْمَفْهُومُ: أَنَّ الْجَوْرَ قَرِيبٌ إِلَى التَّقْوَى، فَإِنَّ التَّفْضِيلَ فِي مِثْلِ الْمَقَامِ يَنْسَلِخُ عَنِ مَعْنَاهِ اللَّغْوِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ بِاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ وَ الْإِتْيَانِ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَ إِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

[١٠] وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسَلِهِ وَ مَا جَاءُوا بِهِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ وَ ذَلِكَ يَلْزِمُ تَرْكَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةً لَدُنْهِمْ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَ جُمْلَةُ «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» فِي مَوْضِعِ نَصْبِ مَفْعُولًا ل «وَعَدَّ» وَ لَعَلَّ سِرَّ الْإِتْيَانِ بِالْجُمْلَةِ، إِفَادَةٌ أَنَّ الْمَطْلَبَ مَقْطُوعٌ بِهِ، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ الْاسْمِيَّةَ تَفِيدُ الْيَقِينَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٥

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠ الى ١١]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

[١١] وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمْ يُؤْمِنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بُرَاهِينًا وَ أَدَلَّتْنَا الَّتِي أَقْمَنَّا عَلَى التَّوْحِيدِ وَ سَائِرِ الْأَصُولِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ الَّذِينَ يَصْحَبُونَ النَّارَ وَ يَخْلُدُونَ فِيهَا.

[١٢] ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنِعْمَةٍ مِنْ نِعْمَةِ سُبْحَانِهِ وَ أَنَّهُ كَيْفَ وَ فِي لَهُمْ بِمِيثَاقِهِ حَيْثُ أَنْقَذَهُمْ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ أَي قَصْدٌ وَ أَرَادَ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ الْمَرَادُ بِ «بَسَطَ الْيَدَ» إِيْذَاؤُهُمْ وَ قَتْلَهُمْ وَ اسْتِنصَالَهُمْ. قَالَ الْقَمِيُّ يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ قَبْلِ فَتْحِهَا، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ بِالصَّلْحِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ «١». وَ قِيلَ: إِنْ الْمَرَادُ بِذَلِكَ الْعَمُومُ، أَي مِنْ أَرَادَ السُّوءَ بِالْمُسْلِمِينَ. وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بِالْقَوْمِ خُصُوصُ بَنِي النَّظِيرِ حَيْثُ أَرَادُوا قَتْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ فَجِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ كَيْدِهِمْ. وَ قِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ أَي مَنَعَهُمْ مِنَ الْفِتْكَ بِكُمْ بَلْ نَصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَ اجْتِنَابِ زَوَاجِرِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يَكْلُونُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ أُمُورَهُمْ وَ يَجْعَلُونَهُ نَصِيرًا وَ ظَهِيرًا لَهُمْ.

(١) تفسير القمى: ج ١ ص ١٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٦

[سورة المائدة (٥): آية ١٢]

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَرْتُمْهُمْ وَ أَرْضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)

[١٣] لَوْ كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ حَوْلَ بَنِي النَّظِيرِ - وَ هُمْ مِنَ الْيَهُودِ - لَكَانَ الْارْتِبَاطُ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ وَاضِحًا، إِذْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ هُنَا أَنَّهُمْ خَانُوا الْأَنْبِيَاءَ مَعَ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ خَيْرٍ وَ نِعْمَةٍ، فَكَيْفَ لَا يَرِيدُونَ خِيَانَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ؟! وَ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونُ الْارْتِبَاطُ مِنْ جِهَةِ الْمِيثَاقِ فَيُرِيدُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَذْكَرَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى لَا يَكُونُوا كَالْيَهُودِ الَّذِينَ خَانُوا وَ نَقَضُوا الْمِيثَاقَ بَعْدَ أَخْذِهِ مِنْهُمْ إِذْ قَدْ سَبَقَ قَوْلُهُ: وَ مِيثَاقُهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ «١» وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَهْدَ الْأَكِيدَ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا مِنَ «النَّبِ» وَ هُوَ الْكُشْفُ، فَكَأَنَّ النَّقِيبَ - وَ هُوَ كَفِيلُ الْقَوْمِ - يَنْقُبُ عَنِ أَسْرَارِهِمْ وَ يَكْشِفُ ضَمَائِرَهُمْ لِيَسِيرَ بِهِمْ نَحْوُ

الخير و الصلاح في المجتمع. أي أمرنا موسى بأن يبعث من الأسباط الاثنى عشر، اثنى عشر رجلا كالطلائع يتحصي سون و يأتون بنى إسرائيل بأخبار أرض الشام و أهلها الجبارين، فاختر من كل سبط رجلا يكون لهم نقيبا- أي أمينا كفيلا- فرجعوا يشنون قومهم عن قتالهم لما رأوا من شدة بأسهم و عظم خلقهم إلا رجلين منهم، بن يوقنا و يوشع بن نون و قال الله إني معكم أي قال لبنى إسرائيل، و كونه معهم بمعنى أنه يؤيدهم و ينصرهم و يهديهم لئن أقمتم الصلاة يا معشر بنى إسرائيل و آتيتم الزكاة أي أعطيتموها

(١) المائدة: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٧

[سورة المائدة (٥): آية ١٣]

فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

و آمنتهم برسلى الذين يأتون من بعد موسى عليه السلام و لذا أحر الإيمان عن إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و عززتهم أي عظمتهم، أو نصرتموهم و أقرضتم الله قرضا حسنا أي أنفقتهم فى سبيله، فإنه كالقرض الذى يعطى ثم يؤخذ، و المراد بكونه «حسنا» أن لا يكون فيه من و لا أذى و لا- دواع غير الله سبحانه لما كفر عنكم أي أذهبن، و معنى «التكفير» التغطية، أي أعطى بالغفران سيئاتكم التى صدرت منكم، و هو جواب «لئن أقمتم الصلاة» و لأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار أى من تحت قصورها و بساطينها فمن كفر بعد ذلك أى بعد أخذ الميثاق منكم يا بنى إسرائيل فقد ضل سوا السبيل أى أخطأ وسط الطريق، فإن سوا كل شىء وسطه.

[١٤] فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ أَي بِسَبَبِ نَقْضِ الْيَهُودِ مِيثَاقَهُمُ الَّذِي كَانَ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ حَيْثُ أَنَّهُمْ تَرَكُوا الصَّلَاةَ وَ مَنْعُوا الزَّكَاةَ وَ كَذَبُوا بِالرَّسْلِ وَ قَتَلُوهُمُ لَعَنَّاهُمْ أَي طَرَدْنَاهُمْ عَن سَاحَةِ الْقُرْبِ وَ قَطَعْنَا رَحْمَتَنَا عَنْهُمْ حَيْثُ جَعَلْنَا بَعْضَهُمْ قَرْدَةً وَ خَنَازِيرَ وَ جَعَلْنَا مَشْرِدِينَ مَطْرُودِينَ دَائِمًا لَا تَقُومُ لَهُمْ قَائِمَةٌ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يَابِسَةً غَلِيظَةً تَنبُو عَن قَبُولِ الْحَقِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٨

و تميل نحو الظلم و الكفر. و جعله سبحانه قلوبهم قاسية، بمعنى: تركه اللطف بهم حتى تردت ملكة أخلاقهم، كمن يعصى أستاذه فى أوامره فيترك تدريسه و تهذيب أخلاقه حتى يصبح جاهلا ذا أخلاق سيئة.

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ جَمْعُ كَلِمَةٍ عَنِ مَوَاضِعِهَا وَ تَحْرِيفُهُمُ الْكَلِمَ عَلَى قَسَمَيْنِ: قَسَمٌ بِمَحْوِ بَعْضِ التَّوْرَةِ، وَ قَسَمٌ بِتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْهُ.

و نَسُوا حَظًّا أَي قَسَمَا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ أَي مِنْ الْأَحْكَامِ الَّتِي ذُكِّرْنَاهُمْ بِهَا فِي التَّوْرَةِ فَإِنَّهُ قَدْ فَقَدَ بَعْضُ التَّوْرَةِ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَهُ لِلنَّاسِ، أَوِ الْمُرَادُ مِنَ «النَّسْيَانِ» أَنَّهُ صَارَ كَالْمَنْسَى عِنْدَهُمْ مِنْ جِزَاءِ عَدَمِ الْعَمَلِ، فَإِنَّ النَّسْيَانَ يُطْلَقُ عَلَى مَا أَهْمَلَهُ الْإِنْسَانُ يُقَالُ: «نَسَيْتُ» أَي أَهْمَلْتَنِي، وَ قَالَ سُبْحَانَهُ: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ «١»، وَ لَا تَزَالُ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَطَّلِعُ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ أَي طَائِفَةٌ خَائِنَةٌ، أَوْ نَفْسٌ خَائِنَةٌ، إِذَا قَالُوا قَوْلًا خَالَفُوهُ إِذَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ- كَمَا أَرَادَ بَنُو النَّظِيرِ الْغَدْرَ بِهِ وَ الْخِيَانَةَ بَعْدَ الْمِيثَاقِ- إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ إِمَّا اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْجَمِيعِ أَوْ مِنَ الْجَمَلَةِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ «قَلِيلًا مِنْهُمْ» لَيْسُوا كَذَلِكَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، أَوْ إِنْ «قَلِيلًا مِنْهُمْ» لَا يَخُونُ فَاعْفُ عَنْهُمْ أَي عَنِ

(١) التوبة: ٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦١٩

[سورة المائدة (٥): آية ١٤]

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ

بما كانوا يَصْنَعُونَ (١٤)

هؤلاء و اضِفْخُ أى تجاوز، فإنك لست منتقما، و أن ذلك ليس من شأنك إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ فَإِنَّ الْعَفْوَ وَالصَّفْحَ إِحْسَانًا، و الإحسان محبوب حتى بالنسبة إلى المجرم.

[١٥] هذا كان شأن اليهود، أما النصارى فليسوا أحسن حالا من اليهود فى بعض الجهات و مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى قولاً باللفظ لا اعتقاداً بالقلب، كما تقول: فلان يقول إنى مسلم، تريد بذلك أنه ليس بمسلم حقيقة بل مسلم قولاً أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ وَ الْإِيمَانَ بِالرَّسْلِ وَ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ كَمَا نَسَى الْيَهُودُ ذَلِكَ مِنْ ذِي قَبْلِ فَأَغْرَيْنَا التَّسْلِيْتَ وَ التَّحْرِشَ وَ التَّحْرِيشَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ انْقَسَمُوا إِلَى أَقْسَامٍ وَ أَخَذَ بَعْضُهُمْ بِعَدَاوَةِ بَعْضٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ، حَتَّى إِنْ عَدَا بَعْضُهُمْ بَلِغَ إِلَى حَدِّ لَمْ يَبْلُغْ عَدَاوَهُمْ لِلْيَهُودِ وَ الْمُسْلِمِينَ وَ الْوَتْنِيِّينَ، وَ قَدْ شَهِدَ التَّارِيخُ قَدِيمًا مَذَابِحَ فِي فِرْقِ النَّصَارَى وَ مَعَادَاةِ الْكَاتُولِيكِ وَ الْبِرُوتَسْتَانِ وَ الْأَرْتُوذُكْسِ فَعَلَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَرَهَانٍ، وَ هَذِهِ إِحْدَى مَعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، كَأَخْبَارِهِ عَنِ ذَلْمَةِ الْيَهُودِ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ بَاؤُ بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ «١».

(١) البقرة: ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٠

[سورة المائدة (٥): آية ١٥]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)

و هنا سؤال و هو: كيف يكون إلى يوم القيامة، و فى زمان المهدي عليه السلام الكلّ يسلم وجهه إلى الله؟ ثم إن يوم القيامة إنما يكون بعد موت الناس عشرات السنوات؟

و الجواب: إن هذا معناه: بقاء العداوة ما بقوا، يعبر عن استمرار الشيء إلى الآخر بمثل هذا التعبير.

وَ سَوْفَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يُبَيِّنُهُمُ اللَّهُ أَى يَخْبِرُهُمْ سَبْحَانَهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَ يَقِفُ التَّعْبِيرُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ لِيُرْسِمَ صُورَةَ مِنَ التَّهْدِيدِ، كَمَا تَقُولُ لِلْمَجْرَمِ: غَدَا أَنْبَثَكَ بِمَا عَمَلْتَ الْيَوْمَ، تَرِيدُ بِذَلِكَ تَهْدِيدَهُ بِالْعِقَابِ الْقَاسِي.

[١٦] ثم خاطب سبحانه أهل الكتاب بصورة عامة لهدايتهم سواء السبيل:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ أَيُّهَا الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى- وَ لَعَلَّ الْمَجُوسَ أَيْضًا دَاخِلُونَ فِي الْخُطَابِ- قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ الَّتِي عَارَضْتُمْ مَصَالِحَهُمْ فَأَخْفَوْهُ عَنِ النَّاسِ إِبْقَاءَ عَلَى كِيَانِهِمْ وَ انْحِرَافَهُمْ وَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا اسْتَوْجَبُوهُ مِنَ الْعِقَابِ، أَوْ يَعْفُو عَنْ بَعْضِ الْأَحْكَامِ الَّتِي أَوْجَبَتْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢١

[سورة المائدة (٥): آية ١٦]

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)
فِيظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ «١»، فَالفرصة سانحة الآن لتتداركوا ما فات منكم.

قَدْ جَاءَكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ هُوَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ وَاضِحٌ لَا فِي الظُّلْمَةِ، كَذَلِكَ النُّورُ الْمَعْنَوِيُّ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى دُرُوبِ الْحَيَاةِ فِي ظُلُمَاتِ الْأَهْوَاءِ وَ الْجَهْلِ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ هُوَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ وَاضِحٌ لَا لِبَسِّ فِيهِ وَ لَا غَمُوضٍ.

[١٧] يَهْدِي بِهِ أَى بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ «النور و الكتاب»، كما قال سبحانه:

فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ ﴿٢﴾ أى كل واحد منهما الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ أى من اتبع رضوان الله - أى رضاه - بقبول القرآن و نبوة محمد صلى الله عليه و آله و سلم سُئِلَ السَّلَامُ أى طرق السلامة فى كل شىء، السلامة فى الدين، و السلامة فى الدنيا، و السلامة فى الآخرة للفرد و المجتمع و يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فَإِنَّ الْحَيَاةَ ظُلُمَاتٍ لَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ كَيْفَ يَسِيرُ فِي دَرُوبِهَا، و بالقرآن و النبى يهتدى إلى الحق و ينير طريقه بِإِذْنِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ و لطفه و يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يوصلهم إلى

(١) النساء: ١٦١.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٢

[سورة المائدة (٥): آية ١٧]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)

سعادة الدنيا و الآخرة.

[١٨] إنه يهدى إلى الصراط المستقيم فى العقيدة لا الاعتقاد بأن المسيح هو الله أو الاعتقاد بأن الله أبناء لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فإنه سواء جعلوه لها واحدا أو شريكا له، فقد كفروا، إذ إنكار الله سبحانه و التشريك معه كلاهما كفر قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى إبطال قولهم: فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أى من يقدر على أن يدفع أمرا من أوامر الله و إرادته من إرادته إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم و أمه و مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا إن النصارى يعترفون بذلك، و أنه بإمكان الله أن يهلك كل أولئك، فكيف يجتمع هذا الاعتراف مع الاعتقاد بألوهية المسيح؟ إن الإله لا يمكن لأحد مخالفته أمره التكويني فكيف يتمكن أحد إهلاكه؟ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فكيف يمكن أن يكون له شريك مع أن كل شىء يتصور فهو ملك لله؟ و هل يمكن أن يكون إله مملوك؟ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إن شاء خلق من غير ذكر و لا- أنثى كآدم و حواء عليهما السلام، و إن شاء خلق من ذكر و أنثى كسائر الناس، و إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٣

[سورة المائدة (٥): آية ١٨]

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)

شاء خلق من أنثى دون ذكر كالمسيح عليه السلام، فليس فى خلقه دلالة على ألوهيته كما زعمت النصارى و الله على كل شىء قدير ليست قدرته منحصرة فى شىء أو أشياء خاصة حتى إذا كان قد خلق بذلك الشكل «بشكل عيسى» دل على أنه ليس من خلقه.

[١٩] وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لما حذرهم نعمة الله و عذابه قالوا: نحن أبناءه، و الابن الحبيب لا يخاف من نعمة الأب الودود قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْمَفْتَرِينَ: فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ بِذُنُوبِكُمْ حيث تعترفون بما حكى القرآن عنهم:

وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴿١﴾، فإن كنتم أبناء أحياء لم يكن معنى للعذاب، و لعل المراد من «المستقبل»: الماضى، أى لم عذبكم سابقا بذنوبكم حيث جعل منكم القرده و الخنازير و أشباه ذلك؟ بَلْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ تَعَالَى إِنْ أَحْسَنْتُمْ جُوزَيْتُمْ و أن أسأتم جوزيتم كما يجازى غيركم من الناس يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْعَاصِينَ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، لأنه لا نبوة و لا عواطف خاصة بين الله و بينكم وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فليس

(١) البقرة: ٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٤

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٩ إلى ٢٠]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)

شيء من نفس الله حتى لا يملكه سبحانه- كما تدعون أنتم من كونكم أبناءه- وما بينهما من سائر المخلوقات والمراد بالسماء هنا: الكواكب وما يرى في ناحيتها- كما هو المنصرف- حتى يتصور ما بينهما، لا جهة العلو وإليه سبحانه المصير المرجع والمآل، فليس هناك غيره يملك شيء أو يرجع إليه في أمر.

[٢٠] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ لَكُمْ الْأُصُولَ وَالْفُرُوعَ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَي انقطاع منهم، فلم يكن قرب بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نبي، وقد كنتم في جهالة وضلالة، والآن جاء المعلم المنقذ الهادي. ولعل سر «تبيين الأمر» وبوضوح أن الدنيا لا تستقيم إلا بهدى السماء، فإنه لما انقطع الوحي في الفترة ساد العالم خراب وفوضى لا مثيل لها، وبذلك يكون تجربة عملية، وإنما جاء الرسول لئلا تحتجوا وأن تقولوا يوم القيامة: ما جاءنا من بَشِيرٍ وَ نَذِيرٍ حتى نهتدى ونصلح فقد جاءكم بَشِيرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ اتقى بالجنة وَ نَذِيرٌ لِمَنْ كَفَرَ أَوْ عصى بالنار وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يقدر على أن يرسل الرسول، فليس لشخص أن يقول: كيف يكون هذا رسول؟

[٢١] ويرجع السياق إلى قصة بنى إسرائيل الذين نقضوا كل المعاهدات والمواثيق ولم يفوا لموسى نبيهم المعترف به، فكيف يفون غيره ممن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٥

لا يعترفون به عنادا وحسدا؟! واذكر إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمت الله عليكم فقابلوها بالإطاعة واتباع الأحكام إذ جعل فيكم أنبياء فقد كان سبعون نبيا في عهد موسى عليه السلام. ولعل سر كثرة الأنبياء عليهم السلام في تلك الأزمنة كون البشر في مثل حال الأطفال الذين يحتاجون إلى عدد من المرين، بخلاف عهدى عيسى عليه السلام والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حيث نضج البشر أكثر فأكثر، كالكبار الذين لا يحتاجون إلّا إلى مرشد واع.

وهنا نكتة لا بد من ذكرها وهي أن الانهزامية الغربية التي غزت نفوس المسلمين جعلتهم يفكرون فيما يخص الأنبياء عليهم السلام و الأهم كما فكر «دارون» وتلاميذه القائلون ب «نظرية التطور» مع العلم أن القرآن والسنة يكذبون ذلك وأن أول بشر على وجه الأرض كان نبيا أوتى النبوة من بين جميع أولاده وزوجته الذين بعث إليهم نبيا. وهكذا تسلسلت الأمم كلما ابتعدوا عن النبي توحشوا وكلما اقتربوا إليه ارتقوا في مدارج الإنسانية. وبنو إسرائيل كانوا أمة بعيدة عن الإنسانية والفضيلة- بأنفسهم- لا أن من هم قبلهم كانوا أكثر توحشا كما يقول أصحاب «نظرية التطور» ويتصورون كذبا واختلافا وتقليدا أن إنسان الغاب و قبله تطور من القرد، ومن حسن الحظ أن علماء الغرب نقدوا رأى «دارون» وأقاموا أدله على بطلانه، لكن المنهزمين عندنا لا زالوا في هزيمتهم النكراء يلعبون قصاب «دارون».

وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا فَقَدْ كَانَ فِيهِمُ الْمُلُوكُ وَالسَّاسَةُ وَالْقَادَةُ وَآتَاكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢١ إلى ٢٢]

يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَزِدُّوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)

أى أعطاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين من إنزال المن والسلوى والفضل على سائر الأمم الذين فى زمانهم، بجعلهم من نسل الأنبياء، ولبث الأنبياء فيهم، وجعلهم ملوكا، وإغراق أعدائهم إلى غيرها.

[٢٢] يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ الَّتِي قَدَسَتْ وَطَهَّرَتْ مِنَ الشَّرْكِ وَبُورِكَتْ بِكَثْرَةِ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَطِيبَ الْهَوَاءِ وَكَثُرَ الْأَنْبِيَاءُ فِيهَا، وَقَدْ كَانُوا فِي مِصْرَ عِبِيدًا وَهَاهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَيُرِيدُ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا الشَّامَ لِيَكُونُوا فِيهَا سَادَةً وَمُلُوكًا الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا السِّيَادَةَ وَالسَّعَادَةَ وَلَا تَزِدُّوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ أَيْ لَا تَرْجِعُوا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَمَرْتُمْ بِدُخُولِهَا فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَثَوَابَ الْآخِرَةِ، بِسَبَبِ تَخْيِيرِكُمْ الْأَمْكِنَةَ الْمُرِيحَةَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَعَدَمِ سَمَاعِ أَمْرِ اللَّهِ الْمَوْجِبِ لِحِرْمَانِكُمْ مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ.

[٢٣] قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ قَوْمًا جَبَّارِينَ شَدِيدِي الْبَأْسِ وَالْبَطْشِ وَإِنَّا لَنَنُودِلُهَا أَيْ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا أَيْ يَخْرُجَ الْجَبَّارُونَ مِنْهَا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ بَدُونَ تَعَبٍ أَوْ نَصَبٍ أَوْ قِتَالٍ فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ فِيهَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٧

[سورة المائدة (٥): آية ٢٣]

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)

قال فى «المجمع»- بتخليص:- قال المفسرون: لَمَّا عَبَرَ مُوسَىٰ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ وَهَلَكَ فِرْعَوْنُ، أَمَرَهُمْ سُبْحَانَهُ بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَلَمَّا نَزَلُوا عَلَىٰ نَهْرِ الْأُرْدُنِ خَافُوا مِنَ الدُّخُولِ، فَبَعَثَ مُوسَىٰ مِنْ كُلِّ سَبْطٍ رَجُلًا وَهُمْ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا «١»، فَعَايَنُوا مِنْ عَظَمِ شَأْنِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ شَيْئًا عَجِيبًا فَرَجَعُوا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَخْبَرُوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَكْتُمُوا ذَلِكَ فَوَفَىٰ اثْنَانِ مِنْهُمْ يَوْشَعَ بْنَ نُونٍ وَكَالِبُ بْنُ يَوْقَانَ وَعَصَى الْعِشْرَةَ وَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ وَفَشَا الْخَبْرُ فِي النَّاسِ، فَقَالُوا: إِن دَخَلْنَا عَلَيْهِمْ تَكُونُ نِسَاؤُنَا وَأَهَالِنَا غَنِيمَةً لَهُمْ، وَهَمُوا بِالْانْصِرَافِ إِلَىٰ مِصْرَ وَهَمُوا بِيَوْشَعَ وَكَالِبِ أَنْ يَرْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ، فَاجْتَاظَ لِذَلِكَ مُوسَىٰ وَقَالَ: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي»، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمْ: «إِنَّهُمْ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعِصِ اللَّهَ فِي ذَلِكَ». فَبَقُوا فِي الثِّيَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي سِتِّ عَشْرِ فَرَسَخًا وَهُمْ سِتْمَانَةُ أَلْفٍ مَقَاتِلٍ لَا تَتَخَرَّقُ ثِيَابَهُمْ وَتَثَبَتْ مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى، وَمَاتَ النُّبَاءُ غَيْرَ يَوْشَعَ وَكَالِبِ، وَمَاتَ أَكْثَرُهُمْ وَنَشَأَتْ ذُرِّيَّتُهُمْ فَخَرَجُوا إِلَىٰ حَرْبِ أَرِيْمَا وَفَتْحُهَا «٢».

[٢٤] قَالَ رَجُلَانِ هُمَا يَوْشَعَ وَكَالِبُ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ فَيَتَّبِعُونَ أَوَامِرَهُ وَزَوَاجِرَهُ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِالْدِينِ وَالْعَقْلِ ادْخُلُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ أَيْ عَلَى هَوْلَاءِ الْجَبَّارِينَ الْبَابِ أَيْ بَابِ

(١) المائدة: ١٣.

(٢) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٠٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٨

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢٤ إلى ٢٥]

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَنُودِلُهَا أَيْدَاءً مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِ دُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)

المدينة فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ أَيْ الْبَابَ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ فَقَدْ كَانَ أَخْبَرَهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنَّصْرِ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا فِي نَصْرِهِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَى

الجبارين إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إيمانا حقا، فإن من توكل على الله كفاه.

[٢٥] قالوا أى قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: يا موسى إنا لن ندخلها أى لن ندخل المدينة أبداً ما داموا فيها أى ما دام الجبارون فى المدينة، فقد خافوا منهم و لم يثقوا بوعده الله النصر لهم فآذنه يا موسى أنت و ربك فقَاتِلَا الجبارين. و لعل مرادهم ليس ما ينافى نزاهة الله عن التجسيم، بل قصدوا أن الرب يدفع عنهم، كما قال سبحانه: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى «١»، و قال: و جَاءَ رَبُّكَ «٢»، و لذا لم ينكر موسى عليه السلام مقالتهم، أو أنهم قصدوا التجسيم و أنكر موسى لكن القرآن لم يحك ذلك لأنه ليس بصدد بيان الواقعة بكل مزاياها إنا هاهنا قاعدون ننتظر تطهير المدينة من الجبارين حتى ندخلها، أما أن نحارب الجبارين فلا طاقة لنا بذلك و لا نقدم عليه.

[٢٦] قال موسى عليه السلام معتذرا لله عن مخالفة قومه مخاطبا الله سبحانه:

(١) الأنفال: ١٨.

(٢) الفجر: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٢٩

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي هَارُونَ فَأَنَا وَحْدِي الَّذِي أَطِيعُ أَوْامِرَكَ وَ كَذَلِكَ أَخِي هُوَ الَّذِي يَطِيعُنِي وَ يَسْمَعُنِي إِذَا أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ، أما هؤلاء فليسوا كذلك، أما يوشع عليه السلام و من كان على شاكلته فلعلهم لم يكونوا حاضرين إذ ذاك عند هذا الحوار فأفرق أى افصل اللهم بيننا أنا و أخى و بين القوم الفاسقين الذين لا يطيعون الأوامر. و المراد ب «الفرق» عدم إجراء حكم واحد عليهم فى الدنيا و الآخرة، فإنهما عليهما السلام قد باينا قومهما بالإطاعة حين عصى أولئك.

[٢٧] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ إِذْ عَصَوْنِي وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِوَعْدِي فَإِنَّهَا أَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ دَخُولُهَا، أى نمنعهم عنها أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ مِنْ «تاه» إِذَا ضَلَّ وَ لَمْ يَهْتِدِ الطَّرِيقَ إِلَى مَقْصَدِهِ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَمشُونَ إِلَى اللَّيْلِ فَإِذَا أَرَادُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي السَّفَرَ رَأَوْا أَنفُسَهُمْ فِي مَكَانِهِمُ السَّابِقِ فَلَا تَأْسَ أَى لَا تَحْزَنْ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ وَ أَنَّهُمْ كَيْفَ تَاهُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً وَ وَقَعُوا فِي هَذِهِ الصَّعُوبَةِ.

[٢٨] إِنْ حَالَ الْيَهُودِ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ وَ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ بِلَا مَبْرَرٍ حَالَ ابْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِيلَ وَ قَابِيلَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى آدَمَ أَنْ يَدْفَعِ الْوَصِيَّةَ وَ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ إِلَى هَابِيلَ وَ كَانَ قَابِيلَ أَكْبَرَ، فَبَلَغَ قَابِيلَ فِعْظَ فَقَالَ: أَنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٠

[سورة المائدة (٥): آية ٢٨]

لَنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

أولى بالكرامة و الوصية. فأمرهما أن يقربا قربانا بوحي من الله إليه ففعلا، فتقبل قربان هابيل حيث أخلص و قدم خير ماله، و لم يتقبل قربان قابيل حيث أساء النية و قدم شر ماله. و لما رأى قابيل أن قربانه لم يقبل حسد و عمد إلى هابيل و وضع رأسه بين حجرين فشدخه فمات، و لم يدر ماذا يصنع بجثته، فجاء غرابان فقتل أحدهما الآخر و دفن جثته، فتعلم قابيل فدفن جثته هابيل و آتل أى أقرأ عليهم أى على اليهود يا رسول الله تيا أى خبر ابني آدم هابيل الصالح و قابيل الطالح بالحق أى تلاوة بالحق و الصدق، فليس فيه

كذب إذ قُرباً قُرباناً القربان هو ما يقصد به التقرب إلى الله تعالى فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَهُوَ هَابِيلُ وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ وَهُوَ قَابِيلُ، قالوا: وكانت علامة القبول أن تأتي نار من السماء فتأكل ما تقبل، فأكلت النار قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل قال قابيل الذي لم يتقبل قربانه لهابيل عليه السلام: لَأَقْتُلَنَّكَ حَسداً و عنادا قال هابيل عليه السلام: وَ مَا ذَنْبِي؟ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَ لَعَلَّ هَذَا كَانَ تَنْبِيهاً لَهُ لِأَن يَتَقَى اللَّهُ حَتَّى يَحْبُوهُ بِكَرَامَتِهِ، وَ لَمْ يَكُنْ تَبَجَّحاً قَطْعاً.

[٢٩] ثم قال هابيل عليه السلام لقابيل: لَئِنْ بَسَطْتَ أَيْ مَدَدْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي أَيْ تَرِيدَ قَتْلِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ أَيْ مَا دِي يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ فَإِن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣١

[سورة المائدة (٥): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)

من يريد قتل إنسان ظلماً لا يجوز للمظلوم إلا المدافعة لا قتل الظالم، إلا إذا توقف الدفاع عليه. أو المراد: إن أردت قتلي ظلماً فإني لست أريد قتلك كذلك إني أخاف الله رب العالمين في أن أقتل أحداً ظلماً.

[٣٠] إني أريد أن تبوء أي ترجع أنت يا قابيل بإثمي أي إثم قتلي وإثمك أي وزرك الذي عليك من غير جهة القتل، ومعنى «الإرادة» هنا مجازي لأنه إرادة الفاعل، فإن الإنسان إذا أراد شيئاً يقول: أردت، و إذا لم يرد أن يفعله و أراد غيره فعله يقول: أردت أن يفعله غيري.

فالتعبير بالإرادة هنا للمقابلة نحو قوله: تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ «١»، فقولنا: «أريد أن تذب» يراد به «أني لا أذنب بل أنت تحمل الذنب» لا أنه إرادة حقيقية من المتكلم لذنب المخاطب، فلا يقال: كيف يصح أن يريد هابيل عليه السلام أن يأثم قابيل؟! فَتَكُونَ أَنْتَ يَا قَابِيلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الْمَلْزَمِينَ لَهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلَمُونَ أَنْفُسَهُمْ.

[٣١] فَطَوَّعَتْ أَيْ شَجَعَتْ لَهُ أَيْ لِقَابِيلُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ هَابِيلُ فَقَتَلَهُ قَالُوا: قَتَلَهُ غِيلاً فَأَصْبَحَ قَابِيلُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ

(١) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٢

[سورة المائدة (٥): آية ٣١]

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِى سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) خسروا الدنيا والآخرة.

[٣٢] و حين قتله لم يدر كيف يصنع بجثته لأنه لم ير من قبل ذلك ميتاً فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ أَيْ يَطْلُبُ وَ يَفْتَشُ وَ يَشِيرُ التراب ليدفن غراباً آخر قد قتله، إذ جاء غرابان فاقتلا فقتل أحدهما الآخر فدفنه لِيُرِيَهُ أَيْ يَرِي الغراب قابيل كَيْفَ يُورِى أَيْ يَسْتَرُ سَوْأَةَ أَيْ جثته أَخِيهِ وَ إِنَّمَا سَمِيَ الْبَدَنُ «سَوْأَةً» لِأَنَّهُ سَاءَ وَ كَرِهَ أَنْ يَرَى بَدَنَهُ الْمَقْتُولِ قَالَ قَابِيلُ لِمَا رَأَى فَعَلَ الْغُرَابُ: يَا وَيْلَتَى أَيْ يَا وَيْلِي وَ «الويل» بمعنى الهلاك، أَيْ: يَا هَلَاكِي احضر فهذا أو انك، نحو: يَا عَجِبَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فِي الْعِلْمِ بِكَيْفِيَةِ الْخَلَاصِ مِنْ جثته الميت فأورى أَيْ استر بالتراب سَوْأَةَ أَخِي ثُمَّ دَفَنَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ عَلَى قَتْلِهِ، وَ لَمْ يَكُنْ نَدِمَ تَوْبَةً، وَ إِنَّمَا نَدِمَ فَعَلَ، فَلَا يُقَالُ: كَيْفَ يَعَاقِبُ وَ قَدْ تَابَ؟

قال ابن عباس: لما قتل قابيل هابيل أشاك الشجر، و تغيرت الأطعمة، و حمضت الفواكه، و أمر الماء، و اغبرت الأرض، فقال آدم: قد

حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل، فانشأ يقول:

تغيرت البلاد و من عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٣

[سورة المائدة (٥): آية ٣٢]

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

تغير كل ذى لون و طعم و قل بشاشة الوجه الصبيح

[٣٣] و لما حكى سبحانه قصة ابني آدم و أظهر بشاعة الجريمة، ذكر جملة من الحدود على الجرائم، و ابتداء بالقتل للمناسبة، فقال

تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ «أجل» في اللغة بمعنى الجناية- على أحد الوجوه- يقال:

«أجل عليهم شرا» أى جنى. أى من ابتداء تلك الجناية. ف «من» ابتدائية و ذلك إشارة إلى قتل قابيل هابيل أى من وقت تلك الجناية

قررنا الحكم الآتى و هو أن «من قتل نفسا» الآية. و بعض المفسرين يفسر «أجل» بالمعنى المتعارف، فالمعنى: من أجل الاعتداء الذى

لا موجب له و لا مبرر على المسالمين المتورعين الذين لا يريدون شرا و لا مدافعة كتبنا أى فرضنا على بنى إسرائيل و ليس الحكم

خاصا بهم و إنما أتى بذكرهم لأنهم مورد البحث و الكلام، و أنهم الذين عاكسوا أحكام الله و قتلوا أنبيائه.

أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا أَى إِنْسَانًا قَتَلًا ظَلَمًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَى:

لا بمقابل نفس حتى يخرج قتل القاتل نفسا من موضوع الحكم أو فساد في الأرض أى لم يكن المقتول مفسدا حتى يستحق بذلك أن

يقتل فكأنما قتل الناس جميعا أنه باعتدائه على حياة نفس واحدة بلا مبرر كان كمن اعتدى على الحياة كلها و من أحياها لا إحياء من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٤

[سورة المائدة (٥): آية ٣٣]

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)

العدم، بل إحياء بمعنى التحفظ على حياتها و إنقاذها من الهلاك فكأنما أحيا الناس جميعا حيث أن تحفظه على حياة نفس واحدة

يكون كتحفظه على الحياة كلها، لأن الحياة كل سار فى كل حى، فالتعدى على فرد تعدى على الكل، كما أن التحفظ على فرد تحفظ

على الكل و لقد جاءتهم أى أتت إلى بنى إسرائيل- الذين يدور الكلام حولهم- رسلنا أنبياؤنا إليهم بالبينات أى الأدلة الواضحة الدالة

على صدق نبوتهم.

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعِيدَ ذَلِكَ أَى بَعْدَ مَجِيءِ الرِّسَالِ إِلَيْهِمْ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ أَى يَجَاوِزُونَ الْحَدَّ، فَقَدْ كَانُوا

يستحلون المحارم و يسفكون الدماء.

[٣٤] و بمناسبة قتل النفس بغير حق، ذكر سبحانه حكم من يسعى فى الأرض فسادا. و

قد ورد فى شأن نزول هذه الآية: أن قوما من بنى ضبة قدموا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مرضى فبعثهم إلى إبل الصدقة

يشربون من أبوها و يأكلون من ألبانها فلما برءوا و اشتدوا قتلوا ثلاثة ممن كانوا فى الإبل و ساقوا الإبل، فبعث إليهم عليا عليه السلام

فأسرهم، فنزلت هذه الآية، فاختر رسول الله القطع، فقطع أرجلهم و أيديهم من خلاف.

(١)

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٥

و

في بعض الروايات: أنها نزلت في قطاع الطرق.

و لا- منافاة بين الأمرين إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ أَى يحاربون أوليائه فإن محاربة المتعلقين بشخص هو محاربة ذلك الشخص، كقوله تعالى:

(يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) «١»، وَرَسُولُهُ أَى يحاربون رسوله. وهذا أيضا كذلك فإن محاربة أولياء الرسول محاربة للرسول وَيَشِيعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا بِالْإِفْسَادِ وَشَهْرَ السَّلَاحِ لِلْإِخَافَةِ. و لا يخفى أنه لو لم نقل بعموم الآية لكل من صدق عليه هذا الموضوع، كان اللازم أن يحمل على قطاع الطريق، لما ورد به الروايات، و كأنه اعتبر محاربة الناس و إخافتهم محاربة لله و الرسول.

أَنْ يُقْتَلُوا تَقْتِيلًا، و إنما عدى ب «التفعيل» لأن المراد منه قتلهم كلهم، و باب «التفعيل» يدل على التكثير كما قال تعالى: وَ عُلِّقَتِ الْأَبْوَابُ «٢»، أَى غلقت كل باب أَوْ يُصَيِّمُوا بِالْمَشْنَقَةِ و «أو» هنا للتخيير، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، و الاختيار إلى الإمام في ذلك أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ بِأَنْ تَقَطَّعَ الْيَدَ الْيُمْنَى وَ الرَّجْلَ الْيُسْرَى، فيكون قطع كل واحدة خلاف الجهة التي يقع فيها قطع الأخرى أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ أَى من بلد إلى بلد حتى يتوب

(١) الأحزاب: ٥٨.

(٢) يوسف: ٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٤ إلى ٣٦]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)

و يرجع و قوله سبحانه «إنما» معناه: أن جزاءه ذلك فحسب، لا جزاء له سواه ذلك الذي ذكر أنه يفعل بهم لهم خزي في الدنيا أى عقوبته و فضيحه و لهم في الآخرة عذاب عظيم في النار.

[٣٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنِ التَّوْبَةُ قَبْلَ الْوُقُوعِ فِي يَدِ حَاكِمِ الشَّرْعِ تَقْبَلُ، أما لو وقع ثم تاب فإنه لا تقبل توبته بالنسبة إلى درء الحد، بل يجرى عليه الحد فاعلموا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ رَحِيمٌ لا يعاقبهم لا في الدنيا و لا في الآخرة.

[٣٦] ثم يتوجه القرآن الحكيم إلى تربية الوجدان إلى جنب تربية الخارجين عن طاعته بالسيف و العقاب يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ يَا تَيَّانِ أَمْرِهِ وَ اجْتَنَابِ زَوَاجِرِهِ وَ ابْتَغُوا أَى اطلبوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ السَّبَبَ الَّذِي يَقْرَبُكُمْ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ: من فعل الخيرات و الأعمال الصالحة وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَى رجاء أن تفلحوا، فإن الرجاء قائم في الفوز و الفلاح ما دمتم تتقون و تجاهدون.

[٣٧] و لا تكونوا كالذين كفروا، الذين لم يتقوا و لم يجاهدوا و لا طلبوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٧

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٧ إلى ٣٨]

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)

رضاه سبحانه و الوسيلة إليه إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَمِثْلَهُ مَعَهُ بَأْسٌ كَانَ لَهُمْ ضَعْفٌ مَّا فِي الْأَرْضِ، و هذا من باب المثل، و إلا فالمراد كل شيء، فإن اللفظ قد يأتي للكثرة لا للتحديد نحو: إِنَّ تَسْبِيحَهُمْ لَكُنْزٌ مِّنْ مَّا فِي الْأَرْضِ لِيُقْتَدُوا بِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِ وَمِثْلَهُ، بمعنى: أن يجعلوه فداء لهم و بدلًا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حتى ينجوا كما اعتادوا الفداء و الخلاص في الدنيا ما تُقْبَلُ مِنْهُمْ الْفِدَاءُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه.

[٣٨] يُرِيدُونَ أَى يَرِيدُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَتَمَنُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا حَيْثُ أَنَّ عَذَابَهُمْ دَائِمٌ لَا انْقِطَاعَ لَهُ وَ لَا مَدَّةَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ دَائِمٌ ثَابِتٌ لَا يَزُولُ.

[٣٩] و هنا يرجع السياق إلى بيان الحدود التي افتتحت بقصة ابني آدم وَ السَّارِقِ وَ السَّارِقَةُ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ كَلَّا عَلَى حِدَةٍ حَتَّى لَا يَظُنَّ أَنَّ

(١) التوبة: ٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٨

[سورة المائدة (٥): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

الحكم لا يشمل السارقة، و قدم السارق لأنه الغالب، و في آية الزنا قدم الزانية لامتهان بعض النساء للزنا فأقطعوا أيديهما الأربع أصابع من اليد اليمنى، و اليد تطلق على مجموع العضو، و إلى المرفق، و إلى الزند، و على الأصابع فقط. و لم يقل «يداهما» لما استحسنت في العربية من أنه متى اجتمع تثنيتان و هو قوله «أيديهما» مضافه إحداهما إلى الأخرى جيء بالأول بلفظ الجمع، كقوله سبحانه: فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا «١»، و لعل الأصل أن الجوارح في الإنسان أكثر من واحد فتكون في إنسانين جمعاً، و «الفاء» إنما أتت في «الخبر» دلالة على الترتب و الجزاء. و للقطع شروط مذكورة في الفقه جزاءً بما كسبها من السرقة نكالا من الله أي عقوبه على ما فعلاه و الله عزيرٌ حكيمٌ يأخذ بعزته و يحكم بذلك بحكمته.

[٤٠] فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ بِأَنْ نَدِمَ عَنِ السَّرِقَةِ وَ أَصْلَحَ صَارَ صَالِحًا فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ وَ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر لمن تاب و يرحم عباده العصاة إذا ندموا و أفلحوا.

[٤١] إن ما ذكر من عقاب الله و غفرانه مقتضى سلطته المطلقة أَلَمْ تَعْلَمْ

(١) التحريم: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٣٩

[سورة المائدة (٥): آية ٤١]

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَبَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَبَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)

أيها الإنسان أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَهُ التَّصَرُّفُ فِي الْجَمِيعِ كَمَا يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ حَسَبَ حُكْمَتِهِ الْبَالِغَةُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يعجزه شيء.

[٤٢] و في سياق بيان الحدود و ذكر مساوي اليهود يتعرض القرآن الحكيم إلى قصة زنا وقعت في اليهود و راجعوا الرسول صلى الله

عليه وآله وسلم في حكمها. فقد

روى عن الإمام الباقر عليه السلام ما ملخصه «أن امرأة شريفة من خبير زنت و قد كان حكم زنى المحصن في التوراة الرجم، لكنهم راجعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجاء أن يخفف عنهم و يأخذوا بذلك، فأفتاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرجم، و ذكر أنه حكم التوراة أيضا، لكن جماعة من علمائهم أنكروا ذلك فجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «ابن صوريا» أعلمهم حكما فاعترف هو أن الحكم في التوراة هو الرجم و أنهم حرّفوا حكم التوراة فوضعوا مكانه أن يجلد أربعين جلدة ثم يسود وجهه و يطاف على حمار مقلوبا، تشهيرا به!»
«١».

و في بعض التفاسير: أنه كان بين بني النضير و قريضة معاهدة في باب القتل على خلاف حكم التوراة، فقد كان حكم التوراة القتل للقاتل، و لكن كانت معاهدة بين القبيلتين أنه إن قتل بنو قريضة من بني النضير قتل القاتل، و إن قتل بنو النضير من بني قريضة أخذت الدية،

(١) راجع فقه القرآن: ج ٢ ص ٣٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٠

فأراد بنو قريضة المراجعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحكم ليحكم لهم بحكم التوراة و قال «ابن أبي» المنافق الصديق لهم: إن حكم محمد بما ترضون- يريد خلاف حكم التوراة- فارضوا به و إلا فلا تقبلوه «١».

أقول: و من المحتمل كون الآية إشارة إلى القصتين، و على أى حال فالله سبحانه يسلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مخالفة المنافقين و اليهود له فقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ أَيُّ لَّا يُوْجِبُ حَزْنَكَ وَ غَمَّكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أَيُّ يَسْرِعُونَ للدخول فيه بالقيام على خلافك و عدم قبول حكمك من المنافقين الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ جَمَعَ «فوه» بمعنى «الغم» أى أن إيمانهم لفظى و بمجرد الشهادتين، لا عن قلب و عقيدة، و المقصود ابن أبى كما تقدم و لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ بل بقيت على كفرها و ضلالها.

و مِنَ الَّذِينَ هَادُوا أَيُّ يَهُودُ و المراد بمسارعة اليهود في الكفر تركهم لأحكام التوراة و تمسكهم بالأحكام المخالفة لما أنزل الله فإنه كفر في مرتبة اليهودية و إن كان اليهود كفارا من أصلهم و بمقتضى بقائهم على اليهودية سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَيُّ هَوْلَاءُ يَهُودٍ- أو مع المنافقين- مبالغون في سماع الكذب و قبول ما يفتره أبحارهم

(١) راجع مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤١

و شياطينهم سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنهم خاضعون لقول غيرك ممن لم يأتوك لتحكيمك في قصة الزنا أو في قصة القتل يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ جَمَعَ «كلمة» أى كلام الله تعالى مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ أَيُّ مِنْ بَعْدِ أَنْ وَضَعَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي مَوَاضِعِهِ، كما حرّفوا حكم زنا المحصن الذى هو الرجم إلى الجلد، و كما حرّفوا حكم القتل قصاصا إلى الدية يَقُولُونَ أَيُّ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ يَهُودُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنْ أُوتِيتُمْ أَيُّ أُعْطَاكُمْ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هَذَا وَ هُوَ الْجِلْدُ فِي الزَّانِي وَ الدِّيةُ فِي الْقَتْلِ فَخَذُوهُ وَ أَقْبَلُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ هَذَا الْحُكْمِ، بل حكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما في التوراة من رجم الزانى و قتل القاتل فَاحْذَرُوا عَنْ قَبُولِ قَوْلِهِ.

ثم توجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تسلياً له عن نفاق المنافقين و تحريف اليهود قال سبحانه: وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ أَيُّ امْتِحَانَهُ، فقد أراد الله سبحانه اختبار اليهود و المنافقين في هذه القضية ليتبين عنادهم و غيهم و أنهم لا يرجعون إلى حكم الله، و

يظهر كذبهم في قولهم أنهم متدينون فلن تملك له من الله شيئاً أى لن تستطيع يا رسول الله أن تدفع عنه من أمر الله شيئاً، بل إرادته نافذة و حكمه ماض أولئك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٢

[سورة المائدة (٥): آية ٤٢]

سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)

المنافقون و اليهود الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، فلم يلفظ بهم اللطف الخاص - كما يلفظ بسائر المؤمنين - حتى تتطهر قلوبهم من أدران الكفر، إن الله سبحانه بين لهم الدلائل و نصب لهم الحجج لكنهم أبوا من الرضوخ و لذا قطع الله تعالى لطفه عنهم.

لَهُمْ أَى للمنافقين و اليهود فى الدنيا خِزْيٌ فضيحة و ذلة، أما المنافقون فلظهور نفاقهم عند المؤمنين مما يوجب التنفر منهم، و أما اليهود فبضرب الذلة عليهم إلا بحبل من الله و حبل من الناس و لَهُمْ فى الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار، و اليهود معلوم حالهم هناك.

[٤٣] سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ تَكَرَّرَ لِتصوير واقعهم البشع فإن الإنسان إذا أراد أن يؤكد شيئاً قاله أكثر من مرة حتى يقع فى نفس السامع موقع القبول أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ جمع «أكال» مبالغة ل «أكل» أى كثير و الأكل للرشوة و سائر أقسام الحرام، فَإِنْ جَاؤَكَ يا رسول الله ليجعلوك حكماً فيما بينهم فى قصة الزنا و القتل فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بحكم الله سبحانه أو أَعْرِضْ عَنْهُمْ و قد جاز الإعراض لأنهم كانوا يعلمون بالحكم حيث كان مثبتاً فى التوراة فلم يكن الإعراض يسبب سحق حكم الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرِّبَاثِيُّونَ وَ الْأَخْبَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)

سبحانه و جهالة المجتمع به و إن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فلم تحكم بينهم فلن يَصُرُّوكَ شيئاً إذ النفع و الضرر بيد الله سبحانه لا بيد غيره و إن حَكَمْتَ يا رسول الله فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى بالعدل الذى هو إجراء حكم الله من رجم الزانى المحصن و قتل القاتل شخصاً ما إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ أى العادلين الذين يعدلون فى حكمهم.

[٤٤] إن أمر هؤلاء اليهود عجيب فإنهم لا يعترفون بك رسولا و مع ذلك يحكمونك فى قضيتهم و ذلك ليس إلا أنهم يريدون فرارا من حكم التوراة إلى حكم يطابق أهواءهم وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ أى يجعلونك حكماً يا رسول الله وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ أى و الحال أن لديهم التوراة التى يعترفون بها كتاباً فيها حُكْمُ اللَّهِ بالنسبة إلى الزنا و القتل ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ التحكيم، أو من بعد حكمك فلا يقبلون حكمك أيضاً وَ مَا أَوْلَيْكَ اليهود و المنافقون الذين حكموك، ثم تولوا بِالْمُؤْمِنِينَ بالتوراة أو بحكمك، و إنما يظهرون الإيمان كذبا و اختلاقاً.

[٤٥] ثم بين سبحانه أن التوراة التى أَعْرِضَ عَنْ حُكْمِهَا فى قصة الزنا و القتل كتاب سماوى يجب العمل به، و من المعلوم أنه ليس المراد بذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٤

التوراة المحرّفة التى بأيدى اليهود اليوم، فقد كان قسم من التوراة محفوظاً عن التحريف إلى زمان النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ،

كما أن المعلوم أن المراد كون التوراة في وقتها هدى و نور، أما إذا جاء أهدي منها و أكثر نورا و نسخ قسما من أحكامها لم يعمل بالمنسوخ منها، و ذلك كما لو قلنا:

أن القرآن هدى و نور، يراد المجموع من حيث المجموع، لا أنه يعمل به حتى بالنسبة إلى الآيات المنسوخ حكمها على تقدير تسليم النسخ في القرآن.

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى يَهْتَدَىٰ بِهِ النَّاسُ إِلَىٰ سَبِيلِ الْحَقِّ وَ نُورٌ يَنِيرُ دُرُوبَ الْحَيَاةِ الْمَظْلَمَةِ- و لعل العطف للبيان- يَحْكُمُ بِهَا أَىٰ بِالتَّوْرَةِ النَّبِيِّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ وَ أَدْعُوا لِحُكْمِهِ، و من جملة أولئك الأنبياء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الَّذِي حَكَمَ عَلَىٰ طَبَقِهَا فِي قِصَّةِ الزَّانِي وَ الْقَاتِلِ لِلَّذِينَ هَادُوا أَىٰ أَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا كَانَ لِلَّذِينَ هَادُوا أَمَا غَيْرُهُمْ مِنَ النَّصَارَىٰ وَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ حَسَبَ مَعْتَقَدِهِمْ.

و قد ثبت في الشريعة جواز الحكم لكل أهل كتاب بكتابهم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام «و الله لو ثبت لى الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، و بين أهل الإنجيل بإنجيلهم، و بين أهل الزبور بزبورهم، و بين أهل القرآن بقرآنهم»

«١»، كما

ثبت قولهم عليهم السلام «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم»

«٢».

(١) بحار الأنوار: ج ٣٠ ص ٦٧٢.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٩ ص ٣٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٥

لكن من المعلوم أنه ليس كل الأحكام كذلك، بل من الأحكام ما لا يجوز أن يحكم بها، و القاعدة الكلية: أنه كل ما أجاز الإسلام أن يحكم به الحاكم على طبق دياناتهم جاز ذلك، و كل ما لم يجوز كان اللزم الرجوع إلى حكم الإسلام.

وَ يَحْكُمُ بِالتَّوْرَةِ الرَّبَّانِيُّونَ وَ هُمُ الْمُتَدِينُونَ فَإِنَّ «رَبَانِي» مَنْسُوبٌ إِلَى «الرَّبِّ» مِنْ غَيْرِ قِيَاسٍ وَ الْأَحْبَابُ جَمْعُ «حَبْرٍ» بِالْكَسْرِ وَ «حَبْرٌ» بِالْفَتْحِ، وَ هُوَ الْعَالِمُ، أَىٰ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَ الْأَتْقِيَاءَ وَ الْعُلَمَاءَ يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ، وَ إِنَّمَا يَحْكُمُ هَؤُلَاءِ بِالتَّوْرَةِ بِسَبَبِ مَا اسْتَحْفَظُوا أَىٰ اسْتَدْعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَىٰ حَيْثُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَهُمْ حَافِظِينَ لِلْكِتَابِ وَ اتَّمَنَّهُمْ عَلَيْهِ فِي أَنْ يَحْكُمُونَ بِمُوجِبِهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ أَىٰ أَنَّ النَّبِيِّينَ وَ الرَّبَّانِيِّينَ وَ الْأَحْبَابَ كَانُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ أَنْ مَا فِي الْكِتَابِ حَقٌّ وَ صَدَقَ. وَ الْحَاصِلُ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ لِأَنَّهُ وَدِيعُهُ عِنْدَهُمْ وَ هُمْ يَشْهَدُونَ بِصَدَقِهِ.

و حيث بين سبحانه أن التوراة يحكم بها أولئك الصفوة و أنهم محل وديعة و الشهداء على صحته، بين أن مقتضى ذلك أن يكون الإنسان المتصف بهذه الصفات شجاعا في إظهار أحكامه فلا يخون و لا يكتم و لا يخشى الناس فلا تخشوا الناس في إظهار أحكام التوراة و منها مسألة رجم الزانى و قتل القاتل و أحشون في ترك أمرى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٦

[سورة المائدة (٥): آية ٤٥]

وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)

و تحريف حكى فإن النفع و الضرر بيدى و لا تشتروا بمقابل آياتى و أحكامى ثمنا قليلا حيث أنكم إذا كتتمت الأحكام لأجل الرشوة

والرئاسة كنتم كمن يعطى السلعة ليأخذ المال، وكل شيء من المال والرئاسة في مقابل حكم الله ثمن قليل لأنه يزول و ينتقل و تبقى تبعه التحريف و الكتمان و الحكم بخلاف ما أنزل الله و مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَعَلَّ وَجْهَ الْإِتْيَانِ بِالنَّفْيِ دُونَ أَنْ يَقُولَ «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» ليشمل الحاكم بخلاف و الساكت الكاتم، فإن من يعلم حكم الله و يسكت و يكتم يكون مصداقاً لـ «مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» فَأَوْلَيْكَ هُمْ الْكَافِرُونَ و من المعلوم أن عدم الحكم كفر عملي لا كفر اعتقادي، إلا إذا رجع إلى الجحود لأصل من أصول الدين، و إنكار ضروري من ضروريات الإسلام، و يسمى كافراً لأنه ستر الحق، فإن الكفر لغه بمعنى الستر.

[٤٦] وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَى عَلَى بنى إسرائيل فيها أى فى التوراة أَنَّ النَّفْسَ تَقْتُلُ بِمَقَابِلِ النَّفْسِ فَإِذَا قَتَلَ الْإِنْسَانَ شَخْصاً عَمداً، قَتَلَ الْقَاتِلَ فى قبال ذاك، و لعل هذه الآية تؤيد كون الآيات السابقة كانت بشأن قصة بنى النضير و بنى قريضة- كما تقدم- وَ الْعَيْنَ مَفْقُوءَةً بِالْعَيْنِ أَوْ مَعْمِيَةً بِهَا وَ الْأَنْفَ مَجْدُوعَةً بِالْأَنْفِ أَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٧

ذهاب حاسة الشم فلعله خلاف الظاهر و إن كان الحكم كذلك إذا أمكن وَ الْأُذُنَ مَصْلُومَةً بِالْأُذُنِ وَ فى ذهاب السمع ما تقدم و السِّنَّ مَقْلُوعَةً بِالسِّنِّ و لذلك كله شرائط مذكورة فى كتب الفقه (١).

وَ الْجُرُوحَ فِيهَا قِصَاصٌ فَمَنْ جَرَحَ إِنْسَاناً جَرَحَ كَمَا جَرَحَ، و يدخل فيه الشفة و الذكر و البيضان و اليدين و الرجلان و سائر أقسام الجروح. و «القصاص» مشتق من «قص» بمعنى اتّباع الأثر، كأن المجروح يتبع أثر الجراح فيجرحه فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ أَى بالقصاص بأن عفا عنه و أسقطه و تنازل عن حقه فَهُوَ أَى التصدق كَفَّارَةٌ أَى حط عن الذنوب لَهُ أَى للمتصدق المجروح.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفا من جراح أو غيره»

(٢).

وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَقْدِمَ الْكَلَامِ فِيهِ فَأَوْلَيْكَ هُمْ الظَّالِمُونَ الظلم هو ظلم النفس و ظلم الغير، و قد اختلف التعبير هنا عن الآية السابقة «الكافرون» و الآية الآتية «الفاسقون» لإفادة أن من لم يحكم بما أنزل الله يتصف بصفات ثلاث لأنه قد ستر حكم الله و كتبه فهو «كافر» إذ الكافر بمعنى الساتر، كما تقول: الزارع كافر، لأنه يستر

(١) موسوعة الفقه: ج ٨٩.

(٢) الكافي: ج ٧ ص ٣٥٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٨

[سورة المائدة (٥): آية ٤٦]

وَ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦)

الحبة تحت الأرض، و لأن الكافر قد ظلم نفسه لأنه عصى الله سبحانه فى كتمان حكمه و ظلم المترافعين و المجتمع لأن حكم الله هو الحق و سواه انحراف و زيغ فهو «ظالم» و أنه قد خرج بحكمه ذاك أو سكرته عن الحق عن الجادة المستقيمة فهو «فاسق» إذ الفسق بمعنى الخروج و المروق.

[٤٧] و لما ذكر سبحانه اليهود، اتجه الكلام إلى ذكر النصارى مبينا أن الأنبياء من سلسلة واحدة و أن كتبهم كلها هدى و نور، و أن بعضها يصدق بعضها وَ قَفَّيْنَا مِنَ «التقفية» أصله «القفو» بمعنى اتّباع الأثر يقال: قففته بكذا أى اتبعته به على آثارهم أى آثار الأنبياء حيث قال سبحانه: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ» بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَى أتبعنا على آثار النبيين عيسى ابن مريم فقد بعثناه رسولا من بعدهم مُصَدِّقًا أَى فى حال كون المسيح عليه السلام يصدق لما بَيْنَ يَدَيْهِ أَى ما تقدمه مِنَ التَّوْرَةِ بيان «ما» و يقال للسابق الزمانى: «بين يديه» تشبيهاً بالسابق

المكانى الذى هو «بين يدى الإنسان» أى فى قبالة و آتيناؤه أى أعطينا عيسى عليه السلام الإنجيل أى أنزلناه عليه فيه هدى و نور تقدم معنى ذلك و مَصِدَّقًا أى فى حال كون الإنجيل مصدقا لما بين يديه من التوراة فقد كان عيسى عليه السلام يصدق التوراة، و كتابه الإنجيل يصدقها أيضا و هدى أى أن الإنجيل كتاب هداية و إرشاد و مَوْعِظَةٌ أى واعظا للمُتَّقِينَ الذين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٤٩

[سورة المائدة (٥): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

و لِيُحْكَمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيُبْلِوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)

يتقون الآثام، فهو يحذرهم من العقاب و يرشدهم و يحرضهم على الثواب. و قد كرر التصديق و الهداية، تأكيداً و تركيزاً.

[٤٨] و لِيُحْكَمَ أى يجب أن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام و الدلالات التى منها التبشير بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و وجوب اتباعه و مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ أى أن الديانات كلها من عند الله، و أن الأنبياء كلهم سفراء له و وحده، و أن الكتب كلها منزلة من عند الله، فمن الضرورى أن يحكم الأنبياء بالكتب المنزلة و يتبع الناس الأنبياء و الكتب، أما ما حَرَفَ منها فليس من الله، كما أن ما نسخ منها فاللازم تركه و اتباع الناسخ عوضه.

[٤٩] و لما أتم الكلام حول التوراة و الإنجيل - و هما الكتابان المتداولان فى أيدى الناس - ذكر سبحانه القرآن الحكيم و أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ أى القرآن الحكيم بِالْحَقِّ كتابا بالحق لأنه ليس فيه باطل، أو إنزالا بالحق، حيث كان المنزل و المنزل عليه لهما الحق فى ذلك، فالمنزل إله يحق له التنزيل و التشريع، و المنزل إليه رسول يحق له الأخذ و القبول مَصِدَّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ اللام للجنس أى أن القرآن يصدق ما سبقه من كتب الأنبياء وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ أى أن القرآن مهيم على الكتب المتقدم، و معنى الهيمنة السيطرة، فإن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ١ ٦٧٩

القرآن الحكيم كشاهد مسيطر يدل على مواقع الخطأ و الصواب من الكتب السابقة، كل ما حرفه دل عليه و كل ما زادوا أو أنقصوا منهما أشار إليه، و ذلك لأن القرآن يبين كليات العقائد و أصول العبادة و المعاملة و الأخلاق، و فى الكتب السابقة مواقع كثيرة قد زاغت عن الحق بأيدى أئيمه، يدل عليها القرآن و يشير إليها فاحكمم يا رسول الله بَيْنَهُمْ أى بين أهل الكتب السالفة، أو بين اليهود بما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ، و منها فى رجم زنا المحصن، و قتل القاتل وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ أى ما يشتهون من خلاف حكم الله، فقد أحبوا أن يحكم الرسول بخلاف الحق، فيفتى بجلد المحصن الزانى، و دية القاتل عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ أى لا- تزغ عما جاءك، فإن معنى اتباع أهوائهم: الزيغ عن الحق. و كثيرا ما يشبه فعل معنى فعل آخر فيتعدى الفعل الأول بما يتعدى به الفعل الثانى، كما ذكره «المغنى». و لما كان المقام يوهم اتحاد الديانات من جميع الحثيات حيث أن الآيات السابقة أفادت تصديق كل نبى و كتاب لما سبقه، فأية حاجة إذا لإيمان اليهود و النصارى بالنبى و القرآن، تعرّض السياق إلى اختلاف الشرائع و المناهج فى الخصوصيات و المزاي و إن اتحد الجميع فى الأصول و الجوهر لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ أى لكل أمة منكم أيها اليهود و النصارى و المسلمون جميعا جعلنا شِرْعَةً أى طريقة وَ مِنْهَا جَاءَ «الشرعة» أول الطريق، و «المنهاج» الطريق المستقيم الذى يلزمه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥١

[سورة المائدة (٥): آية ٤٩]

وَ أَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ اخْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)

الإنسان في حياته ليسير عليه، و كأن وجه تقديم «جعلنا» على «منكم» أن المقام مقام الجعل، لا مقام ذكر الأمم. و قد تقرر في علم البلاغة أن المقدم من الألفاظ هو الذي سيق له الكلام، يقال: «زيد جاء» إذا كان المقام مقام ذكر زيد و أعماله، و يقال: «جاء زيد» إذا كان المقام مقام ذكر الجائين. و لو شاء الله لَجَعَلَكُمْ أَيُّهَا الْأُمَمُ الثَّلَاثَ أُمَّةً وَاحِدَةً بَأَنْ لَا يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ إِلَّا كِتَابًا وَاحِدًا وَ لَا يَرْسِلَ إِلَّا رَسُولًا وَاحِدًا وَ لَكِنْ جَعَلَكُمْ عَلَى شَرَايِعٍ مُخْتَلِفَةً لِيُبَلِّغُكُمْ أَيُّ يَمْتَحِنُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ أَيُّ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْكُمْ وَ أَعْطَاكُمْ وَ شَرَعَ لَكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ مِنْ يَاقِبِلِ الرَّسُولِ اللَّاحِقِ وَ مِنْ لَا- يَقْبَلِ، وَ مِنْ يَعْمَلُ بِأَمْرِهِ عَمَلًا- تَامًا وَ مِنْ لَا يَعْمَلُ فَاسْتَتَبَقُوا أَيُّهَا الْأُمَمُ الْخَيْرَاتِ أَيُّ لِيَبَادِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي تَحْصِيلِ الْخَيْرَاتِ وَ الْعَمَلِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَرَجِعُكُمْ وَ مَصِيرُكُمْ جَمِيعًا أَيُّهَا الْأُمَمُ. وَ إِنَّمَا سُمِّيَ «مَرَجِعًا» تَشْبِيهًا لِلْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَ إِلَّا فَلَا مَكَانَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ حَتَّى يَكُونَ مَبْدَأًا وَ مَرَجِعًا فَيَبْتِئُكُمْ أَيُّ يَخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ. وَ فِي الْإِجْمَالِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ التَّهْوِيلِ- كَمَا يَقُولُ الْمَلِكُ لِبَعْضِ رَعِيَّتِهِ:

أعلمك بما صنعت- ثم يجازيكم حسب أعمالكم و عقائدكم.

[٥٠] ثم كرر سبحانه و جوب الحكم بين اليهود بما أنزل الله، و قد كرر ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٢

لأنهم حكموه صلى الله عليه و آله و سلم في قصتين قصة الزنا و قصة القتل و أَنْ أَحْكَمَ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ «فاحكم» أو عطف على «الكتاب» أي أنزلنا إليك الكتاب و أنزلنا إليك «أن احكم» بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ خِلَافِ الْحُكْمِ وَ اخْذَرَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ اخْذَرِ الْيَهُودَ أَنْ يَفْتِنُوكَ أَيُّ يَضْلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ بَأَنْ تَفْتِيَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَضُوا عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَهُ إِذَا تَصَالَحَ مَعَهُمْ عَلَى التَّسَامُحِ فِي أَحْكَامِ خَاصَّةٍ، مِنْهَا حُكْمُ الرَّجْمِ فِي الزَّانِي الْمَحْصَنِ، وَ هَذَا التَّحْذِيرُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ عَلَى الْخِلَافِ، وَ إِنَّمَا هُوَ لِيَبَيِّنَ الْحُكْمَ، كَمَا يَخَاطَبُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: أَقِمِ الصَّلَاةَ «١»، وَ نَحْوَهُ فَإِنْ تَوَلَّوْا أَيُّ عَرَضُوا عَنِ الْحَقِّ وَ لَمْ يَقْبَلُوا قَوْلَكَ وَ حُكْمَكَ فَاعْلَمُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فَإِنَّ التَّمْرِدَ عَلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ يُوجِبُ نَكَالَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ تَمْرِدَهُمْ عَنِ حُكْمِكَ مُوجِبٌ لِأَنَّ يَسْخِطُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُهُمْ بِبَعْضِ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، أَوْ نَفْسَ التَّمْرِدِ نَكَالَ سَبَبِهِ بَعْضِ ذُنُوبِهِمْ السَّابِقَةِ. رَوَى أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي حَرَمْتُ صَلَاةَ اللَّيْلِ؟ قَالَ الْإِمَامُ: «أَنْتَ رَجُلٌ قِيدَتْكَ ذُنُوبُكَ» [٢].

(١) هود: ١١٥.

(٢) عوالم الآلى: ج ٢ ص ٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥٠ إلى ٥١]

أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَيُّ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، وَ هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أَنْ لَا- يَغْتَمُّ لِعَدَمِ نَفُوذِ حُكْمِهِ.

[٥١] أَّفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارِي، أَيُّ هَلْ يَبْغِي هُوَ لَاءِ الْيَهُودِ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَ الْمَرَادُ بِهَا جَاهِلِيَّةَ الْبَشَرِ الَّتِي لَا يَرْجِعُ

حكمهم فيها إلى قانون ثابت بل تحكم الأهواء والقبليات والعصبيات وما أشبه، فكل من يتغى حكماً غير حكم الله فإنه يتغى حكم الجاهلية، حتى إذا كان الحكم أكثرية «برلمانية» وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا أَى لَيْسَ هُنَاكَ حَكْمًا أَحْسَنَ مِنْ حَكْمِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ بالله واليوم الآخر، فإنهم يعلمون أن حكم الله أحسن الأحكام لأنه خال من جميع الانحرافات التي تصيب حكم البشر.

[٥٢] و بعد ما بين سبحانه انحراف اليهود و ضلالهم، ذكر سبحانه هنا عدم جواز اتخاذ اليهود أو النصارى أولياء. و قيل فى سبب النزول: أنه لما كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس فقال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودى و آخذ منه أمانا، و قال آخر: أنا ألحق بفلان النصرانى فأخذ منه أمانا، فنزلت الآية يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ فَلَا تَصَادِقُوهُمْ مَصَادَقَةَ الْوَالِي لَوْلِيهِ وَ الْحَمِيمِ لِحَمِيمِهِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فَإِنْ بَعْضُهُمْ يَنْصُرُ بَعْضًا وَ يَعِينُهُ عَلَيْهِمْ، وَ قَدْ ظَهَرَ انطباق كلامه سبحانه على الخارج طيلة أربعة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٤

[سورة المائدة (٥): آية ٥٢]

فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)

عشر قرنا فإن اليهود والنصارى لم يزالا ينصر أحدهما الآخر على المسلمين على ما بينهما من العداة والبغضاء وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ أَى يَصَادِقُهُمْ وَ يَنْصُرُهُمْ وَ يَجْعَلُهُمْ أَوْلِيَاءَ لَهُ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ كَافِرٌ عَمَلًا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَ هُوَ خَطَرٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَالَّذِينَ تَوَلَّوْا الْكُفْرَانَ كَانُوا مِنْ أخطر النَّاسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَ كَانُوا فِي زَمْرَةِ الْكُفْرَانِ يَنْصُرُونَهُمْ وَ يَنْتَصِرُونَ بِهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بَعْدَ مَا عَلِمُوا وَ عَرَفُوا، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَلْطَفُ بِهِمْ أَلطافه الخفية.

[٥٣] و بعد هذا القرار الجازم، الذى دل عليه منطق التاريخ السابق على الإسلام، حيث أن كل موال لا بد و أن يكون هواه مع من يوالى، لا- مع مجتمعة، و الذى قد نهى عنه صريحا فترى يا رسول الله الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَى شَكٌّ وَ نِفَاقٌ. قال ابن عباس: إن المراد بذلك عبد الله بن أبى، أن عبادة بن الصامت الخزرجى أتى إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقال: يا رسول الله إن لى أولياء من اليهود، كثير عددهم، قوية أنفسهم، شديدة شوكتهم، و أنا أبرأ إلى الله و رسوله من ولايتهم و لا مولى لى إلا الله و رسوله. فقال عبد الله بن أبى: لكن لا أبرأ من ولاية اليهود لأنى أخاف الدوائر و لا بد لى منهم.

ثم أنه شبه النفاق بالمرض لأن كليهما موجب لانحراف الإنسان، فالمرض يوجب انحراف مزاجه، و النفاق يوجب انحراف سلوكه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٥

المنبعث من انحراف روجه يُسَارِعُونَ فِيهِمْ أَى فى تولى أهل الكتاب و اتخاذهم أولياء، و لعل الإتيان بلفظة «يسارعون» لإفادة أنهم يوالونهم قبل ظهور علائم الاحتياج إليهم «من هزيمة المسلمين» فإنهم يحتاطون باتخاذهم أولياء لئلا يأتى يوم يحتاجون إليهم، و ذلك أسوأ حالا- ممن يوالونهم إذا ظهرت علامة هزيمة فى المسلمين يَقُولُونَ أَى قائلين لتبرير موقفهم نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ أَى دوران الفلك الموجب لغلبة الكفار على المسلمين فإننا نتخذهم من الآن أولياء نكون فى أمان إذا دارت الدائرة فَعَسَى اللَّهُ أَى لعل الله أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ لِلْمُسْلِمِينَ بَأَنْ يَفْتَحُوا بِلَادَ الْكُفْرَانِ وَ يَكُونَ الْغَلْبُ لَهُمْ عَلَى الْكُفْرَانِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ غَيْرَ الْفَتْحِ مِنْ إِعْزَازِ الْمُسْلِمِينَ وَ تَكْثِيرِ عَدَدِهِمْ وَ جَلَاءِ الْكُفْرَانِ فَيُضْبِحُوا أَى يَصْبِحُ هَوْلًا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ وَالُوا الْكُفْرَانَ خَوْفَ غَلْبَتِهِمْ وَ دَوْرَانَ الدَّائِرَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَوَالِيَةِ الْيَهُودِ وَ تَمْنَى الْغَلْبَةِ لَهُمْ. و لعل ذكر «أسروا» مع أنهم أعلنوا عن ولايتهم خوف الدائرة، لإفادة أنهم كانوا قد أسروا أشياء كثيرة فى أنفسهم، كما هو شأن النفاق و المنافقين نَادِمِينَ وَ لَيْسَ نَدَمُهُمْ مِنْ جِهَةِ الْحَقِّ، بَلْ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ خَسَرُوا الْطَرَفَيْنِ، طَرَفَ الْمُسْلِمِينَ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا نِفَاقَهُمْ، وَ طَرَفَ الْكُفْرَانِ لِأَنَّهُمْ هَزَمُوا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥٣ الى ٥٤]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

[٥٤] وَإِذْ قَسَمَ اللَّهُ الْفَتْحَ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَوْ أَتَاهُمْ بِأَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَادِقًا، يَقُولُونَ متعجبين من نفاق المنافقين و اجترائهم على الله بالإيمان الكاذب: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَى: هل هؤلاء المنافقون الذين انكشفت حقائقهم هم الذين حلفوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَى جاهدوا جهد أيمانهم، بمعنى: حلفوا بأغلظ الأيمان إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ أَى مع المؤمنين فى صدق الإيمان و المناصرة؟ كيف حلفوا بتلك الأيمان المغلظة، و قد ظهر نفاقهم خلال المعركة الحاسمة الموجبة لترجيح كفة المسلمين؟ فإن النفاق لا يظهر جيدا إلا فى المعارك و المخاوف. و هناك حيث عرف المسلمون حقيقتهم تعجبوا من إيمانهم المزيف، و أيمانهم المغلظة الكاذبة التى أرادوا بها دعم إيمانهم و إدخال أنفسهم فى زمرة المؤمنين حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ جملة مستأنفة، أَى أن المنافقين ضاعت أعمالهم الإيمانية بسبب النفاق، أوى أنهم ضاعت مساعيهم فى مصانعة الطرفين بسبب انهزام الكفار فلا ظهر لهم، و كشف باطنهم للمسلمين فيتجنبون عنهم فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ دنيا و آخرة.

[٥٥] ثم بعد ما بين مضرّة النفاق، توجه السياق إلى المؤمنين مبينا لهم أنهم إن ارتدوا فلا يظنوا أن ذلك يضر دين الله سبحانه فقد و كلّ الله بدينه فى كل دور أناسا يقومون بشرائط الإيمان، فالمرتد إنما يضر نفسه لا أنه يضر دين الله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٧

ارتدادا إلى الكفر، أو إلى النفاق، فإن انقلاب الباطن عن الإسلام هو نوع من الارتداد أيضا فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ فهو ذو صلة بهم و هم ذووا صلة به سبحانه. و لعل الإتيان بكلمة «سوف» لئلا يظنون أن فى تأخير الأمر انقطاعا و انفصاما للإيمان، بل قد يتأخر مجيء الصلحاء بعد ارتداد قسم من الناس عن الإيمان أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَذِلَّةٌ من «الدّل» بكسر الدال: ضد الصعوبة، و قد يكون من «الدّل» بضم الدال: ضد العزة أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ أَى يكونون لئنين على المؤمنين، غلاظ شداد على الكافرين. و إنما كان ذلك مدحا لأن اللين مع الكافر موجب لبقاء الكفر، بخلاف إظهار الشدة الذى يوجب حصر الكفر على نفسه و انكماشه، و عدم تعديه إلى المؤمنين الضعاف، كما قال سبحانه فى آية أخرى: أَشَدَّاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ «١»، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ فَإِنَّ الْجِهَادَ يَلْزَمُ لَوْمَ اللَّائِمِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ مِنَ الْكَافِرِينَ، أَمَا «مِنَ الْكَافِرِينَ» فواضح، و أَمَا «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فلأن الآراء غالبا ما تختلف بسبب لوم بعضهم لبعض كما هو المشاهد المحسوس، و كثيرا من الناس يمنع الجهاد و الإقدام لوم اللائمين لا صعوبة الجهاد.

و قد نزلت هذه الآية فى على أمير المؤمنين عليه السّلام و أصحابه الأكرمين، و إن كانت عامة بحسب اللفظ، كما هو شأن آيات القرآن غالبا.

(١) الفتح: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٨

[سورة المائدة (٥): آية ٥٥]

إِنَّمَا وَدَّعَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)

و لعل وجه قوله: «يأتى» مع أن الإمام عليه السّلام كان حاضرا وقت النزول، اعتبار الوصف أى قوله «يجاهدون». تقول: «سوف أتى

بشخص يفعل كذا» تريد أن الفعل «سوف» يأتي لا الشخص.

ذَلِكَ المذكور في أوصاف القوم من محبة الله لهم و محبتهم لله و لينهم مع المؤمنين و شدتهم على الكافرين و جهادهم بدون خوف اللوم فَضْلُ اللَّهِ حيث تفضل عليهم بهذه الصفات و هداهم إلى الحق يُؤْتِيهِ أى يعطى هذا الفضل مَنْ يَشَاءُ ممن كان قابلا و أهلا و اللَّهُ واسع فضله فلا يخاف نفاذه إن أعطى أحدا عَلَيْهِم بموضع فضله وجوده.

[٥٦] و لما ذكر سبحانه أنه لا يجوز أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، بين ولى المؤمنين و أن اللازم أن يتخذوا الله و رسوله و من نصبه الله وليا.

و قد أجمع المفسرون بأن هذه الآية نزلت في على أمير المؤمنين عليه السلام «١». و قد يقال أن الأئمة الأحد عشر عليهم السلام ليسوا بمشمولين للآية، لدلالة «إنما» على الحصر؟ و الجواب من وجهين:

الأول: إن الآية حصرت الأمر في وقت النزول، و كانت ولايتهم عليهم السلام بعد ذلك.

و الثانى: و هو الأصح أن ولاية الأئمة من ولاية على عليه السلام، كما لو قال: والى بلدكم فلان، فإن من عينه الوالى للأمر كان امتدادا لولاية فلان.

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٦١ و تفسير العياشى: ج ١ ص ٣٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٥٩

[سورة المائدة (٥): آية ٥٦]

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

إنما وِثْيُكُمْ اللهُ فالله له الولاية المطلقة و السلطنة الكاملة من جميع الجهات عليكم و رَسُولُهُ محمد بن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و الَّذِينَ آمَنُوا المتصفون بكونهم الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أى الصدقة وَ هُمْ رَاكِعُونَ

و قد روت العامة و الخاصة أن هذه الآيات نزلت في على أمير المؤمنين عليه السلام لما تصدق بخاتمه و هو في الركوع. و فى بعض الأخبار أنه كان تصدق قبل ذلك أيضا فى صلاة أخرى بحلته قيمتها ألف دينار أرسلها النجاشى إلى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فأهداها إلى على عليه السلام. «١» [٥٧] ثم ذكر سبحانه أنه فى تولى هؤلاء النجاح و الغلبة، فمن ظن أن فى تولى غيرهم النجاح فقد اشتبه، و دل التاريخ أنه كلما التزم المسلمون بهؤلاء نجحوا و تقدموا، و كلما تولوا غيرهم خسروا و تأخروا و مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهُ أى يتخذه الله سبحانه وليا يَأْتُرُ بأوامره و ينتهى عن زواجه و رَسُولُهُ يقتدى به فى أعماله و أقواله و الَّذِينَ آمَنُوا على و الأئمة من ولده عليهم السلام- حسب النزول- أو كل مؤمن حسب العموم، فى مقابل اتخاذ الكفار أولياء فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ جنده و جماعته هُمُ الْغَالِبُونَ على من سواهم من الأحزاب و الجنود، و فى قطع قوله:

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٨٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٠

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُبَكُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَ لَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)

«فإن حزب الله» عن الجملة السابقة، إذ لم يقل «فإنهم الغالبون»، إفادة أن المتولى يعد من حزب الله و جماعته، فليس الأمر من ناحية العبد فقط، بل من ناحية الله أيضا.

[٥٨] قد نهى المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ثم الآن يأتي السياق لينهى عن اتخاذ أى كافر أو كتابى - ولو لم يكن يهودياً أو نصرانياً - ولياً. وقد ورد فى سبب النزول أن زيد بن ثابت و سويد بن الحارث قد أظهرتا الإسلام ثم كان رجال من المسلمين يوادونهما فنزلت هذه الآية، و لو كان الأمر كذلك فالمراد، بمن ذكر فى الآية أعم من المنافق يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا أَى سخرية و تلاعباً، و ذلك بأن أظهرتوا الإسلام باللسان و أبطنوا الكفر بالجنان، أو المراد جعله سخرية و لعب يستهزئون به مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَى أنزل عليهم الكتاب مِنْ قَبْلِكُمْ و هم أهل الأديان السابقة على الإسلام و مِنَ الْكُفَّارِ المراد بهم الأعم من المنافقين - كما سبق - و لا - يخفى أن الكفار أعم من أهل الكتاب، لكن إذا ذكروا فى كلام كان المراد بالكفار غيرهم أولياء تتولونهم كاتخاذ المؤمنين لله و رسوله أولياء وَ اتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَخَالَفُوهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَ بما أمر به.

[٥٩] وَ إِذَا نَادَيْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الصَّلَاةِ إى دعوتهم إليها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦١

[سورة المائدة (٥): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِمَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَتِيدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)

اتَّخَذُوا أى اتخذوا الصلاة هُزُؤًا وَ لَعِبًا مهزلة و تلاعباً فيتضحكون و يتغامزون بينهم - كما هى عادة منافقى اليوم أيضاً - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أى ذلك الاستهزاء بالصلاة بسبب أن الكفار قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ منافع الصلاة و أنها موجبة للنجاة من النار.

[٦٠] و جاء قوم من اليهود يسألون الرسول صلى الله عليه و آله و سلم عن من يؤمن به من الرسل؟

فقال: أو من بالله و ما أنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق .. إلى أن ذكر عيسى عليه السلام فلما سمعوا ذلك منه جحدوا نبوته و قالوا: ما نعلم أهل دين أقل حظاً فى الدنيا و الآخرة منكم، و لا ديناً شراً من دينكم، فنزلت قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِمَّا أى تسخطون علينا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ إيماناً لا يشوبه كفر - كإيمانكم - وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا يعنى القرآن الحكيم وَ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ على جميع الأنبياء وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ فإن فسقكم - أى خروجكم - عن دين الله هو سبب نقتكم علينا. و هذا كقولهم: «هل تنقم منى إلا - أنى عفيف و أنك فاجر»، أو: «إلا - أنى كريم و أنت بخيل»، فهو من باب الازدواج يحسن فى الكلام لتعميم المقابلة، فهو عطف على قوله: «أن آمننا».

[٦١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ أى أخبركم بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ أى إن كان إيماناً شراً عندكم فأنا أخبركم بشر من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٢

[سورة المائدة (٥): آية ٦١]

وَ إِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١)

ذلك مَثُوبِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ أى جزاء من عنده سبحانه، و سَمَى «مَثُوبَةً» استهزاء بهم، و إنما سَمَى ما عند المؤمنين شراً - و إن لم يكن ما للمؤمنين إلا - الخير - للمقابلة فى الكلام مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ أى طرده عن رحمته، فلعله الله لكم من شر إيماننا نحن وَ غَضِبَ عَلَيْهِ بسبب عصيانه و تمرده عن الحق وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ جمع «قرد»، كما قال سبحانه: فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ «١»، وَ الْخَنَازِيرَ بأن مسخهم على صور هذين الحيوانين النجسين وَ عَتِيدَ الطَّاغُوتِ عطف على قوله: «لعنه الله» و الطاغوت هو العجل الذى عبده أُولَئِكَ اليهود الذين هذه صفاتهم شَرٌّ مَكَانًا أى أن مكانهم فى سقر الذى هو شر من مكان المؤمنين الذين نقموا منهم، و قد ذكرنا أن هذا الكلام من باب المشاكلة اللفظية و إلا فليس فى مكان المؤمنين شر و أَضَلُّ أى أكثر ضلالاً عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ أى وسط الطريق.

[٦٢] و حيث ابتدأ الكلام بعرض المنافق و أهل الكتاب فى صف واحد، ذكر سبحانه صفة من صفات المنافقين، و أنهم كيف لا يؤثروا

فيهم الوعظ والإرشاد وَإِذَا جَاؤُكُمْ أَي جَاءَ كَمِ الْمَنَافِقُونَ قَالُوا آمَنَّا إِيْمَانًا كَإِيْمَانِكُمْ وَلَكِنهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ تَلْكَ كَاذِبُونَ، إِذْ

(١) البقرة: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٢ إلى ٦٣]

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا- يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٣)

قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ أَي بِالْكَفْرِ، كَأَنَّ «الْكَفْر» مَادَةٌ يَحْمِلُونَهَا مَعَهُمْ فَهَمَّ قَدْ دَخَلُوا بِهَذِهِ الْمَادَّةِ حِينَمَا دَخَلُوا فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ خَرَجُوا بِهَذِهِ الْمَادَّةِ كَمَا دَخَلُوا، لَمْ تَوْثُرْ فِيهِمُ الْمَوْعِظَةُ وَالْبَلَاغُ، حَيْثُ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْكَافِرِينَ لَا مَعَكُمْ حَتَّى تَوْثُرَ فِيهِمُ الْمَوْعِظَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ أَي يَخْفُونَ مِنَ الْكَفْرِ وَالنَّفَاقِ.

[٦٣] ثُمَّ إِنْ هُوَ إِلَّا الْكَفَارُ يَجْمَعُونَ مَعَ كَفْرِهِمْ صِفَاتٍ أُخْرَى ذَمِيمَةٌ هِيَ مِنْ مَسْتَلْزِمَاتِ الْإِنْحِرَافِ، أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَي مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ وَهُمْ الرُّؤْسَاءُ وَذَوُو الْعِجَابِ وَالْمَنْصِبُ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فَيَسْبِقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي فِعْلِ الْإِثْمِ وَالتَّعَدَى عَلَى النَّاسِ، إِنَّهُمْ حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَكَانَتْ دِيَانَتُهُمْ- الْمَرْعُومَةُ- صَوْرِيَّةً كَانَتْ هَمَّتُهُمْ تَحْصِيلُ أَكْثَرِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْمَالِ وَالْعِجَابِ، لِذَا يَتَسَابَقُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي ذَلِكَ، إِنْ الْإِثْمُ لَا أَمِيَّةٌ لَهُ فِي نَظَرِهِمْ إِذْ لَمْ يَعْمُرْ قُلُوبُهُمُ الْإِيْمَانَ، وَالتَّعَدَى مِنْ شَأْنٍ مَنْ يَرِيدُ إِعْمَارَ دُنْيَاةٍ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ كُلَّ مَالٍ حَرَامٍ مِنْ رِشْوَةٍ وَرَبَا وَأَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فَإِنَّ أَعْمَالَهُمْ تَوْجِبُ خِزْيَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٦٤] وَهَذَا يَتَوَجَّهُ السِّيَاقُ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالتَّوَالِدِينَ مِنْهُمْ، كَيْفَ يَسْكُتُونَ عَلَى هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ الْبَشْعَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْيَهُودِ؟ وَ مَا شَأْنُهُمْ إِذَا سَكَتُوا عَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٤

[سورة المائدة (٥): آية ٦٤]

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيَهُمْ وَاعْتَدُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رِبِّكَ طَعْنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)

كُلُّ تَلْكَ الْجَرَائِمِ لَوْ لَا كَلِمَةُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَى «هَلَّا» أَي: لِمَاذَا لَا يَنْهَاهُمْ أَي يَنْهَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ الرَّبَّائِيُّونَ جَمْعُ «رَبَانِي» وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ، أَي الْإِلَهِيِّونَ الَّذِينَ يَتَوَرَّعُونَ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالْأَحْبَارُ جَمْعُ «حَبْر» بِالْفَتْحِ وَالتَّكْسُرِ، وَهُوَ الْعَالَمُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَهُوَ مَا يَقُولُهُ الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنْ كَذِبٍ وَغَيْبٍ وَنَمِيمَةٍ وَتَحْرِيفٍ وَغَيْرِهَا وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ مِنَ الرَّبَا وَالرِّشْوَةِ وَغَيْرِهِمَا، وَ«السُّحْتُ» هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْحَرَامِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا أَي كَانُوا هَؤُلَاءِ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ يَصْنَعُونَ فَإِنَّ سَكُوتَهُمْ عَنِ الْبَاطِلِ وَمَجَامَلَتَهُمْ لِأَهْلِهِ نَوْعٌ مِنَ الصَّنْعِ.

[٦٥] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ مِثْلًا- ل «قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ» بِقَوْلِهِ: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ لَا يَنْفِقُ رِزْقًا وَلَا يُعْطَى شَيْئًا، كَأَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ تَبَرِيرًا لِبُخْلِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ لَا يَنْفِقُ فَأَجْدَرُ بِهِمْ أَنْ لَا يَنْفِقُوا، وَقِيلَ: إِنْ سَبَبَ نَزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مَالًا وَسَعَةً، فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبُوهُ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ أَحَدُ الْيَهُودِ: إِنْ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غُلَّتْ أَيْدِيَهُمْ دَعَاءُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ تَغْلُ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْخَيْرِ، أَوْ إِخْبَارُهُمْ بِأَنَّ الْيَهُودَ بِخِلَاءِ لُؤْمَاءِ، أَي أَنَّهُمْ غَلَّتْ أَيْدِيَهُمْ، لَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَاعْتَدُوا بِمَا قَالُوا لِعَنَهُمُ اللَّهُ وَطَرَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٥

بَلْ يَدَاهُ أَي يَدَا اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَبْشُوطَاتَانِ كُنَايَةٌ عَنْ جُودِهِ وَعَطَائِهِ، وَ إِنَّمَا جَاءَ بِذِكْرِ الْيَدِ لِلْمُقَابَلَةِ، وَ ذَكَرَ «يَدَاهُ» لِإِفَادَةِ تَمَامِ مَعْنَى الْجُودِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ فَلَيْسَ فِي تَضْيِيقِهِ عَلَى الْيَهُودِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَغُولُ الْيَدِ بَلْ إِنَّمَا يَنْفِقُ سَبْحَانَهُ كَيْفَ يَشَاءُ حَسَبَ الْحِكْمَةِ وَ الْمَصْلَحَةِ.

ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن وفضحهم يزيد كثيرا من اليهود انحرافا ويزيدن كثيرا منهم أي كثيرا من اليهود، وإنما لم يذكر كلهم لأن بعضهم لا يعنيه الأمر، و بعضهم يسبب القرآن هدايتهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا و كُفْرًا «ما» فاعل «يزيدن» و «كثيرا» مفعول مقدم أي طغيانهم و كفرهم يزداد بسبب القرآن، أما أن كفرهم يزداد فلائنه كلما أنكروا آيته و حكما ازدادوا كفرا و سترًا للحق و أما أن طغيانهم يزداد، فلائنه يقاومون الدعوة أكثر فأكثر كلما رأوا تقدمها أكثر.

وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمْ أَي بَيْنَ الْيَهُودِ الْعِدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ طَبِيعَتَهُمُ الْمُتَخَمَّرَةَ بِحُبِّ الْذَاتِ وَ اعْتِقَادِ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللَّهِ الْمُخْتَارِ وَ بَخْلِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ، لَا بَدَّ وَ أَنْ تَوْجِدَ بَيْنَهُمُ الْعِدَاوَةَ وَ الْحِزَابَةَ - مَا دَامُوا يَهُودًا يَعْتَقِدُونَ بِهَذِهِ الْأَعْتِقَادَاتِ السَّخِيفَةَ - فَإِنَّ أَسْبَابَ النَّزَاعِ فِي الْعَالَمِ يَدُورُ حَوْلَ الْمَنْصِبِ وَ الْمَادَةِ غَالِبًا، وَ هَذَا كَامِنًا فِي كُلِّ يَهُودِيٍّ، وَ قَدْ دَلَّ التَّارِيخُ عَلَى صِدْقِ ذَلِكَ، فَالْيَهُودُ دَائِمًا مُتَحَارِبُونَ مُتَبَاغِضُونَ، حَتَّى فِي فِلَسْطِينَ الْيَوْمِ تَقُومُ الْأَحْزَابُ الْيَهُودِيَّةُ وَ الْمُنْظَمَاتُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٦

[سورة المائدة (٥): آية ٦٥]

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥)

بأشع أنواع العداوة و البغضاء فيما بينها و قد مر سابقا تفسير «إلى يوم القيامة» و أنه كناية عن بقاء الحكم ما دام اليهود موجودين كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله أي كلما أرادوا محاربة المسلمين هزمهم الله و نصر المسلمين عليهم، و قد دل التاريخ على ذلك، فقد غلب النبي صلى الله عليه و آله و سلم على يهود بني «قريضة» و «النضير» و «خبير» و «فدك» و غيرهم مع كثرة عددهم و عددهم، و بعد ذلك لم يتمكن اليهود من محاربة المسلمين، حتى في يومهم هذا في فلسطين إنما يستندون إلى «حبل من الناس». ثم ما هي إلا فترة حتى تراها قد انقشعوا انقشاع الضباب و يسعون في الأرض فسادا فهم المفسدون دائما، حيث يريدون العلو على الناس، و جمع الأموال، و من المعلوم أن ذلك لا يتهيأ لهم إلا بالفساد و الله لا يحب المفسدين أي يكرههم، لملازمة «كراهته» ل «عدم حبه»، فإن كل مصلح محبوب و كل مفسد مكروه.

[٦٦] وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا إِيْمَانًا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ تَقَوَّى مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَي سَتَرْنَا سَيِّئَاتِهِمُ الْمَاضِيَةَ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَي الَّتِي فِيهَا أَنْوَاعُ النَّعْمِ وَ الْكِرَامَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٧

[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٦ الى ٦٧]

وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَكْمُلُونَ (٦٦) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِي أَمْرًا مِنَ النَّاسِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)

[٦٧] وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَي أَهْلُ الْكِتَابِ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ أَي عَمِلُوا بِمَا فِيهِمَا بِدُونِ تَحْرِيفٍ وَ زِيَادَةٍ وَ نَقِيصَةٍ وَ أَقَامُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ أَي الْقُرْآنَ، وَ كَوْنَهُ مُنْزَلًا - إِلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ نَزْوَلِهِ بَيْنَ أَوْسَاطِهِمْ وَ فِي زَمَانِهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ أَي السَّمَاءَ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَنْزِلُ «السَّمَاءَ» مُدْرَارًا لِمَنْ آمَنَ وَ اتَّقَى وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ بِإِعْطَاءِ الْأَرْضِ خَيْرَهَا وَ بَرَكَتَهَا، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ «١»، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ أَي مِنْ هَؤُلَاءِ «أهل الكتاب» جماعة معتدلون في العمل لا غلو عندهم و لا تقصير، كما نجد أن كل أمة بعضهم معتدلون، و بعضهم متطرفون، أو المراد بهم: الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و

إطلاق «منهم» على أولئك باعتبار الماضي وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ أى أن أكثرهم متطرفون يعملون الأعمال السيئة. [٦٨] يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هَذِهِ آيَةٌ نَزَلَتْ بِمَنْاسِبَةِ اسْتِخْلَافِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلِيَا خَلِيفَةً مِنْ بَعْدِهِ- كما أجمع عليه المفسرون- وقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخشى المنافقين من ذلك، فبين

(١) الأعراف: ٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٨

[سورة المائدة (٥): آية ٦٨]

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨)

سبحانه عظم الأمر بقوله: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ أى لم تبلغ خلافه على عليه السلام فَمَا بَلَّغَتْ رِسَالَتَهُ لِأَنَّ كُلَّ الرِّسَالَةِ رَهْنُ هَذَا التَّبْلِغِ، وَ ذَلِكَ وَاضِحٌ إِذْ عَدِمَ اسْتِخْلَافَ مَعْنَاهُ ذَهَابَ جَمِيعِ الْأَتْعَابِ سُدَى، وَ قَدْ أَمَنَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِمَّا كَانَ يَخْشَى مِنْهُ فَقَالَ: وَ اللَّهُ يَعْصِي مَمَّكَ أى يحفظك مِنَ النَّاسِ فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْفِتْنَةِ وَ الْإِنْقِلَابِ وَ الْإِيذَاءِ مِمَّا كَانَ يَخْشَاهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَ حِينَ ذَاكَ،

وَ عِنْدَ مَنْصَرَفِ الرَّسُولِ مِنْ حِجَّةِ الْوَدَاعِ فِي وَسْطِ الصَّحْرَاءِ، أَمْرٌ بِنَصْبِ مَنْبِرٍ لَهُ وَ خُطْبُ خُطْبَةٍ طَوِيلَةٍ بَلِغَةٍ، ثُمَّ أَخَذَ بِكَفِّ عَالِيهِ السَّلَامِ وَقَالَ: «مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَ عَادَ مِنْ عَادَاهُ وَ انصَرَ مِنْ نَصْرِهِ وَ اخذَلْ مِنْ خذَلِهِ» ، وَ أَنشَدَ حَسَانًا:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخمّ و أسمع بالرسول مناديا

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِبِلَاغِكَ، وَ مَعْنَى «لَا يَهْدِيهِمْ» أَنَّهُ لَا يَلْطَفُ بِهِمُ اللَّطْفُ الزَّائِدُ بَعْدَ مَا أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ عِنَادًا وَ اسْتِكْبَارًا، وَ لَعَلَّ الْإِرْتِبَاطَ بَيْنَ الْآيَةِ وَ طَرْفِهَا أَنَّهُ كَمَا أَنَّ النَّاسَ مَأْمُورُونَ بِالْقَبُولِ، فَالرَّسُولُ مَأْمُورٌ بِالْبَلَاغِ، مَعَ تَلْطِيفِ جَوِ الْكَلَامِ، بِتَغْيِيرِ الْأَسْلُوبِ فِي وَسْطِ الْمَطْلَبِ، تَفَنَّنَا فِي الْبَلَاغِ، وَ تَشْطِيطًا لِلْأَذْهَانِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى مُشَابِهَةً.

[٦٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٦٩

[سورة المائدة (٥): آية ٦٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا بَدُونَ تَحْرِيفًا أَوْ تَحْوِيرًا وَ تَقِيمُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ يَعْنِي الْقُرْآنَ، وَ قَدْ سَبَقَ وَجْهٌ قَوْلُهُ: أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ أَنَّهُ لَجْهَةٌ نَزُولِ الْقُرْآنِ فِي أَوْسَاطِهِمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَعَوِضُ أَنْ يَهْتَدُوا بِالْقُرْآنِ يَزِيدُهُمْ طُغْيَانًا حَيْثُ كَلِمَا رَأَوْا الْقُرْآنَ صَمَّمُوا عَلَى مَقَابَلَتِهِ وَ كَفَرُوا بِكُلِّ مَا يَنْزِلُ مِنْهُ، وَ لَا يَخْفَى أَنَّ نِسْبَةَ الزِّيَادَةِ إِلَى الْقُرْآنِ مَجَازًا، وَ إِلَّا فَهِيَ أَنْفُسُهُمْ هُوَ الَّذِي يَزِيدُهُمْ كُفْرًا فَلَا تَأْسَ أى فلا تحزن يا رسول الله عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ مَا عَلِمُوا الْحَقَّ، وَ أَعْرَضُوا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ أَنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ.

[٧٠] وَ حَيْثُ تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، مِمَّا كَانَ يُوْهُمُ أَنَّ الْكُفْرَانَ غَيْرَ قَابِلِينَ لِلْهُدَايَةِ، ذَكَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا- الْمَلَاذِمُ لِإِمْكَانِ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ- كَانَ لَهُمْ مَا لغيرهم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَجْرِ وَ الْمَثُوبَةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا ظَاهِرًا بِالشَّهَادَتَيْنِ وَ الَّذِينَ هَادُوا أى

اليهود وَالصَّابِئُونَ وَ هُم قَسَمٌ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ أَوْ غَيْرِهِمْ - كما تقدم في سورة البقرة - و رفع «الصابئون» مع أنه عطف على المنصوب ب «إن» للإلغاف إلى أن الصابئ الذي لا يرجى فيه خير إن آمن قبل، فكيف بغيره؟! فهو معطوف على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٠

[سورة المائدة (٥): آية ٧٠]

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)

محل اسم «إن» حيث كان مبتدأ قبل دخول الناسخ و النَّصَارَى ليس اعتباراً بأسمائهم و صبغتهم العامة في النجاة و الثواب، بل مَنْ آمَنَ منهم بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ إيماناً حقيقياً من القلب، لا يشوبه شرك و نحوه وَ عَمِلَ صَالِحًا أَى عمل عملاً صالحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَخْزَنُونَ لا في الدنيا و لا في الآخرة، أما في الآخرة فواضح، و أما في الدنيا فلأن الخوف الحقيقي و الحزن الواقعي هو الذي لا يرجى دفعه و تداركه، بينما خوف هؤلاء و حزنهم ليس كذلك، فإن خوف المؤمن ليس كخوف الكافر، و كذلك بالنسبة إلى الحزن.

[٧١] إن اليهود لم يكن لهم إيمان صادق من يومهم الأول، فكيف تأس عليهم يا رسول الله إن لم يؤمنوا بك؟! ف لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عهدهم الأكيد حول الإيمان بالله و أنبيائه و اتباع أوامره وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا يهدونهم إلى الحق، لكنهم نقضوا الميثاق و خالفوا الأوامر و تجرأوا على أشنع جريمة ف كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ وَ لا تميل إلى ما جاء به، بأن لم يكن يوافق مرادهم فَرِيقًا من الرسل كَذَّبُوا كالمسيح عليه السَّلام، حيث نسبوه إلى الكذب و أنهم ليسوا من قبل الله سبحانه وَ فَرِيقًا من الرسل يَقْتُلُونَ كزكريا عليه السَّلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧١

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧١ إلى ٧٢]

وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتنَةً فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَا وَاوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)

[٧٢] وَ حَسِبُوا أَى ظن هؤلاء اليهود الذين كذبوا الأنبياء عليهم السَّلام و قتلوهم أَلَّا تَكُونَ فِتنَةً أَى لا يسبب قتل الأنبياء عليهم السَّلام و تكذيبهم فتنه، كما هو شأن كل من يقدم على جرم كبير يظن أن الأوضاع تبقى على ما يشتهى، منتهى الأمر أن ما صدر عن بعض شهواته يزول و يمحي عن الوجود مع أن الأمر بالعكس، فإن بقاء المجتمع سليماً من الأخطار و الآفات إنما هو بانتهاج تعاليم الأنبياء، فإذا أزيح النبي عن القيادة و التوجيه إما بقتله أو تكذيبه، فإنه سوف تحل بالمجتمع أشد الكوارث، و تقع أعظم الفتن فَعَمُوا وَ صَمُّوا عن مناهج الرشد، بقتلهم الأنبياء و تكذيبهم، فإن الإنسان يبصر طريقه و يسمع الحق الذي ينفعه ما دام هناك نور يضيء، و مرشد يدعو، أما إذا أزال النور، و أزاح المرشد، فإنه يعمى عن طريقه حتى يقع في المهالك، و يصم عن الحق حتى تحل به الكوارث ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بإرسال أنبياء آخرين، و المراد «التوبة» على هذا الجنس لا خصوص من قتل منهم الأنبياء ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا أيضاً عن الحق، بأن تركوا تعاليم الأنبياء و أخذوا يتيهون في الضلالة كَثِيرٌ مِنْهُمْ إذ بعضهم آمن و اهتدى، و لفظه «كثير» بدل «بعض» عن «كل» لا فاعل ثان و اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ فيجازيهم على ما اقترفوا من الآثام و احتقبا من الاجرام.

[٧٣] هكذا كان حال اليهود، حيث كفروا بعد أن أرشدهم الله الطريق، أما النصارى فإنهم كإخوانهم اليهود فى العمى عن الحق بعد الرشد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٢

[سورة المائدة (٥): آية ٧٣]

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنَّ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَهُوَ اللَّهُ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ اتحد بالمسيح فصار شيئاً واحداً، ولا يخفى أن الاتحاد غير معقول إذ لو بقي الشيطان اثنين بعد الاتحاد لم يكن اتحاداً وإن عدم أحدهما، كان الله، بينما المسيح بنفسه اعترف بأنه عبد الله والحال أنه قال الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحده رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَإِنَّا جميعاً عبيده إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ وَيَجْعَلْ لَهُ شريكاً، سواء اعترف به وبالشريك، أم اتخذ إلهاً غيره، فإنه أيضاً من جعل الشريك لله فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فلا يدخله فيها أبداً وَمَأْوَاهُ أَي مصيره النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بالشرك مِنْ أَنْصَارٍ ينصرونهم من بأس الله وعذابه.

[٧٤] وهناك قسم آخر من النصارى جعلوا الآلهة ثلاثة لَقَدْ كَفَرَ النصارى الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ أَي أحد آلهة ثلاثة، وهم: «الأب» أي الله، و«الابن» أي المسيح، و«روح القدس»، قالوا: هذه الثلاثة واحد، وذاك الواحد ثلاثة، وحين يسألون: كيف يمكن ذلك وهو تناقض؟ يقولون: إنه فوق مستوى عقولنا، ولا يلزمنا معرفته الكيفية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٣

[سورة المائدة (٥): آية ٧٤]

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)

وهناك سؤال هو أنه ما الفرق بينكم أنتم المسلمون حيث تقولون بأن الله لا يدرك كنهه، وبين الذين قالوا إن مشكلته التوحيد والتثليث فوق مستوى عقولنا؟

والجواب: إن الفرق من أوضح الواضحات، إذ أولئك يقولون بما لا يمكن ولا يعقل، وما لا يدرك وما من إله إلا إله واحد أي ليس للكون إلا إله واحد هو الله سبحانه وإن لم ينتهوا أي لم يرجع هؤلاء النصارى القائلون بالتثليث عما يقولون أي عن مقالتهم، و قولهم بالتثليث لَيْمَسَّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدنيا والآخرة، وإنما لم يقل «ليمنهم» لإفادة أنهم بمقالتهم هذه يكونون كفاراً، تأكيداً لما سبق من قوله: «لقد كفر» وهذا من أساليب البلاغة، يقال: «اترك هذا الأمر وإلا لسجنت الفاعل له» عوض أن يقول: «لسجنتك» لإفادة أن علة السجن هو الإتيان بذلك العمل.

[٧٥] ثم استفهم سبحانه استفهاماً تعجبياً، وقد تقرأ في الأصول أن أمثال هذه الاستفهامات والتعجبات إنما هي إنشاء مفهوم الاستفهام والتعجب وأمثالهما، لداعي آخر من ترغيب وإنكار وما أشبهه، فليس استفهامه ولا تعجبه عن جهل وتعجب كما هو عندنا أفلا يَتُوبُونَ هؤلاء اليهود والمسيحيون إلى الله ويرجعون عن عقائدهم السخيفة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٤

[سورة المائدة (٥): آية ٧٥]

مِمَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)

وأقوالهم المفتعلة وَيَسْتَعْتَفِرُونَهُ لما مضى من كفرهم وعصيانهم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر لهم إن تابوا أو استغفروا، ويرحمهم بفضله إن رجعوا وآبوا.

[٧٦] وبعد ما ذكر سبحانه أقوال المسيحيين حول المسيح، بين تعالى واقع المسيح وأنه ليس كما زعموا مِمَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ أَي ليس المسيح عليه السلام وذكر «ابن مريم»، لنفي كونه ابن الله- في العبادة- إِلَّا رَسُولٌ فليس هو بإله قَدْ خَلَتْ أَي مضت وسبقت مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ فهو رسول كأحدهم، فكما ليس أولئك بالهة، ليس هذا بإله وأُمُّهُ مريم عليها السلام صِدِّيقَةٌ كانت كثيرة التصديق بالله وآياته، فليست هي إله كما زعم جماعة من المسيحيين فقالوا بالأب والأم والابن كانا المسيح وأمه يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ وذلك من صفات المخلوق لا-الإله، إذ آكل الطعام محتاج إلى الطعام، وله جوف، وله أجزاء، وله حالات، وكل ذلك ينافي كونه إله انظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ ونوضح لهؤلاء النصارى الآيات الدالة على عدم كون المسيح إلهاً ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أَي كيف يصرفون عن

الحق، يقال: «أفكه يَأفكه إفكا» إذا صرفه، و «أنى» بمعنى «أين» أى أنهم أين يصرفون عن الحق الموضح بالآيات؟!

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٥

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)

[٧٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ النَّصَارَى الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ وَيَجْعَلُونَهُ إِلَهًا أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غيرِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَإِن شِئْنَا فِي الْوُجُودِ لَا يَمْلِكُ ضَرَّ أَحَدٍ وَلَا نَفْعَهُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، و من أضرّ أو نفع بالوسائل الطبيعية - كالقاتل و المعطى - أو بالوسائل الغيبية كالأنبياء و الأئمة، فإنما ذلك حيث جعل الله المسببات تابعة لأسبابها الخاصة، و سلط الفاعل على الأسباب، فهى ترجع أيضا إليه سبحانه و الله هُوَ السَّمِيعُ لأقوالكم العليم بضمائركم و حركاتكم، فاحذروا مخالفته، كى لا تقعوا فى عقوبته و نكاله.

[٧٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ إِمَّا عَامٍ يَشْمَلُ الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى، فالمراد بغلو اليهود: قولهم عزيز ابن الله، و قولهم أن المسيح ليس نبيا، فإنه غلو معكوس، أو المراد به النصارى فقط لا تغلوا فى دينكم بأن تقولوا: المسيح هو الله، أو ثالث ثلاثة، أو إنه ابن الله غَيْرَ الْحَقِّ عطف بيان، إذ كل غلو هو غير الحق و لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل فإن أسلافكم لو ضلوا فى اعتقادهم و غلوا، فلما ذا تتبعونهم أنتم، إنهم كانوا من قبل و قد مضوا، فما بالكم أنتم تقتفون أثرهم الباطل و أضلوا كثيرا من الناس فأوقعوهم فى ضلال الكفر و الشرك و ضلوا عن سواء السبيل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)

أى الجادة المستقيمة. و التكرار إنما هو لاختلاف المتعلق، فقد تعدى أحدهما إلى «من قبل» و تعدى الآخر إلى «عن سواء السبيل» أو المراد ب «القوم» كبارهم الذين كانوا قبل النبى قائلين بألوهية عيسى، و أدركوا فلم يؤمنوا، فإنهم ضلوا من قبل بعثه النبى صلى الله عليه و آله و سلم لقولهم بالتثليث، و ضلوا بعد بعثته لكفرهم به صلى الله عليه و آله و سلم.

[٧٩] لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاللَّعْنَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ حَيْثُ لَمْ يَنْفَكُوا يَعْمَلُونَ الْقَبَائِحَ وَ يَكْفُرُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَ يَنْسُبُونَ إِلَى اللَّهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الزَّبُورِ وَ عَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الْإِنْجِيلِ، فقد لعنهم داود عليه السلام لما اعتدوا فى السبت فصاروا قرده، و لعنهم عيسى عليه السلام لما كفروا بعد فصاروا خنازير ذلك اللعن إنما استحقوه بما عصوا أى بسبب عصيانهم و كانوا يعتدون أى يتجاوزون حدود الله سبحانه.

[٨٠] ثم بين سبحانه بعض عصيانهم و اعتدائهم بقوله: كانوا أى كان بنو إسرائيل لا يتناهون أى لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه فقد تفشت فيهم المنكرات و لم يكن ينهاهم علماءهم، فاستحق الجميع العقاب، أولئك يأتیان المنكر، و هؤلاء بسكوتهم عن فاعليه لبئس ما كانوا يفعلون من إتيان المنكر و عدم التناهى عنه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٧

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٠ الى ٨١]

تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)

[٨١] ترى يا رسول الله أن تلك الطبيعة العاتية العاصية موجودة فيهم إلى الآن، فإن كثيرا منهم أى من بنى إسرائيل - اليهود - يتولون

الَّذِينَ كَفَرُوا أَى يتخذون الكفار أولياء لهم، فقد كان اليهود يتولون كفار مكة و يقولون: هؤلاء أهدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا «١»، فى حين يجب على المؤمن أن يعادى الكافر الذى لا يعترف بالله و قوانينه لِيَسَّ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَى لهؤلاء اليهود أَنفُسُهُمْ أَى بئس ما قدموا لمعادهم من الأعمال السيئة أن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ محله الرفع ب «بئس» فهو كزيد فى قولك: «بئس رجلا زيد» أَى بئس السخط الذى قدموه لأنفسهم و فى العذاب هُم خَالِدُونَ فالسخط يؤذى روحهم، كمن يعلم أن السلطان غاضب عليه، و النار تؤذى جسمهم كما قال سبحانه فى عكس ذلك: وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ «٢»، فإن أهل النار يعذبون عذابين، و أهل الجنة ينعمون نعيمين.

[٨٢] وَ لَوْ كَانُوا أَى هؤلاء اليهود يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إيماننا صادقا و يؤمنون ب النَّبِيِّ محمد صلى الله عليه و آله و سلم و ما أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنَ

القرآن الحكيم

(١) النساء: ٥٢.

(٢) آل عمران: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٨

[سورة المائدة (٥): آية ٨٢]

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَ رُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)

مِا اتَّخَذُوهُمْ أَى لم يتخذوا الكفار أولياء لهم، أو المراد: أنهم لو آمنوا بموسى و كتابه إيماننا صادقا، لم يتخذوا الكفار أولياء، إذ الإيمان بهما يمنع من ولاية الكافرين، فهم كاذبون فى دعواهم أنهم مؤمنون بموسى و كتابه و لكنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ خارجون عن طاعة الله و رسوله و كتابه، فإنما يدعون الإيمان باللسان، و قلوبهم خالية من الإيمان.

[٨٣] ثم ذكر سبحانه فرقا بين اليهود و النصارى، و أن اليهود طبيعتهم العامة العناد و الاستكبار و العداوة، و أن النصارى ليسوا بتلك المثابة، إذ فيهم بعض المنصفين من العلماء، و ما أصدق قوله سبحانه، فإننا نرى ذلك إلى اليوم، فقد نجد كثيرا من المسيحيين يسلمون، و لا نجد إلا الشاذ النادر من اليهود يسلمون لَتَجِدَنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا أَى للمسلمين الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَعْدَى أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَى المشركين، فإنهم فى صف اليهود- و بعدهم فى الرتبة- عداوة للمسلمين.

وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ أَقْرَبَ النَّاسِ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا أَى حبا للمؤمنين الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى فَإِنَّهُمْ وَ إِن كَانُوا نَصَارَى بِصَرَفٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ١، ص: ٦٧٩

اللفظ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى «١»، لا- أنهم على تعاليم المسيح و دينه حقيقته، لكنهم من أقرب الناس حبا للمسلمين ذَلِكَ أَى سبب كونهم أقرب بِأَنَّ مِنْهُمْ أَى من النصارى قَسِيصِينَ أَى علماء من «القس» بمعنى نشر الحديث و رُهْبَانًا أَى الزهاد أصحاب الصوامع من «رهب» بمعنى خاف و أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عن اتباع الحق و الانقياد إليه إذا علموه. و بهذه الصفة خرج من لم يكن كذلك من النصارى، فإن القيد يخص المطلق.

(١) المائدة: ١٥.

الجزء الثانى

[تنمة سورة المائدة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧

[سورة المائدة (٥): آية ٨٣]

وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)

[٨٤] هذه الآية و طرفاها

وردت في قصة النجاشي ملك الحبشة، فإن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أرسل جعفر بن أبي طالب عليه السلام مع جماعة من المؤمنين إلى النجاشي فأكرمهم و أعز و فادتهم، ثم أنه بعث إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثلاثة من القسيسين فقال لهم: انظروا إلى كلامه و مصلاه. فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله إلى الإسلام و قرأ عليهم القرآن: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ إِلَى قَوْلِهِ- سِحْرٌ مُّبِينٌ «١»، فلما سمعوا ذلك من رسول الله بكوا و آمنوا و رجعوا إلى النجاشي و أخبروه خبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قرءوا عليه ما قرأ عليهم، فبكى النجاشي و بكى القسيسون و أسلم النجاشي و لم يظهر للحبشة إسلامه و خافهم على نفسه و خرج من بلاد الحبشة يريد النبي صلى الله عليه و آله و سلم فلما عبر البحر توفى، فنزلت هذه الآيات

: وَ إِذَا سَمِعُوا أَى هؤلاء النصارى ما أنزل إلى الرسول من القرآن ترى أعينهم تفيض من الدمع أى من البكاء مما عرفوا من الحق أى لمعرفة أنهم أن المتلو عليهم حق، فإن الإنسان إذا عرف الحق، رأى الخارج على خلافه، أو رأى اضطهاد أهله، بكى رقة على الحق أو القائم به يقولون ربنا آمنا بدينك و رسولك فاكْتُبْنَا أى سجلنا، سواء كان كتابه حقيقياً أو لا مع الشاهدين الذين شهدوا

(١) المائدة: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٤ إلى ٨٧]

وَ مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)

بالحق، و المراد بهم المسلمون هنا.

[٨٥] وَ مَا لَنَا أَى يقول هؤلاء النصارى: لأى عذر لا- نُؤْمِنُ بِاللَّهِ إيماننا حقيقياً كإيمان المسلمين وَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ من القرآن و

الإسلام وَ الحال أَنَا نَطْمَعُ أَى نرجو وَ نأمل أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا فى الجنة مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ

[٨٦] وَ قد حقق الله لهم الرجاء الذى رجوه فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ أَى جازاهم و أعطاهم الثواب بما قالوا أى بسبب قولهم ذاك المنبتق عن عقيدتهم الراسخة جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أى بساتين تجرى من تحت أشجارها و قصورها الأنهار خالدين فيها أى لهم الخلود فلا انقضاء للنعيم و لا زوال لهم وَ ذَلِكَ الثواب جزاء الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون العقيدة و القول و العمل.

[٨٧] وَ الَّذِينَ كَفَرُوا كاليهود و سائر المسيحيين و المشركين وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فلم يقبلوها أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ الذين يلازمون النار، كما خلد أصحاب الجنة فيها.

[٨٨] وَ فى سياق ذكر الرهبان و هم يحرمون الطيبات على أنفسهم، يأتى النهى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩

للمسلمين عن تحريم ما أحل الله، كما ينهى عن الإسراف و الاعتداء، فإن كلا الطرفين منهى عنه مذموم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ أَى لا- تجعلوها بمنزلة المحرمات فتجتنبوا عنها اجتنابكم عن المحرمات و لفظه «ما» موصولة، أى طيبات الأشياء التى أحلها الله لكم، و لعل الإتيان بها لإفادة العموم، إذ لو قال: «طيبات أحل الله لكم» كان المتبادر منه طيبات خاصة، و ليست إضافة طيبات إلى «ما» تفيد التقييد، بل هو من باب «قطفه خز».

و قد نزلت هذه الآية فى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و بلال و عثمان ابن مظعون،

فأما على عليه السلام فإنه حلف أن لا- ينام بالليل أبدا إلا ما شاء الله، و أما بلال فإنه حلف أن لا يفطر بالنهار أبدا، و أما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدا- كل ذلك بقصد الامتناع عن شهوات الدنيا رجاء ثواب الله- فدخلت امرأة عثمان على عائشة و كانت امرأة جميلة فقالت عائشة: ما لى أراك متعطلة؟ فقالت: و لمن أترين، فو الله ما قربنى زوجى منذ كذا و كذا فإنه قد ترهب و لبس المسوح و زهد فى الدنيا. فلما دخل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أخبرته عائشة، فخرج فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟! إنى أنام بالليل و أنكح و أفطر بالنهار فمن رغب عن سنتى فليس منى، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ (١) «٢»

، و لا يخفى أن مثل ذلك لا يضر مقام عصمة الإمام لأنه:

أولا: قيد ب «إلا ما شاء الله».

(١) البقرة: ٢٢٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٣ ص ٢٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠

[سورة المائدة (٥): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

وَ كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لا- يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ تَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

و ثانيا: أنه من قبيل يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ «١»، و لعل السر فى المقامين أن الأمر كان جائزا قبل النهى، و لفظه «لم» ليس للتقريع، بل للإرشاد و إعطاء الحكم.

وَ لَا تَعْتَدُوا حَتَّى تَسْرِفُوا فِي تَنَاوُلِ الطَّيِّبَاتِ، أَوْ تَعْدُوها إِلَى الْخَبَائِثِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ قد تقدم أن معنى «لا يحب» فى هذه المقامات: أنه يكرههم و يبغضهم.

[٨٩] وَ كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا أَى فى حال كون الرزق حلالا- أى مباحا- طيبا، أى لا ضرر فيه و لا خبث وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ فلا تخالفوا أوامره و لا ترتكبوا زواجره.

[٩٠] لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ اليمين التى أجازها الله سبحانه هى التى تكون منعقدة و تترتب على حثها الكفارة، أما اليمين اللفظية- التى تتداول على ألسنة الناس حيث يحلفون على كل صغيرة و كبيرة- و اليمين التى لم يعط الله الرخصة فى متعلقها كيمين تحريم الطيبات على النفس زهدا، فهى لغو من اليمين لا- تترتب عليها كفارة، و لا- يكون نقضها حثا وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ عَنْ قِصْدٍ وَ تَعَمُّدٍ مع

(١) التحريم: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١

صلاحية المتعلق للانعقاد، فقول الإنسان: «لا والله» و«بلى والله» لغو لم يقصد به عقد اليمين، كما يعقد العقد، بل هو من قبيل التأكيد كما أن عقده بدون صلاحية المتعلق لا يفيد شيئاً. وقد سبق ذلك في سورة البقرة، لكن التكرار هنا فذلكه للحكم المتقدم و تمهيد للكفارة.

فَكَفَّارَتُهُ أى كفارة ما عقّدت من الأيمان، و سميت الكفارة كفارة لأنها تكفر الذنب و تستره، و إنما تجب الكفارة إذا حث الإنسان مقتضى يمينه إطعام عَشْرَةَ مَسَاكِينَ جمع مسكين، و المراد به الفقير، يعطى كل واحد مدا من الطعام، و هو ما يقرب من ثلاثة أرباع الأوقية- بحقه كربلاء- أو ثلاثة أرباع الكيلو، أو يطعمهم إطعاماً مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ فلا يجب فى إطعامهم الحد الأعلى و هو الأرز مثلاً، و لا يجوز الأدنى كإطعامهم بالدخنة مثلاً أَوْ كَشَوْتُهُمْ أى يكسى كل واحد من العشرة بثوبين «المئزر و القميص» بأى جنس كان أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أى عتق عبد أو أمه لوجه الله سبحانه، و إنما عبر عن الإنسان بالرقبة، لعلاقته الكل بالجزء فَمَنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ للكفارة فكفارته صيام ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ متتابعات- كما ذكر الفقهاء- و ذَلِكَ المتقدم من الأمور الثلاثة ثم الصيام كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ جمع يمين و هو الحلف إِذَا حَلَفْتُمْ ثم حثتم و أَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ فلا تحثوها بل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٠ إلى ٩١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)

أوفوا بها كَذَلِكَ البيان، أى مثل هذا البيان الذى يبين به الكفارة، و حكم اللغو فى اليمين يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ واضحة لا لبس فيها و لا غموض لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الله سبحانه حيث أرشدكم إلى مصالحكم.

[٩١] و بعد ذكر تحليل الطيبات يأتى بيان تحريم الخبائث يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ هى كل ما أسكر سواء كان من العنب أو غيره وَ الْمَيْسِرُ هو القمار بجميع أنواعه وَ الْأَنْصَابُ وَ هى الأصنام كانوا يذبحون لها الذبائح و يلطخونها بدماؤها وَ الْأَزْلَامُ قَدَاحُ كانوا يستقسمون بها الذبيحة و ذلك نوع من أنواع القمار خَصِّصَ بالذكر لاشتهاره فى زمن الجاهلية، و قد مر تفسير هذه الكلمات سابقاً رِجْسٌ أى خبيث مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فإن الشيطان هو الذى أمر بتعاطيها، مقابل عمل الرحمن، بمعنى: هو الذى أمر به و عمله، فإن الشيطان هو الذى عمل هذه الأشياء إما حقيقة كما يظهر من بعض الأحاديث، و إما مجازاً باعتبار وسوسته و إلقاءه فى قلوب الفاسقين فَاجْتَنِبُوهُ أى اجتنبوا تعاطى هذه الأشياء فلا تشربوا الخمر و لا تضربوا الميسر و لا تعبدوا الأصنام و تستقسموا بالأزلام لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى كى تفوزوا بخير الدنيا و سعادة الآخرة.

[٩٢] إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ بوسوسته و أمره بشرب الخمر و لعب الميسر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣

أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَ الفرق بينهما أن أصل التعدى من فعل الجوارح، و أصل البغضاء من فعل الجوانح فى الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ أى بالنسبة إليهما، فإن «فى» تستعمل بمعنى «النسبة» كما قالوا فى قولهم: «الواجبات الشرعية فى الواجبات العقلية» أن «فى» بمعنى النسبة، أى بالنسبة إلى الواجبات العقلية.

فى المجمع: أن سعد بن أبى وقاص و رجلا- من الأنصار كان مؤاخيا لسعد دعاه إلى طعام فأكلوا و شربوا نبيذا مسكرا فوق بين الأنصارى و سعد مرأ و مفاخرة فأخذ الأنصارى لحي جمل فضرب به سعدا ففرز أنفه. فأنزل الله ذلك فيهما «١».

أقول: إن إيقاع العداوة بواسطة الخمر ظاهر، إذ السكر الموجب لذهاب العقل يوجب كل شىء، و إيقاعه بسبب القمار، من جهة

الاختلاف بينهما فيمن له الغلب أولا و بغض المغلوب للغالب ثانيا.

وَيَصِدُّكُمْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِذِ الْإِسْكَارِ يُوْجِبُ عَدَمَ الْاِتِّفَاتِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالْقَمَارُ بِإِشْغَالِهِ الْحَوَاسِ، مَنْسَى لَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ عَنِ الصَّلَاةِ لَمَّا هُوَ وَاضِحٌ مِمَّا تَقَدَّمَ فَهَلْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مُنْتَهُونَ عَنْهُمَا، فَتَرْتَوْنَهُمَا لِهَذِهِ الْمَضَارِ، وَ صِيغَةُ الْاِسْتِفْهَامِ بِمَعْنَى النَّهْيِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٤١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ اخِذُوا فِيمَا تَوَلَّيْتُمْ فَمَا عَلَّمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) [٩٣] وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي الْأَمْرِ وَ النَّوَاهِي، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ طَاعَتَهُمَا وَاحِدَةٌ، وَ إِنَّمَا يَذَكَرُ اللَّهُ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الْإِطَاعَةِ، وَ يَذَكَرُ الرَّسُولَ لِأَنَّهُ الْمَبْلُغُ الَّذِي بَيْنَ الْأَمْرِ وَ النَّهْيِ وَ اخِذُوا مِنْ مَخَالَفَتِهِمَا فَإِنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لَخِزْيِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَإِنَّ تَوَلَّيْتُمْ أَيْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ إِطَاعَتِهِمَا فَمَا عَلَّمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ فَانظُرُوا الْعُقُوبَةَ حَيْثُ قَدْ بَلَّغَكُمْ الرَّسُولَ فَلَمْ يَنْفَعِكُمُ الْبَلَاغُ وَ تَجَاوَزْتُمُ الْحُدُودَ.

[٩٤] و لما نزل تحريم الخمر و الميسر قال بعض الصحابة: يا رسول الله ما تقول في إخواننا الذين مضوا و هم يشربون الخمر و يأكلون الميسر- يريدون هل من إثم على الذين قتلوا أو ماتوا قبل التحريم، و هم يتعاطونهما؟- فنزلت هذه الآية لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ أَى إثم و حرج و عصيان فيما طعموا سابقا قبل التحريم من الخمر و تعاطوا من الميسر و غلب أحد اللفظين تخفيفا كما قال الشاعر: «علفتها تينا و ماء باردا» إِذَا مَا اتَّقَوْا «ما» زائدة، وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَى إِذَا كَانَ طَعَامُهُمْ مَصَاحِبًا لِلتَّقْوَى وَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مُؤْمِنًا وَ عَامِلًا لِلصَّالِحَاتِ لَكِنَّهُ لَيْسَ مَتَّقِيًا، أَى لَيْسَ فِي نَفْسِهِ حَالَةٌ رَادِعَةٌ وَ مَلَكَةٌ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ لِذَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ التَّقْوَى فِي عِدَادِ الْإِيمَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥

و العمل الصالح. ثم كرر سبحانه الجملة السابقة أَى «اتَّقُوا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بتعبير ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا بلا ذكر العمل الصالح و ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا بلا- ذكر الإيمان، و لا- يخفى أن الإحسان هو عبارة عن العمل الصالح. و لعل الوجه في التكرار إفادة الدوام في الصفات الثلاثة، أَى أن عدم الجناح مشروط «بالإيمان و التقوى و العمل الصالح» سابقا، «و بالإيمان و التقوى و العمل الصالح» مستمرا فيما بعد، و قد كرر «التقوى» في الجملة الثانية لتأكيد أن كلاً من الإيمان و العمل الصالح لا ينفع بدون التقوى، و الذي يقرب إرادة الدوام من الجملة الثانية دخول «ثم» فيها، فاستمرار التقوى مع الإيمان، و استمرار التقوى مع العمل الصالح، شرط في عدم الجناح.

و هنا سؤال: إن ظاهر الآية «اشتراط عدم الجناح بالطعام، بالإيمان و التقوى و العمل الصالح» و إذا فرضنا أن الطعام كان محللا- كما عرفت في شأن النزول، إذ كانت الخمر لم تحرم بعد- فما معنى هذا الشرط؟ فقد كان شرب الخمر- قبل تحريمها- مباحا حلالا للمسلم و الكافر، فأى معنى لتقييد التحليل بالإيمان؟

و الجواب: أن الشرط لا مفهوم له، فليس المعنى «الجناح إذا لم يؤمنوا» إذ الشرط كما يساق غالبا لبيان المفهوم، نحو «إن جاءك زيد فأكرمه» المفهوم منه «إن لم يجئك فلا- تكرمه» يساق أحيانا لبيان تحقق الموضوع، نحو: «إن رزقت ولدا فاختنه» فإنه لا مفهوم له ب «إن لم ترزق ولدا فلا تختنه» إذ أن «لم يرزق ولدا» يكون من السالبة بانتفاء الموضوع، و إنما الجملة «إن رزقت» معناها: «يجب الختن للولد» ..

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦

[سورة المائدة (٥): آية ٩٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِغُواكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤)

وهنا كذلك، إذ الآية مسوقة لبيان «أن المؤمنين الذين شربوا وهم متقون عاملون بالصالحات ليس عليهم جناح» في مقابل توهم الأصحاب أن عليهم الجناح، لا أنه سيق للمفهوم حتى يقال بعدم استقامته مفهومه ... ثم إنه من المحتمل أن يكون في تناول الكفار للمباح حضر، كما دلّ الدليل أن في تناول المباح للنصاب حضر، فمن شرب من نهر الفرات من أعداء الصديقة الطاهرة عليها السلام كان شربه محرماً، و على هذا فللمفهوم مجال واسع في الآية.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَحْسَنُونَ فِي أُمُورِهِمْ، و كأنه حث على الإحسان و إن لم يكن المحسن من أهل الإيمان. و لا يخفى أن من طعم محرماً و تذرع لرفع الحد عنه بهذه الآية، فهو مخطئ إذ الآية تشترط في عدم الجناح الإيمان و التقوى و العمل الصالح، و من المعلوم أن التقوى و العمل الصالح يتنافيان مع عمل المحرم.

[٩٥] و في سياق التحليل و التحريم، و تميماً لما تقدم في أول السورة من قوله سبحانه: «غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ» و قوله: «إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» يأتي ذكر الصيد في حال الإحرام و كفارته يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلِغُواكُمُ اللَّهُ مِنْ «بلا» بمعنى اختر، يعني ليختبركم الله و يمتحنكم بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ أَي بَعْضِ الصَّيْدِ الْمَحْرَمِ عَلَى الْمَحْرَمِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ فَيَكُونُ فِي طَرِيقِكُمْ إِلَى الْحَجِّ بَعْضُ أَقْسَامِ الصَّيْدِ سَهْلُ التَّنَاوُلِ حَتَّىٰ أَنْ أَحَدِكُمْ لَوْ مَدَّ يَدَهُ لِتَمَكَّنَ مِنْ أَخْذِهِ، و لو شرع رمحه لتمكّن من صيده، و بالأخص فراخ الطير و صغار الوحش و بيض الطير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧

[سورة المائدة (٥): آية ٩٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)

المحرم، فقد ابتلى المؤمنين في عمرة الحديبية بكثرة الصيد في طريقهم إلى مكة و قد كان ذلك اختباراً من الله لهم، أيهم يطيع فيتنجب و أيهم يعصى فيصيد؟! و إنما كان ذلك الاختبار ليعلم الله مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ أَي بِالسَّرِّ وَ الْخُلُوءِ، و بعيداً عن أعين الناس، و قد تقدّم سابقاً أن اختبار الله ليس لأنه لا يعلم، و إنما لأجل أن يظهر معلومه، و يتم الحجّة كما أن «ليعلم» يراد به «ظهور معلومه» فإن العلم حيث كان من الأمور ذات الإضافة صح أن يكون السبب له انكشاف المعلوم للعالم، و أن يكون وجود المعلوم في الخارج، و المراد بالغيب ما غاب عن الحواس، و هو إما بالنسبة إلى الله، أو بالنسبة إلى سائر الناس أي في حال عدم رؤيتكم لله سبحانه، أو عدم رؤية الناس لكم فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ أَي بَعْدَ النَّهْيِ - الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْكَلَامِ - بِأَنْ صَادَ وَ خَالَفَ أَوْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَوْلَمٌ مَوْجِعٌ.

[٩٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ أَي فِي حَالِ كَوْنِكُمْ مُحْرَمِينَ، و المراد بالصيد كل وحش أكل أم لم يؤكل إلّا ما استثنى، و «حرم» جمع «محرم»، يقال: أحرم الرجل إذا دخل في الحرم أو في الإحرام، فالآية تدل على حرمة الصيد الحرمي، و الصيد الإحرامى، كما أن ذلك، عام للحج و العمرة و مَنْ قَتَلَهُ أَي قَتَلَ الصَّيْدَ مِنْكُمْ أَيهَا الْمُحْرَمُونَ مُتَعَمِّدًا وَ هَذَا الْقَيْدُ لَا مَفْهُومَ لَهُ، لأنه من مفهوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨

اللقب الذي ثبت عند العلماء عدم المفهوم له، فإن للخطأ أيضاً كفارة، كما ثبت في السنة، و لعل فائدة القيد كونه الغالب الذي يتناوله

الإنسان، بالإضافة إلى أنه يترتب على ما يأتي من قوله: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» فجزاء عليه كفارة مثل ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ «من» بيان لجزاء، أن جزاءه أن يكفر بإحدى النعم الثلاث المشابهة لذلك الصيد المقتول.

فمثلا: الطيبي شبيه بالشاة، و حمار الوحش و بقرته شبيهان بالبقرة، و النعامه شبيهة بالجزور يَحْكُمُ بِهِ أى بالمثل ذوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أى رجلا ن عادلان، فيحكمان أن الحيوان الفلاني الذي اصطيد هو مثل الحيوان الفلاني من الأنعام الثلاثة- الشاة و البقرة و الإبل - فكلما حكما بأنه مثل الصيد أخذ كفارة له.

وقد ورد في الأحاديث: أن المراد بدوى العدل هم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الإمام عليه السلام (١) فما وجد من النصوص في مورد المماثلة وجب الحكم به، و ما لم يرد فالظاهر عدم المانع في التمسك بظاهر الآية من كفاية إخبار عادلين عارفين بالمماثلة، إن لم يوجد نص بالخلاف بالقيمة أو ما أشبهه.

هَيْدِيًّا أى فى حال كون الكفارة تهدى هديا بِالْعُكْبَةِ أى يذهب بها إلى صوب الكعبة فإن أصاب الصيد و هو محرم بالعمرة ذبح جزاءه بمكته و إن كان محرما بالحج ذبحه بمنى أو يكون جزاء الصيد كَفَّارَةً طَعَامًا مَسَاكِينَ فإذا لم يجد الأنعام أخذ بقيمتها الطعام

(١) الكافي: ج ٤ ص ٣٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩

[سورة المائدة (٥): آية ٩٦]

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) و تصدق به على المساكين أو يكون جزاء الصيد عَدْلٌ ذَلِكَ أى معادل الإطعام صِيَامًا فلكل مدين صوم يوم، و تفصيل هذه الأمور تطلب من الفقه فى كتاب الحج.

و إنما شرعت الكفارة لِيَذُوقَ الصَّائِدَ وَبَالَ أى عقوبة أمره أى عمله و هو الاصطياد المنهى عنه عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ من الصيد فمن صاد متعمدا و كفر عفا سبحانه عن ذنبه وَ مَنْ عَادَ إِلَى الصَّيْدِ مَتَعَمِدًا مَرَّةً ثَانِيَةً فلا كفارة عليه من عظم ذنبه، فإنه لا يغسل بالكفارة بل ينتقم الله مِنْهُ فى الآخرة انتقاما لهتكه حرمة الإحرام أو حرمة الحرم.

هذا ما فسرت به الآية الكريمة فى الأحاديث، و إن كان لا يبعد انصراف الآية الكريمة إلى «ما سلف» قبل التحريم و العفو باعتبار أنه غير جائز حتى عند الجاهليين، و ما أعيد بعد التحريم، فيكون العفو عما سلف من قبيل «الإسلام يجب عما قبله» و المراد بالانتقام الكفارة و العقاب و الله عَزِيزٌ قَادِرٌ غَالِبٌ ذُو انْتِقَامٍ ينتقم من كل من عصاه و خالفه.

[٩٧] أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ الْمَرَادُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَعْمُ مِنَ النَّهْرِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمَى النَّهْرَ بَحْرًا، فَإِنْ صَيْدَهُ مَبَاحٌ فِى حَالِ الْإِحْرَامِ، وَ لَوْ فِى الْحَرَمِ - لَوْ صَارَ فِيهِ بَحْرٌ، أَوْ أَتَى بِصَيْدِهِ إِلَيْهِ - هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى صَيْدِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠

[سورة المائدة (٥): آية ٩٧]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقُلُوبَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧)

وَ طَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩٧ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَ أما بالنسبة إلى أكله ف طَعَامُهُ أى طعام البحر، قد متعمت به متاعاً و المتاع ما يتمتع به الإنسان لكم أيها المحرمون و لِلسَّيَّارَةِ أى القوافل السيارة التى تسير كثيرا، فإن السمك يجفف للسفر، و إنما خصص بالسفر مع أنه طعام للحضر أيضا، لكثرة انتفاع المسافر، إذ لا يمكن غالبا ذبح الأنعام فى السفر، فيتتفع المسافر بالسمك المجفف انتفاعا كثيرا وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ الْأَعْمُ مِنَ الْوَحْشِ وَ الطَّيْرِ مَا دُمْتُمْ

حُرْمًا جمع «محرم»، أى ما دتم في الإحرام و ما دتم في الحرم- كما تقدم- يقال: رجل حرام، إذا كان محرماً أو كان في الحرم و اتَّقُوا اللَّهَ أى خافوا عقابه، فلا ترتكبوا نواهيه الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الحشر هو الجمع، أى يكون مصيركم و حشركم إليه، فيجازيكم بما اقترفت من الذنوب و الآثام.

[٩٨] و في سياق حكم الصيد في حال الإحرام، يأتي الكلام حول ما جعله سبحانه حراماً من المكان و الزمان، ليهدي الناس في فترات معينة و أماكن معينة عن الخصام و الانتقام، الذي يكدر الحياة البشرية جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ سَمِيَةً الكعبة «كعبة» لتربيعها و إنما قيل للمربع: كعبة لتواء زواياها الأربع، مقابل المدور، و الكعب هو التواء و الارتفاع الثبوت الحرام عطف بيان على الكعبة، و إنما جيء بهذا العطف، لأنه كانت لدى الجاهليين، كعبات متعدده و كانوا يحجون إليها و يطوفون بها، فهدمها النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و سمي البيت الحرام، لحرمة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١

و لأنه يحرم فيه القتال و الصيد و غيرها قياماً للناس مفعول ثان ل «جعل» أى جعل الله الكعبة لقيام الناس، بأن تقوم أمورهم، و تستقيم أحوالهم، اقتصادياً و اجتماعياً، و غيرهما، كما ذكر في فلسفة الحج «١».

و جعل الله الشهر الحرام قياماً للناس، فأشهر الحرم:

و هي ذو القعدة و ذو الحجة و محرم و رجب، تقوم أمور الناس و اجتماعهم، إذ تخفف عن كواهلهم عبء الحروب، و المخاصمات و تسبب الأمن و الهدوء، مما يروج الاقتصاد، و يهيئ الجو الملائم للتفاهم و غيرها، فالبيت الحرام أمن في المكان، و الشهر الحرام أمن في الزمان، و قد جعل سبحانه الأمن متعدياً إلى خارج هذه الحدود فجعل و الهدى أى محترماً لا يمس بسوء، و هو ما يهدى إلى الكعبة بإشعار أو تقليد و القلائد جمع قلادة أى ما تقلدها- بعلاقة الحال و المحل- أى جعل القلائد محترمة لا تمس بسوء. و المراد بالقلائد إما الحيوان الذي يقلد، أو الإنسان الذي يحرم فيقلد نفسه. قالوا: كان الرجل يقلد بغيره أو نفسه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يخاف.

و لا يقال: أن غير الهدى و القلائد أيضاً محترم لأنه لا يجوز لأحد أن يتصرف في مال غيره أو بدن غيره فما معنى الاختصاص هنا؟ لأن الجواب ظاهر: فإن الهدى لا يجوز أن يمس، و إن جاز مسه لو لا كونه هدياً بسبب الاقتصاص و الإفلاس و نحوهما، كما أنه لا يجوز أن يتعدى على المحرم بما يجوز التعدي عليه في غير حال الإحرام، فلا يجوز أخذ المحرم و حبسه و لو كان بحق- إذ الواجب إتمام العمرة

(١) راجع كتاب «عبادات الإسلام» للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢

[سورة المائدة (٥): الآيات ٩٨ إلى ٩٩]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) و الحج لله- فكما لا يجوز لنفسه الإبطال لا يجوز لغيره الإبطال.

ذَلِكَ أى إنما جعل سبحانه هذه المحرمات لتعلموا أيها الناس أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فإنه عالم بأحوال الإنسان و ما يكتنفه من العدا و الشر و أنه يحتاج إلى هدوء و سكينه في المكان و في الزمان، و أن الناس يحتاجون إلى ما يقيم معاشهم و معادهم، و لذا جعل هذه المحرمات للاستراحة و الاستجمام، و لعل ذكر السماوات استطراد، فإن ما ذكر مرتبط بالأرض، لكن لو ذكرت وحدها لأوهم عدم علمه سبحانه بما في السماوات و أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ من أحوال الإنسان و الحيوان و الأزمان و الأماكن و غيرها.

[٩٩] و لَمَّا تَقَدَّمَ بَعْضُ الْأَحْكَامِ عَقِبَهُ سَبْحَانَهُ بِذِكْرِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ اعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَ خَالَفَهُ وَ أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ ذُنُوبَكُمْ وَ يَرْحَمُكُمْ بِفَضْلِهِ وَ سَعْتِهِ.

[١٠٠] مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ أَىْ آدَاءِ الرِّسَالَةِ وَ بَيَانِ الشَّرِيعَةِ، أَمَا الْقَبُولُ مِنَ النَّاسِ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ لَا يَرْتَبِطُ بِهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ أَىْ تَظْهَرُونَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَ الْأَعْمَالِ وَ مَا تَكْتُمُونَ مِنْ تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ٢٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَ إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَ اللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) النِّيَاتِ وَ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ وَ يَجَازِيكُمْ بِكُلِّ ذَلِكَ، فَأَحْسِنُوا وَ لَا تَخَالَفُوا.

[١٠١] وَ لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ الْحَلَالَ وَ الْحَرَامَ ذَكَرَ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ، فَلَا يَتَنَاولُ أَحَدٌ خَبِيثًا مَدْعِيًا أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَ غَيْرِهِ، كَمَا نَرَى الْيَوْمَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَنَاولُونَ الْمُحْرَمَاتِ مَدْعِينَ عَدَمَ الْفَرْقِ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ الْمُحَلَّلَاتِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ الْمُحْرَمُ وَ الطَّيِّبُ الْمُحَلَّلُ، فَإِنَّهُمَا لَيْسَا مُتَسَاوِيَيْنِ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ أَيُّهَا السَّمَاعُ كَثْرَةُ الْخَيْثِ وَ زِيَادَتُهُ عَلَى الطَّيِّبِ، كَمَا نَرَى مِنْ أَنَّ أَنْوَاعًا مِنَ الْحَيَوَانِ الْمُحْرَمِ أَكْثَرَ مِنَ الْمُحَلَّلِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْخَيْثِ لَا تَسَبِّبُ طَيِّبَهُ وَ لَعَلَّ قَوْلَهُ «وَ لَوْ» لَدَفَعَ اسْتِعْبَادَ بَعْضِ النَّاسِ: أَنَّهُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّيْءُ الْكَثِيرُ حَرَامًا؟ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَىْ خَافُوا عَصِيَانَهُ وَ لَا تَخَالَفُوهُ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ أَىْ أَصْحَابَ الْعُقُولِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَىْ كَيْ تَفُوزُوا بِالثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَ الْآجِلِ.

[١٠٢] قَلْنَا سَابِقًا قَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، بِعَدَمِ إِطَالَةِ أَمْرٍ وَاحِدٍ، فَيَمَلُّ السَّمَاعُ فَهُوَ إِذَا أَرَادَ الْإِطَالَهَ، ذَكَرَ فِي الْأَثْنَاءِ مَا يَلطَفُ الْجَوُّ وَ يَرْفَعُ الْمَلَلُ مِنَ السَّمَاعِ، بِبَيَانِ حُكْمٍ جَدِيدٍ مَتَّبِعِهِ، وَ هَكَذَا أَتَتْ آيَةُ السُّؤَالِ هُنَا فِي وَسْطِ الْحَرَامِ وَ الْحَلَالِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ارْتِبَاطِ الْآيَةِ بِالْحَجِّ، حَيْثُ أَنَّهُ وَرَدَتْ فِي بَابِ السُّؤَالِ عَنِ الْحَجِّ.

فَقَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خَطَبَ فَقَالَ: إِنْ اللَّهُ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ. فَقَامَ سِرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ فَقَالَ: فِي كُلِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤

عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ويحك وما يؤمنك أن أقول: نعم، ولو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه «١». فنزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ مُتَّصِفَةٌ بِأَنَّهَا إِنْ تَبَدَّ لَكُمْ أَىْ تَظْهَرُ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ أَىْ تَسَبَّبَ سُوءًا أَوْ حَزَنًا وَ صَعُوبَةً عَلَيْكُمْ وَ إِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا أَىْ عَنِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ أَىْ فِي فِتْرَةِ الْوَحْيِ وَ وَجُودِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ تُبَدَّ لَكُمْ لِأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِي إِلَيْهِ بِالْجَوَابِ فَيَكُونُ مُوجِبًا لِلصَّعُوبَةِ عَلَيْكُمْ بِتَشْرِيعِ أَحْكَامٍ جَدِيدَةٍ أَنْتُمْ فِي غِنَى عَنْهَا.

وهنا سؤال: كيف يمكن عدم السؤال إن كان من الأمور المرتبطة بالدين؟ وهل أن أحكام الله اعتبارية حتى يشرعها السؤال؟ أليس كل حكم تابع للمصلحة والمفسدة، ويبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لإيصال الناس إلى مصالحهم ومفاسدهم؟ وما خصوصية «حين ينزل القرآن» فإن الأئمة عليهم السلام أيضا بتلك المثابة حيث أنهم يعلمون جميع الأحكام؟

والجواب: أن الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد التي منها مصلحة التسهيل على المكلفين، فكثيرا ما لا يشرع حكم - كعدم وجوب السواك - لمصلحة التسهيل، ومن المعلوم أن هذه المصلحة قد

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ترفع إذا كان هناك لجاج و عناد و ظلم، كما قال سبحانه: فَبُظِّلِمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ (١)، و بهذا ظهر الجواب عن السؤال الثاني.

و أما السؤال الأول: فإن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا كان في مقام بيان جميع الأحكام، و ليست القضية شخصية، كابتلاء يارث لا يعلم تقسيمه، أو زوجة لا يعرف حقها، أو ولد عاص لا يدري كيف يعاشره أو أشباه ذلك، لم يكن وجه للسؤال، لأنه تعنت و إرهاب.

و أما السؤال الثالث: فلأن المصالح التشريعية قد كملت في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى أنه لا تشريع جديد بعده، و لذا فلم يكن الأئمة عليهم السلام بمثابة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في إمكان تشريع الحكم، و إن كان من الممكن التشريع لو حدث في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شيء، و هذه المصلحة و هي انسداد باب التشريع حتى لا يكون لأحد ذلك - بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - و إن كان مفوّتا لمصالح واقعية - مثلا - لكنها أقوى في الاعتبار من مراعاة مصالح لأحكام جديدة.

و لعل الجواب على الإشكال الثاني يستفاد من حديث

ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، و حدّ لكم حدودا فلا تعتدوها، و نهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، و سكت لكم عن أشياء و لم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها» (٢).

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا أي عن تلك الأشياء فلا تتكلفوها، أنه سبحانه

(١) النساء: ١٦١.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيَّةً وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)

رَجَحَ مصلحة التسهيل عليكم على مصلحة تلك الأحكام، فإن تسألوا عنها و تعاندوا ترفع تلك المصلحة التسهيلية فتبتلون بها و الله غَفُورٌ يَغْفِرُ ما سلف حليمٌ يمهلكم فلا يعجل في عقابكم.

[١٠٣] قَدْ سَأَلَهَا أي سأل عن تلك الأشياء التي إن تبدت تسمى السائل قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ من الأمم السابقة، كما سأل اليهود عيسى عليه السلام المائدة، ثم كفروا، و سأل بنو إسرائيل القتال، فلما أجيوا و لّوا إلا قليلا منهم، و سأل قوم صالح الناقة ثم عقروها، أو «من المشركين» حيث سألوا من النبي أشياء ثم لما بدت لهم كفروا و لم يؤمنوا ثم أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ فازدادوا عذابا على عذابهم، و هذه الآية كالتعليل للنهي في الآية السابقة.

[١٠٤] ثم يرجع السياق إلى ذكر بعض الأمور المحللة التي حرمها أهل الجاهلية ما جَعَلَ اللَّهُ أي لم يحرم الله - كما يزعم أهل الجاهلية - مِنْ بَحِيرَةٍ هي الناقة إذا شقت أذنها، من «البحر» بمعنى الشق و لا سَائِيَةٍ من «ساب الماء» إذا جرى، أي الناقة السائبة التي تجرى على الأرض بدون أن يمسه أحد - كما سيأتي - و لا وَصِيَّةً من «الصلة» ضد القطيعة و هي قسم من الناقة و الشاة كانوا يحرمونها و لا حَامٍ من «حمى يحمى» إذا حفظ، و هو قسم من الإبل كانوا يحرمونه لأنه حمى نفسه، فقد كان أهل الجاهلية إذا ولدت

الناقئة خمسة أبطن خامسها أنثى بحروا أذنها أى شقوها و حرموها على النساء فإذا ماتت حلت، و إذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٤]

وَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

ولدت عشرا جعلوها سائبة لا يستحلون ظهرها و لا أكلها، و ربما تسيب بندر، فكان ينذر أحدهم إن برئ مريضه أو جاء مسافره فناقته سائبة، و إذا ولدت ولدين فى بطن واحد، أو الشاة ولدت فى السابع ذكر أو أنثى فى بطن واحد قالوا: وصلت فلم تذبج و لم تؤكل و حرموا ولدى الشاة على النساء حتى يموت أحدهما فيحل. و الحام الفحل إذا ركب ولد ولده أو نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب و لا يمنع من كلاً و ماء، فأنزل الله عزّ و جلّ أنه لم يحرم من هذه الأمور شىء.

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فَيَتَّبِعُونَ حَرِيمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ كَذِبًا وَ بَهْتَانًا وَ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أَى لَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَرَامِ وَ الْحَلَالِ وَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ.

[١٠٥] وَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ أَى لَهُؤَلَاءِ الَّذِينَ يَحْرِمُونَ أَشْيَاءَ افْتَرَأَ تَعَالَوْا أَى هَلَمُّوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي الْقُرْآنِ وَ إِلَى الرَّسُولِ كَى تَصَدَّقُوا وَ تَتَّبِعُوا سُنَّتَهُ قَالُوا فِى الْجَوَابِ حَسْبُنَا أَى يَكْفِينَا لِمَصَالِحِنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنَ الْعَقَائِدِ وَ الْأَقْوَالِ وَ الْأَعْمَالِ وَ الْعَادَاتِ. وَ هُنَا يُسْأَلُ سَبْحَانَهُ سُؤَالَ انْكَارٍ وَ تَعْجَبٍ بِقَوْلِهِ: أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ، أَى:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٥ إلى ١٠٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُنَّ مِثْلَ بَعْضِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ لَا تَكُنْتُمْ شَهَادَةَ اللَّهِ إِيَّانَا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ (١٠٦)

فهل يتبعونهم و لو كانوا جهالا ضالين؟

[١٠٦] و لما بين سبحانه أحوال الكفار و أنهم ضالون أمر المسلمين باتباع الحق، و أنهم لا يضرهم ضلال من ضل، بينما هم مهتدين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ «عليك» اسم فعل بمعنى: الزم و احفظ، أى احفظوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ الضَّلَالِ وَ الانْحِرَافِ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ أَى إِذَا كُنْتُمْ مهتدين. و من المعلوم أن من شروط الاهتداء الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الإرشاد و سائر الواجبات التى هى من هذا القبيل.

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ جَمِيعًا فَإِنْ مَصِيرَ الضَّلَالِ وَ الْمَهْتَدَى إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ فَيُنَبِّئُكُمْ أَى يُخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَ الْقَبِيحَةِ، وَ لَيْسَ كَالدُّنْيَا يَخْتَلَطُ فِيهَا الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ فَتُؤَخَذُونَ أَنْتُمْ بِذُنُوبِ الضَّالِّينِ اسْتِثْبَاهًا وَ تَعَمُّدًا، أَوْ يَشْتَبِهَ أَمْرَ الضَّالِّينِ، فَلَا يَجَازُونَ بِالْعِقَابِ.

[١٠٧] ثُمَّ تَعْرَضُ سَبْحَانَهُ لِبَيَانِ تَشْرِيعِ جَدِيدِ وَرْدِ فِى قِصَّةِ خَاصَّةٍ، يَرْجِعُ إِلَى سَنِّ بَعْضِ الْأَحْكَامِ، بَعْدَ مَا فَرَّغَ مِنْ بَعْضِ أَقْسَامِ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ.

فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أن ثلاثة نفر خرجوا من المدينة تجارا إلى الشام: تميم بن أوس الدارى و أخوه عدى، و هما نصرانيان، و ابن أبى مارية مولى عمرو بن العاص السهمى و كان مسلما، حتى إذا كانوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩

ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصيته بيده و دسها في متاعه و أوصى إليهما و دفع المال إليهما و قال: أبلغا هذا إلى أهلي. فلما مات فتحا المتاع و أخذوا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فلما فتش القوم المال فقدوا بعض ما كان قد خرج به صاحبهم فنظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيها تاما فكلموا تميما و صاحبه فقالا: لا علم لنا به و ما دفعه إلينا، أبلغناه كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم «١».

فنزلت الآية

، و ستأتى تنمة القصة.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ «شهادة» مرفوع بالابتداء خبره «اثنان» أى الشهادة المعبرة شرعا فيما بينكم شهادة نفرين إذا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ بَانَ ظَهَرَ عَلَيْهِ آثار الموت حِينَ الْوَصِيَّةِ أَى فى وقت الوصية اثنانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَى رجلان عادلان من المسلمين أَوْ آخَرَانِ أَى شخصان آخران لتحمل الشهادة مِنْ غَيْرِكُمْ أَى من غير المسلمين، و «أو» هنا للترتيب لا- للتخيير إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ أَى سافرتم و لم تجدوا مسلمين للإشهاد على الوصية فأشهدوا نفرين آخرين فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ بَانَ ظَهَرَ عَلائمه، و الجملة الشرطية لتقييد قوله «آخران» فإن إشهادهما مشروط بالضرب فى الأرض، و هذا من باب المورد، و إلا فالمعيار عدم وجود مسلمين، و إن كان فى الحضر، فإذا تحملا الشهادة، و أرادا الإدلاء بها

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠

فهو بهذه الكيفية تَحْبِسُونَهُمَا أَى تقفونهما من بَعْدِ الصَّلَاةِ أَى صلاة العصر و ذلك لاجتماع الناس و تكاثرهم فى ذلك الوقت، و لعله ليكون أردع للكذب إذ الاجتماع يسبب الهيبة فى قلب المدلى للشهادة فَيُقْسِمَانِ أَى الشاهدان غير المسلمين بِاللَّهِ و هذا دليل على أن الشاهد يجب أن يكون معترفا بالله كأهل الكتاب إِنْ ارْتَبْتُمْ أَى شككتم فى شهادتهما و احتملتم التبديل و التغيير و التزيف فى الأمر، و هذا شرط للقسم، أى أنهما يقسمان فى حال شككم، و إلا فيدليان بالشهادة بدون القسم لا نَشْتَرِي بِهِ أَى بما ندلى من الشهادة ثَمَنًا و هذا هو المقسم به، فلا نغىر الشهادة و لا نبذل و لا نزيّف الواقع، ابتغاء تحصيل ثمن، أى مال و لَوْ كَانَ المشهود له ذا قُرْبَى أَى من أقربائنا، و خصص بالذكر لأن الناس دائما يميلون إلى أقربائهم فيشهدون بالباطل لنفعهم، و هذا كالتأكيد، و إلا فليس هنا مشهودا له. و المعنى: أن لا ندلى شهادة باطلة حتى لأقربائنا و لا نَكْتُمُ أَى لا نخفى شَهَادَةَ اللَّهِ أَى الشهادة التى أمرنا الله بأدائها. و الإضافة تعظيمية إِنَّا إِذَا لَوْ كَتَمْنَا شَهَادَةَ اللَّهِ لِمَنْ الْأَثِيمِينَ أَى العاصين.

و حاصل الحكم أن الإنسان إذا أراد أن يوصى فعليه أن يشهد على وصيته شاهدين مسلمين عادلين، فإن كان فى سفر و ظهرت عليه أمارات الموت، و لم يكن هناك مسلمون لتحمل الشهادة، يشهد على وصيته شاهدين كتابيين، و تقبل شهادتهما بدون اليمين إن لم يشك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٧]

فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا وَ مَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧)

الوارث بهما، أما إذا شك بهما و احتمل أنهما يكذبان فى الشهادة، فالحاكم الشرعى يحضرهما بعد صلاة العصر، و يحلفهما أولا بهذا الحلف: «و الله إنا لا نبتغى بالشهادة مالا و لا نبدل الشهادة حتى لأقربائنا و لا نكتم الشهادة التى ألزمها الله إيماننا و لو فعلنا ذلك لكننا آثمين» و بعد أداء هذا القسم أو شبهه فى المعنى، يدلان بشهادتهما حول الوصية، و تقبل شهادتهما حينئذ.

[١٠٨] لما نزلت الآية الأولى صَلَّى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم صلاة العصر و دعا بتميم و عدى فاستحلفهما عند المنبر بالله ما قبضنا غير هذا و لا كتمنا فحلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم سيبلهما، ثم اطعوا على إناء من فضة منقوش بذهب و قلادة من جوهر معهما من مال الميت فقال أولياء الميت: هذا من متاع الميت. فقال النصرانيان: اشتريناه منه و نسينا أن نخبركم، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فنزل قوله «فإن عثر» فقام رجلان من أولياء الميت عمرو بن العاص و المطلب بن أبي وداعة فحلفا بالله أن النصرانيين خانا و كذبا، فدفع الإناء إلى أولياء الميت، و بعد مدة أسلم تميم الدارمي فكان يقول: صدق الله و صدق رسوله أنا أخذت الإناء فأتوب إلى الله و أستغفره.

فإن عُثِرَ يقال: «عثر الرجل على الشيء» إذا اطلع عليه، ف «عثر» مبنى للمجهول بمعنى: «ظهر» على أَنَّهُمَا أى الوصيين غير المسلمين استَحَقَّ أى استوجبا إِمَّا أى ذنبا، بأن ادعى الأولياء أنهما كذبا فى اليمين و الشهادة بل خانا الوصية فشهدان آخران مسلمان يَقُومان مقامهما أى مقام غير المسلمين مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢

[سورة المائدة (٥): آية ١٠٨]

ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمِعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)

عَلَيْهِمْ أى من أولياء الميت الذين استحقت عليهما الوصية، و كان المال لهم الأُولِيانِ تثنية «أولى»، بدل من قوله «آخران» أى يقوم شاهدان كل واحد منهما أولى بالميت، أى من أقربائه و ذى ولايته، و هذان ينقضان شهادة الوصيين الكاذبين غير المسلمين فَيُقْسِمَانِ أى وليا الميت بِاللَّهِ لَشَهَادَتِنَا نحن أولياء الميت- فى تكذيب الوصيين- أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا أى من شهادة الوصيين الكاذبين، و كلمه «أحق» جرّدت من معنى التفضيل- كما سبق- وَ مَا اعْتَدَيْنَا أى ما تجاوزنا الحق بل نطلب مال الميت إِنَّا إِذَا لَوْ اعْتَدِينَا كُنَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ لنفوسنا حيث قسمنا كذبا، و إذا حلف وليا الميت كذلك نقض حلف الوصيين، و أخذ المال منهما و أعطى إلى ولي الميت.

[١٠٩] ذَلِكَ الذى تقدم من كيفية إحلاف الوصيين بعد الصلاة أَدْنَى أى أقرب أَنْ يَأْتُوا أى يأتى الوصيان بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا فإن اليمين رادعة لكثير من الناس عن الكذب أَوْ يَخَافُوا إذا علموا بأنهم إن حلفوا كاذبين أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ إلى أولياء الميت فيحلفان على كذبهما و يكون الحق لهما دون الوصيين بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ فيجمعون بين فضيحة الكذب و السرقة، و فضيحة الحلف الكاذب وَ اتَّقُوا اللَّهَ فلا تحلفوا به كذبا وَ اسْمِعُوا هذه الموعظة وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الذين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣

[سورة المائدة (٥): الآيات ١٠٩ الى ١١٠]

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا- عَلِمْنَا لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَ تَبْرِئُ الْمَاكِمَةَ وَ الْمَأْبُورِصَ بِأَذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)

يفسقون بالخروج عن طاعته، و ارتكاب معصيته، فإنه لا يلفظ بهم اللطف الخاص بالمطيعين.

[١١٠] قد سبق جانب من قصص اليهود و النصارى، و يأتى هنا جانب آخر من قصة النصارى فى ثوب بديع يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ أى اتقوا يوم الحشر الذى يجمع الله فيه الأنبياء المرسلين جميعا فَيَقُولُ لهم:

ماذَا أُجِبْتُمْ أى بماذا أجاوبكم الأمم هل بالإيمان و التصديق أم بالكفر و التكذيب؟ قَالُوا أى قال الرسل فى جوابه: سبحانه لا عَلِمْنَا كامل لنا فإننا لم نر منهم إلا الظواهر، أما البواطن و الخفايا فأنت العالم بها وحدك إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ أى الأشياء الغائبة عن الحواس، و

قصد الآية هنا الإجمال، أو ذلك في موقف من مواقف القيامة، إذ لها مواقف كل موقف منها يخالف الموقف الآخر في الخصوصيات والمزايا- هذا جواب الأنبياء بصورة عامة- أما جواب عيسى عليه السلام ففيه تفصيل و سيأتي بعد آيات من قصة عيسى عليه السلام. [١١١] إِذْ قَالَ اللَّهُ أَى «يقول» فَإِنِ الْمَضَارِعُ الْمَتَحَقِّقُ الْوَقُوعُ يَنْزِلُ مِنْزَلُهُ الْمَاضِي، و محل «إذ» النصب على «اتقوا» أى: اتقوا زمان يقول الله:

«يا عيسى»، أو على تقدير «اذكر» يا عيسى ابْنِ مَرْيَمَ و ذكر «ابن مريم» استنكار لقول النصارى إنه «ابن الله». اذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ و المراد بالنعمة جنسها، لا نعمة واحدة، و معنى ذكر النعمة شكرها، و الإتيان بما يستحق المنعم بها. و من المعلوم أن النعمة على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤

الوالدة بالعفاف و الطهارة و غيرهما، من أعظم النعم على الولد، فهي مما تستحق الشكر. ثم فسر سبحانه بعض نعمه بقوله: إِذْ أَيْدُتُكَ أَى قويتك و نصرتك بِرُوحِ الْقُدُسِ أَى الرُوحِ الْمَنْزُوعِ الْأَدْرَانِ، و هو جبرئيل عليه السلام أو ملك آخر، أو روح منفوخة فيه تحفظه عن الزلل فإن الأنبياء و الأئمة مزودون بروح طاهرة تحفظهم و ترشدهم بأمر الله سبحانه تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْيَدِ أَى فى حال كونك صبياً فإنه عليه السلام، قال: إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا* وَ جَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمِيتُ حَيًّا ... «١» وَ كَهَمَّا أَى فى حال كونك كهلاً، و هو قبل سن الشيخوخة، و هذا من تتمه الكلام، يعنى أنك تكلم الناس فى الحالين، لا كسائر الناس الذين لا يتكلمون إلا فى حالة واحدة.

وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ أَى جنس الكتاب المنزل من السماء، فإنه كانت كتب نازلة على الأنبياء السابقين و قد كان عليه السلام تعلمها بتعليم الله سبحانه وَ الْحِكْمَةَ وَ هى معرفة الأشياء على واقعها، فإن معرفة الكتب غير معرفة الحكمة، و أن يكون الإنسان بحيث يعلم الأمور و مواضعها وَ التَّوْرَةَ وَ هى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام وَ الْإِنْجِيلَ وَ هو الكتاب المنزل على المسيح نفسه عليه السلام وَ إِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ أَى على قالب الطير و هيكله. و من المعلوم أن هذا النحو من

(١) مريم: ٣١ و ٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥

[سورة المائدة (٥): آية ١١١]

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بى وَ بِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١)

التجسيم لم يكن حراماً لأنه كان بأمر الله، و ليس التحريم عقلياً حتى لا يمكن التخصيص فيه بإذنى و لعل «بإذنى» إشارة إلى ذلك، أو أن الخلق إنما كانت بقدرته، إذ لو لم يأذن الله لم يتمكن أحد من خلق شىء و صنعه فَتَنْفُخُ فِيهَا أَى فى تلك الهيئة التى خلقتها. و لا يخفى أن الروح جسم لطيف فيمكن أن ينفخ المسيح عليه السلام بإذن الله ذلك الجسم فى الهيكل المصنوع فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى أَى طيراً حقيقياً كسائر الطيور، بأمرى و إرادتى وَ تَبْرِيءُ الْأَكْمَةَ أَى تشفى الذى ولد أعمى وَ الْأَبْرَصَ الذى به البرص بِإِذْنِى أَى بأمرى و إرادتى وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَيُوتَى مِنَ الْقُبُورِ فَتَجْعَلُهُمْ أَحْيَاءَ بِإِذْنِى و إرادتى، فإنك تدعونى لهذه الحوائج و أنا أستجيب دعاءك وَ إِذْ كَفَفْتُ أَى منعت بنى إسرائيل اليهود عنك فلم يقدروا على قتلك إِذْ جِئْتَهُمْ أَى حين أتيت إليهم بِالْبَيِّنَاتِ أَى بالأدلة القاطعة على صحة نبوتك و صدق كلامك فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بكَ وَ جحدوك و لم يؤمنوا بما جئت به مِنْهُمْ أَى من بنى إسرائيل إن هذا أى ما هذا الذى نرى من خوارقك إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَى سحر واضح.

[١١٢] وَ اذكر نعمتى عليك يا عيسى ابن مريم إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ «الوحى» هنا بمعنى الإلقاء إليهم، و لو كان ذلك بواسطة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦

[سورة المائدة (٥): آية ١١٢]

إِذْ قَالَ الْخَوَارِثِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)

نفس عيسى أو يحيى عليهما السلام أو المراد الإلهام إلى قلوبهم، بواسطة العقل الذى هو حجة باطنة. والمراد بالحواريين أصحابه الخاصون به، و سبق وجه تسميتهم بالحواريين أن آمنوا بى و برسولى المسيح عليه السلام، فإن الإيمان بالله نعمه على المسيح، كما أن تصديقه عليه السلام نعمه عليه، إذ الأمران موجبان لقربه عليه السلام إلى الله سبحانه حيث تمكن من هدايتهم، بالإضافة إلى لزوم ذلك الاحترام الظاهرى قالوا أى الحواريون:

آمَنَّا أى بالله و رسوله و أشهد يا ربنا، أو المراد الاستشهاد بعيسى عليه السلام بأننا مسلمون لله فيما يأمر و ينهى.

[١١٣] و اذكر نعمتى عليك يا عيسى ابن مريم حينما جرى الحوار بينك و بين الحواريين حول إنزال الله المائدة فطلبت من الله فاستجاب لك و أنزل المائدة إذ قال الْخَوَارِثِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ و لعلمهم ذكروا اللفظ بتأذب. و إنما نقل سبحانه المعنى، أو كان مثل هذا الخطاب بأمر عيسى عليه السلام نفسه، أو كان لديهم متعارفا هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ إما المراد: الاستطاعة بحسب القدرة، و كان ذلك حين عدم كمال إيمانهم، و إما المراد: الاستطاعة بحسب الإرادة، أى: هل يريد؟ و كان سؤال استعطاف، و «المائدة» مشتقة من «ماد يمد» إذا تحرك، فهى فاعله، سُمى بها الخوان، لأنه يمد و يتحرك من مكان لآخر وقت البسط و الجمع، و قد أرادوا إتيان عيسى بهذه المعجزة ليروها و يلمسوها و يأكلوا منها، فلا يبقى محل ريب عندهم فى صدق الدعوة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ نَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صِدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوْلَانَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)

و لعل ذلك كان قبل سائر الآيات من إبراء الأكمه و الأبرص، و لذا قال لهم عيسى عليه السلام: اتَّقُوا اللَّهَ أى خافوه فلا تسألوا سؤال جاهل ذى ريب إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بالله بما له من صفات الكمال التى منها الاستطاعة على مثل هذا الأمر الهين.

[١١٤] قالوا أى قال الحواريون: نريد أن نأكل منها أى من المائدة و نطمئن قلوبنا إما الاطمئنان بأصل المبدأ و أنك رسوله، أو الاطمئنان بالرؤية، كما قال الخليل عليه السلام: قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمِئِنَّ قَلْبِي «١» وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صِدَقْتَنَا بما أخبرت من الشريعة. و هذا محتمل أيضا لإرادة العلم العيانى، و لإرادة أصل العلم لكونهم فى شك و نكون عليهما أى على المائدة من الشاهدين الذين يشهدون لمن لم يحضر بأنه قد نزلت المائدة و رأيها عيانا.

[١١٥] قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ دَاعِيَا اللَّهِ سَبْحَانَهُ اللَّهُمَّ رَبَّنَا- و كان الإتيان بلفظ الرب، للمبالغة فى الدعاء- أنت الذى رببتنا، فتفضل علينا بإتمام التربية أنزل علينا مائدة من السماء أى خوانا عليه طعام، يأتى من طرف العلو تكون المائدة لنا عيداً لأولنا و آخِرنا أى نتخذ ذلك اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيداً، فإن الأعياد فى الأمم،

(١) البقرة: ٢٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨

[سورة المائدة (٥): آية ١١٥]

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلْتُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

إنما هى بمناسبة ذكريات انتصاراتهم. و من المعلوم أن تكريم جماعة بنزول المائدة عليهم من قبل الله سبحانه من أعظم الذكريات التى ينبغى أن يحتفل بها،- أول القوم- الذين نزلت عليهم، و- آخر القوم- أى من يأتى من بعدهم من أبنائهم.

وَ آيَةٌ مِنْكَ أَى دَلِيلًا وَ عِلَامَةً مِنْ قَبْلِكَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ مَا أَشْبَهَهُمَا وَ أَرْزُقْنَا مِنَ الْمَائِدَةِ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فَإِنَّكَ تَتَفَضَّلُ بِالنِّعَمِ كَرَمًا وَ جُودًا وَ لَا تَرِيدُ عَوْضًا تَنْتَفِعُ بِهِ بِخِلَافِ النَّاسِ إِذَا أَعْطَوْا شَيْئًا فَإِنَّهُمْ يَرِيدُونَ بَدَلًا عَنْهُ يَصِلُ إِلَيْهِمْ.

[١١٦] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي جَوَابِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي مُنَزَّلُهَا أَى أَنْزَلُ الْمَائِدَةَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّائِلُونَ لَهَا فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ أَى بَعْدَ إِنْزَالِهَا عَلَيْكُمْ فَإِنِّي أَعَذُّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا لَا أَعَذُّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ أَى لَا أَعَذِّبُ مِثْلَ ذَلِكَ الْعَذَابِ أَحَدًا مِنَ الْعَصَاةِ الَّذِينَ هُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَإِنْ إِطْلَاقَ «الْعَالَمِينَ» غَالِبًا، يَكُونُ عَلَى عَالَمِ زَمَانٍ وَاحِدٍ. وَ السَّبَبُ فِي شِدَّةِ الْعَذَابِ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ مَا آمَنُوا وَ طَلَبُوا الْمَعْجِزَةَ، وَ قَبْلَ مِنْهُمْ وَ لَبَّى طَلِبَهُمْ.

ورد عن أهل البيت عليهم السّلام أن المائدة كانت تنزل عليهم فيجتمعون عليها و يأكلون منها ثم ترتفع فقال كبارؤهم و مترفهم: لا ندع سفلتنا يأكلون منها معنا. فرفع الله المائدة بغيهم و مسحوا قرده و خنازير.

(١).

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩

[سورة المائدة (٥): آية ١١٦]

وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)

[١١٧] تقدم أن الله سبحانه يسأل الأنبياء عن جواب الأهم لهم، ثم ذكر جملة من معجزات عيسى المقتضية لإيمان الناس به إيماناً عادلاً، لكن النصرى رفعوه فوق مقامه إذ جعلوه إلهاً، و لذا يتوجه السؤال إليه عليه السّلام في مشهد القيامة حول هذا الافتراء الذى نسب إليه عليه السّلام حتى تظهر براءته من ذلك، فيكون المجال فسيحاً أمام عقاب من ادعى ذلك كذبا و بهتاناً، فى يوم يجمع الله الرسل فيقول: «ماذا أجبتم»؟

وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ أَى «يَقُولُ» فَإِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْمَتَحَقَّقَ وَقَوْعَهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْمَاضِي يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ أَى: هَلْ أَنْتَ، عَلَى نَحْوِ الْاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِي لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ، وَ التَّقْرِيرِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى سِوَى اللَّهِ، لَا أَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِالْوَهْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: أَسْبَحَكَ سُبْحَانَكَ أَى أَنْزَهَكَ يَا رَبَّ تَنْزِيهَا عَنْ مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ مَا يَكُونُ لِي أَى لَيْسَ يَجُوزُ بِالنِّسْبَةِ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ فَأَمَرَ النَّاسَ بِاتِّخَاذِي إِلَهًا إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ أَى قُلْتَ لِلنَّاسِ: اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ فَقَدْ عَلِمْتَهُ لَكِنْ لَا- تَعْلَمُ ذَلِكَ- عَلَى نَحْوِ السَّالِبَةِ بِاتِّفَاءِ الْمَوْضُوعِ- فَلَسْتُ قَائِلُهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي أَى سِرِّي، فَكَيْفَ بِأَقْوَالِي الْعَالَمِيَّةِ؟ وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ وَ هَذَا عَلَى جِهَةِ الْمَقَابَلَةِ، وَ إِلَّا فَلَيْسَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَفْسًا، وَ قَوْلُهُ «وَلَا أَعْلَمُ» لِيَان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٧ إلى ١١٨]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا- مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)

ضراعتة عليه السّلام إليه سبحانه و إلا- فلم يكن الكلام مسوقاً إليه إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ أَى تعلم كل غيب عن الحواس، و لست أنا كذلك، فأنت تعلم أنى لم أقل «اتخذونى و أمى إلهين» للناس.

[١١٨] ثم بين عليه السّلام ما قاله لقومه زيادة فى التبرى من هذا القول المختلق المنسوب إليه ما قُلْتُ لَهُمْ أَى للناس إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ

من الإقرار لك بالعبودية، فقد قلت لهم: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَأَنَا وَأَنْتُمْ مَتَسَاوُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَ كونه ربنا و خالقنا وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً شَاهِداً أَرَى أَعْمَالَهُمْ وَ أَعْمَالَهُمْ مَا دُمْتُ كُنْتُ فِيهِمْ أَى فِي وَسْطِهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي أَى أَخَذْتَنِي مَسْتَوْفَى كَامِلاً إِلَى السَّمَاءِ - وَ قَدْ سَبَقَ وَجْهَ ذَلِكَ - كُنْتُ أَنْتَ يَا إِلَهِي الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ أَى الْمُرَاقِبَ لَهُمْ فِيمَا يَعْمَلُونَ وَ يَعْتَقِدُونَ وَ يَقُولُونَ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَى شَاهِدٌ حَاضِرٌ.

[١١٩] إِنْ مَبْدَأُ الْقَوْمِ هُوَ أَنْتَ «رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» وَ مَعَادَهُمْ بِيَدِكَ وَ حُدُوكَ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ لَا - يَقْدِرُونَ عَلَى رَفْعِ شَيْءٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ لَا يَقْدِرُ غَيْرُكَ عَلَى نَجَاتِهِمْ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَفْعَلُ شَيْئاً إِلَّا طَبَقَ الْحِكْمَةَ وَ الْمَصْلَحَةَ، وَ فِي هَذَا تَسْلِيمُ الْأَمْرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٩ إلى ١٢٠]

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

لمالكة و تفويض الأمر إلى مدبره، و هذا التعبير لا ينافي علم عيسى عليه السلام بأنهم معذبون، فإنه كما يقول أحدنا لمالك الأمر: «إنه بيدك إن شئت فعلت و إن شئت تركت» حتى مع علمنا أنه يفعل أحدهما لا محالة. هذا بالإضافة إلى أن بعضهم - و هم القاصرون - قابلون للغفران.

[١٢٠] قَالَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَوَارِ، فِي مَشْهَدِ الْقِيَامَةِ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ فَلَا الْكَاذِبَ الْمَغَالِي الْقَاتِلَ «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ»، أَوْ «هُوَ اللَّهُ»، يَنْفَعُهُ كَذِبُهُ، وَ لَا الْكَاذِبَ الْمَغَالِي الْقَاتِلَ «بَأَنَّ الْمَسِيحَ بَشَرٌ غَيْرُ نَبِيٍّ» يَنْفَعُهُ كَذِبُهُ، إِنَّهُ يَوْمَ الصِّدْقِ، وَ يَنْفَعُ الصَّادِقَ صِدْقَهُ لَهُمْ أَى لِلصَّادِقِينَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَى تَحْتَ قُصُورِهَا وَ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا مِمَّا لَا نَهَايَةَ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِمَا عَمِلُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا وَ رَضُوا عَنْهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ وَ الثَّوَابِ ذَلِكَ الْمَقَامُ الَّذِي حَصَلُوهُ بِمَا عَمِلُوا الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا فَوْزَ بَعْدَهُ أَعْظَمَ مِنْهُ.

[١٢١] إِنْ النَّصَارَى كَذَبُوا فِي جَعْلِ الشَّرِيكَ لِلَّهِ، فَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِنَّ، وَ لَا مَلِكٌ غَيْرُهُ وَ مَا فِيهِنَّ مِمَّا يَوْجَدُ فِيهِمَا مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيْوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ جَمَادٍ أَوْ غَيْرِهَا وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَ مِنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢

٦ سورة الأنعام مكية - مدنية / آياتها (١٦٦)

سميت بذلك لاشتغالها على كلمة «الأنعام».

و في حديث: أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، و شيعها سبعون ألف ملك لعظمتها
«١».

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد و يعطف عليهم.

(١) وسائل الشيعة: ج ٦ ص ٢٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)

[٢] و لما كان ختام السورة السابقة أن «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ابتدأت هذه السورة بمثل ذلك الختام الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاللَّامِ فِي الْحَمْدِ لِلْجِنْسِ، أى أن جنس الحمد لله إذ جميع المحامد راجعة إليه، و «السماوات» غالباً تأتي بصيغة الجمع بخلاف الأرض التي تأتي مفردة إشعاراً بأكثرية السماوات على الأرض، وإلا فالأرضون أيضاً سبعة كما قال سبحانه: وَمَنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١) وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ أى كونهما، و «الظلمة» إن كانت عدم ملكة، فمكون الملكة مكون العدم لأن أعدام الملكات لها حظ من الوجود كما قالوا. وقد أتى بالظلمات جمعاً بخلاف النور، للتناسب مع الجملة السابقة «السماوات والأرض» و لعل سر الإتيان بصيغة الجمع انقسام الظلمات حوالى النور فإن النور يشق طريق الظلمة، كلما قرب النور كان أرق.

ثم أظهر سبحانه التعجب من الذين يتخذون من دون الله أندادا بينما كان كل شىء لله سبحانه ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بعد كل هذه الآيات و الدلائل بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ أى يسوونه بغيره و يجعلونه عدلا و شريكا و مثيلا لأشياء أخرى مما لا أثر لها و لم تخلق شيئا.

[٣] و حيث أن الجو العام فى هذه السورة حول العقيدة مبدءا و معادا، و الأمور الكونية التى خلقها سبحانه تنتقل بالآيات من عقيدة إلى

(١) الطلاق: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤

[سورة الأنعام (٦): آية ٣]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

عقيدته، و من خلق إلى خلق هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ إما باعتبار أبينا آدم عليه السلام و إما باعتبار خلق كل فرد من التراب و الماء، فإن الإنسان من النطفة و هى من النبات و الحيوان و هما من الأرض و الماء ثُمَّ قَضَى أى قَدَّر و كتب أجلا أى مدة للإنسان عامة، حتى تنقضى الدنيا، أو لكل فرد حيث أن لكل فرد مدة لا يتجاوزها و أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ إما تفصيل ل «أجلا» أى أن الله سبحانه هو مصدر الأجل المسمى الذى سمي لكل شخص فليس بيد غيره الآجال، و إما المراد أن البعث الذى هو أجل و مدة لبقاء الإنسان فى الدنيا حيا و ميتا عِنْدَهُ فبيده قيام الساعة ثُمَّ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ تَمْتَرُونَ أى تشكون فى الله سبحانه. إنه بيده الخلق و الموت و البعث لا بيد غيره، فكيف تشكون فيه و تتخذون غيره شريكا له؟! [٤] وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ أى أن الخالق و المتصرف فى هذا الكون ليس إلا-الله، خلافا لمن كان يجعل للسماء إليها خاصا، و للأرض إليها غيره. و معنى «فى» الظرفية المجازية، و إلا فليس لله سبحانه مكان، إذ المكان يوجب التحديد، و التحديد يوجب التجزئة، و التجزئة من صفات المصنوع لا الصانع يَعْلَمُ سِرَّكُمْ الخفى المكتوم، أعم مما فى الصدور، أو من الأسرار و جَهْرَكُمْ مقابل ذلك بالمعنيين و يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ أى ما تعملون من الأعمال، فإن العمل من كسب الإنسان. و فى هذه الآيات رد على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ٦]

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَصَدَّ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أُنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٦)

الدهرية القائلين بقدوم السماوات والأرض، و الثنوية القائلين يلهين:

نور و ظلمة، و المشركين الذين يجعلون له سبحانه شريكاً، و الجهال من الفلاسفة الذين يقولون بعدم عموم علمه أو قدرته، و من أشبههم من أصحاب العقائد الزائفة حول إله الكون.

[٥] ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين تقدم ذكرهم في أول السورة، قال:

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ أَىٰ مَعْجَزَةٍ أَوْ دَلِيلٍ وَبِرَهَانٍ وَحُجَّةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمُ الدَّالَّةِ عَلَىٰ وُجُودِهِ وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ لَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا نَظَرَ مَنْصُفٍ مُعْتَبِرٍ.

[٦] فَتَقَدَّرَ كَذَّبُوا أَى الكفار بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَ الرَّسُولِ وَ سَائِرِ الْآيَاتِ فَسَوَّفَ فِي الْقِيَامَةِ، أَوْ فِي الدُّنْيَا حِينَ ظَهَرَ الرَّسُولُ وَ وَضُوحَ صِدْقِهِ بِالسَّيْطَرَةِ وَ الْغَلْبَةِ- كَمَا أَخْبَرَ- يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ أَى أَخْبَارٌ مَا كَانُوا بِهِ يَشْتَهَرُونَ مِنَ الْحَقِّ. وَ فِي الْآيَةِ تَهْدِيدٌ، كَمَا يَقُولُ لِلْمُجْرِمِ: «سَوْفَ تَعْلَمُ إِجْرَامَكَ» تَرِيدُ أَنَّهُ يَلَاقِي جَزَاءَهُ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِ«سَوْفَ» الْقِيَامَةَ.

[٧] ثُمَّ حَذَّرَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنْ يَصِيْبَهُمْ مَا أَصَابَ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ حَيْثُ كَذَّبُوا وَ عَصَوْا وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أَلَمْ يَرَوْا اسْتِفْهَامَ تَذَكِيرِي تَوْبِيخِي، أَى «أَلَمْ يَعْلَمُوا»- فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ- كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ أَى مِنَ الْأُمَمِ، وَ «الْقُرْنِ» أَهْلُ كُلِّ عَصْرِ، وَ سَمَّوْا بِذَلِكَ لِأَنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦

بعضهم يقترن ببعض، و لذا اختلف في المدة المراد به، لاختلاف الاعتبار مكنائهم أَى تلك الأمم في الأرض بأن جعلناهم ملوكاً وقادة و ساسة ذا عدد و عدد و إمكانيات ما لم نتمكن لكم حيث كانوا هم أكثر تمكنا منكم. و الظاهر أن الخطاب خاص بالكفار في زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حيث كان السابقون أكثر تمكنا منهم. لا- يقال: إن من المحتمل كون بعض الأمم السالفة أكثر تمكنا من جميع من يأتى إلى يوم القيامة حتى يكون الخطاب عاماً؟ لأن الجواب ظاهر، إذ قوله: «ألم يروا» ينافى ذلك فإن الناس لم يعلموا أخبار هكذا أمة- كما تقولون- بل ما رواه إنما هو أخبار الأمم التي كانت أقوى من الكفار في زمانه صلى الله عليه و آله و سلم و أَرَسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا هُوَ مِنْ «دَرٍّ إِذَا هَطَلُ»، وَ «مِدْرَارٌ» صَيْغَةٌ مَبَالِغَةٌ، أَى كَثِيرَةٌ الْهَطُولِ، حَتَّى عَمَّهُمُ الْخَيْرُ وَ الْبِرْكَةُ وَ الثَّرْوَةُ. وَ الْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ: الْمَطَرُ، بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه و إن كانوا غضابا

وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ أَى مِيَاهَهَا بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَى تَحْتَ قُصُورِهِمْ وَ أَشْجَارِهِمْ، أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ سَطْحِ الْأَرْضِ الَّتِي يَمْشُونَ عَلَيْهَا. وَ كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَفِدْهُمْ فِي بَقَائِهِمْ وَ حَسَنَ ذِكْرِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ الْمُرَادُ: هَلَاكُهُمْ بِذَهَابِ أَثَرِهِمْ وَ انْقِطَاعِ نَسْلِهِمْ وَ عَقْبِهِمْ، وَ فَنَاءِ حَضَارَتِهِمْ، بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ وَ كُفْرِهِمْ مُقَابِلَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ بَقُوا إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَ إِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧ الى ٨]

وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ قَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨)

صَلاَحِهِمْ وَ حَسَنَ أَعْمَالِهِمْ سَبَبَ بَقَاءِ آثَارِهِمْ وَ بَقَاءِ ذِكْرِهِمْ وَ بَقَاءِ مَنَاجِحِهِمْ وَ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخِرِينَ أَى خَلَفْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ أُمَّةً أُخْرَى وَ جَمَاعَةً آخِرِينَ.

[٨] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَوْلَاءِ الْكُفْرَةِ مَعَانِدُونَ فِي كُفْرِهِمْ، لِأَنََّّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا الْحَقَّ وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ أَى مَكْتُوبًا فِي وَرَقٍ يَشْهَدُ لَكَ بِصِدْقِكَ فَلَمَّسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ أَى مَسَّوهُ بِيَدِهِمْ، حَتَّى يَتَّقِنُوا بِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الشُّعُودَةِ وَ سِتْرِ الْعْيُونِ لَقَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا أَى مَا هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَى سحر ظاهر، فلا يصدقونك.

قالوا: نزلت هذه الآية فى جماعة من الكفار قالوا: يا محمد لا تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله معه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله و أنك رسوله.

[٩] وَقَالُوا أَى قَالَ هؤلاء الكفار لَوْ لا أَى هلاء، و لماذا ما أُنزلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ أَى على الرسول، ملك نشاهده فنصدق به، ثم رد الله عليهم مقاتلتهم بأنه و لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا كما اقترحوه لَقُضِيَ الْأَمْرُ أَى انتهى أمدهم و أجلهم ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ أَى يهلكون و يموتون، و ذلك لما جرت سنه الله أن لا تنزل الملائكة بالنسبة إلى المعاندين، إلا وقت موتهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨

[سورة الأنعام (٦): آية ٩]

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا و لَلْبَشَنَّا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩)

و هنا سؤال: إن هذا لا يكون جوابا للكفار- على هذا المعنى- إذ لهم أن يقولوا: فليغير الله سنته، بأن ينزل الملك و ييقينا حتى تؤمن؟

و سؤال ثان: لماذا جرت سنه الله على ذلك، أليس هداية الناس غاية الخلقة، فما المانع من توفر أسباب الهداية بإنزال الملك؟ و الجواب عن الأول: إن سنه الله جرت على الهلاك عقب مجيء الملائكة، كما جرت سنته على الإحراق عقب الإلقاء فى النار، و ليس للكفار أن يشكلوا بهذا الإشكال، إذ يقول النبى: و لماذا تريدون نزول الملائكة؟ أ للعداء؟ فلا داعى إلى إجابتكم، أم لأنه خارق و الإتيان بالخارق موجب للتصديق؟ فقد أتيت بالخوارق، أم لأنه خارق خاص؟

فالخارق الخاص لا يلزم إجابته لدى العقل و العقلاء، و هذا كما إذا حمل الطبيب شهادة الكلية فيقول له المريض: اتنى بشهادة رئيس الحكومة، إنه سؤال سخيف لدى العقلاء ..

و الجواب عن الثانى: إنه سبحانه علم عنادهم و أنه لا يفيد معهم إنزال الملك، كما بين ذلك فى قوله و لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا «١»، و ما كان يمنعهم أن يقولوا أن ما يشاهدونه من صورة الملك إنما هو سحر مبین! [١٠] ثم بين سبحانه وجها آخر لعدم إجابه اقتراحهم و لَوْ جَعَلْنَاهُ أَى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مَلَكًا منزلا من السماء لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا أَى فى صورة رجل، فإن خلقه البشر غير مستعدة لرؤية الملك فى صورته، إلا إذا بدلت صورته إلى صورة إنسان و واقع ملك، و ذلك لا يفيد اقتراحهم، فإن الملك جرم لطيف لا تراه أعين البشر، كما لا يرى

(١) الأنعام: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (١١)

الإنسان الهواء و لَلْبَشَنَّا من اللبس بمعنى الاشتباه عَلَيْهِمْ أَى على هؤلاء المقترحين إنزال الملك ما يلبسون أى كما يلبسون اليوم على أنفسهم أمر النبى لأنه إنسان مثلهم، فكان إنزال الملائكة فى صورة بشر موجبا لأن نلبس نحن عليهم الأمر- مثل لبسهم هذا اليوم- و حاصل جواب الاقتراح:

أولا: أن الملك لا ينزل إلا لأمر خاصة، كما نزل فى قصة إبراهيم عليه السلام و لوط عليه السلام.

ثانيا: إن الملك إذا نزل، نزل فى صورة بشر، فيبقى شكهم على حاله.

[١١] ثم قال سبحانه على سبيل التسلية للنبى صلى الله عليه و آله و سلم: و لَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ استهزأت بهم أممهم و سخروا

منهم، فلست أنت بأول رسول يستهزأ بك و يقترح عليك اقتراحات عن عناد و سخرية فحاق بالذنين سخرؤوا منهم أى: فحل و أحاط بالساحرين بالرسول ما كانوا به يستهزؤن أى أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء سخريتهم، أو المراد أن الأنبياء كانوا يتوعدونهم بالعذاب فكانوا يسخرون بوعيدهم، فحاق بهم العذاب المستهزأ به.

[١٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ أَي سَافَرُوا فِيهَا ثُمَّ انظُرُوا إِذَا مَرَرْتُمْ بِلِدَانِ الْأَنْبِيَاءِ، وَتَفَكَّرُوا كَيْفَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٩٩

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)

كَانَ عَاقِبَتُهُ الْمُكْذِبِينَ أى الأمم التى كذبت أنبياءهم، كيف أبيدت و لم تبق منهم باقية، فإن ديار الأمم السابقة حوالى سوريا و لبنان و الأردن و فلسطين و مصر كانت باقية و آثار الخسف و الهلاك على بعضها، و أخبار الهلاك و التدمير كانت عند الناس مشهورة، فإذا سافروا و سألوا علموا ذلك، و كان ذلك سببا لردعهم عن تكذيب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الاستهزاء بالقرآن.

[١٣] ثم احتج سبحانه على المكذبين بحجة أخرى فقال: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْمَكْذِبِينَ: لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذْ لَا يَتَمَكَّنُونَ أَنْ يَجِيبُوا بِأَنْهَا لَهُمْ، وَ لَا أَنَّهَا لِأَصْنَامِهِمْ، وَ إِذْ يَتَحِيرُونَ بِالْجَوَابِ قُلْ أَنْتَ: إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ لِلَّهِ فَلَمَّا ذَا تَتَخَذُونَ إِلَهَا غَيْرَهُ؟ وَ إِذْ سَبَقَ التَّهْدِيدَ وَ الْوَعِيدَ جَاءَ هُنَا بِالتَّبَشِيرِ كَى تَلِينَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِالتَّهْدِيدِ مَرَّةً وَ التَّبَشِيرِ أُخْرَى كَتَبَ أَي أَوْجَبَ سَبْحَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحِيمَةَ عَلَى الْخَلْقِ وَ اللَّطْفَ بِهِمْ، وَ إِجَابَ ذَلِكَ مِنْ مَقْتَضِيَاتِ الْحِكْمَةِ لَكَى تَطْلُبُوا أَيُّهَا النَّاسُ رَحْمَتَهُ الْوَاسِعَةَ بِالإِطَاعَةِ وَ الْإِمْتِثَالِ، لِأَنَّهُ إِلَهَ الْكُونَ وَ رَاحِمَهُمْ فِي هَذِهِ النِّشَاءِ وَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَي جَمَعًا يَنْتَهَى إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ تَدْرِجًا لِأَنَّ دَفْعَهُ، فَكُلِّ إِنْسَانٍ يُولَدُ فَوَلَادَتِهِ مَقْدَمَةٌ لِلْمَوْتِ الَّذِي - بِدَوْرِهِ - يَجْمَعُ النَّاسَ فَرْدًا فَرْدًا حَتَّى يَنْتَهَى الْجَمْعُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَبِيَدِهِ سَبْحَانَهُ الْمَعَادُ أَيْضًا لَا رَيْبَ فِيهِ أَي مَحَلُّ رَيْبٍ، وَ إِنْ أَرْتَابَ الْمَبْطُلُونَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)

و إذا كان المبدأ و الوسط و المعاد بيده تعالى ف الذين خسرؤوا أنفسهم فهم لا يؤمنون أى أن غير المؤمنين يكونون قد خسروا أنفسهم حيث باعوها و اشتروا عوضها العذاب، بينما باع المؤمنون أنفسهم و اشتروا بها الجنة و الثواب.

[١٤] وَلَهُ أَي اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَا سَكَنَ وَ هَدَأَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَوْ الْمَرَادُ ب «مَا سَكَنَ» مَطْلُقَ الْأَشْيَاءِ السَّاكِنَةِ وَ الْمُتَحَرِّكَةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَلَانِ يَسْكُنُ بِلَدٍ كَذَا، أَي يَسْتَقِرُّ فِيهِ، فَلِلَّهِ كُلِّ مَا اسْتَقَرَّ وَ حَلَّ فِي هَذَيْنِ الزَّمَانَيْنِ «اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ»، أَمَا عَلَى الثَّانِي فَوَجْهُ الْكَلَامِ وَاضِحٌ، وَ أَمَا عَلَى الْأَوَّلِ فَفِعْلُ التَّخْصِيسِ بِالسَّاكِنِ - مُقَابِلَ الْمُتَحَرِّكِ - لِإِلْقَاءِ الرَّهْبَةِ فِي النَّفْسِ حَيْثُ أَنَّ السَّاكِنَ يَلْقَى ظِلَالَ الْمَوْتِ الرَّهْبِ، وَ لَذَا يَرَى الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ تَهْدَأُ وَ تَسْكُنُ إِذَا صَارَ فِي مَحَلِّ سَاكِنٍ لَا حَسَّ فِيهِ وَ لَا حَرَكَةَ وَ هُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ الْعِبَادِ وَ لِكُلِّ صَوْتِ الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

[١٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: أَعْيَرَ اللَّهُ أَي هَلْ غَيْرَ اللَّهِ أَي هَلْ غَيْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا أَي مَالِكًا وَ مَوْلَى وَ رَبًّا؟! وَ هُوَ الْمُتَصَفِّ بِكَوْنِهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَي خَالِقَهُمَا وَ مَبْدِعَهُمَا وَ مَنْشئُهُمَا، إِنَّهُ مِنْ السَّخْفَةِ أَنْ يَتْرَكَ الْإِنْسَانَ الْخَالِقَ وَ يَتَمَسَّكَ بِذِيلِ الْمَخْلُوقِ وَ هُوَ أَي اللَّهُ سَبْحَانَهُ يُطْعِمُ فَإِنَّ الْأَطْعَمَةَ وَ الْأَرْزَاقَ مِنْ عِنْدِهِ وَ لَا - يُطْعَمُ أَي لَا يَرْزُقُهُ أَحَدٌ، فَهَلْ مِنَ الْمُنْطَقِ أَنْ يَتْرَكَ الْإِنْسَانَ الْخَالِقَ الرَّازِقَ وَ يَتَّخِذُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥ إلى ١٦]

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)
المخلوق المرزوق وليا من دون الله، الذي ليس بيده أى شىء؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: إِنِّي أُمِرْتُ أَمْرِي اللَّهُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لِي وَ صَدَّقَ بِكَلِمَاتِهِ وَ اتَّبَعَ أَمْرَهُ، وَ كُونِي أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لِعَلْمِي التَّامَ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ: «إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَجَاهِدُ»، «وَ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَسَافِرُ» دَلَالَةٌ لِمَتَلَاءِ النَّفْسِ بِذَلِكَ الشَّيْءِ وَ أَمْرِي اللَّهُ بِأَنْ لَا تَكُونَنَّ التَّأَكِيدَ لِلنَّفْسِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا. وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالشَّرِكِ أَعْمَ مَنْ يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا مَعَ الْإِعْتِقَادِ بِهِ سُبْحَانَهُ، أَوْ بِدُونِ الْإِعْتِقَادِ بِهِ، وَ الْمَعْنَى: إِنِّي أُمِرْتُ بِالْأَمْرَيْنِ، الْإِسْلَامِ، وَ عَدَمِ الشَّرِكِ.

[١٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَهُ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَيْ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ إِنَّمَا قَالَ «أَخَافُ» مَعَ أَنَّهُ مُتَيْقِنٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ التَّعْبِيرِ بِالْخَوْفِ حَتَّى عَنِ الْمُتَيْقِنِ، كَمَا يَقُولُ مِنْ حُكْمٍ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ: «إِنِّي أَخَافُ الْمَوْتَ» أَيْ أَرْهَبُهُ، وَ إِمَّا لِاحْتِمَالِ النِّجَاةِ لِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَمَعْنَى الْخَوْفِ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ رَجَاءُ الْعَفْوِ وَ الرَّحْمَةِ.

[١٧] مَنْ يُضْرَفْ الْعَذَابَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ أَيْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ فَقَدْ رَحِمَهُ إِذْ لَا أَحَدٌ - بِإِسْتِثْنَاءِ الْمُعْصومِينَ - إِلَّا وَ يَكُونُ مُسْتَحَقًّا لِلْعَذَابِ، وَ لِذَا كَانَ الصَّرْفُ عَنْهُ بِمَقْتَضَى الرَّحْمَةِ وَ ذَلِكَ الصَّرْفُ، أَوْ الرَّحْمَةُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٧ إلى ١٩]

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)
الْفَوْزُ وَ الْفَلَاحُ الْمُبِينُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا فَوْزَ مِثْلَهُ.

[١٨] وَ يَسْتَطِرِدُ السِّيَاقُ بِذِكْرِ بَعْضِ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ فِي مِقَابِلِ الْمُعَانِدِينَ الْمُنْكَرِينَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ مِنْ «مَسَّ أَيْ أَمْسَكَ» بِمَا هُوَ ضَرَرٌ مِنْ فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا فَلَا كَاشِفَ لَهُ أَيْ دَافِعَ لَهُ إِلَّا هُوَ فَلَا أَحَدٌ مُؤَثِّرٌ فِي الْكُونِ، وَ إِنَّمَا الْعِلَلُ تَوْثِرُ فِي الْمَعْلُولَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ غَنَى أَوْ صَحَّةً أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّهُ الْقَادِرُ الْمَطْلُوقُ عَلَى الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ، أَمَا مِنْ سِوَاهُ فَقَدَرْتَهُ مِنْ قَدَرْتَهُ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إِلَّا قَدْرَةٌ نَاقِصَةٌ لِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ.

[١٩] وَ هُوَ تَعَالَى الْقَاهِرُ أَيْ الَّذِي يَقْهَرُ وَ يَغْلِبُ فَوْقَ عِبَادِهِ أَيْ الْجَمِيعِ تَحْتَ تَسْخِيرِهِ وَ سَيْطَرْتِهِ، لَا الْفَوْقِيَّةَ الْمَكَانِيَّةَ، فَإِنَّهُ أَجَلُ مِنَ الزَّمَانِ وَ الْمَكَانِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ، فَلَيْسَ كَوْنُهُ قَاهِرًا مُوجِبًا لِلْخَوْفِ مِنْ ظَلَمِهِ، كَسَائِرِ الْجَبَابِرَةِ الْقَاهِرِينَ الْخَبِيرُ بِمَا يَصْدُرُ مِنَ الْعِبَادِ، فَلَا يَأْخُذُ أَحَدًا بِجُرْمٍ أَحَدٌ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْقَاهِرِينَ مِنَ الْبَشَرِ، حَيْثُ يَشْتَبِهُونَ كَثِيرًا لَجْهَلِهِمْ.

[٢٠] فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَتَوْا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمُوا فَقَالُوا: أَمَا وَجَدَ اللَّهُ رَسُولًا - غَيْرَكَ، مَا نَرَى أَحَدًا يَصْدُقُكَ فِيمَا تَقُولُ، وَ لَقَدْ سَأَلْنَا عَنْكَ الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى فَرَزَعُوا أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَهُمْ ذِكْرٌ، فَأَرْنَا مِنْ يَشْهَدُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤

أَنَّكَ رَسُولَ اللَّهِ كَمَا تَزْعُمُ «١»، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارُ: أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً أَيْ أَعْظَمَ مِنْ حَيْثُ الشَّهَادَةُ، حَتَّى آتَيْكُمْ بِهِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِي وَ صَحَّةِ نَبَوْتِي، إِنَّهُمْ يَتَحَيَّرُونَ فِي الْجَوَابِ طَبْعًا، وَ يَفْكَرُونَ فِي النَّاسِ الْعِظْمَاءِ بِنَظَرِهِمْ لِيَقُولُوا: «فَلَان»، لَكِنِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَقْطَعُ تَحْيِيرَهُمْ وَ تَفْكَرَهُمْ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أَيْ هُوَ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بِصِدْقِ نَبَوْتِي. وَ قَدْ مَرَّ سَابِقًا أَنَّ شَهَادَةَ اللَّهِ هِيَ إِجْرَاءُ الْإِعْجَازِ عَلَى يَدِهِ الْكَرِيمَةِ وَ أَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَهُ تَعَالَى عَلَيَّ

لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ أَى لأخوفكم بهذا العقاب، و أخوف من كفر و عصى و مَنْ بَلَغَ عطف على «كم» أَى أنذر به من بلغه هذا القرآن إلى يوم القيامة.

و روى عن الباقر و الصادق عليه السّلام أن «من بلغ» معناه: من بلغ أن يكون إماما من آل محمد فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله «٢».

و عليه فهو عطف على الضمير المرفوع فى «أنذر» أَى أنذر أنا الرسول و الأئمة- الذين هم مصداق «من بلغ»- الناس أَيْكُمْ أَى: هل إنكم أيها السامعون الكفار لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى استفهام إنكارى، أَى: كيف تشهدون بذلك بعد وضوح أدلة التوحيد و قيام

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٢ و تفسير القمى: ج ١ ص ١٩٥.

(٢) الكافى: ج ١ ص ٤١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥

[سورة الأنعام (٤): الآيات ٢٠ الى ٢١]

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظالمونَ (٢١)

الحجة و البرهان على بطلان كل شريك؟ و المراد الشريك مطلقا و لو كان واحدا، و ذكر «آلهة» من باب المورد قل أنت يا رسول الله، إذا لم يعترف أولئك بالتوحيد: لا أشهد أنا بمثل شهادتكم بالشريك، و إنما أنا لا أعتقد إلا إلهها واحدا قل يا رسول الله: إنما هو إله واحد لا شريك له و إِنِنى برىء مما تُشركون أَى من الأوثان التى تشركون بسببها، و تدخلون أنفسكم فى زمرة المشركين من أجلها.

[٢١] ثم ذكر سبحانه أن أهل الكتاب كسائر المشركين يعلمون الحق لكنهم يتجاهلونه الذين آتيناهم أى أعطيناهم الكتاب يراد به جنس الكتاب الأعم من التوراة و الإنجيل و غيرهما يعرفونه أى يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم فكما يعرف الشخص ابنه بحيث لا يمكن أن يشتهه غيره، كذلك لا يشتهه أهل الكتاب بمعرفة الرسول بوصفه و مزاياه الموجودة فى كتبهم الذين خسرُوا أنفسهم بأن باعواها بالكفر، الذى عاقبته فهم لا يؤمنون إن عدم الإيمان مترتب على الخسران، فالخاسر لا يؤمن و الراجح يؤمن.

[٢٢] وَ مَنْ أَظْلَمُ أَى من يكون أكثر ظلما و تعديا عن الحق مِمَّنِ افترى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا! بأن جعل له شريكا و زعم أن الله أمره بذلك، كأهل الكتاب و قسم من المشركين الذين كانوا يقولون: إن الله أمرنا باتخاذ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦

[سورة الأنعام (٤): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

و يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)

الأنداد و الشركاء أو كذب بآياته كما لو كذب بالقرآن أو بالرسول أو بالمعجزات، فإنها كلها من آيات الله سبحانه، لكن الكتاب آية صامته، و الرسول آية ناطقه إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظالمونَ إنهم لا يفوزون بخير الدنيا، و لا سعادة الآخرة.

[٢٣] و اذكر يا رسول الله يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا و هو يوم القيامة الذى يجمع فيه هؤلاء المشركون و سائر المكذبين ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا و جعلوا الله شريكا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ أَى الشركاء لله الذين زعمتم أنهم كذلك. و الإضافة إلى «كم» باعتبار أنهم اتخذوها، كما تضاف إلى «الله» باعتبار أنه سبحانه المجعول فى رديفهم فيقال «شركائى» الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شركاء الله سبحانه؟ و الاستفهام

إنكارى للتوبيخ و التقرير.

[٢٤] ثم بعد هذا السؤال منهم لم تكن فتنتهم أى معذرتهم، فإن الفتنة على معان، منها: المعذرة، أو هو على سبيل المجاز، أى: لم تكن نتيجة فتنتهم بالأصنام، إلا- التبرؤ منها، كما يقال: «لم يكن درسهم وقضاؤهم إلا رشوة و خيانة» يراد أن عاقبتهم كانت الرشوة و الخيانة إلا أن قالوا و الله ربنا ما كنا مشركين فيحلفون بالله كذبا أنهم ما كانوا مشركين، كما اعتادوا فى الدنيا أن يحلفوا كذبا حينما يقعون فى المشاكل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

انظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ أَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)

[٢٥] انظُرْ يا رسول الله إلى حلف هؤلاء كيف كذبوا على أنفسهم بأنهم ما كانوا مشركين، و هذا أمر يقصد به التعجب و الاستغراب و ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون أى ضلت عنهم أو ثابهم التى كانوا يعبدونها من دون الله، و يفترون الكذب على الله بقولهم: هذه شفاعنا عند الله، فلم يجدوها و لم ينتفعوا بها و إنما الأمر لله وحده.

[٢٦] قيل: إن نفرا من مشركى مكة جلسوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو يقرأ القرآن، فقال بعضهم لبعض: ما يقول محمد؟ قال: أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. فنزلت هذه الآية و منهم أى من الكفار و المشركين من يستمع إليك أى إلى كلامك يا رسول الله و لكن حيث أنهم أعرضوا عن الحجة بعد ما بينت لهم جعلنا على قلوبهم أكنة هى جمع «كنان» و هى ما ستر شيئا، فإن الإنسان إذا أعرض عن الحق غشيت على قلبه غشاوة، إذ صار الإعراض له ملكة و عادة، و نسبتبه إلى الله سبحانه باعتبار أنه سبحانه هو الذى جعل الإنسان هكذا، فإنه علة كل شىء، و إن كان السبب المباشر هو الشخص أن يفقهوه أى حتى لا يفقهوه بمعنى لا يفهموه و جعلنا فى آذانهم وقرا «الوقر» هو الثقل فى الأذن، فهم كمن لا يسمع، حيث أنهم لا يستفيدون من سماعهم و إن يروا كل آية و معجزة خارقه على نبوتك و صدقك لا يؤمنوا بها أى بتلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنَّ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)

الآيات، إذ قد ران على قلوبهم ما كانوا يعملون حتى إذا جاءوك لا يطلبون الحق بل يجادلونك و يناقشونك يقول الذين كفروا إن هذا أى ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين «أساطير» جمع أسطورة، بمعنى الخرافة، من سطر إذا كتب، يعنى: ما فى القرآن من القصص و الأحكام و غيرها ليست إلا أخبار الأقوام السابقة و ترهاتهم.

[٢٧] و هم أى هؤلاء الكفار الذين سبق ذكرهم ينهون عنه أى عن النبى، أو القرآن، يعنى: ينهون الناس عن اتباع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو القرآن، و ينأون عنه أى يتباعدون عنه أى عن الرسول أو القرآن، فهم يجمعون بين رذيلتى الكفر و الأمر بالمنكر و إن أى: و ما يهلكون إلا أنفسهم فإنهم لا يضررون النبى صلى الله عليه و آله و سلم بل يضررون أنفسهم بخزى الدنيا و عذاب الآخرة و ما يشعرون أى لا يعلمون أنهم بذلك يهلكون أنفسهم.

[٢٨] و لو ترى يا رسول الله أحوالهم فى الآخرة و كيف أنهم يندمون على ما فرطوا فى دار الدنيا إذ وقفوا على النار أى أشرفوا و اطلعوا و وقفوا على حافتها لدخولها فقالوا يا لیتنا نرد أى يرجعوننا إلى الدنيا و لا- نكذب بآيات ربنا دلائله و براهينه و نكون من المؤمنين بالله و الرسول و ما جاء به. و جملتا «لا نكذب» و «نكون» من مدخول التمنى،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٢٨ إلى ٣٠]

بَلْ يَدَّبَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) و التقدير: «يا ليت لنا انتفاء التكذيب، و الكون من المؤمنين».

[٢٩] بَلْ يَدَّبَا لَهُمْ أَي ظهر لهؤلاء الكفار الحق جلياً بحيث لا مجال لإخفائهم له ما كانوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ فِي دار الدنيا حيث كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. و لعل وجه الإضراب ب «بل» بيان أنه ليس الأمر على ما قالوه من أنهم: لو رُدُّوا إلى الدنيا لآمنوا، فإن التمني الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان، بل لأجل خوفهم من العقاب الذي يعاينوه و لو رُدُّوا إلى الدنيا كما تمنوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ أَي لرجعوا إلى كفرهم و عصيانهم و إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي أنهم لو رُدُّوا لعملوا صالحاً كما في آية أخرى: رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ «١»، و لا يخفى أن الإنسان إذا كان ذا طبع عنادي لا ينفك عن طبيعته حتى و لو رأى المشاهد العظيمة من عناده كما هو المشاهد المجرب.

[٣٠] و قد كان هؤلاء الكفار ينكرون المعاد و هم في دار الدنيا وَقَالُوا إِن هِيَ أَي ما هي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أَي الحياة القريبة التي نحن فيها و ليس ورائها شيء و مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد الموت. و «البعث» هو الإرسال و الإحياء.

[٣١] وَلَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أحوال هؤلاء الكفار يوم القيامة إِذْ وَقَفُوا

(١) سورة المؤمنون: ١٠٠ و ١٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠

[سورة الأنعام (٦): آية ٣١]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزارهم عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)

عَلَى رَبِّهِمْ أَي في معرض خطابه و حسابه، كالشخص الذي يقف عند الملك و هو مجرم، فإنه في حال يأس و اضطراب ممّا ينطق الملك في حقه من العقاب. و من المعلوم أن الله لا يرى، و ليس بجسم، و لا له مكان، فالمعنى على سبيل المجاز قال ربهم لهم أَلَيْسَ هَذَا اليوم الذي كان يخبر به الأنبياء و كنتم تنكرونه بِالْحَقِّ و هو استفهام توبيخ و تبريع قَالُوا مَقْرِينَ مدعين بلى هو حق و رَبَّنَا و إنما حلفوا خوفاً، فإن الخائف يردف كلامه بالحلف استماله لقلب المخوف منه و إظهاراً بأنه يوافق كلام المتكلم قال الله سبحانه فَذُوقُوا الْعَذَابَ و المراد ب «الذوق» ليس الذائقة اللسانية، بل ذوق الجسد فإنه يطلق عليهما بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أَي بسبب كفركم، و كان السؤال للإهانة و الإذلال.

[٣٢] ثم أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفار بقوله: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ المراد بِلِقَاءِ اللَّهِ جزاؤه و عقابه، كما يقال: فلان لقي عمله، أي جزاء عمله، و إلا فليس لله مكان يرى حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ أَي يوم القيامة بَعْتَهُ أَي فجأه من «بغت يبغت» بمعنى فاجأ، و إنما ذكر ذلك لأنهم في دار الدنيا كانوا لا يحسبون حساب يوم القيامة حتى يستعدوا له. و هل المراد ب «الساعة» الموت - كما ورد: من مات قامت قيامته

«١» - حتى يلائم ما بعده، أم المراد القيامة و يكون المراد

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٢]

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)

العذاب الشديد لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب القبر، احتمالان.

قالوا أى قال هؤلاء الكفار عند معابنة الأهوال و العذاب: يا حَسِيرَتْنَا الحسرة شدة الندم يعنى: أيتها الحسرة احضرى فهذا وقتك على ما فَرَطْنَا فيها أى على ما تركنا و ضيعنا فى الدنيا من أعمارنا و لم نقدم عملا صالحا ننتفع به فى هذا اليوم وَ هُمْ أى هؤلاء الكفار يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ «الوزر» الثقل، و حيث إن للذنوب ثقلا تسمى أوزارا على ظُهُورِهِمْ هذا من باب التشبيه، فكما أن من يحمل ثقلا على ظهره يكون فى تعب و حرج، كذلك من يحمل ذنبا، و منه: «عليه دين» ألا- للتنبية ساء أى بس ما يَزِرُونَ أى ما يحملون من وزر، بمعنى: إثم و حمل خطأ.

[٣٣] وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أى ليست الحياة القريبية التى اغتر بها الكفار فعملوا لها و تركوا آخرتهم إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ «اللهو» هو ما يلهى الإنسان عن الجد إلى الهزل، فإن الدنيا ليست إِلَّا أَلْعَابًا و مَلْهِيَاتٍ و إنما كانت كذلك لأنه لا حقيقة لأعمالها فهى فانية زائلة، و إذا بالإنسان يرى نفسه و لم يحصل شيئا. و غير خاف أن ذلك بالنسبة إلى الأعمال التى لا تعقب ثمره صالحه، و إِلَّا فالدنيا مزرعة الآخرة. و نعم متجر العقلاء وَ لَلدَّارِ الْآخِرَةُ «اللأم» للتأكيد، أى أن الدار الثانية التى هى الجنة و نعيمها خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ معاصى الله، و قد جرد «خير» عن معنى التفضيل، أو بملاحظة أن فى الدنيا أيضا خيرا فى الجملة، ثم إنها خير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٣]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)

للمتقين، أما غيرهم فالدنيا خير لهم. و لذا

ورد: «إن الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر»

«١» أَ فَلَا تَعْقِلُونَ أيها البشر، فإن من عقل و أدرك علم أن الباقي السرمدى الذى لا يشوبه حزن و هم خير من الفانى الممزوج بأنواع المصائب و الرزايا.

[٣٤] ثم سَلَى سبحانه نبيه على تكذيبهم إياه و عدم انصياعهم لأوامره و إرشاده بقوله: قَدْ نَعْلَمُ يا رسول الله، و «قد» تستعمل فى المضارع للتحقيق إلما أن الغالب أنها فيه للتقليل إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ مما ينسبونه إليك من أنك شاعر و كاهن و مجنون، و ما أشبه ذلك من السباب و الاستهزاء الذى كانوا يكيلونه للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فَإِنَّهُمْ أى الكفار لَا يُكَذِّبُونَكَ يا رسول الله فى قرارة نفوسهم، لعلمهم أنك صادق، و هذا نوع من التسلية إذ الإنسان إذا علم أن عدوه يجله فى قرارة نفسه، كان ذلك سلوة له لما علمه من الاحترام الكامن.

قالوا التقى الأحنس بن شريف و أبو جهل بن هشام فقال الأحنس:

يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد غيرى و غيرك يسمع كلامنا فقال أبو جهل: ويحك! و الله إن محمدا لصادق و ما كذب قط، و لكن إذا ذهب بنو قصى باللواء و الحجابة و السقاية و الندوة و النبوة فما ذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية.

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٤]

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُؤْمِنِينَ (٣٤)

و روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام معنى آخر للآية حاصله

«إنهم لا يكذبونك بحجة ولا يتمكنون من إبطال ما جئت به من برهان»

«١».

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ وَهم الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وغيرهم بالمنع عن الإسلام بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى ينكرون آيات الله، كما قال سبحانه وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ «٢».

[٣٥] ثم ذكر سبحانه تسليته للنبي أنه ليس بأول رسول يكذب، بقوله:

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ لَيْسَ تَنْكِيْرُ «الرسول» لأنه ليس هناك رسول يكذب، حتى ينافى قوله: يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «٣»، المفيد لتكذيب كل رسول، وإنما الكلام حيث جرى مجرى التسليته كان يكفى ذلك الإلماع إلى أن هذا الجنس أيضا فى معرض التكذيب والازدراء فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا أى على تكذيب الناس لهم وَأَوْدُوا إما عطف على «كذبوا» أو على «كذبت» حتى أتاهم أى جاءهم نَصْرُنَا إياهم على المكذبين، فاصبر أنت يا رسول الله حتى يأتيك النصر وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ أى لا أحد يقدر على تغيير ما أخبر الله به من نصر الرسول، وإهلاك

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٨٦.

(٢) النمل: ١٥.

(٣) يس: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٥]

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلٰمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)

أعدائهم وَلَقَدْ جَاءَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ نَبِيِّ الْمُؤْمِنِينَ أى بعض أخبار الرسل السابقين كيف نصرناهم على أعدائهم.

[٣٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار لا يؤمنون فلا- تعب نفسك لأجلهم، ولا تحزن. وهنا نكتة بلاغية لا بأس ببيانها، وهى أن الألفاظ والجمل وضعت للمعاني الخاصة، لكنها كثيرا ما تستعمل لإنشاء مفهومها الموضوع له، لكن يراد غير ذلك، كما يستعمل الاستفهام والتعجب بالنسبة إليه سبحانه، مع العلم أنه لا يجهل شيئا، ولا يتعجب من شيء، وإنما استعمال الاستفهام والتعجب بداعى التحريض أو الردع أو نحوهما، وهكذا الخطاب الغليظ أو الرقيق لأحد، قد يراد به المعنى الموضوع له، وقد يراد به داع آخر يفرغ فى مثل هذا القلب، فإنك إذا أردت تنبيه أحد من جيرانك، تغلظ لولدك فى الخطاب مع أنك لا تريده بالذات، فمثلا تقول: «لو أنك ألقىت النفاية بباب الدار لحبستك» فإنك لا تريده بل تنشئ هذا الكلام بداعى زجر الجار عن القيام بمثل هذا العمل، بل قد يكون عمل يستفاد منه شيء- حسب المتعارف- يأتى به الإنسان لغرض آخر، كما لو أردت تأديب ولدك لما اقترفه من عمل سيئ، فإنك تعمل إلى خادمك وترفسه برجلك- فى هدوء- قائلا: لماذا فعلت هذا الفعل، وإنك لا تريده إطلاقا، وإنما تريد إفهام ولدك أن هذا العمل له هذا الجزاء.

و على هذا الوجه جرى الكلام فى هذه الآية الكريمة وَإِنْ كَانَ كَبُرَ إِنَّه سبحانه يريد بيان غلظة قلوب الكفار وعنادهم، لكنه يصوغه

فى أسلوب خطاب للنبي، بأنك توسلت بكل الوسائل من الصعود فى السماء، و جعل النفق فى الأرض - مما يتوسل الناس بهما فى مآربهم -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥

فإن الكفار لا يؤمنون .. كما أن قصة موسى عليه السلام و أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ «١»، من هذا القبيل أيضا. و إن كَانَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَبَّرَ أَى عَظْمٍ وَ اشْتَدَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ أَى إِعْرَاضِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عَنِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ اشْتَطَعَتْ أَى قَدَرْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ أَى تَطْلُبَ وَ تَتَّخِذَ نَفَقًا أَى سَرَبًا فِى الْأَرْضِ تَشْبِيهِ لِلْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، فكما أن من يريد فتح مدينه، يتخذ الإنفاق من خارج المدينه إلى داخلها ثم يدخلها فجاءه ليستولى عليها، فكذلك إن تمكنت أن تصنع مثل ذلك للسيطرة على أرواح هؤلاء و قلوبهم أو تبتغى و تطلب شيئاً أَى مصعداً و مرقاةً فِى السَّمَاءِ لتصعد عليه فَتَأْتِيَهُمْ بِأَيِّهِ أَى حِجَّةً وَ بَرهَان، غير ما أنزلنا عليك. و جواب «إن» محذوف، أَى «فافعل» حذف لدلالة الكلام عليه، كما تقول: «إن تمكنت أن تتصدق» و تحذف قولك: «فافعل».

و لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ أَى النَّاسَ عَلَى الْهُدَى بَأَن يَلْجِئَهُمْ إِلَى قَبُولِ الْإِيمَانِ، لكنه لا يشاء ذلك لأنه حينئذ يبطل الامتحان و الاختبار فلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَإِنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِى يَظُنُّ أَنَّ بِالْإِمْكَانِ الْعَادِىِ اجْتِمَاعَ النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَى أَمْرٍ، أما العاقل المجرب فيعلم أنه ما من شىء إلا و فيه خلاف و خصام حتى البديهيّات الأولى

(١) الأعراف: ١٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٦]

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

كنور الشمس، فإن السفسطينيين ينكرونه، و لم يكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى معرض الجهل حتى يكون الكلام ردعا له، و إنما صيغ الكلام لداعى تأنيب الكفار حتى أن قصد هدايتهم يكون من أعمال الجاهلين.

و هنا سؤال: كيف تقولون فى الآيات النازلة بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بمثل هذه المحامل، و لا تقولون فى ما أشبهها من الآيات فى غيره صلى الله عليه و آله و سلم بمثل ذلك؟

و الجواب: القرينة الخارجية - و هى أن النبي معصوم - أوجبت ذلك، كما أن القرينة الخارجية أوجبت حمل «الاستفهام» من الله تعالى على معنى آخر، بينما الاستفهام من غيره سبحانه يحمل على معناه الحقيقى.

[٣٧] إن الذين يستجيبون لك يا رسول الله هم الأحياء الذين لم يميت الضمير فى جوفهم، و الذين يكفرون فهم الأموات، فكما أن الميت لا يسمع و لا ينتفع كذلك هؤلاء إنما يستجيب الذين يسمعون أى يقبل الإيمان من كان حيا يسمع و الموتى لا يسمع لهم حتى يبعثهم الله فى الآخرة فيسمعون، إنهم لا علاج لهم، يقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياو لكن لا حياة لمن تنادى

ثم بعد البعث و الحساب إليه يُرْجَعُونَ أى يرجعون إلى حكمه و قضائه، و هذا لتأكيد أن الكفار أموات،

كقول الإمام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

و قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

على عليه السلام «يا أشباه الرجال ولا رجال»

«١»، فإن «ولا رجال» لتأكيد الجملة الأولى.

[٣٨] وَقَالُوا أَى قَالَ الْكُفَّار: لَوْ لَا أَى هَلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ أَى معجزة خارقه من رَبِّهِ فَإِنَّهُمْ بَعْدَ مَا عَجَزُوا عَنْ مَقَابَلَةِ الْقُرْآنِ قَالُوا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِثْلَ عَصَا مُوسَى وَنَاقَةَ صَالِحٍ وَأَشْبَاهَهُمَا حَتَّى نُوْمِنَ بِكَ، فَرَدَّهُمْ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً كَمَا تَقْتَرِحُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَدْرَةَ اللَّهِ، بَلْ إِنَّهُ لَيْسَ فِي أَنْزَالِهَا مَصْلَحَةٌ، فَإِنَّهُمْ مَعَانِدُونَ وَالمَعَانِدُ لَا تَفِيدُهُ أَلْفُ آيَةٍ، كَمَا لَمْ تَفِدْ مَعَ فِرْعَوْنَ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ النَّاقَةَ، وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ مَعَانِدُونَ لَكَفَاهُمُ الْكِتَابُ الْحَكِيمُ. ثُمَّ إِنْ إِيْتَانِ آيَةٌ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ مَا أَشْبَهَهَا أَبَعْدَ لِقَابِهِمْ، إِذِ الْقُرْآنُ الَّذِي هُوَ عَلَى لِسَانِهِمْ يَنْسِبُونَهُ إِلَى السِّحْرِ، فَكَيْفَ بِالعَصَا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مِهْنَتِهِمْ؟! [٣٩] وَ حَيْثُ أَنْ جَوَّ هَذِهِ السُّورَةُ حَوْلَ التَّوْحِيدِ وَ شُؤُونِهِ وَ الْآيَاتِ الْكُورِيَّةِ وَ رَدَعَ الْكُفَّارَ بِمَخْتَلَفِ أَصْنَافِهِمْ عَنْ عَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةَ، بَيْنَ سَبْحَانَهُ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَجُودِهِ وَ صِفَاتِهِ الْكَمَالِيَّةِ بِقَوْلِهِ: وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ «دَبَّ يَدَبٌ» إِذَا تَحَرَّكَ، ثُمَّ عَمَّ كُلَّ حَيْوَانٍ وَ لَوْ لَمْ يَتَحَرَّكَ،

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٧ ص ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨

[سورة الأنعام (٦): آية ٣٩]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَ مَنْ يَشَأُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)

كما أنه يشمل حيوانات البر، لمقابلته بالطائر، و ذكر «في الأرض» للتعميم، و لا طائرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ كَمَا أَنْ ذَكَرَ «يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ» لِلتَّعْمِيمِ أَيْضًا، وَ السَّرُّ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَعْبُرُ بِمِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ وَ يَرَادُ بِهِ الْعَمُومُ مَبَالِغَةً، فَإِذَا جَاءَ الْقَيْدُ أَفَادَ الْعَمُومَ الْاسْتِغْرَاقِيَّ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فَإِنَّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْهُمَا أُمَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ وَ هِيَ مِثْلُكُمْ فِي الْإِبْدَاعِ وَ لَطْفِ الصَّنْعِ وَ دَقَّةِ التَّرْكِيبِ مَا فَزَّطْنَا أَى مَا تَرَكْنَا فِي الْكِتَابِ أَى كِتَابِ الْكُونَ، فَإِنَّ الْكُونَ كِتَابُ اللَّهِ وَ الْمَوْجُودَاتُ كَلِمَاتُهُ، وَ إِنَّمَا سَمِيَ الْكُونَ كِتَابًا، لِأَنَّ الْكِتَابَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ، مِنْ كَتَبَ بِمَعْنَى جَمْعٍ، وَ هَذَا الْكُونَ قَدْ جَمَعَ الْأَشْيَاءَ فَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ التَّكْوِينِي مِنْ شَيْءٍ فَهَذَا الْكِتَابُ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَ مَخْتَلَفِ الْأَصْنَافِ، فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْلُبُ أَحَدٌ دَلِيلًا عَلَى وَجُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ كَلِّهَا بَعْدَ الْمَمَاتِ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ أَى يَجْمَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمِيعًا، كَمَا قَالَ: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «١»، فَمِنْهُ سَبْحَانَهُ بِدَوِّهَا وَ إِلَيْهِ عَوْدُهَا.

[٤٠] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَى بَدَلْنَا الدَّالَّةَ عَلَى وَجُودِنَا وَ سَائِرِ صِفَاتِنَا، بَعْدَ هَذِهِ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ صُومٌ جَمْعُ «أَصَمٌ» وَ هُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ وَ بُكْمٌ جَمْعُ «أَبْكَمٌ» وَ هُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ، فَهَمَّ كَالَّذِي لَا يَسْمَعُ وَ لَا يَتَكَلَّمُ حَتَّى يَكْتَسِبَ الْعِلْمَ وَ يَدْرِكُهُ فَإِنَّ الْعِلْمَ يَأْتِي مِنَ الْأُذُنِ وَ يَخْرُجُ

(١) التكوير: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩

[سورة الأنعام (٦): آية ٤٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)

مِنَ اللِّسَانِ فِي الظُّلُمَاتِ فَلَا يَبْصُرُ حَتَّى يَرَى الْأَشْيَاءَ، فَإِنَّ الْكَافِرَ مِثْلَ هَذَا الشَّخْصِ لِأَنَّهُ قَدْ عَطَّلَ جَوَارِحَهُ فَلَا يَدْرِكُ شَيْئًا كَمَا لَا يَدْرِكُ الْأَعْمَى الْأَبْكَمُ الْأَصْمُ شَيْئًا مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلُّهُ أَى يَتْرُكُهُ وَ لَا يَجْبِرُهُ عَلَى الْهَدَايَةِ حَتَّى يَضِلَّ الطَّرِيقَ وَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا بَيْنَ لَهُ الْحِجَّةَ فَلَمْ يَقْبَلْ بَلْ أَعْرَضَ عَنْهَا- وَ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى ذَلِكَ- وَ مَنْ يَشَأُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ بِاللَّطْفِ الْخَفِيِّ بِهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: وَ الَّذِي

اِهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى «١»، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا «٢».

[٤١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: أَرَأَيْتُمْ أَيَّ أَخْبَرُونِي؛ فَإِنْ «أَرَأَيْتَ» بِمَعْنَى «أَخْبِرْ»، وَ«كَمْ» لِلخَطَابِ، وَهُوَ يَتَغَيَّرُ حَسَبَ إِفْرَادِ الْمُخَاطَبِ وَتَثْنِيتهِ وَجَمْعِهِ، كَقَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلَيَّ «٣»، إِنْ أَتَاكُمْ أَيَّ جَاءَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَنْ نَزَلَتْ صَاعِقَةٌ أَوْ خَسَفَتْ بِكُمْ الْأَرْضُ أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا - كَمَا حَدَّثَ فِي الْأَمَمِ السَّابِقَةِ - أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعِيَةُ أَيَّ الْقِيَامَةِ بِأَهْوَالِهَا وَعَذَابِهَا أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ لِكَشْفِ الْعَذَابِ وَالْأَهْوَالِ عَنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ آلِهَةٌ؟! وَهُمْ بِفَطْرَتِهِمْ يَجْبِيُونَ بِالنَّفْسِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، بَلْ يَدْعُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى بَطْلَانِ الْأَصْنَامِ وَعِبَادَتِهَا.

(١) محمد: ١٨.

(٢) العنكبوت: ٧٠.

(٣) الإسراء: ٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٠

[سورة الأنعام (٤): الآيات ٤١ إلى ٤٣]

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبِئْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)

[٤٢] وَ لَذَا قَالَ سَبَّحَانَهُ بَلْ إِيَّاهُ أَيَّ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ تَدْعُونَ وَ تَقْبَلُونَ عَلَيْهِ فِي شِدَائِكُمْ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ أَيَّ يَرْفَعُ الضَّرَّ الَّذِي دَعَا تَدْعُوهُ مِنْ أَجْلِهِ إِنْ شَاءَ الْكَشْفِ عَنْكُمْ وَ تَنْسَوْنَ فِي وَقْتِ الشَّدَةِ مَا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

[٤٣] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبَّحَانَهُ أَنَّ الْأَمَمَ الْمَاضِيَةَ لَمَّا أَتَتْهُمُ الرِّسَالُ وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَصَابَهُمْ أَنْوَاعُ الْبَلَاءِ، وَ أَنَّ حَالَهُمْ هُوَ لَاءِ كَحَالِ أَوْلِيائِكَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَيَّ أَخَذْنَا تِلْكَ الْأَمَمَ بِالْبِئْسَاءِ أَيَّ الْفَقْرِ وَ الْبُؤْسِ وَ الضَّرَّاءِ أَيَّ الْأَوْجَاعِ وَ الْأَسْقَامِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ أَيَّ كَيْ يَتَضَرَّعُوا إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ابْتَلَى بِالْبَلَاءِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، وَ فِي ذَلِكَ لَطْفٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

[٤٤] لَكِنْهُمْ لَمْ يَتَضَرَّعُوا وَ حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ رَكِبُوا الْعِنَادَ وَ سَلَكُوا سَبِيلَ اللَّجَاجِ فَلَوْلَا أَيَّ هَلَّا - وَ هِيَ كَلِمَةٌ تَوْبِيخٌ - إِذْ جَاءَهُمْ أَيَّ جَاءَ تِلْكَ الْأَمَمَ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَ خَضَعُوا لِلَّهِ وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ بِسَبَبِ اسْتِمْرَارِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ فَلَمْ تَجِدْ الْهَدَايَةَ إِلَى قُلُوبِهِمْ سَبِيلًا وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَأَوْ أَعْمَالِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧١

[سورة الأنعام (٤): الآيات ٤٤ إلى ٤٦]

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)

حَسَنَةً، وَ لَذَا لَمْ يَتْرَكُوا.

[٤٥] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَيَّ تَرَكُوا مَا ذُكِّرْنَاَهُمْ مِنْ أَوْامِرِنَا وَ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا دَعَاهُمْ الرِّسَالُ إِلَيْهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ النِّعَمِ حَيْثُ قَدْ أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي بَعْدَ تِلْكَ الْبِئْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ.

وَ ذَلِكَ لِأَجْلِ احْتِمَالِ إِفَادَةِ التَّذْكَيرِ بِالنِّعَمِ حَتَّى يَشْكُرُوا بَارِئِهَا وَ الْمَتَفَضِّلِ بِهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَيَّ بِمَا أَعْطَاهُمْ اللَّهُ مِنْ النِّعَمِ وَ اسْتَغْلَوْا بِالتَّلَذُّذِ وَ لَمْ يَقْبَلُوا أَمْرَ الرِّسَالِ، بَلْ صَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِزِيَادَةِ طِعْيَانِهِمْ وَ كُفْرِهِمْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْهَلَاكِ وَ النِّكَالِ بَغْتَةً أَيَّ فِجَاءً

فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ من «بلس» إذا تحسّر، أى أنهم متحيرون آيسون من النجاة.

[٤٦] فَفَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا «الدابر» الأصل، أى استؤصل وقطع أصل القوم بسبب العذاب وَ الْحَمِيدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الذى أهلك الكفار و أراح البلاد و العباد منهم.

[٤٧] ثم احتج الله على الكفار بحجة أخرى تدل على بطلان أصنامهم و أن الأمر لله وحده قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ: أَرَأَيْتُمْ أَيُّ أَخْبَرُونِي، فقد تقدم أن «أ رأيت» بمعنى أخبرني إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَيِّمَعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ أى أذهب بها فصرتم صم و عمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَ مَا نُزِّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)

وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ أى سلب عقولكم حتى صرتم لا تعقلون، أو المراد الطبع عليها حتى تبتعد عن الخير مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أى بذلك الشىء المأخوذ منكم، فإنهم يعترفون بأن الأصنام لا تتمكن من إعادة الأشياء المذكورة أَنْظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ أى نبين لهم فى القرآن الآيات الدالة على التوحيد، و «تصرف الآيات» توجيهها، من «صرف» إذا أرسل ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ من «صدف» بمعنى أعرض، أى يعرضون عن الحق و عن القائل فى الآيات.

[٤٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: أَرَأَيْتُمْ أَيُّ أَخْبَرُونِي إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بعد ما أنذرتكم و لم تؤمنوا بَعْتَهُ أَوْ مَفْاجَأَةً خَفِيَةً، فإن الفجأة تلازم الخفية أَوْ جَهْرَةً علانية بلا- فجأة هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ الكافرون الذين ظلموا أنفسهم، و العاصون، و المراد بالهلا-ك ما يسبب خسارة الدارين، أما المؤمن لو هلك، فإنه لا يخسر إلا الدنيا، و يعوّض عنها بأنواع الإنعام، و فى هذا الاستفهام إيقاظ و تنبيه و ردع لهم من الظلم، فأى أحد يجب أن يهلك إذا أتى العذاب.

[٤٩] وَ مَا نُزِّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ وَ الثَّوَابِ لمن آمن و أصلح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٤٩]

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

وَ مُنذِرِينَ بالنار و العقاب لمن كفر أو عصى فَمَنْ آمَنَ بما أمر الله الإيمان به وَ أَصْلَحَ أعماله فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، أما فى الآخرة فواضح، و أما فى الدنيا فلأن الخوف و الحزن الحقيقين ما كانا مع الانقطاع عن العوض و الثواب و ما أشبهها، و ليس المؤمن كذلك فإنه يعلم أن ما يصيبه يعقبه الثواب و الأجر. و لذا

قال الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء: «هَوْنٌ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بَعِينُ اللَّهِ»

«١»، و الارتباط بين هذه الآية و الآية السابقة واضح فإن العذاب لما وعد به الكفار بين أن الرسل شأنهم التبشير و الإنذار.

[٥٠] وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ أى يصيبهم العذاب بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أى بسبب فسقهم و خروجهم من طاعة الله سبحانه. ثم لا- يخفى أن الغالب تفسير الآيات الدالة على العذاب بعذاب الآخرة، مع أن الإطلاق خلاف ذلك، فإن من أعرض عن ذكره سبحانه يصيبه العذاب فى الدنيا و فى الآخرة، كما قال سبحانه: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا «٢»، و سببه واضح فإن المناهج التى يتبعها الإنسان مما وضعها غير الله سبحانه لا بد و أن تكون منحرفة، و هذا الانحراف يسبب الفوضى و الاستبداد و ما أشبهه،

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٤٥.

(٢) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٤

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٠]

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

مما يؤذى الإنسان و ينغص عيشه.

[٥١] إن الكفار كانوا يستعظمون كيف يمكن أن يكون الإنسان رسولا- بدون أن يكون له مال عريض أو علم غيب ذاتي يعينه في أموره و حوائجه، و يردّ الله سبحانه عليهم ذلك، بأن الرسالة لا ترتبط بهذه الأمور، و إنما هي هداية و نور قُلْ يا رسول الله: لا أَقُولُ لَكُمْ أيها الناس عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ التي يهب منها لمن يشاء ما يشاء. و من المعلوم أنه ليس لله سبحانه خزائن بالمعنى المتعارف لدينا، بل خزائنه الأرض و الشمس و المعادن و ما أشبهه، مما تفيض ثروته و مالا.

و في الحديث القدسي «إنما خزائني إذا أردت شيئا أن أقول له كن فيكون»

«١».

و المراد ب «عدم القول» عدم الوجود، فهو من السالبة بانتفاء الموضوع و لا أقول أَعْلَمُ الْغَيْبَ كما يعلم الله سبحانه، بل إنما أعلم بما يوحى إليّ بإذن الله سبحانه، كما قال عيسى عليه السلام: وَ أُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ «٢»، و في الآية الكريمة: فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ «٣»، و لا- أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ كما أنكم تتوقعون أن يكون الرسول ملكا إن أَتَّبِعُ أي ليس لي شأن إِلَّا أن أتبع، و «إن» بمعنى «ما» إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ من الأوامر و النواهي لأجل الإرشاد و الإصلاح قُلْ يا رسول الله لهم: إن مثل المؤمن و الكافر كمثل البصير الذي يبصر الأشياء

(١) بحار الأنوار: ج ٤ ص ١٣٥.

(٢) آل عمران: ٥٠.

(٣) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)

و الأعمى الذي لا يبصر هل يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟ كلا، إن كل أحد يعلم بأنهما ليسا متساويين. و لعل تقديم الأعمى لأن الخطاب كان مع الكفار الذين هم بمنزلة الأعمى أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ في الأمر و أن مقام الرسالة لا يرتبط بما ذكرتم من الأشياء.

[٥٢] وَ أَنْذِرْ يا رسول الله بِهِ أي بالقرآن، فإنه قد تقدّم ذكره بلفظ «ما يوحى إليّ» الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ و الخوف هنا ليس بمعنى الاحتمال، كقولك: «أخاف أن يهدم البناء»، بل بمعنى الخوف القطعي، فهو كقولك: «أخاف من الجراد» و هو يريد القتل. و المراد ب «الذين يخافون» المعترفون بالبعث، و إنما قد أنذر هؤلاء مع أن الإنذار عام، لأن هؤلاء هم المنتفعون بالإنذار، أما من أعرض فلا- ينتفع به لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ أي من دون الله تعالى وَلِيٌّ يلى أمورهم هناك وَ لَا شَفِيعٌ و ليس المراد أن الله يشفع إذ لا معنى لشفاعته، بل المراد أن الشفاعة بيده، فلا يشفع أحد إِلَّا بإذنه، كما قال سبحانه: لَا يَسْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ «١»، لَعَلَّهُمْ أي هؤلاء

الذين أنذرتهم يَتَّقُونَ معاصي الله، و يأتَمرون بأوامره.

[٥٣] إن من يخاف الحساب، أنذره يا رسول الله و لا- تطرده من عندك و إن طلب الأشراف ذلك و لا تَطْرُد من مجلسك الَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) الأنبياء: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٦

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٣]

وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أ هَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنَ بَيْنَنَا أ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

رَبُّهُمْ بِالْغَدَاةِ أَى صَبَاحَا وَ الْعَشِيِّ طرف العصر يُرِيدُونَ بالدعاء و الضراعة وَجْهَهُ أَى ذاته سبحانه خالصا مخلصا. و قد ورد أنه مرّ ملاً من قريش على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و عنده صهيب و خباب و بلال و عمار و سلمان و غيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أ فنحن نكون تبعاً لهم؟ أ هؤلاء الذين مَنَ اللهُ عَلَيْهِمْ؟ أ طردهم عنك فلعلك إن طردتهم تبعناك. فنزلت الآية.

و فى بعض التفاسير أنه طعن أولئك الأشراف فى سيرة هؤلاء الفقراء و أعمالهم، كى يدفعوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لإبعادهم عنه، فرد عليهم سبحانه بقوله: ما عَلَيْكَ أَى ليس عليك مَنَ حِسَابِهِمْ مَنَ شَيْءٍ فَأنت لا تتحمل تبعه سيرتهم و ما مَنَ حِسَابِكَ يا رسول الله عَلَيْهِمْ مَنَ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لا- يطالبون بحسابك، بل كُلَّ و عمله، فسيرتهم لو كانت كما يقولون لا تضرك فَتَطْرُدُهُمْ فَإِنَّ الشَّخْصَ إِنما يطرد من تضره سيرته، أما من كان قلبه عامراً بالإيمان و صلواته دائمة طرفى النهار فإن فقره و سيرته لا يوجبان طرده- لو فرض أن فى سيرته ميل- فَتَكُونُ بسبب طردهم مَنَ الظَّالِمِينَ لهم، أو لنفسك، فإن الإنسان إذا ظلم غيره فقد ظلم نفسه أيضاً، و سيقى هذه الجملة مبالغة فى ردع من طلب طرد أولئك.

[٥٤] وَ كَذَلِكَ أَى هكذا فَتَنَّا أَى ابتلينا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ حيث ابتلينا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٧

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٤]

وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنَ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مَنَ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)

الأشراف و الفقراء لِيَقُولُوا أولئك الأشراف: أ هَؤُلَاءِ أَى هل هؤلاء الفقراء مَنَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنَ بَيْنَنَا حتى عمهم النبى بلطفه، و جعلهم ندماء و موضع سره؟ نعم، ليس الإسلام ينظر للناس كما ينظر أهل الدنيا أ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ أنهم شاكرون، و الشاكر أفضل من غيره عند الإسلام، و إن كان غيره فى نظر الناس شريفاً، فإن الميزان عند الإسلام التقوى إِنَّا أكرمكم عند الله أتقاكم «١».

[٥٥] و الإسلام لا يسد الأبواب على العاصى، و إنما يفتح له باب التوبة.

و قد ورد أن جماعة جاءوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظيماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزل قوله تعالى وَ إِذَا جَاءَكَ يا رسول الله الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا أَى بدلائلنا و براهيننا فَقُلْ لهم: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَى أنتم فى سلام لا فى عذاب و عقاب، يقبل عذركم و يغفر ذنبكم كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَى أنه فرض على نفسه- حسب حكمته- أن يرحم العباد و يشملهم بلطفه و إحسانه أَنَّهُ مَنَ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ و المراد بالجهالة هنا ليس الجهل مقابل العلم، بل عدم المبالاة، و إنما سُمى بذلك لأن العالم التارك

(١) الحجرات: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّيْسَ يَتَّبِعُونَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا اتَّبِعْ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)

لعلمه هو و الجاهل سواء، و كأنه للجهل بالتأنيح و العواقب المرتبة على العمل، و إلا فالآية تشمل العمل، بل هو موردها. ثم تاب من بغيده أى بعد العمل و أصيخ أى عمل صالحاً فإنه أى الله سبحانه عفوراً لذنبه رحيم به. و كان الإتيان ب «رحيم» بعد «غفور» غالباً، لإفادة الفضل فى لطفه و إحسانه.

[٥٦] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ أى كما سبق نفصل الأدلة و البراهين الدالة على التوحيد و سائر شؤون المبدأ و المعاد، و نشرحها و نبينها، حتى يتضح سبيل المهتدين و لئس يتبين أى تظهر سبيل المجرمين المعاندين، فإن فى بيان الحق و ضوح الأمرين؛ سبيل المحق و سبيل المبطل. و لفظه «سبيل» مما يجوز التذكير و التأنيث، و لذا قال: «تستبين» بالتأنيث.

[٥٧] ثم أمر سبحانه رسوله بالبراءة مما يعبد المشركون بقوله: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يعنى الأصنام التى كانوا يعبدونها، و المراد ب «من دون الله» ما خلا عبادة الله، فإن النهى أعم من عبادة الأصنام وحدها أو بالاشتراك مع عبادة الله، فإن عبادة الأصنام إنما أتت من هوى النفس لا- من دليل عقلى أو منطقى قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: لا- اتَّبِعْ أَهْوَاءَ كُمْ فى عبادة الأصنام قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا إِذَا فعلت أنا ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٧٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ لو عبادت الأصنام.

[٥٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ أى أمر واضح بين لا غموض فيه من ربى أى أن تلك البيئته أتتني من جانب الله سبحانه، لا مثلكم أتبع هوى النفس و كذبتكم به أى بما أنا عليه من الدليل و البيئته، و قد كان الكفار يطلبون من الرسول- استهزاء- أن ينزل عليهم العذاب الذى يعدهم، كما قال سبحانه: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ «١»، فرد عليهم بقوله: ما عِنْدِي أى ليس باختيارى و أمرى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ أى الذى تطلبون سرعته إن الْحُكْمَ أى ليس الحكم فى باب العذاب إلا لله فهو وحده يَقُصُّ الْحَقَّ أى بينه و هو خَيْرُ الْفَاصِلِينَ الذى يفصل الأمور، فإذا اقتضت المصلحة أتاكم بالعذاب و يفصل الأمر و تنتهى المشكله، و من المعلوم أن إنزال العذاب له مقاييس خاصة، و أوقات محددة، فليس كل من طلب العذاب يجاب فوراً و إن كان من أكثر الناس إجراماً.

[٥٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ سُرْعَةَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ عِنْدِي أى بأمرى و إرادتى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من إنزال العذاب

(١) الحج: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٠

[سورة الأنعام (٦): آية ٥٩]

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)

بكم لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِذْ أَهْلَكْتُمْ فَأَسْتَرِيحُ مِنْكُمْ، لَكِنْ ذَلِكَ يَأْذَنُ اللَّهُ وَ مَشِيئَتُهُ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وَ بِمَقْتَضَى عَمَلِهِ يَقْدَمُ الْعَذَابُ تَارَةً وَ يُؤَخَّرُهُ أُخْرَى.

[٦٠] وحيث ذكر علمه سبحانه بالظالمين يأتي السياق ليدكر الكافرين بعلمه سبحانه وقدرته و أعماله، في أنفسهم و في الآفاق، إنها أقوى الأدلة على وجوده و سائر صفاته الكلامية، و هل من حاجة بعدها إلى الخوارق التي كانوا يقترحونها لإثبات كلامه صلى الله عليه و آله و سلم و عِنْدَهُ أَى عِنْدَ اللَّهِ سبحانه مَفَاتِيحُ جمع «مفتاح» بمعنى المفتاح الْعُيْبِ أَى ما غاب عن الحواس و المشاعر، فكأن الغيب قد سدّت أبوابه و أقفلت فلا يتمكن الإنسان أن يرى ما ورائها، و ليس بيد أحد مفاتيح تلك الأبواب ليفتحها و يرى الغيب، و إنما هي بيد الله سبحانه وحده، فهو الذى يعلم الغيب كله و يتمكن أن يفتح تلك الأبواب لمن أراد من خلقه، كما قال: فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ «١»، لا يَعْلَمُهَا أَى لا يدري ما هي تلك المفاتيح إِلَّا هُوَ أَى إِلَّا اللَّهُ سبحانه، و حيث أن كشف الغيب يحتاج إلى العلم بالكشف و القدرة على الكشف، و كان المقام مقام بيان عمله سبحانه، قال سبحانه «لا يعلمها» فلا يقال أن الأنسب أن يقول: «لا- يقدر عليها» لا أن يقول «لا يعلمها». فالأرزاق و الآجال و ما أشبههما، التي تأتي في المستقبل، لا يعلمها إِلَّا اللَّهُ سبحانه وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨١

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٠]

وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)

وَ الْبَحْرِ الْمَرَادُ بِالْبَرِّ: الْأَعْمُ مِنَ الْمَدِينِ، وَ الْبَحْرِ: الْأَعْمُ مِنَ الْأَنْهَارِ، بِقَرِينَةِ الْمَقَابِلَةِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَ لَا مِنْ حَبَّةٍ كَامِنَةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ أَى جَوْفِهَا، أَوْ لَا تَسْقُطُ حَبَّةٌ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ مِمَّا تَزْرَعُ أَوْ غَيْرِهِ. وَ قَدْ كَانَ التَّقَابِلُ بَيْنَ «مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ» وَ بَيْنَ «وَ لَا حَبَّةٌ» لَطِيفًا جَدًّا، حَيْثُ أَنَّ الْأَوَّلَ حَرَكَةُ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَوْتِ، وَ السَّقُوطُ الثَّانِي حَرَكَةُ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ وَ الْارْتِفَاعُ وَ لَا مِنْ رَطْبٍ وَ لَا- يَابِسٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ وَ الْأَصْنَافِ. وَ هَذَا وَ إِنْ كَانَ أَحْصَى مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، لِأَنَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَا يَتَصَفَّ بِرَطُوبَةٍ أَوْ يَبُوسَةٍ كَالْعَقْلِ، إِلَّا أَنَّ الْعَمُومَ يَشْمَلُهُ الْفَحْوَى، وَ كَثِيرًا مَا يُقَالُ لِلْفَحْوَى إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ أَى إِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مُحْفُوظَةٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابٍ وَاضِحٍ جَلِيِّ، وَ هُوَ اللَّوْحُ الْمُحْفُوظُ، أَوْ الْمَرَادُ بِالْكِتَابِ عِلْمُهُ الشَّامِلُ. وَ لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بِالْكِتَابِ لِأَجْلِ بَيَانِ أَنَّهُ مُحْفُوظٌ لَا يَزُولُ، كَمَا أَنَّ الْكِتَابَ كَذَلِكَ.

[٦١] وَ هُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ كَذَلِكَ تَجْرَى الْأَشْيَاءُ بِقُدْرَتِهِ وَ إِرَادَتِهِ، فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِي قَبْضَتِهِ وَ طَوْعِ أَمْرِهِ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم أَيُّهَا الْبَشَرُ بِاللَّيْلِ أَى يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ عَنِ التَّصَرُّفِ، وَ «التَّوْفَى» أَخَذَ

(١) التوبة: ٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٢

[سورة الأنعام (٦): آية ٦١]

وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ (٦١)

الشيء كاملا و منه الوفاة، فإن الإنسان إذا نام أخذ الله روحه المتصرفه التي تبصر و تسمع و تذوق و تلمس و تشم، و هذه الآية كقوله

سبحانه:

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا «١»، وإنما الفرق أن الموت توف بمعنى أتم من التوفى، بمعنى النوم وَيَعْلَمَ مَا جَرَحْتُمُ أَي ما كسبتم و فعلتم، أى عملتم بجوارحكم بالتهار و هذا التفصيل خارج مجرى الغالب، وإلا فهو يتوفى بالنهار لمن نام فيه، و يعلم ما جرح الإنسان بالليل لمن عمل فيه ثم بعد توفيكُم بالليل يَبْعَثُكُمْ أَي يوقظكم و ينهكم من نومكم فِيهِ أَي فى النهار لِيُقْضَى أَي لينهى أَجْلُ مُسَمَّى أَي أمدكم الذى سماه سبحانه فى اللوح المحفوظ، يعنى أنه إنما يوقظكم فى النهار حتى لا يموت الإنسان قبل وقته ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ بعد تمام المدة و انتهاء الأمد، ترجعون إليه سبحانه فى الآخرة، و المراد: إلى حسابيه، و إلا فليس له سبحانه محل، فإنه منزّه عن الزمان و المكان ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ أَي يخبركم - بعد رجوعكم إليه - بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ليعطى كل ذى جزاء جزاءه، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر.

[٦٢] وَ هُوَ سَبْحَانَهُ الْقَاهِرُ أَي القادر الذى يقهر و يجبر كما يشاء فَوْقَ عِبَادِهِ أَي مستعل عليهم، فإن من يتصرف فى الإنسان يكون

(١) الزمر: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٢]

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)

فوقه رتبة، و ليس المراد الفوقية الحقيقية، فإنه منزّه عن المكان و يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً جمع حافظ، و هم الملائكة الذين يبعثهم الله تعالى لحفظ الإنسان عن العطب، و حفظ أعماله فى دفاتر سجلات ليجزى كلّا حسب ما عمل حتى إذا جاء أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ و صار وقت أن يموت تركه الحافظ له و أسلمه إلى حتفه تَوَفَّيْتَهُ أَي قبضت روحه كاملة رُسُلْنَا أَي الملائكة المرسله لأجل هذه الغاية وَ هُمْ لَا يُفَرِّطُونَ بأن يقدموا أخذ الروح أو يؤخروها، أو يشددوا فى النزاع أو يخففوا، بل يفعلون ما يؤمرون، و إنما أتى بلفظ «رسلنا» جمعا، لأن لملك الموت أعوانا، كما ثبت من السنه، و لعل فى قوله: الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ «١»، دلالة عليه.

[٦٣] ثُمَّ بعد ما أخذت الملائكة أرواحهم رُدُّوا أَي رجعت أرواحهم إِلَى اللَّهِ أَي فى المكان المهيا لهم من قبله سبحانه مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَي سيدهم بالحقيقة، لا- مثل سيادة الأصنام عليهم أَلَا- فلينتبه الناس أن الله لَهُ وحده الْحُكْمُ فى جميع الأمور الكونية، حتى قبض أرواحهم و محاسبتهم هناك وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ و حسابيه سريع لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه حساب المحاسبين من الوقت و نحوه، فليس هناك بطء فى الحساب حتى يكون للمحاسب مجال

(١) النساء: ٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٤

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٣ الى ٦٥]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلِ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَ يُدَيِّقَ بَعْضُكُمْ بِأَسْبَعْ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)

واسع لكى يتم حسابيه.

[٦٤] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَاءُ الْكُفَّارِ، دلالة على قدرته سبحانه الكاملة:

مَنْ يُنَجِّيكُمْ و يخلصكم مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أَي من شدائدهما و أهوالهما، فإنهم يقولون لليوم الشديد: «يوم مظلم» تشبيها، فكما أن الإنسان لا يهتدى طريقه فى الليل و الظلمة، كذلك لا يهتدى طريقه فى الشدائد تَدْعُونَهُ أَي تدعون الله تعالى إذا وقعتم فى الشدة

والظلمة تَضَرُّعاً ضراعاً واستكانةً بلسانكم وَخُفِيَّةً و سراً في نفوسكم، فتوافق الظواهر والبواطن في الضراعة والمسألة لكي ينجيهم الله سبحانه، قائلين: لئن أنجانا ربنا من هذه الشدة والكارثة لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ الذين يشكرون نعمائه عليهم معترفين به وبفضله وإحسانه.

[٦٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ: اللَّهُ يُنَجِّبُكُمْ مِنْهَا أَيَّ مِنْ هَذِهِ الشَّدَّةِ وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ أَيَّ يَخْلُصُكُمْ مِنْ كُلِّ غَمٍّ وَهُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ، وَ تَرْجِعُونَ إِلَى شُرَكَائِكُمْ وَعَصِيَانِكُمْ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ «١».

[٦٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ: اللَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى

(١) العنكبوت: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٥

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٦]

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦)

أَنْ يَبْعَثَ أَيَّ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ كَالصَّوَاعِقِ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ كَالْخَسْفِ أَوْ يَلْبِسَكُمْ مِنْ «لبس عليه الأمر» إِذَا خَلَطَ بَعْضُهُ بَعْضًا أَيَّ يَخْلُطُكُمْ شَيْعًا جَمْعَ «شيعه» أَيَّ فِرْقًا، مَخْتَلَفِي الْأَهْوَاءِ لَا تَكُونُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً، بَلْ أَحْزَابًا وَأَهْوَاءً وَيُذِيقَ بَعْضُكُمْ بِأَسْبَغٍ فَهُمْ فِي عِدَاءٍ مُسْتَمِرٍّ وَحُرُوبٍ دَائِمَةٍ، وَإِنَّمَا يَنْسَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ يَكْلَهُمْ إِلَى أَمْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَعْرَضُوا عَنْ طَرِيقِهِ، وَتَرَكُوا مَنَاجِيهَ أَنْظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَ الْمَرَادُ بِالنَّظَرِ التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكُّرُ كَيْفَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ نَزْدًا لِلدَّلَائِلِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَنَكَرْهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةً لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ أَيَّ يَفْهَمُوا الْحَقَّ، وَ يَدْعُونَا لِلخَالِقِ وَ يَتَجَنَّبُوا الْكُفْرَ وَ الْبَاطِلَ.

[٦٧] وَكَذَّبَ بِهِ أَيَّ بِمَا نَصَّرَفَ مِنَ الْآيَاتِ قَوْمِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ الْمَرَادُ بِهِمْ إِمَّا قَرِيشَ، وَ إِمَّا الْعَرَبَ، وَ إِمَّا النَّاسَ الْمَبْعُوثَ إِلَيْهِمْ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، وَ الْمَرَادُ بِالتَّكْذِيبِ: تَكْذِيبَ أَغْلِبَهُمْ لَا- جَمِيعَهُمْ، لَوْضُوحِ إِيْمَانِ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ مِنَ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ بِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ حِينَ نَزَلَ الْآيَةُ وَهُوَ الْحَقُّ أَيَّ مَا نَصَّرَفَهُ مِنَ الْآيَاتِ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ: لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أَيَّ مَوْكَلٍ إِلَيَّ أَمْرَكُمْ حَتَّى يَضُرَّنِي تَكْذِيبِكُمْ، بَلْ أَنَا مَبْلَغٌ، وَ قَدْ بَلَغْتَ مَا أَمَرْتُ بِتَبْلِيغِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٦

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسِيَّبَةً وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)

[٦٨] ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَنْ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولَ مِنْ وَعِيدِ الْمَكْذِبِينَ بِشَرِّ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَظْهَرُ، وَ هُنَاكَ يَعْلَمُ الْمَكْذِبُونَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا، وَ أَنْ تَكْذِيبَهُمْ عَادَ بِالْوَبَالِ عَلَيْهِمْ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَيَّ لِكُلِّ خَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ أَيَّ مَحَلٍّ اسْتَقْرَارٍ يَظْهَرُ هُنَاكَ صَدَقَهُ، فَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي الدُّنْيَا وَ مَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي الْآخِرَةِ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيَّهَا الْمَكْذِبُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِكُمْ.

[٦٩] إِنْ أَوَّلَ حَرَكَةٍ لَا- بَدَّ وَ أَنْ يَخْتَلِطَ الْمُؤْمِنُونَ بِهَا وَ الْمُنَافِقُونَ لَهَا، وَ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَكُونَ ضِعَافَ النُّفُوسِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَكْتَسِبُونَ مِنَ الْمَعَانِدِينَ بَعْضَ الْأَفْكَارِ الْمَعَادِيَةِ، وَ لَا- أَقْلَ مِنْ أَنْ يَجْتَنِبُوا عَنِ الْاسْتِمْرَارِ وَ النِّظَاهِ، وَ لِذَا فَمَنْ اللَّازِمُ أَنْ يَجْتَنِبَ الْقَادَةَ أَتْبَاعَهُمْ عَنِ الْاِخْتِلَاطِ خُصُوصًا حَالَةَ التَّهْجَمِ مِنَ الْمَعَانِدِينَ إِذَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا خُوضَ الْمُنَاقَشَةِ وَ الْاسْتِهْزَاءِ، وَ الْخُطَابِ وَ إِنْ كَانَ مَوْجَهًا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَّا- أَنَّهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أَيَّ فَاتَرَكَهُمْ وَ لَا تَجَالِسَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أَيَّ غَيْرَ مَا خَاضُوا فِيهِ أَوَّلًا، بَأَنَّ يَتَكَلَّمُوا فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ فَلَا بِأَسْ حِينَئِذٍ مِنْ مَجَالِسَتِهِمْ وَ التَّكَلُّمِ مَعَهُمْ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ بَأَنَّ نَسِيَ الْمُسْلِمَ وَ جَلَسَ مَعَ الْخَائِضِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَ الْجُمْلَةُ شَرْطِيَّةٌ، أَيَّ: وَ إِنْ أَنْسَاكَ، وَ «مَا»

زائدة، و من المعلوم أن الشرط لا ينافي العصمة، فإن الجملة الشرطية تأتي حتى مع استحالة طرفيها نحو:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٧

[سورة الأنعام (٦): آية ٦٩]

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «١»، فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى أَى بَعْدَ التَّذْكَرِ، لَكُونِ مَجَالِسْتَهُمْ مَحْرَمُهُ مِنْهُى عِنهَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى الْآيَاتِ.

[٧٠] و مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَى هَل عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْ حِسَابِهِمْ أَى حِسَابِ الْكُفَّارِ الْخَائِضِينَ فِى آيَاتِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟

فإنهم ليسوا بمسؤولين عن خوضهم فى الآيات و لكن قيامهم عن المجالس إذا خاضوا ذكراً أى تذكير للخائضين بأنهم يعملون عملاً سيئاً، و إنما قال «ذكرى» لأن الخائض يعلم سوء فعله فى قرارة نفسه، لكنه يغفل غالباً حين الخوض، فأمر المسلم أن يقوم من مجلسه ليتذكر لعلمهم أى لكى ينتهى الخائضون و يتقون و يتورعون عن الخوض.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لما نزلت «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» قال المسلمون: كيف نضع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا و تركناهم فلا ندخل المسجد الحرام و لا نطوف بالبيت الحرام؟ فأنزل الله سبحانه: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» أمرهم بتذكيرهم و تبصيرهم ما استطاعوا.

«٢».

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) مستدرک الوسائل ج ١٢ ص ٣١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٨

[سورة الأنعام (٦): آية ٧٠]

وَدَّرَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ ذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

[٧١] وَ ذَرِ أَى اترك يا رسول الله الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا المراد من «دينهم»: الذى يتدينون به من عبادة الأصنام، و المسيحية و اليهودية و ما أشبهه، و المراد باتخاذها لعباً و لهواً: أنهم كالأطفال الذين يتخذون آله للعب و اللهو فلا علاقة لهم بها إلا علاقة التلاعب، لانه دين وصل إلى أعماق قلوبهم و أخذ يوجه حياتهم، و أما دينهم الذى يجب أن يتدينوا به- أى الإسلام- و نسبته إليهم لأجل وجوب اتخاذها ديناً، و اتخاذها لعباً و لهواً استهزأؤهم به كأنه لعب و لهو و غرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا زاعمين أنه ليس ورائها شىء، و شغلتهم الدنيا عن الدين و ذكروا يا رسول الله هؤلاء الكفار به أى بالدين أن تُبْسَلَ من «بسل» بمعنى استسلم، أى لكى لا تسلم نفس للهلكة بما كَسَبَتْ أى بسبب عملها، فإنك إن ذكرت لعلها تعود إلى الرشد و تنقذ من الهلكة حيث لَيْسَ لَهَا أَى للنفس من دُونِ اللَّهِ أى غير الله وَلِيٌّ ناصر ينصرها و لا شَفِيعٌ يشفع لها، فإن الشفاعة بيد الله وحده و إِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدَلٍ أى تفدى بكل ما يمكن جعله فدية، لتنقذ نفسها من العذاب لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا إذ ليس الميزان هناك إلا العمل وحده أُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا هم الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا أى أهلكوا «ب» سبب «ما كسبوا» من الأعمال و العقائد الباطلة لَهُمْ شَرَابٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٨٩

[سورة الأنعام (٦): آية ٧١]

قُلْ أُنَادِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَنْفَعُنَا وَ لَّا يَضُرُّنَا وَ نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعِيدٍ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ

أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)

من حميم أى: الماء الذى يشربون إنما هو من حميم جهنم، و هو الماء المغلى الحار و عذاب أليم أى مؤلم موجه بما كانوا يكفرون أى بسبب كفرهم.

[٧٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الكفار: ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا أَى هل ندعو الأصنام التى لا تنفعنا إن عبدناها و لا يضُرُّنا إن تركنا عبادتها و نُرِّدُ عَلَى أَعْقَابِنَا أَى نرجع القهقرى، فإن من أتى إلى مكان ثم رجع إلى محله الأول كان خاسرا، و «الأعقاب» جمع «عقب» بَعِيدٌ إِذْ هِدَانَا اللَّهُ إِلَى دِينِهِ وَ صِرَاطِهِ كَمَا الَّذِى اسْتَهْوَتْهُ أَى استغوته الشياطين أَى الغيلان فى الأَرْضِ أَى البيداء، بأن أخرجته الشياطين من الجادة إلى المهلكة خيران لا يدرى أيتبع أصحابه أم يتبع الشياطين لَه أَى لهذا الذى استهوته الشياطين أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى إِلَى الْجَادَةِ، و أن لا يتبع الشياطين، قائلين له:

ائْتِنَا أَى جننا و كن معنا. فإن قسما من الغول- و هم سحرة الجن- يكونون فى الصحراء، يؤذون بعض المارة، فإذا رأى الشخص جماعة منهم يستهونونه قائلين له: من هنا الجادة- و يدلونه إلى المفاوز المهلكة- فهو يتحير بين أن يسير مع هذه الجماعة التى تصبغ نفسها بصبغة أدلاء الطريق و أنها من أهل البادية تعرف الطريق الموصل من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّقُوا وَ هُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (٧٢) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

غيره، أم يسير مع رفاقه الذين خرج معهم، حيث أنهم رفاقه، لكنهم- بزعمه- يمشون على غير الطريق و يصيبهم العطب أخيرا. و هناك قسم من الناس ينكرون الجن و الغول و الشيطان، لكنه من ضيق الأفق، فإن العلمين القديم و الحديث أيدا الدين و القصص المؤكدة لوجود ذلك «١».

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى الذى ينبغى للإنسان أن يتبعه و يترك غيره و أمرنا أَى أمرنا الله و أرشدنا العقل لنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فى جميع شؤوننا.

[٧٣] و أمرنا أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ أَى بإقامة الصلاة، فإن حذف حرف الجر، مع أن «و أن» مطرد شائع، كما قال ابن مالك:

و الخوف مع أن و إن يطردهم أمن لبس كعجبت أن يبدو

وَ اتَّقُوا أَى احذروا عقاب الله تعالى وَ هُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ أَى تجمعون يوم القيامة ليحاسبكم على ما عملتم من خير و شر.

[٧٤] وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ المراد بالسموات: إما الأجرام هناك، أو المدارات للكواكب بِالْحَقِّ أَى ليس بالباطل فإن

(١) أنظر كتاب «على حافة العالم الاثيرى» لفريد وجدى، مادة «اسبرترم».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩١

من يصنع شيئا قد يصنعه عبثا و باطلا و قد يصنعه لغايه و حكمه، فمعنى بالحق: أن الخلق ليس عبثا، كما قال سبحانه: مَا خَلَقْتُ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ «١»، وَ يَوْمَ يَقُولُ سُبْحَانَهِ لَشَيْءٍ كُنْ وَ اخرج من العدم إلى الوجود فَيَكُونُ و يوجد قَوْلُهُ الْحَقُّ الظاهر أنه العامل فى «يوم» أى أن قوله تعالى يكون و يتحقق فى أى يوم قال لشيء «كن» فهو سبحانه خلقه بالحق، و قوله حق، أى متحقق ثابت لا خلف فيه، و ليس كأقوال من تذهب أقواله باطله.

وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ الصور هو الآله التى ينفخ فيها لأجل هلاك الناس جميعا، و هو فى آخر يوم من أيام الدنيا، أو لأجل أحيائهم جميعا، و هو فى أول يوم من أيام الآخرة، يعنى أنه سبحانه الملك الوحيد الذى لا يوجد ملك غيره، فى ذلك اليوم. و

الفقرات الثلاثة في الآية لبيان الأحوال الثلاثة، الخلق للأشياء، و التصرف في الكون بما يشاء الله، و كون المعادلة له سبحانه، و هو عالم الغيب أى يعلم ما غاب عن الحواس، لعدم إدراك الحواس له، أو لكونه من الأمور المستقلة و الشهادة أى ما يشاهده الناس، و أتى بهذه الجملة هنا، ليتناسق العلم مع القدرة، و هو الحكيم في أفعاله الخبير بالأشياء، فلا يعمل شيئاً اعتباطاً و عبثاً

(١) آل عمران: ١٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥)

[٧٥] و بعد ما بين سبحانه الأدلة حول التوحيد، أتى بقصة إبراهيم عليه السلام الذى كان يدعو إلى التوحيد، ليمثل الأدلة فى قصته حوارية جذابة و اذكر يا رسول الله إذ قال إبراهيم لأبيه آزر و المراد بالأب هنا العم، كما ورد، فإن العرب تسمى العم أباً، كما تسمى الخالة أما،

و قد ورد فى زيارة الشهيد على الأكبر عليه السلام «السلام عليك يا بن الحسن و الحسين»

أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً عَلَى وَجْهِ الِاسْتِنكَارِ وَ التَّوْبِيخِ، أى كيف تعبد الأصنام و تجعلها إلهاً من دون الله؟ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أى واضح، فإن الإله يجب أن يكون خالقاً فكيف تكون الأصنام آلهة؟

[٧٦] وَ كَذَلِكَ أى بمثل هذه الفطرة المستقيمة التى رأى بها إبراهيم بطلان عبادة الأصنام تُرى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أى آثار الملك الموجودة فى السماوات و الأرض من الشمس و القمر و النجوم و الجبال و البحار و الأشجار و الدواب و غيرها، مما تدل كلها على وجود إله حكيم عليم خالق قادر، و إنما نسب الإراءة إلى نفسه تعالى لأنه هو الذى فتق بصيرة إبراهيم عليه السلام للتأمل فى الآيات الكونية. و فى الأحاديث أنه عليه السلام كان يرى أغوار الأرض و آفاق السماء فقد كشف عن عينه الحجاب و كان يرى ما لا يدركه البصر الإنسانى.

وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ أى المتيقنين بأن الله سبحانه هو الخالق و الإله، أريناه الملكوت، فجملة «و ليكون .. إلخ» مستأنفة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٦ الى ٧٨]

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)

[٧٧] إن إبراهيم عليه السلام اصطدم بأصناف ثلاثة يعبدون من دون الله الكواكب، فكان بعضهم يعبدون «الزهرة» و بعضهم يعبد «القمر» و بعضهم يعبد «الشمس» فأراد الاحتجاج عليهم فلما جن عليه الليل رأى الزهرة فقال لعبادها مستنكراً: هل هذا ربي؟ ثم رد عليهم بأنه آفل ذاهب متحرك، و هذا من شأن المخلوق لا الخالق فإن الخالق لا يتغير و لا يتحرك، و بعد ما طلع القمر، قال لعباده على وجه الاستنكار: هل هذا ربي؟ ثم أبطل ألوهيته بما سبق و بين أن إلهه هو الله وحده لا شريك له.

فَلَمَّا جَنَّ أى أظلم عليه الليل و ستر بظلامه كل شىء رأى إبراهيم عليه السلام كوكباً و جماعة يعبدونه قال مستنكراً عليهم: هل هذا ربي؟ فَلَمَّا أَفَلَ و غرب النجم قال إبراهيم: لا أحب أن أتخذ الشىء الذى يغرب إلهاً.

[٧٨] فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقَمَرَ بَازِغًا أى طالعا منيراً و جماعة يعبدونه قال مستنكراً عليهم: هل هذا ربي؟ فَلَمَّا أَفَلَ و غرب

الْقَمَرِ قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى سَبِيلِ التَّعْرِيزِ بِأَوْلِيَّتِكَ لِيُنْزَلَ لِي إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ لِأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الَّذِينَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَ اتَّخَذُوا آلِهَةً بَاطِلَةً.

[٧٩] فَلَمَّا أَصْبَحَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً طَالِعَةً وَ جَمَاعَةً يَعْبُدُونَهَا قَالَ مُسْتَنَكِرًا عَمَلَهُمْ طَاعَنَا فِي حُجَّتِهِمْ: هَلْ هَذَا رَبِّي هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٤

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)

أَكْبَرُ؟، فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَدَلُّونَ بِكِبَرِهَا عَلَى أَنَّهَا الرَّبُّ دُونَ سِوَاهَا فَلَمَّا أَفَلَّتِ الشَّمْسُ وَ غَرَبَتْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْمِ الْعِبَادِ لغير الله تعالى إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ أَي مَا تَجْعَلُونَهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ شَرِيكًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٨٠] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ وَ الْمَرَادُ بِالْوَجْهِ الذَّاتُ، لَكِنْ حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَمَا يَخْلُصُ لِشَيْءٍ وَ يَرِيدُ اسْتِقْبَالَه، يُوَجِّهُ وَجْهَهُ إِلَيْه، وَ اسْتَعْمَلَ الْوَجْهَ فِي الذَّاتِ مَجَازًا لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَي خَلَقَهَا وَ أَوْجَدَهَا حَنِيفًا أَي مَائِلًا عَنِ الشَّرْكِ إِلَى الْإِخْلَاصِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ غَيْرِهِ.

[٨١] وَ لَمَّا جَادَلَ إِبْرَاهِيمَ حَوْلَ الْأَصْنَامِ وَ الْكَوَاكِبِ الَّتِي يَعْبُدُهَا قَوْمُهُ، فَشَى أَمْرَهُ فَجَاءَ إِلَيْهِ النَّاسُ يَحَاجُّونَهُ وَ حَاجُّهُ قَوْمُهُ أَي خَاصِمُوهُ وَ جَادَلُوهُ فِي بَابِ الْأُلُوهِيَّةِ قَالَ إِبْرَاهِيمُ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ أَي تَجَادَلُونِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ قَدْ هَدَانِ إِلَى الْحَقِّ بِلَطْفِهِ وَ إِحْسَانِهِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ أَي لَا أَخَافُ مِنْ آلِهَتِكُمْ أَنْ يَسْبِيُوا لِي ضَرْرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ الصَّنَمُ وَ النُّجُومُ يَضُرُّانِ الْإِنْسَانَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا أَي ضَرْرًا بِي، وَ الْاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَ قَدْ مَرَّ سَابِقًا أَنَّ هَذِهِ الْاسْتِثْنَاءَاتُ إِنَّمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)

هي لأجل إفادة تمام الطلب بعد جعل المستثنى منه الإطلاق، فالأصل مثلا، ولا أخاف ضررا إلا من الله سبحانه.

وَ لَسْتُ أَعْلَمُ مَا يَشَاءُ رَبِّي مِنْ ضَرَرٍ أَوْ نَفْعٍ بَلْ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَي سُبْحَانَهُ الْمَحِيطُ بِالأَشْيَاءِ بِعِلْمِهِ الْوَاسِعِ وَ اطْلَاعِهِ الشَّامِلِ أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَيهَا الْمُشْرِكُونَ وَ تَتَدَبَّرُونَ لِتَعْرِفُوا أَنَّ الأَمْرَ كَمَا قُلْتُمْ لَكُمْ.

[٨٢] وَ كَيْفَ أَخَافُ أَنَا الْمَعْتَقِدُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ الضَّرْرَ مِنْ قَبْلِ مَا أَشْرَكْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَ النُّجُومِ وَ هِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الضَّرْرِ وَ النِّفْعِ وَ الْحَالُ أَنَّكُمْ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ كُلُّ ضَرَرٍ وَ نَفْعٍ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا أَي جَعَلْتُمْ النُّجُومَ وَ الْأَصْنَامَ شُرَكَاءَ اللَّهِ وَ الَّتِي لَمْ يَدُلْ دَلِيلٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى صِحَّتِهَا، فَإِنَّ «مَا» مُوصُولَةٌ مُصَدِّقَةٌ «الأصنام و النجوم» فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ نَحْنُ وَ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ بَأَنَّ لَا يَخَافُ الضَّرْرَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَي تَسْتَعْمَلُونَ عُقُولَكُمْ وَ عُلُومَكُمْ فَتَمَيِّزُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؟

[٨٣] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ مِنْ لَهِ الْأَمْنِ بِقَوْلِهِ: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَ لَمْ يَلْبِسُوا أَي لَمْ يَخْلَطُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ بَأَنَّ لَمْ يَشْرِكُوا فَإِنَّ الشَّرْكَ ظُلْمٌ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٦

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ

نوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)
كما قال سبحانه: لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «١» أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ فإِنَّهُمْ لا يخافون عقاب الآخرة، و لا ضرر الدنيا بلا عوض وَ هُمْ مُهْتَدُونَ أى مهديون إلى الحق. و هذه الآية وَ إن كان موردها قصة إبراهيم عليه السلام و الإيمان و الشرك إلا أنها عامة تشمل كل إيمان لم يلبس بظلم، و لذا ورد فى مصداقها الولاية لأهل البيت عليهم السلام «٢».

[٨٤] وَ تِلْكَ الْحِجَّةُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَا سَبَقَ حُجَّتُنَا أَى الأدلة الَّتِي آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ أَعْطَيْنَاهَا لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ لَقْنَاهُ إِيَّاهَا عَلَى قَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ إِيْرَادِهَا عَلَيْهِمْ وَ أَنْ يَغْلِبَهُمْ نَزْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ كَمَا رَفَعْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ دَرَجَاتٍ حَيْثُ كَانَ مُؤْمِنًا مُوَحَّدًا مُجَاهِدًا إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فبحسب حكمته البالغة يرفع الدرجات، و بحسب علمه الشامل يعلم الأشياء.

[٨٥] وَ وَهَبْنَا لَهُ أَى لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ إِسْحَاقَ هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ سَارَةَ، وَ يَعْقُوبَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ لَمْ يَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ هُوَ ابْنُهُ مِنْ هَاجِرٍ لِإِرَادَةِ ذِكْرِهِ مُسْتَقِلًا حَتَّى يَظْهَرَ لَهُ مِنَ الشَّأْنِ مَا لَا يَظْهَرُ لَوْ أُدْرِجَ فِي جَمَلِهِ «وَهَبْنَا» وَ قَدْ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ الشَّجَرَةَ النَّبَوِيَّةَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ مِنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَا يَفُوتُ ذِكْرَهُ حَيْثُ يَذْكُرُونَ

(١) لقمان: ١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٦ ص ١١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٥ إلى ٨٦]

وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِيْلَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)
كُلًّا مِنَ الثَّلَاثَةِ هَدَيْنَا إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ هَؤُلَاءِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَى مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ الْمَرَادُ كُلًّا مِنْهُمَا، فَإِنَّهُ يَجُوزُ ذَلِكَ بِإِرْجَاعِ الضَّمِيرِ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ «١» دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ هُوَ ابْنُ دَاوُدَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ ابْنِ يَعْقُوبَ بِنِ إِسْحَاقَ بِنِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى بِنِ عِمْرَانَ وَ هَارُونَ أَخُو مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَذَلِكَ أَى هَكَذَا يَجْعَلُ النَّبُوَّةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ، تَكْرِيمًا لَهُ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَحْسِنُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّا نَكْرِمُهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُونَ.

[٨٦] وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى ابْنِ زَكَرِيَّا وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ إِيْلَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ أَى أَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الَّذِينَ أَصْلَحُوا.

[٨٧] وَ إِسْمَاعِيلَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَرَادَ بِهِ إِسْمَاعِيلُ صَادِقَ الْوَعْدِ الَّذِي أَشِيرَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: وَ أَذْكَرٌ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ «٢»، وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ ابْنِ مَتَّى صَاحِبَ الْحَوْتِ وَ لُوطًا وَ الْكَلَامُ فِي «اللام» فِي «اليسع»،

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) مريم: ٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٧ إلى ٨٨]

وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

و المنصرف و غير المنصرف من الأسماء مرتبط بالمفصلات و كلاً أى كل واحد منهم فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ أى عالم زمانهم، فإن كل نبي كان أفضل من جميع الناس، باستثناء النبي الذي فى عهده، فلو ط كان فى عهد إبراهيم و لم يكن أفضل منه.

[٨٨] و كذلك فضلنا جماعة من آبائهم أى من آباء هؤلاء الأنبياء و ذريّاتهم أى أولاد هؤلاء الأنبياء و إخوانهم أى إخوان هؤلاء الأنبياء و اجتبيناهم أى اصطفيناهم و اخترناهم للرسالة و هديناهم إلى الحق، و ذلك لا يلزم سبق الضلالة، كما لا يخفى إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ فى كل شىء؛ العقيدة و السلوك و القول.

[٨٩] ذلِكَ الهدى الذى هدينا به الأنبياء هُدى الله و إرشاده الذى يأتى بأكمل السعادة و أوفر الخير يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ و المراد إما الهدى الخالص، و من المعلوم أنه لا يلزم فى الحكمة بالنسبة إلى كل أحد، و إما الهدى العام و ذلك و إن لزم بالنسبة إلى كل أحد لكن المراد هنا الإيصال إلى المطلوب لا إراءة الطريق، أو يقال: إن الذى دلّ عليه الدليل أن العقاب لا يجوز بلا بيان، أما الهداية فلا دليل عقلى على إيجابها بالنسبة إلى كل أحد، نعم فى لزوم خروج الخلق عن العبث يلزم الإرشاد فى الجملة و لو أَشْرَكُوا أى لو أشرك هؤلاء الأنبياء لَحَبَطَ أى لبطل عَنْهُمْ فإن الحبط لما أشرب معنى الزوال و الذهاب عدى ب «عن»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٩٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُؤْلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبُهْدَاهُمْ آفْتَدَهُ قُلٌّ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

ما كانوا يَعْمَلُونَ من الأعمال السابقة على الشرك. ثم إن الآية فى مقام بيان أن الشرك موجب لحبط الأعمال مهما كانت سوابق الشرك، إذ من المعلوم الضرورى عدم شرك الأنبياء، فإن الشرط يأتى حتى فى مستحيل الطرفين، كقوله: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «١»، و من هذا القبيل أيضاً قوله: لَيْسَ أَشْرَكَكَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ «٢».

[٩٠] أُولَئِكَ الَّذِينَ ذكروناهم من الأنبياء عليهم السّلام، هم الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ أى أعطيناهم الكتاب المراد به الجنس و الْحُكْمَ أى منصب الحكم بين الناس، فإن هذا المنصب ليس إلا لله و لمن أعطاه إياه و النّبوءة حيث كانوا أنبياء، و ذكر النبوة بعد الكتاب، لدفع توهم أن إعطاء الكتاب ليس من قبيل إعطاء الكتاب للاسم، كقوله سبحانه: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ «٣»، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا أى بالكتاب و الحكم و النبوة هُؤْلَاءِ الكفار الذين جحدوا نبوتك يا رسول الله فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا أى بالإيمان بها، و المراد إيكال أمر دعاية النبوة و الإيمان بها، و الجهاد فى سبيلها، كالوكيل الذى يراعى أمور الموكل قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ فهم يقومون بواجب أمر النبوة خير قيام.

[٩١] أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ أى

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) الزمر: ٦٦.

(٣) البقرة: ٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٠

[سورة الأنعام (٦): آية ٩١]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ١٤٩

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأَيْسَ تُبَدُونَهَا وَ تَخْفُونَ كَثِيرًا وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

هداهم الله، و التكرار هنا مقدمة لقوله سبحانه فَبُهْدَاهُمْ يا رسول الله آفْتَدَهُ فى أسلوب الدعوة و الصبر على الأذى و الاهتمام بالأمر، و

هذا كتسلياً للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وإشارةً إلى أن الأنبياء السابقين ابتلوا بما ابتلى به، بالإضافة إلى أن الاقتداء بهم في هدى الله سبحانه، لا- فيما هو من عند أنفسهم، حتى يقال: كيف يؤمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالاقتداء بمن هو دونه في الفضيلة.

إنه قيام بالوظيفة لأمر الله سبحانه ولحسابه الخاص، فالأجر منه وحده قُلْ يا رسول الله لمن تبلغهم: لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا أَي لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة و أداء الوحي ثمنا و أجره إِنْ هُوَ أَي ما تبليغ الوحي إِلَّا ذِكْرِي أَي تذكيرا لِلْعَالَمِينَ الَّذِينَ هم في زمانى و بعد زمانى. و كونه تذكيرا باعتبار ما أودع في الإنسان من الفطرة الدالة على توحيده سبحانه.

و هنا سؤال: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية و بين قوله: لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى «١».

و الجواب: إن إطلاق الأجر على المودة مجاز، و قد كان إرجاع الناس إليهم لصالح الناس، حيث إنهم الهداة المصلحون.

[٩٢] و حيث ذكر سبحانه أنه أعطى الأنبياء الكتاب، ردّ على من زعم أنه سبحانه لم ينزل كتابا.

فقد ورد أن حبرا من أحبار اليهود جاء إلى

(١) الشورى: ٢٤. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠١

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال له النبي: أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله سبحانه يبغض الحبر السمين- و كان اليهودى سمينا- فغضب و قال: ما أنزل الله على بشر من شىء. فقال له أصحابه: ويحك و لا موسى؟ فأنزل الله هذه الآية

«١» وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أَي ما عظموه سبحانه حق تعظيمه الذى يليق به إذ نسبوا إليه الكذب ف قالوا ما أنزل الله على بشرٍ مِنْ شَيْءٍ أَي لم ينزل على رسول كتابا من السماء، كما قال ذلك اليهودى. إن معنى عدم إرسال الرسل، و إنزال الكتب أن الله خلق الخلق عبثا و اعتباطا. و من المعلوم أن نسبة العبث إلى شخص عادى موجب لإهانته و عدم تقديره، فكيف بالله الحكيم العليم؟! قُلْ يا رسول الله لإبطال كلامهم ف مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَيْسَتِ التَّوْرَةُ مِنْ أَنْزَالِ اللَّهِ تَعَالَى، و إنما ذكرها لكون طرف الكلام يهوديا نُورًا وَ هُدًى أَي في حال كون كتابه عليه السَّلَام نور يهدى الناس إلى مناهج الحياة الصحيحة، و هداية لِلنَّاسِ إِلَى الْحَقِّ تَجْعَلُونَهُ أَي تجعلون ذلك الكتاب قراطيس أى تكتبونه، و هذا لزيادة التأكيد، أى: فكيف تنكرون ما تلقيتموه أنتم بالقبول، و كنتم تكتبونه في قراطيس باعتبار أنه كتاب سماوى منزل من عند الله سبحانه؟

تبدونها أى تظهرون بعضها، حيث كانوا يكتبون بعض الأحكام

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٢

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٢]

وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)

الموجودة في التوراة في أوراق و يعطونها بيد الناس وَ تُخْفُونَ كَثِيرًا مِنَ التَّوْرَةِ لِأَجْلِ كَوْنِهَا خَطَرًا عَلَى أَمْوَالِهِمْ أَوْ جَاهِهِمْ، أَوْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَ عَلَّمْتُمْ أَيها اليهود بركة التوراة المنزلة على موسى ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا- أَبَاؤُكُمْ فَإِنَّكُمْ لو لا كتاب الله المنزل لم تكونوا تعلمون شيئا، فكيف تنكرون إنزال الله الكتاب، و تقولون: «ما أنزل الله على بشرٍ مِنْ شَيْءٍ؟» قُلْ يا رسول الله: الله أنزل الكتاب على موسى ثُمَّ

ذَرَهُمْ أَى دَعَهُمْ فِى خَوْضَةٍ هَمَّ يَلْعَبُونَ فَهُمْ وَ مَا خَاضُوا فِيهِ مِنَ الْبَاطِلِ وَ الْكُذْبِ، إِنَّهُمْ يَلْعَبُونَ بِالْأَدِينِ، فَذَرَهُمْ وَ مَا هُمْ فِيهِ [٩٣] وَ كَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مُوسَى كَذَلِكَ هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُبَارَكٌ يُوَجِّبُ الْبِرْكَهَ وَ السَّعَادَةَ مُصَدِّقُ الْكِتَابِ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ أَى قَبْلَهُ، مِنَ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ سَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَصْدِيقَ أَصْلِ الْكِتَابِ لَا يَلْزَمُ تَصْدِيقَ التَّحْرِيفَاتِ الَّتِى طَرَأَتْ عَلَيْهِ، وَ لِيُتَنَذَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُمَّ الْقُرَى أَى مَكَّةَ، وَ إِنَّمَا سَمِيَتْ بِهَا لِأَنَّ الْأَرْضَ دَحِيَّتٌ مِنْ تَحْتِهَا وَ مَنْ حَوْلَهَا مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ غَيْرِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ الْمُنزَلِ عَلَيْكَ، فَإِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٣

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٣]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

الإيمان بالآخرة يوجب خوفا في القلب، ينبعث منه اتباع الحق أينما وجد، وفيه تعريض بمن لا يؤمن من أهل الكتاب، فإنه غير مؤمن بالآخرة و هم على صلاتهم يحافظون فيؤدونها لأوقاتها، فمن يترك الصلاة ليس بمؤمن بالآخرة و القرآن، و إن ادعى الإيمان. [٩٤] و حيث كان الكلام حول الوحي، و من قال بعدم الوحي إطلاقا، ناسب ذلك التنديد بمن قال بالوحي كذبا، و مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

نزلت في ابن أبي سرح الذي استعمله عثمان على مصر و قد هدر رسول الله دمه و كان حسن الخط من كتابه الوحي فإذا قال له الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: اكتب: «أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» كتب: «إن الله عليم حكيم» و هكذا، و كان يقول للمنافقين: إني أقول من نفسى مثل ما يجيء به. ثم ارتد كافرا إلى مكة و صار من الطلقاء يوم فتح مكة. ثم لا يخفى أن قوله سبحانه «و من أظلم» على سبيل الحصر الإضافى، كقوله: «و من أظلم ممن منع مساجد الله» و غيره. أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ كَمَسِيلَةِ الْكُذْبِ الَّذِى ادَّعَى النُّبُوَّةَ كَذِبًا، وَ كغیره ممن ادَّعى هذا المنصب افتراء، نحو: وَ مَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ أَوْ الْأَحْكَامِ. فى «المجمع»: قيل: المراد به عبد الله بن سعد بن أبي سرح،

(١) البقرة: ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٤

أَمْلى عليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ذات يوم: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ إِلَى قَوْلِهِ - ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ «١»، فجرى على لسان ابن أبي سرح: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» فأمله عليه و قال: هكذا أنزل فارتد عدو الله و قال: لئن كان محمد صادقا فقد أوحى إلى كما أوحى إليه و لئن كان كاذبا فلقد قلت كما قال «٢».

وَلَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أَى فى شدائد الموت عند النزح، كأن الموت بشدائده يغمهم مرة فمرة، كما يغمر الماء الغريق و الْمَلَائِكَةُ الْقَابِضَةُ لِأَرْوَاحِهِمْ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ بِأَبْشَعِ الْوَسَائِلِ يَضْرِبُونَ وَجُوهُهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ، قائلين لهم: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَجْسَادِكُمْ، وَ هَذَا لِلْإِذْلَالِ وَ الْإِهَانَةِ، وَ إِلا فليس خروج أنفسهم بإمكانهم، بل بقدرة الله تعالى الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ أَيُّهَا الظالمون عَذَابَ الْهُونِ فإنه ليس عذابا جسديا فقط بل معه ذلة و هوان بما كنتم تقولون عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ أَى جازاكم بعذاب الهون بسبب مقاتلتكم الكاذبة على الله حيث كنتم تقولون: «أوحى إلينا و لم يوح إليكم» و معنى «على الله» أَى بالنسبة إليه سبحانه و بما كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَ دَلَالَتِهِ

(١) المؤمنون: ١٣-١٥.

(٢) مجمع البيان: ج ٤ ص ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٤ إلى ٩٥]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)

تَشْتَكِبُونَ فَلَ تَخْضَعُونَ لِأَحْكَامِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَجَوَاب «لَوْ» مَحذُوفٌ لِلتَّهْوِيلِ، أَيْ: لَوْ رَأَيْتَ ذَلِكَ لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَطِيعًا مَرِيعًا.

[٩٥] وَهَذَا يُوْجِّهُ الْبَارِي سَبْحَانَهُ كَلَامَهُ إِلَيْهِمْ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا أَيُّهَا الظَّالِمُونَ فُرَادَىٰ أَيُّ فِي حَالِ كَوْنِكُمْ وَحَدَانَا لَا مَالَ لَكُمْ وَلَا مَدَافِعَ، بَلْ وَاحِدًا وَاحِدًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ حِينَ جِئْتُمْ إِلَى الدُّنْيَا وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ أَيُّ مَا أَعْطَيْنَاكُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْأَقْرَبَاءِ وَالْخُدَمِ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِاعْتِبَارِ إِقْبَالِهِ عَلَى الْآخِرَةِ تَكُونُ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ أَيُّهَا شُرَكَاءُ اللَّهِ لِأَنْفُسِكُمْ شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ أَيُّ الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا شُرَكَاءُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَوَرَدَ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّضْرَ قَالَ: سَوْفَ يَشْفَعُ لِي اللَّاتُ وَالْعَزَىٰ.

لَقَدْ تَقَطَّعَ أَيُّهَا الظَّالِمُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ فَلَا مَوَاصِلَهُ تَنْفَعُ لِلشَّفَاعَةِ وَضَلَّ عَنْكُمْ أَيُّ ضَاعَ وَتَلَاشَىٰ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ فَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ خَيْرًا.

[٩٦] إِنَّ أَسْنَامَكُمْ لَا تَشْتَرِكُ مَعَ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ وَلَا فِي أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الشُّؤْنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٦

[سورة الأنعام (٦): آية ٩٦]

فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

بَلْ إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ أَيُّ يَشِقُّ الْحَبَّ الْيَابِسَ الْمَيِّتَ وَيُخْرِجُ مِنْهُ النَّبَاتَ وَيَشِقُّ نَوَاهُ التَّمْرِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا النَّخْلَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ فَالنَّبَاتُ حَتَّىٰ يُخْرِجَهُ مِنَ الْبَيْضِ الْمَيِّتِ، وَالْوَلَدَ الْحَيَّ يُخْرِجُهُ مِنَ الْأُمِّ الْمَيِّتَةِ، وَالْبَعُوضَ وَأَشْبَاهَهُ يُخْرِجُهُ مِنَ الْمَاءِ الْمَيِّتِ، وَهَكَذَا وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ كَالْحَبِّ مِنَ النَّبَاتِ، وَالْبَيْضَ مِنَ الدَّجَاجِ، وَالْجَنِينَ الْمَيِّتِ مِنَ الْأُمِّ الْحَيَّةِ، وَالْفَضْلَاتِ الْمَيِّتَةِ مِنَ الْحَيِّ، وَكَأَنَّ التَّغْيِيرَ فِي الْعِبَارَةِ «يُخْرِجُ» وَ«مُخْرِجُ» لِلتَّفَنُّنِ فِي الْعِبَارَةِ الَّتِي هِيَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ ذَلِكُمُ اللَّهُ أَيُّ ذَلِكَ الَّذِي يَفْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ - أَيُّهَا الْبَشَرُ - هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ أَيُّ تَصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

[٩٧] فَالِقُ الْأَصْبَاحِ أَيُّ يَشِقُّ عَمُودَ الصَّبْحِ عَنِ الظُّلْمَةِ اللَّيْلِ، وَيُخْرِجُ الضِّيَاءَ مِنَ الظُّلْمَةِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا تَسْكُنُونَ فِيهِ وَتَهْدُونَ عَنِ الْعَمَلِ إِذَا أَظْلَمَ وَجَعَلَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا تَجْرِيَانِ فِي أَفلاكِهِمَا بِحِسَابٍ دَقِيقٍ، وَ«حُسْبَانًا» مَصْدَرٌ، وَكُونُهُمَا حُسْبَانًا أَيُّ مَصْدَرِي حِسَابٍ وَتَوْقِيتٍ، نَحْوُ: «زَيْدٌ عَدْلٌ»، مِمَّا حَمَلَ الْمَصْدَرُ عَلَى الذَّاتِ مَبَالِغَةً، فَمِنَ الشَّمْسِ تَتَوَلَّدُ الْأَيَّامُ، وَمِنَ الْقَمَرِ تَتَوَلَّدُ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ ذَلِكُمُ الْمَذْكُورُ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ فِي سُلْطَانِهِ الْعَلِيمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٩٧ إلى ٩٩]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَهُ فَمُسِيَّتَقَرَّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنْ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

بمصالح العباد، فأى شىء يرتبط بأصنامكم أيها الضالون.

[٩٨] وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا الْبَشَرَ النَّجْمِ فِي السَّمَاءِ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَ الْبَحْرِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ طَرِيقَهُ مِنَ النُّجُومِ فِي اللَّيَالِي، فَمَنْ قَصَدَ مَدِينَةَ نَحْوَ الْمَشْرِقِ جَعَلَ النُّجُومَ الْمَشْرِقِيَّ أَمَامَهُ، وَ مِنْ قَصَدَ مَدِينَةَ نَحْوَ الْمَغْرِبِ، جَعَلَهُ خَلْفَهُ، وَ هَكَذَا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْخَالِقِ وَ صِفَاتِهِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أَى لَهُمْ عِلْمٌ وَ مَعْرِفَةٌ بِالْأَوْضَاعِ.

[٩٩] وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ أَى خَلَقَكُمْ وَ أَدْعَمَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ هِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ مِنْ فَضْلِ طِينَتِهِ خَلَقَتْ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ، إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ الْقَادِرُ لِمِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَلَكُمْ مُسْتَقَرٌّ فِي بَطُونِ الْأَمْهَاتِ وَ مُسْتَوْدَعٌ فِي أَصْلَابِ الْآبَاءِ، وَ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ مُسْتَوْدَعًا لِأَنَّ الْمَنَى يَبْقَى قَلِيلًا فِي الصَّلْبِ حَتَّى يَنْزِلَ، فَهُوَ أَشْبَهُ بِالْوَدِيعَةِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ أَى الْأَدْلَةَ وَ الْحُجُجَ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ أَى يَفْهَمُونَ الْأَدْلَةَ، كَى يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ هُوَ الَّذِي صَنَعَ كُلَّ ذَلِكَ.

[١٠٠] وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً هُوَ الْمَطَرُ، وَ الْمَرَادُ بِالسَّمَاءِ جِهَةُ الْعُلُوِّ، فَإِنَّ مَا عَلَاكَ فَاطْلُكَ هُوَ السَّمَاءُ - فِي لُغَةِ الْعَرَبِ - فَأَخْرَجْنَا بِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٨

نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ أَى أَخْرَجْنَا بِسَبَبِ الْمَاءِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ قَابِلٍ لِلنَّبَاتِ مِنْ مَخْتَلَفِ أَقْسَامِ النَّبَاتَاتِ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ أَى مِنَ الْمَاءِ، وَ التَّكَرُّرُ، لِأَنَّهُ أَجْمَلٌ أَوْلَا، ثُمَّ أُرِيدَ التَّفْصِيلُ، أَوِ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى النَّبَاتِ، فَإِنَّ النَّبْتَ أَوْلَا لَيْسَ أَخْضَرًا، وَ إِنَّمَا أَيْضًا صَغِيرٌ ثُمَّ يَصِيرُ أَخْضَرَ خَضِرًا هُوَ بِمَعْنَى أَخْضَرَ، أَى نَخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ زَرْعًا رَطْبًا أَخْضَرَ نُخْرِجُ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ الزَّرْعِ الْأَخْضَرَ حَبًّا مُتَرَاكِبًا قَدْ تَرَكَّبَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ كَحَبِّ الْحِنْطَةِ وَ الشَّعِيرِ وَ يَخْرُجُ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا بَدَلُ «مِنَ النَّخْلِ» قِنْوَانٌ أَى أَعْدَاقُ الرُّطْبِ، فَإِنَّ «قِنْوَانَ»: جَمْعُ «قِنْوَانٍ» بِكَسْرِ الْقَافِ وَ ضَمِّهَا، وَ هُوَ «الْعَدَقُ» بِالْكَسْرِ دَانِيَةٌ أَى قَرِيبَةُ التَّنَاوُلِ وَ أَخْرَجْنَا مِنْهُ جَنَّاتٍ أَى بَسَاتِينَ مِنْ أَعْنَابٍ جَمْعُ «عَنْبٍ» وَ أَخْرَجْنَا مِنْهُ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانَ أَى شَجَرَيْهِمَا مُشْتَبِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ فَبَعْضُ الْأَشْجَارِ وَ الْأَثْمَارِ وَ الْأَوْرَاقِ وَ الْأَزْهَارِ وَ الْحَبَاتِ مُتَشَابِهَةٌ وَ بَعْضُهَا غَيْرُ مُتَشَابِهَةٍ، فِي اللَّوْنِ وَ الطَّعْمِ وَ الْحِجْمِ وَ الْخَاصِيَّةِ وَ غَيْرِهَا. وَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَ لَفْظِي «مُشْتَبِهٍ وَ مُتَشَابِهٍ» مِنْ أَحْسَنِ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ، لِتَطَابُقِ اللَّفْظِ وَ الْخَارِجِ انظُرُوا أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى ثَمَرِهِ أَى ثَمَرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ إِذَا أَثْمَرَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ دَلَالَةً عَجِيبَةً عَلَى الصَّانِعِ تَعَالَى وَ انظُرُوا إِلَى يَنْعِهِ أَى نَضِجِهِ إِذْ نَضِجَ، فَإِنَّ مِنْ نَظَرٍ إِلَى ذَلِكَ نَظَرَ تَأَمُّلٍ وَ اعْتِبَارٍ، عَرَفَ عَظِيمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٠٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٠ إلى ١٠١]

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

الصَّنْعَةُ وَ جَلِيلُ الْخَلْقَةِ، وَ دَقِيقُ الْحِكْمَةِ، وَ «يَنْعٌ» فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى «النَّضِجُ» وَ قِيلَ: جَمْعُ «يَانِعٌ»؛ كَصَحْبٍ وَ صَاحِبٍ إِنْ فِي ذَلِكُمْ أَى فِيمَا تَقْدَمُ مِنَ الْخَلْقَةِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقَائِقِ، وَ يَتَجَنَّبُونَ السَّخَافَةَ.

[١٠١] إِنْ اللَّهُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ وَ لَكِنِ الْكُفَّارُ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ فَقَالُوا بِأَنَّ اللَّهَ شَرِكَاءُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ هُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْحَالِ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ أَى خَلَقَ الْجِنَّ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَخْلُوقُ شَرِيكًا مَعَ الْخَالِقِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَ خَرَقُوا أَى جَعَلُوا، وَ لَا يَخْفَى مَا فِي التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ «خَرَقُوا» مِنَ اللَّطَافَةِ. لَهُ تَعَالَى بَيْنَ وَ بَنَاتٍ فَقَدْ قَالَ الْيَهُودُ: عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَ قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ، وَ قَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَ جَعَلَ الْمَشْرُكُونَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ سَبَّحَانَهُ: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ

الرَّحْمَنِ إِنَانًا «١»، بِغَيْرِ عِلْمٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ كَانَ ظَنًّا وَ تَوْهَمًا سُبْحَانَهُ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مَحذُوفٍ، أَيْ: «أَنْزَهُهُ تَنْزِيهَا لَهُ» وَ تَعَالَى أَيْ تَقَدَّسَ وَ تَرَفَعَ عَمَّا يَصِفُونَ أَيْ الْأَوْصَافَ الَّتِي يَلِصِقُونَهَا بِسَاحَةِ قَدْسِهِ، مِنْ جَعَلِ الشَّرِيكَ وَالْأَوْلَادَ.

[١٠٢] إِنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ بَدِيعُ أَيْ مُبْدِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ خَالِقُهُمَا بِلَا

(١) الزخرف: ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٢ إلى ١٠٣]

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

شريك أو ظهير، وهذا رد على من جعل له شريكا أتى أى كيف يكون له ولد والحال أنه تعالى لم تكن له صاحبة أى زوجة؟ وهذا رد لمن جعل له أولادا وخلق كل شيء فهو الخالق المطلق، وهو بكل شيء عليم فهو العالم المطلق.

[١٠٣] ذَلِكُمْ أَيْ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ لَهُ الصِّفَاتُ الْمَتَقَدِّمَةُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَ «كَمْ» لِلخِطَابِ إِلَى السَّامِعِينَ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا شَرِيكَ لَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا شَيْءَ خَارِجٍ مِنْ خَلْقِهِ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ شَرِيكًا فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أَيْ حَفِيزٌ وَ مُدَبِّرٌ وَ قَائِمٌ، فَلَا حَافِظَ غَيْرِهِ، وَ لَا قَائِمَ بِالْأَمْرِ أَحَدٌ سِوَاهُ.

[١٠٤] لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ حَتَّى يَكُونَ مَرْتَبًا، وَ هَذَا لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ لَا يَبْصُرُ فِي الدُّنْيَا وَ لَا يَبْصُرُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ رُوعِي فِي الْكَلَامِ التَّجَانُّسِ اللَّفْظِيِّ، وَ إِلَّا فَهُوَ يَدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ الْأَبْصَارَ وَ غَيْرَهَا وَ هُوَ اللَّطِيفُ لَا يِرَادُ بِهِ اللَّطْفُ بِالْمَعْنَى فِي الْأَجْسَامِ، الْمُرَادُ بِهِ النَّافِذُ فِي الْأَجْسَامِ، وَ الرِّقِيقُ، وَ مَا أَشْبَهَهُ، بَلْ مِنْ بَابِ «خَذَ الْغَايَاتِ وَ اِتْرَكَ الْمَبَادِيءَ» فَعَلِمَهُ نَافِذٌ فِي الْأَشْيَاءِ، وَ قُدْرَتُهُ سَارِيَةٌ فِي الْأَكْوَانِ الْخَبِيرُ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٤ إلى ١٠٦]

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ (١٠٤) وَ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)

[١٠٥] قَدْ جَاءَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ «بصائر» جمع «بصيرة» وهى الدلالة البينة التى يبصر بها الشىء، أى جاءكم دلالات من قبل الله سبحانه، على الأصول، والأحكام فمن أبصر أى من تبين هذه الدلالات ونظر فيها نظر معتبر بصير فلنفسه فإنه يعود خير ذلك إلى ذاته وشخصه ومن عمى عنها فلم ينظر فيها وأعرض عنها فعليها أى أن وبال الإعراض يعود على نفسه وما أنا المراد بالضمير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليكم أيها الناس بحفيظ أحفظكم عن الخطأ والانحراف، وإنما أنا مبلغ مرشد، من آمن فلنفسه ومن ضل فعليها.

[١٠٦] وَ كَذَلِكَ أَيْ مِثْلَ تَصْرِيفِنَا الْآيَاتِ مِنْ ذِي قَبْلِ نُصَرِّفُ هَذِهِ الْآيَاتِ نُرْسِلُهَا وَ نُبَيِّنُهَا وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ أَيْ يَقُولُ الْكُفَّارُ:

درست هذه الآيات وتعلمتها من غيرك، كما كانوا ينسبون القرآن إلى تعلمه صلى الله عليه وآله وسلم من الراهب فى طريق الشام، أو من سلمان، أو من بعض اليهود ولبينه أى نوضح ما تقدم من الآيات لقوم يعلمون أى للعلماء الذين يعلمون الآيات، فإن هؤلاء هم المنتفعون بالآيات، ولذا خصهم بالذكر.

[١٠٧] اتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٠٧ الى ١٠٨]

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسْتَبُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبُؤُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

هُوَ وَ ذر الأصنام والأوثان، فإن صاحب الدعوة لا يبالي بما قاله المغرضون، ولا يضره انحراف المنحرفين وأعرض عن المشركين فلا تتعرض لهم، وليس المراد عدم دعائهم إلى الإسلام، أو عدم القتال معهم، بل معناه: «أعرض عن أقوالهم وطريقتهم»، وهذا كما يقال: «أعرض عن فلان» يراد عدم الاهتمام بقوله والاعتناء بشأنه، وأنه لا بد من سلوك الطريق المستقيم أحب أم كره.

[١٠٨] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْرَهُهُمْ عَلَىٰ عَدَمِ الشَّرْكِ مَا أَشْرَكُوا وَلَكِنْ الدُّنْيَا دُنْيَا اخْتِبَارٍ وَامْتِحَانٍ، وَإِنَّمَا يَرِيهِمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الطَّرِيقَ، فَمَنْ شَاءَ آمَنَ وَمَنْ شَاءَ أَشْرَكَ وَمَا جَعَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا تَحْفَظُهُمْ عَنِ الشَّرْكِ، حَتَّىٰ يَكُونَ إِثْمُ الشَّرْكِ عَلَيْكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أَيْ لَسْتُ بِمُوَكَّلٍ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنذَارُ، وَلِلْفَرْقِ بَيْنَ الْحَفِيظِ وَالْوَكِيلِ، أَنَّ الْحَفِيظَ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ الشَّيْءَ عَنِ الضَّرَرِ، وَالْوَكِيلَ هُوَ الَّذِي يَنَاطُ بِهِ أَمْرُهُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الضَّرَرِ عَنْهُ وَجَلْبُ النِّفْعِ إِلَيْهِ، فَهُوَ أَعْمُ مِنَ الْحَفِيظِ.

[١٠٩] وَلَا تَسْتَبُؤُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْآلِهَةَ الَّذِينَ يَدْعُونَ هَا الْكُفَّارَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيْ سِوَى اللَّهِ فَيَسْتَبُؤُوا اللَّهَ مُقَابِلَةً بِالْمِثْلِ عَدُوًّا أَيْ ظُلْمًا، بِمَعْنَى التَّعَدَىٰ عَنِ الْحَقِّ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَإِنَّهُمْ جَاهِلُونَ بِاللَّهِ، وَإِلَّا لِمَاذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٠٩]

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) كَانُوا يَسْبُونَهُ، وَيَتَّخِذُونَ آلِهَةً سِوَاهُ؟ كَذَلِكَ الْإِعْتِقَادُ بِالْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَىٰ عَمَلَهُ حَسَنًا، وَ لَوْ تَفَكَّرَ وَ قَارَنَ رَأَى الصَّحِيحَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَبَاطِيلَهُ. وَ نِسْبَةُ التَّرْتِيبِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَخَالِفُ الْخَلْقَ وَ سَبَبِ الْأَسْبَابِ، وَ ذَلِكَ لِلْإِمْتِحَانِ، وَ لِتَبْيِينِ مَنْ يَخَالِفُ نَفْسَهُ وَ مَنْ يَتَّبِعُ هَوَاهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَإِنَّ الْجَمِيعَ يَرْجِعُونَ إِلَى حِسَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ ثَوَابِهِ وَ عِقَابِهِ فَيُنَبِّئُهُمْ أَيْ يَخْبِرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ وَ الْقَبِيحَةِ، وَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، كَمَا تَقُولُ لَابْنِكَ الْعَاصِي: «أَخْبِرْكَ بِمَا عَمَلْتَ...» تَرِيدُ التَّهْدِيدَ وَ الْوَعِيدَ.

وهنا سؤال: كيف نهى الله عن سب الأصنام، وفي القرآن كثير من القدح فيهم؟

والجواب: إن الفرق بين سب الحكيم وسب الجاهل أن الأول يعرف موقع السب، بخلاف الثاني، كما لو نهى القاضى عن ضرب الناس، ورأينا أنه يضرب بنفسه لحد أو قصاص، فإن الأمرين لا يتنافيان.

[١١٠] وَأَقْسَمُوا أَيْ حَلَفَ الْكُفَّارُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَيْ أَيْمَانِهِمُ الْغَلِيظَةَ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ أَيْ مَعْجَزَةٌ خَارِقَةٌ حَسَبَ مَا طَلَبُوا مِنْ مَقْتَرِحَاتِهِمْ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا أَيْ بَتَلِكِ الْآيَةِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ:

إِنَّمَا الْآيَاتُ الْخَارِقَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَ مِنْ لَدُنْهِ، وَ لَيْسَ لَدَىٰ مِنْهَا شَيْءٌ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١١٠]

وَ نُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

فإن عرف الله الصلاح في الإتيان بها أظهرها، وإن عرف الصلاح في عدم الإتيان لم يأت بها وما يشعركم أيها المؤمنون أنها أي الآيات إذا جاءت لا يؤمنون كما جاءت الآيات من قبل فلم يؤمنوا.

والسر أن المعاند لا تفيده الآي، والطالب للحق تكفيه ما تقدم من الآيات، فانزال الآيات المقترحة لا فائدة فيها.

[١١١] وَ نُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ جَمْعُ «فَوَادٍ» وَ هُوَ الْقَلْبُ وَ أَبْصَارَهُمْ جَمْعُ «بَصَرٍ» وَ هُوَ الْعَيْنُ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَيْ بِالْقُرْآنِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُمْ جَوَزُوا

بإنكارهم أول الأمر الذى استلزم عنادهم وتماديمهم فى غيهم، بأن أزعجت نفوسهم، فجعلت قلوبهم تخفق، و أبصارهم تتحرك زائغة، كما هو شأن كل مبطل أمام الحق أنه لا يدرى ما يصنع، و عينه تتلفت هنا و هناك تبحث فى الأرض و السماء عن طريق المهرب و الخلاص من الأزمه التى وقع فيها و نذرهم أى ندعهم فى طغيانهم الذى طغوا و تعدوا فيه الحق يعمهون يترددون فى الحيرة.

و

قد روى أنهم لما طلبوا الآيات، أراد النبى أن يسأل ربه بتلك الآيات، فجاء جبرئيل و قال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، و لكن إن لم يصدقوا، عدّوا، و إن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: بل أتركهم حتى يتوب تائبهم (١). فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٩١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٥

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثامن من آية ١١٢ من سورة الأنعام إلى آية ٨٨ من سورة الأعراف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٦

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١١ إلى ١١٢]

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١١٢)

[١١٢] ثم بين سبحانه أن هؤلاء معاندين لا- يريدون بالآيات إلا- الاقتراح، و لو أنزلت إليهم لم يكونوا مؤمنين و لو أننا نزلنا إليهم الملائكة حتى يرونهم مشاهدة، و يشهدون لك بالرسالة و كلمهم الموتى أى أحيينا الأموات حتى تكلمهم و حشرنا أى جمعنا عليهم كل شئ قبلاً أى مقابلة و معانية، بأن جئنا لهم بما طلبوا من الآيات، أو المراد:

جمعنا حواليهم الأشياء الكونية، بأن يأتيهم الشجر و الحجر و الماء و الحيوان، و كان ذلك لبيان حشر صور مدهشة مرعبة ما كانوا ليؤمنوا لعنادهم و إصرارهم إلا أن يشاء الله أن يجبرهم على الإيمان، و لكن الله لا- يشاء ذلك لأنه خلاف الحكمة و لكن أكثرهم يجهلون أنهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا، بل يزعمون أنهم يؤمنون إن رأوا، لجهلهم بعنادهم الكامن فى نفوسهم، الذى لا ينفع معه كل آية.

[١١٣] وَكَذَلِكَ أى كما جعلنا لك يا رسول الله أعداء معاندين جعلنا لكل نبي عداً و معنى «الجعل» التخليه بينهم و بين اختيار العداوة، و ذلك اختبار لهم، و رفعا لدرجات الأنبياء. و قد سبقت الإشارة إلى أن الأمور الاختيارية للناس تنسب إلى الله سبحانه باعتبار جعله الأسباب و التخليه بين الناس و بينها، كما تنسب إلى فاعليها لأنهم السبب المرید لها شياطين الإنس و الجن نصب «شياطين» لأنه بدل «عدوا»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٨

[سورة الأنعام (٦): آية ١١٣]

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

و المراد به الجنس لا الواحد، و المراد بشياطين الإنس، إما الشياطين الموكلة بالإنسان التى تغويه و تأمره بالقبائح، و إما من قبيل «خاتم

فضة» أى المردة من أفراد الإنسان، فإن الشيطان بمعنى المارد من «شطن»، قال الشاعر:

أيا شاطن عصاه عكاه ثم يلقى فى السجن و الأغلال

وهكذا يقال بالنسبة إلى شياطين الجن يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أى يوسوس خفية زُخْرَفَ الْقَوْلِ أى: القول المزخرف، الذى يستحسن ظاهره و لا حقيقة له و لا أصل غُرُوراً أى لأجل الغرور و الإضلال و لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ أى لو أراد جبرهم على عدم هذه الأعمال العدوانية ضد الأنبياء، لتمكّن من ذلك، لكنه لم يشأ، لأنه خلاف الحكمة فذَرَهُمْ أى دعهم و ما يَفْتَرُونَ أى افتراءهم، فأعرض عنهم، و لا تتعرض لهم، بل خذ طريقك، و بلّغ رسالات ربك.

[١١٤] إن الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول لأجل الغرور و لَتَصْغِي لِأجل أن تميل إليه أى إلى هذا الوحى بزخرف القول أَفْتِدَّةً أى: قلوب الَّذِينَ لا- يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فإنهم يوسوسون ليغروا الناس و ليستميلوا أفئدة الكفار إلى مكائدهم و لِيَرِضُوهُ أى يرضى من لا يؤمن بالآخرة، بالوحى و الوسوسة، بمعنى إرضاء الكفار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١١٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١١٥]

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتِغَى حَكَمًا وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا- وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

بمنهجهم فلا يميلوا إلى الحق و لِيَفْتَرُوا أى يرتكبوا من الكفر و المعاصى ما هم مُقْتَرِفُونَ أى الشىء الذى يرتكبون. و جملة المعنى أن وسوسة الشياطين لأجل أن يغروا الناس، و يستميلوا قلوبهم، و يرضون عن طريقتهم، و يرتكبون الآثام.

[١١٥] إن هناك شخصين متعاضدين الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و الذى لا- يؤمن بالآخرة، فمن الحكم بينهما؟ و هنا يأتى الجواب أن الحكم هو الله وحده، قل يا رسول الله لهؤلاء: أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتِغَى حَكَمًا أى أطلب سوى الله حاكما و هُوَ أَعْلَمُ الْحُكَّامِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا فيه ما يحتاج إليه الإنسان، يفصل بين الحق و الباطل، و معنى التفصيل: تبين المعانى بما يوجب رفع الاشتباه. و من المعلوم أن القادر على تنزيل الكتاب، هو الذى يتخذ حكما و الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ أى أعطيناهم الْكِتَابَ من اليهود و النصرى يَعْلَمُونَ أَنَّهُ أى الكتاب و هو القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ و ليس كلام الآدميين، و تخصيص أهل الكتاب، لأن علمهم يقتضى أن يعرفوا ذلك، فإنه «إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذوه» فَلَا تَكُونَنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمُفْتَرِينَ أى الشاكين. و من المعلوم أن النبى لا يشك و إنما المراد به السامع، و إن كان الخطاب موجها إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

[١١٦] وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١١٦]

وَ إِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)

البشر، تم بإنزال هذا الكتاب، فليس وراءه كتاب آخر و كلمة أخرى صِدْقًا وَ عَدْلًا فما فيه من الأخبار صدق لا يشوبه كذب، و عدل لا يشوبه انحراف و زيغ، فكل خبر يخالف إخباره عن المبدأ و عن المعاد و عن الرسالة و عن العدل و عن الخلافة و عن غيرها، فهو كذب، و كل حكم يخالف حكمه فهو زيغ و باطل لا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ فإن كلمات الله سبحانه هى الميزان لكل شىء فلا أحد يبدل كلماته تعالى بالزيادة و النقصان، تبديلا صحيحا، و من بدّل فهو المنحرف الضال و هُوَ السَّمِيعُ لأقوال الناس الْعَلِيمُ بكل ما يفعلون فيجازيهم حسب أعمالهم و أقوالهم.

[١١٧] إن الميزان هو كلمات الله سبحانه، فليس هناك حق فيما عدا ذلك و لذا إِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لأن غالب الناس كَفَّارٌ أو ضالين، فاتباعهم موجب للكفر و الضلال، نعم هناك قلة لم يخل منهم زمان، هم الآخذون بأحكام الله

تعالى، فإطاعتهم هي إطاعة الله، ولا- يوجب اتباعهم ضلالاً و زيغاً إن يتبعون أي ما يتبع هؤلاء الكثرة من الناس إلا الظن فليس لهم حجة و برهان في كفرهم و ضلالهم، و إنما يرجحون ظناً ما يعتقدونه، أو يعملون به و إن هم أي ما هم إلا يخزضون «الخرص» هو التخمين، أي يقولون تخميناً لا اعتقاداً و جزماً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١١٧ إلى ١١٩]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنْ كَثُرَ لِيَضْطَلُّوا بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)

[١١٨] إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ أَي أَعْلَمُ مَنْ سائر الناس بمن يسلك سبيل الضلال، فقله: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» صادر عن علم و معرفته، فإذا قال قائل: إن الكفار يعتقدون اعتقاداً جازماً بما أشركوا، و يقولون ما يقولون عن قطع و جزم. فذلك غير عارف بأحوالهم، و ربك أعلم منه بهم وَ هُوَ سبحانه أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ الذين يسلكون سبيل الهدى و الرشاد.

[١١٩] إذا فالحكم كله لله صغيراً كان أو كبيراً، و قد كان الضالون يجادلون المسلمين في شؤون كثيرة، و منها أمر الذبائح، فقد كانوا يأكلون الميتة، و يتركون المذبح، و كانوا يحتجون على المسلمين قائلين:

أ تأكلون أنتم ما قتلتم و لا تأكلون ما قتل ربكم؟ يريدون الاعتراض على المسلمين في عدم أكلهم للميتة فكلوا أيها المسلمون مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ عند الذبح، و اجتمع فيه سائر الشرائط، و الأمر للإباحة لأنه في مقام توهم الحضر إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ بأن آمنت بالله و رسوله و صدقتهم بما جاء به الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

[١٢٠] وَ مَا لَكُمْ أَيُّهَا المسلمون أَلَّا تَأْكُلُوا أَي شَيْءٍ لَكُمْ فِي أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَي لَمْ لَا تَأْكُلُونَهُ، هل أن ذلك بزعم التحريم لأنكم تقتلونهم؟ وَ قَدْ فَصَّلَ اللَّهُ سبحانه لَكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٠ إلى ١٢١]

وَ ذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

على لسان رسوله ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ و ليست الذبيحة منها إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ فَإِنْ كُنْتُمْ إِذَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَى مَا حَرَّمَ لَكُمْ أَكَلَهُ بقدر الضرورة و إِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ لِيَضِلُّوا بِأَهْوَائِهِمْ فإلى حيث مال هواهم ساقوا الناس إليه، فذلك يسبب إضلال الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ يهديهم إلى الحق، و إن تحريم المشركين للمذكي من هذا القبيل، فإنه من الهوى، لا- من علم و صلاح إِنْ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ الذين يتجاوزون الحق، و يتعدونه إلى الباطل.

[١٢١] و في عداد ذكر الحرام و الحلال، ينهى سبحانه عن كل محرم و ذرُّوا أيها المسلمون ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ أَي ما ظهر من المعاصي و ما بطن مما يؤتى به سرا.

قيل: إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: إذا زنا الإنسان علنا كان آثماً، و إن زنا سرا لم يكن به بأس، و بهذه المناسبة نزل هذا التعميم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ أَي يعملون بالمعاصي سَيُجْزَوْنَ أَي يعاقبون بما كانوا يَقْتَرِفُونَ أَي يرتكبون، يقال: «اقترف الإثم» أي ارتكبه.

[١٢٢] وَ لَا تَأْكُلُوا أَيُّهَا المسلمون مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٢]

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ الَّتِي تَذْبَحُ بَدُونَ التَّسْمِيَةِ وَإِنَّهُ لَفَسْقٌ وَخُرُوجٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ أَى يَلْقُونَ خَفِيَةً إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ أَى: فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ لِيُجَادِلُوكُمْ قَائِلِينَ: كَيْفَ تَأْكُلُونَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مِمَّا تَقْتُلُونَهُ أَنْتُمْ وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَهُ اللَّهُ، وَقَتِيلَ اللَّهِ أَوْلَى بِالْأَكْلِ مِنْ قَتِيلِكُمْ؟ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ لِأَنَّ اسْتِحْلَالَ الْمَيْتَةِ يُوجِبُ الْكُفْرَ، أَوْ الْمَرَادُ: أَنْكُمْ مِثْلُهُمْ، لَا مِثْلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا تَعْبِيرٌ خَطَابِيٌّ، وَ لَعَلَّ هَذَا أَقْرَبُ لِأَنَّ اسْتِحْلَالَ الْكُفْرِ لَا الشَّرْكَ.

[١٢٣] ثم ذكر سبحانه مثل الفريقين، المؤمنين والكفار أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِالْكَفْرِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْكُفْرَ شَبَهَ الْمَوْتَ حَيْثُ أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَأْتِي مِنْهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالْإِيمَانَ شَبَهَ بِالْحَيَاةِ لِذَلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا مِنْهَا جَا يَنْبُرُ بِهِ دُرُوبَ الْحَيَاةِ يَمْشِي بِهِ أَى بِذَلِكَ النُّورِ فِي النَّاسِ فَيَعْرِفُ كَيْفَ يَمْشِي وَكَيْفَ يَعَاشِرُ، لَا كَالْأَعْمَى الَّذِي يَصْطَدِّمُ بِهِذَا وَذَاكَ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ أَى كَالْكَافِرِ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الشَّخْصِ الَّذِي لَا نُورَ لَهُ بَلْ يَمْشِي فِي الظُّلُمَاتِ، فَمَنْ فِي الظُّلْمَةِ شَبَهَ بِالْكَافِرِ، لِأَنَّ ظِلْمَةَ الْكُفْرِ أَشَدُّ مِنْ ظِلْمَةِ عَدَمِ النُّورِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ لَا يَعْرِفُ سَبِيلَ الْحَيَاةِ السَّلِيمَةِ وَلِذَا فَهُوَ دَائِمُ الْمَشَاكِلِ وَالْمُضَادَّاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا إِذْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٣]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

الخروج من الظلمة لا يكون إلَّا بانتهاج منهاج الإيمان، وإلا فمن ظلمة إلى ظلمة، وهذا سرٌّ ما يشاهد من ازدياد مشاكل العالم يوماً بعد يوم، وكلما عدلوا القوانين، وبدلوا المناهج لم يزد هم إلا مشكلته وإعضالاً.

والاستفهام إنكارى، يراد أنهما ليسا بمتساويين، بل الحى ذو النور أفضل من الميت فى الظلمة كذلك أى كما زين للمؤمن الإيمان كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون والذى زين لهم هو الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، أو هو الله سبحانه بالمعنى المتقدم فى قوله: كَذَلِكَ زُيِّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ «١»، أَى خَلِّينَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَزِينُ لَهُمْ عَمَلَهُمْ.

[١٢٤] وَكَذَلِكَ أَى كَمَا تَرَكْنَا الْكُفْرَ فِي ظِلْمَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، أَوْ كَمَا زَيْنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا فَتَرَكْنَا الْمَجْرِمِينَ عَلَى حَالِهِمْ لِيَمْكُرُوا فِيهَا أَى فِي الْقَرْيَةِ، وَ «اللام» للعاقبة، أَى أَنَّ عَاقِبَةُ تَرَكْنَا إِيَّاهُمْ مَكْرَهُمْ فِي الْقَرْيَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا «٢»، أَوْ الْمَرَادُ: كَمَا جَعَلْنَا ذَا النُّورِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ جَعَلْنَا ذَا الظُّلْمَةِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّ عَاقِبَةَ مَكْرِهِمْ وَوَبَالَ طَغْيَانِهِمْ لَا يَرْجِعُ إِلَّا إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ أَى لَا يَدْرُونَ أَنَّ مَكْرَهُمْ يَعُودُ بِالْوَبَالِ

(١) الأنعام: ١٠٩.

(٢) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٥

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٤]

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)

السَّيِّئِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ.

[١٢٥] وَإِذَا جَاءَتْهُمْ أَى جَاءَتْ هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ آيَةٌ دَلَالَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِمَا جَاءَتْ مِنْ

أجله حتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَى تَأْتَى عَلَى أَيْدِينَا الْمَعْجِزَةُ، وَ يُوحَى إِلَيْنَا حَتَّى نَكُونَ كَالرُّسُلِ. قَالُوا: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ حَيْثُ قَالَ لِلرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: وَ اللَّهُ لَوْ كَانَتْ النَّبُوءَةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَوْلَى بِهَا مِنْكَ، لِأَنِّي أَكْبَرُ مِنْكَ سَنًا وَ أَكْثَرَ مِنْكَ مَالًا. وَ قِيلَ:

نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ حَيْثُ قَالَ: زَا حَمْنَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ فِي الشَّرَفِ حَتَّى إِذَا صَرْنَا كَفَرْنَا رَهَانَ قَالُوا: مَنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ، وَ اللَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ لَا نَتَّبِعُهُ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَأْتِينَا وَحَى كَمَا يَأْتِيهِ.

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ بِمَوْضِعِ الرِّسَالَةِ، وَ لَيْسَتْ هِيَ بِالْمَالِ وَ الْكِبَرِ وَ السِّنِّ، بَلْ بِالْفَضَائِلِ النَّفْسِيَّةِ وَ الْقَابِلِيَّةِ الْمُحَلِّيَةِ سَيِّئَاتِ الَّذِينَ أَجْرَمُوا أَى عَمَلُوا الْجَرَائِمَ وَ الْمَوْبِقَاتِ صِيغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ أَى يَكُونُوا أَذْلَاءً فِي الْآخِرَةِ، أَوِ الْمَرَادُ: الْأَعْمُ مِنَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، وَ مَعْنَى «عِنْدَ اللَّهِ» أَنَّ ذَلِكَ الصِّغَارُ مِنْ عِنْدِهِ سَبَّحَانَهُ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ أَى بِسَبَبِ مَكْرِهِمْ، فَإِنَّ الصِّغَارَ وَ الْعَذَابَ جَزَاءً لِأَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٥]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)

[١٢٦] إِنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِذَا جَاءَ بِالْإِسْلَامِ، فَمَنْ حَكَمَ عَقْلَهُ وَ آمَنَ لَهُ مِنْ اللَّهِ اللَّطْفَ الْخَفِيَّ وَ شَرَحَ الصِّدْرَ، وَ مِنْ أَعْرَضَ وَ بَقِيَ عَلَى كُفْرِهِ أَعْرَضَ سَبَّحَانَهُ عَنْهُ وَ خَلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ مَا يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ بِهِ مِنْ تَضْيِيقِ الصِّدْرِ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الْإِيمَانِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ «الشرح» هُوَ: التَّوَسُّعُ، وَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ، فَكَمَا أَنَّ الشَّيْءَ الْوَاسِعَ لَهُ مَجَالٌ أَنْ يَنْفِذَ فِيهِ شَيْءٌ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ الْمُنْشَرَحُ لَهُ مَحَلٌّ أَنْ يَنْفِذَ فِيهِ الْإِسْلَامُ وَ مَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يُضِلَّهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ الْإِيمَانَ وَ عَانَدَ، فَاقْتَضَتْ الْمَشِيئَةَ أَنْ يَخْلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الضَّلَالِ حَتَّى تَكُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خَسْرًا، وَ يَذُوقُ وَ بِالْإِعْرَاضِ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا لَا يَنْفِذُ فِيهِ الْإِسْلَامُ حَرَجًا هُوَ أَضْيَقُ الضِّيْقِ - كَمَا قَالُوا - كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا جَرَّ إِلَى السَّمَاءِ جَرًّا، أَحْسَسَ بِضَيْقِ شَدِيدٍ فِي صَدْرِهِ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْهَوَاءَ كُلَّمَا لَطَفَ، كَانَ التَّنَفُّسُ فِيهِ أَصْعَبَ، وَ مَعْنَى «فِي السَّمَاءِ» الْوَلُوجُ فِي طَبَقَاتِ السَّمَاءِ، لِيعطى معنى الشدة أكثر من «إلى» و كذاك التثديد في «يصعد». كَذَلِكَ أَى كَمَا ذَكَرَ مِنْ تَضْيِيقِ الصِّدْرِ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ وَ هُوَ الْعَذَابُ، وَ الصَّعُوبَةُ، أَوِ الْمَرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الظَّاهِرَى لَهُ، فَإِنَّ لِلْكَفْرِ رَجْسًا عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَالْعُقُوبَةُ لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَجْعَلَ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا، فَلَيْسَ ذَلِكَ ابْتِدَاءً مِنْهُ سَبَّحَانَهُ، كَمَا قَدْ يَزْعُمُ النَّازِرُ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، وَ هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٢٦ إلى ١٢٨]

وَ هَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

كقولك: «إِنْ مِنْ يَرِيدُ خَيْرِهِ مِنْ أُنْبَائِي أَعْطَاهُ الْمَالَ، وَ إِنْ مِنْ يَرِيدُ شَرِّهِ أَقَطَعُ عَنْهُ الْمَالَ، وَ هَكَذَا أَعْمَلُ بِمَنْ لَا يَنْصَاعُ إِلَيَّ أَوْامِرِي».

[١٢٧] وَ هَذَا أَى الْإِسْلَامُ صِرَاطُ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ وَ لَا انْحِرَافَ، فَمَنْ لَمْ يَقْبَلْهُ لَمْ يَفْرَ مِنْ الْانْحِرَافِ، وَ إِنَّمَا زَاغَ وَ انْحَرَفَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ أَى بَيَّنَّاها وَ شَرَحْنَاها لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أَصْلَهُ «يَتَذَكَّرُونَ» ثُمَّ أَدْغَمْتَ التَّاءَ فِي الذَّالِ، وَ الْمَرَادُ: أَنَّهُ لِمَنْ يَتَذَكَّرُ مَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْفِطْرَةِ الْأَمْرَةَ بِاتِّبَاعِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ.

[١٢٨] لَهُمْ أَى لِلَّذِينَ تَذَكَّرُوا وَ عَرَفُوا الْحَقَّ دَارُ السَّلَامِ وَ هِيَ: الْجَنَّةُ، فَإِنَّهَا دَارُ السَّلَامَةِ الَّتِي لَا حَرْبَ فِيهَا، وَ لَا بَغْضَاءَ، وَ لَا مَرَضَ، وَ لَا

هم، ولا ما ينغص العيش عند ربهم أى أن تلك الدار عند كرامة الله و لطفه، و فى ضمانه و عهده و هو أى الله سبحانه وئيهم الذى يتولى أمورهم بما كانوا يعملون أى بسبب أعمالهم الصالحة و اتباع أوامره.

[١٢٩] و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً أى يجمعهم، و الضمير عائد إلى الجن و الإنس، الذين تقدم الكلام عنهم، بأنهم يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، و أنه جعل لكل نبي عدوا منهم، و إذ يجمعون يقال لهم: يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس أى اتخذتم أتباعا كثيرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٨

[سورة الأنعام (٦): آية ١٢٩]

وَ كَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بما كانوا يكسبون (١٢٩)

منهم و احتشدتم حشدا عظيما من التابعين الذين اتبعوكم فى وساوسكم و غروركم. و لفظه «يوم» منصوبه، ب «يقال» المقدر، و قال أولياؤهم أى أتباع الجن من الإنس الذين اتبعوهم و أخذوا بوساوسهم و إيهاتهم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فلقد كان الإغواء نأخذة متاعا و استمتاعا، فإن الإنسان الذى لم يملأ فراغ قلبه الحق يطلب متعه يستمتع بها، و ما أجدر بالإغواء و الإيهاء أن يملأ ذلك الفراغ، و هذا كالاعتذار من الأتباع الإنسيين، كما يقول أحد الناس إذا سئل عن عمله الباطل؟ أنه اتخذه وسيلة للتسليه و سد الفراغ و بلغنا أجلنا أى الموت الذى أجلت لنا أى وقته و جعلته مدة، فقد أدركنا الموت و نحن فى الاستمتاع قال الله تعالى: النار مثواكم أى مقامكم، و «الثواء»: الإقامة، و الضمير عائد إلى الجن و الإنس خالدين فيها أى فى النار أبد الأبدين إلا ما شاء الله أن تنقطع النار و ذلك بالنسبة إلى عصاة المؤمنين إن ربك يا رسول الله حكيم و بمقتضى حكمته جعل النار مثوى لهم عليهم يعلم الصالح من الفاسد.

[١٣٠]- و كذلك أى كما تقدم من الخلء بين الجن و الإنس، ليغوى بعضهم بعضا، تؤلى بعض الظالمين بعضا فنجعل الظالم وليا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٢٩

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٠ الى ١٣١]

يا معشر الجن و الإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا و عثرتهم الحياة الدنيا و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (١٣٠) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم و أهلها غافلون (١٣١) للظالم فى الدنيا و فى الآخرة بما كانوا يكسبون أى بسبب كسبهم الأعمال السيئة و إعراضهم عن الحق.

[١٣١] ثم يخاطب الجن الذين أوحوا إلى الإنس و أضلوهم بهذا الخطاب:

يا معشر الجن و الإنس و «المعشر» هو الجماعة ألم يأتكم رسل منكم على وجه الاستفهام الإنكارى، و «منكم» باعتبار أن الإنس و الجن من مادة سفلية، فبعضهم من بعض، أو باعتبار أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أرسل رسلا من الجن إليهم يقصون عليكم أى يتلون عليكم آياتى أى حججى و دلائلى و ينذرونكم أى يخوفونكم لقاء يومكم هذا أى يوم القيامة قالوا أى قالت الجن فى جواب هذا الاستفهام: شهدنا على أنفسنا بما تستحق من العقاب حيث خالفنا و عصينا، فإننا معترفون بالجرائم، ثم يقول سبحانه: و عثرتهم الحياة الدنيا أى تزينت لهم و أغوتهم و شهدوا على أنفسهم فى الآخرة أنهم كانوا كافرين فى الدنيا فاستحقوا العقاب.

[١٣٢] إن هؤلاء الجماعة الذين حكم عليهم بالنار لم يكن اعتبارا، و إنما كان بعد الإنذار و التبليغ و ذلك الإرسال و الإنذار لأجل أن لم يكن أى لأنه ليس ربك يا رسول الله مهلك القرى أى يهلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٠

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٢ الى ١٣٤]

و لكلل درجات مما عملوا و ما ربك بغافل عما يعملون (١٣٢) و ربك العزى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم و يشأ يخلف من بعدكم ما يشأ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣) إن ما توعدون لآت و ما أنتم بمعجزين (١٣٤)

و يعذب أهل المدن بظلم و أهلها غافلون عن الدين و الطريق، بل إنما يهلكهم إذا أتم الحجة عليهم، ثم خالفوا و عصوا. [١٣٣] ثم إنه ليس التعذيب اعتباراً بأن يحشرون جميعاً في درجة واحدة- كما قد ينساق من الآيات السابقة- بل و لكل من المجرمين، أو الأعم منهم و من المطيعين درجات أي مراتب خاصة بهم مما عملوا «من» للإشياء، أي: تنشأ تلك الدرجات من أعمالهم في الدنيا و ما ربك يا رسول الله بغافل عما يعملون فلا يدرى من عمل و ما عمل، بل كل شيء عنده محفوظ بقدره و خصوصياته.

[١٣٤] إن هذه الأوامر و تلك العقوبات، ليست لاحتياج الله سبحانه إلى هذه أو تلك و ربك يا رسول الله الغني الذي لا يحتاج إلى شيء إطلاقاً ذو الرحمة و من رحمته جعل الأوامر ليرحم العباد بها إن شأ يذنبكم أي يهلككم أيها البشر و يستخلف أي يجعل خليفته لكم و في محلكم من بعديكم أي بعد الإذهاب بكم ما يشاء من أنواع المخلوقات كما أنشأكم و أوجدكم من ذرية قوم آخرين حيث أذهبهم و أتى بكم، فإن ذلك عليه يسير.

[١٣٥] إن ما توعدون أيها البشر من القيامة و الحساب و الثواب و العقاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٥ الى ١٣٦]

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

لأت أي يأتي لا محالة و ما أنتم بمعجزين أي لستم تقدر أن تسبوا عجزه سبحانه حتى لا يتمكن من إعادتكم و الإتيان بكم لساحة الحساب.

[١٣٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءَ: يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ أي منزلتكم و مقدار تمكّنكم من الدنيا، و هذا الأمر للتهديد، أي: اعملوا الكفر و المعاصي بما تتمكنون إنني عامل بما أمرني الله سبحانه- فلكم دينكم ولى دين- فسوف في الآخرة تعلمون جزاء أعمالكم من تكون له عاقبة الدار أي العاقبة المحمودة في دار السلام، هل أنتم أم أنا؟ لكن اعملوا أن عاقبة الدار لي ف إنّه لا يفلح و لا يفوز بالسعادة الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصي.

[١٣٧] ثم يعود السياق إلى معالجة العقيدة في بعض نواحيها فيحكي سبحانه ما كان يفعل أهل الجاهلية من تقسيم ما ينفقوه من الزرع و الأنعام بين الله و بين الأصنام و جعلوا أي جعل الكفار لله مِمَّا ذَرَأَ أي خلق من الحرث أي الزرع و الأنعام أي المواشى من الإبل و البقر و الغنم نصيباً أي حظاً و قسماً، و جعلوا للأصنام نصيباً فقالوا هذا القسم لله تعالى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٢

بزعمهم و إنما نسبهم إلى الزعم لأنه لم يكن لله، فإن الله لا يقبل الشيء الذي أشرك معه فيه و هذا القسم لشركائنا أي الأوثان، الشركاء الذين نحن أشركناهم مع الله- و في الإضافة تكفي أدنى ملبسة، ككوكب الخرقاء- فما كان لشركائهم من الأنعام و الحرث فلا يصل إلى الله أي أن الله لا يقبله، و كنى بالإيصال لتشبيه المعقول بالمحسوس تقريبا للمعنى إلى الأذهان و ما كان لله بزعمهم فهو يصل إلى شركائهم و هذا مجاز، أي أن الأصنام تنتفع بهذا النصيب من خلال ما يترسخ لها في قلوب المشركين من المكانة و الاحترام، أو المراد أنهم كانوا إذا خصصوا نصيباً للشركاء لا يأخذون منه شيء، أما الحصص المخصصة لله سبحانه فقد يأخذون منها ليوفروا المأخوذ مع حصص الأصنام.

روى عن أهل البيت عليهم السلام أن المشركين كانوا يعينون قسماً من الحرث و الأنعام لله و ينفقونه على الضيوف و المساكين و قسماً منهما لآلهتهم و ينفقونه على سدنتها و يذبحون عندها ثم إن رأوا أن ما عينو الله أركى بدلوهم بما لآلهتهم، و إن رأوا أن ما لآلهتهم أركى تركوه لها حبا لآلهتهم و عللوا ذلك بأن الله غني.

و روى أيضا: أنه كان إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله ردّوه، و إذا اختلط ما جعل لله بما جعلوه للأصنام تركوه، و قالوا: الله غنى، و إذا انخرق الماء الذى لله فى الذى للأصنام لم يسدوه، و إذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٣٧]

وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُزِدُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)

انخرق من الذى للأصنام فى الذى لله سدوه و قالوا: الله غنى ..

فرد عليهم سبحانه بقوله: ساء ما يحكمون أى أن حكمهم بالتشريك أو عند الاختلاط، و التزكية، سيىء، فإن الله و إن كان غنيا، لكن هذا العمل مخالف لجلال شأنه و عظيم كبريائه.

[١٣٨] وَ كَذَلِكَ أى كما جعل المشركون فى الحرث و الأنعام ما لا يجوز، كذلك فعلوا بالنسبة إلى أولادهم ما لا يجوز زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فاعل «زين» «شركاؤهم» أى أن الشياطين الذين اتخذهم المشركون شركاء لله زينوا لهم قتل أولادهم مفعول «زين» شُرَكَائِهِمْ فقد كان كثير من المشركين يعبدون الجن، و هى توحى لهم بالأعمال السيئة. فقد كانوا يقتلون البنات خوفا من العار، كما قال سبحانه: وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ ..

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ «١»، و قال: وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ «٢»، و كانوا يقتلون البنين خوف الفقر، كما قال سبحانه: وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ «٣»، لِيُزِدُوهُمْ مِنْ «أراده» بمعنى:

«أهلكه» أى أنه كانت غاية الشياطين - الشركاء - الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم، إرادة إهلاك الأولاد بالقتل، و إهلاك الآباء بالذنب وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ أى يخلطوا عليهم الحق بالباطل حتى

(١) النحل: ٥٩ و ٦٠.

(٢) التكوير: ٩ و ١٠.

(٣) الأنعام: ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١٣٨]

وَ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

لا يعرفوا أحدهما من الآخر، و فى الغالب يأتى أهل الباطل بضغت من الحق و وضغت من الباطل، حتى لا يصغر الحق، فيتبعه الناس و لو شاء الله ما فعلوه أى ما قتلوا أولادهم، و مشيئة الله إنما هى بجبرهم على الهدى، لكنه لا يشاء لأن الدنيا خلقت للاختبار فَذَرَهُمْ أى دعهم و اتركهم يا رسول الله و ما يفترون أى افتراؤهم على الله سبحانه، فقد كان المشركون ينسبون أباطيلهم إليه سبحانه، و «ذرهم» تهديدا لهم، لا أن معناه عدم وجوب ردعهم و نهيهم.

[١٣٩] وَ قَالُوا أى قال المشركون فى قسم آخر من خزعاتهم: هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ أى مواش و زرع حِجْرٌ أى حرام لا يَطْعَمُهَا أى لا يأكلها إِلَّا مَنْ نَشَاءُ و هى التى خصصها لأصنامهم فقد كانت خاصة للسدنة لا يشركهم فيها أحد بِزَعْمِهِمْ أى قد كان هذا التحريم زعما منهم، إذ لم ينزل الله به من سلطان و عمدوا إلى قسم ثان من الأنعام فحجروها و قالوا: هَذِهِ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا أى لا تركب، لأنها نذرت للآلهة، أو لأنها ولدت كذا ولدا، أو لأنها حمت ظهرها، من السائبة و أخواتها، كما تقدم فى سورة المائدة و عمدوا إلى

قسم ثالث من الأنعام فهي أنعام لا يذكرون اسم الله عَلَيْهَا عند الركوب، أو عند الذبح، أو لا يحجون عليها، وقد كانوا ينسبون كل ذلك إلى الله سبحانه فإتراء عَلَيْهِ فقد كانوا كاذبين في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٥

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٣٩ الى ١٤٠]

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَىٰ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

هذه النسب سيجزيهم الله سبحانه بما كانوا يفترون أي بسبب افتراءهم على الله سبحانه كذبا وزورا.

[١٤٠] وَقَالُوا أَى قَالَ الْمُشْرِكُونَ فِي قِسْمٍ آخَرَ مِنْ أَبَاطِلِهِمْ: مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ مِنَ الْأَجْنَةِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا أَى نِسَاتِنَا، إِنْ كَانَتْ حَيَّةً وَإِنْ يَكُنْ مَا فِي بُطُونِ الْأَنْعَامِ مَيْتَةً بِأَنْ خَرَجَ الْجِنِينَ مَيْتًا فَهُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً فِيهِ شُرَكَاءُ يَجُوزُ لِلنِّسَاءِ أَكْلُهُ كَمَا يَجُوزُ لِلرِّجَالِ سَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى وَصِفَهُمْ أَى هَذَا الْوَصْفَ الَّذِي كَانُوا يَصِفُونَ بِهِ الْجِنِينَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَ«وصف» منصوب بنزع الخافض، أَى «بوصفهم» إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ حَكِيمٌ يَحْكُمُ عَنْ حِكْمَةٍ وَمَصْلُحَةٍ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصْدُرُ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجَازِيهِمْ حَسَبَ الْمَصْلُحَةِ وَ الْحِكْمَةِ.

[١٤١] ثم يجمع ذلك كله بقوله سبحانه: قَدْ خَسِرَ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ خَوْفَ الْعَارِ أَوِ الْفَقْرِ أَوِ اللَّذْرِ - فقد كانوا يندرون قتل

الأولاد - سفهاً أَى جهلاً و سفاهة، فإنهم اشتروا بذلك النار بغير علم بما يعملون، فإنهم كانوا يزعمون صحة عملهم هذا و حرّموا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤١]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)

ما رزقهم الله أَى خسروا بتحريمهم قسماً من الأنعام و الحرث الذى زعموا أنه حجر لأصنامهم افتراءً على الله حيث كانوا ينسبون ذلك إليه سبحانه قد ضلوا الطريق المستقيم و ما كانوا مهتدين فى تلك الأعمال.

[١٤٢] وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي أَنْشَأَ أَى خلق و أبداع جنات أَى بساتين معروشات أَى مجعولات لها عروش من الكروم و غير معروشات من الأشجار التى لا- تحتاج إلى العروش بل هى قائمة على ساقها و أنشأ النخل للتمر و الزرع من مختلف المزروعات فى حال كون جميع ذلك مختلفاً أكلة أَى ثمره الذى يؤكل، و الاختلاف فى اللون و الطعم و الشكل و الخواص و أنشأ الزيتون و الرمان و ذكرهما لكثرتهم فى هذه البلاد فى حال كون ذلك كله، أو الأخيرين متشابهاً يشبه بعضه بعضاً و غير متشابه من حيث اللون و الورق و الشجر و غيرها كلوا أياها البشر من ثمره أَى ثمر هذا المنشأ إذا أثمر فإن ذلك مباح لكم و آتوا حقه أَى الحق المجعول عليه، و هو إعطاء الفقراء منه شيئاً، حفنة حفنة، أو كفا كفا يوم حصاده أَى جنيته و قطعه و لا تسرفوا فى باب ما رزقناكم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذَكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشتملت عليه أزحام الأنثيين نبؤنى بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣)

بأن تعطوا الجميع، أو تصرفوه فيما لا يعنى، أو ما أشبهه إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ أَى يكرههم.

[١٤٣] وَأَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ الْإِبِلَ وَالبقر و الغنم حمولةً هى الإبل التى يحمل عليها، أو كل ما يحمل من الخيل و البغال و الحمير و الإبل و فرساً أَى ما يفترش من جلودها كالغنم، أو المراد بالفرش صغارها قبل أن تكون صالحة للحمل، كلوا أياها البشر مما رزقكم الله و لا

تحرّموا شيئاً منها كما كان أهل الجاهلية يحرمون بعض الطيبات ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ كَأَنِ الْعَاصِي يَضَعُ قَدَمَهُ حَيْثُ وَضَعَ الشَّيْطَانُ قَدَمَهُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ أى واضح العداوة، لأنه يسبب ذهاب دنياكم و آخرتكم.

[١٤٤] ثم بين سبحانه أن ليس فى شىء من الأنعام محرماً، وإنما ذلك اختلاق من الجهال، إنه سبحانه أنشأ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْأَنْعَامِ الثَّلَاثَةِ، و «الزوج» يقع على الواحد الذى يقع معه الآخر، و على الاثنتين، فالرجل زوج و المرأة زوج، كما أن كليهما زوج مِنَ الضَّأْنِ و هى الشاة اثْنَيْنِ ذكر و أنثى و «اثنتين» بدل من «ثمانية» و مِنَ الْمَعَزِ و هى السخلة اثْنَيْنِ ذكر و أنثى قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْرَمُونَ بعض هذه الأقسام: الذَّكَرَيْنِ دخلت همزة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٨

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤٤]

وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)

الاستفهام على همزة الوصل و فصل بينهما بالألف، و لم تسقط همزة الوصل لئلا يلبس الاستفهام بالخبر و إن جاز الحذف لقريته «أم» أى:

هل أحد الذكرين من الضأن و المعز حَرَّمَ الله أم إحدى الأنثيين منها أم حَرَّمَ سبحانه ما اشتملت عليه أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أى الجنين الذى اشتمل عليه رحم الضأن و المعز، فإنهم كانوا يقولون: إن ما فى بطون هذه الأنعام محرّم على الإناث و خالص للذكور نَبُؤُونِي أى: أخبرونى أيها الكفار المحرمون لبعض هذه الأقسام بعلم أى: عن دليل عملى، لا- الأوهام و الظنون إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى تحريم الله سبحانه لهذه الأقسام.

[١٤٥] وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ» وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، وَهَذَا تَمَامُ الثَّمَانِيَةِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الذَّكَرَيْنِ أَى: هل أن واحدا من الذكرين حَرَّمَ الله سبحانه أم إحدى الأنثيين من الإبل و البقرة؟ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ مِنَ الْجَنِينِ - كما تقدم - أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ أَى:

حضوراً - مقابل «نبؤونى بعلم» - أى: هل علمتم أو حضرتم التحريم؟

إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا التَّحْرِيمِ، وَ إِذْ لَا دَلِيلَ لَكُمْ لَا سَمَاعًا وَلَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٣٩

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤٥]

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلًا لِيُغَيِّرَ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

حضوراً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ مِنْ يَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ سبحانه حكماً بالكذب هو أظلم الناس لنفسه. وقد تقدم أن التفضيل هنا نسبي لا واقعي لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فيوقع الناس فى الضلالة، و لا علم له بصحة عمله، بل يعلم بطلانه أو يظن ما يقوله ظناً إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ بل يتركهم و شأنهم حتى يتمادوا فى غيهم و ضلالهم.

[١٤٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَى ما أوحى به الله سبحانه فى باب تحريم هذه الأشياء التى تتناولونها أنتم و التى تحرّمونها مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ أَى على آكل يأكله، فكل ما تذكرون تحريمه باطل، بل هو حلال طيب إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً غير مذكى شرعاً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أى مصبوباً، و إنما خص المسفوح بالذكر، لأن ما اختلط باللحم مما يعسر تخليصه منه محلل مباح أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ و من المعلوم أن ذكر اللحم من باب المثال، و إلا فشحمه و سائر أجزائه أيضاً حرام فَإِنَّهُ أَى كل واحد من هذه المحرمات، أو خصوص لحم الخنزير رِجْسٌ أى قدر منفور منه أَوْ فِسْقًا عطف على «ميتة» أى لحمًا يكون أكله فسقاً، لأنه خلاف

إباحة الله، وذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١٤٦]

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)

فيما أهل لغير الله به أي: ذكر عليه اسم الأصنام حين القتل، و لم يذكر عليه اسم الله فمن اضطر إلى تناول أحد هذه المحرمات غير باغ في أكله ولا عاد من التعدي، بأن لم يكن طالبا لأكل الحرام، و متعديا حد سد الرمق- و قد تقدم المعنى في سورة المائدة- فَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ غَفُورٌ يَغْفِرُ لِمَن تَنَاطَلَ مَضْطَرًا رَحِيمٌ بالعباد حيث رخص لهم ذلك، و قد تقدم عدم المنافاة بين عدم المعصية و الغفران.

[١٤٧] كان هذا الحكم بالنسبة إلى غير اليهود و أما على الذين هادوا فقد حرمنا كل ذي ظفر من دابة ليست مشقوفة الرجل كالإبل و النعام، أو الطير كالإوز و البط و من البقر و الغنم حرمنا عليهم شحومهما كل شحم في بدنهما إلا ما حملت ظهورهما أي الشحم الذي كان على ظهرهما أو ما حملته الحوايا من الشحم، و هي: جمع «حويته»، و المراد به الأمعاء، و هو الشحم الملتف بالأمعاء أو ما اختلط بعظم كشحم الجنب و الإلية و نحوهما ذلك التحريم عليهم لم يكن لأجل ضرر في المحرمات عليهم بل جزيناهاهم بسبب بغيتهم أي ظلمهم حيث كانوا يكفرون بآيات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤١

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٧ إلى ١٤٨]

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْهَا وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)

الله و يقتلون الأنبياء بغير حق و إِنَّا لَصَادِقُونَ في إخبارنا عن بني إسرائيل و ما فعلوا و ما فعلنا بهم، و ذلك بخلاف كثير من الأعداء حيث يلقون أخبارا مكذوبة على أعدائهم لحطهم في أعين الناس.

[١٤٨] فَإِن كَذَّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرْتَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ التَّحْرِيمِ وَ التَّحْلِيلِ، حيث قالوا: إن حرام الله و حلاله كما نقول، أو فيما ذكرت عن اليهود من تحريم الله عليهم المذكورات بسبب بغيتهم فقل لهم:

رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْهَا يرحم جميع ذوى الروح، و لذا لا يعاجلكم بالعقوبة لكي تتوبوا و لكن مع ذلك لا يُرَدُّ بَأْسُهُ أَي: لا يدفع عذابه إذا جاء وقته عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ الذين ارتكبوا الجرائم.

[١٤٩] سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ اتَّخَذُوا شَرِيكًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، للدفاع عن أنفسهم، و تبرير شركهم لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَن لَا نَشْرَكَ مَا أَشْرَكْنَا نَحْنُ وَلَا- أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلٍ وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ فَإِذَا أَشْرَكْنَا وَ حَرَمْنَا وَ سَكَتَ اللَّهُ عَنَّا فَهُوَ يَرْضَى بِذَلِكَ وَ يَرِيدُ شَرَكَنَا وَ تَحْرِيمَنَا كَذَلِكَ أَي كتنكذيب هؤلاء لك يا رسول الله في قولك:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى بِالشَّرْكِ وَ لَمْ يَحْرَمْ مَا حَرَّمْتُمُوهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا أَي: حتى نالوا عذابنا و نكالنا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٤٩ إلى ١٥٠]

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ، رداً على حجيتهم هل عندكم أيها المشركون من علم بأن الله يريد شرككم و تحريمكم للمحلات فتخرجوه لنا و

إذ ليس لكم دليل فكلامكم خال عن الحجة إن تَتَّبِعُونَ أى ما تتبعون فى أقوالكم و أعمالكم إِلَّا الظَّنَّ فَإِنكم تظنون ما تقولونه لما اعتدتم عليه و إن أنتم أى: ما أنتم إِلَّا تَخْرُصُونَ الخرص، هو: التخمين.

[١٥٠] قُلْ يا رسول الله لهم: إنكم إذا عجزتم عن إقامة الدليل على عقيدتكم و مدعائكم فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ التى بلغتكم، بأنه لا يريد الشرك، و لم يحرم المذكورات فلو شاء لهداكم أجمعين بالجبر و الإكراه، لكنه لا يشاء ذلك حتى يجرى الاختيار و الاختبار.

[١٥١] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الذين حرموا الأمور المذكورة: هلّم أى: أحضروا شهداء كم الذين يشهدون أن الله حرم هذا الذى ذكرتم حرمة من أقسام الحيوان و الزرع، إنه طالبهم بالعلم فلم يكن عندهم، ثم طالبهم بالشاهد، لكنه لا شاهد عندهم، و لكنهم قد يأتون بشهود زور فإن شهدوا فلا تشهد يا رسول الله معهم فإن شهادتهم باطلة.

و إن قيل: كيف دعاهم إلى الشهادة، ثم لم يقبل شهادتهم؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٣

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥١]

قُلْ تَعَالَوْا أَنل ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

قلنا: إنه دعاهم إلى أن يأتوا بالشهود العدول لا من أنفسهم، و إلا فالمدعى لا يكون شاهداً، فإن شهدوا بأنفسهم لم تقبل شهادتهم. و لا تتبع يا رسول الله أهواء الذين كذبوا بآياتنا أى هوى أنفسهم، فإن من لا يعمل بالحق لا بد و أن يكون متبعاً لهواه، و حيث يرشده الهوى إليه و لا- تتبع أهواء الذين لا- يؤمنون بالأخرة كالكفار الذين كانوا ينكرون البعث. و من المعلوم أن الكفار كانوا على قسمين: منهم من يؤمن بالأخرة كأهل الكتاب، و منهم من لا يؤمن بها كالدهرية و هم بربهم يعدلون أى: يجعلون له عدلاً و شريكاً.

[١٥٢] و بعد استنكار ما حرمه المشركون على أنفسهم، و استنكار استحلالهم لبعض المحرمات، يأتى السياق لبيان المحرمات الواقعية التى حرمها الله سبحانه قُلْ يا رسول الله لهؤلاء المشركين:

تَعَالَوْا أى أقبلوا و احضروا أَنل أى أقرأ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ «ما» مفعول «أنل» أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ أى بالله شيئاً أى لا تجعلوا له سبحانه شريكاً. و الجملة فى تأويل المصدر، فىكون بدلاً من «ما حرم» أى أتى تحريم الشرك. فلا يقال: إن النفى فى النفى يفيد الإثبات.

وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً أى أوصاكم بهما إحساناً، إذ فى «حرم» معنى الإيذاء، و «إحساناً» منصوب بفعل مقدر، تقديره: «أحسنوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٤

بالوالدين إحساناً». و من المعلوم أن ترك كل واجب حرام، و لذا صحّ تعداده فى جملة «ما حرم» و لا تقتلوا أَوْلَادَكُمْ بنين و بنات من إِمْلَاقٍ هو الفقر، أى من جهة الفقر، فقد كان المشركون يقتلون أولادهم، خوف أن يفترقوا فلا يجدوا مؤنثهم. نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ أنتم أيها الآباء و إِيَّاهُمْ أى الأبناء، فليس رزقهم عليكم، ثم إن من المعلوم أن الرزق يحتاج إلى جدّ و تعب فليس المراد برزقه إياهم أنه ينزله من السماء فى الدلو و لا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ جمع فاحشة، صفة للمقدر أى «الصفة الفاحشة» ما ظَهَرَ مِنْهَا للناس و ما بَطَّنَ أى أتى به سرا، و هذا يشمل جميع المحرمات غير المذكورة بالنص و لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ من المسلم و المعاهد إِلَّا بِالْحَقِّ و قد تقدم أن مثل هذه الاستثناءات من أصل الكلام، لا من قيده، أى لا تقتلوا النفس إلا بالحق، و الحق فى القتل فى موارد خاصة، كالجهاد، و الزانى المحصن، و المرتد الفطرى، و المهاجم و القصاص، و ما أشبه. ذَلِكُمْ المذكور فى الآية من المحرمات و صَاكُم الله به أى أمركم به، فإن الوصية بمعنى الأمر لَعَلَّكُمْ أيها البشر تَعْقِلُونَ أى تحكّمون عقولكم فى المحرم و المحلل، فلا تقولوا شيئاً اعتباطاً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٥

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٢]

وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)

[١٥٣] وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ وَهُوَ مِنْ فَقْدِ الْأَبِّ وَالْجَدِّ، أَوْ الْأَعْمِ مِنْهُ وَ مِنْ فَقْدِ الْأُمِّ، وَ كَلِمَةُ «لَا تَقْرُبُوا» لِلْمَبَالِغَةِ فِي الْاجْتِنَابِ، وَ تَخْصِيصِ الْيَتِيمِ بِالذِّكْرِ، مَعَ عَدَمِ جَوَازِ التَّصَرُّفِ فِي مَالِ كُلِّ أَحَدٍ بَدُونَ رِضَايِهِ، لِأَجْلِ أَنَّ الْيَتِيمَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَى بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ سَائِرِ الطَّرِيقِ، بِأَنْ يَحْفَظَ لَهُ مَالَهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ ضَرُورِي لِمَعَاشِ الْيَتِيمِ حَيْثُ يَنْفَقُ عَلَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ «الْأَشَدُّ»: جَمْعُ «شَدٌّ» نَحْوُ: أَضْرٌ، جَمْعُ: ضَرٌّ، وَ الشَّدُّ: الْقُوَّةُ، وَ هُوَ اسْتِحْكَامُ قُوَّةِ الشَّبَابِ، أَى حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى قُوَّةِ شَبَابِهِ، وَ هُوَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْبُلُوغِ وَ الرِّشْدِ، وَ الْبُلُوغُ فِي الْوَلَدِ كِمَالُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً، أَوْ الْإِنْبَاتِ، أَوْ الْإِحْتِلَامِ، وَ فِي الْبِنْتِ غَالِبًا كِمَالُ التَّسْعَةِ وَ الدَّخُولِ فِي الْعَاشِرَةِ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ فَلَا تَنْقُصُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ عِنْدَ الْبَيْعِ، وَ لَا تَزِيدُوهُمَا عِنْدَ الشِّرَاءِ بِالْقِسْطِ أَى بِالْعَدْلِ، فَلَا إِفْرَاطَ وَ لَا تَفْرِيطَ.

لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرَهَا أَى بِالْمَقْدَارِ الَّذِي يَسْعَاهَا، وَ لَا يُوجِبُ ضَيْقًا وَ حَرَجًا عَلَيْهَا، فَهَذِهِ التَّكَالِيفُ السَّابِقَةُ، لَا حَرَجَ فِيهَا عَلَى النَّفْسِ، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْكَيْلِ وَ الْوِزْنَ حَسَبِ الْمَتَاعِ، لَا الدَّقَّةَ الْعَقْلِيَّةَ حَتَّى يُوجِبَ عَسْرًا وَ حَرَجًا.

وَ لَا يَقَالُ: فَكَيْفَ كَلَّفَ الْإِنْسَانَ بِالْجِهَادِ؟

لَأَنَّا نَقُولُ: إِنَّ الْجِهَادَ خَارِجٌ عَنِ هَذَا الْعَمُومِ، فَإِنَّهُ لِإِرْسَاءِ قَوَاعِدِ

تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ١٤٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٣]

وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

الْإِسْلَامَ، وَ الْعَمُومُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَقَابِلِ التَّكَالِيفِ فِي سَائِرِ الشَّرَائِعِ - الْمُنْحَرَفَةِ - وَ الْقَوَانِينِ الْمَرْهُقَةِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ بَيَانَ سَهُولَةِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَ سِمَاتِهَا.

وَ إِذَا قُلْتُمْ شَيْئًا فَاعْبُدُوا فِي الْقَوْلِ، وَ الْعَدْلُ فِيهِ أَنْ لَا يَمِيلَ الْقَائِلُ نَحْوَ الْبَاطِلِ. فَالْغَيْبَةُ، وَ السَّبُّ، وَ الْقِضَاءُ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَ مَا أَشْبَهَهَا، ظَلَمٌ، لَيْسَ بِعَدْلٍ وَ لَوْ كَانَ الْمَقُولُ فِيهِ ذَا قُرْبَىٰ فَإِنَّ النَّاسَ غَالِبًا يَقُولُونَ الْبَاطِلَ لِصَالِحِ ذَوِي قُرْبَاهُمْ، وَ لِذَا يَأْمُرُهُمْ سُبْحَانَهُ بِالْعَدْلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا وَ الْمَرَادُ جَمِيعَ مَعَاهِدَاتِهِ، كَمَا قَالَ: أَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ «١»، فَالْمَرَادُ الْإِيتِيَانُ بِالْوَاجِبَاتِ وَ تَرْكُ الْمَحْرَمَاتِ ذَلِكُمْ الَّذِي تَقْدَمُ ذِكْرُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَصَّاكُمْ بِهِ عَلَى طَرِيقِ الزُّومِ وَ الْحَتْمِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَى لِكِي تَتَذَكَّرُوا وَ تَأْخُذُوا بِهِ، وَ التَّذَكُّرُ بِاعْتِبَارِ مَا هُوَ كَامِنٌ فِي الْفِطْرَةِ مِنْ حَسَنِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، كَمَا سَبَقَ.

[١٥٤] وَ صِيَاكُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا أَى أَنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي أَنْزَلْتُهَا تُوَصِّلُ إِلَى السَّعَادَةِ، فَهِيَ طَرِيقٌ إِلَيْهَا بِالِاسْتِقَامَةِ، لَا كَسَائِرِ الطَّرِيقِ الْمَلْتَوِيَّةِ، الَّتِي قَدْ لَا تُوَصِّلُ، وَ قَدْ تُوَصِّلُ بِالتَّوَاءِ وَ عِنَاءٍ فَاتَّبِعُوهُ أَى سِيرُوا عَلَيْهِ وَ انْتَهَجُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الْأُخْرَى مِنْ سَبِيلِ الْكُفْرِ وَ الْبِدْعِ

(١) البقرة: ٤١.

تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ١٤٧

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٤ الى ١٥٥]

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهِمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)

وَ الشَّبَهَاتُ فَتَفَرَّقَ أَى تَتَفَرَّقُ تِلْكَ السَّبِيلِ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ فَتَشْتَكِمُ، وَ تَلْهِيكُمْ عَنِ طَرِيقِهِ سُبْحَانَهُ ذَلِكُمْ الْإِتْبَاعُ لِسَبِيلِهِ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهِ لِإِزْمَانِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَى لِكِي تَتَّقُوا عِقَابَهُ وَ تَحْذَرُوا الْخُسْرَانَ.

[١٥٥] إن هذا الصراط كان قديماً قبل موسى و عيسى و محمد عليهم السّلام، و إن الجميع كانوا مأمورين باتباعه ثمّ بعد سبق هذا الصراط عند الأنبياء السابقين آتينا موسى الكتاب أى أعطينا التوراة تماماً على الذى أحسن أى لأجل إتمام عمل موسى عليه السّلام الحسن الذى أذاه؛ من القيام بالتبشير و الهداية، أو لأجل إتمام النعمة على موسى الذى أحسن الخدمة لله سبحانه، فإن إنزال الكتاب على النبى من أعظم المفخر بالنسبة إليه و تفصيلاً لكل شئ مما يحتاج إليه الناس و هدى أى دلالة على الحق و رحمة يرحم الله بسببه على عباده حيث ينقدهم من الشقاء إلى السعادة لعلهم أى لعل الناس يلقاء ربهم أى بملاقاة جزائه و ثوابه و عقابه يؤمنون فيسعدون.

[١٥٦] و هذا القرآن كتاب أنزلناه مباركاً له بركة يأتى منه الخير الكثير فاتبعوه أيها الناس و اتقوا معاصى الله سبحانه، و مخالفة كتابه لعلكم تزحمون أى لكى تشملكم الرحمة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٨

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥٦ الى ١٥٧]

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

[١٥٧] و إنما أنزلنا هذا الكتاب أن تقولوا أى لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب من قبل الله سبحانه على طائفتين اليهود و النصرى من قبلنا و لم يرتبط الكتاب بنا حتى نؤمن به و إن كنا «إن» مخففة من المثقلة، أى أنه كنا نحن العرب عن دراستهم أى دراسة أولئك الطوائف المنزلة عليهم الكتب، أى لغتهم لغافلين فلم نعرف ما فى كتبهم حتى نؤمن بها، فقد أنزلنا إليكم الكتاب حتى لا يكون لكم عذرا فى عدم الإيمان.

[١٥٨] أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ الَّذِي نَفْهَمُهُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ أَى أكثر هداية فى التمسك و العمل على طبق الكتاب لأننا ألبين عريكة، و أكثر تمسكا بالمعتقدات فقد جاءكم أيتها الأمة المعاصرة للرسول بيئته أى دلالة واضحة من ربكم و هو القرآن و هدى يهتدى به إلى الحق و رحمة يرحم بها الله من تمسك به، إذ يسعده فى الدنيا و الآخرة.

فَمَنْ أَظْلَمُ أَى من يكون أكثر ظلماً لنفسه ممن كذب بآيات الله! و هو القرآن و صدف أى أعرض عنها أى عن الآيات سنجزى فى الآخرة، أو الأعم منها و من الدنيا الذين يصدفون عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٤٩

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)

آياتنا سوء العذاب أى العذاب الشديد بما كانوا يصدفون أى بسبب إعراضهم عن الحق و الآيات.

[١٥٩] ما ينتظر هؤلاء الكفار بعد نزول القرآن؟ هل ينتظرون أى هل ينتظرون للإيمان إلا أن تأتيهم الملائكة و ذلك لا يمكن فى دار التكليف أو يأتى ربك و ذلك مستحيل لأن الله لا- مكان له و لا حركة أو يأتى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ أى العذاب، حتى يروا العذاب فيؤمنوا يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يا رسول الله لا- يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ فَإِنَّ الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ لَا تَقْبَلُ التَّوْبَةَ، لأن العذاب لا ينزل إلا بعد تمام الحجّة و المخالفة، و حين ذاك قد تم الاختبار و صار موعد المجازاة أو كسبت فى إيمانها خيراً عطف على «لم تكن آمنت»، و المعنى: أنه لا يَنْفَعُ فى ذلك اليوم إيمان نفس إذا لم تكن آمنت قبل ذلك اليوم، أو ضمت إلى إيمانها أفعال الخير، فإنها إذا آمنت فقد نفعها إيمانها، و كذلك إذا ضمت إلى الإيمان طاعة لنفعها أيضاً، فلا يَنْفَعُ إيمان الكافر، و لا طاعة المؤمن

عند حلول العذاب، و إنما النافع الإيمان السابق، و الطاعة السابقة قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ: أَنْتَظِرُوا إِنِّيَانِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ فِإِنَّا مُنْتَظِرُونَ ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٠

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٩]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ١٩٩

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) حتى يرى كل واحد منا جزاءه العادل و ما قدم لنفسه.

[١٦٠] ثم يقرر سبحانه أن الإسلام إنما هو دين واحد لا تفرقة فيه، فالذين يتفرقون ليسوا من الإسلام، كما أن من أشرك ليس من الإسلام إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ تَفْرِيقًا بِالْأَهْوَاءِ كَالْكَفَّارِ الْمُخْتَلِفِينَ، أَوْ بِالْأَدْيَانِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَفِرْقِهِمْ، أَوْ بِالضَّلَالَةِ وَالشَّبَهَاتِ وَ لَوْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، كَالْفِرْقِ الْمُبْتَدِعَةِ، فَإِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَكَانُوا شِيْعًا جَمْعَ «شِيْعَةٍ» أَيْ طَوَائِفَ مُخْتَلِفَةٍ لَسْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ فَلَا رِبْطَ بَيْنَكُمَا أَبَدًا، وَ إِنَّمَا هُمْ فِي جِهَةٍ وَ أَنْتَ فِي جِهَةٍ.

و ليس معنى أن الجميع على باطل، بل المعنى أن ما ليس فيه الرسول باطل، و إلا فالحق دائما مع إحدى الطوائف إِنَّمَا أَمْرُهُمْ أَى أَمْرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا إِلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي يُجَازِيهِمْ لِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ أَى يُخْبِرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ. وَ هَذَا تَهْدِيدٌ، كَقَوْلِكَ: «لَأَعْلَمَنَّكَ غَدًا» لِمَنْ خَالَفَ أَمْرِي، تَرِيدُ أَنْتَ تَعَاقِبُهُ بِفَعْلِهِ.

و هنا سؤال: إذا علمنا نحن المسلمين بطلان سائر المذاهب و الطوائف، فماذا نفعنا بهذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم؟ و الجواب: إن الكتاب و السنّة يأمراننا باتباع على و أهل بيته الأئمة الأحد عشر عليهم السلام، و بعد ذلك فقد عيّن الفقهاء الراشدون لمرجعية الأمة، في

قوله عليه السلام: «من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥١

[سورة الأنعام (٦): آية ١٦٠]

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه» (١).

و

قوله عليه السلام: «أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم و أنا حجة الله» (٢).

أما الاختلاف بين الفقهاء في بعض الفروع فليس ذلك اختلافا يذكر، بل هو كالاختلاف بين كل مهندسين، أو طبيين، أو حاكمين، مع إخلاص كل منهما و اتحاد منهجهما.

ثم إنه قد يستغرب: كيف يكون مصير هذه الكثرة من الناس الذين ليسوا بمسلمين، و كثير من المسلمين المنحرفين، النار، و من يبقى للجنة إذا؟

و الجواب: إن ما يستفاد من الآيات و الروايات أن الخلود في النار إنما هو للمعاند، و لا دليل على أنه لا يمتحن القاصر من البشر في الآخرة ليدخل الجنة، بل دلّ الدليل على ذلك، كما هو مذكور في علم الكلام. و من المعلوم عدم كون أكثر الناس مقصرين معاندين، إذا فليس بالبعيد دخول كثره هائلة من البشر الجنة، للإيمان و حسن العمل في الدنيا، أو حسن الامتحان في الآخرة.

[١٦١] و إذ تقدم الكلام حول الجزاء يقرر السياق القاعدة العامة له و أنه مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ التَّاءُ إِمَّا لِلْمَبَالِغَةِ، وَ إِمَّا لِلتَّائِيثِ أَى طَاعَةِ حَسَنَةٍ فَلَهُ مِنَ الثَّوَابِ عَشْرُ أَمْثَالِهَا عَلَى الْأَقْلِ وَ إِذَا فَقَدَ يَبْلُغُ الثَّوَابَ إِلَى سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُئْبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ «٣»،

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فِي التَّاءِ الْقَوْلَانِ، وَإِذَا كَانَتْ لِلتَّائِيثِ فِيهِ صِفَةٌ «خَصْلَةٌ» فَلَا

(١) تفسير الإمام العسكري: ص ٢٩٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٠.

(٣) البقرة: ٢٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٢

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦١ إلى ١٦٢]

قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)

يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا سِئْتَهُ وَاحِدَةٌ وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً جَدًّا، فَلَا يُقَالُ: مَا فَائِدَةُ «الواحدة» فيما لو كانت أعظم من المعصية ككذبة واحدة جزاؤها سنة في النار- مثلا-؟ فمثلا- جزاء من يسب الملك بلفظة مائة سوط، وهو جزاء واحد، وإن كان عظيما في نفسه وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ فِي مِقْدَارِ مَا اسْتَحَقُّوا مِنَ السَّيِّئَاتِ بِلِ جِزَاءٍ وَفَاقًا.

[١٦٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤَلَاءِ الْكُفَّارِ: إِنِّي هِدَانِي رَبِّي أَى أُرْشِدُنِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَالمَرَادُ: الصِّرَاطِ المَوْصِلِ لِلْإِنْسَانِ إِلَى الْحَقَائِقِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِالنَّسْبَةِ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ دِينًا مَنْصُوبًا عَلَى تَقْدِيرِ هِدَانِي، أَى هِدَانِي دِينًا، أَوْ عَلَى الْحَالِ أَى أَنَّ الصِّرَاطِ فِي حَالِ كَوْنِهِ دِينًا قِيمًا أَى مُسْتَقِيمًا، وَهُوَ مُصَدَّرٌ، كِ «الصَّغَرُ وَالكَبِيرُ» مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ بَدَلُ مِنَ «دِينًا» وَالمِلَّةُ: هِيَ الشَّرِيعَةُ، مَأْخُودَةٌ مِنَ «الإِمْلَاءِ» لِأَنَّ الشَّرْعَ يَمْلِيهِ الرُّسُولُ عَلَى أُمَّتِهِ، وَإِنَّمَا نَسَبَ الدِّينَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ عَلَى جَلَالَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصِحَّةِ دِينِهِ، وَقد كَانَتِ الْأَدْيَانُ كُلُّهَا دِينًا وَاحِدًا فَلَا مَانِعَ أَنْ يَنْسَبَ اللَّاحِقُ إِلَى السَّابِقِ حَنِيفًا أَى فِي حَالِ كَوْنِ تِلْكَ المِلَّةِ مَائِلَةً عَنِ البَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، مِنَ «حِنْفٍ» بِمَعْنَى «مَالٍ» وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا كَمُشْرِكِي مَكَّةَ وَلا يَهُودِيًا وَلا نَصْرَانِيًّا، فَكِلَاهُمَا مُشْرِكَانِ.

[١٦٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤَلَاءِ: إِنِّي صَلَاتِي وَهُيَ الصَّلَوَاتُ الَّتِي يَأْتِيهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٣

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٦٣ إلى ١٦٤]

لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَعْتَبِرُوا لِلَّهِ الْأَنْبِيَاءَ رِبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

الإنسان واجبة أو مندوبة وَنُسُكِي النَسْكُ: العِبَادَةُ، يُقَالُ: رَجُلٌ نَاسِكٌ أَى مُتَعَبِدٌ، وَ يُقَالُ لِلأَضْحِيَّةِ: النَسْكِيَّةُ، لِلتَّقَرُّبِ بِهَا إِلَى اللَّهِ، فَهِيَ عِبَادَةٌ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي أَى حَيَاتِي وَمَوْتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَإِنَّ عِبَادَتِي لَهُ وَحْدَهُ بِلَا شَرِيكَ، وَأَمْوَالِي مَلَكَهَ وَبِقُدْرَتِهِ لَا بِشَرِكِهِ أَحَدٌ مَعَهُ.

[١٦٤] لَا شَرِيكَ لَهُ لَا أَشْرَكَ أَحَدًا بِهِ فِي العِبَادَةِ، وَلا أَزْعَمُ أَنَّ لَهُ شَرِيكًَا فِي حَيَاتِي وَمَوْتِي وَبِذَلِكَ أَى بِالتَّوْحِيدِ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَوْ المَرَادُ رَتْبُهُ إِسْلَامِي مِنْ أَوَّلِ الرَّتْبِ.

[١٦٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤَلَاءِ: أَعْتَبِرُوا لِلَّهِ الْأَنْبِيَاءَ أَى أَطْلُبُ رِبًّا وَإِلَهاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ الِاسْتِفْهَامُ لِلإِنْكَارِ، أَى كَيْفَ أَتَّخِذُ غَيْرَ اللَّهِ إِلهًا- بِالِاسْتِقْلَالِ أَوْ بِالشَّرِكَةِ- وَالحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ؟

وَلا- تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا إِذَا اكْتَسَبَتِ المَعْصِيَةَ بِالشَّرِكِ، لِحَقْنِي جِزَائِي السَّيِّئِ، وَلا تَزِرُ أَى لَا تَحْمِلُ مِنَ «وِزْرِ» بِمَعْنَى حَمْلِ الإِثْمِ وَازِرَةٌ أَى نَفْسٌ حَامِلَةٌ وَزْرًا أَى مَعْصِيَةٌ نَفْسٌ أُخْرَى بِلِ عَصِيانِ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ يَحْمِلُ تَبِعَتَهُ.

قيل: إن الكفار قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اتبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأ، فأنزل الله هذه الآية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٤

[سورة الأنعام (٦): آية ١٦٥]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مُرْجِعُكُمْ أَى إِلَى حَسَابِهِ مَصِيرُكُمْ أَيهَا الْمُشْرِكُونَ، أَو أَيهَا الْبَشَرُ فَيُبَيِّنُكُمْ أَى يُخْبِرُكُمْ بِمَا أَى بِالشَّيْءِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ لِيَجَازِيَ كُلَّ إِنْسَانٍ وَمَا عَمَلُهُ مِنْ إِحْسَانٍ وَإِسَاءَةٍ.

[١٦٦] وَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ الَّذِي جَعَلَكَم خَلَائِفَ الْأَرْضِ فَإِنَّكُمْ تَخْلِفُونَ أَهْلَ الْعَصْرِ السَّابِقِ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّ مِنْ بَعْدِكُمْ يَخْلِفُكُمْ وَيَرِثُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ذَكَاءٍ، وَعِلْمًا، وَمَالًا، وَمَنْصَبًا، وَمِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ التَّكْوِينِيَّةَ وَالتَّقْدِيرِيَّةَ كُلَّهَا بِيَدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ أَى اسْتَخْلَفَكُمْ وَأَعْطَاكُمْ عَطَاءً مُتَفَاوِتًا لِيُخْتَبِرَكُمْ، وَيُظْهِرَ سَرَائِرَكُمْ، وَهَلْ أَنْكُمْ تَطِيعُونَ أَمْ تَعْصُونَ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ فَلَا يَظُنُّ الْكَافِرُ وَالْعَاصِي، أَنَّ الْعِقَابَ بَعِيدٌ، فَإِنَّ أَمَدَ الدُّنْيَا قَصِيرٌ مَهْمَا طَالَ، أَو الْمَرَادُ سُرْعَةُ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا، وَقَبْلَ الْآخِرَةِ، إِذِ الْمَعَاصِي تَوْجِبُ آثَارَ وَخِيمَةً فُورًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ رَحِيمٌ يَرْحَمُ الْعِبَادَ، وَيُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَاسِعٍ فَضْلُهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٥

٧ سورة الأعراف مكية / آياتها (٢٠٧)

سميت السورة بهذا الاسم لوجود كلمة «الأعراف» فيها. ولما ختم سبحانه «الأنعام» بالرحمة، افتتح هذه السورة بأنه أنزل كتابا فيه معالم الدين والحكمة.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أبتدى بها السورة، وأجعل الإله الرحمن الرحيم، قدام قراءتى لها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المص (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)

[٢] المص قد تقدم تفسير فواتح السور المقطعة، وأنها رموز بين الله والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أَوْ أَنَّ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْحُرُوفِ.

[٣] كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ فَلَيْسَ حُرُوفُهُ أَمْرًا خَارِقًا، وَإِنَّمَا التَّرْكِيبُ أَمْرٌ خَارِقٌ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ يَا رَسُولَ اللهِ حَرَجٌ وَضَيْقٌ مِنْهُ أَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، حَيْثُ تَرَى أَنَّ قَوْمَكَ يَكْذِبُونَ وَيُؤْذُونَكَ فِي سَبِيلِهِ، بَلْ اطْمَئِنِّ بِنَصْرِ اللهِ سَبْحَانَهُ وَحَسَنِ ثَوَابِهِ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ إِلَيْكَ لِيُنذِرَ بِهِ أَى بِهَذَا الْكِتَابِ، الْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةَ، بِعِقَابِ اللهِ تَعَالَى وَلِيَكُونَ ذِكْرَى وَتَذَكْرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَتَذَكَّرُونَ بِهِ الدِّينَ وَالْأَصُولَ وَالْفُرُوعَ، لِيَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ.

[٤] اتَّبِعُوا أَيُّهَا النَّاسُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحْكَامِ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَى غَيْرِ رَبِّكُمْ تَعَالَى أَوْلِيَاءَ كَالْأَوْثَانِ، وَالْكَفَّارِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَى قَلِيلًا - أَيُّهَا الْبَشَرُ - تَذَكَّرَكُمْ وَاتَّعَاظَكُمْ.

[٥] وَكَمْ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا عِبْرًا بِالْقُرْيَةِ وَأَرِيدُ أَهْلَهَا بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَالْمَحَلِّ، وَالْمَرَادُ بِالْإِهْلَاكِ إِرَادَتَهُ، فَإِنَّهُ

كثيرا ما يقال الفعل و يراد مقدماته- كما قرّر في علم البلاغة- فجاءها بأشينا أى عذابنا بيانا أى بالليل أو هم قائلون أى فى وقت القيلولة و هى نصف النهار، من «أقال» بمعنى «أراح»، و من المعلوم أن العذاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥ الى ٨]

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨)

فى هذين الوقتين أشد وقعا لغفلة الناس و راحتهم.

[٦] فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ أَي دَعَاءِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ، وَ كَلَامِهِمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا وَقْتِ مَجِيءِ الْعَذَابِ إِلَّا الْاعْتِرَافَ بِذُنُوبِهِمْ بَ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَاعْتَرَفُوا بِمَا كَانَ مِنْهُمْ حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ.

[٧] لَكِنِ الْاعْتِرَافَ لَمْ يَنْفَعِهِمْ فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَي الْأُمَمَ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَ، يَسْأَلُهُمْ عَن أَعْمَالِهِمْ، وَ مَا أَجَابُوا بِهِ الرِّسَالَ لَمَّا بَعَثُوا إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ أَي الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الرِّسَالِ وَ الْأُمَمِ لَا يَدُ وَ أَنْ يَحْضُرَ فِي مُحَضَّرِ الْحِسَابِ.

[٨] وَ لَيْسَ السُّؤَالُ لَجَهْلِنَا بِمَا صَدَرَ مِنَ الطَّرْفَيْنِ فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ أَي نَقِصُ مَا كَانَ مِنَ الطَّرْفَيْنِ قِصَّةً صَادِرَةً عَن عِلْمِنَا بِأَحْوَالِهِمْ، فَلَيْسَ السُّؤَالُ إِلَّا التَّقْرِيرَ وَ التَّأَكِيدَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ عَن أَعْمَالِهِمْ حِينَ عَمِلُوهَا بَلْ كُنَّا شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ حَاضِرِينَ - عِلْمًا - عِنْدَ أَعْمَالِهِمْ.

[٩] وَالْوِزْنَ لِلْأَعْمَالِ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَقُّ فَلَا يَنْقُصُ حَقٌّ وَ لَا يَزِيدُ عَلَى حَقٍّ، وَ إِنَّمَا تَوَزَنُ الْأَعْمَالُ بِمَوَازِينٍ عَادِلَةٍ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ الصَّالِحَةُ، وَ إِنَّمَا جَمَعَ «الْمِيزَانَ»، بِاعْتِبَارِ كُلِّ عَمَلٍ عَمَلِ الَّذِينَ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُمُ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الَّذِينَ فَازُوا بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩ الى ١٠]

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)

[١٠] وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ الصَّالِحَةُ بِأَنَّ ثَقُلَتْ مَوَازِينُ سَيِّئَاتِهِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَإِنَّ النَّفْسَ كَانَتْ لِتَحْصِيلِ الْجَنَّةِ، فَقَدْ حَصَلَ الْإِنْسَانُ بِهَا النَّارَ بِمَا كَانُوا أَي بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ أَي بِسَبَبِ جُحُودِهِمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرِّسَالَ مِنَ الْآيَاتِ.

و هنا سؤال: ما هى طبيعة «الموازن» فى الآية؟

و الجواب: من المحتمل أن يراد بها الموازين المعقولة لا المحسوسة، كما يقال: و زنت فلان، أو فلان خفيف الوزن، أو فلان له وزن، و هكذا. و الله سبحانه يعلم قيمة الأعمال، كما أننا نعرف قيم بعض الأعمال، فنقدر المهندس و عمله أكثر مما نقدر العامل. كما أن من المحتمل أن يراد بها الموازين المحسوسة بأن تتجسم الأعمال، فللصلاة صورة و وزن، و هكذا لسائر الأعمال الخيرية و الشريفة، ثم توزن فى موازين كموازين الدنيا.

[١١] وَ كَيْفَ لَا- تَخْضَعُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ الْحَالُ أَنَّهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى نِعْمَةِ إِرسَالِ الرِّسَالِ وَ الْهَدَايَةِ، ابْتَدَأَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةَ الْحَيَاةِ؟ فَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ أَيَّهَا الْبَشَرُ فِي الْأَرْضِ بِأَنَّ جَعَلْنَا الْأَرْضَ تَحْتَ إِرَادَتِكُمْ تَبْنُونَ وَ تَزْرَعُونَ وَ تَخْرُجُونَ كَنُوزَهَا وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ أَي مَا تَعِيشُونَ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ أَي أَنَّ شُكْرَكُمْ لِلنَّعْمِ قَلِيلٌ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٥٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١ الى ١٢]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ

أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)

[١٢] وقبل ذلك لقد خلقناكم أى أوجدنا أصلكم الذى هو التراب، أو المنى، أو الدم، بعد العدم ثم صَوَّرْنَاكُمْ أَفْضَلْنَا عَلَيْكُمْ الصُّورَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، فى رحم الأمهات ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ إِنْ أَرِيدَ ب «ثم» معناها الظاهر، كان المراد من «خلقناكم» خلقنا أسلافكم، أى آدم عليه السلام، و من البلاغة أن ينسب الإنسان ما للأبناء إلى الأبناء، كما قال: فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ «١»، بالنسبة إلى اليهود المعاصرين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، و إن أريد بها الترتيب فى الكلام، نحو «إن من ساد ثم ساد أبوه» كان الخطاب فى «خلقناكم» على ظاهره.

وقد كان أمرنا بالسجود لآدم - جدكم - نعمة و تشريفاً لكم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ الشَّيْطَانَ، و يسمى إبليساً لأنه «أبلس» و حرم من رحمة الله سبحانه لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ فإنه أبى و استكبر، و هو لم يكن من الملائكة، و إنما كان معهم فشملة الخطاب.

[١٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ «لا» زائده فى الكلام، أى ما منعك أن تسجد، و إنما يؤتى بها لنكتة بديعة، هى قطع الكلام عما سبقه و الابتداء بالكلام التالى، ليتكرر التوبيخ كأنه قال «ما منعك»؟ و حذف المتعلق ثم سكت هنيئاً، و ابتداءً «أن لا تسجد». و مثل هذا فى المحاورات كثير إذ أَمَرْتُكَ بالسجود قَالَ إبليس:

(١) البقرة: ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣ الى ١٥]

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)

أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ أى من آدم، فلا ينبغي للأرفع أن يسجد و يتواضع للأخفض، ثم علل كونه خيراً بقوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ و النار مضيئة و الطين كدر. لكن قياسه كان باطلا إذ مجرد الإضاءة لا تكون سبب الأفضلية، و إنما الأشياء بالكسر و الانكسار، و إعدام النار للأشياء بعكس الأرض المحيية لها جهة نقص فيها، سبب لرفعة الأرض عليها، بالإضافة إلى أن التواضع كان للأمر لا لآدم، فمن أمر عبده بأن يحمل طبقاً من طين على رأسه كان عمل العبد امتثالاً للسيد لا تواضعاً للطين.

[١٤] قَالَ اللَّهُ سبحانه لإبليس: فَاهْبِطْ أى اخرج خروجاً انحدارياً - إما منزله أو حقيقة - منها أى من الجنة فَمَا يَكُونُ لَكَ أى ليس لك حق أن تتكبر فيها أى فى الجنة لأنها ليست موضع المتكبرين فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ من «الصغار» و هو «الذلة»، فإنك ذليل فى مقام قربنا، حقير عندنا.

[١٥] قَالَ إبليس لله سبحانه: أَنْظِرْنِي أى أمهلنى لأن أبقى حياً إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أى يوم القيامة الذى يبعث فيه الخلق للجزاء.

[١٦] قَالَ اللَّهُ سبحانه: إِنَّكَ يَا إبليس مِّنَ الْمُنظَرِينَ أى من الذين يمهلون و لا- يعجل لهم بالموت، و لعل المراد بسائر المنظرين «الملائكة» - أى أنت أيضاً مثلهم فى الإمهال - و لكن من المعلوم أنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦ الى ١٧]

قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَنبِتَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)

ليس الإنظار إلى يوم القيامة بل «إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ».

[١٧] قَالَ إبليس بعد إمهال الله سبحانه له فِيمَا أُغْوِيْتَنِي أى بسبب إغوائك لى، و ليس المراد إغواءه سبحانه، بل المراد الإتيان بسبب، و

أمره بأمر سبب غوايته، وقد ذكرنا سابقاً أن الأفعال إنما تنسب إليه سبحانه لأنه الخالق المهيئ للأسباب والوسائل لأَقْعِدَنَّ لَهُمْ أَى للبشر صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ أَى أقعد فى طريقك لأغوى البشر عنه إلى الضلال والانحراف، فإن إغوائى للبشر مقابل إغوائك لى، وقد كان هذا القياس من الشيطان أيضاً باطلاً، وهو مثل أن يعطى الأب ولديه رأس مال، فيأخذ أحدهما رأس المال ويذهب به نحو الفساد، ثم لما أتم ماله، وبقي رأس مال أخيه يقول لأبيه، كما سببت فسادى أسبب فساد أخى، وهذا الكلام خارج عن المنطق، إذ الأب لم يسبب فساده وإنما أراد صلاحه، بخلاف عمله فى فساد أخيه فإن الفاسد يسبب فساده.

[١٨] ثُمَّ لَأَيِّنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ أَى من قدامهم وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فكما يجلس اللص فى طريق المسافرين، ثم يهاجمهم من جميع جوانبهم الأربعة ليسرق ما معهم، كذلك الشيطان يطوق الإنسان ليضله عن طريق الله سبحانه ولا تجد يا رب أكثرهم أَى أكثر البشر شاكرين لك ولنعمك، بل يتبعون طريق الكفران، فإن من عصى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨ الى ١٩]

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)

الله سبحانه فقد كفر بنعمه وفضله.

وهنا سؤال: لم أطلق الله سبحانه إبليس ليضل البشر؟

والجواب: لأن الدنيا وضعت للاختبار، ولو لم يكن الأمر بالشر كانت دنيا جبر وإكراه، ولم يكن للمطيع فضل يستحق به الجنة.

وسؤال ثان: أليس من الممكن أن يتفضل الله بالجنة على البشر بدون اختبار؟

والجواب: كلاً، إن الإنسان بالإطاعة يكون قابلاً للدرجات، كالتلميذ الذى يكون قابلاً للتعليم - بالقراءة والامتحان - فلو لم تكن إطاعة لم تكن قابلية، ومن المعلوم أن حرمان القابل لأجل غيره ظلم، ألا ترى لو أن الحكومة لم تفتح المدرسة لتهذيب النفوس المستقيمة الذكية، إشفاقاً على البليد الذى يرسب، كان ظلماً للذكى النابه.

والكلام طويل مذکور فى كتب الكلام والفلسفة.

[١٩] قَالَ اللهُ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: اخْرُجْ مِنْهَا أَى من الجنة مَذْمُومًا من «ذام يذام» فهو «مذموم» بمعنى: عاب، فإن الذام والذيم أشد العيب مَذْمُورًا أَى مطروداً، من «دحر» بمعنى: طرد لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَى: أوكد أن من تبعك من البشر لَأَمْلَأَنَّ أَى أملاً بالتأكيد جَهَنَّمَ مِنْكُمْ من التابع والمتبوع أَجْمَعِينَ بلا استثناء.

[٢٠] وبعد تمام الكلام مع الشيطان توجه الخطاب إلى آدم عليه السلام الذى خلقه سبحانه للاستخلاف فى الأرض وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حِوَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٣

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠]

فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)

الجنة هو أمر من «السكن» دون السكون، والتقدير «و لتسكن زوجك» فكلاً من حيث شئتما من ثمار الجنة ولا تقربا هذه الشجرة بالأكل، والنهى عن الاقتراب مبالغة فى عدم الأكل، نحو قوله سبحانه: وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ «١»، وقد تقدم الكلام حول ماهية الشجرة، فى سورة البقرة فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ لأنفسكما، والظلم كان لأجل أن الأكل يسبب خروجهما.

[٢١] فَوَسَّوَسَ لَهُمَا أَى لآدم وحواء، ومعنى الوسوسة: الإلقاء فى الذهن إلقاء مردداً، هل يفعل أو لا يفعل الشيطان فى أكل الشجرة

لِيُيَدِيَ لَّهُمَا أَى لِيُظْهِرَ لَهُمَا، و «اللام» للعاقبة، نحو: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا «٢»، ما وُورِيَ أَى ما ستر من «واری» على وزن «فاعل» عَنْهُمَا أَى عن آدم و حواء مِنْ سَوَاتِيهِمَا أَى عورتيهما، فقد كان آدم و حواء مستورين بألبسة الجنة و كان لازم إخراجهما إذا أكلا من الشجرة أن ينزع عنهما اللباس، فكان عاقبة أكلهما إظهار عورتيهما، و سميت العورة «سوءة» لأنها يسوء الإنسان ظهورها.

وَ قَالَ الشَّيْطَانُ فِى وَسْوَتهِ لَهُمَا مَا نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ

(١) الإسراء: ٣٥.

(٢) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِيهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيَّهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَ أَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)

الشَّجَرَةَ أَى عن أكلها إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ فَلَيْسَ النِّهَى لِأَجْلِ تَحْرِيمِ الأَكْلِ عَلَيْكُمَا، بل لِأَجْلِ أَنْ تَبْقِيَا فِى صُورَةِ البَشَرِ - المَحْبِيبَةِ إِلَيْكُمَا - أَمَا إِذَا لَمْ تَشَاءِ فَلَا مَانِعَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ عَنْ أَكْلِكُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ، وَ الحَاصِلُ أَنَّهُ أَوْهَمَهُمَا أَنَّ النِّهَى لَيْسَ وَرَاءَهُ لَوْمٌ، وَ إِنَّمَا هُوَ نَهَى صِلَاحٍ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ فَمَنْ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ إِمَّا أَنْ يَصْبِحَ مَلَكًا، أَوْ يَكُونَ إِنْسَانًا خَالِدًا.

[٢٢] وَ قَاسَمَهُمَا أَى حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ «قاسم» وَ «أقسم» بِمعنى الحلفِ إِنِّى لَكُمَا يَا آدَمُ وَ حَوَاءَ لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَإِنِّى أَنْصَحُكُمْ بِالْأَكْلِ لِتَكُونَا كَسَائِرِ المَلَائِكَةِ، أَوْ تَبْقِيَا مَخْلُودِينَ فِى الْجَنَّةِ.

[٢٣] فَذَلَّلَاهُمَا أَى دَلَّى الشَّيْطَانُ آدَمَ وَ حَوَاءَ، مِنْ «تدليله الدلو» وَ هُوَ أَنْ تَرْسَلَهَا فِى البِئْرِ، بِمعنى دَلَّاهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ بِغُرُورٍ أَى بِمَا غَرَّهَ مِنَ الكَلَامِ وَ القَسْمِ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَانَ أَكْلًا مِنْهَا شَيْئًا يَسِيرًا انْتَرَعَتْ مَلَابِسَهُمَا وَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِيَهُمَا أَى ظَهَرَتْ عَوْرَتَاهُمَا وَ طَفِقَا أَى شَرَعَا يَخْصِمَانِ أَى يَجْمَعَانِ مِنَ «الخصف» بِمعنى الجَمْعِ عَلَيَّهِمَا أَى عَلَى أَنفُسِهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ فَقَدْ أَخَذَا مِنْ أَوْرَاقِ شَجَرَةِ التِّينِ، وَ جَعَلَا يَلْفَانِ عَلَى عَوْرَتَيْهِمَا وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٥

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٣]

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ (٢٣)

أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ أَى عن تناول هذه الشجرة، فلما ذا أكلتما منها؟ وَ أَلَمْ أَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ أَى عدو ظاهر، فلم سمعتما كلامه؟

و هنا سؤال: كيف يمكن لمثل آدم النبى المعصوم عليه السلام أن يترك قول الله سبحانه: لا- تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ «١»، وَ يأخذ بقول الشيطان القائل: إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ

و الجواب: إن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه، و لعل آدم و حواء ظنا أن المراد بالظلم أن يكونا ملكين و بالأخص لما حلف الشيطان لهما، فإنهما لم يكونا يحتملان أن أحدا يحلف بالله كاذبا- كما فى الحديث-.

و قد تكرر استعمال الظلم لوضع الشىء فى غير موضعه، و إن لم يكن فيه غضاضة أصلا، كما قال سبحانه حكاية عن موسى: ظَلَمْتُ نَفْسِى «٢»، و لعلهما ظنا أن الأصلح بحالهما أن يبقيا بشرا- حسب كلام الله- لكنهما شاءا الجائر، كما يترك الإنسان كثيرا ما الأصلح لما يجده أوفق بحاله، و هذا مما لا ينافى مقام العصمة إطلاقا.

[٢٤] قالوا أي قال آدم و حواء عليهما السلام: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا بِارْتِكَابِ

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) القصص: ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٦

المنهى عنه و أكل الشجرة و إِنَّ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا أَي تَسْتَرِ عَلَيْنَا، و هو كناية عن العفو عما صدر و تَزَحَّمْنَا أَي تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِرَحْمَتِكَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا بَعْضَ دَرَجَاتِهِمْ. و حيث تقرر عقلا و نقلا أن الأنبياء معصومون، كان اللازم القول بعدم كون أكل الشجرة معصية إطلاقا، و إنما كان النهي للإرشاد، كما يقول الطبيب للمريض:

«لا تشرب هذا المائع فيطول مرضك»، فإنه نهى للإرشاد، و يكون ارتكابه موجبا لطول المرض فقط، و ليس هذا مما يوجب العقاب. و كذلك كان النهي بالنسبة إلى أكل الشجرة، لأنه كان لإرشادهما إلى البقاء في الجنة أبدا، كما قال سبحانه: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى وَ أَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَصْحَى «١»، و كان الأكل موجبا للخروج من الجنة، و لقاء مشاكل الدنيا، و الظلم - كما تقدم - هو وضع الشيء في غير موضعه و يلائم ارتكاب المنهى إرشادا، كما يلائم القبيح، كما أن الغفران هو الستر، و هو يلائم العصيان و يلائم ارتكاب المنهى الإرشادي، و الخسران يلائم عدم الربح المتوقع، و لذا يقول التاجر: «خسرت» فيما إذا لم يربح المتوقع. ألا ترى أن المريض إذا ارتكب ما يسبب طول مرضه، يقول للطبيب: «اشتبهت، فتدارك الأمر، و إلا خسرت صحتك في هذه المدة» و لم يكن ذلك عصيانا إطلاقا. و من هنا اشتهر في تسمية هذا النوع من الخلاف ب «ترك الأولى» أي أن الأولى كان عدم الارتكاب، و هنا سؤالان:

(١) طه: ١١٩ و ١٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٧

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٤]

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤)

الأول: كيف يصدر مثل هذا الترك من الأنبياء و لهم المقام الرفيع؟

الثاني: إن هذا فتح لباب التأويل و ارتكاب خلاف الظاهر و لا داعي له؟

و الجواب عن الأول: أن ذلك لئلا يعتقد البشر ألوهية الأنبياء، فإن من عادة البشر الغلو بالنسبة إلى القديسين، و ذلك ضد الغلو، و إن غالى بعض الضعاف أيضا.

و الجواب عن الثاني: إن فتح هذا الباب مما لا بد منه، فإن الكلام مشتمل على المجاز و الكناية و ما أشبهه - حتى بالنسبة إلى كلام البشر العادي، فكيف بالبلغاء - و إلا لزم القول بالتجسيم لقوله سبحانه: إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ «١»، و الظلم لقوله: مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ «٢»، و الكذب لقوله:

وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ «٣»، إلى غير ذلك. و قد جرت قوانين البلاغة على أن يصرف الكلام إلى المراد منه، و إن كان خلاف الظاهر اللفظي، إذا دل دليل من العقل و النقل على المراد، أما إذا لم يكن هناك دليل، أخذ بظاهر الألفاظ.

[٢٥] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَادَمَ وَ حَوَاءَ وَ إبليس: اهْبِطُوا مِنَ الْجَنَّةِ هَبوطا نحو الأسفل حيث كانت الجنة أعلى من الأرض، أو هبوطا رتبيًا، إن كانت من جنان الدنيا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَالشيطان عدو لهما و هما عدوان له، و بين المرأة و الرجل تنافس و تجاذب و لكم جميعا فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ أَي محل قرار و متاع تتمتعون به من المأكل

(١) القيامة: ٢٤.

(٢) النساء: ٨٩.

(٣) الأنفال: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشًا وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

و الملبس و غيرهما إلى حين الموت أو حين البعث.

[٢٦] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ثَانِيًا: فِيهَا أَى فِى الْأَرْضِ تَحْيَوْنَ أَى تَعِيشُونَ، أَو الْمَرَادُ يَحْيَى لَكَ نَسْلٌ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ جَمِيعًا وَ مِنْهَا أَى مِنْ الْأَرْضِ تُخْرَجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ.

[٢٧] ثُمَّ خَاطَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْبَشَرَ، بِمُنَاسِبَةِ نَزْعِ الشَّيْطَانِ لِبَاسِ أَبِيهِمْ، وَ بِمُنَاسِبَةِ مَا وَعَدَ مِنْ أَنْ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مَتَاعٌ، بِقَوْلِهِ: يَا بَنِي آدَمَ وَ الْخُطَابُ بِهَذَا اللَّفْظِ لِلتَّذْكَيرِ بِجَدِّهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِمُنَاسِبَةِ الْمَوْضُوعِ - قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا إِمَّا الْمَرَادُ «الْإِنْزَالُ» حَقِيقَةً، بِأَنْ أَنْزَلَ اللَّبَاسَ مِنَ الْجَنَّةِ، أَو «الْإِنْزَالُ» مُجَازًا بِنَزُولِ الْمَطَرِ الَّذِى هُوَ سَبَبُ نَبَاتِ الْقَطَنِ وَ مَا أَشْبَهَهُ، وَ رَعَى الْحَيَوَانَاتِ ذَاتِ الْأَصْوَافِ، أَو الْمَرَادُ «التَّعْظِيمُ» لِعَظْمِ الْمَعْطَى، كَمَا يُقَالُ: «رَفَعْتَ عَرِيضَتِي إِلَى الْقَاضِي» تَعْظِيمًا لِمَقَامِهِ وَ أَنَّهُ أَرْفَعُ مَنْزِلُهُ مِنْ صَاحِبِ الْعَرِيضَةِ، وَ مِثْلُهُ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ «١»، وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ «٢»، أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا* رَسُولًا «٣»، يُؤَارِي أَى يَسْتَرُ سَوْآتِكُمْ أَى عَوْرَاتِكُمْ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ رِيشًا أَى أَثَانًا مِمَّا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَ «الرِّيشُ» مَا فِيهِ الْجَمَالُ، وَ مِنْهُ رِيشُ الطَّائِرِ وَ لِبَاسُ التَّقْوَى أَى الْاجْتِنَابُ عَنِ مَعَاصِي اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ سُمِّيَ لِبَاسًا لِأَنَّهُ يَسْتَرُ الشَّرَّ الْكَامِنَ فِى نَفْسِ الْإِنْسَانِ، كَمَا يَسْتَرُ اللَّبَاسُ

(١) الزمر: ٧.

(٢) الحديد: ٢٦.

(٣) الطلاق: ١١ و ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٦٩

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٧]

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

مَوَاضِعُ الْقَبْحِ مِنْ بَدَنِ الْإِنْسَانِ، فَمِثْلًا مِنْ يَغْتَابُ غَيْرَهُ يَظْهَرُ قَبْحَ نَفْسِهِ، فَإِذَا اتَّقَى سَتَرَتْ هَذِهِ التَّقْوَى قَبْحَ النَفْسِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ اللَّبَاسِ الظَّاهِرَةِ، إِذِ الْقَبَائِحُ النَفْسِيَّةُ أَكْثَرُ وَ أَشْبَعُ مِنَ الْقَبَائِحِ الْبَدَنِيَّةِ، لِأَنَّ الْقَبَائِحَ الْكَامِنَةَ إِذَا ظَهَرَتْ تَوَجَّبُ النَّارَ وَ الْخِزْيَ بِخِلَافِ قَبَائِحِ الْجَسَدِ ذَلِكَ أَى لِبَاسِ التَّقْوَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ «مِنْ» إِمَّا لِلإِنشَاءِ، أَى أَنْ لِبَاسِ التَّقْوَى يَنْشَأُ مِنَ الْآيَاتِ وَ الْحُجُجِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ إِمَّا تَبْعِيضِيَّةٌ أَى أَنْ التَّقْوَى مِنْ جَمَلَةِ آيَاتِ اللَّهِ وَ عِلَامَاتِهِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِى أَمَرَ بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أَى جَعَلَ اللَّهُ التَّقْوَى آيَةً لِكِي يَتَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ، وَ يَتَذَكَّرُ فِيمَا أَوْدَعَ فِى فِطْرَتِهِ، فَيَسْعَدُ.

[٢٨] يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ أَى لَا يَضِلَّنَكُمْ بِأَنْ يَدْعُوَكُمْ إِلَى الْمَعَاصِي فَتَجِيبُوهُ فَيَحْرِمُكُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَ الْجَنَّةِ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ آدَمَ وَ حَوَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ وَ نَسَبَهُ الْإِخْرَاجَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ كَانَ بِإِغْوَائِهِ وَ وَسْوَاسَتِهِ، إِخْرَاجًا بِصُورَةٍ بَشَعَةٍ حَيْثُ كَانَ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا وَ

النزع و إن كان من فعله سبحانه، إلا أنه حيث كان بسبب الوسوسة، صح الانتساب إليه، كما قال سبحانه عن فرعون: يُذَيِّحُ أَبْنَاءَهُمْ «١»، مع أن الذبح كان من فعل جنود فرعون لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا أى عورتيهما. ولعل السر في تكرار هذه اللفظة تركيز البشاعة في نفس السامع، فمن يرغب في أن تبدو سوءته؟

(١) القصص: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٠

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٨]

وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)

و حيث كان هنا محل سؤال: أنه كيف يفتن الشيطان الإنسان و لا يراه؟ قال سبحانه: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ أَى نسله، فإن للشيطان نسلا كما للإنسان، كما قال سبحانه أ فَتَتَّبِعُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ «١»، مِنْ حَيْثُ لَا- تَرَوْنَهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْ جِنْسٍ لَطِيفٍ لَا- يَرَى بِالْعَيْنِ الْمَجْرَدَةَ، كَالهَوَاءِ اللَّطِيفِ الَّذِي لَا يَرَى، وَ إِنْ أَحْسَسَ بِهِ الْإِنْسَانُ.

و من قال: إنه كيف يأمر بذلك؟

فالجواب: إن هذه الإلقاءات في القلب بالشر، كلها منه، كما أن الإلقاءات الخيرة من الملائكة- كما في الأحاديث- و إلا فمن أين هذه الإلقاءات؟! إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ معنى «جعله» سبحانه: التخليه بينهم و بين الشياطين، و معنى كونهم أولياء: أنهم يتبعونهم، و يتخذونهم محل الولي الحميم في التصادق معهم دون المؤمنين.

[٢٩] و الذين لا يؤمنون بالإضافة إلى أنهم اتخذوا الشيطان وليا، إنهم مقلدون تقليدا أعمى، كاذبون في أقوالهم، عالمون بالفحشاء، فهم مجمع الرذائل حيث تركوا الإيمان و إذا فَعَلُوا أَى فعل الذين لا يؤمنون فَاحِشَةً أَى خصله فاحشه، متعدية عن الحق، فإن «فحش» بمعنى «تعدى»، و هذا عام شامل لجميع المعاصي قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا

(١) الكهف: ٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧١

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٩]

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)

أى على هذه الفاحشه آباءنا فإننا نقلدهم في عملهم هذا وَ اللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا أَى بهذه الفاحشه- و كان قولهم هذا كذبا- قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهِ آخِرٍ هُوَ: أ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي.

و قد ورد في التفسير: أن الآية نزلت بمناسبة ما كان يفعله المشركون، فإنهم كانوا يبدون سوءاتهم في طوافهم، فكان يطوف الرجال و النساء عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا و لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب، و كانت المرأة تضع على قبلها النسعة في الطواف و تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله و ما بدا منه فلا أحله

تعنى «العورة»، فكان التذكير بذلك بمناسبة إنعام الله على بنى آدم باللباس، و في سياق نزع إبليس لباس آدم و حواء عليهما السلام.

[٣٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا الْفَاحِشَةَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ أَمَرْنَا بِهَا: أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ أَى بالعدل و الحق، لا بالفحش و التجاوز وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ فَلَا تَتَّخِذُوا الشَّيْطَانَ وَلِيًّا، كَالْمَشْرِكِينَ، وَ هَذَا إِذَا عَظَفَ عَلَى «أَمْرِ رَبِّي» أَى قُلْ: أَقِيمُوا، وَ إِذَا عَظَفَ عَلَى «لَا يَفْتَنُكُمُ الشَّيْطَانُ». وَ لَعَلَّ الْمُنَاسِبَ لِلْمَعْنَى، وَ هُوَ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٠ إلى ٣١]

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)

الله يأمر بالقسط، وبالإخلاص، أو للقصه، و هو أن اللازم إقامة الوجه، لا إقامة الفرج- كما كانوا يطوفون عراه-

و ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية هدم لما كان أهل الجاهلية يلتزمون به من اختصاص الشعائر بقبيلة دون قبيلة، فكان لهذا صنم و لذاك صنم و لهذه كعبة و لتلك كعبة، فإن الإسلام يرى المساجد كلها لله، و اللازم على المسلم أن لا يفرق بينها، أو أنه في قبال المسيحيين الذين كان لكل طائفة منهم كنيسة.

وَ ادْعُوهُ أَى ادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَى ليكن دعاؤكم فى حال كونكم أخلصتم له دينكم كما يَدَّأَكُمْ أَى خلقكم تَعُوذُونَ فهو وحده الذى خلق و يعيد، فلا معنى لأن يشرك به غيره.

[٣١] إنكم ستعودون فريقين فريقاً هدى أى هداه الله سبحانه و فريقاً حق أى ثبت عليهم الضلالة لأنهم أعرضوا عن الهداية و سلكوا سبيل الغواية، و إنما ضلوا بسبب إنهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فكانوا يتبعون أوامر الشياطين لا أوامر الله سبحانه، و لذا ضلوا و من اللطيف أنهم يَحْسَبُونَ أَى يظنون و يزعمون أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ و أن طريقتهم حق.

[٣٢] و بمناسبة ذكر المسجد يأتى الحكم حول أمر مرتبط بالمسجد كما أن بمناسبة ذكر المحرمات سابقاً يأتى بيان الحرام و الحلال، و بيان أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٣

الطيب غير محرم و إنما حرم الخبيث لمصلحة الإنسان يا بَنِي آدَمَ خطاب لكل مكلف من أبناء آدم و حواء خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أَى ثيابكم التى تترينون بها، خذوها و ألبسوها إذا أردتم الذهاب إلى المسجد.

روى أن الحسن بن على عليهما السلام كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه. فقيل له: يا بن رسول الله! لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: «إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربى، و هو يقول: خذوا زينتكم عند كل مسجد، فأحب أن ألبس أجود ثيابى» «١».

و الظاهر أن الآية عامة تشمل غير الثياب أيضا و لذا

روى عن الصادق عليه السلام تفسيرها ب «التمشيط» «٢».

وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا أَى مباح لكم المأكول و المشروب، فإن الأمر هنا للإباحة و لا تُسْرِفُوا فى الأكل و الشرب، أو فى كل شىء، و الإسراف هو التجاوز، فقد يصل إلى حد المكروه، و قد يصل إلى حد الحرام إِنَّهُ تعالى لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ أَى يكرههم و يبغضهم.

و لعل التعبير ب «لا يحب» لبيان أن الله سبحانه لعلو مقامه و عظمتة فيجب على الإنسان أن يجتنب ما لا يحبه، فكيف بما يكرهه، و قد جرى ديدن العظماء أن يعبروا ب «لا أحب» فيما لا يريدونه.

(١) وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٤٥٥.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢ ص ١٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٤

[سورة الأعراف (٧): آية ٣٢]

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

[٣٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الزِينَةِ مِنَ الْمَسَاكِنِ وَالْمَتَنَزَّهَاتِ وَالْحُلِيِّ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَائِبِ وَغَيْرِهَا وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرُّزْقِ الْمَأْكُلِ الْحَلَالِ، أَوْ الْمَرَادِ: كُلِّ رِزْقٍ، وَالِاسْتِفْهَامِ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ، أَيْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِمَحْرَمَةٍ وَلَا حَقٌّ لِأَحَدٍ فِي تَحْرِيمِهَا، فَمَا يَفْعَلُهُ الرَّهْبَانُ لَيْسَ صَحِيحًا.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هِيَ أَى الزِينَةُ وَالطَّيِّبَاتِ - بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا - لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَا يَتَنَاوَلُهُ الْكُفْرَانُ مِنْهَا حَرَامٌ لَا يَجُوزُ، فِي حَالِ كَوْنِهَا خَالِصَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِلَا مِشَارَكَةِ الْكَافِرِينَ لَهُمْ إِطْلَاقًا - حَتَّى عَلَى وَجْهِ الْحَرَامِ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ الطَّيِّبَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَكِنَّ الْكُفْرَانَ يَشَارِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ زُورًا فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَهَنَّاكَ احْتِمَالٌ آخَرَ: أَيْ أَنَّ الطَّيِّبَاتِ خَالِصَةٌ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ آمَنَ فِي الدُّنْيَا، فَتَكُونُ جَمْلَةً وَاحِدَةً، لَا جَمْلَتَانِ، ثُمَّ لَا يَخْفَى أَنَّ كَوْنَ الطَّيِّبَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا - عَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى - لَا يَقْتَضِي جَوَازَ تَنَاوُلِهَا مِنْ يَدِ الْكَافِرِ غَيْرِ الْحَرَبِيِّ، بِحُجَّةٍ أَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ فِي الدُّنْيَا لِغَيْرِ الْحَرَبِيِّ حَرَمَةً، لِأَجْلِ اسْتِقَامَةِ أُمُورِ الْعَالَمِ.

كَذَلِكَ أَيْ كَمَا فَضَّلْنَا الْأُمُورَ السَّابِقَةَ، وَاضْحَهُ لَا لِبَسِّ فِيهَا نَفْصَلُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

[٣٤] و لما بين سبحانه المحللات عطف عليها المحرمات، فقال: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ جَمْعَ «فاحشة» أَى الْخِصْلَةَ الْفَاحِشَةَ، الْمُتَعَدِّيَةَ عَنِ الْحَقِّ، مِنْ «فحش» بِمَعْنَى تَعَدَّى، وَ الْمَرَادُ بِهَا:

كُلِّ مَنْكَرٍ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ أَى مَا أَعْلَنَ أَوْ أَخْفَى.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبَّحَانَهُ بَعْضَ أَفْرَادِ الْفَاحِشَةِ لِأَهْمِيَّتِهَا وَالْإِثْمَ أَى الْخَمْرَ، فَإِنَّهُ مِنْ أَسْمَائِهَا قَالَ الشَّاعِرُ:

شربت الإثم حتى زال عقلي كذاك الإثم يفعل بالعقول

وَالْبَغْيَ أَى الظلم بِغَيْرِ الْحَقِّ هَذَا قَيْدٌ تَوْضِيحِي، لِإِفَادَةِ أَنَّ الْبَغْيَ لَيْسَ بِحَقٍّ، كَقَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ: وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ «١»، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ أَى حَرَّمَ سَبَّحَانَهُ الشَّرْكَ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا أَى لَمْ يَقُمْ لَهُ دَلِيلٌ، وَ كُلِّ شَرِكٍ كَذَلِكَ، فَالْقَيْدُ تَوْضِيحِي لِبَيَانِ أَنَّ الْإِشْرَاقَ لَيْسَ بِأَمْرِ اللَّهِ، خِلَافًا لِمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْسُبُونَ شَرَكَهُمْ إِلَيْهِ سَبَّحَانَهُ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَى أَنَّهُ تَعَالَى حَرَمَ نِسْبَةِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

إِلَيْهِ، خِلَافًا لِلْكَفَرَانِ حَيْثُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ الْمَعَاصِيَ وَ يَقُولُونَ: «أَمَرْنَا اللَّهَ بِهَا».

[٣٥] ثُمَّ سَلَّى سَبَّحَانَهُ نَبِيَّهُ، بِأَنَّ لَا يَضِيقُ صَدْرُهُ بِمَا يَفْعَلُهُ الْكُفْرَانُ، مِنْ

(١) آل عمران: ٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٦

[سورة الأعراف (٧): آية ٣٥]

يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)

اِقْتِرَافَ هَذِهِ الْجَرَائِمِ كُلِّهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ أَى لِكُلِّ جَمَاعَةٍ وَ أَهْلِ عَصْرٍ وَ مِصْرٍ مَدَّةٌ لَا يَتَجَاوَزُونَهَا، وَ لِهَوْلَاءِ مَدَّةٍ، ثُمَّ يَلْفَهُمُ الْمَوْتُ، وَ يَنْسِيهِمُ الْبَلَى، وَ سَتَطْهَرُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ بِأَنَّ تَوَجُّهَ الْأَجْلِ إِلَيْهِمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً أَى لَا يَتَأَخَّرُونَ مَقْدَارًا مِنَ الزَّمَنِ، فَإِنَّ «السَّاعَةَ» فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى: مَقْدَارُ الزَّمَانِ قِصْرٌ أَمْ طَالٌ وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ أَى لَا يَتَقَدِّمُونَ عَلَى مَوْعِدِهِمْ، فَإِذَا قَدَّرَ هَلَاكَ أُمَّةٍ

فى الساعة الرابعة من يوم الجمعة، فإذا توجه الأجل إليهم فى الصباح لا يتأخرون إلى الساعة الخامسة، ولا يتقدمون إلى الساعة الثالثة. والظاهر أن الفعلين بمعنى «الاستفعال»، أى لا يطلبون- طلبا مفيدا- التقديم والتأخير، وليس «جاء» بمعنى «وقع» حتى يقال: إن التقديم والتأخير لا يعقل بالنسبة إلى الأمر الواقع، وليس فى الكلام مجاز المشارفة، إذ «جاء» لفظ يقع بالنسبة إلى الواصل، وبالنسبة إلى من فى الطريق.

[٣٦] يا بِنِي آدَمَ خُطَابَ لِعُمُومِ الْمُكَلَّفِينَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ أَى إِنْ أَتَاكُمْ، فَإِنْ «إِذَا» مَرْكَبَةٌ مِنْ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ وَ «مَا» الزَّائِدَةُ رُسُلٌ مِنْكُمْ لَا يُقَالُ: لَا رَسُولَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: إِنْ الشَّرْطُ قَدْ يَصَاحُ لِإِفَادَةِ التَّحْقِيقِ، فَهُوَ إِنْشَاءُ مَفْهُومِ الشَّرْطِ لِعَرَضٍ آخَرَ، كَمَا يَنْشَأُ مَفْهُومُ التَّعْجَبِ وَ الْأَمْرِ وَ الِاسْتِفْهَامِ، لِأَعْرَاضٍ أُخْرَى، فَالْمَرَادُ- هُنَا- أَنْ الرُّسُلَ تَأْتِي لِتَبْيِينِ لِلنَّاسِ، فَمَنْ أَطَاعَ سَعَدَ، وَ مَنْ خَالَفَ شَقِيَ يُقْضَوْنَ عَلَيْكُمْ أَى يُخْبِرُونَكُمْ آيَاتِي وَ أَحْكَامِي فَإِنْ «قَصَّ» بِمَعْنَى «اتَّبَعَ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٦ إلى ٣٧]

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصَبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)

الأثر، فالنقل عن الله سبحانه قصة عنه فَمَنْ اتَّقَى إنكار الرسل والآيات، أو اتقى المعاصى وَ أَضْلَحَ عَمَلِ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ كَخَوْفِ سَائِرِ النَّاسِ وَ لَا- هُمْ يَخْزَنُونَ كَخِزَانِهِمْ، فَإِنْ أَهْلُ التَّقْوَى يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يَصِيبُهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ أَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لَهُمْ أَعْظَمَ الْجَزَاءِ، وَ لِذَا لَا يَكُونُ لِلْكَوَارِثِ عَلَيْهِمْ وَقَعٌ، كَمَا أَنَّهُمْ يَكُونُونَ مُطْمَئِنِّينَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ وَ رَحْمَتِهِ، وَ لِذَا لَا يَكُونُ لَهُمْ خَوْفٌ مِنَ الْعِقَابِ كَخَوْفِ غَيْرِهِمْ.

[٣٧] وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَى حَجَجْنَا وَ دَلَّلْنَا، وَ أَنْكَرُوا الْأَنْبِيَاءَ وَ الرُّسُلَ وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا بِأَنَّ رَأَوْا أَنفُسَهُمْ فَوْقَ الرُّسُلِ، وَ فَوْقَ الْإِذْعَانِ لآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا، فَإِنَّ الْمَلَاذِمَ لِلشَّيْءِ يُقَالُ لَهُ الصَّاحِبُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِلَى الْأَبَدِ.

[٣٨] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَى لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُ، فَهُوَ إِخْبَارٌ فِي صُورَةِ اسْتِفْهَامٍ، لِيَكُونَ أَبْلَغُ، إِذِ السَّمَاعُ يَعِدُّ نَفْسَهُ لِيَجِيبَ بِجَوَابٍ يَرْضَى الْمُتَكَلِّمَ، فَهُوَ إِخْبَارٌ مَعَ أَخْبَارٍ مَعَ أَخْبَارٍ الْمُوَافَقَةِ مِنَ السَّمَاعِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ، أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ الْمَعَادِ، أَوْ سَائِرِ الشُّؤُنِ الْحَقَّةِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصَبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ فَيَنَالُهُمْ جَمِيعُ مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ، وَ الرِّزْقِ وَ الْعَمْرِ، فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَلَا يَقْطَعُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٣٨]

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْبِأْنِسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَارُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَ لَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨)

عنهم ما كتب لهم، بسبب كفرهم حتى إذا جاءتهم رُسُلنا أى ملائكة الموت لتقبض أرواحهم، بعد أن آمنوا مدَّتْهم المكتوبة لهم يتَوَفَّوهُمْ أَى يقبضون أرواحهم قالوا أى الملائكة، لهم: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى أَيْنَ ذَهَبَ أَصْنَامُكُمْ الَّتِي تَجْعَلُونَهَا شَرِيكَةً لِلَّهِ؟ وَ هَذَا الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَ التَّقْرِيعِ، وَ بَيَانِ أَنَّهَا لَمْ تَنْفَعَكُمْ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ الْآنَ قَالُوا يَعْنِي الْكُفَّارَ: ضَلُّوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ عَنَّا فَقَدْ افْتَقَدْنَا هُمْ فَلَا- يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ عَنَّا وَ شَهِدُوا أَى الْكُفَّارَ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ وَ أَخَذَ بِأَقْرَارِهِمْ لِيَجْزُونَ بِكُفْرِهِمْ.

[٣٩] وَ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ: ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ أَى جَمَاعَاتٍ وَ طَوَائِفٍ مِنَ الْكُفَّارِ السَّابِقِينَ قَدْ خَلَتْ أَى مَضَتْ وَ سَبَقْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْبِأْنِسِ فِي النَّارِ وَ هَذَا نَوْعٌ مِنْ عَذَابٍ آخَرَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِحُشْرِهِ مَعَ الْمَجْرِمِينَ يَعْذَّبُ نَفْسِيًّا، كَمَا يَعْذَّبُ

جسدًا يادخاله النار، و هؤلاء لا صفاء بينهم، فاجتماعهم في الدنيا على الكفر لا يسبب ارتياح بعضهم مع بعض هناك، بل بالعكس، ف كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ، النَّارَ لَعَنَتْ أُخْتَهَا أَى الْأُمَّةِ السَّابِقَةَ الَّتِي هِيَ أُخْتُهَا فِي الْكُفْرِ، فَإِنَّ النَّارَ مَحَلٌّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٧٩

خصام و تضارب بعكس الجنة التي دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ «١»، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ «٢». حَتَّى إِذَا أَدَارَكُوا أَى تَلَاَحَقُوا وَ اجْتَمَعُوا، أَصْلَهُ «تدارك» قلبت التاء دالاً و أدغمت الدال في الدال، و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن فيها أَى فِي النَّارِ جَمِيعًا أَى جَمِيعِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ أَى الطائفة التي دخلت النار متأخرة و هم الأتباع لِأَوْلَاهُمْ أَى بالنسبة إلى الرؤساء الذين دخلوا أولاً: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الطائفة الأولى أَضَلُّونَا حَيْثُ أَغْرَوْنَا لِتَتَّخِذَ مَعَكَ شَرِيكًا وَ نَخَالَفُ أَوْامِرَ رَسَلِكَ فَأَتَيْتَهُمْ أَى أعطاهم عَذَابًا ضِعْفًا أَى مضاعفاً: عذاباً لكفرهم، و عذاباً لإغوائهم إيانا مِنَ النَّارِ و بهذا يريدون الانتقام من القادة المغوين. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ: لِكُلِّ مِنْهُمْ وَ مِنْكُمْ ضِعْفٌ أَى عذاب مضاعف، فللرؤساء الضعف للكفر و الإغواء، و للتابعين الضعف للكفر و تقوية مكانة الرؤساء، فإنه لو لا التابعين لم يتمكن المتبوعون من السيطرة و إقصاء الحق، كما قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِتَابِعِي بَنِي أُمِيَّةٍ «لَوْ لَا أَنْتُمْ لَمَا غَضِبُوا حَقًّا» وَ لَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الضَّالُّونَ

(١) يونس: ١١.

(٢) الحجر: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

وَ قَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) و المضلون مقدار عذاب كل واحد منكم، و لا الفرق بين الضعف في المتبوع، و بين الضعف في التابع.

[٤٠] و حينما يسمع القادة جواب الله سبحانه للتابعين، يتوجهون إليهم بالشماتة، قائلين: لسنا أولى منكم بالعذاب ليكون لنا ضعف، فكلنا سواء في الكفر وَ قَالَتْ أَوْلَاهُمْ الْقَادَةُ لِأَخْرَاهُمْ التَّابِعِينَ: فَمَا كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا التَّابِعُونَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ وَ تَفَاوُتٌ فِي الْكُفْرِ، بَأَنَّ يَكُونُ كُفْرُكُمْ أَخْفَ مِنْ كُفْرِنَا، حَتَّى تَسْتَحِقُّونَ عَذَابًا أَقْلَ فَذُوقُوا أَيُّهَا التَّابِعُونَ الْعَذَابَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي.

[٤١] إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَمْ يَقْبَلُوها وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أَى تَكْبَرُوا عَنِ الْخُضُوعِ لَهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَرَفَعُوا أَعْمَالَهُمْ وَ أَرَوَّاحَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُهَا، وَ أَمَّا الْكَافِرُ فَيَصْعَدُ بِعَمَلِهِ وَ رُوحَهُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّمَاءَ نَادَى مُنَادٍ أَهْبَطُوا بِهِ إِلَى سَجِينٍ»

وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ أَى يَدْخُلَ الْبَعِيرُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ أَى ثَقِبَ الْإِبْرَةُ، فَكَمَا يَسْتَحِيلُ دُخُولُ الْجَمَلِ فِي ثَقْبِهَا، كَذَلِكَ يَسْتَحِيلُ دُخُولُ الْكَافِرِ فِي الْجَنَّةِ، وَ هَذَا تَمَثِيلٌ بَدِيعٌ لِلِاسْتِحَالَةِ، وَ قِيلَ الْمُرَادُ بِ«الْجَمَلِ» الْحَبْلُ الْغَلِيظُ وَ كَذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤١ إلى ٤٣]

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَ نُوَدُّوهُ أَنْ تَلِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

أى كما جزينا هؤلاء المكذبين نَجْزِي سائر الْمُجْرِمِينَ و إن كان اختلاف بين أنواع الجزاء، فكل إجرام له جزاء خاص، و عقوبة مخصوصة.

[٤٢] لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ أَى فِرَاشٌ وَ مَضْجَعٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ جَمْعُ «غَاشِيَةٌ»، أَى لِحْفٌ مِنْ نَارٍ، فَالنَّارُ مَحِيطَةٌ بِهِمْ سَفَلًا وَ عَلَوًا وَ كَذَلِكَ أَى كَمَا جَزَيْنَا الْمَكْذِبِينَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِاتِّبَاعِ أَوْامِرِ الشَّيْطَانِ، وَ تَرَكَ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ.

[٤٣] وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَنَّ صِحَّةَ عَقِيدَتِهِمْ وَ عَمَلِهِمْ، وَ لَا يَرَادُ بِأَنَّهُمْ عَمِلُوا كُلَّ الصَّالِحَاتِ، بَلْ قَدَرُ طَاقَتِهِمْ وَ وَسْعُهُمْ، لِأَنَّا لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا مَقْدَارَ وَسْعِهَا وَ الْوَسْعُ دُونَ الطَّاقَةِ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا أَبَدَ الْأَبْدِينَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

[٤٤] وَ هُنَاكَ لَا تَنَازَعٌ وَ لَا تَخَاصُمٌ - كَمَا كَانَ عِنْدَ أَهْلِ النَّارِ - وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أَى: أَخْرَجْنَا مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حَقْدٍ وَ حَسَدٍ وَ عَدَاوَةٍ حَتَّى لَا يَحْسُدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَانَ تَقِيًّا لَا يَخْلُو قَلْبُهُ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، وَ هُنَاكَ تَصَفَّى قُلُوبَهُمْ، لِيَكُونُوا إِخْوَانًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٤٤]

وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)

قَلْبًا وَ قَالِبًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَى مِنْ تَحْتِ قُصُورِهِمْ وَ بِسَاتِيهِمْ الْأَنْهَارُ هَذِهِ جَمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَى أَنَّهُمْ يَكُونُونَ هَكَذَا فِي الْجَنَّةِ فِي قَبَالِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ» وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا أَى أَوْصَلَنَا إِلَى هَذَا النِّعَمِ، بِمَا هَدَانَا سَابِقًا فِي الدُّنْيَا لِلْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ أَى لَمْ نَقْدِرْ عَلَى الْهَدَايَةِ بِأَنْفُسِنَا لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَهْتَدِي إِلَّا بِإِرْسَالِ اللَّهِ الرَّسُلِ، وَ تَبْلِيغِهِ الْأَحْكَامِ، وَ هَذَا شُكْرٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَ تَقْدِيرٌ لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فِي الدُّنْيَا بِالْهَدَايَةِ، وَ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا مِنْ قَبْلِهِ سُبْحَانَهُ، وَ كَانَ مَا قَالُوهُ حَقًّا، وَ هَا نَحْنُ نَرَى صِدْقَ مَا قَالُوا وَ نُؤَدُّوهُ أَى أَهْلَ الْجَنَّةِ يَنَادُونَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدْتُمُوهَا فِي الدُّنْيَا، هِيَ هَذِهِ الَّتِي دَخَلْتُمُوهَا، وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ كَوْنُ النَّدَاءِ قَبْلَ دُخُولِهَا - فَإِنَّ الْوَاوَ لِمَطْلُوقِ الْعَطْفِ أَوْ رَتَّبْتُمُوهَا أَى أُعْطِيتُمْ إِيَّاهَا إِرْثًا، وَ صَارَتْ إِلَيْكُمْ كَمَا يَصِيرُ الْمِيرَاثُ لِأَهْلِ الْمَيْتِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَى جَزَاءَ لِأَعْمَالِكُمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا.

[٤٥] وَ حَيْثُ يَسْتَقِرُّ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ، فِي مَقَرِّهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ، يَقَعُ بَيْنَهُمَا الْحَوَارِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٣

[سورة الأعراف (٧): آية ٤٥]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)

أَى أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَهْلَ النَّارِ، وَ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ الْمَاضِي «نَادَى» لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْمَتَحَقَّقَ الْوَقُوعَ يَنْزِلُ مَنزِلَةَ الْمَاضِي: أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَقَدْ أُعْطِينَا الثَّوَابَ وَ الْجَنَّةَ كَمَا كُنَّا نُوْعِدُ فِي الدُّنْيَا فَهَلْ وَجَدْتُمْ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ النَّارِ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِقَابِ حَقًّا وَ الْوَعْدُ وَ إِنْ كَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ إِلَّا أَنْ انْحَرَفَ الْعَاصِينَ وَ إِعْرَاضَهُمْ، وَ اهْتَدَاءَ الْمُطِيعِينَ إِلَى الطَّرِيقِ، أَوْرَثَ تَوَجُّهَ الْوَعْدِ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَ الْوَعْدِ إِلَى أَهْلِ النَّارِ قَالُوا أَى قَالَ أَصْحَابُ النَّارِ:

نَعَمْ وَجَدْنَا وَعَدَ رَبَّنَا حَقًّا فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَى نَادَى مُنَادٍ بَيْنَهُمْ أَى بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَ أَهْلِ النَّارِ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ وَ

فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُؤَذِّنَ هُوَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

«١»- وَ الْمُرَادُ بِ«لَعْنَةُ اللَّهِ» غَضَبُهُ وَ انتقامه وَ طرده وَ عذابه، وَ إِنَّمَا يَنَادِي الْمُنَادِي بِهَذَا النَّدَاءِ لِيَذْكُرَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَ مِنْ أَجْلِهِ

استحقوا العقاب.

[٤٦] و من هم الظالمون؟ إنهم هم الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَى يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، لِيَسْعَدُوا بِسُلُوكِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَبْغَوْهَا عَوَجًا أَى يَطْلُبُونَ الطَّرِيقَ الْمَعْوَجَ، فَلَا يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَالضَّمِيرُ فِي «يَبْغُونَهَا» رَاجِعٌ إِلَى الْمُضَافِ وَهُوَ «السَّبِيلُ» لَا الْمُضَافَ وَالْمُضَافَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ:

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٤

[سورة الأعراف (٧): آية ٤٦]

وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيْمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)

معناه يطلبون لطريق الله العوج بالشبه التي يلتبسون بها ويوهمون أنها تقدر فيها وهم بالدار الآخرة كافرؤون لا يعتقدون بها.

[٤٧] وَيَبْنِيهِمَا أَى بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ حِجَابٌ أَى فَاصِلٌ وَسِتْرٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ الْأَعْرَافُ: هِيَ الْأَمْكَنَةُ الْمُرْتَفَعَةُ، أَخَذَ مِنْ «عَرَفَ الْفَرَسَ» وَمِنْهُ «عَرَفَ الدِّيَكُ» وَكُلُّ مَوْضِعٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عَرَفٌ، لِأَنَّهُ بظهوره أعرف مما انخفض، وهؤلاء الرجال يعرفون كلاً كلاً من أهل الجنة وأهل النار بِسِيْمَاهُمْ «السِّيْمَاءُ» الْعَلَامَةُ، وَهُوَ فِعْلٌ مِنْ «سَامَ إِبْلَهُ» إِذَا أَرْسَلَهَا فِي الْمَرْعَى مَعْلَمَةً، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيْمَاهُمْ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَعْلَمُونَ بِبَيَاضِ الْوَجْهِ وَالْجَلَالِ وَالْحِفَاوَةِ، وَأَهْلَ النَّارِ مَعْلَمُونَ بِعَلَامَةٍ عَلَى أَنْوْفِهِمْ - كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: سَنَسِيْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ «١»-، وَالْهَيْئَةُ الْمُنْكَرَةُ، وَالْغِبَارُ عَلَى الْوَجْهِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ «٢»، وَغَيْرَهَا.

وَ نَادَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَلَى الْأَعْرَافِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الَّذِينَ يَرُونَهُمْ مِنْ هُنَاكَ آخِذِينَ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَوِ الْمُسْتَقْرِينَ فِيهَا أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ تَهْنِئَةٌ لَهُمْ بِفَوْزِهِمْ بِالْجَنَّةِ لَمْ يَدْخُلُوهَا أَى لَمْ يَدْخُلِ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ الْجَنَّةَ بَعْدَ وَهُمْ يَطْمَعُونَ كَمَا قَالَ

(١) القلم: ١٧.

(٢) عبس: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْمَأْعْرَفِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيْمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨)

سبحانه عن لسان إبراهيم عليه السلام: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي «١»، فَإِنَّهُ يَسْتَعْمَلُ لِلْيَقِينِ وَالرَّجَاءِ.

[٤٨] وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَوَجَّهَتْ أَنْظَارُ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ تَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ الَّذِينَ أَخَذُوا فِي الذَّهَابِ إِلَى جَهَنَّمَ، أَوِ الْمُسْتَقْرِينَ فِيهَا قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فَلَا تَدْخُلْنَا النَّارَ، وَ لَا تَجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِهَا. وَ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ مُتَعَدِّدَةٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَظَاهِرُ الْآيَةِ لَا يَأْبَاهُ «٢».

[٤٩] وَ نَادَى أَصْحَابُ الْمَأْعْرَفِ الَّذِينَ عَلَيْهَا رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيْمَاهُمْ بِعَلَامَاتِهِمْ، وَ أَنَّهُمْ مِنْ رُؤْسَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَ الْمُرَادُ بِالْعَلَامَاتِ، إِمَّا الْعَلَامَاتُ الَّتِي كَانُوا مَعْلَمِينَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، أَى صُورَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَهُمْ بِهَا، وَ إِنَّمَا عَبْرَ بِلَفْظِ «سِيْمَاهُمْ» لِأَنَّهَا تَغْيَرُوا هُنَاكَ فَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا السَّحْنَةَ وَ سَائِرَ الْعَلَامَاتِ، وَ إِمَّا الْعَلَامَاتُ الَّتِي وَ سَمَوْا بِهَا فِي الْآخِرَةِ، مِنْ الزَّرْقَةِ، وَ غِبَارِ الْوَجْهِ وَ تَشْوِيَةِ الْخَلْقَةِ.

قَالُوا أَى قَالَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ لِأَوْلَادِكِ الْمَجْرَمِينَ: مَا أَغْنَى

(١) الشعراء: ٨٣.

(٢) ورد كلمة الأنبياء عن العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ٨ ص ٣٣١، و كما ورد كلمة الأئمة في رواية عن أبي عبد الله عليه السلام قال نحن أصحاب الأعراف: راجع بصائر الدرجات ص ٤٩٩. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٤٩ إلى ٥٠]

أ هُوَ لَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ أَي اجتماعكم و كثرتكم، أو جمعكم الأموال و الأولاد و الخدم و الأصدقاء و ما كنتم تشيئتم كبيرون أي استكباركم على الله و الرسول، ما أغنى عنكم كل ذلك، فلم يدفع العذاب عنكم.

[٥٠] ثم يقول أصحاب الأعراف لأهل النار: أ هُوَ لَاءِ المراد ب «هؤلاء» أهل الجنة الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ فقد كان الكفار يحلفون- في الدنيا- أن الله لا- ينال المؤمنين برحمته منه، و هناك يريهم أصحاب الأعراف أن المؤمنين دخلوا الجنة، و أنالهم الله رحمته.

ثم يتوجه أصحاب الأعراف إلى المؤمنين قائلين لهم: اذْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ و بهذا النحو يقرع أهل النار، في قبال ما كانوا يقرعون المؤمنين في الدنيا.

[٥١] و حينما يستقر الفريقان في مقامهما من الجنة و النار يقع حوار بين الجانبين بهذه الكيفية: وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَي «ينادون»، و إنما أتى بلفظ الماضي، لأن المستقبل المتحقق وقوعه ينزل بمنزلته- كما سبق:- أَنْ أَفِيضُوا أَي صَبَّوْا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ لنسكن به حر النار، أو نرؤى به العطش و الظمأ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ من الطعام و اللباس و غيرهما، لنتفجع به في محلنا الحار الفاقد لكل تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٧

[سورة الأعراف (٧): آية ٥١]

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) شىء من وسائل الراحة قَالُوا أَي قال أهل الجنة في جواب أهل النار: إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا أَي حَرَّمَ الْمَاءَ وَ الرِّزْقَ عَلَى الْكَافِرِينَ فلا يباح لنا إعطاءكم منهما شيئاً.

[٥٢] ثم وصف الكافرين بأنهم الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا فدينهم الذى اختاره الله لهم- و هو الإسلام- اتخذوه أداة تلهى و لعب، فكانوا به يستهزون، أو المراد أن دينهم كان لهوا و لعباً، فيكون التبيكيت لاتخاذهم أصل الدين- الكفرى- لا اتخاذه لهوا. و ظاهر الكلام المعنى الأول، كما تقرر في علم البلاغة أن القيد إذا كان في الكلام توجه النفي و الإثبات إليه.

وَ غَرَّتْهُمْ أَي خدعتهم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فظنوا أنهم يبقون فيها إلى الأبد، و أن نعيمها يكفيهم عن نعيم الجنة فَالْيَوْمَ فى الآخرة نَسَاهُمْ أَي نتركهم فى العذاب، كفعل الناسى الذى لا- يعتنى بالمنسى، و إن أصابه ما أصابه كما نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذا أى كما نسوا فى الدنيا التأهب ليوم القيامة وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ «ما» مصدرية، أى لسبب نسيانهم، و بسبب جحودهم، و إنكارهم لآيات الله و أحكامه. و من هذه الجملة يعلم أن قوله: «الذين اتخذوا» من كلام الله استثناء، لا من تمة كلام أهل الجنة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٢ إلى ٥٣]

وَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ

قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

[٥٣] إن أهل النار وقعوا فيها بعد البيان وإتمام الحجة، فلم يكن هذا العذاب ظلم بالنسبة إليهم ولقد جئناهم بكتاب وهو القرآن فصلنا تفصيلا فلم يكن مجملا- لا- يستفاد منه المطلب على علم أى كنا عالمين بما أنزلنا، فلم يكن الكتاب كتاب جاهل لا يدرى المصالح والمفاسد، ويحكم اعتبارا هديى أى جئنا به لأجل الهداية ورحمة ولأجل الرحمة لقوم يؤمنون وإنما اختص بهم لأن الفائدة تعود إليهم وحدهم، وإن كان الكتاب للكل.

[٥٤] هل ينظرون أى هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا بالكتاب إلا تأويله أى مآل الكتاب، بمعنى: المآل الذى أخبر به الكتاب، من العذاب والعقاب النازل بالكفار. وهذا تهديد كما يقال للعاصى أمر المولى: «هل تنتظر عقابه؟» يوم يأتي تأويله وما حذر منه يقول الذين نسوه أى تركوه، وفعلوا به فعل الناسى من قبل فى الدنيا:

قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَهناك يعترفون بما أنكروه فى الدنيا، حيث لا فائدة فى الاعتراف فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا حتى نتخلص من العقاب أو نرد إلى الدنيا فنعمل عملا صالحا غير الذى كنا نعمل سابقا من المعاصى والآثام؟ لكن ليس لهم شفيع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٨٩

[سورة الأعراف (٧): آية ٥٤]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بَأْمَرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)

ولا يردون، ف قد خسرُوا أنفسهم أهلها بالعذاب والعقاب، وأعطوها بمقابل النار، حيثما أعطى أهل الإيمان نفوسهم فى مقابل الجنان، وربحوا أكبر ربح و ضلَّ عنهم أى ذهب و غاب ما كانوا يفترون أى افتراؤهم على الله بالشرك، فإن الأصنام التى جعلوها شريكه لله، و كانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقرَّبونا إلى الله زلفى «١»، ضلت عنهم فلم يجدوها، ولا شفعت لهم هناك.

[٥٥] ثم بين سبحانه أن الله واحد لا شريك له، وأنه الذى خلق و كوّن، لا شريك له فى شىء من الأمور الكونية إن ربكم أيها الناس الله الذى خلق السماوات أنشأها و كوّنوها و الأرض أوجدها. ولعل ذكر «السماوات» غالبا بلفظ الجمع، و «الأرض» بلفظ المفرد، مع أن كليهما متعددة، كما قال سبحانه: وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ «٢»، أن تعدد السماوات كان مألوفاً لديهم، لما يخبر به المنجمون، من أفلاك الكواكب السيارة، بخلاف تعدد الأرض، و من البلاغة أن يكلم الإنسان المخاطبين قدر عقولهم فى ستة أيام أى فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، و إن لم تكن أيام ذلك الوقت، حيث لا شمس ولا قمر ولا حركة، أما مصلحة خلقها فى ستة أيام مع قدرته سبحانه فى

(١) الزمر: ٤.

(٢) الطلاق: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٠

إنشائها دفعه، فهى كمصلحة خلق الجنين و النبات تدريجا، مع قدرته على الإيجاد دفعه.

ثم بعد خلق السماوات و الأرض استوى أى استولى على العرش و المراد: جعل تدبير الأمر من هناك، كما يقال:

«استوى الملك على العرش» يراد استيلائه على الملك، و «العرش» محل تشريفى خلقه سبحانه و أضافه إلى نفسه، كما خلق الكعبة فى الدنيا، و جعلها بيته، و كان ذلك لألفة الأجسام بمصدر للأحكام و التوجه يغشى الليل النهار أى يلبس النهار، و يمد رواق الليل المظلم على النهار المستنير، كما يغشى الإنسان العباءة على المصباح يطلبه أى يطلب الليل النهار طلبا حثيثا سريعا بكل جد، كأن النهار

يرفض الليل، لكن الليل يطارده مطاردة الطالب للمطلوب الهارب وخلق الشمس والقمر والنجوم في حال كونها مسخرات بأمره فهي تسرى وتدور وتشرق وتغيب حسب أمره سبحانه ألا أي تنبهوا أيها البشر أن له سبحانه الخلق للأشياء كلها والأمر النافذ فيها، فما يكون من تغيير وتبديل إلا بأمره وإرادته، وهكذا لا أمر صحيح في التشريعات إلا له، أما أمر سائر الأمرين، فليست لهم قيمة واعتبار واقعي، إلا إذا كانوا تبعاً لأمره تعالى تبارك الله أي تعالى عن الشريك وسائر النقائص رب العالمين لا رب سواه، ولا إله إلا هو.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٥ إلى ٥٦]

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

[٥٦] ادْعُوا رَبَّكُمْ أيها البشر تَضَرُّعًا أي تخشعًا، فإن التضرع هو التذلل والتخشع، وهو في موضع الحال، أي في حال كونكم متضرعين وَخُفْيَةً أي في حال الاختفاء، فإن الضراعة المخفية أقرب إلى تركيز التوحيد في النفس. ولا يخفى أن هذا في مورد، وفي مورد آخر يستحب الإجهار.

فقد نزل جبرئيل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حال الحج قائلاً: «إن ربك يأمرك بالعبج والتج» (١)

و«العبج» من العجيج. كما أن في الروايات استحباب الإجهار بالصلوات على محمد وآله الطاهرين فإنه موجب لذهاب النفاق، وكأن الجهر والإخفات في الدعاء، كالإعلان والإسرار بالصدقة، الذي لكل واحد منهما مورد. و

قد روى علي بن إبراهيم أن المراد بالتضرع: العلانية،

أي: «ادعوه علانية و سرا» (٢).

إِنَّهُ سبحانه لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ الذين يتجاوزون الحد، إنه سبحانه يحب الخشوع والانكسار، لا التجاوز والاعتداء.

[٥٧] وبمناسبة كراهيته سبحانه للاعتداء يقول تعالى: وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأئِمَّةَ أَصْلَحُوا الْأَرْضَ بِمَنَاجِ السَّمَاءِ، وجعل كل شيء في موضعه، فالتجاوز عن ذلك إفساد في الأرض وشقاء للبشر.

قال الباقر عليه السلام: «إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله بنبيه» (٣).

(١) راجع معاني الأخبار: ص ٢٢٤.

(٢) نقلاً عن مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٧١.

(٣) الكافي: ج ٨ ص ٥٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٥٧]

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِيَلِدَ لِيَكْفِيَ فَانزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)

وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا أي في حال كونكم خائفين وطامعين، خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فَإِنَّكُمْ إذا لم تفسدوا ودعوتموه خوفاً وطمعاً جعلكم الله من المحسنين، فتكون رحمته قريباً منكم، وذلك يوجب استجابته دعائكم، و لطف الله بكم.

[٥٨] وَهُوَ اللهُ وحده الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا أي يطلقها ويجريها لأجل البشارة بالمطر بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أي أمام رحمته - التي هي المطر - فإن الرياح إذا هبت في أيام السحاب، دلت على نزول المطر حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ أي حملت تلك الرياح سحَابًا ثِقَالًا بِالْمَاءِ سُقِنَاهُ أي

دفعنا السحاب لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ و موت البلد: تعقّى مزارعه و دروس مشاربه، لا نبات فيه، و لا عيون و أنهار فَأَنْزَلْنَا بِهِ أَيْ بِالْبَلَدِ، أو بالسحاب، و «الباء» على الأول بمعنى «فى»، و على الثانى بمعنى «السبب» الماء و هناك خلاف فى تكوّن المطر، لكن ذلك لا يهم التفسير، و كيف كان فإنه بقدره الحكيم القدير فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَيْ بسبب الماء مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ المتداوله هناك، لا أن المراد جميع أنواع الثمرات، إلا إذا أخذ الماء و السحاب بصورة عامه لا بالنسبه إلى بلد معين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَ الْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) كَذَلِكَ أَيْ كما أخرجنا بالماء الثمرات نُخْرِجُ الْمَوْتَى مِنَ الْأَرْضِ، فنحييهم.

و فى بعض الأحاديث «تمطر السماء ماء، فيسبب ذلك الماء إحياء الأموات، بقدره الله سبحانه»

«١» لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ المعاد و الآخرة، و كأن «لعل» تفرّيع على إنبات الثمر من ماء السماء فى الأرض الميتة، بأن يكون ذلك سببا لتذكيركم بالآخرة.

[٥٩] وَ الْبَلَدِ الطَّيِّبِ ترابه الصالح للزرع يَخْرُجُ نَبَاتُهُ «نبات» فاعل «يخرج»، أى يخرج زرعه حسنا ناميا بِإِذْنِ رَبِّهِ و أمره سبحانه، بلا نكد و لا عناء و لا تعب وَ الْبَلَدِ الَّذِي خَبِثَ ترابه بأن كان سبخا أو ما أشبه لا يَخْرُجُ النبت إِلَّا نَكِدًا قليلا عسرا لا ينتفع به، و هكذا القلب الطيب ينمو فيه الخير و الفضيلة نموا سريعا ممرعا، و القلب الخبيث لا ينمو فيه الخير إلا قليلا عسرا كَذَلِكَ أَيْ كما بينا هذه الآية الدالة على كمال قدرة الله سبحانه نُصَرِّفُ الْآيَاتِ أَيْ نقلبها و نبينها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ أَيْ للشاكرين الذين يشكرون نعم الله سبحانه، فإنهم المنتفعون بتصريف الآيات، فغاية التصريف لهم دون غيرهم.

[٦٠] و إذ تمّ الدليل على وجوده سبحانه بما له من الصفات، و أنه لا شريك له، يأتى الكلام حول الأنبياء السالفين الذين بلغوا

(١) راجع بحار الأنوار ج ٧ ص ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٠ الى ٦٢]

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالٌّ وَلَا لِي فِي ضَلَالَةٍ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)

رسالات ربهم، و لم يقبل قومهم منهم، فأخذوا بالعذاب، كما سبق فى أول السورة «وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا» لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ حيث كان القوم يعبدون الأصنام و الأوثان ما لَكُمْ أَيْ ليس لكم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فهو خالقكم الذى لا شريك له إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أيها القوم، إن لم تؤمنوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إما المراد يوم القيامة، أو عذابهم فى الدنيا بالطوفان.

[٦١] قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ أَيْ الأشراف، و سمّوا به لأنهم يملأون العيون و الصدور هيبه و جمالا: إِنَّا لَنَرَاكَ يَا نُوحُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيْ انحراف واضح حيث تذر الأصنام و تعبد الإله الذى لم تره.

[٦٢] قَالَ نُوحٌ لَهُمْ: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالٌّ فَلَمْ أَضِلَّ طَرِيقَ الْحَقِّ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الذى يملك كل شىء فهو رب كل شىء، و ما لشىء سواه ملك، فلا شريك له.

[٦٣] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي أَيْ أودى إليكم ما أمرنى ربي بتبليغه، و إنما جمعت الرسالات، باعتبار كل وحى و وحى وَأَنْصَحُ لَكُمْ أَيْ

أنصح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

لفائدتكم وَاَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَ مِنْ صِفَاتِهِ وَآثَارِهِ، وَ مِنْ ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَاتَّبِعُونِي حَتَّى أَهْدِيَكُمْ إِلَى الْحَقِّ.

[٦٤] وَ قَدْ كَانَ الْقَوْمُ يَبْدُونَ التَّعَجُّبَ مِنْ أَقْوَالِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَيْفَ يَدَّعَى هَذَا الْمَنْصِبَ الْخَطِيرَ؟ وَ كَيْفَ يَخْبِرُ عَنْ أَشْيَاءٍ لَمْ يَعْلَمُوهَا؟ فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ: أَوْ عَجِبْتُمْ الْهَمْزَةَ لِلِاسْتِفْهَامِ، أَيْ هَلْ تَتَعَجَّبُونَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ أَيْ بَشَرٍ مِنْ جِنْسِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَ يَخَوْفَكُمُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ تَمَرَّدْتُمْ وَ كَفَرْتُمْ وَ لِيَتَّقُوا أَيْ جَاءَكُمْ الذِّكْرُ لِتَتَّقُوا وَ تَجْتَنِبُوا عِقَابَ اللَّهِ وَ الْكُفْرَ وَ الْمَعَاصِيَ وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَيْ لِكِي يَرْحَمَكُمُ رَبُّكُمْ؟

[٦٥] فَكَذَّبُوهُ أَيْ كَذَبَ الْقَوْمُ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يُوسِعُونَهُ ضَرْبًا، وَ كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بَابِنَهُ إِلَى نُوحٍ، وَ يَقُولُ لَهُ: يَا بَنِي لَا تُؤْمِنُ بِهَذَا فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَنَّهُمْ كَانُوا ثَمَانِيَةَ- فِي الْفُلْكِ أَيْ السَّفِينَةِ، حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَعَمَلَ سَفِينَةً وَ رَكِبَ هُوَ وَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا، ثُمَّ أَمَطَتِ السَّمَاءُ، وَ تَفَجَّرَتِ الْعَيُونُ، حَتَّى أَخَذَ الْمَاءُ وَجْهَ الْأَرْضِ، وَ هَلَكَ الْكُفْرُ بِأَجْمَعِهِمْ، ثُمَّ بَيَّسَتِ الْأَرْضُ وَ خَرَجَ نُوحٌ وَ الْمُؤْمِنُونَ، يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ بِتَقْوَى اللَّهِ مِنْ جَدِيدٍ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَيْ بَدَلْنَا الدَّلَالَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)

عَلَى التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ الْمَعَادِ إِنَّهُمْ أَيْ الْمَكْذُوبُونَ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ يُقَالُ: «رَجُلٌ عَمٌ» إِذَا كَانَ أَعْمَى الْقَلْبَ، وَ رَجُلٌ أَعْمَى إِذَا كَانَ أَعْمَى الْبَصَرِ، وَ سَتَاتِي جَوَانِبَ أُخْرَى مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي بَعْضِ السُّورِ الْآتِيَةِ، كَسُورَةِ هُودٍ وَ غَيْرِهَا، وَ حَيْثُ كَانَ الْمَقْصُودُ فِي الْكِتَابِ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ- حَسَبَ ظَوَاهِرِهَا- نَطَوَى الْقِصَّةَ طَيًّا.

[٦٦] وَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ أَيْ قَبِيلَهُ عَادَ، مِنْ أَحْفَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّسَبِ هُودًا وَ هُوَ مِنْ أَحْفَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَدْ كَانَ هُودُ النَّبِيِّ مِنْ نَفْسِ الْقَبِيلَةِ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى الْقَبُولِ، فَإِنَّ غَالِبَ النُّفُوسِ تَأْتِي عَنْ إِطَاعَةِ غَيْرِ بَنِي قَوْمِهِمْ قَالَ هُودٌ لَهُمْ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ لَيْسَتْ بِأَلْهَةٍ أَفَلَا تَتَّقُونَ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لِمَاذَا لَا تَتَّقُونَ الشُّرَكَ وَ الْمَعَاصِيَ؟

[٦٧] قَالَ الْمَلَأُ الْأَشْرَافَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ وَ التَّعْبِيرُ بـ «كَفَرُوا» إِذَا لَتَجْرِيدِ الْفِعْلِ عَنْ مَعْنَى الْحُدُوثِ، وَ إِذَا بَاعْتِبَارِ الْفِطْرَةَ الْإِيمَانِيَّةَ، كَمَا

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»

«١»، وَ إِذَا بَاعْتِبَارِ الْمَجْمُوعِ فَإِنَّ قَوْمَهُ- إِذَا اعْتَبَرُوا مِنْ زَمَانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَانَ فِيهِمْ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا لَنَرَاكَ أَيْ نَعْلَمُكَ، يَا هُودُ فِي سَفَاهَةٍ فَأَنْتَ سَفِيهٌ، وَ «السَّفِيهَةُ» هُوَ

(١) بحار الأنوار: ج ٢ ص ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٦٧ إلى ٦٩]

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَبْلَغَكُمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضِيطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

الذي ليس له ملكة إصلاح لنفسه أو ماله وَاِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فتكذب في دعوى النبوة، وأنه ليس للعالم إلا إله واحد.

[٦٨] قَالَ هود عليه السلام في جوابهم: يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ فَإِنِّي لست سفيهاً و هل السفيه من ينطق بالحق الذي دل عليه العقل و الفطرة؟! وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ و كلام السفيه غير كلام الرسول العاقل.

[٦٩] أَبْلَغَكُمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّي أَوْدَى إِلَيْكُمْ مَا أَوْحَى إِلَيَّ مِنَ الرِّسَالَاتِ، و الجمع باعتبار كل رسالة رسالة في مختلف الأصول و الفروع و أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَنصحكم لئلا تقعوا في العقاب و العذاب أَمِينٌ في تأدية الرسالة فلا أكذب و لا أغير.

[٧٠] و حيث كان القوم يظهرون عجبهم من رسالة هود عليه السلام قال لهم:

أَوْ عَجِبْتُمْ أَي هَلْ تَتَعْجَبُونَ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ وَ وحي مِنْ قَبْلِ رَبِّكُمْ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَيُخَوِّفَكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَأَذْكُرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ، أَي تخلفون من سبقكم في أموالهم و مساكنهم مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ فَقَدْ أَهْلَكْتُمْ وَأَتَى بِكُمْ مَكَانَهُمْ، أ فلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٠ إلى ٧١]

قَالُوا أَوْ جِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَوَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) تخافون أن يصيبكم ما أصابهم، أم لا تشكرون ما وهب الله لكم من البلاد و الأموال و زادكم الله سبحانه في الخلق بَضِيطَةً هيكلاً و قوّة. فقد كانوا أقوياء ذوى هياكل كبيرة عظيمة فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ آيَةَ اللَّهِ جمع «إلى» بمعنى «النعم» لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَي تفوزون بنعيم الدنيا و سعادة الآخرة.

[٧١] قَالُوا أَي قَالَ قَوْمِ هود: أ جِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَوَحْدَهُ بِلا شريك و نَذَرَ أَي ندع عبادة ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام، و كيف يكون هذا؟ فَإِنَّا لَن نترك الأصنام فَأْتِنَا أَي ادع ربك ليأتينا بما تعدنا من العذاب إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ في أنه إن لم تؤمن نزل علينا العذاب.

[٧٢] قَالَ هود عليه السلام لقومه: قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ أَي و جب أن يقع - فإن المستقبل المتحقق الوقوع ينزل منزلة الماضي - مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ أَي عذاب و غَضَبٌ حيث لم تؤمنوا بعد إتيان الحجة، و وضوح الأدلة، و حيث أن الله سبحانه منزّه عن الأحوال الزائدة، كان المراد ب «غضب» عاقبة الغضب، و هو العذاب، كما قيل: «خذ الغايات و اترك المبادئ».

و عليه فالفرق بين الرجس و الغضب أن الثاني أعم من الأول.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ١٩٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَ إِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

ثم ذكر هود عليه السلام بطالان أصنامهم قائلا: أ تُجَادِلُونَنِي أَي هل أنتم تناظرون معي و تخاصمونني في أسماءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ أَي في أصنام سميتوها أنتم رباً، و إلهي أحجار منحوتة، و إنما قال «في أسماء» إشارة إلى أن ربوبيتها مجرد اسم لا أكثر ما نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا أَي بتلك الأصنام و الأسماء مِنْ سُلْطَانٍ أَي من دليل دال على كونها تصنع شيئاً، أو كونها آلهة و أرباباً. و قد كان

الاحتجاج منه عليه السلام قويا جدا، إذ مدعى الآلهة الزائدة يحتاج إلى دليل و برهان فانتظروا عذاب الله و نكاله إني معكم من المنتظرين لنزول العذاب بكم، و سترون صدق مقالتى.

[٧٣] فجاء العذاب الموعود إليهم، و ذلك أنه سبحانه ساق إليهم سبحانه أمطرتهم بالعذاب حتى هلكوا جميعا و أنجيناها أى هودا عليه السلام و الذين معه برحمته منا فلقد كان عليه السلام و المؤمنون فى حظيرة لا يمر بهم العذاب و قطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا «الدابر» الأصل، أى قطعنا أصلهم، كما يقطع أصل الشجرة، و ذلك كناية عن إهلاكهم بأجمعهم و ما كانوا مؤمنين أى لم يكونوا ليؤمنوا من بعد، فقد عرفنا حالهم، و علمنا نواياهم و ضمائرهم و مستقبلهم.

[٧٤] و أرسلنا إلى ثمود و هى قبيلة من آل رجل يسمى «ثمود» من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٢٤٩

أحفاد نوح عليه السلام أخاهم فى النسب صالحاً حيث كان صالح من نفس القبيلة قال صالح عليه السلام لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده و لا تشركوا به شيئا ما لكم من إله غيرة فتعبده معه قد جاءكم بينة أى دلالة و معجزة من ربكم شاهد على صدق ادعائى للنبوة هذه ناقة الله الإضافة إلى الله تشرifiه، كإضافة مكة إلى الله يقال: «بيت الله»، و إضافة دم الحسين عليه السلام إلى الله، يقال: «ثار الله» لكم آية دالة على صدق كلامى.

و قد كان من قصه صالح ما

ورد: أنه بعث إلى قومه و هو ابن ست عشرة سنة فلبث فيهم حتى بلغ عشرين و مائة سنة لا يجيبونه إلى خير، و كان لهم سبعون صنما، يعبدونها من دون الله، فقال لهم: إن شئتم فاسألونى حتى أسأل إلهى فيجيئكم فيما سألتمونى الساعة، و إن شئتم سألت آلهتكم، فإن أجابتنى بالذى أسألها خرجت عنكم، فقد سئمتكم و سئمتونى، فقالوا: قد أنصفت، فدعاها كلها بأسمائها فلم يجبه منها شىء فنحو بسطهم و فرشهم و ثيابهم و تمرغوا على التراب و طرحوا التراب على رؤوسهم، و قالوا لأصنامهم: لئن لم تجيبوا صالحا اليوم لنفتضحن، ثم دعوه فقالوا: يا صالح ادعها، فدعاها فلم تجبه. قال صالح: فاسألونى حتى أدعو إلهى يجيبكم الساعة، فقالوا: ادع لنا ربك يخرج لنا من هذا الجبل الساعة ناقة حمراء شقراء و براء عشراء بين جبينها ميل، فقال لهم: سألتمونى شيئا يعظم على و يهون على ربي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠١

[سورة الأعراف (٧): آية ٧٤]

وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)

تعالوا، فسأل الله ذلك، فانصدع الجبل صدعا كادت تطير منه عقولهم لما سمعوا ذلك، ثم اضطرب ذلك الجبل اضطرابا شديدا كالمراة إذا أخذها المخاض، ثم لم يفاجنهم إلا رأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع فما استتمت رقبتها حتى اجتزت، ثم خرج سائر جسدها، ثم استوت قائمه على الأرض، فلما رأوا ذلك قالوا: يا صالح ما أسرع ما أجابك ربك، ادع لنا يخرج لنا فضيلها، فسأل الله ذلك فرمت به فذب حولها، فقال لهم: يا قوم أبقى شىء؟ قالوا: لا، انطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأينا و يؤمنون بك. قال الراوى: فرجعوا فلم يبلغ السبعون إليهم حتى ارتد منهم أربعة و ستون رجلا، و قالوا: سحر و كذب.

قال: فانتبهوا إلى الجميع فقال الستة: حق، و قال الجميع: كذب و سحر، فانصرفوا على ذلك ثم ارتاب واحد فكان فيمن عقرها «١».

فدزوها أى دعوها و اتركوها و شأنها تأكل فى أرض الله من نبات الأرض و لا تمسوها بسوء و أذية فيأخذكم أى ينالكم و يصيكم عذاب أليم مؤلم موجه.

[٧٥] وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ بِأَنْ أَوْرَثَكُمْ إِيَّاهَا وَ مَكَّنْكُمْ فِيهَا مِنْ بَعْدِ عَادِ الَّذِينَ أَهْلَكُوا حَيْثُ عَصُوا

ربهم وَبَوَّأَكُمْ أَى جَعَلَ لَكُمْ بِيوتَا وَ مَسَاكِنَ فِى الْأَرْضِ بِحَيْثُ

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٧٥]

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا غِنَاً لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥)

تَتَخَذُونَ مِنْ سُهولِهَا أَى سهول الأرض قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً وَ هذه نعمة كبرى إذ جعل لكم الأرض ذلولاً سهولها و جبالها فَأَذَكَّرُوا آلاءَ اللَّهِ أَى نعم الله عليكم، و قد تقدم أن «آلاء» جمع «إلى» بمعنى النعمة وَ لَا تَعْتَوُوا أَى: لا تطغوا و تسعوا، من «العنا» بمعنى شدة الفساد فى الأرض مُفْسِدِينَ فلا تثيروا الفساد فى الأرض.

[٧٦] قَالَ الْمَلَأُ أَى جماعة الأشراف الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عن قبول الحق، و رفعوا أنفسهم عن ذلك مِنْ قَوْمِهِ أَى من قوم صالح لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَى للمؤمنين الذين نظر إليهم المستكبرون بنظر الضعف و الضعة لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بدل من قوله: «لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا» و إنما جىء به لئلا يظن أن المراد «المستضعف فى الدين»: - أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ وَ أنه رسول من الله. و كان هذا السؤال منهم مقدمة لكلامهم أنهم غير مؤمنين به قَالُوا أَى: المؤمنون: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ صَالِحٌ بِهِ مُؤْمِنُونَ فنعتقد بإله واحد و برسالته و بما جاء به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

[٧٧] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السائلون - بعد سماعهم لكلام المؤمنين -:

إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الرِّسَالَةِ كَافِرُونَ جاحدون منكرون.

[٧٨] فَعَقَرُوا النَّاقَةَ أَى: قتلوها، و «العقر» الجرح الذى يأتى على أصل النفس.

ورد أن الله أوحى إلى صالح عليه السلام: قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة من الماء شرب يوم، و لكم شرب يوم، فكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت ذلك اليوم، فيحلبونها فلا يبقى صغير و لا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل و أصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم و لم تشرب الناقة ذلك اليوم، فمكثوا بذلك إلى ما شاء الله ثم أنهم عتوا على الله و مشى بعضهم إلى بعض و قالوا: اعقروا هذه الناقة و استريحوا منها لا نرضى أن يكون لها شرب يوم و لنا شرب يوم، فجعلا حبلًا لرجل أحمر أشقر أزرق من ولد الزنا لا يعرف له أب يقال له: «قدار» شقى من الأشقياء مشؤوم عليهم فقتلها و هرب فصيها، و اقتسموا لحمها فيما بينهم، فأوحى الله إلى صالح: قل لهم: إني مرسل إليكم عذابي إلى ثلاثة أيام، فإن تابوا و رجعوا قبلت توبتهم عنهم، و إن لم يتوبوا بعثت عليهم عذابي فى اليوم الثالث «١».

وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ أَى تجاوزوا الحد فى الفساد وَ قَالُوا

(١) الكافى: ج ٨ ص ١٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَيْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

يا صالح ائتنا بما تعدنا من العذاب على قتل الناقة و البقاء في الكفر إن كنت من المرسلين ثم أخبر سبحانه بما حل بهم من العذاب. [٧٩] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ «الرجف» الاضطراب فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ أَي فِي مَحَلِّهِمْ، يقول الحاضر: «أنا في داري» أي بلدي و محلتي جَائِمِينَ أَي صرعى مَيِّتِينَ ساقطين لا حركة لهم.

ورد أن صالح لما وعدهم بالعذاب و أمهلهم ثلاثة أيام، قال صالح عليه السلام: إنكم تصبحون و جوهكم مصفرة، و اليوم الثاني محمرة، و الثالث مسودة. فجاءهم ما قاله لهم فلم يتوبوا و لم يرجعوا، فلما كان منتصف الليل أتاهم جبريل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم.

و في بعض التفاسير: إن النار كانت تصحب الصيحة حيث أخذتهم. و لعل تسمية ذلك بالرجفة لأجل الاضطراب الحاصل للإنسان حينما يسمع صيحة مهولة «١».

[٨٠] فَتَوَلَّى أَي أَعْرَضَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ حِينَ رَأَى إِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَيْتُ لَكُمْ أَذِيَتِ النَّصْحِ الَّذِي يَسْعِدُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَ آخِرَاكُمْ

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٢٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٠ الى ٨١]

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ (٨١)

و لكن لا تحبون الناصحين فلا تقبلون نصحي. و لعل سر تأخير هذه الجملة، عن جملة «فأخذتهم الرجفة» مع تقديمها في ظرف الوقوع عليها، إيهاً السياق سرعة الخاتمة، حتى لا يكون فصل بين الإعراض و بين العذاب في اللفظ، و هذا من فنون البلاغة، لكن حيث أن مصير صالح عليه السلام لم يعلم مما قبل، استأنف السياق ذكر مصيره و أنه نفض يديه منهم، و تركهم ليلاقوا ما جلبوه على أنفسهم، دونه.

[٨١] و أذكر لوطاً و لعل اختلاف السياق هنا عمياً سبقه، حيث كان يقول: «و إلى»، تنبيه عدم التعرض لمن توسطهما من الأنبياء، كإبراهيم عليه السلام الذي كان معاصراً للوط، و إنما لم يذكر إبراهيم عليه السلام لعله لعدم نزول عقاب على قومه كما نزل على قوم لوط، و قوم الأنبياء السابقى الذكر إذ قال لقومه أ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟

على نحو الاستفهام الإنكارى، و المراد ب «الفاحشة» المعصية المتجاوزة للحدود، و هى اللواط بالرجال ما سَبَقَكُمْ بِهَا أَي بهذه الفاحشة مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ فَإِنْ قَوْمِ لُوطٍ أَوَّلٌ مِنْ تَعَاطَى هَذَا الْعَمَلِ الشَّنِيعِ.

[٨٢] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً أَي إِيْتَانَا شَهْوِيَا، فَإِنْ لَفْظُ «أَتَى» بَدُونَ هَذَا الْقَيْدِ «الشهوة» يَكُونُ بِمَعْنَى «جاء» مِنْ دُونِ النِّسَاءِ فَلَا تَأْتُونَ الْمُبَاحَ، وَ تَأْتُونَ الْمَحْرَمَ، وَ لَعَلَّ عَدَمَ الْإِيْتَانِ لَهْنِ كَانَ أَيْضًا مُحْرَمًا، كَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٢ الى ٨٤]

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَ

أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

أنه كذلك عندنا، بعد أربعة أشهر بل أنتم قومٌ مُسْرِفُونَ متجاوزون في الظلم والفساد، فإن الإسراف بمعنى التجاوز.

[٨٣] وما كان جواب قومٍ أى جواب القوم للوط عليه السلام الذى كان ينهاهم عن اللواط إلا أن قالوا أى قال بعضهم لبعض أخرجوهم أى أخرجوا لوطاً وأهله من قريبتكم أى مدينتكم، وهى «سدوم» إنهم أناس يتطهرون أى يتحرجون عن هذا العمل، من أجل الطهارة والنزاهة.

[٨٤] فَأَنْجَيْنَاهُ أى خالصنا لوطاً وأهله إلا امرأته من العذاب النازل بقومه، حيث أمرناهم بالسير والفرار من المدينة، ففروا جميعاً إلا زوجته كانت من الغابرين أى الباقين فى قومه المتخلفين عن لوط، وإنما بقيت وهلكت لأنها كانت على طريقتهم، كما قال سبحانه فى آية أخرى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا «١»، إذ لم تؤمنا بما آمن به زوجيهما.

[٨٥] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا أى أرسلنا عليهم الحجارة كالمطر، كما قال

(١) التحريم: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٧

[سورة الأعراف (٧): آية ٨٥]

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)

تعالى فى آية أخرى: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ «١»، ثم قلبت مدينتهم حتى جعل عاليها سافلها فأنظر أى فاعلم يا رسول الله، أو أيها الناظر كيف كان عاقبة المجرمين المرتكبين للسيئات.

[٨٦] وَأرسلنا إلى مديينهم قبيلة سميت باسم جدّهم «مدين» حفيد إبراهيم عليه السلام أخاهم شعيباً وهو من أحفاد إبراهيم عليه السلام، فهو أخ القبيلة قال يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ما لكم من إله غير من الأصنام التى تبتدونها قد جاءكم بيئته من ربكم دلالة واضحة تدل على صدقى. و الظاهر أن المراد «المعجزة»، فإن الأنبياء كانوا مزودين بالإعجاز فأوفوا الكيل والميزان أخذوا وعطاء، فلا تأخذوا زائدا ولا تعطوا ناقصا ولا تبخسوا الناس من «بخس» بمعنى «نقص» أشياءهم أى لا تعطوهم ناقصا حيث إن الشيء المباع هو ملك المشتري، فيكون الشيء للناس، ولذا أضيف إليهم ولا تفسدوا فى الأرض بأن

(١) الحجر: ٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٨٦]

وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)

تعملوا بالمعاصى بعد إصلاحها لا يراد بذلك الإصلاح التام، بل المعنى أن لا تأتوا بالفساد مكان الصالح، فإن الفساد إنما يتدرج إلى المجتمع، أو المراد: لا تفسدوا بعد ما أصلح الأنبياء الأرض.

ذلكم الذى أمرتكم به من إتيان الواجبات وترك المحرمات خيرٌ لكم أى أنفع مما أنتم فيه، و كأن الإتيان بصفة التفضيل فى أمثال المقام، للفضل المتوهم فى الطرف الآخر، مثلاً: كان هؤلاء يزعمون أن ما يعملونه فى الفضل، فقيل لهم: إن ما تدعون إليه خير إن

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ هُوَ لَا وَ إِنْ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ لَكِنَّ الشَّرْطَ فِي أَمْثَالِ الْمَقَامِ مُرْتَبِطٌ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لَعَلِمْتُمْ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ - كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْأَدَبِ -.

[٨٧] وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوَعَّدُونَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا قِطَاعَ طَرِيقٍ، يَقْعُدُونَ فِي الطَّرِيقِ، يُوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ وَالْإِيذَاءِ إِنْ لَمْ يَرْضَحُوا لِلنَّهْبِ وَالسَّلْبِ وَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ تَمْنَعُونَ عَنِ إِيمَانِ النَّاسِ، فَقَدْ كَانُوا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِشَعِيبٍ مَنْ آمَنَ بِهِ أَيْ مَنْ أَرَادَ الْإِيمَانَ، أَوْ الْمَرَادُ صِدْقُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْقِيَامِ بِوِظَائِفِ الْإِيمَانِ وَ تَبْغُونَهَا أَيْ تَطْلُبُونَ السَّبِيلَ عَوَجًا أَيْ تَرِيدُونَ الطَّرِيقَ الْمَعْوَجَّ، وَ لَا تَرِيدُونَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، أَوْ الْمَرَادُ تَصِيدُونَ الْأَعْوَجَاجَ لِسَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ دَائِمًا يَفَكِّرُونَ فِي نَقْدِ الْحَقِّ، حَتَّى يَرَوْهُ لِلنَّاسِ أَعْوَجَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٠٩

[سورة الأعراف (٧): آية ٨٧]

وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) وَ أَذْكُرُوا أَيُّهَا الْقَوْمَ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فِي الْعَدَدِ فَكَثَّرَكُمْ اللَّهُ فَإِنْ جَدَّكُمْ «مَدِينٌ» كَانَ وَاحِدًا، ثُمَّ كَثُرُوا، كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ قَبِيلَةٍ، فَاشْكُرُوا أَيُّهَا الْقَوْمَ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَ أَنْظُرُوا تَفَكَّرُوا وَ تَدَبَّرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ مِنَ الْأُمَّمِ الَّتِي تَقَدَّمْتُمْ، حَيْثُ أَهْلَكْتَ بِعَذَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَمَّا فَسَدُوا وَ أَفْسَدُوا وَ خَالَفُوا أَوْامِرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَخَافُوا أَيُّهَا الْقَوْمَ نَكَالَ اللَّهِ وَ عِقَابَهُ.

[٨٨] وَ لَا يَغْرَنَكُمُ أَيُّهَا الْقَوْمُ تَفَرُّقُ النَّاسِ عَنِّي بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَ كَافِرٍ، فَإِنَّ الْمَصْلُوحِينَ يَتَفَرَّقُ النَّاسُ عَنْهُمْ فَرَقَتَيْنِ دَائِمًا، وَ قَبْلَ شُرُوعِهِمْ فِي الْإِصْلَاحِ، وَ يَكُونُ النَّاسُ حَوْلَهُمْ فَرَقَةً وَاحِدَةً مَوَالِيَةً، وَ لَا يَخْفَى أَنْ هَذَا لَا يَكُونُ سَبَبًا لِأَنْ يَزْعَمَ كُلُّ مَنْ تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ فَرَقَتَيْنِ أَنَّهُ مَصْلُوحٌ وَ عَلَى حَقٍّ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْحَقِّ وَ الضَّمَائِرُ تَشْهَدُ بِالصِّدْقِ وَ الْكُذْبِ، وَ هَاتَانِ عَلَامَتَانِ مُمَيِّزَتَانِ بَيْنَ الْمَحْقُوقِ وَ الْمَبْطُلِ، وَ لِذَا تَمَسَّكَ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «فَاصْبِرُوا».

وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ بِأَنْ صَدَّقُونِي وَ قَبِلُوا رِسَالَتِي وَ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُؤْمِنُوا بَلْ جَحَدُوا وَ بَقُوا عَلَى كُفْرِهِمْ فَاصْبِرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ، الْمُؤْمِنُونَ مِنْكُمْ وَ الْكَافِرُونَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا بِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ وَ إِبْطَالِ كَلِمَةِ الْكَافِرِينَ، أَمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٠

الْآخِرَةِ فَهُوَ شَيْءٌ وَاضِحٌ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ لِأَنَّهُ لَا يَجُورُ فِي الْحُكْمِ، عَنِ عَمْدٍ أَوْ غَيْرِ عَمْدٍ، بَلْ يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَ إِنْ كَانَ مُتَقَالًا حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ «١».

(١) الأنبياء: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء التاسع من آية ٨٩ من سورة الأعراف إلى آية ٤١ من سورة الأنفال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى وَ عَتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٨ إلى ٨٩]

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) فَصَدَّقْتُنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

[٨٩] قَالَ الْمَلَأُ جَمَاعَةَ الْأَشْرَافِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا رَفَعُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ مَقْدَارِهَا وَ عَتَوْا وَ طَغَوْا مِنْ قَوْمِهِ أَى مِنْ قَوْمِ شَعِيبٍ لِنُخْرِجَنَّكَ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ يَا شُعَيْبُ وَ لِنُخْرِجَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَى بَلَدِنَا أَوْ لِنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا «الملة» هى الطريقة، أَى ارجعوا كفارا كما كنتم، و العود فى الملة إما باعتبار الغالب، فأدخل فيه شعيبا عليه السلام تغليبا، فإن المؤمنين به كانوا كفارا ثم آمنوا، أو لزعمهم أن شعيبا عليه السلام كان منهم حيث كان أحدهم قبل ادعاء النبوة، و إما بمعنى الصيرورة، فإن «عاد» يستعمل بمعنى «صار»، كما قال الشاعر:

تلك المكارم لا ثعبان من لبن شييا بماء فعادا بعد أبوالا

قال شعيب عليه السلام لهم: أ تعيدوننا فى ملتكم و تدخلوننا إليها أ و لو كُنَّا كارهين للدخول فيها؟ أى: أ تجربوننا على ذلك؟ و لعل القصد: إنكم لا تقدرتون على ذلك فى حين كراهيتنا لذلك، فإن العقائد لا تزول بالإكراه و الإجبار.

[٩٠] ثم قال شعيب: إنه من المستحيل أن نتخذ طريقتكم، إذ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بأن نجعل الله شريكا، و نحلل حرامه، و نحرم حلاله و ننسب كل ذلك إليه بعد إذ نجانا الله منها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٤

بأن أوضح الحق و أقام الحجة عليه و ما يكون لنا أى لا يجوز لنا أن نعود فيها إلّا أن يشاء الله ربنا و هذا من التعليق على المحال، لأن الله لا يشاء الكفر و العصيان، كما قال: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «١»، و قال: حَتَّى يَلْتَمِحَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ «٢»، أو المراد مشيئة الله بسلب التوفيق منهم، و هذا ممكن بالنسبة إلى بعض المؤمنين الذين لا رسوخ لإيمانهم، كما ارتد بعضهم بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و حيث أن العود بالنسبة إلى كل واحد واحد صح ذلك وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَى وَسِعَ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ كُلَّ شَيْءٍ، فهو أعلم بالصلاح و أعلم بالواقع و الحقيقة، فما كان من عبادتنا لتوحيده، بأمره و نهيه، هو الصحيح دون ما أنتم عليه من الشرك و العناد على الله توكنا فى أمورنا، فلا نخاف من تهديدكم بإخراجنا.

ثم دعا شعيب عليه السلام قائلا: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ مَعْنَى «الفتح» النجاة و وضوح الحق، إذ الواقع فى المشكلة كأن الطريق مسدود أمامه، كما أن من يريد الهداية يرى الضلال حاجزا، فيطلب الفتح لهذا الحاجز و إزالته ليرى الحق، و قيد «بالحق» توضيحي، لإفادة أن فتحه سبحانه بالحق، أو احترازي لأن الفتح يطلق على الفتح بالباطل - كما يفتح الكافر مدينة ما- و الفتح بالحق وَ أَنْتَ يَا إِلَهَنَا

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) الأعراف: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٠ الى ٩١]

وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)

خَيْرُ الْفَاتِحِينَ فَإِنْ سَئِرَ الْفَاتِحِينَ قَدْ يَظْلَمُ عَمْدًا أَوْ خَطَأً أَوْ جَهْلًا، أما الله سبحانه فلا يحيد فتحه عن الحق، قيد شعرة.

[٩١] ثم بين سبحانه ما قالت جماعة شعيب بعضهم لبعض و قال الملاء أى جماعة الأشراف الذين كفروا من قوم شعيب، بعضهم لبعض: لئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا فى دينه و طريقته إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ خسرتم منافعكم و طريقة آبائكم.

[٩٢] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ أَى الزلزلة، أو الصيحة، الموجبة للرجف و الاضطراب فَأَصْبَحُوا فى دَارِهِمْ أى محلهم و بلدهم جَاثِمِينَ أى ميتين ملقين لا حراك فيهم.

فى المجمع: قيل: أرسل الله عليهم رمدة «أى هلاكا جعلهم كالرماد» و حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم البيوت، فلم ينفعهم ظل و لا ماء و أنضحهم الحر، فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح و طيبها و ظل السحابة

فتنادوا: «عليكم بها» فخرجوا إلى البرية فلما اجتمعوا تحتها ألهبها الله عليهم نارا و رجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلى و صاروا رمادا و هو عذاب يوم الظلة «١».

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٣٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

ثم

روى عن أبى عبد الله عليه السلام: «أنه بعث الله عليهم صيحة واحدة فماتوا» «١».

[٩٣] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا و لم يؤمنوا به و برسالته كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا «غنى بالمكان» يعنى: «أقام فيه» أى: كأن المكذبين لم يقيموا فى دارهم أصلا، حيث ذهبت أخبارهم و آثارهم الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا عاد اللفظ تأكيدا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فقد خسروا دينهم و دنياهم و آخرتهم، و هذا فى قبال قولهم: لئن اتبعتكم شعبا إنكم إذا لخاسرون

[٩٤] فَتَوَلَّى عَنْهُمْ شعيب، أى أعرض عنهم، إما قبل الهلاك- و تأخير هذه الجملة لما تقدم فى قصة قوم صالح- و إما حين الهلاك إذ أخذهم العذاب وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي و جمع «رسالات» باعتبار كل رسالته من مختلف الشؤون وَ نَصَحْتُ لَكُمْ بأن تتبعونى حتى تكونوا فى أمن و سلامة فَكَيْفَ آسَى أى أأحزن على قَوْمٍ كَافِرِينَ بعد أن قمت بواجب النصيح و الإرشاد. و المراد بالاستفهام «كيف» النفسى، أى: لا أأحزن، فإنهم استحقوا العقاب بإعراضهم و استكبارهم و تمردهم.

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٤ إلى ٩٥]

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

[٩٥] ثم ذكر سبحانه أنه هكذا جرت عادة الناس بالنسبة إلى الأنبياء، و هكذا جرت سنة الله بالنسبة إلى المكذبين، تسلياً للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و إيقاظا لمن أراد القيام بالأمر و النهى فى سبيل الله تعالى و مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ الْمُرَادُ بِهَا الْمَدِينَةُ مِنْ نَبِيِّ لِإِرشادهم، فلم يؤمنوا به إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا أى أهل تلك القرية بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ البأساء: الشدة، و الضراء: سائر أنواع الضرر لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ أى يتضرعون، بأن يتنبهوا و يتوبوا عن شركهم و كفرهم و معاصيهم.

[٩٦] ثُمَّ بعد أخذهم بالبأساء و الضراء بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ بأن رفعنا عنهم الشدة و جعلنا الرفاه و الرخاء مكانها لعلهم يشكرون، كما قال سبحانه: فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ «١»، فإن الله سبحانه يوقظ العصاة أولا بالشدة، فإن لم تنفع يوقظهم بالرفاه، فإن لم ينفع عذبهم، حيث لم يفدهم لا الخوف و لا الإحسان حَتَّى عَفَوْا «العفو» هو:

الإغضاء عن الذنب، أى فعلوا الذنوب غاضين عنها، تاركين أنفسهم و شهواتها.

وَ إِذَا قيل لهم: إن الشدة و الرخاء للابتلاء و الإيقاظ، لم يصدقوا، بل قالوا: هذه عادة الدنيا دائما ف قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ

(١) الأنعام: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٩٦]

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)

وَالسَّرَّاءُ ما يضر من الشدائد، و ما يسر من الرفاه، و ليسا للابتلاء و الإيقاظ فانسدت جميع أبواب الهداية في وجوههم، و لم ينفعهم إرشاد الأنبياء، و لا الضراء و لا السراء فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ أَي فجأه بدون إمهال وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بالعذاب إلَّا حين يرونه، و ربما كان هناك احتمال إقلاع، و هنا يأتي العذاب تدريجيا، كما حصل لقوم يونس عليه السلام، أو إبلاغا للحجة إلى أقصاها، كما صنع بقوم صالح عليه السلام.

ثم إن المؤمن و الكافر كلاهما يبتليان بالضراء و السراء، لكن هناك فرق؛ فضراء المؤمن مع صبر و ارتياح، و ضراء الكافر مع جزع و كمد، و سراء المؤمن مع بركة و أمن و اطمئنان، و سراء الكافر مع محق و قلق و اضطراب.

[٩٧] وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِأَنْبِيَائِهِ وَاتَّقَوْا مَعَاصِيَهُ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ «البركات» الخيرات النامية، و فتح الخير من السماء بكثرة الأمطار، و طيب الهواء، و فتحه من الأرض بإخراج النبات و الثمار، و تفتح العيون، إلى غيرهما من الخيرات المادية و المعنوية كاستجابة الدعاء و نحوها، و هذا إلى جنب كونه معنويا بلطفه سبحانه، كذلك يكون بالأسباب الظاهرة، فإن الإيمان و التقوى يوجبان سيادة مناهج الله تعالى و هي توجب الأخوة و التعاون مما يسببان ازدهار الحياة و تعميم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢١٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٩٧ إلى ٩٩]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)

الرفاه و الأمن، كما أن الكفر و العصيان سببان لعكس ذلك وَ لَٰكِن كَذَّبُوا الرِّسْلَ و لم يؤمنوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَي بسبب كسبهم المعاصي و الآثام.

[٩٨] ثم ذكر سبحانه أن أهل المعاصي لا بد لهم أن يترقبوا العقاب و النكال أَفَأَمِنَ أَي هل يأمن أهل القرى المكذبون للرسول العاصون لله سبحانه أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا أَي عذابنا بَيَاتًا أَي ليلا وَهُمْ نَائِمُونَ فِي أَمْنٍ وَ رَاحَةٍ وَ اطمئنان؟ و المعنى: أنهم يجب أن لا يأمنوا ذلك.

[٩٩] أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى الهمزة للاستفهام، و الواو للتعطف، أَي و هل يأمن أهل البلاد أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا نكالنا و عقابنا ضُحًى نهارا عند ارتفاع الشمس وَهُمْ يُلْعَبُونَ فِي أَمْنٍ وَ اطمئنان، أنهم إن عصوا فلن يكونوا آمنين في أحسن أوقات أمنهم ليلا و لا نهارا.

[١٠٠] أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ المكر: العلاج الخفي، و إن غلب استعماله عرفا في معالجة الأشياء بالباطل، أَي يجب أن لا يأمن أحد من مكر الله، و تسببه الأسباب للنكال به فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ الذين خسروا أنفسهم، و لا ينكرون من أمرهم، و إلا فالمؤمنين يخافون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٠ إلى ١٠١]

أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَصِيبْنَاهُمْ بِمُذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ

(١٠١)

سوء العقاب الموجب للنكال و العقاب، و المعصومون خارجون عن العموم لأن مصب الكلام حول العصاة- فإنه عبارة أخرى عن وجوب حذر العصاة- أو داخلون باعتبار احتمال صدور ترك الأولى منهم، الموجب لعدم بلوغ بعض الدرجات الرفيعة، كما قال سبحانه: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ وَكَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (١).

[١٠١] أَوْ لَمْ يَهْدِ أَى: ألم يتبه و يرشد للذين يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَى الذين صاروا خلفاء لآبائهم و أجدادهم، من بعد ما أفينا أولئك، و أبحنا الأرض لهؤلاء، أى أليس يعرف الناس مما رأوه من عذاب الأمم السابقة- حينما عصوا- أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ وَ أَخَذْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ كَمَا أَهْلَكْنَا الْأُمَمَ السَّابِقَةَ وَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَنْ نَعْلَمَهَا بَعْلَامَةَ الْكُفْرِ، أَوْ نَغْفُلَهَا حَتَّى لَا تَعْقِلَ شَيْئًا، وَ ذَلِكَ بِسَبَبِ اقْتِرَافِهِمُ الْجَرَائِمَ وَ الْآثَامَ- كما سبق- فَهَمْ لَا يَسْمَعُونَ الْوَعظَ وَ لَا يَقْبَلُونَهُ.

[١٠٢] تَلَسَّكَ الثُّقْرِى التى هلكت و اضمحلت نَقُصُّ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَنْبَائِهَا أَى أخبارها لتتظر فيها بنظر الاعتبار، و تخبر بها المسلمين و غير المسلمين حتى يعتبروا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَى الأدلة

(١) طه: ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

وَ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنِ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)

الواضحة الدالة على المرسل و الرسول فأهلكناهم لأنهم تمادوا فى غيهم و لم يكن احتمال إقلاهم عن كفرهم و عصيانهم إذ ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا كَذَلِكَ حَسْبَ عَلْمِنَا بِكَمَا مِنْ قُلُوبِهِمْ كَذَلِكَ أَى كما طبع على قلوب هؤلاء، بمعنى أنها لم تكن قابلة للهداية بسوء صنيعها، كمن صارت المعصية ملكة له فلا يقدر عادة على تركها كذلك يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَ قد مر مرارا معنى «الطبع» و أنه بسوء اختيار الشخص، لا أنه ظلم من الله- تعالى عن ذلك- بالنسبة إلى الكافر.

[١٠٣] وَ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ أَى أكثر الذين أهلكوا مِنْ عَهْدٍ أَى كانوا يتقضون العهود و الموائيق، يقال: «لا عهد لفلان»، أى لا يفى بعهد، و المراد ب «العهد»، إما ما أودع فى فطرة كل أحد من الإيمان، و إما ما كان مأخوذا من الناس على لسان الأنبياء، و تصح نسبة عدم العهد إلى الأبناء، بملاحظة التعهد مع الآباء، و لذا من عاهد قبيلة أن لا يحاربها خمسين سنة، كان الأبناء ملزمين بما التزم به آباؤهم وَ إِنِ وَجَدْنَا أَى قد وجدنا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ خارجين من الوفاء بالعهد، فإن الفسق بمعنى الخروج عن الطاعة.

[١٠٤] ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ أَى بعد الرسل الذين تقدمت أسماؤهم، أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)

بعد هلاك الأمم السالفة موسى عليه السلام بآياتنا أى مع دلائلنا و حججنا إلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أَى قومه، أو الأشراف منهم، و إنما خصوا لأنه عليه السلام قصدهم أولا و بالذات فَظَلَمُوا أَى ظلم فرعون و ملأه أنفسهم بها أى بسبب تلك الآيات، فإن نزولها صار سببا لظلم أنفسهم، و لو لا أنها نزلت لم يظلموا، لأنه لم تكن حينئذ شريعة أصلا، و هذا مجاز فى النسبة كقوله سبحانه: وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (١)، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى انظر يا رسول الله، أو كل من يأتى منه النظر، و المراد ب «النظر» التدبر و التفكير،

فيما آل إليه أمر المفسدين، من الهلاك و الغرق.

[١٠٥] وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَيْ إِنِّي رَسُولُ إِلَيْكَ، مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَ قَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَقُولُ أَنَّهُ الْإِلَهَ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى «٢».

[١٠٦] حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ أَيْ وَاجِبٌ عَلَى أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ، وَ لَا أَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الصِّدْقَ، فَإِنَّ الْجَدِيرَ بِالنَّبِيِّ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَهُ سَبْحَانَهُ، لَا أَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ تَعَالَى الْبَاطِلَ وَ الْكُذْبَ قَدْ جِئْتُمْ بِبَيِّنَةٍ

(١) الإسراء: ٨٣.

(٢) النازعات: ٢٤ و ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٦ إلى ١٠٨]

قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)

مِنْ رَبِّكُمْ أَيْ بِحُجَّةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِ كَلَامِي، وَ الْمُرَادُ بِهَا الْجِنْسَ لَا حُجَّةً وَاحِدَةً فَأُرْسِلُ يَا فِرْعَوْنُ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ سَخَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْأَعْمَالِ كَالْبِنَاءِ وَ نَحْوِهِ. وَ الْمُرَادُ بِإِسْرَائِيلِهِمُ:

التخليه بين بنى إسرائيل و بين موسى عليه السلام ليوجههم حسب الشريعة.

و فى بعض التفاسير أنه عليه السلام أرادهم ليذهب بهم إلى الأرض المقدسه موطن آبائهم و أجدادهم.

[١٠٧] قَالَ فِرْعَوْنُ: إِنْ كُنْتُ يَا مُوسَى جِئْتُ بِآيَةٍ أَيْ حُجَّةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِكَ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ فَيَأْتِيكَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

[١٠٨] فَأَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِهِ، وَ كَانَتْ مِنَ الْجِنَّةِ فَإِذَا هِيَ تَنْقَلِبُ إِلَى ثُعْبَانٍ مُبِينٍ أَيْ حَيَّةٍ كَبِيرَةٍ عَظِيمَةٍ فَتَحْتُ فَاهَا لِتَلْتَقِمَ قَصْرَ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ طَوْلُهُ ثَمَانِينَ ذِرَاعًا. وَ هُنَا خَافَ فِرْعَوْنَ وَ الْحَاشِيَةَ، وَ هَرَبُوا، وَ أَحْدَثَ فِرْعَوْنُ مِنَ الْخَوْفِ، وَ التَّمَسَّ مُوسَى أَنْ يَرُدَّهَا، فَوَدَّهَا وَ إِذَا بِهَا تَرَجَعَ عَصَا كَالسَّابِقِ.

[١٠٩] وَ نَزَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ أَيْ جَعَلَهَا تَحْتَ إِبْطِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ أَيْ صَارَتْ الْيَدُ أَكْثَرَ ضِيَاءً مِنَ الشَّمْسِ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى إِبْطِهِ وَ أَخْرَجَهَا فَإِذَا بِهَا كَحَالَتِهَا السَّابِقَةَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٠٩ إلى ١١٣]

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أُرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُوتَكُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣)

[١١٠] وَ لَمَّا رَأَوْا هَاتَيْنِ الْمَعْجِزَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ تَحْيِرُوا، وَ هُنَا تَدَخَّلَتِ الْحَاشِيَةُ فِي الْأَمْرِ لِيُخَفَّفُوا مِنْ رُوحِ فِرْعَوْنَ قَالَ الْمَلَأُ أَيْ جَمَاعَةُ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا أَيْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ بِالسَّحْرِ، وَ أَنَّهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ سَحْرًا لَا مَعْجِزَةً.

[١١١] يُرِيدُ أَيْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِاسْتِمَالَةِ قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ سَائِرِ النَّاسِ إِلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْكُمْ. وَ

من الواضح أن شخصا إذا غلب يهرب أعضاء الحكومة السابقة خوفا منه فماذا تأمرون أن نصنع لاتقاء خطر موسى عليه السلام؟

[١١٢] قَالُوا أَيْ قَالَ الْمَلَأُ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ الَّذِي سَأَلَ «مَاذَا تَأْمُرُونَ»:

أَرْجِهْ أَمْرٌ مِنْ «أَرْجَأُ» بِمَعْنَى «أَخَّرَ»، أَيْ أَخَّرَهُ وَ اضْرَبَ مَعَهُ مَوْعِدًا، وَ لَا تَعْجَلْ فِي الْحُكْمِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ وَ أَخَاهُ أَيْ وَ أَخْرَ أَخَاهُ هَارُونَ مَعَهُ

وَ أُرْسِلَ فِي الْمَدَائِنِ الَّتِي حَوْلَكَ، جَمَعَ «مَدِينَةً» أَي ابْعَثْ إِلَى الْبُلْدَانِ الْآخَرَى حَاشِرِينَ أَي أَنَا جَامِعِينَ لِلْسَحْرَةِ لِيَأْتُوا وَيَقَابِلُوهُ بِمِثْلِ سَحْرِهِ.

[١١٣] يَأْتُوكَ أَوْلَثُكَ الْمَبْعُوثُونَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَاسْتَحْسَنَ فِرْعَوْنَ رَأْيَهُمْ وَ أُرْسِلَ فِي طَلْبِ السَّحْرَةِ.

[١١٤] وَ جَاءَ السَّحْرَةُ وَ فِي عَدَدِهِمْ خِلَافٌ: مِنْ سَبْعِينَ، إِلَى ثَمَانِينَ أَلْفِ فِرْعَوْنَ أَي جَاءُوا إِلَيْهِ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا أَي عَوْضًا عَلَى عَمَلِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١٤ إلى ١١٧]

قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُؤَلَّمِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ عَلَى مُوسَى.

[١١٥] قَالَ فِرْعَوْنُ: نَعَمْ لَكُمْ الْأَجْرُ إِنْ غَلَبْتُمُوهُ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى، فَأَكْرَمَكُمْ وَ أَجْعَلْكُمْ فِي عِدَادِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى.

[١١٦] قَالُوا أَي قَالَ السَّحْرَةُ: يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ عَصَاكَ أَنْتَ أَوْلَا وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُؤَلَّمِينَ لِمَا مَعْنَى مِنَ السَّحْرِ؟

[١١٧] قَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلْقُوا مَا مَعَكُمْ أَوْلَا فَلَمَّا أَلْقَوْا حَبَالَهُمْ وَ عَصِيهِمْ الَّتِي كَانَتْ آلَهُ سَحَرَهُمْ سَيَحَرُّوا أَعْيُنَ النَّاسِ فَقَدْ احْتَالُوا فِي تَحْرِيكِ الْعَصَى وَ الْحَبَالِ بِمَا جَعَلُوا فِيهَا مِنَ الزَّبَقِ حَتَّى تَتَحَرَّكَ بِحَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّمْوِيهِ، وَ خَيْلَ إِلَى النَّاسِ أَنَّهَا تَتَحَرَّكُ، وَ قَدْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهَا حَيَاتٌ تَتَحَرَّكُ، وَ مَا شَعَرُوا أَنَّهَا حَبَالٌ تَحَرَّكُهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ بِمَا فِيهَا مِنَ الزَّبَقِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ أَي أَرْهَبُوهُمْ، فَإِنَّ النَّاسَ خَافُوا مِنْ حَيَاتِهِمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ فَإِنَّ الْحَبَالَ الْكَثِيرَةَ الْمَخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانَ وَ الْكَيْفِيَّةَ إِذَا صَارَتْ كُلُّهَا حَيَاتٍ - فِي أَعْيُنِ النَّاسِ - تَرَكِبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ يَكُونُ عَظِيمًا لَدَى النَّاظِرِ.

[١١٨] وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ذَاكَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ الَّتِي هِيَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١١٨ إلى ١٢١]

فَوْقَ الْحَقِّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعَلَّبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَ أَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)

مَعَكَ، فَأَلْقَاهَا فَصَارَتْ ثَعْبَانًا مَدْهَشًا فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ أَي تَلْقَمُ وَ تَأْكُلُ مَا يَأْفِكُونَ أَي إِفْكَهِمْ، وَ الْمُرَادُ بِهِ حَيَاتِهِمْ وَ عَصِيهِمْ، فَإِنَّ الْعَصَا أَخَذَتْ تَأْكُلُ الْحَبَالِ ثُمَّ تَوَجَّهَتْ إِلَى النَّاسِ، فَأَخَذُوا فِي الْهَرَبِ، وَ قَتَلَ تَحْتَ الْأَيْدِي وَ الْأَرْجُلِ جَمْعٌ كَثِيرٌ، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِذَا بِهَا عَصَا، وَ هُنَاكَ قَالَ السَّحْرَةُ: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ تَأْكُلْ حَبَالَنَا، فَلَا بَدَّ وَ أَنْ يَكُونَ إِعْجَازًا مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ.

[١١٩] فَوْقَ أَي ظَهَرَ الْحَقُّ وَ هُوَ أَمْرُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ نُبُوَّتُهُ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ التَّمْوِيَّاتِ، أَي ظَهَرَ بَطْلَانَهَا.

[١٢٠] فَعَلَّبُوا أَي غَلَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ، وَ بَهَتَ أَوْلَثُكَ هُنَالِكَ أَي مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ وَ انْقَلَبُوا أَي انْصَرَفَ فِرْعَوْنُ وَ مَلَائِهِ صَاغِرِينَ أَدْلَاءَ مَقْهُورِينَ.

[١٢١] وَ أَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ فَإِنَّ السَّحْرَةَ لَمَّا شَاهَدُوا تِلْكَ الْآيَاتِ، وَ عَلِمُوا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، لَمْ يَتِمَّالِكُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا وَ سَجَدُوا إِذْعَانًا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ التَّعْبِيرُ بِ«أَلْقَى» مَبْنِيٍّ لِلْمَجْهُولِ، لِأَجْلِ إِفَادَةِ مَعْنَى عَدَمِ تَمَالُكِ النَّفْسِ، وَ أَنْ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ هِيَ الَّتِي سَبَبَتْ أَنْ يَسْجُدُوا.

[١٢٢] قَالُوا أَي قَالَ السَّحْرَةُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ صَدَّقْنَاهُ وَ اعْتَرَفْنَا بِوُجُودِهِ، وَ كَفَرْنَا بِالْوَهْيِ فِرْعَوْنَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٢ إلى ١٢٤]

رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبِيلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)

[١٢٣] رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ إِنَّمَا خَصَّوهُمَا بِالذِّكْرِ، بعد قولهم «رب العالمين» لأنهما دعيا إلى الإيمان بالله.

[١٢٤] قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَ رَأَى إِيمَانَ السَّحْرَةِ: آمَنْتُمْ بِهِ أَيُّ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَ الْإِنْكَارِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أَيُّ قَبْلَ أَنْ تَحْصُلُوا عَلَى إِذْنِي، فَإِنَّهُ كَانَ يَرَى نَفْسَهُ الْمُسْتَحَقَّ لِأَنْ يَأْذَنَ بِالْإِيمَانِ، وَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِدُونِ إِذْنِهِ مُوجِبٌ لِلْعُقُوبَةِ إِنَّ هَذَا أَيُّ هَذَا الْإِيمَانَ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ فَإِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَلْبَسَ عَلَى النَّاسِ أَنَّ إِيمَانَ السَّحْرَةِ لَيْسَ عَلَى عِلْمٍ وَ اعْتِقَادٍ، وَ إِنَّمَا عَنْ تَوَاطُؤِ مِنْ مُوسَى وَ السَّحْرَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا أَيُّ صَنَعْتُمْ هَذَا الْمَكْرَ لِأَنَّ تَسُودُوا أَنْتُمْ فِي الْبِلَادِ، وَ تَخْرُجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ أَهْلَهَا، وَ الْمُرَادُ بِهِمْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَتْ سُلْطَةُ جَدِيدَةٍ، تَجْبِرُ أَهْلَ السُّلْطَةِ الْقَدِيمَةَ بِالْفِرَارِ وَ قِيَاةٍ لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ السَّجْنِ وَ الْقَتْلِ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا السَّحْرَةُ عَاقِبَةُ أَمْرِكُمْ وَ جَزَاءُ عَمَلِكُمْ.

[١٢٥] لَأُقَطِّعَنَّ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ أَيُّهَا السَّحْرَةُ مِنْ خِلَافٍ أَيُّ مِنْ كُلِّ شِقِّ طَرَفَا، كَالْيَدِ الْيَمْنَى وَ الرَّجْلِ الْيَسْرَى، أَوْ بِالْعَكْسِ. وَ كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لِبَقَاءِ التَّوْازَنِ فِي الْجُمْلَةِ لِلْجَسَدِ، إِذْ لَوْ كَانَ الْقَطْعُ مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ، لَمْ يَكُنْ لِذَلِكَ الطَّرْفِ رَجُلٌ يَمْشِي بِهَا، وَ لَا يَدٌ يَتَكَيُّ بِهَا عَلَى الْعَصَا ثُمَّ بَعْدَ الْقَطْعِ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٥ إلى ١٢٧]

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَدْرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذْرُكَ وَ آلِهَتِكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)

و «الصلب» هو الشد على الخشبة حتى يموت، و قد كان يطول بقاء المصلوب يوما و أكثر أَجْمَعِينَ فَلَا أَدْعَ مِنْكُمْ أَحَدًا.

[١٢٦] قَالُوا أَيُّ قَالَ السَّحْرَةُ: إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ «الانقلاب» هو الرجوع، و المعنى: إِنَّكَ إِنْ صَلَّبْتَنَا فَإِنَّا إِلَى جِزَاءِ اللَّهِ وَ ثَوَابِهِ نَرْجِعُ، فَلَا يَضُرُّنَا شَيْءٌ. وَ غَرَضُهُمْ بَيَانُ صَبْرِهِمْ عَلَى مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الشَّدَةِ، وَ أَنَّهُمْ مَصْمُومُونَ عَلَى اسْتِمْرَارِهِمْ فِي الْإِيمَانِ.

[١٢٧] وَ مَا تَنْقِمُ «النقمة» الإنكار، أَيُّ: مَا تَكْرَهُ مِنَّا وَ مَا تَطْعَنُ فِيْنَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا أَيُّ دَلَالَتِهِ وَ حُجْجِهِ لَمَّا جَاءَتْنا فَلَيْسَ لَنَا ذَنْبٌ سِوَى ذَلِكَ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا أَيُّ أَصِيبَ عَلَيْنَا الصَّبْرَ عِنْدَ مَا يَفْعَلُ بِنَا مِنَ الْقَطْعِ وَ الصَّلْبِ وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ أَيُّ وَفَّقْنَا لِلثَّبَاتِ عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِ الْوَفَاءِ حَتَّى نَمُوتَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ الْإِسْلَامِ. وَ فِي أَنَّ فِرْعَوْنَ صَلَبَ هَؤُلَاءِ أَمْ لَا، خِلَافٌ بَيْنَ الْمَفْسُرِينَ.

[١٢٨] وَ قَالَ الْمَلَأُ أَيُّ جَمَاعَةُ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا غَلْبَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِيمَانَ جَمْعٍ بِهِ أَ تَدْرُ أَيُّ هَلْ تَبْقَى يَا فِرْعَوْنَ مُوسَى وَ قَوْمَهُ وَ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِإِظْهَارِ التَّوْحِيدِ، وَ أَنَّكَ لَسْتَ بِإِلَهِ وَ يَذْرُكَ أَيُّ يَتْرَكُكَ مُوسَى، فَلَا يَعْتَنِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٢٩

[سورة الأعراف (٧): آية ١٢٨]

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)

بِكِ وَ يَذْرُكَ آلِهَتِكَ جَمْعُ «إِلَهٍ»، فَقَدْ كَانَ يَدْعَى الرَّبَّ الرَّبِّيَّةَ، وَ جَعَلَ لَهُمْ آلِهَةً أَيْضًا، فَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ وَ الْأَصْنَامَ. وَ قَدْ كَانَ الْإِسْتِفْهَامُ مِنْهُمْ تَحْرِيزًا لِفِرْعَوْنَ، حَتَّى يَقْضَى عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ فِرْعَوْنَ فِي جَوَابِهِمْ: سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ أَيُّ سَوْفَ نَكْتُمُ فِي أَبْنَاءِ قَوْمِ مُوسَى الْقَتْلَ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ يَصْلِحُ لِلْقِتَالِ وَ الْإِفْسَادِ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ أَيُّ نَسْتَبْقِيَهُنَّ أَحْيَاءَ لِلخِدْمَةِ وَ الْإِسْتِمْتَاعِ إِذْ لَا لَهَا لَهُمْ، وَ إِمَاتَةَ لِكَلِمَاتِهِمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ بِيَدِنَا الْقُوَّةَ وَ الْجَنْدَ وَ السَّلَاحَ وَ الْمَلِكَةَ فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ مَقَاوِمَتِنَا.

[١٢٩] قَدْ كَانَ فِرْعَوْنَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِنِي إِسْرَائِيلَ، لَمَّا عَلِمَ أَنَّ زَوَالَ مَلِكِهِ بِيَدِ أَحَدِهِمْ، وَ لَمَّا ظَهَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ

خوفاً، و بعد ما حثه قومه على الانتقام، عزم على العودة إلى ما كان يفعله سابقاً، و لما علم بذلك بنو إسرائيل شكوا إلى موسى عليه السلام ف قال موسى عليه السلام لِقَوْمِهِ اشْبِعِينِي بِإِلَهِ فِي دَفْعِ بَلَاءِ فِرْعَوْنَ عَنِ أَنْفُسِكُمْ وَ اضْبِرُّوا عَلَى أَدَى فِرْعَوْنَ أَيَّاماً قَلِيلَةً، فَلَا تَرْجِعُوا عَنِ دِينِكُمْ، وَ لَا تَظْهَرُوا الْجَزَعَ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ تَعَالَى يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَى يَنْقُلُهَا بِإِمَاتَةِ السَّابِقِينَ أَوْ إِقْصَائِهِمْ، وَ يَجْعَلُهَا فِي أَيْدِي الْآخِرِينَ، كَمَا أَنَّ الْإِرْثَ كَذَلِكَ فِي الْجَمَلَةِ وَ الْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ تَعَالَى، فَإِنَّهُمْ يَجْلِبُونَ بِذَلِكَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ، مَعَ رِضَا اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٢٩ إلى ١٣١]

قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَ نَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَ إِنِ تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)

[١٣٠] قَالُوا أَى قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، لَمَا سَمِعُوا جَوَابَ مُوسَى بِالصَّبْرِ، وَ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ دَفْعَ فِرْعَوْنَ عَاجِلاً: أَوْذِينَا أَى عَذَّبْنَا مِنْ قَبْلِ فِرْعَوْنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَ تَبْعَثَ فِينَا بِالرَّسَالَةِ وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا وَ بَعَثْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَلَمْ نَنْتَفِعْ بِكَ فِي دَفْعِ الْأَذَى قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاعْدُوا إِيَّاهُمْ بِالنَّجَاةِ: عَسَى رَبُّكُمْ أَى لَعَلَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ فِرْعَوْنَ وَ يَنْقِذَكُمْ مِنْهُ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ أَى يَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَهُ وَ الْقَائِمِينَ مَقَامَهُ فِي الْبِلَادِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ بَعْدَ مَا مَلَكَتْ الْأَرْضَ، هَلْ تَفْسُدُونَ كَمَا أَفْسَدَ فِرْعَوْنَ أَمْ تَصْلِحُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَجَازِي الْبَشَرَ بِعَمَلِهِمْ لَا بِعِلْمِهِمْ فِيهِمْ.

[١٣١] ثُمَّ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ مَا فَعَلَهُ بِآلِ فِرْعَوْنَ مِنَ النِّكَالِ وَ الْعِقَابِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَ الْآثَامِ وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ «السِّنِينَ» الْأَعْوَامَ الْمَقْحُطَةَ، يُقَالُ: «أَخَذْتَهُمُ السَّنَةَ» إِذَا كَانَتْ سَنَةٌ مَقْحُطَةً مُجْدِبَةً، أَى عَاقِبَانَهَا بِالْجَدْبِ وَ الْقَحْطِ وَ نَقَصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ فَإِنَّ أَشْجَارَهَا كَانَتْ تَحْمِلُ أَثْمَاراً قَلِيلَةً، وَ هَذَا غَيْرُ جَدْبٍ أَرْضِيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أَى لَكَى يَذْكُرُوا عَذَابَ اللَّهِ فَيَرْجِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ.

[١٣٢] فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ أَى أَصَابَهُمُ الْخَيْرُ كَالْخِصْبِ وَ السَّعَةِ وَ الصَّحَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣١

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٢]

وَ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

وَ مَا أَشْبَهَ قَالُوا لَنَا هَذِهِ أَى إِنَّا نَسْتَحِقُّ ذَلِكَ، وَ هَذَا مِنْ حَسَنِ حِظْنَا، وَ عَلَوِّ طَالِعْنَا، فَلَمْ يَكُونُوا يَشْكُرُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَ إِنِ تَصِبْ بِهِمْ سَيِّئَةٌ كَالْجُوعِ وَ الْقَحْطِ وَ الْمَرَضِ وَ نَحْوِهَا يَطَّيَّرُوا أَصْلَهُ «يَطَّيَّرُ» فَادْغَمْتَ النَّاءَ فِي الطَّاءِ بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: هَذَا مِنْ شَوْمِ مُوسَى وَ سُوءِ طَالِعِهِ، وَ الْأَصْلُ فِي التَّطْيِيرِ مَا كَانَ الْعَرَبُ تَزْعَمُهُ مِنْ أَنَّ الطَّيْرَ إِذَا جَاءَ مِنْ طَرَفِ شِمَالِ الْإِنْسَانِ كَانَ شِراً وَ إِذَا جَاءَ مِنْ طَرَفِ يَمِينِهِ كَانَ خَيْراً، ثُمَّ غَلَبَ التَّطْيِيرُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، فَإِذَا قِيلَ: «تَطْيِيرٌ» أُرِيدَ أَنَّهُ «تَشَاءَمٌ».

فَكَانَ آلُ فِرْعَوْنَ يَرُونَ الْبَلَايَا مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ أَلَا أَى تَنْبِيهِ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ وَ الشَّوْمُ الَّذِي كَانَ يَلْحَقُ بِهِمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عِنْدِ مُوسَى وَ لِأَجْلِ بَلِّهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ كَانَ يَضْرِبُهُمْ بِالْبَلَاءِ عِقَاباً لِأَعْمَالِهِمْ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ بَلِّ كَانُوا يَزْعَمُونَ الشَّوْمَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[١٣٣] وَ قَالُوا أَى قَالَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا: أَى شَيْءٍ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ لَتَمُوهَ عَلَيْنَا بِهَا بِسَبَبِهَا، تَرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ نَوْمًا بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ وَ لَا نَصَدِّقُكَ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْأَلْهُوِيَّةِ وَ الرِّسَالَةِ وَ الْوَعْدِ وَ الْوَعِيدِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٢

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٣]

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣)

[١٣٤] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ هُوَ الْمَاءُ الْغَالِبُ عَلَى أُنْبِيَتِهِمْ وَأَشْجَارُهُمْ حَتَّى خَرَبَهَا وَالْجُرَادَ حَتَّى أَكَلَ أَشْجَارَهُمْ وَزَرْعَهُمْ وَالْقُمَّلَ هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَنَحْوِهَا وَالضَّفَادِعُ جَمْعُ «ضَفْدَعٍ» حَتَّى كَانَ يَثْبُ فِي أَوَانِيهِمْ وَقُدُورِهِمْ وَيَكْثُرُ فِي بَيْوتِهِمْ وَمَحَلَاتِهِمْ حَتَّى عَجَزُوا عَنْهَا وَالدَّمَ فَقَدْ انْقَلَبَ مَاءُ النَّيْلِ دَمَا فَكَانُوا لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ شَرْبِهِ وَلَا يَهْتَوُونَ بِأَكْلِهِ وَطَعَامِ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ أَي مَعْجَزَاتٍ فَصَيَّلَتْ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، ظَاهِرَاتٍ وَاضِحَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا أَي تَكَبَّرُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ عَاصِينَ ذَوِي كُفْرٍ وَإِجْرَامٍ.

روى أن السحرة لما سجدوا و آمن بموسى جمع من آل فرعون قال همام لفرعون- و كان وزيره-: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل فى دينه فاحبسه، فحبس كل من آمن به من بنى إسرائيل، فجاء إليه موسى، فقال له: خلّ عن بنى إسرائيل، فلم يفعل، فأنزل الله عليهم فى تلك السنة الطوفان، فخرّب دورهم و مساكنهم حتى خرجوا إلى البرية و ضربوا الخيام، فقال فرعون لموسى: ادع ربك حتى يكف عنا الطوفان فأخلى عن بنى إسرائيل و أصحابك، فدعا موسى ربه فكفّ عنهم الطوفان و همّ فرعون أن يخلى عن بنى إسرائيل، فقال له همام: إن خليت عن بنى إسرائيل غلبك موسى و أزال ملكك، فقبل منه و لم يخلّ عن بنى إسرائيل، فأنزل عليهم فى السنة الثانية الجراد فجردت كل شىء كان لهم من النبت و الشجر حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٣

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٤]

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَكَذَّبْنَاكَ بِئِنَّ إِسْرَائِيلَ (١٣٤)

كانت تجرد شعورهم و لحاهم، فجزع فرعون من ذلك جزعا شديدا، و قال: يا موسى ادع ربك أن يكف عنا الجراد حتى أخلى عن بنى إسرائيل و أصحابك، فدعا موسى ربه فكفّ عنهم الجراد.

فلم يدعه همام أن يخلى عن بنى إسرائيل فأنزل الله عليهم القمل فذهب زرعهم و أصابتهم المجاعة فقال فرعون لموسى: إن دفعت عنا القمل كففت عن بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه حتى ذهب القمل، فلم يخلى عن بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم بعد ذلك الضفادع فكانت تكون فى طعامهم و شرابهم، فجزعوا من ذلك جزعا شديدا، فجاءوا إلى موسى فقالوا: ادع الله يذهب عنا الضفادع فإننا نؤمن بك و نرسل معك بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه فرفع الله عنهم ذلك، فلما أبوا أن يخلوا عن بنى إسرائيل حوّل الله ماء النيل دما فكان القبطى يراه دما و الإسرائيلى يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلى كان ماء و إذا شربه القبطى كان دما، فجزعوا من ذلك جزعا شديدا فقالوا لموسى: لئن رفع عنا الدم لنرسلن معك بنى إسرائيل، فلما رفع الله عنهم الدم غدروا و لم يخلوا عن بنى إسرائيل.

[١٣٥] وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ «الرِّجْزُ» الْعَذَابُ، فَقَدْ أَصَابَهُمْ ثَلْجٌ أَحْمَرٌ وَ لَمْ يَرَوْهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَمَاتُوا فِيهِ وَ جَزَعُوا وَ أَصَابَهُمْ مَا لَمْ يَعْهَدُوا مِنْ قَبْلِ قَالُوا أَي فَرْعُونَ وَ مَلَأَهُ: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ أَي بِمَا تَقْدِمُ إِلَيْكَ أَنْ تَدْعُوهُ بِهِ، فَإِنَّهُ يَجِيبُكَ كَمَا أَجَابَكَ سَابِقًا لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا هَذَا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ النَّبُوَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٥ إلى ١٣٦]

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَطْلُقُ سَرَاخَهُمْ مِنَ السُّجُونِ وَ مِنْ تَسْخِيرِهِمُ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ.

[١٣٦] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ بَدَعَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ مَعْنَى «كَشَفَ الرِّجْزَ» رَفَعَ الْعَذَابَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوْهِ أَى: إِنْ رَفَعْنَا الْعَذَابَ كَانَ لِأَجَلٍ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَدَّةَ الْمَحْدُودَةَ الْمَقْدَرَةَ لَهُمْ، إِذْ لَمْ يَقْدَرْ مَوْتُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمُ الرِّجْزُ فِيهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ أَى يَخَالِفُونَ وَ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ وَ لَا يَطْلُقُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

[١٣٧] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ أَى عَذَّبْنَاهُمْ جَزَاءَ بِمَا فَعَلُوا مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي فَأَعَزَّفْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ أَى فِي الْبَحْرِ بِأَنَّهُمْ أَى بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا أَى عَنِ الْآيَاتِ غَافِلِينَ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ عَمَلَ الْغَافِلِ عَنِ الْآيَاتِ، إِذْ الْمَلْتَفَتِ الْعَاقِلِ لَا يَخَالَفُ وَ لَا يَكْذِبُ، أَوْ الْمُرَادُ غَافِلِينَ عَنِ عَوَاقِبِ الْآيَاتِ، كَمَا يُقَالُ: «فَلَانٌ غَافِلٌ عَنِ أَمْرِ السُّلْطَنَةِ» أَى عَنِ عَوَاقِبِ السَّيْئَةِ فِيمَا إِذَا خَالَفَ. وَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَنَّهُ بَعْدَ نَزُولِ الثَّلْجِ خَلَّى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَاجْتَمَعُوا إِلَى مُوسَى فِي مِصْرَ وَ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَنْ كَانَ هَرَبَ مِنْ مِصْرَ وَ بَلَغَ فِرْعَوْنَ ذَلِكَ، فَقَالَ هَامَانَ: قَدْ نَهَيْتُكَ أَنْ تَخْلَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَدْ اسْتَجْمَعُوا إِلَيْهِ، فَجَزَعَ فِرْعَوْنَ، وَ فَرَّ مُوسَى إِلَى الْخَارِجِ وَ اتَّبَعَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٥

[سورة الأعراف (٧): آية ١٣٧]

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

فِرْعَوْنَ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْبَحْرِ، فَدَخَلَ مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ الْبَحْرَ بَعْدَ مَا انشَقَّ لَهُمْ طَرَقًا، وَ لَمَّا بَلَغُوا مَتْنَصِفَ الْبَحْرِ- وَ هُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ- دَخَلَ فِرْعَوْنَ وَ جُنُودَهُ الْبَحْرَ وَ لَمَّا بَلَغَ مُوسَى آخِرَ الْبَحْرِ وَ خَرَجُوا، كَانَ فِرْعَوْنُ قَدْ بَلَغَ مَتْنَصِفَهُ- وَ عَرَضَهُ أَرْبَعِ فَرَاسِخٍ تَقْرِيبًا- وَ هُنَاكَ أَطْبَقَ الْمَاءُ عَلَى أَصْحَابِ فِرْعَوْنَ، وَ أَغْرَقُوا أَجْمَعِينَ.

[١٣٨] وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَعْنَى: أُعْطِينَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضَعِينَ، فَإِنَّ الْقَبْطَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَهُمْ، فَأَوْرَثَهُمُ اللَّهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا أَى مَشَارِقَ الْأَرْضِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، وَ مَغَارِبَهَا يَعْنِي أَرْضَ الشَّامِ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَلَكُوهَا بَعْدَ الْفِرَاعِنَةِ وَ الْعِمَالِقَةَ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بِإِخْرَاجِ الزَّرْعِ وَ الثَّمَارِ وَ سَائِرِ صِنُوفِ النَّبَاتِ وَ الْأَشْجَارِ وَ تَمَّتْ وَ ثَبَتَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى صِفَةً «كَلِمَةً» أَى الْكَلِمَةَ الْحَسَنَةَ الَّتِي وَعَدَهَا اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ وَ اسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ تَمَامَ الْكَلِمَةِ الْحَسَنَى بِسَبَبِ مَا صَبَرُوا عَلَى أَذَى فِرْعَوْنَ مَتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِمْ، وَ قِيلَ الْمُرَادُ ب «الْكَلِمَةَ الْحَسَنَى» مَا بَيَّنَّهُ سَبْحَانَهُ فِي مَحَلِّ آخِرِ بَقُولِهِ:

وَ نَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ إِلَى قَوْلِهِ- يَحْذَرُونَ «١».

(١) القصص: ٦ و ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٣٩]

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّنْ هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)

وَ دَمَرْنَا أَى نَسَفْنَا وَ أَهْلَكْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ مِنَ الْأَبْنِيَّةِ وَ الْقُصُورِ وَ مَا كَانَ يَصْنَعُهُ قَوْمُهُ مِنَ الْمَنَازِلِ وَ الْمَزَارِعِ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ مِنَ الْأَشْجَارِ وَ الْأَعْنَابِ وَ الثَّمَارِ، أَى يَجْعَلُونَ لَهُ عَرِيشًا وَ سَقْفًا.

[١٣٩] وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ أَى قَطَعْنَا لَهُمْ بَحْرَ مِصْرَ الْأَحْمَرِ بِأَنْ جَعَلْنَا لَهُمْ فِيهِ طَرَقًا يَابِسَةً لِيَعْبُرُوا فَلَمَّا عَبَرُوا فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ أَى مَرُّوا عَلَى جَمَاعَةٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ أَى يَقْبَلُونَ عَلَيْهَا مَلَازِمِينَ لَهَا مُقِيمِينَ عِنْدَهَا قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا مِجْسَمًا حَتَّى نَعْبُدَهُ

كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ يَعْبُدُونَهَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ رَبَّكُمْ وَ لَا تَعْظُمُونَهُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، لِأَنَّهُ شَرَكٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[١٤٠] إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ مُتَّبِعِينَ أَي مَدْمَرٌ مَهْلِكٌ، مِنْ «التَّبَارِ» بِمَعْنَى الْهَلَاكِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَي أَنْ هَذِهِ الْعِبَادَةُ تُوَجِّبُ الْهَلَاكَ وَ الدَّمَارَ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَي أَنْ عَمَلُهُمْ بَاطِلٌ لَا نَصِيبَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَ الْحَقِيقَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٠ إلى ١٤١]

قَالَ أُغَيِّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكَمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

[١٤١] ثُمَّ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ عَلَى نَحْوِ الْاِسْتِكَارِ وَ التَّوْبِيخِ:

أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا أَي أَلْتَمَسَ وَ أَطْلَبَ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ أَبْدَاً وَ الْحَالُ أَنَّهُ إِلَهَكُمْ الْوَحِيدَ وَ هُوَ الَّذِي فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ أَي عَالَمِي زَمَانِهِمْ، فَإِنَّهُ هُوَ الْمَعْطَى الْمَفْضَلُ، فَكَيْفَ أَتَّخِذُ إِلَهًا غَيْرَهُ؟! [١٤٢] ثُمَّ خَاطَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِيُعَدِّدَ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ، اسْتَدْرَاجًا لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَ تَذْكِيرًا بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنْهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْإِحْسَانِ وَ أَذْكَرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَلَصْنَاكُمْ مِنْهُمْ، وَ الْمَرَادُ بِ«آلِ فِرْعَوْنَ» قَوْمَهُ وَ ذَوُوا السُّلْطَةِ فِي مَلِكِهِ، حِينَ كَانُوا يَسُومُونَكُمْ أَي يُولُونَكُمْ وَ يَفْعَلُونَ بِكُمْ- مِنْ «سَامِ فَلَانًا» إِذَا عَذَبَهُ وَ أَذَلَّهُ- سُوءَ الْعَذَابِ أَي الْعَذَابِ السَّيِّئِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ: يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ «التَّقْتِيلُ» تَفْعِيلٌ مِنَ الْقَتْلِ، أَي يَكْتُلُونَ الْقَتْلَ فِي الذِّكْرِ مِنْكُمْ. فَقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَقْتُلُ أَوْلَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِنَلَا يُولِدُ فِيهِمْ مَوْلُودٌ ذَكَرَ يَذْهَبُ بِمَلِكِهِ- حَسَبَ مَا أَخْبَرَهُ الْمُنْجَمُونَ- ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَ إِنَّ عِلْمَ بِمُوسَى وَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ، أَخَذَ يَقْتُلُ الذِّكْرَ ثَانِيَةً، لِنَلَا يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ مُوسَى وَ تَقْوَى شَوْكَتِهِ فَيَعَارِضُوهُ فِي سُلْطَانِهِ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ أَي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٨

[سورة الأعراف (٧): آية ١٤٢]

وَ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

يَسْتَبْقُونَهُنَّ أَحْيَاءَ لِلْخِدْمَةِ وَ الْاِسْتِمَاعِ وَ الْاِذْلَالَ وَ فِي ذَلِكَ أَي فِي تَخْلِيَةِ فِرْعَوْنَ وَ مَا يَفْعَلُ بِكُمْ بَلَاءً أَي ابْتِلَاءً مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِهِ سُبْحَانَهُ لِيَجَازِيَ الصَّابِرِينَ عَظِيمٌ أَوْ الْمَعْنَى: فِي طَرَفٍ مَا فَعَلَ بِكُمْ مِنَ النِّجَاءِ «بِلَاءٌ» أَي نِعْمَةٌ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِمَعْنَاهَا «مِنْ» طَرَفٍ رَبِّكُمْ «عَظِيمٌ» حَيْثُ تَفْضَلُ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَةِ النِّجَاءِ مِنْ ذَلِكَ الشَّقِيِّ.

[١٤٣] ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ تَمَامَ نِعْمَةِ عَلِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ: وَ وَاَعَدْنَا أَي وَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً فَقَدْ رَوَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَانَ بِمِصْرَ وَعَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ إِذَا أَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ أَتَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِيهِ بَيَانٌ مَا يَأْتُونَ وَ مَا يَذْرُونَ، فَلَمَّا هَلَكَ فِرْعَوْنُ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ الْكِتَابَ، فَوَعَدَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَ إِلَى الطُّورِ وَ يَصُومُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ يُعْطِيهِ الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ الشَّرَائِعُ. وَ لَعَلَّ ذَكَرَ «لَيْلَةً» دُونَ «يَوْمٍ» لِأَجْلِ أَنَّ اللَّيْلَ أَقْرَبُ إِلَى الْمُنَاجَاةِ، فَإِنَّ الظُّلْمَةَ تَشَعُّ فِي النَّفْسِ الْاِنْقِطَاعَ وَ الْخَوْفَ وَ الرَّجَاءَ، مِمَّا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ النَّهَارِ، وَ لِذَا كَانَ الْعِبَادُ يَتَّخِذُونَهَا مِيقَاتًا لِعِبَادَتِهِمْ وَ أَتَمَّمْنَا أَي أَكْمَلْنَا الثَّلَاثِينَ لَيْلَةً بِعَشْرِ لَيَالٍ حَتَّى صَارَ الْمَجْمُوعُ أَرْبَعِينَ فِتْمَ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَي الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ لِإِعْطَاءِ الْكِتَابِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِ تَهْيِئَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَهْلِيهِ إِعْطَاءَ الْكِتَابِ، وَ لِنَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ عَظَمَةَ الْكِتَابِ حَتَّى أَنْ مِثْلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُعْطَى لَهُ إِلَّا بَعْدَ الصِّيَامِ وَ الْقِيَامِ.

وَ لَا يَخْفَى أَنَّ الْإِتْمَامَ عَشْرًا لَا يَنَافِي وَعَدَهُ ثَلَاثِينَ، فَإِنَّ الْمَقْرَّرَ كَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٣٩

[سورة الأعراف (٧): آية ١٤٣]

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

إعطاء الكتاب بعد إتمام الثلاثين، لا بمجرد إكمال الثلاثين، و إنما قال: «فتم ميقات ربه» لثلا يوهم أن المعنى: أكملنا الثلاثين بعشر حتى كملت ثلاثين، نحو: «أكملت العشرة بدرهمين».

وَ حِينَ أَرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخُرُوجَ إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ أَوْحَى إِلَى أَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي أَى كُنْ خَلِيفَتِي فِي قَوْمِي فَإِنِ هَارُونَ وَ إِنِ كَانَ نَبِيًّا لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَئِيسًا، ففوض إليه موسى عليه السَّلَامُ منصب الرئاسة وَ أَصْلَحَ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ وَ أَصْلَحَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْفَسَادِ وَ يَفْسُدُونَ النَّاسَ، وَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِنِ كَانَ مِنْهَا عَنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَتَنْبِيهِ الْقَوْمِ وَ إِرْشَادِهِمْ إِلَى عَمَلِ هَارُونَ، فَإِنِ الْإِنْسَانُ قَدْ يُوَصَّى لِأَجْلِ الْوَصِيِّ، وَ قَدْ يُوَصَّى لِأَجْلِ مَنْ يَسْمَعُ.

[١٤٤] وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمِيقَاتِنَا «الميقات» هُوَ الزَّمَانُ أَوْ الْمَكَانُ الَّذِي قَدَّرَ لِيَعْمَلَ فِيهِ، وَ لِذَا يُقَالُ: «ميقات الحج» لِلْمَكَانِ الْمَقْدَّرِ فِيهِ الْإِحْرَامُ، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا انْتَهَى مُوسَى إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَقَّعْنَا لَهُ وَ أَمْرَانَهُ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهِ لِتَنْزِيلِ عَلَيْهِ التَّوْرَةِ، أَوْ الْمَرَادِ الْمِيقَاتِ الزَّمَانِيَّةِ، أَى لَمَّا انْتَهَى إِلَى زَمَانِ الْمَوَاعِدَةِ وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ بِأَنْ خَلَقَ الْكَلَامَ فِي الْفُضَاءِ حَتَّى سَمِعَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنِ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ مَنْزَهُ عَنِ اللَّسَانِ وَ اللَّهَاءِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْكَلامِ الْجَسَدِيِّ.

قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ أَرِنِي نَفْسَكَ أَنْظُرْ إِلَيْكَ نَظْرًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٠

العيان. و قد كان هذا السؤال من موسى إجابة لطلب قومه،

فقد روى أنه لما كلمه الله و قرَّبه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم بذلك، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته، فاختار منهم سبعين فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل و صعد إلى الطور و سأل الله أن يكلمه و يسمعهم كلامه، فكلمه الله فسمعوا كلامه من فوق و أسفل و يمين و شمال و وراء و أمام، لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثا منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه من جميع الوجوه كلام الله حتى نرى الله جهره، فلما قالوا هذا القول العظيم و استكبروا و عتوا بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا. فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم و قالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك؟

فأحياهم و بعثهم معه فقالوا: لو أنك سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو و نعرفه حق معرفته، فقال: يا قوم إن الله لا يرى بالأبصار و لا - كيفية له و إنما يعرف بآياته و يعلم بعلاماته، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل و أنت أعلم بصلاحتهم، فأوحى الله إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى: رب أرنى انظر إليك

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ مُوسَى: لَنْ تَرَانِي أَبَدًا، فَإِنِ «لَنْ» لِنَفْسِ الْأَبَدِ، وَ ذَلِكَ لِاسْتِحَالَةِ رُؤْيَةِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ لَا فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ، فَإِنِ لِلرُّؤْيَةِ شُرَائِطَ كُلِّهَا مَفْقُودَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَبَّحَانَهُ، وَ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَرْتَبِيُّ جَسْمًا أَوْ عَرْضًا، وَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ لَيْسَ بِجَسْمٍ وَ لَا عَرْضٍ وَ لَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤١

الذي كان هناك فإن استقر مكانه حال التجلي فسوف تراني و قد كان هذا من باب التعليق بالمحال، فإن استقرار الجبل مكانه مع إرادة الله عدم الاستقرار له كان مستحيلا. فيكون التعليق على ذلك مثل قوله: حَتَّى يَلِجَ الْجَبَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ «١»، و قوله: إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَ لِمَدِّ قَاتِنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ «٢»، لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا «٣»، مما جرى العرف بالتعليق على شيء لا يكون، في بيان أن

الشيء الفلاني لا يكون فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ أَي رَبِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ ذَكَا أَي مُسْتَوِيَا مَعَ الْأَرْضِ، وَ الْمُرَادُ بِالتَّجَلَّى: خَلَقَ نُورَ يَشِعُّ عَلَى الْجَبَلِ، أَوْ إِظْهَارَ قُدْرَةٍ وَ عِظْمَةٍ لَهُ وَ خَرَّ مُوسَى صَبِيحًا أَي وَقَعَ مَغْشِيَا عَلَيْهِ مِنَ الرَّعْبِ وَ الْخَوْفِ فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَشِيَتِهِ وَ رَجَعَتْ قَوَاهُ إِلَيْهِ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَكَ أَي أَنْزَهَكَ تَنْزِيهَا عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ مِنْ رُؤْيَاهُ وَ غَيْرِهَا مِنَ النُّوَاقِصِ تُبْتُ إِلَيْكَ أَي رَجَعْتُ إِلَيْكَ فِي أُمُورِي، وَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَوْبَةً عَنِ الذَّنْبِ بَلْ إِنَّهُ عَلَى وَجْهِ الانْقِطَاعِ وَ التَّخَضُّعِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى الْأُمُورَ الْجَلِيلَةَ يَذْكُرُ اللَّهَ بِالتَّسْبِيحِ وَ التَّقْدِيسِ وَ الْاسْتِغْفَارِ، وَ السَّرُّ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ صَارَتْ إِعْلَامًا لِلخُضُوعِ وَ الْخُشُوعِ، لَكثْرَتِهَا مَا اسْتَعْمَلَتْ فِيهِمَا.

وَ مِنْهُ الْحَدِيثُ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ»

«٤» وَ إِنْ شِئْتَ قُلْتَ: إِنَّهُ إِنْشَاءُ مَفْهُومِ التَّوْبَةِ

(١) الأعراف: ٤١.

(٢) الزخرف: ٨٢.

(٣) الأنبياء: ٢٣.

(٤) راجع وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٤ إلى ١٤٥]

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

بِدَاعِي التَّعْظِيمِ، كَمَا أَنَّ أَدْوَاتِ الْاسْتِفْهَامِ فِي كَلَامِهِ سَبْحَانَهُ هِيَ لِإِنْشَاءِ مَفْهُومِ الْاسْتِفْهَامِ بِدَاعِي آخَرَ، كَالْمَفَاضِلَةِ فِي قَوْلِهِ: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «١»، وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَ بِمَا يَلِيقُ بِكَ مِنَ الصِّفَاتِ.

[١٤٥] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ: يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ أَي اخْتَرْتُكَ عَلَى النَّاسِ وَ فَضَّلْتُكَ عَلَيْهِمْ بِرِسَالَاتِي حَيْثُ أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ أَنْوَاعَ الرِّسَالَةِ فِي الْأَصُولِ وَ الْفُرُوعِ وَ بِكَلَامِي حَيْثُ كَلَّمْتُكَ دُونَ سَائِرِ خَلْقِي.

وَ الْعَطْفُ إِذَا لِلْبَيَانِ، أَوْ الْمُرَادُ مِنَ الرِّسَالَةِ غَيْرَ مَا كَلَّمُ فِيهِ، بَلْ كَانَتْ بِالْإِلْهَامِ، وَ مِنَ الْكَلَامِ غَيْرَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، بَلْ كَانَ لِسَائِرِ الْأُمُورِ فَخُذْ يَا مُوسَى مَا آتَيْتُكَ أَي أَعْطَيْتُكَ مِنَ التَّوْرَةِ وَ تَمَسَّكَ بِهِ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِي، وَ الشُّكْرُ إِذَا بِالْجَنَانِ بِأَنَّ يَعْرِفُ الْإِنْسَانَ قَدْرَ الْمَنْعَمِ وَ فَضْلَهُ، وَ إِذَا بِاللِّسَانِ بِأَنَّ يَعْتَرِفُ بِجَمِيلِهِ، وَ إِذَا بِالْأَرْكَانِ بِأَنَّ يَأْتِي الْإِنْسَانَ بِمَا يَسْتَحِقُّ الْمَنْعَمُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَ الْإِجْلَالِ وَ الْخُضُوعِ، قَالَ تَعَالَى: اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا «٢».

[١٤٦] وَ كَتَبْنَا لَهُ أَي لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْأَلْوَابِ جَمْعُ «لَوْحٍ»، وَ هِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الْخَشَبِ أَوْ نَحْوِهَا، وَ قَدْ نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ الْوَابِ

(١) الزمر: ١٠.

(٢) سبأ: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٣

[سورة الأعراف (٧): آية ١٤٦]

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)

مكتوب فيها التوراة مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ مَوْعِظَةً هَذَا تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ «كُلُّ شَيْءٍ»، وَ هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحْذِيرِ عَنِ الْقَبِيحِ، وَ التَّبَصِيرِ بِمَوَاقِعِ الْخَوْفِ وَ تَفْصِيحًا يَلْمُ لِكُلِّ شَيْءٍ أَى بَيَانًا وَ تَوْضِيحًا لِكُلِّ أَمْرٍ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُرَادَ بِيَانِ الْخَطُوطِ الْعَامَّةِ لِلْحَيَاةِ الدِّيْنِيَّةِ، لَا كِلَّ جَزْئِيٍّ جَزْئِيٍّ، وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ «١»، لَوْ أَرِيدَ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنَ، وَ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ

قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يَقْرِبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، إِلَّا وَ قَدْ أَمَرْتُمْ بِهِ، وَ مَا مِنْ شَيْءٍ يَبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إِلَّا وَ قَدْ نَهَيْتُمْ عَنْهُ»

«٢»، فَخُذْهَا أَى الْأَلْوَحَ بِقُوَّةٍ أَى بِجَدِّ وَ اجْتِهَادٍ، وَ الْمُرَادُ بِأَخْذِهَا: الْعَمَلُ بِمَا فِيهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ «٣»، وَ أَمْرُ قَوْمِكَ أَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يُأْخِذُوا بِأَحْسَنِهَا وَ هَذَا تَحْرِيبٌ بِالْأَخْذِ بِالْفَضَائِلِ، فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ لَهَا عَرْضٌ كَبِيرٌ لِلْأُمُورِ يَبْتَدِئُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَ يَنْتَهِي إِلَى أَكْمَلِ الْفَضَائِلِ وَ هَذَا مِنْ بَابِ شِدَّةِ الْجَذْبِ بِقَصْدِ الْاِعْتِدَالِ، كَمَا يَشُدُّ الْحَمْلَ مِنْ جَانِبٍ كَثِيرًا لِيَعْتَدِلَ سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ أَى جَهَنَّمَ، فَاحْذَرُوا أَنْ تَخَالَفُوا وَ تَفْسُقُوا حَتَّى تَكُونُوا مِنْهُمْ.

[١٤٧] سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي أَى أَصْرِفُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، أَوْ أَصْرِفُهُمْ عَنِ

(١) الأنعام: ٦٠.

(٢) راجع مستدرک وسائل الشيعة: ج ١٣ ص ٣٠.

(٣) مريم: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٤

النيل منها الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى: أَنْ ذَلِكَ لِكُونِهِمْ تَكْبَرًا، فَلَمْ يَلْطَفْ بِهِمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَطْفَهُ الْخَفِيُّ بَلْ صَرَفَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَ خَلَّى بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ إِضْلَالِ الشَّيْطَانِ، كَمَا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ وَلَدَهُ الْعَاصِيَ عَنِ لَطْفِهِ فَلَا يَعْتَنِي بِشَأْنِهِ. وَ عَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي: يَكُونُ الْمَعْنَى حِفْظَ الْآيَاتِ عَنِ الزِّيَادَةِ وَ النِّقْصَانِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ «١»، وَ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ، وَ قَوْلُهُ: بِغَيْرِ الْحَقِّ لَيْسَ قِيدًا احْتِرَازِيًّا، بَلْ لِيَبَانَ أَنَّ التَّكْبِيرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِغَيْرِ الْحَقِّ، نَحْوُ: يَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ «٢».

ثُمَّ وَصَفَ سُبْحَانَهُ أَوْلَثِكَ بِقَوْلِهِ: وَ إِنْ يَرَوْا أَى يَرَى الْمُتَكَبِّرِينَ كُلَّ آيَةٍ وَ مَعْجَزَةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الْحَقَّةِ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَيْثُ قَدْ لَجَّوْا فِي الْفَسَادِ وَ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ أَى طَرِيقَ الْهُدَى وَ الْحَقِّ، الْمَوْجِبَ لِلرُّشْدِ وَ النَّمُو الْعَقْلِيَّ وَ الْمَادِيَّ، فَإِنَّ الرُّشْدَ بِمَعْنَى النَّمُو لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا فَلَا يَسْلُكُوهُ وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ أَى طَرِيقَ الْغَوَايَةِ وَ الضَّلَالِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا لِأَنْفُسِهِمْ فَيَسْلُكُوهُ ذَلِكَ أَى سَبَبَ صَرَفَهُمْ عَنِ الْآيَاتِ - عَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى - أَوْ سَبَبَ اجْتِنَابِهِمْ طَرِيقَ الرُّشْدِ وَ اتِّخَاذِهِمْ طَرِيقَ الْغَيِّ

(١) الحجر: ١٠.

(٢) البقرة: ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٧ إلى ١٤٨]

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَى بِحُجَّتِنَا وَ مَعْجَزَاتِ رِسَالَتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا وَ لَا يَتَعَطَّوْنَ بِهَا، وَ الْمُرَادُ تَشْبِيهِهِمْ بِالْغَافِلِ الَّذِي يَغْفُلُ عَنِ صَلَاحِهِ فَلَا يَعْمَلُ بِمَقْتَضَاهُ.

[١٤٨] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَى المعجزات و الحجج و كذبوا ب لقاء الآخرة بأن أنكروا القيامة و البعث و النشور حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ التى عملوها، فإن كل إنسان يعمل بعض الأعمال الخيرة، فإذا كان مؤمناً يثاب عليها، و إن كان كافراً لم يثب عليها، و هذا لا ينافى خفة العذاب، كما ورد فى حاتم و أنوشروان و غيرهما هَيْلٌ يُجْزَوْنَ أَى لا- يجزى هؤلاء المتكبرون، فإن الاستفهام للإنكار إلا ما كانوا يَعْمَلُونَ فليس حبط أعمالهم ظلماً لهم.

[١٤٩] ثم يبين سبحانه طرفاً آخر من قصة بنى إسرائيل، و هى قصة عبادتهم للعجل حين كان موسى عليه السلام فى الطور و اتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ أَى من بعد خروج موسى عليه السلام إلى ميقات ربه مِنْ حُلِيِّهِمُ الذهبيَّة التى كانت لهم، من سوار و خلخال و قلادة و غيرها عَجَلًا أَى صَبَّوا الحلى فى صورة العجل و هو ولد البقر جسداً أَى لا روح فيه، فكان تمثال العجل و صورته، لا واقعه و حقيقته، و لعل هذا القيد لئلا يتوهم أن القوم ألبسوا الحلى عجلاً حقيقياً، فإن موسى عليه السلام لما أبطأ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٦

أشاع رجل من بنى إسرائيل و اسمه «السامرى» أن موسى قد مات ثم جمع حلى القوم و صاغها عجلاً، و قال لبنى إسرائيل: إن هذا إلهكم، و قد كان العجل من آلهة مصر، و كانوا يألفون عبادته، و لذا قبلوه، و قد طلبوا سابقاً من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً. و فى بعض التفاسير: إن القوم الذين رأهم بنو إسرائيل على البحر كانوا يعبدون العجل، حين قالوا لموسى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ «١»، و كان العجل الذى صنعه السامرى له خوار أَى صوت كصوت العجل. و قد اختلف فى ذلك، ففى بعض التفاسير أن السامرى صنعه بحيث إذا هبَّت عليه الريح دخلت فى جوفه فأحدثت صوتاً. و فى تفسير آخر: إن «السامرى» رأى جبريل عليه السلام راكباً فرساً حين عبروا البحر، فأخذ من تحت حافر فرسه التراب، فأدخله جوف العجل، و كان منه الخوار، أو أن الخوار كان منه سبحانه حيث خلقه فيه للابتلاء.

و لا يستشكل: أنه كيف يخلق ذلك، و هو موجب لافتتان الناس؟

فإن الجواب واضح: إذ المحل لم يكن محل اشتباه فقد علموا جميعاً أن الله سبحانه لا- يرى و ليس بجسم، فكان ضلالهم بسوء اختيارهم.

أَلَمْ يَرَوْا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ عَبْدُوا الْعَجَلَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ فَمَنْ هُوَ عَاجِزٌ عَنْ أَقْلٍ شَيْءٍ وَ هُوَ الْكَلَامُ كَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا؟ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَى لا يرشدهم إلى خير ليأتوه و لا إلى شر ليجتنبوه

(١) الأعراف: ١٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٤٩ إلى ١٥٠]

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَعْفُرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَ أَحْذَرَ أَسْرَ أَخِيهِ يُجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءُ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)

اتَّخَذُوهُ أَى اتخذوا العجل إلهاً، فإن كثيراً منهم أطاعوا السامرى فى عبادة العجل، و لم يطيعوا هارون فيما وعظهم و أنذرهم و كانوا ظالمين لأنفسهم بهذه العبادة حيث حرموها من خير الدنيا و سعادة الآخرة.

[١٥٠] وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ أَى سقط البلاء فى يدهم، و هذا من باب التمثيل و التشبيه، فإن الإنسان إذا عمل عملاً فندم، يقال: «سقط فى يده» كأن الشئ الذى اكتسبه لم يرج، و لم يذهب كما هو عادة المتاع الجيد، بل سقط فى يده و بقى عنده، و كأن الأصل فيه أن المتاع يسقط من محله إلى مستقره، و هو الذى يصرفه لأجل حوائجه، فإذا بقى عند الواسطة- و هو التاجر- كان ساقطاً فى يده،

دون يد المستهلك و رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا فَإِنَّهُمْ بَعْدَ مَا عَبْدُوا الْعَجَلَ نَدَمُوا فِيمَا أَفْرَطُوا، كما هو شأن غالب الحركات الاعتباطية فإن الناس يأتون بها من فورهم ثم يندمون حينما يتفكرون قالوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا بِقَبُولِ تَوْبَتِنَا وَ يَغْفِرَ لَنَا مَا فَعَلْنَا مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِاسْتِحْقَاقِ الْعِقَابِ، و فوت الثواب.

[١٥١] وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى مِنَ الْمِيقَاتِ إِلَى قَوْمِهِ وَ عَرَفَ الْأَمْرَ صَارَ غَضَبَانَ أَسِيفًا أَى حزيناً على ما صدر منهم من عبادة العجل، أو المراد رجوع غضبان أسفاً، لما أعلمه الله سبحانه من عبادتهم العجل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٨

قَالَ لَهُمْ: بِئْسَ مَا خَلَفْتُمُونِي أَى عملتم خلفي مِنْ بَعْدِي أَى بعد ذهابي إلى الميقات، فإن عملكم بعدى كان عملاً سيئاً أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ أَى استعجلتم قضاء الله و عقابه، فكان العاصي لا بد و أن يلقى العقاب، فإذا فعل فعلاً شنيعاً استعجل العقاب وَ أَلْقَى الْأُلُوحَ المكتوب فيها التوراة من يده تضجراً من عملهم وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ هَارُونَ يَجْرُهُ إِلَيْهِ إِمَّا لِيُنْحِيَهُ نَاحِيَةً فَيُنَاجِيهِ فِي أَمْرِ الْقَوْمِ، و إما إظهاراً للغضب، و لم يكن ذلك إلا استنكاراً عملياً لعمل القوم، كما يصيح الوالد على ولده البريء، فيما إذا عمل بعض أهل البيت عملاً مخالفاً، يريد بذلك إظهار غضبه على عملهم.

قَالَ هَارُونَ: يَا ابْنَ أُمِّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لِلْإِسْتِعْطَافِ لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ يَشْعُرُ فِي النَّفْسِ حَنَانًا وَ لِينًا، وَ قَدْ قَصِدَ هَارُونَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ التَّسْكِينَ مِنْ غَضَبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَّ عَفْوُنِي أَى اتخذوني ضعيفاً، فلم يعملوا بكلامي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي أَى هموا بقتلي حين شددت عليهم في استنكارى عليهم عبادة العجل فَلَا تُشْمِتُ بِي الْأَعْيَادُ فَإِنَّ فِعْلَكَ هَذَا يُوْهِمُ أَنَّكَ غَاضِبٌ عَلَيَّ فَيَفْرَحُ الْأَعْدَاءُ حَيْثُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَلْقَوْا الْخِلَافَ بَيْنَ الْأَخْوِيْنَ وَ جَعَلُونِي مَغْضُوبًا عَلَيْهِ فِي نَظْرِكَ. و معنى الشماتة: إظهار الفرح بوقوع عدوهم في المحذور وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٤٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥١ إلى ١٥٢]

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)

الذين عبدوا العجل، فلا تشملني معهم في الغضب علينا جميعاً، فإن ذلك من عملهم.

إن هذا النحو من إظهار الغضب على الحبيب البريء، لتنبية العدو الآثم، من أساليب البلاغة العملية حيث أن الحبيب لا يحمل موجدة على حبيبه بسبب هذا العمل، بخلاف ما لو عمل بالآثم فإنه يجعله أبعد من الصواب، إذ يسبب مثل ذلك في نفسه بغضا و عداوة زائدة، و مثل خطاب البريء، ما يفعله الإنسان بنفسه عند إرادة إظهار الغضب من ضرب نفسه، أو نتف شعره، أو شق جيبه، أو ما أشبه ذلك.

[١٥٢] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي قَالَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ صَدَرَ مِنْهُمَا عَصِيَانٌ أَوْ ذَنْبٌ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَقَالُ عِنْدَ إِظْهَارِ الْخُضُوعِ وَ الْخُشُوعِ، وَ إِنْ كَانَ الْأَصْلُ فِيهَا طَلَبُ غَفْرَانِ الذَّنْبِ وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ أَى لطفك أو جنتك وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَإِنَّ رَحْمَتَكَ أَكْبَرَ مِنْ رَحْمَةِ كُلِّ رَاحِمٍ، وَ هَذَا يَذْكَرُ فِي آخِرِ الدَّعَاءِ اسْتِعْطَافًا، كَمَا يَقَالُ: «أَنْتَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ» لِاسْتِدْعَاءِ الْجُودِ، لِأَنَّهُ اعْتَرَفَ بِالْأَفْضَلِيَّةِ.

[١٥٣] ثُمَّ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ اسْتِثْنَاءً مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلَهًا مَعْبُودًا سَيِّئًا لَهُمْ أَى يلحقهم غضبٌ مِنْ رَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَ هُوَ مُوجِبٌ لِلنَّارِ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٢٩٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٥٣ إلى ١٥٤]

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ (١٥٤)

يصبحون أذلاء، يكثر فيهم القتل والطرده، ويذكرون بسوء أبدأ. وقد مر تفسير قوله تعالى: ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ «١»، وكما جازينا اليهود بهذا الصنيع كذلك نَجَزِي سائر الْمُفْتَرِينَ الذين يفترون على الله سبحانه باتخاذ الأصنام شريكا له، فإنه افتراء على الحقيقة والواقع.

[١٥٤] ولكن المعصية لا تسبب بأس صاحبها، فإن من تاب، تاب الله عليه ف الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ أى الشرك والمعاصي ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا أى بعد السيئات وَآمَنُوا إيمانا صادقا إِنَّ رَبَّكَ يا رسول الله مِنْ بَعْدِهَا أى بعد السيئات، أو بعد التوبة، ولعل التكرار لإفادة عدم قبول التوبة مع الإصرار على المعصية، كما أنه لا توبة مع الإصرار لَعَفُورٌ يغفر الذنب رَحِيمٌ يرحم التائب بفضله ولطفه.

[١٥٥] وَلَمَّا سَكَتَ أى: سكن، وفيه من البلاغة ما لا يخفى عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ بأن زالت فورته، فإن فورة الغضب تكون أول ملاقاته المكروه أَخَذَ الْأَلْوَاحَ التى كان عليه السلام رماها إظهارا لضجره، مما فيها التوراة وَفِي نُسْخَتِهَا أى ما نسخ و رقم فيها هُدًى يهدى إلى الحق وَرَحْمَةٌ موجب ترحم وتنعم لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ أى

(١) البقرة: ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥١

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٥]

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّائِي أ تُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)

يخشونه ولا يعصونه.

[١٥٦] ثم بين سبحانه قصة سبق الإشارة إليها، وهى قصة طلب القوم أن يروا الله جهرة وقد كررت أولا لأجل ذكرها فى قصة موسى، و ثانيا لأجل بيان أنها كانت من قومه، وقيل: إنها قصة ثانية، ذهبوا معه عليه السلام للاعتذار من عبادة العجل، فإنهم طلبوا من موسى أن يصحبهم ليسمعوا كلام الله سبحانه و اختار موسى قَوْمَهُ أى من قومه سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ليسمعوا كلام الله سبحانه بأسماعهم، فيزدادون إيمانا، و لما سمعوا كلام الله سبحانه، لم يقنعوا و طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، رؤية الأبصار، لا رؤية العلم بالقلب فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ الصاعقة التى رجفت بسببها أبدانهم و قلوبهم و هلكوا جميعا لسؤالهم الشنيع و عنادهم فى الأمر بعد ما نصحهم موسى عليه السلام، إن ذلك غير ممكن كما تقدمت الإشارة إليه. و هنا خاف موسى عليه السلام أن يتهمه بنو إسرائيل أنه هو الذى قتلهم، لَمَّا لم يتمكن من إسماعهم كلام الله سبحانه، فإرتدوا عن الدين، و لذا قال موسى عليه السلام لله: يا رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ هذا الموقف حين كانوا فى بلادهم، لكن الآن ماذا أقول لبني إسرائيل إذا قالوا إنك قتلتهم؟ و إِيَّائِي و هذا للتخضع و الاستكانة، و تسليم الأمر إليه سبحانه، فإنه تعالى لو شاء أهلك الجميع و أماتهم، فكلنا تحت إرادتك و فى قبضتك.

أ تُهْلِكُنَا يا رب بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا و قد جاء الرجاء بصيغته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٢

الاستفهام، كما أنك إذا رجوت الأمير فى سماع كلامك تقول: «هل يسمع الأمير كلامى»، أى أن الإهلاك بسبب ما طلبه السفهاء من الرؤية، خلاف رجائنا فيك، و إن كان بالاستحقاق، حيث أن مثل هذا الطلب من السفهاء و سكوت العقلاء عنهم - بعدم إنكار المنكر - موجب لاستحقاق العقوبة، و إضافة الهلاك إلى ضمير المتكلم مع الغير «نا» باعتبار كون موسى عليه السلام و من معه كتلة

واحدة، فهلاك بعضهم هلاك للجميع - مجازاً -.

ثم بين عليه السلام أن ذلك الهلاك لم يكن اعتباطاً، حتى لا يظن الظان أن موسى عليه السلام في مقام الاعتراض إن هي ما هذه الرجفة التي أصابهم إلاً ففتتكت واختبارك، إنك يا رب صنعت ذلك لأجل الامتحان، والإهلاك امتحان للناس ليعتبروا، ولنفس الهالكين بعد حياتهم تُضَلُّ بها أي بالفتنة من تشاء ممن لم تنفعه الهداية، حيث تركه وشأنه ليضل. وقد سبق أن الفعل ينسب إلى الله تعالى، لأن الأسباب والآلات منه تعالى، كما يقال: «أفسد فلان ولده» إذا أعطاه المال ولم يؤاخذه بعمله الفاسد وتهدى من تشاء لم يذكر هنا «بها» لأن الهداية تكون بدون الاختبار أيضاً، فالهداية أعم من الابتدائية ومما تتعقب الاختبار أنت يا رب ولينا مولانا وأولى بالتصرف فينا فلنك ما تفعل ولا تسأل عن فعلك فأغفر لنا بستر ذنوب من أذنب منا وأرحمنا بفضلك ورحمتك وأنت خير الغافرين فإن غفرانك بلا منه وذلة. ثم إنه سبحانه أحيى السبعين الذين هلكوا، كما تقدم في سورة البقرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٣

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٦]

وَ اَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ اِنَّا هُدْنَا اِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي اُصِيبُ بِهِ مَنْ اَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَا كُتِبَ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)

[١٥٧] وَ اَكْتُبْ لَنَا يَا رَبِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً الشَّيْءِ الْحَسَنِ، وَ هُوَ جِنْسٌ شَامِلٌ لِأَنْوَاعِ الْحَسَنَاتِ مِنْ أَمْنٍ وَ صِحَّةٍ وَ رِفَاهٍ وَ فَضِيلَةٍ وَ غَيْرِهَا وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، بِالْجَنَّةِ وَ الرِّضْوَانِ اِنَّا هُدْنَا اِلَيْكَ مِنْ «هَادٍ» بِمَعْنَى «رَجَعٍ» أَيْ رَجَعْنَا بِتَوْبَتِنَا اِلَيْكَ، فَكَأَنَّ الْعَاصِيَ يَتَّعِدُ عَنْهُ سَبْحَانَهُ، ثُمَّ إِذَا تَابَ يَرْجِعُ اِلَيْهِ، تَشْبِيهًا لِلْبَعْدِ وَ الْقَرَبِ مِنَ الرَّحْمَةِ، بِالْقَرَبِ وَ الْبَعْدِ الْحَسَيْنِ.

و موسى عليه السلام وإن لم يكن داخلًا في العصيان لكن العادة جرت على أن يتكلم الرؤساء عن جماعتهم قال الله سبحانه في جواب موسى و طلبه التوبة: عَذَابِي اُصِيبُ بِهِ مَنْ اَشَاءُ ممن استحق ذلك بالكفر والمعصية، فالمشيئة ليست باعتبار الزيادة عمن استحق، بل باعتبار النقصان، فإنه تعالى لا يعذب بعض المستحقين، لا أنه يعذب المستحقين و رحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَإِنِ الْخَلْقُ وَ الرِّزْقُ وَ غَيْرُهُمَا كُلُّهُمَا رَحْمَةٌ مِنْهُ سَبْحَانَهُ، وَ فِي الدَّعَاءِ: «يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ»

«١»، باعتبار أن الغضب لا يكون إلا بعد الخلق و الرزق و العصيان، فالرحمة سابقة.

و في هذا الجو الرقيق، الذي ترققت فيه قلوب بني إسرائيل يشير سبحانه إلى النبي الأمي، ليركز في قلوبهم، فإن الأمور تتركز في

(١) مصباح الكفعمي: ص ٦٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٤

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٧]

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْأَنْجِيلِ يَا مَرْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

القلوب أكثر إذا رقت فسأكتبها أي اكتب رحمتي. و هذا على سبيل الاستخدام، فإن المراد بالرحمة أولاً جميع أقسام الرحمة، و المراد بها من الضمير ثانياً: الرحمة الخاصة الزائدة للذين يتقون الكفر و المعاصي و يؤتون الزكاة أي يعطونها و الذين هم بآياتنا أي بحججنا و دلالاتنا يؤمنون ثم بين أولئك بقوله:

[١٥٨] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ أَي أَنْ الَّذِينَ تَكْتَبُ لَهُمُ الرَّحْمَةُ الْكَامِلَةُ هُمُ التَّابِعُونَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْأُمِّيَّ نَسَبُهُ

إلى أم القرى «مكة» و بمعنى الذى لم يتعلم عند معلم- وإن كان صلى الله عليه وآله وسلم يعلم كل شىء بوحى الله وإرادته- و العرب تسمى من لم يتعلم ب «الأمى»، نسبة إلى الأم، كأنه بقى مثل ما ولدته أمه الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة و الإنجيل فإن الكتابين بشرا به صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرنا بنعته، وإنما حرّفهما- بعد ذلك- اليهود و النصارى.

و للشيخ محمد صادق فخر الإسلام، فى كتابه «أنيس الأعلام» قصة طويلة حول هذا الموضوع، و لم يكن هذا بدعا، فقد كان كل نبى سابق يبشر بالنبى اللاحق، كما أن كل نبى لا حق يصدق النبى السابق، و نحن اليوم نرى صفه الإمام المهدي عليه السلام فى كتبنا، حيث وعدنا بظهوره «عجل الله فرجه».

ثم بين سبحانه سائر صفاته التى تجعل من دينه دين الفضيلة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٥

و الحرية الصحيحة و السعادة يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فما يأمرهم به يكون معروفا يقبله عرف العقلاء و يرتضيه و ينهاهم عَنِ الْمُنْكَرِ فما ينهاهم عنه يكون منكرا عند عرف العقلاء، فأمره و نهيه حسب الموازين العرفية العقلية، لا-اعتباطا و اشتها و يَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ المستلذات الحسنة، من مأكّل و مشرب و منكح و مسكن و مركب و غيرها و يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ القبائح التى تعافها النفوس المستقيمة، فتحليله و تحريمه ليسا اعتباطين، بل لشيء فى ذات الحلال و الحرام، بخلاف تحليل سائر الناس و تحريمهم، فإنهم قد يحرمون الطيب، كما حرمت الجاهلية السائبة و ما إليها، و قد يحللون الخبيث كما أن اليهودية و النصرانية و من إليهما يحللون الخمر و لحم الخنزير. ثم لا يخفى أن الأمر و النهى أعم من التحليل و التحريم، لكن حيث تقابلا، كان لكل منهما مصداق غير مصداق الآخر. و يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ أى ثقلهم، فإن الإصر هو الحمل الثقيل و معنى «وضعه» أن مناهجه سهلة سمحة لا ثقل فيها و لا صعوبة و يضع عنهم الأغللال التى كانت عليهم أغلال جمع «غل»، و هو ما يقيد يد الإنسان أو رجله أو غيرها، فإن من خواص الإسلام أنه يطلق الحريات المعقولة، فالسفر و الإقامة و التجارة و الزراعة و الصناعة و البيع و الشراء و الكلام و الكتابة و التجمع و غيرها، كلها مباحة لا قيود عليها إلا بعض الشرائط الطفيفة التى هى فى صالح المجتمع و الفرد، و لا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٦

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٨]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

يعلم مدى ذلك إلا بالمقاييسه إلى الأنظمة و المناهج الدنيوية التى كلها كبت و استعباد و استغلال فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أى بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم و عَزَّرُوهُ أى عظّموه و وقروه و نصرّوه على أعدائه و اتَّبِعُوا التُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أى القرآن، فإنه نور يهتدى به فى مسالك الحياة المظلمة، كما أن الضياء يهتدى به فى مسالك الليل المظلم، أو المراد: على و الأئمة عليهم السلام كما فى بعض الأحاديث، أو الجميع، لأنه لفظ عام، و كل واحد من هذه الأمور مصداق، و «الإنزال» بالنسبة إلى الأئمة ليس فيه محذور، لما سبق، أن التعبير بالإنزال فى مثل هذه الموارد من جهة الله سبحانه الواهب لهذه الأشياء كما قال: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (١)، و كما قيل فى قوله سبحانه: اهْبُطُوا (٢)، أو لئنك الذين آمنوا بهذا النبى هم المفلحون الفائزون بخير الدنيا و الآخرة.

[١٥٩] و قبل أن يرجع السياق إلى تميم قصة موسى عليه السلام، تميما لما سبق من وصف النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فيخاطبه سبحانه بقوله: قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً أرسلنى إليكم لأدعوكم إلى الله الذى له ملكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فهو المالك لهما

(٢) البقرة: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٧

[سورة الأعراف (٧): آية ١٥٩]

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

المتصرف فيهما لا- إله إلا هو فلا- شريك له يحيى ويميت فالجماد يجعله حيا نباتا أو إنسانا أو حيوانا، والأحياء يميتهم، ولعل ذكر هذه الصفات لرد النصارى واليهود الذين جعلوا الله شريكا ولدا، ولرد المشركين الذين كانوا ينسبون الإحياء والإماتة إلى الأصنام فآمنوا أيها الناس بالله إيمانا صحيحا ورَسُولِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ وَكَأَنَّهُ أَتَى بِهَذَا الْوَصْفِ لِلتَّنَاسُبِ مَعَ مَا فِي الْكُتَابِ السَّابِقِينَ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ فَإِنَّهُ آمَنَ أَوْلًا- ثُمَّ أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ، لا- مثل كثير من الرؤساء الذين هم أنفسهم لا يطبقون المبادئ التي يدعون إليها.

ولعل المراد بالكلمات: الكتب السابقة والقرآن الكريم وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَىكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أى لتكونوا مهتدين، فإن الفعل قد ينسلخ من معناه الزمنى ليدل على أصل المعنى المادى، أو المراد تهتدون إلى الجنة والرضوان، حتى يصح تعقب الاهتداء لما تقدم.

[١٦٠] وحيث فرغ السياق عن الفذلكة المرتبطة بذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رجع إلى قصة موسى عليه السلام وقومه، ولما أن وصف سبحانه قوم موسى عليه السلام بالكفر وعبادة العجل وغير ذلك، ذكر أن منهم من بقوا على الإيمان والطاعة وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ أى جماعة يَهْدُونَ بِالْحَقِّ أى يدعون إلى الحق ويرشدون إليه وَبِهِ أى بالحق يَعْدِلُونَ أى يحكمون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٨

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٠]

وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَتَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

بالحق يعدلون فى حكمهم. وهذا واضح، فإن كل أمة انحرفت لا بد وأن يبقى فيها أناس معتدلون، وكذلك كان قوم موسى عليه السلام فى زمانه وبعده إلى زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكانوا إذا رأوا عيسى نبيا آمنوا به، وإذا رأوا الرسول مبعوثا صدقوه واتبعوه، لكن الكثرة الساحقة منهم لمّا كانت منحرفة، كانت «عمومات الخطاب القرآنى» تنصب عليهم، فإن البلغاء غالبا يتكلمون حول الأمور بمراعاة الغالب، فيقال: «أهل مدینه كذا حسان الوجوه، أو قباج، أو كرماء، أو بخلاء أو جبناء، أو ما أشبه» وهم يريدون الكثرة الغالبة، لا الجميع.

[١٦١] وَقَطَّعْنَاهُمْ أى فرقنا بنى إسرائيل تفرقا قبيليا اثنتى عشرة أسباطا كل فرقة منهم قبيلة تنتهى إلى سبط من أسباط يعقوب عليه السلام فقد كان له اثنى عشر ولدا، كل ولد ولد قبيلة أمما بيان لاثنتى عشرة أسباطا، فكل جماعة منهم أمة. وهذا من نعم الله سبحانه على بنى إسرائيل لأن القبائل المتعددة تمشى أمورها بيسر بخلاف ما لو كان الجميع قبيلة واحدة، فإن الرؤساء إذا تعددوا تنافسوا فى المكارم، وسهل مراجعته المرؤوسين إليهم، كما قال سبحانه: وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (١).

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أى طلبوا منه السقيا، وأن يسقيهم ماء، وذلك حينما كانوا فى التيه أن اضرب بعصاك الحجر وهو حجر كان معه فإذا أرادوا الماء وضعوه، و ضربه موسى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٥٩

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦١]

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)

بعضه التي كانت تنقلب ثعبانا متى ما أراد فأنبجست أي انفجرت. ولعل الفرق بينهما أن الانبجاس خروج الماء بقله، و الانفجار خروجه بكثرة. وفي بعض التفاسير: إن الماء كان يخرج من الحجر أولا بقله ثم بكثرة.

منه أي من الحجر اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين، حتى لا يزاحم بعضهم بعضا في الشرب قد علم كل أناس من الأسباط مشربهم أي محل شربهم و أخذ الماء منه و ظللنا عليهم الغمام حيث كان يؤذيهم حر الشمس فتأتى سحابة تظلمهم ليستريحوا تحت ظلها و أنزلنا عليهم المن هو شىء حلو كالسكر و السلوى هو الطير السمانى - كما تقدم ذلك فى سورة البقرة - كلوا يا بنى إسرائيل من طيبات ما رزقناكم و اتركوا خبائثه و ما ظلمونا إذ كفروا و عصوا، فإن الله لا يضره كفر الكافر و عصيان العاصى و لكن كانوا أنفسيهم يظلمون حيث حرموها من خير الدنيا و سعادة الآخرة.

[١٦٢] و اذكر يا رسول الله إذ قيل لهم أي لبنى إسرائيل، و القائل هو الله سبحانه على لسان نبيه موسى عليه السلام: اسكنوا هذه القرية بيت المقدس أو أريحا و كلوا منها حيث شئتم من أنواع المآكل و مختلف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٢ الى ١٦٣]

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَ سَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)

المزارع و المواضع و قولوا حطة إذ نطلب من الله سبحانه حط ذنوبنا و ادخلوا الباب أي باب القرية سجدًا جمع «ساجد»، أي: فى حال السجود، بمعنى أنه إذا وصلتكم إلى الباب اسجدوا و ادخلوا نغفروا لكم خطيئاتكم متعلق بقوله: «قولوا حطة» أي إن قلمتم و سجدتم نغفر لكم و ستريد المحسنين على غفران الخطايا بالتنفصل و التكرم. و بين سياق هذه الآية، و ما تقدم فى سورة البقرة خلاف جزئى، و ذلك من فنون البلاغة، و أوجه الإعجاز.

[١٦٣] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ أى غير العاصون الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم قولا غير الذى قيل لهم فبدلا من أن يقولوا:

«حطة» قالوا: «حطة حمراء خير لنا» فأرسلنا عليهم رجزا أي عذابا من السماء من جهة العلو بما كانوا يظلمون أي بسبب ظلمهم.

[١٦٤] وَ سَأَلْنَاهُمْ أى اسأل يا رسول الله اليهود، لأجل تكبيرهم بما كانوا يفعلون من المعصية فابتلوا بعذاب الله، حتى لا يتكرر منهم ذلك عن القرية التي كانت حاضرة البحر أي مجاورة للبحر و قريه منه، من «حضر» ضد «غاب». و قد ذكر بعض المفسرين أنها كانت «إيلة».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦١

إِذْ يَعْتَدُونَ مِنَ التَّعَدَى أى يتجاوزون حدود الله فى أمر يوم السبت فقد حرم عليهم صيد الأسماك فى هذا اليوم - اختبارا - و حلل عليهم فى سائر الأيام، و قد كانوا يتوصلون إلى حيلة ليحلوا بها ما حرم الله، فحفروا أخاديد تؤدي إلى حياض يتهاى للحياتان الدخول فيها من تلك الأخاديد و لا يتهاى لها الخروج، فإذا كان يوم السبت جاءت الحياتان جارية على أمان لها فدخلت الأخاديد و أصبحت فى الحياض و الغدران، فلما كانت عشية اليوم همّت بالرجوع منها إلى اللجج لتأمن من صائدها، فلم تقدر فبقيت ليلها فى مكان يتهاى أخذها بلا اصطيد، و كانوا يأخذونها يوم الأحد و يقولون ما اصطدنا فى السبت إنما اصطدنا فى الأحد، و لكن كانوا كاذبين فى

ذلك، فإنهم قد أخذوها يوم السبت و إنما القبض كان يوم الأحد إذ تأتيهم حيثانهم جمع «حوت»، و العرب تسمى السمك حوتا و نونا يؤم سبتهم شرعا أى ظاهرة على وجه الماء، من «الشرع» بمعنى الظهور، جمع «شارع»، ك «كتب جمع كاتب»، و إنما كانت تأتي فى هذا اليوم لما علمت من كونها آمنة لا- تؤخذ، و لما كان من عادة الحيوان أن يألف محل الأمان و يؤم لا يشبتون أى لا يكون السبت، و التعبير بذلك، لأنهم كانوا يعتدون فى السبت لا تأتيهم لما عرفت من عدم أمنها، و لعل الأمر كان خارقا للامتحان، أو لعله أخرى لا نعرفها كذلك أى بمثل ذلك الاختبار الشديد نبلوهم أى نختبرهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٢

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٤ الى ١٦٥]

وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعِدْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّؤْرِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيِّسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) بما كانوا يفسقون أى بسبب فسقهم و عصيانهم، فإنه إنما حرم عليهم الاصطياد فى السبت، أو إنما كان تظهر يوم السبت دون غيره، بسبب فسقهم ليشتد الامتحان عليهم.

[١٦٥] و قد انقسم بنو إسرائيل أمام هذا العمل إلى ثلاثة فرق أحدها:

الصائغة، الثانية: الساكتة، الثالثة: الناهية عن ذلك و إذ قالت أمة أى جماعة منهم أى من بنى إسرائيل، و هى الساكتة، قالوا للفرقة الثالثة الناهية عن المنكر: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا دون الهلاك قالوا أى قال الواعظون فى جواب المعترضين:

مَعِدْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ أَى أَنْ موعظتنا لأجل أن يكون لنا عذر عند الله سبحانه، فنقول له يوم القيامة: «يا رب إنا نهيناهم فلم ينتهوا»، حتى لا يقول لنا سبحانه: لماذا لم تنهوا عن المنكر؟ و لعلمهم بالوعظ يتقون و يرجعون عن غيرهم و عملهم المحرم، فإن الإنسان لا يدري من يبقى إلى الأخير فى عصيانه و من يرجع عن طغيانه.

[١٦٦] فَلَمَّا نَسُوا أَى نسى العاصون ما ذكروا به ما ذكروهم به الواعظون، بأن فعلوا فعل الناسى، فلم يبالوا بالنهى، بل استمروا على عادتهم فى الاصطياد يوم السبت بتلك الحيلة أنجينا الذين ينهون عن الشؤء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦٦ الى ١٦٧]

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) و هم الواعظون و أخذنا الذين ظلموا و هم الصائدون و الساكتون، فإن السكوت عن المنكر ظلم يرجع إلى الإنسان و باله بعذاب بييس هو «فعليل» من «بئس»، بمعنى الشديد البأس، أى: بعذاب شديد بما كانوا يفسقون أى بسبب فسقهم.

[١٦٧] فَلَمَّا رأينا أنه لم يفدهم الوعظ و لا العذاب الشديد الذى عذبناهم به- لعلمهم يرجعون عن غيرهم- و عتوا أى تكبروا عن ما نهوا عنه أى عن قبول الوعظ قلنا و المراد بالقول هنا التكوين: لهم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أى مسخناهم قرودا، و معنى «خسا» ابتعد عن الخير. ورد أن الواعظين خرجوا من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء، فنزلوا قريبا منها، فلما أصبحوا غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية، فأثابوا باب المدينة فإذا هو مصمت، فدقوه فلم يجابوا و لم يسمعوا منها حس لأحد، فوضعوا سلما على سور المدينة ثم أصعدوا رجلا منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قرده يتعاونون، لها أذنان، فكسروا الباب و دخلوا المدينة، قال الراوى: فعرفت القرده أنسابها من الإنس، و لم يعرف الإنس أنسابهم من القرده فقال القوم للقرده: ألم تنهكم؟

[١٦٨] وَ اذكري يا رسول الله إذ تأذنت ربك أى أعلم ربك، فإن «تأذنت و أذنت» بمعنى واحد ليبعثن عليهم أى يرسلن على اليهود إلى يوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٤

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٨]

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)

القيامة من يسومهم سوء العذاب أي من يذيقهم العذاب الشديد. وقد دل التاريخ على أن اليهود كانوا أذلاء مضطهدين، و ما تاريخ «هتلر» منا بعيد، و ما يرى أحيانا من دولتهم فهي مليئة بالقلق و الرعب حتى تأتيهم القاضية.

ثم أن إرساله سبحانه العذاب إنما هو بسبب عمل كل جيل جيل، لا لأعمال آباءهم إن ربك يا رسول الله لسريع العقاب فإن العقاب اللاحق سريع و إن أمهل الله الظالم أياما.

روى أنه سئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن القريب و الأقرب؟

فقال: «كل آت قريب و الموت أقرب»

و لعله يريد عليه السلام أن «الآتي» يحتمل فوته، بخلاف الموت.

و إنّه لَغُفُورٌ رَحِيمٌ فلا يأس للعاصي أنه إذا تاب و عمل صالحا غفر الله له ما أذنب و رحمه.

[١٦٩] وَقَطَّعْنَاهُمْ أَي فَرَقْنَا الْيَهُودَ فِي الْبِلَادِ فَرَقًا مُخْتَلَفَةً فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَاتِّجَاهٍ، وَذَلِكَ إِذْ لَا لَهْمَ، فَإِنَّ الْجَمَاعَ وَ الْوَحْدَةَ يُوجِبَانِ الْعِزَّةَ وَ السَّعَادَةَ مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ إِذَا رَأُوا الْحَقَّ آمَنُوا بِهِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَ غَيْرِهِ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ أَي دُونَ الصَّلَاحِ يَعْنِي الْمَفْسُودُونَ وَ بَلَوْنَاهُمْ أَي اخْتَبَرْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ تَارَةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٥

[سورة الأعراف (٧): آية ١٦٩]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)

وَالسَّيِّئَاتِ أُخْرَى، أَي بِالنَّعْمِ وَ النِّقْمِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَي لِكِي يَرْجِعُوا، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَاتُ شَكَرُوا، وَ إِذَا أَتَتْهُمُ السَّيِّئَاتُ اسْتَغْفَرُوا، فَإِنَّ كَلًّا مِنَ النِّعْمَةِ وَ الْبَلَاءِ، رَحْمَةً مِنَ جِهَةِ التَّذْكِيرِ وَ الْإِيقَاطِ.

[١٧٠] أولئك اليهود الذين كان منهم الصالحون و منهم دون ذلك، ذهبوا و ماتوا فخلف من بعدهم خلف قام مقامهم ورثوا الكتاب يعني التوراة، و «الميراث» هو ما صار للخلف من السلف، لكن هؤلاء غير صالحين- إن وجد فيهم صالح فهو نادر- يأخذون عرض هذا الأذنى أي ما وجدوه من الدنيا أخذوه بلا مراعاة للشريعة، و سمي «عرضا» لأن الدنيا فانية فما فيها عارض زائل، و سمي «أذنى» لأنه أقرب إلى الإنسان من الآخرة و إذا قيل لهم بأن فيه الإثم يقولون سيغفر لنا و نتوب بعد ذلك و هم لا يستغفرون و لا يتوبون، بل يصرون على تعطى الحرام بدليل أنهم إن يأتهم بعد ذلك عرض مثله يأخذوه أيضا.

ثم ينكر الله عليهم ذلك بقوله: أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ وَ لَمْ يَقُلْ «منهم»، لإفادة أن الأخذ كان بإكراههم ميثاق الكتاب أي العهد الموجود في كتاب التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الحق فلا يحرموا حلاله و لا يحللوا حرامه، فكيف يأخذون الرشوة و سائر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٠ إلى ١٧١]

وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضَعُ فِيكُمْ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ (١٧٠) وَ إِذْ تَنْقِمَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ أذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

المحرمات و يقولون أنها محللة عليهم؟ و درسوا ما فيه أي قرءوا ما في الكتاب فهم عالمون بذلك، و لا مجال لهم أن يقولوا: ما كنا عالمين بالميثاق و الدار الآخرة خير للذين يتقون أي أن الثواب الذي وعده الله خير من عرض هذه الدنيا الفانية، و هي و إن كانت

خيرا لمطلق الناس إلا أن تخصيص «المتقين» بلحاظ انتفاعهم به فقط دونه غيرهم أفلا تَعْقِلُونَ أيها اليهود أن الأمر على ما أخبرنا به و الاستفهام للإنكار.

[١٧١] وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ أَي يَتَمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ بِأَنْ عَمَلُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْمِيثَاقِ وَالْأَحْكَامِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَتَخَصَّيصَهَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ إِذَا أُتِيَ بِهَا عَلَى وَجْههَا، فَكَأَنَّهَا جَعَلَتْ عِلْمًا لِسَائِرِ الْأَعْمَالِ إِنَّا إِلَى آخِرِ الْجُمْلَةِ، خَيْرٌ «وَالَّذِينَ» لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ يَصْلِحُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَقُومُونَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَتَشْبِيهِمْ بِمَا عَمَلُوا وَاصْلَحُوا.

[١٧٢] وَاذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذِ تَتَقْنَا «النَّقِ» قَلَعَ الشَّيْءَ مِنَ الْأَصْلِ الْجَبَلِ أَي قَلَعْنَاهُ، وَجَعَلْنَاهُ فَوْقَهُمْ أَي فَوْقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَأَنَّهُ أَي كَأَنَّ الْجَبَلَ ظُلَّةً أَي غِمَامَةً، أَوْ سَقِيْفَةً ذَاتَ ظِلٍّ. وَكَانَ الْجَبَلُ كَبِيرًا حَتَّى أَنْ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّهُ كَانَ فَرَسَخًا فِي فَرَسَخٍ وَظَنُّوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٧

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٢]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)

بأن رجح في نفوسهم أنه واقع بهم أي واقع عليهم، و لعل الإتيان ب «الباء» لإفادة أن وقوعه عليهم يسبب وقوعهم أيضا، و حينما رفع الجبل فوقهم قيل لهم: خذوا ما آتيناكم من الأحكام بقوة أي بشدة و جهد و اجتهاد. و ذلك أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة لم يقبلوها فقطع جبرئيل عليه السلام قطعة من جبل الطور و رفعها فوق رؤوسهم، مهددا أنهم إن لم يقبلوا ألقاها عليهم حتى يهلكوا عن آخرهم، و لما رأوا ذلك خافوا و قبلوا بكل كره و إجبار و أذكروا ما فيه أي من العهود و المواثيق لعلكم تتقون أي لكي يحصل منكم التقوى، أو لكي تخافوا عقاب الله، فتجنبوا المعاصي، فإن من بنى على العمل بالكتاب يشع في نفسه جو من الرهبة يبعثه على التقوى.

[١٧٣] و حين انتهت قصص موسى عليه السلام مع قومه يبدأ السياق ليفتح قصصا جديدة حول التوحيد، و إذ انتهى من الكلام السابق حول أخذ الله الميثاق من بنى إسرائيل، تأتي هنا قصة أخذ الله سبحانه الميثاق من البشر جميعا حول الوحدانية. و في الآية قولان:

الأول: ما

روى أنه أخرج الله من ظهر آدم عليه السلام ذريته كالدّرّ يوم القيامة فخرجوا مثل الذر عرفهم نفسه و أراهم صنعه، و لو لا ذلك لم يعرف أحد ربه فثبتت المعرفة و نسوا الموقف.

الثاني: إن الآية جارية مجرى الكلام العرفي البلاغي على طريقة التمثيل.

و من المعلوم أن القول الأول لا مانع فيه إطلاقا، فإن الله قادر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٨

على كل شيء و اذكر يا رسول الله إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ أَي أَخْرَجَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ بَدَلَ مِنْ «مِنْ بَنِي آدَمَ» أَي أَخْرَجَ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ ذُرِّيَّتَهُمْ أَوْلَادَهُمْ وَ ذُرَارِيَهُمْ وَ بَعْدَ مَا أَخْرَجَهُمْ وَ أَكْمَلَهُمْ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَي جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ مِنْ اعْتَرَفَ بِشَيْءٍ كَانَ شَهِيدًا عَلَى نَفْسِهِ، قَائِلًا لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ عَلَى نَحْوِ الْاِسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، وَ قَدْ كَانَ ذَلِكَ بِلِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، مِثْلُ: وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ «١»، وَ الْمَرَادُ: الْقَوْلُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا بَلَى أَنْتَ رَبَّنَا. وَ هَذَا اعْتِرَافٌ بِالْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الْفِطْرَةَ أَدْعَتْ بِذَلِكَ، كَمَا

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ إِلَّا أَنْ أَبُويهِ هُمَا اللَّذَانِ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِهِ أَوْ يَمَجْسَانِهِ» وَ مِنْ قِبَلِ ذَلِكَ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا «٢»، وَ قَالَتْ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ أَيْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ «٣»، وَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٤»، وَ أَشْبَاهَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَ

هو نوع من البلاغة، كقول الشاعر: «أيا جبلي نعمان بالله خليا»، وقوله: «أيا شجر الخابور ما لك مورقا» وقوله: قال الحبيب و كيف لي بجوابكم و أنا رهين جنادل و تراب

(١) الإسراء: ١٠٥.

(٢) الأحزاب: ٧٣.

(٣) فصلت: ١٢.

(٤) النحل: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٦٩

فإن الغالب أن يصوغ البليغ الكلام في قالب جذاب لبيان المراد.

شَهِدْنَا فالغرض من الآية أن الفطرة تشهد على توحيد الله سبحانه بما أودع فيها من درك الحقيقة وفهم الواقع. وإنما أودعنا في الفطرة هذه الشهادة ل أن لا تقولوا أيها البشر يوم القيامة حين يعاتب المشرك على شركه، و الجاحد على جحوده: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا أُولِي الْأَبْصَارِ وَ هُوَ التَّوْحِيدُ غَافِلِينَ فقد أودعنا فيكم ما يزيل غفلتكم.

لا يقال: فعل هذا يلزم صحة العقاب حتى بالنسبة إلى من لم تبلغه الدعوة؟

لأنه يقال: هو كذلك، إلا أن الله سبحانه بلطفه لا يعذب حتى يتم الحجة الظاهرة، كما قال سبحانه: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»، و هذا التفسير للآية الكريمة إنما هو القول الثاني الذي يأخذ بالظاهر مع غض النظر عن أخبار «عالم الدر» و الذي أظن أنه لا مانع من الجمع بين الأمرين و دلالة الآية عليهما، فإنه لم يدل دليل على امتناع استعمال اللفظ في أكثر من معنى، بل الذي يظهر في بعض الروايات أن بعض الآيات القرآنية تدل على أكثر من معنيين سواء كان المعنيان من باب المصداق أو لا، كما أن في الآيات السابقة «إِنَّا عَرَضْنَا..» يمكن الأمران، و كان الظاهر اللفظي البلاغي يؤكد كون الألفاظ مسوقة للمعنى العرفي، لا الخارجي - و الله أعلم -.

(١) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٠

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٣ الى ١٧٤]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

[١٧٤] أَوْ تَقُولُوا أَى: لئلا تقولوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ شَرِكْنَا وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فلم نكن نعرف الحق من الباطل، فقلدنا آباءنا باعتقاد أنهم أعقل منا و أدري، فلا بد و أن يكون شركهم على علم و دراية فلا تقصير لنا أَفَتُهْلِكُنَا يَا رَبِّ بِمَا لَا جَرَمَ لَنَا فِيهِ، فَإِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَا مَا فَعَلَ آبَاؤُنَا الْمُبْطِلُونَ أَى الذين هم على الباطل؟ فإننا قد جعلنا فيكم هذه الفطرة لتكون حاكمة و شاهدة على بطلان فعل الآباء، فلا يكون للمشرك عذر يوم القيامة بأنه لم يدر.

و هنا سؤال: إن الفطرة سواء جعلت في الإنسان أم لم تجعل، لم يصح احتجاج المشرك، إذ لو لا الأنبياء لم يعذب المشرك، و مع وجود الأنبياء يكون احتجاج الله على المشرك بأنه لم يؤمن بالنبى، لا لم لم يسمع نداء فطرته؟ فكيف يعلل العقاب بجعل الفطرة؟

و الجواب: إنه تعليل بجزء العلة، فإنه لو لا الفطرة لم يكن الإنسان عارفا بصحة كلام الأنبياء، إذ ما لم يدل الباطل على شىء لا يؤخذ الإنسان بما قام عليه الدليل، و لذا

ورد أن لله حجتي: ظاهرة هي الأنبياء، و باطنه هي العقول.

و عليه فالتعليل إنما هو بجزء العلة، كما يقول القائل: «هيات لك دارا لتسعد»، مع العلم أن الدار بعض من علة السعادة لا كلها.

[١٧٥] و كما بينا لكم هذه الآية الدالة على التوحيد كذلك نُفَصِّلُ سائر الآيات و البراهين و نوضحها جلية، ليعرفها كل أحد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧١

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٥]

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)

وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى لكى يرجعوا عن غيهم إلى الحق و الرشاد.

و الظاهر أن «الواو» فى «و لعلهم» عطف على المعنى المستفاد من «نفصل» أى «ليعرفونها» و «لكى يرجعوا».

[١٧٦] إنا جعلنا هذه الفطرة فى الإنسان ليكون انحراف المشرك بلا عذر، و يكون انحراف من انحراف بلا مبرر، و قد وقع مثل هذا

الانحراف فى بعض الأفراد و هو «بلعم بن باعورا» فقد أعطى «الاسم الأعظم» الذى يستجاب به الدعاء، و كان يدعو به فيستجيب الله

سبحانه له، فمال إلى فرعون، فلما مرّ فرعون فى طلب موسى عليه السلام و أصحابه، قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى و أصحابه

ليحبسه الله علينا، فركب بلعم حمارته ليمرّ فى طلب موسى، فامتنت عليه حمارته، فأقبل يضربها، فأنطقها الله عز و جل، فقالت: ويلك

على ماذا تضربنى، أ تريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله و قوم مؤمنين، فلم يزل يضربها حتى قتلها و انسلخ الاسم الأعظم من

لسانه فنيه. و الآية و إن كانت فى شأنه إلا أنها عامة لكل من انسلخ من آيات الله لترجيحه هوى نفسه، كما هو شأن الآيات القرآنية.

وَ أَتْلُ أى اقرأ يا رسول الله عَلَيْهِمْ أى على الناس نبأ أى خبر الذى آتينا أى أعطينا آياتنا أى حججنا و دلائلنا- و قد تقدم أن المراد

من ذلك الاسم الأعظم- فأنسلخ منها أى خرج من تلك الآيات، كالشيء الذى ينسلخ من جلده، كأن الآيات كانت كالجلد الواقى له

عن شرور الدنيا و الآخرة فأخرج نفسه منها، فتعرض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٢

[سورة الأعراف (٧): آية ١٧٦]

وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَشْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضُ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)

للخطر و الهلاك فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ أى لما خرج عن الوقاية تبعه الشيطان ليضلّه عن طريقه فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ أى الهالكين.

[١٧٧] وَ لَوْ شِئْنَا أى اقتضت مشيئتنا أن نجبره على البقاء لَرَفَعْنَاهُ أى رفعا «بلعم» بها أى بتلك الآيات، فلو أردنا أن يبقى بالجبر لأمكننا

ذلك، حتى ترتفع درجته وَ لَكِنَّهُ أى «بلعم» و الضمير يرجع إلى «الذى آتينا» كذلك الضمير السابق أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ فركن إلى

الدنيا و مال إليها، كأنه جعلها موضع خلده و إقامته و أعرض عن الدار الآخرة، أو «أخلد» بمعنى لصق وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ عوض أن يتبع الحق

و يسير فى طريق الرشده فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ أى إن تطرده يَلْهَثُ يخرج لسانه من فمه يتنفس أو تَشْرَكُهُ

يَلْهَثُ بأن تركته فلم تتعرض له، فإن كل حيوان يلهث فى حال الإعياء و الإكلال بخلاف الكلب فإنه يلهث فى حال الراحة و الإعياء.

و المراد أنه ضال على كل حال سواء عارضته أم لم تعارضه، بخلاف كثير من الناس الذين يضلون لدى المعارضة و حينما يغضبون أو

يرون أن مصالحهم مهددة. إن بلعم أخرج لسانه ليدعو على موسى- شبيها بلهث الكلب- حينما لم يعارضه موسى عليه السلام و لم

يهدد مصالحه، بل كانت أموره أحسن تحت لواء موسى حيث يجمعهما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٧ الى ١٧٩]

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَ مَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)

وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ

كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَيْكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)

الدين، لكنه شبيه بالكلب اللاهث و إن لم تطرده.

ذَلِكَ الْمِثَالُ بِالْكَلْبِ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَإِنَّهُمْ بَصْفَةُ الْكَلْبِ فِي الْإِيذَاءِ وَاللَّهْثِ وَإِنْ لَمْ يَتَّعِزُّ لَهُمْ بِسُوءِ فَاقْتِصِصِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْقَصِصَ أَى أَخْبَارِ الْمَاضِينَ لَعَلَّهُمْ يَتَّفَكَّرُونَ فَيُرْتَدِعُوا عَنْ غِيْبِهِمْ، إِذْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَصِيرَهُمْ كَمَصِيرِ أَوْلَيْكَ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْذِمَارِ، إِنْ عَانَدُوا الْحَقَّ وَعَارَضُوا الدِّينَ.

[١٧٨] سَاءَ مَثَلًا أَى بئس مثلاً مثل الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا والمراد:

بئس الصفة المضروب لها المثل بصفة المكذبين، فإن سوء المثل يدل على سوء الممثل له وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَى أنهم بالعصيان ظلموا أنفسهم حيث حرموها من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

[١٧٩] مَنْ يَهْدِ اللَّهُ أَى: يهديه الله سبحانه فَهُوَ الْمُهْتَدِي فَإِنْ هَدَايَةُ اللَّهِ هِيَ الْهَدَايَةُ الْحَقَّةُ الَّتِي تُوْرثُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ يُضِلِّ أَى يضلّه، بَأْنَ يَقْطَعُ لَطْفَهُ عَنْهُ حَيْثُ يَرَاهُ فِي سَبِيلِ الْعَصِيَانِ وَالْفَسَادِ فَأَوْلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَمَا رَبِحُوا شَيْئًا.

[١٨٠] وَلَقَدْ ذَرَأْنَا أَى خلقنا وأنشأنا لِيَجْهَنَّمَ اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، كَمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٤

قوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا «١»، كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَيَدْخُلُوا جَنَّتَهُ كَمَا قَالَ: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٢»، وَقَالَ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ «٣»، لَكِنْهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ أَوْجِبُوا لِأَنْفُسِهِمُ الشَّقَاءَ وَدَخُولَ النَّارِ. وَالْكَلَامُ تَعْقِيبٌ لِمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِلْكَفَّارِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: «مِثْلُهُمْ ذَلِكَ، وَمَصِيرُهُمْ هَذَا». ثُمَّ إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَصِيرَ «فُلَانٍ» النَّارُ بِهَذِهِ الْعَلَامَةِ فَ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا أَى لَا يَفْهَمُونَ الْحَقَّ بِسَبَبِهَا، وَالْمُرَادُ عَدَمُ إِذْعَانِهِمْ لِلْحَقِّ، لِأَنَّ التَّارِكَ وَالْجَاهِلَ سَوَاءٌ، فَقَدْ قَالَ سَبْحَانَهُ: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا «٤»، وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا الرُّشْدَ، وَإِنْ رَأَوْا بِهَا الْأُمُورَ الْمَادِيَّةَ، فَإِنَّ التَّارِكَ لِلطَّرِيقِ وَالْأَعْمَى سَوَاءٌ وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الْوَعْظَ وَالْإِنذَارَ سَمَاعًا مَفِيدًا، وَإِنْ سَمِعُوا أَلْفَاظَهُمَا، فَإِنْ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لِلْوَعْظِ هُوَ وَالْأَصْمُ سَوَاءٌ.

أَوْلَيْكَ الْأَشْخَاصَ كَالْأَنْعَامِ مِنَ الْإِبْلِ وَالْبَقْرِ وَالْغَنَمِ، فَكَمَا أَنَّهَا لَا تَفْقَهُ وَ لَا تَبْصُرُ الرُّشْدَ، وَ لَا تَسْمَعُ إِلَى الْوَعْظِ كَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ بَلْ هُمْ أَضَلُّ مِنَ الْبَهَائِمِ لِأَنَّهَا تَهْتَدِي إِلَى مَصَالِحِهَا وَمَفَاسِدِهَا وَ تَتَّبَعُ إِذَا

(١) القصص: ٩.

(٢) الذاريات: ٥٧.

(٣) النساء: ٦٥.

(٤) النحل: ٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٥

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٠ إلى ١٨١]

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْبُدُونَ (١٨١)

بعثت و تنزجر إذا زجرت، بخلاف هؤلاء فإنهم يلقون بأيديهم إلى التهلكة و لا- ينصاعون للأوامر و الزواجر أولئك الضالون هم الغافلون عن الحق و الواقع، فإنهم كالغافل في عدم الانتفاع بالأوامر و النواهي، و ليست الأنعام غافلة، فهم أسوأ من الأنعام.

[١٨١] و حيث ذكر سبحانه مصير الكافرين و أنهم الذين لا يعقلون و لا يهتدون، بين ما يجب أن يكون عليه أهل القلوب الفاقهة من

العقلاء فقال: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ أَى الْحَسَنَةُ الْمَعْنَى كَالكَرِيمِ وَالْغُفُورِ وَالْجَوَادِ وَالرَّحِيمِ وَالْعَفْوِ وَغَيْرَهَا فَادْعُوهُ بِهَا أَى فَادْعُوا اللَّهَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ بِأَن يُقَالَ: يَا كَرِيمَ يَا غُفُورَ وَهَكَذَا وَذَرُّوا أَى اتْرَكُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ أَى يَنْحَرِفُونَ فِيهَا بِتَسْمِيَةِ أَصْنَائِهِمْ بِأَسْمَائِهِ سَبْحَانَهُ، فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ لِشَيْءٍ: هَذَا إِلَهَ الْمَطَرِ، وَهَذَا إِلَهَ النَّبَاتِ، وَهَذَا إِلَهَ الْأَرْضِ .. وَهَكَذَا، فَكَانُوا يَجْعَلُونَ صِفَاتِهِ وَأَسْمَاءَهُ لِلْأَصْنَافِ أَوِ الْأَوْهَامِ، أَوِ الْمَرَادِ: يَلْحَدُونَ بِأَسْمَائِهِ كَمَا سَمَوْا صَنْمَابَ «اللات» مَخْفَفَ «اللَّهِ» وَصَنْمَابَ «العزى» مَخْفَفَ «عزير»، أَوِ الْمَرَادِ:

يَلْحَدُونَ بِتَسْمِيَةِ اللَّهِ بِأَسْمَاءٍ لَا تَلِيْقُ بِهِ كَتَسْمِيَتِهِ «أَبَا» وَ«زَوْجَا» وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. إِنَّهُمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّقَاءِ وَ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ.

[١٨٢] ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَن لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ مُنْحَرِفِينَ فِي الشُّرْكِ وَالظُّلْمِ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا مِنَ الْبَشَرِ أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ النَّاسَ بِالْحَقِّ وَيُرْشِدُونَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٦

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٢ إلى ١٨٤]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حَيْثُ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)

إِلَيْهِ وَبِهِ أَى بِالْحَقِّ يَعْدِلُونَ أَى يَحْكُمُونَ بِالْعَدْلِ لَا يَزِيغُونَ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَمِيلُونَ نَحْوَ الْبَاطِلِ.

[١٨٣] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَمْ يُوْمِنُوا، بَلْ بَقُوا عَلَىٰ عِنَادِهِمْ، مُصْرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ «الاستدراج» هُوَ تَقْرِيْبُ شَيْءٍ إِلَى الْمَقْصَدِ دَرَجَةً دَرَجَةً، أَى أَنَّ الْمَكْذِبِينَ نَقْرَبُهُمْ إِلَى الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ دَرَجَةً دَرَجَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ آخِذُونَ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْهَلَاكِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ كَلَّمَا زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ تَذَكَّرَ وَاسْتَغْفَرَ وَابْتَعَدَ بِنَفْسِهِ عَنِ الْهَلَاكِ، أَمَّا الْمَكْذِبُ فَإِنَّهُ حَيْثُ لَا يَبَالِي بِمَا عَمِلَ يَتَقَرَّبُ إِلَى الْهَلَاكِ شَيْئًا فَشَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ.

[١٨٤] وَأَمْلِي لَهُمْ «الإملاء» التَّأخِيرُ، أَى: أَمَلُهُمْ وَ لَا- أَعَا جَلَّهُمْ بِالْعُقُوبَةِ فَإِنَّهُمْ لَا- يَفُوتُونَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ، وَ الْإِمْهَالُ لَهُمْ مُوجِبٌ لِكَثْرَةِ عَذَابِهِمْ لِازْدِيَادِ مَعْصِيَتِهِمْ إِنْ كَيْدِي «الكيد» هُوَ مَعَالِجَةُ الْأَشْيَاءِ خَفِيَّةٌ، إِنْ عَمِلَى لِلتَّنْقَامِ مِنْهُمْ مَتِينٌ مُسْتَحْكَمٌ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ.

[١٨٥] أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا أَى هَلُمَّا يَتَّفَكَّرُ الْمَشْرُكُونَ فِيمَا يَقُولُونَ وَ يَرْمُونَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْجَنُونَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مُجَنُونَ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حَيْثُ وَ كَيْفَ يَكُونُ مُجَنُونَ مِنْ يَأْتِي بِمَا يَعْبُزُّ عَنْهُ الْبَشَرُ، وَ كُلُّ أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ فِي غَايَةِ الصَّحَّةِ وَ الدَّقَّةِ؟! إِنْ هُوَ أَى مَا هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٧

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٥]

أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)

مَنْذَرٌ لِلنَّاسِ إِنْ عَمِلُوا شَيْئًا يَعَاقِبُوا عَلَيْهِ، فَوَاضِحٌ كَوْنُهُ مَنْذَرًا، وَ إِنَّمَا ذَكَرَ «الإنذار» فَقَطْ لِأَنَّهُ فِي مَقَابِلِ الْمَشْرُكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ.

[١٨٦] إِنَّهُمْ كَيْفَ لَا- يُؤْمِنُونَ وَ الْكُونُ كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ وَجُودِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ؟ ثُمَّ كَيْفَ لَا- يُؤْمِنُونَ وَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَمُوتُوا عَاجِلًا- فَيَبْتَلُوا بِالْعِقَابِ وَ الْعَذَابِ؟! أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا نَظْرَ عَتَبَارٍ وَ تَعَقَّلُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى آثَارِ الْمَلِكِ، فَإِنَّ الْأَثَرَ يَدُلُّ عَلَى الْمَوْثَرِ حَتَّى يَعْتَرِفُوا بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ وَ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَ أَوْلَمْ يَتَّفَكَّرُوا وَ يَنْظُرُوا فِي مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ أَصْنَافِ خَلْقِهِ فَيَعْرِفُ أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ جَمِيعًا وَ أَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ حَتَّى يَعْدُوا لِلْمَوْتِ عَدَّتَهُ وَ يَحْتَاطُوا لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ حَتَّى لَا يَنْدَمُوا وَ يَخْسَرُوا، فَإِنَّ مَجْرَدَ احْتِمَالِ ذَلِكَ كَافٍ فِي أَنْ يَرْتَدِعَ الْإِنْسَانُ، كَمَا

أشار إلى ذلك الإمام على عليه السلام في الأبيات المنسوبة إليه: قال المنجم والطبيب كلاهما* لم يحشر الأموات، قلت: إليكما إن كان قولكما فليست بخاسر* أو كان قولي فالخسار عليكمما

إنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الذي تكتفه كل شواهد الصدق والحق فَبَأَى حَدِيثٍ و مطلب و خبر بَعْدَهُ أى بعد القرآن يُؤْمِنُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٨٦ الى ١٨٧]

مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسِرَّةً يُسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

أو بعد «محمد» صلى الله عليه وآله وسلم حيث تقدم قوله «ما بصاحبهم». وفي الكلام مجاز سواء عاد الضمير إلى القرآن؛ لأن ليس كل القرآن حديثاً وقصه وإنما فيه إنشاء، أو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه صاحب حديث.

[١٨٧] مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ بَأْسٌ يَخْلِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الضَّلَالِ، لما سبق منه من الإعراض عن الحق فلا هادى له إذ الهداية منحصرة بالله سبحانه، فإذا لم تشع الهداية من قبله فلم يكن للإنسان هاد سواه وَيَذَرُهُمْ أى يترك هؤلاء المعرضين الذين لا يتفكرون ولا ينظرون إلى الحق فى طُغْيَانِهِمْ و ضلالهم، كأنهم طغوا عن الحق يَعْمَهُونَ أى يتحيرون، فهم دائماً مترددون بين الحق والباطل، حيث أن الضمير يناديهم لاتباع الحق، وشهواتهم تمنعهم. وقد تقدم أن العمى فى العين، والعمه فى القلب.

[١٨٨] ولما تقدم الوعيد بيوم القيامة، الذى يسمى ب «الساعة»، سأل جماعة عن وقت القيامة يَسْئَلُونَكَ يا رسول الله عَنِ السَّاعَةِ أى القيامة أَيَّانَ مُرْسَاهَا أى متى وقوعها، من «رسا الشئ يرسو» إذا ثبت.

و «المرسى» بمعنى الميثب، أى متى وقت ثبوتها؟ قُلْ يا رسول الله فى جوابهم: إِنَّمَا عِلْمُهَا أى علم الساعة عِنْدَ رَبِّي فهو وحده يعلم وقتها لا يُجَلِّئُهَا أى لا يكشفها. الظاهر أن المراد: لا يأتى بها لَوْفَتِهَا أى حين يكون وقتها إِلَّا هُوَ تعالى، فعلمها عنده، و وقتها عند إرادته، وإنما لم يكشف الله سبحانه عن وقتها لخلقها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٧٩

ليكون أذعى لهم إلى الطاعة واجتناب المعصية، فإن الإنسان إذا لم يعرف وقت البلاء يكون خائفاً دائماً، أما إذا عرف آخر الطاعات و كان خوفه لقرب وقت الساعة.

ولا يقال: إن القيامة ليس مما يخاف منه الإنسان فى الدنيا، إذ هى بعد القبر، فعلمها و عدمه سواء بالنسبة إلى الإنسان الحى، وإنما يصح هذا التعليل بالنسبة إلى الموت.

لأننا نقول: قيام القيامة بالنسبة إلى العصيين - وهم فى القبر - من أكثر الأشياء خوفاً، كما ورد فى الأحاديث.

ثَقُلَتْ السَّاعَةُ، أى وقوعها فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يخافونها خوفاً عظيماً لشدتها و ما فيها من المحاسبة و المجازاة لا- تَأْتِيكُمْ أىها البشر، أيها الشعرون إِلَّا بَغْتَةً أى فجأة يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا أى أن الناس يسألونك يا رسول الله عن الساعة و عن وقت قيامتها، كأنك عالم بها، فإن «الحفى» بمعنى المستقصى فى السؤال، و يقال للعالم النحرير: «حفى» باعتبار أنه من كثرة سؤاله استوعب الأمر تماماً و علم الواقع كما هو، فالمعنى: «كأنك عالم بالقيامه قد أكثرت المساءلة عنها» قُلْ يا رسول الله فى

جواب السائلين: إِنَّمَا عِلْمُهَا أى علم الساعة عِنْدَ اللَّهِ كَرَّرَ هذا ليصل بقوله: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ إن علمها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٠

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٨]

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ إِنَّا أَنَا لِلْإِنْدِيرِ وَبَسِيرٌ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

خاص بالله لا يشترك معه في هذا العلم أحد.

[١٨٩] إن الساعة غيب لا يعلمه إلا الله، وكذلك سائر الأمور الغائبة عن الحواس، وإن كنت أنا- الرسول- أعلم الغيب بذاتي، لكنك أعلم ما يضرني فاجتنبه و ما ينفعني فارتكبه قل يا رسول الله لهؤلاء السائلين: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً فإنني لا أقدر على جلب نفع ولا- دفع ضرر إلا ما شاء الله فما شاء أن يملكني إياه؛ أتمكن منه، و ما لم يملكني إياه؛ لا أتمكن منه، وهذا كما ملكك سبحانه الرسول بعض المنافع و دفع عنه بعض المضار، نعم الرسول أكثر ملكا حيث أنه مزود بقسم من الحصانة و علم الغيب و لو كنت أعلم الغيب علما مطلقا كما يعلمه الله سبحانه، فإن الرسول لم يكن يعلم الغيب بذاته، وإنما بمقدار علم الله سبحانه، كما قال سبحانه: فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ «١»، لَأَشِيَتْكَوَتْ مِنْ الْخَيْرِ أَى أَكْثَرِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْخَيْرَةِ كَالشَّرَاءِ الرَّخِيسِ أَيَّامِ الرَّخِصِ أَيَّامِ الْغَلَاءِ، و غيره مما لو عرفه الإنسان لانتفع به كثيرا و ما مسنى الشوء الذى يمكن دفعه، فإن الإنسان إذا عرف أن هذا الغذاء يضره أو هذا الشخص يقتله، أو هذا السفر يؤذيه- مثلا- لأجتنبها.

و من الغريب أن بعض الناس يتمسكون بمثل هذه الآية لعدم معرفة الرسول بالأشياء المستقبلية إطلاقا، إنه ليس إلا كتمسك المجبرة بقوله

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨١

سبحانه: مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ «١»، و المجسمه بقوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ «٢»، و القدرية بقوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ «٣»، و القائلين بحجية التوراة و الإنجيل بقوله: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى «٤»، و ليحكم أهيل الإنجيل بما أنزل الله فيه «٥»، و القائلين بمعصية الأنبياء بقوله: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى «٦»، و القائل بجهل الله سبحانه و تعالى بقوله: قُلْ أَ تَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ «٧»، و القائل بتعدد الآلهة بقوله: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا «٨»، حيث دلل على أن الآلهة مع الله لا توجد الفساد. و هكذا من أمثال هذه الاستدلالات التى إن دلت على شىء فإنما تدل على عدم اطلاع القائل بأساليب الكلام، و عدم جمعه بين النص و الظاهر، و العام و الخاص، و المطلق و المقيد، و الحقيقة و المجاز، و معارض السياق.

إِنَّا أَنَا أَى مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ أَنْذَرَ الْكَافِرَ وَ الْعَاصِيَ بِالْعِقَابِ وَ بَشِيرٌ أَبَشَرَ الْمُؤْمِنَ بِالطَّيِّبِ بِالثَّوَابِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ اللام للعاقبة، أى أن فائدة إنذارى و بشارتى إنما هى للمؤمن، أما غيره فالرسول بشير نذير له، لكنه حيث لا ينتفع بقوله، فكأنه ليس مرسلا بالنسبة إليه. و قد ورد فى بعض التفاسير أن أهل مكة قالوا: يا محمد! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه فتربح فيه،

(١) الأعراف: ١٨٧.

(٢) القلم: ٤٣.

(٣) القمر: ٥٠.

(٤) المائدة: ٤٥.

(٥) المائدة: ٤٨.

(٦) طه: ١٢٢.

(٧) يونس: ١٩.

(٨) الأنبياء: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٢

[سورة الأعراف (٧): آية ١٨٩]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)

و بالأرض التي تريد أن تجذب فنرتحل منها إلى أرض قد أخصبت، فأنزل الله هذه الآية.

[١٩٠] و حيث انتهى السياق من قصة المعاد، و نبذ من يوم البعث، يأتي دور قصة أخرى من قصص البشر الذي لا يزال ينحرف عن الفطرة و يتوجه نحو الشرك و الكفر، كما تقدمت قصة «بلعم» بهذا الصدد هو الله وحده الذي خلقكم من نفس واحدة فابتداء الخلق بآدم عليه السلام وحده و جعل أي خلق منها أي من جنس تلك النفس و نوعها و صورتها زوجه حواء عليها السلام ليسكن آدم عليه السلام المفهوم من قوله «نفس واحدة» إليها أي إلى الزوجة، فيستريح بها و تكون موضع سكونه و اطمئنانه و راحته فلما تغشاه أي قاربها، إذ الرجل حين المقاربة يكون كالغشاء و الغطاء لها حملت حملاً خفيفاً هو الماء الذي يستقر في الرحم أول الأمر، و في هذا الحين لا يحسن بالحمل حتى يعلقا عليه آمالاً، و يندرا لأجل الجنين نذورا فمررت به أي استمرت بالحمل على الخفة فلما أثقلت أي صارت ذات ثقل، و تبين الحمل و ظهر أثره في الزوجة دعوا الله ربهما أي دعا الزوج و الزوجة، فإن الكلام حول الإنسان لا حول آدم و حواء عليهما السلام، فإنه سبحانه يريد بيان الطبيعة البشرية التي تستقيم في أول الأمر ثم تنحرف لنوازع و رغبات، و الكلام في مثله حيث يبدأ بجهه، ثم ينصرف لجهه أخرى، يسمى استخداماً، فإن اللفظ خدم معنى، و الضمير معنى آخر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٣

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٠ إلى ١٩١]

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أ يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)

كما قال: وَ الْمُطَّلَقَاتُ إِلَى قَوْلِهِ - وَ بَعُولَتُهُنَّ «١»، فإن الضمير يرجع إلى بعض المطلقات، و هن الرجعيات فقط. لئن آتينا صالحاً أي ولدا صالحاً كاملاً صحيح الخلقه لنكونن من الشاكرين لك و حدك لا شريك لك، فنقدر فضلك و لطفك علينا، و نحمدك و نشكرك على ما أعطيتنا هذا الولد الصالح.

[١٩١] فَلَمَّا آتَاهُمَا أَي أَعْطَى اللَّهُ الْأَبوين و لدا صالحاً جَعَلَا أَي الْأَبوان لَهُ سبحانه شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فِي الشُّؤنِ الْمَرْتَبِطَةِ بِالوَلدِ، فَتَشْكُرُ الْأَصْنَامَ كَمَا يَشْكُرُ اللَّهُ فِي إِعْطَاءِ الْوَلدِ، وَ يَسْمِيَاهُ بَعْدَ الْعِزَى وَ عِبْدَ اللَّاتِ وَ عِبْدَ مَنَاةَ، وَ أحياناً كانا يندرانه للأصنام ذبحاً أو خدمة؛ كما ينذر لخدمة المسجد و نحوه فَتَعَالَى اللَّهُ أَي أَنَّ اللَّهَ أَعْلَى وَ أَجَلَّ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَي يَشْرِكُ الْبَشَرَ، إِنَّهُ سبحانه ليس له شريك و لا مثيل.

[١٩٢] أ يُشْرِكُونَ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخِي، أَي كَيْفَ يَشْرِكُ هَؤُلَاءِ مَعَ اللَّهِ شَرِيكاً مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً؟ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَمْكُنُ مِنْ خَلْقِ شَيْءٍ وَ هُمْ يُخْلَقُونَ أَي أَوْلئِكَ الشُّرَكَاءَ - كَالْأَصْنَامِ - هِيَ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ، أَو الْمُرَادُ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ الْمُشْرِكِ وَ الْأَصْنَامِ مَخْلُوقُونَ.

(١) البقرة: ٢٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٤

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٢ إلى ١٩٣]

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)

[١٩٣] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَي لَا تَسْتَطِيعُ تِلْكَ الْأَصْنَامُ لَهُمْ أَي لِعِبَادِهَا نَصِيراً حَيْثُ يَقْعُونَ فِي الْمَشَاكِلِ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ لَا تَسْتَطِيعُ

الأصنام نصر أنفسها إذا تعدى عليها متعدّ، كما قد رأى ذلك الشاعر أن الثعلب يبول على رأس صنمه، فكسره قائلاً:

أرب يبول الثعلبان برأسه؟ لقدذلّ من بالت عليه الثعالب

و لا يخفى أن الإتيان بضمير العاقل للأصنام للتشاكل بما كان يعتقد عابدها من أنها تعقل و تفهم و تضر و تنفع.

[١٩٤] وَإِنْ تَدْعُوهُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ إِنْ تَدْعُوا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْهُدَى لِيَهْتَدُوا وَيَتْرَكُوا أَصْنَامَهُمْ لَا يَتَّبِعُكُمْ حَيْثُ اسْتَحْوَذَ

الشيطان عليهم سواءً عَلَيْكُمْ أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ فَإِنْ دَعَاءُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالسُّكُوتِ عَنْهُمْ مَتَسَاوِيَانِ، كما قال سبحانه:

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

و قد يستشكل بعض الملحدين: بأن الأمر إن كان بالنسبة إلى مرحلة الظاهر فالله «سبحانه» و الأصنام متساويان من هذه الجهة، فإنه لا

يظهر أثر للنصرة و عدمها، و إن كان بالنسبة إلى مرحلة الواقع، فأى

(١) البقرة: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٥

[سورة الأعراف (٧): آية ١٩٤]

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤)

دليل على الفرق، و إن الأصنام تنصر في زعم عابدها كما أن الله ينصر في نظر المسلمين؟

و الجواب: إن الأدلة لما دلت على وجوده سبحانه كانت كافية للفرق في مرحلة الواقع، فلو كان هناك شخصان أحدهما يملك شهادة

الطب، و الآخر جاهل، و لم ينفع الدواء الذى وصفه صاحب شهادة الطب للمريض، لا يمكن أن يقال بالتساوى مع الجاهل، و إنما

يجب أن يعلل بعلة أخرى، و إن شئت قلت: إن الدليل فى قوله تعالى:

لَا يَشَاءُ يَطِيعُونَ لَهُمْ نَصِيرًا خطاب فى الظاهر، و إنما البرهان المقنع ما ذكرنا. و بهذا يجاب عن الإشكال بالنسبة إلى التوسل بالأنبياء و

الأولياء مما دلّ الدليل عليه.

[١٩٥] إِنَّ الَّذِينَ أَيُّهَا الْأَصْنَامُ الَّذِينَ تَدْعُونَ هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى تَجْعَلُونَهُمْ آلِهَةً عِبَادًا أَى مَخْلُوقَةً لِلَّهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ هُوَ الْمَطِيعُ. و من المعلوم

أن الجمادات تطيع الله تعالى، كما يطيعه الإنسان، كما قال سبحانه: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحَمِيدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿١﴾،

أَمْثَلُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فَلْيَسُوا بِآلِهَتِهِمْ حَتَّى تَعْبُدُونَهُمْ.

فَادْعُوهُمْ فِي مَهْمَاتِكُمْ وَ كَشَفِ الضَّرَّ عَنْكُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ الْأَمْرَ هُنَا لِلتَّعْجِيزِ وَ التَّوْهِينِ، كما تقول للعاجز عن القيام: «قم إن صدقت

أنك قادر» إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى أنها آلهة تنفع و تضر.

(١) الإسراء: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٦

[سورة الأعراف (٧): آية ١٩٥]

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا

تَنْظُرُونَ (١٩٥)

و من الوهابيين من يستدل بهذه الآية بعدم صحة التوسل بالأنبياء و الأئمة، قائلاً: «فادعوهم فليستجيبوا لكم».

و الجواب: نقضاً؛ «فادع الله فليستجب لك» فإن قال: يستجيب، قلنا: يستجيبون بأمر الله تعالى و إذنه. و حلاً؛ بأن الفارق هو الدليل، و

عدم الاستجابة العاجلة لا دلالة فيه لأحد الطرفين.

[١٩٦] ثم بين سبحانه أن الأصنام لا تقدر على شيء حتى على ما يقدر الإنسان العادي عليه، فمن لا يقدر على أقل شيء كيف يكون إلهًا معبودًا؟ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَى: هل لهذه الأصنام أرجل يمشون بها في مصالحكم، أو مشيا لأنفسهم، حتى يتساوا مع أقل حيوان أو إنسان؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا «البطش» هو الأخذ بشدة، أى يأخذون بأيديهم بشدة ما يريدون الانتقام منه، أو مطلق الأخذ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا الأشياء؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا الأصوات و الشكاوى و غيرهما؟ إنها لا تحس إطلاقًا، فكيف تعبدون أنتم أيها البشر هذه الأشياء الفاقدة لكل حس؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ: ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ أَى الشركاء الذين جعلتموهم مع الله سبحانه ثُمَّ كِيدُونَ أَى امكروا بى بأجمعكم عابدا و معبودا فَلَا تَنْظُرُونَ لَا تَأْخِرُونِى، بل أسرعوا فى الكيد، فإن ربي ينصرنى عليكم جميعا. إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بهذا تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٧

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٩٦ الى ١٩٩]

إِنَّ وِلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ نَصِيرَكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)

يتحداهم، لبيان أن الله ناصر نبيه، لكن أصنامكم لا تنصركم.

[١٩٧] إِنَّ وِلِيَّيَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَمْرِي وَ يَنْصُرُنِي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ أَى القرآن، فإنه كما أمرنى بالرسالة ضمن لى النصره وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ يتولى أمورهم و ينصرهم على أعدائهم، و هذا لا ينافى عدم الحيلولة بينهم و بين أعدائهم أحيانا لمصالح و جهات. [١٩٨] وَ الْأَصْنَامَ الَّذِينَ تَدْعُونَ هُمْ مِنْ دُونِهِ أَى غير الله سبحانه من الآلهة لَا يَسْمَعُونَ نَصِيرَكُمْ لَا يقدرون على أن ينصروكم وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ فإذا تعدى عليهم متعد لا يتمكنون من الدفاع عن أنفسهم.

[١٩٩] وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِنْ تَدْعُوا أَيها المسلمون، المشركين إِلَى الْهُدَى و الحق لَا يَسْمَعُوا دعاءكم فإنهم معاندون، و قيل: المعنى إن تدعوا الأصنام لَا يسمعون لأنهم جماد و تراهم يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ أَى المشركون، أو الأصنام، فإن الأصنام عيونها مفتوحة إلى الإنسان كالناظر وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ إبصارا نافعا؛ إذا كان وصفا للمشركين، أو أصل الإبصار؛ إذا كان وصفا للأصنام.

[٢٠٠] و حيث أن الإنسان إذا ورد فى خضم الاحتجاج و رأى عناد الخصم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٨

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠٠]

وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

على الباطل يأخذه الغضب الموجب للخروج عن آداب المحاوره، أوصى الله سبحانه نبيه بمكارم الأخلاق - بمناسبة المقام - فقال: خُذِ الْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ أَى لازم العفو عنهم، و أصفح عن السيئ منهم، أو المراد خذ الزائد من أموالهم، أى ما عفا و فضل من نفقاتهم، فإن الخمس و الزكاه و الخراج و الجزية كذلك - غالبا - و المعنى الأول أقرب إلى الظاهر، و المعنى الثانى وارد فى الحديث، و لا يبعد إرادة الأمرين، فإن استعمال اللفظ فى أكثر من معنى جائز إذا كان هناك دليل وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ أَى ما يستحسنه العرف، و هو ما ليس بقبیح عند العقل، و هو ضد النكر وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ فلا تقابل جهلهم بجهل. إن المتكلم مع طبقات الناس المختلفه يحتاج إلى الترام هذه الأشياء إن أراد مراعاة الآداب، فاللازم أولا أن يعفو عمن يخشن فى الكلام و يتنكب عن طريق الحق، ثم يأمره بالمعروف لعله يرجع و يسترشد، فإذا رأى منه جهلا و إصرارا، فليعرض عنه و لا يقابله بمثل عمله.

[٢٠١] وَ إِمَّا مَرْكَبَةٌ مِنْ «إِن» الشرطية و «مَا» الزائده تأتي لتجميل الكلام و فوائد أخر يَنْزَغَنَّكَ «النزغ» هو الإزعاج بالإغراء، و أكثر ما

يكون ذلك عند الغضب، أى إن تالك من الشيطان نَزَّغَ وسوسه و نيل و نخسه فى القلب، و حركة و إزعاج بأن ثار القلب أمام الجاهل و غضب و احتد، حتى أراد الانتقام و السباب فاشيتعد بالله أى سل الله سبحانه أن يعيدك و يحفظك من شر الشيطان إنه سبحانه سميع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٨٩

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٠١ إلى ٢٠٢]

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَدَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) لقولك عليم بقصدك و ما عرض لك.

[٢٠٢] ثم بين سبحانه أن هذه قاعدة المؤمنين كلما ألقى الشيطان فى قلوبهم ميلا و زيغا، أدركتهم الفطنة، فلم يميلوا إليه إن الذين اتقوا بأن جعلوا التقوى شعارهم، و ذاقوا حلاوتها و صارت ملكة و عادة عندهم إذا مسهم طائف من الشيطان بأن أتاهم من يطوف من الشياطين على قلوب بنى آدم، فأراد إغواءهم، و ميلهم عن الحق، و أعمى قلوبهم، و زين فى نفوسهم الشهوات. و قد دلت الأدلة الشرعية و العلمية «١» على أن فى الجو أرواح شريرة شأنها الإغراء و الإغواء، و لا يراها الإنسان.

تَدَكَّرُوا و أدركتهم ملكة التقوى الكامنة فى نفوسهم فإذا هم مُبْصِرُونَ يبصرون الطريق و لا يعمهون عن الحق، و لا يتمكن الشيطان من تغشيه قلوبهم بغشاء الشهوات و المغريات.

[٢٠٣] هذا شأن المتقين الذين لا يسايرون الشياطين فى إغوائهم و إغرائهم و أما إخوانهم أى إخوان الشياطين الذين لا تقوى لهم ليرتدعوا عن المعاصى و الآثام فإنهم يمدونهم أى يمدون الشياطين و يسايرونهم فى الغي و الضلال، فإذا مس العاصى طائف من الشيطان عمل بما يوحى إليه، و كان ذلك إمدادا للشياطين، لأنه مشى فى ركابهم، و مسايرة لهم ثم لا يقصرون بل يذهبون إلى آخر

(١) المس الروحي / عبد الرزاق نوفل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٠

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠٣]

وَ إِذْ لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) الشوط، بخلاف المتقين الذين لا يمدون الشياطين و يقصرون فى المسايرة، و لعل جملة «ثم لا يقصرون» للإشارة إلى أن المتقى إذا غفل و أغرى و مشى بعض الطريق مع الشيطان أدرسته بصيرته فرجع و لا يسير إلى آخر الشوط، بخلاف إخوان الشياطين.

[٢٠٤] و فى سياق الكلام حول أدب الحوار مع الناس، و أن المتقى متأدب بالآداب يأتى دور المحاوره بين الرسول و الكفار حول القرآن كشاهد لأدب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و كون الكفار إخوان الشياطين الذين يمدونهم فى الغي و إذا لم تأت بهم يا رسول الله بآية أى بمعجزة يقترحونها عليك، فإن الكفار كانوا يقترحون على الرسول الأمور الخارقة للعادة لمجرد المجادلة و المعاندة، لا لإرادة الاهتداء و الاسترشاد، فإذا لم يستجب الرسول لمطلبهم قالوا أى الكفار: لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا أى لماذا لم تختتر هذه الآية المقترحة؟ و لماذا لم تأت بها؟ كأنهم، يرون الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الفاعل لما يشاء، فمهما اجتبى آية و اختارها، أتى بها قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنْ آيَاتٍ لَيْسَتْ بِاخْتِيَارِي وَ اجْتِبَائِي، بَلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي فَاللازم اختيار الله للآيات، فما رآها صلاحا أرسلها و زودنى بها، و ما لم يرها صلاحا لم يرسلها، إن كنتم تريدون الحق و الهدى - حقيقه - و قصدكم من طلب الآيات، إقامة الدليل و الحجج على صدقى ف هذا الذى جئت به من القرآن المعجز الذى لم تتمكنوا أن تأتوا بمثله بصائر و حجج و براهين من قبل رَبِّكُمْ وَ هُدًى يَهْدِي مِنْ أَرَادَ الْحَقَّ إِلَى الْحَقِّ وَ رَحْمَةٌ يُوجِبُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩١

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٥]

وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَ الْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)

ترحم الله سبحانه و لطفه بالعاملين به لقوم يؤمنون اللام للعاقبة، إذ المنتفع بهذه الآيات هم المتقون فقط.

[٢٠٥] و إذ تقدم ذكر القرآن تلميحا بقوله «هذا بصائر» بين سبحانه لزوم الأدب أمام القرآن بقوله: وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ أَنْ أَى قارئ كان فَاسْتَمِعُوا لَهُ أَى أعيروا أسماعكم له وَ أَنْصِتُوا «الإنصات» هو السكوت. و من المعلوم أن الإنصات أخص من الاستماع، فإن الإنسان ربما يستمع إلى الكلام و هو يتكلم، و لذا نص عليه، فإن الأدب أن يستمع الإنسان، و لا يتكلم، و هذا الأمر للاستحباب، ككثير من أوامر القرآن الكريم كقوله:

فَكَابِتُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا (١)، كما دلت على ذلك الأحاديث لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَى لكى يرحمكم الله سبحانه بسبب تأديبكم أمام كتابه الكريم، أو بسبب اتعاظكم بمواعظه، حيث تستمعون لها.

[٢٠٦] و بمناسبة الإنصات عند تلاوة القرآن، يأتي بيان كيفية دعوة الله سبحانه، فإن القرآن كلام الله للخلق، و الدعاء كلام الخلق مع الله سبحانه وَ اذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو كل من يأتي منه الذكر رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ أما المراد به حديث النفس، و أما المراد التذكر بالهمس و الإخفات، و لعل الأول أقرب، بقرينه ما يأتي بقوله: «و دون ...» تَضَرُّعًا أَى بنحو الضراعة و الاستكانة وَ خِيفَةً أَى مع الخوف من

(١) النور: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٢

[سورة الأعراف (٧): آية ٢٠٦]

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

الله تعالى، فإن ذلك أقرب إلى الإجابة وَ اذكره سبحانه دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ فَإِنِ الْكَلَامِ الْمَتَوَسِّطِ خَيْرٌ، و هذا لا ينافى استحباب الإجهار لدواعي آخر، كما

نزل جبرئيل على الرسول، و قال: «يأمرك ربك بالبعج و النج»

«١» فى باب التلبية و ما ورد من أن الصلوات المجهر بها تذهب بالنفاق، و ما دل على الإتيان بالصلوات الثلاث جهريه، إلى غير ذلك، و القول بأن الله لا يحتاج إلى الإجهار لتعليل تافه، فإنه ينقض بأن الله لا يحتاج إلى الكلام، فليكتف المستشكل بحديث النفس فى قراءته و دعائه وَ اذكاره؟ بِالْغُدُوِّ أَى الصبح وَ الْأَصَالِ جمع «أصل»، و أصل جمع «أصيل»، فهو جمع الجمع، و معناه «العشيات»، و هو ما بين العصر إلى غروب الشمس، و هذا كناية عن دوام الذكر، و التفريق بين «الغدو و الأصال» بالافراد و الجمع، تفنن بلاغى لا يخفى لطفه.

وَ لَا تَكُنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو المراد العموم، و المقصد العموم على أى حال، و إنما الكلام فى مرجع الضمير مِنَ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ يَغْفَلُونَ عن ذكر الله سبحانه. و فى الآية الكريمة روايات كثيرة غالبها من باب بيان المصدق، فلا تضر بعمومها.

[٢٠٧] ثم بين سبحانه أن الملائكة الذين هم أبعد عن النزوات، و هم دائمو الذكر، فأجدر بالإنسان أن يكون متذكرا دائما إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٢٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٣

أى الملائكة، و المراد بكونهم عنده سبحانه أنهم فى قربه، قرب الجاه و المكانة، لا- القرب المكانى لا- يَشْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ و لا يترفون بأنفسهم عن الخضوع و الخشوع له سبحانه وَ يَسْتَبْخُونَهُ أى ينزهونه عما لا- يليق به، بذكر «سبحان الله» أو غيره و لَه تعالى يَسْجُدُونَ كسجودنا، أو المراد غاية الخضوع.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٤

٨ سورة الأنفال مكية، مدنية / آياتها (٧٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الأنفال» و حكمها.

و الجو العام لهذه السورة حول السلم و الحرب و شؤونهما، و حياة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه، و مناوئهم، و أمثلة من آل فرعون و من كذب بآيات الله سبحانه.

و لما كانت سورة الأعراف لبيان قصص الأنبياء، و ثم ختمت بقصة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، افتتحت هذه السورة بذكره صلى الله عليه و آله و سلم و ما جرى بينه و بين قومه، فقال سبحانه:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ دليلا على ابتداء هذه السورة، و اختتام السورة السابقة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٥

[سورة الأنفال (٨): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

[٢] يَسْأَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْأَنْفَالِ هُوَ جَمْعُ «نَفْلٍ» بِمَعْنَى الزِّيَادَةِ، وَ الْمُرَادُ هُنَا: الْغَنِيمَةُ، وَ إِنَّمَا سُمِّيَتْ نَفْلًا لِأَنَّهَا عَطِيَّةٌ وَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَ قَدْ اختلف التفسير حول الأنفال، و الذى نعتقده بعد الجمع بين الآيات و الروايات أن الأشياء التى ليست ملكا لأحد و غنائم دار الحرب تنقسم إلى قسمين:

الأول: الغنائم؛ و هى تنقسم إلى خمسة أقسام: قسم يسمى «الخمس» لله و الرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل. و الأربعة الباقية للمقاتلين.

الثانى: الأنفال؛ و هى ما سياتى فى الرواية، و تكون لله و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الإمام، و قد أبيحت فى حال الغيبة لمن يتولى الأئمة عليهم السلام، أو لمطلق من حازها مؤمنا كان أو غير مؤمن. و ظاهر سياق الآية أن المراد بالأنفال هنا هى مطلق الغنائم، فإن السورة نزلت فى وقعة بدر، و لما هزم المسلمون الكفار، انقسموا ثلاث فرق.

روى عبادة بن الصامت قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فشهدت معه بدرا فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون و يقتلون، و أقبلت طائفة على العسكر يحوزونه و يجمعونه و أحدثت طائفة برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لا يصيب العدو منه غزوة، حتى إذا كان الليل و فاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب. و قال الذين خرجوا فى طلب العدو:

لستم بأحق منا نحن منعنا عنه العدو و هزمناهم. و قال الذين أحدثوا برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: خفنا أن يصيب العدو منه غزوة فاشتغلنا به. فتزلت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٦

الآية: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَقسمها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بين المسلمين.

وهذا الحديث يدل على أن المراد بالأنفال مطلق الغنائم، كما هو ظاهر السياق، وهناك حديث يفسر الأنفال بما يحضر الإمام بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولا منافاة بين الأمرين، فقد تكرر منا سابقا أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في أكثر من معنى واحد إذا كانت هناك قرينة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا وأعطوا بيدهم» (١).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «الفيء والأنفال ما كان من أرض خربة أو بطون أودية أو أرض لم يكن فيها مهراقه دم أو صلحوا أو أعطوا بأيديهم ولم تفتح بالسيف فهو يكون من الفيء والأنفال، فهذه لله ورسوله فما كان لله فهو لرسوله يضعه حيث يشاء وهو للإمام بعد الرسول» (٢).

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «الأنفال كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال، وكل أرض انجلى عنها أهلها بغير قتال والأرضون الموات والآجام و بطون الأودية وقطائع الملوك وميراث من لا وارث له فهو لله ورسوله ولو من قام بنصه ومن مات وليس له مولى فماله من الأنفال» (٣).

(١) الكافي: ج ١ ص ٥٣٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٢]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)
وعلى هذا فتسمية هذا الشيء بالأنفال لزيادة الإمام بحصة دون سائر شركائه في الخمس.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنِ الْآنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ لَيْسَ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ يَتَنَازَعَ فِيهَا، وَإِذَا كَانَتْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَلَهُمَا الْخِيَارُ فِي أَنْ يَقْسِمَاهَا كَيْفَ شَاءَ فَاتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ فِي التَّنَازَعِ وَطَلَبَ مَا لَيْسَ لَكُمْ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ أَى مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْمَنَازَعَةِ، وَإِنَّمَا يُؤْتَىٰ بِكَلِمَةِ «ذَات» لِتَشْبِيهِ الصَّلَاةِ الَّتِي بَيْنَ النَّاسِ بِأَمْرِ مَجَسِّمٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ، تَشْبِيهَا لِلْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي الْغَنَائِمِ وَغَيْرِهَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ لِلرَّسُولِ فِيمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا عَرَفَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَأَنَّهَا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعْنَا وَطَاعْنَا فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ.

[٣] ثم ذكر سبحانه صفات المؤمنين الكاملين ليكون درسا للمسلمين في مستقبل حياتهم وليكون ميزانا يزن المسلم نفسه فيه فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ أَى اضطربت وخافت من عظمتها، وإن لم يكن خوفا من ذنب، فإن الإنسان إذا علم أنه سيحضر محضرا كبيرا وعظيما ارتجف قلبه خوفا من الفشل وإذا تليت أى قرأت عليهم آياته زادتهم إيمانا فإن الإيمان ملكة في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣ إلى ٥]

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُِونَ (٥)

القلب، كلما كثر المطلب على الإنسان زادت الملكة قوة وثباتا وعلى ربهم يتوكلون في أمرهم، فيفوضون أمورهم إليه، في كل

مرجو و مخوف.

[٤] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِالْإِيمَانِ بِهَا مُوَظِّينَ عَلَيْهَا، وَ الْحَثَّ عَلَيْهَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْإِقَامَةَ غَيْرَ الْإِيمَانِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ سواء الواجب من الإنفاق أو غيره.

[٥] أَوْلَيْكَ الْمُتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا فَهَمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ هَمُ الَّذِينَ شَعَرَتْ قُلُوبُهُمُ بِالْإِيمَانِ وَ امْتَلَتْ جَوَارِحُهُمْ لِتَطْبِيقِهِ لَهُمْ دَرَجَاتٌ رَفِيعَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَهَمُ مَكْتُوبُونَ عِنْدَهُ أَصْحَابُ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، وَ سَيُنَالُونَهَا فِي الْآخِرَةِ وَ مَغْفِرَةٌ لِدُنُوبِهِمْ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ فَهَمُ يَرْزُقُونَ بِإِكْرَامٍ وَ إِعْظَامٍ لَا يَاهَانُهُ وَ إِذْلَالٍ.

[٦] إِنْ الْأَنْفَالَ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ، وَ إِنْ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ فِي كَوْنِهَا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ حَسَنَ الْعَاقِبَةِ وَ الْمَصِيرِ، كَمَا إِنْ إِخْرَاجَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَعَهُ بَدْرٌ كَانَ بِالْحَقِّ وَ لِعَاقِبَتِهِ حَسَنَةً، وَ إِنْ كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ الْعَوَاقِبَ، وَ يَأْمُرُ بِمَا هُوَ خَيْرٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ الْمَرَادُ بِ«الْبَيْتِ» هُنَا مَحَلُّ الْإِقَامَةِ، وَ هِيَ الْمَدِينَةُ الْمُنُورَةُ، وَ مَعْنَى «الْإِخْرَاجِ» أَمْرُهُ بِذَلِكَ وَ الْحَالُ إِنْ فَرِيقًا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٢٩٩

الْمُؤْمِنِينَ لِكَارِهِمْ لِلخُرُوجِ.

و قصة بدر في الجملة هي

إِنَّ الْكُفَّارَ فِي مَكَّةَ لَمَّا شَرَّدُوا قِسْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَبْشَةِ، وَ طَارَدُوا الرَّسُولَ وَ أَصْحَابَهُ، حَتَّى اضْطُرُّوا لِلهَجْرَةِ تَحْتَ جَنَحِ الظَّلَامِ، أَخَذُوا بَعْدَ ذَلِكَ يُؤْذُونَ الْمُسْلِمِينَ الْبَاقِينَ فِي مَكَّةَ، وَ يَشِيعُونَ حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابِهِ مُخْتَلِفِ الْإِشَاعَاتِ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَضْعُ حُدَا لِهَذِهِ التَّعْدِيَاتِ الَّتِي لَا مَبْرَرَ لَهَا إِلَّا الْحَقْدُ وَ الْحَسَدُ. وَ أَخِيرًا عَزَمَ عَلَى قَطْعِ طَرِيقِ تِجَارَتِهِمُ الَّتِي تَسِيرُ بَيْنَ مَكَّةَ وَ الشَّامِ، لِيَتَأَدَّبُوا وَ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ حَذْرَهُمْ.

فَخَرَجَتْ عِيرُ لَقْرِيشَ إِلَى الشَّامِ فِيهَا كَثْرَةٌ وَافِرَةٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَأَمَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَصْحَابَهُ بِالخُرُوجِ لِأَخْذِهَا، وَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ؛ غَنِيمَةَ الْعَيْرِ، أَوْ مَطَارِدَةَ قَرِيشَ وَ مُحَارِبَتَهَا وَ تَبْدِيدَهَا، فَخَرَجَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَلَمَّا قَارَبَ «بَدْرًا» وَ هِيَ بَثْرٌ هُنَاكَ أَبْلَغَ أَبَا سَفْيَانَ ذَلِكَ، وَ كَانَ فِي الْعَيْرِ فُخَافٌ خَوْفًا شَدِيدًا، وَ بَعَثَ إِلَى قَرِيشَ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ وَ طَلَبَ مِنْهُمْ الْخُرُوجَ وَ الدَّفَاعَ عَنِ الْعَيْرِ وَ أَمَرَ بِالْعَيْرِ فَأَخَذَ بِهَا نَحْوَ سَاحِلِ الْبَحْرِ، وَ تَرَكَوا الطَّرِيقَ وَ مَرُّوا مَسْرِعِينَ، وَ نَزَلَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَأَخْبَرَ أَنَّ الْعَيْرَ قَدْ أَفْلَتَ وَ أَنَّ قَرِيشًا قَدْ أَقْبَلَتْ لِتَمْنَعَ عَنْ عَيْرِهَا وَ أَمْرُهُ بِالْقِتَالِ، وَ وَعَدَهُ النَّصْرَ، فَأَخْبَرَ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ أَصْحَابَهُ فَجَزَعُوا مِنْ ذَلِكَ وَ خَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا إِذْ لَمْ يَتَّهِنُوا لِلْحَرْبِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَشِيرُوا عَلَيَّ. فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا قَرِيشٌ وَ خِيَلَاؤُهَا مَا آمَنْتَ مِنْذُ كَفَرْتَ وَ لَا ذَلْتَ مِنْذُ عَزَّتْ وَ لَمْ نَخْرُجْ عَلَى هَيْئَةِ الْحَرْبِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: اجْلِسْ فَجَلَسَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٣٤٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٦]

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَشِيرُوا عَلَيَّ. فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَةِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: اجْلِسْ، ثُمَّ قَامَ الْمُقَدَّادُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا قَرِيشٌ وَ خِيَلَاؤُهَا، وَ قَدْ آمَنَّا بِكَ وَ صَدَقْنَاكَ وَ شَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَخُوضَ جِوَالِقِ الْفُضَاءِ وَ شُوكِ الْهَرَّاسِ لَخَضْنَا مَعَكَ وَ لَا نَقُولُ لَكَ مَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: «أَذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» وَ لَكِنَّا نَقُولُ: «أَذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» وَ لَكِنَّا نَقُولُ: «أَذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ إِنَّا مَعَكُمْ مَقَاتِلُونَ». فَجَزَاهُ النَّبِيُّ خَيْرًا ثُمَّ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: أَشِيرُوا

علی. فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت و أمی یا رسول الله كأنک أردتنا؟ قال: نعم قال: فلعلک خرجت علی أمر قد أمرت بغيره. قال: نعم. قال: بأبي أنت و أمی یا رسول الله، قد آمننا بک و صدقناک و شهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، فمر بنا بما شئت و خذ من أموالنا ما شئت.

ثم قال: و الله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك. إلى أن قال: و لكن نعد لك الرواحل و نلقى عدونا فإننا صبر عند اللقاء أنجاد في الحرب، و إنا لنجوا أن يقر الله عينيك بنا. فقال رسول الله: كأني بمصرع فلان هاهنا و بمصرع فلان هاهنا و بمصرع أبي جهل و عتب و شيبه فإن الله و عدنى إحدى الطائفتين و لن يخلف الله الميعاد «١»، فنزلت الآية: كَمَا أَخْرَجَكَ فَأَمْرًا بِالرَّحِيلِ حَتَّى نَزَلَ مَاءَ بَدْرٍ وَ أَقْبَلْتَ قَرِيشَ.

[٧] يُجَادِلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ مَحَارِبَةٍ قَرِيشٍ فِي الْحَقِّ فَإِنَّ الْحَرْبَ وَاجِبٌ وَ حَقٌّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ حَقٌّ،

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠١

[سورة الأنفال (٨): آية ٧]

وَ إِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَاهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)

فإنهم كانوا يقولون: هلاً أخبرتنا لنعد عدتنا للحرب، و هم يعلمون أنك لا تأمرهم إلا بأمر الله سبحانه كما قال سبحانه: وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ «١».

كأنما هؤلاء المجادلين يساقون إلى الموت فيظنون أن سوقهم إلى الحرب موجب لهلاكهم حيث لم يعدوا لها العدة و هم ينظرون أى ينظرون إلى الموت عيانا و يرونه بأبصارهم، فكيف يكون حال مثل هذا الإنسان، كذلك حال هؤلاء المجادلين.

[٨] وَ اذْكُرُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ إِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ إِمَّا طَائِفَةُ الْعِيرِ فَتَغْنَمُونَهَا، وَ إِمَّا قَرِيشٌ فَتَقْتُلُونَهُمْ وَ تَتَخَلَّصُونَ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَيُّ تَحْبُونَ وَ تَرْغَبُونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَاهِ تَكُونُ لَكُمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَحْبُونَ أَنْ يَغْنَمُوا الْعِيرَ لِنَلَّا يَلِاقُوا مَشَقَّةَ الْحَرْبِ، وَ الْحَالُ أَنَّ الْحَرْبَ كَانَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ شَوْكَةً إِذْ تَرَكُوا فِي الْعَدُوِّ خَوْفَهُمْ وَ شَوْكَتَهُمْ، وَ كَأَنَّ الشُّوْكَاهَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الشُّوْكَ لَأَنَّ فِي الْحَرْبِ شَوْكًا وَ لَيْسَ الْأَمْرُ سَهْلًا، فَيَكُونُ تَشْبِيهَا، أَوْ الْمَرَادُ بِالشُّوْكَاهِ: السِّلَاحُ.

وَ يُرِيدُ اللَّهُ حَيْثُ أَمَرَكُمْ بِالْحَرْبِ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ أَيُّ

(١) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٨ إلى ٩]

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبَيِّطَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) يظهر الحق، بما بينه و أوجه عليكم من المقاتلة و يقطع دابر الكافرين أى يستأصلهم، فإن «الدابر» هو الأصل، أى يجذ الكفر من أصوله، فإن وقعة بدر كانت أقوى الأسباب لنصرة المسلمين إلى الأبد و هزيمة الكافرين إلى الأبد.

[٩] و إنما أراد الله ذلك ليحقق الحق أى يظهر حقيقة الإسلام، و فى التكرار تركيز و توطئة لقوله: وَ يُبَيِّطُ الْبَاطِلَ أَيُّ يظهر بطلانه بإهلاك الكفار و لو كره ذلك المجرمون الذين أجزموا بالكفر و العصيان.

[١٠] و لما بلغ أصحاب رسول الله كثرة فريش و ما معها من السلاح و العناد فرعوا و استغاثوا بالله و تضرعوا. «و اذكروا أيها المسلمون إذ تَسْتَعِيْثُونَ أَى تطلبون الغوث و النصره من رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ دَعَاءَكُمْ وَ تَضَرَّعَكُمْ أَنَّى مُمِدُّكُمْ أَى مرسل إليكم مددا بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ أَى بعضهم خلف بعض، فهم مترادفون متتابعون فى النزول إليكم. فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين هذه الآية و بين قوله: بِثَلَاثَةِ آلَافٍ «١» بِخَمْسَةِ آلَافٍ «٢»؟

(١) آل عمران: ١٢٥.

(٢) آل عمران: ١٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٣

[سورة الأنفال (٨): آية ١٠]

وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

فالجواب: إن الألف كانوا مقاتلين، و البقية للبشارة و تقوية القلوب، كما يقال: إن العاملين فى المدينة عشرة، فإذا قيل: إنهم أكثر؟ أجب بأن المائة مثلا إنما هى من حيث العدد و الحركة و العمل للعشرة. و فى الحديث: إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لما نظر إلى كثرة المشركين و قلته عدد المسلمين استقبال القبلة و قال: «اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض»

«١». فما زال يهتف بربه ماذا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فأنزل الله الملائكة، و قد قاتلت الملائكة و أسرت بعض المشركين.

[١١] ثم يذكر سبحانه أن إنزال الملائكة إنما كان لأجل تقوية قلوب المسلمين، و إلاً فنصر الله سبحانه لا يحتاج إلى مدد ملك أو غيره و ما جعله الله أى ما جعل الله الإمداد بالملائكة إلاً بُشْرَى أى بشاره لكم بالنصر، فإن الإنسان يستبشر بكثرة الأعوان و إن كان علم أنهم للسواد و الكثرة فقط و لَتَطْمَئِنَّ بِهِ أى بالإمداد قلوبكم فيزول الخوف و الوسوسة عنها و إلاً فى الحقيقة و الواقع ما النَّصْرُ أى ليس النصر إلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ و لا تأثير للإمداد و الإعداد و إنما هى روابط و وسائط إلاً من عند الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ بِسُلْطَانِهِ حَكِيمٌ فيما يفعل، و هذا لا يدل على عدم تهيئه الأسباب، بل يدل على لزوم تهيئتها، فإن الملائكة و قوى ما وراء الطبيعة بشائر،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ٣ ص ٢٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٤

[سورة الأنفال (٨): آية ١١]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَكُم بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيُزَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُبَيِّنَ بِهِ الْاَقْدَامَ (١١)

و إلاً فالنصر من الله بأسبابه الظاهرية التى قررها هو سبحانه، كما قال تعالى: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ «١».

[١٢] و لما أمسى القوم المساء قبل الواقعة أخذ أصحاب الرسول النوم، من كثرة التعب و قد كان إلقاء الله النوم عليهم ليذهب خوفهم، و يتقوا على القتال غدا، فإن من استراح و نام لم يقلق كما يقلق الساهر، كما أن أعصابه تهدأ، و قواه تكثر فيتمكن مما لا يتمكن عليه الساهر، و احتلم كثير من المسلمين تلك الليلة، و كان موضع نزولهم كثير الرمل، مما سبب صعوبة الحركة، فوسوس إليهم الشيطان قائلاً: كيف أنتم على حق، و قد أصابتكم الجنابة، و محللكم غير صالح، و لا ماء عندكم، بينما المشركون على الماء، فأنزل الله المطر، حتى لبد الأرض، و اغتسلوا، و ارتووا. فاذكروا أيها المسلمون إذ يُغَشِّيكُمْ أى يستولى عليكم النُّعَاسَ أى النوم أَمَنَةً أى أماناً مِنْهُ سبحانه، فإنه لم يفعل ذلك إلاً لأجل أمنكم و راحتكم و إزالة الخوف عنكم، و «الأمنة» الدعة التى تنافى المخافة و يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ مِنْ حَدَثِ الْجَنَابَةِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ أَيَّ وَسْوَسته فَإِنَّه كَانَ يُوسوس فِي قُلُوبِهِم: كيف يكونون على حق، و هم نجسون، و محلهم رمل، و هم ظماء و لِيُزِبَطَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ أَي لِيُشَدَّ

(١) الأنفال: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٥

[سورة الأنفال (٨): آية ١٢]

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)

قلوبكم و يقويها، فإن النوم و نزول المطر قويا قلوبهم حيث أزالا- المخاوف و الوسوس و الأتعب و يُبَيِّتَ بِهِ أَي بالمطر الأقدام أي أقدامكم في الحرب بتلبد الرمل، أو المراد تقوية القلب فإنه يكتفي بذلك عنه، أو المراد ذهاب الحالات الخمسة بالأميرين؛ فالنوم للدعة، و المطر لتطهير البدن عن نجاسة المنى، و الاغتسال لذهاب رجس الشيطان، و تقوية القلب عن وسوسته، و تثبيت الأقدام بتلبد الرمل.

[١٣] و اذكروا أيها المسلمون إِذْ يُوحِي و هم و إن لم يروا ذلك و لم يسمعوه بآذانهم إِلَّا أَنهم علموه رَبُّكَ يَا رسول الله إِلَى الْمَلَائِكَةِ المنزلين في وقعة بدر أَنِّي مَعَكُمْ و هذا لتقوية قلوب المسلمين، و إلا فمن المعلوم أن الملائكة لا تفعل شيئاً إِلَّا بأمر الله سبحانه فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا بتقوية قلوبهم و دحر الشياطين عنهم، فإن في القلب لمتان: لمة من الملائكة و لمة من الشيطان، فالنوايا الحسنه و ما أشبهه من الملائكة، و النوايا السيئه و ما أشبهه من الشياطين.

سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أَي الخوف من المؤمنين، و قد كان ذلك، فقد سلط الله على الكفار رعباً عظيماً، حتى أن أبا لهب قال لأبي سفيان - بعد الواقعة -: كيف كان أمر الناس؟

قال: لا- شيء و الله إِلَّا أن لقيناهم فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا و ياسرونا كيف شاءوا، و أيم الله مع ذلك مالت الناس، رأينا رجالاً يبضا على خيل بلق بين السماء و الأرض ما تليق شيئاً و لا يقوم لها شيء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٦

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٣ إلى ١٤]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَ فَدُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) فَاضْرِبُوا أَيها الملائكة فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أَي الرؤوس أو المذابح، فإنهما فوق الأعناق، أو هو كناية عن ضرب القفا للإذلال و الإهانة وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ أَي من الكفار كُلَّ بَنَانٍ أَي أصابع اليد و الرجل، أو المعنى: جزوا أعناقهم و اقطعوا أطرافهم.

[١٤] ذَلِكَ التعذيب و الضرب فوق الأعناق و البنان بسبب أنهم شَاقُّوا اللَّهَ أَي خالفوا الله وَ رَسُولَهُ فكأنهم في شق و الله و الرسول في شق آخر وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ من المعلوم أنه يكتفي بذكر الله وحده أو الرسول وحده، و لكن ذلك لتعظيم الرسول حين يقترن باسم الله سبحانه، و أنه الشخص المقابل لهم في المشاقه فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فِي الدنيا بعقوبة الكافرين على أيدي المسلمين، و في الآخرة بإخلادهم في النار.

[١٥] ذَلِكَ «ذلك» إشارة إلى العذاب في الدنيا بالأسر و القتل، و «كم» خطاب للكفار فَدُوقُوهُ أَي ذوقوا هذا العذاب. و «الفاء» دخلت لإفادة الترتب على الكفر وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ علاوةً على هذا العقاب العاجل عَذَابَ النَّارِ فِي الآخرة. و لا يخفى أن «الذوق» يستعمل كثيراً

في غير الذوق باللسان، باعتبار إدراك الإنسان له كما يدرك باللسان المدوقات، و هو يستعمل بالنسبة إلى الألم الروحي، كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٧

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ إلى ١٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

يقال: «ذق الذل»، و بالنسبة إلى الألم الجسمي، كما يقال: «ذق السوط»، قال سبحانه: فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ «١»، وقال: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ «٢».

[١٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْخَطَابُ عام لكل مؤمن، وإن كان نزول الآية بمناسبة قصة بدر إذا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا من اللقاء في الحرب زَحْفًا «حال» أى حال كونهم وإياكم زاحفين متدائنين للقتال، فإن الزحف بمعنى الدنو فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ أى لا تنهزموا بأن تجعلوا ظهوركم إليهم، فإن الإنسان لا يجعل ظهره إلى ساحة القتال إلا إذا أراد الفرار.

[١٧] وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ أى من يجعل ظهره إليهم يوم القتال، وإنما قال «يومئذ» لأنه فهم من قوله: إِذَا لَقِيتُمْ إِلَّا إذا كان مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أى تاركاً موقفه إلى موقف آخر أصلح للقتال من موقفه الأول، و «التحرّف» الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف بمعنى الطرف، و اللفظ، حال، أى: فى حال كونه قاصدا الطرف حتى يكون أمكن فى الحرب أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ طلب حيزا غير حيزه السابق، أى مكان جديد، يقال: «فلان متحيز إلى فلان» أى

(١) النحل: ١١٣.

(٢) الدخان: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٨

[سورة الأنفال (٨): آية ١٧]

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)

منحاز نحوه، منضم إليه. فالمعنى: أنه ولّى دبره لينضم إلى جماعة يستعين بهم فى القتال، فإن الإنسان وحده يجترئ عليه العدو أكثر مما إذا كان مع جماعة فَقَدْ بَاءَ خبر «و من يولهم» أى أن المولى دبره يرجع بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ فكأنه كان ذاهبا إلى الحرب برضى الله، و الآن بفراره رجع يحمل الغضب وَمَأْوَاهُ أى مصيره جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وبهذا يستدل على أن الفرار من الزحف كبيرة موبقة.

[١٨] ثم ذكر سبحانه أن السبب الحقيقى فى انهزام الكفار إنما كان هو الله سبحانه فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ أى لم تقتلوا الكفار أتم أيها المسلمون.

و «النفى عنهم» باعتبار كونهم السبب الأضعف، فلو لا تشجيع الله سبحانه بإنزال الملائكة وإنزال المطر وتقوية قلوبهم ومساعدة الملائكة لهم فى القتل والأسر لم يتمكنوا من الغلبة عليهم، و من المتعارف أن ينسب الفعل إلى أقوى السببين وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ بتهيئة الأسباب وإلقاء الرعب فى قلوب الكفار حيث انهارت أعصابهم وَمَا رَمَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها المسلم إِذْ رَمَيْتَ و المراد بالأول: الرمي المصيب، فإن الفعل ينفى عن من لم تكن نتيجة الفعل بقدرته، كما يقال لمن ألقى حجرا بدون معرفة فاصطاد طائرا: «فما صدت أنت و إنما صادته الصدفة». و لعل المراد ب «الرمى»، رمى القوم بالهلاك، كما يقال: «رماه الله بهلاك و نكال». وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ فَإِنَّهُ كَانَ السبب الأقوى فى هلاكهم و نكالهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٠٩

و ذكر جمع من المفسرين: أن المراد بذلك، رمى الكفار بالتراب،

فإن جبرئيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر: خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له و سلم لما التقى الجمعان لعلى عليه السلام: أعطنى قبضة من حصى الوادى. فناوله كفا من حصى عليه تراب فرمى به فى وجوه

القوم وقال: شأهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلّا دخل فى عینه و فمه و منخریه منه شىء و تبعهم المؤمنون یقتلونهم و یأسرونهم و كانت تلك الرمیة سبب هزیمة القوم، و لما أن اصطف القوم برز عتبه و شیبه و الولید للقتال و طلبوا المبارز فخرج إلیهم بعض المسلمین فلم یرضوا بهم لما جرت العاده من عدم احتشام القرن إلّا بقرنه حتى برز إلیهم علی علیه السّلام و حمزه و عبیده، و دارت المعرکه بنصره هؤلاء، و قتل أولئک، و هنا حمى الوطیس و استعرت الحرب و لم تنکشف إلّا بهزیمة الکفار و قتل جماعه کبیره منهم، و أخذ المسلمون یأسرونهم و الملائکه تعینهم فى الأسر كما أعانتهم فى القتل. فكان المسلم یشير بسيفه أو رمحه و لما یصل إلی الکافر فإذا به یخر قتیلا تقتله الملائکه، و كذلك الأسر. حتى أن العباس أسره أبو یسر و كان العباس جسیما و أبو یسر نحیفا، فقال له الرسول صلّى الله علیه و آله و سلّم:

کیف أسرت العباس یا أبا یسر؟ فقال: یا رسول الله لقد أعاننى علیه رجل ما رأیته قبل ذلك و لا بعده. فقال الرسول صلّى الله علیه و آله و سلّم: لقد أعانک علیه ملک کریم «١».

و کل هذه كانت للبشرى و إنما النصر كان من عند الله.

و قد فعل الله سبحانه ما فعل لئلی أى لینعم على المؤمنین منه أى من عنده سبحانه بلاءً حسناً أى نعمه جسیمه،

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٠

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٨ الى ١٩]

ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَ إِنَّ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ نُغْنِيَنَّ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ سَيْنًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

ف «الواو» على هذا استثنائية متعلقة بفعل مقدر، كما قدرناه، أو المراد:

ليمتحن المؤمنین امتحانا حسنا، فإن البلاء يأتى بمعنى النعمة كما يأتى بمعنى الاختبار، و إنما يقال للنعمة: بلاء، لأن أصل البلاء ما يظهر به الأمر من الشكر و الصبر، فالنعمة بلاء لأنها تظهر الشكر، و المصيبة بلاء لأنها تظهر الصبر إن الله سميع لأقوالكم عليم بضمائرکم و نياتكم. و فى الحرب تظهر أقوال، و تجول فى الصدر نيات، فمن الأحرى أن يحفظ الإنسان قلبه و لسانه لئلا ينحرفان عن نهج الصواب بمحضر من يسمع و يعلم كل شىء.

[١٩] الأمر ذلکم أى أن الأمر كما ذكرنا من القصة، و هذا كما أن من يذكر قصة يقول بعدها: «هكذا» و هذا شبه تأكيد للكلام السابق، ف «ذلك» إشارة و «كم» للخطاب، أى: أخطبكم أيها المؤمنون أن الأمر كذلك و أن الله موهن كيد الكافرين هذا عطف على «ذلکم» أى أن الغرض كان بلاء المؤمنین و وهن كيد الكافرين. هذا بناء على رجوع «ذلکم» إلى البلاء المستفاد من قوله: «ليلى المؤمنین»، و إلّا كان «و أن الله» استثنائية.

[٢٠] و حيث بين سبحانه أن الله يوهن كيد الكافرين خاطب الكفار بقوله: إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا أَيها الكفار فَعَدُ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَ هذا تهكم، فإن أبا سفيان دعا قبل الواقعة بقوله: «اللهم أهلك أضل الفريقين و أقطعهما للرحم»، فقد استجاب الله دعاءه و أهلك أضل الفريقين و أقطعهما للرحم. و المراد ب «الاستفتاح» طلب الفتح، كأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)

الذى يقع فى مشكله قد انسدت عليه الأبواب فيطلب فتحها ليتخلص من المشكله.

بينما الإسماع عام لكل واحد، فالمعنى: لو علم الله الطهارة الذاتية في قلوبهم لأزال الأغشية المظلمة عنها، علاوة على الإسماع، ولكن علم أن ذلك لا ينجح، فإن قلوبهم كالأرض السبخة التي لا ينفع معها الحرث، فلذا تركهم و شأهم.

وَ لَوْ أَشِمْعَهُمْ بهذا النحو من الإسماع بإزالة الأغشية لَتَوَلَّوْا أى أعرضوا، لأن قلوبهم سبخة لا ينفعها حتى إزالة الأغشية وَ هُمْ مُعْرَضُونَ عن الحق.

و ربما أورد بأنه: كيف يمكن ذلك، و الحال أن لازم هذا النحو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٤

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (٢٤)

من القياس المنطقي - بحذف الأوسط - «لو علم الله فيهم خيرا لتولوا»، مع وضوح أنه لو علم الله فيهم خيرا لم يتولوا؟

و الجواب: إن الكلام جار مجرى العرف، فليس هذا قياسا واحدا بل قياس و زيادة تقديره «لو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، لكنه علم فيهم عدم الخير فلم يسمعهم»، «و لو أسمعهم مع علمه عدم الخير فيهم لتولوا» و هذا كما تقول عن ولد لك غير قابل للكسب: «لو علمت أنه غير كاسب لزودته برأس مال»، «و لو زودته لأتلف» تريد: لو زودته و الحال أنى أعلم عدم قابليته.

[٢٥] و بعد ما ذكر سبحانه و جوب إطاعة الله و الرسول، ألمع إلى أن فى الاستجابة كل الخير كما أراهم ذلك فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا أى أجبوا. و لعل السر فى الإتيان بباب «الاستفعال» المفيد للطلب، إفادة أن اللازم كون الجواب عن القلب و الضمير، لا بمجرد اللفظ و الظاهر، فإن طلب الإنسان لأن يجب إنما ينبع من قلبه و باطنه لله و للرَّسُولِ و قد تقدم أن ذكر الرسول تعظيما له، و لأنه الداعى الذى يراه الإنسان و يقابله إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ فإن الحياة الكاملة إنما هى بالإيمان، إذ الحياة بمعنى الحس و الحركة مرتبة ضعيفة من الحياة، و المرتبة الأعلى بمعنى السعادة الملازمة للعلم و الفضيلة و الرفاه و الأمن و الصحة، هذا بالنسبة إلى الدنيا و كذلك بالنسبة إلى الآخرة، فإن حياة الجنة هى الحياة الكاملة التى تستحق أن تسمى حياة، أما حياة النار فإنها لا تستحق اسم الحياة، و لذا قال سبحانه:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٥

لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (١).

و «إذا» ليست شرطا له مفهوم، بل المراد إفادة أن دعوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إنما تكون لما فيه حياة الناس. و توحيد الفعل مع أن الله و الرسول اثنان، باعتبار أن دعوتهما واحدة، أو كان باعتبار كل واحد منهما، كما قال: طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَيَّرْهُ (٢).

إنه سبحانه يريد أن تستجيبوا عن إرادة و طواعية و إن كان يقدر على كل شىء و اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ فمن هذه قدرته، أليس يقدر على جبركم أن تؤمنوا؟ و معنى «الحيلولة بين المرء و قلبه» أن لا- تطيع الأعضاء القلب فيما يأمر و ينهى، بأن يريد قلبه شيئا فلا- تطيعه الأعضاء بمنع الله سبحانه عن الإطاعة، و كذا العكس بأن تنقل الأعضاء- كالعين و الأذن و الذوق و الأنف و اللامسة- إلى القلب معلومات فلا يفهمها، فإن القلب كالسلطان يعطى و يأخذ، و الله قادر على أن يفصل بينه و بين رعيته و جيوشه وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ أى و اعلموا أنكم تجمعون إليه للجزاء و الحساب. و معنى «إليه» أى إلى الموضع المقرر للجزاء، كما يقال: «ذهب إلى الله» لمن يذهب إلى الحج، فيراد المكان المقرر لإتيان الأعمال. إن قلوبكم بين يديه و حشركم إليه، فأدعونا له حتى تحيون حياة طيبة.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٦

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذِ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ آيَدُكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

[٢٦] وَ اتَّقُوا أَى خَافُوا، إِنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا فِتْنَةً وَ بِلَاءَ عَامِيًا لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً فَإِنْ أَفْرَادَ الْأُمَّةِ إِذَا سَكْتُوا عَلَى الْمُنْكَرِ عَمَهُمُ اللَّهُ بِالْعِقَابِ، أَوْلَيْتُكَ بِالْعَصِيَانِ وَ هَوْلَاءَ بِالسُّكُوتِ، كَمَنْ لَا يَأْخُذُ بِيَدِي مَنْ يَرِيدُ ثِقَابَ السَّفِينَةِ فَإِنَّهُ يَقْرُنُ مَعَ الثَّاقِبِ. كَمَا مِثْلُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ. وَ مِنْ قَرَأَ: «لِتَصِيْبِن» أَدْخَلَ السَّاكِتَ فِي جَمَلَةِ الظَّالِمِينَ، لِأَنَّهُ ظَالِمٌ بِسُكُوتِهِ. وَ يَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا: إِنْ الْفِتْنَةَ تَصِيْبِكُمْ أَيُّهَا الظُّلْمَةُ فَقَطْ، فَلَا تَقُولُوا: كَيْفَ تَصِيْبِنَا الْفِتْنَةَ فَقَطْ وَ نَحْنُ فِي جَمَلَةِ غَيْرِ الظَّالِمِينَ؟ تَرِيدُونَ بِذَلِكَ عَدَمَ إِصَابَتِكُمْ بِالْفِتْنَةِ لِأَنَّكُمْ بَيْنَ أَظْهَرِ غَيْرِ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى إِصَابَتِكُمْ فَقَطْ، كَمَا أَصَابَتِ الْفِتْنَةَ أَصْحَابَ السَّبْتِ دُونَ الَّذِينَ نَهَوْهُمْ وَ وَعَظَوْهُمْ.

هَذَا، وَ لَكِنَّا حَيْثُ نَرَجِحُ عَدَمَ الزِّيَادَةِ وَ النَّقِيصَةَ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَ أَنَّ مَا بَيْنَ دَفْتِيهِ هُوَ الْقُرْآنُ الْمَنْزَلُ حَتَّى أَنْ النِّظْمَ أَيْضًا مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، نَوْجَهُ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةَ «الْخَاصَّةُ بِالْقِرَاءَاتِ» بِأَنَّهَا تَأْوِيلٌ وَ اجْتِهَادٌ لَا نَزُولٌ وَ وَحْيٌ. وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ فَإِذَا أَخَذْتُمْ يَكُونُ أَخْذُهُ أَلِيمًا شَدِيدًا، فَاسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ، فَإِنَّ فِيهِ حَيَاتِكُمْ، وَ فِي غَيْرِهِ النِّكَالُ وَ الْعِقَابُ.

[٢٧] وَ قَدْ رَأَيْتُمْ كَيْفَ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حِينَ اسْتَجَبْتُمْ لَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ اذْكُرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذِ أَنْتُمْ قَلِيلٌ فِي الْعَدَدِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)

مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ يَطْلُبُ الْأَعْدَاءُ ضَعْفَكُمْ فَيَنْزِلُونَ بِكُمْ أَنْوَاعَ الْإِهَانَةِ وَ الْأَذَى تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ أَى يَأْخُذُونَكُمْ فَجَاءَهُ، وَ «الْإِخْتِطَافُ» إِمَّا لِأَجْلِ السِّجْنِ أَوْ لِأَجْلِ الْقَتْلِ أَوْ لِأَجْلِ الْأَذْيَةِ، وَ الْمَرَادُ بِ«النَّاسِ» الْكُفَّارَ فَآوَاكُمْ أَى جَعَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَكُمْ مَأْوَى تَأْوُونَ إِلَيْهِ، وَ هِيَ الْمَدِينَةُ وَ آيَدُكُمْ قَوَاكُمْ بِنَصْرِهِ لَكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ حَتَّى صَرْتُمْ أَقْوِيَاءَ بِفَضْلِهِ سَبْحَانَهُ وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَإِنَّهُمْ فِي مَكَّةَ كَانُوا قُرَاءًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا وَ لَا شَرَابًا، حَتَّى إِذَا صَارُوا فِي الْمَدِينَةِ زَرَعُوا وَ اتَّجَرُوا فَرَزَقُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى لِكَى تَشْكُرُوا فَضْلَهُ سَبْحَانَهُ، وَ نِعْمَتَهُ وَ إِحْسَانَهُ عَلَيْكُمْ.

[٢٨] وَ لَمَّا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ وَ جُوبَ اسْتِجَابَةَ الْمُؤْمِنِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ، نَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ لَهُ وَ لِلرَّسُولِ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا

اللَّهَ بِتَرْكِ أَمْرِهِ وَ الرَّسُولَ بِتَرْكِ شَرِيعَتِهِ. وَ قَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي لِبَابَةَ، وَ إِنْ كَانَتْ هِيَ عَامَةً لِكُلِّ مَنْ يَرِيدُ الْخِيَانَةَ.

فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَاصِرَ يَهُودِ بَنِي قَرْيِضَةَ إِحْدَى وَ عَشْرِينَ لَيْلَةً- لَمَّا خَانُوا عَهْدَهُ- فَسَأَلُوهُ الصَّلْحَ عَلَى مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ بَنُوا النِّظِيرَ بِأَنْ يَصِيرُوا إِلَى أَدْرَعَاتٍ وَ أَرِيحَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ فَقَالُوا: أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا أَبَا لِبَابَةَ وَ كَانَ مَنَاصِحًا لَهُمْ لِأَنَّ عِيَالَهُ وَ مَالَهُ وَ وَلَدَهُ كَانُوا عِنْدَهُمْ، فَبِعِثَهُ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا: مَا تَرَى يَا أَبَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٨

[سورة الأنفال (٨): آية ٢٨]

وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

لِبَابَةَ أَنْ نَزَلَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ «إِنَّهُ الذَّبْحُ» فَلَا تَفْعَلُوا، فَاتَى جَبْرَائِيلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ

بذلك، قال أبو لبابة: فو الله ما زالت قدمای من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله و رسوله. فلم يرجع إلى الرسول بل جاء إلى المسجد و شد نفسه بسارية من سوارى المسجد و قال: لا و الله لا أذوق طعاما و لا شرابا حتى أموت أو يتوب الله على. فمكث أياما لا يذوق طعاما و لا شرابا حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، و نزلت: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)، فقيل له:

يا أبا لبابة قد تاب الله عليك. قال: لا و الله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله هو الذى يحلنى. فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب و أن انخلع من مالى. فقال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: يجزيك الثلث أن تصدق به (٢).

وَ لَا تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ أَى أَمَانَةَ بَعْضِكُمْ عِنْدَ بَعْضٍ مِّن مَّالٍ، أَوْ عَرَضٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْخِيَانَةَ مُحَرَّمَةٌ مُّوجِبَةٌ لِلْعِقَابِ وَ الْعَذَابِ. و من الممكن أن تكون جملة «و تخونوا» استفهامية إنكاريه، أى: «كيف تخونوا أماناتكم فى حال العلم»، و سميت خيانه الله و الرسول خيانه الأمانة لنفس الإنسان.

[٢٩] وَ اعْلَمُوا أَى تَقِينُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ أَمْتِحَانٌ وَ ابْتِلَاءٌ

(١) التوبة: ١٠٢.

(٢) راجع تفسير القمى: ج ١ ص ٣٠٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣١٩

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

ليختبر الله سبحانه من يريخج أمر الله على ماله و ولده، و من يريججها على أمره سبحانه، فإن أبا لبابة حمله على ما فعل أن أمواله و أولاده كانت عند اليهود فخاف إن نصح لله و الرسول أن تذهب أمواله و أولاده. وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فمن ريجج أمره سبحانه على ماله و ولده أوجر بأعظم أجر.

[٣٠] إن الأمانة حمل ثقيل لا يقوم بها إلا من اتقى الله، و لذا يقول سبحانه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا فَإِن مِّن اتَّقَى اللَّهَ سَبْحَانَهُ صَارَ مِيزَانِ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ مَلَكَةً لَهُ، فيفرق بين الحق و الباطل بتلك الملكة الحاصلة بالتقوى، فإن عرفان الإنسان أن عليه مراقبا يحدّد موقفه من الأعمال و الأقوال. وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ التى عملتموها. و معنى «تكفير السيئات» سترها، فإن التكفير بمعنى الستر و التغطية وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ يَأْزِلُهَا، فإن الستر غير الإزالة، و هما نعمتان و فضلان وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ فإنه يتفضل عليكم بالتكفير و المغفرة و جعل الفرقان.

[٣١] و إذ تقدم الكلام حول نصره المؤمنين فى بدر بعد أن كانوا قليلا مستضعفين فى مكة، بين سبحانه حالة النبى صلى الله عليه و آله و سلم قبل الهجرة و اذكر يا رسول الله إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَى يدبرون مؤامرة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٠

لِيُثْبِتُوكَ أَى يقيدوك و يسبحونك فتثبت فى مكة لا- تقدر على الإرشاد و التبليغ أَوْ يَقْتُلُوكَ و يستأصلوا شأفتك أَوْ يُخْرِجُوكَ و يبعدوك، بإرسالك إلى بعض المحالّ النائية، حتى لا تتصل بأصحابك و بالناس وَ يَمْكُرُونَ تأكيد، تهيئة لقوله: وَ يَمْكُرُ اللَّهُ أَى يدبر الله سبحانه الأمر خفيه، فإن التدبير لا يكون إلا خفية وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ فإنه أعرف بطرق العلاج. و الفرق بين مكر الله سبحانه و مكر الناس أن الأول لا يكون إلا بحق، و الثانى لا يستعمل - غالبا- إلا إذا كان باطل.

إن هذه الآية الكريمة نزلت في قصة هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أن قريشا اجتمعت فخرج من كل بطن أناس إلى دار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا شيخ قائم بالباب و إذ ذهبوا إليه ليخرجوه قال: أنا شيخ من مصر «أو نجد» أدخلوني معكم. قالوا: و من أنت يا شيخ؟ فقال: أنا شيخ من مصر «أو نجد» ولى رأى أشير به عليكم. فدخلوا و جلسوا فتشاوروا و هو جالس و أجمعوا أمرهم على أن يوثقوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قال الشيخ: هذا ليس بالرأى، فإن فعلتم هذا ذهب أصحابه و فكوا وثاقه، و محمد رجل حلو اللسان فإنه يفسد عليكم أبناءكم و خدمكم و ما ينفع أحدكم بهم بعد أن أفسدهم محمد. ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه من بلادهم، فقال الشيخ:

هذا ليس بالرأى؛ إنه إن خرج أحاط به الناس الأعراب لحلو منطقته و أفسد عليكم من الخارج. فاستصوبوا رأيه ثم سأله الرأى قال:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢١

أخرجوا من كل بطن من العرب إنسانا يجتمعون عليه و يضربونه ضربة رجل واحد حتى يقتلوه، فيفترق دمه في القبائل و لا تتمكن عشيرته من المطالبة بدمه و يجبرون على أخذ الدية، فتستريحون منه.

فأخذوا برأى الشيخ، و كان هو الشيطان «لعنه الله» تزي بزى البشر. و نزل جبرئيل على الرسول يخبره بمكر أهل الندوة، و يأمره بالفرار ليلا، و أن ينيم عليا عليه السلام مكانه ليشتبه عليهم الأمر، فلما أمسى المساء جاء الفتیان مسلحين، و أرادوا أن يدخلوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكن أبا لهب حال دون ذلك، و قال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل فإن فى الدار صبيانا و نساء و لا نأمن أن تقع بهم يد خاطئة، فنحرسه الليلة فإذا أصبحنا دخلنا عليه. فناموا حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أمر رسول الله أن يفرش له و قال لعلى عليه السلام: أفدنى بنفسك. قال: نعم يا رسول الله. قال: نم على فراشى و التحف ببردى. و كان الفتیان ينظرون من شقوق الباب فيرون فى مكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شخصا نائما فظنوه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. و جاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخرجه من بين ظهرانى الكفار و هم نيام و هو يقرأ عليهم: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾.

و قال له جبرئيل: خذ على طريق «ثور» و هو جبل على طريق «منى» له سنام كسنام الثور فدخل غارا كان فيه، فلما أصبحت قريش و بثوا إلى الحجرة و قصدوا الفراش فقام على عليه السلام فى وجوههم و قال:

ما شأنكم؟ قالوا له: أين محمد؟ قال: أ جعلتمونى عليه رقبيا، أ لستم

(١) يس: ١٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)

قلت: نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا يضربونه و يقولون:

أنت تخذعنا منذ الليلة، فتفرقوا فى الجبال و كان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفوا الآثار، فقالوا: يا أبا كرز اليوم اليوم، فوقف بهم على باب حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هذه قدم محمد و الله إنها لأخت القدم التى فى المقام، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ثم قال: ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكون صعد إلى السماء أو دخل تحت الأرض، و قد كان بعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار و جاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار ثم قال: ما فى الغار أحد، فتفرقوا فى الشعاب و صرفهم الله عن رسوله ثم أذن له بالهجرة «١».

[٣٢] وَ قَدْ كَانَ بَعْضُ الْكُفَّارِ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا بَادَانَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا الْمَسْمُوعِ، فَإِنَّ الْعَاجِزَ

المتكبر دائما يظهر القدرة، لكنه لا يظهر منه الأثر بخلاف القادر المتواضع الذي يعمل كثيرا و يقول قليلا إن هذا أى ما هذا القرآن إلاً أساطير الأولين جمع «أسطورة»، والمراد بها: أخبار الماضين و مختلفاتهم. قالوا: وقد كان قائل هذا النضر بن الحارث ابن كلدة و قد أسر يوم بدر و قتل.

[٣٣] و اذكر يا رسول الله إذ قالوا أى بعض الكفار و هو أبو

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٣

جهل: اللهم إن كان هذا الذى جاء به محمد هو الحق من عندك و كنا نحن على الباطل فأفطر علينا حجارة المراد بها «جنس الحجارة» و ليست «التاء» للمفرد من السماء أى من جهة العلو، كما أمطرت على قوم لوط أو اثنتا أى صب علينا و جئنا بعذاب أليم مؤلم.

فقد روى أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: أجيبنى إلى ما أدعوكم إليه تملكون بها العرب و تدين لكم العجم. فقال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء أو اثنتا بعذاب أليم» (١).

و

فى بعض الروايات: أنها نزلت حين نصب الرسول علياً خليفه له يوم غدير خم، فجاءه رجل يقال له الحارث بن عمرو الفهري فحاج النبي فى شأن على عليه السلام ثم سأله: هل هذا من الله أو منك؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: بل من الله سبحانه. فأخذ يذهب و هو يدعو بهذا الدعاء «اللهم إن كان .. الى آخره»، حسدا و بغضا للإمام عليه السلام. فقال له النبي صلى الله عليه و آله و سلم: إما تبت و إما رحلت، فركب راحلته و خرج، و لما وصل إلى خارج المدينة أتته جندله فرضت هامته، و فيه نزلت: سأل سائل بعذاب واقع (٢)، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم لبعض المنافقين: انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به (٣).

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٥٨.

(٢) المعارج: ٢.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٣٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٤

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)

أقول: و كأن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أمره بالرحيل حتى لا يمنع عن عذابه وجوده صلى الله عليه و آله و سلم عنده حيث قال سبحانه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ». كما أنه لا منافاة بين الحديثين، فقد كانت بعض آى القرآن و سورة ينزل مرتين و أكثر، فلعلها نزلت مرة فى قصة أبى جهل و مرة فى قصة الحارث.

[٣٤] ثم بين سبحانه أنهم مع استحقاقهم العذاب لما كانوا يفعلونه، لكنه لا يعجل لهم ما دام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فيهم، فلعلهم يرجعون و يتوبون، و ما دام أنهم - مع كفرهم - يستغفرون الله سبحانه، كما روى أن أبا جهل بعد ما ذكر الدعاء قال: و استغفر الله، فقال سبحانه: و مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِإِمطار الحجارة عليهم - كما طلبوا - أو غيره و أَنْتَ فِيهِمْ جملة حالية، أى: فى حال كونك يا رسول الله بين أظهرهم، و المراد بذلك إما الرحمة بهم لأجلك، أو عدم عذابهم لاحتمال الإيمان، فإن الرسول صلى الله عليه و آله و

سَلَّمَ مَا دَامَ فِيهِمْ يَحْتَمِلُ رَجُوعَهُمْ وَ هِدَايَتَهُمْ. وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَ هُمْ يَسْتَتْفِرُونَ وَ لَعَلَّ اخْتِلَافَ التَّعْبِيرِ فِي «لِيُعَذِّبَهُمْ» وَ «مُعَذِّبَهُمْ» لِأَجْلِ أَنْ كُونَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ لَهُ أَمَدٌ وَ لَذَا جَاءَ بِالْفِعْلِ، أَمَا الْاسْتِغْفَارُ فَإِنَّهُ لَا مَدَّةَ لَهُ وَ لَذَا جِيءَ بِالِاسْمِ الدَّالِّ عَلَى الدَّوَامِ.

[٣٥] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ وَ إِنْ كَانَ لَا يُعَذِّبُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ بِمَا يَرْتَكِبُونَ مِنَ الْآثَامِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ: وَ مَا لَهُمْ إِلَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ أَى لَمْ لَا يُعَذِّبُهُمْ وَ أَى أَمْرٍ يُوجِبُ تَرْكَ تَعَذِّبِهِمْ
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٥
[سورة الأنفال (٨): آية ٣٥]

وَ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَضَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)
وَ الْحَالُ أَنَّ هُمْ يَصُدُّونَ وَ يَمْنَعُونَ النَّاسَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَقَدْ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ أَجْبَرُوهُمْ إِلَى الْهَجْرَةِ نَحْوَ الْحَبَشَةِ وَ الطَّائِفِ وَ الْمَدِينَةِ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ أَى أَوْلِيَاءَ الْمَسْجِدِ، أَى لَمْ يَكُنْ الْمُشْرِكُونَ أَصْحَابَ وَ لَا يَهُ عَلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَكُونَ الصَّدَّ عَنْهُ مَشْرُوعًا، فَإِنَّهُمْ حَيْثُ كَفَرُوا بِرَبِّ الْمَسْجِدِ وَ خَالَفُوا أَمْرَهُ لَوْضِعِ الْأَصْنَامِ فِيهِ وَ هَتَكُوا حَرَمَتَهُ بِالتَّصْفِيقِ فِيهِ، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ وَ لَا يَهُ عَلَيْهِ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ أَى لَيْسَ أَوْلِيَاءَ الْمَسْجِدِ إِلَّا الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَ يَطِيعُونَ أَمْرَهُ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ الشَّرْعِيِّونَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَى أَكْثَرَ هَوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَ يَظُنُّونَ - حَيْثُ أَنَّهُمْ وَرَثُوا سَدَانَةَ الْبَيْتِ مِنْ آبَائِهِمْ - أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَكُونُونَ أَوْلَى بِالْمَسْجِدِ.

ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر، فتمسكوا به» (١). و قرأ الآية: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

[٣٦] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ عِلَّةَ عَدَمِ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ الْمَسْجِدِ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ صَلَاتِهِمْ هَتَكَ لِحْرَمَتِهِ وَ إِنْفَاقَهُمْ لِأَجْلِ الصَّدِّ عَنْهُ، وَ هَلْ يَكُونُ وَلِيَّ شَيْءٍ هَاتِكًا

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٢٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٦

[سورة الأنفال (٨): آية ٣٦]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

وَ صَادًا عَنْهُ؟ وَ مَا كَانَ صِيْلَاتُهُمْ أَى دَعَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَ عِبَادَتِهِمْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَضَدِيَةً «الْمَكَاءُ» الصَّغِيرُ، يُقَالُ: «مَكَأَ يَمْكُو مَكَاءً» إِذَا صَفَّرَ بَفِيهِ. وَ «التَّضَدِيَةُ» التَّصْفِيقُ، وَ هُوَ ضَرْبُ الْيَدِ عَلَى الْيَدِ. فَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عِرَاءً يَصْفَرُونَ وَ يَصْفِقُونَ.

وَ

في حديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَانَ إِذَا صَلَّى قَامَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ عَنْ يَمِينِهِ فَيَصْفِرَانِ، وَ رَجُلَانِ عَنْ يَسَارِهِ يَصْفِقَانِ بِأَيْدِيهِمَا فَيَخْلُطَانِ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ، وَ قَدْ قَتَلُوا جَمِيعًا يَوْمَ بَدْرٍ (١).

فَذُوقُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَ الْأَسْرِ وَ غَيْرِهِمَا، وَ فِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ حَرِّهَا شَدِيدٍ بِسَبَبِ مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ.

[٣٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي قِتَالِ الرَّسُولِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ التَّأْلِيفِ عَلَيْهِمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى يَمْنَعُوا النَّاسَ بِذَلِكَ عَنِ دِينِ اللَّهِ وَ طَرِيقِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الصَّادِقُ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيًّا لِمَسْجِدِ اللَّهِ؟ فَسَيُنْفِقُونَهَا أَى يَقَعُ مِنْهُمْ الْإِنْفَاقُ ثُمَّ تَكُونُ الْأَمْوَالُ الْمُنْفَقَةُ لِلصَّدِّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً مُوجِبَةً لِلْحَزَنِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٣٧]

لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)
والتحسير يخسرونها بلا جدوى ثم يُغْلَبُونَ في الدنيا بظفر المسلمين عليهم، و في الآخرة بأنها تسبب لهم النار و الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ أي يجمعون، فإنهم يجمعون كلهم هناك جزاء لما فعلوا من الكفر و العصيان.

و في بعض التفاسير: إن الآية نزلت فيما أنفق الكفار يوم بدر لقتال المسلمين، و قد أخبر الله عن العاقبة قبل وقوعها فكانت كما ذكر.
[٣٨] إن ما تقدم من إخلاء الله السبيل للكفار حتى ينفقوا أموالهم في سبيل الصد عن طريق الله سبحانه لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ فتكون الأموال المنفقة في سبيل الله معلومة، و تكون الأموال المنفقة في سبيل الباطل معلومة، فقد كانت الأموال قبل الاحتكاك و حدوث الحادثة غير مميز خبيثها من طيبها، أما في الحادثة فسيتميز بعضها عن بعض و ل يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فإنه كان متفرقا في أموال عدة، و بذلك تتجمع أجزاءه فَيَرْكُمَهُ أي يجعله ركاما مجموعا جميعا كالنفايات و القاذورات التي تتجمع من البيوت، و يجعل بعضها على بعض في المزبلة فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ كما تتجمع القاذورات في المنافي خارج المدينة. و هذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ليكون أوقع في النفس أولئك الذين أنفقوا هذه الأموال في سبيل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الَّذِينَ كَلَّ اللَّهُ فَإِنْ آتَتْهُمُ الْغُلَّةُ لَمَّا نَسُوا فَأَلَّوهُمُ أَجْمَعِينَ كَمَا أَلَّوْا كَمَا نَسُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ (٣٩)
الباطل هُمُ الْخَاسِرُونَ فقد خسروا الأموال، بل اشتروا بها العار و النار.

[٣٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَـ تَيَاسُوا من رحمة الله، فإن الإنسان مهما عصي، إذا تاب؛ تاب الله عليه إِنْ يَنْتَهُوا عن كفرهم و عصيانهم، بالإسلام و الطاعة يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ من ذنوبهم و معاصيهم و إِنْ يَعُودُوا إلى كفرهم و أعمالهم، و «العودة» باعتبار أن كل يوم كفر جديد و معصية جديدة فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ أي عادة الله فيهم بالإهلاك، فإنها تنطبق على هؤلاء، و إضافة السنة إلى الأولين، باعتبار كون سنة الله واقعة عليهم، و يكفي في الإضافة أدنى ملابسة- كما ذكروا- و يحتمل أن يكون المراد: إِنْ يَنْتَهُوا عن قتال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ تركوا و شأنهم و لم يعاقبهم الرسول بما فعلوا- فهو مغفرة لهم- و إن عادوا إلى القتال فقد مضت سنة الله في الأنبياء أن يكون المحاربون هم المغلوبون المنهزمون، و هذا تهديد إلى كل من تسول له نفسه قتال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

[٤٠] وَ قَاتِلُوهُمْ أي قاتلوا الكفار أيها المسلمون حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ أي لا توجد فتنة- فإن «كان» تامة- فإن الكفار مهما وجدوا القوة و المنعة فتنوا المؤمنين عن دينهم، و أحدثوا الفتن و القلاقل، أما إذا قوتلوا و كسرت شوكتهم، ذهب الفتن و تحطمت المؤامرات و المكائد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٢٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٠]

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

وَ يَكُونَ الَّذِينَ كَلَّ اللَّهُ لِلَّهِ الْمُرَاد ب «الدين» الطريقة، أي حتى تتجمع الطرائق على طريقة واحدة، هي طريقة الله سبحانه. و هذه الآية تدل

على جواز المقاتلة إلى أن تتوحد الطرائق في طريقة ارتضاها الله سبحانه للعباد، فلا يكون دين سواه فإن انتهوا أي انتهى هؤلاء الكفار عن الكفر والعصيان ومحاربة الرسول والمؤمنين فإن الله بما يعملون بصير فإنه يعلم السر وأخفى. وما على المسلمين إلا توحيد الصفوف ظاهرا أما البواطن والسرائر فليس عليهم، بل الله يعلم بها ويجازي كل واحد حسب ضميره وسره.

[٤١] وَإِنْ تَوَلَّوْا أَى أَعْرَضَ الْكُفْرَانَ عَنِ الْإِيمَانِ، وَ لَمْ يَنْتَهَوْا عَنِ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ فَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ سَيِّدُكُمْ وَ نَاصِرُكُمْ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ، بَلْ أَقْدَمُوا عَلَى مَحَارَبَتِهِمْ، فَاللَّهُ نِعْمَ الْمَوْلَى حَيْثُ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ وَ فِى بَمَا يَعِدُ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّ يَنْصُرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ «١».

(١) آل عمران: ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء العاشر من آية ٤٢ من سورة الأنفال إلى آية ٩٣ من سورة التوبة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عِتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٣

[سورة الأنفال (٨): آية ٤١]

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

[٤٢] وحيث سبق الكلام حول قصة بدر، يعود السياق ليذكر جوانب أخرى من القصة كما هو عادة القرآن الحكيم، حيث يبين من القصة جوانب معينة فقط، ثم يبين تلك الجوانب في ثنايا آيات أخرى، لتبقى للقصة ظرافتها، وثلثا تكون مملئة ككتب التاريخ التي تسرد القصص، و لأن يكون للنفس شوق و تلهف إلى القرآن و إلى القصة يسوقان الإنسان إلى التملئ منها. وبتدئ بذكر الغنيمة و الحكم فيها، كما ابتدأت السورة بذكرها في الجملة فقال سبحانه: وَ اعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ وَ الْغَنِيمَةُ: هِيَ الْفَائِدَةُ مطلقا سواء حصلت من الحرب أو من غيرها، و إن كان مورد نزول الآية غنائم دار الحرب، و كلمة «من شيء» للتأكيد، أي سواء كانت الغنيمة قليلة أو كثيرة فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَى أَى قَرَابَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ هُوَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالنِّصْفُ مِنَ الْخُمْسِ أَى عَشْرَةٌ مِنَ الْمِائَةِ مِنْهُ لِلْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ حَصَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلرَّسُولِ وَ حَصَّهُ الرَّسُولُ لِلْإِمَامِ، وَ فِي حَالِ الْغَيْبَةِ يَدْفَعُ هَذَا النِّصْفَ إِلَى نَوَابِ الْإِمَامِ وَ هُمُ الْفُقَهَاءُ الْجَامِعُونَ لِلشَّرَائِطِ، وَ هُمْ يَصْرِفُونَهُ فِي تَرْوِيجِ الْإِسْلَامِ، حَيْثُ قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ الْخُمْسَ عَوْنًا عَلَى دِينِنَا» «١».

و إنما ذكر «الله» سبحانه تعظيما لأمر الرسول و الإمام و احترامهما، حيث قرنا به، و إلا فالأموال كلها لله سبحانه و النصف الآخر من الخمس ل اليتامى و المساكين و ابن السبيل ممن ينتهى نسبه

(١) الكافي: ج ١ ص ٥٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٤

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٢]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَ الرِّكْبُ أَشْفَلُ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافَتِكُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيُقْضَىٰ لِلَّهِ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَ يَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)

إلى هاشم جدّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من السادة. و يشترط في هؤلاء الفقير، و قد عَوَّضَهُم اللهُ عن الزكاة التي جعلت لغير السادة- إذا كانت من غير السادة- ثم أن الأربعة أحماس الباقية من الغنيمة، تقسم بين المقاتلين في غنائم دار الحرب، و لصاحب المال في خمس سائر الغنائم، فإن الخمس يجب في سبعة أشياء: غنائم دار الحرب، و المكاسب مطلقاً، و الغوص، و الكنز، و المعدن، و الحلال المختلط بالحرام، و الأرض المتقلبة إلى الذمي إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ أَى لَا تَطْمَعُوا فِي كُلِّ الْغَنِيمَةِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ، فهو متعلق بقوله «و اعلموا» و ليس مفهوم الشرط:

أن الخمس ليس لهؤلاء إن لم تكونوا آمنتم، بل مفهومه إن كنتم آمنتم تؤمنون بذلك. و إن كنتم آمنتم ب ما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يعنى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفُرْقَانِ أى يوم فرقنا بين الحق و الباطل و هو يوم بدر يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ جمع المؤمنين من أصحاب الرسول و جمع الكافرين من أهل مكة للقتال، و المراد ب «ما أنزلنا» الملائكة أو النصر، إى: إن كنتم مؤمنين بالله و بما أنزل من النصر و الملائكة على الرسول يوم بدر، تؤمنون بهذا الحكم الذى هو كون الخمس للطوائف الستة المذكورين و ليس للمقاتلين فيه حق وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر أن ينصر الجماعة القليلة على الجماعة الكثيرة. [٤٣] إن المسلمين خرجوا من المدينة لإدراك قافلة أبي سفيان التجارية فزلوا بصفة الوادى القريب من المدينة و نزل جيش المشركين - الذين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٥

جاءوا من مكة لإنقاذ القافلة- بقيادة أبي جهل على الضفة الأخرى البعيدة من المدينة، و بين الفريقين ربوة، أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيش، و لم يكن كلا- الجيشين يعلم بموقع الجيش الآخر حتى أنه لو كان بينهما موعد للقاء لم يجتمعا بهذه الكيفية و لكن الله جمعهما على جانبى الربوة لينصر المسلمين على الكفار و يرى الجميع من الدلائل الباهرة ما يكفى لإتمام الحجّة، و قد رأى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى الرؤيا جيش المشركين قليلاً فأخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا و تشجعوا و أقدموا على القتال، و لو رآهم كثيراً و أخبر أصحابه بذلك لخافوا و وجلوا فيفسلوا، و لم تكن الرؤيا كاذبة فإنهم بعددهم الكثير كانوا قليلاً فى الواقع بالنسبة إلى قواهم المعنوية الضئيلة.

و القرآن الحكيم يبيّن هذا الطرف من القصة بقوله سبحانه: إِذْ أَنْتُمْ «إذ» متعلق بقوله: «و ما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا» أى أن أنزلنا كان فى وقت كنتم أيها المسلمون بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا مؤنث «أدنى» أى العدو القريب من المدينة، و «العدوة» شفير الوادى، فإن لكل وادى عدوتان أى جانبان وَ هُمُ أَى الْكُفَّارِ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى مؤنث «الأقصى» بمعنى البعيدة، أى فى الطرف البعيد من الوادى، و بعده باعتبار المدينة المنورة وَ الرَّكْبُ أى قافلة قريش التجارية، و هو جمع «راكب»، كصاحب و صحب أَسْفَلَ مِنْكُمْ أى فى مكان أسفل منكم إلى جانب البحر، و ليس المراد ب «الأصل» الانخفاض بل الأبعد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٦

و الفائدة فى ذكر هذه المواطن الإخبار الدال على قوة المشركين و ضعف المسلمين و إن غلبتهم فى مثل هذه الحالة كان بأمر إلهى و ذلك أن العدو القصوى كان فيها الماء و لا ماء بالعدوة الدنيا، و كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل و كانت العير وراء ظهورهم مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم و تحملهم على أن لا يبرحوا مواطنهم و يبذلون نهاية جهدهم، و مع ذلك فقد نصر الله المسلمين.

وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْتُمْ وَ الْكُفَّارِ عَلَى الْلقاءِ فى مكان واحد لَأَخْتَلَفْتُمْ فى الميعاد فإنكم كنتم تخافونهم لكثرتهم و استعدادهم، و هم كانوا يخافونكم لشدة بطشكم، و ما أدخل فى قلوبهم من الرعب منكم، فقد كانت أسباب عدم القتال، أو القتال بهزيمتكم متوفرة و لكن شاء الله سبحانه و قدر أن يجمعكم بهذه الكيفية و ينصركم عليهم لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً أى ينفذه و يأتى به إلى الوجود كان مَفْعُولاً أى واجبا أن يفعل و مقدر أن يكون، فقد قضى سبحانه إعزاز الإسلام و نصره المسلمين.

و إنما قضى ذلك ليُهاك مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ أَى ليموت من يموت من الكافرين بعد تمام الحجّة عليه، فإن نصر المسلمين بتلك الكيفية كان من البراهين الدالة على صدق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فمن لم يؤمن بعد ذلك و مات، كان هلاكه بعد إتمام الحجّة عليه وَ يَحْيَى مَنْ حَيٌّ عَنْ بَيِّنَةٍ أَى يعيش من عاش منهم بعد إتمام الحجّة عليه، و هذا كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٣]

إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)
يقال: «أتممت الحجّة على الأحياء و الأموات»، أو المراد من «الهلاك و الحياة» الكفر و الإسلام، فقد تقدم أن الحياة الكاملة في الإسلام، كما أن الكافر ليس إلا- ميتا في كثير من الأمور الحيوية، و لذا يقال عن المؤمن أنه حي، و على الكافر أنه ميت، كما قال سبحانه: اشْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ «١»، وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ، فإن الحرب غالبا مثار كلام غير لائق و نيات سيئة، و لذا يذكرهم سبحانه بوجوب حفظ الألسنة و الضمائر عن السوء.

[٤٤] و قد ذكر ما تقدم من نزول النصر إِذْ يُرِيكُهُمُ أَى يريك الله الكفار في مَنَامِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَلِيلًا لتخبر بذلك المؤمنين فتقوى قلوبهم وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا أَى أراك الله الكفار كثيرا، ثم أخبرت بذلك المؤمنين لَفَشِلْتُمْ أَيها المؤمنون و ضعفت عزيمتكم في قتالهم، فإن الفشل هو الضعف عن فزع و خوف وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ أَى في أمر محاربتهم حيث كنتم ترهبونهم، فيقول بعضهم: نقاتلهم، و يقول بعض: لا- نقاتلهم وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أَى سَلَّمَ المؤمنين عن الفشل و التنازع و اختلاف الكلمة إِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَى بما يدور في صدور الناس من الوسوس و تقلب

(١) الأنفال: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٨

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٤]

وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)
وجوه الرأي. و قد ذكرنا أن «الإراءة قليلا» لم تكن كذبا بل باعتبار أن الإنسان القوى دائما يرى الكثير قليلا، بخلاف الإنسان الجبان الذى يرى القليل كثيرا، هذا بالإضافة إلى أنه محسوس مجزّب، مبسوط في علم النفس و مشروح.

[٤٥] و حيث تقابل الجيشان رأى المسلمون قلة المشركين، لما كانوا يحملونه من القوة في نفوسهم و التصميم و الإرادة بتسديدهم و عزمهم، و رأى المشركون قلة المسلمين حيث كانوا قليلا عددا، فإن المسلمين كانوا ثلاثمائة و ثلاث عشر بينما كان الكافرون بين التسعمائة و الألف، و حيث كان كل فريق يرى خصمه قليلا تجرأ الطرفان على القتال مما أدى إلى نصر المسلمين وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ أَى يريكم الله أَيها المؤمنون، الكافرين إِذِ التَّفَيْتُمْ أَى في زمان لقاءكم و إياهم في ساحة القتال فِي أَعْيُنِكُمْ أَى في نظركم قَلِيلًا فكان الكفار في نظر المسلمين قليلين لما عندهم من الإرادة و القوة.

و من المعلوم أن الحالات النفسية تؤثر في حواس الإنسان الظاهرة، و قد كان هذا بإرادة الله سبحانه حيث قوى نفوس المسلمين حتى يروا الكافرين قليلين فيطمعوا فيهم وَ يُقَلِّلُكُمْ أَيها المؤمنون فِي أَعْيُنِهِمْ أَى أعين الكافرين، فقد أراد الله سبحانه أن يقلل المؤمنين في نظر الكافرين لئلا ينسحبوا عن قتالهم، فلا ينال المؤمنون منهم نيلا، و قد كان ذلك سبب غرور الكافرين فقد كان أبو جهل يقول لأصحابه: خذوا المسلمين بالأيدى أخذوا و لا تقاتلوهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٣٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)

و إنما فعل ذلك سبحانه، بأن قلل كل جانب في نظر الجانب الآخر لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا أى ينفذ إرادته فى غلبه المسلمين، التى كانت قد قدّرت. وقد كررت هذه الجملة تأكيداً، وإفادة أن النصر كما كان من عند الله، كان التقليل من عنده أيضاً وإلى الله تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَإِنَّ الْأُمُورَ كما كانت بقدر الله وقضائه، كذلك تكون مصائر الأمور إليه، فيبده المبدأ والمعاد، وهذا التشجيع للمسلمين فى أن يقدموا، فإن المبدأ والمنتهى بيد ناصرهم ومعينهم وهو الله سبحانه.

[٤٦] و حيث بين سبحانه كيف أنه نصر المؤمنين فى موقعه بدر مع كون القوى المادية كانت بجانب الكافرين، أمر المسلمين أن يثبتوا أمام كل مشكلة، فإن الله بجانبهم دائماً يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً كَافِرَةٌ أَوْ مَخَالِفَةٌ، ممن عتى عن أمر الله سبحانه فَاتَّبِعُوا وَلَا تَنْهَضُوا أَمَامَهُمْ، فإن الثبات يوجب النصر، وبالعكس الانهزام والفرار يوجب الفشل والخسران وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا مُسْتَعِينِينَ به فى الحرب والدعوة، فإن ذكر الله سبحانه يشجع الإنسان ويقوى فيه العزيمة، كيف والإنسان بتكرار الذكر، تتكون فيه ملكة الاتصال بالقوى الكونية، هذا بالإضافة إلى أن نصره الله سبحانه توجب قوة وطاقه خارقه فى النفس، كما ثبت فى علم النفس لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى لكى تنجحوا وتظفروا وتفوزوا بخير الدنيا والآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٠

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٦]

وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)

[٤٧] وَاطِيعُوا اللَّهَ فيما أمركم وَرَسُولَهُ فيما بين لكم- وقد مرّ مكرراً أن قرن اسم الرسول باسم الله سبحانه للتعظيم، ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو المبين- وَلَا تَنَازَعُوا فيما بينكم فيقول بعض: نقدم، ويقول بعض:

نحجم فَتَفْشَلُوا فإن التنازع يوجب تبديد القوى المعنوية بالإضافة إلى تبديده وإضعافه للقوى المادية وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ أى دولتكم، فإن الريح بمعنى الدولة لغه، أو هو من باب التشبيه، فإن الدولة تشبه بالريح لهبوبها وسيطرتها على الأشياء ونفوذ أمرها، يقال: «هبّت ريح فلان» إذا نفذ أمره.

و التنازع، لا يجزئ القوى إلى سلب وإيجاب فقط، بل فوق ذلك يضعف القوى الإيجابية. فلو فرضنا أن طاقه زيد تقدّر بألف مقاتل، فإذا خالفه عمرو وقدّرت طاقته بخمسائة، حتى أنه لو كان وحده بدون مخالف لقدّرت طاقته بألف، وذلك لأن المخالف يحدّ من النشاط ويضعف من القوى، بخلاف التجمع فإنه يزيد الطاقه الألفية إلى الألفين. ولذا ثبت فى علم النفس أن الإنسان إذا رأى خلافاً فالأفضل أن يصمّ عن المخالف حتى يبقى على قواه الذاتية، ولا تحد من نشاطه الطاقه المناوئه.

وَاصْبِرُوا والفرق بين الثبات والصبر، أن الصبر يلائم حالة الهزيمة والنصر، وهو مقابل الجزع، والثبات مقابل الانهزام، ومن الواضح أن الصابر يصل إلى مطلبه ولو انهزم وقتياً إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بالنصر والظفر، وليس المراد المعية الجسمية، كما هو واضح.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصِيحُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أرى ما لا ترونّ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)

[٤٨] وَلَا تَكُونُوا أيها المؤمنون كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ من أهل مكة بَطْرًا «البطْر» الخروج من موجب النعمة بالكفر، من «بطر» يعنى «شق»، ومنه «البيطار» لأنه يشق اللحم بالمبضع، فقد خرج الكفار من مكة بالمعازف والطبول وَرِئَاءَ النَّاسِ فإنهم لما خرجوا ملثوا خوفاً وربعاً من المسلمين، ولكن خرجوا ليظهروا أنهم لا يبالون بالمسلمين ويظهروا شوكتهم وَيَصِيحُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ هذا مقابل

قولهم أنهم أولى بالبيت من المسلمين. والمراد بـ «الصد» المنع عنه، حيث كانوا يقفون دون تبليغ الأحكام وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ إِحاطة علم و قدرة فيجازيهم بما عملوا.

قال ابن عباس: أنه لما رأى أبو سفيان أنه أحرز غيره، أرسل إلى قريش أن ارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا- وكان بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام- فنقيم بها ثلاثًا ننحر الجزور و نطعم الطعام و نسقى الخمر و تعزف علينا القيان و نسمع بنا العرب فلا يزالون يهابونا أبدًا (١).

و إلى هذا أشارت الآية الكريمة، فإن المسلمين يجب أن يكونوا مؤدبين بآداب الله سبحانه حتى في حالة الحرب.

[٤٩]

في موقعه بدر جاء إبليس إلى كفار مكة في صورة سراقه بن مالك فقال لهم: إني جار لكم ادفعوا إلي رايتمكم. فدفعوها إليه و جاء

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٣٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٢

بشياطينه يهول بهم على أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أقبلت قريش يقدمها إبليس معه الراهية فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال لأصحابه: غضوا أبصاركم و عضوا على النواجذ و لا تسلوا سيفا حتى آذن لكم. ثم رفع يده إلى السماء فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، و إن شئت لا تعبد، لا تعبد» (١) ثم أصابه الغشى فسرى عنه و هو يسلمت العرق عن وجهه و هو يقول: هذا جبرائيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين. فنظروا فإذا بسحابة سوداء فيها برق لامع قد وقع على عسكر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قائل يقول: أقدم حيزوم، أقدم حيزوم. و سمعوا قعقعة السلاح من الجو و نظر إبليس إلى جبرائيل فترجع و رمى باللواء فأخذ منبه بن الحجاج بمجامع ثوبه ثم قال:

ويلك يا سراقه تفت في أعضد الناس، فركله إبليس ركلة في صدره و قال: إني برىء منكم.

و قد كان ذلك إذ زين لهم الشيطان أعمالهم أي في وقت حسن الشيطان أعمال المشركين في نظرهم بأن شجعهم على قتال المسلمين، و يحتمل أن يكون «إذ» معمولا لفعل مقدر هو «اذكر» و قال الشيطان للكفار: لا غالب لكم اليوم من الناس أي لا يغلبكم أحد من الناس لكثرتكم و قوتكم فانهضوا لقتال المسلمين- في بدر- و إني جار لكم من الإجارة، ناصر لكم على عدوكم فلما تراءت الفئتان أي التقت، فرقتا المسلمين و الكافرين

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٣

[سورة الأنفال (٨): آية ٤٩]

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوْلًا دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

نكص الشيطان أي رجع على عقبيه أي متقهقرا منهزما، فإن الإنسان إذا أراد أن يتقهقر اعتمد على عقب رجله، و هذا تشبيه لإفادة الفرار مع الجبن، فإن الجبان لا يدبر خوفا من أن يلحقه الطلب.

و قال الشيطان للكفار: إني برىء منكم فلا- صلته بيننا، و لا أفي بما ضمنت لكم من الإجارة و النصر إني أرى ما لا ترون فقد رأى الشيطان الملائكة و كان يعرفهم، و علم أنه لا طاقة له بهم، كما أن الملائكة كانت تعرف الشيطان إني أخاف الله بأن يعذبني على أيدي الملائكة و الله شديد العقاب لا يطاق عذابه.

و في بعض التفاسير: و إنما قام الشيطان بهذا العمل- أي تشجيع الكفار- لأن الله سبحانه شاء أن يخرجهم إلى حرب المسلمين، فتنكسر شوكتهم و تذهب ريحهم و يتحطم كبرياؤهم.

و من الانهزامية المادية أن نأول هذه الآية كسائر الآيات المبينة لما وراء المادة، بتأويلات لا تنافي الأمور المادية، فإن التأويل إنما يصح إذا دل عقل أو نقل قطعي على خلاف الظاهر، أما إذا لم يدل دليل و لم تكن هناك قرينة، فأى مبرر لأن نترك الظاهر بمجرد أنه يلائم الأمور المادية، و لو فتح هذا الباب للزم أن نقول بذلك حتى في القرآن الحكيم نفسه، إذ هو أيضا أمر خارج عن طوق المادة.

[٥٠] كان تزيين الشيطان للمشركين قتالهم مع المسلمين إذ يقول المنافقون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٤

[سورة الأنفال (٨): آية ٥٠]

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)

أى فى حال صدور هذه المقالة عن المنافقين، و المراد بهم إما الكفار، فإن الكافر باعتبار أنه يعلم الواقع و يظهر خلافه يسمى منافقا، و إما المسلمون المنافقون و الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إما عطف بيان، أو يراد أحد اللفظين المسلمون المنافقون، و بالتالى الكفار، و المراد بالمرض مرض الانحراف عن المنهج المستقيم، فإن البدن كما يصاب بالأمراض الجسمية، كذلك الروح تصاب بالأمراض الخلقية، فالبخل و الحسد و الجبن و ما أشبه أمراض غرَّ هؤلاء دينهم أى غرَّ المسلمين دينهم حتى خرجوا مع قلتهم و صمموا على قتال الكفار الأقوياء عددا و عدَّة و ليس الأمر كذلك فإنه مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَيَسْلَمْ أَمْرُهُ إِلَيْهِ وَ يَتَّقْ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ فيما يفعل، يضع الأمور مواضعها، فلا يترك المسلمين و لا يخذلهم، بل ينصرهم على الكافرين، فإنه له القوة يمنحها المتوكلين عليه، و له الحكمة يدبر بها الأمور.

[٥١] إن الكافرين كان مبدأ أمرهم - فى مقابلة المسلمين - الانهزام، فلننظر إلى مصيرهم و لو ترى يا رسول الله، أو المراد كل من تتأتى

منه الرؤية إذ يتوفى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ أى تقبض الملائكة أرواح الكفار عند موتهم يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٥

[سورة الأنفال (٨): آية ٥١]

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)

أى يضربونهم من الأمام و من الخلف، كما يضرب المجرم الكثير الاجرام و يقال لهم: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أى العذاب الذى يحرق.

و

قد روى أن الملائكة كانت تضرب قتلى المشركين فى بدر بالمقامع فتلهب جراحاتهم بالنار و تزهق أرواحهم

«١». و الإتيان بصيغة الأمر فى «ذوقوا» لتصوير المشهد كأنه مجسم أمام المخاطب، و هو من باب الإلفات، كما ذكر فى علم البلاغة.

[٥٢] ذَلِكَ الْعِقَابُ لَكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ أى بما قدتمتم و فعلتم من الكفر و المعاصى، و إنما نسب إلى اليد، للتغليب،

فإن كثيرا من الأعمال تأتى بواسطة اليد و أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ «ظلام» صيغة للنسبة، لا مبالغة، كتمار بمعنى المنسوب إلى التمر.

قال ابن مالك:

و مع فاعل، و فعَّال، فعل فى نسب أعنى عن اليا فقبل

و من المحتمل أن تكون مبالغة، و ذلك لإفادة أنه سبحانه لو كان ظالما لكان كثير الظلم لأن كل صفة تصح فيه تعالى لا بد و أن تبلغ

شأنا كثيرا، فنفى المبالغة نفى للأصل، و المعنى: إن العقاب ليس إلا بسبب جناية العبد، لا أنه اعتبارى منه سبحانه.

(١) راجع مجمع البيان، ج ٤ ص ٤٨٠.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)

[٥٣] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ الدَّابُّ: العادة، والكافر للتشبيه، أى أن عادة هؤلاء المشركين فى الكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، كعادة آل فرعون وهم قومه و أتباعه وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من أقوام الأنبياء، فى الكفر بالرسول و تكذيبهم، فليس تكذيب هؤلاء جديداً، فإن السابقين عليهم أيضاً كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ و ما أنزل على الأنبياء فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ بأن عاقبهم و أنزل عليهم أنواع العذاب إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ لا يقدر أحد على التمرد عليه، فإذا أراد أحد أخذه أخذ عزيز مقتدر شَدِيدُ الْعِقَابِ و ليس عقابه يسيراً هَيِّنًا حتى لا يخشى منه.

[٥٤] ذَلِكُمْ الْعِقَابِ الذى حلَّ بأولئك و هؤلاء، ليس اعتباطاً و ابتلاء من الله سبحانه بلا استحقاق بل بسبب عملهم، لأنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما أى الحالة الصحيحة التى كانت بِأَنْفُسِهِمْ إن الصحة و الرخاء و الأمن و الغنى أحوال لاصقة بأفئس الناس، منحها الله إياهم، و طلب أن يعملوا برضاها فيها، فإذا غيروا ما طلب منهم بالنسبة إليها، بأن صرفوا تلك النعم إلى المعاصى، غيّر الله تلك النعم فأبدل الصحة مرضاً، و الرخاء ضنكاً، و الأمن اضطراباً، و الغنى فقراً. و هذا بالإضافة إلى كونه مرتبطاً بما وراء المادة، مرتبط بالمادة أيضاً، فإن الصحة تنحرف باستعمال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٧

[سورة الأنفال (٨): آية ٥٤]

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

المحرمات الضارة، و الرخاء ينحرف بعدم التعاون و العداً مما يسبب تفكك المجتمع فلا يزرع بمقدار ما كان التعاون يسببه، و هكذا، و الأمن ينحرف إذا نوى كل إنسان الشر بأخيه، و الغنى ينحرف إذا كسل الناس عن العمل أو عملوا أعمالاً غير مثمرة لا تفيد مالا.

و من المعلوم أنه لا يلزم أن يكون الناس مؤمنين ثم يكفرون، بل هنالك مناهج بشرية عامة قورها سبحانه إذا سادت المجتمع كانوا فى أمن و رفاه، فإذا غيروها تغيرت النعمة، مثلاً الظلم و القتل قبيحان، و التعاون و الإحسان حسنان، أما بالنسبة إلى من بدّل الإيمان كفراً و مناهج الشريعة أهواء، فذلك أوضح و أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يَسْمَعُ أقوال الناس عَلِيمٌ بضمائرهم، فإذا رأى تغييراً فى النيات، و انحرافاً فى الكلمات غير ما أعطاهم من نعمة و ما تفضّل عليهم من أمن و راحة.

[٥٥] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ أى أن عادة هؤلاء الكفار كعادة آل فرعون وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من سائر الأمم. و إنما كثر لتأكيد أن الحالة هى الحالة، فإن كثيراً من الناس لا يصدقون أن ما جرى فى الأمم السابقة تجرى فى هذه الأمة، و لذا يحتاج الأمر إلى تركيز و تقرير، و ذلك لا يكون إلا بالتكرار و التذكير مرة فمرة كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ دلالة و حججه فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فلم يموتوا ميتة طبيعية، و إنما أخذوا بالعذاب و أَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ مع فرعون نفسه، فإنه قد يطلق «الآل» على الأعم من الشخص

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)

للتغليب، كما تقدم فى قوله: إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ «١»، و كُلٌّ من تلك الأمم التى أهلكتهم كانوا ظالمين و تخصيص الكلام بآل فرعون، لأن كفرهم و عقوبتهم كانت ظاهرة واضحة لدى السامعين.

[٥٦] إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ الدابة: كل ما يدب على وجه الأرض، لكن المنصرف منها الحيوان، و شَرَّ الجميع عِنْدَ اللَّهِ فى حكمه الَّذِينَ كَفَرُوا

و استمروا على كفرهم فهُمْ لا يُؤْمِنُونَ «الفاء» لعطف جملة على جملة. و لا يقال: إن الدواب لا شر فيها، فكيف يجعل الكافر شرا منها، لأنه يجاب عنه: بأن من الدواب ما فيها شر كالسامة و المؤذيات. و التي ليس فيها شر، يعدّ شرا باعتبار أنها لا تهتدى طريقا، و ليس المراد بالشر هذا المعنى فقط.

[٥٧] ثم بين سبحانه المصداق الظاهر لذلك بقوله: الكفار الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ عهد حسن الجوار بأن تكون في أمن منهم، و هم في أمن منك ثُمَّ يَتَّقُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَى كُلَّمَا عَاهَدُوا نقضوا العهد و لم يفوا به وَ هُمْ لا- يَتَّقُونَ الله و لا- يخافون عقابه، أو لا يتقون نقض العهد. و الظاهر من الآية أن ذلك كان دأب بعض الكفار. و في «المجمع»: عن مجاهد أنه أراد به يهود بنى قريظة فإنهم قد

(١) آل عمران: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٤٩

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

فَأَمَّا تَتَّقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرُّدٌ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧) وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)

عاهدوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم على أن لا يضروا به و لا يمالئوا عليه عدوا، ثم مالئوا عليه الأحزاب يوم الخندق و أعانوهم عليه بالسلاح، و عاهدوا مرة بعد أخرى فنقضوا «١».

[٥٨] و ما هو جزاء هذه الفئة التي هي شر من الدواب و لا- تلتزم حتى بالعهد؟! فَأَمَّا تَتَّقَفَنَّهُمْ «إن» الشرطية و «ما» زائدة، و «تقف» بمعنى: ظفر، أى إن ظفرت بهم يا رسول الله فى الْحَرْبِ فَشَرُّدٌ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ «التشريد» هو التفريق، أى نكل بهؤلاء تنكيلا و فرقهم تفريقا حتى يتعثر بهم من هم ورائهم من الذين عاهدوا معك، حتى يخافوا فلا ينقضوا العهد. فتكون الآية دالة على أمرين: الأول: تأديب هؤلاء الناقضين للعهد. الثانى: إلقاء الرعب فى قلوب الآخرين لئلا ينقضوا عهدهم لَعَلَّهُمْ أى لعل من خلفهم يَذْكُرُونَ أى يتذكرون أن نقض العهد يوجب مثل هذا التأديب فلا يقدموا على مثله، فإن نقض العهد من أسوأ الأعمال، إذ يدل ذلك على أن المعاهدة كانت للضعف، فكُلَّمَا وجد أحد المعاهدين سبيلا إلى نقضه نقضه، و هذا يوجب سقوط قيمة المعاهدات، و أن لا يكون المتعاهدون بعضهم فى أمن من بعض. أما الخدعة فى الحرب فليست قبيحة إذ تلك بعد تأهب كل فريق.

[٥٩] وَ إِمَّا تَخَافَنَّ «إمّا» مركبة من «إن» الشرطية و «ما» الزائدة، تأتى

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٣٩٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٥٩]

وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)

للتوسع فى معنى الشرط، يعنى: و لو كان الاحتمال ضعيفا، إن لم تدخل نون التأكيد، و إمّا أفادت التأكيد فى الشرط، بأن يكون الاحتمال قويا مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً أى إن خفت يا رسول الله من قوم من هؤلاء المعاهدين خيانه، بأن يخونوا عهدك و يحاربوك فجاء بعد إبرام الميثاق فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ أى ألقى المعاهدة بينك و بينهم، إلقاء منتها إليهم، بمعنى أعلمهم عن إلقاءك للعهد، حتى يكون كلا الطرفين على سواء فى الأمر، لا أن يكونوا هم بصدد المباغته و أتم فى أمن و دعة منهم، فإن الإنسان إذا علم أن خصمه فى عهد

يأمن، أما إذا علم أنه في حرب يستعد، أما أن يبقى متزلزلاً يخاف خيائته، فإنه في اضطراب وارتباك، والعهد في نظر العرف ليس مما إذا أبرم دام، بل معلق بنقضه من الطرفين مع الاعلام إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ أى فلا تخنهم يا رسول الله بالقتال فجأة بدون إعلام، بل أعلمهم النقص ثم إذا أردت قتالهم، فقاتلهم بعد الاعلام.

و عن بعض المفسرين: إن الآية نزلت في بنى قينقاع من اليهود، فإنه كان بين النبي و بين أولئك معاهدة، و حيث أن اليهود كان من طبعهم الخيانة خاف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك، و لذا حلَّ العهد الذى بينهم، لئلا يباغتوه و هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فى أمن منهم. ثم صارت بينهم المحاربة «١».

[٦٠] إن الكفار بنقضهم العهد دون الاعلام، و خيانتهم و غدرهم - كما صدر

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٨٥، عن الواقدي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥١

[سورة الأنفال (٨): آية ٦٠]

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)

من بنى قريظة - يظنون أنهم قد سبقوا، و أدركوا فرصة ذهبية سببت عجز المسلمين، لكنه ليس كذلك و لا يحسبن يا رسول الله الَّذِينَ كَفَرُوا بنقضهم العهد و غدرهم سَبَقُوا و استفادوا من فرصة المباغته و السبقِ إِنَّهُمْ لَا- يُعْجِزُونَ أى أن هؤلاء الكفار لا- يعجزون المسلمين، بمعنى أنهم بغدرهم لا يسبون عجز المسلمين، بل الله سبحانه ناصرهم، فإن الله سبحانه فى عون الوفاء لا الغادر، و لذا ذهب بنو قريظة أدراج خيانتهم، بينما غلبهم المسلمون.

[٦١] وَ أَعِدُّوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، و الإعداد هو التهيئة قبل وقوع الأمر لَهُمْ أى للكفار مَا اسْتَطَعْتُمْ ما قدرتم عليه مِنْ قُوَّةٍ دفاعية و هجومية، بتهيئة وسائل الحرب، حتى تكونوا دائمي الاستعداد، سواء هاجمتم أو هوجمتم. و لعل إطلاق القوة يشمل جميع أنحاء القوى المادية و المعنوية و غيرها و ما استطعتم مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ أى ربط الخيل و اقتناءها للجهاد و الحرب تُرْهَبُونَ بِهِ أى تخوفون بسبب إعداد ما استطعتم عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ فَإِنَّ الْكَافِرَ عَدُوَّ اللَّهِ لمخالفته له، و عدو المسلمين كما هو واضح. و لعل المراد بهم: أهل مكة، فإنهم كانوا ظاهري العداوة وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ أى ترهبون به كفارا آخرين دون أولئك فى العداوة، أى أن عداوتهم أضعف، أو دون أولئك فى المحل كبنى قريظة الذين كانوا قريبين من المدينة لا تَعْلَمُونَهُمْ أى لا تعلمون أيها المسلمون أنهم أعداء لكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٢

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦١ الى ٦٢]

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)

اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ حيث يعلم ما بطن من الأمور.

و هذا درس للمسلمين بأن يستعدوا لأى عدو لئلا يباغتوا و ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فى سَبِيلِ اللَّهِ فإن الحرب تحتاج إلى الإنفاق، و لذا يقرن غالباً الجهاد بالإنفاق فى الآيات الكريمة يُوَفَّ إِلَيْكُمْ أى يرجع إليكم فى الدنيا بالغنيمه و شبهها، و فى الآخرة بالثواب الجزيل وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لا يظلمكم الله تعالى بأن يعطيكم أقل مما أخذ منكم.

[٦٢] وَ إِنْ جَنَحُوا الْجَنُوحَ: الميل، و منه جناح الطائر لأنه يميل به فى أحد طرفيه، أى إن مال الكفار لِّلْسَلْمِ و عدم الحرب فَاجْنَحْ لَهَا أى مل إليها و اقبلها منهم، و «السلم» مؤنث سماعى، و لذا جىء بالضمير مؤنثاً وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ أى فوض أمرك إليه، فلا- تخف أن

تفوتك الفرصة، فإن السلم أحرى أن تلين القلوب فيه و يكفي مؤونه أتعاب الحرب إِنَّه سبحانه هُوَ السَّمِيعُ لأقوال الطرفين الْعَلِيمُ بنياتهم، فلا يفوته غدر غادر و سلم مسالم. و من المعلوم أن الجنوح للسلم إذا كان من مصلحة المسلمين فلا ينسخ قوله: قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ «١»، هذه الآية، بل كل في مقام المصلحة.

[٦٣] و إن يُريدوا أولئك الذين يجنحون للسلم أن يَحْدَعُوكَ بأن

(١) التوبة: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٣

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)

يجدوا فرصة لتهيئة العدة للغدر بك و قتالك فإنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هو يكفيك شرهم، و يتولى أمورك، فإنه كما كفاك سابقا يكفيك الآن هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ أَي قَوَاكِ بِنَصْرِهِ أَي النَّصْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْكَ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ أَي أَيْدِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَفَوَّضُوا حَوْلَكَ، فتمكنت أن تبارز بهم الأعداء.

[٦٤] وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ المتنافرة حتى يكونوا قوة واحدة في وجه الأعداء، فإن وحدة الكلمة من أهم أسباب النصر، و قد كانوا قبل الإسلام في أشد حالة من العداوة و البغضاء حتى أنه كان بين الأوس و الخزرج عداوة و قتال دام أكثر من مائة سنة لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فإن المال يزيد العداوة، فإنه يكون وقودا لها، و إنما أزال الله سبحانه الضغائن بتصفية القلوب و تطهير أدران النفوس وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ بهدايتهم للإسلام المطهر للعداوة عن الأفتدة إِنَّه سبحانه عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، فإذا أراد شيئاً أوجده حَكِيمٌ بحكمته و تدبيره يدبر الأمور و يديرها.

[٦٥] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ أَي يكفيك في مقابلة الأعداء وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فإنهم كافون بالنسبة إلى القوى الظاهرة، و هذا تشجيع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٤

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) أَلَّا نَخَفُ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

لرسول صلى الله عليه و آله و سلم لثلا ينظر إلى كثرة الأعداء، كما جرت العادة في الحروب العادية.

قال بعض المفسرين: نزلت في البيداء قبل الشروع في القتال في وقعة بدر «١».

[٦٦] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ أَي رَعَبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ بذكر فوائده و آثاره و أنهم يسودون بسببه و يحوزون الأجر و الثواب في الآخرة لأجله إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَيها المؤمنون عَشْرُونَ صَابِرُونَ عَلَى الْقِتَالِ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ مِنَ الْكُفَّارِ فَكُلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِبَالِ عَشْرَةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَ التَّضَحِيَّةَ طَاقَتَانِ عَظِيمَتَانِ تَبْدَلَانِ الْإِنْسَانَ الْعَادِي إِلَى شَخْصٍ شَجَاعٍ مُقَدَّامٍ، وَ ذَلِكَ الضعف في الكفار بسبب أنهم قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَي لا يفهمون، فمن يحارب عن معرفة و إيمان يزود بما لا يزود به الإنسان الخلي من العقيدة و الدين، و إن من عرف أنه إن قتل دخل الجنة و إن قتل دخل الجنة، كان قوى القلب في مقابل من لا يفقه ذلك.

[٦٧] إن الفئة إذا كانت قليلة كانت الطاقة الإيمانية فيها قوية جدا، و ذلك لأنها تتقوى حتى تتمكن من مقابلة القوى، و هذا أمر بين في علم

(١) مجمع البيان: ج ٤ ص ٤٩٠، عن الكلبي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٥

[سورة الأنفال (٨): آية ٦٧]

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)

النفوس، فالنفوس القوية تأتي بما تحير العقول فيه، إما إذا كثرت الفئة فإن روح الاتكالية تقوى فيهم، و بمقدار ارتفاع نسبة الاتكالية، تنخفض القوة و الطاقة، و لذا نرى الأمم أول تكونها أنشط منها في أواسط حياتها، فكيف بأواخرها، و هذا هو السبب في أن خفف الله الحكم عن المؤمنين بعد أن كثروا، البآن و بعد أن كثرت أيها المؤمنون خفف الله عنكم في لزوم مقابلة الواحد منكم لعشرة من الكفار و علم الله أن فيكم ضمعا عطف على «الآن» لا على «خفف» و المراد بالضعف: ضعف الطاقة، لا ضعف الجسد فإن يكن منكم أيها المسلمون مائة صابرة تصبر على المكاره يغلبوا مائتين من الكفار و إن يكن منكم ألف صابرين يغلبوا ألفين من الكفار بإذن الله و إرادته حيث أراد لكم أن تكونوا أقوى من عدوكم بما وهب لكم من الإيمان، فإن الرجل منكم يعادل رجلين من العدو، فإنه و إن كان أضعف من الحكم السابق و لكنه أيضا يذنه سبحانه و الله مع الصابرين ينصرهم و يعينهم.

و لعل الحكمين تابعان لحالة نفوس المسلمين في كل دور، فمتى رأوا قوة من أنفسهم كان العشرة منهم بمائة، و متى رأوا الضعف من أنفسهم كان العشرة منهم بعشرين، فلا نسخ في البين، و الله العالم.

[٦٨] أسر المسلمون يوم بدر سبعين أسيرا فقتل النبي صلى الله عليه و آله و سلم منهم ثلاثة، و خاف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٦

المسلمون أن يقتلهم جميعا فتقدموا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بأخذ الفداء منهم رغبة في المال، و قد كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعلم أن قتل بعضهم أصلح، كما كان كذلك شأن الأنبياء قبله، و ذلك لأن رؤوس المؤامرات إذا أطلقوا عاثوا في الأرض فسادا و عادوا إلى المجتمع بأكثر قتلا و فتكا، لكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قبل طلب هؤلاء لأمر أصلح و هو أن لا يختلف أصحابه بما يعود بأكثر ضررا، فنزلت هذه الآية توبيخا للمسلمين:

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَى لَيْسَ لَهُ، و لم يكن في عهد الله إليه أن يكون له أسرى بأن يأخذ الأسير ثم يطلقه منا، أو في مقابل الفدية حتى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ الْإِثْخَانِ: التغليظ، أى يحمل الأرض ثقلا بالقتلى، أو المعنى: حتى يغلب في الأرض ليخاف الكفار سطوته، فإنهم إن علموا أنهم إن وقعوا أسرى فداؤا و تحرروا، جزأهم ذلك على الاستمرار في المؤامرة و المكيدة، لكنهم إن عرفوا أن وراءهم القتل، قلت جرأتهم، و سلمت الدولة من شرهم.

فهل تُرِيدُونَ أيها المسلمون عَرَصَ الدُّنْيَا أى المصالح الدنيوية، و سمي عرضا لأنه لا يبقى، و المراد به هنا: المال المأخوذ فديته و الله يُرِيدُ الْآخِرَةَ فإنكم إن صرفتم النظر عن المال لأجل ثواب الله سبحانه، كان خيرا لكم و الله عزير ذو قوة و منعه، فاعملوا بأوامره حتى يقويكم حكيم يدبر الأمور بحكمته البالغة، فما يأمر به هو المصلحة دون ما تظنون.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٧

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٨ الى ٦٩]

لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)

[٦٩] لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أى لو لا أن الله سبحانه كتب سابقا أن لا يعذب الناس حتى يبين لهم، كما قال سبحانه: وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

حَتَّى نَبَعَثَ رَسُولًا «١»، لَمَسَّكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْفِدْيَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ غَضَاضَةٌ لِأَنَّهُ لَاحِظُ الْأَصْلَحِ مِنْ تَوْحِيدِ كَلِمَةِ أَصْحَابِهِ حَيْثُ قَبْلَ أَخْذِ الْفِدْيَةِ مَكْرَهًا، أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَقَدْ اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ حَيْثُ رَجَحُوا الْمَالَ عَلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَرَغْبَةُ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و

قد ورد في الحديث: أن الفدية كانت أربعين أوقية من الفضة، كل أوقية أربعين مثقالا، إلا العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث أخذ منه مائة أوقية «٢».

[٧٠] أما إذا انتهى الأمر وأخذتم الفدية فلا بأس في أكلكم لها فكلوا مما غنمتم من الكفار حلالا طيبا و الطيب إذا قورن بالحلال أفاد معنى عدم نفرة الطبع منه في مقابل الحلال الذي ينفر منه الطبع وَ اتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ قَدِ غَفَرَ ذُنُوبَكُمْ فِي أَخْذِكُمْ الْفِدْيَةَ رَحِيمٌ يَرْحَمُكُمْ فِيمَا بَعْدَ بَلْطَفِهِ، مَقَابِلَ بَعْضِ الْكِبَارِ الَّذِينَ إِذَا غَفَرَ ذَنْبَ الْمَذْنِبِ، يَنْتَهِي الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَا يَرْحَمُهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) عوالم الآلى: ج ٢ ص ١٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٨

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٠ إلى ٧١]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

[٧١] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ أَى تحت استيلائكم، و ذكر «اليد» لأنها تكون الآخذة للأشياء غالبا من الأسرى جمع أسير، و المراد بهم أسرى بدر الذين أسرهم المسلمون إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا بِأَنْ لَمْ تَكُنْ قُلُوبِكُمْ مَحْشُوءَةً بِالْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ بَلْ طَاهِرَةٌ نَظِيفَةٌ يُؤْتِكُمْ أَى يعطيكم خيرا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ مِنَ الْفِدَاءِ، و إنما يعطيكم ذلك لطفًا و رحمة لا استحقاقًا و عوضًا وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. و من المعلوم أن ذلك مشروط بالإيمان وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ و قد كان العباس بن عبد المطلب يقول: نزلت هذه الآية في و في أصحابي، كان معي عشرون أوقية ذهبًا فأخذت مني فأعطاني الله مكانها عشرين عبدا كل منهم يضرب بمال كثير و أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية.

[٧٢] ثم سأل الله سبحانه نيته حول إطلاق الأسرى بالفداء نزولا عند رغبة أصحابه، بأنه لا يهّمه ما لعل الطلقاء يقومون به من مؤامرة جديدة ضده و إِنْ يُرِيدُوا أَى يريد الطلقاء خيانتك بأن يكون في نيتهم تجديد المؤامرة فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فِي قِصَّةِ خُرُوجِهِمْ إِلَى بَدْرٍ فَأَمْكَنَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ فقتلهم و أسروهم، و الله قادر على أن يمكن المسلمين منهم ثانية إن خافوا منهم. و سمي خروجهم إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٥٩

[سورة الأنفال (٨): آية ٧٢]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)

بدر خيانه باعتبار وجوب شكر المنعم، لا باعتبار سبق معاهدة، فإنك إذا أنعمت و تفضلت على أحد، ثم قام ضدك يقال: أنه خانك و اللَّهُ عَلِيمٌ بِإِرَادَتِهِمْ الْخِيَانَةَ وَ عَدَمِهَا حَكِيمٌ يَدِيرُ الْأُمُورَ حَسَبَ الْحِكْمَةِ، فَهَمُ فِي قَبْضَةِ عِلْمِهِ وَ إِرَادَتِهِ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْإِضْرَارِ بِكَ.

[٧٣] و بمناسبة ذكر الحرب و علاقة المسلمين بالمشركين، يأتي ذكر علاقة المسلمين بعضهم ببعض، و أنها علاقة الإيمان و العقيدة و الهجرة إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَ جَاهَدُوا أَى حَارَبُوا الْكُفَّارَ بِأَمْوَالِهِمْ بِأَنْ بَدَلُوهَا فِي سَبِيلِ الْجِهَادِ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَأْتِي ذِكْرُ «سَبِيلِ اللَّهِ» فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ لِتَنْبِيهِ عَلَى أَنَّ حَرَكَةَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَتْ إِلَّا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا أَى الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا لِلرَّسُولِ وَ الْمُهَاجِرِينَ مَأْوَى بِأَنْ أُسْكِنُوهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسْكَنٌ حِينَ وَرَدُوا الْمَدِينَةَ فَأُسْكِنَهُمُ الْأَنْصَارُ مَعَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَ نَصَرُوا أَى نَصَرُوا الرَّسُولَ وَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ لَيْسَتْ هُنَاكَ وَلا يَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَ قَرِيْبِهِ الْكَافِرِ، وَ الْوَلَايَةُ كَلِمَةٌ عَامَةٌ تُشْمَلُ أَقْسَامُ الْوَلَايَةِ وَ النِّصْرَةُ.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، بَلْ بَقُوا فِي مَكَّةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٠

[سورة الأنفال (٨): آية ٧٣]

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)

اختياراً ما لكم أي ليس لكم أيها المسلمون من ولايتهم من شيء لأنهم خالفوا أمر الرسول و أضعفوا- يبقائهم في مكة- كيان المسلمين حتى يهاجروا كما هاجرتهم و إن استنصروكم في الدين أي طلب المؤمنون غير المهاجرين منكم أيها المهاجرون أن تنصروهم على أعدائهم الكفار، في الأمور الدينية فعليكم النصر و من المعلوم أن النصرة غير الولاية المطلقة، لأن المسلمين في المدينة كان ينصر بعضهم بعضاً، و يسكن أحدهم الآخر في داره، و يجتمعون في السلم و الحرب، و أخذ الغنائم، و يتفقد أحدهم الآخر، كأهل بيت واحد، بخلاف النصر المجرد على الكافر الذي قرره سبحانه للمسلمين في مكة.

إلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ أَى الْمُسْلِمُونَ الْمُهَاجِرُونَ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَإِذَا اسْتَنْصَرَكُمْ الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ عَلَى كِفَارِ مَعَاهِدِينَ مَعَكُمْ، فَلَا تَخْرُقُوا الْمِعَاهِدَةَ، وَ لَا تَنْصُرُوا الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَغْدِرُ بَعْدَهُ، وَ لَا يَنْقُضُ مِيثَاقَهُ وَ إِنْ كَانَ مَعَ الْكَافِرِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فَلَا تَتْرَكُوا مَوَالِيَهُ الْمُهَاجِرِينَ، وَ لَا تَتَوَلَّوْا غَيْرَ الْمُهَاجِرِينَ.

[٧٤] وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسُوا لَكُمْ بِأَوْلِيَاءَ وَ إِنْ كَانُوا أَقْرَبًا وَ كُمْ بِالنِّسْبِ أَوْ بِاللُّغَةِ أَوْ بِالْوَطَنِ بَلْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَنْصُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦١

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٤ إلى ٧٥]

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأَوْلِيَّكُمْ مِنْكُمْ وَ أَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

ضدكم و إن اختلفوا. و بهذا المعنى

ورد: «الكفر كله مله واحدة»

إلَّا تَفْعَلُوهُ أَى إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنْ وَلايَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ اعْتِبَارِ الْكُفَّارِ كُلِّهِمْ مَلَّةً وَاحِدَةً، بِأَنَّ عَادِيْتِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ الْيَتِيمِ الْكَافِرِينَ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ تَعْزِيْزًا لِلْكَفْرِ وَ إِذْلا لًا لِلْإِسْلَامِ، وَ قَدْ دَلَّ مَنْطِقُ التَّارِيْخِ أَنَّ كُلَّ وَقتٍ اتَّخَذَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، ضَعْفَتْ شَوْكَتُهُمْ وَ ذَهَبَتْ رِيْحُهُمْ، وَ بِالْعَكْسِ كُلِّ وَقتٍ اتَّخَذُوهُمْ فِيهِ أَعْدَاءَ، وَ اتَّخَذُوا سَائِرَ الْمُسْلِمِينَ أَوْلِيَاءَ، قَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ وَ هَبَتْ رِيْحُهُمْ.

[٧٥] وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَ تَطْبِيقِ حُكْمِهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الَّذِينَ أَعْطَا الْمُسْلِمِينَ مَأْوَى وَ نَصَرُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَوْلِيَاءَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لِقِيَامِهِمْ بِجَمِيعِ شُرَائِطِ الْإِيمَانِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

من الله لذنوبهم وَرِزْقٌ كَرِيمٌ أى مع الكرامة فى الدنيا و فى الآخرة، فإن المؤمنين إذا ما عملوا بشرائط الإيمان تمت عليهم بركات من السماء و الأرض.

[٧٦] وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ - حتى لا- يظن أن الأمر تم فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم - وَ هَاجَرُوا وَ الْهَجْرَةُ باقية مهما كان الإنسان فى دار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٢

الكفر مما لا- يتمكن معه من إظهار معالم الإسلام وَ جَاهِدُوا مَعَكُمْ و لو بنحو المعية المعنوية بأن كان جهادهم مع المؤمنين و فى جماعتهم فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ فى الأجر و الثواب و خير الدنيا وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ أى ذوو الأرحام و القرابة بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتَابِ اللَّهِ أى فى حكم الله. و هذا أخص من الحكم الأول، فالقريب المسلم الجامع للشرائط أولى بقريبه المسلم الجامع للشرائط من البعيد المسلم الجامع للشرائط فى جميع الجهات التى منها الإرث. و يفهم من الآية أن الأقرب من الرحم أولى من الأبعد إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فما يذكره من الأحكام إنما هو حسب الحكمة و المصلحة، لأنه يصدر عن علم و اطلاع.

و فى بعض التفاسير: إن هذه الآية نسخت الآية السابقة أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فَإِنْ كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ صَحِيحٌ فى الدين يدل على ذلك فهو، و إلا فظاهر الآيتين غير متناف حتى نحتاج إلى القول بالنسخ، و الله العالم «١».

(١) راجع تفسير القمى: ج ١ ص ٢٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٣

٩ سورة التوبة / آياتها (١٢٩)

تسمى هذه السور ب «سورة براءة» لأنها تبتدى بهذه الكلمة، كما تسمى بالتوبة، لكثرة اشتغالها على مشتقات هذه الكلمة. و لم تبتدى هذه السورة ب «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» لأنها نزلت لإعلان الحرب على الكفار و المنافقين، و ذلك ينافى «البسملة» التى تحمل فى معناها الرحمة و السلام.

و لما اختتمت سورة الأنفال بعلاقة المسلمين بعضهم مع بعض ابتدأت هذه السورة بعلاقة المسلمين بالكافرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٤

[سورة التوبة (٩): الآيات ١ الى ٢]

بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَيُحْوَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)

[١] بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أى هذه براءة، على أنها خبر مبتدأ محذوف، أو «براءة» مبتدأ خبره «إلى الذين». و معنى البراءة: انقطاع العصمة، يقال: «برأ يبرأ من فلان» إذا قطع ما بينهما من الصلة. و المعنى: أن لا عصمة بين المسلمين و بين الذين عاهدوهم من المشركين، فقد كان بين الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و بين المشركين معاهدات، لكنهم غدروا، و لذا أجلبهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أربعة أشهر، فمن كان له معاهدة أعلمه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنه يبقى على المعاهدة إلى أربعة أشهر، ثم هو صلى الله عليه و آله و سلم حرب عليه فليتخذ حذره.

و لم يكن هذا نقضا من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بل نقضا منهم، و لذا قال سبحانه: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ «١». و قد شاء الله سبحانه أن يطهر الجزيرة التى أصبحت عاصمة الإسلام عن رجس الشرك و النفاق لتتوحد فيها الكلمة و يكون للمسلمين دولة مرهوبة الجانب ليفرغوا إلى الروم و الفرس.

[٢] فَسِيحُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مَعْنَى «السَّيْحِ» السَّيْرُ، يُقَالُ: «سَاحَ» إِذَا سَارَ عَلَى مَهْلٍ. أَيْ: أَنْتُمْ فِي مَهْلَةٍ بِأَنْ تَسِيرُوا آمِنِينَ وَتَتَصَرَّفُوا فِي حَوَائِجِكُمْ بِكُلِّ تَأَنٍ وَطَمَآنِينَةٍ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ ابْتِدَاءِ الْإِعْلَانِ، وَهُوَ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى الْعَاشِرِ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ، فَإِذَا

(١) التوبة: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٥

انقضت هذه المدة فليس لكم عهد ولا أمان، والمحاربة معكم لا تعتبر غدرا و مباغته و أعلموا أيها الكفار أنكم غير معجزى الله أى لا تتمكنون من أن تعجزوه و تغلبوه، بل هو القادر على أن يخزيكم بأيدي المسلمين، فلا تفكروا فى محاربة المسلمين و أن الله مخزى الكافرين «الخزى» النكال، أى أنه سبحانه ينكل بهم و ينتصر عليهم.

روى المفسرون أنه لما نزلت سورة براءة دفعها الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إلى أبى بكر ليذهب إلى الحج فيقرأها على المشركين، فلما مضى بعض الطريق جاء جبرئيل عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و قال له: إن السورة لا يبلغها إلا أنت أو رجل من أهل بيتك، فأمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم عليا أن يخرج و يأخذها من أبى بكر، فرجع أبو بكر و ذهب على عليه السلام و قرأ السورة على الكفار فى منى ثلاثة أيام، يوم العاشر من ذى الحجة، و الحادى عشر، و الثانى عشر منه، فكان يخرط سيفه و يقول: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك، و لا يدخل البيت إلا مؤمن، و لا يطوف بالبيت عريان، و من كانت بينه و بين رسول الله مدة فإن أجله إلى أربعة أشهر «١».

و لما أعلم الكفار بذلك، أظهروا تبرؤهم، فلم تبق صلة بينهم، و قد كان هذا العمل خطرا، حيث أن الكثرة الغالبة من الحجاج كانوا مشركين، فالاصطدام بهم بهذه الصورة الخشنة كان مظنة الإيقاع بالإمام عليه السلام لكن الله سبحانه عصمه عن ذلك، و قد كان نزول سورة براءة فى السنة التاسعة من الهجرة، بعد فتح مكة، و فى العام القابل حج الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حجة الوداع، و لما أن رجع عن الحج نصب عليا

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٦

[سورة التوبة (٩): آية ٣]

وَ أذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)
خليفة فى غدیر خم، و قبض فى شهر صفر من تلك السنة.

[٣] وَ أذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أى إعلام منهما إلى الناس من المسلمين و المشركين يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ وَ هو يوم النحر، مقابل الحج الأصغر الذى هو العمرة، و سمي بالأكبر لأن أعماله أكثر، و إنما كان يوم النحر يوم الحج الأكبر لأن طواف الحج الذى هو أعظم أعماله يأتى فيه، و يحتمل أن يراد بذلك جميع أيام الحج، كما يقال: يوم الجمل، و يوم صفين، و يراد به الحين و الزمان الذى وقعت فيه هذه الحوادث.

و المعنى أن الله و رسوله يعلنان فى هذا الوقت أن الله برىء من المشركين فلا علاقة له بهم، و لا عهد له معهم و رسوله أيضا برىء منهم. و قد تقدم أن ذكره سبحانه هو الأصل، و ذكر الرسول للاحترام و لأنه المنفذ المواجه فإن تبتتم أى رجعتم عن الشرك أيها المشركون فهو خير لكم فى دنياكم حيث تسودون و تبقون مرفهين و إن تولىتم أى عرضتم عن الإيمان و بقيتم على الشرك فأعلموا أنكم فى معرض عقاب الله و عذابه و أنكم غير معجزى الله أى لا تتمكنون من أن تعجزوه و تغلبوه، بل هو ينتصر عليكم و يهلككم و

يخزيكم وَبَشِّرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَ تَسْمِيَةُ الْإِنذَارِ بَشَارَةٌ، مِنْ بَابِ الْاسْتِهْزَاءِ، وَ ذَكَرَ الضَّدَّ تَقْرِيبَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٢، ص: ٣٦٧

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤ الى ٥]

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمَا إِيَّاهُمْ وَعَاهَدْتُمَا إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ أَحْضِرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

مكان الضد، كما يسمى الزنجي: كافورا، والأعمى: بصيرا، وليان أن العذاب يأتي مكان انتظار البشارة، فإن الكفار كانوا ينتظرون بأعمالهم عاقبة حسنة فإذا بها عذاب و نكال.

[٤] ثم استثنى سبحانه من براءته من المشركين و انتهاء معاهدتهم إلى أربعة أشهر، المعاهدين الذين وفوا بالعهد إلا الذين عاهدتكم أيها المسلمون معهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا بل بقوا أوفياء على عهودهم و لم يظاهروا عليكم أحداً أي لم ينضموا إلى أعدائكم حتى يكونوا ظهيرا لهم عليكم فأتيتم أيها المسلمون إليهم و إنما قال: «إليهم» كأن الإتمام يتبدى من المسلمين و ينتهي إلى أولئك عاهدتكم إلى مدتهم المضروبة لهم، فهم في مدة عهدهم آمنون لا يحاربون إن الله يحب المتقين الذين يتقون نقض العهد. و قد كان جماعة من المشركين كذلك بقوا أوفياء على عهودهم كبنى كنانة و بنى حمزة، و قد كانت مدتهم تسعة أشهر، و كأهل هجر و البحرين و إيلاء و دومة الجندل الذين كانت للرسول صلى الله عليه و آله و سلم معهم مصالحت.

[٥] فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ أَي مَضَتْ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي أُبِيحَ لِلنَّاكثِينَ أَنْ يَسِيحُوا فِيهَا، وَ الَّتِي تَنْتَهَى بِانْتِهَاءِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ رِبْعِ الْأُولَى. وَ مَعْنَى الْإِنْسِلَاحِ: الْمَضَى، كَمَا يَنْسَلِخُ الْجِلْدُ عَنِ الشَّاءِ، فَتَبْدُو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٨

[سورة التوبة (٩): آية ٦]

وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

عاريه ظاهرة، تشبيها للأشهر الحرم بالجلد الواقى لما بعدها من الأيام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فقد رفعت الهدنة و العهد بما نقضوا من العهود. و ليس المراد قتل كل فرد فرد، بل المراد وقوع المقاتلة، و أنهم في حكم المحارب، و المراد من «حيث وجدتموهم» أينما كانوا في حل أو في حرم، فإن الحرم محترم لمن احترامه، أما من لم يحترمه فليس بمحترم فيه و خذوهم أي خذوا من تمكنتم من أخذه، و الأخذ للقتل أو الحبس أو الاسترقاق و أحضروهم امنعوهم عن التصرف في حوائجهم و اقعدوا لهم كل مَرَصِدٍ كل محل للرصد و التطلع كقلل الجبال، و المضايق، و قوارع الطرق فإن تابوا عن كفرهم و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة أي التزموا بشرائط الإسلام، فإن إظهار مجرد الإيمان بدون الرضوخ للأحكام و الاستعداد لامتنال أوامر الله و الرسول، لا يعد إلا لقلقة لسان فخلوا سبيلهم دعوهم يتصرفون في البلاد، لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين، لأنهم أصبحوا من زمرتهم إن الله غفور لذنوبهم رحيم بهم يتفضل عليهم بلطفه.

[٦] وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي أَمْرْتِكَ بِقِتَالِهِ بَعْدَ انْسِلَاحِ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ اسْتَجَارَكَ أَي اسْتَأْمَنَكَ، بِأَنْ تَطْلُبَ الْأَمَانَ مِنْكَ لِيَسْمَعَ دَعْوَتَكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٦٩

[سورة التوبة (٩): آية ٧]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسِيئَتِهِمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)

فَأَجِزُهُ وَأَعْطَهُ الْأَمَانَ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ وَحَيْثُ أَنْ كَلَامَ الرَّسُولِ هُوَ الْوَحْيُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى «١»، كَانَ كَلَامَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ إِنْ أَسْلَمَ، كَانَ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ لَمْ يَسْلَمْ فَأَنْبَلُغُهُ مَأْمَنَهُ أَيْ أَرْجِعُهُ إِلَى مَحَلِّ أَمْنِهِ، بِأَنْ يَكُونَ فِي حِمَايَتِكَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَانَهُ، لِنَلَّا يَغْدِرُ بِهِ فِي الطَّرِيقِ، وَهَذَا كَانَ كَافِرًا حَرِيبًا، بَعْدَ عَدَمِ قَبُولِهِ الْإِسْلَامَ إِلَّا أَنَّهُ حَيْثُ جَاءَ لِعَرَضٍ صَحِيحٍ، لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ حَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ الْأَمَانَ لِمُرِيدِ فَهْمِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ الْإِسْلَامِ، فَهَذَا الْأَمَانَ سَبَبٌ لِدُخُولِ بَعْضِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ.

[٧] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَجْهَ تَبَرُّؤِ الرَّسُولِ مِنَ الْعَهْدِ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ بِقَوْلِهِ: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ وَقَدْ غَدَرُوا وَظَاهَرُوا الْأَعْدَاءَ، وَهَلِ الْعَهْدُ يَبْقَى مَعَ ذَلِكَ؟ وَقَدْ كَانَ ضَرْبُ الْمُدَّةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْغَادِرُونَ أَنْ يَجْهَزَ عَلَيْهِمْ فَوْرَ غَدْرِهِمْ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مَعَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَغْدَرُوا، وَكَانَ اسْتِثْنَاؤُهُمْ وَحْدَهُمْ دُونَ سِوَاهُمْ، وَقَدْ كَانُوا كَثِيرِينَ - كَمَا عَرَفْتَ - لِأَنَّهِمْ «الْفَرْدُ» الظَّاهِرُ السَّابِقُ إِلَى الذَّهْنِ، وَالْمُرَادُ بِأَوْلَيْكَ: هُمْ قِبَائِلُ بَكْرٍ،

(١) النجم: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨ إلى ٩]

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)

بنو خزيمه و بنو مدلج و بنو حمزة، فقد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية - اليوم الذي عاهد رسول الله قريش قرب الحرم - و هؤلاء لم ينقضوا العهد، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإتمام مدتهم و فاء للعهد فما استقاموا لكم أي مدة استقامة المشركين الذين لم ينقضوا العهد معكم، بأن لم تظهر منهم أمارات الغدر و الخيانة فاستقيموا لهم و ابقوا على عهدكم معهم إن الله يحب المتقين الذين يتقون نقض العهد و خلف الوعد.

[٨] كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ، وَتَتَوَرَّعُونَ عَنْ قِتَالِهِمْ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا وَيُظْفَرُوا عَلَيْكُمْ وَ يَتِمَّ كُنُوزُكُمْ مِنْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً أَيْ لَا يَحْفَظُوا وَ لَا يَرَعُوا فِيكُمْ قِرَابَةً وَ لَا عَهْدًا، فَإِنَّ «الْإِلَّ» بِمَعْنَى الْقِرَابَةِ، وَ «الذِمَّةُ» بِمَعْنَى الْعَهْدِ، أَوْ «الْإِلَّ» بِمَعْنَى الْحَلْفِ، أَيْ تَذَهَبُ الْمَحَالِفَاتُ وَ الْعَهْدُ بِمَجْرَدِ أَنْ يَتِمَّ كُنُوزُكُمْ هَؤُلَاءِ مِنْكُمْ يُرْضُونَكُمْ هَؤُلَاءِ الْمَعَاهِدُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ فَيَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ الْمَوَالِينِ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ حَبْكَكُمْ وَ وِلَاءَكُمْ، بَلْ هِيَ مَلِيئَةٌ بِغَضَا وَ عِدَاوَةٍ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ خَارِجُونَ عَنِ الْعَهْدِ وَ الْمَوَاتِقِ، فَإِنَّ الْفَسْقَ بِمَعْنَى الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ.

[٩] اشْتَرَوْا هَؤُلَاءِ النَّكَثُونَ بِمَقَابِلِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي كَانَ الْمَفْرُوضُ الْإِيمَانَ بِهَا ثَمَنًا قَلِيلًا فَقَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الدِّينِ فِي مَقَابِلِ دُنْيَا قَلِيلَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧١

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠ إلى ١٢]

لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا - وَلَا ذِمَّةً وَ أَوْلَيْكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَ إِنْ نَكُنُوا أَيْمَانُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا إِنَّهُمْ الْكُفْرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)

زائلة تحفظوا عليها فصددوا أي منعوا الناس عن سبيله أي سبيل الله تعالى إنهم ساء ما كانوا يعملون أي بس عملهم ذلك.

[١٠] لَا يَرْقُبُونَ لَا يَرَاعُونَ وَ لَا يَحْفَظُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً وَ هَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا يَرَاعُونَ قِرَابَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَا عَهْدَهُمْ، بَلْ إِنْ ظَفَرُوا بِهِمْ قَتَلُوهُمْ وَ انْتَقَمُوا مِنْهُمْ وَ أَوْلَيْكَ الْكُفْرَارُ النَّاكِثُونَ لِلْعَهْدِ هُمْ الْمُعْتَدُونَ الْمَجَاوِزُونَ لِلْحُدُودِ، حَيْثُ لَمْ يَرَاقِبُوا الْعَهْدَ.

[١١] فَإِنْ تَابُوا عَنْ الْكُفْرِ وَقَبِلُوا الْإِسْلَامَ وَخَضَعُوا لِأَمْرِهِ أَنْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْهَا فَهَمَّ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ أَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، لَهُمْ مَا لَكُمْ، وَ عَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ وَ نُفِصِلُ الْآيَاتِ نَمِيزَهَا وَ نَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أَيْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا لَا الْجَهْلَةُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا.

[١٢] وَإِنْ نَكَتُوا أَيْ نَقَضُوا أَيْمَانَهُمْ أَيْ عَهْدَهُمْ وَ الْإِيمَانَ الَّتِي حَلَفُوا بِهَا بَعْدَ الْعَهْدِ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ مَعَكُمْ، وَ هَذَا كَالْتَذَكِيرِ بِشِيعَةِ عَمَلِهِمْ، وَ إِلَّا فَكُلْ نَكَتٌ يَكُونُ بَعْدَ الْعَهْدِ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ أَيْ أَخَذُوا بِقَدْحُونَ وَ يَعْبُونَ دِينَكُمْ فَقَاتَلُوا أَيْهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٢

[سورة التوبة (٩): آية ١٣]

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَمْ تَحْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) الْمُسْلِمُونَ أَيْمَانَةُ الْكُفْرِ «أَيْمَانُهُ» جَمْعُ إِيمَانٍ، وَ هُمْ قَادَةُ الْكَافِرِينَ، وَ إِنَّمَا خَصَّصَهُم بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ الْمَضْلُوعُونَ لِأَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ إِنْ اسْتَأْصَلُوا ذَهَبَتْ شَوْكَةُ الْكَافِرِينَ.

وَ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ الْأَوَّلَىٰ قَصْدُ مَرَاكِزِ انْتِشَارِ الْكُفْرِ وَ مَعَادِنُهُ إِنْهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ أَيْ أَنَّ أَيْمَانَ الْكُفْرِ لَا يَحْفَظُونَ الْعَهْدَ وَ الْإِيمَانَ وَ لَا وِفَاءَ لَهُمْ بِهَا لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أَيْ قَاتِلُوهُمْ لِكَيْ يَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ.

[١٣] ثُمَّ حَثَّ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِهِمْ بِقَوْلِهِ: أَلَا تَقَاتِلُونَ أَيْ هَلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَ نَقَضُوا، وَ هَذَا لَا يَنَافِي قَوْلَهُ: «لَا إِيمَانَ لَهُمْ» فَإِنَّ مَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ لَا يَحْفَظُونَهَا، وَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّهُمْ عَقَدُوهَا. وَ الْحَاصِلُ أَنَّهُمْ عَقَدُوا الْإِيمَانَ وَ لَكِنْ نَقَضُوا وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ حِينَ تَأَمَّرُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِإِخْرَاجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ.

وَ لَعَلَّ ذِكْرَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِقِتَالِهِ أَيْضًا، أَوْ قَعَّ فِي النَّفْسِ، وَ أَبْلَغَ فِي التَّحْرِيزِ وَ الْحَثِّ، لِأَنَّ الْإِخْرَاجَ الَّذِي قَصَدَهُ الْمُتَأَمَّرُونَ كَانَ أَسْوَأَ مِنَ الْقِتْلِ، فَإِنَّهُمْ قَصَدُوا إِخْرَاجَهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ فِي بَيْدَاءِ خَالِيَةِ مِنَ الْمَاءِ وَ الطَّعَامِ، أَوْ الْمَرَادُ بِالْإِخْرَاجِ: إِخْرَاجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمُ بِالْإِثْبَاتِ أَوْ الْقِتْلِ أَوْ النَّفْيِ وَ هُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَإِنَّهُمْ ابْتَدَءُوا بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَ إِذْنَهُمْ وَ الصَّدْعَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

إِنْ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ مِمَّا يَبِيحُ لَكُمْ قِتَالَهُمْ، فَلَمَّا ذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٤ إلى ١٦]

قَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِيهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَنْجِدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَجْهَ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

لَا تَقَاتِلُونَهُمْ أَيْهَا الْمُسْلِمُونَ؟ أَمْ تَحْشَوْنَهُمْ أَيْ هَلْ تَخْشَوْنَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ أَنْ تَصِيْبَكُمْ مِنْهُمْ أَذِيَةٌ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَوْهُ فَإِنَّكُمْ إِنْ تَرَكْتُمْ قِتَالَ هَؤُلَاءِ عَذَّبَكُمْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، فَهُوَ أَحَقُّ بِالْخَشْيَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، أَمَا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ فَلَا يَعْتَقِدُ بِعِقَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ لِذَا لَا يَخْشَاهُ.

[١٤] قَاتَلُوهُمْ أَيْ قَاتَلُوا الْكُفَّارَ أَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنْ تَقَاتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ بِالْقِتْلِ وَ الْأَسْرِ وَ يُخْزِيهِمْ أَيْ يَذِلُّهُمْ وَ يَحْطِمُ شَوْكَتَهُمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ تَكُونَ كَلِمَتُكُمْ هِيَ الْعَلِيَا وَ تَكُونَ الْغَلْبَةُ لَكُمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ فَإِنَّ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتْ مَمْتَلِئَةً غَيْظًا وَ كَمَدًا، وَ كُلٌّ مِنْ انْتَصَرِ شَفَىٰ صَدْرَهُ وَ ذَهَبَتْ فَرَحُهُ النَّصْرَ بِغَيْظِهِ.

[١٥] وَ يُذْهِبُ اللَّهُ غَيْظَ قُلُوبِهِمُ الَّذِي تَجْمَعُ فِيهَا مِنْ كَثْرَةِ مَا رَأَوْا مِنَ الْأَضْطِهَادِ وَ الظُّلْمِ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِذَا آمَنُوا مَعَ فِرْطِ تَعْدِيهِمْ وَ عَتَوْهُمْ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمَصْلِحَةِ حَيْثُ يَأْمُرُكُمْ بِقِتَالِ هَؤُلَاءِ، فَلَا يَأْمُرُكُمْ بِإِعْتَابِ حَكِيمٍ فَأَمْرُهُ عَنْ حِكْمَةٍ وَ دَرَايَةٍ.

[١٦] أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا «أم» أداة استفهام و عطف، فقد عطفت هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٧]

ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)

الجملة على قوله: «الآ- تقاتلون» أى: هل ظننتم أيها المسلمون أن تتركوا آمنين فى دياركم من دون أن تكلفوا الجهاد فى سبيل الله سبحانه؟ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ «لَمَّا» حرف نفي مع تقريب وقوع الفعل الذى لم يقع بعد، أى لم يتعلق علم الله سبحانه بالمجاهدين، فإنه لم يصدر منكم جهاد، حتى يكون علم الله واقعا خارجيا، فإن العلم إنما يكون خارجيا، إذا وجد متعلقه، فإذا علم الإنسان أن زيدا سيحجى غدًا، يقال: لَمَّا يَعْلَمِ فلان مجيء زيد، بمعنى أنه لم يقع متعلق علمه وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً «الوليجة» هى البطانة التى يخفى الإنسان لديها أسراره، كأنه يلج فيها بسره، فإن حبّ الشخص لا يمتحن فى أيام الرخاء، و إنما يمتحن فى أيام الشدة و البلاء، فالصديق لا يتخذ غير صديقه وليجه، بخلاف ضعيف الصداقة. ولذا نرى أن كثيرا من المسلمين اتخذوا الولائج، و بدت ضمائرهم السيئة عند الجهاد و الله خبير أى عليم بما تعملون أيها المسلمون. و الحاصل أنه لا بد من امتحانكم أيها المسلمون بالجهاد ليتبين المجاهد منكم من غيره، و يتبين الذى يخلص فى النية لله و الرسول، من غيره.

[١٧]

روى أن المسلمين عثروا أسرى بدر، و وبيخ على عليه السلام العباس بن عبد المطلب بقتال رسول الله و قطيعة الرحم. فقال العباس: تذكرون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٥

[سورة التوبة (٩): آية ١٨]

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

مساوتنا و تكتمون محاسننا. فقالوا: أولكم محاسن؟ قالوا: نعم، إنا نعلم المسجد الحرام، و نحجب الكعبة، و نسقى الحجيج، و نفك العانى «١». فنزلت هذه الآيات

: ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ سِوَاءِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَوْ غَيْرِهِ هَلْ كُنْتُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أَمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨)

بكفر أنفسهم، فكيف يجتمع الإذعان لله و الكفر بآياته، إنك إن أهنت شخصا و عمّرت داره كان تعمير داره سيئة لا حسنة، فكيف يمكن الافتخار بأنه من المحاسن؟

و معنى «ما كان»: أنه ليس لهم ذلك. و لعل وجه الارتباط أنه لَمَّا نهى المشركون عن زيارة البيت بين سبحانه السبب، بأن الشرك و عمارة المسجد- ماديا و معنويا- لا يجتمعان.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ أَمْ كُنْتُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أَمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨)

الإخلاص و فى النار هُم خَالِدُونَ أبد الأبدين، بمعنى أنهم لو ماتوا كافرين لم تنفعهم الحسنه فى نجاتهم من النار.

[١٨] إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ بِنَاءِهَا و إقامة العبادة فيها مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بَأَقْرَبِ الْوَحْدَانِيَّةِ و اعترف بيوم القيامة، إنه هو الذى

(١) بحار الأنوار: ج ٤١ ص ٦٣.

[سورة التوبة (٩): آية ١٩]

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَشْرِكُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)

يجوز له تعمير المسجد، وهو الذي يقبل منه و أقام الصلاة بمعنى الترم بشرائع الإسلام، فإن الاعتراف اللفظي بدون الخضوع و الانصياع لأوامر الإسلام لا يعد إلا لقلقه لسان و أتى الزكاة بالنسبة إلى من وجدها و لم يخش إلا الله أي خشية من نوع الخشية التوحيدية، فإن المشرك يخشى من إلهين، و المؤمن يخشى من إله واحد. و ليس النفي مطلقا كما هو واضح، قال سبحانه بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تخشى الناس «١»، فعسى أولئك أي لعل الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و التزموا بشرائطه أن يكونوا من المهتدين أي في زميرتهم، و إنما قال «فعسى» لأن المرء لا يعرف مستقبله، فربما كان مؤمنا عاملا، ثم ينقلب كافرا، فلا يكون من المهتدين - بما للكلمة من معنى -.

[١٩] أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ «السقاية» مصدر سقى الماء، و «الحاج» بمعنى القاصد إلى مكة، بعد ما كان في اللغة بمعنى مطلق القصد و عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ تعمييرا بالبناء، أو بالعبادة، و الأول هنا أقرب كَمَنْ آمَنَ الاستفهام إنكارى، و في الكلام حذف تقديره «أهل سقاية» أي ليس الساقى العامر للمسجد الحرام كالمؤمن بالله و اليوم الآخر و ذلك لأن الإيمان هو أصل الفضائل، أما السقاية و العماره

(١) الأحزاب: ٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٧

فهما أمران شكليان، إذا لم تنضم إليهما روح الإيمان لن ينفعا شيئا و جاهد في سبيل الله لإعلاء كلمته سبحانه لا يشركون عند الله أولئك و هؤلاء و الله لا يهدي القوم الظالمين فإن من ظلم نفسه بالكفر لا يكون مهديا، فلا يكون عمله عن اهتداء حتى يترتب عليه فضل.

روى أن العباس و شيبه أنهما تفاخرا، فمر بهما أمير المؤمنين على عليه السلام فقال: بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد، سقاية الحاج. و قال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام. فقال على عليه السلام: استحييت لكما، فقد أوتيت على صغرى ما لم تؤتيا. فقالا: و ما أوتيت يا على؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله و رسوله، فقام العباس مغضبا يجر ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قال: أما ترى إلى ما يستقبلني به على؟ فقال:

ادعوا لى عليا فدعى له، فقال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم: ما حملك على ما استقبلت به عمك فقال: يا رسول الله صدمته بالحق فمن شاء فليغضب و من شاء فليرض. فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام و يقول: اتل عليهم «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ..».

فقال العباس: إنا قد رضينا «ثلاث مرات» «١».

و قد كانت سقاية الحاج عبارة عن تهيئه دلاء و أواني قبل الموسم فتملا ماء من بئر زمزم، فإذا جاء الحجاج سقوا منها، حيث أن البئر

(١) بحار الأنوار: ج ٣٦ ص ٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٨

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أولئك هم الفائزون (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) كانت لا تتحمل اجتماع خلق كثير عليها.

[٢٠] الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَهَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَجْلِ الْإِسْلَامِ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْ تَحْمِلُوا الْمَشَاقِقَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَبَدَلُوا الْمَالَ وَالنَّفْسَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَإِنْ سَقُوا الْحَجِيجَ وَعَمَرُوا الْمَسْجِدَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ الظَّافِرُونَ الْمَفْلِحُونَ.

[٢١] يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ أَى مِنْ عِنْدِهِ. وَالْإِيْتَانِ بِكَلِمَةِ «مِنْهُ» لِتَعْظِيمِ قَدْرِ الْبَشَارَةِ وَرِضْوَانِ أَى رِضَاهِ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ، وَهُوَ أَعْظَمُ بَشَارَةٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْمَلِكَ - مِثْلًا - رَاضٍ عَنْهُ كَانَ مَرْتاحَ الضَّمِيرِ مَسْرورَ الْخَاطِرِ، أَمَا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ غَاضِبٌ عَلَيْهِ كَانَ بِالْعَكْسِ، وَإِنْ أَغْدَقَ عَلَيْهِ فِي الْعَطَاءِ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ نَعِيمٌ مُّقِيمٌ دَائِمٌ لَا يَزُولُ وَلَا يَتَحَوَّلُ.

[٢٢] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا فَالْجَنَاتِ وَالنَّعِيمِ كِلَاهِمَا خَالِدَانِ إِلَى مَا لَا نِهَائِيَّةَ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَلْيَرْغَبِ الرَّاعِبُونَ فِيهِ.

[٢٣] وَحَيْثُ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَجُوبَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهَجْرَةَ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ لِأَجْلِهِ، يَبَيِّنُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَقْرَبِ الْعَلَاقَاتِ إِلَى نَفْسِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٧٩

[سورة التوبة (٩): آية ٢٤]

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لِأَجْلِهِ تَعَالَى فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ بِأَنْ تَتَوَلَّوْنَهُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْنَهُمْ فِي مَعَاشِرَتِهِمْ فِي الظَّاهِرِ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: وَصَاحِبَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا «١»، إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ أَى آثَرُوا الْكُفْرَ وَاخْتَارُوهُ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ أَى الْآبَاءَ وَالْإِخْوَانَ مِنْكُمْ فَيَقْدَمُ عَلَيْهِمْ عَلَى وَلَايَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ أَوْجَبُوا لَهَا خِزْيَ الدُّنْيَا وَعَذَابَ الْآخِرَةِ.

وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: إِنَّ الْآيَةَ وَرَدَتْ فِي «حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ» «٢» فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ فَتْحَ مَكَّةَ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِكَيْتَمَانِ الْأَمْرِ حَتَّى يَفَاجِئَ الْمُسْلِمُونَ الْكُفْرًا وَلَا تَرَاقَ الدَّمَاءُ، فَكَتَبَ حَاطِبٌ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ يَخْبِرُهُمْ بِخَبَرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَطْلَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالْخَبَرِ، فَوَبَّخَ حَاطِبًا ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَارْجَعَ الرَّسُولَ الَّذِي كَانَ بِيَدِهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ كَمَا أَرَادَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَدَمِ وَصُولِ الْخَبَرِ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ قَالَ حَاطِبٌ مُعْتَذِرًا أَنْ لَهُ أَهْلًا فِي مَكَّةَ فَخَافَ أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونُ لَهُ يَدٌ عَلَى الْكُفْرَانِ، وَيَسْلَمُ أَهْلُهُ مِنْ عِقَابِهِمْ وَعَذَابِهِمْ.

[٢٤] ثُمَّ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ مِيزَانَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَنْ يَرْجَحَ

(١) لقمان: ١٦.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٠

الْمُؤْمِنِ كَفَّةَ الْإِيمَانِ عَلَى جَمِيعِ الشُّوُونَ وَالْإِعْتِبَارَاتِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَاللَّفْظَانِ يَشْمَلَانِ الْأَجْدَادَ وَالْأَحْفَادَ وَإِخْوَانَكُمْ الْأَعْمَ مِنَ الْأَخْوَاتِ وَأَزْوَاجَكُمْ اللَّاتِي عَقَدْتُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَشِيرَتُكُمْ أَقْرَابَكُمْ غَيْرَ مِنْ ذِكْرِهِمْ، كَالْأَعْمَامِ وَالْأَحْوَالِ وَمِنْ أَشْبَهَيْهِمَا وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا جَمَعْتُمُوهَا وَكَسَبْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا تَخْشَوْنَ أَنْ تَكْسُدَ وَلَا تَدَارَ، إِنْ اسْتَغْلَمْتُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ

سبحانه و مَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا بِأَنْ تَحْبُونَ الْمَقَامَ فِيهَا، سواء كانت بلادا أو بيوتا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ و أقرب إلى نفوسكم مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ مِنْ طاعته و طاعة رَسُولِهِ وَ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ أَى سَبِيلِ اللَّهِ، فإذا دار الأمر بين ترجيح رضاه سبحانه أو رضا رسوله و بين ذلك المحبوب لديكم من مال و قرابه قدمتموه عليها فَتَرَبَّصُوا انتظروا. و هذا تهديد، أَى انتظروا العقاب فإنكم لستم من الله فى شىء. و كيف يدعى الإنسان الإيمان و هو يقدم تلك الأمور على أمر الله تعالى حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ فَإِنَّكُمْ لا خير فيكم، و إنما يأتى بأمر الله غيركم، كما يقال: «إن كنت لا تفعل هذا فانتظر حتى يأتى غيرك ليفعله»، فإن الله سبحانه غنى عنكم فهو القادر على أن ينفذ أوامره بواسطة أناس غيركم وَ اللَّهُ لا يَهْدِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨١

[سورة التوبة (٩): آية ٢٥]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْمُذَبِّرِينَ (٢٥)

القَوْمَ الْفَاسِقِينَ فإن من خرج عن طاعة الله بالفسق، بعد العلم و العرفان، يطبع على قلبه فلا يلفظ به سبحانه أطفاه الخاصة.

[٢٥] ثم بين سبحانه مصداقا من مصاديق إتيان الله بأمره، بعد ما اختار المسلمون الحياة، و فرّوا من الله و الرسول، فى وقعة «حنين» التى كانت قريبة إلى مشاعرهم و أفكارهم عند نزول هذه السورة. و قصة هذه الغزوة باختصار:

أن الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم لما فتح مكة خاف الكفار الذين كانوا مبثوثين فى الجزيرة أن يأتى الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم على آخرهم فاجتمع هناك جموع كثيرة من هوازن و غيرها ربما بلغ عددهم ثلاثين ألفا، و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و مروا حتى بلغوا «أوطاس» يريدون قتال الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم فبلغه صَلَّى الله عليه و آله و سلم خبر اجتماعهم هناك، فجمع القبائل و رغبهم فى الجهاد و وعدهم النصر و أن الله وعده أن يغنمهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم، فرغب الناس و خرجوا كل قبيلة و فئة تحت رايه، و عقد اللواء الأكبر للإمام أمير المؤمنين عليه السلام و خرج صَلَّى الله عليه و آله و سلم فى اثنى عشر ألف رجل.

فلما صَلَّى الغداة انحدر فى وادى حنين و الجو لا زال مظلما، و قد كانت هوازن قد سبقوا المسلمين من الليل و كمنوا فى أطراف الجبال، و حنين واد كثير الانحدار، فلما انحدر جيش الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم فى الوادى، و قد كان أول من انحدر بنو سليم معهم خالد بن الوليد، و كانوا غافلين عن اختفاء هوازن، و إذا بهم يرشقون بالسهام كقطر المطر من كل جانب دون أن يروا أحدا و ظهرت كتائب هوازن من كل ناحية، فانهزم بنو سليم، و كسرت بانكسارهم سائر جيوش الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم و فروا سعدا فى الجبال و الوديان، و بقى الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم و أمير المؤمنين و جماعة يعدون بالأصابع من أولاد العباس و غيرهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٢

و أخذ الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم ينادى: يا معشر الأنصار إلتى و أنا رسول الله. و قد التفت كتائب هوازن به يريدون قتله و الإمام يضرب بالسيف يمنة و يسرة، فلم يبق من المسلمين أحد فقال صَلَّى الله عليه و آله و سلم للعباس: اصعد هذا الطرب و ناد: «يا أصحاب سورة البقرة» و «يا أصحاب بيعة الشجرة» إلى أين تفرون هذا رسول الله؟ و قد كان العباس رفيع الصوت، ثم رفع يده فقال صَلَّى الله عليه و آله و سلم: اللهم لك الحمد، و إليك المشتكى، و أنت المستعان، فنزل جبرائيل فقال: دعوت بما دعا به موسى حيث فلق الله له البحر و نجاه من فرعون، ثم أخذ كفا من حصى فرماه فى وجوه المشركين قائلا: «شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه إلى السماء و قال: اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد»، فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا و كسروا جفون سيوفهم و هم يقولون: لبيك، و مروا برسول الله و استحيوا أن يرجعوا إليه. فالتحقوا بالراية و نزل النصر من السماء و انهزمت هوازن و

كانوا يسمعون قعقعه السلاح في الجوّ، و لما فر الكفار غنم المسلمون غنائم كثيرة من أموالهم و نساءهم و ذراريهم، و قسمها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ «١».

أقول: المراد ب «أصحاب سورة البقرة» إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة:
أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى «٢»، الذين طلبوا

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ١٤٩.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٣

جهاد الكفار ثم فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا «١» يعنى: أنكم أيها المسلمون صرتم كأولئك، و المراد ب «أصحاب بيعة الشجرة» أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ حين صلح الحديبية اتكأ على شجرة و بايع المسلمين من جديد، ليمثلوا أوامره، كأنه ما كانت كما قال سبحانه: إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ «٢».

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُ لَوْ لَا نَصْرَ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَصْرٌ حَسَبِ الظَّاهِرِ بَعْدَ فِرَارِهِمْ وَ انْهَزَامِهِمْ إِذْ أَعْجَبْتُمْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّفِقْ لَجِيشِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا اثْنَى عَشَرَ أَلْفًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَ قَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ:

لن نغلب اليوم من قله، لما رأوا من كثرتهم المدهشة في الجيش فلم تغن الكثرة عنكم شيئاً أى لم تفدكم الكثرة و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت أى برحبها وسعتها، و «الباء» بمعنى مع، أى مع كونها وسيعه فسيحه ضاقت عليكم، فإن الإنسان إذا خاف، يرى في نفسه ضيق الأرض، بالإضافة إلى أنهم لم يجدوا موضعاً للفرار، لاحتمال وجود العدو في كل مكان ثم وليتكم مدبرين أى انهزمت من عدوكم، و أعطيتهم أديباركم للعدو، و قد كان الخطأ من المسلمين

(١) البقرة: ٢٤٧.

(٢) الفتح: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٤

[سورة التوبة (٩): آية ٢٦]

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)

أنهم لم يشبوا أول الأمر، فإن الثبات أول الأمر خليف بأن يكشف النازلة، كما أنهم أخطئوا حين اغتروا بكثرتهم، فإن الإنسان إذا رأى كثرة من معه تقوى فيه روح الاتكالية، و ذلك خليف بانهزامة. ثم إن مقدمة الجيش لم تتخذ احتياطاتها اللازمة، فإن دخول مثل هذا الموضوع مما يحيط به الجبال يحتاج إلى إرسال بعض القوات الاستطلاعية.

[٢٦] ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ أى السكون النفسى الذى يزول الخوف معه، فإن أقوى أسباب الهزيمة فى كل ميدان، تزلزل النفس و عدم اطمئنانها بالنصر، أما إذا قويت النفس على تحمّل المكروه كان الإنسان خليفاً بالنصر و عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الذين بقوا معه و لم ينهزموا.

فقد بقى مع الرسول تسعة من بنى هاشم أولهم أمير المؤمنين عليه السلام كما بقى ابن أم أيمن و قد قتل فى ذلك اليوم، أو المراد المؤمنين حين رجوعهم إلى الرسول، فإن الجيش الذى يفر إذا فكر فى العاقبة تقوى نفسه بإذن الله سبحانه و أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا فقد أنزل الله سبحانه أفواجا من الملائكة لنصرة المؤمنين. و هذا ليس بغريب، فقد وعد سبحانه بنصرة الملائكة لكل من استقام فكيف

بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ سُبْحَانَهُ: الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ «١».

وقد ورد: أن رجلا من المشركين قال للمؤمنين، وهو أسير في أيديهم: أين الخيل البلق و الرجال عليهم الثياب البيض، فإنما كان قتلنا

(١) فصلت: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٧ إلى ٢٨]

ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

بأيديهم و ما كنا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة. قالوا: تلك الملائكة و عذب الله الذين كفروا بالقتل و الأسر و ذلك العذاب جزاء الكافرين الذين يكفرون بالله و آياته.

[٢٧] ثم بعد تمام الأمر يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا أَسْلَمُوا، وَ ذَكَرَ «عَلَى مَنْ يَشَاءُ» لِإِفَادَةِ أَنَّ التَّوْبَةَ لَيْسَتْ وَاجِبَةً، أَوْ الْمَرَادُ: مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُنْهَزِمِينَ، فَإِنَّ الْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ كَبِيرَةٌ مُوَبَّقَةٌ، وَ قَدْ شَاءَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُتُوبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْمُنَافِقِينَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ يَسْتُرُ الذُّنُوبَ رَحِيمٌ يَتَفَضَّلُ بِالرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ.

[٢٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فِي الشَّرِيعَةِ هِيَ الْقَذَارَةُ الَّتِي تَوْجِبُ الْغَسْلَ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَبْشُرُهُ بِرُطُوبَةٍ، وَ هَذِهِ النَّجَاسَةُ قَدْ تَكُونُ لِأَضْرَارٍ خَارِجِيَةٍ كَالْبَوْلِ وَ الْغَائِطِ، وَ قَدْ تَكُونُ لِأَضْرَارٍ مَعْنَوِيَّةٍ كَالْكَافِرِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ نَظِيفَ الْجِسْمِ إِلَّا أَنْ مَعْتَقِدَهُ الْبَاطِلَ أَوْجِبَ الْحُكْمَ بِنَجَاسَتِهِ. وَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَقَايَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ يَتَلَوَّثُوا بِعَقِيدَتِهِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا عَرَفُوهُ نَجَسًا حَتَّى أَنْهُ يَجِبُ الْاجْتِنَابَ عَنْهُ فِي الْمَأْكَلِ وَ الْمَلْبَسِ وَ أَنَّهُ مَهْمَا بَاشَرَ شَيْئًا بِرُطُوبَةٍ تَنَجَّسَ فُورًا مِنْهُ، اجْتَنَبُوا عَنْهُ، فَلَا يَتَعَدَّى إِلَيْهِمْ مَا انطوى عَلَيْهِ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْبَاطِلَةِ، وَ هُوَ - بِدَوْرِهِ - إِذْ يَعْرِفُ أَنَّهُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ نَجَسٌ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ السَّبَبِ وَ يَرِيدُ إِزَالَةَ هَذِهِ الْوَصْمَةِ، وَلَدَى تَحْقِيقِ ذَلِكَ تَظْهَرُ لَهُ خِرَافَةٌ مَعْتَقِدُهُ مِمَّا يَدْعُوهُ أَنْ يَتْرُكَهَا وَ يَعْتَقِدُ بِالْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٦

و هناك بعض المتفلسفين يقولون: كيف يحكم بنجاسة إنسان، و لزوم الاجتناب عنه، لمجرد انحراف عقيدته، و هذا مناف لحريته الآراء؟

و الجواب: إنه كيف يحكم بالاجتناب عن إنسان لمجرد أنه مصاب بالجذام و نحوه، لمجرد انحراف مزاج، و هذا مناف لكرامة الإنسان، فإذا كان الخوف على الجسم يبيح الاجتناب فالخوف على الروح أولى بالإباحة.

فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَ الْمَرَادُ: عَدَمُ دُخُولِهِ، وَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ مِنْ بَابِ الْمُرُودِ،

فَإِنْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِحُكْمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ ينادى: «لَا يَحِجُّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ» «١».

وَ إِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ دَخَلَ وَفَدَّ نَجْرَانَ مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟

نقول: إنه قبل نزول هذا الحكم، فإن الأحكام نزلت تدريجاً، أما القول بأن النصارى ليسوا بمشركين. فهو خلاف قوله تعالى: سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٢»، و قوله: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ «٣»، و قوله: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّيَّي إِلَهَيْنِ «٤».

بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا فِي السَّنِينَ الْمُقْبِلَةِ وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً أَى فَقْرًا، فَقَدْ كَانَ الْمَنْعُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ يَضُرُّ بِاِقْتِصَادِ أَهْلِ مَكَّةَ حَيْثُ أَنْ كَثِيرًا مِنْ وَارِدَاتِهِمْ كَانَتْ مِنَ الْحِجَاجِ الْمُشْرِكِينَ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) المائدة: ٧٤.

(٤) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٧

[سورة التوبة (٩): آية ٢٩]

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

مَنْ فَضَّلَهُ وَقَدْ وَفَى سَبْحَانَهُ بِمَا وَعَدَ، فَقَدْ أَسْلَمَ أَهْلَ الْيَمَنِ وَحَمَلُوا إِلَيْهِمُ الْمِيرَةَ وَالطَّعَامَ عَوَضَ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا أَسْلَمَ أَهْلَ الْآفَاقِ وَحَجَّوْا وَأَغْنَوْا أَهْلَ مَكَّةَ أَكْثَرَ مِنْ إِغْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ. أَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ فَإِنَّ آبَارَ الذَّهَبِ الْأَسْوَدِ قَدْ أُوصِلَتْ مَسْتَوَاهِمُ الْاِقْتِصَادِ إِلَى عُلُوِّ مَدْهَشٍ إِنْ شَاءَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْأُمُورَ بِيَدِهِ سَبْحَانَهُ، وَلسَوْقَهُمْ إِلَى رَجَائِهِ وَالسُّؤَالَ مِنْهُ وَالخُضُوعَ وَالضَّرَاعَةَ إِلَيْهِ. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالصَّالِحِ، فَإِنْ مَنَعَهُ عَنْ حِجِّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ عِلْمِ حَكِيمٍ يَضَعُ الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا وَيَأْمُرُ بِهَا حَسَبَ الْمَصَالِحِ الْكَامِنَةِ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ تِلْكَ الْمَصَالِحَ فُورًا.

[٢٩] قَاتِلُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا، وَإِنْ آمَنُوا بِهِ إِيْمَانًا شَرَكًا وَنَحْوَهُ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِيْمَانًا صَحِيحًا، وَإِنْ آمَنُوا بِهِ إِيْمَانًا مُنْحَرَفًا، كَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ قَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً «١»، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْمُرَادُ بِالرَّسُولِ: إِمَّا الْأَعْمَى، فَإِنَّهُمْ لَا يُحَرِّمُونَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي أَتَى بِهَا مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَوِ الْأَخْصَ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ أَيْ لَا يَتَّخِذُونَهُ دِينًا، وَالْمُرَادُ بِهِ الْإِسْلَامَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) البقرة: ٨١

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٨

[سورة التوبة (٩): آية ٣٠]

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزَائِرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)

وصف ل «الذين لا يؤمنون» حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ هِيَ «فعلته» من «جزى يجرى» مثل «العقدة» و «الجلسة»، وهى عطية مخصوصة، كأنها جزاء لهم على بقائهم على الكفر، أو جزاء للمسلمين عوض حمايتهم لهم، فإن الذمى فى بلاد الإسلام يكون محترم المال و النفس موقر الحرمة و الكرامة عَنْ يَدٍ أَيْ يَسْلُمُونَهَا بِأَيْدِيهِمْ، كَمَا يَقَالُ: «كلمته وجهها بوجه» وَهُمْ صَاغِرُونَ أَيْ أذْلاء من «الصغار».

إن أهل الكتاب حيث انحرفت عقيدتهم حتى جعلوا الخرافة فى معتقدتهم، و حيث حرفوا كتبهم حتى نسبوا الزنا و الكفر و شرب الخمر و القسوة و شبهها إلى أنبيائهم، و حيث هدموا نظم الله سبحانه ليضعوا مكانها أنظمتهم مخترعة، استحق الإسلام أن يشعرهم بشيء من الذلة لتركوا الباطل إلى الحق، فإن الإنسان لا يرضى أن يبقى ذليلاً لكنه احترامهم حيث أقر بهم و سمح لهم بالبقاء تحت ظله، باحترام اسم الكتاب، و هذا الإذلال لا ينافى الحرية فى شيء، أ رأيت من ينحرف فى سلوكه أو أخلاقه هل يستحق ما يستحقه المستقيم؟ و ليس الميزان فى تقييم الإنسان الذى يراعى جهتى المادة و الروح واقعا، هو النظر إلى صورته البشرية، بل الصورة و السيرة، فمن انحرفت سيرته لم تنفعه صورته.

فهرب بعض المفسرين و من إليهم عن الحكم على طبق هذه الآية أو ما أشبهها خروج عن الواقع الإسلامى، كما هو خروج عن الموازين البشرية الرفيعة التى تجعل للروح قسطا فى تقييم الإنسان كما أن للبدن قسطا.

[٣٠] ثم بين سبحانه طرفاً من أقوال أهل الكتاب وافتراءاتهم على الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٨٩

سبحانه وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَبِهَذَا الانحراف خرجوا عن زمرة الموحدين، فإن الله لا يمكن أن يكون له ولد إذ ليس جسماً يلد، كما وصف تعالى نفسه بقوله:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ «١» ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ إِنْ أَلْسِنَتُهُمْ اخترعت هذا القول بلا استناد إلى كتاب منزل أو دليل مبين. و«أفواه» جمع «فوه»، بمعنى:

الغم يُضَاهُونَ أى يشبه قول هؤلاء اليهود والنصارى، فى هذه المقالة قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ يجعلون الله شريكاً، فإن كلا القولين تشبيه لا يليق بجلال الله سبحانه، فإن من له شريك إنما هو كمن له ولد فى أنه مخلوق ليس بآله، وإنما كان التشبيه شركاً لأن التشبيه يشارك شبيهه فى أمر جامع ويفترق عنه فى أمور مميزة، وبذلك يكون مركباً، والمركب ليس بآله من قبل وهذا توبيخ لهم، فإن الأنبياء يأتون لقلع جذور الكفر فإذا ارتدت الأمة إلى مقالة الكفار الذين جاء الأنبياء لمحقهم، كانت معرضة عن الأنبياء، وتبين أن كلام الأنبياء لم يؤثر فيهم قَاتَلَهُمُ اللَّهُ دَعَاءَ عَلَيْهِمُ بِالْهَلَاكِ، فإن المفسد يدعى عليه بالموت ليستريح الناس من شره أُنِّي يُؤْفَكُونَ أى كيف يصرفون عن

(١) سورة الإخلاص: ٢-٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٠

[سورة التوبة (٩): آية ٣١]

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

الحق إلى الإفك الذى هو الكذب.

[٣١] ثم بين سبحانه سبباً آخر لكفرهم، أنهم أعطوا حق التشريع أى التحليل والتحرير إلى علمائهم، مع العلم أن هذا الحق خاص بالله سبحانه وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ «١»، اتَّخَذُوا أى اتخذ اليهود والنصارى أَحْبَارَهُمْ جمع «حبر» وهو العالم وَرُهْبَانَهُمْ جمع «راهب» وهو العابد أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ أى مع الله، فإن أخذ الغير يعبر عنه «من دون» وإن كان مع الأصل.

قال عدى بن حاتم: أتيت رسول الله و فى عنقى صليب من ذهب، فقال لى: يا عدى اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا .. حتى فرغ منها. فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. فقال:

أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟

قال فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم «٢».

أقول الشرك على أربعة أقسام: الشرك فى ذات الله، والشرك فى صفاته، والشرك فى أفعاله، والشرك فى أمره ونهيه. فمن قال: إن له شريكاً، أو أن صفاته لغيره، أو أن قسماً من الخلق لسواه، أو أنه يحق الأمر والنهى لغيره، فهو مشرك.

وَ اتَّخَذُوا الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ رِبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا أُمِرُوا

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

إِلَّا لِيُجِبُّدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ كَانَ أَنْبِيَائُهُمْ يَأْمُرُونَهُمْ بِذَلِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَي لَيْسَ فِي الْكُونِ إِلَهٌ غَيْرُهُ سُبْحَانَهُ أَي أَنْزَهَهُ تَنْزِيهَا عَمَّا يُشْرِكُونَ أَي عَنْ شُرَكَاهُمْ، وَجَعَلَهُمْ اللَّهُ شُرِكَا.

[٣٢] وَمِنْ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَوْ أَحْكَامَهُ. وَاسْمُ نُورًا لِأَنَّهُ كَمَا يَهْتَدَى بِالنُّورِ فِي الظُّلُمَاتِ، كَذَلِكَ يَهْتَدَى بِالْقُرْآنِ فِي دُرُوبِ الْحَيَاةِ الْمَظْلَمَةِ، فَإِنَّ النُّورَ الظَّاهِرَ لِنَفْسِهِ الْمَظْهُرَ لِغَيْرِهِ، كَذَلِكَ أَحْكَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَكِتَابُهُ الْحَكِيمُ، وَمَعْنَى إِرَادَتِهِمْ إِطْفَاءَهُ، أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْطَفِئَ فَلَا يَضِيءَ الْعَالَمُ بِهِ بِأَفْوَهِهِمْ فَكَمَا يَطْفَأُ النُّورَ بِالْفَمِّ بِسَبَبِ النَّفْخِ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِبْطَالَ كِتَابِ اللَّهِ بِمَا يَقُولُونَ عَلَيْهِ وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ أَي يَمْنَعُ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَظْهَرَ أَمْرُهُ، وَذَلِكَ بِإِظْهَارِ الْكِتَابِ وَالْإِسْلَامِ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ أَي حَتَّى مَعَ كَرِهِهِمْ وَعَدَمِ إِرَادَتِهِمْ.

[٣٣] وَكَيْفَ يَتِمَّكَنْ هَؤُلَاءِ مِنْ إِطْفَاءِ نُورِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ وَالحَالِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ أَي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْهُدَى أَي مَعَ الْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ حَامِلَ مِشْعَلِ الْهُدَى وَبِ دِينِ الْحَقِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٢

[سورة التوبة (٩): آية ٣٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)

الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فَيَكُونُ هُوَ الدِّينَ الْوَحِيدَ الَّذِي لَهُ الْغَلْبَةُ وَالْحِجَّةُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ.

و

فِي الْأَحَادِيثِ: إِنَّ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ خُرُوجِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا بَعْدَ أَنْ تَمَلَأَ ظُلْمًا وَجُورًا «١».

وَيَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَحْدَهُ دِينَ الْعَالَمِ لَا دِينَ سِوَاهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ بَأَنَّ كَرِهُوا إِعْلَاءَ هَذَا الدِّينِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ.

[٣٤] ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ الْآخَرَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ الْكَلَامَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَصَدِّقُونَ بِذَلِكَ، أَمَا سَائِرُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ الْخَبَرَ، وَإِنْ عَلِمُوا بِهِ بَاطِنًا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَهُمْ عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالرُّهْبَانِ وَهُمْ عِبَادُهُمْ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ الْمُرَادُ بِ«الْأَكْلِ» التَّصَرُّفُ، فَإِنَّ مَعْظَمَ التَّصَرُّفِ لَمَّا كَانَ بِالْأَكْلِ غَلَبَ عَلَى سَائِرِ التَّصَرُّفَاتِ بِعِلَاقَةِ الْجُزْءِ وَالْكَلِّ، وَالْمُرَادُ بِ«الْبَاطِلِ» بِالرِّشْوَةِ وَنَحْوِهَا مِمَّا لَا يَحِقُّ لَهُمْ أَكْلُ الْأَمْوَالِ بِتِلْكَ الصُّورِ وَيَصُدُّونَ أَي يَمْنَعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَا يَتْرَكُونَ النَّاسَ أَنْ يَسْلَمُوا وَيُؤْمِنُوا بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَخْبَارَ وَالرُّهْبَانَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ فَيَحْذَرُ الْمُسْلِمُونَ

(١) بحار الأنوار: ج ٥١ ص ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٣

[سورة التوبة (٩): آية ٣٥]

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٥)

أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ فَيَجَازُوا بِجَزَائِهِمْ وَذَلِكَ فَإِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ أَي يَجْمَعُونَهَا وَلَا يُؤَدُّونَ حَقَّوَقَهُمَا- لَا الْكَنْزَ الْمِصْطَلَحَ-

وَلَا يُنْفِقُونَهَا أَي الْكَنُوزِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَ مِنْ إِعْطَاءِ الزَّكَاةِ وَالْخُمْسِ فَبَشَّرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَي مَوْلَمٍ مَوْجِعٍ، وَ أَتَى بِالْبَشَارَةِ مَكَانَ الْإِنذَارِ اسْتِهْزَاءً مِنْ اسْتِعْمَالِ الضَّدِّ فِي ضَدِّهِ.

[٣٥] فِي يَوْمٍ أَي ذَلِكَ الْعَذَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي يَوْمٍ يُحْمَى عَلَيْهَا أَي يُوقَدُ عَلَى تِلْكَ الْكَنُوزِ، فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا أُرِيدَ انْصَهَارُهُ إِذَا يُوقَدُ تَحْتَهُ أَوْ يُوقَدُ فَوْقَهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَهِيَ فِي النَّارِ وَ تَوَقَّدَ عَلَيْهَا النَّارُ، حَيْثُ تَنْصَهَرُ تَمَامًا فَتُكْوَى بِهَا أَي بِتِلْكَ الْكَنُوزِ الْمَحْمَاةِ جِبَاهُهُمْ جَمْعُ «جِبْهَةٌ» وَ جُنُوبُهُمْ جَمْعُ «جَنْبٌ» وَ ظُهُورُهُمْ جَمْعُ «ظَهْرٌ»، وَ إِنَّمَا خَصِّصَتْ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ لِأَنَّ الْجِبْهَةَ مَحَلُّ الْوَسْمِ، وَ الْجَنْبَ مَحَلُّ الْأَلَمِ، وَ الظَّهْرَ مَحَلُّ الْحُدُودِ. وَ قِيلَ: لِأَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ إِذَا رَأَى الْفَقِيرَ قَبِضَ جِبْهَتَهُ وَ طَوَى عَنْهُ كَشْحَهُ - أَي جَنْبَهُ - وَ وَلَّاهُ ظَهْرَهُ. وَ يُقَالُ لَهُمْ فِي حَالِ الْكِبَى تَعْنِيفًا وَ تَوَيْخًا: هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا جَزَاؤُهُ، حَيْثُ لَمْ تَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ أَي ذُوقُوا عِقَابَهُ وَ وَبَالَهُ وَ عَاقِبَتَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٤

[سورة التوبة (٩): آية ٣٦]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

[٣٦] وَ لَمَّا أَوْجِبَ سَبْحَانَهُ قِتَالَ الْكُفَّارِ وَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ انْحَرَفُوا، بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ الَّتِي هِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَ ذُو الْحِجَّةِ، وَ مُحْرَمٌ، وَ رَجَبٌ. فَقَدْ قَرَّرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ السَّلَامَ فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ لِيَسْتَرِيحَ النَّاسُ فِيهَا وَ لِيَكُونُوا فِي أَمْنٍ، كَمَا قَرَّرَ السَّلَامَ فِي الْحَرَمِ لِيَكُونَ مَكَانًا لِلْسَّلَامِ، وَ قَدْ قَدَّمَ عَلَى ذَلِكَ مَقْدَمَهُ هِيَ عِدَّةُ الشُّهُورِ، وَ أَنَّهَا مَرْتَبَةٌ بِدَوْرَةِ الْفَلَكَ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ حَسَبَ أَمْرِهِ وَ تَقْدِيرِهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مُحْرَمٌ، وَ صَفْرٌ، وَ رَبِيعُ الْأَوَّلِ، وَ رَبِيعُ الثَّانِي، وَ جَمَادَى الْأُولَى، وَ جَمَادَى الْآخِرَةَ، وَ رَجَبٌ، وَ شَعْبَانٌ، وَ رَمَضَانٌ، وَ شَوَالٌ، وَ ذُو الْقَعْدَةِ، وَ ذُو الْحِجَّةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَي مَا كَتَبَهُ وَ قَرَّرَهُ، وَ ذَلِكَ طَبَقَ نَامُوسَ خَلْقِ الْكَوْنِ حَيْثُ دَوْرَةُ الْفَلَكَ وَ سَيْرُ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ، وَ قَدْ كَانَتْ الْكِتَابَةُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ أُجْرِيَ التَّيْرِينَ الْمَعْدَلِينَ لِلشُّهُورِ وَ السَّنَوَاتِ. وَ الظَّاهِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ، الْأَشْهُرِ الْقَمَرِيَّةِ، لِأَنَّهَا الْمَتَبَادِرُ لَدَى الشَّرْعِ وَ الْمَتَشْرَعَةِ.

مِنْهَا أَي مِنْ تِلْكَ الْأَشْهُرِ أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ سَمِيَ الشَّهْرَ حَرَامًا، لِحَرَمَةِ الْقَتْلِ وَ الْقِتَالِ فِيهِ، وَ لَمَّا لَهُ مِنَ الْإِحْتِرَامِ، وَ قَدْ كَانَ كَذَلِكَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ أَيْضًا، حَتَّى أَنْ وُلِيَ الدَّمُ لَوْ رَأَى قَاتِلَ أَبِيهِ لَمْ يَهْجُمْ عَلَيْهِ بِسُوءٍ حَتَّى يَنْقُضِيَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ذَلِكَ التَّرْتِيبَ لِلْأَشْهُرِ، وَ الْحَرَمُ مِنْهَا الدِّينُ الْقَيِّمُ أَي الطَّرِيقَةُ الْقَوِيمَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ، لِأَنَّهَا مَطَابِقَةٌ لِنَامُوسِ الْخَلْقِ وَ حَرَكَةُ التَّيْرِينَ، وَ لِأَنَّ السَّلَامَ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَسُودَ فِتْرَةٌ مِنَ الزَّمَنِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٥

[سورة التوبة (٩): آية ٣٧]

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يَحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

حَتَّى تَهْدَأَ النَّفُوسُ، وَ تَزُولَ الْهَمُومُ مِنْهَا، فَإِنَّ فِتْرَةَ الْأَشْهُرِ بغير ذلك فإنها لا تلائم الفطرة و الخلق فلا تظلموا فيهن في تلك الأشهر الحرم أنفسكم بخرق حرمتها، فإن خرق حرمتها يوجب عقابا و نكالا.

وَ قَاتَلُوا أَيِهَا الْمَسْلُومُونَ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ أَقْسَامِهِمْ وَ أَصْنَافِهِمْ، وَ «كَافَّةً» بِمَعْنَى الْإِحْاطَةِ، مَاخُودَةٌ مِنْ «كَافَةُ الشَّيْءِ» وَ هِيَ حَرْفُهُ، وَ إِذَا انْتَهَى الشَّيْءُ إِلَى ذَلِكَ كَفَّ عَنْ الزِّيَادَةِ، وَ أَصْلُ الْكَفِّ: الْمَنْعُ، وَ «كَافَةُ» مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً أَي أَنْ قَاتَلَكُمْ لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي مَقَابِلَةِ قِتَالِهِمْ لَكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ فَلَا تَفْعَلُوا فِي الْحَرْبِ مَا يَنْفِي التَّقْوَى، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَعَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ مَعَاصِيَهُ، وَ يَمْتَثِلُونَ أَمْرَهُ.

[٣٧] لَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حَرَمَةَ أَشْهُرِ الْحَرَمِ الْأَرْبَعَةِ، ذَكَرَ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ الْجَاهِلِيُّونَ حَيْثُ كَانُوا يُؤَخِّرُونَ تَحْرِيمَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَى صَفْرِ حَيْثَمَا

شاءوا ذلك، فيحرمون صفر و يستحلون المحرم، ثم إذا انقضت حاجتهم أرجعوا الحرام إلى المحرم، و كان يقوم بذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، و كان رئيس الموسم، فيقول: أنا الذى لا- أعاب و لا أجاب و لا يردّ لى قضاء. فيقولون: نعم صدقت، أنستنا شهرا أو آخر عنا حرمة المحرم و اجعلها فى صفر، و أحل المحرم. فيفعل ذلك، فإنهم بذلك يريدون القتال فى الحرم، و هذا العمل يسمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٦

«نسيئا» فإن «أنسا» بمعنى آخر، و «النسيء» بمعنى تأخير الشهر الحرام عن وقته.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا كَفَارًا حَسَبَ عَقَائِدِهِمْ حَوْلَ الْإِلَهِ. و اليوم الآخر فتحليل الحرام و تحريم الحلال، زيادة فى الكفر، لأن التشريع لله وحده، فمن شرع فى قبال الله سبحانه فهو كافر و مَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ «١». و من المعلوم أن الكفر و الإيمان قبالان للزيادة و النقصان يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أى يضل بسبب هذا النسيء الكفار، أما غير الكفار فإنهم لا يتبعون إلا شريعة الله سبحانه فلا ضلال لهم بالنسيء، و معنى «يضل»- بالبناء للمفعول- أن النسيء يسبب انحرافهم عن جادة الهدى يُحَلُّونَهُ أى يحلون الشهر الحرام عاماً فى عام فيجعلون المحرم حلالاً- وَيَحَرِّمُونَهُ عاماً فيمشون على الأصل فى تحريم شهر محرم، و ذلك حين يحتاجون إلى القتال فى المحرم يحلونه، و يجعلون صفر بدله حراماً، و حين لا- يحتاجون إلى القتال يكون المحرم على حاله فى التحريم، و إنما يقدمون الحرام و يؤخرونه لِيُؤَاطُوا أى ليوافقوا، يقال: «وإطأ» فى الشعر، إذا قال بيتين على قافية واحدة، و مثله «أوطأ» عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ أى ليكون تعداد الحرام بقدر

(١) المائة: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٧

[سورة التوبة (٩): آية ٣٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)

تعداد الحرام الذى جعله الله، فإنهم لا يحلون الشهر الحرام، إلا و جعلوا مكانه شهرا آخر حراماً، و هذان عصيانان: تحليل الحرام، و تحريم الحلال زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ فقد زين الشيطان فى نظرهم الأعمال السيئة فلازموها و افتخروا بها و الله لا- يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الذين يصرون على الكفر بعد تبين الحق، فإنه سبحانه لا يلفظ بهم لطفه الخاص.

[٣٨] و فى سياق حكم الجهاد مع الأعراب يأتى دور الكلام حول جهاد الروم، فإنه لما رجع رسول الله من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم، و ذلك فى زمان إدراك الثمار فأحبوا المقام فى مساكنهم و قريبا من أموالهم، و شق عليهم الخروج إلى القتال، و كان من عادته صلى الله عليه و آله و سلم أن يخفى الغزوة التى يريدتها غالباً، لئلا يعرف العدو فيتخذ أهبتها منها فيكثر القتلى، و لذا كان إذا أراد الخروج نحو غزوة فى الشمال ذهب مقداراً نحو الجنوب ثم انحنى صوب قصده إلا فى هذه الغزوة حيث كانت الشقة بعيدة و العدو كثير، فإنه صلى الله عليه و آله و سلم أخبر أصحابه بذلك ليتأهبوا و يأخذوا حذرهم، و تسمى هذه الغزوة ب «تبوك» و قد بلغ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن الروم قد جمعوا له أطراف الجزيرة بالشام و أن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنه، و انضمت إليهم لخم و جذم و عامله و غسان من قبائل العرب و قدموا مقدماتهم إلى البقاء. فاستنفر المسلمين لجهادهم، و هنا وجد المنافقون فرصتهم لإظهار نواياهم فأخذوا يخذلون المسلمين، قائلين: «لا تنفروا فى الحر» فقد كان الهواء حاراً،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٨

[سورة التوبة (٩): آية ٣٩]

إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

وقالوا: إن السفر بعيد، فلا طاقة لنا به، والعدو الروم فلا قبل لنا بهم، إلى غير ذلك من الأعداء الواهية.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ أَى نَفْعٍ وَفَائِدَةٍ تَعُودُ إِلَيْكُمْ فِي التَّخَلُّفِ وَالْعَصِيانِ؟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ قَالَ لَكُمْ الرُّسُولُ: انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ائْخِرُوا إِلَىٰ مَجَاهِدَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي «تَبُوكٍ» وَهِيَ مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ائْتَأَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ «ائْتَأَقَل» مِنْ تَأَقَل، مِنْ بَابِ «التَّفَاعُلِ» أَبَدَلْتِ تَأَوُّهُ تَاءً، عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمَشْهُورَةِ فِي تَاءِ «التَّفَاعُلِ» وَ«التَّفْعُلِ» ثُمَّ جِيءَ بِالْهَمْزَةِ لِاسْتِحَالَةِ الْإِبْتِدَاءِ بِالسَّاكِنِ. أَى: مَلْتَمٌ إِلَى الْبَقَاءِ فِي الْأَرْضِ، وَعَدَمُ الْخُرُوجِ، كَأَنَّ الْجِسْمَ قَدْ ثَقَلَ أَزِيدَ مِنْ وَزْنِهِ الْعَادِي فَكَلَّمَا رَفَعَ جَذْبَهُ ثَقَلَهُ نَحْوُ الْأَرْضِ أَرْضٌ يَتَمُّ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ الْاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِي، وَ«مِنْ» بِمَعْنَى الْبَدَلِ، أَى: هَلْ رَضِيْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَآثَرْتُمْ الْحَيَاةَ الْفَانِيَةَ الْقَرِيبَةَ بِدَلِّ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا إِلَّا قَلِيلٌ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَلِيلَةٌ، وَالْآخِرَةُ كَثِيرَةٌ، فَلَا تَرْجَحُوا الْقَلِيلَ عَلَى الْكَثِيرِ، وَإِذَا تَرَكْتُمْ الْجِهَادَ فَاتَّكَمْتُمْ تَلَكُّ الْمَنَافِعِ الدَّائِمَةِ الْخَالِدَةِ.

[٣٩] إِلَّا تَنْفَرُوا أَى: إِنْ لَا تَخْرُجُوا إِلَى الْقِتَالِ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَيْهِ الرُّسُولُ يُعَذِّبْكُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُؤَلِّمًا مُوجِعًا فِي الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ الْكُفَّارِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٣٩٩

[سورة التوبة (٩): آية ٤٠]

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

و فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ وَيَسْتَبْدِلْ بِكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ فَيَأْتِي بِمُسْلِمِينَ آخِرِينَ مَكَانَكُمْ وَبَدَلَكُمْ يَنْصُرُونَ الرُّسُولَ وَيَطِيعُونَ أَمْرَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا لَا تَضُرُّوا اللَّهَ بِعُودِكُمْ عَنِ الْقِتَالِ شَيْئًا، فَإِنَّهُ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَعَنِ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّمَا تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَيَقْدِرُ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ، كَمَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْصُرَ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِدُونِكُمْ، كَمَا نَصَرَهُ مِنْ ذِي قَبْلِ حَيْثُ لَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ أَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُتَخَلِّفُونَ -.

[٤٠] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ إِمْكَانِيَةَ نَصْرِ الرُّسُولِ بِدُونِهِمْ، بِضَرْبِ مِثْلِ قَرِيبٍ، وَهُوَ نَصْرَتُهُ عَلَى الْكُفَّارِ فِي مَكَّةَ حَيْثُ أَرَادُوا قَتْلَهُ فَأَنْجَاهُ مِنْهُمْ وَأَعَزَّهُ، وَأَذْلَهُمْ إِلَّا تَنْصُرُوهُ أَى إِنْ لَمْ تَنْصُرُوا الرُّسُولَ فِي غَزْوِ الرُّومِ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ مِنْ ذِي قَبْلِ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِهِ الْآنَ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ، وَنَسَبَهُ الْإِخْرَاجَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا السَّبَبَ حِينَ أَرَادُوا قَتْلَهُ فَفَرَّ مِنْ أَيْدِيهِمْ ثَانِيًا فَتَبَيَّنَ فَقَدْ كَانَ حِينَ الْفِرَارِ هُوَ أَبُو بَكْرٍ، إِذْ رَأَاهُ فِي الطَّرِيقِ فَأَخَذَهُ كَيْلًا يَخْبِرُ النَّاسَ بِخَبْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيُلْحِقُهُ الطَّلَبَ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْشَى الْأَنْبَاءَ الْهَامَةَ، وَذَكَرَ «ثَانِيًا ثَانِيًا» لِيَبَانَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ بِهَذِهِ الْغَرْبَةِ حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا نَفَرٌ آخِرٌ.

فَاللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى نَصْرِهِ وَهُوَ بِتِلْكَ الْغَرْبَةِ وَالْوَحْدَةِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ الْآنَ. وَ لِيَبَانَ ذَلِكَ جِيءَ بِالْقَائِدِينَ الْآخِرِينَ إِذْ هُمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٤٤٩

الْغَارِ «الْغَار» هُوَ الثَّقْبُ فِي الْجَبَلِ إِذْ يَقُولُ الرُّسُولُ لِصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا مَطَّلِعٌ عَلَيْنَا، فَالْإِنْسَانُ الْفَارُّ الْفَارُّ إِلَى الثَّقْبِ جَبَلٌ لَا أَحَدٌ مَعَهُ إِلَّا شَخْصٌ وَاحِدٌ يَخْشَى وَيَخَافُ وَيَحْزَنُ فَيَزِيدُهُ كَأَبَهُ، كَيْفَ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ، إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ الْآنَ كَمَا نَصَرَهُ سَابِقًا.

وَ قَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُ عَلَى فَضِيلَةِ أَبِي بَكْرٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ، لَكِنْ لَا يَخْفَى مَا فِيهِ، فَإِنَّهَا لَمْ تَدَلْ إِلَّا عَلَى كَوْنِهِ أَحَدَ الشَّخْصِينَ، وَ أَنَّهُ صَاحِبٌ، وَ أَنَّهُ حَزَنٌ، وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُمَا، وَ لَا دَلَالَةَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْاِثْنَيْنِ عَدَدٌ «وَ ثَانِيًا ثَانِيًا» حِكَايَةُ الْعَدَدِ، وَ لَيْسَ فِيمَا يَقْتَضِي الْفَضْلَ يَعْدُ، وَ الصَّاحِبُ يَطْلُقُ عَلَى كُلِّ مَصَاحِبٍ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ «١»، وَ الْحَزَنُ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا وَ إِلَّا لَمْ يَنْهَهُ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا هُوَ وَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا - إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا - خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ «٢»، وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَعَ كُلِّ بَرٍّ وَ فَاجِرٍ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ

رابعهم (٣)، بل ربما قيل: إن الآية دلت على خلاف الفضيلة إذ قال سبحانه: «عليه» و «أيده» بينما قال في مكان آخر على رسوله و على المؤمنين (٤).

إن هذا البحث له موضع غير هذا الموضع، و إنما المقصود الإشارة إلى عدم حسن أن يقحم في القرآن الحكيم ما ليس منه ثم جز الآيات إلى الأنظار و الأفكار جزاً بدون دلالة أو برهان. فقد ورد الدم لمن فسر القرآن برأيه.

(١) الكهف: ٣٥.

(٢) يونس: ٦٣.

(٣) المجادلة: ٨.

(٤) التوبة: ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠١

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَيْهِ أَي عَلَى الرَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، أَي ألقى في قلبه ما سكن به، و علم أنه سبحانه ينصره عليهم و أيده أي قوى الرسول و نصره بجُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ تَرَوْهَا أَي ما رأت الكفار إياها، بمعنى عدم كونهم أجساماً حتى يروا.

ورد أنه كان رجل من خزاعة يقال له «أبو كرز» اقتفى مع المشركين أثر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حتى وقف بهم على الغار فقال لهم: هذه قدم محمد صلى الله عليه و آله و سلم هي و الله أخت القدم التي في المقام، و قال: هذه قدم محمد صلى الله عليه و آله و سلم هي و الله أخت القدم التي في المقام، و قال: هذه قدم أبي قحافة أو ابنه ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكونوا قد صعدوا السماء أو دخلوا في الأرض. و جاء فارس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار و هو يقول لهم: اطلبوه في هذه الشعاب، و كانت العنكبوت نسجت على باب الغار، و أرسل الله زوجاً من الحمام حتى باضا في أسفل الثقب فقال سراقه و كان مع الكفار: لو دخل الغار أحد لانكسر حتما البيض و تفسخ بيت العنكبوت. و دعا النبي صلى الله عليه و آله و سلم قائلاً: «اللهم أعم أبصارهم» فعميت أبصارهم عن دخوله و جعلوا يضربون يميناً و شمالاً حول الغار و يشوا أخيراً فرجعوا (١).

وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا و كيدهم للرسول و شوكتهم السفلى إذ تحطمت و فشلت فكانت في الدرجة السفلى

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١٢٧١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سِيفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَضَغْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا الْمَرْتَفَعَةُ الْمَنْصُورَةُ، وَ هَذَا إِخْبَارٌ بِأَنَّ كَلِمَتَهُ وَ قَوْلَهُ دَائِمًا يَكُونَانِ كَذَلِكَ. وَ مِنَ الْوَاضِحِ فِي التَّارِيخِ أَنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ عَالِيَةٌ وَ أَنْصَارُهَا الْأَعْلَى، وَ إِنْ كَانَتِ الْغَلْبَةُ لِكَلِمَةِ الْكَافِرِينَ، حَتَّى إِنْ النَّاسُ لَوْ كَانَتِ سَيُوفُهُمْ مَعَ السُّلْطَانِ الْبَاطِلِ كَانَتِ قُلُوبُهُمْ مَعَ أَهْلِ الْحَقِّ وَ رَأَوْا أَنَّ الْحَقَّ عِنْدَهُمْ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَالِبٌ حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ.

[٤١] انْفِرُوا مِنْ «نَفَرٍ» إِذَا خَرَجَ مَسْرَعًا، أَي أَخْرَجُوا إِلَى الْجِهَادِ خِفَافًا جَمْعَ «خَفِيفٍ» وَ ثِقَالًا جَمْعَ «ثَقِيلٍ»، وَ الْخِفَةُ تَطَلَّقَ عَلَى قَلِيلِ الْعِيَالِ، قَلِيلِ السِّنِّ وَ النِّشِيطِ، وَ قَلِيلِ الْمَشَاغِلِ، كَمَا أَنَّ الثَّقَلَ عَكْسُ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَ الْمَرَادُ: جَاهِدُوا وَ أَخْرَجُوا لِأَجْلِ الْحَرْبِ كَيْفَمَا كُنْتُمْ فِي خِفَةٍ أَوْ ثَقَلٍ وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ الْمَجَاهِدَةُ بِالْمَالِ:

بذله في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، و المجاهدة بالنفس: الذهاب للحرب في سبيل الله و يسمى جهادا، لأنه من الجهد و التعب ذلكم

ذلك إشارة، و «كم» للخطاب، أى أن الجهاد- أيها المسلمون- خَيْرٌ لَكُمْ من تركه، فإنه فيه عزّ الدنيا و سعادة الآخرة إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ليس المعنى إن لم تعلموا لم يكن خيرا لكم، بل المعنى إن كنتم تعلمون، لعلمتم أنه خير لكم.

[٤٢] كان المنافقون يرجفون بالمسلمين قائلين: «إن السفر بعيد» فإنها كانت مسافة بعيدة بين المدينة و بين «تبوك» فلا تذهبوا إلى الجهاد. فرد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٣

[سورة التوبة (٩): آية ٤٣]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمِ الْكَاذِبِينَ (٤٣)

عليهم سبحانه لو كان ما دعوتهم إليه يا رسول الله عَرَضاً قَرِيباً أى غنيمته سهلة التناول، فإن أموال الدنيا تسمى أعراضا باعتبار كونها زائلة فانية وَ سَفَرًا قاصداً أى سفرا متوسطا فى البعد و القرب، بأن سهل عليهم الذهاب و الخروج لَاتَّبَعُوكَ لأنه سهل عليهم ذلك وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ أى المسافة، فإن الشقة بمعنى القطعة من الأرض التى يشق على إنسان السير فيها لبعدها، و لذا يأتون بالأعداء الواهية فرارا وَ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ فَانَهُمْ كانوا يحلفون بأنهم لا يقدرّون على الخروج لاشتغالهم و أن لهم أعدارا مشروعه يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ هؤلاء المعتذرون باستحقاقهم العقاب فى الآخرة، و النكال فى الدنيا، فإن ترك الجهاد يوجب الذلة و الصغار للفرد و الجماعة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فى ادعائهم أنهم لا يستطيعون الخروج.

[٤٣] استأذن جماعة من المنافقين الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى تركهم الخروج إلى تبوك، فأذن لهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و قد كان هذا الإذن كسائر أوامر الرسول و كلماته بالوحى بدليل قوله سبحانه: وَ مَا يُنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى «١»، لكن الاستئذان من القوم كان نفاقا فاستحقوا العقاب.

(١) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٤

و من البلاغة أن يوجه الإنسان العتاب إلى أحد و هو يريد إفهام غيره، فإذا ألخ الشخص المتظاهر بالفقر، فأشرت إلى ولدك بإعطائه المال، تقول له- معاتباً- و أنت تريد إفهام الآخذ: لم أعطيته المال؟ مع أن إعطائه كان بأمرك و لكنك تريد توبيخ الآخذ بصورة بليغة، و هذا كما يظهر فى الكلام يظهر فى العمل، فقد تأخذ بيد الولد لتقصيره أمام الآخذ مظهرا غضبك عليه، تريد إفهام الآخذ بسوء صنيعه فى الآخذ، كما تقدم فى قصة موسى و هارون عليهما السلام.

و هذا هو المعنى من قول الإمام الرضا عليه السلام فى جواب أسئلة المأمون عن عصمة الأنبياء. و أنه كيف قال للرسول صلى الله عليه و آله و سلم: «عفا الله عنك ..»، هذا مما نزل ب «إياك أعنى و اسمعى يا جارة» «١».

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يا رسول الله. إنه لا يريد أنه صلى الله عليه و آله و سلم فعل خلاف الأولى، حتى يستحق العفو أو العتاب، بل يريد إفهام المتخلفين أنهم فعلوا فعلا- قبيحا حتى إن الإذن لهم فى القعود يستحق العفو لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ فى البقاء و عدم الخروج إلى الجهاد حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا فى أنهم لا- يستطيعون الخروج وَ تَعَلَّمِ الْكَاذِبِينَ أى حتى تعلم و تميز بين الصادق و الكاذب، و قد كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يميز و يعلم، كيف و أهدنا يعلم الصادق و الكاذب من أصحابه و أصدقائه؟ لكن هذا الكلام لتنبية المتخلفين الكاذبين، و أنه عرف كذبهم و سوء قصدهم.

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤٤ الى ٤٦]

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَضَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)

[٤٤] لا- يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إيماناً صادقاً، كيف والمؤمن يعلم أنه سواء غلب أو غلب كان له الأجر العظيم والعاقبة المحمودة عند الله سبحانه، ولذا لا- يطلب الإذن في التخلف أن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في أن يجاهدوا، والمعنى لا يستأذِنوا للتخلف في أمر الجهاد، لا- أن المعنى لا- يستأذِنون للجهاد وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ الذين يتقون عصيان الله، ويعملون حسب أوامره.

[٤٥] إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ وَيَطْلُبُ إِذْنَكَ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إيماناً صادقاً عن عقيدة ورسوخ وارتباب قلوبهم أي شكك، من «الريب» بمعنى التردد، أي شكوا في صدق الأمر وحقيقته فهُمْ فِي رَيْبِهِمْ وشكهم حول المبدأ والمعاد يَتَرَدَّدُونَ فتارة ترجح عندهم العقيدة، وأخرى يرجح عندهم الإنكار. ولهذا فإن هؤلاء لما لم يستيقنوا يستأذِنوك للتخلص من الصعوبة.

[٤٦] ثم بين سبحانه علامة نفاقهم وأنهم امتازوا عن المؤمنين بأن لم يستعدوا للجهاد فقد نوا من أول الأمر عدم الخروج ولو أرادوا الْخُرُوجَ إلى الجهاد، كما أراد سائر المؤمنين لَأَعَدُّوا لَهُ للجهاد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٦

[سورة التوبة (٩): آية ٤٧]

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) عُدَّةٌ أَسْبَغَتْ، فَإِنَّ الْعُدَّةَ وَالْأَسْبَغَةَ وَالْآلَةَ نِظَائِرٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمُ الْانْبِعَاتُ هُوَ الْانْتِظَارُ بِسُرْعَةٍ فِي الْأَمْرِ فَضَبَّطَهُمْ أَي أَوْقَفَهُمْ عَنِ الْجِهَادِ بِالْتَرَهِيدِ فِيهِ فَرَعَبُوا عَنْهُ وَقِيلَ الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ- بِلِسَانِ الْحَالِ- أَوْ إِخْوَانِهِمُ الْمُنَافِقُونَ: اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيانِ وَالْعَجْزَةَ الَّذِينَ بَقُوا فِي الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَخْرُجُوا لِلْجِهَادِ.

إن أمر الجهاد كان متوجها إليهم مع صفاء النية وخلص القصد، أما أنهم نافقوا وكانوا لو خرجوا ألقوا التشويش والاضطراب- كما هو شأن المنافق في كل حركة- بالنميمة بين المسلمين، وكان الضرر في خروجهم أكثر، فالأحرى أن لا يخرجوا، فالله سبحانه كره ذهابهم للغزو لهذه الجهة فلم يوقفهم للجهاد. وقد مرّ مكرراً أنه تصحّ نسبة الفعل إليه سبحانه باعتبار أنه لم يزل العائق تكويناً، كما يقال: «إن الملك عوق ذهاب الجيش ولم يدعهم يذهبوا»، فيما إذا لم يزل العائق أمامهم.

[٤٧] ثم بين سبحانه سبب كره الله انبعاثهم بقوله: لَوْ خَرَجُوا أَي خَرَجَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى الْجِهَادِ فِيكُمْ أَي فِي ضَمْنِكُمْ أَيهَا الْمُسْلِمُونَ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا «الخبال» هو الفساد، أي كان خروجهم معكم سبباً للفساد والاضطراب، فإن المنافق دائم النقد للحركات، كثير التخذيل مما يوجب فساداً واضطراباً وتشويشاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ «الإيضاع» الإسراع في السير، و«الخلال» بمعنى «البين»، أي أسرعوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٧

[سورة التوبة (٩): آية ٤٨]

لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

في الدخول بينكم بالفساد والنميمة والإفساد يَبْغُونَكُمْ أَي يَطْلُبُونَ لَكُمْ الْفِتْنَةَ واختلاف الكلمة والانشقاق- كما هو شأن المنافق- و يكونون فِيكُمْ أَيهَا الْمُسْلِمُونَ سَمَاعُونَ لَهُمْ يَسْمَعُونَ أقوال الكفار- المفهوم من الكلام- فيصبح هؤلاء المنافقون جواسيس وعيوناً للكفار، أو المراد: إن كانوا معكم كان من المؤمنين البسطاء أشخاص يسمعون لأولئك المنافقين، فعدم مجيئهم كان أنفع لكم وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالنِّفَاقِ وَ عَدَمِ الْخُرُوجِ، فَيَجَازِيهِمْ بِمَا عَمَلُوا.

[٤٨] لَقَدْ ابْتِغَوْا وَ طَلَبَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْفِتْنَةَ وَ الْفَسَادَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ فِي أَحَدٍ وَ فِي حَنِينٍ وَ عِنْدَ الثَّنِيَةِ عِنْدَ رَجُوعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ حِجَّةِ الْوُدَاعِ حَيْثُ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَ دَبَرُوا مَؤَامَرَةَ خَيْبَتِهِ لِتَشْتِيتِ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ وَ قَالُوا لَكَ الْاُمُورَ «التقليب» تصريف الشيء على غير وجهه، فقد احتال المنافقون لأن يقلبوا وحدة المسلمين تشتتاً، و صفاءهم كدوره حتى جاء الحق الظفر الذي وعد الله سبحانه و ظهر أمر الله دينه و الإسلام و حقيقة الرسول صلى الله عليه و آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْحَالُ أَنَّ هُمْ كَارِهُونَ لِمَجْرَدِ الْحَقِّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ الْآنَ بِالْفِتْنِ الْآنَ بِالنِّفَاقِ، فَقَدْ كَانُوا سَابِقًا كَذَلِكَ، فَلَا يَهْمُكَ أَمْرُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ لَا تَعِيرُهُمْ وَ بِالَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٨

[سورة التوبة (٩): آية ٤٩]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)

[٤٩] وَ مِنْهُمْ أَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي التَّخَلُّفِ وَ لَا تَفْتِنِّي لَا تَوْعَنِي فِي الْفِتْنَةِ، بَأَنْ تَأْمُرَنِي فَلَا أَلْبِي الْطَلَبَ، أَوْ الْمَرَادُ: لَا تَفْتِنِّي بِنَاتِ الْأَصْفَرِ.

فقد ذكر المفسرون: أن رسول الله لما استنفر الناس إلى حرب الروم في تبوك قال: انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر، فقام جد بن قيس أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله ائذن لي و لا تفتني بنات الأصفر، فإني أخاف أن أفتن بهن، فقال: قد أذنت لك، فنزلت الآية. و يسمى الروم بنوا الأصفر، لأن حبشياً غلب على ناحية الروم و كان له بنات قد أخذن بياض الروم و سواد الحبشة فكان صفراً لعسا- كما عن الفراء-

ثم إن الرسول صلى الله عليه و آلِهِ وَ سَلَّمَ جَزَى هَذَا الرَّجُلَ بِصَنِيعِهِ فَقَدْ قَالَ لِبْنِي سَلْمَةَ:

مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ قَالُوا: جَدُّ بَنِي قَيْسٍ إِلَّا أَنَّهُ بَخِيلٌ جَبَانٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: وَ أَى دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبَخْلِ، بَلْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْأَبْيَضُ الْجَعْدُ بَشْرُ بَنِي الْبَرَاءِ بْنِ الْمَعْرُورِ (١).

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا إِنَّهُمْ أَظْهَرُوا بِتَخَلُّفِهِمُ الْفِرَارَ عَنِ الْفِتْنَةِ، فَقَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِتَخَلُّفِهِمْ عَنْكَ وَ عَصِيَانَتِهِمْ لَكَ، فَإِنَّ الْإِذْنَ عَنْ كَرِهٍ كَعَدَمِهِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ تَحِيطُ بِهِمْ فَلَا مَخْلَصَ لَهُمْ مِنْهَا. وَ لَعَلَّ هَذَا التَّعْبِيرَ بِمُنَاسَبَةٍ أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْفِرَارَ مِنَ الْفِتْنَةِ، لَكِنْ

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ١٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٠٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٠ الى ٥١]

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمُ وَ إِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)

المنافق لا يفر من فتنه إلا و يسقط في فتنه أخرى، لأنه من أهل النار و هي محيطه به، فكيف يفر منها.

[٥٠] وَ كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مُسْلِمِينَ، وَ الْحَالُ أَنَّ صِفَاتِهِمْ صِفَاتُ الْكَافِرِينَ إِنْ تُصِيبَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَسَنَةٌ تَصِلُ إِلَيْكَ غَنِيمَةٌ أَوْ خَيْرٌ تَسُوهُمُ أَى يَحْزَنُ الْمُنَافِقُونَ مِنْ أَجْلِهَا وَ إِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ شَدِيدَةٌ وَ آفَةٌ فِي النَّفْسِ أَوْ الْمَالِ أَوْ غَيْرِهِمَا يَقُولُوا الْمُنَافِقُونَ: قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ أَخَذْنَا حِذْرًا مِنْ قَبْلِ وَقُوعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَصْحَابِهِ فِي هَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ رَجَعُوا إِلَى بِيوتِهِمْ فَرِحِينَ بِمَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّدَةِ. وَ قَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَكْسَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا الرَّسُولَ فِي شَدَةِ اجْتَمَعُوا حَوْلَهُ لِيُؤَسِّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ.

[٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء: لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا فَلَمْ يَكُنْ مَا أَصَابَنَا شَرًّا لَنَا، كَمَا زَعَمْتُمْ، بَلْ إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ كَتَبَ هَذِهِ الْبَلَايَا لَنَا

لأن ترفع درجاتنا في الآخرة، و ينصرنا على أعدائنا في النهاية، و نحن مسلمون لأمر الله منقادون لإرادته هُوَ مَوْلَانَا أُولَى بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، فما كتبه لنا كان لخيرنا و صلاحنا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بأن يكلوا أمرهم إليه، و يرضوا بقضائه، فليس ذلك إلا للخير و السعادة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِخْدَى الْحُسِيِّينَ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣)

[٥٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: هَلْ تَرَبَّصُونَ «التربص» الانتظار، أى: هل تنتظرون بنا إِلَّا إِخْدَى الْحُسِيِّينَ إما النصر و الظفر و خير الدنيا، و إما الشهادة فى سبيل الله و فيها خير الآخرة، فلا يعود تربصكم بشر لنا أو خير لكم وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ننتظر أن تقعوا فى أحد الشرين أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ بأن تهللكوا فتعذبوا فى الآخرة أَوْ بِأَيْدِينَا بأن نتصر عليكم فتصبحوا أذلاء فى الدنيا خاسرين مقهورين فَتَرَبَّصُوا أى انتظروا. و هو تهديد فى صورة الأمر كقوله: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ «١»، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أى منتظرون، حتى نرى لمن العاقبة الحسنه، و لمن العاقبة السيئه.

[٥٣] قد كان بعض المنافقين عرضوا أموالهم لمساعدة المجاهدين فى «تبوك» لينجوا بذلك عن الذهاب بأنفسهم و لا يقعوا موقع لوم المسلمين بأنهم نافقوا، و لم يشتركوا فى الجهاد مع المجاهدين، لكن الله سبحانه أخبر عن نيتهم و أن إنفاقهم لا ينفع شيئاً قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: أَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ لِلْجِهَادِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا طَائِعِينَ أَوْ مَكْرَهِينَ لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ أَى إِنْ أَنْفَقْتُمْ طَائِعِينَ أَوْ مَكْرَهِينَ

(١) فصلت: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١١

[سورة التوبة (٩): آية ٥٤]

وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا- أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا- يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (٥٤)

لا يتقبل الله منكم الإنفاق. فاللفظ أمر و المعنى الشرط.

ثم بين السبب بقوله: إِنْ كُنْتُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ خارجين عن طاعة الله سبحانه، و الفاسق لا يتقبل منه الإنفاق، لأن قبول الأعمال مشروط بالتقوى و هو منفى عنهم، قال سبحانه: إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «١».

[٥٤] وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ أَى شىء منع قبول إنفاقهم و الإثابة عليه؟ إنه كفرهم إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ فَإِنَّ الْكُفْرَ الباطنى مانع عن قبول الأعمال، و إن أظهر الإسلام وَ لَا- يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى متثاقلين، فإن المؤمن حيث امتلأ إيمانا يقدم على الطاعات بكل شوق و رغبة، بخلاف المنافق الذى لم يدعن قلبه لشىء، فإنه لا يأتى الصلاة و سائر الطاعات إِلَّا مُتَثَاقِلًا كَسَلَانًا فإنه يريد بذلك إراءة الناس وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ للإنفاق، لأنهم لا يدفعون المال عن عقيدة و إخلاص، و إنما يدفعون للتستر بالإسلام و التحفظ على أنفسهم من ألسنة المؤمنين، لئلا يظهر ما ينون من الكفر و النفاق.

(١) المائدة: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٢

[سورة التوبة (٩): آية ٥٥]

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)

[٥٥] فَلَا تُعْجِبْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ أَي لَا يَأْخُذُ بِقَلْبِكَ مَا تَرَاهُ مِنْ كَثْرَةِ أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَ أَوْلَادِهِمْ، وَلَا تَنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الْإِعْجَابِ، فَإِنَّ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ قَدْ تَكُونُ نِعْمَةً وَ خَيْرًا حِينَمَا يَشْكُرُ الْإِنْسَانُ وَجُودَهَا وَ يَصْبِرُ وَ يَحْتَسِبُ لِفَقْدِهَا، أَمَا إِذَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ، فَهِيَ بِالْعَكْسِ تَصْبِحُ وَبِالْإِنْسَانِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا بِهَذِهِ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ النَّفْسَ غَيْرَ الْمَطْمَئِنَّةِ تَكُونُ دَائِمَةً الْقَلْقَ عَلَى مَصِيرِ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ لِأَنَّهَا دَائِمَةٌ الْخَوْفَ عَلَيْهِمَا، أَمَا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ بَقِيَةَ أَمْوَالِهِ وَ أَوْلَادِهِ شُكْرًا وَ إِنْ ذَهَبَتْ صَبْرًا، وَ عِلْمٌ أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِلْأَجْرِ وَ الثَّوَابِ، فَلَا يَكُونُ خَائِفًا قَلْقًا.

قال أحد الكافرين: إن أعجب ما رأيت من شيخ مسلم أنه كان صاحب أغنام تعدد بالألوف و كان جميع كيانه بها و إذا به يفاجأ ذات يوم- و أنا عنده- بأن يخبره آت قائلًا: إن الأغنام ذهب بها السيل، قال: و كنت أترقب انقلابا في حال الشيخ الذي ذهب كل كيانه بذهاب أغنامه، و إذا به يقول: «إنا لله و إنا إليه راجعون، و ماذا نصنع؟ نتوكل على الله، و نصبر، فهو خير للصابرين» و كأن أمرا لم يحدث.

وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ تَهْلِكُ وَ تَذْهَبُ بِالموت بصعوبه، فهم قد عاشوا في الدنيا بصعوبه و قلق، و ها هم يموتون، و حينما تريد أرواحهم أن تخرج، تخرج بصعوبه، فيموتون بكل صعوبه و هم كافرُونَ فقد عاشوا أشقياء، و ماتوا أشقياء و يحشرون أشقياء إذ ماتوا كافرين. ثم إن جملة «تزهق» إما استثنائية، و إما عطف على «ليعذبهم». و إرادة الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَ مَا هُمْ مِنكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ (٥٧)

ذلك، إنما كانت بسبب أنهم أعرضوا عن الحق فتركهم الله سبحانه في كفرهم. و هو معنى إرادته أن يموتوا كافرين.

[٥٦] و قد كان هؤلاء المنافقين يريدون اللعب على حبلين، فحيث أن السلطة بيد المسلمين يريدون إرضاءهم بإظهار أنهم منهم، و حيث أن قلوبهم كانت منكراً كانوا مع الكافرين باطنا و عملا، لكن الله سبحانه أبدى نواياهم و يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ يقسمون بالله إنهم مثلكم في الإيمان و الإخلاص و ما هُمْ مِنكُمْ ليسوا مثلكم و لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ من «فرق» بمعنى خاف، أى يخافون و يجتنبون القتل و القتال، و كيف يكون من يجنب مثل غيره من المسلمين الأقوياء القلوب؟! [٥٧] لَوْ يَجِدُونَ أى لو وجد هؤلاء المنافقون الجبناء مَلْجَأً حصناً، و يسمى الحصن بذلك، لأذن الإنسان يلجأ عند الخوف إليه أَوْ مَغَارَاتٍ جمع «مغارة»، من «غار يغور» إذا دخل، و منه «الغار» بمعنى النقب فى الجبل أَوْ مُدْخَلًا من «أدخل» أصله أَوْ «تدخل» من باب الافتعال قلبت تاؤه دالا، و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، و المراد به النفق و شبهه، أى: لو وجد هؤلاء المنافقون الجبناء محل فرار سواء كان حصناً أَوْ غارا أَوْ ثقباً فى الأرض لَوَلَّوْا إِلَيْهِ أى فروا منكم و من القتال إلى ذلك المخبأ و هم يَجْمَعُونَ من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٤

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيخُطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

«الجموح» بمعنى المضى مسرعين بحيث لا يردهم شىء.

[٥٨] وَ مِنْهُمْ أى من المنافقين مَنْ يَلْمِزُكَ يقال: «لمز الرجل» إذا عابه، قال سبحانه: وَيَلُّ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُْمَزَةٍ «١»، فى الصَّدَقَاتِ أى فى تقسيم الصدقات و هى الغنائم و ما أشبهها، مما فرضه الله سبحانه لإقامة المصالح، أى يطعنون عليك فى تقسيمك فإن أُعْطُوا مِنْهَا

رَضُوا وَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَدْلٌ وَأَعْطَى الْحَقَّ فِي مَوْضِعِهِ وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيحُطُونَ يَغْضَبُونَ وَيُعْيَبُونَ، فليسوا معترفين بك و أن أعمالك إنما تصدر عن الوحي، بل هم طلاب دنيا.

ورد أن هذه الآية نزلت لما جاءت الصدقات وجاء الأغنياء و ظنوا أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم يقسمها بينهم، فلما وضعها في الفقراء تغامزوا على رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم و لمزوه وقالوا: نحن الذين نقوم في الحرب و نفر معه و نقوى أمره، ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه و لا يغنون عنه شيئا.

إنهم قالوا هذا القول و طعنوا في الرسول، لا حبا للعدالة، بل غضبا لأنهم لم ينالوا منها.

[٥٩] وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَيُّ مَا أَعْطَاهُمُ الرَّسُولَ بِحَكْمٍ

(١) الهمزة: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٥

[سورة التوبة (٩): آية ٦٠]

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

الله سبحانه و قالوا حسبينا الله كافينا سيؤتينا الله من فضله فإن لم يقسم لنا من هذه الصدقة قسم لنا من غيرها و رسول الله ذكر الله لأنه الآمر، و ذكر الرسول لأنه المقسم و المعطى إنا إلى الله راغبون نرغب إليه و نطلب منه سبحانه أن يوسع علينا. أي «لكان خيرا لهم» هذا هو جواب «لو» فإنه حذف للدلالة على العموم و التوسعة، فإن المذكور إنما هو لفظ واحد بخلاف المحذوف، و لذا قالوا: إن حذف المتعلق يفيد العموم.

[٦٠] ثم بين سبحانه مصرف الصدقات، و أنها يجب أن تصرف في المصارف المذكورة لا- أن تعطى للأغنياء و الطامعين إنما الصدقات للفقراء المراد بالصدقات الزكاة- كما أجمع المفسرون عليه- و هي تؤخذ بنسبة العشر و نصف العشر و ربع العشر، من أموال تسعة، بعنوان الوجوب، و من غيرها بعنوان الاستحباب- كما فصل في الفقه- و الأموال التسعة هي: الإبل، و البقر، و الغنم، و الذهب، و الفضة، و الحنطة، و الشعير، و التمر، و الزبيب. بشرائط مخصوصة، و تعطى لثمانية أصناف، منهم:

الفقراء الذين لا يجدون قوت سنه لأنفسهم و لعيالهم حسب شأنهم، لا قوة و لا فعلا.

و الْمَسْكِينِ وَ هُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ، كأن الفقر أسكنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٦

الأرض فلم يقدر على التحرك، و حيث أنهم في المجتمع صنفان متميزان، إذ هناك صنف تعسرت أموره و إن كان ظاهره لا بأس به، و صنف داخل في العجزه كالعميان و الزمنى و من إليهم، ذكرهم سبحانه صنفين، و إن كان الميزان في الصنفين واحدا، و هو عدم تمكنهم من مؤونه سنه فعلا و قوة.

و لعل وجه تقديم الفقراء: أن إعطاءهم من الزكاة أبعده في النظر و لذا جىء بهم أولا، تداركا لهذا البعد، كما أنك إذا أردت أن تعدد من أتاك تذكر الأبعد في نظر السامعين، كما أن ذكر المساكين مع أنهم داخلون في الفقراء لعله، و ذلك لدفع احتمال أن مثل هؤلاء لا بد و أن يعيشوا على إحسان المحسنين من الذين يتصدقون بالصدقات المستحبة لدفع البلاء، كما جرت العادة، لا أن يكون لهم رزق في خزينة الدولة.

و الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا أَي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِأَجْلِ جَمْعِ الزُّكُوتِ، و جبايتها، و لو كانوا أغنياء فإنهم يأخذون حق العمل، و لفظه «على» لأجل أن العامل يقتطع من أموال الناس، فهو شبيه بالضرر، فإنه يعمل لأجل الفقير، على الغنى.

وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ أَى الكفار الذين يراد تأليف قلوبهم بالمال ليميلوا نحو الإسلام أو نحو المسلمين، فإن الأموال تقرب الناس إلى الناس، و تقرب الناس إلى الأديان و المبادئ، و كذلك المسلمون الذين أسلموا و لكن لم يدخل الإسلام فى قلوبهم فيعطوا من الزكاة لتقوى عقيدتهم، و يستحكم إسلامهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٧

[سورة التوبة (٩): آية ٦١]

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحِمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

وَفى الرِّقَابِ جمع «رقبة» و المراد بها: الإنسان، فإن الرقبة تستعمل فى الإنسان بعلاقة الجزء و الكل، كما أن «العين» تستعمل فى الجاسوس بهذه العلاقة، و المراد بهم: العبيد الذين هم تحت الشدة، يشترون من الزكاة و يعتقون، و كذلك العبيد الذين كاتبوا مواليتهم و لم يقدروا على دفع تمام مال الكتابة.

وَالغَارِمِينَ جمع غارم، من «غرم» بمعنى استدان، و المراد بهم: الذين اقترضوا ثم أنفقوا المال فى غير معصية، و من غير سرف، فإنهم يعطون من الزكاة ليؤدوا ديونهم، أو تدفع ديونهم منها و لو بعد موتهم.

وَفى سَبِيلِ اللَّهِ و هى جميع مصالح المسلمين التى من أظهرها: الجهاد لإعلاء كلمة الله.

وَأَبْنِ السَّبِيلِ و هو المسافر المنقطع به فى سفره، يعطى من الزكاة ليرجع إلى محله، و إن كان فى بلده غنيا. فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ أَى افترض الله سبحانه تقسيم الزكاة بهذه الصورة فريضة و اللَّهُ عَلِيمٌ بِحَاجَةِ خَلْقِهِ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، و على من فرض. و الكلام حول الزكاة طويل، راجع «عبادات الإسلام» (١) حتى تعرف بعض أحكامها.

[٦١] كان الكلام حول المنافقين و علامات النفاق و بعض ما صدر منهم مما

(١) للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٨

يدل على انحرافهم و نفاقهم، فمنهم من يلزم النبى فى الصدقات، و منهم من يؤذى النبى، و منهم من يخشى أن تنزل عليه صلى الله عليه و آله و سلم سورة، تفضحه و تبين نفاقه و منهم الذين يؤذون النبى إيذاء بالقول، فقد كان عبد الله بن نفيل منافقا، و كان يقعد إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيسمع كلامه ثم ينقله إلى المنافقين و ينم عليه. فنزل جبرائيل عليه السلام و أخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بخبر المنافق، فدعاه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخبره بذلك فحلف أنه لم يفعل فقبل منه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم - حسب الظاهر - و نهاه أن يقعد مع أصحابه من بعد، فرجع إلى أصحابه و قال: إن محمدا «أذن» أخبره الله أنى أنتم عليه و أنقل أخباره، فقبل، و أخبرته: أنى لم أفعل، فقبل، فأنزل الله هذه الآية: وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ أَى يستمع إلى ما يقال له و يقبل، و لا فطنه له بأن يميز بين الصحيح من الكلام و السقيم.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: إِنى أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَذُنٌ كَمَا قَالُوا، و لكن ليس كما قصدوا، فإن «الأذن» قد يكون فى سماع كلام الشرفى أحد ثم يرتب الأثر عليه، و قد يكون خيرا، يسمع الكلام و لا يكذبه، و لكنه لا يرتب ما على المجرم من العقاب، كيف يمكن أن يعاب عليه فعله هذا؟! لكن المنافق هو الذى يرى الإحسان - حتى بالنسبة إلى المنافق - إساءة. يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إيمانا من القلب، و يعلم أن الله سبحانه صادق و يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَى لنفع المؤمنين، و فرق بين «الإيمان به» إذ معناه تصديقه،

و «الإيمان له»، أى يرتب الأثر الذى هو نافع للمؤمن، سواء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤١٩

[سورة التوبة (٩): آية ٦٢]

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُزْوِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُزْوِكَهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)

اعتقد بذلك أم لم يعتقد. فقد اعتقد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صحة كلام جبرئيل المنزل من قبله سبحانه، كما رتب أثر الصحة لنفع ذلك المؤمن - المنافق - حيث لم يعاقبه. ولا يخفى أن «الإيمان» له إطلاقان: إطلاق على كل مؤمن مقابل الكافر، وهو من أظهر الإسلام، وإن لم يدخل في قلبه، كما قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا «١»، وإطلاق على المعتقد في مقابل المنافق، كما قال سبحانه: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا «٢»، والمراد هنا: الإطلاق الأول.

وهو صلى الله عليه وآله وسلم رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ولو إيمانا ظاهريا، حيث أنه هداهم للأصلح بحالهم في الدنيا، أما المؤمن الحقيقي فإنه سعد بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم دنيا و آخرة وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ بِالْقَوْلِ أَوْ الْعَمَلِ، لا يظنون أنهم فاتوه حيث لم يعاقبهم وقبل عذرهم، فلم يرتب على أذيتهم شيء، بل لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأن إيذاء الرسول له أثر وضعى يوجب الخسران والخزى، وأما في الآخرة فله عذاب أليم في النار.

[٦٢] يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ أَى يَحْلِفُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَكُمْ لِيُزْوِكُمْ حَيْثُ أَنْكُمْ تَقْبَلُونَ عَذْرَهُمْ إِذَا أَقْسَمُوا بِاللَّهِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مَا قَالُوا، وَ لَمْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلُوا وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُزْوِكَهُ أَى يَرْضُوا كُلَّ وَاحِدٍ

(١) النساء: ١٣٧.

(٢) الحجرات: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٠

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)

منهما، بالإيمان الصحيح وعدم الإيذاء واقعا - مما يريدون ستره بالحلف - أما الترضية الظاهرية للرسول، فإنها لا تنفعهم في الباطن و الواقع إن كانوا مُؤْمِنِينَ واقعا، والمعنى: إن كانوا مؤمنين واقعا لعلموا أن مرضاء الله و الرسول أولى من الترضية الظاهرية.

[٦٣] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَلَيْسَ يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ «المحاذة» مجاوزة الحد بالمشاققة و المخالفة فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا فَإِنْ عَلِمُوا ذَلِكَ فَكَيْفَ يُحَادِدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالنِّفَاقِ وَ إِيْذَاءِ الرَّسُولِ ذَلِكَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ الْخِزْيُ أَى الْهَوَانُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا خِزْيَ فَوْقَهُ.

[٦٤] يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَى يَخَافُونَ وَ يَخْشَوْنَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ أَى تَخْبِرُهُمْ بِنِفَاقِهِمْ، فَتَكُونُ فَضِيحَةً لَهُمْ، وَ قَوْلُهُ «تُنَبِّئُهُمْ» لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخْفَوْنَ نِفَاقَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَ إِنَّمَا السُّورَةُ الْمُنَزَّلَةُ تَخْبِرُهُمْ حَسَبَ تَظَاهِرِهِمْ بِالنِّفَاقِ.

ورد أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى «تبوك» قال قوم من المنافقين فيما بينهم: أ يرى محمدا أن حرب الروم مثل حرب غيرهم، لا يرجع منهم أحد أبدا. فقال بعضهم: ما أحرى أن يخبر الله محمدا بما كنا فيه، و بما في قلوبنا، و ينزل بهذا قرآنا يقرأه الناس - قالوا هذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

وَلَيْنَ سَاءَ لَتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ سَيِّئِينَ تَهْزُونَ (٦٥) لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَن طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

على حد الاستهزاء - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمار بن ياسر: الحق القوم فإنهم قد انحرفوا، فلحقهم عمار فقال لهم: ما قلتهم؟ قالوا: ما قلنا شيئاً إنما نقول ذلك على حد اللعب و المزاح. فنزلت هذه الآية.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: اسْتَهْزَؤُا أَمْرٌ فِي مَعْنَى الْوَعِيدِ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْدَرُونَ أَيْ مَظْهَرٌ مَا تَحْدَرُونَ ظُهُورُهُ مِنْ نِفَاقِكُمْ وَ قَوْلِكُمْ الِاسْتَهْزَائِي.

[٦٥] وَ لَكِنَّ سَيِّئَاتِهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَنْ طَعْنِهِمْ فِي الدِّينِ وَ اسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ وَ بِحَرَكَاتِكَ، وَ قُلْتَ لَهُمْ: لِمَ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ؟ لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَحْوُضٌ وَ نَلْعَبُ «النَّحْوُضُ» هُوَ دُخُولُ الْقَدَمِ فِي الْمَائِعِ، مِنْ مَاءٍ أَوْ طِينٍ، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الدُّخُولِ فِيهَا، يَعْنِي: عَلَى وَجْهِ اللَّهْوِ دُونَ الْجِدِّ، أَيْ كَانَ كَلَامُنَا مَجْرَدَ لَعِبٍ وَ لَهْوٍ دُونَ إِرَادَةِ الْحَقِيقَةِ وَ الْجِدِّ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَّ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارِي، أَيْ كَيْفَ تَسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَ حُجْجِهِ وَ رَسُولِهِ؟

[٦٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: لَا تَعْتَدِرُوا بِهِذِهِ الْأَعْدَارِ الْوَاهِيَةِ الْكَاذِبَةُ قَدْ كَفَرْتُمْ بِعَيْدِ إِيْمَانِكُمْ الظَّاهِرِي، فَإِنَّهُمْ بِإِظْهَارِهِمُ الْإِيْمَانَ دَخَلُوا فِي زِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَاسْتَهْزَؤُوا هَذَا كَانَ كُفْرًا وَ نَقْضًا لِذَلِكَ الْإِيْمَانِ، وَ قَدْ اعْتَذَرَ بَعْضُهُمْ اعْتِدَارًا صَادِقًا فَرَجَعَ عَنْ نِفَاقِهِ وَ دَخَلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٢

[سورة التوبة (٩): آية ٦٧]

الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)

الإيمان قلبه، فقبل الرسول عذره و عفا الله عنه.

و في بعض التفاسير: إنه كان مخشى بن حمير، و يسمى عبد الرحمن، و سأل الله بعد توبته أن يقتل شهيدا لا يعلم أحد مكانه، فقتل يوم اليمامة و لم يوجد له أثر، و لذا قال سبحانه: إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ وَ هُوَ التَّائِبُ حَقِيقَةً نُعِدُّ طَائِفَةً بِسَبَبِ أَنَّهُمْ بَقُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ لَمْ يَنْفَكُوا عَنِ الْجَرِيمَةِ.

[٦٧] ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ حَقِيقَةَ الْمُنَافِقِينَ وَ صِفَاتِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَيْ أَنَّهُمْ مِنْ طَبِيعَةٍ وَاحِدَةٍ وَ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بِأُتْيَانِ الْمُنْكَرِ، مِنَ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَعْمَلَ بِطَاعَةِ نَهَائِهِ غَيْرِهِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ يَمْسِكُونَهَا عَنِ الْإِنْفَاقِ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَسِطُ يَدَهُ بِالْمَالِ، أَوْ الْمَرَادُ: قَبْضُ أَيْدِيَهُمْ عَنِ كُلِّ خَيْرٍ نَسُوا اللَّهَ عَمَلُوا عَمَلَ النَّاسِي وَ إِنْ كَانُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، فَكَمَا أَنَّ النَّاسِي يَتْرَكَ الْمُنْسِي، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ يَتْرَكُونَ أَوْامِرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَنَسِيَهُمْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَيْ تَرَكَهُمْ وَ شَأْنَهُمْ لَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا وَ لَا يَفْعَلُ بِهِمْ صِلَاحًا.

و ليس المراد «النسيان» حقيقة، لأن الله سبحانه لا ينسى إنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ إِنْ أَظْهَرُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٨ إلى ٦٩]

وَعَيْدَ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُ لَهُمْ وَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُتِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)

الإيمان، و «الفسق» عبارة عن الخروج عن الطاعة. و هذه الآية تعطى ميزان النفاق إلى يومنا، و ما أكثر أمثال هؤلاء في زماننا هذا.

[٦٨] وَ عَيْدَ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ حَوْلَ الْمُنَافِقِينَ مَفْصَلًا، أَمَا الْكُفَّارَ فَذَكَرَهُمْ اسْتِطْرَادَ نَارَ جَهَنَّمَ يَعَذِّبُهُمْ بِهَا جَزَاءَ لِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْإِثْمِ خَالِدِينَ فِيهَا دَائِمِينَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا هِيَ حَسْبُ لَهُمْ أَيْ أَنَّ النَّارَ تَكْفِيهِمْ جَزَاءَ لِدُنُوبِهِمْ وَ كَفْرِهِمْ وَ

نفاقهم وَاَعْتَبَهُمُ اللَّهُ طردهم عن نعيمه و رضوانه، فإن اللعن بمعنى الطرد و لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ يقيم عليهم فلا يجدون خلاصاً منه. و لعل المراد بذلك: العذاب العام في الدنيا و الآخرة، فإن النفاق خلّة يكون صاحبها دائم التعب و النصب لأنه بين المؤمن، المهين له، الحذر منه، و بين الكافر الذي لا يقبله لأنه لم يتمسك بالكفر كما تمسك الكافر الصريح بكفره.

[٤٩] إن هؤلاء المنافقين حالهم كحال الذين مِنْ قَبْلِكُمْ من الكفار و المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان بالأنبياء و يبتغون الكفر، أو يحادون الأنبياء و يكفرون بما أنزل إليهم كانوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً فَإِنْ بَعْضُ الْأُمَمِ كَانَتْ قَوَاهِمُ الْمَادِيَةِ و الجسمية أكثر من أمّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِهِ و سَلَّمَ - كما يشهد بذلك التاريخ - و أَكْثَرُ أَمْوَالًا و أَوْلَادًا لخصوبه النسل فيهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٤

و ازدهار التجارة و العمران عندهم فَاسْتَيْمَتَعُوا بِخَلْقِهِمْ «الخلق» النصيب، أى صرفوا نصيبهم من المال و القوة و الأولاد في الاستمتاع و الملذات عوض أن يصرفوها في شكر المنعم و ما أمر به فَاسْتَيْمَتَعْتُمْ أَنْتُمْ - يا أمّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ و آلِهِ و سَلَّمَ - أى المنافقون منهم بِخَلْقِكُمْ أى بنصيبيكم كما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ دون أن تعتبروا بمصيرهم فتصرفوا نعم الله سبحانه فيما أمر و خُضْتُمْ في الكفر و الاستهزاء و ملاذ الدنيا كَالَّذِي خَاضُوا أى كخوض أولئك الأولين أولئك الذين صنعوا هذه الصنائع السيئة حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ الْحَسَنَةَ، لأن الحسنه لا تقبل مع الكفر و النفاق و العصيان، قال سبحانه: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «١». و معنى الحبط ذهاب الأجر في الدنيا إذ لم ينتفعوا بها، فإن الانحراف عن مناهج الله سبحانه يوجب المشاكل التي لا تكافأ بها الأعمال، فمثلا الثروة توجب رفاه الإنسان، أما إذا كانت مقترنة بالانحراف فإنها توجب الضنك و الضيق عوض الرفاه و الآخرة فلا ثواب لأعمالهم الخيرة و أولئك هُمُ الْخَاسِرُونَ الذين خسروا أنفسهم و كل شىء عندهم.

(١) المائدة: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٠ إلى ٧١]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ و عَادٍ و ثَمُودَ و قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ و أَصْحَابِ مَدْيَنَ و الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ و لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) و الْمُؤْمِنُونَ و الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ و يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ و يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ و يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ و يُطِيعُونَ اللَّهَ و رَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)

[٧٠] أَلَمْ يَأْتِهِمْ استفهام إنكارى، أى ألم يأت إلى هؤلاء المنافقين نَبَأُ أى خبر الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم قَوْمِ نُوحٍ عليه السّلام حيث أهلكتهم الله بالغرق و عَادٍ قوم هود عليه السّلام أهلكتهم الله بالريح و ثَمُودَ قوم صالح عليه السّلام أهلكتهم بالرجفة و قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عليه السّلام نمرو و أتباعه، حيث سلب الله ملكهم و نعمتهم و أَصْحَابِ مَدْيَنَ قوم شعيب عليه السّلام أهلكتهم بعذاب يوم الظلة و الْمُؤْتَفِكَاتِ من «اتفك» بمعنى انقلب، أى البلاد التي انقلبت و هى بلاد قوم لوط عليه السّلام حيث أهلكوا، و ذلك أن الله سبحانه أمر جبرائيل فقلب تلك المدن بأن جعل عاليها سافلها أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أى بالحجج الظاهرة و الأدلة البينة، لكنهم عصوا و أبوا و تمردوا على الله و رسله فأهلكهم الله بذنوبهم و ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ فتعذيبهم بأنواع العذاب لم يكن ظلماً منه سبحانه لهم و لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فقد عوقبوا بسبب تمردهم و عصيانهم، و هؤلاء الكفار و المنافقون حال أولئك، إن تمردوا و عصوا أخذوا بذنوبهم، فليحذروا أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

[٧١] و لما بين سبحانه صفات المنافقين و ما فعل بهم كما فعل بأسلافهم، بين صفات المؤمنين و العاقبة الحسنه التي تنتظرهم و الْمُؤْمِنُونَ و الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فإن كل واحد منهم ينصر صاحبه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٦

[سورة التوبة (٩): آية ٧٢]

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

و يؤيده و يعينه، لأنهم من عنصر واحد و أصل واحد و تجمعهم عقيدة واحدة يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أَى الأمور الحسنه التى يعرفها الناس من واجب أو مندوب شرعا و عقلا و يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الذى ينكره الناس من حرام أو مكروه شرعا و عقلا و يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ يداومون على فعلها و يحثون الناس عليها و يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أى الحق المفروض، أو مطلق الصدقة، فإن الزكاة تطلق عليهما و يُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما يأمرهم و ينهاهم أولئك المؤمنون الذين هذه صفاتهم سَيَّرَحْمُهُمُ اللَّهُ إما المراد: رحمتهم فى الجنة، و لذا دخلت «السين»، و إما المراد: فى الدنيا، و دخول «السين» لإفاده كون الرحمة إنما تأتى بعد مدة من استمرارهم فى العمل و نجاحهم فى الامتحان، فلا يتوقع المؤمن أن تشمله الرحمة فورا بمجرد وقوعه فى مشكله، و إنما تؤخر عنه للامتحان و الاختبار إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ متمكن من إنفاذ إرادته حَكِيمٌ فى تدبيره و فعله، فيفعل الأشياء حسب المصلحة.

[٧٢] وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْخَيْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَأَشجارِهَا خَالِدِينَ فِيهَا دائمين لا يزولون عنها و وعدهم مَسَاكِنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٧

[سورة التوبة (٩): آية ٧٣]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصير (٧٣)

طَيِّبَةً مهيأة فيها الأثاث و الرياش، طيبة الهواء و المرافق بحيث يطيب فيها العيش فى جَنَّاتِ عَدْنٍ العدن، و الإقامة و الخلود، نظائر، أى أنهم فى جنات الخلود.

و ورد فى بعض الأحاديث: «إنها أعلى الجنان مما لم يخطر على قلب بشر»

«١» وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ أى أن رضاه سبحانه على هؤلاء المؤمنين أكبر من كل ذلك، فإن الإنسان إذا علم برضى الكبير منه ارتاح ضميره، فكيف به لو علم برضاه سبحانه عنه.

و من المعلوم أن ارتياح الضمير أكبر من ارتياح الجسد.

ذَلِكَ النعيم الجسدى و الروحى للمؤمنين و المؤمنات هُوَ الْفَوْزُ و النجاح الْعَظِيمُ الذى لا نجاح فوقه و لا فوز أكبر منه و أعظم.

[٧٣] و حيث ذكر سبحانه أحوال الكفار و المنافقين و بين صفاتهم الذميمة، أوجب الجهاد لتخليص البشرية منهم يا أَيُّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالْمَقَاتِلَةِ و المحاربة و بيان عقائدهم السخيفة، فإن هذا الجهاد نوع من أنواع الحرب الباردة- فى الاصطلاح الحديث- و الْمُنَافِقِينَ و جهاد المنافقين بالوعظ و الإنذار لهم، و إجراء الحدود عليهم، و تخويف الناس من النفاق. و قد كان النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ يجاهدهم مرة بإظهار نفاقهم، و تارة بضرب الحصار عليهم، كما قال سبحانه:

(١) المستدرک: ج ٦ ص ٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٨

[سورة التوبة (٩): آية ٧٤]

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٧٤) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا «١»، و أخرى بنهى المؤمنين عن أن يتصفوا بخلة النفاق.

و من المحتمل أن يراد بالمنافق هنا: الكافر المنافق، فإن بعض الكفار يوافق بإظهار الودّ للمسلم و تأليفه و هو ألد الأعداء له، في مقابل الكافر الصريح الذي يظهر عداؤه و شحناه.

وَ اعْلَظْ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَرْتَدَّ عَوًّا، فَإِنَّ الْعَلْظَةَ فِي الْكَلَامِ وَالسَّلَامِ مَعَ شَخْصٍ خَلِيقٍ بِأَنْ يَرُدَّ عَنْ عَمَلِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ (٢)، وَمَأْوَاهُمْ أَي مَحَلُّهُمْ وَ مَصِيرُهُمْ، مِنْ «أَوَى» إِذَا اتَّخَذَ مَكَانًا جَهَنَّمَ وَ بَشَسَ الْمَصِيرُ أَي بَشَسَ الْمَرْجِعَ وَ الْمَأْوَى لَهُمْ.

[٧٤] و من المنافقين من يتأمرن على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ يَقُولُونَ عَنْهُ أَشْيَاءَ، إِذَا اسْتَنْطَقَهُمُ الرَّسُولُ حَلَفُوا بِاللَّهِ كَذِبًا أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ،

فَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ خَرَجُوا مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَى «تَبُوكَ» وَ كَانُوا كَارِهِينَ لِذَلِكَ، فَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ سَبَّوا الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ انْتَقَصُوهُ، فَأَبْلَغَ ذَلِكَ «حَدِيثَهُ» إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَطَلَبَهُمْ وَ قَالَ: مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْتُمُونِي بِهَذَا مَا قَالُوا أَي أَقْسَمَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَفْضِيحَهُمْ

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا أَي أَقْسَمَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ بِاللَّهِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا ضِدَّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةً الْكُفْرِ فَإِنَّهُمْ

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) الفتح: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٢٩

بِسَبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الطَّعْنِ فِي الْإِسْلَامِ صَارُوا كُفَّارًا وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمُ الظَّاهِرِي، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ صَارَ مُسْلِمًا، فَإِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ كَلِمَةُ الْكُفْرِ صَارَ كَافِرًا.

لا يقال: إنهم كفروا و جب عليهم حد المرتد.

لأننا نقول: إنهم كانوا مرتدين عن ملّة، و لا يحدّ مثلهم، و إنما يستتابوا، و إنكارهم كان بمنزلة التوبة، و إن كان توبة صورية لا حقيقية. وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا فَقَدْ أَرَادُوا إِخْفَاءَ نُورِ الْإِسْلَامِ، وَ ذَلِكَ يَتَحَقَّقُ بِكُلِّ مَا يَهْتَمُّ بِهِ الْمُنَافِقُ مِنْ إِرَادَةِ قَتْلِ النَّبِيِّ، وَ إِيجَادِ الْفَسَادِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَ إِخْرَاجِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ وَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى مَا هَمُّوا بِهِ، بَلْ انْعَكَسَ الْأَمْرُ فَقَدْ زَادَ الْإِسْلَامَ عُلْوًا، وَ الرَّسُولَ ارْتِفَاعًا، وَ الْمُسْلِمُونَ سَمَوًا.

و قد ورد في بعض الأحاديث: تأويل الآية بالذين خالفوا الرسول في قصة «غدير خم» و أرادوا إخماد نور الوصي، و قالوا في الرسول كلاما بذيئا «١».

وَ مَا نَقَمُوا النَّقْمَةَ الْإِنْكَارَ وَ الْغَضَبَ، أَي أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَنْكُرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَغْنَى الْمُسْلِمِينَ وَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، بِفَضْلِ إِرْشَادَاتِ الرَّسُولِ، فَلَمْ يَكُنْ

(١) بحار الأنوار: ج ٣٧ ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٠

[سورة التوبة (٩): آية ٧٥]

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

للمسلمين ذنب يستحقون به النعمة من المنافقين، و لكن المنافقين كرهوا ذلك حسدا، أو المراد: أن الله أغنى هؤلاء المنافقين، فكان من اللازم أن يحبوا الله و رسوله حيث أعطاهم الغنائم لكنهم جعلوا مكان الشكر كفرانا، كما يقال: «لم يكرهني فلان إلا لأنني أحسنت

إليه».

فَإِنْ يَتُوبُوا عَنْ نِفَاقِهِمْ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ يَكُ خَيْرًا لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَفِي آخِرَتِهِمْ حَيْثُ يَكُونُونَ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ لَا يَجْتَنِبُ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا يَكْرَهُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَيَقَالُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ «خَيْرٌ» مُقَابِلُ مَا يَظُنُّ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا شِرَاوَقًا وَإِنْ يَتَوَلَّوْا أَيَّ يَسْتَمِرُّوْنَ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَسُلُوكِهِمْ سَبِيلَ النِّفَاقِ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مُؤَلِّمًا مَوْجِعًا فِي الدُّنْيَا بِاجْتِنَابِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ، وَتَضْيِيقِ الْعَيْشِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿١﴾، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنِّكَالِ وَالنَّارِ وَمَا لَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أُمُورَهُمْ وَيُحِبُّهُمْ وَلَا نَصِيرٍ يَنْصُرُهُمْ، فَلَيْسَ كَمَا ظَنُّوا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَنْصُرُونَهُمْ إِذَا وَقَعُوا فِي الْمَشَاكِلِ، فَإِنَّ الْمُنَافِقَ حَيْثُ اخْتَمَرَ عَلَى طَبِيعَةِ النِّفَاقِ، لَا يَنْصُرُ حَتَّى أَخَاهُ وَأَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ.

[٧٥] وَمِنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ أَيَّ عَهْدٍ مَعَ اللَّهِ لِيُنْزِلَ آتَانَا

(١) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣١

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٦ إلى ٧٧]

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخُلُوءًا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)

مِنْ فَضْلِهِ أَعْطَانَا اللَّهُ مِنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ لِنَصَّدَّقَنَّ نَتَصَدَّقَ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فِيمَا أَعْطَانَا اللَّهُ فَنَنْفِقَ الْمَالَ فِي وَجْهِهِ، وَلَا نَكُونَ مَفْسِدِينَ مَسْرِفِينَ.

رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ ثَعْلَبُ بْنُ حَاطِبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ كَانَ مُحْتَاجًا فَعَاهَدَ اللَّهَ، فَلَمَّا آتَاهُ بِخُلُوءًا بِهِ. وَفِي التَّفَاسِيرِ: أَنَّهُ قَالَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا. فَقَالَ: يَا ثَعْلَبُ «قَلِيلٌ تَوَدَّى شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ» فَقَالَ:

وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِنَنْزِلِ رِزْقِي اللَّهُ مَالًا لِأَعْطِينَ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ.

فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاتَّخَذَ غَنَمًا، فَنَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ حَتَّى ضَاقَتْ بِهَا الْمَدِينَةُ، فَنَزَلَ وَادِيًا وَانْقَطَعَ عَنِ الْجَمَاعَةِ وَالْجَمْعَةِ، وَبَعَثَ رَسُولَ اللَّهِ الْمَصْدُقَ لِيَأْخُذَ الصَّدَقَةَ، فَأَبَى وَبَخَلَ وَقَالَ: مَا هَذِهِ إِلَّا أُخْتُ الْجَزْيَةِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا وَيْحَ ثَعْلَبُ يَا وَيْحَ ثَعْلَبُ» ﴿١﴾.

[٧٦] فَلَمَّا آتَاهُمْ أَيَّ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَجُودَهُ مَا طَلَبُوهُ بِخُلُوءًا بِهِ وَ لَمْ يَدْفَعُوا حَقَّهُ وَ لَمْ يَفُوا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ وَ تَوَلَّوْا أَيَّ أَعْرَضُوا عَنِ إِعْطَاءِ حَقِّهِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ دِينِ اللَّهِ وَ أَحْكَامِهِ وَ أَوْامِرِ الرَّسُولِ وَ أَعْمَالِ الْخَيْرِ.

[٧٧] فَأَعْقَبَهُمْ فَأُورِثَهُمْ بِخُلُوءٍ وَ نَقَضَهُمْ لِعَهْدِ اللَّهِ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ

(١) مستدرک الوسائل ج ١٣ ص ٢٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٢

[سورة التوبة (٩): آية ٧٨]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ أَمْرِ كَبِيرٍ لَا يَدْرِي وَ أَنْ يَخْتَلِقَ لِنَفْسِهِ تَبْرِيرَاتٍ وَ أَعْدَارًا، لِيَبْرِرَ مَوْقِفَهُ، وَ ذَلِكَ هُوَ النِّفَاقُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ أَيَّ يَلْقَوْنَ جِزَاءَ بَخْلِهِمْ، فَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْبَخْلِ، وَ أُرِيدَ بِهِ جِزَاءَهُ، أَوْ الْمَرَادُ نَفْسَ الْبَخْلِ، بِنَاءٍ عَلَى تَجْسِيمِ الْأَعْمَالِ، أَوْ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى

الله سبحانه المعلوم من السياق، و «ملاقاة الله» إنما هي في القيامة بملاقاة حسابه، فإنه سبحانه منزّه عن المكان والرؤية. وذلك بسبب ما أخلفوا الله ما وعدوه بسبب خلفهم للعهد الذي عاهدوا، من أن الله إذا أعطاهم من فضله تصدّقوا و كانوا شاكرين و بما كانوا يكذبون أى و بسبب كذبهم على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو المراد بالكذب عليه: أن الصدقة أخت الجزية- كما تقدم-.

[٧٨] أَلَمْ يَعْلَمُوا اسْتِفْهَامَ إِنْكَارِي، أى أليس يعرف هؤلاء المنافقون أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ التى يتناجون بها مع أمثالهم من المنافقين؟ فإن المنافق لا بد و أن يتناجى مع أمثاله لجعل حلول و مبررات لموقفهم النفاقي، كما تدور الأسرار فى نفوسهم فيقبلون أوجه الرأى للخلاص من مأزقهم و أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ يعلم ما غاب عن الحواس، من الأمور المختفية فى النفوس، و النجوى، و غيرهما، فإذا علموا ذلك، فلما ذا لا يخشون منه سبحانه و لا يفعلون حسب مرضاته؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٣

[سورة التوبة (٩): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

[٧٩] و كان من المنافقين من يرصدون للمسلمين ليعيونهم، فقد جاء رجل من المؤمنين بصاع من تمر للصدقة، فقال المنافقون: إن الله غنى عن صاعه، و إنما جاء بذلك حتى يذكر فى المتصدقين. و جاء رجل آخر بصرة من دراهم، فقالوا: إنه جاء بذلك للرياء، فعابوا المكتر بالرياء، و المقل بالإقلال، فنزل قوله تعالى: المنافقون الَّذِينَ يَلْمُزُونَ «اللمز» هو الطعن، أى يطعنون الْمُطَّوِّعِينَ أى معطى الصدقة تطوعاً من «اطوع»، أصله «تطوع»، أدغمت التاء فى الطاء، و جىء بهمزة الوصل، لتعذر الابتداء بالساكن مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و لعلّ ذكر هذا للدلالة على أن إيمان المتطوع كان اللانزم أن يحجز القائلين من الطعن بهم، لكنهم منافقون لا- يبالون بالإيمان و المؤمنين فى الصَّدَقَاتِ كما طعنوا فيمن أعطى الدراهم و يلمزون الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ أى إلّا طاقتهم فى الإنفاق و التصدق، كما عابوا من أعطى الصاع فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ و يستهزئون بهم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أى يجازيهم جزاء سخرتهم. و قد تقدم تفصيل الكلام فى سورة البقرة، فى قوله سبحانه: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ «١»، و لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه.

[٨٠]

روى أنه عند نزول آية «الَّذِينَ يَلْمُزُونَ» فى حق المنافقين قالوا: يا

(١) البقرة: ١٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٤

رسول الله استغفر لنا فوعدهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالاستغفار، فنزلت الآية: اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ يا رسول الله أو لا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ الصيغة الأولى للأمر، و المراد بها المبالغة فى الإياس، أى سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر فإنهم لا يستحقون الغفران، و لذا لا يغفر الله لهم إِنْ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً صيغته مبالغة يراد بها الكثرة، كما يقال: «لو قلت لى ألف مرة ما قبلت» لا- يريد الألف، بل المراد أنه لا- يقبل و إن قال فوق الألف فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لأنهم جلبوا على النفاق و الجبل عليه لا يفيد الاستغفار، و هذا ليس إهانته للرسول- كما زعم- بل أفرغ التوبيخ لأولئك فى هذا القالب، كما تقدم فى قوله: (وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) «١».

و إن قيل: كيف جاز للرسول أن يعدهم بما لم يفعل؟

قلنا: إن ثبت الرواية، لم يكن به بأس لأن الاستغفار إنما كان لأجل أن يغفر الله، فإذا أخبر سبحانه بأنه لا يغفر لم يبق للاستغفار مجالاً،

كما لو وعد إنسان بإطعام زيد ثم مات زيد. ثم إنه كان مراد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الاستغفار بالشرط فلم يكن إخباراً مطلقاً حتى يقال أنه يلزم جهله بالمستقبل، وأنه تكلم من عند نفسه، وهذا ينافي قوله تعالى: «مَا يُنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» (٢).

(١) الأعراف: ١٥١.

(٢) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٥

[سورة التوبة (٩): آية ٨١]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)

ذَلِكَ الذى تقدم من عدم قبول توبتهم و عدم فائدة الاستغفار بالنسبة إليهم بسبب أنهم أى المنافقين كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ كَفَرُوا بَاطِنًا، و إن أظهروا الإسلام وَ اللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ فإنه سبحانه لا يلفظ بهم اللطف الخفى بعد أن خرجوا عن طاعته و خالفوا أوامره عن علم و عمل.

[٨١] فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ «المخلف» بصيغته المفعول من باب «التفعيل» هو المتروك خلف من مضى، و سَمِيَ مَخْلُفًا لِأَنَّهُ تَخَلَّفَ بِنَفْسِهِ، أَوْ خَلَّفَهُ شَخْصٌ آخَرَ وَ أَبْقَاهُ، كَالْمُؤَخَّرِ، بِمَقْعِدِهِمْ هُوَ «مصدر ميمي» بمعنى «العودة» أى أن من تخلفوا عن الجهاد فى تبوك، فرحوا بعودهم خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ أى بعده، أو بمعنى: بقاؤهم خِلَافًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقد فرحوا بأنهم نجوا من تلك السفرة المتعبة الخطرة وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ تَرْجِيحًا لِلرَّاحَةِ عَلَى التَّعَبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَقَالُوا قَالَ أَوْلَئِكَ الْمَخَلَّفُونَ لِلْمُسْلِمِينَ وَ لِنظرائهم من المنافقين: لا- تَنْفِرُوا أى لا تذهبوا للجهاد فى الْحَرِّ فَإِنَّ وَقْتِ خُرُوجِهِمْ كَانَ مُضَادًّا لِلْحَرِّ الشَّدِيدِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ: نَارُ جَهَنَّمَ التى تجب للمخلف أشدَّ حَرًّا مِنْ هَذِهِ الْحَرَارَةِ التى يلاقونها المجاهدون، فهى أولى بالاحتراز من هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٦

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٢ الى ٨٣]

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لِيُبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أى يفهمون، و المعنى: أنهم لو فقهوا لعلموا أن نار جهنم أولى بالاحتراز و التجنب.

[٨٢] إن الفرح الذى فرحه المخلفون بسبب بقائهم يوجب لهم العذاب الدائم، فاللازم أن يضحكوا قليلا- لأنه لم يبق لهم مجال للضحك، فقد استحقوا بذلك العقاب، و المهتد لا يضحك فليضحكوا قليلا إنه ليس أمرا بالضحك و إنما بيان لوجوب التقليل من ضحكهم و ليُبْكُوا كَثِيرًا حيث عملوا ما يستحقون به البكاء حيث اشتروا النار بفرارهم من الزحف جزاءً بما كانوا يكسبون من النفاق و التخلّف عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[٨٣] فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْغَزْوَةِ- غَزْوَةُ تَبُوكَ- إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ خُصُوصِيَّةَ الرَّجُوعِ إِلَى الطَّائِفَةِ، وَ إِنَّمَا الْمَقْصُودُ تَرْتِيبُ الْأَثْرِ عَلَى تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ تَبُوكَ فَاسْتَأْذَنُوكَ أى طلبوا منك الإذن للخروج معك إلى غزوة أخرى فَقُلْ لَهُمْ: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا إِلَى الْغَزْوَةِ وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا فَإِنَّا قَطَعْنَا عَنْكُمْ وَ لَا صِلَةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ الَّذِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٧

[سورة التوبة (٩): آية ٨٤]

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)

يخالفوننا، وكونوا معهم دائما، إن الذي يترك الإنسان في ساعة العسرة لا يصلح أن يكون معه، فطبعه طبع انهزامي مخلد إلى الدعة، و لو خرج لم يزد إلا خبالا و خذلانا، فلذا كان اللزوم أن يجتنب عنه إطلاقا، بالإضافة إلى أن الإسلام في غنى عنه، و هو لا يستحق شرف الجهاد فليبق في بيته و يكن مع الخالفين.

[٨٤] ثم نهى سبحانه نبيه عن الصلاة على مثل هؤلاء المنافقين ليحذر غيرهم من النفاق، ولأنهم لا يستحقون الرحمة والغفران ولا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَي إِذَا مَاتَ أَحَدٌ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ فَلَا تُصَلِّ عَلَى مَيِّتِهِمْ أَبَدًا أَي إِلَى الْأَبَدِ، فَإِنَّهُ تَجُوزُ الصَّلَاةُ عَلَى مَنْ لَمْ يَصَلِّ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ - عَلَى قَوْلٍ - لَكِنَّ الْمُنَافِقَ لَا - يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَلَا - تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ أَي لَا - تَقِفْ عَلَى قَبْرِهِ لِلدَّعَاءِ كَمَا هُوَ عَادَةٌ النَّاسِ أَنْ يَقِفُونَ عَلَى قَبْرِ الْمُسْلِمِ يَدْعُونَ لَهُ وَيَسْتَغْفِرُونَ مِنْ أَجْلِهِ.

و ذلك بسبب إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِسْلَامِهِمْ الظاهري إنما حقن دماءهم و حفظ أموالهم و أعراضهم، لكنه لم يدخلهم في زمرة المؤمنين الذين لهم الكرامة و ماتوا و هم فَاسِقُونَ خارجون عن طاعة الله سبحانه. ثم إن المراد ب «الصلاة» طلب الرحمة له، كما أن المراد ب «الوقوف على قبره» ذلك، فلا ينافي ذلك ما فعله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعبد الله ابن أبي المنافق الذي مات فصلَّى الرسول عليه، و لعنه عقيب الرابعة. ثم إنه قد اختلفت الأقوال حول هذا المنافق مما لا يهمننا التعرض له.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٨

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٥ إلى ٨٦]

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)

[٨٥] وَلَا - تُعْجِبْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَي لَا تَنْظُرُ نَظْرَةَ إِعْجَابٍ - الْمُسْتَلْزِمَةَ لِلتَّكْرِيمِ - أَمْوَالُهُمْ أَي أَمْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَأَوْلَادُهُمْ الْكَثِيرَةَ، كَيْفَ قَدْ مَنْحُوا ذَلِكَ، وَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَكْرِيمِ اللَّهِ لَهُمْ، بَلْ بِالْعَكْسِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ «زَهَقَ النَّفْسُ» عِبَارَةٌ عَنْ هَلَاكِهَا وَهُمْ كَافِرُونَ فَهَمَّ بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا لِلْمَالِ وَالْأَوْلَادِ مِنَ التَّبَعَةِ وَالْهَمُومِ، وَ بَيْنَ عَذَابِ الْآخِرَةِ حَيْثُ أَنْهَمُ يَمُوتُونَ مَعَ الْكُفْرِ. وَ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَرَاجِعْ.

و لعل المقصود من تكرار الآية: النهى عن هذا النوع من التكريم اللاشعوري للكفار و المنافقين، فإن نظر الإعجاب هو نظر التكريم، فيختلف المقصود هنا من المقصود هناك.

[٨٦] وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَتَضَمَّنُ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ إِذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ إِذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، أَي آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا، وَ إِذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَصْدِ إِبْقَائِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَ اسْتِقَامَتِهِمْ فِيهِ نَحْوُ «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ، فَأَمَّنُوا، وَ ادْعُوا غَيْرَكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْجِهَادِ اسْتَأْذَنَكَ أَي طَلَبَ مِنْكَ الْإِذْنَ فِي عَدَمِ الْجِهَادِ أُولُو الطُّولِ أَي أَصْحَابُ الْمَالِ وَ الْقُدْرَةِ وَ الْغِنَى مِنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَقَالُوا ذَرْنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٣٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرَّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَ أَوْلِيكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

أى دعنا نكن مَعَ الْقَاعِدِينَ الَّذِينَ لَيْسَ عَلَيْهِمْ جِهَادٌ، مِنَ النِّسَاءِ وَ الصِّبْيَانِ وَ الْعَاجِزِينَ.

[٨٧] رَضُوا أَى رَضَى هؤَلاءِ المنافقينِ بِأَنَّ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ جمع «خالفة»، و هى المرأةُ سميت به لأنها تتخلف عن الجهاد، أو هو أعم من «الخالف» فإن «فارس» يجمع على «فوارس»، و المراد: كل من تخلف عن الجهاد من النساء و الصبيان و العاجزين و طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَإِنَّهُمْ بسبب نفاقهم طبع عدم الإيمان على قلوبهم فَهُمْ لا- يَفْقَهُونَ قبح عملهم و تركهم للجهاد، كشأن كل إنسان انغمر فى الشهوات و المفساد، فإنه لا يعرف قبح عمله بل يراه حسنا.

[٨٨] لَكِنَّ الرِّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ إيماناً صادقاً جاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ بِإنفاقها فى سبيل الله. و سُمى جهاداً لأن بذل المال يحتاج إلى جهد النفس و تعبها و أَنْفُسَهُمْ يقاتلون الكفار و يجالدون المردة الفجار و أُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ المنافع و الأشياء الخيرة من خيرات الدنيا و الآخرة، فإنهم يحرزون حسن السمعة و المال فى الدنيا، و النعيم فى الجنة و أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون الناجحون.

[٨٩] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى من تحت أشجارها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٠

[سورة التوبة (٩): آية ٩٠]

وَ جَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)
و قصورها، فهم مشرفون على الأنهر الجارية، و فى ذلك لذة و متعة خالدين فيها أبداً لا خروج لهم منها، و لا زوال لنعيمها عنهم ذلك الإحراز للخيرات و للجنات الفُوز العظيم الذى لا شىء أعظم منه.

[٩٠] أمام الحركات ينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف: قسم يأتى و ينضم إلى الحركة، و قسم لا يأتى و لا يعتذر، و قسم يأتى و يعتذر. و هكذا حدث فى غزوة تبوك، فالمؤمنون الصادقون انضموا إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و المنافقون بعضهم جاء ليعتذر بلا مبرر، و بعضهم لم يجرى إطلاقاً حتى للاعتذار و جاء الْمُعَذَّبُونَ من «اعتذر» باب «التفعل» بمعنى: أبدى العذر بدون أن يكون ذا عذر فى الحقيقة مِنَ الْأَعْرَابِ إما المراد بهم:

أهل البدو، و إما المراد: أهل الحضر، لكنهم شبهوا بالأعراب فى عدم استحقاقهم التكريم، كما قال سبحانه: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا) «١».

جاء هؤَلاءِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ أَى يأذن لهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى التخلف عن الجهاد و قَعَدَ المنافقون الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فى باطنهم، و إن أظهروا التصديق فى الظاهر- كما هو شأن المنافق- فإن هؤَلاءِ لم يأتوا إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم للاعتذار بل قعدوا فى مكانهم و كأن أمراً لم يحدث سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ من هؤَلاءِ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه، و إنما خصص جماعة منهم لأنهم لم يكفروا كلهم، فالمعذورون من

(١) التوبة: ٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤١

[سورة التوبة (٩): آية ٩١]

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمُرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١)

الأعراب غالباً لا ينطون على الكفر، و إنما يتخلفون تكاسلاً.

[٩١] ثم بين سبحانه أهل الأعدار الذين يسقط عنهم الجهاد بقوله: لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ جمع «ضعيف» كالشيخ الكبير، و الضعيف البنية، و العاجز لعمى أو زمانه أو ما أشبه- مما لا يسمّى مرضاً- وَ لَا عَلَى الْمُرْضَى جمع «مريض» و هم أصحاب الأسقام و العلل المانعة عن الجهاد وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ ليست معهم نفقة الخروج و أسباب السفر حَرَجٌ ضيق، فلا جناح عليهم فى التخلف عن

الجهاد إذا نصَّحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بِأَنْ أَخْلَصُوا الْعَمَلَ مِنَ الْفُسُوقِ، وَكَانُوا نَاصِحِينَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِمْ. وَ لَيْسَ الْمَعْنَى: وَجُود الْحَرْجِ لغير الناصح- من جهة عدم الجهاد- بل المراد: أن عدم الحرج المطلق إنما يترتب على العاجز الناصح، أما العاجز المنافق فعليه حرج من جهة نفاقه.

مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ لَّا سَبِيلٍ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ وَ لَّا جَنَاحَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ مُحْسِنُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ. وَ لَّا يَخْفَى أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مريد الإحسان لا جناح عليه و إن أساء، فإن الظاهر منها أن المحسن حقيقته لا جناح عليه و الله غفورٌ لذنوبهم رَحِيمٌ بهم، فلا يحملهم فوق طاقتهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٢ إلى ٩٣]

وَ لَّا- عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِ لِحَمَلِهِمْ قُلَّتْ لَّا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) [٩٢] و لا- سبيل و جناح على الذين إذا ما اتَّوَكَّاتِ «ما» زائدة تأتي لتزيين الكلام، أى إذا جاءوك يا رسول الله لِحَمَلِهِمْ أى يسألونك مركبا يركبون عليه ليجاهدوا قُلَّتْ يا رسول الله: لَّا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ فليس عندى مركب تركبونه تَوَلَّوْا أى رجعوا و أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَعْيُنُهُمْ تسيل بالدموع من حزنهم أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ ينفقونه لأجل تهيئته وسائل الجهاد.

ورد أن سبعة من الأنصار جاءوا إلى الرسول يطلبون منه المركب ليرافقوه فى غزوة، فاعتذر منهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأنه لا يجد ما يحملهم، فرجعوا باكين «١». و فيهم نزلت الآية.

[٩٣] إِنَّمَا السَّبِيلُ أى السبيل لعقابهم و لومهم على الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ يطلبون إذنك للتخلف عن الجهاد و البقاء فى المدينة و هُمْ أَغْنِيَاءُ قادرون على الجهاد و نفقاته رَضُوا أى رضى هؤلاء المستأذنون بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ من النساء و الصبيان و العاجزين وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بسبب نفاقهم فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بأن تخلفهم عن الجهاد بسبب

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٣

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الحادى عشر من آية ٩٤ من سورة التوبة إلى آية ٦ من سورة هود

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٥

[سورة التوبة (٩): آية ٩٤]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَّا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)

[٩٤] لذكر طرفا سيرا من هذه الغزوة «تبوك» من كراس «رسول الإسلام فى المدينة» من السلسلة التى وضعناها فى قادة الإسلام «١»: لما خرج الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من المدينة استعرض الجيش فكانوا ثلاثين ألفا، فغمر الجيش الفرح لكثرة عددهم، لكنهم عانوا فى هذه السفرة أشد أنواع الجوع و العطش، فالمضرة كبيرة، و الحر شديد، و القلوب متعلقة بالمدينة، إذ نضجت الثمار، و حان قطفها، و المركوب قليل، حتى أن العشرة منهم كانوا يتناوبون فى ركوب جمل واحد، و الطعام قليل جدا، ففى بعض الأحيان كان نفران منهم يتقاسمان ثمرة واحدة شق لهذا و شق لذاك، و أصابهم أشد العطش فكانوا ينحرون إبلهم العزيرة، لينقبوا كروشها، و

يشربوا ماءها، أو يعتصروا فرثها ليشربوا عصيره ثم يجعل ما بقى على كبده، حتى أن بعضهم رأى الموت بعينه، فطلبوا من النبي الاستسقاء، فدعا صلى الله عليه وآله وسلم رافعا يديه إلى السماء. قال الراوى: فلم يرجعوا حتى هطلت السماء بمطر غزير. هذا بالإضافة إلى الإشاعات التي ملكت القلوب- وإن سارت بأجسامها مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم- أنه لا بد وأن تقضى جيوش الروم الهائلة المنظمة على الجيش الإسلامي، فلا يبقى منه أحد ..

و سار الرسول حتى وصل «تبوك» وقد كان «هرقل» وزع رواتب سنه كامله على جيشه، كما وزع أموالا- طائله على القبائل التي استخدمها لقتال المسلمين، وهم لخم و جذم و عاملة و غسان و غيرها ... وقد أتت الروم أبناء هائلة عن جيش المسلمين، مما رأوا أن

(١) للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٦

من الصالح عدم دخولهم فى قتال لا يعرف مصيره، وقد كان الروم شاهدوا فى حرب «مؤتة» قتال المسلمين، فإذا لم يتمكن جيشهم، و عدده «مائتا ألف» من جيش «مؤتة» الذى كان بقيادة جعفر عليه السلام و عدده «ثلاثة آلاف» فكيف يقاوم جيش الإسلام كله و هم لا يعلمون عدده من الكثرة بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. و لذا قرروا انسحاب الجيش، فانسحبوا قبل الاصطدام بجيش المسلمين.

وصل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى «تبوك» فلم يلق جيشا، فاستشار أصحابه فى غزو بنى الأصفر- أى الروم- و الرجوع إلى المدينة؟ فأشاروا على الرسول بالرجوع، فبقى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هناك عشرين يوما، و عقد الاتفاقيات مع الزعماء و القبائل، فأرسل إلى أصحاب أيلة: «يوحنا بن روبه» بالإذعان للمسلمين أو الغزو؟ لكن «يوحنا» كان رجلا حكيما، فاختار الإذعان، و تم الاتفاق بإعطائه الجزية للدولة الإسلامية، و عدم التعرض للدعوة الإسلامية ... و عقد الصلح بين المسلمين و بين أهل «جرباء» و هى قرية فى منطقته «عمان» بالبقاء، من أراضى الشام، على مثل المصالحة مع صاحب أيلة ... و عقد الصلح بين المسلمين و بين أهل «أذرح» قرية أخرى قريبة من الجرباء بمثل مصالحة الجرباء .. و تم الصلح بين المسلمين و بين «الأكيدر» ملك «دومة الجندل» على بذل الجزية و عدم التعرض للمسلمين.

و انتظر الرسول جيوش الروم لكنها لم تزحف، فأخذ الجيش الإسلامى طريقه إلى المدينة بعد ما أمن الحدود الشمالية، و صارت له منعة و قوة، و فتحت مجالات الإسلام فى القلوب و المدن و القرى، و إذا بالمدينة تشهد غبار جيش الإسلام المنتصر على الإمبراطورية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٧

يبدو فى الأفق البعيد، و يقترب رويدا رويدا، و إذا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يزحف بهذه الجيوش المنتصرة فى هيبه الرسالة السماوية، و يلتقى الإمام بالرسول تلاقى الأخ بأخيه فى فرح و سرور، فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد خلف عليا فى المدينة لئلا يفسد المتخلفون الجو، كما كانوا قد تأمروا، و هناك قال له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى» (١)،

و يجيء المتخلفون عن الجيش، ليعتذروا عما تقدم منهم من تفریط، و يطهروا آثامهم السالفة بالتوبة و الندم يعْتَدِرُونَ أى يعتذر المتخلفون من المنافقين الذين كان عددهم ثمانين، و قد تخلفوا فى المدينة خوفا و نفاقا، و إرادة للتآمر على الرسول، و قلب أوضاع المدينة إَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ من غزوة «تبوك» بأعذار كاذبة باطله لا حقيقة لها و لا واقع، كما هو شأن المنافق فى كل زمان قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: لا تَعْتَدِرُوا إِنِ اعْتَذَرَ كَمْ لا يفيدكم، فإننا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ أى لن نصدقكم فى ما تقولون قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ أَخْبَرْنَا اللَّهُ عز اسمه مِنْ أَخْبَارِكُمْ و أعلمنا حقيقة أمركم، و أنكم لم تخرجوا نفاقا و جبنا لا لعذر مشروع.

و في بعض التفاسير أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نهى المسلمين أن يكلموهم أو يجالسوهم ليدوقوا وبال أمرهم، و لئلا يتجرأ أحد على خرق أوامر

(١) بحار الأنوار: ج ٣١ ص ٣٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٨

[سورة التوبة (٩): آية ٩٥]

سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)
الله و الرسول «١».

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ أَي سَيَنْظُرَانِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى أَعْمَالِكُمُ الدَّالَّةُ عَلَى نِفَاقِكُمْ وَ عَدَمِ صِحَّةِ أَعْدَارِكُمْ، فَإِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ دَلِيلٌ عَلَى عَمَلِهِ فِي الْمَاضِي، فَعَمَلُهُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ ثُمَّ تَرُدُّونَ أَي تَرْجِعُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فِي الْآخِرَةِ، وَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ: التَّهْدِيدُ، وَ فِي الْآخِرَةِ سَيَحْسَبُكُمْ اللَّهُ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْكُمْ، كَمَا يَقُولُ الْحَاكِمُ لِلْمَجْرِمِ: «سَتَرِدْ إِلَيَّ» يَرِيدُ تَهْدِيدَهُ بِالْعِقَابِ فَيَبْتَلِيكُمْ أَي يُخَبِّرُكُمْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا.

[٩٥] وَ جَاءَ رَئِيسُ الْمُنَافِقِينَ «عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي» حَالِفًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يَتَخَلَّفَ بَعْدَ هَذِهِ الْغَزْوَةِ، وَ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ سَيَجْلِفُونَ سَيَقْسِمُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ أَيهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ وَ وَصَلْتُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ لِتَصْفَحُوا عَنْ جُرْمِهِمْ، وَ لَا تَتَوَخَّوهُمْ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِعْرَاضَ رَدٍّ وَ إنْكَارٍ، لَا إِعْرَاضَ صَفْحٍ. وَ مِنَ الْبَلَاغَةِ التَّشَابَهُ فِي اللَّفْظِ وَ الْاِخْتِلَافُ فِي الْمَعْنَى.

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٤٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ٩٦ إلى ٩٧]

يَجْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧)

إِنَّهُمْ رَجِسٌ أَي نَجِسٌ، وَ الْمُرَادُ نَجَاسَةُ بَاطِنِهِمْ، فَهَمُ كَالشَّيْءِ الْمُنْتَنِ النَّجَسِ الَّذِي يَلْزِمُ الْاجْتِنَابَ عَنْهُ، وَ إِلَّا أَصَابَ الْإِنْسَانَ قَدْرُهُ وَ نَتْنُهُ وَ مَا وَاهُمْ مَصِيرُهُمْ جَهَنَّمَ فَهِيَ مُسْتَقَرُّهُمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ النِّفَاقِ وَ الْآثَامِ.

[٩٦] يَجْلِفُونَ لَكُمْ يَحْلِفُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَكُمْ أَيهَا الْمُسْلِمُونَ، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ تَقْوِيَةَ أَعْدَارِهِمْ وَ تَصَدِيقَكُمْ لَهُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ طَلِبًا لِمَرْضَاتِكُمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا سَعَادَتَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ بَيْنَكُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ مَجَامِلَةً، أَوْ لَعَدَمِ عِلْمِكُمْ بِوَقْعِهِمُ النِّفَاقِي فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ فَسَقُوا وَ خَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعُوا عَنِ نِفَاقِهِمْ، قَدْ عَلِقَتْ الْآثَامُ بِقُلُوبِهِمْ فَهِيَ رَجَسٌ نَجِسٌ، وَ الْمُرَادُ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَدَمَ إِظْهَارِ الْمُؤْمِنِينَ الرِّضَا عَنْهُمْ، بَعْدَ مَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُمْ.

[٩٧] وَ بَعْدَ مَا يَنْتَهَى الْكَلَامُ حَوْلَ الْكُفَرِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ نَحْوِهَا، يَأْتِي دَوْرُ ذِكْرِ الْكُفَرِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي، فَإِنَّ أَهْلَ الْبَوَادِي لَوْنَا خَاصًا يَمَيِّزُهُمْ عَنِ أَهْلِ الْمَدِينِ «فَالْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا» لِكُفْرِهِمْ، «مَنْ يَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا» لِمُنَافِقِيهِمْ «مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» لِمُؤْمِنِيهِمْ.

الأعرابُ يقال: رجل أعرابي، إذا كان ساكنًا في البادية سواء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٤٩٨

[سورة التوبة (٩): آية ٩٨]

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)

كان عربياً أو أعجمياً، ويقال: رجل عربى إذا كان من العرب سواء سكن البادية أو المدينة أشد كُفراً و نفاقاً لأنهم حيث كانوا من أهل البادية سرت فيهم جفوة الصحراء و مساوة الجهل، فكفرهم و نفاقهم أشد من كفر كفار أهل المدن و نفاق منافقى أهل الحضر، لبعدهم عن الحضارة و العلم و الآداب و أجدرُّ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَى أَنَّهُمْ أُحْرَى و أولى بعدم العلم بالفرائض و السنن و سائر الحدود التى أنزلها الله سبحانه على رسوله، و إنما قال: «حدود» لأن حدود الأحكام أدق من نفس الأحكام، و لذا كثيراً ما يعرف الناس الأحكام، لكنهم لا يعلمون حدودها، أى خصوصياتها و مميزاتهما، حتى لا يدخل فيها شىء ليس منها، و لا يخرج منها شىء هو منها و الله عَلِيمٌ بهم و بأحوالهم حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى بالنسبة إليهم. و فى الآية دلالة على ذم بقاء الإنسان أعرابياً- ساكناً للبادية-.

[٩٨] و مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَغْرَمًا «المغرم» هو الغرم، و هو نزول نائبةً بالمال، فهم يظنون أن ما أنفقوه فى سبيل الله من جهاد أو غيره غرامه لحقت بأموالهم، حيث لا- يرجون خيره و ثوابه، و لا يصدّقون بما قال الله و الرسول فى سبيل بذل الأموال و أجرها و يَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ أى ينتظر بكم صروف الزمان و حوادث الأيام، فقد كان هؤلاء المنافقون ينتظرون الانكسار و الذلة و الفقر و ما أشبه للمؤمنين. و سميت الحوادث السيئة بالدوائر،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥١

[سورة التوبة (٩): آية ٩٩]

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

لأن الفلك يدور، فإذا دار جاء بالمكروه، و لذا يقال لمن يراد تحذيره:

«لا تغفل من دوران الفلك».

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ هذا دعاء على أولئك الأعراب المنافقين بأن تدور الدائرة الآتية بالعاقبة السيئة عليهم، لا على المؤمنين و الله سَمِيعٌ لَأَقْوَالِهِمُ النِّفَاقِيَّةِ عَلَيْهِمْ بضمائرهم و نواياهم، فيجازيهم عليها.

[٩٩] و مِنَ الْأَعْرَابِ قَسَمٌ طَيِّبٌ وَ هُوَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَيَعْتَقِدُ بِمَا جَاءَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ أحوال المعاد وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ فَيَعْلَمُ أَنَّ إِنْفَاقَهُ يَقْرَبُهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ «قربات» جمع قربة، و هى الأعمال الخيرة التى تورث قرب العبد من الله سبحانه قرباً تشريفياً عِنْدَ اللَّهِ فهى تبقى عنده سبحانه لا تضيع و لا تذهب عبثاً، كما كان يظن بعض المنافقين الذين يتخذون إنفاقهم مغرماً. وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أى يبتغى بما ينفق دعوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأن يدعو له بالخير، فَإِنَّ «الصلاة» بمعنى العطف و الرحمة و الدعاء، فهو عطف على «قربات» أَلَا إِنَّهَا أى نفقاتهم قُرْبَةٌ لَهُمْ موجبة لقربهم إلى ساحه رضا الله سبحانه، فلهم ما ابتغوا، و يبشرون بحسن العاقبة سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ فتغمرهم الرحمة فى الجنة إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لذنوبهم رَحِيمٌ بهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٢

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠٠ إلى ١٠١]

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

يتفضل عليهم بالرحمة والرضوان.

[١٠٠] وبعد ذكر أقسام من أهل البلاد وأهل البادية، يبين سبحانه أحوال الأمة بصورة عامة، وأن فيهم المؤمن والمنافق والكافر، وأن لكل درجات ومراتب والسابقون إلى الإيمان والطاعة الأولون بالنسبة إلى غيرهم، وإن كان فيهم الأول فالأول من المهاجرين المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة أو إلى المدينة والأنصار للإسلام وهم أهل المدينة الذين سبقوا إلى الإيمان والنصرة والذين اتبعوهم بإحسان أي بالإيمان والطاعة، فإن الاتباع يلزم أن يكون لشيء رضى الله عنهم ومعنى رضاه أنه أكرمهم وأوجب لهم الخير والجنة ورضوا عنه فهم فائزون بشرف الرضا، ومن دخل قلبه الرضا عن الرب ارتاح واطمأن وأعد الله لهم جنات تجري تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها وقصورها خالدين فيها أبداً لا زوال لهم عنها، ولا تغير لها عنهم ذلك الرضوان والجنة الفوز العظيم والفلاح الذى يصغر دونه كل شيء، وإنما فضل الله السابقين لما تحملوه من المشاق والأتعاب فى نصره الدين والجهاد فى سبيله.

[١٠١] وممن حوّلكم أى فى أطراف بلدكم من الأعراب الساكنين فى البادية، أى بعضهم منافقون يظهرون الإيمان ويطنون الكفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٣

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٢]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

ومن أهل المدينة أيضا منافقون مردوا أى صاروا ماهرين على النفاق وذكرهم بهذه الصفة للإشعار بخطرهم، فإن المنافق الماهر أكثر خطرا من غيره من المنافقين لا تعلمهم أى لا تدرك حقيقته نفاقهم ولا تعرف أشخاصهم، وهو تقرير لمهارتهم فيه، بحيث يخفون عليك حتى أنك لا تعلم ذلك. وهذا لا غضاضة فيه، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم الغيب إذا شاء الله. ومن المعلوم أن الله إذا لم يشأ تعليمه بشيء لم يعلمه. ومن المحتمل أن يكون لفظه «لا تعلمهم» استعملت بقصد التهويل من نفاقهم، فإن مثل هذا اللفظ يستعمل بقصد شيء آخر غير معناه، فيقال: «أنت لا تعرف زيدا كيف يحسن» يراد بذلك أنه كثير الإحسان.

نحن نعلمهم ونعرف حقائقهم سببنا عنهم مرتين لعل المراد: مرة فى الدنيا بالتضييق عليهم وعدم هدوء بالهم، كما قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) «١»، ومرة فى القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم هو عذاب النار فى الآخرة.

[١٠٢] وآخرون من أهل المدينة ومن الأعراب حولها اعترفوا بذنوبهم

فقد جاء بعض المتخلفين معتردين إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عما صدر منهم من التخلف، وكانوا سبعة ندموا على قعودهم وتخلفهم عن

(١) طه: ١٢٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٣]

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)

الجهاد فى غزوة تبوك لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين، فأيقنوا على أنفسهم بالعذاب فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد، فقدم رسول الله فدخل المسجد وصلى ركعتين - وكانت هذه عادته إذا قدم من السفر - فلما رأهم موثقين سأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يحلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: وأنا أقسم أنى لا أحلهم حتى أؤمر فيهم. فنزلت الآية، فأطلقهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقالوا بعد ما فكهم: هذه أموالنا، وإنما تخلفنا عنك بسببها، فخذها وصدق بها وطهرنا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا»، فنزلت (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ..) «١».

خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَمَلًا آخَرَ سَيِّئًا فَأَنهَم كَانُوا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَأْتُمُونَ بِأوامر الرسول لكنهم تركوا الجهاد في تبوك عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا قَالَ: «عسى» ليكونوا بين الخوف والرجاء إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بالناس يتفضل عليهم بالرحمة. [١٠٣] خُذْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ أَى أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا صَدَقَةً هِيَ بَعْضُ أَمْوَالِهِمْ، وَلِذَا جَاءَ ب «من». و الظاهر من السياق أنها غير الصدقة المفروضة التي هي من الزكاة. وقد قال المفسرون: إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ ثَلَاثَ أَمْوَالِ التَّائِبِينَ وَتَرَكَ لَهُمُ التَّلْثِينَ «٢» تَطَهَّرَهُمْ تِلْكَ الصَّدَقَةُ عَنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٥

و الخطايا، أو المراد تطهرهم أنت بتلك الصدقة، و تطهير الإنسان بالصدقة إنما هو تطهير معنوي، فإن للذنوب نجاسة، و الصدقة توجب تنظيف الإنسان من تلك النجاسة، لأنها موجبة للغفران و حَتَّ الآثَامِ وَ تَزَكِّيَهُمْ بِهَا «التركية» هي التنمية أى توجب لهم النمو، و ذلك أعم من النمو الخلقى و الخلقى و سائر أقسام النمو، و سميت الزكاة زكاة، لأنها توجب نمو صاحبها، أو المال المزكى، و «تزكيهم» خطاب، بخلاف «تطهرهم» المحتمل للأمرين.

وَ صَيَّرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى مَعْطَى الصَّدَقَةِ، وَ الْمُرَادُ ب «الصلاة عليهم» الدعاء لهم، فَإِنَّ الصَّلَاةَ عِبَارَةٌ عَنِ الدَّعَاءِ، فَإِنَّ صَاحِبَ الصَّدَقَةِ إِذَا دَعَا لَهُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ جَبْرًا لِمَا يَحْسَبُ بِهِ مِنْ أَلْمٍ فَقَدْ الْمَالِ إِنَّ صَيَّرَ لَتَكَّ عَلَيْهِمْ سَيَكُنْ لَهُمْ أَى مَوْجِبَةٌ لِسُكُونِ خَاطِرِهِمْ وَ هُدُوءِ بِهِمْ وَ ارْتِيَا حِ نَفُوسِهِمْ.

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا آتَاهُ آتٍ بِالصَّدَقَةِ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ» «١».

و الظاهر تحقق الصلاة بكل لفظ أفاد الدعاء، نحو: «بارك الله لك أو آجرك الله» أو ما أشبهه، كما أن الظاهر من السياق و التعليل أن الحكم عام لا يخص الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و ذلك لأن لنا برسول الله أسوة حسنة، فما دل على الخصوصية استثنى، و ما لم يدل على عموم الأسوة وَ اللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ وَ أَقْوَالِهِمْ عَلَيْهِمْ بِصَدَقَاتِهِمْ وَ مَا نُوْوَهُ

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٦

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٤]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) من النيات الصالحة.

[١٠٤] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَى: أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَدِّقِينَ، أَوِ النَّاسَ جَمِيعًا؟! وَ هَذَا تَحْرِيزٌ لِلنَّاسِ عَلَى التَّوْبَةِ وَ التَّصَدُّقِ، لَا لِأَوْلَئِكَ التَّائِبِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَتَّصَدَّقُوا. فَلَا يُقَالُ: أَنَّهُ لَا مَجَالَ لِمِثْلِ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ إِلَّا لِلْمُنْكَرِ، فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ لِمُرِيدِ الْحَجِّ: «أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ لِلْحَجِّ ثَوَابًا عَظِيمًا»، بَلْ إِنَّمَا يَحْسُنُ قَوْلُ ذَلِكَ لِمَنْ يَرِيدُ الْحَجَّ. وَ إِنَّمَا جَاءَ الِاسْتِفْهَامُ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ التَّائِبِينَ لِإِعْطَاءِ الصَّدَقَةِ لِلْمُنَاسِبَةِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ فَلَا- صَغَارٌ فِي التَّوْبَةِ حَتَّى يَأْنِفَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنَابَةِ، إِنْ طَرَفَ الْقَبُولُ هُوَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ، وَ هَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكْرَهُ الِاعْتِرَافَ لَدَى الْعَظِيمِ، وَ إِنَّمَا يَكْرَهُهُ لَدَى الْحَقِيرِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ أَى يَقْبَلُهَا، فَلَيْسَ الْآخِذُ هُوَ الْفَقِيرُ حَتَّى لَا يَهْتَمُّ الْإِنْسَانُ بِشَأْنِهِ، وَ إِنَّمَا هُوَ سَبْحَانَهُ، وَ ذَلِكَ يَوْجِبُ الْإِعْطَاءَ بِكَثْرَةٍ وَ احْتِرَامًا، لَا بِقَلَّةٍ وَ إِهَانَةٍ، كَمَا هُوَ الطَّبَعُ الْبَشَرِيٌّ فِي إِرَادَةِ إِعْطَاءِ الشَّيْءِ لِمَنْ دُونَهُ.

وفي الخبر: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى يَدِ السَّائِلِ»^(١)، وهذا على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، مبالغته في الأمر. وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ كَثِيرُ قَبُولِ التَّوْبَةِ، إِمَّا بِاعْتِبَارِ الْأَفْرَادِ، وَإِمَّا

(١) فقه القرآن: ج ١ ص ٢٢٢ ..

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٧

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٥]

وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

باعتبار كل فرد حيث أن الإنسان لو عصى ألف مرة وفي كل مرة تاب قبلت توبته، إذا كانت توبته نصوحا الرَّحِيمِ الذي يرحم العباد و يتفضل عليهم.

[١٠٥] وبمناسبة أن الله يقبل التوبة و يأخذ الصدقة، مما يدل على أنه سبحانه مطلع على الأعمال، يأتي السياق لبيان أن كل الأعمال كذلك، وليس ذاك خاصا بالتوبة و الصدقة، و إن الاطلاع ليس خاصا بالله سبحانه بل الرسول و المؤمنون أيضا مشاركون له سبحانه في الاطلاع على أعمال الناس، و إن كان هناك فرق بين الاطلاعين، فالله سبحانه يعلم كل شيء من كل أحد، و الرسول و المؤمنون مطلعون بقدر ما يريد الله سبحانه.

وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ عَامَةً: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ، إِنْ كَانَ الْمَرَادُ صَبَّ الْكَلَامِ عَلَى أَنْ عَمَلَكُمْ سَوْفَ يَرَى، لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ تَجْرَدَ الصِّيغَةُ عَنْ مَعْنَى الْأَمْرِ، أَوْ الْمَرَادُ: اْعْمَلُوا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ يَعْلَمُهَا سُبْحَانَهُ، وَ لَعَلَّ دُخُولَ «السَّيْنِ» لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَ وَجُودِ الْعَمَلِ وَ رَسُوْلُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ ذَلِكَ وَاضِحٌ لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى التَّأْوِيلِ، أُرِيدُ أَنْ النَّاسَ يَعْلَمُونَ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ كَمَا يَعْرِفُونَ مَقَادِيرَ الْأَشْخَاصِ فِي أَعْمَالِهِمْ، مَتَّهِى الْأَمْرُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ الْخَفَايَا بِالتَّفْصِيلِ، وَ الْمُؤْمِنُونَ يَعْلَمُونَ بِالْإِجْمَالِ.

و ربما يقال: إن دخول «السَّيْنِ» لتوحيد السياق بين الله و الرسول و المؤمنين، حيث أنهم لا يرون العمل إلا بعد زمان من وقوعه، كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٨

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٦]

وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

ربما يقال: إن الإتيان بهذه الآية عقب الآية السابقة لإفادة أن التوبة المجردة لا تنفع و إنما اللازم تصديقها بالعمل.

و ما

ورد في بعض الأخبار: أن المراد بالمؤمنين الأئمة عليهم السلام (١)

فهو من باب المصداق الظاهر، و إلا فالعموم على حاله، كسائر الآيات العامة التي لها مصاديق ظاهرة.

وَ سَتُرَدُّونَ أَي تَرْجَعُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ وَالشَّهَادَةِ مَا يَشْهَدُهُ الْإِنْسَانُ أَي يَحْضُرُهُ، وَ هُوَ كُلُّ مَا يَدْرِكُ بِالْحَوَاسِ الظَّاهِرَةَ، أَي سَتَرْجَعُونَ إِلَى عَالِمِ السَّرِّ وَ الْعَلَانِيَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ أَي يُخْبِرُكُمْ لِلْجَزَاءِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

[١٠٦] كان المتخلفون عن غزوة تبوك بين منافق معتذر، و منافق غير معتذر، و مخطئ معترف و هناك آخرون من المتخلفين مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ أَي مُؤَخَّرُونَ مَوْقُوفُونَ، مِنْ «أَرْجَأَ» بِمَعْنَى «أَخَّرَ» فَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْقِسْمُ مُنَافِقًا، وَ لَا مُخْطِئًا، بَلْ إِنَّمَا تَخَلَّفَ تَوَانِيًا عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ حَتَّى فَاتَهُ الْمَسِيرَ، وَ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ قَدْ بَتَّ فِي أَمْرِهِمْ بِشَيْءٍ بَلْ كَانَ مُوَكَّوْلًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ بِتَوَانِيهِمْ، وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَافِقُوا وَ لَمْ تَدْنَسْ قُلُوبُهُمْ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ لِعَصْيَانِهِمْ وَ تَخَلُّفِهِمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ لِنَقَاءِ قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٣٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٥٩

بنياتهم و سبب توانيهم عن غزوة تبوك حَكِيمٌ فيما يفعله بهم من العذاب و التوبة.

لكن الله سبحانه تاب عليهم أخيراً، و هؤلاء هم الذين ذكروا في قوله تعالى في آخر السورة «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» (١) و كان من قصتهم ما ذكره المفسرون حيث قالوا: قد كان تخلف عن رسول الله قوم منافقون و قوم مؤمنون مستبصرون لم يعثر عليهم في نفاق و هم كعب بن مالك و مرارة بن الربيع و هلال بن أمية، فلما تاب الله عليهم قال كعب: ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم إلى تبوك و ما اجتمعت لي راحلتان إلا في ذلك اليوم فكنت أقول: أخرج غدا، أخرج بعد غد، فأني قوي، و توانيت و بقيت بعد خروج النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم أياما أدخل السوق و لا أقضى حاجة، فلقيت هلال و مرارة و قد كانا تخلفا أيضا فتوافقنا أن نبكر إلى السوق و لم نقض حاجة، فما زلنا نقول: نخرج غدا و بعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فندمنا، فلما وافى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم استقبلناه نهتهً بالسلامة فسلمنا عليه، فلم يرد علينا السلام و أعرض عنا، و سلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام.

فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا كلامنا، و كنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد و لا يكلمنا، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقلن: قد بلغنا سخطك على أزواجنا أفتعزلنهم؟ فقال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم: لا تعزلنهم و لكن لا يقربوكن، فلما رأى كعب و صاحبه ما حل بهم

(١) المستدرک: ج ٧ ص ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٠

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٧]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا فِي الْحُسْنَى
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)

قالوا: ما يقعدنا بالمدينة و لا يكلمنا رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و لا إخواننا و لا أهلنا فهلموا نخرج إلى هذا الجبل فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت.

فخرجوا إلى «ذئاب» جبل بالمدينة فكانوا يصومون و كان أهلهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم فلا يكلمونهم، فبقوا على هذه الحالة أياما كثيرة يكون بالليل و النهار، و يدعون الله أن يغفر لهم، فلما طال عليهم الأمر قال كعب: يا قوم قد سخط الله علينا و رسوله و سخط علينا إخواننا و سخط علينا أهلونا، فلا يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه.

فبقوا على هذا ثلاثة أيام كل منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه و لا يكلمه، فلما كان في الليلة الثالثة و رسول الله في بيت أم سلمة نزلت توبتهم على رسول الله، و هو قوله سبحانه: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ...» فأرسل النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم من يبشرهم، و جاءوا مسلمين على الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و قد بان السرور في وجهه الشريف صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و تصدق كعب بثلاث ماله شكر الله تعالى (١).

و في بعض الأحاديث: انطباق الآية على مثل «الوحشى» قاتل حمزة عليه السلام حيث أسلم بعد الجريمة، فإنه مرجأ لأمر الله إما يعذبه و إما يتوب عليه (٢).

[١٠٧] ثم ذكر سبحانه قصة جماعة أخرى من المنافقين الذين ارتبطت

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٠٢.

(٢) راجع الكافي: ج ٢ ص ٣٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦١

قصتهم بقصة تبوك و هم الذين أرادوا أن يتستروا بمسجد «ضرار» لحبك المؤامرات ضد الرسول صلى الله عليه وآله و سلم و المسلمين، و أرادوا انقلاب الأمر في المدينة لكن الله وقي المسلمين شرهم و أعلم الرسول صلى الله عليه وآله و سلم بما نووه من المكر.

فقد روى بعض أهل السير: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب و كان قد تنصّر و له عبادة في الجاهلية و له شرف كبير في قبيلته الخزرج، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم مهاجرا إلى المدينة و اجتمع عليه المسلمون و صارت للإسلام كلمة عالية و أظهرهم الله يوم بدر، شرق أبو عامر بريقه و بارز بالعداوة و ظاهر بها و خرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالؤهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب و قدموا عام أحد.

و كان من أمر المسلمين ما كان، و قد امتحنهم الله عز و جل و كانت العاقبة للمتقين، و كان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم، و أصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، و كسرت رباعيته اليمنى السفلى و شج رأسه صلى الله عليه وآله و سلم.

و تقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم و حثهم إلى نصرته و موافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا نعلم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، و نالوا منه و سبوه، فرجع و هو يقول: و الله لقد أصاب قومي شر. و لما فرغ الناس من أحد و رأى أمر الرسول صلى الله عليه وآله و سلم في ارتفاع و ظهور ذهب إلى «هرقل» ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وآله و سلم فوعده و مناه و أقام عنده، و كتب إلى جماعة من قومه من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٢

الأنصار من أهل النفاق و الريب يعدهم و يمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله و يغلبه و يرده عما هو فيه، و أمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليه من عنده لأداء كتبه و يكون مرصدا لهم إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد «قبا» فبنوه و أحكموه و فرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم إلى تبوك و جاءوا فسألوا الرسول صلى الله عليه وآله و سلم أن يأتي إليهم فيصلى في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره و إثباته، و ذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم و أهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال صلى الله عليه وآله و سلم: أنا على سفر و لكن إذا رجعنا إن شاء الله. فلما قفل صلى الله عليه وآله و سلم راجعا إلى المدينة من تبوك، و لم يبق بينه و بينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه الوحي بخبر مسجد «ضرار» و ما أبطن بانوه من الكفر و التفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم - مسجد قبا - فأرسل الرسول صلى الله عليه وآله و سلم من هدم المسجد و أحرقه، و أمر أن يتخذ مكانه كناسة يلقى فيها الجيف و القمامة، و رد الله كيده، فأصاب أبا عامر قبل رجوعه إلى المدينة بالقولنج و البرص و الفالج و اللقوة، و بقي أربعين يوما في عذاب الدنيا، ثم هلك إلى عذاب السعير «١». و في هذه القصة نزلت هذه الآيات:

و منهم الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَيْبَنًا مَسْجِدًا وَ هُوَ اسْمٌ لِبَقْعَةٍ يَتَّخَذُ لِلصَّلَاةِ، وَ إِنْ كَانَ أَصْلُهُ بِمَعْنَى مَوْضِعِ السُّجُودِ ضَرَارًا أَيْ مَضَارَّةً، فَإِنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ بَابِ «المَفَاعَلَةُ»، يُقَالُ: «ضَارَّ ضَرَارًا وَ ضِيرَارًا»،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٣

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٨]

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨)

فإنهم بنوه لأجل الإضرار بالمسلمين وكُفراً لأجل الكفر وتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ أَى لاختلاف الكلمة وإبطال الألفه، وجعل المسلمين طائفتين، الموالى للرسول، والمخالف له وإِزْصَاداً لأجل الإعداد للفتنة، وأن يجعلوه محل رصد وإشراف لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَهُوَ أَبُو عَامِرِ الرَّاهِبِ. وهذا أبو حنظلة غسيل الملائكة الذى هو من أختيار المؤمنين، وقد تقدم أن أبا عامر كان حرباً للرسول من قبل غزوة تبوك. وقد سماه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ب «الفاستق».

وَلِيُخْلِفنَ أَى يحلف هؤلاء الذين اتخذوا المسجد وكانوا اثني عشر إن أَرَدْنَا أَى ما أَرَدْنَا بِنَانَا لِلْمَسْجِدِ إِلَّا الْحُسْنَى أَى الفعله الحسنه، من إقامة الصلاة، ودرك الجماعة فى الليله الشاتيه والمطره للضعفاء ونحوهم وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فإنهم لم يريدوا بِنَانَه الحسنى، بل السوءه والتأمر على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وكفى بالله شهيدا على ذلك، بالإضافه إلى ما عرف بعد ذلك من الأدله والشواهد.

[١٠٨] لَا تَقُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيهِ فِى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ أَبَدًا يُقَالُ:

«فلان يقوم الليل» أَى يصلى، والمعنى: لا تصل فى ذلك المسجد، ولم يكن هذا خلفاً من الرسول لوعده بالصلاة فيه،

لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إن شاء الله»

فلم يشأ الله ونهاه عن ذلك لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٩]

أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)

أى بنى أصله على تقوى الله، وطاعته مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ منذ أول يوم وضع أساسه، وهو مسجد «قبا» فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما هاجر إلى المدينه أقام هناك أياماً وبنى فيه هذا المسجد وصلى فيه، ثم انتقل إلى المدينه، وبنى فيه مسجده الذى دُفن فى حجره مجاوره له أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ لِلصَّلَاةِ، من مسجد «ضرار».

ولا يراد بهذا أن يصلى النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دائماً فى مسجد «قبا» بل إنه إذا أراد الصلاة هناك - خارج المدينه - فمسجد «قبا» أولى بالصلاة فيه من مسجد «ضرار» فيه فى هذا المسجد. والمراد بالظرف ذلك المكان، أى أن القبيله الموجوده هناك وهم بنو عمرو بن عوف رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا مِنْ لُوثِ الْمَعَاصَى وَالذُّنُوبِ، وليسوا مثل بنى غنم أصحاب مسجد ضرار الذين بنوه، فهم رجال يحبون النجاسه ولوث المعاصى وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ أَى المتطهرين.

وهناك معنى آخر للتطهير

فقد روى عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال لأهل قبا: «ماذا تفعلون فى طهركم فإن الله قد أحسن عليكم الشاء». قالوا نغسل أثر الغائط. فقال النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أنزل فىكم هذه الآيه» «١».

أقول: لأنه كان المتعارف عندهم فى ذلك الوقت الاستنجاء بالخرق والأحجار.

[١٠٩] ثم بَيَّنَّ سبحانه الفرق بين البناءين، وبين الفريقين، وأن أحد البناءين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٥

[سورة التوبة (٩): آية ١١٠]

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

راسخ ثابت و الآخر هاو منهار، و أن أحد الفريقين صلد الإيمان قوى العقيدة، و الآخر شاك ذو ريبه و تزلزل أ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ أَى بنیان أمره و دينه و منهجه على تقوى من الله فهو يتحرى التقوى فى كل أعماله و رضوان أى رضى الله سبحانه، فلا يعمل شيئا إلا إذا علم أن فيه رضاه سبحانه خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ «شفا جرف» نهاية الشىء فى المساحة، و «جرف الوادى» نهايته التى تنجرف بالماء، و «هار الجرف يهور»، إذا أشرف على السقوط و الهدم، و «أنهار» بمعنى سقط. فقد شبه سبحانه بنیان المنافق بالبناء الذى بنى على شفا جرف جهنم و كان الجرف هائر فأنهار الجرف به أى بالبناء، أو أنهار البناء بصاحبه فى نار جهنم فذهبت أتعابه أدرج الرياح. و المعنى: أنه لا يستوى عمل المتقى و عمل المنافق فإن عمل المتقى ثابت راسخ و عمل المنافق هاو منهار و الله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فإن الإنسان الذى صار الظلم عالقا بقلبه، ينغلق فؤاده، فلا تدخله أشعة الهداية. و المراد بعدم الهداية: أنه يتركهم و شأنهم و لا يلفظ بهم الألفاظ الخاصة.

[١١٠] ذاك كان مثل بنيانهم- من بناء المسجد- ثم انتقل سبحانه إلى البناء العام فى حياتهم و مناهجهم فى الدنيا، و انتقل إلى تصويره ببناء حسى يبنى على جرف هار، فكما أن ذلك البناء ينحرف و يسقط، كذلك أعمالهم تسقط بهم فى جهنم. و هنا مثل آخر لعقيدتهم الكائنة فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٦

[سورة التوبة (٩): آية ١١١]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

قلوبهم و المختلجة فى صدورهم لا يزال بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا أَى ما بنوا عليه حياتهم من النفاق ريبه فى قلوبهم سببا للتزلزل و الشك فى قلوبهم، فإن الإنسان كيفما بنى حياته و قرّر منهجه، يكون معتقده و ضميره، فهم مقتسمو القلوب بين المؤمنين و الكافرين «لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء» إلا أن تقطع قلوبهم تصير قطعة قطعة، فتزول الريبة بزوال موضعها، و إلا- فما دام هؤلاء على ذلك البناء و المنهج، فالريبة لازمة لقلوبهم لا تنفك عنها أبدا و الله عليم بنيانهم حكيما فيما يفعله بهم.

[١١١] ثم يحرض الله المؤمنين على الجهاد مبينا الثواب العظيم لمن جاهد قائلا: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَنْفُسَهُمْ فَسَبَّحَانَ، و أموالهم له تعالى، لا يحق لهم أن يخلوا بالنفس أو المال بعد هذه المبايعه التى عقدوها مع الله بقبول الإيمان، و قد كان فى مقابل هذا المبيع بأن لهم الجنة فالجنة بدل بذل النفس و المال فى سبيل الله تعالى. و لا يخفى أن بيع النفس إنما هو لصرفها فى مرضيه لسانا و قدما و قلما و سائر ما يتعلق بالبدن، فليس الأمر خاصا بالجهاد، و من أهم الأغراض فى هذه المعاملة ما بينه بقوله: يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لأجل إعلاء كلمته فيقتلون الكفار تارة و يقتلون يقتلهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٧

الكفار تارة أخرى، و كون الجنة لهؤلاء و وعدا على الله حقا و «وعدا» منصوب بالمصدر، لأن «اشترى» يدل على أنه سبحانه وعد بذلك، فإن المعاملة تستوجب وعد الطرفين ببذل السلعة، و بذل المال فى التوراة لموسى عليه السلام كان هذا الوعد و الإنجيل لعيسى عليه السلام و القرآن فإن وعد الجنة لمن باع نفسه و ماله فى سبيل الله مذکور فى هذه الكتب الثلاثة لهؤلاء الأنبياء العظام.

و مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ استفهام فى معنى الإنكار، أى لا أحد أكثر وفاء من الله، فهو إذا وعد لا يخلف البتة، أما غيره فإنه و إن كان لا يخلف بإرادته، لكنه قد يطرأ ما يضطره إلى الخلف فاستبشروا أيها المؤمنون ببيعكم الذى بايعتم به الضمير فى «به» يرجع إلى

«بيعكم» أى: افروحا بهذه المعاملة، و «الاستبشار» هو شدة الفرح الذى يظهر أثره فى وجه الإنسان، و أى بيع أحسن من هذا؟ إنه إعطاء المال لمالكة ثم أخذ العوض منه، ثم إن النفس فى سبيل الفناء، و المال فى سبيل الذهاب، فما أفضل أن يشتري بهما الإنسان شيئا باقيا دائما.

قال الإمام على عليه السلام: و إن كانت الأبدان للموت أنشأت* فقتل امرئ بالسيف فى الله أفضل (١)

(١) ديوان الإمام على عليه السلام: ص ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٨

[سورة التوبة (٩): آية ١١٢]

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرْتَدُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النََّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

و قيل

و إن كانت الأموال لا بد تنفى* فتقديمها لله و الدين أجمل

و ذلك البيع هو الفوز العظيم و الفلاح الذى لا يقابله فلاح.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها» (١).

و فيه: «فلا أموال بذلتموها للذى رزقها و لا أنفس خاطرتم بها للذى خلقها» (٢).

قال الشاعر:

أنفاس عمر ك أثمان الجنان فلاتشرب بها لها فى الحشر تشتعل

و قد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و أهل بيته الطاهرين من أفضل مصاديق هذه الآية.

[١١٢]

روى فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه لما نزلت هذه الآية:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» قام رجل إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: يا نبى الله أ رأيتك الرجل يأخذ سيفه فيقاتل حتى يقتل، إلّا أنه يقترب من هذه المحارم أ شهيد هو؟ فأنزل الله على رسوله: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...» (٣).

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار رقم ٤٥٦.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١١٦.

(٣) التوبة: ١١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٦٩

أقول: قد وصف سبحانه المؤمنين الذين اشتري أنفسهم و أموالهم مقابل الجنة بهذه الأوصاف فقال: التَّائِبُونَ أى الراجعون إلى طاعة الله، من «تاب» إذا رجع. و لا يخفى أن الرجوع و التوبة لا يلازمان العصيان، و لذا ورد فى القرآن: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ) (١)، فإن العصيان أشد أفراد البعد عنه سبحانه، و إلّا فكل نومة و أكلة و تكلم مع الناس مما يسبب الغفلة عنه سبحانه تحتاج إلى التوبة و الأوبة. فلا يقال: كيف وصف الإمام عليه السلام- و هو معصوم- بالتوبة، بعد ما ذكرتم أن الآية نزلت فى شأنه؟ ثم إن «التائبون» رفع بالقطع، أى هم التائبون، كما قال ابن مالك:

واقطع أو اتبع إن يكن معيناً بدينها أو بعضها اقطع معلنا

الْعَابِدُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلاَ يَشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً الْحَامِدُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ السَّائِحُونَ الَّذِينَ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، أَى سَيِّرُونَ فِيهَا، لِلإِعْتِبَارِ وَ لطلب العلم كما قال سبحانه: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) «٢».

و ينسب إلى الإمام عليه السلام:

تغرب عن الأوطان في طلب العلاء سافر ففي الأسفار خمس فوائد

و في بعض التفاسير: أن المراد ب «السائح» الصائم، لقول

(١) التوبة: ١١٧.

(٢) الملك: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٠

[سورة التوبة (٩): آية ١١٣]

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: «سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصِّيَامِ» «١».

الرَّاكِعُونَ الَّذِينَ يَرْكَعُونَ، إِمَّا مَطْلَقًا لِاسْتِحْبَابِ الرُّكُوعِ تَعْظِيمًا لَهُ سُبْحَانَهُ، أَوِ الْمُرَادِ الرُّكُوعَ فِي الصَّلَاةِ السَّاجِدُونَ فِي الصَّلَاةِ أَوْ مَطْلَقًا الْأَمْزُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ هُوَ كُلُّ حَسَنٍ يَسْتَحْسِنُهُ الشَّرْعُ أَوْ الْعَقْلُ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ هُوَ كُلُّ قَبِيحٍ يَسْتَقْبِحُهُ الشَّرْعُ أَوْ الْعَقْلُ. وَ لا يَخْفَى أَنَّهُ بِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَا، لَيْسَ تَرَكَ كُلُّ مَعْرُوفٍ مُنْكَرًا، فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ مِثْلًا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مَعْرُوفٌ فَلَيْسَ تَرَكَهَا مُنْكَرًا، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ تَرَكَ كُلُّ مُنْكَرٍ مَعْرُوفًا فَكُلُّ الْجَبَنِ - وَ هُوَ مُكْرَهُ - مُنْكَرٌ فَلَيْسَ تَرَكَ أَكَلَهُ مَعْرُوفًا. نَعَمْ يَتَلَازِمُ الْأَمْرَانِ فِي الْوَاجِبِ وَ الْحَرَامِ.

وَ الْحَافِظُونَ لِجُدُودِ اللَّهِ أَى الْعَامِلُونَ بِالْحُدُودِ، الْقَائِمُونَ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْعِبَادَةِ وَ الْمَعَامَلَةِ، وَ سَائِرِ مَا وَرَدَ فِي الشَّرِيعَةِ وَ بَشَّرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، بِأَنَّ لَهُمْ كُلَّ خَيْرٍ وَ سَعَادَةٍ.

[١١٣] وَ لَمَّا سَبَقَ حَرْمَةُ مَوَالَةِ الْكَافِرِينَ وَ الْمَنَافِقِينَ حَتَّى الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ، وَ الْقِيَامِ عَلَى قُبُورِهِمْ، وَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِهِمْ، بَيْنَ سُبْحَانِهِ حَرْمَةُ الْاسْتِغْفَارِ لَهُمْ أَحْيَاءً كَانُوا أَمْ أَمْوَاتًا، فَإِنَّ الْاسْتِغْفَارَ أَى طَلَبَ غَفْرَانِ اللَّهِ لَعَدُوِّ اللَّهِ لَا يَصِحُّ، إِذْ هُوَ غَيْرُ قَابِلٍ لِلْمَغْفَرَةِ. وَ ذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ: أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: هَلْ

(١) مستدرک الوسائل: ج ٨ ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧١

[سورة التوبة (٩): آية ١١٤]

وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّتْهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) لَنَا أَنَّ نَسْتَغْفِرُ لِآبَائِنَا الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْكُفْرِ. فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ «١».

لكن الظاهر أن ذلك غير طلب الغفران للكافر الحي، بمعنى طلب هدايته من الله ليستحق الغفران، فإذا قال: اللهم اغفر له، عنى: اهده، ليكون قابلاً للمغفرة.

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن إبراهيم عليه السلام وعده أبوه آزر أن يسلم، فاستغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله، تبرأ

«٢». كما أن الظاهر أن الخيرات للأقارب الكفار الذين ماتوا لا بأس بها، فإن ذلك موجب لتخفيف العذاب، و هو غير الاستغفار بطلب المغفرة، وقد ورد بذلك أحاديث كثيرة.

ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنْ يَطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ الْغَفْرَانَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا-خُصُوصِيَّةَ لِلْمُشْرِكِ، بَلْ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ كَافِرٍ وَ لَوْ كَانُوا أَوْلَى قُرْبَى أَى كَانَ الْمُسْتَغْفِرُ لِأَجَلِهِ صَاحِبَ قَرَابَةٍ لِلْمُؤْمِنِ الْمُسْتَغْفَرِ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أَى مِنْ بَعْدِ أَنْ عَلِمَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ أَوْلِيَاءَ الْمُشْرِكِينَ هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ.

[١١٤] و لما كان هنا موضع سؤال و هو: كيف يحرم الاستغفار للكافر مع أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه- و هو عمه، و إنما يسمى العرب العم بالأب

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٣٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٢

تعظيماً- و الحال أن آزر كان كافراً؟ ورد قوله سبحانه: وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاةٍ إِيَّاهُ أَى وَعَدَ الأبُ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ يُؤْمِنَ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَى لِإِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ أَى أَبَاهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَ تَرَكَ الاسْتِغْفَارَ لَهُ. وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ.

و روى: أن إبراهيم قال لأبيه: إن لم تعبد الأصنام استغفرت لك، فلما لم يدع الأصنام تبرأ منه

«١». و من المعلوم أنه لا منافاة بين الأمرين. و على أى حال فعمل إبراهيم لا ينافى عموم «ما كان للنبي و الذين آمنوا».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ أَى دَعَاءٌ، كَثِيرُ الدَّعَاءِ وَ الْبَكَاءِ، وَ أَسْلُ «الأواه» مبالغة- على وزن ضراب- من «التأوه» بمعنى: التوجع و التحزن حليم يحلم عن الناس حتى عن الكفار، لعله يدخلهم فى حظيرة الإيمان بحلمه. و أما مناسبة «أواه» للمقام فظاهرة، إذ مقتضى كثرة الدعاء أن يدعو حتى للكافر الذى يحتمل أن يؤمن.

و من المفسرين من أقحم فى الآية ما اختلقتة الأهواء الأموية من كفر أبى طالب، و لقد كان أبو طالب عليه السلام من أشد المؤمنين بالله و رسوله حتى

أنه قال عليه السلام:

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٧٧. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٣

[سورة التوبة (٩): آية ١١٥]

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥)

و لقد علمت بأن دين محمد* من خير أديان البرية دينا

و حتى أنه حين مات نزل جبرئيل قائلاً للرسول: «مات ناصر كفاخرج من مكة» «١». و سمي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عام وفاته و وفاة خديجه «عام الحزن» «٢». و إنما الكلام هنا أن ذلك لا يرتبط بالتفسير، و إنما يرتبط بالتعصب، و كم أخفى التعصب الحق.

[١١٥] إن ما استفاد من الآيات السابقة من انقطاع صلة المؤمنين عن الكافرين، يوجب التساؤل، و هو: ماذا يعملون بما سلف من الأموات الكافرين، فقد كانت الوشائج بين المؤمنين و الكافرين قوية و كانوا يحسنون إليهم أحياء و يستغفرون لهم أمواتاً؟ و لذا ورد: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَ يَحْكُمُ بِضَلَالِهِمْ، بِأَعْمَالِ عَمَلُوها قَبْلَ النَّهْيِ وَ التَّحْرِيمِ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى

الإيمان حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ من أوامره و نواهيه، فإذا بَيَّن لهم ثم خالفوا، استحقوا العقاب و الحكم بالضلال، و هكذا قوله سبحانه: (ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) «٣»، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم من عمل قبل التحريم و من عمل بعد التحريم، فيجزى كلًّا حسب عمله.

و في بعض التفاسير: إن سبب نزول هذه الآية، أنه مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا

(١) إيمان أبي طالب: ص ٢٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٥.

(٣) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٤

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا- نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧)

رسول الله إخواننا المؤمنون الذين ماتوا قبل الفرائض ما هي منزلتهم؟

فنزلت: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ..» «١».

[١١٦] إن المؤمن الذي يبيع نفسه لله قد ربح كل شيء، و إن قطع صلته بأقرب الناس إليه حتى في الاستغفار ف الله له مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لا مالك فيهما سواه يُحْيِي الجماد وَ يُمِيتُ الأحياء، فالأرض الميتة يجعل منها نباتا و إنسانا و حيوانا، كما أنه يرد هذه الأحياء إلى الأرض فيجعلها جمادا وَ مَا لَكُمْ أَيُّهَا المسلمون مِنْ دُونِ اللَّهِ سِوَاهُ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ فلا يتولَّى شؤونكم و لا ينصركم غيره، فمن له الملك، و بيده الحياة و الموت، و يتولَّى و ينصر أحق بأن يربط الإنسان صلته به دون سواه، و يترك غيره لأجله، و لو كان أقرب قريب إليه.

[١١٧] ثم ذكر سبحانه قصة جماعة تخلفوا عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ثم لحقوا به، أو تابوا بعد ذلك.

فقد ذكر الرواة أن عبد الله بن خيثمة تخلف عن غزوة تبوك إلى أن مضى من مسير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عشرة أيام، ثم دخل يوما على امرأتين له في يوم حار في عريشين لهما قد رتبتاهما و بردتا الماء و هيأتا له الطعام، فقام على العريشين ثم قال: سبحان الله، رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر، في الفتح و الريح و القز يحمل سلاحه على عاتقه، و أبو خيثمة في ظلال باردة و طعام

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٥

مهيأ و امرأتين حسناوين، ما هذا بالنصف. ثم قال: و الله لا أكلم واحدة منكما كلمة و لا أدخل عريشا حتى ألحق بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ. فأخ ناضحه و اشتد عليه و تزود و ارتحل و امرأته تكلمانه و لا يكلمهما.

ثم سار حتى إذا دنا من تبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: كن يا أبا خيثمة أولى لك، فلما دنا قال الناس: هذا أبو خيثمة يا رسول الله، فأناخ راحلته و سَلَّمَ على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: أولى لك. فحدثه الحديث، فقال له خيرا و دعا له. و هو الذي زاغ قلبه للمقام ثم ثبته الله «١».

و نقل الرواة: أن ممن لقي العسر في هذه السفارة أبا ذر الغفاري رحمه الله فقد كان جملة أعجف تخلف به في الطريق حتى أنه لحق

بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد ثلاثة أيام ووقف عليه جملة في بعض الطريق فتركه و حمل ثيابه على ظهره، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: كن أبا ذر فقالوا: هو أبو ذر. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أدركوه بالماء فإنه عطشان. فأدركوه بالماء، و وافى أبو ذر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معه إداوة فيها ماء فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا أبا ذر معك ماء و عطشت؟ فقال: نعم يا رسول الله بأبي أنت و أمي انتهيت إلى صخرة و عليها ماء السماء فدقته فإذا هو عذب بارد، فقلت: لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يا أبا ذر رحمك الله تعيش وحدك، و تموت وحدك، و تدخل الجنة وحدك، يسعد بك قوم من العراق يتولون

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٢٠٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٦
غسلك و تجهيزك و دفنك» (١).

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ أَي تَحَنَّنَ وَ لَطْفًا، فَإِن «تَابَ» لَعْنَةً بِمَعْنَى:

غفر، و بمعنى: رجع بفضلهِ عَلَى النَّبِيِّ و ما ورد في بعض الأحاديث «بالنبي» إنما أريد به نفى كون معنى التوبة بالنسبة إلى النبي صادرة عن عصيان و الْمُهَاجِرِينَ و الْأَنْصَارِ فَمَهْمُ بَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْمَغْفِرَةَ لِمَعْصِيَةِ صَدَرَتْ عَنْهُ، وَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا تَفَضُّلاً الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ أَي اتبعوا النبي في سَاعَةِ الْعَشِيرَةِ أَي وقت صعوبة الأمر، و ذلك في غزوة تبوك، فقد كانوا في صعوبة من جهة المركب، و من جهة الماء و الزاد، و من جهة الحر، و من جهة التعب للسفر الطويل، و من جهة الخوف من الأعداء، فقد كان العشرة منهم يتراوون على بعير و زادهم الشعير المسوس، و التمر المدود، و الإهالة السنخة «و هو ما أذيب من الشحم المتغير الريح»، و كانوا يمصون تمره واحدة، و هم جماعة كثيرة، يخرجها هذا من فيه فيمصها الآخر و هكذا حتى لا يبقى إلا النواة من بعيد ما كاد يزيغ يميل و ينحرف قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ، فَأَرَادُوا الْبَقَاءَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ بَقُوا ثُمَّ لَحِقُوا بِالرَّسُولِ كَأَبِي خَيْثَمَةَ. ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الزَّيْغِ وَ الْإِنْحِرَافِ إِنَّهُ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٧

[سورة التوبة (٩): آية ١١٨]

وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَ ضَاقَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

تعالى بِهِمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُهُمْ، وَ بِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْكُفْلِ وَ الْمَطْلِ.

[١١٨] و لقد تاب الله عَلَى الثَّلَاثَةِ أَشْخَاصِ الَّذِينَ خَلَفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، كَأَنَّ الشَّيْطَانَ خَلَّفَهُمْ وَ هُمْ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِمْ مَفْضَلًا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ» حَتَّى إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ «ما» مصدرية، أَي: مع رحبها- بالضم- وسعتها، ضاقت عليهم لأن الناس قاطعوهم بأمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الإنسان إذا قاطعه الأصدقاء تضيق نفسه، حتى يظن أن الأرض ضيقة لا مجال له فيها وَ ضَاقَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ كَأَنَّهم لَمْ يَجِدُوا لَأَنْفُسِهِمْ مَوْضِعًا يَخْفُونَهَا فِيهِ، وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ غَمِّهِمْ. وَ لَعَلَّ وَجْهَ «ضَاقَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا غَمَّ غَمًّا شَدِيدًا تَسَخَّنَ شَرَايِينَهُ وَ أَعْضَاؤَهُ، فَلَا يَكْفِي النَّفْسَ الْمَجْدُوبَ لِتَبْرِيدِهَا، فَيَحْسَسُ أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ ضَاقَّتْ، لِأَنَّهَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا الْهَوَاءُ الْكَافِي.

وَظَنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَوْضِعَ لِلْفِرَارِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَّا إِلَيْهِ نَفْسُهُ تَعَالَى، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ أَحَاطَ بِأَقْطَارِ الْأَرْضِ وَ آفَاقِ السَّمَاءِ فَكَيْفَ يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَوَجَّهَ الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَ الْاسْتِغْفَارِ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظَةِ «الظَّنِّ» هُنَا لِإِفَادَةِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ الْمَجْرَمِ حَيْثُ أَنَّهُ لَا يَفْكَرُ فِي الْمَلْجَأِ الْمُمْكِنَةِ، فَهُوَ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ هَذَا أَوْ ذَاكَ، وَ إِنْ تَرَجَّحَ فِي نَفْسِهِ الْمَلْجَأَ الْحَقِيقِيَّ وَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٨

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ أَى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَجَعَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ بِقَبُولِهِ تَوْبَتِهِمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ تَبَوُّكِ لِيَتُوبُوا أَى يَرْجِعُوا إِلَى حَالَتِهِمْ الْأُولَى قَبْلَ الْمَعْصِيَةِ، فَيَكُونُ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ لَا يَقَاطِعُونَ وَ لَا يَنْبِذُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ مَبَالِغُهُ فِي «التَّائِبِ»، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرُ الرَّجُوعِ إِلَى عِبَادِهِ إِنْ رَجَعُوا إِلَيْهِ، وَ لَيْسَ كَكِبْرِيَاءِ النَّاسِ حَيْثُ أَنَّهُ إِنْ قَطَعُوا عَنْ أَحَدٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَ لَوْ عَادُوا لَمْ يَتَكَرَّرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَرَاتٍ وَ مَرَاتٍ، فَالْإِنْسَانُ مَهْمَا عَصَى وَ تَابَ، قَبْلَ اللَّهِ تَوْبَتَهُ إِذَا كَانَتْ تَوْبَةً نَصُوحًا، وَ إِنْ نَقَضَ التَّوْبَةَ قَبْلَ ذَلِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ الرَّحِيمُ يَرْحَمُ الْعِبَادَ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِلُطْفِهِ، فَلَيْسَتْ تَوْبَةٌ مَجْرَدَةٌ، وَ إِنَّمَا مَعَ التَّفْضِيلِ وَ التَّكْرَمِ.

لَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْمُتَخَلِّفُونَ - كَعَبٍ وَ مَرَارَةَ وَ هَلَالَ - أَرْجَتُوا، فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ «وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ» ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُنَا، وَ كَانَ فِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ أَبْلَغُ حِكْمَتِهِ، وَ خَيْرُ تَأْدِيبٍ وَ مَوْعِظَةٍ.

وَ هُنَا كَلِمَةٌ لَا بَدَّ مِنْ بَيَانِهَا وَ هِيَ أَنَّ النَّاطِرَ فِي الْآيَاتِ يَرَى أَنَّ بَعْضَ الْعَاصِيينَ كَانَ اللَّهُ وَ الرَّسُولَ يَعْفُونَ عَنْهُمْ كَهَؤُلَاءِ، وَ بَعْضُهُمْ يَبْقُونَ مَوْضِعَ السَّخَطِ وَ الْغَضَبِ كِ «تَعْلَبُهُ» الَّذِي تَقَدَّمَ أَحْوَالُهُ، إِنْ هَذَا يَكْشِفُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْعِصَاةِ، فَمَنْ أَصْلَحَ مِنْهُمْ وَ طَهَّرَ قَلْبَهُ اسْتَحَقَّ الْعَفْوَ وَ الْغُفْرَانَ، أَمَا مِنْ أَبَدِيَّةِ التَّوْبَةِ وَ قَلْبِهِ مَلُوثٌ بِالذَّنُوبِ وَ النِّفَاقِ، فَلَمْ يَكُنْ تَنْفَعُهُ النَّدَامَةُ، وَ لَذَا كَانَ مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَ قَدْ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ مَشْرُوطٌ بِالطَّهَارَةِ وَ النِّقَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (ثُمَّ اتَّقُوا وَ أَحْسِنُوا) «١»، وَ غَيْرَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

(١) المائدة: ٩٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٧٩

[سورة التوبة (٩): الآيات ١١٩ إلى ١٢٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)

[١١٩] وَ بِمُنَاسَبَةِ تَوْبَةِ هَؤُلَاءِ وَ صَفَاءِ بَاطِنِهِمْ فِي التَّوْبَةِ، وَ صِدْقِهِمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ، يَأْتِي السِّيَاقُ لِيَبَيِّنَ وَ جُوبَ كَوْنِ الْإِنْسَانِ مُتَقِيًا مُنْضَمًا إِلَى جَمَاعَةِ الصَّادِقِينَ، لِيَنَالَ الْخَيْرَ وَ الْغُفْرَانَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ اجْتَنَبُوا مَعَاصِيَهُ وَ خَذُوا بِأَمْرِهِ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ وَ «المعِيَّة» هُنَا تَفِيدُ الْمَعِيَّةَ الْإِنْضِمَامِيَّةَ، وَ الْمَعِيَّةَ الْعَمَلِيَّةَ، بِأَنَّ يَصْدُقَ الْإِنْسَانَ، وَ يَنْضَمُ مَعَ الزَّمْرَةِ الصَّادِقَةِ، لِيَنَالَ كُلَّ خَيْرٍ وَ فَضْلٍ. وَ قَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَ آلَهُ الطَّاهِرِينَ «١»، وَ هَذَا مِنْ بَابِ أَظْهَرَ الْمَصَادِقِ كَمَا لَا يَخْفَى.

[١٢٠] ثُمَّ يَأْتِي الْبَيَانُ الْعَامُّ لِلْمُسْلِمِينَ بِوَجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَ عَدَمِ التَّخَلُّفِ عَنْهُ فِي غَزْوٍ أَوْ غَيْرِهِ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ إِنَّهُ خَبِرَ فِي مَعْنَى النَّهْيِ، أَى: لَا- يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَدْوِ، وَ تَخْصِيصُ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ لَيْسَ لِأَجْلِ خُصُوصِيَّةٍ فِيهِمَا دُونَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَ إِنَّمَا لِأَجْلِ كَوْنِهِمَا مَحَلَّ أَوْامِرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ غَالِبًا، فِي الْجِهَادِ وَ نَحْوِهِ، وَ إِلَّا فَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ كَذَلِكَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزْوَةٍ أَوْ سَفْرَةٍ أَوْ سَائِرٍ مَا يَرِيدُهُ مِنْهُمْ وَ يَعْمَلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ لَا لَهُمْ أَنْ يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّ يَطْلُبُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَ الرَّاحَةِ دُونَ نَفْسِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، بِأَنَّ يُوَثِّرُوا

(١) تفسير فرات الكوفي: ص ١٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٠

أنفسهم على نفسه فإذا أراد الجهاد تركوه يقاسى الحر و البرد، و هم فى مساكنهم هادئون آمنون. يقال: «رغبت بنفسى عن هذا الأمر» أى ترفعت بها عنه.

ذَلِكَ النهى لهم و الزجر عن التخلف، ليس بلا عوض و لا مقابل، و إنما لهم بكل حركة و سكون و تعب أجر و ثواب بسبب أنهم لا يُصَبُّونَ فِي سَفَرِهِمْ ظَمًا عَطَشًا وَ لَا نَصَبًا تَعَبًا فِي أَسْبَابِهِمْ وَ لَا مَحْمَصَةً بِمَعْنَى الْمَجَاعَةِ، وَ أَصْلُهُ ضَمُورُ الْبَطْنِ لِلْمَجَاعَةِ، يُقَالُ: «رَجُلٌ خَمِيسُ الْبَطْنِ»، أَيْ ضَامِرُهَا مِنَ الْجُوعِ، وَ الْمَعْنَى: لَا- يَصِيْبُهُمْ جُوعٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَ لَا يَطْوُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ أَيْ لَا يَضَعُونَ أَقْدَامَهُمْ مَوْضِعًا يَسَبِّبُ غِيظَ الْكُفَّارِ، وَ الْمَرَادُ: إِمَّا وَطَى أَرْضِي الْأَعْدَاءِ، فَإِنَّهُمْ يَغِيظُونَ إِذَا رَأَوْا وَاحِدًا يَطَأُ مَحَلَّهُمْ، أَوْ الذَّهَابَ مُطْلَقًا، فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَغِيظُونَ بِسِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ لِإِرَادَةِ الْغَزْوِ.

وَ لَا- يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا لَا- يَصِيْبُونَ مِنَ الْكُفَّارِ أَمْرًا، مِنْ قَتْلِ أَوْ جِرَاحَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ سَبِيٍّ أَوْ مَا أَشْبَهَ إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لَهُؤْلَاءِ الْمُسْلِمِينَ الْمَجَاهِدِينَ بِهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْعَمَلِ عَمَلٌ صَالِحٌ وَ طَاعَةٌ مَقْبُولَةٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨١

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢١ إلى ١٢٢]

وَ لَا- يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صِيغَةً وَ لَا- كَبِيرَةً وَ لَا- يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

[١٢١] وَ لَا يُنْفِقُونَ هؤْلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فِي الْجِهَادِ نَفَقَةً صِيغَةً وَ لَا كَبِيرَةً أَيْ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا أَيْ لَا يَجْتَازُونَ أَرْضًا فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى الْكُفَّارِ لِلجِهَادِ إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ ذَلِكَ لِثَابُوتِهِ عَلَيْهِ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَيْ يَكْتُبُ ذَلِكَ لِلجِزَاءِ بِ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ جِزَاءً أَحْسَنَ أَعْمَالِهِمْ، أَوْ أَحْسَنَ جِزَاءِ أَعْمَالِهِمْ. وَ عَلَى الْأَوَّلِ:

فالسكوت عن سائر الأعمال ليس لعدم الجزاء وإنما لوضوح أن من يجزى على الأحسن يجزى على غيره. و على الثانى: يكون المعنى أنه سبحانه يجازيهم بجزاء هو أحسن من عملهم، فلو استحق عملهم جزاء ألف دينار، أعطاهم ألفين.

[١٢٢]

ورد أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ غَازِيًا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ إِلَّا الْمَنَافِقُونَ وَ الْمَعْدُورُونَ، فَلَمَّا بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ عِيُوبَ الْمُتَخَلِّفِينَ - فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ - قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: وَ اللَّهِ لَا- نَتَخَلَّفُ عَنْ غَزْوَةِ يَغْزُوهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ لَا- سِرِيَّةً مِنْ سَرَايَاهُ. فَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالسَّرَايَا إِلَى الْغَزْوِ أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا، وَ كَانَ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمًا لِأَنَّ بَيْقَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَحْدَهُ، فَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

أقول: فى الآية احتمالات نذكر أقربها إلى الظاهر و إلى السياق - أى الارتباط بالقصة المتقدمة فى غزوة تبوك -.

وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً هَذَا نَفَى مَعْنَاهُ النَّهْيُ، أَيْ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٢

ليس للمؤمنين أن ينفروا و يخرجوا إلى الجهاد بأجمعهم و يتركوا النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَحِيدًا فَلَوْ لَا تَحْضِيضُ وَ حَثٌ، بِمَعْنَى: أَنَّ اللَّزَامَ ذَهَابَ بَعْضٌ وَ بَقَاءُ بَعْضٍ نَفَرَ وَ خَرَجَ إِلَى الْجِهَادِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَ نَحْوَهَا طَائِفَةٌ جَمَاعَةٌ، وَ يَبْقَى مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ لِيَتَفَقَّهُوا أَيْ لِيَتَفَقَّهُ هؤْلَاءِ الْبَاقُونَ - الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: «نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ» - فِي الدِّينِ يَبْقُونَ خِدْمَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لِيَتَعَلَّمُوا أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ الَّتِي تَنْزَلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ تَدْرِيجًا وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ

ينذر الباقون قومهم النافرين إذا رَجَعُوا رَجَعِ الْبَاقُونَ إِلَى الْبَاقِينَ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أى يحذر النافرون عما أنذروا به. فلنفرض أن زيدا ذهب إلى الجهاد، وبقى عمرو وتعلم من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حرمة الاستمناء- مدة غياب زيد- فإذا رجع زيد حذره عمرو عن الاستمناء حتى يترك وينقل. ولو كان المعنى على هذا السياق المذكور لكان فهم وجوب الذهاب إلى مراكز العلم لتحصيله، بالفحوى، لأن المقصود من البقاء عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليس إلا تعلم الحكمة وإفادتها للغائب، وكذلك من يسافر في طلب العلم ثم ينذر أهله إذا رجع إليهم.

روى عن الإمام الباقر عليه السَّلام أنه قال: «كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله أن ينفر منهم طائفة و تقيم طائفة للفقهاء، و أن يكون الغزو نوبا»

«١». و لا ينافيه

ما ورد عن الإمام الصادق- لأن الظاهر إرادة

(١) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ١٥٧. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٣

[سورة التوبة (٩): آية ١٢٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

الفحوى- فى تفسير الآيه، «فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله و يختلفوا إليه، فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم ..» «١».

ثم إنه لو قلنا: إن الآية مستقلة برأسها لا ترتبط بما قبلها، يكون المعنى: أن اللازم على كل طائفة من كل فرقة من المسلمين المنتشرين هنا و هناك أن يذهبوا إلى طلب العلم فى مراكزه ثم ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم حتى يحذروا عن ترك الواجبات و إتيان المحرمات.

و تكون المناسبة بينها و بين الآيات السابقة بيان أن النفر واجب فى مقامين: فى مقام الجهاد و فى مقام العلم. و لا يخفى أن الآية تشمل التفقه بنحو الاجتهاد، و بنحو أخذ الرواية، و نحو بيان المسائل بعد أخذها عن المجتهد، فهى أعم من الاجتهاد و الوعظ و نشر المسائل.

[١٢٣] و إلحاقا بما تقدم من أمر الجهاد، يأتى السياق ليبيّن خطئه الإسلام فى جهاد الكفار يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ من «ولى يلى» إذا قرب، أى: يقربونكم- فى الأرض- مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتِلُوا الْأَدْنَىٰ بِالْأَدْنَىٰ، و ذلك لتتصل أرض الإسلام بعضها ببعض و لا تحدث بينها فجوة يتخذها العدو مرصدا و قاعدة لمحاربتكم. و قد دلّ الدليل على جواز مقاتلة الأبعد إذا كان المسلمون فى أمن من الأقرب لمهادنة أو معاهدة أو ما أشبهه وَ لِيَجِدُوا أى يجد الكفار فيكم غِلْظَةً و خشونة، فإن ذلك مما يسبب انهيار معنويات العدو، لكن ليست «الغلظة» بالمثلثة و نحوها فقد حرّم الإسلام ذلك كما منع عن قتل المرأة

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٤

[سورة التوبة (٩): آية ١٢٤]

وَ إِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤)

و الصبى و الفانى و الراهب و ممن لا- يساعد المحاربين و اعلموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ فلا تتركوا التقوى كما لا يرعوى المحاربون- إذا فتحوا البلاد- من كل إثم و شناعة، فإن الإسلام جاء محرّرا لا فاتحا، فليس للجيوش الإسلامية أن تفعل ما تشاء إذا غلبت.

و قد زجر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بلالا حين رأى من بعض النساء اليهوديات- من أهل خيبر- تغيرا فسألهن ما بالهن؟ فلما

أجبن بأن بلال مَرَّ بهن على مصارع قتلاهن - يعنى يهود خيبر - قال الرسول لبلال زاجرا: كأن الله نزع الرحمة من قلبك! [١٢٤] و يأتى السياق ليبيّن كلام المنافقين و ما يرتسم فى قلوبهم و حركاتهم إذا أنزلت سورة، فإن المنافق إذا أنزلت سورة تريب نفسه و تحمل السورة إلى محامل بعيدة عن الحقيقة و الواقع ليثلج صدره بالتكذيب، و طبق ما فى نفسه يطفح كلام مريب على لسانه فيتساءل ممن حوله عن وقع السورة فى نفوسهم، حتى يرتب الأثر، فإن جذبت السورة ناسا ردهم، و إن لم تجذبهم يزيدهم ريبا و شكًا. أما حركته فإنه ينزعج من الحضور فى مجال تتلى السورة فيه لأن قلبه لا- يميل إليهم و لا إليها، إذن فلينصرف عن المجلس متسللاً حتى لا- يعلم نفاقه، و يستريح إلى أقرانه و إذا ما أنزلت سورة «ما» زائده جىء بها لتحسين الكلام، و لعله لنكتة بلاغية هى تصوير حال المنافق المنكر، فقد نزلت السورة، لكن فى قلب المنافق «ما أنزلت» فمَنَّهُم أى من المنافقين مَنْ يَقُولُ على وجه الإنكار و الاستخبار: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٥

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أ وَ لَا يَزُودَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)

إيماناً؟ ليعلموا وقع أثر السورة فى النفوس و المقاومة إذا أرادوا إلقاء الريب و الشك.

و هنا يأتى الجواب من الله سبحانه ليفصل فى الأمر بما هو الواقع، من غير حاجة إلى جواب المؤمنين أو إلى جواب المنافقين: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُخْلِصَ كُلَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ كَلَّمَا رَأَى آيَةً مِنْ آيَاتِهِ يَزِيدُ إِيمَانًا وَ عَقِيدَةً وَ هُمْ يَشْتَبِرُونَ يفرحون بنزول السورة فرحاً يظهر فى وجوههم أثره، و كيف لا- يفرحون و قد زادهم سبحانه دلالة و كرامة، و قوَى جانبهم بنزول سورة أخرى؟! [١٢٥] وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ رُوحِي، وَ هُوَ الشُّكُّ وَ النِّفَاقُ وَ الْإِنكَارُ فَزَادَتْهُمْ السُّورَةُ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ قَدْرَهُ بِإِنكَارِ مَا سَبَقَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، فَإِذَا أَنْكَرُوا هَذِهِ السُّورَةَ وَ شَكُّوا فِيهَا زَادَتْ قَدْرَهُ قُلُوبَهُمْ. وَ يُسَمَّى الْكُفْرَ رِجْسًا، لِأَنَّهُ كَالنَّجَاسَةِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تُؤْذِي، وَ يُجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ فَإِنَّ مَنْ لَا تَنْفَعَهُ السُّورَةُ لَا بَدَأَ أَنْ يَبْقَى شَاكًا مُنَافِقًا حَتَّى يَمُوتَ فِي كُفْرِهِ وَ نِفَاقِهِ.

[١٢٦] إِنْ أَمْرٌ هُوَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَجِيبٌ، فَإِنَّ السُّورَةَ لَا- تَفِيدُهُمْ، وَ الْفِتْنَةُ لَا- تَرْجِعُهُمْ عَنْ غِيهِمْ أ وَ لَا يَزُودَ هُوَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ- عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنكَارِي- أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ أَى يَمْتَحَنُونَ، تَارَةً بِنَصْرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٦

[سورة التوبة (٩): آية ١٢٧]

وَ إِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) المسلمين، و أخرى بكشف الرسول نواياهم، و ثالثة بالأمراض و ما أشبهه، مما ينبغى أن يرجع المنافق عن غيه إذا أصابه ذلك فى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَالْفِتْنَةُ كَثِيرَةُ الْوُقُوعِ فِي حَيَاتِهِمْ ثُمَّ لَا- يَتُوبُونَ عَنْ نِفَاقِهِمْ وَ كُفْرِهِمْ وَ لَا- هُمْ يَذَّكَّرُونَ نَعَمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ أَدْلَتُهُ وَ حُجْجُهُ، إِنْ قُلُوبُهُمْ قَدْ تَحَجَّرَتْ فَلَا تَفِيدُهَا السُّورَةُ وَ لَا الْفِتْنَةُ، فَمَا ذَا يَصْنَعُ بِهَا؟

[١٢٧] و لما فرغ من بيان أقوالهم و نواياهم، بيّن عملهم النفاقي تجاه نزول السورة و إذا ما أنزلت سورة «ما» زائده كما تقدم، و هم حضور عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هُوَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ إِلَى بَعْضٍ لِيُغْمِزَ إِلَيْهِ وَ يُشِيرَ إِلَيْهِ بِأَنَّ لَا يُؤْمِنُ وَ لَا يترشح عن نفاقه. فيقول بعضهم لبعض بالقول أو الغمز و الإشارة: هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ؟ وَ الظاهر أن المراد رؤية الالتفات إلى نواياهم و إشاراتهم، لا رؤية العين، فإنهم كانوا يريدون عدم التفات المسلمين إلى أحوالهم لئلا يعرفوا سبب قيامهم عن المجلس و انصرافهم ثُمَّ انصَرَفُوا عَنِ الْمَجْلِسِ إِذَا لَمْ يَرَهُمْ أَحَدًا، أَوْ حِينَ انْفِصَالِ الْمَجْلِسِ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ دَعَاءَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ

يصرف الله قلوبهم عن فهم الحق و إدراكه، فإنهم لما نافقوا لم يستحقوا الألفاظ الإلهية الخفية بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق، فقد طبع على قلوبهم بالكفر و العصيان و النفاق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٧

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٢٨ إلى ١٢٩]

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

[١٢٨] و في ختام السورة تأتي آيتان لبيان وظيفة المؤمنين تجاه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذي يحنو عليهم، فاللازم أن ينصروه و يؤازروه، و لبيان ما يفعله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لو تولى الناس عنه و أعرضوا، و كأنها خاتمة لما تقدم من أحوال من آمن و آزر، و من نافق و تخلف لَقَدْ جَاءَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ، أو أيها المؤمنون رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أى من جنس نفوسكم، و هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. و هذا تحريض لاتباعه و الأخذ بأمره حيث أنه من أنفسهم عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ أى صعب عليه عنتكم و ما يلحق بكم من الضرر و الأذى حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أى على حفظكم و تقدمكم و سعادتكم، فلستم بهينين عليه حتى لا يهمله أمركم، و يلقي بكم فى المهالك اعتباراً، فإذا أمركم بأمر فإن فيه سعادتكم و خيركم، لأنه جاء من المشفق الحريص على شؤونكم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ الرَّأْفَةُ شِدَّةُ الرَّحْمَةِ رَحِيمٌ للتأكيد و تفهيم من لا يفهم معنى الرؤوف، فهو وصف توضيحي من قبيل «سعدانه تنبت».

[١٢٩] فَإِنْ تَوَلَّوْا و أعرضوا عنك يا رسول الله، و عن رسالتك فَقُلْ يا رسول الله: حَسْبِيَ اللَّهُ أى كافى، فإنه قادر على أن ينصرنى لا إله إلا هو لا شريك له أرجوه أو أخافه، بل هو وحده بيده كل شىء، فهو قادر على نصرى و إعزازى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ اتكلت فى أمورى كلها تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٨

عليه وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ فهو أعظم من كل عظيم، إذ العرش العظيم - أى السلطان الكبير - له، فمن اتصل به لا يخشى أحدا سواه، و إن أعرض عنه الناس، فإن العرش كناية عن السلطة و السيادة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٨٩

١٠ سورة يونس مكية / آياتها (١١٠)

سميت السورة بهذا الاسم حيث اشتملت على قصة «يونس» النبى عليه السلام و السورة تدور مباحثها حول العقيدة، و ما يتفرع منها - غالباً - و حيث اختتمت سورة «براءة» بذكر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ابتدأت هذه السورة بذكره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله سبحانه، فهو وحده المستحق للتقديم، و ذكر الرحمن الرحيم، لتلطيف الجو، فإن الناس قد اعتادوا أن يروا الظلم و الجور من الكبار و الطغاة، لكنه ليس كذلك إنه الرحمن بعباده، الرحيم بالمؤمنين منهم، فلا خوف من ظلمه، و لا خشية من جوره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٠

[سورة يونس (١٠): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)

[٢] الر من ألف و لام و راء و غيرها يتركب هذا القرآن المعجز، فإنه من جنس كلام البشر، لكنه معجز لا يتمكن أحد أن يأتي بمثله، كما أن من جنس المعادن و النبات يتركب الإنسان، لكن لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله، و كذلك جميع صنع الله سبحانه - على الاختلاف فى أوائل السور - تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ خبر لقوله «الر» أى هذه الحروف آيات الكتاب - على بعض الأقوال - و المراد

ب «الكتاب الحكيم» القرآن العظيم الحاكم بالحق، المحكم في وصفه وأسلوبه وأحكامه.

[٣] أ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ اسْتَفْهَامَ إِنكَارِي، أَي: هل إِيحَاؤُنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ موجب للعجب والاستغراب، إنه لا ينبغي ذلك، فقد أوحى إلى جنس البشر قبل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فالأنبياء كلهم كانوا بشرًا أَنْ أُنذِرَ النَّاسَ مَفْعُول «أوحينا» فقد كان الناس يرتكبون المحرمات و يفعلون القبائح، فجاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لينذرهم بالعذاب إن اقترفوا الآثام وَبَشَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا واعتقدوا بما جئت به أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ فكما أن الإنسان الصادق في قوله لا تزل قدمه عند المحاكمه والحكم، كذلك من آمن له قدم صدق لا تتزلزل ولا تضطرب عند الله سبحانه، و يوم محكمته الكبرى قَالَ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ لَا يَعْتَقِدُونَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ: إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ - يعنون محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ أَي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩١

[سورة يونس (١٠): آية ٣]

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)

واضح، حيث أنهم لم يتمكنوا من مقابله والإتيان بمثل كلامه.

[٤] ثم عطف سياق الكلام حول الإله، على الكلام حول الرسول، و أخره لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو الذي يقول هذا الكلام و يثبتته و يدعو إلى التوحيد و يقدم عليه البراهين و الأدلة إِنَّ رَبَّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَالذي خلقهما و اخترعهما و أوجدهما من العدم هو ربكم و خالقكم، لا الأحجار المنحوتة و الأشجار و سائر المخلوقات. فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ و قد جرت سنة الله سبحانه على التدرج في الخلق، مع أنه قادر على الخلق دفعة واحدة، فالإنسان و الحيوان و النبات كلها تتدرج في الخلق حتى تكمل، و لعل في ذلك اعتبار للملائكة و نحوهم، كما أن في تدرج خلقه الإنسان و سائر الأشياء عبرة للبشر، فإن الإذعان يأتي بالتدرج. و أما خصوصية «الستة» فهي كخصوصية «تسعة أشهر» للجنين و سائر الأزمان المضروبة لسائر المخلوقات.

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ أَي اسْتَوَى عَلَيْهِ، أَوْ تَوَجَّهَ نَحْوَ خَلْقِهِ - كما مر في سورة الأعراف - يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أَي يَقْدِرُهُ وَ يَنْفِذُهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَهُوَ الْخَالِقُ، وَ هُوَ الْأَمْرُ فِي الْكُونِ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ فَهُوَ سَبْحَانَهُ كَمَا بَدَأَ وَ خَلَقَ، وَ أَمْرٌ وَ نَفْذٌ، كَذَلِكَ بِيَدِهِ الْمَعَادُ وَ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ، وَ هُنَاكَ لَا بَدَ مِنْ الشَّفَاعَةِ لِلْعَصَاةِ كَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ فِي الدُّنْيَا، وَ لَكِنَّ الشَّفَاعَةَ هُنَاكَ أَيْضًا بِيَدِهِ، فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤ الى ٥]

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِيدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)

الموصوف بهذه الصفات هو رَبُّكُمْ لا غيره من الأصنام و سائر المعبودات فَاعْبُدُوهُ وَ حده بدون شريك أَفَلَا تَذَكَّرُونَ فِيهِ حَتْ عَلَى التذكر و التفكر ليهتدوا إلى الطريق، و يجتنبوا المتاهات.

[٥] ثم بين أن الرجوع إليه كما كان منه البدء، للتصريح بذلك بعد الإشعار و الإلماع إِلَيْهِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَرْجِعُكُمْ رَجُوعَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ جَمِيعًا فَلَا يَتَخَلَّفُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَعِيدَ اللَّهُ حَقًّا لَا يَخْلَفُ مَا وَعَدَ مِنْ رَجُوعِكُمْ إِلَيْهِ إِنَّهُ وَ حده يَبْدَأُ الْخَلْقَ وَ يوجدهم من العدم ثُمَّ يُعِيدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَ فَنَائِهِ وَ عَدَمِهِ، وَ إِنَّمَا يَعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَي يعطيهم جزاءهم بِالْقِسْطِ بِالْعَدْلِ، فَإِذَا لَمْ يَرَوْا هُنَا «فِي الدُّنْيَا» جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، لَا بَدَ وَ أَنْ يَرَوْا هُنَاكَ «فِي الْآخِرَةِ» وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ

«الحميم» هو الماء الحار الذي انتهى إلى آخر درجة من الحرارة وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم و موجه بسبب ما كانوا يَكْفُرُونَ «ما» مصدرية، أى جزاء على كفرهم.

[٦] ثم بين سبحانه صفاته الفعلية، و أقام البرهان على الألوهية بما يرى الإنسان من الآثار الكونية البادية للعيان هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٣

أى نورا بالنهار، ليستفيد منه الإنسان و الحيوان و النبات و سائر المخلوقات الأرضية، و لولاها لم يكن ذو روح على وجه البسيطة وَ الْقَمَرَ نُورًا بِاللَّيْلِ، قالوا: و الضياء أبلغ فى كشف الظلمات من النور، و إن كان يطلق كل منهما على الآخر، إلا أنهما إذا اجتمعا دلّ الأول على زيادة.

إن هذا البرهان كاف للإنسان العادى الذى لا يعرف إلا الفطرة السليمة، كما أنه كاف لأكبر الفلاسفة دقة، و كذلك جميع آيات القرآن، فهى فى حين تقع الإنسان البسيط تكون أقوى الحجج للمنطقى و الفلسفى و المجادل. فمن يأتري خلق هذه الأشياء؟ هل أنها صنعت نفسها؟ إن هذا لا يمكن أبدا، أم صنعها جاهل عاجز؟ و هذا كالسابق فى الاستحالة. فلا بد و أن يكون صانعها عالم قدير، و ليس هو إلا الله سبحانه.

وَ قَدَّرَهُ أَى قدر القمر مَنَازِلَ بَأَن جعل له منازل، ينزل فى أحدهما بعد الآخر حتى يكمل الدور، و قوله «قدره» إما بحذف «اللام» أى «قدر له»، و إما مجاز لعلاقة الحال و المحل، فقد نسب ما للمحل إلى الحال. و إنما قدره منازل لِتَعَلَّمُوا بالقمر و منزله عَدَدَ السَّنِينَ فَإِنَّ السَّنَةَ تتكون من اثني عشر شهرا، و الشهر لا يكون إلا بحركة القمر من منزل إلى منزل وَ الْحِسَابَ حتى تعرفوا أى يوم أول الشهر و أى يوم آخره، و تضبط بذلك الحسابات و المواعيد. و قد كان القمر و الشهور خير وسيلة للعالم و الجاهل للضبط و التقدير، أما سائر الحسابات فهى غير محسوسة بالإضافة إلى كونها خاصة بالعالم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٤

[سورة يونس (١٠): آية ٦]

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

ما خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الخلق من سماوات و أرض و شمس و قمر و منازل إِلَّا بِالْحَقِّ فلم يكن الخلق لهوا و عبثا لا طائل فيه، فإن فيه دلائل على الوحدانية و الصفات الأزلية، كما أن فيه الحساب و الميقات و المنافع للخلق يُفَصِّلُ اللهُ سبحانه الآيات الدالة على وجوده و بيئتها آية آية لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ فيعطون كل آية حقا، أما الجهال فإنهم معرضون عن الآيات (وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) «١».

[٧] ثم بين سبحانه آية أخرى من الآيات الدالة على وجوده مما هو ظاهر للعيان و يعرفه كل إنسان إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ النَّهَارِ المراد ب «الاختلاف» إتيان أحدهما خلفه للآخر، كما قال سبحانه فى آية أخرى: (جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً) «٢». و لعلّ تقديم الليل، لأن الظلمة هى السابقة على النور، فقد قالوا: إن النور و الظلمة «عدم و ملكة» و من المعلوم تقدم العدم على الملكة ذاتا و ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ من أنواع الكواكب و النيازك و الشهب و السحاب و الأمطار و الرياح و غيرها وَ الْأَرْضِ من أنواع الجبال و المعادن و المياه و النباتات و الحيوانات و الإنسان و غيرها لآياتٍ أى أدلة دالة و براهين ساطعة على وجود الله سبحانه و صفاته، من العلم و القدرة و الإرادة و الحياة و غيرها لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ الانزلاق فى مهاوى السفساف

(١) الأنعام: ٢٦.

(٢) الفرقان: ٦٣.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧ إلى ٨]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)

و الخرافة، كما أن فيهما آيات لمن يتقى عصيان الله سبحانه. و إنما خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بهذه الآيات.

[٨] ثم ذكر سبحانه جزاء الذين لا يقتنعون بهذه الآيات، و ينكرون المعاد المستلزم لإنكار المبدأ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَي: لقاء الله، و المراد ب «لقاءه» لقاء الجزاء المقرر لهم من عنده، فإن الله سبحانه منزّه عن المكان، و إنما هو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، و المراد ب «لا يرجون» لا يتوقعون، و إنما جرى بهذا اللفظ لأن كل معتقد به يرجو ثواب الله سبحانه، فإن الإنسان بطبعه يرجو نوال الكريم. و هذا كناية عن عدم الإيمان، فإن الذين لا يؤمنون لا يرجون المعاد وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَي الحياة القريبة، فإن «دنيا» مؤنث «أدنى» أي اختاروا هذه الحياة، فصرفوا همهم في عمارتها، و لا يعملون إلا لها وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا أَي سكنوا إليها و ركنوا لها. و هذا من عجيب الأمر:

كيف يركن الإنسان إلى دنيا يعلم بفنائها السريع، و يشاهد كل يوم كثرة من الأموات؟! وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا دَلَّلتنا التي أقمناها على التوحيد و سائر شؤون المبدأ و المعاد، من الأدلة الكونية و غيرها غَافِلُونَ فلا يتأملون فيها و لا يعتبرون بها. [٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ تَلِكْ أوصافهم مآواهم أي مستقرهم و مرجعهم النَّارُ إليها يصيرون بسبب ما كانوا يَكْسِبُونَ من أنواع الكفر و المعاصي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩ إلى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

[١٠] هذا هو الكفر، و هذا مصيره، فلننظر إلى الإيمان و مصيره إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رسله و اليوم الآخر و صدقوا بما جاءت به الأنبياء وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَي الأعمال الصالحة، فإن المحرمات لا تصلح لبناء فرد أو مجتمع أو دنيا أو آخره، بخلاف الواجبات و المندوبات و المباحات فإنها تصلح لذلك يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بسبب إيمانهم إلى الجنة في الآخرة، و إلى كل خير في الدنيا، فإن الإيمان مفتاح كل سعادة تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ أَي تحت أبنيتهم و أشجارهم، أو من تحت أنفسهم، باعتبار أن ماء النهر أسفل من الإنسان إذا مشى على الأرض فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ بحيث يتنعم الإنسان فيها بجميع أنواع النعم، من أمن و رفاة و صحة و علم و لذة و غيرها.

[١١] دَعَاؤُهُمْ أَي دعاء المؤمنين، فإن الدعوى قول يدعى به إلى أمر فيها أي في تلك الجنات: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ «سبحان» مصدر منصوب بفعل مقدر، أي: أنزهك تنزيها، يا الله، فإن «الميم» في «اللهم» بدل من حرف النداء «يا» وَ تَحِيَّتُهُمْ «التحية» مصدر من باب التفعيل، بمعنى التكرمة، مشتقة من: «أحيأك الله» فيها أي في الجنات سِلَاطٌ من الله لهم، و من الملائكة بالنسبة إليهم، و من بعض المؤمنين لبعض،

و في الدعاء: «حينا ربنا بالسلام» (١).

و المراد

(١) مستدرک وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٣٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٧

[سورة يونس (١٠): آية ١١]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

ب «السلام» السلامة من الآفات والمكاره، فإن الجنة هي دار السلام التي لا مكروه فيها أبداً. ومن ذلك سلام الإنسان لبعض حيا أو ميتا، فإن سلامة الحي من المكاره هنا، و سلامة الميت من المكاره هناك، و هو دعاء، أو تفأل، أو رجاء، بمعنى: «اللهم سلمه»، أو: «أنفأل لك السلامة»، أو: «أرجوها لك». و آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَي آخِرَ كَلَامِهِمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَهَمُ بَيْنَ تَسْبِيحٍ وَ تَسْلِيمٍ وَ تَحْمِيدٍ.

[١٢] إن حكمه الله سبحانه اقتضت بقاء الإنسان في الدنيا حتى يبلغ الأجل المضروب له سواء كان صالحاً أو طالحاً، فالخير والشرير اللذين سبق الكلام حولهما لا بد وأن يتما مدتتهما المقررة لهما، وإن كان بعض الناس يستعجلون الشر بدعائهم، أو بأعمالهم و لو يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَ الْمَرَضِ وَ الْفَقْرِ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ أَوْ بِدَعَائِهِمْ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا غَضِبَ دَعَا عَلَى نَفْسِهِ وَ عَلَى بَعْضِ ذَوِيهِ بِالْهَلَاكِ وَ الْأَمْرَاضِ وَ نَحْوِهِمَا اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ أَي كَمَا يُعَجِّلُ سَبْحَانَهُ لَهُمْ إِعْطَاءَ الْخَيْرِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بِأَعْمَالِهِمْ، أَوْ بِدَعَائِهِمْ لِقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ أَي لْفَرَجِ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ، وَ لَمْ يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِنْسَانٌ، وَ الْمَعْنَى: لْفَرَجِ مِنْ أَجْلِهِمْ وَ مَدَّتِهِمْ الْمَضْرُوبَةَ لِلْحَيَاةِ، وَ إِذَا انْتَهَتْ مَدَّتُهُمْ هَلَكُوا، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٨

[سورة يونس (١٠): آية ١٢]

وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُشْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

عَجُولاً) «١»، فحيث اقتضت المشيئة الإلهية بقاء الإنسان مدة في الدنيا فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يَعْتَقِدُونَ بِالْمَعَادِ فِي طُغْيَانِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَ تَرْفَعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ يَعْمَهُونَ «العمه» هو العمى، و شدة الحيرة، فلا نقضى أجلهم بل نمهلهم إمهالاً. و هذا الإبقاء إنما هو ليزيد عذابهم حيث طغوا و أعرضوا عن الإيمان بعد ما رأوا الآيات الدالة عليه.

[١٣] إن الإنسان الذي لم يتأدب بآداب الله سبحانه كثير التناقض، فبينما تراه يستعجل الشر، تراه لا يطيق أقل مس من الشر، حتى أنه إذا أصابه ذلك جعل يدعو الله في كل حالته لكشفه عنه وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ مَجْرَدَ مَسٍّ وَ عُبُورَ عَلَيْهِ الضُّرُّ مَشَقَّةٌ مِنَ مَشَقَّاتِ الدُّنْيَا فِي نَفْسٍ أَوْ أَهْلِ أَوْ مَالٍ أَوْ نَحْوِهَا دَعَانَا لِكَشْفِهِ وَ إِزَالَتِهِ، فِي حَالِ كَوْنِهِ نَائِماً لِجَنبِهِ مُضْطَجِعاً أَوْ قَاعِداً فِي حَالِ قَعُودِهِ أَوْ قَائِماً فِي حَالِ قِيَامِهِ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ «أَوْ» هُنَا بِمَعْنَى «الواو»، فَإِنَّهَا تَأْتِي بِمَعْنَاهَا، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

خير، أبح، قسم، بأو، و أبهم و اشكك، و إضراب بها أيضا نمي

و ربما عاقبت الواو إذالم يلف ذو النطق للبت منفدا

(١) الإسراء: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٤٩٩

[سورة يونس (١٠): آية ١٣]

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ وَ أزلنا البلاء الذي توجه إليه مر في طريقه السابق، بدون أن يغيره إلى طريق الدين و الحق كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَأَن لَمْ يَسْأَلْنَا إِزَالَةَ ضُرِّهِ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ الرَّبَّ بَعْدَ إِزَالَتِهِ. إِنَّهُ يَمُرُّ بِدُونِ أَنْ يَتَوَقَّفَ لِيَشْكُرَ، أَوْ يَتَذَكَّرَ، أَوْ يَعْتَبِرَ، كَذَلِكَ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الْمُنْحَطَّةِ الَّتِي تَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ فِي الضَّرِّ، وَ تَنْسَاهُ فِي السَّرَّاءِ زَيْنٌ لِلْمُشْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الرُّكُونِ إِلَيْهَا، وَ لَمْ يَجْعَلُوا لِلْآخِرَةِ خَطَّ رَجْعَةٍ إِلَيْهَا، لَوْ وَقَفُوا وَ تَأَمَّلُوا وَ شَكَرُوا، ارْتَدَعُوا عَنْ أَعْمَالِهِمُ الْبَاطِلَةِ، لَكُنْهُمْ

يمرّون بلا شكر و تدبّر، و لذا زَيّن الشيطان في نظرهم قبح أعمالهم، فإن الإنسان إذا تدبر عرف الحسن من القبيح، أما إذا ركب هواه و سار لا يلوى على شيء، لا يرى أعماله القبيحة إلا حسنة.

[١٤] فما ذا كانت عاقبة المسرفين؟ إن السياق يستعرضها بالنسبة إلى الأمم السابقة، لتعتبر هذه الأمة و لقد أهلكنا القرون جمع «قرن»، و هو أهل كل عصر، سموا بذلك لمقارنته بعضهم لبعض، و منه «القرن» بمعنى الشجاع المقابل لأنه مثل الشجاع الآخر من قتلكم بأنواع العذاب لَمَا ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ و غيرهم، و أسرفوا في الركون إلى الدنيا و جاء تَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ أَى الحجج و الأدلة، فإن الهلاك إنما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٥٥٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٤ الى ١٥]

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَ إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)

يكون بعد إتمام الحجّة، أما مجرد الظلم بدون إتمام الحجّة، فإنه لا يوجب هلاكاً- عند الله سبحانه- قال: (وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) «١»، و ما كانوا ليؤمنوا أى أن هلاكهم بعد العلم بأنهم لا يؤمنون أبداً، فهم ظالمون قد تمت عليهم الحجّة، و لا يؤمنون بعد ذلك كذلك أى كما جازينا أولئك القرون لَمَا ظَلَمُوا نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ من جميع الأمم.

[١٥] ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، أو أيها البشر المتأخرون عن أولئك خَلَائِفَ جمع «خليفة» نحو: طرائق جمع طريقه في الأرض مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد أولئك القرون، فإنكم خلفتموهم في الأرض، و صرتم خلفاء لهم لِنَنْظُرَ أى نرى، و المراد: الرؤية العلمية، أو الرؤية حقيقة، فإنه سبحانه ناظر لأعمال العباد كَيْفَ تَعْمَلُونَ هل تعملون الصالحات أو السيئات، كأولئك القرون؟ و إنما نريد النظر للاختيار و الجزاء.

[١٦] ثم بين سبحانه بعض أعمال هؤلاء المشابهة لأعمال أولئك القرون الظالمة. فقد ذكر بعض المفسرون أن جماعة من المشركين قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: انت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات و العزى و مناة و هبل، و ليس فيه عيبها، أو بدله و تكلم به من تلقاء نفسك «٢».

(١) الإسراء: ١٦.

(٢) مجمع البيان: ج ٥ ص ١٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠١

فنزلت: وَ إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ آيَاتُنَا الْمُنزَلَةَ فِي الْقُرْآنِ بَيِّنَاتٍ و اضحات قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أى لا يؤمنون بالمعاد، فإن المؤمن بالمعاد يرجو فضل الله سبحانه، فمن لم يرج فليس بمؤمن، لتلازم الرجاء و الإيمان: انت جئ يا محمد بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي تَلَوْتَهُ أَوْ يَدَّلُهُ فَاجْعَلْهُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا تَقْرَأُ، و الفرق بينها: أن القرآن الثاني غير مرتبطة بمطالبة بالقرآن الأول، بخلاف «بدله» فهو هو، لكن مع التبديل كأن يقول- عوض (إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ) «١»-: «إنكم و ما تعبدون من دون الله زينة الجنة» مثلاً. و قد ظن أولئك الجهلة أن القرآن أمثال أشعار العرب التي يتمكن الشاعر أن يقول شعرا آخر، أو أن يبدل جزءا من الشعر فيجعل مكانه جزءا آخر.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ أَبَدَلِ الْقُرْآنِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي من ناحية نفسي، فإنه معجز و ذلك بيد الله وحده، يقال: «فلان تلقاء فلان» أى بحذائه و إزائه إِنْ أَتَّبِعْ مَا أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ أَى الشىء الذى يوحى الله سبحانه إِلَيَّ بلا زيادة و لا نقصان إِنْ أَخَافُ إِنْ

عَصَيْتُ رَبِّي بِتَبْدِيلِ كِتَابِهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ، أَوْ

(١) الأنبياء: ٩٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٢

[سورة يونس (١٠): آية ١٦]

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)

سائر أنواع المعاصي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ يوم القيامة، و أى معنى للتبديل؟ هل لأن القرآن ليس معجزاً؟ فليأتوا بمثله، أم لأن مطالبه و قوانينه ليست مطابقة للواقع أو للحكمة، فما هو نقدهم فيه؟ و هل المعاند يكتفى بالتبديل؟ إن كلامهم كان لمجرد العناد، و هذا مما لا يصغى إليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

[١٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ: ليس أمر تلاوته، و لا- أمر إنزاله بيدي، إن جميع شؤون القرآن بيد الله سبحانه، فهو الذى أنزله، و هو الذى أمرنى بتلاوته، و قل لهم: إنى قد لبثت فيكم قبل نزول القرآن عمراً كاملاً أربعين سنة، و لو كان القرآن منى لكنت أقرأه، و أعلمه قبل نزوله، إن عدم قراءتى له من قبل، و عدم بيانه سابقاً، دليل على أنه ليس من عندى و ليس بيدي حتى أتمكن من تبديله و تغييره لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا أَتْلُوهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ فإنه هو الأمر بتلاوته عليكم و تبليغكم به و لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ أى لو شاء الله أن لا تعلموه، ما أعلمكم به، و ذلك بعدم إنزاله أصلاً. فيده وحده إنزال القرآن فَقَدْ لَبِثْتُ مَكْتُومٌ و أقمت بينكم و فيكم عُمُرًا أربعين سنة مِنْ قَبْلِهِ من قبل قراءتى للقرآن و تلاوتى له، فلو كان منى لكنت قرأته من قبل، فإنه أى فارق فى كلامى قبل ادعائى للنبوة و بعد ادعائى لها. و قد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يتكلم بكلام بينهم قبل النبوة فلم يكن يشبه كلامه القرآن أصلاً أَفَلَا تَعْقِلُونَ و تفكرون فى هذه الحقيقة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٣

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٧ الى ١٨]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَسْتَبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

الواضح، فكيف تطلبون منى أن أبدل القرآن.

[١٨] إذن، لم يبق أمامى فى باب تبديل القرآن إلا أن أخترع قرآناً من نفسى، و هذا مما لا يمكن أبداً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ أى لا- أحد أكثر ظلماً من إنسان تجرأ على الله سبحانه كَذِبًا بأن نسب إليه كلاماً ليس من كلامه، أو حكماً ليس من حكمه، فكيف أعمل أنا هذا بأن أخترع قرآناً ثم أنسبه إلى الله تعالى؟! أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ كما تعملون أنتم حيث تكذبون آيات الله و تقولون: أنها ليست من الله، فكلا- الأمرين افتراء عليه ما ليس منه، و سلب عنه ما هو منه إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ لا يفوزون بخير الدنيا و لا سعادة الآخرة، فإن الله سبحانه بالمرصاد للمجرم، خصوصاً الاجرام بهذا الحد من الجرأة عليه سبحانه.

[١٩] ثم بين سبحانه آلهة هؤلاء الكفار الباطلة، فإنهم تركوا الحق و اتخذوا الباطل و يَعْبُدُونَ يعبد هؤلاء الكفار مِنْ دُونِ اللَّهِ أى غير الله.

و هذا يجتمع مع الشرك و مع الكفر ما لا- يَضُرُّهُمْ ضرراً من قبلها و لا يَنْفَعُهُمْ فإن الأصنام جمادات لا تضر و لا تنفع، و العذاب للشرك إنما هو ضرر يتوجه إليهم من عملهم الباطل، كما أن بعض المنافع المادية لسدنة الأصنام و من إليهم إنما هى من الأشخاص الباذلين و الناظرين لا من قبل الأصنام، ثم إن كونها «لا تضر و لا تنفع» أبلغ فى الردع عن عبادتها، لأنه لا تجوز العبادة حتى بالنسبة إلى من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٤

[سورة يونس (١٠): آية ١٩]

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

يضر و ينفع كعبادة الملوك الذين بيدهم الضر و النفع ظاهرا. أو المراد النافع و الضار حقيقة، و ليس فى الكون نافع أو ضار فى الحقيقة إلا الله سبحانه، فإنه هو الذى خلق المنافع و المضار و أمكن كل شىء من الإتيان بمقتضاه.

وَيَقُولُونَ أَى يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ وَ هُم الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ بِاللَّهِ وَ بِالصَّنَمِ: هُوَ لِأَنَّ شَفَاعَتَنَا عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّا نَعْبُدُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لِتَشْفَعُ لَنَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: أَلَا تَتَّبِعُونَ اللَّهَ أَى هَلْ تَخْبِرُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ - عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِى - بِمَا لَا يَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَعْلَمُ كَوْنَ الْأَصْنَامِ شَافِعَةً، فَكَيْفَ تَنْسِبُونَ إِلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الشَّفَاعَةَ لَهَا، وَ «لَا يَعْلَمُ» مِنْ بَابِ السَّالِبَةِ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْضُوعٌ لِلْعِلْمِ، لَمْ يَكُنْ عِلْمًا. فَهَلْ يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ مَا لَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ يَخْبِرُونَهُ بِمَا لَا وَجُودَ لَهُ؟ وَ يَخْتَرِعُونَ الشَّفَاعَةَ لِمَا لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ شَفِيعًا سُبْحَانَهُ مَنْزَهُ عَنْ ذَلِكَ وَ تَعَالَى إِنَّهُ أَعْلَى وَ أَجَلُّ عَمَّا يُشْرِكُونَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ، وَ «مَا» إِمَّا مُصَدَّرِيَّةً، أَى عَنْ شَرِكِهِمْ، فَهُوَ مَنْزَهُ عَنْ شَرِكِهِمْ وَ أَجَلُّ مِنْهُ. وَ إِمَّا مُوَصَّوْلَةً، أَى عَنْ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَشْرِكُونَهَا مَعَ اللَّهِ، فَهُوَ مَنْزَهُ عَنِ الْمِثْلِ، وَ أَعْلَى وَ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ الْأَصْنَامِ.

[٢٠] و قبل أن يستعرض القرآن سائر أقوالهم السخيفة، يبين أن الشرك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٥

[سورة يونس (١٠): آية ٢٠]

وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

عارض على البشر، و إلا فالفطرة السليمة تدل على التوحيد، فإن الجهاز الموحد المنظم يدل على إرادة موحدة و رئيس واحد و ما كان الناس بفطرتهم و أصلهم إلا أمة واحدة موحدة، كما

قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه هما اللذان يهودانه و ينصرانه و يمجسانه»

«١»، فَاخْتَلَفُوا بِأَنْ بَقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ انْحَرَفَ بَعْضُهُمْ نَحْوَ الشَّرِكِ.

وَلَوْ لَا - كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بِأَنَّ قَالَهَا وَ قَرَّرَهَا بِأَنَّ تَكُونَ الدُّنْيَا دَارَ امْتِحَانٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ فِيهَا مَخْتَارِينَ مَطْلُقِي السَّرَاحِ مَهْمَا شَاءُوا اعْتَقَدُوا، وَ مَهْمَا أَرَادُوا عَمَلُوا، حَتَّى يَكُونَ الْجَزَاءُ عَدْلًا وَ اسْتِحْقَاقًا، لَا مَحَابَاةً وَ اعْتِبَاطًا لِقَضَايَا بَيْنَهُمْ أَى حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَنَّ يَهْلِكُ الْمُشْرِكِينَ وَ يَذَرُ الْمُوَحِّدِينَ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الشَّرِكِ، أَوِ الْمَرَادِ: لِقَضَايَا بَيْنَهُمْ بِأَنَّ أَجْرَ الْجَمِيعِ عَلَى التَّوْحِيدِ، لَكِنَّهُ (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) «٢».

[٢١] وَ يَقُولُونَ أَى يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ أَى عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ آيَةٌ مُعْجِزَةٌ خَارِقَةٌ كَمُعَاجِزِ عِيسَى وَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنْ طَرَفِ رَبِّهِ فَقَدْ كَانُوا يَقْتَرِحُونَ خَوَارِقَ أُخْرَى، وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ تَعَنَّاتًا،

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ١٨٧.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٦

[سورة يونس (١٠): آية ٢١]

وَ إِذَا أَدَفْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)

إذ يكفى فى الدلالة الخارقة دلالة القرآن العظيم المعجزة الباقية، لكنهم لم يكونوا يدعون لها قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ إِنْ

الآية الخارقة التي تطلبونها غيب خارق لقوانين هذا الكون، وإنه بيد الله سبحانه ليس بيدي و من عندي، وهو أعلم بالمصالح (و ما يُشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون) «١»، فإن المتعنت لا يريد إلا اللجاج لا الحجّة و الاقتناع حتى يسير الإنسان حيث إرادته، إنه لو أراد الاقتناع و الدلالة لكفته هذه المعجزة العظيمة، فهو كمن يأتي بامضاء الرئيس، ثم يقول الناس له: «جئ بامضاء آخر حتى نقبل قولك» فانتظروا المستقبل حتى ترون هل يأتي الله سبحانه بما تطلبون إنني معكم من المتتظريين و هذا الجواب فيه شبه تهديد، كما تقول للمجرم: اصبر حتى نرى العاقبة.

[٢٢] ثم بين سبحانه أن الطبيعة البشرية إنما تطغى إذا رأت نفسها غنية غير محتاجة، أما إذا وقع الإنسان في أزمة و شدة، فهو يلوذ بالله و يتوسل إليه، و هذا دليل على ما كمن في فطرته من التوحيد و الاعتراف بالألوهية و إذا أدقنا الناس رحمة الإذاعة تستعمل بمعنى الذوق باللسان، كما تستعمل بمعنى الإدراك مطلقاً، و هذا هو المراد هنا، فإن الرحمة ليست خاصة باللسان من بعد ضراء مستهم من شدة أو فاقة أو اضطراب أو غيرها إذا لهم مكر في آياتنا فإنهم حيث رأوا الشدة

(١) الأنعام: ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٧

[سورة يونس (١٠): آية ٢٢]

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَفِّرَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)

كانوا جديرين بقبول الحق، و اتباع الرسل، و الأخذ بالأحكام، لكن طبيعتهم العاتية حيث ترى غناها بسبب الرحمة التي ذاقتها، ترجع إلى إنكار الآيات، و الاحتيال و المكر لإخمادها و إنكارها، و قد كانت عادة البشر هكذا مع الأنبياء، فقوم فرعون كلما أصيبوا بمكروه جاءوا إلى موسى عليه السلام يسألونه الكشف عنهم حتى يؤمنوا، فإذا أذاقهم الله الرحمة، و كشف عنهم العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه، و أخذوا يمكرون بموسى، و يحتالون لإخماد آيات الله سبحانه، و هكذا سائر الأنبياء و المصلحين مع أممهم، إلى هذا اليوم.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمِثْلِ هَوْلَاءَ: لا- تفعلوا و لا- تمكروا ف الله أشير مكرراً فإن مكر هؤلاء لا يصل إلى أعماق الحياة، بخلاف مكره سبحانه و علاجه للأمر- لأن المكر هو: التدبير الخفي- فإنه يصل إلى أعماق الحياة، و لذا تكون جذور دعوات الأنبياء أعمق و أسرع في نفوس الناس من مكر الماكرين و إنكار الملحدين و تشكيك المشككين إن رُسُلنا أى الملائكة يكتبون ما تمكروا أى ما تدبرون خفية ضد الدين و أهله، ثم تجزون على ذلك.

[٢٣] ثم ضرب سبحانه مثلاً لطبيعة الإنسان العاتية التي تتضرع عند الشدة، و تنسى عند الرخاء هو الذي يسير في البر فإن مشى الحيوان، و المركبة، و غيرها، إنما هو حسب تكوين الله سبحانه و نظامه الذي جعله للحياة و إلا لم يتمكن الإنسان من السير و لو خطوة واحدة و البحر بسبب الفلك و نظام عدم غرق ما وزن الماء أثقل منه- كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٨

بين في قانون أرخميدس- حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ فَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ سَارَ مِنْ بَلَدِهِ فِي طَرِيقِ الْبَحْرِ حَتَّى رَكِبَ فِي السَّفِينَةِ لِإِرَادَةِ الذَّهَابِ إِلَى مَقْصَدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْبَعِيدَةِ وَجَرَيْنَ أَى جرت السفن، فإن «الفلك» يأتي مفرداً و جمعاً بلفظ واحد بهم أى بالناس بريح طيبة لينه يستطيعونها، لأنها تجرى نحو المقصد في رخاء و هدوء و فرحوا الراكبون بها أى بهذه الريح. فهم في أمن و فرح و سير نحو المقصد بارتياح، و إذا بهم جاءتها السفينة ریح عاصفٌ شديدة الهبوب، هائلة هائجة، فأخذت السفينة في الاضطراب و الإشراف على الغرق من الترنح الشديد الذي يصيبها بسبب تلاطم الأمواج و جاءهم المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَطْرَافِ الْأَرْبَعَةِ، فإن الرياح إذا توجهت نحو الماء رفعت منه أجزاء كثيرة ربما صارت كالجبل العظيم، و هذا هو الموج، و الأمواج تسير بسير الهواء ما دامت تنفخ فيها و تسيرها،

فإذا اضطربت الرياح وهبت من الجهات المختلفة جاءت الموج من كل مكان، و إذا بالسفينه في وسط الأمواج ترتفع مره و تنحدر أخرى، و تميل ثلثه، و تقع من علو دفعه- إذا تلاشت الأمواج تحتها- رابعه، و هكذا .. فتصبح:

كريشه في مهب الريح طائفة لا تستقر على حال من القلق
وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ أَوْ أَحَاطَتْ بِهِمُ الْأُمُوجُ بِحَيْثُ تُغْرِقُهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٠٩

[سورة يونس (١٠): آية ٢٣]

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

فلا- نجاه من الهلكه، و حينئذ حيث رأوا الهلاك-ك دَعَوْا اللَّهَ وَ تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، و انقضت عن عيونهم غواشى الشهوات و الأنانيات، و ظهرت فطرتهم صافية مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى على وجه الإخلاص فى الاعتقاد، بحيث يجعلون الدين له، و ينقطعون عما سواه، قائلين: لئن أَنجَيْتَنَا يَا رَبِّ مِنْ هَذِهِ الشَّدَّةِ وَ الْوَرطَةِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ المعترفين بك و بفضلك و إحسانك فإن الشكر يستلزم الإذعان و التوحيد.

[٢٤] فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ أَوْ خَلَّصَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَالِ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أى يظلمون أنفسهم و غيرهم، فإن من لا يسير على منهاج الله سبحانه لا بد و أن يكون ظالما باغيا يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ الظَّالِمَ يَظْلِمُ الظالم يعود و باله عليه مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى أن بغيكم إنما هو ما يتمتع به فى الحياة الدنيا، و ذلك منقطع لا يبقى، فإن الإنسان إنما يبغى لأمر دنيوية، و لا فائدة فيما لا بقاء له و لا دوام ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ وَ رَجوعكم و مصيركم فَنَبِّئُكُمْ بِمَصِيرِكُمْ خبركم بما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ و هذا تهديد بأنهم سيجازون بأعمالهم السيئه، كما تقول للمجرم: «سأخبرك بأعمالك» تريد جزاءه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٠

[سورة يونس (١٠): آية ٢٤]

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيِنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)

على تلك السيئات التى صدرت منه.

[٢٥] و لما ذكر سبحانه أن الظلم إنما هو متاع الحياة الدنيا، بين فناءها، و أنه لا ينبغى أن يعمل الإنسان لما يفنى و لا يبقى إنما مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى شبه الحياة القريبه فى سرعة فنائها و زوالها كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ وَ هو المطر فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَإِنَّ النبات يمتص الماء حتى ينضرو و يزدهرو و ينمو مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنَ الثَّمَرِ وَ الْبَقُولِ وَ نَحْوَهُمَا وَ الْأَنْعَامُ كَالْحَشِيشِ وَ الْقَاتِ وَ غَيْرَهُمَا. و لعل الإتيان بهذا التفصيل للتناسق بين المثال و الممثل له فكما أن الماء يختلط بالأجناس العالیه من النبات- و هو ما كل الإنسان- و الأجناس السافله- و هو ما كل الحيوان- كذلك الحياة التى يفيضها الله سبحانه على الكون تختلط بالأشياء الراقية كالإنسان و الجواهر، و بالأشياء المنحطه كالمدر و الحجر و غيرهما.

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا «الزخرف» كمال حسن الشىء، يقال: «زخرفته» أى حسنته، فإن المطر لما ينزل من السماء يظهر ريع الزروع و الكروم و نضارة النباتات و الأشجار وَ أَزْيِنَتْ أى تزينت الأرض بالنبات الزاهى و الزرع النضر، و أصل «أزيت» تزينت من باب «التفعل» قلبت «التاء» «زاء» و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن.

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَيَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا لِزَعْمِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١١

أنهم هم الذين أوجدوها بجهدهم، وزيئوها بصنعهم، و أنهم مالكو الأمر فيها، فلا يتمكن أحد من تغييرها و تحريرها. و كذلك الإنسان دائما يظن أن ما يجرى فى الكون مما له دخل فيه، إنما هو بصنعه و إرادته، فإذا بنى دارا زعم أنها صنعه، و إذا جرت سفينته فى الماء ظن أنها منه، و هكذا، و الحال أن الإنسان ليس إلا جزءا صغيرا متوسطا فى سلسلة العلل. فقبله، الأرض التى منها أدوات البناء و بعده الصورة التى هى من الله سبحانه، و بها البقاء للدار، و هكذا بالنسبة إلى السفينة و سائر الأشياء.

أتاها أتى تلك الأرض المزخرفة بالزرع و النظارة أمزنا أى عذابنا من برد أو ثلج أو عاصفه أو جراد أو نحوها ليلا أو نهاراً و هذا يدل على كمال القدرة، فإنه لا يخشى من أحد و لا يمنعه وقت يقظة الناس كما لا يمنعه حراس الليل فجعلناها حصية يداً جعلنا تلك الأرض حصيدا أى محصودة، مقلوعة ذاهبة كدأن لم تَعْنِ لم توجد و لم تكن بالأئمس من قبل، من «غنى بالمكان» بمعنى أقام به، و منه «المغنى» بمعنى المنزل كذلك بما فصلنا هذا المثال و أوضحناه نُفْصِلُ سائر الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى أدله الله سبحانه، فالحياء الدنيا، كماء المطر و الدنيا كالمزرعة، فإن الحياء تختلط بماهية الأشياء، و إذ نرى الحياء مزدهرة، و الأسواق عامرة، و الأرض مخضرة، و الناس فى أمن و رفاه، و أخذ و عطاء، و فى هذه الغمرة من الحسن و الازدهار، و إذا بأمر الله سبحانه يأتى إما بسبب أرضى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرَ وَ لَا يَزِيدُهُمْ قَتْرًا وَ لَا ذِلَّةً أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)

كالحسف، أو بسبب سماوى كالصيحة و البرق و القذف، أو كالأضرار الفتاكه، أو كوسائل الهدامة من الآلات الحربية المفنية- كالفنابل و غيرها- فيجعلها حصيدا لا حياة فيها و لا حركة، و لا عماره و لا حضارة.. أليس الأمر كذلك؟ و أليس يكفى هذا دلالة على وجود الله و قدرته؟ فكيف يتكبر الإنسان و يعصى، و يطغى و يكفر؟

[٢٦] هذه كانت حالة الدنيا فهى دار تغير و زوال، و فناء و اضمحلال و الله يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ التى يكون كل شىء فيها سالما عن التغير و الآفات، و هى الجنة، فإنه سبحانه يحترضهم للعمل، فهذه الدار لتلك الدار، و «السلام» و «السلامة» بمعنى واحد، كالرضاع و الرضاة و يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إما المراد بالهداية: معناها العام، ف «من يشاء» هم جميع الناس، و إما المراد بها: معناها الخاص، أى الأطفاف الخاصة، ف «من يشاء» هم الذين اتخذوا منهاج الأنبياء، فإنهم مختصون بتلك الأطفاف المؤدية بهم إلى جنات النعيم.

و من المحتمل أن يراد بالهداية: معناها العام- و هى إراءة الطريق- و يكون «من يشاء» خاصا بمن تمت لديه الحجة، فإن كثيرا من أهل البلاد البعيدة لم تبلغهم الدعوة، و كذلك من مات فى الفترة بين الرسل و نحوهم، و أولئك الذين لم تبلغهم الدعوة، إنما يمتحنون يوم القيامة، كما يقتضيه العدل، و دل على بعض موارد الدليل.

[٢٧] تلك حال الدنيا الزائلة و هذه حال الآخرة الباقية، فلننظر إلى أحوال أهل تلك، و أهل هذه بين الأمرين، ف لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الاعتقاد،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٣

[سورة يونس (١٠): آية ٢٧]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَزْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)

و أحسنوا العمل، بأن آمنوا و عملوا الصالحات الحُسْنَى أى الحالة الحسنَى، فإنهم يجزون بإحسانهم إحسانا و زيادةً فضل من الله سبحانه، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، كما قال سبحانه فى آية أخرى: (لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ) «١»، و لا يَزْهَقُ «الرهق» لحاق الأُمر، و منه «راهِق الغلام» إذا لحق بالرجال، و يستعمل اسما من «الإرهاق» و هو أن يحتمل الإنسان ما لا يطيقه، أى لا يلحق و جُوهُهُمْ قَتْرُ أى غبار و سواد و لا- ذلَّةً انكسار و انهزام، فليست كوجوه أهل المعاصى التى يظهر عليها أثر العذاب الجسدى بالقتل، و أثر العذاب النفسى بالذلة، بل و جوههم نصره، كما قال سبحانه:

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) «٢»، أولئك الذين أحسنوا أضيحابُ الجَنَّةِ رفاقها و ملاكها هم فيها خالدون دائمون أبدا، لا خروج لهم منها، و لا تغير لها بهم.

[٢٨] و الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ أى عملوها، و غالبا يأتى «الكسب» بالنسبة إلى السيئات للدلالة على صعوبة السيئات بخلاف الحسنات، و ذلك واضح لأن السيئات لها التواءات توجب الصعوبة لمكتسبها فمثلا الزواج فيه سهولة اطمئنان النفس إلى دار، و أهل، و أولاد، و قلوب تحنو عليه، و مستقبل يقوم به النسل، و ذكر جميل و سيادة. و السفاح بالعكس من كل ذلك، بالإضافة إلى صرف المال و الطاقة لقلب خاو

(١) فاطر: ٣١.

(٢) المطففين: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٤

و عمل مذموم، و هكذا. و ليس المقصود أن الحلال بلا صعوبة، و أن الحرام بلا لذة، و إنما المقصود أن الحلال دائما أهنا و أسهل من الحرام، فإنه سبحانه خلط الحرام باللذة القليلة، و الحلال بالتعب اليسير، ليختبر و يمتحن، فلو كان الحلال بلا تعب لم يكن الآتى به ممدوحا، و لو كان الحرام بلا لذة لم يكن التارك له مستحقا للأجر و الثواب.

جزاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا لا يجازون بأكثر من عملهم، إذ الجزاء بالأكثر ظلم قبيح، و «جزاء» مبتدأ خبره «بمثلها»، و الجملة خبر لقوله: «الذين كسبوا» و العائد محذوف أى «لهم» و نحوه وَ تَزَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ تلحقهم ذلة نفسية، فإن الإنسان المعدب يحس فى نفسه ذلة و انهزاما ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ليس يحفظهم عن العذاب اللاحق بهم حافظ من قبل الله، أو المراد: لا ينجيهم من عذاب الله حافظ، و هم بالإضافة إلى العذاب و الصعوبات، فإن الدم يحترق فى الجسد، و ينقلب أسودا، فيظهر لونه على الجسم لشفافية الجلد كأنما أُعْشِيَتْ و جُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا فكان الليل صار قطعاً بسواده الشديد، فأغشيت و جوههم بقطع منه، قطعة فوق قطعة حتى لا يرى فيها أثر النور و الضياء، فهم فى عذاب البدن، و ذلة النفس، و سواد الوجه أولئك الذين كسبوا السيئات أصحابُ النَّارِ رفاقها و الملازمون لها و المعرفون بها هم فيها خالدون دائمون أبد الأبدين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٥

[سورة يونس (١٠): آية ٢٨]

و يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانا تَعْبُدُونَ (٢٨) [٢٩] قد كان أولئك الكفار و العصاة فى الدنيا لهم آلهة و أصدقاء، فأين ذهب آلهتهم و أصدقاؤهم؟ و هل أنقذوهم و شفّعوا فيهم؟ إنهم هناك انقلبوا أعداء بعد ما رأوا العذاب و اذكر يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ أى نجمعهم جميعاً بلا استثناء أحد، و هو يوم القيامة ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، بأن جعلوا له شريكا: الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تجازون بأعمالكم أَنْتُمْ وَ شُرَكَائِكُمْ أى كونوا جميعاً فى مكانكم حتى تعطون الجزاء. و إضافة الشركاء إليهم باعتبار أنهم اخترعوها، و جعلوها شركاء الله سبحانه فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ أى ميزنا و فرّقنا، و المراد: التفريق بينهم فى السؤال، فهناك سؤال عن المشركين، و سؤال عن الآلهة التى عبدوها من دون الله سبحانه وَ قَالَ شُرَكَائُهُمُ الْأَصْنَامُ و

غيرها من المعبودات التي عبدوها، مخاطبين للكفار: ما كُنتُمْ أيها المشركون إِيَّانَا تَعْبُدُونَ إما المراد أنهم عبدوا الأهواء و الشياطين، و إما المراد نفى ذلك، مريداً به نفى العلم بعبادتهم. و هذا أيضاً يصح بالنسبة إلى من لا يعلم، كالأصنام التي لا تعقل، فإنها ينطقها الله سبحانه هناك، أو أنهم يكذبون للتخلص من التبعة حتى لا يقال لهم: لم رضيتم بعبادة هؤلاء لكم؟ كما يكذب المشركون هناك قائلين: (وَ اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) (١).

(١) الأنعام: ٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٢٩ إلى ٣١]

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)

[٣٠] ثم يستشهد المعبودون بالله سبحانه في أنهم لم يكونوا يعلمون بعبادة المشركين لهم فكفى بالله شهيداً أى يكفينا شاهداً و فاصلاً للحق بيننا معاشر المعبودين و بينكم أيها المشركون إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ أيها المشركون لنا لَغَافِلِينَ «إن» مخففة من المثقلة، و حذف اسمها، و هو ضمير الشأن أى يشهد الله: أنه كنا غافلين عن عبادتكم لنا، فإننا لم نعلم بذلك، فكيف نرضى به؟ و لا إثم علينا من هذه الجهة. و هذه حجة قوية على المشركين في الدنيا، فإنهم يعبدون ما لا يعلم شيئاً من عبادتهم، و هل يصلح للعبادة ما هذا شأنه؟! [٣١] هُنَالِكَ في ذلك الموقف الرهيب موقف الحشر تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ أى تختبر كل نفس أعمالها التي أسلفتها و قدمتها، فإن الإنسان في الدنيا لم يختبر أعماله، و لا يعلم الصالح و الفاسد منها إلا قليلاً، إلا إذا كان متبعاً للأنبياء فيعرف قيمة الأعمال، فمثلاً لا يعلم الإنسان في الدنيا قيمة الصدقة، إذ لم يختبرها حتى يعرف ما الثمار الكثيرة المترتبة عليها، كما لا يعرف مقدار ضرر الشرك و ما أشبه وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أى ارجعوا إليه، إلى ثوابه و عقابه، و حسابه و جزائه وَ ضَلَّ عَنْهُمْ أى ضاع و بطل عن نصرتهم و شفاعتهم و إنقاذهم ما كانوا يَفْتَرُونَ أى الأصنام و المعبودات الباطلة التي كانوا يفترون على الله سبحانه بكونها شركاء له.

[٣٢] ثم يستدل سبحانه على كونه الحق و أن سواه باطل بما يشاهدونه في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٧

حياتهم اليومية قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: مَنْ يَرْزُقُكُمْ و يعطى أرزاقكم مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ الْمَطَرُ وَ الْأَرْضُ يَخْرُجُ النَّبَاتُ، و هكذا يشمل الرزق طيور السماء و أسماك الماء و حيوانات الصحراء، أو هو أعم من ذلك و من سائر الأشياء التي يستفاد منها كالدور و القصور، و المراكب و الملابس، و غيرها أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ فإن من وهبهما و أبقاهما ليس إلا الله سبحانه، و هو القادر على أن يسلبهما وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كَالنَّبَاتَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، و الإنسان و الحيوان من المأكولات الميتة، أو ما أشبه ذلك وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كَالثَّمَارِ وَ الْحَبُوبِ مِنَ النَّبَاتَاتِ، و الجنين الميت من المرأة الحية، أو ما أشبه ذلك وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أمر السماء و الأرض بانتظام الحركات و تسيير الأجهزة، على وجه الحكمة و الصلاح.

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ يفعل كل ذلك، فإنهم بصفتهم مشركون كانوا معترفين بالله، حيث لم تكن الأصنام و ما أشبهها تقدر على هذه الأشياء الكبيرة، فلا بد و أن يعترفوا بأنها من الله سبحانه وحده، لا- شريك له في ذلك كله فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهم: أَفَلَا تَتَّقُونَ في جعلكم الشريك له بغير علم، أَفَلَا تَخَافُونَ عقابه و عذابه في شرككم بلا حجة و لا برهان؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٨

[سورة يونس (١٠): الآيات ٣٢ إلى ٣٤]

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ (٣٤)

[٣٣] فَذَلِكُمْ أى ذاك الموصوف بتلك الصفات- أيها المخاطبون- فإن «كم» للخطاب الله رَبُّكُمْ وإلهكم الحق الذى خلقكم و رزقكم و لا- يستحق العبادة أحد سواه فماذا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ استفهام تقريرى، أى ليس وراء الحق إلا باطل، فالله الحق، و دونه باطل فَأَنَّى إلى أين تُصِرُّونَ يصرفكم الشيطان و الأهواء، فتعدلون عن الحق و هو الإله الواحد إلى الآلهة المتعددة.

[٣٤] كَذَلِكَ الذى تقدم من قيام الأدلة عند هؤلاء المشركين على التوحيد، و مع ذلك لا يقبلون النتيجة و يجعلون مع الله شركاء حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ثبتت، و وجبت كلمة الله و حكمه و العلم الأزلى عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا و خرجوا عن طاعة الله الواحد إلى طاعة الأنداد و عبادة الأصنام أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ هذا بدل من «كلمة ربك» أى أن الله سبحانه علم من الأزل أن هؤلاء لا يؤمنون، و لم يكن ذلك لأنه لم تتم الحججة عليهم، بل لأنهم فسقوا، و خرجوا من توحيد الله إلى الشرك.

[٣٥] ثم ذكر سبحانه حججا أخرى على التوحيد و نفى الشرك قُلْ يا رسول الله لهؤلاء المشركين: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ أى الذين جعلتموهم شركاء لله، فإنهم لما كانوا مختلفين، كانت نسبتهم إلى مخترعيهم أولى من نسبتهم إلى الله سبحانه، فلم يقل تعالى «شركائى»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥١٩

[سورة يونس (١٠): آية ٣٥]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)

مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ بِالْإِيجَادِ ثُمَّ يُعِيدُهُ فانيا كما كان، أو يعيده بعد الموت إلى الحياة. و حيث لا يحير هؤلاء جوابا، إذ لا تفعل شركاؤهم ذلك، و يفحمون بهذا الاحتجاج قُلْ يا رسول الله فى الجواب:

اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إن ذلك خاص به لا يتمكن أحد من هذا العمل سواه فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ أى إلى أين تصرفون عن الحق؟ من «أفك» بمعنى: انقلب و انصرف عن الحق.

[٣٦] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء المشركين: هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ الأصنام التى جعلتموها شركاء كذبا و زورا مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أى إلى الرشد و الصلاح كى يتنعم عبادها بما فيه خيرهم و سعادتهم، و حيث أنهم لا يتمكنون من الإجابة بالإثبات، و إلا طولبوا بالدليل. و لا يخفى أن هذا الاحتجاج كان مع عبادة الأصنام، لا مع عبادة المسيح عليه السلام و نحوهم قُلْ يا رسول الله فى الجواب: اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ فإنه هو الذى أنزل الشرائع و أرسل الرسل لهداية الناس من الظلمات إلى النور، و تعليم طرق الصلاح و الرشد و السعادة.

ثم يتوجه هنا سؤال يدخل فيه جميع الآلهة حتى عيسى عليه السلام فى زعم عباده أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ و يرشد إلى الطريق السوى، و هو الله سبحانه أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ و يأخذ الإنسان بأوامره و نواهيه أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٠

[سورة يونس (١٠): آية ٣٦]

وَمَا يُتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

أصله «يهتدى» من باب «الانفعال»، قلبت «التاء» «دالا» و أسقطت همزة الوصل من أوله، لنقل حركة التاء إلى الهاء، فصار «هدى» «يهدى» و المعنى: هل الله أحق بالاتباع أم من لا يهتدى إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فمن يحتاج إلى الاهتداء لا يصلح أن يتخذ ربا، فالمسيح عليه السلام و إن كان نبيا عظيما إِلَّا أنه ينطبق عليه هذا الوصف، إذ لا يهتدى إلا بهداية الله سبحانه. أما الأصنام فهى أبعد، إذ أنها جمادات لا تهتدى حتى إذا أرادوا هدايتها.

و كأن القرآن جرى في هذا الاحتجاج مجرى المسلم من خصمه ببعض مقدماته ليرد عليه حتى على ذلك الفرض، و المشركون كانوا قد فرضوا عقلا للأصنام و أنها تشعر فما لكم أيها المشركون، و المعنى: ما هو سبب قولكم بغير الحق، و أنتم تعلمون كيف تحكّمون بأن هذه الأصنام آلهة بعد ما قامت الحجة على بطلانها.

[٣٧] و ما يتبع أكثرهم إلا ظننا أي أن أكثر هؤلاء المشركين إنما يتبعون الظنون في اعتقادهم بألوهية الأصنام، فإنهم لا يتقنون بذلك جزما، إنما رأوا آباءهم عبدوها، فظنوا بصحتها تقليدا، و الحال إن الظن لا يعنى من الحق شيئا فإن الظن ترجيح أحد الطرفين، و هذا ليس بواقع و لا معذر، أما أنه ليس بواقع، فلأن الواقع لا يتبع أداء الأشخاص، و أما أنه ليس بمعذر فلأن العقلاء الملتفتين لا يعتمدون عليه في الأمور المهمة، و هذا بخلاف القطع فإنه إن حصل من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢١

[سورة يونس (١٠): آية ٣٧]

و ما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧)

مقدمات صحيحة كان مطابقا للواقع و معذرا إن الله عليم بما يفعلون فيجازيهم بأعمالهم الباطلة التابعة لظنون تقليدية واهية.

[٣٨] ثم ينتقل السياق إلى الكلام حول القرآن الذي كان معجزة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و الدليل على صدقه و صحته كلامه، و يستعرض مناقشاتهم حوله و الجواب عنها و ما كان هذا القرآن أن يُفترى أي يكون مفترى من دون نزول من عند الله سبحانه، فلا يتمكن أحد أن يفترى قرآنا و ينسبه إلى الله سبحانه، فإن الكلام المفترى ليس كالقرآن، لأن له أسلوبا خاصا معجزا، و أنظمة و تشريعات لا يتمكن البشر من الإتيان بمثلها. بالإضافة إلى أن أحدا لو افترى على الله و جاء بمعجز، كان حتما من الحكمة أن يكذبه الله سبحانه، و إلا كان إغراء بالجهل، و ذلك قبيح على الله سبحانه. و قد دل التاريخ أن كل كاذب جاء بشيء ظاهره معجز- سحرا- لم يلبث أن انكشف سره و ظهر كذبه.

و لكن هو كتاب سماوى من عنده تعالى، و كان تصديق الذي بين يديه أي مصدقا للكتب السابقة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام فهؤلاء المعارضون له غير مرتبطين بشرائع الله، فهم بمعزل عن الدين إطلاقا و تفصيل الكتاب أي أن القرآن تفصيل للذي كتبه سبحانه على البشر من الأحكام و الشرائع، كما قال سبحانه: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) «١»،

(١) البقرة: ١٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٢

[سورة يونس (١٠): آية ٣٨]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)

لا- ريب فيه أي ليس في القرآن مجالا- للريب، إذ حججه ساطعة و أدلته واضحة، فمن ارتاب فيه فقد ارتاب ارتيابا في غير موضعه، كمن يرتاب في النهار من رب العالمين بدليل أنه معجز لا يقدر أحد من البشر من الإتيان بمثله.

[٣٩] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ أي أن الكفار بعد هذه الحجج يقولون أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم افترى القرآن، و نسبه إلى الله من دون أن يكون منه، و «أم» هنا بمعنى «بل» الإضرابية، و فيه استفهام إنكارى قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ أي مثل القرآن في البلاغة و الإعجاز، فإن إعجاز القرآن من نواحي متعددة منها بلاغته الخارقة.

و قد تحدى القرآن بلغاء العالم بأن يأتيوا بسورة واحدة مثل سور القرآن و لو كأقصر سورة نحو (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ و لَمْ يُولَدْ* و لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) «١» لكنهم لم يتمكنوا. و قد كان تحدى القرآن متدرجا، فتحدهم أولا أن يأتيوا بمثل تمام القرآن، ثم بمثل عشر سور، ثم بمثل سورة، لكنهم لم يقدروا على أي منها، و ذلك دليل أنه معجز، إذ لو لم يكن

معجز لقدر البشر على الإتيان بمثله، لأن مواده و هي الألفاظ و الكلمات بل و الجمل كانت تحت قدرتهم.
وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ دَعْوَتَهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) الإخلاص: ١-٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٣

[سورة يونس (١٠): آية ٣٩]

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)
أى غير الله سبحانه، ليشار كونكم و ليساندوكم فى الإتيان بسورة واحدة مثل القرآن، أما الله فهو القادر على ذلك، فاللازم أن يكون
الطلب من سواه إن كنتم صادقين فى أن القرآن من كلام البشر، و ليس من كلام الله سبحانه.
[٤٠] ثم بين سبحانه أن تكذيب هؤلاء بدون دليل و برهان بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه كذبوا بالقرآن قبل أن يطلعوا على كنه أمره
و حقيقته، كالجاهل الذى يكذب بالشىء بدون أن يقرب أوجه الرأى فيه. إنهم حيث لم يألّفوا الأنبياء و المعاجز و كانوا جاهلين
بذلك تمام الجهل كذبوا بمجرد السماع و الرؤى، بدون أن يتدبروا فى أنه لو كان كذبا مفترى لتمكنوا من الإتيان بمثله، فإن الحكيم
دائما يفكر و يتدبر ثم يحكم و يظهر النتيجة، أما الجاهل فإنه يسرع فى اتخاذ النتائج قبل التدبر و التفكير فى المقدمات.
و لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أى لم يأتهم بعد ما يؤول إليه أمر الكتاب، أى بدون أن يعرفوا مآل الكتاب، و أنه كيف يكون و إلى ما ينتهى.
و هذا كقولك: «فلان يسرع بتكذيبى بدون أن يتدبر كلامى و أن يرى مصير هذا الكلام»، فإن كثيرا من الأشياء يعرف صدقها من
كذبها من حال مصائرهما، فإذا قال زيد: «سيجىء الحاج إلى كربلاء»، كان اللازم أن لا يكذبه السامع إلا إذا جاء وقت إخباره و لم
يظهر منهم أثر، أما أن يكذب بدون أن ينتظر أوله و آخره، فهو خارج عن منطق العقلاء و المفكرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٤

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٠ الى ٤١]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَ إِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا
أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)

كذلك أى كتكذيب هؤلاء كذب الذين من قبلهم من أمم الأنبياء بدون أن يفهموا كلامهم و ينتظروا عواقب كلامهم، هل يصدق
إخبارهم عن المستقبل أم لا- فأنظر يا رسول الله كيف كان عاقبة الظالمين الذين كذبوا الأنبياء، فعاقبه هؤلاء كعاقبه أولئك، فإن
مصيرهم إلى الهلاك و العذاب.

[٤١] و إذا كان غالب هؤلاء متبعين للظن مكذبين اعتباطا، فإن منهم من يؤمن أيضا، إذ الحق لا يخلو من أنصار و منهم من يؤمن به
أى بالقرآن، بترك كفرهم و شركهم، و اتباع الحق و منهم من لا- يؤمن به بل يبقى فى غيه و ضلاله، و ربك يا رسول الله أعلم
بالمفسدين الذين يدومون على فسادهم، فإن الكافر مفسد مهما كان نزيها، فإن الكفر هو أعظم فساد فى الأرض، لأنه خرق لمنهاج الله
سبحانه.

[٤٢] وَ إِن كَذَّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ إِزَامِ الْحُجَّةِ، وَ إِتْمَامِ الدَّلِيلِ فَقُلْ لَهُمْ: لِيَعْمَلْ كُلُّ طَرَفٍ مِمَّا حَسَبَ مِنْهُجَهُ وَ مَعْتَقَدَهُ، فَإِنِّي لَا
أَحْمِلُ تَبِعَهُ أَعْمَالِكُمْ، كَمَا أَنْكُمْ لَا تَتَنَفَعُونَ بِعَمَلِي لِي عَمَلِي وَ سَأَرَى جَزَاءَهُ وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ وَ سَتَرُونَ جَزَاءَهُ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ أَنَا
مِنَ الطَّاعَةِ وَ الْعِبَادَةِ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ مِنَ الْمَعَاصِي وَ الْكُفْرَانِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

وهذا شبه وعيد لهم بأنهم وحدهم يلاقون جزاء أعمالهم الباطلة.

[٤٣] وَمِنْهُمْ أَى من هؤلاء الكفار مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ بِأَذَانِهِمْ، لكنهم أغلقوا قلوبهم عن الانتفاع، فهم متخذون مكان المتفرج وإنما يستمعون فقط بدون قصد التعلم والعمل أَفَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُسْمِعُ الصُّمَّ جمع «أصم» بمعنى: من فقد حاسة السمع، أَى أنك لا تقدر على إسماع الحق لمن صمّت أذن قلبه وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَقْدِرُ عَلَى إِسْمَاعٍ مِنْ يَرِيدِ الْإِتْبَاعِ وَالتَّعْقُلِ، أما غيره فليس ينجح فيه كل كلام.

[٤٤] وَمِنْهُمْ أَى من هؤلاء الكفار مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، حين إلقاءك الحجج والأدلة، والناظر لا بد وأن يبصر الحق فى المنظور إليه، فإن الحركات والسكنات تدل على ما فى قلب المتكلم من الحرارة والصدق، ولكنهم ينظرون للتفرج لا لتفهّم الحق وتعلم الواقع أَفَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَهْدِي الْعُمْىَ جمع «أعمى»، فإنهم والأعمى سواء، فكما لا ينتفع الأعمى ببصره كذلك لا ينتفع هؤلاء بما يرون من الحق وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَقْدِرُ عَلَى إِرَاءَةِ الْبَصِيرِ، أما الأعمى فإن الإنسان لا يقدر على إراءته الحق وإن اجتهد كل جهد.

[٤٥] وَأَخِيرًا، إن كل ما يصيب هؤلاء إنما يصيبهم بسبب ظلمهم لأنفسهم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِنَّمَا تَرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْتِكَ فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)

لأنهم لم ينتفعوا بكل ما أقيم لهم من الحجج إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا أَى ظلما ولو يسيرا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ بإعراضهم عن الحق بعد إتمام الحجة ووضوح المحجة.

[٤٦] ثم بمناسبة عدالة الجزاء وكون ظلمهم لا يعود إلا على أنفسهم يأتى السياق ليبيّن أنهم فى الحشر يكونون فى أسوأ حال وكان دنياهم قد مرت كساعة، وقد بقيت التبعات الجسام عليهم وَيَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَوْمَ يَحْشُرُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِمَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، كَأَنْ لَمْ يَلْبُثُوا أَى لم يبقوا فى الدنيا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ فهم لا يرون إلا بريقا من الدنيا، وكان عمر الدنيا كان ساعة فقط، وهذا ليس بغريب، فالإنسان يرى وهو فى الدنيا ماضى عمره كساعة أو شبهها يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ هناك، أَى يعرف بعضهم لبعض قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ خسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم، والمراد من «لقاء الله» لقاء جزائه، تشبيها للمعقول بالمحسوس وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ للحق، فإن عدم اهتدائهم هنا سبب خسارتهم هناك.

[٤٧] إِنَّ الْكُفَّارَ تَكُونُ عَاقِبَتُهُمْ إِلَى خَسَارَةٍ، وقد وعد الله رسوله خزى الكفار ونصرة المسلمين عليهم، ثم يبيّن أنه سواء رأى خزيهم أو مات قبل أن يرى ذلك، فإنه سبحانه لا بد وأن يجازيهم على سوء صنيعهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) وكفرهم، وَإِنَّمَا تَرِيَّتْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ «إن» شرطية و«ما» زائدة للتجميل بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ بأن تكون فى الحياة، فترى بعض العقوبات التى نزلها بالكفار كما وعدناهم بها أَوْ تَتَوَفَّيْتِكَ نقبض روحك قبل أن ترى عقوبتنا لهم فإنهم لا يفوتونا، بل فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ أَى رجوعهم فتريكه فى الآخرة ثم بعد رجوعهم لا يتمكنون أن يفروا من عقابه بالإنكار، فإن اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ فيجازيهم حسب

أعمالهم التي شهدها.

[٤٨] ثم بين القرآن الحكيم أن تعجب هؤلاء الكفار من ادعاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للرسالة ليس في محله، فإن الرسل قد أتت قبل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى الأمم وَلكلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلٌ «الأمة» الجماعة، أى: لكل جماعة رسول يؤدي إليهم رسالة الله سبحانه فإذا جاء رَسُوْلُهُمْ بَيْنَ لَهُمْ وَأَنْذَرُوا وَحَذَّرُوا، فإذا لم يقبلوا استحقوا العقاب، على ما وعد سبحانه (وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلًا) «١»، قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى حكم الله سبحانه بينهم بالعدل، فمن آمن أجزل له الأجر، و من لم يؤمن تمت عليه الحجة و استحق العقاب وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ لا ينقص من ثواب طاعتهم و لا يزداد فى عقاب سيئاتهم.

[٤٩] قد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعد المكذبين الهلاك و العقاب، فكانوا يستعجلون

(١) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٨

[سورة يونس (١٠): آية ٤٩]

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)
العقاب، على طريقة الاستهزاء وَ يَقُولُونَ أى يقول الكفار: متى هذا الوعد أى وعد عذاب الدنيا، و عقاب الآخرة إِنْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْقَائِلُونَ بِعَذَابِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ صَادِقِينَ فيما تقولونه.

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمْ: إِنْ أَمْرٌ ضَرُرِي وَ نَفْعِي لَيْسَ بِيَدِي، فَكَيْفَ بِأَمْرِ ضَرْرِكُمْ وَ نَفْعِكُمْ، إِنْ مَا نَعِدْكُمْ آتٍ لَكِنْ وَقْتَهُ بِيَدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَضُرَّنِي لَمْ أَمْلِكْ رَدَّهُ، وَ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَنِي لَمْ أَمْلِكْ تَغْيِيرَهُ أَوْ تَعْجِيلَهُ، وَ لَوْ أَرَدْتَ نَفْعًا لِنَفْسِي وَ لَمْ يَرِدْهُ اللَّهُ لَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ. وَ هَذَا وَاضِحٌ فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَمْرٍ لَا يَرِيدُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ إِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعِ نَفْسِهِ وَ ضَرِّهَا وَ نَفْعِ النَّاسِ أَوْ ضَرِّهَا بِأَمْرِ اللَّهِ وَ إِرَادَتِهِ.

فالنفي هنا إضافي لا مطلق، حتى ينافي ما دلّ على النفع الذي كان من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو الضر الذي كان بسببه، كما استثنى ذلك بقوله تعالى: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْلِكَنِي أَوْ يَقْدِرَنِي عَلَيْهِ، وَ إِذْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى نَفْعِ نَفْسِي وَ ضَرِّهَا، كَيْفَ أَقْدِرُ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ. أما موعد عقابكم و حشركم فاعلموا أنه لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ وَ مَدَّةٌ لَا بَدَّ أَنْ يَقْضَوْهَا حَتَّى تَنْزَلَ بِهِمُ الْعُقُوبَةُ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَ عَصْيَانِهِمْ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ بِأَنْ سَارَ إِلَيْهِمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ أَجْلَهُمْ أى لا يؤخرونه، بمعنى عدم قدرتهم على ذلك ساعة جزءاً من الزمان وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ لَا يَقْدِمُونَهُ عَنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٢٩

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٠ الى ٥١]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)
مواعده و وقته، فإذا كان وقت هلاكهم يوم الجمعة و سار الأجل نحوهم من يوم الأربعاء، لا يتمكنون أن يؤخروه إلى يوم السبت و لا يتمكنون أن يجعلونه فى يوم الخميس.

[٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْعَذَابِ:

أَرَأَيْتُمْ أى أخبرونى، فإن «أرأيت» تستعمل بمعنى: أخبرنى إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ أى عذاب الله بياتاً أى ليلاً أَوْ نَهَارًا ما أنتم صانعون؟ فقد حذف جواب «إن» لدلالة الكلام عليه ما ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ أى من العذاب الْمُجْرِمُونَ «ما» مبتدأ و «ذا» بمعنى «الذى» خبره، و الجملة استئنافية، أى: ما الذى يستعجل المجرمون من العذاب، و الاستفهام معناه التهويل، كما نقول لمن يفعل شيئاً عاقبته سيئة: «ما الذى تجنى على نفسك؟» فمفاد الآية: أنكم تستعجلون شيئاً مهولاً مهلكاً.

[٥٢] أ تَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ «الهمزة» للاستفهام، و «ثم» للعطف، أى:

هل - بعد استعجالكم للعذاب - إذا وقع العذاب، فى ذلك الحين تؤمنون به. فقد كانوا لا يؤمنون بالعذاب، و كانوا يستعجلونه على جهة الاستهزاء، و «ما» زائدة جاءت للترين، و قد ذكرنا سابقا أنه - غالبا - يأتى الكلام بصورة النفى، و يراد منه الإثبات .. ثم كأن النفس انتقلت إلى جو وقع العذاب فيه - بعد ما كانت فى الدنيا طرفا لخطاب الرسول - فيقال للمكذّبين حين يشاهدون العذاب و يريدون الإيمان للتخلص منه أَلَا نَ تَوْمَنُونَ، على نحو الاستفهام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

تَمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣)

الإنكارى، أى أنه لا ينفعكم الإيمان الآن و الحال أنه قد كُنتُمْ بِهِ بالعذاب تَسْتَبْشِرُونَ فكنتم مكذّبين له مستهزئين به، أى أن الإيمان الآن فى حين رؤية العذاب غير نافع بعد تكذيبكم له سابقا، و نظيره (أَلَا نَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ) «١».

[٥٣] تَمَّ بعد وقوع العذاب عليهم، و عدم فائدة إيمانهم حين معابته العذاب قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ وَ اسْتِعْجَالِ الْعَذَابِ اسْتِهْزَاءً: ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ أى العذاب الخالد الدائم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ أى لا تجزون إلا بما كسبتم فى الدنيا، فليس العذاب ظلما و إنما هو جزاء أعمالكم.

[٥٤] إن المكذّبين لم يكونوا على علم فى تكذيبهم، بل كانوا مستبشرين للعذاب و سائر ما يخبر به النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لذا كانوا يسألون عن حقيقة الأمر و يَسْتَبْشِرُونَكَ يستخبرونك و يطلبون منك يا رسول الله أن تخبرهم أَحَقُّ هُوَ هل حق ما جئت به من الأحكام و الوعد و الوعيد و غيرهما؟ قُلْ يا رسول الله فى جوابهم: إِي إِنْهُ حَقٌّ وَ رَبِّي أَى قَسَمًا بِاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لَا

(١) يونس: ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣١

[سورة يونس (١٠): آية ٥٤]

وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) تتمكنون من أن تعجزوا الله سبحانه فلا يتمكن من إنفاذ أمره، أو على أن تعجزوه من تعذيبكم، فقد كان الكفار يظنون أنهم قادرون على إطفاء نور الله، و الفرار من عقابه.

[٥٥] إن العذاب إذا جاء للمكذّب لا يتمكن من النجاة منه، لا بنحو تعجيزه سبحانه بالقوة، و لا بنحو الافتداء للخلاص منه، و هو من الهول بحيث إن الإنسان حاضر لإعطاء جميع ما فى الأرض للخلاص، و لكن هيهات! وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ بِالْشُرْكِ وَ الْكُفْرِ، أَوْ بِالْعِصْيَانِ وَ الطغيان ما فى الأرض من الثروة لَافْتَدَتْ بِهِ أعطت كل ما فى الأرض فديته عن نفسها ليخلصها من العذاب، فإن عذاب الله هائل إلى هذا الحد، حتى يستعد المجرم للتنازل عن جميع ما يملك - و لو كان كل ما فى الأرض - لأجل أن لا يعذب، و لكن ليس للإنسان جميع ما فى الأرض، و لا ينفعه فى الافتداء و الخلاص لو ملكه و أَسْرُوا أسر المجرمون النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ أنهم أخفوا ندمهم على ما فات منهم لما رأوا العذاب. و لعل سر إخفائهم لندمهم أن لا يشمت بهم.

و قد روى ذلك عن الصادق عليه السلام «١».

وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ أى بالعدل فكان عقابهم بمقدار أعمالهم السيئة وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ فيما يفعل بهم من العذاب لأنه

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ١٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٢

[سورة يونس (١٠): آية ٥٥]

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)
بمقدار أعمالهم.

و لا يقال: كيف أن هذه الأعمال القليلة استحقوا بها العقاب الكثير و مع ذلك فهو عدل؟

لأنه يقال: إن العقاب ليس بقدر حجم الجرم و مدته، بل بقدر آثاره المعنوية، كما أن من يسب الملك يقتل، و من يزني يرحم، فإن الأعمال ليست بحجمها و إنما بقيمتها، كما نرى المهندس يعطى لساعة قضاها في رسم خريطة عشرة دنانير، بينما العامل لا يعطى ليوم كامل ديناراً، و قد لاقى الحر و البرد. أما دوام العذاب فهو لتياتهم السيئة التي أظهروها و هم باقون عليها (و لو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) «١».

[٥٦] إن الله سبحانه يتمكن من إنفاذ و عوده لأن له كل شيء، كما أنه تعالى ينفذها لأن وعده لا خلف فيه، فلا يظن الإنسان أنه يعصى و المهتد غير قادر، أو أنه لا- يفى بوعده، فلا- يعاقب ألا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المالك المطلق لكل شيء. و المراد هنا: الأعم من الظرف و المظروف، كما تقول: «تحت سلطة الملك ما في البلاد»، تريد البلاد و ما فيها. و حيث أن له كل شيء فهو يقدر على إنفاذ وعده بالعقاب لمن كفر و تمرد ألا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ لا خلف فيه. نعم دلّ الدليل على أن قسماً من وعيده يمكن العفو عنه و لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَى أَكْثَرِ

(١) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٣

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)

الناس أو أكثر المجرمين لا يَعْلَمُونَ فينكرون أن يكون كل شيء لله سبحانه، أو أنه يفى بما وعد، كما كانوا يقولون: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً) «١»، و إنما قال أكثرهم، لا جماعة من الناس - حتى من المجرمين - يعلمون كل ذلك.

[٥٧] أما إذا قال بعض الناس: إنا إذا متنا بطل كل شيء، و لا عقاب حين ذاك، فليعلموا أن الله سبحانه هو يُحْيِي الأموات و يُمِيتُ الأحياء، فيبده الحياة و الموت و إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يوم القيامة، أى إلى حسابه و جزائه، فلا يظنوا أن لهم فراراً من حكمه «و لا يمكن الفرار من حكومتك».

[٥٨] و يعقب السياق على ما تقدم من الوعد و الوعيد نداء عاماً إلى البشر يا أَيُّهَا النَّاسُ خطاب لجميع البشر قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ «الموعظة» بيان ما يجب أن يرغب فيه، و ما يلزم أن يحذر عنه، و المراد بها الأحكام الإسلامية و ما نزل من قبله سبحانه من القرآن الكريم و سائر ما بينه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ فَإِنَّ الصُّدُورَ كانت مليئة بالخرافة في العقيدة، و بالأدران في الصفات، و بالهموم و الأحزان و القلق، و القرآن بما له من المناهج و الإرشادات يعوض مكان الخرافة حقائق، و مكان الرذالة فضيلة، و مكان الأحزان

(١) البقرة: ٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٤

[سورة يونس (١٠): آية ٥٨]

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

و القلق، الفرح و الطمأنينة، فهو يشفى الصدور من أمراضها و هدى أى دلالة و هداية إلى الحق و رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ أى ما يسبب لهم أن يرحمهم الله بفضله.

[٥٩] فبهذا الفضل الذى تفضل به سبحانه على عباده و الذى يسبب لهم صلاح الدنيا و الآخرة يلزم أن يفرح الناس، لا بالمال و الجاه و الأهل، فإنها أمور ما لم يوضع لها منهاج صحيح كانت و بالا على الإنسان و موجبة للهموم و الأحزان قُلْ يا رسول الله للناس: بِفَضْلِ اللَّهِ الذى تفضل عليهم بالهداية و بِرَحْمَتِهِ التى رحم بها عباده فَبِذَلِكَ بكل واحد منهما فليفرحوا فإنهما هما اللذان ينظمان الحياة السعيدة، و ينتهيان بالإنسان إلى سعادة الآخرة. و كأن إتيان «الفاء» مكررة لنتكته بلاغية، هى لأجل أن يبقى فى النفس مجال للتملى من الفضل و الرحمة، و لذلك جىء بقوله «فبذلك» أيضا، مع غناء الكلام عنه، و هو بدل من «بفضل الله» هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ من الأهل و المال و الجاه، فإنها إلى نفاذ و فناء و توجب الوبال إن لم يقترن بها فضل الله و رحمته.

و ما

ورد أن «فضل الله» هو الإمام المرتضى،

و كذلك فى الآية السابقة من تفسير «هو» فى «أحق هو» بالإمام عليه السلام، فإن ذلك من باب المصداق الجلى، أو أحد المصاديق، كما هو كذلك فى غالب الآيات المفسرة به و بآله الأطهار عليهم السلام، و كان هذا و أشباهه من بطون القرآن السبعة أو السبعين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٥

[سورة يونس (١٠): آية ٥٩]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)

[٦٠] إن الله سبحانه تفضل عليهم بكل شىء، لكن الإنسان الجاهل جعل الكفر مكان الشكر، فبدل الأوهام مكان الحقائق فى العقيدة، كما جعل من رزق الله سبحانه الحلال حراما افتراء منه عليه سبحانه، بلا دليل و لا برهان قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار الذين يحكمون حسب أهوائهم: أَرَأَيْتُمْ أى أخبرونى ما أنزل الله لكم من رِزْقٍ حلال كله، و المراد ب «الإنزال» كونه من ناحيته سبحانه، فله العلو المنزلى، فما يأتى منه كأنه ينزل من علو، تشبيها للمعقول بالمحسوس كما قال: (وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) «١»، و (اهْبِطُوا مِنْهَا) «٢»، و (أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ) «٣»- على احتمال فى بعضها- أو المراد بإنزاله: إنزال بعض أجزاءه الذى هو المطر و الشعاع فلولاهما لم يكن رزق فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ أى من ذلك الرزق حراماً وَ حَلَالًا بينما كان كله حلالا، فقد كانوا يرمون السائبة و البحيرة و الحام و أقسام أخرى من المأكولات قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَصْلَهُ «أالله» بهمزين، همزة الاستفهام، و همزة «أل» الداخلة على «إله» ثم قلبت إحداهما و جعلت هكذا بالمد. قال ابن مالك: مدا فى الاستفهام أو يسهل.

أى: هل إن الله أذن لكم فى تحريم بعض ما أنزل إليكم من الرزق أم عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ فى أن تنسبوا إليه تحريم ما لم يحرمه افتراء و كذبا.

(١) الحديد: ٢٦.

(٢) البقرة: ٣٩.

(٣) البقرة: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٠ إلى ٦١]

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)

[٦١] وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ كهؤلاء الذين افتروا عليه تحريم بعض الرزق يَوْمَ الْقِيَامَةِ أى عند لقائه سبحانه؟ ما يظنون أن يفعل بهم؟ إنه تهديد لهم، فإن المفترى لا بد وأن تكون له عاقبة سيئة وقت الجزاء، والمعنى: أ يحسبون أنهم لا يجازون على افترائهم؟ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث أحل لهم الأرزاق بعد أن منحهم إياها وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ فيحرمون ما أحله افتراء عليه، عوض أن يشكروه حيث أنعم وحل.

[٦٢] إنهم يفترون على الله الكذب فى تحريمهم ما أحل الله سبحانه، والله شاهد على كل عمل لا يعزب عنه مثقال ذرة، فهل يغنى افتراؤهم عليه؟ وَمَا تَكُونُ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ، مِنْ عَمَلٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا- والخطاب وإن كان للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا- أنه ليس خاصا به بل عام لكل أحد- وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ أَى مِنْ الشَّأْنِ مِنْ قُرْآنٍ فَإِنَّهُ مِنْ تِلْكَ الشُّؤْنِ الَّتِي هِيَ لِلْإِنْسَانِ قِسْمٌ هُوَ شَأْنُ تِلْكَ الشُّؤْنِ شَأْنُ الصَّلَاةِ، وَشَأْنُ الْكَسْبِ وَغَيْرِهِمَا. وَخَصَّتْ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ لِأَهْمِيَّتِهَا وَلَا تَعْمَلُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ عَمَلٍ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا نَشْهَدُهُ وَنَعْلَمُهُ. وَالْإِتْيَانُ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ لِلتَّعْظِيمِ، فَقَدْ جَرَتْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٧

العادة أن الكبراء يتكلمون عن أنفسهم وعن أتباعهم إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ تدخلون فى ذلك العمل و تبتدون به، فشهادتنا مقترنة بأول كل أمر لا يفوت منا شىء من أوله، والإفاضة غالبا تستعمل فيما يكون العمل سريعا، ولكن النكتة فى الإتيان بهذا اللفظ: أن الأعمال السريعة غالبا تفوت على الشاهد، لكن الله سبحانه لا يغيب عنه شىء ولو كان العامل مسرعا فى عمله. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ أَى لا- يغيب عنه مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَى ما هو بثقل الذرة وهى الهباءة الصغيرة التى تسبح فى الفضاء وترى إذا دخلت أشعة الشمس المكان المظلم من كوة ونحوها، و «من» زائدة تأتى لبيان التعميم المستفاد من «ما» النافية قبلها، سواء كانت تلك الذرة فى الأرضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

ولعل ذكر «مثقال» لبيان أن الله كما يعلم نفس الذرة يعلم ثقلها، وهو أدق من العلم بأصلها كثيرا، فإن العلم بأصل الذرة يحصل للناس كثيرا، أما العلم بوزنها فلا يحصل للناس إلا نادرا جدا وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، أَى: أَى شَىء كَانَ أَصْغَرَ مِنَ الذَّرَّةِ، أَوْ وَزْنَهُ أَقَلُّ مِنْ وَزْنِ الذَّرَّةِ وَلَا أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ كتاب واضح لديه سبحانه، فإن علم كل ذلك فى كتاب كتبه قبل أن يخلق الخلق، وهو اللوح المحفوظ أو غيره، وقوله: «لا أصغر» استئناف، خبره «إلا فى كتاب مبين».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٨

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٢ إلى ٦٣]

إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)

[٦٣] إن هذه الدقة فى الحساب والعلم توجب دهشة الإنسان وخوفه الشديد من القيامة ولقاء الله سبحانه، لكن القرآن الحكيم يدرك هذا الأمر بقوله: إِلَّا- إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحْبَاؤُهُ، يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ وَيَنْتَهُونَ عَنْ زَوَاجِرِهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْعِقَابِ وَلَا- هُمْ يَحْزَنُونَ والفرق بين الخوف والحزن: أن الأول بالنسبة إلى الأمر المترقب المحتمل صعوبته، والثانى بالنسبة إلى المتقين، صعوبته الأمر، سواء كان ماضيا أو مستقبلا، يقال: «إنى على فقد ابنى الذى فقدته لمحزون»، ولا يقال: «لخائف»، وهكذا لا

يقال «إني لمحزون» من احتمال فقدته، و يقال: «إني لخائف منه». أما بالنسبة إلى المتقين في المستقبل، فإنه يستعمل الخوف و الحزن معا بمعنى واحد، فمن علم أنه سيدركه مخوف يقول: «إني خائف محزون»، قال يعقوب عليه السلام: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ) «١».

ثم إن المحتمل أن يكون المراد من جملة: «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» إنشائية، بأن تكون نهيا عن الخوف و الحزن. و يحتمل أن تكون إخبارية، أي: أنهم لا يخافون و لا يحزنون، إما في الآخرة، أو الأعم. و عدم خوفهم و حزنهم في الدنيا إضافي، يعني أن الخوف و الحزن الناشئين عن المعصية لا يكونان بالنسبة إليهم، و إن كان هناك لهم خوف و حزن من نوع آخر. [٦٤] ثم بين سبحانه ذلك بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا بِأَنْ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ

(١) يوسف: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٣٩

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)

وَ كَانُوا يَتَّقُونَ المعاصي فصحت أعمالهم.

[٦٥] لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنْ مَثَلُ هَذَا الْإِنْسَانَ مَطْمَئِنَ الْقَلْبِ هَادِي الْبَالِ بَيْنَمَا يَلْقَى الْعَاصِيَ وَ الْكَافِرَ وَ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ يَبْشُرُ بِنَجَاةِ النَّعِيمِ وَ رِضْوَانِ مِنَ اللَّهِ. هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُتَّقِيَ لَا تَهْمُهُ الْكَوَارِثُ وَ النَّوَائِبُ حَيْثُ يَطْمَئِنُ بِثَوَابِ اللَّهِ وَ الْجَزَاءِ، فَهُوَ دَائِمُ الْبَشَارَةِ وَ إِنْ حَزَنَ قَلْبُهُ وَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، كَمَنْ رَضِيَ بِبَعْضِ جَسْمِهِ وَ أُعْطِيَ بِدَلَّةِ عَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ، فَإِنَّهُ وَ إِنْ تَأَلَّمَ لَكِنَّهُ مُسْتَبْشِرٌ بِالْجَزَاءِ. وَ هَكَذَا الْمُتَّقُونَ فِي الدُّنْيَا، وَ مِنْ مَصَادِقِ الْبَشَارَةِ فِي الدُّنْيَا، مَا يَبْشُرُهُمْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ مَوْتِهِمْ - كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ -.

لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ فَإِنْ مَا قَرَّرَهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الْجَزَاءِ وَ الثَّوَابِ لِلْمُتَّقِينَ لَا خَلْفَ فِيهِ وَ لَا تَبْدِيلَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا فَوْزَ فَوْقَهُ، وَ الْفَلَاحُ الَّذِي لَا فَلَاحَ مِثْلَهُ، بِشَارَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ، وَ اطْمَئِنَّانَ وَ هُدُوءَ فِيهِمَا، وَ هَلْ فَوْقَ ذَلِكَ نَجَاحٌ أَوْ فَوْزٌ؟

[٦٦] وَ حَيْثُ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ لَا يَحْزَنُونَ فَ لَا يَحْزَنُونَ ف لَا يَحْزَنُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْلُهُمْ أَيُّ قَوْلِ الْكُفَّارِ فِيكَ وَ إِيْدَانِهِمْ لَكَ، وَ إِيقَاعِهِمْ فِي الْمُؤْمِنِينَ بِكَ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا فَيَمْنَعُهُمْ مِنْكَ بَعْرَتَهُ، وَ يَعَزُّكَ وَ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ هُوَ السَّمِيعُ لِقَوْلِهِمْ بِالْعَمَالِهِمْ، فَيَجَازِيهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٠

[سورة يونس (١٠): آية ٦٦]

أَلَا - إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)

عليها، و ينقذك منهم.

[٦٧] وَ كَيْفَ لَا تَكُونُ الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا وَ الْحَالُ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ مِمَّا يَعْقِلُ وَ مَا لَا يَعْقِلُ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ أَلَا فَلْيَتَّبِعْهُ الْإِنْسَانُ إِنَّ لِلَّهِ مَلِكَةً وَ طَوْعَ إِرَادَتِهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ وَ أَنْسٍ وَ جِنٍّ، وَ إِذَا كَانَ الْعَقْلَاءُ لَهُ، فَغَيْرُهُمْ مِنْ غَيْرِ الْعَاقِلِ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مَلِكًا لَهُ وَ خَصَّ الْعَقْلَاءَ بِالذِّكْرِ بِلَفْظِ «مَنْ» دَلَالَةً عَلَى الْعِزَّةِ، فَإِنَّ مَنْ يَمْلِكُ الْعَقْلَاءَ، لَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا عِزَّةَ فَوْقَهَا. وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ أَيُّ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَمْلِكُ آلِهَةٌ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «مَنْ» وَ جِيءَ بِ «مَا» لِأَنَّ غَالِبَ آلِهَةِ هِيَ أَصْنَامٌ لَا تَعْقِلُ وَ لَا تَدْرِكُ.

و هنا احتمالان آخران:

الأول: أن يكون المعنى: أن ما يعبد هؤلاء من دون الله ليس شركاء لله، فإنها ليست آلهة حتى تكون شركاء حقيقيون و إن سموها شركاء.

الثاني: أن يكون المعنى: أى شىء يتبع هؤلاء شركاء؟ تقييحا لفعالهم.

ف «ما» على الأول موصوله، و على الثانى نافية. و على الثالث استفهامية.

ثم بين سبحانه أن عباد هذه الأصنام ليسوا على يقين فى كونها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤١

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٧ الى ٦٨]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)

آلهة إن يتبعون أى ما يتبع هؤلاء المشركين إلا الظن الحاصل لهم بالتقليد و العادة و إن هم أى ما هم إلا يخوضون يحدسون حدسا بلا علم و لا يقين.

[٦٨] إن الله سبحانه هو مالك من فى السماوات و من فى الأرض، و مالك الأصنام، كما أنه هو الذى جعل الأنظمة الكونية، التى لا تزال تتكرر على الناس كل يوم، بكل جمال و إتقان هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ أى لسكونكم عن أتعاب النهار و النهار مُبْصِرًا أى جعل النهار مضيئا تهتدون بسببه إلى حوائجكم إن فى ذلك الجعل لآيات حجج لقوم يسمعون سماع تفهم و تعقل، أما من لا يسمع و لا يصغى إلى الحق، فإن تلك الآيات لا تفيد.

[٦٩] و حيث بين سبحانه عقيدة المشركين و زيف عقيدتهم و بين الأدلة على بطلانها، عطف الكلام حول عقيدة أخرى غزت الأدمغة كثيرا، و هى عقيدة اليهود و النصارى و بعض آخر، من أن الله له ولد قالوا قال الكفار: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا قال أهل الكتاب بأن عزيز و المسيح أبناء الله، و قال الكفار بأن الملائكة بنات الله سبحانه أسبحة تسبيحا، و أنزهه تنزيها من هذه الكذبة هُوَ الْغَنِيُّ فلا حاجة له إلى اتخاذ الولد، و لو على نحو التبنى له تعالى ما فى السماوات و ما فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٢

[سورة يونس (١٠): الآيات ٦٩ الى ٧٠]

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

الأرض فمن يملك كل شىء لا يمكن أن يكون له ولد، إن الولد جزء الوالد فلا يكون مملوكا له إن عندكم من سلطان بهذا أى ما عندكم دليل يدل على هذا الاعتقاد و أنه سبحانه اتخذ الولد أ تقولون على الله ما لا تعلمون فتنسبون إليه أمرا بدون علم و يقين، فإنهم لم يكونوا على علم بأن له ولدا. و هذا استفهام توبيخى.

[٧٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ بأن ينسبون إليه أنه اتخذ شريكا أو اتخذ ولدا لا يُفْلِحُونَ أى لا يفوزون بالنجاة و السعادة لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، و قال فى آية أخرى:

(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) «١».

و قد دل التاريخ على صحة ذلك الإخبار، فقد وقعت فى العالم المسيحى و العالم اليهودى على طول الخط مجازر مدهشة، فهم من عصر ظلامهم إلى عصر نورهم- هذا القرن- فى حروب طاحنة عجيبة لا تبقى و لا تذر، و ألوف القصص شاهدة على ذلك، منها ما ذكره «سلامة موسى» فى كتابه «حرية الفكر»: أن حربا وقعت بين قسمى المسيحيين- الكاثوليك و البروتستانت- و ذهب ضحيتها أربعة عشر مليون من البشر، فى ألمانيا و حدها.

[٧١] لهم متاع قليل في الدنيا يتمتعون أياما قلائل ثم إلینا

(١) الكهف: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٣

[سورة يونس (١٠): آية ٧١]

وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١)

مَرَجِعُهُمْ رَجوعُهُمْ، أى إلى حكمنا و جزائنا يكون مصيرهم ثم نذيقهم العذاب الشديد الدائم بما كانوا يكفرون بسبب كفرهم.

[٧٢] لقد سبقت الإشارة في هذه السورة إلى الأمم السابقة و أنهم لما كذبوا الرسل ذاقوا و بال أمرهم (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) «١»، و سبقت الإشارة إلى أن لكل أمه رسول (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) «٢». و هنا يأتى البيان لبيان بعض تلك القصص اعتبارا و تذكرة و آثله أى قص يا رسول الله عليهم على هؤلاء الكفار نبأ نوح أى خبر نوح النبى عليه السلام إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ شَقٌّ وَصَعْبٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي إقامتي بين أظهركم فاستثقلتموني وَتَذِكْرِي وَعَظِي وَتَبَيَّنِي لَكُمْ بآيَاتِ اللَّهِ حُجُجَهُ وَدَلَالَهُ الدَّالَّةُ عَلَى وَجُودِهِ وَصِفَاتِهِ وَسَائِرَ مَا يَرْتَبِطُ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالمَعَادِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فِي زَجْرِكُمْ وَ مَا تَنْوِنُ إِيقَاعَهُ عَلَيَّ، فَإِنِّي مَتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِي، وَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ أَيْضًا.

فلا يقال: مفهوم الشرط: عدم توكله في صورة عدم الشرط؟

(١) يونس: ١٤.

(٢) يونس: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٤

[سورة يونس (١٠): آية ٧٢]

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)

الجواب: إن القضية سالبة حينئذ بانتفاء الموضوع. أى أنه إن لم يكبر مقام نوح عندهم لم يكن خوف منهم حتى يتوكل عليه عليه السلام، على الله سبحانه للتوقى من خوفهم.

فَأَجْمِعُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ أَمْرَكُمْ حَوْلِي وَ شُرَكَاءَكُمْ أَيْ تَعَاوَنُوا مَعَ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ اعْزَمُوا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ لِإِيْدَائِي عَلَيْكُمْ غُمَّةً وَ غَمًّا وَ حَزَنًا، بَأَنَّ تَرَدَّدُوا فِيهِ، وَ يَكُونُ لَكُمْ وَجْهُ الْخِلَاصِ مِنِّي ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ انْهَضُوا لِتَنْفِذِ تَدْبِيرِكُمْ عَلَى وَ لَا تُنظِرُونِ لَا تَمَهَلُونَنِي حَتَّى أَفْكَرَ، وَ حَتَّى أَجْمَعَ قَرَارِي لِمَقَابَلَتِكُمْ.

قال نوح عليه السلام هذا لهم على وجه التحدى و بيان أنهم لا يتمكنون من القضاء عليه و إن جمعوا كل قواهم و تشاوروا فيما بينهم و اتحدت كلمتهم و أسرعوا فى تنفيذ كيدهم نحوه، فإنه مستعصم بالله و مستنصر به، و جميع القوى لا تتمكن أن توصل إليه سوء. و هذا أدل دليل على وجوده سبحانه، و إلا لتمكن أولئك الكفرة من القضاء عليه. و هذا كما تقول أقوى الدول لأضعف الحكومات: «افعلوا ما شئتم و اجمعوا أمركم و أسرعوا فى تنفيذ خططكم فإنكم لا تتمكنون من شىء».

[٧٣] فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَى أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْحُجُجِ وَ الْآيَاتِ وَ لَمْ تَقْبَلُوا نَصْحِي وَ تَذِكْرِي، فَأَنْتُمْ وَ شَأْنِكُمْ، إِنْ تَوَلَّيْتُمْ لَا يَنْقُصُ أَجْرِي وَ ثَوَابِي

فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ حَتَّى يَنْقُصَ بِأَعْرَاضِكُمْ، كَالْمَعْلَمِ الَّذِي إِذَا أَعْرَضَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٣ إلى ٧٤]

فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

التلاميذ عنه نقص أجره. والحاصل: إن أعرضتم عن قبول قولي لم يضرنى لأنى لم أطعم فى مالكم حتى يفوتنى المال بتوليكم عنى، بل يعود ضرر توليكم عليكم إن أجرى أى: ما أجرى إلا على الله سبحانه وأموت أن أكون من المسلمين الذين يسلمون أمورهم إلى الله سبحانه، فإنى ماض فى رسالتى، مصمم على تبليغى، وإن توليتم وأعرضتم.

[٧٤] فَكَذَّبُوهُ فَكَذَّبَ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا: أَنْتَ لَسْتَ نَبِيٌّ وَأَنْكُرُوا الْمَبْدَأَ وَالْمَعَادَ فَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْفُلْكِ أَى فِي السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهُمْ جَعَلْنَا نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ خَلَائِفَ خَلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أَغْرَقُوا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَقَدْ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَتَفَجَّرَتِ الْعَيُونُ حَتَّى أَخَذَ الْمَاءُ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ، وَهَنَّا هَلَكَ الْكُفَّارُ أَجْمَعُ فَانظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَالْخَطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ مِنْهُ النَّظَرُ - وَالْمَرَادُ بِ«النَّظَرِ» الْعِلْمُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا وَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمُ الْإِنذَارُ.

وقومك هؤلاء يا رسول الله مثل أولئك، إن كذبوا وأرادوا القضاء عليك نصرناك عليهم وأهلكناهم.

[٧٥] ثُمَّ بَعَثْنَا أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٦

[سورة يونس (١٠): آية ٧٥]

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥)

كإبراهيم وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم فجاءهم بالبيّنات بالحجج الواضحة والأدلة على المبدأ والمعاد والتكاليف فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل فقد كانت تلك الأقوام مثل أسلافهم لا يؤمنون بالحق الذى كذبت الأسلاف به، فإن المكذبين لهم طبيعة واحدة، ومن قبيل موحد، كما أن المؤمنين من قبيل واحد، ولذا صح نسبة ما للأسلاف إلى الأخلاف، كما نسب سبحانه ما صدر من أسلاف اليهود إلى أخلافهم الذين كانوا فى زمن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم كذلك نطبع على قلوب المعتدين إن طبعنا على قلوب الذين يعتدون ويتجاوزون الحق، إنما هو بعد ما أغلقوا هم قلوبهم عن قبول الحق، واعتدوا عن سنن الحق.

[٧٦] ثُمَّ بَعَثْنَا أَى أَرْسَلْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْأَمِّ وَالرَّسُلِ مُوسَى وَهَارُونَ أَخَا مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَشْرَافِ قَوْمِهِ أَوْ كُلِّهِمْ، فَإِنَّ «الْمَلَأَ» اسْمٌ لِلْأَشْرَافِ، لِأَنَّهُمْ يَمْلِئُونَ الْقُلُوبَ هَيْبَةً، وَالْأَنْظَارَ زِينَةً وَنَظَارَةَ بِآيَاتِنَا أَى أَرْسَلْنَا مَعَا أَدَلَّتْنَا الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ دَعْوَاهُمَا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ وَالْخَوَارِقِ فَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِنْقِيَادِ لَهَا وَالْإِيمَانَ بِهَا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ قَدْ أَجْرَمُوا وَارْتَكَبُوا الْآثَامَ وَالْمَعَاصِيَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٦ إلى ٧٨]

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَلْحَقْ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَلْحَقْنَا لَتَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

[٧٧] فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ جَاءَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الْمَطَالِبِ الْحَقَّةَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا الَّذِي جِئْنَا بِهِ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْمَعْجَزَاتِ لَسِحْرٌ مُبِينٌ سِحْرٌ وَاضِحٌ، لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَجْعَلُنَا نَتَخِيلُ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ وَاقِعِهَا.

[٧٨] قال موسى عليه السلام لهم: أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرًا؟ وقد حذف محكى القول لدلالة الكلام عليه، و ذلك لنكتة أدبية هي أن تبقى النفس منتظرة فتذهب كل مذهب، تعظيما لتشنيع القائل، أو المراد من «أ تقولون»: أ تعييون و تطعنون في الحق؟ أ سيجر هذا هل هذا الذي جئت به من الخوارق سحر؟ و كم من فرق بين السحر و المعجز، فالسحر شيء ضعيف له سبب خفي يتمكن أن يفعله أى واحد و لا يقترن بالتحدى، بعكس المعجز فى كل ذلك و لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ لا يظفرون بمرادهم تماما، فإنه تمويه و تزييف للمستضعفين، و لذا لم يوجد ساحر تمكن من تكوين أمة و كانت له سيادة و رفعة.

[٧٩] قالوا أى قال فرعون و ملؤه لموسى عليه السلام: أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَلَىٰ نَحْوِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ، أى: هل جئتنا يا موسى لتصرفنا- من «لفت» بمعنى صرف- عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَ الْمُلُوكِ، و ترشدنا إلى عبادة الله؟ إن هذا لا يكون و تَكُونُ لَكُمْ تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٨

[سورة يونس (١٠): الآيات ٧٩ الى ٨١]

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْبِئُنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١)

الْكِبْرِيَاءُ السِّيَادَةُ وَ السَّلْطَةُ. فإنيهم قالوا: إن موسى و هارون إنما ساقهم إلى هذه الدعوة إرادتهما أن يكونا سيدين ملكين على الناس، فهما من طلاب العظمة و السلطنة فى الأرض مصر و ما حولها و ما نحنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ أى بمصدقين فى دعوى النبوة. [٨٠] وَ قَالَ فِرْعَوْنُ لَمَلئِهِ: أَتَنْبِئُنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ بِالسَّحْرِ، بليغ فى عمله، لأواجه موسى به، فإنه قد عجز عن دحض حجته، فأراد الاستعانة بالسحرة ليقابل موسى بالمثل فتبطل حجته عليه السلام فى زعمه.

[٨١] فجمعوا له السحرة من كل مكان و لما جاء السحرة جمع «ساحر» نحو: كهنة، و طلبة، جمع «كاهن» و «طالب». و جاء موسى عليه السلام فى محضر فرعون و الناس قال لهم موسى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فإنيهم كانوا يلقون حبالا و عصيا من أيديهم على الأرض فيظهر للناس أنها حياء و أفاعى، و قد أرادوا بذلك بيان أن عصي موسى عليه السلام أيضا من هذا القبيل، و إذا بطلت هذه المعجزة تمكنا من الخدش فى سائر المعجزات التى أتى بها، بأنها أيضا أقسام من السحر. و «ألقوا» ليس أمرا بالسحر، بل بيانا لبطلانه.

[٨٢] فَلَمَّا أَلْقُوا أَلْقَتِ السَّحْرَةَ مَا مَعَهَا مِنَ الْحَبَالِ وَ الْعَصَىٰ قَالَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرَ «ما» مبتدأ و «السحر» خبره،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٤٩

[سورة يونس (١٠): آية ٨٢]

وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

يعنى: إن الذى جئتم به هو السحر، و ليس السحر ما جئت به كما قلتم. إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ يظهر بطلانه للناس إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ فالله سبحانه لا يبقى على عمل يراد به إفساد الدين بطابع الإصلاح، و لا يمضيه، بل يبين بطلانه و يظهر زيفه. [٨٣] وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ أى يظهر الله سبحانه الحق للناس و يحققه، حتى يرون أنه حق و أن ما عداه باطل بِكَلِمَاتِهِ التكوينية و هى «كن فيكون» وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ أن يظهر الحق و يتبين زيف الباطل. و قد تحقق ما قاله موسى عليه السلام فألقى عصاه- و قد صارت ثعبانا عظيما- فأكلت كل تلك الحبال و العصى، و خرّ السحرة ساجدين، و بطل كيد فرعون، بل ظهر كون الحق مع موسى عليه السلام و أنه نبي مرسل.

و هنا أمر لا بد من التنبيه عليه هو: أن القرآن إنما يأخذ موضع العبرة من القصة، و لذا نجده فى كل مناسبة يذكر طرفا خاصا منها. ففى مقام يذكر أول القصة، و فى مقام وسطها أو آخرها، و فى مقام يطرحها باختصار، و فى مقام بتفصيل، حسب اختلاف المقامات. فإذا كان الحديث حول عاقبة المجرمين، ذكر غرق فرعون، و إن كان حول غلبة رسل الله بالحجة ذكر غلبة موسى فى إلقاء عصاه، و إن كان حول العاقبة الحسنة للمؤمنين ذكر نجات بنى إسرائيل من مصر. و غالبا يخصّ الموضوع المراد من القصة بجمل قصيرة من سائر

مواضعها تحفظا على الربط و السياق.

و قد أكثر سبحانه من القصص المرتبطة بالأمم الموحدة الباقية،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٠

[سورة يونس (١٠): آية ٨٣]

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٣)
و الأمم المشركه و الملحده الباقية، لتكون لهم عبره، أما تفصيل قصص قوم لوط و شعيب و إلياس - مثلا- فليس من البلاغه، أما قصه موسى و عيسى فلا بد من تفصيلهما لأنهما صاحبا شريعة يتمسك الناس بها إلى يوم الوقت المعلوم، و هكذا بالنسبة إلى الاحتجاجات مع الملحدين و المشركين، فقد بقي أكثر أهل العالم ملحدين مشركين طول الخط حتى يوم الناس هذا.

[٨٤] فَمَا آمَنَ لِمُوسَى و لم يصدق دعوته و ما جاء به إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ أَى جماعة من الشباب- لا الكهول و الكبراء- و الضمير فى «قومه» إما راجع إلى «فرعون» أى من قوم فرعون، أو راجع إلى موسى عليه السلام أى: من بنى إسرائيل، فإنهم كانوا من أقرباء موسى عليه السلام لأن الجميع كانوا من أولاد يعقوب عليه السلام. و كان إيمانهم على خوفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ فقد كانوا يخافون بطشه و نكاله، و مَلَائِهِمْ أشرفهم و كبرائهم، أن يؤذوهم و أن يفتنهم أى يعذبهم فرعون و يصرفهم عن دينهم و إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ قاهر متكبر و سلطان فى الأرض فيقدر على ما يريد من التنكيل و العقاب و إِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ الذين أسرفوا و تجاوزوا الحد فى الطغيان، فقد أسرف فى القتل و الظلم، و ادعى الربوبية.

و السر فى هذا أن الأنبياء دائما يأتون إلى الناس عزل بلا سلاح و مال، و الملوك الذين هم ضدّهم مزودون بالأميرين، و الناس بحاجة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥١

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٥٩٩

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥)

إلى المال، كما أنهم يخافون من القوة، لذا تجبرهم الطبيعة على عدم الاعتناء بالأنبياء و إن كان الغالب أنهم يصدقونهم قلبا، كما قال ذلك الشاعر للحسين عليه السلام: «قلوبهم معك و سيوفهم مع بنى أمية»، و قال تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ) «١». و من ذلك نرى أن الملوك إذا قبلوا الدين دخل فيه أتباعهم.

أما سر أن الأنبياء عزل هو أن يكون فى الدين صعوبة ليكون المؤمن مستحقا للأجر و الثواب، و هذا هو سر فضيلة السابقين إلى الدين، لأنهم يلاقون من الصعوبة ما لا يلاقه غيرهم.

[٨٥] وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ: يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ إيمانا صادقا راسخا فعليه تَوَكَّلُوا فوضوا أموركم إليه إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ أى إن كنتم منقادين لله، فإن «الإسلام» هو الانقياد عملا، كما قال تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) «٢»، فالإيمان هو الاعتقاد، و الإسلام هو التسليم، و بينهما عموم من وجه، فكم من معتقد لا يسلم، و كم من مسلم لا يعتقد.

[٨٦] فَقَالُوا أَى قَالَ قَوْمِ مُوسَى: عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا فَوْضْنَا أَمُورَنَا إِلَيْهِ وَاثقين بنصرته لنا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ فنكون امتحانا

(١) النمل: ١٥.

(٢) الحجرات: ١٥.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٦ إلى ٨٧]

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّضِيرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

للكفار، كما قال سبحانه: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً) «١». فإن الكفار يمتحنون و يفتنون بالمؤمنين، و معنى دعائهم: أن لا يسلط الكفار عليهم، حتى يتلوا بهم، و يكون الكفار ممتحنين بسبب هؤلاء.

و قد روى عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام أنهما فسرا الآية بأن معناها: لا تسلطهم علينا فتفتنهم بنا «٢».

[٨٧] وَنَجِّنَا خَلَصْنَا بِرَحْمَتِكَ بِفَضْلِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ أَى فرعون و ملاء.

[٨٨] وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ هَارُونَ، لما قرب الأمر، و أردنا نجاتهم من أيدي فرعون و قومه أن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّضِيرَ بُيُوتًا يقال: «تبوأ بيتاً» أى اتخذ بيتاً، من باب «باء» بمعنى «رجع»، فإن الإنسان يرجع إلى بيته كلما خرج، و لذا يسمى البيت «مبواً». أى اجعلوا لبنى إسرائيل المؤمنين بكم فى مدينه مصر بيوتا خاصه بهم و اجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً قال سعيد بن جبیر إن معناه: اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضا و اقيموا الصلأه أى اديموها و واضبوا على فعلها. و لعل هذين الأمرين باتخاذ البيوت بتلك الكيفيه و إقامة الصلاة، أن الأول لجمعهم فى محل واحد بعضهم قبال بعض فلا يكونوا منتشرين هنا و هناك،

(١) الفرقان: ٢١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٣

[سورة يونس (١٠): آية ٨٨]

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)

و ذلك التكتل و التنظيم مهم جدا فى جمع الأفراد بصبغه واحده، و لنشر الأخبار، و تنفيذ الأوامر فيهم بسرعة. كما أن إقامة الصلاة و توثيق الصلوات بالله سبحانه تولد فيهم طاقة روحية و نشاطا، و تركى نفوسهم استعدادا لمقاومة القوم و عدم تأثير دعايات الكفار فيهم. و من المعلوم أن تركية الروح لها أكبر الأثر فى الانتصار و الثبات و بشرى يا موسى المؤمنين بالله ربك، بأنه سوف يفرج عنهم.

[٨٩] وَقَالَ مُوسَىٰ مخاطبا لله سبحانه: رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ أَى أعطيته و الأشراف من قومه زينه يتزينون بها من الملابس و المراكب و المساكن و غيرها و أموالا يديرون بها شؤونهم و يتعاضمون بها على غيرهم فى الحياه الدنيا فإنها توجب الإغراء فى هذه الحياه بالنسبه الى الغير، كما توجب الكبرياء بالنسبه الى أصحابها. و كان ذكر هذه الجملة للتضرع إليه سبحانه ببيان كونهما صدا للدعوه هنا- فى هذه الحياه- كما يقول الطالب شاكيا إلى مدير المدرسه: «إنك جعلت فلانا مراقبا فى المدرسه، و هو فاسد» يريد بيان الضراعه فى أن كونه فى المدرسه يسبب الفساد.

رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ «اللام» للعاقبه، كما قال سبحانه:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا) «١»، أى أن عاقبه إعطائك

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٤

المال لهم إضلال الناس عن دينك و طريقك و شريعتك رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ «الطمس» محو الأثر، و هنا بمعنى «الضرب» و لذا

عدى ب «على» أى اضرب عليها و امحى أثرها، حتى لا تكون سدا فى طريق الدعوة.

و هل كان دعاؤه عليه السلام بمسحها كما ذكر جمع من المفسرين، أو ذهاب البركة و إفنائها تدريجيا؟ احتمالان. وَ أَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَبْلَغَ بِهِمْ إِلَى غَايَةِ الشَّدَةِ وَالْقَسْوَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعِقَابَ، لِانْقِطَاعِ كُلِّ رَجَاءٍ فِي إِيمَانِهِمْ، فَإِنَّ الْكَافِرَ لَا يَهْلِكُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَّا إِذَا انْقَطَعَ كُلُّ رَجَاءٍ - حَسَبِ الظَّاهِرِ - عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، فَكَانَ هَذَا دَعَاءَ لِسُرْعَةِ إِهْلَاكِهِمْ، بِذِكْرِ السَّبَبِ.

و من هذا القبيل دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السَّلام لزيادة شقوة ابن ملجم، فإنه دعاء بالخلاص من القوم بذكر السبب، و حيث أن الأمر كائن لا محالة، فالدعاء بتقديمه ليس خلافا لموازن الدعاء إذا كان فيه فائدة مهمة.

فَلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الْمُؤَلَّمِ الْمُوجِعِ، أَى أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ عَدَمَ الْإِيمَانِ إِلَى رُؤْيَةِ الْعَذَابِ، وَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ لِأَنَّهُ إِيمَانٌ إِلْجَاءٌ لَا إِيمَانٌ عَقِيدَةٌ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اسْتِحْقَاقَ الْعِقَابِ وَ الثَّوَابِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَمَلِ الْمُنْبَعَثِ عَنِ الْعَقِيدَةِ.

و ربما يحتمل أن المراد ب «اشدد» اتركها حتى تتشدد و تتصلب و لا تلتطف بها أطفافك الخفية، فيكون كقوله (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) «١»، المراد به تركهم حتى يضلوا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) «١»، المراد به تركهم حتى يضلوا.

[٩٠] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي جَوَابِ دَعَاءِ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فِي طَمَسِ أَمْوَالِ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ وَ التَّشْدِيدِ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَسْتَقِيمَا فِي الْإِرْشَادِ وَ التَّبْلِيغِ وَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

روى عن الصادق عليه السلام: «أنه كان بين قول الله عز و جل: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ» و بين أخذ فرعون، أربعين سنة» «٢».

وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فِي الضَّجْرِ مِنْ طَوْلِ الْمَدَّةِ، وَ عَدَمِ الْوَثُوقِ وَ الْإِطْمِئْنَانِ بِوَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ فِي أَحْكَامِهِ مَصَالِحٌ لَا يَتَضَجَّرُ مِنْهَا إِلَّا الْجَاهِلُ وَ لَا يَسْتَبْطِئُ وَ عَوْدَهُ إِلَّا الْمُسْتَعَجِلُ.

[٩١] وَ جَاءَ الْمَوْعِدُ وَ خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ وَصَلُوا إِلَى الْبَحْرِ وَ انْفَلَقَ الْمَاءُ عَنْ طَرِيقِ لَهُمْ وَ جَاءَ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ لِيَدْرِكَهُمْ وَ يَأْخُذَهُمْ وَ يَنْكُلُ بِهِمْ، وَ تَوَسَّطَ قَوْمُ مُوسَى الْبَحْرَ حَتَّى دَخَلَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ وَ لَمَّا أَنْ خَرَجَ مُوسَى وَ قَوْمُهُ تَوَسَّطَ الْبَحْرَ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمُهُ وَ إِذَا بِالْمَاءِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ وَ يَغْرَقُونَ جَمِيعًا وَ جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ حَتَّى جَاوَزُوهُ سَالِمِينَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ أَى مَعَ جُنُودِهِ بَغْيًا وَ عَدْوًا إِنَّمَا اتَّبَعُوهُمْ لِيُغْرِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ أَدْرَكَ فِرْعَوْنَ

(١) الزمر: ٢٤.

(٢) تفسير العياشى: ج ٢ ص ١٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٦

[سورة يونس (١٠): آية ٩١]

الآن وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)

الْغَرَقُ أَى وَصَلَ إِلَيْهِ الْمَاءُ لِيُغْرِقَهُ قَالَ فِرْعَوْنَ لِلتَّخْلِصِ مِنَ الْغَرَقِ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الْإِلَهَ الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْنِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَقَدْ كَانَ إِلَى ذَلِكَ الْحَيْنِ يَنْكُرُهُ وَ يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِنِّي أَسْلَمْتُ لَهُ. لَكِنْ إِيمَانُهُ كَانَ لِلتَّخْلِصِ وَ النِّجَاةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُ إِذَا عَايَنَ الْإِنْسَانَ الْمَوْتَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

(وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) «١».

[٩٢] و لما كان هذا الكلام قال له جبرائيل: آلاَ نَ تَؤْمِنُ عَلٰى نَحْوِ الْإِنكَارِ، فَإِن هَذَا الْإِيمَانِ عَنِ الْإِجَاءِ وَ اضْطِرَارٍ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ذَلِكَ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ وَ فَعَلَ الْمَعَاصِيَ وَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ بِظُلْمِ النَّاسِ وَ التَّعَدِي عَلَيْهِمْ وَ إِطْفَاءِ نُورِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

روى عن الصادق عليه السلام قال: «ما أتى جبرائيل رسول الله إلا كئيباً حزينا، و لم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلما أمره الله بإنزال هذه الآية «وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» نزل عليه و هو ضاحك مستبشر، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ما أتيتني يا جبرائيل إلا و تبينت الحزن من وجهك حتى الساعة. قال: نعم يا محمد! لما أغرق

(١) النساء: ١٩. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٧

[سورة يونس (١٠): آية ٩٢]

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)

الله فرعون قال: «أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين» فأخذت حمأة فوضعتها في فيه، ثم قلت له: «الآن و قد عصيت قبل و كنت من المفسدين» و عملت ذاك من غير أمر الله عز و جل، ثم خفت أن تلحقه الرحمة من الله عز و جل و يعذبني الله على ما فعلت. فلما كان الآن و أمرني الله عز و جل أن أودي إليك ما قلته أنا لفرعون، أمنت و علمت أن ذلك كان لله تعالى رضى» (١).

[٩٣] فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ إِنْ النَّاسُ غَالِبًا لَا يَصْدُقُونَ بِمَوْتِ الْعِظْمَاءِ، فَكَيْفَ بِمَنْ ادَّعَى الرَّبوبيَّةَ وَ كَانَ النَّاسُ يَعْبُدُونَهُ. وَ لَذَا لَمَّا أَخْبَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ فِرْعَوْنَ أَغْرَقَ، لَمْ يَصْدُقَهُ النَّاسُ، وَ لَذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْجِيَ فِرْعَوْنَ بِبَدَنِهِ، بِأَنْ أَلْقَى بَدَنَهُ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ عَلَى السَّاحِلِ حَتَّى رَأَاهُ النَّاسُ. وَ لَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ «الْيَوْمَ» أَيْ يَوْمَ غَرَقَكَ نُنَجِّيكَ يَا فِرْعَوْنَ بِبَدَنِكَ فَقَطْ، فَلَمْ يَذْهَبْ مَعَ الْمَاءِ لِيَضِيعَ جِسْمُهُ، وَ لَا أَكَلَتْهُ الْأَسْمَاكُ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ مِنَ النَّاسِ آيَةً عَلَامَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِرْعَوْنَ إِلَهًا، فَإِنَّ الْإِلَهَ لَا يَمُوتُ وَ لَا يَغْرَقُ. وَ الْخُطَابُ إِذَا حَقِيقَى بِأَنْ خُوطِبَ بِهِ فِرْعَوْنَ وَ هُوَ حَيٌّ، أَوْ مَوْجَهَ إِلَى النَّاسِ يَرَادُ بِهِ إِعْلَامُهُمْ بِمَصِيرِ كُلِّ ظَالِمٍ، فَالْخُطَابُ مِنْ قَبِيلِ خُطَابَاتِ الْعُقَلَاءِ لَمَّا لَا يَعْقِلُ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:
أيا شجر الخابور ما لك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
و قوله:

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٨

[سورة يونس (١٠): آية ٩٣]

وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

أيا جبلى نعمان بالله خليانسيم الصبا يخلص إلى نسيما

وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَن آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ غَافِلُونَ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي أَدْلَتِنَا وَ دَلَائِلِنَا.

[٩٤] وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا مَكَّنًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ نَجَاتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ، وَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ مُبَوَّأً صِدْقٍ مَكَانَ ثِبَاتٍ وَ أَمْنٍ، فَإِنَّ الْمَكَانَ الْمَتَزَلِّزَ الَّذِي لَا يَسْتَقِرُّ فِيهِ الْإِنْسَانُ هُوَ مُبَوَّأٌ كَذِبٌ، إِذْ لَا وَجْهَ لَهُ وَاقِعٌ، فَهُوَ يَحْكِي عَمَّا لَا يَكُونُ، إِذْ ظَاهِرُهُ الْاسْتِقْرَارُ وَ بَاطِنُهُ الْانْفِلَاتُ وَ الْانْقِلَابُ. فَقَدْ مَكَّنَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنَ الشَّامِ وَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بَعْدَ مَا كَانُوا فِي أَرْضِ مِصْرَ مَتَزَلِّزِي الْمَنْزَلِ حَيْثُ

يضطهدهم فرعون، و لم يكن لديهم ما يأكلون حتى صفرت أيديهم من المال، لكن لم يبقوا على تلك الحالة، فإنهم لما طال عليهم الأمد اختلفوا، و لم يكن اختلافهم عن جهل فإنهم ما اختلفوا حتى جاءهم العلم و عرفوا كل شيء، بل اختلفوا حسدا و استعلاء، كما هو شأن كل أمه، أنهم يتحدون ما داموا قلة مضطهدين، فإذا كثروا و آمنوا و أثروا اختلفوا على المال و الجاه و ما أشبههما. إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ أَحِيلُوا إِلَى الْمَحْكَمَةِ الْكُبْرَى حَيْثُ لَمْ يَرْضَخُوا لِأحكامِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَلَا تَرَفَعُوا إِلَى أَنْبِيَائِهِ لِيَبَيِّنُوا لَهُمُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٥٩

[سورة يونس (١٠): آية ٩٤]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) يَخْتَلِفُونَ مِنَ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ. وَ قَدْ رَوَى أَنَّهُمْ انْقَسَمُوا إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً.

[٩٥] و بعد تمام قصه موسى عليه السلام و فرعون، يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليعرف الذين يشكون، أنهم في شكهم على غير حق بعد إقامة الحجّة، و كثيرا ما يوجه الخطاب إلى أحد ما، ليعرف غيره قصد المتكلم على نحو «إياك أعني و اسمعي يا جارة». و من المحتمل أن يكون الخطاب لكل من يلتفت إلى هذه القصّة، كما ذكر علماء البلاغة أن الخطاب في قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ) «١»، متوجه إلى كل من يأتي منه الرؤية.

فَإِنْ كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ إِنْ كُنْتَ أَيُّهَا السَّامِعُ. وَ هَذَا لَا يَنَافِي قَوْلَهُ «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» إِذِ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ مَنْ أَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) «٢»، و (أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) «٣»، باعتبار أن الغاية من الإنزال هم.

فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْعُقَايِدِ الْحَقَّةِ وَ الْقِصَصِ السَّالِفَةِ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ فَإِنَّهُمْ فِي وَاقِعِ أَمْرِهِمْ يَعْتَرِفُونَ بِكُلِّ ذَلِكَ وَ إِنْ أَنْكَرَهُ بَعْضُهُمْ عِنَادًا وَ حَسَدًا، فَإِنَّ الْكُتُبَ السَّالِفَةَ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ تَلَكُمِ الْأَصُولِ وَ حَقَائِقِ هَذِهِ الْقِصَصِ لَقَدْ جَاءَكَ

(١) السجدة: ١٣.

(٢) الطلاق: ١١.

(٣) الأنبياء: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٠

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا السَّامِعُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ وَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَصُولِ وَ الْأحكامِ وَ الْقِصَصِ كُلِّهِ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ «الاعتراء» طلب الشك مع ظهور الدليل، و هو من «مرى الضرع» إذا مسحه ليدر، و لا- معنى لمسحه بعد درّه الحليب.

و لا يخفى أن مثل هذا الكلام، إنما يفيد التلقين و الإيماء، فإن المطلب إذا ألقى على النفس قبلته. فلا يقال: ما فائدة هذا الكلام؟ إذ المخاطب إن كان شاكا لا يزول شكه بقولك: «لا تشك»، و إن لم يكن شاكا كان مثل هذا الكلام معه لغوا، كما أنه لا تنافي بين «فإن كنت في شك» و بين «فلا- تكونن من الممترين» فإنها بمعنى: «إن كنت في شك فاسأل حتى يزول الشك و لا تبقى فيه إلى الأبد».

[٩٦] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَي لَا تَكُنْ فِي جَمَلَةِ الْمَكْذِبِينَ بِأَدْلِهِ اللَّهُ وَ حُجْجِهِ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ

و أحكامه فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَهْلِيَهُمْ إِذْ هُمْ صَرَفُوهَا وَ اشْتَرَوْا بِذَلِكَ الْعَذَابَ وَ النِّكَالَ.
[٩٧] و بعد وضوح الحجّة و ظهور المحجّة و قيام الأدلّة على ما أنزل على الرسول فما هو سبب إصرار قوم على الكفر و التكذيب؟ إنهم حقت فيهم كلمة الله، فقد بين سبحانه سابقا أن من أعرض عن الحق بعد وضوحه لا بد و أن يقسو قلبه حتى أنه لو رأى كل آية لا يؤمن، فقد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦١

[سورة يونس (١٠): الآيات ٩٧ الى ٩٨]

وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)

أغلق قلبه و طبع عليه فلا- يؤمن و إن رأى الحجج و الآيات إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ أَى ثبتت لا- يُؤْمِنُونَ بالله و ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[٩٨] وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ خَارِقَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الْمُؤَلَّمِ الْمَوْجِعِ، فَهِنَاكَ يَتَيَقَّنُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ لَكِنْ إِيمَانُهُمْ حِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ.

[٩٩] إن سنه الله لا بد و أن تجرى بالنسبة إلى المكذبين ياهلاكهم، و قد تقرّر أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فهل هناك من خلاص من هذا العذاب و الهلاك؟ هنا يذكر سبحانه أن الخلاص ممكن و هو أن يسلك المكذبون- حتى و لو شاهدوا العذاب- مسلك المؤمنين فيؤمنوا و يرجعوا عن غيرهم فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا أَى لماذا لم يؤمن أهل القرى التي أهلكتها، حين شاهدوا العذاب؟ و فى «لولا» معنى التأييب نحو: «هلا امتنعت عن النساء و قد دعيت إلى التعفف عنهن» إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ استثناء متصل فإن قوم يونس خارجون عن هذا التأييب لَمَّا آمَنُوا بعد مشاهدة العذاب كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ أَى رفعنا عنهم العذاب الموجب لخزيهم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٢

[سورة يونس (١٠): آية ٩٩]

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)

أى فى هذه الحياة القريبه فصرفنا عنهم العذاب وَ مَتَّعْنَاهُمْ أَبْقَيْنَاهُمْ مُتَمَعِّينَ بِنِعْمِ الدُّنْيَا إِلَى حِينٍ جَاءَ أَجْلُهُمْ فَمَاتُوا بِالْأَجَالِ الْمَكْتُوبَةِ.
فقد ورد أنه ما رد الله العذاب إلا عن قوم يونس عليه السّلام فكان يدعوهم إلى الإسلام فأبوا ذلك، فهم أن يدعو عليهم، و كان فيهم رجلان عالم و عابد و كان اسم العالم «روبييل» و اسم العابد «تنوخا» و كان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم و كان العالم ينهاه و يقول: لا تدع فإن الله يستجيب لك و لا يجب هلاك عباده. فقبل يونس عليه السّلام قول العابد و لم يقبل قول العالم حين يئس منهم بعد ما دعاهم ثلاثا و ثلاثون سنة. فدعا عليهم، فأوحى الله إليه يخبره بأنه يأتيهم العذاب فى سنه كذا فى شهر كذا فى يوم كذا، فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد و بقى العالم فيهم. فلما كان فى ذلك اليوم نزل العذاب- بأن رأوا فى اليوم الموعد ريح صفراء مظلمة مسرعة لها صرير و حفيف- فقال العالم لهم:

يا قوم أفزعوا إلى الله فلعله يرحمكم فيرد العذاب عنكم. فقالوا: كيف نصنع؟ فقال: اخرجوا إلى المغارة و فرقوا بين النساء و الأولاد، و بين الإبل و أولادها، و بين البقر و أولادها، و بين الغنم و أولادها، ثم ابكوا.

و فعلوا ذلك و ضجّوا و بكوا، فرحمهم الله، و صرف عنهم العذاب، و فرق العذاب على الجبال و قد نزل و قرب منهم «١».

[١٠٠] وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَشَرِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا بِلَا اسْتِثْنَاءٍ أَحَدٍ. وَ لَذَا جِئْتُ بِتَأْكِيدِ، حَتَّى لَا يَظُنَّ

(١) تفسير القمى: ج ١ ص ٣١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٣

[سورة يونس (١٠): آية ١٠٠]

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

أن التأكيد الأول عرفى لا حقيقى، فإنه سبحانه قادر على أن يلجئ الناس إلى الإيمان، كما أنه قادر على أن يحف الإيمان بالمغريات التى ترغّب الناس فى الإيمان تلقائيا بلا- جبر، لكنه لم يشأ الأمرين، إذ تعدم فائدة الإيمان حينئذ لعدم حصول الاختبار بالإكراه و الإغراء أفأنت يا رسول الله تُكره النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أى لا ينبغي لك إكراه الناس على الإيمان، أو لا تقدر على ذلك، فإن الإيمان أمر قلبى لا يدخل تحت طوقك.

فإن قيل: فلما ذا يكره الإسلام الناس على ترك المنكرات و فعل الواجبات؟

قلنا: إن ذلك بالنسبة إلى من قبل الدين كمن قبل القانون الذى يجبر على تطبيقه عليه، أما من لم يقبل و هو مورد الآية فلا إكراه له.

فإن قيل: فكيف لا يقبل الإسلام من الكفار غير الكتائبين إلا الإسلام أو القتال؟

قلنا: إن ذلك إذا خرقوا العهود التى بينهم و بين المسلمين، و ذلك غير الإكراه الابتدائى.

[١٠١] إن الله سبحانه لم يكره الناس على الإيمان، و لكنه بين لهم الطريق، فإن أحدا لا يتمكن من الإيمان إلا بإذنه سبحانه، بأن يهديه

الطريق، أما من هداه و أرشده ثم أعرض عنه و سلك طريقا آخر فالله سبحانه يجعل عليه الرجس الروحى، إذ تنغلق منافذ عقله، و

تردى نفسه فى مهاوى الضلالة التى هى أشع أنواع الرجس و مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٤

[سورة يونس (١٠): آية ١٠١]

قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بِأَنْ يُمْكِنَهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَيَدْعُوهَا إِلَيْهِ وَيُرْسِدُهَا إِلَى طَرِيقِهِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ الدَّنَسَ الرُّوحِيَّ الَّذِي هُوَ أَسْوَأُ أَقْسَامِ

الدنس، فإن القذارات الظاهرية تذهب بال غسل و نحوه، أما القذاره الروحيه فلا تذهب بألف غسل و غسل على الذين لا يعقلون أى لا

يعملون عقولهم للاستضاءه و الاستناره.

[١٠٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ صِفَاتِهِ، فَإِنْ فِي

كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ.

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادله، أو سنه قائمه، و ما خلاهن فهو فضل» «١».

فالآية المحكمة: هى الآيات الكونية الدالة بإحكامها و إتقانها على التوحيد و سائر صفاته سبحانه من العلم و القدرة و الحياه و الإراده،

و أنه لا يفعل العبث .. و غيرها.

و الفريضة العادله: هى الأخلاق التى هى فرائض بأن يسير البشر فى عدلها و وسطها، فلا جبن و لا تهوّر بل شجاعه، و لا بخل و لا

سرف بل جود، و لا شره و لا تزهّد بل عفه ... و هكذا.

و السنه القائمه: هى الأحكام الإسلاميه التى هى سنن الحياه السعيده و مناهجها القائمه إلى الأبد، لا تزول و لا تتغير.

(١) عوالى اللالكى: ج ٤ ص ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٥

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٢ إلى ١٠٣]

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ أَيُّ لَا تَفِيدُ هَذِهِ الدَّلَالَاتُ وَالْبَرَاهِينُ الْجَلِيَّةُ، وَلَا يَفِيدُ الْإِنذَارُ وَالْوَعْدُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ إِذْ أَنَّهُمْ أَغْلَقُوا قُلُوبَهُمْ وَغَمَضُوا أَبْصَارَهُمْ. وَإِنَّمَا عَدَى ب «عَنْ» لِأَنَّهُ أَشْرَبَ مَعْنَى «الدَّفْعِ»، أَيُّ لَا تَدْفَعُ الْآيَاتُ وَالْعَضَلَاتُ الْعَذَابَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، فَقَدْ كَانَ السِّيَاقُ حَوْلَ عَذَابِ الْمَكْذِبِينَ وَ أَنَّهُ سَبَحَانَهُ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَيْهِمْ.

[١٠٣] فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ أَيُّ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا تَفِيدُهُمُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَيُّ إِلَّا- الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ، وَالْمُرَادُ بِأَيَّامِهِمْ: وَقَائِعُهُمُ الْمُؤَلَّمَةُ، وَمَعْنَى «خَلَوْا» مَضَوْا. وَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَلْيَنْتَظِرُوا الْعَذَابَ كَمَا نَزَلَ بِقَوْمِ عَادٍ وَ ثَمُودٍ وَ غَيْرِهِمْ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ:

فَانْتَظِرُوا مِثْلَ تِلْكَ الْأَيَّامِ بَعْدَ مَا أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فَلْيَنْتَظِرْ جَمِيعًا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ.

[١٠٤] ثُمَّ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ تُنَجِّي رُسُلَنَا فَلَا يَصِيْبُهُمْ مَكْرَهُهُمُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَيْنِ أَوْلِيَانِكَ الْكُفَّارِ، فَلَا يَحْرَقُ الرُّطْبَ مَعَ الْيَابِسِ - كَمَا اشْتَهَرَ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ - كَذَلِكَ أَيُّ كَمَا نَجَّي الرَّسُلَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ أَيُّ نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ لَازِمٌ عَلَيْنَا فِي الْحِكْمَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٦

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٤ إلى ١٠٥]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ «كَذَلِكَ» لِلْمُؤَخَّرِ - لَا الْمَقْدَمِ - أَيُّ نَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ الْآنَ كَنَجَاةُ الْمُؤْمِنِينَ سَابِقًا.

[١٠٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُطَابٌ لِلنَّاسِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي وَ طَرِيقَتِي الَّتِي جِئْتُ بِهَا، أَحَقُّ هِيَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَلَا تَدْرُونَ ذَلِكَ، فَإِنْ شَكَّكُمْ لَا يَزْحِزْنِي مِنْ عَقِيدَتِي وَ دَعْوَتِي، بَلْ أَبْقَى صَامِدًا لِلدَّعْوَةِ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا- يَشْنِينِي إِلَى عِبَادَةِ تِلْكَ الْأَلْهَةِ كَثْرَةَ عِبَادَتِهَا وَ شَكَّكُمْ فِي دِينِي، كَمَا هُوَ الْغَالِبُ فِي الْأَفْرَادِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى طَرِيقَةٍ فَلَا يَجِدُونَ مُؤَيِّدِينَ لَهَا فَيَعْدِلُونَ عَنْهَا وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فَهُوَ الَّذِي يَمِيتُكُمْ وَ تَكُونُ نَاصِيَتِكُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَ مُصِيرُكُمْ إِلَيْهِ. وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، وَ تَذْكَيرٌ بِأَنَّ الْمَوْتَ بِيَدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ لَيْسَ لِلْأَصْنَامِ شَيْءٌ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَ رَسَلِهِ وَ شَرَائِعِهِ.

[١٠٦] وَ كَانَ الْمَقَامُ صَارَ مَقَامَ مَخَاطَبَةِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ، وَ أَنَّ الشَّاكِينَ حَاضِرِينَ فِي مُحَضَّرِ الرَّسُولِ حِينَ يَتَلَقَى الْوَحْيَ، مِنْ بَابِ الْإِلْفَاتِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَ لِذَا قَالَ: وَ أَنْ أَقِمَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَجْهَكَ وَ اتَّجَاهَكَ فَإِنَّ «الْوَجْهَ» لَمَّا كَانَ الْمَحَلَّ الَّذِي يَتَوَجَّهُ النَّاسُ بِهِ إِلَى غَيْرِهِمْ، أَمْرٌ بِإِقَامَتِهِ، وَ عَدَمُ صَرْفِهِ إِلَى هُنَا وَ هُنَاكَ لِلَّذِينَ أَيُّ طَرِيقَةَ الْإِسْلَامِ حَنِيفًا أَيُّ فِي حَالِ كَوْنِكَ مَائِلًا عَنْ سَائِرِ الْأَدْيَانِ، أَوْ مُسْتَقِيمًا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٧

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٦ إلى ١٠٧]

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

طَرِيقَتِكَ وَ دَعْوَتِكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ، وَ كَانَ عَطْفٌ «أَنْ أَقِمَّ» عَلَى تَقْدِيرِ: «قِيلَ لِي» أَنْ أَقِمَّ.

[١٠٧] وَ لَا تَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ غَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَا لَا يَنْفَعُكَ إِنْ أَطَعْتَهُ وَ لَا يَضُرُّكَ ضَرَرٌ مُعْتَدٍ بِهِ إِنْ عَصَيْتَهُ. وَ إِنَّمَا قِيدْنَا بِذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمَفْهُومُ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالنَّفْعِ وَ الضَّرَرِ أَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْأَلْهَةِ الْمَزْعُومَةِ فَمِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ وَ لَا يَضُرُّ إِطْلَاقًا، كَالْأَصْنَامِ، وَ مِنْهَا مَا لَا يَنْفَعُ وَ لَا يَضُرُّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، كَفَرَعُونَ وَ نَمْرُودُ وَ غَيْرُهُمَا مِنَ الْأَصْنَامِ الْبَشَرِيَّةِ فَإِنَّ فَعَلْتَ تِلْكَ الْعِبَادَةَ وَ

الدعوة لغير الله فَإِنَّكَ إِذَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ مِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ يَأْجِبُ الْعَذَابَ عَلَيْهَا وَعَلَى سَائِرِ النَّاسِ فِيمَا لَوْ صَارُوا سَبِيًّا لِلضَّلَالِ وَالْغَوَايَةِ. وَلَا يَنَافِي كَوْنَ الْخُطَابِ مُتَوَجِّهًا إِلَى النَّبِيِّ مَعَ مَقَامِ عَصَمَتِهِ، لِأَنَّهُ تَعْلِيمِي، بِالإِضَافَةِ إِلَى إِمْكَانِ اسْتِحَالَةِ الْمَقْدَمِ فِي الشَّرْطِ، وَإِنَّمَا صَدَقَ الْجُمْلَةُ بِصَدَقِ الْمَلَازِمَةِ.

[١٠٨] الأَصْنَامُ وَالْأَلْهَةُ الْمَزْعُومَةُ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، أَمَّا اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَهُوَ وَحْدَهُ الْمَالِكُ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ وَكُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ اللَّازِمُ أَنْ يَدْعُوهُ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ وَإِنْ يَمَسُّ شَيْئًا يَا رَسُولَ اللَّهِ بَضْرًا أَوْ إِنْ أَحْلَى ضَرًا. وَكَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «الْمَسِّ» لِإِفَادَةِ أَنْ أَقَلَّ مَقْدَارٍ مِنَ الضَّرْرِ الَّذِي يَمَسُّ الْإِنْسَانَ مَسًّا، لَا كَاشِفٍ لَهُ سِوَى اللَّهِ، فَكَيْفَ بِالْمَقْدَارِ الْكَبِيرِ مِنْهُ؟ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، فَهُوَ الْقَادِرُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٨

[سورة يونس (١٠): آية ١٠٨]

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) عَلَى دَفْعِ الضَّرْرِ وَإِنْ يُرِيدُكَ مِنْ «أَرَادَ يَرِيدُ» بِخَيْرٍ يُقَالُ: «يُرِيدُكَ بِالْخَيْرِ» وَ«يُرِيدُ بِكَ الْخَيْرَ» بِمَعْنَى وَاحِدٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ أَوْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنَعِهِ.

قال بعض المفسرين: إن ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضرر، لتلازم بين الأمرين، للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضرر إنما يمس البشر لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه مفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاقا لهم عليه، ولم يستثنى لأن مراد الله لا يمكن رده «١».

يُصِيبُ بِهِ أَوْ بِالْخَيْرِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَيُعْطِيهِ كَمَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ وَهُوَ الْعَفْوُ لِدُنُوبِهِمُ الرَّحِيمُ بِهِمْ يَرْحَمُهُمْ وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ. [١٠٩] وَأَخِيرًا جَاءَ الْحَقُّ إِلَى النَّاسِ، وَالرَّسُولُ مَأْمُورٌ بِالتَّبْلِيغِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّ أَمْرٍ وَمَا اخْتَارَ قُلُوبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى نَحْوِ الْعَمُومِ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْمَشْتَمَلِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُهُ الْإِنْسَانُ فِي مَخْتَلَفِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَهَكُمْ الْحَقِيقِي وَمُرِيكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي

(١) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٦٩

[سورة يونس (١٠): آية ١٠٩]

وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) لِنَفْسِهِ فَإِنَّ فَائِدَةَ هِدَايَتِهِ عَائِدَةٌ إِلَيْهِ وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى سَائِرِ السَّبِيلِ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أَوْ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنْ ضَرَرَ الضَّلَالُ يَعُودُ إِلَى الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ فَلَسْتُ أَنَا مَسْتَوْلًا عَمَّنْ ضَلَّ بَعْدَ إِرَاءَتِهِ الطَّرِيقَ وَإِرْشَادِهِ السَّبِيلَ، فَأَنْتُمْ مَوْكُولُونَ إِلَيَّ أَنْفُسَكُمْ وَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا الْبَلَاغُ.

[١١٠] وَأَتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، بِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ وَاصْبِرْ عَلَى إِذْيَاءِ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِالْغَلْبَةِ وَالثَّوَابِ لَكَ هُنَا، وَالْعِقَابِ لَهُمْ هُنَاكَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ، وَلَا يَغْمِطُ أَحَدًا حَقَّهُ وَيَشْهَدُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَا يَزِيغُ بِهِ حُكْمًا، وَلَا يَمِيلُ بِهِ بَاطِلًا، فَهُوَ الْحَاكِمُ بِالْعَدْلِ وَالصَّوَابِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٠

١١ سورة هود مكية / آياتها (١٢٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على قصة هود النبي عليه السلام و حيث أن سورة يونس اختتمت باتباع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم للوحي، ابتدأت هذه السورة بالوحي.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله، فإن للاسم خواصا، ولذا نرى أن سماع اسم المحبوب يزيد الإنسان نشاطا، كما أن سماع اسم المكروه يزيد الإنسان انقباضا، بالإضافة إلى أن اسم الله يطرد الشياطين و يوجب عناية الله للذى ذكره، و تركيز لصفة الرحمة فى نفوس الناس، إنه هو الرحمن الرحيم، فليخلق الإنسان بأخلاقه سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧١

[سورة هود (١١): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)

[٢] الر رموز بين الله و الخلق، أو أن من جنس «أ، ل، ر» كتابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ فكل آية من آياته محكمة متينة ليست رخوة لا تلائم الواقع و الحياة، و تكون غير صالحة لكل زمان أو مكان، بل إنها كالأحجار الكريمة المستحكمة التى لا يدخلها نقص و رخاوة و تفكك، ثم فُصِّلَتْ كل آية قد وضعت موضعها المناسب لها، كما يفصل الكتاب إلى أبواب و فصول، فليس نظمها مهلهلا غير منظم، كالبناء المحكم ذى الأحجار و الأدوات القديمة و الذى ينظم و يفصل تفصيلا منسجما صحيحا دقيقا، فالآية محكمة بذاتها، منظمة فى مكانها.

و هو مِنْ لَدُنْ أى من عند إله حَكِيمٍ فى أفعاله يضع الأشياء فى مواضعها، فلا يفعل شيئا اعتباطا و عبثا و إنما بالحكمة و الصلاح خَبِيرٍ عليم بالأشياء، فإن الحكمة غير العلم، إذ ربما حكيم غير عالم، كما أنه ربما عالم غير حكيم.

[٣] أَلَّا تَعْبُدُوا تقديره «الأن لا- تعبدوا»، فهو متعلق ب «أحكمت» أى أنزل الكتاب المحكم المفصل لعلمه أن لا تعبدوا، فهو منصوب محلا كما تقول: «كتبت إليك أن تتعلم» إِلَّا اللَّهُ فهو وحده المستحق للعبادة و الطاعة لا إله سواه إِنِّي لَكُمْ أَيها الناس مِنْهُ من طرفه سبحانه نَذِيرٌ أَنْذِر العاصين بالعقاب وَبَشِيرٌ أَبشِر المطيعين بالثواب.

و كان ذكر الإنذار قبل التبشير، للزوم تطهير النفس عن الكفر و المعاصى أولا ثم تحليلتها بالفضائل، قالوا: و لذا قدم النفى على الإثبات فى «لا إله إلا الله».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٢

[سورة هود (١١): آية ٣]

وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)

[٤] وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اطلبوا غفرانه فيما سلف من ذنوبكم ثُمَّ تَوَبُوا ارجعوا إِلَيْهِ فى أموركم، فإن الاستغفار و التوبة أمران، فإن الأول تطهير، يمكن أن يرجع الإنسان- بعده- إلى الله و يمكن أن يرتكس فى الذنوب، و إن كان الغالب استعمال كل واحد منهما و يراد به الاثنان.

و الحاصل أن الإنسان يحتاج إلى تطهير ما سبق، و طهارة المستقبل، فالاستغفار وضع للأول، و التوبة للثانى، و إن استلزم كل واحد الآخر يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا فإنه إن استغفرتم و تبتم تفضل عليكم بالمتاع الحسن من رزق و أثاث و رياس، و حسنه بجماله الذاتى و أن لا يكدره قلق و مرض و ما أشبههما إلى أجلٍ مُّسَمًّى وقت مسمى عنده، و هو منتهى عمركم و يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ فمن أوتى بالفضل عن الاستغفار و التوبة آتاه الله سبحانه فضلا و زيادة على المتاع الحسن، فالمطيع له المتاع الحسن و المطيع الذى يزيد فى طاعته على أصل الواجب بالمندوبات و نحوها يعطى أزيد على قدر فضله و إِنْ تَوَلَّوْا أى تعرضوا و أصله «تولوا» بحذف إحدى

التائبين - على القاعدة - و «التولى» بعدم الإيمان أو عدم الاستغفار و التوبة فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير هو يوم القيامة، الذي تعظم الأحوال فيه و تكبر، فإن كان التولى بالمعصية كان الخوف بمعناه، فإن العاصي يخاف عليه، لا إنه يقطع عذابه، لاحتمال خلاصه بالعمو و الشفاعة، و إن كان التولى بالكفر كان لفظه «الخوف» من التواضع فى الكلام لمن لا يعتقد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٣

[سورة هود (١١): الآيات ٤ الى ٥]

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

[٥] إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ رجوعكم، و معناه إلى حسابه و جزائه رجوعكم بعد الموت وَ هُوَ سبحانه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يقدر على إحياء الأموات، و محاسبتهم و جزائهم و قد اشتملت هذه الآيات على التوحيد و النبوة و المعاد، و تعديل السلوك فى الحياة.

[٦] و يواجه هذا الكتاب الحكيم و هذا الرسول البشير النذير جماعة من الناس بالإعراض بحنى رؤوسهم و ثنى صدورهم كما يفعل كل من يريد أن يخفى نفسه منك و لا يعتنى بك و بكلامك ألا فلينتبه السامع إنهم أى الكفار يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يطوونها و يدخلون بعض أجزائها فى بعض كالمطرق الشديد الإطراق لِيَسْتَخْفُوا يطلبون بذلك تخفيهم منه من الله أو من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ألا فلينتبه السامع حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يتغطون بثيابهم، فإن الإنسان المعرض يتلفح بثوبه، إما بأن يضعه على رأسه، أو يخفى به بعض جسده، و لعل بعضهم كان يفعل ذلك إظهاراً لإعراضه حين يقرأ الرسول صلى الله عليه و آله و سلم القرآن. يَعْلَمُ الله ما يُسِرُّونَ يخفون و يعلم الله ما يُعْلِنُونَ عند ما يستغشون ثيابهم إِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى الصفات و الأسرار الكامنة فيها، فلا ينفعهم ثنى الصدور و استغشاء الثياب فى تخفيهم عليه سبحانه، فإنه العالم بكل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٥

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الثانى عشر من آية ٧ من سورة هود الى آية ٥٣ من سورة يوسف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٧

[سورة هود (١١): الآيات ٦ الى ٧]

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

[٧] إنه سبحانه عالم بكل شىء، و لو لم يعلم كل شىء لم يقدر على إيصال الرزق لكل دابة صغيرة أو كبيرة و ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ «الدابة» كل حيوان يدب على وجه الأرض، و هذا من باب المثال، و إلا فمن الحيوانات ما لا يدب، كما أن منها ما ليس فى الأرض إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا و لعل تخصيص الرزق بالذكر، للزومه عدة أمور من علم و حكمة و قدرة و غيرها، و لتكرره كل يوم - غالباً - وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا مستقر تلك الدواب و مُسْتَوْدَعَهَا و لعل الأول عبارة عن كل محل تقرب فيه، و لو لم يكن مكانها، و الثانى محلها الذى هو عيشها و منزلها.

و قيل فى ذلك أقوال أخرى كُلٌّ فى كِتَابٍ مُبِينٍ أى إن جميع ذلك بالإضافة إلى أنها معلومة لله سبحانه مدرجة فى كتاب واضح، و لعله هو اللوح المحفوظ.

[٨] وَهُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ، وَقَدْ جَرَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ عَلَى الْخَلْقِ التَّدْرِيجِي كَمَا نَشَاهِدُهُ فِي النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَالْإِنْسَانَ، وَكَذَلِكَ كَانَ خَلْقُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَخُصُوصِيَّةُ سِتَّةِ أَيَّامٍ كَخُصُوصِيَّةِ الْأَمَادِ الْمَعِينَةِ فِي سَائِرِ الْأَشْيَاءِ كَتَسَعَةِ أَشْهُرٍ مِثْلًا لِلْجَنِينِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ: مَقْدَارُ سِتَّةِ أَيَّامٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَوْمٌ بِمَعْنَاهِ الْحَالِي وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فَقَدْ كَانَ سُلْطَانَهُ سَبْحَانَهُ وَتَصَرَّفَهُ - وَهُوَ الْمَتَبَادِرُ مِنَ الْعَرْشِ كَمَا يُقَالُ: عَرَسَ الْمَلِكُ الْفُلَانِي مِنَ الْبِلَادِ الْكَذَائِيَّةِ إِلَى الْبِلَادِ الْكَذَائِيَّةِ - عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٨

[سورة هود (١١): آية ٨]

وَلَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) الماء، قبل خلق السماوات والأرض، فإن الله قبل خلق السماوات والأرض خلق ماء ثم كَوَّنَ الكون، و أما لم ذلك؟ فعلمه لدى علم الغيوب لِيَبْلُغُوا كُمْ يَخْتَبِرْكُمْ وَيَمْتَحِنْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا إِنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَ اسْتِعْدَادًا لِإِمْكَانِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ لِيَمْتَحِنَ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «خَلَقَ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ».

أما خصوصية «السته» و كون العرش على الماء، فهو من توابع الخلق لأجل الامتحان، لا من صميمه - كما يظهر لنا من السياق - كأن تقول: «هيات لولدى الدار الفلانية فى سنة، لأسكنه فيها». ثم إن ذلك كان لأجل امتحان البشر و ليظهر أيهم أحسن عملا، حتى يكون الجزاء وفق الامتحان، و من الغريب - إذن - أن ينكر أحد الجزاء و لَيْتَ قُلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ: إِنْ كُنْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنْ هَذَا أَى: مَا هَذَا الْقَوْلُ حَوْلَ الْبَعْثِ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَى تَمُويهِ وَاضِحٌ، لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

[٩] إِنْهُمْ يَكْذِبُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَرَوْهُ، وَقَدْ وَعَدْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَكِنَّهُ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ، فَيَسْتَعْجِلُونَهُ اسْتِهْزَاءً، وَيَنْكُرُونَهُ كَمَا يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ وَ لَيْتَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي يَسْتَحِقُونَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ لِلرَّسُولِ وَ إِنْكَارِهِمْ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ «الأمه» بمعنى «الحين» أَى إِلَى أَجْلِ مَسْمَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٧٩

[سورة هود (١١): آية ٩]

وَلَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُّ كَفُورًا (٩)

ووقت معين عدت أيامه فى علم الله سبحانه لمصالح خاصة ليقولن على وجه الاستهزاء: ما يحبسهُ أَى: أَى شَىء يؤخر هذا العذاب الموعود عنا إن كان الوعد حقا، فتأخيره دليل على كذبه ألا فلينتبه السامع يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِهِ عَنْهُمْ، بَلْ يَأْخُذُهُمْ وَيَهْلِكُهُمْ وَحِينَذَاكَ حَاقَ بِهِمْ أَحَاطَ بِهِؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ مَا أَى الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَا مَنْجَى لَهُمْ وَلَا مَهْرَبَ. أَمَا تَأْخِيرُ الْعَذَابِ فَلْأَجْلِ إِيْمَانٍ مِنْ يَوْمِنَ، مِمَّنْ يَعْلَمُ اللَّهُ إِيْمَانَهُ مِنْهُمْ، وَ لِيَنْشَأَ بَعْضَ الذَّرَارِي مِنَ أَصْلَابِ الْكُفَّارِ، وَ إِنَّمَا يَأْخُذُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِعَذَابِ الْاسْتِئْصَالِ مِنْ لَمْ يَجِدْ مِنْهُ خَيْرًا إِلَى الْأَبَدِ.

[١٠] إِنْ الْإِنْسَانَ عَجُولٍ فِي حِكْمِهِ وَ تَقْلِبُهُ فَهُوَ يَسْتَعْجِلُ الْعَذَابَ، كَمَا أَنَّهُ يِيَّاسٌ لِمَجْرَدِ نَزُولِ الْبَلِيَّةِ، وَ الْفَخْرُ بِمَجْرَدِ نَزُولِ النِّعْمَةِ وَ لَيْتَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ رَحْمَةً ذَاقَهَا، مِنْ صَحَّةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ أَوْ نَحْوِهَا. وَ الْمَرَادُ بِ«الذوق» هُنَا مُطْلَقُ الْإِدْرَاكِ، فَإِنَّهُ يَسْتَعْمَلُ فِيْمَا يَتَذَوَّقُ بِاللِّسَانِ، وَ فِيْمَا يَدْرِكُ بِالْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ، وَ فِيْمَا يَدْرِكُ وَ لَوْ بِالْحَوَاسِ الْبَاطِنَةِ، كَمَا أَنَّ الرَّؤْيِيَّةَ كَذَلِكَ، تَقُولُ: رَأَيْتُ وَجْهَ زَيْدٍ، وَ رَأَيْتُ خَشُونَةَ الْحَصِيرِ، وَ رَأَيْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ نَزَعْنَا أَى سَلَبْنَا تِلْكَ النِّعْمَةَ مِنْهُ مِنَ الْإِنْسَانِ لِمَصْلَحَتِهِ اقْتَضَتْهُ إِنَّهُ أَى الْإِنْسَانُ لَيُؤْسُّ ذُو يَأْسٍ وَ قَنُوطٌ كَفُورٌ يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَ يِيَّاسٌ مِنْ رُوحِهِ وَ رَحْمَتِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٠

[سورة هود (١١): الآيات ١٠ الى ١٢]

وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعِيدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)

[١١] وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ جَعَلْنَاهُ يَتَذوقُ وَيَدْرِكُ، نِعْمَاءَ بَعِيدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه أَي بَعْدَ بِلَاءٍ أَصَابَهُ لَيَقُولَنَّ الْإِنْسَانُ عِنْدَ نَزولِ النِّعْمَاءِ بِهِ: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ أَي الْأُمُورُ الَّتِي تَسُوءُ صَاحِبَهَا مِنْ فِقْرٍ وَمَرَضٍ وَعَقْمٍ وَمَا أَشْبَهَ عَنِّي فَكَأَنَّهُ أَمْرٌ عَادِي طَبِيعِي لَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى ذَهَابِهَا، وَلَا يَرَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَذَاقَهُ النِّعْمَةَ إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ يَفْرَحُ وَيَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ فَلَا يَصْبِرُ عِنْدَ الْبَلِيَّةِ وَلَا يَشْكُرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ، إِنَّهُ عَجُولٌ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ فِي نِعْمَةٍ كَانَ أَمٌّ فِي نِقْمَةٍ.

[١٢] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى الشَّدَةِ فَلَمْ يَكْفُرُوا، وَعَلَى النِّعْمَةِ فَلَمْ يَبْطُرُوا، فَإِنَّ النِّعْمَةَ تَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ، كَمَا أَنَّ الْبَلِيَّةَ تَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَرَبُّ الْإِنْسَانِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى النِّعْمَةِ حَتَّى بَدَّلَهَا كُفْرًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَمْ يَعْمَلُوا بِالسَّيِّئَاتِ عِنْدَ النِّعْمَةِ أَوْ الْبَلِيَّةِ أُولَئِكَ الصَّابِرُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ غَفْرَانِ ذُنُوبِهِمْ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ فِي الدُّنْيَا بِالسَّعَادَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

[١٣] مَا هُوَ مَوْقِفُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَمَامَ هؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنِ الْبَعْثِ أَنَّهُ سِحْرٌ مَبِينٌ، وَيَكْفُرُونَ عِنْدَ الشَّدَةِ، وَيَبْطُرُونَ عِنْدَ النِّعْمَةِ؟ إِنَّهُ لَا بَدَّ وَأَنْ يَضِيقَ صَدْرَهُ، خُصُوصًا وَأَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ مَا لَا يَرْتَبِطُ بِالرِّسَالَةِ تَعْتًا.

و

قد روى أن رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨١

يا محمد! إن كنت رسولا فحول لنا جبال مكة ذهبا، أو اثنتا بملائكة يشهدون لك بالنبوة. فنزلت هذه الآية «١».

وفي التأويل،

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلى عليه السلام: إنى سألت ربي أن يؤاخى بينى وبينك ففعل، وسألت ربي أن يجعلك وصيى ففعل، فقال بعض القوم: والله لصاع من تمر فى شئ بال أحب إلينا مما سأل محمد ربه، فهلأ سألته ملكا يعضده على عدوه، أو كنتا يستعين به على فاقته. فنزلت «٢»:

فَلَعَلَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ التَّنْقِيسِ لِأَلْهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَتَسْخِيفِ عِقَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، كَأَنَّ لَا تَقْرَأُ بَعْضَ آيِ الْقُرْآنِ الَّتِي فِيهَا هَذِهِ الْأُمُورُ، خَوْفًا مِنْ أذى الْكُفَّارِ وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَضَائِقٌ بِهِ بِذَلِكَ الْوَحْيِ صِدْرُكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا هَمَّ أَمْرًا ارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ حَرَارَتِهِ مِمَّا يَطْلُبُ هَوَاءَ كَثِيرًا، وَفِي النَّفْسِ الْعَمِيقِ تَنْتَفِخُ الرِّئَةِ كَثِيرًا مِمَّا يَسْبَبُ ضَيْقَ الصَّدْرِ عِنْدَ انْتِفَاحِهَا أَنْ يَقُولُوا أَي كَرَاهَةُ أَنْ يَقُولَ الْكُفَّارُ: لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ أَي لِمَاذَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَثْرًا مِنَ الْمَالِ لِيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى فَقْرِهِ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ لِيَشْهَدَ بِصِدْقِهِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا ذَكَرَ آلِهِمْ وَنَقَائِصَهُمْ قَابَلُوهُ بِالاسْتِهْزَاءِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَثْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ» يَرِيدُونَ بِذَلِكَ كَفَّهُ عَنِ بَعْضِ الْوَحْيِ.

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٠٣.

(٢) الكافي: ج ٨ ص ٣٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٢

[سورة هود (١١): آية ١٣]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)

وهنا يرشده سبحانه أنه لا يحتاج إلى كثر أو ملك إنما أنت نذير تنذر الناس، والمنذر لا يحتاج إلى كثر، وإنما طالب المال يحتاج

إليه، كما أنه لا يحتاج إلى الملك، بل إنه بحاجة إلى التصديق، وقد كانت معه صلى الله عليه وآله وسلم أدلة الصدق، من المعجزات الباهرات وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ فهو الموكل بهم، والمتصرف في أمورهم، و«الوكيل» هو العارف بالصلاح دونهم، فما يفعله من عدم تلبية مثل هذه الخوارق إنما ذلك من صلاحهم وإن لم يعرفوا.

[١٤] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ أَى بل يقولون إن الرسول افترى القرآن على الله سبحانه ونسبه إليه كذبا مع أنه ليس من عنده قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ:

إن كان القرآن من كلامي وليس من كلام الله سبحانه فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ أى مختلقات من عند أنفسكم، فإنه لو كان من كلام البشر لتمكن البشر من الإتيان بمثله.

وليس لأحد أن يقول كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الدرجة الأولى في البلاغة، لذا لم يقدرُوا أن يأتيوا بمثله. إذ كونه بالدرجة الأولى لا تمنع أقرانه أن يأتيوا بجزء من بلاغته. ومن المعلوم بأن القرآن كبير فليأتوا بمثل بعضه، كما أن كون أحد المهندسين أقوى من غيره في التصميم ورسم الخرائط، ليس معناه أن سائر المهندسين لا يتمكنون حتى ولو بتخطيط تصميم واحد كتصميمات ذلك المهندس الكثيرة، بل معناه أنه من حيث المجموع أقدر من غيره. ثم لو كان افتراء لزم - عقلا - تعجيز الله له، وإلا لزم الإغراء بالجهل، ولذا لم يدع أحد النبوة كاذبا إلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٣

[سورة هود (١١): آية ١٤]

فَإِذَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)
فضح كما نرى الشيء الكثير منه في التاريخ.

وَادْعُوا أَيُّهَا الْمَكْذِبُونَ مَنْ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِمَنْصَرْتَكُمْ فِي الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلَ الْقُرْآنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ افْتَرَاهُ، وليس من عند الله سبحانه.

[١٥] فَإِذَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ أَى إن لم يجبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بمثل عشر سور، ولعل الإتيان ب«لكم» خطابا للمسلمين، لأجل أن المسلمين كانوا يحتاجون الكفار بمثل هذه الاحتجاجات، والكفار لم يكونوا يتمكنون من الإجابة فأعلموا أيها المسلمون أَنَّمَا أُنزِلَ الْقُرْآنَ بِعِلْمِ اللَّهِ فَإِنِ عَلِمَهُ وَحْدَهُ كَفِيلٌ بِأَن يَأْتِيَ بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، أما غيره فلا علم له بحيث يعلم ما لا يقدر عليه كل البشر حتى يتحداهم. ومعنى «اعلموا» أن ذلك العجز دليل على أنه من الله سبحانه، إذ لو لم يكن من عنده سبحانه لشحذ الكفار أفكارهم، وعقدوا ندوات وجاءوا أخيرا بمثل القرآن، لتوفر الدواعي لذلك، فإن القرآن كان السلاح الوحيد الذي يتحداهم، وبنى عليه إبطال كل مزاعمهم، فلو ملكوا أن يأتيوا بمثل القرآن ولو بعد جهد وصعوبة، لأتوا حتى يستريحوا، وتكون لهم حجة على مزاعمهم بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس صادقا فيما يقول.

وَاعْلَمُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ، لتمكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٤

[سورة هود (١١): آية ١٥]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥)

من إسعاف هؤلاء المشركين به ليأتوا بمثل القرآن، فإذا لم يأتيوا به دل ذلك أن الله واحد لا شريك له ولا مثل فهل أنتم بعد قيام الحجة عليكم مُسْلِمُونَ لكنهم لم يسلموا، بل ظلوا يحاربون الإسلام حتى خضعوا بالقوة.

ثم إن القرآن تحدى الكفار مرة بالإتيان بسورة، و مرة بالإتيان بعشر سور، و مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، فهل كان التحدى بهذا الترتيب؟ قاله بعض المفسرين، وقال آخرون: إن التحدى بعشر سور كان بعد التحدى بسورة واحدة، فما السر؟

الظاهر أن المراد: عدم إمكانهم أن يأتوا بشيء مثل القرآن، سواء سورة واحدة منه أو أكثر، فإن ذلك خارج عن موضوع التحدى، و إنما اختلف حسب المقامات، وذلك كما أن الطبيب إذا أراد تحدى من لا معرفه له بالطب و هو يدعى ذلك: يقول: «اشف مريضاً، اشف عشرة مرضى، اشف من فى البلد»، فإنه لا يريد إلا التحدى، لا عدد المرضى الذين يريد المدعى علاجهم.

[١٦] إن الكفار الذين لم يرضخوا للقرآن و الحق، إنما كانوا يخافون منه على منافعهم الدنيوية من رئاسة و مال و ما إليهما، فكيف يستعد من هو سيد قومه فى قريش أن يدعن للرسول صلى الله عليه و آله و سلم الذى يزعم أنه دونه فى المجتمع، و كيف يرضخ الرئيس الدينى اليهودى الذى تجبى إليه ثمرات عمل ألوف اليهود أن يترك كل ذلك، ليكون له ما للمسلمين و عليه ما عليهم. و لذا يذكرهم سبحانه بهذه الحقيقة الكامنة فى نفوسهم من كان يريد الحياة الدنيا أى الحياة القريبه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٥

[سورة هود (١١): الآيات ١٦ الى ١٧]

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَّعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدًا مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

و زينتها أى بهجتها و زخارفها، و هو معرض عن الآخرة نؤف إليهم أعمالهم فيها أى: نؤف لهم جزاء أعمالهم، فإن كل عمل فيه جزاء و لا بد أن يرى الإنسان- صالحاً أو طالحاً- جزاء عمله و هم فيها فى الحياة الدنيا لا يُبخسونَ لا ينقصون منها شيئاً. فإن «البخس» بمعنى النقصان.

[١٧] أُولَئِكَ المريدون للدنيا فقط، هم الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ إذ لم يعملوا فى الدنيا عملاً يستحقون به الجنة، بل عملوا ما استحقوا به النار و العذاب وَ حَبِطَ بطل ما صَبَّعُوا فيها ما عملوا فى الدنيا من أعمال الخير، إذ لم تكن أعمالهم لله سبحانه حتى يستحقوا عليها الثواب، و حيث أن الثواب لازم طبعى للعمل الصالح، عبر ب «الحبط» بالنسبة إلى ما لا ثواب له- نظراً إلى نوعه- و إن كان الأمر ليس من الحبط حقيقة وَ بَاطِلٌ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ فإن مبراتهم باطلة لا ثمره لها، إذ لم تكن جامعة لشرائط الصحة.

[١٨] صنف من الناس يريد الحياة الدنيا و زينتها، و صنف من الناس على بينة من ربه، فهو يعرف طريقه و يؤمن بالآخرة كما يؤمن بالأولى- فطرة- و عنده شاهد يشهد له بصدق فطرته، و هو الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و قد سبقه مصدق بطريقته كتاب موسى عليه السلام. إن هؤلاء الصنف يؤمنون بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم لأنهم ينظرون إلى فطرتهم، و إلى الشاهد، و إلى الوثيقة السابقة. أما غيرهم فالنار موعدهم. هذا هو ظاهر الآية، و يؤيده ما دل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٦

على حجية العقل و صحة حكم الفطرة، فهو كينته من الرب.

؟ و قد روى عن الإمام زين العابدين عليه السلام تفسير «الشاهد» فى هذه الآية بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم «١».

و فى المقام روايات أخرى و احتمالات، أما الروايات فالظاهر أنها من باب ذكر المصاديق، كما

روى أن الشاهد هو الإمام المرتضى عليه السلام

«٢». و أما الاحتمالات فلا حجية فيها ما لم توافق الظاهر.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ استفهام تقريرى، أى هل من كان على برهان و حجة من قبل الله سبحانه، فله نور فطرى يرى الحق و يؤمن به؟ و لفظه «على» للتشبيه بالذى يركب المركب الفاره، فى مقابل الرجل وَ يَتْلُوهُ أى يعضده و يؤيده شاهد منه أى شاهد من قبل الله سبحانه، و هو الرسول، يشهد له بما دلت عليه فطرته و هداه إليه عقله، من أن للكون خالفاً، و أنه لا بد و أن يجازى كلاً بعمله. إلى غير ذلك مما تدل عليه الفطرة.

وَمَنْ قَبْلِهِ أَى قَبْلَ هَذَا الشَّاهِدِ كِتَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ طَرِيقَتِهِ، فَهوَ مُؤَيَّدٌ فِعْلًا وَ مُؤَيَّدٌ سَابِقًا إِمَامًا وَ رَحْمَةً حَالَانِ لِكِتَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ أَى أَنَّ كِتَابَ مُوسَى إِمَامٌ يُؤْتَمُّ بِهِ فِى أُمُورِ الدِّينِ،

(١) راجع الكافي: ج ١ ص ١٩٠.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٧

[سورة هود (١١): آية ١٨]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)

و رحمة من الله على عباده، إذ يهديهم إلى الطريق.

و ذكر كتاب موسى، لأنه مقبول لدى اليهود و النصارى، و لأن عيسى عليه السلام كان كمتّم لكتاب موسى، فالتوراة هى الأصل. و الحاصل المستفاد: أن التقدير: «أفمن كان على بينة من الله، و له شاهد على حقيقته، و يعتقد به شاهد آخر، كمن أراد الحياة الدنيا و زينتها؟». و قد حذف جواب الاستفهام لدلالة الكلام عليه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَفُوا بِأَنَّهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ بِاللَّهِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الَّتِي يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهَا وَ مَنْ يَكْفُرُ بِهَا مِنَ الْأَخْرَابِ وَ الْفِتْيَانِ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا أَمْ مِنْ غَيْرِهِمْ فَالْتَّارُ مُؤَعَّدُهُ وَ مُصِيرُهُ وَ مُسْتَقَرُّهُ فَلَا تَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِى مِرْيَةٍ وَ شَكٍّ مِنْهُ مِنَ الْمَوْعِدِ، أَوْ مِنَ الْقُرْآنِ وَ مَا يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ. وَ الْخَطَابُ وَ إِنْ كَانَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَّا أَنْ الْمَرَادُ بِهِ سَائِرِ النَّاسِ إِنَّهُ أَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَوْعِدِ، أَوْ مَا يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ - الْمَعْلُومُ مِنَ السِّيَاقِ - الْحَقُّ مِنْ قَبْلِ رَبِّكَ أَوْ أَنَّ الْخَبَرَ الَّذِى أَخْبَرْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَا كَذِبَ فِيهِ وَ لَا تَحْوِيرَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، بَلْ يَزْعَمُونَ أَنَّهُ كَذِبٌ وَ افْتِرَاءٌ.

[١٩] وَ مَنْ أَظْلَمُ أَى لَا أَحَدٌ أَكْثَرَ ظَلَمًا، وَ إِنْ كَانَ بِصُورَةِ الْاسْتِفْهَامِ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَى نَسَبَ إِلَى اللَّهِ الْكُذْبَ افْتِرَاءً، وَ قَدْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٨

[سورة هود (١١): آية ١٩]

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)

ذكر ذلك بمناسبة ما كان المشركون ينسبونه إلى النبي من افتراءه القرآن و نسبته إلى الله سبحانه، و لا يخفى أن عبارة «من أظلم» المستعملة فى القرآن كثيرا، يراد بها الظلم النسبى غالبا، لا- الحقيقى أُولَئِكَ الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَى يَسْتَحْضَرُونَ فِى الْمَحْكَمَةِ الَّتِي يَعْقِدُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، إِذْ لَا مَكَانَ لَهُ تَعَالَى وَ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ جَمْعُ شَاهِدٍ، وَ الْمَرَادُ بِهِمْ إِمَامِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْمُؤْمِنِينَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ وَ نَسَبُوا إِلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ، فَلَا مَجَالَ لِلانْكَارِ وَ لَا مَحَلَّ لِلْفِرَارِ، وَ لَا يُمْكِنُ لَهُمْ أَنْ يَحْلِفُوا كَمَا يَحْلِفُ الْمُشْرِكُونَ، قَائِلِينَ: (وَ اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١»، أَلَا فَلْيَتَّبِعْ السَّمَاعُ لَعْنَةَ اللَّهِ طَرْدَهُ وَ عَذَابَهُ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ وَ غَيْرَهُمْ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ هَذَا إِمَامًا تَتَمُّهُ كَلَامُ الْأَشْهَادِ، أَوْ ابْتِدَاءُ كَلَامِ.

[٢٠] ثم وصف سبحانه الظالمين، بقوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِهْتِدَاءِ وَ سَلُوكِ سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُغْرَوْنَهُمْ بِإِلْقَاءِ الشُّبُهَةِ عَلَيْهِمْ، وَ إِثَارَةَ شَكِّهِمْ وَ كُفْرِهِمْ وَ عَصْيَانَهُمْ بِتَرْكِ أَمْرِهِ وَ نَوَاهِيهِ وَ يَبْغُونَهَا أَى يَرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ السَّبِيلَ عِوَجًا زَيْغًا عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ وَ عَدُولًا عَنِ الصَّوَابِ، هَذَا لَوْ رَجَعَ الضَّمِيرُ إِلَى «السَّبِيلِ» - وَ هِىَ مُؤَنَّثٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٨٩

[سورة هود (١١): آية ٢٠]

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)

سماعى - أما لو رجع إلى سبيل الله، كان المعنى: أنهم يزيدون و ينقصون في سبيل الله و أحكامه ليظهروا للناس أنها منحرفة زائفة، فيصرفوهم عنها و هم بالآخرة أى بالدار الآخرة، من البعث و الحساب و الجزاء هم كافرُونَ غير مقرين. و لا- يخفى أن هذه الأوصاف، تنطبق على الذين يفترون على الله الكذب، فإنهم الصادون عن السبيل، الجاحدون بالآخرة، و إن أقر بعضهم بها لسانا، فلو لا جحودهم قلبا لم يصدوا عن طريقه سبحانه.

[٢١] أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَّوْا عَنِ السَّبِيلِ وَ كَفَرُوا بِالْآخِرَةِ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أَى لَمْ يَكُونُوا يَتِمَكُونُونَ مِنْ أَنْ يَعْبُزُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ فِي شَىءٍ مِنْ إِرَادَتِهِ، فِيهِدَى النَّاسَ عَلَى رِغْمِهِمْ، وَ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُمْ وَ يَهْلِكَهُمْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُمْ عَسِيرًا عَلَيْهِ، فَهَمَّ فِي قَبْضَتِهِ وَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ، وَ كَأَنَّ ذِكْرَ «فِي الْأَرْضِ» لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَتِمَكُونُونَ مِنْ تَعْجِيزِهِ فِي مَحَلِّ سَيْطَرَتِهِمْ وَ إِمْكَانِيَاتِهِمْ، فَكَيْفَ بِالْآخِرَةِ الَّتِي يَحْشُرُونَ فِيهَا فِرَادَى بِلَا مَالٍ وَ لَا جَاهٍ وَ لَا قُوَّةٍ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ أَوْلِيَاءٍ وَ أَنْصَارٍ يَنْصُرُونَهُمْ وَ يَتَوْلَوْنَ أَمْرَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الْأُمُورُ، وَ يَتَوَلَّى كُلَّ شَىءٍ، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِؤْلَاءِ كَارِثَةٌ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْقِذٌ لَهُمْ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ عَذَابَ كُفْرِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَ عَذَابَ صَدِّهِمْ، وَ كُونِهِمْ سَبِيًّا فِي كُفْرِهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: (زِدْنَا هُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٠

[سورة هود (١١): الآيات ٢١ إلى ٢٢]

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)

يُفْسِدُونَ) «١»، فقد عاشوا صمًا عميا و ما كانوا يشي تطيعون السمع فقد كانوا يقولون: إنا لا نستطيع أن نسمع كلام الله، يريدون إظهار الضجر و الاستهزاء، لا أن المراد عدم استطاعتهم حقيقة و ما كانوا يبصرون الأدلة و البراهين، قد سدوا أسماعهم عن كلامه سبحانه، و أغمضوا عيونهم عن رؤية آياته، لقد عاشوا مغلقى البصائر، كأن ليس لهم سمع و لا بصر.

[٢٢] أُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ الصَّادُونَ الضَّالُّونَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَإِنَّ النَّفْسَ، كَرَأْسَ مَا يَجِبُ أَنْ يَتَحَفَّظَ الْإِنْسَانُ بِهَا عَنِ الْعَطْبِ وَ يَجْلِبَ بِهَا الرِّيحَ، وَ هُوَ لَاءَ قَدْ خَسِرُواهَا، حَيْثُ عَطِبَتْ نَفْسُهُمْ، وَ لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى رِيحٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فَقَدْ تَبَدَّدَ كَذِبُهُمْ وَ افْتَرَاؤُهُمْ، وَ ضَاعَ عَنْهُمْ فِلم ينجهم، فإن عملهم هلك و ضاع، حيث نجا سائر المؤمنين بأعمالهم الطيبة.

[٢٣] لَا جَرَمَ «لا» كلمة نفى و «جرم» معناه الكسب، أى لا كسب لهم فى النفع بل كسبهم خسران الدنيا و الآخرة، أو بمعنى «لا محالة» و «لا بد» أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ أَى الْأَكْثَرُ خَسَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ، لِشِدَّةِ عَذَابِهِمْ، وَ لَا شَكَّ أَنَّ الْكُفْرَانَ الَّذِينَ لَهُمْ تِلْكَ الْأَوْصَافُ الْمَتَقَدِّمَةُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِقَابًا.

(١) النحل: ٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩١

[سورة هود (١١): الآيات ٢٣ إلى ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصْمَى وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

[٢٤] هكذا كان حال الكافر المتصف بتلك الصفات السيئة، أما المؤمنون فحالهم أحسن حال إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمَا يُلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ أَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. و المراد هنا أعم من فعل الواجبات و ترك المحرمات، فإن من لم يترك الحرام لا يقال له أنه يعمل الصالحات و إن أتى بكل واجب. كما أنها تشمل عامل المستحبات و تارك المكروهات و أَحْبَبُوا أَى أَنَابُوا و تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْإِخْبَاتَ بِمَعْنَى الطَّمَأِينَةَ، أَى اطمأنوا إلى رَبِّهِمْ و خشوا و خضعوا له، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ خَاضِعٌ لِلَّهِ، مَطْمَئِنٌ إِلَى أَحْكَامِهِ وَ تَقْدِيرَاتِهِ، هَادِي النَّفْسِ لِمَا يَتَرَقَّبُهُ مِنْ نَصْرَتِهِ وَ عَوْنِهِ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمَالِكُونَ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ بِاقْوَانٍ أَبَدًا دَائِمًا.

[٢٥] ثم مثل سبحانه الكافر و المؤمن بمثل محسوس فقال: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ فَرِيقَ الْكَافِرِينَ وَ فَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ، أما الكافرون فهم كَالْأَعْمَى بِصَرًا وَ الْأَصْمَ أَذْنَا، وَ أَى عَمَى أَعْظَمَ مِنْ عَدَمِ إِبْصَارِ آيَاتِ اللَّهِ وَ بَرَاهِينِهِ وَ حُجُجِهِ، وَ أَى صَمَمَ أَعْظَمَ مِنْ عَدَمِ اسْتِمَاعِ أَوْامِرِهِ وَ نَوَاهِيهِ وَ إِرْشَادَاتِهِ وَ أَمَا الْمُؤْمِنُونَ فَهَمُ كَالْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ فَكَمَا أَنَّهُ يَرَى وَ يَسْمَعُ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ قَدْ تَفْتَحَتْ بِصِيرَتِهِ فِيرَى آيَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَ انْفَتَحَ سَمْعُ قَلْبِهِ فَيَسْتَرِشِدُ بِالْمَوْعِظَةِ وَ يَسْمَعُ الْحَقَّ سَمَاعَ تَفْهَمٍ وَ عَمَلٌ هَلْ يَشِيءُ تَوْبَانٍ هَوْلًا وَ هَوْلًا مَثَلًا أَى مِنْ حَيْثُ الْمَثَلُ، اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَى لَا يَسْتَوِي السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَ الْأَعْمَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٢

[سورة هود (١١): الآيات ٢٥ إلى ٢٧]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَ مَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ الْأَيِّ وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)

الأصم، عند أحد، فكذلك المؤمن و الكافر أفلا تذكرون أي تتذكرون- حذف إحدى تاءيه للقاعدة في باب التفاعل- و هو استفهام إنكارى يراد به ردع الكافرين، كيف لا يفكرون في هذا الأمر الواضح، و يعتبرون به.

[٢٦] و بعد ما بين سبحانه في هذه السورة حقائق كبرى حول المبدأ و المعاد و الرسول و الأمة، و أن من كذب فله الهلاك و الدمار و العذاب و النار، و من آمن فله خير و سعادة و جنات النعيم، ذكر جملة من القصص السالفة التي تثبت احتجاج الأنبياء مع أممهم حول هذه العقائد، و ما انجزت إليه أمورهم، من تكذيب و اضطهاد، و ما أعقب تكذيب الأمم من الهلاك و العقاب و لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال لهم: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَى منذر واضح، أنذركم أن إذا كفرتم و عملتم بالمعاصي تجازون بعذاب الدنيا و الآخرة.

[٢٧] أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ متعلق ب «نذير» أَى إنذارى هو أن تتركوا عبادة ما دون الله من الأصنام إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ مؤلم موجه، و إنما قال «أخاف» لأنه لم يكن معلوما أنهم يموتون كفارا لعلمهم يتوبون، أو ترفيقا في الكلام مع المنكر المعاند.

[٢٨] فَقَالَ الْمَلَأُ أَى جماعة الأشراف- لأنهم يملئون العيون جلالا و القلوب هيبة- و حيث أن المعارضين للأنبياء و المصلحين دائما هم تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٣

الطبقة المستعلية، يأتي بيان حوارهم، و إنما فغيرهم أيضا كان يجادل و يحاور الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ صفة «الملاء»، و ليس المراد ب «كفروا» تجدد الكفر منهم، بل كونهم كفارا، فإن فعل الماضي ينسلخ عن الزمان غالبا- في مثل هذه الموارد- و لا مفهوم للوصف، بأنه كان هناك عده لم يكفروا، لأنه وصف توضيحي لا احترازي: مَا تَرَاكَ يَا نُوحُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا فكيف تدعى النبوة و الرسالة من الله سبحانه. فقد كانت كل أمة تظن أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يلزم أن يكون من الملائكة، لا لبرهان عندهم، بل لرفعة مقام الرسالة في نفوسهم، لأنه لا يمكن أن يكون بشرا مثلهم في حين يدعى أنه متصل بالسماء و واسطة بينهم و بين الله العظيم و مَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا لَمْ يَتَّبِعَكَ الْأَشْرَافُ وَ الرُّؤَسَاءُ وَ الْمَشْرُونُ، و إنما اتبعك و آمن بك الأراذل، و هو جمع «رذل» و هو الخسيس الحقير في كل شيء، فكيف يؤمن الأشراف في صف الأراذل.

و قد كان الغالب أن الفقراء الذين ليس لهم ثروة و منصب هم أسرع الناس قبولاً إلى اتباع كل حق و باطل، لأن المال و المنصب و

الكبرياء تمنع عن الاستجابة، و تسبب القسوة و الغلظة، بخلاف الجماهير و الفقراء من مختلف الطبقات و الأعمال و ما أشبه، فإنهم أقرب إلى البساطة، و الفطرة السليمة.

في حال كونهم بادی الرأى أى ظاهر الرأى لا عمق لرأيهم، حتى يتدبروا و يتفكروا فى الصدق و الكذب، و العواقب و المصير،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٤

[سورة هود (١١): آية ٢٨]

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)

مشتق من «بدا» بمعنى ظهر و ما نرى لكم يا نوح و للمؤمنين بك علينا من فضل في ثروة أو مكانة اجتماعية، فكيف نتبعك؟ و قد ظنوا أن الرسالة من جنس هذه الأعراض الدنيوية، فاللازم أن تكون الفئة المؤمنة من أصحاب الأموال و المناصب، و قد غفلوا عن أن الرسالة من المناصب الروحية لا يتحملها إلا من اختاره الله و جعل نفسه أكمل الأنفس، و ليست من المناصب الدنيوية التي تحتاج إلى ثروة و كبرياء. و هكذا هم أهل الدنيا يستصغرون دائما أهل الدين، إذا خلت أيديهم من المال و الجاه.

بَلْ نُنَبِّئُكَ يَا نُوحُ أَنْتَ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ كَازِبِينَ فِي دَعْوَى النُّبُوَّةِ وَ مَا أَتَيْتَ بِهِ، وَ تَبِعَكَ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

[٢٩] قَالَ نُوحٌ فِي جَوَابِهِ لِكِفَارِ قَوْمِهِ: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أَخْبَرُونِي إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّي عَلَىٰ بَرَهَانٍ وَ حُجَّةٍ يَشْهَدَانِ لِي بِصِحَّةِ الدَّعْوَى وَ صَدَقِ النُّبُوَّةِ، وَ بَأْنِي أَتَيْتَ بِالمعجزات، أَفَلَا تَصْدُقُونَنِي؟ وَ تَنْسَبُونِي إِلَى الكَذِبِ أَيْضًا وَ آتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ أَيْ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ خَصَّيَنِي بِهَذِهِ المنزلة الرفيعة من بين البشر فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ خفيت عليكم لعدم تهيوكم لقبول تلك البينة، أَنُلْزِمُكُمُوهَا نجبركم على المعرفة و البينة و أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ أى تكرهون البينة و المعرفة و لا تتدبرونها، و الحاصل أن لى بينة، لكن أنتم تكرهون رؤيتها و التدبر فيها، و إنما لا ألزمكم و أجبركم على التدبر لأنه «لا إكراه فى الدين».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٥

[سورة هود (١١): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

وَ يَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنِ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)

[٣٠] وَ يَا قَوْمِ لِمَاذَا تَمْتَنِعُونَ عَنِ إِجَابَتِي وَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ تَكْلِيفٌ لَّكُمْ بِدَفْعِ الأَجْرِ حَتَّى تَخَافُونَ مِنْ ذَلِكَ وَ تَهْرَبُونَ مِنْ دَفْعِهِ، فَإِنِّي لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ عَلَى دَعْوَتِي لَكُمْ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا لَافْتَسْتَقِلُّونَ دَعْوَتِي إِنِ أَجْرِي أَى: مَا أَجْرِي فِي التَّبْلِغِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي أَمَرَنِي بِذَلِكَ، وَ هُوَ الَّذِي يُعْطِينِي الأَجْرَ وَ الثَّوَابَ عَلَى عَمَلِي وَ قَدْ كَانَ بَعْضُ الكُفَّارِ سَأَلُوا نُوحًا بِطَرْدِ المُؤْمِنِينَ - الأَرَادِلَ فِي نَظَرِهِمْ - حَتَّى يَفْكَرُوا فِي أَمْرِهِ وَ يَلْتَفِتُوا حَوْلَهُ - كَمَا قَالَ بَعْضُ المفسرين - لَكِنِ نُوحًا أَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا لَسْتُ أُطْرِدُهُمْ مِنْ عِنْدِي وَ لَا أَقْصِيهِمْ مِنْ حَوَالِي، وَ لِمَاذَا؟ أَلَيْسُوا هُمْ مُؤْمِنِينَ بِي وَ إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ فَيَجَازِي مِنْ طَرْدِهِم بِالْعَذَابِ وَ النَّارِ، كَمَا تَقُولُ: «لَا أَقْطَعُ عِلَاقَتِي بِفُلَانٍ فَإِنَّهُ يَلِاقِي المَلِكَ»، تَرِيدُ: فَيَشْكُوكَ عِنْدَهُ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الكُفَّارُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ الحَقَّ، فَتَعْلَلُونَ عِندَ إِيمَانِكُمْ بِعِلَلٍ وَاهِيَةٍ وَ أَعْدَارٍ سَخِيفَةٍ.

[٣١] وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ بَأْسِ اللَّهِ وَ نَقْمَتِهِ إِنِ طَرَدْتُهُمْ أَى طَرَدْتِ هَؤُلَاءِ المُؤْمِنِينَ بِلا ذَنْبٍ وَ لا عَصِيَانٍ، حِينَ يَشْكُونِي خِصْمَانِي عِنْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ تَتَفَكَّرُونَ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الأَمْرَ عَلَى مَا قُلْتَهُ.

و هكذا يكون دائما المتكبرون، إنهم يقولون لأصحاب الرسالات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٦

[سورة هود (١١): آية ٣١]

وَ لَا - أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا - أَعْلَمُ الغَيْبَ وَ لَا - أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤَيِّتَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

والمصلحين: أطردهم فلانا و فلانا، ممن يرون أنهم فوقهم شأنًا. وقد دلت التجارب أن أولئك المؤمنين هم المخلصون الذين يحملون مشعل الإصلاح دون أولئك المتكبرين الذين يريدون طرد جماعة، فإن المتكبر لا يصلح لحمل شعلة الهداية والإصلاح.

[٣٢] وَيَا قَوْمِ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ فَأَتَمَكَّنُ فَوْقَ قَدْرَةِ الْبَشَرِ بِأَنْ أَبْذِلَ مَا أَشَاءُ، وَأَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَلَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ دُونِ إِرْشَادِ رَبِّي الْغَيْبِ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ وَالْمَدَارِكِ، حَتَّى أُرِيدَ أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَأَنَا بَشَرٌ كَمَا قُلْتُمْ ذُو إِمْكَانِيَّةٍ بَشَرِيَّةٍ، لَا خَزَائِنَ، وَلَا غَيْبَ لِي، وَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَلَا أَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَلْتَفِينَ حَوْلِي الَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ «الازدراء» الْاِحْتِقَارَ، أَيْ الَّذِينَ تَحْتَقِرُونَهُمْ. وَنَسْبَةُ الْاِزْدِرَاءِ إِلَى الْعَيْنِ لِأَنَّهَا إِذَا زِدْتُمْ لَهَا عَلِيَهُمْ مِنْ أَلْبَسَةِ رِثَةٍ وَاطْمَارِ خَلْقِهِ، وَ لَوْ نَظَرُوا إِلَى وَاقَعَهُمْ لِرَأْوِهِمْ كِبَارًا فِي نَفْسِهِمْ، عَظْمَاءَ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ. وَ قَدْ حَذَفَ الْمُتَعَلِّقُ فِي الْكَلَامِ، أَيْ تَزْدَرِيهِمْ أَعْيُنُكُمْ:

لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ - كَمَا تَقُولُونَ أَنْتُمْ - فَإِنَّ الْخَيْرَ فِي الْإِيمَانِ وَالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ لَا فِي الْمَالِ وَالْمَنْصَبِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَقَدْ أَتَاهُمُ الْخَيْرُ كُلَّهُ، حَيْثُ هِيَ نَفْسًا نَظِيفَةً وَقُلُوبًا طَاهِرَةً إِنِّي إِذَا إِذَا طَرَدْتَهُمْ، أَوْ قُلْتُ: لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ الظَّالِمِينَ حَيْثُ ظَلَمْتَهُمْ بِذَلِكَ الْعَمَلِ، أَوْ هَذَا الْقَوْلِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٧

[سورة هود (١١): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

[٣٣] و لما حاجهم نوح عليه السلام بتلك الاحتجاجات الصريحة المعقولة، لم يجد القوم إلا الفرار عن المحاجة، ف قالوا يا نوح قد جادلنا حاجتنا و خاصمتنا فأكثرت جدالنا و بحثك معنا حول المبدأ و المعاد و ما إليهما فأتنا بما تعدنا من العذاب. فقد هددهم نوح بعذاب الله إن بقوا في كفرهم و غيهم إن كنت من الصادقين في دعواك النبوة، و أنا إن لم تؤمن عذبا الله بذنوبنا.

[٣٤] قال نوح في جواب استعجالهم العذاب: إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ بِالْعَذَابِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ تَعْدِيكُمْ، و ليس من عندي حتى أعجله أو أؤجله و ما أنتم بمُعْجِزِينَ أَيْ إِنْ أَرَادَ عَذَابَكُمْ فَلَا تَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَعْجِيزِهِ حَتَّى لَا يَتِمَّكَنَ مِنَ الْعَذَابِ، و لا تتمكنون من صد العذاب أو الهرب عن مشيئته سبحانه.

[٣٥] ثم قال نوح عليه السلام: وَلَا يَنْفَعُكُمْ يَا قَوْمِ نُصْحِي وَ إِرْشَادِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ وَ إِنَّمَا قَيِّدُ النَّصْحِ بِالْإِرَادَةِ، وَ قَدْ صَدَرَ مِنْهُ فِعْلًا، تَوَاضَعًا فِي الْكَلَامِ، وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَنْصَحْ مِنْ قَبْلِ، لَا أَنَّهُ نَصَحَ وَ لَمْ يَفِدْ، أَوْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا كَلَامَهُ نَصْحًا، فَهُوَ يَقُولُ: إِنْ صَدَرَ مِنِّي نَصْحٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا - يَنْفَعُكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ وَ إِرَادَةُ اللَّهِ إِغْوَانَهُمْ، يَعْنِي تَرْكَهُمْ وَ شَأْنَهُمْ، حَيْثُ أَنَّهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٨

[سورة هود (١١): آية ٣٥]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ (٣٥)

تركهم سبحانه و شأنهم، فلم يلفظ بهم الألفاظ الخاصة ليستعدوا للاهتداء، كما تقول: «إِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ إِفْسَادَ الشَّعْبِ لَا يَنْفَعُ وَعِظَ الْخُطْبَاءِ» تَرِيدُ تَرْكَهُمْ عَلَى حَالِهِمْ حَتَّى يَفْسُدُوا بِطَبْعِهِمْ، وَ يَعْمَلُوا الْجَرَائِمَ لِعَدَمِ رَادِعِ لَهُمْ.

و هُوَ تَعَالَى رَبُّكُمْ فَهُوَ يَعْلَمُ دَخَائِلَ نَفْسِكُمْ، وَ أَنْكُمْ غَيْرُ صَالِحِينَ لِلطُّفَةِ الْخَفِيِّ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِيكُمْ بِسَيِّئَاتِكُمْ.

[٣٦] أَمْ يَقُولُونَ أَيْ: بَلْ يَقُولُونَ، وَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مِنْ تَمَتُّهِ الْمَطْلَبِ الْمَرْبُوطِ بِحَوَارِ نُوْحٍ مَعَ قَوْمِهِ افْتَرَاهُ عَلَى اللَّهِ فِي دَعْوَاهِ الرِّسَالَةَ

قُلْ يَا نُوحُ لَهْم: إِنَّ افْتَرَيْتُهُ أَى كَذَبْتَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا نَقَلْتَهُ عَنْهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَعَقُوبَتِي لِي، لَا لَكُمْ، فَأَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِنْ جَرْمِي وَافْتِرَائِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ لَا أَوْ آخِذٌ بِجُرَيْمَتِكُمْ وَكَفْرِكُمْ.

و هناك احتمال آخر و هو أن يكون ذلك من الالتفات من قصة نوح إلى قصة النبي مع المشركين، فإنهم كانوا يتهمون الرسول بما اتهم قوم نوح نوحا عليه السلام من الافتراء- و حيث كان ذلك من أغراض القصة، جىء به هنا تنبيها، يرجع إلى تتمه قصة نوح و قومه- فالمعنى: إن هؤلاء المشركين يقولون لك يا رسول الله أنك افتريت على الله سبحانه بنسبة القرآن إليه. و البقية بهذا السياق جاعلا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مكان نوح عليه السلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٥٩٩

[سورة هود (١١): الآيات ٣٦ إلى ٣٧]

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْبِرْ لِقَوْلِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ (٣٧)

[٣٧] و أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ بَعْدَ تِلْكَ الْبَلَاغَاتِ الْكَبِيرَةِ وَ الْمَحَاوَلَاتِ الطَّوِيلَةِ، وَ الْأَمَدِ الْبَعِيدِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَبْلِ فَلَا رَجَاءَ فِي الْبَاقِينَ فَلَا تَبْتَئِسْ أَى لَا تَحْزَنْ وَ لَا تَغْتَم، مِنْ «الابْتِئَاسِ» وَ هُوَ افْتِعَالٌ مِنْ «الْبُؤْسِ» بِمَعْنَى الْغَمِّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ الْكُفْرِ وَ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَحْزَنُ إِذَا لِنَفْسِهِ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُهُ مَعَ قَوْمِهِ، وَ إِذَا أَدَّى مَا عَلَيْهِ بِالِدَعْوَةِ مَرَارًا كَثِيرَةً فَلَا حِزْنَ لِنَفْسِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَلَا حِزْنَ عَلَيْهِمْ.

[٣٨] وَاصْبِرْ اعْمَلِ الْفُلْكَ هِيَ السَّفِينَةُ لِتَرْكَبَهَا أَنْتَ وَ الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ الطُّوفَانِ بِأَعْيُنِنَا بِمَرَأَى مَنَّا فَإِنَّ «أَعْيُنَ» جَمْعُ «عَيْنٍ» أَى بِرِعَايَتِنَا وَ حِفْظِنَا، حَيْثُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ وَ إِلَىٰ عَمَلِكَ. وَ مِنْ يَرِاقِبُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَضِلُّ وَ لَا يَزِيغُ وَ وَحِينَا أَى تَعْلِيمِنَا لَكَ كَيْفِيَةَ الصَّنْعِ وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا لِأَنَّ تَسْأَلَنِي الْعَفْوَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ، وَ لَا تَشْفَعُ لَهُمْ إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِمُ بِالْغُرُقِ وَ الْهَلَاكِ، وَ إِنَّمَا خَاطَبَهُ سَبْحَانَهُ بِذَلِكَ، لِيعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَجَابُ مِثْلَ هَذَا الدَّعَاءِ، فَلَا يَتَعَبُ نَفْسَهُ فِي الطَّلَبِ وَ السُّؤَالِ.

و إن قيل: كيف يجمع هذا الأمر- و هو أن نوحا عليه السلام كان يريد الدعاء لهم بالخير- مع قوله سبحانه حكاية عن نوح: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) «١»؟

(١) نوح: ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٠

[سورة هود (١١): آية ٣٨ تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٦٤٩]

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ (٣٨)

فالجواب: إن دعاء الخير لمن يحتمل إيمانه في المستقبل، لا ينافي دعاء الشر لمن علم بعدم إيمانه أصلا، فإن قوله عليه السلام «من الكافرين» يعنى الذين لا يرجعون عن غيهم و كفرهم، و فوق ذلك (يُضْتَلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) «١»، فلا خير فى نسلهم كما لا خير فيهم .. أما الذين ظلموا فلعله كان يحتمل رجوع بعضهم. و بهذا الخطاب منه سبحانه تبين أنه لا يفيد فيهم الدعاء، و لا يرجعون عن غيهم أبدا، و أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن من قبل.

[٣٩] وَ جَعَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ الْفُلْكَ بِيَدِهِ، يَنْحَتُهَا وَ يَسْوِيهَا، كَمَا يَصْنَعُ النُّجَارُ مِنَ الْأَخْشَابِ الْأَبْوَابِ وَ غَيْرِهَا وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ جَمَاعَةً مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ فَلَمْ تَنْفَعَهُمُ الدَّعْوَةُ سَخِرُوا مِنْهُ اسْتَهْزَؤُوا مِنْهُ قَائِلِينَ: يَا نُوحُ صَرْتَ نَجَارًا بَعْدَ طَوْلِ الدَّعْوَةِ وَ ادَّعَاءِ النُّبُوَّةِ، وَ الْجِدَالِ وَ الْبَحْثِ حَوْلَ الْإِلَهِ وَ الْمَعَادِ، اسْتَهْزَؤُوا بِهِ وَ سَخِرُوا مِنْهُ، فَكَانُوا يَتَضَاحِكُونَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الْمَدْعَىٰ لِلنُّبُوَّةِ كَيْفَ يَنْجُرُ سَفِينَةً بِهَذَا الْكِبَرِ فِي الْيَابَسَةِ حَيْثُ لَا مَاءَ.

قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ: إِنَّ تَسِيخَرُوا مِنَّا عَلَى هَذَا الْعَمَلِ فَإِنَّا نَسِيخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ أَى نَجَازِيكُمْ عَلَى سَخَرِيَتِكُمْ بِسَخَرِيَةِ مِنَّا عِنْدَ نَجَاتِنَا وَ غَرَقِكُمْ. إِمَّا سَخَرِيَهُ حَقِيقِيَهُ، وَ إِمَّا مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الْجَزَاءِ بِاسْمِ الْمَجْزَى بِهِ، نَحْوُ: (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا

(١) نوح: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠١

[سورة هود (١١): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) «١»، وَ (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) «٢».

[٤٠] فَسَوْفَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ يَفْضَحُهُ وَ يَهِينُهُ وَ يَذَلُّهُ، وَ ذَلِكَ بِالْغَرَقِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ لَا يَزُولُ عَنْهُ وَ لَا يَتَحَوَّلُ، وَ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ الْمَمْتَدُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ فِي الْقَبْرِ، ثُمَّ فِي جَهَنَّمَ إِلَى الْأَبَدِ.

[٤١] حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا «حَتَّى» غَايَةُ لِحَالِ نُوحٍ وَ حَالِ قَوْمِهِ، أَى بَقِيَ نُوحٌ يَصْنَعُ السَّفِينَةَ وَ بَقِيَ الْقَوْمُ عَلَى كُفْرِهِمْ يَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُ، حَتَّى حِينَ مَجِيءِ أَمْرِنَا بِأَهْلَاكِهِمْ وَ نَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَ فَارَ التَّنُّورُ بِالْمَاءِ، فَقَدْ كَانَ فُورَانُ التَّنُّورِ بِالْمَاءِ عِلْمًا لَوَقْتِ الْعَذَابِ كَى يَحْمِلُ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّفِينَةِ الْمُؤْمِنِينَ قُلْنَا أَى أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: احْمِلْ فِيهَا فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ أَجْنَاسِ الْحَيَوَانَاتِ زَوْجَيْنِ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى، يُطْلَقُ «الزَّوْجُ» عَلَى الذَّكَرِ كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الْأُنْثَى، وَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْإِثْنَيْنِ مَعًا، يُقَالُ لِهَمَا «زَوْجٌ»، وَ لَمَّا كَانَ يَحْتَمَلُ فِي الْآيَةِ إِرَادَةَ الْمَعْنَى الْآخِرِ حَتَّى يَكُونَ اللَّازِمُ حَمْلَ أَرْبَعَةٍ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، بَيْنَ «الزَّوْجَيْنِ» بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا فَرْدٌ وَ فَرْدٌ، فَيَصِيرُ الْحَاصِلُ اثْنَيْنِ لَا أَكْثَرَ.

وَ احْمِلْ فِي السَّفِينَةِ أَهْلَكَ عَائِلَتَكَ، زَوْجَتَكَ وَ أَوْلَادَكَ

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) البقرة: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٢

إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْ تَقَدُّمِ حَوْلِهِ قَوْلِنَا بِأَنَّهُ مِنَ الْهَالِكِينَ مِنْ عَائِلَتِكَ وَ هِيَ زَوْجَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ اسْمُهَا وَاعِلَةُ، وَ كَانَتْ أَمَّا لِكِنْعَانَ الْوَلَدِ الَّذِي هَلَكَ بِالْغَرَقِ، فَقَدْ كَانَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ زَوْجَتَانِ وَ أَوْلَادٌ كُلُّهُمْ صَالِحُونَ إِلَّا هَذِهِ الْمَرْأَةَ وَ ابْنَهَا وَ احْمِلْ فِي السَّفِينَةِ مَنْ آمَنَ وَ هُمُ بَيْنَ ثَمَانِيَةٍ وَ ثَمَانِينَ، كَمَا فِي الْأَحَادِيثِ، وَ لَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ: وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَ

قَدْ وَرَدَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَادَى الْحَيَوَانَاتِ فَأَجَابَتْهُ وَ اجْتَمَعَتْ حَوْلَهُ فَأَرَكَبَهَا فِي السَّفِينَةِ، وَ ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

وَ مِنْ غَرِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فَقَدُوا ثِقَتَهُمْ بِنَفْسِهِمْ أَمَامَ الْغَرْبِ يَأْوِلُونَ جَمِيعَ الْمَعَاجِزِ مَهْمَا تَمَكَّنُوا وَ يَجْعَلُونَهَا أُمُورًا عَادِيَةً وَ قِصَصًا خَارِجِيَةً لَا مَسْحَةَ عَلَيْهَا مِنَ الْغَيْبِ وَ الْإِعْجَازِ، وَ إِذَا لَمْ يَلِائِمُ شَيْءٌ مَعَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ سَمَّوْهُ بِ«الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ» وَ لَمْ ذَلِكَ؟ لِأَنَّهُ مَعْجَزٌ خَارِجٌ عَنِ نِطَاقِ مَفَاهِيمِ الْمَادِيِّينَ الْغَرِيبِينَ. فَفِي قِصَّتِنَا مِثْلًا، يَقُولُ:

سَفِينَةُ نُوحٍ سَفِينَةٌ عَادِيَةٌ صَنَعَتْ، وَ «الْوَحْيُ حَوْلَهَا» هُوَ الْإِلْهَامُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَلْهَمُ قَلْبَ كُلِّ مُتَعَلِّمٍ بِالْعِلْمِ، وَ «حَمْلُ نُوحٍ عِدَّةَ حَيَوَانَاتٍ» مِمَّا يَمْلِكُهُ نُوحٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، وَ كَانَ الْمَوْسِمُ فَيْضَانًا وَ الْمَطَرُ وَابِلٌ فَغَرِقَ بَعْضُ النَّاسِ الَّذِينَ كَانُوا فِي تِلْكَ الْمَنَاطِقِ، وَ سَلِمَ نُوحٌ وَ قَوْمُهُ الْمُؤْمِنُونَ.

وَ هَكَذَا يَحْرَفُونَ كُلَّ خَارِقَةٍ إِلَى رَمَادٍ وَ تَرَابٍ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَارِقَةً تَأْخُذُ بِالْأَنْفُسِ وَ تَدُلُّ عَلَى رِسَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ

فهو خرافة و إسرائيلية، مهما بلغ سنده من الصحة و الثبات، أما إذا كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٣

في القرآن فباب التأويل واسع، ف (أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انشَقَّ الْقَمَرُ) (١) يراد به انشقاق بعض الأقمار التي دل العلم على وجودها سابقا ثم صارت منشقة بصورة هائلة أى: ابتعاد الأنجم بعضها عن بعض. و (وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) (٢) كانت أسراب طير معها «ميكروب» الوباء فلما اختلطت بالناس، عدى المرض إليهم فماتوا بالوباء، و ما أشبه هذه التأويلات .. و هكذا هلم جرا.

حتى أن بعضهم- و هو مؤمن بالله و اليوم الآخر، طبعاً- ذكر أن المراد ب «الإله» القوة المسيّرة للكون أو الطاقة المحركة للحياة، و «المعاد» هو حساب التاريخ للإنسان، و «الجنة» ذكره الطيب المنبعث عن أعماله الحسنه، و «النار» ذكره السيئ المنبعث عن أعماله القبيحة ..

فلنتساءل: أى فرق بينكم أيها المؤمنون! و بين الماديين؟ و هل أحد ينكر الطاقة و محاسبه التاريخ و الذكر الحسن و السيئ؟ و إذا سألت هؤلاء المنهزمين، ماذا تصنعون بالنصوص و التصريحات؟ أجابوا بأنها على سبيل الكناية و المجاز، حسب فهم العرب المخاطبين ..

نقول: إن المؤمن هو من يؤمن بكل نص، أما أن يكون الإنسان ماديا قلبا، مسلما صورة فليس ذاك إلا النفاق، و الانهزام أمام بريق الغرب المادى .. و مثل هذه الانهزامية فى العقائد، و الانهزامية فى الأحكام، كمن يقول إن الإسلام جمهورى لقوله تعالى فى قصة بليسى: (فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ) (٣)؟، أو برلمانى، لقوله تعالى: (وَ أَمْرُهُمْ

(١) القمر: ٢.

(٢) الفيل: ٤ و ٥.

(٣) الأعراف: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٤

[سورة هود (١١): الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَ قَالَ اذْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْرِزٍ يَا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)

شورى (١)، أو اشتراكى، لقوله: (وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ) (٢)، أو ربوى لقوله: (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) (٣)، مما يفهم منه جواز أكله بدون أن يصبح أضعافا، و هكذا .. مما هم بالهوس أقرب منهم إلى الإسلام. و قد رأينا أن معيار هؤلاء هو الغرب فما ذكره فهم تبع له، فإن وافق الإسلام فهو، و إلا فاللازم أن يطبق الإسلام عليه، يا للهراء و السخف!! [٤٢] وَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْكَبُوا فِيهَا فِي السَّفِينَةِ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا أى قائلين بسم الله، وقت جريانها على الماء، و وقت إرسائها أى وقوفها و حبسها عن المسير، أو المعنى: بالله إجراؤها و إرساؤها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ لِلذَّنُوبِ رَحِيمٌ و بهاتين الصفتين استحق المؤمنون النجاة.

[٤٣] وَ كَانَتِ السَّفِينَةُ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ جَمْع «موجه» و هى ما علا من الماء بسبب دخول الهواء فيه، فيكون الماء متخلخلا عاليا يسير بسير الهواء و اتجاه الرياح، و معنى «بهم» أى فى حال كونها معهم، و حال كونهم فيها كالجبال بارتفاعها و ضخامتها وَ نَادَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى تلك الحالة ابْنَهُ كنعان الذى كان من تلك المرأة

(١) الشورى: ٣٩.

(٢) المعارج: ٢٥.

(٣) آل عمران: ١٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٥

[سورة هود (١١): الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

الخائنة وَكَانَ الْإِبْنُ فِي مَغْزِلٍ أَى محل عزله، لأنه لم يركب معهم فى السفينة: يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا فِى السَّفِينَةِ لَتَنْجُوا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ حَتَّى تَهْلِكَ وَتَغْرُق.

[٤٤] فأجابه الابن قال سَاوِي من «أوى يأوى» إذا اتخذ مأوى ومحلًا، أى سأرجع إلى مأوى إلى جَبَلٍ شاهق لا يعلوه الماء يَعْصِمُنِي يحفظنى مِنَ الْمَاءِ فلا أغرق ولا أركب معك فى السفينة قال نوح عليه السّلام: لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَى لا شىء يحفظ الإنسان من عذاب الله و غرقه الذى قدره على الكافرين إِلَّا مَنْ رَحِمَ من المؤمنين الذين ركبو السفينة، فأمن بالله و اركب السفينة كى تنجو و يرحمك الله وَحَالَ بَيْنَهُمَا) بين نوح و ابنه الْمَوْجُ جاءت الأمواج حتى لم يشاهد نوح ابنه فَكَانَ أَى صار الابن مِنَ الْمُغْرَقِينَ أغرق و أهلك فى جملة الكافرين.

[٤٥] لقد طافت السفينة على الماء أياما، و نوح و المؤمنون و الحيوانات فيها، و أخذ الماء ينهمر من السماء و يخرج من الأرض حتى غرق الكفار بأجمعهم وَ حِينَذَاكَ قِيلَ الْمَرَادُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَالَ ذَلِكَ، إما بنفسه أو بأمر بعض الملائكة أن يقول ذلك، أو المراد إرادته سبحانه، فعبر عنه بالقول: يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ رَدَى و اشربى الماء الذى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٦

أخرجته بسبب تفجر العيون، و قد أريد بذلك: نشف الماء دفعه كأنه بلع له وَ يَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي أَى قال تعالى للسماء: أمسكى المطر و لا ترسلى الماء إلى الأرض. فبلعت الأرض ماءها، و أمسكت السماء عن المطر. و هل أن المراد من «ابلعى ماءك» جميع الماء الموجود فيها و لو كان الماء النازل من السماء، أم خصوص مائها، و بقى ماء السماء و تسرب فى المسارب و المنحدرات؟ احتمالان.

و قد روى عن الأئمة الطاهرين عليهم السّلام: أن الماء بقى، و صار بحارا و أنهارا «١».

أقول: إن العلم الحديث دلّ على كون الجبال كلها كانت غامرة فى الماء، حتى أرفع الجبال كانت كذلك، و قد وجد فيها آثار للماء و الحيوانات المائية، و لعل ذلك- إن صح- كان من وقت الطوفان حيث دلّ الدليل على غمر الماء لكل الجبال.

و هل أن الخطاب حقيقى لشعور السماء و الأرض بالأمر و النهى، بمقتضى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) «٢»، أو المراد نتيجة ذلك، من باب خطاب العارف نحو: «أيا جبلى نعمان بالله خليا». احتمالان؟

و لا- يبعد الأول، كما قال سبحانه: (فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) «٣»، و هكذا أمثالها، مما ظاهره شعور السماء و الأرض.

وَ غِيضَ الْمَاءِ أَى ذهب الماء من وجه الأرض إلى باطنها من

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٠٤.

(٢) الإسراء: ٤٥.

(٣) فصلت: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٧

«غاض يغيض» إذا تسرب في الباطن وَقُضِيَ الْأَمْرُ تَمَّ الأمر المراد، و هو هلاك الكفار و نجاه المؤمنين وَ اسْتَوَتْ استقرت السفينة عَلَى جبل يسمى الْجُودِيّ و قد ورد في التفاسير أنه جبل بالموصل في شمال العراق «١» وَقِيلَ أى قال الله سبحانه، أو الملائكة، أو نوح و المؤمنون، و المراد: نتيجة ذلك بُعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين كفروا و ظلموا أنفسهم، فليبتعدوا عن رحمة الله، و عن سعادة الدنيا بالهلاك، و عن خير الآخرة بدخول النار.

و قد ذكر المفسرون و أهل البلاغة أن هذه الآية الكريمة في كمال البلاغة مما يدهش العقول و الألباب فقد ذكروا أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البرّ و لحوم الضأن و سلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبه شيء من الكلام، و لا يشبه كلام المخلوقين، و تركوا ما أخذوا فيه و افرقوا.

و كان أهل الجاهلية إذا ألفوا أفصح القصائد علقوها بالكعبة، و هكذا حتى جمعت من أفصح القصائد و أبلغها على الكعبة سبع، لا لمرئ القيس و زملائه، فلما نزلت هذه الآية، أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بكتابتها، و أن تعلق قرب المعلقات السبع، ففعل ذلك بعض المسلمين، و لما أصبحت قريش و أتت إلى الكعبة، و رأت الآية إلى جنب المعلقات،

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٨

[سورة هود (١١): آية ٤٥]

وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)

اضطرت إلى أن تعلق المعلقات و لم تدعها قرب الآية.

و يقال: أن ثلاثة من الملحدين أرادوا معارضة القرآن ليبتلوا أساس الإسلام، فاجتمعوا في مكة، و ضمن كل واحد منهم أن يقول مثل ثلث القرآن إلى العام القابل، و اجتمعوا في القابل في مكة فقال أحدهم: إني أعرضت عن معارضة القرآن لما رأيت أن فيه قوله: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ..»، فقد علمت أني لا أتمكن أن آتي بما يشابهها. و قال الثاني: إني أعرضت عن معارضة القرآن حيث رأيت في قوله: (فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خُلِصُوا نَجِيًّا) «١»، فقد علمت أنه لا يتسنّى لي مقابلة هذه الآية. و قال الثالث: إني أعرضت عن معارضة القرآن حيث رأيت فيه قوله: (وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ فَارْتَضَتْ عَلَيْهِ فَآلَقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَفِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) «٢»، فقد علمت أنه لا يمكنني معارضة هذه الآية.

و يقال أن الإمام الصادق عليه السلام مرّ بهم في ذاك الحال و هم يتذاكرون عجزهم و ينسبون تلك الأسباب فيما بينهم، فقال لهم: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) «٣» «٤».

[٤٦] و إذ قد انتهى الأمر و تذكر نوح عليه السلام ابنه الغريق كنعان و أخذته الشفقة عليه وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ نَدَاءَ دَعَاءٍ وَ ضِرَاعَهُ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنَّ ابْنِي

(١) يوسف: ٨١.

(٢) القصص: ٨.

(٣) الإسراء: ٨٩.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٠٩

[سورة هود (١١): آية ٤٦]

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)
 مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ فَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاةِ أَهْلِي فَنَجَّهَ مِنَ الْغَرَقِ، أَوْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْغَرَقِ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ الْأَوَّلَ، فَلَعَلَّ نُوحًا لَمْ
 يَكُنْ يَعْرِفُ مَصِيرَ وَلَدِهِ هَلْ أَهْلٌ غَرِقَ أَمْ لَا وَانْتِ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ أَيْ إِنْ حَكَمَكَ أَصَحَّ الْأَحْكَامِ، فَلَا تَحْكَمْ فِي وَلَدِي أَوْ غَيْرِهِ إِلَّا
 بِالصَّحِيحِ.

[٤٧] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي جَوَابِ طَلْبِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نُوحُ إِنَّهُ أَيْ وَلَدَكَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ فَإِنَّ الْأَهْلَ الَّذِينَ وَعَدْتَ بِنَجَاتِهِمْ لَيْسَ
 أَهْلٌ لِحَمٍّ وَدَمٍّ، وَإِنَّمَا أَهْلٌ عَقِيدَةٌ وَإِيمَانٌ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ قَدْ يَبَالِغُ فِي نَسْبَةِ الْفِعْلِ إِلَى شَخْصٍ حَتَّى يَجْعَلَ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَفْسَ
 الْفِعْلِ، كَمَا يَقَالُ: «زَيْدٌ عَدْلٌ» مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ زَيْدًا لَيْسَ قِطْعَةً مِنَ الْعَدْلِ وَإِنَّمَا هُوَ ذُو عَدْلٍ، وَ لَكِنِ الْبَلَاغَةُ تَقْتَضِي ذَلِكَ. وَ هُنَا كَذَلِكَ،
 فَإِنَّ ابْنَ نُوحٍ لَمَّا كَانَ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الْفَاسِدَةَ، صَارَ كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْهَا، فَقِيلَ: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ»، كَمَا يَقَالُ: «زَيْدٌ قِطْعَةٌ مِنْ فِسَادٍ»، يَرَادُ
 أَنَّهُ مِنْهُمْ كَمَا فِيهِ، أَوْ بِتَقْدِيرِ «ذُو» أَيْ أَنَّهُ «ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ» كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: «فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَ إِدْبَارٌ» أَيْ: «ذَاتُ إِقْبَالٍ وَ إِدْبَارٍ».

وَقَالَ بَعْضُ أَنْ الضَّمِيرُ فِي «إِنَّهُ» يَعُودُ إِلَى سُؤَالِ نُوحٍ، أَيْ: إِنْ طَلَبْتَكَ بِنَجَاةِ ابْنِكَ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، لَكِنِ هَذَا الْإِحْتِمَالُ بَعِيدٌ عَنِ الظَّاهِرِ.
 فَلَا تَسْتَلِنِ يَا نُوحُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ السُّؤَالُ إِنشَاءً، وَ الْإِنشَاءُ لَا يَتَّصِفُ بِالصِّدْقِ وَ الْكُذْبِ، وَ مَطَابِقَةُ الْوَاقِعِ وَ عَدَمُ مَطَابِقَتِهِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٠

[سورة هود (١١): آية ٤٧]

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)

وَ كَوْنُهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْعِلْمِ وَ عَدَمُ كَوْنِهِ مُتَعَلِّقُهُ. إِلَّا أَنَّ الْإِنشَاءَ حَيْثُ يَحْمِلُ دَائِمًا- فِي طِيهِ- إِخْبَارٌ عَنِ شَيْءٍ صَحَّ الْإِتِّصَافُ بِهِذِهِ الْأُمُورِ، فَمِثْلًا
 يَسْأَلُكَ أَحَدُهُمْ مَالًا، فَتَقُولُ: إِنَّهُ يَكْذِبُ، وَ لَسْتَ تَرِيدُ أَنَّهُ يَكْذِبُ فِي السُّؤَالِ، بَلْ تَرِيدُ أَنَّ الْخَبَرَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْإِنشَاءُ- وَ هُوَ أَنَّهُ
 فَقِيرٌ مَعْدَمٌ- غَيْرٌ صَحِيحٌ، إِذْ ظَاهِرُ السُّؤَالِ أَنَّهُ لَفَقَرَهُ يَسْأَلُ، فَأَنْتَ تَرِيدُ تَكْذِيبَ ذَلِكَ الْخَبَرِ الْمَنْطُوقِ فِي هَذَا الْإِنشَاءِ ..

وَ هُنَا كَذَلِكَ، فَإِنَّ سُؤَالَ نُوحٍ لَمْ يَكُنْ بِمَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، بَلِ الْخَبَرُ الضَّمْنِي كَانَ بَدُونَ عِلْمٍ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَ بِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ نَجَاةَ
 ابْنِهِ- بِتَشْكِيلِ الْقِيَاسِ- «ابْنِهِ مِنْ أَهْلِهِ»، وَ «أَهْلُهُ مَوْعُودُ نَجَاتِهِمْ»، فَ «ابْنُهُ مَوْعُودُ نَجَاتِهِ». وَ قَدْ كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَى أَنَّ الْوَعْدَ بِنَجَاةِ
 الْأَهْلِ شَامِلٌ لِلْوَلَدِ أَيْضًا، وَ عَلَى هَذَا طَلْبُ الْوَفَاءِ بِالْوَعْدِ، لَكِنَهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ دَاخِلًا فِي الْوَعْدِ، وَ لَمْ يَدُلُّ دَلِيلٌ عَلَى لُزُومِ عِلْمِ
 الْأَنْبِيَاءِ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ، حَتَّى يَقَالُ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ، وَ هَذَا لَا يَنَافِي مَقَامَ الْعِصْمَةِ، فَإِنَّ مَعْنَى الْعِصْمَةِ أَنَّ لَا
 يَذْنِبُ، لَا أَنَّ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ.

إِنِّي أَعْظُكَ يَا نُوحُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ أَيْ لِنَّمَّا تَكُونُ جَاهِلًا، وَ لَا شَكَّ أَنَّ وَعْظَهُ سُبْحَانَهُ يَبْدُدُ الْجَهْلَ. وَ قَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ
 هَذِهِ عِبَارَةٌ خَشَنَةٌ، لَكِنِ الظَّاهِرُ أَنَّهُ جَارٌ مَجْرَى التَّكْلِيمِ الْمَعْتَادِ، فِي مَقَابِلِ التَّكْلِيمِ بَلِينٍ، وَ مَقَامُهُ سُبْحَانَهُ لَا يَقْتَضِي اللَّيْنُ فِي الْكَلَامِ، وَ
 يَحْتَمِلُ أَنَّ يَكُونُ إِفْرَاقُ الْغَالِبِ فِي هَذَا الْقَالَِبِ لِإِفَادَةِ مَبْغُوضِيَةِ الْكُفْرَانِ لَدَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ- وَ قَدْ سَبَقَ مَا يَشْبَهُهُ فِي قِصَّةِ أَخْذِ مُوسَى عَلَيْهِ
 السَّلَامُ بِرَأْسِ أَخِيهِ-.

[٤٨] قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ الْكَلَامِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ: يَا رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١١

بِكَ أَيْ أَعْتَصِمُ بِكَ، مِنْ «عَاذُ» إِذَا اسْتَجَارَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أَيْ أَسْأَلَكَ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ صِلَاحٌ، وَ يَكُونُ سُؤَالِي صَادِرًا عَنِ
 عَدَمِ عِلْمِ لِي بِالْوَاقِعِ. وَ لَا يَخْفَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنَافِي أَيْضًا مَقَامَ الْعِصْمَةِ، فَإِنَّ «وَلَدَكَ لَوْ سَأَلَكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى النَّجْفِ، وَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ
 مِنَ الصِّلَاحِ، لِأَنَّ الْأَجُورَ تَحْمِلُكَ خَسَارَةً كَبِيرَةً، فَهَلْ أَنْ سُؤَالُهُ يَعِدُ عَصِيَانًا لَكَ؟».

لَكِنِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يَجَنِّبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ حَتَّى مِنْ هَذَا النِّحْوِ مِنَ السُّؤَالِ.

وَإِلَّا أَى: و إن لم تَغْفِرْ لى وَ تَزَحْمِنى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ «الغفران» الستر، و «الترحم» التفضل، و هما كما يكونان بالنسبة إلى العاصى، يكونان بالنسبة إلى المطيع، فإن الإنسان مهما بلغ من النزاهة فإنه يحتاج إلى ستر الله لما لا يليق بشأنه، كما يحتاج إلى تفضله، و هذا هو سر استغفار المعصومين.

فمثلا إن التوجه إلى إنسان فى كلام مما يسبب عدم التوجه إلى الله سبحانه فى ذاك الوقت لا يليق بشأن من يعرف الله حق معرفته، و إن كان راجحا فى نفسه، و لذا يستحق الاستغفار. قال سبحانه للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ * وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) «١». و من هذا القبيل ما قيل: «حسنت الأبرار سيئات المقربين»
«٢».

(١) النصر: ٢-٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٢٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٢

[سورة هود (١١): آية ٤٨]

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّةٍ سَنُنَتُّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)
ثم إن من المعلوم أن للخسران مراتب فمن من شأنه تحصيل الربح الكثير إذا لم يحصل عليه كان خاسرا، و هكذا قول نوح عليه السلام:

«أكن من الخاسرين» فلو لا غفران الله و رحمته كان عليه السلام خاسرا إذا لم يحصل تلك المراتب الرفيعة التى تليق بمثله.

[٤٩] و لما استقرت السفينة على جبل الجودى قيل و القائل هو الله سبحانه، إما بنفسه، أو بأمر ملائكة بذلك: يا نُوحُ اهْبِطْ مِنَ السَّفِينَةِ وَ الْجَبَلِ إِلَى الْأَرْضِ بِسَلَامٍ مِنَّا بِتَحِيَّةٍ لَكَ مِنْ عِنْدِنَا، أَوْ بِنَجَاةٍ وَ سَلَامَةٍ مِنْ قَبْلِنَا، فَأَنْتَ آمِنٌ نَاجٍ وَ بَرَكَاتٍ أَى زِيَادَةٌ مِنْ فَضْلِ، وَ خَيْرَاتٍ نَامِيَةٌ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ أَى الْجَمَاعَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ وَ الْوَحْشِ، فَإِنَّهَا تَنْمُو وَ تَزْدَادُ حَتَّى تَمَلَأَ الْأَرْضَ مِنْ ذُرَارِيهَا وَ نَسْلِهَا، فَإِنَّ الْأُمَّةَ تَطْلُقُ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّةٌ أُمَّتَالِكُمْ) «١». و هنا طريفة لفظية، و هى: أن ثمان «ميمات» اجتمعن فى هذه الآية «أُمَّةٍ مِّمَّنْ مَعَكَ» أصلها خمس ميمات و نونان و تنوين.

وَ مِنْ نَسْلِ هَؤُلَاءِ أُمَّةٍ سَنُنَتُّعُهُمْ نَعِيْتَهُمْ مَتَعَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْمُسْتَقْبَلِ ثُمَّ يَكْفُرُونَ وَ يَعْصُونَ فِى يَمْسُهُمْ يَشْمَلُهُمْ مِنَّا أَى مِنْ طَرْفِنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ مَوْجِعٌ مَوْلَمٌ فِى الدُّنْيَا بِصُنُوفِ الْقَلْقِ وَ الْمَرَضِ وَ الْفَقْرِ وَ الْحُرُوبِ وَ مَا أَشْبَهَهُ، وَ فِى الْآخِرَةِ بِالنَّارِ وَ الْعِقَابِ.

(١) الأنعام: ٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٣

[سورة هود (١١): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠)

و كان قوله «و أُمَّةٍ» لأجل أن لا يستفاد من قوله «و على أُمَّةٍ» أن من حملهم نوح و ذريتهم كلهم تصحبهم السلامة و البركة، بل هناك من نسلهم من يكفر و يعصى فلا بركة له و لا سلام.

[٥٠] تِلْكَ الْأَخْبَارُ الَّتِي قَصَصْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ تَفْصِيلِ أحوال نوح عليه السلام و قومه مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أَى أَخْبَارِ مَا غَابَ عَنْكَ يَا رَسُولَ

الله معرفته نُوحِيهَا إِلَيْكَ و ليس فى التوراة و الإنجيل لهذه الكيفية و التفصيل و النزاهة ما كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ يا رسول الله و لا قَوْمَكَ قريش، أو العرب، أو الناس المعاصرون لك، فإن لفظ «قوم» يستعمل بمعنى كل ذلك. و لا غضاضة فى أن لا يعلمها الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و هل علم الرسول إلا من علم الله سبحانه و وحيه فهو قبل ذلك لا يعلم شيئاً من قَبْلِ هذا أى من قبل الوحي، أو من قبل القرآن فاصْبِرْ يا رسول الله على أذى قومك كما صبر نوح عليه السلام إِنَّ الْعَاقِبَةَ الْمَحْمُودَةُ لِلْمُتَّقِينَ الذين يخافون الله و يعملون بأوامره، كما كانت العاقبة لنوح و المؤمنين به.

[٥١] و حيث ينتهى السياق من قصة نوح شيخ المرسلين، يأتى الكلام حول قصة هود عليه السلام و يورد القرآن الكريم جملة من هذا القبيل من القصص كلها تركز على شىء واحد هو بعثه الأنبياء عليهم السلام لإصلاح الناس، ثم عدم سماع الناس - إلا نادراً - منهم، ثم إهلاك المكذبين و جعل كلمة الله هى العليا بنجاة المؤمنين و نصرتهم و أرسلنا إلى عادٍ و هم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٤

[سورة هود (١١): الآيات ٥١ الى ٥٢]

يا قَوْمِ لا- أَشْرِكُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا- عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا- تَعْقِلُونَ (٥١) و يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا و يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ و لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

قبيلة أخاهم فى النسب هوداً النبى عليه السلام، و كان هؤلاء ساكنين فى الأحقاف «و الحقف» كتيب الرمل المائل، فى جنوب الجزيرة العربية، و كانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم أخاهم من تلك القبيلة هودا عليه السلام، ف قال لهم: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ما لكم ليس لكم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ دخول «من» فى المنفى يفيد العموم إِنْ أَنْتُمْ ما أَنْتُمْ فى اتخاذكم الأصنام شركاء لله تعالى إِلَّا مُفْتَرُونَ كاذبون فى قولكم، و حيث أنكم تنسبون ذلك إلى الله سبحانه، فهو افتراء و بهتان.

[٥٢] يا قَوْمِ لا- أَشْرِكُكُمْ عَلَيْهِ أى على التبليغ و الإرشاد و الهداية أجراً مالا، وإنما أبلغكم مجاناً و بلا عوض. و قد كانت الأنبياء تؤكد على ذلك لأن الناس دائماً يخافون من الداعى لخوفهم على أموالهم، فإذا أمنوا ذلك، لم يكن لهم عذر مادي فى عدم قبولهم الدعوة إِنْ أَجْرِي أى ليس جزائى على الدعوة إِلَّا عَلَى اللَّهِ الَّذِي فَطَرَنِي خلقنى و سوانى و أوجدنى من العدم أَفَلَا تَعْقِلُونَ استفهام توبيخى، أى لما ذا لا تعملون عقولكم لتعلموا صدق و استقامة طريقي؟! [٥٣] و يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اطلبوا عفوه و غفرانه لما سلف منكم من الكفر و المعاصى ثُمَّ تُوبُوا ارجعوا إِلَيْهِ فى العمل بأوامره

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٥

و نواهيته، فإن الإنسان العاصى يحتاج إلى أمر سلبي هو محو ما سلف، و إلى أمر إيجابى هو الاستقامة على منهاج جديد لما يأتى. و قد تقدم أن «الاستغفار و التوبة» لو افترقا شمالاً الأمرين، أما لو اجتمعا فالاستغفار للسلبى، و التوبة للإيجابى.

فإذا فعلتم ذلك يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا أى يرسل المطر عليكم متتابعاً متواتراً، بمعنى «جرى و نزل»، و استعمال «السماء» مریداً به المطر، لعلاقة الحال و المحل. قال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه و إن كانوا غصبا

و فى بعض التفاسير أنهم كانوا قد أجابوا فوعدهم هود عليه السلام بالغيث إن تابوا و أنابوا، كما قال تعالى فى آية أخرى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا و اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ و الْأَرْضِ و لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) «١» «٢».

و يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ و المراد ب «القوة» كل ما يتقوى به الإنسان من مال و أهل و قوى مادية و معنوية، و هذا بقدر ما هو مما وراء الغيب، هو حسب القوانين العادية، فإن المؤمنين أكثر نشاطاً و تألفاً، و أصح منهاجاً مما تؤدي إليه كثرة القوة و لا تتوَلَّوْا أى لا تعرضوا عن الله و أوامره فى حال كونكم مُجْرِمِينَ تعملون الكفر و الآثام.

(١) الأعراف: ٩٧.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٦

[سورة هود (١١): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ
إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥)

[٥٤] قَالُوا فِي جَوَابِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ: يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِكَ. فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَبِرُونَ الْأَدْلَةَ الْوَاضِحَةَ حُجَّةً،
كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ مُعَانِدٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ لَسْنَا نَتْرِكُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ لِأَجْلِ قَوْلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ. وَإِنَّمَا جِيءَ بِ«عَنْ»
لأنه يدل على التجاوز، نحو: «رَمِيَتِ السَّهْمُ عَنِ الْقَوْسِ»، أَيْ فَلَيْسَ تَرَكْنَا نَاشِئًا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ بِمُصَدِّقِينَ مَقَالَكَ.

[٥٥] إِنْ نَقُولُ مَا نَقُولُ فِيكَ وَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي تَقُولُهَا إِلَّا اعْتَرَاكَ أَيْ أَصَابَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ فَإِنَّكَ حَيْثُ كُنْتَ تَسْبُحُ آلِهَتِنَا،
أَصَابُوكَ بِالْجَنُونَ فَجَنَّتْ وَ خَبِلَ عَقْلُكَ - كَذَا قَالَ الْمَفْسُرُونَ - فَلَمَّا رَأَى هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الْكَلَامُ وَ لَا يَتَفَكَّرُونَ قَالَ
لَهُمْ: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا عَلَيَّ فَإِنِّي أَجْعَلُكُمْ شُهُودًا عَلَى أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ مِنَ الْأَلْهَةِ الْبَاطِلَةِ، وَ لَا - أَعْتَرَفَ لَهُمْ
بِالْأُلُوهِيَّةِ.

[٥٦] فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ الْمَرْعُومَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ مِنَ دُونِ اللَّهِ، لَيْسَتْ فِي نَظَرِي بِأَلْهَةٍ حَتَّى أَعْبُدَهَا، وَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ.
ثُمَّ كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّ آلِهَتَكُمْ مُسْتَنَى بِسُوءِ لِسْبِي إِيَّاهَا، فَإِنِّي أَتَّحِدَاكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَ الْأَلْهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا فَكَيْدُونِي جَمِيعًا فَاحْتَالُوا
وَ اجْتَهَدُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٧

[سورة هود (١١): آية ٥٦]

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)

لِضُرِّيِّ وَ إِيْذَانِي ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ أَيْ لَا تَمْهَلُونَنِي، بَلْ فَاجِنُونِي بِالْهَجُومِ لِقَصْدِ إِيْذَانِي، فَإِنِّي لَا أَبَالِي بِكُمْ وَ لَا أَكْثُرُ بِكَيْدِكُمْ، بَعْدَ مَا
كُنْتُ مُسْتَظْهِرًا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَاثِقًا مِنْ نَصْرِهِ، إِنَّكُمْ جَمِيعًا لَا تَقْدِرُونَ عَلَى إِيْذَانِي، فَكَيْفَ يَقْدِرُ بَعْضُ آلِهَتِكُمْ أَنْ يَمْسُنِي بِسُوءٍ؟

قال بعض المفسرين: إن هذا من أعظم آيات الأنبياء عليهم السلام أن يكون الرسول وحده، و أمته متعاونة عليه، فيقول لهم: كيدوني،
فلا يستطيع واحد منهم صدّه، و كذلك قال نوح عليه السلام: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ... «١» - كما تقدم - و

قال نبينا صلى الله عليه و آله و سلم: (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)

«٢». و مثل هذا القول لا يصدر إلا عمن هو واثق بنصر الله و بأنه يحفظه عنهم و يعصمه منهم.

[٥٧] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ إِنِّي وَثِقْتُ بِهِ وَ فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْهِ فَهُوَ الْمُدَافِعُ الْمَحَامِي عَنِّي مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ آخِذٌ
بِنَاصِيَتِهَا أَيْ مَا مِنْ حَيْوَانٍ يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا هُوَ مَالِكٌ لَهُ يَصْرِفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَ «النَّاصِيَةُ» هُوَ مُقَدِّمُ الرَّأْسِ، فَكَمَا أَنَّ الْآخِذَ بِشَعْرِ
مُقَدِّمِ الرَّأْسِ لِأَحَدٍ، يَتَصَرَّفُ فِي ذَلِكَ الْإِنْسَانُ بِالْقَهْرِ وَ الْغَلْبَةِ، كَذَلِكَ الْمَالِكُ لِلدُّوَابِّ، وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ قَهْرِهِ سَبْحَانَهُ لِكُلِّ دَابَّةٍ وَ
قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا كُلِّهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنَّهُ مَعَ قُدْرَتِهِ فَهُوَ عَادِلٌ فِيمَا يَعَامَلُ بِهِ الْبَشَرَ، وَ سُنَّتُهُ وَ أَحْكَامُهُ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ. وَ هَذَا
تشبيه للمعقول

(١) يونس: ٧٢.

(٢) المرسلات: ٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٨

[سورة هود (١١): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)

بالمحسوس فكما أن السائر المستقيم، يمشى على صراط مستقيم، وكذلك صراطه سبحانه في أحكامه و سننه.

[٥٨] ثم قال هود عليه السلام لقومه: فَإِنْ تَوَلَّوْا أَصْلَهُ «تولوا»، أى فإن أعرضتم عن دعوتى فإنى غير ملوم و غير مأخوذ بإعراضكم إذ قد أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ و بلغت لكم رساله ربي، فتوليكم من سوء اختياركم. ثم إن ذلك لا يضر الله سبحانه كما لا يضرنى فإنه يهلككم بمعاصيكم و يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ يوتى مكانكم بأناس آخرين يعبدونه و يوحدونه، بعدكم و خلفا لكم و لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا بتوليكم، كما لم تضررنى بذلك إِنْ رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ يحفظ دينه من الضياع فيأتى بغيركم ليعبده، كما يحفظنى عن أذاكم و ضرركم.

[٥٩] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِهَلَاكِ عَادٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَنْفَعِهِمُ الدَّعْوَةُ وَ تَوَلَّوْا مَعْزِينَ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنَ الْهَلَاكِ - و فى المجمع: قيل أنهم كانوا أربعة آلاف - بِرَحْمَةٍ مِنَّا حيث رحمتهم بعدم عذابهم. و ذكر هذه الجملة، إما لإفادة أن نجاتهم لم تكن صدفة و إنما عن قصد، و إما لإفادة أن نجاه أولئك المؤمنين لم تكن باستحقاقهم، إذ أن كل أحد لا بد و أنه ممن يستحق العقاب، فنجاته تكون برحمته و فضل من الله وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ شديد. و الإتيان بهذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦١٩

[سورة هود (١١): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

اللفظ لدلالته على ما كان للعذاب من شدة و هول، و تكرر «نجينا» إما لبيان الخصوصية فإن اللفظ أولا كان مطلقا، ثم جىء به مع المتعلق، و إما لبيان أنهم نجوا من عذاب الآخرة كما نجوا من عذاب الدنيا، و هذا فيما إذا أريد من «العذاب الغليظ» عذاب الآخرة.

[٦٠] ثم تأتى القصة فى جمل قصار للتكرير و التركيز فى الذهن وَ تِلْكَ الْقَبِيلَةُ الَّتِي أَهْلَكَتْ وَ هِيَ عَادٌ أَى قَبِيلَةُ عَادٍ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ أَنْكَرُوا بُرَاهِينَهُ وَ أَدَلَّتْهُ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَ رِسَالَةَ رَسُولِهِ وَ سَائِرَ الْأُصُولِ وَ الْفُرُوعِ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ بِالْمُخَالَفَةِ وَ الْمَشَاقَّةِ. و إنما قال «رسله» بلفظ الجمع، لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل، كما أن من المحتمل أن يكون سبحانه أرسل إليهم أنبياء، و إنما تعرض لقصة أحدهم فقط و هو «هود» وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ «الجبار» هو من يجبر الناس على ما يريد، و «العنيد» الكثير العناد الذى لا يقبل الحق، و المراد جبارتهم، فقد كان قوم هود يمثلون أمر الرؤساء الجبارين عوض امتثال أمر الأنبياء المصلحين.

[٦١] وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ سَخَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ لَعْنَةَ الْكُفَّارِ، فقوم هود «عاد» يلعنون فى الدنيا، فتعقبتهم اللعنات مدى الزمان وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يكونون ملعونين مطرودين عن الخير معدبين فى النار، يلعنهم الأنبياء و الملائكة و المؤمنون ألا فلينتبه السامع إِنْ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَى: كفروا بربهم، أو المراد أنهم ستروه بأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٠

[سورة هود (١١): آية ٦١]

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَكْبَرُوا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)

لم يعترفوا به، فإن «الكفر» أصله «الستر» ألا فلينتبه السامع بُعْدًا لِعَادٍ أَى أبعد الله عادا قوم هود عليه السلام عن رحمته.

و هذا دعاء عليهم يتضمن التوهين و الإذلال.

و فى تكرر «ألا» و «عاد» إظهار فطاعة أمرهم، و حث الناس على الاعتبار بما نالهم، و الحذر من مثل أفعالهم، و إنما قال «قوم هود» ليميزوا عن «عاد إرم».

ورد أن عاد كانت بلادهم فى البادية، و كان لهم زرع و نخل كثير، و لهم أعمار طويلة و أجسام ضخمة، فعبدوا الأصنام و بعث الله إليهم هودا يدعوهم إلى الإسلام و خلع الأنداد، فأبوا و لم يؤمنوا و آذوه، فكفت السماء عنهم سبع سنين حتى قحطوا، فجاءوا إليه فقالوا: يا نبي الله قد أجذبت بلادنا و لم تمطر، فسل الله المطر و أن يخصب بلادنا، فتهيأ للصلاة فصلى و دعا، فقال لهم: ارجعوا فقد أمطرتم و أخصبت بلادكم. و بقى فى قومه يدعوهم إلى الله و ينهاهم عن عبادة الأصنام حتى أخصبت بلادهم و أنزل الله عليهم المطر. فلما لم يؤمنوا و بقوا على كفرهم و إصرارهم بعبادة الأصنام أرسل الله عليهم الريح الصرصر يعنى «الباردة» سبع ليالى و ثمانية أيام حتى أهلكهم عن آخرهم.

[٦٢] و أرسلنا إلى ثمود و هم قبيلة كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك و مدينة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أخاهم فى النسب صالحاً قال صالح عليه السلام لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ما لكم من إله غيرة من هذه الأصنام التى تعبدونها و سائر الآلهة الباطلة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢١

[سورة هود (١١): آية ٦٢]

قالوا يا صالح قد كنت فىنا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا و إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) هو أنشأكم أى ابتداء خلقكم من الأرض إما باعتبار آدم عليه السلام، أو باعتبار كل فرد من أفراد البشر، فإنه كان تراباً ثم صار نباتاً ثم مأكولاً، أو حيواناً ثم منياً ثم إنساناً و استعمركم فيها الاستعمار هو أن يجعل القادر منهم أن يعمر الأرض، فإذا قيل: «استعمر زيد عمروا» كان معناه: أنه جعل عمرو قادراً على عمارة الأرض بما هيا له من الأسباب. فالمعنى أمركم بعمارة الأرض و أقدركم عليها. و قد روى «النعمانى» عن أمير المؤمنين عليه السلام، فى تفسير «و استعمركم فيها»: فأعلمنا سبحانه أنه قد أمرهم بالعمارة ليكون ذلك مما جعله الله تعالى سبباً لمعايشهم بما يخرج من الحب و الثمرات و ما شاكل ذلك مما جعله الله تعالى معاش «١».

أقول: و يؤيد هذا المعنى قوله: «أنشأكم».

فاسئغفروه أى اطلبوا غفرانه بالتوبة من الشرك و المعاصى و فعل الطاعات ثم توبوا إليه بعد أن طهرتم أنفسكم من الذنوب، و ارجعوا إليه فى أخذ الأحكام و الطاعة و العبادة إن ربى قريب قرب العلم و الاطلاع و الغفران، فليس بعيداً غير عالم، و لا متكبراً لا يلبى الطلب مريب لمن دعاه و طلبه.

[٦٣] قالوا قالت ثمود: يا صالح قد كنت فىنا مرجواً قبل هذا نرجو

(١) و مسائل الشيعة: ج ١٩ ص ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٢

[سورة هود (١١): آية ٦٣]

قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى و آتاني منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدونى غير تخسير (٦٣) منك الخير لما كنا نرى من صفاتك الحسنه و أخلاقك الطيبة، أما الآن فقد ينسنا منك حيث رأينا أقوالك و دعوتك إلى الله و نبذ عبادة الأصنام أتنهانا استفهام إنكارى أن نعبد ما يعبد آباؤنا أى: كيف تنهانا عن عبادة الأصنام التى كان آباؤنا يعبدونها؟ و إننا لفي شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده و نبذ الأصنام مريب موجب للريبة و التهمة، كيف أنت تصدق و آباؤنا كانوا على ضلالة و

جهالة.

[٦٤] قَالَ صَالِحٌ لَهُمْ: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أَيُّ أَخْبَرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ حِجَّةٌ وَاضِحَةٌ تَشْهَدُ عَلَىٰ صَدَقِي مِنْ قَبْلِ رَبِّي سُبْحَانَهُ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً أَعْطَانِي النَّبُوَّةَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ أَيُّ مَنْ بَأْسَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ وَعَذَابِهِ إِنْ عَصَيْتُهُ بَعْدَ إِبْلَاغِكُمُ الدَّعْوَةَ، أَوْ اتَّخَذَ طَرِيقَتَكُمْ لِرَجَائِكُمْ فِي الْخَيْرِ، فَإِنْ رَجَاءُكُمْ فِي الْخَيْرِ مِنْ دُونِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا يَدْفَعُ عَنِّي الْعَذَابَ، خُصُوصًا وَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَانِي وَ فَضْلَانِي فَمَا تَزِيدُونَنِي إِذَا لَبِيتُ دَعْوَتَكُمْ غَيْرَ تَخَسِيرٍ أَيُّ خَسَارَةٌ عَلَىٰ خَسَارَةٍ، مِنْ سَلْبِ النَّبُوَّةِ عَنِّي وَ عَذَابِ اللَّهِ الشَّامِلِ لِلْعَاصِينَ، أَوْ الْمَعْنَى: غَيْرَ أَنْ أُنْسَبَكُمْ إِلَى الْخَسْرَانِ، بَأَنَّ أَرِيكُمْ أَنْكُمْ الْخَاسِرُونَ، إِذْ كَلِمَا أَصْرَ الْمَبْطَلُ زَادَ الْمُحَقِّقُ عَلِمَا بِأَنَّهُ فِي خَسَارَةٍ وَ انْحِطَاطٍ وَ نَقْصٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٣

[سورة هود (١١): الآيات ٦٤ إلى ٦٦]

وَ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَ عَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦)

[٦٥] ثم ذكر صالح عليه السلام الدليل على كونه نبيا من قبل الله سبحانه، قال:

وَ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ تَشْرِيفِيَّةٌ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي كَوْنَهَا مِنْ غَيْرِ وَ لَادَةٌ عَادِيَّةٌ، وَ إِنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنَ الْجَبَلِ الْأَصْمِ لَكُمْ آيَةً أَيُّ عِلْمًا وَ دَلِيلًا عَلَىٰ صَدَقِي وَ حِجَّةً كَلَامِي - وَ قَدْ سَبَقَتْ قِصَّتُهَا فِرَاجِع - فَذَرُوهَا أَيُّ دَعْوَاهَا وَ اتْرُكُوهَا وَ شَأْنَهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ مِنَ الْعُشْبِ وَ النَّبَاتِ، وَ لَا تَرِيدُ الْأَكْلَ مِنْكُمْ حَتَّى تَسْتَقْفِلُوهَا وَ تَتَضَجَّرُونَ مِنْهَا وَ لَا تَمْسُوهَا أَيُّ لَا تَصِيبُوهَا بِسُوءٍ أَيُّ بِأَذَى قَتْلٍ أَوْ جِرْحٍ أَوْ عَقْرِ أَوْ غَيْرِهِ فَإِنَّ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ يَقْرُبُ وَقْتَهُ مِنْ وَقْتِ إِيْدَانِكُمْ لَهَا.

[٦٦] لَكِنِ الْقَوْمُ أَصْرُوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ، وَ اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَ جَعَلُوا لِأَحَدِهِمْ جَعَلًا إِنْ عَقَرَ النَّاقَةَ وَ خَلَّصَهُمْ مِنْهَا فَعَقَرُوهَا وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْأَمْرَ إِلَىٰ جَمِيعِهِمْ لِفَعْلِ بَعْضِهِمْ، وَ مَشَارَكَةَ جَمَاعَةٍ بِالتَّسْبِيبِ، وَ رَضِيَ الْآخِرِينَ فَقَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَيَاتِكُمْ وَ تَمَتَّعْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ الْعَذَابُ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ وَ عَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ أَيُّ صَادِقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ.

[٦٧] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا أَيُّ عَذَابِنَا لِقَوْمِ صَالِحٍ نَجَّيْنَا صَالِحًا مِنْ الْعَذَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٤

[سورة هود (١١): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنْ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا أَيُّ رَحْمَتِنَا أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ نَعَذِّبْهُمْ. وَ لَعَلَّ سِرَّ الْإِثَارِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِفَادَةٌ أَنَّ الْمُؤْمِنَ النَّاجِيَّ، أَيْضًا يَنْجُو بِالرَّحْمَةِ لِأَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنَ الذَّنُوبِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعَذَابَ، أَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَ الْجَزَاءَ الْجَمِيلَ وَ إِنَّمَا يَتَفَضَّلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ، فَالنجاة من الهلكة ليست بالاستحقاق و إنما بالفضل و الرحمة و من خزي يومئذٍ أي نجيناهم من الموت و الخزي، فإن الموت بالعذاب خزي و إهانته، و معنى «يومئذٍ» أي خزي يوم العذاب إِنْ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَقْوَىٰ عَلَىٰ إِهْلَاكِ الْكُفَّارِ وَ إِفْنَائِهِمُ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَيُّ شَيْءٍ مِمَّا أَرَادَ.

[٦٨] وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ بِأَنَّ صَاحِبَ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ صَيْحَةً فَمَاتُوا جَمِيعًا فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ وَ بِيوتِهِمْ جَاثِمِينَ مِنْ «جَثْمٍ» بِمَعْنَى لَزْمِ الْمَكَانِ، فَلَمْ يَبْرَحْهُ. أَيُّ: مَيِّتِينَ لَا حَرَكَاتٍ لَهُمْ.

[٦٩] كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا «غنى في المكان» أقام فيه، و المعنى: كأن لم تكن ثمود في منازلهم قط لانقطاع آثارهم بالهلاك، إلا بقايا

بيوتهم وجثتهم الهامدة. ثم يجمل السياق القول في ما فعلوا و كان سببا في عاقبتهم هذه ألا فلينتبه السامع إِنَّ ثُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ فلم يعتقدوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٥

[سورة هود (١١): آية ٦٩]

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)

به و أشركوا معه غيره، و أصل «الكفر» الستر، كأنهم بعدم الاعتراف ستروا وجه الحقيقة ألا فلينتبه السامع بُعْدًا لِثُمُودَ عن حسن الذكر في الدنيا و السعادة في الآخرة، إنهم قد طردوا عن رحمة الله و فضله.

[٧٠] ثم يستعرض القرآن الحكيم القصة الرابعة في هذه السورة بعد قصة نوح و هود و صالح عليهم السّلام بقوله تعالى: وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا أَى الملائكة و هم جبرائيل و إسرئيل و ميكائيل و كروبييل إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى أَى بشاره إعطائه الولد- إسماعيل عليه السّلام- بعد أن شاخ و يئس عن الولد. و لعل ذكر هذا الطرف من قصة إبراهيم عليه السّلام لبيان أن الله سبحانه أنجز وعده الذى وعده لنوح بقوله: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّمٍ مَمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّمٍ سَيَنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) «١»، فقد كانت البركات في أولاد إبراهيم إسماعيل و إسحاق، و العذاب في أمه لوط.

قالوا أى لما دخلت الملائكة قالت لإبراهيم: سَلَامًا بهذا اللفظ، و هذا كناية عن تسليمهم عليه سلاما كاملا، بأن قالوا- مثلا- سلام عليكم، ف قال إبراهيم عليه السّلام في جوابهم: سَلَامٌ بهذا اللفظ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ كأنه قال: «ما أبطأ عن المجيء بالعجل»، فحذف حرف الجر و وصل الفعل بالمجرور- على القاعدة- «العجل» ولد البقر، و «الحنيد» فيل بمعنى مفعول من

(١) هود: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٦

[سورة هود (١١): الآيات ٧٠ إلى ٧١]

فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)

«حنذ» بمعنى شواه بالحجارة، أى جاء بعجل مشوى بالحجارة، أو المشوى مطلقا. و قد كان إبراهيم عليه السّلام محبا للضيف فلما رأى الملائكة ظنهم بشرا- لأنهم كانوا في صورة بشر- فأتى إليهم بالطعام، و هو عجل مشوى.

[٧١] لكن الملائكة لا تأكل طعام الدنيا، و لذا لم يتقدموا للأكل كما هو عادة الضيوف فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلام أَيْدِيَهُمْ أَى أيدى الملائكة لا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَى العجل و لا يأكلون منه نَكِرَهُمْ أَنْكِرَهُمْ فَإِنْ «نكر و أنكر» بمعنى واحد فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً أى أضمر في نفسه منهم خوفا، يقال: «أوجس خوفا» أى أضمر، فإن الإيجاس يعنى الإحساس. قالوا: فقد جرت عادتهم أن الضيف لو أكل من الطعام كانوا فى أمن منه، و إن لم يأكل خافوا من شره لأن عدم أكله دليل أنه ينوى السوء بالمضيف. و قيل: إن خوفه كان بسبب ما علم أنهم ملائكة و خاف من أن يكونوا أمروا بعذاب القوم.

قالوا أى قالت الملائكة، لما رأوا خوف إبراهيم عليه السّلام: لا تَخَفْ منا يا إبراهيم إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ بالعذاب و الإهلاك، و لا نضمرك بك شرا، أو لا نضمرك بقومك شرا.

[٧٢] وَ قد كانت امْرَأَتُهُ أَى زوجة إبراهيم سارة قَائِمَةً فى أثناء هذا الكلام بين إبراهيم و بين الملائكة فَضَحِكَتْ و لعل ضحكها كان بسبب البشارة بهلاك القوم المجرمين، فإن المرأة أكثر الناس غضبا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٧

[سورة هود (١١): آية ٧٢]

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢)

لعمل الفاحشة من الرجال، أو أنها ضحكت مستبشرة بقدوم الملائكة إلى دارها، أو المراد من «ضحكت» حاضت، فإن «ضحك» بمعنى سال، يقال: ضحكت الشجرة، إذا سال صمغها، والمراد: أنها حاضت بعد عقم و انقطاع حيض، و إن الحيض لمن المبشرات بالولد، إذ لولاه لم يكن تكوّن الولد فَبَشَّرْنَاها بِإِسْحَاقَ و حيث أن بشاره الملائكة لا تكون إلا من الله سبحانه صح إسناد البشارة إلى نفسه تعالى و مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ فَإِنَّ الْبَشَارَةَ بِالْوَلَدِ وَ الذَّرِيَّةِ مِنْ خَيْرِ الْبَشَائِرِ لِلْمَرْأَةِ الْعَقِيمَةِ.

[٧٣] قَالَتْ سَارَةُ لَمَّا سَمِعَتْ بِبَشَارَةِ الْأَوْلَادِ: يَا وَيْلَتَى حُرِّفَ النَّدَاءُ دَخَلَ عَلَى مَنَادٍ مَحْذُوفٍ أَصْلُهُ: يَا قَوْمِ وَيْلَتَى، أَوِ الْمَعْنَى: يَا وَيْلَتَى احْضُرِي فَهَذَا وَقْتُكَ، كَمَا قَالُوا فِي «يَا لِلْعَجَبِ» مَعْنَاهُ: يَا عَجَبَ احْضُرِي فَهَذَا وَقْتُكَ، وَ لَيْسَ حِينَئِذٍ حَقِيقَةٌ وَ إِنَّمَا الْقَصْدُ إِثْنَاءَ التَّعْجِبِ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ، وَ «وَيْلَتَى» أَصْلُهُ الدَّعَاءُ بِالْهَلَاكِ، لِأَنَّ الْوَيْلَ بِمَعْنَى الشَّرِّ وَ الْهَلَاكِ لَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَ لِمَطْلُوقِ التَّعْجِبِ عَرْضًا وَ لَوْ كَانَ فِي الْفَرْحِ، مِنْ بَابِ عِلَاقَةِ اسْتِعْمَالِ الضَّدِّ فِي الضَّدِّ، نَحْوُ: «لَا أَبَا لَكَ» الَّذِي كَانَ أَصْلُهُ لِلْسَّبِّ ثُمَّ اسْتَعْمَلَ لِلْمَدْحِ أَيْضًا أَلِدُ أَي: هَلْ أَلِدُ الْوَلَدَ وَ الْحَالُ أَنَا عَجُوزٌ طَاعَنَةٌ فِي السَّنِّ، وَ «العجوز» لَفْظٌ يَسْتَعْمَلُ لِكُلِّ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا؟! «البعل» الزَّوْجُ، أَي إِنَّ هَذَا بَعْلِي فِي حَالِ كَوْنِهِ شَيْخًا كَبِيرَ السَّنِّ.

روى أن سارة كان لها من العمر يوم ذاك تسعون سنة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٨

[سورة هود (١١): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

قَالُوا أَعْجِبِينَ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنَ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤)

و لإبراهيم عليه السلام مائة و عشرون سنة «١».

إن هذا التبشير بالولد، أو الولد منا و نحن هرمن لَشَيْءٌ عَجِيبٌ و لم يكن تعجبا إنكارا لقدرة الله سبحانه، بل الإنسان إذا رأى شيئا خلاف القوانين المودعة في الطبيعة تحرك فيه حس التعجب و الاستغراب.

[٧٤] قَالُوا أَي قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي بَشَرُوهَا بِالْوَلَدِ: أَعْجِبِينَ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ اسْتَفْهَامٌ تَنْبِيهِ، أَي: كَيْفَ تَعْجِبِينَ مَنْ أَمَرَ إِرَادَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟

و الْحَالُ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ تَفْضُلُهُ وَ خَيْرَاتُهُ النَّامِيَةُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَي أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ يَرْعَاكُمْ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ فَلَا عَجَبَ لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَ لَا عَجَبَ مِنْ جَهْتِكُمْ لِأَنَّكُمْ مَرْدُ أَلْطَافِهِ وَ كِرَامَاتِهِ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ حَمِيدٌ مَحْمُودٌ عَلَى أَعْمَالِهِ مَجِيدٌ ذُو مَجْدٍ وَ رَفْعَةٍ، فَبِكَوْنِهِ مَحْمُودُ الْفِعَالِ يَتَفَضَّلُ، وَ بِكَوْنِهِ رَفِيعًا يَقْدِرُ.

[٧٥] فَلَمَّا ذَهَبَ عَنَ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ أَي الْخَوْفُ وَ الرَّعْبُ الَّذِي دَخَلَ مِنَ الرِّسْلِ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِالْوَلَدِ، وَ اطمأن بفضل الله و لطف الملائكة به، شرع يجادلنا أي يجادل رسلنا و يناقشهم. و حيث أن رسول

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٢٩

[سورة هود (١١): الآيات ٧٥ الى ٧٦]

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

الشخص كالشخص، صح إسناد فعل الرسل إليه، كما صح إسناد فعل الأشخاص إلى الرسل، بفعلهم معه في قوم لوط الذين أرسلت الملائكة لتعذيبهم.

ورد أن إبراهيم عليه السلام قال للرسول: إن كان في القوم مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: إن كان فيهم خمسون؟ قالوا: لا، قال: فأربعون؟ قالوا: لا. وما يزال ينقص ويقولون: لا، حتى قال: فواحد؟ قالوا: لا، فقال: إن فيهم لوطا؟- وقد كان عليه السلام ابن خالة إبراهيم عليه السلام- قالوا: نحن أعلم بمن فيهم، لننجينه وأهله إلا امرأته «١».

[٧٦] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ يَحْلُمُ عَنِ الْعَصَاءِ، وَبِحِلْمِهِ كَانَ يَطْلُبُ عَدَمَ تَعْذِيبِ قَوْمِ لُوطٍ أَوْأَهُ أَي كَثِيرِ الدَّعَاءِ مُنِيبٌ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، مِنْ «أَنَاب»، وَكَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِهَذَا الْوَصْفِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ قَضَى الْأَمْرَ.

[٧٧] ثم قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام، بعد التساؤل والنقاش: يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْطَلْبِ وَانصرف عنه فإنه لا يفيد إنَّه قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ بِهَلَاكِ هَؤُلَاءِ وَعَذَابُهُمْ فَهُوَ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ وَإِنَّهُمْ أَي قَوْمِ لُوطٍ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرٌ مَرْدُودٍ لَا يَرُدُّ عَنْهُمْ، فَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنْ

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٠

[سورة هود (١١): آية ٧٧]

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)

المعرضين ما داموا لم يحتج عليهم، أو يحتمل- ولو احتمالا خارجيا- أو كان في أصلابهم ذرية مؤمنة، لا يعدَّبون، أما وقد انسدت الأبواب، فقد حقت عليهم كلمة العذاب وما فائدة بقائهم أكثر من ذلك.

[٧٨] و انتهى الأمر و سار الرسل نحو قرية لوط عليه السلام في زى شبان حسان الصور- وهذه هي القصة الخامسة في السورة- و لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا أَي أَتَتْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِيءَ لُوطٌ بِهِمْ أَي سَاءَ مَجِئُهُمْ وَضَاقَ لُوطٌ بِهِمْ أَي بِسَبَبِ وِرْوَدِهِمْ ذَرْعًا أَي قَلْبًا وَطَاقَةً. قالوا: إن الأصل في ذلك أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعا على قدر سعة خطوته، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذرعه فيضعف ويمد عنقه، ومنه قولهم: «ما لى به ذرع» أى ليس لى به طاقة.

وَقَالَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ أَي يَوْمٌ شَدِيدٌ عَلَيَّ، كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَوْمِ إِذَا أَرَادُوا الْفَاحِشَةَ مَعَ هَؤُلَاءِ الضِّيُوفِ، أَصْلُ «عَصَب» مِنَ الشَّدِّ، يُقَالُ: «عَصَبْتُ الشَّيْءَ» أَي شَدَدْتَهُ، وَاسْتَعْمَلَ غَالِبًا فِي الشَّرِّ.

وقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام- بتغيير يسير-: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم، ولم يزل إبليس يعتادهم وكانوا إذا رجعوا خرب إبليس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣١

ما كانوا يعملون، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نرصد لهذا الذى يخرب متاعنا، فرصدوه، فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقالوا له: أنت الذى تخرب متاعنا مرة بعد مرة، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فيبتئوه عند رجل، فلما كان الليل صاح فقال له: ما لك؟ فقال: كان أبى ينومنى على بطنه. فقال الرجل: تعال فتم على بطنى. قال:

فلم يزل الشيطان يدلك الرجل حتى علمه أن يفعل بنفسه، ثم انسل ففر منهم، وأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويحببهم منه وهم لا يعرفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بالرجال، ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم، حتى تنكب مدينتهم الناس، ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان، فلما رأى الشيطان أنه قد أحكم أمره فى الرجال، جاء إلى النساء فصير نفسه امرأة ثم قال: إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض. قلن: نعم قد رأينا ذلك. وكل ذلك ينصحهم لوط ويوصيهم، وإبليس يغويهم، حتى استغنت النساء بالنساء.

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل في زى غلمان، عليهم أقيبه فمروا بلوط عليه السلام و هو يحترث قال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط؟ قالوا: إنا أرسلنا سيدنا إلى رب هذه المدينة. قال: أو لم يبلغ سيدكم ما يفعل أهل هذه المدينة، يا بنى إنهم و الله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم. فقالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. قال: فلي إليكم حاجة؟ قالوا: و ما هي؟ قال:

تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام. قال: فجلسوا، فبعث لوط ابنته فقال: جيئى لهم بخبز و جيئى لهم بماء فى القرعة و جيئى لهم بعباءة يتغطون بها من البرد. فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر، و جرى الوادى، فقال لوط: الساعة يذهب بالصبيان الوادى، قال: قوموا حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٢

نمضى، و جعل لوط يمشى فى أصل الحائط و جعلت الملائكة يمشون وسط الطريق فقال: يا بنى امشوا هاهنا، فقالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. و كان لوط يستغنى بالظلام.

و مر إبليس و أخذ من حجر امرأة صبيبا فطرحه فى البئر فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط، فلما نظروا إلى الغلمان فى منزل لوط قالوا: يا لوط قد دخلت فى عملنا؟ فقال: هؤلاء صيفى فلا تفضحونى فى صيفى. قالوا: هم ثلاثة خذ واحدا و أعطنا اثنين. ثم أدخلهم الحجر، و قال: لو أن لى أهل بيت يمنعونى منكم؟ قال:

و تدافعوا على الباب و كسروا باب لوط و طرحوا لوطا. فقال له جبرائيل: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فأخذ جبرائيل كفا من بطحاء فضرب بها وجوههم و قالوا: شامت الوجوه. فعمى أهل المدينة كلهم و قال لهم لوط: يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخذهم وقت السحر. قال: فلي إليكم حاجة؟ قالوا: و ما حاجتك؟

قال: تأخذونهم الساعة، فإنى أخاف أن يرحمهم الله سبحانه و يصرف العذاب عنهم. فقالوا: يا لوط إن موعدهم الصبح أليس بقريب لمن يريد أن يأخذ؟ فخذ أنت بناتك و امض ودع امرأتك.

و فى رواية أخرى: ففعل لوط ما أمر و خرج بيناته ليلا و دعوا زوجته لأنها كانت منافقة، و لما خرج لوط من المدينة و جاء الصباح قلع جبرائيل المدينة و رفعها إلى السماء ثم قلبها و أمطر الله عليها و على أطرافها حجارة من سجيل. و فى بعض التفاسير: أن زوجة لوط هى التى أخبرت القوم بالضيوف «(١)».

(١) الكافى: ج ٥ ص ٥٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٣

[سورة هود (١١): آية ٧٨]

وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨)

[٧٩] وَ جَاءَهُ أَى توجّه إلى طرف دار لوط قَوْمُهُ الكافرون يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ يسرعون فى المشى نحوه لطلب الفاحشة بالضيوف، و لعل الإتيان بالمجهول لبيان كيفية الإسراع و أنه لم يكن هرع عقلاء و إنما هرع شهوة حيث قد انطوت أنفسهم على حب هذا العمل الشنيع، فكانت نفوسهم تسوقهم من حيث لا يشعرون وَ مِنْ قَبْلُ إتيان الملائكة أو من قبل وقوع هذه القصة كانوا أى كان قوم لوط يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ جمع «سيئة» و المراد بها اللواط، و هذا لبيان وجه أنه عليه السلام ضاق بهم ذرعا و رأى اليوم عصيبا.

قال لوط عليه السلام لما رأى إصرار القوم على السيئة: يا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ فتزوجوا بهن و اعملوا حيث أمركم الله، ففى المرأة الطهارة النفسية و الطهارة الجسدية، و إنى مستعد أن أقدم بناتى لكم لئلا تعملوا بالمعاصى و لئلا تفضحوننى فى ضيوفى. و هنا احتمال أنه عليه السلام أراد من «بناتى» بنات المدينة، و أضافهن إلى نفسه لأن كبير الناس يضيف الأفراد إلى نفسه، أى: تزوجوا

البنات عوض هذا العمل فَأَتَقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ فِي عَمَلِ اللُّوَاطِ وَلَا تُخْزُونَ أَى لَا تُلْزَمُونَ عَارًا فِي ضَيْفِي فَإِنِ الضَّيْفُ لَوْ أَهَيْنَ كَانَ ذَلِكَ خِزْيًا لِلْمُضَيَّفِ وَعَارًا عَلَيْهِ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخِي، أَى أَلَيْسَ فِيكُمْ رَجُلٌ أَوْ رَشِيدٌ لَا سَفَاهَةَ بِهِ يَمْنَعُكُمْ عَنِ اقْتِرَافِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ وَعَنْ أَنْ يَهْتَكَ أَمْرِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى ضَيْفِي، حَتَّى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٤

[سورة هود (١١): الآيات ٧٩ إلى ٨٠]

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) لَا يَبْقَى عَارَهَا عَلَيَّ مَدَى الْحَيَاةِ؟

[٨٠] قَالُوا أَى قَالَ الْقَوْمُ فِي جَوَابِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا لُوطُ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ أَى مِنْ حَاجَةٍ، فَكَمَا لَا يَرِغِبُ الْإِنْسَانُ فِي مَا لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ، كَذَلِكَ لَا يَرِغِبُ فِي مَا لَا حَاجَةَ لَهُ فِيهِ، أَوْ لِأَنَّ مِنْ حَقِّ الرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْبَنَاتِ، أَمَا إِذَا لَمْ يَرِدْ فَكَأَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ فِيهَا، أَوْ الْمُرَادُ بِالْحَقِّ «الْحَقُّ» الْحَصَّةُ، أَى لَا حَصَّةَ لَنَا فِيهِنَّ وَإِنَّكَ يَا لُوطُ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ مِنَ الضِّيُوفِ وَعَمَلِ السَّيْئَةِ بِهِمْ.

[٨١] وَهَذَا انْقِطَاعُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَسُّ وَحُزْنٌ وَقَالَ فِي أَسْفَلِ بَالِغٍ: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً فَأَكُونُ قَوِيًا قَادِرًا عَلَى دَفْعِكُمْ، وَ«الْبَاءُ» فِي «بِكُمْ» إِمَّا لِلْمُقَابَلَةِ أَى بِمُقَابَلَتِكُمْ، أَوْ بِمَعْنَى «عَلَى» أَى عَلَيْكُمْ، وَحُذْفُ جَوَابِ «لَوْ» تَوْسِعُهُ فِي الْمَتَعَلِقِ، أَوْ لَوْضُوحُ أَنَّ الْمُرَادَ «لَمْنَعْتَكُمْ» أَوْ آوِي مِنَ «أَوِي يَأْوِي» بِمَعْنَى: لَجَأٌ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ يَمْنَعُنِي مِنْكُمْ، أَى: لَوْ تَمَكَّنْتُ أَنْ أُسْتَعِينَ بِقُوَّةِ عَشِيرَةٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهَا لَدَفَعْتَكُمْ وَمَنْعْتَكُمْ.

فِي الْحَدِيثِ: إِنْ جِبْرَائِيلُ قَالَ - حِينَ قَالَ لُوطُ ذَلِكَ -: «لَوْ يَعْلَمُ أَيُّهُ قُوَّةٌ لَهُ؟» (١).

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي لُوطًا كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ».

(١) الكافي: ج ٥ ص ٥٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٥

[سورة هود (١١): آية ٨١]

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِيبَكَ لِئِنْ يَصِيبُوا إِلَيْكَ فَاسِيرٌ بَأْهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

[٨٢] وَهَذَا تَكْلِمُ الرُّسُلِ وَقَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ أَرْسَلْنَا لِنَقَاذِكَ وَهَلَاكَ الْقَوْمِ.

رَوَى أَنَّ جِبْرَائِيلَ قَالَ لِلُّوطِ: دَعِهِمْ يَدْخُلُوا. فَلَمَّا دَخَلُوا أَهْوَى جِبْرَائِيلُ يَأْصِبُهُمْ نَحْوَهُمْ، فَذَهَبَتْ أَعْيُنُهُمْ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

(فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) «١»، لَنْ يَصِيبَكَ لِئِنْ يَصِيبُوا إِلَيْكَ أَى لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَهْجَمُوا عَلَيْكَ وَيَنَالُوا مِنْكَ سُوءًا فِي نَفْسِكَ أَوْ ضْيُوفِكَ. وَرَجَعَ الْقَوْمُ عَنِ دَارِ لُوطٍ خَائِبِينَ مِنْ رَعْبِ الْمَلَائِكَةِ فَقَدْ أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ رَعْبًا شَدِيدًا، وَصَارُوا كُلُّهُمْ عَمِيَانًا لَا يَبْصُرُونَ.

وَهَذَا تَوَجُّهُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لُوطٍ وَقَالُوا لَهُ: فَاسِيرٌ أَى سَرِ لَيْلًا وَخَرَجَ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ، بِأَهْلِكَ «الْبَاءُ» بِمَعْنَى «مَعَ» أَى مَعَ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أَى بَعْدَ ذَهَابِ بَعْضِ اللَّيْلِ وَقِطْعُهُ مِنْهُ، فَإِنَّ الْقِطْعَ مِنَ اللَّيْلِ: بَعْضُهُ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِمَّا بِمَعْنَى: لَا يَتَخَلَّفُ فِي الْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ فِي الْمَدِينَةِ سَوْفَ يَصِيبُهُمُ الْعَذَابُ، وَإِمَّا بِمَعْنَى: لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ وَرَائِهِ حِينَ السَّيْرِ لِنَلَا يَرَى مَا يَزْعِجُهُ مِنْ عَذَابِ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَمْرَاتُكَ اسْتِثْنَاءً مِنْ «أَسْرَ بِأَهْلِكَ» يَعْنِي فَلْتَتَخَلَّفْ أَمْرَاتُكَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مَعَ الْقَوْمِ ضِدَّكَ يَا لُوطُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ أَى يَصِيبُهَا مِنَ الْعَذَابِ مَا أَصَابَ الْقَوْمَ، فَالْإِلْزَامُ عَلَيْكَ أَنْ لَا تَخْبِرَهَا وَأَنْ تَخَلَّفَهَا فِي الْمَدِينَةِ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ أَى وَقْتُ هَلَاكِهِمْ

(١) القمر: ٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٦

[سورة هود (١١): الآيات ٨٢ إلى ٨٣]

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

و عذابهم الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ و هذا ما قالته الملائكة للوط حين استعجل عذابهم في ذلك الوقت.

[٨٣] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا يَا هَلَا-كهم جَعَلْنَا عَالِيَهَا أَى عَالِي الْمَدِينَةَ سَافِلَهَا بِأَن قَلْبِنَاهَا فَإِن جِبْرَائِيلُ أُدْخِلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ الْأَرْضِ ثُمَّ قَلْبَهَا بِأَن جَعَلَ أَسْفَلَهَا أَعْلَاهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا الظَّاهِرَ أَنَّ الْإِمطَارَ كَانَ عَلَى نَفْسِ النَّاسِ، وَ «الواو» لَا تَدُلُّ عَلَى تَأخِيرِ الْإِمطَارِ عَنِ الْقَلْبِ، وَ إِن كَانَ التَّرْتِيبُ الذِّكْرِي قَدْ يُعْطِيهِ، لِأَنَّ «الواو» لِمَطْلُقِ الْجَمْعِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ قِيلَ: إِنَّهُ مَعْرَبٌ «سَنَكُ كُلُّ» كَلِمَتَانِ فَارْسِيَّتَانِ بِمَعْنَى الْمَدْرِ، وَ لَا شَاهِدَ لِذَلِكَ مَنُودٍ هُوَ صِفَةُ سَجِيلٍ، أَى مَتْرَاكِمٌ بَعْضُهُ يَلِاحِقُ بَعْضًا، أَوْ نَضْدٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى صَارَ سَجِيلًا، أَى صَارَ حِجْرًا.

[٨٤] مُسَوِّمَةً أَى مَعْلَمَةً، جَعَلَ فِيهَا عِلَامَاتٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مَعْدَّةٌ لِلْعَذَابِ عِنْدَ رَبِّكَ فِي عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ، وَ فِي خَزَائِنِهِ الَّتِي لَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا أَحَدٌ سِوَاهُ. وَ كَانَ ذِكْرُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ لِلتَّهْوِيلِ، وَ إِنَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ فِي خَزَائِنِهِ حِجَارَةً مَنُودَةً مَعْلَمَةً، كَمَا أَنَّ الْمَلِكَ يَهَيِّئُ لِأَعْدَائِهِ سِيُوفًا مَعْلُومَةً مَعْلَمَةً فِي خَزَائِنِهِ لِيَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ تَامٍ وَمَا هِيَ أَى حِجَارَةُ السَّجِيلِ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ فَلَا يَسْتَبْعِدُ أَحَدٌ كَيْفَ يَعْذِبُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٧

[سورة هود (١١): آية ٨٤]

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَتَّقُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤)

الله أحدا يامطار الحجارة؟ إنهم ظلموا فاستحقوا العقاب.

و في بعض الأحاديث: إنها مهياة لظالمي هذه الأمة أيضا «١».

[٨٥] وَ أَرْسَلْنَا إِلَى مَدْيَنَ وَ هُمْ قَبِيلَةٌ سَمَّوْا بِاسْمِ جَدِّهِمْ مَدْيَنَ بَنِ إِبرَاهِيمَ، أَوْ أَنَّهَا اسْمُ مَدِينَةٍ. وَ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، أَى: أَرْسَلْنَا إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ - لَكِنِ السِّيَاقُ يَقْوَى الْأَوَّلَ - أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ شُعَيْبًا وَ هَذِهِ الْقِصَّةُ قَدْ ذَكَرْتُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِاخْتِلَافٍ فِي ذِكْرِ بَعْضِ الْخُصُوصِيَّاتِ هُنَا - كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الْقِصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ - فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَأْخُذُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ طَرَفًا مِنَ الْقِصَّةِ لِإِدْرَاجِهِ فِي الْمَقْصُودِ الْعَامِ الْمَسَاقِ لَهُ الْكَلَامُ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا لَكُمْ أَى لَيْسَ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا وَ لَا تَتَّقُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ أَى لَا تَعْطُوا النَّاسَ أَنْقَصَ مِنْ حَقُوقِهِمْ عِنْدَ الْكَيْلِ وَ الْوِزْنِ بِالتَّطْفِيفِ، وَ «الْمِكْيَالُ» آلَةُ الْكَيْلِ، كَمَا أَنَّ «الْمِيزَانَ» آلَةُ الْوِزْنِ، عَلَى وَزْنِ «مِفْتَاحٍ» إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ فَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالرِّزْقِ فَلَا تَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى التَّطْفِيفِ وَ السَّرْقَةِ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِنْ بَقِيتُمْ فِي الْكُفْرِ وَ عَمِلْتُمْ بِالتَّطْفِيفِ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ يَحِيطُ بِكُمْ

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٣١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٨

[سورة هود (١١): الآيات ٨٥ إلى ٨٦]

وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

فلا ينجو منه أحد.

[٨٦] وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ بِالْعَدْلِ. وقد كان من عادة الأنبياء عليهم السّلام أن يركزوا جهودهم بعد الدعوة إلى التوحيد والمعاد، على النقطة المنحرفة في القوم كما ركز لوط عليه السّلام جهوده لإزالة الانحراف الجنسي في قومه. وكان الانحراف العام في قوم شعيب بعد عبادة الأصنام تطفيف المكيال والميزان، ولذا أكد على ذلك بالقول مكرراً، مرة بالنهي عن التطفيف، ومرة بالأمر بإيفاء الكيل ولا تَبَخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ أَي لا تنقصوهم حقوقهم، فإن البائع إذا باع مئاً ثم أعطى أقل من ذلك فقد نقص وبخس حق المشتري ولا تَعَثُّوا من «عاث» بمعنى سعى في الفساد في الأرضِ مُفْسِدِينَ حال كونكم تفسدون. وهذا حال تأكيدي لأنه بمعنى الفعل، وإنما جيء به لأن المفسد قد لا يعلم بإفساده، فهو يريد النهي عن الإفساد عمداً، أي لا تفسدوا متعمدين الإفساد قاصدين إليه بالذات.

[٨٧] بَقِيَّتُ اللَّهُ الَّذِي بَقِيَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِجَازَتِهِ وَ إِبَاحَتِهِ، وَأُضِيفَ إِلَيْهِ تَشْرِيفًا خَيْرٌ لَكُمْ أَي ما أبقى الله تعالى لكم من الحلال بعد إتمام الكيل والوزن خير لكم من التطفيف والبخس، فإنه أكثر بركة وأحسن عاقبة.

وما ورد من أن الأئمة عليهم السّلام والحجة عليه السّلام - بصورة خاصة - بقيه الله، يراد بذلك أنهم و أنه عليه السّلام هم الذين أبقاهم الله سبحانه للهداية والإرشاد إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أَي لو كنتم مؤمنين لعلمتم أن بقيه الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٣٩

[سورة هود (١١): الآيات ٨٧ إلى ٨٨]

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)

خير، أو أن خيري البقية مشروطة بالإيمان وما أنا عليكم بحفيظ أحفظكم عن الحرام وعن العذاب، وإنما أنا مذكر مرشد، فإن قبلتم قولي نجوتهم، وإن لم تقبلوا أهلكتكم.

[٨٨] قالوا أي قال القوم في جواب إرشادات شعيب بالتوحيد وإيفاء المكيال والميزان: يا شعيب أ صلاتك التي تصلها لله تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا قالوا ذلك على نحو التهكم والاستهزاء، كأن الصلاة قد دفعت شعيب لهدم دين القوم أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء أي هل الصلاة تأمر أن نترك التطفيف. ومن المعلوم أن في الكلام حذفاً تقديره: «أ صلاتك تكلفك أن تأمرنا بترك عبادة الأصنام وترك التطفيف في المكيال والميزان» إنك يا شعيب لأنك الحليم الرشيد قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، فإن الداعي الذي لا قوة له ولا طول كثيراً ما يظهر في مظهر الحليم ذي الرشد الذي يكتم غضبه وأسفه في مقابل الجهلة الذين لا يلتون طلبه. والمراد: إنك مصطنع ذلك لاقتناص السيادة.

[٨٩] قَالَ شُعَيْبُ فِي جَوَابِ اسْتِهْزَاءِ الْقَوْمِ: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أَي أَخْبَرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنِهِ حُجَّةً وَاضِحَةً عَلَى نَبوتِي وَ صَدَقَ ادْعَائِي مِنْ رَبِّي أَي من طرفه سبحانه ورزقني منه من عنده تعالى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٠

رِزْقًا حَسَنًا بِإِعْطَائِي النُّبُوَّةَ وَ التَّوَسُّعَهُ عَلَيَّ فِي مَعاشِي. والجواب محذوف، أي: هل يسعني أن أترك عبادته وطاعته أو أخون وحيه فلا أبلغه ولا - أؤديه؟! وما أريد أن أخالفكم عملاً إلى ما أنهاكم عنه بأن أرتكب القبائح التي أنهاكم عنها، فأريد أن تتركوها وأعملها أنا.

ولعله إنما تكلم بهذا، لما يرى المصلحون - غالباً - أنهم يفعلون ما ينهون الناس عنه، وإنما يريدون أن يتنازل الناس عن قسم من شهواتهم ليأتوها هم إن أريد إلا الإصلاح أي ما أريد من دعوتي إلا الإصلاح لكم عن المفاصد ما استطعت أي على قدر استطاعتي.

قال بعض المفسرين: إن

قوله عليه السلام «إن كنت على بينة»

إشارة إلى حق الله، وقوله «ما أريد» إشارة إلى حق النفس، وقوله «إن أريد» إشارة إلى حق المجتمع.

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ «التوفيق» مصدر «وفق» أى: تجمّع الأسباب لدى الإنسان، و صيرورة بعضها وفق بعض لأخذ النتيجة.

و غالباً تستعمل هذه اللفظة فى التوفيق للأمر الحسنه و إن كان معناها اللغوى أعم، فإن توفيقى فى الكف عن القبائح و الإطاعة، و

القيام بالدعوة إنما هو من عند الله سبحانه فإنه هو الذى أُرشدنى و هياً لى أسباب ذلك عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ و التوكل على الله: الرضا بتدبيره،

و اتخاذه ظهراً فى الأمور بالالتجاء و التضرع إليه وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أى أرجع فى أمورى كلها إليه، فكما أن الإنسان إذا كان له ظهر و ركن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤١

[سورة هود (١١): الآيات ٨٩ الى ٩١]

وَ يَا قَوْمِ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ

مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١)

يلجأ إليه ليستمد منه القوة فى نوائبه، كذلك من اتخذ الله ظهيرا رجع إليه فى حوائجه بالتوسل إليه لقضاء حوائجه.

[٩٠] ثم أخذ شعيب ينصح القوم و يذكرهم بمصارع الأقسام السابقة الذين خالفوا النبين فأهلكوا و يا قَوْمِ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أى لا

يحملنكم الخلاف معى و العناد و اللجاج أَنْ يُصَِّبَكُمْ العذاب، فعنادكم يلجئكم إلى الكفر و التمادى فى الغى حتى يصيبكم العذاب

مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ مِنَ الغرق أَوْ قَوْمَ هُودٍ مِنَ الریح الصرصر أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ مِنَ الرجفة وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ فإنهم أهلكوا فى

عهد قريب، خالفوا الرسول و تمادوا فى الفساد، فإن لم تعتبروا بالمتقدمين، فاعتبروا بهؤلاء القريين منكم.

[٩١] وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اطلبوا غفرانه لما سلف منكم من الكفر و المعاصى ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ أى ارجعوا إليه فى عقيدتكم و أعمالكم،

فلاستغفار لما مضى، و التوبة لما يأتى إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ بكم، فإذا فعلتم ما ذكرته رحمكم و تَلَطَّفَ بكم وَ دُودٌ أى محب لكم، و معنى

ذلك أنه يفعل بهم ما يفعل المحب بمحبته.

[٩٢] قَالُوا أى قال القوم بعد أن وعظهم شعيب بتلك الموعظة البالغة:

يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ أى ما نفهم، فإن «الفقه» فى اللغة بمعنى «الفهم»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٢

[سورة هود (١١): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي

عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)

كثيراً مِمَّا تَقُولُ و هذا كلام المعاند فإنه يقول مثل ذلك و يريد أنه معرض عن كلام المتكلم، فقد أقيم السبب مقام المسبب لأن عدم

العمل معلول لعدم العلم وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا لا قوة لك و لا عزة، فلا تتمكن من دفع أذانا لو أردنا إيذاءك و لَوْ لَا وجود رَهْطِكَ

أى عشيرتك، و حرمتهم عندنا لَرَجَمْنَاكَ أى لقتلناك بالحجارة وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ أى لا عزة لك عندنا. و كأن الإتيان بلفظ «علينا»

لأجل أن العزيز فوق الناس مرتبة و مقاما.

[٩٣] قَالَ شعيب عليه السلام: يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أى هل عشيرتى و قومي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ فتركون إيذائى لأجل حرمة عشيرتى، و لا

تركون إيذائى لأجل الله سبحانه، أى تراقبون العشيرة و لا تراقبون إله العشيرة و خالق الجميع. قال هذا الكلام على نحو الاستفهام

الإنكارى وَ اتَّخَذْتُمُوهُ جعلتموه كالمنسى المنبوذ وراء ظهوركم، و معنى «الظهرى» جعل الشىء وراء

الظهر حتى ينسى إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ قَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِأَعْمَالِكُمْ، فلا يخفى عليه شيء تصنعونه، فيجازيكم عليه. [٩٤] وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ أَى عَلَى الْمَكَانَةِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ «الْمَكَانَةَ» هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَتِمَكَّنُ بِهَا صَاحِبُهَا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٣

[سورة هود (١١): آية ٩٤]

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) العمل. وهذا تهديد يريد: أنكم سترون جزاء أعمالكم السيئة إِنْنى عاملٌ حسب أمر الله سبحانه ولا أترجح عن أوامره، فهذا كقوله: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِى دِينِ) «١»، سَوْفَ تَعْلَمُونَ فِي الدُّنْيَا مَنْ مَنَّا يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ يَهِينُهُ وَيُفْضِحُهُ، هل أنتم أم أنا؟ فَيَتَبَيَّنُ مَنْ هُوَ الصَّادِقُ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ مِنَّا وَأَرْتَقِبُوا أَنْتَظَرُوا مَا وَعَدَكُم رِبْكُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِنْنى مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَإِنى أَيْضًا أَنْتَظَرُ وَأَرْتَقِبُ مَا وَعَدْتَكُمْ أَنْ يَأْتِيَكُمْ، لِيَدُلَّ عَلَى صِدْقِي وَصِحَّةِ رِسَالَتِي.

[٩٥] وَ هَكَذَا بَقِيَ الْقَوْمُ فِي الْغَيِّ وَ تَمَادَوْا فِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَ لَمْ تَنْفَعَهُمْ نَصَائِحُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَعَذَابِهِمْ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا حَيْثُ رَحِمْنَاهُمْ فَلَمْ يَشْمَلْهُمُ الْعَذَابُ، وَ إِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ أَيْضًا لَمَّا تَقَدَّمَ أَنْ كُلِّ إِنْسَانٍ - غَيْرِ مَعْصُومٍ - لَا بَدَّ وَ أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ ذَنْبٌ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ بِهِ فَتَكُونُ نَجَاةٌ كُلِّ فَرْدٍ بِرَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ. قَالَ فِي تَفْسِيرِ الصَّافِي: وَ إِنَّمَا ذَكَرْنَا هُنَا وَ فِي قِصَّةِ عَادَ «الْوَاوِ» أَى «وَلَمَّا»، وَ فِي قِصَّتِي صَالِحٍ وَ هُودَ «الْفَاءِ» أَى «فَلَمَّا»، لَسَبَقَ ذِكْرُ وَعْدٍ يَجْرَى مَجْرَى السَّبَبِ فِي قِصَّتِي صَالِحٍ وَ هُودَ دُونَ الْآخِرِينَ. انْتَهَى «٢».

(١) الكافرون: ٧.

(٢) تفسير الصافي: ج ٢ ص ٤٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٤

[سورة هود (١١): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ تَمُودُ (٩٥) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) وَ احْتَمَلَ بَعْضُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: «بِرَحْمَةِ مِنَّا» لِأَجْلِ أَنْ نَجَاتِهِمْ كَانَتْ بِسَبَبِ هِدَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ وَ أَلْطَافِهِ الْخَفِيَّةِ الْمَوْجِبَةِ لَخُرُوجِهِمْ عَنْ حَظِيرَةِ الْكُفْرَانِ.

وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَقَدْ صَاحَ بِهِمْ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَيْحَةً شَدِيدَةً زَهَقَتْ رُوحَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ مِنْ «جَثْمٍ» فِي الْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ، أَى مَاتُوا وَ هُمْ فِي دِيَارِهِمْ، وَ لَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنَ الْحَرَكَاتِ أَصْلًا. [٩٦] كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا مِنْ «غَنَى فِي الْمَكَانِ» إِذَا أَقَامَ فِيهِ، أَى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَلَكَّ الدِّيَارَ، فَقَدْ ذَهَبَ آثَارُهُمْ، وَ عَفَتْ رَسُومُهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ فَلْيَنْتَبِهِ السَّمَاعُ إِلَى طَرْدِ قَبِيلَةِ مَدِينٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ لَطْفِهِ كَمَا بَعْدَتْ تَمُودُ وَ لَعَلَّ ذِكْرَ تَمُودَ هُنَا لِأَنَّ كِلْتَا الْأَمْتِينَ مَاتَا بِالصَّيْحَةِ.

و ربما احتمل أن المراد ب «الصيحة» نوع من العذاب، تقول العرب:

«صاح الزمان بهم» إذا أهلكوا.

[٩٧] ثُمَّ يَحْكِي الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ الْقِصَّةَ السَّابِقَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَ هِيَ قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فِرْعَوْنَ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَى مَعَ الْأَدْلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ طَرَفِنَا، وَ هِيَ الثَّعْبَانُ وَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ وَ غَيْرُهُمَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ أَى حُجَّةً وَاضِحَةً عَقْلِيَّةً عَلَى أَنْ لِلْكَوْنِ إِلَهًا، وَ أَنْ فِرْعَوْنَ لَيْسَ بِإِلَهٍ لِلنَّاسِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٥

[سورة هود (١١): الآيات ٩٧ الى ٩٩]

إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ (٩٨) وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

[٩٨] إلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إما المراد: الأشراف منهم، و تخصيص الذكر بهم لأنهم إذا أذعنوا أذعن الناس كلهم، أو المراد بالملائ: قومه كلهم فَمَاتَّبَعُوا أى اتبع الملائ- أَمْرَ فِرْعَوْنَ فى اتخاذها و الإعراض عن موسى و حججه وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ أى ما هو هاد لهم إلى الرشد. و هو خلاف «السفه» فإن أمره غير مرشد و غير صحيح، بل فيه ضلالة و سفاهة.

[٩٩] و كيف يكون أمره رشيدا، و الحال أنه و أتباعه يصيرون إلى النار؟! و هل الرشد ما يسبب الهلاك و العقاب؟! يَقْدُمُ فرعون قَوْمَهُ يتقدم عليهم و يمشى بين أيديهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ جميعا، ففى الدنيا كان يهديهم إلى النار، و فى الآخرة يدخلهم فيها وَ بئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ «الورد» ورد الماء الذى يورد، أى: بئس الماء الذى يردونه عطشى، فإنه نار يردونها، فقد شبّه هؤلاء بأهل الجنة حيث يردون المياه الجارية و أنهار من لبن و عسل و خمر، و هؤلاء فى مقابل أولئك يردون النار و يسقون من الحميم.

قال بعض المفسرين: أوردتهم كما يورد الراعى قطع الغنم، ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير؟

[١٠٠] وَ أُتْبِعُوا الْحَقْوَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً إِمَّا بِالغُرُقِ، وَ إِمَّا بِأَنَّ النَّاسَ يَلْعَنُونَهُمْ، فَكَانَتْ نَتِيجَةً اتَّبَاعَهُمْ لفرعون أن تبعتهم اللعنة وَ يَوْمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٦

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) الْقِيَامَةَ يَتَّبِعُونَ بِاللَّعْنَاتِ وَ الْعَذَابِ بئْسَ الرَّفْدُ أى العطاء الْمَرْفُودُ المعطى لهم ذلك العذاب و اللعنة، إن هذا كان عطاء فرعون لقومه، لهم النار و اللعنة، و هذا هو عاقبه من تخلف عن الحق و اتبع الباطل.

[١٠١] ثم بين سبحانه الغرض الذى سيق من أجله تلك القصص، و جعله كخاتمة للفصول المتقدمة ذلك الذى ذكرناه فيما تقدم من هذه السورة مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى أى أخبار البلاد السابقة و الأمم الخالية نَقُصُّهُ عَلَيْكَ و نخبره لك ليكون لك سلوة و ذكرى مِنْهَا أى من تلك القرى قائم باق إلى الآن، فإن بعض البلاد بقيت و إن هلك أهلها، كمصر وَ حَصِيدٌ أى منها حصيد قد حصد و عفا أثره، كقرى قوم لوط عليه السلام.

[١٠٢] وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ أى نحن لم نظلم الذين هلكوا وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر و العصيان و هما سببين للهلاك و النكال فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أى لم تنفعهم و لم تفدهم آلِهَتُهُمْ أصنامهم البشرية، كفرعون، و الحجرية، كالأوثان التى كانوا يعبدونها و الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يتخذونها أربابا مِنْ شَيْءٍ متعلق به «ما أغنت عنهم» أى لم تنفعهم شيئا فى دفع العذاب عنهم لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بإهلاكهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٧

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

وَ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣)

و نزول العذاب عليهم وَ مَا زَادُوهُمْ ما زادتهم تلك الآلهة غَيْرَ تَتْبِيبٍ من «التباب» أى الخسارة، أى أن الآلهة زادتهم خسارة على خسارتهم، فإنهم لو لم يكونوا يعبدونها، بل كانوا مجرد عاصين لم يزد فى عذابهم، فقد جاء من قبل تلك الآلهة زيادة فى عذابهم و

نكالهم، و إنما قال: «زادوهم» بضمير العاقل، لأن الكفار كانوا يعتبرونها عاقلة، فجرى الكلام حسب اعتقادهم.

[١٠٣] وَكَذَلِكَ الَّذِي بَيْنَاهُ سَابِقًا وَأَوْضَحْنَاهُ أَخَذُ رَبِّكَ وَهَلَاكُهُ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ أَى أَهْلَكَهُمْ وَعَذِبَهُمْ، فَقَدْ شَبَّهَ الْإِهْلَاكَ بِالْأَخْذِ، فَكَمَا أَنَّ الْأَخْذَ لَا يَتِمُّكَنُ الْمَأْخُوذُ مِنَ الْإِفْلَاتِ مِنْهُ كَذَلِكَ الَّذِينَ عَذِبَهُمْ سَبْحَانَهُ لَا يَتِمُّكَنُونَ مِنَ النَّجَاةِ. رَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْهَلُ الظَّالِمَ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ» [١]. «إِنَّ أَخْذَهُ لِلظَّالِمِ أَلِيمٌ مُؤَلِّمٌ مُوجِعٌ شَدِيدٌ فَلَا يَمُكِّنُ الْإِفْلَاتَ مِنْهُ.

[١٠٤] إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي تَقْدَمُ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَّةِ الَّتِي كَفَرَتْ وَعَصَتْ الرَّسْلَ لِآيَةٍ دَلِيلٌ عَلَى بَطْشِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لِمَنْ طَغَى وَتَكَبَّرَ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَى لِمَنْ آمَنَ لِعَلْمِهِ بِأَنَّهُ أُنْمُوذَجُ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ الْمَهُولِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْأَخْذَ الْأَلِيمَ الشَّدِيدَ مُشَابِهَ لِعَذَابِ الْآخِرَةِ لِمَنْ

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٣٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٨

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٤ إلى ١٠٥]

وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)

اعتقد بها ذَلِكَ الْيَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ يَجْمَعُونَ كُلَّهُمْ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ لِيَشْهَدَهُ الْخَلَائِقُ كُلَّهُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَفِي مُحَضَّرِهِمْ يَجْرَى الْحِسَابُ وَالْجِزَاءُ.

[١٠٥] وَ مَا نُؤَخِّرُهُ مَا نُؤَخِّرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ أَى أَمَدٌ مُّعَدُّودَةٌ أَيَّامُهُ، فَإِذَا انْتَهَى ذَلِكَ الْأَمَدُ أَظْهَرْنَاهُ لِلْوُجُودِ، وَاللَّامُ فِي «لِأَجَلٍ» لَامُ الْعَلَّةِ، أَى لِمَنْ غَرَضُ تَمَامِ الْأَجَلِ وَانْتِهَائِهِ.

[١٠٦] يَوْمَ يَأْتِ حِينَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْجِزَاءُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ مَعَ أَحَدٍ إِلَّا بِإِجَازَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَقَدْ شَمِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَمْتَ رَهيبٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَافَ وَوَجَلَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَيْثُ يَسُودُ الْخَوْفُ وَالرَّهْبَةُ. وَ لَعَلَّ فِي الْإِتْيَانِ بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ - بِنَاءٍ عَلَى ذَلِكَ - لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ النَّاسَ هُنَاكَ كَالْمَسَاجِينِ الَّذِينَ لَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكَلِّمَهُمْ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ بَلِيغَةٌ عَلَى الْخَوْفِ السَّائِدِ وَالرَّهْبَةِ الْمَخِيمَةِ عَلَى النَّاسِ حَتَّى أَنْ سَمَاعِ الْكَلَامِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِإِذْنِ خَاصٍّ، وَ لَا يَخْفَى أَنْ هَذَا لَا يَنَافِي تَكَلُّمَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ فِي مَوَاقِفٍ مُخْتَلَفَةٍ لِأَنَّ ذَلِكَ بِالْإِذْنِ، وَ هَلِ الْإِذْنُ كَالْإِذْنِ هُنَاكَ، أَوِ الْمَرَادُ بِهِ الْإِذْنُ التَّكْوِينِي بَرَفْعِ الْأَبْهَةِ؟ اِحْتِمَالَانِ.

فَمِنْهُمْ أَى مِنَ النَّاسِ شَقِيٌّ قَدْ شَقِيَ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْعَقَائِدِ الْكَاسِدَةِ وَ مِنْهُمْ سَعِيدٌ سَعِدَ وَ فَازَ بِعَقِيدَتِهِ الصَّحِيحَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٤٩

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٦ إلى ١٠٧]

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنَارٍ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيْقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧)

و عمله الصالح.

[١٠٧] فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا وَ هُمُ الَّذِينَ تَرَكَوا الْفِطْرَةَ الْأَصْلِيَّةَ بِسَبَبِ وَ وَسَاوَسِ الشَّيَاطِينِ وَ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ فَنَارٍ تَلِكُ مَحَلَّهُمْ وَ مَسْكَنَهُمْ لَهُمْ فِيهَا أَى فِي النَّارِ زَفِيرٌ هُوَ إِخْرَاجُ النَّفْسِ وَ شَهِيْقٌ وَ هُوَ إِدْخَالُ النَّفْسِ. قَالُوا: «الزفير» أَوَّلُ نَهْيِ الْحِمَارِ، وَ «الشهيق» آخِرُ نَهْيِهِ، وَ هُمَا مِنْ أَصْوَاتِ الْمَكْرُوبِينَ الْمَحْزُونِينَ، وَ «الزفير» مِنْ شَدِيدِ الْأَنْبِينِ وَ قَبْحِهِ، بِمَنْزِلَةِ إِبْقَاءِ صَوْتِ الْحِمَارِ، وَ «الشهيق» الْأَنْبِينِ الشَّدِيدِ الْمَرْتَفِعِ جَدًّا بِمَنْزِلَةِ آخِرِ صَوْتِ الْحِمَارِ.

[١٠٨] خَالِدِينَ فِيهَا أَى دَائِمِينَ أَبَدًا فِي النَّارِ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أَى مَا بَقِيَتْ جِهَةُ الْعُلُوِّ وَ جِهَةُ السُّفْلِ، فَإِنَّ اللَّفْظَيْنِ يَطْلُقَانِ

على الجهتين إلاً ما شاء رَبُّكَ فَإِنْ بَعْضُ أَهْلِ النَّارِ يَخْرُجُونَ مِنْهَا يَدْرَأُكَمُ الشَّفَاعَةُ أَوْ اسْتِيفَاءُ عِقَابِهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَعَاصِي، أَوْ كَانُوا كِفَارًا عَصَاءً، لَكِنْ لَمْ تَتِمَّ الْحِجَّةُ عَلَيْهِمْ بِمَا يُوجِبُ الْخُلُودَ، وَ إِنَّمَا كَانَتْ الْحِجَّةُ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ دُخُولِهِمُ النَّارَ كَمَا لَوْ خَالَفُوا بَعْضَ الْأُؤْمَارِ الثَّابِتَةَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُمَا مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ، بِقَتْلِ نَفْسٍ مُحْتَرَمَةٍ، أَوْ سَلْبِ مَالٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ. وَ لَا يَلْزَمُ خُرُوجُهُمْ مِنَ النَّارِ دُخُولَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، إِذْ هُنَاكَ أَمَاكِنٌ أُخْرَى مَعْدَةٌ لِلنَّاسِ كَالْأَعْرَافِ. فَلَا يُقَالُ: كَيْفَ يَدْخُلُ الْكَافِرُ الْجَنَّةَ؟

إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ لَا يَمْنَعُهُ عَنِ إِرَادَتِهِ مَانِعٌ وَ لَا يَقِفُ دُونَ مَشِيئَتِهِ شَيْءٌ. وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِصِيغَةِ الْمَبَالِغَةِ «فَعَالَ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٢ ٦٩٩

[سورة هود (١١): الآيات ١٠٨ إلى ١٠٩]

وَأَمَّا الَّذِينَ سُبِعُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْذِبُونَ إِلَّا كَمَا يَعْذِبُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرٌ مَقْصُوصٍ (١٠٩)

باعتبار العموم في ما يريد، أى يفعل كل ما يريده، فإذا أراد خلود الكفار خلدوا، وإذا أراد نجاه بعض العاصين نجوا.

[١٠٩] وَ أَمَّا الَّذِينَ سُبِعُوا بِالطَّاعَةِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَفِي الْجَنَّةِ لَهُمْ مُسْتَقَرٌّ وَ مَأْوَى خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَزُولُونَ عَنْهَا وَ لَا تَزُولُ عَنْهُمْ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أَى مَا بَقِيَتْ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَ السُّفْلِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِمَا أَطْلَحَهَا: «سَمَاءً»، وَ لِمَا أَقْلَحَهَا: «أَرْضًا» إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ هَذَا الْاسْتِثْنَاءُ لِإِفَادَةِ أَنْ الْأَمْرَ لَمْ يَخْرُجْ عَنِ إِرَادَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَيْسَ الْخُلُودُ جَبْرًا عَلَيْهِمْ فَإِذَا شَاءَ إِخْرَاجَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَمْكَنَهُ ذَلِكَ وَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ، أَوْ الْاسْتِثْنَاءُ بِاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ يَعْنِي أَنَّ السَّعِيدَ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَقْدَارَ الَّذِي هُوَ فِي الْمَحْشَرِ أَوْ فِي النَّارِ - ابْتِدَاءً - لَمَّا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ بَعْضِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشَأْ كَوْنَهُ فِيهَا، وَ إِذْ كَانَ الْكَلَامُ مَوْهَمًا لِانْقِطَاعِ الْخُلُودِ جَاءَ التَّأَكُّدُ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ أَى غَيْرِ مَقْطُوعِ، وَ «عَطَاءٌ» مَنْصُوبٌ بِمَا فَهَمُ مِنَ الْجَمَلَةِ، أَى أَعْطَاهُمُ الْجَنَّةَ عَطَاءً دَائِمًا.

[١١٠] إِنْ الْأَقْوَامَ الَّذِينَ كَذَبُوا الرِّسَالَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ فِي الدُّنْيَا وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا اسْتَعْرَضَ كُلُّ مِنَ الْعِقَابِينَ فِي قِصَصِهِمُ السَّابِقَةَ، وَ إِذْ قَدْ عَلِمْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَلِكَ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ أَى فِي شَكِّ، فَإِنَّ «الْمِرْيَةَ» بِمَعْنَى الشَّكِّ مِمَّا يَعْذِبُونَ هَوْلًا الْكِفَارِ، مِنَ الْأَصْنَامِ الْمَنْحُوتَةِ، فَإِنَّ مَصِيرَ الْجَمِيعِ إِلَى النَّارِ وَ الْهَلَاكِ مَا يَعْذِبُونَ إِلَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥١

[سورة هود (١١): آية ١١٠]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)

كَمَا يَعْذِبُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ فَلَيْسَ لَهُمْ حِجَّةٌ فِي عِبَادَتِهِمْ إِلَّا التَّقْلِيدَ لِلآبَاءِ عَنِ جَهَالَةٍ وَ ضَلَالَةٍ، فَلَيْسَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ فِي عِبَادَتِهِمْ لِذَلِيلٍ أَوْ مَنْطِقٍ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرِّسَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَشْكُ فِي أَمْرِهِمْ، وَ إِنَّمَا جَرَى الْكَلَامُ مِنْ بَابِ «إِيَّاكَ أَعْنَى وَ اسْمَعَى يَا جَارَةَ» وَ إِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ أَى مَعْطُوهُمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ وَ عِقَابَ أَعْمَالِهِمْ وَافِيَا غَيْرِ مَقْصُوصٍ لَا يَنْقُصُ مِنْ عِقَابِهِمْ شَيْءٌ.

[١١١] وَ شَأْنُ هَوْلًا شَأْنٌ مِنْ سَبْقِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ فَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ أَعْطَيْنَاهُ التَّوْرَةَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ أَى فِي مُوسَى، هَلْ هُوَ نَبِيٌّ أَمْ لَا؟ أَوْ اخْتَلَفَ فِي الْكِتَابِ، هَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَمْ لَا؟ وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ كَمَا اخْتَلَفَ قَوْمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ حَسَبَ مَا قَدَّرَ مِنَ الْمَصَالِحِ، بِأَنْ يَكُونَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ لَا يَتَقَدَّمُ وَ لَا يَتَأَخَّرُ لِقَضَائِي لِحُكْمِ سَبْحَانِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ بِنِجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِعْطَائِهِمُ الْأَجْرَ، وَ هَلَاكِ الْكُفَّارِ وَ خَزِيْمِهِمْ، لَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ حَكَمَ وَ قَضَى أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا دَارَ مَهَلَةٍ وَ اخْتِبَارٍ، وَ لِذَا يَتْرَكَ كَلًّا وَ شَأْنَهُ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ وَ إِنَّهُمْ أَى الْكَافِرِينَ لَفِي شَكِّ فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَتَّقُونَ بِكَذِبِ دَعْوَى الرِّسَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، مِنْهُ أَى مِنْ وَعْدِ اللَّهِ، أَوْ مِنَ الرِّسَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، أَوْ مِنَ الْكِتَابِ مُرِيبٍ مُوجِبٍ لِلرِّيبِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ لَا يَعْتَنِي فَلَا يَكُونُ الشَّكُّ مُوجِبًا لِلرِّيبِ وَ قَدْ يَعْتَنِي بِهِ حَتَّى يَوْقِعَهُ فِي الرِّيبِ حَقِيقَةً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٢

[سورة هود (١١): الآيات ١١١ إلى ١١٢]

وَإِنْ كُلاَّ لَمَّا لَيُؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)

[١١٢] وَإِنْ كُلاَّ «إن» مخففة من الثقيلة، أو نافية، و على الأول أصل «لما»: «ل من ما» أى «لمن الذين»، فأبدلت النون ميما و اجتمعت ثلاث ميما فحذفت إحداهن، فيكون المعنى: و إن كل طائفة من الفريقين - المؤمنين و الجاحدين - لمن الذين يعطيهم الله أجورهم. و على الثانى يكون «لَمَّا» بمعنى «إلا» أى: «ما كل طائفة إلا يعطيهم الله أجورهم» لَمَّا لَيُؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ أى يعطيهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير و إن شرا فشر إِنَّهُ سَبْحَانَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فلا يفوته شىء من أعمالهم، بل يعلم كل عمل و يعطى جزاءه.

[١١٣] فَاسْتَقِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا أُمِرْتَ بِالتَّبْلِيغِ وَ الْإِنْدَارِ، وَ لَا يَزْحَظُكَ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِينَ وَ جُحُودُ الْجَاحِدِينَ وَ لَيْسْتَ قَمَّ مَن تَابَ وَ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ بَعْدَ الْكُفْرِ وَ الْعَصِيَانِ مَعَكَ فَإِنَّ الْكَافِرَ وَ الْعَاصِيَ كَأَنَّهُمَا ذَاهِبَانِ عَنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَإِذَا آمَنَ الْكَافِرُ، وَ اسْتَغْفَرَ الْعَاصِيَ، كَانَا تَائِبِينَ رَاجِعِينَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ. وَ تَقْدِيرُ «لَيْسْتَ قَمَّ» إِنَّمَا هُوَ بِقَرِينَةٍ «استقم» نحو: «نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض» أى: نحن بما عندنا راضون.

وَ لَا تَطْغَوْا أى لا- تجاوزوا أوامر الله سبحانه، بالزيادة أو النقصان، فإن «الطاغين» تجاوز الحد، يقال: «طغى الماء» إذا تجاوز حده. و الخطاب للناس، المفهوم من قوله «من تاب» إِنَّهُ تَعَالَى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيبصر و يرى طاغيان الطاغين و استقامه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٣

[سورة هود (١١): آية ١١٣]

وَ لَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)

المستقيمين، فيجازى كل حسب عمله.

فى تفسير «الصافى»: قال ابن عباس: ما نزلت آية كان أشق على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من هذه الآية، و لهذا قال: «شيبتنى هود و الواقعة و أخواتها» (١).

و عن بعضهم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى النوم، فقلت: روى عنك أنك قلت: «شيبتنى هود»

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: «نعم»، فقلت: ما الذى شيبك منها، أ قصص الأنبياء و هلاك الأمم؟ قال: لا، و لكن قوله تعالى: «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ» (٢).

[١١٤] و إذ أمر سبحانه المؤمنين بالاستقامة، نهاهم عن الانحراف بالركون إلى الظالمين فإن كل انحراف عن الاستقامة ركون إلى الظالم الذى نهج ذلك المنهج المنحرف وَ لَا تَزْكُتُوا وَ «الركون» هو الاعتماد و الميل و السكون إلى شخص أو جهة أو نحوها إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فى عقيدة أو عمل أو غيرهما فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ تأخذكم. و التعبير ب «المس» لعله لإفادة أن مس النار يقتضى الحذر منه فكيف بما فوقه وَ مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى سوى الله سبحانه مِنْ أَوْلِيَاءٍ ينصرونكم فى الدنيا و الآخرة، فإن الله هو وليكم ثُمَّ إِنْ رَكَنْتُمْ إِلَى الظالمين لَا تُنصَرُونَ إذ الله سبحانه يقطع نصره عنكم، و الكافرون-

(١) وسائل الشيعة: ج ٦ ص ١٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ١١ ص ٢١٣.

[سورة هود (١١): آية ١١٤]

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)

بما انظروا عليه من عدائكم- لا ينصرونكم، وقد جرب المسلمون ذلك، فإنهم من يوم ركنوا إلى الكافرين أخذ أمرهم في الانحطاط إلى هذا اليوم، حتى يرجعوا عما اقترفوا، فينصرهم الله سبحانه.

[١١٥] و بمناسبة لزوم الاستقامة يأتي السياق لبيان وجوب الصلاة، فإنها أحسن وسيلة للاستقامة، إذ هي تحتاج إلى يقظة دائمة في النفس و ملكة راسخة تحفظ الإنسان طيلة العمر عن الانحراف، و هذه اليقظة و الملكة لا تكون إلا بالتذكير الدائم الحاصل من إقامة الصلاة صباحا و عصرا و ليلا و أقيم الصلاة يا رسول الله، أو كل من يأتي منه ذلك طرفي النهار صباحا و عصرا، فإن صلاة الصبح في الطرف الأول من النهار، و صلاة الظهرين في الطرف الآخر منه و زلفاً جمع «زلفه» و هي المنزلة، مثل «غرف جمع غرفة»، و هي أول ساعات الليل، كأن كل ساعة منزلة من منازل الليل من الليل و هي صلاة المغرب و العشاء «١».

و هذا هو المفهوم من

رواية النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن: «طرفي النهار» الغداة، «و زلفاً من الليل» هي صلاة العشاء.

أقول: فعلى هذا تكون الآية ساكنة عن الظهرين، و لعل ذلك لصعوبة الثلاثة الأول دونهما.

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ فَإِنْ حَسَنَةٌ تَكْفُرُ السَّيِّئَةَ

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٥

[سورة هود (١١): الآيات ١١٥ إلى ١١٦]

وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا - كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّتَهُ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)

و تمحقها، و من الحسنات «الصلوات الخمس» فإنها تمحق الذنوب و تمحيها.

و قد روى ذلك عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، كما روى عن الإمام المرتضى عليه السلام أنه قال: «إن الله يكفر بكل حسنة سيئة. ثم تلا هذه الآية» «١».

ذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ مِنْ قَوْلِهِ «اسْتَقِم» ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ أَى فِيهِ تَذَكُّرٌ وَ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ أَرَادَ التَّدَكُّرَ وَ التَّفَكُّرَ.

[١١٦] وَ اصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى الاستقامة، أو على الصلاة، أو مطلقاً فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَ الصَّابِرِينَ مِنْ أَفْضَلِ أَقْسَامِ الْمُحْسِنِينَ، وَ الصَّبْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: صَبْرٌ عَلَى الْبَلَاءِ، وَ صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَ صَبْرٌ عَلَى الْأَحْوَالِ، بَأَنَّ لَا يَبْطُرُ الْإِنْسَانَ عِنْدَ الرِّخَاءِ وَ لَا يَجْزَعُ عِنْدَ الْبَلَاءِ.

[١١٧] إن دعاء الإصلاح الذين يتمكنون من تغيير الواقع السيئ هم الذين يقون على الأمم من الانهيار و الدمار فإذا خلت أمة منهم انهارت و اضمحلت، كما أن المرضى يحتاجون إلى أطباء يتمكنون من علاجهم. أما إذا كان هناك مرضى بلا طبيب أو كان هناك طبيب لكن لم يتمكن من تنفيذ أوامره و علاج مرضاه فإن عاقبتهم الموت و الهلاك.

و هكذا جرت سنة الله في الأمم سابقها و لا حقها فحيث إن الأمم السابقة لم ينفذ فيهم دعاء الإصلاح لقساوة قلوبهم عدّوا. و هكذا يذكر

(١) بحار الأنوار: ج ٢٩ ص ٣١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٦

[سورة هود (١١): آية ١١٧]

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)

الله سبحانه بهذه الحقيقة حتى يأخذ الناس حذرهم، و يعلموا أنهم إن لم يصلحوا انهاروا و استحقوا العذاب. فلو لا أي فهلاً، تقريح و ذم كان من القرون جمع قرن و هو الجيل، أي من الأجيال السابقة التي كانت من قبلكم أيها المسلمون أولوا بقتي أصحاب بقايا فضل و عقل و تدبر، فكأنهم كلهم كانوا أحداثاً، لا بقيه عقل و حنكة و حكمة فيهم حتى يتدبروا و يتفكروا و يعتبروا بالماضين ينهون عن الفساد في الأرض فإنه كان من اللازم أن يكون فيهم جمع هذه صفتهم حتى ينقذوا الأمم و القرون من الهلاك إلا قليلاً ممن أنجينا منهم من أنبيائهم و بعض المؤمنين بهم، مما لم يكن يكفي لدفع العذاب عنهم، فإن الطيب و لو كان من أحذق الأطباء لكنه إذا لم يجد آذانا صاغية من المرضى و الممرضين لم يكن لأمره نفع في إنقاذ المرضى، إن القليل الذين كانوا ينهون قد أنجيناهم، أما سائر الجيل فقد أهلكوا بفسادهم و عصيانهم و اتبع الذين ظلموا و عصوا ما أترفوا فيه أي اتبعوا ترفهم و شهواتهم، في مقابل المؤمنين الذين اتبعوا أوامر الله سبحانه و مناهج الأنبياء و كانوا مجرمين ذوى إجرام و عصيان، و لذا أهلكوا بسبب أعمالهم الفاسدة.

[١١٨] وَمَا كَانَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ السَّابِقَةَ، أي يهلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٧

[سورة هود (١١): الآيات ١١٨ إلى ١١٩]

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

أهل القرى بظلم منه لهم و الحال أن أهلها مصلحون يصلحون أنفسهم و مجتمعهم باجتناب المعاصي و النهي عن المنكر، و إنما أهلكهم بالعدل حين كان أهلها مجرمين مفسدين.

[١١٩] إن الدنيا دار اختبار و امتحان ليجزى كل حسب عمله و لذا ترك الله سبحانه الأمم و ما يختارون بعد أن بين لهم الرشد من الغي و لو شاء ربك يا رسول الله لجعل الناس أمة واحدة بإلجاء الجميع إلى الإيمان و العمل الصالح، لكنه لا يشاء ذلك لنا يبطل الثواب و العقاب و لكن لا يزالون الناس مختلفين بعضهم كافر و بعضهم مؤمن، و بعضهم مطيع و بعضهم عاص، و ذلك بأن شاء الله اختيارهم و قدرتهم.

[١٢٠] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْتَلِفُونَ و يجتمعون على الحق. و المراد ب «الرحمة» الألفاظ الخفية، بعد هداية الجميع إلى الطريق و إرشادهم، فمن قبل و آمن لطف به اللطف الخفى الزائد، و من أعرض تركه و غيته، كما أن الأيب إذا أعطى أولاده رؤوس الأموال ليتجروا بها فأعرض بعض و أقبل بعض، لطف بالمقبل كثيراً و أخذ بيده، أما المعرض فهو يخذله و يتركه ليفعل ما يشاء و لذلك أي للرحمة خلقهم فقد خلقهم الله سبحانه حتى يرحمهم، لكن قسما منهم أبوا و تخلفوا و عصوا، كما أن من أسس مدرسه إنما يؤسسها لتعليم الناس و هدايتهم، فإذا أعرض البعض كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٨

[سورة هود (١١): الآيات ١٢٠ إلى ١٢١]

وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)

من عنده، لا من عند من أسس المدرسه و تمت كلمه ربك أي انتهت فلا مبدل لها، و الكلمه هي: لَأَمْلَأَنَّ من «ملاً» بمعنى:

إدخال الشيء في الظرف حتى يمتلئ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ بسبب كفرهم و عصيانهم، و إنما ذكر هذا الطرف من الناس لأن الكلام حول العصاة و الكفار، و الذين أهلكوا بسبب مخالفتهم للأنبياء.

[١٢١] وَ كَلَّا أَي كَلَّمَا مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ الْمَتَقَدِّمَةِ نَقَضُ عَلَيْكَ وَ نَخْبِرُكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ أَخْبَارَهُمْ، كَيْفَ بَلَّغُوا، وَ كَيْفَ وَقَفَ قَوْمُهُمْ ضَدَّهُمْ وَ آذَوْهُمْ؟ مَا نُبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ أَي نَقَوَى بِهِ قَلْبِكَ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ إِعْرَاضًا وَ أَدَى مِنْ قَوْمِكَ، لَمْ يَسْبَبْ ذَلِكَ يَأْسَكَ عَنِ الْبَلَاغِ. وَ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ثَبَاتٌ، وَ إِنَّمَا اسْتَمْرَارُ الثَّبَاتِ هُوَ بِيَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ جَاءَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ السَّالِفَةِ الْحَقُّ فَكُلُّ مَا حَكَى كَانَ حَقًّا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ وَ جَاءَ تَكَ فِي هَذِهِ مَوْعِظَةٌ تَعْظُ بِهَا الْجَاهِلِينَ وَ تَبْعِدُ بِهَا النَّاسَ عَنِ الْمَعَاصِي وَ ذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ تَذَكَّرَهُمْ بِاللَّهِ وَ بآيَاتِهِ وَ بِالْآخِرَةِ.

[١٢٢] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ اْعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ أَي عَلَى حَالَتِكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٥٩

[سورة هود (١١): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

وَ انْتَبِظُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاغْبِئْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

كقوله: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) «١»، إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى مَنْهَجِنَا، حَتَّى نَرَى مَا يَصْنَعُ اللَّهُ بِكُمْ وَ بِنَا.

[١٢٣] وَ انْتَبِظُوا أَي تَوَقَّعُوا عِقَابَ اللَّهِ وَ عَذَابَهُ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ فَضَلُّهُ وَ رِضْوَانَهُ، أَوِ الْمَعْنَى: نَحْنُ وَ أَنْتُمْ نَنْتَظِرُ نَتَائِجَ الْأَعْمَالِ، وَ هَلْ نَحْنُ كُنَّا عَلَى بَاطِلٍ أَمْ أَنْتُمْ؟.

[١٢٤] إِنْ مَا يَأْتِي غَيْبٌ وَ سَيُنْكَشَفُ الْغَيْبُ وَ يَظْهَرُ الْمَجْهُولُ وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَكُلُّ مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ، أَوْ غَابَ عَنِ الْوُجُودِ - بَأَنَّ لَمْ يَوْجَدْ بَعْدَ - سِوَاءِ كَانِ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَهُوَ الْعَالِمُ بِهِ وَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِيجَادِهِ أَوْ إِظْهَارِهِ وَ إِلَيْهِ أَي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَكُلُّ الْأُمُورِ مَرْجِعُهَا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ الْفَاعِلُ فِي الْقَضَايَا التَّكْوِينِيَّةِ وَ التَّشْرِيعِيَّةِ، حَتَّى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَشَأْ شَيْئًا لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ إِرَادَةُ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فَاعْبُدْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ اجْعَلْهُ وَ كَيْلًا عِنْدَكَ وَ نَاصِرًا لَكَ، فَإِنْ مِنْ يَعْلَمُ الْغُيُوبَ، وَ يَكُونُ مَصِيرَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ، أَحَقُّ بِالْعِبَادَةِ وَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، مِنْ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ وَ مَا رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِغَافِلٍ أَوْ جَاهِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ، فَمَنْ أَحْسَنَ فَلِنَفْسِهِ، وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا.

(١) فصلت: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٠

١٢ سورة يوسف مكية / آياتها (١١٢)

سميت السورة باسم «يوسف» عليه السلام، لاشتغالها على قصته و اسمه المبارك. و حيث كانت سورة «هود» مشتملة على قصص الأنبياء، كانت هذه السورة مكملتها لتلك القصص، و أتت بقصة طريفة في موضوعها، و هي تشمل المقصود العام من القرآن الحكيم من التوجيه نحو المبدأ و المعاد، و تطهير النفس من الرذائل، و ذكر الأحكام و التشريعات.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء للكلام بسم الله، فالله هو الذات المستجمعة لجميع صفات الكمال، فهو أحق الأسماء بالاستعانة و الابتداء، و بمن يبتدأ الكلام، غيره؟ و لما ذا يبتدئ الإنسان بغيره؟

و هل يعطى الغير ما يتطلبه الإنسان؟ و هو الرحمن الذي يرحم الكل، و الرحيم الذي يتفضل على المؤمنين بأنواع خاصة من التفضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)

[٢] الر من جنس «ألف» و «لام» و «راء» أنشئ القرآن الحكيم، أو هي رموز بين الله و الرسول كالرموز التي بين رؤساء الحكومات و سفرائها، أو غير ذلك تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ فإن هذه الأحرف و ما من جنسها هي بعينها تلك الآيات البعيدة التي فوق الطاقة البشرية لا يتمكن الإنسان من الإتيان بمثلا لا لفظا و لا منهجا، و الكتاب مبين واضح لا لبس فيه و لا غموض و لا التواء.

[٣] و لقد شاء الله سبحانه أن ينزل هذا الكتاب بلغة العرب إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا و لماذا؟ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و تفهمون، إذ هو بلغتكم، أو الخطاب في «لعلكم» عام يشمل جميع البشر، إذ كون القرآن من مصدر عربي أقوى في الدلالة على كونه من قبل الله سبحانه فإن الحضارة- عهد نزول القرآن- لم تكن إلا- لفارس و الروم، أما عرب الجزيرة فلم يكونوا أهل تحضر و علم من قراءه و كتابه، فإذا جاء بالقرآن رجل عربي يعيش بين أظهرهم، كان أدل على أنه من قبل الله سبحانه، مما لو كان منزلا على رجل رومي أو فارسي وسط الحضارة.

و قد ذكر المفسرون: أن نزول القرآن على رسول من الجزيرة يشتمل على أنواع من الفضل لم تكن توجد لو أنزل على طرفي العالم المتحضر يوم ذاك، فإن الجزيرة تعد وسط العالم تقريبا، و أنها كانت أحوج إلى الرشاد، و أن أهلها كانوا أقدر على حمل الرسالة، لبدأوتهم و عدم تلوثهم بمفاسد الحضارة، و غير ذلك مما بينوه في المفصلات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣ الى ٤]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ إِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)

[٤] نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ و بالأخص قصة يوسف، فإنها قصة واقعية فيها أنواع من التذكرة و العظة، مشوقه حيث اشتملت على موضوع مثير بما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ أي بسبب إيحائنا هذا القرآن قصصنا عليك هذه القصص فلو لا إيحائه لم تكن قصة و إِن كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِهِ قَبْلَ إِحْيَاءِ الْقُرْآنِ إِلَيْكَ لَمِنَ الْغَافِلِينَ الذين لا يعرفون شيئا من ذلك. و هذا لا ينافي الحديث المروى: «كنت نبياً و آدم بين الماء و الطين»

«١» إذ لا ملازمة بين النبوة و بين علم كل شيء، فلقد كان نبيا لكنه لم يكن يعلم بعض الأشياء، أو كان وحى القرآن قبل ذلك لأنه إنما أوحى إلى النبي القرآن بعد البعثه في الظاهر، و أما في الحقيقة فقد كان صلى الله عليه و آله و سلم يعلم القرآن قبل وحيه إليه. ؟ و قد ورد أن الإمام المرتضى عليه السلام قرأ القرآن و هو طفل رضيع.

[٥] فاذا ذكر يا رسول الله إذ قال يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ إِنَّمَا أَتَى بِالْجَمْعِ الْعَاقِلُ لِأَنَّ السُّجُودَ مِنْ صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ. روى عن الباقر عليه السلام في تأويل هذه

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٤٠٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥ الى ٦]

قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

الرؤيا: أنه سيملك مصر و يدخل عليه أبواه و أخوته، أما الشمس فأمر يوسف راحيل، و القمر يعقوب، و أما الأحد عشر كوكبا فإخوته. فلما دخلوا عليه سجدوا شكرا لله وحده حين نظروا إليه. و كان ذلك السجود لله تعالى «١».

[٦] قال يعقوب: يا بَنِي تَصْغِيرِ «ابن»، و لعل وجه التصغير الشفقة لا تَقْضُصُ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ أَى لا تخبرهم بما رأيت في المنام فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا أَى فيحسدوك، حيث تدل رؤياك على مقام رفيع، و يحتالوا لإهلاكك حيلة إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ظاهر العداوة، فإنه يريد الإيقاع بين الأخوة بإشعال نار الحسد في قلوب بعضهم على بعض.

[٧] وَ كَذَلِكَ أَى كما أراك هذه الرؤيا تكرمك لك، مما كان تعبيره خضوع الأخوة و الأبوين لمقامك يَجْتَبِيكَ من «الاجتباء» أَى الاختيار و هو الاصطفاء، أَى يختارك رَبُّكَ يا يوسف للنبوّة و يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ «الأحاديث» هي الرؤيا، لأنها من أحاديث الملك و إخباره للإنسان في منامه إن كانت الرؤيا صادقة، و من أحاديث الشيطان و النفس إن كانت كاذبة، و «تأويلها» تعبيرها، سمى «تأويلا» لأن الرؤيا تأوّل إلى ذلك المعنى المتضمنه له و وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ بِإِعْطَائِكَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧ إلى ٨]

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ (٧) إِذِ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) رغباتك في الدنيا و الآخرة و على آل يَعْقُوبَ إِخْوَتِكَ و أولادكم بجعلهم أنبياء و ملوكا و سادة للناس كما أتمّها أَى أتم الله سبحانه نعمته على أَبَوَيْكَ أبيك و جدك مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ و إِسْحَاقَ حيث جعلهما نبين و أعطاهما نعم الدنيا إِنَّ رَبَّكَ يا يوسف عَلِيمٌ بمن يصلح للرسالة و السيادة و الملك حَكِيمٌ يفعل الأشياء حسب الصلاح و الحكمة.

[٨] ثم شرع سبحانه في قصة يوسف بقوله: لَقَدْ كَانَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ الْأَحَدِ عَشْرَ آيَاتٍ أَدْلُهُ و علامات على قدرة الله سبحانه، و إرشادات لمن أراد الاسترشاد لِلْمُتَوَكِّلِينَ أَى لمن يسأل عن الآيات و يهتم بالأمر و يفتش عن الحقائق.

؟ عن الجوامع: روى أن اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر و عن قصة يوسف؟ قال: فأخبرهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالقصة.

[٩] إِذِ قَالُوا أَى اذكر إذ قالوا، أو لقد كان آيات إذ قالوا، أَى: قال بعض الأخوة لبعض، و قد كان عشرة منهم من غير أم، و يوسف و ابن يامين من أم- كما في بعض التفاسير و التواريخ- لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَى ابن يامين أَحَبُّ إِلَيْنَا يعقوب عليه السّلام مِنَّا فقد كان يعقوب شديد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٩]

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)

الجب ليوسف و بعده لابن يامين، و كان يوسف من أحسن الناس وجهها و أحسنهم أخلاقا.

فقد حكى أن رجلا- سأل يعقوب: لم تفضل يوسف على باقى الأخوة؟ قال: أعلمك بالأمر، فطلب أحد الأخوة و سأله عما لو أساء شخص إليه ماذا يصنع؟ قال الولد: أنتقم منه .. ثم طلب يوسف و سأله عن مثل ذلك السؤال، فقال يوسف: أعفو عنه، قال: فإن أساء إليك ثانية؟ قال يوسف: أعفو، قال: فإن أساء إليك ثالثة؟ قال: أعفو.

وَ الْحَالِ أَنَا نَحْنُ عُصْبَةٌ جماعة يتعصب بعضها لبعض، و يعين بعضها بعضا، فكيف أن أبانا يقدم يوسف و بنيامين علينا و نحن أنفع له منها؟ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ انحراف عن طريق الصواب مُّبِينٌ واضح لا شك فيه، فكيف يقدم أصغر الأولاد على سائر الأولاد؟

[١٠] أخذ الأخوة- و بالطبع لم يكن فيهم ابن يامين- يتآمرون على يوسف ليطفئوا حسدهم قائلين: اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً مجهولة بعيدة، حتى لا يكون إلى جنبنا، ولعل السباع تأكله، أو يؤول أمره إلى الموت يخل لكم وجه أبيكم تخلص لكم محبة الأب، و تملكون قلبه، فلا يصرف اهتمامه و حبه نحو يوسف فقط و تكونوا من بعده أى بعد هذا العمل من قتل يوسف أو طرحه فى أرض مجهولة قوماً صالحين تستغفرون الله سبحانه. و هذا من عادة الذى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٦

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠ الى ١١]

قال قائلٌ منهم لا- تفتلوا يوسف و ألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السياره إن كنتم فاعلين (١٠) قالوا يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف و إنا له لناصحون (١١)

يريد أن يسىء و فيه بقيه من إيمان، فإنه بين عزمه على ارتكاب الجريمة بما توسوس إليه نفسه، و بين نيته فى أنه سيصبح صالحاً مستغفراً بعد ارتكابها. و يحتمل أن يراد «صالحين فى أمر دنياكم لا يراحمكم فيها يوسف».

[١١] قال قائلٌ منهم فى بعض الأحاديث أن اسمه «لاوى» و هو جد موسى عليه السلام: لا- تفتلوا يوسف و ألقوه فى غيابة الجب «الجب» هو البئر و «غيابته» قعره، حتى لا يموت و لا يشرف على الموت حيث يلتقطه أى يأخذه من هناك بعض السياره «السيارة» هى الجماعة المسافرون، سموا بذلك لأنهم يسيرون فى البلاد. فإنهم إذا عطشوا و أرادوا الماء أدلوا دلوهم فيها، فيتعلق به يوسف فيخرجوه، و يذهبوا به إلى دورهم و محلهم، فقد تخلصنا من يوسف، و لم نرتكب جريمة قتله إن كنتم فاعلين أى تريدون فى الحقيقة التخلص من يوسف، فليكن هذا عملكم و نوع تخلصكم.

[١٢] و لما أحكموا المؤامرة و أجمعوا على التخلص من يوسف الغلام البرىء الجميل حسداً و عداً، جاءوا إلى أبيهم يعقوب ف قالوا يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف لأى شىء لا تثق بنا فى أمر يوسف؟ ألسنا نحن أمناء عندك؟ و يظهر من الكلام أن يعقوب كان سيئ الظن بهم فى أمر ابنه يوسف عليه السلام و الحال إنا له أى ليوسف لناصحون ننصح لأجله و نريد الخير به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٢ الى ١٤]

أرسله معنا عدداً يربح و يلعب و إنا له لحافظون (١٢) قال إني ليحزني أن تذهبوا به و أخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون (١٣) قالوا لئن أكله الذئب و نحن عصبه إنا إذا لخاسرون (١٤)

[١٣] أرسله يا أبانا معنا إلى الصحراء عدداً يربح و يلعب «جزم الفعلين» على جواب الأمر، و المعنى: إن ترسله معنا، يرتع و يلعب، و «الرتع» هو التوسع فى أكل الفواكه و غيرها، من «الرتع» و هى الخصب، أو التردد ذهاباً و مجيئاً و إنا له ليوسف لحافظون نحفظه عن أن يصيبه الأذى.

[١٤] قال يعقوب عليه السلام فى جواب الأولاد: إني ليحزني أن تذهبوا به فذهابكم به موجب لغمى و حزنى حيث لا أقدر على فراقه و أخاف عليه إن ذهبتم به أن يأكله الذئب حيث كانت الأرض مذئبة و الحال أنتم عنه غافلون مشغولون بأنفسكم.

قيل: إن يعقوب رأى فى منامه كأن يوسف قد شد عليه عشرة ذئاب يقتلوه، و إذا ذئب منها يحمى عنه فكان الأرض انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام، و لذا قال لهم: أخاف أن يأكله الذئب.

[١٥] قالوا قال الأولاد فى جواب يعقوب: لئن أكله الذئب و الحال نحن عصبه يتعصب بعضنا لبعض، و لنا من القوة و الطاقة قدر كاف إنا إذا لخاسرون نكون كالذين تذهب عنهم رؤوس أموالهم، أو نكون إذن عاجزون هالكون، و هذا كالتعليق على ما لا يكون، للتأكيد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٨

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٥ الى ١٦]

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)

على المقصود.

[١٦] ثم إن يعقوب سلم للأمر و أرسل يوسف معهم فلما ذهبوا به بيوسف و اجتمعوا أى عزموا جميعا، يقال: «أجمع» إذا عزم أن يجعلوه في غيابة الجب في قعره، و جواب «لما» محذوف تقديره «فعلوه» و أوحينا إليه إلى يوسف و هو في الجب لتنبئهم أى تخبرن إختك بأمرهم هذا بعد ما تنجو من البئر و تصبح ملكا، و يأتوك إختك لأجل الطعام، تحكى لهم القصة و هم لا يشعرون فى ذلك الوقت أنك يوسف. و قد ذكر سبحانه فى آخر السورة قول يوسف لأخته- و هم جاهلون بأنه يوسف- (هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه) «١»؟.

[١٧] و لما طرحوا يوسف فى البئر، تأخروا فى الرجوع إلى المدينة حتى يأتى الليل فلا يظهر على وجوههم آثار الكذب و جاؤا أباهم أى رجعوا إلى أبيهم يعقوب عشاء أى وقت العشاء، و ذلك بعد ساعة من الغروب تقريبا يتكون و إنما أظهروا البكاء ليوهما أنهم صادقون فى قولهم، فإن البكاء لا يكون إلا- عن حرقه القلب التى تلازم الصدق غالبا، لكن البكاء قد يكون اصطناعا، و إن جرت الدمعة. و كان بكاء الأخوة هكذا.

(١) يوسف: ٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٦٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٧ الى ١٨]

قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

[١٨] و لما رأى يعقوب بكاءهم، فزع و قال: ما لكم؟ قالوا يا أبانا إننا ذهبنا نستبق أى نتسابق فى العدو لننظر أيننا أقدر على العدو و الركض، و أيننا يسبق أصحابه، من «استبق» بمعنى تسابق و تركنا يوسف عند متاعنا أى رحلنا و بضاعتنا، لأنه صغير لا يقدر على العدو، و ليحفظ رحلنا فأكله الذب و افترسه و ما أنت يا أبانا بمؤمن أى بمصدق لنا لكلامنا و لو كنا صادقين و من عادة الكاذب أن يبزر كذبه بمثل هذه التأكيدات، كما قال الشاعر: «كاد المرعب أن يقول خذونى».

[١٩] و جاؤا جاء الأخوة على قميصه بدم كذب جاءوا أباهم و معهم قميص يوسف ملطخا بدم مكذوب، فقد ذبحوا جديا و لطحوا قميص يوسف بدمه، حيث أنهم لما ألقوه فى البئر جرّده من ثوبه و ألقوه فى البئر عاريا.

و إنما جاء ب «على» لأذن المعنى: «جاءوا على القميص بالدم»، أى صبوا عليه الدم، هذا بناء على أن «جاء» يراد به المجيء على القميص، لا المجيء نحو الأب، و إنما يستفاد الثانى من السياق، و أما لو أريد من «جاءوا» المجيء نحو الأب كان اللازم تقدير، حال مثل «صائبين» و نحوه. «و كذب» مصدر أقيم مقام الوصف، أى «مكذوب فيه»، و إنما جاء بالمصدر للمبالغة، كقولك: «زيد عدل».

و لما نظر يعقوب إلى القميص عرف أنهم كاذبون فى قولهم و أنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٠

إنما دبوا له مكيدة، و لذا توجه إليهم و قال بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً أى زينت لكم أنفسكم الحاسدة ليوسف مكيدة دبتموها. و قد روى: أنه عليه السلام لما رأى القميص و ليس به آثار الشق، علم أن الذب لم يأكله فإن الذب إذا أكل إنسانا مرق ثيابه. قال الصادق عليه السلام: لما أتى بقميص يوسف إلى يعقوب قال: «اللهم لقد كان ذباً رفيقا حين لم يشق القميص» «١».

فأمرى فى هذا الفراق فصبر جميل

روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالإمامين الباقر وَالصادق عليهما السَّلام: «إن الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الخلق»

«٢» وَ اللهُ المُسْتَعَانُ بِهِ، من «استعان» بمعنى: طلب العون عَلَى ما تَصِفُونَ أى على دفع ما تصفونه من هلاك يوسف. وقد يقال: أنه كيف يوصف الصبر بالجميل، مع أنه عليه السَّلام بكى حتى ابيضت عيناه؟ بل كيف يمكن للنبي أن يكون له مثل هذه العلاقة بالأولاد مع أنه يرى عظمة الله وَ ثوابه؟ وَ قد يقال مثل ذلك فى بكاء آدم عليه السَّلام وَ الصديقة الطاهرة عليها السَّلام وَ الإمام السجاد؟

وَ الجواب: إن هذا النحو من البكاء وَ التوجع كان له نوعا من التبليغ وَ الإرشاد لم يكن يؤدى إلا- بذلك، فقد كان بكاء آدم عليه السَّلام

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٩٩.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧١

[سورة يوسف (١٢): آية ١٩]

وَ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَ أَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَ اللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)

إرشادا إلى وقع الخطيئة- وَ لو كانت ترك الأولى- وَ بيانا لما للجنة وَ رضا الله سبحانه من أهمية كبرى حتى أن فراقها وَ الدخول فيما لا يرضيه سبحانه- وَ لو لم يكن عصيانا- يوجبان هذا النوع من البكاء.

وَ فى قصة آدم، ما أجدر البكاء وَ لو أُلْفَ سنه لسخط الله العظيم الذى له كل شىء وَ بيده كل شىء .. وَ بكاء يعقوب كان تنفيرا لمثل هذا الاجرام الجماعى وَ إرشادا عمليا لما للحسد من الوقع السيئ على الحاسد وَ المحسود وَ المجتمع، وَ إن مثل هذا التنفير العملى من أقوى أقسام الإرشاد وَ الهداية .. وَ كذلك بكاء الصديقة الطاهرة وَ السجاد عليهما السَّلام كان تنفيرا عمليا لأعمال الغاصبين وَ السفاكين، وَ إرشادا إلى عظمة المعزى له، الموجب لانتفات الناس حولهم فيستضيئون بأنوارهم وَ يهتدون بآثارهم.

[٢٠] رجع الأولاد إلى أبيهم وَ تمت القصة هنا، لتبتدى بحال يوسف فى الجب، فقد ذكر المفسرون أن البئر كانت ذات ماء وَ لما طرحوا يوسف فيها أوى إلى صخرة كانت فى ثناياها. وَ

قد روى أن جبرائيل عليه السَّلام هو الذى أخذه،

وَ شاء الله سبحانه أن يطعمه فى البئر، وَ هناك بقى ثلاثة أيام وَ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ أى قافلة تسير كثيرا، فإن «سيارة» صيغته مبالغته، وَ القافلة تسمى بهذا الاسم لسيرها كثيرا فى الأرض فَأَرْسَلُوا أى أهل السيارة وَارِدَهُم الذى يرد الماء ليستقى منه للقافلة، حتى يأتى إليهم من تلك البئر- التى فيها يوسف- بالماء فَأَدْلَى الوارد دَلْوَهُ أى فأرسل دلوه فى البئر ليأخذ الماء، فتعلق يوسف بالدلو. وَ

روى أن جبرائيل عليه السَّلام هو الذى جعل يوسف فى الدلو، بدل الماء، وَ لما أن أخرج الوارد الدلو، رأى غلاما جميلا فيه، عوض الماء، فدهش من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَ قَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ وَ اللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١)

هذه الصدفة العجيبة

و قال لأصحابه: يا بُشْرَى يا قوم! البشارة هذا غلامٌ و أسرّوه بضاعةً إن القوم لما رأوا يوسف نوا في أنفسهم أن يجعلوه بضاعةً يبيعونه في البلد بعنوان أنه عبد «١».

و

ورد أن الأخوة جاءوا إلى البئر ليروا ماذا صنع بيوسف هل خرج أو هلك؟ و إذا بهم يتلاقون مع السيارة، فقالوا لهم أنه عبد لنا أبق من المدينة، ثم باعوه للسيارة ليستريحوا منه و الله عليهم بما يعملون

أى تعمل السيارة من نيتها جعل يوسف بضاعةً. و قيل: فى المعنى أمور أخرى، و ما ذكرناه الأظهر منها.

[٢١] و شروءه أى باع الأخوة يوسف للسيارة بثمنٍ بخسٍ ثمن ناقصٍ مبخوس فيه عشرين درهما - كما فى جملة من الأحاديث - دراهم مَعْدُودَةٌ أى قليلة، و جىء بهذا الوصف لدلالته على القلة، فإن القلة تعدّ، أما الكثرة فلا تعد بسهولة و كانوا كان الأخوة فيه أى فى الثمن، أو فى يوسف من الزاهدين يقال: «زهد فيه» بمعنى لم يرغب، فإن الأخوة ما باعوه لقصد الربح حتى يرغبوا فى الثمن، و إنما باعوه للتخلص منه.

[٢٢] و جاءت السيارة بيوسف إلى مصر، و هل هناك بيع آخر، أو كان عزيز مصر هو الذى اشتراه ابتداءً؟ احتمالان، و على كل حال فقد صار

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٣٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٣

يوسف عليه السلام فى كنف عزيز مصر، و قد قالوا: أنه كان كبير الوزراء هناك، أو كان هو الملك بالذات، و توسم العزيز فيه الخير لما رأى على شمائله من آثار الكبر و الرفعة و لذا قال الذى اشتراه اشتري يوسف من مِصْرٍ من أهل مصر لامرأته و كانت تسمى «زليخا» أكرمى مَثْوَاهُ أى هبئى له مكانا شريفا كريما، ليكون فى راحة و رفاه عسى أن يُنْفَعَنَا فى المستقبل باتخاذة عاملا عندنا فى أمورنا، أو المراد: يبعه و الانتفاع بثمنه لأن مثله غالى الثمن أو نَتَّخِذَهُ و لَدَا عَلَى وجه التنبؤ. فقد قالوا: أن عزيزا لم يكن له ولد، كما أنه لم يكن يقدر على إتيان النساء و كَذَلِكَ كما أنعمنا على يوسف بالنجاة من كيد الأخوة و الخلاص من الجب، كذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الأَرْضِ بما عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه - أو الوزير - حتى صار بذلك متمكنا من الأمر و النهى، و صارت له منزلة حسنة، و المراد ب «الأرض» أرض مصر و لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ أى تفسير الرؤيا ليلبغ المرتبة العالية بواسطة تمكّنه من هذا العلم.

و لعل المراد بذلك النبوة، و قوله: «و لنعلمه» عطف على المعنى، أى: دبرنا الأمر ليوسف لنمكنه فى الأرض و لنعلمه، و قد كان التعليم بسبب أنه عف عن الزنا - كما قيل - و الله غالب على أمره أى على أمر يوسف يحفظه و يهبئى له أسباب الرفاه حتى يوصله إلى السلطة و السيادة، أو المراد: أن الله غالب على أمر نفسه فمهما شاء من شىء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

و لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا و عِلْمًا و كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) و رَاوَدْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ و غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ و قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)

تمكن منه، لا يتمكن أحد على دفعه عن مراده و لا يعجزه شىء و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ و هذا يناسب المعنى الثانى، فإن الناس غالبا ينظرون إلى المقدمات التى ألفوها فلا يرون النتائج التى يريدتها الله سبحانه، لكنه تعالى يفعل ما يشاء مما لا يظهر للناس بل يخفى عليهم.

[٢٣] و لهذا بقى يوسف هناك منفردا مكرما و لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ بَأْنِ اكْتِمَالِ شَبَابِهِ و قُوَّتِهِ، و «أشد» جمع لا واحد له - كما قيل - آتَيْنَاهُ

أعطيناه حُكماً يعرف بها مواضع الأشياء و موارد الأمور و مصادرها، فكأنه يحكم على الأشياء حسب موازينها اللاتفة بها و علماً و هو العلم بالأشياء. و من المعلوم أن العلم بالشئ غير الحكمة، فرب عالم غير حكيم، و رب حكيم غير عالم. و لعل تقديم «الحكم» على «العلم» لما فى الحكم من الأهمية و لذا نرى كثيرا من العلماء لا حكمه لهم، و لذا لا ينجحون فى الحياة و كَذَلِكَ كما جزيها يوسف عليه السّلام على صبره و على المصائب التى وردت عليه نَجْزِي سائر الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى العقيدة و العمل. و هل المراد بقوله «آتيناه» الرسالة، أو زيادة فيها؟ احتمالان.

[٢٤] و إذ قد انتهت مرحلة امتحان يوسف الأولى، جاء دور المرحلة الثانية، و قد كانت أصعب من الدور الأول، و قد جرت سنه الله سبحانه على امتحان الأنبياء بأشق أنواع الامتحان، حتى يصلوا لأخذ زمام المجتمع، و ينالوا المراتب السامية و رَاوَدَتْهُ تقرب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٥

الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا فَاعِل «راودت» «التى» و المراد بها «زليخا» زوجة العزيز و «هو» يرجع إلى يوسف، أى طالبت يوسف المرأة التى كان يوسف فى بيتها عَنْ نَفْسِهِ كأنها تريد انتزاع نفس يوسف و شبابه و طاقاته الجسمية، فإن «المراد» مفاعلة، بمعنى «الذهاب و الإياب» لأجل قضاء الحاجة، فقد تكررت زليخا فى الذهاب إلى يوسف، لتغريه و تتترع نفسه منه، بأن يجامعها، إشباعا لغرائزها الجنسية. و غَلَقَتْ زليخا أَبْوَابَ القصر لئلا يأتى أحد فجأة فيكشف مؤامرتها على يوسف، و لفظه «غلقت» من باب التفعيل تدل على كثرة فى الأبواب و قَالَتْ زليخا ليوسف: هَيْتَ لِمَكَ أى أقبل و بادر، فإن «هيت» اسم فعل بمعنى: «هلم» و «لك» خطاب، أى أنت يا يوسف، يأتى للتأكيد، كما يقال: «أنت».

و قد يصور هذا المقام الحرج الذى كان يوسف عليه السّلام عليه، فشاب عازب، فى قصر ملىء بالترف، و امرأة فى سن الاقتضاء، و الأبواب مغلقة، و تقتضى القاعدة أن قبل ذلك كانت منها إشارات و تطلبات، و الآن أتت الساعة الحاسمة، بلفظ مكشوف «هيت لك» لكن الإيمان الراسخ فى يوسف ضرب بالطلب عرض الحائط قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَعْتَصِمَ بِاللَّهِ و أعوذ به أن أرتكب هذه الجريمة إِنَّهُ رَبِّيَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي، فكيف أخالفه بعد أن أَحْسَنَ مَثْوَايَ و جعل مكانى مكانا حسنا. ثم أن المراد ب «المثوى» الأصل، أو المراد: النبوة، أو المراد: ما هيب له فى بيت العزيز من الكرامة و الاحترام. و ذكر بعض المفسرين أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٢٤]

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) الضمير فى «إنه» عائد إلى «زوجها» أى إن سيدى زوجك قد أحسن مَثْوَايَ فكيف أخونه فى زوجته. فإن «الرب» يطلق على السيد المحسن.

إِنَّهُ أى الشأن لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الذين يظلمون أنفسهم بالعصيان، أو يظلمون الغير بالخيانة فى عرضه.

[٢٥] إن يوسف لم يهم بالخطيئة، كيف و قد قال: «معاذ الله» لكن الآية الكريمة تصور الطبيعة البشرية التى تهتم بالخطيئة لو لا النبوة و العصمة و لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ أى همت زليخا و قصدت الخطيئة بيوسف و هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ أى لكان هم، لو لم يكن برهان الله يرضى يوسف، بكونه نبيا معصوما. و هكذا كما تقول: «قصد فلان قتلى و قصدت قتله لو كنت جاهلا».

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «البرهان: النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش، و الحكمة الصارفة عن القبائح» (١).

و حاصل المعنى: أن يوسف لو لا النبوة لكان هم بها، لكن النبوة منعت عن ذلك لأن المعصوم لا يهم بالخطيئة كَذَلِكَ أريناه البرهان و حفظناه بالنبوة و العصمة لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ كل أقسام السوء، فإن العصمة ملكة لا تدع المتصف بها يفعل شيئا مهما كان و الْفَحْشَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)
قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)
ركوب الفاحشة، والمراد بها الزنا إنَّه إن يوسف عليه السلام من عبادنا المُخْلِصِينَ بصيغته المفعول - أى الذين أخلصناهم عن الزيف و
العصيان، و اخترناهم للنبوة و الطهارة.

[٢٦] إن زليخا همت بأخذ يوسف للخطيئة و يوسف هم بالفرار منها و توجه كل منهما نحو الباب و استَبَقَا الْبَابَ أى تبادل كل من
يوسف و زليخا نحو باب الغرفة، من «استبق» بمعنى السبقه، و قد كان التوجه إلى الباب أولا من يوسف حيث أراد الهروب و الفرار و
أخذت زليخا قميص يوسف لتجزه نحوها ف قَدَّتْ أى شقت قَمِيصَهُ أى قميص يوسف من دُبُرٍ أى من خلف يوسف، لأنها أخذت
بالقميص من خلفه و أَلْفَيَا من «ألفى» بمعنى «وجد»، أى وجدت زليخا و يوسف سَيِّدَهَا أى زوج زليخا، و هو «العزير» لَدَى الْبَابِ أى
قرب الباب، و هنا سقط في يد زليخا، و تحير يوسف ماذا يصنع، لأن المنظر كان مريبا.

و هنا بادرت زليخا لتبرير نفسها قَالَتْ مخاطبة زوجها: ما نافية، أى ليس جزاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا عملا قبيحا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
يحبس أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بأن يضرب بالسياط أو نحو ذلك.

[٢٧] قَالَ يوسف عليه السلام: هِيَ أى زليخا هِيَ التى رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٨

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٧ إلى ٢٨]

وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)
أى طالبتنى بالسوء وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا أهل المرأة.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ألهم الله عز و جل يوسف أن قال للملك:

سل هذا الصبى فى المهد، فإنه يشهد أنها راودتني عن نفسي. فقال العزير: الصبى؟ فأنطق الله الصبى فى المهد ليوسف».

أقول: قال بعضهم: أن الابن كان له من العمر ثلاثة أشهر، و كان ابن أخت زليخا، و كانت الشهادة أن قال: إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ أى ثوب
يوسف عليه السلام قُدَّ أى شقَّ مِنْ قُبُلٍ من مقدمه فَصَدَقَتْ زليخا وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أى أن يوسف كاذب، إذ يظهر أن يوسف أراد
المرأة و هى أخذت بثوبه لتدفعه عن نفسها فانشق القميص، أو لأنه يدل أن المرأة فرّت و يوسف عقبها فتعثر بثوبه من الأمام و انشق
الثوب من قدام.

[٢٨] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ إِنْ كَانَ ثوب يوسف شقَّ من الخلف فَكَذَبَتْ تبين كذب زليخا وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيدل على أن
المرأة هى التى راودت يوسف و أنه أراد الفرار، لأنه يدل على أن المرأة تبعت يوسف و أخذت بثوبه من خلف، فانشق الثوب لجذبها
له.

[٢٩] فَالفتت الزوج إلى القميص و لما رأى قَمِيصَهُ أى ثوب يوسف عليه السلام قُدَّ مِنْ دُبُرٍ أى شقَّ من خلف، عرف أن المرأة هى
التى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٧٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ
قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠)

خانت و أرادت السوء قال متوجها إلى زليخا إِنَّهُ أَى هَذَا الْعَمَلِ الَّذِى رَأَى آثَارَهُ مِنْ كَيْدِكَ وَ حِيلِكَنْ مَعَاشِرِ النِّسَاءِ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ تَعْمَلْنَ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ، ثُمَّ تَلْقَيْنَ التَّهْمَ عَلَى الْبَرَىءِ.

[٣٠] ثم توجه السيد إلى يوسف عليه السلام قائلا: يا يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا الْحَدِيثِ وَ اكْتُمِهِ فَلَا تَفْشِهِ وَ اسْتَتْفِرِي يَا زَلِيخَا لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ أَنْتِ أَذْنَبْتَ لِأ- يوسُفِ عَلَيْهِ السَّلَامِ. قال «من الخاطئين» و لم يقل «من الخاطئات» تَغْلِييَا، كَمَا قَالَ: (وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّآكِعِينَ) «١»، وَ كَانَ ذَلِكَ لِأَن أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الذَّهْنِ الرِّجَالُ، سِوَاءِ فِى الْإِطَاعَةِ وَ الْعَصِيَانِ، أَوْ غَيْرِهِمَا.

[٣١] ثم لم يمض زمان حتى شاع هذا الأمر فى البلد و أن زليخا قصدت يوسف بالسوء و قَالَ نِسْوَةٌ أَى جَمَاعَةُ مِنَ النِّسَاءِ. و إنما ذكر الفعل لأنه يجوز فى الجمع مذكرا كان أو مؤنثا الأمران، تقول «قال و قالت رجال»، و كذا «قال و قالت نساء»، باعتبار اللفظ و المعنى، كما أن «قالت» باعتبار جماعة الرجال، قال ابن مالك:

و التاء مع جمع سوى السالم من مذكر كالتاء مع إحدى اللبن فى المدينة فى مصر، و كان ذكر هذه الجملة لإفادة أن الخبر

(١) آل عمران: ٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٠

[سورة يوسف (١٢): آية ٣١]

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)

شاع فى البلد، و لو لم تذكر لاحتمل أن ذلك قول نسوة القصر، فقد قلن تلك النسوة على وجه التعجب و الاستغراب: امرأت العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَفْسِهِ أَى تَدْعُو مَمْلُوكَهَا إِلَى نَفْسِهِ، فَتَرِيدُ أَنْ تَسْلُبَ نَفْسَ الْمَمْلُوكِ، لِيَفْجُرَ بِهَا قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا دَخَلَ حُبِ الْفَتَى فِى شَغَافِ قَلْبِهَا، فَإِنَّ «الشغاف» هو حجاب القلب، يقال: «شغف زيد عمرو حبا» أى خرق حب زيد شغاف قلب عمرو، و فاعل شغفها الضمير الراجع إلى يوسف عليه السلام إنا لَنَرَاهَا نَرَى امْرَأَةَ الْعَزِيزِ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ انحراف عن نهج الصواب واضح، إذ كيف تتعلق المرأة ذات البعل بعبدها.

[٣٢] فَلَمَّا سَمِعَتْ زَلِيخَا بِمَكْرِهِنَّ أَى تَعْيِيرِ تِلْكَ النِّسْوَةِ لَهَا بِحُبِّ يوسُفِ. و إنما سُمِّيَ «مكرا» لِأَن قَصْدَهُنَّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ كَانَ أَنْ يَرِينَ يوسُفَ لِمَا وَصَفَ لَهُنَّ مِنْهُ حَسَنَةً - كَذَا فِى «الْمَجْمَعِ» - وَ قِيلَ:

لأنهن أخفين التعبير كما يخفى الماكر مكره أرسلت إليهن تطلبهن للضيافة عندها و أَعْتَدَتْ هِيَأَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا هُوَ مَا يَتَكَأُ عَلَيْهِ لَطْعَامٌ أَوْ شَرَابٌ أَوْ حَدِيثٌ، أَى هِيَأَتْ لَهُنَّ مَادِبَةٌ وَ قَدْ كَانَ الْعَادَةُ أَنْ يَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَ هُمْ مُتَكُونُونَ عَلَى الْوَسَائِدِ - كَمَا هُوَ عَادَةُ أَهْلِ التَّرَفِ - وَ آتَتْ أَعْطَتْ زَلِيخَا كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا لِقَطْعِ اللَّحْمِ، أَوْ تَقْشِيرِ الْفَاكِهِةِ كَمَا هِيَ الْعَادَةُ الْجَارِيَةُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ وَ قَالَتْ زَلِيخَا لِيوسُفِ حِينَ اشْتَغَلْنَ بِالتَّقْشِيرِ أَوْ التَّقْطِيعِ: أَخْرِجِي يَا يوسُفِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨١

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٢]

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَكِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لِئَسْجَنَنَّ وَ لِيَكُونَا مِنَ الصَّآغِرِينَ (٣٢) عَلَيْنَّ أَمْرَهُ بِذَلِكَ لِيرِينَ جَمَالَهُ فَلَا يَعْدِلْنَهَا فِى مَا قَصَدْتَهُ مِنْهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ كَانَ بِصُورَةِ مَمْلُوكٍ مُطِيعٍ لِدَيْهَا وَ لِمَا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ أَى أَعْظَمْنَهُ وَ تَحْيِرْنَ فِى جَمَالِهِ، فَقَدْ كَانَ خَارِقَ الْحَسَنِ وَ الْجَمَالِ وَ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِتِلْكَ السِّكَاكِينِ، بِدَلِّ تَقْطِيعِ اللَّحْمِ أَوْ الْفَاكِهِةِ، عَلَى جِهَةِ الْخَطَا، فَقَدْ بَعَثَتْ دَهْشَتَهُنَّ بِجَمَالِهِ أَنْ لَمْ يَلْتَفِتَنَّ إِلَى صَنْعَتِهِنَّ، وَ الْمُرَادُ بِالْقَطْعِ - حَسَبِ الظَّاهِرِ - الْجَرْحُ وَ الْخَدَشُ،

يقال: «فلان قطع يده بالسكين» إذا جرحها و خدشها.

وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ وَ هِيَ كَلِمَةٌ تَنْزِيهِ تَقَالُ فِي مَوْضِعِ الدَّهْشَةِ وَ الْعَجَبِ، لِيَبَانَ الدَّهْشَةُ فِي صَنْعِهِ سَبْحَانَهُ، وَ أَصْلُ «حَاشَ» «حَاشَا» حَذَفَتْ الْأَلْفَ تَخْفِيفًا، بِمَعْنَى التَّنْزِيهِ، وَ «اللَّهُ» جَارٌ وَ مُجْرورٌ مُتَعَلِّقٌ بِهِ مَا هَذَا الَّذِي نَرَاهُ، أَيْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَرًا «مَا» تَعْمَلُ عَمَلٌ لَيْسَ فِي «هَذَا» اسْمَهَا، وَ «بَشَرًا» خَبَرَهَا، أَيْ لَيْسَ هَذَا كَالْبَشَرِ، فَإِنَّ هَذَا الْجَمَالَ الْخَارِقَ لَا يُوجَدُ فِي الْبَشَرِ إِنَّ هَذَا مَا هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ رَفِيعُ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، ذُو كِرَامَةٍ، وَ إِلَّا لَمْ يَمْنَحْهُ هَذَا الْجَمَالَ.

[٣٣] قَالَتْ زَلِيخَا بَعْدَ أَنْ رَأَتْ أَنَّهَا فَازَتْ عَلَيْهِنَّ وَ أَنْهَنْ أَعْطَيْنَ الْحَقَّ لَهَا فِيمَا قَصَدَتْ مِنَ السُّوءِ بِيُوسُفَ: فَذَلِكُنَّ «ذَا» إِشَارَةٌ إِلَى يُوسُفَ، وَ «كُنَّ» خُطَابٌ لِهِنَّ، أَيْ فَهَذَا يُوسُفَ - أَيْتَهَا النَّسْوَةُ - هُوَ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ مِنَ «لَامٍ» بِمَعْنَى «عَذَلٌ» أَيْ عَذَلْتُنِّي بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، قَائِلَاتٌ كَيْفَ أَنْ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ تَرَاوَدُ فَتَاهَا؟ ثُمَّ قَالَتْ زَلِيخَا، وَ قَدْ بَقِيَ لَهَا تَعْلُقُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٢

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٣]

قَالَ رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) به: وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَيْ طَلَبَتْ نَفْسَ يُوسُفَ فَاسْتَعْصَمَ أَيْ لَازِمًا بِالْعِصْمَةِ وَ الْإِمْتِنَاعِ وَ لَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا أَمَرَهُ مِنَ الْفِعْلِ لَيْسَ جَنَّ أَيْ لِيَحْبِسَ فِي السَّجْنِ، فَإِنِّي أَكِيدُ بِهِ حَتَّى أَوْقِعَهُ فِي السَّجْنِ وَ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ الصَّاعِرُ هُوَ الذَّلِيلُ، مِنَ الصِّفَاتِ، أَيْ لِأَذَلِّهِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِيلًا.

[٣٤] وَ لَمَّا رَأَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِصْرَارَهَا عَلَى الْخَطِيئَةِ بِهِ اخْتَارَ السَّجْنَ لِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةَ عَنِ الْآثَامِ، وَ لِيَخْلُصَ مِنَ التَّنْذِيبِ وَ الْإِتِهَامِ، فَ قَالَ يَا رَبُّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، وَ فِي الْإِتْيَانِ بِلَفْظِ «يَدْعُونَنِي» دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ النَّسْوَةَ أَيْضًا طَمَعَنَ فِيهِ.

وَ قَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ السَّجَادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَنَّ النَّسْوَةَ لَمَّا خَرَجْنَ مِنْ عِنْدِهَا أُرْسِلَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَيْهِ سِرًّا مِنْ صَاحِبَتِهِ تَسْأَلُهُ الزِّيَارَةَ لَهَا» (١).

وَ لَا يَخْفَى أَنَّ «أَحَبُّ» هُنَا مُجْرَدٌ عَنِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ، كَمَا هُوَ الْقَاعِدَةُ فِي أَمْثَالِهِ كَقَوْلِهِ: (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا) «٢»، وَ (أَحْسَنُ تَأْوِيلًا) «٣»، وَ إِلَّا تَصْرَفَ يَا رَبُّ عَنِّي كَيْدَهُنَّ بِالْعِصْمَةِ وَ الْحِفْظِ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ يَقَالُ: «صَبَا يَصْبُو»، إِذَا مَالَ نَحْوَ الشَّهْوَةِ الْجَنَسِيَّةِ، مِنْ

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٧٥.

(٢) الكهف: ٤٥.

(٣) النساء: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينِ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَيَا قَالِ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)

«الصَّبْوَةُ» وَ هِيَ لَطَافَةُ الْهَوَى، أَيْ: أَمَلٌ إِلَى تِلْكَ النَّسَاءِ. وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَوْ لَا لَطْفُ اللَّهِ وَ عِصْمَتُهُ تَمِيلُ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى الشَّهْوَاتِ وَ أَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ يَقَالُ لِلْعَاصِي: جَاهِلٌ، وَ إِنْ كَانَ عَالِمًا، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَجْهَلْ حَقِيقَةَ لَمْ يَعْضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٣٥] فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ أَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَ يُوسُفَ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ فَقَدْ عِصَمَهُ سَبْحَانَهُ حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتْرَحُحُ عَنِ الطَّهَارَةِ وَ لَوْ

أصيب بالأذى و سجن، كما ألقى اليأس في قلب زليخا و النسوة لامتناع يوسف عن الفاحشة إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ السَّمِيعُ لِدَاعِي الدَّاعِي الْعَلِيمُ بِالنِّيَّاتِ.

[٣٦] ثُمَّ يَدَا لَهُمْ ظَهْرَ الْعَزِيزِ وَ زَوْجَتَهُ وَ أَصْحَابَهُمَا مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا آيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ يُجْنَنُهُ فَإِنْ زَلِيخَا خَدَعَتْ زَوْجَهَا بِأَنْ يَسْجَنَ يُوسُفَ حَتَّى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُ الْمَجْرَمُ وَ حَتَّى تَشْفَى زَلِيخَا غِيظَهَا مِنْهُ حَيْثُ لَمْ يَطْعُمَا فِي الْفَاحِشَةِ حَتَّى حِينٍ إِلَى مَدَّةٍ حَتَّى تَخْدُمَ الضُّوْضَاءَ، وَ يَنْسَى النَّاسُ الْقِصَّةَ.

[٣٧] وَ سَيِّقَ إِلَى السَّجْنِ يُوسُفَ الْبَرِيءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ أَخَذَتْ الْمَرْأَةُ الْمَجْرَمَةَ تَسْرِحَ وَ تَمْرَحَ - كَمَا هُوَ عَادَةُ الدُّنْيَا - رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ السَّجَانَ قَالَ لِيُوسُفَ: إِنِّي لِأَحْبَبُكَ. فَقَالَ يُوسُفَ: مَا أَصَابَنِي إِلَّا مِنَ الْحُبِّ، إِنْ كَانَتْ خَالَتِي أَحْبَبْتِي سَرَقْتَنِي، وَ إِنْ كَانَ أَبِي أَحْبَبَنِي حَسَدَنِي إِخْوَتِي،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٤

وَ إِنْ كَانَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ أَحْبَبْتَنِي حَبَسْتَنِي «١».

وَ رَوَى عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ يُوسُفَ بَكَى عَلَى يَعْقُوبَ حَتَّى تَأْذَى مِنْهُ أَهْلُ السَّجْنِ فَقَالُوا لَهُ: إِمَّا أَنْ تَبْكِيَ اللَّيْلَ وَ تَسْكُنَ بِالنَّهَارِ وَ إِمَّا أَنْ تَبْكِيَ بِالنَّهَارِ وَ تَسْكُنَ بِاللَّيْلِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا «٢».

وَ دَخَلَ مَعَهُ مَعَ يُوسُفَ السَّجْنَ فَتَيَانِ شَابَانِ، وَ كَانَا عَبْدَيْنِ لِلْمَلِكِ أَحَدُهُمَا حَبَازَهُ وَ الْآخَرُ صَاحِبُ شِرَابِهِ. وَ فِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَ إِلَى يُوسُفَ بَيِّنَانٌ لَهُ رُؤْيَا رَأْيَاهَا - بَزَعْمَهُمَا - فَ قَالَ أَحَدُهُمَا وَ هُوَ صَاحِبُ الشَّرَابِ: إِنِّي أَرَانِي أَرَى نَفْسِي فِي الْمَنَامِ أَغْصِرُ خَمْرًا أَيْ أَعْصِرُ الْعَنْبَ لَصْنَعِهِ خَمْرًا، فَقَدْ سَمِيَ الْعَنْبُ بِذَلِكَ بِعِلَاقَةِ الْأُولَى، كَمَا يَقَالُ: «فَلَانٌ يَطْبِخُ الدَّبْسَ» وَ إِنَّمَا يَطْبِخُ التَّمْرَ لِيَكُونَ دَبْسًا وَ قَالَ الْآخَرُ وَ هُوَ حَبَازُ الْمَلِكِ: إِنِّي أَرَانِي أَرَى نَفْسِي فِي الْمَنَامِ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ الْخُبْزِ.

ثُمَّ قَالَ الْفَتَيَانِ لِيُوسُفَ: بَبَّنَا أَخْبَرْنَا بِتَأْوِيلِهِ مَا يُؤْوِلُ إِلَيْهِ مَنَامُنَا إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِي يَحْسُنُ إِلَى النَّاسِ. وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَحْسَنَ يَتَوَسَّمُ فِيهِ الْخَيْرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا وَ تَعْبِيرِ الْمَنَامِ، أَوْ الْمَرَادُ تَحْسُنُ تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا.

قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا أَمَرَ الْمَلِكُ بِحَبْسِ يُوسُفَ فِي السَّجْنِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٧.

(٢) إرشاد القلوب: ج ١ ص ٩٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٧]

قَالَ لَا - يَا تَيْكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧)

أَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمَ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا فَكَانَ يَعْبرُ لِأَهْلِ السَّجْنِ رُؤْيَاهُمْ «١».

أَقُولُ: وَ كَأَنَّ ذَلِكَ الْعِلْمَ صَارَ شِعَارًا لِمَنْ مَنَعَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهْوَةِ الْجَنَسِيَّةِ، فَقَدْ قَالُوا: أَنَّ ابْنَ سَيْرِينَ كَانَ تَلْمِيذًا عِنْدَ بَزَازٍ وَ كَانَ جَمِيلًا جَدًّا وَ فِي ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَ اشْتَرَتْ مِنَ الْبَزَازِ أَجْنَاسًا ثُمَّ حَمَلَتْهَا الْفَتَى لِأَتَى بِهَا إِلَى بَيْتِهَا، وَ لَمَّا أَنَّ دَخَلَ الدَّارَ أَغْلَقَتْ الْبَابَ وَ قَالَتْ:

هَيْتَ لَكَ. قَالَ ابْنُ سَيْرِينَ - لَمَّا لَمْ يَجِدْ حِيلَةً لِلْفِرَارِ مِنْهَا -: إِذْنِي لِي بِالْبَزَازِ لِأَقْضَى حَاجَتِي ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْتَ وَ شَأْنُكَ. وَ لَمَّا أَنَّ دَخَلَ الْمَرْحاضَ لَوِثَ نَفْسِهِ بِالنَّجَاسَةِ، فَلَمَّا خَرَجَ وَ رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ بِتِلْكَ الْحَالَةِ عَافَتْهُ اسْتِقْدَارًا لَهُ، وَ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ وَ هَبَّ اللَّهُ لَهُ عِلْمَ الرُّؤْيَا.

[٣٨] وَ هُنَا أَرَادَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرشِدَ الْفَتَيَانِ إِلَى الطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ كَمَا هُوَ عَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرشِدِينَ حَتَّى يَنْتَهِزُوا كُلَّ فُرْصَةٍ لِشَرِّ الدِّينِ وَ تَبْلِيغِ رِسَالَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ قَدْ أَرَادَ أَنْ يَقْدَمَ لِذَلِكَ مَقْدَمَةً مُطْمَئِنًّا بِصِحَّةِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، فَإِنَّ غَالِبَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْا مِنْ أَحَدٍ

خارقه أو ما أشبهها اطمأنوا إليه و صدقوا كلامه، بخلاف ما لو كان الكلام مجرد منطوق و دليل، فإن الناس ينظرون إلى القائل لا إلى القول.

و لذا بدأ يوسف بين لهم أنه يعرف بعض أمور الغيب بتعليم الله له، فيأمكنه أن يخبر عن الطعام الذي يؤتى به لهما قبل أن يؤتى به ف قال لا يَأْتِيَكُمَا أَيُّهَا الْفِتْيَانُ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ لِأَجْلِ أَكَلِكُمَا وَ رِزْقِكُمَا إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ آتَى بِصَفْوَةِ ذَلِكَ الطَّعَامِ وَ سَائِرِ خُصُوصِيَّاتِهِ، وَ إِنَّمَا قَالَ «تَأْوِيلِهِ» لِأَنَّ الطَّعَامَ يُوَوَّلُ إِلَى تِلْكَ الصِّفَةِ، فَمَثَلًا لِلْحَمِّ الْمَعْدِ لِلطَّعَامِ يُوَوَّلُ إِلَى «الْكِبَابِ» أَوْ «الْمَرْقِ» أَوْ مَا أَشْبَهَهُمَا، وَ قَدْ لُوْحِظَ فِي

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ١٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٨]

وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

اللفظ - الجنس - حيث تقدم لفظ «التأويل» بالنسبة إلى الرؤيا، و قد كان عيسى عليه السلام كذلك كما قال: (وَ أَتَّبَعْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) (١).

فَبَيَّنَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا التَّأْوِيلَ ذَلِكَ مَا أَى ذَلِكَ التَّأْوِيلَ لِلْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ، وَ «كَمَا» خَطَابٌ، أَى أَنَّ التَّأْوِيلَ أَيُّهَا الْفِتْيَانُ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي وَ مِنْ هَذَا الْبَابِ تَطَّرَقَ إِلَى ذِكْرِ الرَّبِّ، لِتَسْنِي لَهُ الشَّرْحَ حَوْلَهُ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ أَى رَفَضَتْ فِرَاعِنَهُ مِصْرَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ آلِهَةً، أَى أَنَّى تَرَكْتُ هَذِهِ الْمِلَّةَ. وَ لَيْسَ مَعْنَى «تَرَكْتُ» كَوْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا، بَلْ مَعْنَاهُ: عَدَمَ قَبُولِهَا وَ رَفْضِهَا مِنَ الْإِبْتِدَاءِ، فَإِنَّ الْفِعْلَ يَسْتَعْمَلُ فِي الْمَعْنِيِّينَ وَ هُمْ بِالْأَخْرَجَةِ هُمْ كَافِرُونَ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَبْدِئِهِ وَ لَا مَعَادِهِ، وَ حَيْثُ تَرَكْتُ تِلْكَ الْمِلَّةَ أَلْهَمَنِي اللَّهُ الْغَيْبَ وَ تَأْوِيلَ الرَّؤْيَا.

[٣٩] وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي وَ «الْمِلَّةُ» هِيَ الطَّرِيقَةُ الدِّينِيَّةُ، يُقَالُ: «مِلَّةُ الْيَهُودِ» وَ «مِلَّةُ النَّصَارَى» وَ لَا يُقَالُ: مِلَّةُ الْعِطَارِينَ إِبْرَاهِيمَ جَدِّ أَبِيهِ وَ إِسْحَاقَ جَدِّهِ وَ يَعْقُوبَ أَبِيهِ، وَ بِذَلِكَ يَبِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مِنْ بَيْتِ النَّبُوَّةِ وَ الطَّهَارَةِ حَتَّى يَكُونَ كَلَامُهُ مَسْمُوعًا لَدَيْهِمْ. فَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْ ذَوِي الْبَيْوتَاتِ وَ الشَّرَفِ أَصْحَابِ الْحَسَبِ

(١) آل عمران: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٣٩]

يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)

وَ النَّسَبِ، وَ كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشْهُودًا لَدَى الْجَمِيعِ، وَ لَعَلَّ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كَانَ كَذَلِكَ مَا كَانَ لَنَا أَى لَا يَجُوزُ لَنَا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ الْمَرَادُ عَمُومَ الْبَشَرِ، أَى لَا يَحِقُّ لِلْبَشَرِ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ بِاتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ آلِهَةً، وَ كَيْفَ يَجُوزُ لِلْبَشَرِ أَنْ يَكْفُرَ بِخَالِقِهِ وَ يَجْعَلَ لَهُ أُنْدَادًا؟ ذَلِكَ التَّمَسُّكُ بِالتَّوْحِيدِ وَ الْبِرَاءَةِ مِنَ الشَّرِكِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا حَيْثُ هَدَانَا إِلَى ذَلِكَ وَ أَوْحَى إِلَيْنَا بِهِ وَ عَلَى النَّاسِ حَيْثُ هَدَاهُمْ بِسَبَبِ الْفِطْرَةِ وَ الْأَنْبِيَاءِ. وَ لَعَلَّ سَبَبَ ذِكْرِ «عَلَيْنَا» مُسْتَقْلِلًا، لِإِخْتِصَاصِهِمُ بِالنَّبُوَّةِ وَ الْوَحْيِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ، وَ هِيَ نِعْمَةُ الْهَدَايَةِ، بَلْ يَكْفُرُونَ بِهَا بِاتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ آلِهَةً.

[٤٠] وَ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَرِيقَتَهُ وَ مِلَّتَهُ، وَ ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ بَيْتِ رَفِيعٍ وَ أَنَّهُ يَعْلَمُ بَعْضَ أُمُورِ الْغَيْبِ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ لَهُ حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ، أَخَذَ

فى الاستدلال على التوحيد، و قد كان الموقع مناسباً جداً للتبليغ، فإن المستمع حيث ينتظر جوابه يصغى جيداً، بخلاف ما لو أجابهم عن تأويل رؤياهم ثم بين التوحيد، و حيث قدم له مقدمه صار الموقع أنسب، لأنه بين ماض مشوق و مستقبل متقرب، فالنفس متفتحة للاستماع و القبول يا صاحبي السجني أى يا صاحبي فيه، فإن الشيء قد يضاف إلى الزمان و المكان مجازاً، كما قال الشاعر:

يا سارق الليلة أهل الدار يا سارقاً مالى و مال جارى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٤٠]

ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

أو المراد «ملازمى السجن» فإن «صاحب» يقال للملازم للشيء، يقال: «صاحب الدكان» لمن لازمه بالبيع و الشراء فيه .. و هكذا. أَرَبَابٌ أى هل آلهة مُتَّفَرِّقُونَ شتى متعددون خيّر فى اتخاذها آلهة و عبادتها، بأن يعبد الإنسان آلهة من حجر و خشب أم الله الواحد المتفرد الذى خلق كل شيء، و بيده كل شيء القهار الغالب الذى لا يعادله شيء و لا يتمكن شيء أن يقاومه؟ و من الطبيعى أن يكون الجواب: بل الله الواحد القهار.

[٤١] ما تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَيُّ أَسْمَاءِ الْآلِهَةِ لَا حَقِيقَةَ إِلَّا لَهُ، فَإِنْ مَا تَعْبُدُونَ إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ فَارِغَةٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي مَنْصَبِ الْأُلُوهِيَّةِ، كَمَا يُقَالُ: «الْحَاكِمُ الْفُلَانِي اسْمٌ مُجْرَدٌ» يَرَادُ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ حَاكِمٌ، وَ لَيْسَ لَدَيْهِ عِلْمُ الْحَاكِمِ وَ إِرَادَتُهُ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ بَدَلَ مَنْ ضَمِيرِ الْجَمْعِ، فَأَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ إِنَّمَا تَعْبُدُونَهَا بِاعْتِبَارِ أَسْمَاءِ تَطْلُقُونَ عَلَيْهَا، فَكَأَنَّكُمْ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا الْأَسْمَاءَ الْمَجْرُودَةَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا بِتِلْكَ الْآلِهَةِ، أَوْ بِأَسْمَائِهَا مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ حِجَّةٍ، أَيْ لَا حِجَّةَ لَكُمْ فِي كَوْنِهَا آلهة، إِذِ الْحِجَّةُ لَا بَدَأَنَّ تَكُونُ مَعْقُولَةً، وَ الْعَقْلُ يَأْبَى أَنْ يَنْحِتَ الْإِنْسَانُ حَجْرًا أَوْ يَنْجِرَ صَنْمًا ثُمَّ يَقُولُ إِنَّهُ إِلَهُ الْكَوْنِ، وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَ لَمْ يَنْزَلْ بِذَلِكَ دَلِيلًا.

و لعل ترك الدليل العقلى إنما هو لوضوحه، و لأنهم كانوا ينسبون ذلك إليه سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٨٩

[سورة يوسف (١٢): آية ٤١]

يا صاحبي السجني أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَ أَمَا الْآخَرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) إِنْ الْحُكْمُ لَيْسَ الْحَكْمُ وَ الْأَمْرُ وَ النَّهْيُ إِلَّا لِلَّهِ فَكَيْفَ يَعْبُدُ سِوَاهُ؟ إِذِ الْعِبَادَةُ خَاصَةٌ بِمَنْ لَهُ الْحَكْمُ وَ الْأَمْرُ وَ النَّهْيُ، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ خُضُوعٌ وَ الْخُضُوعُ لَا يَلِيقُ إِلَّا أَمَامَ الْحَاكِمِ الْأَمْرِ وَ النَّاهِي، وَ قَدْ أَمَرَ سَبْحَانَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا أَحَدًا إِلَّا إِيَّاهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

و لعل «إن الحكم» و «أمر» إشارة إلى مرتبتين من التوحيد. فقد قالوا إن التوحيد على أربعة أقسام: توحيد الذات، بأن يعتقد الإنسان أن الإله واحد لا شريك له، و توحيد الصفات، بأن يعتقد الإنسان أن صفات الله عين ذاته لا تعدد فيها و لا مغايرة، و توحيد الخلق، بأن يعتقد الإنسان أن جميع الخلق إنما هو منه وحده لا يشاركه فيه أحد، و توحيد العبادة، بأن لا يعبد الإنسان أحداً إلا إياه.

ذَلِكَ التَّوْحِيدُ الَّذِي الْقَيِّمُ أَيْ الطَّرِيقَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ، فَإِنَّ «الدين» بمعنى الطريقة، و «القيم» بمعنى المستقيم، مشتق من «قام»، لا اعوجاج فيه و لا انحراف و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ إِنْ هَذَا هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وَ إِنْ سِوَاهُ مَعْوَجٌ مُنْحَرَفٌ.

[٤٢] و إذ أتم يوسف عليه السلام الإرشاد و التبليغ، شرع فى جواب سؤال صاحبيه من الرؤيا، فقال: يا صاحبي السجني أصله «صاحبين» حذفت النون لإضافته إلى السجن، كما هو القاعدة، قال ابن مالك:

نونا تلى الإعراب أو تنوينامما تضيف أحذف كطور سينا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٠

أَمَّا أَحَدُكُمَا وَهُوَ سَاقِي الْمَلِكِ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ كَانَ يَعْصِرُ خَمْرًا، فَيُخْرِجُ مِنَ السِّجْنِ وَيَصِيرُ حَالَهُ كَحَالِهِ السَّابِقِ فَيَسْقِي رَبَّهُ أَي سَيِّدِهِ الْمَلِكِ خَمْرًا كَمَا كَانَ يَسْقِي مِنْ ذِي قَبْلِ. وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنْ بَقَاءَهُ فِي السِّجْنِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُخْرِجُ الْيَوْمَ الرَّابِعَ. وَإِنَّمَا قَالَ «رَبِّهِ» لِأَنَّ الرَّبَّ يُطْلَقُ عَلَى الصَّاحِبِ، يُقَالُ: «رَبُّ الدَّابَّةِ».

وَأَمَّا الْأَخْرُ وَهُوَ الْخَبَازُ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى خَبْزًا عَلَى رَأْسِهِ تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ فَيَصِلُ إِلَى يَشْنُقُ فَيَمُوتُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ تَأْنِيثَ الْفِعْلِ، بِاعْتِبَارِ كَوْنِ الطَّيْرِ اسْمَ جِنْسٍ يُطْلَقُ عَلَى الْجَمَاعَةِ مِنَ الطَّائِرِ مِنْ رَأْسِهِ أَي مِنْ دِمَاغِهِ. فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ الْخَبَازَ كَانَ كَاذِبًا فِي مَا ادَّعَى مِنَ الرُّوْيَا وَلَمْ يَكُنْ رَأَى شَيْئًا فِي مَنَامِهِ وَإِنَّمَا اخْتَلَقَ ذَلِكَ. وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: لَمَّا قَالَ يُوسُفُ ذَلِكَ، قَالَ الرَّجُلُ: كَذَبْتَ وَمَا رَأَيْتَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا كُنْتَ أَلْعَبُ «١».

فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ أَي فَرَّغَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي تَسْأَلَانِ وَتَطْلُبَانِ مَعْرِفَتَهُ، وَمَا قَتَلْتَهُ لَكَمَا فَإِنَّهُ نَازَلَ بِكَمَا وَكَانَ لَا مَحَالَةَ، وَ«الاستفتاء» طَلَبُ الْفَتْوَى، أَي الْجَوَابُ فِي مَسْأَلَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا، وَقَدْ كَانَ الْوَاقِعُ الَّذِي سَوْفَ يَجْرِي عَلَى الْخَبَازِ

(١) مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) مِنْ خِلَالِ شِعَاعِهِ فِي دِمَاغِهِ، فَاخْتَرَعَ هَذِهِ الرُّوْيَا الْمَكْذُوبَةَ، وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا نَظَرَ إِلَى الْوَاقِعِ فَأَخْبَرَهُ بِهِ - وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ لَا مِنْ تَفْسِيرِ الرُّوْيَا -.

[٤٣] وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَي لِلْعَاصِي الَّذِي ظَنَّ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَنْجُو مِنَ السِّجْنِ وَالْقَتْلِ، مِنْ صَاحِبِيهِ، وَلَعَلَّ التَّعْبِيرَ بـ «ظن» لِإِمْكَانِ مَحْوِ مَا عِلْمٌ فِي عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ - إِلَّا بَعْضَهَا - قَابِلَةٌ لِلْمَحْوِ، قَالَ سَبْحَانَهُ: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) «١»، اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ أَي اذْكُرْ حَالِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا حَبَسْتَ ظِلْمًا، لَكِي يَفْرَجَ عَنِّي وَيُطْلَقَ سَرَاحِي فَلَمَّا تَحَقَّقَ مَا قَالَهُ يُوسُفُ وَأَنَّ صَاحِبَ الشَّرَابِ تَخَلَّصَ مِنَ السِّجْنِ، وَأَنَّ الْخَبَازَ صَلَبَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ أَي أَنْسَى الشَّيْطَانُ صَاحِبَ الشَّرَابِ أَنَّ يَذْكُرُ يُوسُفَ لِرَبِّهِ الْمَلِكِ فَلَبِثَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ بَقِيَ فِيهِ بِضْعَ سِنِينَ «بضع» كَلِمَةٌ بِمَعْنَى «مَا دُونَ الْعَشْرَةِ»، وَأَصْلُهُ بِمَعْنَى «الْقِطْعَةُ» مِنَ الدَّهْرِ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي» «٢».

[٤٤] بَقِيَ يُوسُفُ سِنِينَ فِي السِّجْنِ، وَسَاقِي الْمَلِكِ نَاسٌ، مَشْغُولٌ

(١) الرعد: ٤٠.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٢

بملمهيات القصر - وكذلك ينسى الرخاء الإنسان زميله الذي يكابد البلاء - حتى رأى الملك رؤيا هالته فطلب معبراً لذلك. وهناك تذكر الساقى يوسف السجين الذى عبر رؤياه من ذى قبل، و شاءت إرادة الله سبحانه إنقاذ يوسف فى ذلك الحين، و قد كان السجن و الجب و كيد المرأة و حسد الأخوة امتحانات له و لرفع درجته، فقد و كل البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل و قال الملِكُ

إِنِّي أرى فى منامى. و كأنه حكاية حال ما ماضية، و إلا فاللازم أن يقول إنى رأيت سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ جمع «سمين» ضد هزِيل يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ أى سبع بقرات كن هزيلات، و «عجاف» جمع «أعجف» و هو الهزِيل و مؤنثه «عجفاء»، فقد أكلت البقرات الهزال البقرات السمان حتى دخلن فى بطن الهزال و أرى سَبْعَ سُنبُلَاتٍ و «السنبلة» هى العود الذى تنبت عليه حبوب الحنطة و الشعير و ما أشبه خُضِر جمع «خضراء»، أى قد انفتق حبها و كانت رطبة و سبع سنبلات أَخْرَ يَابِسَاتٍ قد حصدت فالتوت تلك اليابسات على تلك الخضضر حتى غلبن عليها.

يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أى الجماعة الأشراف، فإن الملأ هم الأشراف أَفْتُونِي فى رُءْيَاى أى أجيبوا عن هذه الرؤيا و عبروها لى إن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ أى إذا كنتم تعرفون التعبير. و سُمى تأويل الرؤيا تعبيرا يعبر بالإنسان من هذا الجانب- و هو جانب ظاهر الرؤيا- إلى ذلك تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ اذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) الجانب- و هو جانب باطنه و أوله- مأخوذ من «العبور» من شاطئ النهر إلى الشاطئ الآخر.

[٤٥] قَالُوا أى قال الملأ فى جواب الملك: إن رؤياك أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ «أضغاث» جمع «ضغث»، و هى قبضة الحشيش المختلط رطبها يابسها، و «أحلام» جمع «حلم» و هو المنام، أى إن هذه الرؤيا إنما هى أحلام مختلطة لا يعرف تأويلها، فكأنها إن كانت على وجه واحد عرف التأويل لها، أما إذا اختلطت، سمان و عجاف، حيوان و نبات، و تغلب الأضعف على الأقوى- بعكس القاعدة- فلا يعرف تأويلها و ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ التى هى من هذا القليل بعالمين و قد كان قولهم: «أضغاث أحلام» كمعذرة قدموها إلى الملك، نسبة لعدم علمهم بتأويلها.

[٤٦] وَ قَالَ السَّاقِي الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا مِنَ السِّجْنِ - كَلا الساقى و الخباز، اللذين سجنا مع يوسف- وَ اذْكَرَ أصله «ذكر» و لما جىء إلى باب الانتقال، صار «اذتكر»، فأبدلت التاء دالا، فصار «اذذكر»، و أدغمت الذال فى الدال لقرب مخرجهما، فصار «اذكر»، أى: و تذكر قصة يوسف عليه السلام بَعْدَ أُمَّةٍ أى بعد مدة، فإن «الأمة» بمعنى الجماعة، سواء كانت من الناس أو غيرهم أو من الزمان، أو نحوه، كأنه من «أم» بمعنى قصد، فكان الجماعة يدخل بعضها فى بعض و يقصد بعضها بعضا أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ أى أخبركم بِتَأْوِيلِهِ أى تأويل هذه الرؤيا فَأَرْسِلُونِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَ سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَ أَخْرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فى سُئِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) أى: فأرسلونى إلى يوسف لىأتى و يخبركم هو بتأويل الرؤيا، أو: فأرسلونى إلى يوسف لأسأله تعبيرا و أخبركم بالجواب.

فقد قال للملك: إن فى الحبس رجلا فاضلا صالحا كثير الطاعة، قد قصصت أنا و الخباز عليه منامين فذكر تأويلهما، فصدق فى الكل و لم يخطئ، فإن أذنت مضيت إليه و جئتكم بالجواب منه. فأذن له الملك، و جاء إلى يوسف عليه السلام ليخبره بتعبيرها، قائلا:

[٤٧] يا يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ الكثير الصدق فيما تخبر به، و إنما وصفه بهذا الوصف لأنه رأى صدقه فى تأويل رؤياه، و رؤيا زميله الخباز أَفْتِنَا أى أعطنا الجواب فى هذه الرؤيا سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ و كان تقديم السمان، مع أن مقتضى القاعدة أن يقول: «سبع بقرات عجاف يأكلن سبع سمان»، لأجل إفادة أنه رأى السمان قبل العجاف، كما أن التأويل أيضا كذلك، فقد تقدمت السنين الخصبة و سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ تلتف عليها و تغلبها أَخْرَ يَابِسَاتٍ فما تأويل هذه الرؤيا لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ الملك و حاشية

لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ التفسير، أو لعلهم يعلمون فضلك فينقذوك من السجن. و إنما قال: «لعلي» لأن الإنسان يحتمل حيولته الموت بينه وبين ما يقصده من المقاصد المستقبلية.

[٤٨] قال يوسف عليه السلام في جواب الساقى: أما البقرات السبع العجاف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٤٨]

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨)

و السنابل اليابسات فهن السنون الجديبة، و أما البقرات السبع السمان و السنابل السبع الخضر فإنهن سبع سنين مخصبات ذوات نعمة. أقول: كأن البقر و السنابل إشارتان إلى المأكّل، فإن الزرع و الضرع من البقر و السنبل و جنسهما، فقد أخبر عليه السلام بأن سبع سنين تكون مخصبة ثم تأتي سبع سنوات مجدبة يأكل الإنسان ما أذخر في المخصبة، و لذا التوت السنابل اليابسة على الخضر، و أكلت البقرات الهزال البقرات السمان.

ثم بين يوسف عليه السلام ما ينبغي لهم أن يعملوا تجاه هذا القحط الذى سيأتيهم بعد سبع سنين من الخصب، فقال: تَزْرَعُونَ «خبر فى معنى الإنشاء»، أى ازرعوا سَبْعَ سَنِينَ دَابًّا أى متواليةً بجهد وجد، أو بمعنى «على دأبكم و عادتكم فى الزراعة»، فإن «دأب» يأتى بالمعنيين فما حَصَدْتُمْ من الزرع الذى هو أكثر من كفايتكم فَذَرُوهُ أى دعوه فى سُئِيلِهِ لا تدوسوه، بل اتركوه ليقى أكثر، و لئلا يسرع إليه الفساد، فإن الحبوب فى سنبلها تبقى أكثر مدةً إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ مما تحتاجون فى نفس السنة، فادخروه لأكلكم و حوائجكم.

[٤٩] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ السبع سنين الخصبه سَبْعٌ من السنين شِدَادٌ جمع «شديد»، أى سنوات قحط و جذب صعاب على الناس تشتد عليهم لعدم الأكل و الزرع و الضرع يَأْكُلْنَ أى تلك السنوات الشدائد ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ما أبقيتم من الحبوب، لأجل تلك السنوات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٤٩]

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْرِضُونَ (٤٩)

و إنما قال: «يأكلن» ليطابق رؤيا الملك «يأكلهن سبع عجاف» و مثل هذا التعبير شائع فى المجاز، قال: «أكل الدهر ما جمعت و مالى». حكى فى المجمع: عن زيد بن أسلم أن يوسف عليه السلام كان يصنع طعام اثنين فيقربه إلى رجل فيأكل نصفه، حتى كان ذات يوم قربه إليه فأكله كله، فقال: هذا أول يوم من السبع الشداد.

أقول: و لا بعد فى ذلك، فإن الهواء من القحط - غير المصطنع - يتغير و يتطلب الجفاف و الفناء، فما يصيب الأرض، يصيب الحيوان و الإنسان.

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ استثناء من «يأكلن» أى أن السبع الشداد تنفق فيها جميع السنابل المحرزة إلا مقدار قليل مما أحصنتم و حفظتم فإنه يبقى ليكون بذرا للرخاء الذى يأتى بعد سنَى القحط السبع.

[٥٠] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الذى ذكرنا من الأعوام الشداد عامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ يمطرون، فإن الغيث بمعنى المطر و فِيهِ أى فى ذلك العام يَعْرِضُونَ ما اعتادوا عصره من أنواع الفواكه فى أوقات الخصب و الرخاء كالعنب و غيره. و هذا يدل على شدة الخصب حتى أن الناس يتأنقون فى المأكّل و المشرب. و لعل الإتيان بهذه اللفظة بمناسبة كون الرجل السائل كان الساقى العاصر للملك، و قد كان هذا إخبارا من يوسف عليه السلام بعلم الغيب خارجا عن المنام، لأن رؤيا الملك اشتملت على السبع الشداد، أما ماذا يكون بعدها، فلم يكن فى الرؤيا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٥٠]

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسئَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)

[٥١] ثم أن الساقى بعد ما علم التعبير من يوسف جاء الملك و أخبره أن الرجل السجين يقول هكذا فى تعبير رؤياك و حينئذ قال الْمَلِكُ لمن حوالبه ائْتُونِي بِهِ جيئوا إِلَيَّ بالسجين الذى عبر الرؤيا فَلَمَّا جَاءَهُ جاء يوسف الرَّسُولُ من قبل الملك ليخرجه من السجن، أبى يوسف عليه السَّلام الخروج حتى تتبين براءته من التهمة التى قذفته بها زليخا و أنه أراد بها سوء، ف قال يوسف للرسول: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ سيدك الملك فَسئَلُهُ أى اسأل منه ما بِأَلِ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ أى يتعرف الملك على حال تلك النسوة اللاتى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بالسكاكين لَمَّا رأينى. و إنما خصهن بالذكر لأنهن كن شاهدات على زليخا أنها دعت يوسف إلى الفاحش، فقد سبق أنها قالت لهن: «وَكَيْفَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَجَنَنَّ». و معنى «ما بال» أى ما شأنهن من تلك القصة.

فى بعض الأحاديث: إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أظهر التعجب لأمرين من قصة يوسف، الأول: أنه عبر رؤيا الملك بدون أن يشترط ذلك على خروجه من السجن. الثانى: أنه لم يخرج من السجن بعد الأمر بإطلاقه حتى تظهر براءته.

أقول: لعل يوسف لم يذكر امرأة العزيز تأديبا، أو لأنه علم أنها لا تعترف بأنها صاحبة الجريمة، بخلاف سائر النساء، و كان ذكر «قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» لأنه خير مذكر لهن بالقصة.

إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فهو سبحانه العالم بأنهن قد كدن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٥١]

قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصِيْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)

و مكرن- و إنما سمى كيدا، لأن أمرهن كان فى خفاء- و إنى برىء من القذف و التهمة.

[٥٢] ثم إن الرسول رجع إلى الملك، و قال له ما طلبه يوسف عليه السَّلام، فأرسل الملك إلى النسوة و دعاهن، و قال لهن: ما شأنكن مع يوسف؟ و ما تعلمون من قصته و قصة زليخا؟ قال الملك لهن:

مَا خَطْبُكَ أَيُّ مَا شَأْنُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ أى طلبتن انتزاع نفس يوسف و دعوته إلى أنفسكن، فهل كان مائلا إلى ذلك؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ أى تنزيها لله، و أصله «حاشا» حذف الألف تخفيفا، و هى كلمة تقال فى موارد، منها: فى مقام تبرئة المتهم، كأنه تعجب من قدرة الله على خلق بشر عفيف و برىء مثله ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ فإنه برىء لم يكن مائلا إلى الشهوة و إنما نحن كن مجرمات. و لفظ «عليه» كأنه بسبب أن سوء يركب على المجرم.

و كأن امرأة العزيز «زليخا» كانت من جملة النساء اللاتى استجوبهم الملك ف قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصِيْحَصَ الْحَقُّ أى ظهر الحق، و هو براءة يوسف. قال بعضهم: «حصحص» اشتقاقه من «الحصه» أى بانة حصه الحق من حصه الباطل، فظهر جليا واضحا لا لبس فيه و لا غموض أنا امرأة العزيز رَاوَدْتُهُ أى راودت يوسف، راجعته و اختلفت إليه عَنِ نَفْسِهِ لِأَسْلَبَ نَفْسِهِ، و أفضى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٢، ص: ٦٩٩

[سورة يوسف (١٢): آية ٥٢]

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

معه الشهوة و إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما قال «هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنِ نَفْسِي» فأنا كاذبة فى التهمة، و هو صادق فى براءته و كونى أنا المجرمة.

[٥٣] و هنا عاد الرسول إلى يوسف من السجن و أخبره باستجواب الملك للنساء، و أنهن اعترفن ببراءته عليه السَّلام و أنهن المجرمات. فقال يوسف:

ذَلِكَ الَّذِي طَلَبْتَ مِنَ التَّثَبُّتِ فِي أَمْرِي لِيُعَلِّمَ الْمَلِكَ - أو العزيز، على تقدير كونه الوزير- أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ أَي أَنِّي لَمْ أَخُنْ الْمَلِكَ فِي غِيَابِهِ بِقَصْدِ السُّوءِ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَ ذَكَرَ «بِالْغَيْبِ» لِبَيَانِ شِدَّةِ وَقْعِ الْخِيَانَةِ إِذَا وَقَعَتْ كَذَلِكَ، إِذْ خِيَانَةُ الْمُؤْتَمِنِ أَسْوَأُ مِنْ خِيَانَةِ غَيْرِهِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ أَي لَا يَنْقِذُهُ وَ لَا يُوَصِّلُهُ إِلَى مَقْصِدِهِ. وَ هَذَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْخَائِنَ إِنْ سَتَرَ أَمْرَهُ مَدَّةً، وَ هَبَّتِ الرِّيَاحُ نَحْوَهُ أَيَامًا، فَإِنَّهُ سَيُفْضَحُ وَ إِنْ كِيدَهُ سَيُفْشَلُ. وَ هُنَاكَ اِحْتِمَالٌ أَنَّ يَكُونُ هَذَا مِنْ كَلَامِ زَلِيخَا، تَرِيدُ: إِنَّمَا اعْتَرَفْتُ لِيُظْهِرَ أَنِّي لَا أَخُونُ يَوْسُفَ وَ هُوَ غَائِبٌ فِي السِّجْنِ بِأَنَّ أُنْسَبَ إِلَيْهِ الْجَرِيمَةُ، وَ كَذَلِكَ (وَ مَا أُبْرِيءُ نَفْسِي) «١»، مِنْ تَتَمُّةِ كَلَامِهَا.

(١) يوسف: ٥٤.

الجزء الثالث

[تنمة سورة يوسف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

وَ مَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَ قَالَ الْمَلِكُ اثْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)

[٥٤] وَ مَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ كَلَامِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ التَّوَضُّعُ، أَي أَنِّي لَا أَنْزَهُ نَفْسِي فَإِنْ مَا صَدَرَ مِنِّي مِنَ الْعِصْمَةِ أَمَّا كَانَ بِحِفْظِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَا أُرِيدُ تَرْكِيَةَ نَفْسِي، وَ الْعَجَبُ مِنْ عَمَلِي وَ طَهَارَتِي، كَمَا يَقُولُ أَحَدُنَا- إِذَا قِيلَ لَهُ أَنْتَ فَعَلْتَ كَذَا-: أَنَا لَمْ أَفْعَلْ وَ إِنَّمَا وَفَّقَنِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ، قَالَ سَبْحَانَهُ: (وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى «١» وَ إِنْ كَانَ مِنْ كَلَامِ زَلِيخَا- تَتَمُّةُ لِقَوْلِهَا: لَمْ أَخُنْهُ- كَانَ الْمُرَادُ أَنِّي وَ إِنْ اعْتَرَفْتُ حَالًا، وَ قُلْتُ «لَمْ أَخُنْهُ» لَكِنْ لَا أَنْزَهُ نَفْسِي عَنِ الْخِيَانَةِ، فَقَدْ خَنَتُ يَوْسُفَ فِي إِلْصَاقِ التَّهْمَةِ بِهِ، وَ إِلْقَائِهِ فِي السِّجْنِ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ أَي كَثِيرَةٌ الْأَمْرُ بِالسُّوءِ وَ الذَّنْبِ، فَإِنَّ «أَمَّارَةٌ» صَيْغَةٌ مَبَالِغَةٌ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي «مَا» إِمَّا مَوْصُولَةٌ، أَي إِلَّا النَّفْسَ الَّتِي رَحِمَهَا اللَّهُ، أَوْ وَقْتِيَّةٌ، أَي إِلَّا الْوَقْتَ الَّذِي رَحِمَ اللَّهُ، فَعَصَمَ النَّفْسَ عَنِ الذَّنْبِ إِنْ رَبِّي غَفُورٌ لِسَالِفِ الذَّنُوبِ رَحِيمٌ يَرْحَمُ الْإِنْسَانَ فَيَأْخُذُ يَدَهُ عَنِ الزَّلَّةِ وَ السَّقُوطِ.

[٥٥] وَ إِذْ تَمَّتِ الْبِرَاءَةُ وَ ظَهَرَ أَمْرُ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ طَهَارَةً وَ عِلْمًا قَالَ الْمَلِكُ اثْتُونِي بِهِ أَي جِئُوا إِلَيَّ يَوْسُفَ أَسْتَخْلِصُهُ أَجْعَلُهُ خَالِصًا لِنَفْسِي فَيَكُونُ وَزِيرِي وَ مُشَاوِرِي، فَإِنَّ الْاِسْتِخْلَاصَ طَلِبَ خُلُوصِ الشَّيْءِ مِنْ شَائِبِ الْاِسْتِرَاكِ فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولَ وَ أَخْرَجَ يَوْسُفَ مِنَ السِّجْنِ وَ لَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ كَلَّمَهُ فَعَرَفَ عَقْلَهُ وَ فَضْلَهُ وَ أَدْبَهُ حَتَّى صَارَ السَّمَاعَ عَيَانًا قَالَ الْمَلِكُ لَهُ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

(١) الأنفال: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٥٥]

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ (٥٥)

إنك عندنا ذو مكانة نافذ القول، مؤتمن.

[٥٦] قال يوسف عليه السلام للملك لما رأى مكانته عنده و منزلته لديه اجعلني على خزائن الأرض أى اجعلنى واليا على خزائنك المالية و الطعامية و غيرها لأدير شؤونها إني حفيظ أى حافظ ما تستودعنى عليه عليهم بكيفية تدبيرها و إدارتها، قال الملك فما ترى فى رؤياى أيتها الصديق؟ فقال يوسف أرى أن تجمع الطعام و تزرع زرعاً كثيراً فى هذه السنين المخصبة و تبني الأهواء و الخزائن و تجمع الطعام فيها بقصبه و سنبله ليكون قصبه و سنبله علفاً للدواب و تأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الذى جمعه لأهل مصر و من حولها و يأتيك الخلق من النواحي و يجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ذلك، فقال الملك و من لى بهذا و من يجمعه و يبيعه و يكفى الشغل فيه؟ فعند ذلك قال يوسف اجعلنى على خزائن الأرض.

و لما سلم الملك الأمر إلى يوسف أقبل عليه السلام على العمل.

قال الإمام الرضا عليه السلام: و أقبل يوسف على جمع الطعام فجمع فى السبع السنين المخصبة فوضعه فى الخزائن، فلما مضت تلك السنون و أقبلت السنون المجدة أقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم فى السنة الأولى بالدرهم و الدنانير حتى لم يبق بمصر و ما حولها ديناراً و لا درهماً إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الثانية بالحلى و الجواهر حتى لم يبق بمصر و ما حولها حلى و لا جوهراً إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الثالثة بالدواب و المواشى حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبداً و لا أمه إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الرابعة بالدور و العقار حتى لم يبق بمصر و ما حولها إلا صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة الخامسة بالمزارع و الأنهار حتى لم يبق بمصر و ما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩

حولها نهراً و لا مزرعة حتى صار فى ملكية يوسف، و باعهم فى السنة السادسة برباقهم حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبداً و لا حراً إلا صار عبد يوسف فملك أحرارهم و عبيدهم و أموالهم، و قال الناس ما رأينا و ما سمعنا بملك أعطاه الله ما أعطى هذا الملك حكماً و علماً و تدبيراً، ثم قال يوسف للملك: أيتها الملك ما ترى فيما خولنى ربي من ملك مصر و أهلها أشر علينا برأيك؟ فانى لم أصلحهم لأفسدهم و لم أنجهم من البلاء لأكون وبالاً عليهم، و لكن الله سبحانه نجاهم على يدي، قال له الملك: الرأى رأيك، قال يوسف: أنى أشهد الله و أشهدك أيتها الملك أنى قد أعتقت أهل مصر كلهم و رددت عليهم أموالهم و عبيدهم و رددت عليك أيتها الملك خاتمك و سريرك و تاجك على أن لا تسير إلا بسيرتى و لا تحكم إلا بحكمى، قال له الملك: إن ذلك لشرفى و فخرى ألا أسير إلا بسيرتك و لا أحكم إلا بحكمك و لولاك ما قويت عليه و لا اهتديت له، و لقد جعلت سلطانى عزيزاً كما يرام و إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك رسوله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين، و من ظريف ما ينقل ما نقله على بن إبراهيم، بما ملخصه أن عزيز زوج زليخا مات فى تلك السنين المجدة و افتقرت امرأة العزيز و احتاجت حتى سألت الناس فقالوا لها ما يضرك لو قعدت للعزيز؟

و كان يوسف يسمى العزيز و كل ملك كان لهم سموه بهذا الاسم، فقالت أستحى منه، فلم يزلوا بها حتى قعدت له، فأقبل يوسف فى موكبه، فقامت إليه زليخا و قالت سبحان من جعل الملوك بالمعصية عبيداً و العبيد بالطاعة ملوكاً، فقال لها يوسف أنت تيك؟ قالت: نعم، ثم أن يوسف عليه السلام تزوجها و جعلها فى جملة أهله «١».

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)

[٥٧] وَكَذَلِكَ أَى كَمَا أَنْعَمْنَا عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ بِالنَّبُوءِ وَ سَائِرِ الْمَزَايَا، كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ أَى مِصْرَ يَتَّبِعُ مِنْهَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا وَيَأْخُذُ الْمَحَلَّ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ فَقَدْ جَمَعْنَا لَهُ النَّبُوءَ وَالْمَلِكُ وَ هَكَذَا كُلُّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَ خَرَجَ مِنَ الْامْتِحَانِ نَاجِحًا نُصَيْبٌ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَكِنْ بَعْدَ الْاِخْتِبَارِ وَالْامْتِحَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ لُغْوًا، وَ لَا يَمْنَحُ اعْتِبَاطًا وَ عِبْنًا وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَحْسِنُونَ فِي الْعَقِيدَةِ وَ الْعَمَلِ.

[٥٨] وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ ثَوَابُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ ثَوَابِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ بَاقٍ لَا مَنْتَهَى لَهُ، وَ لَيْسَ مَشُوبًا بِالْأَكْدَارِ وَ الْآلَامِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانَوا يَتَّقُونَ بِأَنْ جَمَعُوا بَيْنَ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ كَانَ لَا- يَمْتَلِي شَبَعًا مِنَ الطَّعَامِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمَجْدُبَةِ، فَقِيلَ لَهُ تَجُوعٌ وَ يَبِيدُكَ خَزَائِنُ الْأَرْضِ؟ فَقَالَ أَخَافُ أَنْ أَشْبِعَ فَأَنْسِيَ الْجِيَاعَ «١».

[٥٩] وَ لَمَّا تَمَكَّنَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ بِأَرْضِ مِصْرَ، وَ جَاءَ الْجَدْبُ فَأَصَابَ النَّاسَ الْقَحْطَ نَزَلَ بِآلِ يَعْقُوبَ مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ فَجَمَعَ يَعْقُوبَ بِنِيهِ وَ قَالَ لَهُمْ:

بَلِّغْنِي أَنَّهُ يَبَاعُ الطَّعَامَ بِمِصْرَ وَ أَنَّ صَاحِبَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ فَادْهَبُوا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ

(١) شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد: ج ١١ ص ٢٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١

سَيَحْسِنُ إِلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَتَجَهَّزُوا وَ أَخَذُوا بَعْضَ الْبَضَائِعِ يَعْطُوهَا فِي مِقَابِلِ الْقَمْحِ وَ سَارَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ، وَ لَمْ يَخْرُجْ مَعَهُمْ بِنِيَامِينَ أَخُو يُوسُفَ حَتَّى وَرَدُوا مِصْرًا وَ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ «أَخُوهُ» جَمَعَ أَخُو فَدَخَلُوا عَلَيْهِ عَلَى يُوسُفَ، وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ كَانَ يَتَوَلَّى الْبَيْعَ بِنَفْسِهِ «١»، وَ لَذا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ أَى عَرَفَ يُوسُفَ إِخْوَتَهُ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ يَنْكُرُونَ يُوسُفَ وَ لَا يَعْرِفُونَهُ لَمَّا مَرَّ مِنَ الزَّمَانِ وَ تَغَيَّرَتِ مَلَاحِجُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ مِنَ الصَّبَاوَةِ إِلَى الشَّبَابِ، فَقَدْ مَرَّ عَلَى فِرَاقِهِمْ لَهُ مَا يَقْرَبُ مِنْ خَمْسَةِ عَشْرَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ، بَلْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْفَاصِلَةُ كَانَتْ أَرْبَعِينَ سَنَةً «٢».

رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامِ: أَنَّ يُوسُفَ قَالَ لِلْأَخُوَّةِ قَدْ بَلَّغْنِي أَنَّ لَكُمْ أَخُوَيْنِ مِنْ أَبِيكُمْ فَمَا فَعَلْتُمْ؟ قَالُوا أَمَا الْكَبِيرُ مِنْهُمَا فَإِنَّ الذَّنْبَ أَكَلَهُ وَ أَمَا الصَّغِيرُ فَخَلْفَنَاهُ عِنْدَ أَبِيهِ وَ هُوَ بِهِ ضَنِينٌ وَ عَلَيْهِ شَفِيقٌ قَالَ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَأْتُونِي بِهِ مَعَكُمْ إِذَا جِئْتُمْ تَمْتَارُونَ «٣»، وَ قَالَ الْقَمِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَحْسَنُ يُوسُفَ لَهُمْ فِي الْكَيْلِ وَ قَالَ لَهُمْ مِنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ بَنُو يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ الَّذِي أَلْقَاهُ نَمْرُودُ فِي النَّارِ فَلَمْ يَحْتَرَقْ فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَ سَلَامًا، قَالَ: فَمَا فَعَلَ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا شَيْخٌ ضَعِيفٌ، قَالَ: فَلَكُمْ أَخٌ غَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: لَنَا أَخٌ مِنْ أَيْبِنَا لَا مِنْ أُمَّنَا قَالَ فَإِذَا رَجَعْتُمْ فَأْتُونِي بِهِ «٤».

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٤٦

(٢) مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٢٢

(٣) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٨٧

(٤) تفسير القمي: ج ١ ص ٣٤٦

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٥٩ الى ٦٢]

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون (٦٠) قَالُوا سَتَرْنَاوَدَّ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

[٦٠] وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جهاز البيت متاعه و جهزت فلانا أى هيات أمتعته سفره، و منه جهاز المرأة، و المعنى أنه حمل لكل واحد منهم طعاما قال يوسف لهم ائتوني أى جيئوا إلى بآخ لكم من أبيكم بنيامين، فإنه لم يكن من أهمهم، و إنما أمه أم يوسف ألا ترون أنى أوفى الكيل أى لا- أبخس الناس شيئا فإذا جاء أحد للطعام أعطيته، فإذا جئتم كان طعامكم أكثر و أنا خير المنزلين بصيغته اسم الفاعل، أى خير المضيفين، فإنى حسن الضيافة لكل وارد، حسن التجهيز لكل ممتار، ثم هددهم بأنهم إن لم يأتوا به فى المرة الثانية فإنه لا يعطيهم القمح و لا يضيفهم.

[٦١] فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ بأخيكم بنيامين فلا كيل لكم عندي لا أكيل لكم الطعام و لا تقربون بلادى، فإنه لا حظوة لكم عندي.

[٦٢] قَالُوا قَالَتِ الْأَخُوَّةُ فِي جَوَابِ يَوْسُفَ سَتَرْنَاوَدَّ عَنْهُ أَى عَنْ بِنِيَامِينَ أَبَاهُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَى سَنَجْتَهِدُ فِي طَلْبِهِ مِنْ أَبِيهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ أَى نَفْعَلُ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالْأَخِ.

[٦٣] وَقَالَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفِتْيَانِهِ جَمَعَ فَتَى وَهُوَ الْعَبْدُ، وَ الْمَرَادُ هُنَا الَّذِينَ كَانُوا يَكِيلُونَ الطَّعَامَ لَهُمْ وَ الْأَعْوَانُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِشُؤْنِهِ وَ أَمْرِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ أَى اجْعَلُوا الثَّمَنَ الَّذِي جَاءُوا بِهِ لِأَجْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٣]

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣)

شراء الطعام- و كان مقلما و نحوه- فى متاعهم و أثاثهم و أوعيتهم لعلهم يعرفونها يعرفون البضاعة المردودة إليهم، و إنما قال «لعل» لأن المعرفة غير لازمة فى مثل هذه الأمور فى البيوت الكبار فإن الحمل إذا جاء و دخل البيت لم يكن المكلف بفتحه الرجال الذين كانوا يعرفون الأشياء بل الخدم و النساء، و كثيرا ما لا يدرون هم ما ذهب به، مما جىء به، فيشتبه الأمر عليهم، إذا انقلبوا رجوعا إلى أهلهم أبيهم و أقربائهم لعلهم يرجعون حيث رأوا الإكرام و الاحترام و إن بضاعتهم ردت إليهم، يرجعون مرة ثانية إلى مصر لشراء الطعام، و ربما قيل أن احتمال رجوعهم كان لأجل أن يردوا الثمن بظن اشتباه حاشية الملك، و أن يوسف علم أنه ليس لهم غير ذلك فإذا أخذه لم يكن لهم ثمن يرجعون به لشراء طعام جديد.

[٦٤] فَلَمَّا رَجَعُوا الْأَخُوَّةُ إِلَى أَبِيهِمْ وَ مَعَهُمُ الطَّعَامُ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ إِنْ لَمْ نَذْهَبْ وَ مَعَنَا آخِينَا بِنِيَامِينَ فَقَدْ قَالَ الْمَلِكُ: «فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» فَالمراد تقرر منعه عنا- و منع بالفعل الماضى لإفادة أنه قرر أن يوتى به فى المستقبل- كما يقول القائل: هل تفعل كذا؟ فيجيب المسؤول: صار، أى تقرر، و ذلك لأن المضارع المتحقق الوقوع ينزل بمنزلة الماضى، و من المحتمل أن يراد أن الملك منع منا إعطاء الكيل لأخينا بنيامين حيث لم يكن معنا، و لعل ذلك لأجل أن يوسف أعطاهم بعددهم و عدد من تخلف من أبيه و أهله كيلا، دون بنيامين، حرصا لأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَ جَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانًا وَ نَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥) يَأْتُوا بِهِ فَأَرْسِلْ أَيُّهَا الْأَبُ مَعَنَا آخَانًا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ نَكْتَلُ أَى نَأْخُذُ الطَّعَامَ بِالْكَيْلِ لِلْجَمِيعِ، يُقَالُ كَلْتُ فَلَانًا، أَى أُعْطِيْتَهُ الشَّيْءَ كَيْلًا، وَ

اكتلت عليه أخذت منه الكيل، من باب الافتعال، و أصله نكتال حذف الألف، لأن الفعل وقع في جواب الأمر، فجزم، فالتقى الساكنان «الألف و اللام» فحذفت الألف و إنا له أى للأخ بنيامين لحافظون أن يصيبه الأذى فقد كان يعقوب شديد القلق به لا يتمكن من مفارقتة، و بعد فقد يوسف صارت محافظته له أشد حيث كان أخاه من الأبوين، و قد تقدم قول الأخوة «ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا» [٦٥] قال يعقوب عليه السلام في جواب الأخوة هل آمنكم عليه فاستفهام إنكارى أى لا آمنكم عليه فلستم أنتم موضع الأمن و الثقة إلا كما أمثتكم على أخيه يوسف عليه السلام من قبل و قد قلت في يوسف إنا له لحافظون ثم لم تفوا بضمناكم، و المعنى ليس آمن على بنيامين إلا كأمنى على يوسف- من قبل- فالله خير حافظاً من حفظكم فإذا سلمته إليكم توكلت عليه في الحفظ لا عليكم و هو أرحم الراحمين يرحم ضعفى و شيخوختى فلا ينالنى مكروه من جهة فقد بنيامين بسبب رحمته و فضله.

[٦٦] و قد كان هذا الحوار بين الأخوة و بين يعقوب قبل أن يفتحوا المتاع و لما فتحوا متاعهم أوعيه الطعام التى ملؤها فى مصر و وجدوا بضاعتهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٦]

قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتينى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول و كيل (٦٦) التى ذهبوا بها ثمننا للطعام ردت إليهم لما تقدم من أن يوسف قال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم، قالوا يا أبانا ما نبغى ماذا نطلب أكثر من هذا أكرمنا و أعطانا الطعام و لم يأخذ منا الثمن هذه بضاعتنا التى ذهبنا بها ردت إلينا ردها الملك فلم يأخذها، فأرسل معنا أخانا إلى الملك لتأخذ منه الطعام و نميز أهلنا أى نجلب إليهم الميرة، و هى الطعام الذى يجلب من بلد إلى بلد، يقال مارهم إذا جلب إليهم الطعام و نحفظ أخانا بنيامين فى السفر لثلا يصيبه أذى و نردأ كئيل بغير تأخذ من الملك كيل بغير زائد، لحصه أخينا، فقد كان يكال لكل رجل حمل بغير ذلك الكيل الزائد كئيل يسير عند الملك لمن ذهب إليه.

[٦٧] و قد أثر كلام الأخوة، و ما رأى من إكرام الملك برد البضاعة، و استسلم لإرسال بنيامين، لكنه اشترط عليهم قال لن أرسله أى قال يعقوب: لن أرسل بنيامين معكم حتى تؤتون تعطونى موثقاً من الله ما يوثق به من عهد أو يمين من طرف الله سبحانه، بذكره عن اسمه فى العهد- كأن يقولوا نعاهد الله- فيكونوا فى حرج من جهته سبحانه، كما أنهم فى حرج من جهة عهدهم لتأتينى به أى تردون إلى الابن، و لا تغدروا به إلا أن يحاط بكم أى إلا أن تغلبوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٧]

و قال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد و ادخلوا من أبواب متفرقة و ما أغنى عنكم من الله من شئ إن الحكم إلا لله عليه توكلت و عليه فليتوكل المتوكلون (٦٧)

فلا يكون الأمر تحت اختياركم، كأن يحيط البلاء بهم فلا يتمكنوا من الفرار منه و لا مسلك لهم لإنقاذ بنيامين، يقال أحاط به البلاء فهو محاط به، فلما آتوه أعطى الأخوة، لأبيهم موثقهم المؤكد قال يعقوب تأكيداً الله على ما نقول و كيل أى شاهد حافظ إن أخلقتم و ختمت انتصف لى منكم.

[٦٨] و لكن الأب الرؤوف خاف على أولاده من العين فقد كانوا جماعة أبطالا حسنى المنظر و الجمال، و جميعاً أولاد رجل واحد فإذا رآهم الرائي ملؤوا قلبه و عينه، و لذا وصاهم بالتفرق عند دخول المدينة و قال يا بنى أصله بنونى و هو جمع ابن مضافاً إلى ياء المتكلم، لكن نون الجمع حذف بالإضافة- على القاعدة- و الواو أدغم فى ياء المتكلم. كما نقلت ضمة النون إلى الباء لا تدخلوا مصر من باب واحد حتى تصيبكم العين و ادخلوا من أبواب متفرقة فقد كانت المدن- سابقا- ذات أسوار و أبواب، و ما أغنى عنكم من الله من شئ أى ما أذفع من قضاء الله من شئ إن كان قد قضى عليكم الإصابة بالعين، يقال: أغنى عنه، إذا دفع عنه، و أصله الكفاية،

كأن الشخص يكفيه عن أمر يدهمه، وقد قال ذلك يعقوب على وجه التسليم له سبحانه منها أن أمرى إنما كان لأجل الطوارئ، أما إذا كان شىء حتما فلا دافع له **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** أى ليس الحكم فى الأمور- التى منها إصابتكم بالعين أو عدم إصابتكم- إلا لله سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٨]

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَتُهُ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى أن يرد عنكم عين الحساد ويرجعكم إلى سالمين.

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ أى المريدون للتوكل على أحد، عليهم أن يتوكلوا عليه، ويفوضوا أمورهم إلى الله سبحانه لا إلى غيره و هذا لا ينافى الأخذ بالحزم حسب الموازين التى قررها سبحانه فى الكون.

[٦٩] وقد أجاز الأب استصحاب بنيامين لهم، فشدوا أمتعتهم و خرجوا جميعا من المدينة قاصدين مصر لمرّة ثانية و لَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ أى من أبواب متفرقة كما وصاهم يعقوب ما كان دخلوهم متفرقين و المعنى أن أمر الأب لم ينفذ شيئا و إنما كان مطلبا يختلج فى نفس يعقوب. يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قِضَاهُ و قدره، أى لم ينفعهم ذلك بعد أن أراد الله سبحانه أن يبقى أحدهم- و هو بنيامين- فى مصر، فلا يتمكنون أن يرجعوه إلى أبيهم **إِلَّا حَاجَتُهُ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** أى قضى تلك الحاجة بأمرهم الدخول متفرقين فأظهره، أما التقدير فقد عمل عمله، إذ نسبوا إلى السرقة، و أخذ الملك بنيامين و **إِنَّهُ لَدُو عَلِيمٍ** أى إن يعقوب ذو يقين و معرفة بالله **لِمَا عَلَّمْنَاهُ** أى لأجل تعليمنا إياه و لذلك قال: و ما أغنى عنكم من الله من شىء و **لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** أن القدر هو الحاكم و أنه لا يغنى الحذر إذا قدر شىء فيظنون أن الأمور كلها بيد الإنسان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٦٩]

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)

و إنه مهما فعل و الحال أن الأمر ليس كذلك فإن الله سبحانه خلق الإنسان و خلق أسبابا كونية، و جعل بعضها تحت قدرة الإنسان، و ربما اقتضت مصلحته أن لا- يمكن الإنسان- من تلك الأسباب- إما بتعجيز الإنسان، و إما بجعل موانع فى تلك الأسباب، فللاإنسان قدرة واحدة، و للقدر منقدان لصد هذه القدرة، فمثلا إن الله سبحانه جعل زرع الأرض تحت قدرة الإنسان، لكنه ربما لا يشاء ذلك فيعجز الإنسان عن الزرع بمرض أو فقر أو نحوهما، أو يخلق ريحا سامة، أو مطرا مؤذيا، أو سوسا آكلا، فلا يتمكن الإنسان من تنفيذ قدرته، و لذا يجب التوكل فى كل الأمور عليه سبحانه، فمن رأى كل الأمور من الله سبحانه حتى عمل العبد، فهو جبرى فاسد العقيدة، و من رأى كل الأمور مفوضة إلى الإنسان فهو مفوض منحرف الاعتقاد، بل لا- جبر و لا- تفويض و إنما أمر بين أمرين ... أما أكثر الناس فإنهم و لو لم يكونوا بمفوضة لكنهم يظنون أن الأمور تحت إرادتهم و اختيارهم، و ينصرفون عن التوكل، و لذا يتعجبون فيما إذا حال دون إرادتهم حائل، و من الضرورى أن يتوكل الإنسان فى أمره إليه سبحانه، حتى يتفضل الله بعدم إيجاد الحائل، و إقدار العبد على ما أراه.

[٧٠] و لَمَّا دَخَلُوا أى دخل أولاد يعقوب على يوسف فى محله المعد لهم و كان يوسف حينذاك حاضرا آوى يوسف عليه السلام، من أوى، يقال أوى إلى منزله إذا صار إليه، و منه الإيواء بمعنى إعطاء المكان إليه أى إلى نفسه أخاه بنيامين فأنزله معه و ضمه إلى نفسه، ثم قال يوسف لبنيامين **إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** يوسف الذى ألقوه الأخوة فى الجب قبل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩

[سورة يوسف (١٢): آية ٧٠]

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِخْلِ أَحِيهِ ثُمَّ أَدَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠)

سنوات و قالوا أنه أكله الذئب فلا تَبَيَّنَسْ من الابتئاس بمعنى اجتلاب الغم و الحزن و البؤس، أى لا تحزن بما كانوا أى كانت الأخوة يَعْمَلُونَ سابقا من الازدراء بك و بأخيك، و من الحسد عليكما.

روى عن الصادق عليه السَّلام أنه قال: كان يوسف قد هيا لهم طعاما فلما دخلوا عليه قال: ليجلس كل ابن أم على مائدة واحدة، فجلسوا و بقى بنيامين قائما، فقال له يوسف: مالك لا تجلس؟ قال له: إنك قلت ليجلس كل ابن أم على مائدة و ليس لى فيهم ابن أم، فقال: أما كان لك ابن أم؟ قال بنيامين: بلى قال: يوسف فما فعل؟ قال: زعم هؤلاء أن الذئب أكله قال: فما بلغ من حزنك عليه قال: ولد لى أحد عشر ابنا كلهم اشتقت له اسما من اسمه فقال له يوسف: أراك قد عانقت النساء و شممت الولد من بعده قال بنيامين: إن لى أبا صالحا و إنه قال: تزوج لعل الله أن يخرج منك ذرية تثقل الأرض بالتسييح، فقال له: تعال فاجلس معى على مائدتى، فقال أخوة يوسف: لقد فضل الله يوسف و أخاه حتى أن الملك قد أجلسه معه على مائدته، و ورد أن يوسف بعد ما عَرَف نفسه لأخيه قال له: أنا أحب أن تكون عندى فقال: لا يدعونى إخوتى فإن أبى قد أخذ عليهم عهدا لله و ميثاقه أن يردونى إليه فقال يوسف: أرى طريقة لبئائك، فلا تنكر إذا رأيت شيئا، فقال بنيامين: لا «١».

[٧١] فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ أَى جَهَّزَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ الْأَخُوَّةَ بِجَهَّازِهِمْ بِأَن مَلَأَ

(١) تفسير العياشى: ج ٢ ص ١٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠

أوعيتهم بالطعام، و جعل لكل واحد منهم حمل بعير، أمر بعض غلمانة حتى جَعَلَ السَّقَايَةَ أَى الصَّاعِ الَّذِى كَانَ يَكَالُ بِهِ، وَ أَصْلُ السَّقَايَةَ اسْمٌ لِلْإِنَاءِ الَّذِى يُسْقَى بِهِ فِي رِخْلِ أَحِيهِ أَى فِي مَتَاعِ بَنِيَامِينَ، وَ إِنَّمَا أَضَافَ سَبْحَانَهُ «جَعَلَ السَّقَايَةَ» إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ كَانَ هُوَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ ثُمَّ أَدَّنَ مُؤَذِّنٌ الْأَذَانَ هُوَ الْأَعْلَامُ، أَى أَعْلَمَ قَائِلًا أَيُّهَا الْعَبْرُ أَى الْقَافِلَةَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَدْ سَرَقْتُمْ سَقَايَةَ الْمَلِكِ، أَقُولُ لَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ يَوْسُفَ هُوَ الَّذِى أَمَرَ بِهَذَا النَّدَاءِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِدَسِ الصَّاعِ فِي رَحْلِ بَنِيَامِينَ وَ كَانَ أَمْرُهُ هَذَا خَفِيَةً حَتَّى لَا يَظْهَرُ أَحَدٌ عَلَيْهِ، وَ مِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنَّ يَتَفَحَّصُ الْحَاشِيَةَ عَنِ الْمَفْقُودِ وَ يَتَهَمُوا بَعْضَ النَّاسِ بِالسَّرْقَةِ، وَ لَمْ يَكُنِ الْإِتْهَامُ مَنَكْرًا يَعْلَمُ الْفَاعِلُ بِكَوْنِهِ مَنَكْرًا، حَتَّى يَجِبَ النَّهْيُ عَنْهُ، فَيَقَالُ: كَيْفَ لَمْ يَنْهَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْمَنَكْرِ؟ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمَنَكْرِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ عِلْمِ الْفَاعِلِ بِكَوْنِهِ مَنَكْرًا، أَمَا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَاجِبٍ، نَعَمْ يَجِبُ فِي الْأَحْكَامِ مِنْ بَابِ إِرْشَادِ الْجَاهِلِ، وَ لَيْسَ الْإِتْهَامُ حَكْمًا وَ إِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ، وَ هُنَاكَ سَأَالٌ أَنَّهُ كَيْفَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا يَدْخُلُ فِيهِ الْغَمُّ وَ الْحُزْنُ عَلَى جَمَاعَةٍ؟ وَ الْجَوَابُ أَنَّ الْإِيذَاءَ لَا يَجُوزُ أَمَا إِذَا صَنَعَ الْإِنْسَانُ صَنْعًا مَبَاحًا يَتَأَذَى بِهِ الْغَيْرُ فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ بَيْنِ دَارَا وَسَيْعَةٍ، أَوْ يُؤَلَّفُ مَوْلًا جَيِّدًا، أَوْ يَتَوَلَّى مَنْصِبًا مَرْمُوقًا، يَكْثُرُ حَسَادُهُ وَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْغَمُّ حَتَّى أَنْ بَعْضَهُمْ لَا يَنَامُ اللَّيَالِي وَ لَا يَسْتَقِرُّ الْأَيَّامُ وَ مَعَ ذَلِكَ فَهُوَ جَائِزٌ بَلْ قَدْ يَسْتَحِبُّ أَوْ يَجِبُ، وَ قَدْ كَانَ حَفِظَ يَوْسُفَ لِبَنِيَامِينَ لَدَيْهِ جَائِزًا، وَ رُبَّمَا يَقَالُ: فَمَا كَانَتِ الْمَصْلُحَةُ فِي أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧١ إلى ٧٢]

قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)

لا يبدى يوسف نفسه لهم حتى لا يحتاج إلى تدبير هذه العملية؟

و الجواب أنه لعل الله سبحانه أراد بذلك تخفيف ذنب الأخوة، بالهول و الخجل الذى دخل عليهم، أما الأب فقد كان حزنه رفع درجته- إن لم نقل أنه بسبب ترك الأولى الذى صدر منه فى قصة عدم إطعام الفقير، كما فى التفاسير.

[٧٢] قالوا أى قال أصحاب العير، و هم أخوة يوسف، و لم يعلم أنه كان معهم غيرهم أم لا و أقبلوا عَلَيْهِمْ أى على أصحاب يوسف، و كان «أقبل» عدى ب «على» لإشراجه معنى التوجه و الإقبال، كأنه قال: أقبلوا عليهم سامعين كلامهم قائلين ما ذا تَفَقَّدُونَ أى ما الذى فقدتموه من متاعكم يا حاشية الملك.

و قد كان أخوة يوسف عليه السّلام واثقين من أنفسهم أنهم لم يسرقوا شيئاً فلما ذا يخافون؟ و لذا قالوا بكل جرأة: «ماذا تفقدون»؟ و استعدوا للإعطاء الجزاء - كما يأتى - إن كانوا هم السارقين.

[٧٣] قالوا أى قال أصحاب يوسف نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ فقد متعدد، و لذا يقال: مفقود، و الصواع اسم مفرد بمعنى الكيل، أى نفقد كيل الملك الذى به يكال الطعام، ثم أن بعض أصحاب الملك وعد الذى يأتى به جائزة قائلاً و لِمَنْ جاء به أى بالصواع حِمْلٌ بَعِيرٍ من الطعام و أنا به زَعِيمٌ أى أنا كفيل ضامن بالوفاء و ليس ذلك خداعاً نريد به أن يظهر الصاع فيعاقب الآتى به عوض أن نجيزه - كما جرت عادة الملوك الطغاة -.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٣ الى ٧٥]

قالوا تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئنا لِنُفْسِدَ فى الْأَرْضِ و ما كُنّا سارقينَ (٧٣) قالوا فما جزاؤه إن كُنْتُمْ كاذبينَ (٧٤) قالوا جزاؤه من وُجِدَ فى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاءُ كَذِبِكَ نَجْزى الظّالِمينَ (٧٥)

[٧٤] قالوا أى أخوة يوسف تَاللّهِ نحلف لَقَدْ عَلِمْتُمْ أيها القوم، و هذه جملة معترضه، و إنما متعلق الحلف قوله ما جِئنا لِنُفْسِدَ فى الْأَرْضِ أى للأعمال السيئة و ما كُنّا سارقينَ فى يوم من الأيام، خصصوا السرقة بعد تعميم نفي الفساد لأنه كان موضع التوهم، و قوله: «لقد علمتم» أى أنه، ظهر لكم من حسن سيرتنا و كوننا أصحاب حسب و نسب إن مثل هذا العمل لا يصدر منا.

[٧٥] قالوا أى قال غلمان يوسف و حاشيته فما جزاؤه أى جزاء السرقة، أو جزاء السارق إن كُنْتُمْ كاذبينَ بأن ظهر الصواع فى حملكم؟ و إنما سألوهم، لأن شريعته يعقوب كانت تحكم بأخذ السارق و استرقاقه، أو حبسه، عند المسروق منه، و ذلك بخلاف دين ملك مصر، فقد كانت للسرقة عنده جزاء خاصاً، فأراد يوسف عليه السّلام أنهم يحكمون حسب الشريعة ليتسنى له إبقاء الأخ عنده، أما لو جوزى حسب دين الملك، فقد كان يعطى الجزاء و ينصرف إلى أبيه.

[٧٦] قالوا أى قالت أخوة يوسف جزاؤه أى جزاء السارق من وُجِدَ المسروق فى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاءُ أى أن السارق بنفسه جزاء السرقة، يبقى محبوساً، أو مسترقاً، عند المسروق منه كَذِبِكَ الذى ذكرنا نَجْزى الظّالِمينَ بالسرقة، لأن السرقة نوع من الظلم، و لما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣

[سورة يوسف (١٢): آية ٧٦]

فَيدأُ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذِبِكَ كِذْبا لِيُؤسِفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فى دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَزِغٌ دَرَجاتٍ مِنْ نِشاءٍ وَ فَوْقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

تبانى الطرفان على أنه إن وجد الصواع فى رحل أحد منهم يبقى عند الملك، أمر يوسف عليه السّلام بتفتيش الرحال.

[٧٧] فَيدأُ أى ابتداء يوسف، أو بعض حاشيته بِأَوْعِيَّتِهِمْ أوعيه الأخوة التى كانت مليئة من الطعام قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ بنيامين، و إنما فعل لإزالة التهمة، و لثلا يقولوا، أن الأمر كان مدبراً ثُمَّ اسْتَخْرَجَها أى السقاية مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ بنيامين، فى المجمع: فأقبلوا على بنيامين و قالوا له: فضحتنا و سوّدت و جوهنا متى أخذت هذا الصاع؟ فقال:

وضع هذا الصاع فى رحلى الذى وضع الدراهم فى رحالكم - يريد، فى المرة الأولى حيث وجدوا بضاعتهم ردت إليهم - كَذِبِكَ أى كذلك الذى ذكرنا كِذْبا لِيُؤسِفَ الكيد هو التدبير الدقيق الخفى على الناس، كما قال سبحانه: (وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) «١»، و معنى كيد الله ليوسف، إلهامه سبحانه إياه بهذا التدبير الذى يسبب إبقاء أخيه عنده، و قد تقدم أن ذلك لعلّه كان لأجل تخفيف ذنب

الأخوة، بالهول و الفرع الذى لحقهم من هذا العار، ثم بين سبحانه وجه التدبير بقوله ما كان ليوسف لأن يأخذ أخاه في دين الملك أى فى دين ملك مصر، فإن طريقتهم كانت على مجازاة السارق لا أخذه بنفسه جزاء سرقة، فقد دبر له سبحانه أن يقول للأخوة «ما جزاؤه إن كنتم

(١) الأعراف: ١٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤

[سورة يوسف (١٢): آية ٧٧]

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
كاذبين» ليقولوا هم جزاؤه المسبب لبقائه عند الملك إلا أن يشاء الله استثناء منقطع، فيدبر هذا التدبير لأخذه، و قد تقدم فى بعض المباحث السابقة، إن الاستثناء إنما يؤتى به كثيرا فى الكلام، لغرض المتكلم أن صلب الموضوع هو الأصل، و إنما القيد السابق على الاستثناء كلام خارجي، فكان الكلام فى المقام هكذا: «ما كان ليأخذ أخاه» «إلا أن يشاء الله» «فإن دين الملك لم يكن يسمح بذلك» نَزَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ كَمَا رَفَعْنَا دَرَجَةَ يُوسُفَ بِالنَّبُوَّةِ وَ الْعِلْمِ وَ التَّدْبِيرِ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ فلم يكن يوسف عليه السلام أعلم الموجودات، بل كل عالم فوّه أعلم منه، حتى يصل الأمر إلى العالم لجميع الأمور و هو سبحانه و كأنه لثلاثا يتوهم أن قوله «نرفع» أنه عليه السلام بلغ آخر مرتبة العلم، حتى أنه حوى كل شىء.

[٧٨] و لما رأى الأخوة أن الصواع خرج من رحل بنيامين، أرادوا أن يبرءوا ساحه أنفسهم، مبينين أن السرقة إنما اقترفها هذا الأخ، لعرق لحقه من أمه، و إلا- فيعقوب أجل من أن يسرق ابنه، و استشهدوا لذلك بأن أبا لبنيامين- يقصدون يوسف- قد سرق سابقا أيضا، فهذان الأخوان اللذان من أم واحدة تعاطيا هذه السيئة قالوا أى قالت الأخوة، ليوسف إن يسرق الآن، بنيامين فقد سرق أخ له من أمه من قبل يعنون اتهام يوسف بالسرقة.

روى عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: كانت لإسحاق النبي عليه السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥

منطقه يتوارثها الأنبياء و الأكابر و كانت عند عمه يوسف، و كان يوسف عندها، و كانت تحبه، فبعث إليها أبوه أن ابغثه إلى و أردّه إليك، فبعثت إليه: أن دعه عندى الليلة أشمه ثم أرسله إليك غدوة، فلما أصبحت أخذت- أى العمه- المنطقه فربطتها فى حقوه «١» و ألبسته قميصا و بعثت به إليه، و قالت «٢»: سرقت المنطقه فوجدت عليه، و كان إذا سرق أحد فى ذلك الزمان، دفع به إلى صاحب السرقة، فأخذته، فكان عندها.

أقول: فإنهم أشاروا إلى هذه السرقة، و لم يكن يوسف عليه السلام سرق شيئا و إنما بهت بها، كما أن بنيامين لم يكن سرق شيئا، و إنما ألصقت به، و لما قالت الأخوة «فقد سرق أخ له» «٣» فأسرّها أى أخفى تلك القصة يوسف فى نفسه و لم يبديها لهم أى لم يظهرها لهم، فقد عرف أنهم إنما أخذوا الأمر على ظاهره، و يحتمل أن يكون ضمير «أسرها» للشأن، أى أسر قوله الذى يأتى و هو «أنتم شرّ مكانا» نحو «قل هو الله أحد» قال إما بلفظه أو فى نفسه- و ظاهر السياق يعطى الأول، و المناسب لأدب يوسف عليه السلام الثانى، و كثيرا ما يستعمل قال فى النية و شبهها- أنتم شرّ مكانا أى من حيث المكانة و المنزل، فإن السارق له منزله و مكانة سيئه، و إنما كانوا شرا مكانا، لأنهم حسدوه و ألقوه فى الجب، أما سرقة الأخ و بنيامين فقد كانت

(١) الحقوة موضع شد الإزار، و هى الخاصرة.

(٢) الظاهر أن قولها بعد أن ذهب يوسف إلى دار أبيه.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٧٨ إلى ٧٩]

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)

ظاهريه لا واقع لها، «شر» هنا مجرد عن معنى التفضيل، فلم يكن يوسف و أخوه صاحبي شر، كما قال سبحانه (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا) «١» مع أنه لا خير في أصحاب النار وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ به يوسف من السرقة، فإنه عالم أنه لم يسرق.

[٧٩] ولما رأى الأخوة أن يوسف عليه السلام مصمم على إبقاء بنيامين عنده و قد أعطوا أباهم موثقا أن يرجعوه، جاءوا إليه من باب الرجاء و الالتماس قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ وَ قد كان الملك، أو كبير الوزراء، يسمى عزيزا في عرف أهل مصر إِنَّ لَهُ أَى لَهَذَا الْأَخَ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا يستحق العطف، و لعل المراد بالشيخ العظيم المنزلة، حتى يكون «كبيراً» تأسيسا لا تأكيدا، فإن الشيخ يستعمل في كثير المال، و كثير العمر، و كثير السن، و كثير المنزلة، و كثير الأولاد- على ما قالوا- فَخُذْ أَيُّهَا الْعَزِيزُ أَحَدَنَا أَى أَحَدَ الْعَشْرَةِ مَكَانَهُ أَى عَوْضَ بِنِيَامِينَ، فقد أخذ علينا أبونا العهود و المواثيق على أن نرجعه إليه، فلا يمكننا أن نذهب بدوننا مِنْ الْمُحْسِنِينَ إِلَى النَّاسِ وَ إِلَيْنَا، و نحن نأمل هذا منك لإحسانك، فإن المحسن مأمول.

[٨٠] قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ مَعَاذَ اللَّهِ «مَعَاذٌ» مَصْدَرٌ مِيمي من عاذ يعوذ، أَى استجار و التجأ، و هو منصوب بالمصدر، أَى أَعُوذُ بِاللَّهِ

(١) الفرقان: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٠]

فَلَمَّا اسْتِئْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)

إعادة، و هذه كلمة يقولها من يريد بيان أنه لا يفعل شيئا قبيحا، كأنه يستجير بالله أن يحفظه من ذلك العمل- و إن كان معناها أعم لغه- أَنْ نَأْخُذَ أَحَدًا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا أَى الصَّوَاعِ عِنْدَهُ وَ هُوَ بِنِيَامِينَ، و كيف نأخذ إنسانا بريئا، و من المعلوم أن بنيامين كان راضيا ببقائه، حيث يعرف الحقيقة، أما أخ آخر فلم يكن راضيا فكان إبقائه جبرا- و لو كان راضيا حسب الظاهر- غير جائز و قد قالوا: أن المناط يدور على الواقع لا على العلم، فلو أعطى عمرو زيدا شيئا بظن أنه خالد، و لم يك راضيا إعطائه زيدا، و عرف زيد ذلك لم يجز له أخذه إِنَّا إِذَا أَى وَقْتُ أَخَذْنَا غَيْرَ بِنِيَامِينَ لَظَالِمُونَ إذ ظلمنا شخصا بدون رضاه الواقعي.

[٨١] فَلَمَّا اسْتِئْتَسُوا مِنْهُ اسْتِئْتَسُوا بِمَعْنَى يَتَسَّ، أَى يَتَسَّ أَخُوهُ يُوسُفُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَجِيبَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوهُ مِنْ أَخْذِ أَحَدِهِمْ مَكَانَ بِنِيَامِينَ خَلَصُوا نَجِيًّا أَى تَنَحَّوْا عَنِ النَّاسِ فِي مَعزَلٍ لثَلَا- يَسْمَعُ النَّاسُ بِمَشُورَتِهِمْ، وَ أَخَذَ بَعْضُهُمْ يَتَنَاجَى مَعَ الْآخَرِ فِي وَجْهِ الرَّأْيِ كَيْفَ يَصْنَعُونَ، وَ النَّجَى مِمَّا يَتَسَاوَى فِيهِ الْمَفْرَدُ وَ الْجَمْعُ، قَالَ سَبْحَانَهُ (وَ قَرَّبْنَا نَجِيًّا) «١» وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ، فَهُوَ نَحْوُ جَنْبٍ، تَقُولُ زَيْدٌ جَنْبٌ، وَ الْقَوْمُ جَنْبٌ، وَ الْمَنَاجَاةُ: الْمَسَارَةُ وَ الْاِخْتِفَاءُ فِي الْكَلَامِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَ الْبَلَاغَةِ بِمَكَانِ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَى كَبِيرِ الْأَخُوَّةِ وَ هُوَ يَهُودَا كَمَا عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ

(١) مريم: ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٨١]

ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)
 أَلَمْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ أَنَّ آبَاكُمْ يَعْقُبُونَ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ أَى أَخَذَ مِنْكُمْ عَهْدًا تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ أَنْ لَا تَرْجِعُوا إِلَّا مَعَ بَنِيَامِينَ، فكيف ترجعون بدونها؟ حيث قال لن أرسله معكم حتى تأتون موثقا من الله لتأتننى به وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ لَعَلَّه عَطْفَ عَلَى «أَبَاكُمْ» أَى أَلَمْ تَعْلَمُوا أَخَذَ أَبِيكُمْ الْمَوْثِقَ، وَتَفْرِيطُكُمْ فِي يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ، ف «مَا» مُصَدِّرِيَّةٌ، وَ الْمَحَلُّ نَصَبٌ ... فَهَمَا سَبِيَانٌ يَحْدُو إِنْ عَلَى أَنْ لَا تَرْجِعْ بَدُونَ بَنِيَامِينَ فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ أَى لَنْ أَفَارِقَ أَرْضَ مِصْرَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، وَ الْبِرَاحُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ أَوْ يَخُكِّمَ اللَّهُ لِي بِالْخُرُوجِ بِمَا يَكُونُ عِذْرًا لِي، أَوْ أَمُوتَ، أَوْ أَخْلَصَ أَخِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ إِذْ لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَ الْحَقِّ، وَ بَقِيَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ هُنَاكَ فِي مِصْرَ.

[٨٢] وَقَالَ الْأَخُ الْأَكْبَرُ لِبَقَايِ الْأَخُوَّةِ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ وَ إِلَىٰ بِلَادِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ بَنِيَامِينَ سَرَقَ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَمَا شَهِدْنَا عِنْدَكَ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ ظَنَّا أَوْ تَخْمِينَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا حَيْثُ رَأَيْنَا أَنَّ الصَّوَاعَ خَرَجَ مِنْ رِحْلِهِ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ أَى إِنَّا لَمْ نَعْلَمِ الْغَيْبَ حَيْثُ قَلْنَا بَعَثَ بَنِيَامِينَ مَعَنَا، فَلَمْ نَدْرُ أَنَّهُ يَسْرُقُ وَ يَحْفَظُهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٢ إلى ٨٣]

وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)

الملك، أولا ندرى أنه سرق أو دس الصاع في رحله، فذلك كان غائبا عن حواسنا.

[٨٣] ثُمَّ أَرَادُوا إِثْبَاتَ أَنَّ الْابْنَ سَرَقَ، وَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصُرُوا فِي حِفْظِهِمْ، حَتَّى لَا يَظُنَّ الْأَبُ بِهِمْ سُوءًا فَقَالُوا لِأَبِيهِمْ وَ سَأَلَ أَيُّهَا الْأَبُ الْقَرْيَةَ أَى أَهْلَ الْقَرْيَةِ، وَ ذَلِكَ مِنَ الْمَجَازِ حَيْثُ نَسَبَ مَا لِلْحَالِ إِلَى الْمَحَلِّ، فَاعْلَمْنَا أَنَّ نَحْوَ «جَرَى النَّهْرِ»، وَ قَدْ جَرَى مَاءُ النَّهْرِ، أَمْ مَفْعُولًا، نَحْوَ «وَ سَأَلَ الْقَرْيَةَ» أَى أَهْلَ الْقَرْيَةِ أَمْ غَيْرَهُمَا الَّتِي كُنَّا فِيهَا أَى أَرْسَلَ إِلَى مِصْرَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَ اسْأَلَ أَهْلَهَا عَنِ الْحَادِثَةِ، وَ الْعَرَبُ تَسْمَى الْمَدِينَةَ قَرْيَةً، وَ لَذَا تَسْمَى مَكَّةُ أَمْ الْقَرْيَةَ، وَ قَالَ سَبْحَانَهُ (وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ) «١» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ اسْأَلَ أَهْلَ الْقَرْيَةِ - لَا أَنْ يَرْسَلَ إِلَى مِصْرَ - وَ قَدْ كَانَ فِي الْقَافِلَةِ بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ وَ اسْأَلَ أَهْلَ الْعِيرِ أَى الْقَافِلَةَ الَّتِي أَقْبَلْنَا إِلَى بِلَدِنَا فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْعِيرِ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ «الْقَرْيَةِ» الْمَعْنَى الثَّانِي، كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الْعِيرِ غَيْرِهِمْ، أَى اسْأَلَ أَهْلَ مِصْرَ الَّذِينَ فِي الْقَافِلَةِ وَ أَهْلَ غَيْرِ مِصْرَ مِنْ سَائِرِ مَنْ فِي الْقَافِلَةِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ.

[٨٤] رَجَعَ الْأَوْلَادُ إِلَىٰ آبَائِهِمْ، وَ قَدْ خَلَفُوا وَرَاءَهُمْ عِنْدَ الْمَلِكِ أَكْبَرَهُمْ وَ بَنِيَامِينَ، وَ قَصَّوْا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ بِطَوْلِهَا، لَكِنْ يَعْقُبُونَ عَلَيْهِ السَّيْلَامَ أَسَاءَ بِهِمُ الظَّنَّ، وَ حَقُّ لَهُ أَنْ يَسِيءَ، لَمَّا سَبَقَ مِنْ عَمَلِهِمْ مَعَ يُوسُفَ، وَ لَمَّا عَلِمَ

(١) هود: ١١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠

مِنْ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ بَنِيَامِينَ، أَلَمْ يَقُولُوا قَبْلَ أَيَّامِ «لِيُوسُفَ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ»؟ أَمَا الشَّوَاهِدُ فَلَمْ تَكُنْ كَافِيَةً، إِذْ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ دَسُّوا الصَّاعَ فِي رِحْلِ بَنِيَامِينَ لِيَسْبَبُوا لَهُ هَذِهِ الْمَشْكَلَةَ، وَ قَدْ قَرَّرُوا هُمْ أَنْ مِنْ وَجَدِ الصَّاعَ فِي رِحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ، أَمَا بَقَاءُ أَكْبَرِ الْأَخُوَّةِ، فَذَلِكَ لَيْسَ بِأَعْظَمِ مِنْ عَمَلِهِمْ قَبْلَ مَدَّةِ إِذْ «جَاؤُ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» فَقَدْ قَدَرُوا بَقَاءَ الْأَخِ هُنَاكَ لِرَفْعِ هَذِهِ الْمَكِيدَةِ عَنْهُمْ، وَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَ الْعِيرِ قَدْ رَأَوْا إِبْقَاءَ الْمَلِكِ لِبَنِيَامِينَ، لَكِنْ لَعَلَّ عِلْمَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِكَيْدٍ مِنْهُمْ، وَ لَذَا شَكَّ يَعْقُبُونَ

بهم و أساء الظن في قصتهم ف قال عليه السّلام بَلْ سَوَّلَتْ أَى زينت و سهلت لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فلنسلم أنه سرق، و لكن من علم الملك، باتخاذ إجراء عقوبة السارق في مدينتنا، على السارق في مدينتهم، مع أن حكمهم يختلف عن حكمنا، و ليس ذلك إلا الجزاء، لا البقاء أَلستم أنتم قلتم له ذلك؟ و قد كان يعقوب عليه السّلام صادقا في ذلك إذ هم الذين قرروا هذا الجزاء أما أن يعقوب عليه السّلام كيف لم يعرف صدقهم؟ فالجواب أن الأنبياء لا يعلمون إلا ما يريد الله سبحانه من الغيب، كما قال (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) «١» فأمرى في هذه القصة- أيضا- كقصه يوسف من قبل فَصَبَّرْ جَمِيلٌ لا شكوى فيه، و لا جزع بأن أقول ما يغضب الله سبحانه عسى لعل الله أن يَأْتِنِي بِهِمْ يوسف و بنيامين و يهودا أكبر الأخوة الذى بقى هناك

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٤]

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)

جَمِيعاً فقد علم يعقوب أن يوسف لم يأكله الذئب و إنه حى مرزوق من طريق الوحي إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بعباده، و ما يعملون الْحَكِيمُ فى تدبيره، فهو إنما فعل ذلك بى لحكمته و مصلحته.

[٨٥] و حينذاك تَوَلَّى أى أعرض يعقوب عَنْهُمْ فإن الإنسان إذا علم أن من حوله لا- يشاركونه المصائب يتنحى عنهم ناحية ليعيش منفردا بحزنه و لوعته و قال يعقوب يا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ الأسف هو الحزن أى يا طول حزنى على يوسف و «يا» حرف نداء حذف مناداه، أى «يا قوم» أو المراد «يا أسف احضر فهذا وقتك» كما قالوا فى «يا عجبا» و نحوه، و ألف أسفى بدل من ياء المتكلم، و يجوز ذلك فى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم، كما قال ابن مالك:

و اجعل منادى صحّ إن يصف ليا كعبد عبدى عبدا عبدا

و إنما ذكر «يوسف» لأنه هو الذى غاب عنه خبره، أما الولدان الآخرون فقد علم بمكانهما، و الإنسان لا يأسف لمن غاب و علم بمكانه، كما يأسف لمن لا يدري محله، و أين هو، و كيف يعيش و ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ أى و قد كان عليه السّلام «ابيض» سواد عينيه مِنَ الْحُزْنِ و البكاء على يوسف، نسب الابيضاض إلى الحزن، مع أنه من البكاء، من باب نسبة الشىء إلى سببه، قالوا و قد ثبت فى الطب الحديث، أن نفس بعض الطبقات فى العين تبيض، لا أن ماء ينزل، كما ظن بعض الأطباء القدامى، فإن كان الأمر كما ذكروا، فذاك من خوارق القرآن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٥]

قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)

الحكيم، و ما أكثرها ثم أنه لم يثبت أن يعقوب عليه السّلام عمى من جهة ابنه و بكائه، و ليس فى قوله سبحانه «ارتد بصيرا» شاهد لذلك فإن هذا التعبير كثيرا ما يؤتى به لإفادة جلاء البصر و ذهاب الحزن- فلا منافاة لذلك، مع قاعدة و جوب كون الأنبياء تامى الخلقه، و الكلام فى المقام طويل نكتفى منه بهذا القدر،

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه سئل ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف، قال: حزن سبعين ثكلى بأولادها

«١» فَهُوَ كَظِيمٌ أى ملئ بالغيظ على الأولاد و الحزن على ولده، و لكنه كان لا يظهر غيظه، و لا يشكو حزنه لأحد.

[٨٦] و أين للأخوة قلب يعقوب حتى يدركوا ما يدركه من الهم و الحزن، بل انهم رأوا أنفسهم فى سعة حيث تخلصوا من يوسف و لذا كان يزعمهم بكاء الألب، و إذا رأوا منه ذلك من جديد قالوا لأبيهم يعقوب تَاللّٰهِ لا تَفْتُنَا أى لا تزال تَذَكَّرُ يُوسُفَ أى ما هذا

الذكر الدائم له؟ فهو استفهام استنكاري، وإنما حذف حرف النفي، وهو «لا» من «تفتؤ» لعدم الالتباس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامة الإثبات، كان على النفي، كما أنه إذا كان مع النفي كان للإثبات، قال سبحانه: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) «٢» و (لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) «٣» إلى غير ذلك، ولكن إنما ذلك حيث الأمن من اللبس، حَتَّى تَكُونَ حَرْضًا مَرِيضًا من الهم مشرفا على الهلاك، يقال رجل حرض و حارض، أى

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٤٢.

(٢) البلد: ٢.

(٣) القيامة: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

مشرف على الهلاك، وهو مصدر يأتي للمفرد، والجمع بلفظ واحد أو تكون من الهالكين فتموت و تنفى و تذهب عن الحياة. [٨٧] قال يعقوب عليه السلام فى جوابهم ما يستفاد منه أننى لست أشكوا إليكم و لا- أمل منكم حتى يوذيكم شكواى أو يرهقكم أملى، بل إنمأ أشكوا بئى أى همى و مصيبتى، فإن البث هو الهم الذى لا يقدر صاحبه على كتمانته، فيضطر إلى نشره و إفشائه و حُزنى و كان الحزن هنا ما يقابل البث و هو الكامن فى النفس، فالمعنى أشكوا الحزن الظاهر و الخفى إلى الله و معنى الشكاية إظهار الألم و طلب رفعه و أعلم من الله أى أعلم أشياء غائبة عن الحواس، من حفظ يوسف ورده إلى سالما، و جزيل الأجر فى الصبر- و ما أشبه- ما لا تعلمون أيها الأبناء.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله أوحى إلى يعقوب: لو أمتهما- أى يوسف و بنيامين- لأحييتهما لك حتى أجمع بينك و بينهما،

و روى عن الباقر عليه السلام أن يعقوب دعا الله سبحانه فى أن يهبط عليه ملك الموت، فأجابه فقال: ما حاجتك؟ قال: أخبرنى هل مرّ بك روح يوسف فى الأرواح، فقال: لا، فعلم أنه حى «١»

[٨٨] ثم توجه يعقوب إلى أولاده قائلا يا بنى جمع ابن مضافا إلى ياء المتكلم- كما تقدم- اذهبوا إلى أرض مصر، أو المراد اضربوا فى

(١) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤

الأرض هنا و هناك فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ بنيامين، و التحسس هو طلب الشىء بالحواس، مقابل التنبؤ الذى هو طلب الشىء بالظن و الخبر، و إنما لم يذكر «يهودا» لأنه كان فى مصر بإرادة نفسه، فلم يكن غيابه مهما، أما يوسف فقد احتاج أمره إلى التحسس، لأن يجده الأولاد، و بنيامين كان أمره محتاجا إلى التحسس ليرى هل يمكن إطلاق سراحه عند الملك أم لا؟.

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أن أعرابيا اشترى من يوسف طعاما، فقال له: إذا مررت بوادى كذا، فناد يا يعقوب، فإنه يخرج إليك شيخ، فقل له: إنى رأيت رجلا بمصر يقرؤك السلام، و يقول:

إن وديعتك عند الله محفوظة، لن تضيع، فلما بلغه الأعرابى، خرّ يعقوب مغشيا عليه،

إلى آخر الحديث، فقد علم يعقوب من الشواهد والأدلة، أن يوسف حى مرزوق، و لذا أمر أولاده بطلبه، و فى المجمع، قيل أنهم لما أخبروه بسيرة الملك، قال لعله يوسف، فلذلك قال يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، أى استخبروا من شأنهما، و اطلبوا خبرهما، و انظروا أن ملك مصر ما اسمه و على أى دين هو؟ فإنه ألقى فى روعى، أن الذى حبس بنيامين هو يوسف و لا يتأشوا من رُوحِ اللَّهِ أى لا- تقنطوا من رحمته، و لعل الإتيان بلفظ الروح، لأجل أن المهموم المكظوم المحتبس النفس، يحتاج إلى روح و نسيم ليروح عنه و يخفف و طى الأنفاس المحترقة الموجبة لخنقه، و احتباس نفسه إنّه لا- ييأس من رُوحِ اللَّهِ و رحمته إلا القوم الكافرون بالله، و بفضلها، أما المؤمن فإنه يرجو من الله الفرج من الشدة و الخلاص من الكربة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥

[سورة يوسف (١٢): آية ٨٨]

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُرْجَاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

[٨٩] و لمرّة ثالثة تجهز الأخوة للرحيل إلى ملك مصر لتحصيل الطعام، و فى هذه المرّة كانوا فى شدة، فقد أضرت بهم المجاعة، و بضاعتهم التى جاءوا بها ثمنًا للطعام رديئة، و قد أخذ منهم كلام الأب الشيخ الكسير «تحسسوا من يوسف و أخيه» مأخذًا عظيمًا، و ساروا حتى وصلوا أرض مصر فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أى على الملك قالوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ أى أصابنا و من يختص بنا الجوع و الحاجة و الضرر من شدة القحط و المجاعة وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُرْجَاهٍ و قد كانت بضاعتهم مقلًا رديئا- كما هو العادة فى أيام القحط أن النباتات تردأ لقلّة المطر- و قد كانت أراضيهم تنبت المقل و هو قسم من صمغ الشجر و «مزجاء» اسم مفعول للمؤنث، من باب الأفعال على وزن «مكرمة» من أزجى يزجى، و الإزجاء فى اللغة السوق و الدفع قليلا قليلا، فالمعنى بضاعة دفعت إلينا قليلة قليلة، فإن الشجر يعطى هذا الصمغ فى أيام الخصب كثيرا و افرا، و فى أيام الجذب قليلا يسيرا، أو المراد أن البضاعة دفعت إلينا، و حصلناها قليلة قليلة، فلا تتمكن إلا منها، و لم تدفع البضاعة إلينا كثيرة وافية، حتى تتمكن من الوافى الكافى، لنعطيهما ثمنًا للطعام فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ أى أعطنا الكيل و افياء- تفضلا- لا أن تعطينا بمقدار بضاعتنا، قليلا منقوصا وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا من الصدقة، أى اجعل ما تعطيه صدقة، لا فى مقابل بضاعتنا، فإنها لا تفى بالكيل الوافى، أو المراد تصدق علينا، و تفضل برد أخينا بنيامين إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يُصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)

أى يشبتهم على صدقاتهم.

[٩٠] و إذ بلغ الأمر بالأخوة هذا المبلغ يسترحمون و هم فى انكسار و ضيق، لم يبق مجال لبقاء يوسف- فى صورة العزيز الملك- و قد شاء الله سبحانه أن ينهى الامتحان و يرفع الشدة، و لذا قال يوسف عليه السلام لهم هَلْ عَلِمْتُمْ أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ من إلقاءه فى البئر بعد ما أردتم قتله، ثم بيعه بدراهم معدودة وَ بَ أَخِيهِ بنيامين، فقد كنتم تذلونّه و تنظرون إليه بالازدراء و الإهانة، كما هو العادة فى أولاد الضرة، و خصوصا إذا كان ولد الضرة قريبا إلى قلب الأب إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ و لعل هذه الكلمة كانت معذرة من قبلهم يعنى إنما فعلتم ذلك فى زمان لم يكمل رشدكم، و قد كان هذا مصداقا لقوله سبحانه- كما سبق- «الْكَيْبُوتُ بِأَمْرِهِمْ هَذَا»،

و عن الصادق عليه السلام أن كل ذنب عمله العبد، و إن كان عالما، فهو جاهل حين خاطر بنفسه معصية ربه

«١»، أقول: و قد كان ذلك تلقينا لهم بأن يعتذروا به، و أن ذلك حقيقة و ليس بمجاز لأن للجهل مراتب فقد يجهل الإنسان أصل الموضوع، و قد يجهل مزاياه و مراتبه، فهل ترى أن من الممكن أن ينام إنسان وعده ملك بإعطاء قصر له، إذا هو قام فى ليلة واحدة؟

أو من المعقول أن يقترب عملاً، إذا أوعده بأنه إن عمله ضربه ألف سوط؟ كلا؟ لكنه ينام و يقترب مع أن وعد الله و إيعاده حق، لا ريب له، و كلاهما أرفع منزلة من وعد الملك و إيعاده. [٩١] و تبين الأخوة في نبرات الملك صوت يوسف، فإن الإنسان مهما طال

(١) القصص للجزائري: ص ١٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧

[سورة يوسف (١٢): آية ٩١]

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)

الزمان، و تغير مظاهر الاخوان، و نسي أشياء يبقى في خاطره بعض المزايا، إنهم لم يكونوا ليعرفوا بعد سنوات، حيث كان في زى الملك و لم يدر في خلد هم أن ذلك الغلام الصغير المهين يصبح ملكا بهذا الشكل الراقي، و لذا قالوا في استفهام و تعجب أ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ هل أنت أيها الملك ذلك الأخ الذى تركناه فى أيدي القافلة عبدا بعد سنوات قال الملك أَنَا يُوسُفُ أَخوكم وَ هذا بنيامين أَخِي من أبى و أمى، و إنما قال ذلك مع إنهم كانوا يعرفونه، تعريفا لنفسه و تأكيداً لنفسه، أنه هو هو، كما إذا سألك سائل، هل أنت ذهبت إلى مكة، تقول أنا ذهبت و أنت ذهبت فى السنة التى ذهبت، أو لعله، إنما ذكره ليفخم من شأنه، و إنه أصبح أخا للملك بعد ما كان مهينا لديكم قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالسَّلَامَةِ وَ الْكِرَامَةِ إِنَّهُ الضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَيَمْتثل أوامره و يجتنب عن نواهيه وَ يَصْبِرْ عَلَى الْبَلِيَّةِ وَ الطَّاعَةِ، بأن لا يظهر الجزع من المصيبة و لا يتكاسل عن الطاعة فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ بل يتفضل عليهم بالأجر، و قد صبرت و اتقيت فجزانى الله ذلك.

[٩٢] و هنا تملأ نفوس الإخوة مكانة يوسف، التى لم يكونوا يقصدونها، كما تتجلى فى نفوسهم الخطيئة التى اقترفوها بالنسبة إليه، فيتقدموا إليه، مهئين معتذرين قالوا تَاللَّهِ لَلنَّاءِ لِلقسم، و لها لطف ليس للواو، و كثيرا ما تأتي فى مقام الاستغراب، أو فيما كان هناك نكتة أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨

[سورة يوسف (١٢): آية ٩٢]

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

مزية لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا أى اختارك علينا، أولا بحسب الأب، و ثانيا بالملك- مع مالك من حسن الصورة و لطف السيرة، و نقاء السيرة- وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ «إن» مخففة من الثقيلة، أى إنا كنا خاطئين مذنبين فى ما فعلنا بك من الحسد و الإلقاء فى البئر، و قد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنهم قالوا له: فلا تفضحنا و لا تعاقبنا اليوم، و اغفر لنا. «١»

[٩٣] قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى جوابهم لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ لا عيب و لا تأنيب و لا تفرغ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ دعا لهم بالغفران، أنه عليه السَّلَامُ أولا- عفى عنهم بالنسبة إلى حق نفسه، و ثانيا دعا لهم بأن يعفر الله لهم. بالنسبة إلى حقه سبحانه وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فإذا رحمت أنا بكم، كان هو أولى بالرحمة و الغفران، ثم لا بأس بنقل كتاب يعقوب إلى الملك، بعد أن أخذ بنيامين، ليستعطفه، فقد روى عن الصادق عليه السَّلَامُ أن يعقوب كتب إلى يوسف: «بسم الله الرحمن الرحيم إلى عزيز مصر و مظهر العدل و موفى الكيل من يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صاحب نمروذ الذى جمع له النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه بردا و سلاما و أنجاه منها، أخبرك أيها العزيز، إنا أهل بيت لم يزل البلاء إلينا سريعا من الله ليلبونا عند السراء و الضراء، و إن

المصائب تتابعت عليّ منذ عشرين سنة، أولها إنه كان لي ابن سميته يوسف، و كان سرورى من بين ولدى و قره عيني و ثمره فؤادى، و إن اخوته من غير أمه سألونى أن أبعثه معهم يرتع و يلعب، فبعثته معهم بكره، فجاءونى عشيا يبكون، و جاءوا على قميصه بدم كذب، و زعموا أن الذئب أكله، فاشتد لفقدته حزنى، و كثر عليّ فراقه بكائى حتى ابيضت عيناي من الحزن، و إنه كان له أخ و كنت به معجبا، و كان لي أنيسا، و كنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدرى، و إن إخوته ذكروا إنك سألتهم، و أمرتهم أن يأتوك به و إن لم يأتوك به منعتم الميرة، فبعثته معهم ليتماروا لنا قمحا، فرجعوا إليّ و ليس معهم، و ذكروا أنه سرق مكيال الملك، و نحن أهل بيت لا نسرق، و قد حبسته عنى و فجعتنى به و قد اشتد لفراقه حزنى حتى تقوس لذلك ظهرى، و عظمت فيه مصيبتى مع مصائب تتابعت عليّ، فمن عليّ بتخليه سبيله و إطلاقه من حبسك و طيب لنا القمح، و اسمح لنا فى السعر و أوف لنا الكيل، و عجل سراح آل إبراهيم» قال: فمضوا بكتابه حتى دخلوا على يوسف فى دار الملك، و قالوا: يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضر إلى آخر الآيات و تصدق علينا بأخي بنامين و هذا كتاب أبيننا يعقوب أرسله إليك فى أمره يسألك تخليه سبيله، فمنّ به علينا، فأخذ يوسف كتاب يعقوب و قبله و وضعه على عينيه و بكى و انتحب «و الانتحاب أشد البكاء» حتى بلت دموعه القميص الذى عليه ثم أقبل عليهم، و قال: علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه من قبل؟. (١)

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٣ الى ٩٤]

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَّلتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)

[٩٤] ثم أعطى يوسف عليه السلام قميصه - و هو قميص إبراهيم عليه السلام الذى جاء به جبرئيل من الجنة ليلبسه فيقيه حر النار و حين أراد نمرود أن يلقيه فيها، و قد كان تميمه فى عضد يوسف عليه السلام - إلى إخوته، و قال لهم أذهبوا أيها الإخوة بقميصي هذا إلى بلدنا فألقوه على وجه أبي و قد عرف من الغيب أنه إذالقى على وجهه يأت بصيرا ترتد عينه كما كانت، بأن يتبدل بياضها بالسواد، و تجلوا كما كانت، و لعل التعبير ب «يأت» لأجل إفادة الأمرين «الارتداد بصيرا» و «الإتيان إلى يوسف» و أتوني أى تعالوا إلي أيها الإخوة بأهلكم أى مع أهلكم أجمعين فلا يبقى أحد منكم فى تلك المدينة، و قد أراد يوسف عليه السلام أن يجعل لأبيه الفرح، و الفرج و البشارة قبل أن يتلقى معه، و فى بعض التفاسير إن يوسف قال لهم إنما يذهب بقميصى من ذهب به أولا، فقال يهودا: أنا ذهبت به و هو ملطخ بالدم، فأخبرته أنه أكله الذئب، قال: فاذهب به أنت أيضا فأفرحه كما أحزنته.

[٩٥] وَلَمَّا فَصَّلتِ الْعِيرُ أى لما خرجت القافلة من مصر، و انفصلت من المدينة نحو الشام محل يعقوب قال أبوهم يعقوب لمن كان عنده إنى لأجد ريح يوسف و قد شاء الله ذلك، و كانت المسافة ثمانين فرسخا - كما ورد - و هل المراد بالريح العطر، أو المراد استشعار ذلك - فإن اللفظ يطلق عليهما - احتمالان لولا أن تُفَنِّدُونِ الفند ضعف الرأى و العقل على إن لم تنسبونى إلى الفند، و جواب لولا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٥ الى ٩٧]

قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧)

محذوف، أى لصدقتمونى.

[٩٦] لكنهم لم ينفذ معهم كلام يعقوب، ورجائه أن لا يفندوا لرأيه، بل قالوا أى من حضر ممن كان فى طرف خطابه عليه السلام تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ أَى اشتباهك و انحرافك عن الصواب فى أمر يوسف القَدِيمِ فقد كنت من السابق تظن أنه لم يمت، و الحال أنه قد مات، و ذهب و أكله الذئب، فلم يقل يعقوب شيئاً حتى جاء يهودا، ولده الأكبر الذى كان معه القميص.

[٩٧] فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْمُبَشِّرُ يُوْسُفَ أَلْقَاهُ أَى ألقى قميص يوسف عليه السلام على وَجْهِهِ وَجَهَ يَعْقُوبَ فَارْتَدَّ أَى رجع كما كان بَصِيْرًا تَقْدَمُ أنه من المحتمل إرادة ارتداد قوة نور البصر إليه، بعد أن ضعف لكثرة البكاء، فإن الإنسان إذا بكى كثيراً غشاها غبار يحول بينه و بين حدة الإبصار ف قال يعقوب عليه السلام لمن فند قوله «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ أَيُّهَا الْمَفْنُدُونَ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ أَى من طرفه سبحانه و بإلهامه إلى ما لا تَعْلَمُونَ إذ قد و عدنى بإرجاع يوسف إلى.

[٩٨] و جاءوا إلى أبيهم يعقوب ليغفر لهم ذنبهم الذى اقترفوه و سببوا له تلك الأحزان و اللواعج، لكنهم لا يريدون أن يغفر لهم هو وحده، بل يطلبون فوق ذلك أن يطلب من الله غفران ذنبهم، فإن ذنبهم كان مزدوجاً أمام الله، و أمام أبيهم- بعد ما كان ذنباً بالنسبة إلى أخيهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢

[سورة يوسف (١٢): الآيات ٩٨ إلى ٩٩]

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)

يوسف بالذات- قالوا قالت الأخوة يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا أَى كلفوه بالاستغفار لهم، لأنهم كانوا يعلمون باستجابته دعائه فإن دعاء الوالدين فى حق الولد مستجاب، خصوصاً مثل يعقوب النبى الجريح الفؤاد إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ فى ما ارتكبناه من العمل.

[٩٩] قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى جوابهم سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي طلب غفرانه لكم، ورد فى الأحاديث أنه إنما أصر الاستغفار بغية أن يستغفر لهم وقت السحر، لأنه أقرب إلى الإجابة، إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْغَفُورُ الذى يغفر الذنب و يمحيه الرَّحِيمُ الذى يرحم عباده و يتفصل عليهم،

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه سئل عن أولاد يعقوب قال: ما كان أولاد يعقوب أنبياء، و لكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، و لم يكونوا يفارقوا الدنيا إلا سعداء تابوا و تذكروا ما صنعوا (١).

[١٠٠] و لما أن بَشَّرَ يعقوب و أهله بأن ولدهم يوسف أصبح ملك مصر، بيده الأمر و النهى، و إنه أرسل إليهم، تجهزوا للرحيل بكل سرعة، و جاءت القافلة و ملؤها الفرح يحدوها السرور و الرغبة حتى وصلت أرض مصر فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى أَى ضم، من الإيواء بمعنى إعطاء المحل و المكان إِلَيْهِ أَى إلى نفسه أَبُوَيْهِ يعقوب و راحيل، و قد كان لقائهم خارج المدينة، فقد استقبلهم يوسف عليه السلام،

(١) راجع القصص للراوندى: ص ١٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٠]

وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِ يَاسَى مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السُّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)

و هناك تلاقى معهم و رحب بهم، و ضم الأبوين إلى نفسه- و لعله بالمعانقة و التقبيل و ما أشبهه- كما هو المعتاد عند لقاء الأحبة، و بالأخص العائلة و قال لهم يوسف ادْخُلُوا مَدِينَةَ مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَشِيئَتِهِ و إرادته آمِنِينَ فى حال كونكم فى أمن و أمان.

[١٠١] وَرَفَعَ يَوْسُفَ أَبَوَيْهِ يَعْقُوبَ وَرَاحِيلَ عَلَى الْعَرْشِ أَيْ سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ إِعْظَامًا لِهَمَا، وَ قَدْ كَانَ لَا يَجْلِسُ عَلَى السَّرِيرِ إِلَّا الْمَلِكُ وَ حَزُّوا أَهْلَ يَوْسُفَ لَهُ لِيَوْسُفَ شَيْجِدًا جَمَعَ سَاجِدًا، كَمَا أَنَّ رَكْعَ، جَمَعَ رَاكِعًا، اِحْتَمَلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ - بِإِذْنِهِ تَعَالَى - كَانَ جَائِزًا فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، كَمَا سَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ لِآدَمَ، وَ سَجَدَ أَهْلُ يَوْسُفَ لِيَوْسُفَ، حَسَبَ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَ كَمَ مِنْ حُكْمِ كَانَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ جَائِزًا وَ لَمْ يَجْزِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَ ذَلِكَ لَيْسَ خِلَافًا لِلْعَقْلِ، فَإِنَّهُ كَمَا يَجُوزُ الْعَقْلُ التَّعْظِيمَ دُونَ الرُّكُوعِ وَ السُّجُودِ، يَجُوزُ التَّعْظِيمَ إِلَى حِدَهُمَا، أَقُولُ: لَكِنْ فِي الْمَقَامِ نَصٌ خَاصٌ دَلَّ عَلَى السُّجُودِ لَمْ يَكُنْ لِآدَمَ وَ لِيَوْسُفَ، وَ إِنَّمَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ كَانَهُمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَا مَحَلَّ التَّوَجُّهِ كَمَا نَسْجُدُ نَحْوَ الْكَعْبَةِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ فِي ذَلِكَ تَعْظِيمٌ ضَمْنِي لِمَنْ يَسْجُدُ نَحْوَهُ، فَقَدْ سَأَلَ يَحْيَى ابْنَ أَكْتَمَ مُوسَى بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى مَسَائِلَ فَعَرَضَهُمَا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ إِحْدَاهَا أَنْ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَّ سَجْدَ يَعْقُوبَ وَ وَلَدِهِ لِيَوْسُفَ وَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ؟ فَأَجَابَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا سَجْدَ يَعْقُوبَ وَ وَلَدِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَوْسُفَ، وَ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُمْ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَ تَحِيَّةٌ لِيَوْسُفَ، كَمَا أَنَّ السُّجُودَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ مِنْهُمْ تَقْرِيبَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٤٤

طَاعَةٌ لِلَّهِ وَ تَحِيَّةٌ لِآدَمَ، فَسَجْدَ يَعْقُوبَ وَ وَلَدِهِ وَ يَوْسُفَ مَعَهُمْ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى «١»، لِاجْتِمَاعِ شَمْلِهِمْ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ يَقُولُ فِي شُكْرِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَ قَالَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا أَبَتِ النَّاءِ عَوْضُ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

وَ فِي النَّدَا أَبَتُ عَرَضَ قَبْلَ النَّدَاءِ وَ مِنْ أَلْيَا التَّاءِ عَوْضُ
هَذَا الَّذِي تَرَاهُ مِنْ سَجْدِ كَمْ لِي تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ الَّتِي رَأَيْتَهَا وَ أَنَا عِنْدَكُمْ، وَ إِنِ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ أَحَدُ عَشَرَ كَوْكَبًا سَجَدُوا لِي مِنْ قَبْلُ فِي زَمَانِ صَغْرِي قَدْ جَعَلَهَا أَيْ جَعَلَ الرَّؤْيَا رَبِّي حَقًّا أَيْ صَدَقًا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، وَ آلَتْ رُؤْيَايَ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ حَيْثُ صَرَّتْ مَلَكًا، وَ سَجَدَ لِي أَبُوَايَ وَ إِخْوَانِي الْأَحَدُ عَشَرَ، وَ قَدْ أَحْسَنَ رَبِّي بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ الَّذِي ابْتَلَيْتُ بِهِ سَبْعَ سِنِينَ وَ إِذْ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ أَيْ مِنَ الْبَادِيَةِ «لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا» فَقَدْ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ، وَ يَرْعُونَ أَغْنَامَهُمْ فِيهَا، وَ فِي سَنَةِ الْقَحْطِ قَدْ هَلَكْتَ أَغْنَامُهُمْ، وَ أَحْوَجُهُمُ الْعَوْزَ إِلَى السَّفَرِ إِلَى مِصْرَ، حَتَّى تَمَّ هَذَا اللَّقَاءُ، وَ لَعَلَّهُ لَمْ يَذْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَبِّ، لِثَلَا يَذْكُرُ الْأَبَ بِصَنِيعِ الْأَخُوَّةِ بِهِ، كَرَمًا مِنْهُ وَ إِحْسَانًا، فَإِنَّ مِنَ الْأَخْلَاقِ أَنْ يَنْسِيَ الْإِنْسَانُ إِسَاءَةَ الْغَيْرِ إِلَيْهِ،

(١) تفسير القمى: ج ١ ص ٣٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠١]

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِي فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوْفِيقِي مُسْلِمًا وَ أَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

وَ إِحْسَانَهُ إِلَى الْغَيْرِ مِنْ بَعِيدٍ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ أَيْ أَفْسَدَ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي وَ كَانَ الْإِفْسَادَ بِالْقَاءِ الْحَسَدِ عَلَى قَلْبِ الْأَخُوَّةِ، حَتَّى صَنَعُوا مَا صَنَعُوا إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ فِي تَدْبِيرِ عِبَادِهِ لِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأُمُورِ وَ مَعْنَى اللَّطِيفِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ الدَّقِيقَةَ النَّافِعَةَ، مِمَّا لَا يَتِمَّكَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِالْمَصَالِحِ الْحَكِيمُ فِيمَا يَفْعَلُ، وَ الْحَكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا.

رَوَى أَنَّ يَعْقُوبَ سَأَلَ يَوْسُفَ عَنْ مَاذَا صَنَعَ الْأَخُوَّةُ بِهِ؟ فَقَالَ يَوْسُفُ: يَا أَبَتُ لَا تَسْأَلْنِي عَنْ صَنِيعِ إِخْوَتِي بِي، وَ سَلْ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ بِي.

[١٠٢] ثُمَّ يَتَوَجَّهُ يَوْسُفَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، يَشْكُرُهُ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ، وَ يَعِدُّدُ لَطْفَهُ بِهِ، وَ يَسْأَلُهُ حَسْنَ الْخَاتِمَةِ، قَائِلًا- يَا رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ أَيْ بَعْضَ مَلِكِ الدُّنْيَا وَ سُلْطَانَهَا وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ تَفْسِيرِ الْمَنَامَاتِ، بِمَا تَوَوَّلَ إِلَيْهِ، أَنْتَ رَبِّي فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ خَالِقَهَا وَ مَبْدِعَهَا، فَلَكَ الْخَلْقُ وَ مِنْكَ الْأَمْرُ وَ الْفَضْلُ أَنْتَ دُونَ سِوَاكَ وَ لِي الَّذِي يَتَوَلَّى كُلَّ شَيْءٍ، كَمَا تَوَلَّى خَلْقَ

السموات و الأرض في الدنيا و الآخرة تتولى في الدنيا إصلاح حالي، و في الآخرة سعادتني و نجاتي توفيني يا رب، أي خذ روحي - وقت موتي - مُسَلِّماً لك في جميع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٢]

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

الأمر و الْحَقْنِي إِذَا تَوَفَيْتَنِي بِالصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَ الْأَنْمَةُ وَ الشَّهَدَاءُ، و من في زمرةهم، و هنا تنتهي قصة يوسف عليه السلام، و قد كان فيها من العبر و العظات الشيء الكثير، و هي من أبلغ الدروس لمن أراد أن يسلك سبل الحياة بكل طهارة و نظافة، ففيها التنبيه على الطهارة و عاقبتها، و اللوث و عاقبته، و في الأحاديث، أن يعقوب عليه السلام مات - بعد لقاء طويل، و ربما بلغت السنوات - و دفنه يوسف عليه السلام في بيت المقدس، ثم مات بعد زمان يوسف عليه السلام، و دفن في شاطئ النيل في صندوق مرمر، حتى حمله موسى عليه السلام، و جاء به إلى الشام. «١» [١٠٣] ثم عاد سبحانه بعد تمام القصة، ليذكر ما ابتدأ به، حيث قال سبحانه في أول السورة «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ» ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ تَفَاصِيلِ قِصَّةِ يَوْسُفَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أَيْ الْأَخْبَارِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنْ نَشَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ تَكُنْ بَحِيثَ يَتَطَّلَعُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ بِهَذِهِ التَّفَاصِيلِ حَسَبَ الْبَيْئَةِ وَ الْجَمَاعِ، لَوْ لَا إِخْبَارَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُ وَ مَا كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَدَيْهِمْ أَيْ حَاضِرًا عِنْدَ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا أَطْرَافَ الْقِصَّةِ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ وَ زَلِيخَا وَ النِّسْوَةِ إِذْ أَجْمَعُوا إِخْوَةَ يَوْسُفَ أَمْرَهُمْ أَيْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يَكِيدُوا يَوْسُفَ، وَ هُمْ يَمْكُرُونَ يَمْكُرُ بَعْضُهُمْ لِإِلْقَائِهِ فِي الْجُبِّ،

(١) راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٤٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ إلى ١٠٥]

وَ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَضْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ مَا تَسْتَلْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَ كَأَيِّنُ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)

و بيعه في العير، و بعضهم لسوقه نحو الخطيئة، و إلقائه في السجن، إن كل ذلك أنا أخبرته بالوحي، و إلا فكيف يمكن التحصيل عليها بدون أن يكون المخبر حاضرا، و بدون أن يكون مجتمعة هو الذي أخبره به؟

و لكن الكفار يمعنون في التكذيب، فلا تنفع معهم هذه القصص الغيبية لإثبات الرسالة، و صدقك يا رسول الله.

[١٠٤] فَإِنَّهُ وَ مَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَضْتَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ بِمُؤْمِنِينَ أَيْ بِمُصَدِّقِينَ لَكَ فِي دَعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَ لَوْ أَقَمْتَ لَهُمُ الْأَدْلَةَ وَ الشُّوَاهِدَ.

[١٠٥] وَ الْحَالُ إِنَّكَ مَا تَسْتَلْهُمْ عَلَيْهِ أَيْ الْإِيمَانَ وَ الْاهْتِدَاءَ بِكَ مِنْ أَجْرٍ وَ لَوْ قَلِيلٍ، فَلَمَّا ذَا لَا يُؤْمِنُونَ، هَلْ لِأَنَّهُ كَذَبَ؟ فَقَدْ دَلَّتْ الْأَدْلَةُ وَ الْحُجُجُ عَلَيْهِ، أَمْ لِأَنَّهُمْ يَفْرُونَ مِنْ إِعْطَاءِ الْأَجْرِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ أَيْ مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَاءَ لِتَذْكَيرِ النَّاسِ بِاللَّهِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرِ الْمَعَارِفِ، وَ وَعْظِهِمْ.

[١٠٦] وَ لَيْسَ هَذَا فَقَطْ ذِكْرًا، بَلْ هُنَاكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ كَثْرَةٌ هَائِلَةٌ، لَكِنَّهُمْ ذَاهِلُونَ عَنْهَا غَافِلُونَ عَنْ دَلَالَتِهَا عَلَى الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ - وَ كَأَيِّنُ أَيْ كَمْ - وَ هِيَ لِلتَّكْثِيرِ هُنَا - مِنْ آيَةٍ دَالَّةٍ عَلَى الصَّانِعِ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مِنَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ النُّجُومِ وَ السَّحَابِ، وَ مَا إِلَيْهَا، وَ الْإِنْسَانَ وَ الْحَيَوَانَ وَ النَّبَاتِ، وَ سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا يَشَاهِدُونَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٦]

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)

و يبصرونها وَهُمْ عَنْهَا أَى عَنْ تِلْكَ الْآيَاتِ مُعْرِضُونَ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَ لَا يَعِيرُونَهَا الْاهْتِمَامَ، حَتَّى تَدْلِهِمْ عَلَى خَالِقِهَا وَ مَبْدَعِهَا.

[١٠٧] حَتَّى أَنْ الْمُؤْمِنِينَ لَا- يَتَخَلَّصُونَ عَنِ الشَّرِكِ كَثِيرًا مَا وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ أَى أَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ- وَ ذَلِكَ يَعْرِفُ مِنَ السِّيَاقِ- بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ فَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجْعَلُونَ غَيْرَ اللَّهِ مُؤَثِّرًا فِي الْأَشْيَاءِ، وَ هُنَا هُوَ الشَّرِكُ، إِذْ لَا- مُؤَثِّرٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا- اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ مَا سِوَاهُ أَسْبَابٌ جَعَلَهَا تَعَالَى، وَ قَدْ وَقَعَ النَّاسُ- كَثِيرًا- بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَ التَّفْرِيطِ، فَمَنْ مَفْرَطٌ ظَنَّ أَنَّ الْاسْتِعَانَةَ بِالطَّيِّبِ وَ الْمُهَنْدِسِ وَ الْقَاضِيِ وَ مَا أَشْبَهَ شَرِكًا، حَتَّى أَنَّهُمْ مَنَعُوا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ «يَا مُحَمَّدٌ» «يَا عَلِيٌّ» وَ مَنْ مَفْرَطٌ ظَنَّ أَنَّ الطَّيِّبَ هُوَ الشَّافِي الْحَقِيقِي وَ الْمَعْطَى لَهُ مَا لَيْسَ هُوَ الرَّزَاقُ الْحَقِيقِي، وَ كِلَاهُمَا بَاطِلٌ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَالَ «يَا مُحَمَّدٌ» وَ عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا، إِنَّمَا يَفْعَلُ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ مَحْضِ الْإِيمَانِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا ظَنَّ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْاسْتِعَانَةَ غَيْرَ جَائِزَةٍ فَهُوَ جَبْرِي فَاسِدِ الْعَقِيدَةِ، أَوْ ظَنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الْمَسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ، بَدُونَ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ مَدْخَلٌ أَصْلًا فَهُوَ مَفْوُضٌ مَنْحَرِفٌ الْإِيمَانَ،

قَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ- كَمَا رَوَى عَنْهُ-: هَلِ الرَّجُلُ يَقُولُ لَوْ لَا فُلَانٌ لَهَلَكْتُ، وَ لَوْ لَا فُلَانٌ لَأَصَبْتُ كَذَا وَ كَذَا، وَ لَوْ لَا- فُلَانٌ لَضَاعَ عِيَالِي، أَلَا- تَرَى أَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًَا فِي مَلِكِهِ، يَرْزُقُهُ وَ يَدْفَعُ عَنْهُ؟ قِيلَ، يَقُولُ: لَوْ لَا- أَنْ مَنْ اللَّهَ عَلَيَّ بِفُلَانٍ لَهَلَكْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ لَا بِأَسْ بِهَذَا

«١»، أَقُولُ: وَ إِنَّمَا

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩

[سورة يوسف (١٢): الآيات ١٠٧ إلى ١٠٨]

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)

ذَكَرَ الْإِمَامُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْمَثَالِ، وَ إِلَّا فَهَذَا الْاِعْتِقَادُ كَافٍ لِمَنْ يَقُولُ «لَوْ لَا فُلَانٌ لَهَلَكْتُ»

وَ قَدْ رَوَى أَنَّ بَعْضَ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بَعْدَ مَا تَنَاوَلَ الطَّعَامَ، قَالَ: اللَّهُمَّ هَذَا مِنْكَ وَ مِنْ رَسُولِكَ فَقَالَ رَجُلٌ مَنْحَرِفٌ- مَعْتَرِضًا عَلَى الْإِمَامِ- لَقَدْ أَشْرَكْتَ، فَقَرَأَ لَهُ الْإِمَامُ هَذِهِ الْآيَةَ (وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) «١» وَ هَذِهِ الْآيَةُ (وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ) «٢» فَقَالَ الرَّجُلُ: كَأَنِّي لَمْ أَمَرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

[١٠٨] ثُمَّ هَدَّدَ سُبْحَانَهُ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، أَفَأَمِنُوا أَى هَلِ أَمِنَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ عَقُوبَةٌ تَغْشَاهُمْ وَ تَحِيطُ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ كَالْفَقْرِ وَ الْمَرَضِ وَ الْفَوْضَى أَوْ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ كَالصَّاعِقَةِ أَوْ الْأَرْضِيَّةِ كَالْهَدَّةِ وَ الْخَسْفِ وَ الزَّلْزَلَةِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ أَى يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَوْ الْمَوْتِ، لِأَنَّهُ إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ، فَقَدْ قَامَتِ قِيَامَتُهُ، وَ الْقَبْرُ إِمَّا حَفْرَةٌ مِنْ حَفْرِ النَّيْرَانِ، أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ بَعْتَهُ بَدُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ لِيَأْخُذُوا حَذَرَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَ الْإِنَابَةِ وَ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ شَرِكٌ وَ لَوْ الْخَفِيَ مِنْهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِوَقْتِ مَجِيءِ الْعَذَابِ أَوْ السَّاعَةِ.

[١٠٩] وَ إِذْ انْحَرَفَ أَكْثَرَ النَّاسِ كُفْرًا، وَ كَثُرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ شَرِكًا خَفِيًّا، فَالرَّسُولُ لَا يَهْمُهُ كُلُّ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ جَادٌ فِي طَرِيقِهِ، يَسِيرٌ نَحْوَ

هَدَفِهِ،

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) التوبة: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠

[سورة يوسف (١٢): آية ١٠٩] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٩٩

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَمَّا دَارُوا
الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَلَّا تَعْلَمُونَ (١٠٩)

بلا- كلل و لا ملل قل يا رسول الله لهؤلاء هذه الطريقة التي ترونها في أقوالى، و أفعالى سببى طريقى فى الحياة لا أحميد عنها أذعوا
إلى الله على بصيرة من أمرى فليست مقلدا و لا مغفلا و لا غافلا أنا و من اتبعنى أذعوكم أنا، و يدعوكم من آمن بى و سبحان الله أى
تنزيها له عن النقائص، فليس كالالهة الحجرية و الخشبية و المعدنية جاهلة لا تملك شيئا و ما أنا من المشركين الذين يشركون بالله
شركا خفيا أو جليا، فمن شاء فليتبغ طريقى و من لم يشأ، فهو و ما اختار، [١١٠] ثم يلفت الله الكفار إلى حقيقة الرسالة و أحوال
الغابرين، الذين تركوا اتباع الرسل، ليهزمهم نحو الاتباع، و يعظمهم بما قد علموه من أحوال الماضين، لعلهم يرتدعون عن غيرهم و ما
أرسلنا من قبلك يا رسول الله إلا رجالا من المرسلين كآدم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و غيرهم، نوحى إليهم نلقى إليهم
أوامرنا و إرشاداتنا من أهل القرى فلم يكونوا ملائكة و لا- جنه و لا- نساء، و إنما رجال من أهل البلاد، لا من أهل البادية، ليكونوا
الطف معاشره، و أكرم أخلاقا، و أحسن عشرة لغلبة الجفاء و الخشونة على أهل البادية، أو لأنه لو بعث فى البادية من أهلها، كان أهل
المدن أبعد من الإيمان، أو لأن البدوى لقله علومه يتمكن أن يدعى النبوة له كل من كان منه أدق فطنه، بخلاف أهل المدن، فإنهم
مستوعبون للعلوم، فلا يتمكن أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١

[سورة يوسف (١٢): آية ١١٠]

حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)
يغشهم فطن خال عن الاتصال بالسماء أ فلم يسيروا أى هؤلاء الكفار فى الأرض ليطلعوا على أحوال الماضين، كيف أهلكوا لما خالفوا
الرسول، فإن العلم بأحوال الأمم المختلفة ماضيهم، و حاضرهم لا يحصل غالبا إلا بالسفر و السير فينظروا أى يعلموا كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم من الأمم المكذبين لرسولهم، فإنهم قد أهلكوا بأنواع العذاب فى الدنيا، و أما الآخرة فإن لهم جهنم لا يموتون فيها، و
لا يحيون و لدار الآخرة خير للذين اتقوا معاصى الله سبحانه، فهم فى الدنيا نعموا، و الآخرة خير لهم،

روى أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قال: لشبر من الجنة خير من الدنيا و ما فيها

«١»، أ فلا تغفلون تعملون عقولكم، لتعرفوا مصير كل من الكافر و المؤمن، فى دنياه و آخرته؟

[١١١] إن الكفار دائما يغترون بما يرون من ظواهر اتباع الأنبياء فى بدء الدعوة، أنهم قلة لا حول لهم و لا طول، و لكن لا يغر ذلك
كفار قريش، مما يرون بالرسول من الضعف فى الاتباع و القلة فى الأشياع، فقد جرت عادة الله سبحانه أن يبدأ الإيمان بمثل ذلك،
حتى يكون أقوى أساسا و أشد مراسا، و إلا فالنصر آت لا محالة و هكذا تستمر الحالة، فالرسول فى ضعف من الأتباع، و الكفار فى قوة
حتى إذا استيسس أى يسس الرسول من تلبية الناس و استجابتهم و ظنوا أنهم قد كذبوا

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٨ ص ١٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢

[سورة يوسف (١٢): آية ١١١]

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ (١١١)

بصورة عامة، فلا مصدق لهم، فإن كذب- مخففا- يأتي بمعنى كذب- مشددا- كما قال سبحانه (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) «١» وإنما جيء ب «ظنوا» لأن الرسل رجحوا ذلك، و لم يتيقنوا، وإنما رجحوا لأنهم رأوا عدم التليية من الناس مع طول المدة، و تمام الحجج البيئات جاءهم أى جاء إلى الرسل نَصِيرُنَا بإرسال العذاب على الكفار، و تقوية أمر الرسل فَتَجَّى أى نخلص من العذاب مَنْ نَشَاءُ و هم المؤمنون الذين اتبعوا الرسل و آمنوا بهم و لا يُرَدُّ بِأَسْنَا أى عذابنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ الذين أجزموا بانحراف العقيدة و ارتكاب الآثام، و هكذا أنت يا رسول الله مع هؤلاء القوم، و هكذا كل داع إلى الصلاح، قائم بواجب الإرشاد، أما قتل الأنبياء عليهم السلام- قبل ذلك- كما كان، فإنه لا ينافى ذلك، فإن المراد بالنصر نصر المبادئ التى دعوا إليها، و هو النصر حقيقة، لا العزة و الشوكة فى الدنيا، و على هذا فقولهُ سبحانه «و ظنوا» لا يراد به الظن الظاهرى، الذى هو صفة قائمة بالنفس، بل ذلك حكاية عن ظاهر الحال، يعنى أن المورد يكون مورد ظنّ بأن الرسل قد كذبهم الناس، فلا مؤمن و لا مصدق.

[١١٢] و تأتى الخاتمة، كما ابتدأت به السورة، فهناك «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» و هنا لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ أى قصص

(١) التوبة: ٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣

الأنبياء عليهم السلام مع الأمم، و قصة يوسف- بصورة خاصة- عِبْرَةٌ أى اعتبار لمن اعتبر، و بصيرة عن الجهل لِأُولَى الْأَبَابِ أى أصحاب العقول، فإن اللب هو العقل ما كَانَ الذى جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ من قصصهم حَدِيثًا يُفْتَرَى قصة مختلفة مكدوبة و لكنْ كان ما جاء به تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى تصديقا للكتب، و الوقائع التى سبقت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ كان تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ما يحتاجه الناس فى أمور دينهم و دنياهم، و ليس المراد بالتفصيل بيان الجزئيات، بل تفصيل الخطوط العامة حول العقيدة و الأحكام و الآداب و هُدى أى هداية و إرشادا للناس وَ رَحْمَةً تَسِيبُ رَحْمَ النَّاسِ وَ نجاتهم من كوارث الدنيا و عذاب الآخرة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ و إنما خصهم لأنهم هم الذين ينتفعون به، و إلا فقد جاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، بما جاء به للبشر عامة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤

١٣ سورة الرعد مكية / آياتها (٤٤)

سميت السورة ب «الرعد» لاشتمالها على هذه الكلمة، و هى كسائر السور المكية على ما قال بعض المفسرون- تعالج شؤون التوحيد و البعث و ما إليهما.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء بذكر اسم الله عز و جل، للدلالة على تمام السورة السابقة، و الشروع فى سورة جديدة، و أى شىء أفضل من اسم الله حتى يبتدأ به؟ و ذكر «الاسم» لأن الله لا يبتدأ به، و إنما يبدأ باسمه، أنه الله الرحمن الرحيم، الذى أظهر صفاته الرحم و التفضل، لا الانتقام و العقاب، و القوة و العذاب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المر تِلْمَكَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا- يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَائِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)

[٢] المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ من جنس «الف، لام، ميم، راء» آيات القرآن الحكيم، فإن الآيات مركبة من هذه الحروف التي يتلفظ بها كل الناس، ولكنهم هيهات أن يتمكن أفراد البشر أن يأتوا بحيوان واحد يركبونه من الأجزاء المذكورة فيصير حيوانا، و على هذا ف «المر» مبتدأ، و تلك آيات الكتاب، خبره، و اسم الإشارة «تلك» إشارة إلى هذه الحروف و ما أشبهها، أو أن «المر» رمز بين الله و بين الرسول، أو غير ذلك من الأقوال البالغة أربعة عشر قولاً، في فواتح السور، و على هذا ف «تلك» مبتدأ، خبره «آيات الكتاب» أى أن هذه التي بين يديك، أيها القارئ هي آيات الكتاب، و إنما جىء بلفظ البعيد، إشارة إلى بعد الآيات مقاما، و علوها شأنًا، عن قرب الناس، كما تقول: ذلك الفقيه يقول، و ليس بينك و بينه فاصل، و إنما تأتى «بذلك» إشارة إلى رفعة الفقيه منزله، حتى كأنه بعيد عنك، لا- تناله أنت- كما ذكروا فى علم البلاغة- وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَى الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ إِلَيْكَ الْحَقُّ «خبر» لقوله «الذى» فإنه مطابق للواقع لا انحراف فيه و لا زيغ و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ أَى لَا يصدقون، مع أنهم يرون أن القرآن حق.

[٣] ثم يبدأ سبحانه بإله الكون، و أنه هو الذى جعل الكون بما فيها من الآيات المدهشة، ثم يأتى دور التعجب من الذين ينكرون البعث الله هو الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ أَى جعلها ربيعة، و أيا كانت السماوات، سواء هي المدارات، أم أجسام ضخام، أم المراد جهة تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦

العلو و طبقات الجو، فهي شىء رفيع يعرفه كل أحد، فمن رفعها و جعلها، أليس الله سبحانه؟ بِغَيْرِ عَمَدٍ جمع عماد، و هي الدعائم، و هذا أغرب، فقد نرى أن كل شىء رفيع لا بد له من عماد يستند إليه، فكيف رفعت السماوات بغير عماد، تَرَوْنَهَا ظَاهِرَةً لَكُمْ، فَإِنْ كُلِّ نَاطِرٍ يَرَى السَّمَاوَاتِ- بأى معنى كان-، ثم أن هناك قولين: الأول أن «ترونها» جملة منفصلة. و على هذا يكون المعنى لا- عمد للسماوات، الثانى أن «ترونها» صفة ل «عمد» أى لا- عمد مرثية لها، و المفهوم منه أن لها عمد غير مرثية، و على هذا فالمعنى أن للسماوات عمد، و لا تنافى بين القولين، فإن السماوات لا عماد لها خارجا، و لها عماد- من قدرة الله سبحانه- لا يرى ذلك العماد ثم بعد رفع السماوات بغير عمد استوى الله سبحانه، أى استولى و سيطر عَلَى الْعَرْشِ أَى على كرسى الملك، و ذلك شىء مهول لا يرى، كما أن السماوات شىء عظيم يرى، يعنى أنه سبحانه بعد ما خلق السماوات، استولى على أزمه الأمور، يقال: استوى الملك على عرش المملكة، يراد أنه أخذ بيده أزمه الحكم و سيطر و تسلط عليه لا يزحزحه مزحزح لا أنه جلس على كرسى خارجى- فهو معنى كئائى- و على هذا فالإتيان ب «ثم» مع أنه سبحانه لم يزل كذلك، من باب أنه سبحانه بعد إيجاد الكون سيطر عليه، أما قبله، فلا سيطرة من باب السالبة بانتفاء الموضوع- و هذا الذى ذكرناه فى تفسير «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» أحد المعانى المحتملة فى الآية- وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذَلَّلَهُمَا لِمَنَافِعِ خَلْقِهِ، وَ جَعَلَهُمَا يَطيعَانِهِ، كما يريد كُلُّ من الشمس و القمر يَجْرِي و يسير فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧

[سورة الرعد (١٣): آية ٣]

وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)

دووب و استمرار لِأَجْلِ أَى وقت مُسَمَّى سُمى عنده سبحانه، فوقت و قوفها عن الحركة، و انتهاء أمر سيرهما، معلوم عنده سبحانه مسمى فى لوحه المحفوظ، و إنما أتى باللام، و لم يقل «إلى أجل» لإفادة أن السير إنما هو لإدراك تلك الغاية، فكأنهما يسيران ليأتيا بيوم القيامة، حيث الشمس تكور، و النجوم تنكدر و القمر ينخسف .. أنه سبحانه خلق هذه الأشياء و هو يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فِيهَا و فى غيرها على وجه الصلاح و الحكمة، فمنه الخلق و منه الأمر، مقابل السلاطين الذين لهم الأمر فقط- فى الجملة- فهو تعالى هو الخالق المطلق، و الأمر المطلق و هو سبحانه يُفَصِّلُ الْآيَاتِ بَيْنَهُمَا تَفْصِيلاً آيَةً قَائِمَةً، لِأَجْلِ الْإِرْشَادِ، فهو الخالق الأمر المرشد، و إنما يفصل الآيات لَعَلَّكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ عِنْدَ الْجَزَاءِ وَ الْحِسَابِ، و المراد لقاء موعده، لا- لقاء ذاته فإنه منزه من أن يرى تَوَقُّونَ فلا تنكرون البعث و النشور و الكتاب و الحساب.

[٤] و إذ صورت الآية السابقة خلق السماوات، فلننظر إلى خلق الأرض وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ أَى بسطها طولاً و عرضاً، لتصلح مكاناً للإنسان و الحيوان، و محلاً للنبات و الأشجار، و لفظه «مد» أكثر دلالة على القدرة من لفظ «خلق» لأن «مد» يشمل الخلق و أكثر وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ جَمَعَ رَاسِيَةً، و هى الجبل، لأنها ترسو فى الأرض، كما ترسو السفينة فى الماء، و حكمه خلق الجبال أنها تمسك الأرض عن التفتت و الاضطراب، كما أن المسامير تمسك المصنوعات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨

[سورة الرعد (١٣): آية ٤]

وَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زُرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَ غَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفِضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

الخشبية عن التفتت و التفرق و شق فيها أنهاراً لتجرى فيها المياه، و لولاها لضاعت المياه، و لم يمكن الاستفادة الصحيحة منها و من كُثِلَ الثَّمَرَاتِ جَعِلَ فِيهَا أَى فى الأرض زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذكر و أنثى، فإن «زوج» يطلق على كل فرد من فردى «الزوجين» و لذا جىء له التأكيد ب «اثنين» حتى لا يتوهم أنه تثنية «زوج» الذى يراد به «اثنان» و قد ثبت فى العلم، أن كل صنف من أصناف النباتات يشتمل على ذكر و أنثى- و هذه إحدى معاجز القرآن الكثيرة-، و فى الأرض يُغَشَى أَى يستر الليل النَّهَارَ بقدرته، و الليل و النهار مفعولان ل «يغشى»، و فاعله الضمير العائد إليه تعالى، أى يأتى سبحانه بالليل ليستر النهار، فكأنه ساتر له عن الأبصار، و هذا من باب التشبيه، و إلا فالنهار يذهب إذا جاء الليل، و إنما لم يعكس، كأن يقول «يذهب الليل بالنهار» لأن الليل فيه الراحة و الهدوء، و لأنه الأصل، إذ الظلمة سابقة على الضياء- فقد قالوا أن بينهما تقابل العدم و الملكة- إِنَّ فِي ذَلِكَ الذى تقدم من السماء و الأرض، و الشمس و القمر، و الجبال و الأنهار، و الزوج من النبات، و الليل و النهار- من الأمور البديعة المتقابلة- لآياتٍ دلالات واضحات، و حجج ظاهرة على وجود الله سبحانه و علمه و قدرته، و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى هذه الموجودات، فيدركون، أن لها صناعاً قديراً عليماً.

[٥] ثم نظر إلى تفاصيل أدق من تلك الخطوط العريضة فى الأرض، لنرى آثار القدرة فى الجزئيات، كما رأيناها فى الكليات و فى الأَرْضِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩

قِطْعٌ جَمَعَ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ فهى مختلفة مع أنها متجاورة بعضها فى جوار بعض، فمن فصلها مع جوار بعضها البعض؟ جبل و هدهة صلبة و رخوة، طيبة و سبخة، ريفية و منخفضة، إلى غير ذلك وَ جَنَّاتٌ أَى بساتين، جمع جنه، و إنما سُمى البستان بها، لأن الأشجار تجنى الأرض و تسترها مِنْ أَعْنَابٍ تتسلق على الجدران و الأخشاب، و ما أشبههما وَ زُرْعٌ من بقول و أزهار يرتفع قليلاً وَ نَخِيلٌ يرتفع فى الجو، بلا- استناد على شىء، و لا تخرج النباتات عن هذه الأمثال الثلاثة، أما ريفية- كالنخل- أو لا- كالزروع- و إما مستقلة، أو غير مستقلة- كالعنب- صِنَوَانٌ وَ غَيْرُ صِنَوَانٍ جمع صنو و هو المثل، أى بعض هذه الأشياء متشابهة، فنخل يشبه نخلا، و زرع يشبه زرعاً، و عنب يماثل عنباً، و بعضها غير متشابهة، فنخل يعطى البرين، و آخر يعطى الزهدى، و عنب أبيض و عنب أسود، و زهر عطر و آخر قليل الرائحة، و هكذا، و المدهش حقا أن كل ذلك يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ و ينبت فى أرض واحدة، و الضياء و التربية، و كل ذلك غير مختلف، و مع ذلك لكل لون، و رائحة و طعم، و خاصية، و شكل، و حجم، و وزن، إلى غيرها، فشكل هذا مدور، و ذاك مربع، و حجم هذا كبير و ذاك صغير- و لو كان كلاهما مدورا مثلاً- و وزن هذا أوقية، و ذاك أوقيتان- و إن كان كلاهما فى شكل و حجم واحد- وَ نُفِضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فى الأُكُلِ أَى نفضل نحن- و المراد بالفاعل هو الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠

[سورة الرعد (١٣): آية ٥]

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَاباً أَوْ إِنْ أَنْفَى خَلَقْتِ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ الْأَعْلَامُ فى أعناقهم و أولئك

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)

سبحانه- بعض تلك الثمار على بعضها الآخر فى الطعم، فهذا حلو قليل الحلاوة، و ذلك حلو كثير الحلاوة، كما أن الثالث مر، و الرابع مالح و إن لم تختلف الأشكال، كما نرى فى اللوز الحلو و المر، و ما أشبه و «الأكل» هو الثمر الذى يؤكل، أى أنها مختلفة فى الثمار، مع أن الماء واحد .. إلى آخره- إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ و براهين دالة على وجود الله و علمه و قدرته، و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتبعون عقولهم، بعد أن يعملوها لإدراك الحقائق و التوصل من الأثر إلى المؤثر.

[٦] إن كل ذلك لا يكفى هؤلاء للإذعان بالله سبحانه و بما أخبر به من الحساب و الجزاء- و حيث كان ما تقدم تكلمنا حول المبدأ، يأتى دور التكلم حول المعاد- و إِنَّ تَعْجَبَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أى فالحقيق بالعجب قول المنكرين للبعث، أو المراد، و إن تعجب من إنكارهم البعث فحقيق عجبك، إذ هو فى محله، و ما هو قولهم الحقيق بالتعجب؟ أ إذا متنا و كُنَّا تُرَابًا أ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟! نخلق من جديد بشرا سويا لنحاسب و نجازى، إن ذلك لا يكون، و هل هذا القول، إلا من أغرب الأمور، فإن الله الذى خلق السماوات و الأرض، و تلك الأشياء الهائلة، التى سبق ذكرها، بدون سابق كونها، بل أخرجها من كتم العدم، ليس قادرا على إعادة هؤلاء إلى الحياة، أولئك المنكرون للبعث هم الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ و إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١

[سورة الرعد (١٣): آية ٦]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ و إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ و إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)

اعترفوا به، إذ من لا يؤمن أنه تعالى قادر على الإعادة، أو يعترف بالقدرة، و لكنه لا يدعن بالإعادة، فهو كافر بالله، بما له من الصفات، أو كافر بأقواله و أخباره، و أولئك الأغلال فى أعناقهم فى الآخرة جزاء لإنكارهم فى الدنيا، أو المراد أغلال التقاليد و الخرافة فى أعناقهم- هنا- فلا- يتبعون الحق، كالمغلول الذى ليس له حرية التصرف، حتى يتصرف كما يشاء، أو المراد أغلال المعاصى و السيئات، يعنى أنهم لا يتمكنون من الفرار عن معاصيهم بإنكارهم البعث، كما قال سبحانه: (وَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَةً فِى عُنُقِهِ) «١» و أولئك أصحاب النار الملامون لها الخالدون فيها هم فيها خالدون ليس لهم عنها تحول و انتقال.

[٧] إن هؤلاء المنكرين للبعث، يطلبون من النبى أن يعجل لهم بالعذاب- استهزاء- و يقولون «متى هو؟» فقد سفهت عقولهم، فعوض أن يطلبوا الهداية و الخير و السعادة، يطلبون سرعة العذاب، كأنهم لم يعتبروا بما أصاب الأمم الخالية، حيث خالفوا الرسل، و كذبوا بالمعاد، و يَسْتَعْجِلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالسَّيِّئَةِ أى بالعذاب، أى يطلبون منك أن تعجل عليهم بالعذاب، بأن تدعوا الله ليعذبهم قَبْلَ الْحَسَنَةِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ و السعادة و الهداية، و المراد أنهم يطلبون ذاك، دون هذا، لا أنهم يطلبون العذاب، ثم يطلبون السعادة- و هذا تعبير مجازى-

(١) الإسراء: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢

[سورة الرعد (١٣): آية ٧]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)

وَقَدْ خَلَّتْ أى مضت مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ أى العقوبات التى يقع بها الإعتبار، و هو ما حلّ بالأمم السابقة، من المسخ و الغرق و الهلاك بالعواصف و الصيحة، و قلب الأرض عليهم و غيرها، و مثلات، جمع مثله، بفتح الميم و ضم التاء، و هى العقوبة، سميت بها لأنها

تمثل، و أنها تسير بها الأمثال، وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ أَى يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ مع أنهم ظالمون، فإنه سبحانه لو أخذ الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها دابة، وإنما جيء بلفظ «على» لبيان علو المغفرة على الظلم، كأن المغفرة تتجلل الظلم حتى تستره وتخفيه ولكن لا- يعنى غفران الظالمين، حتى يتمادوا فى غيهم ف إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ فإن عقابه لا يشبه عقاب الناس بعضهم لبعض،

روى أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

لو لا نصر الله و تجاوزه ما هنا أحد العيش، و لو لا وعيد الله و عقابه لا تكل كل أحد.

[٨] إن الذين كفروا، يكفرون بالله «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» و ينكرون المعاد «أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» و ينكرون الرسالة و يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مُحَمَّدٌ مَّرْسَلًا، و لو كان من عند الله لأنزل الله عليه الآيات كاليد و العصا، و إحياء الأموات، و ما أشبهها ف لو لا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ و قد قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، إلى غيرها، لكن هذا الكلام منهم فارغ، فإنهم إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣

[سورة الرعد (١٣): آية ٨]

اللَّهُ يَغْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)

يريدوا الإيمان و الإذعان بالخوارق، فقد زود النبي بالقرآن الذى هو من أكبر المعجزات، و إن يريدوا الجدل، فلا يؤمنون، و إن يروا كل آية إنما أنت يا رسول الله مُنذِرٌ مرسل للإنذار كغيرك من الأنبياء المرسلين، و ما عليك إلا الإتيان، بما يصح به أنك رسول مخوف منذر، و الآيات كلها متساوية فى حصول الغرض، فطلبهم لآية جديدة ليس إلا- تعنتا و جدلا و لكل قَوْمٍ هَادٍ فلست بدعا جديدا، حتى تأتى بالاقتراحات، و إنما كان لكلامه هاد، يهديهم إلى الحق، و إلى صراط مستقيم، أما إنزال الآيات، فهو مرتبط بخالق الكون، إن شاء أنزل، و إن شاء لم ينزل، و إنما اللازم أن يفعل بقدر إتمام الحجته، و قد فعل، و ما ورد من أن المراد، أن عليا عليه السلام، هو الهادى، فإنه من باب المصداق فى هذه الآية- كما لا يخفى-.

[٩] ثم يأتى السياق لبيان جملة أخرى من الآيات الدالة على وجود الله و علمه و قدرته، و تدل بالملازمة إلى إمكان البعث و النشور اللَّهُ يَغْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَىٰ تَامَ أَوْ نَاقِصَ حَسَنَ أَوْ قَبِيحَ، سعيد أو شقى فى الإنسان، و فى غير الإنسان، و لو لم يعلمه لم يتمكن أن يخلقه و يصوره، و يتقن صنعه و يعلم ما تغيض الأرحام يقال غاض الماء- أو غيره من المائعات- يغيض بمعنى قل فى الأرض، أى يعلم ما تنقصه الأرحام من المدة، أو الحمل بأن تخرج الأرحام الولد دون تسعة أشهر، أو دون كمال جسمه، بأن كان ناقصا، فالمفعول لتغيض محذوف «أى تغيضه الأرحام» و نسبة الغيض إلى الرحم مجاز، و ما تزداد الأرحام له من المدة و الخلقه، بأن تخرج الولد بعد تسعة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤

[سورة الرعد (١٣): آية ٩]

عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ (٩)

أشهر- كعشرة أشهر أو أكثر- أو تزيد فى الخلقه، كأن تصنعه ذا رأسين أو ستة أصابع أو نحوها، و الحاصل أن الله يعلم المحل، و يعلم وقت الولادة، زيادة أو نقيصه من المدة المقررة للولادة، و يعلم أن الولد ناقص أو زائد،

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَىٰ «وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ» ما كان دون التسعة، و هو غيض «وَ مَا تَزْدَادُ» ما رأت الدم فى حال حملها ازداد به على التسعة أشهر «١»

و كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ تَعَالَى بِمِقْدَارٍ فليس زيادة المدة و الخلقه، أو نقصانها، كالزيادة و النقصان من مصنوعات الناس، حيث يخرج الأمر

من أيديهم، بل إنه سبحانه، يفعل كل ذلك بتقدير و حكمه، فالزيادة و النقصان بقدر و تقدير.

[١٠] إنه سبحانه عالم الغيب أي ما غاب عن الحواس ظاهرها و باطنها، سواء كان موجودا، أو معدوما، فإنه يعلم أن المعدوم لو كان كيف كان و الشهادة أي تدركه الحواس، من شهد بمعنى حضر، كأنه يحضر عند الحواس الكبير الشأن الذي كل شيء لديه حقيق و ضيع المتعال اسم فاعل من «تعالى يتعالى» بمعنى المتعالى على كل شيء بعظمته، فهو أقدر من كل قادر، و أعلم من كل عالم، و أعظم من كل عظيم، كما أشير إلى ذلك كله فى هذه الآيات - و الفرق بين الكبير و المتعال، أن الأول صفة ذات، و الثانى صفة فعل، فإن الممكن أن يكون الكبير غير متعال، أو أن المتعال غير كبير.

(١) مستدرك الوسائل: ج ٢ ص ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٠ إلى ١١]

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)

[١١] إنه بعمله يعلم كل شيء سواء منكم أى متساو فى عمله، أى شخص منكم من أسر القول أى أخفاه، فإنه يعلمه و من جهر به أى أبداه و أظهره و من هو مستخف بالليل من هو مستتر متوارى بالليل، و كان الإتيان بباب الاستفعال، لإفادة أنه كان طالب الخفاء بالليل، فليل و استخفاء، و مع ذلك يعلمه سبحانه و سارب أى بارز، من «سرب سروبا» إذا برز، أى ظهر بالنهار فله ظهور فى ذاته، و ظهور لكونه فى النهار،

قال الإمام الباقر عليه السلام: يعنى أن السر و العلانية عنده سواء «١»

[١٢] له لله سبحانه على البشر معقبات ملائكة يعقبون الإنسان من بين يديه أى إلهام الإنسان و من خلفه يعقب بعضهم بعضا فى حفظه يحفظونه حفظا ناشئا من أمر الله و لا يخفى أن التعقيب، و إن كان فى الأصل المجيء عقب شيء أو شخص، إلا أنه يستعمل بمعنى الحافظ المرتقب لأعمال الإنسان، و إن كان فوقه أو أمامه،

روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه ملائكة يحفظونه من المهلك حتى ينتهوا به إلى المقادير فيخلون بينه و بين المقادير «٢» و عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال فى تفسير الآية: هما ملكان يحفظانه بالليل، و ملكان بالنهار «٣»، فهو سبحانه مع علمه الشامل و قدرته

(١) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٨٢.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٥١.

(٣) بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦

الكاملة، يرسل ملائكة لحفظ الإنسان، فلا يخرج الإنسان من تحت قدرته و اطلاعه بواسطة أولئك الملائكة، كما أنه ليس بخارج بالذات، و كان أمثال هذه الأمور، من باب أن الله جعل لكل شيء سببا، و إلا لم يحتج تعالى إلى أى من ذلك، ثم أنه سبحانه يتعقبهم بالحفظ، لمراقبة أمورهم، و ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم و أحوالهم، ليرتب عليه تغييرا لهم ف إن الله لا يغير ما بقوم أى الحالة التى هى نازلة بقوم، من عز أو ذل، نعمة أو نقمة، رفعة أو انحطاط، صحة أو مرض، إلى غيرها حتى يغيروا ما بأنفسهم أى يغيروا الحالة التى هى بأنفسهم، فإذا جدوا و اجتهدوا فى العمل، أورثهم العز و السيادة، و إذا كسلوا أورثهم الانحطاط و الذلة، و إذا تناولوا المحرمات

أورثهم الأمراض، وإذا اتقوا أورثهم الصحة، وهكذا، فإن كل حالة فردية أو اجتماعية، فإنما هي وليدة عمل الفرد و الجماعة، وإذا عمل القوم بالمعاصي والمنهيات ف أراد الله بذلك القوم سوءاً من عذاب، أو ذلة أو مرض، أو فقر، أو ما أشبه فلا مرد له أي لا دافع له، فلا يظن الناس أنهم يعملون بأسباب البلاء، ثم يقف المال أو السلطة، أو ما أشبههما حسداً دونه و ما لهم من دونه من دون الله من وال يلي أمورهم، و ذلك واضح، فإن الله سبحانه جعل للحياة السعيدة خطوطاً عريضة، فمن انحرف عنها شقى، و من سار عليها سعد، و الانحراف موجب للشقاء، و إن توسل الإنسان بألف وسيلة و وسيلة لسعادته، و الاستقامة موجبة للسعادة، و إن كاد له كل شيء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٢ إلى ١٣]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ (١٢) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَ هُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)

[١٣] ثم شرع في آيات كونيته جديدة، تدل على ذاته و صفاته و هو الله الذي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ و هو النور الذي يرى عند وجود السحاب خَوْفًا وَ طَمَعًا أي تخويفاً من الصاعقة المهلكة، و تطمينا في الغيث المحيي للأرض، و هما حالان، أي في حالة التخويف و التطميع، فأقيم قيام المصدر، قال ابن مالك.

و مصدر منكر حالا يقع بكثرة، كبغته زيد طلع

وَ يُنْشِئُ أي يوجد السَّحَابَ الثَّقَالَ بالمطر، و إنما وصف السحاب، و هو مفرد، بالثقال، و هو جمع ثقيل، لأن اللام في السحاب للجنس، فهو في المعنى الجمع، كما قالوا في «أهلك الناس الدينار الصفر و الدرهم البيض».

[١٤] وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ و هو الصوت الظاهر من السحاب عند البرق بِحَمْدِهِ إن الرعد من صنعه سبحانه، فهو حمد و تسبيح بالقدرة التي جعلت هذا المصنوع، كما أن كل مصنوع جميل يسبح و يحمد لصاحبه، فإن التسبيح هو التنزيه عن الجهل و العجز، و الآثار تدل على عدمهما، و الحمد هو الثناء لجميل الطرف، و الرعد يدل على جميل فعل الله سبحانه و إنما خص الرعد بذلك، لأن صوته يناسب ذلك، إذ المسبح الحامد يظهر من نفسه صوتاً و إلا فكل شيء يسبح و يحمد الله سبحانه، و من المحتمل أن يراد الحمد و التسبيح حقيقة، بلسان لا نفقهه، كما قال سبحانه (وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨

لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) «١» بل مقتضى «لا تفقهون» إنها تسبح و تحمد حقيقة، إذ لو كان المراد بالتسبيح الدلالة - كما ذكر في المعنى الأول - لكان ذلك مفهوماً لنا - و الله أعلم - و معنى «يسبح بحمده» أن التنزيه إنما هو بذكر الجميل، فإن النزاهة و الجمال، لا تتلازمان خارجاً، فرب نزاهة غير جميل، كما أنه رب جميل ليس بنزاهة، و التنزيه الجميل، قد ينزه الإنسان، فيقول إن فلانا «غير قبيح» و قد ينزهه بذكر جماله، فيقول فلان «جميل» فإن «جميل» تنزيه له عن القبح بالثناء - الذي هو الحمد - و تسبيح الرعد بالحمد، فإن الرعد يدل على العلم و القدرة، و ذلك تنزيه عن الجهل و العجز و يسبح الْمَلَائِكَةُ أي ينزهونه سبحانه عن النقائص مِنْ خِيفَتِهِ من خوفه سبحانه، فإن التسبيح قد يكون لمجرد ذكر الجميل، و قد يكون رغبةً، و قد يكون رهبةً، و إنما جاء بذلك - هنا - للتناسق مع الرعد المقرقع المخوف، و البرق الخالب المخيف، و الصاعقة و يُرْسِلُ اللهُ سبحانه الصَّوَاعِقَ و الصاعقة هي جسم معدني، محمي حتى الاحمرار تقذف من أعالي الجو عند السحاب و البرق و الرعد - غالباً - و علل في العلم الحديث، بأنها من كراهة أحر، تحميها الحركة السريعة فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ من الناس في هذا الجو الرهيب، نرى البشر العاتي، و هُمْ يُجَادِلُونَ فِي وجود الله و صفاته مع ضعفهم و عجزهم، و قد رأوا تلك المشاهد الكونية الرهيبة التي تدل على إله واحد عالم قدير و هو سبحانه شَدِيدُ الْمِحَالِ أي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩

[سورة الرعد (١٣): آية ١٤]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)

شديد الأخذ بالعقاب، فإن المحال مصدر باب المفاعلة، يقال ما حله ماحله و محالا، و على وزنه ضاربه، يضاربه، ضرابا، بمعنى قاواه، حتى يتبين أيها أشد.

[١٥] إنهم يدعون مع الله شركاء، و يجادلون فيه، و الحال أن دعوته - وحدها - هي الحق، فمن دعاه كان محقا، و من دعا غيره كان مبطلا، لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ فالدعوة له هي حق، لأنها دعوة مطابقة للواقع، و معنى «له» الاختصاص، أى دعا الإله - إذا أريد أن يكون حقا - فهو له لا لغيره وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أى الأصنام التى تدعى من دون الله، فمصدق «الذين» هى الأصنام، و إنما جىء بلفظ الجمع العاقل، تماشيا مع زعم المشركين: أنها تعقل - كما مرّ فى مواضع متعددة مثل ذلك - و العائد فى «يدعون» محذوف أى «يدعونهم» لا يَسْتَجِيبُونَ أى تلك الأصنام المدعوة لَهُمْ أى للداعين المشركين بِشَيْءٍ لا قليل، و لا كثير، لا من شؤون الدنيا، و لا من أمور الآخرة، إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ هذا مثل لمن دعا الأصنام، ليقضوا حاجته، فالداعى لها كمثل رجل بسط كفيه إلى الماء، ليتناوله، و يسكن به غلته، و ذلك الماء لا - يبلغ فاه لبعده المسافة بينهما وَمَا هُوَ أى الماء ببالغِهِ فالماء كالصنم كلاهما لا يعقل و لا يستجيب، فالداعى للصنم، كالتالى للماء، و بسط الكف للدعاء كبسط الكف نحو الماء، و بعد الماء كبعد الصنم، فى عدم الاستجابة، فكما أن الطالب للماء بهذه الكيفية لا يتحصل على الماء الذى يروى عطشه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠

[سورة الرعد (١٣): آية ١٥]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)

كذلك الداعى للصنم لا يتحصل على الإجابة التى تقضى حاجته، قال بعض المفسرين: ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء؟ انظروا هذا واحد منهم: ملهوف ظمآن، يمد ذراعيه، و يبسط كفيه، و فمه مفتوح يلهب بالدعاء، يطلب الماء ليبلغ فاه، فلا يبلغه، و ما هو ببالغه، بعد الجهد و اللهفة و العناء، و كذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ لِأَصْنَامِهِمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ يضل و يتيه و لا يصل إلى المقصود، و كان الإتيان بهذا المثال، ليناسب السياق مع السحاب و الرعد و البرق الموحية بجو الماء و المطر.

[١٦] إن الكفار يابون من السجود لله سبحانه، و إنما يسجدون لأصنامهم، كما يدعون أصنامهم، و لا يدعون الله الواحد وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، و غيرها، حتى نفس السماء و من فى الأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا أى سواء كانوا طائعين أو مكرهين للسجود، كالكفار الذين يكرهون السجود، لكن شخوصهم تسجد و تخضع لله خضوعا تكوينيا، و إن لم يخضعوا خضوعا إراديا، و المراد بمن فى الأرض أعم من العاقل و غيره، حتى نفس الأرض، حتى غلب العقلاء، و إن أريد الأعم، كما غلب المظروف، و إن أريد الأعم منه و من الظرف، و إنما استفدنا ذلك من قوله سبحانه وَظُلُمًا لَّهُمْ أى حتى أظلمتهم، فكل ما فى الكون من الأشخاص و الأضلة يسجد لله، و لعل الإتيان بلفظ السجود، لأنه رمز لغاية الخضوع أى إنها جميعا خاضعة غاية الخضوع لله سبحانه، و ذلك واضح فإن الأشياء كلها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١

[سورة الرعد (١٣): آية ١٦]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

(١٦)

منقادة لإرادة الله تعالى لا يحيد عنها قدر شعرة، و ذكر بِالْعُدُوِّ أى الصباح وَالْأَصَالِ جمع أصيل و هو العصر، كأنه لتعميم الظل، حتى لا- يتوهم أنه خاص بالظل قبل الظهر مقابل الفىء الذى هو ظل بعد الظهر؟ من فاء يفىء إذا رجع، و كان الإتيان ب «بالأصال» جمعا مع الإتيان بالغدو مفردا للتناسب مع «فى ضلال» فى الآية السابقة، و لا يخفى أن الكافر و الملحد أيضا يسجد لله، و يسجد ظله، لكن بالسجود التكويني الذى يسجد بنحوه جميع الأشياء، فجسد الكافر، خاضع لناموس الكون الذى قرره الله سبحانه غاية الخضوع، لا يتمكن أن يحيد عنه قدر شعرة، و إنما يأبى السجود التشريعى له سبحانه، فلا يضع جبهته على الأرض، و لا يخضع لله غاية الخضوع، جهلا.

[١٧] و فى هذا الجو المدهش، يتوجه إليهم بالأسئلة، ليجيبوا عنها، كما شاهدوا من ذى قبل، فإنك إذا أردت أن تلجأ إنسانا إلى السير معك فى فكرك و نظرك، جئت إليه بالواقع الذى لا- يتمكن أن يحيد عنه ثم تسأل منه، كما أنك لو أردت اعترافه بأن سيارتك أجمل من سيارته، جئت إليه بها، ثم تقول له أيهما أجمل، و قد أتى السياق هنا جملة من الآيات الكونية، و ألقت الأنظار إليها، ثم يسأل قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ هل هو الله أم أصنامكم؟ إنهم لا يحرون جوابا، لأن الجواب الحقيقى لا يريدونه، و الجواب الذى لا يناسب عبادتهم لا يرون له مجالا، فكيف يقولون إن رب تلك الآيات الكثيرة المدهشة المتقدمة هى الأصنام التى لا تعقل؟ ف قُلْ أنت يا رسول الله فى الجواب: إن رب السماوات و الأرض هو الله وحده، ثم قُلْ يا رسول الله لهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢

أَفَاتَّخَذْتُمْ هَلْ عِبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ أَصْنَامًا تَتَوَلَّوْنَهَا وَ تَعْبُدُونَهَا وَ تَمْحُضُونَ لَهَا الْوَلَايَةَ وَ الْمَحَبَّةَ؟ إنه عمل قبيح، أن يترك الإنسان خالق السماوات و الأرض، و يتخذ إليها غيره لا يسمع و لا يعقل، و الحال أن هذه الأصنام لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضرراً فلا يقدر الصنم أن يجلب لنفسه نفعاً، و لا أن يدفع عن نفسه ضرا فكيف يكون إليها ما لا يقدر حتى على نفع نفسه، و دفع الضر عنه؟ و قد تقدم، أن الإتيان بالجمع العاقل نحو «لا يملكون» تماشيا مع زعم المشركين، و من المعلوم أن المشركين يسكتون هنا أيضا، إذ يرون الحق فى جانب الرسول، و لكنهم لا يقدرون على الجواب ف قُلْ لهم يا رسول الله هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ؟

و الجواب- طبعاً- لا يستويان، فكيف اتخذوا الصنم الأعمى- الذى لا يبصر- إليها، و تركوا الخالق البصير بكل شىء؟ ثم قل لهم أم هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ؟ و الجواب- طبعاً- لا يستويان، فكيف اتخذوا الصنم الذى هو ظلمة- لا ظاهر بنفسه و لا مظهر لغيره- إليها، و تركوا الخالق الذى هو نور السماوات و الأرض، ظاهر بذاته مظهر لغيره؟ أم كيف جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ؟ بعد تمام الحجج و وضوح الدليل، فهل خَلَقُوا أى خلقت هذه الأصنام التى جعلوها شركاء لله، أشياء كَخَلْقِهِ أى مثل ما خلق سبحانه أشياء فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ أى فاشتبهت مخلوقات الله بمخلوقات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣

[سورة الرعد (١٣): آية ١٧]

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَ مِمَّا يُوقْتَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)

الأصنام، فعبدوا الأصنام، كما عبدوا الله سبحانه، حتى يكونوا معذورين فى الشرك، و إنما جىء بقوله «فتشابه» مع إنه ليس من مصب الكلام، و مورد النفى و الإثبات، لبيان أنه لو كانت الأصنام خلقت شيئا، كان لهم الحق، فى أن يقولوا: إنا قد تشابه الأمر علينا، إذ رأينا أن الأصنام تخلق كما خلق الله، فقلنا إنها آلهة، كما إن الله إله، أما و الأصنام، لم تخلق شيئا، فلا يحق لهم عبادتها، إذ ليس لها من مقومات الالهية شىء، ... و أخيرا قُلْ يا رسول الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فلا خالق سواه، فإن قيل: فما معنى «أحسن الخالقين» مما يدل على أن غيره أيضا خالق؟ قلنا أن ذلك على ضرب من المجاز و التشبيه، لا الحقيقة- كما هو واضح- وَ هُوَ الْوَاحِدُ لا شريك له

القَهَّارُ الغالب على كل شيء، فلا شيء في عداده، إذ لو كان شيء مثله، لم يعمه قهر الله سبحانه و غلبته، فإذا كان تعالى غالباً على كل شيء، دل على إنه ليس شيء في عداده، خارج عن قهره و غلبته.

[١٨] ثم ضرب - سبحانه - مثلاً للحق الباقي، و الباطل الذاهب، بما يلائم سياق الآيات السابقة، فقد كان الكلام سابقاً حول البرق، و الرعد، و السحاب المثقل بالمطار، و باسط كفيه إلى الماء، و يأتي المثل ليمثل للحق بالماء الهادئ الساكن النافع الباقي، و للباطل بالزبد الذي يطفو فوق الماء، حتى يراه الإنسان أعلى من الماء، لكن هذا الباطل الرابي، لا يمر زمان حتى يذهب و يبطل، و ذلك الماء يبقى ليحيى و ينتفع به، و كذلك من هذا القبيل ما يذاب من المعادن، فإن الزبد يطفو فوقه، و الخالص يبقى تحته، فيبطل الزبد، و يبقى الخالص، ليتجمل به

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤

الإنسان و ينتفع منه، فالحياء و الجمال هما من الباقي الذي هو مثل للحق، و الباطل لا يمثل إلا دور الزبد الذي يعلو - في النظر - أولاً، ثم لا يلبث أن يذهب و يضمحل، فلا يبقى منه شيء، و لم ينفع شيئاً، الزبد مثال للباطل الذي يتخذهُ هؤلاء المشركين، كالأصنام، التي لا تنفع، و إن ظهرت أول الأمر غالباً على الحق، و الماء و الحلية مثال للحق، الذي يتخذهُ المؤمنون للحياء و التجمل، و إن علاه الباطل - كالزبد الرابي على الماء، و الحلية - ابتداءً، أنزل سبحانه من السماء ماءً أي المطر، و المراد من السماء، جهة العلو فسألت أي جرت أودية جمع وادي، و هو النهر بقدرها أي كل بقدره، فالنهر الصغير أخذ من ذلك الماء قدراً قليلاً، و النهر الكبير، أخذ من ذلك الماء قدراً كثيراً - و كان بيان إنزال الماء من السماء لتشبيه الحق المنزل به، فإن الحق ينزل من السماء، ثم يختلط به الباطل، إذ الباطل إنما يروج نفسه باسم الحق، و بعد ذلك، يذهب الباطل، و يبقى الحق، و هكذا الماء، فإنه ينزل من السماء صافياً، ثم يعلوه الزبد في الأرض، و كان وجه ذكر «فَسَأَلْتُ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا» بيان أن الحق هكذا في مجارى الأمم، فرب أمه أخذت من الحق كثيراً حسب طيب نفوسها، و حسن الدعوة فيها، و رب أمه أخذت من الحق قليلاً، حسب خبث نفوسها و بعد الدعوة عنها، فأختمل السيل أي أخذ السيل، الذي يمر في الأودية، من سال الماء، إذا جرى زبداً رابياً أي طافياً على الماء، من ربي بمعنى علا، فإن الماء لا يلبث أن يظهر، و الزبد لا يلبث

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٥

أن يذهب، و هكذا الحق يبقى - ليحيا - و الباطل يفنى و يذهب و مما يؤقِدُونَ عَلَيْهِ يقال أوقد النار، بمعنى أشعلها، و ضمير «عليه» يرجع إلى «ما» الموصولة في «مما» الذي مصداقه «الفلزات» كالفضة و الذهب و الحديد، و سائر المعادن، و إنما قال «عليه» لأن الإيقاد، يكون «على الفلز» كأنه يضرب به، إذ يخضعه للذوبان، كالذي يتسلط على غيره في النار حال تقديره ثابتاً في النار، أي في حال كون ما يوقد عليه، ثابتاً في النار، فإن الفلز يجعل على النار حتى يذوب ابتغاء حليته أو متاع حال عن الضمير في «يوقدون» أي الذين يوقدون الفلز في النار، في حال كونهم يبتغون و يطلبون بذلك الزينة - كما لو أذابوا الذهب و الفضة، للسوار و القلادة و نحوهما - أو يطلبون بذلك «المتاع» أي ما يمتع به، و يستعمل في الحوائج - كما لو أذابوا الزنك، و الحديد و النحاس، لصنع الأواني و المحراث، و الإبريق و نحوها - فهنا حالان، «في النار» حال عن الضمير في «عليه» و «ابتغاء» حال عن الضمير في «يوقدون» و زَبَدٌ مِثْلُهُ مبتدأ و «مثله» صفة، خبره «مما يوقدون» المتقدم، و إنما تقدم الخبر، لأن المبتدأ، إذا كان نكرة، قدم خبره الذي هو ظرف، أو جار و مجرور عليه، قال ابن مالك.

و لا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تغد كعند زيد نمره

و المعنى أن بعض الفلزات الذي يشعل الناس النار «عليه» أي على ضرر ذلك الفلز لأجل إخضاعه و إذابته، في حال كون ذلك الفلز في النار، و في حال كون الناس يبتغون بالإذابة، صنع الزينة، أو صنع الأمتعة، زيد خبيث، مثل زبد الماء، فيطفوا على البوتقة، حتى يغطى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٦

[سورة الرعد (١٣): آية ١٨]

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)

الفلز المذاب الصالح كذلك الذي مثلنا من الماء وزبده والفلز وزبده يضرب الله مثلا لالحق والباطل فالحق يحيى، و يسبب الجمال، كالماء الذي يحيى، والفلز الذي يسبب الجمال ورفع الحاجة، والباطل يفنى ويذهب كالزبد الذي يطفو على الماء وعلى البوتقة، ولعل التعبير - ب «الضرب» في المثل، لأجل اصطدام الذهن به، فإن الذهن يتأثر بالمثل أكثر مما يتأثر بأصل المطلب، ولذا أن من فنون البلاغة أن يكثر الإنسان المثل، فإنه يوجب توضيح المطلب وترسيخه فأما الزيد الطافي، فيذهب جفاء أى باطلا متفرقا، بحيث لا- ينتفع به، من جفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها عنها، وأما ما ينفع الناس من الماء الجارى فى الأودية، والفلز الصافى فيمكث فى الأرض يبقى ليسقى الزرع والحيوان والإنسان، أو يمتع به فى حوائجه كذلك الذى تقدم من المثل يضرب الله الأمثال للناس واضحة جلية، ليرسخ الحق فى أدمغتهم، و يتركز فى نفوسهم.

[١٩] و إذا تقرر أن الله سبحانه أنزل من السماء «الحق» لاستفادة الناس - كما أنزل من السماء ماء- فمن استجاب لله، وقبل الحق، له خير الدنيا وسعادة الآخرة، و من لم يستجب له، فإن له سوء العاقبة و عذاب الآخرة ف للذين استجابوا لرّبهم الحسنى «الحسنى» مبتدأ و «الذين» خبره، و لعل الإتيان ب «استجاب» دون «أجاب» مع أن كلا منهما بمعنى الآخر، لبيان أن إجابة الله سبحانه، تحتاج إلى التهيؤ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٧

و الاستعداد، كما يشعر بذلك كونه من باب الاستفعال، الذى كان الأصل فيه الطلب، يقال: استخرج بمعنى طلب الخروج و «الحسنى» صفة لمحذوف، أى الحالة الحسنه، فى الدنيا والآخرة، فإن مناهج الله سبحانه و دساتيره فى الحياة، توجب الراحة و الرفاه و السعادة فى النشأتين، فالذين قبلوا أوامر الله سبحانه، فلهم الحالة الحسنه و الذين لم يستجيبوا له أى لله تعالى، فلم يؤمنوا به، و لم يمتثلوا بأوامره، فلهم أسوأ الحالات، أما فى الدنيا «فإن له معيشة ضنكاً» و أما فى الآخرة- و هى العمدة- فإنهم فى شقاء و عذاب، حتى لو أن لهم ما فى الأرض من الثروة جميعاً، لا- يشاركهم فيها أحد، فلهم كل المناصب، و كل الأموال، و كل الأراضى و الأنهار، و كل الخدم و الحشم و مثله معه حتى كأن هناك أرضين، و لهم اثنتان- و هذا من باب المثل، و إلا فالمراد، أن كل الأشياء لا تنفعهم، و إن كانت آلاف الأراضى، كما تقدم شبه ذلك فى قوله سبحانه، «إن تستغفروا لهم سبعين مرة»- لافتدوا به أى جعلوا ذلك كله فدية لأنفسهم من العذاب، و الفدية هى التى تعطى لإنقاذ النفس، كالفداء، و لكن لا تنفعهم الفدية، أولئك لهم سوء الحساب و المراد بسوء الحساب العدل فيه، و إنما سمي سوءاً، لأنه يسىء إلى المحاسب المذنب، و هذا بخلاف المؤمن المطيع، فإنه يحاسب حساباً يسيراً، و يتفضل عليه بغفران ذنبه، و عدم المناقشة معه فى حسابيه، و لذا ورد: ربنا عاملنا بفضلك، و لا تعاملنا بعدلك و مأواهم أى مصيرهم من أوى يأوى، بمعنى اتخذ المأوى،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٨

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٩ إلى ٢٠]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)

و المحل و المكان جهنم و بس المهاد المهاد الفراش، سمي بذلك، لأن الإنسان يمهده لنفسه، و يهيئه لراحته، أى بس ما مهدوا لأنفسهم من النار.

[٢٠] و هنا يأتى الفرق بين المؤمن و الكافر، بعد ما بين الفرق بين الإيمان و الكفر- و إن الأول كالماء، و الفلز، و الثانى كالزبد- أ

فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما «ما» موصولة، أى أن القرآن الذى أَنْزَلَ إِلَيْكَ يا رسول الله مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فَيُؤْمِنُ، و يخضع و يطيع، فهو بصير بالحق يراه، و يعمل به كَمَنْ هُوَ أَعْمَى لا يرى الحق و لا يبصره، و الاستفهام إنكارى، أى ليس هذان متساويين إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ أى أصحاب العقول، فإنهم هم الذين يعملون أفكارهم، ليتذكروا الحقائق، و يستدلون من الأثر إلى المؤثر، و من الكون إلى إله الكون.

[٢١] ثم وصف المؤمن المشار إليه بقوله «أ فمن يعلم» و قال فى حقهم أنهم أولوا الألباب، فإنهم هم الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ الْمَوْعَدِ فى فطرتهم، و لو لا عهده معهم، لم تكن فطرتهم ترشدهم إلى ذلك، إذ لا يمكن للإنسان أن يترشح منه إلا ما هو فيه، و إلا فكيف يعرف الإنسان أن للكون إلهها، و هكذا كيف يعرف أن العدل حسن، لو لم يودع فيه ما يترشح منه ذلك؟ هذا بالإضافة إلى أخذ الأنبياء العهد من أممهم، و العهد المأخوذ، و إن كان من الآباء، لكن الأبناء، حيث أدخلوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٩

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَالَّذِينَ يَصِّمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)

أنفسهم فى اطار الآباء، كان العهد مستقرا عليهم، و هذا هو السر فى أخذ الأمم بما يفعله الآباء أو الكبراء، فإن الالتزام بالإطار، التزم بما يكون فيه، و يدور فى حلقة و لا يَتَّقُضُونَ الميثاق أى العهد الأكيد، الذى أخذه سبحانه منهم بالإيمان بالله و رسله، و الميثاق مشتق من «وثق» كأنه يوجب ثقة كل جانب بالآخر، إذا أبرم العهد.

[٢٢] وَالَّذِينَ يَصِّمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ فكل ما أمر الله بصلته، و الاتصال به من الأنبياء عليهم السلام و المرسلين، و عبادة الصالحين، و الأعمال الحسنه، و العبادات و غيرها، أنهم يصلون به، و يتصلون إليه، اتصالا قلبيا، أو لسانيا، أو عمليا، و ذلك موجب للانقطاع عما أمر الله به أن يقطع بالتلازم و يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فلا يخالفونه بالعصيان، و لعل المراد بالأول الإطاعة، و بهذا العصيان و يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ليس المراد الظلم، فإن الله سبحانه لا يظلم، و إنما المراد العدل، فإن الحساب لو كان عادلا- و لم يجر على مقتضى الفضل- أساء إلى الذى يحاسب، و لذا سمي سوءا.

[٢٣] وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ هذا، و إن كان داخلا فى «يصلون» إلا أنه ذكر خاصا لأهميته، و هكذا الفقر التالية، فقد جمعت الآيتان السابقتان المبدأ و المعاد و الشؤون المتوسطة بينهما، فالمبدأ ذكر ب «الذين يوفون» و المعاد ب «و يخافون» و ما بينهما ب «الذين يصلون» ثم أن الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة بأن يصبر الإنسان على أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٠

يطيع، و صبر على المعصية، بأن يأخذ الشخص زمام شهوته عند المعصية، و صبر على المصيبة، بأن لا يجزع الإنسان عند نزول كارثته به من فقر أو مرض، أو ما أشبه، ثم اللازم، أن يكون الصبر لأجله سبحانه، لا لانتهاز أمور دنيوية، و إلا فلا قيمة له، و أقاموا الصلوة داوموا عليها باستمرار، و أنفقوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ من كل شىء رزقوا، و إنفاق كل شىء بحسبه، فإنفاق العلم بذله، و إنفاق الجاه قضاء الحوائج، و إنفاق المال إعطائه، و إنفاق الساسة، إدارة الأمور، و هكذا سِرًّا وَعَلَانِيَةً أى فى جميع الأوقات و الأحوال، فإن مثل هذا الإنسان، هو الذى ينفق فى سبيل الله تعالى، و يكون الإنفاق مقصده، لا الرياء و السمعة، و ما أشبه و يَدْرُؤُونَ أى يدفعون بسبب الحسنه السَّيِّئَةَ إما بمعنى أنهم إذا ساءوا، و فعلوا شيئا من المعاصى، فعلوا بعد ذلك بعض الحسنات، فإن الحسنه تمحى السيئه، قال سبحانه (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) «١»

و روى أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ قال لمعاذ بن جبل إذا عملت سيئه، فاعمل بجنبها حسنة تمحها

«٢». و إما المراد أنهم إذا أساء إليهم أحد لم يسيئوا إليه، بل يحسنون إليه، و هذا غاية الفضيلة، كما

فى دعاء مكارم الأخلاق، للإمام السجاد عليه السلام «اللهم صل على محمد و آل محمد، و سدنى لأن أعارض من غشنى بالنصح، و

أجزى من هجرنى بالبر، و أثيب من

(١) هود: ١١٥.

(٢) راجع وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ١٠٤. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨١

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

جَنَّاتٍ عِدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

حرمنى بالبذل، و أكافى من قطعنى بالصلة، و أخالف من اغتابنى إلى حسن الذكر»

«١» أولئك المتصفون بهذه الصفات لهم عُقْبَى الدَّارِ أى عاقبة الجنة، فإنهم يدخلونها خالدين فيها.

[٢٤] ثم فسر سبحانه «الدار» بقوله جَنَّاتٍ عِدْنٍ أى بساتين إقامة من عدن بالمكان بمعنى أقام فيه إقامة طويلة، و فى الأحاديث أنها جنات خاصة، فإن كلا من فردوس، و عدن، و ما أشبههما، اسم لجنة خاصة من الجنان الكثيرة يَدْخُلُونَهَا أى يدخلها هؤلاء المتصفون بتلك الصفات و يدخلها مَنْ صَلَحَ أى من كان صالحا قولاً و عملاً و عقيدةً مِنْ آبَائِهِمْ الأبوين و الأجداد و أزْوَاجِهِمْ زوج المرأة، و زوج الرجل، أو الأعم من ذلك، و من سائر الأقران، فإن الزوج يطلق على المثل، كما قال سبحانه، (وَ آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) «٢» وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ أولادهم مهما نزل- و هذه نعمة كبيرة، أن يتنعم الإنسان بهؤلاء فى الجنة- وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ من أبواب الجنة قائلين.

[٢٥] سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يحيونهم بالسلام تكريماً لهم، و معنى السلام، أن تكونوا سالمين من الآفات، و الجنة و إن كانت محل النعيم و الراحة،

(١) الصحيفة السجادية: دعاء رقم ٢٠ المسمى بدعاء مكارم الأخلاق.

(٢) ص: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٢

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

لا تحمل الآفات و العاهات، إلا أن التسليم هناك، نوع من التكریم بما صَبَرْتُمْ أى أن تکریمنا لكم بسبب صبركم على مكاره الدنيا، و أن سلامتكم هذه فى الجنة بسبب صبركم فى الدنيا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ أى نعم عاقبة للدار ما أنتم فيه من النعيم و الكرامة.

[٢٦] هذا كان عاقبة المؤمنين العاملين، فلتنظر إلى حال الكفار و الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمُ بالإيمان، بما أودع فيهم من الفطرة، و أخذ عليهم بلسان الأنبياء مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ من بعد توثيقه و ابرامه و يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ فلا يصلون الأنبياء عليهم السَّلام و الأئمة الصالحين، و لا يصلون الأرحام و الفقراء و المساكين و يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالدعاء إلى الضلال، و الظلم و الفتنة، و ما أشبه أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ الطرد عن رحمته الله سبحانه، و الإبعاد عن الجنة و لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى نار الدار الآخرة و عذابها.

[٢٧] إن هؤلاء الذين نقضوا عهد الله، أخذوا يوسعون فى أمور دنياهم تاركين الآخرة، كأنها ليست بشيء، و كان الدنيا هى التى يجب العمل لها وحدها، مع أنه ليس كذلك ف الله وحده بيده أزمة الدنيا و الآخرة، فهو يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ يوسع عليه و يَقْدِرُ أى يضيق الرزق لمن يشاء، من قدر، بمعنى ضيق، كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٣

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٧]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧)

قال سبحانه (وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) «١» وقال (فَطَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) «٢» وإذا كان الله سبحانه هو الذى تكفل بالدين، فما هذا الاهتمام- من نقض عهد الله- للأمر الدنيوية؟ وفرحوا أى فرح هؤلاء الناقضون بالحياة الدنيا، و بطروا بها ناسين الآخرة مخصصين فرحهم كله للدنيا والحال أنه ما الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها فى الآخرة «فى» بمعنى النسبة، والاضافة، أى بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع قليل، يتمتع به الإنسان، وأما الآخرة فهى الدار الباقية، التى فيها أنواع النعم والكرامة، ثم أن كون الله سبحانه، هو الباسط للرزق، والمضيق له، بمعنى أنه يقدر هذا لهذا، و ذاك لغيره، ولذا نرى رب فطن كاد ليس له إلا القليل، و رب بليد كسول، تأتية الدنيا صاغرة، قال الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه و جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى أوجب الإيمان فى «أحد» يدبر الأمر توسيعا و تضيقا «٣»

نعم للعمل حظ بقدر ما جعله سبحانه سببا، فإن العمل- بقدر- و الغيب كلاهما دخيلان فى أمر من الأمور الإدارية.

[٢٨] و إذ تقدم الكلام حول الذين ينقضون عهد الله بعدم الإيمان به، فإنهم هم الذين لا يؤمنون بالرسول، لأعداء واهية

(١) الطلاق: ٨.

(٢) الأنبياء: ٨٨.

(٣) البيت الثانى للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٤

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٨]

الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ آيَةٌ معجزة خارقة مِنْ رَبِّهِ مما نقترحها من المعجزات و الخوارق، و لم يكن لهم حق الإجابة، فإن الآية نزلت، و هى القرآن الحكيم، لكنهم كانوا معاندين يريدون التعنت قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْم، إن الأمر ليس مخفيا حتى يحتاج إلى الآية، و إنما سبب ظلالكم، أنكم تتركون الإرشادات العقلية، فترككم الله، و لا يلطف بكم حتى تؤمنوا، بعكس المؤمنين الذين عملوا عقولهم فآمنوا، و لذا لطف سبحانه بهم ف إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بترك لطفه به، بعد ما أراه الطريق فلم يسلكه، كما تقول: أن الحكومة ضيعت فلانا، تريد انها لم تعتن به حتى ضل و ضاع، بعد أن أرتة الحكومة الطريق، فلم يسلكه وَ يَهْدِي إِلَيْهِ أَى إِلَى نَفْسِهِ وَ طَرِيقَهُ مَنْ أُنَابَ أَى رَجَعَ عَنْ غِيهِ، فَمَنْ رَجَعَ عَنِ الْغَى، وَ أَرَادَ الْهُدَى، لطف به سبحانه أَلطافه الخاصة، حتى يهتدى حقيقة، و يكون من الأعلى حظا و رشدا.

[٢٩] و من ذاك الذى يهديه الله سبحانه؟ إنهم هم الَّذِينَ آمَنُوا بأن اتبعوا الحق، فإنهم يهديمهم الله- أَى يلطف بهم أَلطافه الخفية-

كالولد الذى يسمع كلام أبيه، فيلطف به بالتوسعة، فى أموره، و معاضدته فى حوائجه و مهامه و هؤلاء المؤمنون تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ القرآن الحكيم، فلا- يطلبون خوارق و آيات، تعندا و اعتباطا، أو المراد الأعم من ذلك، فإن كل مؤمن مطمئن القلب، غير قلق، إذ

الاعتماد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٥

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٩]

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)

على الله يهون المصائب، كما تحفظ القلوب عن البطر، فإن الإيمان كالزمام الذى يعدل سير الحيوان، لا يبطر عند النعمة، لما يرى من رقابة عليه، و لا- يجزع عند البلية، لما يعلم ما أعد الله للمؤمنين الصابرين من الأجر ألا فلينتبه الإنسان بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ التى دخلها ذكر الله، فإنك إذا عرفت أن عليك سيءا، إذا أنعم أراد الشكر، و إذا أبلى جزاك بالأجر اطمئن قلبك، و لم يكن كالقلب القلق الذى تخرجه النعمة إلى الإفراط، و البلية إلى التفريط، و لذا

كان يقول الإمام الحسين عليه السلام فى يوم عاشوراء: «هون ما نزل بى أنه بعين الله»
«١».

[٣٠] ثم ابتداء بقوله الَّذِينَ آمَنُوا بالله و رسله، و اليوم الآخر، و ما يجب الإيمان و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة، مما أمر الله به، و يدخل فيه- بالتلازم- و الاجتناب عن الأعمال القبيحة طُوبَى لَهُمْ مؤنث طيب، أى أن لهم الخلعة و المقامة الطيبة الحسنة فى الدنيا، أو الأعم، و حُسْنُ مَآبٍ أى المرجع الحسن فى الآخرة، أما فى الدنيا، فإنهم آمنون مطمئنون تهديهم مناهج الله سبحانه إلى السعادة و الرفاه، و أما فى الآخرة، فإن لهم جنات النعيم، و من المعلوم أن «شجرة طوبى» التى هى شجرة خيرة فى الجنة، إنما هى مصداق من مصاديق ما يناله المؤمن من المنزلة الطيبة فما فى بعض الأحاديث من تفسيرها بتلك، فإنما هو إشارة إلى أحد المصاديق.

(١) اللهوف على قتلى الطفوف: ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٦

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٠ الى ٣١]

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)

[٣١] إن هؤلاء الذين يطلبون الخوارق حالهم كحال من سلف من الأمم، و قد أرسلنا فى تلك الأمم رسلا، لكنهم أبوا إلا الكفر، كما أن ذلك لم يضر الرسل، فلتمضى يا رسول الله على نهجك كذلك أى كما أرسلنا فى الأمم السابقة رسلا أرسلناك يا رسول الله فى أُمَّةٍ من الناس، و هم المعاصرون لك قَدْ خَلَتْ أى مضت من خلا بمعنى مضى مِنْ قَبْلِهَا أُمَّةٌ أرسلت إليهم الرسل، و إنما أرسلناك لَتَتْلُوا عَلَيْهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ من القرآن، و سائر الأحكام المنزلة وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ الذى يرحمهم، و يتفضل عليهم، أنه فى غاية العجب أن يتفضل الله بالرحمة، و يتلو رسوله عليهم الآيات، ثم هم يعرضون عن الرسول، و يكفرون بالله، فإن أعرضوا قُلْ يا رسول الله هُوَ رَبِّي و امض فى طريقك فى الإعلان و الإرشاد لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فما عداه من الأصنام و المعبودات باطلة، لا تستحق العبادة عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فوضت أمرى، مستمسكا بطاعته وَ إِلَيْهِ مَتَابٍ من تاب بمعنى رجع، أى إليه مرجعى، فإنه مصدر ميمى يقال تاب يتوب و متابا.

[٣٢] إن الكفار يطلبون الخوارق، و لا- يطمنون إلى ذكر الله القرآن الحكيم، و إنا قد أرسلناك، لتتلو عليهم القرآن، و ما أعظمه من كتاب، فإنه من العظمة و التأثير، حتى لتكاد تسير به الجبال، و تتقطع به الأرض، و يكلم به الموتى، لما فيه من قوة و طاقه و تأثير، و لكن هؤلاء قست

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٧

قلوبهم، فهى كالحجارة أو أشد قسوة، فلا- يؤمنون به، و يطلبون آية غيره، إنا أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا أى

مقروء، أى لو كان هناك قرآن سُبِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ بأن يقرأ على جبل فيسير من شدة تأثيره وطاقته المسيرة للجماذ أو قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ بأن يقرأ على الأرض، فتشق من طاقته الهائلة، التى تنشق الأرض من هيبته أو كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بأن يقرأ على الميت، فيتكلم الأحياء بسببه، أو المراد يحيى الميت- فالتكلم كناية عن الحياة- أى لو أن قرآنا كان كذلك، لكان هو هذا القرآن، و لكن الكفار مع ذلك يطلبون غيره، و لا يكتفون به، فجواب «لو» محذوف و هذا كما يقال: فلان يبكى حتى يتأثر به الحجر يراد أن فى بكائه من الحرارة و اللوعة، ما يكفى لأن يؤثر فى الحجر، و فلان منطوق، يؤثر كلامه فى الأموات، يراد أن فى نطقه من التأثير ما يجعله صالحا لأن يؤثر فى الأموات ثم أن هذا القرآن يؤثر- بالفعل- هذه التأثيرات، و لكن بشرط أن يتلوه الإنسان الصالح، فهو كالسيف الذى يصلح أن يجز الرقاب، و لكن إذا كان بيد الشجاع،

و قد روى عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: قد ورتنا نحن هذا القرآن الذى فيه ما تسير به الجبال، و تقطع به البلدان، و تحيى به الموتى «١».

و المراد بإرثه بذلك المعنى، لا إرث ألفاظه و أوراقه، فإنهما عامان لكل المسلمين، كما أنه ربما أطلق الإرث و أريد به إرث المعانى مما خفى على كثير من الناس، و لذا انحرفوا فصاروا مجسمه و مجبره، و ما أشبه

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٨

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ آيَاتِ الْخَارِقَةِ، لكن النبى ليس مكلفا بذلك، و إنما مكلف بالإنذار، و أن يكون معه ما يصدقه أنه نبى مرسل، و قد فعل الأمرين، فجاء بالقرآن شاهداً، ثم أُنذِر و بشر، أما سائر الآيات، التى يقترحونها، فإنها بيد الله، كما قال سبحانه: (قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) «١» فهو ينزلها حسب المصلحة و الحكمة- كما سبق تفصيل ذلك- و إذا أتى هؤلاء الكفار، هذا القرآن العظيم الذى من شأنه تلك التأثيرات الهائلة، ثم لم يؤمنوا به، فليأس المؤمنون من هدايتهم، و لينتظروا عذاب الله و عقابه، جزاء إعراضهم أفلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا عَنْ هَؤُلَاءِ؟ و ألم يعلموا أن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً بالإجبار، فإذا رأوا أنه لا يهدى أحداً بالإجبار، فاللازم أن يياسوا، فإن هناك إما الإيمان بالاختيار، و إما الإيمان بالجبر، و إما اليأس عنهم، فإذا علم المؤمنون أن الله لا يجبر أحداً بالإيمان، و رأوا عناد هؤلاء عن الإيمان الاختيارى، فاللازم أن يياسوا عنهم، و يتركوهم فى ضلالهم يعمهون، و قد ظهر بما ذكرنا: أن «أفلم يياس» أشرب معنى «أفلم يعلم» و لذا عمل فى «أن لو يشاء» و إذ لا- يريد الله إجبار الكفار، و لا- أنهم يؤمنون بالاختيار، فليعلم المؤمنون أنه لا يزال الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَدَّعُوا قَارِعَةً ما تفرعهم و تضربهم، فإنه سبحانه لم يشاء إهلاك هذه الأمة دفعة كبعض الأمم

(١) الأنعام: ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٨٩

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وَلَقَدْ اسْتَهْرَجَىٰ بُرْسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

السالفة، لكنه تعالى يعذبهم مرة، فمرة بقوارع من الضيق و الفقر و الضر، و تسلط الأعداء عليهم، و نحو ذلك أو تحل القارعة قريباً من دارهم فتروعهم و تخيفهم و تدعهم فى قلق و انتظار لمثلها حتى يأتى وَعُدَّ اللَّهُ الَّذِي وَعَدَهُ باستئصال المجرمين و نصر المؤمنين عليهم

إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَعَدَهُ آتٍ لَا مَحَالَةَ.

[٣٣] إن الله سبحانه لا بد وأن يصيب الكفار بالقوارع، كما فعل بمن غبر من الأمم ممن كذبوا الرسل و لَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كما استهزئ بك، فإن من عادة الجهال أن يستهزءوا، إذا لم تكن لهم حجة في قبال المرشد الناصح فَأَمَلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الإِمْلَاءَ، هو أن يقرأ الإنسان شيئاً ليكتبه غيره، وهذا كناية عن إمهال الكفار أى شرعت أعدد ما يفعلون من الآثام والاجرام، لتملأ القائمة المقدره لهم ثم حين استوفوا الأجل المقدر أَخَذْتُهُمْ أَهْلَكْتُهُمْ، وأنزلت عذابى عليهم فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ أَى فكيف حل بهم عقابى، وهو استفهام للتفخيم، إشارة لعظمه عذابه سبحانه الذى عذبهم به.

[٣٤] وإذا تمت الحجة مع الكفار الذين استهزءوا بالرسول، وأنكروا المبدأ والمعاد، فليعطف الكلام مع المشركين الذين يجعلون مع الله شركاء أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ فَهُوَ نَازِلٌ إِلَى أَعْمَالِهِ مَطْلَعٌ تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٠

على نياتته، كمن ليس كذلك من الشركاء الذين يشركونهم مع الله سبحانه؟ إنهما ليسا متساويين طبعاً، ولدى كل عاقل، فكيف يساوى هؤلاء المشركون الله سبحانه بأولئك الشركاء وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِطَاعَةِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ سَمَّوْهُمْ مِنْ هُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هُمْ شُرَكَاءُ مَعَ اللَّهِ، إنها نكرات مجهولة لا شأن لها، حتى أن المشركين هم بأنفسهم يخلجون من تسميتها على الملائك، فكيف يتخذونهم شركاء، أم تُبَيِّنُوهُ أَى تخبرون الله سبحانه بما لا يعلم فى الأَرْضِ فتخبرون الله بالهة لا يعلمها الله وأنتم تعلمونها، إنه كلام للاستهزاء كما إنهم كانوا يستهزئون بالرسول، ويا للسخرية أن يقولوا هؤلاء الكفار القائم على كل نفس بالأصنام، أو يجعلون لله شركاء، سافلة إلى حد لا يقدر على مجرد تسميتها، أو يخبرون الله، بما لا يعلم هو، وهم يعلمون، فيكونون أعلم من الله سبحانه؟؟

ثم إن من المعلوم، إن الشركاء لا- وجود حقيقى لهم، وإنما هى موجودة فى أدمغة المشركين، فعدم علمه سبحانه بالشركاء سألته بانتفاء الموضوع، وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون ضمير «لا يعلم» عائداً إلى الصنم، أى أ تخبرون الله بصنم لا يعلم فى الأرض فكيف بالسماء، وهل يقاس ما لا علم له بشؤون الأرض، وحدها، بالله الذى يعلم كل شىء، أم إن جعلهم الشركاء ليس على نحو الحقيقة، وإنما بظاهرٍ مِنَ الْقَوْلِ أَى بكلام سطحى، فلا اعتقاد لهم بالشركاء وإنما يتلفظون بها، مجرد لفظ فكلامهم حول الشركاء، ككلامهم حول القصص الخيالية التى يعلمون بها أنها سطحية لا نصيب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩١

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٤]

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

لها من الواقع والحقيقة يبل الواقع أن جعل هؤلاء الله شركاء من جهة أنه زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ فَإِنِ الْإِنْسَانُ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ يَمْكُرُ، أى يدبر خفية أمراً، ليحمله فى قبال الحق، وهذا فى بادئ الأمر يكون مجرد عمل ضد الحق، ومكر لإطفاء الهدى، ثم لا يلبث أن يتزين فى نفسه، لأن مرور الزمان يوجد العلاقة بينه وبين المكر، كما قال سبحانه (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا) «١» و ثم يتعلق به تعلقاً شديداً، حتى يكون عقيدة راسخة وَصِيدُوا عَنِ السَّبِيلِ الْوَاضِحِ سَبِيلَ اللَّهِ تَعَالَى، وإنما صدهم استمرارهم فى مكافحته الحق، حتى صارت وقفتهم ضد الحق حالة لهم، ولذا تركهم الله سبحانه وشأنهم وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ يَتْرُكْهُ وَشَأْنَهُ حَتَّى يَسْتَحْكَمَ ضَلَالَهُ، بعد أن أُرشده، فلم يقبل فما له من هادٍ يهديه إذ الهادى هو الله وحده وقد أعرض عن هداه.

[٣٥] لَهُمْ أَى لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنِ الْإِنْحِرَافُ عَنِ نَهْجِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، حيث يصادم نوااميس الكون، لا بد وأن يسبب للمنحرفين العذاب الجسمى والروحي بالأمراض والعداء والقلق، وما أشبهه، هذا بالإضافة إلى تعذيبهم بالقتل والأسر والسبى بأيدي المسلمين وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ الْمَعْدُ لَهُمْ أَشَقُّ أَكْثَرَ مَشَقَّةً،

(١) فاطر: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٢

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

و أغلظ و ما لهم من قبل الله من واق اسم فاعل من «وقى» أى من حافظ يحفظهم من ذلك العذاب و إذ لا حافظ إليهم من الله، فلا حافظ لهم إطلاقاً.

[٣٦] إن فى الآخرة للمشركين عذاباً شديداً، أما المؤمنون فلهم الجنة، إنهم وقوا أنفسهم عن المعاصى و اتقوا، فوَقاهم الله عن العذاب، بل هبئ لهم الجنة مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ دخولها و التمتع فيها، و لعل الإتيان بالمثل لإفادة أن حقيقة الجنة لا تتصور، و إنما يتصور الإنسان شبهها، كما إنك إذا أردت أن تفهم طفلاً حقيقة الكهرباء سألته و إيجابه، لا يتصورها، فتقول أن مثله أن تأخذ جبلاً فتجره مرة إلى اليمين، و أخرى إلى الشمال، و لذا

ورد أن هناك يرى الإنسان ما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر

«١» «و لا- يخفى ما فى هذه الكلمة الأخيرة من معنى مدهش» أن مثلها جنة تجرى من تحتها أى تحت قصورها و أشجارها الأنهار و لعل الإتيان بكلمة تحت، لإفادة أنها ليست كبعض الأراضى فى الدنيا، التى هناك نهر، بلا شجر و بناء، و إنما الأنهار- فى الجنة- تجرى تحت القصور و الأشجار، حيث تشابكت الأشجار، و تراصفت القصور أُكُلُهَا الأكل، هو الثمرة دائمة أى أن ثمارها دائمة ليست كثمار الدنيا، تظهر فى فصل دون فصل و ظلُّها دائم لا يكون مرة شمسا و مرة ظلاً، بل دائم الظلال، لا تلمح الإنسان، شمس، أو حر، أو برد

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٣

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٦]

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مآبٍ (٣٦)

تِلْكَ الْجَنَّةُ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا عاقبتهم و عُقْبَى الْكَافِرِينَ عاقبتهم النَّارُ فمن أراد اتقى ليصل إلى تلك و من شاء كفر ليعاقب بهذه.

[٣٧] و إذ يفرغ القرآن الحكيم من الكفار و المشركين، و يبين أحوال المؤمنين و المتقين يعطف نحو أهل الكتاب و موقفهم من الرسول و القرآن و الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ أى أعطيناهم الكتاب السماوى، كالتوراة و الإنجيل، يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ يا رسول الله، فإن أهل الكتاب المستقيمين الذين لم يعصب عينهم الحقد و الحسد، و التقليد الأعمى، لا بد و أن يفرحوا بهذا الكتاب الذى يجدونه يصدقهم، و يأخذ بأيديهم فى مقابل الكفار و المشركين، فإن الإنسان يفرح بناصره و معاضده، و من المعلوم أن نسبة الأشياء الحسنة إلى قوم، إنما يراد بها النسبة إلى عقلائهم و مفكريهم و مستقيمي الرأى منهم، فإنك إذا قلت أن المسلمين صادقون فى أقوالهم موفون لعهودهم، لا تريد أن جميع أفرادهم كذلك، و إنما تريد المستقيمين منهم فى الإسلام، و كذلك أمثال هذه النسبة، و قد كان فى أصحاب النبى زمرة من خيرة اليهود و النصارى، الذين اتبعوه، لما رأوا فيه الحق و الصدق، لكن من تحزب ضد الرسول من أهل الكتاب، لا بد و أن يخالفوا الكتاب، فإنهم بطبيعتهم الحزبية، لا بد و أن يتلقوا الأوامر من كبرائهم الحاسدين و قد كان شأن الأحزاب هكذا قديماً و حديثاً فإنهم حيث يدخلون أنفسهم فى إطار طاعة الحزب لا بد لهم أن يتمثلوا ما يقوله الحزب حقاً أم باطلاً،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٤

[سورة الرعد (١٣): آية ٣٧]

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)

و يحاربوا من يخالف الحزب حقا كان أم باطلا، فالمعيار الحق عندهم ينقلب إلى معيار الحزب، و لذا نرى أن الله سبحانه لم يسلم أزمه الأمور إلا بيد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة المعصومين عليهم السلام، ثم بيد الفقيه العادل، حيث علم سبحانه، بأن الناس يتبعون من ألقى الزمام بيده، و لو أمر بالباطل، فتحفظا عن اتباع الناس للباطل، لم يجعل أزمتهم إلا بيد من لا يعمل إلا بالحق لما فيه من الملكة الراسخة، و الصفة النفسية المعدلة لسلوكه، طبق أوامر الله و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، إلا فيما سهى أو نسى، مما لا استثناء له، إلا بالنسبة إلى المعصوم عليه السلام- و مِنَ الْأَحْزَابِ الَّذِينَ تَحَرَّبُوا ضِدَّ الْإِسْلَامِ، من أهل الكتاب مَنْ يُنَكِّرُ بَعْضَهُ أَى بعض القرآن، مما لا يطابق كتبهم المنحرفة أو ينافي سيادتهم و رشوتهم، أما ما طابق الكتابين، فلا مجال لهم بإنكاره قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لمن ينكر بعض ما أنزل إليك إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ غَيْرَهُ، فإنكاركم لذلك، كما تزعمون أن عيسى أو عزيز ابني الله، أو أن الآلهة ثلاثة، لا يضرنى فى توحيدى و تنزيهى إِلَيْهِ أَى إلى الله وحده أَدْعُوا فهو مبدئى و إِلَيْهِ مَأْبِ أَى مرجعى، من آب بمعنى رجع.

[٣٨] وَكَذَلِكَ أَى كما أنزلنا إلى من تقدم من النبيين، كتابا بلغتهم ليفهموه، و يفهمه أممهم أَنْزَلْنَاهُ أَى أنزلنا القرآن- المستفاد من قوله، و ما أنزل إليك- حُكْمًا عَرَبِيًّا أَى أنزلنا هذا الحكم فى حال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٥

كونه بلغة العرب، التى هى لغتك، و لغة قومك لتفهمه تماما، و يفهمه القوم تماما، فالرسول على يقين منه، و لقائل أن يقول: و ما هو الاختصاص بهذه اللغة؟ الجواب: الأمر دائر بين اللغة، و بين سائر اللغات، و إذا نزل بلغة أخرى فللقائل أيضا أن يقول: ما هو الاختصاص بتلك اللغة؟ بالإضافة إلى أن هذه اللغة كانت أرجح من حيث أنها اللغة الملتفة ببيت الله الحرام الذى هو ملتقى الشعوب و القبائل قديما و حديثا، لوجوب الحج فى جميع الأديان، فقد حج عليه السلام، فمن بعده، و الشرق الأوسط أوسط من حيث المعمورة، تقريبا، فنسبته إلى العالم سواء و إطلاق الحكم على كل القرآن للتغليب، و لَئِنِ اتَّبَعْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْوَاءَهُمْ أَى عقائد الكفار و أهل الكتاب، و سميت أهواء لأن المخترع لها هو الهوى، إذ لم يدل عقل أو نقل على الكفر و التثليث، و ما أشبه بعِدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ «من» بيان «ما» ما لَمَكَ أَى ليس لك من طرف الله سبحانه مِنْ وَلِيٍّ يَلِي أَمْرَكَ و ينصرك و لا- واقٍ أَى حافظ يحفظك من عذابه، فلا ولاية، بل عداوة، إذ عدم الولاية لا يلازم العداوة، و لذا صرح بقوله «و لا واق» من وقى يقى إذا حفظ، و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و إن كان لا يتبع أهواءهم- بالإضافة إلى أن «إن» الشرطية لا يربط إلا المقدم باتساع- إلا كأنه، لوحظ كون التهديد موجها إليه صلى الله عليه و آله و سلم ليكون أبلغ من تقرير العقاب القطعى بالنسبة إلى متبع الأهواء، كما إنك إذ أردت تهديدا جديا إلى صديقك مع إنك تعلم أنه لا يقترف الإثم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٦

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

[٣٩] قد كان الكفار يناقشون فى كل من المبدأ و المعاد و الرسول و كتابه، و قد كانت مناقشتهم حول الرسول أنه كيف يمكن أن يكون الرسول بشرا يأكل و ينكح و يمشى، و يكون له أولاد، و يأتى الجواب بصدد هذه المناقشة، أن الرسل سابقا أيضا، كانوا كذلك، فكيف تؤمنون بأولئك الرسل و تناقشون هذا الرسول؟ و لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا نِسَاءً وَ

ذُرِّيَّةٌ أَوْلَادًا، فما ذا يستنكر هؤلاء منك أن يكون لك أزواج أو ذرية؟ وما كان لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِنِ الْخَارِقَةُ إِنَّمَا يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، و ليست بيده حتى أن كل اقتراح يجيبه، و كل ما طلبوا منه يأتي به، فإن كان اعتراض هؤلاء عليك، أن لك أزواجاً و ذرية؟ فهم معترفون بأنه كان لسائر الأنبياء أزواج و ذرية، و إن كان اعتراضهم أنك لم تأتي بما اقترحوا عليك؟ فالآيات بيد الله سبحانه، و قد جئت لهم بقدر ما يتم الحجج، فإن كان اعتراضهم بأنه كيف اختلف هذا الكتاب، مع كتاب موسى و عيسى، فإن كان ذلك الكتاب حقاً، فكيف أتيت بخلافه؟ فإن لكل أجل أي مدة، و زمان كتاب خاص به، فإذا انقضى ذلك الزمان جاء كتاب آخر يلائم البشرية في أحوالها.

[٤٠] و قد كان لموسى عليه السلام كتاب، ثم جاء عيسى عليه السلام و أتى بما يختلف مع كتاب موسى عليه السلام، كما قال: (وَ لِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٧

عَلَيْكُمْ) «١» فإنه يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ يرفع حكمه لانتهاج الصلاح بالنسبة إليه و يثبت مكانه ما يشاء، لأنه مثله في ملائمة هذا العصر، أو أفضل منه، كما قال: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْ مِنْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) «٢» و عنده سبحانه، في علمه و اطلاعه أم الكتاب أي أصل الكتاب الذي فيه ما يمحي و ما يثبت، و إلى أي قدر يبقى ما يمحي هذا حسب ما يتعلق بالسياق، و إلا فالظاهر أن الآية أعم من الأحكام، فالتقديرات منها قابلة للتغيير، و منها غير قابلة، و قد وردت أحاديث في باب المحو و الإثبات، و أم الكتاب، و لعل خلاصة القول في تلك كلها، أن هناك علماً خاصاً بالله سبحانه يعلم الأشياء التي تقع إلى الأبد، و لا تغيير في ذلك، و لا تحرير، و هناك لوح يثبت فيه أشياء ثم ربما تقتضى المصلحة، فيمحي ذلك المثبت ليكتب مكانه شيء آخر،

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: إن المرء ليصل رحمه، و ما بقي من عمره إلا ثلاث سنين، فيمدها الله إلى ثلاث و ثلاثين سنة، و إن المرء ليقطع رحمه، و قد بقي من عمره ثلاث و ثلاثون سنة فينقصه الله إلى ثلاث سنين، أو أدنى. قال الراوى: أن الصادق عليه السلام لما حدث بهذا الحديث قرأ هذه الآية، أي «يمحو الله ما يشاء»

«٣» و هنا سؤالان، الأول هل أن الله يعلم أن الشخص الفلاني يموت في أم الكتاب أم لا؟

فإن علم أنه يموت فما فائدة الصدقة و الدعاء و إن علم بأنه لا يموت، فالصدقة و الدعاء اعتباراً؟ و الجواب أن الله يعلم، أنه يتصدق، فلا يموت، كما أنه سبحانه يعلم أن زيدا يقرأ العلم، فيصبح عالماً، فلا

(١) آل عمران: ٥١.

(٢) البقرة: ١٠٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٥٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٨

[سورة الرعد (١٣): آية ٤٠]

وَ إِنِ مَا تُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْتِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)

يصح أن يقول الجاهل، إن كان في علم الله، أنا أصبح عالماً، فما فائدة تعبي لما يأتي بلا تعب؟ و إن كان في علم الله، أنا لا أصبح عالماً، كان تعبي في تحصيل العلم هباءً، فإن رده واضح أنه في علم الله أنك تتعب حتى تكون عالماً، الثاني - ما فائدة لوح المحو و الإثبات، بينما لا يصير في الخارج، إلا على طبق أم الكتاب؟

و الجواب أن ذلك ليتعلم الملائكة و الأنبياء، و من إليهم، فإنه كان يكتب في اللوح، أن عمر زيد ثلاث سنوات، ثم إذ رأى الملائكة و من له اتصال بذلك اللوح أن «الثلاث» محيت و كتب مكانها «ثلاث و ثلاثون» عرفوا السبب، و صار ذلك محفزاً للفضائل، و زاجراً

عن الرذائل بالنسبة إلى من علم، كما لو رأى أحد موظفي الدولة أن في الدفتر غير مقدار راتب أحد الموظفين إلى أرفع أو أنقص لخدمته أو كسأله، حفزه ذلك، إلى اجتناب المنقصة، والعمل بالمنقبة، وتمام الكلام في علم الكلام.

[٤١] قد سبق إنذار الكفار بقوله سبحانه «و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم» و الآن يأتي السياق لبيان أنه سواء أخذ الله الكفار بالعذاب في حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو توفاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل ذلك، فإن ذلك لا يغير من طبيعة الرسالة، فإن الرسول يأمر بالبلاغ، سواء انتصر على الكفار، و وصلت بهم القوارع، أم لا و إن ما أصله «إن» الشرطية و «ما» الزائدة، حيث زينة للكلام تُرِيْنَكُ يا رسول الله بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أى بعض العقوبات التي وعدناها الكفار، و إنما قال بعض لأن كل العقوبات لا تقع في حياة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإنها تدريجية طيلة بقاء الكفر و الكافرين أو تَوَفِّيْنَكُ و نقبض روحك إلينا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٩٩

[سورة الرعد (١٣): آية ٤١]

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْبَلَاغُ أَنْ تَبْلُغَ الْقَوْمَ وَتَنْذِرَهُمْ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ بِأَنْ نَحَاسِبَهُمْ وَ نَجَازِيَهُمْ وَ نَنْتَقِمَ مِنْ كُفَارِهِمْ، إما عاجلا أو آجلا.

[٤٢] لقد أندر الكفار بالعقاب، و القارعة تصيبهم، ألا فلينظروا إلى الأمم السابقة كيف عاقبهم الله سبحانه، فقد ضيق سبحانه ملكهم و سعتهم، بعد أن كانوا كبارا أقوياء أو لَمْ يَرَوْا استفهام إنكارى، أى لقد رأى هؤلاء الكفار أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أى نقصدها، و نتوجه نحوها نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أى نقص أراضي الكفار من هنا و هناك، بأن تصبح أرضهم يبابا بعد أن كانت عامرة، و مدنهم صغيرة، بعد أن كانت كبيرة، و حدودهم ضيقة، بعد أن كانت واسعة، كل ذلك لانهيأهم و ضعفهم، فلا يقدر على الزراعة و العمارة، و فقد شبابهم و قواهم، فلا يتمكنوا من حفظ حدودهم من الدول المعتدية، و قوله سبحانه «الأرض» لا دلالة فيها على مجموع أرض الكرة، فإن مثل هذا التعبير كثير في مثل المقامات التي ذكرنا يقال: الرئيس الفلاني، أفسد الأرض، و الرئيس الفلاني عمرها، أو وسع فيها، أو ضيقها مما هو كثير متداول في ألسنة الناس،

و قد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: يعنى بذلك ما يهلك من القرون، فسماه إتيانا.

أما ما ورد من تفسير الآية بموت العالم، فإن ذلك من أسباب نقص الأرض، إذ العالم قوة تحفظ سعة الأرض، و عمارتها و نشاطها و قد يظن بعض الناس، أو بعض الدول إنما أنهم يوسعون و يعمرن، فلا قدرة فوقهم لكنه سراب خادع، فإن الله يَحْكُمُ بكل شىء و منها السعة و الضيق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ١٥١

[سورة الرعد (١٣): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

و العمارة و الخراب لا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ فلا أحد يعقب الحكم الصادر منه تعالى بالتغيير و التبديل و هو سبحانه سَرِيعُ الْحِسَابِ فلا يظن القوى، أنه يبقى، و إن طغى، بل يأخذه الله سبحانه بسرعة مذهلة، حتى كأنه لم يغنى بالأمس، و من نظر إلى سرعة انهيار الكفار و الظالمين، ليأخذه العجب.

[٤٣] إن هؤلاء الكفار ليسوا بأشد مكرًا- لإطفاء الدين- من قبلهم، فقد كان أولئك يمكرون، و يأخذون التدابير الخفية، لمحو هدى

الأنبياء عليهم السّلام، و لكن تدبير الله كان أقوى منهم فقد نصر أوليائه في الدنيا، و سينصرهم في الآخرة، بإعطاء الثواب الجزيل، و إخلاص الكفار النار و قد مكر الذين من قبلهم فقد مكر الكفار في الأمم السابقة، للرسول المؤمنين باتخاذ تدابير خفية لاستئصالهم فأبطل الله مكرهم، إذ فليله المكر جميعاً فإنه سبحانه عالم بجميع التدابير، فيرد على الكفار تدابيرهم و يتخذ هو سبحانه تدابير خفية لنصرة الأنبياء يعلم ما تكسب كل نفس من التدابير الخفية و الجلية، فيضع لتدابير الكفار معوقاً و مبطلاً، هذا في الدنيا و سيغلم في الآخرة الكفار لمن عقبى الدار أى العاقبة المحمودة في الدار الآخرة- فإنها طبعاً- للمؤمنين دونهم.

[٤٤] ابتدأت السورة بقوله «وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ» فقد كان الابتداء لإثبات الرسالة، و يأتي الختام ليفهم ما ابتدأت به من إثبات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠١

الرسالة، مع الإلماع إلى خلاصة ما يقوله الكفار في الرسول الذي سبق أنهم أنكروا رسالته، لأنه لا يأتي بآية، و لأن له أزواجاً و ذرية، و ما أشبه ذلك و يقول الذين كفروا لست يا رسول الله مرسلًا من قبل الله قل لهم كفى بالله شهيداً بيني و بينكم أنه يشهد برسالتى و شهادته إعطاء هذه المعجزة الخالدة- القرآن- لى، فإنه إمضاء عملى و كفى شهيداً من عنده علم الكتاب و هم اليهود و النصارى الذين وجدوا فى كتبهم وصف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أظهره المنصفون منهم و ما ورد من أن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام مراد بهذا فإنه مصداق ظاهر ممن عنده علم الكتاب، يعلم الكتب السابقة، و القرآن الحكيم جميعاً، و أنه عليه السّلام ليشهد للرسول، و يأتي بالدلالة لرسالته التى منها إخراج وصفهم من كتب الأنبياء السابقين «١»، و قد أخرج حفيده الإمام الرضا عليه السّلام- فى مجلس المأمون- ما أبان ذلك، و إنهم أهل بيت عندهم علم لكل الكتب «٢»

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٤٣٢.

(٢) راجع وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٢

١٤ سورة إبراهيم مكية / آياتها (٥٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على اسم «إبراهيم عليه السّلام» و قصته، و السياق العام فى هذه السورة، كالسور المكية- غالباً- حول أصول العقيدة من توحيد و رسالته و معاد، فقد كانت مكة ثلاثم مثل هذه الأمور، لعدم تأسيس دولة تحتاج إلى النظم و التشريعات- بعد- قال بعض المفسرين أن مصب جو السورة إلى أمرين مهمين، أولاً وحدة دعوة الرسل، و الثانى نعمة الله على البشر، و مقابلة أكثرهم لها بالكفر.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله فى حوائجنا، و نجعله فى ابتداء أمورنا و هل هناك أرفع شأناً منه حتى يبتدأ باسمه، فإنه الله الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم لكل الأشياء، أليس هو الرحمن المطلق فقد وسعت رحمته كل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٣

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِتَابِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يَازِدُنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَ وِيلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)

[٢] و لما ختم الله سبحانه سورة الرعد بإثبات الرسالة و إنزال الكتاب افتتح هذه السورة ببيان الغرض فى الرسالة و الكتاب فقال الر

الف، ولام، وراء، أى من هذا الجنس كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ و هو القرآن الكريم، و الإنزال إن كان من السماء- كما هو الظاهر من الآيات و الروايات- كان اللفظ حقيقة، و إن كان بالإلقاء فى القلب و ما أشبه كان الإنزال مجازاً، تشبيها بالعلو الحقيقى للمنزل، بالعلو الخارجى، يقال: تلقيت الأمر من الأعلى، و يراد أعلى درجة و رتبة لا أعلى مكاناً، لِيُخْرِجَ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسَ جَمِيعَ الْخَلْقِ، و عدم خروج بعضهم لعدم بلوغه الدعوة أو عناده لا- ينافى كون الغرض من الإنزال ذلك مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُنْحَرِفَ الْعَقِيدَةَ و المنهج فى الظلمة، فكما أن من فى الظلمة الخارجيه لا يبصر مكان قدمه و لا يبصر ما حوله من الحقائق الخارجيه، كذلك من فى الظلمة العقيدية و المنهجية، لا يرى الحق بالنسبة إلى العقائد، فأى فرق بين من لا يبصر بعينه الكتاب الموضوع فى الرف، و بين من لا يرى بقلبه للكون خالقا، أو لا يرى كيف يعامل رباً أو بدون رباً، بل الظلمة الظاهرية أهون، فإن الأعمى أكثر ما يخشى عليه التردى، و الذى فى ظلمة الكفر، فى تعاسة الحياة كلها، و سوء المنقلب- قطعاً- بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَذُنَ إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ، لَمَّا أَوْحَى إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالتَّبْلِيغِ، و التعبير «الإذن» دون «الأمر» لعله للمقابلة مع ما كان ينسبه الكفار إلى الله من الخرافات فى العقيدة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣]

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)

و العمل، فتلك لم يأذن بها الله، كما قال: (أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) «١»؟ و هذا أذن به الله، و يحتمل أن يكون المراد أن الرسول لا- يقدر إلا- على البلاغ، أما إخراج الناس إخراجاً خارجياً، بأن يطاوعه الناس فى الخروج من الظلمات، إلى النور فإن ذلك ليس فى مقدور الرسول و إنما هو بإذن الله، وفق سنته التى سننها فى الكون، التى هى أن من أعطى القلب و هو شهيد مريد للحق، دخل فى قلبه هذا النور، و من ألقى السمع، و ليس بشهيد لا يدخل فى قلبه هذا النور إلى صراطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ هذا بدل من قوله «إلى النور» فالنور هو صراط الله سبحانه «العزیز» مالك العزة و القوة و القدرة و الإرادة «الحميدة» الذى يحمل العارفين لما له من الإنعام و الإفضال، فهم إنما يخرجون من صراط الذلة و الجذب إلى صراط العزة و الحمد، فمن كفر فليعلم أن الله عزيز قاهر، و من شكر فليعلم أن الله متفضل حميد.

[٣] ثم فسر سبحانه «العزیز الحميد» بقوله الله الذى له ما فى السماوات و ما فى الأرض فهو خالقها و مبدعها و مسير أمرها، و المراد بالمظروف أعم من الظرف، كما سبق فى مثل هذه الآية الكريمة، أن مصير المؤمنين بهذا الإله واضح لا مرية فيه، فهو خير الدنيا و سعادة الآخرة، و أما الكافرون به، و وئيل للكافرين من عذاب شديد و الويل

(١) يونس: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٥

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣]

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)

كلمة تقال لسوء الحال- غالباً- و العذاب الشديد فى الدنيا بالشقاء، و فى الآخرة بالنار.

[٤] ثم وصف سبحانه الكافرين بصفة تحمل العلة فى كفر الكافرين، فالكافرون هم الذين يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا و لعل الإتيان بباب الاستفعال «يستحبون» دون «يحبون» لإفادة أن من طبيعتهم لم يكن الحب الزائد لها، و إنما طلبوا حبها، حتى صار ملكة لهم، فإن الاستفعال فيه معنى الطلب على المآخرة أى استحباب الآخرة، و كأنه عدى بعلى لإشراب الفعل معنى الترحيح، أى يستحبون الحياة مرجحين لها على الآخرة،

فإن حب الدنيا كما قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: رأس كل خطيئة،

فتصطدم دنياهم بآخرتهم، فيقدمون الدنيا على الآخرة، حيث نشب بقلوبهم حبها، فمثلا الآخرة تنهى عن الربا، و الدنيا تطلبه، و عن الزنى و عن القمار، و عن النظر إلى أموال الناس، و أعراضهم، و التطلب للجاه، و لو بألف حرام، و هكذا، و وَيَصِدُّونَ أى يمنعون عن سَبِيلِ اللَّهِ أى طريقته فى العقيدة، و النظام، فمن أراد الإيمان أو الإطاعة منعه عن ذلك و يَبْغُونَهَا أى يطلبون السبيل - و لفظه السبيل يجوز فيها التذكير و التأنيث - عَوْجاً أى منحرفاً، فلا يسيرون على الطريق المستقيم صراط الله سبحانه، و إنما يسيرون على الطريق المعوج، و إنما كان طريقهم معوجاً، لأنه لا يصل إلى المطلوب، فمثلا المطلوب فى الدنيا الصحة، و الزنى يوجب الأمراض الزهرية، و هكذا، و يحتمل أن يراد ب «يَبْغُونَهَا عَوْجاً» أنهم يريدون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٦

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٤]

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

جعل طريق الله أعوج فى نظر الناس، حتى لا يتبعوه، فيزينون لهم أشياء ملصقة بطريقه سبحانه، ليعبدوا الناس عنه أولئك الكفار الذين هذه صفاتهم فى ضلال و انحراف من الحق بعيد كأنهم ابتعدوا عن المنهج السوى كثيرا، فى قبال الكافر الذى لا يصد عن سبيل الله، فإنه أقرب من الأول، و الفاسق الذى يعتقد صحيحا، و يعمل فاسدا، فإنه فى ضلال أقرب إلى الطريق من الفئتين السابقتين.

[٥] إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى قومه بلغة العرب، كما أن سائر المرسلين أرسلوا بلغة أقوامهم، و إن كانت رسالة بعضهم عامه كموسى و عيسى عليه السلام، و ما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ امتنانا من الله سبحانه عليهم حتى لا يصعب عليهم الفهم، و إن كانت الحججة تتم بدون ذلك، ثم أنه ليس المراد من القوم عشيرته، بل القوم يطلق على من جمعهم لسان واحد، كما أنه يطلق على من جمعتهم عشيرة واحدة، أو ما أشبه ذلك لِيُبَيِّنَ لَهُمْ عِلْمَهُ إرسال الرسول بلسان القوم فجاء الرسول، و بين و فهم، ثم يأتى دور اللطف الخفى و الخذلان، فمن آمن لطف به سبحانه لطفه الخفى، و من أعرض خذله تعالى و تركه، و هذا معنى قوله فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ أى يتركهم فى ضلالهم، و ليست مشيئة اعتبارية، و إنما يشاء بالنسبة إلى من أعرض، و يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فيلطف به الألفاظ الخفية، بعد أن أذعن و اعترف، و جاء فى حظيرة المؤمنين، فإن الهداية و الضلال لهما مراتب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٧

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)

ثلاث، البيان و الترك، و اللطف الخفى و الخذلان، و الإيصال إلى المطلوب و هى الجنة و عدم الإيصال - كما بين ذلك فى علم الكلام - وَهُوَ سبحانه العَزِيزُ الغالب القاهر ذو العزة و العفة، فهو قادر على الهداية و الإضلال الْحَكِيمُ يفعل كل ذلك حسب الحكمة و الصلاح، فمن أبى الهداية تركه فى ظلمات الضلال، و من رغب فيها أخذ بيده درجة فدرجة، كالمعلم الذى يترك تلميذه الذى لا يحفظ، و يأخذ بيد تلميذه الذى يحفظ حتى يرتقى - بعد أن يلقى الدرس عليهما على حد سواء -.

[٦] ثم ذكر سبحانه مثالا لإرسال الرسل بلسان قومهم بقوله وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أى مع المعجزات و الدلالات المصدقة له أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ هذه كانت رسالة موسى عليه السلام، أى أرسلنا موسى قائلين له أَنْ أَخْرِجْ، و جملة «بآياتنا» معترضة، و قد كانت صيغة رسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لِخُرْجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» كصيغة رسالة موسى «أَنْ أَخْرِجْ» و قد تقدم معنى كون الناس فى ظلمة، و أن الرسول يخرجهم منها إلى النور وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ و هى الأيام التى وقعت فيها أمور خارقة من النعم أو النقم، و التذكير بها يفيد العاقل لزوم إطاعة الله حتى ينال من تلك النعم، و لزوم ترك المعصية، حتى لا يقع فى مثل تلك النقم، كالتذكير بما فضل الله به نوحا و المؤمنين من النجاة فى السفينة، و بما نقم الله سبحانه على الكافرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٨

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٦]

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبُّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)

بالغرق والهلاك إن في ذلك التذكير لآيات دلالات لكل صيبار كثير الصبر على بلاء الله سبحانه شكور كثير الشكر على نعمائه، و
يعنى أن من له نفس واعية تصبر في البلاء وتشكر في الرخاء، لا بد وأن يعتبر بأيام الله السابقة التي مضت على الأمم، ولا بد أن
يعلم وجوب الصبر في البلاء، وجوب الشكر على الرخاء.

[٧] وأخذ موسى عليه السلام حسب أمر الله سبحانه يؤدي رسالته، ويذكر بني إسرائيل بأيام الله إذ قال موسى لقومه «إذ» متعلق
بمحمذوف، أي اذكر يا رسول الله وقت قول موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم وكان النعمة تغمر الإنسان، ولذا تعدى ب «على» إذ
أنجاكم أي في الوقت الذي أنجاكم من آل فرعون و ذويه، فإنه كثيرا ما يغلب أن يقال «آل فلان» ويراد هو وآله
يسومونكم من سامه إذا أذقه الهوان سوء العذاب أي العذاب السيء، باتخاذهم عمالا في الأبنية مع إذلالهم وإهانتهم وسجنهم، و بقر
بطون نساءهم ويذبحون أبناءكم خوفا من ظهور موسى عليه السلام، فقد أمر فرعون أن يذبح كل ولد يولد لبني إسرائيل، والإتيان
بباب التفعيل «يذبحون» لأنه يدل على التكثير، كما قالوا في «غلق الأبواب» و «قطع الجبال» ويستحيون نساءكم أي ييقون البنات
أحياء للخدمة والاستمتاع، والإتيان بباب الاستفعال، لإفادته معنى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٠٩

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٧]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)

الطلب، فليس الأمر تركهن أحياء وإنما طلب حياتهن، لفوائدهم، و هل ذل أكثر من هذا؟ وفي ذلكم «ذا» إشارة إلى ما كان يعمل
آل فرعون و «كم» خطاب بلاء أي امتحان من ربكم عظيم حتى يميز الباقي من بني إسرائيل على مبدأ آباءه وأجداده، من التارك
منهم واتخاذهم طريقة فرعون، فقد كان في مصر نسل يعقوب عليه السلام، وهم بنو إسرائيل، عبادا لله سبحانه، متخذين طريقة إبراهيم،
و إسحاق ويعقوب أجدادهم كما كان فيه القبط الذين يعتقدون بألوهية فرعون- ملكهم المجرم- و كان الملك وقبيلته يطاردون بني
إسرائيل، بأنواع العذاب ليركوا طريقتهم، ويدخلوا في طبقه القبط، ثم أنه كان من أيام الله، تلك النعمة بالإنجاء، كما أنه كان من
أيام الله تلك البلية بفرعون وزمرته.

[٨] ثم قال لهم موسى عليه السلام وإذ تأذن أي اعلم، هو باب التفعّل من الأذان، بمعنى الاعلام، ولعل الإتيان من هذا الباب، لإفادته
التكثير، أي اعلم مرات ومرات ربكم يا بني إسرائيل لئن شكرتم النعم بصرفها في ما أمر الله سبحانه بصرف العقل في التفكير في
آيات الله تعالى، و صرف الجوارح في إطاعته سبحانه، فإن شكر النعمة، صرفها في المصرف اللائق بها لأزيدنكم نعمة على نعمة، و
لطفًا على لطف، و سببه واضح، فإن استقامة النفس، توجب الأعمال الصالحة، التي تؤدي إلى الخير والرفاه والزيادة، ولئن كفرتم بأن
صرفتم النعم في غير وجهها إن عذابي لشديد يعنى أذابتكم عذابا شديدا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٨ إلى ٩]

وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ
الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ
مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٩)

فإن النفس غير المستقيمة، لا بد و أن تسبب هدماً لمناهج الحياة، و ذلك يسبب الشقاء و التعاسة في الدنيا و الآخرة، ثم أن الشكر باللسان، أضعف أقسام الشكر و إن كان مطلوباً أيضاً، فإنه شكر بالقلب، و شكر باللسان، و شكر بالجوارح، كما قال تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) «١» أي اتنوا بالشكر العملي،

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية، أيما عبد أنعمت عليه نعمه، فأقر بها بقلبه، و حمد الله عليها بلسانه، لم ينفذ كلامه حتى يأمر الله له بالزيادة «٢».

[٩] وَقَالَ مُوسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ - بِمَنَاسِبِهِ قَوْلُهُ السَّابِقُ: وَ لئن كَفَرْتُمْ - إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بِلا استثناء فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْجَمِيعِ لا يضره كفركم شيئاً حَمِيدٌ بذاته لا يحتاج إلى حمد الناس و شكرهم، و إنما الشكر و الإيمان تعود فائدتهما إلى نفس الناس، باستقامة حياتهم، و طهارة نفوسهم.

[١٠] وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ يَا قَوْمَ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَي أَلَمْ يَصِلْ إِلَيْكُمْ أَخْبَارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ عَصَوْا اللَّهَ سَبْحَانَهُ، فَأَخَذَهُمْ بِعَذَابِهِ الشَّدِيدِ، أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ؟ قَوْمِ نُوحٍ بَدَلِ مِنَ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» حَيْثُ أَهْلَكُوا بِالغَرَقِ وَ عَادِ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَ تَمُودَ

(١) سبأ: ١٤.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١١

قوم صالح عليه السلام و الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ قَوْمِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهِمْ بِالصِّدْقِ وَ الْحَقِّ، فَلَجِئُوا إِلَى الْبَاطِلِ، وَ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ تِلْكَ الْأَقْوَامَ، حَيْثُ كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْ مَحَلِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ بَيْنَ مِصْرَ وَ سُورِيَا، كَانَتْ أَخْبَارُهُمْ وَصَلَتْ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمَا سَائِرُ الْأَقْوَامِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهَا (وَ إِنِّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) «١» فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، وَ لَا دَاعِيَ إِلَى ذِكْرِهِمْ، فَالْأَنْمُودَجُ كَافٍ لِلتَّذْكِيرِ وَ الْإِرْشَادِ، جَاءَتْ تِلْكَ الْأَقْوَامُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَي بِالْحُجُجِ الْوَاضِحَةِ، وَ الْبَرَاهِينِ الصَّرِيحَةِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ أَي رَدُّ الْقَوْمِ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِأَنْ مَنَعُوهُمْ مِنَ التَّكْلِمْ، فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ مَنْ يَرِيدُ إِسْكَاتِ مُتَكَلِّمٍ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى فَمِ ذَلِكَ الْمُتَكَلِّمِ، وَ ذَلِكَ تَشْبِيهِ، كَمَا لَا يَخْفَى، وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرَانِ إِلَى الْقَوْمِ، يَعْنِي أَنْ الْقَوْمَ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ، فِي أَفْوَاهِ أَنْفُسِهِمْ مُشِيرِينَ بِذَلِكَ إِلَى الرِّسْلِ أَنْ اسْكُتُوا وَ قَالُوا أَي قَالَتْ الْأَقْوَامُ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ أَي بِرِسَالَاتِكُمْ حَوْلَ الْعَقِيدَةِ وَ النِّظَامِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ وَحْدَةِ اللَّهِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرِ الْأَفْعَالِ مُرِيبٍ أَي مُوجِبِ لِلرِّيبِ وَ التَّرَدُّدِ، فَإِنَّ الشَّاكَّ قَدْ يَكُونُ لَهُ اطمئنانٌ نَفْسِي لا يَرِيهِ شَكَّهُ، بَلْ يَمْضِي حَسْبَ اطمئنانِهِ، وَ قَدْ يَقْوِي شَكَّهُ، حَتَّى يَوْجِبَ رِيْبَهُ وَ تَرَدُّدَهُ.

(١) فاطر: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٢

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٠]

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠)

[١١] قَالَتْ رُسُلُهُمْ فِي جَوَابِ قَوْلِهِمْ «إِنَّا لَفِي شَكٍّ» أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَكٌّ أَي هَلْ يُمْكِنُ الشَّكُّ فِي اللَّهِ بَعْدَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي تَنْطِقُ كُلِّهَا، فِي وَضُوحٍ وَ جَلَاءٍ، بِأَنَّ لَهَا خَالِقًا عَلَيْهَا قَدِيرًا، فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ خَالِقَهُمَا وَ مَبْدِعَهُمَا، وَ قَدْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ بِمَنْزِلَةِ

البرهان و الدليل يَدْعُوكُمْ اللَّهُ أَيْتَهَا الْأَقْوَامُ لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أَي بَعْضُ ذُنُوبِكُمْ، وَ إِنَّمَا أَتَى ب «مِنْ» التَّبَعِيضِيَّةُ، لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَغْفِرُ كُلَّ الذُّنُوبِ كَالشَّرِكِ، قَالَ سَبْحَانَهُ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) «١» كَذَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ وَ إِلَّا وَفَّقَ الْقَوَاعِدَ، أَنْ تَكُونَ «مِنْ» لِلجِنْسِ، فَإِنَّهُمْ إِنْ لَبُوا الدَّعْوَةَ، كَانُوا مُحَلًّا لِعُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، إِذْ لَا يَبْقَى شَرِكٌ حَيْثُذُ، وَ إِنْ لَمْ يَلْتَبُوهَا لَمْ يَكُنْ عُفْرَانٌ، فَالْمُرَادُ لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ الذَّنْبُ، وَ يُؤَخَّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَلَا يَعْجَلُ عَلَيْكُمْ بِالْعَذَابِ، بَلْ إِنَّمَا يُؤَخَّرُ آجَالَكُمْ إِلَى الْمَدَّةِ الْمَقْرَرَةِ لَكُمْ، فَإِنْ مِنْ سَلَكٍ مِنْهَا لَمْ يَعْذَبْ عَاجِلًا لِأَنَّ الْعَذَابَ الْإِسْتِثْنَالِيَّ، وَ لَا بَعْدَابَ مِنْ خَالِفِ الْمَنْهَاجِ، فَوَقَعَ فِي مَشَاكِلِ الْحَيَاةِ قَالُوا أَي قَالَ الْقَوْمُ فِي جَوَابِ الرَّسْلِ إِنْ أَنْتُمْ أَي مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الرَّسْلِ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا عَلَى خَلْقَتْنَا، وَ مِنْ آيَاتِنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا أَي تَمْنَعُونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

(١) النساء: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٣

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١١]

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

من الأصنام و الأوثان فَأَتُونَا أَي جِيئُوا إِلَيْنَا عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أَي حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ مِنْ سُلْطٍ بِمَعْنَى غَلَبَ وَ قَهَرَ، كَأَنَّ الْحُجَّةَ تَغْلِبُ وَ تَقْهَرُ، وَ قَدْ كَانَتْ الْأَقْوَامُ - غَالِبًا - تَتَّقِيْدُ بِتَقَالِيدِهَا، وَ تَرَى الْمَعْجَزَاتِ بِأَنَّهَا سِحْرٌ، وَ تَسْتَعْرَبُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ بِالْمَزَايَا الْبَشَرِيَّةِ، مِنْ أَكَلَ وَ مَشَى، وَ نَكَحَ وَ أَوْلَادَ، وَ لَذَا نَرَى هَذِهِ الْاِحْتِجَاجَاتِ كَثِيرَةً فِي كَلَامِ الْأَقْوَامِ ضِدَّ الرَّسُولِ.

[١٢] قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ صَاحِبٌ مَا تَقُولُونَ إِنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي مَزَايَا الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِنْ نَحْنُ أَي مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فِي الصُّورَةِ، وَ سَائِرِ الْخُصُوصِيَّاتِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِالنَّبُوَّةِ وَ الْوَحْيِ، وَ قَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا سَبْحَانَهُ بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْخَوَارِقُ الَّتِي تَشَاهَدُونَهَا، مِمَّا أَجْرَاهَا سَبْحَانَهُ عَلَى أَيْدِينَا، فَإِنَّهُ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ أَي حُجَّةٍ وَ بَرَهَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِرَادَتِهِ، فَمَا أَتَيْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ كَانَ بِإِذْنِهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَانَا وَ صِدْقِنَا، وَ مِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ هَذَا الْكَلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، رَدَّ لَمَّا طَلَبْتَهُ الْأَقْوَامُ مِنْ خَوَارِقِ مَقْرَحَةٍ، وَ جَوَابِ الرَّسْلِ، أَنْ الْخَوَارِقُ إِنَّمَا هِيَ بَيِّنَاتُ سَبْحَانِهِ، إِنْ شَاءَ أَتَى بِهَا، وَ إِنْ شَاءَ لَمْ يَأْتِ، وَ أَمَّا الْمَقْدَارُ الْكَافِي لِصِحَّةِ دَعْوَانَا، فَقَدْ زُوِدْنَا بِهِ، وَ جَنَّائِكُمْ بِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٢]

وَ مَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

وَ هَذِهِ كِتْسَلِيَّةٌ لِلرَّسْلِ يَسْلُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ، يَرِيدُونَ إِنْ نَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ فِي تَكْذِيبِكُمْ وَ نَصْبِكُمْ الْعِدَاءَ لَنَا - كَمَا يَقُولُ مَوْظِفُ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ رَأَى عَدَمَ فَائِدَةِ الْحِجَاجِ مَعَ مَنْ يَرِيدُ تَطْبِيقَ الْقَانُونِ عَلَيْهِ «اعْتِمَادِي عَلَى الدَّوْلَةِ» يَرِيدُ التَّهْدِيدَ وَ الْاِسْتِغْنَاءَ، بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ.

[١٣] ثُمَّ نَرَسَمُ لِلرَّسْلِ مِنْهَا جِهَمٌ فِي الْحَيَاةِ بِصُورَةِ سُؤَالٍ وَ اسْتِفْهَامٍ عَنِ الْأَقْوَامِ تَلْطِيفًا لِلجُو، فَإِنَّ فِي السُّؤَالِ إِظْهَارًا لِقُوَّةِ الْخِصْمِ، مِمَّا يَسْبَبُ لَهُ اللَّيْنَ وَ الْعَطْفَ، حَيْثُ اتَّبَعَ حَسَّ كِبَرِيَّاتِهِ وَ مَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ أَي أَي شَيْءٍ لَنَا، إِذَا لَمْ نَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَ لَمْ نَفُوضْ أُمُورَنَا إِلَيْهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَوْ تَرَكْنَا التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، لَمْ يَبْقَ لَنَا شَيْءٌ، إِذْ لَا اعْتِمَادَ لَنَا، لَا مِنَ الْبَشَرِ، حَيْثُ نَصَبُوا لَنَا الْعِدَاءَ، وَ لَا مِنَ اللَّهِ حَيْثُ لَمْ نَلْجَأْ إِلَيْهِ وَ قَدْ هَدَانَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ سُبُلَنَا طَرَقْنَا فِي الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، وَ الْآخِرَةُ الْمَرْفُوهَةُ، وَ الْمَعْنَى إِنْ إِذَا كُنَّا مَهْتَدِينَ، فَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ لَا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي «الْوَاوِ» فِي «وَقَدْ هَدَانَا» لِلْحَالِ، ثُمَّ أَخَذَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي اجْتِلَابِ عَطْفِ الْأَقْوَامِ، بِقَوْلِهِمْ وَ لَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا نَصِيرًا - عَلَى إِيْذَانِكُمْ، وَ لَا نَقَابِلِكُمْ بِالْمِثْلِ، وَ هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ حَقِيقَةً، فَقَدْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ تَصْبِرُ فِي مَقَابِلِ أَذَى الْأَقْوَامِ، لِيُعْطِفُوا

قلوب الناس إليهم، لأن الناس مع المظلومين وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ من أراد التوكل و التفويض إلى أحد في أموره، فاللزام أن يتوكل على الله، لأنه ينصره، و يسعفه بحاجته، و قد تقرر في علم البلاغة، أن «الفعل»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٥

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (١٤)

و «الإرادة» يستعمل كل منهما في معنى الآخر، فمثلا «إذا أقمت الصلاة» معناه، إذا أردتم القيام إليها، و «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ» معناه، أنه يسر عليكم، و عليه فالمراد ب «المتوكلون» من أراد التوكل.

[١٤] و إذ تمت الحجّة على الأقسام، و أظهروا القوة، كما هو شأن كل جاهل حين تتم الحجّة عليه، و لا يريد الإذعان وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا أَي إِلَّا أَنْ تَرْجِعُونَ إِلَى أَدْيَانِنَا وَ طَرِيقِنَا، وَ تَسْمِيَةُ ذَلِكَ رَجوعًا بِاعتبار أن الكفار كانوا يظنون أن الرسل- قبل ادعائهم الرسالة- كانوا على طريقتهم، ذاهلين أنهم كانوا على مبدأ التوحيد، و لكنهم لم يكونوا مأمورين بإظهاره، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَي إِلَى الرسل رَبُّهُمْ بعد إتمام الحجّة، و وصول الأمر إلى هذا الحد لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ بكل تأكيد، و لا- يحضرني الآن تاريخ يدل على أن رسولا نفى بعد مثل هذا الاحتجاج، و إنما خرج بعض الرسل بأنفسهم هربا- كموسى عليه السلام بالإضافة إلى أنه لم يكن بعد مثل هذا الاحتجاج، [١٥] وَ لَنَسْكَنَنَّكُمْ أَيهَا الرسل الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَي نجعل لكم فيها مسكنا و مستقرا، و إنما نخرج المكذبين بالهلاك و الفناء،

و قد ورد في الحديث «من أذى جاره حرم جواره»

«١» و ليس إخراج الكفار من

(١) راجع روضة الواعظين: ج ٢ ص ٣٨٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٦

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)

الأرض و إسكان الأنبياء فيها، و كذلك إسكان التابعين لهم، جزافا و اعتبارا، و إنما ذلك الإسكان، و إخراج الأعداء بالهلاك لِمَنْ خَافَ مَقَامِي أَي خافني، و إنما أضيف الخوف إلى المقام مجازا، بعلاقة الحال و المحل، أو المراد الخوف من نفس المقام و المنزلة، فإن الشخص إنما يخاف من منزلة الحاكم- مثلا- لا من نفس الحاكم، و لذا نرى أنه لو جرد عن تلك المنزلة، لم يكن محل خوف، و المراد بالخوف هنا عدم ارتكاب المعاصي وَ خَافَ وَ عِيدِ أَي خاف و عيدي بالهلاك في الدنيا و النكال في الآخرة، فلم يعصني.

[١٦] وَ اسْتَفْتَحُوا أَي طلب الرسل الفتح و النصر على أعدائهم، و إنما سمي النصر بالفتح، لأنه يفتح الطريق أمام المنتصر لقضاء حوائجه، بعد ما كان العدو صدا يمنع عن ذلك وَ خَابَ أَي خسر كُلُّ جَبَّارٍ يجبر الناس على ما يريد عَنِيدٍ معاند للحق، و الجبار يطلق عليه سبحانه، لكنه هنا كحق، لأنه يجبر ما هو ملكه و خلقه، و ليس كسائر الجبارين، و الذين يجبرون ما ليس لهم، فإن الإنسان مسلط على ماله و نفسه، و قد يقال الجبار له سبحانه، باعتبار أنه يجبر الكسر من كل شيء، كما في الدعاء يا جابر العظم الكسير.

[١٧] و خيبة الجبابرة، كما هي في الدنيا كذلك في الآخرة، أما في الدنيا فإنهم لا يهتؤون بالعيش، حيث يرون الناس كلهم أعداء

لهم، و إذا كان للإنسان عدوا واحدا لا يهنا له عيش، فكيف إذا كان له أعداء؟

و الغالب أن الجابرة يذلون أخيرا و يقتلون، و يبقى التاريخ ليلعنهم مدى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٧

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٧]

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)

الأجيال، هذا مع الغض عن أن لطف الله بعباده يحفر للجبار ألف حفيرة، كما قال:

تنام عيناك و المظلوم منتبه يدعو عليك و عين الله لم تنم

و أما فى الآخرة ف من ورائه أى من خلفه، كأن الزمان الماضى مقابل الإنسان و الزمان المستقبل خلف الإنسان، يأتية فيلحقه جهنم

فإنه إذا مات، كان قبره حفرة من حفر النيران و يُشَقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ الصديد القيح يسيل من الجرح، و إنما سمي صديدا لأنه يصد

حتى لا يسيل، إن المكان الحار يتطلب الماء البارد، لكن الجبار إذا طلب ذلك أتى بالقيح،

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: يسقى مما يسيل من الدم و القيح من فروج الزوانى، فى النار «١».

[١٨] يَتَجَرَّعُهُ أَى يتكلف جرعه و شربه جرعة جرعة و لا- يَكَادُ أَى لا- يقارب- بطبعه أن يُسِيغُهُ و الإساعة إجراء الشراب فى الحلق

بسهولة، أى لا يتمكن أن يشرب هذا الصديد، لكن العطش المفرط يضطره إلى الشرب،

و قد روى أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير الآية قال صلى الله عليه و آله و سلم: يقرب إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى

وجهه و وقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز و جل: (وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) «٢»، و

يقول:

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٤٣.

(٢) محمد: ١٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٨

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٨]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاةُ الْبَعِيدُ

(١٨)

(وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)

«١» وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى أَنَّهُ لَوْ كَانَ، بالإمكان أن يموت بمكان واحد منه، إذ كيف حال من جوانبه الستة، ممتلئة بالنار و

العذاب و داخله هكذا صديدا؟ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ إِذْ لَا مَوْتَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ هُنَاكَ، فإنهم فى جهنم خالدون و من ورائه وراء هذا العذاب

عَذَابٌ غَلِيظٌ أَشَدُّ مِنْهُ وَ أَغْلَظُ.

[١٩] أما أعمالهم التى عملوها فى الدنيا- و لو كانت حسنات فى نفسها- فإنها لا تنفعهم يوم القيامة، فليأخذوا الأجر ممن عملوا له،

فإن كل عمل لا يبنى على أساس الإيمان بالله و أمره، لا يستحق العامل جزائه على الله مثل الذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ فى الآخرة أَعْمَالُهُمْ التى

أتوا بها فى الدنيا كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ أَى توجهت ريح شديدة إليه، فذرتة فى الهواء، مما لا يبقى منه أثر فى يَوْمٍ عَاصِفٍ شديد

الريح، فكما أن أحدا لا يقدر على جمع ذلك الرماد فى مثل هذا اليوم، كذلك أعمال الكفار تنتشر و تذهب هباء لا يقدر أحد على

جمعها حتى ينتفع بها لا يَقْدِرُونَ أَى أولئك الكفار مِمَّا كَسَبُوا أَى من أعمالهم التى كسبوها على شىء لا قليل، و لا كثير، كما قال

سبحانه فى آية أخرى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١١٩

[سورة إبراهيم (١٤): آية ١٩]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَأُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)

(وَقَدَّمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) «١» ذَلِكَ الْعَمَلُ الَّذِي عَمِلُوهُ هُوَ الضَّلَالُ البُعِيدُ أى الذهاب أبعد عن النفع، فكان العمل نفس الضلال- مجازا- بعلاقة الصفة و الموصوف، كقوله (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) «٢» أو المراد، أن ضلال هؤلاء الكفار- المستفاد من المثل- هو الضلال البعيد، مقابل الضلال القريب، وهو ضلال العصاة، من أهل التوحيد، فإن الكافر أبعد عن الجادة المستقيمة، من المؤمن العاصي.

[٢٠] إن عمل هؤلاء الكفار، كالرماد المتطاير، أما هم بأنفسهم، فإنهم تحت سيطرة إله قدير، يتمكن أن يذهبهم جميعا، كما أذهب أعمالهم كالرماد، فكفرهم و طغيانهم لا يخرجهم عن قدرته سبحانه و كيف يخرجون عن قدرة إله خلق السماوات و الأرض، إنها قدرة مدهشة، لا يتمكن أحد أن يتحداها أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي، و المراد بالرؤية العلم، و الاستفهام تنبيهي، أى تفكر لكى تعلم أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ فلم يكن خلقها عبثا و اعتباطا، و إنما لغاية و حكمه و مصلحة، كالذى يبنى المدرسة، لمصلحة الناجحين من التلاميذ إِنَّ يَشَأُ يُذْهِبْكُمْ يَفْنِيكُمْ و يمتكم أيها البشر، و يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ و هذا لتأكيد القدرة، حتى أن إفناء البشر كلهم، و الإتيان بمثلهم شيء هين معلق بإرادة واحدة.

(١) الفرقان: ٢٤.

(٢) هود: ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَمْ جَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)

[٢١] وَمَا ذَلِكَ الإِفْنَاءُ و التجديد عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أى بممتنع أو متعسر، فذلك له سهل يسير، أليس خلق السماوات و الأرض شاهدا على يسر ذلك عليه سبحانه؟

[٢٢] ثم ينتقل السياق، بعد أعمال الكفار المتطايرة، إلى مشهد آخر من مشاهد الآخرة، يقع فيه النزاع و التخاصم بين الرؤساء، و المرؤوسين و الشيطان، فقد أعزى بعضهم بعضا، و هناك تنازع و تخاصم هذه الفئة تلك: لماذا أوصلتها إلى هذا المصير المر الأليم؟ وَبَرَزُوا أى ظهر الكفار يوم القيامة لِلَّهِ فى ساحة عدله- تشبيها بظهور الخصماء أمام الحاكم فى ساحات المحكمة فى الدنيا- جَمِيعًا فليس أحد منهم غائبا، حتى لا يتم الخصام و يؤجل إلى غد و بعد غد، و حيث أن ذلك مستقبل متحقق الوقوع، جاء بلفظ الماضى «برزوا» فَقَالَ الضُّعَفَاءُ التابعون لرؤساء الكفار لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا عن قبول الحق، و هم الرؤساء الذين رأوا فى قبول الإيمان ذهابا لكيانهم، و تنقيصا لرئاستهم فبقوا على الكفر، و جروا إليهم الضعفاء، إِنَّا كُنَّا لَكُمْ أيها المستكبرون تَبَعًا أتباعا فى الدنيا، و تبع جمع تابع، كغيب جمع غائب، فَهَلْ أَنتُمْ أيها الرؤساء مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ أى هل أنتم دافعون عنا شيئا من عذاب الله الذى قد نزل بنا، فإن لم تقدرنا على دفع الكل فادفعوا البعض، جزاء لنا حيث اتبعناكم فى الدنيا، فإن التابع إنما يتبع، لأن يدفع المتبوع عنه ضرا، أو يجلب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢١

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٢]

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

إليه نفعا قالوا أى قال الرؤساء المتبوعون فى جواب استفهام التابعين لو هِدَانَا اللَّهُ فى الدنيا لَهَدَيْتَانَاكُمْ لكننا ضللنا فأضللناكم، فلا تبعه علينا، إنما التبعة على من عنده ولا يعطى، أما من ليس عنده فلا لوم عليه أن لا يعطى، وهذا جواب فرارى، يريدون بذلك التخلص من أيدى الضعفاء الذين ضعفت نفوسهم، فجعلوا أنفسهم عبيدا مقلدين لأولئك الرؤساء المستكبرين، وإلا، فالله سبحانه هداهم، لكنهم أعرضوا، كما قال سبحانه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجَبُوا لَعَمِي عَلَى الْهُدَى «١» أو المراد أنهم يقولون: لو هدانا الله هنا إلى طريق الوصول والخلاص من العقاب لأريناكم ذلك الطريق لتنجوا أنتم أيضا، ولكن لا نعرف الطريق حتى نهديكم إليه، ثم يعلن المتكبرون أن الأمر قد قضى وأنهم لا محالة فى العذاب، من غير فرق بين أن يصبروا أو يجزعوا، فليس هناك كالدنيا يفيد الجزع حينها، والصبر حينها سواء عَلَيْنَا أَمْ صَبَرْنَا والجزع ضد الصبر ما لنا مِنْ مَحِيصٍ أى ليس لنا محيص ومهرب عن عذاب الله، من خاص يحيص، بمعنى حاد يحد وفر عن المكروه.

[٢٣] و هنا يأتى الشيطان ليلوم أتباعه، فى أتباعه و يتبرأ منهم، و يقطع بذلك آخر أمل لهم فى النجاة، فقد اتبعوا الشيطان فى الدنيا، فلعلة يخلصهم بمكر أو حيلة، مما يشاهدونه وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِأَتْبَاعِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فى الدنيا فكفروا أو عصوا، مما أوردتهم النار فى عاقبة الأمر لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

(١) فصلت: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٢

و فرغ الحاكم من الحكم على أتباعه بالنار والعذاب، و لعل الإتيان بهذه الجملة، بيان أنه لا يفيد شىء أصلا، فقد انتهى الموضوع تماما، إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ أَيهَا البشر العاصون، إنكم إذا آمنتم و عملتم الصالح جزاكم بالجنة و النعيم وَعَدَ الْحَقِّ لم يكن فيه باطل و كذب و خداع و وَعَدْتُكُمْ أَنْ لَا بَعثَ و لَا نُشورَ و لَا حِسَابَ و لَا عِقَابَ، فافعلوا ما شئتم فَأَخْلَفْتُكُمْ أى كذبتكم، و نسبة الخلف إلى نفسه، للتشبيه بالذى وعده فيخلف، للتقابل مع وعد الله سبحانه الذى يوفى، و إلا فالخلف ليس من الشيطان، و إنما اللازم أن يقول فكذبتكم فى الوعد- أو على الأدق فى الأخبار بأنه لا شىء هناك و ما كَانَ لِي عَلَيْكُمْ أَيهَا العصاة مِنْ سُلْطَانٍ تسلط و قهر، فلم يكن امثالكم أمرى جبرا منى لكم، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَقْضِ أَمْرِ اللَّهِ و مخالفته فَاسْتَجَبْتُمْ لِي و قد كانت دعوتى بالوسوسة و الخفاء، فلم تكن كدعوة الله سبحانه ببعث الرسل و نصب الحجج، و إقامة الأدلة و البراهين و بيان المصالح فى الأوامر و المفاسد فى الزواجر، و الاستثناء منقطع إذ الدعوة لا تكون سلطانا و قد ذكرنا سابقا أن الاستثناء المنقطع إنما يؤتى به لفرض الكلام سابقا مطلقا، ففى المقام، كأنه قال «فلم يكن منى بالنسبة إليكم «إلا الدعوة» «أما السلطة فلا» فَلَا تُلْمُونِي من الملامة، أى لا تلقوا تبعه عقابكم على و لو مَوَا أَنْفُسَكُمْ فأنتم خالفتهم الحجة بمجرد الوسوسة و الإغراء حيث كنتم تعلمون أنه خادع زائف، أما الحال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٣

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٣]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)

فاعلموا أنه ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ من صرخ، و الإصراخ الإغاثة بإجابة الصارخ، يقال: استصرخنى فلان فأصرخته، أى استغاث بى فأغثته، و المعنى أنا لا أتمكن من إغاثةكم و خلاصكم من العذاب و ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ و أنتم لا تتمكنون من إغاثة من عذاب الله الذى يحل بى، فإن للشيطان النصيب الأوفر من العذاب، و لا مصرخ له- كلما يستغيث- فإن أتباعه يتبرءون منه، كما تبرأ منهم، و لا يتمكنون هم

علاجاً لأنفسهم فكيف يتمكنون من علاج للشيطان؟ أما الله و أنبيائه، و سائر عباد الصالحين، فهم أعداء الشيطان، كما هو عدوهم، فهل ينقذونه من العذاب، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ أَيُّهَا الْآتِبَاعُ، أى إنى جحدت، الآن أن أكون شريكاً لله تعالى، فيما أشركتمونى فيه، فقد كان المشركون يشركون الشيطان عملياً مع الله سبحانه، فيعملون قسماً من أعمالهم حسب أمر الله، و قسماً أكبر حسب أمر الشيطان، و هذا هو الشرك، ثم قال لهم كلمته الأخيرة إِنَّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه، فلا مناص ولا خلاص.

[٢٤] و إذ رأينا عاقبة الكفار، و أنها التخاصم و النار، فلننظر إلى عاقبة المؤمنين و أَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، و بما أمر به من اتباع الرسول، و الإيمان بالمعاد و ما أشبهه، من سائر الأصول الاعتقادية و وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة، بإتيان الواجبات، و ترك تقرب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٤]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)

المحرمات، جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أى تحت قصورها و أشجارها الأناجر في حال كونهم خالدين فيها فليس لهم عنها زوال بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فإنه سبحانه يأذنهم بذلك، حيث يريدون البقاء بعد الدخول تَحِيَّتُهُمْ فيها سَلَامٌ فيسلم بعضهم لبعض مقابل أهل النار الذين يخاصم بعضهم بعضاً كما مر.

[٢٥] و إذا تم الكلام حول الفرق الخبيثة العاصية التى مصيرها النار، و الفرق الطيبة المطيعة التى مصيرها الجنة، يأتى مثال للكلام الطيب و الخبيث ليدل على أن مصائر الطيبات إلى ازدهار و نمو و تملك للحياة و مصائر الخبائث إلى الانهيار و المحو من الوجود و هكذا أجزت سنة الله، و هذا المثل بدوره يقوى من عزائم الطيبين و إن رأوا بادية ذى بدء أن الخبيث كثير و أنه قد أخذ عرض الحياة و طولها أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي، و الاستفهام تنبيهى يراد به الإلفات و التذكير، و المراد بالرؤية العلم، أى ألم تعلم، و إنما يؤتى بلفظ الرؤية للدلالة على أن هذا العلم قريب من الرؤية فليس من الأمور الغامضة، و إنما رؤيته و حس كيف ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا أى بين الله مثالا لكل خبيث و طيب، و إنما تستعمل كلمة ضرب لأن المثل يصطدم مع الذهن فيوجد فيه تأثيراً و تمويجاً لا يحصل ببيان أصل المطلب بدون المثل.

ثم بين سبحانه ذلك المثل المضروب بقوله كَلِمَةً طَيِّبَةً الكلمة تطلق على كل ما فى الوجود لفظاً كان- كما هو المتبادر منها- أم غير تقرب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٥

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٥]

تُوتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)

لفظ حتى الإنسان يسمى كلمة، كما قال سبحانه: (وَ كَلِمَتُهُ أَلْفَاها إِلَى مَرِيَمَ) «١» و (لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) «٢» و فى الزيارة فى وصف الأئمة «كلمة التقوى و أعلام الهدى» فإن الشىء الطيب إنساناً كان، أو عملاً أو لفظاً، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أى كالشجرة الزاكية النامية الراسخة أصولها فى الأرض، و الساقفة فروعها فى السماء، فكما أن الشجرة الطيبة هكذا، كذلك الكلمة الطيبة أصلها ثابت فى الأرض و فَرْعُهَا فى السَّمَاءِ سامق عال فنرى الإنسان الطيب قوى الجذور فى المجتمع كثير البقاء، منتشر فى النفوس- و إن كان الباطل منتفخاً فى المنظر- مضيقاً عليه دروب الحياة فى أيام و هكذا كل شىء طيب.

[٢٦] تُوتِي أَكْلَهَا الأكل الثمرة، أى تعطى ثمرتها كُلِّ حِينٍ أى فى جميع الأوقات بِإِذْنِ رَبِّهَا فإن الله سبحانه أذن و أجاز ذلك، فإنه لو لا إجازته سبحانه لم تكن و لم تؤت ثمرها، و لذا جاء بلفظ «الإذن» دون «الأمر» فإن الحياة لا تكون إلا بإذنه و وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ما أودع فيهم من الفطرة السليمة، و كم هذا المثل بالذات من القيمة، فإن غالب الناس- فى كثير من الأحيان- ينظرون إلى ما للباطل من جولة فيظنون أن الحق قد ذهب و اضمحل، و لكن

(١) النساء: ١٧٢.

(٢) الأنعام: ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٦

الأمر ليس كذلك بل الحق راسخ الأقدام على البيان لا تزغزه الأعاصير و لا العواصف و إنما يبقى ليثمر و يعطي الناس فوائده الطيبة.

و السر أن الحق يدخل القلوب بما أودع الله فيها من حب ذاتي للحق، و كره ذاتي للباطل و الباطل إنما يأخذ السطوح، و ما يبقى في القلب في أمن من الخطر و الغير، أما ما في السطوح فإنه يزول بأقل حركة، و لذا قال الفرزدق للإمام الحسين عليه السلام: قلوبهم معك و سيوفهم مع بني أمية «١» و قد رأينا كيف زالت بنوا أمية لما وقعت من أيديهم السيوف، و كيف بقي الحسين عليه السلام و في الآية الكريمة:

(فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) «٢» و

في الزيارة «و في قلب من يهواه قبره»

أى قبر الإمام عليه السلام، و لهذا السر بقيت أنبياء الله تعالى في الحياة بينما لم يبق من الجبارين أقل شيء و من بقي ليلعن و يكون مسبه و مثلاً للرديلة ليتجنبها الناس.

و قد ذكرت الأحاديث تفسير الآية الكريمة بالرسول و الصديقة و الأئمة عليه السلام و الشيعة لهم، و ذلك من باب أظهر المصاديق- كما بينا ذلك مكرراً-

فقد سألت الإمام الصادق عليه السلام عن الشجرة في هذه الآية؟

فقال: رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أصلها و أمير المؤمنين عليه السلام فرعها، و الأئمة من ذريتهما أغصانها و علم الأئمة ثمرتها و شيعتهم المؤمنون ورقها، قال:

و الله إن المؤمن ليولد فتورق ورقه فيها و إن المؤمن ليموت فتسقط ورقه منها

«٣». أما العمل الطيب و الكلمة الطيبة فإنهما يؤثران في الحياة السعيدة و يورقان و يزهران و يثمران كالحبة الصغيرة التي تصبح شجرة

(١) دلالة الإمامة: ص ٧٤.

(٢) إبراهيم: ٣٨.

(٣) الكافي: ج ١ ص ٤٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٧

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُبْتِغِي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)

كبيرة مورقة، و لذا نرى العمل الطيب يبقى مثلاً محفزاً للخير، و الحكمة الجارية على لسان الصالحين تبقى لترشد و تسعد .. هذا بالاضافة إلى ما تعقبه الكلمة الطيبة- أيما كانت- من الذكر الجميل في الدنيا، و السعادة الأبدية في الآخرة.

[٢٧] وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ قَوْلَا كَانَتْ أُمَّ عَلَمًا أُمَّ إِنْسَانًا كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ غَيْرَ زَاكِيَةٍ وَ لَا نَامِيَةٍ، وَ لَا رَاسِخَةَ الْجَذُورِ وَ لَا عَالِيَةَ الْفُرُوعِ، وَ إِنَّمَا هِيَ كَالشَّيْءِ الْمَفْرُوشِ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، بَلَا- أَصُولٌ وَ لَا- فُرُوعٌ فَلَا مَجَالَ لَهَا فِي أَعْمَاقِ الْحَيَاةِ وَ لَا بَقَاءَ لَهَا فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَجْيَالِ، وَ

كانها اجْتَسَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أى اقتلعت جثتها من الأرض، و إنما وصفت بهذا الوصف لبيان أنها لا بقاء لها، حتى لا تستحق أن يقال عنها إنها ثابتة- و لو حين كانت ثابتة- أ فلا تصير بعد أيام مجتثه؟ و هى اجتثت «من فوق» فلا جذور لها فى الأعماق حتى تستحق أن يقال «من الأرض» ما لها أى ليس لتلك الشجرة مِنْ قَرَارٍ ثبات و استقرار، فأقل ربح تنسفها، و أصغر حركة تقلعها و ما ورد من أن ذلك مثال لبني أمية، فإنه من باب المصداق، و قد صدق المثل فقد رأيناهم، اجتثوا من فوق الأرض، و ذهبت دولتهم المنتفخة الخلابه، حتى أنهم لا يذكرون إلا باللعن، و لا يسجلون إلا لبيان مخازيهم.

[٢٨] و كما للشجرة الطيبة ثبات و استقرار كذلك للمؤمن الطيب أنه يثبت الله سبحانه، و يجعله دعامة للحياة، كما يؤول أمره إلى الخير و السعادة فى الآخرة، و كما ليس للشجرة الخبيثة ثبات و استقرار كذلك للظالم العاتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٨

أنه يضل الله سبحانه، كالإنسان الذى لا ينتفع بشيء فإنه يلقى مع النفايات ليذهب و ينقطع أثره، و لماذا يبقى؟ أنه لا ينتفع به حتى يتعاهده الإنسان يُبْتِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أى يبقينهم أعمدة للحياة و أمثلة للمكرمات، و إنما يبقينهم بسبب القول الثابت الذى تمسكوا به من الإيمان بالله و العقائد الصحيحة فى الحياة الدنيا فهم هاهنا ثابتون راسخون يعرفهم الناس و يقتدون بهم كأمثله للمعانى الخيرة و فى الآخرة فهم الشفعاء الحكام أصحاب الجاه الكبير فى الجنة.

و فى الآية احتمال آخر- و إن كان الأول أنسب إلى السياق- و هو أن الله سبحانه يثبت المؤمنين على إيمانهم، فلا ترحزهم الفتن و الانحراف بسبب القول الثابت الذى هو الإيمان و كلمة الشهادة فلا يمكن إضلالهم «فى الحياة الدنيا» و لا يتلعثمون إذا حوسبوا «فى الآخرة» لما انطوا عليه من الإيمان و الإذعان و يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بترك الإيمان، فإنه سبحانه ينفهم و يبعدهم، و يتركهم حتى يغمروا فى الجهالة و الضلالة، كما يترك الشجرة الخبيثة حتى تنقلع بسبب الرياح و يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشَاءُ مما أجرى سننه عليه من نصره المؤمنين، و إبقائهم، و خذلان الظالمين و إضلالهم- و قد سبق مكررا أن المراد بالإضلال إذا نسب إليه سبحانه: ترك الشخص الذى لم يقبل الأمر حتى يضل و يفسد- و ما ورد فى جملة من الأحاديث من إثبات المؤمن عند الاحتضار أو فى القبر على الشهادة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٢٩

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٢٨]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (٢٨)
الحق، فإن ذلك من باب أحد المصايق للآية الكريمة.

فقد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث سؤال القبر فيقولان «منكر و نكير» له: من ربك و ما دينك و من نبيك؟ فيقول: الله ربي، و دينى الإسلام، و نبيى محمد صلى الله عليه و آله و سلم. فيقولان: ثبتك الله فيما يحب و يرضى، و هو قول الله يثبت الله الذين آمنوا، الآية «١».

[٢٩] و بمناسبة الحديث عن المؤمنين و الظالمين يأتى السياق لبيان أنهم كيف ظلموا أنفسهم حتى ضلوا سواء السبيل أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي، و المراد بالرؤية العلم، و الاستفهام تذكيرى- كما تقدم- إِلَى الَّذِينَ يَدُّلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا؟ أخذوا بدل النعمة الكفر، فلقد كان مقتضى العقل أن يأخذوا النعمة بشكرها، فأخذوا الكفر، فكأن النعمة شىء قابل للأخذ، فلم يأخذوها، و إنما أخذوا مكانها الكفر، و هذا عام يشمل كل من يترك النعمة ليأخذ مكانها الكفر، فمن يترك الرسول ليتخذ مكانه الكفر، و من يترك الولاية لأهل البيت ليأخذ مكانهم الكفر بهم، و من يترك شكر النعمة ليأخذ مكانه الكفران بها، و غيرهم من أمثالهم كل أولئك بدلوا نعمة الله كفرا و ما ورد من تفسيرها بكفار قريش فإنه من باب المصداق الظاهر.

و الحقيقة أن النعمة لا تبدل بالكفر، و إنما الشكر للنعمة يبدل بكفرانها، و إنما جىء بهذا المجاز- بعلاقة السبب و المسبب- تهويلا و

أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ فَهَمَّ - الرؤساء - قد قادوا قومهم و أتباعهم

(١) تأويل الآيات: ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٢٩ إلى ٣١]

جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا وَ بَسَسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَ لَا خِلَالَ (٣١) إلى دار الهلاك، فإن البوار بمعنى الهلاك.

[٣٠] جَهَنَّمَ بدل من دار البوار يَصْلُونَهَا أى يصلها الذين بدلوا مع أقوامهم، و اللفظة حال عن الفاعل و المفعول فى «أحلوا قومهم» وَ بَسَسَ الْقَرَارُ جهنم، فإنها مقر سيئ.

[٣١] لقد استبدل هؤلاء الكفار بنعمة الرسول و دعوته إلى التوحيد كفرا فتركوا الدعوة و الوحدة وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا جمع ند، و هو المثل، أى أمثالا فى العبادة، فعبدها كما عبدوا الله تعالى لِيُضِلُّوا الناس عَنْ سَبِيلِهِ أى سبل الآلهة الباطلة، و اللام للغاية، و إن لم يقصد الإضلال المضل، نحو (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا) «١» و الظاهر بقريته- و أحلوا قومهم- أن المراد بمن «جعل» القادة الكبراء.

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الْجَاعِلِينَ لِلَّهِ أُنْدَادًا تَمَتَّعُوا قليلا فى هذه الحياة بالتنعم من متعتها، و المراد به التهديد، و إن كان فى صورة الأمر فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ فإنكم- بكفركم- إليها تصيرون.

[٣٢] و انصرف يا رسول الله عن هؤلاء الكفار، و ولّ وجهك تلقاء المؤمنين و قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ مَا جِئْتُ بِهِ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ استمروا على أدائها، و جزم يقيموا، لأنه وقع فى جواب الأمر، أى أن

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣١

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٢]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِيَتَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢)

تقل لهم يقيموا وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مختلف الأرزاق، رزق العلم، و رزق الجاه، و رزق الأولاد، و رزق المال، و غيرها سِرًّا وَ عَلَانِيَةً فإن الإنفاق كذلك دليل على رسوخ ملكة الإنفاق فى النفس، بخلاف من ينفق فى وقت دون وقت مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ أى هو يوم القيامة، أو يوم موت الإنسان لا يَبِيعُ فِيهِ فلا يمكن الإنسان أن يبيع شيئا ليشرى نفسه من العذاب وَ لَا خِلَالَ أى لا الصداقة، فإن الصديق لا ينفق هناك صديقه فى نجاته من العذاب، أو المراد ادخروا الأعمال الصالحة ليومكم ذاك فإن ذلك اليوم لا يكون فيه نماء بتجارة أو صداقة، و إنما يستعمل الإنسان نتائج أعماله السابقة.

[٣٣] إن الكفار تركوا عبادة الله الواحد، و أخذوا الأنداد، مع أنه سبحانه هو المتفرد بالملك، و ليس معه من شريك الله هو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْشَأَهُمَا وَ أْبَدَعَهُمَا وَ أَوْجَدَهُمَا مِنْ كَتَمِ الْعَدَمِ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ أى جهة المطر ماءً يَنْزَالُ الْمَطَرُ فَأَخْرَجَ بِهِ أى بسبب ذلك الماء مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ أيها البشر، و إنما قال من الثمرات، لأن جميعها لا تكون أرزاقا للبشر، فقسم منها يسقط و يتلف، و قسم منها يصير رزقا للبهائم و الحيوانات، و المراد بالرزق أعم من المأكول و الملبوس و المفروش و سائر ما ينتفع به الإنسان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٢

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

وَسَيَخَرُّ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

وَسَيَخَرُّ لَكُمْ الْفُلُوكَ أى السفن و المراكب، حيث تحملكم على ظهر الماء من محل إلى محل، بأن جعل الماء بحيث لا تغرق فيه السفينة لتجري في البحر بأمره سبحانه لأنه المهيتى لوسائل الجريان من رخاء الماء، و جرى الهواء، أو دفع الحرارة- فى السفن البخارية و شبهها- وَسَيَخَرُّ لَكُمْ أَيها البشر الأناهار المياة الجارية، لتجري إليكم من كل مكان، و لو كانت المياة راكدة، لم ينتفع بها كثير من الناس إلا بصعوبة.

[٣٤] وَسَيَخَرُّ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أى ذللهما و سيرهما لمنافعكم، فإن الإنسان ينتفع بالشمس فى ضوءها و حرها، للدفع و نضج الثمار و غير ذلك، كما ينتفع بالقمر فى ضوءه- ليلا- و تأثيره الطبيعى فى بعض الأشياء، كالجزر و المد، و تقويمه الحساب للسنين و الشهور و الأيام، إلى غيرها دَائِبِينَ أى فى حال كونها مستمرين فى عملهما، شروقا و غربا، مدى السنين و الأزمان وَسَيَخَرُّ لَكُمْ لمنافعكم اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ تستريحون فى الليل و تعملون فى النهار مع ما لهما من المنافع للأبدان و الأرواح، بعدم الضجر و الملل من استواء الحالة، و غير ذلك.

[٣٥] وَآتَاكُمْ أَعْطَاكُمْ سبحانه مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ من مال و أولاد،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٣

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٥]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)

و أزواج و صحة و أمن و غيرها، من الأسئلة التى لا تحصى كثرة يسألها الإنسان من الله تعالى فيعطيهما وَإِنْ تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ التى أنعم بها عليكم، من كل صغيرة و كبيرة لا تُحْصُوهَا أى لا تقدرتون على إحصائها، كيف و الإنسان لا يتمكن من عد ما فى بدنه فقط- من النعم- فقد ذكروا أن فى بدن الإنسان اثنتى عشرة ألف قوة تشتغل ليل نهار، أما علماء الغرب فقد ذكروا أن كل قطرة من الإنسان فإنها تحمل اثنتى عشر مليون من الحيوانات المجهرية الصغيرة، و من المعلوم أن كل واحدة منها نعمة، و بهذا الشبه قالوا فى كل ذرة من ذرات الجسم، و النعمة اسم أقيم مقام المصدر، و لذا لا يجمع، ثم أليست كل هذه النعم من الله سبحانه؟ فلما ذا يتخذ الإنسان إليها دون الله إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ صِغَةً مبالغه أى كثير الظلم لنفسه و لغيره كَفَّارٌ أى كثير الكفر لنعم الله تعالى، فإن الكفر بمعنى الستر و عدم الشكر للنعم.

[٣٦] و إذ سبق و جوب شكر النعمة و ذم كفرانها، و ظهر مصير المؤمن و الكافر، فلننظر إلى نموذج من الإنسان المؤمن، كيف آمن و شكر، و كيف كان كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها فى السماء، فى مثال قريب إلى أذهان البشرية جمعاء، و إلى أذهان أهل مكة بصورة خاصة، و قد جرى دأب البلغاء أن يعقبوا الحكم الكلى و القاعدة العامة بمثال واضح ليركز الحكم فى الذهن، و يتشوق الذهن إلى الانطباع بمثله، و الاقتداء به، و أذكر يا رسول الله إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فى دعائه مع الله سبحانه رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أى مكة، و ذلك اليوم لم يكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٦]

رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)

بلدا، و إنما علم إبراهيم بأنه سيصبح بلدا آمنا أى محل أمن، لا يسودها الفوضى و الاضطراب، كما قال سبحانه، و قد استجاب دعاء

إبراهيم عليه السلام: (جَعَلْنَا حَزْماً آمِناً وَ يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) «١» فقد كانت مكة آمنة، بينما كانت حواليتها مضطربة بالسلب و النهب و القتل و السفك.

وَ اجْتُنِبِي أَي بَعْدَنِي، من جنبه بمعنى بعده وَ بَيَّي أَي بَعْدَ بَنِي - أولادى - أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ معنى هذا الدعاء ألطف علينا بلطفك حتى لا نعبدها، لا ابتداء، و لا استمراراً، فلا يقال أن إبراهيم لم يكن يعبد الأصنام، فما معنى هذا الدعاء؟ و الظاهر أن مراد إبراهيم عليه السلام من «بنى» أولاده من صلبه، أو الأنبياء و الأوصياء منهم و من فى سلسلتهم،

فقد روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: فانتهد الدعوة إلى و إلى أخى على، لم يسجد أحد منا لصنم قط فاتخذنى الله نبيا و عليا وصيا «٢».

أقول: و قد وردت روايات و طبقت عليه الشيعة على أن فى سلسلة النبي و الإمام لا يكون كافر إطلاقاً، و على ما تقدم فلم يكن دعاء إبراهيم عليه السلام عاماً لجميع ذريته، و إلا فقد كان من نسله من عبد الأصنام، كبنى إسرائيل الذين عبدوا العجل، و غيرهم كأبى لهب.

[٣٧] يَا رَبِّ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَ إِنَّمَا أَتَى بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ تَمَاشِيَا مَعَ الْمَعْتَقِدِ السَّائِدِ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْأَصْنَامَ لَهَا عُقُولٌ

(١) العنكبوت: ٦٨.

(٢) أمالى الطوسى: ص ٣٧٨ مجلس ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٥

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٧]

رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)

أَضَلَّنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ مِنْ عِبَادِ الْأَصْنَامِ وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْإِضْلالَ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ، فلو لا الأصنام لم يضل الذين عبدوها بهذا النوع من الضلال، و يتبين من هذا أن عبادة الصنم فى ذلك الدور كان شيئاً كثيراً حتى أن إبراهيم عليه السلام تخوف على ولده من الانجراف و الانحراف.

فَمَنْ تَبِعَنِي مِنَ النَّاسِ فِي إِيْمَانِي وَ أَعْمَالِي، بأن آمن و عمل صالحاً فَإِنَّهُ مِنِّي لى ما له و على ما عليه، و هذا هو المراد من قولنا «فلان من فلان» يعنى على لونه و مزيائه، و إنه مشترك معه فى الحكم حسناً أو قبيحاً وَ مَنْ عَصَانِي فلم يتبع طريقي و سببى فَإِنَّكَ يَا رَبِّ غَفُورٌ سَاتِرٌ لِمَعَاصِي الْعِبَادِ رَحِيمٌ بهم ترحمهم و تفضل عليهم، و لا- يقال أنه كيف قال إبراهيم ذلك مع أن الكفار ليسوا بقابلين للغفران؟ إذ الجواب: أن من عصى أعم من الكافر، فإنه يشمل المؤمن العاصى، و لم يقل إبراهيم غفور له فى الآخرة، فإن فى الدنيا يرحم الله الكفار و يستر كثيراً من سيئاتهم، و كأنه عليه السلام أراد بذلك أن يستعطف الله سبحانه، بأن يفعل بالعاصى ما يمكن أن يفعله من الغفران و الرحمة.

[٣٨] ثم قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَّكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي أَي جعلت لبعض ذريتي السكن و محل الإقامة بوادٍ غير ذى زَرْعٍ أَي أرض غير مزروعة، و قد أراد بذلك إسماعيل عليه السلام حيث أنه جعل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٦

هناك إسماعيل و أمه هاجر، دون إسحاق و أمه سارة، فقد كانا عنده قرب فلسطين، حيث مخيمه و مضيفه و ماشيته، و قد أمر الله سبحانه إبراهيم بهذا الإسكان، عند البيت لينتشر البلاغ و الدعوة من هناك، و قد كان إبراهيم يتراوح بين مكة و فلسطين، و قد صار ما قدره الله سبحانه من انتشار الدعوة من هناك، و لعل جعل إسماعيل الصغير و أمه هاجر، فى تلك الصحراء الفقر الموحش حكمة

جلب أنظار المارة، و من حولهم - بعيدا - في الأحياء من البدو النزل، إلى هذا البيت، فيكون ذلك سببا للهداية فإن الفطرة البشرية تعطف على المظلوم و الغريب و الكسير و من إليهم، مما يهيئ الجو المستعد للبلاغ و الإرشاد.

عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ و إنما قال عليه السّلام عند بيتك و لم يبين بعد، لأن البيت كان سابقا على إبراهيم و لذا ورد أن آدم عليه السّلام حج البيت، و إنما حُرِّبَ بعد ذلك حتى ذهب أثره، إما بفعل الطبيعة، أو بعض الأشخاص كما قال بعض المفسرين أنه خربه «طسم» و «جديس» و إضافة البيت إليه سبحانه تشریفى، و وصف البيت بالمحرم لأنه لا يجوز الوصول إليه إلا - بالإحرام، أو بمعنى العظيم الحرمه، أو لأنه يحرم فيه بعض الأشياء كالصيد و ما أشبه.

رَبَّنَا إِنِّي قَدْ أَسْكَنْتَهُمْ هُنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ و لعل المراد إقامتها بإرشاد الناس إليها و دعوتهم إلى الصلاة، لا أنهم يصلونها، فإن ذلك كان ممكنا حتى عند غير البيت، أو المراد أن كونهم في البيت هو الذى يحفزهم على إقامة الصلاة، فإن الإنسان إذا كان في مراكز القدس، يمثل نفسه إلى الابتهاج و الاتصال بالله سبحانه، بخلاف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٧

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٨]

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي و مَا نُغْلِي و مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ و لَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)

الإنسان الذى هو بعيد فإن المحيط يوحى بما يحمل معه من المعانى الخيرة أو الشريرة فاجعل يا رب أفئدة جمع فؤاد، و هو القلب من الناس تهوى إليهم أى تميل إليهم و تهوهم، و ذلك سبب لتعمير البيت أولا، و إقبال الناس على الحق ثانيا، و سيادة الذرية ثالثا، و من المعلوم أن من المرغوب فيه أن يكون أبناء الإنسان سادة، سواء للدين أو الدنيا، كما قال سبحانه حكاية عن المؤمنين (و اجعلنا للمتقين إماما) «١» هذا بالإضافة إلى إصلاح أمور معاشهم إذا هوتهم الأفئدة فاختلف الناس إليهم.

و أَرْزُقَهُمْ يَا رَبِّ مِنَ الثَّمَرَاتِ و لعل هذا الدعاء كان لأجل أن مكة لجذب أرضها لا تنبت ثمرًا، إلا أن يشاء الله أن يؤتى إليها بالثمار، و قد استجاب الله كل دعاء إبراهيم عليه السّلام التى منها هذا الدعاء، فإن مكة إلى هذا اليوم يجيب إليها ثمرات كل شىء، فالحاج يرى هناك من أنواع الثمار المجبية من أطراف الأرض ما يدهشه لعلهم يشكرون أى لكى يشكروا نعمك و يعرفوا فضلك فيفوزوا بسعادة الدنيا و الآخرة، و «لعل»، علة لما تقدمه من أدعية إبراهيم عليه السّلام أى افعل بهم كذا و كذا لكى يشكروا، أو رجاء أن يشكروا فإن الإنسان جبل على شكر المنعم.

[٣٩] ثم يظهر إبراهيم عليه السلام أن دعائه بتلك الدعوات ليس لمظاهر ريائه، و إنما الأدعية انقطاع إليه سبحانه، و تضرع و طلب من الله، و كيف

(١) الفرقان: ٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٨

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٩]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ و إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)

يمكن لإبراهيم عليه السلام أن يريد المظهر فى دعائه أو يجد الرياء إلى عمله سيلا - ك بعض الداعين - و هو العالم بأن الله سبحانه يعلم ما خفى و ما علن؟ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي فى نفوسنا، أو نخفيه عن الناس و ما نُغْلِي بإظهاره أمام الملائكة، فلا نفعل شيئا إلا لك و من أجلك، فى حال نراك رقبيا علينا تعلم خفايانا و ما يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ و لَا فِي السَّمَاءِ فهو المطلع على كل شىء، و لعل ذكر هذه الأدعية هنا، للتعريض بكفار قريش حيث استجاب الله فيهم دعاء إبراهيم، فالحرم آمن، و الثمرات تجبى، و القلوب تهوى محلهم، مع ذلك هم يكفرون بالله، و لا يقيمون الصلاة، و أعمالهم رياء و مكاء و تصديء.

[٤٠] ثم أخذ إبراهيم عليه السلام في الشكر، فإن الشكر مفتاح إجابة الأديعة، إذ الشاكر يزداد والكفور يزداد، كما قال سبحانه (لئن شكرتم لأزيدنكم) (١) فقال عليه السلام الحمد لله الذي وهب لي على الكبر أي كبر سنّي إسماعيل ابن هاجر وإسحاق ابن سارة إنّ ربّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ أى يسمع دعاء من دعاه، وليس كسائر العظماء لا يسمعون إلا دعاء بعض الناس لهم، أو المراد بسميع الدعاء، أنه يستجيب، لأنه ربما يكون كناية عنه.

(١) إبراهيم: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٣٩

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٠ إلى ٤١]

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

[٤١] يَا رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ بِأَمْرِ النَّاسِ لَهَا وَالْإِرْشَادِ إِلَيْهَا، أَوْ الْمَرَادِ أَدَمَ تَوْفِيقِكَ لِأَكُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَقِيمًا كَمَا كُنْتُ فِي الْمَاضِي كَذَلِكَ، مِثْلَ «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» وَمِنْ ذُرِّيَّتِي اجْعَلْهُمْ مُقِيمِينَ لِلصَّلَاةِ، وَدُخُولِ «مَنْ» هُنَا وَفِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «مَنْ النَّاسِ» إِمَّا لِلنَّشْوءِ وَالْجِنْسِ أَى أَفئدة من هذا الجنس، وَاجْعَلْ مِنْ جِنْسِ ذُرِّيَّتِي فَيَكُونُ الدُّعَاءُ عَامًا، وَلا مُنَافَاةً بَيْنَ دُعَاءِ الْخَيْرِ لِلْعَمُومِ وَإِنْ عِلْمَ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ لَا يَسْتَجَابُ إِلَّا لِبَعْضٍ، كَمَا فِي الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» وَإِمَّا لِلتَّبْعِيضِ وَإِنَّمَا دُعَاءُ لِبَعْضٍ، لِأَنَّهُ عِلْمٌ عَدَمِ الِاسْتِجَابَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُلِّ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ أَى دُعَائِي، وَحَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ تَخْفِيفًا، لِدَلَالَةِ الْكُسْرَةِ عَلَيْهِ.

[٤٢] رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَالمَرَادِ بِالْغُفْرَانِ السِّتْرِ، وَذَلِكَ لَا يَنَافِي عَدَمَ الْعَصِيَانِ فَإِنَّ الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حَالَاتٍ مُبَاحَةً، بَلِ رَاجِحَةٌ هِيَ دُونَ شَأْنِهِمْ لَا يَحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ لِلْمَلَأِ، كَمَا أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ فَهُوَ قَاصِرٌ أَوْ مَقْصُرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ صَرَفَ كُلَّ وَقْتِهِ فِي طَاعَتِهِ، كَمَا نَجِدُ هَذَا بِالْوُجُودِ فِي مَا لُوِ اسْتِضَافِ الْإِنْسَانِ مُلْكًَا وَهِيَ أَلَهُ كُلَّ إِمْكَانَاتِهِ، مِمَّا كَانَتْ قَاصِرَةً عَنِ شَأْنِ الْمَلِكِ، فَإِنَّهُ يَعْتَذِرُ وَيَطْلُبُ غُفْرَانَهُ، وَعَلَى هَذَا يَحْمَلُ (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ) «١» وَأَمْثَالُ ذَلِكَ - عَلَى وَجْهِ - وَالتَّفْصِيلُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَاللُّمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُ فِيهِمُ الْمُؤْمِنَاتُ، وَإِنَّمَا أَتَى بِالمَذْكَرِ تَعْلِيًا يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

(١) الفتح: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٠

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً (٤٣)

أى يقوم الخلق للحساب، فالإسناد مجاز عقلي.

[٤٣] وَإِذَا يَفْرَغُ الْكَلَامُ حَوْلَ الْمِثَالِ بِالنَّبِيِّ الْعَظِيمِ إِبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يَرْجِعُ السِّيَاقُ نَحْوَ «الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا» فَلَا يَظُنُّ أَوْلَئِكَ أَنَّهُمْ عَمِلُوا مَا شَاؤُوا بِلا رَقِيبٍ وَلا حِسَابٍ، بَلْ أَنَّهُمْ يُؤَخَّرُونَ حَتَّى يَأْتِيَ دَوْرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا تَحْسَبَنَّ أَى -لا- تَظُنَّنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ كُلِّ مَنْ يَتَأْتِي مِنْهُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الشُّؤُونِ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، أَوْ بِغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِكُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ مِنْهُمْ، وَأَنَّ كُلَّ أَعْمَالِهِمْ تَكْتُبُ فِي كِتَابٍ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَإِنَّمَا لَا يَعْبَلُ بِالأَخْذِ وَالتَّنَقُّمِ لِصَلَحَةِ مُقَرَّرَةٍ، وَأَنَّ يَثِيبُ الْمَظْلُومِ، وَيُظْهِرُ مَا فِي نَفْسِ الظَّالِمِ، لِئَلَّا يَكُونَ لَهُ حِجَةٌ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ أَى الظَّالِمِينَ يُؤَخِّرُ

عقابهم ليومٍ تشخص فيه الأبصارُ شخوص البصر ذهولها و عدم غمضها، فإن يوم القيامة لا يدع المجرم أن يغمض بصره، بل هو كالإنسان المسافر الذي لا يهدأ، شاخص نحو الأحوال الجارية في القباضة ليرى ماذا يصنع به؟.

[٤٤] في حال كون الظالمين مُهْطِعِينَ الإطعاع الإسراع، أى يسرعون إلى هنا و هناك لعلهم يجدون شفيعا أو مخلصا مُفْنِعِي رُؤْسِهِم الإقناع رفع الرأس، أى رافعين رؤوسهم إلى السماء ليروا ماذا ينزل من طرفها حيث يرون الآيات الهائلة المتتالية التى تنزل من طرف العلو،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤١

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٤٤]

وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ تَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤)

أو المراد ناكسى رؤوسهم - قيل و هو لغه قريش - كما قال سبحانه:

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ) «١» و لا تنافى فإن مواقف القيامة كثيرة، ففي موقع يكونون هكذا، و فى موقع هكذا لا يَزِنُّدُ أى لا يرجع إليهم طرْفُهُمْ أى عينهم فإنهم لا يطبقونها و لا يغمضونها، إذ هى مفتوحة مذهولة مبهوتة و أَفْتَدَتْهُمْ أى قلوبهم هواء أى مجوفة لا تعى شيئا للخوف و الفزع، شبهت بهواء الجو، و ذلك لأن الإنسان الخائف لا تحضر نفسه لفهم شىء حيث توجهت جميع حواسه إلى ذلك الخوف الهائل.

[٤٥] وَ أَنْذِرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسَ عَنْ يَوْمٍ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أو يوم الموت، فإن العذاب يشرع من هناك، أو المراد عذاب الدنيا حين الاحتضار و نحوه فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى الدنیا، أو مد فى أعمارنا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ أى مدة قصيرة نَجِبْ دَعْوَتَكَ «نجب» مجزوم بكونه جواب الأمر، أى إن تؤخرنا نجب دعوتك و أوامرك و تَتَّبِعِ الرَّسُولَ فيما قالوا و أمروا و لكن هيهات أن يردوا أو يؤخروا، لأنهم استوفوا مدتهم، و لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، و هنا يتوجه الخطاب إليهم بالتقريع أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَيُّهَا الظالمون

(١) السجدة: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٢

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)

أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَ انتقال عن دار الدنيا إلى دار الآخرة، و من نعيم الدنيا إلى جحيم العذاب؟ فهل كان ذلك صحيحا؟

[٤٦] وَ سَكَنْتُمْ أَيُّهَا الظالمون فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ قَبْلَكُمْ فلم تعتبروا بأحوالهم، فكيف تطلبون الآن أن تؤخركم إلى أجل قريب حتى تتوبوا؟ فإن كانت نفوسكم مستعدة للتوبة، لتبتم قبل هذا اليوم حيث رأيتم مساكن الظالمين، و سكنتم فيها وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْإِهْلَاكِ وَ الْإِسْتِصْالِ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الصَّالِحِينَ، فقد بينوا لكم أخبار الماضين من قبلكم كيف عتوا عن أوامر الله سبحانه، و كيف أن الله سبحانه عقابهم و أخذهم، فلم ينفع فيكم ذلك، أو المراد ضرب المثل عملا يهلك الطغاة و إبادتهم عن الوجود.

[٤٧] ثم يأتي السياق لبيان ما يفعله الكفار فعلا من المؤامرات ضد الإسلام و الرسول و المؤمنين وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ أى اتخذوا

تدابيرهم الخفية، ما أمكنهم ذلك، فلم يدعوا بابا من أبواب المكر إلا طرقوه، و العموم يستفاد من قوله «مكرهم» الظاهر في أنهم أتوا بغاية ما تمكنوا من المكر، و يحتمل أن يكون المراد: أن الكفار مكروا بالأنبياء عليهم السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٣

قبلك يا رسول الله، كما مكروا بك، فعصمهم الله من مكر الكفار، فيكون تسلياً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يفعله هؤلاء به. وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ أَنَّهُ مَحْفُوظٌ لِدَيْهِ سُبْحَانَهُ، غَيْرُ خَافٍ عَلَيْهِ، فَلَا يُمْكِنُ أَوْلَئِكَ أَنْ يَنْفِذُوا مَكْرًا دُونَ أَنْ يَعْلَمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِكَ لِمَنْ خَاصَمَكَ: عِنْدِي مَا تَفْعَلُهُ، تَعْنِي إِنَّكَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى طَرُقِ مَكْرِ الْخَصْمِ، لَا يَتِمَكَّنُ الْخَصْمُ مِنْ إِغْفَالِهِ، وَ إِنْفَازِ مَكْرِهِ بِهِ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَ الدَّقَّةِ بَحِثْ لَوْ أَنْفَذُوهَا عَلَى اقْتِلَاعِ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ لَتَرَوُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ لَكِنَّهُ لَا يَنْفِذُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ مِنْ فِي زِمْرَتِهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ يَحْبِطُهُ فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ إِضْرَارِ الْأَنْبِيَاءِ بِذَلِكَ الْمَكْرِ، وَ لَا يَقَالُ: إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ تُمْكِنُ بَعْضُ الْأُمَّمِ مِنْ إِنْفَازِ مَكْرِهِمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى قَتَلُوهُمْ أَوْ شَرَدُوهُمْ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّ الَّذِي أَرَادَهُ الْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا هُوَ تَنْفِيزُ مِنْهَا السَّمَاءَ فِي النَّاسِ وَ قَدْ تُمْكِنُوا مِنْ ذَلِكَ، أَمَّا أَشْخَاصُهُمْ فَلَمْ يَكُنْ لِلْأَنْبِيَاءِ هَمٌّ فِي بَقَاءِ حَيَاتِهِمْ، بَلْ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِنْ غَايَةَ آمَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأُمَّةِ لِقَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قِتْلًا وَ نَحْوَهُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَ إِنْ كَانَتِ الْأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أَنْشَأَتْ * فَقَتَلَ أَمْرًا بِالسَّيْفِ فِي اللَّهِ أَفْضَلَ «١»

(١) ديوان الإمام على عليه السلام: ص ٣١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٤

[سورة إبراهيم (١٤): آية ٤٧]

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧)

و قال على عليه السلام: «و الله لابن أبي طالب آانس بالموت من الطفل بمحالب أمه»

«١»

و قال عليه السلام: «لا أبالي أوقعت على الموت أو وقع الموت علي»

«٢» و في القرآن الحكيم: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ) «٣» و قال سبحانه: (إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ) «٤» إلى غير ذلك.

[٤٨] أنه ليس لمكر هؤلاء أثر فإن الله سبحانه يحبطه و ينصر رسله فلا تحسبن أي لا تظنن يا رسول الله أو أيها المتدبر في الأمور، من كل من يمكن أن يتأتى منه هذا الظن، و إن كان الخطاب للرسول فليس النهي لأن الرسول كان يظن ذلك بل للتنبيه على أن هذا المكر لا ينفذ، على طريق المجاز، أو طريق الكفاية، نحو إياك أعنى الله مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ الْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُ إِيَاهُمْ بِقَوْلِهِ: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) «٥»، و أي نصر أعظم من أنهم باقون في القلوب مورد احترام البشرية، يذكرونهم بكل تجلّة، و يزورونهم و من يمت إليهم، بينما ذهبت الفراعنة و الجبابرة حتى لم يبق لهم اسم، و من بقى فهو للعن و البراءة و ليكون مثلاً للظلم و الطغيان، ليجتنب سبيله الناس.

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ قَاهِرٌ، ذُو انتِقَامٍ يَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ جَبَّارٍ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ كَمَا نَرَى التَّارِيخَ الْغَابِرَ وَ الْحَاضِرَ مَلِيءًا بِالشَّوَاهِدِ وَ الْأَمْثَلِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَدْعُ الظَّالِمَ بِلا جِزَاءٍ، وَ لَا يَذُرُ

(١) الاحتجاج: ج ١ ص ٩٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٢٣٣.

(٣) التوبة: ١١١.

(٤) الجمعة: ٧.

(٥) غافر: ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٥

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٨ إلى ٤٩]

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)
الماكر بلا عقاب.

[٤٩] إن عدم الخلف، أو الانتقام، إنما هو يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ أو أن العامل فيه محذوف تقديره، اذكر يا رسول الله، ولعل هذا أقرب إلى المعنى، وإن كان الأول أقرب إلى اللفظ غَيْرَ الْأَرْضِ و تبدل وَالسَّمَاوَاتُ غير السماوات، بمعنى أنهما يصبحان في غير شكلهما المألوف الحالي، فإن الجبال تدك، والأرض تسوى حتى لا- ترى عوجا ولا- أماتا، والبحار تسجر، والشمس تنكسف، والقمر ينخسف، والنجوم تكدر، إلى غيرها من آيات القيامة.

وَبَرَزُوا أي ظهر الجميع، أو الظالمون- حيث أن الكلام في الآيات السابقة حولهم- لِلَّهِ أي أمام حكمه و عدله كما يظهر المتخاصمان أمام الحاكم، عند المحاكمة الْوَاحِدِ فلا شريك مزعوم هناك، ولا أحد يحكم إلا هو الْقَهَّارِ الذي يقهر الظالمين، فلا مجال للتملص و التخلص.

[٥٠] وَ تَرَى يا رسول الله أو أيها الرائي الْمُجْرِمِينَ الذين أجرموا و عملوا السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ أي في ذلك اليوم، و هو يوم القيامة مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ أي مجمعين في الأغلال قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم، أو مصفدين بعضهم مع بعض، من التقرين و هو جمع الشيء إلى نظيره، والأصفاذ جمع صفاذ و هو الغل الذي يقرب به اليد مع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٦

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٥٠ إلى ٥٢]

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَ تَعْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ (٥٢)
العنق، أو مطلق السلسلة.

[٥١] سَرَابِيلُهُمْ جمع سربال و هو القميص، أي ألبستهم مِنْ قَطَرَانٍ و هو شيء أسود لزج منتن يقبل الاحتراق سريعا، يطلى به الجمل الأ-جرب، أي أن ألبستهم من هذا الجنس حتى تكون النار فيهم أسرع لكونها أسرع في الاشتعال و أبلغ في شدة العذاب وَ تَعْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ أي تحيط النار بوجوههم حتى تكون على الوجه كالغشاء، و بيان ذلك بالخصوص لما يعلمه كل إنسان من أن الوجه يتأذى بأقل شيء من الألم فكيف بالنار المحيطة بها كالغشاء.

[٥٢] و إنما يفعل سبحانه بالمجرمين هذا العذاب المدهش لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ فقد كسبت أنفس الظالمين في الدنيا الظلم و المكر فيلذوقوا جزاء أعمالهم، ولا يظن ظان أن عذاب الآخرة بعيد ف إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
فقد قال الإمام عليه السلام: كل آت قريب و الموت أقرب

، و ها نحن ننظر أين أولئك الذين عارضوا الرسول؟ أو عارضوا الوصي و الصديقه و الزكي و الشهيد و غيرهم ممن تقدم من الأنبياء عليهم السلام و الصالحين أو تأخر من الأئمة عليهم السلام و المتقين؟ أليس الكل قد ماتوا و نالوا نصيبهم من العذاب- و من مات قامت قيامته-.

[٥٣] هذا القرآن بَلَاغٌ لِلنَّاسِ أي تبليغ لهم، حتى يأخذوا حذرهم، و إلا فعن قريب يلاقون هذا المصير المهول وَ لِيُنذَرُوا بِهِ فهو بلاغ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٧

لكل وعد و وعيد و حكم و عظة، بصورة عامة، كما أنه جيء به لينذر الناس، فأخذوا حذرهم- وإنما أتى بهذا الخاص بعد ذلك العام لأنه مورد الكلام في الآية السابقة- وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا شريك له، مما قد كان مصب كلام السورة، وإنما يعلموا بالقرآن لأنه يبين لهم الحجج والأدلة فلا يقال أن الإذعان بالقرآن متوقف على الإذعان بالإله فكيف يمكن أن يكون الإذعان بالإله متوقفاً على الإذعان بالقرآن؟ وَ لِيَذَكَّرَ من تذكّر «باب التفعّل» ثم أدغمت التاء في الذال، و جيء بهمزة الوصل لاستحالة الابتداء بالساكن أو لولا الألباب أي يتعظ أصحاب العقول، فإن ألباب جمع لب، وهو العقل، وإنما خصص بهم تنبيهاً على أن غير المتعظ إنما هو مجنون، حيث ترك الآخرة العظيمة لشهوات زائلة، والله العالم وهو العاصم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٤٩

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الرابع عشر من آية (١) سورة الحجر إلى آية (١٢٩) سورة النحل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥١

١٥ سورة الحجر مكية / آياتها (١٠٠)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الحجر» وهو اسم البلد الذي كانت فيه قبيلة «ثمود» قوم صالح عليه السلام و هذه السورة تدور حول العقيدة، و عاقبة المكذبين بما أرسل به المرسلون، كغالب السور المكية. و لما ختم سبحانه سورة «إبراهيم» بكون القرآن بلاغا، ابتدأت هذه السورة بذكر «القرآن» مع التناسب الكلي بين السورتين في استعراض العقيدة و عاقبة الكاذبين بها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين بالله الرحمن الرحيم في أمورنا و نجعله بدء أعمالنا، ليكون عوناً لنا، في ختم العمل، و أن يطبع بطابعه، فإن ما لمستته رحمة الله العظيم، لا يكون إلا صالحاً باقياً، موجبا للسعادة و نستمطر شآبيب رحمته، فيرحمنا بلطفه و إحسانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٢

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ١٩٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رَبُّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)

[٢] الر ألف، و لام، وراء تلمك و من هذا الجنس من الحروف تتركب آيات الكتاب و آيات قرآن مبيّن واضح لا لبس فيه و لا غموض و لا التواء، و قد ذكرنا غير مرة أن «فواتح السور المقطعة» فيها احتمالات: أحدهما ما ذكرنا، و الآخر أنها رموز بين الله سبحانه و الرسول، و هناك احتمالات أخرى، يمكن الجمع بين كثير منها، و على الاحتمال الأول ف «الر» مبتدأ و «تلك» خبره، و تأنيث الإشارة باعتبار أن المقصود «حروف، الر».

و قد تكرر «الر» في فواتح السور، بينما كان بالإمكان أن «ج م د» مثلاً، أو غيره، و لعل لسرّ أن الرمز الحاوي له «الر» كان مهماً يحتاج إلى التأكيد، كتنكرار بعض الآيات: نحو (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) «١»، أو لعله كان ذلك تعبيراً عن حروف الهجاء، كما أن «الضاد» تعبير عن لغة العرب، فيقال لغة الضاد و إنما قال: «آيات الكتاب و قرآن» بعطف القرآن على الكتاب مع أنهما واحد، لإفادة أنه يكتب و يؤلف، فإن القرآن من قرأ و هو بمعنى الجمع و التأليف، و كأنه أكثر تأكيداً في مقام التعجيز، أو من جنس «أ، ل، ر» كتبت و ألفت هذه السور و الآيات فكيف لا تقدر على الإتيان بمثله، إذا لم يكن من جانب الله؟ و هكذا كما يقول المهندس متحدياً سائر

زملائه: إني من «الأجر، والحديد، والجص» صنعت هذا البناء وألفت هذا القصر فاصنعوا مثله؟- والله أعلم بمراده-.

[٣] و إذ كذب بهذا الكتاب و القرآن المبين بعض الناس، بعد أن عجزوا عن

(١) الرحمن: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٣

[سورة الحجر (١٥): آية ٣]

ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)

الإتيان بمثله فسيأتي يوم يندمون على كفرهم و تكذيبهم، و يتمنون أن كانوا مسلمين في الدنيا غير مكذبين، حتى لا ينالهم العذاب الشديد رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ «رب» مشددة، و تخفف كثيرا إذا دخلت على «ما» الكافئة، و هي لفظة تأتي عقب رب ليصلح دخولهما على الفعل و الا فإن «رب» تدخل على الاسم، فإنها من حروف الجر، أى ربما يتمنى الكفار الإسلام في الآخرة حيث رأوا عذاب الكافرين و نعيم المسلمين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ينادى المنادى يوم القيامة يسمع الخلائق أنه لا يدخل الجنة إلا مسلم فثم يود سائر الخلائق أنهم كانوا مسلمين

«١»، ثم أن الظاهر كون رب للتكثير أى كثيرا ما يودون ذلك، فإن الإنسان المعذب يتمنى كثيرا إن كان عمل عملا لا يؤديه إلى هذا العذاب الذى هو فيه، و لكن لا ينفع التمنى و الندم هناك.

[٤] إن ذلك تهديد للكفار، بأن ورائهم هذا اليوم، و يأتي تهديد آخر، فى صورة الأمر استهزاء ذَرُّهُمْ أى دع يا رسول الله هؤلاء الكفار، و اتركهم و شأنهم يَأْكُلُوا ما شاءوا من الحرام و الحلال و يَتَمَتَّعُوا باللذائذ و الشهوات، كما يشتهون من غير ارتقاب العاقبة و عدم النظر إلى متعتهم هل هى جائزة أو محظورة و ذَرُّهُمْ يُلْهِمُ الْأَمْلُ من «ألهاه» بمعنى أشغله، و «الأمل» توقع سعادة الدنيا فى المستقبل، أى تشغلهم آمالهم الدنيوية الزائلة عن التفكير فى مصيرهم فى الآخرة،

(١) تفسير العياشى: ج ٢ ص ٢٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٤

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤ الى ٥]

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥)

و التجهز له بالأعمال الصالحة فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ و بال ذلك فى ما بعد، حين ما عينوا جزاء أعمالهم، إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كلما دعاهم و لم يقبلوا، فليدعهم حتى يلاقوا مصيرهم السيئ.

[٥] فلا يغرر هؤلاء الكفار تأخير العذاب عنهم، و أنهم عاجلا لا يرون جزاء تكذيبهم، فقد جرت سنة الله سبحانه، أن لا يهلك أمة إلا فى الوقت المقدر المحدد و مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ أى من بلد، و المراد بها أهلها، بعلاقة الحال و المحل إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ أى وقت و سمي الوقت كتابا لأنه يكتب أجلمهم هناك، فهو مجاز بعلاقة الظرف و المظروف، إذ المدة مكتوبة فى الكتاب معلوم لدى الله سبحانه، فلا يأخذ القرية قبل انتهاء مدتهم، و من المحتمل أن يراد أن هذا قبل قرب وقت تعذيبهم، لأنه جاءهم الكتاب السماوى، و بين لهم الأحكام، و قد جرت سنة الله أن يأخذ الظالمين بعد البيان، كما قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) «١».

[٦] مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّهٍ أى لم تكن أمة تسبق أجلها فتهلك قبل الوقت المحدد لموتها و مَا يَسْتَأْخِرُونَ أى لا تتأخر أمة عن أجلها المقدر لها، بأن تهلك بعد الأجل، فلو كان أجل أمة فى يوم الجمعة لا تسبقه بأن تموت الخميس و لا تتأخر عنه بأن تموت يوم السبت، و

كانه جاء بلفظ «الاستفعال» لإفادته أن الأمة لا تطلب التأخير، لأنها تعلم بأن الأجل لا يتأخر، وهذا لبيان حتمية الأجل حتى أنه لا موقع لطلب التأخير.

(١) الإسراء: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦ الى ٧]

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)

وما ورد من أن الأدعية والصدقات وما أشبههما تؤخر الأجل «١»، فالمراد أنها تؤخر الأجل المعلق، لا الأجل المحتوم، ومعنى الأجل المعلق، أنه لو لا هذه الصدقة لكان يموت في الخميس، لكن الله يعلم أنه يصدق فيموت يوم الجمعة.

[٧] لقد جاء لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالكتاب والقرآن المبين وبصيرهم وأقام عليهم الحجج، لكن الكفار لم يدعوا لذلك كله بل أخذوا في الفساد والللجاج راكبين رؤوسهم مستهزئين بالرسول وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر قالوا ذلك استهزاء وإلا فقد كانوا ينكرون نزول الذكر على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنك لمجنون حيث تزعم مزاعم المجانين، أنك أوحى إليك، وإنما سوف نكون لك تبعاً، وهكذا يلجأ المبطلون إلى رمي المصلحين بالجنون وما أشبه، إذ لم يتمكنوا من رد حججهم الصحيحة، ولم يحروا جواباً لما يرشدون إليه من الإصلاح.

[٨] لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ أَي لِمَاذَا لَا تَأْتِينَا بِمَلَائِكَةٍ يَشْهَدُونَ بِصِدْقِ دَعْوَاكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَاكَ إِنَّكَ نَبِيٌّ مَأْمُورٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ يَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

لكن حججهم هذه كانت تافهة إلى أبعد الحدود، فإن النبي إنما يثبت نبوته بالخارقة وقد أثبت النبي بإتيان القرآن، أما أن يأتي بكل خارقة تخيلها أدمغة المعاندين، فإن ذلك عبث لا طائل تحته، إن

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٤ ص ٢٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨ الى ٩]

مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)

المطالبين بإنزال الملائكة وما أشبه إن كانوا منصفين كفاهم الدليل، وإن كانوا معاندين لم يكفهم ألف دليل، فلما ذا يأتي النبي بالملائكة، وما نراهم يقولون للنبي في آية أخرى (مهما تأتينا به من آية لتسخرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) «١».

[٩] لكن القرآن يرددهم بأسلوب آخر، هو أن الملائكة لا ينزلون إلا للعذاب والهلاك، فهكذا اقتضت مشيئة الله سبحانه، حتى في بدر نزلت الملائكة لعذاب الكفار، فإذا أنزلنا الملائكة عذبوهم وأهلكوهم فلا يستفيدون من إنزال الملائكة شيئاً، وقد جرت سنة الله كذلك في القرون الماضية والأمم الخالية ما نزل الملائكة إلا بالحق لا للعبث واللغو، كما يطلبه هؤلاء فإن إجابته المعاند بعد إثبات الحجج عليه لغو وعبث وما كانوا إذاً حين نزول الملائكة منظرين أي مؤخرين مهملين، بل الملائكة إذا نزلت فإنما تنزل للعذاب والهلاك فهل يريدون هلاك أنفسهم بهذا الطلب؟ ثم ألم نر الكفار يوم بدر رأوا الملائكة بعيونهم، ولكنهم لم يؤمنوا وقالوا أنه سحر؟

[١٠] إنهم إن كانوا صادقين في طلبهم الحجج، فأية حجة أقوى من القرآن الحكيم، الذي مع كبره وسعته وإنه بلغتهم عاجزون عن إتيان سورة من مثله فإنا نحن نزلنا الذكر وسمى القرآن ذكراً لأنه يذكر الإنسان بالعقيدة والنظام مما فطر في جبله الإنسان لكنه

ذهل عنه وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ من التغيير و التحريف و الزيادة و النقصان، و الذى أعتقده

(١) الأعراف: ١٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٧

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١)

وفاقا لغير واحد من علمائنا الأخيار أن هذا القرآن الذى هو بأيدينا اليوم بين الدفتين هو عين ما أنزل بلا أى تغيير أو تبديل و إن السور و الآيات إنما رتبت كما أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و إن كان النزول مختلفا، و الرسول لم يفعل هذا الترتيب إلا بأمر الله سبحانه، كما قال سبحانه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ «١») و هكذا كان اعتقاد والدى قدس سره، كما ذكره فى نشره «أجوبة المسائل الدينيه» الكربلايه، و ذكرت طرفا من الكلام فى أوائل نشره «الأخلاق و الآداب» الكربلايه، فى تفسيرى لسورة الحمد و بعض سورة البقرة.

و ربما يتعجب الإنسان من هذه التأكيدات الواردة فى هذه الآيه، و هى اثنتى عشره أو أكثر «إن» و «نا» بضمير الجمع و «نحن» تكريرا و جمعا و «نزل» بالتفعل و «نا» جمعا و «إن» و «نا» و «له» باللام و «لام» لحافظون و «إتيانه جمعا» و كون الجملتين اسميتين.

[١١] ثم يسلى سبحانه الرسول أن لا يضيق باستهزاء المستهزين، فقد كانت عادة الأمم أن يستهزءوا بالرسول و لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَسُلًا فِي شَيْعٍ جَمْعٍ شَيْعَةٍ و هم الطائفة من الناس الذين يتبعون طريقه معينه، من المشايخه بمعنى المتابعه، فكان كل جماعة يتبعون مسلكا و رئيسا لذلك المسلك و مخترعه الْأَوَّلِينَ أى الأمم السابقه، فقد أرسل فى كل فرقه من السابقين رسول.

[١٢] و قد كان دأبهم أنه ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ «من» زائده تدخل فى

(١) النجم: ٤ و ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٢ الى ١٣]

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣)

المنفى لإفاده التعميم، حتى لا- يظن أن عموم النفى مجاز إلا كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ و الاستهزاء دائما حيله العاجز عن الحججه حيث يريد تحطيم خصمه، و هذا كالتسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه لا يهتم باستهزائهم فإن ذلك عادة الأمم كافه بالنسبه إلى رسل الله سبحانه.

[١٣] و لكن إنما لا- نأبه باستهزاء هؤلاء الكفار بالقرآن، فاللازم فى الحكمة أن تتم عليهم الحججه، و إن استهزءوا به و علمنا أنهم لا يؤمنون كذلك الذى ذكر نَسْلُكُهُ أى القرآن فى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ يقال سلكه و أسلكه إذا أدخله، يعنى إنا فى هذه الحاله الاستهزائيه، و مع هذا الواقع السيئ لدى المكذبين، ندخل القرآن فى قلوبهم، حتى تتم الحججه عليهم.

كما إذا قيل لك أنك كيف تفعل كذا و الحال أن جماعة ينتقدون عليك؟ تقول: هكذا نعمل، تريد أنك تعمل و إن جلب العمل الانتقاد.

[١٤] إنهم لا يُؤْمِنُونَ بِهِ هذا كالبديل لقوله «كذلك» أى إنهم مع عدم إيمانهم بالقرآن و استهزائهم لك نلقى عليهم الحججه و قد خَلَتْ أى مضت سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ طريقه الأمم السابقه، فى أنهم لم يكونوا يؤمنون بالأنبياء عليهم السلام و يستهزئون بهم و مع ذلك كنا نلقى عليهم الحججه، فالطغاة المكذبون من عنصر واحد، و هم أشباه فى كل زمان و مكان، و ليس تكذيبهم و استهزائهم سببا لكفنا عن

الإرشاد و البلاغ، سواء في ذلك السابقون أو من في زمانك يا رسول الله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٥٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٤ الى ١٦]

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)

[١٥] إن هؤلاء الكفار لا يريدون الإيمان، و لو أقيم لهم ألف دليل، أما ما طلبوا من إنزال الملائكة، فإنه حجة للعناد لا للتفهم فإنهم معاندون لا يؤمنون و لو فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أى على هؤلاء المشركين باباً مِّنَ السَّمَاءِ بأن رأوا أن موضعا من السماء كالباب يمكن المرور منه. فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ أى أخذوا طوال نهارهم يصعدون إلى السماء من ذلك الباب، لم يفدهم هذا الإعجاز الذى لمسوه فى أن يؤمنوا. [١٦] بل لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا أى سدت و غطيت كالإنسان المسحور الذى يرى غير الواقع واقعا لما عمل فيه من السحر و الشعوذة بل ليس لهذا الشىء من واقع و إنما نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ قد سحرتنا فظننا أن للسماء بابا و إنما أخذنا نصعد فيه، إذن فهل يكفى إنزال الملائكة لإيمان هؤلاء؟.

[١٧] أخذ سبحانه يعدد الأدلة على وجوده سبحانه، و ذلك بتعدد الآيات الكونية، التى تشهد كل واحدة منها، على وجود إله قدير حكيم عالم و لَقَدْ جَعَلْنَا أى خلقنا و أبدعنا فى السَّمَاءِ بُرُوجًا جمع برج، و أصله الظهور، و منه يسمى شرفه الحصن برجا، لأنه ظاهر منه من بعيد، وسمى بروج السماء بروجها، لظهورها قال الصادق عليه السلام: اثني عشر برجا «١».

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ١١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٠

[سورة الحجر (١٥): آية ١٧]

وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧)

أقول: لقد قسموا السماء إلى اثني عشر قسما يسمى كل قسم برجا و يميز بين البرج و البرج بالكواكب الموجودة فى كل واحد منها. و البروج هى: «حمل» و «ثور» و «جوزاء» و «سرطان» و «أسد» و «سنبله» و «ميزان» و «عقرب» و «قوس» و «جدى» و «دلو» و «حوت» ففى كل برج عدة كواكب لو ربطت بينها بخيوط لصارت بصورة هذه الأشياء و زَيَّنَّاهَا أى السماء لِلنَّاظِرِينَ الذين ينظرون إليها، و لو لم تكن فيها الكواكب لم تكن ذات زينة و جمال.

[١٨] وَ حَفِظْنَاهَا أى حفظنا السماء مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ أى مرجوم مرمى، و يوصف الشيطان بهذا الوصف لأنه يرمى باللعن، أو لأنه إذا حاول دخول السماء رجم بالشهب كما يرمى المجرم بالحجارة، فالسماء مع جمالها الظاهرى بالكواكب جميلة معنى بطهارتها عن دنس الشيطان و لوته، فلا منفذ للأبالسة فى السماء، و إنما محلها الأرض، و من أين تبدأ هذه السماء التى ليست محلا للأبالسة لم نعرفها بعد.

نعم دل العلم الحديث- كما يظهر من الأحاديث أيضا- أن محل الشياطين إنما هو الطبقة فوق الأرض بعد بضعة أذرع، و لذا كره تعلقه البنيان «١».

ثم أن الظاهر أن فى السماوات ملائكة مطهرون، لا يقترب منهم الشيطان بالسوسة، فعدم دخول الشيطان فى السماء، لأجل عدم

(١) أنظر كتاب على حافة الأثيرى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٨ الى ١٩]

إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَإِلَّا نَبْتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩)
اقترابه من أولئك الملائكة المنزهين عن المعاصى الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

[١٩] إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، وَالسَّرْقَةُ عِبَارَةٌ عَنْ أَخْذِ الشَّيْءِ خَفِيَةً، وَكَمَا أَنَّ مَنْ يَسْرِقُ الْمَالَ يَأْتِي إِلَيْهِ خَفِيَةً لئلا تراه العيون، كذلك الشيطان الذى يريد استراق المسموع - وهو المراد بالسمع - أى الكلمة التى تسمع و تدار فى عالم الملكوت، والاستثناء من «حفظناها» أى أن السماء محفوظة إلا من الشيطان السارق و كان هناك تدبّر أمور الأرض - كالبلاط الذى يدبّر فيه أمور المملكة - و الشياطين يريدون الاطلاع على ما يدبّر هناك، فيذهب بعضهم للعلم من الكلمات التى تدار بين الملائكة، لكن ذهابهم خفية، حتى يسرقوا بعض الكلمات، و لو سمع و استرق فأتبعه شهابٌ مُبِينٌ أى لحقته شعله نار ظاهرة لأهل الأرض، كما نرى من الشهب، لأجل طرده، الشهاب كما يراه الإنسان شعله من نار تتحرك مسافة ثم تنطفى و ما يقوله علماء الفلك من أن هذه الشهب أحجار ترمى من أعالي الجو، و تشتعل بالحركة، لا ينافى ما ذكر فإن سبب رميها - لو صح ما قالوا - إنما هو طرد الشياطين، و فى بعض الأحاديث أن الشياطين كانت تخترق السماوات حتى ولد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فمنع عن ذلك.

[٢٠] تلك هى السماء و نجومها و حفظها، و الشياطين الصاعدة إليها، و الشهب المنقضة منها، فلنعطف إلى الأرض و الأرض مَدَدْنَا أى بسطانها و جعلناها طويلة عريضة لتقبل السكن و سائر لوازم الإنسان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٢

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)
وَ أَلْقَيْنَا أى جعلنا فيها رَاسِيَهُ وَ هى الجبل، و إنما قال «رواسى» لأنها السبب فى اضطرابها فى الماء و عدم تفتتها كما ترسو السفينة فى الماء و تستقر و أنبتنا فيها أى فى الأرض مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ فى دقة و إحكام و تقدير، فالنبات ليس اعتباراً بحجمه و شكله و لونه و سائر مزاياه، بل كل ذلك بالوزن و التقدير، و ليس المراد بالوزن - معناه الخارجى - بل تشبيه بالموزون الذى ليس فيه زيادة و نقصان، يقال فلان شخص موزون، أى دقيق الصفات متساوى الجهات، لا زيادة فى حركاته و سكناته و لا نقصان.

[٢١] وَ جَعَلْنَا لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِيهَا أى فى الأرض مَعَايِشَ جمع معيشة، و هى آلة العيش، و البقاء من مأكّل و مشرب و مسكن و ملبس و غيرها وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ عطف على لكم، أى جعلنا لكم الرزق كما جعلنا للعبيد و البهائم الرزق، و إنهم ممن نرزقهم، لا أنتم ترزقونهم، فإن الإنسان يظن أنه يرزق من تحت يده، و هو خطأ بل الإنسان أضعف الأسباب بين ألوف الأسباب التى هى المؤدية للرزق إلى الحي، أو المراد أن من ليس تحت يده من الطيور المحلقة فى الهواء، و الأسماك السابحة فى الماء و الحيوانات السارحة فى الغبراء، كلها نرزقها نحن.

[٢٢] و بمناسبة الحديث عن الرزق، فليعلم البشر أنه ليس برزاق، و لا من عنده أسباب البقاء بل و إن مِنْ شَيْءٍ أى ما من شىء من الرزق و غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٣

[سورة الحجر (١٥): آية ٢٢]

وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)

الرزق إلّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ فهى تخرج من خزائن الله سبحانه، و ذلك تشبيه بالخزينه التى يدخر فيها الملوك النقود و المجوهرات يعنى

أن مصدره منا وإنا نحن نعطيه وما نُنزِّلُهُ أى نُزِّلَ ذلك الشيء، و التزليل هنا بمعنى الإتيان من جانب إله رفيع، فإنه قد يستعمل في الرفعة الحسية، نحو نزلت من السطح، وقد يستعمل في الرفعة الحقيقية، نحو نزلت من عند الملك- كما تقدم سابقا-
إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ حسب المصلحة، فليس ما يشاهده الإنسان من النبات الكثير في الصحراء الكبيرة والمياه الزاخرة في الأنهار التي تصب في البحار، والحشرات الكثيرة في الأرض- إلى غيرها- بلا قدر و تعداد و ميزان، بل كلها بقدر معلوم لدى الباري سبحانه، وقد خلق الله سبحانه هذا الكون وهو الذي يديره، فالشمس والماء وأملاح الأرض والهواء تولد النبات، وليس النبات إلا مركبا من هذه الأشياء، وإنما يجمع بينها ويعطى صورة النبات، ثم يهيج ويفنى برجوع كل جزء إلى أصله، وهكذا دواليك تجمع وتفترق، فالشمس من الخزائن، والماء من الخزائن، وهكذا.. وقد حصر القدماء هذه الخزائن الأولوية في أربعة «الماء» و «النار» و «التراب» و «الهواء» فسبحانه من إله عليم قدير.

[٢٣] و من تلك الخزائن: الرياح والماء، وإن شئت قلت من تلك الأشياء لا ينزلها الله سبحانه إلا بقدر معلوم وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ و هذا كيان لكيفية إنزال الأشياء و صنعها ليكون معيشة للبشر، و الرياح إنما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٤

تتولد- بقدرة الله سبحانه- من الهواء المخلوق حيث يمدد الحر و يقلصه البرد، فيأتي من هنا إلى هناك ليملاً الفراغ، فهي من إرادة الهواء، كما أن من إرادة الماء أن يصعد ماء البحر إلى الهواء ثم ينزل مطرا ثم يسيل عيوننا و أنهارا حتى ينتهي إلى البحر ليصب فيه، و هكذا، لواقح جمع لاقحة، أى تلقح السحاب بالمطر، فإن من المعلوم أن الرياح تأتي بالأقطار، و لذا فرع عليه سبحانه فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أى المطر، و يحتمل أن يراد تلقيح الهواء للأشجار، ثم إنزال الماء، ليأتي النبات بالثمر.

فَأَسْقِينَاكُمْوَهُ «الهاء» يعود إلى الماء- و الظاهر من هذا التفرع كون الاحتمال الأول هو المقصود- أى أسقيناكم ذلك الماء المنزل من السماء، و المراد من السماء جهة العلو و ما أُنْتَمَّ لَهُ أى للماء بِخَازِنِينَ فليست أنتم أحرزتموه في البحر أولا، ثم في أعماق الأرض ثانيا، ثم في العيون و الأنهار ثالثا، حتى توصلتم إليه و استعملتموه في حوائجكم، بل كل ذلك بفعله سبحانه و قدرته العظيمة، كما قال: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) «١» و قد يزعم بعض الناس أنه ما فائدة هذه الإدارة في الماء مع ما نرى أن الأنهار تصب في البحار كما كانت سابقا؟ و هذا جهل محض فهل أن الماء خلق للشرب أو سقى الحيوان و النبات فقط؟ إن من فوائد الأنهار تلطيف الأجواء و تجميل الأرض للناظرين، و هما

(١) الحجر: ٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُشْتَقِدِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

حاصلان، و إن لم يشرب أحد قطرة و لم ينتفع بالماء حيوان أو نبات.

[٢٤] و إذ تبين أن الأمور الكونية بيد الله سبحانه، فلنعطف، إلى لون آخر من الأمور، و هى الأحياء، فإن خزائن الحياة و الموت أيضا له سبحانه و إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ و إنا لا نعلم من الحياة و الموت إلا المظاهر أما المهية فلا يعلمها إلا الله سبحانه، و الأشياء كلها و إن كانت مجهولة الهوية حتى الماء و الهواء، لكن الحياة أعمض مهية، و أبعد عن الفهم حقيقة، و من زعم أن الطاقة أيضا تحت قدرة الإنسان فقد أخطأ، إذ الإنسان لا يأتي إلا لسبب واحد من عشرات الأسباب المتسلسلة لإيجاد هذا المسبب- أى الموت- و كون ما يأتي به الإنسان سببا- أيضا- بجعله سبحانه و نَحْنُ الْوَارِثُونَ الذين نرث الأرض و ما عليها بعد فناء الجميع [٢٥] و إذ كانت الحياة بيد

اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَا يَنْفَعُ أَنْ يَسْتَقْدِمَ أَحَدُ الْمَوْتِ أَوْ يَسْتَأْخِرَهُ، لِأَنَّهُ (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلُهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) «١» وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ تَقْدِيمَ مَوْتِهِمْ وَ تَعْجِيلَ أَجْلِهِمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ تَأْخِيرَ مَوْتِهِمْ عَنْ مَوْعِدِهِ الْمَقْرَرِ، فَالْمَوْتِ وَ الْحَيَاةِ بِيَدِنَا، وَ نَعْلَمُ مِنْ يَرِيدُ تَقْدِيمَ أَجَلِهِ أَوْ تَأْخِيرَهُ، وَ أَنْ الْحَشْرَ إِلَيْنَا. [٢٦] وَ إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ يَحْشُرُهُمُ الْحَشْرَ هُوَ الْجَمْعُ، أَيْ

(١) الحجر: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)

يَجْمَعُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ يَفْعَلُهَا حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ عَلِيمٌ بِكَيْفِيَةِ الْإِدَارَةِ وَ مَا يَصْدُرُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، فَكُلُّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ وَ عَمَلِهِ، وَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْرِيهِ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ.

[٢٧] ثم بعد تلك المقدمات العامة حول الكون و خلق السماء و الأرض و أن بيد الله كل شيء من حياة و موت و حشر، يأتي السياق لبيان قصة البشر الذي من أجله خلق الكون و الذي هو المقصود من إرسال الرسل و إنزال الكتب و بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و نزول القرآن وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ أَيْ الْبَشَرَ، وَ الْمُرَادُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ حَوَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صَلْصَالٍ أَيْ طِينٍ يَابَسَ يَسْمَعُ لَهُ عِنْدَ النَّقْرِ صَلْصَلَةٌ أَيْ صَوْتٌ مِنْ صَلَّ إِذَا صَوَّتَ مِنْ حَمَإٍ هُوَ جَمْعُ حَمَاءٍ وَ هُوَ الطِّينُ الْمَتَغَيَّرُ إِلَى السَّوَادِ مَسْنُونٌ مِنْ سَنَنْتَ الْمَاءَ بِمَعْنَى صَبَبْتَهُ، أَيْ مَصْبُوبٌ كَأَنَّهُ أَفْرَغَ حَتَّى صَارَ صَوْرَةً، فَإِنَّ طِينَ آدَمَ صَبَّ عَلَى شَكْلِهِ حَتَّى صَارَ صَلْصَالًا، فَالصلصال من الحمأ المصبوب.

[٢٨] وَ الْجَانَّ اسْمٌ لِأَبِي الشَّيَاطِينِ، عَلَى وَزْنِ «فَاعِلٍ» اسْمِ فَاعِلٍ مِنْ «جَن» بِمَعْنَى اسْتَرَّ وَ إِنَّمَا يُسَمَّى الشَّيْطَانُ جَانًّا، لِأَنَّهُ يَجْنُ وَ يَسْتَرُّ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَ الْمُرَادُ بِالشَّيَاطِينِ غَيْرُ الْمُرَادِ بِالْجَانِّ، فَهِيَ قِسْمَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْجَانُّ لِاسْتِتَارِهِمَا عَنِ الْأَبْصَارِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ أَيْ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ مِنْ نَارِ السَّمُومِ السَّمُومُ هِيَ الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَدْخُلُ الْمَسَامَ لِلطَّفْهِ وَ حَرَارَتِهَا، أَيْ أَنَّ الْجَانَ خَلَقَ قَبْلَ آدَمَ، مِنْ نَارِ بَهَذَا الْقِسْمِ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٧

[سورة الحجر (١٥): آية ٢٨]

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨)

لِفَائِدَةِ التَّنَوُّعِ فَإِنَّ السَّمُومَ نَارٌ وَ رِيحٌ، وَ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا إِبْلِيسَ هِيَ هَذَا الْقِسْمُ مِنَ النَّارِ، لَا النَّارَ الْغَلِيظَةَ الْخَلِيظَةَ، رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: الْأَبَاءُ ثَلَاثَةٌ آدَمُ وَ لَدَّ مُؤْمِنًا وَ الْجَانُّ وَ لَدَّ مُؤْمِنًا وَ كَافِرًا وَ إِبْلِيسُ وَ لَدَّ كَافِرًا وَ لَيْسَ فِيهِمْ نِتَاجٌ إِنَّمَا بَيْضٌ وَ يَفْرَخُ وَ وَلَدُهُ ذَكَوْرٌ وَ لَيْسَ فِيهِمْ إِنَاثٌ

«١» وَ كَانَ الْمُرَادُ كَوْنِ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ الْإِيمَانَ لَمَّا أُوْدِعَ فِيهِ مِنْ فَطْرَةِ التَّوْحِيدِ.

[٢٩] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ أَيْ سَاخِلِقٌ، فَإِنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ يَأْتِي بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ بَشَرًا أَيْ هَذَا الْجِنْسُ، قِيلَ وَ سُمِّيَ الْإِنْسَانُ بَشَرًا، لِظُهُورِ بَشَرَتِهِ - أَيْ جِلْدِهِ - بِخِلَافِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ صَلْصَالٍ طِينٍ يَابَسَ مِنْ حَمَإٍ أَصْلُ ذَلِكَ الصَّلْصَالُ مِنْ طِينٍ مَائِلٍ إِلَى السَّوَادِ مَسْنُونٌ أَيْ مَصْبُوبٌ ذَلِكَ الصَّلْصَالُ، قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ: إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ كَرَّرَتْ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ أَوْلَا، ثُمَّ سُورَةُ الْأَعْرَافِ ثَانِيًا، ثُمَّ هُنَا ثَالِثًا، وَ نَقْطَةُ التَّرْكِيزِ مُخْتَلِفَةٌ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كَمَا أَنَّ الْأَسْلُوبَ وَ السُّوْقَ مُخْتَلِفَ، فَفِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ كَانَتْ نَقْطَةُ التَّرْكِيزِ اسْتِخْلَافَ آدَمَ فِي الْأَرْضِ، وَ فِي الْأَعْرَافِ رِحْلَةَ الْإِنْسَانِ الطَّوِيلَةَ مِنَ الْجَنَّةِ وَ إِلَيْهَا وَ إِبْرَازَ عِدَاوَةِ إِبْلِيسَ، وَ هُنَا سِرُّ التَّكْوِينِ فِي آدَمَ وَ سِرُّ الْهُدَى وَ الضَّلَالِ. أَقُولُ: وَ لَعَلَّ السَّرَّ فِي لَزُومِ التَّرْكِيزِ عَلَى مَبْدَأِ الْإِنْسَانِ لَثَلَا يَنْحَرِفُ النَّاسُ نَحْوَ آرَاءِ «دَارُونَ» وَ مِنْ إِلَيْهِ.

(١) الخصال: ج ١ ص ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)

[٣٠] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ أَي صَنَعْتَ هَذَا الْبَشَرَ، بَأَنْ أَمَمْتَ صَوْرَتَهُ وَقَالِبَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي الْإِضَافَةُ تَشْرِيفِيَّةٌ، أَي مِنَ الرُّوحِ الَّتِي هِيَ مِنْ قَبْلِي، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ، وَ لَكِنْ رُبَّمَا يُضَافُ شَيْءٌ إِلَيْهِ لِبَيَانِ شِرَافَتِهِ، كَمَا أَنَّ الْبُيُوتَ كُلَّهَا لَهُ، لَكِنْ يُضَافُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ إِلَيْهِ تَشْرِيفًا، كَمَا أَنَّ الْإِضَافَةَ فِي (وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) «١» كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا كَلِمَاتِ اللَّهِ، وَالنَّفْخُ هُوَ إِجْرَاءُ الرِّيحِ فِي الشَّيْءِ بِاعْتِمَادِهِ، وَ لَوْ كَانَ النَّفْخُ بِأَلَةٍ أَوْ ضَغْطِ الْهَوَاءِ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، فَفَعَعُوا الْفَاءَ عَاطِفَةً، وَ «فَعَعُوا» أَمْرٌ مِنْ وَقَعِ يَقَعُ، نَحْوُ «قَفَعُوا» لَهُ أَي لِأَدَمَ سَاجِدِينَ أَي وَقَعُوا بِهَيْئَةِ السُّجُودِ.

[٣١] وَضَعُ اللَّهِ آدَمَ، وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، حَتَّى جَاءَ دُورَ السُّجُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ وَ إِنَّمَا جِيءَ بِهَذَا التَّأْكِيدِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ لِأَمْرَيْنِ:

الأول: التأكيد على استيعاب الملائكة، فإن الذهن الأولي يستبعد أن الملائكة على كثرتها الخارجة من الفكر، واختلاف أعمالها، و تفرق جهاتها، تجتمع كلها للسجود فيظن أن العموم مجازي، و ذلك لا يرفعه حتى تأكيد واحد، ألا ترى إنك لو قلت استقبل الفقيه من في المدينة كلهم، لا يكاد يظن الإنسان إلا أن المراد ب «كل» الأغلب، لاستبعاد أن يستقبله كل من في المدينة من رجل و امرأة و مسلم و ذمي،

(١) النساء: ١٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٦٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣١ إلى ٣٣]

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)

إلى غير ذلك.

الثاني: التلميح إلى قبح عمل الشيطان، إذ لو لم يكن بعض الملائكة سجد، كان مخالفة الشيطان هينا، أما وقد وقع سجود الجميع، و بقي هو وحده مخالفا فالأمر من البشاعة بمكان.

[٣٢] إِلَّا إِبْلِيسَ مَعَ شَمُولِ الْأَمْرِ لَهُ، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّهُ أَبِي وَ أَمْتَعُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٣٣] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِإِبْلِيسَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ أَي أَيُّ شَيْءٍ لَكَ فِي عَدَمِ كَوْنِكَ مَعَ السَّاجِدِينَ؟ وَ عَلَى هَذَا فَالْجَارُ هُوَ «فِي» مَحذُوفٌ مِنَ «أَلَّا» وَ هُوَ شَائِعٌ مَطْرُودٌ، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

و الحذف في أن و إن يطرد مع امن لبس، كعجبت أن يدو

ثم أن سؤاله سبحانه لم يكن إلا لإظهار كبر إبليس و تمرده، و إلا فهو عالم بجهه عدم سجوده.

[٣٤] قَالَ إِبْلِيسُ فِي جَوَابِهِ سَبْحَانَهُ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ أَي لَيْسَ مِنْ شَأْنِي السُّجُودُ لِشَرِّ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ طِينٍ جَافٍ، كَانَ صَنَعَ مِنْ حَمَإٍ طِينٍ مَائِلٍ إِلَى الْغَبْرَةِ مَسْنُونٍ مُصْبُوبٍ، وَ ذَلِكَ لِأَنِّي مِنَ النَّارِ وَ النَّارُ أَشْرَفُ مِنَ التَّرَابِ فَكَيْفَ يَخْضَعُ الْأَشْرَفُ لِلْأَخْسَرِ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣٤ الى ٣٧]

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)

[٣٥] قَالَ اللهُ سبحانه لإبليس، واذ تكبرت وخالفت الأمر «١» فَاخْرُجْ مِنْهَا أَي مِنَ الْجَنَّةِ فَإِنَّكَ يَا إِبْلِيسَ رَجِيمٌ مطرود ملعون ترجم باللعن.

[٣٦] وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ يقال لعنه بمعنى طرده و عذبه أى إنك معذب مطرود من الخير إلى يَوْمِ الدِّينِ أى إلى يوم القيامة، فإن «الدين» بمعنى الجزاء، وكون الشيطان طريدا بمعنى أنه يمنع عن السماء، و يمنع عن اقتراب أماكن مقدسة و أشخاص ذاكرين كما ورد أن الإنسان إذا بسمل طردت الملائكة الشياطين عنه إلى غير ذلك، و لفظه «عليك» لإفاده معنى الضرر، و تقديمه على «اللعنة» لأن الكلام حول الشيطان، و قد تقرر فى البلاغة البدء بما سيق الكلام له، فإذا أردت تعداد الشعراء - مثلا - تقول: الشاعر زيد و خالد، و إذا أردت تعداد فضائل زيد تقول: زيد شاعر و كاتب.

[٣٧] قَالَ الشيطان لما رأى ما ناله من الخزي يا رَبِّ فَأَنْظِرْنِي أَي أمهلنى فى الدنيا، و لا تمتنى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أى يوم القيامة الذى فيه يبعث و يحيى الخلائق، لعله أراد بذلك أن لا يذوق الموت أصلا حيث أن يوم القيامة لا موت بعده.

[٣٨] قَالَ اللهُ سبحانه فى جوابه فَإِنَّكَ يَا إِبْلِيسَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

(١) لا أريد بمثل هذا التفسير إلا تفسير الحالة و المستفاد من اللفظ، لا العبارة و الدقة، حتى تكون النسبة و ما أشبهها كذبا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)

لا يلزم هذا أن يكون هناك عدة أشخاص منظرين يكون إبليس أحدهم، و ذلك لأن الإتيان بالجمع من أبواب البلاغة، كأن المراد أن هذا من ذلك الجنس و إن لم يكن فى الخارج منه إلا واحد، و لذا جرت العادة أن يقول الإنسان: قال المفسرون، أو كذا يقول الحكماء، أو وجدت فى كتاب الفقهاء، و هو يريد أن هذا الكلام صادر من ذلك الجنس، إلا أن جماعة منهم قالوا: أو يقال أن الملائكة منظرون فإبليس منظر كأحدهم.

[٣٩] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ

الوقت المعلوم هو بين النفختين - كما ورد عن الصادق عليه السلام

«١» - فالمعنى إنك تبقى إلى ذلك اليوم.

[٤٠] و لما عرف إبليس بأنه منظر إلى ذلك الوقت قال يا رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي أى بسبب إغوائك لى و الإغواء هو الدعاء إلى الغى و الضلال، يقال له الإغواء إذا أثر و صار المدعو ضالا منحرفا، و قد كان إبليس كاذبا فى مقاله، فإن الله سبحانه لم يغوه، و إنما هو تكبر و حسد مما سبب طرده، بينما أراد الله سبحانه كرامته بأمره بالسجود، إلا أن يريد بالإغواء تهيئة الأسباب التى تؤدى إلى ذلك، مجازا، نحو و من يضل الله، أو عدم اللطف القاهر به حتى لا - ينحرف لِمَأْرَبَتَيْنِ المعاصى لَهُمْ أى لأبناء آدم - المعلوم من السياق - و ذكر فوائدها، و إغفالهم عن مضارها حتى يرتكبوها، و أكون قد أخذت انتقامى بذلك من آدم الذى صار سببا لطردي فى الأَرْضِ أى يقع التزيين منى فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٢

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٠ الى ٤٢]

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)

الأرض وَاغْوَيْتَهُمْ أَجْمَعِينَ أضلهم و أحرفهم عن طريق الصواب، و كان هذا من إبليس غلطا آخر إذ لو فرض أن آدم هو السبب فما ذنب ذريته؟

[٤١] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ أى من أولاد آدم الْمُخْلَصِينَ بفتح اللام اسم مفعول أى الذين أخلصتهم لطاعتك و طهرتهم عن الآثام، فإنهم لا يعمل كيدى فيهم.

[٤٢] قَالَ اللهُ سبحانه فى جواب إبليس هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ أى أن صراط الحق عَلَيَّ أن أراعيه، فإن إبليس لما قال أنه يغوى الناس إلا المخلصين، فهم منه أن هناك صراط من تعاده كان غاويا، فقال سبحانه عَلَيَّ أن أراعى هذا الصراط و هو مُسْتَقِيمٌ لا انحراف فيه، أما من انحرف فلا أبالى به، و هذا كما لو قال أحد لمدير مدرسة: إني أغوى تلاميذك عن تحضير الدرس، فيقول: «هذه المدرسة عَلَيَّ، أما من أغوى فليس عَلَيَّ شىء منه، و الطلاب الأذكياء يتبعون المنهاج» و الفقرة الأخيرة مثل قوله سبحانه.

[٤٣] إِنَّ عِبَادِي الْحَقِيقِينَ لَيْسَ لَكَ يَا إِبْلِيسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ أَى سلطه و قدره حتى تحرفهم و تغويهم إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ الاستثناء منقطع، و كأن الأصل «إن الناس لا تتسلط عليهم» «إلا من غوى» «أما العباد فلا تقدر عليهم».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٣

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٣ الى ٤٦]

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦)

[٤٤] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أى محل وعد إبليس و أتباعه الغاوين، فإن «موعد» اسم مكان من وعد أَجْمَعِينَ هناك يجتمعون جميعا جزاء لأعمالهم السيئة.

[٤٥] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ أى أن لجهنم أبواب سبعة لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ أى قسم من الغاوين مَقْسُومٌ و كان الغاوين اعتبروا وحدة واحدة، فلكل باب جزء يدخل منه إليها، و لعل اختلافهم بسبب اختلاف أعمالهم، كما أنه ورد فى أبواب الجنة الثمانية ذلك.

[٤٦] و بمناسبة الحديث عن أهل النيران يعطف السياق إلى أهل الجنان إِنَّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَ اللَّهِ سبحانه، و لم يكن للشيطان عليهم سلطان فى جَنَّاتٍ جمع جنه بمعنى البستان و عُيُونٍ أى بين العيون، أو المراد إنهم يسبحون فيها فالظرف حقيقى.

[٤٧] و كان المشهد حاضر، إذ نرى المتقين فى ساحة المحشر يقال لهم ادْخُلُوهَا أى الجنات بِسَلَامٍ أى ادخلوها مع سلامة من الآفات و برائة من المضرات آمِينَ فى حال كونهم آمنون على أنفسكم و جميع ما يتعلق بكم تبقون فى الجنان أبدا فى سعادة و رفاه، و لعل تقديم «فى جنات» على «ادخلوها» لقصد سرعة المقابلة بين «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ» و «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ» ثم ذكر التفصيل هناك بقوله:

«لكل باب» و هنا بقوله: «ادخلوها».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٤

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) تَبَّىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)

[٤٨] و أهل الجنة بالإضافة إلى النعم التي تحيط بهم، فهم في نعمة نفسية، فليس هنالك حسد و غل و حقد يقلق راحتهم و ينغص عيشهم و نزعنا ما في صدورهم و إنما قال صدورهم، لأن القلب في الصدر من غل أي الحقد و الحسد و التنافس و التباغض في حال كونهم إخواناً متجاورين فيصنفوا عيشهم و لا يكدر سعادتهم منغص خارجي أو غل داخلي كاثنين على سُرر جمع سرير، و هو الكرسي و يسمى سريراً لأنه محل السرور و الفرح مُتقابلين بعضهم لبعض، و هذا من النعم فإن الإنسان يأنس بأخيه الإنسان.

[٤٩] لا- يَمْسُهُمْ و إنما جاء بلفظ المس لإفادة أن أقل أذى يحصل بالمس، لا يكون هناك فيها أي في الجنة نَصَب أي عناد و تعب، فهناك دار راحة و استراحة، و ما هم منها أي من الجنة بِمُخْرَجِينَ لا يخرجهم أحد بل باقون أبد الأبدين، و هذا من أعظم النعم.

[٥٠] و بمناسبة ذكر مصير المتقين و مصير الغاوين يأتي السياق ليذكر الناس برحمة الله و عذابه حتى ينقلع عن المعاصي من اشتاقت نفسه لتلك النعم الدائمة، و تتم الحجّة على من تمادى في غيّه بعد هذا الإعلان تبيّ يا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أي أخبر، فعل أمر من النبأ بمعنى الخبر عبادي عام يشمل كل إنسان أني أنا العفور الرحيم أغفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَ تَبَّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذِ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) للعاصين ذنوبهم إذا تابوا و أرحم بالفضل على من سلك السبيل، و ذلك زيادة على الغفران.

[٥١] و أَنَّ عَذَابِي للعاصين هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ المؤلم الموجه فليجتنبوها حتى لا يمسه.

[٥٢] ثم يأتي السياق لبيان نماذج من الرحمة و الغفران، و نماذج من العذاب و العقاب، مع مناسبة لما تقدم في أول السورة حيث طلب الكفار من الرسول إنزال الملائكة، فأجابهم بأن الملائكة لو نزلت ما كان الكفار منظرين، كما أنه لما جاءت الملائكة لوطا عليه السلام لم ينظر القوم بعد بل أهلكوا.

و تكرار هذه القصة كتكرار سائر القصص فيها فائدة التكرير الموجب لتركيز الأمر في النفس، و إن في كل مرة يظهر جانب خاص من القصة، و مزايا زائده مختلفة عن السابق، بالإضافة إلى تأكيد أمر الإعجاز، فإن قصة واحدة تصب في قوالب مختلفة و مع ذلك لا يتمكن أن يأتي بمثلها الكفار- و قد تقدم الإلماع إلى ذلك- وَ تَبَّئَهُمْ أي أخبر الكفار- أو أخبر الناس- عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ و الضيف لفظ يستعمل للمفرد و الشية و الجمع بلفظ واحد، و المراد بهم الملائكة الذين نزلوا عند إبراهيم عليه السلام ليشرّوه بإسحاق، في طريقهم لإهلاك قوم لوط عليه السلام.

[٥٣] إِذِ دَخَلُوا عَلَيْهِ أي وقت دخل الضيوف على إبراهيم في محله فقالوا له سلاماً إماً جاءوا بهذا اللفظ مجرداً، و إما هو كناية عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تُكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ (٥٥)

إنهم سلموا عليه سلاماً كاملاً- كأن قالوا «سلام عليكم» و أجاب إبراهيم جوابهم و جاء إليهم بالطعام فلم يأكلوا، فخاف منهم ف قال لهم إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ أي خائفون، و ذلك لأنه رآهم لا يأكلون الطعام، فظن أنهم أرادوا به شراً، إذ العادة جرت إن من لا يأكل الطعام يريد الشر.

[٥٤] قَالُوا أي قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام لا تَوْجَلْ أي لا تخف إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ بولد يرزقك الله من سارة عَلِيمٍ عالم ليس من الجهلاء، و قد كان المراد إسحاق النبي عليه السلام.

[٥٥] قَالَ إبراهيم عليه السلام أَ بَشَّرْتُمُونِي بالمولود عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ أي و أنا على حال الكبر، و الاستفهام إنكارى أي كيف

تبشرونى بالولد و الحال أنا كبير السن، و مقتضى العادة أن الرجل الكبير لا يولد له لضعف المنى فيه أن يكون منشأ ولد؟ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ أى بماذا تبشرون؟ هل تبشرون بما لا يكون؟ و أصل «بم» «بما» و من القاعدة أن تحذف الألف من «ما» إذا دخله حرف الجر، نحو «عم» و «فيم» و غيرها.

[٥٦] قالوا أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فبشارتنا مطابقتها للواقع حتى لا بطلان فيها فلا تُكُنْ يا إبراهيم مِنَ الْقَانِطِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٧

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

قَالَ وَ مَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)

الذين يقنطون من رحمة الله، و القنوط هو اليأس.

[٥٧] قال إبراهيم عليه السلام، كلا لا أقنط من رحمة الله و مَنْ ذا الذى يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ استفهام إنكارى أى هل يقنط من رحمة ربه إلا-الذى ضل عن الطريق السوى؟ لكنى لم أك قانطا، بل رأيت أن المجرى الطبيعى عدم الولد فى زمن الكبير، مع إذعانى بقدرة الله سبحانه على أن يفعل ما يشاء.

[٥٨] و قد صرحت الملائكة لإبراهيم فى أثناء كلامهم أنهم رسل من قبل الله سبحانه، و طالت القصة فى أمر البشارة بالولد، و لكن حيث كان مصب القصة هنا عذاب قوم لوط أسدل القرآن الستار على أمر إبراهيم عليه السلام ليأتى بقصة قوم لوط قال إبراهيم عليه السلام للملائكة فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ الخطب هو الأمر الجليل العظيم، فقد سأل إبراهيم عن مأموريه الملائكة، و إنها ما هى؟ فقد أرسل الله تلك الملائكة لأمر مهم.

[٥٩] قالوا أى قالت الملائكة إِنَّا أُرْسِلْنَا أُرْسِلْنَا اللهُ سبحانه إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ الاجرام هو الذنب، و معنى الإرسال إليهم هو إهلاكهم.

[٦٠] إِلَّا آلَ لُوطٍ من يخصه من أهله، فإنهم ناجون فلا يشملهم العذاب، و قد سبق أنه كثيرا ما يقال «آل فلان» و يراد: هو و آله إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ فلا يهلك منهم أحد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٠ الى ٦٣]

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)

[٦١] إِلَّا امْرَأَتَهُ أى امرأة لوط لأنها كانت مجرمة كسائر قومه قَدَرْنَا أى هكذا جرى تقدير الله سبحانه إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ أى الباقين فى البلدة لتهلك فيمن يهلك.

[٦٢] و طال الحوار بين إبراهيم عليه السلام و بين الملائكة فى شأن هلاك قوم لوط، ثم أن الملائكة خرجوا من عند إبراهيم و جاءوا إلى لوط ليبشروه بهلاك القوم فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ أى الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه، و إنما قال «آل لوط» لأنهم وردوا فى محله، و لتناسب السياق مع الجملة السابقة، حيث عبرت بآل لوط.

[٦٣] لم يعرفهم لوط عليه السلام ابتداء و انما رأى جماعة من الشباب الجميلى الوجه قال لوط عليه السلام لهم إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أى لا أعرفكم فعرفونى أنفسكم، أو أنه أراد الإنكار عليهم فى دخولهم هذه المدينة، فان ذلك مما يسبب لهم و له الأتعاب حيث ظن أنه لو علم القوم بهم لأتوهم للفاحشة، و لم يعرف أنهم ملائكة الله سبحانه.

[٦٤] قَالُوا لَا تَكْرَنَّا، فإنا ملائكة الله سبحانه بَلْ جِنَّاتِكُمْ كَأَنَّ الْإِضْرَابَ كَانَ لَتْوَهُمْ لوط أنهم ضيوف، أى لسنا ضيوفا آدميين، بل رسل

مهلكين جنناك بما أى بالعذاب الذى كأنوا كان القوم فيه يَمْتَرُونَ أى كانوا يشكون، فإنهم كلما كان لوط يخوفهم بالعذاب شكوا فى صدق مقاله فى أنفسهم و أظهروا الإنكار عليه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٧٩

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)

[٦٥] وَ أَتَيْنَاكَ أى جننا إليك يا لوط بِالْحَقِّ أى أن الإتيان بالحق، مقابل الإتيان بالباطل كالسارق الذى يكون مجيئه باطلا، أو أن المراد جننا الحق إليك و هو العذاب، مقابل الذى يأتى الباطل كالكاذب الذى يأتى بباطل الكلام وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ فى مقالنا أن الله قدر العذاب لهؤلاء.

[٦٦] فَاسْرِ من سر بمعنى سار ليلا، قال الشاعر:

أبيت أسرى و تبتى تدلكى وجهك بالعنبر و المسك الزكى
بأهلك أى مع أهلك، فإن الباء تأتى بمعنى مع بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ أى بهذا الوقت، و هو حين ما يمضى معظم الليل، و كأنه جمع قطعة، مثل تمره و تمر وَ اتَّبِعْ يا لوط أذْبَارَهُمْ أى من وراء أهلك فهم يسرون أمامك، لثلا يبقى أحد منهم، كما هو العادة فى الناظر على القوم وَ لَا- يَلْتَفِتْ أى لا- ينظر خلفه فى حال السير و الفرار مِنْكُمْ أَحَدٌ لثلا- يروا العذاب فيفرغوا، أو هو كما يقول القائل «امض فى طريقك و لا تلتفت إلى شىء» يريد المضى بلا اعتناء بشىء وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أى فى وقت أمرنا بذهابكم، أو إلى المكان الذى أمرتم بالذهاب إليه.

[٦٧] وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ أى أعلمنا لوطا، و أنهينا علم قضائنا فى القوم إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزَوْنَ (٦٩)

لوط، و ما كان القضاء؟ ذَلِكَ الْأَمْرَ و هو أنه أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ القوم، و الدابر بمعنى الأصل، أى أصل القوم مَقْطُوعٌ فى حال كونهم مُصْبِحِينَ أى داخلين وقت الصباح، فإن الفجر كان موعد عذابهم.

[٦٨] و قد كان الملائكة فى مرأى من قوم لوط، و لذا قصدوا بهم الفاحشه وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إلى دار لوط يَسْتَبْشِرُونَ يبشر بعضهم بعضا بالأضياف المرد و قد كان هذا قبل أن يعرف لوط أنهم ملائكة- و إنما قَدَّمَ قصه إخبارهم عن عذاب القوم على هذه الآيات، حيث أن نقطة التركيز فى القصة كسائر قصص هذه السورة عذاب المجرمين كما ذكرنا سابقا.

[٦٩] قَالَ لوط عليه السلام لهم مستعظفاً إِنَّ هُوْلَاءِ الشَّبَابِ ضَيْفَى الضيف يقع بلفظ واحد على المفرد و التثنية و الجمع فَلَا تَفْضَحُونِ أى لا تفضحونى فى أمرهم، و الفضيحة هى العار، أى لا تلمونى عارا بالعمل السيئ معهم حتى يقولوا و يقول الناس فى المستقبل أن لوطا، يفعل القوم بضيوفه.

[٧٠] وَ اتَّقُوا اللَّهَ أى خافوا عقابه فلا تفعلوا ما نهاكم عنه وَ لَا تُخْزَوْنَ أى لا تجعلونى مخزيا، فإن الخزى بمعنى الإذلال و الإهانة، فإن الإنسان إذا أهين ضيفه فقد أذل و أهين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٠ الى ٧٣]

قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ

الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)

[٧١] قَالُوا أَى قَالَ الْقَوْمُ فِى جَوَابِ لُوطٍ أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ

استفهام إنكارى، أى إننا قد نهيناك أن تحول بيننا وبين الناس، أو المراد النهى عن ضيافة الناس و إنزالهم، فقد كانوا نهوه سابقا عن ذلك، لئلا يولد لهم مشكلة الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون بالنسبة إلى المارة.

[٧٢] قَالَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَتَوَسِّلًا إِلَيْهِمْ، مَشِيرًا إِلَى بَنَاتِهِ هُوَ لِأَنَّ بَنَاتِي خَذَوْنَهُنَّ عَوَضَ هُوَ لِأَنَّ الْأَضْيَافَ وَاعْتَدُوا عَلَيْهِنَّ، لِقَضَاءِ شَهْوَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ أَى تَرِيدُونَ الْفِعْلَ، فَقَدْ سَبَقَ أَنَّ الْفِعْلَ يَأْتِ بِمَعْنَى الْإِرَادَةِ، كَقَوْلِهِ «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» أَى أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ إِلَيْهَا.

[٧٣] ثُمَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَزَّفُوا لِلُوطٍ أَنْفُسَهُمْ، وَأَشَارُوا إِلَى الْقَوْمِ الْمُتَجَمِّهِينَ عَلَى بَابِ دَارِ لُوطٍ فَعَمِيَتْ أَعْيُنُ الْقَوْمِ، وَأَلْقَى الرَّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَرَجَعُوا خَائِبِينَ، وَقَدْ حَسَّوْا بِنَزُولِ الْعَذَابِ لَعَمْرُكَ أَى قَسَمَا بِحَيَاتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا السَّمَاعُ، وَإِنَّمَا كَانَ «عَمْرًا» بِمَعْنَى الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُ مِنْ «عَمَرَ يَعْمُرُ» بِمَعْنَى مَدَّةِ الْبَقَاءِ وَالْعَيْشِ، وَمِنْهُ الْعِمَارَةُ، كَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْمُورٌ مَا دَامَ حَيًّا فَإِذَا مَاتَ فَقَدْ خَرِبَ وَانْهَدَمَ إِنْهُمْ أَى الْقَوْمُ لَفِي سَكْرَتِهِمْ أَى الْغَفْلَةُ الَّتِي سَكَّرَتْ وَغَطَّتْ عُقُولَهُمْ، وَمِنْهُ السُّكْرُ يَعْمَهُونَ مِنَ الْعَمَةِ وَهُوَ أَشَدُّ الْعَمَى، أَى قَدْ كَانُوا فِي أَشَدِّ أَقْسَامِ الْعَمَى الْمَوْجِبِ لِتَرْدِيهِمْ فِي عَذَابِ اللَّهِ دُنْيَا وَآخِرَةً.

[٧٤] وَقَدْ فَزَّ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَهْلِهِ مَخْلِفًا أَمْرَاتِهِ فِي الْمَدِينَةِ فَأَخَذَتْهُمْ أَى الْقَوْمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٢

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٤ إلى ٧٦]

فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مُقِيمٌ (٧٦) الصَّيْحَةُ الصَّوْتُ الْهَائِلُ مُشْرِقِينَ وَقْتَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ فَقَدْ قَلَعَ جَبْرَائِيلُ - وَهُوَ أَحَدُ أَضْيَافِ لُوطٍ - مَدَنَهُمْ وَدَفَعَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ صَاحَ بِهِمْ صَيْحَةً عَظِيمَةً خَبَلَتْ أَلْبَابَهُمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحَصْبَاءَ فَرَجَمَهُمْ بِالْحِجَارَةِ، وَقَلَعَ جَبْرَائِيلُ مَدَنَهُمْ حَتَّى جَعَلَ أَعْلَى الْأَرْضِ أَسْفَلَهُ وَظَهَرَهَا بَطْنَهَا.

[٧٥] فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا أَى عَالِي الْمَدِينَةِ سَافِلَهَا بِأَنَّ قَلْبَهَا ظَهَرَ لِبَطْنِهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً أَى جِنْسَ الْحِجَارَةِ، وَهِيَ الْحَصْبَاءُ مِنْ سِجِّيلٍ مِنْ طِينٍ مَتَحَجَّرَ، وَقَدْ كَانَتْ مِنْ حَصْبَاءِ جَهَنَّمَ.

[٧٦] إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِهْلَاقَ لَآيَاتٍ وَدَلَالَاتٍ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْنَا وَإِلَى رَسَلِنَا وَإِلَى عَذَابِ الدُّنْيَا لِمَنْ كَفَرَ وَطَغَى، فَإِنَّ الْإِهْلَاقَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَلِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ «لَآيَاتٍ» لِلْمُتَوَسِّمِينَ أَى الْمُتَفَرِّسِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي نَظَرِهِمْ حَتَّى يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الشَّيْءِ بِسَمْتِهِ وَعِلَامَتِهِ، مِنْ تَوْسَمٍ بِمَعْنَى رَأَى السَّمَةَ وَالْعِلَامَةَ فِي الطَّرْفِ الْمَقَابِلِ، أَيُّهُ سَمَةٌ كَانَتْ، فَإِنَّ مِنْ تَفَكُّرٍ فِي أَحْوَالِ قَوْمِ لُوطٍ ثَبَتَ لَدَيْهِ وَجُودُهُ سُبْحَانَهُ وَصَدَقَ رَسَلُهُ، وَإِنَّ الْعَاصِيَ يَعْذَبُ.

[٧٧] وَإِنَّهَا أَى تِلْكَ الْمَدِينِ الَّتِي قَلَبْتَ لَبْسِيلًا أَى بِطَرِيقِ مُقِيمٍ أَى ثَابِتٍ ذَلِكَ السَّبِيلِ يَسْلُكُهُ النَّاسُ، فَقَدْ صَارَتْ تِلْكَ الْمَدِينِ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، وَقَوْلُهُ مُقِيمٍ مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ، فَكَمَا أَنَّ الشَّخْصَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٣

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٧٧ إلى ٧٩]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩)

المقيم في محل باق ظاهر، كذلك الطريق المقيم باق لم يندثر ظاهر لمن مر به.

[٧٨] إِنَّ فِي ذَلِكَ الطَّرِيقَ الْبَاقِيَ الْمَعْلُومَ الَّذِي يَرَاهُ كُلُّ مَنْ مَرَّ عَلَيْهِ لَآيَةً دَلَالَةً عَلَى وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَصَدَقَ رَسَلُهُ وَعَذَابُ الْعَصَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا خَصَّصَهُمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ أَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَا يَمُرُّ عَلَيْهَا إِلَّا وَهُوَ مَعْرُضٌ غَيْرٌ مُنْتَفِعٌ بِهَا.

[٧٩] وَإِذْ يَقَعُ الْفَرَاغُ مِنْ قِصَّةِ قَوْمِ لُوطٍ، فَلِنَظَرِ إِلَى سَائِرِ الْأُمَّمِ الَّذِينَ كَذَبُوا الرِّسْلَ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ قَوْمِ شُعَيْبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ

إِنْ كَانَ أَى أَنه كَانَ، فَإِن مَخْفَفُهُ مِنَ المَثْقَلَةِ، وَ اسْمَهَا ضَمِير الشَّانِ مَحذُوفٌ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الشَّجْرَةُ المَتَكَاثِفَةُ، وَ جَمْعُهَا «أَيْكٌ» مِثْلُ شَجْرَةٍ وَ شَجَرٍ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ شَجْرَةٌ مَلْتَفَةٌ عِنْدَ «مَدِينٍ» مَدِينَةُ قَوْمِ شَعِيبٍ، نَسَبِ القَوْمِ إِلَيْهَا، أَوْ الأَيْكَةُ هِيَ الغَيْضَةُ فَقَدْ كَانَ القَوْمُ أَصْحَابَ غِيَاضٍ لظَالِمِينَ كَمَا مَرَّتْ قِصَّتُهُمْ سَابِقًا.

[٨٠] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ أَى مِنَ أَوْلَئِكَ الأَشْخَاصِ، وَ المَرَادُ بِالانْتِقَامِ إِحْلَالُ العَذَابِ بِهِمْ جِزَاءَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ قَالَ فِي المَجْمَعِ: إِنَّه كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لظَالِمِينَ فِي تَكْذِيبِ رُسُولِهِمْ وَ كَانُوا أَصْحَابَ غِيَاضٍ فَعَاقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالحَرِّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ أَنشَأَ سَبْحَانَهُ غَمَامَةً فَاسْتَظَلُّوا بِهَا يَلْتَمِسُونَ الرُّوحَ فِيهَا فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا أَرْسَلَ مِنْهَا صَاعِقَةً فَأَحْرَقَتْهُمْ جَمِيعًا «١»

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ١٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٤

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٠ إلى ٨١]

وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ (٨٠) وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١)

وَ إِنَّهُمَا أَى مَدِينَةُ لُوطٍ وَ مَدِينَةُ شَعِيبٍ لِيَامَامِ أَى وَاقِعٍ فِي الطَّرِيقِ، وَ يُسَمَّى الطَّرِيقُ إِمامًا لِأَنَّهُ يَوْمٌ وَ يَقْصَدُ، وَ المَعْنَى أَنَّ المَدِينَتَيْنِ بِطَرِيقِ يَوْمٍ وَ يَتَّبِعُ وَ يَسْلُكُ بَيْنَ الحِجَازِ وَ الشَّامِ مُبِينٍ وَاضِحٍ لَمْ يَنْدَثِرْ بَعْدُ، وَ كَوْنِ الأَثَارِ فِي الطَّرِيقِ أَدْعَى إِلَى الإِعْتِبَارِ.

[٨١] وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ «الحجر» اسْمَ مَدِينَةٍ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ هُمُ الثَّمُودُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) «١» المُرْسَلِينَ الأنبياء الذين أرسلوا من قبل الله سبحانه، و إنما أتى بلفظ الجمع، إما لأن في تكذيب صالح تكذيباً للأنبياء لأنهم سلسلته واحدة فمن كذب بعضهم فقد كذب جميعهم، أو لأنه قد أرسل إليهم عدة أنبياء عليهم السلام فكذبوا الجميع، و إنما ذكر سبحانه صالحاً فقط في قصصهم لأنه آخر الأنبياء عليهم السلام إليهم، أو الإتيان بلفظ الجمع - لما تقدم سابقاً - من أن المراد به الجنس، كما يقول أحدنا، هكذا رأى الأطباء في هذا المريض، يريد الجنس لا - الجمع، أي أن هذا الفصيل هكذا، و هو كثير الاستعمال عرفاً.

[٨٢] وَ آتَيْنَاهُمْ أَى أَعْطَيْنَا أَصْحَابَ الحِجْرِ آيَاتِنَا أَى الأَدْلَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ وَ المَعَادِ، وَ هِيَ المَعْجَزَاتُ الَّتِي كَانَ مِنْهَا النَّاظِقَةُ وَ مِنْهَا فَصِيلُهَا فَكَانُوا عَنْهَا أَى عَنِ الآيَاتِ مُعْرِضِينَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهَا وَ الاسْتِدْلَالَ بِهَا عَلَى المَبْدَأِ وَ المَعَادِ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الآيَاتُ مِنَ الإِطَاعَةِ وَ الإِيمَانِ.

(١) الأعراف: ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٥

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٢ إلى ٨٥]

وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَآخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُضِيِّينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ (٨٥)

[٨٣] وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا فَقَدْ كَانَ بِلَدِّهِمْ بَيْنَ الجِبَالِ، فَيَصْنَعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بُيُوتًا جَبَلِيَّةً، بِمَا أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ القُوَّةِ وَ القُدْرَةِ آمِنِينَ فِي حَيَاتِهِمْ لا - يزعجهم مزعج، و الأشخاص الذين في الجبال غالباً يكونون أكثر قوة و أمناً للحواجز الطبيعية بينهم و بين من قصد بهم سوءاً، و لعل الإتيان بهذه الصفة، دلالة على أنهم مع قوتهم و منعتهم أخذهم عذاب الله حيث طغوا و لم يؤمنوا.

[٨٤] فَآخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ صَاحَ بِهِمْ جَبْرَائِيلُ صَيْحَةً هَائِلَةً خَبِلَتْ أَلْبَابُهُمْ مُضِيِّينَ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاحِ، فِي وَقْتِ هَدُوءِ وَ اسْتِرَاحَةٍ وَ جَمَالِ الأَفَقِ وَ هُمُ أَمْنَاءُ فِي بُيُوتِهِمُ الحَصِينَةَ.

[٨٥] فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ أَيُّ مَا أَفَادَهُمْ مَا كَانُوا يَكْتَسِبُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَنَاصِبِ وَالْأَوْلَادِ وَسَائِرِ الْمَلَازِ الدُّنْيَوِيَّةِ، إِنَّهَا لَمْ تَدْفَعِ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، وَهَكَذَا قَتَلَتِ الْأُمَّةَ الْأُمَّةَ فِي الْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَكَذَا أَخَذَ اللَّهُ الْجَمِيعَ وَأَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

[٨٦] إِنَّ بِالْحَقِّ خَلَقَ هَذَا الْوُجُودَ بِسَمَائِهِ وَأَرْضِهِ، وَالْحَقُّ هُوَ مُصِيرُ الْجَمِيعِ، فَمَنْ حَادَ عَنِ الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا يَكُونُ نَصِيبُهُ إِلَّا الْعَذَابَ وَالْخَسْرَانَ كَمَا رَأَيْنَا فِي الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ كَذَبُوا وَحَادُوا عَنِ الطَّرِيقِ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ إِلَّا بِالْحَقِّ فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ لِعُثْبِ بَلْ غَرَضٌ وَغَايَةٌ وَصَلَاحٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٦

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٦ إلى ٨٧]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)

و حِكْمَةٌ وَإِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَجَازِي فِيهَا الْإِنْسَانُ إِنْ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا لَأْتِيَةٌ لِيُحْكَمَ فِيهَا بِالْحَقِّ، فَمَا بَالُ الْإِنْسَانِ يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ وَ يَكْفُرُ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ؟ فَاصْفَحْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أَيُّ أَعْرَضَ عَنِ الْكُفَّارِ إِعْرَاضًا جَمِيلًا، وَالْإِعْرَاضَ الْجَمِيلَ هُوَ أَنْ يَكُونَ الْإِعْرَاضُ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ إِنْ اقْتَضَتِ الْإِعْرَاضُ بِخَشُونَةٍ فِي بَعْضٍ فَلْيَفْعَلْ كَذَلِكَ وَإِنْ اقْتَضَتِ الْإِعْرَاضُ بِلُطْفٍ وَلِينٍ فَلْيَفْعَلْ كَذَلِكَ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) «١» وَحَيْثُ أَنْ الْحَقُّ هُوَ الْمَبْدَأُ وَالْمَعَادُ، فَلَا عَلَيْكَ كُفْرَ الْكَافِرِينَ، إِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَبْلُغَ، فَإِذَا أَعْرَضُوا فَلَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتْرَكَهُمْ تَرَكًا جَمِيلًا، لَا تَحْمِلُ لَهُمْ حَقْدًا أَوْ غَلًّا، فَإِنَّ الْحَقَّ يَقَرُّ مُصِيرَهُمْ، وَسَيَلْقَوْنَ جَزَائِهِمْ مِمَّنْ خَلَقَهُمْ وَعَلَّمَ بِهِمْ وَأَعْمَلَهُمْ.

[٨٧] إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْخَلَّاقُ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَلَهُوَلَاءُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَبِكُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ هَؤُلَاءِ، فَدَعِهِمْ وَاصْفَحْ عَنْهُمْ حَتَّى يَجَازِيَهُمْ خَالِقُهُمُ الْعَالَمُ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ مَدِيرُ الْمَدْرَسَةِ لِلْمَعْلَمِ: أَنْتَ دَرَّسَ وَلَا عَلَيْكَ مِمَّنْ لَمْ يَحْفَظْ، فَإِنَّ بَانِي الْمَدْرَسَةِ عَالِمٌ، وَهُوَ الَّذِي هَيَّأَ أَثَاثَ الْمَدْرَسَةِ وَبِيَدِهِ امْتِحَانُ الطَّلَابِ.

[٨٨] إِنَّكَ رَسُولُنَا الَّذِي أُرْسَلْنَا وَآتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ فَمَنْ كَذَبَكَ فَاصْفَحْ عَنْهُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ عِنْدَ الْخَلَّاقِ الْعَلِيمِ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ أَيُّ أَعْطَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

(١) الفرقان: ٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٧

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٨٨ إلى ٨٩]

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ سَبْعًا أَيُّ سَبْعِ آيَاتٍ مِنَ الْمَثَانِي وَهُوَ سُورَةُ الْحَمْدِ تَسْمَى «الْمَثَانِي» لِأَنَّهَا تُثْنِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَيُّ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ سَبْعَ آيَاتٍ مِنَ السُّورَةِ الَّتِي تُثْنِي فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا وَآتَيْنَاكَ سَائِرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَخْصِيصَ «الْمَثَانِي» بِالذِّكْرِ لِأَهْمِيَّتِهَا، وَقَدْ وَرَدَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَتَفْسِيرِ السَّبْعِ الْمَثَانِي بِالْحَمْدِ، رَوَايَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

[٨٩] وَ إِذْ كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُتَّصِلًا بِالْوَحْيِ مُرْتَبِطًا بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَ مِنْ بِيَدِهِ الْجَزَاءُ، الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ بِاسْتِجْمَالٍ أَوْ ثَمَنٍ أَوْ اسْتِحْسَانٍ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ أَيُّ إِلَىٰ مَتْعَةِ الْحَيَاةِ وَ لِذَائِدِهَا الَّتِي أَعْطَيْنَاهَا أَصْنَافًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، فَلَا تَلْقَىٰ إِلَىٰ مَتْعَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَظْرَةً أَهْتَمَّ بِهَا، أَوْ نَظْرَةً تَمَنَّ بِأَنْ تَتَمَنَّى مِثْلَهَا لِنَفْسِكَ، وَ الزَّوْجُ هُوَ الصَّنْفُ، وَ يُقَالُ لَهُ زَوْجٌ لِأَنَّ بَعْضَ الصَّنْفِ يَشْبَهُ بَعْضًا، وَ الْمُرَادُ أَنْ مَا أَعْطَيْنَاكَ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَ مَا وَعَدْنَاكَ مِنَ الْآخِرَةِ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أَيُّ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، فَإِنَّمَا أَنْتَ أَدَيْتَ مَا عَلَيْكَ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ وَ خَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَخْفِضُ الطَّائِرُ جَنَاحَهُ لَوْلَدِهِ أَوْ قَرِينِهِ تَوَاضَعًا وَ تَلَطُّفًا وَ الْمُرَادُ أَنْ جَانِبَكَ لَهُمْ وَ احْلَمْ عَنْهُمْ إِذَا أَخْطَئُوا، وَ تَوَاضَعِ الرَّئِيسَ

يوجب كثرة الأتباع - دائما-.

[٩٠] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أَى الْمُنذِرِ الْوَاضِحِ، أَنْذِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ، فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ كَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٨

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٩٠ الى ٩٤]

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) لَا يَصِيْبُكُمْ مَا أَصَابَ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ.

[٩١] لقد أتيناك القرآن العظيم، كما أنزلنا الكتاب على الْمُقْتَسِمِينَ وهم اليهود والنصارى - من قبل - وإنما سموا مقتسمين لأنهم قسموا الكتاب فما وافق آراءهم وشهواتهم قبلوها وما خالفها تركوها، ولذا فسرههم سبحانه بأنهم هم:

[٩٢] الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ جمع «عضة» بمعنى الجزء، من عضى الشاة أى فصل بين أجزائها، أى فرقوا القرآن وجعلوه عضوا عضوا، فآمنوا بما وافق أهواءهم وكفروا بما خالفها، كما قال سبحانه فى آية أخرى (تُؤْمِنُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَكَفُرُ بِبَعْضِهَا) «١» والحاصل إنا أنزلنا الكتاب كما أنزلنا الكتب السابقة على هؤلاء الذين ينكرون كتابك الذين اقتسموا الكتاب وجعلوه أقساما فقبلوا قسما ورددوا قسما.

[٩٣] وإنا لنأخذهم كما أخذنا المكذبين السابقين من الأمم الخالية فَو رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، والفاء للتعقيب أى عقيب تكذيبهم لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أى نسأل من المقتسمين أَجْمَعِينَ بلا استثناء.

[٩٤] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصى حتى نجازيهم، والسؤال منهم إنما هو للإقرار على أنفسهم، وإلا فالله سبحانه عالم بما عملوه.

[٩٥] أما أنت يا رسول الله فإنك مكلف بالبلاغ سواء قبلوا أم لم يقبلوا

(١) النساء: ١٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٨٩

[سورة الحجر (١٥): آية ٩٥]

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)

فَاصْدَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالصَّدْعُ هُوَ الْإِظْهَارُ وَالْإِعْلَانُ، وَأَصْلُ الصَّدْعِ هُوَ كَسْرُ الزَّجَاجَةِ بِصَوْتٍ وَكَانَ الرَّسُولُ يَجْهَرُ بِتَفْرِيقِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى لَوْنٍ وَاحِدٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ، كَمَا أَنَّ الزَّجَاجَةَ إِذَا كَسَرْتَ تَصِيرُ قِطْعَتَيْنِ بِمَا تُؤْمَرُ مِنَ الْإِنذَارِ وَالتَّبْلِيغِ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَا تَهْتَمْ لَهُمْ وَلَا تَبَالِ بِشَأْنِهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا هَتَمَ بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ وَالْحَاسِدِينَ لَا يَتِمَّكَنُ مِنْ تَقْدِيمِ مَشْرُوعِهِ إِلَى الْأَمَامِ.

[٩٦] إِنَّا كَفَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ،

ورد أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و مروا ذات يوم به مهديين قائلين: يا محمد إنا ننتظر بك إلى الظهر فإن رجعت عن قولك وإلا قتلناك فدخل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منزله مغموما فنزل جبرئيل وبشره بأن الله قد كفاه شرهم، وكفى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شرهم فى ذلك اليوم، وقد كان أولئك وليد وعاص وأسود بن عبد يغوث وأسود بن المطلب والحارث. أما الوليد فمَرَّ بِنَبْلِ فَأَصَابَهُ شَظِيَةٌ مِنْهُ فَانْقَطَعَ أَكْحَلُهُ حَتَّى أَدْمَاهُ فَمَاتَ وَهُوَ يَقُولُ: قَتَلَنِي رَبُّ مُحَمَّدٍ، وَأَمَّا الْعَاصُ فَقَدْ خَرَجَ فِي حَاجَةٍ لَهُ إِلَى مَوْضِعٍ فَهَدَّ تَحْتَهُ الْحَجَرُ فَتَقَطَّعَ قِطْعَةً قِطْعَةً فَمَاتَ وَهُوَ يَقُولُ: قَتَلَنِي رَبُّ مُحَمَّدٍ، وَأَمَّا ابْنُ عَبْدِ يَغُوثِ

فنطح رأسه بشجرة فمات من أثر الصدمة و هو يقول: قتلنى رب محمد، و أما ابن المطلب فخرج عن مكة و إذا به لا يبصر شيئا قد أعمى بصره و أكله الله بولده و بقى أعمى ثاكلا حتى مات، و أما الحرث فضرته السموم حتى غيرت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٠

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَ لَقَدْ نَعَلَّمَ أَنَّهُ كَيْفَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)

وجهه و سمته و لما رجع إلى أهله صار بينهم و بينه كلاما أدى إلى أن قاموا فقتلوه و هو يقول قتلنى رب محمد، و لما أن بشر جبرئيل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأن الله قد كفاهم خرج الرسول مناديا: يا معشر العرب أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله و إني رسول الله أمركم بخلع الأنداد و الأصنام فأجيبوني تملكوها به العرب و يدين لكم العجم و تكونوا ملوكا فى الجنة فأخذ القوم يضحكون منه قائلين جن محمد، لكنهم لم يجسروا عليه لموضع أبى طالب عليه السلام «١».

[٩٧] ثم وصف سبحانه المستهزئين بقوله الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ يعبدونه، أن هؤلاء السخفاء هم الذين يستهزءون بالرسول، و كان الإتيان بهذا الوصف للإشارة إلى مقدار عقولهم فمثلهم كمثلهم يضحك من عاقل فسوف إذا ماتوا، أو قامت القيامة يعلمون جزائهم السيئ حيث لا مناص.

[٩٨] ثم سلا سبحانه نبيه لما يرد عليه من الآلام و الكوارث و لَقَدْ نَعَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ بما يقوله الكفار فيك و فى دينك من الطعن و الاستهزاء، و هذا تسلية للرسول فإن الإنسان إذا علم أن ما يصنع به إنما هو فى محضر حاكم عادل يخفف له علمه بذلك و طأ الحادثه، و لذا

قال الإمام الحسين عليه السلام: «هون ما نزل بى أنه بعين الله».

و ضيق الصدر إنما هو بسبب أن الإنسان المهموم تتولد فيه حرارة

(١) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩١

[سورة الحجر (١٥): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

زائده تحتاج الرئة لدفعها و إيراد القلب إلى جذب هواء أكثر من المعتاد، و ذلك سبب لكبرها عند التنفس، و حيث أن مكان الرئة الصدر، فالصدر يضيق بكبرها- لدى اجتذاب الهواء- عند الهم.

[٩٩] فَسَبِّحْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى نزه الله سبحانه بالحمد، فإن التنزيه قد يكون بالسلب- كأن يقال: فلان لا يؤذى الناس- و قد يكون بالإيجاب- كأن يقال: فلان يرحم الناس و يعطف عليهم- و هذا أبلغ من التعظيم و التجليل، أى اجعل تسبيحك بهذه الكيفية الإيجابية و كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ الذين يسجدون و يخضعون لعظمة الله سبحانه، و ذلك مما يخفف وقع التكذيب و الاستهزاء، لأن بذكر الله تطمئن القلوب، كما قال سبحانه: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) «١» فهو موجب للانصراف أولاً و لتذكر نعمائه و آلائه و إنه المجزى لما يصيبه ثانيا.

[١٠٠] وَ اعْبُدْ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أى الموت، و إنما سمي الموت يقينا لأنه موقن به، بعلاقته تسمية المضاف باسم المضاف إليه كما يقال لابن زيد؛ زيد، و يقال لعشيرة هاشم «هاشم» و هكذا، و يحتمل أن يكون وجه التسمية أن الموت- فى أغلب الناس- يسبب اليقين الكامل بالمعاد فسمى الموت يقينا، حتى بالنسبة إلى من لا يريد يقينه كالرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

(١) الرعد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٢

١٦ سورة النحل مكية / آياتها (١٢٩)

سميت السورة باسم «النحل» لاشتمالها على هذه الكلمة، وهو الحيوان الذي يفرغ العسل و الشمع. وهي كغالب السور المكية تعالج شؤون العقيدة و ما إليها، أما أنظمة الدولة و ما يتبعها فإن الغالب كونها في السورة المدنية حيث ترسخت دولة الإسلام، و أرسدت دعائمها.

و حيث ختم سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار، افتتح هذه السورة بذلك أيضا، فقال:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ افتتح باسم الله خالق كل شيء الجامع لجميع الصفات الكمالية خلافا للكفار و من إليهم حيث لا يفتتحون كتبهم بشيء من غير لونه، أو يفتتحونه بأسامى الأصنام و قد جرت عادة بهرتهم المدنية الحديثة، أن يقتدوا أثر أولئك فلا يفتتحون الكتاب إلا بالمقدمة أو الإهداء أو الفصل - بدون ذكر لاسم الله سبحانه إطلاقا- و من هو هذا الإله الذي نبتدئ باسمه؟ إنه الذي يرحمنا و يرحم جميع البشر، فلنستعن به و نستقى رحمته.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

[٢] لقد طلب الكفار أن ينزل الله عليهم عذابا، إن كان الرسول صادقا فيما يقول - استهزاء - كما كانوا يقولون: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٍ) «١» فقال الله سبحانه في جواب طلبهم العذاب: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ أَى قرب إتيانه، و يقال للشئ الذي قرب أنه أتى، لمجاز المشاركة، أو أنه من باب إنزال الفعل المتحقق الوقوع منزلة الماضي كقوله سبحانه (وَ نُفِخْ فِي الصُّورِ) «٢» فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ أَى لا تطلبوا تعجيله سبحانه مصدر منصوب بفعل محذوف أَى أنزهه تنزيها و تعالى أَى أنه أعلى و أرفع عَمَّا يُشْرِكُونَ أَى عن الأصنام التي يشركونها معه تعالى، فقد قرب وقت إتيان أمر الله المنزه عن الشريك و استعجال هؤلاء لا يغير من مقتضى حكمته في جعل المواقيت و الآجال، و ها نحن الآن نرى أنه قد وقع على الكفار المعاصرين للرسول صلى الله عليه و آله و سلم العذاب و قضى كل شيء.

[٣] أنه سبحانه لا يدع المشركين في ضلالهم و شركهم بل لا بد و أن يتم الحجة عليهم فإنه يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَى الرُّسُلِ بِالرُّوحِ أَى بما هو روح و حياة للكون فإن الإنسان لا روح له ما دام ليس متشعرا بشريعة الله سبحانه و إنما هو جماد في صورة متحرك مِنْ أَمْرِهِ أَى الروح المتصف بأنه كائن من أمره تعالى، و تأثر عن إرادته عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) الكهف: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣ إلى ٥]

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ

وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)

من الصفوة المختارة من البشر و هم الأنبياء أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فهذا هو الروح الذي ينزله إله الكون بواسطة أظهر النفوس و هم الملائكة إلى أخير الناس، فيوحى إليهم أن أنذروا الناس الذين يشركون بأن عاقبة هذا الشرك و خيمته، فإنه لا إله إلا الله فاتقون أى خافوا عاقبه و نكاله فى اتخاذكم الشركاء.

[٤] أنه تعالى هو خالق كل شىء فكيف تتخذون غيره شريكاً له؟ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لَا لِعِوَا وَ عِثَا حَتَّى يَتْرَكَ كُلَّ إِنْسَانٍ وَ مَا اخْتَارَهُ مِنَ التَّوْحِيدِ أَوْ الشَّرْكِ وَ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِالْحَقِّ وَ يَعْتَقِدُ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا هُوَ حَقٌّ وَ وَاقِعٌ مِنْ مَسْأَلَةِ الْأُلُوهِيَّةِ تَعَالَى أَى إِنَّهُ: أَعْلَى وَ أَرْفَعُ عَمَّا يُشْرِكُونَ وَ الْفِعْلُ وَ هُوَ «تَعَالَى» قَدْ انْسَلَخَ مِنْ مَعْنَى الْمَاضِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى جَمِيعِ صِفَاتِ الذَّاتِ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ «عِلْمِ اللَّهِ» وَ «قَدْرِ اللَّهِ» وَ «اسْتِغْنَى اللَّهِ» أَنَّهُ حَدَّثَ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي.

[٥] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ النُّطْفَةُ هِيَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ، أَى أَنْ بَدَأَ هَذَا الْإِنْسَانَ الْكَبِيرَ إِنَّمَا هِيَ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ مَهِينٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيْمٌ مُبِينٌ أَى مُخَاصِمٌ لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَ لِلْمُهَادِنِ، مُجَادِلٌ فِي أَوْامِرِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُ، مُبِينٌ وَاضِحٌ الْخُصُومَةُ.

[٦] وَ فِي هَذَا الْمَجَالِ يَسْتَعْرِضُ السِّيَاقُ جَمَلَةً مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، حَتَّى يَرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦ الى ٧]

وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ (٧)

المشركون أنها ليست من خلق شركائهم و إنما هو من خلق الله وحده، لعلهم يرجعوا عن غيهم و الأنعام جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم سميت بها لنعمته مشيها أو لأنها نعمه فى جميع منافعها خَلَقَهَا أَى الْأَنْعَامَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِيهَا فِي الْأَنْعَامِ، وَ الظَّرْفُ مُجَازَى دَفْعٌ مَا يَدْفَأُ بِهِ مِنْ أَصْوَابِهَا وَ أَشْعَارِهَا فِي اللَّبَاسِ وَ الْفَرَشِ وَ الْخَبَاءِ وَ غَيْرِهَا، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الشَّعْرَ لَا يَدْفَأُ بِذَاتِهِ وَ إِنَّمَا لَا يَنْفَعُ الدَّفْعُ الْحَاصِلُ مِنَ الْبَدَنِ وَ نَحْوِهِ مِنْهُ وَ لِذَا يَحْسُ الْإِنْسَانُ بِالْدَّفْعِ فِيهِ بِخِلَافِ سَائِرِ الْأَبْسَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ مِنْ رُكُوبٍ وَ حَمَلٍ وَ حِرَاثَةِ الْأَرْضِ لِلزَّرْعِ وَ غَيْرِهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ لِحَمْلِهَا وَ لِبِنِهَا وَ شَحْمِهَا.

[٧] وَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِيهَا أَى فِي الْأَنْعَامِ جَمَالٌ أَى مَنْظَرٌ حَسَنٌ وَ زِينَةٌ حِينَ تُرِيحُونَ لِلْأَنْعَامِ، مِنْ أَرَاخٍ بِمَعْنَى رَدِّهَا إِلَى الْمَرَاخِ وَ هُوَ مَحَلُّ اسْتِرَاحَةِ الْحَيَوَانَاتِ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ أَى تَرْسَلُونَهَا صَبَاحًا إِلَى مَحَلِّ السَّرْحِ وَ الرَّعْيِ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ حِينَ تَذْهَبُ صَبَاحًا وَ تَرْجِعُ عَصْرًا مَنْظَرٌ جَمِيلٌ، يَزِيدُ فِي جَمَالِ أَصْحَابِهَا، فَيَقَالُ: هَذِهِ قَطِيعُ فُلَانٍ وَ هَكَذَا وَ رَبَّمَا يَقَالُ أَنَّهُ جَمَالُ فُلَانٍ، فَيَطْلُقُ الْجَمَالَ عَلَى تِلْكَ الْأَنْعَامِ غَادِيَةً رَائِحَةً.

[٨] وَ تَحْمِلُ بَعْضُ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَ هِيَ الْإِبِلُ أَثْقَالَكُمْ أَى أَمْتَعْتَكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٦

[سورة النحل (١٦): آية ٨]

وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

الثقيلة، فإنه جمع ثقل و هو المتاع الذى يثقل حمله إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ أَى لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ وَ حَدِّكُمْ بَلُوغَ ذَلِكَ الْبَلَدِ الْبَعِيدِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ فَكَيْفَ تَبْلُغُونَهُ مَعَ الْأَحْمَالِ؟ وَ شِقُّ الْأَنْفُسِ مَعْنَاهُ مَشَقَّةُ النَّفْسِ، فَإِنَّ شِقَّ مَصْدَرُ شَقَّ يَشِقُّ أَى صَعِبَ وَ الْأَنْفُسُ جَمْعُ نَفْسٍ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ وَ مِنْ رَأْفَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَنْعَامَ لِتَحْمِلَ أَثْقَالَكُمْ وَ تَنْتَفِعُونَ بِهَا فِي سَائِرِ حَوَائِجِكُمْ رَحِيمٌ يَرْحَمُ بِكُمْ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ بِالْإِحْسَانِ وَ الْإِنْعَامِ، وَ لَعَلَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الرَّأْفَةِ وَ الرَّحْمَةِ، أَنَّ الرَّأْفَةَ صِفَةُ الْقَلْبِ، وَ إِنْ لَمْ تَتَّعَدْ، وَ الرَّحْمَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِيمَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَفْضَالِ وَ الرَّحْمِ.

[٩] وَ خَلَقَ الْخَيْلَ وَ هِيَ الْفَرَسُ وَ الْبِغَالَ جَمْعُ بَغْلٍ وَ هُوَ مَا يُولَدُ بَيْنَ الْحِمَارِ وَ الْفَرَسِ وَ الْحَمِيرِ جَمْعُ حِمَارٍ لِيَتَزَكَّبُوهَا فِي حَوَائِجِكُمْ، وَ لَمْ يَذَكَرْ هُنَا الْحَمْلَ، وَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لَمْ يَذَكَرِ الرُّكُوبَ لِلتَّفَنُّنِ فِي الْكَلَامِ وَ هُوَ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ، وَ الْإِبِلُ أَنْسَبُ بِحَمْلِ الْأَثْقَالِ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ، كَمَا أَنَّ الثَّلَاثَةَ أَنْسَبُ لِلرُّكُوبِ وَ زِينَةُ أَيِّ خَلْقِهَا زِينَةٌ وَ جَمَالًا لَكُمْ، حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَكَبَهَا كَانَ لَهُ جَمَالٌ وَ جَلَالٌ، كَمَا أَنَّهَا حِينَ تَرْتَبُطُ أَوْ تَنْقَلُ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ تَظْهَرُ لِلْمَالِكِ جَمَالًا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ سَائِرِ وَسَائِلِ الْحَمْلِ وَ الزِينَةِ، فَقَدْ قَالَ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ لِيَجِدَ الذَّهْنَ مَتَسَعًا فِي الْآفَاقِ فَلَا يَجْمَدُ، وَ نَسَبُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ بِالنَّسْبِ إِلَى الْآلَاتِ الْبَخَارِيَّةِ وَ مَا أَشْبَهَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٧

[سورة النحل (١٦): آية ٩]

وَ عَلَى اللَّهِ قَضْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩)

صحيح، فإن صانعها ليس إلا جزءاً صغيراً في سلسلة العلل المهيئة لها من معدن، و نار، و هواء و غيرها.

[١٠] وَ فِي سِيَاقِ السَّفَرِ إِلَى الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ وَ السَّيْرِ بِوَسْطَةِ الْمَرْكُوبَاتِ الْمَحْسُوسَةِ، يَأْتِي بَيَانُ السَّيْرِ نَحْوَ الْمَقْصِدِ الْحَقِيقِيِّ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنْ سَيْرِ جَسْمَانِي إِلَى سَيْرِ رُوحَانِي وَ عَلَى اللَّهِ قَضْدُ السَّبِيلِ أَيُّ السَّبِيلِ الْقَاصِدِ، وَ هُوَ السَّبِيلُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي إِذَا سَلَكَهُ الْإِنْسَانُ أَوْصَلَهُ إِلَى السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، كَأَنَّ السَّبِيلَ قَاصِدٌ إِلَى هَدَفٍ وَ لَذَا لَا يَنْحَرِفُ وَ لَا يَلْتَوِي، كَالْإِنْسَانِ الْقَاصِدِ ذِي الْغَايَةِ الَّذِي يَسِيرُ مُسْتَقِيمًا نَحْوَ هَدَفِهِ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، نَحْوُ وَضَحِ النَّهَارِ، أَيُّ النَّهَارِ الْوَاضِحِ، وَ مَعْنَى عَلَى اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ أَنْ يَبَيِّنَهُ وَ يَرشُدَ النَّاسَ إِلَيْهِ وَ مِنْهَا أَيُّ مِنَ السَّبِيلِ جَائِزٌ مَنْحَرِفٌ كَأَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ جَارَ فَلَمْ يَسْتَقِمْ كَالْإِنْسَانِ الظَّالِمِ الَّذِي يَجُورُ وَ يَنْحَرِفُ وَ قَدْ كَانَ مِنَ الْإِنْهَازِيَّةِ الْغَرِيبَةِ، الْقَوْلُ بِأَنَّ «الْجَائِرَ» مَأْخُذٌ مِنْ «جَارٍ» بِمَعْنَى صَوْتٍ، وَ الْمُرَادُ بِهِ «الطَّائِرَةُ» وَ نَحْوَهَا مِنَ الْآلَاتِ الْبَخَارِيَّةِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي تَحْدُثُ الصَّوْتُ عِنْدَ حَرَكَتِهَا، وَ قَدْ مَنَى الْمُسْلِمُونَ بِأَنَاسٍ مِنْهُمْ يَرِيدُونَ تَطْبِيقَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْغَرْبِ وَ يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ كَسْبٌ لَهُمْ، وَ لِلْإِسْلَامِ، غَافِلِينَ أَنَّ ذَلِكَ انْتِصَارٌ لِلْغَرْبِ، فَإِنَّهُمْ أَخَذُوهُ، وَ مَا خَالَفَ الْإِسْلَامَ لَهُ، أَوْلُوا الْإِسْلَامَ لَهُ لِيُؤَافِقُوا بَيْنَهُمَا بِهَيْمَةِ الْإِسْلَامِ.

وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ بِأَنَّ أَجْبِرْكُمْ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠ الى ١١]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)

الهدى، لكنه تعالى خلق الدنيا للامتحان و ذلك لا يكون إلا بالاختيار، فهو سبحانه لا يشاء إلا أن يكون كل أحد مختاراً فيما يأخذ و يدع.

[١١] ثُمَّ انْتَقَلَ السِّيَاقُ مِنَ الْمَرْكُوبَاتِ وَ مَا إِلَيْهَا مِمَّا خَلَقَهَا لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ، إِلَى قِسْمِ آخَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا لِنَفْعِ الْبَشَرِ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ حُدَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ أَيُّ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ مَاءً هُوَ الْمَطَرُ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْهُ أَيُّ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَرَابٌ تَشْرَبُونَهُ وَ تَسْتَعْمَلُونَهُ فِي سَائِرِ حَوَائِجِكُمْ وَ مِنْهُ شَجَرٌ أَيُّ يَنْبِتُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ الشَّجَرُ وَ الْمُرَادُ بِهِ كُلُّ نَبَاتٍ فَإِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَنْبِتُ مِنَ الْأَرْضِ قَامَ عَلَى سَاقٍ أَوْ لَمْ يَقُمْ فِيهِ أَيُّ فِي ذَلِكَ الشَّجَرِ تُسِيمُونَ يُقَالُ أَسَامَ مَا شِئْتَهُ إِذَا رَعَاهَا، أَيُّ تَرَعُونَ أَنْعَامَكُمْ، وَ لَوْ لَا مَاءُ الْمَطَرِ بِمَ كَانَتْ تَتَقَوَّى الْأَنْعَامُ؟

[١٢] وَ يُنْبِتُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ بِهِ أَيُّ بِمَاءِ السَّمَاءِ الزَّرْعَ مِمَّا يَزْرَعُ وَ يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ، أَوْ يَتَّجَمَلُ بِهِ، أَوْ يَنْتَزِعُهُ بِمَنْظَرِهِ، أَوْ الْأَعْمَ مِنْ ذَلِكَ وَ مِمَّا تَرَعَاهُ الْمَاشِيَّةُ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْعَامِ بَعْدَ الْخَاصِّ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ جَمْعُ نَخْلٍ وَ هُوَ مَا يَثْمُرُ التَّمْرَ وَ الْأَعْنَابَ جَمْعُ عُنْبِ أَيُّ أَشْجَارِ الْأَعْنَابِ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ أَيُّ يَنْبِتُ لَكُمْ بِالْمَاءِ كُلِّ الثَّمَارِ، وَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَشْجَارُ الْمَثْمِرَةُ، فَلَوْ لَا مَاءُ السَّمَاءِ «الْمَطَرُ» لَمْ يَنْبِتْ

شيء، و العيون و الأنهار إنما هي من ماء السماء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ١٩٩

[سورة النحل (١٦): آية ١٢]

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)

أيضا، فلا يقال كان يكفيننا العيون والأنهار إن في ذلك الإنزال للماء من السماء لإنبات هذه الأشياء والانتفاع به في سائر حوائج البشر لآية دلالة واضحة على وجود إله عليم قدير غير هذه الشركاء التي لا تعقل شيئا لقوم يتفكرون في الأمور فيعرفون أن هذه النعم من الله سبحانه لا من غيره، وخص المتفكرين لأنهم الذين ينتفعون بهذه الآية وغيرها.

[١٣] و من ثم ينتقل السياق إلى آية أخرى، و منفعة جليلة لا حياة للإنسان بدونها، و سَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَجْرَاهمَا وَ خَلَقَهُمَا بَحِيثَ تَنْتَفِعُونَ بِهِمَا فِي حَيَاتِكُمْ وَ حَوَائِجِكُمْ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَ لَعَلَّ ذِكْرَ الشَّمْسِ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِمَا يَتْرَبُ عَلَيْهَا مِنْ فَوَائِدٍ، فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ، أَمَا الْقَمَرُ فَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ لَيْلٌ وَ لَا نَهَارٌ وَ لَذَا كَانَ ذِكْرُهُ تَأْسِيسًا وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ سَبْحَانَهُ فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَ هُوَ الَّذِي يَسِيرُهَا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّسْخِيرَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يَعْمَلُونَ عَقُولَهُمْ لِيَدْرِكُوا الْحَقَائِقَ وَ يَعْرِفُوا الْأَشْيَاءَ وَ إِلَّا- فَهَلْ يَتِمَكَّنُ عَاقِلٌ أَنْ يَقُولَ إِنَّهَا خَلَقَتْ مِنْ أَنْفُسِهَا؟ أَوْ خَلَقَهَا صَنَمٌ عَاجِزٌ جَاهِلٌ؟ إِنْ الْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ- حَسَبَ الظَّاهِرِ- لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ خَلْقٍ أَوْ تَسْيِيرِ أَتْفَةِ الْأَشْيَاءِ مِنْ نَفْسِهِ بَأَن يَكُونَ جَمِيعَ اللُّوْازِمِ وَ الْأَسْبَابِ مِنْهُ فَكَيْفَ بغيرِ الْإِنْسَانِ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٢٤٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٣ إلى ١٤]

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)

[١٤] وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا ذَرَأَ أَى خَلَقَ لَكُمْ إِمَّا بِمَعْنَى سَخَّرَ لَكُمْ مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ مَسْخَرٌ لَكُمْ، وَ إِمَّا بِمَعْنَى أَنَّ مَا خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ هُوَ مَسْخَرٌ لَكُمْ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى إِنْ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ مَسْخَرٌ لَكُمْ وَ هَذَا أَخْصَ مِنَ الْمَعْنَى السَّابِقِ، وَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ الثَّانِي فِي الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ وَ الْمَلْبَسِ وَ الْمَشَارِبِ وَ الْمَرَاقِبِ وَ الْمَسَاكِنِ وَ الْمَنَاحِكِ وَ غَيْرِهَا، فِي حَالِ كَوْنِ مَا ذَرَأَ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ لَا يَشْبَهُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ الْخَلْقَ جَمَالًا وَ الْإِنْسَانَ نَشَاطًا وَ انْشِرَاحًا إِنْ فِي ذَلِكَ التَّسْخِيرِ لِمَا ذَرَأَ لآيَةً دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أَصْلُهُ يَتَذَكَّرُ قَلْبُ التَّاءِ ذَالًا وَ دَخَلَتْ هَمْزَةٌ الْوَصْلُ عَلَيْهِ لِتَعَذُّرِ الْإِبْتِدَاءِ بِالْمَسَاكِنِ فَصَارَ «اذْكَر» وَ التَّخْصِيصُ بِهِمْ لِأَنَّ مِنْ سَوَاهِمٍ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «آيَةً» هُنَا وَ «آيَاتٍ» فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لِلتَّفَنُّنِ فِي الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ.

[١٥] وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ صَنْعَهُ وَ جَعَلَهُ بَحِيثَ تَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي حَوَائِجِكُمْ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ هُوَ السَّمَكُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَصْطَادُ السَّمَكَ الطَّرِيَّ مِنْهُ، فِي حَالِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ اللَّحُومِ الَّتِي يَصْنَعُ مِنْهَا الْقَدِيدَ يَابَسَ لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ الطَّعْمُ وَ الْمَذَاقُ وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً أَى لِنَالِي وَ نَحْوَهَا مِمَّا يَسْتَعْمَلُ فِي الزَّيْنَةِ، وَ لَعَلَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠١

[سورة النحل (١٦): آية ١٥]

وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَارًا وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)

الإتيان بباب الاستفعال لما في الغوص من الطلب و الصعوبة تلبسونها تلبسون تلك الحلية المستخرجة من البحر، فمن جعل البحر بحيث يعطى هذه الأشياء؟ و من ذلله لكم حتى تتمكنون من الاقتراب منه و الغوص فيه و الاصطياد لأسماكه؟ وَ تَرَى أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

الْفُلُكُ وَ هِيَ السَّفِينُ فَإِنْ فَلَكَ عَلَى وَزْنِ قَفْلِ مَفْرَدٍ، وَ الْفَلَكَ عَلَى وَزْنِ أَسَدٍ «جَمْعُ أَسَدٍ» جَمْعٌ، وَ الثَّانِي هُوَ الْمَرَادُ هُنَا بِدَلِيلِ وَصْفِهَا بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ مَوَآخِرَ جَمْعِ «مَآخِرَةٌ» عَلَى وَزْنِ «طَالِبَةٌ» وَ «طَوَالِبٌ» مِنَ الْمَخْرِ، يُقَالُ مَخَرْتُ السَّفِينَةَ الْمَاءَ أَي شَقَقْتَهُ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ، وَ اسْمُ الْفَاعِلِ «مَآخِرَةٌ» فِيهِ أَي فِي الْبَحْرِ، فَمِنْ جَعَلَ الْمَاءَ بَحِيثًا لَا تَغْرُقُ فِيهِ السَّفِينَةَ الثَّقِيلَةَ، بَلْ تَتِمَكَّنُ مِنْ شَقِّهِ وَ الْوَصُولِ إِلَى الْمَحَلَّاتِ الْبَعِيدَةِ بِوَاسِطَتِهِ؟

وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِمَّا عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ «لَتَأْكُلُوا» أَي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ «لَتَأْكُلُوا» وَ لَتَبْتَغُوا، وَ إِمَّا عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرِ أَي «وَ تَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ لِتَرْكَبُوا وَ لَتَبْتَغُوا» وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَ الْبَحْرَ كَذَلِكَ بِحَيْثُ يَحْمِلُ السَّفِينُ الْمَآخِرَةَ لِتَطْلُبُوا مِنْ فَضْلِهِ سَبْحَانَهُ بِالتَّجَارَةِ وَ الْاِكْتِسَابِ لِصَاحِبِ السَّفِينَةِ بِالْإِيجَارِ وَ الرَّاكِبِينَ بِالتَّجَارِ، وَ تَسْمَى النِّعْمَةُ فَضْلًا، لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ عَلَى سَائِرِ الْأَنْعَامِ، وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَي لِكَيْ تَشْكُرُوا اللَّهَ سَبْحَانَهُ، فَإِنْ غَايَةُ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْكُرُوا فَيَسْتَحِقُّوا بِذَلِكَ الثَّوَابَ.

[١٦] وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِي أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ جَمْعُ رَاسِيَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٦ الى ١٧]

وَ عِلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)

وَ هِيَ الْجِبَلُ، أَي جَعَلَ جِبَالًا عَالِيَةً ثَابِتَةً، وَ التَّعْبِيرُ بِالْإِلْقَاءِ تَعْطَى صُورَةَ طَرِيفَةٍ عَنْ ثِقَلِهَا وَ شِدَّةِ وَطْأَتِهَا، لِأَنَّ لَا تَمِيدَ مِنْ مَادٍ بِمَعْنَى مَالٍ يَمِينًا وَ شِمَالًا بِكُمْ أَي مَعَكُمْ، يَعْنِي أَنَّهُ سَبْحَانَهُ جَعَلَ فِي الْأَرْضِ الْجِبَالَ لثَلَا تَتَحَرَّكَ الْأَرْضُ بِكُمْ يَمِينًا وَ شِمَالًا فَلَا يَكُونُ لَكُمْ قَرَارٌ وَ اسْتِقْرَارٌ فَإِنَّ الْجِبَالَ تَحْفَظُ تَوَازِنَ الْأَرْضِ، فَهِيَ كَالْمَسَامِيرِ فِي الْأَلْوَابِ الْمُتَّصِلَةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، لَوْلَاهَا لَتَفَكَّكَتِ الْأَرْضُ - مِنْ جِهَةٍ - وَ لَمَالَتْ إِلَى هُنَا وَ هُنَاكَ بِفِعْلِ الْجَازِيَّاتِ - مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى -.

وَ جَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا فَمَنْ يَأْتِي خَلْقَ الْأَنْهَارِ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي بَقَائِهِ وَ عِمَارَتِهِ وَ زِرَاعَتِهِ وَ سَائِرِ لَوَازِمِهِ؟ وَ جَعَلَ فِيهَا سُبُلًا أَي طُرُقًا لِلسَّيْرِ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَاكَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ أَي لِكَيْ تَرَوْا تِلْكَ الْآيَاتِ فَتَهْتَدُوا إِلَى وَجُودِ خَالِقِهَا وَ جَاعِلِهَا.

[١٧] وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا عِلَامَاتٍ مَعَالِمٍ يَهْتَدِي بِهَا لِلطَّرْقِ مِنَ الْجِبَالِ وَ تَرَعٍ وَ مَرْتَفَعَاتٍ وَ مَنْخَفُضَاتٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَهْتَدِي بِهَا إِلَى مَقَاصِدِهِ أَوْ الْمَرَادِ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ جَعَلَ الْعِلَامَاتِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ كَعِلَامَاتِ الصِّحَّةِ وَ الْمَرَضِ وَ الْجَيِّدِ وَ الرَّذِيِّ وَ الْعِلَامَاتِ الْفَارِقَةُ لِجِنْسٍ مِنْ جِنْسٍ وَ هَكَذَا وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فَجَعَلَ عِلَامَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَ عِلَامَاتٍ فِي السَّمَاءِ يَهْتَدِي بِهَا السَّالِكُونَ، فَمَنْ يَأْتِي جَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ؟

[١٨] وَ إِذْ يَنْتَهَى السِّيَاقُ مِنْ ذِكْرِ جَمَلَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، يَلْتَفِتُ إِلَى الْبَشَرِ لِيُوقِظَهُ مِنْ رَقَدَتِهِ وَ يَتَّبِعُهُ عَلَى خَطَاةٍ فِي اتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ مَعَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَفَمَنْ يَخْلُقُ وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَ إِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (١٩)

وَ لِغَيْرِهَا كَمَنْ لَا يَخْلُقُ شَيْئًا، كَالْأَصْنَامِ وَ الْأَوْثَانِ؟ وَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ الْجَوَابُ: بِأَنَّهُمَا لَيْسَا بِمَتَسَاوِيَيْنِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ؟ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ مِنْ لَا يَخْلُقُ شَرِيكًا مَعَ مَنْ يَخْلُقُ، وَ تَعْبُدُوهُمَا عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ؟

[١٩] إِنْ مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ النِّعْمِ إِنْهَا هِيَ جَمَلَةٌ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِمَنَافِعِكُمْ، أَمَا جَمِيعُ نِعْمَةٍ فَهِيَ خَارِجَةٌ عَنْ قَدْرَتِكُمْ عَلَى إِحْصَائِهَا وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ أَي تَرِيدُونَ تَعْدَادَهَا وَ إِحْصَاءَهَا لَا تُحْصُوهَا لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْعَدِّ وَ الْإِحْصَاءِ لِكَثْرَتِهَا الْخَارِجَةِ عَنْ طَرُقِ عَدِّكُمْ كَيْفَ وَ قَدْ ذَكَرَ الْعِلْمُ أَنَّ مَلَائِكَةَ الْأَعْصَابِ مَوْجُودَةٌ فِي جِسْمِ الْإِنْسَانِ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ عَصَبٍ نِعْمَةٌ وَ هَكَذَا وَ هَلُمَّ جَرَا إِلَى مَا لَا يَحْصِي مِنَ النِّعْمِ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِ«نِعْمَةٍ» مُفْرَدَةٌ لِمُرَاعَاةِ نَكْتَةِ لَفْظِيَّةِ هِيَ أَنَّ الْعَدَّ لِنِعْمَةٍ نِعْمَةٌ مُتَعَدِّرٌ وَ أَمَا عَدُّ «النِّعْمِ» جَمَلَةٌ فَلَا تَتَعَدَّرُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ لَكُمْ فِي عَدَمِ شُكْرِ النِّعْمِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا شُكِرَ فَهُوَ مُقْصِرٌ فِي الشُّكْرِ كَمَا

قال الإمام عليه السلام: «و لا يؤدي حقه المجتهدون»

«١» رَحِيمٌ يَرْحَمُكُمْ بِالْأَنْعَامِ عَلَيْكُمْ وَ إِنْ لَمْ تُؤَدُّوا شُكْرَهَا.

[٢٠] و هنا تأتي بعض المقارنات بين الله سبحانه، و بين ما زعموه من الآلهة، بمناسبة السياق مع قوله «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ» وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ أَي مَا تَفْعَلُونَهُ فِي السِّرِّ وَ مَا تُعْلِنُونَ أَي مَا تَفْعَلُونَهُ

(١) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٠ الى ٢٢]

وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)

في العلانية فهل الأصنام كذلك؟ إنها- كما يأتي- «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» فكيف تعلم شيئاً؟ و إذ يعلم سبحانه كل سر و جهر فإنه يجازى بكل ما يصدر من الإنسان في خفاء أو ملاً.

[٢١] وَ الْأَصْنَامُ الَّذِينَ إِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ الْعَاقِلِ لَزْعَمِ الْقَوْمِ أَنَّهَا تَعْقِلُ يَدْعُونَ أَي يَدْعُونَهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَ الْأَوْثَانِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا فَهَلْ هُمْ كَمَنْ خَلَقَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ؟ وَ هُمْ يُخْلَقُونَ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، أَوَّلًا، ثُمَّ مَنْحُوتَةٌ لِلنَّاسِ ثَانِيًا! [٢٢] إِنَّهَا أَمْوَاتٌ لَا حَيَاةَ لَهَا، فَإِنَّ الْمَوْتَ يُطْلَقُ لِمَا مِنْ شَأْنِهِ الْحَيَاةُ، وَ لِمَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ الْحَيَاةُ- إِذَا قُبِلَ مَعَ الْحَيِّ- غَيْرُ أَحْيَاءٍ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِذَلِكَ لِإِفَادَةِ أَنَّهَا لَا حَيَاةَ لَهَا إِطْلَاقًا، فَلَيْسَتْ حَتَّى كَالْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ الَّذِي لَهُ حَيَاةٌ بَرَزِيَّةٌ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَي مَا تَشْعُرُ تِلْكَ الْأَصْنَامُ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أَي فِي أَيِّ وَقْتٍ يَكُونُ بَعْثُهَا وَ نَشُورُهَا، وَ هَذَا لِلْمُقَابَلَةِ وَ إِذَا فَلَيْسَ لِلْأَصْنَامِ بَعْثٌ بِالْمَعْنَى الْوَاقِعِي، وَ الْحَاصِلُ أَنَّ مَا هُوَ مَيِّتٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَسٍّ وَ حَرَكَةٍ، وَ مَنْ هُوَ لَا- يَعْلَمُ حَتَّى يَبْعَثَ كَيْفَ يَكُونُ إِلَهَا، وَ الْحَالُ أَنَّ الْإِلَهَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَيًّا حَتَّى يَكُونَ خَالِقًا مُدِيرًا، وَ يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ مَتَى يَبْعَثُ الْمَخْلُوقِينَ لِلْجَزَاءِ وَ الْحِسَابِ؟

[٢٣] وَ إِذْ تَقَرَّرَ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَكُونُ آلِهَةً فِ الْهَيْكَلِ الْبَشَرِيِّ وَاحِدٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لَا شَرِيكَ لَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ طَبْعًا مِنْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِلَهِ الْوَاحِدِ، وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) دَخَلَتْ الْفَاءُ فِي «فَالَّذِينَ» فَهُوَ كَقَوْلِكَ زَيْدٌ عَالِمٌ، فَمَنْ يَنْوَأُهُ يَكُونُ كَذَا، لِلتَّلَازُمِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَ لَزُومِ الْإِحْتِرَامِ. قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ جَاحِدَةٌ لِلْحَقِّ، فَلَيْسَ مَرَضُهُمْ مَرَضًا سَطْحِيًّا قَابِلًا- لِلْعِلَاجِ، وَ إِنَّمَا الدَّاءُ كَامِنٌ فِي قُلُوبِهِمْ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ الْإِسْتِكْبَارَ طَلِبَ التَّرْفَعِ- لِمَنْ لَيْسَ رَفِيعًا- فَهَمْ يَتَرَفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْإِذْعَانِ بِلَا حَقٍّ أَوْ حُجَّةٍ أَوْ بَرَهَانٍ وَ إِنَّمَا مَانِعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ الْكِبَرِ وَ الطَّغْيَانِ.

[٢٤] لَا- جَرَمَ أَي حَقًّا، مِنْ جَرَمٍ «بَابُ ضَرْبٍ» بِمَعْنَى قَطْعٍ، يُقَالُ جَرَمَ الشَّيْءُ أَي قَطَعَهُ وَ مِنْهُ «الْجَرَمُ» كَأَنَّهُ قَطَعَ لِرُؤُوسِ الْاجْتِمَاعِ، فِ «لَا جَرَمٍ» بِمَعْنَى لَا- قَطْعٍ، وَ إِنَّمَا الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَ لِذَا يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى لَا بَدَّ وَ لَا مَحَالَةَ، وَ كَثِيرًا مَا يَتَحَوَّلُ إِلَى مَعْنَى الْقِسْمِ، يُقَالُ «لَا جَرَمَ لِأَفْعَلٍ» أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ يَفْعَلُونَهُ سِرًّا وَ مَا يُعْلِنُونَ أَي يَفْعَلُونَهُ عَلَنًا، فَهُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى مَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْآثَامِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ وَ يَأْتَفُونَ اتِّبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَ عَدَمَ مَحَبَّةِ اللَّهِ يَلْزَمُ كَرَهُهُ وَ غَضَبَهُ.

[٢٥] إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَ لَا بِالْمَعَادِ، أَمَّا بِالنَّسْبَةِ لِلرَّسَالَةِ فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَنْكُرُونَهَا بَعْدَ إِنْكَارِهِمْ لِذِيكَ الْأَمْرَيْنِ وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَي

للمشركين عبدة الأصنام ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ يريد السائل أن يستخبر اعتقادهم حول القرآن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٦

[سورة النحل (١٦): آية ٢٥]

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)

و هل أنهم يعتقدون به أم لا-؟ قالوا فى الجواب أساطير الأولين جمع أسطورة، أى قصصهم الخيالية الوهمية فقد كانوا يقولون عن القرآن إنه خرافات القدماء لا- حصه له من الحقيقة و الواقع، و ليس المراد لهم أنه منزل من عنده سبحانه لأنهم ينكرون الإله، و ينكرون ما أنزل، و إنما يريدون رمى القرآن بالخرافة و الأسطورة، و قد كان أحدهم يقول: إن محمدا يأتيكم بأخبار أنبياء الروم- يريدون الأنبياء المبعوثين حول الشام، فقد كان الشام يومئذ من ممتلكات الروم- و إنما أتيتكم بأخبار ملوك الفرس، ثم يقص عليهم قصصا وهمية من الأكاسرة و من إليهم.

[٢٦] و إنما كان هؤلاء المشركون يكفرون بالله و المعاد و الرسالة ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة اللام للعاقبة، نحو (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً و حزناً) «١» فإن قصد أولئك ليس حمل الأوزار، و إنما عاقبه تكذيبهم أن يحملوا ذنوبهم- فإن الوزر بمعنى الذنب- كاملة بلا- نقص فى يوم القيامة فإن من لا إيمان له يحمل ذنبه كاملا بخلاف من له الإيمان فإنه ينقص من ذنبه و يعفى عنه لمكان إيمانه و يحملون هؤلاء الكفار- الرؤساء- فى يوم القيامة، بالإضافة إلى أوزار أنفسهم من أوزار أى بعض ذنوب الذين يضلونهم من أتباعهم، فإن الرؤساء سبب إضلال الأتباع، و إنما يحملون بعض ذنوب أولئك مما صار الرؤساء السبب أما غيرها من سائر ذنوبهم، كما لو قتلوا إنسانا أو شربوا خمرًا، أو ما أشبه مما لا يرتبط هؤلاء الرؤساء فهم المسؤولون عنها دون الرؤساء بغير علم

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٧

[سورة النحل (١٦): آية ٢٦]

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)

أى أن إضلالهم كان بغير علم إذ إن الرؤساء لم يعلموا بصحة عبادة الأصنام و مع ذلك دعوا الناس إليها، و هذا لزيادة تفرغهم، إذ كيف يجوز لهم أن يدعوا الناس إلى شىء هم لا- يعلمون صحته؟ ألا- فلينتبه السامع ساء ما يزرُونَ أى بشس الحمل حملهم لأوزار أنفسهم و بعض أوزار أتباعهم، فإن ذلك موجب للعذاب و العقاب.

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئا و أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا «١»

[٢٧] و إذ سبق أن المشركين يقولون عن القرآن أنه أساطير الأولين، و بطبيعة الحال إنهم يمكرون و يحتالون لإخماد صوت الأنبياء، فليعلموا، و يعلم معهم غيرهم أن لا- محصيل لمكرهم و لا- نجاح لخططهم ف قد مكر الذين من قبلهم من الكفار و دبروا المؤامرات لإبطال الدين، و إخماد صوت المرسلين فآتى الله بنيانهم أى توجه سبحانه نحو بنائهم، و المراد بالبنيان، ما بنوه من المكر و الحيلة، تشبيها بالبنية الخارجية من القواعد أى من أسسه، كالذى يهدم بناء بهدم أساسه و أصله فقد أبطل سبحانه أصل حيلتهم و مكرهم.

فَحَرَّ عَلَيْهِمْ أَى سَقَطَ عَلَى الْكُفَّارِ السَّقْفُ أَى سَقْفَ بِنْيَانِهِمْ

(١) المستدرک: ج ١٢ ص ٢٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٨

[سورة النحل (١٦): آية ٢٧]

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)

مِنْ فَوْقِهِمْ فَلَمْ يسْقُطْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ، فَإِنَّ السَّقْفَ قَدْ يسْقُطُ لَكِنْ عَلَى جَانِبِ الْإِنْسَانِ فَلَا يَتَأَذَى مِنْهُ كَثِيرًا، أَمَا إِذَا سَقُطَ مِنْ فَوْقِهِ، طَبَقَهُ، مِمَّا يُوْجِبُ هَلَاكَهُ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ أَى عَذَابِ الْهَلَاكِ تَحْتَ السَّقْفِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ إِذْ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ بِنْيَانَهُمْ قَوِيٌّ مُحْكَمٌ، فَكَانَ احْتِمَالُهُمْ لِلْهَلَاكِ مِنْ نَاحِيَةٍ خَارِجِيَةٍ غَيْرِ جِهَةِ بِنْيَانِهِمْ، فَإِذَا بِالْبِنَاءِ الَّذِي بَنَوْهُ لِيَكُونَ لَهُمْ مَلْجَأٌ وَمَحْتَمَى صَارَ قَبْرًا لَهُمْ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَبْنِي الْبِنَاءَ ثُمَّ يَحْبِسُ فِيهِ لِيَسْتَرِيحَ، لَكِنْ شَخْصًا يَأْتِي وَيُهْدِمُ الْبِنَاءَ مِنْ أَسَاسِهِ حَتَّى يَقَعَ السَّقْفُ عَلَى الْبَانِي، إِنَّ هَذَا مِثْلُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَهُمْ يَمَكُرُونَ لِإِخْمَادِ صَوْتِ الْحَقِّ، حَتَّى إِذَا ظَنُّوا أَنَّ مَكْرَهُمْ قَدْ اسْتَحْكَمَ وَأَنَّهُمْ يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ ظِلِّهِ، فَلَا يَلْفَحُهُمُ الدِّينَ، دَبَّرَ سَبْحَانَهُ مَا يَهْدِمُ مَكْرَهُمْ مِنْ أَسْأَلِهِ، فَإِذَا بِهِمْ يَنْكَشِفُونَ لِلْمَجْتَمَعِ بِصُورَتِهِمْ الْبَشَعَةَ، وَقَدْ تَعَالَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَعَلَا صَوْتُ الْحَقِّ، حَيْثُ ذَهَبَ الْكُفَّارُ وَمَكَائِدُهُمْ أُدْرَجَ الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ، وَكَثِيرًا مَا يَأْخُذُهُمْ عَذَابُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ إِنَّهُمْ غَافِلُونَ غَيْرَ شَاعِرِينَ.

[٢٨] هَذَا حَالٌ مِنْ مَكْرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا، أَمَا حَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ثُمَّ بَعْدَ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَيَذَلُّهُمْ وَيُفْضِحُهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ وَيَقُولُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الْمُوْهُومُونَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَهُمْ مَعِيَ وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي فِي الْخَلْقِ وَالْعِبَادَةِ وَسَائِرِ شُؤْنِ الْأُلُوهِيَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٠٩

[سورة النحل (١٦): آية ٢٨]

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)

الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ تَعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ أَى بِسَبَبِهِمْ فَإِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا يَعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ آلِهَةً، فَهُمْ لِأَجْلِ الْجَمَادَاتِ الصَّمِّ الْبِكَمِ كَانُوا يَعَادُونَ إِخْوَانَهُمْ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَلَا يَجِدُ الْكُفَّارَ جَوَابًا فَقَدْ تَكْشِفُ لَدَيْهِمُ الْأُمُورَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَهَذَا يَتَعَرَّضُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْجَوَابِ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأئِمَّةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالصَّالِحِينَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ الْفَضِيحَةَ وَالْعَذَابَ، فِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ لِزِيَادَةِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، فَإِنَّ الشَّمَانَةَ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ مَا لَا يُوْثِرُ الْعَذَابَ فِي الْجَسْمِ.

[٢٩] وَإِذْ رَأَيْنَا أَحْوَالَ الْكَافِرِينَ فِي دُنْيَاهُمْ حَيْثُ «أَتَاهُمُ الْعَذَابُ» وَفِي آخِرَتِهِمْ حَيْثُ لَهُمُ الْخِزْيُ وَالسُّوءُ، فَلِنَنْظُرَ إِلَى أَحْوَالِهِمْ حَالِ النَّزْعِ وَعِنْدَ الْإِنْتِقَالِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَهِيَ هِيَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ أَى تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ أَى فِي حَالِ كَوْنِ أَوْلَيْكَ الْكُفَّارَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، بِأَنَّ عَصَا فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالْهُوَانَ، وَالنُّونَ مِنْ «ظَالِمِي» مَحْذُوفٍ لِإِضَافَتِهِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ.

فَأَلْقُوا السَّلَمَ أَى أَظْهَرُوا أَوْلَيْكَ الْكُفَّارَ الْمَسَالِمَةَ، وَهُوَ تَشْبِيهِهُ بِمَنْ يَلْقَى شَيْئًا، لَكِنْ الْإِلْقَاءُ هُنَا مَعْقُولٌ كَمَا يَقَالُ «فَلَانٌ يَلْقَى الْخُطَابَةَ» فِي مَقَابِلِ الْإِلْقَاءِ الْمَحْسُوسِ نَحْوِ «أَلْقَى عَصَاهُ» ثُمَّ ... مَاذَا هُوَ السَّلَمُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٠

[سورة النحل (١٦): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)

الَّذِي يَلْقُونَهُ؟ إِنَّهُ قَوْلُهُمْ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ فَقَدْ أَنْكَرُوا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ كُفْرَهُمْ وَعَصِيَانَتَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَظَنُّوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَالْحُكَّامِ فِي الدُّنْيَا يَتِمَكَّنُ الْمَرَاوِغَ إِنْكَارَ مَا سَبَقَ مِنْ جَرْمِهِمْ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ إِنْكَارَهُمْ يَفِيدُهُمْ وَقَدْ تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَرَاوِغُ بِهِمْ حَتَّى فِي الْآخِرَةِ يَأْتُونَ

حالفين لله قائلين (وَ اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١» إذ يأتي الجواب (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ) «٢» و هنا عند قبض الروح يأتي الجواب بلى إنكم كنتم تعملون السوء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من المنكرات و المعاصي و الكفر و الشرك، و لا ينفعكم الإنكار.

[٣٠] فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ كُلَّ صَنَفٍ مِنْ بَابِهِ الْخَاصُ بِهِ خَالِدِينَ فِيهَا أَى فِي حَالِ أَنْكُمْ تَخْلُدُونَ فِيهَا وَ تَبْقُونَ هُنَاكَ أَبَدَ الْأَبْدِينَ فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ أَى بَسْ مَنْزِلَهُمْ، فَإِنْ مَثْوَى، مَحَلٌّ مِنْ «ثَوَى» بِمَعْنَى اتَّخَذَ مَحَلًّا وَ مَكَانًا، وَ قَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مُتَكَبِّرِينَ يَسْتَكْبِرُونَ وَ يَتْرَفُونَ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْأَحْكَامِ.

[٣١] وَ إِذْ رَأَيْنَا الْحَوَارِ بَيْنَ السَّائِلِينَ وَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ آخِرًا مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، فَلِنَنْظُرْ إِلَى الْمَحَاوِرَةِ بَيْنَ السَّائِلِينَ وَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ الْقَائِلَ لَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ أَوِ الْمَلَائِكَةُ أَوِ الْأُئِمَّةُ أَوْ نَحْوَهُمْ

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) الأنعام: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١١

[سورة النحل (١٦): آية ٣١]

جَنَاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)
 ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ هل أنه صدق أو كذب خير أم شر؟ قالوا فى الجواب أنزل خيراً فإن القرآن خير و سعادةً للدين و الآخرة، ثم يفصلون أنه كيف يكون خيراً، قائلين للذين أَحْسَبُوا الْإِيمَانَ وَ الْأَعْمَالَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً أَى لَهُمْ مِكَافَأَةٌ حَسَنَةٌ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ مُوجِبٌ لِاطْمِئْنَانِ الْقَلْبِ وَ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّهُ بِمَا يَقْرَرُهُ مِنَ الْمَنَاهِجِ يَضْمَنُ خَيْرَ الْإِنْسَانِ وَ سَعَادَتَهُ.

وَ لَمَدَارُ الْآخِرَةِ لِمَنْ آمَنَ وَ اتَّقَى خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، لِأَنَّ نَعِيمَهَا لَا يَشُوبُهُ الْكُدْرُ، وَ لَيْسَ لَهُ زَوَالٌ وَ اِضْمِحَالٌ بِخِلَافِ دَارِ الدُّنْيَا وَ لِنَعْمِ دَارِ الْمُتَّقِينَ أَى وَ الْآخِرَةِ نَعْمَ دَارِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكُفْرَ وَ الْمَعَاصِيَ، وَ هَذَا تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ «خَيْر».

[٣٢] جَنَاتٍ عَدْنٍ بَدَلٌ عَنِ «دَارٍ» وَ الْجَنَّةُ هِيَ الْبَسْتَانُ، وَ عَدْنٌ بِمَعْنَى الْخُلُودِ، مِنْ عَدَنَ بِالْمَكَانِ أَى أَقَامَ فِيهِ وَ مِنْهُ «الْمَعْدَنُ» لِأَنَّهُ الْمَقِيمُ فِي الْأَرْضِ يَدْخُلُونَهَا أَى يَدْخُلُ الْمُتَّقُونَ تِلْكَ الْجَنَاتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَ أَشْجَارِهَا لَهُمْ أَى لِلْمُتَّقِينَ فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ مَا يَشَاءُونَ مِنَ الْمَلذَّاتِ كَأَنَّهُ مَا كَانَتْ، أَمَا مَا يَسْتَحِيلُ فَإِنَّهُمْ لَا يَشْتَهُونَهُ كَذَلِكَ الَّذِي تَقْدَمُ مِنَ الْخُلُودِ فِي الْجَنَاتِ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَهُ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٢ إلى ٣٣]

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)
 الكفر و المعاصي.

[٣٣] هَذِهِ آخِرَةُ الْمُتَّقِينَ، وَ تِلْكَ دُنْيَاهُمْ، فَلِنَنْظُرْ وَقْتَ انْتِقَالِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، كَمَا نَظَرْنَا إِلَى حَالِ الْكُفَّارِ حَالَ الْانْتِقَالِ الَّذِينَ صَفَهُ «الْمُتَّقِينَ» تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَى تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ طَيِّبِينَ أَى حَالِ كَوْنِهِمْ طَيِّبِي الْقُلُوبِ وَ الْأَعْمَالِ، لَمْ يَظْلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ لَا أَحَدًا غَيْرَهُمْ يَقُولُونَ أَى تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فَانْتَمِ فِي سَلَامٍ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَ مَكْرُوهٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

فقد ورد أن من مات قامت قيامته، و أن القبر للمؤمن روضة من روضات الجنان

«١»، و لذا يصح أن يقال لهم حال الفزع ادخلوا الجنة.

[٣٤] وإذا تم السياق في المقابلة بين حال المؤمنين و حال الكافرين في الدنيا و عند الفزع و في الآخرة، رجع إلى الحوار مع المشركين و الاحتجاج عليهم و بيان عقائدهم و أقوالهم و أعمالهم هَلْ يَنْظُرُونَ أى هل ينتظر هؤلاء الكفار إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، إنه استفهام إنكارى، أى ما ينتظر هؤلاء الكفار شيئاً إلا الموت، فقد تمت عليهم الحجة، و بانت لديهم المحجة، فإنهم معاندون لا يستعدون للإيمان، و إنما ينتظرون أن تأتيهم ملائكة العذاب لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ

(١) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)

ياهلا-كهم بعذاب الاستئصال كذلك أى كفعل هؤلاء الذين لا يؤمنون حتى يموتوا أو يعذبوا فَعَلَ الكفار الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فإنهم لم يؤمنوا بالرسول، حتى جاء أمر الله ياهلا-كهم و تدميرهم و ما ظلمهم الله حيث أهلكهم و أرسل عليهم العذاب و لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بالكفر و العصيان و كان العذاب جزاء أعمالهم، كالقطع الذى يصيب السارق فإنه جزاء سرقة لا أن القاضى ظلمه.

[٣٥] فَأَصَابَهُمْ أى وصل إلى أولئك الذين من قبلهم من الكفار سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا أى عقاب أعمالهم و سمي العقاب سيئة لأنه يسيئ إلى الشخص، و للتجانس اللفظى كقوله سبحانه (وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) «١» وَ حَاقَ بِهِمْ أَحَاطَ بِهِمْ و وصل إليهم ما كانوا أى العذاب الذى كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أو المراد نتيجة استهزاءهم و عاقبة سخرتهم.

[٣٦] ثم يأتى السياق لبيان مقوله جديدة من مقالات المشركين، إنهم فى هذه المرة يتفلسفون ناسبين كفرهم و أعمالهم السيئة إلى إرادته سبحانه وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بَأْنِ جَعَلُوا مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ وَ لَا نَتَّخِذَ مَعَهُ شَرِيكًا مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ مِنْ

(١) الشورى: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٤

الأصنام و الأوثان، فإننا حين نرى أننا عبدناها علمنا أن الله أراد عبادتنا لها، إذ لو لم يرد عبادتنا لها لمنعنا عن ذلك بالجبر. نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا بَدَلِ عَنِ الضَّمِيرِ فى «عبدنا» أى لم نكن نعبد نحن و آباءنا، الأصنام لو لم يرد الله وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ أى لو شاء الله عدم تحريمنا للسابئة و البحيرة و غيرهما لمنعنا عن ذلك، فلم نكن لنحرم شيئاً من دون إرادته و رضاه، فقد اعتقدوا الخرافة و عملوا المعاصى، و نسبوها إلى الله سبحانه حين قيل لهم أنهم على باطل و أن أعمالهم توجب السخط و العقاب كَذَلِكَ أى كفعل هؤلاء فى الكفر و العصيان و نسبة أعمالهم إليه تعالى فَعَلَ الكفار الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و إنما قال «فعل» مع أن الاعتقاد ليس فعلاً؟

للتغليب، أو لأن الكلام كان فى العبادة، و هى فعل، و لقد كان كلامهم من السخافة بحيث لا يستحق الجواب، فهل سبحانه يجبر أحداً على عمل؟ إنه خلاف العقل و الوجدان، و إلا لارتفعت جميع القوانين و لكان المجرم كالمحسن، و بطلت الحكومات و الأقضية فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ استفهام إنكارى، أى ليس على الرسول إلا- أن يبلغوا أوامر الله سبحانه بكل جلاء و وضوح ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حى عن بينة، و إن هذا هو اللازم فى اللطف أن يعث الله رسولا مبيناً، أما أن يمنع العاصى بالجبر و الإكراه فإنه خلاف العقل و البرهان، و إلا كان الإنسان كآله صماء لا فرق بينه و بين الحديد المسير فى جهاز متحرك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٥

[سورة النحل (١٦): آية ٣٦]

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦)

[٣٧] وكيف يشاء سبحانه الكفر والمعاصي، والحال أنه قد بعث الأنبياء والرسل لإرشاد الناس وهدايتهم وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا كَمَا بَعَثْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى هَؤُلَاءِ، ليقول لهم الرسول أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ أي لا تطيعوه، والمراد بالطاغوت، الشيء الكثير الطغيان من شيطان أو إنسان أمر بالقيح، ويستعمل الطاغوت في الآلهة الحجرية مجازاً بالمشابهة، لأنها تعبد كما يعبد الرؤساء والشياطين كما قال سبحانه: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا) «١» فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ أي هداه سبحانه إلى الإيمان بأن لطف به الألفاظ الخفية حتى استقام على الطريق بعد أصل الإيمان وقد كان ذلك بمعنى الهداية المتوسطة بين الهداية التي هي إرائة الطريق، والهداية التي هي الإيصال إلى المطلوب، فإن الإنسان إذا أراه الله سبحانه الطريق فسار عليه، لطف به ألفاظاً خفية، كما قال سبحانه: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) «٢» وَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ الْأُمَمَ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ أي ثبتت عليه وألزمته، لأنه أعرض عن الرشاد فانحرف حتى صارت الضلالة من ملازماته فسببوا أيها الناس فِي الْأَرْضِ إِلَى هُنَا

(١) التوبة: ٣١.

(٢) العنكبوت: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٦

[سورة النحل (١٦): آية ٣٧]

إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

و هناك لتعتبروا بآثار الأمم السابقة فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ الذين كذبوا الرسل، فإنكم ترون بلادهم خالية وآثارهم دارسة، وقد جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد كما قال سبحانه: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) «١» ومن غريب الأمر أنا نرى ذلك في غالب البلاد والأصقاع فعندنا خرائب «بابل» و «سامراء» و أطراف «الطاق» ببغداد.

[٣٨] و إذ قد جرت سنة الله سبحانه أن يترك الضال في غوايته لا يلفظ به الألفاظ الخفية، كما كان سابقاً حال الأمم الخالية كذلك فهذه الأمة أيضاً كذلك إن من ضل و حاد عن الطريق لا ينفعه اهتمام الرسول بإيمانه ف إن تَحَرَّصَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ تَتَبَّعَ نَفْسَكَ عَلَى هُدَاهُمْ أي على أن يهتدوا و يؤمنوا فَإِنَّ حَرَصَكَ لَا يَنْفَعُ إِذْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ أي لا يلفظ بمن تركه ليضل - كما شاء هو - بعد أن أراه الطريق فلم يقبل، كالأب الذي لا يعتنى بولده إذا رآه لا يطيع أوامره، فنقول لمن حاول الإصلاح بينهما: لا تفعل فإن الأب لا يلفظ بهذا الذي تركه و لم يعتن له و ما لَهُمْ أي لأولئك الضالين مِنْ نَاصِرِينَ ينصرونهم و يخلصونهم من عذاب الله و انتقامه.

(١) الدخان: ٢٦-٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٧

[سورة النحل (١٦): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

وَ أَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَاءٌ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)

[٣٩] ولقد كان الكفار ينكرون البعث و يجادلون لنتفيه، و حيث يعجزون عن الإتيان بالحجة يلتجئون إلى الحلف، كشأن العاجزين في مقام الاحتجاج و الدليل و أقسموا بالله أى حلف هؤلاء الكفار بالله سبحانه جهداً أيمنهم مجتهدين في أيمنهم قد بلغوا في اليمين مبلغ التأكيد بما قدروا عليه، فإن «جهد» مصدر وضع موضع الحال، و التقدير «يجتهدون اجتهداً في أيمنهم» مثلاً قالوا «و اللات و عزي مناه و كل مقدساتنا ..» لا يبعث الله من يموت أى لا يحييه للحساب و الكتاب و الجزاء، و قد كذبهم سبحانه بقوله بلى ليس الأمر كما تقولون بل يبعثهم الله جميعاً، و قد وعد الله ذلك و عيذاً يكون ذلك الوعد عليه أى على الله حقاً ليس له خلف، فإن المخلف لا يكون إلا جاهلاً أو عاجزاً أو خبيثاً و الله سبحانه منزه عن ذلك كله و لكن أكثر الناس لا يعلمون البعث، لكفرهم بالله، و عدم إيمانهم بالأنبياء المخبرين.

[٤٠] و إنما يبعث الله الخلائق، و يحشرهم للجزاء و إلا لكان ظلم الظالم الذى لم ينتقم منه فى الدنيا خلاف عدله سبحانه، فإنه كيف أمكن الظالم من الظلم و هو قادر على دفعه، بلا جزاء شىء للظالم، و لا جزاء حسن للمظلوم، و فى يوم الجزاء يبين الله لهم أى للناس الذى يختلفون فيه من العقائد و الأعمال، فيقول عمل فلان كان حقاً، و عمل فلان كان باطلاً، و هكذا، و البيان، كناية عن الجزاء،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٠ الى ٤١]

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُؤَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)

لأنه إنما يقع بعد البيان، كما تقول للمجرم: سأعلمك غداً، تريد إنك تجزيه بإجرامه و ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فى كفرهم بالله، و إنكارهم للبعث، و جحدهم الأنبياء، يعلمون كذبهم فيجازون عليه.

[٤١] و لقد كان أكبر حجج المنكرين للبعث أنه غير ممكن، فكيف يمكن أن تعود العظام الرميم إنساناً سوياً؟ (قال من يحيى العظام و هي رميم) «١»؟

و لذا ردهم سبحانه بقوله: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَإنا نخلق الأشياء بمجرد الإرادة التى تجلو فى كلمة «كن» و بمجرد هذا القول يكون ذلك الشىء المراد، فكيف لا نقدر على إحياء الأموات، و قد كان خلق الإنسان ابتداءً أصعب- فى نظر الناس- من إعادته، فهل نقدر على ذلك الأصعب و لا نقدر على الأسهل؟

[٤٢] أولئك الكفار تلك معتقداتهم و أعمالهم و جزائنا لهم و أما المؤمنون ف الذين هاجروا ديارهم و بلادهم فى الله أى فى سبيل الله و لأجل أمره و ابتغاء مرضاته فرارا بدينهم من بعد ما ظلموا ظلمهم الكفار، كما كان أهل مكة يظلمون المسلمين و يؤذونهم، فهاجر قسم منهم إلى الحبشة و قسم إلى المدينة لنبؤنهم أى نعطيهم ميوء و منزلاً، نحو

(١) يس: ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢١٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) (وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) «١» فِي الدُّنْيَا دَارًا حَسَنَةً يَسْكُنُونَ فِيهَا بِكُلِّ هُدُوءٍ وَ اطمئنان.

و لأجراً الآخرة لهم جزاء أن ظلموا أو شردوا أكبر من حسنة الدنيا لو كانوا يعلمون أى لأوصل عملهم إلى ما أعد الله لهم فى الآخرة، لعرفوا أن ذلك الأجر خير من أجر الدنيا، و إنما جىء بهذه الجملة لبيان أنهم مع إيمانهم بالبعث لا يعلمون ما أعد الله لهم من الأجر

و الثواب، و إنما يعتقدون بذلك إجمالاً،

ورد أن هذه الآية نزلت في المعذبين بمكة، مثل صهيب و عمار و بلال و خباب و غيرهم مكنهم الله بالمدينة و قد ذكر أن صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم أنفعكم و إن كنت عليكم لم أضركم فخذوا مالي و دعوني فأعطاهم ماله و هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

[٤٣] ثم وصف سبحانه الذين هاجروا بقوله الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى الْإِيمَانِ، و على أذى المشركين لهم و على رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ يفوضون أمورهم إليه، و يكونون شؤونهم إلى جنابه سبحانه، و لعل الإتيان بفعل المستقبل لإفادة استمرارهم في التوكل، و إن انقضى صبرهم الذي صبروه على أذى الكفار قبل الهجرة.

[٤٤] و إذ قابل السياق بين الكفار و المؤمنين، رجع إلى الاحتجاج مع الكفار، فقد كانوا ينكرون أن يكون الرسول بشراً فقال سبحانه

(١) الحج: ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٠

[سورة النحل (١٦): آية ٤٤]

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

و مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إلى الأمم الماضية إلا رجالاً من البشر، لا ملائكة و لا جنات نوحى إليهم فهم بشر كسائر البشر في الخلقة و الطبيعة إلا- أنهم، يمتازون بالوحى، و هذا لا- ينافى كونهم أعلى درجة من سائر الناس بفطرتهم، فإن الكلام في مقابل الملائكة و الجن فَشِئَلُوا أَيُّهَا الْمُنْكَرُونَ لبشريه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أهل الذكر أى أهل الكتاب عن أنبياءهم هل كانوا بشراً أم غير بشر؟.

إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ إنهم كانوا بشراً أم لا و ما ورد في الأحاديث من أهل الذكر هم آل محمد عليهم السلام فالمراد أنهم من المصاديق الظاهرة لأهل الذكر الذين يجب الرجوع إليهم، حيث يستفاد من الآية قاعدة كلية عقلانية مقررّة في الشريعة، هى سؤال أهل العلم عما لا يعلمه الإنسان، و بطبيعة الحال يجب أهل الذكر أن من أرسل سابقاً كانوا بشراً، حتى المسيحيون المألّهون ليعسى عليه السلام لا ينكرون بشريه سائر الأنبياء كآدم و موسى و إبراهيم عليهم السلام و غيرهم.

[٤٥] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ متعلق ب «نوحى إليهم» أى كنا نوحى إلى الأنبياء عليهم السلام السابقين بالأدلة البينة الواضحة، و الزبر «الكتب المتفرقة» من زبر بمعنى كتب، أو متعلق بأرسلنا، أى «ما أرسلنا بالبينات و الزبر إلا رجالاً» و أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الذِّكْرَ أى القرآن كما أنزلنا إلى الأنبياء من قبلك، و إنما سمى القرآن بالذكر لأنه مذكر بالله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦)

سبحانه، بعد ما نسيه الإنسان، و الذكر يشير إلى ما أودع في فطرة الإنسان من معرفته سبحانه لئيبين للناس ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ من الأدلة على المعارف، و ما فرضه سبحانه عليهم من الأحكام و لعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أى لكى يتفكروا فى الآيات الكونية، فإن الإنسان إذا ألفت إلى شىء أخذ يتفكر حوله، و الحاصل إن الإنزال لسببين تبيينك للناس، و تفكرهم.

[٤٦] ثم يعد سبحانه المشركين و العاصين بالعذاب إن تمادوا فى كفرهم و غيهم أفأمن الذين مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أى عملوها، و المراد دبّروا المكائد لإخماد صوت النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و هدم الإسلام أن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ كما خسف بقارون و

الاستفهام تهويلي جيء لبيان أنه يلزم عليهم أن يحتملوا ذلك أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون بإنزال صاعقه عليهم، أو غلبه النبي عليهم في حرب فجائية، فيقتلون ويؤسرون.

[٤٧] أو يأخذهم الله في ثقلهم أي في حالة من حالات تحولهم من هنا إلى هناك، أو من عمل إلى عمل، في ليل أو نهار، بأن يميتهم موت فجأة فما هم بمعجزين لا يتمكنون من تعجز الله حتى لا يقدر عليهم، فإنه سبحانه لا يمتنع عليه شيء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٢

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم (٤٧) أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفتنوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون (٤٨)

[٤٨] أو يأخذهم على تخوف منهم أي في حال يقظة و حذر، فإن التردد و الحذر لا ينفع في الفرار من عذاب الله سبحانه فإن ربكم أيها البشر لرؤف بكم رحيم حتى بالعاصين أنه مع قدرته لا يفعل بكم ذلك لكي تتوبوا و تعودوا، فإن قطعتم الصلة تماما، و ما بقى فيكم رجاء عود، فإن هناك يحل العقاب و لا يفيد كونكم من حضر، أو سفر، في غفلة أو تخوف، و من غريب أمر الإنسان أنه مع ما يرى من أحوال الأمم السابقة و ما يحل بمن حوالبه من العذاب و النكال، يسدر في غيبه و لا يرعى عن ضلاله و إثمه! [٤٩] إن كل ما في الكون يوحى بالإيمان فكيف لا يؤمن هذا الإنسان؟ و كل ما في الكون يوحى بقدره الله و إرادته الشاملة، فكيف لا يخاف الإنسان قدرته و بطشه و يسدر في غيبه؟ أو لم يروا أي أليس قد رأى هؤلاء الكفار إلى ما خلق الله من شيء من حجر أو شجر أو إنسان أو حيوان أو غيرها يتفتنوا من الفيء، و هو الظل الراجع بعد ما فنى بالشمس، فالظل بعد الظهر يسمى فيئا، و قبل الظهر لا يسمى ذلك ظلاله أي ظل ما خلق الله من شيء، يعني يتراجع ظل كل شيء عن اليمين و الشمائل أي عن الطرفين، فهذا ظل يمتد و يتناول نحو اليمين فيما إذا طلعت الشمس، و ذلك ظل يمتد و يتناول نحو اليسار فيما إذا مالت الشمس عن دائرة نصف النهار، و مشهد الظلال مشهد مثير يوحى بمعنى الحياة المتحركة، فالظل يمتد و يتقلص و ينعدم دلالة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٣

على حركة الكون دائما سريعا، فمن يا ترى سخر هذا المتحرك ليسير من هنا و هناك؟ أو ليس هناك إله له؟ أو ليس أن الإله الذي يحرك هذا الفلك العظيم و سيع القدرة و يقدر على كل شيء؟

و لعل ذكر «اليمين» مفردا و «الشمائل» جمع «شمال» جمعا، لنكتة معنوية هي أن الخير من جنس واحد، فهو كالواحد، دون غيره فهو كأجناس، فاليمين لأنه أشبه بالخير جاء مفردا، و الشمال لأنه أشبه بمقابله جاء جمعا، كما قال سبحانه: (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) «١» و (يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) «٢» و كما نشاهد من أن الراحة شيء، و الأتعاب أشياء، و الصحة شيء و الأمراض أقسام، أو لأن الفيء دائما يفيء نحو الشمال، فإن الشمس إذا طلعت وقع لكل شاخص ظل طويل نحو المغرب، فيأخذ في النقصان قليلا قليلا، إلى أن يبلغ ناحية المشرق و هكذا يرجع حتى تغرب الشمس فكل هذا حركة للظل نحو الشمال، فالحركة نحو اليمين مرة واحدة و نحو الشمال طول اليوم سجداً جمع ساجد، أي أن تلك الأشياء كلها بظلالها خاضعة لله كما قال سبحانه في آية أخرى: (وَ ظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) «٣» و الخضوع هو السجود ففي الإنسان بشكل و في غيره بشكل آخر و هم داخرون أي خاضعون كمال الخضوع من دخر، بمعنى صغر و خضع.

فإن السجود قد يكون مع كمال الصغار، و قد يكون بدونه، و إنما

(١) المائة: ١٧.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

(٣) الرعد: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤٩ إلى ٥٠]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَشْتَكِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

جىء بجمع العاقل لوجود العقلاء فيهم فالتغليب أوث ذلك، لأنه حيث وصفهم بالسجود الذى هو فعل العقلاء ناسب الإتيان بجمع العاقل، أو لأن الأشياء تعقل وإن لم يكن لها كعقول البشر، كما قال سبحانه: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) «١» [٥٠] وإذ ذكر سبحانه إن الأشياء بظلالها تسجد لله تعالى، بين سجود الأحياء بصورة خاصة، تخصيصاً بعد التعميم لأهميتها، وربما يقال أن «سجداً» فى الآية السابقة ترجع إلى الظلال، فيما فى هذه الآية ليس تأكيداً بل تأسيساً وَلِلَّهِ يَسْجُدُ أى يخضع غاية الخضوع ما فى السَّمَاوَاتِ من الطيور ونحوها وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ تدب فى الأرض أو فى البحر، فإن «دب» بمعنى مشى، و السباحة نوع من المشى وَالْمَلَائِكَةُ يسجدون لله، فما بال الإنسان لا يسجد لله سبحانه فى هذا الجو الذى يسجد له كل جماد و نبات و حيوان و ملك؟

وَهُمْ أَى أَنْ الْمَلَائِكَةَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ فى سجودهم لله.

[٥١] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَالْإِتْيَانُ بهذا البيان زيادة فى الخوف، فإن خوف الشخص بما يصيبه من فوقه أكثر، فهم يخافون عقاب الله أن يشملهم من فوقهم، و أما لبيان أن الخوف من الله الذى هو فوقهم - فوقاً منزلياً لا - مكانياً - و من المعلوم أن الخوف من ذى الرتبة العالية

(١) الإسراء: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥١ إلى ٥٢]

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِذَا تَوَلَّى فَرَغْتَ مِنْهُ فَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ لَعَلَّكَ تَنْتَفِعُونَ (٥٢)

أكثر من المساوى ونحوه وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ فليس امثالهم خاصاً بالسجود، بل إنهم يفعلون كل ما يأمرهم به سبحانه، و على هذا فخوفهم من عظمته سبحانه، فإن الشخص يخاف العظيم و يهابه، و إن عرف أنه لا - يعذبه و لا يؤذيه، أو أن خوفهم من أن يعصون فيعاقبهم، كما عوقب «فطرس».

[٥٢] و إذ تحقق خضوع الكون لله الواحد، فما بال هؤلاء الكفار المشركين يتخذون آلهة متعددة وَقَالَ اللَّهُ بلسان أنبيائه عليهم السلام و أصفياؤه، للبشر لا - تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ هذا نهى عن أقل التعدد، و المراد به المثال، فالأكثر لا يصح بطريق أولى، و لأن من أخذ الأ- أكثر فقد أخذ الإ-ثنيين، و لا - مفهوم للتعدد هنا من حيث الزيادة، بل من حيث النقيضة، و جىء باثنين للاتساق مع قوله إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ لا شريك له فَإِذَا تَوَلَّى فَرَغْتَ مِنْهُ الرهبة هو الخوف، أى خافوا منى وحدى، و تقديم «إياى» لإفادة الحصر.

[٥٣] و كيف تتخذون آلهة متعددة وَ الْحَالُ أَنْ لَهُ وَحْدَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَالكل ملكه و من خلقه ظرفاً و مظروفاً، و قد تقدم أنه قد يطلق الظرف و يراد به الأعم، كما قد يطلق المظروف و يراد به الأعم و له وحده الدِّينُ أى الطريقة التى يتبعها الإنسان لسعادته و اصیباً من و صب، بمعنى دام و وصل، أى واصلاً من السابق إلى هذا الوقت، فلا دين صحيح إلا دينه، أو المراد بالدين «الجزاء» أى أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

الجزء بيده نحو «مالك يوم الدين» دائما، فليس الجزء بيد غيره، فهو إله واحد، و مالك واحد، و الدين له وحده فكيف تتخذون إليها غيره و تجعلون له شريكا؟ و بعد هذا كله أ فغير الله من الأصنام و شبهها تتقون و تخشون أيها المشركون، و هو استفهام استنكارى للتوبيخ و التقرير.

[٥٤] ثم بعد مقام الألوهية و الملكية و الدين و مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ أى أن جميع ما يرتبط بكم من النعم إنما هو من الله سبحانه وحده، فله النعم وحده- أيضا- ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ و نزل بكم الضر من خوف أو مرض أو فقر أو شدة فإليه سبحانه- وحده- تَجْتَرُونَ أى تتضرعون لكشفه و إزالته، فهو وحده كاشف ضركم، أيضا، فأين تذهبون باتخاذ غيره إليها؟

[٥٥] و بعد ذلك كله إن الإنسان لمشرك كفور ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ أى دفع الضر الذى وصل إليكم، و حيث أن الضر كأنه شىء يحيط بالإنسان، عبّر عن دفعه بالكشف، فكان الإنسان مستور تحته ثم يظهر، إذا رفع عنه إذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ فجاءه و من غير ترقب، جماعة منكم أيها البشر بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ يجعلون له شريكا.

[٥٦] إنهم يشركون لمقابلة نعمتنا بالكفران، من باب «اتق شر من أحسنت إليه» و «يجزى كما يجزى سنمار» إنهم يشركون لِيَكْفُرُوا اللام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٧

[سورة النحل (١٦): آية ٥٦]

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)

للمقابلة أى أن شركهم لقصدهم الكفر بما آتيناهم أى أعطيناهم من النعم، كأنهم لا غرض لهم إلا مقابلة النعم بالكفران فَتَمَتَّعُوا أيها الكفار، تلذذوا بمتاع الحياة و هو أمر قصد به التهديد و الوعيد فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة أعمالهم، فى القبر أو القيامة، أو فى الدنيا، فإن الانحراف عن مناهج الله سبحانه يوجب الدمار و الانهيار.

[٥٧] إن الانحراف فى عقيدة هؤلاء المشركين أوجب الانحراف فى عباداتهم و سلوكهم الاجتماعى، فهم يجعلون لغير الله بعض ما رزقهم الله سبحانه، فيندرون للأصنام، كما يندون البنات خوف العار فهم يعبدون غير الله، و يندرون لغير الله، و يخرقون منهاج الله وَ يَجْعَلُونَ أى يجعل هؤلاء المشركون لِمَا لَا يَعْلَمُونَ أى لما لا يعلم المشركون بواقعه و حقيقته- الأصنام- فضمير الجميع للمشركين، و عائد «ما» محذوف، أو المراد «للأصنام التى لا تعلم هى» و جىء بلفظ العاقل لها، تماشيا مع زعم المشركين أنها تعقل، و قد تكرر مثل ذلك فى القرآن الحكيم نَصِيْبًا و قسما مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ من الأنعام و الحرث فقالوا هذا لله بزعمهم و هذا لشركائنا و عجيب أن يجعل رزق الله لغير الله، فقد كانوا يتقربون إلى الأصنام بالذباح و الندورات تَاللَّهِ أى و الله و «التاء» تأتى لقسم يستغرب فيها لَتَسْتَلْنَ أيها المشركون فى الآخرة عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ فإنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٍ (٥٨)

كانوا ينسبون أعمالهم إلى الله سبحانه كما قال سبحانه فى آية أخرى:

(أَلَلَّهُ أَذُنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) «١»؟

[٥٨] وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ فكان المشركون يقولون إن لله البنات سُبْحَانَهُ إنه منزّه عن ذلك، منصوب بفعل مقدر أى أسبحة سبحانه وَ

لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ أى يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الأولاد البنين دون البنات، فهم يرون أن من نصيبهم الذكور، و من نصيب الله البنات، و هذا تجرؤ مزدوج: جعل الأولاد لله و كونهم بناتا، بينما أن الذكور من حصتهم و حدهم- فى زعمهم- [٥٩] و إلى أى حد أنهم يكرهون البنات- التى جعلوها الله سبحانه- إلى حد أنه إذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ بَأَن تات امرأته الحامل بمولود مؤنث، و هى بشارة حقيقية، فإن الأولاد بنين و بنات نعم من عند الله سبحانه ظَلَّ أى استمر من ذلك الوقت إلى الليل، فإن ظل بمعنى بقى إلى الليل وَجْهَهُ مُسَوِّدًا أى مائلا- إلى السواد، من كثرة الكراهية و الغضب، فإن الإنسان إذا غضب غضبا شديدا توجه الدم الكثير نحو خارج بدنه، يحمل معه الروح، لدفع ذلك المكروه، و حيث أن جلد الوجه رقيق تظهر آثار الدم المتراكم عليه، و لون الدم لدى التراكم مائل إلى السواد وَ هُوَ كَظِيمٌ أى ممتلى غيظا و غضبا، لكنه يكظم غيظه، لما لا يجد له منفذا.

(١) يونس: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٢٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا- سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

[٦٠] يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ أى يستتر من أهله و عشيرته حياء و خجلا مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ من ولادة البنت له، و يأخذ يتفكر فى أمر البنت أ يُمْسِكُهُ أى هل يبقى المولود- البنت- على هُونٍ أى ذل و هوان، لنفسه، أو للبنت أَمْ يَدُسُّهُ أى يدفن المولود- البنت- حيا فى التُّرَابِ فقد كانوا يدفنون البنات و يقولون نعم الصهر القبر، و لهم فى ذلك قضايا، و إليه الإشارة بقوله سبحانه: (وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) «١» ألا فليتنبه السامع ساء ما يَحْكُمُونَ أى بشس الحكم حكم هؤلاء بأن لله البنات- التى يكرهونها هذه الكراهية الشديدة- و لهم البنين- و حدهم لا يشركهم فيهم الله سبحانه- كيف اختاروا له الشئ القبيح- فى نظرهم- و لهم الأفضل؟

[٦١] لقد كان الكفار يجعلون الله سبحانه مثلا للشخص القبيح- فى نظرهم- فهو أب البنات، و يجعلون أنفسهم مثلا للشخص الحسن، فهم آباء البنين، و لكن الواقع بخلاف ذلك و لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ و هم المشركون الذين لا يؤمنون بالتوحيد- للتلازم بينهما- و قد كان عدم إيمانهم بالجزاء على أعمالهم السيئة و أقوالهم القبيحة جرأتهم على ما يقولون و ينسبون إليه سبحانه من اتخاذ البنات مَثَلُ السُّوءِ فإن الإنسان السىء عقيدة و عملا يمثل له بالمثل السيئ فيقال عن اليهود-

(١) التكوين: ٩ و ١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٠

[سورة النحل (١٦): آية ٦١]

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)

مثلا:- كمثل الحمار، و عن بلعم: كمثل الكلب و لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ كالتور، فى (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ) «١» فإن أعلى الأمثلة الخيرة الجميلة له سبحانه، لأنه المنزه عن كل دنس و هُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ الذى لا يمتنع عليه شئ العاكيم فى أفعاله، فعدم أخذه لهؤلاء الكفار عاجلا، إنما هو بمقتضى الحكمة، لا لأنه عاجز لا يقدر.

[٦٢] إن الله سبحانه بحكمته يمهل العاصين لعلمهم يرجعوا، و من علم أنه لا يرجع فإنه يمهله لئتم عليه الحجة و يأتى الوقت المحدد له حسب الحكمة البالغة و لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ بِأَنْوَاعِ الْعِقَابِ النَّاسَ الْعَاصِينَ بسبب ظلمهم بالكفر و العصيان ما تَرَكَ عَلَيْهَا أى على الأرض-

المعلوم من السياق- مِنْ دَائِبَةٍ تَدِبُ إِذَا هَلَكَ الْإِنْسَانُ فَلَأَنَّهُ ظَلَمَ وَ إِجْرَامًا، وَ إِذَا هَلَكَ سَائِرُ الدَّوَابِّ فَلَأَنَّهَا خَلَقَتْ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ «كما في الحديث القدسي: خلقت الأشياء لأجلك و خلقتك لأجلي»

فإذا هلك الأصل هلك الفرع، أو المراد بالدابة «الإنسان الظالم» و التعبير ب «ما» عنهم للإهانة، و العموم المقصود هو الإنسان- على هذا- لأنه هو محور الكلام، و من القاعدة أن العموم ينصب على المحور، فإذا قال الصياد: ليس في هذه الصحراء شيء، أراد ما يصاد- لا الحطب- بخلاف ما لو قال الحطاب: ليس فيها شيء، فإنه يريد الحطب- لا الصيد- وَ لَكِنْ لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ

(١) النور: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣١

[سورة النحل (١٦): آية ٦٢]

وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنََّّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢)

الظالمة بل يُؤَخِّرُهُمْ أَي يُؤَخِّرُ إِهْلَاكَهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَدْ سَمِيَ عِنْدَهُ، أَي يمهلهم إلى وقت سماه و أجل حدّه، و هو الوقت المضروب لهلاكهم و موتهم.

فإذا جاء أَجْلُهُمْ أَي وقت هلاكهم لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً لَا يَطْلُبُونَ التَّأخِيرَ- لعلمهم بأنه لا يفيد- و المراد بالساعة، المدة من الزمان قليلة كانت أم كثيرة وَ لَا يَسْتَيْقِدُمُونَ لَا يَطْلُبُونَ تَقْدِيمَهُ، فَإِنْ كَانَ وَقْتُ هَلَاكِهِمُ السَّاعَةَ الرَّابِعَةَ فَجَاءَ أَجْلُهُمْ لِيَصِلَ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، لَا يَتَقَدَّمُ بَأَن يَمِيتُهُمْ فِي السَّاعَةِ الثَّلَاثَةِ، وَ لَا يَتَأَخَّرُ بَأَن يَمِيتُهُمْ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ- وَ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ سَابِقًا.

[٦٣] وَ يَجْعَلُونَ أَي يجعل هؤلاء المشركين لله ما يكرهون كالبنات و الشركاء و أمثال ذلك مما يكرهونه هم بأنفسهم، فقد كانوا يكرهون البنات و يكرهون الشركاء وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَي تخبر ألسنتهم بالكذب، في نسبة الحسن- أي البنين- إلى أنفسهم، و إنما قال «و تصف ألسنتهم» للإشارة إلى أن وصفهم لفظي لا- عمقي فهم لا- يعتقدون بذلك عن صميم القلب و إنما ذلك لفظ يقولونه- تقليدا و بلا حجة- أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى هَذَا بَدَلٌ عَنِ «الْكَذِبِ» أَي أَنَّ قَوْلَهُمْ لَنَا الصِّفَةُ الْحَسَنَى- وَ ذَلِكَ أَنَّ لَنَا الْبَنِينَ- كَذِبٌ وَ صِفَتُهُ أَلْسِنَتُهُمْ. وَ كَانَ تَسْمِيَةُ ذَلِكَ وَ صِفَا بَاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ أَبُ الْبَنَاتِ، وَ نَحْنُ آبَاءُ الْبَنِينَ، فَكُنَّا كَانُوا يَصِفُونَهُ سَبْحَانَهُ بِمَا هُوَ قَبِيحٌ لَدَيْهِمْ، وَ يَصِفُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٢

[سورة النحل (١٦): آية ٦٣]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَ لِيَهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)

أنفسهم بصفة هي حسنة لديهم، و إنما ذكر ذلك بعد ما سبق من قوله سبحانه «وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ» لأمرين: الأول: إن هذا عام يشمل البنات و غيرها.

و الثاني: لترتيب الحكم عليهم بالنار لمقاتلتهم هذه- هنا- لا جرم أي حقا، و من هذه الجهة- و قد تقدم تفصيل هذه الكلمة- أَنَّ لَهُمُ النَّارَ جَزَاءً لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ وَ نَسَبْتَهُمْ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَ أَنََّّهُمْ مُفْرَطُونَ أَي معجلون إلى النار، يلاقونها سريعا، من الفرط بمعنى ما يسبق،

ففي الدعاء على الطفل الميت: «اللهم اجعله لأبويه و لنا سلفا و فرطا و أجرا»

و قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: «إني فرطكم على الحوض» (١)

[٦٤] و القوم ليسوا بأول أمة كذبت و عصت، فقد كانت عادة الأمم السالفة أن تكفر و تأثم- و كان هذا تسليية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لما يلاقيه من تكذيبهم و أذاهم- تَاللَّهِ التاء للقسم، و هي كثيرة الإتيان في الأمر المستغرب لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا إِلَى أُمَّمٍ مِنْ

قَتِيلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخَالَفُوا الرسل و لم يطيعوا و زين لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فكان الكفر و الانحراف في نظرهم أحسن من الإيمان و الاستقامة، فتركوا الرسل و اتبعوا الشيطان فَهُوَ وَ لِيَهُمْ أَى أن الشيطان متولى أمورهم و هم يتبعونه اليَوْمَ في الدنيا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه في

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦٤ إلى ٦٥]

وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)

الآخرة، و يتبرأ كل من الشيطان و تلك الأمم بعضهم من بعضهم إذ يقول لهم (فلا تلوموني و لو لموا أنفسكم ما أنا بمضيركم و ما أنتم بمضري) «١» و قوله «اليوم» و قد انقضى ذلك اليوم- إذ الكلام حول الأمم السالفة- من باب حكاية حال ماضية، نحو (و كذبهم باسط ذراعيه بالوصيد) «٢» [٦٥] و هناك تليسات من الشيطان و اتباع له، منهم المشركون الذين جعلوا الله البنات، و منهم أهل الكتاب الذين ضلوا، فإنزال هذا الكتاب للفصل بين قضاياهم و بين الحق من الاختلافات، هل هو مع إحداها أو مخالف للجميع؟ و ما أنزلنا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ أَى القرآن إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ أَى للناس- المفهوم من السياق- الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فمثلا اختلفوا في التوحيد و الشرك، و كون الله أبا أم لا، و إنه جسم أم ليس بجسم، و إن الشيء الفلاني حرام أم حلال؟ و هكذا وَ هُدًى أَى أن القرآن يهديهم إلى الحق، بالاضافة إلى بيان الحق من الاختلافات وَ رَحْمَةً سببا للرحمة فإن من تمسك بالقرآن رحمه الله سبحانه و تفضل عليه بالغفران و النعمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنهم هم المستفيدون، و إن كان فيه صلاحية الهداية و الرحمة لكل البشر.

[٦٦] ثم يرجع السياق إلى تعداد نعم الله الدالة على وجوده و علمه و قدرته و لطفه و سائر صفاته وَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جَهَّةِ الْعُلُوِّ

(١) إبراهيم: ٢٣.

(٢) الكهف: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٤

[سورة النحل (١٦): آية ٦٦]

وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَوْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)

ماء أَى المطر فأخيا به أَى بذلك الماء الأرض بعد موتها فإن موت الأرض جديها و عدم النبات و حياتها الخصب و النبات، و إنما سميت حياة لأن الأرض عند نزول المطر تشتغل و تعمل و هما من آثار الحياة بخلاف الأرض حين انقطاع المطر فهي جامدة راکدة إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِحْيَاءَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَآيَةً حُجَّةً وَ بَرهَانًا لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تفهم و تعقل، فإن السماع كثيرا ما يكون كناية عن ذلك، بعلاقة السبب و المسبب.

[٦٧] وَ إِنَّ لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ فِي الْأَنْعَامِ الْإِبِلِ وَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ لَعِبْرَةً أَى عظة و اعتبار كأن الإنسان يعبر من الجهل و الضلالة- بسببها- إلى العلم و الهدى، كالذى يعبر من هذا الشاطئ إلى ذاك، و إنما كانت عبرة لأنها تدل على قدرة الله و بديع صنعه نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ أَى بطن كل واحد منها، فإنه يجوز إرجاع ضمير المفرد إلى الجمع، باعتبار كل واحد، كما قال سبحانه: (فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه) «١» مِنْ بَيْنِ فَوْثٍ هُوَ الْمَدْفُوعُ لِلْحَيَوَانَ وَ دَمٍ فَإِنَّ الْغَدَاءَ إِذَا دَخَلَ الْجِسْمَ تَحُولُ إِلَى سَائِلِ غَلِيظٍ أَوْ رَقِيقٍ فِي الْمَعْدَةِ، ثُمَّ تَشْرَبُ

الكبد صفوه و تبقى في الكرش ثقله، ثم إن الكبد تحوّل الصفو إلى الدم و هو يصعد إلى الجسم كله ليغذيه و يصير بدل ما يتحلل من الأجزاء - بفعل

(١) البقرة: ٢٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكْرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)

الحرارة الخارجية و الداخلية- و إذا وصل الدم إلى غدد اللبن في الضرع تحوّل إلى اللبن لبنًا خالصًا عما سواه فليس مخلوطا بشيء من فرث أو دم فقد تخلص اللبن من الفرث أولاً و من الدم ثانياً، فهو خارج من بينهما سائغاً يسوغه الإنسان، فلا يؤذى الحلق و الحنجرة للشاربين فهل هناك غيره سبحانه يعمل هذا؟

[٦٨] وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ أَى مِنْ كَلِّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ - على ما تقدم في الآية السابقة - سَيْكْرًا أَى خِلا - كما في بعض التفاسير - وَ رِزْقًا حَسَنًا فَمَنْ جَعَلَ الثَّمَرَةَ؟ وَ مِنْ جَعَلَهَا بِحَيْثُ تَقْبَلُ أَى تَحْوُلُ خَلًّا، أَوْ طَعَامًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً دَلَالَةٌ عَلَى وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَ صِفَاتِهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أَى يَعْمَلُونَ عَقُولَهُمْ لِيَدْرِكُوا الْحَقَائِقَ وَ يَنْتَقِلُوا مِنَ الْأَثَرِ إِلَى الْمُؤَثِّرِ.

[٦٩] وَ مِنْ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ، الْعَسَلُ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي يَنْتِجُهُ النَّحْلُ وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَى أَلْهَمَهَا إِيَّاهَا خَفِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْحَيَوَانَاتِ تَشْعُرُ بِمَا عِنْدَهَا مِنَ الشُّعُورِ وَ الْإِدْرَاكِ أَنْ اتَّخِذِي وَ إِنَّمَا أَنْتَ لِأَنَّهُ لِلْجِنْسِ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَإِنَّ بَعْضَهَا تَتَّخِذُ بَيْتَهَا فِي الْجِبَلِ وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ بَعْضَهَا تَتَّخِذُ بَيْتَهَا مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ أَى يَجْعَلُونَهُ عَرِيشًا كَالْكُرُومِ وَ السَّقُوفِ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّحْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٦

[سورة النحل (١٦): آية ٦٩]

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا- يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

تتخذ في الأعلى بيتها ليسهل لها المراودة إليها، و يكون أبعد عن تناول العابثين.

[٧٠] ثُمَّ كُلِي يَا أَيَّتُهَا النَّحْلُ، أَصْلُهُ «أَكَل» حَذَفَتِ الْهَمْزَةُ تَخْفِيفًا، وَ كَذَا «مَر» مِنْ «أَمْر» مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ النَّقِيَّةِ، مِنْ أَى نَوْعٍ مِنْهَا شِئَتْ فَاسْلُكِي فِي ذَهَابِكَ إِلَى الثَّمَارِ وَ رَجُوعِكَ إِلَى بَيْتِكَ سُبُلَ رَبِّكِ الطَّرِيقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْهَوَاءِ وَ هَذَا لِلإِشَارَةِ إِلَى الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ الَّذِي يُولَدُهُ ذَهَابُ النَّحْلِ وَ إِيَابُهَا، فَيَرَاهَا الْإِنْسَانُ ذَاهِبَةً عَائِدَةً لِتَصْنَعِ الْعَسَلَ فَيَعْطِفُ قَلْبَهُ وَ تَتَأَثَّرُ بِالْحَنَانِ أَعْصَابُهُ ذُلُلًا جَمْعُ ذَلِيلٍ، أَى مَذَلَّةٌ مَوْطِئَةٌ هَيْئَةً، وَ هِيَ حَالٌ عَنِ السَّبِيلِ، أَى الطَّرِيقِ فِي حَالِ كَوْنِهَا مَذَلَّةٌ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا أَى بَطُونِ النَّحْلِ شَرَابٌ طَيِّبٌ، هُوَ الْعَسَلُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فَمِنْهُ شَدِيدُ الْبِيَاضِ، وَ مِنْهُ أَصْفَرٌ، وَ مِنْهُ مَائِلٌ إِلَى الْحُمْرَةِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ فَإِنَّ الْعَسَلَ يَنْفَعُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ شِفَاءٌ لِجَمِيعِ الْأَمْرَاضِ، وَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْقَضَايَا الطَّبِيعِيَّةِ، كَقَوْلِكَ الشَّيْءَ الْفُلَانِيَّ مَلِيّنًا لَا تَرِيدُ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَزَاجٍ وَ طَبَعٍ وَ حَالَةٍ، بَلْ تَرِيدُ أَنْ طَبِيعَتُهُ كَذَلِكَ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ الشَّأْنِ الْمَتَعَلِّقِ بِالنَّحْلِ، مِنْ صَنْعِ بَيْوتِهَا بِتِلْكَ الْهَنْدَسَةِ الْمَسْدُوسَةِ، وَ ذَهَابِهَا وَ إِيَابِهَا وَ شَرْبِهَا رَحِيقَ الْأَزْهَارِ، وَ إِعْطَائِهَا الْعَسَلَ الْمَلُؤْنَ الشَّافِي لَآيَةً دَلَالَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي الْآثَارِ وَ يَسْتَدْلُونَ بِهَا عَلَى وَجُودِ الْمُؤَثِّرِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ، وَ قَدْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٧

[سورة النحل (١٦): آية ٧٠]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)

أردف سبحانه في هذه الآيات نعمًا جميلةً متشابهةً في كونها عصيرة الأشياء فالمطر عصير السحاب، و اللبن عصير الفرت و الدم، و السكر و الرزق الحسن عصير الثمار و الأشجار، و العسل عصير النحل، و قد هيا الله سبحانه هذه الأرزاق الطيبة النظيفة للإنسان، من السماء و الأرض، و الجبال و الأشجار، و الطيور و البهائم، ليشكر الإنسان و يعرف باريه.

[٧١] و قد جعل الله لكم حياة و رزقا، و أزواجا، بعد تلك النعم السابقة، فهل تؤمنون بعد ذلك بالباطل (أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) «١»؟ و اللَّهُ خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ بِمِيتِكُمْ، فحياتكم و موتكم منه و مِنْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ أَخْسَهُ و أَحقره و هو الهرم الذى يشابه الطفولية في نقصان العقل و القوة، فينحرف، و لعل تسميته «ردا» لأنه ارتداد إلى حالة الصغر فيعود كما كان لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا اللام للعاقبة، أى عاقبة الردة عدم علمه بشيء لأنه خرف و ذهب عقله، بعد أن كان عالما، يعلم الأشياء، و يعرف الأمور إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمِصَالِحِ عِبَادِهِ و لذا يفعل بهم هذه الأحوال قَدِيرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ تَدْبِيرِ أُمُورِهِمْ و إِمَاتَتِهِمْ بعد إحيائهم، و لعل الإتيان بهذه الصفة «و منكم ...» لكسر كبرياء الإنسان و أن يتذكر ما يصيبه بعد القوة و العلم، من الضعف و الجهل، لعله يتوب و يثوب ... كما إن نفس تلك الحالة مما تقرب الإنسان إلى الطاعة فقد تحطمت فيه الشهوات،

(١) العنكبوت: ٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٨

[سورة النحل (١٦): آية ٧١]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَفَنِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)

و لم يبق منه إلا قلب خافق ضعيف يتأثر سريعا، و يثوب بعد ما عمل المعاصى و الآثام.

[٧٢] و اللَّهُ سبحانه فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ إِنْ الْحَى - الذى أشير إليه فى الآية السابقة يحتاج إلى الرزق - و نرى أن الأرزاق مختلفة، فمن جعل هذا التفاضل؟ إنه الله سبحانه، و لماذا جعل؟

ذلك لإدارة شؤون الكون فلو لا هذا التفاضل من كان يقوم بالأعمال الخدمية من تنظيف و تصنيع و هكذا؟ و لو لا الأغنياء من كان يزرع الأراضي الشاسعة لتخزين الحنطة و الشعير و سائر المآكل و من كان يجلب الأجناس من البلاد النائية؟ و قد افتر الجاهل أن يهدموا نظام الله سبحانه فى التفاضل، فأولدوا- الشيوعية- لكنهم باءوا بالفشل أولا- حيث إن المجتمع عاد إلى طبقتين أيضا: الأغنياء و الفقراء، فالأغنياء هم الحزب، و الفقراء هم سائر الناس، و قد أضيف إلى التجار قوة الدولة ليستنزفوا حتى الحبة الأخيرة من كيس الفقير، و لذا يعيش الناس فى بلاد الشيوعيين فى أتعس حالة، و ذلك ليس من جهة عدم تطبيق النظام، بل من جهة غلطيته النظام، و تردوا إلى الحضيض ثانيا- فلم يكن الإنسان يسمح بأن يعمل لياكل ثمر عمله غيره، و لذا لجأ التجار الجدد إلى الظلم و الجبر- الديكتاتورية- فاضطهد الشعب، و لم ينتج ذلك عن عمله بكل قواه فتأخر الاقتصاد.

و أقل نظرة إلى البلاد المختلفة فى النظام الشيوعى و غير الشيوعى - مع حفظ نسبة كبر الدولة، عند المقارنة- كاف لإدراك هذه الحقيقة المرة، و الإسلام كما لا يرتضى الشيوعية لكونها خطأ، لا يرتضى الرأسمالية لكونها خطأ أيضا، و إنما له نظام خاص لا كهذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٣٩

و لا كتلك، و المقصود هنا الإشارة إلى أن التفاضل موجود لا محالة حتى عند من يزعم الشيوع و الاشتراك، و إن العمل لأجل إزالته خطأ يعود بأفطع الجرائم و بلا- فائدة .. و المراد بالرزق جميع أنواع الاحتياج من مآكل و ملبس و مسكن و غيرها فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا

فضلهم الله سبحانه برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أى لا يرد المثرى رزقه على عبده حتى يكون هو وإياهم سواء، فهل وجدت أحدا فعل ذلك؟ وإذ لا- يرد المثرى رزقه على عبده حتى يتساون فكيف تجعلون مخلوقات الله سبحانه- وهى الأصنام- متساوية له فى العبادة والطاعة؟ إن من لا يستعد أن يكون هو وعبده متساويين فى الرزق، كيف يجوز أن يكون الخالق والمخلوق متساويين فى الألوهية؟ قال ابن عباس: يقول: إذا لم ترضوا أن تجعلوا عبداكم شركاءكم فكيف جعلتهم عيسى إلهامه وهى عبده؟ ونزلت فى نصارى نجران... و«رادى» من رد، اسم فاعل حذف علامة الجمع وهى «النون» للإضافة، وعلى متعلق ب«رادى» أى لا- يردون على ما ملكت أيماهم- وهى العبيد- حتى ينتج ذلك أن يكونوا سواء، ولذا جىء ب«فاء» العطف أفينغية الله يجردون استفهام إنكارى أى هل يجحد هؤلاء نعمه الله على البشر حتى يجعلوا عبده أمثاله؟ أم لا يجحدون النعمة فكيف يجعلون المنعم والمنعم عليه سواء فى الألوهية، وهى لا يرضون التساوى فى المال بين السادة والعبيد؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٠

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلْبَابِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣)

[٧٣] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَى من جنس أنفسكم أزواجاً فليست النساء من جنس آخر، وهذا فضلان، الأول جعل الأزواج، والثانى كونهن من نفس الجنس، لأن الإنسان بجنسه آلف، ونوعه أميل، قال الشاعر «كل جنس لجنسه يألف» وَجَعَلَ لَكُمْ أَيها البشر مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ تأنسون بهم، ويكونون عوناً لكم، وسبباً لامتنادكم فى الحياة وَحَفَدَةً جمع حفيد، وهى أبناء البنات وأبناء البنين، أو الخدم ومن يشبهه، أو الأعم منهنما، لأن معنى الحافد المسرع إلى الخدمة، فإن كان المراد الأول كان عطفاً على البنين، وإن كان غيره كان عطفاً فى المعنى، أى جعل لكم حفدة وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الأشياء الطيبة من اللذائذ أَلْبَابِلِ يُؤْمِنُونَ استفهام إنكارى أى كيف يؤمن الكفار بالباطل وهى الأصنام وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ فإن كفران النعمة أن يعبد الإنسان غير رازقه، والمتفضل عليه، كأن يأخذ الأجر من زيد ويعمل لخالده.

[٧٤] ثم بين سبحانه، كيف أنهم يؤمنون بالباطل وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى سواه سبحانه ما لا يملك لهم رزقاً فإن الأصنام لا تملك ولا تقدر أن ترزق أحداً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا متعلق به «رزقاً» أى لا تملك رزقاً من السماء، كالمطر، ولا من الأرض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)

كالنمر، وشيئا بيان لرزقها، أى لا يملك أى شىء من رزق السماء والأرض ولا يستطيعون أن يملكوها، لأن الملك بيده سبحانه.

[٧٥] فَلَا تَضْرِبُوا أَيها الناس لِلَّهِ الْأَمْثَالَ أى الأشباه، وهى الأصنام، فقد كانوا يجعلونها أشباهاً لله فى الألوهية، ويضربون لله المثل بها، فإنك إذا جعلت خالداً قرين زيد، ضربت المثل لزيد بخالده، فقلت، إن شخصاً كزيد، وهى خالد يفعل كذا، أو لا يفعل كذا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنْ لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بعدم المثل له، لأنهم ما كانوا يتفكرون، وإلا فلو تفكروا لعلموا ذلك.

[٧٦] وَإِذْ تَقْدِمُ الْمِثَالَ بِالْعَبِيدِ وَالسَّادَةِ فى قوله «فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا» يأتى السياق ليبين هذا المثل، بوجه آخر فيقول سبحانه ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للمشركين فى اتخاذهم الأصنام شركاء لله سبحانه وإنما بين هذا المثل، ليقبسوا عليه أمر الألوهية، فيدركوا خطأ جعلهم الشركاء، فإن الإنسان، يعرف بالمثل ما لا يعرفه بالبراهين والأدلة عبداً مملوكاً عطف بيان على المثل لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مما يقدر عليه السادة من الأخذ والعطاء، وسائر التصرفات، وهى هنا تنبيه لا بد من الإشارة إليه، وهى أنه إذا وقعت حرب بين المسلمين وغيرهم- والحرب لا

تكون طبعاً من جانب المسلمين تعدياً- كما قرر في محله، قرر الإسلام أخذ الأسرى، ثم التفديء و الاسترقاق، فالاسترقاق، إنما ينشأ من المتعدين في الحروب، وهذا يبقى رقاً هو و عقبه ما لم يتحرر- و التحرر له

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٢

أسباب كثيرة، اضطرارية أو اختيارية، مما لا يبقى العقب رفا غالباً- و قد جعل الإسلام هذا النظام مراعاة لمصالح شتى، منها أن لا يرهق كاهل الدولة بالمساجين، و منها أن يكون الأسراء موزعين حتى يذوب الكفر و الباطل شيئاً فشيئاً، و يتعلموا معالم الإسلام، بطبيعة كونهم في بيوت المسلمين و تحت رقابتهم و معاشرتهم، و منها أن لا- يتجرأ الكفار على المحاربة و الاعتداء لأن الناس مستعدون للسجن، و لا يستعدون للاسترقاق، و منها توسعة البلاد، و اختلاط الأمم في بوتقة واحدة، و تقدم الحياة و منها غير ذلك، .. و هذا النظام أفضل بكثير من نظام الدول في أسرى الحرب إيجابياً و سلبياً، ثم الرق محترم معال، من قبل مولاه، و إذا صار في شدة أعتقه الإسلام من بيت المال، كما قال سبحانه (وَ فِي الرِّقَابِ) «١» و مثل هذا النظام من أصح الأنظمة، إلا أن الرقيق لما كان في الغرب كان بغير هذا الشكل، بل بشكل مزرى فظيح- في جميع موارده و مصادره- جاء «لنكولن» ليحرر العبيد و أخذ بعض المسلمين المنهزمين- امام التيار الغربي- هذا التحرر شيئاً بديعاً، فجعلوا يرددونه من غير وعى و إدراك، حتى أن جماعة من المتنورين، قالوا إن الإسلام أراد تحرير العبيد تدريجياً و لكن الظروف لم تسمح له، تمشياً مع خطة «إذابة الإسلام في بوتقة الغرب» كما صنعوا بأحكام كثيرة هذا العمل المشين، و لذا كان من اللازم أن نقول: إن النظام الإسلامي في الرقيق، و في غيره، باق على حاله، و لم يتبدل من الإسلام شيء أبداً و من يريد التبدل، فهو بين جاهل بالأنظمة الإسلامية و فلسفتها و جمال أحكامها أو معاند، و من يفعل ذلك، فقد أخذ معول

(١) البقرة: ١٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٣

[سورة النحل (١٦): آية ٧٦]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

الهدم لجميع أحكام الإسلام، إذ لو فتح هذا الباب في حكمه، لكان منفتحاً في كل حكم، فما الفارق؟ و مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسِينًا وَ هُم السادة الذين رزقهم الله رزقاً حسناً، بلا وساطة سيد فإن الرزق كلما كان أقل و واسطه كان أهنأ فهو يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْرًا لأنه مالك لا يخشى أحداً، و ليس عليه رقيب فيما يعطيه هَلْ يَسْتَوُونَ أولئك العبيد، و هؤلاء السادة؟ و إنما أتى بصيغة الجمع لأن المراد ب«عبداً» و «من» الجنس؟ و إذا كان الجواب، أنهما لا- يتساويان قيل لهم: فكيف تساؤون بين الله المالك، و بين الأصنام المملوكة؟ فتعبدون كليهما على حد سواء، و تجعلون للأصنام، ما لئله من الألوهية و الربوبية؟

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، و ليس حمد لغيره فإنه الإله الواحد المستحق للحمد، دون سواه، بَلْ أَكْثَرُهُمْ وَ هُم المشركون لا يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة، و هي أن الحمد له وحده و لا يستحق ما سواه الحمد.

[٧٧] وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا آخَرَ لِبَيَانِ عَدَمِ اسْتَوَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْأَصْنَامِ، ليعرف المشركون من المثل خطأ طريقتهم الاشتراكية رَجُلَيْنِ بَدَلِ مَثَلًا أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَنْطِقُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّفْهِيمِ، و التفهم، لأنه عاجز عن الكلام- و الغالب أن الأبكم أصم- وَ هُوَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٤

[سورة النحل (١٦): آية ٧٧]

وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

أى هذا الرجل الأبكم كلُّ أى ثقل و وبال، يقال كلُّ عن الأمر، إذا ثقل عليه على مَوْلَاهُ و ليه المتولى لأمره أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ مَوْلَاهُ لا يَأْتِ الأبكم بِخَيْرٍ فلا منفعة لمولاه فيه، فإنه أينما يبعثه لقضاء حاجة من حوائجه، لا يقدر على قضائها إذ لا يتمكن على التفهيم، و التفهم و هما عماد قضاء الحوائج هلْ يَشِيَتَوِي هُوَ أى هذا الأبكم الذى صفته ذلك و مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ فهو ذو كلام واضح و بالإضافة إلى ذلك يأمر بالحق و العدل فهو كامل فى ذاته، مكمل لغيره، مقابل الأبكم الذى لم يكن كاملاً لذاته و لا قادراً على قضاء الحوائج ليكمل نواقص غيره و هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أى طريق سَوَى لا- ينحرف كما ينحرف الأبكم لعدم تفهمه عن الناس، ليمشى مستقيماً، بل يمشى حسب جهله فيضل و ينحرف؟؟ و بالطبع يكون الجواب: كلا، إنهما لا- يتساويان، و هنا يأتى التفرغ فكيف تساوون مع الله الأصنام، و النسبة بينهما أبعد من النسبة بين الأبكم و الناطق؟

[٧٨] و إذ قد تحقق أنه لا شركة فى الألوهية، و إنه لا إله إلا إله واحد، فلنعلم أن لَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فما غاب عن الحواس، لعدم وجوده أو لوجوده، و لكن الإنسان لا- يدركه لضعف حواسه، إن جميع ذلك لله، فإنه القادر على إيجادها، كما أنه هو القادر على الموجود فيها بالتصرف فى شؤونها، و هى تحت سلطة الله سبحانه، و يعلم جميع مزاياها، فهو إله واحد مالك عالم، و أمر الآخرة بيده

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٥

[سورة النحل (١٦): آية ٧٨]

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

و ما أَمْرُ السَّاعَةِ أى ساعة الحشر و وقت القيامة، أمره و إيجادها، و إنفاذه إِلاَّ كَلَمَحِ الْبَصْرِ فهو فى مثل هذا الوقت القليل يأتى به إن شاء، و اللوح هو الطرف أو هُوَ أَقْرَبُ من ذلك، و التردد للإيضاح فى التشبيه، فإذا قلت: زيد كالأسد احتمال فى القوة، أو فى القتل، أو فى الشجاعة، فإذا قلت: أو هو أشجع أفاد إنك قصدت الشجاعة، ثم أن لمح البصر لا بد له من زمان، و الأقرب منه أن يكون زمانه نصف ذلك الزمان، و نحوه إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و من قدرته يأتى بالساعة فى أى وقت شاء، سريعاً بدون حاجة إلى تعب و تهيئة مقدمات، فليخضع الإنسان لهذا الإله المالك، العالم، الذى بيده الجزاء و الحساب و لا يجعل له شريكا.

[٧٩] ثم يرجع السياق، ليعدد جملة أخرى من النعم، و كان الفصل بين كل جملة و جملة بأمور مرتبطة خارجة عن صميم النعم، للايقاظ و التفتن، كما هو أسلوب البلاغ فى الكلام، فإن الكلام ذا الوقع الواحد، يوجب الكلل و الملل و الله أَخْرَجَكُمْ أَيها البشر مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فمن يا ترى، يقدر على هذا الإخراج بالأجهزة و اللوازم التى جعلها فى داخل الرحم إلى فم المخرج؟ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا فإن الإنسان جاهل محض عند الولادة وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ السمع يراد به الجنس، و الاختلاف بين الألفاظ بالجمع و المفرد للتفتن، و الأفئدة جمع فؤاد و هو القلب، أى أنه تفضل عليكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠)

بالحواس لتستقوا بها المعلومات، و بالقلب لتعوا الأشياء لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لكى تشكروا نعمه سبحانه.

[٨٠] أَلَمْ يَرَوْا أَلَمْ يَنْظُرُوا و يتدبروا إِلَى الطَّيْرِ المراد به الجنس و لذا جىء له بالحال جمعاً، مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ إنه تشبيه بالشىء المسخر الذى يجىء و يذهب لمصلحة الذى سخره فإن الإنسان يرى الطير يجىء و يذهب و يعلوا و يسف فى وسط السماء، و المراد بها جهة العلو ما يُمَسِّكُهُنَّ أى ما يحفظهن من السقوط على الأرض إِلاَّ اللَّهُ سبحانه، بما جعل فى الكون من نوايس، ففى داخل الطير

ناموس، و في الهواء ناموس، يتعاونان على تحليق الطائر، فمن جعل هذه النواميس غيره سبحانه؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِمَسَاكٍ لِّثَلَا يَسْقُطُ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، أما غير المؤمن فإنه لا- يتفكر حتى تنفعه الآيات فتخصيص المؤمنين، لأنهم المنتفعون بهذه الآيات.

[٨١] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا مَحَلًّا لِلسَّكَنِ وَالِاطْمِئْنَانِ، فجعل الأرض بحيث تقبل السكنى، و تهيئة المجتمع بحيث يكون الإنسان في محله مطمئنا، نعمتان عظيمتان، و الذين عندهم علم الجيولوجيا يقولون: إن الإنسان لا يتمكن من الاستقرار هناك- لعدم الجاذبية- و المشردون الذين لا مأوى لهم، يطمئنون فيه، يعلمون قدر هذه النعمة العظيمة، و قد تبادر إلى الذهن من هذه البيوت، الأبنية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٧

[سورة النحل (١٦): آية ٨١]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سِرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَ سِرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)

و هناك قسم آخر من البيوت، فإنه سبحانه قد جعل لكم أيها البشر من جلود الأنعام إما المراد الجلد بالذات، أو الأعم منه و من الشعر، فإن الشعر أيضا «من جلد» يُبَيِّنُ تَشْيِخُفُونَهَا تَطْلُبُونَ خِفَتَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أَى وقت ارتحالكم من مكان إلى مكان من ضمن بمعنى ارتحل و يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ فِي مَكَانٍ، فإنها سهلة النصب و التقويض فإن أهل الصحراء يطلبون الماء و المرعى فينزلون هنا و هناك، و هذه الأخبية سهلة لهم في النصب و الطي و الحمل و جعل لكم من أصفافها أى صوف الأنعام و هى للضأن و أوبارها جمع وبر، و هو للابل و أشعارها جمع شعر، و هو للماعز أثانًا و هو كل ما يفرش و يلبس، و يستعمل في مثل هذه الشؤون و متاعاً آله للتمتع بالبيع و الشراء و سائر الشؤون التى لا تسمى «أثانًا» إلى حين إلى مدة من الزمان، فإن هذه تبقى مدة و ليست تفتنى سريعاً.

[٨٢] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا أَى أشياء تستظلون بها فى الحر و البرد، فمن جعل الأبنية و الأشجار بحيث يمنع الشمس عن النفوذ فيها، فلو كانت جميعها كالزجاج، كان الإنسان يتأثر و يتأذى من حر الشمس و جعل لكم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا جمع «كن» أى مواضع تسكنون بها من كهوف و بيوت تنحتون من الجبال للمسكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٢ إلى ٨٣]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

وَجَعَلَ لَكُمْ سِرَابِيلَ جمع سربال، و هو اللباس، كالقميص و نحوه تَقِيكُمْ من وقى يقى بمعنى حفظ، أى تحفظكم تلك الألبسة من الْحَرِّ كما تَقِيكُمْ من البرد، و ذكر «الحر» من باب المثال، كما تقول اقرأ «قل هو الله» أو قل «بسم الله» تريد جمع السورة و الآية، و لعل تخصيص الحر بالذكر دون البرد، لأن الحر هو الشائع عند أهل الحجاز، فبلادهم بلاد حارة و جعل لكم سِرَابِيلَ تَقِيكُمْ أى تحفظكم من بَأْسِكُمْ أى الحروب، كالدروع و نحوها، فمن يا ترى خلق القطن و الكتان و الحرير و الصوف، ليستعملها الإنسان فى سرباله؟ و من يا ترى خلق الحديد و جعله خاضعاً للنار، حتى تصنع منه الدروع، و نحوها؟ إنه هو الله وحده لا شريك له كَذَلِكَ أَى كما جعل لكم هذه الأشياء يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ بأن يتفضل عليكم فى سائر حوائجكم التى هى لا تدخل تحت الإحصاء- فى مختلف دروب الحياة المعقدة- لَعَلَّكُمْ لِكَى تُسْلِمُونَ لله سبحانه، و تخضعون لإرادته.

[٨٣] فَإِنْ تَوَلَّوْا أَعْرَضُوا عَنِ التَّسْلِيمِ لله سبحانه فلا يضررك يا رسول الله ذلك، إذ إنما عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ الواضح، و قد فعلت ذلك.

[٨٤] إِنْ الْكُفَّارُ لَا يَنْكُرُونَ مَا يَنْكُرُونَ لَجَهْلِهِمْ وَ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ وَ إِنَّمَا يَجْحَدُونَ اللهَ وَ آيَاتِهِ، تعنتا و عنادا إنهم يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ الدالة على وجوده،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٤٩

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٤ إلى ٨٥]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)

و سائر صفاته ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا أَى ينكرون كونها من الله سبحانه، و يتخذون الكفر و الشرك طريقه لأنفسهم و أكثرهم الكافرون و إنما جعل الكفر لأكثرهم، لأن منهم من لم تتم عليه الحجّة، فقولهُ «يعرفون» بهذه القرينة صفة لمن قامت لديه الحجّة لا لجميعهم.

[٨٥] ثم يرجع السياق إلى موقف الكفار يوم القيامة و اذكر يا رسول الله يَوْمَ نَبْعَثُ أَى نحضر للشهادة مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا يشهد على الكفار بأنهم كفروا و أشركوا و عصوا، و لعل المراد بالشهداء- هنا- النبيون بقرينة أنه لكل أمة شهيد و ما سيأتى من إشهد الرسول على الكفار فى زمانه، و هناك الشهيد يتكلم بما علم من أعمال القوم و معتقداتهم، و يظن الكفار أنهم كالدينا يتمكنون من المغالطة و التهريج، ليبرءوا ساحتهم و لكن ليس هناك كذلك ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فى الكلام و الدفاع، فى هذا الموقف، فإن للقيامة مواقف، لكل موقف شأن، و لفظه «ثم» للترتيب فى الكلام، لا فى الخارج- كما قرر فى الأدب- و لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ يقال استعتب زيد، أى أراضى من العتبى بمعنى الرضا، أى لا- يسترضون و لا- يستصلحون، كما كان يفعل بهم فى الدنيا فليس هناك أحد يقول لهم: أرضوا ربكم بإطاعة أوامره، إذ ليست الآخرة دار تكليف.

[٨٦] و فى ساحة القيامة يرى الكفار العذاب، و قد جرت العادة فى الدنيا أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٢٩٩

[سورة النحل (١٦): آية ٨٦]

وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦)

أهل السجن لما يرون السجن يستتقذون بالناس، و كثيرا ما يوجد من ينقذهم، و لكن الآخرة ليست كذلك و إذا رأى الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم، أو غيرهم بالكفر و المعاصى العذاب المهيب لهم فاستقذوا لم يفدهم ذلك، فإنه لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ العذاب تخفيفا فى الكم و الزمان، أو الكيف و المقدار و لا- هُمْ يُنظَرُونَ يمهلون، كما كان المجرم فى الدنيا يمهل و يؤجل أمره بالوسائط و نحوها، حتى يجد مخرجا.

[٨٧] و هناك فى ساحة المحشر، يرى المشركون بعض الآلهة التى كانوا يعبدونها و يشركون بالله بسببها، كالمسيح عليه السلام، و الملائكة، و على عليه السلام و إذا رأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا بالله شُرَكَاءَهُمْ أى الشركاء الذين زعموا أنهم شركاء لله، و هنا يضاف الشركاء إليهم، لا إلى الله سبحانه قَالُوا أى المشركون مشيرين، إلى الشركاء يا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الذين فى ساحة المحشر شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا فى الدنيا نَدْعُوا هُمْ مِنْ دُونِكَ و كأنهم يريدون بذلك تخفيف الأمر على أنفسهم، ليأتوا بعنصر جديد فى معرض المحاكمة، فإن المجرم المراوغ دائما يأتى بعنصر جديد فى المحاكمة، ليصرف وجوه الناس إليه، و ليتحمل معه شيئا من ثقل المحاكمة، و عند ذاك يفرع الشركاء من هذه المفاجئة المدهشة فَأَلْقُوا أى الشركاء إِلَيْهِمْ إلى المشركين الْقَوْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

يلقون إليهم هذا الكلام قائلين: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ لَكَادِثُونَ فَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ شَرِيكَ وَلَا يَرْتَبُطُ الْأَمْرُ بِنَا.

[٨٨] وَأَلْقُوا الْمَشْرُكُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ السَّلَامَ أَى الاستسلام والخضوع، فقد كانوا فى الدنيا يتكبرون على الله، و ينفرون من أوامره، و يحاربونه، أما فى ذلك اليوم، فإنهم مستسلمون، لم يجدوا نصيراً و لا ظهيراً و ضلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فقد ذهبت افتراءاتهم أدراج الرياح، و لم يجدوا فى آلهتهم المزعومة من يشفع لهم.

[٨٩] و هنا يأتى دور العذاب بعد أن تمت الحجَّة، و قد هىء لهؤلاء عذاب مع عذاب الَّذِينَ كَفَرُوا فلم يؤمنوا و صدُّوا أَى منعوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بَأَن صرفوهم عن الإيمان به سبحانه زِدْنَاهُمْ عَذَاباً ثانياً لِإِضْلَالِهِمْ فَوْقَ الْعَذَابِ الْأَوَّلِ الْمُتَهَيِّئِ لَهُمْ لِضَلَالِهِمْ بسبب ما كانوا يُفْسِدُونَ فى الأرض، بالصد عن سبيل الله.

[٩٠] تقدم أن على كل أمة شهيد، و هنا يأتى الكلام لبيان أن الشهداء من أنفس الناس، بالإضافة إلى الملائكة الشهود و أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يشهد على أمته، تخصيصاً، لبيان موقفه مع الكافرين الذين أعرضوا عن الإيمان به، و فيه تسليء له، و تهديد لهم أن خصمكم غدا يكون صاحب الفضل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٢

[سورة النحل (١٦): آية ٩٠]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

فيكم فاحذروه و اذكر يا رسول الله يَوْمَ نَبَعْتُ فى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً يشهد عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَإِن الصالحين من كل أمة، يشهدون على الطالحين بالكفر و الشرك و الفسق و العصيان و جُنَّا بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَاَصِرُونَ لك، و هناك لا حجة لقومك، فقد نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ أَى القرآن تَبَيَاناً بَيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ فلا مجال لهم، لأن يقولوا ما عرفنا، و ما علمنا، و المراد ب «كل شىء» الأمور العامة التى يحتاج إليها الإنسان فى أمر دينه و دنياه، فقد اشتمل القرآن الحكيم على الخطوط العامة للمبدأ و المعاد و النظام العام للدنيا السعيدة وَ هُدًى أَى هداية عن الضلال وَ رَحْمَةً أَى سبب تفضل و ترحم فإن من اتبع القرآن رحمه الله سبحانه، و تفضل عليه وَ بُشْرَى بشاره لسعادة الدنيا و الآخرة لِلْمُسْلِمِينَ الذين آمنوا بك و أسلموا لله سبحانه و لأوامره.

[٩١] ثم يأتى السياق، لبيان بعض ما فى الكتب من الهدى و الرحمة و البشرى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ بَأَن يعدل الناس فى سلوكهم، فلا يجوروا و لا- يظلموا، من غير فرق بين أفراد الإنسان فإن كل إنسان لا- بد له من عمل لنفسه و لغيره، و هو إما عادل فى عمله، أو منحرف وَ الْإِحْسَانِ و هو فوق العدل، فأهدئك إلى من أهدى إليك عدل،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٣

[سورة النحل (١٦): آية ٩١]

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)

و إلى من لم يهد إليك إحسان، و هكذا وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى أَى إعطاء الأقرباء حقوقهم، و هذا عام بالنسبة إلى كل أحد، و خاص بالنسبة إلى أقرباء النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، فإنه سبحانه أمر بمودتهم و صلتهم

و قد قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ «إِنى مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله و عترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما، لن تضلوا من بعدى أبداً»

«١» وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ أَى الخلَّة الفاحشة، و هى ما كان متفاحش القبح مجاوزة كالزنا و نحوه وَ الْمُنْكَرِ و هو كل معصية، و إن لم تكن فاحشة، كترك جواب المسلم، و إنما ذكر الفحشاء مع دخوله فى المنكر، لأهميته وَ الْبَغْيِ أَى الظلم و ذكره لأهميته أيضاً يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فإن أوامره و نواهيهِ خيركم و صلاحكم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَى لكى تتفكروا، فتذكروا ما أودع فى فطرتكم من حسن

تلك الأشياء، وقبح هذه الأشياء.

[٩٢] وَأَوْفُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِعَهْدِ اللَّهِ فَإِنِ الْمَعَاهِدَةُ مَعَ أَىِّ شَخْصٍ كَانَ، عَهْدٌ لِلَّهِ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِوَفَائِهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ أَوْ الْمَرَادُ إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ عَهْدٌ لِلَّهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، لَزِمَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ وَ هِيَ الْحَلْفُ، أَى لَا تَتْرَكُوا مُتَعَلِّقَهَا بَعْدَ تَوْكِيدِهَا بَعْدَ مَا

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ١٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٤

[سورة النحل (١٦): آية ٩٢]

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَ لِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)

أكدتم لها بذكر الله، فإن الإنسان، قد يحلف بدون ذكر اسم الله، كأن يقول «أحلف أن أفعل كذا» وقد يؤكدها بقوله «أحلف بالله أن أفعل كذا» وهذا يحرم نقضه وقد جعلتم الله عليكم في عهودكم و أيمانكم كفيلاً إذ تسمية الله معناها أنه سبحانه كفيلاً بإنجاز هذا الوعد و الإتيان بمتعلق القسم، فلا تخالفوا بعد ذلك ف إنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ من نقض العهد و اليمين، فيجازيكم على فعلكم السيئ.

[٩٣] إن الوفاء بالعهد من أكثر الأمور تأكيداً لدى الإسلام، سواء كان العهد مع الله أو مع رسوله، أو مع الأئمة، أو مع سائر الناس، و لذا لا يترك هذا الحكم سبحانه إلا و يؤكد بضره المثل، ليكون أوقع في النفس، و يتعاون العقل و العاطفة في إنفاذه و لا تكونوا أيها الناس في نقض الأيمان و العهود كالمراة التي نقضت غزلها و فلتة من بعد قوَّة بأن غزلت ثم نقضت بعد تكرار و فشل و شدة، قالوا: فقد كانت امرأة تسمى ريطه من تميم، و كانت حمقاء، فإذا أصبحت أخذت هي و جيرانها تغزل إلى انتصاف النهار، ثم هي تنقض غزلها و تأمرهن أن ينقضن ما غزلن و لا يزال هذا دأبها، فإن الرجل الذي ينقض العهد و اليمين، يكون كذلك المراة، في أنه بعد إبرام العهد، ينقضه أنكاثاً جمع «نكث» و هو الغزل من الصوف و الشعر ببرم ثم ينكث و ينقض ليغزل ثانية، و لقد كان بعض المعاهدين مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ينقضون عهدهم معهم، بحجة أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه قلة ضعيفة، و أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٥

قريش، و سائر الكفار كثرة قويه، و لكن هذا المبرر من عموم لا وجه له، و إلا فما فائدة العهود و الأيمان؟ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ أَى لَا تَكُونُوا بَحِيثٍ تَتَّخِذُونَ عُهُودَكُمْ وَ حَلْفَكُمْ دَخَلًا أَى خَدَعَةً وَ مَكْرًا، فَإِنِ أَصْلُ الدَّخْلِ مَا أَدْخَلَ فِي الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ بَيْنَكُمْ فَإِنِ الْيَمِينَ دَخَلَتْ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى وَجْهِ الْفَسَادِ، لِأَنَّهَا تَسَبَّبُ أَنْ يَتَنَازَلَ جَانِبٌ - وَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ - عَنْ بَعْضِ مَنَافِعِهِمْ مَرَاعَاةً لِلْيَمِينَ وَ الْعَهْدِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْكَافِرِينَ، بَيْنَمَا أَنَّ الْجَانِبَ الثَّانِي - وَ هُمُ الْكَافِرُونَ - لَا يَتَنَازِلُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ شُؤْنِهِمْ، فَهَمَّ مَا دَامُوا يَرُونَ ضَعْفَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ مَقَاوِمَةِ الْمُسْلِمِينَ يَحْتَمُونَ بِالْيَمِينَ، فَإِذَا رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ أَقْوِيَاءَ نَقَضُوا، لِيَكُونُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَ هَذَا بِخِلَافِ الْعَهْدِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْوَفَى، فَإِنَّهُ دَخَلَ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ عَلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ، وَ إِذْ يُعْطَى الطَّرْفَيْنِ الْأَمْنُ وَ الطَّمَأْنِينَةُ وَ إِنَّمَا كَانَ الْكُفْرَانُ يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ حَيْثُ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ «أربى» أفعل من الربا، و هو الزيادة، و منه الربا في المعاملة، أَى لَا تَتَّخِذُوا الْأَيْمَانَ دَخَلًا بِسَبَبِ كَوْنِ أُمَّةٍ أَكْثَرَ عَدَدًا وَ قُوَّةً مِنْ أُمَّةٍ، وَ الْحَاصِلُ، لَا تَتَّكُوا أَيْمَانَكُمْ، فِي حَالِ كَوْنِكُمْ اتَّخَذْتُمُوهَا خَدِيعَةً تَرِيدُونَ بِالنَّكَثِ الْوَصُولَ مَعَ أُمَّةٍ أُخْرَى هِيَ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنْ الْأُمَّةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ طَرَفَ عَهْدِكُمْ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ أَى يَفْعَلُ بِكُمْ فَعْلَ الْمُخْتَبَرِ بِهِ أَى تَكُونَ أُمَّةٌ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ، لِيُظْهِرَ مَدَى وَفَائِكُمْ بِالْعَهْدِ، فَإِنِ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ لَا تَظْهِرُ قِيمَتَهُ فِيمَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى قَدَمِ الْمَسَاوَاةِ مَعَ طَرَفِ الْمَعَاهِدَةِ وَ غَيْرِهِمْ، وَ إِنَّمَا تَظْهِرُ الْقِيَمَةَ فِيمَا كَانَ الْمِيزَانُ غَيْرَ مُعْتَدَلٍ، وَ تَكُونُ الْأُمَّةُ غَيْرَ الْمَعَاهِدِ مَعَهَا، أَقْوَى مِنَ الْمَعَاهِدِ مَعَهَا، هَذِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٣ إلى ٩٤]

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَكَتَشِبُئُلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وظيفتكم أيها المعاهدون، أما الجانبان المتخالفان الذين عاهدتم مع أحدهما، فإن الفصل بينهم سيكون في يوم القيامة، بعد أن لم يرضخ أحدهما للحق الذي يراه في جانب خصمه، وَلِكَيْبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيَانًا يَعْقِبُهُ الْجَزَاءُ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أو أن المراد لزوم وفاء المعاهد بعهده، وإن رأى أنه على خلاف مع من عاهد معه، فإن وظيفته الوفاء، أما التخالف بينهما، فإنه سيفصل يوم القيامة، وهذا أظهر باعتبار الخطاب في «لكم».

[٩٤] إن الخلاف لا بد وأن يفصل في الآخرة، أما في الدنيا، فإن الطبيعة البشرية ركبت بحيث لا تتفوق، فبعض يختار الضلال، وبعض يختار الهدى وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْبِرَكُمْ جَمِيعًا عَلَى الْهُدَايَةِ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ذَاتَ دِينٍ وَاحِدٍ، وَطَرِيقَةً وَاحِدَةً، وَلَكِنَّهُ لَا يَشَاءُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَبْطُلُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَالْمَدْحُ وَالذَّمُّ وَإِنَّمَا أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ تَكُونُوا مَخْتَارِينَ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ أَى يتركه حتى يضل بعد أن أراه الطريق، فلم يسلكه، كالمملك الذي يترك المدينة العاصية، حتى تفعل ما تشاء من الاجرام والقتل والسفك، بعد أن بين لهم القوانين فلم يتبعوها وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِالْأَلطاف الخفية، بعد أن أراهم الطريق فسلكوها وَكَتَشِبُئُلْنَ أَيها البشر ضالكم ومهديكم عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ من الخير والشر والهدى والضلال.

[٩٥] ثم يمضى السياق يؤكد على الوفاء بالإيمان- واليمين والعهد يطلق كل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٧

واحد منهما على الآخر- وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ غِشًا وَخُدَعَةً تَرِيدُونَ بِذَلِكَ انْتِهَازَ الْمَنَافِعِ وَاهْتِبَالَ الْفُرْصِ، فتعاهدون هذا لتأمنوا جانبه، فإذا رأيتم عدم أمنكم من جهة أخرى، نقضتم هذا العهد، لتعاهدوا ذلك الجانب الثانى، فقد صارت الأيمان داخله بينكم للإفساد، لأن الجانب المقابل يركن إليها، فلا يستعد، وذلك موجب لاضمحلاله وانهاره فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا فَإِنَّ الْعَهْدَ قَدْ أَثْبَتَ الْقَدَمَ إِذَا صَارَ كُلُّ جَانِبٍ مَطْمَئِنًّا الْخَاطِرِ مَرْتاحِ الْبَالِ، لَا يَهْمُهُ مِنْ جَانِبِ صَاحِبِهِ شَيْءٌ أَمَا إِذَا نَقَضَ الْعَهْدَ كَانَ النِّقْضُ زَلَّةً لِلْقَدَمِ، فَلَا اطمئنان، وذلك يوجب زعزعة الحياة السعيدة، وارتفاع الثقة بين الناس فى معاملاتهم ومعاهداتهم وَتَذُوقُوا الشُّوَاءَ وَبِالْ نَقْضِ أَيْمَانِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى بسبب صدكم عن طريقه سبحانه، فإن الوفاء بالعهد طريقه الذى جعله للسعادة والطمأنينة فالنقص صاد عن هذا الطريق، لأنه يجزئ الناس على مثل عمله، ولا يكون حينئذ اطمئنان من أحد على أحد وَ لَكُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا وَرَدَ مِنْ كَوْنِ الْآيَاتِ فِي عِلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِصَّةِ الْغَدِيرِ، فَإِنَّ ذَلِكَ بَيَانٌ لِمَصْدَاقِ ظَاهِرٍ مِنْ مَصَادِقِ الْآيَةِ، وَإِلَّا فَالْحُكْمُ عَامٌ، وَالْعَلَّةُ مُسْتَوْعِبَةٌ، وَلَا يَظُنُّ النَّاقِضُ، أَنَّهُ رِبْحٌ، حَيْثُ اخْتَارَ الرِّبْحَ عَلَى الْوَفَاءِ، فَإِنَّهُ إِذَا رَاجَ النِّقْضَ سَيَأْتِي يَوْمَ يَنْقُضُ عَلَيْهِ، وَهُوَ خَسِرَانٌ، فَأَضَاعَ بِذَلِكَ شَرَفَ الْمَعَاهِدَةِ وَلَحِقَهُ الْخَسِرَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

الذى فر منه، وهكذا جميع أحكامه سبحانه، فإن من تخلف عنها للذة أو منفعة، كيل له الصاع صاعين.

[٩٦] وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا بِأَنَّ تَنْقُضُوا عَهْدَكُمْ مَعَ غَيْرِكُمْ، لثمن قليل، ومنفعة ضئيلة، فإن عهدا بينكم هو عند الله، ومن خالفه لأجل مصلحة، فإنه إنما باع عهد الله واشترى تلك المصلحة التى مهما عظمت فإنها قليلة بالنسبة إلى الأجر والمصلحة

المرتبين على الوفاء بالعهد - عهد الله - إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا أَعَدَّ لِمَنْ وَفِي بِالْعَهْدِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الثَّمَنِ الْقَلِيلِ، وَتِلْكَ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي تَتَرْتَبُ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى إِنْ كَانَ لَكُمْ عِلْمٌ.

[٩٧] مَا عِنْدَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ يَنْفَدُ يَتِمُّ وَيَخْلُصُ، وَلِنَفْرَضِ أَنْكُمْ حَصَلْتُمْ مِنْ وَرَاءِ نَقْضِكُمْ لِلْعَهْدِ عَلَى مَلِكِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ فَإِنْ زَائِلٌ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ الْمَتَرْتَبِ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ بَاقٍ أَبَدَ الْأَبَدِينَ وَلَنْجَزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا فِيمَا أَمَرْنَا بِهِ، وَبِالْأَخْصِ بِقَوَاعِدِ عَهْدِهِمْ، وَإِنْ أَوْجَبَ ذَلِكَ ذَهَابَ مَصَالِحَ كَثِيرَةٍ مِنْ أَيْدِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَثَوَابِ بَقَائِهِمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَا نَعْطِيهِمْ جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ السَّيِّئَةِ، وَإِنَّمَا جِزَاءُ أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ، الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَعْمَالِهِمْ، لَيْسَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، فَحَسْبُ، بَلْ فِي الدُّنْيَا أَيْضًا، وَإِنَّا لَنَرَى الْإِمَامَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٥٩

[سورة النحل (١٦): آية ٩٧]

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

المرتضى عليه السلام حين قيل له في الشورى: نبايعك على كتاب الله، و سنة رسوله، و سيرة الشيخين، رفض الأخير من الفقرات الثلاث، و لم ينل الإمبراطورية الإسلامية، لأجل هذا الرفض، و قبل عثمان الثالث، لكنه خالف، فقد حمد الإمام في الدنيا لصبوره، بما نرى إلى اليوم، أما عثمان، فكان جزاؤه في نقضه للعهد، ما رأينا إلى هذا اليوم، و ثم قيل للإمام إن إبقاء معاوية لأيام قلائل، يمهد له الإمبراطورية الهادئة، لكن الإمام رفض، و معاوية عثر و اهتبل، فما مصيره في الدنيا، إلا اللعن و العار، بينما مصير الإمام الصابر ما نراه، و في الإسلام أمثلة كثيرة ترشد إلى مصير الوفي الصابر، و إن رفّت ألوية الغادر المستعجل أياما، قال الشاعر:

للمتقين من الدنيا عواقبهاو إن تعجل فيها الظالم الآثم

[٩٨] و ليس الجزاء الأحسن خاصا بمن و في بعده و صبر، بل كل من عمل صالحا، فإن له نفس ذلك الجزاء الأحسن مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا لَا يَشُوْبُهُ فُسَادٌ وَبَاطِلٌ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى تَأْكِيْدٌ حَتَّى يَشْمَلَ الْحَكْمَ، لِكَلَا الصَّنَفَيْنِ، وَ لَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ خَاصٌ بِالذَّكَوْرِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَإِنَّ الْإِيْمَانَ شَرْطٌ قَبُولِ الْأَعْمَالِ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً فَإِنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، إِنَّمَا تَهَيَّئُ بِاتِّبَاعِ مَنْهَاجِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَإِذَا عَمِلَ الْجَمِيعُ بِذَلِكَ الْمَنْهَاجِ، صَارَتِ الْحَيَاةُ كُلُّهَا بَرْدًا وَ سَلَامًا، أَمَا إِذَا عَمِلَ الْبَعْضُ، فَهُوَ يَسْتَفِيدُ مِنْ طَيِّبِ الْحَيَاةِ بِقَدْرِ عَمَلِهِ، وَ لِنَأْخُذَ أَنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ تَرْتَكِزُ عَلَى الْفُضِيْلَةِ وَ الْأَمْنِ وَ الْغِنَى، فَإِذَا عَمِلَ صَارَ مِنْ نَصِيْبِ كُلِّ وَاحِدٍ تِلْكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٠

الحياة، أما إذا عمل البعض، كانت له فضيلة الاطمئنان القلبي، و فضيلة القناعة، و فضيلة الأخلاق الطيبة و ما إليها، و إن تكدرت حياته، بما يتوجه إليه من غيره، من الاضراب و الفقر الذين أحدثهما غيره، ممن لا يسير على منهاج الله سبحانه، نعم لو لم يعمل صالحا، فقد مع فقد الأمن و الغنى - الفضيلة أيضا، فلا اطمئنان له و هو ضجر من الحياة، سيئ الخلق، و هكذا و لَنْجَزِيَنَّهُمْ أَى نَعْطِيهِمْ أَجْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كَمَا مَرَّ، فَإِنَّ الدُّنْيَا كَالْآخِرَةِ تَظْهَرُ فِيهَا نَتَائِجُ الْأَعْمَالِ، فَمَنْ أَهَانَ النَّاسَ أَهِيْنَ، وَ مَنْ أَحْرَمَهُمْ أَحْرَمَ، وَ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ مِنْ أَكْلٍ كَثِيْرًا أَتَخَمُ، وَ مِنْ أَكْلٍ قَلِيْلًا سَلِمَ، وَ مِنْ اقْتَصَادٍ لَمْ يَفْتَقِرْ، وَ مِنْ اسْرَفٍ تَمَسَكَنَ.

ورد أن رجلا - من حضر موت، يقال له عبدان الأشرع، قال: يا رسول الله، إن امرئ القيس الكندي، جاورني في أرض، فاقتطع من أرضي، فذهب بها مني، و القوم يعلمون إنني لصادق، و لكنه أكرم عليهم مني، فسأل رسول الله امرئ القيس عنه؟ فقال: لا أدري ما يقول، فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود، فخذ بيمينه، فلما قام ليحلف أنظره، فانصرفا، فنزل قوله: (وَ لَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) «١» الآيتان، فلما قرأهما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال امرئ القيس: أما ما عندي فينفد، و هو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه، و لم أدر كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء، و مثلها معها، بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه، و من عمل صالحا الآية.

(١) النحل: ٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦١

[سورة النحل (١٦): الآيات ٩٨ إلى ١٠٠]

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

[٩٩] و إذ تقدم الكلام حول الهدى و الضلال، و الرسول و المرسل إليه يتكلم السياق حول الكتاب الذي نزل على الرسول ليبين شيئا من آدابه، و عن أقوال المشركين حوله، و قد مر أن هذه السورة تعالج جوانب العقيدة و المبدأ و المعاد فإذا قرأت يا رسول الله أو أيها القارئ القرآن و المراد إذا أردت قراءة القرآن، و قد تقدم أن كلا من الفعل و الإرادة يستعمل في معنى الآخر فاستعذ بالله أي الجأ إليه من الشيطان الرجيم أي المطرود، الذي يرمى إليه باللعن، كما يرمج الزاني بالحجارة، و إنما استجبت الاستعاذة، ليسلم الإنسان في التلاوة من الغلط، الذي يلقيه الشيطان في فم التالي.

[١٠٠] إِنَّهُ يَعْنِي الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ أَيْ تَسَلَطَ وَقَدْرُهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فِي أُمُورِهِمْ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَطْرُدُ مِنْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ، وَ فِي الْأَحَادِيثِ، إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَطْرُدُهُ، فَمِنْ اسْتِعَاذَ بِاللَّهِ حَفِظَهُ سَبْحَانَهُ مِنْ شَرِّهِ.

[١٠١] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ أَيْ تَسَلَطَ الشَّيْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ أَيْ يَطِيعُونَهُ، وَ يَقْبَلُونَ أَوْامِرَهُ، فَإِنَّهُ مَسْلُطٌ عَلَيْهِمْ، مَوْجِهٌ لَهُمْ سَبِيلَ الْغَى وَ الضَّلَالِ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ أَيْ بِسَبَبِ الشَّيْطَانِ مُشْرِكُونَ فَالْمُنْحَرِفُ فِي الْعَقِيدَةِ بِالشَّرْكِ، وَ الْمُنْحَرِفُ بِالْعَمَلِ بِإِتْيَانِ الْمَعَاصِي، يَتَسَلَطُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٢

[سورة النحل (١٦): آية ١٠١]

وَ إِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

عليهما الشيطان، و يستدرجهم في المعصية و الكفر، حتى يأتيهم الموت، و هم بتلك الحالة، و من أظهر مصاديق «من به مشرك» الطائفة التي تعبد الشيطان و تتخذة إلهًا.

[١٠٢] وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ بَأْنِ نَسَخْنَا حِكْمًا، كَانَ فِي الشَّرِيعَةِ السَّابِقَةِ، وَ أَتَيْنَا بِحُكْمٍ آخَرَ مَكَانَهُ، لِأَنَّهُ أَصْلَحَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ الْمَنْسُوخِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ الْمَصَالِحَ الْكَامِنَةَ فِي الْأَحْكَامِ، وَ إِنْ لِكُلِّ حُكْمٍ ظَرْفًا خَاصًا، وَ لَذَا يُبَدَّلُ حُكْمًا إِلَى حُكْمٍ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا) «١» قَالُوا أَيْ قَالَ الْكُفَّارُ إِنَّمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ مُفْتَرٍ تَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ، فَكَيْفَ أَنَّهُ نَسَخَ الْحُكْمَ السَّابِقَ، وَ قَدْ حَاجَّ بَعْضُهُمُ الرَّسُولَ قَائِلًا: إِنْ كَانَ الْحُكْمُ الْأَوَّلُ صَالِحًا، كَانَ الْحُكْمُ الثَّانِي فَاسِدًا، فَكَيْفَ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْفَسَادِ؟ وَ إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الثَّانِي صَالِحًا، فَكَيْفَ أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْحُكْمِ الْأَوَّلِ؟ وَ الْجَوَابُ وَاضِحٌ، فَإِنَّ الْأَحْكَامَ كَالْأَدْوِيَةِ، فَكَمَا لَا يَصْلِحُ أَنْ يُقَالَ لِلطَّيِّبِ، لِمَاذَا بَدَلْتَ الدَّوَاءَ؟ كَذَلِكَ لَا يَصْلِحُ أَنْ يُقَالَ لِلرَّسُولِ ذَلِكَ، إِنْ الْبَشَرِيَّةُ تَرَقَّتْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ، وَ اسْتَعَدَّتْ لِإِعْطَاءِ النُّسخَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ، كَالطَّالِبِ الَّذِي يَدْرُسُ فِي الثَّانَوِيَّةِ، مَا لَا يَدْرُسُ فِي الْإِبْتِدَائِيَّةِ، ثُمَّ أَنْ قَوْلُهُمْ «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» كَانَ مَطْلُوقًا، وَ تَخْصِيصُهُ بِهَذِهِ الْحَالَةِ - أَيْ حَالَةِ تَبْدِيلِ الْآيَةِ - لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَهْرَجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ، وَ يَسْتَدْلُونَ بِهِ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مُفْتَرٍ عَلَى

(١) البقرة: ١٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٣

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٢ إلى ١٠٣]

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ

لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)

الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَدْرِكُونَ المصالح و المفسد، أى لست مفتربا، و إنما هذا القول ناشئ عن جهل أكثرهم، و تخصيص الأكثر لأن جماعة منهم كانوا يعلمون- كما قال سبحانه: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) «١»-، و إنما يخفون عنادا و حسدا.

[١٠٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءَ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَنْتَ مَفْتَرٌ نَزَّلَهُ أَى نَزَلَ النَّاسِخُ، أَوْ نَزَلَ الْقُرْآنُ رُوحُ الْقُدُسِ وَ الْمَرَادُ بِهِ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ بَمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لِلنَّزَاهَةِ، كَأَنَّ النَّزَاهَةَ وَ الْقُدَاسَةَ جَسْمٌ، وَ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رُوحَهَا مِنْ رَبِّكَ إِنْزَالًا- بِالْحَقِّ فَلَمْ يَكُنِ الْإِنْزَالُ مِنَ الشَّيَاطِينِ- كَمَا كَانَ يَزْعَمُ بَعْضُهُمْ- وَ لَا بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ حَقًّا مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، وَ لَكِنْ قَوْلُهُ وَ إِنْزَالُهُ بَاطِلٌ، كَمَا كَانَ يَقُولُ الْخَوَارِجُ «لَا- حَكْمَ إِلَّا- لِلَّهِ» فَإِنَّهَا كَلِمَةٌ حَقٌّ، لَكِنْ قَوْلُهُمْ لَهَا فِي مَوْرِدِ التَّحْكِيمِ كَانَ بَاطِلًا، وَ الْقُرْآنُ هُوَ حَقٌّ بِذَاتِهِ، وَ إِنْزَالُهُ أَيْضًا بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَ هَدَى أَى أَنَّ الْقُرْآنَ هِدَايَةٌ لِلنَّاسِ نَحْوَ السَّبِيلِ الصَّحِيحِ وَ بُشْرَى أَى بِشَارَةٌ بِمَا يَسْعُدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ أَمَا غَيْرُهُمْ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يَنْذِرُهُمْ بِالنَّارِ وَ الْجَحِيمِ لَا بِالْجَنَّةِ وَ النَّعِيمِ.

[١٠٤] لَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ الْقُرْآنَ بِكُلِّ مَا يَأْتِي فِي مَخِيلَتِهِمْ، قَاصِدِينَ

(١) البقرة: ١٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٤

[سورة النحل (١٦): آية ١٠٤]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

الانتقاص منه، و إنزال مرتبته لدى الجهال، فكانوا يقولون أنه كلام الرسول، أساطير الأولين، سحر، كهانة، شعر، كلام الشياطين، إلى غيرها، و من جملة ما يقولون ما حكى سبحانه هنا وَ لَقَدْ نَعَلَّمْ قَدْ لِلتَّحْقِيقِ، وَ إِنْ كَانَ دَخَلَ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا يَأْتِي كَثِيرًا لِلذَّكَاءِ، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى التَّقْلِيلِ، وَ هَذَا يَكُونُ شَبَهَ التَّهْدِيدِ، حَتَّى لَا يَسْتَرِيحُ الْمُجْرِمُ، كَمَا تَقُولُ لَوْلَدِكَ يُمْكِنُ أَنْ أَفْهَمَ مَا تَعْمَلُهُ فِي الْخَفَاءِ أَنَّهُمْ أَى الْكُفَّارُ يَقُولُونَ عَلَى الْقُرْآنِ إِنْمَّا يُعَلِّمُهُ أَى يَعْلَمُ الرَّسُولُ بِالْقُرْآنِ، بَشَّرَ هُوَ أَبُو فِكَيْهَةَ مَوْلَى ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ، كَانَ أَعْجَمِيَّ اللِّسَانِ، وَ كَانَ قَدْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ آمَنَ بِهِ، وَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَتْ قَرِيشٌ هَذَا وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ قَدْ رَدَّ سَبْحَانَهُ مَقَالَهُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِقَوْلِهِ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَلْحَدِ، بِمَعْنَى أَمَالِ، وَ مِنْهُ «اللَّحْدُ» لِمِيلِهِ، وَ «المَلْحَدُ» لِأَنَّهُ مَائِلٌ عَنِ الْحَقِّ، أَى أَنَّ لِسَانَ الرَّجُلِ الَّذِي يَنْسَبُونَ الْقُرْآنَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ لَا يَفْصَحُ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَعْجَمِيِّ وَ الْعَجَمِيِّ، إِنْ الْأَوَّلُ لِمَنْ لَا يَفْصَحُ، وَ لَوْ كَانَ عَرَبِيًّا، وَ الثَّانِي، لِمَنْ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ، وَ إِنْ كَانَ فَصِيحًا وَ هَذَا الْقُرْآنُ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ وَاضِحٌ، وَ إِذَا كَانَتْ فَصْحَاءُ قَرِيشٍ، عَاجِزِينَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ فَصَاحَةٌ وَ جَمَالًا، فَهَلْ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ أَعْجَمِيٌّ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؟ لَكِنْ الْمَعَانِدُ لَا يَسْمَعُ الْحُجَّةَ، وَ إِنَّمَا يَرِيدُ الطَّعْنَ.

[١٠٥] ثم يسلى سبحانه نبيه، عن هذا الوحي الظالم، بقوله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٥ إلى ١٠٦]

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيْمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ مَا أَتَمَّ اللَّهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، بِإِرَاءِ تَهْمِ الطَّرِيقِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ لَا يَلْطَفُ بِهِمُ الْأَطَافُ الَّتِي يَلْطَفُ بِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ يَجَازِيهِمْ بِجَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ، بِقَطْعِ اللَّطْفِ عَنْهُمْ، بَيْنَمَا يَسْبِغُهُ عَلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَوْلَمٌ مَوْجِعٌ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَظَاهِرٌ، وَ أَمَا فِي الدُّنْيَا، فَهُمْ يَحْتَرِقُونَ بِنِيرَانِ الْحَسَدِ وَ الْحَقْدِ، وَ عَيْشُهُمْ ضَنْكٌ، وَ لَا اطمئنان لقلوبهم.

[١٠٦] إنهم كانوا ينسبون الرسول إلى الافتراء، بينما الافتراء من شأنهم، فغير المؤمن بالله الذي لا يرى تبعه لأعماله هو الذي يفترى، أما المؤمن، فإنه نزيه عن الافتراء، فكيف بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنما يفترى الكاذب الافتراء أصله من باب «فري» بمعنى قطع، فكان المفترى قطع شيئاً من الباطل ليريه بصورة الحق، ولذا يصح إسناده إلى الكذب، أى يقطع الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله والمعاد، ولا يخافون الجزاء والحساب، وأولئك الذين لا يؤمنون هم الكاذبون فالكذب منحصر فيهم، لا إنك كاذب- كما يقولون-

[١٠٧] وفي سياق الحديث عن الكفار، يذكر سبحانه ما أعد لهم من غضب الله، والعذاب العظيم من كفر بالله من بعد إيمانه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان، وعرف الحق من الباطل، وهذا مبتدأ خبره «فعلهم»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٦

[سورة النحل (١٦): آية ١٠٧]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)

وقد استثنى من هذه الجملة استثناء، كما أوضح الكافر من بعد الإيمان بتوضيح، فالأول قوله إلاً من أكرهه الكفار على أن يتكلم بالكفر، فأظهر الكفر تقيئه، كما قال سبحانه (إلاً أن تتقوا منهم ثقاةً) «١» والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان فلم يرتد، وإن أظهر اللفظ فقط، وإنما جرى بهذا الحال، لأن بعض الناس، يدخلون في أمر إكراهها، لكنهم بعد ذلك يدعون له إذعانا، فليس المستثنى من «كفر بعد إيمانه» مثل هذا، وإنما من أكرهه وقلبه مطمئن بالإيمان، والثاني قوله ولکن من شرح بالكفر صدراً أى أن المراد ب «من كفر» من اتسع قلبه للكفر مقابل من ضاق صدره- وقد مر سابقاً أنه كيف يضيق الصدر- أما شرحه واتساعه، فإن الإنسان إذا ارتاح إلى شيء، فإنه يهدأ جسمه ويخف دمه، فيكون انتشار رثته أقل، ولذا يحس بنوع من التوسع في صدره فعليهم خبر «من» وجاء «الفاء» في الخبر، لأن المبتدأ في معنى الشرط غضب من الله يعامل معهم معاملة الغضبان، وهى تركهم، وعدم الاهتمام بشأنهم ولهم عذاب عظيم وهو عذاب النار، التى لا زوال لها، ولا اضمحلال.

[١٠٨] وإنما عليهم الغضب ولهم العذاب ذلك بسبب أنهم استحبوا أى آثروا وقدموا، وطلبوا حب الحياة الدنيا والتلذذ

(١) آل عمران: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٧

[سورة النحل (١٦): آية ١٠٨]

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)

بنعيمها الفانى الزائل المكدر على الآخرة الباقية الصافية وب أن الله لا يهدي القوم الكافرين فإنه سبحانه لما رأى إعراضهم، لم يهدمهم بلطفه الخفية، فصاروا من الأشقياء باستمرارهم فى الكفر والفساد حتى استحقوا الغضب والعذاب.

وقد ورد أن سبب نزول «إلا من أكره» هو عمار بن ياسر «رضى الله عنه» وقصته على ما ذكروا أن قريشا أكرهوه، كما أكرهوا أباه ياسر، وأمه سمية على الارتداد، فأبى أبواه، فقتلوهما شر قتلة- وهما أول شهيدى فى الإسلام- وأما عمار فإنه أعطاهم بلسانه ما أرادوا- مكرها- فجاء البعض إلى الرسول قائلين. إن عمارا قد كفر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: كلا إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكى فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمسح عينيه، قائلا:

مالك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت

«١»، و

ورد أيضا أن قوله «و لكن من شرح» نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، من بني عامر بن لؤي «٢»
 [١٠٩] أولئك الذين شرحوا بالكفر صدرا من الذين كفروا بعد إيمانهم، هم الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فلا يفقهون وَعَلَى سَمْعِهِمْ فلا
 يحلو كلام الحق في آذانهم وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ فلا ينظرون

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر السابق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٠٩ إلى ١١٠]

لا- جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
 لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

إلى الحق بنظر كونه حقا، وإنما بنظر الإهانة والاحتقار، فإنهم لما عرضوا عن الهدى الذي أراه الله سبحانه إياه تركهم، حتى يكون
 طابعهم الكفر في حواسهم الباطنة والظاهرة، وهكذا يهوى الإنسان إلى الدركات، كما يترقى إلى الدرجات، وبلوغ الأمرين، اتباع
 هذا السبيل، أو ذاك السبيل وأولئك هم الغافلون إنهم نزلوا منزلة الغافلين، وإنهم لم يكونوا بغافلين عن المبدأ والمعاد، ولوازمهما
 لأن التارك للأثر ينزل منزلة الجاهل والغافل، فإذا رأى زيد الأسد المقبل، فلم يفر، يقال عنه، أنه جاهل، أو غافل عن وجود الأسد، و
 إلا لماذا لم يفر؟

[١١٠] لا جَرَمَ أى حقا- وقد تقدم تفسيره- أَنَّهُمْ أى هؤلاء الذين كفروا بالله، شارحين بالكفر صدرا في الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ الذين
 خسروا أنفسهم، وكل شيء يتعلق بهم، بينما ربح المؤمنون أنفسهم والجنة.

[١١١] أما من أكره، وقلبه مطمئن بالإيمان ثم للتراخي في اللفظ، أو المراد التراخي في الزمان إِنَّ رَبَّكَ يا رسول الله لِلَّذِينَ هَاجَرُوا
 معك إلى المدينة مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا عن دينهم وأكروهوا، حتى نالوا بلسانهم ما أراد الكفار ثُمَّ جَاهِدُوا بعد ما هاجروا مع الرسول وَ
 صَبَرُوا على تعب الجهاد، وعلى مكاره الأيام الواردة على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٦٩

[سورة النحل (١٦): آية ١١١]

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

المسلمين إِنَّ رَبَّكَ يا رسول الله مِنْ بَعْدِهَا أى بعد تلك الفتنة لَعَفُورٌ يغفر ذنبهم رَحِيمٌ يرحمهم ويتفضل عليهم، إن عملهم ذلك، لم
 يكن موجبا للعصيان، لكن حيث أن كون الفتنة تؤدي ببعض الناس حتى يرتدوا حقيقة، كان ظهور الغفران والرحمة، إنما هو بعد
 الهجرة والجهاد والصبر، وكثيرا ما يطلق الفعل على ظهوره، يقال:

كفر فلان، أى أظهر كفره وإن كان كافرا قلبا قبل ذلك، وفى بعض التفاسير، إن هذه الآية نزلت بالنسبة إلى من فتنوا من ضعفاء
 الإيمان، الذين فتنوا حقيقة، وكفروا قلبا ولفظا، ثم رجعوا إلى الإسلام وحسن إيمانهم، فإن قبول توبتهم كان مشروطا بالهجرة و
 الجهاد والصبر، وقد أكد «من بعد» لتقرير ذلك.

[١١٢] و إذ ذكر عقاب الكافرين، و ثواب المؤمنين، جاء السياق ليبين وقت الجزاء، فاذا ذكر يا رسول الله يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ صالحا كان
 أم طالحا، وهو يوم القيامة تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا أى تخاصم الحكام والشهود وتباحث معهم حول شخصها، فيقول الكفار (وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا
 كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١» ويقول الاتباع (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا) «٢» ويقولون (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا) «٣» إلى غير ذلك وَ تُوَفَّى كُلُّ
 نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) الأعراف: ٣٩.

(٣) الأحزاب: ٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٠

[سورة النحل (١٦): آية ١١٢]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)

أى تعطى جزاء أعمالها وافيها غير منقوص، خيرا كان عملها أم شرا وَ هُمْ لَا يُظَلِّمُونَ فِي الْجَزَاءِ، بأن يعاقب البرىء، أو يزداد على عقاب المجرم، أو ينقص من أجر المحسن.

[١١٣] إن الكفار فى الآخرة، يجزون جزاء كفرهم، فهل الدنيا تمر عليهم بسلام؟ كلا! فإن الله سبحانه، جعل الكون، و قرر فيه مناهج، ثم أُرشد إلى تلك المناهج على لسان الأنبياء، فمن أطاع سَعَد، إذ هو يمشى على المنهاج الكونى فلا يصطدم، و من عصى اصطدم بالمنهاج و صارت عاقبته الدمار، كمن يخالف أمر الطبيب فإنه يشتد به المرض حتى يهلك، و قد سبق أن ضرب الله سبحانه مثلين للشركاء، و هنا مثل ثالث للبلدة التى تطغى و تخالف أمر ربها وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِكُلِّ قَوْمٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَأَبْطَرْتَهُمْ النِّعْمَةَ، فكفروا بها، فأنزل الله بهم نِقْمَتَهُ قَرْيَةً أى مدينة، فإن القرية تطلق على المدينة، كما قال: (وَ تِلْكَ الْقَرْيَةُ أَهْلَكُنَاهُمْ) «١» (مِنْ قَرْيَتِكَ) «٢» كانت تلك القرية آمِنَةً يعيش أهلها فى أمن مُطْمَئِنَّةً من جهة معيشتها، فهى ساكنة هادئة لا يحتاج أهلها إلى التحول و الانتقال يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا أى واسعا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فإن القرية، إذا سكنت و هدأت حسن زرعها و تجارتها، فالأرزاق تأتيتها من أطرافها القريبة و البعيدة، فَكَفَرَتْ أى تلك

(١) الكهف: ٦٠.

(٢) محمد: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧١

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٣ الى ١١٤]

وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)

القرية، و المراد أهلها بعلاقة الحال و المحل بِأَنْعَمِ اللَّهُ فلم يؤدوا شكرها، فإن شكر النعم الإطاعة و الإيمان، فإذا كفروا و عصوا كان كفرانا للنعمة فَأَذَاقَهَا اللَّهُ أى أذاق سبحانه تلك القرية لِبَاسِ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ أى أخذهم بالجوع، فذهب رزقهم، و بالخوف فذهب أمنهم بما كانوا يَصْنَعُونَ أى بسبب صنيعهم الكفر و الطغيان، و قد كان التعبير باللباس بليغا جدا حيث دل على أن الخوف و الجوع شمل جميع البدن، لا-البطن و القلب فقط، للدلالة على كثرة الأمرين، فإن الإنسان إذا جاع كثيرا ظهر الهزال فى جميع جسده، و إذا خاف كثيرا ظهر أثر الخوف الذى هو الانكماش للجلد، و الاصفرار على جميع البدن، و قد قال سبحانه «أذاقها» فليس مجرد إمساس، بل ذوق، فإنه أعمق تأثيرا عن الإمساس، و لقد كان هذا المثل منطبقا على مكة تماما، حيث كفر أهلها بعد ذلك الأمن و الرفاه.

[١١٤] وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ كَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الذى جاء أهل مكة، و قد كان من أنفسهم فَكَذَّبُوهُ و لم يؤمنوا به و برسالته فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ بِالْجُوعِ وَ الْخَوْفِ وَ هُمْ ظَالِمُونَ فلم يكن تعذيبهم ظلما منه سبحانه، بل ذلك جزاء أعمالهم و ظلمهم

أنفسهم و غيرهم.

[١١٥] و حيث عرفتم أيها الناس جزاء الكفران، فلا تتركوا الشكر و الإيمان، إن أردتم دوام النعم فكلوا مما رزقكم الله من الأطعمة المحللة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٢

[سورة النحل (١٦): آية ١١٥]

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)

حللاً شرعاً طيباً طبا و مذاقا، فإن كل حلال طيب، و كل طيب حلال، و «كلوا» أمر بمعنى الإباحة و أشكروا نعمت الله بالإيمان و الإطاعة، فإنك إذا أنعم عليك زيد ثم أنكرت وجوده أو خالفت أو امره كنت معرضا نفسك لسخطه إذ كفرت بنعمته إن كنتم إياه أى الله سبحانه تعبدون أما من لا يعبد الإله فالأمر بإقامته على الإيمان، و أن يشكر إحسانه تعالى، عبث، إذ من لا يقبل الأصل لا يقبل الفرع، فليس مفهوم الآية، لا تشكروا إن لم تعبدوه، فإنه سأل به بانتفاء الموضوع حينئذ.

[١١٦] و حيث أباح سبحانه المحللات الطيبات، ذكر سبحانه المحرمات، لتمييز بعضها من بعض، و هذا فى قبال ما كانوا يحرسون، من البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام، لأن الحصر حقيقى، حتى يقال ما بال بعض الأشياء لم تذكر هنا و قد تقرر فى البلاغة، أن الحصر إضافى إذا كان فى قبال شىء، فإذا قيل لك: أن فى الدار ملكين، تقول ليس فيها إلا ملك واحد، تريد أنه ليس فيها ملك ثان، لا أنه ليس فيها أحد غير الملك فإن هذا الحصر لا ينافى وجود العشرات من الناس فيها إنما حرم الله عليكم الميتة التى ماتت حتف أنفها و الدّم غير المتخلف فى الأجزاء المحللة و لَحْمَ الْخِنْزِيرِ و سائر أشيائه، كالشحم و اللبن و نحوهما، و هذه الثلاثة حرمت لما يوجب من الضرر البالغ على الجسم و ما أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ أى سمي غير اسم الله عند

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٣

[سورة النحل (١٦): آية ١١٦]

وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِّتَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦)

ذبحه، فإن الكفار كانوا يسمون الأصنام لدى ذبحهم للذباح- و قد تقدم تفصيل ذلك- و هنا إنما حرم، لأنه يوذى العقيدة، و كذا نرى فى الإسلام أن الأحكام تشرع لصيانته العقيدة، كما تشرع لصيانته الجسم، فالبول نجس لضرره، و الكافر نجس لأنه يضر العقيدة، و هكذا فَمَنْ اضْطُرَّ أى تناول هذه المحرمات غير باغ أى لم يكن طالبا له، حتى أوقع نفسه فيه، بل اضطراره صار صدفة و لا عادٍ أى غير متعد لحد الاضطرار، كأن يكون مضطرا إلى نصف رطل، فيأكل رطلا، فإن الله غفورٌ يستر هذا العمل القبيح فى نفسه- و إن لم تكن معصية- رحيمٌ يرحم المتناول، و يتفضل عليه من إحسانه، و غالبا يأتى وصف «رحيم» بعد «غفور» للدلالة على أنه سبحانه ليس كالشكر منتهى عطفهم و لطفهم أن يغمضوا عن المجرم، فإنه بالإضافة إلى العفو عنه يتفضل عليه.

[١١٧] و إذ تبين الحلال من الحرام، فما بال بعض الناس يتصرفون فى هذه الأحكام حسب أهوائهم بلا حجة أو برهان؟ و لا تقولوا لما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ أَيُّهَا النَّاسُ الْكُذِبَ مَفْعُولٌ تَصِفُ مَصْدَقٌ ل «ما» أى لا تقول للكذب الذى تصفه ألسنتكم هذا حلالٌ و هذا حرامٌ فإن الواقع يوصف بالصدق و الكذب، فإذا قلت: زيد قائم، و صفت الخارج بأنه قيام زيد، فإن كان مطابقا للخارج كان صدقا، و إلا كان كذبا، و الحاصل لا تقولوا لما حللتموه بأنفسكم مثل الميتة هذا حلال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٤

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٧ الى ١١٨]

مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ

(١١٨)

ولما حرمتهم مثل السائبة، هذا حرام لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ أى لتكذبوا على الله فى إضافة التحريم إليه، اللام للعاقبة أى نتيجة تحليلكم و تحريمكم، و عاقبة الافتراء على الله، بمعنى أن هذا العمل، لا يكون إلا افتراءً إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ لا يفوزون بالجنان، إذ مصيرهم إلى النار.

[١١٨] إنما الدنيا التى يكذبون لأجلها متاعٌ قَلِيلٌ أى هى شىء ينتفعون به، و يتمتعون منه فى أيام قلائل وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه يوم القيامة، و أى عاقل يشتري العذاب الأليم، لمتاع قليل؟

[١١٩] و هنا يتساءل الإنسان، كيف أن بعض الأشياء محرمة على اليهود، و هى طيبات، و قد سبق أن الطيبات محللة؟ و الجواب، أن التحريم عليهم كان لحكمته خارجية، و هى أنهم ظلموا، و إذا حرّم سبحانه بعض الطيبات كما تحرم ابنك عن بعض الأمتعة- المباحة لسائر أبنائك تأديبا- وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا أى صاروا يهودا، و الصيرورة باعتبار أن اختيار الدين، إنما هو بعد البلوغ حرّمنا ما قَصَصْنَا عَلَيْكَ يا رسول الله مِنْ قَبْلُ إما متعلق ب «عليك» أو ب «حرّمنا» كما قال سبحانه فى سورة الأنعام: (وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ) «١»

(١) الأنعام: ١٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٥

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٩ الى ١٢٠]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)

وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ بِتَحْرِيمِهِمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ عَلَيْهِمْ وَ حَرَمْنَاهُمْ مِنْهَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَ كان جزاء ظلمهم تأديبهم بتحريمهم بعض الطيبات عليهم.

[١٢٠] و لا- يظن اليهود و غير اليهود، أن من عصى فأذبه سبحانه، أو أوعده النار فإن الأمر قد تحتم و لا مرجع بعد ذلك، فإن الله سبحانه يغفر لمن تاب ثُمَّ بعد الوعيد و التحريم إِنَّ رَبَّكَ يا رسول الله لِلَّذِينَ عَمَلُوا الشُّوْءَ أى الشىء القبيح السىء بِجَهَالَةٍ و كل عاصى، فهو جاهل فى عسيانه، و إن علم بأنه معصية، لأنه لا- يعلم مدى تأثيرها، و لو علم لا نفلع ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ السوء وَ أَصْلَحُوا أعمالهم، فيما بعد، بأن لم يعصوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا أى بعد التوبة لَغَفُورٌ يغفر ذنبهم رَحِيمٌ يتفضل عليهم بالإنعام و الإحسان.

[١٢١] و قد كان كل من اليهود و المشركين- الذين تقدمت أحوالهم- ينسب آراءه و أعماله إلى إبراهيم عليه السلام، حيث يدعى كل طائفة من الطائفتين إن إبراهيم أباه، و إنه هو الذى اتبع تعاليمه، فاليهود من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، و كفار مكة- غالبا- من أولاد إسماعيل بن إبراهيم، و لذا يأتى السياق ليفند مزاعم الجانيين، و إن إبراهيم لم يكن كما يزعمون إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً و إنما كان بقیة أهل العالم أمة،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٦

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢١ الى ١٢٣]

شَاكِرًا لِلَّهِ لَأَنْعَمَهُ اجْتِبَاءً وَ هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)

و إبراهيم أمة، لأنه كان مسلما، و الباقون كفارا قَانِتًا لِلَّهِ أى مطيعا لله من القنوت بمعنى الخضوع و الانقطاع إليه سبحانه حَنِيفًا مائلا عن طريق الكفار، فإنه من حنف، بمعنى مال أو بمعنى مستقيما،

قال الباقر عليه السلام في تفسير الآية: إنه كان على دين لم يكن أحد غيره، فكأنه أمه واحدة و أما قانتا فالمطيع، و أما الحنيف فالمسلم و لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما تزعمون أنتم أيها المشركون.

[١٢٢] شاكراً لِنَعْمِهِ أنعم جمع نعمه، أى أنه كان شاكراً لنعم الله سبحانه، فلم يكفركم بها كما هو دأبكم أيها الكفار الذين تنسبون أنفسكم إليه عليه السلام اجْتَبَاهُ أى اختاره سبحانه للرسالة وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ هو صراط التوحيد و الإسلام، و لم يكن ذا صراط منحرف كطرقكم الملتوية، فكيف تنسبون أنفسكم إليه؟

[١٢٣] وَ آتَيْنَاهُ أى أعطينا إبراهيم فى الدُّنْيَا حَسَنَةً أى نعمه، و المراد بها الحسنه الكامله، التى يدخل فيها كل شىء من النبوه و العلم و المال و الأولاد و غيرها، كما قال سبحانه: (رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً) «١» و ليس الإفراد فيها لقصد الفرد، كما لا يخفى وَ إِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ فله جزاؤهم من الجنان و النعيم.

[١٢٤] و إذ تبين حال إبراهيم، فأنت يا رسول الله المتبع له، لا اليهود

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٧

[سورة النحل (١٦): آية ١٢٤]

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

و المشركون ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ - بعد فترة طويلة بينك و بين إبراهيم - أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أى طريقته و سنته فى التوحيد، و سائر المعارف، مقابل اتباع طريقه الكفار أو طريقه اليهود حنيفاً فى حال كونك حنيفاً عن الباطل، أو فى حال كون إبراهيم حنيفاً و ما كان إبراهيم مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما يزعم هؤلاء، و هذا للتأكيد، بأنه لم يكن كما زعموا، و إن كان قد سبق أنه عليه السلام لم يك مشركاً.

[١٢٥] و حيث ندد سبحانه بالمشركين بقوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» عطف على اليهود بالتشديد بهم فكيف يدعون اتباع إبراهيم، فهم غافلون لأحكام الله سبحانه من أول الأمر، و الشاهد لذلك يوم السبت الذى حرّم الله فيه الصيد لهم، فاستحلوه، و صادوا فيه، فلعنهم الله و مسحهم قرده و خنازير إنما جُعِلَ السَّبْتُ أى قرر تحريم الاصطياد فيه على اليهود الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أى فى إبراهيم عليه السلام، فتبع بعض سبيله، بأن اتبعوا موسى عليه السلام، و خالف بعض، بأن انحرفوا عن الدين، أو أن الضمير يرجع إلى «السبت» أى جعل السبت على أولئك الذين اختلفوا فى السبت، فحرموه جماعة منهم بكفهم عن الاصطياد، و أحلوه جماعة بالاصطياد فيه، و ليس السبت - كناية عن الدين الذى لهم السبت - مرتبطاً بالمسلمين و بمنهجك يا رسول الله، كما نقول «السبت لأصحابه» تريد أن اليهودية لليهود لا ترتبط بنا و إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى بين المختلفين يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٨

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنَّ عَاقِبَتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَكِنَّ صَبْرَتُمْ لَهْوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)

من أمور دينهم فيميز المحق من المبتطل و يجازى كلما حسب عمله، أما أنت فلا ترتبط بهم، و إنما ترتبط بإبراهيم عليه السلام، كما نقول لمن يقف متفرجاً على تخاصم، اذهب أنت فى طريقك، أما هؤلاء، فإن المحكمة تفصل بينهم.

[١٢٦] و إذ كنت يا رسول الله متبعاً طريق إبراهيم عليه السلام، غير مرتبط باليهود و المشركين فعليكم أن تدعو الناس إلى هذه الطريقة ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ أى ادع الناس إلى طريقه سبحانه بِالْحُكْمِ وَ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ، بأن تكون الدعوة حكيمة فى

الأسلوب و الزمان و المكان وَ الْمَوْعِظَةُ الْحَيَّةُ بِأَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ وَعِظًا حَسَنًا، لَا يَسَبُّ تَشْرِيدَ النَّاسِ، بَلْ إِقْبَالَهِمْ، فَقَدْ يَقُولُ الْإِنْسَانُ لِلْفَاسِقِ: يَا فَاسِقُ وَيَبْصُقُ فِي وَجْهِهِ- فَإِنَّهُ يَزِيدُهُ عِنَادًا- وَقَدْ يَقُولُ لَهُ: أَيُّهَا الْأَخُ إِنَّكَ شَابٌ لَطِيفٌ، فَلَمَّا ذَا لَا تَسْلُكُ سَبِيلَ رَبِّكَ الَّذِي نَهَاكَ عَنِ الْعَمَلِ الْكَذَائِي، وَ هَكَذَا وَ جَادِلُهُمْ أَيُّ حَاجِجٍ وَ نَاطِرٍ مِنْ كُفْرٍ وَ عَصَى بِالَّتِي أَيُّ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الطَّرِيقِ، حَيْثُ لَا تُثِيرُ عِنَادَهُمْ، وَ لَا- تَجْرَحُ كِبْرِيَانَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ أَعْرَفُ بِطَبَاعِهِمْ وَ نَفْسِيَاتِهِمْ، فَأَمْرُهُ إِيَّاكَ بِالْدَّعْوَةِ هَكَذَا لَيْسَ إِلَّا- لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلِحُهُمْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا فَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ، وَ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا الدَّعْوَةُ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ.

[١٢٧] و لقد كانت الدعوة معرضة لأصناف الأخطار، و الداعي و من تبعه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٧٩

لصنوف الإهانة و الأذى، و لذا كان من اللازم تشريع قانون المجازاة، إلى جنب الأمر بالدعوة فما ذا يصنع النبي و من تبعه بالكفار الذين يؤذونهم في سبيل الدعوة؟ و إن عاقبتهم أي أردتم معاقبته من أذاكم و أهانكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به أي بقدر ما تعدوا عليكم، بلا زيادة، فإن المظلوم قد يخرج عن الاعتدال، فينتقم أكثر مما أهين، أ رأيت من يكثر السباب لمن سبه مرة، أو من أشبهه و لئن صبرتم فلم تعاقبوا أصلا و تركتم القصاص و المجازاة لهُوَ أَي الصبر خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ لِأَنَّهُ يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ، وَ فِي صِرُورَةِ الْإِنْسَانِ مَظْلُومًا انْتِصَارًا لَهُ، بَيْنَمَا أَنَّ الْمَقْتَضَى لَا يَأْخُذُ مَحَلًا مِنَ الْقُلُوبِ، وَ مِنْ مَصَادِقِ هَذَا الْحُكْمِ مَا

ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ- فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ- أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ أَحُدٍ: مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِعَمَى حِمَزَةٍ؟ فَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ الصَّمْتِ: أَنَا أَعْرَفُ مَوْضِعَهُ، فَجَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى حِمَزَةٍ، فَكَّرَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَيُخْبِرُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اطْلُبْ يَا عَلِيُّ عَمَكَ، فَجَاءَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوَقَفَ عَلَى حِمَزَةٍ، فَكَّرَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فَعَلَ بِهِ بَكَى، ثُمَّ قَالَ: مَا وَقَفْتَ مَوْقِفًا قَطُّ أَغِيظُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لِإِنَّ أَمَكُنِي اللَّهُ مِنْ قَرِيشٍ، لِأَمَثَلَنَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلُ، فَقَالَ: «وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهِوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَ أَصْبِرْ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: بَلْ أَصْبِرُ «١»

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٠

[سورة النحل (١٦): الآيات ١٢٧ إلى ١٢٨]

وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا- بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

أقول: فإن قيل كيف قال الرسول لأمثلن، مع أن كلام الرسول ليس إلا وحيًا؟ و الجواب أنه ما المانع في كونه وحيًا، أن ينزل لإظهار سوء فعلهم، و أنهم استحقوا مثل ذلك الجزاء، و كان وحيًا ما نزل من القرآن؟ و خلف الوعيد ليس قبيحا.

[١٢٨] وَ اصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا تَلَاقِيهِ مِنَ الْمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ، وَ لَا تَنَافَى بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنَّ التَّخْيِيرَ عَامٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ، وَ هَذَا خَاصٌ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ وَ أَمْرُهُ وَ تَحْتَ نَظَرِهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ مَنْ يَدْعُو إِلَى الرَّشَادِ، لَا يَدْعُو أَنْ يَحْزَنَ إِذَا رَأَى الْإِعْرَاضَ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَنْهَى نَبِيَّهُ عَنِ الْحُزَنِ- نَهَى إِشْفَاقًا وَ إِرْشَادًا- كَيْ لَا يَضِيعَ حُزْنُهُ عَيْنًا وَ لَا تَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي ضَيْقٍ أَيُّ لَا يَضِيقُ صَدْرَكَ مِمَّا يَمْكُرُونَ يَدْبُرُونَ مِنَ الْحِيلِ وَ الْمَكَائِدِ، لِإِطْفَاءِ الْإِسْلَامِ، وَ إِخْمَادِ صَوْتِ الْحَقِّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ.

[١٢٩] وَ الزَّمْ جَانِبَ التَّقْوَى فِي الدَّعْوَةِ، وَ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكُفْرَ وَ الْمَعَاصِيَ، مَعَهُمُ بِالْمَعُونَةِ وَ النَّصْرِ وَ النِّجَاةِ

و الحفظ و مع الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ يحسنون في أعمالهم، و هو فوق التقوى، فإن التقوى - مثلا - أن لا تكذب، و الإحسان، أن تسبح الله بلسانك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الخامس عشر من آية (١) سورة الإسراء إلى آية (٧٥) سورة الكهف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٣

١٧ سورة الإسراء مكية - مدنية / آياتها (١١٢)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتغالها على الفعل من «الإسراء» في قوله تعالى «شُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» و تسمى أيضا سورة «بنى إسرائيل» لاشتغالها على لفظة «بنى إسرائيل»، و هي مكية، إلا آيات، و لذا نرى الجو العام فيها، كالجو في غالب السور المكية، يعالج قضايا العقيدة، و تشتمل هذه السورة على إحدى معجزات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الكُتَاب، و هي ذهابه ليلا من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، حينما عرج به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إلى السماء، ليرى آيات الله سبحانه في الملكوت عيانا. و حيث أن سورة النحل اختتمت بذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، تفتح هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله الرحمن الرحيم، فهو إله كل شيء، مستحق لجميع أنواع الإعظام و الإكرام، أليس هو الله - و إنه اسم للذات المستحق لجميع أصناف المحامد -؟ و أليس هو رحمانا رحيمًا، متفضلا على العباد - حتى العصاة - بأنواع الإحسان و الامتنان، فمن أحق منه بذكر اسمه في أول الأشياء، و ابتداء الأعمال و الأمور؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

[٢] شُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ «سبحان» منصوب بفعل مقدر، أى أسبح سبحان الإله الذى سار بالنبي ليلا، فإن الإسراء هو السير ليلا، و المراد بالعبد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فإنه من أفضل صفاته أن يكون عبدا - كامل العبودية - لله، قالوا: و لذا قدم على الرسالة في التشهد «و أشهد أن محمدا عبده و رسوله» لئلا للتوضيح و التأكيد من الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ، و الكثيرون على أن ذلك كان من دار «أم هانئ» بنت «أبي طالب» و إنما أطلق المسجد الحرام عليه، بعلاقة الكل و الجزء، فإن الجزء قد يطلق على الكل، للملابسة بينهما، فمكة يطلق عليها المسجد الحرام إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أى الأبعد، فقد كان أهل مكة يسمون بيت المقدس بالمسجد الأقصى، لبعده عن محلهم، مقابل المسجد الأدنى الذى هو المسجد الحرام - عندهم - ثم أن هذا السير من مكة إلى المسجد الأقصى، يسمى فى عرفنا ب «الإسراء» لأنه سير من هنا إلى هناك، ثم صعود الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من المسجد الأقصى إلى السماء يسمى «معراجا» لعروجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من هناك إلى السماوات، و قد كان الإسراء و المعراج فى ليلة واحدة، فى اليقظة ببدنه الشريف، حسب ما انعقد عليه إجماع علمائنا، و دلّ عليه ظاهر القرآن الحكيم، و الروايات المتواترة، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ فَإِنَّ حَوْلَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، كان مبعث الأنبياء، و خصوصا العظام منهم، كموسى و عيسى و إبراهيم و صالح و شعيب و يعقوب و إسحاق و إسماعيل و غيرهم عليهم السّلام، و لعل هذا الإسراء كان لأجل التلميح إلى ربط الديانات الكبرى العالمية و اليهودية و المسيحية و الإسلام بعضها ببعض، فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٥

أصل جوهرها قبل التحريف في الدينين السابقين، و على أى فقد كان حول المسجد الأقصى مباركا بعث الأنبياء، و نشر تعاليم السماء، و كأنه سبحانه اختار هذه المناطق، لأنها الوسط بين الشرق و الغرب، فزحف الدين منها إلى العالم هين يسير بخلاف ما لو كان الدين من أقصى الشرق و الغرب، و إنما أسرينا بالرسول لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا أى لبعض الآيات الكونية في الأرض و السماء إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ السَّمِيعُ لكل الأصوات فيسمع قول المكذب و المصدق البَصِيرُ بما يرى، فيرى المؤمن و الكافر و الحركات و السكنات، ثم أن قصة المعراج ليست عجيبة على الله سبحانه، و من يؤمن بأصل القرآن، و إمكان الوحي و الرسالة لا بد و أن يؤمن بهذه القصة، و الا فأى فرق بينه و بينها؟

نعم يستغرب هذه القصة الطبيعيون، و من إليهم ممن ضيقوا دائرة معارفهم في المحسوسات، و لم يؤمنوا بما وراء الطبيعة (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا) «١» و لا بأس بالإشارة إلى مجمل من القصة، و تفصيلها في الكتب المفصلة:

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أتاني جبرئيل و أنا بمكة، فقال: قم يا محمد، فقمتم معه، و خرجت إلى الباب، فإذا جبرئيل معه ميكائيل و إسرافيل، فأتى جبرئيل بالبراق، و كان فوق الحمار دون البغل، خده كخد الإنسان و ذنبه كذنب البقر، و عرفه كعرف الفرس، و قوائمه كقوائم الإبل، عليه رحل من الجنة، و له جناحان من فضه، فقال لى جبرئيل: اركب، فركبت و مضيت، حتى انتهيت إلى بيت المقدس، فلما انتهيت إلى بيت المقدس، إذا بملائكة

(١) الجاثية: ٢٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٦

من السماء نزلت بالبشارة و الكرامة من عند رب العزة، و صليت في بيت المقدس، و بشرني إبراهيم في رهط من الأنبياء، ثم وصف موسى و عيسى ثم أخذ جبرئيل بيدي إلى الصخرة، فأقعدي عليها، فإذا معراج إلى السماء لم أر مثلها حسنا و جمالا، فصعدت إلى السماء الدنيا، و رأيت عجائبها، و ملائكتها يسلمون عليّ، ثم صعد بي جبرئيل إلى الثانية فرأيت عيسى ابن مريم و يحيى ابن زكريا، ثم صعد بي إلى الثالثة، فرأيت فيها يوسف، ثم إلى الرابعة، فرأيت فيها إدريس، ثم إلى الخامسة، فرأيت فيها هارون، ثم صعد بي إلى السادسة، فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض، و فيها الكرويين، ثم إلى السماء السابعة، فرأيت فيها إبراهيم، قال ثم جاوزناها متصاعدين إلى أعلى عليين و وصف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ذلك إلى أن قال: ثم كلمني ربي و كلمته، و رأيت الجنة و النار و العرش و السدره، ثم رجعت إلى مكة، فلما أصبحت حدثت به الناس، فكذبني أبو جهل و المشركون، و قال مطعم بن عدى: أ تزعم أنك سرت مسيرة شهرين في ساعة؟ أشهد أنك كاذب، ثم قالت قريش: أخبرنا عما رأيت، فقلت: مررت بعير بنى فلان، و قد ضلوا بعيرا لهم، و هم في طلبه، و في رحلهم قعب مملوء من ماء، فشربت الماء، ثم غطيته كما كان، فاسألوهم، هل وجدوا الماء في القدر؟ قالوا هذه آية قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مررت بعير بنى فلان، فنفر بكرة فلان، فانكسرت يدها، فاسألوهم عن ذلك؟ فقالوا هذه آية أخرى، ثم خرجوا يشتمون نحو الثنية، و هم يقولون: لقد قضى محمد بيننا و بينه قضاء بيننا، و جلسوا ينتظرون حتى تطلع الشمس، فيكذبوه، فقال قائل: و الله إن الشمس قد طلعت، و قال آخر: و الله هذه الإبل قد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢ إلى ٣]

وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)

طلعت يقدمها أورك، و لما جاءت العير و سألوهم عن ما ذكره الرسول؟

تبين صدقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، لكنهم أبوا إلا الكفر و الفساد، و لم يؤمنوا «١».

[٣] و بمناسبة الحديث عن المسجد الأقصى، يأتي السياق لبيان أحوال موسى عليه السلام، و بنى إسرائيل الذين كانوا هناك، و ما

جری عليهم حين أفسدوا و عملوا بالمعاصی و آتینا أعطینا مُوسى الْكِتَابَ هو التوراة، كما أعطیناك یا رسول الله القرآن و جَعَلْنَاهُ أی الْكِتَابِ الذی هو التوراة هُدًى هداية و إرشادا إلى الحق لِبَنِي إِسْرَائِيلَ و هم اليهود، سموا بذلك، لأنهم من أبناء یعقوب، و كان یسمى «إسرائيل» و معناه «عبد الله»، و كان أول الهدى الذی أنزل لأجله التوراة أَلَّا تَتَّخِذُوا أیها اليهود مِنْ دُونِي وَ كَيْلًا رَبًّا تَتَّوَكَّلُونَ علیه فی أموركم، بل هو الله الواحد الذی لا شریك له.

[٤] یا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فَأَنْتُمْ أیها اليهود من أولاد أولئك الآباء الطاهرين المؤمنین الذین أنعمنا علیهم بإنجائهم من الغرق، حیث آمنوا بالله و رسله فلا- تحرفوا، بعد ما رأیتم نعمتی علیکم و علی آبائکم من قبل، و فیہ تلمیح إلى ذکر نوح، بعد ذکر محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و موسى علیه السَّلام إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا فهو عبد كمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ «أسرى بعبده» شكور یقابل نعم الله سبحانه بالشكر لا بالكفر. و هو تعریض باليهود الذین كفروا.

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٨

[سورة الإسراء (١٧): آیه ٤]

وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ تَتَّغَلَّنَّ عَلْوًا كَبِيرًا (٤)

[٥] وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أی أعلمنا بنی إسرائيل فی الْكِتَابِ الذی أنزلناه على موسى، و هو التوراة لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ أی تفسدون فی الأرض التي تسكنونها و هي بيت المقدس مرتين، بالكفر و إظهار المعاصی، قال ابن عباس: كان فسادهم الأول قتل زكريا، و الثاني قتل يحيى بن زكريا، ثم سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف ملكا من ملوك فارس فی قتل زكريا، و سلط عليهم فی قتل يحيى بخت نصر، و هو رجل من بابل، أقول: من عجيب أمر اليهود، أنهم يعملون و يعملون حتى يكون لهم سلطان و قوة، ثم يتخذون ذلك وسيلة للفساد، فيسلط الله عليهم من يبيدهم و يكثر القتل فيهم،- كما هي السنة الجارية أن من تكبر و فسد يتلى بمن ينتقم منه- و إذا ذهب سلطانهم أخذوا فی العمل من جديد، و هكذا دواليك، و فی التاريخ القريب، لما قويت شوكتهم، أخذوا فی الفساد، حتى سلط عليهم «هتلر» فقتلهم و شردهم، ثم نراهم من جديد- بعد تلك الاضطهادات، و بعد أن صارت لهم قوة- أخذوا يعيشون فی فلسطين الفساد، فمن يا ترى يسلط عليهم هذه المرة؟ وَ تَتَّغَلَّنَّ أی ترتفعن بعد ذلك عَلْوًا كَبِيرًا إما المراد قوتهم و شوكتهم بعد المرتين أو المراد استكبارهم و ظلمهم و تعديهم، كما حدث فی زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، حیث استكبروا و طغوا بالكفر بالرسول و أذى المؤمنین، و ما ورد فی بعض الروایات من تطبيق الآیه على هذه الأمة فی ظلمهم الأئمة عليهم السَّلام، فإن ذلك من باب القاعدة الكلية التي تنص على أن مثل القرآن مثل الشمس التي تطلع كل يوم على جميع الناس، فالقرآن ينطبق فی كل زمان على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٨٩

[سورة الإسراء (١٧): آیه ٥]

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥)

الناس، مدائحه على الأخيار و تنقيصاته على الأشرار.

[٦] فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ وَعْدِنَا بِالانتقام عن أولاهما و المراد بالوعد الموعود، و المراد بأولاهما أولى المرتين اللتين تفسدون فيهما بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ أیها اليهود عِبَادًا لَنَا أی سلطنا عليكم بعض الملوك أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ أی أصحاب شوكة و قوة و نجدة، و معنى بعثه سبحانه أنه يخلی بينهم و بين اليهود حتى يفعلوا بهم ما يشاءون، و هكذا كقوله سبحانه: (أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ) «١» فإن الملك إذا قوى طائفه و خلّى بينهم و بين سائر الناس حتى يفسدوا فيهم، يقال أن الملك أرسلهم، فَجَاسُوا أی العباد المنتقمون خِلَالَ الدِّيَارِ أی طافوا وسط ديار اليهود، و تفحصوا و تحسبوا هل بقى منهم أحد حتى يقتلوه و يأسروه وَ كَانَ ما وعدناهم من إرسال العباد للانتقام منهم وَعْدًا مَنَا

مَفْعُولًا كائنا لا- محالة لا خلف فيه، قد كان ذلك كما ذكره التاريخ، و من لطيف المقارنة أن يرى الإنسان أن الله الرؤوف الرحيم بعباده حتى أن من لطفه يعث الرسول على الكفار ليهديهم (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) «٢» يرسل على أهل الكتاب عبادا ليطيشوا بهم و يكثروا فيهم القتل و الهتك و السبى، حيث يخالفون الأوامر، و يفسدون و يعملون بالمعاصي.

(١) مريم: ٨٤.

(٢) آل عمران: ١٦٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦ الى ٧]

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْوُوا وَجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)

[٧] ثم بعد التدمير و الفناء جزاء لأعمالكم السيئة رَدَدْنَا لَكُمُ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْكَرَّةَ أَيُّ الرُّجُوعِ إِلَى الْمَلِكِ وَ السُّلْطَانِ وَ الْقُوَّةِ وَ الشُّوْكَةِ عَلَيْهِمْ أَيُّ عَلَى أَوْلِيَّتِكَ الْأَعْدَاءِ- وَ هُمُ عِبَادُنَا-، فِيرْجِعْ إِلَيْكُمْ مَا فَقَدْتُمُوهُ- بعد تمام العقاب، لما ارتكبتموه- وَ أَمْدَدْنَاكُمْ أَيُّ أَعْطَيْنَاكُمْ مَدَدًا وَ كَثْرَةً بِأَمْوَالٍ وَ بَيِّنَ فَأَكْثَرْنَا أَمْوَالَكُمْ وَ نَفُوسَكُمْ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا أَيُّ عَدَدًا وَ أَنْصَارًا مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَ نَفِيرٌ جَمْعُ «نَفْرٍ» كَعَبْدِ جَمْعُ عَبِيدٍ، وَ النَّفْرُ هُوَ الشَّخْصُ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَ قَبْلَ أَنْ يَبِينَ سَبْحَانَهُ قِصَّةُ فَسَادِهِمُ الثَّانِي، وَ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ، يَبِينُ أَنَّ الْأَمْرَ بِأَيْدِيكُمْ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَحْسَنْتُمْ حَتَّى لَا يَصِيبَكُمْ الْمَكْرُوهُ، وَ إِنْ شِئْتُمْ أَسَأْتُمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ، فَإِنْ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ، إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا، وَ إِنْ شَرًّا فَشَرًّا.

[٨] لكن بنى إسرائيل لا- يعتبرون، و إن رأوا ألف مرة جزاء أعمالهم السيئة، و قال لهم سبحانه إِنْ أَحْسَنْتُمْ عَمَلْتُمْ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ تَرُونَ جَزَاءَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ حَسَنًا مَرْضِيًّا وَ إِنْ أَسَأْتُمْ عَمَلْتُمْ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فَلَهَا أَيُّ فَلْأَنْفُسِكُمْ عَمَلْتُمْ، وَ تَرُونَ جَزَاءَهَا سَيِّئًا وَ قَبِيحًا، وَ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ فَعَلِيهَا- بَلْفِظَةِ عَلَى- حَتَّى يَقَابِلَ «لِأَنْفُسِكُمْ» فِي اللَّفْظِ فَيُفْسِدُونَ مَرَّةً ثَانِيَةً فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْإِنْتِقَامِ لِفَسَادِ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ أَيُّ الْفَسَادِ الثَّانِي لِيَسْلُطَ عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءُ مَرَّةً ثَانِيَةً حَتَّى لِيُسْوُوا بِالْقَتْلِ وَ النَّهْبِ وَ الْهَتِكِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨ الى ٩]

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَزَحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) إِنْ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)

وَ الْأَسْرُ وَ جُوهَكُمْ فَيُظْهِرُ آثَارَ الْمَسَاءَةِ عَلَى وَجُوهِكُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَلَى قَلْبَهُ بِالْإِسَاءَةِ وَ الْإِذْلَالِ، ظَهَرَ أَثَارُهَا عَلَى وَجْهِهِ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْمَسَاءَةِ وَ لِيَدْخُلُوا أَوْلِيَّتِكَ الْأَعْدَاءَ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، أَقْدَسَ مَحَلَاتِكُمْ بِالْإِذْلَالِ وَ الْإِسْتِخْفَافِ كَمَا دَخَلُوهُ الْأَعْدَاءُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عِنْدَ الْإِنْتِقَامِ الْأَوَّلِ وَ لِيُتَبِّرُوا أَيُّ الْأَعْدَاءِ مِنْ تَبْرٍ بِمَعْنَى أَهْلِكَ وَ دَمَّرَ مَا عَلَوْا أَيُّ كُلِّ شَيْءٍ تَمَكَّنُوا مِنَ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِ، وَ غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ بِلَادِكُمْ وَ أَمْوَالِكُمْ وَ نَسَائِكُمْ وَ غَيْرَهَا تَتْبِيرًا أَيُّ تَدْمِيرًا كَامِلًا شَامِلًا، بِحَيْثُ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، وَ لَا فَرْدٌ مِنْكُمْ.

[٩] عَسَى أَيُّ لَعَلَّ رَبُّكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَزَحَمَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، إِنْ أَطَعْتُمْ، بَعْدَ هَذَا الْإِنْتِقَامِ الثَّانِي، وَ تَصْفِيَةِ الْحَسَابِ وَ إِنْ عُدْتُمْ إِلَى الْفَسَادِ وَ الْإِسْفَادِ عُدْنَا إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَ الْعِقَابِ، وَ هَلْ انْقَلَعُوا؟! كَلَّا إِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ فُرْصَةً إِلَّا وَ يَفْسِدُونَ وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا أَيُّ مَحَلِّ حَصْرٍ وَ حَبْسٍ، فَالْيَهُودَ الَّذِينَ أَفْسَدُوا لَمْ يَكُنْ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ، بَلْ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمَ فَهَمُ فِيهَا فِي ذَلٍّ وَ سَجْنٍ، لَا خَلَاصَ لَهُمْ عَنْهَا.

[١٠] و بمناسبة ذكر كتاب موسى يأتي الحديث عن كتاب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي الْبَشَرَ لِلطَّرِيقَةِ
الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الطَّرِيقِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠ الى ١١]

وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)
وَ أَحْسَنَهَا وَ أَشَدَّ اسْتِقَامَةً مِنْ جَمِيعِهَا، فَإِنَّ الطَّرِيقَ السَّابِقَةَ، وَ إِنْ كَانَتْ مُسْتَقِيمَةً، لَكِنَّهَا مُسْتَقِيمَةٌ فِي ظُرُوفٍ خَاصَّةٍ، أَمَا الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ
يُرْشِدُ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ أَبَدًا، وَ لِذَا فَهُوَ لَا يَنْسَخُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَيْ إِنَّهُمْ مَعَ إِيمَانِهِمْ يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ
الصَّالِحَةَ بَأَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا فِي الْآخِرَةِ، وَ ثَوَابًا عَظِيمًا.

[١١] وَ يَبِينُ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَى جَنْبِ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ بَأَنَّ فَسَدَتْ عَقِيدَتُهُمْ، وَ ذَكَرَ هَذَا لِلتَّلَازُمِ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ عَدَمِ الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ أَوْ بِالرَّسَالَةِ أَعْتَدْنَا أَيْ هِيَ أُنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمَا مَوْجَعًا فِي الْآخِرَةِ.

[١٢] إِنْ الْقُرْآنُ يَبْشُرُ الْمُؤْمِنَ الْعَامِلَ بِالصَّالِحَاتِ، الثَّوَابَ، وَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ بِالْعِقَابِ، فَهَلِ الْإِنْسَانُ يَتْرَكَ مَا يَضُرُّهُ، وَ يَفْعَلُ مَا يَنْفَعُهُ؟ كَلَّا،
إِنَّ الْإِنْسَانَ يَطْلُبُ مَا هُوَ شَرُّ لَهُ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ يَعْمَلُ الصَّالِحَ، لِدَفْعِ مَا هُوَ شَرُّ فِي الْآخِرَةِ؟ وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ أَيْ يَطْلُبُ مَا هُوَ شَرُّ لَهُ،
فَالرِّبَا وَ الزُّنَا وَ الْقَمَارَ وَ الْخَمْرَ وَ سَائِرَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَعُودُ شَرُّهَا إِلَى الْإِنْسَانِ، نَرَاهُ يَطْلُبُهُ لِلذَّعَةِ عَاجِلَةً مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَ لَوْ
كَانَتْ قَرِيبَةً فِي الدُّنْيَا دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ أَيْ كَمَا يَطْلُبُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ الْمُبَاحَاتِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا يَتَعَجَّلُ بِاللَّذَائِدِ، وَ إِنْ
كَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٣

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٢]

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ وَ كُلَّ
شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)
لَهَا عَاقِبَةٌ وَ خِيَمَةٌ وَ مُسْتَقْبَلٌ سَيِّئٌ.

[١٣] ثُمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنْ قَضَايَا الرِّسَالَةِ وَ الْأُمَمِ إِلَى الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَ مَوْقِفِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ مَا سَيَلَقِي مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ
جَزَاءَ أَعْمَالِهِ وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَفِي خَلْقِهِمَا وَ تَنْظِيمِ الْمَعَاشِ وَ الْاسْتِرَاحَةِ لِلْبَشَرِ بِهَا، دَلَالَةٌ عَلَى وَجُودِ
إِلَهٍ عَلِيمٍ قَدِيرٍ حَكِيمٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ إِضَافَةً إِلَى اللَّيْلِ بَيَانِيَّةً، أَيْ جَعَلْنَا اللَّيْلَ - الَّذِي هُوَ آيَةٌ - مَمْحُومًا، فَكَمَا أَنَّ الْخَطَأَ إِذَا مَحِيَ
يَبْقَى بَعْضُ آثَارِهِ، وَ الْبِنَاءَ إِذَا أُزِيلَ يَبْقَى بَعْضُ أُطْلَالِهِ، كَذَلِكَ الْأَشْيَاءُ تَظْهَرُ فِي اللَّيْلِ، كَالشَّيْءِ الَّذِي مَحِيَ، فَيَرَى بَعْضُهَا وَ لَا يَرَى
بَعْضُهَا، فَنَسَبَهُ الْمَحْوُ إِلَى اللَّيْلِ وَ هُوَ لِلْأَجْسَامِ الَّتِي فِيهَا - مَجَازًا - بَعْلَاقَةُ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، وَ هَذَا مِنْ بَدَائِعِ الْبَلَاغَةِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ أَيْ
النَّهَارَ الَّذِي هُوَ آيَةٌ مُبْصِرَةٌ فَقَدْ نَسَبَ الْإِبْصَارَ الَّذِي هُوَ لِلْإِنْسَانِ وَ الْحَيَوَانَ إِلَى النَّهَارِ، مَجَازًا بَعْلَاقَةَ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، أَوْ السَّبَبَ
الْمَسْبُوبَ أَوْ النَّهَارَ سَبَبَ الْإِبْصَارِ، وَ إِنَّمَا جَعَلْنَا كَذَلِكَ لَتَبْتَغُوا أَيْ تَطْلُبُوا بِسَبَبِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي النَّهَارِ الْمَالِ وَ الْمَعَاشِ،
وَ فِي اللَّيْلِ الرَّاحَةِ وَ الْأَوْلَادِ، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ فَإِنَّ السَّنَةَ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْأَيَّامِ، كَمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهَا الْأُسْبُوعُ
وَ الشَّهْرُ وَ الْحِسَابُ آجَالِ الْعُقُودِ وَ الْمَفَاوِضَاتِ وَ الدِّيُونِ وَ الْأَسْفَارِ وَ غَيْرِهَا مِمَّا يَعُدُّ، فَيُؤْتِي بِهِ أَوَّلَ مَوْعِدِهِ وَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ كَلِيَّاتِ مَا
يَحْتَاجُ إِلَيْهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٤

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَا طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)

البشر في دنياه و آخرته فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلاً فَأُصُولُ الْعَقِيدَةِ وَالْاجْتِمَاعِ وَغَيْرَهُمَا كِلَاهَا مَفْصَلَةٌ فِي الْكِتَابِ، أَوْ الْمُرَادُ أَنْ جَمِيعَ الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ، قَدْ رُوِعَتْ فِيهَا الدَّقَّةُ وَالتَّفْصِيلُ - أَى التَّمْيِيزُ فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ خَلَقَ صَدْفَةً أَوْ جَزَافاً، أَوْ بَلَا رِعَايَةَ جِهَاتِهَا وَخُصُوصِيَّاتِهَا، وَ يَشْهَدُ لِذَلِكَ هَذَا النِّظَامُ الْوَاضِحُ فِي الدُّورَةِ الْفَلَكِيَّةِ الْمَوْلُودَةِ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِكُلِّ دَقَّةٍ وَ إِتْقَانٍ.

[١٤] وَإِذَا كَانَ لِلْكَوْنِ إِلَهُ مُدَبِّرٌ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ تَحْتَ نِظَامٍ وَ دَقَّةٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْرُجُ عَنِ هَذَا النِّظَامِ وَ الدَّقَّةِ، إِنْ كُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ، إِنَّمَا هُوَ تَحْتَ حِسَابِ إِلَهٍ قَدِيرٍ عَالِمٍ، وَإِذَا قَامَ الْجَزَاءُ أَنْكَشَفَ لَهُ وَ لِلنَّاسِ كُلِّ مَا عَمَلَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، صِلَاحٌ أَوْ فِسَادٌ وَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَا طَائِرُهُ أَى عَمَلُهُ، وَ سَمِيَ طَائِراً، لِأَنَّهُ يَسْنَحُ كَالطَّائِرِ الَّذِي يَطِيرُ عَنِ يَمِينِ الْإِنْسَانِ أَوْ شِمَالِهِ، وَ مَعْنَى الْإِلْزَامِ أَنَّهُ مَعَهُ لَا يَفَارِقُهُ، فَلَا يَتِمَكَّنُ الْإِنْسَانُ الْخِلَاصَ مِنْ تَبَعَةِ عَمَلِهِ، إِلَّا إِذَا أَعْدَمَ الْعَمَلَ بِالتَّوْبَةِ فِي عُنُقِهِ فَإِنَّ الْعَنْقَ مَوْضِعَ الْقِلَادَةِ الَّتِي تَرْتَمِي، أَوْ الْجَامِعَةَ الَّتِي تَشِينُ وَ نُخْرِجُ لَهُ أَى لِلْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً مَكْتُوباً فِيهِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ، وَ فِي الْأَحَادِيثِ، أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِيهِ حَتَّى النَّفْخُ فِي النَّارِ يَلْقَاهُ يَلْقَى كِتَابَهُ مَنشُوراً مُفْتوحاً، لِيُطَّلَعَ عَلَيْهِ هُوَ وَ غَيْرُهُ.

[١٥] وَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَئِذٍ أَقْرَأَ كِتَابَكَ الَّذِي أَمْلَيْتَهُ وَ كَتَبَهُ الْحَافِظَانِ،

وَ قَدْ رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَذُكُرُ الْعَبْدُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، وَ مَا كَتَبَ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ فَعَلَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ، فَلِذَلِكَ قَالُوا يَا وَيْلَتَنَا، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٥

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٥]

مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)
لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

«١» كَفَى بِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْيَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْكَ أَى عَلَى نَفْسِكَ حِسَاباً، لِأَنَّهُ يَرَى أَعْمَالَهُ، وَ جَزَاءَ كُلِّ عَمَلٍ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَحْسَبَهُ، وَ هَذَا غَايَةُ فِي الدَّقَّةِ وَ الْإِنصَافِ، حَيْثُ أَنَّ الْعَامِلَ هُوَ الْمَحَاسِبُ، وَ إِنَّمَا كَانَتِ الدَّقَّةُ، لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ عَلَى السَّيِّئَاتِ شَيْئاً، وَ لَا يَنْقُصُ مِنَ الْحَسَنَاتِ شَيْئاً.

[١٦] وَ إِذْ تَبَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ حِسَابَ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَ أَنَّ خَيْرَهُ وَ شَرَّهُ، لَا بَدَّ وَ أَنَّ يَلَاقِيهِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْجَزَاءِ فَمَنْ اهْتَدَى إِلَى الْإِيمَانِ وَ الْإِطَاعَةِ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ فَإِنَّ نَفْعَ هِدَاةٍ يَعُودُ إِلَيْهِ وَمَنْ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أَى يَعُودُ ضَلَالَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ لَا تَحْمِلُ نَفْسَ حَامِلَةٍ لِلذُّنُوبِ وَ زِرُّ أُخْرَى أَى ذُنُوبِ نَفْسٍ أُخْرَى، فَلِكُلِّ إِنْسَانٍ ذَنْبُهُ، أَمَا مَنْ ضَلَّ غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ ذَنْبَ نَفْسِهِ وَ ذَنْبَ إِضْلَالِهِ، فَهُوَ أَيْضاً حَامِلٌ لَذَنْبِ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) «٢» وَ عَلَى هَذَا، فَلَا يَظُنُّ إِنْسَانٌ، أَنَّ مَنْ يَأْمُرُ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ يَحْمِلُ تَبَعَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ أَى إِنَّمَا لَا نَعَذِّبُ أَحَدًا مِنَ الْكُفَّارِ وَ الْعِصَاةِ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا يَبَيِّنُ أَنَّ عَلَى الْكَفْرِ

(١) تفسير العياشي: ج ٢ ص ٢٨٤.

(٢) النحل: ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٦

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٦ إلى ١٧]

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا فَمُرَّفِيهَا فَفَسَّقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)

وَ الْعِصْيَانِ الْعِقَابِ، وَ لِلْإِيمَانِ وَ الْإِطَاعَةِ الثَّوَابِ، ثُمَّ إِذَا خَالَفُوا عَذَابَهُمْ، بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ، وَ قِيَامِ الْأَدْلَةِ وَ الْبَرَاهِينِ، فَلِأَوَامِرِ الْعَقْلِيَّةِ قَبْلَ

إتمام الحجّة الخارجيّة، لا توجب عقاباً لمن خالفها.

[١٧] إن الله لا يعذب حتى يبعث رسولا و حجّة ليدل الناس على مواقع المحظور- كما سبق- فإذا عنت قرية عن الطريق المستقيم، لا يعذبها الله سبحانه بمجرد ذلك، وإنما يبعث الرسول بالأوامر والنواهي، وهناك يخالف المترفون والسادة الأعلون- ويتبعهم الجمهور طبعاً- فيستحقوا العقاب بعد تمام الحجّة وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً لَأَنهَآ أُسْرَفَتْ فِي الْكُفْرِ وَالْفِسَادِ، لَمْ نَهْلِكْهَا بَدُونَ إِتْمَامِ الْحِجَّةِ، بَلْ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بِأَمْرِنَا، وَإِنَّمَا خَصَّ الْمُتْرَفِينَ، مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ عَامٌ لِكُلِّ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ إِنْ أَطَاعُوا أَطَاعَ النَّاسَ، وَإِنْ عَصَوْا عَصَى النَّاسَ، وَ لَذَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ، يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُلُوكِ، وَيَعَارِضُونَ السُّلْطَانَ بِأَدْوَى بَدءِ، فَإِنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مَلُوكِهَا وَ كِبْرَائِهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَى خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ، تَقُولُ: أَمْرَتُهُ فِعْصَانِي، أَى أَمْرَتُهُ بِأَمْرِي فِعْصَانِي، وَ لَمْ يَمْتَثِلْ، وَ هُنَاكَ حَيْثُ خَالَفُوا أَمْرَ الرَّسْلِ، وَ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةُ فَحَقَّقَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ أَى ثَبَتَ عَلَى تِلْكَ الْقَرْيَةِ، قَوْلُنَا بِالْهَلَاكِ وَ الدَّمَارِ فَدَمَرْنَا تَدْمِيرًا أَى أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا.

[١٨] وقد جرت هذه السنّة في الأمم السابقة وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ جَمْعَ قَرْنٍ وَ هُوَ الْأَمَةُ يُقَالُ لَهَا قَرْنٌ، لِنُقَارِنَ سَنَ أَفْرَادِهَا تَقْرِيْبًا، كَمَا يُقَالُ لِلزَّمَانِ قَرْنٌ، بِاعْتِبَارِ تَقَارُنِ أَعْمَارٍ مِنْ فِيهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٨ الى ١٩]

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِيءُ بِهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)

مَنْ بَعِدَ نُوحٌ وَ إِنَّمَا خَصَّ بِمَا بَعْدَ نُوحٍ، لِأَنَّ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ كَانَ هَذَا الزَّمَانُ، أَمَا قَبْلَ نُوحٍ، فَالتَّارِيخُ لَدَيْهِمْ مَجْهُولٌ، وَ مِنْ الْبَلَاغَةِ، أَنْ يَتَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ مَعَ النَّاسِ عَلَى قَدَرِ مَدَارِكِهِمْ، فَإِنَّهُ أَقْلٌ مُؤُونَةٌ، وَ أَقْرَبُ إِلَى الْقَبُولِ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا أَى يَكْفِيهِ مَطْلَعًا، فَلِيخف الإنسان من الإله العالم بالذنوب، فلا يفعل ما يوجب سخطه و عذابه بصيرة يبصر الذنوب، فليخجل الإنسان أن يعصى أمامه.

[١٩] و إذ تبين عاقبه العاصي، و عاقبه المطيع، فليتقدم كل إنسان بما يختاره من الأمرين، فإن الطريق أمامه مفتوح مَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ فَقَطْ بَدُونَ تَفَكُّرٍ لَمَّا يَأْتِي، وَ إِرَادَةُ لِلدَّارِ الْآجِلَةِ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا أَى فِي الْعَاجِلَةِ مَا نَشَاءُ مِنَ الثَّرْوَةِ وَ الْفَقْرِ، وَ الصَّحَّةِ وَ الْمَرَضِ، وَ الْأَمْنِ وَ الْخَوْفِ، وَ غَيْرِهَا لِمَنْ يُرِيدُ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ يُعْطَاهَا، كَمَا أَنَّ مَنْ يُعْطَى الْعَاجِلَةَ لَا يُعْطَاهَا كَمَا يَشَاءُ، وَ إِنَّمَا كَمَا يَشَاءُ سَبْحَانَهُ حَسَبَ حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ، وَ تَقْدِيرِهِ الْحَكِيمِ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ يَصِيءُ بِهَا أَى يَصِلُ بِصَلَاهَا، وَ يَحْتَرِقُ بِنَارِهَا فِي حَالِ كَوْنِهِ مَدْمُومًا مَلُومًا مَدْحُورًا مَطْرُودًا عَنِ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ.

[٢٠] وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فِي ضَمَنِ إِرَادَتِهِ لِلدُّنْيَا، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ فِي آيَةِ أُخْرَى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) «١» فَعَمِلْ لِلْآخِرَةِ،

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٠ الى ٢١]

كُلًّا- نَبِيًّا هُوَ لَا يَرْجُو مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

كما يعمل للدنيا، و لم يأت بما ينافي الآخرة و سعى لها أي للآخرة سعيها السعي المناسب لها، و اللائق بشأنها، بأن عمل الأعمال

الصالحه وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِنِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ بِدُونِ الْإِيمَانِ لَا يَفِيدُ فَأَوْلِيكَ كَانَ سَيِّئِهِمْ مَشْكُورًا يَشْكُرُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بَأَن يَعْطَى جَزَاؤَهُمْ، فَإِنِ الشُّكْرُ لَشَيْءٍ إِعْطَاءَ جَزَائِهِ، وَ إِكْرَامِ الْعَامِلِ لَهُ.

[٢١] ثم ذكر سبحانه أنه في الدنيا لا يمنع لطفه عن الشخصين، فهو كما يعطى المؤمن يعطى الفاسق، لكن الفرق في السعادة هنا، فإن الفاسق لا يهنأ بالسعادة، كما أن الآخرة خاصة بالمؤمن كلاً من المؤمن والكافر نُمِدُّ أى نعطيهم من الدنيا هؤلاء الذين يريدون الآخرة وَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْعَاجِلَةَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أى نعمته وفضله و ما كَانَ عَطَاءَ رَبِّكَ مَحْظُورًا أى ممنوعاً، فإنه يشمل البرّ و الفاجر.

[٢٢] و إذ يريد أهل الدنيا الدرجات الرفيعة هنا، فليرد أهل الآخرة إياها هناك أَنْظِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَى بعض الناس على البعض الآخر في الدنيا، فبعضهم أغنياء إلى منتهى الحد، و بعضهم متوسطون، و بعضهم فقراء، و بعضهم أصحاب مناصب، و بعضهم عاديون و هكذا وَ لِلآخِرَةِ اللّامُ للتأكيد أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٢٩٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٢ إلى ٢٣]

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَ لَا تَنْهَرُهُمَا وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) درجاتها أكبر من درجات الدنيا وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا فمدى المفاضلة هناك أوسع، و في بعض الأحاديث، أن أقل المؤمنين ثواباً من يعطى من الجنان بقدر الدنيا سبع مرات (١).

[٢٣] و بمناسبة الحديث عن الآخرة، و عطاء الله سبحانه، و من يريد العاجله و الآجله، يأتي الحديث حول طائفة من الأحكام التي توجب السعادة، أو الشقاء، مبتدئاً بتصحيح العقيدة لا تجعل لها آخراً فلا إله إلا هو فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا يعنى إن فعلت ذلك، بأن اعتقدت بأكثر من إله واحد، تبقى بقيه عمرك - فإن قعد يطلق على البقاء و الاستمرار - مذموماً، يذمك العقلاء، و أهل الدين، مخذولاً يخذلك الله سبحانه، بمعنى أنه يقطع لطفه الخاص عنك، حتى تبقى بغير عنايته و نصرته.

[٢٤] و كما نهى سبحانه عن الشرك في العقيدة نهى عن الشرك في العبادة وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَى أمر أمر إلزام و فرض أَلَّا تَعْبُدُوا أيها البشر أصله «أن لا» أدغمت النون في اللام، لقاعدة «يرملون» إِلَّا إِيَّاهُ فالعبادة خاصة، و هى مشتقة من «عبد» أى الإتيان برسوم العبودية، و كون الإنسان عبداً له سيّد وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أَى قضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين، و هما الأب - يسمى والداً لأنه يلد بإخراج المنى -

(١) قريباً منه في بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٣٤٩

و الأم، و الإحسان فوق العدل كما تقدم، ثم بين سبحانه لزوم الإحسان في حال كبرهما، لأن الإنسان، إذا كبر يسىء خلقه، و يكثر طلبه، و من طرف ثان، أن الولد - كما هو عادة كل إنسان - إذا كبر و رشد، رأى نفسه فى غنى عنهما، فكان مقتضى عدم الإحسان إليهما موجوداً عنده من جهتين، و لذا يخص سبحانه هذا الحال بالذكر، و قد قال بعض العارفين: إن أباك و أمك أحسنا إليك، و هما يريدان بقاءك، و يهفو قلبهما إليك، و أنت تحسن إليهما - إن تحسن - و أنت ترى استغناك عنهما، فلا يبلغ إحسانك إحسانهما - مهما أحسنت - و ليعلم الولد أن الدار دار مكافات، فمن أحسن إلى أبيه أحسن أولاده إليه، و من أساء إليهما أساءوا إليه، إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ و «إما» أصله «إن ما» دخلت ما الزائدة، على إن الشرطية للترتين الكبر الشيخوخة، و الكثرة فى السن

أَحَدُهُمَا أَى أَحَدِ الْأَبْوِينِ، وَ هُوَ فَاعِلٌ «يَبْلُغُن» وَ الْكَبْرُ مَفْعُولُهُ، أَى إِنْ عَاشَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا عِنْدَكَ حَتَّى كَبُرَا، وَ بَلَاغًا مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ الْعَمْرِ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ وَ هِيَ كَلِمَةٌ تَسْتَعْمَلُ عِنْدَ الضَّجْرِ، فِى قَوْلٍ مِثْلِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ الْبَسِيطَةِ، مَنِهَى عَنْهُ فِى الشَّرِيعَةِ، وَ قَدْ قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ عَلِمَ اللَّهُ لَفْظَةَ أَوْجَزَ فِى تَرْكِ عَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ مِنْ أَفٍ لِأَتَى بِهَا «١» وَ لَا تَنْهَرُهُمَا النَّهْرُ هُوَ الزَّجْرُ بِإِغْلَازٍ وَ صِيَاغٍ، أَى لَا تَزْجُرُهُمَا، وَ إِنْ أَرَادَا مِنْكَ شَيْئًا لَا تَطْرُدُهُمَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) «٢» وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا أَى

(١) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٤٢.

(٢) الضحى: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَ أَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

خاطبهما، وَ تَكَلَّمَ مَعَهُمَا بِكَلَامٍ لَطِيفٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ.

[٢٥] وَ أَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ فَكَمَا أَنْ فَرَّخَ الطَّائِرَ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ لِأَبْوِيهِ، تَذَلُّلاً وَ خُضُوعًا، فَافْعَلِ أَنْتَ ذَلِكَ بِأَبْوَيْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ أَى اْعْمَلْ هَذَا الْعَمَلَ مِنْ جِهَةِ الرَّحْمَةِ، وَ الْعَطْفِ بِهِمَا، لَا كَالطَّائِرِ الَّذِى يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ طَلْبِ الْغِذَاءِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَتَوَاضَعُ رَحْمَةً، وَ قَدْ يَتَوَاضَعُ طَمَعًا أَوْ طَلْبًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ قُلْ دَاعِيَا لَهُمَا رَبُّ ارْحَمْهُمَا تَفْضُلًا عَلَيْهِمَا بِاللِّطْفِ وَ الْكِرَامَةِ كَمَا رَبَّيَانِي أَى جِزَاءَ تَرْبِيَّتِهِمَا لى فِى حَالِ كَوْنِي صَغِيرًا فَإِنَّكَ يَا رَبِّ أَجْزَمَا عَلَى أَتْعَابِهِمَا، فَإِنِى لَا أَقْدِرُ عَلَى جِزَائِهِمَا، وَ فِى الْآثَارِ الْوَارِدَةِ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْأَثَمَةَ الطَّاهِرِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَثْرَةَ مَدْهَشَةٍ مِنَ التَّأَكِيدَاتِ الْعَجِيبَةِ حَوْلَ الْوَالِدَيْنِ، وَ خُصُوصًا الْأُمَّ «١».

[٢٦] أَيْهَا الْأَوْلَادِ إِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَ أَقْوَالَكُمْ وَ نَوَايَاكُمْ حَوْلَ الْوَالِدَيْنِ فَاحْذَرُوا مَخَالَفَتَهُ، كَمَا يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، ظَاهِرٍ وَ خَفِيٍّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ مِنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ وَسَاوِسَ الصُّدُورِ، وَ بَلْبَلَةَ النُّفُوسِ، فَاحْذَرُوا النُّوَايَا السَّيِّئَةَ، فَكَيْفَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ تَجَاهَ الْأَبْوِينِ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فِى أَعْمَالِكُمْ وَ أَقْوَالِكُمْ وَ نَوَايَاكُمْ فَإِنَّهُ تَعَالَى كَانَ لِلأَوَّابِينَ الَّذِينَ كَلَّمَا أذْنَبُوا آبَا- أَى

(١) عدة الداعى: ص ٨٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٢

[سورة الإسراء (١٧): آية ٢٦]

وَ آتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لَا تُبَدِّرْ بِنَدِيرًا (٢٦)

رَجِعُوا وَ اسْتَغْفَرُوا- غَفُورًا يَغْفِرُ لَهُمْ، فَإِذَا صَدَرَتْ مِنْكُمْ زَلْمَةٌ تَجَاهَ الْوَالِدَيْنِ، أَوْ نَوَيْتُمْ نِيَّةً سَوْءًا، وَ قَدْ كَانَ عِلْمُ سَبْحَانَهُ أَنَّكُمْ صَالِحُونَ، فَتَبْتَمُ تَابٌ عَلَيْكُمْ، وَ إِذْ تَكْتَرُ الْإِسَاءَةُ تَجَاهَهُمَا، جَاءَ بِلَفْظِ «الأَوْابِ» فَإِنَّ غَيْرَ الصَّالِحِينَ يَتَمَادُونَ فِى إِسَاءَاتِهِمْ، أَمَا الصَّالِحُ، فَإِنَّهُ كَلَّمَا مَرَّ بِهِ خَاطِرٌ، أَوْ يَعْمَلُ عَمَلًا مَنَافِيًا، فَإِنَّهُ يَتُوبُ وَ يَرْجِعُ، وَ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ هُوَ يَغْفِرُ لَهُ إِذْ يَعْلَمُ صِلَاحَهُ.

[٢٧] وَ إِذْ ذَكَرَ السِّيَاقَ الْمَنْعَمِ الْأَوَّلِ- وَ هُوَ اللَّهُ- وَ لَزُومَ إِطَاعَتِهِ وَ شُكْرِهِ وَ عِبَادَتِهِ، وَ الْمَنْعَمِ الثَّانِي، وَ هُمَا الْأَبْوَانُ، وَ لَزُومَ بَرِّهِمَا جَاءَ إِلَى سَائِرِ ذَوَى الْحَقُوقِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ وَ آتِ أَى أَعْطِ ذَا الْقُرْبَى ذَا- بِمَعْنَى صَاحِبِ- وَ الْقُرْبَى مَوْثُ الْأَقْرَبِ، وَ هِيَ صِفَةٌ لِمُحْذُوفٍ هُوَ «صِلَةٌ» أَى صَاحِبِ الصِّلَةِ، وَ النَّسَبَةُ الْقَرِيبَةُ إِلَيْكَ مِنَ الْإِخْوَانِ وَ الْأَجْدَادِ، وَ الْأَعْمَامِ وَ الْأُخْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ حَقَّهُ الَّذِى قَرَّرَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَهُ مِنَ النَّفَقَةِ وَ الْإِكْرَامِ، وَ الْمَزَاوِرَةِ وَ غَيْرِهَا، وَ مَا وَرَدَ فِى الْأَحَادِيثِ، أَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ أَقْرَبَاءَ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَوْ خُصُوصًا

الصديقة الطاهرة صلوات الله عليها (١)، فإنما ذلك من باب المصدق،

فقد روى الشيعة و السنة، أنه لما نزلت هذه الآية، سأل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جبرئيل: من ذا القربى؟ وما حقه؟ فقال جبرئيل: ذا القربى فاطمة، وحقها فذك، و قال: أمرك ربك أن تعطى فذكا لفاطمة عليها السلام، فأعطاها إياها (٢)، و كانت فى يدها، حتى غصبها منها بعد وفات النبى صلى الله عليه وآله وسلم و المِسْكِينِ أَى

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٠٥.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ٢٩ ص ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨)

أعط المسكين- و هو الفقير- حقه من الحق الواجب، كالزكاة و الخمس، أو المستحب، كالصدقة و ابن السبيل و هو المنقطع فى سفره، ينسب إلى الطريق لعدم معرفة أبيه، و إعطاء حقه من الزكاة و الخمس، أو الصلة و الخير و لا- تُبَذَّرُ فى الإعطاء، بأن تفرق أموالك على نحو الإسراف حتى تبقى غير زاد تبذيراً مصدر تأكيدى، و هذا كما قال سبحانه: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) (١) فكل من البخل و الإسراف منهى عنه، و الأوسط السخاء.

[٢٨] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ الَّذِينَ يَسْرِفُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَ الْإِسْرَافُ هُوَ أَنْ يُعْطَى الْإِنْسَانُ الْمَالَ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، سِوَاءَ أَعْطِيَ قَلِيلاً لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، أَوْ جَاوَزَ فِي الْكَثْرَةِ حَدَّ الْوَسْطِ، فَإِنْ كَلَا- الطرفين باطل لا يجوز كانوا إخوان الشياطين يقال فلان أخو فلان، أى قرينه و شبهه، أى إن المبذر قرين الشيطان، و شبه له فى المعصية و الانحراف و كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا كثير الكفر، يكفر مرة ثم أخرى، لأن كل عمل يمكن أن يؤتى به بإيمان أو كفر، و كان تخصيص هذه الصفة بالذكر- هنا- لأن المبذر يكون بكل مرة من تبذيره كافراً بالنعمة، إذ لم يشكرها بجعلها فى موضعها، كما أمر الله سبحانه.

[٢٩] وَإِمَّا أَى «إن ما» فإن للشرط و ما زائدة للزينة، أى إن

(١) الإسراء: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٢٩]

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩)

تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ عن ذى القربى و المسكين، و ابن السبيل، بأن ليس لك مال تنفق عليهم، فتضطر للإعراض عنهم حياء و استتاراً ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا بأن لم يك إعراضك عنهم عن حسه نفس، و إنما تبغى بذلك أن يتفضل الله عليك فتعطيهم، و فى هذا أدب النفس، بأن يكون المعدم ينوى الإنفاق إن وجد فقل لهم أى المسؤول عنه قولاً ميسوراً أى قولاً بلطف و لين يتيسر عليك، فإن القول اللين ميسور، ممكن أن يقال، بخلاف القول الغليظ البذى، الذى هو معسور يصعب أن يقال.

[٣٠] و إذ أمر سبحانه بالإنفاق، و نهى عن الإسراف شبه جانبي الرذيلة و هما البخل و الإسراف بمن يده مغلوطة إلى عنقه لا يمكن أن يحركها، و بمن بسط يده حتى لا يبقى فيها شىء، إذ لا قبض فيها لبقى فيها مال، و الآية و إن كانت بهذا الصدد، لكنها عامة لكل إفراط و تفريط فى الجهات الحيوية و لا تجعل أياها الإنسان يدك مغلوطة إلى عنقك بأن لا تعطى شيئاً فتكون كالإنسان الذى يده

مغلولة، لا يتمكن على القبض و البسط، و جاء بالعنق لأن الغل، كذلك مانع عن كل تحريك، بخلاف غل اليد وحدها و لا تَبْسِطُهَا
أى لا تبسط يدك كُلُّ التَّبْسِطِ بأن تعطى جميع ما عندك، حتى لا يبقى لك شىء، فتكون كالذى بسط يده لا يستقر فيها أى شىء
فَتَقْعَدَ أى تبقى ملوماً يلومك العقل و الشرع مَحْسُوراً من حسر إذا انكشف، يقال حسر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٥

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ
قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاءً كَبِيرًا (٣١)

عن ذراعه، و المحسور هو العريان، كما

قال الصادق عليه السلام: فهو كناية عن الإنسان الذى لا مال له، كأنه عريان من الثياب

«١»، و ما دل على إن الإمام الحسن عليه السلام بذل جميع ماله لا ينافى ذلك، لأنه كان علم أنه لا يقعد محسورا، و إنما يأتيه المال
من الحقوق، و غيرها.

[٣١] إنك ببخلك لا تقدر أن تضيق على الناس، أو تبقى لنفسك، و لا بسرفك تقدر أن توسع عليهم، بل الله سبحانه هو المقدر
للأرزاق يبسطها أو يقبضها، فلا- تفعل ما يضرك و لا ينفع غيرك إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ أى يضيق فلا
بخلك ينجيك من الضيق إن قدر لك، و لا إنفاقك يسبب لك ضيقاً، إن وسع الله عليك.

قال الشاعر:

إذا أقبل الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تتفلت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت و لا البخل يبقها إذا هي ولت

إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا فهو عن خبره و بصيره يضيق و يوسع، و عن خبره و بصيره يأمر بالتوسط بين البخل و الإسراف.

[٣٢] و لقد تفتت في المجتمع الجاهلى سيئات عجيبة، فقد كانوا يندون البنات خوف العار، و يقتلون الأولاد خوف الفقر و يكرهون

فتياتهم

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٣٢]

وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)

على الزنى لاكتساب الأموال، و يتعاطون الخمر و المسير افتخارا، حتى جاء القرآن الحكيم و نهى عن كل ذلك و لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
بنين و بنات خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ الإملاق الفقر، يقال أملق الرجل إذا افتقر، و «خشية» مفعول له، أى لا- تقتلوهم لخوف الفقر و العجز عن
النفقة عليهم نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ فإن الرزق منه سبحانه، فلا كلّ عليكم منهم، و الأسباب الظاهرية فى ذلك واضحة فإن الأرض و
الشمس و الماء و الهواء مصدر الأرزاق، و يحصلها الإنسان من الطبيعة بالعمل، فبحسب كل فرد الرزق مخزون، و بعمله يخرج ذلك
الرزق، و هذه الآية تناسب مجتمعنا الحاضر الذى يمنع من النسل خوف الفقر، فإن أهل الخبرة، ذكروا أن الكون يتحمل أضعاف هذا
البشر الموجود الآن إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاءً أى إثما كبيرا فإنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا- و من
قتل الأولاد- إسقاط الجنين- فإنه محرم أكيد و موجب للدية، كما قرر فى الفقه.

[٣٣] وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ و هو إتيان المرأة، بغير حلية، و النهى عن الاقتراب مبالغة فى النهى عن الشىء، فإن من اقترب إلى شىء كاد أن

يقع فيه إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَهُ أَي مَعْصِيَةً عَظِيمَةً مُتَعَدِيَةً عَن حُدُودِ الْعَصِيَانِ الْعَادِي، فَإِن فَحِشَ بِمَعْنَى تَعَدَى الْحُدُودِ، وَ مِنْهُ الدَّمُ الْفَاحِشُ أَي الْأَكْثَرُ مِنَ الدَّرْهِمِ - الْمَعْفُو عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ - وَ سَاءَ سَبِيلًا أَي أَن سَبِيلَ الزَّوْنِيِّ سَبِيلٌ سَيِّئٌ، لِأَنَّهُ يُوجِبُ الْأَمْرَاضَ وَ إِسْرَافَ الْمِيَاهِ وَ اخْتِلَافَ تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٣٠٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) الْأَنْسَابِ، وَ هَدَمَ نِظَامَ الْعَائِلَةِ، إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمَفَاسِدِ.

[٣٤] وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا مَقَابِلَ الْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ الْمَهْدُورِ دَمِهِ، وَ الَّذِي يَقْتُلُ لِحَدِّ أَوْ قِصَاصٍ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ هُوَ مَا كَانَ لِحَدِّ - كَالْمُرْتَدِّ - أَوْ قِصَاصٍ - كَمَا لَوْ قُتِلَ إِنْسَانًا عَمْدًا - أَوْ لِأَنَّهُ كَافِرٌ حَرْبِيٌّ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا قَتَلَهُ شَخْصٌ ظَالِمًا فِي قَتْلِهِ إِيَّاهُ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ أَي وَلِيَّ الْمَقْتُولِ، وَ هُوَ الْأَوْلَى بِهِ، حَسَبَ مَرَاتِبِ الْإِرْثِ سُلْطَانًا أَي تَسَلُّطًا عَلَى قَتْلِ الْقَاتِلِ قِصَاصًا فَلَا يُسْرِفُ الْوَلِيُّ فِي الْقَتْلِ وَ الْقِصَاصِ، بَأَن يَقْتُلَ غَيْرَ الْقَاتِلِ - كَالثَّأْرِ - أَوْ يَمَثُلُ بِالْقَاتِلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا أَي إِنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ يَنْصُرُ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ، وَ نَصْرَتَهُ أَن سَمَحَ لَهُ بِقَتْلِ الْقَاتِلِ، وَ أَمَرَ الْحُكَّامَ بِتَنْفِيذِ ذَلِكَ، وَ قَدْ كَانَتْ عَادَةُ الْجَاهِلِيِّينَ السَّائِدَةُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ عِنْدَ بَعْضِ جِهْلَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ مِنَ عَشِيرَةِ الْقَاتِلِ الْبَرِيءِ، لِأَنَّهُ صَدَرَ الْقَتْلُ مِنْ أَحَدِ أَفْرَادِ عَشِيرَتِهِ، وَ هَذَا هُوَ الْحَرَامُ وَ الْإِسْرَافُ فِي الْقَتْلِ.

[٣٥] وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ مَبَالِغَةً، فِي النَّهْيِ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ حَقِّ، وَ لِأَنَّهُ مِنْ رَعَى حَوْلَ الْحَمِيِّ، أَوْ شَكَّ أَن يَقَعُ فِيهِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَي بِالصَّفَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الصِّفَاتِ، وَ بِالْقَرْبَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ أَنْوَاعِ الْإِقْتِرَابِ، وَ ذَلِكَ بَأَن يَصْرِفَهُ عَلَى الْيَتِيمِ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ وَ الْاِقْتِصَادِ، أَوْ يَتَاجَرَ لَهُ فِيهِ تِجَارَةً مَأْمُونَةً مِنَ الضَّرْرِ، رِبْحَهَا لِلْيَتِيمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٨

[سورة الإسراء (١٧): آية ٣٥]

وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقَيْسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) حَتَّى يَبْلُغَ الْيَتِيمَ أَشُدَّهُ أَي قَوَاهِ الْكَامِنَةِ فِيهِ الَّتِي تَظْهَرُ لَدَى الْبُلُوغِ وَ الرِّشْدِ - كَمَا مَرَّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ - وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ وَ مَعَ النَّاسِ، وَ لَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ، بَأَن تَخَالَفُوا مَقْتَضَاهُ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا عَنْهُ، يَسْأَلُ اللَّهُ الْمَعَاهِدَ، هَلْ وَفَيْتَ بِعَهْدِكَ؟ فَإِن وَفَيْتَ، فَلَهُ الْجِزَاءُ الْحَسَنُ، وَ إِنْ لَمْ يَفِ، فَلَهُ الْخِزْيُ وَ الْعِقَابُ.

[٣٦] وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ بَأَن لَا تَعْطُوا نَاقِصًا، وَ لَا تَأْخُذُوا زَائِدًا بِلِ الْوَفَاءِ هُوَ الْأَخْذُ وَ الْعَطَاءُ حَسَبَ الْوِزْنِ وَ الْكَيْلِ الْمَقْرُرِ وَ زِنُوا مِنْ «وِزْنٍ» بِالْقَيْسِ طَاسٍ هُوَ الْمِيزَانُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا يَنْحَرِفُ، أَي إِذَا أَرَدْتُمْ التَّعَامُلَ، فَلْيَكُنْ بَيْنَكُمْ الْوِزْنُ بِالْمَوَازِينِ الصَّحِيحَةِ الْمَعْتَدَلَةِ، الَّتِي لَا تَنْحَرِفُ قَلْبُهُ أَوْ كَثْرَةُ ذَلِكَ الْوَفَاءِ فِي الْكَيْلِ وَ الْوِزْنِ خَيْرٌ لَكُمْ إِذِ الْمَجْتَمِعُ إِذَا صَارَ بِأَخْسَاءِ، يَتَضَرَّرُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشِّرَاءِ، بِقَدْرِ مَا يَسْرِقُ عِنْدَ الْبَيْعِ، وَ يُوجِبُ رَفْعَ الثِّقَةِ، وَ ذَهَابَ الْبُرْكَهَةِ؛ وَ تَفْشَى الْمَخَاصِمَةَ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا أَي أَن أَوْلَاهُ وَ مَرْجِعُهُ وَ مَصِيرُهُ أَحْسَنُ مِنْ مَصِيرِ التَّطْفِيفِ وَ التَّلَاعِبِ بِالْمَكَايِلِ وَ الْمَوَازِينِ، وَ مِنْ آلِ يُوُولُ بِمَعْنَى رَجَعُ وَ صَارَ إِلَيْهِ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ، فَالْعَذَابُ وَ النِّكَالُ لِمَنْ بَخَسَ النَّاسَ حَقُوقَهُمْ، وَ تَلَاعَبَ بِالْكَيْلِ وَ الْوِزْنِ (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) «١».

(١) المطففين: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٠٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ

الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)

[٣٧] وَلَا تَقْفُ الْقَفْوَا تَبَاعِ الأَثْرَ، وَمِنَ القِيَافَةِ، فَإِنِ القَائِفُ يَتَّبِعُ الأَثَارَ، لِيَلْحِقَ بِهَذَا أَوْ ذَاكَ أَى لَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَمَعْنَى الأَتْبَاعِ أَن يَظْهَرُ مَا جَهِلَهُ عَلَى نَحْوِ يَرَى أَنَّهُ عِلْمُهُ، بَأَن يَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ، أَوْ يَكْتُبُ مَا هُوَ مَجْهُولٌ لَدَيْهِ وَنَحْوَهُمَا، فَإِذَا قَالَ «زَيْدٌ فِي الدَّارِ» وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، فَقَدْ تَبِعَ مَجْهُولًا، فَإِنِ كَوْنُهُ فِي الدَّارِ مَجْهُولٌ لَهُ وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ قَالَه - كَأَنَّهُ تَابِعَ لَهُ - إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ أَى القَلْبَ كُلُّ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ كَانَ عَنَّهُ مَسْئُولًا فِيمَا صَدَرَ مِنْهُ، فَالسَّمْعُ مَسْئُولٌ لِمَ سَمِعَ مَا سَمِعَ؟ وَالبَصَرُ مَسْئُولٌ لِمَا نَظَرَ إِلَى مَا نَظَرَ؟ وَالقَلْبُ مَسْئُولٌ لِمَ عَزَمَ، وَوَعَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَوَعَاهُ؟ فَإِذَا عَمِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، مَا لَا يَعْلَمُهُ اسْتَحَقَّ العِقَابَ، وَهَذَا مِنْ بَابِ المِثَالِ، وَإِلَّا فَجَمِيعُ الجَوَارِحِ مَسْئُولَةٌ عَمَّا اقْتَرَفَتْهَا خَيْرًا كَانَ أَمْ شَرًّا، فَيَلْزِمُ التَّثْبِتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَعْلَمَ الإِنْسَانُ وَجْهَهُ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِهِ أَوْ يَدْعُهُ، أَمَا أَن يَتَحَرَّكَ وَرَاءَ المَجْهُولِ، فَيَسْمَعُ مَا لَا يَعْلَمُ حَلِيَّتَهُ، أَوْ يَنْظُرُ إِلَى مَا لَمْ يَعْلَمْ جَوَازَ نَظَرِهِ إِلَيْهِ، أَوْ يَظُنُّ - بِقَلْبِهِ - سَوْءًا فِيمَا لَا يَدْرِي، وَنَحْوَهُ أَن يَعْقِدَ قَلْبَهُ عَلَى اعْتِقَادٍ لَا يَدْرِي صِحَّتَهُ، وَهَكَذَا أَعْمَالُ اليَدِ وَالرِجْلِ وَالفَرْجِ وَاللِّسَانِ وَغَيْرِهَا، فَإِنِ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِلحِظْرِ.

[٣٨] وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا المَرِحَ الخِيَلَاءَ وَالتَّكْبَرَ، وَإِنَّمَا قَالَ «فِي الأَرْضِ» لِأَنَّ المَشْيَ كَثِيرًا مَا يَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ مَعْنَى الذَّهَابِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (وَإِنطَلَقَ المَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امشُوا) «١» وَكَثِيرًا مَا يَأْخُذُ الإِنْسَانُ

(١) ص: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكُمْ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلِقَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

الكَبِيرِ، فَيَظُنُّ أَنَّهُ عَظِيمٌ، حَيْثُ رَأَى لِنَفْسِهِ مَا لَا أَوْ جَمَالًا، أَوْ مَنصِبًا أَوْ مَا أَشْبَهَ، لَكِنَّهُ غَافِلٌ عَن أَنَّهُ صَغِيرٌ عَاجِزٌ، فَهَذِهِ الأَرْضُ تَحْتَ رِجْلِهِ، وَهَذِهِ الجِبَالُ مَطْلَةٌ عَلَيْهِ، أَيُهُمَا أَعْظَمُ، أَهْوَى أَمْ هُمَا، وَهَلْ يَتِمَكَّنُ الإِنْسَانُ، أَن يَشُقَّ الأَرْضَ شِقًّا، فَيَجْعَلُهَا نَصْفَيْنِ؟ أَوْ هَلْ يَمْكَنُ أَن يَطُولَ نَفْسَهُ حَتَّى يَبْلُغَ طُولَ الجِبَالِ؟ كَلَّا، فَمَا هَذَا الضَّرْبُ عَلَى الأَرْضِ بَغْرُورًا، وَمَا هَذَا الكَبِيرُ وَالاسْتِعْلَاءُ، فَالأَرْضُ الَّتِي يَضْرِبُهَا بِرِجْلِهِ، لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهَا، وَالجِبَالُ الَّتِي تَعْلُوهُ لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الوُصُولِ فِي طَوْلِهِ إِلَيْهَا إِنَّكَ أَيُّهَا المَرِحُ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ أَى لَنْ تَقْدِرَ عَلَى شِقِّ الأَرْضِ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولًا وَارْتِفَاعًا.

[٣٩] كُلُّ ذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ مِنَ المَحْرَمَاتِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا كَانَ سَيِّئُهُ إِنَّمَا قَالَ «سَيِّئُهُ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا سَيِّئَاتٌ، وَإِلَّا فَمَقْتَضَى القَاعِدَةُ أَن يُقَالَ «كَانَ» فَقَطْ عِنْدَ رَبِّكَ يَا رَسولَ اللَّهِ مَكْرُوهًا فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَكْرَهُ هَذِهِ الخِصَالَ الخَمْسَ وَالعَشْرِينَ الَّتِي ذَكَرْتَ مِنْ قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) «١» إِلَى هُنَا.

[٤٠] ذَلِكُمْ الَّذِي تَقْدِمُ مِنَ النِّوَاهِي عَنِ الكُفْرِ وَالقُبَاحِ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ يَا رَسولَ اللَّهِ مِنَ الحِكْمَةِ وَهِيَ العِلْمُ بِوَضْعِ الأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا اللَّاتِقَةَ بِهَا، فَإِنِ تَرَكَ المَعَاصِيَ مِنَ الحِكْمَةِ، ثُمَّ يَرْتَدُّ السِّيَاقُ إِلَى مَا

(١) الإسراء: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١١

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٠]

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠)

ابتدأ به النواهي من قوله «لا- تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ بَأَن تَعْبُدَ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، وَالخِطَابُ عَامٌ، وَإِنِ

كان في الصورة موجهاً إلى النبي على طريقة «إياك أعنى و اسمعى يا جارة» فتلقى في جهنم تطرح فيها جزء للشرك ملوماً تلومك نفسك، و الناس و الملائكة مذخوراً مطروداً عن رحمة الله و فضله، من دحر بمعنى طرد.

[٤١] و إذ جرى الكلام حول الشرك المرتبط بالعتيدة نحو المبدأ، جاء السياق ليعطف بعض خرافات الكفار إلى ذلك، فقد زعموا أن الله أخذ زوجة جنية، كما قال (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا) «١» فأولدت له بنات هي الملائكة، أما البنون، فقد جعلها سبحانه لهم فقط، فلم يتخذ ابناً، فقال في معرض الإنكار و الرد عليهم، أَفَأَصِدِّفَاكُمْ أَى هل خصكم ربكم أيها المشركون القائلون، بأن الملائكة بنات الله بإلئين فجعل لكم الأولاد الذكور و اتخذ من الملائكة إناثاً «من»، إما لبيان الجنس، أى اتخذ جنس الملائكة بناتاً، أو للتبعيض، أى جعل بعض الملائكة إناثاً إنكم أيها الكفار لتقولون قولاً عظيماً يجعلكم الأولاد لله ثم بتفضلكم عليه، بجعل البنين لأنفسكم، و البنات لله سبحانه.

(١) الصفات: ١٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)

[٤٢] وَلَقَدْ صَرَّفْنَا الْحَقَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ فَجَنَّا بِأَسَالِبِ شَتَى، و طرق متنوعة، لبيان التوحيد و قضية المبدأ، و التصريف التحويل من حالة إلى حالة، و من صورة إلى صورة لِيَذَّكَّرُوا أى يتذكروا خالقهم، و يعرفوا الحق و لكن عكسوا الأمر فى ما يزيدهم بيان الحق، و القرآن لِيَذَّكَّرُوا أى تباعدا عن الحق، و نفره من الواقع و الحقيقة.

[٤٣] ثم عطف سبحانه إلى المشركين، ليستدل عليهم، بأنه لا يمكن تعدد الآلهة قُلْ يا رسول الله لهؤلاء المشركين لَوْ كَانَ مَعَهُ أَى مع الله آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ و الاستدلال عام، حتى لن يقول بالهين اثنين، و إنما ذكر «الآلهة» حسب اعتقاد الكفار، ليطالب الاحتجاج كلامهم إذًا فى حين التعدد لِيَبْتَغُوا تلك الآلهة إلى ذى العرش صاحب العرش، و هو الله سبحانه سَبِيلًا أى طلبوا طريقاً يقربهم إلى مالك العرش، أو طلبوا سبيلاً إلى مغالبة مالك العرش و الترفع عليه، ليكونوا هم الآلهة العليا، لا مالك العرش، فإذا قيل: أى تلازم بين التعدد و بين تقرب تلك الآلهة إلى ذى العرش؟ و ما الدليل على إنهم لا- يبتغون، حتى يبطل المقدم- و هو التعدد- «على المعنى الأول» و أى تلازم بين التعدد و التغالب بين تلك الآلهة، و بين إله العرش؟ و ما الدليل على أنهم لا يتغالبون؟ «على المعنى الثانى» قلنا: إن الآلهة الصغرى، لا بد و أن تكون ناقصة و مدركة نقصها قابلة للاكمال- و لو نوعاً ما- فإدراكها يدفعها إلى التقرب، لتكميل النقص- فالتلازم مبنى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهَا كَبِيرًا (٤٣) تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

على مقدمات أربع: نقصها و إدراكها و قابليتها للكمال، و حفزها نحو الكمال، و كلها مسلمة، لأنها من لوازم الإله، و أما الدليل على أنهم لا يبتغون، لأنهم لو ابتغوا لعلمنا ذلك، فيخبرنا الأنبياء الصادقون، فعدم إخبارهم لذلك، دليل على العدم «هذا كله على المعنى الأول» و أما التلازم، و نهى التالى على المعنى الثانى، فنقول لو كان هناك آلهة متعددة، لكانت متساوية، و التساوى نقص فى الإله، لأنه يوجب عدم استقلاله فى الكون، و هذا النقص لا يندم، إلا بإعدام الإله الآخر، و ذلك مقتضى للخصومة بين الآلهة، و لا يقال إن

كل إله يعلم أنه لا يقوى على إعدام الآخر، فلا يخاصمه؟ لأننا نقول: إن قدر هذا الإله على إعدام ذلك خاصمه، وإن لم يقدر على إعدامه لم يكن إلهاً، إذ الإله هو القادر على كل شيء، وأما الدليل على عدم المخاصمة، ما نرى من سير الكون باعتدال، فلو وقعت الخصومة، لاضطربت الأكوان تبعاً للخصام والمشاجرة «١» [٤٤] سُبْحَانَهُ أَنْزَهَ تَنْزِيهَا وَتَعَالَى أَى تَرْفَعُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَرْفَعُ وَأَسْمَى عَمَّا يَقُولُونَ أَى يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنَ التَّعَدُّدِ، وَاتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ عُلُوًّا كَبِيرًا فَلَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَا تَقُولُ، إِنْ الْفَقِيهَ أَعْلَى مِنَ الْحَمَالِ عَلُوا كَثِيرًا، فَلَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا - فِي الْعِلْمِ -.

[٤٥] تُسَبِّحُ لَهُ أَى تَنْزَهُ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ، وَكُلُّ نَقْصِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ فَإِنَّهَا أَدَلُّ عَلَى وَجُودِهِ وَنَزَاهَتِهِ، إِذْ غَيْرَ الْمَنْزَهِ عَنِ

(١) إن الدليل مفصل مذکور فی الفلسفة و الكلام، نكتفی منه بهذا القدر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٥]

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥)

النقائص المتصف بالمحامد، لا يمكن أن يكون إلهاً لها، والمراد بالسموات، إما أجرام، يعلمها الله سبحانه، في الفضاء المهول، وإما المدارات السبع السيارة - كما قالوا - وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا أَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِنَّمَا جِئْتُ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ، لِلتَّلَازُمِ بَيْنَ التَّسْبِيحِ وَبَيْنَ الْعَقْلِ، وَلَعَلَّ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِدْرَاكَ لَا نَعْرِفُ كَيْفَ هُوَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ «إِنْ» نَافِيَةٌ، أَى مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ يَنْزَهُ بِالنَّهْيِ الْجَمِيلِ، فَإِذَا أَثْنَى الْإِنْسَانَ بِالْجَمِيلِ عَلَى أَحَدٍ - كَأَنَّ قَالَ فَلَانِ عَالِمٍ - كَانَ تَنْزِيهَا عَنِ الْجَهْلِ، وَتَحْمِيدًا بِالْعِلْمِ، وَقَدْ مَرَّ أَنَّ التَّسْبِيحَ، قَدْ يَكُونُ بِالْحَمْدِ، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِ الْحَمْدِ، فَقَدْ يُقَالُ فَلَانِ غَيْرِ زَانَ فَهُوَ تَنْزِيهِ فَقَطْ وَقَدْ يُقَالُ فَلَانِ عَفِيفٌ فَهُوَ تَنْزِيهِ بِالْحَمْدِ، وَكَأَنَّ لَا تَفْقَهُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ تَسْبِيحَهُمْ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ تَسْبِيحَهُمْ تَنْزِيهِمْ لِهَذَا سَبْحَانَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ، مِنْ بَابِ أَنَّ الْمَصْنُوعَ الْمُتَقَنَّ، يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَعَدَمُ فَهْمِنَا لِتَسْبِيحِهِمْ بِمَعْنَى عَدَمِ إِدْرَاكِ ذَلِكَ بِالْحَوَاسِ أَصْلًا، إِذْ لَيْسَ صَوْتٌ فَيَسْمَعُ أَوْ طَعْمٌ فَيَذَاقُ أَوْ مَنْظَرٌ فَيَرَى، وَهَكَذَا، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ تَنْزِيهِمْ لَهُ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَّةٍ، فَعَدَمُ فَهْمِنَا لِتَسْبِيحِهِمْ لِقُصُورِ مَدَارِكِنَا عَنِ الدَّرَكِ، كَمَا تَقْصُرُ حَوَاسِنَا عَنِ إِدْرَاكِ الْمَلَائِكَةِ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ كَانَ حَلِيمًا وَمِنْ حِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يُعْجَلُ بِالْعِقَابِ عَلَى مَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ هَذِهِ النِّسْبَ غَفُورًا يَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ فَلَا يَأْسُ مِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ لِمَنْ تَمَادَى فِي غَيْهِ، ثُمَّ أَقْلَعُ وَأُنَابُ.

[٤٦] إن الكفار قد عرفنا مقالاتهم التافهة السخيفة حول التوحيد والألوهية، فلننظر إلى عملهم مع الرسول والقرآن،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٥

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٦]

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أذْبَانِهِمْ نُفُورًا (٤٦)

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَإِنَّمَا يَعْبُرُ عَنِ ذَلِكَ، بِعَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، لِلتَّلَازُمِ بَيْنَهُمَا، وَبَيَانِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ بِالتَّوْحِيدِ، لَا بَدَّ وَإِنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا عَنِ الْأَعْيُنِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْحِجَابَ لَا يَرَاهُ النَّاسُ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ سَبْحَانَهُ عَلَى الْكُفَّارِ لِيَرْهَبُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُؤْذُوهُ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يُؤْذُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَلَى الْقُرْآنَ، وَصَلَّى عِنْدَ الْكَعْبَةِ، وَكَانُوا يَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ، وَيَمْنَعُونَهُ مِنْ دَعَاءِ النَّاسِ إِلَى الدِّينِ، فَحَالُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، حَتَّى لَا يُؤْذُوهُ

«١»، وَقَدْ يُقَالُ عَنِ هَذَا الْحِجَابِ أَنَّهُ طَبِيعِيٌّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ فِي سَلَامٍ، فَإِنَّ الْحَقَّ، إِذَا أَثَارَ أَهْلَ الْبَاطِلِ، كَانَ السَّلَامُ الْمُحْتَفِ بِهِ يُولَدُ فِيهِمْ هَيْبَةً لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْإِقْتِرَابِ إِلَى الدَّاعِي.

[٤٧] و من المعلوم أن المبطل إذا ركب رأسه، مصمما على الإعراض، تولدت فيه ملكة تغلف قلبه عن الانصياع، كما أن سمعه يخرج عن النطاق العادي للإسماع، إذ لا يستعد لاستماع الحق، والله سبحانه، حيث يريهم أنهم أعرضوا عن الحق بادئ ذي بدء تركهم و شأنهم، فلا يلفظ بهم الألفاظ الخفية التي يلفظها على المؤمنين الذين رأوا الحق فاتبعوه، و بمناسبة بيان الحجاب الفاصل بين الرسول و بين الكفار، يأتي الكلام حول سائر الأشياء الحائلة، بينهم و بين الرسول عن أذاهم و حجاب يمنعهم عن الاستفادة من الحق و جعلنا على قلوبهم أكنة

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٥٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٤٧]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧)

أى أغطيه و أغلفه أن يفقهوه أى كراهه أن يفهموا القرآن، أولئك يفقهوه و جعلنا فى آذانهم جمع أذن وقرأ و هو الثقل، أى إنما تركناهم متى أصبحت قلوبهم كأنها فى غطاء، حيث الإنكار ملكة لهم، و حتى أصبحت آذانهم كأن فيها الثقل، و إنما نسب سبحانه الجعل إلى نفسه لأنه تركهم حتى وصلت حالتهم إلى ذلك و إذا ذكرت يا رسول الله ربك فى القرآن و حده بأن قلت أنه إله واحد، و قرأت القرآن الدال على التوحيد، و بطلان التعدد و الشرك و لؤا أى أعرضوا هؤلاء الكفار على أذبارهم إفادة لتأكيد الإعراض، فإن الإنسان قد يعرض و هو جالس أو واقف، و قد يعرض و يذهب مدبرا دلالة على زيادة الإنكار نفورا مصدر تأكيدى، لما دل عليه، و لؤا أى نفروا نفورا.

[٤٨] إنهم قد يحضرون مجالسك للاستماع، لكن لا للتفهم، بل ليروا ذلك فيحيكون المؤامرة ضد القرآن، و ضد الرسول نحن أعلم بما يستمعون به أى بالنحو الذى يستمعون به- فما، موصولة- فإن الاستماع على أنحاء قد يكون للتفهم، و قد يكون للاستهزاء، و قد يكون للرد، إلى غير ذلك، فإننا نعلم غرضهم فى الاستماع، و سنجازيهم عليه إذ يستمعون إليك أى زمان استماعهم لقراءتك و إذ هم نجوى أى و الزمان الذى يناجى بعضهم بعضا، ماذا يقولون عن القرآن، و عن الرسول، فيقول بعضهم إنه سحر، و آخر إنه كهانة،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٤٨ الى ٤٩]

انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)

و آخر إنه شعر، إلى غير ذلك و قوله «هم نجوى» من باب «زيد عدل» مبالغة، أو التقدير «ذوو نجوى» إذ يقول الظالمون إن تبعون أى ما تبعون، و المراد بالخطاب المؤمنون، و إلا فهم ما كانوا تابعين إلا رجلا مسحورا أى قد سحروه، فاختلط عقله، فإنه كثيرا ما يختلط عقل المسحور.

[٤٩] انظُرْ يا رسول الله، إلى هؤلاء المعاندين كيف ضربوا لك الأمثال فقالوا شاعر، و كاهن، و مجنون، و ساحر، و مسحور، و غير ذلك فضلوا ضلالا شديدا، فإن الإنسان إذا ضل ابتداء، فلم يتماد فيه رجع عن غيبه، أما إذا تمادى و جعل يجمع اللقطات حول ضلاله يستحكم ضلاله، فلا يستطيعون لتكذيبك، و الوقية فيك سبيلا صحيحا، أو لا يستطيعون طريقا للرجوع، لأنهم، قد تمادوا، فصارت الضلالة ملكة لهم، و الإنسان إذا صار كذلك صعب رجوعه، فالمراد بعدم الاستطاعة العرفى لا الحقيقى.

[٥٠] و إذ رأينا مقالاتهم السخيفة حول المبدأ، و حول الرسول و القرآن، فلنسمع كلامهم حول المعاد و قالوا أى قال هؤلاء الكفار أ إذا كنا عظاما استفهام إنكارى استهزائى يعنى متنا، و ذهب لحومنا، و بقى من أجسامنا العظام المجردة، و رفاتا هو ما يتكسر، و يبلى من العظام و غيرها، و اللفظ مفرد، من رفت، بمعنى بلى و تحطم أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ نحى للحساب خلقا جديدا بعد الفناء و البلى؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٠ إلى ٥١]

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)
هذا لا يكون أبدا.

[٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهُمْ مُسْتَهْزِئًا بِهِمْ - كما يستهزئون هم - كُونُوا حِجَارَةً بَعْدَ الْمَوْتِ أَوْ حَدِيدًا مِمَّا هُوَ أْبَعْدَ فِي نَظَرِكُمْ، مِنْ الرِّفَاءِ مِنْ جِهَةِ قَبُولِ الْحَيَاةِ.

[٥٢] أَوْ خَلْقًا آخَرَ غَيْرَهُمَا وَ غَيْرِ الرِّفَاءِ، كَأَنْ لِيَصْبِحُوا خِزْفًا أَوْ مَدْرًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ حَيْثُ بَعْدَهُ عَنِ الْحَيَاةِ، تَصَوَّرُوا مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّكُمْ سَتَبْعَثُونَ، وَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) «١» فَسَيَقُولُونَ إِذَا صَرْنَا كَذَلِكَ ف- مَنْ يُعِيدُنَا إِلَى الْحَيَاةِ، بَعْدَ أَنْ صَرْنَا حِجْرًا، أَوْ حَدِيدًا، أَوْ مَا أَشْبَهَهُ؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمُ الَّذِي فَطَرَكُمْ وَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، بَلِ الْخَلْقُ أَوَّلَ مَرَّةٍ أْبَعْدَ فِي نَظَرِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِعَادَةِ، وَ إِنْ كَانَ الْأَمْرَانِ عِنْدَ اللَّهِ سَيَانَ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ أَى يَحْرُكُونَ نَحْوَك رُؤُسَهُمْ تَحْرِيكَ اسْتِهْزَاءٍ وَ تَعْجَبٍ وَ تَكْذِيبٍ، يُقَالُ أَنْغَضَ رَأْسَهُ إِذَا حَرَكَهُ بَارْتِفَاعٍ وَ انْخِفَاضٍ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ أَى فِي أَى وَقْتٍ يَكُونُ الْبَعْثُ؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِهِمْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا لَعَلَّهُ قَرِيبٌ، فَإِنْ كَلَّ آتٍ قَرِيبٌ، وَ قَدْ كَتَبَ الْإِمَامُ

(١) يس: ٨٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣١٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٢ إلى ٥٣]

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسِيءَ تَحِيَّاتٍ بِحَمِيدِهِ وَ تَنْظُنُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا - قَلِيلًا - (٥٢) وَ قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣)

الحسين عليه السلام إلى محمد بن علي «بسم الله الرحمن الرحيم، كأن الدنيا لم تكن، و كأن الآخرة لم تزل، و السلام» «١»
[٥٣] إِنْ الْبَعْثُ إِنْمَا يَكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ اللَّهُ مِنْ قُبُورِكُمْ فَتَسِيءَ تَحِيَّاتٍ بِحَمِيدِهِ أَى يَكُونُ جَوَابًا مَقَارِنًا لِحَمْدِهِ خَوْفًا مِنْهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْخَائِفَ يَمْدَحُ الْمَخُوفَ مِنْهُ، لَيْسَتْ عَطْفُهُ وَ يَسْتَجْلِبُ رِضَاهُ وَ تَنْظُنُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِنْ لَبِثْتُمْ أَى مَا لَبِثْتُمْ وَ بَقِيْتُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَلِيلًا فَقَدْ اسْتَقْلُوا مَدَّةَ بَقَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى أَنْهَ حِينَ يُقَالُ لَهُمْ: (كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) «٢»، وَ فِي آيَةٍ أُخْرَى (كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ..) «٣» وَ نَحْنُ نَرَى مَاضِيَ أَعْمَارِنَا، كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَدَّةً يَسِيرَةً.

[٥٤] وَ إِذَا رَأَيْنَا عَاقِبَةَ الْمَكْذِبِينَ الْقَائِلِينَ سَيِّئًا، فَلْيَتَوَجَّهِ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى مَقَالِهِمْ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا حَسَنًا، سَوَاءٌ كَانَ مَرْتَبًا بِالْإِعْتِقَادِ، أَوْ بغيره وَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِعِبَادِي الَّذِينَ يَسْمَعُونَ مِنْكَ يَقُولُوا جِزْمَ الْفِعْلِ، لِأَنَّهُ فِي جَوَابِ الْأَمْرِ، الْمَقَالَةُ وَ الْكَلِمَةُ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ سَائِرِ الْمَقَالَاتِ وَ الْكَلِمَاتِ، وَ هِيَ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ كَلِمَةُ الشَّهَادَتَيْنِ، وَ فِي الْاجْتِمَاعِيَّاتِ كَلِمَةُ الْإِصْلَاحِ، وَ هَكَذَا، فَإِنَّ الْكَلِمَةَ تَوْجِبُ الْفِتْنَ وَ الْاضْطِرَابَ إِنْ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ أَى يَفْسِدُ وَ يَغْرِى بَعْضَهُمْ

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٨٧.

(٢) المؤمنون: ١١٣ و ١١٤.

(٣) يونس: ٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

رُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يُوحِّمُكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا (٥٥)

ببعض، إذا صدرت منهم الكلمة السيئة إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا أى ظاهر العداوة، و أية عداوة أكثر من إفساد الدنيا والآخرة.

[٥٥] ولا بد بعد هذه التوصية، وغيرها، أن تخرج من الإنسان الكلمة السيئة، فليكن الإنسان عند ذلك بين الخوف والرجاء، ولا يكن يزك نفسه، فالله أعلم به من غيره، وحتى من نفسه، إذ كثيرا ما لا يعلم الإنسان مقدار الجرم الذي اقترفه، بينما الله عالم بذلك، رُبُّكُمْ أيها البشر أَعْلَمُ بِكُمْ و بما أجرتم من الآثام إِنَّ يَشَأُ يُزَحِّمُكُمْ و ليست إرادته اعتبارية، بل تابعة لموازين عادلة أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبُكُمْ بما عملتم من المعاصي، و قلمت من الكلمات السيئة وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى الْبَشَرِ وَكِيلًا حتى تكون أنت المسؤول عن جرائمهم، بل أنت داع و هاد، فعليك أن تقول كما أمرنا «قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن» و عليهم العمل، فإن لم يعملوا، كان حسابهم على ربهم، إن شاء رحم و عفى، و إن شاء عذب و أهان.

[٥٦] إن علم الله ليس خاصا بهؤلاء وَرُبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فكل تحت علمه الشامل ملائكة كانوا، أم بشرا أم جنا، و بمقتضى علمه الشامل بالبواطن، فضل بعض النبيين على بعض، و منه يعرف وجه تفضيل النبيين على سائر الناس، و إنما جرى بهذا الأمر هنا، لأن سوق الآيات حول العقيدة مبدؤها و رسالتها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

و معادها و لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ حيث إن نفسياتهم كانت مختلفة، بعضها أرقى من بعض و آتينا داود النبي عليه السلام زُبُورًا كما أتيناك القرآن، فلا مجال للكفار، أن يقولوا: إن الأنبياء عليهم السلام جاءوا بخوارق كونية، فما معنى مجيئك، بهذا الكتاب؟

و هلا كان كعصى موسى أو إبراء الأكمه و الأبرص كعيسى؟

[٥٧] و لقد كان المشركون يعبدون من دون الله المسيح و عزيز و الملائكة، فيأتى السياق للاحتجاج عليهم، حيث أن الجو العام حول العقيدة قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ بِأَنَّهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِهِ أى من دون الله، ادعوهم ليكشفوا ضرركم، و ما يصيبكم من البلاء و المحنة فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ بآن يرفعوا البلاء رأسا و لَا تَحْوِيلًا بآن يحولوه من مكان إلى مكان، إنهم إنما يفعلون ما يفعلون بإذن الله و أمره و إرادته، أما أن يستقلوا بلا دخل الله سبحانه إطلاقا، فإنه لا يكون.

[٥٨] أُولَئِكَ الْآلِهَةُ الَّذِينَ يَدْعُونَ أى يدعونهم هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكُونَ آلِهَةٌ يَبْتَغُونَ و يطلبون إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ يتوسلون إليه سبحانه للتقرب منه، أَيُّهُمْ أَقْرَبُ الْقَرَبُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْآلِهَةِ - كعيسى - عليه السلام يطلب القرب إلى الله فكيف يكون إلها من حاله كذلك؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)

وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ الْأَقْرَبَ مِنْ آلِهِمْ يَطْلُبُ الْقَرَبَ إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَةِ، و هو خائف منه، راج لطفه، فهل يمكن أن

يكون إليها في عرض إله السماء، كما يزعم المشركون؟ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ مَحْدُورًا أَى يحذر منه و يتقى، حتى أن أكبر آلهة هؤلاء يخافه، فكيف لا يخافون هؤلاء، و يتمادون في الشرك و الضلالة و العصيان؟

[٥٩] فليخف هؤلاء الكفار عذاب الله سبحانه، و ليحذروا أن يحل بهم العذاب المقرر لبعض القرى حين يتمادون في الغى و إن من قَرْيَةٍ أَى ما من بلدة، و القرية هي البلدة إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْإِمَاتَةِ، فإن يوم القيامة لا يأتي إلا بعد موت الجميع أو مُعَذَّبُوهَا أَى معذبوا أهلها، بعلاقة الحال و المحل - كما سبق - عَذَابًا شَدِيدًا فَلَا يَتِمَادَى هَؤُلَاءِ فِي غِيهِمْ، فإن مصيرهم الموت و العذاب هناك، إن لم يعذبوا هنا كَانَ ذَلِكَ الْإِهْلَاكَ إِمَاتَةً، و العذاب فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا أَى قد سطر و كتب، فلا مفر لأحد، و لا منجى لبشر.

[٦٠] و ليرك هؤلاء الكفار غيهم و طلباتهم السخيفة التي طلبوها، بأن تأتي يا رسول الله بالخوارق، فقد كفاهم القرآن حجة و برهانا و مَا مَنَعَنَا أَنْ نُزِيلَ الرِّسْلَ بِالْآيَاتِ الْخَارِقَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٣

[سورة الإسراء (١٧): آية ٦٠]

وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)

إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ أَى الأمم السابقة، فقد كانت الخوارق المقترحة تصاحب الرسالات، لتصديق الكفار، و لتخويفهم من عاقبة التكذيب، لكن حين لم تكن الخارقة تنفع، فإن المنصف يؤمن بدونها، و الجاحد لا يؤمن حتى بها - كما حدث في قصة صالح، حيث طلبوا الناقة، ثم لم يؤمنوا - جاءت الرسالة الأخيرة، بدون تلبية لمثل هذا الطلب، و هنا سؤال:

إن الخارقة لو كانت تنفع، فلما ذا تجردت منها الرسالة الأخيرة؟ و إن كانت لا تنفع، فلما ذا صاحبها الرسالات السابقة؟ و الجواب إنها لا تنفع، و لكن جيء بها حتى تكون حجة لتلك الأمة و لسائر الأمم بأن الخارقة لا تفيد في إيمان المعاند، و قد رأيتم ذلك و جربتموه، و إن كان الله سبحانه يعلم ذلك من الأزل و آتينا ثمودَ أَى قبيلة ثمود، قوم صالح النبي عليه السلام الناقة العجيبة، آية مُبْتَصِرَةً لَهُمْ، تبصرهم صدق صالح، و أنه نبي من عند الله فَظَلَّمُوا أَنفُسَهُمْ بِسَبَبِهَا إِذْ كَفَرُوا، فأخذهم العذاب و مَا نُزِّلَ بِالْآيَاتِ الَّتِي نرسلها مع الرسل إِلَّا تَخْوِيفًا و إذ لم ينفع هذا النوع من التخويف - كما جربتم - فلا علينا إلا أن تتم الحجة، أما إعطاء الخوارق الأنبياء، فلا يلزم في الحكمة.

[٦١] و اذكر يا رسول الله إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ فَهُوَ يَعْلَمُ ضَمَائِرَهُمْ وَ نَفْسِيَاتِهِمْ، كالمحيط الذي يشتمل على المحاط، فلا يخرج منه شيء، إن الله سبحانه محيط بالناس مطلع على جميع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٤

خصوصياتهم، أَى فهل تحتاج إلى أكثر من قصة ناقة صالح، شاهدا لما ذكرناه، من أن الناس لا يؤمنون بالخارق؟ و هذا كما إذا قلت لزيد:

إن عمروا رجل بخيل، ثم ذكرت له شاهدا على بخله، بأنه نهر الفقير الفلاني، تقول: و إذ قلت لك أن عمروا بخيل. و هنا يأتي سؤال أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، لو كان لا يأتي بالخارق، فكيف أخبر بأنه يدخل مكة، كما قال سبحانه (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَهُمْ وَ مَقْصِرِينَ) «١» أليس الإخبار بما يأتي خارقا؟ و كيف أخبر بأنه رأى عند المعراج شجرة الزقوم في الجحيم، أليس الإخبار عن الغيب خارقا؟ و الجواب أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يخبر بدينيك الأمرين، دليلا على نبوته «كما جاء صالح بالناقة دليلا على نبوته» و إنما أخبر بذلك فتنه و امتحانا للناس، ليظهر المؤمن إيمانا راسخا من غيره، كما ظهر شك البعض في قصة الحديدية، و كما يكون الإخبار عن الزقوم في النار، محلا لشك بعض ضعفاء الإيمان، كيف تنبت في النار الشجرة؟ و

هنا أمور، الأول، أن ما ذكرنا من كون «الرؤيا» قصة دخول مكة، لا ينافي عدم كون هذه السورة مدنية، لأنه ذكر جمع من المفسرين، أن جملة من آيات هذه السورة مدنية، الثاني إنا لا نعلم مراده تعالى من هذه الآية الكريمة، وإنما ذكرنا ذلك التفسير اتباعاً لجماعة من المفسرين، وحيث رأيناه أقرب إلى ارتباط الآية، بما قبلها، وارتباط بعض أجزائها ببعض، أما مراده سبحانه، فهو خاف علينا، ولم يرد شيء مفصل من المعصوم، نقطع، بأنه عليه السلام فسّر الآية تفسيراً، لا تأويلاً، و من باب المصداق، و ما أشبهه، حتى نتبعه، الثالث، ورد في جملة من

(١) الفتح: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٥

الروايات، أن المراد بالرؤية، ما أرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في منامه، من أن نبي أمية يزور على منبره كنز القرد، و أنهم المراد بالشجرة الملعونة،

فقد روى أن الإمام سئل عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله نام، فرأى أن بنى أمية يصعدون منبره، يصدون الناس، كلما صعد منهم رجل، رأى رسول الله الذلة و المسكنة «أى لأمتة» فاستيقظ جزوعاً من ذلك، فكان الذين رأهم اثني عشر من بنى أمية، فأتاه جبرئيل بهذه الآية

«١»، إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة، و الذي احتمل أن هذا من باب التأويل، و ذكر المصداق للآيات في كل زمان، كما ذكرنا مكرراً، و إن كان من المحتمل أن «الرؤيا» يراد بها هذه، فيكون الارتباط في أجزاء الآية، إن إخبارك يا رسول الله بهذه الرؤيا، و أنه سيكون ذلك مستقبلاً ليس من الخوارق التي ذكرنا في شأنها «و ما معنا» و إنما هي للفتنة و الاختبار، و سنجرى في تفسير الآية، على ما ذكرنا أولاً- و الله العالم- و ما جعلنا يا رسول الله الرؤيا التي أريناك حيث رأيت أنك تدخل المسجد الحرام آمنًا، و أخبرت بذلك قومك، عن الغيب إلا فتنته و اختباراً للناس ليميز المؤمن الحقيقي من غيره، و لم تكن خارقة تزيد إثبات نبوتك بها- من قبيل ناقة صالح- و ما جعلنا الشجرة الملعونة التي رأيتها في معراجك في الجحيم، و هي شجرة الزقوم، و معنى كونها ملعونة أنها مبعدة عن الخير، لا تأتي بخير، و إنما تأتي بشر، و عذاب للكفار، إلا فتنه للناس ليميز المصدق بها من

(١) بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٢٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٦

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦١ إلى ٦٢]

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ سَجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَبِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)

المكذّب، فقوله «و الشجرة» عطف على «الرؤيا» و قوله في القرآن بمعنى أنها ذكرت في القرآن، فالطرف متعلق ب «الشجرة» و نحوهم أي نخوف هؤلاء الكفار، بما تأتي لهم من الأدلة على هلاك المكذبين، و سوء مصير الكافرين فما يزيدهم التخويف إلا طغياناً كبيراً فإن المعاند، كلما رأى قوة حجة الطرف، زاد عناداً و إصراراً، ليقاوم بعناده و إصراره الحجة أكثر فأكثر.

[٦٢] و اذكر يا رسول الله لهؤلاء- لعلهم يعتبرون، و يعرفون أن الشيطان قد خدعهم، حسب سابق وعده بإهلاك الناس- إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم و قد كانت السجدة لله سبحانه، و التعظيم لآدم، حيث جعل قبله، كما أن سجدتنا لله، و فيها تعظيم الكعبة، حيث أنها إليها فتسجدوا جميعاً إلا إبليس لم يسجد كبيراً و حسداً قال مبرراً لفعلة ذلك أ أسجد لِمَنْ خَلَقْتَ يا رب في حال كونه طيناً؟ و أنا أشرف منه، فكيف يسجد الأشرف للأدنى؟.

[٦٣] وحين رأى الشيطان، أنه طرد عن ساحة القرب، على كبره، في عدم سجوده لآدم قال لله سبحانه أ رأيتك أي أخبرني هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ استفهام استنكاري، هذا آدم هو الذي كرمته عليّ، وفضلته وشرفته على مثلي؟ ثم قال لئن أحرزني ولم تمتني، يا رب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٧

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

قال اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِرْ مِنْ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)

إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حسب ما وعده سبحانه (فإنك من المنظرين* إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) «١» لَمَّا حَتَّكَ زُرِّيَّتَهُ الْاِحْتِنَاكَ الْاِقْطَاعِ مِنَ الْأَصْلِ، أي لأقطعهم عن الطريق، إلى سبيل الغواية إِلَّا قَلِيلًا منهم من حفظته يا رب عن الكفر والمعاصي، كما قال سبحانه (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) «٢».

[٦٤] قال الله سبحانه في جواب إبليس، و تهديده بإغواء ذرية آدم اذْهَبْ يا إبليس فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أي من ذرية آدم، بأن كفر أو عصى فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ أنت على كبرك و اغوائك، و هم على غوايتهم و ضلالتهم جَزَاءً مَوْفُورًا كاملا غير ناقص، من الوفر بمعنى الكمال.

[٦٥] وَاسْتَفْزِرْ يا إبليس من استفز، بمعنى استنهض، كأن الشيطان يطلب نهوضهم للكفر والمعصية مَنِ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ أي من ذرية آدم، والمراد بالأمر التهديد بِصَوْتِكَ تشبيهه له بالداعى الذى يصيح بالناس حتى يتبعوه وَأَجْلِبْ يا إبليس، يقال أجلب الرجل على صاحبه، إذا توعده بالشر، و جمع عليه الجيش، لأنه جلب و أحضر على ضرر صاحبه عَلَيْهِمْ على ذرية آدم بِخَيْلِكَ بفرسانك

(١) الحجر: ٣٨ و ٣٩.

(٢) الحجر: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا (٦٥) رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)

الراكبين وَرَجْلِكَ أي راجليك، و هو كناية عن أعمال جميع قواه، كما أن من يريد هزيمة عدوه يجمع له كل فارس و راجل له وَ شَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ بأن تعطيمهم بعض الحرام، و تأخذ منهم فى سبيل الحرام وَالْأَوْلَادِ بأن تأتى إليهم بأولاد الحرام، و تجعلهم يضعون أولادهم فى المحرمات، و يضلونهم، كأن المال و الولد الحلال، ما هو من الله و إلى الله، أما الحرام منهما، فما هو من الشيطان و إلى الشيطان- بجميع صور ذلك- وَ عَدْتُمْ أي منّهم بالأمانى الكاذبة المسببة لضلالتهم و عصيانهم، ثم ذكر سبحانه ملتفتا إلى المخاطبين، الذين سيقت هذه الآيات لإرشادهم، و أنهم إنما يتبعون الشيطان و ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا فإنه يزين لهم الخطأ كأنه صواب، و الباطل كأنه حق، فيغرمهم بذلك و يغشهم.

[٦٦] ثم ذكر سبحانه أن الشيطان لا يقدر على كل ذرية آدم عليه السّلام إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ أَطَاعُونِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ سلطه و قدره، لأنهم الأصفياء الذين لا يرضخون لإغوائك، و لا يتبعون خطواتك وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ يا رسول الله على العباد وَ كَيْلًا حافظ للعباد الصالحين من مكائد إبليس.

[٦٧] ثم عطف السياق نحو الآيات الكونية الدالة على وجوده، محذرا إياهم عقابه، بعد ما أراهم أنهم وقعوا فى حبال الشيطان، فمن الجدير بهم أن يخلصوا أنفسهم رَبُّكُمْ أيها البشر هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٢٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أ فَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨)

الَّذِي يُزْجِي الْإِزْجَاءَ سَوْقِ الشَّيْءِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ لَكُمْ الْفُلُكُ أَى يَسوقُهَا وَ يَجريها باستمرار على الماء فِي الْبَحْرِ فَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِكُمْ غَيْرُهُ سَبْحَانَهُ؟ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أَى لَتَطْلُبُوا مِنْ فَضْلِهِ سَبْحَانَهُ الْأَمْوَالِ بِالْتِجَارَةِ، وَ نَحْوَهَا إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا فَقَدْ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءَ بِحَيْثُ يَجْرِي، وَ السَّفِينَةَ بِحَيْثُ لَا تَغْرُقُ.

[٦٨] وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ أَى الْمَصِيبَةُ وَ الشَّدَةُ فِي الْبَحْرِ حَيْثُ انْقَطَعْتُمْ عَنِ الْعِلَاجِ، فَإِنْ فِي الْبَحْرِ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُضْطَرًا إِذَا أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ، لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ عَوْنًا وَ مَهْرَبًا، وَ خُصُوصًا إِذَا سَكَنَتِ الرِّيحُ أَوْ اضْطَرَبَتِ الْأَمْوَالُ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ أَى ذَهَبَ عَنْكُمْ ذِكْرُ كُلِّ مَعْبُودٍ إِلَّا اللَّهَ سَبْحَانَهُ، فَلَا تَرْجُونَ هُنَاكَ النِّجَاءَ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ فَلَمَّا نَجَّأكُمْ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَرِّ فَأَمِنتُمْ الْأَخْطَارَ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَ عَنِ طَاعَتِهِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا كَثِيرَ الْكُفْرِ، فَإِنْ لَهُ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ كُفْرًا جَدِيدًا، أَوْ الْمَرَادُ كَثِيرَ الْكُفْرَانِ، إِذْ كُلُّ نِعْمَةٍ تَحْتَاجُ شُكْرًا.

[٦٩] أ فَأَمِنتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ- بَعْدَ مَا أَنْجَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ- أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ بِأَنْ تَهْلِكُونَ بِالْبَرِّ، حَيْثُ تَخْسِفُ الْأَرْضُ بِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تَخْرُجُوا مِنْ سُلْطَانِ اللَّهِ سِوَاكُمْ فِي بَحْرٍ أَوْ بَرٍّ، وَ إِنَّهُ قَادِرٌ أَنْ يَهْلِكَكُمْ، أَيْنَمَا كُنْتُمْ، فَكَيْفَ تَعْرَضُونَ، إِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى الْبَرِّ؟ وَ إِنَّمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٦٩ إلى ٧٠]

أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)

قال «جانب البر» لأن المراد طرفه الذي يسكنون فيه، أو المراد ساحل البحر، بمجرد خروجهم، فإن الساحل جانب البر، وقد أريد أنهم في وقت يظنون أنهم خلصوا من الهلاك، و يرتاحون غاية الارتياح، معرضون للأخطار أَوْ يُرْسِلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ حَاصِبًا أَى حِجَارَةً تَحْصِبُونَ بِهَا، وَ الْحَصْبُ بِمَعْنَى الرَّمْيِ، فَهَلْ أَمِنتُمْ ذَلِكَ؟ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَى حَافِظًا يَحْفَظُكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٧٠] أَمْ أَمِنتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ الَّذِينَ نَجَّوْتُمْ مِنَ الْغَرَقِ وَ الْهَلَاكِ فِي الْبَحْرِ أَنْ يُعِيدَكُمْ اللَّهُ فِيهِ أَى فِي الْبَحْرِ تَارَةً أُخْرَى مَرَّةً ثَانِيَةً، بِأَنْ يَلْقَى فِي ذَهْنِكُمُ السَّفْرَ، فَتَرْكَبُونَ الْبَحْرَ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ الْقَصِيفُ الْكَسْرُ بِشَدَّةٍ أَى إِذَا رَكِبْتُمُ السَّفِينَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً، يَرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ رِيحًا شَدِيدَةً، كَاسِرَةٌ تَكْسِرُ السَّفِينَةَ فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ أَى بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ الْحَاصِلِ مِنْكُمْ حِينَ وَصَلْتُمْ إِلَى الْبَرِّ، كَمَا قَالَ «أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ أَى بِذَلِكَ الْغَرَقِ تَبِيعًا أَى تَابِعًا يَتَّبِعُ أَوْ أَهْلًا لَكُمْ لِلْمَطَالَبَةِ بِدَمَائِكُمْ؟

[٧١] وَ كَيْفَ يَكْفُرُ الْبَشَرُ بِالْإِلَهِ الَّذِي كَرَّمَهُ وَ فَضَّلَهُ؟ وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ تَكْرِيمًا ذَاتِيًا بِالْعَقْلِ، وَ حَسَنَ الْخَلْقَةِ، وَ تَهَيَّئَةُ الْأَسْبَابِ الرَّاحَةَ لَهُ، وَ تَسْخِيرَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَجْلِ مَنَافِعِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْرِيمِ وَ حَمَلْنَاهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣١

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧١]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)

أَى هِيَأُنَا لَهُمْ وَسَائِلُ الرُّكُوبِ فِي الْبَرِّ بِالْخَيْلِ وَ الْبِغَالِ وَ الْحَمِيرِ، وَ مِنْ هَذِهِ الْأَلَاتِ الْحَدِيثَةِ، فَإِنَّهَا تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ بِفَضْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ إِلَّا فَمَنْ خَلَقَ الْحَدِيدَ، وَ مَنْ جَعَلَ لِلنَّارِ قُوَّةَ السَّيْرِ، وَ مَنْ هَيَّأَ وَسَائِلَ الْأَلَةِ؟ وَ الْبَحْرِ بِالسَّفْنِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَكْلًا وَ شَرِبًا وَ لِبَسًا، وَ نِكَاحًا، وَ غَيْرَهَا، فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ رِزْقٌ خَصَّهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِهِ، وَ إِنْ اشْتَرَكْتَ بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ فِي بَعْضِهَا، وَ لَكِنْ لَيْسَ بِهَذَا الْعَمُومُ، وَ

الشمول، و الكيفية المرفهة وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا إما المراد أنهم مفضلون على الكثير دون الكل، بأن يكون الملائكة أفضل من الإنسان جنسا، وإما المراد أن التفضيل على كثير- فليس المراد المفهوم، بل المراد الخلق الكثير الذى ملأ ما بين السماء و الأرض، أن الناس مفضل عليه، ف «من» بيانية، لا- تبعيضية- ولعل هذا هو الأقرب، إلى ما دل على أن الإنسان أفضل ما خلقه الله سبحانه، و إن كان الأول أقرب إلى اللفظ، و لا يخفى أن تفضيل الطبيعة، بما هى طبيعة و تكريمها، لا ينافى وجود السيئ، كما لا ينافى وجود بعض المفضلين فى سائر الأجناس، فإذا قلت الرجل خير من المرأة، تريد أن هذا الجنس أفضل، و إن كان فى جنس الرجال قابيل، الذى هو أسوأ من كل امرأة، و فى جنس النساء فاطمة الزهراء عليه السلام المفضلة على من دون الرسول و الوصى من الرجال.

[٧٢] و من تفضيل الله سبحانه البشر على سائر الخلق، أن جعل لهم أئمة يهدونهم الطريق، و يكونون واسطة بينهم و بين الله سبحانه، فى أخذ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٢

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٢]

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

الأحكام و إعطائها الأنام، و قد اتبع بعضهم هذا المنهاج، فاهتدوا، و تخلف بعضهم، فاتبع أئمة ضلالة، فضلوا و غوا، فليتذكر الإنسان يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ كُلِّ جَمَاعَةٍ وَفئة من الناس بِإِمَامِهِمُ الذى ائتموا به، نيبا كان أو وصيا، أو شقيا، و هناك تظهر الفئات المختلفة، كل فئة لها إمام خاص، و لون خاص و لواء خاص فَمَنْ أُوتِيَ أى أعطى كِتَابَهُ المدروج فيه أعماله بِتَمِينِهِ دل ذلك على أنه من أهل السعادة و الخير فَأُولَئِكَ يَفْرُغُونَ كِتَابَهُمْ فرحين مسرورين ليزدادوا سرورا و فرحا بما يرون فيه من الطاعات و العبادات، و الأعمال الحسنة المرضية و لا يُظَلَمُونَ فَيَلًا أى مقدار الفتيل، و هو الخيط الرفيع فى شق النوات، كأنه مفتول.

[٧٣] و من أوتى كتابه بيساره، أو من وراء ظهره فهو محزون، و يحشر هناك أعمى، فلا- يتمكن من قراءة كتابه و مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدنیا أَعْمَى عن طريق الهدى و الرشاد فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى لا يبصر شيئا فى ذلك المزدحم الهائل، و الموقف الرهيب و أَضَلُّ سَبِيلًا إذ الضلال فى الدنيا لا يظهر على الإنسان، بما يميزه عن بقية الأفراد المهتمدين، أما هناك فإنه يظهر فى عمى العين، و اسوداد الوجه، و سائر العلائم، و يقول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتِنَاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)

(رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَ بِتَيْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى «١»، و كأنهم فى بعض المواقف عميان، و فى بعض المواقف مبصرون.

[٧٤] ثم يأتى السياق ليبين موقف القوم من الرسول و القرآن، و تهديدهم بمصير آل فرعون، حيث عارضوا موسى، فأهلكهم الله سبحانه و إن كَادُوا «إن» مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف، أى أن المشركين الذين تقدم ذكرهم، هم قاربوا لَيَفْتِنُونَكَ أى يزولونك و يصرفونك يا رسول الله عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أى عن القرآن الذى أوحيناه إليك، و الأحكام التى ألقيناه إليك، فقد حاولوا هذه المحاولة، فى صور متعددة، تطميحا و تخويفا و استهزاء، بحيث أنه لو لا الرسول المعصوم، لزل و انصرف، فإنهم «كادوا» و «قاربوا» لكن الرسول كان أصلد من الجبل، فقد أرادوا زحزحته لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ فإن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إذا وافقهم فى أهوائهم، كان مفتريا على الله بغير القرآن، فإن القرآن على منهاج، و هم على منهاج آخر و إِذًا أى افتروك و افتريت لِاتَّخَذُوكَ

خَلِيلًا أَى جَعْلُوكَ صَدِيقَهُمْ، وَ أَظْهَرُوا خَلْتِكَ.

[٧٥] وَ لَوْلَا- أَنْ تُبْنِنَاكَ أَى حَفْظُنَاكَ بِالْعَصْمَةِ الَّتِي جَعَلْنَاهَا فَيْكَ، وَ الْعَصْمَةُ حَالَةٌ فِى الْإِنْسَانِ، تَبْعَثُ عَلَى أَنْ يَرَى الْمَعْصِيَةَ قَبِيحَةً لِلغَايَةِ، وَ الطَّاعَةَ جَمِيلَةً لِلغَايَةِ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يَتْرَكَ الطَّاعَةَ، وَ لَا يَفْعَلُ الْمَعْصِيَةَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ

(١) طه: ١٢٦ و ١٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٥]

إِذَا لَأَذْفَنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)

أَى لَقَدْ قَارَبْتَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى الْكُفَّارِ شَيْئًا قَلِيلًا رَكُونًا قَلِيلًا، وَ اعْتِمَادًا يَسِيرًا، فَتَعْطِيهِمْ بَعْضَ مَا سَأَلُوكَ، وَ لَا تَقُومُ بِمَهْمَةِ التَّبْلِيغِ كَمَا يَنْبَغِي، وَ هَذَا حَقِيقَةٌ وَاضِحَةٌ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا يَكُنْ صَلْبًا، لَا يَتِمَكَّنُ أَنْ يَقَاطِعَ الْجَمِيعَ فِى جَمِيعِ الْخَطُوطِ، وَ لَا أَقْلُ أَنْ يَلَاظِحَ بَعْضَ الْمَصَالِحِ، أَمَا الْمَعْصُومُ، فَلَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ذَلِكَ أَبَدًا، فَإِنَّ الْإِنْحِرَافَ الْيَسِيرَ، أَوَّلُ الطَّرِيقِ يَنْتَهَى إِلَى أَعْظَمِ الْإِنْحِرَافِ فِى آخِرِهِ، وَ هِيَهَاتَ أَنْ يَسَاوِمَ الرَّسُولَ الْأَشْرَافَ وَ الْكُفَّارَ، عَلَى دِينِ أَوْ عَقِيدَةٍ أَوْ سُلُوكِ مَهْمَا كَانَ طَافِيًا.

[٧٦] إِذَا لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الرُّكُونَ لَأَذْفَنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعَذِّبُ بِهَا الْمُشْرِكِ فِى الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) «١» وَ إِنَّمَا يَضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ، لِأَنَّ الْقَائِدَ يَتَحَمَّلُ عِقَابَ نَفْسِهِ، وَ عِقَابَ أَتْبَاعِهِ- لَوْ أَنْحَرَفَ- بِخِلَافِ الْإِنْسَانِ الْعَادِي، الَّذِي لَا يَتَحَمَّلُ إِلَّا عِقَابَ نَفْسِهِ وَ ضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ فِى الْآخِرَةِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا أَى لَا يَنْصُرُكَ أَحَدٌ عَلَى ضَرَرِنَا، بِأَنَّ يَنْقُذَكَ مِنْ عَذَابِنَا، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ، أَنَّ الْمَقْصُودَ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَنْبِيهُ الْأُمَّةِ، وَ إِقْنَاءَ الْيَأْسِ فِى قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ أَنْ يَتَّبِعَهُمُ الرَّسُولَ،

وَ قَدْ قَالَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فِى جَوَابِ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَتْرَكَ أَمْرَهُ: «وَ اللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِى يَمِينِي، وَ الْقَمَرَ

(١) طه: ١٢٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٥

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَ إِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)

فِى يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ، لَمَا فَعَلْتَ «١».

[٧٧] وَ إِنْ كَادُوا إِنْ مَخَفَهُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَى إِنَّهُمْ كَادُوا- بِمَعْنَى قَرَبُوا، أَوْ مَكْرُوا- لَيَسْتَفْرِزُونَكَ أَى يَزْعِمُونَكَ، وَ يَشْرِدُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ أَرْضَ مَكَّةَ حَتَّى لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا لِيَصْنَعُوا لَهُمُ الْجُودَ وَ إِذَا لَوْ أَخْرَجُوكَ لَا يَلْبَثُونَ أَى لَا يَبْقُونَ خِلَافَكَ مِنْ بَعْدِ إِخْرَاجِكَ إِلَّا قَلِيلًا مَدَّةَ سِيرَةٍ، فَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَنْ يَهْلِكَ الْكُفَّارُ إِذَا شَرِدُوا رُسُلَهُمْ، وَ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ.

[٧٨] سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا فَقَدْ جَرَتْ سُنَّتُنَا وَ طَرِيقَتُنَا فِى بَابِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ، أَنَّ الْكُفَّارَ، لَوْ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ، عَذَبْنَا الْأُمَّةَ بَعْدَ قَلِيلٍ، حَتَّى لَا يَلْبَثُونَ بَعْدَهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الزَّمَانِ، وَ «سُنَّةٌ» مَنْصُوبَةٌ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ، أَى سُنَّتُنَا ذَلِكَ سُنَّةٌ، وَ لَا تَجِدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا أَى تَبْدِيلًا، فَإِنَّهَا جَارِيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، فَلَا يَتِمَكَّنُ أَحَدٌ أَنْ يَقْلِبَ السُّنَّةَ عَنْ وَجْهِهَا، أَمَا هِجْرَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فَإِنَّ الْكُفَّارَ هَمُوا بِقَتْلِهِ، وَ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي فَرَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا خِلَافَهُ إِلَّا قَلِيلًا، حَيْثُ قَتَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ، بَعْدَ سُنَّةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ تَقْرِيْبًا، وَ هَكَذَا تَوَالَتْ عَلَيْهِمُ النِّكَبَاتُ، وَ قَدْ وَرَدَ فِى شَأْنِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، قَوْلَانِ، الْأَوَّلُ، أَنَّهُ فِى شَأْنِ أَهْلِ مَكَّةَ، حَيْثُ

هموا بإخراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤ ص ٥٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٨]

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)

من مكة، والثاني، أنها نزلت في اليهود بالمدينة، فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما قدم المدينة، أتاه جماعة من اليهود، فقالوا: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام، فأت الشام «١» كما أنه ورد في باب نزول قوله «وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَاكَ» أقوال نختر منها،

أنها نزلت في «و قد ثقيف» جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال لا ننحنى بفنون الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وتمتعنا باللات سنة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود فأما كسر أصنامكم بأيديكم، فذاك لكم «ثم أرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من كسرهما» وأما الطاعة لللات، فإنني غير ممتعكم بها «٢».

[٧٩] أقم يا رسول الله الصلاة فإنها توجب تثبيت العقيدة، و دوام الصلوة بالله سبحانه، ولعل الإتيان بها هنا، لما تقدم من قوله «وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَاكَ» بالإضافة إلى أن الجو العام، هو جو العقيدة التي لا ترسخ، ولا تكون ثابتة ذات تأثير إلا بالصلاة، وما أشبهها من الذكر الدائم، فإن الروح كالجسد يحتاج إلى التغذية المستمرة للنماء والبقاء لِذُلُوكِ الشَّمْسِ من ذلك، بمعنى إمرار الشيء على شيء بشدة، ومنه يقال للحلاق «دلماك» والمراد بدلوك وقت الظهر، فإن الشمس تدلك نصف النهار، سواء اعتبرنا الدائرة الوهمية المنصفة للأفق، إلى قسمي الشرق والغرب، أم لا إلى غَسَقِ اللَّيْلِ أي شدة ظلام الليل، وذلك منتصف الليل، وهذه إشارة إلى أربع صلوات: الظهرين والمغربين،

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٧

[سورة الإسراء (١٧): آية ٧٩]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)

فإن وقت الأولين من الزوال إلى الغروب، و وقت الأخيرين من الغروب إلى نصف الليل وَقُرْآنَ الْفَجْرِ أي ائت بما يقرأ وقت الفجر- وهو الصبح- والمراد به صلاة الصبح، فقد أشارت الآية إلى الصلوات الخمس اليومية إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ أي صلاته التي تقرأ، و يؤتى بها كَانَ مَشْهُودًا تشهدها ملائكة الليل قبل رجوعهم إلى السماء، و ملائكة النهار أول ما ينزلون، فقد وردت أحاديث بذلك.

[٨٠] وَمِنَ اللَّيْلِ أي بعض الليل فَتَهَجَّدْ الهجود النوم، و تهجد بمعنى تحرج النوم نحو «تأثم» بمعنى تحرج الإثم و اجتنبه به أي الليل نافلة صلاة ليست بفريضة، و إنما هي زائدة على الفرائض، و هي صلاة الليل الإحدى عشرة ركعة لَكَ فإنها لنفعك، و ليست كسائر الصلوات اليومية فريضة لقاء على عاتق الإنسان عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ أي لعل الإتيان بهذه الصلاة، أو بهذه الصلوات كلها توجب أن يعطيك الله سبحانه مقاماً محموداً يحمده الناس و الملائكة لرفعته و سموه، إن الآية الكريمة، و لو كانت خطاباً للرسول- بحسب الظاهر- إلا أنها عامة لكل أحد، فما دل على أن نافلة الليل، كانت واجبة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو أن المراد بالمقام

المحمود الشفاعة، أو ما أشبهه، فإنما ذلك بدليل خارجي، وهو من باب المصداق- كما ذكرنا مكررا- و كان ذكر نافله الليل دون سائر النوافل لأهميتها الأكيدة في الشريعة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)

[٨١] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ أَيْ إِدْخَالَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ أَيْ إِخْرَاجَ صِدْقٍ، فَإِنَّهُمَا مُصْدِرَانِ بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ، وَهَذَا دَعَاءٌ لِكُونَ دُخُولِ الْأُمُورِ وَخُرُوجِهَا يَتَسَمَّى بِالصَّدَقِ وَالِاسْتِقَامَةِ، لَا الْكُذْبِ وَالِانْحِرَافِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَدْخُلُ فِي الْأُمُورِ- أَيْ أَمْرٍ كَانَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ- بِالصَّدَقِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَقَدْ يَدْخُلُ بِالْانْحِرَافِ وَالْكَذْبِ وَالِالْتِمَازِ، وَهَكَذَا الْخُرُوجُ مِنَ الْأُمُورِ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَإِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ دُخُولَهَا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ مِنْ عِنْدِكَ سُلْطَانًا سُلْطَةً وَعِزًّا نَصِيرًا أَنْتَصِرَ بِهِ عَلَى أَعْدَائِكَ حِجَّةً وَقُوَّةً، وَرَعْبًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَقَدْ نَاسَبَتِ الْآيَةَ، مَا أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْانْحِرَافِ، كَمَا قَالَ «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ».

[٨٢] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارِ الطَّامِعِينَ فِيكَ، الرَّاجِينَ بَقَاءَ كَيْفَانِهِمْ جَاءَ الْحَقُّ وَهُوَ الدِّينُ وَالْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ أَيْ ذَهَبَ وَانْفَضَّ وَظَهَرَ بَطْلَانَهُ،

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا وَرَدَ مَكَّةَ فَاتِحًا، رَأَى حَوْلَ الْكَعْبَةِ، ثَلَاثِمِئَةً وَسِتِّينَ صِنْمًا فَأَخَذَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَ يَشِيرُ إِلَيْهَا بَعْضَاهُ، فَتَنَكَّسَ وَقَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا أَيْ مُضْمَحَلًا، فَإِنَّ طَبِيعَةَ الْبَاطِلِ لَا اسْتِقْرَارَ لَهُ، وَلَا بَقَاءَ.

[٨٣] إِنْ الْحَقُّ الْمَتَمَثِّلُ فِي الْقُرْآنِ، لَقَدْ جَاءَ، وَ إِنَّهُ يَشْفِي الْمُؤْمِنِينَ شِفَاءً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٣٩

[سورة الإسراء (١٧): آية ٨٣]

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا (٨٣)

روحياً وجسماً، كما أنه يزيد الظالمين خساراً، فإنهم يعارضوه، ويقابلوه بما يوجب زيادة زهرهم ونزول من القرآن «من» بيان المنزل المستفاد من «نزل» ما هو شفاء شفاء لأرواحهم المريضة بالأخلاق السيئة والرديلة، وشفاء لأجسامهم، فإن الإنسان إذا تعدت مناهج حياته صح جسمه ورحمته أسباب ترحم و لطف من الله للمؤمنين فإنهم إذ يطيعونه، يكونون مورد لطفه ورحمته ولا يزيد القرآن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالانحراف والسلوك المعوج إلا خساراً أي خساراً على خسارتهم، لكفرهم به وانحرافهم عن سبيله و ضلالهم ومقاومتهم له.

[٨٤] وإذا ترك الإنسان الشفاء والرحمة، وأخذ يسلك سبيل الغي، فإنه يتقلب في أوضار الكفر والضلالة كيفما كان حاله وإذا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِالصَّحَّةِ وَالرِّفَاءِ وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ وَغَيْرِهَا أَعْرَضَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَنَأَى بِجَانِبِهِ أَيْ ابْتَعَدَ بِطَرْفِهِ عَنَّا، كَأَنَّهُ لَوَّى جَنْبَهُ- كِنَايَةٌ عَنِ إِعْرَاضِهِ، وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِمَا يَلْزَمُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ، وَالطَّاعَةِ لِلْمَنْعَمِ- فَيَتَكَبَّرُ وَيَتَجَبَّرُ وَيَطْغَى، حِينَ رَأَى نَفْسَهُ مُسْتَغْنِيًا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ وَالْخَوْفُ، وَ مَا أَشْبَهَهَا، لَمْ يَصْبِرْ، وَ لَمْ يَدْعِ اللَّهَ لِرَفْعِهَا بَلْ كَانَ يَؤُوسًا كَثِيرَ الْيَأْسِ قَانِطًا، فَلَا هُوَ فِي الرِّخَاءِ يَشْكُرُ، وَ لَا فِي الْبَلَاءِ يَصْبِرُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٠

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

[٨٥] هذا حال الإنسان الظالم الذي لا- يزيده القرآن إلا خساراً، أما المؤمن فهو بعكس ذلك، لا يزيده الرخاء والبلاء، إلا ثواباً و انقطاعاً إليه سبحانه و شكراً و طاعةً، فكل من الطائفتين، تعمل على الشكل الذي اختاره من الكفر و الإيمان قُلْ يا رسول الله كُلٌّ من المؤمن و الكافر يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ الشاكلة الطريقة، لمشاكله بعض الطرق لبعض، و في هذا تهديد لمن يسلك الطريق المنحرف، كأنه يقال اعملوا فسترون جزاء عملكم فَرَبُّكُمْ أيها الناس أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا هل المؤمن سبيله أحسن أم الكافر؟

[٨٦] وَيَسْئَلُونَكَ يا رسول الله عَنِ الرُّوحِ ما هو؟ و حيث أن مثل هذه الأسئلة توجب تبديد الطاقة العقلية فيما لا يعني، لم يجب القرآن الحكيم على هذا السؤال إشارة إلى لزوم أن يصرف الإنسان طاقته فيما يهمه من أمر دنياه و آخرته، لا فيما لا يهمه قُلْ يا رسول الله في جوابهم الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي فهو من الأمور التي تكونت بأمر الله سبحانه، و لا- يعلم ما هو إلا الله سبحانه، و من أعلمه إياه و ما أُوتِيتُمْ أيها البشر مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فإن الأسرار الكونية فوق حد الإحصاء، و ما يعلمه البشر ليس إلا جزءاً ضئيلاً من الأسرار، فمن الأفضل أن يصرف الإنسان وقته الغالي القصير فيما ينفعه، لا فيما لا ينفعه، أقول: لا يبعد أنهم أرادوا بالروح الذي يأتي بالقرآن، أو القرآن ذاته، كما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤١

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قال سبحانه (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) «١» و هذا أقرب إلى السياق، حيث إن الكلام حول العقيدة، و الرسالة، و القرآن، و قد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية، فقال: خلق أعظم من جبرئيل و ميكائيل كان مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ هُوَ مَعَ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ هُوَ مِنَ الْمَلَكُوتِ «٢».

[٨٧] إن الإنسان لم يؤت إلا قليلاً من العلم، و إن القرآن الذي يرشد الإنسان إلى مناهج الحياة بعد إرشاده إلى العقيدة الصحيحة، أنه من أمر الله سبحانه و فضله على البشر، حدوداً و بقاء، و لو شاء لمحاه من بين الناس حتى يرجعوا جهالاً، و هذا كما تقول لتلميذك: أنت لا- تعرف شيئاً، و ما تعرفه فإنه مني، و لو شئت لأخذت كتب علمك، حتى تبقى جاهلاً، كما كنت و لَئِنْ شِئْنَا وَ أَرَدْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ من القرآن بأن نمحى صورته من ذهنك، و نرفع نسخه من بين الناس ثم لو فعلنا ذلك لا تَجِدُ لَكَ بِهِ أَى بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ عَلَيْنَا وَكِيلًا فلا أحد يقدر على استرداده منا، أى لا تجد موكلاً بالقرآن لك، على ضررنا، و خلاف إرادتنا، يستوفيه منا ليسلمه إليك.

[٨٨] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إن الذي و هبك هذا القرآن، و أبقاه عندك، هو تفضل الله سبحانه عليك- و الاستثناء منقطع- إِنَّ فَضْلَهُ تَعَالَى

(١) الشورى: ٥٣.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا حَيْثُ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِالنَّبُوَّةِ، وَ يُعْطَى الْقُرْآنَ، وَ يُبْقَاهُ عِنْدَكَ، وَ هَذَا لِتَنْبِيهِ النَّاسِ حَتَّى يَشْكُرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمَ نِعْمٍ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، حَيْثُ يَقْرَرُ الْحَيَاةَ السَّعِيدَةَ، مِمَّا لَا تَصِلُ إِلَيْهَا الْبَشَرِيَّةُ بِعَقْلِيَّتِهَا، وَ لَوْ صَقَلَتْ أَلْفَ عَامٍ.

[٨٩] فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامًا عَادِيًّا، يَتِمَكَّنُ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ قُلٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ مُتَعَاوِنِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي جَمِيعِ خُصُوصِيَّاتِهِ الْبَلَاغِيَّةِ وَ الْمُنْهَجِيَّةِ وَ الْعِلْمِيَّةِ، وَ سَائِرِ وَجُوهِ الْإِعْجَازِ الْمَقْرَرَةِ فِي كِتَابِ الْكَلَامِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ لِأَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ طَوْقِهِمْ وَ قَدْرَتِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيُعْضِ ظَهِيرًا مَعِينًا وَ ظَهْرًا يُسَاعِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَ قَدْ مَضَى عَلَى الْقُرْآنِ أَلْفٌ وَ أَرْبَعُمِائَةٍ عَامٍ، وَ لَمْ يَأْتِ مِنْ يَأْتِي بِمِثْلِ الْقُرْآنِ، نَعْمَ جَاءَ مَسِيلَمَةُ بِالْمُضْحَكَاتِ، وَ جَاءَ الْبَابُ بِالْمَبْكِيَّاتِ، أَمَا مَنْ كَانَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَفَكَرَ وَ قَدَرَ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ، وَ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِعَصَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ إِحْيَاءِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ غَرِقَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَدٌ كَذَلِكَ لَمْ يَأْتِ بِقُرْآنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَحَدٌ.

[٩٠] وَ لَقَدْ صَيَّرْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ بَيْنَنَا لِلنَّاسِ، وَ جِئْنَا بِالْأَمْثَلَةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْأَبْسَةِ شَتَّى، كَالْإِتْيَانِ بِقِصَّةِ مُوسَى فِي سَبْعِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٠ إلى ٩٢]

وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَثْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)

لباس، و هكذا، و هذا معنى التصريف، فإنه أن يقلب الشيء الواحد في صور شتى فأبى أكثر الناس إلا كفورا أي جحودا للحق مع إتمام الحجة عليهم.

[٩١] إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى الْقُرْآنَ إِلَى الْبَشَرِ مَعْجَزَةً لِلرُّسُولِ وَ مِنْهَا جَا لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ وَ كَلِمَةً بَاقِيَةً يَسْتَنْبِرُ بِهَا الْأَقْوَامُ، وَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، لَكِنِ الْكُفَّارَ الَّذِينَ أَبَوْا إِلَّا الْجُحُودَ وَ التَّوْغَلَ فِي الْعِنَادِ، أَعْضُوا النَّظَرَ عَنْهُ، وَ أَخَذُوا يَتَطَلَّبُونَ خَوَارِقَ مَادِيَّةٍ لَا تَنْفَعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَ لَا تَبْقَى مَعَ الْأَجْيَالِ وَ إِنَّمَا طَلَبُوهَا لِمَجْرَدِ الْعِنَادِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ، وَ قَالُوا لِلرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَ إِنْ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَثْبُوعًا أَى حَتَّى تَشَقِّقَ الْأَرْضَ، وَ تَخْرُجَ مِنْهَا عَيْنَ مَاءٍ نَسْتَفِيدُ مِنْهَا، فَإِنَّ أَرْضَ مَكَّةَ قَلِيلَةُ الْمَاءِ تَحْتَاجُ إِلَى الْعِيُونَ وَ الْأَنْهَارِ.

[٩٢] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ بَأَن تَدْعُو رَبَّكَ فَيَحْدُثُ لَكَ جَنَّةٌ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ مِنَ الْمَاءِ خِلَالَهَا أَى وَسَطِهَا تَفْجِيرًا تَشْقِيقًا، حَتَّى يَجْرِيَ الْمَاءُ فِي تِلْكَ الْأَنْهَارِ.

[٩٣] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا فَإِنَّ الرُّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَانَ يَهْدِدُهُم بِالْعَذَابِ مِنَ السَّمَاءِ، وَ قَدْ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ٩٣]

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)

(وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) «١» فَهَذَا يَقُولُونَ أَسْقَطَ عَلَيْنَا - حَسْبُ زَعْمِكَ: إِنَّكَ تَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ - السَّمَاءِ.

كِسْفًا وَ هِيَ جَمْعُ كِسْفَةٍ، بِمَعْنَى الْقِطْعَةِ، وَ زِنُ السَّدْرَةِ، وَ سَدْرٌ وَ كِسْفًا حَالٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَ لَا يَخْفَى أَنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى كَوْنِ السَّمَاءِ هِيَ الْمَدَارُ، يَكُونُ كَلَامُهُمْ هَذَا حَسْبُ زَعْمِهِمْ، بِأَنَّ السَّمَاءَ جِسْمٌ، أَمَا قَوْلُهُ (وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا) فَلَعَلَّ الْمُرَادَ، الْكِسْفُ الَّذِي مَنَشَأُهَا السَّمَاءُ، فَإِنَّ الْقِطْعَ الْمَعْدِنِيَّةَ تَقْدِفُ مِنْ جَانِبِ الْعُلُوِّ، كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْفَلَكَ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَى فِي حَالِ كَوْنِهِمْ قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ، وَ صَنَفَا

صنفا حتى نشاهدهم فنصدق بك، و لعلهم أخذوا ذلك من قوله سبحانه (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) «٢» و لم يعرفوا أن المراد «جاء أمر ربك» و أن الملائكة يوم تأتي (لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) «٣» [٩٤] أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَى بَيْتٍ مَمْلُوءٍ مِنْ ذَهَبٍ، و أصله من الزخرفة، و هى الزينة، فكأن إطلاقه على الذهب مجازاً من باب الأولى، لأن الذهب يزين به أو تزقى و تصعد فى السماء بأن نراك قد صعدت و لَنْ تُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ و صعودك، لأننا نحتمل، أن ذلك من باب السحر، و أنك قد تصرفت فى أبصارنا حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِنْ

(١) الطور: ٤٥.

(٢) الفجر: ٢٣.

(٣) الفرقان: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٥

جانب الله نَقْرُؤُهُ مكتوب فيه نبوتك و صدقك فى دعاويك، و قد كانوا من الجهل و الغباوة بحيث يفرقون بين الصعود، و بين الإنزال بالكتاب، فإن من يتمكن من السحر فى الصعود، يتمكن من السحر فى إنزال الكتاب أيضاً قُلْ يا رسول الله فى جواب هذه الاقتراحات سُبحَانَ رَبِّى أَى أَنزَهَ رَبِّى عَنِ الْمَثَلِ وَالذَّمِّ وَ هَذِهِ جَمَلَةٌ تَسْتَعْمَلُ لِلتَّعَجُّبِ، و كان الأصل فى ذلك، أن المعنى كون الله منزهاً، أما ما جرى بيننا، فليس منزلها هَيْلٌ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولًا أَى لست أنا إلا رسول، فالواجب على أن أتى بمنهاج السماء، و معى من الأدلة ما تثبت أنى رسول، أما أن أتى بكل ما يقترح الناس من الخوارق، فإن هذا ليس من شأن الرسول، فإن كان الشخص من أهل الإنصاف، كفاه ما جئت به من القرآن الحكيم دليلاً، و إن كان الشخص معانداً فلا- يؤمن و لو جئت له بألف دليل، و قد كانت الأمم تسأل أنبياءها بالمقترحات، ثم لم تؤمن، كما حدث فى قصة صالح النبى عليه السلام، و

قد ورد فى شأن نزول هذه الآيات: أن جماعة من قريش و هم عتبة و شيبه ابنا ربيعة و أبو سيفان بن حرب و الأسود بن المطلب و زمعة بن الأسود و الوليد بن المغيرة و أبو جهل بن هشام و عبد الله بن أبى أمية و أمية بن خلف و العاص بن وائل و نبيه و منبه ابنا الحجاج و النضر بن الحارث، و أبو البخترى ابن هشام، اجتمعوا عند الكعبة و قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد صلى الله عليه و آله و سلم فكلموه و خاصموه، فبعثوا إليه، أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر صلى الله عليه و آله و سلم إليهم، و كان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا يا محمد إنا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم أحد أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، و عبت الدين، و سفهت الأحلام، و فرقت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٦

[سورة الإسراء (١٧): آية ٩٤]

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)

الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالا أعطيناك، و إن كنت تطلب الشرف سودناك علينا، و إن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك الأبطال؟

فقال صلى الله عليه و آله و سلم: ليس شىء من ذلك، بل بعثنى الله إليكم رسولا، و أنزل كتابا، فإن قبلتم ما جئت به، فهو حظكم فى الدنيا و الآخرة، و إن تردوه أصبر حتى يحكم الله بيننا؟ قالوا فما أحد ليس أضييق بلدا منا، فاسأل ربك أن يسير هذه الجبال، و يجرى لنا أنهارا كأنها الشام و العراق، و أن يبعث لنا من مضى، و ليكن فيهم قصى، فإنه شيخ صدوق، لنسألهم عما تقول، أحمق أم باطل؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم: ما بهذا بعثت، قالوا: فإن لم تفعل ذلك، فاسأل ربك أن يبعث ملكا يصدقك، و يجعل لنا جنات و كنوزا و قصورا من ذهب؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم: ما بهذا بعثت، و قد جئتكم بما بعثنى الله به، فإن قبلتم، و إلا فهو يحكم

بينى و بينكم، قالوا: فأسقط علينا السماء، كما زعمت إن ربك، إن شاء فعل ذلك؟ قال ذاك إلى الله إن شاء فعل، و قال قائل منهم لا تؤمن، حتى تأتي بالله و الملائكة قبيلاً، فقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قام معه عبد الله ابن أبى أمية المخزومى ابن عمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل ما تخوفهم به؟ فلم تفعل، فوالله لن أومن بك أبداً، حتى تتخذ سلماً إلى السماء ثم ترقى فيه و أنا أنظر و يأتى معك نفر من الملائكة يشهدون لك و كتاب يشهد لك، فأنزل الله سبحانه الآيات (١)

[٩٥] ثم ذكر سبحانه، أن سبب امتناع هؤلاء عن الإيمان بالرسول، إنكارهم

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٧

[سورة الإسراء (١٧): آية ٩٥]

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَائاً رَسُولاً (٩٥)

لأن يكون البشر رسولا، إما لأنهم يظنون أن منصب الرسالة فوق أن يناله بشر- أو للحسد- أو نحو ذلك و ما منع الناس أن يؤمنوا أى لم يصرف المشركين عن الإيمان بالرسول و تصديقه إذ جاءهم الهدى أى حين أتتهم الهداية و الرشاد، إلا أن قالوا استثناء عن «شئ» المحذوف الذى هو فاعل «منع» فالاستثناء مفرغ أبعث الله بشراً رسولاً أى كيف يمكن أن يرسل الله بشراً للرسالة و أداء الوحي؟ و المراد ب «قولهم» شبهتهم التى تظهر بالقول.

[٩٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ: إن الملائكة لا تصلح لأن ترسل إلى البشر الجمهور، لأنه ليس من جنسهم، و لا تصلح الأرض محلاً لهم، فإن الله سبحانه قادر على كل شئ، لكن الله تعالى جعل للأرض قوانين عامة، و أجرى سنته وفق تلك القوانين، و من تلك القوانين، كون الرسول من جنس البشر، و إن الملك لا ينسجم، كما أن الحيوان لا ينسجم مع البشر بأن يكون رسولا إليه، فإذا طلب طالب أن يكون الطير رسولا، كيف يكون مضحكا- و إن كانت قدرة الله فوق ذلك- كذلك من يطلب أن يكون الملك رسولا؟ لو كان فى الأرض مَلَائِكَةً و لم يكن بشر فيها يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ أى ساكنين قاطنين، فإن المشى و الاطمئنان كناية عن ذلك، إذ غير الساكن لا يكون ماشياً مطمئناً، بل يمشى مضطرباً قلبه، يهفو نحو وطنه و محله لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ أى من جانب العلو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٨

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَ بُكماً وَ صُمّاً مَا وَأَوْهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً (٩٧)

مَلَكَائاً رَسُولاً أى رسولا من جنس الملك، لأنه حينئذ ينسجم مع المرسل إليهم، أما و فى الأرض بشر، فالرسول لا بد و أن يكون من جنسهم، ثم لماذا الملائكة؟ أ للتعنت و الاقتراح؟ فلا يفيد الملائكة أيضاً، أم للحجة و البرهان؟ فالرسول معه ما يدل حجة و برهانا، و لا يقاس الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بسائر الناس، فإنه صالح لأن يعاشر الملائكة بخلاف غيرهم فلا يستشكل بأنه ما الفرق بين الرسول و غيره؟

[٩٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الذين يطلبون أن يكون الرسول إليهم ملكا و لا يقتنعون بك كفى بالله شهيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فإله شاهد على رسالتى، حيث أجرى على لسانى القرآن الذى عجزتم عن الإتيان بمثله، فلو كنت كاذباً فى دعواى لزم- فى الحكمة- أن لا أتمكن على شئ يعجز البشر عنه، فإجراء الله المعجزة على يدي دليل على صدق دعواى، كما أن إمضاء الرئيس إذا كان مع المستخدم كفاه دليلاً على كونه من قبل الرئيس إِنَّهُ سبحانه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً مطلعاً على أحوالهم بَصِيراً يبصر حركاتهم و سكناتهم فلو

افتري عليه أحد، لزم عليه- في الحكمة- أن يفضحه، لا أن يجرى بعض النواميس الخارقة على يده.

[٩٨] إن هؤلاء الكفار تركوا عقولهم، وركبوا أهواءهم، ولذا تركهم سبحانه في ضلالهم يعمهون، وإلا فما حجة من تمت عليهم الحجة، ووضحت لهم المحجة؟ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ بَأْنَ يَلْطَفْ عَلَيْهِ الْأَطْفَالَ الْخَفِيَّةَ، حِينَ رَأَى مِنْهُ الْإِيمَانَ وَالْإِذْعَانَ فَهُوَ الْمُهْتَدِ حَقِيقَةُ الَّذِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٤٩

رأى السبيل، و آمن و أخذ الله بيده إلى النجاح و السعادة- و الياء من المهتد محذوف تخفيفا- وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ، بَأْنَ مَنَعَ مِنَ الْأَطْفَالِ الْخَفِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ أَرَاهُ السَّبِيلَ فَأَعْرَضَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ، كَالسَّيِّدِ الَّذِي يَعْرُضُ عَنِ عِبْدِهِ، حَيْثُ يَرَاهُ يَعْمَلُ بِاطْلَا، فَيَتْرَكُهُ حَتَّى يَضِلَّ، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي الْعَرَفِ: إِنْ السَّيِّدَ أَفْسَدَ عِبْدَهُ، حَيْثُ لَمْ يَضْرِبْ عَلَى يَدِهِ فَلَنْ تَجِدَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَى لِلضَّالِّ أَوْلِيَاءَ يَتَوَلَّوْنَ شُؤْنَهُ وَ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِهِ أَى مِنْ دُونَ اللَّهِ، وَ مِنْ يَتَوَلَّاهُ فِي الظَّاهِرِ، فَلَيْسَتْ وَلا-يَتَه كَوْلِيَةِ اللَّهِ الَّتِي تَهَيِّئُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، فَالمراد بالنفى، نفى الأنبياء حقيقة، لا نفى الأولياء صورة، فهو

كقوله عليه السلام: يا أشباه الرجال و لا رجال

«١» إن حال الضالين في الدنيا، أنه لن تجد لهم أولياء، أما حالهم في الآخرة وَ نَحْشُرُهُمْ أَى نَجْمَعُهُمْ لِلْحِسَابِ، فَإِنَّ الْحَشْرَ بِمَعْنَى الْجَمْعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَسْحَبُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى النَّارِ، كَمَا يَفْعَلُ فِي الدُّنْيَا، بِمَنْ يَرَادُ كَمَالُ إِهَانَتِهِ، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ عُثْمِيًّا جَمْعَ أَعْمَى، وَ هُوَ الَّذِي لَا يَبْصُرُ لَهُ وَ بُكْمًا جَمْعَ أَبْكُمْ، وَ هُوَ الَّذِي لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْكَلَامِ، وَ صِيْمًا جَمْعَ أَصْمٍ، وَ هُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ، فَهَمُ بِهَذِهِ الْحَالَةِ الْمَزْرِيَّةِ الْمَخْزِيَّةِ يَحْشَرُونَ هُنَاكَ فَقَدْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَ لَمْ يَنْطَقُوا بِالشَّهَادَةِ وَ الْخَيْرِ، وَ لَمْ يَعْبُرُوا أَسْمَاعَهُمْ لِلدَّعْوَةِ، فَلْيَكُونُوا هُنَاكَ كَذَلِكَ جَزَاءَ لِمَا اقْتَرَفُوهُ هُنَا، مَا وَاهُمْ أَى مَحْلَهُمْ وَ مَصِيرَهُمْ وَ مَنْزِلَهُمْ، مِنْ أَوَى يَأْوَى، بِمَعْنَى

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢٧ ص ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٣٩٩

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أ وَ لَسْمَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)

اتخذ المأوى جهنم كلما خبت أي سكن ليهيها، والمراد أنه كلما أشرفت على الخمود، و إلا فنار جهنم لا تنقض أبدا زدنهم سعييرا أي اشتعلا و التهايا و توقدا.

[٩٩] ذَلِكَ الْعَذَابُ فِي الْمَحْشَرِ وَ فِي النَّارِ جَزَاؤُهُمْ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا بَأْنَ تَبَدَّدَتْ لِحُومِنَا بَعْدَ الْمَوْتِ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ إِلَّا الْعِظَامُ وَ رُفَاتًا مِمَّا تَهْشَمُ بِالْفَتِّ، كَالْأَعْوَادِ الْيَابِسَةِ الْبَالِيَةِ أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ مَحْيُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ خَلْقًا جَدِيدًا كَمَا كُنَّا سَابِقًا؟ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ.

[١٠٠] أ وَ لَمْ يَرَوْا أَى أَلْمَ يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَوْجَدَهُمَا مِنَ الْعَدَمِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بَعْدَ الْحَشْرِ مِثْلَ الْإِنْسَانِ قَبْلَ الْمَوْتِ- بِاعْتِبَارِ- كَمَا أَنَّهُ هُوَ بِاعْتِبَارِ آخِرٍ، فَإِنَّ الْإِعَادَةَ لَيْسَتْ أَصْعَبُ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) «١» وَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ أَى لَهُؤُلَاءِ فِي الْإِعَادَةِ أَجَلًا أَى وَقْتًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّهُ مِنَ الْوَضُوحِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥١

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٠٠]

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

بحيث لا- ينبغي الارتياح والشك فيه، فهو نفى الريب الصحيح بلسان نفى الحقيقة، نحو «ولا- رجال» فَأَبَى الظَّالِمُونَ الذي ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، فإن الإنسان إذا لم يرضخ لأوامر الله تعالى، فقد ظلم نفسه، حيث عرضها للعقاب الدائم إِلَّا كُفُورًا أى جحودا للسماء.

[١٠١] إن من يأمر غيره بالكرم، لا- بد وأن يكون كريما، وإلا قيل: «لا تبغ منقبة وتأتى ضدها» فهؤلاء الكفار الذين كفروا بالله ورسوله والمعاد، والذين اقترحوا البيت من الذهب، وتفجير العين، والبساتين، وغيرها، أن ملكوا كل شىء، لم يكونوا يبذلون شيئا، فهم أشحاء فى الإعطاء، أسخياء فى الطلب قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي وَخَزَائِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ، هى الماء، والتراب، والشمس، والهواء، التى تتولد منها الأشياء والإرادة الأزلية التى تهب الحياة والفضيلة، وغيرهما، فكما أن الخزينة مركز الجواهر والنقود، كذلك هذه الأشياء مصدر ما فى الكون من الوجود والنفائس إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ و لم تبدلوا خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ أى لأجل خشية أن تفتقروا إذا بذلتهم- مع أن خزائن الله لا تنفذ أبدا- فمن هذا النحو من الشح والبخل شأنه، كيف يقترح هذه الاقتراحات المادية الدسمة؟

وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا أى بخيلا، من «قتر» بمعنى ضيق فى النفقة، والقنور صيغة مبالغة، وهذا شبه الاستهزاء بالمقترحين، والسخرية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٢

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ إلى ١٠٢]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَيَّلَ بِنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)

باقتراحهم، كما قال سبحانه (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) «١» [١٠٢] إن الأمة المعاندة، لا تفيدها الخوارق، فهؤلاء، وإن طلبوها، وعلقوا إيمانهم بها، إلا أنها إذا جاءت لا يؤمنون، حالهم حال الأمة السابقة، أليس جاء موسى بأعظم من هذه الخوارق، و لم تنفع كلها فى إيمان قوم فرعون؟ و هل الأمم إلا أمثالا؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا أَى أعطينا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ أى خوارق واضحات، و هى «اليد» و «العصا» و «الحجر» و «البحر» و «الطوفان» و «الجراد» و «القمل» و «الضفادع» و «الدم» كما ورد بذلك الآيات و الروايات- و قد مر تفسيرها- فَسَيَّلَ أى رسول الله بِنِي إِسْرَائِيلَ اليهود المعاصرين لك، وإنما أمر بالسؤال، ليكون كلام اليهود أبلغ فى الحجته، فإن كفار مكة المقترحين، كانوا أسمع من اليهود، فهم يذعنون لليهود بما لا يذعنون للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُمْ و مع كل هذه الآيات فَقَالَ لَهُ أى لموسى عليه السلام فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا قد سحروك و ذهب عقلك، و لذا تدعى النبوة، أو أن المراد «ساحرا» فوضع المفعول موضع الفاعل- كما ذكر أهل الأدب- أن كلاً من الفاعل و المفعول ينوب مناب الآخر.

[١٠٣] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا فِرْعَوْنَ

(١) البقرة: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٣

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠٣ إلى ١٠٤]

فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)

ما أنزل هؤلاى الآيات، و لعل الإتيان ب «هؤلاء» التى هى للعاقل، كون الآيات تعمل عمل العاقل، فالعصا تصير ثعبانا تأكل، و الجراد تهاجم مهاجمة العاقل، و هكذا إلاً رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فليست سحرا، و لست أنا مسحورا بصائر أى أنزلها لأجل أن تكون حججا و براهين، فبصائر جمع بصيرة، بمعنى مبصرة، أو المراد ذات بصائر، أو أطلق البصيرة على سبب البصيرة مبالغة، أو مجازا لعلاقة السبب و المسبب و إني لَمَأْظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مُتَّبِراً من ثبره الله بمعنى أهلكه، و الثبور بمعنى الهلاك، و المراد به الهلاك على الكفر، و إنما قال «أظن» لعدم علمه بذلك، و إنما ظن حسب الظاهر من عناده، مع احتمال إيمانه، أو للتشابه اللفظى، و إن كان عالما بذلك، فإن الظن يستعمل بمعنى العلم.

[١٠٤] فَأَرَادَ فِرْعَوْنُ بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، حَيْثُ لَمْ يَجِدْ مُخْلِصاً مِنْ مُوسَى وَ حُجَّجَهُ الْقَوِيَّةُ أَنْ يَسْتَفِيزَهُمْ أَى يزعج بنى إسرائيل و يطردهم مِنَ الْأَرْضِ أَى أرض مصر، مقرر سلطته فَأَعْرَفْنَاهُ أَى أغرقنا فرعون و مَنْ مَعَهُ مِنْ جنوده و أشرف قومه جميعاً لم ينج منهم أحد، و هكذا مصير الكفار أعداء الله و رسوله.

[١٠٥] وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ أَى بعد هلاك فرعون و قومه لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٤

[سورة الإسراء (١٧): آية ١٠٥]

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (١٠٥)

أى كونوا فيها، مقابل إرادة فرعون تبعيدكم، و المراد إما أرض مصر، فقد سكنها بنوا إسرائيل فيما بعد، أو الأعم مقابل إرادة فرعون إخراجهم من أرض مصر و الشام و فلسطين - كما ذكر بعض أهل التفسير - أو مطلق الأرض، أى بقوا هؤلاء، و ذهب أعداءهم فإذا جاء وَعْدُ الْآخِرَةِ وَ هى القيامة جئنا بكم يا بنى إسرائيل لفيماً قد لف بعضكم فى بعض، فلکم إرث الأرض هنا، و لكم الآخرة هناك، أو المراد لفيماً أتم فى آل فرعون، ليجازى أولئك هناك، كما جوزوا هنا.

[١٠٦] و إذ قد تقرر، أن الاقتراحات لا معنى لها، و أن القرآن هو وحده كاف دلالة للنبوة، و حجة على القوم، يرتد السياق إلى هذا الكتاب الحكيم ليين ما هو وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ أَى أنزلنا القرآن بالحق، فإننا لم نزل القرآن، إلا- للإيمان به، و اتباع سبيله، مقابل إنزال الشياطين الكذب على الكهان وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ أَى و قد كان القرآن مصاحباً للحق، فما فيه هدى و نور و مطابق للواقع، مقابل ما نزل بالحق، و لكنه لا- يصحب الحق، كما لو أعطى الولى عبده كتاباً، ليعمل فيه، و قد كتب فيه اشتباها شىء باطل، فإن إعطاء المولى بالحق، لأنه له السلطة على العبد، و قصده الحق، لكن الكتاب المعطى، كان مصاحباً للباطل، و الحاصل أن هذا القرآن حق فاعلا و فعلا، أو المراد أن الإنزال كان بالحق، و الوصول إلى الرسول كان بالحق، فلم يطرئه تحريف فى البين، و إن شئت قلت إن الملحوظ إما جهتا الفاعل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٥

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)

و الفعل، أو الفاعل و القابل و ما أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا مُبَشِّرًا لِمَنْ آمَنَ، و أطاع بالثواب وَ نَذِيرًا لِمَنْ كَفَرَ، أو عصى بالعقاب.

[١٠٧] وَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ فى نيف و عشرين سنة، فلم ننزله جملة واحدة، و إنما تدريجاً منجماً، من فرق بمعنى التفريق، و الإرسال جزءاً فجزءاً لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ أى على تودة، و فى أزمنة مختلفة، من مكث بمعنى لبث، فقد جاء القرآن ليربى الأمة تربية إسلامية، و ذلك يحتاج إلى التدريج، و أن ينزل بكل مناسبة جزء منه، ليكون تحريكاً، و ليس كالكتب المدونة، كتاباً يقرأه الإنسان ليعلم ما فيه - فحسب - أو فكرة يستعرضها الشخص، و قد أدى القرآن مفعوله، بهذه الحكمة المفارقة له أزماناً و مناسبات، حتى ربي

الجيل و اندفع، و باندفاع أولئك يندفع المسلمون إلى الأبد وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا عَلَى حَسْبِ الْحَاجَّةِ، و وقوع الحوادث، لا جملة و مجموعا، و كان لفظ «التنزيل» حيث أنه من باب التفعيل دال على التكثير فى النزول الملازم للتدرج.

[١٠٨] و إذ تبين حقيقة القرآن، و كونه منزلا من عند الله بالحق، و فيه الحق، فمن شاء فليؤمن، و من شاء فليكفر، فقد ثبتت الحجة من جانب الله تعالى، و لم يبق إلا الإطاعة أو العصيان قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْكَافِرِ آمَنُوا بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا فَإِنَّا قَدْ تَمَّ مِنْ جَانِبِنَا الْأَمْرُ، و بقى فى جانبكم، فمن أراد الخير فليؤمن، و من أراد الشر فلا يؤمن،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٦

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)

أما العلماء فإنهم يؤمنون- طبعاً- لما يرون فيه من الحق إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَى أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عِلْمَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ الْمَنْزَلَةَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِهِ أَى مِنْ قَبْلِ نَزُولِ هَذَا الْقُرْآنِ، كعبد الله بن سلام وغيره، من اليهود و النصارى إِذَا يُتْلَى أَى يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ أَى يَسْقُطُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، و أذقان جمع ذقن، و هو منتهى الوجه، و إنما خص الذقن لأن من سجد كان أقرب شىء منه إلى الأرض ذقنه سَجَدًا جمع ساجد، و ذلك لأن الإنسان الذى يخِر على الأرض للسجود، إِذَا لَمْ يَتِمَّا لَكَ نَفْسَهُ، وقع ذقنه أولاً على الأرض، فليس المراد أنهم يجعلون أذقانهم فقط.

[١٠٩] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا تَنْزِيهَا لَهُ عَنِ الْبَاطِلِ، فما أرسله من القرآن حق، لا يشوبه شىء إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا «إِنْ» مخففة من الثقيلة، أَى أَنَّهُ كَانَ وَعْدُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ أَنْزَالَ الْكِتَابَ لِمَفْعُولًا- يفعل - فلا خلف فيه، و ها نحن نرى الوعد قد أنجز فآمنا و صدقنا.

[١١٠] إِنْهُمْ يَغْلِبُهُمُ التَّأَثُّرُ، حتى أنهم ييكون من شدة التأثير الحاصل لهم من استماع القرآن وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ فهُمْ يَسْقُطُونَ عَلَى الْأَذْقَانِ، و يسجدون و ييكون من شدة ما خالَج نفوسهم من التأثير بالقرآن و بعظمة الله سبحانه وَ يَزِيدُهُمْ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَ الْعِبَرِ خُشُوعًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٧

[سورة الإسراء (١٧): آية ١١٠]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَ لَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَ لَا تَخَافُوا بِهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) عَلَى خُشُوعِهِمْ بِأَصْلِ تَلَاوَتِهِ.

[١١١] و إذ قد تمت الحجة عليهم، فلم يبق عند المشركين، إلا أن يقولوا «و ما الرحمن»؟ فقد كانوا يكرهون هذا الاسم، بلا حجة، أو بتعليل أنهم يناقشون فى أصل الإله، و فى وحدته، و فى أن يسمى رحمانا؟ و لذا يؤمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَحَاجَّهُمْ فِي هَذَا أَيْضًا، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّحْمَنُ، فهُمَا لَفْظَانِ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، فَمَا هَذَا اللَّجَاجُ وَ السَّخَافَةُ؟

قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ فَقُولُوا يَا اللَّهُ، أَوْ قُولُوا يَا رَحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَكِلَاهُمَا تعبير عن الذات الواحد المستجمع لجميع صفات الكمال، و القادر و الخالق و الرازق و الحى و القيوم، و غيرها من سائر أسمائه و هى علاماته التى تشير إليه لذلك الذات، سواء أشرتم إليه بيا الله، أو بيا رحمن، و ذكر بعض فى شأن نزول هذه الآية

أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَانَ سَاجِدًا ذَاتَ لَيْلَةٍ بِمَكَّةَ يَدْعُوا «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ» فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ هَذَا يَزْعَمُ أَنَّ لَهُ إِلَهًا وَاحِدًا، وَ هُوَ يَدْعُو مِثْنِي مِثْنِي، فنزلت هذه الآية

، و قد كان المشركون يؤذون الرسول إذا قام للصلاة، و بهذه المناسبة جاء الأمر بالتوسط فى الصلاة،

فقد روى عن الصادق عليه السلام أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى فَجْهَرًا فِي صَلَاتِهِ، سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ، فَشْتَمَوْهُ وَآذَوْهُ، فَأَمَرَ سَبْحَانَهُ بِتَرْكِ الْجَهْرِ، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ
«١» وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا فَإِنَّ الْإِخْفَاتَ أَبْعَدُ عَنِ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٨ ص ٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٨

[سورة الإسراء (١٧): آية ١١١]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا (١١١)
الخشوع، إذ أن الصوت المتوسط، يدخل السمع، فيكون تلقى القلب له أكثر و يكون للخشوع أقرب وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ الْجَهْرَ وَ الْإِخْفَاتَ، وَ «ذَلِكَ» إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَبِيلًا،
وَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَخَافَةُ مَا دُونَ سَمْعِكَ، وَ الْجَهْرُ أَنْ تَرْفَعَ صَوْتَكَ شَدِيدًا «١»

[١١٢] وَ آخِرًا تَلْخُصُ الْعَقِيدَةَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَقُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ الْحَمْدَ سِوَاهُ، إِذْ هُوَ الْإِلَهُ الْمَتَفَرِّدُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا كَمَا يَقُولُ الْيَهُودُ عَزِيزِ بْنِ اللَّهِ، وَ النَّصَارَى الْمَسِيحِ بْنِ اللَّهِ، وَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ كَمَا يَجْعَلُ الْمُشْرِكُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي مَلِكِهِ وَ سُلْطَانِهِ، وَ لَعَلَّ الْإِيْتَانَ بِقَوْلِهِ «فِي الْمُلْكِ» لِلْإِشَارَةِ إِلَى رَدِّ دَعْوَى الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ، فَمَاذَا صَنَعَ شَرِيكُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ؟ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ يَلِي شُؤْنَهُ وَ يَنْصُرُهُ سِوَاهُ كَانَ إِلَهًا، أَوْ مُحَالِفًا، وَ قَوْلُهُ مِنَ الذُّلِّ لِأَنَّ الشَّخْصَ قَدْ يَتَّخِذُ وَلِيًّا مِنْ ذَلَّةٍ وَ عِجْزٍ فِي نَفْسِهِ يَرِيدُ أَنْ يَتَّقَى بِذَلِكَ الْوَلِيِّ، أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَيْسَ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَ إِنَّمَا لَهُ أَوْلِيَاءُ مِنَ الْمُتَّقِينَ تَفْضُلٌ عَلَيْهِمْ بَوْلَايَتِهِمْ جُودًا وَ كَرَمًا وَ كَبْرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ تَكْبِيرًا لِأَنَّهَا بَشَأُهُ فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ وَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ، وَ هَكَذَا تَخْتَمُ السُّورَةُ بِالتَّكْبِيرِ، كَمَا بَدَأَتْ بِالتَّسْبِيحِ.

(١) الكافي: ج ٣ ص ٣١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٥٩

١٨ سورة الكهف مكيّة / آياتها (١١١)

سميت السورة بهذا الاسم، لأن فيها لفظه «الكهف» وقصة أصحاب الكهف، والكهف هو مغارة الجبل، ضيق فمها، واسع داخلها، وهذه السورة كسائر السور المكيّة، تعالج قضية العقيدة، في أسلوب قصصي رائع، وليست القصص القرآنية من نسج الخيال، وإنما قصص حقيقية، اقتبست منها محل الحاجة، لتبني الكيان البشري، بما يوفر له السعادة والخير، و إذ ختمت سورة بنى إسرائيل بتحميد الله سبحانه، ابتدأت هذه السورة بتحميده أيضا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَسْتَعِينُ بِاسْمِكَ يَا اللَّهُ، فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ إِذَا وَضِعَ عَلَى شَيْءٍ أَمِنَ كُلَّ الْأَخْطَارِ، كَيْفَ لَا، وَ قَدْ ارْتَبَطَ بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَ السَّمَاءِ، وَ الْحَافِظِ الْقَائِمِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الَّذِي يَتَفَضَّلُ بِالرَّحْمِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ، (وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) «١» وَ لَيْسَ الرَّحْمُ فِي اللَّهِ سَبْحَانَهُ، بِمَعْنَاهُ فِي الْبَشَرِ، إِذْ لَا تَأْتُرُّ لَهُ سَبْحَانَهُ، وَ إِنَّمَا بِمَعْنَى التَّفَضُّلِ، كَمَا قَالُوا: «خَذِ الْغَايَاتِ وَ اتْرُكِ الْمَبَادِي».

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٠

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)

[٢] الْحَمْدُ لِلَّهِ أى أن جنس الحمد له سبحانه، إذ جميع المحامد راجعة إليه، حتى أن الغير لو تفضل على الإنسان بشيء، فإن فضله ذلك فى طول أفضال الله سبحانه الذى أنزل على عبده محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب أى القرآن ولم يجعل له أى للكتاب عوجاً أى اعوجاجاً، بأن يكون بعض مناهجه معوجاً، أو بعض ما أخبر به من أصول المبدأ والمعاد والقصاص مخالفة للواقع.

[٣] فى حال كون الكتاب قَيِّمًا معتدلاً مستقيماً، وإنما أنزل الكتاب لِيُنذِرَ الرسول الناس بَأْسًا شَدِيدًا أى عذاباً شديداً ونكالا مِنْ لَدُنْهُ من عنده، إن لم يؤمنوا، وركبوا رؤوسهم سادرين فى غيهم، وَيُبَشِّرَ الرسول الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَحَّتْ عقيدتهم يَعْمَلُونَ الأعمال الصَّالِحَاتِ وهى الأعمال التى أمر الله بها، وقد ذكرنا أن ذلك يلزم عدم الإتيان بالمعاصى، فإنه لا يقال لمن اختلط بين الأمرين، أنه يعمل الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا فى الدنيا بالرِّفاه والسلام والصحة وما أشبهه، وفى الآخرة بالثواب والجنة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦١

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣ إلى ٥]

مَا كَيْفَ فِيهِ أَبْدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

[٤] فى حال كون المؤمنين العاملين بالصالحات ما كَيْفَ أى لا يشين باقين فيه فى ذلك الأجر أبداً فإنه لا انقطاع للجنة، ولا زوال لنعيمها.

[٥] وَيُنذِرَ الرسول- بصورة خاصة، بعد ذلك الإنذار العام لكل من خالف- الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وهم اليهود والنصارى، فإنهم ما دام هذا الاعتقاد عندهم، منذرين، مهددين فى الدنيا بالخزى، وفى الآخرة بالعذاب، فإن الاختلافات الشديدة بين اليهود والنصارى من جانب، وبين طوائف كل دين منهما مدهش جداً، حتى أن الاختلاف بين المسلمين وبينهما، أو بين طوائف المسلمين، ليس عشر معشار ذلك، ولذلك تاريخ وتفصيل نكتفى منه بهذه الجملة، وهو أن «سلامة موسى» يذكر فى كتاب «حريه الفكر» أن خصاماً وقع بين طائفتين مسيحيتين فى «ألمانيا» زهقت- من جرائه- أربعة عشر مليون من مجموع السكان الذين هم ثمانية عشر مليوناً!! [٦] مَا لَهُمْ أى لهؤلاء الذين قالوا اتخذ الله ولداً به قولهم هذا مِنْ عِلْمٍ وإنما يقولون ذلك تقليداً ولا لِآبَائِهِمْ علم بذلك، وإنما قالوه اعتباطاً كَبُرَتْ كَلِمَةً أى عظمت الكلمة كلمة تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ أى أفواه هؤلاء الكفار، فقد قالوها وأظروها مع ما فيها من الإساءة والقبح، و أفواه جمع «فوه» بمعنى الفم، والكلمة حيث تطلق على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦ إلى ٧]

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) المكتوب والملفوظ، وما أشبههما، أتى بقيد «من أفواههم» إِنْ يَقُولُونَ أى ما يقول هؤلاء إِلَّا كَذِبًا وافتراء على الله سبحانه، فهو سبحانه منزه عن الولد.

[٧] ولقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يغتم غما شديداً حيث يرى هؤلاء منحرفين بهذه المثابه، فسلاه سبحانه أن لا يغتم

لهم، فإن انحرافهم لا يضر إلا أنفسهم، أما الرسول فقد أعذر في الهداية والإرشاد فَلَعَلَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ باخِعَ أَى مهلك نَفْسَكَ غَمًا و حزنًا عَلَى آثَارِهِمْ أَى ما يظهر منهم من الأثر، فإن الكافر يظهر منه آثار الكفر، كما أن المؤمن يظهر منه آثار الإيمان إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ أَى بالقرآن، فإنه حديث الله سبحانه لهداية البشر أَسْفًا تمييزًا لبخع نفسك.

[٨] إن بدء الأمر من الله و أن إليه المصير، و قد جعل سبحانه أمور الدنيا ليختبر الصالح من الطالح، فليس على الداعى أن يهتم هذا الاهتمام المؤدى إلى الهلاك، إذا رأى إعراض الناس، فإن الناس لا بد فيهم من تغره الحياة، فما إعراضهم بعجيب، و هذا كما تقول: لا تغتم أيها المدير، فقد جعلت المدرسة للاختبار فإذا رأيت سقوط بعض الطلاب، فإنه أمر طبيعي إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ، مِنْ جِمَادٍ وَ حَيَوَانٍ وَ إِنْسَانٍ زِينَةً لَهَا أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨ الى ٩]

وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)

للأرض، و بذلك يمكن اختبار الناس، إذ لو لا المغريات، لم يكن الاختبار، لِنَبَلُوهُمْ أَى نمتحنهم- لا لأن نعلم، بل لأن يظهر باطن كل أحد، إذ هو سبحانه عالم بهم، منذ الأزل- أَيْهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا مِنَ الْآخِرِ، وَ أَيُّهُمْ أَسْوَأُ عَمَلًا.

[٩] منا المبدأ و إلينا المصير وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ أَى سوف نجعل ما عَلَيْهَا أَى ما على الأرض من الزينة صَعِيدًا الصعيد ظهر الأرض جُرُزًا و هى الأرض التى لا نبات لها، يقال جرزت الأرض إذا جدبت و ييست، أى أن ما على الأرض يهشم و يفنى، حتى تبقى أرضا جرزا لا شىء عليها، فكان التقدير «لجاعلون ما على الأرض معدوما، حتى تصبح صعيدا جرزا».

[١٠] و إذا كانت الأرض محللا لاختبار الناس، فمن الأفضل أن يؤمن الإنسان حتى يسعد، كما سعد أصحاب الكهف حتى أطاعوا، و خرجوا عن الامتحان، فائزين ناجحين أَمْ حَسِبْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَى هل ظننت أن أصحاب الكهف و هم جماعة فروا من ملكهم الكافر، ليعبدوا الله وحده، ثم خافوا، فالتجئوا إلى كهف- أى مغارة فى الجبل- و ناموا و شاء الله أن يطيل نومهم مئات السنين، ثم أيقظهم، حتى يرى للناس و لأنفسهم كون الله قادر على كل شىء، و أن قصة البعث حق و الرقيم و هو اللوح الذى رقم فيه أحوال هؤلاء كانوا مِنْ آيَاتِنَا الدالة على قدرتنا عَجَبًا؟ كلا ليس ذلك بعجب من قدره

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٤

[سورة الكهف (١٨): آية ١٠]

إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)

الله سبحانه، فخلق السماوات و الأرض و ما فيهما أعجب، و كان الإتيان بالاستفهام الاستنكارى، لبيان أن الله سبحانه كثير أمثال هذه الآية، فليست قصتهم عجيبة متفردة،

و قد ورد فى سبب نزول هذه السورة، أن جماعة من كفار مكة، أرسلوا رسولين إلى اليهود، ليسألان منهم عن أحوال الرسول، هل هو صادق أم لا فلما جاء إلى اليهود و استفسروهم أمره، قال لهما أحبار اليهود: أسألوه عن ثلاث مسائل، فإن أخبركم باثنتين، و لم يخبر بالثالثة فهو نبي مرسل و إن لم يفعل فهو رجل مشغول أسألوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب و أسألوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان أمره؟ و أسألوه عن الروح ما هو؟

و جاء الرجلان أهل مكة و أخبراهم بالخبر، و جاء إلى الرسول الكفار ليسألونه فنزلت هذه السورة تخبرهم عن أصحاب أهل الكهف، و ذى القرنين

، أما بالنسبة إلى الروح، فنزلت قوله سبحانه (وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) «١» [١١] اذكر يا رسول الله إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ «أوى» أى التجأ و اتخذ المأوى و «الفتية» جمع فتى، أى الشبان و «الكهف» المغارة فى الجبل

إذا كانت وسبعه، وإلا فهو «غار» وإنما أووا إلى الكهف هربا من الملك «دقيانوس» بدینهم، لئلا يقتلهم فقالوا حين أووا رَبَّنَا آتِنَا أَىْ أَعْطَا مِن لَّدُنْكَ مِن عِنْدِكَ رَحْمَةً نَّعْمَةٌ وَفَضْلًا نُنْجُوا بِهَا مِن قَوْمِنَا

(١) الإسراء: ٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١١ الى ١٢]

فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا أَى اجْعَلْ لَنَا فِي أَمْرِنَا مَا نَصِيبُ الرِّشْدِ.

[١٢] ولما التجأوا إلى الكهف أخذهم النوم فناموا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ أَى أُنْمَاهُمْ، فَإِن الضرب على الأذن كناية عن ذلك، لأن الإنسان إذا نام لا يسمع شيئاً، فكأنه ضرب على أذنه بحائل يمنع عن السماع، أما نوم العين، فليس مناطاً، إذ كثيراً ما تنام العين ولا تنام الأذن لو عى القلب في الكهف أَى حال كونهم في الكهف سِنِينَ عِدَدًا سِنِينَ تعد عدا، إذ كانت ذات عدد، وهذا لإفادة الكثرة؛ إذ القلة لا تحتاج إلى العد.

[١٣] ثُمَّ بَعْدَ النُّومِ الطَّوِيلِ بَعَثْنَاهُمْ مِنْ رَقَدَتِهِمْ، وَأَيْقَضْنَاهُمْ مِنْ نَوْمِهِمْ لِنَعْلَمَ أَى لِيُظْهَرَ مَعْلُومِنَا فِي الْخَارِجِ، فَإِن الْعِلْمُ ذُو إِضَافَةٍ بَيْنَ الصِّفَةِ وَبَيْنَ الْمَعْلُومِ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ صِفَةً، لَمْ يَكُنْ عِلْمًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا خَارِجِيًّا لَمْ يَكُنْ عِلْمُهُ بِالْمَعْلُومِ الْخَارِجِيَّ أَى الْحِزْبَيْنِ أَى الْفَتْنَيْنِ، فَتَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِتْنَةُ الْكَافِرِينَ - كما ذكر بعض -.

أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا أَى أَحْسَنَ إِحْصَاءٍ لِمُدَّةِ لَبْثِ أَوْلَئِكَ فِي الْكَهْفِ، «مَا» فِي «لَمَّا لَبِثُوا» مَصْدَرِيَّةٌ زَمَانِيَّةٌ أَى لِمُدَّةِ لَبْثِهِمْ، ثُمَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْحِزْبَيْنِ، الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَافِرِينَ، تَبَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ كَانَ نِزَاعٌ وَخِصَامٌ فِي مَدَّةِ لَبْثِهِمْ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وَلِمَاذَا كَانَ ذَلِكَ؟ وَ مِنْ كَانَ الْطَّرْفَانِ؟ ذَلِكَ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا، وَإِن كَانَ الْمُرَادُ بِالْحِزْبَيْنِ الْفَتْنَيْنِ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٣ الى ١٤]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)

نفس أصحاب الكهف، كما أشار إليه سبحانه في آية أخرى، «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا لَهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ» كان المقصود أن يعلموا هم بأنفسهم مدة لبثهم، وهذا أقرب إلى النظر، فقد كان هناك بعث لهم عن النوم و كان اطلاع الناس عليهم، فكان بعثهم من النوم، ليكون علمهم بقدره الله سبحانه عياناً، و اطلاع الناس عليهم ليعلم الناس ذلك، فمآل الآية «بعثناهم ليعلموا مدة نومهم» فإن كون بعضهم أحصى من بعض، فرع العلم، ولذا جعل كناية عنه وهذا كما يقول المعلم: أعطيناكم - أيها التلاميذ - هذا الكتاب لتعرف أيكم أكثر ذكاء، فإن المعلم يعلم ذلك، وإنما يريد أن يظهره لأنفسهم.

[١٤] و بعد الإشارة الإجمالية إلى القصة يأتي البيان بشيء من التفصيل نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ كَانَ التَّصْدِيرُ بِلَفْظِ «نَحْنُ» لِإِفَادَةِ صِدْقِ الْقِصَّةِ وَ مِطَابَقَتِهَا لِلْوَاقِعِ فِي الْمَزَايَا وَ الْخُصُوصِيَّاتِ، فَإِن الْقِصَصَ كَثِيرًا مَا يَزَادُ فِيهَا وَ يَنْقُصُ نَبَأَهُمْ أَى خَبْرَهُمْ بِالْحَقِّ بِالصِّدْقِ وَ الصِّحَّةِ، بِلَا خِلَافٍ لِلْوَاقِعِ إِنَّهُمْ أَى إِن أَصْحَابَ الْكَهْفِ فِتْيَةٌ شَبَابٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى أَى بِصِيرَةٍ فِي الدِّينِ، فَإِن الْهُدَايَةَ وَ الضَّلَالَةَ، إِذَا ابْتَدَأَ بِهَا الْإِنْسَانُ زَادَتْ تَدْرِيجًا، لَمَّا يَجْمَعُ الذَّهْنَ لَهَا مِنَ الشَّوَاهِدِ وَ الْمَقُومَاتِ.

[١٥] وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَى شَدَدْنَا عَلَيْهَا كَأَنَّ الْقَلْبَ إِذَا لَمْ يَرْبُطْ عَلَيْهِ يَكُونُ مُضْطَرِّبًا مِتَّفَكِّكًا، كَالْأَشْيَاءِ الرَّخْوَةِ، فَإِذَا شَدَّ عَلَيْهِ بِرِبَاطِ الْإِيمَانِ، صَارَ صَلْدًا قَوِيًّا إِذْ قَامُوا أَى اسْتَقَامُوا، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٥ إلى ١٦]

هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَرَّتْهُمُومٌ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦)

ذلك، لأن القائم يستعد للحركة، وكذلك من قوى عزمه واستقام فقالوا ربنا رب السماوات والأرض فهو إلهنا، وخالقنا، لا الأصنام التي يعبدها الملك «دقيانوس» وأهل المملكة لن ندعوا من دونه إلهاً أي لن نعترف بإله غيره، ولا نعبد إلهاً سواه لقد قلنا إذا دعونا غير إله السماء والأرض شططاً أي كذباً وباطلاً.

[١٦] ثم تذكروا فيما بينهم أحوال أهل المملكة وأنهم كيف ضلوا السبيل بدون حجة قائلين هؤلاء قومنا جماعتنا من أهل المملكة اتخذوا من دونه أي من دون الله آلهة من الأصنام يعبدونها لو لا يأتون عليهم أي على فعل أنفسهم، أو على تلك الآلهة، وقد أجريت مجرى العقلاء، تماشياً مع منطق القوم، و«لو لا» بمعنى «هلاً» للزجر، أي إن كانوا صادقين، فلما ذا لا يأتون لصحة هؤلاء الآلهة بسُلطان أي دليل بَيِّن واضح، فما الدليل على كون هذه الأصنام آلهة؟ وإذ لا دليل لهم فمن أظلم أكثر ظلماً وتعدياً ممن افترى على الله كذباً نسب إليه ما ليس منه، فإن غالب عبادة الأصنام ينسبون تعدد الآلهة إليه سبحانه.

[١٧] ثم قال بعض أصحاب الكهف لبعض واذ اعتزلتم القوم، وتجنبتم فعلتهم، وعبادتهم للأصنام وما يعبدون إلا الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٨

[سورة الكهف (١٨): آية ١٧]

وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ هُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧)

بمعنى تركتم معبوداتهم التي يعبدونها إلا الله الذي تعبدونه أنتم، كما يعبد أولئك فأووا أي صيروا إلى الكهف وهي مغارة الجبل «أفسوس» قرب «دمشق الشام» ينشرو لكم ربكم من رحمته أي يبسط لكم ربكم بعض رحمته التي يرحمكم بها، وينجيكم من قومكم بسببها ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً الرفق هو اليسر واللطف، أي يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه، بأن يهيئ لكم يسراً ولطفاً ورفقاً.

[١٨] وقد ذهب الجميع إلى الكهف، وكان معهم راعي مع كلبه، وقد تعبوا من المشى، فناموا لكي يستريحوا، وكان باب الغار نحو القطب الشمالي، حتى أن الشمس لا تؤذيهم بحرّها، وإن دخلت عليهم أشعتها وترى الشمس أي لو كنت هناك لرأيت الشمس إذا طلعت من المشرق تزاوَر أي تميل عن باب كهفهم المتجه نحو الشمال ذات اليمين أي إلى جهة يمين الكهف - لمن أراد الخروج منه - فإن الإنسان إذا وقف على باب الكهف متجهاً نحو الشمال يكون يمينه طرف المشرق، وشماله طرف المغرب - عكس الواقف تجاه القبلة - وإذا غربت أي أرادت الغروب تقرضهم من القرض بمعنى القطع، يقال قرضت الموضع إذا قطعته وجاوزته، أي تجاوز الشمس كهفهم ذات الشمال أي جهة الشمال فهي تدور

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٦٩

[سورة الكهف (١٨): آية ١٨]

وَتَحَسَّبُ لَهُمْ آيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيَتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُغْبًا (١٨)

من خلفهم، إذ الشمس تدور في جانب الجنوب من «الشام» وهم في فجوة أي فضاء متسع منه أي من الكهف، فقد كانت له ساحة

وسيعه، ناموا هناك، فلم يكن تصيبهم الشمس ليتأذوا بحرّها و تلبّيهم أشعتها ذلك الوضع لهم في الكهف لا تؤذيهم الشمس، و هم نيام مستريحون مدى السنين الطوال من آيات الله حججه و براهينه، فإن ذلك يدل على وجوده و علمه و قدرته و سائر صفاته من يهد الله إلى الحق، بأن لطف به الألفاظ الخفية- بعد أن سلك السبيل الذي أراه سبحانه، لكل مؤمن و كافر- فهو المَهْتَدِ الذي رشد، و أصاب الخير و السعادة و من يُضِلُّ بترك الألفاظ الخفية بالنسبة إليه، بعد أن أعرض عن الهداية فلن تجد له يا رسول الله ولياً مُرْشِداً من يتولى شؤونه، و يرشده إلى الحق، إذ لا مرشد إلا الله سبحانه.

[١٩] وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا لَوْ رَأَيْتَهُمْ هُنَاكَ فِي الْكَهْفِ، وَ هُمْ نِيَامٌ لظننتهم يقظين منتبهين، قيل: لأن عيونهم كانت مفتوحة و هم رُقُودٌ و الحال أنهم كانوا نائمين، فإن الإنسان كثيرا ما تبقى عينه مفتوحة عند النوم، إذا أخذه المنام قبل أن يغمض عينه- لشدة تعب أو ما أشبه- وَ نُقِلُّهُمْ فِي نَوْمِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ أَيْ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ وَ جِهَةِ الشَّمَالِ، حتى لا تأكل الأرض أبدانهم، فإن الشيء إذا بقى مدة طويلة على الأرض، انقلب ترابا، و قد طال نوم هؤلاء مئات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٠

[سورة الكهف (١٨): آية ١٩]

وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفَ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا (١٩)

السنين، فلو لم يكن يقبلهم الله سبحانه، لما سلمت جنوبهم و ظهورهم الملصقة بالأرض وَ كَلَّبُهُمْ فَإِن رَاعِيَا تَبِعَهُمْ وَ مَعَهُ كَلْبُهُ، و لما ذهب القوم إلى الكهف، بقى الكلب ببابه يحرسهم بأسط ذراعينه هو أن يليقهما على الأرض مسوطتين كافتراش السبع يديه بالوصيد أى بفناء الكهف، فى منظر الحارس، فإن الحيوانات تخاف الكلب، فلا تتقدم إليهم بسوء، و كان لهم من الهيبة، بحيث، لو اطلعت عليهم أى السامع لو لبتت منهم فراراً أى لأعرضت عنهم موليا فارا و كملتت منهم رعباً أى امتلأ قلبك من رعبهم، و الخوف الذى يدخل قلبك من منظرهم، فإن الإنسان، إذا رأى جماعة نائمين فى كهف خارج المدينة، حيث لا أحد و لا صوت، و كلب فى باب الكهف، دخلت قلبه الهواجس، و أخذ بالفرار لئلا يصيبه أذى من جانبهم، فيحتمل أنهم لصوص، فيقومون ليؤذوه أو أموات فيراه أحد عندهم، و يخبر السلطة، فيسأل عن شأنهم و يتلى بهم أو سحرة اجتمعوا هنا بهذه الكيفية، فيسحروه، أو غير ذلك؟

[٢٠] إِنْهُمْ نَامُوا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنَامُوا ثَلَاثَمِائَةَ سَنِينَ، أَوْ أَكْثَرَ- بقدره الله تعالى و إرادته- ثم شاءت إرادته أن يوقظهم من رقدتهم الطويلة، و قد مات الملك «دقيانوس» و تبدلت الأقوام و البلاد وَ كَذَلِكَ أَيْ كَمَا فَعَلْنَا لَهُمْ تِلْكَ الْخَوَارِقَ بَعَثْنَاهُمْ أَيْ أَيْقَظْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ لِيَسْأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَ الْمِرَادُ وَصُولُهُمْ إِلَى نَتِيجَةِ التَّسْأَلِ، وَ هُوَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧١

علمهم بمدى نومهم، من باب ذكر السبب، و إرادة المسبب، فإن القائل ينتهى إلى معرفة المدد مما يزيدهم علما على علم، و إيمانا على إيمان قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ أَحَدُ الْفَتِيَّةِ، يسأل أصدقائه كَمْ لَبِثْتُمْ فى نومكم قَالُوا فى الجواب لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا وَ قَدْ نَامُوا غَدْوَةً، وَ اسْتَيْقَظُوا فى آخر النهار، و لذا لما نظروا إلى الشمس و هى فى وقت العصر، قالوا «يوما» باعتبار طول النهار «أو بعض يوم» باعتبار استثناء الباقي من النهار، ثم تركوا هذا الموضوع الذى لا يهمهم، و إن أحسوا بنوم طويل، و جوع شديد، و أرجعوا علم ذلك إلى الله قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ أَيْ بِمَدَّةِ لَبِثِكُمْ، وَ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ أَنَّهُ احْتَمَلُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ نَامُوا يَوْمِينَ أَوْ أَكْثَرَ فَابْعَثُوا أَيْ أَرْسَلُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ الْوَرِقِ اسْمُ جِنْسٍ لِلدَّرْهِمِ، وَ لَذَا وَصَفْتُ بِ «هذه» مؤنثا، باعتبار التعدد من الدرهم إلى المدينة أى البلدة التى خرجوا منها فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَيْ الْحَوَانِيتِ وَ الْمَحَلَّاتِ أَزْكَى أَطْهَرَ وَ أَنْظَفَ وَ أَطْيَبَ طَعَامًا لِيَشْتَرِيَ مِنْهَا، فَلْيَأْتِكُمْ أَيْ ذَلِكَ الْمَبْعُوثُ بِرِزْقٍ مِنْهُ أَيْ مِنْ ذَلِكَ الْأَزْكَى وَ لِيَتَلَطَّفَ قَالُوا إِنْ التَّاءُ فى هذه الكلمة، نصف القرآن الحكيم بحسب الحروف، و إن كان نصفه بحسب الأجزاء، ما يأتى من قوله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَمَلَتِ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ وَاللَّهُ حَقٌّ وَ
أَنَّ السَّاعِيَةَ لَا- رَبِّبَ فِيهَا إِذِ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَعَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ
مَسْجِدًا (٢١)

(قال ألم أقل لك) «١» والمعنى أن يعامل البائع بلطف و دقة، و لا يماكس في الشراء، حتى لا ينجر الأمر إلى معرفته، ثم يؤخذ إلى الملك، و تقع في المحذور الذي فرنا منه و لا يُشعِرَنَّ بِكُمْ أى لا يخبرن هذا الذاهب لا شراء الطعام عنكم - أيها الرفقة - أحداً من أهل المدينة، فإنهم إن علموا بمكانكم، و شاع خبركم، و وقعتم في المحذور.

[٢١] إِنَّهُمْ أى الملك و من حوله إِنْ يَظْهَرُوا أى يشرفوا و يطلعوا عَلَيْكُمْ و يعرفوا مكانكم يَرْجُمُوكُمْ بالحجارة جزاء لما فعلتم من ترك آلهتهم، و اختياركم الإيمان بالله أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ أى يردوكم إلى دينكم السابق، و هو عبادة الأصنام و لَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أى إذا فعلتم ذلك الرجوع إلى دينهم أَيْدًا فَإِنِ الْإِنْسَانُ إِذَا كَفَرَ، و بقى على كفره، حتى مات، خلد في النار، و هذا ما جرت العادة بأن الإنسان إذا دخل في دين، فإنه يدخل فيه قلباً و قالبا، فلا يقال: أنه كان بإمكانهم التقيّة؟

[٢٢] لكن الله سبحانه شاء أن يطلع عليهم الملك و حاشيته فقد جاء أحد ليخبر الملك «دقيانوس» بأنهم هربوا، فأمر أن يسد عليهم باب الكهف، و يدعوهم كما هم في الكهف، ليكون قبرا لهم، و قد كتب

(١) الكهف: ٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٣

بعض العاملين في بناء الباب لوحا فيه أسماءهم، و سائر خصوصياتهم، و مضى زمان حتى أراد الله سبحانه، إعلام أمرهم، إذ هدم الحائط، و تيقضوا، و جاء أحدهم يشتري الطعام، و إذا به يرى مدينة جديدة، و لما أراد الاشتراء، تخالف هو و البائع، مما يوجب رفع أمرهما إلى الملك و كَذَلِكَ أى كما أنماهم، و أيقظناهم من نومهم - بتلك الكيفية العجيبة - أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ يقال: أعثر زيد على عمر الناس، أى سبب اطلاعهم عليه، يعنى أعلمنا الناس بهم و بمكانهم - فقد كان الملك مؤمنا - فلما أخبر بالخبر جاء إلى الكهف ليحقق عن القضية لِجَمَلَتِ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ وَاللَّهُ حَقٌّ فَإِنَّهُ لَوْ لَا- بعث الله إياهم، لم يكن من الطبيعي هذا النوم الطويل يتلوه البعث و اليقظة و أَنَّ السَّاعِيَةَ أى يوم القيامة الذى تبعث فيه الأموات لا- رَبِّبَ فِيهَا أى ليست مجالاً- للريب و الشك، لأن حالهم فى نومهم و انتباههم كحال من يموت ثم يحيى، و لما أن جاء الملك المؤمن و حاشيته، ليعرفوا خبرهم، تقدم ذلك الذى ذهب لاشتراء الطعام، و أخبر إخوانه بخبر المدينة، و أنهم قد ناموا سنين طويلاً، فلم يحب أصدقائه اطلاع الناس عليهم، و أن يكونوا مشهورين فى المدينة، و لذا ناموا و طلبوا من الله سبحانه أن يميتهم، و قبض الله أرواحهم فى الساعة - استجابة لدعائهم - و هناك اختلف من فى حاشية الملك حول كيفية البيان إِذِ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ أى كان العثور حال التنازع، كما هو المعتاد أن يقع التنازع و الاختلاف حول القضايا الخارقة، فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا، كما تبنى المقابر. و قال آخرون: بل ابنوا عليهم مسجدا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٤

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٢]

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَابِعُهُمْ كَالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَالْبَيْتِ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَ ثَامِنُهُمْ كَالْبَيْتِ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)

فَعَالُوا أى قال جماعة من حضر ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا أى ابنوا على فم الكهف بنيانا يسترهم عن الأنظار، كما تبنى القبور رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ و

لعل الاشتباه حول دينهم، وأنهم هل يستحقون بناء المسجد حولهم، أم لا؟ هو الذى أوجب أن يقول بعضهم ابنوا عليهم بنيانا فإن قوله «ربهم أعلم بهم» كاشف عن ذلك قال الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ أَى غلبوا على الآخرين، فى أمر البناء عليهم لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا محلا للعبادة و السجود، وقد بنوا المسجد، ولا زال المسجد إلى هذا اليوم موجودا فى جبل مطل على دمشق، يزوره القاصدون، و يصلون فيه، وهكذا يبقى الله سبحانه كل ما يرتبط به مثالا و عبرة بينما يذهب الطغاة مع الزمن، فلا ترى لهم من باقية.

[٢٣] وقد اختلف الناس حول عدد أصحاب الكهف، لكن ليس مهمة القرآن بيان ذلك، وإنما المهم أخذ العبرة فى القصة، فهم بأى عدد كانوا، كان ذلك دليلا على وجود الله وقدرته، وأنه يعيد الأموات أحياء و إن مرت قرون، و طالت أزمان سَيَقُولُونَ أَى يقول قوم ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمُ التقدير هم ثلاثة، و إنما جاء «السين» لاحتمال أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما أخبر بالخبر، اختلف الأقسام الذين كانوا فى عصره، و يحتمل أن يكون ذلك حكاية حال ماضية، فإذا لوحظ حال الاطلاع عليهم، و البنيان حولهم، كان مستقبل ذلك الحين، تختلف الأقوال فى عددهم- كما هو العادة الجارية فى أمثال هذه القضايا- وَيَقُولُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٥

أى جماعة آخرون هم خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ و كأنه لم يكن قائل بأنهم أربعة خامسهم كلبهم رَجْمًا بِالْغَيْبِ أَى قدفا للقول فى محل غيب عن الحواس تشبيه بمن يقذف الحجارة، فى محل مجهول مظلم، يريد الهدف و يَقُولُونَ أَى جماعة آخرون سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ و إنما دخلت الواو هنا للتفنن الذى هو نوع من أنواع البلاغة- لا واو الثمانية- قال فى مجمع البيان: قيل بأن هذا إخبار من الله تعالى، بأنه سيقع نزاع فى عددهم، ثم وقع ذلك، لما وفد نصارى نجران إلى النبی صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقالت اليعقوبية منهم، كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، و قالت النسطورية كانوا خمسة سادسهم كلبهم، و قال المسلمون، كانوا سبعة و ثامنهم كلبهم «١» قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ و أنهم كم كانوا، و ليس القرآن بحاجة إلى ذكرهم عددا، حتى يوقع نفسه، فى خلاف لا فائدة فيه و ما يَعْلَمُهُمْ أَى لا يعلم عددهم أحد إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ كَالنَّبِيِّ و أوصياؤه فلا تُمارِ أَى لا تجادل يا رسول الله فِيهِمْ أَى فى عددهم، و إنهم كم كانوا إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا سَطْحِيًّا، أَى بدون تعميق و تدقيق، و إنما تذكر لهم القصة، كما أوحيت إليك، إذ لا فائدة فى الجدل، فى هذه الأمور و لَا تَسْتَفْتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)

أى لا- تستخبر فيهم فى أهل الكهف، و مقدار عددهم منهم من أهل الكتاب أحياء فإنك تعلم أكثر منهم ثم لا- شأن فى هذه الخصوصيات، مع منهج الإسلام، حتى يطول الجدل حولها، و يصير موضع السؤال و الاستفتاء؟

[٢٤] و بمناسبة النهى عن الجدل فى الماضى الغائب عن الحواس، يأتى النهى عن التكلم حول المستقبل المجهول، إلا- أن يكل الإنسان أمره، إلى إرادة الله سبحانه، فإن المستقبل أكثر عناصره بيد الله، و إنما أقله بيد الإنسان، فليكف الإنسان عن التكلم فيه، و ليس معنى هذا، أنه لا يعمل و لا يفكر للمستقبل و إنما معناه أن لا يرى المستقبل كله بيده، و لا يحسب الله سبحانه الحساب- كما هو شأن الماديين- و لَا تَقُولَنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ، و إنما «غدا» من باب المثال.

[٢٥] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَى إلا- أن تقول «إن شاء الله» و هذا تعليم من الله سبحانه للعباد، إذا أرادوا أن يقولوا شيئا عن المستقبل يعلقوه بالمشيئة، إثباتا، أو استثناء كأن يقول: أذهب إن شاء الله، أو أذهب إلا أن يشاء الله، و المعنى على الثانى، إلا أن يشاء الله غيره- بأن لا

أذهب- وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ الاستثناء، فإنك إذا ذكرت شيئاً عن المستقبل بدون قوله «إن شاء الله» فإذا تذكرت ذلك، فقل وقت التذكر هذه الكلمة وَقُلْ بعد ما تذكرت إنك نسيت قوله «إن شاء الله» عسى أى لعل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٧

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٥]

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)

أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ الذى نسيت الكلمة معه رَشَدًا أى أدنى إلى الصواب، كأنه حيث لم يذكر المشيئة، صار ذلك المستقبل المنوى فعله، غير لائق بالإتيان، فيرجو منه سبحانه لأحسن منه وأقرب إلى الرشد، فإذا قال «سأفعل لإعطاء زيد» ولم يستثن، ثم تذكر فليقل، «إن شاء الله، و لعله يوفقنى لشيء أحسن من إعطاء زيد»- وهذا المعنى على ما ذكره بعض أهل التفسير، وليس بعيداً من السياق-.

[٢٦] ثم يرجع السياق إلى قصة أصحاب الكهف وَلَبِثُوا أى مكث الفتيه، وهم نيام فى كَهْفِهِمْ والإضافة يكفى فيها أدنى ملابسهُ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ هذه المدة الطويلة بقوا هناك أحياء، نيام، بدون أن يصيبهم شيء وَازدادوا أى زاد بعض الناس على هذه المدة تِسْعًا أى تسع سنين، فقال: إن مدة لبثهم ثلاثمائة و تسع سنوات،

روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال فى تفسير الآيه، عند أهل الكتاب: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية، والله تعالى ذكر السنة القمرية، و التفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون العدد ثلاثمائة و تسع سنين «١»، أقول: و ذلك لأن السنة القمرية فى الغالب «ثلاثمائة و خمس و خمسون» يوماً، و السنة الشمسية «ثلاثمائة و خمس و ستون» يوماً، فكل مائة سنة قمرية، تنقص عن مائة سنة شمسية ألف يوم، و ألف يوم يقرب من ثلاث سنوات، و على هذا فليس المراد من و ازدادوا كون الزيادة، صادرة من أهل الكتاب، بل المراد أنه زيد هذا

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٨

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٦]

قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) المقدار، فإن الإنسان، إذا أراد أن يقول شيئاً بدون أن ينسب القول إلى نفسه، يقول «يقولون كذا» و الفعل يلاحظ- فى يقولون- مجرداً عن الفاعل.

[٢٧] قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا أى بمقدار لبثهم. فى المجمع معناه: إن حاجتك «يا محمد» أهل الكتاب فى ذلك، فقل الله أعلم بما لبثوا، و ذلك أن أهل نجران، قالوا: أما الثلاثمائة، فقد عرفناها، و أما التسع، فلا علم لنا بها ..

و روى أن يهودياً، سأل على ابن أبى طالب عليه السلام عن مدة لبثهم، فأخبر عليه السلام بما فى القرآن، فقال إنما نجد فى كتابنا ثلاثمائة، فقال: بسنى الشمس، و هذا بسنى القمر

«١» له لله غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أى ما غاب عن الحواس فى السماوات و فى الأرض سواء كان من الأمور الماضية أو الأمور المستقبلية، و معنى كونه لله أنه مربوط بالله، وجوداً و علماً و غيرهما، و كأنه إعراض عن تحديد المدة، لأن هذه الخصوصية ليست بمهمة، و إنما المهم اللبث مثل هذه المدة الطويلة، مما يدل على قدرة الله سبحانه على إحياء الأموات أَبْصِرْ بِهِ أى بالله سبحانه و أَسْمِعْ هذان للتعجب، و المعنى التعجب من أنه تعالى يرى كل متبصر، و يسمع كل مسموع، أى ما أبصره و ما أسمعته، و من المعلوم، أن القلب، هو التعجب، و المغزى بيان علمه الواسع، بحيث يرى كل شيء و يسمع كل صوت، و إنما جرى بهذا التعجب هنا تعقيباً على

قوله

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٧٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٢٧ إلى ٢٨]

وَ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا (٢٨)

«لَهُ عَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فَإِنَّ الْعِلْمَ بِكُلِّ غَائِبٍ سَابِقًا وَ مُسْتَقْبَلًا، يَسْتَلْزِمُ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ الْعَامَ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا لَهُمْ أَى لَيْسَ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ جِئَ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ، مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ لَيْسَ لِأَى شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ - ظَرْفًا وَ مَظْرُوفًا عَاقِلًا وَ غَيْرَ عَاقِلٍ - تَغْلِيْبًا مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيِّ فَلَا يَتَوَلَّى شُؤْنَ الْكُونِ سِوَاهُ، فَهُوَ الْمَالِكُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، الْمَتَوَلَّى لِلْإِرَادَةِ وَ لَا يُشْرِكُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ نَفْسِهِ فِي حُكْمِهِ أَوْامِرِهِ وَ نَوَاهِيهِ أَحَدًا فَهُوَ الْحَاكِمُ وَحْدَهُ فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ حَكْمًا تَكْوِينِيًّا أَوْ تَشْرِيعِيًّا، فَإِنَّ لَهُ الْخَلْقَ وَ الْأَمْرَ.

[٢٨] وَ أَتْلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَى أَقْرَأُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ فَهُوَ الْمِيزَانُ لِلْأُمُورِ، لَا مَا يَقُولُهُ النَّاسُ، وَ لَا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ - لَا - مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ فَمَا قَالَهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَقْبَلُ أَى تَغْيِيرٍ أَوْ تَبْدِيلٍ، فَلَيْسَ مِثْلَ كَلِمَاتِ النَّاسِ تَتَبَدَّلُ حَسَبَ الظُّرُوفِ وَ الْمَصَالِحِ وَ الشَّفَاعَةِ وَ التَّوَسُّطِ وَ مَا أَشْبَهَهَا، وَلَنْ تَجِدَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى مُلْتَحَدًا مِنَ التَّحَدِّ بِمَعْنَى مَالٍ، أَى لَا تَجِدُ مَلْجَأً سِوَاهُ تَلْجَأَ إِلَيْهِ وَ تَلْتَحِدُ نَحْوَهُ، فَلَا تَسْتَفْتِ أَحَدًا فِي شَأْنٍ مِنَ الشُّؤْنِ، وَ لَا تَنْظُرُ إِلَى مَا يَقُولُهُ هَذَا أَوْ ذَاكَ، بَلِ اتَّبِعِ الْحَقَّ النَّازِلَ عَلَيْكَ.

[٢٩] وَ إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ مَلْجَأٌ يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، لِيَقِيَهُ مِنْ مَكَارِهِ الدَّهْرِ، وَ يَسْعُدَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَمَا أَجْدَرَ بِالرَّسُولِ، أَنْ يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ عَامِلًا بِهِ، وَ يَصْبِرُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ إِنْ أَصَابَهُ الْكُفَّارُ بِأَذَى وَ اصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٠

نَفْسِكَ أَى احْبَسْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ أَى الصَّبَاحِ وَ الْعَشِيِّ أَى الْمَسَاءِ، لَا شُغْلَ لَهُمْ سِوَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أَى رِضَاهُ، أَمَا بِمَعْنَى يُرِيدُونَ الْوَجْهَ الَّذِي أَمْرُ بِهِ، فَتَكُونُ الْإِضَافَةُ لِلتَّشْرِيفِ، أَوْ تَشْبِيهِهِ بِمَنْ لَهُ وَجْهٌ، وَ يَعْمَلُ الْإِنْسَانُ عَمَلًا - لَوْجْهَهُ، فَتَكُونُ الْإِضَافَةُ مَجَازًا، وَ حَيْثُ إِنَّ الْإِنْسَانَ، إِذَا عَمَلَ عَمَلًا لِأَحَدٍ، لَاحِظٌ أَنَّهُ يُوَاجِهُ الْمَعْمُولَ لَهُ، وَ تَقَعُ عَيْنُهُ فِي وَجْهِهِ، فَيَخْجَلُ مِنْهُ، إِنْ لَمْ يَعْمَلْ حَسَبَ رِضَاهُ، قِيلَ «يَعْمَلُ فَلَانٌ لَوْجَهُ فَلَانٌ» وَ لَا تَعْدُ مِنْ عَدَى يَعْدُو - عَلَى وَزْنِ «غَزَى يَغْزُو» - بِمَعْنَى تَجَاوَزَ، أَى لَا تَتَجَاوَزُ عَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْهُمْ أَى عَنِ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ، وَ «عَيْنَاكَ» فَاعِلٌ «تَعَدُ» فَهُوَ صَيغَةُ تَأْنِيثٍ، لَا صَيغَةُ خُطَابٍ، وَ الْمَعْنَى لَا تَتَجَاوَزُ عَيْنَكَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَى فِي حَالِ كَوْنِكَ مَرِيدًا زِينَةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِذَلِكَ، وَ إِنَّمَا جَاءَ النَّهْيُ إِرْشَادًا لِلْأُمَّةِ، وَ تَقْرِيبًا لِلْعِظْمَاءِ وَ الْأَشْرَافِ، الَّذِينَ أَرَادُوا مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَطْرُدَ الْفُقَرَاءَ - فِي مَنْطِقَتِهِمْ - كِبَالًا، وَ عِمَارًا، وَ خِبَابًا، وَ صَهَبًا، وَ ابْنَ مَسْعُودٍ، وَ أَضْرَابَهُمْ، لِيَدْنُوا مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْأَشْرَافُ قَالُوا: إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْتَمِعَ نَحْنُ بِهِؤُلَاءِ، فَإِذَا أَرَدْتَ اقْتِرَابَنَا فَاطْرُدْ هَؤُلَاءِ مِنْ عِنْدِكَ، وَ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَرِيصًا عَلَى إِيْمَانِ الْأَشْرَافِ، وَ اسْتِقَانِهِمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُوا، لَكِنْ إِنْ طَرَدَ هَؤُلَاءِ وَ تَقَرَّبَ أَوْلِيَاكَ فِي مَنْطِقِ الْإِسْلَامِ، طَرَدَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ تَقَرَّبَ لِزِينَةِ الْحَيَاةِ، وَ مِنْ طَرِيفِ الْأَمْرِ، أَنْ الْأَمْرُ بَقِيَ هَكَذَا إِلَى الْيَوْمِ، فَالْغَالِبُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ - لِقَلَّةِ عِلَاقَتِهِمْ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨١

[سورة الكهف (١٨): آية ٢٩]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَيْغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)

لا- يجمعون مالا- ولا- يابهون بالمظاهر، و يجتمعون حول كبراء أهل الدين. و الأشراف و الأغنياء، قلوبهم غامرة من الإيمان، و ظواهرهم عامرة بالزخارف، ثم يريدون أن يضيفوا إلى أنفسهم شرف قرب الكبير الديني - لمجرد الظاهر أيضا- فيقولون: اطرده أولئك حتى تقترب منك، و ماذا يصنع الكبير هل يطردهم؟ و هم الذين يعطون الحقوق، و لهم الكلمة في حل كثير من المشاكل، أم يطرد الفقراء؟ و كيف يطرد قلبا عامرا، لقلب غامر؟ لكن الواجب أن لا يطرد المؤمن مهما كلف الأمر، اتباعا لقوله سبحانه «و لا تعد عيناك عنهم» و الله الذي بيده الملك يعطيه ما ينتظر من الأشراف، بدون وساطتهم، و هو على كل شيء قدير و لا تُطْعُ يا رسول الله في طرد المؤمنين مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا و إنما أَعْفَلْنَا، لأنه سار مع هواه، فتركناه حتى يتردى في الغفلة و الحرمان، لا يذكر الله سبحانه إلا قليلا- و اتبع هواه فالهوى يقوده- لا- الهدى- و كان أمره قُرْطًا أى سرفا و إفراطا، لا ينتظم بنظام واحد، فإن أهل اليمين يجمع جميع أمورهم نطاق الدين، أما أهل الهوى، فكل يوم مع مهوى، كالعنب الفرط الذى انسلخ من عقوده، فلم يجمعها جامع.

[٣٠] وَقُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ تَطْرُدَ الْفُقَرَاءَ، لِيَقْتَرِبُوا مِنْكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ و الرب رب الجميع، يستوى عنده الفقير و الغنى، فليس لى أن اطرده بعضا لبعض، و إنما أنا مبلغ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ حتى ينال السعادة و مَنْ شَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٢

فَلْيُكْفُرْ فَإِنْ كَفَرَهُ لَا يُضِرُّ اللَّهَ شَيْئًا، و إنما جاز التهديد بلفظ الأمر، لأن المهدد، كالمأمور بإهانة نفسه، أو من باب حمل الضد على الضد إِنَّا أَعْتَدْنَا أى هَيَأْنَا لِلظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و المعاصي، أو ظلموا غيرهم بالتعدى و الإيذاء نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ و اشتمل عليهم بحيث لا- منفذ لهم منها سُرَادِقُهَا السرادق الفسطاط و ما أشبهه، شبه به لهب النار، لأنه مخروطى كالسرادق، و لعل هو المراد بقوله: (ظِلُّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ) «١» أى ثلاثه أضلاع بشكل مخروطى، فقد كانوا فى الحياة بين ثلاث، المؤمنون و الكافرون و المنافقون، فليكونوا هناك كذلك بين ثلاث شعب من النار التى تظللهم و تحيط بهم و إن يَسْتَيْغِيثُوا أى طلبوا الغوث، و العون مما بهم من العطش و الحر يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ هو ما أذيب من النحاس و الرصاص، و شبههما، أو كدردى الزيت المغلى، فيقدم إليهم هذا الماء الذى إذا قربه من فيه، سقط لحم وجهه من شدة الحرّ يَشْوِي الْوُجُوهَ أى ينضجها عند دنوه منها، كما قال سبحانه فى آية أخرى: (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) «٢» بِئْسَ الشَّرَابُ ذلك المهل و ساءت النار مُرْتَفَقًا

(١) المرسلات: ٣١.

(٢) المؤمنون: ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَ حَسَنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

أى مسكنا لهم، مأخوذ من المرافقة، و هى الترافق، كأنها محل ارتفاق و أخذ الرفقة.

[٣١] ذلك لمن ظلم و كفر، أما من آمن، فلننظر ماذا جزاءه؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيمانا صحيحا، بالمعتقدات الحقّة و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحات التى تصلح، مقابل الأعمال الفاسدة التى لا تصلح إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا فلا تذهب أعمالهم ضياعا، و هدرا، إنما يلاقون جزاءهم هنالك، و هذا كالتسليّة فإن كثيرا ممن عمل صالحا هنا لا يلاقى تسبيحا و تحسينا من المجتمع، فلا يضيق بذلك أنه موعود هناك بالجزاء الكافى.

[٣٢] أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْعَامِلُونَ بِالصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ أَي بساتين الخلود، من عدن بالمكان إذا أقام فيه، فإن كل مؤمن يعطى جنانا، لا-جنة واحدة تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ أَي من تحت قصورهم، وهذا أكثر لذة، من أن يكون النهر فوقهم، كما فى بعض الأراضي المنخفضة المجاورة للأنهر المرتفعة يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ أَسَاوِرٌ جَمْعُ سَوَارٍ، وَهُوَ مَا يَحْلَى بِهِ الْيَدَ فِي عَظْمِ الذَّرَاعِ، وَهَنَّاكَ يَكُونُ السَّوَارُ تَحْلِيَةً يَدٍ لِلرَّجُلِ كَالْمَرْأَةِ، وَكَانَتْ الْمَلُوكُ سَابِقًا يَلْبَسُونَ السَّوَارَ، وَلِذَا أَخْبَرَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، بِأَنَّهُ يَلْبَسُ سَوَارَ كَسْرِي، وَكَانَ كَمَا ذَكَرَ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَضْرًا جَمْعَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٤

[سورة الكهف (١٨): آية ٣٢]

وَ أَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢)

أخضر من سُندسٍ هو الديباج الغليظ وَ إِسْتَبْرَقٍ هو الديباج الرقيق، وَ الخشن أكثر هيبة، كما أن اللين أكثر راحة للبدن مُتَكَبِّينَ أَي فى حاله هم متكئون فيها فى تلك الجنات على الأرائك جمع أريكه و هى السرير، أو الذى فى حجلة العروس خاصة نَعَمِ الثَّوَابُ وَ الجزاء، ثوابهم و جزاؤهم وَ حَسَّنْتَ الْأَرَائِكَ مُرْتَفَعًا أَي محل ارتفاق و منزل مرافقه، مقابل حال الظالمين، الذى مرّ قبل أسطر.

[٣٣] و هنا يضرب سبحانه لحال المؤمن، و حال الكافر مثلا، فإن الكافر الذى يبطره النعيم، و ينسى الشكر، و يظن أن الإكرام الذى أكرم به هنا باق له أبدا، و إنه إذا انتقل إلى الدار الآخرة يكون له كل شىء مهيب، لكن نعمته- هنا- لا تدوم، و هناك يؤخذ بما عمل هنا من السيئات، حيث لا ينفع فيه و عظ المؤمن و إرشاده، بل يركب رأسه و يسير فى غلوه وَ أَضْرِبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَي لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان مَثَلًا رَجُلَيْنِ مُؤْمِنٍ وَ كَافِرٍ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ وَ إِنَّمَا أَتَى بِالتَّشْبِيهِ دَلَالَةً لِلزِّيَادَةِ، وَ قَدْ ذَكَرَهُ عَلَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: إِنَّهُ يَرِيدُ رَجُلًا- كَانَ لَهُ بَسْتَانَانِ كَبِيرَانِ كَثِيرَا الثَّمَارِ، وَ كَانَ لَهُ جَارٌ فَقِيرٌ، فَافْتَخَرَ الْغَنَى عَلَى الْفَقِيرِ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا «١»، أقول:

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَ لَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا (٣٤)

و إنما سميت الجنة جنة، لأن الأشجار تجنها و تسترها من أعناب مما يزيد جمال البستان بالعروش وَ حَفَفْنَاهُمَا أَي أطفنا بهما بنخل بأن كانت النخيل دائرة مدار الجنتين، و فى وسطهما الكروم و الأعناب وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا بَيْنَ الْبَسَاتِينَ زَرْعًا فَزَرْعٌ مُتَوَسِّطٌ، وَ نَخِيلٌ مُحِيطَةٌ، وَ أَعْنَابٌ مُحَاطَةٌ، هَكَذَا كَانَ مَنْظَرُ جَنَّتِي ذَلِكَ الرَّجُلِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ، بِهَذِهِ الزِّيْنَةُ وَ الْجَمَالُ.

[٣٤] كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ كَانَتْ فى وقت الازدهار و الثمار آتت أى أعطت و أظهرت أُكُلَهَا أَي ثمرتها و غلتها و الأكل هو ما يؤكل من الثمار وَ لَمْ تَظْلَمْ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ أَي من الأكل شيئاً أى لم تنقص الثمرة، و إنما أتت كاملة، و الإتيان بلفظ الظلم، للمقابلة مع قوله سبحانه «و هو ظالم» فإن الجنة لم تظلم، لكن الإنسان ظلم و فَجَّرْنَا أَي شققنا خِلَالَهُمَا وَ سَطَّحْنَا بَيْنَهُمَا نَهْرًا يُسْقِيهِمَا، فيكون الماء فى وسط الجنة، لسهولة السقى، و هذا يوجب كون الجنة أجمل منظرا و أحسن ثمرًا لسقاية الثمر بالماء الدائم.

[٣٥] وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ هَذَا كَتَبْتِيهِ مَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَدَّدَ أَمْوَالَ أَحَدٍ، يَجْمَلُ الْقَوْلَ وَيَقُولُ «إِنَّ لَهُ مَالًا» يَرِيدُ مَالًا عَظِيمًا فَقَالَ هَذَا الرَّجُلُ الْمَالِكُ لِلجَنَّتَيْنِ لِصَاحِبِهِ أَي صديقه المؤمن وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ يَخَاطِبُهُ فى الكلام، و يراجعه فى القول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا فَمَا أَنَا صَاحِبُ جَنَّتَيْنِ، وَ أَنْتَ فَقِيرٌ وَ أَعَزُّ نَفَرًا أَى أَقْوَى عَشِيرَةً وَ رَهْطًا، وَ إِنَّمَا سَمِيتَ الْعَشِيرَةَ نَفَرًا لِأَنَّهُمْ يَنْفَرُونَ مَعَهُ فِي حَوَائِجِهِ، وَ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ مِنَ الرَّجُلِ الْكَافِرِ، كَانَ تَفْنِيدًا لِمَا يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُ، مِنْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ يَرِيدُ أَنَّهُ أَكْرَمُ، وَ لَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ هَذَا الْمَلِكَ وَ الْعَشِيرَةَ، بَيْنَمَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ لَا مَالَ لَهُ وَ لَا رَهْطًا.

[٣٦] وَ دَخَلَ الرَّجُلُ الْثَرِيَّ صَاحِبَ الْجَنَّتَيْنِ جَنَّتَهُ بِسْتَانِهِ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بِالْكَفْرَانِ وَ الْعَصِيَانِ، فَقَالَ كَمَا يَقُولُ كُلُّ مَغْرُورٍ غَافِلٌ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ أَى تَهْلِكَ وَ تَفْنَى، مِنْ «بَادٍ» بِمَعْنَى هَلِكٌ هَذِهِ الْجَنَّةُ أَبَدًا وَ هَذَا كَلَامُ الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ الْكَافِرِ، الَّذِي لَا يَحْسِبُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ لِتَقْدِيرِهِ حَسَابًا.

[٣٧] وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ أَى الْقِيَامَةَ قَائِمَةً فَلَا بَعثَ هُنَاكَ وَ لَا حِسَابَ، وَ مَا يَقُولُهُ أَنْتَ أَيُّهَا الصَّاحِبُ الْمُؤْمِنُ، لَيْسَ إِلَّا وَ هُمَا وَ خِرَافَةٌ وَ لَئِنْ صَدَقَ زَعْمُكَ، وَ كَانَ هُنَاكَ بَعثٌ وَ حِسَابٌ وَ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي أَى رُدُونِي إِلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا أَى مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، أَوْ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ مُنْقَلَبًا أَى انْقِلَابًا وَ رَجوعًا، فَهُوَ مَصْدَرٌ مِيمِي، وَ هَكَذَا يَقُولُ الْكَافِرُ الْمَغْرُورُونَ بَلْ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَرَمَاءُ، كَمَا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّأَكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨)

الدنيا، أليس الله أعطاهم هذه النعمة لكرمهم عليه؟ فيعطيه في الآخرة خيرا من ذلك، لكن هنا يقال لهم (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ!!) «١» [٣٨] و لما أتم الكافر كلامه، و أبدى غروره و دخيلة نفسه الجاهلة الغبية قال له صاحبه أى صديقه المؤمن، و الصاحب كل من صحب الإنسان وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَى يَخَاطِبُهُ وَ يَجِيبُهُ عَمَّا قَالَ أَ كَفَرْتَ أَى هَلْ كَفَرْتَ أَيُّهَا الصَّاحِبُ الثَّرِي، وَ هُوَ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِي، أَى كَيْفَ تَكْفُرُ بِالَّذِي أَى اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ أَوَّلًا ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثَانِيًا ثُمَّ سَوَّأَكَ أَى جَعَلَكَ وَ عَدَلَكَ رَجُلًا فَإِنَّ التُّرَابَ يَنْقَلِبُ نَبَاتًا، ثُمَّ لَحْمًا فِي الْحَيَوَانَ، أَوْ فَوَاكِهِ، فَإِذَا أَكَلَهُ الْإِنْسَانُ، انْقَلَبَ مِتًّا وَ نُطْفَةٌ يَنْشَأُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ، وَ بَعْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ وَ يَسْتَوِي حَتَّى يَكُونَ رَجُلًا، وَ إِنَّمَا كَفَرَهُ، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ الْمَعَادَ وَ شَكَ فِيهِ، حَيْثُ قَالَ «وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي».

[٣٩] لَكِنَّا أَصْلُهُ «لَكِنْ» «أَنَا» حَذَفَتِ الْهَمْزَةَ تَخْفِيفًا، وَ أَدْغَمَتِ النَّونَ فِي النَّونِ هُوَ اللَّهُ رَبِّي فَإِنِّي أَعْتَرْتُ بِتَوْحِيدِهِ، وَ اتَّبَاعِ سَبِيلِهِ، إِنْ اعْتَرَزْتَ أَنْتَ بِجَنَّتِكَ وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا أَى لَا أَجْعَلُ أَحَدًا شَرِيكًا مَعَهُ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ وَ الْعِبَادَةِ، وَ لَعَلَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَ تِلْكَ تَعْرِيفًا بِالْكَافِرِ الَّذِي أَشْرَكَ

(١) الدخان: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٨

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَ لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَ وَ لَمَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠)

حيث رأى بعض الحول و القوة من غيره سبحانه، إذ زعم أن جنته دائمة، لا مدخلية للتقدير فيها.

[٤٠] ثم ندد المؤمن بصاحبه الكافر و كفرانه للنعمة، قائلاً و لولا هي كلمة ردع و تفریح، أى هلاً إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله بأن تكل الأمر إلى مشيئته، و ترى أن الجنة، إنما هي صارت بإرادته و تقديره لا قوة إلا بالله فالإنسان مهما كان قويا، و مدبرا في أموره، فإن ذلك كله من الله سبحانه، إذن فالجنة منه سبحانه، و إن توسط هناك تدبيرك و تقديرك للأمور و قوتك البدنية و الفكرية إن ترن أيها الصاحب الكافر أنا أقل منك مالا و ولداً أى إن كنت ترانى اليوم، فقيرا لا مال لى، و لا أولاد، كما قلت «أنا أكثر منك مالا و أعز نفرا».

[٤١] فليس ذلك دليلا على أن الله لم يرد بى خيرا، فلعله ادخر لى ذلك فى الآخرة، أو يعطينى فى المستقبل أكثر منك، كما تقتضى مصلحته، و تفضى إرادته فعسى أى لعل ربى أن يؤتيني أى يعطينى خيرا من جنتك جنا و أموالا و يؤسّل ربى عليها أى على جنتك حسيبانا أى عذابا و إنما سمي العذاب به، لأنه بالحساب و المقابلة لما عمل الإنسان من باب علاقة السبب و المسبب، فإن الحساب للأعمال السيئة سبب للعذاب من السماء و المراد به الصاعقة، أو الأمطار الغزيرة السائلة أو البرد القارس المفنى فتصبح جنتك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٨٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٤١ الى ٤٢]

أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَ أَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢)

صعيداً أى أرضا مستوية، قد بادت أشجارها، و انطمست أنهارها زلقاً يزلق عليها القدم، و هذا مقابل قول الكافر «ما أظن أن تبيد هذه أبداً».

[٤٢] أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا الْجَارِي فِي أَنْهَارِهَا غَوْرًا أى غائرا ذاهبا فى الأعماق فلن تستطيع له أى للماء طلباً فتموت الأشجار و الزرع، و تذهب طراوة الجنة و النهر، و هنا انتهى الكلام بين الطرفين، و لم يفد الكافر الإنذار و الإرشاد، فلننظر ماذا حدث بعد ذلك؟.

[٤٣] وَ أَحِيطَ الْعَذَابَ بِشَمْرِهِ فَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَارًا فَاحْتَرَقَتِ الْأَشْجَارَ، وَ غَارَتِ الْأَنْهَارُ، وَ مَعْنَى أَحِيطَ، أَنَّ الْعَذَابَ أَخَذَهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، كَالْمَحِيطِ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَحِيطُ مِنْ جَوَانِبِهِ السَّيِّئَةُ فَاصْبِحْ الرَّجُلُ الْكَافِرُ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ تَحْسِرًا وَ حَزَنًا عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا أَى فِي الْبَسْتَانِ، مِنْ الْأَمْوَالِ وَ الْأَتْعَابِ، وَ مَعْنَى تَقْلِيبِ الْكَفِّ، جَعَلَ ظَهْرَهَا مَكَانَ بَطْنِهَا، وَ هُوَ مَا يَفْعَلُهُ السَّائِلُ، وَ الْمَتَنَدِمُ، الْمَحْزُونُ، وَ كَأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ الْحِيلَةِ وَ الْمَهْرَبِ، كَأَنَّ الْأَمْرَ ظَاهِرًا لَا يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْهُ - كَبَطْنِ الْكَفِّ - لَا مَلْجَأَ وَ التَّوَاءَ، حَتَّى يَخْفَى الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ هُنَاكَ لِيَخْلَصَ مِنَ التَّبَعَةِ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، أَى أَنَّ الْجَنَّةَ سَاقِطَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، أَى عُرُوشِ الْكُرُومِ، فَالْعُرُوشُ سَاقِطَةٌ، وَ الْأَشْجَارُ وَ النَّخِيلُ، فَوْقَ الْعُرُوشِ سَاقِطَةٌ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ السَّقْفَ يَنْهَدَمُ أَوْلَا، ثُمَّ يَنْهَدَمُ الْحَائِطُ عَلَيْهِ وَ يَقُولُ الْكَافِرُ إِذْ رَأَى ذَلِكَ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا فَلَمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٠

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

أكن أجعل من قوتى و مالى شريكا لله سبحانه فأظن أن القوة هي التي أشركت مع الله فى إيجاد هذا البستان، حتى أرانى أنه الله سبحانه هو الوحيد فى التأثير، و أن القوة لا أثر لها إطلاقا، كما قال صاحبي المؤمن «قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

[٤٤] و قد زعم الكافر أنه «أعز نفرا» فأين أنفاره فى إنقاذه من هذا العذاب؟

وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ أَى لِلْكَافِرِ فِتْنَةٌ أَى جَمَاعَةٌ، وَ تَسْمَى عَشِيرَةُ الْإِنْسَانِ فِتْنَةً، لِأَنَّهُ يَفِىءُ إِلَيْهِمْ، وَ يَرْجِعُ فِي أَمُورِهِ إِلَى رَأْيِهِمْ يَنْصُرُونَهُ حَتَّى يَحُولُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْعَذَابِ الَّذِي أَحِيطَ بِشَمْرِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى مِنْ غَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ النَّاصِرُ الْوَحِيدُ، وَ مَنْ لَيْسَ مَعَ اللَّهِ لَا نَاصِرَ لَهُ، وَ إِنَّمَا يَنْتَصِرُ بَعْضُ الْكُفَّارِ، حَيْثُ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَخْلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَ النَّصْرَةِ الْمُؤَقَّتَةِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا أَى مَمْتَنًا بِالنَّصْرَةِ عَنِ الْعَذَابِ،

فلا هو قدر على دفع العذاب، ولا كان له فئه يتمكنون من ذلك.

[٤٥] هُنَالِكَ أى فى مثل ذلك المقام والحال، حال إتيان العذاب، لا يفيد الفئه والامتناع، وإنما الْوَلَايَةُ والتوالى للأمر، والتصرف فى الشؤون لِلَّهِ الْحَقِّ فهو حق، وما عداه باطل، وإنما قال «هنالك» لأن الولاية فى الظروف العادية، التى أرسل الله الزمام فيها، ولا يريد إنفاذ أمر للناس بعضهم لبعض، أما إذا شاء شيئاً، فلو اجتمع أهل السماوات والأرض لا يقدرّون على خلافه هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً من أموال الدنيا، ألم يقل الكافر للمؤمن «لأجدن خيراً؟» و «أنا أكثر منك مالا وأعز

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩١

[سورة الكهف (١٨): آية ٤٥]

وَ اضْرَبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)

نفرًا؟ كلا! إن ثواب الله خير، وهو معدّ للمؤمن وَ خَيْرٌ عُقْبًا أى عاقبه، فطاعته والإيمان به، توجب خير العقبي، لا الكفر والكفران. [٤٦] لما أتم سبحانه هذا المثل، جاء بمثل ثانٍ منتزع عن المثل الأول، فإذا بالحياة الدنيا كلها كتلك الجنة، فإنها أمور مؤقتة لا بقاء لها ولا دوام، فلا يطمئن الإنسان إليها، وإنما يرجو ثواب الله، ويعمل للآخرة الباقية وَ اضْرَبْ لَهُمْ يَ رَسُولَ اللَّهِ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كلها من أولها إلى آخرها، فإنما مثلها كمثل ماء يعنى المطر أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ فَأَخْتَلَطَ بِهِ أى بذلك الماء نَبَاتُ الْأَرْضِ إما المراد سقط على النبات، و كان الاختلاط بهذا القدر مبالغته فى بيان العادوية للحياة إلى هذا الحد، فإن الماء الساقط على النبات سرعان ما يزول، وإما المراد بيان السرعة فى مجيء الحياة و ذهابها، كما أن الماء يسرع فى تسببه لإنبات النبات، حتى كأنه اختلاط لا إنبات بوقته الطويل فَأَصْبَحَ هَشِيمًا أى كسيرا مفتتا حين اليبس، و كان لحظه لم تمر، و إذا بالحياة تذهب و تذبل، و إذا بالحي يتهشم و يتحطم و يتكسر تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ فتقله من موضع إلى موضع، و تفرقه، حتى يكون مبددا، كأن لم يكن وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا لا يمتنع عليه شىء، فهو المنشئ المبنى، و لا يخرج شىء عن طوق قدرته، فلا يظن أحد بما أوتى من طول و قوة، أنه قادر على أن يخرج من سلطان الله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

الْمَالُ وَ الْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشْرَنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)

[٤٧] و إذا رأينا الحياة الدنيا و عرفنا قدرها و مدتها و قيمتها، فليعرف الإنسان ما هو مربوط بهذه الحياة، و ما هو مربوط بتلك الحياة، حتى يعرف ما ينبغى أن يهتم به مما ينبغى أن لا يهتم به الْمَالُ وَ الْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فهما مما يتزين الإنسان بهما فى هذه الحياة وَ الأعمال الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ و هى الحسنات التى أريد بها وجه الله سبحانه، فإنها هى التى تبقى و تصلح للإسعاد، و كان الإتيان بـ «البقيات»، لأن المقام مقام ما يفنى و ما يبقى خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً إن ما يرجع على الإنسان من تلك البقيات - و هو الثواب، لأنه من تاب إذا رجع - خير مما يرجع إلى الإنسان من المال و البنون، فإن ما يرجع من المال و البنون، إنما هو خاص بهذه الحياة، أما ما يرجع منها، فإنه عند ربك، ولديه، و ما عند الله خير و أبقى وَ خَيْرٌ أَمَلًا فإن أمل الإنسان فى الباقى، خير من أمل الإنسان فى الفانى، و لا يخفى أن المال و البنين إذا أريد بهما وجه الله سبحانه، دخلا- فى البقيات الصالحات، و كانا مصداقا للزينة، و البقاء معا، كما قال سبحانه «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» (١) و كما أن ما فى بعض الروايات، من مصاديق البقيات الصالحات.

[٤٨] و إذ ذكر البقيات الصالحات، فلنعرف وقت ذلك، فاذا كرر يا رسول الله يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ أى نجعلها تسير، فإن من أهوال القيامة،

أن الجبال تنقلع و تأخذ في السير، و تكون كالهباء المنثور و تَرَى الْأَرْضَ كُلَّهَا

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٣

[سورة الكهف (١٨): آية ٤٨]

وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨)

بارزة ظاهرة لا يكنها جبل، أو بناء، أو شجر، فلا ترى فيها عوجا، و لا أمتا و حَشَرْنَاَهُمْ أَي جمعنا البشر كلهم، بأن نحبيهم و نجمعهم في موقف واحد فَلَمْ نُغَادِرْ أَي لم نترك مِنْهُمْ أَحَدًا و المغادرة الترك، و منه الغدر لأنه ترك الوفاء، و الغدير لأنه يترك فيه الماء. [٤٩] وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ أَي أن البشر جميعهم يعرضون على الله سبحانه يوم القيامة، و هذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، إذ الإنسان دائما عند الله سبحانه، و في علمه و تحت سمعه و بصره، لكن هناك يتمثل الإنسان كالذي يعرض أمام الحاكم ليحكم عليه صَفًّا أَي في حال كونهم مصطفين صفا، صف الأخيار و صف الفجار، و هكذا كل جنس مع جنسه، و كل مذهب مع رئيسه، كما قال سبحانه (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ) «١» و يقال لهم من قبله سبحانه لَقَدْ جِئْتُمُونَا أَيها البشر كما خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ عرأه حفاء عزلا ضعفاء عاجزين منفردين ليس معكم شىء من أموال الدنيا و مناصبها، و سائر زهرتها، و لم تكونوا تزعمون ذلك بَلْ زَعَمْتُمْ و ظننتم في دار الدنيا أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا في القيامة للحساب و الجزاء، و هذا إنما يقال بالنسبة إلى الكفار، فإن الكلام حولهم الآن- عند تبليغ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لهم الأحكام-

(١) الإسراء: ٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٤

[سورة الكهف (١٨): آية ٤٩]

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَيْغِرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

[٥٠] وَ هُنَالِكَ وَضِعَ الْكِتَابُ أَي يوضع كتاب أعمالهم، فإن المستقبل المحقق الوقوع، ينزل منزلة الماضي، و الكتاب اسم جنس، أي جنس الكتاب المكتوب فيه أعمال العباد، و وضعه إنما هو للمحاسبة و إعلام كل أحد بما عمل و ما يجزى فَتَرَى يَا رَسُولَ اللهِ، أو كل من يأتي منه الرؤية الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أُجْرِمُوا، و اقترفوا الكفر و العصيان مُشْفِقِينَ أَي خائفين، من الإشفاق بمعنى الخوف، و يقال للصديق «مشفق» لأنه يخاف على صديقه من العطب مِمَّا فِيهِ أَي مما في الكتاب من بيان أعمالهم السيئة و يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا أَي يا قوم ويلنا، أو يا ويلنا احضر فهذا وقتك، و هذه لفظة قد يدخلها الثأر، يقولها الإنسان، إذا وقع في شدة، و كان الأصل فيها، أن يدعو الإنسان على نفسه بالهلاك، ليستريح من هذه الشدة ما لِهَذَا الْكِتَابِ أَي أى شىء لكتاب عملنا لا يُغَادِرُ أَي لا يدع و لا يترك سيئة صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ عَدَّهَا وَ أَدْرَجَهَا، و أصل «ما لهذا» استفهام عن النفع العائد إلى الشخص العامل عملا، تقول «ما لزيد يتكلم بهذا؟» إى أى نفع له، ثم استعمل في كل استفهام استنكارى، تقول ما لهذا الحائط مائل؟ و ما لهذا الحيوان مريض؟ و هكذا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا أَي أمامهم، لا مهرب لهم عنها، مقابل الإنسان الذى يعمل عملا، ثم ينسأه، و ينسى المجتمع له، فكأنه غائب و لَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا و إنما يعطيهم جزاء أعمالهم، فلا يثبت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٥

[سورة الكهف (١٨): آية ٥٠]

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)

لهم سيئة لم يقترفوها، ولا يزيد في جزاء سيئته اقترفوها، وإن كان الأنسب بالسياق الأول، وبالعموم اللفظي الثاني، بل هو أعم، فيشمل حتى المؤمنين، فإنه سبحانه لا يظلمهم بعدم جزاء حسناتهم، أو التقيص من أجورهم.

[٥١] إن المجرمين الذين لهم ذلك المصير المخزي، ليعلموا أنهم يتركون عبادة الله، إلى عبادة شيطان فاسق هو لهم عدو، فليأبوا بأنفسهم عن إطاعه مثله واذكر يا رسول الله إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فِي بَدءِ خَلْقِهِ الْبَشَرِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ وَهُوَ الشَّيْطَانُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ السَّاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ، ثم ارتفع مقامه بالعبادة حتى صار في زمرة الملائكة، وشمله أمر السجود فَفَسَقَ أَي خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ كِبْرًا وَحَسَدًا، و الفسق، بمعنى الخروج، و يسمى الفاسق فاسقًا، لأنه خارج عن طاعة الله، و إذ عرفتم أيها المجرمون أصل الشيطان، و مصيره الذي آل إليه أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ تَتَّبِعُونَهُمْ وَ تَطِيعُونَهُمْ، و قد ورد أن للشيطان نسلا، و لكن بدون ازدواج مِنْ دُونِي أَي مِنْ دُونِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ الْحَالُ أَنَّ هُمْ أَي الشَّيْطَانَ وَ ذُرِّيَّتَهُ لَكُمْ أَيهَا الْمَجْرُمُونَ عَدُوٌّ وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ اسْتِنْكَارِيٌّ، فكيف يترك الإنسان من يحبه ليتولى من يعاديه؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا أَي إِنْ الشَّيْطَانَ بِئْسَ الْبَدَلُ الَّذِي اخْتَارُوهُ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥١ الى ٥٢]

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢)

[٥٢] و كيف تتولون الشيطان و ذريته، مع إن الله هو الخالق و العالم، و أنه هو المتفرد الوحيد في الكون، فليس الأبالسة لهم حضور وقت خلق السماوات و الأرض، حتى يكون لهم علم و معرفة بالأمر، و لا أنهم أعضاء الله في الخلق و تسيير الكون حتى يكون لهم قوة و دخالة في الشؤون، و الإنسان لا يتملق إلا للعالم القوى المشارك؟ ما أَشْهَدْتُهُمْ أَي مَا أَحْضَرْتَ إِبْلِيسَ وَ ذُرِّيَّتَهُ، و ما اتخذتهم شهودا على خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حتى يعرفوا الأسرار و الكون، و يكون لهم هذا الشرف، حتى يقول أحد من حضر خلق الكون، لا بد و أن يكون له منزله، و مقام يستحق به التولى و الإطاعة و لا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ فَلَا كَانَ بَعْضُهُمْ حَاضِرًا وَ شَاهِدًا عِنْدَ خَلْقِي لِبَعْضِهِمُ الْآخِرِينَ، أو المراد أن أرواحهم لم تحضر خلق أجسادهم، فإن الأرواح - في البشر - كانت مخلوقة قبل خلق الأجساد و مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ أَي الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ يَضِلُّونَ الْبَشَرَ وَ يَغْوُونَهُمْ عَضُدًا أَي عَوْنَا فِي تَسْيِيرِ الْكُونِ، و الإتيان ب «المضلين» عوض الضمير، ك «هم» كبيان علته لعدم الاتخاذ، و تفرغ لمن يتخذهم أولياء، فالله العالم الحكيم لم يتخذ الشيطان عونًا، فكيف يتخذ الإنسان وليًا؟ ثم أنه سبحانه لا يتخذ أي أحد عضدا، و إنما جرى هنا بهذا مجازة في الكلام.

[٥٣] قد علمنا مبدأ الشيطان، و علمنا أنه لم يشهد شيئا، و لا أشرك في شيء، فلنرى مصيره و مصير المجرمين الذين اتخذوه وليا من دون الله، و أطاعوه و اذكري يا رسول الله يَوْمَ يَقُولُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٧

[سورة الكهف (١٨): آية ٥٣]

وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

و هو يوم القيامة، فإنه سبحانه يخاطب المشركين قائلا نَادُوا أَيهَا الْمَجْرُمُونَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ مَعِيَ فِي الْأَلُوْهِيَّةِ، كذبا و افتراء، نادوهم ليدفعوا عنكم العذاب و ينصروكم في هذا الموقع العصيب فَدَعَوْهُمْ أَي دَعَا الْمَشْرُكُونَ الشُّرَكَاءَ، و استنجدوا بهم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ مُجْرَدَ إِجَابَةٍ، فكيف بالانتصار و التخليص و جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ أَي بَيْنَ الْمَشْرُكِينَ وَ بَيْنَ آلِهِتِهِمْ مَوْبِقًا أَي مَحَلَّ هَلَاكٍ، و هو اسم مكان من وبق بمعنى هلك، و لعل المراد أن العلاقة الكائنة بين الكفار و آلتهتهم، إنما هي علاقة هلاك و خزي، مقابل علاقة

المؤمنين بالله سبحانه، فإنها علاقة نجاه و فوز.

[٥٤] وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ الَّتِي أُوقِدَتْ لَهُمْ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا وَ إِنَّمَا جِيءَ بِالظَّنِّ إِشْعَارًا لِحَالَةِ الْمُجْرِمِ، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَنْجُو بِشِفَاعَةِ أَوْ نَحْوِهَا، وَ هَكَذَا نَفْسِيَّةُ كُلِّ إِنْسَانٍ يَرَى الْعِقَابَ الْمُحَقَّقَ، فَإِنَّ نَفْسَهُ تَبْقَى فِي حَالٍ تَرَدُّدٍ وَ إِنْ كَانَ أَغْلَبَ ظَنَّهُ الْهَلَاكَ، وَ حُلُولَ الْعِقَابِ بِهِ، وَ الْمَوَاقِعَةُ هِيَ مَلَاسَةُ الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ، وَ مِنْهُ وَقَائِعُ الْحَرْبِ، وَ كَأَنَّهُ جِيءَ مِنْ بَابِ الْمَفَاعَلَةِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الشَّيْئِينَ وَقَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْآخِرِ بِشِدَّةٍ، حَتَّى أَنْ الْوَاقِعَ دَخَلَ فِي ذَلِكَ، وَ ذَلِكَ دَخَلَ فِي الْوَاقِعِ، فَالْمُجْرِمُونَ يَقَعُونَ فِي النَّارِ، وَ النَّارُ تَدْخُلُ أَجْوَاهِمَ وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا أَى عَنِ النَّارِ مَضْرَفًا أَى مَوْضِعًا يَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِ مِنْهَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٨

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

وَ لَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَ مَا مَنَّ النَّاسُ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)

[٥٥] لقد كان لهم مصرف عن النار، لو أنهم صرفوا قلوبهم إلى ما جاء في القرآن من المثل، فاهتدوا بهداه، و انتهجوا منهاجه، لكنهم لم يؤمنوا، فصار أمرهم إلى الخسار و النار و لقد صيّرنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ينتفعون به، لو أنهم وعوا و أرادوا الرشد، و معنى التصريف، ترديد الأمثال في قوالب شتى و ألبسة مختلفة، فصرفنا الأمثال، ليجدوا في الآخرة المصرف عن النار و لكن لم ينتفعوا فقد كان الإنسان أكثر شئاً أنه شئ خلقه الله، كما خلق سائر الأشياء، لكن تلك الأشياء تخضع لأوامره طائعه، أو سائله- كما رأينا في الملائكة عند خلق آدم- أما الإنسان فإنه أكثر شئاً جدلاً فإنه يجادل في الحق، و إن رآه، و أخيراً يغلب هواه على الحق،- إلا من عصمه سبحانه-.

[٥٦] وَ مَا مَنَّ النَّاسُ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَى أَى شَيْءٍ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ رَأَى الْهُدَايَةَ، وَ دَلَّ عَلَى الطَّرِيقِ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ لِمَا فَاتَ مِنْهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَ الْإِثَامِ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَى عَادَتُنَا الْجَارِيَّةُ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ كَانُوا يَكْذِبُونَ الرِّسَالَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْعُقُوبَةُ الصَّارِمَةُ فَتَهْلِكُهُمْ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا أَى مُقَابِلًا لَهُمْ، وَ مُوَاجِهًا إِيَّاهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذَهُمْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٣٩٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَ مَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ مَا أُنذِرُوا هُزُوعًا (٥٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)

فيؤمنوا خوفا و جبرا، و المعنى أنهم بامتناعهم عن الإيمان- بعد مجيء الهدى- بمنزلة من يطلب الهلاك، أو يطلب أن يرى العذاب، فيؤمن خوفا من حلوله به، إن لم يؤمن، و هذا كقولك لابنك: إنك لا تقبل قولي، إلا أن تضرب، أو ترى العصا مرفوعة لضربك.

[٥٧] و هل الإتيان بالعذاب لإهلاكهم، أو لجبرهم على الإيمان، من شأن المرسلين؟ كلا إن شأنهم هو البلاغ، أما العذاب، فإنه بيد الله، لا- يرسله إلا- لمصلحته و حكمه و ما تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ لِمَنْ آمَنَ وَ أَطَاعَ بِالثَّوَابِ وَ مُنْذِرِينَ لِمَنْ كَفَرَ أَوْ عَصَى بِالْعِقَابِ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ فَيُناظِرُونَ مَعَ الرِّسُولِ وَ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَا هُوَ بَاطِلٌ، وَ غَيْرَ حَقِيقَةٍ لِيُدْحِضُوا أَى لِيُزِيلُوا بِهِ الْحَقَّ وَ يَبْطُلُوهُ انْتِصَارًا لِدِينِهِمْ، وَ طَرِيقَتِهِمُ الْمُنْحَرِفَةَ وَ اتَّخَذُوا أَى الْكُفَّارِ آيَاتِي يَعْنِي الْقُرْآنَ وَ مَا أُنذِرُوا بِهِ الْبَعْثَ وَ النَّارَ هُزُوعًا أَى مَهْزُوعًا بِهِ، فَإِنَّهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَ الْإِنذَارَاتِ، وَ سَيَصِلُونَ إِلَى جِزَاءِ أَعْمَالِهِمْ.

[٥٨] وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ أَى لَيْسَ أَحَدٌ أَكْثَرَ ظُلْمًا مِنْ مِثْلِ هَذَا الشَّخْصِ، الَّذِي يَذْكَرُ بِآيَاتِ اللَّهِ، بِأَنْ يَذْكَرَهُ النَّبِيُّ بِالْأَدْلَةِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا، وَ «مَنْ أَظْلَمُ» إِضَافِيٌّ لِاحْتِقَاقِيٍّ، ككَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِهِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي الْقُرْآنِ

الحكيم، فإن البلاغة تقتضى ملاحظة الظروف المحيطة و الملابسات، فى النفى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٤٤٩

و الإثبات و الحصر و ما أشبهه، فإذا سأل أحد الطلاب، هل فى المدينة أحد؟ أراد من الطلاب، و إذا سأل التاجر من زميله، هل هناك شىء؟

أراد التجارة، و إذا قال الإنسان لا دولة أقوى من الدولة الفلانية، أراد من الدول المعاصرة، و هكذا إذا قال أحد لا أشقى من هذا الرجل «فى قصة قتل وقعت، مثلاً» أراد فى هذه القصة، و هكذا مثله كثير فى القرآن مثل (وَ أَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) «١» (وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ) «٢» (وَ اضْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) «٣» إلى غير ذلك و نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ أَى نَسَى المعاصى التى صدرت منه، و كأنه قدمها لآخرته، و إنما نسبت إلى اليد، لأن اليد هى العضو العامل فى البدن كثيرا، و إلا فالمعاصى تصدر من جميع الأعضاء، فذلك بعلاقة الجزء و الكل، كاستعمال الرقبة، و إرادة الإنسان، و التذكير باعتبار أن فى فطرة الإنسان دلالات على الصانع، فالأنبياء يذكرون الإنسان، كما أن النسيان يراد به عدم المبالاة و إن كان ذاكرا لها، و الإنسان إذا استمرأ المعاصى، تكون ملكة له، حتى إن قلبه لا يستعد لقبول الحق، كأنه فى غشاء، و حتى إن أذنه لا تستعد لاستماع الحق، كأن فيها قرا، و هذا ينسب إليه سبحانه، لأنه خلق الإنسان هكذا، بحيث أنه إذا تمادى فى شىء صار ملكة له، و لأنه تعالى يترك الإنسان، حتى يتردى، فلا يجبره على الإطاعة و الإيمان، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَى قُلُوبَهُمْ هَوْلًا الكفار أَكِنَّةً و هى جمع كنان بمعنى

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) البقرة: ١١٥.

(٣) آل عمران: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠١

[سورة الكهف (١٨): آية ٥٨]

وَ رَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨)

الغشاء أن يَفْقَهُوهُ أى كراهه أن يفهموا القرآن، بعد ما عرضوا عن الحق و فى آذانهم جعلنا وقرأ أى ثقلا، تشبيه بالذى فى أذنه صمم، حيث لا يسمع أصلا و إن تدعهم يا رسول الله إلى الهدى لأن يهتدوا و يسلكوا السبيل الصحيح فلن يهتدوا إذا أى حين تمادوا فى الغى حتى جعل على قلوبهم أكنة، و فى آذانهم قرا أيدا و عدم اهتدائهم ليس بالجبر، و إنما بالاختيار، أى إنهم ما داموا كذلك لا يهتدون.

[٥٩] وَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْعَفُورُ الذى يستر على عباده كثيرا، و إن استحقوا الفضيحة ذُو الرَّحْمَةِ يرحمهم و يتفضل عليهم، و إن أثموا و حادوا، و لذا لا- يعجل لهؤلاء بالعذاب، و إن علم أنهم لن يهتدوا أبدا لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ اللهُ بِمَا كَسَبُوا من الكفر و الآثام، أى لو أراد أخذهم- فإن الفعل يستعمل بمعنى الإرادة- لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ فى الدنيا، و أهلكتهم كما أهلكت القرون السابقة، لما انقطع عنهم الرجاء يَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لأخذهم، و الانتقام منهم لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ أى دون ذلك الموعد مَوْئِلًا أى محل التجاء و فرار، فهو الموعد الذى لا بد أن يصلوا إليه، و لا يكون دونه محل آخر يفرون من الموعد إلى ذلك المحل، و هذا من باب التشبيه، و مجمل المعنى، أن الله من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٥٩ إلى ٦٠]

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقِتَاءِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)

رحمته وفضله، لا يأخذ هؤلاء فوراً، بل أنه تفضل عليهم بامتداد أجلهم إلى مواعده، و ذلك منتهى الرجاء العادى فى إيمانهم، أما إذا لم يؤمنوا و جاء الموعد، فلا مناص، و لا خلاص.

[٦٠] و لا- يغرّن هؤلاء طول بقائهم فى الدنيا ألا يعتبرون بالقرى التى أهلكناها حين ظلموا و عتوا؟ و تِلْكَ الْقُرَىٰ أى قرى عاد و ثمود، و قوم لوط و نوح، و غيرها أَهْلَكْنَاهُمْ أى أهل القرية لَمَّا ظَلَمُوا بتكذيب الأنبياء، و العصيان عن أوامر السماء وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ أى هلاكهم، فالمهلك مصدر ميمى مَوْعِدًا خاصاً، فلم نأخذهم حتى وصلوا إلى ذلك الموعد، و حينذاك حل بهم العقاب.

[٦١] و إذ أخبر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الناس بقصة أصحاب الكهف، سألوه عن قصة العالم الذى أمر الله موسى أن يتبعه، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، و هذه القصة تشترك مع القصة السابقة، فى اشتغالها على بعض آيات الله سبحانه «كإحياء السمكة» كما أنها تشترك مع تلك فى سير موسى كأصحاب الكهف، سيرا إلى الله سبحانه و لمرضاته و اذكر يا رسول الله إِذْ قَالَ مُوسَىٰ بن عمران نبي بنى إسرائيل، صاحب الدعوة المشهورة التى اعتنقتها اليهود لِقِتَاءِهِ أى شابه الذى كان يلزمه و يخدمه، و هو يوشع بن نون، و قد كان وصيا لموسى، إن الله قد أمرنى أن أتبع رجلا عند ملتقى البحرين، و أتعلم منه فتزود يوشع حوتا مملوحا و خرجا لا أَبْرَحُ أى لا أزال أسير إلى المقصد الذى أمرنى الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦١ إلى ٦٢]

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقِتَاءِهِمَا آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ فِيهِ أَقْوَالٌ وَ قد رجح بعض أهل الاطلاع، أنه محل التقاء البحر الأحمر و البحر الأبيض، أو مجمع خليجى العقبة و السويس فى البحر الأحمر، و قد كان الموعد هناك أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا أى زمانا طويلا، و هذا كما يقول القائل أسير وراء مطلبى إلى النجف، أو إلى ما شاء الله، فيما كان أكثر الاحتمال وجود المطلب فى النجف، و الحقب الدهر، أو ثمانين سنة، و المراد: السير حتى الوصول إلى المطلب.

[٦٢] فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا أى محل اجتماع البحرين نَسِيَا حُوتَهُمَا فقد ورد أنهما هناك رأيا إنسانا، و ذهب يوشع لغسل السمكة، فحييت بإذن الله سبحانه، و فلتت من يد يوشع فى البحر و نسى يوشع القصة، كما نسى موسى عليه السلام أن يسأله، ثم أخذنا يسيران فَاتَّخَذَ الْحُوتُ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ أى السبيل الذى اختاره سَرَبًا أى مسلكا يذهب فيه.

[٦٣] فَلَمَّا جَاوَزَا أى موسى عليه السلام و يوشع، ذلك المكان، و أخذنا يسيران، أحس موسى عليه السلام بالجوع قَالَ مُوسَىٰ لِقِتَاءِهِ يوشع آتِنَا أى جئنا إينا غَدَاءَنَا أى طعامنا للغداء لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا أى تعباً و شدة، فلناكل الحوت لتتقوى، و يذهب التعب عنا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٤

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَازْتَدَا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)

[٦٤] قَالَ يوشع فى جواب موسى أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا أى هل تذكر زمان نزلنا إلى الصَّخْرَةِ التى كانت هناك عند مجمع البحرين، أو المراد أ رأيت ما دهانى، على نحو الاستفهام الاعتذارى فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ الذى كان معنا، و لعله عليه السلام كان نسى الحوت عند غسله، أو المراد أنه نسيه بعد ما وضعه على الصخرة، كما فى بعض التفاسير، ثم اعتذر من موسى عليه السلام أنه لم يخبره بقصة

الحوت قاتلاً- وما أنسانيه إلا الشيطان بضم الهاء في «أنسانيه» لأنه يجوز فيه أربعة أوجه «بالضم» و«الكسر» و في كل واحد منهما بالإشباع، وبدونه، هذا حسب الأصل، لكن في القرآن بالضم أن أذكره في موضع نصب بدل من الهاء في أنسانيه، أي ما أنساني أن أذكره إلا الشيطان، وذلك لأنه لو ذكر لموسى عليه السلام قصة الحوت عند الصخرة، لما جاوزها موسى و اتخذ الحوت سبيله في البحر عجباً فإنه قد حيى و فلت من يدي، و عجباً منصوب مصدرًا نوعياً، أي اتخذًا عجباً، أو سبباً عجباً، فقد ذكر بعض المفسرين أن الماء انجاب عن الحوت، و بقي كالكوّة في البحر (١).

[٦٥] و لما سمع موسى عليه السلام بقصة الحوت قال ذلك الذي تقوله، من أن الحوت قد حيى ما كنا نبعث أي نبغى و نطلب، و حذف «يا» يبعث، تخفيفاً، فقد كانت حياة الحوت آية ذلك الرجل الذي أطلبه، و لعل الله

(١) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٦٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦)

سبحانه كان أخير موسى عليه السلام، بأن آية ذلك الرجل ظهور خارقته منه، لا كما قيل أن الآية كانت إحياء السمكة الميتة، حتى يقال: كيف يجوز- على هذا- أن يقصد موسى أكل السمكة، حين قال لفتاه آتنا غداءنا؟ فأرتدنا أي رجع موسى عليه السلام و فتاه على آثارهما أي الآثار التي تعديا منها يريدان نفس الطريق الذي سارا فيه قصصاً من قصص، بمعنى اتبع الأثر، فهو مفعول مطلق لقوله «ارتدا» أي ارتدا ارتدادا و رجعا رجوعا.

[٦٦] و لما وصلا إلى محل الحوت فوجدا موسى و فتاه عبداً من عبادنا هو خضر عليه السلام، و قد ورد أنه كان نبيا مرسلًا، بعثه الله إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده، و الإقرار بأنبيائه و رسله و كتبه، و كانت آيته أنه كان لا يجلس على خشبة يابسه، و لا أرض بيضاء، إلا اهترت خضراء، و إنما سمي خضرا لذلك، و كان اسمه «بليابن» آتيناها أي أعطيناها رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا أي فضلا من طرفنا، و كل رحمة من عنده سبحانه، و إنما الإتيان هنا بذلك للإشارة إلى فضله سبحانه عليه، و قد كان من فضله سبحانه عليه النبوة، و طول العمر، و غيرهما و عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا فكان علمه غير محتاج إلى التحصيل.

[٦٧] قَالَ لَهُ مُوسَى بَعْدَ التَّعَارُفِ وَ التَّسْلِيمِ هَلْ أَتَيْتَكَ يَا خَضِرُ- و من هنا يسدل الستار على أمر فتى موسى عليه السلام و كأنه رجع من هناك، فلم يكن معهما بعد التلاقي- عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا أي هل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٦

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَ لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)

تجوز لي، أن أكون معك، لتعلمني من بعض علومك التي علمك الله إياها، أي علما ذا رشد، و هو علم الغيب، و يظهر من الحوار و النتائج في تصرفات الخضر، أن موسى أراد أن يرى كيفية علم الغيب، لا أن يتعلم هو ذلك، فالمراد من أن تعلمني أن ترى بعض علم الغيب، كيف تعمل بما تظهر نتائجه بعدا و مستقبلا؟.

[٦٨] قَالَ خَضِرٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا أي يثقل عليك الصبر، بحيث لا تطيقه، و لقد كان موسى عليه السلام مأمورا بالظاهر، فلا يعمل عملا، إلا إذا أتمت موازينه و مقاييسه الشرعية، أما خضر عليه السلام، فقد كان يعلم بالغيب و يعمل بحسبه،

ولا مانع من أن يرسل الله نبيا بهذا، و نبيا بذلك، وقد استدل بعض بذلك، على أن للشريعة ظاهرا و باطنا، لكن فيه أنه لم يدل دليل على مثل ذلك في شريعة الإسلام.

[٦٩] ثم قال خضر لموسى عليه السلام وَ كَيْفَ تَصْبِرُ يَا مُوسَى عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا بما ترى ظاهره منكرا، و لا تعلم باطنه؟
[٧٠] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَتَجِدُنِي يَا خَضْرَاءُ إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا لِمَا أَرَاهُ مِنْكَ مِمَّا لَا أَعْلَمُ وَجْهَهُ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا فَلَا أُخَالِفُكَ
فيما تأمرني به من الصبر، حتى ينكشف وجه الحكمة، لكن الله سبحانه لم يشأ ذلك، إذ لم يقو في موسى عزيمة الصبر، و لذا سأله، و لم يصبر، و لم يكن ذلك خلفا لوعده، حتى يقال كيف خلف النبي الوعد؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٠ إلى ٧٣]

قَالَ فَإِنِ ابْتِغَيْتَنِي فَلَا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَمْضُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)

[٧١] قَالَ خَضْرَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنِ ابْتِغَيْتَنِي وَ كُنْتُ مَعِيَ تَشَاهَدُ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ، الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ مَعَ ظَوَاهِرِ الشَّرِيعَةِ فَلَا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ تَرَاهُ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَإِنِّي أَنَا أَفْسِرُهُ لَكَ فِي مَا بَعْدَ، وَ عَلَى هَذَا الْقَرَارِ تَبِعَ مُوسَى خَضْرَاءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٧٢] فَأَنْطَلَقَا مَعًا يَمْشِيَانِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَا إِلَى سَفِينَةٍ وَ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا خَضْرَاءُ، بِأَنْ قَطَعَ بَعْضُ الْوَاوِحَاءِ، حَتَّى دَخَلَهَا الْمَاءُ قَالَ مُوسَى مُسْتَنْكَرًا هَذَا الْعَمَلُ أَمْضُهَا يَا خَضْرَاءُ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ فَمَا هَذَا الْعَمَلُ الْعَجِيبُ مِنْكَ؟! - لَقَدْ جِئْتَ يَا خَضْرَاءُ شَيْئًا إِمْرًا أَيْ مُنْكَرًا عَظِيمًا، فَإِنِ امْرَأٌ فِي اللُّغَةِ، بِمَعْنَى الدَّاهِيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَ هُوَ مُسْتَقٌ مِنَ الْأَمْرِ، لِأَنَّهُ الْفَاسِدُ الَّذِي يَحْتَاجُ أَنْ يُؤْمَرَ بِتَرْكِهِ.

[٧٣] قَالَ خَضْرَاءُ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ يَا مُوسَى لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا فَقَدْ شَرَطْتَ عَلَى اتِّبَاعِكَ لِي أَنْ تَصْبِرَ، فَكَيْفَ اعْتَرَضْتَ عَلَيَّ هَذَا الْإِعْتِرَاضَ، وَ لَمْ تَصْبِرَ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ بِالنَّتِيجَةِ؟

[٧٤] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ تَذَكَرَ الشَّرْطَ لَا تُؤَاخِذْنِي يَا خَضْرَاءُ بِمَا نَسِيتُ مِنَ الشَّرْطِ حِينَ سَأَلْتُكَ وَ اعْتَرَضْتَ عَلَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٨

[سورة الكهف (١٨): آية ٧٤]

فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)

وَ لَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا أَيْ لَا تَكْلِفْنِي مَشَقَّةً، بَلْ عَامِلْنِي بِالْيَسْرِ، يُقَالُ أَرْهَقَهُ عَسْرًا إِذَا كَلَفَهُ أَمْرًا يَثْقُلُ عَلَيْهِ، وَ قَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ إِنْ النِّسْيَانُ هُنَا، وَ فِي قَوْلِهِ «نَسِيََا حَوْتَهُمَا» وَ قَوْلِهِ فِي قِصَّةِ آدَمَ «فَنَسِيَ» وَ مَا أَشْبَهَ يَرَادُ بِهِ التَّرْكَ، لَا النِّسْيَانُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الذِّكْرِ، وَ إِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى التَّرْكِ النِّسْيَانُ، لِأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِهِ، وَ شَبِيهَ بِهِ فِي النَّتِيجَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) «١» مَعَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَنْسَى، وَ قَوْلِهِ (نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) «٢» وَ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ، لَمَّا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومِينَ مِنَ السُّهْوِ وَ النِّسْيَانِ وَ الْخَطَأِ، وَ مَا أَشْبَهَ.

[٧٥] وَ قَبْلَ خَضْرَاءَ مِنْ مُوسَى عَذْرَهُ وَ أَوْ صَلَّتَهُمَا السَّفِينَةُ إِلَى الْمَحَلِّ الْمَقْصُودِ وَ نَزَلَا مِنْهَا فَأَنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا أَيْ وَلَدًا وَ قَدْ كَانَ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ - كَمَا فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ «٣» - فَقَتَلَهُ أَخَذَ خَضْرَاءُ سَكِينًا، وَ قَتَلَ الْغُلَامَ بِهَا سَوْءًا، وَ لَا جِهَةَ ظَاهِرَةً قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ هَذَا الْعَمَلِ الْعَجِيبِ، بَلَا مِيرَرَ ظَاهِرًا أَقْتَلْتَ يَا خَضْرَاءُ نَفْسًا زَكِيَّةً أَيْ ظَاهِرَةً مِنَ الذَّنُوبِ بِغَيْرِ نَفْسٍ أَيْ بِغَيْرِ إِنْ كَانَ قَتَلَ نَفْسًا، حَتَّى يَسْتَحِقَّ الْقِصَاصَ؟ فَمَا هَذَا الْعَمَلُ مِنْكَ يَا خَضْرَاءُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا أَيْ مُنْكَرًا فَطِيعًا.

(٢) الجائئة: ٣٥.

(٣) مجمع البيان: ج ٦ ص ٣٦٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٠٩

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السادس عشر من آية (٧٦) سورة الكهف إلى آية (١٣٦) سورة طه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٠

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١١

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٥ الى ٧٧]

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) [٧٦] قَالَ خُضِرَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا لَمَا تَبَعْتَنِي مُشْتَرِطًا بِأَنَّكَ لَا تَعَارِضُنِي فِي أَعْمَالِي، حَتَّى أَبِينَ لَكَ وَجْهَهَا فِيمَا بَعْدَ؟

[٧٧] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتَذِرًا إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا أَى بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ فَلَا تُصَاحِبِي لَا تَتْرَكْنِي أَصْحَبُكَ قَدْ بَلَغْتَ يَا خُضِرَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا، قَدْ أَعْذَرْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ وَ «عُذْرًا» مَفْعُولٌ بَلَغْتُ، أَى قَدْ بَلَغْتَ إِلَى حَالٍ يَعْذُرُكَ النَّاسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى لَوْ نَحَيْتَنِي عَنْ نَفْسِكَ، فَلَقَدْ خَوْلَفَ الشَّرْطَ - حِينَذَاكَ - ثَلَاثَ مَرَاتٍ.

[٧٨] فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ وَ هِيَ قَرْيَةٌ نَاصِرَةٌ، الَّتِي سَمِيَتْ النَّصَارَى بِهَذَا الْاسْمِ لِانْتِسَابِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَحَلِّ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا أَى سَأَلَاهُمُ الطَّعَامَ فَأَبَوْا، أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، أَنْ يَقْبَلُوهُمَا ضَيْفِينَ، يُقَالُ ضَيْفٌ زَيْدٌ عَمَرُوا، أَى قَبْلَهُ ضَيْفًا عِنْدَهُ فَوَجَدَا خُضِرَ وَ مُوسَى فِيهَا، فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ وَصَفَ الْجِدَارَ بِالْإِرَادَةِ مُجَازًا، لِأَنَّهُ شَبِيهُ بِالْمُرِيدِ، فِي أَنَّهُ انْحَنَى مَائِلًا لِلانْهَادِ، وَ الْانْقِضَاضُ بِمَعْنَى السَّقُوطِ بِسُرْعَةٍ فَأَقَامَهُ سِوَاهُ وَ عَدَلَهُ قَالَ مُوسَى كَيْفَ تَصْلُحُ شُؤُونَ هَؤُلَاءِ، وَ هُمْ قَدْ بَخَلُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأْتُكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)

عليك بالضيافة لو شئت هذا العمل لاتخذت عليه أجرًا لكي نسد بذلك الأجر جوعنا؟

[٧٩] وَ لَمَا اعْتَرَضَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى خُضِرَ هَذَا الْاِعْتِرَاضَ الثَّلَاثَ قَالَ خُضِرَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ أَى هَذَا وَقْتُ الْفِرَاقِ، أَوْ هَذَا الْإِنْكَارَ عَلَى هُوَ الْمَفْرُوقِ بَيْنَنَا، لِأَنَّكَ قُلْتَ «إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبِي» سَأْتُكَ يَا مُوسَى أَى أَخْبَرَكَ، وَ لَعَلَّ دُخُولَ السَّيْنِ لِأَجْلِ إِنْ بَيْنَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَ بَيْنَ الْإِخْبَارِ، كَانَ فَصْلَ زَمَانٍ قَلِيلٍ بِتَأْوِيلٍ بِتَفْسِيرٍ، وَ إِنَّمَا سَمِيَ تَأْوِيلًا، لِأَنَّ تِلْكَ الْأَعْمَالَ إِنَّمَا صَدَرَتْ لِأَجْلِ ذَلِكَ الْأَوَّلِ وَ الْآخِرِ، الَّذِي تَرَجَعَ إِلَيْهِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا فَبَادَرْتَ بِالْاِعْتِرَاضِ، وَ السُّؤَالِ عَنْهَا.

[٨٠] أَمَّا السَّفِينَةُ الَّتِي خَرَقْتَهَا فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ مَلِكًا لَهُمْ، وَ الْمُرَادُ بِالْمَسَاكِينِ هُمُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَسْكَنْتَهُمُ الْحَاجَةَ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى حَرَكَةٍ يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ يَتَعِيشُونَ بِهَذِهِ السَّفِينَةِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، أَحْدَثْتُ فِيهَا عَيْبًا، يَسَبِّبُ عَدَمَ الرِّغْبَةِ فِيهَا وَ كَانَ وَرَاءَهُمْ أَى فِي عَقْبِ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينِ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةً غَصْبًا أَمَا إِذَا كَانَتِ السَّفِينَةُ مَعِيَّةً، فَإِنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَأْخُذُهَا، وَ يَعِيرُهَا أَهْمِيَّةً، فَأَرَدْتُ إِبْقَاءَ هَذِهِ السَّفِينَةِ بِيَدِ أَصْحَابِهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُزْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْرِخَ تَخْرُجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

المساكين، و إنقاذها من يد الغاصب.

[٨١] وَأَمَّا الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ وَكَانَ هُوَ كَافِرًا- كما يظهر من القرينة- فَخَشِينَا إِنْ بَقِيَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ يُزْهِقَهُمَا الْإِرْهَاقَ، إدراك الشيء بما يغشاه و غلام مراهق إذا قرب أن يغشاه حال البلوغ، أن يغشى الغلام أبويه، و يتسلط عليهما طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فيطغيان و يكفران، ثم إن الخشية كانت علما، فإنها تستعمل مع العلم و الشك، و الظن و الوهم.

[٨٢] فَأَرَدْنَا بِقَتْلِ الْغُلَامِ أَنْ يُبْدِلَهُمَا الْأَبْوِينَ رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ مِنْ هَذَا الْغُلَامِ زَكَاءً، طهارة، و إنما قال ذلك مقابل قول موسى عليه السلام- نفسا زكية- وَأَقْرَبَ رُحْمًا أَيْ أَرْحَمَ بِالْأَبْوِينَ، فإن رحم بمعنى رحمه، و المراد «الخير» عرفا، لا حقيقة، إذ لا خير في الكافر، حتى يرجح المؤمن عليه بصيغته التفضيل، و قد ورد أن الله سبحانه عرض لهما بجارية كانت أم جماعة من الأنبياء [٨٣] وَأَمَّا الْجِدَارُ الَّذِي أَقَمْتَهُ، و لم أتخذ اجرا عليه فإنما أقمته لأنه كان لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ أَيْ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا، فلم يضيفونا وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَرَدَ أَنَّهُ كَانَ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ، فِيهِ كَلِمَاتٌ مِنَ الْإِيمَانِ فَكَانَ كَنْزًا مَالًا، وَ كَنْزًا عِلْمًا وَ كَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٤

أَبُوهُمَا صَالِحًا قَدْ دَفِنَ هَذَا الْكَنْزَ لِلْغُلَامَيْنِ، وَ جَعَلَ الْجِدَارَ عِلْمًا لَهُ- وَ لَعَلَّهُ كَانَ قَدْ أَوْصَى بَعْضَ خَوَاصِهِ، أَنْ الْغُلَامَيْنِ إِذَا كَبُرَا، فليذهبا إلى محل الجدار ليجدا فيه إرثا لهما مني- و حيث إن الجدار إذا سقط ذهب الأثر، و لم يصل الإرث إلى الغلامين، و أراد سبحانه انتفاعهما به لصالح أبيهما، أمرني بإقامة الجدار فَأَرَادَ رَبُّكَ يَا مُوسَى أَنْ يَبْلُغَا أَيْ يَبْلُغَا الْغُلَامَانِ أَشُدَّهُمَا يَكْبُرَا وَ يَعْقِلَا وَ يَبْلُغَا قُوَّتَهُمَا وَ يَسْرِخَ تَخْرُجَا كَنْزَهُمَا لِيَنْتَفِعَا بِهِ عِلْمًا وَ مَالًا رَحْمَةً وَ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ عَلَيْهِمَا وَ مَا فَعَلْتُهُ أَيْ مَا فَعَلْتَ شَيْئًا مِنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، الَّتِي اسْتَغْرَبْتَهَا عَنْ أَمْرِي وَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي، وَ إِنَّمَا فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ إِذْنِهِ وَ إِجَازَتِهِ ذَلِكَ الَّذِي قَتَلَهُ لَكَ فِي وَجْهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا وَ ثَقُلَ عَلَيْكَ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ وَجْهَهُ.

و هنا أسئلة هي: أولا، إنه كيف يجوز تخريب شيء؟ ألا يوجب ذلك الضمان؟ و ثانيا كيف يجوز القصاص قبل الجنائية؟ و ثالثا كيف أخلف موسى الوعد حيث شرط أن لا يسأل، و قد سأل؟ و رابعا كيف يكون موسى، و هو أفضل تابعا لخضر، و هل يجوز أمر الأفضل باتباع المفضول؟ و خامسا كيف نسي موسى، و الأنبياء منزهون عن النسيان؟

و الجواب عن الأولين، أن ذلك كان جائزا في شريعة الخضر، و ما المانع عن ذلك؟ و عن الثالث، أن موسى علق عدم السؤال بالمشيئة، فلم يكن خلف. و عن الرابع، أن الأفضل، يجوز أن يتعلم من غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٥

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ٨٥]

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) الْأَفْضَلَ كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يَتَعَلَّمُ مِنْ جِبْرَائِيلَ. وَ عَنِ الْخَامِسِ، قَالُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسِيَانِ نَتِيجَةُ النَّسِيَانِ- كَمَا سَبَقَ تَقْرِيرُهُ- فَلَا يَنَافِي ذَلِكَ الْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

[٨٤] وَ إِذْ أْتَمَّ السِّيَاقَ قِصَّةَ مُوسَى وَ الْخَضْرَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، عَطَفَ عَلَى السُّؤَالِ الْآخِرِ الَّذِي وَجَّهَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَوْلَ ذِي الْقُرْنَيْنِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ وَ يَسْأَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ أَيْ عَنِ خَبْرِهِ، وَ قِصَّتِهِ، وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَ لَا مَلَكًا، وَ إِنَّمَا كَانَ عَبْدًا أَحَبَّ اللَّهُ وَ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَ جَاءَ إِلَى قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ فَضَرَبُوا عَلَى قَرْنِهِ- أَيْ طَرَفِ رَأْسِهِ- فَذَهَبَ عَنْهُمْ، ثُمَّ

أتى إليهم مرة أخرى، ودعاهم، فلم يجيبوا له، بل ضربوه على قرنه الآخر، فذهب عنهم، ثم جاء في الثالثة وملك البلاد، قُلْ يا رسول الله في جوابهم سَأْتَلُوا أَى أقرأ عَلَيْكُمْ مِنْهُ من ذى القرنين ذِكراً خبراً وقصة.

[٨٥] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ بِأَن سُلْطَنَاهُ عَلَيْهَا، وَبَسَطْنَا مَلَكَةً فِيهَا وَآتَيْنَاهُ أَعْيُنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً أَى علما يتسبب به إلى ما يريد، و طريقا يتوصل به إلى ما يحب، فقد أعطى أسباب الحكم، و أسباب العمران، و أسباب السلطنة.

[٨٦] فَأَتَّبِعَ سَبَباً أَى اقتضى أحد تلك الأسباب موجهها وجهه نحو المغرب، و سالكا طريقه إلى هنالك، فإن الإنسان بدون السبب- من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٦

[سورة الكهف (١٨): آية ٨٦]

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعُدَّ بِ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسِيناً (٨٦)

مال، و لوازم السفر التي هي أسبابه- لا يتمكن الوصول إلى مقصده.

[٨٧] حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ نَاحِيَةَ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمَعْمُورَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَهُوَ كَمَا نَقُولُ الْيَوْمَ «موسكو» مشرق الأرض و «لندن»

مغرب الأرض وَجَدَهَا أَى وجد ذو القرنين الشمس تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ فالإنسان، إذا كان في طرف مغربه جبل رأى الشمس تغرب

خلف الجبل، و إذا كان صحراء رآها تغرب في الصحراء، و إذا كان بحر وجدها تغرب في البحر، و كأن ذو القرنين وصل إلى محل

من شاطئ المحيط الأطلسي- و كان يسمى بحر الظلمات- فوجد الشمس تغرب في البحر، فإن البحر يسمى في اللغة «عينا» كما أن

«حمئة» بمعنى كدره، أى في بحر ذى كدره، في لون مائه، أو المراد أنه رآها قد غربت، في عين كبيرة ذات حمئة، و لا يخفى أن الآية

تقول «وجدها» فهي حكاية عما جاء في نظر ذى القرنين، لا عن الواقع وَوَجَدَ عِنْدَهَا أَى عند تلك العين قَوْماً يسكنون هناك قُلْنَا يَا ذَا

الْقُرْنَيْنِ كان المراد بالقول إلهام إليه، بالإلقاء في قلبه، إن الأمر بيده، فإن شاء عذبهم، و إن شاء اتخذ فيهم سيرة حسنة، فقد جرت

البلاغة، أن يؤتى بلفظ القول، و يراد به التمكين من الشيء، فيقول الملك: قلت للوزير، اعمل ما شئت من الخير و الشر، و سترى

جزاءك، يريد أنه مكنه ليعمل ما يشاء إِمَّا أَنْ تَعُدَّ هَوْلَاءَ، كما هي عادة الملوك، إذا دخلوا قرية أفسدوها، و جعلوا أعزة أهلها أذلة

وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسِيناً بأن تسير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٧

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نَكِراً (٨٧) وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَى وَ سَيَقُولُ لَهُ مِنْ

أَمْرِنَا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتَّبِعَ سَبَباً (٨٩)

فيهم بسيرة حسنة، و تعمل معهم العدل، فإن كلا الأمرين بيدك، و أنت قادر على الأمرين.

[٨٨] لكن ذا القرنين بين سياسته في هَوْلَاءَ، و في سائر المدن التي يفتحها، ليس بيانا عمليا، و إنما أنه قال ذلك قولا بلسانه، لبيان

منهجه بصورة عامة قال ذو القرنين أَمَّا مَنْ ظَلَمَ بالكفر أو سائر أنواع العصيان فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ حسب ما يستحق من النكال و العقاب ثُمَّ

يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ بعد هذه الحياة الدنيا، و معنى الرد إلى الله سبحانه، أنه يرد إلى حكمه، و موقع جزائه الذي قرره فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نَكِراً منكرا

غير معهود، من الشدة و الغلظة.

[٨٩] وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً وَ هَذَا مُقَابِلَ مَنْ ظَلَمَ فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَى «الحسنى» خبر «فله» و هي صفة لمحذوف، أى الخلقة

الحسنة، و جزاء مصدر وقع موقع الحال، أى فله الحسنى في حال كونها جزاء له وَ سَيَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً أَى قولا جميلا، بغير أن

نشق عليه، و المراد بالقول المعاملة معه معاملة حسنة، في مقابل من ظلم و الذي سوف نعذبه، و كان الإتيان هناك ب «سوف» و هنا

ب «السين» لإفادة تأخير العقاب هناك لعله يتوب، و تقديم الثواب هنا بفترة يسيرة ريثما يحقق أمره.

[٩٠] ثُمَّ أَتَّبِعْ ذُو الْقَرْنَيْنِ سَبِيًّا فَأَنْهَى رِحْلَتَهُ الْأُولَى نَحْوَ الْمَغْرِبِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٨

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٠ إلى ٩٢]

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجِدَهَا تَطَّلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتَّبِعْ سَبِيًّا (٩٢)

ليبدأ رحلته الثانية نحو المشرق، فسلك طريقا، هو سبب الوصول إلى المشرق.

[٩١] حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أَيْ أَوَّلَ الْعِمَارَةِ مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الْأَرْضِ وَجِدَهَا تَطَّلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا فَكَانُوا عِرَاءَ لَا يَجِدُونَ مَا يَسْتَرُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ لَفْحِ الشَّمْسِ الْحَارَّةِ، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّ الْقَوْمَ فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ، لَا جِبَالَ فِيهَا، وَلَا أَشْجَارَ تَسْتَرُهُمْ عَنِ حَرِّ الشَّمْسِ، كَبَعْضِ صَحَارَى إِفْرِيقِيَا.

[٩٢] كَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا كَانَتْ رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا أَيْ كُنَّا عَالِمِينَ، بِمَا عِنْدَ ذِي الْقَرْنَيْنِ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْجِيُوشِ وَالْعُدَّةِ، وَالنُّوَايَا الَّتِي فِي صَدْرِهِ، فَقَدْ كَانَ مَكْشُوفًا لَدَيْنَا، كَمَا كَانَ الْقَوْمَ مَكْشُوفِينَ لِلشَّمْسِ.

[٩٣] ثُمَّ أَتَّبِعْ ذُو الْقَرْنَيْنِ سَبِيًّا وَسَلَكَ سَبِيلًا ثَالِثًا فِي رِحْلَتِهِ الثَّالِثَةِ، يَتَسَبَّبُ بِهِ لِلْوَصُولِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَهَنَّاكَ وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ كَانَ فِيهِ أَقْوَامٌ مُخْتَلِفَةٌ، لَا تَفْهَمُ لُغَتَهُمْ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَكَانَ بِقَرْبِ جَبَلَيْنِ، بَيْنَهُمَا مَمْرٌ، وَكَانَ وَرَاءَ الْجَبَلَيْنِ قَبِيلَتَانِ تَسْمِيَانِ «يَأْجُوجُ» وَ«مَأْجُوجُ» وَكَانَتِ الْقَبِيلَتَانِ تَنْزِلَانِ مِنْ هَذَا الْمَمْرِ عَلَى الْقَوْمِ، فَتَعِيثَانِ فِيهِمُ الْفَسَادَ، وَهَنَّاكَ عِنْدَ مَا رَأَى الْقَوْمُ ذَا الْقَرْنَيْنِ الْمَلِكَ الْمَظْفَرِ الْقَوِيَّ، طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَسُدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَمْرَ، لِأَيُّمُونَا شَرَّ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ فَفَعَلَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤١٩

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٣ إلى ٩٥]

حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)

طلبوا منه، ثم شكر الله على أن وفقه لهذا العمل، وأخبر القوم، أن هذا السد يبقى حتى يوم القيامة، إذ تسوى الأرض، فيكون السد دكا، كسائر الارتفاعات.

[٩٤] حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ أَيْ الْحَاجِزَيْنِ، وَهُمَا جَبَلَانِ أَوْ السَّدَّانِ اللَّذَانِ كَانَ بَيْنَهُمَا مَمْرٌ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا مِنْ وَرَائِهِمَا وَبِالْقَرْبِ مِنْهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا لَا يَعْرِفُونَ كَلَامَ أَحَدٍ، لِأَنَّ لَهُمْ لُغَةً خَاصَةً، فَغَرَابَةُ لُغَتِهِمْ، وَقَلَّةُ فَطْنَتِهِمْ، أَوْرَثَتْ الصَّعُوبَةَ فِي التَّفَاهُمِ مَعَهُمْ.

[٩٥] قَالُوا قَالَ أَوْلَيْتُكَ الْقَوْمَ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ، إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّمَا قَالَ «مُفْسِدُونَ» لِأَنَّهُمَا قَبِيلَتَانِ، فَباعتبار أفرادهما جرى بالفعل جمعا، والمراد بالأرض أرضهم، لا كل الأرض كما هو واضح فهل نجعل لك يا ذا القرنين خرجا أى بعضا من أموالنا، وإنما سمي الخرج بذلك لخروجه من مال الإنسان، كما سمي الدملى خراجا لخروجه من البدن على أن نجعل بيننا وبينهم بين يأجوج ومأجوج سدا حائطا بين هذين الجبلين ليسد الممر الذى ينزلان منه إلينا وقد كان طلبهم فى صورة الاستفهام من باب التأديب.

[٩٦] قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ أَيْ مَا أَعْطَانِي اللَّهُ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٠

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٦ إلى ٩٧]

آتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)

المال و المكنة خير من خرجكم، فلا أحتاج إلى أموالكم لتكون أجره لى فى بناء السد فأعينونى أيها القوم بقوة من رجال، و أدوات السد لأبنى لكم السد أجعل بينكم أيها القوم و بينهم بين أجوج و مأجوج رذماً سدا قويا، و الردم أقوى من السد.

[٩٧] آتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ أى جيئوا بقطع الحديد، مفردة زبره، و هى الجملة المجتمعه، فامتثلوا أوامره و جاءوا بقطع الحديد حَتَّى إِذَا سَاوَى الْحَدِيدِ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ أى امتلأ الممر بين الجبلين، و يسمى الجبل صدفاً، لأنه يصدف، و يمنع عما وراءه، كأنه سد و حاجز قال ذو القرنين لهم انْفُخُوا فى النار بالمنافخ، موجهها النفخ نحو الحديد المتراكم بين الجبلين، فنفخوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا أى جعل الحديد المتراكم كالنار فى وهجها و لهيبها، و لزم بعض الزبر بعضها الآخر قال ذو القرنين آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا أى جيئوا بالقطر، و هو النحاس المذاب، حتى أفرغ على الحديد الذى صار كالنار، حتى يصير السد أقوى، و يأخذ القطر بالفرج و الخلايا.

[٩٨] ففعلوا ما قال لهم ذو القرنين، و إذا بسد محكم، لا يتمكن أحد أن يخربه أو يحدث فيه خللاً، و لما جاء موعد مجيء أجوج و مأجوج، و جاءوا لم يقدروا من المرور فَمَا اسْتَطَاعُوا أصله استطاع حذف التاء تخفيفاً، أى لم يستطع أجوج و مأجوج أن يظهروه أى يعلوه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢١

[سورة الكهف (١٨): الآيات ٩٨ إلى ١٠٠]

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)

و يصعدوه، يقال ظهر السطح أى علاه و مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا أن ينقبوا السد من أسفله، و يحدثوا فيه فجوة، و سربا و نفقا، ليأتوا إلى أولئك، و بذلك استراح القوم من شرهم.

[٩٩] و لما أتم ذو القرنين السد لم يأخذه البطر و الكبير، كما هو عادة الملوك بل قال متواضعا مذكرا أنه من فضل الله سبحانه عليه و عليهم هذا السد رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي حيث أمكننى من ذلك، و أراحكم من شر المفسدين فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي بقيام القيامة جَعَلَهُ سَبْحَانَهُ دَكَّاءَ أى مذكوكا متساويا مع الأرض وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي بياتيان القيامة حَقًّا لا خلف فيه.

[١٠٠] و حيث ينتهى السياق من قصة الملك العادل ذى القرنين، و كيف سار و كيف عمر و عدل، و بمناسبة «وعد ربى» يأتى السياق لبيان أحوال القيامة وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ أى يوم القيامة يَمُوجُ فى بَعْضٍ مختلطين كحال المياه المائجة باضطراب، و الضمير، إما يعود إلى أجوج و مأجوج، و إما يعود إلى الناس، المفهوم من الكلام وَنُفِخَ فى الصُّورِ لأجل إحياء البشر بعد موتهم فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا أى جمعنا الخلائق كلهم فى صعيد واحد مجتمعين للحساب.

[١٠١] وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ فى ذلك اليوم لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٢

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠١ إلى ١٠٣]

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣)

فأظهرناها لهم حتى شاهدوها، و رأوا ألوان عذابها.

[١٠٢] و من هم الكافرون؟ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي لا ينظرون إلى ما أذكرهم به من الآيات الكونية، كالذى عينه لا ترى شيئا، إن أولئك يرون اليوم العذاب المهياً لهم، جزاء أن أغمضوا أعينهم عن الحق وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا أى لا يتمكنون-

من كفرهم و عنادهم- أن يسمعوا إنذارى و مواعظى، و هكذا كما يقال فلان لا يستطيع النظر إليك، أى يثقل عليه ذلك، و من المعلوم، أن سمع الكفار يشترك مع بصرهم فى سماع أصوات العذاب، كما كان يشترك فى الإعراض عن ذكر الله.

[١٠٣] أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ زَعَمُوا وَ ظَنُّوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ لِدَى الْحَاجَةِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْوَلِيِّ؟ إِنْ هَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ، فَإِنَّ الْأَصْنَامَ، وَ الْمَلَائِكَةَ وَ الْمَسِيحَ وَ غَيْرَهُمْ، مِمَّنْ اتَّخَذَهُمُ الْكُفَّارُ آلِهَةً وَ أَوْلِيَاءَ لَا يَنْصُرُونَهُمْ، وَ لَا يَدْفَعُونَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، فَلَيْسَ الزَّعْمُ فِي اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ، وَ إِنَّمَا الزَّعْمُ فِي اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ أَوْلِيَاءَ لِلنَّصْرَةِ وَ الدَّفَاعِ إِنَّا أَعْتَدْنَا وَ هَيْئًا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا أَى مَنْزِلًا مَهِيًا لَهُمْ، يَرُدُّونَهَا بِمَجْرَدِ وَرُودِهِمْ، بَلَا حَاجَةَ إِلَى تَعَبٍ مِنْهَا فَإِنَّ الْأَمْرَ مَهِيًا لِلنُّزُلِ.

[١٠٤] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ مَوْمِنًا كَانَ أَمٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٣

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٤ إلى ١٠٥]

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥)

كافرا هل نُنَبِّئُكُمْ بخبركم بِالْأَخْسَرِينَ أَى بأخسر الناس أَعْمَالًا الذين تكون خسائرهم أكثر من خسائر غيرهم؟

[١٠٥] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَى مَا سَعَوْا وَ عَمَلُوا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ضَلَّ وَ ضَاعَ عَنْهُمْ وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا يظنون أنهم يعملون حسنا، و الذين ضل، من تتمه الاستفهام، بدل من «الأخسرين».

[١٠٦] أُولَئِكَ وَ هَذَا جَوَابٌ عَنِ الاسْتِفْهَامِ، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ أَى جحدوا آيات الله، فلم يستدلوا بها على الله سبحانه و صفاته، و سائر شؤونه، و جحدوا المعاد الذى فيه لقاء الله سبحانه، بمعنى لقاء جزائه و حسابه فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ بطلت و ضاعت أعمالهم الحسنه، إنهم كانوا مؤمنين، كانت أعمالهم مصنونه محفوظه، أما و قد كفروا، فقد حبطت أعمالهم فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا أَى لا مرتبه لهم، و لا نغير لهم أهميه، و لا قيمه لهم عندنا، فإن الشىء الخفيف الذى لا يوزن، لا قيمه له، و لذا جعل عدم الوزن كفايه عن عدم القيمه، و إنما كان هؤلاء أخسرين أَعْمَالًا، لأن هناك أَعْمَالًا للدينا يرى العامل جزاؤها فى الدنيا، و أَعْمَالًا للآخرة يرى العامل جزاؤها فى الآخرة، أما أَعْمَالٌ هَؤُلَاءِ فهى بزعمهم للآخرة، و لا يرون لها جزاء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٤

[سورة الكهف (١٨): الآيات ١٠٦ إلى ١٠٩]

ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُؤًا (١٠٦) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)

أصلا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، و التفصيل غير مراد هنا- كغالب هذه المواضع من أشباهه- [١٠٧] ذَلِكَ كما ذكرنا جزاؤهم جَهَنَّمَ و لماذا؟ بما كَفَرُوا أَى بسبب كفرهم وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي الْكُونِيَّةَ وَ الشَّرْعِيَّةَ وَ رُسُلِي هُزُؤًا أَى مهزوا به، فقد كانوا يستهزئون بالآيات الكونيه، و القرآن و الرسول، فقد حبطت أعمالهم الصالحه، و جوزوا النار بكفرهم و استهزائهم.

[١٠٨] لقد كان ذلك حال الكافر، فما هو حال المؤمن؟ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا بِالْأَصُولِ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ التى تصلح للسعادة كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ الْفَرْدَوْسِ هى الجنة التى يجتمع فيها الملاذ، من أشجار و أنهار و أزهار و أطياف نُزُلًا منزلا مهيا لهم.

[١٠٩] فى حال كونهم خَالِدِينَ دائمين فيها أبدا لا- يَبْغُونَ لا- يطلبون عنها عن تلك الجنات حَوْلًا تحولا إلى موضع آخر لطيبها و ملاذها.

[١١٠] ثم يأتي السياق ليندد بالكفار الذين ينكرون كل شيء استنادا إلى علمهم المحدود، و كأنهم يعلمون كل شيء، ألا فليعلم البشر أن علمه لا شيء، في مقابل مخلوقات الله التي لا حد لها، ويصور هذا الخلق الذي لا يتناهى في مثال «إن البحر لو كان مدادا، و كتب به كلمات الله بقيت الكلمات، و نفذ البحر» فكيف يمكن للإنسان أن ينكر الجنة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٥

[سورة الكهف (١٨): آية ١١٠]

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

أو النار، أو سائر ما يخبر به الأنبياء مما وراء الغيب، قُلْ يا رسول الله لَوْ كَانَ الْبَحْرُ أَى جنس البحر ليشمل جميع البحار مَدَادًا لَكِتَابَةُ كَلِمَاتُ رَبِّي مَا أَظْهَرَهُ وَأَلْقَاهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، فَإِنَّهَا كَلِمَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، تَشْبِيهُهَا بِالْكَلَامِ الَّذِي يَلْقِيهِ الْإِنْسَانُ وَيُظْهِرُهُ فِي الْخَارِجِ لَنَفِدَ مَاءُ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي فِي الْكِتَابَةِ، فَإِنَّهَا تَبْقَى غَيْرَ مَكْتُوبَةٍ كَلِمَاتُهَا، وَ قَدْ خَلَصَ وَ تَمَّ مَاءُ الْبَحْرِ وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ أَى بمثل البحر مَدَادًا لَهُ وَ عَوْنًا، فَإِنَّ كَلِمَاتُ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَنْفَدَ بِحَارِ الْعَالَمِ، وَ بِحَارِ أُخْرٍ تَمُدُّهَا.

[١١١] و أخيرا يوجز القول حول التوحيد و الرسالة و المعاد، مما كان مرمى السورة من أولها إلى آخرها قُلْ يا رسول الله إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ فِي الْأَكْلِ وَ الشَّرْبِ وَ الْمَلَامَسَةِ وَ غَيْرِهَا مِنَ الشُّؤُنِ الْبَشَرِيَّةِ، فَلَسْتُ مَلِكًا أَوْ غَيْرِهِ، وَ إِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيَّ فَلَوْجَهَةٌ رُبَطَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ جَعَلَنِي مُسْتَعِدًّا لِتَلْقَى الْوَحْيَ وَ خَصَّنِي اللَّهُ بِذَلِكَ مِنْ بَيْنِكُمْ، وَ أَهَمَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ هُوَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ لَا- شَبِيهَ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ أَى يطمع في ثوابه و حسن جزائه فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا يَسْعَدُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا فلا يجعل له شريكا في العبادة، كما لا يجعل له

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٦

شريكا في الألوهية، و الإسلام كله يتلخص في هذه الأمور الأربعة، التوحيد و شؤونه التي منها العدل و الرسالة، و شؤونها التي منها الإمامة، و المعاد ..، و ثم العمل الصالح، بلا شرك عبادي، فالعبادة له وحده، كما أن الألوهية له وحده، و قد ورد، أن من الشرك الرياء «١»

(١) ثواب الأعمال: ص ٢٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٧

١٩ سورة مريم مكية / آياتها (٩٩)

سميت بهذا الاسم لاشتغالها على اسم مريم أم عيسى و قصتها، و هي مكية، و لذا تراها تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية، و حيث ختمت سورة الكهف بذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» افتتحت هذه السورة، بذكر بعض الأنبياء السابقين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين في بدء أمورنا باسم الإله الرحمن الرحيم، ليتفضل علينا بالرحمة في الدنيا و في الآخرة، فإن ذكر صفة من صفات الكريم تدل- تلميحا- إلى تطلب الذاكر من تلك الصفة، إذ الإنسان لا يخصص صفة بالذكر، إلا و هو مرید للنيل منها، فإذا قال المجرم أيها الغافر، أراد الغفران، و إذا قال الفقير أيها الغني، أراد الثروة، و هكذا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٨

[سورة مريم (١٩): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١) ذِكْرٌ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)

[٢] كهيعص أى أن «كاف» «هـاء» «ياء» «عين» «صاد» هى التى يركب منها هذا القرآن، فإن القرآن مركب من هذه الحروف و أمثالها، و هنا حذف الخبر، بخلاف مثل «الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ» و قد عرفت أن فى فواتح السور أقوالا و ما ذكرناه أحدها، و هناك قول آخر أنها رموز و لا تنافى بين القولين و لا بين سائر الأقوال،

و قد ورد أن «كاف» اسم كربلاء و «هـاء» هلاك العترة و «ياء» يزيد و «عين» عطش الآل عليهم السلام و «صاد» صبرهم «١»، فهى كالرموز اللاسلكية التى تختار لمعرفة الطرفين دون سواهم لحكمة.

[٣] هذا الذى نريد بيانه ذِكْرٌ و خبر رَحْمَتِ رَبِّكَ ل عَبْدَهُ زَكَرِيَّا النبى عليه السلام و المراد برحمة الله له استجابته دعاء زكريا حين سأله الولد، فقد تفضل عليه سبحانه ييحى عليه السلام.

[٤] و قد كانت الرحمة إِذْ نَادَى حين دعا زكريا رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا دعاء فى خفيه لم يجهر به، و لعل سر الإخفاء، أن الناس لو علموا بأنه يطلب الولد سخروا منه؟، كيف يسأل الولد و هو شيخ فان؟، أم كيف بقى فى نفسه بقايا من طلب الملمات ..؟

[٥] قَالَ زَكَرِيَّا فِي دُعَائِهِ يَا رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي أَيْ ضَعْفَ عَظْمِي، و إسناد الضعف إلى العظم، أبلغ فى الدلالة على الضعف، إذ العظم الذى هو أصلب شىء فى الجسم، إذا ضعف ضعفت سائر

(١) بحار الأنوار: ج ٨٨ ص ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٢٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥ الى ٦]

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) الأَشْيَاءَ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا فَإِنَّ الشَّيْبَ وَالْبَيَاضَ، إِذَا ظَهَرَ فِي الرَّأْسِ وَغَمَرَهَا، كَانَتِ الرَّأْسُ كَالْمَشْتَعَلِ فِي التَّلَاقُوتِ وَالْبَرِيقِ، وَهَذَا أَبْلَغُ، مِنْ «اشْتَعَلَ الشَّيْبَ فِي الرَّأْسِ» وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ بِدُعَايِكَ إِيَّاكَ فِيمَا مَضَى، يَا رَبِّ شَقِيًّا مَخِيبًا مَحْرُومًا، فَإِنَّكَ قَدْ عَوَدْتَنِي الإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، يَا رَبِّ شَقِيًّا مَخِيبًا مَحْرُومًا، فَإِنَّكَ قَدْ عَوَدْتَنِي الإِجَابَةَ فِيمَا مَضَى، وَأَنَا فِي سِنِّ الشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ، فَلَا بَدَّ أَنْكَ لَا تَحْرَمْنِي هَذَا الدُّعَاءَ وَأَنَا فِي حَالِ الْمَشِيْبِ وَالضَّعْفِ.

[٦] و إذ ذكر عليه السلام حاله المستحق للترحم و رجائه الذى عوده باريه باستجابته دعائه بين ما يخشاه و ما يطلبه و إِنِّي يَا رَبِّ خِفْتُ الْمَوَالِيَ جَمْعُ مَوْلَى، وَ هُوَ الْأَوْلَى بِالتَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ بَعْدَ الْإِنْسَانِ بِالْإِرْثِ، مِنْ وَرَائِي أَيْ مِنْ خَلْفِي الَّذِينَ يَرِثُونَنِي، أَخْشَاهُمْ أَنْ لَا يَعْمَلُوا، بِمَا يَبْقَى لَهُمْ مِنْ عَالِي وَجْهِ الصَّلَاحِ وَ كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا أَيْ لَا تَلِدُ، فَلَيْسَ لِي مِنْهَا أَوْلَادٌ حَتَّى يَقُومُوا بِوَجِبِ تَرَاثِي مِنْ بَعْدِي مِنَ الصَّلَاحِ وَ الإِصْلَاحِ فَهَبْ لِي يَا رَبِّ مِنْ لَدُنْكَ أَيْ مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا وَلِدًا يَلِي أُمُورِي مِنْ بَعْدِي، وَ يَكُونُ هُوَ الْأَوْلَى بِمِيرَاثِي.

[٧] يَرِثُنِي ذَلِكَ الْوَلِيُّ وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ لَعَلَّ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أُمِّ الْوَلَدِ، أَيْ زَوْجَتِهِ زَكَرِيَّا، فَقَدْ كَانَتِ خَالَتُهُ «مَرِيْمًا» مِنْ نَسْلِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَ لَذَا كَانَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ نَسْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٠

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧ الى ٨]

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)

إبراهيم، و قال «آل يعقوب» لاحترامهم بكون الأنبياء فيهم و اجعلهُ أى اجعل ذلك الولد يا رَبِّ رَضِيًّا مرضيا عندك، ممثلاً لأمرك، فلا يكن فاسداً، لا يصلح لإرثي، و الرضى صفة لنفس الولد، لكنها تلازم كونه مرضيا.

[٨] و قد استجاب الله دعاءه فداده يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ لَدَى اسْمِهِ يَحْيَىٰ وَلَعَلَّهُ سَمَاهُ سَبْحَانَهُ بِهَذَا الاسْمِ، كناية عن أنه يحيى حياة صالحة لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا فلم يسمى أحد ولده بهذا الاسم، و إنما ابتكر هذا الاسم لولدك تكريماً لك، فإن لكل جديد لذة و لكل تخصيص كرامة.

[٩] و لقد فوجئ زكريا بهذه الاستجابة المسرة، كيف يكون له ولد، و هو شيخ، و امرأته عاقرة لم تلد فى شبابها، فكيف و أنها شاخت و هرمت؟

و لذا أراد السؤال عن الكيفية قال زكريا يا رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ أَي كيف يكون لى غلام، و لعل سؤاله كان حول رجوعه شاباً، أو عن امرأة جديدة، أو بهذه الحالة عن هذه المرأة العاقرة؟ وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا لَا تَلِدُ وَ قَدْ بَلَغَتْ أَنَا مِنَ الْكِبَرِ فِي الْعَمْرِ عِيًّا الْعَتَى هُو الذى بلغ به طول العمر إلى حالة اليبس و الجفاف، كأنه ليس فيه مادة صالحة لنشأة الولد؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩ الى ١١]

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

[١٠] قال سبحانه فى جوابه كَذَلِكَ أى بهذه الحالة نعطيكما الولد قال رَبُّكَ هُوَ أى إعطاء الولد فى هذه الحال- حال كبرك، و كون زوجك عاقراً- عَلَيَّ هَيِّنٌ أى سهل يسير، و القائل هو الله سبحانه، و قد جرت العادة أن يذكر الشخص اسمه، فيقول محمد لأولاده مثلاً:

يقول لكم محمد، أن لا تجالسوا الأشرار، يريد نفسه و قد خَلَقْتُكَ يا زكريا مِنْ قَبْلُ أى سابقاً و لَمْ تَكُ شَيْئًا أصلاً فإعطاء الولد من كبيرين أهون من خلق الإنسان من العدم، فإن من قدر على ذلك الأصعب- فى نظرك- يقدر على هذا الأسهل.

[١١] قال زكريا عليه السّلام يا رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً أى علامة دالة على وقت صيرورة الولد الذى بشرتنى به قال الله تعالى آيَتُكَ علامتك التى تدلك على وقت صيرورة الولد أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ أى لا- تتمكن من الكلام مع الناس ثلاث ليالٍ و فى سورة آل عمران ثلاثة أيام، و من ذلك يظهر أن عدم تمكنه عليه السّلام من التكلم مع الناس، كان ثلاثة أيام بلياليها سَوِيًّا فى حال كونك سوى الخلق ليس بك خرس أو آفه، فإذا أردت التسييح و الذكر تمكنت من ذلك، و إذا أردت التكلم مع الناس، لم تتمكن، و قد كان هذا يناسب حال زكريا المقتضى للانقطاع إلى الله سبحانه يذكره، و يشكره، على أن أنعم عليه بهذه النعمة.

[١٢] و كأن زكريا عليه السّلام كانت له غرفة خاصة فى بيت المقدس، و كان قد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٢ الى ١٣]

يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً وَ كَانَ تَقِيًّا (١٣)

بشر العباد بما بشر به، و ذكر لهم العلامة، فلما اعتقل لسانه، أراد أن يفهمهم الأمر ليشار كوا معه فى الذكر و التسييح، فإن الإنسان يذكر الله عند ما يرى من العجائب فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ غُرْفَتِهِ الْمَسْمُومَةِ الْمِحْرَابِ و يسمى محل الصلاة محراباً، لأنه محل محاربة الإنسان مع الشيطان، يريد الشيطان أن يصدّه عن الصلاة، و هو يحاربه حتى يصلى فأَوْحَى أى أشار زكريا عليه السّلام إِلَيْهِمْ بدون أن يتكلم، لأنه لم يكن يقدر على الكلام مع الناس أن سَبِّحُوا الله سبحانه بُكْرَةً أى صباحاً و عَشِيًّا أى مساءً.

[١٣] فولد يحيى و كبر حتى صار صبياً، و إذا به يسمع النداء من قبل الله سبحانه يا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ أى التوراة بِقُوَّةٍ بأن تعمل بها

بكل استقامة، و المراد بالقوة، القوة النفسية، التي لا يقف دونها شيء لمن عزم و صمم و آتيناؤه الحُكْم النبوة، لأنها توجب أن يحكم الشخص بين الناس، فيأمرهم، و ينهاهم، و يفصل قضاياهم صَبِيًّا في حال كونه صبيا، فإن الله كما قدر على أن يمنحه لوالديه بعد الهرم، قدر على أن يتفضل عليه بمؤهلات النبوة.

[١٤] و آتيناها حَنَانًا و عطفًا و شفقةً على الناس، كما هو من لوازم النبوة، حتى يتمكن من إرشاد الناس، فإن أول مؤهلات المرشد، أن يكون ذا حنان و عطفٍ مِنْ لَدُنَّا أى من عندنا، و الإضافة إليه سبحانه- و إن كان كل حنان من عنده- للتشريف و آتيناها زَكَاةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٤ الى ١٥]

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

أى طهارة و عفة و نموًا و كَانَ تَقِيًّا يتقى المحارم و الآثام.

[١٥] و آتيناها بَرًّا و إحسانًا بِوَالِدَيْهِ فكان بارًا بهما محسنا إليهما و لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا أى متكبرا متطاولا على الناس يجبرهم على حسب شهواته، و هذه الصفة «الجبار» ليست حسنة، إلا من الله سبحانه، و معناها فيه، إنه يأمر الخلق و ينهاهم حسب المصلحة، و هو القاهر فوقهم يميتهم و يحييهم حسب الحكمة، كما تطلق عليه سبحانه بمعنى جبر الكسر، و من هذا قال العباس بن علي عليه السلام، لما قطعوا يساره:

يا نفس لا تخشى من الكفارو أبشرى برحمة الجبار «١»

جبر الكسر، مع قطع اليد و كسرها عَصِيًّا أى عاصيا لربه، فإن فعيل قد يأتي للفاعل، و قد يأتي للمفعول نحو جريح بمعنى المجروح. [١٦] وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ أى على يحيى، و المراد بالسلام السلامة، فى هذه الأيام الثلاثة، التى نقرر كل يوم منها مصيرا طويلا يَوْمَ وُلِدَ فإن يوم الولادة يقرر مصير الحياة، فإذا ولد الإنسان سالما من العيوب، كان سالما ما دام العمر،- إلا أن يحدث حدث عليه- و إن ولد معيوبًا كأن كان أعمى أو أعرج أو ما أشبهه، تكبد طول حياته ذلك و يَوْمَ يَمُوتُ فإن الإنسان إذا سلم هذا اليوم من عذاب الله سبحانه، كان سالما فى

(١) بحار الأنوار: ج ٤٥ ص ٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (١٨)

البرزخ الطويل الأمد و يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا أى يحيى للحساب و الجزاء، فإذا سلم فى ذلك اليوم، كان سالما من العذاب و الشقاء أبد الدهر، و هذا هو معنى السلام على الميت، يعنى لتكن سالما من العذاب هناك فى قبرك و آخرتك.

[١٧] وَ اذْكُرْ يا رسول الله فى الْكِتَابِ أى القرآن مَرْيَمَ أى قصة مريم الطاهرة، و ولادتها لعيسى عليه السلام من غير أب إذ حين اتَّيَدَتْ النبذ أصله الطرح، و الانتباز منه، إلا أنه يستعمل بمعنى التنحي يقال: انتبذ فلان ناحية أى تنحى ناحية، كأنه طرح فيها، و المراد أن مريم انفردت و تنحت مِنْ أَهْلِهَا أبويها، و سائر قراباتها مَكَانًا شَرْقِيًّا طرف مشرق الأهل، بحيث كان أهلها فى طرف الغرب، و هى فى وجهة شرقهم، و لعلها أرادت الاغتسال، و لذا اختارت هذا الطرف، حتى لا تتأذى بالبرد، بل تشرق الشمس عليها- و هذا هو المستفاد من كلام بعض المفسرين.-

[١٨] فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ دُونَ الأهل حِجَابًا سترًا ضربته ليحجبها عن أهلها، و هذا يؤيد الاحتمال السابق فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا أى روحا

من طرفنا- و الإضافة للتشرف- و كان ذلك الروح جبرائيل عليه السّلام، و قد كان استحاش مريم شديدا حين رأت الروح فَتَمَثَّلَ الروح لها لمريم عليه السّلام بَشْرًا سَوِيًّا أى شابا مكتملا غير ناقص الخلق.

[١٩] و اضطربت مريم عليها السّلام لهذا الحادث المدهش، فاستعادت بالله من شر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ١٩ الى ٢١]

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)

الرجل، لأنها لم تعرفه، و قد جرت العادة، أن مثل هذا الرجل يقصد السوء قالت مريم عليها السّلام إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ أَيُّهَا الرجل إِن كُنْتَ تَقِيًّا فَإِن التقي إذا خوف خاف بخلاف الشقى الذى لا يرعوى، و لو بألف تخويف و إنذار، كما تقول إن كنت مؤمنا لا تفعل كذا.

[٢٠] قَالَ جبرائيل عليه السّلام فى جوابها يعرفها بنفسه، لست أنا إنسانا تخافين منه إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ مرسل من طرفه إليك يا مريم لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ولدا طاهرا طيبا.

[٢١] فازداد تحير مريم عليها السّلام، فسألت قَالَتْ أَنَّى كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلِدٌ وَالحال أنه لَمْ يَمَسِّنِي عَلَى وجه الزوجية بَشْرٌ و هل الغلام، إلا من الزوجين بعد الملامسة و لَمْ أَكُ بَغِيًّا أى زانية، فإن الولد فى العادة يكون بأحد هذين الطريقتين، و لم يك أحدهما.

[٢٢] قَالَ جبرائيل عليه السّلام فى جواب سؤال مريم عليها السّلام كَذَلِكَ أى كذا الذى ذكرت لك ف «الكاف» حرف جر للتشبيه و «ذا» للإشارة و «لك» للخطاب قَالَ رَبُّكِ هُوَ أى إعطاء الولد من غير أب عَلَى هَيِّنٍ سهل لا يحتاج إلى الكلفة و لِنَجْعَلَهُ نجعل هذا الولد آيَةً لِلنَّاسِ حجة من عندنا على الناس، فإن عيسى عليه السّلام كان حجة الله على البشر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٦

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا (٢٣) وَرَحْمَةً مِنَّا عَلَى البشر نرحمهم به و نهديهم إلى الطريق بسببه و كَانَ إِعْطَاؤُكَ الولد أَمْرًا مَقْضِيًّا أى كائنا مفروغا منه محتوما، فلا ينفع التكلّم لدفع هذا القضاء.

[٢٣] فنفخ جبرائيل فى جيب مريم عليها السّلام، فاكتمل عيسى فى بطنها فى الساعة بقدره الله تعالى فَحَمَلَتْهُ أى حملت مريم بعيسى عليه السّلام فَانْتَبَدَّتْ بِهِ تحت مريم بالولد- أى معه- مَكَانًا قَصِيًّا أى محلا بعيدا عن أهلها، لئلا يروها على حالة الحمل، و لقد كانت مدة حملها تسع ساعات، و فى بعض الروايات، أنها جاءت إلى كربلاء من بيت المقدس، بقدره الله تعالى، و هو المراد بالمكان القصى «١» [٢٤] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ أى أوجها الطلق، و هو وجع الولادة إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ لتستند إليها، و الجذع ساق النخلة، و حيث فكرت فى حالتها أخذت الدهشة منها كل مأخذ، و لذا قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الحادث قالت ذلك حياء و خجلا و تحيرا، و «مت» بكسر الميم من «مات يميت» على وزن «تعب» و من أخذه من «مات يموت» احتاج إلى التكلف و كُنْتُ نَسِيًّا أى ما من شأنه أن ينسى مَنَسِيًّا ذكرى عند الناس لا يذكرنى أحد، و هناك جاءت بعيسى عليه السّلام وليدا كاملا جميلا.

(١) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٥١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٧

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٤ الى ٢٦]

فناداها مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَبِيًّا (٢٥) فَكَلِمَىٰ وَاشْرَبِي وَقَرَىٰ عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْ سِيًّا (٢٦)

[٢٥] فناداها عيسى عليه السّلام، أو جبرائيل، مِنْ تَحْتِهَا أى أسفل منها، فإنها كانت على أكمه، و لعل هذا يرجح كون المراد بالمنادى عيسى عليه السّلام- كما اختاره سعيد بن جبير- أَلَّا تَحْزَنِي من هذه الحادثة، و الحزن هو الغم الكامن فى النفس قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ يا مريم تَحْتَكِ أى الأسفل منك سَرِيًّا أى جدولا ساريا،

و قد قال الإمام الباقر عليه السّلام إن عيسى عليه السّلام ضرب برجله الأرض، فسار الماء «١»

[٢٦] وَهَزَىٰ يا مريم إِلَيْكَ أى اجذبى نحو نفسك بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ليقع فيها الهز تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جديدا حَبِيًّا طريا، قد جنى الساعة، و الحلو خصوصا الرطب من أفضل ما تتغذى به المرأة التى ولدت.

[٢٧] فَكَلِمَىٰ من الرطب وَاشْرَبِي من ماء الجدول وَقَرَىٰ عَيْنًا طبيى نفسا بهذا الولد، و ذلك، لأن الإنسان المذهول تطير عينه هنا و هناك، أما مطمئن النفس فإنه تفر و تستقر عينه، حسب الموازين العقلانية فَمَا أَصْلَهَا «إن» الشرطية و «ما» الزائدة للتجميل، ثم أدغمت النون فى الميم تَرَيْنَ مضارع، من رأى مؤكدا بالنون الثقيلة مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فسألَكَ عن الولد، من أين أتيت به، و أنت غير متزوجة؟ فَقُولِي الظاهر، أن المراد الإشارة بهذا المعنى، لا لفظ القول، فإن

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٨

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) القول يستعمل للعمل و الإشارة، كما يستعمل اللفظ إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا و قد كان الصوم بمعنى الكف عن الكلام، كما كان كفا عن الطعام، و أمره سبحانه ب «قولى» يفيد لزوم أن تنذر هذا الصوم، و لذا نذرت ذلك فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْ سِيًّا منسوب إلى الإنس، لإفادة الوحدة، و لعل ذلك، لأجل أن لا تقع فى المجادلة مع الناس، و الاكتفاء بكلام عيسى الرضيع.

[٢٨] و هنا و قد رأت مريم عليها السّلام، المعجزات الباهرات، و ها هو وليدها الذى يتكلم على خلاف العادة، معها حجة قاطعة على براءتها فَأَتَتْ مريم عليها السّلام بِهِ أى بعيسى عليه السّلام قَوْمَهَا أى إلى قومها تَحْمِلُهُ على يديها، و لما رآها القوم، استنكروا طفلها ف قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا أى أمرا عظيما عجيبا، من فرى بمعنى قطع، كأن من يأتى بشيء عجيب، قد قطع مدحشا، لا يلائم سائر الأشياء، و منه الافتراء.

[٢٩] يَا أُخْتَ هَارُونَ

روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن هارون كان رجلا صالحا فى بنى إسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح «١»، و على هذا كان المعنى يا شبيهة هارون فى الصلاح، كيف أتيت بهذا الولد، من غير زواج و لا نكاح ما كَانَ أَبُوكَ عمران امْرَأَ سَوْءٍ يعمل القبيح

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٣٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٢٩ الى ٣١]

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمُهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)

وَمَا كَانَتْ أُمِّكَ بَعِيًّا أَي زَانِيَةً، فَأَنْتَ مِنْ أَبَوَيْنِ صَالِحِينَ، فَكَيْفَ جِئْتَ بِهَذَا الْوَلَدِ مِنْ غَيْرِ أَبِي؟

[٣٠] فلم تجب مريم عليها السلام لكلامهم وإنما فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ أَي إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَاتَ بِأَنْ كَلِمُوهُ، وَاسْأَلُوا مِنْهُ مَا شِئْتُمْ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ إِشَارَتِهَا، وَقَالُوا كَيْفَ نَكَلَّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا وَقَوْلُهُمْ فِي الْمَهْدِ، يَرَادُ الشَّأْنِيَّةُ، لَا الْفَعْلِيَّةُ، وَهَلْ طِفْلٌ شَأْنُهُ أَنْ يُوَضَعَ فِي الْمَهْدِ يَتَكَلَّمُ؟

[٣١] وَهَذَا أَنْطَقَ اللَّهُ عِيسَى لِيُدْفَعَ عَنْ أُمِّهِ، وَبِإِرَائِ سَاحَتِهَا، وَبِقَطْعِ الْجِدَالِ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَ قَدْ كَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ هَذَا، لِيُفْنِدَ مِزَاعِمَ الَّذِينَ يَأْتُونَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ اللَّهُ آتَانِي الْكِتَابَ أَي أَعْطَانِي الْإِنْجِيلَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ظَاهِرَ اللَّفْظِ أَنَّهُ قَدْ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَالنَّبُوَّةَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ السَّنِ، وَهَذَا غَيْرُ غَرِيبٍ، فَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ، كَانُوا أَنْوَارًا، قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا.

[٣٢] وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ذَا بَرَكَهٍ وَخَيْرَ أَيْنَ مَا كُنْتُ فليس كالثري، أو ذى الجاه الذى لا-خير له، إذا لم يكن عند ثروته، و فى محل منصبه، بل يعلم الخير و يشفى المرضى، أينما كان وَأَوْصَانِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ بِأَنْ أُصَلِّيَ وَأَنْفَقَ مَا دُمْتُ حَيًّا مَا بَقِيَتْ مَكْلَفًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٠

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)

[٣٣] وَجَعَلَنِي بَرًّا أَي بَارًا بِوَالِدَتِي مَرِيْمَ الطَّاهِرَةَ وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُتَجَبِّرًا طَآغِيًا شَقِيًّا مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، فَإِنِّي بَلُطْفِهِ وَ كَرَمِهِ كُنْتُ هَكَذَا، وَ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ الْجَبَابِرَةَ الْأَشْقِيَاءَ كَذَلِكَ، بَلْ إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَتْرِكُهُمْ، إِذَا رَأَى مِنْهُمْ الْإِنْحِرَافَ، حَتَّى يَضْلَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَ تَرْدِيهِمُ النَّفْسَ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ.

[٣٤] وَ السَّلَامُ أَي السَّلَامَةُ مِنَ الْعَاهَاتِ الْجَسْمِيَّةِ وَ الرُّوحِيَّةِ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ، وَ يَوْمَ أُمُوتُ بَعْدَ مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَ يَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا فِي الْقِيَامَةِ، وَ قَدْ مَرَّ وَجْهَ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٣٥] وَ إِذْ أَتَمَّ السِّيَاقَ قِصَّةَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِيمَا هُوَ مَحَلُّ الْحَاجَّةِ، عَطَفَ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُ اللَّهُ، أَوْ ابْنُ اللَّهِ أَوْ شَرِيكُ اللَّهِ، وَ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِيهِ السُّوءَ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ أَحْوَالَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الَّذِي جَاءَ إِلَى الدُّنْيَا، وَ كَانَ صَاحِبَ شَرِيْعَةٍ، ثُمَّ رَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ قَوْلَ الْحَقِّ أَي أَقُولُ قَوْلَ الْحَقِّ، أَوْ خَذَهُ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ أَي يَشْكُونَ، فَزَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهُ لَغَيْرِ رَشْدِهِ، وَ كَانَ سَاحِرًا كَذَابًا، وَ زَعَمَتِ النَّصَارَى أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَ أُمَةٌ ثَالِثُ الْأَقَانِيمِ، فَإِنَّ كَلَامَ الْقَوْلَيْنِ بَاطِلٌ، لَا يَدُلُّ عَلَيْهِمَا دَلِيلٌ، بَلْ الْعَقْلُ دَلٌّ عَلَى خِلَافِ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ الزَّائِفَيْنِ، وَ قَوْلُهُ «يَمْتَرُونَ» مِنَ الْمَرِيَّةِ، وَ هُوَ الشُّكُّ وَ إِنَّمَا سُمِّيَ شَكَا مَعَ أَنَّهُمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ يَوْقِنُونَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ مَا خَالَفَ الْوَاقِعَ كَانَ بِالشُّكِّ أَشْبَهَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)

[٣٦] مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ فَإِنَّ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ حَقِيقَةٌ مَحَالٌّ، وَ الْوَلَدُ تَشْرِيْفًا، بِأَنْ يَتَّبِنِي، خِلَافَ شَأْنِهِ سَبْحَانَهُ، وَ «مِنْ» لِإِفَادَةِ النَّفْيِ مُطْلَقًا، وَاحِدًا كَانَ الْوَلَدُ أَمْ مُتَعَدِّدًا سُبْحَانَهُ أَي أَنْزَهَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ تَنْزِيْهِهَا، وَ لَيْسَ أَمْرٌ عَجِيبٌ وَوَلَادَةٌ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا قَضَى أَمْرًا وَ أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ لِلشَّيْءِ الَّذِي أَرَادَهُ كُنْ إِمَّا لَفْظًا، أَوْ ذَلِكَ حِكَايَةٌ عَنِ إِرَادَتِهِ تَعَالَى فَيَكُونُ ذَلِكَ

الشيء.

[٣٧] ثم أتم الكلام سبحانه حول قصة عيسى عليه السلام بقوله و أوصاني إنَّ اللهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ أيها البشر، فلست أنا إلهاء، و هل يبقى بعد شهادة عيسى كلام؟ فأعْبُدُوهُ وحده هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا عوج فيه، و لا انحراف، و من الظريف أن كتاب «العهدين» مشتمل على تصريح عيسى، بأن الله ربه، بل لقد زاد النصارى، أن لمريم أم عيسى زوجها يسمى «يوسف» و مع ذلك، قالوا بأنه الله، أو أنه ابن الله.

[٣٨] و مع هذه الحجج عقليها، و شرعيها، لم يقنع النصارى فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمُ الْأَحْزَابُ جمع حزب، و هو الفئة من الناس، ذات لون واحد في العقيدة، أو العمل، أى من بين أهل الكتاب، فقالت يعقوبية منهم، هو الله، و قالت النسطورية منهم هو ابن الله، و قالت الإسرائيلية منهم ثالث ثلاثة فَوَيْلٌ أَى شدة العذاب، فإن ويل كلمة و عيد لِلَّذِينَ كَفَرُوا بالله، و اتخذوا عيسى ربا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا يُزْجِعُونَ (٤٠)

أو شريكا، أو ابنا له مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أى من محضر، أو هو مصدر ميمي، أى من حضورهم فى يوم عظيم هو يوم القيامة، فإنهم يفضحون و يعاقبون على رؤوس الأشهاد.

[٣٩] إن الكافرين فى يوم القيامة، حيث لا- ينفعهم السمع و البصر، يكونون أقوى الناس سماعا و إبصارا، أما فى الدنيا، و حيث أن السمع و البصر وسيلة الهداية و السعادة، فإنهم لا يسمعون، و لا يبصرون أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ بِهِمْ، أى ما أسمعهم و أبصرهم، و ذلك صيغة التعجب على معنى ما أسمعهم و أبصرهم يَوْمَ يَأْتُونَنَا أى فى القيامة لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فى الدنيا فى ضلالٍ مُبِينٍ لا يسمعون الهدى، و لا يبصرون الطريق.

[٤٠] وَ أَنْذِرْهُمْ أى أُنذِر يا رسول الله الناس، يَوْمَ الْحَسْرَةِ يوم يتحسر الإنسان، و يندم على ما فات منه من السعادة إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ حين فرغ من الأمور، و انقطعت الآمال، فالمؤمن يتحسر على أنه لم لم يعمل أكثر؟ و الكافر و العاصى يتحسران، على أنه لم كفر و عصى، حتى يلقي العذاب و الهوان وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ الْآنَ فى الدنيا عن ذلك وَ هُمْ لَا- يُؤْمِنُونَ حتى لا يتحسروا هناك حسرة الكافر على ما قدمت يداه.

[٤١] إنه لا بد و أن يأتى ذلك اليوم حين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا فَكُل ما فى الأرض ما ليس ملكا لإنسان، و كل ما فيها مما هو ملك البشر، يبقى هنا بدون مالك، و لفظه «نحن» للتأكيد، كما إن إرث الأرض كناية عن عدم وجود إنسان فيها، حتى تكون الأرض محتملة لحيازته و إِنَّا يُزْجِعُونَ بأعمالهم، حيث لا يملك الأمر و النهى غيرنا، فنجازيهم عليها.

[٤٢] وَ اذْكُرْ يا رسول الله فى الْكِتَابِ أى فى القرآن إِبْرَاهِيمَ و ليس الذكر إنشاء الإنسان الكلام، حتى يقال إن الله هو الذاكر لا الرسول، بل الذكر هو أن يذكر شيئا سواء كان منشأ له أم ناقلا، و قد جاءت قصة إبراهيم لتفنيد مزاعم العرب الذين عبدوا الشركاء، و تذكيرهم، بأن إبراهيم جدتهم هو الذى حارب الشرك، كما جاءت قصة عيسى عليه السلام من قبل لتفنيد مزاعم النصارى، حيث يجعلون لله ولدا، و بيان أن عيسى المسيح عليه السلام لم يكن ابنا لله، و إنما كان عبدا رسولا إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا كثير التصديق لله سبحانه فى جميع الأمور أو كثير الصدق نَبِيًّا مرسلا من قبل الله سبحانه، و هو من النبوة بمعنى الرفعة، أو من النبأ بمعنى الخبر، لأن النبى رفيع

الشأن مخبر عن الله سبحانه.

[٤٣] اذكره إذ قال حين قوله لِأَبِيهِ أَي لِعَمِّهِ آزر، فَإِنَّ الْعَادَةَ أَنْ يُسَمَّى الْعَمُّ أَبَا، كَمَا تُسَمَّى الْخَالَةُ أُمًّا يَا أَبَتِ أَي يَا أَبِي وَالتَّاءُ عَوْضٌ عَنِ الْيَاءِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

و فِي النَّدَاءِ أَبْتُ، أُمَّتٌ عَرَضٌ وَ اكسِرْ أَوْ افْتَحْ وَ مِنْ الْيَاءِ النَّدَاءُ عَوْضٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

لَمْ تَعْبُدْ أَي لِمَاذَا تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ أَي الصَّنَمَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَلَا يُبْصِرُ شَيْئًا وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا أَي لَا يَكْفِيكَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِكَ يُقَالُ أَغْنَى عَنْهُ، إِذَا جَلَبَ إِلَيْهِ نَفْعًا، أَوْ دَفَعَهُ عَنْهُ ضَرَرًا؟

[٤٤] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ بِالْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَلَسْتَ أَنْتَ تَعْلَمُ حَوْلَ الْمَبْدَأِ، وَ الْمَعَادِ وَ الْكُونَ مَا أَعْلَمُهُ أَنَا فَاتَّبِعْنِي فِيمَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ أَهْدِيكَ صِرَاطًا سَوِيًّا أَي مُسْتَقِيمًا لَا عَوْجَ فِيهِ وَ لَا انْحِرَافَ وَ هُوَ صِرَاطُ الْحَقِيقَةِ فِي بَابِ الْمَبْدَأِ، وَ سَائِرِ الشُّؤْنِ لَا الضَّلَالِ، كَمَا عَلَيْهِ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ.

[٤٥] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ لَا تَطْعُهُ، فَإِنَّ مِنْ يَطْعُهُ أَحَدًا يَكُونُ كَالْعَابِدِ لَهُ، إِذَا الْعَابِدُ يَطْعِي الْمَعْبُودَ، فَهُوَ مُجَازٌ مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ، وَ مِثْلُهُ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا أَي عَاصِيًّا، فَكَيْفَ تَطْعِي مَنْ يَعْبُدُ الْهَيْكَلِ وَ خَالِقَهُ؟ وَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ آزَرَ مُعْتَرِفًا بِاللَّهِ، وَ إِنَّمَا يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ، وَ لِذَا نَفَّرَهُ إِبْرَاهِيمَ عَنِ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ بِأَنَّهُ عَاصٍ لِلَّهِ.

[٤٦] يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ أَي يَلَامَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الرَّحْمَةِ وَ التَّفَضُّلِ، يَعْذِبُكَ، بِمَا تَخَالَفَهُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)

وَ تَطْعِي الشَّيْطَانَ، وَ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا بِأَنْ يَكْلِكَ اللَّهُ إِلَى الشَّيْطَانِ، حَتَّى تَكُونَ وَلِيًّا وَ تَابِعًا لَهُ، لَا وَلِيًّا لِلَّهِ وَ تَابِعًا لِإِيَّاهِ، وَ الشَّيْطَانُ لَا يَغْنَى عَنْ وَلِيهِ شَيْئًا، فَتَخْسِرُ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ.

[٤٧] قَالَ آزَرَ، مُجِيبًا لِإِبْرَاهِيمَ فِي دَعْوَتِهِ أَرَاغِبٌ أَي هَلْ تَنْفِرُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي مُعْرِضٌ عَنْهَا يَا إِبْرَاهِيمُ فَإِنْ رَغِبْتَ، إِذَا عَدَى ب «عَنْ» كَانَ بِمَعْنَى النَّفْرَةِ، وَ إِذَا عَدَى ب «فِي» كَانَ بِمَعْنَى الطَّلَبِ، وَ الْاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِي لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ عَنْ دَعْوَتِكَ، وَ إِعْرَاضُكَ عَنِ الْأَصْنَامِ لِأَرْجَمَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ، فَابْتَعَدَ عَنِّي وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا أَي فَارَقْنِي وَ تَنَحَّ عَنِّي دَهْرًا طَوِيلًا، فَإِنَّ الْمَلِيَّ بِمَعْنَى الدَّهْرِ الطَّوِيلِ، مِنْ مَلَوْ، يُقَالُ كُنْتُ عِنْدَهُ مَلَوًْا أَي زَمَانًا طَوِيلًا.

[٤٨] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ آزَرَ سَلَامٌ عَلَيْكَ أَي كُنْ سَالِمًا، وَ هَذِهِ كَلِمَةٌ يَقُولُهَا الْإِنْسَانُ الْحَلِيمُ عِنْدَ مَلَاقَةِ الْجَاهِلِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) «١» وَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَرْقِيقِ الْجَوْ، وَ لِتَلطِيفِ نَفْسِ الْجَاهِلِ الْعَاتِيَّةِ، حَتَّى لَا تَزِيدَهُ الدَّعْوَةَ وَ الْكَلَامَ بَغْضًا وَ عِنَادًا فَوْقَ مَا كَانَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي أَي أَطْلُبُ مِنْهُ الْغُفْرَانَ لَكَ، وَ ذَلِكَ بِأَنْ يَهْدِيكَ حَتَّى تَسْتَحِقَّ الْغُفْرَانَ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَانَ بِي حَفِيًّا لَطِيفًا بَارًا، فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ اسْتِغْفَارِي وَ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٦

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٨ إلى ٥٠]

وَاعْتَرَلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

[٤٩] وَاعْتَرَلْكُمْ أَنْتَحَىٰ عَنْكُمْ - أَنْتَ وَالْقَوْمُ - وَقَدْ سَبَقَ أَنْ دَعَا إِبْرَاهِيمَ الْقَوْمَ، فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمُ الدُّعَاءُ، وَلِذَا قَرَّرَ أَنْ يَعْتَرِلَهُمْ إِلَىٰ مَكَانٍ آخَرَ يَدْعُو فِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَجِيبُونَ الدُّعْوَةَ، فَقَدْ طَافَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِتَرْكِيزِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ - الْعِرَاقَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ وَاعْتَرَلَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيْ أَنْتَحَىٰ عَنِ أَصْنَامِكُمْ، إِذِ الْمَبْتَدِعُ عَنِ الْبَلَدِ، يَتَّعَدُ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ وَأَدْعُوا رَبِّي لَكُمْ بِالْهَدَايَةِ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي لِهَدَايَتِكُمْ شَقِيًّا فَيَسْتَجِبُ دَعَائِي فِي هَدَايَتِكُمْ، أَيْ لَعَلَّهُ سَبَّحَانَهُ يَقْبَلُ الدُّعَاءَ، وَيُرَدِّكُمْ عَنِ الضَّلَالِ إِلَىٰ الْهَدْيِ، وَلَيْسَ هَذَا تَكَرُّارًا، فَإِنَّ مَا سَبَقَ، كَانَ خَاصًّا بِأَزْرِهِ، وَهَذَا عَامًّا لِكُلِّ الْقَوْمِ.

[٥٠] فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ إِبْرَاهِيمَ وَاعْتَرَلَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِأَنْ فَارَقَهُمْ، وَهَاجَرَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، لَمْ نَتْرَكْهُ وَحْدَهُ يَقَاسِي الْوَحْدَةَ، وَالغُرْبَةَ، بَلْ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ بِمَا يُؤْنَسُ وَحَشْتُهُ، وَيَجْمَعُ شَمْلَهُ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَلِدًا صَلِيبًا وَيَعْقُوبَ وَلِدَ الْوَلَدِ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا يَهْدِي النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ، فَقَدْ كَثُرْنَا إِبْرَاهِيمَ عَدَدًا، كَمَا كَثُرْنَا الدُّعْوَةَ الَّتِي دَعَا بِهَا إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، فَشَدَدْنَا أَرْزَهُ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الَّذِينَ يَنْتَهَجُونَ نَهْجَهُ فِي الدُّعْوَةِ.

[٥١] وَوَهَبْنَا لَهُمْ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ رَحْمَتِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٧

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥١ إلى ٥٢]

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)

و تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِسَانَ صِدْقٍ فَقَدْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَتِهِمْ يَصْدُقُهُمُ النَّاسُ، جِزَاءً لِاسْتِقَامَتِهِمْ فِي الدُّعْوَةِ، فِي قِبَالِ ذَلِكَ التَّكْذِيبِ الَّذِي وَاجَهَ الْقَوْمَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ، قَبْلَ الْإِعْتِرَالِ عَلِيًّا أَيْ فِي حَالِ كَوْنِ ذَلِكَ اللَّسَانِ عَلِيًّا رَفِيعًا، يَنْظُرُ إِلَيْهِ النَّاسُ بِرَفْعِهِ، حَتَّىٰ إِذَا قَالَ شَيْئًا أَطَاعُوهُ، وَسَمِعُوا مِنْهُ.

[٥٢] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ، لِتَبْيِينِ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَتَفَضُّلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، إِجْمَالًا بِدُونِ تَفْصِيلِ، إِذِ الْمَقْصُودُ بَيَانُ الدُّعَاةِ وَالْإِعْتِرَالِ وَالدُّعْوَةِ وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ أَيْ إِذْ كُنَّا فِي الْقُرْآنِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا قَدْ أَخْلَصَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ لِنَفْسِهِ، كَمَا قَالَ سَبَّحَانَهُ (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) «١» ف «مُخْلَصٌ» اسْمٌ مَفْعُولٌ مِنْ أَخْلَصَ وَكَانَ رَسُولًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَإِلَى سَائِرِ الْبَشَرِ نَبِيًّا يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ.

[٥٣] وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ الطُّورِ اسْمُ جَبَلٍ كَانَ يَنَاجِي عَلَيْهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ، أَيْ نَادَيْنَاهُ مِنْ طَرَفِ ذَلِكَ الْجَبَلِ، طَرَفُهُ الْأَيْمَنِ لَا الْأَيْسَرَ، وَذَلِكَ حِينَ أَقْبَلَ مِنْ «مَدِينِ» وَرَأَى النَّارَ فِي الشَّجَرَةِ، وَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَمِعَ الصَّوْتَ (يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) «٢»

(١) طه: ٤٢.

(٢) القصص: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٨

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤)

وَقَرَّبْنَا إِلَيْنَا فِي حَالِ كَوْنِهِ نَجِيًّا نَجِيًّا بِكَلَامِ خَفِيٍّ لَا يَسْمَعُهُ غَيْرُهُ، فَقَدْ كَانَ الْقُرْبُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ حِدِّ الْمَنَاجَاةِ وَالْإِسْرَارِ فِي الْأُذُنِ، لَكِنَّ الْمُرَادَ لَيْسَ الْقُرْبُ الْمَكَانِي - فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ مَنَزَهُ عَنِ الْمَكَانِ - وَإِنَّمَا الْقُرْبُ الْمَعْنَوِيُّ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ جَعْلِ نَفْسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ مِنْ تَلْقَى كَلَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَكَلِّمُ بِاللِّسَانِ - لِأَنَّهُ مَنَزَهُ عَنِ الْجِسْمِ وَعَوَارِضِهِ - وَإِنَّمَا يَخْلُقُ الصَّوْتِ، فَيَسْمَعُهُ مِنْ كَمَلَتْ نَفْسُهُ، وَ أَرَادَ سَبْحَانَهُ إِسْمَاعَهُ.

[٥٤] وَ وَهَبْنَا لَهُ أَي لِمُوسَى مِنْ رَحْمَتِنَا وَ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا فَأَنْعَمْنَا عَلَى مُوسَى بِجَعْلِ هَارُونَ نَبِيًّا، يَشُدُّ أَرْزَهُ وَيُسَاعِدُهُ فِي الدَّعْوَةِ، إِجَابَةً لِدَعَائِهِ، حَيْثُ قَالَ (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) «١» [٥٥] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ أَي الْقُرْآنِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ حَزْقِيلَ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ، لَا إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ إِذَا وَعَدَ وَ فِي، وَ لَوْ طَالَتِ الْمُدَّةُ،

فَقَدْ وَرَدَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّهُ إِذَا سَمِيَ صَادِقَ الْوَعْدِ، لِأَنَّهُ وَعَدَ رَجُلًا فِي مَكَانٍ، فَانْتظَرَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ سَنَةً، فَسَمَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ صَادِقَ الْوَعْدِ ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ أَتَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ مَا زِلْتَ مُنْتَظِرًا لَكَ «٢» أَقُولُ: لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا فِي تِلْكَ

(١) طه: ٣٠-٣٣.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٤٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٥ إلى ٥٦]

وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَ أَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦)

المدَّة، فَلَعَلَّهُ كَانَ مُشْتَغَلًا بِأَمْرِهِ - التَّبْلِيغِ - أَوْ الْعَمَلِ أَوْ نَحْوَهُمَا، فَلَا يُقَالُ: كَيْفَ يَتْرَكَ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ سَنَةً لَوْعَدَ، أَلَيْسَ عَدَمُ مَجِيءِ الصَّاحِبِ دَلِيلٌ عَلَى خَلْفِهِ، حَتَّى يَكُونَ إِسْمَاعِيلُ فِي حَلِّ مِنْهُ؟ وَ كَانَ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِ نَبِيًّا يُوحَى إِلَيْهِ، مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَسَلَخُوا فَرْوَهُ رَأْسَهُ وَ وَجْهَهُ فَأَتَاهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ بَعَثَنِي إِلَيْكَ فَمَرْنِي بِمَا شِئْتَ فَقَالَ لِي أَسْوَأُ بِمَا يَصْنَعُ بِالْأَنْبِيَاءِ «١»

[٥٦] وَ كَانَ إِسْمَاعِيلُ يَأْمُرُ أَهْلَهُ أَي عَائِلَتَهُ، أَوْ عَشِيرَتَهُ، أَوْ قَوْمَهُ - فَإِنَّ الْأَهْلَ يُطَلَّقُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ - وَ إِنْ كَانَ الْأَنْسَبُ بِمَقَامِ النُّبُوَّةِ إِرَادَةً الْمَعْنَى الثَّلَاثِ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ الْمُرَادِ بِهَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ الْخُضُوعَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ إِعْطَاءَهُ الْفُقَرَاءَ وَ إِنْ كَانَ بِغَيْرِ صُورَةِ الصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ بِمَعْنَى الْعَطْفِ، وَ الزَّكَاةَ بِمَعْنَى النُّمُوِّ، وَ فِي الصَّلَاةِ عَطْفٌ نَحْوَهُ سَبْحَانَهُ، وَ فِي الزَّكَاةِ نُمُوٌّ لِلْمَالِ وَ كَانَ إِسْمَاعِيلُ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا رَضِيَ سَبْحَانَهُ عَنْ أَعْمَالِهِ وَ أَخْلَاقِهِ وَ سِيرَتِهِ.

[٥٧] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ أَي الْقُرْآنِ إِدْرِيسَ سَمِيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ دِرَاسَتِهِ لِلْكِتَابِ، وَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُونَ صَحِيفَةً، وَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ وَ خَاطَ، وَ نَظَرَ فِي الْحِسَابِ، وَ قَدْ كَانَ النَّاسَ قَبْلَهُ

(١) راجع القصص للجزائري: ص ٣١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٤٩٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ وَ

مِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)

يلبسون الجلود- كما روى- إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا كَثِيرَ الصَّدَقِ، أو كثير التصديق لله سبحانه نَبِيًّا يوحى إليه من قبله سبحانه.

[٥٨] وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أَى إِلَى مَكَانٍ عَلِيٍّ رَفِيعٍ، إما رتبة بأن كانت رتبته، و منزلته عند الله رفيعه، و إما محلا،

فقد ورد أنه رفع إلى السماء،

و هناك قبض روحه ملك الموت.

[٥٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْدِمُ أَسْمَاءَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالنَّبُوءِ، و المنزلة الرفيعة مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ أَبُو الْبَشَرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَ مَنْ

ذُرِّيَهُ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ يَعْنِي يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، و إنما ذكر سبحانه هذا التفصيل مع إن

الجميع من ذرية آدم، لبيان ذكر مراتبهم في شرف الانتساب، أو شرف التفضل، فمن كان منسوباً إلى إبراهيم أشرف نسبا ممن لا

ينتسب إليه، و إنما ينتسب إلى آدم عليه السلام فقط، كما أن من حمل أبوه في السفينة كان التفضل عليه أكثر ممن لم يحمل، بأن

كان قبل الطوفان وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا أَى أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ، في جملة من هديناهم إلى الحق، و اخترناهم للنبوة و الإرشاد، إن أولئك

كلهم إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ وَ تَقْرَأُ عِنْدَهُمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ الدَّالَّةُ عَلَى وَجُودِهِ وَ صِفَاتِهِ خَرُّوا سُجَّدًا جَمَعَ سَاجِدًا، أَى سَاجِدِينَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ،

تعظيماً له و لكلامه و آياته وَ بُكِيًّا بَاكِينَ، فَإِنَّ «بَكَى» عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٥٩ الى ٦١]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ

الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١)

«فعل» جمع «باك» و نصب سجدا و بكى على الحال عن ضمير «خروا».

[٦٠] فأولئك الأنبياء المختارون، الذين يسجدون لتلاوة آيات الله، و تفيض أعينهم من الدمع عند قراءة كتابه فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

جماعة من نسلهم و ذريتهم أَضَاعُوا الصَّلَاةَ كَالْيَهُودِ خَلَفَ إِسْرَائِيلَ، و المشركين من خلف إبراهيم عليه السلام، و هكذا وَ اتَّبَعُوا

الشَّهْوَاتِ المَلذَّاتِ الزَّائِلَةَ، إِذَا رَأَوْهَا ذَهَبُوا وَرَاءَهَا، لِيَتَّبِعُوهَا، أولئك الأخيار جاء من بعدهم هؤلاء الأشرار فَسُوفَ يَلْقَوْنَ أَى يَلْقَى هَذَا

الْخَلْفَ عَذَابًا ضَلَالًا، و ضياعاً في الدنيا بالعيش الضنك، و في الآخرة بالعذاب و النار، أو المراد يلقون جزاء غيرهم، يقال فلان يرى عمله،

أى يرى جزاء عمله.

[٦١] إِلَّا مَنْ تَابَ عَمَّا سَلَفَ مِنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَ آمَنَ إِيْمَانًا صَاحِحًا صَادِقًا وَ عَمِلَ صَالِحًا فِي مَقَابِلِ الْعَمَلِ السَّيِّئِ، الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ

فَأُولَئِكَ التَّائِبُونَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا لَا يَبْخَسُونَ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةَ، و إنما يعطى جزاؤهم كاملاً غير منقوص.

[٦٢] ثم وصف سبحانه الجنة بقوله جَنَّاتِ عَدْنٍ و المراد بالجنة هناك الجنس، و لذا صح وصفها بالجمع و العدن بمعنى الإقامة، من

عدن بالمكان، إِذَا أَقَامَ فِيهِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ الْمُتَفَضِّلُ الرَّاحِمُ عِبَادَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٢ الى ٦٣]

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عُشْيًا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

المطيعين بِالْغَيْبِ أَى وَعَدَهُمْ، بما هو غائب عن حواسهم، و لعل ذكر هذا الوصف، لمدح المؤمنين بالجنة حيث أن العامل للغيب أكثر

تحسيناً من العامل لما يراه حاضر عنده، أو لوصف الجنة، كأنه يقال، إن ما وعدتم به غائب لا تدرون ما هو؟ إِنَّهُ تَعَالَى كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا

يَأْتِي بِالتَّأَكِيدِ، و لا خلف فيه، و المراد ب «وعده» أَى مَا وَعَدَ بِهِ، أقيم المصدر مقام المفعول، أو المراد وقت وعده.

[٦٣] لَا يَسْمَعُونَ أَى لَا- يَسْمَعُونَ أَى لَا- يَسْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا فِي تِلْكَ الْجَنَّةِ لَغْوًا كَلَامًا بَلَا ثَمْرًا، سواء كان من قبيل السب و الاستهزاء، أم من قبيل

الكلمات التي لا فائدة فيها إِلَّا سَلَامًا حيث يسلم الملائكة عليهم، و يسلم بعضهم على بعض، و هذا الاستثناء منقطع، كأنه قال «لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً و لا يسمعون اللغو» و الاستثناء من باب المثال، و إلا فهناك يتكلم بعضهم مع بعض، أو المراد بالسلام كل كلام فيه سلامة من الباطل و اللغو و الإيذاء و ما أشبهه، فالمراد «السلام» و صفاً، لا لفظاً و لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ بُكْرَةً صَبَاحاً وَعَشِيًّا مَسَاءً، فَإِنَّ ذِينَكَ الْوَقْتَيْنِ، يتعارف فيهما الأكل لهم، و إلا فلهم ما يشتهون في كل وقت (أَكُلْهَا دَائِمًا) «١» ثم إنه لا- عشاء هناك، إذ لا ليل، و إنما ذلك من باب التشبيه.

[٦٤] تِلْكَ الَّتِي ذَكَرْتَ أَوْصَافَهَا، بِالْخُلُودِ، وَ التَّعَدُّدِ، وَ السَّلَامِ، وَ وَفْرَةَ

(١) الرعد: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اضْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

الأرزاق، هي الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا أَي نعطيه إرثاً بعض عبادنا من مَنْ كَانَ تَقِيًّا يتقى الكفر و الآثام، التي قلنا عنها «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» و إنما سمي إرثاً، لأنه يأتي الإنسان بعقب أعماله في الدنيا، كما أن الإرث يأتي الإنسان بعقب موت قريب له، أما النسب فلا يجدي إرثه في دخول الجنة فقد ورث أولئك الأنبياء خلف أضاعوا الصلاة فلم ينفعهم النسب في إرث الجنة.

[٦٥] وَ مَا نَنْتَزِلُ نَحْنُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُحَلِّينَ مِنَ الْجَنَانِ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ فَالْمَوَاضِعُ هُنَاكَ مَعِينَةٌ، لِأَصْحَابِهَا، لَا يَتِمُّ أَحَدٌ مِنَ التَّخَلُّفِ عَنْ مَوْضِعِهِ، وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ - حيث إن الكلام كان حول أهل الجنة، و إن المتقين هم الوارثون لها- و ما ذكرناه من أن الآية من كلام أهل الجنة هو الأنسب بالسياق، و هناك قول آخر، إن الآية حكاية عن كلام جبرائيل للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حين قال له: ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا أَي أماننا وَ مَا خَلْفَنَا أَي وراثتنا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ أَي المحل الذي نحن فيه، فإنه المالك المطلق للجنة، و لا ينزل أحد في موضع منها، إلا بإذنه و أمره وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ينسى لأحد مقامه، و ما يستحقه، بل يعطى كل واحد من الجنة المكان الذي هو بقدر عمله.

[٦٦] إِنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا كَانَ رَبُّ أَمَامَ الْجَنَّةِ وَ خَلْفَهَا، وَ مَا بَيْنَهُمَا فَهُوَ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ لِلْكَوْنَيْنِ فَاعْبُدْهُ أَيَّهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ٦٦ الى ٦٨]

وَ يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَّبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا (٦٨)

الإنسان، أو أيها الرسول وَ اضْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ عَلَى تَحْمِلِ الْمَشَاقِ، وَ لَا تَكُنْ كَمَنْ أَضَاعَ الصَّلَاةَ، وَ اتَّبَعَ الشَّهَوَاتِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا أَي مَنْ يَسْمَى بِكَوْنِهِ إِلَهًا- عَنْ اسْتِحْقَاقِ- بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ، حَتَّى يَعْلَمَ ذَلِكَ وَ يَعْبُدُ مَعَهُ شَرِيكًا لَهُ.

[٦٧] إِنَّهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْأَرْضُ وَ السَّمَاءُ وَ الْجَنَّةُ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاتِي، لَا يَعْتَرِفُ بِالْمَعَادِ، وَ يَتَعَجَّبُ مِنْ أَنَّهُ كَيْفَ يُمْكِنُ إِعَادَةُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ الْمَمَاتِ! وَ يَقُولُ الْإِنْسَانُ وَ الْمَرَادُ بِهِ هَذَا النُّوعُ، لِأَكْلِ فَرْدٍ مِنْهُ أَ إِذَا مَا مِتُّ «مَا» زَائِدَةٌ، لِتَرْبِيَةِ الْكَلَامِ لَسَوْفَ أُخْرَجُ مِنْ قَبْرِ حَيًّا عَلَى نَحْوِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي.

[٦٨] فَرْدٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ الْمُنْكَرَ لِلْمَعَادِ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ أَي سَابِقًا- قَبْلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ- وَ الْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَكُ شَيْئًا فَإِنَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ.

[٤٩] فَوَرَّبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَنَحْشُرَنَّهْمُ نَجْمَعَهُمْ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالشَّيَاطِينَ نَحْشُرُ الشَّيَاطِينَ مَعَهُمْ، لَنَجْمَعَ بَيْنَ الْقَادَةِ وَالْأَتْبَاعِ، بَيْنَ مَنْ كَانَ يُوَسُّوسُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ الْبَعْثِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي الْإِنكَارِ ثُمَّ بَعْدَ الْحِشْرِ لَنَحْضِرَنَّهْمُ حَوْلَ جَهَنَّمَ فِي أَطْرَافِهَا، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ جِثًّا جَمَعَ جَائِي، وَهُوَ الَّذِي بَرَكَ عَلَى رَكْبَتَيْهِ، فَيَنْهَمُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ٤٩ إلى ٧١]

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمُّ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٤٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١)

هناك في صور مزرية مهانة مقترنين مع الشياطين، جاثين على الركب، تلفحهم نار الجحيم، كالمجرم الذي يجتو مع سائر المجرمين حول السجن، يرى الذل والصفاد، وقد كان هذا جزائهم، حيث تكبروا في الدنيا، ولم يطيعوا الأوامر، وأنكروا المعاد.

[٧٠] ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ لَنَسْتَخْرِجَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ مِنْ كُلِّ جَمَاعَةٍ، شَاعِعُوا طَرِيقَهُ خَاصَةً أَيُّهْمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا «العتي» مصدر «كالتعو» و هو التمرد والعصيان، أي نبدأ بالأعتي، فالأعتي، لنقلهم في جهنم أولاً فأولاً.

[٧١] ثُمَّ هَذَا لِلتَّرَاخِي فِي الْكَلَامِ، لَا فِي الزَّمَانِ، وَكَأَنَّهُ يَأْتِي بِهِ لِلسِّيَاقِ وَالتَّنَاسُبِ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا أَيَّ النَّارِ صِلِيًّا الصَّلَىٰ مَصْدَرُ صَلَىٰ يَصَلِي، يُقَالُ صَلَّى اللَّحْمُ يَصَلِيهِ صَلِيًّا شَوَاهٍ وَأَلْقَاهُ فِي النَّارِ لِلطَّبْخِ وَالْإِحْرَاقِ، وَثَلَّةُ أَصْلَاهُ وَصَلَّاهُ، وَالمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَجَارُ عَلَى أَحَدٍ هُنَاكَ، بَلْ إِنَّمَا يَصَلِي الْكَافِرَ وَالعَاصِيَ حَسَبَ عَمَلِهِمَا.

[٧٢] وَإِنْ مِنْكُمْ أَيُّ مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَيُّهَا الْبَشَرُ إِلَّا وَارِدُهَا أَيُّ مَشْرَفٍ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ) «١»، أَيُّ أَشْرَفَ،

قال الصادق عليه السلام: أما تسمع الرجل يقول، وردنا ماء بني فلان، فهو الورود ولم يدخل

«٢»، أقول: ولعل ذلك باعتبار العبور من جهنم على

(١) القصص: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٩١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٦

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَآخَسُنْ نَدِيًّا (٧٣)

الصرط، فإن العابر يقال له الوارد، فمن عبر المدينة على مركوب له، يقال: ورد بلدة فلان كان على ربك ورود الجميع حتماً لازماً مفضياً قد قضاه و قدره.

[٧٣] ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا الشَّرْكَ وَالمَعَاصِيَ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالمَعَاصِيَ، أَوْ ظَلَمُوا غَيْرَهُمْ فِيهَا أَيُّ فِي النَّارِ جِثًّا بَارَكِينَ عَلَى رَكْبِهِمْ، يَرِيدُونَ النُّهُوضَ، فَلَا يَتِمَكَّنُونَ، كَمَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْاسْتِرَاحَةِ، فَهَمُ دَائِمُ الْعَذَابِ، وَالمَرَادُ بـ «نذر» نلقيهم فيها، حتى يبقون في جهنم.

[٧٤] إِنْ الظَّالِمِينَ هُنَاكَ مَصِيرُهُمُ النَّارَ، كَمَا عَرَفْنَا، فَمَا كَانَ عَمَلُهُمْ، حَتَّى اسْتَحَقُّوا هَذِهِ النَّارَ؟ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا أَيُّ الْأَدْلَةِ الْمُنزَلَةِ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ مُطْلَقًا بَيِّنَاتٍ فِي حَالِ كَوْنِهَا وَاضِحَاتٍ الدَّلَالَةَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ، وَ مَا جَاءَ بِهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الكَافِرِينَ خَيْرٌ مَقَامًا فَهَلْ مَقَامَنَا، وَ مَا لَنَا مِنَ الدُّنْيَا خَيْرٌ أَمْ مَقَامِكُمْ وَ مَا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا؟ وَ إِنَّا أَحْسَنُ نَدِيًّا أَيُّ مَجْلَسًا، فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَتَفَاخَرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بِأَنَّهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُمْ حَالًا، فَمَا حَصَلَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ إِيمَانِهِمْ؟ فَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ يَقُودُ الْإِنْسَانَ إِلَى السَّعَادَةِ

فلما ذا نرى أن المؤمنين في ضنك و ضيق و الكفار في سعة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٧

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيَاءَ (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥)

و رفاه؟ لكن هذه مغالطة، فالمؤمنون إنما هم في ضيق لمدته سيرة و من جراء عدم تكاليفهم على الدنيا، مع إن من المؤمنين منعمين في الدنيا، كما يرينا التاريخ، و سيجزون هنالك بأحسن و أفضل من دنيا الكافرين - بالنسبة إلى هذه الفترة الضيقة أيضا-

[٧٥] إن عاقبة الكفر لا بد و أن تكون الهلاك و الدمار، و أن تمشى في أيام قليلة على زخارف الدنيا و بهرجها و كم أهلكنا قبلهم أي قبل هؤلاء الكفار المعاصرين للرسول من قرون من الأجيال البشرية هم أحسن من هؤلاء المتبجحون القائلون «أى الفريقين خير مقاماً و أحسن ندياً» أثنائاً أى متاعاً و زينة و رءياً أى منظراً و هيئته، فإن الله الذى أهلك الأمم، التى كانت أكثر جمالا و مالا، قادر على هلاك هؤلاء، فليحدوا من كفرهم و كبرهم، و إلا كان مصيرهم مصير أولئك.

[٧٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْمُتَبَجِّحِينَ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ وَ الْكُفْرِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا أَي فِدْعَهُ لِأَن يَسْعِفَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْمَالِ وَ الْعَمْرِ وَ سَائِرِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالدُّنْيَا، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ فِي صُورَةِ الْأَمْرِ، كَمَا نَقُولُ «دَعِ اللَّهَ يَمْهَلِ الظَّالِمَ» نَرِيدُ أَنَّهُ وَ إِنِ امْهَلْ لِمَصْلَحَةٍ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ لَا- بَدَ وَ أَنَّ تَكُونَ إِلَى الْخُسَارِ وَ الْفَنَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ أَي امْهَلْهُمْ سَبْحَانَهُ، حَتَّىٰ جَاءَ الْوَقْتُ الْمَقْدَرُ لِأَخْذِهِمْ إِمَّا الْعَذَابَ الَّذِي يَجْعَلُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ إِمَّا السَّاعَةَ بِأَنَّ مَاتُوا فَقَامَتْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٨

[سورة مريم (١٩): آية ٧٦]

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)

قيامتهم، و عذبوا في الآخرة فسيعلمون حين أخذ الله لهم، إما بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة من هو شر مَكَانًا هل مكان المؤمنين الناجين شراً أم مكانهم في العذاب و من هو أضعف جُنْدًا هل جند المؤمنين أضعف أم الكافرين؟ إنهم هنالك يعرفون أيهما كان خير مقاماً و أحسن ندياً، و هذا كما تقول للطالب الكسول- الذى يضحك من جدك في الدرس- ستعرف لدى الامتحان أيننا أحسن؟

[٧٧] إن للمؤمنين العاقبة الحسنى، إما في الدنيا، أو في الآخرة، و للكافرين العاقبة السيئة، إما في الدنيا أو في الآخرة، و بالإضافة إلى العاقبة الحسنى، فالمؤمن يزداد هدى في هذه النشأة، و له الباقيات في تلك النشأة، فله ثلاث أقسام من الخير، بينما ليس للكافر إلا الدنيا المنغصة لذاتها فقط، و يزيد الله الذين اهتدوا إلى الإيمان و الإسلام هدى و رشاداً، فإن الإنسان في الدنيا يحتاج في كل خطوة هداية و رشاداً، و هكذا يأخذ الله بيد المهتدى في كل خطوة خطوة، ليزيده هداية و الباقيات أى الأعمال التى تبقى الصالحات مما قدمها الإنسان إلى آخرته خيراً عند ربك ثواباً مما يصرفه الكفار في هذه الحياة من الملذات و خيراً مَرَدًّا أى عاقبة و منفعة، من رد بمعنى رجع، فإن ثواب ذلك أحسن من لذة الكفار، و إن ما يرجع الإنسان المؤمن إليه في الآخرة من عمله خير مما يرجع الكافر، و الحاصل أن الكافر إذا أنفق درهما في الخمر التذهنأ، و جوزى بالنار هناك، و إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٥٩

[سورة مريم (١٩): الآيات ٧٧ الى ٧٩]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَ وَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَيَنْكُتُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)

المؤمن إذا أنفق درهما في الصدقة، كان ثواب درهم أكثر لذة من لذة الخمر للكافر، و جوزى هناك بالنعيم.

[٧٨]

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: أن العاص بن وائل، كان يطلبه خباب ابن الأرت دينا، فأتاه يتقاضاه، فقال له العاص: ألستم ترعمون أن في الجنة الذهب و الفضة و الحرير؟ قال: بلى، قال: فالموعد ما بيني و بينك الجنة، فوالله لأوتين فيها خيرا مما أوتيت في الدنيا «١»، فنزلت هذه الآيات

أَفَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَسْتَعْمَلُ لِلتَّعْجِبِ، أَى هَل رَأَيْتَ كَذَا حَتَّى تَتَّعِجَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ هُوَ الْعَاصُ وَ قَالَ لَأُوتِينَ فِي الْجَنَّةِ مَالًا وَ وَلَدًا فَقَدْ كَانَ الْكُفَّارَ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، فَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ جَنَّةٌ فَلَهُمُ النَّصِيبُ الْأَوْفَرُ فِيهَا.

[٧٩] أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَى هَل اطَّلَعَ هَذَا الْقَائِلُ عَلَى الْغَيْبِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ هُنَاكَ، يَعْطَى الْأَمْوَالَ وَ الْأَوْلَادَ؟ وَ الْأَصْلُ «أُطْلِعَ» فَلَمَّا دَخَلَتْ هَمْزَةُ الْاسْتِفْهَامِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي مِنْ بَابِ «الافتعال» - إِذِ الْأَصْلُ «أَنْطَلَعُ» فَأَدْغَمْتَ النَّاءَ فِي الطَّاءِ - سَقَطَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ تَخْفِيفًا أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا بِأَنْ صَارَتْ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ اللَّهِ مَعَاهِدَةً، بِأَنْ لَهُ الْمَالُ وَ الْوَلَدُ هُنَاكَ؟ وَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ، فَمَنْ أَيْنَ يَقُولُ: «لَأُوتِينَ مَالًا وَ وَلَدًا»؟ [٨٠] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْطَى هُنَاكَ مَالًا وَ وَلَدًا،

(١) المناقب: ج ١ ص ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٠

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)

وَ سَيَنْكُتُ مَا يَقُولُ لِنَجَازِيهِ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ، وَ الْمُرَادُ أَمْرَ الْحَفِظَةِ بِكِتَابَةِ مَقَالِهِ وَ نَمُدُّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا فَلَا يَنْقَطِعُ عَذَابُهُ، وَ إِنَّمَا يَمْتَدُّ أَبَدَ الدَّهْرِ.

[٨١] إِنَّهُ هُنَاكَ لَا يَظْفَرُ بِالْمَالِ وَ الْوَلَدِ، وَ مَالُهُ وَ وَلَدُهُ هُنَا أَيْضًا، يَتْرَكَ لَنَا، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِمَا وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ أَى مَا يَتَلَفِظُ بِهِ مِنَ الْمَالِ وَ الْوَلَدِ، إِذْ هُوَ قَالَ: «لَأُوتِينَ مَالًا وَ وَلَدًا» وَ يَأْتِينَا فَرْدًا هُوَ وَحْدَهُ، بَلَا شَيْءٍ يَفِيدُهُ مِمَّا جَمَعَهُ وَ اتَّخَذَهُ هُنَا مِنْ أَمْوَالٍ وَ أَوْلَادٍ، إِنْ الْعَاصُ مِثَالُ الْإِنْسَانِ الْعَاتِي، فَكَمْ لَهُ مِنْ أَمْثَالٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَ الْمُرْدَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، أُرَأَيْتَهُمْ حَتَّى تَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِنْهُمْ، وَ تَقِفَ عَلَى عَقُولِهِمُ الْمُتَحَجِّرَةَ وَ أَدْمَغَتَهُمُ الْبَلِيدَةَ؟

[٨٢] وَ مِنْ نَقْلِ كَلَامِهِمُ السَّخِيفِ يَعْطَفُ السِّيَاقُ نَحْوَ عَقَائِدِهِمُ السَّخِيفَةِ وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ وَ سِوَاهِ آلِهَةٍ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْجِنْسِ، أَى اتَّخَذُوا هَذَا الْجِنْسِ، حَتَّى يَشْمَلَ الْفَرْدَ أَيْضًا، فَإِنَّ كَلَامَ الْجِنْسِ وَ الْجَمْعِ، يَنْوِبُ مَقَامَ الْآخِرِ - كَمَا سَبَقَ - لِيَكُونُوا أَى تِلْكَ الْآلِهَةِ، وَ إِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ الْعَاقِلِ، جَرِيًا عَلَى مِزَاجِ الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُقُونَ عَلَيْهَا لَفْظَ الْعَاقِلِ لَهُمْ أَى لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عِزًّا فَقَدْ كَانُوا يَعْتَرِضُونَ بِالْآلِهَةِ فِي الدُّنْيَا، وَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ شَفَعَاءُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

[٨٣] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوا، فَلَيْسَتْ الْأَصْنَامُ، إِلَّا سَبَبُ ذَلِّهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦١

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٣ الى ٨٤]

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا (٨٤)

وَ انْحَطَّاطِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَ فِي الْآخِرَةِ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَخَافَةِ عَقُولِهِمْ، وَ أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَسَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ لِهَذِهِ

الآلهة، فإنهم هناك يحلفون (وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «١» وَيَكُونُونَ هَوْلَاءَ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى تِلْكَ الْآلِهَةِ ضِدًّا و معارضا، أو المراد أن الآلهة تكون جاحدة للمشركين، حيث يقولون: (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) «٢» و أنهم يكونون ضدا للمشركين، كما قال سبحانه: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا) «٣».

[٨٤] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ أَى خَلِينَا بَيْنَهُمْ و بَيْنَ الْكُفْرَانِ لِيَسِيئُوا إِلَيْهِمْ مَا يَشَاءُونَ، يقال لمن خلى بين كلبه و بين عدوه ليؤذيه: أرسل كلبه عليه، حيث كان بإمكانه أن يمنعه، فلم يمنعه تَوَزُّؤُهُمْ أَى تزعجهم أَرَّا إزعاجا و تغريهم بالشر و العصيان، فكما قد فعلنا هذا بالكفار- جزاء إعراضهم عن الحق- كذلك نفعل بهم فى الآخرة، و نمدهم من العذاب مدا.

[٨٥] فَلَا تَعْجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بَأَنْ تَطْلُبَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابَ، فإنهم مأخوذون لا محالة، و إنما التأخير ليزدادوا إنما نَعِيدُ لَهُمْ أَى نحسب أعمالهم عداً تأكيد فى العدا، حتى نعطيهم جزاء عملهم فى الآخرة.

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) القصص: ٦٤.

(٣) البقرة: ١٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٢

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٥ الى ٨٨]

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدَاءً (٨٥) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨)

[٨٦] و سيرون جزاؤهم فى يوم القيامة يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ أَى نجتمع المتقين الذين اتقوا الكفر و الآثام إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدَاءً و معنى إلى الرحمن إلى دار كرامته و فضله، و الوفد جمع وافد، بمعنى المشرف، و يستعمل فى الجماعة التى تذهب من مكان إلى مكان.

[٨٧] وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ كالدواب التى تساق من خلفها، و المراد بالمجرم الذى أتى بالجريمة إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا حال من المجرمين، و الورد هى الجماعة التى ترد الماء، أى أنهم يردون جهنم، كالإبل العطاش التى ترد الماء.

[٨٨] لَا يَمْلِكُونَ أَى لا يملك المجرمون الشَّفَاعَةَ فلا يتمكنون أن يشفعون لغيرهم، و لا يتمكن أحد أن يشفع لهم إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا يعنى إلا الذين كانت بينهم و بين الله سبحانه، معاهدة، بأن يطيعه و يعطيه الجزاء الحسن، فإنه هو الذى يملك أن يشفع إذا كان صالحا، أو يشفع له إذا صدرت منه زلات، و الاستثناء منقطع، و التقدير لا يملك أحد الشفاعة إلا هؤلاء، أما المجرمون فلا يملكونها.

[٨٩] و كيف يملك الشفاعة من جاهر الله بالكفر و العصيان وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا بَأَنْ جعل المسيح، أو العزيز، أو الملائكة ولدا له، كما تقول النصارى و اليهود و المشركون.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٣

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨٩ الى ٩٣]

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَيْدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)

[٩٠] لَقَدْ جِئْتُمْ أَيُّهَا الْقَائِلُونَ بِهذه المقالات شَيْئًا إِذَا إِذَا الإِدَّ الأمر العظيم، أى لقد قلم بمقاله عظيمة القبح منكرة، فكيف يتخذ الله ولدا؟

[٩١] تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ أَى يتشققن منه من هذا الكلام، و المعنى لو كانت السماوات تنشق، و تحرق من قول منكر لكنت تنشق من هذا الكلام و كادت تَنْشَقُّ الْأَرْضُ تفتط و تشقق و كادت تَخِرُّ الْجِبَالُ أَى تسقط على الأرض هَدًّا أى كسرا شديدا، فإن الهد الهدم

بصوت شديد.

[٩٢] كاد كل ذلك ل أن دَعَوْا هؤلاء الكفار لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا و معنى دعوا، أى سماوا و جعلوا.

[٩٣] و الحال أنه ما يَتَّبِعِي أى لا يمكن لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا فَإِنَّ الولد الحقيقى غير معقول، و الولد بالتبني لا يصلح لأنه عبث لغو، و الحكيم منزه عن ذلك.

[٩٤] إِنَّ مَا كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا فكيف يمكن للعبد أن يكون ولدًا؟ و «آتى» هنا مثل قوله: (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) «١» أى أنهم عبيد لله سبحانه

(١) فصلت: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٤

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩٤ الى ٩٦]

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) تكويننا و خلقه، فليس له منهم أولاد.

[٩٥] إن الجميع يأتون الله عبيداً ف لَقَدْ أَحْصَاهُمْ اللهُ سبحانه وَعَدَّهُمْ عَدًّا فلا أحد منهم يتمكن أن لا يأتيه، و لعل الفرق بين الإحصاء و العد، إن الأول الحساب و الإحاطة بهم فى الجملة، فإن الإحصاء بمعنى الضبط، و ذلك لا يلازم التعداد الدقيق.

[٩٦] وَكُلُّهُمْ أى كل من فى السماوات و الأرض آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا غير متصل بعشيرته، و خدمه و أصدقائه، ممن كان كذلك، كيف يمكن أن يكون ابنا لله سبحانه، و هل الابن، إلا مكرم محترم، لا يعد فى جملة العبيد، و لا يساق مساقهم؟

[٩٧] إن الهول ليأخذ بنواد الإنسان حين يسمع هذا العد و الإتيان، فهل المؤمنون أيضا يقاسون هذا الهول و الوحشة؟ كلا! ف إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صحيحاً بالأصول العقائدية و عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة، و قد ذكرنا سابقاً أن ذلك يلازم - عرفاً - عدم الإتيان بالسيئات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا أى سيحيطهم بالمودة و الحب، ففى الدنيا يحبهم الناس، و فى الآخرة يحاطون بؤد الله سبحانه لهم، و ود الملائكة إياهم، و ود الشفعاء و الأنبياء و الأئمة لهم، و هل يستوحش من يحاط بمثل هذا الود؟ و ما ورد من تفسير الآية من إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هو الإمام المرتضى، فهو من باب بيان المصداق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٥

[سورة مريم (١٩): الآيات ٩٧ الى ٩٨]

فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

البارز، و إلا فالرسول، و سائر الأئمة، و الصديقة، و المؤمنون كلهم داخلون فى هذا العموم.

[٩٨] إن هذه البشرى للمؤمنين، و ذلك الإنذار للكافرين و القرآن ميسر بلسان العرب، ليعرفه من حول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أولاً، ثم يحملوه إلى سائر الناس ثانياً فَإِنَّمَا يَسْرُنَا أى سهلنا القرآن لك حيث إنه بِلِسَانِكَ و على لغتك، حتى تتمكن من التفهيم له بالنسبة إلى العرب المحيطين بك لِنُبَشِّرَ بِهِ بهذا القرآن الْمُتَّقِينَ تبشرهم بالجنة و الثواب وَتُنذِرَ بِهِ بسبب القرآن قَوْمًا لُدًّا اللد جمع ألد، و هو المخاصم الشديد الخصومة، و القرآن مبشر لكل مؤمن، و إن لم يكن متقياً، و منذر لكل كافر، و إن لم يكن لداً، إلا أن البشارة الكاملة، و الإنذار الشديد للطائفتين.

[٩٩] وَ أخيراً فليذكر هؤلاء كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ قَبْلَ هؤلاء القوم المكذبين مِنْ قَوْمٍ مِنْ أُمَّم كذبوا الرسل هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أى هل يقع أحد منهم تحت حاسة من حواسك، فتراهم، أو تلمسهم أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا أى صوتاً، يعنى أنهم ذهبوا و انقطعوا، حتى لا

يرى لهم شخص، ولا يسمع لهم صوت، ويكون مصير هؤلاء كأولئك، عما قليل، فليبادروا إلى التوبة، لينالوا غفران الله تعالى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٦

٢٠ سورة طه مكية / آياتها (١٣٦)

سميت السورة بهذا الاسم «طه» لافتتاحها بهذه اللفظة. وهي كسائر السور المكية تبين أصول الاعتقاد، في جو قصصي جذاب.

و حيث ختمت سورة «مريم» بإنزال القرآن «فَأَنَّمَا يَسْرُنَاهُ بِلسَانِكَ» افتتحت هذه السورة بذلك «طه ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ».

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله، شعارا للمسلم، و تبركا بهذا الاسم الكريم، الذي هو المتفضل بالرحمة لعباده المؤمنين و غير المؤمنين، كما قال سبحانه: (وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) «١» و التكرار في الصفة للتأكيد على أنه سبحانه متصف بها، مقابل الذين زعموا أن الإله قاس غليظ، و هكذا عرفوه للناس.

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاءَاتِ الْعُلَى (٤)

[٢] طه فيه أقوال: منها أنه رمز بين الله و الرسول، و منها أن المراد: أن القرآن المعجز مؤلف من «طاء» و «هاء» و سائر حروف الهجاء، التي هي من جنسهما، و منها أنه اسم للرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

قال الصادق عليه السلام: «و أما طه: فاسم من أسماء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و معناه: يا طالب الحق الهادي إليه» «١».

[٣] ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى الشقاء استمرار ما يشق على النفس، و السعادة عكسه، أي لم يكن نزول القرآن عليك لأجل شقائك و إنما لأجل سعادتك و راحتك.

فقد روى عن الإمام الكاظم عن آباءه عن أمير المؤمنين عليهم السلام أنه قال: لقد قام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه و اصفر وجهه، يقوم الليل أجمع، فقال الله عز و جل: «طه ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى بل لتسعد به» «٢».

[٤] إِلَّا تَذَكُّرَةً أي إنما هو تذكرة و ذكرى لِمَن يَخْشَى اللهُ سبحانه، و التذكرة و التذكير مصدران لباب التفعيل، و إنما كان تذكرة لأن الأصول و الفروع بصورتها الإجمالية كامنه في نفس كل إنسان.

[٥] و قد نزل تنزيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ إنما كان تنزيلاً لأن الله سبحانه أعلى مرتبة عن البشر فما يأتي منه تنزيل و إن لم يكن علو خارجي، أو باعتبار إتيان جبرائيل به من السماء وَ السَّمَاءَاتِ الْعُلَى أي الرفيعة

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٨٦.

(٢) المستدرک: ج ٤ ص ١١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٨

[سورة طه (٢٠): الآيات ٥ الى ٧]

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَّهُ مَا فِي السَّمَاءَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَ إِن تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ

وَ أَخْفَى (٧)

العالية، و هو جمع العلياء، كالدنى جمع الدنيا، مؤنث الأعلى و الأدنى، فالذى خلق الكون هو الذى أرسل هذا المنهاج، فما أجدر به أن يتبع منهاج المالك العالم.

[٦] و هو الرَّحْمَنُ الذى يترحم و يتفضل فله الخلق و الرحم عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى أى استولى و هو كناية عن المالكية المطلقة، يقال جلس الملك على العرش أى استولى و سيطر على المملكة.

[٧] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ظرفاً و مظروفاً، و قد تقدم أنه قد يطلق أحدهما و يراد به الأمران و ما فِي الْأَرْضِ مما قرب منهما كالإنسان و الحيوان و النبات و الأنهار و غيرهما و ما بَيْنَهُمَا من الفضاء، و الهواء، و سائر الأشياء المتوسطة بينهما و ما تَحْتَ الثَّرَى و هو التراب، و ما تحته كالمعادن و الكنوز و هذا لتأكيد كونه مالكا مطلقا لكل شىء.

[٨] و هو بالإضافة إلى كونه خالقا مالكا راحما مستوليا، عالما بكل شىء و إِنَّ تَجَهَّزَ يا رسول الله أو كل من يأتي منه الجهر بِالْقَوْلِ بأن ترفع صوتك بما تقول، و قد أطلق «تجهر» و أريد منه «إرادة الجهر» أى لا حاجة إلى الجهر فى الدعاء فَإِنَّهُ سبحانه يَعْلَمُ السِّرَّ الذى ينجى به أحدنا غيره و أَخْفَى من السر كالذى فى الصدور من الأفكار و الوسوس، فقد خلق هو سبحانه جهر الكون و سره «و هو ما تحت الثرى» و يعلم جهر الصوت و سره و الأخفى من السر،

و قد روى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٦٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨ الى ١٠]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)

عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام: إن السر ما أخفيته من نفسك و أخفى منه ما خطر ببالك ثم نسيته «١».

[٩] إن هذه كلها صفات ل الله الذى لا إله إلا هو فلا شريك له لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى أى الأسماء الحسنة كالخالق و الرازق، و المنعم و ما أشبه، مقابل أسماء السوء كالظالم و الفاسق و الجائر و نحوها، و «حسنى» مؤنث أحسن، جىء مؤنثا باعتبار الجمع.

[١٠] ثم يأتي السياق لعرض جانب من جوانب قصة موسى، فإن هذه القصة توافق المسلمين من بدء ولادة الإسلام إلى يوم الرجعة، فما أوجههم بالتملى منها، و الاعتبار بها، و قد تكررت هذه القصة فى القرآن بأساليب مختلفة و صور متنوعة، و الغالب الإشارة فى كل قصة منها إلى جانب من الجوانب و بمناسبة من المناسبات وَ هَلْ أَتَاكَ يا رسول الله حَدِيثُ مُوسَى و هذا استفهام تقريرى، نحو قول أحدنا لغيره هل سمعت بخبر فلان؟

[١١] إِذْ رَأَى نَارًا فَإِنِ موسى عليه السلام لما فر من فرعون جاء إلى مدين و تزوج هناك بابنة شعيب، ثم استأذن شعيب فى الخروج إلى أمه فخرج بأهله فلما وافى وادى طور و فيه الطور ولد له ابن فى ليلة شاتية مظلمة مثلجة، و قد أضل الطريق و تفرقت ماشيته فرأى من جانب الطور ما يشبه النار حتى ظنها نارا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا أى الزموا مكانكم

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٤ ص ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٠

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١ الى ١٣]

فَلَمَّا آتَاهَا نُودَى يا موسى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)
قليلًا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أى أبصرت نارا هناك، فإن الإيناس وجدان الشىء الذى يؤنس به لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا من تلك النار بِقَبَسٍ شعلة

أقتبسها و أخذها لندفأ و نصطلى أو أجد على النار هُدَى أى أجد على النار هاديا يدلنى على الطريق، فإن النار غالبا لا تخلو من أهل عند ما أشعلوها.

[١٢] فَلَمَّا أَتَاهَا أى جاء موسى إلى النار وجدها تنقد فى شجرة تُودَى من طرف الشجرة يا موسى

[١٣] إِنِّى المتكلم معك أنا رَبُّكَ و قد علم موسى صدق الكلام لخوارق ظهرت عند ذلك مما دلت على أن النداء ليس إلا من جانبه سبحانه فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ أى انزعهما، فإن الإنسان إذا أراد أن يمشى فى محل مقدس كان من الاحترام أن يمشى حافيا إِنَّكَ يا موسى بِالوَادِ الْمُقَدَّسِ أى المنزه عن الأنجاس طوى اسم الوادى، أو لأنه طوى بالقدس مرتين، مرة بتقدیس الأرواح و اصطفاء الملائكة، و مرة باصطفاء موسى، و تكليم الله معه،

فقد روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم إنه سئل عن الوادى المقدس؟ فقال: لأنه قدست فيه الأرواح و اصطفيت فيه الملائكة، و كلم الله عز و جل موسى تكليما (١).

[١٤] وَ أَنَا اخْتَوْتُكَ أى اصطفيتك للرسالة فَاسْتَمِعْ يا موسى

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧١

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٤ الى ١٥]

إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)
لما يوحى إليك من كلامه، فاصغه و اعمل به.

[١٥] و لما استعد موسى عليه السلام للاستماع أوحى إليه الله قائلا: إِنِّى المتكلم معك أنا الله لا إله إلا أنا فلا شريك لى و لا مثل فاعْبُدْنِى أى انت برسوم العبودية لأجلى خالصا و أقم الصلاة أنت بها كاملة بآدابها و شروطها لِذِكْرِى لأن تذكرنى بالتسبيح و التحميد و التكبير و التهليل و التمجيد، فإن الصلاة إنما شرعت لكونها ذكر الله سبحانه.

[١٦] هذا حول المبدأ، أما المعادِ إِنَّ السَّاعَةَ يوم القيامة الذى يحشر فيه الخلائق آتية لا محالة أكادُ أُخْفِيهَا قد يعبر بهذا التعبير لبيان أن الشىء ظاهر و لكن المتكلم يريد إخفاءه، يقول أكاد أخفى قلمى - فيما إذا كان ظاهرا- و قد يعبر لبيان أن الشىء ظاهر قريب بإخفاء، فهو كالشىء الذى يراد إخفاءه، ليس ظاهرا كل الظهور، و لا مخفيا كل الإخفاء، و الظاهر أن هذا المعنى هو المراد هنا، إذ الساعة بين الظهور و الخفاء، فأصلها ظاهر، و وقتها مخفى، و إنما يراد إخفاءها بهذا المقدار لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فإن الساعة لو كانت ظاهرة لكل أحد لم يكن سعى الناس فى الطاعة إلا خوفا من العاقبة الحتمية المعلومة لديهم، أما إذا كانت مخفية- و لو فى الجملة- كان الجزاء حسب السعى الطبيعى، لا السعى الجبرى، و قد كان من حكم إخفاء الساعة إن الإنسان لا يدرى متى تأتى فهو بين خوف و رجاء، ألا ترى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٦ الى ١٨]

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَ مَا تَلَكَ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَ لِى فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى (١٨)

أن الموت لو كان معلوم الوقت، كان هذا العالم بغير هذا الشكل الذى نراه إذ وقف من قرب أجله عن العمل، و غلا من بعد فى الإسراف و التبذير، و هكذا، و معنى بما تسعى: ما تعمل من خير أو شر.

[١٧] فَلَا يَصُدُّكَ لا يمنعك يا موسى عنها عن الساعة، و المراد عن الاستعداد و التهيؤ لها مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا بأن يوسوس إليك لتترك

التهيو و العمل لأجلها و اتبع هواه بأن عمل حسب ما يشتهي لا حسب ما ينقذه عند الساعة فتزدي أى تهلك كما هلك الذى لا يؤمن. [١٨] ثم خاطبه سبحانه بقوله: و ما تَلِكْ ما هذا الشىء الذى يَمِينِكْ فى يدك اليمنى يا موسى و قد علم الله ما فى يده، و لذا قال ما تَلِكْ بالإشارة إلى المؤنث رعايه لكون العصا مؤنثه، و إنما أراد توجيه موسى عليه السلام إليها، ليوقع المعجز بها. [١٩] قال موسى عليه السلام فى الجواب هِيَ عَصَاى أَتَوَكُّؤًا عَلَيْهَا أَعْتَمَدُ عَلَيْهَا فى مشيى، فإن التوكؤ بمعنى التحامل على العصا فى المشى، و التوكؤ و الاتكاء بمعنى واحد، كالتوقى و الاتقاء و أهشُّ بها و الهش ضرب ورق الشجر ليتساقط، أى أسقط بها ورق الشجر على غَمِي أى لغنمى، و حيث إن الورق يقع من فوق على الغنم جىء ب «على» و لِي فِيهَا فى العصا مَأْرَبُ جمع مأرب و هى الحاجه أُخْرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٩ الى ٢٢]

قال أَلْقِهَا يا موسى (١٩) فَأَلْقَاهَا فإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قال خُذْهَا و لا تَخَفْ سَتُنْعِيذُهَا سَتِيرَتَهَا الأولى (٢١) و اَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢)

و إنما جاء المفرد صفة الجمع، باعتبار الجماعة، كصرد السباع، و محاربه اللصوص، و تركيزها لإلقاء شىء عليها وقايه من الشمس و غيرها.

[٢٠] قال الله سبحانه أَلْقِهَا أى اطرح العصا يا موسى

[٢١] فَأَلْقَاهَا موسى فإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى أى فإذا بها انقلبت حيه و أخذت تمشى سريعا.

[٢٢] و لما رأى موسى عليه السلام إنها انقلبت حيه خاف منها خوفا شديدا ف قال الله سبحانه خُذْهَا أى الحيه و لا تَخَفْ منها أن تلدغك سَتُنْعِيذُهَا سَتِيرَتَهَا الأولى سترجعتها إلى حالتها المتقدمة، فتقلب عصا كما كانت، و السيرة: الطريقة، و استعمالها بمعنى الحالة مجاز من باب التشبيه. فإن الحالة للشىء كالطريقة المستمرة له.

[٢٣] و اَضْمُمْ يَدَكَ يا موسى إلى جَنَاحِكَ الجناح هو اليد، سميت به تشبيها بجناح الطائر، أى ضع يدك تحت إبطك، ثم أخرجها فإنها تَخْرُجُ بَيْضَاءَ تشرق مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ أى من غير عاهه و مرض فليس بياضها من قبيل بياض البرص، ففعل موسى عليه السلام ذلك، و إذا بيده كالشمس الطالعه تضىء لها الدنيا، و كان إذا أراد إرجاعها كالسابق، أدخلها تحت إبطه ثانيا فإذا أخرجها كانت كالحالة السابقة آيَةٌ أُخْرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٤

[سورة طه (٢٠): الآيات ٢٣ الى ٢٨]

لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قال رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) و يَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) و اخللْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧)

يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)

أى علامه ثانيه على صدق دعواك النبوه و نصب «آيه» على تقدير: نزيدك بها، أو تقدير تخرج بها.

[٢٤] و لِنُرِيكَ يا موسى فى المستقبل، أى نجرى يديك مِنْ آيَاتِنَا حججنا و براهيننا الكُبْرَى أى الآيه الكبرى.

[٢٥] و إذ زودناك بهذه الآيات ف اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فادعه إلى إِنَّهُ طَغَى تجبر و تجاوز الحد، من الطغيان.

[٢٦] قال موسى عليه السلام عند ذلك يا رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي و شرح الصدر توسعته، و هو كناية عن عدم الضجر بالتكذيب، و ذلك لأن المتضجر تشتد فيه الحرارة، فتنتفخ رئته أكثر من المعتاد لتجذب الهواء المبرد للقلب أكثر، و بانتفاخها يضيق الصدر، لأنها فيه.

[٢٧] وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي أَيْ سَهِّلْ لِي أَمْرَ التَّبْلِيغِ، حَتَّى لَا يَكُونَ عَسِيرًا لَدِي.

[٢٨] وَ اِخْلُلْ أَيْ فَكِّ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي فَقَدْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْقِدُ لِسَانَهُ فِي الْكَلَامِ، فَدَعَا اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَنْ يَحُلَّ هَذِهِ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِهِ لَثَلَا يَقَعُ فِي مَعْرَضِ الْاِسْتِهْزَاءِ.

[٢٩] وَ لَا يَفْقَهُوْا أَيْ يَفْهَمُ فِرْعَوْنَ وَ حَاشِيَتَهُ قَوْلِي كَلَامِي. وَ

قَدْ رَوَى عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَقْتُلُ أَوْلَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّمَا يَلِدُونَ وَ يَرْبِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ يَكْرُمُهُ وَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَلَاكَهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَ لَمَّا دَرَجَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٢٩ إلى ٣٢]

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢)

مُوسَى كَانَ يَوْمًا عِنْدَ فِرْعَوْنَ فَعَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَأَنْكَرَ فِرْعَوْنَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَ لَطَمَهُ، وَ قَالَ: مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟ فَوَثَبَ مُوسَى عَلَى لِحْيَتِهِ وَ كَانَ طَوِيلَ اللَّحْيَةِ فَهَلَبَهَا، أَيْ قَلَعَهَا فَالَمَهُ أَلْمًا شَدِيدًا، فَهَمَّ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِهِ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: هَذَا غُلَامٌ حَدَثٌ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ فَقَالَ فِرْعَوْنَ: بَلِي يَدْرِي، فَقَالَتْ لَهُ: ضَعْ بَيْنَ يَدَيْكَ تَمْرًا وَ جَمْرًا فَإِنْ مِيزَ بَيْنَ التَّمْرِ وَ الْجَمْرِ فَهُوَ الَّذِي تَقُولُ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَمْرًا وَ جَمْرًا وَ قَالَ لَهُ: كُلْ فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى التَّمْرِ فَجَاءَ جِبْرَائِيلُ فَصَرَفَهَا إِلَى الْجَمْرِ فَأَخَذَ الْجَمْرَ فِي فِيهِ فَاحْتَرَقَ لِسَانَهُ وَ صَاحَ وَ بَكَى، فَقَالَتْ آسِيَةُ لِفِرْعَوْنَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّهُ لَمْ يَعْقِلْ؟ فَعَفَا عَنْهُ. أَقُولُ: وَ مِنْ هُنَا كَانَ فِي لِسَانِ مُوسَى شَبْهَ الْعَقْدَةِ، فَلَا يَتِمَكَّنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَّا وَ يَعْقِدُ لِسَانَهُ، حَتَّى دَعَا اللَّهَ، فَفَرَعَ عَنْهُ.

[٣٠] وَ اجْعَلْ لِي يَا رَبِّ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي يَعَاظِدُنِي وَ يَسَاعِدُنِي فِي الدَّعْوَةِ، وَ لِيَكُنْ مِنْ أَهْلِي، لِأَنَّ الْأَهْلَ اعْطَفَ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ وَ أَقْرَبَ إِلَى الْاِنْسِجَامِ وَ الْأَلْفَةِ.

[٣١] هَارُونَ أَيْ لِيَكُنْ ذَلِكَ الْوَزِيرَ هَارُونَ أَخِي وَ كَانَ أَخَاهُ لِأَيِّهِ وَ أُمِّهِ، وَ كَانَ بِمِصْرَ.

[٣٢] اشْدُدْ بِهِ أَيْ قَوِّ بِسَبَبِ هَارُونَ أَزْرِي أَيْ ظَهْرِي، وَ مِنْهُ الْمَثْرَرُ لَمَّا يَشُدُّ عَلَى الظَّهْرِ.

[٣٣] وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي أَيْ اجْمَعْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ فِي النَّبُوَّةِ لِيَكُونَ هُوَ نَبِيًّا أَيْضًا، وَ هَذَا غَيْرُ كَوْنِهِ وَزِيرًا لَهُ، وَ إِنَّمَا طَلَبَهُ لِأَنَّ النَّبِيَّ لَهُ أَقْوَى دَاعٍ إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ٣٣ إلى ٣٨]

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧)

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨)

الهداية بخلاف مجرد الوزير.

[٣٤] إِنْ الدَّعْوَةُ تَحْتَاجُ إِلَى عِبَادَةٍ كَثِيرَةٍ تَوْجِبُ قُوَّةَ الصَّلَاةِ بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ حَتَّى يَتِمَكَّنَ الْإِنْسَانُ بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الْقَوِيَّةِ أَنْ يَحْمِلَ الْمَشَاقَّ، وَ كَثْرَةَ الْعِبَادَةِ تَتَأْتِي لِمَنْ لَهُ مَعَاوَنٌ وَ شَرِيكٌ، لِأَنَّ النَّفْسَ تَنْشَطُ عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ فِي الْعَمَلِ بِمَا لَا تَنْشَطُ عِنْدَ الْاِنْفِرَادِ، فَمَهْمَةُ الدَّعْوَةِ تَحْتَاجُ إِلَى شَرِيكٍ يَقُومُ بِمُسَاعَدَةِ الْإِنْسَانِ لِتَهْيِئَةِ النَّفْسِ وَ تَرْبِيَةِ الرُّوحِ، وَ لَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَيْ نُسَبِّحَكَ يَا رَبِّ كَثِيرًا فَتَنْزَهَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ.

[٣٥] وَ كَيْ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا حَتَّى تَشْتَدَّ الصَّلَاةُ وَ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الْمَتَجَلَّى الْوَحِيدُ فِي النَّفْسِ.

[٣٦] إِنَّكَ يَا رَبِّ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا فَتَعْلَمُ احْتِيَاجَنَا إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، مِمَّا لَا تَتَأْتِي إِلَّا بِالْوَزِيرِ الظَّهِيرِ.

[٣٧] قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ، فِي جَوَابِ طَلِبَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أُوتِيَتْ سُؤْلُكَ أَيُّ سْؤَالِكَ وَ طَلِبِكَ يَا مُوسَى فَقَدْ حَلَّتْ عَقْدَةُ لِسَانِكَ، وَ جَعَلْنَا هَارُونَ نَبِيًّا وَ وَزِيرًا لَكَ.

[٣٨] وَ لَقَدْ مَنََّّا عَلَيْكَ يَا مُوسَى مَرَّةً أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْمَرَّةِ الَّتِي مَنَّا عَلَيْكَ فِيهَا بِالنَّبُوَّةِ وَ إِجَابَةُ الدَّعَاءِ.

[٣٩] وَ تِلْكَ الْمَنَّةُ وَ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ كَانَتْ فِي حَالِ صِغَرِكَ إِذْ أُوحِيْنَا إِلَيْكَ أُمَّكَ أَلْهَمْنَا مَا يُوحَى أَيُّ الْمَطْلَبِ الَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَلْهَمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٧

[سورة طه (٢٠): آية ٣٩]

أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ لِي وَ عَدُوُّ لَهْ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لَتُضَنَّ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِلَيْهَا لِنَجَاتِكَ.

[٤٠] وَ كَانَ الْإِلْهَامُ أَنْ أَقْدِفِيهِ أَيُّ اطْرَحِي أَيْتَهَا الْأُمُّ وَلَدَكَ مُوسَى فِي التَّابُوتِ وَ هُوَ صَنْدُوقٌ مِنْ خَشَبٍ، ثُمَّ سَدَى رَأْسَ التَّابُوتِ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهِ الْمَاءُ فَأَقْدِفِيهِ اطْرَحِي التَّابُوتَ فِي الْيَمِّ أَيُّ الْبَحْرِ، وَ هُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ الْمَوْجُودُ فِي مِصْرَ، ثُمَّ يَحْمِلُ التَّابُوتَ الْمَاءَ، حَتَّى يَصِلَ قَرِبَ السَّاحِلِ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ وَ هُوَ شَاطِئُ الْبَحْرِ، ثُمَّ مَاذَا؟ يَأْخُذْهُ أَيُّ يَأْخُذُ التَّابُوتَ عَدُوُّ لِي وَ عَدُوُّ لَهْ وَ هُوَ فِرْعَوْنُ فَقَدْ كَانَ يَقْتُلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَ عَدَا لِمُوسَى بِالذَّاتِ، حَيْثُ إِنَّهُ قَرَأَ وَ عَلِمَ إِنْ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ عَلَيَّ يَدُهُ ذَهَابٌ مَلِكُهُ، فَأَمَرَ أَنْ يَقْتُلَ الْأَوْلَادَ الَّذِينَ يُولَدُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ مِنْ خَوْفِ الْقَتْلِ، صَنَعَتْ أُمُّ مُوسَى تَابُوتًا، وَ جَعَلْتَهُ فِيهِ، وَ قَذَفْتَهُ فِي الْبَحْرِ، لِثَلَا تَرَى قَتْلَ وَلَدِهَا، وَ لِيَصْنَعَ مَعَهُ مَا شَاءَ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ يَا مُوسَى مَحَبَّةً مِنِّي أَيُّ مِنْ جَانِبِي، حَتَّى أَنْ كُلَّ مِنْ يَرَاكَ أَحْبَبَكَ حَتَّى أَنْ فِرْعَوْنَ بِمَجْرَدِ مَا رَأَاهُ أَحْبَبَهُ، وَ لَمْ يَقْتُلْهُ وَ لَتُضَنَّعَ اللَّامُ جَارَةً، لَا لِامِ الْأَمْرِ، وَ إِنْ مَقْدَرُهُ، وَ لِذَا نَصَبَ الْفِعْلَ، أَيُّ وَلَعَهُ أَنْ تَصْنَعَ وَ تَرَبَّى عَلَيَّ عَيْنِي تَحْتَ رِقَابَتِي وَ بِمَرَأَى مِنِّي، أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً، فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ مَوْجِبَةٌ لِلرَّعَايَةِ الَّتِي كُنِيَ عَنْهَا بِ «لَتُضَنَّعَ عَلَيَّ عَيْنِي» إِذْ بَيْنَ الْعِنَايَةِ وَ الرَّعَايَةِ وَ بَيْنَ النَّظَرِ تَلَازِمُ السَّبَبِ وَ الْمَسْبُوبِ، إِذْ رُؤْيَةُ الْإِنْسَانِ لِأَحَدٍ وَ كَوْنُهُ تَحْتَ نَظَرِهِ، مَوْجِبٌ لِرَّعَايَتِهِ، وَ كَلِمَةُ «عَلَيَّ عَيْنِي» تُشْمَلُ عَلَيَّ الْإِحْتِرَامِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٨

[سورة طه (٢٠): آية ٤٠]

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَيْلُ أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتْنَاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠)

وَ الْحَفْظُ فِي أَعْزِ الْأَمَاكِنِ، فَإِنَّ الْإِحْتِرَامَ مُسْتَفَادٌ مِنْ لَفْظَةِ «عَلَيَّ» وَ بِنَاءِ عَلَيَّ مَا ذَكَرَ فِجَوَابِ «لَتُضَنَّعَ» مَحذُوفٍ لِدَلَالَةِ الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ.

[٤١] إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ الظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِتَصْنَعِ، أَيُّ كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَانِ مَشَى أُخْتِكَ، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ تَصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي قَدَرْنَا مَشَى أُخْتِكَ فَتَقُولُ أُخْتُكَ لِأَلِ فِرْعَوْنَ، حَيْثُ أَرَادُوا لَكَ مَرَضِعَهُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ مَنْ يَكْفُلُهُ يَقُومُ بِشُؤُونِهِ؟ فَرَجَعْنَاكَ يَا مُوسَى إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا بِرُؤْيَتِكَ وَ حَيَاطَتِكَ، وَ قَرَارِ الْعَيْنِ كِنَايَةً عَنِ السَّرُورِ، مُقَابِلَ الْوَالِهِ الَّذِي تَطِيرُ عَيْنُهُ هُنَا وَ هُنَاكَ وَ لَا تَحْزَنَ لَا يَحْزَنُ قَلْبُهَا، فَيُضْفَى رَجُوعَكَ عَلَيْهَا الْهَدُوءَ وَ السَّكِينَةَ فِي ظَاهِرِهَا وَ بَاطِنِهَا.

وَرَدَ أَنْ مُوسَى لَمَّا حَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ لَمْ يَظْهَرِ حَمْلُهَا إِلَّا عِنْدَ وَضْعِهِ، وَ كَانَ فِرْعَوْنَ قَدْ وَكَلَّ بِنِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسَاءً مِنَ الْقَبِطِ تَحْفَظُهُنَّ، وَ ذَلِكَ لَمَّا كَانَ بَلِغَهُ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْلُهُمْ: أَنَّهُ يُولَدُ فِينَا رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ يَكُونُ هَلَاكًا لِفِرْعَوْنَ وَ أَصْحَابِهِ عَلَيَّ يَدِيهِ، فَقَالَ فِرْعَوْنَ عِنْدَ ذَلِكَ: لِأَقْتُلَنَّ ذَكَورَ أَوْلَادِهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مَا يَرِيدُونَ، وَ فَرَقَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ حَبَسَ الرِّجَالَ فِي الْمَحَابِسِ، فَلَمَّا وَضَعَتْ أُمُّ مُوسَى بِمُوسَى، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَ حَزَنَتْ وَ اغْتَمَّتْ وَ بَكَتْ، وَ قَالَتْ: يَذْبَحُ السَّاعَةَ فَعَطَفَ اللهُ بِقَلْبِ الْمَوْكَلَةِ بِهَا عَلَيْهِ، فَقَالَتْ لِأُمِّ مُوسَى: مَا لَكَ قَدْ أَصْفَرَ لَوْنَكَ؟ فَقَالَتْ: أَخَافُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدِي، فَقَالَتْ: لَا تَخَافِي، وَ كَانَ مُوسَى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحْبَبَهُ وَ هُوَ قَوْلُهُ «وَ

ألقيت عليك محبة مني» فأحبهه القبطية الموكلة به، و أنزل الله على أم موسى التابوت، و نوديت: ضعيه في التابوت فاقدفيه في اليم، و هو البحر و لا تخافي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٧٩

و لا- تحزني إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين، فوضعت في التابوت و أطبقت عليه و ألقته في النيل، و كان لفرعون قصور على شط النيل منزهات، فنظر من قصره و معه آسية امرأته إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج، و الرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصره، فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع إليه، فلما فتحه وجد فيه صبياً، فقال: هذا إسرائيلي، فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة و كذلك في قلب آسية، و أراد فرعون أن يقتله فقالت آسية: لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا و هم لا يشعرون أنه موسى، و لم يكن لفرعون ولد فقال: ادنوا له ظئرا لتربيته، فجاءوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن أحد من النساء و هو قول الله تعالى: (وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) «١» و بلغ أمه أن فرعون قد أخذه فحزنت و بكيت كما قال الله تعالى: وَ أَصْبَحَ قُودًا أُمَّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ قَالَ: كادت أن تخبر بخبره أو تموت ثم حفظت نفسها فكانت كما قال الله: لو لا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، ثم قالت لأخته: قصيه، أى اتبعيه، فجاءت أخت موسى إلى قصر فرعون، فبصرت به عن جنب أى عن بعد و هم لا يشعرون، فلما لم يقبل موسى بأخذ ثدى أحد من النساء اغتم فرعون غما شديدا، فقالت أخت موسى: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم و هم له ناصحون؟ فقالوا: نعم.

فجاءت بأمه فلما أخذته بحجرها، و ألقته ثديها التقمه و شرب، ففرح فرعون و أهله و أكرموا أمه، فقال لها: ربي له لنا فإنا نجزيك خيرا، و قد كان الفصل بين إلقاء الأم لموسى في البحر ورده إليها

(١) القصص: ١٣. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٠

[سورة طه (٢٠): آية ٤١]

وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

ثلاثة أيام

«١» وَ قَتَلْتَ يَا مُوسَى نَفْسًا مِنَ الْقَبْطِ، فقد كان في مصر طائفتان، القبط و هم قوم فرعون، و الإسرائيليون و هم أحفاد يعقوب، و كان القبط كفارا و الإسرائيليون مسلمون حيث ورثوا الدين و الإسلام عن آبائهم، فقد قال لهم يعقوب حين موته: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) «٢» فمر موسى ذات يوم على رجلين أحدهما قبطي و الآخر إسرائيلي يتشاجران فاستغاث بموسى الإسرائيلي، و هناك تقدم موسى و ضرب القبطي ضربه مات منها فَتَجِينَاكَ مِنَ الْغَمِّ حيث أمرناك و ألهمنا إليك أن تفر من مصر لئلا يقتلك فرعون، فقد جاءه آت ليقول له: (إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) «٣» وَ فَتَنَّاكَ أَيُّ اخْتِبَارًا، و ابتليناك ابتلاء من الخوف في مصر، ثم قتل القبطي، ثم الفرار من الوطن واجلا- خائفا ثم غير ذلك من أنواع المصائب، التي تؤهل الإنسان للقيام بالمهام فبعد ذلك كله فَلَبِثْتَ وَ بَقِيتَ سِتِّينَ عَشْرَةَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ عند شعيب النبي عليه السلام حيث تزوج موسى بابنته، و مدين على ثمان مراحل من مصر- كما في الصافي- ثم بعد تلك الامتحانات و المشاق جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ بِتَقْدِيرٍ مِنَ اللَّهِ، لإنجاز المهمة و أداء الرسالة يا موسى فلتذكر النعم، و لتستعد للرسالة.

[٤٢] وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي فَأَنْتَ مُصْنَعٌ لِأَجْلِ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فلا شيء

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٢٥.

(٢) البقرة: ١٣٣.

(٣) القصص: ٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨١

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٢ إلى ٤٥]

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥)

منك للدنيا أو لأهلك. وإنما خالص محض للرسالة و التبليغ.

[٤٣] أَذْهَبَ يَا مُوسَى أَنْتَ وَأَخُوكَ أَي و ليذهب أخوك هارون، مثل «نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض» أي نحن بما عندنا راضون، و أنت بما عندك راض بآياتي أي مصاحبين للأدلة و البراهين الدالة على صدقكما في دعوى النبوة و لا تنيا من وني يني، بمعنى الضعف و الفتور في ذكري أي لا تضعفا في أداء رسالتى، بل بلغا بكل جد و اهتمام.

[٤٤] أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ كَرَّرَ الْأَمْرَ بِالذَّهَابِ، تَوَطُّئُهُ لَذِكْرِ الْمَتَعَلِّقِ - وَ هُوَ فِرْعَوْنٌ - إِنَّهُ طَغَى تَجَاوَزَ الْحُدَّ فِي الظُّلْمِ وَ الْعِتْدَاءِ.

[٤٥] فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسًا أَي أرفقا به في الدعوة و لا تغلظا له في البلاغ و الإرشاد لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ نَعَمَ اللهُ عَلَيْهِ الَّتِي قَدْ نَسَاهَا أَوْ يَخْشَى عَذَابَ اللهِ، فَيُؤْمِنُ شُكْرًا، أَوْ حَذْرًا، وَ الرَّفْقُ وَ اللَّيْنُ يُوَثِّرَانِ بِمَا لَا يُوَثِّرُ الْغَلْظَةُ وَ الْخَشُونَةُ.

[٤٦] قَالَا - أَي قَالَ مُوسَى وَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَي يَتَقَدَّمُ فِينَا بِعَذَابٍ وَ يَعَجَلُ عَلَيْنَا، مِنْ فِرْطٍ بِمَعْنَى تَقَدَّمَ، وَ مِنْهُ يُسَمَّى الْإِسْرَافُ إِفْرَاطًا لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ عَلَى الْحَقِّ أَوْ أَنْ يَطْغَى بِأَنْ تَصِيرَ دَعْوَتُنَا لَهُ سَبِيًّا لَطْغِيَانِهِ بِأَنْ يَكْثُرَ مِنَ الْإِجْرَامِ، كَمَا هُوَ عَادَةُ الْمُتَجَبِّرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٦ إلى ٤٨]

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٤٨) إِذَا ذَكَرُوا بِالْحَقِّ آذَدَادُوا تَجْبِرًا وَ عْتَوَا.

[٤٧] قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ لَهُمَا لَا تَخَافَا مِنْ فِرْطِهِ أَوْ طَغْيَانِهِ إِنِّي مَعَكُمْ بِالْعِلْمِ وَ الْإِطْلَاقِ أَسْنَدِكَمَا وَ أَحْفَظِكَمَا أَسْمِعُ حَوَارِكَمَا وَ إِيَاهُ وَ أَرَى مَجْلِسِكَمَا وَ مَجْلِسَهُ، فَأَلْهَمِكَمَا مِمَّا لَا يَسْبَبُ طَغْيَانَهُ وَ غُلُوثَانَهُ، وَ أَمْنَعَهُ مِنْ أَنْ يَطْغَى.

[٤٨] فَأْتِيَاهُ أَي أَذْهَبَا إِلَيْهِ فَقُولَا - إِنَّا رَسُولَا - رَبِّكَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ خَالِقَكَ وَ إِلَهَكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَي بَلِّغَاهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ مِنْ طَرَفِي، وَ هِيَ أَنْ يُطْلَقَ سِرَاحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَ يُجْعَلَهُمْ أَحْرَارًا كَمَا يَشَاءُونَ حَتَّى بَ تَحْتَ لَوَاءِ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ لَا تُعَذِّبُهُمْ بِالْإِسْتِعْمَالِ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ، فَقَدْ كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَحْتَ تَعْذِيبِ فِرْعَوْنَ وَ أَسْرِهِ، فَكَانَ مِنْهُمْ الْأَسْرَاءُ فِي السُّجُونِ، وَ مِنْهُمْ الْمَسْخَرُ فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ، وَ مِنْهُمْ الْمَسْخَرُ فِي سَائِرِ الشُّؤُنِ الشَّاقَّةِ الْمُتَعَبَّةِ قَدْ جِئْنَاكَ أَي أَتَيْنَا إِلَيْكَ يَا فِرْعَوْنَ بِآيَةٍ حُجَّةً وَ بَرَهَانًا مِنْ رَبِّكَ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِنَا وَ صِحَّةِ دَعْوَانَا الْبُؤُوءِ، وَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ الْجِنْسَ لِتَشْمَلِ الْعَصَا وَ الْيَدَ وَ غَيْرَهُمَا وَ السَّلَامُ أَي السَّلَامَةُ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَ لَمْ يَتَّبِعِ الْهَوَى، فَإِنْ اهْتَدَيْتَ سَلِمْتَ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَ إِلَّا كُنْتَ مَعْرُضًا لِلْخَطَرِ.

[٤٩] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ٤٩ إلى ٥٢]

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى (٥٢)

بآيات الله وَتَوَلَّى أَى أَعْرَضَ عَنِ الْهَدَايَةِ، فَإِنْ كَذَبَتْ وَتَوَلَّتْ كَانَ لَكَ الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، وَ إِنْ آمَنْتَ وَ سَلِمْتَ.

[٥٠] قَالَ فَرَعُونَ لَهَا فَمَنْ رُبُّكُمْ؟ وَ لَمْ يَقُلْ رَبِّي لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرَفُ بِهِ يَا مُوسَى وَ جَعَلَ الْخَطَابَ لِمُوسَى لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ، وَ قَدْ أَرَادَ

فَرَعُونَ السُّؤَالَ عَنِ جِنْسِ اللَّهِ هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ غَيْرُهُ؟ لَكِنْ مُوسَى أَجَابَ بِبَيَانِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهُ.

[٥١] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ فَخَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا مِنْهُ، وَ الْمُرَادُ بِالْخَلْقِ الْوُجُودَ، لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِلْوُجُودِ ثُمَّ هَدَى أَى هَدَاهُ

طَرِيقَهُ فِي الْحَيَاةِ كَيْفَ يَبْقَى وَ يَعِيشُ، فَقَدْ هَدَى اللَّهُ الْأَشْيَاءَ إِلَى طَرِيقِهَا الْفَطْرِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ إِنْسَانًا كَانَ أَمْ حَيَوَانًا أَمْ نَبَاتًا أَمْ جَمَادًا، وَ إِنْ

كَانَتِ الْهَدَايَةُ فِي النَّبَاتِ وَ الْجَمَادِ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّوَسُّعِ.

[٥٢] قَالَ فَرَعُونَ، مَوْجِهُا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سؤَالًا ثَانِيًا فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى أَى مَا شَأْنُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فَأَيْنَ ذَهَبَتْ؟ وَ مَاذَا مَصِيرُهَا؟

وَ مِنْ كَانَ رَبُّهَا فَقَدْ هَلَكَتْ، وَ لَا تَعْرِفُ لَهَا رَبًّا؟ وَ لَعَلَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْقَرْنَ كَتَلَكِ الْقُرُونُ، فَهِيَ كَمَا عَاشَتْ لَا تَعْتَرَفُ

بِالرَّبِّ كَذَلِكَ هَذَا الْقَرْنَ، فَمَا هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ؟

[٥٣] لَكِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لِيَشْغَلْ نَفْسَهُ بِالْبَحْثِ حَوْلَ أَوْلَئِكَ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَرْتَبِطُ بِالِدَعْوَةِ فَعَلًا، وَ قَالَ أَرْبَابَ الْمَنَظَرَةِ، أَنَّ مِنْ

عَدَمِ الْفِطْنَةِ أَنَّ

تَقْرِيبُ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٤٨٤

[سورة طه (٢٠): آية ٥٣]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣)

يَشْغَلُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ بِمَا لَا يَرْتَبِطُ بِمَبْحَثِهِ فِي الصَّمِيمِ، وَ لِذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَّمَهَا أَى عَلَّمَ تِلْكَ الْقُرُونُ عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِئُ

رَبِّي لِذَلِكَ الْكِتَابِ، أَوْ لَا يَخْطِئُ فِي أَمْرِ تِلْكَ الْقُرُونِ وَ لَا يَنْسَى مَا فِيهِ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَالِمُ بِشُؤُنِ تِلْكَ الْأُمَمِ وَ قَدْ أُثْبِتَ

شُؤُنَهَا فِي كِتَابٍ خَاصٍ لَا يَتَطَّرِقُ إِلَيْهِ الضَّلَالُ، وَ لَا الْغَلْطُ.

[٥٤] ثُمَّ رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَمِيمِ الْمَوْضُوعِ وَ هُوَ التَّعْرِيفُ بِإِلَهِ الْكُونِ بِذِكْرِ صِفَاتِهِ وَ آثَارِهِ، فَإِنَّ رَبِّي هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

الْأَرْضَ مَهْدًا كَالْمَهْدِ لِلطُّفْلِ الَّذِي يَسْتَقِرُّ فِيهِ وَ يَكُونُ سَبَبًا لِرَاحَتِهِ وَ صِحَّتِهِ وَ سَلَكَ لَكُمْ السُّبُلَ هُوَ إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ أَى أَدْخَلَ

لِأَجْلِكُمْ فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ سُبُلًا جَمْعُ سَبِيلٍ، أَى طَرِيقًا لِسِيرِكُمْ مِنْ مَحَلِّكُمْ إِلَى مَقْصِدِكُمْ.

وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَشْرَبِكُمْ وَ التَّمَتُّعُ بِهِ فِي سَائِرِ حَوَائِجِكُمْ، ثُمَّ التَّفَتُّ السِّيَاقِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ، بِإِتْيَانِ جُمْلَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ كَلَامِ

مُوسَى، لِيَتَنَقَّلَ بِالنَّاسِ مِنْ مَحِيطِ الْقِصَّةِ إِلَى الْمَشَافَهَةِ وَ الْمَشَاهِدَةِ، وَ ذَلِكَ أَيْضًا تَأْثِيرًا فِي نَفْسِ السَّامِعِ، كَمَا وَقَعَ مِثْلُهُ فِي سُورَةِ الْحَمْدِ

فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَى بِذَلِكَ الْمَاءِ أَزْوَاجًا أَصْنَافًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى جَمْعُ شَتَّى، كَمُرْضَى جَمْعُ مَرِيضٍ، وَ الْمُرَادُ بِالنَّبَاتِ الْجِنْسِ وَ لِذَا وَصَفَ

بِالْجَمْعِ، نَحْوُ «الدَّرْهَمِ الْبَيْضِ» وَ النَّبَاتَاتِ مُخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالِ وَ الْأَلْوَانِ وَ الطَّعُومِ وَ الرِّوَائِحِ وَ الْخَوَاصِ وَ الْأَوْزَانِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ، فَمِنْ يَا

تَقْرِيبُ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٤٨٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٥٤ الى ٥٧]

كُلُوا وَ ارْزَعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَ لَقَدْ

أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبِي (٥٦) قَالَ أَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧)

تَرَى جَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ؟ أَمْ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ هَذَا الْمَخْتَلِفَ الْعَجِيبَ الْاِخْتِلَافِ مِنْ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ وَ مَاءٍ وَاحِدٍ.

[٥٥] كَلُوا أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ هَذَا النَّبَاتِ الْمَخْتَلِفِ وَ ارْزَعُوا فِيهَا أَنْعَامَكُمْ أَى أَسِيمُوهُمْ حَيَوَانَاتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

سُبْحَانَهُ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ لِأُولِي الْأَلْبَابِ جَمْعُ نَهْيَةٍ وَ هِيَ الْعَقْلُ، وَ إِنَّمَا قِيلَ لَهُ نَهْيَةً، لِأَنَّهُ يَنْهَى الْإِنْسَانَ عَنِ

الْفَسَادِ، أَى أَنَّ أَصْحَابَ الْعُقُولِ يَعْتَبِرُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَ يَسْتَدَلُّونَ بِهَا عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٥٦] مِنْهَا مِنَ الْأَرْضِ الْمَتَقَدِّمَةِ فِي قَوْلِهِ «جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا» خَلَقْنَاكُمْ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ أَوَّلُهُ تَرَابٌ ثُمَّ يَنْقَلِبُ نَبَاتًا يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ - أَوْ

الحيوان الذى يأكله الإنسان أيضا- فيصير منيا ثم إنسانا و فيها نُعيدُكم إعادةً، إذ الإنسان بعد ما يبلى ينقلب ترابا و منها من الأرض نُخرِجُكم تارةً أى مرةً أخرى للحساب و الجزاء و ذلك يوم القيامة.

[٥٧] و لَقَدْ أَرْسَلْنَا أُرِينَاءَ فرعون آياتنا الدالّة على صدق موسى و هى المعجزات التسع كلّها كل الآيات التى زود بها موسى دلالة لصدقه فَكَذَّبَ فرعون بجميعها و أبى أى امتنع أن يؤمن و يصدق.

[٥٨] و لما أفحم فرعون لم يجد بدا من أن يتوسل بالكذب و الافتراء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)

و الجدال بالباطل، كما هو عادة كل مبطل قال مخاطبا لموسى أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى هل تريد أن تخرجنا من أرض مصر؟ و لم يرد موسى ذلك و إنما أراد أن يبهته فرعون ليجلب أهواء الناس إلى نفسه، مبينا أن موسى لو سيطر أخرجنا من بلادنا ليعطى أزمته بيد قومه بنى إسرائيل.

[٥٩] فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ أى مثل سحرك ليعرف الناس إنك كاذب، و إنما تريد أن تتوصل بواسطة السحر إلى الملك و الرئاسة فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا وَقْتًا خَاصًا وَ مَكَانًا خَاصًا لِيَأْتِيَ كُلَّ فَرِيقٍ بِسِحْرِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ الغلبة فى ذلك لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ أى لا- يقع من أحد منا خلف فى حضور ذلك المكان مَكَانًا سُوًى أى منتصفا بيننا و بينك فلا يكون أقرب إليك و لا إلينا، و كأنه كان لموسى مكانا خاصا فى مصر يقاس المحل بالنسبة إليه كما يقاس بالنسبة إلى قصر فرعون، و «مكانا» إما عطف بتقدير الواو، لو أريد من الموعد الزمان، و إما بدل بعض عن كل لو أريد من الموعد الأعم.

[٦٠] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ فَقَدْ كَانَ لَهُمْ يَوْمَ يَسْمَى يَوْمَ الزَّيْنَةِ، لَأَنَّ النَّاسَ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَ يَزِينُونَ الْأَسْوَاقَ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ أى يجمع الناس ليشاهدوا أينأ أصدق، قالوا و قد جرت عادتهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٠ الى ٦٢]

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَ يَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبَنَّكُمْ بِعَذَابٍ وَ قَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢)

أن يجمع الناس فى يوم الزينة فى محل خاص، و لذا لم يتعرض للمكان لمعلومية المحل من حشر الناس ضُحًى أى وقت ارتفاع الشمس فى ذلك اليوم لئلا يلتبس عليهم الأمر بواسطة الظلمة، و قد جعل يوم الزينة، لأن الناس فيه مستعدون و لا يشتبه من لا يعرف الحساب وقته.

[٦١] فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ انصرف عن المجلس على هذا الموعد فَجَمَعَ كَيْدَهُ أى كل ما قدر عليه من المكر، و ذلك بجمع السحرة من أطراف مملكته ثُمَّ أَتَى إلى الموعد، فى يوم الزينة.

[٦٢] و لما اصطف الجانبان، فرعون و السحرة و ملاه، و موسى و هارون و من معهما قَالَ لَهُمْ أى لأولئك الذين جاءوا لمبارزته موسى وَ يَلِكُمْ هى كلمه و عيد و تهديد أى ألزمكم الله العذاب و النكال بسبب ما قصدتم من إبطال آيات الله، و ما جئتم به من السحر لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بَأَنَّ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا، أو تنسبوا معجزاته إلى السحر، فإنه افتراء على الله الذى زودنى بهذه المعجزات.

فَيَسْحَبَنَّكُمْ أى يهلككم، فإن سحت و أسحت بمعنى أهلك بعذاب من عنده يأخذكم و يفنيكم و قَدْ خَابَ أى خسر مَنْ افْتَرَى على الله الكذب و نسب إليه باطلا، و إنما يخسر دنياه و آخرته.

[٦٣] وقد ألقى موسى عليه السلام هذا الكلام مقدمه للشروع في المبارء، لعلهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٨

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٣ الى ٦٤]

قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّو صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤)

يتعظون ولا يعرضون أنفسهم للخطر والهلاك، وقد أحدث هذا الكلام بين صفوف القوم شقا وتنازعا فصار بعضهم مع موسى وبعضهم مع فرعون، وأخذوا يتناجون بينهم هل يصدق موسى عليه السلام أم لا؟ وهكذا تأخذ البليغة مكانتها في النفوس، وإن لم تؤثر في الإتياع حالا فتنازعوا أي تنازع أصحاب فرعون، في أمرهم وأخذ كل قسم منهم طرفا من طرفي موسى وفرعون بينهم جيء بهذه اللفظة، لئلا يسبق إلى الذهن كون التنازع كان بين الجانبين وأسروا النَّجْوَى أي أخذ بعضهم يناجي الآخر سرا حول موسى وأنه هو صادق أم لا؟

[٦٤] وأخيرا أخذ أصحاب فرعون يؤيدون كلام فرعون ويحركون الناس من جهة العاطفة ليقووا به قلوب المترددين قالوا إن أي نعم - كما قال فرعون: أجتتنا لتخرجنا من أرضنا بسحر ك- هذان موسى و هارون لسا حران فما العصى واليد إلا سحرا يريدان أن يُخْرِجَاكُمْ أَيهَا الْأَقْبَاطُ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا فَإِنَّهُمْ لَوْ غَلَبُوا أَخْرَجُوا كُلَّ مَخَالِفٍ لَهُمْ عَنِ الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ وَيُرِيدَانِ أَنْ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى أي طريقة دينكم، لتكونوا متدينين مثلهما وتركوا طريقة آبائكم و «المثلى» مؤنث الأمثل، أي الأفضل والأحسن.

[٦٥] ثم قالوا للمترددين منهم فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ فَلَا تَدْعُوا شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا جِئْتُمْ بِهِ ثُمَّ اتُّو صَفًا واحدا، بلا تفرق، وليس المراد الإتيان في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٨٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦)

المستقبل وإنما المراد أن يكونوا صفا واحدا وقت المبارء، فإن التفرقة تضر الحركة بقدر ما تنفع الطرف المقاتل وقد أفلح و فاز الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى أي من قد غلب و علا من جانبنا أو جانب موسى عليه السلام فلا تفوتكم الفرصة.

[٦٦] و بعد توحيد الصفوف، و تقوية قلوب المترددين بهذه الكلمات و أمثالها، توجهت السحرة نحو موسى عليه السلام قالوا يا موسى إِمَّا أَنْ تُلْقَى عِصَاكَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى سحره ثم تلقى أنت؟

[٦٧] قال موسى عليه السلام بَلْ أَلْقُوا أَنْتُمْ مَا مَعَكُمْ و لعل أمره بابتدائهم لإشعار المجتمع بعدم الاكتراث بهم، فإن الإنسان الذي يطمئن من نفسه، لا يهمله تقدم غيره عليه، و امتثل السحرة و ألقوا ما معهم فَإِذَا حِبَالُهُمْ جَمَعَ حَبْلٌ وَعِصِيُّهُمْ جَمَعَ عِصَى يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَي إِلَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ أَي مِنْ أَهْلِ سِحْرِ السَّحَرَةِ أَنَّهَا تَسْعَى فَكَانَ سَعِيهَا خِيَالًا - لا حقيقة، و في آية أخرى (سَيَحْرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاؤُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ) «١» و كان الإتيان ب «يخيل إليه» نسبة إلى موسى عليه السلام بيان عظمة السحر، حتى أنه أثر في موسى النبي عليه السلام، و خيل إليه كما تريد ذلك الآية التالية أيضا.

(١) الأعراف: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٠

[سورة طه (٢٠): الآيات ٦٧ الى ٧٠]

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ

لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (٧٠)

[٦٨] فَأَوْجَسَ فَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةً خَوْفًا مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ وَالْعَصَى مُوسَى فَاعِلٌ أَوْجَسَ،

و روى عن الإمام المرتضى عليه السلام: لم يوجس موسى خيفة على نفسه بل أشفق من غلبة الجبال و دول الضلال «١»

[٦٩] قُلْنَا لِمُوسَى حِينَ خَافَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنْ عَصَاكَ تَبْطُلُ سِحْرَهُمْ وَ تَظْهَرُ زَيْفَهُمْ.

[٧٠] وَ أَلْقَى أَى اطرح إلى الأرض ما فى يَمِينِكَ أَى العصا تَلْقَفُ تبتلع ما صَيَّرُوا مِنَ الْجِبَالِ وَالْعَصَى إِنَّمَا صَيَّرُوا كَيْدُ سَاحِرٍ خَبِرَ «مَا»

أى إن الذى صنعوه هو كيد الساحر و مكره و تدبيره الخفى، و ليس له حقيقة يخشى منها و لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ أَى لا يفوز الساحر ببغيته و مطلبه، و من عجيب الأمر أن السحرة دائما مهانون، لا يتمكنون من إدارة أمورهم مع ما يصنعون من الأمور المدهشة الجالبة حيث أتى أى وجد، أو حيث أتى بسحره.

[٧١] فَأَلْقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ، وَ إِذَا بِهَا ثَعْبَانِ مَبِينٍ تَبْتَلِعُ عَصَى السَّحْرَةِ وَ حَبَالَهُمْ، وَ فَرَّ النَّاسُ ذَعْرًا مِنْ خَوْفِهَا فَأَلْقَى السَّحْرَةَ

سُجَّدًا أَى أَنَّهُمْ أَلْقَوْا أَنفُسَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ خَاضِعِينَ لِلَّهِ الَّذِى يَدْعُو إِلَيْهِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ١٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩١

[سورة طه (٢٠): آية ٧١]

قَالَ آمَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْلَبَّنَّكُمْ فِى جُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧١)

موسى عليه السلام و كان الإتيان بالمجهول «ألقى» لإفاده أن عملهم هذا كان باندفاع و انهيار، لا كسجدة الإنسان الهادئ قالوا للملأ حوله آمناً بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى و لعل تقدم هارون لكونه الأخ الأكبر- كما فى بعض التفاسير أنه كان أكبر الأخوين- أو للقافية.

[٧٢] وَ قد أحدث إيمان السحرة اضطراباً عجيباً فى صف فرعون حتى خاف فرعون أن يتبعه الناس و لم ير عاجلاً إلا اللجوء إلى القوة فتوجه إلى السحرة مهدداً قَالَ آمَنَّا لَهُ أَى كيف آمتم بموسى، و إنما عدى باللام لاشتماله على معنى التصديق قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ فكيف خالفتهم طريقتى بدون الإذن و تحصيل الرخصة؟ ثم أراد أن يعمى على الناس قصة كون العصا إعجازاً، فأتى بالكذب و المغالطة، تبريراً لموقفه من موسى عليه السلام و من السحرة الذين اتبعوه لكى لا يلام بأنه لما ظهر الحق أعرض عنه إِنَّهُ أَى موسى عليه السلام لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فإنه أستاذكم فى علم السحر، و قد تواطأتم على أن يأتى هو بأعظم أقسام السحر، و تأتون أنتم ببعض أقسامه الأدنى، لتروا للناس غلبته ثم تؤمنون به ليؤمن الناس- خدعهم منكم للجماهير- تريدون السيطرة على البلاد، ثم أخذ يهددهم كما هو دأب الطغاة حيث يعجزون عن القلوب يلجئون إلى تعذيب الأبدان فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ فتقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى، أو بالعكس، ليختل توازن البدن، و يكون عذابه أكثر ما دام الإنسان حياً وَ لَأَصْلَبَّنَّكُمْ الصلْبَ هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧٢ إلى ٧٣]

قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (٧٣)

الشنق، و له أقسام منها أن يدق يدا المصلوب بجذع أفقى نصب على جذع عمودى، فيبقى المصلوب فى أذيه يوماً أو أياماً حتى يموت فى جُدُوعِ النَّخْلِ و إنما عدى بعللى لإشراب الصلْب معنى الرفع، أى أرفعنكم للصلب على أصول نخل التمر. وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيْهَا السَّحْرَةَ أَيْنَا أَى مَنْ وَ مِنْ مُوسَى فِيمَا يَدْعَى وَ يَقُولُ «فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ» أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ الْآخِرِ وَ أَبْقَى أَى أَدُومَ عَذَابًا؟ وَ قد كان ظن أن

عذابه أشد و أبقى من عذاب الله سبحانه.

[٧٣] قالوا أى قالت السحرة فى جواب تهديد فرعون لَنْ نُؤْتِرَكَ أى لن نفضلك و نختارك يا فرعون على ما جاءنا من اليبينات أى الأدلة الواضحة، فإن البقاء فى طريقتك معنا إنا رجحناك على الأدلة التى دلتنا على صحة طريقة موسى عليه السلام و على الذى فطرنا أى لن نختارك ربا- بعد هذا- على الله الذى فطرنا و خلقنا فأقضى ما أنت قاضٍ أى فاصنع ما أنت صانع بنا من التعذيب إنما تقضى أى تحكم علينا فى هذه الحياة الدنيا و هى دار زائلة لا يهمننا ما يصنع بنا فيها.

[٧٤] إنا آمننا برَبِّنا لِيَغْفِرَ لنا خطايانا أى معاصينا التى سلفت منا من الكفر و الآثام و ما أكرهتنا عليه من السحر فإن السحر خصوصا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧٤ الى ٧٦]

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

إذا كان لإبطال نبوة من أعظم الآثام، و لا- يرتفع إثمه بالإ-كراه إذا كان فى مقابلة النبى، و قد كان فرعون أكرههم على السحر فى مقابل موسى،

فقد روى أن السحرة قالوا لفرعون أرنا موسى إذا نام فأراهم إياه فإذا هو نائم و عصاه تحرسه فقالوا ليس هذا بسحر إن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى عليهم إلا أن يعملوا فذلك إكراههم للسحر «١»

و الله خيرٌ لنا منك و هو أبقى أى أكثر بقاء، فإذا آمننا به كان أحسن لنا من بقائنا فى طريقتك، و إن خيرك ليسير و بقائك لقليل.

[٧٥] إِنَّهُ الضمير للشأن من يأت ربّه مجرماً كافراً أو عاصياً فإنّ له جهنّم لا يموت فيها فيستريح من العذاب و لا يحيى حياة فيها راحة، أى لا يبقى حيا فى راحة، و إنما هو حى فى أنواع الشدائد و الآلام.

[٧٦] وَمَنْ يَأْتِهِ أى يذهب إلى الله سبحانه حينما يموت مؤمناً مصدقاً بالله و رسله و ما جاءوا به و قد عمل الأعمال الصالحات فكان صحيح العقيدة و العمل فأولئك لهم الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جمع عليا، تأنيث أعلى، أى له درجات رفيعة فى الجنة.

[٧٧] ثم بين الدرجات بأنها فى جَنَّاتٍ عَدْنٍ أى بساتين إقامة و بقاء، من

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٤

[سورة طه (٢٠): آية ٧٧]

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧)

عدن بالمكان إذا أقم تجرى من تحتها أى تحت قصورها و أشجارها الأنهار فى حال كونهم خالدين فيها إلى الأبد و ذلك الثواب جزاء من تزكى أى تطهر بالإيمان و الطاعة.

[٧٨] و لما أتمت الحجة على فرعون و ملاءه، و لم يؤمنوا، صار القرار من الله سبحانه أن يهلكه مع حاشيته إنجازا لما وعد به موسى، و قال موسى عليه السلام لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) «١» و لقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى بنى إسرائيل و الذين آمنوا بك، ليلا و إنما أمروا بالسير ليلا لئلا يراهم فرعون فيمنعهم من المسير مع موسى عليه السلام فاصرب لهم أى لمن معك طريقاً أى اضرب بعصاك فى البحر يوجد لسيرهم فى وسط البحر طريق ييسأ أى يابسا لا تخاف نهى فى صيغته الخبر، تأكيد لعدم الخوف دَرَكًا أى إدراك فرعون لك و لا تخشى من الغرق، ففعل موسى ما أمره الله سبحانه، فإنهم لما وصلوا إلى البحر الأحمر متجهين نحو الشام، ضرب بعصاه على البحر، فانفلق الماء، و انفتحت لهم اثنتى عشرة طريقا، ليسير كل قبيلة من القبائل الإسرائيلية من طريق خاص بهم، و

لما عرف فرعون بفرار بنى إسرائيل بقيادة موسى جهز الجيش ليتبعهم و يردهم.

(١) الأعراف: ١٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٧٨ إلى ٨٠]

فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشَّيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى (٨٠)

[٧٩] فَأَتَّبَعَهُمْ أَى اتبع موسى عليه السلام و بنى إسرائيل فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ مع جنوده، أى ذهبوا خلفهم، حتى وصلوا إلى البحر و رأوا أنهم قد دخلوا البحر يريدون العبور، و هنا توقف فرعون أولاً، و خاف من الغرق إن دخل سلك البحر التى انشق الماء عنها بقدره الله عز و جل، لكنه أخيراً دخل مع جيشه، فلما توسطوه، و خرج أصحاب موسى من البحر انطبق الماء على آل فرعون فَغَشَّيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ أى جاءهم الماء حتى غطاهم و أحاط بهم، و قوله «ما غشيهم» للتحويل كى يبقى من النفس منه هول و خوف.

[٨٠] وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ فى هذه الحياه بسوقهم إلى البحر الذى لم يكن طريقاً، حتى سبب هلاكهم، و فى الحياه الآخرة بأن أراهم طريقه منحرفه لا تصل إلا إلى النار و ما هدى إلى طريق الحق، فقد بقى فى الإضلال إلى آخر عمره، و كان الإتيان بجمله «ما هدى» لإفاده أنه لم يرجع عن إضلاله، فإن «أضل» إنما يدل على الابتداء فى الإضلال، أما البقاء فيه فإنه لا يفيد.

[٨١] يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ فِرْعَوْنَ، و قد رأيتم كيف أنجيناكم، بعبوركم من البحر بالإعجاز، و إهلاك فرعون و جنوده هناك و واعدناكم أى واعدنا الكليم موسى عليه السلام أن يأتى جانب الطور الأيمن أى الطرف الأيمن من الجبل المسمى بالطور، لإعطاء التوراه، و حيث إن الوعد لرئيس القوم وعد لكل القوم قال سبحانه:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨١ إلى ٨٢]

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

«و واعدناكم» و الإتيان من باب المفاعله كأنه لا بد كون الوعد من الطرفين الإعطاء و الأخذ بخلاف مثل وعده أى المتكلم له مع الأمر فإنه وعد، لا مواعده و نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى و هو نوع من الصمغ الحلو و السَّلْوَى و هو طير لذيذ يسمى السمانى، و ذلك حين كنتم فى التيه- كما مر تفصيله فى سورة البقره-.

[٨٢] وَ قَلْنَا لَكُمْ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ المراد بالأمر الإباحه، أى أبحنا لكم أكل الطيبات و لا- تَطْغَوْا فِيهِ فيما رزقناكم، بأن تستعملوه فى الحرام، كالربا و الاحتكار و الغش و أشباهها، فإنها طغيان و تعد عن الحد فى الرزق الحلال فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي لو طغيتم فى رزقى و الفعل مجزوم- بالفتح- لكونه فى جواب النهى و مَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي بأنه عمل بالمعاصى فاستحق العقاب فَقَدْ هَوَى أى هلك، كالذى يهوى من السطح إلى الأسفل.

[٨٣] ثم بينا لكم أن من هوى لا- ينقطع عن الله إلى الأبد، بل باب التوبه مفتوح أمامه و إِنِّي لَغَفَّارٌ مبالغه من الغفران لِمَنْ تَابَ عن معاصيه السابقه التى أظهرها الشرك و آمَنَ بالله و رسوله و ما أنزل و عَمِلَ صَالِحاً بأن صحت عقيدته و عمله ثُمَّ اهْتَدَى أى بقى على الهدايه إلى أن يموت، أو المراد بيان أن الاهتداء ليس عقيدته فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨٣ إلى ٨٥]

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَى أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)

القلب، و عملا- بالجوارح، و إنما يحتاج إلى رسوخ الإيمان و التحلى بنور الهداية، و إنما العقيدة و العمل مقدمتان له و مهيتان الجو لإشراقه.

[٨٤] ثم إن الله سبحانه إنجازا لما وعد به موسى عليه السلام، من إعطائه الكتاب الذى فيه أحكامه، فقد انقطع القوم عن أحكام فرعون و أنظمتهم، و احتاجوا إلى أنظمتهم لحياتهم، و دستور لعملهم، أمر موسى عليه السلام أن يأتى إلى الطور مع جماعة من قومه، و صام موسى أربعين يوما مقدمة لذلك، حتى تصفو نفسه، و تستعد لهذا اللقاء، و لما أتم الصيام تعجل للذهاب إلى الجبل، فى حين كان القوم بعد فى سفح الجبل، فقال له سبحانه و مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى أى شىء صار سببا لأن تتقدم على القوم و تصعد قبلهم؟ و حيث أن عجل أشرب معنى التجاوز عدى ب «عن».

[٨٥] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَوَابِ هُمْ الْقَوْمُ أَوْلَاءِ جَمْعِ الَّذِي، أَى هُمَ الَّذِينَ عَلَى أَثْرِي مِنْ وَرَائِي يَدْرِكُونَنِي عَنْ قَرِيبٍ وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ يَا رَبِّ لِتَرْضَى أَى لِتَرْضَى أَوْ لِتَعْجَلَ الرِّضَى عَنِّي.

[٨٦] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ أَى امْتَحَنَاهُمْ لِيُظْهِرَ قَدْرَهُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَلْفَ عَادَةً أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْإِقْلَاعُ عَنْهَا مِنْ بَعْدِكَ أَى مِنْ بَعْدِ مَجِيئِكَ إِلَى الطُّورِ، وَ قَدْ كَانَ غِيَابَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَقَدْ كَانَتْ نَفُوسُ الْقَوْمِ تَأَلَّفَ الْوَتْنَ، وَ لَذَا لَمَّا جَاوَزُوا الْبَحْرَ أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا: يَا مُوسَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٨

[سورة طه (٢٠): آية ٨٦]

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَظَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦)

اجعل لنا إليها كما لهم آلهة و لما غاب موسى انتهز السامري الفرصة، فأمرهم بجمع حليهم و صنع منها عجلا جسدا و قال هذا إلهكم و إله موسى، و عبده بنو إسرائيل، و هذا كان إضلال السامري، كما أنه كان امتحان الله لهم، و قد خلى بين السامري و بين ما يفعل ليظهر دفائن قلوبهم.

[٨٧] فلما أخذ موسى عليه السلام الكتاب من الله سبحانه فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً فى حالة غضب على ما اقترفوا من الإثم، و أسف أى حزن و تحسر عليهم، كيف أنهم ضلوا بعد تلك المصاعب و الأتعاب، و لما وصل إلى القوم قال يا قوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا يَاعِطَانِكُمُ الْكِتَابَ وَ جَعَلَكُمْ وَرَثَةَ الْأَرْضِ وَ إِدْخَالَكُمْ الْجَنَّةَ؟ فَلَمْ أَنْصَرِفْتُمْ عَنْ وَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ وَ لَا يَنْفَعُكُمْ أَبَدًا؟ أَ فَظَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ الَّذِي عَهَدْتُمْ بِآيَاتِنَا التَّوْرَةَ حَتَّى تَعْتَذِرُونَ بِأَنَّكَ أَخْلَفْتَ الْعَهْدَ، وَ لَذَا عَدَلْنَا عَنْكَ وَ عَنْ إِلَهَكَ إِلَى هَذَا الْعَجَلِ؟ أَمْ لَمْ يَطَّلِ الْعَهْدُ وَ إِنَّمَا أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَإِنْ فَعَلْتُمْ هَذَا فَعَلْتُمْ مِنْ يَرِيدُ إِحْلَالَ الْعِقَابِ بِهِ، وَ إِلَّا فَمَا هُوَ السَّبَبُ لِذَلِكَ؟ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي الَّذِي وَعَدْتُمُونِي بِأَنْ تَكُونُوا عَلَى عَهْدِكُمْ بَاقِينَ حَتَّى آتِيَكُمْ بِالْكِتَابِ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْمَلُوا تَحْتَ إِمْرَةِ هَارُونَ أَخِيهِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، وَ لَكِنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٤٩٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨٧ إلى ٨٨]

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَ لَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسِدًا لَهُ حُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) طاعته، فأخلفوا موعد موسى عليه السلام.

[٨٨] قالوا أى قال بنو إسرائيل فى جواب اعتراضه و توييخه ما أخلفنا مؤعِدَكَ بِمَلِكِنَا أَى و نحن نملك من أمرنا شيئا، فإن الملك مثل الميم بمعنى ما يملك الإنسان، يعنى لم يكن ملكنا و باختيارنا الوفاء و الخلف حتى نفى، و إنما أجبرنا على خلف الوعد و لكننا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ أَى حملنا- من مصر- أثقالا- من الذهب من حلى آل فرعون، فقد كانت لديهم حلى من القبط قد استعاروها منهم و ما ألقاه البحر على الساحل بعد غرقهم، و الأوزار جمع وزر، بمعنى الثقل، و سُمى الحلى وزرا لثقله جسما أو رتبة فَقَدْنَاها أَى تلك الأوزار ألقيناها فى البوتقة فى النار فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ما معه فى النار، ليسبك الجميع عجلا، أو المراد قذفها ليتخلصوا منها حيث كانت محرمة و كذلك قذف ما معه السامرى ثم جمعها و جعلها عجلا.

[٨٩] فَأَخْرَجَ السَّامِرِيُّ، و هو رجل منهم يلقب بهذا اللقب- و لعل اللفظ معرب و إلا فأصله فى التوراة يلفظ بشكل آخر- لَهُمْ عِجْلًا و هو ولد البقر جَسَدًا لآ روح فيه، و يقال الجسد لما لا روح فيه- غالبا- لَهُ خُورًا كخوار العجل قال بعض المفسرين إنه جعل من العجل منافذ إذا هب الريح فيها خرج من العجل صوت يشبه صوت العجل فَقَالُوا السَّامِرِيُّ و أعوانه هذا العجل إلهكم يا بنى إسرائيل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٥٤٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ٨٩ الى ٩٠]

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا- وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠)

وَ إله موسى فقد نسى موسى عليه السلام أن إلهه هنا، فذهب إلى الطور يطلبه.

[٩٠] أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرَى بنو إسرائيل أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ «أن» مخففة من الثقيلة، و اسمه ضمير محذوف، أى أن العجل «لا يرجع» فاعله محذوف يرجع إلى العجل و قولنا تميز، أى لا- يرجع إليهم رجوعا قوليا، كما تقول «لا يأتى قولا» أى لا يقول القول، فكأن من يقول، يرجع هو إلى الطرف، و هو من باب علاقته العلة و المعلول، فقد عبر عن إرجاع القول برجوع النفس، و المعنى أفلا يرى بنو إسرائيل أن العجل الذى عبده لا يرد عليهم جوابا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا و كيف يتمكن أن يضرهم أو ينفعهم ذهب مصوغ؟

[٩١] وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ أَى لبنى إسرائيل هَارُونُ أَخُو موسى عليه السلام المخلف عندهم مِنْ قَبْلُ عود موسى إليهم حينما اتخذوا العجل يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ أَى امتحنتم بهذا العجل، ليعلم أيكم يعبده و أيكم يتركه، بل يبقى على عبادة ربه، فلا- تعبدوا العجل وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ الذى رحمكم بنجاتكم من آل فرعون و تفضل عليكم بكل شىء فَاتَّبِعُونِي فيما أدعوكم إليه وَ أَطِيعُوا أَمْرِي فى عبادة الله سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠١

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩١ الى ٩٣]

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) [٩٢] قَالُوا أَى الذين عبدوا العجل لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ لا نزال مقيمين على عبادته، فإن برح بمعنى زال، و عكف بمعنى أقام حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى فننظر هل يعبده كما عبدناه، و كما أخبرنا السامرى قائلا: هذا إلهكم و إله موسى، أم لا يعبده؟

[٩٣] و لما رجع موسى عليه السلام و رأى أنهم عبدوا العجل كما أخبره سبحانه من الطور، توجه إلى هارون و قال يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا بعبادة العجل، عن اتباعى، و قوله:

[٩٤] أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَى فى الغضب الشديد لله و مقاتله عبادة العجل أو الخروج من بينهم، متعلق بمحذوف أى ما هو السبب فى أن لا تتبع، كما أن متعلق «ما منعك» محذوف، و كثيرا ما يستعمل البلغاء مثل هذا تأكيداً للنفى، فإن حذف المتعلق فى «ما منعك» يحدث فى الذهن فجوة و سيعه و هولاء كما أن حذف الفعل فى «ألا- تتبع» يوهم ابتداء الإنكار، و مثله شائع كما قال سبحانه: (ما منعك أَلَّا

تَسْجُدَ) (١) و قوله:

«ما يمنع القوم أن لا يعملوا حسنا» و قوله: «و قد رأى المنع فى أن لا يجاريهم» و لذا كان «ألا تتبعن» أول الآية. أَفَعَصَيْتِ أَمْرِي هل عصيت أمرى الذى أمرتك؟ كما قال سبحانه:

(١) الأعراف: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٢

[سورة طه (٢٠): آية ٩٤]

قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) «١» فكيف لم تصلح؟ ثم أخذ موسى بلحية أخيه و رأسه يجره إليه، و ألقى الألواح من يده تضجرا، و لم يك هذا العمل من موسى لأنه شديد الغضب، كما يقول البعض، كما أنه لم يك ذلك لأنه ظن بهارون سوءا و إنما جرت عادة العقلاء على أن يبداوا استنكارهم الشديد لغير المجرم، فى أقوال و أعمال، ليعرف المجرم وقع الجرم، و لا- يكون هو المعتب الأول، لثلا- يثار نفسه، فإنك إذا أردت أن تفهم جارك سوء عمله من إلقاء القمامة على باب البيت، تقول لولدك: «لماذا يصب القذارة على باب دارنا؟ هل أنت أعمى حتى لا تمنع الصاب؟ و لو رأيت القمامة بعد هذا لضربتك» و إنما الولد برىء مثلك و أنت تعلم ذلك، و إنما تريد إفهام الجار، على طريقة «إياك أعنى و اسمعى يا جارة» و هذا من فنون الأدب و البلاغة.

[٩٥] قَالَ هَارُونَ مَخَاطَبًا لِمُوسَى يَا بَنُ أُمَّ وَ إِنَّمَا خَصَّ الْأُمَّ بِالذِّكْرِ، اسْتِعْطَافًا وَ تَرْقِيقًا لِيَسْكُنَ الْغَضَبَ الْمَشْتَعَلُ فِي مُوسَى عَلَى عِبَادِ الْعَجَلِ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي وَ لَمْ يَقُلْ هَارُونَ ذَلِكَ، إِلَّا لِكَيْ يَعْرِفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْمَذْنَبُ فِي الْقِصَّةِ، لِأَنَّهُ رَأَى مُوسَى غَضَبَانَ عَلَيْهِ إِنِّي خَشِيتُ لَوْ فَارَقْتَهُمْ وَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَنْ تَقُولَ أَنْتَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ خَرَجَ الزَّعِيمُ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ يُوْدَى إِلَى تَفْرِقِهِمْ، كَمَا أَنَّ مُحَارَبَتَهُ لَهُمْ تُوْدَى إِلَى التَّفْرِقَةِ، وَ قَدْ كَانَ عَذْرُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَحِيحًا، فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَتَّبِعُونَ الْخَلْفَ كَمَا يَتَّبِعُونَ

(١) الأعراف: ١٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٣

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩٥ الى ٩٦]

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) الرئيس، و بأدنى شىء يتفرقون عليه و تقول لَمْ تَرْقُبْ يَا هَارُونَ قَوْلِي أى لم تحفظ وصيتى فى ما أوصيتك به أن أصلح و لا تتبع سبيل المفسدين، فتقول لى إنك لم تصلح حين سببت التفرقة بين القوم، بغضبك الشديد عليهم، أو مقاتلتك لهم، أو خروجك من بينهم. [٩٦] و لما أظهر موسى عليه السَّلَامُ براءة ساحة أخيه، و أبدى لومه الشديد و غضبه على عباد العجل فى هذه الصورة، و بهذا القلب توجه إلى السامرى رأس الفتنة قال موسى عليه السَّلَامُ فَمَا خَطْبُكَ أَي مَا شَأْنُكَ وَ مَا الَّذِي دَعَاكَ إِلَى مَا صَنَعْتَ يَا سَامِرِيُّ حَيْثُ أَضَلَّتْ النَّاسَ؟

[٩٧] قَالَ السَّامِرِيُّ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ أَي رَأَيْتُ مَا لَمْ يَرَوْهُ أَوْ فَطَنْتُ بِمَا لَمْ يَفْطِنُوا بِهِ، فَقَدْ رَأَيْتُ جِبْرَائِيلَ عَلَى فَرَسٍ - فِى صُورَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ - فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ تَرَابِ أَثَرِ الرَّسُولِ تَحْتَ قَوَائِمِ فَرَسِهِ فَنَبَذْتُهَا طَرَحْتُ تِلْكَ النَّبْذَةَ فِي الْعَجَلِ الَّذِي صَنَعْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ فَكَانَ لَهُ هَذَا الْخَوَارِ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ التَّرَابِ وَ كَذَلِكَ الَّذِي حَدَّثَكَ يَا مُوسَى سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي أَي زَيْنَتْهُ لِي حَتَّى أَوْجَهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى نَفْسِي،

وقد احتمل بعض المفسرين أن هذا الكلام كان كذبا من السامري أراد به أن يبرر ساحته و يظهر فضله في أنه فطن بما لم يفتن به بنو إسرائيل، و لو ورد بما ذكره أثر صحيح لم يك مخالفا للمقاييس إذ رؤية الإنسان للملك ممكن، كما إن الخوار لأجل الأثر ممكن،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٤

[سورة طه (٢٠): آية ٩٧]

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)

و لا يوجب عذر من يعبد العجل، إذ لا عذر بعد تمام الحجّة، أ رأيت لو جاء أحد الآن و قال: إن هذه الفأرة إلهكم، و على يده فأرة مصنوعة من النحاس لكنها تتحرك، هل يكون المعترف بكونها إلهها معذورا؟

[٩٨] ثم أعلن موسى عليه السلام طرد السامري عن جماعة بنى إسرائيل إلى الأبد قال للسامري فاذهب من بيننا فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس فقد كان إذا مسه أحد أخذته الحمى عقوبة لما اقترف من صنع العجل، كما أن الماس كانت تأخذه الحمى بمسه السامري، فمعنى لا مساس: لا أمس أحدا و لا يمسنى أحد. و

قد ورد في الحديث أن السامري كان سخيا

و لذا لم يقتله موسى عليه السلام و إن لك موعدا لعذابك الشديد في يوم القيامة لن تخلفه أى لن تخلف ذلك الوعد، بل يأتيك بالقطع و اليقين و انظر يا سامري إلى إلهك أى العجل الذى كنت تسميه إلهها الذى ظلت عليه عاكفا أى مقيما تعبدته و ترشد الناس إلى عبادته لنحرقه بالنار حتى يذوب ثم لنبردنه بالمبرد حتى يصير كالتراب ثم لننسفنه فى اليم أى البحر نسفاً أى لنذريه، و قد أراد عليه السلام بذلك بيان أن الشيء الذى يحرق بالنار، و يبرد، و ينسف فى البحر لا يكون إلهها، فإن بنى إسرائيل قد علقت نفوسهم بما تنظر إليه عيونهم، فكان هذا العمل أذى لردعهم عن عبادة العجل - و هذا العمل، من قبيل ما ذكرنا أن البليغ قد يظهر ما ينويه فى العمل لتقريع المجرم، فإن العجل لم يكن مذنباً، أو يفهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ٩٨ إلى ١٠١]

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)

هذا العمل، و إنما أريد بذلك تقريع غيره-

[٩٩] إِنَّمَا إِلَهُكُمُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، لا العجل المصنوع من الذهب و سيع كل شىء علماً أى أن علمه و سيع كل شىء، فهو عالم بكل شىء، و إنما جىء بهذه الصفة لبيان أن أعمالكم كلها معلومة لديه، فلا يعمل الإنسان ما ينافى أمره و رضاه، كما أنه تعريض بالعجل الذى لا يعلم شيئاً، كيف يكون إلهها؟

[١٠٠] كَذَلِكَ الذى قصصنا عليك يا رسول الله نبأ موسى نقص عليك من أنباء ما قد سبق من أخبار الأنبياء عليهم السلام السابقين و أممهم و ما فيه عبرة و عظة و قد آتيناك أى أعطيناك يا رسول الله من لدنا من عندنا، فنحن المصدر، لا إنا واسطة ذكراً أى القرآن الذى يذكر الناس بالمبدأ و المعاد، و سائر المعارف، مما هى مفطورة فى خلقهم، و إنما القرآن يذكرهم بها.

[١٠١] مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ أى عن هذا الذكر فإنه يحمل يوم القيامة وزراً حملاً ثقيلاً من الآثام و المعاصى.

[١٠٢] فى حال كونهم خالدين فيه فى ثقل ذلك الحمل، و المراد الخلود فى جزائه، و هو النار - بعلاقة السبب و المسبب -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٢ الى ١٠٤]

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا أَى بَسَّسَ الحِمْلِ حَمْلُهُمْ، فِى ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَهُولِ، فَإِنَّهُ حَمَلَ يَجِبُ إِدْخَالُهُمُ النَّارِ.

[١٠٣] ثم بين يوم القيامة بأنه يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ: البوق الذى ينفخ ويصيح فيه إسرافيل مخاطبا الأرواح لتلتحق بأجسادها، قائلا للناس: أحيوا بأمر الله سبحانه، وهى النفخة الثانية وَنَحْشُرُ نَجْمِ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ يَوْمَئِذٍ أَى مِنْ يَوْمِ النِّفْخِ زُرْقًا جَمْعُ أَرْقٍ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَكْدُرَ الْمَهْمُومَ تَعَلُّوْا وَجْهَهُ زُرْقَةً.

[١٠٤] يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ أَى يَتَكَلَّمُونَ بِإِخْفَاتٍ وَسِرٍّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَخَذَتْهُ الدَّهْشَةُ أَوْ الْجَلَالُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا خَفِيَةً وَنَجْوَى، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنْ لَبِثْتُمْ مَا بَقِيتُمْ وَمَكْتَبْتُمْ فِى الدُّنْيَا إِلَّا عَشْرًا عَشْرَةً لِيَالِي، فَإِنَّهُمْ يَقَلِّلونَ مَدَّةَ لَبِثِهِمْ فِى الدُّنْيَا، وَهَكَذَا الْإِنْسَانُ يَقَلِّلُ مَا مَضَى مِنْ عَمَلِهِ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ يَسِيرٌ.

[١٠٥] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ لَا يَغِيبُ عَنَّا شَيْءٌ، وَالْمُرَادُ أَنَّ سِرَّهُمْ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً أَى أُرْشِدُهُمْ فِى الْحِسَابِ، وَأَصْوَابُهُمْ فِى الرَّأْيِ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا أَى مَا بَقِيتُمْ فِى الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا كَانَ أُرْشِدُهُمْ لِأَنَّ مَنْ كَانَ أُرْشِدَ يَرَى عَمَلَهُ الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٥ الى ١٠٨]

وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)

أَقْل، لَمَّا يَرَى مِنْ زَوَالِهَا بِسْرَعَةٍ.

[١٠٦] وَيَسْتَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْجِبَالِ مَا حَالُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْسِفُهَا أَى يَقْلَعُهَا وَيَدْكُهَا رَبِّي نَسْفًا وَدَكًا، فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ سَأَلَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ عَظَمَتِهَا؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنْ اللَّهُ يَسُوقُهَا بِأَنْ يَجْعَلَهَا كَالرَّمَالِ، ثُمَّ يَرْسِلُ عَلَيْهَا الرِّيَّاحَ فَتَفْرُقُهَا «١»

[١٠٧] فَيَذَرُهَا أَى يَذَرُ الْجِبَالَ وَيَجْعَلُهَا قَاعًا أَى أَرْضًا مَلْسَاءً مَنكشِفَةً صَفْصَفًا أَى مُسْتَوِيَةً لَا عِلْوَ فِيهَا وَلَا نَتْوَاءَ، وَالصَّفْصَفُ هُوَ: الْمُسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ.

[١٠٨] لَا تَرَى فِيهَا فِى تِلْكَ الْقَاعِ الْمَصْفُوفِ الْمَكُونِ مِنَ الْجِبَالِ، حَيْثُ انْتَشَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ عِوَجًا أَعْوَجَاجًا بِالْعُلُوِّ وَالانْخِفَاضِ وَلَا أَمْتًا أَى أَكْمَةً، قَالُوا: الْعِوَجُ الْانْخِفَاضُ، وَالْأَمْتُ الْارْتِفَاعُ.

[١٠٩] يَوْمَئِذٍ أَى فِى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَتَّبِعُونَ النَّاسَ الدَّاعِيَ الَّذِى يَدْعُوهُمْ لِلْحَيَاةِ وَاللِّجْمَعِ فِى الْمَحْشَرِ لَا عِوَجَ لَهُ أَى لَا أَعْوَجَاجَ لِلدَّاعِي بِحَيْثُ يَدْعُو بَعْضًا وَيَذَرُ بَعْضًا، وَإِنَّمَا دَعْوَةٌ عَامَةٌ شَامِلَةٌ لِلْجَمِيعِ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ فَلَا تَرْتَفِعُ لِلرَّحْمَنِ الَّذِى يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ كَمَا يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ هُنَا فَلَا تَسْمَعُ

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٠٨

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)

من الناس، أيها السامع إلاً همساً صوتاً خفياً.

[١١٠] يَوْمَئِذٍ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَجْرِمِينَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، أَوْ يَشْفَعَ، فَهَنَّاكَ كُلِّ مِنَ الشَّافِعِ وَالْمَشْفُوعِ لَهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بَتَعْيِينِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَرَضِيَ الرَّحْمَنُ لَهُ لِذَلِكَ الشَّافِعِ أَوْ الْمَشْفُوعِ لَهُ قَوْلًا أَيْ مِنْ كَانَ مَرَضِي الْقَوْلِ، بِأَنْ كَانَ مُؤْمِنًا لَهُ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الشَّافِعِ - وَ مُؤْمِنًا غَيْرِ مُسْتَحِقِّ لِلْعِقَابِ الْقَطْعِيِّ - بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمَشْفُوعِ لَهُ.

[١١١] وَ لَيْسَ هُنَاكَ الْأَمْرُ اعْتِبَاطًا، كَالدُّنْيَا الَّتِي لَا - يَعْلَمُ الْحَاكِمُ فِيهَا، مَا يَسْتَحِقُّ الْمَحْكُومُ لَهُ، إِنْ هُنَاكَ فِي مَعْرُضِ الْإِلَهِ الْعَالَمِ بِكُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا يَبِينُ أَيْدِيهِمْ مَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ وَقَدِمَهُ إِلَى الْآخِرَةِ - فِي حَيَاتِهِ - وَمَا خَلَفَهُمْ أَيْ مَا خَلَفُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآثَارِ الصَّالِحَةِ أَوْ الْفَاسِدَةِ وَلَا يُحِيطُونَ أَوْلَيْكَ بِهِ أَيْ بِاللَّهِ عِلْمًا فَهُوَ يَعْلَمُهُمْ، وَ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَا شَاءَ.

[١١٢] وَ هُنَاكَ عَنَتِ أَيْ خَضَعَتْ وَ ذَلَّتِ الْوُجُوهُ وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْخُضُوعَ إِلَى الْوَجْهِ لِأَنَّهَا يَظْهَرُ فِيهَا أَثْرُ الْخُضُوعِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ فَلَيْسَ مَيِّتًا لَا يَعْلَمُ، وَ لَا غَائِبًا لَا يَدْرِكُ، وَ إِنَّمَا هُوَ حَيٌّ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ مُطَّلِعٌ عَلَيْهَا وَ قَدْ خَابَ خَسِرَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا أَيْ نَوْعًا مِنْ تَقْرِيبِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٣، ص: ٥٠٩

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٢ الى ١١٤]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَا هَضْمًا (١١٢) وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَ صَيَّرْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لَا - تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَ حُجَّتْ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

الظلم كان شركا، أو عصيانا، فإنه يخسر ثواب الله سبحانه، و يخسر نفسه فيما لو أدخل النار.

[١١٣] وَ أَمَّا مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ مُقَابِلَ مِنْ عَمَلِ ظُلْمًا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فِي الْعَقِيدَةِ بِمَا يَلْزَمُ الْإِيمَانَ بِهِ فَلَا يَخَافُ مِنَ الْآخِرَةِ ظُلْمًا إِذْ لَا ظَلَمَ هُنَاكَ عَلَى أَحَدٍ، بَلْ عَدْلٌ وَ فَضْلٌ وَ لَا هَضْمًا بِأَنْ يَهْضَمَ مِنْ حَقُوقِهِ وَ يَنْقُصَ مِنْ ثَوَابِهِ، وَ الظلم أن يعاقب بلا سبب، و الهضم أن ينقص من حسناته.

[١١٤] وَ كَذَلِكَ الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ مِنَ الْقِصَصِ وَ أَخْبَارِ الْقِيَامَةِ أَنْزَلْنَا أَيْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيَعْرِفَهُ قَوْمُكَ، فَإِنَّهُ بِلِسَانِهِمْ وَ لُغَتِهِمْ، لِثَلَاثٍ يَقُولُوا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ وَ صَيَّرْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ أَيْ كَرَرْنَا فِيهِ مِنْ جِنْسِ الْوَعِيدِ، وَ التَّصْرِيفِ هُوَ تَحْوِيلُ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي قَوَالِبٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِلْفَائِدَةِ، وَ الْوَعِيدُ هُوَ الْإِعَادَةُ بِالنَّارِ وَ الْعِقَابُ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَيْ لِكَيْ يَتَّقَى هَؤُلَاءِ الْمَعَاصِيَ وَ الْآثَامَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا بِأَنْ يَذْكُرَهُمُ الْقُرْآنُ بِمَصَائِرِ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ فَيَتَذَكَّرُونَ وَ يَنْقَطِعُونَ عَنِ الْكُفْرِ وَ الْآثَامِ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ إِنْ إِحْدَاثَ الذِّكْرِ، مُقَدِّمَةً لِلتَّقْوَى، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَذَكَّرَ كَانَ مَعْرُضًا لِأَنْ يَتَّقَى حَيْثُ يَجِيشُ فِي نَفْسِهِ الْخَوْفُ وَ يَنْتَهَى بِالْآخِرَةِ إِلَى التَّقْوَى.

[١١٥] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي عَنَتِ لَهُ الْوَجُوهُ، وَ يَعَاقِبُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٠

[سورة طه (٢٠): آية ١١٥]

وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)

المجرمين، و يثبت المطيعين، الذي أنزل القرآن ليكون درسا و تذكرة و قد كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل تمام نزول الآية، فأنزل سبحانه لا تعجل بالقرآن قراءة من قبل أن يقضى إليك وحيه أي يتم الوحي، بل أصبر حتى يتم جبرائيل ما جاء به ثم اقرأ ما جاء، و قضى بمعنى تم، كما قال سبحانه: (فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ) «١» وَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا فَإِنَّ الْعِلْمَ هُوَ الْإِطْلَاعُ عَلَى الْكُونَ مَا سَبَقَ وَ مَا حَضَرَ وَ مَا يَأْتِي، وَ ذَلِكَ مِنْ أَوْسَعِ الْأُمُورِ، فَالِإِحْاطَةُ بِهِ غَيْرُ مَيَسُورٍ لِغَيْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ هُوَ الَّذِي هِيَ الْأَسْبَابُ لِلْبَشَرِ لِتَعْلَمَ بَعْضُهَا، وَ لِذَا يَأْمُرُ اللَّهُ الرَّسُولَ، بِأَنْ يَدْعُوَ لِلزِّيَادَةِ فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ كَلَّمَا زَادَ عِلْمَ الْإِنْسَانِ، زَادَتْ قِيَمَتُهُ وَ أَجْرُهُ وَ قَرَبَهُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ - فِيمَا لَوْ عَمِلَ بِمَا عِلْمَ - [١١٦] وَ بِمُنَاسَبَةِ مَبَادِرَةِ الرَّسُولِ فِي تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى إِلَيْهِ

وحيه خوف النسيان، كما في سورة أخرى: (سَيُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى «٢») يأتي الكلام حول نسيان آدم عليه السلام ما عهد الله معه، وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ إِنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ فِي الْجَنَّةِ، وَقُلْنَا لَهُ: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى «٣» مِنْ قَبْلِ أَى سَابِقًا فَتَنَسَى الْعَهْدَ، إِمَّا حَقِيقَةً، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّهُ تَرَكَ الْعَهْدَ، فَكَانَ كَالنَّاسِي، مِنْ قَبِيلِ (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) «٤» وَ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) الأعلى: ٧.

(٣) طه: ١١٩ و ١٢٠.

(٤) التوبة: ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١١

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧)

الأنبيا معصومون عن كل الخطأ والنسيان وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا أَى تَصْمِيمَ رَأَى وَ ثَبَاتَ أَمْرٍ، أَوْ الْمَرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَى الْعَزْمِ، وَ هُمُ خَمْسَةٌ: نُوحٌ، وَ إِبْرَاهِيمُ، وَ مُوسَى، وَ عِيسَى، وَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

[١١٧] وَ إِذْ جَاءَ ذِكْرُ مَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَاسِبَ السِّيَاقِ بَيَانِ قِصَّتِهِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ) «١» وَ لِأَنَّهُ بَدَأَ الْخَلْقَةَ، وَ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي الْخَتَامُ، لِيُنَاسِبَ الْجَوَّ الْعَامَّ لِلسُّورَةِ، الَّتِي هِيَ حَوْلَ الْعَقِيدَةِ.

وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ قَوْلًا لَفْظِيًّا، بِخَلْقِ صَوْتِ سَمْعُوهُ، أَوْ إِلْهَامًا وَ نَقْرًا فِي الْقَلْبِ، وَ الْمَلَائِكَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ «أَلَك» بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ، وَ سَمَوْا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ رَسَلُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَوْامِرِهِ وَ تَبْلِيغَاتِهِ اسْجُدُوا لِآدَمَ إِذَا سُوِيَتْهُ وَ نَفَخَتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ فَإِنَّهُ أَبَى وَ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ كَبْرًا وَ طَغْيَانًا.

[١١٨] فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَى قُلْنَا لِآدَمَ بَعْدَ كِبَرِ الشَّيْطَانِ عَنْ سَجْدَتِهِ إِنَّ هَذَا الشَّيْطَانُ عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْقِكَ حَوَاءُ، يَرِيدُ بِكَمَّا الشَّرَّ وَ الْخَدِيعَةَ فَلَا تَغْتَرَا بِهِ وَ احْفَظْ أَنْفُسَكُمَا عَنْ كَيْدِهِ وَ مَكْرِهِ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ أَى لَا يَكُونُ سَبَبَ خُرُوجِكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ بِأَنَّ تَطْيِعَاهُ فِيمَا نَهَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ - نَهَى تَنْزِيهَهُ - لِيَكُونَ مَصِيرَكُمَا الْخُرُوجَ فَتَشْقَى أَى فَتَفْتَحَ فِي

(١) طه: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٢

[سورة طه (٢٠): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى (١٢٠)

تعب العمل و كد الاكتساب و زحمات الدنيا، فإن الشقاء التعب، كما تقدم في قوله: (طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشتقى «١») و إنما جاء بالمفرد لأن المخاطب آدم، و رعايته لرؤوس الآي، و إلا فالمراد شقاء كليهما.

[١١٩] ثم بين سبحانه محاسن البقاء في الجنة التي تزول بالخروج منها، و قد كان الأمر للإرشاد كأوامر الطبيب الذي يقول إن عملت بهذه الوصفة، لم تمرض، فإن أمره إرشادي ليس بواجب و إنما تعود الفائدة إلى المريض بذاته إِنَّ لَكَ يَا آدَمَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا أَى فِي

الجنة لسعة طعامها و عدم التعب في تناوله و لا- تغرى لكثرة ثياب الجنة، فلا يبقى الإنسان فيها عاريا، و بحاجة إلى الكد و العمل لتحصيل الثياب.

[١٢٠] وَأَنْتَ يَا آدَمُ لَا تَطْمَأُنِّي فِيهَا أَي لَّا- تعطش في الجنة لوفرة مياهها و لا- تضحى يقال ضحى الرجل إذا برز للشمس، أى لا يصيبك حر الشمس.

[١٢١] فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ أَي ألقى في نفس آدم الشيطان إلقاء خفيه قَالَ يَا آدَمُ إِنَّكَ لَا تَبْقَى فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا إِلَّا أَنْ تَعْمَلَ بِوَصِيَّتِي وَ تَأْخُذَ بِإِرْشَادِي فَ هَلْ أَذْلُكَ وَ أَعْرَفَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة و لم يخرج منها أبدا و مُلْكٌ لَا يَبْلَى لَا

(١) طه: ٢ و ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٣

[سورة طه (٢٠): آية ١٢١]

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)
يفنى و لا يزول؟

[١٢٢] وَ قَدْ مَالَ آدَمُ إِلَى كَلَامِهِ، إِذْ أَقْسَمَ لَهُ أَنَّهُ نَاصِحٌ مُشْفِقٌ، وَ لَمْ يَكُنْ آدَمُ سَمِعَ أَحَدًا يَحْلِفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا وَ حَيْثُ أَمَرَهُمَا بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمَنْهِيَّةِ، تَذَكَّرَ آدَمُ نَهْيَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ لهُمَا: (وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) «١» لَكِنَّ الشَّيْطَانَ تَدَارَكَ الْأَمْرَ وَ قَالَ (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) «٢» يَعْنِي أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ أَنْ تَبْقِيَا عَلَى حَالَتِكُمَا الْإِنْسَانِيَّةِ، فَإِذَا أَكَلْتُمَا أَصْبَحْتُمَا مَلَائِكِينَ، وَ بِالنَّاتِجَةِ نَفَذَتِ الْمَكِيدَةُ فِيهِمَا فَأَكَلَا آدَمُ وَ حَوَاءُ مِنْهَا مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ فَبَدَتَ لهُمَا سَوَاتُهُمَا أَي ظَهَرَتْ لهُمَا عَوْرَتُهُمَا، حَيْثُ أَنْ بِمَجْرَدِ الْأَكْلِ، سَقَطَتْ مَلَابِسُهُمَا عَنْ أَسْفَلِهِمَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا) «٣» وَ السُّوءُ هِيَ الْعَوْرَةُ وَ طَفِقَا أَي شَرَعَ آدَمُ وَ حَوَاءُ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا يَلْصِقَانِ عَلَى أَنْفُسِهِمَا- لِيُخْرِجَا مِنَ الْعَرَى وَ ظَهَرَ السُّوءُ- مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ مِنْ أَوْرَاقِ أَشْجَارِهَا.

وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ خَالَفَ أَمْرَهُ الْإِرْشَادِي، فَإِنَّ الْأَمْرَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الْوَجُوبِي، وَ النَّدْبِي، وَ الْإِرْشَادِي، وَ فِي مَخَالَفَتِهِ كُلِّ مَخَالَفَةٍ يَسْتَعْمَلُ لَفْظَ الْعَصِيَانِ، يَقُولُ الطَّبِيبُ لِمَرِيضِهِ الْمَخَالَفَ لِإِرْشَادِهِ: لَمْ عَصَيْتَنِي حَتَّى يَدُومَ مَرَضُكَ؟ فَغَوَى أَي ضَلَّ الطَّرِيقَ الْمُسْعِدَ لَهُ.

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٢١.

(٣) الأعراف: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٤

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى (١٢٣)

فإن الغواية ضلال الطريق، و هو كما يصح في مخالفة الوجوب، يصح في مخالفة الإرشاد، فإن الأكل من الشجرة سبب أن يخرج من الجنة، و أى ضلال عن السعادة أكبر من هذا؟

[١٢٣] فندم آدم مما فعله و عرف أن الشيطان غره و حلف بالله كاذبا، فأخذ يتوب و يبكى ثم اجتباؤه ربُّه أى اصطفاه و اختاره لأن يكون نبيا و غفر ذنبه في مخالفته للأمر الإرشادي فتاب عليه التوبة هي الرجوع، فإن الإنسان العاصي يتعد عن الله، و الله سبحانه يعرض

عنه، فإذا ندم الإنسان واستغفر، و تاب إلى الله، تاب الله عليه و رجع إليه وَ هَدَىٰ أَي هَدَاهُ لِمَصَالِحِهِ، و أَرَاهُ الطَّرِيقَ الْمَوْجِبَ لِعُودَتِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، بعد ما غوى و ضل الطريق.

[١٢٤] قَالَ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ اهْبِطَا أَيُّهَا الْفَرِيقَانِ فَرِيقَ آدَمَ وَ حَوَاءَ، وَ فَرِيقَ الشَّيْطَانِ مِنْهَا أَي أَخْرَجَا مِنَ الْجَنَّةِ جَمِيعًا كَلِكُمْ، وَ الْهَبُوطُ إِمَّا بِاعْتِبَارِ عُلُوِّ الْجَنَّةِ حَسَا عَنِ الْأَرْضِ، وَ إِمَّا بِاعْتِبَارِ عُلُوِّهَا رَتْبَهُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لِآدَمَ وَ حَوَاءَ، وَ هُمَا عَدَوَانُ لَهُ، وَ بِاعْتِبَارِ آخَرَ، أَنَّ الرَّجُلَ وَ الْمَرْأَةَ أَيْضًا عَدُوٌّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى «إِنْ» لِلشَّرْطِ وَ «مَا» زَائِدَةٌ لِتَجْمِيلِ الْكَلَامِ، أَي إِنْ أَتَاكُمْ مِنْ طَرَفِي أَسْبَابُ الْهُدَايَةِ، بَأَنَّ أَمْرَكُمْ بِأَوْامِرِ تَهْدِيكُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا، وَ السَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ وَ أَخَذَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٥

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٤ إلى ١٢٦]

وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)

بأوامري و إرشاداتي فلا يضل طريق السعادة، كما غوى آدم و لا يشقى لا يبقى في تعب و نصب كما شقى آدم أي وقع في النصب و التعب- و هذا خطاب عام لكل البشر، و إن كان طرف الخطاب هم الثلاثة-.

[١٢٥] وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي بِأَنَّ لَمْ يَتَّبِعْ أَوْامِرِي، الَّتِي ذَكَرْتَهُ بِهَا، وَ سَمَّيْتُ الْأَوْامِرَ ذِكْرًا، لِمَا أُوْدِعَ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ أَصُولِهَا وَ جَدْوَرِهَا فَإِنَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَعِيشَةً ضَنْكًا ضَيْقَةً، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَوْامِرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَكْثَرُ مَلَائِمَةٌ لِلْحَيَاةِ، فَالْإِعْرَاضُ عَنْهَا يُوجِبُ ضَيْقَ الْعَيْشِ مَا دَامَ أَوْ رُوْحِيَا وَ لِذَا نَرَى أَنَّ الْكُفَّارَ حَتَّى فِي أَوْجِ مَا دِيَتِهِمُ الظَّاهِرِيَّةِ فِي أَضْنَكِ الْحَالَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَ أَضْيَقِ الْمَجَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَ نَحْشُرُهُ نَحْشَرَ الْمَعْرُضِ، وَ مَعْنَى الْحَشْرِ جَمْعُهُ مَعَ سَائِرِ بَنِي نَوْعِهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعْمَى الْعَيْنِ، لَا يَرَى شَيْئًا، [١٢٦] وَ كَمِ يَتَأَذَى الْإِنْسَانُ فِي سَاحَةِ مَهْوَلَةٍ مَدَّتْهَا خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَ فِيهَا مِنَ الْأَهْوَالِ مَا تَذْهَلُ الْبَصِيرُ فَكَيْفَ بِالْأَعْمَى، وَ لِذَا يَسْأَلُ الْكَافِرُ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى أَي لِمَاذَا أَحْضَرْتَنِي فِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَ الْحَالِ أَنِي فِي الدُّنْيَا قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا أَرَى الْأَشْيَاءَ؟

[١٢٧] قَالَ اللَّهُ فِي جَوَابِهِ كَذَلِكَ الْعَمَى الَّذِي أَصَابَكَ هُنَا. كَمَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْبَصِيرَةَ، وَ لِذَا ابْتَلَيْتَ هُنَا

بعمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٦

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٧ إلى ١٢٨]

وَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى (١٢٧) أَمْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨)

البصر فقد أتتك و جاءتك آياتنا الدالة على وجودنا و سائر صفاتنا فنسيتها تركتها فعل الناسى بالمنسى، و أعرضت عنها و أغفلت بصيرتك دونها و كذلك أي كنيانك عن الآيات اليوم في القيامة تُنسى تهمل و لا يعتنى بشأنك، بل تبقى في تعب العمى و نصب الأهوال المتراكمة التي تلقفك من هنا و هناك.

[١٢٨] وَ كَذَلِكَ أَي كَمَا جَزَيْنَا مِنْ نَسَى الْآيَاتِ بِالضَّنْكِ وَ الْعَمَى وَ النَّسْيَانِ لَهُ نَجْزِي كُلِّ مَنْ أَسْرَفَ جَاوَزَ الْحَدَّ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ «مَنْ أَسْرَفَ» أَوْ لِأَنَّ عَدَمَ الْإِيمَانِ تَسْبِقُهُ حَالُهُ نَفْسِيَّةٌ تَجَاوِزُ بِهِ عَنِ الْحَدِّ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ لِلْمَسْرِفِ أَشَدُّ مِنَ الضَّنْكِ فِي الدُّنْيَا وَ أَبْقَى أَكْثَرَ بَقَاءً، فَإِنَّ الضَّنْكَ فِي الدُّنْيَا هِينٌ زَائِلٌ، أَمَا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَهُوَ شَدِيدٌ بَاقٍ.

[١٢٩] ثُمَّ بَيْنَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ فِي ضَلَالَةٍ حَيْثُ لَمْ يَعْتَبِرُوا بِمَا مَضَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لِلْأُمَّمِ السَّالِفَةِ أَمْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارِي تَوْبِيخِي، أَي أَلَمْ يَرشُدْ هُوَ لَمْ يَهْدِ أَي إِهْلَاكُنَا لِلْقُرُونِ السَّابِقَةِ، لَمْ يَصِرْ سَبَبًا لِهْدَايَةِ هُوَ لَمْ يَهْدِ إِلَى الْحَقِّ، وَ خَوْفِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ وَ كَفَرْتُمْ يَمْشُونَ هُوَ لَمْ يَهْدِ الْكُفَّارَ الْمَعَاصِرِينَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي مَسَاكِينِهِمْ

فقد كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٧

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٢٩ الى ١٣٠]

وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)

كفار مكة يمرون بمساكن عاد و ثمود و قوم لوط عند ذهابهم إلى الشام، و يرون آثارهم و علاماتهم، كما قال سبحانه: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ* وَ بِاللَّيْلِ) «١» أفلا يخافون أن يصيبهم ما أصاب أولئك إن في ذلِكَ الإهلاكِ لأولئك لآياتٍ لعبير و دلالاتٍ لتأولى النهي النهى جمع نهيء، و هو العقل أى لأصحاب العقول، يعتبروا بها و لا يعملوا مثل أعمال أولئك حتى يبتلوا بمثل مصيرهم.

[١٣٠] وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فِي تَأخِيرِ الْعَذَابِ عَنِ الْكَافِرِ فِي الدُّنْيَا، فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَإِرَادَتَهُ كَلِمَتَهُ، أَنْ لَا يَعَذَّبَ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا بِمِثْلِ عَذَابِ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، وَ لَعَلَّ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَأْتِي بِأَوْلَادٍ وَ ذُرَارِيٍّ صَالِحِينَ، كَمَا صَارَ مِنْ أَبِي عَامِرٍ «حَنْظَلَةُ» وَ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ «أُمِّ حَبِيبَةَ» وَ هَكَذَا، وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَعَذَّبُ إِلَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ صَالِحٌ فِي ذُرِّيَّةِ الْكَافِرِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (لَوْ تَرَىٰ لَوْ لَعَذَّبْنَا) «٢» وَ قَالَ (وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّاراً) «٣» لَكَانَ الْعَذَابُ لِزَامًا لَهُمْ، وَ اللَّزَامُ مُصَدَّرٌ، وَصَفَ بِهِ كَقَوْلِكَ زَيْدٌ عَدْلٌ وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى عَطْفٌ عَلَى «كَلِمَةٍ» أَيْ لَوْ لَا الْكَلِمَةُ وَ الْأَجَلُ الْمُسَمًّى أَيْ الْمُدَّةُ الَّتِي سَمِيَتْ لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرِ لَكَانَ الْعَذَابُ لِزَامًا لَهُمْ.

[١٣١] وَ إِذْ كَانَ لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرِ مُدَّةٌ لَا بَدَّ أَنْ يَقْضَوْهَا حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ، وَ إِنْ اللَّهُ لَمْ يَشَأْ هَلَاكَهُمْ مِثْلَ إِهْلَاكِهِ لِلْأَمَمِ السَّابِقَةِ فَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

(١) الصفات: ١٣٨ و ١٣٩.

(٢) الفتح: ٢٦.

(٣) نوح: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٨

[سورة طه (٢٠): آية ١٣١]

وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رَزَقْنَا رَبِّكَ خَيْرًا وَ أَبْقَىٰ (١٣١)

على ما يقولون في شأن التوحيد و الرسالة و سائر أنواع أذاهم و سبِّح بحمد ربك أى نزه الله بالحمد، فإن الحمد ثناء و تنزيه - كما تقدم - قبل طلوع الشمس صباحاً و قبل غروبها أى عصراً و من آناء الليل فسبح أى من ساعات الليل ساعاته، و هو جمع «إني» على وزن «إلى» و لعل الإتيان ب «من» دون «في» لإفادة الابتداء و الشروع أى أشرع بالتسبيح من ساعات الليل و سبِّح أطراف النهار بالإضافة إلى قبل الغروب و الطلوع، كما بعد الطلوع و وقت الضحى، و أول الظهر و عند وقت العصر لعلك يا رسول الله ترضى فإن الإنسان الدائم الاتصال بالله، الذى يذكره صباحاً و مساءً و فى ساعات الليل و ساعات النهار، تطمئن نفسه بالله، و يرضى لمقدراته و أحكامه و سنته لأن يكون عارفاً بالله هادئاً إلى ما قضى و قدر، فالرضا من ثمار التسبيح، كما قال سبحانه: (وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) «١» و (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) «٢» ثم إن تكرار التسبيح لتعلق أحدهما بالصباح و المساء، و أحدهما بآناء الليل و أطراف النهار.

[١٣٢] اتصل بالله سبحانه و قر نفساً بفضلته و لطفه و ذكره و لا تمدن عينيك أى لا تنظر نظر رغبة و ميل - فإن الرؤية قسم من إمداد

العين

(١) التغابن: ١٢.

(٢) الرعد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥١٩

نحو الشيء لأن الإنسان يتصل بذلك الشيء بواسطة إلقاء شعاع عينه عليه، وإن قلنا في مسألة الرؤية بالانطباع - إلى ما متعنا به الضمير يعود إلى «ما» أزواجاً أصنافاً منهم من البشر أو من الكفار، والمعنى لا ترغب في الجاه والمال والبنين التي متع بها الناس، فإنها أمور زائلة فانية، ولا ينبغي للإنسان أن يرغب فيها، وإنما هي زهرة الحياة الدنيا الزهرة هي النور الذي يرون عند الرؤية، ولذا يقال لكل شيء مستنير زاهر، ونصبها على كونها حالاً - من «ما» أي أن ما متعنا القوم، إنما هي بهجة الحياة العاجلة ونضارتها لنفتنهم فيه أي نمتحنهم بسببه، والضمير يعود إلى «ما» و جىء ب «فى» لأن الإنسان يعيش فى وسط تلك البهجة والنضارة.

وليس المعنى أن لا يرغب الإنسان فى الحياة، بل المعنى أن لا يجعل الحياة منتهى نظره - بل ينظر إليها نظراً عرضياً، ولذا قال سبحانه: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) «١» وَرِزْقُ رَبِّكَ الَّذِي وَعَدَكْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ مَتْعَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ أَبْقَى أَى أكثر بقاء لأن الحياة الدنيا فانية، وتلك الحياة باقية، أو أن المراد، أن متع الكفار من الحرام، و رزق الله من الحلال خير لعدم العقاب فيه، و أبقى لأنه ذو بركة و بقاء بخلاف الحرام الذى لا بركة فيه، كما قال سبحانه: (يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ) «٢»

(١) البقرة: ٢٠٢.

(٢) البقرة: ٢٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٠

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٣٢ الى ١٣٣]

وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْيَطِرُّ عَلَيْهَا لَانْسِيئُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣)

[١٣٣] و إذا توجهت أنت إلى الله سبحانه و لم تمد عينيك إلى زهرة الحياة، فاللازم أن توجه عائلتك إلى الله سبحانه، كما توجهت أنت و أمرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عمود الدين، و الصلة بين الله و بين العبد و اضْيَطِرُّ أى اصبر، و كأن الاضطبار أقوى دلالة من الصبر. لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. عَلَيْهَا على الصلاة فإن فيها صعوبة التكرار كل يوم خمس مرات، مما لا يتأتى إلا بصبر طويل، و لعل تخصيص الأهل، لكونهم الأسوة، و لفرض تعليم المسلمين فإن الواجب على المسلم أن يبدأ بأهله، ثم بين سبحانه أن هذا التكليف ليس مستلزماً للمشفقة كطلب سائر الموالى من عبيدهم أن يكتسبوا لهم و يأتوا لهم بالرزق لا نَسْئَلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رِزْقًا بَلْ عِبَادَةٌ وَ طَاعَةٌ نَحْنُ نَزُقُكَ فَإِنْ مِنْ يَرْزُقُ لَا يَطْلُبُ الرِّزْقَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى فرزقك فى الحياة علينا، و عاقبتك فى الآخرة على التقوى، و فى الأحاديث ما حاصله أن الله و كل أمر الدنيا إلى نفسه، و أمر الآخرة إلى الناس، فاللازم أن يعمل الإنسان حتى ينال سعادة الآخرة.

[١٣٤] و فى ختام السورة يأتى الحديث عن المتكبرين و الكفار الذين لا يؤمنون و يأتون بحجج واهية، حيث أن الجو العام للسورة

كان حول العقيدة، و المؤمنين و المكذبين و قالوا يعنى الكفار لو لا أى لماذا لا يأتينا الرسول بآية من ربه أى بخارقه نقترحها عليه؟

فقد كانوا يقترحون خوارق تعنتا لا حقيقة و استظهاراً أ و لَمْ تَأْتِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢١

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٣٤ الى ١٣٥]

وَ لَوْ أَنَا أَهْلَكُنَا هُمْ بَعْدَ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَسْبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَحْزَى (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ

فَتَرَبُّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)

ألم تصل إليهم بيئته ما في الصحف الأولى بيان ما في الكتب الأولى من أخبار الأمم التي أهلكتناهم لما اقترحوا الآيات ثم كفروا بها فما ذا يؤمنهم أن يكون حالهم كحال أولئك الأمم، إذا جئناهم بآية كفروا، فتحل عليهم العقوبة؟ أو المراد إنا جئناهم بآية، و هي القرآن الذي هو مشتمل على الحجج التي كانت في الصحف السابقة، و هل من بيته و حجة بعد القرآن؟ و «بيته» صفة «آية» المقدره، أى الآية البيته- بمعنى الواضحة-.

[١٣٥] لقد تمت على هؤلاء الحجة بنزول القرآن، فإن يهلكوا بعد ذلك، و يدخلوا النار، فليس إلا من أنفسهم و لسوء تلقيهم للآيات و لو أننا أهلكتناهم أى أهلكتنا هؤلاء الكفار بعذاب من قبله من قبل القرآن أو من قبل الرسول- أهلكتناهم بأعمالهم السيئة، و بكفرهم- لقالوا و احتجوا على الله سبحانه يا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا أى لماذا لم ترسل إلينا من يبين لنا أوامرنا فكشع آياتك و نعمل بما فيها من قبل أن نذل بالعذاب و نخزي من النار؟ و قد كان حينذاك الحق معهم، فكيف يعذب من لم يتم عليه الحجة؟ أما و قد أرسلنا الرسول و عصوا، فإنهم قد استحقوا العذاب و لو عذبناهم لا مجال لهم للاحتجاج.

[١٣٦] و إذ قد تمت الحجة عليهم، و لم يؤمنوا، فليتنظروا العذاب قل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٢

يا رسول الله لهم كمل أى واحد منا و منكم متربص منتظر ليرى المصير، و ينظر لمن الغلب، و أينما يعذب و أينما ينعم؟ فتربصوا أى فانتظروا أيها الكفار- و هذا أمر للتهديد- فسيتعلمون إذا متم من منا و منكم أصحاب الصراط السوي أى الطريق المستقيم، و الدين الصحيح و من اهتدى إلى الحق، هل نحن أم أنتم؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٣

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السابع عشر من آية (١) سورة الأنبياء إلى آية (٧٩) سورة الحج

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٥

٢١ سورة الأنبياء مكية / آياتها (١١٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على ذكر الأنبياء عليهم السلام و قصصهم، و هذه السورة كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، الألوهية، و الرسالة، و المعاد و حيث ختمت سورة «طه» بالوعيد، فتحت هذه السورة بذكر القيامة التي هي محل الثواب و العذاب.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ باسم الله ليكون الله معينا، و إنما الإتيان بالاسم، دون «بالله» لإفادة سمو المسمى حتى كأنه أرفع من أن يستعان به، كما في الدعاء «لاذ الفقراء بجنابك» و الجواب هو العتبة، لإيهام أن الله سبحانه أسمى من أن يلوذ بذاته الفقراء، و هو الرحمن الرحيم الذي يترحم على عباده بالفضل عليهم، فهو يعين بفضله من استعان به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه و هم يلعبون (٢) لاهية قلوبهم و أسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر و أنتم تبصرون (٣)

[٢] اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمُ الْاِقْتِرَابَ: افتعال من القرب، يعنى قرب وقت حساب الناس، و المراد به إما القبر، و إما الموت فإن كليهما قريب و إن ظن الإنسان بعدهما، و لذا قال الرسول: بعثت أنا و الساعة كهاتين - و أشار بإصبعيه -

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنِ السَّاعَةِ لَا يَسْتَعِدُّونَ لَهَا و لأهوالها بالأعمال الصالحة مُعْرِضُونَ عَنِ التَّذَكُّرِ و الاستعداد.

[٣] مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ أَى جديد، كالأيات التى تنزل، و الأحكام التى توحى، لأجل تذكيرهم و إرشادهم إِلَّا اسْتَمَعُوهُ مجرد سماع بآذانهم و هُمْ يَلْعَبُونَ مشغولون باللعب، لا يبالون بالذكر، فإن الدنيا لعب و لهو.

[٤] فى حال كونهم لاهية قلوبهم أى أن قلوبهم فى لهو، و هو مقابل الجِدِّ، فأذنانهم تسمع، و قلوبهم لا تطيع و اسيرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أى إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان، أخذ يناجى بعضهم بعضا فى شأن القرآن و الرسول يقولون هل هذا النبى صلى الله عليه و آله و سلم إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ استفهام إنكارى، أى ليس الرسول إلا- أحد أفراد البشر فكيف يدعى النبوة؟ و كيف يؤمن به الناس، و الحال أنه ليس من الملائكة حتى يليق بهذا المنصب الذى يدعى، ثم أرادوا زيادة تغير الناس عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بقول بعضهم لبعض أفتأتون السحر أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤ الى ٥]

قَالَ رَبِّى يَعْلمُ الْقَوْلَ فى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)

كيف تقبلون السحر الذى أتى به محمد، و تأتون بمعنى تذهبون إلى السحر و أنتم تُبْصِرُونَ و الحال أنتم ترون أنه سحر.

[٥] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فى جواب هؤلاء، و كان الإتيان بالفعل الماضى لإشعارهم بعدم أهمية إشكالهم، فإذا أشكل عليك إنسان تقول: قلت لك سابقا، تريد أن هذا الإشكال ليس بالجديد، و إنما قد أكل الدهر عليه و شرب ربى يَعْلمُ الْقَوْلَ أى يعلم كل ما يقال حول القرآن و الرسول، فى جملة سائر الأقوال التى يعلمها فى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ فأين ما كان القول يعلمه و لا يغيب عنه، و هذا كالتهديد، بأن أقوالهم محفوظة سيجازون عليها وَ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم التى يتناجون بها الْعَلِيمُ بأفعالهم و ضمائرهم.

[٦] إنهم ما آمنوا بالرسول و القرآن بل قالوا حول القرآن إنه أضغاث أحلام أضغاث جمع ضغث، و هو: الخلط من الشىء، و الأحلام جمع حلم، و هو: المنام، يعنى: إن الرسول يرى فى المنام أحلاما مضطربة فيلفقها و يصنعها قرآنا بل قال بعضهم افتراه فليس الله نزل شيئا و إنما هو يكذب على الله سبحانه فى نسبة القرآن إليه بَلْ قَالَ جَمَاعَةٌ هُوَ أَى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم شاعرٌ و أن القرآن شعر، فقد كان القرآن بهرهم لا يدرون ماذا يقولون حوله، فمرة يقولون حلم، و أخرى كذب عن عمد، و ثالثة شعر و رابعة سحر و هكذا فَلْيَأْتِنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إن كان صادقا بِآيَةٍ خارقة تدل على صدقه، كما زود

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٨

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦ الى ٧]

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) موسى بالعصا، و صالح بالناقة و هكذا كما أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بمثل هذه الآيات.

[٧] و قد أجبهم الله سبحانه فى طلبهم هذا بأنه ما آمنت قبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا لتكذيبها الأنبياء عليهم السّلام، بعد ما أعطيناهم الآيات المقترحة، كما أرادوها أفهم أى فهل بعد أولئك هؤلاء المقترحون يُؤْمِنُونَ كلا إنهم كالأمم السابقة، لا يؤمنون و إن أُرْسِلْنَا إِلَيْهِمْ مثل تلك الآيات، فإن الإنسان نوع واحد، و ما كان عليه السابقون هو الذى يكون عليه اللاحقون، فإن أرادوا الحجّة فقد تمت عليهم، و إن أرادوا العناد، فالمعاند لا يؤمن مهما كان.

[٨] أما ما ذكروا من أنك بشر و كيف يكون البشر رسولا؟ فإن الأنبياء عليهم السّلام السابقين أيضا كانوا بشرا و ما أُرْسِلْنَا قَبْلَكَ يا رسول الله إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَهَم بَشَرٌ يَمْتَازُونَ عَن سَائِرِ النَّاسِ بِمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَيَلُّوْا أَيُّهَا الْكُفَّارُ الْمَجَادِلُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ أَىْ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَ يَسْمُونَ بِأَهْلِ الذِّكْرِ، لِأَنَّ الْكِتَابَ يَسْمَى ذِكْرًا، حَيْثُ إِنَّهُ يَذْكَرُ النَّاسَ بِمَا أُوْدِعَ فِي فِطْرَتِهِمْ مِنَ الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ وَ الْمَعَارِفِ إِنَّ كُتُبَهُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَجِبُونَ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا بَشَرًا، وَ مَا رَوَى مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ بِالْأَثْمَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَصْدَاقِ الظَّاهِرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَذِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٢٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨ الى ٩]

وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) الْأَثْمَةُ، فَإِنَّ الْأَثْمَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَهُ وَ يَعْرِفُونَ حُدُودَهُ وَ أَحْكَامَهُ، كَمَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَ مِنْ إِلَيْهِمْ أَيْضًا مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ.

[٩] وَ قَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) «١» ظَانِينَ أَنَّ الرَّسُولَ يَجِبُ أَنْ لَا يَأْكُلَ وَ لَا يَمْشَى، فَرَدَّهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ السَّابِقِينَ كَانُوا كَذَلِكَ وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا أَىْ أَجْسَادًا، وَ إِنَّمَا جِئَ بِالْمَفْرَدِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ الْجَسَدَ يَطْلُقُ عَلَى الْمَيِّتِ، أَوْ مَا يَشْبَهُهُ، كَأَنَّهُ أَخَذَ فِيهِ مَعْنَى الْفَرَاغِ مِنَ الرُّوحِ أَوْ الطَّعَامِ وَ مَا كَانُوا أَوْلَئِكَ الْأَنْبِيَاءَ خَالِدِينَ لَا يَمُوتُونَ، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ حَيَاةَ الْبَشَرِ، وَ يَمُوتُونَ مِمَّا تَهُمُّ، وَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَدَهُمْ فَلَا مَجَالَ لِقَوْلِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ الرَّسُولُ بَشَرًا؟

[١٠] وَ لَا يَهْمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَكْذِيبُ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ الْمُنْتَظَرَةَ لَكَ، كَمَا إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ بِأَنَّ وَفِينَا بُوْعَدْنَا لَهُمْ، حَيْثُ وَعَدْنَا لَهُمْ (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا) «٢» وَ نَصَرْنَا لَهُمْ فِي خَاتَمَةِ الْمَطَافِ فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ وَ أَنْجَيْنَا مَنْ نَشَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، كَمَا حَدَثَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَ مُوسَى وَ إِبْرَاهِيمَ وَ لُوطَ وَ عِيسَى وَ غَيْرِهِمْ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا فِي الْكُفْرِ

(١) الفرقان: ٨.

(٢) غافر: ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٠

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠ الى ١٢]

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَ كَمْ قَصَّيْنَا مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَانِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢)

وَ الْمَعَاصِي، وَ هَذَا بَشَارَةٌ لِلنَّبِيِّ وَ الْمُؤْمِنِينَ، وَ تَهْدِيدٌ لِلْكَفَّارِ، وَ نَحْنُ إِذْ نَقَرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ نَرَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ صَدَقَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْوَعْدَ فَقَدْ أَنْجَاهُ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ نَصَرَهُ عَلَى الْكُفَّارِ، وَ أَهْلَكَ الْمُسْرِفِينَ، كَمَا وَعَدَهُ هُنَا، وَ قَدْ مَرَّ عَلَى الْقِصَّةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، إِذِ السُّورَةُ مَكِيَّةٌ - كَمَا سَبَقَ - [١١] وَ مَا لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَا يَعْقِلُونَ؟ إِنَّهُمْ إِنْ عَقَلُوا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي يَحَارِبُونَهُ أَشَدَّ مُحَارَبَةً كِتَابَ فِيهِ شَرَفٌ لَهُمْ إِنْ آمَنُوا بِهِ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْعَرَبُ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَىْ شَرَفِكُمْ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ فَإِنَّهُ يَخْلُدُ ذِكْرُكُمْ وَ مَزَايَاكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاضِحَ؟ فَتَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ وَ تَتَمَسَّكُونَ بِهِ.

[١٢] وَ إِنْ أَعْرَضْتُمْ وَ لَمْ يَعِظْكُمْ التَّبَشِيرُ وَ التَّخْوِيفُ فَانْتَظِرُوا عَاقِبَةَ الْمَكْذِبِينَ وَ كَمْ قَصَّيْنَا أَىْ أَهْلَكْنَا، وَ أَصْلُ الْقِصَمِ كَسْرُ الظَّهْرِ الَّذِي يَكُونُ مَعَ الصَّوْتِ مِنْ قَوِيَّةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً أَىْ مَا أَكْثَرَ مَا أَهْلَكْنَا وَ عَذَبْنَا أَهْلَ الْقُرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْمَعَاصِي وَ أَنْشَأْنَا

أوجدنا بَعْدَهَا أى بعد تلك القرية، بمعنى بعد إهلاك أهلها قَوْمًا آخِرِينَ فنحن لسنا بحاجة إلى أحد، ولا يصعب علينا تبديل أناس بأناس.

[١٣] وحيث أردنا إهلاك القرية فجاءهم آثار العذاب أخذوا يفرقون من العذاب فَلَمَّا أَحْسُوا أى أدركوا بحواسهم بَأْسَنَا عذابنا إِذَا هُمْ مِنْهَا أى من العقوبة، أو من القرية يَرْكُضُونَ هاربين من العذاب،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٣ الى ١٥]

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْتَعْلَمُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

كما جرت العادة بأن الإنسان إذا رأى العذاب قد جاء من ناحية يركض هاربا منه لثلاثي شمله.

[١٤] لكن هل كان فرارهم وركضهم نافعا؟ كلا! فقد كان لسان الحال يقول لهم- حين ذاك- لا تَرْكُضُوا فإن الفرار لا ينفع وارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ أى: أسباب ترفكم من زخارف الدنيا وَمَسَاكِينِكُمْ ارجعوا إلى بيوتكم، فأين تفرون و تتركون هذه الأشياء النفيسة؟ وقد كان هذا القول لهم من باب التقرير والاستهزاء لَعَلَّكُمْ تُسْتَعْلَمُونَ فإن الإنسان المترف الذى فى منزله يسأله الناس الحوائج، فارجعوا إلى محلكم وجاهكم الذى كان يقف الناس لأجله على أبوابكم يسألون الحوائج.

[١٥] ولم يعد عند فرارهم جواب منهم على هذا الاستهزاء، بل قالوا: يا وَيْلَنَا أى يا سوء حالنا، أو يا قوم ويلنا، و الويل كلمة يقولها من يطلب الهلاك تضجرا من الحالة التى هو فيها، فالمعنى يا ويل احضر فهذا وقتك أو يا قوم إن ويلنا حضر إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لأنفسنا حيث لم نؤمن و كذبنا الأنبياء.

[١٦] فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الكلمة، أى يا ويلنا دَعْوَاهُمْ أى دعاءهم و ذكرهم حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا أى محصودا قد شملهم العذاب الذى فروا منه، حتى كأنهم السنبل المحصود الذى يقطع فلا حياة فيه خَامِدِينَ ساكنى الحركات، من خمد ضد اشتعل، فكأنهم لم يكونوا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلكُمْ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

[١٧] إن الكفار بلهوهم و لعبهم يزعمون أنهم خلقوا للهو واللعب بينما إن الكون كله خلق للجد و لغايات و حكم عالية، فكيف يصرف هؤلاء عمرهم لهوا، و يزعمون أن القرآن و الرسالة لعب، ما يأتيهم ذكر إلا و هم يلعبون لاهية قلوبهم، كما قال قائلهم:

لعبت هاشم بالملك فلاخبر جاء و لا وحى نزل

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ المخلوقات و الموجودات لَاعِبِينَ فى حال كوننا لاعبين فى خلقتها، بل إنما خلقت للجد و للغرض الصحيح، بأن تكون نعمه و دلالة و مقدمه للثواب الدائم.

[١٨] لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا بأن أردنا أن نلعب و نلهو- على فرض المحال- لَاتَّخَذْنَاهُ أى جعلنا اللهو مِنْ لَدُنَّا فإن كل لاعب يكون لعبه ملائما لذات اللاعب، فالرجل الكبير يلعب بالكرة، لا بالدمية، عكس الطفل الذى يلعب بالدمية، و الملك يلهو بالصيد، لا بأخذ الذباب، كما يلهو به الشحاذ، و هكذا لو أراد الله سبحانه أن يتخذ اللهو لكان للهو من جنس الروحانيات المرتبطة بعالم الله، لا من الماديات الخارجة عن مقامه الرفيع إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ لاتخاذ اللهو، تأكيد لعدم أخذه اللهو، و بعضهم جعل «إن» نافية، أى ما كنا فاعلين.

[١٩] بَلْ إِنَّا نَبْطُلُ اللهو و الباطل، فإن الإنسان لم يخلق لأجلها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٩ الى ٢٠]

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) و لا خلقنا سائر المخلوقات للهو حتى نترك اللهو بحاله ف نَقْذِفُ بِالْحَقِّ أَى نرْمى الحق - كالرأى الذى يرمى الهدف من بعيد، و فيه دلالة على شدة الضرب - عَلَى الْبَاطِلِ أَيَا مَا كَانَ لَهُوَ أَوْ غَيْرَ لَهُوَ فَيَدْمَعُهُ يبطله و يفنيه و يمحقه فإذا هُوَ أَى الْبَاطِلِ زَاهِقٌ زائل مضمحل وَ لَكُمْ أَيهَا الْكُفَّارِ الْوَيْلُ وَ الْعَذَابُ مِمَّا تَصِفُونَ اللهُ بِهِ مِنْ أَنْ يَتَّخِذَ اللَّهُ وَ الْبَاطِلِ، أَوْ مِمَّا تَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ مِنْ أَنَّهُ سِحْرٌ أَوْ شَعْرٌ أَوْ أَحْلَامٌ أَوْ مَا أَشْبَهَ.

[٢٠] و كيف يستكبر هؤلاء عن الخضوع لله سبحانه، و الحال أنه الملك المطلق، و أن الذين هم أشرف منهم لا- يستكبرون عن عبادته؟ و لَهُ سُبْحَانَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْعُقَلَاءِ، فكيف غيرهم؟ أَوْ غلب العقلاء على غيرهم، فإن الإنسان فى الأرض، و الملائكة فى السماء له تعالى، و كذلك سائر الأشياء وَ مَنْ عِنْدَهُ أَى الْمَلَائِكَةُ وَ الْمَرَادُ بِ عِنْدَهُ الْقُرْبُ الْمَعْنَوِي تشبيها له بالقرب الحسى لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ أَى لَا يَأْنِفُونَ وَ لَا يَتَرَفَعُونَ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَ يَطِيعُوا أَوْامِرَهُ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ الْاسْتِحْسَارَ الْانْقِطَاعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ، يقال:

استحسر فلان عن عمله، يعنى انقطع عنه إعياء، أى إن الملائكة لا يعيون عن العبادة بل إنهم دائمو التبعيد.

[٢١] و لذا قال يُسَبِّحُونَ اللهُ تَعَالَى، أى ينزهونه عما لا يليق بشأنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٤

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَى فِيهِمَا، و الإسناد مجازى، نحو «يا سارق الليلة أهل الدار» لَا يَفْتُرُونَ أَى لَا يَأْخِذُهُمُ الْفُتُورُ وَ الضَّعْفُ عَنِ الْعِبَادَةِ، هذا حال الملائكة الذين هم أشرف من هؤلاء، فكيف يستكبر هؤلاء؟

[٢٢] و حيث فرغ السياق من تقرير الكفار، حول قولهم عن القرآن و الرسول، و استكبارهم عن عبادة الله سبحانه، أخذ فى تقريرهم حول فعلتهم الأخرى، و هى جعل الشركاء لله سبحانه أَمْ اتَّخَذُوا هذا استفهام توييحى، أى كيف اتخذ هؤلاء الكفار آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ وَ هِى: الْأَصْنَامُ الْمَنْحُوتَةُ مِنْهَا، فإن كل صنم من أصل أرضى، و هل الإله يكون من جنس الأرض؟ فهل هُمْ يُنْسِرُونَ أَى يَقْدِرُونَ عَلَى نَشْرِ الْأَمْوَاتِ، و إحيائهم، كلا! إذن فليسوا هم آلِهَةٌ، لأن من أول صفات الإله أن يقدر على إحياء الميت، و هذا من التهكم، كما تقول:

إن فلانا يقتدى بالعالم زيد، تريد التهكم بالمقتدى و المقتدى فتأتى بصفة العالم العامل لزيد- و هو خالى عنهما- تهكما.

[٢٣] ثم استدل سبحانه على استحالة تعدد الآلهة لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ الْمَرَادُ إِلْهَانٌ، فأكثر إِلَّا اللهُ أَى مُتَّصِفَةٌ بِكُونِهَا غَيْرَ اللهِ، و المراد انه لو كان من هذا الجنس أحد غير الله لَفَسَدَتَا أَى فَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا اسْتَقَامَتَا، و المراد بالظرف أعم من المظروف- كما تقدم- و حيث نرى أنهما باقيتان مستقيمتان نستدل بذلك- استدلالا آنيا، أى استدلالا من المعلول إلى العلة- على أنه ليس فى الوجود أكثر من إله واحد هو الله سبحانه، و إنما يلزم تعدد الآلهة الفساد، ثم إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٥

الاستدلال على عدم التعدد من وجهين: الأول من ناحية الذات، و الثانى من ناحية اللوازم.

أما الأول: و هو من ناحية الذات، تقريره أنه لو كان إلهان لكان بينهما جامع و لكل منهما مائز، و الجامع غير المائز، فيلزم تركب الإله، و كل تركيب مستلزم لعدم الألوهية، إذ المركب يحتاج إلى الأجزاء و إلى المركب، و المحتاج مسبوق بالغير، و المسبوق بالغير ممكن لا واجب فليس بإله.

و أما الثانى و هو من ناحية اللوازم، تقريره أنه لو كان إلهان هل يعقل تخالفهما فى الإرادة- كأن يريد هذا إحياء زيد و الآخر عدم حياته- أم لا يعقل؟ و كل من المعقولية و عدمها مستلزم لعدم التعدد، أما لو كان تخالفهما فى الإرادة معقولا فلا يخرج الحال عن ثلاثة أمور:

إما أن يقع مرادها و هو محال لاستلزامه اجتماع النقيضين. و إما أن لا يقع مرادها و هو محال لاستلزامه ارتفاع النقيضين. و إما أن يقع مراد أحدهما، و ذلك مستلزم لعدم كون الآخر إلهاً لأنه محدود القدرة مغلوب على أمره، و أما لو كان تخالفهما فى الإرادة غير معقول فليس ذلك لاستحالة ذاتية فى مراد أحد الإلهين- كإحياء زيد- و إنما الاستحالة ناشئة من مخالفة الإله الآخر، و ذلك يستلزم العجز الملازم للإمكان، فهذا الإله الذى لا يعقل أن يريد إحياء زيد عاجز، و العاجز لا يكون إلهاً، لما تقرر فى علم الكلام من أن العاجز لا يعقل أن يكون إلهاً إذ بساطة الوجود فى الإله، و إمكان المهية فى المقابل، و وحدة نسبة الإله إلى جميع الممكنات، مستلزم للقدرة المطلقة، و بهذا التقرير تبين: أن الدليل لا يتوقف على تخالف الإرادة خارجاً، حتى يقال إنهما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آلِهَتِهِ قُلُوبًا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤)

حكيمان فلا يتخالفان فى الإرادة.

فلو فرضنا- مستحياً- أن هناك إلهين، كان اللازم أن يستقل كل فى مراده، و ذلك مستلزم للفساد إذ يريد هذا المطر، و ذاك عدمه مثلاً فيتنازعان مما يؤدي إلى فساد العالم فَسَبْحَانَ أَى أَنزَلَهُ اللَّهُ تَزْيِهَا عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ رَبُّ الْعَرْشِ أَى مَالِكِ الْكُونَ، فَإِنَّ الْعَرْشَ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَلِكِ، وَ هُنَاكَ عَرْشٌ عَظِيمٌ جَدًّا، هُوَ اللَّهُ مَالِكُهُ، وَ قَدْ جَعَلَهُ مَوْضِعَ تَشْرِيفِهِ لِلْمَلَائِكَةِ، كَمَا جَعَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَوْضِعَ تَشْرِيفِهِ لِلْبَشَرِ عَمَّا يَصِفُونَ اللَّهَ بِهِ- هُوَ الْكُفَّار- مِنَ الشَّرِيكِ، فَيَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ مُتَّصِفٌ بِأَن لَّهُ شَرِيكٌ.

[٢٤] إنه تعالى لكون جميع أفعاله عن حكمه و صواب و صلاح لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ أَى لَيْسَ لَهُ شَأْنِيَّةٌ أَنْ يَسْأَلَ، إِذِ الْحَكِيمُ لَا يَسْأَلُ عَنْهُ: لَمْ تَفْعَلْ؟

فهو من قبيل «لا- ريب فيه» الذى كان معناه ليس بموضع ريب و إن ارتاب فيه المبطلون و هم أى البشر أو الكفار يُسْئَلُونَ عَمَّا فَعَلُوا لَأَنَّهُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ يَخْطِئُونَ كَمَا يَصِيبُونَ، وَ الْمَخْطِئُ يَسْأَلُ وَ يَحَاسِبُ.

[٢٥] و بعد أن استدلل القرآن على بطلان التعدد، يأتى السياق لیسأل القائلين بذلك: ما دليلهم؟ فمن ادعى شيئاً لا بد و أن يقيم له الدليل، و هؤلاء المشركون لا دليل لهم على ذلك، حتى الدليل الواهى أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آلِهَتِهِ أَى بَلِ اتَّخَذُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ قُلُوبًا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ هَاتُوا أَى اتُّوا بُرْهَانَكُمْ وَ دَلِيلَكُمْ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، لَكِنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)

بالدليل، إلا قولهم (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) «١» و هل فعل الآباء يكون دليلاً و حجة؟

هذا القرآن ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الشَّرِكِ وَ ذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى الشَّرِكِ، فَمَنْ أَيْنَ جِئْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِالشَّرِكِ؟ إِنَّ الذِّكْرَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، الَّذِي هُوَ مَجْمُوعٌ فِي الْقُرْآنِ، لَا يُشِيرُ إِلَى الشَّرِكِ، فَالمدعى له يدعى الباطل، فلا دليل عقلى له- قل هاتوا برهانكم- و لا دليل شرعى له- فهذا ذكر من معى و ذكر من قبلى و ليس فيه إلا- التوحيد- فليس اتخاذهم للشركاء عن علم و دليل بَلْ أَكْثَرُهُمْ أَى أَكْثَرُ الْبَشَرِ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ فَهُمْ

مُعْرَضُونَ عَنِ الْحَقِّ مَقْبُولُونَ عَلَى الْبَاطِلِ.

[٢٦] ثم بين سبحانه كيف أنزل الله الكتب حول التوحيد- بيانا لقوله هذا ذكر من معي و ذكر من قبلي- وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ رَسُولٍ «من» تفيد العموم في النفي، و تسمى زائدة، لصحة أن يقال «رسولا» إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ نَحْنُ بَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وحدى لا شريك لي فَأَعْبُدُونِ لِي فَقَطْ دُونَ غَيْرِي.

[٢٧] و حيث بين القرآن الحكيم بعض عقائدهم الفاسدة حول التوحيد،

(١) الزخرف: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٨

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

و زيف عقيدتهم تعرض إلى عقيدة أخرى زائفة كانوا يعتقدونها، و هي أن الله سبحانه أولادا و قالوا أى بعض الكفار اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا أى جنس الولد و مرادهم الملائكة سبحانه أنزهه تنزيها عن ذلك، فإن الولادة غير معقولة في حقه، و التبنى غير صادق بالنسبة إليه بل الملائكة الذين جعلوهم أولاد الله عباداً مُكْرَمُونَ أكرمهم الله سبحانه و فضلهم على كثير من خلقه.

[٢٨] لا- يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ لا- يتكلمون إلا- بما يأمرهم الله سبحانه، فقولهم إثر قوله، و اتباع أمره وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ فأقولهم و أفعالهم كلها بأمر الله و إذنه، و من هذا شأنه لا يكون ولداً.

[٢٩] و هو سبحانه محيط بهم إحاطة علم و قدرة ف يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أى أمامهم، و ما عملوه و قدموه وَ مَا خَلْفَهُمْ أى ورائهم و ما سيعملونه- و ذلك كناية عن الإحاطة بهم- وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى لا يتوسط الملائكة لإنقاذ المجرم من عذاب الله، إلا لمن أراد الله أن يشفعوا له، فحتى شفاعتهم ليست ابتدائية، و إنما تابعة لرضى الله سبحانه وَ هُمْ أَوْلَئِكَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَشْيَتِهِ مِنْ خَوْفِ اللَّهِ سبحانه مُشْفِقُونَ و وجلون، من أشفق بمعنى و جل و خاف.

[٣٠] وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمَلَائِكَةُ الْأَطْهَارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٣٩

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٣٠]

أَ وَ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)

إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَذَلِكَ الْقَائِلُ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ فهم على طهارتهم و قربهم لا- فرق بينهم و بين سائر العبيد في أن المدعى منهم للألوهية نصيبه جهنم، و لعل قسما من المشركين كانوا يعبدون الملائكة، كما يظهر من قوله سبحانه (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) «١» و لذا يأتي هذا الكلام الجازم بأنهم لا يدعون الألوهية فكيف أنتم تقولون عنهم ذلك، و لو ادعاها أحدهم لجوزى بالنار كَذَلِكَ الَّذِي نَجْزِي مَدْعَى الْأَلُوْهِيَةِ نَجْزِي الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ.

[٣١] ثم يرجع السياق إلى بيان الآيات الكونية الدالة على قدرة الله و عمله و سائر صفاته فيقول سبحانه أ وَ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا اسْتِفْهَامِ تَقْرِيعِ وَ تَوْبِيخِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا أى كانت كل واحدة منهما متصله لا تمطر السماء و لا تنبت الأرض النبات، فحمل الرتق على السماوات و الأرض من باب زيد عدل فَفَتَقْنَاهُمَا أى شققناهما بإنزال المطر من السماء، فإن السماء- و هي جهة العلو- تشق بالمطر، و إنبت النبات من الأرض وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا فَإِنْ أَصْلُ الْحَيَاءِ وَ بَقَائِهَا بِالْمَاءِ، و قد ناسبت هذه الجملة الجملة السابقة الدالة على فتق السماء بالمطر أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ بعد ما يرون من هذه الآيات

(١) الزخرف: ٨٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٠

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)

العظيمة، بالله سبحانه، فمن فتح السماء بالمطر؟ و من فتح الأرض بالنبات؟ و من أوجد الأشياء الحية من النبات؟

[٣٢] وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ جَمْعُ رَاسِيَةٍ، وَهِيَ الْجِبَالُ الثَّوَابِتُ الَّتِي تَمْنَعُ الْأَرْضَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْاضْطِرَابِ، كِرَاهَةٌ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ أَيْ لَثَلًا تَتَحَرَّكُ، مِنْ مَادٍ بِمَعْنَى تَحْرُكٍ، وَضَمِيرٌ بِهِمْ عَائِدٌ إِلَى النَّاسِ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الْجِبَالِ فِجَاجًا سُبُلًا الْفِجَاجُ جَمْعُ فِجٍّ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، وَسَبَلًا بَدَلٌ مِنْهُ، وَكَانَ تَخْصِيسُ الْفِجَاجِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْجِبَلَ الَّذِي هُوَ صَلْبٌ لَا يُمْكِنُ قَطْعُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا فِجَاجٌ، كَانَ سَبَبًا لِقَطْعِ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ طَرَفَيْهِ، فَنِعْمَتُهُ جَعَلَ الطَّرِيقَ فِيهَا عَظِيمَةً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أَيْ لِكَيْ يَهْتَدِيَ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَ مَصَالِحِهِمْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْفِجَاجِ، أَوْ لِكَيْ يَهْتَدُوا إِلَى خَالِقِ السَّمَاءِ بِالتَّذَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ مِنْ هَذِهِ النِّعْمِ وَالْآيَاتِ.

[٣٣] وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا فَإِنَّ طَبَقَةَ الْهَوَاءِ الَّتِي تَعْلُونَا مَحْفُوظَةٌ عَنِ الْخَلَلِ، وَ إِنَّمَا جَعَلْتَ بِمَقْيَاسٍ دَقِيقٍ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهَا، وَ قَالَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْفَلَكَ: أَنَّ الطَّبَقَةَ «النَّتْرُوجِيَّةَ» تَحْفَظُ الْأَرْضَ مِنَ الْقَدَائِفِ الْجَوِيَّةِ، فَتَجْعَلُهَا رَمَادًا مَنْثُورًا لَثَلًا تَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُؤَذِي أَهْلَهَا، وَ السَّقْفُ هُوَ مَا يَعْلُو الْإِنْسَانَ أَوْ الْمَرَادُ الْمَحْفُوظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ مِنَ الْوَصُولِ إِلَيْهَا. وَ اسْتِرَاقُ السَّمْعِ، وَ قَدْ حَفِظْتَ بِالشَّهْبِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤)

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَيْهَابٌ ثَاقِبٌ) «١» وَ هُمْ أَيْ الْبَشَرُ عَنْ آيَاتِهَا الْكَائِنَةُ فِيهَا مُعْرِضُونَ فَلَا يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى الْمُؤَثِّرِ الْعَالَمِ الْقَدِيرِ.

[٣٤] وَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَإِنَّ الظُّلْمَةَ شَيْءٌ مَخْلُوقَةٌ بِنَفْسِهَا أَوْ بِخَلْقِ ضِدِّهَا، وَ هِيَ الضِّيَاءُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَ خُصَّصَا بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ الشَّمْسَ هِيَ الْمَوْلُودَةُ لِلنَّهَارِ، لِعَدَمِ التَّلَازُمِ كَمَا إِذَا سَكَنْتِ الْكَرَاتُ فَإِنَّ الشَّمْسَ مَوْجُودَةٌ وَ لَا نَهَارَ وَ لَا لَيْلَ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الْحَالِيَّةِ كُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي فَلَكٍ أَيْ مَدَارٍ خَاصٍ بِهِ يَسْبَحُونَ تَشْبِيهُهُ بِالْإِنْسَانِ السَّابِحِ فِي الْمَاءِ، وَ إِنَّمَا جِيءَ بِلَفْظِ الْعَاقِلِ حَيْثُ قَالَ:

يسبحون. لأنه نسب إليهم فعل العقلاء و هو السباحة و لعل لهما عقلا، و لذا ورد في الدعاء خطابا للقمر «أيها الخلق المطيع» - إلى آخره.

[٣٥] إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْكُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْحَيَاةَ وَ الْمَوْتَ، وَ لَا- مَنْجَى لِبَشَرٍ مِنَ الْمَوْتِ، فَلِيَحْسُنَ الْبَشَرُ فِي حَالِ الْحَيَاةِ، حَتَّى لَا يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، وَ قَدْ أُسْرِفَ مِمَّا يَسْبَبُ لَهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْخُلْدَ أَيْ الْخُلُودَ وَ الدَّوَامَ فِي الدُّنْيَا، وَ الْخُضْرَ وَ عَيْسَى أَيْضًا لَيْسَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَ إِنْ أَمْتَدَّتْ بِهِمَا الْحَيَاةُ إِلَى مَدَّةٍ بَعِيدَةٍ أَفَإِنْ مِتَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٌ، يَعْنِي إِنْ أَمْتَدَّتْ هَؤُلَاءِ لِمَوْتِكَ غَيْرَ صَحِيحٍ إِذْ أَنْهَمُ يَمُوتُونَ فَمَا فَائِدَةُ مَوْتِكَ لَهُمْ، حِينَئِذٍ

(١) الصفات: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٥ إلى ٣٦]

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَ إِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)

قالوا (نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُؤْنِ) «١» [٣٦] كُلُّ نَفْسٍ أَى حَى ذَائِقَةُ الْمَوْتِ أَى تَذُوقِ الْمَوْتِ، وَ تَخْرُجُ عَنِ الْحَيَاةِ وَ نَبَلُوكُمْ نَمْتَحَنُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ وَ نَخْتَبِرُ- وَ إِنْ كَانَ اخْتِبَارَ اللَّهِ لَيْسَ لِأَنَّ يَعْلَمُ هُوَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى عَالَمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ إِنَّمَا لِأَنَّ يَعْرِفُ نَفْسَ الشَّخْصِ مِنْ هُوَ وَ مَا أَعْمَالُهُ لِيَتِمَّ عَلَى الْأَشْقِيَاءِ الْحِجَّةَ، وَ تَمَّ لِلسَّعْدَاءِ السَّعَادَةَ- بِالشَّرِّ كَالْمَرَضِ وَ الْفَقْرِ وَ مَوْتِ الْأَقْرَبَاءِ وَ مَا أَشْبَهَ وَ الْخَيْرِ كَالصَّحَّةِ وَ الْغِنَى وَ الْجَاهِ وَ مَا أَشْبَهَ فِتْنَةً أَى لِأَجْلِ الْامْتِحَانِ، وَ الْمَعْنَى نَخْتَبِرُكُمْ بِالشَّدَّةِ وَ الرِّخَاءِ لِأَجْلِ الْامْتِحَانِ لِئَنَّا نَرَى مِنْ يَصْبِرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَ مَنْ يَجْزَعُ، وَ مَنْ يَشْكُرُ عِنْدَ النِّعْمَاءِ وَ مَنْ يَبْطِرُ وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ إِلَى ثَوَابِنَا وَ عِقَابِنَا، وَ ذَلِكَ حِينَ الْمَوْتِ، لِأَنَّ الْقَبْرَ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حَفْرَةً مِنْ حَفْرِ النَّارِ، أَوْ حِينَ الْبَعْثِ، وَ هُنَاكَ نَجْزِي الْمُحْسِنَ بِالثَّوَابِ وَ نَعَاقِبُ الْمُسِيءَ بِالْعَذَابِ.

[٣٧] وَ بَعْدَ الْكَلَامِ حَوْلَ الْإِلَهِ يَأْتِي الْكَلَامُ حَوْلَ الرِّسَالَةِ وَ الْمَعَادِ وَ بَيَانِ أَنَّهُمْ كَيْفَ يَسْتَقْبِلُونَ هَذِينَ الْأَصْلِيينَ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ وَ إِذَا رَأَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قَدْ سَبَقَ مِنْكَ أَنْ عَبَتِ آلِهَتُهُمْ وَ سَفَهَتْ أَحْلَامُهُمْ وَ دَعَوْتُهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ أَى مَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا سَخِرِيَةً وَ اسْتَهْزَاءً، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ هَذَا مُحَمَّدٌ الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ

(١) الطور: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٧ إلى ٣٨]

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)

على طريق الاستهزاء الاستهزائي، أى هل هو الشخص الذى يقول عن الآلهة إنها لا تنفع و لا تضر و هم بينما يعتقدون بالآلهة الصنمية بذكر الرحمن الذى خلق و تفضل بالرحم هم كافرين جاحدون، فأمرهم أَدْعَى إِلَى الْعَجْبِ وَ الْاسْتَهْزَاءِ حَيْثُ يُؤْمِنُونَ بِالْجَمَادِ وَ يَكْفُرُونَ بِإِلَهِ الْكُونِ؟! [٣٨] وَ قَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ لَوْ كُنْتَ صَادِقًا فَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ بِمَا تَقُولُ لَمَنْ يَهْدِيكَ وَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ الْعَذَابِ (وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) «١»؟ وَ يَرِيدُونَ بِذَلِكَ الْاسْتَهْزَاءَ كَمَا تَقُولُ لَمَنْ يَهْدِيكَ وَ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ: أَعْمَلُ بِمَا تَهْدِي، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنِ اسْتَعْجَالِهِمْ الْعَذَابَ بِقَوْلِهِ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ يَعْنِي أَنَّهُ مِنْ فِرطِ اسْتَعْجَالِهِ وَ قَلْبُهُ صَبْرُهُ كَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ جِنْسِ هُوَ الْعَجَلُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ فِي عَكْسِهِ: «وَلِلَّهِ مَفْطُورٌ مِنَ الصَّبْرِ قَلْبُهُ». وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَبَالِغَةِ وَ حَمَلِ الْمَصْدَرِ عَلَى الذَّاتِ، لِإِفَادَةِ تَلْبَسِ الذَّاتِ بِالْمَصْدَرِ دَائِمًا وَ تَلَازَمِهِ مَعَهُ غَالِبًا سَأَرِيكُمْ آيَاتِي وَ الْأَدْلَةُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ فِي أَنْ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يَأْخُذْ بِالْعَذَابِ، فَإِنَّ الْعَذَابَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ فِي طَلْبِ الْعَذَابِ، فَإِنَّهُ إِذَا نَزَلَ بِكُمْ لَا مَنَاصَ لَكُمْ عَنْهُ وَ لَا خِلَاصَ.

[٣٩] وَ يَقُولُونَ الْكُفَّارُ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ الْوَعْدُ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَعِدُنَا

(١) يونس: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٤

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٣٩ إلى ٤١]

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَشْتَعِبُونَ

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكُمْ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)

محمد صلى الله عليه وآله وسلم لو بقينا على كفرنا إن كنتم أيها المؤمنون صادقين في ادعائكم أن العذاب يأخذنا؟

[٤٠] لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ أَى وَقْتِ الْعَذَابِ، لَعَلُّوا صَدَقَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَفْلَةٍ وَغُرُورٍ، وَقَدْ حَذَفَ جَوَابَ «لَوْ» تَهْوِيلًا- أَنَّ الْعَذَابَ لِيَأْخُذَهُمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، فِي صُورَةٍ فَجَائِيَةٍ، فَإِذَا بِهِمْ يَخْفُونَ لِدَفْعِ الْعَذَابِ، بِلَمْسِ الْيَدِ عَلَى وَجُوهِهِمْ وَظُهُورِهِمْ، كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْتَرِقُ فَيَكْرُرُ إِمْرَارَ يَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَجَسَمِهِ، لِيَحُولَ دُونَ الْإِحْتِرَاقِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ لَا تَفِيدُ هَذِهِ الْحَرَكَاتُ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكْفُونَ وَلَا يَمْنَعُونَ، بِإِمْرَارِ الْيَدِ عَنِ وَجُوهِهِمْ النَّارَ الْمَشْتَعْلَةَ فِيهَا وَلَا عَنِ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ كَمَا يَنْصُرُ الْمُحْتَرِقُ فِي الدُّنْيَا حَيْثُ يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَيْهِ وَيَطْفِئُونَ النَّارَ الْمَشْتَعْلَةَ فِيهِ.

[٤١] يَلُّ تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً أَى فَجْأَةً، كَمَا كَانُوا يَطْلُبُونَ اسْتِعْجَالَ الْعَذَابِ، إِنَّهُمْ بِمَجْرَدِ الْمَوْتِ تَحِيطُ بِهِمُ النَّارُ فَتَبْتَهُهُمْ وَتَحِيرُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا أَى لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِ النَّارِ الَّتِي أَتَتْهُمْ بَغْتَةً وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ لَا يُؤَخَّرُونَ لَوْ قَدْ آخَرَ لِيَحْدِثُوا تَوْبَةً، أَوْ يَفَكِّرُوا فِي خِلَاصٍ.

[٤٢] وَقَدْ سَبَقَ أَخَذَ الْعَذَابَ أَمَّا اسْتَهْزَؤُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ، بَغْتَةً، فَلِيَخْفَ هَؤُلَاءِ عَنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

قُلْ مَنْ يَكْفُرْ كُفْرًا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ يَلُّ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)

مثل ذلك المصير ولقد استهزئوا يا رسول الله، والمستهزئ هم الأمم برسول من قبلك كما يستهزئ هؤلاء بك، قائلين (أ هذا الذي يذكر آلهم) «١» فحاق أي حل بالذين سخرُوا منهم أي من تلك الأمم- والضمير عائد إلى مقدر معلوم من السياق، نحو «الأبويه»- ما كانوا أي وبال ما كانوا به يستهزئون والمراد أنه حل بهم جزاء سخريتهم.

[٤٣] إِنَّهُمْ قَدْ اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً، فَهَلِ الْأَصْنَامُ تَحْفَظُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُمْ؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ مَنْ يَكْفُرُكُمْ مِنْ كَلْبٍ بِمَعْنَى حِفْظٍ، أَى مِنْ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعَذِّبَكُمْ وَيَأْخُذَكُمْ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، يَعْنِي لَا حَافِظَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ، وَكَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «الرَّحْمَنِ» لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ قَدْ أَعْرَقُوا فِي الْعَتَقِ حَتَّى اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ مِنَ الرَّحْمَنِ الَّذِي شَأْنُهُ التَّفَضُّلُ وَالتَّرْحِمُ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَتَّى يَخَافُوا عِقَابَهُ وَيَفَكِّرُوا فِي أَنَّهُ لَا عَاصِمَ مِنْهُ إِنْ أَرَادَ بِهِمْ عَذَابًا وَنِكَالًا.

[٤٤] إِنْ هَؤُلَاءِ يَعْتَمِدُونَ فِي أُمُورِهِمْ عَلَى آلِهَتِهِمْ، فَهَلِ الْآلِهَةُ تَتِمَكَّنُ مِنْ

(١) الأنبياء: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٦

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٤٤]

بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤)

الوقوف أمام العذاب لتصدده عن هؤلاء؟ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا أي فهل لهم آلهة لها شأنية الوقوف ضدا أمامهم لتمنع عذابنا عنهم؟ كلا! إن الآلهة لا يستطيعون نصير أنفسهم فإنها إذا أراد بها أحد شرا لا تتمكن من الدفاع عن نفسها، فكيف تدافع عن هؤلاء الذين يعبدونها، وجرى بوصف العاقل للآلهة تمشيا مع اصطلاح القوم، وإلا فالآلهة لا تعقل ولا تدرك ولا هم منا يصحبون أي أن هذه الآلهة لا قوة لها من ذاتها، ولا أنها تستمد القوة منا حتى تتمكن من صنع العذاب بتلك القوة، فإنها ليست بصحبتنا حتى تستمد

القوى منا، فإن صاحب يستمد القوة من صاحبه، وهذا جدل تهكمى مع عباد الأصنام كما كانوا يستهزئون بالرسول - فى عين أنه تقرير للحقيقة-.

[٤٥] إن سبب كفران هؤلاء ليس لأجل اعتمادهم على الآلهة بل لأجل إنا أنعمنا عليهم فطغوا، و (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَفْرًا) فقد متَّعنا هؤلاء الكفار بأنواع النعم و كذلك متعنا آباءهم من قبلهم، و ذلك أدعى للطغيان، فإن الفقير البائس واعى القلب متفتح النفس، أما من ربى فى النعيم من زمان أبيه إلى آخر عمره فإنه يطغى و ينسى حَيْتَى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فغرم طول العمر و أسباب الرفاه، و قلبوا الشكر كفرًا، لكن هؤلاء يلزم أن يعتبروا بمن هو أقوى و أشد، فهذه الدول من أطرافهم، كل يوم تقلص بخراب أطراف بلادها، و غزو

(١) العلق: ٧-٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦)

الأعداء لها حتى تكون خرائب بعد العمران، و مغلوبة بعد الغلبة و النصر، أ فهل من يقدر على ذلك لا يقدر على أن يسلب النعمة و الحياة من هؤلاء؟ أفلا يرون أى الأ يرى هؤلاء الكفار الذين أفسدهم العمر الطويل فى النعمة الموروثة أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أَى نتوجه إلى أرض الحكومات و بلادهم نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا فمن طرف خراب للعمران، و من طرف ذهاب بعدوان، و هذا كما يقال إن الدولة الإسلامية تقلصت، أو أن المسلمين نقصوا من أرض الكفار أَ فَهُمُ الْغَالِبُونَ استفهام إنكارى، أى فهل بعد عدم قدرة الدول على أن تمنع مشيئتنا حول أراضيها، هم يتمكنون من الامتناع عن قدرتنا، فيغلبون علينا فى إرادتنا.

[٤٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ أَى بما يوحى إلى، بأنكم إذا لم تؤمنوا يأخذكم العذاب، ثم أضرب سبحانه بقوله وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ الصم جمع أصم، فإن الأصم لا يسمع نداء المنادى له، و هؤلاء كالأصم، فإنهم لا يسمعون الإنذار، و لا يعيرون له الاهتمام إِذَا مَا يُنذَرُونَ أى فى حال إنذارهم و تخويفهم.

[٤٧] إن هؤلاء الكفار- اليوم- لا يعيرون الإنذار اهتمامًا، أما إذا جاءهم شىء ضئيل من العذاب اعترفوا بأنهم كانوا فى ضلالة و لئن مَسَّتْهُمُ مجرد مس، و هو المرور على ظاهر الجسم نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٨

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٤٧]

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) النفحة الوقعة اليسيرة كنفح الطيب الذى هو شىء يسير من ريحه لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا أَى يا قوم ويلنا، أو يا ويلنا أحضر فهذا وقتك- كما سبق- إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لأنفسنا حين لم نسمع دعوة الرسول.

[٤٨] وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ فكأن الميزان قطعة من العدل، من شدة أنها تعدل فى الوزن و «القسط» صفة الموازين، فإن المصدر يأتى وضعا للمفرد و التثنية و الجمع، بلفظ واحد، و المراد من الوضع إحضار تلك الموازين ذوات القسط لوزن الأعمال، و هل الموازين كموازين الدنيا، أم المراد بالموازين هم الأنبياء و الأئمة عليهم السلام و من إليهم، أم هو كناية عن جزاء الأعمال حسب المقاييس المقررة- كما نقول فلان لا ميزان لكلامه- احتمالات؟ هذه الموازين هى لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فحينئذ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا بأن ينقص من ثوابه، أو يزداد فى عقابه و إِنْ كَانَ عمله- المفهوم من السياق- مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أى بقدر ثقل حبة من الخردل، و هو تشبيه فى الصغر و

الخفة أتينا بها أى أحضرنا تلك الحبة، والمراد إدراجها فى الحساب، حسنة كانت أم سيئة وكفى بنا حاسبين «بنا» فاعل «كفى» دخل فيه الباء، لأنه فى معنى متعلق الأمر، تقول «اكتف يزيد» و «حاسبين» حال من الضمير، أى إننا يكتفى بنا فى الحساب لأعمال هؤلاء من جهة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٤٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠)

عدم نسيان أى جزء من جزئيات أعمالهم، فلا حاجة إلى محاسب آخر، وإنما نحسب لنجازى كل أحد قدر عمله.

[٤٩] و حيث بين السياق قصة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مع القوم، ذكر بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم تسلياً للرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و إتماماً للحجة على الكفار، و تقريراً للأصول التى دعا إليها كل الأنبياء و لقد آتينا موسى و هارون الفرقان أى الكتاب و البرهان الذى يفرق بين الحق و الباطل و ضياءً أى أعطيناها ما يضىء درب الحياة السعيدة فى الدنيا و الآخرة، لئلا يقع الناس فى الضلال من جراء الظلمة و ذكراً يذكر البشر بما أودع فى فطرته من العقيدة و المعارف للمتقين فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك كله، أما غير المتقى عن عذاب الله، فإنه لا ينتفع.

[٥٠] ثم بين المتقين بأنهم هم الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أى يخافون عذابه بِالْغَيْبِ فإن الإنسان لا يحس الله سبحانه بإحدى حواسه الخمسة، و مع ذلك يخشاه، فهو غائب عن الحواس، و لكنه مرهوب للمتقين و هُمْ مِنَ السَّاعَةِ أى القيامة مُشْفِقُونَ خائفون و وجلون، لأنهم لا يدرون ماذا يصنع بهم.

[٥١] و كما آتينا موسى و هارون الكتاب، كذلك آتينا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و هذا القرآن ذكراً مذكراً للناس ما أودع

فى فطرتهم من الأصول و المعارف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٥٩٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤)

مُبَارَكٌ يوجب البركة و النمو، لمن أخذ به أنزلناه على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليذكر الناس و يباركهم أفأنتم أيها الكفار له مُنْكَرُونَ تنكرون كونه من عند الله، و هذا استفهام توبيخ و تقرير.

[٥٢] و لقد آتينا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ أى الحجج و الأدلة التى توجب إرشاده إلى الحق مِنْ قَبْلُ من قبل موسى و هارون، و قبل القرآن و كُنَّا بِهِ إِبْرَاهِيمَ عَالِمِينَ نعلم أنه صالح للنبوذة و الرسالة.

[٥٣] إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، و الظرف متعلق ب «آتينا» لِأَبِيهِ أى عمه آزر، فقد جرت العادة بتسمية العم أبا و قومه حين رآهم يعبدون الأصنام ما هذه التماثيل جمع تماثل، و هو الشئ المصنوع الشبيه بشئ من خلق الله سبحانه، سواء كان المشبه به إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو غيرها، و قد يعم فيطلق على الشبيه بخلق الإنسان، فصنع قصر صغير للعب الأطفال أو سيارة صغيرة كذلك يسمى تماثلاً الَّتِي أَنْتُمْ أيها القوم لَهَا عَاكِفُونَ أى مستمررون دائمون على عبادتها و الخضوع لها؟

[٥٤] قَالُوا فى جواب إبراهيم وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا أى لهذه التماثيل - و المراد جنسها- عَابِدِينَ فإننا قد قلدناهم فى عبادتهم لها.

[٥٥] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَهُمْ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ أيها القوم وَ آبَاؤُكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٥ إلى ٥٧]

قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ (٥٧)

الذين عبدوها قبلكم في ضلالٍ مُبينٍ واضح إذ كيف تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم شيئاً؟.

[٥٦] قالوا أى القوم، لما رأوا من إبراهيم الإصرار على نبذ عبادة الأصنام أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أى هل أنت جاد فى كلامك هذا محق عند نفسك تريد بيان الحق بزعمك أم أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ تمزح و تلعب فى كلامك؟ فقد كانوا يستبعدون أن ينكر عليهم أحد عبادة الأصنام التى ألفوها منذ دهور.

[٥٧] قال إبراهيم عليه السّلام فى جوابهم، ما يفيد أنه جاد محق، ولكن غير مجرى الكلام ليكون جوابه مع الدليل والبرهان فلا يبقى محل للمناقشة بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فليست هذه أربابا لكم، وإنما هو الله الَّذِي فَطَرَهُنَّ أى خلق السماوات والأرض، والإتيان بضمير العاقل، إما باعتبار تغليب العقلاء الموجودين فيهما وإما باعتبار أن لهما مرتبة من الإدراك والشعور وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ «ذا» إشارة إلى المطلب المتقدم، وهو أن الرب هو اله السماء والأرض و «كم» خطاب للقوم مِنَ الشَّاهِدِينَ أى أشهد بذلك، وهذا لتأكيد الأمر، وإلا فكل مخبر شاهد لما يخبر عنه، وكان المراد أن إخبارى ليس تقليدا وإنما عن حضور وشهادة.

[٥٨] وَتَاللَّهِ حَلْفَ اللَّهِ لِتَأْكِيدِ مَا يَقُولُ، وَالتَّاءُ لِلتَّعْجِبِ، وَإِنَّمَا جِئَ بِهَا لِصُعُوبَةِ الْأَمْرِ الَّذِي نَوَاهُ حَتَّىٰ أَنْ الْآتَىٰ بِهِ يَسْتَحِقُّ التَّعْجِبَ مِنْهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِذْ كَبِّرَ اللَّهُ لَعْلَهُمْ إِلَيْهِ يَزْجَعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَٰ هَذَا بِالْهَيْتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩)

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ أى أدبرن تدبيرا خفيا فى باب الأصنام، يسوؤكم ذلك، يقال: كاده إذا دبر تدبيرا خفيا يوجب مساءته بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ أى تعرضوا عن المدينة جاعلين ظهوركم عليها تريدون الاجتماع فى يوم عيدكم، فقد كان لهم فى كل سنة عيد يخرجون إلى خارج المدينة لأجله فيجتمعون هناك، ثم إذا رجعوا دخلوا بيت الأصنام يسجدون لها، ولما أرادوا الخروج دعوا إبراهيم للخروج معهم فلم يخرج، فلما خرجوا جاء إلى بيت الأصنام وقد خلا من الناس.

[٥٩] وَأَخَذَ فَأَسَا بِيَدِهِ فَجَعَلَهُمْ أى الأصنام- وقد مر وجه الإتيان بضمير العاقل- جُودًا أى قطعة قطعة فهو فعال بمعنى مفعول كالحطام، وأصله من الجذ بمعنى القطع إِذْ كَبِّرَ اللَّهُ لَعْلَهُمْ أى كبر الأصنام، فإنه عليه السّلام لم يكسره، وإنما أبقاه على حاله، والمراد أكبرهم جسما، أو أكبرهم عظمتهم عند القوم، وقد علق الفأس فى عنق ذلك الكبير، وإنما فعل ذلك لَعْلَهُمْ أى القوم إِلَيْهِ أى إلى إبراهيم يَزْجَعُونَ فيسألون عن الفاعل للتحطيم، فينبئهم على خطئهم فى العبادة.

[٦٠] وَلَمَّا رَجَعُوا وَرَأَوْا أَنَّ الْأَصْنَامَ قَدْ حَطَمَتْ وَكَسَرَتْ قَالُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَنْ فَعَلَٰ هَذَا الْكُفْرَ وَالتَّحْطِيمَ بِالْهَيْتَانِ؟ عَلَىٰ نَحْوِ الْاسْتِفْهَامِ الْاسْتِنْكَارِ، أَوْ أَنَّ مِنْ مَبْتَدَأِ خَبْرِهِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦٠ إلى ٦٣]

قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيَانِ النَّاسِ لَعْلَهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أ أَنْتَ فَعَلْتَٰ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣)

[٦١] قالوا أى قال بعضهم فى جواب السائلين سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ أى أن فى المدينة شابا يذكر الأصنام بسوء لعله هو الذى صنع هذا الصنيع يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ لا شأن له ولا أهميته، ومن هذا يظهر أن إبراهيم عليه السلام كان شابا حينما فعل ذلك.

[٦٢] قالوا قال بعض القوم لآخرين فَأَتَوْا بِهِ فجيئوا بإبراهيم عليه السّلام على أُعْيِنِ النَّاسِ بحيث يراه الناس و يكون بمشهدهم و الإتيان بلفظ «على» لعله لكون العين تستوعب الشخص فكأنه عليها لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ بما قاله إبراهيم في شأن الأصنام، فتكون شهادتهم حجة عليه لا يتمكن من الإنكار، عند إرادة عقابه جزاء لما فعل.

[٦٣] فذهب بعض القوم، و جاءوا بإبراهيم عند الجماهير الحاضرة ف قالوا لإبراهيم عليه السّلام أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا الفعل الشنيع: الكسر و التحطيم بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمُ على نحو الاستفهام التقريرى.

[٦٤] لكن إبراهيم تهكم منهم، و صاغ الجواب في قالب يلفتهم إلى خطأ اتخاذهم لها أربابا قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا الذى بقى سالما و على عنقه الفأس، و الكلام صدق إذ المقصود من الكلام هو الذى يجعله صادقا أو كاذبا، لا القالب المصنوع، ألا ترى أنك لو قلت للبخيل «إنه كريم» لم يكن كذبا، حيث تريد بذلك التهكم، و كذا لو قلت لرجل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٤

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)

شجاع «أنه أسد» لو أردت المجاز، ثم ألقت إبراهيم، إلى موضع العبرة و الحجة بقوله فَسَلُّوهُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ، عمن فعل بهم هذا العمل إن كانوا يَنْطِقُونَ فإنهم يخبرونكم عمن فعل بهم هذا، و قد أراد عليه السّلام بذلك إلفاتهم إلى أنهم كيف يتخذون الأصنام آلهة، و هى لا تنطق و لا تعلم من فعل بهم الكسر و التحطيم، و إلى ما ذكرنا فى معنى الآية تشير

الرواية الواردة فى الكافى عن الصادق عليه السّلام قال: إنما قال بل فعله كبيرهم، إرادة الإصلاح، و دلالة على أنهم لا يفعلون «١»

[٦٥] و هنا أخذت الموعظة مأخذها، و عمل التنبية مفعوله فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ أى إلى أن القوم قال بعضهم لبعض، أو تفكروا فى نفوسهم فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسكم حيث تعبدون هذه الأصنام التى لا تقدر على دفع العدو عن نفسها، و حتى على النطق و إظهار من فعل الكسر بها.

[٦٦] ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ كما هو عادة الذى قد تمت عليه الحجة فلا جواب له، و المراد نكسوا رؤوسهم، لكن فاعل النكس لم يظهر، و الإتيان ب «على» لإفادة أن هناك دافعا دفع الرؤوس من فوقها حتى نكست، و أخذوا يجمعون - مخاطبين إبراهيم، أو أنفسهم - لَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا إِبْرَاهِيمَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ فكيف نسأل منهم، كما قلت «فاسألوهم»؟

(١) الكافى: ج ٢ ص ٣٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٦٦ الى ٦٩]

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)

[٦٧] و لما رأى إبراهيم عليه السّلام أنهم وصلوا إلى واقع الأمر، و أن عظته قد أثرت، أخذ يث فيهم دعوته بنبد الأصنام و اتخاذ الإله معبودا دونها قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلام لهم أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أى كيف تعبدون الأصنام التى هى لا تنفع و لا تضر، و لو كانت قدرت على النفع و الضرر لدفعت المكروه عن نفسها؟

و الاستفهام تويخى تقريرى.

[٦٨] أَفْ لَكُمْ «أف» كلمة تضجر، أى تبا لأعمالكم و أفعالكم، و أف لِمَا تَعْبُدُونَ أى للأصنام التى تعبدونها مِنْ دُونِ اللَّهِ أى التى هى غير الله سبحانه أَفَلَا تَعْقِلُونَ تنفكرون بعقولكم إنها ليست آلهة تستحق العبادة و التعظيم.

[٦٩] وقد التجأ القوم - بعد تمام الحجّة عليهم - إلى ما يلتجئ إليه كل جاهل معاند، من التخلص عن الحق بالقوة و العقاب ف قالوا بعضهم لبعض حَرِّقُوهُ حَرِّقُوا إِبْرَاهِيمَ بِالنَّارِ جِزَاءَ لِمَا فَعَلَ بِالْأَصْنَامِ وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ بِالتَّخْلِصِ مِنْ أَعْدَائِهَا، وَإِنْزَالِ الْعِقَابِ الصَّارِمِ بِمَنْ أَهَانَهَا إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لِلنَّصْرَةِ لَهَا، فَأَحْرِقُوا إِبْرَاهِيمَ عَدُوَهَا.

[٧٠] فأمر نمرود الملك الطاغى بجمع الحطب، و قد كان يكفى الحطب القليل لهذا الأمر، لكن الحقد أوجب أن جمعوا من الحطب قدرا مدهشا - بقدر حقدهم لا بقدر حرق إبراهيم - و صنعوا منجنيقا، تقذف، لأنهم لم يكونوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٠ الى ٧١]

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)

يتمكونون من اقتراب تلك النار الكثيرة المهولة، ثم وضعوا إبراهيم في فوهة المنجنيق، بمشهد من الملك و الجماهير، و قذفوه في النار قلنا يا نار كونى برداً و سَلاماً و قد كان أمرا تكوينيا، نحو (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) «١» و السلام أعم من البرد، فإن البرد إذا زاد لم يسلم الإنسان فيه على إبراهيم و المراد بالقول إما خلق الصوت، أو الإرادة.

[٧١] و أرادوا أى القوم به بإبراهيم عليه السّلام كَيْدًا أى شرا و تدبيرا فى هلاكه بالنار فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ إذ خسروا كيدهم، بل فوق ذلك أن ظهرت عظمة إبراهيم عليه السلام، مما سبب لنشر دعوته أكثر من ذى قبل فكأنهم جمعوا إلى خسارتهم بالنسبة إلى عقيدتهم الكافرة، خسارة المغلوبية، فهم الأخسرون.

[٧٢] و قد بقى إبراهيم عليه السّلام فى بابل العراق مدة يدعو فلم تنفع القوم الدعوة، بل أرادوا حرقه فلم ينجحوا، و سلط الله عليهم البعوض حتى أخذت لحومهم و شربت دماءهم و أهلكت واحدة منها نمرود الملك الطاغى، و من ثم هاجر إبراهيم عليه السّلام إلى الشام، لعل القوم هناك يقبلون الدعوة وَنَجَّيْنَاهُ أى إبراهيم عليه السّلام و لوطاً و هو من أرحام إبراهيم عليه السّلام، و فى بعض التفاسير أنه ابن أخ إبراهيم إلى الأرض الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فى تلك الأرض و هى الشام لِلْعَالَمِينَ لجميع

(١) البقرة: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

الناس، فقد تواترت الأنبياء هناك، و قد كانت الشام تطلق سابقا على ما يشمل لبنان و سورية و فلسطين و الأردن و حوالها. [٧٣] وَوَهَبْنَا لَهُ لإبراهيم إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً إِسْحَاقَ بن إبراهيم من سارة و قد دعا عليه السّلام أن يرزق ولدا فأعطاه الله إياه، و يعقوب ولد إِسْحَاقَ، و قد وهبه الله سبحانه لإبراهيم - حيث إن الحفيد أيضا هبة للجد - و معنى «نافلة»: «زائدة» إذ لم يكن يعقوب حسب دعاء إبراهيم، و إنما كان لطفًا محضًا منه سبحانه عليه، و تأنيث نافلة باعتبار النفس، و لم يذكر إسماعيل عليه السّلام لعله لكونه على مجرى الطبيعة، إذ «سارة» كانت كبيرة و عقيمة، أما «هاجر» فلم تكن كذلك، و إنما هى شابة و لودة و كُلًّا من إبراهيم و إِسْحَاقَ و يعقوب جَعَلْنَا صَالِحِينَ للنبوة و الرسالة و الهداية و الإرشاد و سائر الفضائل.

[٧٤] وَجَعَلْنَاهُمْ أى الثلاثة أُمَّةً جمع إمام، و هو المقتدى، أى يقتدى بهم فى أمور الدين و الدنيا يَهْتَدُونَ الناس إلى الحق بِأَمْرِنَا و أرسلناهم إلى الناس ليرشدوهم و أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ أى أوحينا إليهم أن افعلوا الأفعال الخيرة الموجبة للخير و السعادة فى الدنيا و الآخرة و إِقَامَ الصَّلَاةِ أى إقامتها، فإن التاء فى مصدر باب الأفعال جازر الحذف و إِيْتَاءَ الزَّكَاةِ أى إعطائها، و تخصيصهما

بالذكر بعد دخولهما في عموم الخيرات، لأهميتهما و كانوا لنا عابدين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٨

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٤ إلى ٧٦]

و لوطاً آتيناَهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَ نُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)

يعبدوننا، قبال سائر الناس الذين كانوا يعبدون الأصنام.

[٧٥] وَ لوطاً الذي سبق ذكره، وَ قد كان نجى من «بابل» مع إبراهيم، إلى الأرض المباركة آتيناَهُ أعطيناَهُ حُكْماً أى قضاء بين الناس وَ حكومة، فإن منصب الحكم إنما هو لله سبحانه، ثم لأنبيائه وَ الأئمة، بإذنه وَ عِلْماً وَ الحكم غير العلم، وَ إن استلزم مقداراً منه وَ نَجَّيْنَاهُ؟ أنقذناه مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ وَ هِيَ «سدم» التي كان أهلها يتعاطون اللواط وَ السحق وَ الكفر وَ سائر المنكرات وَ الخبائث جمع خبيث، وَ هو الشيء أَوْ العمل السيئ إِنَّهُمْ أى أهل تلك القرية كانوا قَوْمَ سَوْءٍ إضافة القوم إلى عملهم فَاسِقِينَ خارجين عن طاعة الله سبحانه، فقد أمر الله سبحانه لوطاً أَنْ يخرج من القرية، ثم عذب أهلها بأنواع العذاب - كما مر تفصيله -.

[٧٦] وَ أَدْخَلْنَاهُ لوطاً عليه السَّلام في رَحْمَتِنَا بذلك الخروج عن القرية، فكأنه كان حينذاك في العذاب، فلما خرج دخل الرحمة إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ لهذا استحق الدخول في الرحمة، وَ لم يبق في المدينة ليشمله العذاب وَ الهلاك.

[٧٧] وَ اذكر يا رسول الله نُوحاً أَوْ هو عطف على «لوطاً» أى آتينا نوحاً حكماً وَ علماً إِذْ نَادَى أى زمان دعا الله سبحانه مِنْ قَبْلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٥٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٧ إلى ٧٨]

وَ نَصْرَنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨)

من قبل إبراهيم وَ لوط، فقال رب لا - تذر على الأرض من الكافرين دياراً، وَ إنما جىء به متأخراً مع أنه متقدم زماناً، لأن أهل مكة كانوا أقرب إلى إبراهيم زماناً وَ علماً وَ نسباً، فكان ذكره أجلى، وَ فى مذاقهم أحلى فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دعاءه بإهلاك الكفار فَجَنَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ لعل المراد بهم المؤمنون به مِنَ الْكَرْبِ أى الحزن الْعَظِيمِ الذى لاقاه من الكفار طول تسعمائه وَ خمسين عاماً، فقد كانوا يضحكون منه وَ يؤذونه وَ يضربونه.

[٧٨] وَ نَصْرَنَاهُ أى نصرنا نوحاً، بنجاته فى السفينة وَ غرق الكفار بأجمعهم مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ إنما عدى «نصرنا» ب «من» دون «على» لإشراب الفعل معنى «المنع» وَ كأنه قال: النصر بالسير من وسطهم نحو سرت من البصرة إِنَّهُمْ أى المكذبين كانوا قَوْمَ سَوْءٍ فكأنهم كانوا قطعة من سوء، حيث إن عقائدهم وَ أعمالهم وَ أقوالهم كانت كلها سيئة فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ بأن أنزلناه السماء مدراراً، وَ فجرنا الأرض عيوناً، حتى غرق كل شيء فى الماء، فلم ينج إلا نوح وَ من حمل معه فى السفينة.

[٧٩] وَ اذكر يا رسول الله، أَوْ أعطينا الحكم وَ العلم دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ هو ابن داود إِذْ يَحْكُمَانِ فى الْحَرْثِ أى الزرع إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٠

أى فى الوقت الذى تفرقت فيه الغنم ليلاً، فإن نفس بمعنى تفرق الإبل أَوْ الغنم ليلاً - ليرعى بدون راع وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ حاضرين، نسمع وَ نرى كيف حكما، وَ الإتيان بالجمع «حكيمهم» باعتبار الحاكمين وَ طرفى النزاع.

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال كان فى بنى إسرائيل رجل وَ كان له كرم وَ نفست فيه غنم لرجل بالليل وَ قضمته وَ أفسدته، فجاء به صاحب الكرم إلى داود فاستعدى على صاحب الغنم فقال داود عليه السَّلام: اذهب إلى سليمان ليحكم بينكما فذهب إليه فقال

سليمان: إن كانت الغنم أكلت الأصل و الفرع فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم و ما فى بطنها، و إن كانت ذهبت بالفرع و لم تذهب بالأصل فإنه يدفع ولدها إلى صاحب الكرم، و كان هذا حكم داود و إنما أراد أن يعرف بنى إسرائيل أن سليمان وصيه بعده و لم يختلفا فى الحكم و لو اختلف حكمهما لقال «كنا لحكمهما شاهدين» (١) أقول: و كأن الحكم فى تلك الأمة كان كذلك أما فى شريعتنا فإن الحكم ضمان صاحب الغنم ما أتلفته لصاحب الكرم، دون أن يكون الأرش معيناً فى الغنم، و قد روى هذا الحكم بشكل آخر، و إن داود و سليمان اختلفا فى القضاء و كان حكم سليمان أقرب، و إن كان كلاهما صحيحاً، و ذلك كما لو أتاك آت فقال: إن فلانا كسر إنائى، فقلت له: يعطيك إناء مثله، و قال قاض آخر: يعطيك ثمنه فكلاهما جائز بالتراضى، و إن كان المثل أقرب من القيمة، فى المثلى،

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ١٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كَلَّمَ آتِينَا حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَ عَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيُوسِّ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) و بالعكس فى القيمة.

[٨٠] فَهَّمْنَاهَا أى علمنا سُلَيْمَانَ كيفية الحكومة بين الراعى و الزارع وَ كَلَّمَ من داود و سليمان آتِينَا أى أعطيناها حُكْمًا فى الخصومات، أو حكما على الناس وَ عِلْمًا و كان تخصيص سليمان بقوله «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» لأن المقصود كان إظهار فضل سليمان ليعرف بنو إسرائيل من وصى داود، كما فى الأحاديث وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ و معنى التسخير السير معه فى التسييح، فإنك إذا عودت طيرا أن يتكلم بما تكلمت به أنت، يقال أنك سخرت ذلك الطير، فكأنه صار طوع إرادتك يتكلم إذا تكلمت و يسكت إذا سكت يُسَبِّحْنَ الجبال معه، و الإتيان بضمير العاقل لأن التسييح فعل العاقل وَ الطَّيْرَ عطف على الجبال، أى و سخرنا معه الطير، فإنها كانت تسبح بتسييحه.

قال الصادق عليه السلام: إن داود خرج يقرأ الزبور و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر إلا جاوبه وَ كُنَّا فَاعِلِينَ لذلك، و كان المراد بذلك أن هذا الأمر ليس عجيباً من قدرتنا، و إن كان مستغرباً عندكم.

[٨١] وَ عَلَّمْنَاهُ أى علمنا داود صِنْعَهُ لِيُوسِّ لَكُمْ اللبوس هو السلاح الذى يلبس كالدرع، فإنه عليه السلام أول من صنع الدرع، و قد كان الحديد لنا فى يده كالعجين، يسرد منه الدروع لِيُحْصِنَكُمْ أى تحفظكم مِنْ بَأْسِكُمْ من وقع السلاح فيكم - كالسيف و الرمح - فى الحرب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨١ الى ٨٢]

وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُغْوِيُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

فَهَلْ أَنْتُمْ أيها الناس شَاكِرُونَ لهذه النعمة التى تقيكم من الأعداء، فإن الدرع أحسن وقاية للبدن مقابل الآلات الحربية.

[٨٢] وَ سَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ بن داود الرِّيحَ عَاصِفَةً أى شديدة الهبوب، فإذا أراد أن تعصف الريح عصفت، و إذا أراد أن ترخى أرخيت تَجْرِي الرِّيحَ بِأَمْرِهِ أى أمر سليمان إلى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا و هى الشام، التى بارك الله فيها بكثرة الأنبياء عليهم السلام، و كثرة الثمار، و طيب الهواء، و قد سبق أن المراد بالشام ما يشمل سورية و فلسطين و لبنان و الأردن، فقد كان لسليمان عليه السلام بساط

يجلس عليه هو وحاشيته فتحمله الريح ويسير بهم من القدس إلى الشام- وقد كان السير بينهما يستغرق شهرا على المشية- في نصف يوم، وكذلك ترجع بهم هذه المسافة في نصف يوم، كما قال سبحانه في آية أخرى:

(عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) «١» وحيث أن هذا كان مورد استغراب عقبه سبحانه بهذه الجملة فقال وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ فَإِنَّمَا أَعْطَيْنَاهُ مَا أَعْطَيْنَا لَعَلَّمْنَا بِالْمَصَالِحِ وَطَرَفِ الْأُمُورِ.

[٨٣] وَ سَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَ الْمَرَادُ بِالشَّيْطَانِ هُنَا الْجِنُّ، فَإِنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ أَحَدُهُمَا يَضِلُّ الْبَشَرُ مِنْ نَسْلِ إبْلِيسَ، وَ الْآخَرُ كَالْإِنْسَانِ إِلَّا أَنَّهُ مَخْتَفٍ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُمَا فِي الْأَصْلِ كَانَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ، وَ لِذَا

(١) سبأ: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)

قال سبحانه في حق إبليس «كان من الجن» و يسمى كل واحد منهما باسم الآخر «الجن» لكونهما مستترين، «و الشيطان» لكونهما ذوى تدبير و حيلة، و الظرف في موضوع حال من سخرنا مَنْ يَغُوصُونَ فِي الْبَحْرِ، وَ الْغُوصُ هُوَ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْبَحْرِ لِأَجْلِ إِخْرَاجِ اللُّؤْلُؤِ وَ مَا أَشْبَهَ لَهُ أَى لِسُلَيْمَانَ وَ يَعْْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ أَى سِوَى ذَلِكَ، أَوْ أَدُونَ مِنَ الْغُوصِ - مِنْ حَيْثُ الصَّعُوبَةُ - كِبَاءِ الْمَحَارِيبِ وَ التَّمَاثِيلِ وَ أَشْبَاهِهِمَا وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ أَى نَحْفِظُ الشَّيَاطِينَ عَنِ الْإِفْسَادِ وَ الْهَرُوبِ، وَ سَائِرُ مَا يَنْبَغِي الْحِفْظَ مِنْهُ.

[٨٤] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّوبَ حِينَ دَعَا رَبَّهُ لِمَا امْتَدَّتْ بِهِ الْمِحْنَةُ وَ الْبَلَاءُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ مُسْتَجِيرًا لِيَشْفِيَهُ قَائِلًا فِي دَعَائِهِ رَبَّ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ أَى نَالَنِي الضَّرُّ وَ الْمَرَضُ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَى أَكْثَرَ رَحْمًا مِنْ رَحْمِ كُلِّ رَاحِمٍ، وَ هَذَا تَأْدِبٌ فِي طَلْبِ إِزَالَةِ الْبَلَاءِ، فَقَدْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِهَلَاكِ أَوْلَادِهِ وَ ذَهَابِ أَمْوَالِهِ وَ الْمَرَضِ فِي بَدَنِهِ، كَمَا يَأْتِي قِصَّتُهُ فِي سُورَةِ «ص» إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

[٨٥] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ أَى أَجَبْنَا دَعَاءَهُ وَ نَدَاءَهُ، وَ كَانَ الْإِتْيَانُ مِنْ بَابِ الْاسْتِفْعَالِ الظَّاهِرِ فِي الطَّلْبِ، لِأَجْلِ أَمْرِهِ سَبْحَانَهُ بِأَنْ يَجَابَ دَعَاءَهُ، بِمَا جَعَلَ مِنَ الْعِلَلِ الْكُونِيَّةِ وَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَتَرْتَبُ عَلَيْهَا مَسَبِّبَاتُهَا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى طَلَبَ أَنْ يَجَابَ أَيُّوبَ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ أَى رَفَعْنَا وَ أَرْزَلْنَا الشَّيْءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٤

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٨٥]

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)

الذى كان بأيوب من ضر في بدنه و ماله و ولده، و كأن الضر ستر يشتمل على الإنسان، فإذا أزيل، انكشف ما تحته و آتيناها أَى أعطيناها و رددنا إليه أهله أولاده الذين ماتوا ابتلاء و اختبارا و مثلهم معهم

قال الإمام الصادق عليه السلام: إن الله سبحانه رد على أيوب أهله الذين هلكوا و أعطاه مثلهم معهم و كذلك رد الله عليه أمواله و مواشيه بأعيانها و أعطاه مثلها معها، و الله سبحانه قادر على إحياء الأموات، كما هو قادر على أن يعطي الإنسان أولادا و أموالا «١» رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا أَى إِنْ كَشَفَ ضَرَّهُ وَ إِعْطَاهُ مَا فَقَدَهُ، وَ مِثْلَهُ مَعَهُ، كَانَ فَضْلًا وَ لَطْفًا مِنْ لَدُنَا لِأَيُّوبَ، وَ كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهُ سَبْحَانَهُ، إِلَّا أَنْ التَّخْصِيسَ هُنَا لِلتَّشْرِيفِ وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ أَى لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَوْعِظَةً وَ تَذْكِيرًا لِمَنْ عِبَدْنَا وَ أَنَّهُ إِذَا أَخَذْنَا مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّا نُرْزِقُهُ إِلَيْهِ مَعَ الزَّائِدِ، وَ إِنْ أَخَذْنَا لِمَصْلَحَةٍ وَ حِكْمَةٍ.

[٨٦] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ حَيْثُ لَمْ يَذْكَرْ هُنَاكَ، ذَكَرَهُ هُنَا مُسْتَقْلًا وَ إِدْرِيسَ وَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ خَاطَ

اللباس بوحى الله سبحانه وَ ذَا الْكِفْلِ

وقد روى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه يوشع بن نون
كُلُّ أَى كَلِّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الصَّابِرِينَ أَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مَشَاقِ التَّكْلِيفِ، وَ لَمْ

(١) الخرائج: ج ٢ ص ٩٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٦ إلى ٨٧]

وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)
يزيغوا عن أوامره سبحانه.

[٨٧] وَ أَدْخَلْنَاهُمْ أَدْخَلْنَا هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي رَحْمَتِنَا بَأْنَ غَمْرَانَهُمْ فِي الرَّحْمَةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي مَشَقَّةٍ وَ أَدَى مِنْ قَوْمِهِمْ، وَ مِنَ التَّكْلِيفِ الْمَتَوَجَّهَةِ إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ فَقَدْ كَانُوا صَالِحِينَ فِي حَيَاتِهِمْ، وَ لَذَا جُوزُوا بِتِلْكَ الرَّحْمَةِ الَّتِي غَمَرْتَهُمْ، وَ حَيْثُ أَنْ الْمَقْصُودُ فِي سَرْدِ صَبْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَا ثُمَّ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جَزَاءَ صَبْرِهِمْ ثَانِيًا، أَلْمَحَ السِّيَاقَ إِلَى هَاتَيْنِ الْخُصُوصِيَّتَيْنِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ بَدُونَ ذِكْرِ قِصَصِهِمْ، كَمَا أَنَّ سَائِرَ الْقِصَصِ قَدْ أَتَيْتُ بِإِيْجَازٍ وَ إِشَارَةٍ.

[٨٨] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَا النُّونِ «النون» هُوَ الْحَوْتُ، أَى صَاحِبُ الْحَوْتِ، وَ هُوَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي التَّقَمَهُ الْحَوْتُ إِذْ ذَهَبَ أَى حِينَ فَارَقَ قَوْمَهُ، وَ ذَهَبَ عَنْهُمْ مُغَاضِبًا مِنْ غَاضِبٍ، بِمَعْنَى غَضَبٍ، وَ كَأَنَّهُ أَتَى مِنْ بَابِ الْمَفَاعَلَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِ الْغَضَبِ مِنَ الطَّرْفَيْنِ أَوِ الْمَرَادِ الْمَغَاضِبِ الْمَرَاغِمِ، يَعْنِي أَنَّهُ خَرَجَ رَغْمًا عَلَى أَنْفِ قَوْمِهِ، حَيْثُ أَرَادَ إِهْلَاكَهُمْ فَظَنَّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أَى لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ، فَقَدْ ضَاقَ هُوَ بِالِدَعْوَةِ وَ تَكْذِيبِ الْقَوْمِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ ظَانًّا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِتَرْكٍ أَوْلَى حَتَّى يَجْزِيَهُ سَبْحَانَهُ بِضِيقِ صَدْرِهِ ضَيْقًا فِي مَكَانِهِ، يَهُونَ عِنْدَ ضِيقِ مَكَانِهِ ضِيقَ صَدْرِهِ بِالْمَكْذِبِينَ مِنْ قَوْمِهِ.

وَ قَدْ يُقَالُ: أَنْ خَرُوجَهُ هَلْ كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ، أَمْ عَصِيَانًا؟ فَإِنْ كَانَ طَاعَةً فَلَمْ يَضِيقَ اللَّهُ عَلَيْهِ؟ وَ إِنْ كَانَ عَصِيَانًا كَانَ ذَلِكَ خِلَافَ مَا هُوَ مُسَلِّمٌ مِنْ عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟ وَ الْجَوَابُ: أَنَّهُ كَانَ تَرْكٌ أَوْلَى، فَقَدْ كَانَ
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٦

مِنِ الْأَوْلَى أَنْ لَا يُخْرَجَ، وَ لَمْ يَكُنْ عَصِيَانًا، كَأَكْلِ آدَمَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّذِي كَانَ تَرْكٌ أَوْلَى، وَ عَلَى أَى حَالٍ فَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يُونُسَ إِلَى قَوْمٍ كَانَ عِدَدُهُمْ مِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَ لَبِثَ فِيهِمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً - كَمَا

وَرَدَ - فَلَمْ يُؤْمِنْ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا - نَفْرَانِ «رُوبَيْلٍ» وَ «تَنُوحَا» فَخَرَجَ مِنَ الْقَوْمِ دَاعِيًا عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ، وَ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي نَفْسِهِ، وَ إِنْ كَانَ الْأَوْلَى بِمَقَامِ النَّبِوَةِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِذَلِكَ، فَوْصَلَ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ وَ رَكِبَ سَفِينَةً كَانَتْ تَرِيدُ الْأَبْحَارَ

- وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى قَوْمٍ آخَرِينَ يَدْعُوهُمْ - وَ لَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّفِينَةُ الْبَحْرَ، جَاءَ حَوْتٌ فَاتْحَا فَاهَ، بِحَيْثُ لَمْ تَتِمَّكَنِ السَّفِينَةُ مِنَ الْمَضَى إِلَّا - بِاطْعَامِهِ، فَأَقْرَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ يَطْرَحُوهُ لِلْحَوْتِ وَ خَرَجَ السَّهْمُ بِاسْمِ يُونُسَ، فَأَلْقَوْهُ فِي فَمِ الْحَوْتِ فَابْتَلَعَهُ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ حَفِظَهُ عَنْ أَنْ يَمُوتَ وَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ «١» فَنَادَى يُونُسَ فِي الظُّلُمَاتِ ظَلَمَةُ الْبَحْرِ، وَ ظَلَمَةُ اللَّيْلِ، وَ ظَلَمَةُ بَطْنِ الْحَوْتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ أَى أَنْزَهَكَ تَنْزِيهَا عَنِ الْقَبِيحِ، وَ كَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ دَفَعَا لَتَوَهُمِ مَتَوَهُمِ يَظُنُّ أَنْ الْعَمَلَ الصَّادِرَ مِنْهُ سَبْحَانَهُ لَيْسَ كَمَا يَنْبَغِي إِنَّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فِي خُرُوجِي مِنَ الْمَدِينَةِ وَ دَعَائِي عَلَى أَهْلِهَا، وَ الظُّلْمُ هُوَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَ ذَلِكَ يَلِائِمُ التَّحْرِيمَ، وَ تَرْكُ الْأَوْلَى، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) «٢»

(١) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ١٢٦.

(٢) النمل: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٧

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٨٨ الى ٩٠]

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

وقوله سبحانه لآدم وحواء: (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) «١» [٨٩] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ أَي أَجَبْنَا دَعَاءَهُ، فَقَدْ كَانَ ذَكَرَهُ تَعْرِيفًا بِطَلَبِ خَلَاصِهِ، فِي أَدَبٍ وَلُطْفٍ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ الَّذِي أَخَذَ بِهِ، بِأَنْ أَلْقَاهُ الْحَوْتَ إِلَى الشَّاطِئِ، بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَانَ فِي بَطْنِهِ وَكَذَلِكَ أَي كَمَا أَنْجَيْنَا يُونُسَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَنَا وَيَسْتَغْفِرُونَ لِسَالِفِ ذُنُوبِهِمْ [٩٠] وَاذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَكَرِيَّا النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَي حِينَ دَعَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ الْوَلَدَ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ يَخْلُفُهُ، فَقَالَ يَا رَبِّ لَا تَذَرْنِي أَي لَا تَدْعُنِي فَرْدًا وَحِيدًا بِأَوْلَادٍ، وَبِدُونَ عَقْبٍ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ وَقَدْ كَانَ هَذَا تَأْدَابًا مِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ لَا يَطْلُبُ الْوَلَدَ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُعْتَرَفٍ بِأَنْ وَارِثُهُ اللَّهُ خَيْرُ وَارِثِهِ، كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُمْ إِذَا مَاتُوا بِأَقْبَابٍ لَا أَحَدٌ فِي الْكَوْنِ يَرَعَى شُؤْنَهُمْ الدُّنْيَوِيَّةَ أَوِ الدُّنْيَوِيَّةَ وَإِنَّمَا يَطْلُبُ بَعْدَ الْإِعْتِرَافِ لِمَا يَعْرِفُ مِنْ جَرِيَانِ الْعَادَةِ الْكُونِيَّةِ عَلَى أَنَّ الْوَلَدَ وَالْعَقْبَ هُوَ السَّبَبُ الْعَادِي الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْخَلَافَةِ وَالْقِيَامِ مَقَامِ الْآبَاءِ فِي إِدَارَةِ شُؤْنِهِمْ.

[٩١] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دَعَاءَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى لِيَخْلُفَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ

(١) البقرة: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٨

[سورة الأنبياء (٢١): آية ٩١]

وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

إِذْ كَانَتْ عَقِيمَةً لَا تَلِدُ وَكَانَ الْإِيتَانُ ب «وَهَبْنَا» قَبْلَ «أَصْلَحْنَا» مَعَ أَنَّهُ بَعْدَهُ خَارِجًا، لِيَبَانَ الْمُبَادَرَةُ فِي اسْتِجَابَةِ دَعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَأَنَّهُ لَا فَصْلَ بَيْنَ الدُّعَاءِ وَالْهَبَةِ إِنَّهُمْ أَي زَكَرِيَّا وَزَوْجَهُ وَيَحْيَى - كَمَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ - كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ فِي الْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ، مُقَابِلَ الَّذِينَ يَتَلَكَّثُونَ وَيَتَبَاثُثُونَ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ، وَهَكَذَا دَائِمًا أَهْلُ الْآخِرَةِ إِنَّهُمْ يَبَادِرُونَ فِي الطَّاعَةِ، بِخِلَافِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا رَاجِعِينَ فِي ثَوَابِنَا وَخَائِفِينَ مِنْ عِقَابِنَا، وَهَكَذَا الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ، إِنَّهُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ خَاضِعِينَ مُتَوَاضِعِينَ لَا كَأَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِينَ يَطْعُونَ وَيَسْتَعْلُونَ عَنِ الْأَوَامِرِ وَالزُّوْجَرِ.

[٩٢] وَبِمُنَاسِبَةٍ ذَكَرَ «زَكَرِيَّا» ذَكَرَ السِّيَاقِ «مَرْيَمَ» الطَّاهِرَةَ الْقَرِيبَةَ لَهُ وَاذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا أَي حَفِظَتْ نَفْسَهَا عَنِ الْفُسَادِ، وَهَذَا لَرَدِّ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا فِيهِمَا شِرَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا النَّافِخِ كَانَ جِبْرَائِيلُ لَكِنَّهُ حَيْثُ كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، نَسَبَ النَّفْخِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَالرُّوحُ أَضْيَفُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ تَشْرِيفًا، كِإِضَافَةِ الْبَيْتِ إِلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ النَّفْخُ فِي جَيْبِ ثَوْبِهَا، وَتَكُونُ مِنْ ذَلِكَ النَّفْخِ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلْنَاهَا أَي جَعَلْنَا مَرْيَمَ وَابْنَهَا الْمَسِيحَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ أَي: دَلَالَةً عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَالْمُرَادُ ب «آيَةٍ» الْجِنْسُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٦٩

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُفْلًا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاشِحُونَ (٩٤)

فلا يقال: أنهما آيتان؟

[٩٣] و بعد استعراض أحوال بعض الأنبياء عليهم السّلام مع أممهم - إجمالاً - يأتي السياق ليدل على وحدة العقيدة، و وحدة الأمة، و

وحدة الإله، و وحدة رسالة الأنبياء عليهم السلام إِنَّ هَذِهِ الْبَشَرِ الْمَتَنَّاثِرِ فِي الْأَرْضِ الْمَتَبَاعِدِ فِي الزَّمَانِ أُمَّتَكُمْ أَيُّهَا الْأَنْبِيَاءُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَلَا أُمَّةَ تَحْتَ لُؤَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَ مِنْ خَالَفَ وَ آمَنَ بِبَعْضٍ وَ كَفَرَ بِبَعْضٍ أَوْ قَبِلَ حِكْمًا وَ أَعْرَضَ عَنِ حِكْمٍ فَلَيْسَ مِنَ الْأُمَّةِ، وَ لَيْسَ خَاضِعًا حَتَّى لَتَنْبِيهِ الَّذِي يَزْعَمُ أَنَّهُ مُتَبِعٌ لَهُ وَ أَنَا رَبُّكُمْ رَبُّ وَاحِدٍ فَاعْبُدُونِ أَيُّ أَطِيعُونِي وَ اتَّخِذُونِي إِلَيْهَا دُونَ غَيْرِي.

[٩٤] لَكِنِ الْمُنْحَرِفُونَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، بَلْ خَالَفُوا وَ تَفَرَّقُوا وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أَيُّ فَرَّقُوا دِينَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَإِنْ قَطَعَ وَ تَقَطَّعَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَ هَلْ انْتَهَى الْأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَا حِسَابَ وَ لَا جَزَاءَ لِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ تَقْطِيعِ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةَ إِلَى أَلْوَانٍ وَ أَشْكَالٍ وَ أُمَّةٌ؟ كَلَّا! كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ فَجَازِيَهُمْ بِمَا فَعَلُوا مِنَ التَّقْطِيعِ وَ التَّفَرُّقِ، وَ مَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ الرَّجُوعُ إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ، تَشْبِيهِهُ بِمَنْ يَرْجِعُ إِلَى الْمَحْكَمَةِ بَعْدَ الذَّهَابِ عَنْهَا.

[٩٥] فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْجِنْسِ، دُونَ جِنْسِ السَّيِّئَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ صَحِيحُ الْعَقِيدَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٠

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٥ إلى ٩٦]

وَ حَرَامٌ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) فَلَا تُكْفِرَانِ لِسِعِّهِ فَلَا يَسْتَرُ مَا عَمِلَ وَ لَا يَبْطُلُ، بَلْ يَشْكُرُ وَ يَثَابُ عَلَيْهِ وَ إِنَّا لَهُ أَيُّ لَسَعِيهِ كَاتِبُونَ وَ الْمَعْنَى نَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَثْبُتَ سَعِيهِ لِنَجَازِيَهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ.

[٩٦] أَمَا مِنْ كَفَرَ وَ عَصَى، فَأَهْلَكْنَاهُ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ الْاسْتِثْصَالِ فَلَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّهُ قَدْ انْتَهَى أَمْرَهُمْ، وَ أَنَّهُمْ أَهْلَكُوا فَلَا حِسَابَ بَعْدَ ذَلِكَ وَ حَرَامٌ أَيُّ مَمْتَنَعٌ، فِي الْحِكْمَةِ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا بِذُنُوبِهَا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ فَإِنْ عَذَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ نَهَايَةَ أَمْرِهِمْ، بَلْ يَرْجِعُونَ إِلَيْنَا فِي الْآخِرَةِ لِنَحْسَبَهُمْ هُنَاكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَ نَجْزِيَهُمْ بِالنَّارِ، فِ «حَرَامٌ» مُبْتَدَأٌ، خَبَرَهُ «أَنَّهُمْ» أَيُّ مَمْتَنَعٌ عَدَمَ رَجُوعِهِمْ، وَ قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ تَخْصِيصَهُمْ بِالذِّكْرِ دُونَ سَائِرِ الْعَاصِينَ، لِدَفْعِ التَّوْهَمِ الْمَذْكُورِ.

[٩٧] إِنْ الْأَمْرُ يَبْقَى عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ، مُؤْمِنٌ وَ كَافِرٌ، وَ مَوْتٌ وَ هَلَاكٌ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ وَ تَقُومُ السَّاعَةُ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ، وَ قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِلَامَةً لِدَلِّكَ بِقَوْلِهِ: إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ أَيُّ الْقَبِيلَتَانِ، وَ فَتِحَتْ بِاعْتِبَارِ كَسْرِ سَدِّهِمَا الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ أَيُّ مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ كَالْجِبَالِ وَ الْأَكَامِ يَنْسِلُونَ يَسْرِعُونَ فِي السَّيْرِ نَحْوَ الصَّحَارَى وَ الْبِلَادِ لِلْفَسَادِ وَ الدَّمَارِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧١

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٧ إلى ٩٨]

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)

[٩٨] وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ أَيُّ الْمَوْعُودِ الَّذِي هُوَ حَقٌّ، لَا خَلْفَ وَ لَا كَذِبَ فِيهِ، وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا هِيَ الضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ وَ الْقِصَّةِ، يَأْتِي بِهَا لِلتَّهْيِئَةِ، وَ لَيْسَتْ عَدُ السَّمَاعِ لِاسْتِمَاعِ مَا يَأْتِي بَعْدَهُ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا الشَّاخِصَةُ الْعَيْنِ الَّتِي لَا تَطْرُقُ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، وَ لَا تَسْكُنُ، كَالْإِنْسَانِ الشَّاخِصِ الَّذِي يَسِيرُ بَدُونَ سَكُونٍ وَ هُدُوءٍ، فَإِنْ الْكُفَّارُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَشْخِصُ أَبْصَارَهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ، يَنْظُرُونَ هُنَا وَ هُنَا لِيَجِدُوا مَلْجَأً أَوْ شَفِيحًا يَنْجِيهِمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَ الْكُرْبَاتِ، وَ قَوْلُهُ «إِذَا» يَتَعَلَّقُ بِ«حَتَّى» وَ مَعْنَى «إِذَا هِيَ» أَنَّ الْقِصَّةَ شَخْصًا أَبْصَارَ الْكُفَّارِ، قَائِلِينَ يَا وَيْلَنَا يَا قَوْمِ وَيْلَنَا، أَيُّ يَا وَيْلَنَا أَحْضَرَ فِهَذَا وَقْتِكَ، وَ الْوَيْلُ هُوَ الْهَلَاكُ وَ الْعَذَابُ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ، فَقَدْ كُنَّا فِي الدُّنْيَا لَا نَأْبَهُ وَ لَا نَعْتَنِي بِهَذَا الْيَوْمِ وَ بِمَا يَنْجِي الْإِنْسَانَ مِنْ أَهْوَالِهِ بَلْ لَمْ تَكُنْ غَفْلَةً، وَ إِنَّمَا كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنفُسِنَا حَيْثُ نَعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

[٩٩] وَ مَا مَصِيرَهُمْ هُنَاكَ؟ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تَعْبُدُونَهَا حَصْبُ جَهَنَّمَ أَيُّ

حطبها ووقودها، و الحصب كل حجر يرمى به، و لذا قيل للأحجار الصغيرة حصباء، و «ما» لما لا يعقل، فلا يشمل من عبده الناس من الأنبياء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٢

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٩ الى ١٠٢]

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)

و الأئمة و الملائكة، و إنما تكون الآلهة حصب جهنم مع أنها لا- ذنب لها، إهانة لعبادها و إذلالهم أنهم أيها الكفار لها أي لجهنم و واردون داخلون، و ذلك جزاؤكم.

[١٠٠] لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامَ آلِهَةً كَمَا تَزْعُمُونَ مَا وَرَدُوهَا مَا دَخَلُوا النَّارَ وَ لَامْتَعُوا مِنْهَا وَ كُلٌّ مِنَ الْعَابِدِ وَ الْمَعْبُودِ فِيهَا أَى فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ بِاقُونَ أَبَدَ الْأَبْدِينَ.

[١٠١] لَهُمْ أَى لِلنَّاسِ الَّذِينَ خَلَدُوا فِيهَا لِكْفَرِهِمْ وَ عَصِيَانِهِمْ زَفِيرٌ أَى صَوْتُ كَصَوْتِ الْحِمَارِ وَ هُوَ التَّنْفَسُ الْعَالِي الْمَصَاحِبُ لِلْأَلْمِ وَ الْحَزْنِ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ فَهَمَّ صَمٌّ، مَقَابِلُ مَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَصْمُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَ يَقُولُونَ لِلْمُرْسَلِينَ: فِي آذَانِنَا وَ قَرِّ.

[١٠٢] رَأَيْنَا حَالَ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ، فَلَنَنْظُرَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْكَلِمَةُ الْحُسْنَى بِأَنَّ قَلْبَنَا إِنْ الْمُؤْمِنِ لَا يَعَاقِبُ، بَلْ يَثَابُ، نَفَى لَهُمْ بِمَا وَعَدْنَاهُ أُولَئِكَ عَنْهَا أَى عَنِ جَهَنَّمَ مُبْعَدُونَ يُبْعَدُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهَا، حَتَّى لَا يَرُونَ مَنَظَرَ الْعَذَابِ، وَ لَا يَسْتَمْعُونَ لَزَفِيرِهَا، وَ لَا يَحْسُونَ بِحَرَارَتِهَا.

[١٠٣] لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا أَى صَوْتَهَا الَّذِي يَحْسُ بِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٣

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا يَدَّأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)

وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ مِنَ الْمَلذَّاتِ وَ النَّعِيمِ خَالِدُونَ دَائِمُونَ فَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ وَ نَعِيمِهَا، فِي مَقَابِلِ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ لَا زَوَالَ لَهُمْ عَنِ الْجَحِيمِ وَ الْعَذَابِ.

[١٠٤] لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ أَى الْخَوْفُ الْأَعْظَمُ، وَ هُوَ فَرْعُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْمُتَّصِلُ بِالْدُخُولِ فِي النَّارِ، الْبَاقِي إِلَى الْأَبَدِ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَى تَسْتَقْبِلُهُمْ بِالتَّهْنِئَةِ وَ الْبَشْرِ، قَائِلِينَ لَهُمْ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا، فَأَبْشَرُوا بِالْأَمْنِ وَ الْفَوْزِ وَ مَا أَحْوَجَ الْإِنْسَانَ هُنَاكَ أَنْ يَتَلَقَّاهُ شَخْصٌ يَهْدِيهِ السَّبِيلَ وَ يُرْشِدُهُ الطَّرِيقَ، فِي يَوْمِ الْأَهْوَالِ وَ الْأَحْزَانِ، فِي سَاحَةِ يَجْتَمِعُ فِيهَا الْخَلْقُ كُلَّهُمْ، فِي مَدَّةٍ تَطُولُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَ وَرَاءَهَا إِمَّا عَذَابٌ دَائِمٌ أَوْ نَعِيمٌ مُقِيمٌ!.

[١٠٥] يَوْمَ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أَى أَنَّ ذَلِكَ النَّعِيمَ، وَ تِلْكَ الْأَهْوَالُ، إِنَّمَا هِيَ فِي يَوْمِ نَطْوِي السَّمَاءَ فِيهِ، وَ مَعْنَى طَيِّ السَّمَاءِ، مَحْوُهَا، وَ تَبْدِيلُهَا دَخَانًا كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ السَّجَلُ مَا يَسْجَلُ فِيهِ، وَ هُوَ قَدْ يَكُونُ سَجَلًا لِلْكِتَابِ وَ قَدْ يَكُونُ سَجَلًا فِي قِصَاصِ وَرَقٍ، وَ السَّجَلُ الَّذِي يَطْوَى هُوَ سَجَلُ الْكِتَابِ، وَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، أَنَّ السَّجَلُ اسْمُ مَلِكٍ يَطْوَى صَحْفَ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ، فَالتَّشْبِيهُ إِنَّمَا هُوَ بِهِ، وَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ أَى كَمَا تَمَكَّنَّا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ نَتَمَكَّنُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٤

[سورة الأنبياء (٢١): آية ١٠٥]

وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)

على الإعادة أو في الشكل الذى خلقنا من كون الإنسان حاف عارى غير مختون كذلك تكون الإعادة، فالمراد بأول خلق «الخلق أولاً» على التقديرين، لا أول الخلق- و هو آدم عليه السلام- كما هو ظاهر، نعدكم ذلك وُعداً مصدر تأكيدى عَلَيْنَا إنجازَه وإِنْفَاذَه إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ إِنَّا فَاعِلُونَ لهذا الوعد، و كان لمجرد الربط، لا بمعنى الماضى.

[١٠٦] و حيث رأينا إن العاقبة الحسنى فى الآخرة لعباد الله الصالحين، فلنرجع إلى الأرض لنرى إن الأرض لمن؟ و لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ إِنَّمَا الْمَرَادُ «زبور» داود و المراد بالذكر حينئذ «التوراة» لأنها كانت قبل الزبور، و إما المراد بالزبور الصحف المنزلة على الأنبياء، فإنها من زبور بمعنى كتب، و المراد بالذكر، التذكير بالمبدأ و المعاد و المعارف، و على أى حال فالآية فى صدد بيان أن سنة الله جرت على ذلك، و قد كتبها فى الكتب السابقة أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ فَإِنَّ الْأَرْضَ فِي آخِرِ الْمَطَافِ لِلصَّالِحِينَ، و إن سبق تملكها الفاسدون، و قد وردت أحاديث متواترة فى تفسير الآية بالإمام الحجة المهدي عليه السلام، و ذلك من باب أظهر المصاديق فإنه عليه السلام يرث الأرض كلها و إن كان الأنبياء و الأئمة و الصالحون ورثوا الأرض قبل، إلى هذا الحين، فكلما قام باطل، قام حقه فى عقبه ليرث الأرض منه و السر واضح فإن غير الصالح لا يملك إلا شقاً واحداً، و الحياة لا تسير بشق واحد، أما الصالح الذى يجمع بين المادة و المعنى، و الإيمان و النشاط

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٥

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٦ إلى ١٠٨]

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)

فإنه أصلح من الفاسد، و لذا تزحج الحياة الفاسد- و إن طال أمده- لتخلف الصالح مكانه، ليكون السير عدلاً متوازناً. [١٠٧] إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي أَخْبَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ لَبَلَاغًا أَيْ كِفَايَةً فِي الْبُلُوغِ إِلَى الْقَصْدِ وَ هُوَ الْحَقُّ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ اللَّهُ مُخْلِصِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ، و إنما خص هؤلاء، لأنهم الذين ينتفعون بالبلاغ.

[١٠٨] و إِنَّا لَمْ نَكُنْ خَصَّصْنَا أُمَّةً بِالْبَلَاغِ وَ إِنَّمَا الْبَلَاغُ عَامٌ، أما المنتفع به فهو من ألقى السمع و هو شهيد و مَا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ نعمه عليهم جميعاً، أما المؤمن فواضح كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رحمة بالنسبة إليه، و أما الكافر، فلأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نظم سبل الحياة و أرشد إليها فاقتبس منه الكفار و ما نرى اليوم من الحضارة و التمدن فى العالم فليس إلا من هدى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و ما نرى فيه من الانحراف و الزيف فذلك من تحريف مناهج الرسول، فإن حضارة الشرق الروسى مأخوذة من حضارة الغرب، و حضارة الغرب وليدة الحضارة الإسلامية، حيث دخل العلم بلاد الغرب من بلاد الإسلام.

[١٠٩] و قد بين سبحانه علته كون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رحمة، أنه يبشر بوحدة الإله، فإن الإذعان بذلك رأس الفضائل، و سبب أنواع الرحمة قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ أَيُّهَا الْبَشَرُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٦

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٩ إلى ١١١]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَ إِنِ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)

استفهام تقريرى، أى مستسلمون متقادون لذلك، فتركوا عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له.

[١١٠] فَإِنْ تَوَلَّوْا بَأْنَ أَعْرَضُوا وَ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِسْلَامَ فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ آذَنْتُكُمْ أَعْلَمْتُكُمْ بِالتَّوْحِيدِ- وَ لَيْسَ وَظِيفْتِي إِلَّا الْإِعْلَامَ وَ قَدْ فَعَلْتُ- عَلَىٰ سَوَاءٍ بَدُونَ تَرْجِيحٍ، فإن الإعلان عام للجميع، و قد أدبت ما على، و بقى ما عليكم، فإن لم تؤمنوا كان مصيركم الهلاك، أما

وقت هلاككم، فعلمه عند الله سبحانه وإن أدري أى ما أدري أقریب أم بعید ما تُوعَدُونَ من العذاب و النكال؟ فإن علم ذلك خاص به سبحانه.

[١١١] ولا- يظن أحد أن الله لا يعلم ما يعمل حتى يفكر الكفار، بأنهم ينكرون- غدا- ما صدر منهم إنه تعالى يعلم الجهر من القول أى الكلام الظاهر و يعلم ما تكتمون أى يعلم سرکم، كما يعلم جهرکم، و سوف يجازيكم على الجميع.

[١١٢] أما تأخير العذاب فلحكمه اقتضته وإن أدري ما أدري لعل تأخير العذاب فتنه و امتحان لكم حتى تظهر نوايا كل أحد جلية، فإن الإنسان كلما بقى ظهرت نواياه أكثر فأكثر و متاع لأجل تمتعكم بمتاع الحياة إلى حين أجلكم المقرر، فليس الإنعام إكراما،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٧

[سورة الأنبياء (٢١): آية ١١٢]

قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)

بل استدراجا.

[١١٣] و أخيرا، بعد إبلاغ الرسول، و بقاء بعض الكفار فى غيهم قال رسول الله، يا رَبِّ احْكُم بينى و بين الكفار بِالْحَقِّ و هذا لإظهار إن حكم الله حق فالقيد للتوضيح و التنبيه، لا- للاحتراز و رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الذى يرحمنا و يتفضل علينا جزاء ما تعبنا و أبلغنا، فلم يذهب البلاغ و الأتعاب سدى المُسْتَعَانُ نستعين به على كيدكم و تكذيبكم على ما تصفون الرسول به من أنه كاذب و مفتر و ساحر و شاعر و مجنون و ما إلى ذلك، فإنه تعالى لا يترك الرسول، ليكيدوا له ما شاءوا، بل يأخذ بيده و يعينه على أمره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٨

٢٢ سورة الحج مدنية / آياتها (٧٩)

سميت السورة بهذا الاسم، لأن فيها أحكام «الحج» و لفظه و هذه السورة مدنية، إلا آيات منها، و لذا ذكر فيها التشريع الحكومى، كما هو شأن غالب السور المدنية، حيث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ينظم دنيا المسلمين، إلى جنب دينهم، و يبين لهم الدساتير و المناهج و حيث اختتمت سورة الأنبياء بالتوحيد و الرسالة، ابتدأت هذه السورة بذكر المعاد، الذى هو ثالث الأصول الثلاثة.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله فى جميع الشؤون، فالله مصدر كل خير، فالاستعانة به فى كل أمر من أمور الدين و الدنيا، و المال و الجاه، و السعادة و الرفاه، و الأمن و السلام، و غيرها، و كأنه لذلك اختير لفظ «الله» لإضافته «الاسم» إليه، و حيث إن النعم كلها تفضل خصص «الرحمن الرحيم» بإتيانها وصفا له سبحانه، دون سائر الصفات و النعوت.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٧٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

[٢] يَا أَيُّهَا النَّاسُ المراد العقلاء منهم القابلون للخطاب اتقوا ربكم فلا تخالفوا أوامره و زواجه إن زلزلة الساعة أى زلزلة الأرض حين قيام الساعة و هى يوم القيامة شىء عظيم هائل، فإن من أشرط الساعة زلزلة مهولة تعم الأرض.

[٣] يَوْمَ تَرَوُنَّهَا أى ترون تلك الزلزلة، أو تلك الساعة، و العامل فى يوم «تذهل» أى إن الدهول فى يوم رؤيتكم للساعة تذهل كل مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ أى تغفل الأمهات عن أولادها الرضع، مع شدة العلاقة للأم بالنسبة إلى ولدها الرضيع و تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا فإن الحبلى إذا اشتد عليها الفرع طرحت جنينها، و هذا إما حقيقة، فإن الساعة تقوم على الناس، و فيهم الأمهات و الحبالى، أو

كناية عن شدة الهول، نحو «فلان كثير الرماد» أو «مهزول الفصيل» مما يراد معناه الكنائى لا اللفظى وَ تَرَى أَيُّهَا الرَّائى النَّاسَ سِيَّكَارى أى كالسكارى فى الدهشة و الدهول من كثرة الخوف، فكما أن السكران لا يشعر كشعور الصاحى كذلك الناس فى ذلك اليوم و مَا هُمْ بِسِيَّكَارى من الشراب لم يشربوا الخمر، و إنما شربوا الفزع و الخوف و لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ و أهوال القيامة التى يرونها شديداً و من شدتها يصيبهم ما يصيبهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٠

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ٥]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَ نَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُغُنَّ أَشْدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)

[٤] يا أيها الناس اتقوا و لا تجادلوا، فإن وراءكم هذا اليوم الشديد و لكن مع ذلك من الناس أى بعضهم من يجادل يخاصم و يناقش فى الله من وجوده، فى آياته، فى صفاته، فى سائر شؤونه بغير بدون علم و معرفة و يتبع كل شيطان مرید أى أنه مستعد للضلال، فأى شيطان غاو مارد أخذ قياده بسلسله له و اتبعه، و يا للسخرى أن يترك الإنسان الإله، ليتبع كل شيطان مرید؟.

[٥] كُتِبَ عَلَيْهِ أى على الشيطان، و المراد أن الشيطان هكذا أنه مَنْ تَوَلَّاهُ أى من اتبع الشيطان فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ أن الشيطان يضل ذلك المتبع و يهديه يوصله ذلك الشيطان إلى عَذَابِ السَّعِيرِ اسم جهنم سميت به لأنها تسعر نارها، و المعنى أنه كيف يتبع هذا المجادل الشيطان الذى يضلّه فى الدنيا، عن الطريق و بالآخرة يورده النار فى الآخرة؟

[٦] ثم استدلت سبحانه على من ينكر البعث يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ أى فى شك من البعث يوم القيامة، الذى يبعث و يحيى فيه الأموات، لاستغرابك أن يعود الإنسان حيا بعد ما مات و فنى؟

فاعتبروا بحالكم عند ابتداء الخلق، إذ إنا خلقناكم من تُرَابٍ أى خلقنا كل فرد منكم من الأرض، إذ الإنسان تراب ثم نبات يأكله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨١

الإنسان و الحيوان- الذى يأكله الإنسان- فيصير دما ثم منيا، ثم إنسانا، أو المراد ب «خلقناكم» خلقنا جدكم «آدم» عليه السلام، و من قدر على صنع الإنسان من تراب يقدر على إعادته من تراب ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ فَإِن الْإِنْسَانَ بعد أن يصبح منيا يكون نطفة، و هى المنى المستقر فى الرحم ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ وَ هى القطعة من الدم المتجمد، فإن النطفة تنقلب علقه بعد مدة من بقائها فى الرحم ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ وَ هى شبه قطعة ممضوغة من اللحم، فإن معنى المضغ مقدار ما يمضغ بالأسنان.

مُخَلَّقَةٍ تلك المضغ و غير مُخَلَّقَةٍ أى تام الخلق و غير تام، أو متخذة شكلا بتحولها إلى العظم و اللحم و الصورة، أو تلفظها الرحم قبل ذلك فلا تتخذ خلقه الإنسان، و بناء على هذا المعنى يكون معنى «خلقناكم» إن أصل الإنسان هكذا، حتى يلائم «غير مخلقة» و إنما طورنا الإنسان فى هذه المراحل لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ قدرتنا، و ندلكم على وجودنا و سائر صفاتنا، فمن يا ترى يقدر على مرحلة واحدة من هذه المراحل؟ وَ نَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ من ولد و بنت، تام و غير تام، واحد و متعدد، حسن أو قبيح، و هكذا إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى أى مدة محدودة قد سميت عندنا، فمقدار بقاء الجنين فى الرحم محدود معين عند الله سبحانه ثُمَّ بعد تمام الأجل المقدر نُخْرِجُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرِ طِفْلاً، و إنما جاء فى اللفظ مفردا، باعتبار كل واحد واحد ثُمَّ نسير بكم فى مراحل الطفولة لِنَبْلُغُنَّ أَشْدَّكُمْ أى وقت اشتداد القوى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٢

العقلية و البدنية و الغريزية فيكم، و هو مرحلة الشباب.

وَ مِنْكُمْ أى بعضكم مَنْ يُتَوَفَّى بصيغته المجهول، و المتوفى- باسم الفاعل- هو الله سبحانه، أى يكون موته قبل الكبر وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ

أى يرجع إلى أُرْدَلِ الْعُمُرِ أى أسوء العمر، و إنما قال «يرد» لأن حالة الشيخوخة كحالة الطفولة، فهو رد إلى تلك، و إنما كان حال الشيخوخة أسوأ العمر مع أنه كحالة الطفولة، لأن حالة الطفولة أفضل منها حيث أن الطفل فى حالة النمو و الاكتمال، بخلاف حالة الشيخوخة، فإن الإنسان معها فى التردى و الهبوط، و إنما يرد الإنسان إلى أُرْدَلِ الْعُمُرِ لكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً أى لكى يخرج عن ذلك العلم الذى أتاه، فإن الإنسان ينسى معلوماته و يرتد جاهلاً- أو شبه جاهل- و اللام إما للعاقبة، نحو (فَالْتَفَطُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا) «١» و إما فيه تلميح إلى أنه يسلب ما كان يتناول به و يجادل فى الله بسببه، أو لام الغاية، أى يرد إلى هذا الحال، فتضعف روحه كما ضعف جسمه، أى نرده إلى هذه الحالة، لكى لا يعلم، و يصير كيوم طفولته. و كما جرت القدرة فى خلق الإنسان بتلك الكيفية المتدرجة، كذلك ترى أيها الرائي الأَرْضَ هَامِدَةً أى ساكنة يابسة، لا حركة فيها، و لا نبات، فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا أى على الأرض الماء من

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٣

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦ إلى ٧]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ وَ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)

السماء بانزال المطر، أو نحوه اهتزت الأرض بالنبات، و الاهتزاز شدة الحركة فى الجهات و ربت أى انتفخت و نمت و أنبتت الأرض من كل زوج صنف من أصناف النبات بهيج مبهج موق ذو لون جميل، و المراد بالاهتزاز، اهتزاز الأرض، فإن الأرض تتحرك فعلا و انفعالا بالنبات، و يحتمل أن يكون مجازا يراد به، اهتزاز النبات بعلاقة الحال و المحل، و إن كان هذا بعيدا من السياق.

[٧] ذلك الذى سبق ذكره من خلق الإنسان من التراب، ثم تطوره فى مراحل الجنين و الطفولة و الشيخوخة، و صنع النبات من الأرض الهامدة بسبب أن الله هو الحق و الإله الحق يقدر على كل شىء، لا كآلهتكم الباطلة- التى تجادلون فى الله من أجلها- لا تقدر على أى شىء و أنه يحيى الموتى فالليت من الأرض أحيائها إنسانا أو نباتا، لا كما أنكرتم البعث، و كنتم فى ريب منه و أنه على كل شىء قدير فلا تتعجبوا، كيف يمكن إعادة البشر، و أية قدرة تتمكن من ذلك، إن القادر على الابتداء، قادر على الإعادة.

[٨] وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ وَ لَا رَيْبَ فِيهَا أى ليست محل الريب، و إن ارتاب فيها المبطلون و المراد بالساعة القيامة و أن الله يبعث و يحيى من فى القبور و قد جاء التأكيد للبعث، أكثر من التأكيد حول المبدأ، لأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٤

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٨ إلى ٩]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)

الناس يستغربون من المعاد، أكثر مما يستغربون من المبدأ، و لذا يتخذون الآلهة و الأصنام، فكان المبدأ أمر مفروغ منه، و إنما كلامهم حول تعيينه و تشخيصه، أما المعاد فأصله محل ريبهم و إنكارهم.

[٩] و بعد هذه الدلائل الظاهرة على وجود الله سبحانه هناك من الناس من يجادل فى الله فينكر وجوده و قدرته بغير علم و قطع، و إنما هو شاك فى نفسه و لا هدى يهديه إلى ذلك، و لو لم يكن علما و لا كتاب منير ينير القلب و الروح، فلا علم له، و لا دليل عقلى يؤيده، و لا دليل سمعى يستند إليه.

[١٠] و حاله فى الكبر عن قبوله الحق شبيهة بالمتكبر الظاهر عليه الكبر فى جسمه و أطواره ثانى عطفه العطف جانب الإنسان الذى

يعطفه و يلويه عند الإعراض عن الشيء، من تحت إبطه إلى حقوه، و الإنسان غير المعرض، عطفه مستقيم، فإذا أعرض لواه، و بذلك يكون قد ثناه إذ بقي الجانب التحتي قرب الحقو في مكانه و مال الجانب الفوقي تحت الإبط نحو اتجاه الخلف، و هذا كناية عن المتكبر المعرض، و الجملة حال لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فهو لا يحمل تبعه ضلال نفسه، و إنما يضل غيره أيضا، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ هَوَانٌ و ذل و فضيحة، فإن الكفار دائما في هوان، حتى إذا ساروا ظاهرا، كما نرى من حال الغرب و الشرق- اليوم- وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ أى النار التي تحرقهم، و معنى الإذافة، إحاطته بالنار، حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٥

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٠ الى ١١]

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)

يدوق عطفه المثني جزاء عمله.

[١١] و يقال له حين العذاب ذَلِكَ العذاب، و جىء بالإشارة البعيد، لتوهم الترفع عن قرب العذاب للقائل بما قَدَّمْتَ يَدَاكَ من الكفر و العصيان، و نسب التقديم إلى اليد، لأنها الغالبة في إعطاء الأشياء وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ «ظلام» صيغته نسبة، لا مبالغة، كما قال ابن مالك:

و مع فاعل و فعال فعل في نسب أغنى عن اليا فقبل

و قد تقدم تفصيله لِلْعَبِيدِ فى تعذيبه، و إنما هم استحقوا ذلك بسوء صنيعهم.

[١٢] لقد رأينا بعض الناس ينكرون الله سبحانه، فلا يؤمنون به، و هناك نموذج آخر من الناس، فلقد آمنوا، و لكن إيماننا، لا عن عمق و استقرار وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ الحرف الطرف، و الجانب، أى على جانب واحد من جوانب الحياة، فهو يعبد حالة الرخاء، أو حالة الأمن أو حالة الغنى، و هكذا، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ أى بذلك الخير، و ركن إليه، و عبد الله الذى أعطاه ذلك الخير، وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ اختار و ابتلاء، بفقر، أو مرض، أو خوف، أو ما أشبه انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ بأن كفر بالله، كالذى يقع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٦

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٢ الى ١٣]

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْتِ الْمَوْلَى وَ لِبَيْتِ الْعَشِيرِ (١٣)

على الأرض على وجهه، بحيث لا يرى، و لا يتنفس براحته، و لا يحس، بل هو فى تعب و حرمان، شبه بذلك الكافر، لأنه مثل ذلك المنقلب فى الحرمان خَسِرَ الدُّنْيَا إذ فقد الإيمان الموجب للرضا و الاطمئنان و الهدوء وَ الْآخِرَةَ لأنه كفر، و الكفر موجب للعذاب و النار ذَلِكَ الخسران للدنيا و الآخرة هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الظاهر الذى لا خسران فوقه، و لا أسوأ حالا منه.

[١٣] و الذى يعبد الله على حرف، إذا أصابته فتنه يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَطَعَ صَلَاتَهُ بِاللَّهِ، لا بد و أن يدعو سواه، و سوى الله لا ينفع داعيه، و لا يضر تارك دعوته- فإن النفع و الضرر كليهما بيد الله سبحانه- ذَلِكَ الدعاء لما لا يضر و لا ينفع هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ فهو خارج عن الجادة، خروجا كثيرا، بحيث لا أحد أبعد منه، إذ ترك الله سبحانه، و اتخذ غيره- و قد مر معنى كون الضلال بعيدا-.

[١٤] يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ إن ما يتخذ الإنسان من دون الله سبحانه سندا، سواء كان صنما أو إنسانا أو شيطانا، من حيث ذاته لا يضر و لا ينفع، و من حيث ما يترتب عليه من الثمار، ضره أقرب من نفعه، فالضر هو انحراف منهاج الحياة المترتب عليه، و العقاب الأخرى، و النفع هو البقاء فى حلقة آباءه و أقربائه، الذين هم على شاكلته، و ما يعود لكهنه الأَصْنَامِ من الندورات و القرابين، و ما

أشبه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٧

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٤ إلى ١٥]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ (١٥)

هذه المنافع، و لكن الضر المترتب أقرب من النفع العائد- وهذا عبارة أخرى عن الضر الكثير، و النفع القليل، و لعل التعبير بأقرب، لأجل أن الضر يتوجه إلى الإنسان بمجرد عبادة الصنم، بخلاف النفع الذي هو متوقف على الإتيان بالذکر، أو نحو ذلك لِبَسِّ الْمَوْلَى أى أن الصنم بئس السيد للعابد له، إذ هو سيد يوجب ضرره وَ لِبَسِّ الْعَبِيدِ أى الصاحب المعاشر المخالط، فهو لا يصلح خليطاً و عشيراً، فكيف يصلح أن يكون سيداً؟

[١٥] مر بنا نموذجان من البشر، فلنمر بالقسم الثالث، و هو المؤمن، و نرى عاقبته إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ الْيَوْمَ الْآخِرِ، وَ سَائِرَ الْأُمُورِ الْعَقْدِيَّةِ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة جَنَّاتٍ أى بساتين تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ من تحت قصورها و أشجارها و شوارعها، حتى يكون الإنسان مطلاً على النهر حين التنقل إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ فليس مثل الأصنام التي لا تتمكن من نفع عبادها.

[١٦] أما المؤمن اليأس من نصره الله، إذا وقع في الفتنة و البلاء، و لا يرى للآخرة أثراً، كما هو كثير في ضعاف الإيمان- فليفعل ما يشاء، و ليذهب إلى السماء إن تمكن، فإن الله سبحانه، يأبى، إلا أن يجرى الأمور بأسبابها، و أن يمتحن الناس، حتى يرى مقاديرهم، و لا يغير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٨

[سورة الحج (٢٢): آية ١٦]

وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

أمره شيء، و لا-راد لقضائه مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا بِالْغَلْبَةِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَ حَلِّ مَشَاكِلِهِ، وَ نَجَاتِهِ مِنَ الْفِتَنِ التي وقع فيها وَ الْآخِرَةَ فهو ضعيف الإيمان بالآخرة، يقول إن لم ينصرني الله في الدنيا، و هي أهون، فكيف ينصرني في الآخرة؟ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ أى فليوجد سبباً موثقاً إلى السماء ثُمَّ لِيَقْطَعْ الطَّرِيقَ حتى يصل إلى السماء بذلك السبب، و هذا عبارة عما هو شائع في الألسن- لدى بيان، أن الأمر لا يتغير عما هو عليه- من قولهم: لو ذهبت إلى السماء لم ينفعك، يريدون أن توسط السماء غير منتج لتغيير ما جرى قدر الله عليه فَلْيَنْظُرْ بعد ذلك، و الاستمداد بالسماء هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ أى تدبيره في الذهاب إلى السماء ما يَغِيظُ ما أوجب غيظه من المشكلة و الفتنة التي وقع فيها؟ و الاستفهام للنفي أى لا يذهب حتى هذه الحيلة التي هي أبعد الحيل عن تناول البشر، للخروج عما قدره الله سبحانه، إذن فما ذا ينفع في الخلاص من المشاكل؟ إنه نصر الله سبحانه، إن عون الله و نصره هو الذي يحل المشكلة، أما من يئس من عونه، فلا شيء ينفعه إطلاقاً، حتى الذهاب إلى السماء.

[١٧] وَ كَذَلِكَ الَّذِي تَقْدِمُ مِنْ بَيَانِ حَالَاتِ النَّاسِ فِي الْهُدَى وَ الظَّلَالِ وَ التَّوَسُّطِ، وَ عَوَاقِبِ كُلِّ طَائِفَةٍ أَنْزَلْنَا أَي أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ، لا لبس فيها و لا غموض، ليرشد الناس، إلى ما هم فيه من الهدى و الضلال، و يعرفهم مقاديرهم و عواقبهم وَ بَيِّنَاتٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٨٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ١٧ إلى ١٨]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِغِينَ وَ النَّصَارَى وَ الْمُجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ أَي يوصله إلى الغاية المطلوبة بعد البيان للكل، وإنما يريد الله هداية من اتبع الحق، فالإرشاد للكل «أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» و الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب ل «من يريد» الله هدايته، لأنه جاء في طريق الحق، و استرشد بالآيات.

[١٨] أما لو اختلف الناس في قبول الحق و عدمه، بعد أن كان الإرشاد للجميع، فمصيرهم إلى الله و هو الحاكم بينهم يوم القيامة إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَن اتَّخَذُوا الْإِسْلَامَ دِينًا وَالَّذِينَ هَادُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْيَهُودِيَّةَ مَسْلَكًا وَالصَّابِئِينَ وَفِيهِمْ خِلَافٌ، وَ لَا يَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفًا مِنَ الْأَدْيَانِ، وَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ إِلَى الْيَوْمِ- يَسْمُونَ «صَبِيًّا»- وَ النَّصَارَى وَ هُمْ تَابَعُوا عَيْسَى الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ إِنْ انْحَرَفُوا عَنْ تَعَالِيمِهِ وَ الْمَجُوسَ وَ قَدْ كَانَ لَهُمْ نَبِيٌّ وَ كِتَابٌ، فَقَتَلُوا نَبِيَّهُمْ وَ أَحْرَقُوا كِتَابَهُمْ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ سِوَاهُ اتَّخَذُوا اللَّهَ وَ الشَّرِيكَ مَعًا، أَوْ اتَّخَذُوا الشَّرِيكَ فَقَطْ، وَ يَدْخُلُ فِيهِمُ الدَّهْرِيَّةُ إِنَّ اللَّهَ يُفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَي يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، بَأَن أَيُّهُمْ الْمَحْقُوقُ، وَ أَيُّهُمْ الْمَبْطُلُ، وَ يَجَازِيهِمْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ حَاضِرٌ عِلْمًا وَ سَمْعًا وَ بَصَرًا، فَلَيْسَ فَضْلُهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، فَإِنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعِ الْخُصُوصِيَّاتِ.

[١٩] إن البشر لو استكبروا عن عبادة الله و الخضوع لأمره و نهيهِ، فالكون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٠

[سورة الحج (٢٢): آية ١٩]

هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩)

كله خاضع له مطيع لأمره أَلَمْ تَرَ أَيُّ الْأَلَا- تنظر و تعلم أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ عِقْلَاءِ الْمَلَائِكَةِ وَ الْجِنِّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِذَا تَدَبَّرَ فِي الْخَلْقِ، وَ الْخَالِقِ، وَ إِنْ لَمْ يَرَهُ بِبَصَرِهِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ مِنَ الْعُلُويَّاتِ فَإِنَّهَا خَاضِعَةٌ لِأَمْرِهِ، سَائِرُهُ حَسَبَ مَا قَرَّرَ لَهَا مِنَ الْمَنَاجِ وَ الْجِبَالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ مِنَ الْأَرْضِيَّاتِ، فَإِنَّهَا خَاضِعَةٌ لِأَمْرِهِ، مُسْتَقْرَءَةٌ أَوْ مُتَحَرِّكَةٌ حَسَبَ إِرَادَتِهِ وَ يَسْجُدُ لَهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ سَاجِدُونَ مُتَعَارِفًا، وَ إِنْ سَجَدَ الْجَمِيعُ لَهُ سَجُودًا تَكْوِينِيًّا، ثُمَّ ابْتَدَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى وَ كَثِيرٌ مِمَّنْ أَبِي السَّجُودِ وَ الْإِيمَانِ، وَ اخْتَارَ الْكُفْرَ وَ الْعِصْيَانَ، حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَي ثَبِتَ وَ لَزِمَ، لِأَنَّهُ أَبِي وَ اسْتَعْلَى وَ تَكَبَّرَ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ لَهُ بَأَن جَعَلَهُ ذَلِيلًا مَهِينًا، حِينَ تَكْبَرُ وَ اسْتَعْلَى وَ لَمْ يَسْجُدْ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ لَا فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ، وَ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْحِفَاوَةِ، أَيَامًا قَلِيلًا، فَإِنَّمَا هِيَ سَرَابٌ زَائِلٌ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَالْأُمُورُ بِيَدِهِ، وَ الْإِكْرَامُ وَ الْإِهَانَةُ مِنْهُ لَا مِنْ غَيْرِهِ.

[٢٠] و لننظر إلى من يهينه الله و من يكرمه هَذَا أَي الْمُؤْمِنُونَ وَ الْكَافِرُونَ- وَ هُمُ الْفِرْقُ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورَةُ- خِصْمَانِ وَ الْخِصْمُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩١

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١)

يطلق على المفرد و المثنى، و المجموع بلفظ واحد اخْتَصَمُوا الْإِتْيَانُ بِالْجَمْعِ، بِاعْتِبَارِ الْجَمِيعِ فِي رَبِّهِمْ أَي فِي دِينِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، أَوْ فِي وَجُودِهِ، وَ سَائِرُ شُؤُونِهِ، وَ قِيلَ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ حَارَبُوا يَوْمَ بَدْرٍ، فَالْمُؤْمِنُونَ هُمُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ حَمْزَةٌ، وَ عِبِيدَةٌ، وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الْوَالِدُ وَ عَتْبَةٌ وَ شَيْبَةٌ، وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَصْدَاقِ، كَمَا أَنَّ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهَا أَهْلُ الْبَيْتِ، وَ بَنِي أُمِيَّةٍ، مِنْ بَابِ الْمَصْدَاقِ أَيْضًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ أَي تَفْصِلُ لَهُمُ الْأَلْبَسَةَ مِنَ عَيْنِ النَّارِ، أَوْ مِنْ جِسْمِ تَوْقِدِ فِيهِ النَّارِ، كَالْحَدِيدِ وَ نَحْوِهِ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ أَي الْمَاءُ الْحَارُّ الْمَغْلَى، لِتَعَذِّبَ رُؤُسَهُمْ بِالنَّارِ وَ الْحَرَارَةِ كَمَا تَعَذِّبُ سَائِرَ أَعْضَائِهِمْ بِالثِيَابِ.

[٢١] يُضْهِرُّ بِهِ أَي يَذَابُ وَ يَنْصَجُ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْحَمِيمِ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنَ الْأَعْضَاءِ، كَالْقَلْبِ، وَ الرِّئَةِ، وَ الْأَمْعَاءِ، وَ غَيْرِهَا وَ الْجُلُودُ فَهُوَ حَمِيمٌ يَشْمَلُ الظَّاهِرَ وَ الْبَاطِنَ، وَ لَهُ مِنَ الْحَرَارَةِ، مَا تَذِيبُ الْأَعْضَاءَ وَ الْجِلْدَ.

[٢٢] وَلَهُمْ مَقَامِعٌ جَمْعٌ مَقْمَعَةٌ، وَ هِيَ مَدْفَعَةُ الرَّأْسِ مِنْ قَمْعٍ بِمَعْنَى دَقٍّ، وَ هِيَ أَعْمَدَةٌ مِنْ حَدِيدٍ يُضْرَبُ بِهَا الْمَجْرِمُ عَلَى رَأْسِهِ، لِشِدَّةِ نِكَالِهِ وَ عَذَابِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٢

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)

[٢٣] كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنَ النَّارِ مِنْ غَمٍّ كَلَّمَا حَاطُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ، لِأَجْلِ الْغَمِّ وَ الْكَرْبِ، الَّذِي يُصِيبُهُمْ أُعِيدُوا فِيهَا أَرْجَعُوا إِلَيْهَا، وَ كَانَهُمْ يَسِيرُونَ قَدْرًا لِلْخِلَاصِ، فَيَعَادُونَ إِلَى مَكَانِهِمْ وَ يُقَالُ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أَيْ عَذَابَ النَّارِ الْمَحْرَقَةِ، فَالْحَرِيقُ مِضَافٌ إِلَيْهِ، لَا وَصْفٌ.

[٢٤] وَ قَدْ رَأَيْنَا حَالَ الْكَافِرِينَ، فَلَنَنْظُرَ إِلَى أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ مِنَ الْوَصُولِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تَصْلِحُ لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، وَ ذَلِكَ بِإِتْيَانِ الْوَاجِبَاتِ، وَ تَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا وَ أَشْجَارِهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا بِعَطُونِ الْحَلِيِّ وَ الزَّيْنَةِ، الَّتِي يَلْبَسُونَهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ جِنْسِ الْأَسَاوِرِ، وَ هِيَ جَمْعُ سَوَارٍ، وَ هُوَ لِتَحْلِيَةِ الْيَدِ مِنْ ذَهَبٍ وَ كَأَنَّ الْفِضَّةَ وَ الذَّهَبَ هُنَاكَ غَيْرُهُمَا هُنَا، فَلَيْسَ الذَّهَبُ أَعْلَى قِيَمَةً مِنَ الْفِضَّةِ، فَلَا يُقَالُ كَيْفَ قَالَ سُبْحَانَهُ فِي «هَلْ أَتَى» لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ «مِنْ فِضَّةٍ» وَ هُنَا لِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ «مِنْ ذَهَبٍ»؟ وَ يَحْلُونَ فِيهَا لُؤْلُؤًا فِي سَائِرِ مَوَاضِعِ أَجْسَامِهِمْ وَ لِبَاسِهِمْ فِيهَا أَيْ فِي تِلْكَ الْجَنَاتِ حَرِيرٌ وَ هُوَ الدِّبَاجُ الْمُنْتَوِجُ مِنْ دُودِ الْقَزِ - هُنَا - أَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٣

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)

هناك، فلا نعلم مما ينتج.

[٢٥] ذَلِكَ مَقَامُهُمْ، وَ تِلْكَ أَلْبَسْتُهُمْ وَ زَيَّنْتُهُمْ - فِي مِقَابِلِ مَكَانِ أَهْلِ النَّارِ وَ لِبَاسُهُمْ - فَلَنَنْظُرَ إِلَى مَا يُقَالُ لَهُمْ، مِقَابِلِ مَا قِيلَ لِأَهْلِ النَّارِ «وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» وَ هُدُوا أَيْ أُرْشِدُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ - وَ الْمُرْشِدُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَلْمُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ - إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» وَ بِالتَّسْلِيمِ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ أَيْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمَحْمُودِ، وَ هُوَ الصِّرَاطُ الَّذِي يُحْمَدُ صَانِعُهُ الَّذِي يَسْلُكُهُ، فِي مِقَابِلِ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا».

[٢٦] وَ بِمُنَاسَبَةِ الْكَلَامِ حَوْلَ الْكُفَّارِ، يَأْتِي السِّيَاقُ لِبَيَانِ حَالِ قِسْمٍ خَاصٍّ مِنْهُمْ وَ هُمُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ عَنِ الْحَجِّ، وَ عَنِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ يَسْتَطِرِدُ السِّيَاقُ حَوْلَ بَعْضِ خُصُوصِيَّاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ يَصُدُّونَ أَيْ يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ طَرِيقِ الْمَوْدِيِّ إِلَى رِضَاةِ، وَ هُوَ الْإِيمَانُ بِهِ، وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ حَسَبَ أَمْرِهِ وَ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِأَنْ يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْحَجِّ الَّذِي جَعَلْنَاهُ وَ أَمْرُ بِنَائِهِ لِلنَّاسِ عَمُومًا، فَمَا حَقُّ الْكُفَّارِ يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْحَجِّ؟ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ أَيْ الْمَقِيمُ فِي «مَكَّةَ» وَ الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بِاعْتِبَارِ مَلَابَسَتِهِ لِمَكَّةَ، فَهُوَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٤

من باب علاقة الكل و الجزء، وَ الْبَادِ أَيْ الَّذِي يَطْرَأُ وَ يَأْتِي إِلَيْهِ مِنَ الْخَارِجِ وَ سُمِّيَ الْمَسَافِرُ بِهِ لِأَنَّهُ يَظْهَرُ وَ يَتَبَيَّنُ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنَ الْخَارِجِ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَ أَحَدًا، حَتَّى أَنَّهُ لَيْسَ لِسُكَّانِ مَكَّةَ، أَنْ يَغْلِقُوا أَبْوَابَهُمْ بِوَجْهِ الْمَسَافِرِينَ وَ لَمْ يَكُنْ لِدُورِ مَكَّةَ أَبْوَابٌ، حَتَّى ابْتَدَعَهَا عُثْمَانُ أَوْ مَعَاوِيَةُ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ التَّارِيخُ وَ الرِّوَايَاتُ،

ورد أن هذه الآية نزلت في قريش حين صدوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن مكة، وقد كتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى عامله بمكة وهو قثم بن العباس، وأمر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا، فإن الله سبحانه يقول سواء العاكف فيه والباد

«١»، والعاكف المقيم به، والباد الذي يحج إليه من غير أهله ثم أنه قد حذف خبر إن، لتهويل الأمر، حتى تبقى نفس السامع قلقه، ما مصير هؤلاء المجرمين؟ وما يكون عقابهم وعذابهم؟

وَمَنْ يُرِدْ مَضَارِعَ مِنَ الرَّدِّ، وحذف ياؤه بالجزم ب «من» أى الذى يريد فيه أى فى البيت الحرام، تغييرا، أو تبديلا، وقد حذف مفعول يرد ليذهب الذهن كل مذهب يُلْحَدُ بِالْحَادِ الإلحاد العدول عن القصد، ومنه يسمى اللحد لحدا، لأنه مائل عن استقامة القبر، والملحد، ملحد لعدوله عن الإيمان بظلم أى ظلما، وهو متعلق بقوله «بالحاد» أى من أراد فى البيت الحرام شيئا غير جائز، بسبب أنه عدل عن القصد ظلما نذقه من عذاب أليم مؤلم فى الدنيا بإجراء الحد والعزير عليه تشريعا، وضره بالبلايا والمحن تكوينا، وفى

(١) مستدرك الوسائل: ج ٩ ص ٣٥٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٥

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)
الآخرة بإدخاله النار.

[٢٧] واذكر يا رسول الله إذ بَوَّأْنَا أى وطأنا ومهدنا لإبراهيم مكان البيت فإن إبراهيم هو الذى بنى البيت، وقد عرفه الله سبحانه، أين بينه، ويأتى هذا الكلام عقب الكلام السابق، ليدل على أن البيت، إنما بنى لأجل التوحيد والحج، فما بال الناس يمنعون عن البيت، وما بالهم يردون فيه بالحد بظلم؟ وقلنا له أن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا أى لا تجعل معى شيئا فى العبادة، وإنما تبنى البيت لتوحيدى، وفيه تعريض بالكفار، الذين نصبوا الأصنام حول البيت يعبدونها مع الله وَطَهَّرَ بَيْتِي مِنَ الْأَدْناسِ المعنوية والظاهرية لِلطَّائِفِينَ الَّذِينَ يَطُوفُونَ وَيُدَوِّرُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، والطواف قسم من الخضوع، كأنه يريد أن يبين، أنى فداء لصاحب هذا البيت وَالْقَائِمِينَ فى عباداتهم تجاه الله سبحانه وَالرُّكَّعِ جمع راعع السُّجُودِ جمع ساجد، أى الذين يركعون ويسجدون.

[٢٨] وَأَذِّنْ أى أعلم يا إبراهيم فى النَّاسِ بِالْحَجِّ الحج أصله القصد، ثم خصص بهذا القصد الخاص، والمراد أن يعلن، أن الناس يأتون إلى هذا البيت لعبادة ربهم، وإتيان المناسك المخصوصة الدالة على خضوعهم لله سبحانه،

وقد ورد عن الصادق عليه السلام أن إبراهيم لما أتم البيت، نادى هلم الحج هلم الحج، فلبى الناس، فى أصلاب الرجال لبيك داعى الله، لبيك داعى الله، فمن لبي عشرة حج وعشرا، ومن لبي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٦

[سورة الحج (٢٢): آية ٢٨]

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

خمسا حج خمسا، ومن لبي أكثر فيعدد ذلك، ومن لبي واحدة حج واحدة، ومن لم يلب لم يحج

«١»، وقد وعد الله إبراهيم أن يلبيه الناس، فقال يَأْتُوكَ أى يأتوا إليك يا إبراهيم، لأجل الحج أناس رجالا جمع راجل، وهو الماشى الذى لا مركوب له، يسعون على أقدامهم وأناس يَأْتُوكَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ مِنَ الضمير، وهو الهزال، قد جهده السير، فضمير من الجهد والجوع والتعب، وإنما خصص هذين، دلالة لتلبية الناس له، حتى الضعفاء منهم الذين لا مركوب لهم، أو هم فقراء، حتى أن مركوبهم

ضامر، ليس له ما ينفق عليه، ولا- يريحه، حتى يَاسَمَنَ يَأْتِينِ تلك الحيوانات المركوبة الضامرة مِنْ كُلِّ فَحْجٍ أى طريق عميق بعيد، و هكذا يتقاطر الحجاج على البيت الذى تبنيه يا إبراهيم.

[٢٩] وإنما أمرُوا بالحج لِيَشْهَدُوا أى يحضروا هناك مَنَافِعَ لَهُمْ دنيوية، و أخروية، فالمنافع الدنيوية اقتصادية، و اجتماعية و نفسية، و ما أشبه، و المنافع الأخروية، الجنة و الثواب وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فيجددوا عهدهم به خالصا من كل شائبة في أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ و هى أيام الحج، كما يظهر من السياق،

و قد ورد عن على عليه السلام أنه الأيام العشر

، و ورد أيضا أنه الأيام الثلاث للتشريق

، و الظاهر أنها من باب

(١) الكافي: ج ٤ ص ٢٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٧

[سورة الحج (٢٢): آية ٢٩]

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)

بيان بعض المصدايق على ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ، هى الإبل و البقر و الغنم، و البهيمه هى التى لا تقدر أن تتكلم، فإنها من الإبهام، و ذلك أنها لا تفصح عن مرادها، كما يفصح الإنسان الناطق، و المراد ب «على» إما ذكر الله على الحيوان حين يذبح أو ينحر، أو المراد أنهم يشكرون الله على أن رزقهم اللحوم، و على أى حال، فهو مصداق للذكر فكلوا أيها الحجاج منها من تلك الأنعام، و الأمر للإباحة، أو للوجوب، فقد ذهب بعض علمائنا إلى وجوب أكل الحاج من ذبيحته وَ أَطْعَمُوا الْبَائِسَ وَ هو الذى ظهر عليه أثر البؤس- أى الجوع و العرى- الْفَقِيرَ وَ كأنه قيد احترازي، لأن يجتنب عن البائس الذى يظهر ذلك، و ليس بفقير واقعا.

[٣٠] ثُمَّ عطف لترتيب الكلام، لا لترتيب ما يأتى على ما تقدم لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ يقال تفتت، يتفتت «من باب علم يعلم» أى علاه التفتت، و هو الوسخ، و تفتت الدماء مكانه أى لطخته، و يقال: قضى تفته، أى أزال و سحخه، كأنه أتى بما عليه تجاه الوسخ- و هو الإزالة- و المراد هنا إزالة الأوساخ من حلق الشعر، و نتف الإبط، و تنوير العانة، و قص الظفر، مما حرمة الإحرام، فإنها تحل فى منى وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ التى نذروها من الذبح و النحر لله سبحانه- علاوة على الهدى- وَ لِيَطَّوَّفُوا أصله «تطوف» من باب التفعّل، قلبت التاء طاء، و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ أى البيت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٨

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٠]

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

القديم، و الظاهر شمول هذا لكل أقسام الطواف، لما تقدم، من أن «ثم» لترتيب الكلام، لا لترتيب الأعمال.

[٣١] ذَلِكَ هو الحج الذى أمر الناس أن يأتوه، فأصله و أعماله، و بناءه، و بانيه، كما ذكر وَ مَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ «حرمات» جمع حرمة، و هى ما لا يحل انتهاكه، أى الذى لم ينتهك حرمة البيت، و حرمة سائر ما شرع من الأعمال المرتبطة به فَهُوَ أى هذا التعظيم خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ إذ يجزيه بالثواب و اللطف، و حيث إن المشركين جعلوا من حرمات الله، البحيرة و السائبة و الوصيلىة و الحام، يأتى السياق لبيان إنها ليست من حرمات الله وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ أيها الناس الْأَنْعَامُ جميع أقسامها إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى سورة المائدة، من المنخفة و الموقوذة و غيرهما، فإن سورة المائدة نزلت متأخرة عن هذه السورة، و بمناسبة حرمات الله، يبين السياق، أن لا حرمة للأصنام- كما

بين، أن لا حرمة للأنعام فَاجْتَبَيْتُهَا أَيُّهَا النَّاسُ، و لعل إتيان الفاء، لترتيب ذلك على الحالة النفسية التي تثار في هذه المشاعر، من التطهر، والاتجاه إلى الله سبحانه، الرَّجَسَ و هو القذارة المعنوية الحاصلة للإنسان مِنَ الْأَوْثَانِ الْأَصْنَامِ وَ اجْتَبَيْتُهَا قَوْلَ الزُّورِ أَى الْإِفْكَ وَ الْبَهْتِ، فَإِنْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَ جَعَلَهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، مِنْ أَكْبَرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٥٩٩

[سورة الحج (٢٢): آية ٣١]

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)
أقسام الإفك، فقد كان المشركون ينتهكون حرمة البيت، و يحترمون الأصنام، و يحرمون ما أحل الله من الأنعام، و ينسبون كل ذلك إلى الله سبحانه، فجاء السياق ليشجب جميع هذه الأعمال، و حيث أن مركزها كانت مكة، حشر الجميع في سياق الحج.

[٣٢] في حال كونهم حُفَاءَ جمع حنيف، و هو المائل عن الشرك، أى ميلوا عن الشرك نحو الطريق المستقيم، و هو طريق الله تعالى، لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ لا تشركوا بالله غيره وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ وَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ مِثْلُ إِنْسَانٍ يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ وَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْأَرْضِ، خَطَفَتْهُ الطُّيُورُ وَ الْجَوَارِحُ، لِيَمْزُقُوهُ، وَ يَأْكُلُوهُ لِقْمَةً سَائِغَةً لَهُمْ، أَوْ تَأْخُذُهُ الرِّيحُ لِتَطْرَحَهُ، فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِ الْأَنْظَارِ، حَتَّى لَا يَبْقَى أَثَرُهُ، حَتَّى أَنْ جَسْمَهُ يَضِيعُ، فَلَا- قَبْرَ لَهُ وَ لَا- أَثَرَ، وَ هَكَذَا الْمُشْرِكُ، إِنَّهُ خَرَّ مِنْ أَوْجِ الْإِيمَانِ الرَّفِيعِ، فَأَخَذَهُ الرَّؤْسَاءُ الْكَافِرُونَ، لِيَجْعَلُوا مِنْهُ وَسِيلَةً لِسَيَادَتِهِمْ وَ دَنِيَاهُمْ، فَيَعِيشُونَ عَلَى لَحْمِهِ وَ شَخْصِهِ، أَوْ يَبْقَى وَحْدَهُ، بَلَا أَنْ يَسْتَهْوِيَهُ أَحَدٌ، بَلْ ضَالًا فِي الْحَيَاةِ، لَا- يَدْرِي مِنْ هُوَ، وَ أَيْنَ؟ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، فَيُضَلُّ فِي بَحْرِ الْفَنَاءِ، لَا أَثَرَ لَهُ وَ لَا خَيْرَ فَكَأَنَّمَا خَرَّ أَى سَقَطَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى نَحْوِ الْأَرْضِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ أَى تَمِيلُهُ- فَلَا يَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ، لِيَرَاهُ النَّاسُ وَ يَأْبَهُوا بِهِ- فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ أَى بَعِيدٍ عَنِ الْأَنْظَارِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٦٤٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٢ إلى ٣٣]

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)
[٣٣] ذَلِكُ الْأَمْرِ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ لَزُومِ الْإِيمَانِ، وَ تَرْكِ الشَّرْكِ وَ مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ جَمْعَ شَعِيرَةٍ، وَ هِيَ الشَّيْءُ الْمَلِصَقُ لِلْبَدَنِ، وَ سَمِيَ شَعِيرَةً، بِعِلَاقَةِ الْمَلَابِسَةِ، لِأَنَّهُ يَصِلُ بِالشَّعْرِ فِي الْبَدَنِ، وَ الْمَرَادُ هُنَا الْأُمُورَ الْمُرْتَبِطَةَ بِاللَّهِ، وَ هُوَ عَامٌ يَشْمَلُ كُلَّ مَا وَرَدَ بِهِ دَلِيلٌ خَاصٌّ، كَالْمَنَاسِكِ فِي الْحَجِّ، أَوْ دَلِيلٌ عَامٌ كَالْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْأُئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ إِنَّمَا تَشْمَلُهَا الْأَدْلَةُ الْعَامَّةُ، وَ الْإِتْيَانُ بِهَذِهِ الْجَمْلَةِ هُنَا، بِمَنَاسِبَةِ أَنْ أَعْمَالَ الْحَجِّ مِنَ الشَّعَائِرِ فَإِنَّهَا أَى أَنْ تَعْظِيمَ الشَّعَائِرِ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ «الضمير» فِي «إِنَّهَا» عَائِدٌ إِلَى الشَّعَائِرِ، وَ الْمَرَادُ بِهِ تَعْظِيمَ الشَّعَائِرِ، مِنْ بَابِ الْمَلَابِسَةِ- مَجَازًا- وَ إِضَافَةَ التَّقْوَى إِلَى الْقُلُوبِ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ التَّقْوَى فِي الْقَلْبِ، وَ إِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى الْجَوَارِحِ وَ التَّعْظِيمَ حَقِيقَةً لَا يَنْشَأُ إِلَّا مِنْ تَقْوَى الْقَلْبِ، أَمَا صُورَةُ التَّعْظِيمِ الَّتِي يَنْشَأُ مِنْ التَّقْلِيدِ وَ نَحْوِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَعْظِيمًا حَقِيقَةً، وَ إِنَّمَا صُورَةُ تَعْظِيمٍ مُجَرَّدَةٌ.

[٣٤] لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِيهَا أَى فِي الشَّعَائِرِ مَنَافِعٌ مَادِيَّةٌ وَ مَعْنَوِيَّةٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى أَى مَدَّةً مَعِينَةً، قَدْ سَمِيَ أَجْلُهَا، وَ ذَلِكَ، فَإِنْ مَصَادِقُ الشَّعَائِرِ الْأَنْعَامِ الَّتِي تَهْدَى إِلَى الْبَيْتِ، وَ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ رُكُوبُهَا، وَ شَرِبَ أَلْبَانُهَا، إِلَى وَقْتِ ذَبْحِهَا ثُمَّ مَحِلُّهَا أَى الْمَوْضِعُ الَّذِي تَحُلُّ الشَّعَائِرُ فِيهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ أَى مَكَّةَ، فَإِنَّ الْهَدَايَا تَسَاقُ إِلَيْهَا، حَتَّى تَذْبَحَ بِهَا، ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي الْقُرْآنِ، أَنْ يَذَكَرَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠١

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٤]

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ لِلَّهِ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)

الدليل، والحكم، كما يذكر العام، ليشمل الخاص، فلا غرابه في أن يراد بالشعائر العموم، ويراد بـ «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ .. إِلَى آخِرِهِ» خصوص الهدى، كما قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) «١» فـ «إنا لا نضيع» عام، و دليل، في وقت واحد، وهكذا من أمثاله، وهو كثير.

[٣٥] وليس موضع عجب، أن يكون ذبح الأنعام من الشعائر في هذه الأمة، فقد كان ذبحها في كل الأمم من الشعائر، والذين يتنون على ذبح الحيوان، لم يدر كوا طبيعة البشر، التي لا تقوم، إلا باللحوم، ولم يدر كوا أن لا فرق بين ذبح الحيوان وموته، فإن الألم الذي يصل إليه من الموت أكثر من الألم الذي يصل إليه من الذبح، والنقض بذبح الإنسان في غير مورده، إذ الإنسان خلق لنفسه، وله خلق الكون- كما يشهد بذلك نفس الكون- فهو غاية لا وسيلة، بخلاف الحيوان الذي هو وسيلة، ثم ماذا يقولون في ركوب الحيوان، والحمل عليه؟ فهل يرون ذلك خلافا، وأنه مثل ركوب الإنسان والحمل عليه؟ وماذا يقولون، في استخدام الإنسان لجنسه في حوائجه الضرورية؟ و كون الألم هنا أقل فلا يبرر، إذ لو كان الإيلام ظلما، لم يكن فرق في أصل القبح بين الظلم القليل والظلم الكثير، ولكل أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسِكًا الْمَنَسِكِ مَوْضِعَ الْعِبَادَةِ، من نسك بمعنى عبد، والنسيكة الذبيحة، لأنها تذبح قربة إلى الله تعالى، والمراد بالمنسك إما البيت، وإما الذبيحة، لأنها موضع العبادة، إذ يقرب بها إلى الله، والأول أقرب

(١) الكهف: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٢

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٥]

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)

إلى ظاهر اللفظ، والثاني أقرب إلى السياق لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ أَي إن جعل العبادة، أو الذبيحة، إنما هو لذكر الله على ما رزقهم من اللحوم، ولو كان المراد بالمنسك، محل العبادة، كان التعليل بمناسبة تلازم محل العبادة و ذبح الحيوان قربانا، كما نرى في الحج، وقد كان في الأمم السابقة، تشريع ذبح الحيوان لله، في محل العبادة، وإنما حرفها المشركون، حيث كانوا يذبحونها للشركاء فَاِلْهُكُمْ أَيهَا الْبَشَرِ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فلا تذبحوا الذبائح لغيره كما كانت عادة أهل الجاهلية و «الفاء» تفرع على العلة في «ليذكروا» بمعنى أن تشريع الذبح، لما كان لذكر اسم الله، فلا تذكروا سواه فَلَهُ وَحْدَهُ أَشْلِمُوا أَي انقادوا و أطيعوا و بَشَّرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ يَتَوَاضَعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، من أختب خضع.

[٣٦] ثم فسر المخبتين بقوله الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ أَي خافت و اضطربت، فإن الإنسان، إذا ذكر باسم عظيم يكون مآله إليه، ولا يدرى هل أنه ناجح أم ساقط، يخشى و يخاف خوف الرسوب، وهذا يدل على كمال الإيمان وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ من المكاره و الأتعاب و البلايا، يصبرون لأجله سبحانه، و إطاعة لأمره وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ أصله مقيمين، حذف النون، للإضافة و الذين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٣

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٦]

وَالْبَدَنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)

مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أَي يبذلون، كما أمر الله سبحانه و «الصابرين» و «المقيمي» عطف على «الذين» و «مما رزقناهم» عطف على «إذا ذكر» أو بتقدير الذين، حتى ينساق العطف في الجميع.

[٣٧] وَالْبَدَنَ جمع بدنه، و هي الإبل جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ التي تنحر في الحج تعظيما لأمر الله سبحانه، و خص البدن بالذكر، مع أن البقر و الغنم كذلك، لأن البدن أعظمها مثوبة، و أنفعها للناس، و لعل تخصيص الهدى بالذكر من بين سائر الشعائر، لأن فيها الدين

و الدنيا، بخلاف سائر الشعائر، كالطواف و السعى و الرمي، و ما أشبه لكم أيها المسلمون فيها أى فى البدن خَيْرٌ تنتفعون بلحومها فى دنياكم، و بثوابها فى آخرتكم فإذا أردتم نحرها للهدى اذكروا اسم الله عَلَيْهَا فى حال كونها صَوَافٍ أى قائمات، قد صففن أيديهن و أرجلهن، جمع صافئه، و ذلك حين إرادة نحرها فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا بأن سقطت على الأرض، لموتها فى أثر النحر، و هى إذا وقعت تقع على جنبها و ذلك كناية عن موتها فَكُلُوا مِنْهَا الأمر، إما للإباحة، لأن الأكل مباح، أو للوجوب على ما ذهب إليه جماعة من العلماء، من وجوب الأكل من الهدى و أَطْعَمُوا الْقَانِعَ الذى يقنع بما أعطيته، و هو يسألك الطعام و الْمُعْتَرَّ من اعتر، بمعنى اعترى، و هو الفقير الذى يعترى رحلك من غير أن يسأل، و كان الإتيان بهذين الوصفين، لبيان العلة فى الإعطاء، و الإلفات إلى خصوصيتها الموجبة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٤

[سورة الحج (٢٢): آية ٣٧]

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَا كَيْنُ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)

للعطف و الرحمة كذلك الذى ذكرنا سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ فإنها مع قوتها مسخرة لكم حتى تتمكنوا من أخذها، و إيقافها صواف و نحوها، بخلاف السباع الممتنعة التى هى لو كانت دونها لا تنقاد و لا تخضع لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى لكى تشكروا لطف الله و فضله.

[٣٨] إن الأمر بذبح الهدى، ليس لانتفاع الله سبحانه، فإنه تعالى لا ينتفع بشيء لَنْ يَنَالَ اللَّهُ أى لن يصل إلى الله لُحُومَهَا ليأكل، أو ينتفع و لا دِمَاؤُهَا كما تنال الأصنام دماء قرايينها، فإنهم كانوا يلطخون الصنم بدم القربان، ليدل على أنهم عظموه بالقربان من أجله و لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ فإن توجه القلوب إليه سبحانه، هو المطلوب المهم الذى أمر به سبحانه، و هو الشيء الذى يريده، و لذا شبه بما ينال الإنسان و يصل إليه، و إلا فالتقوى أيضا لا يناله سبحانه، و المعنى أن المقصود بالهدى التقوى، لا الهدى فى صورته المجردة، إذ لا انتفاع لله سبحانه بصورة الهدى، و إنما الصورة تفيد من يريد الأكل أو الاستعلاء بلطخ الدم كَذَلِكَ أى كالذى ذكر من كون لحومها و دمائها باختياركم، سَخَّرَهَا أى سخر البدن لكم أيها البشر لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ أى تعظموه على هدايته إياكم، فإن الإنعام، يوجب الشكر على كل نعمة، فالهداية و التسخير و إن كانا نعمتان، لكن أحدهما توجب الشكر على الأخرى، فلا يقال مقتضى القاعدة أن يقال: «على ما سخر» لا «على ما هدى» و بَشِّرِ يا رسول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٥

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)

الله الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى أعمالهم، فلا يأتون بالسيئات.

[٣٩] و إذ بين سبحانه الشعائر و المشاعر بين جواز الدفاع عنها، فإن العقيدة و الشريعة، تحتاجان إلى دفاع أصحابها عنهما من الاعتداء، و بين سبحانه، أولا أنه هو المدافع، ثم أذن للمسلمين أن يدافعوا إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا فإنه يمنع الكفار عنهم، و ينصرهم على أعدائهم و الإتيان من باب المفاعلة، للآيات التى تقع بين الكفار، و بين الأمور التى جعلها الله سبحانه وسيلة للدفاع عن المؤمنين إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ قد خان عهد الله المودع فى فطرته، بالتوحيد و الإيمان، و إنما كان خوانا، لأنه يخون فى كل خطوة خطوة كَفُورٍ كثير الكفر، فإن الإنسان فى كل حركة و سكون، إما يلبس الإيمان أو الكفر.

[٤٠] و إذ تمادى الكفار فى غيهم، و أخذوا فى تضيق النطاق حول العقيدة و الإيمان، بصد الناس عن الإيمان، و تعذيب المؤمنين بالقتل و الإيذاء و التشريد أُوذِنَ و الآذن هو الله سبحانه، و لم يذكر اسمه تعظيما لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ أى يقاتلهم الكفار، و قد حذف متعلق الإذن، و التقدير أذن لهم، أن يقاتلوا، و هذه أول آية نزلت فى باب القتال بسبب أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أى أن سبب الإذن، كون الكفار ظلموهم و إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ فلم يكن النصر إلقاء لهم، فى التهلكة، بل بسبب أن الله يريد نصرتهم، و الجملة كناية عن إرادة النصر،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٦

[سورة الحج (٢٢): آية ٤٠]

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصِيْلَوَاتٍ وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)

لا بيان قدرة الله على النصر، فإن ذلك مثل أن يقال لك: اذهب إلى الحرب، فإني قادر على دفع أعدائك.

[٤١] ثم بين سبحانه كيفية مظلوميتهم توضيحا لقوله «بأنهم ظلموا» الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ هم المهاجرون الذين أخرجهم الكفار لكثرة أذاهم، حتى اضطروهم إلى الخروج من ديارهم في مكة، بدون أن يكونوا قد اقترفوا إثما أو ذنبا إلا أن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ فقد كان تمسكهم بالله سبحانه، هو سبب إخراج الكفار لهم عن بلادهم، والاستثناء منقطع، وقد مر أن مثل هذا الاستثناء، لكون الكلام في المستثنى منه مأخوذا على التجرد، فالجملة تنحل إلى ثلاثة أشياء، هكذا «لم يخرجوا من ديارهم» «إلا لقولهم ربنا الله» «و كان إخراجا بغير حق» لكن الاقتصاد في الكلام، يوجب توصيف المستثنى منه بالجملة الثالثة، ثم بين سبحانه، أن الله يدفع غير المؤمنين بالمؤمنين، حتى تبقى معالم الدين وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أى أن الله سبحانه يدفع الكفار بسبب الأخيار وَ ذلك الدفع بإيجابه سبحانه الجهاد وَ الأمر بالمعروف، وَ النهى عن المنكر، وَ الإرشاد- فى الظاهر- وَ نصره سبحانه لهم- فى الباطن- لَهَدَمْتُ جميع آثار الأديان صَوَامِعُ جمع صومعة، وَ أصلها من الانضمام، وَ منه الأصمع للأصق الأذنين، وَ كل منضم فهو متصمع، وَ الصوامع هى محلات العبادة للنصارى، وَ لعل وجه تسميتها بهذا الاسم، لأنها تضم العباد وَ الرهبان وَ بِيَعٍ جمع بيعة، وَ هى الكنائس لليهود، محلات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٧

عبادتهم، وَ لعل وجه التسمية، أن الإنسان الذى يراودها قد باع نفسه من الله سبحانه وَ صِيْلَوَاتُ أى محلات الصلاة، بعلاقة الحال وَ المحل، وَ لعله أريد به مواضع عبادة المجوس، وَ فيها احتمالات أخر وَ مَسَاجِدُ للمسلمين يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا الضمير إما عائذ إلى المساجد، أو إلى جميع ما تقدم، وَ المراد أنها كانت تهدم كل فى زمان النبى النافذ شرعه، فكانت تهدم البيع فى زمان موسى، وَ الكنائس فى زمان عيسى عليه السّلام، وَ هكذا، وَ أما أنها كانت تهدم فى الوقت الحاضر، فإن هذه المواضع للعبادة خير من عدمها بتسلط أهل الطبيعة، وَ الدهرية، فإنها علائم من الدين، وَ آثار من السماء، وَ إن حرفها أهلها عن الأصل، وَ كانت باطلة فى زمان الإسلام، غير المساجد، فإنه سبحانه له علاقة بها، فى مقابل المعطلة وَ الدهرية، وَ منه اغتنم المسلمون حين انتصر الفرس على الروم، كانوا يترقبون غلبة الروم، لأنهم نصارى، على الفرس عباد النار، قال سبحانه (الم) * غَلَبَتِ الرُّومُ * فى أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فى بضع سنين) (١) وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ فإن من نصر شريعته الله، كان الله ناصره، وَ هذا من باب التشبيه، وَ إلا فالله غنى عن النصرة، ثم إن الله ناصر لمن نصره طبيعى - كما هو غيبى مربوط بما وراء المادة- إذ المؤمن الذى يكمل قواه المادية، وَ يبرز فى الميدان، يكون ضروريا بالقوتين المادية وَ الروحية، وَ للقوتين غلبة على القوة

(١) الروم: ٢-٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٨

[سورة الحج (٢٢): آية ٤١]

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

الواحدة فى الطرف المقابل، وَ هى القوة المادية المجردة، أما من لا يكمل قواه المادية، اعتمادا على قواه الروحية فقط، فقد خرج عن أوامر الله سبحانه، الذى قال (وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مِمَّا اسْتِطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (١) وَ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِيْلًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ) (٢) وَ (لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ) (٣) وَ (وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا) (٤) وَ (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ) «٥» و غيرها إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ يَقْوَى عَلَى نَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَزِيزٌ قَاهِرٌ لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ.

[٤٢] ثم وصف سبحانه الذين أذن لهم في القتال، وأخرجوا من ديارهم بقوله أنهم هم الَّذِينَ إِنْ مَكَتْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ بَانَ كَانَتْ لَهُمُ الْمَكْنَةُ وَالسَّلْطَةُ أَقَامُوا الصَّلَاةَ أَى أَدَوْهَا بِحَقِّهَا وَآدَابِهَا، وَشَرَائِطَهَا وَآتَوْا الزَّكَاةَ أَعْطَوْهَا إِلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ حَسَبَ مَوَازِينِهَا وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ، أَوِ الْعَقْلُ إِجَابًا أَوْ نَدْبًا وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ أَوِ الْعَقْلُ تَحْرِيمًا، أَوْ تَنْزِيهَا، وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا- الْمَفْهُوم- بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَمَكَّنُوا لَمْ يَقِيمُوا الصَّلَاةَ- إِلَى آخِرِهِ- بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ السَّالِبَةِ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ، إِذْ غَيْرَ الْمُتَمَكِّنِ فِي الْأَرْضِ لَا يَتِمَكَّنُ مِنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَلَى وَجْهِهَا، أَوْ

(١) الأنفال: ٦١.

(٢) الصف: ٥.

(٣) المائدة: ٥٢.

(٤) آل عمران: ١٠٤.

(٥) الفتح: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٠٩

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٤٢ إلى ٤٥]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)

من قبيل إن رزقت ولدا فاختنه، حيث لا محل للختان بدون رزق الولد وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ أَى إِنْ اللَّهُ يَرِثُ الْأَشْيَاءَ، فَالْعَاقِبَةُ، وَ الْخَاتِمَةُ لَهُ، وَ هَذَا وَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَ إِجَادَةٌ أَمَلٌ فِيهِمْ، بِأَنْ يَكْفَحُوا وَ يِقَاتِلُوا، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْصُرُهُمْ، وَ تَكُونُ الْعَوَاقِبُ مُطَابِقَةً لِمَنَاجِجِ الْمُسْلِمِينَ. [٤٣] ثم سلا سبحانه رسوله، فيما يلاقيه من تكذيب القوم، بأن له أسوة بالأنبياء السابقين وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ نوحا وَعَادٌ كذبت هودا وَ ثَمُودٌ كذبت صالحا.

[٤٤] وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ نمرود و أتباعه، كذبوا إبراهيم عليه السلام وَقَوْمُ لُوطٍ كذبت لوطا.

[٤٥] وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ كذبت شعيبا وَكَذَّبَ مُوسَى كذبه فرعون و قومه، و لم يقل «و موسى» لأنه كان يوهم، أن قوم موسى - و هم بنو إسرائيل - كذبوه فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ أَى كَتَبْتُ أَعْمَالَهُمْ، وَ أَمَهَلْتُهُمْ حَتَّى اسْتَوْفُوا أَعْمَارَهُمُ الْمَقْدُرَةَ لَهُمْ ثُمَّ لَمَّا انْقَضَى أَمْرُهُمْ أَخَذْتُهُمْ بِأَصْنَافِ الْعَذَابِ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ، أَى كَيْفَ كَانَ إِنْكَارُهُمْ عَلَيْهِمْ، أَلَمْ يَكُنْ فِي مَوْجِعِهِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا، أَخَذُوا بِجَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ.

[٤٦] فَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَى كَمٍ مِنْ قَرَى، وَ الْمَرَادُ بِهَا الْمَدَنُ، وَ «كَمٍ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٠

[سورة الحج (٢٢): آية ٤٦]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)

خبرية للتكثير أهلكناها و المراد إهلاك أهلها، بعلاقة الحال و المحل، و ذلك لأن الهلاك يعم نفس القرية، كما يشمل أهلها، فتخرب منازلها و دورها وَ هِيَ ظَالِمَةٌ أَى أهلها بالكفر و العصيان فَهِيَ تِلْكَ الْقَرْيَةُ الْمَأْخُودَةُ خَاوِيَةٌ سَاقِطَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا أَى سَقُوفِهَا،

فإن السقف إذا وقع، وقعت عليه الحيطان والجدران، وهذا من أبشع أنواع الإهلاك، إذ أهل الغرفة والمحل إذا سقط عليهم السقف و سقطت الحيطان على السقف تحطمت عظامهم وكثيرا ما لا يظفر لهم على بدن وكأين من بُثِرْ مُعْطَلَةٌ تعطلت عن الرواد و ذكر البثر، لأن الماء كان من الآبار، في أكثر المدن والقرى، و تعطيلها كان علامة فناء أهلها، حتى أن هذا العصب الحي للحياة، قد تعطل عن العمل وكأين من قَصِيرٍ مَشِيدٍ أى قد شيد و بنى بالجص، و زين بالزخرفة، قد تعطل، فلا ساكن له، و إذ لا ساكن للقصر المشيد، فكيف بالدور و الدكاكين، و نحوها، مما لا قيمة لها في جنب القصر.

[٤٧] أَفَلَمْ يَسْتَبِيرُوا أَي هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ الْمَكْذُوبِينَ بِنُبُوتِكَ فِي الْأَرْضِ الْيَمَنِ وَالشَّامِ، وَ سَائِرِ الْبِلَادِ الَّتِي أَهْلَكَ أَهْلَهَا، لَمَّا كَذَبُوا الرِّسْلَ، حَتَّى يَعْتَبِرُوا، وَ يَقْلَعُوا عَنْ غِيهِمْ؟ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا مَا يَرُونَ مِنَ الْعِبَرِ، وَ آثَارِ الْخُرَابِ الَّتِي بَقِيَتْ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، الَّذِينَ كَذَبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ أَوْ آذَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا أَخْبَارَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، فَإِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١١

[سورة الحج (٢٢): آية ٤٧]

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)

الإنسان، إذا سافر، سمع من أهل بلد أخبار الماضين منهم، و أنهم كيف كانوا، و كيف ماتوا، حتى يحكوا لهم، أن أسلافهم أهلكوا حيث كذبوا الأنبياء و عملوا بالكفر و المعاصي، فَإِنَّهَا الضمير للشأن و القصة، و يأتي هذا الضمير للإلفات و التنبية، إلى أن ما بعده أمر مهم، فإذا كان مذكور، سمي ضمير الشأن، و إن كان مؤنثا سمي ضمير القصة، و الجملة ما بعد الضمير مفسرة له لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ الناظرة إذ البصر ينظر و يرى وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ وَ تَتَفَلَّقُ عَنِ الْهُدَى الَّتِي فِي الصُّدُورِ وَ الْإِتْيَانِ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلتَّعْمِيمِ، كَقَوْلِهِ (وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا- طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) «١» [٤٨] وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَي هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ، فَقَدْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ، أَنْ يَأْتِيَ بِهِ بِالْعَذَابِ الَّذِي وَعَدَهُمْ، اسْتَهْزَاءً بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، لَكِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَأْتِي بِالْعَذَابِ، إِلَّا فِي الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ لَهُ حَسَبَ حِكْمَتِهِ وَ مَصْلَحَتِهِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ فَقَدْ وَعَدَ بِالْعَذَابِ، فَيَأْتِيهِ، كَمَا وَعَدَ لَهُمْ مَدَّةَ مَعِينَةٍ، فَلَا يَأْخُذُهُمْ قَبْلَ انْقِضَائِهَا وَ إِنَّ يَوْمًا وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكَ فِي حَسَابِهِ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَ هَذَا تَهْدِيدٌ، أَي أَنْ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا يَعَادِلُ أَلْفَ سَنَةٍ، بِحَسَابِ الْإِنْسَانِ، وَ إِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، يَعْدُ يَوْمًا وَاحِدًا، وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ لِلْمَجْرَمِ،

(١) الأنعام: ٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٢

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَ كَأَيِّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)

سيأتي وقتك، و في حساب الحكومه لك يوم هو عشرون سنة في حسابك، تريد أن عليه الحبس تلك المدة.

[٤٩] إنهم كيف يستعجلون بالعذاب؟ ألم يعلموا ماذا صنع بمن كان قبلهم من الأمم المكذبة؟ وَ كَأَيِّنَ أَى: وَ كَمِ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا أَى أهلتها لتبلغ أجلها المقدر لها وَ هِيَ ظَالِمَةٌ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ مُسْتَحَقَّةٌ، لِتَعْجِيلِ الْعِقَابِ ثُمَّ أَخَذْتُهَا بِالْعَذَابِ لَمَّا انْقَضَى أَجْلُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ أَى أن الكل يصيرون إلى عقابي و ثوابي و جزائي في القبر، و في القيامة، فلا- يغرثهم الأجل المضروب لهم «من فاته اليوم سهم لم يفته غدا» و سيأتي وقت هؤلاء القوم، و إنا إذ نظرنا إلى هذه الآيات، نرى أن وقت القوم المكذبين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، قد انقضى، و أن الله قد أهلكتهم و لم يبق اسمهم إلا لللعنة، كما أنهم هناك معذبون في أشد العذاب.

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلنَّاسِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ أَنْذَرَكُمْ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ مُبِينٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ، أَنْذَرَكُمْ بِكُلِّ

صراحة و وضوح.

[٥١] فَالَّذِينَ قَبَلُوا الْإِنذَارَ، بَأْنَ آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا بِالْأُصُولِ وَ الْمَعَارِفِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ وَ لَازِمَ ذَلِكَ تَرْكَ السَّيِّئَاتِ - كَمَا

مر - لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَى غَفْرَانِ، إِذْ هُوَ مُصَدَّرٌ مِيمِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٣

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَ الَّذِينَ سَاءَ عَوَا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)

وَ رَزَقٌ كَرِيمٌ فَيَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُمْ، وَ يُتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِالْجَنَّةِ، الَّتِي فِيهَا رِزْقٌ كَرِيمٌ، مَعَ الْكِرَامَةِ وَ الْحِفَاوَةِ.

[٥٢] وَ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِنذَارَ بَلَّ سَاءَ عَوَا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أَى بَدَلُوا الْجَهْدَ فِي إِبْطَالِ آيَاتِنَا وَ أَدَلَّتْنَا الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ الرِّسَالَةِ، وَ

الْمَعَادِ، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ مَرِيدِينَ أَنْ يَعْجِزُونَا، وَ يَسْلُبُوا قُدْرَتَنَا عَنِ الْهُدَى وَ الْإِرْشَادِ وَ الْإِتْيَانِ مِنْ بَابِ الْمَفَاعَلَةِ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ تَعْجِيزَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى لَا يَهْدُوا النَّاسَ وَ الْأَنْبِيَاءَ يَرِيدُونَ تَعْجِيزَهُمْ حَتَّى لَا يَصْدُوا السَّبِيلَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَ هَذَا مِنْ بَابِ كَوْنِ أُولَئِكَ مُورِدِ الْكَلَامِ، وَ إِلَّا فَمَنْ كَفَرَ كَانَ مَحَلَّهُ النَّارَ، وَ إِنْ لَمْ يَسِعْ مُعَاجِزًا.

[٥٣] وَ بِمَنَاسِبَةِ الْكَلَامِ حَوْلَ مَنْ يَسْعُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ مُعَاجِزِينَ، ذَكَرَ سَبْحَانَهُ بَعْضَ كَيْفِيَّاتِ سَعْيِهِمْ فِي إِبْطَالِ الْآيَاتِ وَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

يَزِيدُونَ وَ يَنْقُصُونَ فِي الْآيَاتِ، حَتَّى يَبْطُلُوا وَ يَحْرِفُونَهَا حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ، وَ هَكَذَا يَفْعَلُ الْمَغْرُضُونَ دَائِمًا بِالْمُصْلِحِينَ إِنْهُمْ يَنْقَلِبُونَ عَنْهُمْ الْكَلَامَ بِزِيَادَةٍ وَ نَقِيصَةٍ، يَفْسَحُونَ بِذَلِكَ مَجَالًا لِإِفْتِرَائِهِمْ وَ تَخْرِيْبَاتِهِمْ، لَكِنِ الْكُفَّارَ لَا يَتِمَكَّنُونَ إِبْطَالِ الْآيَاتِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الشَّائِنَةِ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مِنْ وَرَاءِهِمْ يَبْطُلُ مَا حَرَفُوهُ وَ يَقْوَى آيَاتِهِ فِي الْقُلُوبِ، حَتَّى تَبْقَى كَالْفِضَّةِ الْخَالِصَةِ لَا غِشَّ فِيهَا وَ لَا دِينَ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ رَسُولٍ يَرْسَلُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ لَا - نَبِيٍّ يَنْبِئُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَ لَعَلَّ الْاِخْتِلَافَ بَيْنَهُمَا - هُنَا - حَسَبَ الْعُمُومِ وَ الْخُصُوصِ، فَالرَّسُولُ أَخْصَ مِنَ النَّبِيِّ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٤

وَ إِنْ كَانَ كِلَاهُمَا مَرْسَلًا إِلَّا إِذَا تَمَنَّى التَّمَنَى هُوَ الْقِرَاءَةُ، يُقَالُ تَمَنَّى الْكِتَابَ إِذَا قَرَأَهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَمَنَى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَ آخِرَهُ لَاقَى حَمَامَ الْمَقَادِرِ

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ أَى فِي قِرَاءَتِهِ وَ مَعْنَى الْإِلْقَاءِ التَّحْرِيفُ بِالزِّيَادَةِ وَ النِّقْصَانِ، وَ إِنَّمَا نَسَبَ الْإِلْقَاءَ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ مِنْ وَسْوَستِهِ، وَ إِغْرَائِهِ

لِعَمَلَاتِهِ الْكُفَّارِ أَنْ يَزِيدُوا، وَ بِهَذَا الْإِلْقَاءِ يَرِيدُ الشَّيْطَانُ وَ أَتْبَاعُهُ أَنْ يَعْجِزُوا الرَّسُولَ عَنْ إِتْمَامِ رِسَالَتِهِ - كَمَا سَبَقَ قَوْلُهُ: «وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي

آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ» إِذْ إِلْقَاءُ التَّشْوِيشِ وَ الْاضْطِرَابِ، يَوْقِفُ سِيرَةَ الدَّعْوَةِ وَ يَكْدِرُ صَفْوَهَا، لَكِنِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يَحْفَظُ دِينَهُ وَ قَرَّانَهُ عَنِ

الْاِخْتِلَالِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ بِأَنْ يَبْطُلَهُ وَ يَزِيلَهُ بِسَبَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الرَّسُولِ، إِذْ يَبِينُ الرَّسُولَ لِلنَّاسِ أَنْ

هَذَا زَائِدٌ وَ هَذَا نَاقِصٌ، وَ هَذَا أَصِيلٌ وَ هَذَا دَخِيلٌ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهَا مُحْكَمَةً لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهَا الدَّخِيلُ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا

عَلِمُوا أَنَّ الْكُفَّارَ بِصُدِّدِ الزِّيَادَةِ وَ النِّقْصَانِ، التَّرَمَّوْا بِالْكِتَابِ أَشَدَّ الْاِتِّتِمَامِ مِمَّا يَوْجِبُ إِحْكَامَهُ، فَلَا يَتَطَّرِقُ إِلَيْهِ التَّغْيِيرُ وَ التَّحْرِيفُ وَ قَدْ

حَاوَلَ الْكُفَّارَ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ مِنْذَ عَهْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْجِحُوا وَ فِي زَمَانِنَا حَاوَلَ «أَتَاتُورِكُ»

أَنْ يَلْخِصَ الْقُرْآنَ، وَ صَنَعَ مِنْهُ مَهْزَلَةً لَمْ يَدَمْ إِلَّا - يَسِيرًا، حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ، وَ أَحْكَمَ آيَاتِهِ، وَ ثَمَّ حَاوَلَ الْيَهُودُ مِنْ «فِلَسْطِينَ» أَنْ يَغْيِرُوا

الْقُرْآنَ، وَ طَبَعُوا مِنْهُ نَسْخًا مَحْرَفَةً، وَ وَزَعُوهَا فِي الْبِلَادِ، لَكِنَهَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضًا، بَلْ قِيضَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٥

[سورة الحج (٢٢): آية ٥٣]

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةُ قُلُوبَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)

الله المسلمين، لينبها على تحريفهم و الله عليهم بما يفعله الكفار بوسوسة من الشياطين حكيم يعمل كل عمل عن حكمة و صلاح، فلا يدع الكتاب الموحي إلى النبي عرضة التلاعب و الزيادة و النقصان.

[٥٤] و إنما لا- يعجز الله الشيطان عن هذا العمل، بأن يسلب قدرته منه حتى لا- يتمكن من هذه الزيادة و النقصان ليَجْعَلَ ما يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِي الْكِتَابِ فِتْنَةً و امتحانا لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَإِنْ مِنْ مَرَضٍ قَلْبُهُ بِالشَّكِّ و الريب، إذا رأى الزيادة و النقصان و الاضطراب رفع اليد عن الإيمان، و دخل في صف الكفار أو المنافقين و الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ أى الكفار الذين قست قلوبهم عن قبول الحق، فإن التحريف في الكتاب، على ما ألقاه الشيطان فتنه لهم، لأنه يزيدهم كفرا و ضلالا فإنه يعطيهم الدلالة، حتى يتمكنوا من الهدم أكثر من ذى قبل و إِنَّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ و النفاق لَقِيَ شِقَاقٍ بَعِيدٍ كأنهم في شقة منحرفة عن الجادة المستقيمة و الشقة التي فيها الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بعيدة جدا عن الجادة، فليسوا كالعصاة الذين هم في شقة قريبة، إذ انحراف العاصي يسير بالنسبة إلى انحراف الكافر و المنافق، و المعنى أن الكفار، و الذين في قلوبهم مرض، الذين يتخذون التحريف، وسيلة للريب و الهدم إنهم بعيدون عن الجادة المستقيمة، و إلا فما يمنعهم عن تصحيح القراءة بسبب الرسول و المؤمنين؟ إنهم يريدون الكفر و النفاق و الشك و التهريج، لا الحق، و لا الواقع، حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٦

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

و لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ و إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) و لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)

يبحثوا الشيء عن أصله و مورده.

[٥٥] و كما أن التحريف يسبب ضلالا و كفرا للذين في قلوبهم مرض، و القاسية قلوبهم، كذلك يسبب هداية و إيمانا بالنسبة إلى المؤمنين إذ الإنسان الطالب للحقيقة، إنما يقوى إيمانه، إذا رأى الاستقامة في وسط الاضطراب، و رأى الحق في جنب الباطل، فإن الأشياء تعرف بأضدادها فإذا رأى الذين أوتوا العلم القرآن، لم يتغير و لم يتبدل، و قاسوه بما ألقى فيه من التحريف ليروا الفرق الظاهر بين كلام الله و كلام الشيطان، ازدادوا إيمانا و يقينا و لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أى أعطوا العلم فهم عالمون فاهمون أنه أى القرآن الذى أريد فيه الزيادة أو النقصان الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ و لذا بقى ناصعا مشرقا، لم يؤثر فيه التشويش و التحريف فَيُؤْمِنُوا بِهِ بالنسبة إلى غير من آمن إلى هذا الوقت و يثبتوا على الإيمان بالنسبة إلى المؤمن، فإن للإنسان فى كل آن إيمان، و فى كل لحظة هداية. فإن الإيمان فعل القلب الذى يصدر منه آنا فأنا فَتُخْبِتَ أى تخضع له أى للقرآن، المستفاد من قوله: إذا تمنى قُلُوبُهُمْ و تكون أكثر إيمانا به و التزاما له و إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا أى يهديهم فى كل خطوة من خطوات الحياة المظلمة، فمن أسلس قيادة الله بالإيمان، هداه حيناً بعد حين إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لا عوج فيه و لا انحراف.

[٥٦] أما الكفار، فإنهم يبقون فى غيهم إلى أن يموتوا، و ذلك، لأنهم لم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٧

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) و الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

يسلسوا القيادة، و أخذوا فى الضلال و الغواية و لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ أى فى شك من القرآن هل هو منزل أم لا؟ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ أى الموت، أو القيامة بَغْتَةً فجأة، فلا مجال لهم للإيمان، حتى ينجوا من العذاب أو يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ بأن يأخذهم عذاب الاستئصال و الحاصل أنهم فى شك حتى يموتوا، أو يعذبوا بإرسال الله العذاب عليهم، كما كان يعذب الأمم السابقة، وسمى

اليوم عقيماً، لأنه لا مثل له، فهو فرد كالإنسان العقيم الذي لا يلد، فهو فرد لا شريك ولا شبه له.

[٥٧] المُلْكُ والسيطرة المطلقة يَوْمَئِذٍ أى يوم إتيان الساعة أو العذاب لله لا شريك له فى الملك، حتى ظاهراً بخلاف الدنيا، فإن هناك ملوكاً ظاهرين، قد جعلوا الملك لهم يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أى بين المؤمن والكافر فلا أحد هناك له سيطرة، لنقض حكم الله، وإبطال قضائه فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ التى لا فساد فيها فى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ينعمون فيها، والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، أى فى نعيم الجنات.

[٥٨] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمَعَادِ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أى الأدلة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٨

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

التي نصبناها للإرشاد والهداية فأولئك لهم عذاب مهين يهينهم ويذلهم، جزاء لكبريائهم فى الدنيا، عن الحق والإذعان.

[٥٩] وحيث كان الكلام فى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، خصصوا بالذكر، بعد أن شملهم عموم «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وَالَّذِينَ هَاجَرُوا أوطانهم وأهلهم فى سبيل الله أى لأجله، وبقصد امتثال أوامره، فكأنهم أخذوا يسرون فى الطريق الموصل إليه تعالى ثُمَّ قُتِلُوا فى الجهاد، حيث أذن لهم بالمقاتلة أو ماتوا فى الغربة لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا وهو الرزق الذى لا يشوبه كدر ومنقصة، أى فى الجنة، فى قبال تركهم طيبات الدنيا وأرزاقها، والرزق أعم من المأكل والمسكن والزوجة ونحوها وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ فقد أطلق الرزاق على كل من يتولى إعطاء الرزق لغيره، من أب، وزوج، وسيد وغيرهم، فالله سبحانه خيرهم، إذ رزقه هنا وأطيب وبدون من.

[٦٠] لَيُدْخِلَنَّهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ «مدخل» وزن المفعول، وهو اسم مكان، والمراد به الجنة، فإنهم يرضون بها مقاما ومنزلا،

لما فيها من النعيم المقيم مما تشتهى الأنفس، وتلد الأعين، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بأحوالهم، وما عملوا من الصالحات حَلِيمٌ وهذا تسليته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦١٩

[سورة الحج (٢٢): آية ٦٠]

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠)

لهم، بأن الله سبحانه إذا أهمل الكفار، حتى فعلوا ما فعلوا فلم يكن ذلك إحباطاً لأعمال المسلمين وعدم الاعتناء بهم، وإنما هو بمقتضى حلمه، وسيعاقبهم على ما اقترفوا ويجزى المسلمين، بما أودوا فى سبيله.

[٦١] ذَلِكَ أى أن الأمر، كما قصصنا عليك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ أى جازى الظالم، بمثل ما صنع به من الظلم والتعدى، بأن

قاتل المشركين، كما قاتلوه، وأخرجهم كما أخرجوه، وسمى العقاب عقاباً، لأنه يلحق الإنسان ويأتى بعقبه، وكان الإتيان من باب

المفاعلة، لأجل أن كلنا من الشخصين ليعاقب الآخر، فهذا يظلم ذاك وذاك يرد عليه ما عمل به، وسمى كل من الأمرين معاقبة

للتشابه المسمى ب «الازدواج» كقوله (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) «١» ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ أى ظلمه الظالم مرة

أخرى، وإنما ذكر ذلك، لأن المظلوم غالباً يبغى عليه مرة أخرى، إن اقتصر من الظالم لظلمه أولاً، فإن من يبتدىء بالعدوان، لا يترك

المظلوم أن يجازيه إلا ويعاقبه مرة أخرى لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ فلا يياس المظلوم من هذا الحيث، وليعلم أن الله بالمرصاد، فليقدم على وضع

حد للظالم برباطة جأش، وقوة قلب، ولعل هذا ليتعلم المسلمون أن لا يحجموا عن الفتك بمن ظلمهم خوف أن يعود الظالمون عليهم

بالظلم والأذى إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ أما البشر فلا يلزمهم الله بالعفو، لأنهم لا يقدرُونَ

(١) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٠

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦١ إلى ٦٢]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

على ذلك غفورٌ يغفر الذنب، وليس كذلك البشر، وإذا أذن لهم في رد الاعتداء وقاتل من آذاهم وأضر بهم.

[٦٢] ذَلِكَ النصر للمؤمنين المظلومين على الكافرين الظالمين، إنما يكون بدليل أن الله سبحانه قادر على كل شيء، كما يقدر على التصرفات الكونية، فمن يقدر على تحريك الكون العظيم، يقدر على نصره المظلوم، أو المراد أن سنة الله الكونية قد جرت على التغيير والتبديل، فكما لا يبقى ليل ولا نهار أبداً، كذلك لا يكون الغلب للظالمين أبداً، فهو ينصر المظلوم عليهم كما يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ أى يدخله فيه، فى أيام الصيف والخريف، فتتقص من ساعات النهار، لتضاف على ساعات الليل، وذلك من أول الانقلاب الصيفى إلى أول ليلة من الانقلاب الشتوى وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ أى يدخله فيه فى أيام الشتاء والربيع، فتتقص من ساعات الليل، لتضاف على ساعات النهار، وذلك من أول الانقلاب الشتوى إلى أول يوم من الانقلاب الصيفى وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يدعو المؤمنين، فيجيب لهم بصيرٌ بأحوالهم، فينتقم لهم من الظالمين.

[٦٣] ذَلِكَ الذى ذكر من انتقام الله من الظالمين، ونصره المؤمنين، وأنه هو المصرف للكون بسبب أن الله هُوَ الْحَقُّ فهو المصرف، و هو المدافع عن المظلوم وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الأصنام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢١

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصَيَّرَ بِهَا الْأَرْضَ مَخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)

هُوَ الْبَاطِلُ فلا تقدر الآلهة الباطلة على تصريف للكون، كما لا تقدر على نصره عبادها وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ فهو أعلى من كل شيء يسمع ويرى كل شيء ويقدر على كل شيء الْكَبِيرُ الذى لا شيء أكبر منه، حتى يتمكن من الوقوف أمامه، ونقض إرادته.

[٦٤] ويشهد لكون التصرفات الكونية لله سبحانه، وأنه العلى الكبير، القادر على نصره المظلومين، ما يراه الإنسان من الأحوال الطارئة الحكيمة التى تنتاب الكون، مما لا يمكن أن تنسب إلى صنم أو إنسان، أو صدفة مجردة أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الرَّائى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أى من جهة العلو، المطر فَتَصَيَّرَ بِهَا الْأَرْضَ مَخْضَرَةً؟ مزينه بالخضرة والنبات، وفى لفظ «تصبح» نكتةً بديعة، حتى أنه أجلى أوقات الاخضرار إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بعباده، و من لطفه بهم، زين أرضهم، بما ينتفعون به من الخضر خبيرٌ بأحوالهم و حوائجهم فما فعله حكماً و صلاح لهم.

[٦٥] لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فكل تصرف فى الكون إنما هو منه وحده لا شريك له فيه، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَنِيُّ المطلق الذى لا يحتاج إلى مشاور و مشارك فهو وحده يدير الشؤون الكونية الْحَمِيدُ المطلق، الذى له كل الحمد إذ منه كل نعمة و فضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٢

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

[٦٦] أَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الرَّائى، استفهام إلفاتى للتنبيه أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ فمن هو الذى جعل المخلوقات الأرضية، مسخرة لكم

تسيطرون عليها بإرادتكم، فسخر لكم الأنهار، لتجرى نحو حوائجكم، و سخر المعادن لتتقاد لأموركم، و سخر الأنعام لمنافعكم، و هكذا و الفلك على وزن أسد جمع أسد تجرى في البحر بأمره سبحانه، لمنافعكم و ما ربكم؟ فمن جعل الماء بحيث يحمل الفلك في قاعدة مطردة كشف عنها «أرخميدس» و المعنى سخر الفلك، في حال جريها في الماء، بإذن الله سبحانه، و إنما قال «بأمره» دون «إذنه» لأن التكوين يحتاج إلى الأمر بأن يقال للشيء «كن» و يمسك السماء يحفظها أن تقع على الأرض فلا يبطل النظام الكوني، الذي جعله الله سبحانه حتى لا تقع الكواكب على الأرض، و إنما تسير الكواكب في أفلاكها المقررة لها، المعبرة عنها بالسماء، لسموها و علوها و ارتفاعها إلا بإذنه فإذا أذن للسماء أن تقع، و يبطل النظام كما في يوم القيامة، حيث قال (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لَكُتُبٍ) (١) لم يمنع منها شيء إن الله بالناس لرؤف رحيم و لذلك سخر لهم ما في الكون و أمسك السماء من الوقوع عليهم.

[٦٧] وَ هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ تَرَابًا مِيتًا، بَأْنَ أَعْطَاكُمْ الْحَيَاةَ

(١) الأنبياء: ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٣

[سورة الحج (٢٢): آية ٦٧]

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧)

و الروح ثم يميتكم فهو سبحانه المميت، أما من ظن أنه المميت بقتله إنسانا أو غيره، فقد أخطأ، فإنه إنما يوجد السبب الذي جعله الله و صلة لذلك المسبب، فهو كمن يزعم أنه يحيى بإيجاده الماء العفن المولد للبعوض ثم يحييكم بعد الموت للحشر و النشور إن الإنسان لكفور كثير الكفر، حيث أنه يكفر بالإله، و يكفر بالبعث، و يكفر بالأدلة مع وضوحها و جلائها.

[٦٨] و إذ قد وضح الدليل، و تمت الحجّة، فلا داعي للرسول لأن يشغل نفسه بمنازعة الكفار المنكرين للمبدأ و المعاد لكل أمة جعلنا منسكا مصدر ميمي أى منهجا هم ناسكوه أى ينتهجونه و يتبعونه في حياتهم فلا ينازعونك يا رسول الله، أى لا وجه لنزاع الكفار معك في الأمر أى أمر الشريعة و أنها لم صارت هكذا؟ و هذا و إن كان في الصورة نهيا للكفار عن المنازعة، لكنه في الحقيقة إرشاد للرسول، بأن لا يشغل نفسه بكلامهم و خصامهم فإن المعاند لا يفيد معه الخصام و الجدل و ادع يا رسول الله إلى ربك غير مبال بهم، و لا ملتفت إليهم إنك لعلى هدى مستقيم قد شبه الهدى بالطريق المستقيم الذى يوصل الإنسان إلى مقصده، و الرسول على ذلك الطريق، فليس عليه أن يعارض و ينازع أصحاب الطرق المنحرفة، و إنما عليه الدعوة، حتى إذا رآه الناس، و رأوا طريقه اتبعوه تلقائيا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٤

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٦٨ الى ٧١]

وَ إِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١)

[٦٩] و إن جادلوك الكفار في منهجك الاعتقادي و العملي، فلا تشغل نفسك بالجدال معهم، بل أجهم بما يقطع كلامهم فقل الله أعلم بما تعملون و هذا كلام الإنسان الذى يريد إظهار خنجره و برمه بما يأتى خصمه من الأعمال، و إن أعماله باطلة، و هو يعلم ذلك [٧٠] الله يحكم بينكم يوم القيامة يفصل بينكم ليجازيكم على أعمالكم فيما كنتم فيه تختلفون أى تختلفون معى فى العقيدة و العمل و كفى بالله عالما حاكما مجازيا، و بهذا ينهى الرسول جدالهم، و يقطع كلامهم، إذ لا فائدة فى محاجة المعاند، الذى يرى الحق فينكره.

[٧١] أَلَمْ تَعْلَمْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْمَجَادِلُ أَوْ أَنَّهُ قَطَعَ لِلْكَلامِ السَّابِقِ وَ تَوَجَّهَ لِلْخَطَابِ نَحْوَ الرَّسُولِ، لِيَلْفِتَ النَّاسَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ كَمَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي كِتَابٍ أَيْ مَثَبٍ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ فَلَا خَافِيَةَ إِلَّا وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ قَدْ أَثْبَتَهَا فِي كِتَابٍ لَدَيْهِ إِنَّ ذَلِكَ الثَّبَتُ فِي الْكِتَابِ، لِكُلِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ يَأْتِي بِمَجْرَدِ الْإِرَادَةِ، بِلَا حَاجَةٍ إِلَى تَعَبِ كِتَابَتِهِ كَمَا يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى ذَلِكَ.

[٧٢] وَبَعْدَ وَضُوحِ الْأَدْلَةِ، وَتَمَامِ الْحُجَّةِ يَعْْبُدُونَ أَيْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٥

[سورة الحج (٢٢): آية ٧٢]

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)

مِنْ دُونَ اللَّهِ غَيْرِ اللَّهِ، وَ لَعَلَّ فِي التَّعْبِيرِ بـ «مَنْ دُونَ» نَكْتَهُ هِيَ أَنْ مَا يَعْبُدُونَهَا دُونَ اللَّهِ فِي الْمَرْتَبَةِ، فَلَيْسَتْ لَهَا رَتْبَةُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَ مَقَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، مَعَ إِهَانَتِهِ فِي التَّعْبِيرِ لِلْأَصْنَامِ، حَيْثُ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِ «دُونَ» مَا لَمْ يُنَزَّلْ اللَّهُ بِهِ أَيْ بِذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يَعْبُدُوهُ سُلْطَانًا أَيْ حُجَّةً وَ دَلِيلًا وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَا دَلِيلَ شَرْعِيٍّ عَلَى تِلْكَ الْأَلْهَةِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَ لَا دَلِيلَ عَقْلِيٍّ لَهُمْ يَعْلَمُونَهُ، وَ إِنَّمَا عِبَادَتُهُمْ لِمَجْرَدِ تَقْلِيدِ وَ ظَنِّ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا، وَ يَقُولُونَ (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) «١» لَا تَنْصُرُهُمْ، يَوْمَ يَأْخُذُهُمْ وَ بِالْ عِبَادَتِهِمْ لَهَا. [٧٣] وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ أَيْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ آيَاتُنَا الدَّالَّةُ عَلَى وَجُودِنَا، وَ سَائِرِ شُؤُونِنَا، فِي حَالِ كَوْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ يَتَّبِعُ وَاضِحَاتِ ظَاهِرَاتِ تَعْرِفُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ أَيْ الْإِنْكَارَ، فَإِنَّ «الْمُنْكَرَ» هُنَا «مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ» وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَظْهَرُ فِي وَجُوهِهِمْ عِلْمَةُ الْإِنْكَارِ، بِتَقْطِيبِ الْوَجْهِ وَ الْإِعْرَاضِ، وَ مِنْ شِدَّةِ حَنْقِهِمْ وَ غِيْظِهِمْ يَكَادُونَ يَسْمُطُونَ مِنَ السُّطُو، وَ هُوَ الْبَطْشُ، لِلْإِخَافَةِ وَ الْإِيْذَاءِ، يُقَالُ: سَطَا يَسْطُو، إِذَا بَطَشَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا فَيَفْتَكُونَ بِهِمْ وَ يَضْرِبُونَهُمْ، وَ يَقُولُونَ فِيهِمْ الْأَقْوَالَ الْبَدِئِيَّةَ، مِنْ

(١) يونس: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٦

[سورة الحج (٢٢): آية ٧٣]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَشِئُ لَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ (٧٣)

شِدَّةَ غَضَبِهِمْ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، الَّذِينَ يَكْرَهُونَ سَمَاعَ الْآيَاتِ بِهَذَا النِّحْوِ مِنَ الْكِرَاهَةِ الشَّدِيدَةِ أَفَأَنْتُمْ كُمْ أَيْ هَلْ تَرِيدُونَ أَنْ أُخْبِرَكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ بِمَا يَسِيئُكُمْ أَكْثَرَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَ الْآيَاتِ الَّتِي تَسْمَعُونَهَا؟ إِنَّمَا هُوَ النَّارُ الَّتِي تَذُوقُونَهَا جِزَاءَ أَعْمَالِكُمْ، فَإِنَّ كِرَاهَتَكُمْ لَهَا أَكْثَرَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَإِنَّهَا يَلْقَوْنَهَا وَ يَلْقَوْنَ فِيهَا وَ بِيئْسَ الْمَصِيرُ أَيْ الْمَرْجِعُ وَ الْمَأْوَى الَّذِي تَصِيرُونَ إِلَيْهِ وَ «الْمَصِيرُ» فَاعِلٌ، وَ الْمَخْصُوصُ مَحْذُوفٌ.

[٧٤] ثُمَّ ضَرْبٌ سُبْحَانَهُ مَثَلًا لِبَطْلَانِ أُلُوهِيَّةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُهَا الْكُفَّارُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ وَ الْمُرَادُ بِهِمُ الْكُفَّارُ ضَرْبٌ مَثَلٌ وَ الضَّارِبُ لِلْمَثَلِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، لَكِنْ حَيْثُ كَانَ الْمَقْصُودُ الْفِعْلُ دُونَ الْفَاعِلِ، أَتَى الْفِعْلُ مَجْهُولًا، كَمَا قَرَّرَ فِي الْبَلَاغَةِ وَ قَدْ سَبَقَ أَنْ «الضَّرْبُ» إِنَّمَا هُوَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمَثَلُ يَصْطَدِمُ بِأَدْمَغَةِ النَّاسِ فَيَحْدُثُ فِيهَا نَقْشًا وَ انْفِعَالًا فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ هَذَا لِتَأْكِيدِ الْإِلْفَاتِ نَحْوِ الْمَثَلِ لِتُرْكَزُ فِي الذَّهْنِ أَكْثَرَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونَ اللَّهِ أَيْ إِنْ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَدْعُونَهَا آلِهَةً مِنْ دُونَ اللَّهِ، وَ الْإِتْيَانِ «بِالَّذِينَ» الَّذِي هُوَ لِلْعَاقِلِ، بِاعْتِبَارِ تَوْهَمِ عِبَادَتِهَا عَقْلًا لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا عَلَى صَغْرِ الذُّبَابِ، وَ قَلَّةِ فَائِدَتِهِ، وَ الْمُرَادُ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ خَلْقِهِ وَ لَوْ اجْتَمَعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ الْمَعْبُودَةَ كُلَّهَا لَهُ أَيْ لَخَلَقَ ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٧

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٤ الى ٧٥]

مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥)

الذباب وَ إِن يَسْلُبُهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا بَانَ يَأْكُلُ الذَّبَابُ بَعْضَ الْأَطْعَمَةِ لَا يَسْتَنْفِذُوهُ أَى لَا تَقْدِرُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ عَلَى إِنْقَاذِ الشَّيْءِ الْمَسْلُوبِ مِنْهُ أَى مِنَ الذَّبَابِ، فَإِنْ هَذَا مِثْلُ لِعَدَمِ قَدْرَةِ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ، إِذِ الْمِثْلُ هُوَ بَيَانُ مِصْدَاقِ لِكُلِّى، فَإِذَا قَالَ الْفَاعِلُ مَرْفُوعٌ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ الْمِثْلُ، قَالَ: كَزَيْدٍ، فِى «قَامَ زَيْدٌ» وَ هُنَا كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَاعِدَةَ هِىَ أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ، لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مِثْلُهُ: أَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ ذَبَابٍ، وَ لَا عَلَى إِنْقَاذِ شَيْءٍ سَلَبَهُ الذَّبَابُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطْلُونَ أَصْنَامَهُمْ بِالزَّرْعِفَرَانِ، فَيَجْفُفُ فَيَأْتِى الذَّبَابُ فَيَخْتَلِسُهُ، وَ هُنَاكَ رَوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِى تَفْصِيلِ الْقِصَّةِ، وَ إِذَا كَانَتِ الْأَصْنَامُ بِهَذِهِ الْمَكَانَةِ، مِنَ الضَّعْفِ، وَ عَدَمِ الْقَدْرَةِ فَكَيْفَ تَتَّخِذُونَهَا آلِهَةً؟

ضَعُفَ الطَّالِبِ وَ هُوَ الْمُشْرِكُ الَّذِى يَعْبُدُ الصَّنَمَ، وَ يَطْلُبُهُ وَ الْمَطْلُوبُ الَّذِى هُوَ الصَّنَمُ، وَ هُنَا أَقْوَالٌ أُخْرَى.

[٧٥] مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أَى مَا عَظَمَهُ سَبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، حَيْثُ جَعَلُوا الْأَصْنَامَ الْمُنْحَوْتَةَ الَّتِى لَا تَقْدِرُ، وَ لَا تَشْعُرُ شُرَكَاءَ لَهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ لِيَقْوَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ يَجْعَلُ الصَّنَمَ الضَّعِيفَ شَرِيكًا لَهُ؟ عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى مَا يَرِيدُ، فَكَيْفَ يَجْعَلُ الصَّنَمَ الْمَغْلُوبَ الَّذِى لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا شَرِيكًا لَهُ؟

[٧٦] وَ إِذْ تَبَيَّنَ، أَنَّ الْأَصْنَامَ لَيْسُوا شُرَكَاءَ لِلَّهِ، لِأَنَّهَا بِهَذَا الْعِجْزِ وَ الضَّعْفِ، فَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَ الْأَنْبِيَاءَ، إِنَّمَا يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ عِبَادَةَ اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٨

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)

اصطفاهم الله و كيف يكون العبد المصطفى شريكا مع الإله المصطفى الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَجِبْرَائِيلَ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ كَالْمَلَائِكَةَ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ لُوطَ، وَ هَكَذَا وَ يَصْطَفِي مِنَ النَّاسِ رُسُلًا، كَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِقَوْلِهِمْ بِصَيْرٍ بِأَعْمَالِهِمْ، فَلَا يَخْتَارُ أَحَدًا، يَدْعَى الْأُلُوهِيَّةَ وَ هُمْ تَحْتَ سَمْعِ اللَّهِ وَ بَصَرِهِ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَخَالَفَتِهِ أَمْرِهِ، وَ دَعْوَةَ النَّاسِ إِلَى الْإِعْتِقَادِ بِأُلُوهِيَّتِهِمْ.

[٧٧] يَعْلَمُ سَبْحَانَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَى مَا يَقْدِمُهُ الْأَنْبِيَاءَ وَ الْمَلَائِكَةَ إِلَى الْآخِرَةِ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِمَّا يَدْعُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَ الْأَخْلَاقِ وَ غَيْرِهَا، فَهُوَ مُحِيطٌ بِهِمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أَى أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا، مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ لِيَحْكُمَ فِيهَا، وَ يَجَازِى الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا، فَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، الْمُخْتَارُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْعَالِمُ، الْحَكِيمُ وَ الْمَرْجِعُ، فَهَلْ مِثْلُ هَذَا الْإِلَهَ يَقَاسُ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّبِيِّينَ؟

[٧٨] وَ إِذْ ظَهَرَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْإِلَهُ الْوَحِيدُ، فَتَوَجَّهُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِالْعِبَادَةِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا خُضُوعًا لِلَّهِ سَبْحَانَهُ وَ اسْجُدُوا لِعَظَمَتِهِ، وَ الْمُرَادُ بِهِمَا الْإِتْيَانُ بِالصَّلَاةِ وَ كُنَى عَنْهَا بِهِمَا، وَ أَمَا الرُّكُوعُ وَ السُّجُودُ لِاسْتِحْبَابِهِمَا فِى أَنْفُسِهِمَا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ بِسَائِرِ أَنْوَاعِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٢٩

[سورة الحج (٢٢): آية ٧٨]

وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

الْعِبَادَةَ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ وَ هُوَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْبِرِّ، فَإِنَّ كُلَّ فِعْلٍ يَأْتِى مِنَ الْإِنْسَانِ، إِذَا خَيْرٌ وَ إِذَا شَرٌّ، وَ إِذَا لَعُو، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أَى لِكُلِّى

تفوزوا بالفلاح و النجاح فى الدنيا و الآخرة.

[٧٩] وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ أَى فِي سَبِيلِهِ سَبْحَانَهُ، وَ مِنْ أَجْلِهِ حَقَّ جِهَادِهِ أَى بِالْكَفِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ الْجِهَادَ فِي اللَّهِ إِيَّاهَا، وَ هِيَ بِأَنْ يَكُونَ الْجِهَادَ خَالِصًا بِكُلِّ مَا أَوْتَى الْإِنْسَانَ مِنْ قُوَّةٍ مَادِيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ، وَ الْمَرَادُ بِالْجِهَادِ إِمَّا الْقِتَالَ وَ إِمَّا مَجَاهِدَةَ الْإِنْسَانَ فِي تَطْبِيقِ مَا أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، الَّذِي يَكُونُ الْقِتَالَ مُصَادِقًا مِنْ مُصَادِقِهِ هُوَ سَبْحَانَهُ اجْتِبَاكُمْ أَى اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ، فَمِنْ اللَّازِمِ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَةَ الَّتِي حَمَلَهَا عَلَيْكُمْ وَ رَأَكُمْ أَهْلًا- لَهَا، وَ فَضْلَكُمْ- دُونَ غَيْرِكُمْ- بِهَا وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ وَ ضَيْقٍ فَإِنَّ الْجِهَادَ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ هُوَ دُونَ قُدْرَتِكُمْ وَ طَاقَتِكُمْ رَأْفَةٌ بِكُمْ وَ رَحْمَةٌ عَلَيْكُمْ، وَ لَذَا نَرَى أَنْ جَمِيعَ التَّكَالِيفِ، أَقْلَ مِنْ طَاقَةِ الْإِنْسَانَ وَ قُدْرَتِهِ، الزَّمُوا مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ أَى طَرِيقَتَهُ، وَ عَلَيْكُمْ بِهَا هُوَ أَى أَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ الْمَرَادُ بِهِ «اللَّهُ» سَبْحَانَهُ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونُوا وَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، أَوْ فِي هَذَا الْوَقْتِ أَيْضًا سَمَيْتُمْ «مُسْلِمِينَ» فَأَسْلَمُوا وَ سَلِمُوا حَسَبَ اسْمِكُمْ، وَ إِنَّمَا اجْتِبَاكُمْ، وَ جَعَلَ الرَّسُولَ فِيكُمْ، وَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ، وَ جَعَلَكُمْ وَرَثَةَ إِبْرَاهِيمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٠

لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِمَا عَمِلْتُمْ حَيْثُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْقَائِمُ عَلَى أُمُورِكُمْ وَ الْمَبِينُ لِمَنْهَجِكُمْ، وَ الْعَالَمُ الْمَوْجُوهُ الْقَائِمُ، يَكُونُ الشَّاهِدَ لِمَنْ اسْتَقَامَ وَ عَلَى مَنْ انْحَرَفَ وَ تَكُونُوا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ إِذِ الْمُسْلِمُونَ يُوجِّهُونَ النَّاسَ، وَ يَحْدُدُونَ سُلُوكَهُمْ وَ يَكُونُونَ النَّازِرِينَ لِأَعْمَالِهِمْ مِنْ اسْتِقَامٍ وَ مِنْ انْحِرَافٍ، وَ مَا وَرَدَ مِنْ أَنْ الْمَرَادُ بِذَلِكَ الْأُمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْمَصْدَقِ الظَّاهِرِ الْجَلِيِّ بَعْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَمَا لَا يَخْفَى وَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْوَاعٌ مِنَ التَّأَكِيدِ وَ التَّشْجِيعِ لِقِيَامِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حِفْظِ الْإِسْلَامِ وَ نَشْرِهِ، وَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، فَالَّذِينَ دِينُ جَدِّهِمْ وَ التَّسْمِيَةُ تَسْمِيَةُ إِلَهُهِمْ، وَ هُمْ الْمَخْتَارُونَ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ، وَ لَيْسَ فِيهِ ضَيْقٌ وَ لَا حَرْجٌ، وَ الرَّسُولُ شَهِدَ عَلَيْهِمْ، وَ هُمْ مَفُوضُونَ فِي الْبَلَاغِ، قَوَامُونَ عَلَى النَّاسِ قَدْ جَعَلَهُمُ الْإِلَهَ شُهَدَاءَ عَلَى الْبَشَرِ، فَمَا يَمْنَعُهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ، أَنْ يَقُومُوا بِوَجِبِ الْجِهَادِ؟ وَ بَعْدَ هَذَا كَلِمَةُ الْفَائِزِ الصَّلَاةِ وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ:

أَحْسَنْتَ إِلَيْكَ، فَأَذْ حَقِّي وَ آتُوا الزَّكَاةَ أَى أَعْطُوهَا وَ اغْتَصَبُوا بِاللَّهِ تَمَسَّكُوا بِهِ سَبْحَانَهُ، فِي كُلِّ أَفْعَالِكُمْ، فَلَا تَحِيدُوا عَنْ أَوْامِرِهِ قِيدَ شَعْرَةٍ هُوَ مَوْلَاكُمْ سِيدِكُمْ، وَ هَلْ يَعْزُضُ الْإِنْسَانَ عَنْ مَوْلَى مِثْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، لِيَتَّخِذَ سَيِّدًا غَيْرَهُ؟ فَنِعْمَ الْمَوْلَى لِلْبَشَرِ أَجْمَعِ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ فَإِنَّهُ يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ، وَ هَلْ هُنَاكَ مَوْلَى مِثْلَهُ يَعْطَى حَتَّى مِنْ عَصَاهُ، أَوْ نَصِيرٌ يَشْبِهُهُ بِيَدِهِ أُمَّةُ الْكُونِ وَ الْحَيَاةُ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثامن عشر من آية (١) سورة المؤمنون إلى آية (٢١) سورة الفرقان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عَتْرَتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٣

٢٣ سورة المؤمنون مكية / آياتها (١١٩)

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِ «الْمُؤْمِنُونَ» لِانْفِتَاحِهَا بِهَذَا اللَّفْظِ، وَ ذَكَرَ أَوْصَافَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا، «الْمُؤْمِنُونَ» عِلْمٌ لِلسُّورَةِ، وَ لَذَا يَغْيِرُ إِعْرَابُهَا إِضَافَةً «السُّورَةُ» إِلَيْهَا، وَ هِيَ كَسَائِرُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ، تَعَالَجُ الْعَقِيدَةُ وَ شُؤُونَ التَّوْحِيدِ وَ مَا إِلَيْهِ، وَ لَمَّا أَنْ خَتَمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ سُورَةَ «الْحَجِّ» بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَفْعَالِ الْخَيْرِ افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ فِي الْإِيمَانِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اسْتِعَانَةٌ بِاسْمِ اللَّهِ، وَ ابْتِدَاءٌ بِذِكْرِهِ الْكَرِيمِ، لِيَكُونَ فَاتِحَةً خَيْرٍ وَ تَعْلِيمًا لِلْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ يَتَدَثَّرُونَ فِي

أعمالهم، و قد وصف بالرحم مكررا، لأن الإنسان مجموعة عجز و ضعف و انهيار، و كل نقص، و ضعف فيه يحتاج إلى الرحم، ليسده و يلمه و يرأبه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١ إلى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥)

[٢] قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ أى فازوا بخير الدنيا و سعادة الآخرة، فقد شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم، و لم يشاركهم أهل الآخرة فى آخرتهم، و المؤمن هو المصدق، و إطلاقه فى الشريعة منصرف إلى المصدق بوحدانية الله، و بالرسالة، و بالمعاد، و بلوازم الكل.

[٣] ثم وصف سبحانه المؤمنين الكاملين بهذه الصفات التالية الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ أى إذا صلوا خشعوا و خضعوا، فإن الصلاة حيث كانت ذكرا و تسيحا و تقديسا، و مكالمة مع الله سبحانه، تقتضى أن يكون الإنسان فى حالة خضوع، فإنه يتكلم مع مالك الكون، كيف لا، و الإنسان يخضع لملك عاجز، ليس له من السطوة إلا ضئيلا! [٤] وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ اللغو، كل فعل أو قول، أو تفكير، لا فائدة فيها، و من سمات المؤمن الكامل الإيمان، أن يعرض عن ذلك كله، و ما ورد فى الأحاديث من تفسير اللغو، بالغناء، أو ما أشبهه، فإنه تفسير لبعض المصاديق «١».

[٥] وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ أى مؤدون معطون، و المراد بالزكاة، إما الصدقة الواجبة، و إما مطلق الصلة و الصدقة، و هذا أنسب بكون السورة مكية، لأن الزكاة المفروضة شرعت فى المدينة.

[٦] وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ فلا يزنون، و لا يلوطنون،

(١) بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦ إلى ٨]

إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)

و لا يستمنون، و لا يمكنون أحدا من أنفسهم، فإن الفرج اسم للعورتين.

[٧] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أى نسائهم دائمة كانت، أو محللة، أو منقطعة أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ من الإماء، و نسب الملك إلى الأيمان، لأن اليمين هى العضو الفعالة فى الاكتساب فكأنها هى المالكة، من باب علاقة السبب و المسبب أو الكل و الجزء، و الغرض بيان جنس المحللة، فلا ينافى ذلك و جوب اجتنابهن فى حال الحيض و الصيام و الإحرام و ما أشبهه، كما أن العكس يستفاد من الآية، فيجوز للزوجة و الأمه، بالنسبة إلى الرجال ما يجوز لهم بالنسبة إليها، و بقى ملك المرأة للبعد خارجا عن المنطوق، و عن اللازم فَإِنَّهُمْ أى الرجال بعدم حفظ فروجهم بالنسبة إلى الزوجة، و ملك اليمين غَيْرُ مَلُومِينَ أى لا يلامون، و كان الإتيان بهذه العبارة للمقابلة، فإن الذى لا يحفظ بالنسبة إلى غيرهما يلام، و من لا يحفظ بالنسبة إليهما لا يلام.

[٨] فَمَنْ ابْتغىٰ أى طلب، و قد أطلق «الابتغاء» و أريد به «العمل» و قد تقدم، أن كلا من «الإرادة» و «الفعل» يستعمل بمعنى الآخر وَرَاءَ ذَلِكَ الذى ذكر من حلية الأزواج و المملوكات فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ أى المتعدون لحدودهم المتجاوزون الشريعة.

[٩] وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ أَضِيفَتِ الْأَمَانَةُ إِلَيْهِمْ، لأنهم محل إيداعها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩ إلى ١١]

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

و يكفى فى الإضافة أدنى ملابسة و عهدهم راعون أى حافظون موفون، فإذا عاهدوا عهدا بالنسبة إلى الأمور الدينية، كالمعاهدة مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أو عاهدوا بالنسبة إلى سائر المعاملات، كالعقود، و فوا بها.

[١٠] وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ فيقيمونها فى أوقاتها بدون تضييع لها، مع آدابها و شرائطها، و قد كرر ذكر الصلاة لما لها من الأهمية، و لبيان أمرين، الأول الخشوع فيها، و الثانى المحافظة عليها.

[١١] أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ و الوارث هو الذى ينتقل إليه شىء من آخر، و المراد به هنا إما إطلاقا، و يكون قوله «الذين يرثون» بيانا لمصداق من مصاديق إرثهم، و المراد حينئذ، إن الخيرات كلها لهم سواء فى الدنيا، أو فى الآخرة، و أما خصوص ما بين فى قوله «الذين» فكأن المراد أن هؤلاء كانت لهم الدنيا غير قبله، حتى أنها لا تكون عوضا لأتعبهم و أعمالهم، و إنما الجزاء الوافى هو الفردوس، فهم.

[١٢] الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ يصيرون إليها، بعد الأحوال المتقدمة فى الحياة، كما يصير الوارث إلى ما تركه أقرباؤه- بلطف فى عكس التشبيه- و الفردوس، هى البستان الجميل، و المراد بها هنا درجة من درجات الجنة هُم أى هؤلاء الذين و صفوا بتلك الأوصاف فيها أى فى الفردوس، و هى مؤنث مجازى خالِدُونَ دائمون باقون أبد الأبدين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ إلى ١٤]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)

[١٣] ثم يأتى السياق ليعد من الله على البشر، و لطفه بهم، مما ينبغى أن يطيعوا أوامره، و يكونوا كما وصفهم فى الآيات المتقدمة و لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ أى كل فرد من أفرادهِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ السلالة، اسم لما يسيل من الشىء، فإن الإنسان فى ابتداء خلقه يسيل و يخرج من التراب النظيف، إذ هو الذى يتبدل نباتا، و لذا سُمى طينا، لأن التراب ما لم يخلط بالماء لا يكون نباتا.

[١٤] ثُمَّ بعد جعل التراب نباتا، صار حيوانا مأكولا، أو أكله إنسان فصار دما فى جسمه، و بعد ذلك جَعَلْنَاهُ أى ذلك الإنسان، الذى نريد تكوينه نُطْفَةً و هى المنى إذا استقر فى الرحم فى قرارٍ أى مستقر مَكِينٍ ذى تمكن على حفظها و تربيتها.

[١٥] ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً شبيه بالدم المنجمد فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً كقطعته لحم قد مضغت بالأسنان فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا و حيث إن العظام هى العنصر الأشد فى الحياة، خصصت بالذكر، و إلا فالعلقة تكون الأعضاء الأصلية للإنسان، لا العظام فقط فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا كاللباس الذى يلبس على الجلد ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فقد نفخ فيه الروح الإنسانى، الذى هو من قسم آخر من الخلق، ليس كالخلق المادى الحيوانى، و النباتى و الجمادى فَتَبَارَكَ اللَّهُ أى تعالى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٥ إلى ١٧]

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

و دام خيره أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ و الخلق يطلق على الصنع، فالنجار خالق الباب، و البناء خالق القصر و الله سبحانه أحسن الخالقين، إذ لا يمكن لأحد من هذا النحو من الخلق.

[١٦] ثُمَّ إِنَّكُمْ أيها البشر من بعد ذلك الخلق التام لَمَيِّتُونَ تخرج أرواحكم، لتبقى أجساد بلا أرواح حينما تنتهى آجالكم فى الدنيا.

[١٧] ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ أى تقومون من قبوركم للحساب و الجزاء.

[١٨] و بعد بيان المبدأ للإنسان و معاده، يأتى السياق لبيان منه سبحانه عليه فى هذه الحياة و لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ سَبْعَ طَرَائِقَ المراد بها السماوات السبع - ظاهرا - و قد تقدم إن علماء الفلك المسلمين يقولون: إن المراد بالسماوات، مدارات الأفلاك، مؤيدين نظريتهم بالرواية الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام، و بعض الشواهد الأخرى، و كونها فوقنا، باعتبار ما نحس، و إن كانت الأرض فى الحقيقة، نجمة كسائر النجوم، و طرائق جمع طريقه، و إنما سُمى السماء بها لتطارقها، أى كون بعضها فوق بعض و ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ و لعل الإتيان بهذه الجملة هنا، لما يتبادر إلى الذهن البدائى، من أن المربى الخالق لهذا الكون العظيم لا مجال له - عند ذلك - لمراقبة الناس و أعمالهم، فهو يغفل عنهم كما يغفل الملك الكبير ملكه عن خصوصيات الناس و أعمالهم، لكنه سبحانه ليس كذلك، فيتساوى عنده كل معلوم صغيرا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٣٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِنَّ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩)

كان أم كبيرا، و لا يشغله شأن عن شأن.

[١٩] و أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جِهَةَ الْعُلُو، و هذا مرتبط بخلق سبع طرائق ماء و هو المطر بِقَدَرٍ و لا يخفى ما فى هذا اللفظ من اللفظ، فإن الإنسان البدائى الذهن، حيث يرى كثرة المطر - يظن أنه ليس تحت حساب و تحديد، و لذا جاء هذا اللفظ هنا لينبه على ذلك، و إن المطر مهما كثر فهو بقدر و حد محدود معلوم لديه سبحانه فَأَسْكَنَّا فِي الْأَرْضِ أى جعلنا له مسكنا، فإن ماء المطر هو الذى يتسرب إلى باطن الأرض، ليجرى من الثقوب الأرضية و الجبلية عيونا و أنهارا و إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِنَّ أى أن نذهب هذا الماء المسكون فى الأرض لِقَادِرُونَ بأن نسربه فى الأغوار العميقة، حتى لا ينتفع به الإنسان، أو نبخره فى الجو، أو نعدمه إعداما مطلقا، فإن من يقدر على إيجاد المعدوم، قادر على إعدام الموجود.

[٢٠] لكننا لم نفعل ذلك حتى تهلوكوا، و يهلك الحيوان و النبات، بل تفضلنا عليكم فوق ذلك فَأَنْشَأْنَا أو جدنا و اخترعنا لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ بِهِنَّ أى بسبب هذا الماء جَنَّاتٍ بساتين، و سُمى البستان جنه، لأن أشجارها تجن و تستر أرضها مِنْ نَخِيلٍ جمع نخل، و هو شجر التمر و أعْنَابٍ جمع عنب، و المراد به الكروم بعلاقة الحال و المحل لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ فِيهَا أى فى تلك الجنات فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ جمع فاكهه، و هى الثمرة، سميت بها لأن الإنسان يتفكه بها، و المراد أنواع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعٍ لِلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)

الفواكه المختلفة، و كان تخصيص النخل و العنب، لكثرتهما فى هذه البلاد و عموم الانتفاع بهما و مِنْهَا تَأْكُلُونَ أى من البساتين تأكلون مختلف أنواع الرزق مباشرة، أو بواسطة بيع و إيجار و صرف الثمن و الأجرة فى سائر الأرزاق.

[٢١] و أَنْشَأْنَا لَكُمْ بِذَلِكَ الْمَطْرَ وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ و المراد بها شجرة الزيتون و «سيناء» اسم الموضع الذى به «جبل طور» قرب الشام، و لعله إنما حضر هذا المحل مع عموم الزيتون فى كثير من الأماكن لجودة زيتونها، و اشتهاها لدى المخاطبين بالقرآن الحكيم، كما أن تخصيص الزيتون من بين الثمار بالذكر لنفعه العام فى كثير من الحوائج تَنْبُتُ هذه الشجرة بِالذَّهْنِ أى مصاحبه للدهن، فإن الزيتون قطعة من الدهن المنجمد، و لذا يعصر منه الزيت و صَنِيعٍ عطف على «الدهن» لِلآكِلِينَ و المعنى أن هذه الشجرة

تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به و يسرج منه و كونه أداما يصنع فيه الخبز، أى يغمس فيه للائتمام، و سمي الإدام صبغا، لأنه يصبغ الخبز بلونه.

[٢٢] وَإِنَّ لَكُمْ أَيْهَا الْبَشَرِ فِي الْأَنْعَامِ جَمْعَ نَعْمٍ، وَ هِيَ الْإِبِلُ وَ الْبَقَرُ وَ الْغَنَمُ لَعِبْرَةٌ أَى عِبَارَةٌ وَ دَلَالَةٌ دَالَةٌ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ عِلْمَهُ وَ قُدْرَتَهُ تُشْفِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا أَى أَجْوَانِهَا مِنَ اللَّبَنِ الطَّيِّبِ الْمَذَاقِ وَ لَكُمْ فِيهَا أَى فِي الْأَنْعَامِ مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ فَتَرْكَبُونَ عَلَى الْإِبِلِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَ عَلَیْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى (٢٤)

و تحرثون بالبقرة، و تضخون الماء بهما، و تنتفعون بأشعارها و جلودها و لحومها و منها تأكلون أى من بعضها، و هو اللحم و الشحم و ما أشبهه، أو المراد بالأكل الانتفاع و التكسب بهما.

[٢٣] وَ عَلَیْهَا الْمَرَادُ بِهِ الْإِبِلُ خَاصَّةً وَ عَلَى الْفُلْكِ فِي الْبَحْرِ تُحْمَلُونَ فَأَحَدُهُمَا لِلْبَرِّ، وَ الْآخَرُ لِلْبَحْرِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ، (وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ) «١» وَ قَدْ خَصَّ سُبْحَانَهُ هَاتَيْنِ الْمَنْفَعَتَيْنِ بِالذِّكْرِ لِعُمُومِهِمَا، وَ كَثْرَةِ الْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِمَا.

[٢٤] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ الرِّسَالَةَ، وَ بِلَاغِ الرِّسْلِ، فِي عَقْبِ بَيَانِ الْأَدَلَّةِ الْكُونِيَّةِ، فَقَدْ كَانَ شَأْنُ الرِّسْلِ أَنْ يَلْفِتُوا النَّاسَ إِلَى تِلْكَ الْأَدَلَّةِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ بَعْضُهَا، لِيُؤْمِنَ النَّاسُ بِالْإِلَهِ الْخَالِقِ الْمُنْعَمِ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَ إِطَاعَةِ أَمْرِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ آمَنُوا بِهِ وَ أَطِيعُوهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ فَهَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَيْسَتْ بِالْهَيْئَةِ، وَ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ أَ فَلَا تَتَّقُونَ اسْتَفْهَامٌ

إِنْكَارِي، أَى أَلَا تَخَافُونَ عِقَابَ اللَّهِ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ؟

[٢٥] فَقَالَ الْمَلَأُ أَى الْأَشْرَافُ، وَ سَمُوا مَلَأً لِأَنَّهُمْ يَمْلِئُونَ الْعْيُونَ أَبْهَةً، وَ الصُّدُورَ هَيْئَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

(١) الإسراء: ٧١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

إِنَّ هُوَ إِلَّا- رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التُّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧)

ما هذا الذى يدعوكم، و هو نوح إلا بشرٌ مثلكم فليس برسول، فإنهم كانوا يزعمون أن الرسول لا- يمكن أن يكون بشرا يريد أن يتفضل عليكم أى إنما يدعى النبوة لتطيعوه، فيترأس عليكم، و تكونوا أنتم من أتباعه، فيصير له كيان و رئاسة و لو شاء الله إرسال رسول إلى البشر لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً لِلإِرشَادِ وَ الْإِنذَارِ، لِأَنَّ رِسْلَ بَشَرٍ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ نُوْحٌ مِنْ وَاحِدَةِ الْإِلَهِ، وَ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي آبَائِنَا الْأُولَى أَى فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَنْ يَنْبَرِيَ أَحَدُهُمْ، فَيَدْعِي الرِّسَالَةَ، وَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ.

[٢٦] إِنَّ هُوَ مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ أَى جُنُونٌ، وَ مَا هَذِهِ الدَّعْوَى الَّتِي يَدْعِيهَا، إِلَّا مِنْ آثَارِ ذَلِكَ الْجُنُونِ فْتَرَبَّصُوا بِهِ أَنْتَظِرُوا بِنُوحٍ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، أَوِ الْمَعْنَى أَنْتَظِرُوا بِهِ حَتَّى يَفِيقَ، وَ يَذْهَبَ جُنُونُهُ فَيَرْجِعَ عَنْ دَعْوَاهِ.

[٢٧] وَ لَمَّا أَنْ رَأَى نُوحٌ إِصْرَارَ الْقَوْمِ عَلَى التَّكْذِيبِ وَ عَدَمَ الْإِيمَانِ قَالَ يَا رَبِّ انصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِمَا كَذَّبْتَنِي بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ، كَأَنَّهُ الْعِلَّةُ فِي نَصْرَةِ اللَّهِ، إِذْ لَوْ لَا التَّكْذِيبَ لَمْ يَحْتِجْ إِلَى نَصْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

[٢٨] فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ هُوَ مَفْرَدٌ عَلَى وَزْنِ قَفْلٍ بِأَعْيُنِنَا أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٣

إنك تحت نظرنا و مراقبتنا كالكبير الذى يقول لغيره: اعمل كذا، فأنت مدّ نظرى لا يصل إليك أحد بسوء، و أعين جمع عين، و من القاعدة أن يأتى بالجمع ما فى الإنسان مثلى، أو باعتبار أن الكبير يتكلم بنحو الجمع دلالة على اشتراكه لمن معه فى الرأى و وَحِينَا فَإِنَا نوحى إليك كيفية صنعها فإذا جاء أمرنا بإهلاك القوم، غرقا فى الماء و فَاَرَ التُّورُ الذى كان علامة لابتداء العذاب و ورد أنه تنور فى مسجد الكوفة جعله سبحانه علامة لابتداء الغرق، حتى إذا رأى نوح إنه يفور ماء يركب السفينة، و يحمل المؤمنين و الحيوانات فيها لينجوا جميعا من الغرق فَاسَلْتُكَ فِيهَا أَى ادخل فى السفينة من سلك بمعنى مشى فى الطريق، كأنهم يتخذون طريقهم فى السفينة مِنْ كُلِّ أَى من كل نوع من أنواع الحيوانات زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذكرا و أنثى، و ليس ذلك مستبعدا بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه، و إن استبعده بعض، قالوا: كيف يمكن إدخال أهلك و عائلتك فى السفينة إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ بأنه يهلك فى الهالكين مِنْهُمْ أَى من أهلك، و هو ولده كنعان الذى سبق من الله سبحانه أن قال يغرق لعمله الفاسد، و حيث كان المقام أن يطلب نوح- حسب الرقة البشرية- نجاه الناس من الغرق، نهاه سبحانه عن ذلك مقدما بقوله و لا- تُخَاطِبْنِي أَى لا تتكلم معى يا نوح فى أمر الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ بالكفر و العصيان، بأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَ إِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

تتوسط فى عدم إهلاكهم ف إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ لا محالة ورقة نوح عليه السلام فى ذلك الحين، لا ينافى دعائه بإهلاكهم قبالا، فإن للإنسان فى حال البلاء رقة عاطفية.

[٢٩] فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَى ركبت، و أخذت مكانك و استقرارك أَنْتَ يَا نوح وَ اسْتَوَى مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ أَى السفينة فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا وَ خَلَصْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان.

[٣٠] وَقُلْ يَا رَبِّ أُنزِلْنِي مِنَ السفينة بعد أن جف الماء على الأرض، مُنْزَلًا مُبَارَكًا أَى إنزالا مع بركة و يمن لكى نعمة الأرض من جديد، و «منزل» مصدر ميمى و أَنْتَ يَا رَبِّ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ إذ أنت القادر على أن تبارك فى الإنزال، و تكفى الإنسان شر الآفات دون سواك، ممن ينزل الإنسان منزلا.

[٣١] إِنَّ فِي ذَلِكَ الذى ذكر من قصة نوح مع قومه لآياتٍ دالّات على الشؤون المرتبطة بالإله و الرسالة و إِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ «إن» مخففة من الثقيلة اسمها ضمير الشأن محذوف، أى إنه كنا نحن مختبرين للعباد، بإرسال الرسل، حتى إذا لم يؤمنوا أهلكتناهم، و هذا شبه تهديد للكفار بأنهم إن لم يؤمنوا كان مصيرهم مصير أولئك فى تعميمهم بعذاب الله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣١ الى ٣٣]

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)

[٣٢] ثُمَّ بعد إهلاك أولئك أنشأنا أوجدنا و أحيينا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ أَى جماعة و أمه، و إنما سمي قرنا، لاقتران بعضهم ببعض فى الزمان، و لعل المراد قوم صالح، لقوله تعالى (فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ) «١» فإنها أخذت قوم صالح «كما سبق».

[٣٣] فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَى مِنْ أَنفُسِهِمْ، فلم يكن ملكا، و لا- من غير قومهم، و هو صالح، فقال لهم أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَى لَيْسَ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ، فهذه الأصنام التى تعبدونها باطلة أ فلا- تَتَّقُونَ استنفهام إنكارى، أى أ لا تخافون عذاب الله؟

[٣٤] وَقَالَ الْمَلَأُ جَمَاعَةَ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْمَ صَالِحٍ وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ أَى قَالُوا إِنَّهُمْ لَا يَلْقَوْنَ الْآخِرَةَ، لاعتقادهم بعدم وجود الآخرة وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَى أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ كَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ حَيْثُ بَدَلُوا النِّعْمَةَ كَفْرًا مَا هَذَا الَّذِى يَدْعَى الرِّسَالَةَ، وَ هُوَ صَالِحٌ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا؟ بزرعهم إن الرسول

(١) الحجر: ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣٤ الى ٣٧]

وَلَيْنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)

يجب أن يكون ملكا يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنَ الْأَشْرَبِ، فما فضله عليكم حتى يكون رسولا؟. [٣٥] وَ لَيْنِ أَطَعْتُمْ أَيَهَا الْقَوْمِ بَشَرًا مِثْلَكُمْ فِي جَمِيعِ الْمَزَايَا الْبَشَرِيَّةِ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ قَدْ خَسِرْتُمْ عُقُولَكُمْ بِاتِّبَاعِ بَشَرٍ، وَ إِسْلَاسِ قِيَادِكُمْ إِلَيْهِ، وَ لَمْ يَعْرِفْ أَوْلَيْكُمْ إِنْ الرِّسَالَةَ، إِنَّمَا تَتَّبِعُ الْمَزَايَا النَّفْسِيَّةَ، الَّتِى هِىَ مَتَوَفَّرَةٌ فِي صَالِحِ دُونِهِمْ.

[٣٦] ثُمَّ أَخَذَ الْقَوْمَ يَسْتَعْرِبُونَ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَ إِنْ هُنَاكَ مَعَادًا يَحْيُونَ فِيهِ لِيَحْسَبُوا أَيْعِدْكُمْ أَى كَيْفَ يَعِدْكُمْ صَالِحٌ أَنْتُمْ أَيَهَا الْقَوْمِ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا بِأَنَّ تَسَاقَطَ لِحُومِكُمْ، حَتَّى صَارَتْ تُرَابًا، وَ بَقِيَ الْعِظَامُ الْمَجْرُودَةُ أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ، أَحْيَاءٌ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ.

[٣٧] هَيْهَاتَ اسْمُ فِعْلٍ يَعِدُ يُؤْتَى بِهِ لِاسْتِعَادِ الْأَمْرِ هَيْهَاتَ كَرَّرَ تَأْكِيدًا لِمَا تُوعَدُونَ اللَّامُ لِلْيِيَانِ، أَى بَعِيدَ فِي الْعَقْلِ مَا يَعِدْكُمْ صَالِحٌ مِنَ الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ.

[٣٨] إِنْ هِيَ أَى لَيْسَتْ الْحَيَاةُ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أَى الْقَرِيبَةُ الَّتِى نَحْنُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٣٨ الى ٤١]

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُ نَدِيمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

فِيهَا نَمُوتُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَ نَحْيَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَالْحَيَاةُ وَ الْمَوْتُ مَخْصُوصَانِ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ، فَلَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ إِنَّمَا قَدِمَ «نَمُوتُ» لِأَنَّ الْمَوْتَ أَمَامَهُمْ، حَيْثُ جَاءُوا إِلَى الْحَيَاةِ وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ.

[٣٩] إِنْ هُوَ أَى لَيْسَ صَالِحٌ رَسُولًا، وَ إِنَّمَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِالْإِفْتِرَاءِ يَلْزَمُ الْكُذْبَ، وَ إِنَّمَا جَاءَ «كَذِبًا» لِتَأْكِيدِهِ، وَ لِأَنَّ أَصْلَ الْإِفْتِرَاءِ مِنَ الْفَرَى، بِمَعْنَى الْقَطْعِ، كَأَنَّ الْمَفْتَرِيَّ يَقْطَعُ كَلَامًا مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمَكْذُوبَةِ، ثُمَّ يَنْسِبُهُ إِلَى الْمَفْتَرِيِّ عَلَيْهِ وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ كَلَامَهُ فِيمَا يَقُولُ.

[٤٠] قَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ بِتَكْذِيبِهِمْ، أَى بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَذَّبُونِي فَانصُرْنِي عَلَيْهِمْ.

[٤١] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي جَوَابِ دَعَاءِ صَالِحٍ عَمَّا قَلِيلٍ «مَا» زَائِدَةٌ يُؤْتَى بِهَا لِقَصْدِ الْقَلْبِ، أَى بَعْدَ زَمَانٍ قَلِيلٍ لِيُصِيبَ الْقَوْمَ نَادِمِينَ يَنْدَمُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، حِينَ يَأْخُذُهُمُ الْعَذَابُ.

[٤٢] فلما تمادوا في كفرهم و عصيانهم فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ أَى صيحة جبرائيل عليه السّلام، فقد صاح بهم صيحة أخذت ألبابهم، و أزهدت أرواحهم بِالْحَقِّ أَى كان باستحقاقهم، إذ الكفر و العصيان يعقبهما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا ثَمًّا كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

الهلاك و الدمار فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً غُثَاءً ما يحمله السيل، من يابس النبات، و قصب و عيدان و ما أشبهه، و المعنى جعلناهم أجسادا هامة قد يسوا كما يبس الغناء، ملقون بغير إكرام و لا احترام فَبَعْدًا أَى أبعدهم الله عن رحمته، و طردهم عن كل خير لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و الطغيان.

[٤٣] ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ بعد هؤلاء قُرُونًا آخَرِينَ أمما، و أهل أعصار، و جماعات آخرين، فكان القوم كلما عصوا و عتوا أخذناهم بالعذاب و أهلكتناهم و جئنا بقوم آخرين مكانهم.

[٤٤] أما ما يطلب هؤلاء الكفار من تعجيل العذاب عليهم، فقد كانوا يطلبون من الرسول- على وجه الاستهزاء- أن يعجل عليهم العذاب إن كان صادقا، فإن العذاب لا يأتي إلا في وقته الذي حدده الله سبحانه له، لا يتقدم و لا يتأخر ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَى لا تسبق أية أمة من الأمم أَجَلَهَا بأن تهلك قبل إتيان الوقت المحدد لها و مَا يَسْتَأْخِرُونَ أَى لا يطلبون تأخير الأجل، بأن يتأخر عن الوقت المحدد له و المراد بعدم طلبهم للتأخير، إن طلب التأخير لا ينفع، فعبّر عما لا ينفع فيه بالعدم، كما يعبر عن الرجل الذي لا ينفع فيه بأنه ليس برجل.

[٤٥] ثُمَّ من بعد صالح أَرْسَلْنَا إِلَى الْأُمَمِ رَسُولًا ثَمًّا من المواترة، و هى أن يتبع البعض البعض بدون فصل، فقد كانت الأنبياء يأتي بعضهم بعقب الآخر إتماما للحجة، و توضيحا للمحجة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٤٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ أَمْ نَحْنُ الْمُنْجُونَ (٤٧)

كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا الرسول فاعل، و الأمة مفعول كَذَّبُوهُ و لم يقرؤ بنبوته فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا أتبعنا هلاك بعض الأمم بإهلاك بعضهم السابقين، فجىء الرسول، و تكذب الأمة فتهلك، ثم فيجىء رسول آخر، فتكذب الأمة التالية فتهلك، و هكذا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ يتحدث الناس عنهم على طريق المثل فى الشر، قالوا: و هو جمع أحوثه، و لا يقال هذا فى الخير، و المعنى إنا أفئيناهم حتى لم يبق بين الناس إلا- حديثهم، بعد أن كانوا أمما لها الوجود و الكيان فَبَعْدًا عن رحمة الله و فضله لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ إنهم طردوا عن الرحمة كما أهلكوا و طردوا عن الحياة.

[٤٦] ثُمَّ من بعد أولئك الرسل أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا أى بدلائلنا و حججنا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ واضح ظاهر، و لعل المراد بالسلطان الحجة المنطقية، و بالآيات المعجزات الخارقة.

[٤٧] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أى جماعته، أو أشراف قومه، و خصوا بالذكر لأنهم إن آمنوا تبعهم الناس، فكان التوجه الأولى إليهم فَاسْتَكْبَرُوا تكبروا عن قبول الحق و كانوا قَوْمًا عَالِينَ فقد علوا و اتخذوا الناس خولا لهم.

[٤٨] فَمَنْ كَبُرْهُمْ و علوهم قالوا أُنزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّكَ أى كيف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٦٩٩

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلِكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ (٥٠)

نصدق إنسانين - هما موسى و هارون - في حال كونهما مثلنا خلقه؟ إذ كيف يمكن أن يكون البشر رسولا على بشر مثله؟ و قَوْمُهُمَا أى و الحال أن قوم هذين - و هم بنو إسرائيل - لنا عابِدُونَ يعبدوننا و يطيعوننا، إنهما و قومهما لنا تبع، فكيف نؤمن بهما؟ [٤٩] فَكَذَّبُوهُمَا أى كذب فرعون و قومه موسى و هارون فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلِكِينَ الذين أهلكوا بتكذيبهم للرسول، حيث أغرقوا في البحر حتى لم يبق منهم أحد، و قد كان الغرق خاصا بفرعون و جنوده الذين اتبعوا موسى، أما سائر أهل مصر فقد كانوا فيها لم يهلكوا. [٥٠] وَ لَقَدْ آتَيْنَا أى أعطينا مُوسَى عليه السّلام، بعد إهلاك فرعون و خروجهم من أرض مصر الْكِتَابَ التوراه لَعَلَّهُمْ أى لعل بنى إسرائيل الذين كانوا مع موسى يَهْتَدُونَ إلى الحق و الصواب.

[٥١] وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ أى المسيح عليه السّلام وَ أُمَّهُ مريم الطاهرة عليها السّلام آيَةً خارقة في جميع شؤونها، فقد حملت بعبسى من غير زوج، و نطق عبسى بالكتاب و هو طفل في المهد، إلى سائر الخوارق، و حيث إن أحدهما كان متشابكا مع الآخر في المزايا، عبر عنهما جميعا ب «آية» و لم يقل «آيتين» وَ آوَيْنَاهُمَا أى المسيح و مريم، و الإيواء إعطاء المأوى و هو المنزل إلى رَبْوَةٍ هى الموضع المرتفع من الأرض، و فيه فضل طيب الهواء، و عدم تسرب الأوساخ إليها، و قربها من أشعه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥١ الى ٥٢]

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) الشمس إلى غير ذلك، و قد اختلف في موضع الربوة، و في بعض الأحاديث أن المراد بها النجف، و لعل ذلك بعد ولادتها له مباشرة ذات قَرَارٍ أى لم تكن الربوة موضعا صغيرا كالتل، و إنما ربوة فسيحة يتمكن الإنسان من القرار فيها، أو كونها ذات قرار باعتبار ما فيها الثمار و الأشجار، فيتمكن الإنسان من القرار فيها وَ مَعِينٍ أى ذات ماء جار على وجه الأرض ظاهر طيب.

[٥٢] و بعد هذا يأتى الخطاب للرسول، و كأنهم مجتمعون في مكان و زمان ليين وظيفتهم العامة، بعد بيان أنهم يلازمون الطبيعة البشرية في الأكل و سائر لوازمه يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ فأنتم بشر، لا كما يزعمه الكفار، بأن الرسل يجب أن يكونوا من غير جنس البشر، فلا- يأكلون الطعام و لا- يمشون في الأسواق، و إنما فرق الرسل من غيرهم، إن الرسل لا يأكلون إلا الطيب، أما غيرهم فيأكلون الخبيث و الطيب- إن لم يهتدوا بهدى المرسلين- وَ اعْمَلُوا صَالِحًا أى العمل الصالح، و لازمه عدم العمل الفاسد إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ أىها الرسل عَلِيمٌ فلا يحق أكل غير الطيب، و العمل غير الصالح، فإنكم بعين الله سبحانه.

[٥٣] وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أىها الرسل، و قد جعل مجموع الأمم، كأمة واحدة للرسول جميعا، لأن للرسول رسالة واحدة إلى مجموع البشر، و إنما الاختلاف جاء من قبل الناس الذين كدروا صفو الأديان و المذاهب أُمَّةً وَاحِدَةً حال من «أمتكم» وَ أَنَا رَبُّكُمْ فالرب واحد، و الرسالة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَمْ دِيعِهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَيْنِينَ (٥٥)

واحدة، و الأمة واحدة، و المنهاج هو استعمال الطيب، و العمل الصالح فَاتَّقُونِ أى اتقونى فلا تخالفوا أمرى.

[٥٤] لقد كانت الرسل كتلة واحدة لهم رسالته واحدة ومنهج واحد، ولهم أمة واحدة، ولكن الناس لم يبقوا على تلك الوحدة فَتَقَطَّعُوا أُمَّرَهُمْ بَيْنَهُمْ أى جعلوا دينهم الواحد قطعة قطعة، كل جماعة أخذت بقطعة منه، ولقد كان هذا التقطيع بينهم لا يرتبط بالرسول زُبْرًا أى كتباً، جمع زبور وهو الكتاب، من زبره، بمعنى كتبه، أى أن كل أمة تمسكت بكتاب واحد ونبذت سائر الكتب، كاليهود الذين نبذوا الإنجيل والقرآن والنصارى الذين نبذوا القرآن كُلُّ حَزْبٍ وَأُمَّةٍ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ فَرِحُونَ راضون مع إنه سبحانه لم يشرع إلا حزبا واحدا وأمة واحدة.

[٥٥] فَذَرَهُمْ اتركهم يا رسول الله فى غَمْرَتِهِمْ أى غفلتهم، وإنما سميت الغفلة والضلالة غمرة، لأنها تغمرهم كالماء الذى يغمر الإنسان، فكأنهم مغمورون فى الضلالة، مغرقون فيها حتى حين ينقضى أجلهم ويأتيهم الموت أو العذاب.

[٥٦] ثم ذكر سبحانه إن ما يرون هؤلاء الكفار من أصناف النعم فى هذه الحياة ليست تكريما لهم، وإنما هى فتنه واستدراج أَيْحَسِبُونَ هل يظن هؤلاء أنما نُمِدُّهُمْ بِهِ «ما» موصوله، أى أن الشيء الذى نزيده

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٣

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٦ الى ٥٨]

نُسَارِعُ لَهُمْ فى الخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) و نعطيه لهم من مالٍ وَبَيْنَ يَكُونِ إِكْرَامًا لَهُمْ.

[٥٧] فَ نُسَارِعُ لَهُمْ فى الخَيْرَاتِ و إنها جزاء أعمالهم و ثواب ما يأتون من الكفر والعصيان، كلا، ليس كذلك بَلْ لا يَشْعُرُونَ إنها استدراج و فتنه ليزيد طغيانهم و يبلغوا أجلهم، و قد تمت عليهم الحجة، و ليستحقوا العقاب الأبدى، و لعل الإتيان من باب المسارعة لكون الأصل فى أعمال الخير أن يتسارع الناس إليها، ثم استعمل اللفظ فى كل عمل خيرى، و إن لم يكن هناك طرف آخر، كما قال سبحانه (وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) «١».

[٥٨] و إذ بين سبحانه أحوال الكفار، ألمح إلى أحوال الأخيار إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ أى خوف و عقاب رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ و وجلون، و كأن الخشية شىء مرتبط بالطرفين الخائف و المخوف منه، و لذا صح «من خشية .. مشفقون» فلا يقال: إن الإشفاق ليس من الخشية، و إنما من نفس المخوف منه؟ حتى يحتاج إلى أن يتكلف لتصحيحه، بأن المراد الإشفاق من هذا القسم، لا من سائر أقسامه كالخوف من المرض و العدو و الفقر و ما أشبه.

[٥٩] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ أى بأدلته الكونية و حججه التى يأتى بها الأنبياء يُؤْمِنُونَ أى يصدقون.

(١) آل عمران: ١٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٩ الى ٦١]

وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فى الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

[٦٠] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ و إنما ذكر هذا عقب الإيمان بالله، إذ من الممكن أن يؤمن أحد بالله، و مع ذلك يؤمن بالأصنام أيضا، كما كان المشركون كذلك إذ يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) «١» و لعل الإتيان ب «هم» بعد «الذين» لتأكيد تصبيغهم بلون خاص، ف «هم» لا يخالطون بمن سواهم، فإن التركيز على هذه الخصوصية، لا يأتى بمجرد «الذين».

[٦١] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا أى يعطون ما أعطوا من المال و الحال أن قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أى خائفه مضطربة، أن لا- تقبل نفقاتهم و صدقاتهم، فلا- يرون فوائدها حيث يعلمون أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ فإن الإنسان المؤمن بالحساب و الجزاء خائف من أعماله بأنها لا

تقبل، بخلاف غير المؤمن إذ لا يهمله عدم قبولها «فإنهم» في موضع العلة، أى أن علة الخوف كونهم يعيشون إلينا لنحاسيهم. [٦٢] أُولَئِكَ الْمُتَصَفُونَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ أَى يبادرون إلى الطاعات و يسبقون إليها وَ هُمْ لَهَا أَى للخيرات سَابِقُونَ إما المراد أنهم يسبقون إليها، فيكون تأكيداً للجمله السابقة، أو المراد أنهم سابقون لأخذ تلك الخيرات فى الجنة، فالخيرات لهم حيث عملوا بها، لا للكفار الذين قلوبهم فى غمره،

(١) الزمر: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٢ الى ٦٣]

وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) و يظنون إنا «نُسارع لهم فى الخيرات».

[٦٣] إن ما نطلبه من المؤمنين من الإيمان و العمل الصالح، ليس فوق طاقتهم، حتى يكون للكافر عذر فى عدم الإيمان و لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرَهَا أى بالمقدار الذى تسع النفس له من التكليف و ثم إن ما يعمله المؤمن، لا يذهب أدرج الرياح بل لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ يكتب فيه كل عمل صالح عمله الإنسان، ليجزى عليه بأفضل مما عمل، و استعمال «النطق» فى الكتاب مجاز أريد به الإبراز و الإظهار، لشبهه بالنطق الذى يكون به إبراز ما فى ضمير الإنسان و يحتمل أن يكون المراد بالكتاب «اللوح» و قد ورد أن اللوح و «العلم» ملكان، فيكون المنطق حقيقه و هُمْ لَا يُظْلَمُونَ بأن ثبت فى الكتاب لهم سيئه لم يعملوها، أو لا يثبت طاعه قد عملوها. [٦٤] إن الكفار و العصاة لم ينحرفوا لصعوبه التكليف، أو خوف أن ينقص من حسناتهم و يظلمون بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ و غفله مطبقة تغمرهم من هذا الكتاب، أو من هذا الذى أرسلنا به الرسول، من مجموع الشريعة و العقيدة و لَهُمْ أَعْمَالٌ رديئه من دُونِ ذَلِكَ الذى أنزلناه و أمرنا به هُمْ لَهَا أى لتلك الأعمال عَامِلُونَ فهم فى غفله، و أعمالهم على غير هذا النحو، و هذا سبب إعراضهم عن الحق لا صعوبه التكليف و لا خوف أن يظلموا فلا يصلهم جزاء حسناتهم - إن عملوها-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ (٦٦)

[٦٥] و قد تمادى هؤلاء الكفار فى غيهم و ضلالهم حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ و هم المتعتمون منهم بِالْعَذَابِ و الاختصاص بهم، لأنهم، هم مورد الكلام، و سبب إضلال الناس، و طبيعى، أن يأخذ العذاب سائرهم، فإن العذاب إذا جاء عم إذا هُمْ يَجْأَرُونَ أى يضجون لشده العذاب و يجزعون، قال «جأراً» إذا رفع صوته مستغيثاً،

و قد ورد فى مصادق من مصاديق هذا العذاب أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دعا على الكفار، فقال: اللهم أشد و طأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف، فابتلاهم بالقحط، حتى أكلوا الجيف و الكلاب و العظام المحترقة و القدر، و الأولاد. (١).

[٦٦] فيقال لهم حينذاك لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ وَ لَا تَضْجُوا إِنَّكُمْ مِنَّا أَى من جهتنا و طرفنا لَا تُنصِرُونَ فَإِنَّ الْعَذَابَ لَا محاله نازل بكم حتى يلحقكم بالنار.

[٦٧] هل نسيتم أعمالكم السابقة؟ و كلما كان يقال لكم: أفلعوا و توبوا، كنتم سادرين فى غيكم لا تعيرون الدعوة أى بال؟ فل قد

كَانَتْ آيَاتِي الدالّة على التوحيد، و سائر الشؤون الدينية تُتلى عَلَيْكُمْ تقرأ على مسامعكم فَكَنْتُمْ أيها الكفار الذين أخذكم العقاب على أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ أي تدبرون و ترجعون القهقري، فإن الإنسان

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

الراجع نحو خلفه يضع عقب قدمه أولاً- على الأرض، بخلاف الإنسان المقبل الذي يضع صدر قدمه أولاً عليها، و النكوص رجوع القهقري، و هو أفبح أقسام المشى، فقد شبه الإنسان المعرض عن الحق بالذي يتقهقر إذا سمع الحق، كأنه يريد الفرار، مع أن يكون رائياً له، حتى يغالى فى الاستهزاء و الاستنكار.

[٦٨] فى حال كونهم مُسْتَكْبِرِينَ متكبرين عن قبول الحق به أى بسبب ما يتلى عليهم من الإيمان، فإن المعاند إذا سمع الحق زاد كبرا و عتوا سامراً تَهْجُرُونَ أى تقولون الهجر- و هو الكلام البذى- حول الرسول و الرسالة، فى لياليكم إذا تسمرون، و السمر هو التحدث ليلاً، و الإتيان ب «سامر» مفرداً مع أنه وصف للجميع، باعتبار كل واحد، و فيه تفنن فى الألفاظ مفرداً و جمعاً، و هو نوع من البلاغة، و يحتمل أن يكون «به» متعلقاً ب «تهجرون» أى تهجرون بما يتلى عليكم، و على كل فهذا إشارة إلى ما كان فيه كفار مكه- كما هو عادة كل كافر فى كل زمان- أن يسامرون حلقة حلقة، فكان من حديثهم الطعن و الاستهزاء، بالقرآن و النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

[٦٩] أ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ الذى أنزل إليهم، حتى يعرفوا صدقه؟ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ فأوه شيئاً جديداً، و الناس لا يذعنون للشىء الجديد، فلقد أرسل الله تعالى إلى البشر أنبياء قبل الرسول، كموسى عليه السلام و عيسى عليه السلام، و إبراهيم عليه السلام، و غيرهم، فما يمنع هؤلاء عن الإيمان؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٩ إلى ٧١]

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)

[٧٠] أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ بالصدق و الأمانة و الصفات الخيرة فهم لذا له أى للرسول مُنْكَرُونَ فإن الإنسان إذا رأى من أحد ادعاء كبيراً، و لم يعرف مزايا ذلك الشخص لم يرضخ له، و احتمال فيه الكذب و الدجل، لكن هؤلاء يعرفون الرسول حق معرفته.

[٧١] أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ أى جنون، و الكلام الذى يقوله إنما هو كلام المجنون؟ فليس هذا صحيحاً، حتى عند أولئك الذين رموا به يريدون تنفير الناس عنه بل جاءهم بالحق الذى لا مريه فيه و لا شبهة و أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ فإن هذا هو السبب الوحيد الذى يمنعهم عن الإيمان، و إلا فليس لهم ما يبرر موقفهم العدائى، و لو حجة ضئيلة واهية، و لقد كان هذا عادة الناس، فإن الحق لما يوجب زحزحة بعض مكانهم يكرهونه، و يختلقون حوله ألف و صمه و منقصة.

[٧٢] إنهم يريدون أن يكون الرسول وفق أهوائهم و شهواتهم، حتى يصدقوه، و يعترفوا به، كما قال سبحانه: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) «١» و الحق لا يمكن أن يتبع الأهواء ف لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ و ميولهم، كأن يعترف بالأصنام و بسائر ما يأتون من المنكرات لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ فإن هوى هذا الإنسان أن يمطر فى غير فصله، و هوى ذاك أن يهلك أعداءه، و هكذا، أو المراد

(١) القلم: ١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٥٩

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣)

باتباع الحق أهواءهم أن يجعل الله لنفسه شريكا يعطى له التصرف في الملك كما يتصرف هو تعالى، فإنه موجب لتغيير الأجرام وفساد الأوضاع، إذ ليس لأحد من الحكمة كالله سبحانه، وربما قيل أن فساد السماء عدم المطر، وفساد الأرض عدم النبات، وفساد الناس فيهما بل أتيناهم بذكرهم أي أرسلنا إليهم، ما يبقى ذكرهم لدى الأجيال بالخير لو آمنوا به - كما بقى ذكر من آمن بكل تجلته واحترام - فهم عن ذكرهم الذي فيه شرفهم وحسن سمعتهم مغمضون راضون بالخمول، وأن يذهب حسن سمعتهم أدراج أهوائهم، ولقد حاول القرآن الحكيم إقناعهم بكل الطرق حتى بهذا الطريق، لكنهم أبوا إلا العناد واللجاج.

[٧٣] أَمْ تَسْأَلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرْجًا أَى أَجْرًا عَلَى الرَّسَالَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ رِسَالَتَكَ خَوْفًا مِنَ الْمَالِ وَالضَّرِيْبَةِ؟ فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ أَى أَجْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَكَ عَلَى إِرْشَادِكَ، وَتَعْلِيمِكَ خَيْرٌ مِمَّا يَنْتَظَرُ مِنَ الْبَشَرِ الْمَحْتَاجِ الْمَفْتَقِرِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِهِمْ، لِأَنَّهُ يُعْطَى كَثِيرًا، وَلَا يَطْلُبُ فِي الْمَقَابِلِ شَيْئًا، وَلَا يَمْنُ عَلَى مَنْ يَمْنَحُهُ الرِّزْقَ.

[٧٤] وَإِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَلَا التَّوَاءُ فِي الْعَقِيدَةِ وَلَا انْحِرَافَ فِي الشَّرِيعَةِ، وَإِنَّمَا سَائِرُ الْعَقَائِدِ وَالطَّرِيقِ مَلْتَوِيَةٌ مَنَحْرَفَةٌ، فَهَلْ يَخَافُونَ إِنْ قَبِلُوا دَعْوَتَكَ أَنْ تَضْلَهُمْ وَتَحْرِفَهُمْ عَنِ الْجَادَةِ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٤ الى ٧٦]

وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّوْطِ لَنَّا كِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)

[٧٥] وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالْدِينِ، إِذِ الْإِيمَانُ بِالْدِينِ كَلَهُ يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِالْآخِرَةِ، وَجِيءَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مَسْئُولِيَّةَ وَجْزَاءِ حَتَّى يَعدَلُوا سَلُوكَهُمْ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ عَنِ الصَّوْطِ الْمُسْتَقِيمِ لَنَّا كِبُونَ أَى عَادِلُونَ مَائِلُونَ، فَدِينُكَ مُسْتَقِيمٌ وَدِينُهُمْ مَنَحْرَفٌ.

[٧٦] وَلَقَدْ صَعِبَ عِلَاجُ هَؤُلَاءِ فَلَا بِالْفَضْلِ يَشْكُرُونَ، وَلَا عِنْدَ الضَّرَاءِ يَرْجِعُونَ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ بِأَنْ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ ابْتَلَوْا بِالْقَطْعِ الشَّدِيدِ عَلَى أَثَرِ دَعَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أَى لَتَمَادُوا فِي ضَلَالِهِمْ، وَ«الَلج» التَّمَادَى وَالتَّمَسُّكُ الشَّدِيدُ بِالْبَاطِلِ، وَ«عَمَهُ» عَمَى الْقَلْبَ، أَى إِنْ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِمْ بِطَرْتِهِمُ النِّعْمَةَ.

[٧٧] وَإِنْ أَبْقَيْنَاهُمْ فِي الضَّرِّ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالشَّدَائِدِ، لَمْ تَنْفَعَهُمْ فِي الْإِقْلَاعِ عَمَّا يَفْعَلُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ أَى بِالصَّعُوبَاتِ كَالْجَدْبِ وَضَيْقِ الرِّزْقِ، وَآمَالِهَا فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ الْاسْتِكَانَةُ: التَّضَرُّعُ وَالتَّنْقِيَادُ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ إِلَى اللَّهِ، بِأَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَيَنْقَادُوا لِأُؤْمَرِهِ لِيُدْفَعَ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ، وَهَؤُلَاءِ عَكْسُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ إِنْ أُعْطُوا شَكَرُوا وَإِنْ مَنَعُوا اسْتَغْفَرُوا، فَهَمْ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٧ الى ٧٩]

حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) «١» [٧٨] وَقَدْ كَانَ هَذَا دَابَّ الْكَافِرِينَ، وَحَالَتِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةُ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ بِأَنْ لَا يَكُونُ بَعْدَهُ مَوْضِعَ رَجُوعٍ وَتَوْبَةٍ، سِوَاءِ كَانَ بِالمُوتِ أَوْ بِالإِهْلَاكِ أَوْ فِي الْآخِرَةِ، وَفِي

رواية أنه في الرجعة، و هو أيضا مصداق لذلك إذا هم فيه أى فى ذلك العذاب مُبْلِسُونَ من أبلس بمعنى تحير و يأس فإنهم سادرون فى الكفر و الغى، حتى يصلوا إلى ذلك العذاب، حيث لا مرجع ولا توبة، بل يأس من الخلاص و إبلاس.

[٧٩] ثم أخذ السياق يوقظ وجدان هؤلاء بالنعم الكثيرة التى تدل على وجود منعهما و علمه و قدرته و فضله و هو الله الواحد الذى أَنشَأَ و خلق لَكُمْ أيها البشر السَّمْعَ وَ الأَبْصَارَ وَ الأَفْتِدَةَ جمع فؤاد، و هو القلب، و الاختلاف فى السمع بالافراد، و فى الأبصار و الأفتدة بالجمع، لتفنن بلاغى قليلاً ما تَشْكُرُونَ «قليلاً» منصوب ب «تشكرون» أى تشكرون الله سبحانه قليلاً، و «ما» زائدة للتقليل.

[٨٠] وَ هُوَ اللهُ الواحد الذى ذَرَأَكُمْ أى خلقكم و أوجدكم فى الأرض فمن غيره خلقكم أيها البشر؟ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الحشر، هو الجمع، أى تجمعون بعد الموت للحساب و الجزاء، و كما قدر على

(١) المعارج: ٢٠-٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)

الابتداء بأن «ذراكم» يقدر على الإعادة.

[٨١] وَ هُوَ اللهُ الواحد الذى يُحْيِي الأعموات كما أحى التراب فجعله إنسانا و حيوانا وَ يُمِيتُ الأحياء كما نرى كل يوم، و من زعم انه قادر على الإماتة فقد أخطأ، فإنه قادر على إيجاد بعض الأسباب أما الإماتة فإنها من الله سبحانه، كما أن من زعم أنه قادر على الإحياء- بإلقاء الماء العفن فى مكان حتى يولد البعوض- فقد أخطأ و له أى بخلقه و تقديره اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أى مجيء أحدهما خلفه للآخر، يقال اختلفا، إذا جاء أحدهما خلف الآخر، كما قال سبحانه (وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً) «١» أَ فَلَا تَعْقِلُونَ؟ أى تعملون عقولكم و تفكرون فى هذه النعم الباهرة، إنها لا بد لها من إله قادر عالم متفضل حكيم.

[٨٢] إن الكفار أعرضوا عن كل هذه الآيات و جميع هذه النعم بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ المنكرون للمبدأ و المعاد.

[٨٣] و ماذا قال الأولون و اتبعهم هؤلاء فى تلك المقالة؟ قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا بكسر الميم من «مات» «يميت» على وزن «باع يبيع» وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أى كانت أبداننا ترابا، و بقيت عظامنا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ نحى للحساب؟

(١) الفرقان: ٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٣

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّنْعِ وَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ (٨٦)

[٨٤] لَقَدْ وَعِدْنَا بهذا البعث، و عدونا الأنبياء عليهم السلام نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ أى من قبل و عدك لنا، و عد الأنبياء عليهم السلام آباءنا إِنْ هَذَا أى ما هذا الوعد بالبعث إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ الأسطورة هى القصة التى لا حقيقة لها، يعنى إن هذه الإخبارات حول المعاد، ليست إلا أكاذيب لفقها الأولون، و اتخذتها أنت يا محمد.

[٨٥] قُلْ يا رسول الله فى جواب هؤلاء الذين يستبعدون الحشر و الحساب، و يجعلون لله شركاء، فلقد كانوا مضطربى العقيدة، فقسم منهم يعترف بالله و مع ذلك يتخذ الأصنام، و لذا أراد القرآن أن يستدرجهم ليعترفوا بما هو مسلم فيردهم بذلك عن غيرهم، و لذا

أخذ يسألهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قائلاً: لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا؟ فمن خلقها و من مالكتها، وكذلك من خلق ما فى الأرض و من مالكتها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أجيبونى عن هذا السؤال.

[٨٦] سَيَقُولُونَ فى الجواب، إن الأرض و من فيها لله وحده، و لعل الإتيان ب «السين» إفادة لتفكرهم مقدارا قليلا حتى يقولوا هذا الجواب قُلْ يا رسول الله لهم حين اعترفوا بأنها لله أَفَلَا تَذَكَّرُونَ بعد ذلك أن ليس للأصنام نصيب فى الخلق، فلما ذا تتخذونها آلهة، و إن من يقدر على الابتداء يقدر على الإعادة، فكيف لا تعترفون بالمعاد.

[٨٧] و إذ أجابوا حول الأرض القريبه منهم، فليتوجه السؤال إلى السماء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)

قُلْ يا رسول الله لهم مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؟ و كأنهم كانوا يعترفون بأن السماوات سبعة و مَنْ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ فقد كانوا يقولون أيضا بوجود العرش، لما ترسخ فى أذهانهم من آثار علم الأنبياء السابقين.

[٨٨] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ كُلُّ ذَلِكَ قُلْ يا رسول الله لهم حينما أجابوا أَفَلَا تَتَّقُونَ أى ألا تخافون من هذا الإله الذى يملك كل شىء أن يعمكم بعداب إن خالفتم أمره و اتخذتم معه شركاء، و أنكرتم البعث و الحساب؟.

[٨٩] قُلْ يا رسول الله لهم مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ الْمَلَكُوتِ مَبَالِغُهُ فى الملك، كالجبروت مبالغة فى الجبر، و المراد بملكوت كل شىء ملكه و جميع شؤونه، فإن هذه الشؤون التى تتغير فى هذا العالم لا بد و أن يكون لها مالك و متصرف وَ هُوَ يُجِيرُ أى يغيب من يشاء، و يحفظه من أن يصل إليه سوء، يقال: أجاره، إذا آمنه من المكروه المتوجه إليه وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ أى لا يحفظه أحد من سوء إذا أراد بشخص سوء، فلو أراد -مثلا- زيد بمحمد سوء، أجاره الله من زيد، أما لو أراد الله برجل سوءا، فلا شخص يحفظ ذلك الرجل من عقوبة الله سبحانه إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذلك، فأجيبونى؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٥

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٨٩ الى ٩١]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ أَعْلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)

[٩٠] سَيَقُولُونَ فى الجواب لله أى أن ملكوت كل شىء و الإجارة و البطش الشديد الذى لا يجار منه، كلها لله سبحانه قُلْ يا رسول الله لهم حين أجابوا بذلك فَأَنَّى تُشْحَرُونَ أى كيف يخيل إليكم الحق باطلا، و الصحيح فاسدا، إنكم بعد هذه الاعترافات كيف تجعلون لله شركاء و تنكرون قدرته على البعث و الإحياء، مخدوعين بالتقاليد، كالإنسان المسحور الذى يخيل إليه الباطل و يعرض عن الحق.

[٩١] يَلِ أَيْنَانَهُمْ بِالْحَقِّ أى جئنا إليهم ما هو حق و واقع من التوحيد و البعث، و لم تأتهم بالكذب وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فى مقالهم، و هذا مقابل قولهم: إن الرسول كاذب، أو «أنهم» عطف على «بالحق» أى أتيناهم و بينا لهم «أنهم لكاذبون» لكنهم يصرون على كذبهم.

[٩٢] مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ كما يزعم النصارى إن المسيح ابن الله، و يزعم اليهود إن عزيز ابن الله، و يزعم المشركون إن الملائكة بنات الله، و «من» لتقوية تعميم النفى، فلو كان المراد «التبنى» كان المعنى إنه خلاف الواقع، و لو كان المراد «للولادة» كان المعنى إنه مستحيل و ما كان مَعَهُ أى مع الله سبحانه مِنْ إِلَهٍ شريكا له إِذًا أى إذا كان معه إله آخر لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ أى ميز كل إله ما خلقه عما خلق الإله الآخر حتى يستقل بهم، و يمنع الإله الآخر عن الاستيلاء عليهم، و هذا كما يقال «ذهب كل رئيس مع أتباعه» و ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٦

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣)

تشبيه بالذهاب في الأرض الموجب لتمييز الفرق بعضها من بعض و لعلنا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أى طلب بعض الآلهة قهر بعض و الغلبة عليه، ليستقل هو بالملك، كما يفعل الملوك في الدنيا، لا يقال أن حكمتهم مانعة عن ذلك؟ لأننا نقول تعدد الإله موجب لإمكان الآلهة، و الإمكان يلزم صفات الممكن التي منها حب الاستعلاء و الغلبة بتوابعه، و قد سبقت الإشارة إلى دليل التمانع في بعض السور المتقدمة سُبْحَانَ اللَّهِ أى أنزه الله تنزيها عَمَّا يَصِفُونَ الإله به، من قولهم «له ولد» و «له شريك» فإن هذا توصيف لله تعالى بالولادة و التبنى و بالشريك.

[٩٣] إنه سبحانه عالم الغيب أى ما غاب عن الحواس و الشَّهَادَةِ أى ما حضر لدى الحواس، بأن كان مرثيا أو مسموعا، أو ما أشبهه، فهو وحده عالم كل غيب و شهادة، و لو كان معه إله آخر لعلم ذاك، كما يعلم هذا فتعالى أى ارتفع - و ليس في الفعل معنى الزمان، كما هو كذلك في كل فعل يجرى عليه فيما كان من صفات الذات، نحو «علم» و «قدر» و ما أشبههما - عَمَّا يُشْرِكُونَ أى عن الشيء الذي يشركون الإله به، أو تعالى عن شركهم، فهو أعلى مما يزعم شريكاه.

[٩٤] و حيث لم ينفع في القوم الدليل، يتوجه الخطاب إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، مرشدا له، أن يدعو الله سبحانه أن لا يشمل العذاب الذي يأخذ القوم - إن قدر لهم عذاب - بسبب كفرهم و إصرارهم في العناد قُلْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٧

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٤ الى ٩٦]

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَ إِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعْ بِإِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)

يا رسول الله يا رَبِّ إِمَّا أَصْلَهُ «إن» الشرطية و «ما» الزائدة التي جيء بها للتقليل تُرِيئُنِي مَا يُوعَدُونَ أى إن أريتني ما يوعد هؤلاء الكفار من العذاب و النعمة.

[٩٥] يا رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ بل أخرجني من بينهم عند ما تريد إحلال العذاب بهم، لئلا يصيبني ما يصيبهم، و هذا الدعاء في مورده، إذ من الممكن أن تعم الكارثة الصالحين، ليكون زيادة لأجرهم و رفعه لدرجتهم، و في الآية تعريض بالكفار بأنهم حيث أصروا على العصيان و الطغيان، صاروا معرضا لعقوبة الله و عذابه.

[٩٦] وَ إِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ أى ما نعد الكفار من العذاب و النكال لَقَادِرُونَ و إنما نمهلهم استدراجا (وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ) «١».

[٩٧] و إذا كان الكفار يصرون في العناد، و يتصدون للنبي و المؤمنين بالإيذاء، أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يداريهم، فإن ذلك أكثر نجاحا للدعوة، و خير لتخفيف الأذى، فإن الظالم لا يجد عذرا في إدامه ظلمه لو رأى من الطرف اللين اذْفَعْ يا رسول الله بالطريقة التي هِيَ أَحْسَنُ الطَّرِيقِ السَّيِّئَةِ التي يواجهونك بها، و ذلك بالإغضاء و العفو، و قد يقال: إن الأحسن هو أن يفعل ما يقتضى الحال من العفو

(١) الأنفال: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٨

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٧ الى ٩٩]

وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ

(٩٩)

أو النكال، فإن الأحسن بالنسبة إلى بعض العفو، و بالنسبة إلى آخرين الأخذ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ الله و الرسول و الرسالة و القرآن و المعاد به فهم تحت علمنا و سنجازيهم على ما يصفون، و هذا تسلياً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و تهديد لهم، فإن معنى قول الملك «أنا أعلم ما يفعله المجرم» إنه سيجازيهم بفعله السيئ.

[٩٨] إنهم إنما يصفون ما يصفون من إلقاءات الشياطين و وساوسهم، فمن الجدير بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ - و إن كان معصوماً في ذاته - أن يستعذ بالله من الشيطان كي لا يهزمه، بل لا يحضر عنده مجرد حضور، فإن حضور الشيطان مكروه لذاته، فإنه يهزم الكفار، و يلقي عليهم الكفر مستمراً، حتى أن يأتيهم الموت و هناك يقولون رَبِّ ارْجِعُونِ بلا جدوى ف قُلْ يا رسول الله، يا رَبِّ أَعُوذُ بِكَ أَى أَعْتَصِمُ وَ أَلُوذُ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ حتى لا يتمكن الشيطان من همزي، و الهمز شدة الدفع، فإن الشيطان يدفع الإنسان دفعا قويا نحو الكفر و المعاصي، و لذا يجد العاصي من نفسه اندفاعاً شديداً نحو العصيان.

[٩٩] وَ أَعُوذُ بِكَ يَا رَبِّ أَنْ يَخْضُرُونِ أَى يحضرون عندي، فإن حضور الشيطان مكروه، لما له من الشقوة و البعد من الرحمة و إن لم يهزم و لم يوسوس.

[١٠٠] لكن الشيطان يحضر الكفار و العصاة، و يدفعهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٦٩

[سورة المؤمنون (٢٣): آية ١٠٠]

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ «الموت» فاعل «جاء» قال ذلك الكافر و العاصي - الذي عبر عنه ب «أحدهم» - و قوله هذا إنما يكون إذا أشرف على الموت و رأى آثاره، يا رَبِّ ارْجِعُونِ و الإتيان بالجمع على العادة في التأدب عند مخاطبة الكبراء.

[١٠١] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ أَى في تركتي بأن أودى حق الله أو في ما تركت من الدنيا، بأن أعمل حسب أوامر الله، و لفظه «ارجعون» و «تركت» باعتبار إشرافه على الآخرة، و إلا فهو بعد في الدنيا، و إنما يرى الملائكة، و هو أخذ في مقدمات العز، أو أن ذلك القول بعد قبض روحه، و معنى «جاء» أنه مات، و الجواب لهذا الطلب كلاً لا رجوع إلى الدنيا إنَّهَا أَى مسألة الرجعة كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا لا- فائدة فيها، و لا- أثر يترتب عليها، أو المراد أنه وعد كاذب، إذ (وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١) و مِنْ وَرَائِهِمْ و إنما جيء بهذا التعبير، لأن وجهه إلى الدنيا، فكأن ما يأتي خلفه و وراءه بَرْزَخٌ و هو العالم المتوسط بين هذا العالم و عالم الآخرة، و البرزخ- لغة- بمعنى الحاجز بين شيئين إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فهم في العذاب و النكال هناك، و كان الإتيان بهذا، لثلا يظن ظان، أنهم معدومون، حتى يبعثوا، فليس لهم تعب و عذاب في هذه القطعة، فإن

(١) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٠

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠١ إلى ١٠٣]

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)

قبر الكافر حفرة من حفر النيران.

[١٠٢] فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ «الصور» هو البوق الذي ينفخ فيه ميكائيل معلنا قيام الساعة فلا أنسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَى يوم النسخ، و الأنساب جمع نسب، و هو صلة الإنسان مع غيره بالأبوة و النبوة، و ما أشبههما، و المراد أن الأنساب لا تنفع هناك للنجاة من العذاب، فنفي

الحقيقة باعتبار نفي الصفة نحو «يا أشباه الرجال، و لا رجال» و لا يتساءلون أى لا يسأل بعضهم بعضا عن شىء، فقد ساد الموقف سكوت الخوف، و سكوت الخشية حتى لا يتجرأ أحد على الكلام، و حيث إن مواقف القيامة كثيرة، لم يكن تناف بين السكوت و عدم التساؤل فى موقف، و بين التكلم و التساؤل فى موقف آخر.

[١٠٣] فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ «موازن» جمع «ميزان» و المراد، ثقل الميزان بالطاعات، و لعل الإتيان بالجمع، لأن لكل عمل ميزانا، فللصلاة ميزان، و للزكاة ميزان، و هكذا فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالدرجات الرفيعة.

[١٠٤] وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ بأن ارتفعت كفة الصالحات، و ثقلت كفة السيئات فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فكَانَهُمْ باعوا نفوسهم بالمعاصي، فذهبت نفوسهم من أيديهم، فهم فى تعب، و فى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧١

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٤ الى ١٠٨]

تَلَفُّحٌ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)

باقون أبد الأبدين، فى مقابل المؤمنين الذين أعطوا الطاعة، و أخذوا النفوس، فربحوا نفوسهم، فهم فى نعيم مقيم.

[١٠٥] تَلَفُّحٌ وَجُوهَهُمُ أى وجوه الخاسرين النار فاعل تلافح، و اللفح ضرب السموم للوجه، أى يصيب وجوههم لفتح النار و لهيبتها وَ هُمْ فِيهَا أى فى النار كَالِحُونَ من كالح، و الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان، حتى تبدو كالرأس المشوية.

[١٠٦] و هناك يشتمون ليزداد عذابهم الروحي على عذابهم الجسمي، فيقال لهم أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي وَ أدلتى تُتْلَى عَلَيْكُمْ و تقرأ عندكم، و الاستفهام تقريرى توبيخى فَكُنْتُمْ بِهَا أى بالآيات تُكَذِّبُونَ فذوقوا جزاء تكذيبكم.

[١٠٧] قَالُوا فى الجواب، يا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا فقادتنا أنفسنا الأماره إلى هذا الشقاء وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ عن الطريق، يقولون هذا حيث لا مجال هناك إلا للاعتراف، يريدون بذلك الاسترحام.

[١٠٨] يا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا من النار فَإِنْ عُدْنَا إلى الكفر و التكذيب و العصيان فَإِنَّا ظَالِمُونَ لأنفسنا بعد ذلك، و لا حجة لنا أبدا، و هم يظنون بذلك أنهم يغرون الله سبحانه.

[١٠٩] قَالَ اللهُ سبحانه، أو المالك للنار، و هو الملك بها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٢

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٩ الى ١١١]

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوُكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

اخْسَرُوا فِيهَا أى فى النار، أى ابعدوا بعد الكلب، فإن هذه اللفظة لزجر الكلاب، و إنما يقال لهم للإهانة و الإذلال وَ لَا تُكَلِّمُونِ أى لا تكلموننى، فأنتم لا تستحقون الخطاب و المكالمه، ألم تكونوا تستهزئون بالمؤمنين فى الدنيا؟ فهذا جزاء كم فى الآخرة.

[١١٠] ألا تذكرون إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ أى جماعة مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ فى الدنيا يا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ أى كانوا يدعون بهذا الدعاء، بعد أن آمنوا بالله سبحانه، و عملوا الصالحات، و الفريق هم الأنبياء و الأئمة و المؤمنون.

[١١١] فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا أى كنتم تسخرون و تستهزئون منهم، منسوب إلى السخرة، و هو من يسخر به، و كأن النسبة لزيادة الاستهزاء، فإن السخرة يهزأ به، فكيف بمن ينتسب إليه؟ حَتَّى أَنْسَوُكُمْ أولئك الفريق ذِكْرِي فإن الإنسان إذا اشتغل بالسخرة نسى الذكر و أعرض عنه، و إنما نسب النسيان إليهم لأنهم السبب فى التمسخر الموجب لنسيان الذكر وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ أى من أولئك الفريق تَضْحَكُونَ و معنى «منهم» من أعمالهم و أقوالهم.

[١١٢] إِنِّي جَزَيْتُهُمْ أَي أُعْطِيتُ جِزَاءَ أَوْلَئِكَ الْفَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَي بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى التَّكْلِيفِ، وَ عَلَى تَحْمِلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٣

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٢ إلى ١١٤]

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)

سخرتكم أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ الظَّافِرُونَ بِمَا أَرَادُوا، فَجَزَاؤُكُمْ النَّارَ، وَ جَزَاؤُهُمُ الْفَوْزَ وَ الْجَنَّةَ.

[١١٣] ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْكُفَّارِ لِزِيَادَةِ تَقْرِيعِهِمْ وَ بَيَانِ أَنَّهُمْ إِنَّمَا عَصَوْا وَ أَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي هَذَا الْعَذَابِ، لَوْ قَدْ قَلِيلٌ فِي عَمْرِ الدُّنْيَا قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ مَكْتُومٌ وَ بَقِيَّتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ أَي مِنْ جِنْسِ هَذَا الْعَدَدِ مَقَابِلَ عَدَدِ الْأَيَّامِ وَ عَدَدِ الشُّهُورِ.

[١١٤] قَالُوا وَ قَدْ نَسُوا مَقْدَارَ بَقَاءِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَضَوَّلُوا فِي أَعْيُنِهِمْ مَدَّةَ الْبَقَاءِ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ لِنَسْيَانِهِمُ الْمَقْدَارَ، أَوْ قَالُوهُ مَجَازًا، تَقْلِيلًا لِمَدَّةِ الْمَكْتُومِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ إِذَا مَضَى يَرَاهُ الْإِنْسَانُ قَلِيلًا فَسَلِّ يَا رَبِّ عَنْ مَدَّةِ مَكْتُنَا الْعَادِينَ أَي الْحَسَابِ الَّذِينَ قَدْ عَدُوا، فَإِنَّا لَا نَدْرِي أَيُّ يَوْمًا بَقِينَا، أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ؟ وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ الْمَرَادَ سُؤَالَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عَدُوا أَعْمَارَهُمْ وَ سَاعَاتِهَا؟

[١١٥] قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، مَظْهَرًا، أَنَّ لَيْسَ الْمَقْصُودُ مَقْدَارَ الْمَكْتُومِ بِالسَّنِينَ وَ الشُّهُورِ، وَ إِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِالسُّؤَالِ أَنَّ بَقَاءَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَانَ قَلِيلًا فَقَدْ أَذْهَبْتُمْ الْآخِرَةَ لِأَجْلِ شَهْوَاتٍ زَائِلَةٍ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ الْقَلِيلَةِ إِنْ لَبِثْتُمْ أَي مَا كُنْتُمْ وَ بَقِيَّتُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَلِيلًا وَ لَوْ كَانَ سِنُونَ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَ تَحْسِنُونَ التَّقْدِيرَ، لَعَلِمْتُمْ أَنَّ بَقَاءَكُمْ فِي الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٤

[سورة المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٥ إلى ١١٧]

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)

قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ الَّتِي لَا فَنَاءَ لَهَا وَ لَا زَوَالَ.

[١١٦] أَفَحَسِبْتُمْ وَ ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا بِاطْلَا- وَ لُغْوًا، فَلَا- حِسَابَ وَ لَا- ثَوَابَ وَ لَا- عِقَابَ وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ وَ الْمَرَادُ إِلَى حُكْمِنَا وَ جِزَاءِنَا، إِنْ ظَنَنْتُمْ ذَلِكَ بِاطْلٍ كَذِبٍ، وَ هَذَا إِذَا كَلِمًا مُسْتَأْنَفٍ خَطَابًا لِلْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ عَطْفًا عَلَى السَّابِقِ، وَ أَنَّهُ فِي جُمْلَةِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُقَالُ لِلْكَفَّارِ فِي الْآخِرَةِ [١١٧] فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ وَلَدٌ- وَ هَذَا رُجُوعٌ إِلَى الْكَلِمَاتِ السَّابِقَةِ حَوْلَ نَفْيِ الْوَلَدِ وَ الشَّرِيكِ- أَنَّهُ هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ، وَ مَا سِوَاهُ مِنْ دُونِ الْأَلْهَةِ مُلُوكٌ بِاطْلَةٌ مُوَهُومَةٌ، لَا حِصَّةَ لَهَا مِنَ الْمَلِكِ وَ الْخَلْقِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعَرْشِ أَي الْمَلِكِ، أَوْ الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ تَشْرِيفِي لَهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مَلَازًا لِلْمَلَائِكَةِ، كَمَا خَلَقَ الْكَعْبَةَ مَلَازًا لِلنَّاسِ الْكَرِيمِ فَإِنَّ لِلْعَرْشِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَ الْعِظَمَةِ قَدْرًا كَبِيرًا.

[١١٨] وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ بَأَنَّ يَجْعَلُ اللَّهُ شَرِيكًا لَآ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ أَي فِي حَالِ كَوْنِهِ لَا حِجَّةَ وَ لَا دَلِيلَ لِلدَّاعِي بِذَلِكَ الْإِلَهِ الثَّانِي فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَي أَنَّ مَقْدَارَ جِزَاءِ سَيَعْلَقُهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَةِ الْبَاطِلَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ، بِأَنَّهُ تَعَالَى سَوْفَ يَحْسَبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٥

[سورة المؤمنون (٢٣): آية ١١٨]

وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

حَسَابًا عَسِيرًا إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ أَي لَا يَفُوزُونَ، وَ لَا يَخْلُصُونَ مِنَ الْعِقَابِ.

[١١٩] وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا رَبِّ اغْفِرْ الذُّنُوبَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الْغَفَّارُ، وَ لَا شَفَعَاءَ مِنْ دُونِكَ، كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ وَ ارْحَمْ أَى تَفْضِلُ بِالرَّحْمِ وَ الْخَيْرِ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الرَّاحِمُ الْمَتَفَضَّلُ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ أَفْضَلُ الْمُنْعَمِينَ وَ أَكْثَرُهُمْ فَضْلًا، بَلْ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْكَ، وَ إِنَّمَا غَيْرِكَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا مَا مَلَكَتْهُ، فَأَنْتَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ، وَ إِنْ إِلَيْكَ الْمَرْجِعُ، وَ إِنَّكَ الْغَافِرُ الرَّاحِمُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٦

٢٤ سورة النور مدنية / آياتها (٦٥)

سميت السورة بالنور، لاشتغالها على هذه اللفظة، و هي كسائر السور المدنية تعرض إلى النظام، و تشريع القوانين، و لما اختتمت سورة المؤمنين، بأن الله سبحانه لم يخلق الخلق للبعث بل للأمر و النهي، ابتدأت هذه السورة بذكر الشرائع و فرض النظام الاجتماعي.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ استعانه باسم الإله، الذى يعين الإنسان، إذا استعان به، و هو رحمن رحيم، يرحم و يتفضل بما هو أهله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٧

[سورة النور (٢٤): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

[٢] هذه سورة السورة مأخوذة من سور البناء، و هو ارتفاعه، و منه يسمى سور البلد سورا، و إنما سميت سور القرآن بها، لأنها مرفوعة في النفوس، أو لأنها محيطه بجملة من العقيدة و الآداب أنزلنا أي أنزلنا هذه السورة، و الإنزال، إما باعتبار مجيئها من فوق، إذ الملك يهبط عن السماء، أو باعتبار أنها جاءت من طرف العلى الأعلى و فرضناها أي أوجبنا العمل بها، و لعل هذا التأكيد لاشتغالها على الحد و ما أشبهه، مما يحتاج إلى التأكيد البالغ، فإن الفرائض الشديدة تحتاج إلى قوة في البيان، حتى تحفز تلك القوة على تطبيقها و أنزلنا فيها في هذه السورة آيات بينات واضحة ظاهرات، و الظرف باعتبار المجموع، المظروف باعتبار كل قطعة قطعة، و آية آية لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى لكي تتذكروا، ما هو كامن في فطرتكم من الأمور المرتبطة بالعقائد و الآداب و الأنظمة، فإن الله سبحانه جعل في النفس فطرة المعارف، كما جعل فيها فطرة الآداب، و إن كانت مجملته تحتاج إلى الشرح و البيان و ذكر المزايا التي لا تصل الفطرة إليها بمجردا.

[٣] و بعد تلك المقدمة الشديدة، يأتي النظام الصارم لمن ينحرف عن العفاف الزانية و الزانى و لعل تقديم «الزانية» لكون عملها أشنع، و لأن العطف نحوها أكثر، لرقه جنس المرأة فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلد، و ذلك بضر بهما بالجلد، الذى هو عود طويل على رأسه خيط طويل من الجلد، يؤلم الجسم كثيرا، يستعمله في هذا الزمان أهل الأفراس و العربيات، و لا يخفى أن هذا الحكم إنما هو مقيد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٨

[سورة النور (٢٤): آية ٣]

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

بعض القيود المستفاد من الشرع- كما هو مذكور في كتاب الحدود- و لا تأخذكم أيها الحكام المجرون للحد بهما أى بأى من الزانى و الزانية رافة أى شفقه و رحمة في دين الله أى في هذا الحد المرتبط بالدين، الذى أنزله الله من السماء إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر أى تعتقدون بالله، و تقرون بالبعث و النشور و ليشهد أى اللزم أن يحضر عذابهما أى في حال جلد الزانية و الزانى طائفة من المؤمنين أى جماعة منهم، ليكون أردع للزناه، حيث يرون العذاب و الفضيحة، و ينشر الخبر بسبب أولئك مما شاهدوه عيانا، و من

الغريب أن بعض الغربيين - الذين أباح قانونهم التنكيل بالبشر، بما لا يتحمل الإنسان على مجرد سماعه، كاستعمال الكلابيب للجسم، و الحقنة بالبيضة و القنينة و الماء الحار، و الحمامات الحارة و الباردة، التي تنقط على رؤوس مجرميهم، و كى البدن بالمكاوى الكهربائية، و أشباهها مما يتقرز منه الجسم، و يستبشعه، حتى من له أقل شعور يعيرون على الإسلام مثل هذا القانون المطهر للمجتمع عن كثير من أنواع الفساد و الرذيلة، نعم إنهم أرادوا أن يزنوا فأباحوا ذلك، و عابوا مثل هذا القانون و لو أرادوا الطهارة لرأوا أن هذا القانون هو القانون العادل الذى لا يجد الإنسان مطهرا للمجتمع مثله.

[٤] ثم أراد سبحانه تفضيح الأمر عليهما، فقال الزانى لا يَنْكحُ أى لا يزنى، و النكاح فى اللغة هو الوطء إلاً زانيةً أو مُشركَةً فإن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٧٩

[سورة النور (٢٤): آية ٤]

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)

المؤمنة العفيفة لا تكون طرفا لزنى الرجل الزانى، و هذا كقوله سبحانه (الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ) «١» و الزانية لا يَنْكحُها أى لا يطأها إلاً زانٍ أو مُشركٍ فإن المؤمن العفيف، لا يكون طرفا لزنى المرأة الزانية، و كأن هذا لدحض زعم بعض الناس الذين يتعاطون الزنى، زاعمين أنهم أعفاء، و إنما طرفهم فقط، رجل سيئ، أو امرأة سيئة، و قد يرى الإنسان رجلا، يدخل بيت الدعارة زاعما أنه يقضى حاجه، و إنما المرأة هى الزانية، أليس هو يقضى حاجه، و هى شغلها الزنى؟ و كذا فى صورة العكس، و قد ذكروا فى سبب نزول الآية ما روى عن الإمامين الباقر و الصادق عليه السلام، قالا هم رجال و نساء كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مشهورين بالزنى، فنهى الله عن أولئك الرجال و النساء

«٢»، و فى الآية احتمال آخر و ما ذكرناه هو الظاهر منها بملاحظة بعض القرائن الداخلية و الخارجية و حرّم ذلك النكاح للزانى أو الزانية على المؤمنين فالمؤمن لا يكون طرف زانية، و المؤمنة لا تكون طرف زان.

[٥] ثم انتقل السياق إلى حكم من يرمى المؤمنة بالزنى و الذين يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ أى يقذفون النساء العفيفات بالزنى، بنسبة الزنا إليهن، و «المحصنة» هى المرأة العفيفة و تسمى محصنة، لأنها أحصنت و حفظت نفسها بالعفاف، و لا مفهوم للآية حتى يدل على أن رمى غير

(١) النور: ٢٧.

(٢) راجع مستدرک الوسائل: ج ١٤ ص: ٣٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٠

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥ الى ٦]

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦)

المحصنة لا حكم له، و إنما سمي بالنسبة رميا، لأنها رمى للقول كما أن قذف الحجارة و نحوها رمى للشيء ثم لم يأتوا بأربعة شهداء عدول يشهدون على طبق كلام الرامى، بأنهم رأوا زناها عيانا فاجلدوهم أى اجدوا الرامين ثمانين جلدَةً و لا يقبل كلامهم بالنسبة إلى المقدوفة و لا تقبلوا لهم أولئك الرامين شهادةً أبداً إذا شهدوا على شيء، ردت شهادتهم و أولئك هم الفاسقون فلا يترتب عليهم ما يترتب على العدول، من الائتمام به، و تقليده، و صحة الطلاق عنده، إلى غير ذلك.

[٦] إلاً الذين تابوا من هؤلاء القاذفين من بعد ذلك الرمى و أصْلَحُوا أعمالهم، لم يفسقوا من جهة أخرى فإن الله غفورٌ يغفر ذنبهم رحيمٌ بهم يتفضل عليهم، فإن هؤلاء تقبل شهادتهم و لا يحكم بفسقهم، بل يجرى عليهم ما يجرى على سائر الناس من الأحكام.

[٧] وَالَّذِينَ يَزُومُونَ أَزْوَاجَهُمْ أَى يَنْسِبُونَ زَوْجَاتِهِمْ إِلَى الزنى وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ يَشْهَدُونَ لَهُمْ عَلَى صِحَّةٍ مَا قَالُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ اسْتِثْنَاءَ مَنْقُطَعٍ أَى أَنَّهُمْ يَدْعُونَ ذَلِكَ، وَ لَا شَاهِدَ لَهُمْ، فَالْإِزْمُ أَنْ يَجْلِدَهُمُ الْحَاكِمُ الشَّرْعِيُّ حُدَّ الْقَذْفِ، إِلَّا إِذَا تَدَارَكَ ذَلِكَ بِأَنْ حَلَفَ خَمْسَةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨١

[سورة النور (٢٤): الآيات ٧ الى ٨]

وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعٌ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) أَيْمَانًا، أَرْبَعٌ مَرَّاتٍ يَحْلِفُ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَ مَرَّةً يَحْلِفُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَشَهَادَةٌ أَحَدِهِمْ لِدَرْءِ الْحُدِّ عَنْهُ أَرْبَعٌ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ أَى يَسْتَشْهَدُ بِاللَّهِ لِمَقَالِهِ فِي رَمَى الزَّوْجَةِ بِالزنى فَيَحْلِفُ أَرْبَعٌ مَرَّاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِي قَوْلِهِ أَنَّهَا زَنْتٌ. [٨] وَالشَّهَادَةُ الْخَامِسَةُ الْمَتَمَّةُ لِتِلْكَ الشَّهَادَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَوْجِبَةُ لِرَفْعِ حُدِّ الْقَذْفِ عَنْهُ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ أَى طَرْدَهُ عَنِ الرَّحْمَةِ وَ عَذَابِهِ عَلَيْهِ وَ يَأْتِي بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ مَكَانَ الضَّمِيرِ الْغَائِبِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَى زَوْجَتَهُ بِهِ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْأَيْمَانُ الْخَمْسَةُ رَافِعَةً لِلْحُدِّ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ مِنْ جِهَةِ قَذْفِ زَوْجَتِهِ بِالزنا بِدُونِ شَهُودٍ.

[٩] وَ إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ تِلْكَ الْأَيْمَانَ الْخَمْسَةَ ثَبَتَ الْحُدُّ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَ قَامَتِ تِلْكَ الْأَيْمَانُ مَقَامَ الشَّهَادَاتِ الْأَرْبَعِ، وَ لَكِنْ إِذَا حَلَفَتْ هِيَ أَيْضًا خَمْسَةَ أَيْمَانَ، ارْتَفَعَتْ عَنْهَا الْحُدُّ وَ فُرِقَ بَيْنَهُمَا، فَلَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ لَهَا، وَ لَا تَحِلُّ هِيَ لَهُ إِلَى الْأَبَدِ وَ يَذْرُؤُا أَى يَدْفَعُ، وَ فَاعِلُهُ «أَنْ تَشْهَدَ» عَنْهَا أَى عَنِ الْمَرْأَةِ الْعَذَابَ أَى حُدَّ الزنى الَّذِي ثَبَتَ مِنَ حَلْفِ الرَّجُلِ بِتِلْكَ الْأَيْمَانِ أَنْ تَشْهَدَ الْمَرْأَةُ أَرْبَعٌ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ كَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَخَذَهَا شَهِيدًا لَهَا عَلَى بَرَاءَتِهَا، حَيْثُ تَحْلِفُ بِهِ إِنَّهُ أَى الرَّجُلُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَلَمْ تَرْنِ هِيَ، فَتَقُولُ - أَرْبَعٌ مَرَّاتٍ - أَشْهَدُ بِاللَّهِ، إِنَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٢

[سورة النور (٢٤): آية ٩]

وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)

لَمِنَ الْكَاذِبِينَ، فِيمَا قَذَفْنِي بِهِ مِنَ الزنى.

[١٠] وَ تَشْهَدُ الشَّهَادَةَ الْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِأَنْ تَقُولَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيَّ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا قَذَفْنِي بِهِ مِنَ الزنى وَ هَذَا الْحُكْمُ هُوَ الْمَسْمُومُ بِاللَّعَانِ،

وَ قَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ، مَا ذَكَرَهُ الْقَمِي، أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، جَاءَ إِلَيْهِ عُوَيْمِرُ بْنُ سَاعِدَةَ الْعَجْلَانِي وَ كَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ امْرَأَتِي زَنَى بِهَا شَرِيكَ بَنِ سَحْمَاءَ، وَ هِيَ مِنْهُ حَامِلٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَرْبَعٌ مَرَّاتٍ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَنْزِلَهُ، فَتَزَلَّ عَلَيْهِ آيَةُ اللَّعَانِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ صَلَّى بِالنَّاسِ الْعَصْرَ، وَ قَالَ لِعُوَيْمِرَ ائْتِنِي بِأَهْلِكَ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكُمْ قِرْآنًا فَجَاءَ إِلَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَدْعُوكَ وَ كَانَتْ فِي شَرَفٍ مِنْ قَوْمِهَا، فَجَاءَ مَعَهَا جَمَاعَةٌ، فَلَمَّا دَخَلَتْ الْمَسْجِدَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِعُوَيْمِرَ: تَقَدَّمْ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَقَالَ: كَيْفَ اصْنَعُ؟ قَالَ: تَقَدَّمْ وَ قُلْ أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنْ إِذَا لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ، فَتَقَدَّمْ وَ قَالَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَعْدَاهَا، فَأَعَادَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَعْدَاهَا، فَأَعَادَهَا، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ أَرْبَعٌ مَرَّاتٍ، فَقَالَ لَهُ فِي الْخَامِسَةِ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: إِنْ اللَّعْنَةُ مَوْجِبَةٌ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ثُمَّ قَالَ لَهُ: تَنْحُ فَتَنْحِي، ثُمَّ قَالَ لَزَوْجَتِهِ: تَشْهَدِينَ كَمَا شَهِدْتِ، وَ إِلَّا أَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدَّ اللَّهِ، فَنَظَرْتُ فِي وَجْهِ قَوْمِهَا، فَقَالَتْ: لَا أَسْوَدُ هَذِهِ الْوَجْوهَ فِي هَذِهِ الْعِشْيَةِ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَى الْمَنْبَرِ، وَ قَالَتْ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ عُوَيْمِرَ بْنَ سَاعِدَةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٣

[سورة النور (٢٤): آية ١٠]

وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

من الكاذبين، فيما رمانى به، فقال لها رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: أعيديها فأعادتها، حتى أعادتها أربع مرات، فقال لها رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: العنى نفسك فى الخامسة، إن كان من الصادقين فيما رماك به، فقالت فى الخامسة: إن غضب الله على، إن كان من الصادقين فيما رمانى به، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم ويلك إنها موجبة لك، ثم قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم لزوجها: اذهب فلا تحل لك أبدا، قال: يا رسول الله، فمالى الذى أعطيتها؟ قال: إن كنت كاذبا فهو أبعد لك منه، وإن كنت صادقا، فهو لها، بما استحلك من فرجها، ثم قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: إن جاءت بالولد أحمش الساقين، أنفس العينين، جعد ققط، فهو للأمر السيئ، وإن جاءت به أشهل وأصهب، فهو لأبيه، فيقال إنها جاءت به على الأمر السيئ فهذه لا تحل لزوجها، وإن جاءت بولد لا يرثه أبوه، وميراثه لأمه، وإن لم يكن له أم، فلأخواله، وإن قذفه أحد، جلد حد القاذف «١»، أقول: لقد روى فى سبب نزول هذه الآيات، روايات وانتسبت القصة إلى أناس آخرين ولا بعد فى ذلك كله، فكم من قضايا تتعدد، وكم من آية نزلت لأمرين أو أكثر.

[١١] وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بَمَنْعِكُمْ عَنِ الزَّنى وَالْفَوَاحِشِ وَجَعَلَ الْحُدُودَ عَلَيْهَا وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ كَثِيرُ الرَّجُوعِ عَلَى مَنْ عَصَى وَتَابَ، حَكِيمٌ ذُو حِكْمَةٍ فِى التَّشْرِيعَاتِ، لِنَالِكُمْ عُنْتِ وَإِرْهَاقِ فِى الدُّنْيَا، وَعَذَابِ فِى الْآخِرَةِ فَفَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا يُوجِبَانِ التَّيْسِيرَ، إِذْ لَوْ لَا الْفَضْلُ لَكَانَ يَحْدُ الْقَازِفِ أَوْ الْمَقْذُوفِ، وَ لَوْ لَا قَبُولُ التَّوْبَةِ لَكَانَ

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٧١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٤

[سورة النور (٢٤): آية ١١]

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)

يعاقب المذنب فى الآخرة، وقد حذف جواب لو لا ليرتك فى النفس فراغا يوجب قلقها، حتى يعظم لديها الفضل، وقبول التوبة.

[١٢] وبمناسبة ذكر الحد على القاذف يذكر القرآن الحكيم قصة «الإفك» الذى رمى به إحدى زوجتى النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم «مارية» أو «عائشة» فقد نسب الخاصة القصة إلى «مارية». ونسب العامة القصة إلى «عائشة» والقصة هى:

قال الإمام الباقر عليه السلام: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم حزن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم حزنا شديدا، فقالت له عائشة، ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريح فبعث رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام وأمره بقتله، فذهب على عليه السلام إليه، ومعه السيف وكان جريح القبطى فى حائط، فضرب على باب البستان، فأقبل إليه جريح ليفتح له الباب، فلما رأى عليا، عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعا، ولم يفتح باب البستان، فوثب على عليه السلام الحائط ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جريح مدبرا فلما خشى أن يرهقه صعدا فى نخلة، وصعد على عليه السلام فى أثره، فلما دنى منه رمى نفسه من فوق النخلة، فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا للنساء فانصرف على عليه السلام إلى النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا رسول الله إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوب، أمضى على ذلك أم أثبت؟ فقال: لا تثبت، قال عليه السلام: والذى بعثتك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذى صرف عنا سوء أهل البيت

«١»

وفى حديث آخر فأتى به رسول الله، فقال له: ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول الله إن القبط يحبون حشمهم، ومن يدخل إلى أهلهم والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٥٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٥

فبعثني أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأونسها.

أقول: ولقد كان بعث الإمام- على هذا- ليتبين الأمر وإن كان بصورة إن يقتل جريح، أما ما ذكره العامة، فقد قال في الجوامع: إن سبب الإفك، إن عائشة ضاع عقدها، في غزوة بني المصطلق، وكانت قد خرجت لقضاء حاجة فرجعت طالبة له، وحمل هودجها على بعيرها ظنا منهم أنها فيها، فلما عادت إلى الموضع، وجدتهم قد رحلوا وكان صفوان من وراء الجيش، فلما وصل إلى ذلك الموضع وعرفها أناخ بعيره حتى ركبته، وهو يسوقه حتى أتى الجيش، وقد نزلوا في قائم الظهيرة.

أقول: وهناك نسب المنافقون إلى عائشة و صفوان الإثم وأخذوا يثبتونه، وقد أطال العامة في الحديث، لكن الغالب أن طرقة غير صحيحة، ومن المحتمل وقوع الأمرين كما في كثير من الآيات القرآنية التي يتعدد سبب نزولها إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ أَي بِالْكَذِبِ الْعَظِيمِ الَّذِي قَلْبٌ وَجْهَ الْحَقِيقَةِ، وَيُقَالُ لِلْكَذِبِ الْإِفْكَ، لِأَنَّهُ يَقْلِبُ الْحَقِيقَةَ إِلَى غَيْرِ وَاقْعِهِ، وَأَصْلُ الْإِفْكِ الْقَلْبُ، وَلِذَا قِيلَ لِمَدَائِنِ لُوطٍ «مُؤْتَفِكَاتٍ» لِأَنَّهَا قَلْبَتْ ظَهْرَ الْبَطْنِ عَضِيْبَةً أَي جَمَاعَةً مِنْكُمْ أَيَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ، لِإِفَادَةِ أَنَّ الْإِفْكَ، إِنَّمَا كَانَ وَلِيْدَ جَمَاعَةٍ ذَاتِ هَدَفٍ وَاحِدٍ، فَلَيْسَ كَلَامًا قَالَهُ مَغْرُضٌ وَإِنَّمَا حَرَكَةٌ مَقْصُودَةٌ ضِدَّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلْيَعْرِفِ الْمُسْلِمُونَ تِلْكَ الْعَصْبَةَ وَ لِيَطَّلِعُوا عَلَى نَوَايَاهِمُ لَا تَحْسَبُوهُ أَيَهَا الْمُسْلِمُونَ شَرًّا لَكُمْ يَذْهَبُ بِشَرْفِكُمْ وَ رَفَعَهُ مَقَامَكُمْ وَ طَهَارَتِكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِذْ يُوجِبُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٦

[سورة النور (٢٤): آية ١٢]

لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢)

الأجر، و معرفة المنافقين و تمرين الأمة على الصعوبات كما قال الشاعر:

جزى الله النوائب كل خير و إن جرعتني غصص بريقى

أهاجنتي زمانا كى ترينى على ملاء عدوى من صديقى

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَى مِنْ تِلْكَ الْعَصْبَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِالْإِفْكِ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ قَدْرٌ مَا خَاضَ فِي الْحَدِيثِ حَوْلَ الْمَرَأَةِ الْبَرِيئَةِ «مَارِيَّةَ» وَ الَّذِي تَوَلَّى أَى تَحْمِلُ كِبْرَهُ أَى الْقَسْطَ الْأَكْبَرَ مِنْهُمْ أَى مِنَ الْعَصْبَةِ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ أَى هُوَ الَّذِي أَذَاعَهُ وَ أَشَاعَهُ وَ أَظْهَرَهُ لِلْمَجْتَمَعِ.

[١٣] ثم عاتب الله سبحانه المسلمين الذين خاضوا في الحديث بدون دراية و معرفة، و إنما تفكها و حديثا لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ «لولا» للردع، أَى هَلَّا حِينَ سَمِعْتُمُ الْإِفْكَ مِنَ الْقَائِلِينَ الْمَغْرُضِينَ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا فَإِنَّ مَارِيَّةَ وَ جَرِيحَ كَانَا مِنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا فَإِنَّ مَارِيَّةَ وَ جَرِيحَ كَانَا مِنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ، وَ لَمْ يَكُونَا خَارِجِينَ عَنِ دِينِهِمْ، وَ الْمُرَادُ ظَنُّوا بِهَا خَيْرًا، قَالَ الشَّاعِرُ:

قومى هم قتلوا أميم أخی فإذا رميت يصيبنى سهمى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٧

[سورة النور (٢٤): الآيات ١٣ الى ١٥]

لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا- فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفْضَيْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)

وَ قَالُوا حِينَ سَمِعُوا الْخَبَرَ هَذَا إِفْكٌ أَى كَذِبٌ مُبِينٌ ظَاهِرٌ أَى لِمَاذَا لَمْ يَقُولُوا هَكَذَا؟

[١٤] لَوْ لَا جَاؤُ أَي هَلَّا جَاءت العصبه القاذفه عَلَيْهِ أَي على الإفك الذى قذفوا ماريه به بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ كما هو التشريع أن يأتى القاذف بأربعة شهود فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ أَي حين لم يكن لهم شهيد يشهد بصدقهم فَأَوْلَيْكَ الَّذِينَ صَنَعُوا هَذَا الْإِفْكَ عِنْدَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ لِأَنَّ الْقَازِفَ يرمى بالكذب حتى يقيم الشهود.

[١٥] وَلَوْ لَا- فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَيها المسلمون وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَن أَمَهَلَكُمْ للتوبه، و لم يعاجلكم بالعقوبه لَمَسَّكُمْ أَي أصابكم فيما أَفْضَيْتُمْ أَي خضتم فيه من الإفك، و الإفاضه فى الشىء الدخول فيه عذابٌ عَظِيمٌ مؤلم شديد، إذ الإفك كان كبيرا حيث إنه وقيعه فى بيت النبى و شرفه صلى الله عليه و آله و سلم مما يوهن طهاره الرساله فى نظر الناس، فيقول الكفار و المنافقون كيف يأمر النبى بالطهاره، و زوجته على ما هى عليه؟

[١٦] إِذِ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ أَصْلُهُ «تلقونه» حذف إحدى التاءين على القاعدة، فيما إذا اجتمع فى أول المضارع تاءان، و المراد تلقى بعضكم هذا الإفك عن بعض بالسؤال عنه و جاء «بالسنتكم» ليوضح، إن التلقى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٨

[سورة النور (٢٤): الآيات ١٦ الى ١٨]

وَلَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

لم يكن بمعناه المتعارف، و هو أخذ الشىء باليد و نحوها وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ جمع فم ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ إذ لم تكونوا تعلمون ذلك، و مع ذلك كنتم تتكلمون حوله وَتَحْسَبُونَهُ أَي تظنون ذلك هَيِّنًا سهلا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ فى الوزر، لأنه كذب و افتراء و هتك عرض، و إشاعه فاحشه.

[١٧] وَلَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ أَي هَلَّا، إذ سمعتم هذا الإفك قُلْتُمْ لمن قاله ما يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا الحديث، أى لا يحل لنا أن نخوض فى هذا الأمر سُبْحَانَكَ ربنا هذا الذى قالوه بُهْتَانٌ عَظِيمٌ أى كذب و افتراء عظيم عقابه، و قوله «سبحانك» لفظ يطلقه الإنسان لدى التعجب و الاستغراب من أمر.

[١٨] يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَيها المسلمون أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَي لثلاث- تعودوا لمثل هذا الإفك، أو كراهه أن تعودوا أَبَدًا أى إلى الأبد، طيله أعماركم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مصدقين بالله و الرسول و المعاد و الدين.

[١٩] وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ أَيها المسلمون الْآيَاتِ الدالاه على أوامره و نواهيه وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما يصدر منكم حَكِيمٌ فيما يأمركم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٨٩

[سورة النور (٢٤): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

و ينهاكم، فإنها طبق الصلاح و الحكمة.

[٢٠] إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ أَي تنتشر و تظهر الصفه الفاحشه، من فحش بمعنى تعدى و تسمى المعصيه الكبيرة فاحشه، لأنها تتجاوز الحد كثيرا و إن كان كل عصيان يتجاوز الحد المقرر، و هل المراد ب «يحبون» مجرد الميل القلبي حتى يكون لهذا الميل إثم، أو هو كناية عن القيام بالإشاعه لما سبق من أن كلا من الفعل و الإراده يستعمل فى الآخر فى الَّذِينَ آمَنُوا أى بالنسبه إليهم، بأن يقذفوهم بها، أو يوسعون دائره القذف، صدقا كان أم كذبا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أى مؤلم موجه فى الدُّنْيَا بالجلد و التعزير و الْآخِرَةِ بالنار و النكال وَاللَّهُ يَعْلَمُ مضار إشاعه الفاحشه، و ما فيها من العقاب و النكال وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فلا تفعلوا ما لا تعلمون إضراره و عقوباته.

[٢١] وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ حَيْثُ عَفَى عَنْكُمْ، عَنْ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يَعَاظِلْكُمْ بِالْعِقَابِ وَآمَهَلْكُمْ لِتَتُوبُوا وَ أَنَّ اللَّهَ رُوْفٌ رَحِيمٌ بِكُمْ، لِأَخْذِكُمُ الْعَذَابَ فِي هَذِهِ النَّسْبَةِ الَّتِي نَسَبْتُمُوهَا إِلَى مَارِيَّةَ زَوْجَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حُذِفَ جَوَابُ «لَوْ لَا» تَهْوِيلًا، كَمَا تَقْدُم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٠

[سورة النور (٢٤): آية ٢١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)

[٢٢] وَبَعْدَ أَنْ أُنِمَّ الْكَلَامُ حَوْلَ هَذِهِ الْوَقْعَةِ الْبَشْعَةِ الَّتِي تَبِعَ عَصْبَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الشَّيْطَانِ فِي تَلْقِيهَا وَإِسَاعَتِهَا، خَاطَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِصُورَةٍ عَامَةٍ، أَنْ لَا يَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ تَشْبِيهًا بِمَنْ يَتَّبِعُ أَقْدَامَ غَيْرِهِ فِي السَّيْرِ خَلْفَهُ، فَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ يَذْهَبُ فِي طَرِيقِ الْعَصِيانِ، وَالْعَصَاةَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَجْعَلُونَ خَطْوَاتِهِمْ مَكَانَ خَطْوَاتِهِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ فَلْيَعْلَمْ إِنَّهُ أَيْ الشَّيْطَانِ يَسْلُوكُ بِهِ فِي طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ، إِذْ هُوَ يَا مُرُّ بِالْفَحْشَاءِ مُؤَنَّثٌ أَفْحَشٌ نَحْوَ «حَمْرَاءُ أَحْمَرٌ» أَيْ الصَّفَةُ الَّتِي هِيَ أَفْحَشُ الصِّفَاتِ الرَّدِيئَةِ لِأَنَّ تَعْدِيهَا عَنِ الْحَقِّ كَثِيرٌ وَالْمُنْكَرُ وَهُوَ مُطْلَقُ الْإِثْمِ، وَخَصَّصَ «الْفَحْشَاءَ» بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ حَوْلَ «الْفَاحِشَةِ» وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَلَعَلَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا «حَيْثُ يَجْتَمِعَانِ» أَنَّ الرَّحْمَةَ يَرَادُ بِهَا سِتْرُ الذَّنْبِ، وَالتَّرْحَمُ بِجَبْرِ الْمُنْقَصَةِ، وَالْفَضْلُ هُوَ الْإِعْطَاءُ زَائِدًا، مِثْلُ مَنْ كَانَ لَهُ مَائَةٌ، ثُمَّ خَسِرَ عَشْرًا، إِنْ أُعْطِيَ خَمْسَةٌ عَشْرًا وَكَانَتْ الْعَشْرَةُ رَحْمَةً، وَالْخَمْسَةُ فَضْلًا مَا زَكَ أَيْ مَا طَهَّرَ، وَلَمْ يَنَمْ فِي الْخَيْرِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا «مِنْ» زَائِدَةٌ لِتَعْمِيمِ النَّفْيِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي أَيْ يَطْهَرُ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَيَسَبِّبُ النَّمُوَ وَالزِّيَادَةَ لَهُ فِي الْخَيْرِ مَنْ يَشَاءُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩١

[سورة النور (٢٤): آية ٢٢]

وَلَا يَأْتَلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْيُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَغْفُوا وَ لْيَغْفُوا أَلَا تُجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنَ الَّذِينَ سَارُوا فِي الطَّرِيقِ، وَامْتَثَلُوا الْأَوَامِرَ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) «١» وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِكُمْ يَجْزِيكُمْ عَلَى حَسَبِهَا عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ وَنِيَاتِكُمْ، فَارْتَقَبُوا الْأَقْوَالَ وَ النِّيَاتِ لِكَيْ تَحْظُوا بِرِضَاهِ وَفَضْلِهِ.

[٢٣] نَقَلَ فِي الْجَوَامِعِ عَنِ بَعْضِ أَنَّ آيَةَ «وَلَا يَأْتَلُ» نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ حَلَفُوا أَنْ لَا يَتَصَدَّقُوا عَلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِفْكَ وَ لَا يُوَاسُوهُمُ وَ لَا يَأْتَلُ مِنَ الْأَلِيَّةِ - عَلَى وَزْنِ فَعْلِيَّةٍ، بِمَعْنَى الْيَمِينِ وَ الْحَلْفِ أَوْ مِنَ «الْأَلُو» بِمَعْنَى التَّقْصِيرِ، أَيْ لَا يَحْلِفُ أَوْ لَا يَقْصُرُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ أَيْ الزِّيَادَةُ فِي أَمْوَالِهِمْ عَنْ قَدْرِ حَاجَتِهِمْ وَ السَّعْيُ أَيْ التَّوَسُّعُ فِي أَرْزَاقِهِمْ أَنْ يُؤْتُوا مِنْ فَضْلِهِمْ وَ سَعْتِهِمْ أُولَى الْقُرْبَى أَيْ أَقْرَبَائِهِمْ فَلَا يَحْلِفُوا عَلَى عَدَمِ إِعْطَائِهِمْ أَقْرَبَائِهِمْ مِنْ فَضْلِهِمْ وَ الْمَسَاكِينَ مِنْ غَيْرِ أَقْرَبَائِهِمْ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ الْقَرَابَةَ وَ الْمَسْكَنَةَ وَ الْمُهَاجِرَةَ تَوْجِبُ التَّرْحَمَ، وَ إِعْطَاءَ الْفَضْلِ - وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُهَا، قَدْ أَفَاضُوا فِي الْإِفْكَ - وَ لْيَغْفُوا عَنْهُمْ فِيمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الذَّنْبِ وَ لْيَغْفُوا عَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ يَعْطُونَ صَفْحًا وَجْهَهُمْ إِلَى أَوْلَائِكَ فَإِنْ مِنْ يَرِيدُ أَنْ يَرَى الطَّرْفَ أَنَّهُ لَمْ يَرِ مَا صَدَرَ مِنْهُ أَمَالٌ وَجْهَهُ عَنْهُ وَ جَعَلَ صَفْحًا وَجْهَهُ إِلَيْهِ أَلَا تُجِبُونَ يَا أَصْحَابَ الْفَضْلِ وَ السَّعْيِ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

(١) العنكبوت: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٢

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٣ إلى ٢٤]

إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

فكما تحبون مغفرته، اغفروا لمن أساء فمن غفر الناس غفر الله له؟

أو المراد أن الله يغفر لكم إذا غفرت لهم وَاللَّهُ غَفُورٌ لِّلذُنُوبِ رَحِيمٌ بعباده، فتخلقوا بأخلاقه، و تأدبوا بأدبه، و اغفروا لمن أساء يغفر الله لكم.

[٢٤] إِنَّ الَّذِينَ يَزُومُونَ أَي يَقْذِفُونَ وَيَنْسُبُونَ الزَّانَا إِلَى الْمُحْصَنَاتِ أَي النِّسَاءِ الْعَفَافَاتِ عَنِ الْفَوَاحِشِ، فَهِنَّ فِي غَفْلَةٍ عَنِ الْإِثْمِ، وَإِذَا بَهَنَ يَرِينُ إِصْطِقَ التَّهْمَةَ الْبَشْعَةَ بِهِنَّ الْمُؤْمِنَاتِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ لَعُنُوا أَي طَرَدُوا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي الدُّنْيَا بِأَمْرِهِ سَبْحَانَهُ بِجُلْدِهِمْ عَلَى قَذْفِهِمْ وَالْآخِرَةَ بِالنِّكَالِ وَالْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَهُوَ النَّارُ الَّتِي تَنْضِجُ الْأَكْبَادَ وَالْكُلَى، وَ سَائِرُ مَا أُعِدَّ فِي جَهَنَّمَ مِنَ أَلْوَانِ الْعَذَابِ.

[٢٥] يَوْمَ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أَي أَنَّ ذَلِكَ الْعَذَابَ يَكُونُ فِي يَوْمِ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ بِإِنطَاقِ اللَّهِ لَهَا، بِدُونِ أَنْ يَرِيدُوا الْقَوْلَ هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ لِحَمِّ اللِّسَانِ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ بِالْمَعَاصِي الَّتِي ارْتَكَبَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، فَتَشْهَدُ اللِّسَانُ - مثلاً - بِأَنَّهَا كَذَبَتْ وَافْتَرَتْ، وَ تَشْهَدُ الْيَدُ بِأَنَّهَا تَنَاوَلَتْ الْحَرَامَ، وَ الرَّجُلُ بِأَنَّهَا مَشَتْ إِلَى السَّرْقَةِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ فِي آيَةِ أُخْرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٣

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) (اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) «١» وَ فِي آيَةِ أُخْرَى أَنَّهُمْ بَعْدَ إِدَاءِ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الشَّهَادَةِ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهَا وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

[٢٦] يَوْمَئِذٍ أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ أَي يَعْطِيهِمُ اللَّهُ جِزَاءَهُمُ الْعَادِلَ، فَإِنَّ الدِّينَ بِمَعْنَى الْجِزَاءِ، أَوِ الْمَرَادُ جِزَاءَ دِينِهِمْ، فَالْمَرَادُ بِالذِّينِ هُوَ الْمَعْنَى الْمَتَعَارِفِ، وَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَعْلَمُونَ عِلْمًا وَجَدَانِيًا قَطْعِيًّا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ لَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَ أَنَّهُ حَقٌّ يَعْطِي بِالْحَقِّ وَيُعَاقِبُ بِالْحَقِّ الْمُبِينُ أَي الظَّاهِرَ الَّذِي لَا غَمُوضَ فِيهِ.

[٢٧] إِنَّ النِّفُوسَ الْخَبِيثَةَ لَا - تَأَلَّفُ إِلَّا نَفُوسَ النِّسَاءِ الْخَبِيثَاتِ، وَ النِّفُوسَ الطَّيِّبَةَ لَا تَأَلَّفُ إِلَّا نَفُوسَ النِّسَاءِ الطَّيِّبَاتِ، فَالزَّانِي لَا يَنْكَحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَ الظَّاهِرَ لَا يَبَاشِرُ إِلَّا طَاهِرَةً مُؤْمِنَةً، وَ هَكَذَا الْعَكْسُ، وَ لَمْ يَكُنْ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَزْنِيَ، وَ لَا لِمُسْلِمَةٍ أَنْ تَزْنِيَ، وَ لَا يُمْكِنُ لِلرَّسُولِ الطَّاهِرِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ، أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ فَاحِشَةٍ زَانِيَةٍ، وَ الْآيَةُ، وَ إِنْ كَانَتْ عَامَةً، إِلَّا أَنَّهَا بِمُنَاسَبَةِ حَدِيثِ الْإِفْكَ الْخَبِيثَاتُ مِنَ النِّسَاءِ، وَ الْخَبِيثُ هُوَ ضِدُّ الطَّيِّبِ، وَ هُوَ مَا يَكُونُ فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مَكْرُوهٌ، أَوْ عَرَضٌ عَلَيْهِ ذَلِكَ عَرَضًا، فَمَثَلًا الدَّمُ خَبِيثٌ، وَ الْمَاءُ الْمَلَقِيُّ لَهُ خَبِيثٌ أَيْضًا لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ الْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

(١) يس: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٤

[سورة النور (٢٤): آية ٢٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَ تَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) وَ الطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ الطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ أُولَئِكَ الطَّيِّبَاتُ وَ الطَّيِّبُونَ مُبَرَّؤُونَ مِنْهُنَّ مِمَّا يَقُولُونَ فِيهِمْ مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَ الْقَذْفِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَي غُفْرَانٌ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ سَتْرٌ لَهُمْ عَنِ الْفُضِيحَةِ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ فَلَيْسَ مِنْ رِزْقِهِمُ الْخَبِيثُ، وَ إِنَّمَا

رزقهم مكرم لهم، و الرزق يطلق على كل عطية، و منحة منه سبحانه، و لو زوجا أو زوجة.

[٢٨] لقد كان في الجاهلية، الرجل يدخل البيت، بلا استئذان، حتى إذا توسطه، قال «دخلت» و ذلك كان خلاف العقل و الأدب، إذ لعل الرجل مع أهله، أو لعل المرأة عارية تغتسل، أو لعلهم يكرهون أن تقع العين على شيء من أمورهم، و لذا نهى الله سبحانه عن ذلك، و أتى السياق- بمناسبة حكم الزوجين و القذف- إلى بيان حكم البيت الذي يريد الإنسان أن يدخله، فقال سبحانه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ و أما بيت الإنسان نفسه، فلا مانع أن يدخل فيه فجأة، و إن كره في بعض الأحوال أيضا، كأن يطرق الإنسان أهله ليلا حتى تَسْتَأْنِسُوا الاستيناس، طلب الأئس بالعلم أو غيره، يقال اذهب و استأنس، هل ترى أحدا؟ و المعنى حتى تستعلموا و تستأذنوا،

و قد روى إن رجلا قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: استأذن على أمي؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري، فأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أ تحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: فاستأذن عليها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٥

[سورة النور (٢٤): آية ٢٨]

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ و إن قيل لَكُمْ اِرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) وَ تَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا أَي عَلَىٰ أَهْلِ الْبُيُوتِ، وَ هَذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الطَّبِيعِيُّ، بَأَن يَسْتَأْذِنُ الْإِنْسَانَ، ثُمَّ يَسَلِّمُ ذَلِكَمُ أَي ذَلِكَ الدَّخُولُ بِالِاسْتِئْذَانِ، ثُمَّ التَّسْلِيمُ وَ «كَمْ» خِطَابٌ خَيْرٌ لَكُمْ أَيهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَي ذَلِكَ حَسَنٌ، فَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى التَّفْضِيلِ، أَوْ أَنَّهُ تَفْضِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَرَى النَّاسُ فِيهِ خَيْرًا مِنَ الدَّخُولِ الْمَجْرَدِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أَي نَبِّينَ هَذَا الْحُكْمَ لِكَيْ تَتَذَكَّرُوا مَا أُوْدِعَ فِي فِطْرَتِكُمْ، مِنْ كَوْنِ ذَلِكَ الْاسْتِئْذَانِ مِنَ الْأَدَبِ، وَ أَنَّهُ خَيْرٌ بِخِلَافِ الدَّخُولِ فَجَاءَهُ.

[٢٩] فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَي فِي الْبُيُوتِ أَحَدًا بَأَن لَمْ تَعْلَمُوا وَجُودَ أَحَدٍ، كَمَا لَوْ اسْتَأْذَنْتُمْ، فَلَمْ يَظْهَرْ أَنَّ أَحَدًا فِي الْبَيْتِ فَلَا تَدْخُلُوهَا لَا تَدْخُلُوا تِلْكَ الْبُيُوتِ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ بَأَن يَأْذِنَ لَكُمْ أَرْبَابُ الدَّارِ دَخُولَهَا فِي أَي وَقْتٍ شِئْتُمْ، وَ إِنْ لَمْ يَكُونُوا فِيهَا وَ إِنْ اسْتَأْذَنْتُمْ دَارًا قِيلَ لَكُمْ اِرْجِعُوا بِهَذَا اللَّفْظِ، أَوْ بِلَفْظٍ يَفِيدُ مَعْنَاهُ فَارْجِعُوا انْصَرَفُوا، وَ لَا تَلْحُوا فِي الدَّخُولِ وَ هُوَ أَي الْانْصِرَافُ، إِذَا ظَهَرَتْ أَمَارَاتُ كِرَاهِيَةِ دَخُولِكُمُ الدَّارِ أَزْكى لَكُمْ أَطْهَرُ وَ أَحْسَنُ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «الزَّكَاةِ» لِمَا فِيهِ مِنْ نُمُو النَّفْسِ بِالْعَفْءِ، وَ نُمُو عِلَاقَاتِ الْحُبِّ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الدَّخُولِ قَهْرًا، أَوْ الْانْصِرَافِ عَلِيمٌ فَيَجَازِيكُمْ حَسَبَ أَعْمَالِكُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٦

[سورة النور (٢٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنْ اللهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)

[٣٠] لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَي لَا حَرَجٌ وَ لَا ضَرَرٌ عَلَيْكُمْ أَيهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَدْخُلُوا بِدُونِ الْاسْتِئْذَانِ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ أَي لَمْ تَعُدْ لِلسَّكْنَى كَالْخَانَاتِ وَ الْحَمَامَاتِ وَ الْأَرْضِيَّةِ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ أَي اسْتَمْتَعْتُمْ لَكُمْ فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ، وَ هَذَا الْقَيْدُ عَامٌ يَشْمَلُ حَتَّى مِنْ يَرِيدُ التَّفْرِجَ، لِأَنَّهُ يَسْتَمْتَعُ بِذَلِكَ، أَوْ الْمُرَادُ مِنْهُ بَيَانٌ أَنَّهُ لَا- يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْخُلَ مَحَلًّا لَا مَتَاعَ لَهُ فِيهِ فَإِنَّهُ لَغَوٌّ وَ اللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ أَي تَظْهَرُونَ مِنَ الْأُمُورِ وَ مَا تَكْتُمُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَ تَخْفُونَهَا، فَلَا تَفْعَلُوا مَا يَخَالِفُ أَمْرَهُ، وَ هَذِهِ الْخَاتِمَةُ لِإِيقَاطِ الضَّمِيرِ، حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ رَقِيبًا، أَلَيْسَ هُوَ بَعِينُ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ ظَاهِرٍ وَ خَافٍ.

[٣١] ثُمَّ انْتَقَلَ السِّيَاقُ مِنْ حُكْمِ الْبُيُوتِ إِلَى حُكْمِ النَّظَرِ، وَ هُوَ مَرْتَبِطٌ بِقِصَّةِ الْحَيَاةِ الْعَائِلِيَّةِ، كَمَا كَانَ الْحُكْمَانِ السَّابِقَانِ مِنْ حُكْمِ الْإِفْكَ وَ الْقَذْفِ، وَ حُكْمِ الْاسْتِئْذَانِ لِدُخُولِ الْبُيُوتِ مَرْتَبِطِينَ بِهَا نَوْعِ ارْتِبَاطٍ قُلْ يَا رَسُولَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ أَصْلَ الْغَضِّ النَّقْصَانِ، يُقَالُ: غَضَّ مِنْ صَوْتِهِ وَ مِنْ بَصَرِهِ، أَي قَلَّلَ مِنْهُمَا وَ نَقَصَ، وَ الْمَعْنَى غَمَضَ الْعَيْنَ عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظْرُ إِلَيْهِ، وَ إِنَّمَا جِيءَ بِالْغَضِّ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٦٩٩

بأس عليهن أن يظهرن زينتهن إلى تلك الإمام، وإطلاق الآية بالنسبة إلى عبيد النساء مقيد بما ورد عن الصادق عليه السلام قال: لا يحل للمرأة أن ينظر عبدها إلى شيء من جسدها، إلا إلى شعرها، غير متعمد ذلك «١»، أقول: يعنى إذا وقعت عينه عليه، والتخصيص بالشعر لأنه الذى يمكن أن يراه العبد غير متعمد، أما سائر الجسد ففى الغالب كونه مستورا أو التابيعين أى المولى عليهم من الحمقى والبله و من أشبههما وقيل لهم تابعين، لأنهم يتبعون غيرهم من الأولياء، ثم بين ذلك بقوله غير أولى الإزبة أى غير أصحاب الحاجة فى النساء، فإن «الإزبة» بمعنى الحاجة من الرجال قال الباقى عليه السلام فى تفسير الآية: هو الأحمق الذى لا يأتى النساء وقال الصادق عليه السلام: الأحمق المولى عليه الذى لا يأتى النساء، وإنما أبيض بالنسبة، إليه، لأنه لا يميز بين المرأة و غيرها، فهو كالحيوان «٢» أو الطفل والمراد به الجنس، ولذا جاء صفته بصيغته الجمع الذين لم يظهروا أى لم يطلعوا من الظهور بمعنى الاطلاع على عورات النساء لعدم تمييزهم بين العورة و غيرها، أما الطفل الذى قد ظهر فالمفهوم من الآية الحظر منه، و لم يذكر فى الآية الأعمام والأخوال للإنسان، أو الأب أو الأم، قيل لدخولهم فى «الإخوان» فإنهم إخوان الأب و الأم، وقيل لفهم ذلك - عكسيا - من بنى إخوانهن، أو بنى أخواتهن، فإذا حل نظر الولد على عمته و خالته، حل نظر العم

(١) الكافى: ج ٥ ص ٥٣١.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ٢٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٠

[سورة النور (٢٤): آية ٣٢]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٣ ٧٤٢

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

والخال إلى بنت الأخت و بنت الأخ و لا يضربن النساء بأرجلهن على الأرض ضربا شديدا ليصوت الخلخال فيعلم أى يعلم الرجل الأجنبى ما يخفين من زينتهن فإن ذلك يورث تهيجا فى الرجال، و هل هذا حرام أو مكروه؟ احتمالان و توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون فيما تفرطون من مخالفة المحرمات، و بالأخص محرمات النظر، فإنه كثير الحدوث لعلكم تفلحون أى لكى تفوزوا بسعادة الدارين ..

[٣٣] و بمناسبة حكم النظر و حفظ الفرج يأتى السياق لبيان بعض الأمور المرتبطة بالنكاح و أنكحوا أيها المسلمون الأيامى منكم جمع «أيم» و هو الرجل الذى لا زوج له، و المرأة التى لا زوج لها، و المعنى زوجوا أيها المؤمنون رجالكم الذين لا زوجات لهم، و نساءكم اللاتى لا أزواج لهن.

و قد قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: تناكحوا، تناسلوا، تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط «١»

و قال الإمام الصادق عليه السلام: ركعتان يصليهما متزوج أفضل من سبعين ركعة يصليهما أعزب «٢»

و أنكحوا الصالحين من عبادكم و إمائكم أى الذين هم

(١) جامع الأخبار: ص ١٠١.

(٢) الفقيه: ج ٣ ص ٣٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠١

[سورة النور (٢٤): آية ٣٣]

وَلَيْسَ تَعْفِيفِ الدِّينِ لَّا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالدِّينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣)

صالحون من العبيد والإماء، و هل المراد بالصالحين البالغون الذين يصلحون للنكاح، أو الصالحون من حيث الدين بأن يكونوا مسلمين، أو أن تكون أعمالهم سالحة؟ احتمالات إن يَكُونُوا أولئك الأيامي والعبيد والإماء، فقراء وتخشون زيادة فقرهم بالنكاح، فاعلموا أنه ليس كذلك بل يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وهذا كذلك حسب التجربة، وحسب الموازين الاجتماعية، فإن المتزوج الذي يعلم أن وراءه النفقة يجد أكثر من العزب، كما أن الناس يعطفون عليه أكثر من عطفهم على غيره، هذا مع الغض عن أن يدين عاملتين تأتي بأكثر من ضعف إنتاج يد واحدة، وإن الله سبحانه يوسع بالطرق الغيبية واللَّهُ واسعٌ لطفه، وهو مجاز من باب نسبة الشيء إلى سببه في اللطف والرزق، وإنما نسب إلى الله تعالى، لأنه السبب عَلِيمٌ بأحوال الناس، فيعلم حال الفقير و يتفضل عليه.

[٣٤] وَلَيْسَ تَعْفِيفِ الاستعفاف هو التعفف بمنع النفس عن الشيء المرغوب فيه، ولعل الإتيان بالفعل من باب الاستفعال للتنبه على طلب العفة، وإن كانت النفس تافقه شائقة الدِّينِ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا أَي ما يتوصل به إلى النكاح من المهر والنفقة والزوجه المناسبة، حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بأن يوسع عليهم ما به يتمكنون من الزواج، ولا يدخلون في الفاحشة فإن الصبر وإن كان مرا لکن عاقبته حميدة، وهناك من العبيد من يتمكن من الزواج إن كان حرا لأنه يعمل و يكتسب ما يكفيه وعائلته،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٢

ولا- يتمكن من الزواج وهو تحت رق المولى لأن مولاه فقير لا يملك إعالته وإعالة زوجته، ولذا يحاول أن يفك نفسه بالمكاتبه حتى يتحرر فيتزوج، والمكاتبه هي أن يكتب المولى والعبد كتابا على أن العبد إن دفع إلى مولاه المقدر الكذائي من المال صار حرا، وله أقسام وأحكام، وإذا طلب العبد ذلك ندب قبول طلبه ومكاتبته.

وَالْعَبِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ وَيَطْلُبُونَ الْكِتَابَ أَي المكاتبه لتحريرهم مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ «مما» بيان ل «الذين» أي من العبيد والإماء فَكَاثِبُوهُمْ و جىء من باب المفاعلة، لأن كل واحد من المولى والعبد يمضى ورقة الكتابة والاشتراط إن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا أَي صلاحا ورشدا يقدرتون بذلك على الوفاء بمال الكتابة وَآتُوهُمْ أَي اعطوا أولئك العبيد المكاتبون مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ بأن يخفف المولى شيئا من المال المقرر، فإن قرر ستة آلاف أخذ منه خمسة وعفى عن ألف، أو إن الخطاب عام بأن يعين الناس المكاتبين ليخلصوا من الرق، وقد قرر الله سبحانه إعطاء المكاتبين من الزكاة كما قال سبحانه: (وَفِي الرُّقَابِ) «١» وَإِذْ كَانَ الْكَلَامَ حَوْلَ الْعَفَاةِ وَالطَّهْرِ وَالنِّكَاحِ وَتَوَابِعِهِ، جاء النهى الأکید بالنسبة إلى الذين يكرهون فتياتهم على الزنى ليأخذوا أجره ولا تُكْرِهُوا أيها الرجال

(١) البقرة: ١٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٣

[سورة النور (٢٤): آية ٣٤]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)

فَتِيَاتِكُمْ أَي الفتيات المرتبطة بكم، وهي عامه لفظا تشمل كل فتاة مرتبطة بالإنسان سواء كانت أمه أم قريبة أم بعيدة، ومن الجاهلية التي أعيدت في هذا العصر أجبر بعض الرجال الأسافل بعض نساءهم على البغاء لتحصيل منصب أو مال أو ما أشبه على البغاء أَي على الزنى، في المجمع قيل: أن عبد الله بن أبي كان له ست جوار يكرههن على الكسب بالزنى، فلما نزل تحريم الزنى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فشكون إليه فنزلت هذه الآية، و روى القمى - كما فى الصافى - عموم ذلك إن أَرَدْنَ تَحَصُّنًا أَي تعففا و

حصانه عن الزنى، ولا مفهوم للآية، بل المقصود أن الفتاة مع نقص عقلها وكثرة شهوتها إذا لم ترد البغاء فالمولى أحق بعدم الإرادة والامتناع، فكيف يكره الرجل الفتاة وهي تكرهه ولا تريد؟ لِيَتَّبِعُوا أَي تحصلوا بذلك عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَي المال الذي هو عرض زائل وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ لعل المعنى من كان يكرههن في زمان الجاهلية فلا- ييأس من روح الله، فإنه إذا آمن و تاب فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَلَى الزنى- مما قد سلف- غَفُورٌ يَغْفِرُ سَيِّئَاتِهِ رَحِيمٌ يتفضل عليه، أو المراد إن كرهت امرأة و زنت عن إكراه فإن الله غفور لها، فقد رفع الإكراه في هذه الأمة، كما ورد في حديث الرفع وغيره.

[٣٥] وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيها المؤمنون آياتٍ أى أدلة و براهين للأحكام مُبَيِّنَاتٍ قد أوضحت إيضاحا لا لبس فيها ولا غموض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٤

[سورة النور (٢٤): آية ٣٥]

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)

و أنزلنا إليكم مثلاً من الذين خلوا من قبلكم حيث ظهر من ذلك المثل- والمراد به الجنس- أن الأمم السابقة لما تعدت و عصت أخذت بأنواع العذاب، لتعتبروا بذلك المثل و مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ و إنما خص الموعظة بهم، لأنهم الذين ينتفعون بالعظة.

[٣٦] و إذا ذكرت الآيات السابقة الأحكام الأخلاقية الاجتماعية المرتبطة بالطهارة و النزاهة للعين و الفرج و اللسان، و سمت بالإنسان من الآفاق المظلمة إلى الآفاق المنيرة، ناسب ذلك التحدث عن عالم النور، عالم الإله الذي أنار كل شيء بنور وجهه فقال تعالى اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ و النور هو الظاهر في نفسه المظهر لغيره، و هكذا الله سبحانه ظاهر في نفسه مظهر لغيره، بل أن النور الخارجى رشحه من نوره سبحانه الذى غمر الكون، و أظهر كل شيء و أوجد كل موجود مَثَلُ نُورِهِ من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ليدركه الإنسان بقدر حسه كَمِشْكَاةٍ لقد كان الناس فى الماضى يخرجون كوة فى الحائط ثم يجعلون على تلك الكوة لوحا من الزجاج ثم يجعلون المصباح- و هو محل الزيت و الفتيلة- فى زجاجة- تسمى بالفانوس- ثم يجعلون تلك الزجاجه فى الكوة، و إنما يجعلونها فى الكوة ليشع من المصباح الضياء فى الداخل و الخارج، و من المعلوم أن نور المصباح إذا أشرق على الزجاج، و كان منحصرًا فى كوة لا ينتشر كان ضياؤه قويا جدا، و بالأخص إذا كان الزيت نقيا جيدا، إن مثل هذا النور هو مثل نور الله سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٥

و اختلف فى لفظ المشكاة هل أنها عربية أو غير عربية؟ فيها أى فى تلك المشكاة مِصْبَاحٌ و هو السراج المِصْبَاحُ فى زُجَاجَةٍ و هى «الفانوس» المصنوع من ألواح الزجاج الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ أى الكوكب المضىء الذى يشبه الدر فى ضيائه و صفائه يُوقَدُ ذلك المصباح مِنْ زَيْتِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ أى كثيرة البركة و هى زَيْتُونَةٍ النَّاءُ للإفراد، نحو شجر و شجرة، و تمر و تمره، و خص ذلك لأن دهن الزيت أصفى من سائر الأدهان فىكون نور المصباح الذى أوقد به أحسن و أكثر إضاءة لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ أى أن منبتها فى محل وسط فهى ضاحية للشمس تشرق عليها طول النهار، فليست فى طرف الشرق حتى لا تصيبها الشمس إذا غربت، و لا فى طرف الغرب حتى لا تصيبها الشمس إذا شرقت، فإن الغالب أن الشيء إذا كان فى طرف كان هناك مانع عن إشراق الشمس عليه إذا كانت فى طرف مقابل له يَكَادُ زَيْتُهَا أى زيت هذه الشجرة يُضِيءُ و ينير و لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ أى أن الحاصل من مثل هذا المصباح نور مضاعف، بسبب تلك الأمور المذكورة يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ أى نور هذا المصباح مَنْ يَشَاءُ من السائرين فإنهم إذا رأوا المصباح بهذه الكيفية المضيئة يهتدون إلى الطريق، و لا يبقون حائرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٦

[سورة النور (٢٤): آية ٣٦]

فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦)

في الصحراء، لا يعرفون طريقا، ولا يهتدون سبيلا، ومن المحتمل أن يكون ضميره «لنوره» عائدا إلى الله، بأن يكون التمثيل إلى قوله «على نور» أي إن الله يهدي إلى نوره الذي ضرب له المثل من يشاء ممن اتبع الحق ولم يعاند وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ كما ضرب هذا المثل، لبيان نور ذاته، تشبيها للمعقول بالمحسوس تقريبا إلى الأذهان، وإلا فلا مثل ينطبق تمام الانطباق عليه سبحانه، ولذا قال (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) (١) وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيعلم الأمثال المناسبة، التي توجب علما و فقها للناس، تقربهم إلى الحق وتبعدهم عن الباطل، وقد ورد روايات لتطبيق الآية على أهل البيت عليهم السلام وهي من قبيل التأويل أو ذكر المصاديق والتطبيقات (٢).

[٣٧] إن ذلك المصباح المتصف بتلك الصفات إنما هو في بُيُوتِ عامرة بالتقوى ليضاف النور المعنوي إلى النور الظاهري، فإن مثل نور الله نور المصباح الموضوع في المسجد، كيف أن الإنسان يبهره ذلك النور المتلألئ الساطع من أقدس الأماكن وأطهرها، كذلك نور الله سبحانه أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ رفعا ظاهريا ببناء جدرانها رفيعة شامخة، و رفعا معنويا بأن تحترم وتقدر وتطهر من الأرجاس، وقد ورد في بعض الأحاديث أن بيوت الأنبياء والأئمة عليهم السلام من تلك البيوت (٣) وَيُذْكَرَ فِيهَا أَي فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ اسْمُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مِقَابِلِ بُيُوتِ الْكُفَّارِ

(١) النحل: ٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤ ص ١٨.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٣٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٧

[سورة النور (٢٤): آية ٣٧]

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧)

التي لم يأذن الله أن ترفع إذ من المكروه بناء دار الكافر أعلى من دار المسلم - كما قالوا- و بيوت النيران و المراحيض التي كره ذكر الله فيها بالصلاة و نحوها، و حيث إن الأرض لله، و الذكر مرتبط به سبحانه، كان ترفيع البيت و ذكر اسمه تعالى بحاجة إلى الإذن، و تلك البيوت تتصف بأنها يَسْبِيحُ لَهُ أَي فِيهَا أَي فِي تِلْكَ الْبُيُوتِ بِالْغُدُوِّ أَي الصَّبَاحِ وَالْآصَالِ جمع أصيل، و هو طرف العصر، و إتيان «الغدو» مفردا جنسا، و الآصال جمعا من التفنات البلاغية.

[٣٨] رِجَالٌ هم المؤمنون لا تُلْهِيهِمْ أَي لا تشغلهم، من التلهي، بمعنى: الاشتغال، و منه يسمى اللهو لهوا تجارة هو مطلق الاكتساب و لو بالرهن و المزارعة و نحوهما و لا يَبِيعُ و كان تخصصه لشيوعه بين أنواع التجارات عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ أَي عن إقامة الصلاة، أصله «إقامة» و الهاء عوض عن «الواو» في «أقوام» لأنه مصدر باب الأفعال، فلما أضيف إلى الصلاة قام المضاف إليه مقام العوض، و لذا حذف و إن جاز «إقامة الصلاة» أيضا و إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ إعطائها أَي إن أولئك الرجال بهذه الأوصاف حتى إن ذكر الله و العمل بمرضاته لديهم أهم من الاشتغال بمال الدنيا و أعراضها الزائلة، خلافا لكثير من الناس الذين يشتغلون بالدنيا عن الآخرة يَخَافُونَ يَوْمًا هو يوم القيامة تَتَقَلَّبُ فِيهِ أَي فِي ذَلِكَ الْقُلُوبُ أَي يتوجه القلب تارة إلى هنا و أخرى إلى هناك و الْأَبْصَارُ تنتظر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٨

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بَغِيرِ حِسَابٍ (٣٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)

العين هنا و هناك، و هكذا عادة الخائف الوجل يفكر في مخلص و نجاه و يتوجه إلى هنا و هناك كي يرى ملاذا و شفيعا و مستندا.

[٣٩] و إنما يفعل أولئك الرجال تلك الأفعال لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا و هي الطاعات، إنهم يترقبون جزاء طاعتهم، و الطاعة هي أحسن ما عمله الإنسان من الطاعات و المباحات و المكروهات، أو المراد يجزيهم بأحسن مما عملوا، فقد عملوا- مثلاً- ما يستحقون به ديناراً، فيترقبون إعطاءهم عشرة حسب وعده بقوله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) «١» و يَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَاءَ مِنْ فَضْلِهِ و زيادته كما قال (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) «٢» و اللَّهُ يَزُوقُ أَى يَمْنَحُ و يعطى مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَحْسَنِ بَعْضِ حِسَابِ كَثِيرِ زَائِدِ، لا يدخل تحت حساب الإنسان، أو المراد يتفضل على الإنسان، فلا يكون فضله مجازاة على عمل و إنما مجاناً و تفضلاً.

[٤٠] و بمناسبة ذكر أحوال الرجال الصالحين و ما يجزون من الثواب في الآخرة يأتي ذكر الكفار و ما يلاقون من العذاب على كفرهم وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْيَوْمَ الْآخِرِ أَعْمَالُهُمْ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا وَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا حَسَنَاتٌ كَسَرَابٍ هُوَ الْحَادِثُ فِي الصَّحَارَى وَ قَدْ ظَهَرَ مِنْ انْعِكَاسِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ عَلَى الْهَوَاءِ حَتَّى يَظُنَّ الْإِنْسَانُ - مِنْ بَعْدِ - أَنَّهُ مَاءٌ بَقِيْعَةٌ

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) البقرة: ٢٤٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٠٩

[سورة النور (٢٤): آية ٤٠]

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

الباء حرف جر، و قيعه جمع قاع و هو الواسع من الأرض المنبسطة، و لعل الإتيان بالجمع، لتعدد الصعد التي يعمل الإنسان الكافر أعماله فيها، في صعيد العبادة للأصنام و في صعيد الإنفاق، و في صعيد الإحسان إلى الأرحام، و هكذا يَحْسِبُهُ أَى يحسب ذلك السراب الظمآن الذي عطش كثيرا ماءً و تخصيص الظمآن بالذكر، مع أن السراب يترأى لكل أحد، من جهة أن الظمآن هو الذي يرجوه، فإذا جاءه لم يجده، و يخيب رجاءه في أخرج حالته حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَى ذهب إلى ذلك السراب ليشرب منه- بظن أنه ماء- فيطفئ عطشه لَمْ يَجِدْهُ أَى لم يجد ما زعمه ماء شَيْئاً إذ هو خيال الماء، لا الماء ذاته، و هكذا الكافر يحسب أن له أعمالاً خيرة في الآخرة ينتفع بها في أخرج ساعاته، فإذا ذهب إلى الآخرة لم يجد أثراً من أعماله وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَى عند عمله المزعوم أنه باق له، و المعنى أنه حيث كان يرجو الخير، يرى الحساب و النكال فَوَفَّاهُ أَى أعطاه الله و أفيأ حساباً الموجب لجزائه على أعماله السيئة في الدنيا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فلا تعطيل هناك في حساب الخلاق على كثرتهم، و إنما يحاسب سبحانه الجميع في مقدار نصف ساعة- كما ورد- أو المراد سرعة زوال الدنيا و وصول الناس إلى جزاء أعمالهم.

[٤١] لقد كان المثل الأول للكافر بالنسبة إلى الشخص حال ظمأه يريد الارتواء، و يأتي السياق بمثل ثان لحال الكافر بالنسبة إلى وقت ضلاله يريد الاهتداء و النور فلا يجد، كالإنسان الذي ركب السفينة، فجاء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٠

سحاب و أظلم الآفاق، و ارتفعت الأمواج التي تغمر السفينة، فلا يهتدى سبيلاً لينقذه من هذه الهلكة أَوْ كَظُلُمَاتٍ أَى أن أعمالهم كظلمات، بينما أعمال المؤمنين كأنوار تهديهم الطريق، كما قال سبحانه (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ) «١» فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ فالوقت ليل مظلم، و المكان بحر عظيم اللجة لا يرى ساحله، من «لجة» البحر و هي معظمه يَغْشَاهُ أَى يعلو ذلك البحر اللججى مَوْجٌ و ذلك حين تهب العواصف فتحمل الماء على متنها كالجبال و هو خليط من ماء و هواء مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أَى فوق ذلك الموج الأول موج آخر، إذ العاصفة إذا هبت كونت موجاً و يمشى هذا الموج بسرعة سير العاصفة، فإذا جاءت عاصفة ثانية كونت موجاً ثانياً، و ربما يركب الموج الثاني على الموج الأول إذا كانت العاصفة الثانية أشد و حملت موجاً كبيراً، أكبر من الموج الأول.

مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ حَتَّى لَا يَرَى بَصِيصًا مِنْ ضِيَاءِ الْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، حَتَّى يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي وَسْطِ ذَلِكَ تَغْشَاهُ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ظِلْمَةُ الْبَحْرِ الْمُنْعَكِسَةِ فِي الْهَوَاءِ، وَظِلْمَةُ الْمَوْجِ الْأَوَّلِ، وَظِلْمَةُ الْمَوْجِ الثَّانِي، وَظِلْمَةُ السَّحَابِ وَظِلْمَةُ اللَّيْلِ، حَتَّى أَنْ الْإِنْسَانُ فِي تِلْكَ الظِّلْمَةِ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا أَى

(١) الحديد: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١١

[سورة النور (٢٤): آية ٤١]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)

لا يقرب رؤيتها لشدة الظلمات، إن لهذا الإنسان كيف حاله في عدم اهتداء الطريق للخلاص والنجاة، كذلك حال الكافر الذي وقع في وسط أعماله المظلمة المتراكمة عليه، فإنه لا يهتدى إلى طريق الهدى، ويكون مصيره الهلاك ومن لم يجعل الله له نورا يهتدى به إلى السعادة، وإنما لم يجعل له نورا لأنه أعرض عن الهدى، فحرم الضياء فما له من نور لأن الله هو نور السماوات والأرض، فإذا حرم إنسانا من نوره، لم يكن هناك نور آخر يستنير به الكافر.

[٤٢] و من عجيب أمر الكفار أنهم يغمضون عيونهم في هذا الجو الذي حوهم بأسا بآيات الله سبحانه أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ: أيها الرائي، والمراد بالرؤية العلم، أي ألم يصل علمك إلى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ تَسْبِيحًا تَكْوِينِيًّا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنَّا لَنَرَى مِنْ فِي الْأَرْضِ يَنْزِهِ خَلْقَهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ التَّعْطِيلِ وَالْعُجْزِ وَالْجَهْلِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ.

و لا بد أن يكون من في السماوات كذلك بالفطرة والوجدان، فهو مثل أن يقال: ألم تعلم أن النار في «الصين» تحرق، فإن الإنسان يعلم ذلك بالقياس الفطري، أو المراد وصول العلم إليهم بواسطة الأنبياء عليهم السلام الذين بينوا أن الملائكة يسبحون الله سبحانه، و لعل المراد ب «من» الأعم من العقلاء، وإنما جيء ب «من» تغليبا للعقلاء على من سواهم و يسبح الطير في حال كونها صاففات أي واقفات في الجو مصطفات الأجنحة في الهواء، و تسيحها تنزيهاها و دلالتها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٢

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)

على وجود خالق قادر عليم حكيم، و كان تخصيص الطير بالذكر إلفاتا إلى هذا المشهد المكرر المدهش إذا فكر الإنسان فيه، فكيف أن الطير الثقيل لا يقع على الأرض، و هو واقف في الجو، بدون رفيف و حركة، و حيث أن المراد بالطير الجنس جيء بضميرها مؤنثا كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ صَلَاتَهُ أَى خُضُوعَهُ لِلَّهِ وَتَسْبِيحَهُ تَنْزِيْهِهِ لَهُ، تَكْوِينِيًّا، أَوْ بِالسَّنْتِهَا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَعَلِمَهُ تَعَالَى وَاسِعٌ شَامِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ.

[٤٣] وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ، كَمَا أَنَّهُ الْعَالِمُ الْمَطْلُوقُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ أَى إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ مَالِ الْكُلِّ وَ

مرجع الجميع فهو المبدئ المعيد العالم المالك! و بعد هذا كيف يكفر الإنسان بهذا الإله العظيم؟ إنه لمدهش حقا.

[٤٤] أَلَمْ تَرَ أَى رُؤْيَاهُ بِالْبَصَرِ، أَوْ بِالْعِلْمِ، وَ الْمَخَاطَبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَوْ كُلِّ مَنْ يَأْتِي مِنْهُ الرُّؤْيَاهُ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا الْإِزْجَاءُ الدَّفْعُ وَ السُّوقُ، أَى يَسُوقُ مِنْ هُنَا وَ هُنَاكَ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ بَيْنَ أَجْزَاءِ ذَلِكَ السَّحَابِ الْمَتَفَرِّقِ الْآتِي مِنْ هُنَا وَ هُنَاكَ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا أَى مَتْرَاكَمَا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى يَتَكُونُ مِنْهُ سَحَابٌ كَثِيفٌ ذُو ارْتِفَاعٍ وَ كَثَافَةٌ فَتَرَى الْوَدْقَ الْمَطْرَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ ثَنَائِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٣

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا أَى جبال السحاب التى فى السماء، و الإنسان إذا ركب الطائرة يرى السحاب مثل الجبال فى جميع مزاياها، حتى لو لم يعلم الإنسان لظنها جبالا حقيقية، كما شاهدنا ذلك حينما رجعنا من مكة المكرمة إلى دمشق من برد أى الثلج بأنواعه المختلفة و «من» بيانية للمنزل المفهوم من الكلام، أى ينزل منزلا من جنس البرد فيصيب به أى بذلك الودق أو البرد من يشاء من عباده و يصرفه عن من يشاء فلا- ينزل المطر عليهم و لا- يأتى إليهم البرد يكاد سينا بزقه أى يقرب برق السحاب من أن يذهب بالأبصار فيعمى العين و يخطفها لشدة لمعانه، فمن يا ترى جعل كل ذلك مما لا يقدر على جزء صغير منه البشر بكل قواه و وسائله؟.

[٤٥] يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَى يأتى بهذا و بذاك، كالإنسان الذى يقرب الدرهم فى كفه فتارة يظهر وجهه و أخرى يظهر ظهره إن فى ذلك التقلب لعبرة أى اعتبار و دلالة على وجود الله سبحانه و سائر صفاته لأولى الأبصار أى أصحاب بصر القلب، أما من لا يعتبر فهو أعمى لا بصر له.

[٤٦] وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ أَى كل حيوان يدب على وجه الأرض، و المراد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٤

[سورة النور (٢٤): آية ٤٦]

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

الأعم لأن ما لا تدب أيضا كذلك، و قد جرت العادة بإتيان جملة دلالة على الكل من ماء الظاهر أن المراد الماء مطلقا لا خصوص المنى- ليشمل مثل الحيوانات التى تتولد من مجرد الماء، كالعقرب التى تتولد من الأرض النديء- إذ صح أن الولادة من مجرد الماء، بدون أن تكون هناك بذور- فمنهم أى من الدواب من يمشى على بطنه كالودود و الحية و منهم من يمشى على رجليه كالإنسان و الطيور و منهم من يمشى على أربع كالأنعام و الوحوش، و كان هذا من باب المثال، و إلا فمنهما من لا تمشى أو تمشى على أكثر من أربع، و لعل الإتيان بما للعقل من ضمير «منهم» و لفظه «من» تغليبا للإنسان على غيره، مع اقتضاء وحدة السياق لسوق الجميع بهيئة واحدة يخلق الله ما يشاء من أنواع الحيوانات إن الله على كل شىء قدير و هل هناك على عموم قدرته سبحانه من هذه المخلوقات المختلفة، التى يعجز جميع البشر من خلق واحدة منها؟.

[٤٧] لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ أَى أدله داله على وجودنا مبينات واضحات ظاهرات و الله يهدى من يشاء ممن قبل الهداية ابتداء إلى صراط مستقيم فإن الإرشاد إذا جاء، فقبل بعض الأفراد، أوصلهم الله سبحانه الطريق المستقيم أما من لم يقبل الإرشاد فيتركه سبحانه فى ضلاله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٥

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨)

[٤٨] و حيث تقدم ذكر المؤمنين و ذكر الكافرين يأتى السياق لبيان ما ينبغى أن يتصف به المؤمنون من الإذعان لكل أوامر الله و الرسول و يقولون أى بعض الناس آمنا بالله و بالرسل و اعتقدنا بهما و أطعنا فى أعمالنا لهما ثم يتولى فريق منهم أى يعرض بعض هؤلاء المدعين للإيمان، عن الأوامر من بعد ذلك الإظهار للإيمان و الإطاعة و ما أولئك الذين يتولون و يعرضون عن الطاعة بالمؤمنين إذ كيف يكون مؤمنا صحيح الإيمان من يعرض عن أحكام الإله؟ و قد ورد (فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَجًا مِمَّا قُضِيَتْ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١﴾.

[٤٩] وَإِذَا دُعُوا إِلَى دَعْوَاهُمْ مِنْ تَرْفِ الْمَرَاغَاتِ إِلَى اللَّهِ لِيَنْظُرُوا مَاذَا فِي كِتَابِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ لِيَجْعَلُوهُ حَكْمًا بَيْنَهُمْ وَ رَسُولِهِ لِيَفْصَلَ الْقَضِيَّةَ حَسَبَ الشَّرِيعَةِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمُ الرَّسُولُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ أَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَاتِلِينَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُعْرَضُونَ عَنِ الْخُضُوعِ لِلْكِتَابِ وَ لِلرَّسُولِ، وَ كَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظَةِ «إِذَا» لِإِفَادَةِ الْمَفَاجَاتِ، كَأَنَّ هَذَا كَانَ مَفَاجَأَهُ أَنْ يُعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ يَدْعَى الْإِيمَانَ وَ الْإِطَاعَةَ.

(١) النساء: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٦

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ يَلُ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾

[٥٠] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ أَى عَلِمُوا بِأَنَّ الرَّسُولَ يُعْطَى الْحَقَّ لَهُمْ يَأْتُوا إِلَيْهِ إِلَى الرَّسُولِ مُذْعِنِينَ مُنْقَادِينَ لِقَضَائِهِ وَ حُكْمِهِ، إِمَّا حَيْثُ عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لَيْسَ لَهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ إِتْيَانِ الرَّسُولِ، يُرِيدُونَ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى مَنْ يُعْطَى لَهُمُ الْحَقُّ - وَ إِنْ كَانَ بَاطِلًا فِي نَظَرِ الْوَاقِعِ -.

[٥١] أ فِي قُلُوبِهِمْ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخِي، أَى هَلْ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْمَعْرُضِينَ عَنِ حُكْمِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَرَضٌ أَى نِفَاقٌ وَ رَيْبٌ فِي نُبُوتِكَ أَمْ ارْتَابُوا بَعْدَ أَنْ آمَنُوا، بِأَنَّ شَكُوكَ فِي عَدْلِكَ وَ قَوْلِكَ بِالْحَقِّ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ أَى يَجُورَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ فِي الْحُكْمِ، بِأَنَّ لَمْ يَشْكُوا فِي نُبُوتِكَ وَ لَمْ يَنَافِقُوا، وَ إِنَّمَا يَخَافُونَ مِنْ جُورِ الْحُكْمِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ ضَعْفِ الْإِيمَانِ بَلْ لَمْ يَخَافُوا جُورَ الْحُكْمِ، وَ إِنَّمَا أُولَئِكَ الْمَعْرُضُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ حَيْثُ تَوَلَّوْا عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ،

وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي مَنَازَعَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمَا مَنَازَعَةٌ فِي حَدِيقَةٍ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَرْضَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِعَثْمَانَ: لَا تَحَاكِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ لَهُ عَلَيْكَ وَ لَكِنْ حَاكِمُهُ إِلَى ابْنِ شَيْبَةَ الْيَهُودِيَّ فَقَالَ عَثْمَانُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا نَرْضَى إِلَّا بِابْنِ شَيْبَةَ الْيَهُودِيَّ فَقَالَ ابْنُ شَيْبَةَ لِعَثْمَانَ: تَأْتَمِنُونَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَى وَحْيِ السَّمَاءِ وَ تَتَّهَمُونَهُ فِي الْأَحْكَامِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَى رَسُولِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٧

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥١ الى ٥٣]

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

«وَ إِذَا دُعُوا» الْآيَاتُ «١».

[٥٢] إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّحِيحِي الْعَقِيدَةِ وَ الْإِيمَانِ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أَى إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَ رَسُولِهِ - فِيمَا كَانَ فِي الْحَيَاةِ - أَوْ سِيرَتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَى يَقْضَى بَيْنَهُمْ فِي الْخُصُومَاتِ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا قَوْلَ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا أَوْامِرَهُمَا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ.

[٥٣] وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فِي الْأَوْامِرِ وَ النَّوَهِى وَ يَخْشَى اللَّهَ أَى يَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ إِذَا خَالَفَ وَ يَتَّقِي أَى يَتَّقَى اللَّهَ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْخَشْيَةَ أَمْرٌ قَلْبِي، وَ الْإِطَاعَةُ عَمَلٌ خَارِجِي، وَ الْخَشْيَةُ تَنْجِرُ إِلَى التَّقْوَى فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ الظَّالِمُونَ بِسَعَادَةِ النَّشْأَتَيْنِ.

[٥٤] و بمناسبة الحديث عن المخالفين لأوامر الرسول يأتي الحديث عن بيان كذبهم في القول حتى فيما يحلفون على طبعه و أقسّموا بالله أي حلفوا به جهيداً أيما منهم أي أغلظ أيما منهم، الذي كان على قدر جهدهم و منتهى طاقتهم، و «جهد» منصوب على المصدر أي يجهدون جهداً في إيمانهم لئن أمرتهم بالخروج للقتال ليخرجن و لكن

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٢٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٨

[سورة النور (٢٤): آية ٥٤]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

هل ذلك صحيح؟ كلا! إنهم لم يرضوا بالمحاكمة فكيف يرضون بإزهاق أنفسهم في القتال؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ لَا تُقْسِمُوا عَلَى إِطَاعَتِكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا تَهْكَمَا، أَى أَنْ طَاعَتِكُمْ مَعْرُوفَةٌ، كَمَا تَقُولُ لِلَّذِي يَحْلِفُ كَاذِبًا إِنَّهُ عَمَلٌ كَذَا مِنَ الْخَيْرِ: لَا- تَحْلِفْ، أَعْمَالُ الْخَيْرِ مَعْرُوفَةٌ، أَوْ الْمَرَادُ لَا تَأْتِ بِالْحَلْفِ، وَ إِنَّمَا أُطِعَ، فِإِطَاعَتِكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً حَسَنَةً خَيْرٌ مِنْ حَلْفِكُمْ وَ قَوْلِكُمْ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَحْلِفُ أَنَّهُ يَنْصُرُكَ: لَا- تَحْلِفْ، انْصُرْ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَطِيعُونَ وَ إِنَّمَا تَحْلِفُونَ حَلْفًا مَجْرَدَةً عَنِ الْعَمَلِ.

[٥٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَطِيعُوا اللَّهَ فِي مَا أَمَرَكُمْ وَ نَهَاكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي مَا أَمَرَكُمْ وَ نَهَاكُمْ، وَ هَذَا شَامِلٌ لِسُنَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَإِنْ تَوَلَّوْا وَ أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ، أَصْلُهُ «تَوَلَّوْا» وَ هُوَ خِطَابٌ لَهُمْ، حَذَفَتْ إِحْدَى تَأْيِيدِهِ عَلَى مَا هُوَ الْقَاعِدَةُ فِي مَا إِذَا اجْتَمَعَ تَاءَانٌ فِي فِعْلِ الْمَضَارِعِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَى عَلَى الرَّسُولِ مَا حُمِّلَ وَ كَلْفٌ مِنَ الْبَلَاغِ وَ أَدَاءُ الرِّسَالَةِ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ مِنَ الطَّاعَةِ وَ الْإِطَاعَةِ، أَى أَنْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ غَيْرَ مَسْئُولٍ عَنِ إِعْرَاضِكُمْ فَقَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ وَ الْإِرْشَادِ، وَ إِنَّمَا الْوِزْرُ عَلَيْكُمْ حَيْثُ خَالَفْتُمْ وَ إِنْ تَطِيعُوهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ تَهْتَدُوا إِلَى الرِّشْدِ وَ الصَّلَاحِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧١٩

[سورة النور (٢٤): آية ٥٥]

وَ عِدَّةَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ أَى لَيْسَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ أَى تَبْلِيغُكُمْ الْأَحْكَامَ الْمُبِينِ أَى بِلَاغًا وَاضِحًا ظَاهِرًا لَا لَبْسَ فِيهِ وَ لَا غُمُوضَ.

[٥٦] وَ عِدَّةَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بَأَنَّ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ وَ عَمَلُهُمْ وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «مِنْكُمْ» لِلتَّشْرِيفِ بَأَنَّ الْوَعْدَ لَهُمْ، وَ إِلَّا فَالْوَعْدُ عَامٌ يَشْمَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ عَامِلٍ بِالصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَى يَجْعَلُهُمْ خُلَفَاءَ لِمَنْ سَبَقَهُمْ، فَيَكُونُونَ سَادَةً وَ مَلُوكًا عَقِبَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْأَرْضَ وَ سَادُوا الْبِلَادَ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ خُلَفَاءَ الْكُفَّارِ فِي سِيَادَةِ الْبِلَادِ، كَمَا اسْتَخْلَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَكَانَ الْمَلُوكِ الْكَافِرَةِ، وَ كَمَا اسْتَخْلَفَ النَّصَارَى مَكَانَ الْيَهُودِ، فَصَارُوا سَادَةً، وَ كَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَسْتَخْلِفُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي مَكَانِ الْكُفَّارِ لِيَكُونُوا هُمْ مَلُوكُ الْأَرْضِ وَ سَادَتِهَا عَوَضَ الْكُفَّارِ، وَ قَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ هَذَا الْوَعْدَ- كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِي- بَلْ لَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ مِنْ بَرَكَةِ أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ، وَصَلَ مَلِكُ الْأَرْضِ إِلَى مَنْ كَانَ فِي زِيِّ الْإِسْلَامِ، وَ إِنْ كَانَ الْإِسْلَامُ مِنْهُ مَعْزُولًا. وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ أَى يُمْكِنُهُمْ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِمُ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ، أَوْ الْمَرَادُ يُمْكِنُ دِينَهُمْ بَأَنَّ يَجْعَلُ لَهُ مَكْنَةً وَ قُوَّةً لِيُظْهِرَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَ يَغْلِبَ عَلَيْهَا، فَتَذْهَبُ الْأَدْيَانُ وَ تَضْمَحَلُّ وَ يَأْخُذُ هَذَا الدِّينَ مَكَانَهَا، وَ ارْتَضَى لَهُمْ أَى اخْتَارَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٠

[سورة النور (٢٤): آية ٥٦]

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)

لهم ديناً و لكيبدلنهم من بعد خوفهم أمناً فقد كانوا يخافون الكفار من إظهار دينهم و إعلام شعائره، لكن الله سبحانه - إذا آمنوا صدقاً، و عملوا الصالحات - يجعلهم سادة حتى لا يخافون أحداً، فيتبدل خوفهم بالأمن، و هؤلاء يعبدونني عبادة صادقة لا يشركون بي شيئاً فالخضوع له سبحانه، لا للمال و المنصب و الشهوات و ما أشبهها، إن من يمكنه الله في الأرض هو المتصف بهذا الوصف و من كفر بعد ذلك الذي يمكنه الله سبحانه في الأرض، بل خرج عن طاعة الله سبحانه بعد أن هيا له الجو و مهد له البلاد فأولئك هم الفاسقون أي الخارجون عن الحدود، فإن الفسق بمعنى الخروج، لأنهم خرجوا عن الشرط، و كأنه تهديد بالزوال، إذ من خرج عن الشرط هدد ملكه بالزوال، و قد رأينا ذلك في تاريخ الإسلام حين كفر الملوك بنعمة الله، و خرجوا عن أمره و شرطه، حيث انساقوا وراء الشهوات، و إذا بهم يخرجون عن الأرض، و تطوى سيادتهم و ملكهم، و قد وردت أحاديث كثيرة في أن الآية إنما هي في شأن الإمام المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه، و في شأن شيعة أهل البيت، و من المعلوم أن ذلك من أظهر مصاديق هذه الكلية المذكورة في الآية.

[٥٧] و إذ كان الشرط العمل الصالح يذكر السياق بعض أقسامه المهمة بقوله تعالى وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ بحدودها و آدابها وَ آتُوا أى

أعطوا الزكاة إما المراد الزكاة المفروضة أو مطلق الصدقة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢١

[سورة النور (٢٤): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أى لكى يرحمكم الله سبحانه و يتفضل عليكم جزاء أعمالكم.

[٥٨] و إذ تقدم وعد الله لعباده الصالحين باستخلافهم الأرض ذكر أنه ليس الكفار أعجزوه سبحانه فلم يتمكن منهم، و إنما ذلك امتحان لأيام قلائل حتى يصيروا إلى النار لا تحسبن أى لا تظنن يا رسول الله، أو من يأتى منه الظن الذين كفروا معجزين في الأرض أى قد أعجزونا عن أخذهم و إزالتهم و الانتقام منهم و ماؤاهم النار أى مستقرهم و مصيرهم من «أوى» بمعنى اتخذ المأوى و لبئس المصير أى بئس المأوى النار المعدة للكفار.

[٥٩] و من أدب العائلة أن يكون للزوجين أوقات خلوة، لا يدخل عليهم من الخدم و الأطفال أحد إلا بعد الاستئذان، فقد تقدم لزوم الاستئذان لمن في خارج البيت إذا أراد الدخول، و هنا يبين السياق لزوم الاستئذان لمن في داخل البيت إذا أراد الدخول في غرفة العائلة، و ذلك في ثلاثة أوقات، هي قبل وقت صلاة الفجر، و قبل وقت صلاة الظهر أو بعده، و بعد وقت صلاة العشاء حيث أن في هذه الأوقات يستريح الإنسان، و كثيرا ما تبدو العورات يا أيها الذين آمنوا ليسيتأذنينكم أى يلزم أن يطلبوا الإذن منكم إذا أرادوا الدخول في غرفتكم الخاصة و محل استراحتكم الذين ملكت أيمانكم و هم العبيد و الإماء، و نسبة الملك إلى اليمين لأن اليد - و بالأخص اليمين - هي العضو الكثير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٢

العمل الذى يكتسب حتى ينفق الإنسان الثمن فى شراء العبد و الذين لم يبلغوا الحُلُم منكم من الأطفال المميزين، أما سائر الناس كالأولاد الكبار و الأقرباء الذين يجمعهم دار واحدة، فقد سكنت عنهم الآية لوضوح أنهم مردوعون ذاتا عن اقتراف الدخول بلا

استئذان، كما سيفهم من الآية الآتية. ثلاث مَرَاتٍ أى فى كل يوم مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ حيث الإنسان فى فراش النوم، أو يبدل ثوبه للخروج وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ بعد الرجوع إلى الدار مِنْ بعد الظَّهْرِ و المراد إما وقت القيلولة قبيل الظهر و إما وقت المنام بعد الظهر وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ حيث يخلع الإنسان ثيابه للنمام، هذه ثلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ و إنما سُمي الأوقات بالعمرة، لانكشاف العمرة فى هذه الأوقات غالباً، من باب الإسناد إلى السبب، فالأوقات مبدية للعمرة، لا أنها عمرة، أو من باب الإسناد إلى الظرف، فالأوقات ظرف لظهور العمرة، و لا- يخفى أن الملاك موجود فى غير هذه الأوقات الثلاث فيما جرت العادة بالخلوة فيها لَيْسَ عَلَيْكُمْ أيها المؤمنون وَ لا عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أى الخدم و الغلمان بَعْدَهُنَّ أى فيما بعد هذه الأوقات الثلاثة و المراد ببعدهن، سائر الأوقات، لا خصوص بعد المقابل لقبيل، نحو «من بعد الله» طَوَافُونَ الطائف هو الذى يختلف إلى مكان، و منه سُمي الطواف و السعى، فى الحج، طوفاً عَلَيْكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٣

[سورة النور (٢٤): آية ٥٩]

وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)

أولئك الخدم و الغلمان، و يظهر من الآية، أن الجناح فى الأوقات الثلاثة ليس خاصاً بالطائف، بل جناح على الزوجين أيضاً، كما أن الظاهر من الآية عموم الحكم حتى بالنسبة إلى غير الزوجين ممن يخلو بنفسه فى غرفته، لإطلاق الآية، و وجود العلة بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أى طواف بعضكم و هم الخدم و الغلمان على بعض و هم الزوجان و من إليهما، و لعل الإتيان بهذه الجملة للإشارة إلى أنه لا ينبغى التحشم فى غير الأوقات الثلاثة، أستم جميعاً بعض من كل؟ و هذا لبيان الأدب المتوسط بين الإفراط لمن يأذن حتى فى هذه الأوقات- كما نرى عند بعض الجاهلين فى هذا الزمان- و بين التفريط لمن لا يأذن حتى فى غير هذه الأوقات ترفعا و أنفه، أو المراد طوافكم عليهم لطلب الحاجة و التريه، و طوافهم عليكم للخدمة، و كما بين الله لكم هذا الحكم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيات الدالة على الأحكام و الآداب وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بما هو صلاحكم حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى عنه.

[٦٠] وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ أَيها المؤمنون و التخصيص ب «منكم» لأن العبيد إذا بلغوا بقى حالهم كالسابق الحُلُم أى وقت الاحتلام، و هو البلوغ فَلْيَسْتَأْذِنُوا أى يجب عليهم الاستئذان إذا أرادوا الدخول، فى أى وقت كان، فإن الإنسان يتأدب أما الحر الكبير ربما لا يتأدب أمام الطفل و العبد كما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ ذَكَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ من الأطفال و الخدم، فى الأوقات الثلاث أو كما استأذن الذين بلغوا قبلهم من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٤

[سورة النور (٢٤): آية ٦٠]

وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لِهِنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

الأحرار، و كما بين الله سبحانه هذا الحكم كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ الدالة على الأخلاق و الأحكام وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بالمصالح حَكِيمٌ فيما يأمر و ينهى، فاللازم أن يتبع الإنسان أحكامه لأنها صادرة عن علم و حكمه.

[٦١] و إذ قد تقدم حرمة إبداء النساء زينتهن و لزوم الحجاب، جاء السياق ليستثنى عن ذلك النساء اللاتى تقدمن فى السن، حتى خلت أجسامهن عن الإثارة، و عفت نفوسهن عن الشهوة، فلا يثرن شهوة، و لا يشتتهن أمراً وَ الْقَوَاعِدُ جمع قاعدة، و هى التى قعدت عن الحيض و قابلية الزواج مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي جمع التى لا- يَرْجُونَ نِكَاحاً أى لا- يطمعن فى النكاح و «يرجون» مشترك بين الجمع المذكر و المؤنث، كما لا يخفى. فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ أى يتركن ثِيَابَهُنَّ المرتبطة بالنساء كالجلباب الذى تلبسه المرأة فوق الخمار و الحجاب و ما أشبه ذلك، فقد جاز لهن أن يخرجن بملابسهن العادية، بدون ستر البدن بجلباب كبير و بدون ستر الوجه و اليدين و القدمين، فى حال كونهن غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ التبرج الظهور، أى غير ظاهرات مع زينة مثيره، كالحلى، و الثياب الجميلة، و

الزخارف الملونة، فاللازم أن يكون قصدهن التخفيف لإظهار الزينة ومع ذلك أن يَسْتَعْفِنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٥

[سورة النور (٢٤): آية ٦١]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

لبس الجلباب و عدم وضع ثيابهن خَيْرٌ لهنَّ من وضعها، بأن يلبس الجلباب كسائر النساء فإن ذلك ثوب حشمة و وقار و الله سميع لأقوالكم التي تقولونها حول النساء القواعد، و التي تقولها النساء عن أنفسهن عليم بما في قلوبكم، و قلوبهن، فإذا زاغت كلمه أو التوى قصد علمه الله سبحانه، و حاسبكم عليه.

[٦٢] ثم يأتي السياق لبيان أحكام الأكل و الموائمة، مما يرتبط بالعائلة، و الأصدقاء، بعد ما بين حكم البيوت و الخلوة و الاستئذان في خارجها و داخلها

قال الإمام الباقر عليه السلام: أن أهل المدينة- قبل أن يسلموا- كانوا يعتزلون الأعمى و الأعرج و المريض و كانوا لا يأكلون معهم و كان الأنصار فيهم تيه و تكرم، فقالوا: إن الأعمى لا يبصر الطعام و الأعرج لا يستطيع الزحام على الطعام و المريض لا يأكل كما يأكل الصحيح فزلوا طعامهم على ناحية و كانوا يرون عليهم في مؤاكلتهم جناح، و كان الأعمى و الأعرج و المريض يقولون: لعلنا نؤذيهم إذا أكلنا معهم فاعتزلوا من مؤاكلتهم، فلما قدم النبي صلى الله عليه و آله و سلم سئل عن ذلك: فأنزل الله عز و جل لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ «١» أى ليس عليه ضيق يوجب اعتزالهم و لا- عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ فى أكله مع الناس و لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ من المعلوم أن الآية لم تسق للإطلاق من جهة أقسام الأمراض المعدية و إنما سيقت لبيان أمر آخر، فلا إطلاق فيها من هذه الجهة، ثم بين سبحانه حكماً آخر و هو جواز أن يتناول الإنسان من

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٥ ص ٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٦

البيوت المذكورة بدون استئذان أربابها.

و لا- حرج على أنفسكم أيها المؤمنون أن تأكلوا من بيوتكم أى بيوت أزواجكم، فلا محل لأن يتحرج عن الأكل من بيته باحتمال أن يكون المأكل خاصاً بالزوجة أو الزوج أو لشخص غريب وضعه هناك أمانة أو نحو ذلك، و ربما احتل أن يكون المراد بيت الأولاد، فنسب بيت الأولاد إلى الإنسان نفسه أو بيوت آبائكم و يشمل الأجداد أو بيوت أمهاتكم و تشمل الجدات أو بيوت إخوانكم سواء كان الأكل أخاً أو أختاً أو بيوت أخواتكم من الأبوين أو من واحد منهما أو بيوت أعمامكم و الظاهر شموله لأعمام الأب و الأم أو بيوت عماتكم و هى فى الشمول لمطلق العمه كالسابق أو بيوت أخوالكم أخ الأم أو بيوت خالاتكم أخت الأم، و فى عمومها ما سبق أو ما مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ مفاتيح جمع مفتاح، و هو المفتاح، أى البيت الذى عندكم مفتاحه،

قال الصادق عليه السلام: الرجل له و كيل، يقوم فى ماله فىأكل فى غير إذنه أو بيت صديقكم فقد ورد عنهم عليهم السلام إنهم قالوا: لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكره الله قدر حاجتهم من غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٧

إسراف «١».

و قال الصادق عليه السّلام: هؤلاء الذين سمى الله عز و جل في هذه الآية يأكل بغير إذنه من التمر و المأدوم و كذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه
«٢».

و قال عليه السّلام في قوله «ليس عليكم جناح»: بإذن و بغير إذن

«٣». لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَلَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَسْ أَنْ يَأْكُلَ مَعَ غَيْرِهِ أَوْ مُنْفَرِداً، وَ هَذَا بَيَانٌ كَيْفِيَّةُ الْأَكْلِ بَعْدَ مَا بَيْنَ سَبْحَانِهِ مَكَانَ الْأَكْلِ، فَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ وَحْدَهُ، وَ أَشْتَاتٌ جَمْعُ شَتِيتٍ، وَ مَعْنَاهُ الْمَتَفَرِّقُ «و» إِذْ بَيْنَ سَبْحَانِهِ كَيْفِيَّةُ الْأَكْلِ وَ مَكَانَ الْأَكْلِ جَاءَ السِّيَاقُ لِبَيَانِ بَعْضِ آدَابِ الْبُيُوتِ عَطْفًا عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْآدَابِ فَقَالَ فَإِذَا دَخَلْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ بُيُوتاً مِنْ تِلْكَ الْبُيُوتِ أَوْ غَيْرِهَا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَيْ لَيْسَلَمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ،

قال الصادق عليه السّلام: هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم

«٤» تَحِيَّةٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، إِذْ هُوَ بِمَعْنَى تَسْلِيمًا، أَيْ حَيَاةٌ تَحِيَّةٌ وَ سَلَّمُوا تَسْلِيمًا وَ أَصْلُ التَّحِيَّةِ أَنْ الْإِنْسَانَ كَانَ إِذَا رَأَى غَيْرَهُ قَالَ «حَيَّاكَ اللَّهُ» أَوْ «لِتَحِيَّيْ» وَ الْمَعْنَى أَنْ يَبْقَى حَيًّا، حَتَّى يَشْرَعَ الْإِسْلَامَ السَّلَامَ، وَ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ التَّحِيَّةِ - بِالْمَعْنَى الْمَتَفَرِّقِ - إِذْ الْحَيَاةُ لَا تَلْزَمُ السَّلَامَةَ، أَمَا السَّلَامَةُ فَهِيَ تَلْزَمُ الْحَيَاةَ مَعَ الزَّائِدِ، وَ مِنْ هُنَاكَ سُمِّيَ كُلُّ تَرْحِيبٍ يَبْدَى بِهِ عِنْدَ الْإِقْدَاءِ، بِالتَّحِيَّةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَيْ أَنَّهَا تَحِيَّةٌ جَاءَتْ مِنْ عِنْدِهِ

(١) فقه القرآن: ج ٢ ص ٣٣.

(٢) الكافي: ج ٦ ص ٢٧٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٢٤ ص ٢٨٣.

(٤) وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٨

[سورة النور (٢٤): آية ٦٢]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

سبحانه، بأمره لكم أن تبدؤوا بها.

في حال كونها مباركة أي لها البركة، فإن السلام يوجب الزيادة في العلاقات، مع ما له من الآثار الغيبية طيبة لما فيها من طيب العيش بالتواصل و الأجر الكبير،

و قد ورد أن في السلام و الجواب مائة حسنة تسع و تسعون منها للمسلم و واحدة للمجيب،

و كما بين الله لكم هذه الأحكام كذلك يبين الله لكم أيها المسلمون الآيات الدالة على الأحكام و الآداب لعلكم تعقلون أي لكي تعملوا عقولكم فتسعدوا في الحياة.

[٦٣] و إذ بين سبحانه علاقة المسلمين بعضهم مع بعض في المأكل، و الاجتماع و التحية، و سائر ما تقدم بين الأدب اللازم رعايته مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم رئيس المسلمين الأعلى فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ بِأَنْ اعْتَقَدُوا بِاللَّهِ، وَ صَدَقُوا بِالرَّسُولِ، عَنْ حَقِيقَتِهِ وَ قَلْبًا، لَا بِمَجْرَدِ اللَّفْظِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ أَيْ مَعَ الرَّسُولِ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ أَيْ أَمْرٍ يَقْتَضِي الْجَمَاعَةَ كَالْمَشُورَةِ، وَ الْحَرْبِ، وَ مَا أَشْبَهَ لَمْ يَذْهَبُوا مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ أَيْ يَطْلُبُوا الْإِذْنَ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فِي الذَّهَابِ وَ الْإِنْصِرَافِ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ إيماناً صادقاً راسخاً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٢٩

[سورة النور (٢٤): آية ٦٣]

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِذْ عَدِمَ الِاسْتِثْذَانُ دَلِيلَ عَدَمِ تَمَكُّنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَنَشُوبِ الْإِيمَانِ فِي أَعْمَاقِهِمْ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِيُغْضِ شَأْنَهُمْ وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا اعْتِبَاطًا لِلتَّخْلِصِ مِنَ التَّبَعَةِ، وَ إِنَّمَا الِاسْتِثْذَانُ لِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمَحْتَاجِ إِلَيْهَا فَأُذِنَ لِمَنْ شِئَتْ مِنْهُمْ فَإِنْ إِعْطَاءَ الْإِذْنَ بِيَدِ الرَّسُولِ، إِنْ شَاءَ أُذِنَ وَ إِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذِنْ وَ اسْتِغْفَرَ لَهُمْ اللَّهُ أَيْ اطْلُبْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْغُفْرَانَ، فَ لَعَلَّ الِاسْتِثْذَانَ كَانَ عِبْثًا لِمَحَاوَلَةِ الْفِرَارِ عَنِ الْأَمْرِ الْجَامِعِ فَهَمَّ فِي مَعْرُضِ سَخَطِ اللَّهِ الِذِي لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الِاسْتِغْفَارُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ يَغْفِرُ الذَّنْبَ رَحِيمٌ يَتَفَضَّلُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّطْفِ وَ الرَّحْمَةِ،

وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَنْظَلَةَ، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ فِي صَبِيحَتِهَا حَرْبٌ أَحَدٌ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَقُمْ عِنْدَ أَهْلِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، فَأَقَامَ عِنْدَ أَهْلِهِ ثُمَّ أَصْبَحَ وَ هُوَ جَنْبٌ فَحَضَرَ الْقِتَالَ وَ اسْتَشْهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتَ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بِمَاءِ الْمِزْنِ فِي صَحَائِفِ فُضَّةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، فَسُمِّيَ غَسِيلَ الْمَلَائِكَةِ «١».

[٦٤] وَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَدَابِ الَّتِي يَلْزَمُ مِرَاعَاتُهَا مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ مَا بَيْنَهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: لَا تَجْعَلُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ دُعَاءَ الرَّسُولِ نِدَاءً عِنْدَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٠

المخاطبة فيما بينكم و لعل الإتيان بهذه الكلمة، لبيان أنه ينبغي احترامه و هو بينكم، فإنه الرسول، في قبال من يحترم غيره في الخارج دون الخلوة فيما بينهما كدعاء بعضكم بعضاً كما ينادى بعضكم بعضاً بالاسم، أو اللقب فلا تقولوا يا محمد، و يا أبا القاسم، بل قولوا يا رسول الله، يا نبي الله،

قال الصادق عليه السلام: قالت فاطمة عليها السلام: لما نزلت هذه الآية هبت رسول الله أن أقول له يا أبت، فكنت أقول يا رسول الله، فأعرض عني مرة أو اثنتين أو ثلاثاً ثم أقبل علي و قال: يا فاطمة إنها لم تنزل فيك و لا في أهلِكَ و لا في نسلِكَ أنت مني و أنا منك، إنما نزلت في أهل الجفاء و الغلظة من قريش أصحاب البذخ و الكبرياء، قولي يا أبت فإنها أحيا للقلب و أرضى للرب «١».

أقول: لعل المراد بالنسل الأئمة عليهم السلام.

ثم رجع السياق إلى ما تقدم من لزوم الاستئذان لدى إرادة الانصراف قد يعلم قد للتحقيق، أو جار مجرى التعريض، فقد تقول لولدك - مهدداً - قد أطلع إلى عملك، بمعنى أن احتمال اطلاعي كاف في أن ترتدع الذين يستللون التسلل الخروج في خفية و هدوء و حذر منكم أيها المسلمون لو آذاً و هو أن يتستر الإنسان بشيء مخافة أن يراه أحد، من لاذ بمعنى: التجأ، فقد كان بعض المسلمين يقومون في هدوء و حذر و يتسترون ببعض الأصحاب الجالسين أو

(١) المناقب: ج ٣ ص ٣٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣١

[سورة النور (٢٤): آية ٦٤]

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

الواقفين، لئلا يراهم الرسول حين يريدون الانصراف، بدون الاستئذان، وفي قوله «قد يعلم الله» تهديد لمن يفعل ذلك فليحذر أى يجب أن يحذر ويخاف الذين يخالفون أى يعرضون عن أمره تعالى أن تصيبهم فتنة أى بينة وعقوبه فى الدنيا أو يصيبهم عذاب أليم فى الآخرة.

[٦٥] ألا- إن لله ما فى السماوات والأرض فالكل ملكه والكل تحت تصرفه، فكيف يمكن أن يخالفه أحد ولا يخشاه؟ قد يعلم ما أنتم عليه من الأعمال والكلام فى «قد» ما تقدم، وفى هذا تهديد لمن يخالف ويوم يؤججون إليه وهو يوم الموت، أو يوم القيامة، والمراد الرجوع إلى حسابه و جزائه فينبئهم أى يخبرهم، إخبارا يتعقبه الجزاء، وهذا كقولك لمن تريد وعده أو إيعاده «سأخبرك بما عملت» بما عملوا من الطاعة والمعصية والله بكل شئ عليم فيجازى كلا حسب عمله وما صدر منه، و «يوم» منصوب على الظرفية، أى «ينبئهم فى يوم يرجعون إليه»، وإنما دخل «الفاء» لإفادة الترتيب بين الإخبار وبين الرجوع.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٢

٢٥ سورة الفرقان مكية / آياتها (٧٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على كلمة «الفرقان» وهى كسائر السور المكية تتعرض للعقيدة وما يتبعها و حيث ختمت سورة النور بأن لله ما فى السماوات والأرض، ابتدأت هذه السورة بأن لله التشريع، لتلائم التشريع مع التكوين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله المستجمع لجميع صفات الكمال، وقد اعتاد الإنسان أن يجعل شعاره أفضل شئ يشير إلى نفسه ومنهجه، و هل هناك شئ أفضل من اسم الله سبحانه ليجعل شعارا؟، و هل بعد ذلك شئ أفضل من الرحمة التى تعم التكوين وإعطاء الخير والهداية، ليعقب باسم الإله؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٣

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

[٢] تَبَارَكَ هو من باب التفاعل، من البركة، إما بمعنى تكاثر خيره، أو من البروك، بمعنى الاستقرار، أى دام و ثبت الذى نزل الفرقان أى القرآن، وسمى فرقانا لأنه المفرق بين الحق والباطل على عبده محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين أى جميع عوالم العقلاء من الإنس والجن فى الأجيال المختلفة والأصقاع المختلفة نذيراً أى منذرا عن المعاصى والكفر والآثام، وإنما ذكر هذا الوصف، لأن التنقية عن الشرك والمعاصى مقدم على التحلية بالإيمان والطاعات.

[٣] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المالك، وحق للمالك أن يشرع، كما أن المالك أعرف بما يصلح مملوكه من غيره، فهو أحسن نظاما وخير دينا من غيره ولم يتخذ ولداً كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون جعلوا عزيزا والمسيح والملائكة أولاد الله تعالى ولم يكن له تعالى شريك فى الملك يشاركه فى الكون، كما زعم المشركون، حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله سبحانه وخلق كل شئ فله الخلق، كما أن له الملك، وصرح بذلك لعدم التلازم بينهما فقدرة تقديراً حسب الحكمة والصلاح، أى وضع لكل شئ حدا فى الكيفية والكمية ومدة البقاء إلى غير ذلك من الأمور

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٤

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣ الى ٤]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَ

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤)
المكتشفة بكل مخلوق.

[٤] وَاتَّخَذُوا أَى اتَّخَذُوا الكفار مِنْ دُونِهِ من دون الله إِلَهَهُ المراد بالجمع الجنس حتى يشمل الواحد، كما يراد بالجمع الجمع فى كثير من الموارد، و تلك الالهُة لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً لا تقدر على خلق شىء و هُم تلك الالهة يَخْلُقُونَ مخلوقه لله سبحانه، و الإتيان بلفظ العاقل سيرا على مذهب القوم الذين كانوا يزعمون عقل الأصنام و لا يَمْلِكُونَ تلك الالهة لَأَنْفُسِهِمْ فكيف لغيرهم ضراً بأن تدفعه عن نفسها و لا نفعاً بأن يجلبونه لأنفسهم، فى مقابل الله الذى يخلق و لم يخلق، و يتمكن على كل نفع و إضرار بالنسبة إلى جميع الناس و لا يَمْلِكُونَ لأحد مؤثراً و لا لميت حياً و لا لأحد نُشوراً أى إحياء بعد الموت، فكيف يترك الكفار عبادة الله القادر على كل شىء و الخالق لكل شىء و المالك لكل مملوك، و يعبدون هذه الأصنام التى لا تقدر على شىء و لم تخلق شيئاً و ليس لها شىء؟.

[٥] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا حول القرآن الذى أنزله الله على رسوله إِنَّ هَذَا أَى ما هذا القرآن إِلَّا إِفْكٌ أَى كذب افتراه الرسول، على الله سبحانه، بأن نسبه إليه تعالى بالكذب، و أعانه أعان الرسول عَلَيْهِ على هذا الإفك قَوْمٌ آخَرُونَ فقد كانوا يقولون إن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٥

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٥]

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)

عداس مولى حويطب و يسار غلام العلاء و حبر مولى عامر، هم الذين أعانوا الرسول على إنشاء هذا القرآن، و قد كان أولئك من أهل الكتاب.

و عن الباقر عليه السلام: يعنون أبا فكيهه و حبرا و عداسا و عابسا مولى حويطب

«١» فَقَدْ جَاءُوا أَى هؤلاء الكفار ظُلماً إذ ظلموا الرسول صَلَّى الله عليه و آله و سلم بهذه النسبة إليه و زوراً أى افتراء، فكيف يمكن للبعد أن يأتى بمثل هذا القرآن الذى لا يمكن أن يأتى به فصحاء قريش و عقلائهم؟ كما قال سبحانه: (لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) «٢»؟.

[٦] وَقَالُوا أَى قال جماعة آخرون من الكفار أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا جمع أسطورة، و هى الحديث الخيالى الذى لا واقع له، أى قالوا أن هذا القرآن أحاديث المتقدمين و ما سطره فى كتبهم جمعها محمد و كتبها ليدعى بها النبوة فَهِيَ أَى هذه الأساطير تُمَلَى عَلَيْهِ تقرأ عليه يقرأها عليه بعض أصدقائه بُكْرَةً و أَصِيلاً أى صباحا و عشيا، ليحفظها و يقرأها على الناس، و قد كانوا مناقضين فى أقوالهم فمرة يقولون إفك افتراه، و مرة إنها أساطير الأولين، مع أن الرسول لم يكن كاتباً، ثم ينسبون الإلقاء إلى أفراد لم يكن لهم علم و لسان، و مع ذلك كله لم يقدروا على أن يأتوا بأقصر سورة مثله.

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ١١١.

(٢) النحل: ١٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٦

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦ الى ٧]

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦) وَقَالُوا ما لَهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيراً (٧)

[٧] قُلْ يا رسول الله فى جوابهم أنزله أى أنزل هذا القرآن الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ أى الخفى فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو بعلمه الشامل يعلم مقدار قدرة البشر، و لذا ترى الذى أنزله فوق قدرتهم إذ لا يتمكنون أن يأتوا بمثله، و لو كان افتراء من عند جاهل لا يعلم مقادير قدرة

الناس لأمكنوا من معارضته و الإتيان بمثله. إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ كَانَ عَفُورًا حَيْثُ لَمْ يَعِجَلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، لِيَتُوبَ مِنْ يَتُوبَ رَحِيمًا يَرْحَمُ الْعِبَادَ وَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ.

[٨] لقد كان هذا قولهم في القرآن أما قولهم حول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ قَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ أَصْلَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى «أى شىء له» و لكن استعملت بعد ذلك في مجرد الاستفهام يَأْكُلُ الطَّعَامَ أى كيف يكون رسولا و هو يأكل الطعام وَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ فَقَدْ كَانُوا يظنون أن هذه الأمور تنافى شأن الرسالة لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ، كى نراه فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أى معينا له على الإنذار و التخويف و «لولا» بمعنى «هلا» و لنسأل هؤلاء القائلين: لماذا يجب أن يكون الرسول لا- يأكل الطعام، و لا يمشى فى الأسواق؟ و لماذا يلزم أن يكون معه ملك يرى؟ إن الكفار لم يكن لهم منطوق فى هذه الكلمات إلا السخافة و الاقتراح المجرد و العناد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٧

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٨ الى ١٠]

أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠) [٩] أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ مِنْ جَانِبِ السَّمَاءِ، أَوْ الْمَرَادُ يَعطى كَنْزٌ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ سَائِرِ الْجَوَاهِرِ، حَتَّى يَكُونَ ذَا مَالٍ، فَقَدْ كَانُوا يَسْتَعْرِبُونَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ لَا- مَالٌ لَهُ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ أَى بَسْتَانٌ يَأْكُلُ مِنْهَا مِنْ تِلْكَ الْبَسْتَانِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى اشْتِرَاءِ الْفَوَاكِهِ وَ الْخَضِرِ مِنَ السُّوقِ وَقَالَ الظَّالِمُونَ أَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ إِنْ تَتَّبِعُونَ أَى مَا تَتَّبِعُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا قَدْ سَحَرُوهُ، وَ ذَهَبَ عَقْلُهُ، وَ مِنْ ذَهَابِ عَقْلِهِ ادْعَاءُ النَّبِوَّةِ، وَ كَلَامُهُ بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ.

[١٠] انظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ أَى الْأَشْبَاهَ فَتَارَةً شَبَّهُواكَ بِالسَّحُورِ، وَ تَارَةً بِالْمَجْنُونِ، وَ تَارَةً بِالشَّاعِرِ، وَ هَكَذَا فَضَّلُوا عَنِ الطَّرِيقِ، وَ سَبِيلِ الْهَدْيِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ حَيْثُ أَبْعَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْكَ سَبِيلًا يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ، إِنَّهُمْ بَعَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْكَ، وَ لَا طَرِيقَ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ سِوَاكَ، فَهَمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْهَدْيِ.

[١١] تَبَارَكَ أَى تَقَدَّسَ وَ تَعَالَى- وَ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ- الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ الَّذِي اقْتَرَحُوهُ، مِنْ الْكَنْزِ وَ الْبَسْتَانِ، ثُمَّ فَسَّرَ سَبَّحَانَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ بِقَوْلِهِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٨

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١١ الى ١٢]

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا (١٢) تحت أشجارها وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا فى هذه الدنيا، و لكن الإيمان حيث كان مرتبطا بالقلوب، و لأجل الامتحان، يلزم تجرد الأنبياء عن المال- بدء الدعوة- ليظهر صدق المؤمن، و إلا فالناس كلهم تبع للمال، يميلون حيث مال.

و لعل ذكر هذه المحاورات بين الرسول و بين القوم، و بيان ما كانوا يقولون فى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ فى القرآن، لأجل تعليم الناس كيفية الاحتجاج، و إرشاد الذين يريدون الإصلاح إلى الأتعاب التى يواجهونها فى طريقهم، ليأخذوا أهبتهم عند الحركة، و يستعدون للدفاع و الكفاح حسب اطلاعهم على مقدار قوى الخصم، و لتظهر منزلة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ مكانته السامية.

[١٢] هؤلاء لا- يكذبونك لأنهم لم يجدوا دليلا على صدقك بل إنما يكذبونك لأنهم لا يخافون المعاد فقد كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ أَى بِالْقِيَامَةِ وَ أَعْتَدْنَا هَيْثُنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا نَارًا تَسْعُرُ وَ تَنْطَلِقُ.

[١٣] إِذَا رَأَتْهُمْ أَى رَأَتْ النَّارَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَ إِنَّمَا نَسَبَ الرَّؤْيَةَ إِلَى النَّارِ، مَعَ أَنَّ النَّارَ لَا عَيْنَ لَهَا، لِزِيَادَةِ التَّهْوِيلِ حَتَّى

كأن النار تراهم و تنظر إليهم نظرة الغضبان الحائق، و القلب من أنواع البلاغة كما قال الشاعر:

و لما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفدن السيعا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٣٩

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٣ الى ١٥]

وَ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَ اذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جِزَاءً وَ مَصِيرًا (١٥)

سَمِعُوا لَهَا أَى للنار تَعْيُظًا فَإِنهَا تَتَقَطَعُ عِنْدَ اشْتِدَادِهَا، كما يسمع الإنسان صوت الأعواد حين تنقطع فى النار وَ زَفِيرًا وَ هُوَ صوتها عند النفس و الالتهاب.

[١٤] وَ إِذَا أُلْقُوا أَى ألقى هؤلاء الكفار مِنْهَا من النار مَكَانًا ضَيِّقًا أَى فى مكان ضيق من النار،

وَ قد قال النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: إنهم فى النار كالوتد فى الحائط

مُقَرَّنِينَ قرن بعضهم إلى بعض، أَوْ قد قرن أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال، أَوْ قرنوا مع الشياطين دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا الثبور: الهلاك أَى طلبوا هلاكهم، قائلين وَ اثبوراً، أَى يا هلاك احضر و أرحنا من هذه المشقات.

[١٥] فيقال لهم حينذاك لا تَدْعُوا أَيها الكفار الْيَوْمَ فى النار ثُبُورًا وَاحِدًا وَ هَلَاكًا وَاحِدًا وَ اذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا وَ لعله كناية عن أن قول

الويل لا ينفعكم و إن كثر، كما يقال لمن يبكى حزنا على فقد شيء، ابكى كثيرا، يراد أن البكاء لا ينفع، و إن بكى الإنسان كثيرا.

[١٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَصْرُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَ عَصِيَانِهِمْ أ ذَلِكَ أَى هل هذا المرجع و هذه العاقبة السيئة خَيْرٌ

لِلْإِنْسَانِ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ أَى: البساتين التى يخلد فيها الإنسان و لا يخرج منها إلى الأبد الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ يتقون الكفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤٠

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٦ الى ١٧]

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هُؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)

وَ العصيان؟ كَانَتْ تِلْكَ الْجَنَّةُ لَهُمْ أَى للمتقين جزاء على أعمالهم وَ مَصِيرًا أَى محلا يصيرون إليه.

[١٧] لَهُمْ فِيهَا أَى فى الجنة مَا يَشَاءُونَ من أنواع النعيم و اللذات خَالِدِينَ باقين إلى الأبد كَانَ إِدْخَالَهُمْ فى الجنة- المفهوم من الكلام-

عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا أَى وعدهم ربك وعدا مَسْئُولًا أَى يسأل الله عن هذا الوعد، و السائلون هم الأتقياء فإنهم يسألون الله أن يفى لهم بالوعد، و هذا تأكيد للأمر، يعنى إن الوعد وعد قطعى حتى إنه يسأل عنه، و ليس من قبيل وعد بعض الناس الذى هو مجرد لقلقة لسان.

[١٨] وَ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ أَى يجمع الله هؤلاء الكفار للحساب و الجزاء، و هو يوم القيامة وَ يَحْشُرْ مَا يَعْبُدُونَ مِنَ الْآلِهَةِ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لعل المراد هنا المسيح و الملائكة و أمثالهم، أَوْ الأعم منهم و من الأصنام، و ينطق الله الأصنام بقدرته ليتكلموا حتى يكون زيادة فى تفرغ الكفار.

فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا شُرَكَاءَ لَهُ أَأَنْتُمْ أَيها المعبودون أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي الْمُشْرِكِينَ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ تشاهدونهم إلى

جنبكم أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ بطغيانهم، بأن أشركوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤١

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ١٨ الى ١٩]

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ

كَذَّبُواكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

فتأهوا طريق الحق والرشاد؟.

[١٩] قالوا أى قال أولئك المعبودون سُبْحَانَكَ أى تنزيها لك، و هو مصدر منصوب بفعل مقدر أى نسبحك سبحانك ما كان يَبْغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ أى ليس لنا أن نوالى أعداءك، فإننا لم نوال هؤلاء، فكيف نأمرهم بعبادتنا و اتخاذا آلهة، فمن ليس بينه و بين أحد مجرد الصداقة و الولاية، كيف يكون داعيا له إلى نفسه؟ وَ لَكِنْ إِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ فَقَدْ مَتَّعْتَهُمْ أى تفضلت عليهم بالنعم و متع الحياة الدنيا وَ مَتَّعْتَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ الْمُنْزَلَ عَلَى الرُّسُلِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا طَالَ عَمْرُهُ فِي خَيْرٍ وَ أَمْوَالٍ وَ أَوْلَادٍ، طَغَى، و لم يبال بالأوامر، حتى كأنه نسيها وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا أى هلكى فاسدين، فَإِنَّ بُورٌ جَمْعُ بَاثِرٍ، وَ هُوَ الْهَالِكُ الَّذِي لَا نَفْعَ فِيهِ، وَ مِنْهُ يُقَالُ لِلْخَرَابِ بَاثِرٌ.

[٢٠] ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين فى دار الدنيا، بعد أن يتم الكلام حول تلك الحكاية عن حالهم مع المعبودين فى القيامة فَقَدْ كَذَّبُواكُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ- أى كذبكم الشركاء، إذ بينوا أنهم لم يأمرؤكم بعبادتهم، خلاف ما كنتم تقولون من أن المسيح و الملائكة و من أشبههم أمرؤكم بعبادتهم بِمَا تَقُولُونَ من أمرهم لكم باتخاذهم شركاء فَمَا تَسْتَطِيعُونَ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ، فى الآخرة صَرْفًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٣، ص: ٧٤٢

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٢٠]

وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فى الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَ كُفْرِكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَمْ تُصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

للعذاب عن أنفسكم وَ لَا تُضَيِّرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ، بأن تغلبون عليه حتى تخمدوه- مثلا- وَ مَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نَفْسَهُ بِالشَّرْكِ وَ الْعِصْيَانِ نُذِقْهُ فى الآخرة عَذَابًا كَبِيرًا أى عظيما شديدا.

[٢١] ثم ارتد السياق ليجيب عن بعض مجادلات الكفار مع الرسول فى باب رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَكَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فى الْأَسْوَاقِ وَ أَنْتَ مِثْلَهُمْ فَكَيْفَ يَقُولُ هَؤُلَاءِ مُتَعَجِّبِينَ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشَى فى الْأَسْوَاقِ؟ وَ جَعَلْنَا نَحْنُ بَعْضَ كُفْرِكُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ وَ يَا أَيُّهَا الْكُفَّارُ لِبَعْضٍ فِتْنَةً وَ امْتَحَانًا فَالْكَفَّارُ يَمْتَحَنُونَ بِالرَّسُولِ حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ وَ مَنْ لَا- يؤمن، و الرسول يمتحن بالكفار حتى يظهر صبره و صموده و سائر مزاياه، و يكون ذلك سببا لارتفاع درجته أَمْ تُصْبِرُونَ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى الْامْتِحَانِ، حتى تخرجوا ناجحين، أم يسرع الكفار إلى شهوات الدنيا، فلا صبر لهم على الطاعة وَ كَانَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَصِيرًا بِمَنْ صَبَرَ وَ بِمَنْ لَمْ يَصْبِرْ، وَ بِمَنْ نَجَحَ فى الْامْتِحَانِ وَ بِمَنْ لَمْ يَنْجَحْ- هذا هو الذى استظهره من الآية بمقتضى السياق- و قال بعض المفسرين معنى لا يلائم السياق، و الله العالم.

الجزء الرابع

[تنمة سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فى أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُنُقًا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ

لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)

[٢٢] وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَهُمْ الْكُفَّارُ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ حَتَّى الْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ فِي لِقَاءِ جِزَاءِ اللَّهِ وَحَسَابِهِ لَوْ لَا أَى هَلَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ لِيخْبِرُونَا بِأَنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَبِيٌّ أَوْ تَرَى رَبَّنَا فَيخبرنا بذلك، و يأمرنا بإطاعة الرسول و أتباعه، فرد عليهم الله سبحانه بقوله لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا أَى تكبروا، و كان الإتيان من باب الاستفعال لإفادته أنهم إنما طلبوا الكبر، مع أن نفوسهم كانت مدعنه، كما قال تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ «١» فِي أَنفُسِهِمْ أَى فى أمر أنفسهم حيث دفعوها إلى مستوى أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون الله وَ عَتَوْا أَى طغوا عُنُوًّا كَبِيرًا أَى طغيانا عظيما و تمردوا غايه التمرد.

[٢٣] إِنْهُمْ لَا بَدَّ وَأَنْ يَرُوا الْمَلَائِكَةَ لَكِنْ فِي وَقْتٍ لَا فَائِدَةَ فِي إِيمَانِهِمْ حِينَذَاكَ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ إِنَّمَا يَبْشُرُونَ بِالْجَنَّةِ وَ الثَّوَابِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، قَبْلَ أَنْ يَنْكَشِفَ لَهُمُ الْعَالَمُ الْآخِرُ، أَمَّا يَوْمُ الْإِنْكَشَافِ عِنْدَ قَبْضِ الرُّوحِ، لَا بِبَشَارَةٍ لَهُمْ، وَ إِنَّمَا عَذَابٌ وَ نَكَالٌ، وَ ذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ رَفْعِ التَّكْلِيفِ وَ يَقُولُونَ أَى يقول الكفار فى ذلك اليوم حَجْرًا مَّحْجُورًا كانت

(١) النمل: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٢٣ إلى ٢٥]

وَ قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥)

العرب إذا رأى أحدهم من يريد قتله يقول حجرا محجورا دماءنا، أى حراما محرما، و هم حين يرون الملائكة يظنون إن هذا القول ينفع، و لقد كانت هذه الكلمة كالاستعاذه عندنا حين نرى مكروها، فنقول «نعوذ بالله».

[٢٤] وَ قَدِمْنَا أَى قُصِدْنَا وَ تَعَمِدْنَا، مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ الْمَسْبَبِ فِي السَّبَبِ، فَإِنَّ الْقَاصِدَ إِلَى عَمَلٍ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ كَانُوا يظنون إنه عمل خيرى فَجَعَلْنَاهُ أَى ذلك العمل الخيرى للكفار هَبَاءً وَ هو الغبار الذى يرى إذا أشرقت الشمس من الكوة، و مفردة هبائه مَنْثُورًا أَى منتشرًا، فكما أن الهباء لا ينتفع به و لا يمكن التحصيل عليه كذلك أعمال هؤلاء الكفار التى ظنوها حسنة لم ينتفعوا بها، إذ شرط القبول الإيمان، الذى فقده.

[٢٥] أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ أَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا أَى أَفْضَلُ مَنْزِلًا فِي الْجَنَّةِ، مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا أَى مَوْضِعَ قَائِلَةٍ، وَ هِيَ مِنَ الْقَيْلُولَةِ، وَ هُوَ النَّوْمُ قَبْلَ الظُّهْرِ وَ الْإِسْتِرَاحَةُ فِيهِ فِي وَقْتِ الْحَرِّ، وَ قَدْ كَانَ هَذَا مِنْ فِعْلِ كِبْرَائِهِمْ، وَ اسْتَحَبَّ فِي الشَّرِيعَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْشِيطِ لِلْعَمَلِ بَعْدَهُ، وَ قَوْلُهُ «خَيْرٌ» وَ «أَحْسَنُ» يَرَادُ بِهِمَا الْفَضْلُ لَا الْأَفْضَلِيَّةَ، إِذْ لَا خَيْرَ فِي مَكَانِ أَهْلِ النَّارِ.

[٢٦] وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ يَأْتِي مُتَعَلِّقَةً فِي قَوْلِهِ «الملك يومئذ» و المراد بتشقق السماء انقلاب أوضاعها، ففى يوم القيامة تنقلب أحوال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَ يَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)

الأرض و السماء، و لعل معنى التشقق أن الإنسان يرى كأن شقا كبيرا أحدث فى السماء، بأن ظهر لون غير اللون المرئى الآن، و لعل المراد بالغمام السحب التى تتراكم من الدخان و الأبخرة الحادثة من جراء الانقلابات الكونية، أو يأتى غمام يحمل الملائكة، و هو الذى يشقق السماء، و يكون لونا غير لون السماء، حتى يرى الإنسان فيها شقا و نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا كما قال سبحانه «يَوْمَ يَرَوْنَ

الملائكة» و هذا حال يوجب الدهشة و الاضطراب لأهل الأرض، فقد عرفوا أن القيامة قد قامت، و أن الملائكة عمال الله سبحانه و تعالى للحساب و التنظيم و السيطرة على الموقف نزلوا.

[٢٧] المَلِكُ يَوْمَئِذٍ أَي يَوْمَ تَشَقُّقِ السَّمَاءِ الْحَقُّ أَي الْمَلِكُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ حَقًّا، لَا كَمَلِكٍ مَلُوكِ الدُّنْيَا الَّذِي يَكُونُ زَائِلًا لِلرَّحْمَنِ وَ إِنَّمَا خَصَّ الْمَلِكُ بِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّ فِي الدُّنْيَا يَرَى بَعْضُ أَقْسَامِ الْمَلِكِ لِلنَّاسِ، أَمَا هُنَاكَ فَلَا أَحَدٌ يَمْلِكُ شَيْئًا حَتَّى مَلِكًا ظَاهِرِيًّا وَ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا أَي صَعْبًا لشدته و هوله و مشقته.

[٢٨] وَ يَوْمَ عَطْفٍ عَلَى «يَوْمَ تَشَقُّقِ» يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ أَسْفًا وَ نَدَمًا لَمَّا سَبَقَ مِنْهُ مِنَ الظُّلْمِ، وَ الْعَضُّ هُوَ الْأَخْذُ بِالْأَسْنَانِ، وَ كَانَ النَّادِمُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِإِرَادَةِ إِبْلَامِ جِسْمِهِ انْتِقَامًا لَمَّا صَدَرَ مِنْهُ مِمَّا أَلْقَاهُ فِي هَذَا النَّادِمِ، وَ الْعَضُّ عَلَى الْيَدَيْنِ فِي النَّدَمِ الشَّدِيدِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا أَي لَيْتَنِي اتَّبَعْتُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ اتَّخَذْتُ مَعَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) فِي سَبِيلِ الْهَدَايَةِ حَتَّى لَا أَبْتَلِي بِهِذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ.

[٢٩] يَا وَيْلَتَى أَي يَا هَلَاكِي أَحْضَرُ، أَوْ يَا قَوْمِ اطْلُبُوا هَلَاكِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا أَي الْكَافِرَ الْفُلَانِي الَّذِي أَضَلَّنِي خَلِيلًا أَي صَدِيقًا حَتَّى يَقْرَأُ فِي أذُنِي وَ يَضِلُّنِي عَنِ الرَّشَادِ، وَ الْمُرَادُ كُلُّ صَدِيقٍ يَفْسُدُ الْإِنْسَانَ وَ يَضِلُّهُ.

[٣٠] لَقَدْ أَضَلَّنِي وَ أَغْوَانِي وَ صَرَفَنِي خَلِيلِي عَنِ الذِّكْرِ الْقُرْآنِ، أَوْ الرَّسُولِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ حَالَ بَيْنِي وَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا أَي كَثِيرَ الْخَذْلَانِ، يُقَالُ خَذَلَهُ إِذَا تَرَكَهُ فِي الشَّدَةِ، وَ لَمْ يَنْصُرْهُ، وَ هَذَا أَمَا مِنْ تَمَمِّهِ كَلَامِ الظَّالِمِ، مَتَحِيرٌ لِمَاذَا تَبَعَ الشَّيْطَانَ حَتَّى يَخْذَلَهُ فِي الْقِيَامَةِ، أَوْ ابْتِدَاءً مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لِلْإِلْفَاتِ إِلَى وَجُوبِ عَدَمِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانَ، فَإِنَّهُ يَخْذَلُ فِي أَحْرَجِ السَّاعَاتِ.

قال ابن عباس نزل قوله «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ» في عقبه بن أبي معيط و أبي بن خلف، و كانا متخالين و ذلك أن عقبه كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعى إليه أشرف قومه و كان يكثر مجالسة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاما و دعا الناس، فدعا رسول الله إلى طعامه فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله و أنى رسوله، فقال عقبه: أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله، فبلغ ذلك أبي بن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٣٠]

وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)

خَلْفَ، فَقَالَ صَبَأْتُ يَا عَقْبَةُ؟ قَالَ: لَا وَ اللَّهُ مَا صَبَأْتُ وَ لَكِنْ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ فَأَبَى أَنْ يَطْعَمَ مِنْ طَعَامِي إِلَّا أَنْ أَشْهَدَ لَهُ فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي وَ لَمْ يَطْعَمْ فَشَهِدْتُ لَهُ فَطَعَمَ. فَقَالَ أَبِي: مَا كُنْتُ بَرِاضَ عُنُقِكَ أَبَدًا حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْصُقَ فِي وَجْهِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَقْبَةُ وَ ارْتَدَ وَ أَخَذَ رَحِمَ دَابَّةٍ فَأَلْقَاهَا بَيْنَ كَتْفَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: لَا- أَلْقَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتَ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ فَضْرَبَ عُنُقَهُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، وَ أَمَا أَبِي بْنُ خَلْفٍ فَفَقَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَوْمَ أَحَدٍ بِيَدِهِ فِي الْمُبَارَزَةِ.

«١».

أقول: و بناء على هذا النزول يكون مصداق قوله «فلانا» «أبي» لأنه الذي كان خليلا مع عقبه، و

قد ورد في حديث آخر أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حين بصق في وجهه احمرّ وجهه المبارك، و مسح البصاق بيده

، كما

ورد أن الرسول جاء شاكيا إلى أبي طالب، فأمر أبو طالب بعض خدمه أن يأخذ رحم دابة، و جاء بها حتى رأى عقبه فأفرغها في رأسه،

كما صنع بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[٣١] وقال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك الموقف الهائل، شاكياً إلى قومه يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا أى هجروا القرآن وابتعدوا عنه، والمراد بالقوم، إما قريش أو مطلق الناس، لأن المراد بقوم الأنبياء، من أرسلوا إليهم وهذا يناسب قول الظالم «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ» والآية وإن كانت ظاهرة في الكفار إلا أنها أعم، قال الإمام

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٦٩. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣١ إلى ٣٢]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًّا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)

الصادق عليه السلام ليس رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى جنه أو تسوقه إلى نار، تجرى فيمن بعده إن خيرا فخير، وإن شرا فشر

«١»، وعلى هذا فهجر القرآن- في هذا الزمان- ترك العمل بأحكامه و اتخاذ مناهج الكفار نظاما للحكم، دون دساتير القرآن.

[٣٢] ويسلى الله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن ترك الأقوام للهدى إنما هو شيء قديم، فقد كان للأنبياء أعداء يهجرونهم، و يعادونهم و كما لك أعداء يهجرون كتابك و ينصبون لك العداة كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا وَمَعْنَى جَعَلَ اللهُ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُهُمْ حَيْثُ يَعَادُونَ الْأَنْبِيَاءَ، وَ إِنَّمَا يَتْرَكُهُمْ وَ شَأْنُهُمْ، لِيَبْلُغُوا أَجْلَهُمْ، وَ لِيَرْفَعَ مَقَامَ النَّبِيِّ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ. يُقَالُ: جَعَلَ الْمَلِكُ اللَّصَّ فِي الطَّرِيقِ، إِذَا لَمْ يَضْرِبْ عَلَى يَدِهِ وَ تَرَكَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ أَيْ مِنَ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِالْجَرَائِمِ، وَ هِيَ الْمَعَاصِي وَ كَفَى بِرَبِّكَ يَا رَسُولَ اللهِ هَادِيًّا فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَهْدِي النَّاسَ وَ نَصِيرًا يَنْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْآخِرَةِ فَلَا يَهْمُكَ أَنْ يَقِفَ الْمُجْرِمُ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ وَ يَكُونُ لَهُ الْغَلْبُ الْمُؤَقَّتُ.

[٣٣] و بعد أن بين الله تعالى بعض كلمات الكفار حول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و القرآن مثل «قالوا لو لا- أنزل علينا الملائكة» ذكر بعض مناقشاتهم الأخر و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ أَى عَلَى الرَّسُولِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٨٧، وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ نَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُخَشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

لا منجما، فلو كان من عند الله كان قادرا على أن ينزله مرة واحدة كما أنزلت التوراة و الإنجيل من قبل جملة واحدة؟ و لعلهم كانوا يريدون بذلك تقوية افتراءهم. أن الرسول إنما يتعلم القرآن من «عداس» و أضرابه، كما سبق منهم هذا الافتراء.

لكن جواب هذا أن القرآن إنما يأتي بالمناسبات، و التدرج خير لذلك من الإنزال جملة، و لذا يكون لكل آية شأن نزول، لا يجمل لو نزلت قبل ذلك، أو بعده بزمان كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ مَتَفَرِّقًا لِنُثَبِّتَ وَ نَقْوَىٰ بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ فُؤَادَكَ أَى قَلْبَكَ، فَإِنَّ الْوَحْيَ إِذَا جَاءَ مُتَدَرِّجًا فِي كُلِّ حَادِثَةٍ وَ كُلُّ أَمْرٍ كَانَ ذَلِكَ مُوجِبًا لِتَقْوِيَةِ قَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنْ يَنْزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَ هَذَا ضَرُورِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَشَرِ، وَ إِنْ كَانَ رَسُولًا- معصوما، أ رأيت أن المؤمن كامل الإيمان ليزداد قوة كلما مرّ عليه آى الكتاب وَ رَتَّلْنَاهُ أَى رَتَّلْنَا الْقُرْآنَ

تَزَيَّلًا وَهُوَ التَّبَيِّنُ مِنْ تَثَبُّتٍ وَتَرْسُلٍ.

[٣٤] وَلَا يَأْتُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْمُشْرِكُونَ بِمَثَلِ سَيِّئٍ لَكَ لِبَطَالِ أَمْرِكَ، إِذَا أَرَادُوا بِذَلِكَ تَشْبِيهَ الرَّسُولِ بِمَنْ لَا اتِّصَالَ لَهُ بِالْوَحْيِ، حَيْثُ لَا بَدَلَ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ الْكَلَامَ تَدْرِيجًا إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ فِي جَوَابِ ذَلِكَ الْمَثَلِ وَدَحْضِهِ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا لِعَمَلِكَ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ، فَإِنَّا نَبِّئُ وَجْهَ عَمَلِكَ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ بَيَانِهِمُ الَّذِينَ يَرِيدُونَ بِهِ إِبْطَالَ أَمْرِكَ.

[٣٥] إِنْ تَفْسِيرُ هَؤُلَاءِ الْمَقْلُوبِ، لِأَعْمَالِ الرَّسُولِ، سَيُودِي بِهِمْ إِلَى أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٥ إلى ٣٦]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) يَحْشُرُوا مَقْلُوبِينَ عَلَى وَجْهِهِمُ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ وَيَسَاقُونَ عَلَى وَجْهِهِمْ سَجْبًا عَلَى الْوَجْهِ إِلَى جَهَنَّمَ لِيَلْقَوْا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الْكَافِرَةِ فِي الدُّنْيَا أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا أَى مَنَزَلًا مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا فَإِنْ سَبَّلَهُمْ يُوْدَى إِلَى الْهَلَاكِ، بَيْنَمَا سَبَّلَ الْمُؤْمِنِينَ يُوْدَى إِلَى الْجَنَانِ، وَهَذَا فِي مَقَابِلِ قَوْلِهِمْ فِي الْمُؤْمِنِينَ «أَنَّهُمْ لَضَالُونَ». وَ«شَرٌّ» وَ«أَضَلُّ» لَا يَرَادُ بِهِمَا التَّفْضِيلُ حَقِيقَةً.

[٣٦] ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ قِصَصَ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِينَ كَذَبَهُمُ الْأَقْوَامُ فَكَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ السَّيِّئَةُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَإِنذَارٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَقَدْ آتَيْنَا أَى أَعْطَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ أَى التَّوْرَةَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا لَهُ يَسَاعِدُهُ فِي التَّبْلِيغِ وَالْإِرْشَادِ.

[٣٧] فَقُلْنَا لَهُمَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَهُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَالْمُرَادُ بِتَكْذِيبِهِمْ، إِمَّا بَعْدَ إِتْيَانِهِمَا إِلَيْهِمْ، وَإِمَّا قَبْلَ ذَلِكَ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مَا بَقِيَ مِنْ عُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَآثَارِ الْمُرْسَلِينَ، وَجَاءَ مُوسَى وَأَخُوهُ إِلَيْهِمْ وَدَعَاَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَلَمْ يَقْبَلُوا فَدَمْزَنَاهُمْ أَى أَهْلَكْنَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالغَرَقِ تَدْمِيرًا أَى إِهْلَاكَ عَظِيمًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٧ إلى ٣٩]

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)

[٣٨] وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ فَإِنَّ تَكْذِيبَ رَسُولٍ وَاحِدٍ تَكْذِيبٌ لِجَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى أَغْرَقْنَاهُمْ بِالطُّوفَانِ وَجَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً أَى عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً وَأَعْتَدْنَا أَى هَيَأْنَا لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي عَذَابًا أَلِيمًا سِوَى مَا حَلَّ بِهِمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ الْعَمُومُ أَى أَنَّ كُلَّ ظَالِمٍ قَدْ هَيَّئَ لَهُ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ مُوجِعٌ.

[٣٩] وَأَهْلَكْنَا عَادًا قَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ قَوْمَ صَالِحٍ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَرَدَّ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَعْبُدُونَ شَجْرَةَ صَنْبُورٍ يُقَالُ لَهَا «شَاهُ دَرِيحٍ» وَإِنَّمَا سَمَّوْا أَصْحَابَ الرَّسِّ لِأَنَّهُمْ رَسُوا بَيْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَذَلِكَ بَعْدَ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ عَاصِفَةٍ شَدِيدَةِ الْحَمْرَةِ تَحِيرُوا فِيهَا وَذَعَرُوا مِنْهَا وَتَضَامَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ صَارَتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ حَجْرًا كَبِيرًا يَتَوَقَّدُ سَحَابَةٌ سُودَاءُ فَأَلْقَتْ عَلَيْهِمْ كَالْقَبْرِ جَمْرًا يَلْتَهَبُ فَذَابَتْ أَبْدَانُهُمْ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ فِي النَّارِ وَأَهْلَكْنَا قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا أَى بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ ذَكَرُوا مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ نُوحٍ وَأَصْحَابِ الرَّسِّ، وَالْقُرُونُ هُوَ الْجِيلُ، يُقَالُ لَهُمْ قُرُونٌ لِقَارْنِ أَعْمَارِهِمْ.

[٤٠] وَكُلًّا مِنْ تِلْكَ الْقُرُونِ وَالْأَقْوَامِ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ أَى ذَكَرْنَا لَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا عَذَبُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٠ إلى ٤١]

وَلَقَدْ أَنْتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا

أ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١)

كما عذب من سبقهم- وهذا كما نمثل لقوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم- وَكُلًّا مِنْ أَوْلِيَاءِكَ الْقُرُونِ وَالْأَقْوَامِ تَبْرًا تَبْرًا أَي أَهْلِكْنَاهُمْ إِهْلَاكًا، يقال: تبره بمعنى أهلكه.

[٤١] وَ لَقَدْ أَتَوْا أَي مَضَوْا وَرَأَوْا، وَ الْمَرَادُ كِفَارُ مَكَّةَ عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوَاءِ يَعْنِي قَرْيَةَ لُوطِ الَّتِي أَمْطَرَتْ عَلَيْهَا الْحِجَارَةَ، فَإِنَّ قَرْيَتَهُ بَيْنَ مَكَّةَ وَ الشَّامِ، وَ قَدْ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَمْرُونَ عَلَيْهَا عِنْدَ ذَهَابِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَ لَدَى إِيَابِهِمْ أَفَلَمْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَرَوْنَهَا أَي يَرُونَ تِلْكَ الْقَرْيَةَ؟ فَلِمَا ذَا لَا يَخَافُونَ أَنْ يَصِيبَهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ تِلْكَ الْقَرْيَةَ؟ بَلْ رَأَوْهَا، وَ لَكِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزُجُونَ نُشُورًا أَي أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَمْ يَعتَبِرُوا بِهَا لِأَنَّهُمْ لَا يَقْرُونَ بِالْبَعثِ وَ الْحِسَابِ، وَ مِنْ أَنْكَرِ الْآخِرَةَ وَ أَنْكَرِ الْمَبْدَأَ، حَمَلُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ وَ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يَنْسِبُونَ قِصَّةَ قَوْمِ لُوطٍ إِلَى الصِّدْفَةِ، كَمَا نَشَاهِدُ أَمْثَالَهُمْ فِي أَيَامِنَا هَذِهِ.

[٤٢] وَ إِذَا رَأَوْكَ الْكُفَّارَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ أَي لَا يَحْسِبُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَي مَهْزُوءًا بِهِ، كَأَنَّهُ أَدَاءٌ لِلْسَّخِرِيَّةِ وَ الِاسْتِهْزَاءِ، فَيَقُولُونَ عَلَى وَجْهِ السَّخِرِيَّةِ هَذَا الرَّسُولُ هُوَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ إِيَاهُ رَسُولًا أَي كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا رَسُولًا، وَ لَمْ يَكُنْ اسْتِهْزَاءَهُمْ إِلَّا عِنَادًا وَ حَسَدًا وَ كِبْرًا، وَ إِلَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَلِيلٌ وَ مَنْطِقٌ عَلَى عَدَمِ رِسَالَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

[٤٣] إِنْ كَادَ «إِنْ» مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، يَعْنِي إِنَّهُ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَقَدْ قَارَبَ أَنْ يَأْخُذَنَا إِلَى طَرِيقِ إِلَهِهِ، فَضَلَّ طَرِيقَ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا لَوْ لَا- أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا أَي لَوْ لَمْ يَكُنْ صَبْرُنَا عَلَى عِبَادَتِهَا، فَإِنَّهُ أَزَالْنَا عَنْهَا، بِمَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْأَدْلَةِ وَ الْحُجْجِ، إِنَّهُمْ سَمَوْا طَرِيقَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ ضَلَالًا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ فِي الْآخِرَةِ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ الَّذِي يَحِلُّ بِهِمْ جَزَاءً عَلَى شُرْكَهِمْ وَ كُفْرِهِمْ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا هَلْ هُمْ الضَّالُّونَ، أَمْ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ؟ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ هُنَاكَ يَعْرِفُونَ ضَلَالَ سَبِيلِهِمْ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ لَا مَنجَى وَ لَا مَهْرَبَ.

[٤٤] أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتِفْهَامٌ لِلتَّهْكُمِ بِالْمُشْرِكِينَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فَهُوَ يَعْبُدُ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ، لَا مَا أَرشده العقل و الدليل، و قد كان الرجل منهم يعبد حجرا ثم إذا رأى حجرا أحسن منه رماه و اتخذ الثاني إلهًا، و هكذا أ فأنت يا رسول الله تكون عليه و كيلا كفيلا تحفظه عن الضلال، و المعنى أنك لست عليه بوكيل حتى تحزن و تغتم لأجل انحرافه و ضلاله و إنما أنت مبلغ مرشد و قد بلغت و أرشدت.

[٤٥] أَمْ تَحْسَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَي تَظُنُّ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ سَمَاعَ تَفْهَمِ وَ تَعْلَمُ أَوْ يَعْقِلُونَ مَا تَقُولُهُ وَ تَقْرَأُهُ عَلَيْهِمْ؟ وَ هَذَا وَ إِنْ كَانَ بِصُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ لَكِنَّهُ بِمَعْنَى النِّفْيِ، أَي أَنْ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ لَا يَسْتَمْعُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٤٥]

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥)

إِلَيْكَ لِلتَّفْهَمِ وَ لَا يَعْطُونَ أَلْبَابَهُمْ وَ عَقُولَهُمْ لِلتَّدْبِيرِ وَ إِنَّمَا هُمْ مُعَانِدُونَ يَرِيدُونَ الْإِنْكَارَ إِنْ هُمْ أَي مَا هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ أَي الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ سَمَاعَ تَفْهَمِ، وَ لَا- عَقْلَ لَهَا، وَ إِنَّمَا تَسْمَعُ النِّدَاءَ وَ الصَّوْتِ فَقَطْ بَلْ هُمْ أَي هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَضَلُّ سَبِيلًا فَإِنَّ الْأَنْعَامَ تَهْتَدِي إِلَى مَصَالِحِهَا أَمَا هَؤُلَاءِ فَلَا يَعْقِلُونَ صَالِحَهُمْ عَنْ غَيْرِ الصَّالِحِ لَهُمْ وَ لَذَا يَعْرِضُونَ عَنِ الْحَقِّ.

[٤٦] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِلتَّذْكِيرِ بِجَمَلَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي تَوْقُظُ الضَّمَائِرَ، وَ تَلْفَتُ الْعُقُولَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ كُلَّ

من يتأتى منه الروية إلى رَبِّكَ أى أ لم تعلم أن هذا الذى نذكره هو من فعل الله سبحانه لا مدخلية للغير فى ذلك كَيْفَ مَدَّ الظلَّ فَإِن الشمس إذا طلعت امتد لكل شىء ظل طويل نحو المغرب، فمن يا ترى جعل للأجسام ظلال عند إشراق النور و الظل يوحى بالهدوء و البرد و الراحة، إنه الله الذى جعل هذه الظلال و لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا لا يتحرك بأن يوقف الشمس فى مكانها حتى يبقى الظل فى مكانه، لكنه سبحانه حسب الحكمة العليا جعل الظل متحركا بحركة الشمس فمن يا ترى جعل الشمس متحركة حتى يتبعها فى الحركة الظل؟ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ أى على الظل دَلِيلًا فَإِنهَا هى التى تحدده و تعينه و تدل على ماهيته، إذ لو لا الشمس و إشراقها، لم يعرف الظل، و الأشياء تعرف بأضدادها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٦ الى ٤٨]

ثُمَّ قَبْضَنَا إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَ وَ النَّوْمَ سُبَاتًا وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)

[٤٧] ثُمَّ قَبْضَنَا أى قبضنا الظل، بمعنى أخذناه إِلَيْنَا تشبيه بالذى يقبض الشىء إلى نفسه قَبْضًا يَسِيرًا فى يسر و سهوله، فإن الشمس كلما ارتفعت انتقص الظل حتى يعدم و لا يبقى منه شىء، و القبض تدريجى كمن يقبض الشىء بيسر لا عنف فيه و لا اندفاع.

[٤٨] وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ أَيُّهَا البشَرُ اللَّيْلَ لِيَأْسًا فَإِنَّهُ يشتمل على الإنسان حتى يستره مثل اللباس يشتمل على الإنسان، و فى الليل يقضى الإنسان من الأمور التى يحب سترها ما لا يقضى فى النهار وَ النَّوْمَ سُبَاتًا أى راحة لأبدانكم و قطعاً لأعمالكم، و السبات قطع العمل، و منه سبت رأسه إذا حلقة و يوم السبت لأنه كان يوم قطع العمل وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا لانتشاء الروح فى البدن فلا نوم، و لانتشاء الناس فى حوائجهم.

[٤٩] وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا مَبَشِّرَاتٍ، فإن المصدر يستعمل للمفرد و التثنية و الجمع بلفظ واحد بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أى أمام رحمته التى هى المطر، فإن الرياح تثير السحاب، فإذا جاءت الرياح فى فصل المطر استبشر الناس بأن وراءها الأمطار، فيفرحون للمنافع المترتبة على المطر وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ أى جهة العلو ماءً أى المطر طَهُورًا طاهراً فى ذاته مطهراً لغيره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤٩ الى ٥١]

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَ نُشَقِّقَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١)

[٥٠] لِنُحْيِيَ بِهِ أى بالمطر بَلْدَةً مَّيْتًا قد ماتت بالجذب و عدم الماء، و إحيائها بالماء، حيث ينبت بالمطر الزرع، و يسمن الحيوان، و يكون وسيلة لنمو حياة الإنسان و ازدهارها، و ذكر البلدة إنما هو لأن فائدة المطر تعود إليها، و إن كانت الحياة تظهر مظاهرها- غالباً- فى الصحارى وَ نُشَقِّقَهُ أى نسقى بذلك الماء مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا أى الحيوانات التى خلقناها وَ أَنَاسِيَّ جمع إنسان جعل اليباء عوضاً عن النون كثيراً أى كثير من أفراد الناس، و لعل تأخير الإنسان لأن احتياج الأنعام إلى ماء المطر أكثر، فإن الإنسان يستخرج الماء إن لم يجده على ظاهر الأرض، و هكذا بالنسبة إلى النبات و الحيوان، فإن احتياج النبات أكثر.

[٥١] وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا أى صرفنا المطر بَيْنَهُمْ بأن أدرناه فى جهات الأرض لانتفاع الكل، فلا يمطر مكانا دون مكان لِيَذَكَّرُوا نعم الله سبحانه، بما أودع فيهم من الفطرة، أصله «تذكر» أدغمت التاء فى الذال- على القاعدة- ثم جىء بهمزة الوصل لثلا يمتنع الابتداء بالسكان فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا أى جحوداً لله سبحانه و لفضله و إحسانه، و يحتمل أن يكون الضمير فى صرفناه عائداً إلى القرآن.

[٥٢] وَ لَوْ شِئْنَا بِأَنَّ كَانَتِ المصلحة تقتضى ذلك لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥٢ إلى ٥٣]

فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)

ينذرهم و لكن توحيد الناس تحت لواء واحد بما في ذلك من فوائد التعاون اقتضى أن يرسل رسولا واحدا، ثم ينتشر البلاغ منه إلى سائر الناس، و هذا بالنسبة إلى وقت إرسال محمد صلى الله عليه و آله و سلم فلا ينافي قوله تعالى وَ إِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ «١» و هذه الآية أنسب إلى كون الضمير في «صرفناه» للقرآن لا للمطر.

[٥٣] فَلَا تُطْعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكَافِرِينَ فيما يدعونك من المداهنة و الإجابة إلى بعض رغباتهم و ترك التبليغ مدة من الزمان و جاهدوهم و المراد الكفاح معهم به أى بالقرآن جهادا كبيرا فإن صبر الأعزل على الأذى أكبر من قتال المسلح مع الكفار في ميدان الحرب.

[٥٤] ثم يرجع السياق إلى عد الآيات الكونية و هو الله الذى مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ بحر المياه المالحة، و بحر المياه الحلوة فإن مياه البحار مالحة، و المياه التى تنزل من السماء فتسكن في أجواف الأرض كالبحار حلوة حتى تخرج من النفق الموجودة في الجبال، و الله سبحانه حيث جعل بحيث يتلاقى هذين البحرين إذ مياه الأنهر تصب في البحار المالحة، في جميع أطراف الأرض، حتى كان بعضها مختلط ببعض و مع ذلك لا يطغى البحر المالح على البحر العذب، حتى يفسده و يسقطه عن الانتفاع في الزرع و الشرب.

هذا يعنى أحد البحرين عَذْبٌ فُرَاتٌ أى طيب شديد الطيب

(١) فاطر: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥٤ إلى ٥٥]

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكُفْرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

سائغ شرابه و هذا أى البحر الثانى مِلْحٌ أى كالمالح فى الملوحة، و إنما قيل ملح مبالغة، مثل زيد عدل أجاج شديد الملوحة و جعل بينهما بين البحرين بَرْزَخًا أى حجابا أو حاجزا من قدرة الله و حِجْرًا أى منعا مَحْجُورًا ممنوعا دخول بعض المياه إلى بعض، حتى يفسد العذب بالمالح، و هذا لتأكيد المبالغة فى عدم اختلاطهما اختلاطا مفسدا، و إن «مرج» أخيرا بعد أخذ الأرض و الناس حاجتهما منه، و هذا من بدیع القدرة حيث جعل قرار المياه العذبة فوق سطح البحر.

[٥٥] وَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ وَ أوجد مِنَ الْمَاءِ أى المنى، أو الماء المكون للنبات و الحيوان، حتى يأكلهما الإنسان، فيتحول فى بدنه منيا بشرا أى إنسانا، قيل سمي بشرا، لظهور بشرته، بخلاف غالب الحيوانات المكسى جلدها بالريش أو الشعر أو ما أشبه فجعله أى جعل البشر بكيفية يتلاقى بعضهم مع بعض بسببها نسبا و صِهْرًا فالأولاد و الأحفاد يتلاقون بالمصاهرة و الزواج، و التقدير «جعله ذا نسب و صهر» و الصهر من صهر بمعنى قرب، و منه يقال للشئ المذاب منصهر، لأنه يقترب بعضه إلى بعض و كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا أى قادرا على كل شئ، و لذا خلق هذه المخلوقات المدهشة، بهذا النظام و الكيفية العجيبين.

[٥٦] إن الله سبحانه هو الذى خلق كل شئ، كما نشاهد فى الآيات الكونية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥٦ إلى ٥٧]

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧)

وَمَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ أَي هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَي سِوَاهُ سُبْحَانَهُ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ بِذَاتِهِ وَلَا يَضُرُّهُمْ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ أَشْيَاءَ جَامِدَةً لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَلَا الضَّرْرِ وَالْمَرَادُ لَا يَنْفَعُهُمْ إِنْ عَبَدُوهَا، وَلَا يَضُرُّهُمْ إِنْ لَمْ يَعْبُدُوهَا وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا الظَّهِيرُ الْعَوْنُ، أَي أَنَّ الْكَافِرَ يَعِينُ الشَّيْطَانَ عَلَى ضِدِّ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ بَيْنَمَا اللَّازِمُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ أَنْ يَعِينُ رَبَّهُ عَلَى عَدُوِّهِ لَا أَنْ يَعِينُ عَدُوَّهُ ضِدِّ رَبِّهِ.

[٥٧] وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا مُبَشِّرًا لِمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ بِالثَّوَابِ وَنَذِيرًا لِمَنْ كَفَرَ أَوْ عَصَى بِالْعِقَابِ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ انْحِرَافٌ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مُبَلِّغٌ وَمُرْشِدٌ فَمَنْ قَبَلَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَبَى فَعَلَيْهَا.

[٥٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مَا أَسَدُّ لَكُمْ عَلَيْهِ أَي عَلَى التَّبْلِيغِ وَالْإِرْشَادِ مِنْ أَجْرِ وَثَمَنِ تَعَطُّونَهُ لِي عَوْضَ تَبْلِيغِي وَأَتَعَابِي إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا إِمَّا أَنْ الْاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَا أَسْأَلُكُمْ إِلَّا أَنْ تَتَّخِذُوا سَبِيلًا إِلَى رَبِّكُمْ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا أَنَّ الْمُسْتَشْنَى مِنْهُ لِأَنَّهُ مُشْتَمَلٌ عَلَى أَصْلِ شَيْءٍ وَقِيْدِهِ، فَقَدْ يَسْتَشْنَى مِنَ الْأَصْلِ وَيَكُونُ الْاسْتِثْنَاءُ حِينَئِذٍ مُنْقَطِعًا وَقَدْ يَسْتَشْنَى مِنْ مَجْمُوعِ الْقَيْدِ وَالْمَقْيِدِ فَيَكُونُ الْاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا، وَإِمَّا أَنْ الْاسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ، وَالْمَرَادُ أَنِّي لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَلَكِنِّي لَا أَمْنَعُ مِنْ إِتْفَاقِ الْمَالِ فِي طَلْبِ مَرْضَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٥٨ إلى ٥٩]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا (٥٩)

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْخُمْسَ لَيْسَ أَجْرًا، بَلْ هُوَ تَعْيِينُ قِسْمٍ مِنَ الْمَالِ لِقِسْمِ الْفُقَرَاءِ.

[٥٩] وَتَوَكَّلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَعْنَى التَّوَكَّلِ إِكْثَالُ الْأَمْرِ إِلَى الْغَيْرِ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ وَكَلِهِ الْإِنْسَانَ، إِذْ هُوَ لَا يَمُوتُ فَيُضْطَرُّ أَمْرَ الْوَكَالَةِ، وَقَيْدُ «الَّذِي لَا يَمُوتُ» لِلتَّخْصِيصِ، إِذْ سَئِرَ الْأَحْيَاءُ يَمُوتُونَ، تَوَكَّلْ عَلَيْهِ، فِي أَمْرِ التَّبْلِيغِ وَمَا تَلَاقِيهِ مِنَ الْعَنْتِ وَالْإِرْهَاقِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ أَي نَزِّهْهُ تَنْزِيهًا بِالنِّشَاءِ، فَإِنَّ التَّنْزِيهَ يَكُونُ بِنَفْيِ النِّقَاطِصِ وَقَدْ يَكُونُ بِإِثْبَاتِ الْكَمَالَاتِ الْمُسْتَلْزَمَةِ لِنَفْيِ النِّقَاطِصِ وَكَفَى بِهِ الضَّمِيرُ فَاعِلٌ كَفَى، وَأَدْخَلَ حَرْفَ الْجَرِّ عَلَى الْفَاعِلِ، لِأَنَّهُ بِمَعْنَى ائْتَفَى بِهِ بُدُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا أَي عَالِمًا، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَذْنِبُ الْعِبَادَ وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، فَلَا تَهْتَمُ بِكُفْرِ الْكَافِرِينَ فَإِنَّ حِسَابَهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ مُبَلِّغٌ تَسْبِيحُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَتَتَوَكَّلُ فِي أَمْرِكَ عَلَيْهِ.

[٦٠] ثُمَّ يَبِينُ السِّيَاقَ وَصِفَ الْإِلَهَةِ لِيُوقِظَ فِي النَّاسِ مَا فَطَرَ فِيهِمْ مِنْ أَنَّ الْكُونَ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا غَفَلُوا عَنْهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَخُصُوصِيَّةِ سِتَّةِ أَيَّامٍ لِأَجْلِ أَنَّهُ أَحَدُ أَفْرَادِ التَّحْدِيدِ، كَمَا فِي خُصُوصِيَّةِ الْإِبْطَاءِ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَهَا فِي لَمَحِ الْبَصْرِ لَمَّا عَلَيْهِ سِتَّةُ أَيَّامٍ مِنَ تَدْرِيجِيَّةِ تَكْوِينِهِ فِي هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥

[سورة الفرقان (٢٥): آية ٦٠]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠)

الْكُونَ، كَمَا نَشَاهَدُ أَنَّ الزَّرْعَ وَالْجَنِينَ وَغَيْرَهُمَا بِحَاجَةٍ إِلَى زَمَانٍ حَتَّى وَقْتُ الْإِكْمَالِ ثُمَّ اسْتَوَى أَي اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِمَعْنَى الْإِحَاطَةِ عَلَى الْكُونَ، وَهَذَا كَمَا يَقَالُ: بَنَى الْمَلِكُ الْمَدِينَةَ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَلَى السَّرِيرِ، يَرَادُ أَنَّهُ أَحَاطَ بِالسُّلْطَةِ، لَا أَنَّ هُنَاكَ سَرِيرًا جَلَسَ عَلَيْهِ، وَالْإِتْيَانُ بِ «ثُمَّ» مَعَ أَنَّ الْاسْتِثْلَاءَ كَانَ مِنَ الْأَوَّلِ، مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَكَانَ الْإِتْيَانُ بِهَذَا الْكَلَامِ لِإِفَادَةِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْإِلَهَةِ يَلْزَمُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يَخِيبُ مِنْ فَوْضِ أَمْرِهِ إِلَيْهِ الرَّحْمَنُ قَالُوا: بِأَنَّهُ خَبِرَ، ل «الَّذِي» أَي أَنَّهُ هُوَ الرَّحْمَنُ الَّذِي يُفَضَّلُ بِالرَّحْمِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَمَا أَجْدَرُ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَكِلَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ فَسُئِلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِهِ أَي بِوَسْطِهِ خَيْرًا وَالْمَعْنَى إِنْ تَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُ

خير بذلك الشيء، وهذا كناية عن أنه عالم بكل شيء فأخبره عن أي شيء كان، مطابق للواقع، وقد ذكر أهل الأدب إن من البلاغة أن يتوهم الإنسان شيئاً على وصفين، وصف الأصاله و وصف التوسط، ثم يقصد الأصيل بواسطة المتوسط، كما يقال: شربت به ماء، و الضمير للماء، أو قتلت به كافراً، أو وجدت به عالماً متحدثاً، وهكذا، وهذه الجملة لإفادة إن أخباره في أصل الخلقة هو الحق. [٦١] و بعد هذه الآيات الكونية، و الإلفات الجمّة إذا قيلَ لَهُمْ أَى لِلْكَفَّارِ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ و اخضعوا له، فإنه الخالق الراحم قالوا على طريق الكبر و الاستعلاء و مَا الرَّحْمَنُ و قد أتوا بلفظ «ما» الذى هو لما لا يعقل استهزاء، فقد كانوا لا يعترفون بهذا «اللفظ» من جملة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦١ الى ٦٢]

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

سخافاتهم الكثيرة أنسيجدا لما تأمنا استفهام إنكار، أى نترك آلهتنا و نسجد لمن لا نعترف به و زادهم ذكر الرحمن نفورا أى تنافرا عن الحق و الإيمان.

[٦٢] و ارتد السياق ليين جملة أخرى من الآيات الكونية تبارك أى تعالى و تقدس الإله الذى جعل فى السماء بُرُوجاً من برج إذا ظهر، و هى البروج المعروفة الإثنى عشر، و هى منازل للكواكب السبع السيارة، أو يراد هنا بالبروج نفس الكواكب، لظهورها و جعل فيها أى فى السماء، و هى سماعى سراجاً أى مصباحاً هى الشمس و قمرًا مُنِيرًا أى مضيئاً.

[٦٣] وَ هُوَ الإله الذى جعل اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً أى يخلف أحدهما الآخر، فإن «خلفه» هى كل شىء بعد شىء، و تقديم الليل - فى الكلام- لأنه أشبه بالأصل، إذ النور يشقه و يمحيه لمن أراد أن يذكر أى يتفكر و يستدل بذلك على الإله، فإن الغاية من خلق الأشياء هو الإنسان، و الغاية من خلق الإنسان العبادة، و هى لا تتحقق إلا بالمعرفة، فصح أن يقال: خلقهما للتذكر، و سمي تذكراً لما أودع فى فطرة الإنسان من الاعتراف، و إنما الأشياء مذكرات أو أراد شكوراً أى أراد شكر النعمة فإنهما نعمتان عظيمتان و من أهم ما يوجب الشكر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦٣ الى ٦٥]

وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سِلاماً (٦٣) وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سِجْدًا وَ قِيَامًا (٦٤) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)

[٦٤] و بعد الإلفات إلى هذه الآيات نرى عباد الله العقلاء يخضعون لله سبحانه، و يعتدلون فى سلوكهم، و ينتهجون المنهج المقرر لهم و عِبَادُ الرَّحْمَنِ فى مقابل الذين كانوا ينفرون من اسم الرحمن الذين يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا هذا خبر «عباد الرحمن» و المعنى مشيهم مشية المتواضع، فيمشون هينا بسكينه و وقار، و لا يمشون بكبرياء و تجبر، فإن «هون» مصدر «هين» و إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ بخطاب يكره و يثقل على الإنسان قالوا فى جواب الجهال سِلاماً أى سداداً من القول، و ما يوجب السلامة، لا ما يوجب الخصام و النزاع، فليس المراد هذه اللفظة بالذات، بل المعنى الدفع بالتي هى أحسن، كما قال سبحانه ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ «١».

[٦٥] وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ من بات بمعنى أوصل الليل بالصباح لِرَبِّهِمْ سِجْدًا وَ قِيَامًا جمع ساجد و قائم، و إنما خص الليل، لأن العبادة فيه أشق و أبعد من الرياء و أقرب إلى فراغ القلب، و لعل تخصيص هذين الأمرين، لأنهما الأكثر فى العبادة دون الركوع و الجلوس.

[٦٦] وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ بمعنى عدم الوقوع

(١) فصلت: ٣٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦٦ إلى ٦٨]

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)

فيها، و كأن التعبير بلفظ الصرف، لأجل استحقاق الناس للنار بأعمالهم، فالمطلوب صرفها إن عذابها أى عذاب جهنم، فإنها مؤنثة سماعية كان غراماً أى غرامة تلحق الإنسان أو لازماً دائماً، وإنما سمي الغريم غريماً لملازمته وإلحاحه، و فلان مغرم بفلان أى ملازم له عاشق.

[٦٧] إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا أى أن جهنم بس موضع قرار وإقامة.

[٦٨] وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يُسْرِفُوا بِأَنْ يَكُونَ إِنْفَاقُهُمْ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، أَوْ زِيَادَةً لَا يَعْتَرَفُ بِهَا الشَّرْعُ وَلَمْ يَقْتُرُوا مِنَ الْقَتْرِ، بِمَعْنَى الْبَخْسِ وَ عَدَمِ الْإِعْطَاءِ بِقَدْرِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ وَ كَانَ إِنْفَاقُهُمْ بَيْنَ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنَ الْإِسْرَافِ وَ الْإِقْتَارِ قَوَامًا وَ هُوَ مَا أَقَامَ الْإِنْسَانَ، أَيْ إِنْفَاقًا يَاقِيمُ الْإِنْسَانَ، فَلَا يَدْخُلُهُ فِي الْمُبْذَرِينَ وَ لَا فِي الْبُخْلَاءِ، أَوْ كَانَ إِنْفَاقًا ذَا قَوَامٍ، وَسَطًا بَدُونَ إِسْرَافٍ وَ تَقْتِيرٍ.

[٦٩] وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَيْ لَا يَجْعَلُونَ لَهُ سُبْحَانَ شَرِيكًا، بَلْ يُوْحِدُونَهُ، وَ يُوْجِهُونَ عِبَارَتَهُمْ إِلَيْهِ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ أَيْ الْإِنْسَانَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا، وَ إِيَّانَ الضَّمِيرِ الْمُؤَنَّثِ، لِأَنَّ النَّفْسَ مُؤَنَّثٌ سَمَاعِيًّا إِلَّا بِالْحَقِّ لِأَجْلِ كَوْنِهِ كَافِرًا حَرِيْبًا، أَوْ لِأَجْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٦٩ إلى ٧٠]

يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)

القصاص، أو الحد، أو ما أشبه ذلك، و الاستثناء من الأصل، و قوله «حرم الله» تلميح إلى وجه عدم إقدامهم على القتل و لا يَزْنُونَ وَ هُوَ الْفُجُورُ بِالْمَرْأَةِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ الشَّرْكِ وَ الْقَتْلِ وَ الزَّوْنِ، وَ إِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأُمُورَ، لِشَرْعِهَا عِنْدَ الْجَاهِلِيِّينَ، بَلْ وَ حَتَّى الْآنَ، وَ كَوْنِهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَعَاصِي الْمَوْجِبَةِ لِلْفُسَادِ، فِي الْعَقِيدَةِ، أَوْ فِي الْحَيَاةِ يَلْقَى أَثَامًا أَيْ عَقُوبَةً وَ جَزَاءً عَلَى مَا عَمِلَ يُقَالُ: أَثَمَهُ اللَّهُ أَيْ جَازَاهُ جَزَاءً الْإِثْمِ.

[٧٠] يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ الْمَضَاعَفَةَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْمَعَاصِي، يَعْنِي إِنْ عَذَابُ هَؤُلَاءِ أَكْثَرَ مِنْ عَذَابِ غَيْرِهِمْ، وَ إِنْ كَانَ بِقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ وَ يَخْلُدُ أَيْ يَبْقَى دَائِمًا فِيهِ أَيْ فِي الْعَذَابِ مُهَانًا فِي حَالِ كَوْنِ ذَاكَ الْعَذَابِ عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخُلُودَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُفَّارِ لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ تَدْرِكُهُ الشَّفَاعَةُ.

[٧١] إِلَّا مَنْ تَابَ أَيْ رَجَعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَمَّا اقْتَرَفَهُ مِنَ الْإِثْمِ وَ آمَنَ فَإِنَّ الْإِيمَانَ فِي أَثَرِ التَّوْبَةِ؟ وَ لَذَا ذَكَرَ بِعَقْبِهَا وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا الْمُرَادُ بِهِ الْجِنْسَ، أَيْ أَتَى بِجِنْسِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، الَّذِي يَصْلُحُ لِإِسْعَادِ الْإِنْسَانَ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ أَيْ يَمْحَى عَنْهُمْ السَّيِّئَاتِ وَ يَكْتُبُ مَكَانَهَا حَسَنَاتٍ، وَ مِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَرَادَ إِعْطَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٧١ إلى ٧٢]

وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)

الثواب على نفس السيئة التي ارتكبتها، بعد أن آمن و عمل صالحاً و تاب، فمثلاً كان قد زنى، فإنه إذا تاب توبه نصوحاً، أعطاه سبحانه ثواب النكاح لزنائه ذلك - كما قال بذلك بعض - و كان الله غفوراً يغفر الذنب لمن أذنب رحيماً يتفضل عليهم، فليس غفرانا مجرداً،

بل مغفرة و فضلا.

[٧٢] وَمَنْ تَابَ مِمَّا سَلَفَ عَنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بِأَنْ صَحَّتْ عَقِيدَتُهُ وَعَمَلُهُ فَإِنَّهُ يُتَوَبُ إِلَى اللَّهِ أَيُّ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا أَيُّ رَجوعًا حقيقيًا، أما من آمن ولم يعمل صالحًا، أو عمل صالحًا ولم يؤمن فإنه لم يرجع إليه حقيقة، إذ لو اعترف الإنسان بالله اعترافًا عميقًا لا بد وأن يؤمن ويعمل صالحًا أو المراد أنه يرجع إليه مرجعًا عظيمًا من قبيل فَعَشَيْتَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَيْتَهُمْ (١) و «المتاب» مصدر ميمي، من تاب بمعنى رجع.

[٧٣] وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ الزُّورِ أَيُّ الكذب، وأصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، من «زوره تزويرًا» وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ أَيُّ الباطل، أو الشامل له و لما لا فائدة فيه - كما هو الظاهر - مَرُّوا كِرَامًا جمع كريم، أي يفعلون عند مشاهدة الباطل، ما يفعله الإنسان الكريم الرفيع النفس، ففي مقام النهي ينهون، و في مقام السكوت

(١) طه: ٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٧٣ إلى ٧٤]

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)

يسكتون، و في مقام التأديب يتأدبون، و هكذا، يقال: تكرم فلان عما يشينه أي تنزهه، و أكرم فلان نفسه، أي لم يهو بها في مهوى المهانة و الانحطاط.

[٧٤] وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا أَيُّ ذكرهم الناس، أو ذكرتهم الحياة، بأن رأوا صاعقه تلفت الأنظار، أو زرعًا جميلًا يذكر خالقه، و هكذا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ الدالة على وجوده و صفاته و سائر الشؤون المتعلقة به لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا أَيُّ لم يقعوا على تلك الآيات صُمًّا جمع أصم و عُميَانًا جمع أعمى، أي لم يطلعوا عليها اطلاع الأصم الأعمى الذي لا يرتب الأثر إذ لا يسمع و لا يبصر، فإن الإنسان إنما يرتب الأثر على الأشياء من جهة السماع أو الإبصار، و كأن الإنسان الأصم الأعمى يقع على الشيء المرغوب فيه بلا استفادة منه، أو المنفور منه بلا فرار عنه، يخر على الأوراد، و على الكنيف، و هذا كناية عن عدم الاستفادة، بخلاف السميع البصير، فإن السميع يجلبه الترغيب و ينفره الإنذار، و البصير يرى فيقدم أو يحجم، و المؤمن يسمع الآيات، و يشاهد الآثار، فيرتب الأثر، بخلاف الكافر.

[٧٥] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْ دَعَائِهِمْ، يَا رَبَّنَا هَبْ لَنَا أَيُّ أعطنا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا أَيُّ أولادنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ أَيُّ أولاد تفر بهم العين، و هو كناية عن الولد الصالح، فإن الإنسان إذا صلح ولده أو سر بشيء آخر، قرّت عينه، بخلاف الإنسان المحزون الذي أصيب ببؤس أو ولد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٧٥ إلى ٧٧]

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

سيئ، فإنه يقلب طرفه هنا و هناك ليجد ملجأ أو حيلة للتخلص، و قوله مِنْ أَزْوَاجِنَا يراد الأولاد الصليبين، و «ذرياتنا» الأحفاد و اجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أَيُّ نكون أئمة أهل التقى، و ذلك لا للاستعلاء، بل لأن ينالوا تلك الدرجات الرفيعة التي يحصل عليها الإنسان في الآخرة، إذا أرشد و أفاد إرشاده التقوى، إذ معنى الإمامة للمتقى أن يكون مصدرًا للتقوى.

[٧٦] أُولَئِكَ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَاتُهُمْ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ أَيُّ يثابون الدرجة الرفيعة في الجنة، فاللام في العُرْفَةَ، للعهد الذهني بما صَبَرُوا أَيُّ بسبب صبرهم على طاعة الله سبحانه، و ثباتهم على أوامره و نواهيه و يُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا أَيُّ تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية و

السلام، كأن يقال لهم «حياكم الله حياة طيبة، و سلام عليكم» أو كناية عن الترحيب بهم.

[٧٧] في حال كونهم خالدين فيها أي في الغرفة- أي الجنة- فهم دائمون لا يزالون هناك في نعيم جسمي و روعي حَسِنَتْ تلك الغرفة مُشْتَقَرًا و مَقَامًا أي محل استقرار و إقامة، فالإنسان فيها مستقر غير متزلزل، باق غير متحول.

[٧٨] و إذ بين سبحانه أذعية المؤمنين، بعد ما بين أنهم آمنوا و عملوا صالحا، قال قُلْ يا رسول الله، للناس ما يعبؤا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣

بِكُمْ رَبِّي أي ما يبالي بكم الله، يقال لم يعبا به أي لم يبالي به، فكان وجوده و عدمه سواء لولا دُعَاؤَكُمْ أي توجَّهكم إلى الله سبحانه فإن البشر هين في جنب الله لا شأن له لو لا أن يتوجه إليه سبحانه فتكون له قيمة بهذا الترفع الذي يحصِّله من جراء توجهه إلى الله تعالى فَفَعْدُ كَذَّبْتُمْ أيها الكفار ما أخبرتكم به من المبدأ و العقيدة و المعاد فَسَوْفَ يَكُونُ التَّكْذِيبُ، أي جزائه المترتب عليه من النار و النكال لِزَمَانًا أي ملازما لكم لا يفارقكم، و لا يخفى أن من مصاديق «دعَاؤكم» هو الدعاء المعتاد الذي ندعو الله به لقضاء حوائجنا، و لذا جرى بهذه الآية هنا، حيث تقدم دعاء المؤمنين، و إن كان الظاهر أن قوله: «لو لا دعَاؤكم» يراد به التوجه إلى الله سبحانه بالإيمان و العمل الصالح و الدعاء و غيرها- بصورة عامة- كما يناسب ذلك «فقد كذبتهم»، و من هذا يعرف ما للدعاء من الأهمية، فقول بعض المنحرفين: إن الدعاء لا ثمره له إذ لو قدر شيء يكون، و لو لم يقدر لا يفيد الدعاء، هو غلط، إذ التقدير: أن يكون ذلك الشيء بالدعاء كما أن التقدير أن يأكل الإنسان الشيء و يحصل على الشيء بالعمل و الطلب، و الله الهادي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤

٢٦ سورة الشعراء مكية / آياتها (٢٢٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «الشعراء» و ما يتعلق بهم. و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، قالوا: إنها مكية إلا من قوله «و الشعراء .. إلى آخر السورة». و حيث ختمت سورة الفرقان بقصة تكذيب الكفار للرسول، جاء مفتتح هذه السورة تسلياً للرسول أن لا يهتم بهم بعد الإنذار.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شروع بذكر اسم الإله الذي له كل شيء، و من أبرز صفاته الرحم، مما يحتاج إليه الإنسان في كل خطوة من خطى الحياة، فإن الإنسان مجموعة نواقص، فلو لا رحمه سبحانه لتكميله من آتات الحياة، لذهب عاطلا لا ينتفع و لا ينتفع به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنَّ نَشْرَأَ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)

[٢] طسم «طاء» و «سين» و «ميم».

[٣] تِلْكَ الحروف و ما يجانسها من حروف الهجاء آياتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ الواضح الظاهر الذي لا ريب فيه و لا غموض، فإن كان مكذوباً، فأتوا بمثله إذ هو مركب من لغتكم و حروفكم التي تلهجون بها طيلة أعماركم، و قد ذكرنا سابقاً، إن الإتيان بحروف خاصة ك «طاء» و نحوها من باب الإشارة إلى حروف الهجاء و إن «تلك» و ما أشبه مما يقع بعد هذه «المقطعات» خبر لمبتدأ هو تلك الحروف المقطعة، هذا على أحد الأقوال في معنى «الحروف المقطعة» و في إعرابها، و هناك أقوال أخر.

[٤] لَعَلَّكَ يا رسول الله باخِعٌ نَفْسَكَ من بخع بمعنى أهلك، أي مهلك نفسك حزنا و أسفا، ب أَلَّا يَكُونُوا هؤلاء الكفار مُؤْمِنِينَ فقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يحزن حزنا شديدا على عدم إيمانهم، فسأله الله سبحانه بذلك و «لعل» بمعنى «الاحتمال» و إنما

يستعمل للترجي، لأنه «احتمال المطلوب» و الجملة يراد بها النهى الإرشادى الإشفاقي، كما لا يخفى.

[٥] إِنَّ نَشَأَ جَبَرَ النَّاسَ عَلَى الْهُدَى نُنَزَّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً أَى معجزه مجبره لهم على الإيمان فَظَلَّتْ أَى صارت أَعْنَاقُهُمْ أَى أعناق هؤلاء الكفار لها لتلك الآية خاضعين وإنما نسب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٥ الى ٧]

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧)

الخشوع إلى الأعناق لأنها أول ما يظهر عليها الخشوع تميل نحو الأرض، لكن الله سبحانه لا يشاء ذلك لأنه مخالف لكون الدنيا دار اختبار و امتحان، نعم وردت بعض الروايات الدالة على أنها تكون في زمان المهدي عليه السلام (١).

[٦] وَمَا يَأْتِيهِمْ أَى البشر مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ «من» زائد لتأكيد العموم، و لعل الإتيان بلفظة «الرحمن» للدلالة على أن المراد بذلك الذكر ما يسبب لهم الرحمة مُحَدَّثٍ أَى جديد، كالقرآن إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ يعرضون عنه، فقد اعتاد الناس على أن لا يخضعوا إلا للتقاليد و إن رأوا الحق و الصدق فى الشىء الجديد، فقد كانوا يتعاملون مع كل كتاب جديد هذه المعاملة، من غير فرق بين التوراة و الإنجيل و القرآن، و سائر الكتب.

[٧] فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ، و المراد كفار مكة، فَسَيَأْتِيهِمْ أَى عند الموت، أو فى يوم القيامة أَنْبَاءٌ أخبار ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ و المراد عاقبه أعمالهم، و هذا كما تقول لمن تريد تهديده، سأخبرك بما كنت تعمل.

[٨] أَوْ لَمْ يَرَوْا أَى ألم ينظر هؤلاء الكفار إلى الآيات الكونية؟ فليظنوا

(١) تأويل الآيات: ص ٣٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٨ الى ١٢]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمٍ فِرْعَوْنُ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢)

إلى الأرض ليروا كم أنبأنا فيها من كل زوج أى كل صنف من أصناف النبات كريم حسن نافع جميل، و المعنى ذى كرامه و رفعة. [٩] إِنَّ فِي ذَلِكَ الْآيَاتِ دَلَالَةٌ عَلَى الْإِلَهِ و على صفاته و ما كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ بالله و بما يجب الإيمان به، عنادا و تقليدا لآبائهم. [١٠] وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا- يضره إعراض هؤلاء فإنه لَهُوَ الْعَزِيزُ له العزة و الغلبة الرَّحِيمُ فإنه يرحمهم مع قدرته كيما يندموا و يعودوا عن غيرهم.

[١١] ثم بدأ السياق ليذكر فصلا من قصة موسى عليه السلام فيها العبرة و الذكر و التسليى للرسول و التبشير للمؤمنين بغلبتهم على أعدائهم و لو بعد حين و اذكر يا رسول الله إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى اذهب إليهم.

[١٢] ثم بين المراد بالقوم الظالمين بقوله قَوْمٍ فِرْعَوْنُ و المراد هو و قومه، كما هو الشائع فى مثل هذا التعبير أَلَا يَتَّقُونَ أى أما آن لهم أن يتقوا الكفر و العصيان؟ و هذا تعجب فى لفظ الاستفهام، حكاية لما قاله سبحانه لموسى عليه السلام.

[١٣] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أى يكذبنى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٣ الى ١٥]

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥)

فرعون وقومه فيما أَدعوهم إليه، وقد قال موسى ذلك تمهيدا لطلبه مؤازرته هارون له، وإلا لم يكن موسى عليه السلام يريد بذلك الفرار عن حمل التبليغ.

[١٤] وَيَضِيقُ صَدْرِي بتكذيبهم المتوقع، والسبب أن الإنسان إذا كذب، هاج، وغلبته الحرارة فتنتفخ الرئة لجذب الهواء المبرد للقلب، وبذلك يضيق الصدر الذي هو مكان الرئة وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي بالكلام، فقد كان في لسان موسى عليه السلام عقدة قبل أن يرسله الله تعالى ثم حل العقدة من لسانه فَأَرْسِلْ يا رب إلى هَارُونَ أخي ليكون رسولا معي يؤازرنى فى الرسالة.

[١٥] وَلَهُمْ أى لقوم فرعون عَلَيَّ ذَنْبٌ هم يعتبرونه ذنبا، وإن لم يكن ذنب حقيقى، فقد سبق أن قتل موسى قبطيا حين تشاجر مع إسرائيلى، فعده آل فرعون ذنبا، وإن كان قتل موسى له بحق فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ أى يقتلنى آل فرعون بمجرد ما يرونى، قصاصا على قتلهم.

[١٦] قَالَ اللهُ تعالى فى جواب موسى كَلَّا لا تخف، فإنهم لا يتمكنون من إيذائك و قتلك، أما دعاءك بإطلاق لسانك فقد استجيب، وأما دعاءك أن نجعل هارون نبيا لك فقد قبلناه فَادْهَبَا أنت و أخوك إلى فرعون و ملاءه بِآيَاتِنَا أى الأدلة و المعاجز الدالة على التوحيد و الرسالة و المعاد إِنَّا مَعَكُمْ أى مع الجميع، أنتما و آل فرعون مُسْتَمِعُونَ فيكون ما يدار بينكم من الحديث بمسمع منا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦ الى ١٩]

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْنَا فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)

و هذا تشجيع لهما، إذ الإنسان إذا علم أنه بمنظر و مسمع الملك كان أربط جأشا و أقوى احتجاجا.

[١٧] فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ أى اذها إليه فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أفراد لفظ «الرسول» باعتبار كل واحد واحد، أرسلنا الله إليك لندعوك إلى عبادته و طاعته و الإيمان بنا.

[١٨] وقد أمرك الله ب أن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فإن فرعون كان قد سجن جمعا من بنى إسرائيل و هم أحفاد يعقوب عليه السلام، كما قد استعبد جماعة آخرين منهم، و كان هؤلاء لهم صبغة التوحيد، و عدم عبادة فرعون، و لذا أمر الله موسى عليه السلام أن يقول لفرعون، بإطلاق سراح بنى إسرائيل، ليقودهم موسى عليه السلام إلى حيث خيرهم و صلاحهم، بعد ما كانوا قلة مضطهدة.

[١٩] فَأْتِيَا موسى و هارون فرعون، و بعد اللقاء، و بيان أنهما رسولان إليه، و أن الله يأمره بإطلاق سراح بنى إسرائيل قَالَ فرعون لموسى عليه السلام أَلَمْ تُرَبِّكُنَا يا موسى فِينَا فى منزلنا و محلنا وَلِيدًا أى فى حال كونك طفلا صغيرا أخذناك من البحر و ربيناك حتى صرت فتى قويا؟

وَلَبِثْنَا فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ أى كنت فى بلاطنا سنوات متعددة من عمرك، و هى اثنتى عشرة سنة، عل حديث، أو ثمانية عشر على قول؟

[٢٠] وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ أى قتلت ذلك القبطى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٠ الى ٢١]

قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بنا و بما أنعمنا عليك، فقد خالفت طريقتنا بعد تلك النعم و ذلك الاجرام.

[٢١] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ: فَعَلَّتْهَا أَي فَعَلَتْ تِلْكَ الْفِعْلَةَ وَ هِيَ الْقَتْلُ إِذَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ يُقَالُ يَضِلُّ لِمَنْ انْحَرَفَ عَنِ الطَّرِيقِ، سِوَاهُ أَرِيدَ بِالطَّرِيقِ طَرِيقَ الْحَقِّ، أَمْ طَرِيقَ الْبَاطِلِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ «١» يَرِيدُونَ: ضَالُونَ عَنِ طَرِيقِنَا الَّذِي هُوَ كَفْرٌ، وَ لَعَلَّ مُرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ، أَي أَنِّي ضَالٌّ عَنِ طَرِيقَتِكَ يَا فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يَكُنِ الْقَتْلُ إِجْرَامًا كَمَا تَزْعُمُ أَنْتَ، وَ إِنَّمَا كَانَ ضَلَالًا عَنِ مَنِهْجِكَ، وَ إِذَا فَقَدَ كَانَ فِي مَوْقِعِهِ حَيْثُ إِنَّهُ قَتَلَ كَافِرًا مُهَاجِمًا عَلَى مُسْلِمٍ.

[٢٢] فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقَبْطِيَّ، قَرَّرَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ أَنْ يَقْتَصُوا مِنْ مُوسَى، فَجَاءَهُ رَجُلٌ قَائِلًا إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ «٢» فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ لَمَّا خَفَّتْكُمْ عَلَى نَفْسِي مِنَ الْقَتْلِ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا بِأَنْ جَعَلَنِي حَاكِمًا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّ الْحُكُومَةَ لَيْسَتْ إِلَّا لِلَّهِ وَ لِمَنْ وَهَبَهَا لَهُ وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ لِأَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ.

(١) المطففين: ٣٣.

(٢) القصص: ٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٢ إلى ٢٥]

وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥)

[٢٣] قَدَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَوَابَ قَوْلِ فِرْعَوْنَ «فَعَلْتَ فَعَلْتِكَ» لِأَنَّهُ كَانَ إِصْبَاقَ تَهْمَةِ الْقَتْلِ، وَ مِنَ الْبَلَاغَةِ أَنْ يَقْدُمَ الْإِنْسَانُ جَوَابَ الْأَهْمِ مِنْ كَلِمَاتِ الْخَصْمِ، لِثَلَا يَبْقَى وَ لَوْ لِمُدَّةِ تَعْمَلِ أَثَرِ الْكَلِمَاتِ فِي أَدْمَغَةِ السَّامِعِينَ فَيَذْهَبُ بِالْمَوْقِفِ عَنِ يَدِ الْمُتَهَمِ، ثُمَّ رَجَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَجِيبَ عَنِ كَلَامِهِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ امْتِنَانُهُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ رَبَّاهُ فِي قَصْرِهِ، فَقَالَ وَ هَلْ تِلْكَ التَّرْبِيَةُ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ فَإِنَّ تَرْبِيَتَكَ كَانَتْ مِنْ جِهَةٍ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَي جَعَلْتَهُمْ عِبِيدًا مَضْطَهَدِينَ، حَتَّى اضْطَرَّتْ أُمِّي لِلِقَائِي فِي الْبَحْرِ لِنَجَاتِي مِنَ السَّفَاكِينِ الَّذِينَ جَعَلْتَهُمْ لِقَتْلِ كُلِّ وَ لَدِ يُولَدِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّهَا، بِالْأَحْرَى، عَلَيْكَ لَا لَكَ، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَكَفَلُونِي، وَ لَمْ يَكُنْ لَكَ سَبِيلٌ إِلَيَّ.

[٢٤] قَالَ فِرْعَوْنُ بَعْدَ أَنْ انْقَطَعَ عَنِ الْمَحَاوِرَةِ مَعَ مُوسَى حَوْلَ التَّرْبِيَةِ وَ الْجَرِيمَةِ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ أَي شَيْءَ هَذَا الَّذِي تَدْعُونِي إِلَى عِبَادَتِهِ، وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ «مَنْ» اسْتِخْفَافًا.

[٢٥] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَي خَالِقُهُمَا وَ مَبْدَعُهُمَا وَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِنْسَانِ وَ الْمَلِكِ وَ الْحَيَوَانِ وَ الْجَمَادِ وَ غَيْرِهَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أَي إِنْ كُنْتُمْ أَصْحَابَ يَقِينٍ لَعَلِمْتُمْ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ رَبًّا، وَ كَأَنَّ فِي مَقَابِلِ ذَلِكَ، مِنْ لَا يَبَالِي وَ لَا يَهْتَمُّ حَتَّى لَا يَعْلَمَ الْارْتِبَاطُ وَ أَنْ لِكُلِّ شَيْءٍ مَوْثِرًا، ككَثِيرٍ مِنَ الْجَهَالِ.

[٢٦] قَالَ فِرْعَوْنُ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَ الْحُكَّامِ أَلَا تَسْتَمِعُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٦ إلى ٢٨]

قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)

إِلَى مَقَالَةِ مُوسَى؟ إِنْ أَسْأَلُهُ مَا جِنْسُ الْإِلَهِ؟ وَ هُوَ يَجِيبُ بِمَا فَعَلَ وَ أَبَدَعَ، وَ هَذَا الْجَوَابُ لَيْسَ مُرْتَبِطًا بِالسُّؤَالِ، لَكِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَلْقَمَ فِرْعَوْنَ الْحِجَّةَ، فَهَلْ يَتِمَكَّنُ أَحَدٌ أَنْ يَنْكَرَ أَنْ لِلْكَوْنِ إِلَهًا؟ أَمَا جِنْسُهُ فَهُوَ غَيْرُ مُرْتَبِطٍ بِهَذَا الْمَقَامِ.

[٢٧] لَكِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَأْبَهُ لِاسْتِخْفَافِ فِرْعَوْنَ، وَ أَخَذَ يَسْرِدُ الْحُجَجَ الدَّالَّةَ عَلَى وَجُودِهِ سَبْحَانَهُ، كَمَا يَرْتَكِزُ الْأُلُوْهِيَّةَ فِي الْأَذْهَانِ، وَ يَتِمُّ الْحِجَّةَ فَ قَالَ ثَانِيًا إِنْ اللَّهُ الَّذِي أَدْعُوا إِلَيْهِ رَبُّكُمْ أَيُّهَا الْمَلَأُ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ وَ فِي هَذَا كَانَ رَدًا عَلَى فِرْعَوْنَ إِذْ

كان يدعى أنه الرب، فمن كان رب آبائكم هل هو فرعون؟ وهذا ما لا يقول به، أم غيره؟ إذا ثبت بطلان ربوبية فرعون.

[٢٨] ولما رأى فرعون أن موسى غلبه في الحجّة، رماه بما يرمى به كل مصلح حين لا يقدر خصمه من إقامة المنطق قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمْ وَالْإِضَافَةُ لِلْإِسْتِهْزَاءِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ وَمَا يَدْعِيهِ مِنَ الرَّسَالَةِ دَعْوَى جُنُونِيَّةٍ.

[٢٩] لكن موسى عليه السّلام لم يهتم باتهام فرعون، بل أخذ يفيض في الكلام، مستدلاً بالآيات الكونية على الله، موجهاً أنظار الملأ إليها ف قال موسى إن الله هو رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أَي إِنْ أَعْمَلْتُمْ عَقُولَكُمْ لَعَلِمْتُمْ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ رَبًّا وَخَالِقًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٩ الى ٣٤]

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)

قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)

[٣٠] وهنا التجأ فرعون إلى التهديد ف قال مهددا لموسى عليه السّلام لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي بِأَنَّ اعْتَقَدْتَ بِإِلَهٍ آخَرَ وَدَعَوْتَ إِلَى ذَلِكَ الْإِلَهَ لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ أَي أَسْجَنَكَ جَزَاءً لِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ.

[٣١] قال موسى عليه السّلام أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ أَي هَلْ تَحْبِسُنِي حَتَّى إِذَا جِئْتِكَ بِدَلِيلٍ وَاضِحٍ دَالٍ عَلَى نُبُوتِي؟.

[٣٢] قال فرعون فَأَتِ بِهِ أَي جِءْ بِمَا تَدْعِيهِ مِنَ الْحِجَّةِ وَالْمَعْجَزَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَاكَ النَّبَوَّةِ.

[٣٣] فَأَلْقَى حِينَئِذٍ مُوسَى عَلَيْهِ السّلام عَلَى الْأَرْضِ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ أَي حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ مُّبِينَةٌ ظَاهِرَةٌ وَاضِحَةٌ أَنَّهُ ثُعْبَانٌ وَلَيْسَ شَعُودَةٌ وَ سَحْرًا.

[٣٤] وَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، أَوْ تَحْتَ إِبْطِهِ ثُمَّ نَزَعَ يَدَهُ أَي أَخْرَجَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ فَإِذَا هِيَ الْيَدُ بَيْضَاءُ مَنِيرَةٌ كَنُورِ الشَّمْسِ لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ حَدِيثًا يَسْمَعُ، وَإِنَّمَا رَأَوْهَا رَأَى الْعَيْنِ.

[٣٥] قَالَ فَرَعُونَ لِلْمَلَأِ أَي الْأَشْرَافِ وَ سَمَوْا مَلَأً لِأَنَّهُمْ يَمْلِئُونَ الْعْيُونَ هَيْبَةً حَوْلَهُ أَي الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَهُ إِنْ هَذَا الرَّجُلُ، يَعْنِي مُوسَى عَلَيْهِ السّلام لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ بِالسَّحْرِ وَالْحِيلَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٣٥ الى ٣٨]

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تَوَكُّبِكُلُّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨)

[٣٦] وَإِنَّهُ إِنَّمَا يَدْعِي النَّبَوَّةَ وَيُظْهِرُ السَّحْرَ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ أَي مِصْرَ، لِأَنَّهُ لَوْ سَيَّطَرَ، اضْطَرَّ فَرَعُونَ وَالْمَلَأُ أَنْ يَفْرُوا مِنْهُ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الْمَلُوكِ لَدَى الْإِنْهَزَامِ بِسَبَبِ سِحْرِهِ وَهَذَا أَرَادَ فَرَعُونَ أَنْ يَجْلِبَ انْتِبَاهَ الْأَشْرَافِ لِثَلَاثِ مَمَلِكَاتٍ إِلَى مُوسَى، أَلَيْسَ يُرِيدُ إِخْرَاجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ؟ فَالْإِجْرَامُ أَنْ يَقْفُوا صِفَا وَاحِدًا ضِدَّهُ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ أَيهَا الْأَشْرَافُ، أَنْ نَفْعَلَ ضِدَّ مُوسَى؟

[٣٧] قَالُوا وَقَدْ خَانُوا مُوسَى، وَصَدَقُوا مَقَالَةَ فَرَعُونَ أَرْجِهْ أُخْرَهُ، وَأَخَاهُ أَي أَبَقَهُمَا عِنْدَكَ وَابْعَثْ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ أَي الْمَدَنِ الْمُرْتَبِطَةَ بِكُجَمَاعَةِ حَاشِرِينَ يَحْشُرُونَ وَيَجْمَعُونَ لَكَ السَّحْرَةَ، مِنْ «حَشَرَ» بِمَعْنَى جَمَعَ.

[٣٨] يَا تَوَكُّبِكُلُّ سَحَّارٍ أَي كَثِيرِ السَّحْرِ عَلِيمٍ فِي عِلْمِ السَّحْرِ، حَتَّى يَقَابِلُوا مُوسَى فِي سِحْرِهِ فَإِذَا جَاءُوا وَأَظْهَرُوا تَفُوقًا عَلَيْهِ بَطْلَ سِحْرِ مُوسَى، وَانْفُضَحَ أَمَامَ النَّاسِ، وَبَطَلَتْ حِجَّتُهُ، فَلَمْ يَتَّبِعْهُ أَحَدٌ حَتَّى يَخْشَى مِنْهُ.

[٣٩] و ذهب الرسل إلى البلاد و أخبروا السحرة بأن فرعون يطلبهم و يدعوهم إلى أن يحضروا أرض مصر فجمع السحرة جمع ساحر لميقات يوم معلوم أى لوقت يوم خاص، فإن «ميقات» اسم للزمان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٣٩ الى ٤٢]

وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)

و للمكان، و المراد باليوم المعلوم، يوم الزينة، فقد كان لهم يوم عيد يخرج فيه الجميع خارج المدينة، للمعايدة.

[٤٠] وَ قِيلَ أَيُّ قَالَ فرعون و ملاء للناس و هم أهل مصر هل أنتم مجتمعون هذا طلب بصورة الاستفهام؟ نحو قوله (هل لك إلى أن تزكى) «١».

[٤١] لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ أَي السحرة المعارضين لموسى، و المراد باتباعهم عدم ترك دينهم إلى دين موسى، فكنى عن ذلك باتباع السحرة، لتقابلة مع أتباع موسى عليه السلام إن كانوا هم الغالبين على موسى و هارون.

[٤٢] فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ وَ حضروا بين يدي فرعون قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَجْرٍ، هل لنا أجر و جزاء عندك إن كنا نحن الغالبين على موسى و هارون؟

[٤٣] قَالَ فرعون نعيم لكم الأجر و الجزاء و إنكمم بالإضافة إلى ما تعطون من الجزاء إذا أى إذا غلبتم عليهم لمن المقربين عندي أقربكم إلى نفسي، حتى تكونوا من خواصي، فلكم المال و الجاه معا.

(١) النازعات: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٤٣ الى ٤٦]

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عَصِيَّيَهُمْ وَ قَالُوا بَعْزُهُمْ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦)

[٤٤] وَ اجتمع الجميع فى يوم الزينة، و اصطف الطرفان، فهنا موسى و هارون، و هناك فرعون بملئه و السحرة و سائر النظارة قال لهم أى للسحرة موسى ألقوا ما أنتم ملقون تحداهم عليه السلام بذلك، بأن يأتوا بما عندهم من أنواع السحر حتى يبطلها، و ليس هذا طلبا حتى يقال:

كيف يطلب النبي السحر و هو حرام؟

[٤٥] فَأَلْقُوا أَي السحرة حبالهم جمع حبل و عصيهم جمع عصا، فقد صوروا الحبال و العصى بصورة الحيات و لونها و طولها بالزئبق و غيره، بحيث تتحرك فيظن الناس أنها حيات و ثعابين و قَالُوا بَعْزُهُمْ فِرْعَوْنَ حلفوا بذلك، و أصل الحلف أن الإنسان يبدى ما فى ضميره مبينا أنه مؤكد عنده بسبب ربط كلامه بشيء عظيم واقعا، أو عند الاجتماع، و كأنه يريد أن يبين أن مسلميه ما يقول كمسلميه ذلك الشيء العظيم، و العزة هى القوة و الغلبة إنا نحن الغالبون زعما منهم أن موسى لا يقدر على ما قدروا عليه.

[٤٦] فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ أَي ألقاها من يده فإذا هى تنقلب حيه عظيمة تلقف أى تأكل بالتهام ما يافكون أى إفكهم و هو الكذب، لأن حياتهم كانت مكذوبة لا حقيقة لها.

[٤٧] فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ فَإِنَّهُمْ قد رأوا الحق فى موسى عليه السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٤٧ الى ٤٩]

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبِيلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)

وعصاه، إذ هم أهل خبرة بالسحر، وعلّموا أن عصاه ليست بسحر، فاندعشوا بحيث ملكهم الأمر و ألقوا أنفسهم للسجود لله سبحانه إظهارا لاستسلامهم و خضوعهم، و الإتيان ب «ألقى» مجهولا، للدلالة على دهشتهم حتى كأنهم لم يسجدوا اختيارا، و إنما اضطرارا من أنفسهم، فقد حدث في حالة ألقتهم إلى السجود.

[٤٨] قَالُوا أَى السِّحْرَةِ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ صدقنا بأنه الإله، لا فرعون و الأصنام.

[٤٩] رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ و إنما عطفوا بذلك، لثلاث- يتوهم أن مرادهم برب العالمين هو «فرعون» إذ فرعون كان يقول أنا ربكم الأعلى.

[٥٠] و عند ذلك سقط فرعون في يده، إذ ظهرت غلبه موسى أمام الجماهير فتوجه إلى السحرة مهددا لهم قَالَ كَيْفَ آمَنْتُمْ لَهُ أَى لرب العالمين، أو لموسى قَبِيلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ و قد كان فرعون يرى نفسه فوق الكل حتى أنه لو أراد أحد الإيمان كان اللازم أن يستأذنه، ثم أراد أن يموه الأمر على السذج فقال إِنَّهُ أَى موسى لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فهو أستاذكم و معلمكم و قد تواطأتم أنتم و موسى على هذا الأمر، بأن يأتي هو بسحر فوق سحركم حتى تظهروا للناس أنه نبي و تسيطروا على الأمر فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ العقاب الذى يحل عليكم، ثم فسر ما هدده بقوله: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ أَى اليد من جانب و الرجل من جانب، و هذا أبلغ فى التنكيل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٥٠ الى ٥٢]

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢)

من قطعها من طرف واحد و لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ و الصلب هو أن يعلق الجسم بعمود طويل إما بدق الجسم عليه بالأوتاد، أو بربطه بالجبل و نحوه، فيموت فورا أو بعد زمان.

[٥١] قَالُوا أَى قالت السحرة المؤمنون فى جواب فرعون لا ضَيْرَ أَى لا ضرر علينا مما تفعله بنا، يقال: ضاره يضره ضيرا، بمعنى يضره ضررا، ف إِنَّا إِلَى رَبِّنَا اللهُ مُنْقَلِبُونَ راجعون إلى ثوابه و لطفه فيجازينا على إيماننا و صبرنا بما هو خير لنا من الدنيا، و من المعلوم أن الإنسان لا يعد الألم القليل لفوائد كثيرة ضررا، قال بعض المفسرين:

إن فرعون لم يقدر على قتل أحد من السحرة، و قد ورد أن جمعا آمنوا بموسى فحبسهم مع السحرة، حتى أرسل الله على آل فرعون الجراد و القمل و الضفادع، فأطلق سراحهم.

[٥٢] إِنَّا نَطْمَعُ أَى نرجو أن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا السالفه من الكفر و السحر و العصيان، حيث أن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بموسى عليه السلام و بما دعانا إليه، فإن أول الناس إيمانا أعظم أجرا، لما يتوجه إليه من الخطر و الضرر الذين لا يتوجهان إلى سائر المؤمنين من بعده.

[٥٣] وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى بَعْدَ مَا أَطْلَقَ فِرْعَوْنَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَسْرِ أَى سر ليلا إلى خارج مصر بِعِبَادِي أَى مع عبادى المؤمنين إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ أَى أن وجه الأمر بالسير ليلا، إنكم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٥٣ الى ٥٧]

فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمِدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرَازِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَنَا لَعَائِطُونَ (٥٥) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ (٥٦)

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧)

إن سرتهم نهارا يتبعكم الطلب ليحولوا بينكم و بين الخروج من مصر، أو هذا إخبار بأن فرعون يتبعهم فليعلموا ذلك سلفا. [٥٤] و حيث تقابل قومي موسى و فرعون من حيث المؤمنين بالطرفين، تفكر فرعون لصد الناس عن الإيمان بجمع الجيش لمحاربة موسى فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ جَمْعَ مَدِينَةٍ، أى البلاد التى كانت تحت سلطته حاشِرِينَ أى أناسا حاشرين، من حشر بمعنى جمع، أى جماعة يجمعون المال و العسكر، لتهيئته حرب تبيد موسى و المؤمنين به معا.

[٥٥] قال فرعون لمن حوله إِنَّ هَؤُلَاءِ أَيْ مُوسَى وَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ أَيْ عصابة من الناس قليلة، فإن شرذمه كل شىء بقيته القليلة، و فى بعض التفاسير أنهم كانوا ستمائة ألف، فقد أراد التقليل لهم و التنقيص من شأنهم.

[٥٦] وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ يُقَالُ غَاظَهُ أَيْ أَغْضَبَهُ، أى أغضبونا حيث خالفوا معنا فى الطريقة، و هكذا يقول المتكبرون دائما و كأنهم هم المحور حتى أن إغضابهم يوجب النكال و التدمير.

[٥٧] وَإِنَّا لَجَمِيعٌ أَيْ جَمَاعَةٌ حَازِرُونَ أَيْ خائفون شرهم، من «حذر» بمعنى خاف و استعمل الحزم فى الأمور.

[٥٨] و خرج موسى عليه السلام و قومه ليلا من مصر، و اتبعهم فرعون بعد ما عرف خروجهم بجيشه الجرار، يريد حربهم أو إرجاعهم، و هكذا أخرج الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٩٩

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٥٨ الى ٦١]

وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ (٦١)

فرعون من البلاد كما قال فَأَخْرَجْنَاهُمْ أَيْ فرعون و آله مِنْ جَنَّاتٍ أَيْ بساتين و عُيُونٍ جمع عين، أى: العيون الجارية فى أراضيهم و بساتينهم.

[٥٩] وَ كُنُوزٍ جمع كنز، و هو المال المخبأ، أى عن أموالهم الثمينة التى اخترنوها وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ مقامهم المتصف بالكرامة، لأنهم كانوا يكرمون فى ذلك المقام.

[٦٠] كَذَلِكَ الأمر قد كان وَ أَوْرَثْنَا أى تلك النعم من الجنات و العيون و الكنوز و المقام الكريم بَنِي إِسْرَائِيلَ المؤمنين بالله، فإن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر و صاروا فيها سادة.

[٦١] و بعد بيان تلك الخاتمة- فورا- يأتى السياق لبيان القصة كيف صار الطرفان، و هل تلاقيا فَأَتَّبَعُوهُمْ أَيْ أتبع فرعون و آله، لموسى و المؤمنين مُشْرِقِينَ أى حين شروق الشمس و ظهور ضوئها، بعد أن خرج موسى و المؤمنون، ليلا، و ساروا مسافة طويلة، و وصل موسى و المؤمنون إلى البحر، و ها هم يرون فرعون بجيشه يتبعهم، فماذا يصنعون؟

[٦٢] فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ أى تقابل جمع موسى مع جمع فرعون، بحيث رأى كل صاحبه قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى فى خوف و اضطراب إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ أى سيدركنا جماعة فرعون و لا طاقة لنا بهم، فإنهم لم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٦٢ الى ٦٥]

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَ أَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)

يكونوا حملوا السلاح للمقاتلة.

[٦٣] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلَّا لَا يَدْرِكُونَا، ثَقَّةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِنَّ مَعِيَ رَبِّي أَي مَعِيَ نَصْرَتَهُ وَ لَطْفَهُ سَيَهْدِينِ أَي سِيرشَدْنِي إِلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ.

[٦٤] فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ وَ هُوَ الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ، فَضْرَبَ مُوسَى عَصَاهُ عَلَى الْبَحْرِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَمَا نَفَقَ الْبَحْرُ أَي انشَقَّ، وَ ظَهَرَ فِيهِ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا بَيْنَ كُلِّ طَرِيقَيْنِ حَاجِزٌ مِنَ الْمَاءِ، وَ ظَهَرَ الْقَعْرُ يَابِسًا فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ أَي كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ، الَّتِي كَانَتْ حَاجِزَةً بَيْنَ طَرِيقٍ وَ طَرِيقٍ كَالطَّوْدِ أَي الْجَبَلِ الْعَظِيمِ جَبَلٌ مِنَ الْمَاءِ مَمْتَدٌ عِبْرَ الْبَحْرِ، وَ طَرِيقٌ، ثُمَّ جَبَلٌ وَ طَرِيقٌ، وَ هَكَذَا إِلَى اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا وَسَيَعَا جَافًا فِي قَلْبِ الْبَحْرِ.

[٦٥] وَ أَرْزَلْنَا أَي قَرَبْنَا، مِنْ زَلْفٍ بِمَعْنَى قَرَبَ ثُمَّ أَي هُنَاكَ، نَحْوَ الْبَحْرِ الْمَآخِرِينَ أَي فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ، قَرَبْنَا هُمْ إِلَى الْبَحْرِ، فَإِنَّهُمْ اقْتَرَبُوا لِيَحَارِبُوا مُوسَى وَ مِنْ مَعَهُ، وَ نِسْبَةُ الْإِزْلَافِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَ مُوسَى بِالْخُرُوجِ، فَهُوَ السَّبَبُ الْأَوَّلُ لِإِخْرَاجِ فِرْعَوْنَ.

[٦٦] وَ لَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنَ إِلَى الْبَحْرِ، وَ رَأَى أَنَّ مُوسَى وَ أَصْحَابَهُ فِي وَسْطِهِ، دَخَلَ الْبَحْرَ لِيَدْرِكَ مُوسَى وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ حَيْثُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٦٦ إلى ٧٠]

ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠)

وَصَلُّوا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ سَالِمِينَ، حِينَ وَصَلَ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ مُنْتَصِفَ الْبَحْرِ.

[٦٧] ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ بِأَنَّ أَمْرَنَا مَاءَ الْبَحْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَحَلِّهِ، فَتَلَطَّمِ الْمَاءِ وَ انْصَبَّ عَلَى فِرْعَوْنَ وَ جَيْشِهِ فَغَرَقُوا.

[٦٨] إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ نَصْرَةِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ لَآيَةً أَي دَلَالَةٌ عَلَى نَصْرَةِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَوْ دَلَالَةٌ عَلَى اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ وَ سَائِرِ شُؤُونِهِ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ أَي أَكْثَرُ النَّاسِ مُؤْمِنِينَ مُصَدِّقِينَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ، أَوْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ رَأَوْا تِلْكَ الْآيَةَ فَمَا آمَنُوا، فَلَا تَسْتَوْحِشْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِ قَوْمِكَ.

[٦٩] وَ إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَ الْعَزِيزُ فِي سُلْطَانِهِ الْغَالِبِ، كَمَا غَلَبَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ الرَّحِيمُ بِخَلْقِهِ، وَ مِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ، يَمْهَلُهُمْ، مَعَ كُفْرِهِمْ وَ مَعَاصِيهِمْ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ أَمَلٌ فِي إِيمَانِهِمْ أَهْلِكُهُمْ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ، رَحِيمٌ عَطُوفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ.

[٧٠] وَ أَتْلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَي أَقْرَأْ عَلَيْهِمْ أَي عَلَى النَّاسِ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ أَي خَبْرَهُ، وَ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ عِظَةٌ لِلْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ نَسْلِهِ، حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى جَدِّهِمْ، وَ يَتَّبِعُوا طَرِيقَتَهُ.

[٧١] إِذْ قَالَ أَي فِي زَمَانٍ، وَ الْمُرَادُ تَلَاوُهُ هَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنْ قِصَّتِهِ لِأَبِيهِ آزَرَ، وَ الْمُرَادُ عَمَهُ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي الْعَمَّ أَبًا، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٧١ إلى ٧٤]

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)

وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ أَي أَي شَيْءٍ هَذَا الَّذِي تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ.

[٧٢] قَالُوا فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَعْبُدُ أَصْنَامًا جَمَعَ صَنَمٍ فَنَظَلُّ لَهَا لَتَلِكِ الْأَصْنَامِ عَاكِفِينَ نَعَكْفُ عَلَيْهَا وَ نَقِيمُ فِي عِبَادَتِهَا.

[٧٣] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرِيدُ إِبْطَالَ عَمَلِهِمْ، وَ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهَا فِي غَيْرِ مَوْقِعِهَا هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ أَي هَلْ تَسْمَعُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ كَلَامَكُمْ وَ دَعَاءَكُمْ؟ إِذْ تَدْعُونَ إِيَّاهُمْ.

[٧٤] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ بجلب خير لكم؟ أَوْ يَضُرُّونَ بِإيقاع ضرر عليكم؟

و إذ كان الجواب على ذلك بالسلب و النفي، فلما ذا تعبدون ما لا يسمع و لا يضر و لا ينفع؟.

أقول: و لم يكن للقوم أن يقولوا: نعم، في الجواب، إذ ذلك يحتاج إلى دليل، كما أنه ليس للقوم النقض على إبراهيم بأن الله أيضا كذلك و يطلبوا الدليل، إذ الآثار تدل على المؤثر فهناك ما لا يحصى من الأدلة على أن في الكون قوة خارقة تضر و تنفع و تخلق و تميت و تعطى و تمنع، و ما ذاك إلا الله سبحانه.

[٧٥] قَالُوا فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّمَا لَيْسَ لَنَا دَلِيلٌ عَلَى أَلُوْهِئِهِ هَؤُلَاءِ، وَ إِنَّمَا نَعْبُدُهَا تَقْلِيدًا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا وَ أَجْدَادَنَا كَذَلِكَ الَّذِي نَفْعَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ يَفْعَلُونَ فَقُلْنَا هُمْ الْأَمْرُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٧٥ الى ٧٩]

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِي (٧٩)

[٧٦] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْلَنَا بَرَاءَتُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ بَعْدَ أَنْ اعْتَرَفَ الْقَوْمُ بِأَنَّهُمْ لَا دَلِيلَ لَهُمْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ.

[٧٧] أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ الْمُقَدِّمُونَ عَلَيْكُمْ، «و أنتم» للماضى، أى الأصنام التى تعبدونها أنتم و كان آبآؤكم يعبدونها.

[٧٨] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي فَقَدْ جَعَلَ الْأَصْنَامَ كَالْأَعْدَاءِ، لِأَنَّهُ كَمَا يَضُرُّ الْعَدُوَّ، تَضُرُّ الْأَصْنَامُ، فَإِنَّ عِبَادَتَهَا تَوْرَثُ النَّارَ وَ الْخِزْيَ، وَ الْإِتْيَانَ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ لِلْأَصْنَامِ بِقَوْلِهِ «فإنهم» جريا على ما يراه القوم من عقلها، و تنسيقا للكلام الدائر بينه و بينهم إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ حَيْثُ إِنَّ قَوْلَهُ «مَا كُنتُمْ» عَامٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَ قَدْ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِالْإِلَهِ، اسْتَشْنَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ «عَدُوٌّ» اللَّهُ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ الرَّحِيمُ الْخَلِيلُ لِإِبْرَاهِيمَ دُونَ سَائِرِ الْأَصْنَامِ.

[٧٩] ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصِفُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ لَهُ، وَ فِيهِ تَعْرِيفٌ بِالْقَوْمِ، بِأَنَّ أَصْنَامَكُمْ لَا تَضُرُّ وَ لَا تَنْفَعُ الَّذِي خَلَقَنِي أَخْرَجَنِي مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ فَهُوَ يَهْدِينِ أَى يَهْدِينِ طَرِيقَ السَّعَادَةِ، كَمَا خَلَقَنِي، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى «١» [٨٠] وَ الَّذِي هُوَ لَا غَيْرَهُ يُطْعِمُنِي أَى يَعْطِينِي الطَّعَامَ، وَ سَائِرِ النَّاسِ

(١) طه: ٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ الْحَقِيقَةَ بِالصَّالِحِينَ (٨٣)

وسائط، و إلا فالمطعم الحقيقى هو الله الذى خلق الطعام و يسقينا الماء إذا عطشت.

[٨١] وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ أَى يَشْفِينِي مِنَ الْمَرَضِ فَهُوَ الشَّافِي حَقِيقَةً، وَ إِنَّمَا الطَّبِيبُ وَسِيلُهُ.

[٨٢] وَ الَّذِي يُمِيتُنِي إِذَا انْقَضَى أَجَلِي ثُمَّ يُحْيِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْبَعْثِ وَ الْحِسَابِ وَ سَقُوطِ بَيِّءِ الْمُتَكَلِّمِ فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ تَخْفِيفًا، لَوْضُوحِهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى حُصُولِ التَّنَاسُقِ بِحَذْفِهَا.

[٨٣] وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَى أَوْجَدُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي وَ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَعْدُونَ حَتَّى عَمَلُهُمْ بِالْمَبَاحَاتِ خَطَايَا، إِذَا مَا يَعْرِفُونَ مِنْ مَقَامِ اللَّهِ وَ عَظَمَتِهِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونُوا دَائِمًا فِي خِدْمَتِهِ، حَتَّى لَا يَشْتَغَلُوا بِنَوْمٍ أَوْ أَكَلٍ أَوْ مَبَاشَرَةٍ، أَرَأَيْتَ لَوْ جَاءَكَ إِنْسَانٌ كَبِيرٌ، وَ أَنْتَ وَسَخِ الثِّيَابِ تَعْتَذِرُ مِنْهُ وَ تَخْجَلُ، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَيِّئُهُ، وَ كُنْتَ مَضْطَرًا إِلَى هَذِهِ الثِّيَابِ؟ يَوْمَ الدِّينِ أَى فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ.

[٨٤] ثم توجه إبراهيم عليه السلام إلى الله بالدعاء قائلاً رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا فَإِن كَوْنِ الْإِنْسَانِ حَاكِمًا فِي الْأَرْضِ حُكُومُهُ مَشْرُوعَةٌ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا مَنَحَهُ لِأَحَدٍ كَانَ حَاكِمًا شَرِيعًا، وَإِن لَّمْ يَمْنَحْهُ كَانَ غَاصِبًا لَا حَقَّ لَهُ فِيهِ وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ أَى اجْعَلْنِي فِي زَمْرَتِهِمْ وَمَعَهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٨٤ إلى ٨٩]

وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)

[٨٥] وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ أَى ثناء جميلا صادقا في الآخِرِينَ أَى الأمم التي تأتي من بعدى، فيثنون على ثناء صادقا، بأن أكون قدوة لهم، فالمراد باللسان الثناء، بعلاقة الحال و المحل، و المراد بالصدق أن يكون الثناء صادقا، في مقابل الثناء الكاذب و قد أجاب الله سبحانه دعاء إبراهيم، فقد مرت عشرات القرون، و الأمم كلهم يثنون على إبراهيم، و يذكرونه بتجله و إكبار.

[٨٦] وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ أَى الذين يرثونها كالإرث الذي ينتقل إلى الإنسان.

[٨٧] وَ اغْفِرْ لِأَبِي بأن تهديه إلى الحق حتى يستحق الغفران إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ المنحرفين الذي ضلوا الطريق، و المراد «أبى» عمه آزر، و إلا فقد كان أبوه عليه السلام مؤمنا راشدا.

[٨٨] وَ لَا تُخْزِنِي مِنَ الْخِزْيِ، و هو أن يترك الإنسان لشأنه حتى يذل يَوْمَ يُبْعَثُونَ أَى يوم القيامة، و هذا أيضا كما تقدم في قوله عليه السلام «خيطتى».

[٨٩] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ لِإِنجَاءِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْهَلَكَةِ، و إسعاده بالجنة و لا بَنُونَ يدافعون عن الإنسان، و يهيئون له المكان الحسن الوثير.

[٩٠] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ أَى لا ينفع شيء إلا القلب السليم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٩٠ إلى ٩٤]

وَ أَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَ بَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ (٩٤)

و هذا استثناء منقطع، و قد ذكرنا وجهه سابقا، و أنه استثناء عن أصل المطلب، لا عن المطلب بقيوده، و المراد بالقلب السليم، القلب السالم عن المعاصى و الآثام، و إنما نسب إلى القلب لأنه مبعث الخيرات و الشرور.

[٩١] وَ يَوْمَ أَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ أَى قربت، إما قريبا زمانيا، لأذ أيام الدنيا انقضت، و جاء دور الآخرة، و إما قريبا مكانيا، فإن الأرض تكون ساحة الحشر، و الجحيم تظهر في أطرافها، و الجنة- التي لا- تبعد أن تكون في أعالي الفضاء- تقرب إلى الأرض ليراها المؤمنون لِلْمُتَّقِينَ الذين كانوا يتقون المحارم في الدنيا.

[٩٢] وَ بَرَزْتَ أَى أظهرت، و المظهر هو الله سبحانه الْجَحِيمُ و هى جهنم- مؤنثة سماعا- لِلْغَاوِينَ من غوى، بمعنى ضل، أى الضالين الذين أغواهم الشيطان، فعملوا الكفر و العصيان.

[٩٣] وَ قِيلَ لَهُمْ أَى للغاوين أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَى أين ذهبت الأصنام التي كنتم تعبدونها؟

[٩٤] مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى عوض عبادة الله هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ بِدفع العذاب عنكم، في هذا اليوم أَوْ يَنْتَصِرُونَ هم لأنفسهم بأن لا- يكونوا حسب جهنم.

[٩٥] فَكُفِّبُوا أَى جمعوا، بمعنى دفعوا و طرح فيها بعضهم فوق بعض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٩٥ إلى ١٠٠]

وَ جُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذِ نَسُوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠)

فيها أى فى الجحيم هُم أى الآلهة وَ العاؤون أى الكفار الضالون الذين كانوا يعبدونها، أو المراد ب «هم» هؤلاء عبدة الأصنام و سائر الغاوين كالطبيعيين و من إليهم.

[٩٦] وَ كَبكب فيها جُنُودٌ إِبْلِيسَ من اتبعه من ولده و ولد آدم و عصاة الجن أَجْمَعُونَ حتى لا يبقى منهم أحد خارج النار.

[٩٧] قَالُوا أى قال هؤلاء الذين فى النار وَ الحال أن هُم فِيهَا يَخْتَصِمُونَ يخاصم بعضهم بعضا.

[٩٨] تَاللَّهِ قسم بالله، و التاء تأتى غالبا لأمر مستنكر أو غريب إن أى إنه، ف «إن» مخففة حذف اسمها كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أى واضح ظاهر.

[٩٩] إِذِ نَسُوْكُمْ الخطاب للأصنام، و الإتيان بضمير العاقل، باعتبار جعلهم مخاطبين بِرَبِّ الْعَالَمِينَ بمعنى إذ سويناكم بالله، و جعلناكم عدلا له، فعدناكم من دونه، و هكذا يتبرأ المشركون هناك من الأصنام.

[١٠٠] وَ مَا أَضَلَّنَا عن طريق الحق، إلى عبادتكم إِلَّا الْمُجْرِمُونَ أى كبرائنا الذين أجمروا فأغرونا عن الحق.

[١٠١] ثم يتضرع المشركون إلى الناس كى ينقذوهم من العذاب قائلين فى صورة استفهام و استعطاف فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ يشفعون لنا كى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٠١ إلى ١٠٥]

وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)
ننجو من العذاب؟

[١٠٢] وَ لَا صَدِيقٍ أى و لا من صديق حَمِيمٍ أى ذى قرابه فإن الحميم هو القريب الذى ترده و يردك؟ و المعنى هل ليس لنا شافع من الأباعد أو صديق من الأقارب؟

[١٠٣] فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً يتمنون أن يكون لهم رجوع إلى الدنيا، من «كر» إذا رجع فنكون مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حتى إذا متنا ثانيا فزنا بالنعيم و تخلصنا من الجحيم.

[١٠٤] إِنَّ فِي ذَلِكَ الذى ذكرناه من قصة إبراهيم عليه السلام لآيَةً أى دلالة على وحدة الله سبحانه و سائر صفاته و شؤونه و المعاد، أو حجة على هؤلاء القوم الذين يتمسكون بإبراهيم و يعتبرونه نبيا و جدا لهم و ما كَانَ أَكْثَرُهُمْ أى أكثر هؤلاء الذين عاصروك يا رسول الله، أو أكثر أولئك الكفار فى زمن إبراهيم مُؤْمِنِينَ مصدقين، و إنما راكبون رؤوسهم يعاندون فى الأمر.

[١٠٥] وَ إِنَّ رَبَّكَ يا رسول الله لَهُوَ الْعَزِيزُ فى سلطانه الغالب على أمره، و بعزته يأخذ الكفار و ينتقم منهم الرَّحِيمُ بعباده المؤمنين فينصرهم، أو رحيم بالكفار فلا يعاجلهم بالعقوبة.

[١٠٦] ثم انتقل السياق من قصة إبراهيم عليه السلام إلى قصة نوح شيخ المرسلين فقال سبحانه: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ و إنما دخلت التاء فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٦ الى ١١٠]

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ (١١٠)
كذبت، باعتبار الجماعة، كما قال ابن مالك:

و التاء مع جمع سوى السالم من مذكر كالتاء مع إحدى اللب

ففى غير الجمع السالم يجوز إدخال التاء باعتبار الجماعة، وإنما قال «المرسلين» لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الأنبياء.

[١٠٧] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ وَسَمَاءُ أَخَاهُ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ قَبِيلِهِمْ أَلَا تَتَّقُونَ عَذَابَ اللَّهِ؟ أَى أَفَلَا تَخَافُونَ مِنَ الْعَذَابِ فِى تَكْذِيبِى وَ إِصْرَارِكُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ؟

[١٠٨] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ أَمِينٌ عَلَى الرِّسَالَةِ فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ.

[١٠٩] فَاتَّقُوا اللَّهَ بِتَوْحِيدِهِ، وَ إِطَاعَتِهِ وَ اطِيعُونَ أَى اطِيعُونِى فِيمَا أَمْرُكُمْ وَ أَنْهَائِكُمْ.

[١١٠] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَى عَلَى الْبَلَاغِ وَ الْإِشْرَافِ مِنْ أَجْرِ «مَنْ» زَائِدَةٌ دَخَلَتْ لِتَعْمِيمِ النَّفْيِ أَى لَا- أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَجْرًا وَ جِزَاءً عَلَى الرِّسَالَةِ إِنْ أَجْرِي أَى مَا أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَهُوَ الَّذِى يُعْطِينِى جِزَائِي وَ أَجْرِي.

[١١١] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ اطِيعُونَ كَرَّرَ تَأْكِيدًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١١١ الى ١١٥]

قَالُوا أَوْ تَنْبِئُنَا بِكُلِّ غَيْبٍ لَكَ وَ أَتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَ مَا عَلِمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)

[١١٢] قَالُوا أَى قَالَ الْكُفَّارِ فِى جَوَابِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ تَنْبِئُنَا بِكُلِّ غَيْبٍ لَكَ أَى كَيْفَ نَصَدِّقُكَ وَ الْحَالُ أَنَّهُ أَتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ أَى سَفَلَةَ النَّاسِ، وَ هُوَ الْحَقِيرُ السَّافِلُ، وَ الْمَعْنَى أَنَا لَا نَسْتَعِدُّ أَنْ نَرُدَّ أَنْفُسَنَا بِهَؤُلَاءِ السَّفَلَةِ.

[١١٣] قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِى جَوَابِهِمْ وَ مَا عَلِمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَى لَا أَعْلَمُ أَعْمَالَهُمْ مَا يَصْنَعُونَ، وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الْإِثْبَاتِ بَيْنَ إِيمَانِهِمْ وَ بَيْنَ صِنَائِعِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ، يُقَالُ: لَا- أَعْلَمُ مَاذَا يَقُولُ فُلَانٌ، وَ يَرَادُ لَا- أُرْتَبِطُ بِقَوْلِهِ، فَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ مَكْلَفِينَ بِالْبَلَاغِ وَ الْإِشْرَافِ، أَمَا أَعْمَالُ النَّاسِ وَ مَا كَانُوا فِى زَمَانِ كُفْرِهِمْ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَهْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

[١١٤] إِنْ حِسَابُهُمْ أَى مَا حِسَابُ هَؤُلَاءِ إِلَّا عَلَى رَبِّى فَهُوَ الَّذِى يُحَاسِبُهُمْ عَلَى مَهْنِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ لَوْ تَشْعُرُونَ أَى لَوْ كُنْتُمْ تَشْعُرُونَ ذَلِكَ وَ تَعْلَمُونَ إِنْ حِسَابُ النَّاسِ عَلَى اللَّهِ، لَمَا عَيْتَمُونِى بِأَنْ أَتَّبِعَنِى أَرَادَل.

[١١٥] وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ أَى لَا- أَطْرُدُهُمْ لِإِضْرَائِكُمْ، وَ قَدْ كَانَ دَابُّ الْكِبْرَاءِ دَائِمًا ذَلِكَ، حَيْثُ يَأْتُونَ أَنْ يَكُونُوا فِى صَفِّ الضُّعْفَاءِ، وَ لِذَا كَانُوا يَشْتَرِطُونَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ طَرْدَ أَوْلِيئِكُمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا، وَ هَكَذَا قَالُوا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[١١٦] إِنْ أَنَا أَى مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَى مُنْذِرٌ لَكُمْ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ وَ نِكَالِهِ، وَاضِحُ الْإِنْذَارِ وَ التَّخْوِيفِ وَ هَذَا شَأْنِي أَمَا أَنْ أَطْرُدَ بَعْضًا لِأَقْبَلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١١٦ الى ١٢٠]

قَالُوا لَيْتَ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَانْجِنَا وَ مَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠)

آخرين فلست بعامل ذلك.

[١١٧] قالوا أى القوم، لما انقطعوا عن الحجة لئن لم تنته يا نوح عن هذه الدعوة التى تدعوننا بها لتكونن من المرحومين أى الذين يرحمون بالحجارة.

[١١٨] هناك دعا نوح ربه قال يا رب إن قومى كذبون أى كذبونى فيما دعوتهم إليه.

[١١٩] فافتح بينى وبينهم فتحاً والمراد النصر له عليهم، وقيل للنصر فتح، لأنه يفتح الطريق المسدود أمام الإنسان ونجنى ومن معى من المؤمنين من هؤلاء الكفار، الذين لا يفيد فيهم النصح.

[١٢٠] فأنجيناها ومن معه فى الفلك أى السفينة المشحون من شحنة إذا ملأه، أى السفينة المملوءة من الإنسان والحيوان، فقد أمر عليه السلام بصنع سفينة وركوبها وسائر المؤمنين ومن كل حيوان يحمل زوجين اثنين - كما تقدم -.

[١٢١] ثم أغرقنا بعد أى بعد أن ركب نوح وسائر المؤمنين السفينة الباقين الذين بقوا على الأرض ولم يركبوا السفينة، وهم الكفار الذين لم يؤمنوا، فقد أخذ الماء وجه الأرض حتى غرق كل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٢١ الى ١٢٦]

إِنَّ فِي ذَلِكْ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦)

[١٢٢] إن فى ذلك الحوار بين نوح وقومه حول التوحيد وسائر المعارف لآية دلالة واضحة على وجوده سبحانه، أو فى ذلك الغرق دلالة على نكال الله بالكافر وما كان أكثرهم مؤمنين بالله، أو المراد ما كان أكثر الكفار المعاصرين للرسول مؤمنين بهذه الآية التى هى غرق أعداء نوح عليه السلام.

[١٢٣] وإن ربك يا رسول الله هو العزيز الغالب فى سلطانه القاهر، وبعزته أخذ أولئك بالغرق الرحيم بالمؤمنين ينصرهم على أعدائهم بالآخرة أو يمهلمهم رحمة منه حتى إذا سدوا أبواب الهدى على أنفسهم فلا رجاء فيهم أخذهم.

[١٢٤] وبعد تمام قصة نوح يأتى السياق لينقل قصة عاد قوم هود النبى عليه السلام كذبت عاد أى قبيلة عاد المرسلين فإن تكذيب هؤلاء كان تكذيب لسائر الأنبياء عليهم السلام، فمن لم يقبل نبيا فكأنه لم يقبل جميع الأنبياء.

[١٢٥] إذ قال أى كان التكذيب فى زمان قال لهم أخوهم فى النسب هود النبى ألا تتقون الله باجتتاب المعاصى، و هل تخافون عقابه ونكاله؟

[١٢٦] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ أَمِينٌ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

[١٢٧] فَاتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ وَنِكَالَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَمَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)

وَأَطِيعُونَ أَى أَطِيعُونى فيما آتيتكم به من قبل الله سبحانه.

[١٢٨] وما أسئلكم عليه أى على البلاغ والإرشاد من أجر فإنى لا أريد الأجرة منكم حتى تخافون ذلك، فتعرضون عن رسالتى إن أجرى أى ما أجرى و جزائى إلا على رب العالمين فإنه يجازينى على أتعابى وما تحملته فى سبيل الرسالة من المشاق.

[١٢٩] ثم ذكر المعصية البارزة من معاصيهم، كما هو عادة الأنبياء، أن يكثروا من النهى عن المعصية البارزة من المعاصى، فقال أ تبنون

بِكَلِّ رِيحِ الرِّيحِ هُوَ الارتفاعُ مِنَ الأَرْضِ، وَ جَمَعَهُ أَرْباعٌ وَ رِبعُهُ أَى تَبَنونٌ فى المَحَلاتِ المَرْتَفَعَةُ مِنَ الصَّحراءِ آيَةً أَى ما يَبْدوا كَأَها عَلامَةُ لِلمارَةِ، وَ لَكنها لَيسَت بِعَلامَةٍ، أَوْ ما مِنْ شَأَها أَن تَكونَ عَلامَةً لَهَدايَةُ المارَةِ، وَ لَكنكُم لا تَبَنونها لَذلكَ وَ إِنما تَعْبُوثونَ أَى عَبا وَ تَرفا، فَإِنَّ مِنَ عَادَةِ المَترَفينَ أَن يَصرفوا المَمالَ فىما هُوَ مَستغنى عَنه وَ كَذلكَ الحُكوماتِ المَترَفَةُ.

[١٣٠] وَ تَتَخَذونَ مَصانِعَ وَ هى جَمعُ مَصرِيعٍ، وَ كَأَنَّ المَمرادَ مَواضِعَ صَنعِ الآلاتِ وَ الأسبابِ لِلأَبنيَةِ وَ القُصورِ، وَ سائِرَ مَرافِقِ الحِياهِ، فَإِنَّ القومَ يَكونونَ دائِما هَكذا، لَهم مَصرِيعٌ، وَ لَيسوا كَالبَدائِيينَ الَّذينَ يَكونونَ بَناؤَهم بِسَيطا، فلا يَحتاجُ إِلى مَعامِلٍ وَ مَصرِيعٍ لَعَلَّكُم تَحُلِدونَ أَى تَظنونَ خَلودَكُم بِهَذهِ الاستِحكاماتِ وَ التَصرِيعاتِ، وَ لَم يَكنِ القومُ يَرجونَ البَقاءَ الأَبديَّ، وَ إِنما كانَ حالَهم حالَ مَنْ يَرجو البَقاءَ، لِأَنَّهُم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٣٠ الى ١٣٥]

وَ إِذا بَطَشْتُم بِطَشْتُم جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعَلَّمونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنعامٍ وَ بَينَ (١٣٣) وَ جَناتٍ وَ عُيونٍ (١٣٤)

إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُم عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ (١٣٥)

كانوا يعملون أعمال الباقين إلى الأبد.

[١٣١] وَ إِذا بَطَشْتُم أَصلَ البَطشِ هُوَ الأَخذُ الأَليمُ بِاليدِ، ثَم استَعملَ فى كُلِّ إنزالِ عَقبوهِ، يعنى إِذا عاقَبتم أَحداً بِطَشْتُم جَبَّارِينَ أَى عاقَبتم عَقبوَهُ الجَبابِرَةُ الَّذينَ يَتعدونَ عَن الحَدِّ، بلا رَأفَةٍ وَ حَسابٍ، وَ كُلِّ هَذهِ الثَلاثَةِ مِنَ مَظاهرِ البَذخِ وَ الكِبَرِ وَ نَسيانِ الآخِرَةِ، وَ إِذا رَقتِ الحِضارَةُ وَ لَم يَرافِقها الإِيمانُ كانَت كَذلكَ، كما نَرى هَذهِ الأَمرِ الثَلاثَةَ فى زَماننا جَليَّةً، وَ كانَت عادَتُ سَكنِ الأحقافِ، وَ هى الجَبالِ قَربِ حَضرَموتِ، مِنَ ناحِيَةِ اليَمَنِ، وَ كانَت ذاتِ حِضارَةٍ قَديمَةٍ.

[١٣٢] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تَرتكبوا مَعاصِيهِ وَ أَطِيعُوا أَى أَطِيعونى فىما آمَركُم بِهِ، وَ حَذفتِ الياءَ تَخفِيفاً.

[١٣٣] وَ اتَّقُوا الَّذِي أَى اللَّهُ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعَلَّمونَ أَى أعطاكم مَداً، باسَتمرارِ، ما تَعملونَ مِنَ أنواعِ الخَيرِ وَ الرِفاهِ وَ مَرافِقِ العِيشِ.

[١٣٤] أَمَدَّكُمْ بِأَنعامٍ وَ بَينَ فَأَكثرَ لَكم مِنَ الأَولادِ وَ الأنعامِ، وَ هى جَمعُ نَعمِ هُوَ الحِوانِ ذو الأَربَعِ.

[١٣٥] وَ جَناتٍ أَى بَساتينِ وَ عُيونٍ جَمعِ عَينِ.

[١٣٦] إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُم إِنْ تَماذِيتُم فى الغىِ وَ الطَغيانِ عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٦

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٣٦ الى ١٣٩]

قالوا سِواءَ عَلينا أَوْ عَظَّتْ أَمْ لَم تَكنَ مِنَ الواعِظينَ (١٣٦) إِنْ هَذا إِلاَّ خَلقُ الأَولِينَ (١٣٧) وَ ما نَحُنُ بِمَعَدِّينَ (١٣٨) فَكَذَّبواهُ فَأَهلَكناهُمُ إِنْ فى ذَليكَ لَآيَةٌ وَ ما كانَ أَكثَرُهُمُ مُؤمِنينَ (١٣٩)

و المراد إما العذاب الذى يأخذهم فى الدنيا إن استمروا على كفرهم و شقاقهم، و إما عذاب يوم القيامة.

[١٣٧] قالوا أى قالت عاد فى جواب نبينهم هود سِواءَ عَلينا أَوْ عَظَّتْ أَمْ لَم تَكنَ مِنَ الواعِظينَ فَإِنَّ عَظَّكَ وَ عَظَمَ الوَوعظِ مَساويانِ عَندنا، لا يَؤثرُ الوَوعظُ فىنا شَيئاً.

[١٣٨] إِنْ هَذا أَى ما هَذا الَّذى تَقولُ إِلاَّ خَلقُ الأَولِينَ أَى كَذبِ السابِقينَ أَوْ عادَةُ السابِقينَ، فَإِنَّ خَلقَ يَأتى بِمعنى الكَذبِ وَ بِمعنى العادَةِ، وَ هَكذا المَجرَومونَ فى كُلِّ زَمانٍ يَنسَبونَ المَصلِحينَ إِلى القَدمِ، فى زَماننا يَقولونَ «رجِعيَّة» وَ «ارتِجاع» وَ بِالفارسيَّةِ «كَهَنه پَرسِتى»، وَ فى زَمانِ الرَسلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَ آلهِ وَ سَلَّمَ كانوا يَقولونَ «أساطيرِ الأَولِينَ» وَ فى زَمانِ هود قالوا «خَلقِ الأَولِينَ»، وَ لَعَلَّ المَمرادُ أَنَّ ما نَبينهُ وَ نَفعَلهُ عادَةُ آبائنا، فلا نَتركَه لِأَجلكَ.

[١٣٩] وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ فَمَنْ يَقْدِرْ عَلَىٰ عَذَابِنَا؟ أَمَا مَا تَقُولُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، فَهُوَ يَحْبُنَا، أَلَيْسَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهَذِهِ النِّعْمِ؟ كَمَا قَالَ ذَلِكَ الْكَافِرُ (وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) «١».

[١٤٠] فَكَذَّبُوهُ أَى كَذَبَ عَادُ هُودَا فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِرِيحٍ سَخِرَتْ عَلَيْهِمْ

(١) الكهف: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٧

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٤٠ إلى ١٤٥]

وَ إِنْ رَبُّكَ لَهَيُّ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٤٤)

وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)

فأماتهم جميعاً إن في ذلك التبليغ لهم، أو الإهلاك لآية لأولئك، أو لقوم الرسول و ما كان أكثرهم مؤمنين بذلك البلاغ، بالنسبة إلى أولئك، أو بذلك الإهلاك بالنسبة إلى هؤلاء.

[١٤١] وَ إِنْ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَيُّ الْعَزِيزِ الْغَالِبِ عَلَى الْكَفَّارِ الرَّحِيمِ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ.

[١٤٢] كَذَّبَتْ ثَمُودُ أَى قَبِيلَهُ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ فَإِنَّهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ صَالِحًا، كَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ.

[١٤٣] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَى أَنْ التَّكْذِيبَ كَانَ فِي زَمَانٍ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ فِي النَّسَبِ صَالِحُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ بِاجْتِنَابِ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي.

[١٤٤] إِنِّي لَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ أَمِينٌ عَلَىٰ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ.

[١٤٥] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ خَافُوا عِقَابَهُ، وَ اتْرَكُوا مَعَاصِيَهُ وَ أَطِيعُوا أَى أَطِيعُونِي فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ.

[١٤٦] وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَى عَلَى الْإِرْشَادِ وَ التَّبْلِيغِ مِنْ أَجْرٍ وَ جَزَاءٍ، وَ «مَنْ» لِتَعْمِيمِ النَّفْسِ إِنْ أَجْرِيَ أَى مَا أَجْرِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٨

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٤٦ إلى ١٥٠]

أَتْتَرُكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلَعَتْ هَضَبَيْمٌ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (١٥٠)

إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَجْزِينِي.

[١٤٧] أَتُتْرَكُونَ أَى هَلْ تَتَّظَنُّونَ أَنْتُمْ أَنْكُمْ تَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا أَى فِي الْأَرْضِ، وَ فِي هَذِهِ النِّعْمِ الْمَوْجُودَةِ لَدَيْكُمْ آمِنِينَ مِنَ الْمَوْتِ، وَ التَّغْيِيرِ؟ وَ هُوَ اسْتَفْهَامٌ اسْتِنْكَارِيٌّ إِفْتَاتِي.

[١٤٨] فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ فِي بَسَاتِينِكُمْ وَ قَرَبِ عِيُونِ الْمَاءِ الْجَارِيَةِ.

[١٤٩] وَ زُرُوعٍ جَمْعُ زَرْعٍ، وَ كَأَنَّ النَّبَاتَ الَّذِي لَا سَاقَ لَهُ وَ نَخْلٍ طَلَعَتْ هَضَبَيْمٌ الطَّلَعُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ النَّخْلِ، وَ فِي وَسْطِهِ صِغَارُ التَّمْرِ، سَمِيَ طَلَعًا لِطُلُوعِهِ، وَ «هَضِيمٌ» بِمَعْنَى اللَّطِيفِ النَّاصِحِ الْحَسَنِ.

[١٥٠] وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فِي حَالِ كَوْنِكُمْ فَارِهِينَ بِسَهولَةٍ، وَ يَسْرٍ، مِنْ فَرِهِ، أَى هَلْ تَتَّظَنُّونَ أَنْكُمْ تَبْقُونَ فِي هَذِهِ النِّعْمِ، فَالْجَنَاتُ مَلْتَفَةٌ، وَ الْعِيُونُ جَارِيَةٌ، وَ النَّخِيلُ فِي ثَمَرٍ وَ طَلَعٍ، وَ الْبُيُوتُ الْفَارِهُةُ الْمَنْحُوتَةُ، وَ كُلُّ الْحَيَاءِ تَنْحُو نَحْوَ الْخَيْرِ وَ التَّقَدُّمِ لَكُمْ، وَ أَنْتُمْ آمِنُونَ؟ كَلَّا! لَا يَكُونُ هَذَا.

[١٥١] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَ أَطِيعُوا أَى أَطِيعُونِي فِي رِسَالَتِي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٩

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٥١ إلى ١٥٥]

وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)

[١٥٢] وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْرِفُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ مِقْيَاسًا وَحَدًّا إِذَا جَاوَزَهُ كَانَ سَرْفًا، وَكَانَ فَاعِلُهُ سَرْفًا.

[١٥٣] الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ وَكَأَنَّهُ جِئَ بِهَذَا الْعَطْفِ لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ لَا يَأْتِي مِنْهُمْ إِلَّا الْفَسَادُ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْمَنْهَجِ وَالْأَخْلَاقِ، لَا كَمَنْ يَأْتِي مِنْهُ الصَّلَاحُ وَالْفَسَادُ مَعًا.

[١٥٤] قَالُوا أَى قَالَتْ ثَمُودُ فِي جَوَابِ صَالِحٍ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ فَقَدْ سَحَرُوكَ وَذَهَبَ عَقْلُكَ - فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَسْحُورَ يَخْتَلِ عَقْلُهُ وَإِدْرَاكُهُ - وَلِذَا تَدْعَى النَّبُوَّةُ وَتَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ أَنَّكَ قَدْ سَحَرْتَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلِذَا جِئَ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ الدَّلَالِ عَلَى التَّكْثِيرِ.

[١٥٥] مَا أَنْتَ يَا صَالِحُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَكَيْفَ تَدْعَى النَّبُوَّةُ؟ فَأْتِ بآيَةٍ أَى مَعْجَزَةٌ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِكَ فِي دَعْوَاكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّكَ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى.

[١٥٦] قَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ آتَى بِالْآيَةِ، فَمَاذَا تَرِيدُونَ؟ قَالُوا نَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْجَبَلِ نَاقَةٌ كَبِيرَةٌ، فَسَأَلَ اللَّهُ صَالِحَ ذَلِكَ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الْجَبَلِ نَاقَةً كَبِيرَةً فَقَالَ لَهُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ كَمَا طَلَبْتُمْ لَهَا شِرْبٌ أَى حِصَّةٌ مِنَ الْمَاءِ وَلكُمْ شِرْبٌ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَلَيْسَ لَكُمْ شِرْبٌ كُلِّ يَوْمٍ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٠

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٥٦ إلى ١٥٩]

وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

وإنما تشرب هذه الناقة ماء النهر كاملاً، في يوم، وتعطيكم الحليب عوض الماء، ولكم ماء النهر في اليوم الآخر، لا تراحمكم الناقة في الشرب.

[١٥٧] وَلَا تَمْسُوهَا أَى لَا تَمْسُوا النَّاقَةَ بِسُوءٍ بِشَىءٍ سِوَى كَأَنَّ تَوَذُّوهَا، أَوْ تَضْرِبُوهَا، أَوْ تَنْحَرُوهَا فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ الْيَوْمَ عَظِيمًا بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَالْمَحَلِّ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ هُوَ الْعَظِيمُ.

[١٥٨] لَكِنَّ الْقَوْمَ عَتَوْا، وَقَالُوا لَا نَرِيدُ أَنْ تَشْرَبَ النَّاقَةُ كُلَّ مَاءِ النَّهْرِ يَوْمًا بَيْنَ كُلِّ يَوْمَيْنِ وَلَا نَرِيدُ لِبَنِيهَا، فَالْإِذْمَانُ أَنْ نَقَلْتَهَا لَكَ نَتَخَلَّصَ مِنْهَا فَعَقَرُوهَا أَى أَهْلَكُوهَا، بِالنَّحْرِ، أَوْ ضَرْبِ الْقَوَائِمِ، وَقَسَمُوا لِحَمِيهَا بَيْنَهُمْ وَإِنَّمَا أَسْنَدَ الْعَقْرَ إِلَيْهِمْ مَعَ أَنْ عَاقَرَهَا كَانَ وَاحِدًا لِرِضَى كُلِّهِمْ بِذَلِكَ فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ حِينَ شَاهَدُوا الْعَذَابَ، فَقَدْ نَدِمُوا عَلَى كَفْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ وَعَقْرِهِمْ لِلنَّاقَةِ.

[١٥٩] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي خَوْفُهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ فَقَدْ خَسَفَتْ أَرْضُهُمْ - كَمَا وَرَدَ عَنِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنَّ فِي ذَلِكَ الْبَلَاغَ، أَوْ الْعَذَابَ لآيَةً لَهُمْ، أَوْ لِقَوْمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَوْلِيائِكَ، أَوْ هَوْلَاءِ - عَلَى تَفْصِيلِ مَضَى - مُؤْمِنِينَ

[١٦٠] وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧١

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٠ إلى ١٦٤]

كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَ

ما أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)

للأعداء الرَّحِيمِ بهم يمهلهم، لعلهم يرجعون، أو الرحيم بالمؤمنين ينصرهم على أعدائهم.

[١٦١] كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ النبي عليه السَّلامِ الْمُزْسِلِينَ فَإِنْ تَكْذِيبَ لوطِ كَانَ تَكْذِيبًا لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامِ، أو المراد بالجمع الجنس - فقد ذكرنا سابقاً - إنَّ كلاً من الجمع و الجنس يحل محل الآخر، تقول: هكذا قال المفسرون، و تريد أن هذا الجنس قالوا كذلك، و لا تريد الجمع، بل الكلام صادق و إن كان واحد منهم تكلم بذلك الكلام، فإنه في قبال قال النحويون، و قال المتكلمون، لا في قبال قال مفسر واحد.

[١٦٢] إِذْ قَالَ لَهُمْ أَيُّ كَانَ التَّكْذِيبِ فِي زَمَانٍ قَالَ لِلْقَوْمِ أَخُوهُمْ فِي النَّسَبِ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ بِاجْتِنَابِ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ.

[١٦٣] إِنِّي لَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمِ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَمِينٌ عَلَى آدَاءِ الرِّسَالَةِ لَا أَزِيدُ فِيهَا وَ لَا أَنْقُصُ.

[١٦٤] فَاتَّقُوا اللَّهَ بِاجْتِنَابِ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي وَ أَطِيعُوا أَوْامِرِي، أو أطيعوا أوامر الله، فالمراد بالتقوى عدم الإتيان بالمنكرات و بالإطاعة الإتيان بالواجبات.

[١٦٥] وَ مَا أَسْتَلْكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمِ عَلَيْهِ أَيُّ عَلَى الْإِرْشَادِ وَ الْبَلَاغِ مِنْ أَجْرٍ وَ جِزَاءٍ، فلا تخافون إن آمنتكم بي أن أرهقكم بالضرائب و الجزاء، إِنْ أَجْرِيَ أَيُّ مَا أَجْرِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٢

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٥ إلى ١٦٧]

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَهُوَ يَعْطِينِي الْجِزَاءَ.

[١٦٦] ثم بين المعصية الظاهرة فيهم، ناهيا لهم عنها فقال أ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي أَيُّ كَيْفِ تَصْيِوَنِ الذُّكْرَ، باللواط معهم مِنَ الْعَالَمِينَ أَيُّ مِنْ جَمَلَةِ خَلَائِقِ الْعَالَمِ، و لعلَّ هذا التعبير لأنهم كانوا يفعلون الفاحشة بكل من وجدوه من أهل المدينة أو المسافرين.

[١٦٧] وَ تَذَرُونَ أَيُّ تَتْرَكُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ لِأَجْلِ قِضَاءِ الْوَطْرِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ نِسَائِكُمْ، فقد عطلوا إتيان الأزواج، و تعاطوا إتيان الذكور، حتى اضطرت النساء إلى المساحقة لقضاء وطرن، فإذا فليس ذلك لأجل أنكم تريدون قضاء الشهوة بلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ظالمون تتعدون الحلال إلى الحرام، و إلا فلو كنتم تريدون قضاء الوطر كانت أزواجكم حاضرة، و الإنسان المعتدى يكون هكذا، يضرب عن الحق الذي يكفيه إلى الباطل، تجاوزا و اعتداء.

[١٦٨] قَالُوا أَيُّ قَالَ الْقَوْمُ فِي جَوَابِ لُوطِ عَلَيْهِ السَّلامِ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ وَ ذَلِكَ بَأَنَّ لَا تَسْتَمِرُّ فِي تَبْلِيغِكَ وَ نَصْحِكَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ أَيُّ نَخْرَجُكَ مِنْ بِلَادِنَا، كما في آية أخرى (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَظِرُونَ) «١».

(١) الأعراف: ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٣

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٨ إلى ١٧٣]

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجِّنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ (١٧٢)

وَ أَطْرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)

[١٦٩] قَالَ لَهُمْ لَوْطُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ هَذَا، وَالْمُرَادُ بِهِ اللَّوَاطُ مِنَ الْقَالِيْنَ يُقَالُ «قَلِيَ» أَي كَرِهَ وَ أَبْغَضَ، أَي فإني أعلمكم أنني أكره و أبغض عملكم، فإن إظهار التنفر من الحرام، مرتبة من مراتب النهي عن المنكر.

[١٧٠] و لما استيأس منهم دعا الله سبحانه فقال، يَا رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي أَي وَ نَجِّ أَهْلِي، وَ الْمُرَادُ بَنَاتِهِ مِمَّا يَعْمَلُونَ أَي مِنْ عَاقِبَةِ عَمَلِهِمْ، أَي الْعَذَابُ الَّذِي يَحِلُّ بِهِمْ، أَو الْمُرَادُ أَنْ يَبْعِدَهُ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَرَى عَمَلَهُمْ، فَوْضِعَ «مِمَّا يَعْمَلُونَ» مَكَانَ «مِنْهُمْ» لِإِفَادَةِ الْعَلَّةِ فِي الدَّعَاءِ.

[١٧١] فَنجَّيْنَاهُ أَي نَجَّيْنَا لَوْطًا وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ بِأَجْمَعِهِمْ بِحِثِّ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

[١٧٢] إِلَّا عَجُوزًا هِيَ زَوْجَتُهُ السَّيِّئَةُ فِي الْغَابِرِينَ كَانَتْ مَعَ الْبَاقِينَ فِي الْمَدِينَةِ لِأَخْذِهَا الْعَذَابَ مَعَهُمْ، فَقَدْ أَمَرَ لَوْطُ أَنْ يَسْرِيَ فِي الْمَدِينَةِ بِأَهْلِهِ لَيْلًا، حَتَّى لَا يَشْمَلَهُ الْعَذَابُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْقَوْمِ.

[١٧٣] ثُمَّ مِنْ بَعْدِ خُرُوجِ لَوْطٍ وَ آلِهِ عَنِ الْقَرْيَةِ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْخَسْفِ وَ تَقْلِيْبِ الْأَرْضِ، بِأَنْ رَفَعَ أَرْضَهُمْ جِبْرَائِيلُ ثُمَّ قَلْبَهَا.

[١٧٤] وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا مِنَ الْحِجَارَةِ، وَ لَعَلَّهُ كَانَ قَبْلَ تَقْلِيْبِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٤

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٤ إلى ١٧٨]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨)

فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ أَي بَسَّسَ مَطَرَ الْحِجَارَةِ الَّذِي أَمْطَرَ عَلَى الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا فَلَمْ يَقْبَلُوا.

[١٧٥] إِنَّ فِي ذَلِكَ الْبَلَاغَ لَهُمْ لآيَةً دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ لَوْطٍ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ بِلَوْطٍ وَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَو الْمُرَادُ أَنْ فِي ذَلِكَ التَّعْذِيبِ لَهُمْ لِدَلَالَةٍ عَلَى مَصِيرِ الْكُفَّارِ، وَ لَكِنْ أَكْثَرَ كُفَّارِ مَكَّةَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ لَا يَنْفَعُ فِيهِمُ النَّذْرُ.

[١٧٦] وَ إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِلْكَفَّارِ الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ.

[١٧٧] كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ هِيَ الْغَيْظَةُ، مَجْتَمَعُ الشَّجَرِ فِي مَفِيزِ مَاءِ الْمُرْسَلِينَ وَ الْمُرَادُ بِهِ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى قَبِيلَةِ «مَدِينٍ» وَ لَعَلَّ أَنَّ هُنَاكَ بِالْقَرْبِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ كَانَتْ أَيْكَةٌ ذَاتُ أَشْجَارٍ فَكَانُوا يَعْرِفُونَ بِهَا، أَوْ كَمَا وَرَدَ أَنَّ شُعَيْبًا أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، وَ إِلَى مَدِينٍ.

[١٧٨] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: لَمْ يَقُلْ «أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ» كَالسِّيَاقِ السَّابِقِ، لِأَنَّ شُعَيْبًا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ، وَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبِيلَةِ مَدِينٍ أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ بِإِطَاعَةِ أَوْامِرِهِ وَ اجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؟

[١٧٩] إِنِّي لَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ أَمِينٌ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٥

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٩ إلى ١٨٣]

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَ زِنُوا بِالْقَيْسِطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)

أداء الرسالة.

[١٨٠] فَاتَّقُوا اللَّهَ أَي خَافُوا عِقَابَهُ فِي مَخَالَفَتِهِ وَ أَطِيعُوا أَي:

أَطِيعُونِي فِيمَا أْبَلِغُكُمْ.

[١٨١] وَ مَا أَسْأَلُكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ عَلَيْهِ أَي عَلَى الْبَلَاغِ وَ الْإِرْشَادِ مَتَى أَجْرٍ أَطْلَبُهُ مِنْكُمْ إِنْ أَجْرِيَ أَي مَا أَجْرِي وَ جَزَائِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَإِنَّهُ يَفْضَلُ عَلَيَّ بِالْجَزَاءِ عَلَى تَحْمِلِ الْمَشَاقِقِ، فِي سَبِيلِ التَّبْلِيغِ وَ الْإِرْشَادِ.

[١٨٢] ثُمَّ أَخَذَ يَنْبَهَهُمْ عَلَى الْعَصِيَانِ الشَّائِعِ بَيْنَهُمْ، فَقَدْ كَانَ مِنْ دَابِّ الْأَنْبِيَاءِ - كَمَا مَرَّ بِنَا جَمْلَهُ مِنْ ذَلِكَ - أَنْ يَرْكُزُوا أَهْتِمَامَهُمْ عَلَى

نقطة الضعف في المجتمع أوفوا الكيل أي أعطوا الكيل - في المعاملات - وافيًا غير ناقص ولا تكونوا من المخيرين أي ممن ينقص الكيل، و يدخل في الكيل جميع ما يحسب كالوزن والعدد والزرع.

[١٨٣] وَزِنُوا أَمْرٌ مِنْ «وزن» حذف واوه بالإعلال، فالأمر منه «زن» والواو عاطفة بالقسطة أي الميزان المستقيم العدل الذي لا حيف فيه، لا بالميزان الناقص.

[١٨٤] وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ الْبَخْسُ هُوَ النِّقْصُ فِيمَا يَجِبُ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٦

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٨٤ إلى ١٨٧]

وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبَلَةَ الْأُولِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسِيخِينَ (١٨٥) وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاشْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)

الإنسان إعطائه، والمراد لا تعطوا للناس ناقصا، وإنما قال «أشياءهم» لأن المقدار المسروق لدى الكيل والوزن، للغير وهو المشتري - مثلا - وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ أَي لَا تَسْعُوا فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، فَإِنَّ الْعَثَى أَشَدُّ الْفَسَادِ، وَ الْإِتْيَانُ بِالْمُفْسِدِينَ إِمَّا لِلتَّكْيِيدِ، وَ إِمَّا بِمَعْنَى عَازِمِينَ الْفَسَادَ قَاصِدِينَ لَهُ.

[١٨٥] وَ اتَّقُوا أَي خَافُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ خَلَقَ الْجِبَلَةَ أَي الْخَلِيقَةَ الْأُولِينَ فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ، وَ لَا تَأْتُوا بِنَوَاهِيهِ.

[١٨٦] قَالُوا فِي جَوَابِ شَعِيبٍ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسِيخِينَ فَقَدْ سَحَرُوكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُكَ، فَمَا دَعَوَاكَ النَّبُوَّةَ إِلَّا مِنْ جَرَاءِ ذَهَابِ عَقْلِكَ وَ نِقْصِ إِدْرَاكَكَ.

[١٨٧] وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فِي جَمِيعِ الْمَزَايَا فَكَيْفَ تَدَّعَى النَّبُوَّةَ؟

وَ إِنْ مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَي أَنَا نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَتَكْذِبُ فِي دَعْوَاكَ النَّبُوَّةَ، وَ الْمَعْنَى أَنَا نَظُنُّكَ كَاذِبًا، فِي جَمَلَةٍ مِنْ يَكْذِبُ، وَ الْإِتْيَانُ بِالظَّنِّ، لَعَلَّهُ لِأَنَّ الْقَوْمَ أَرَادُوا أَنْ يَظْهَرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَظْهَرِ الْمَنْصِفِ الْبَرِيِّ عَنِ الْكُذْبِ، حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ «نَتَّقِنُ» بَلِ «نَظُنُّ».

[١٨٨] فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ فَاشْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَي قِطْعًا، جَمْعُ كَسْفَةٍ بِمَعْنَى الْقِطْعَةِ مِنَ السَّمَاءِ فَإِنَّ النَّبِيَّ بِيَدِهِ أَزْمَةُ الْكُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٧

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٨٨ إلى ١٩٠]

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)

إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي ادْعَائِكَ.

[١٨٩] قَالَ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَقَدْ كَانَ عَلَيَّ الْبَلَاغُ، فَعَمَلْتُ بِمَا هُوَ تَكْلِيفِي، أَمَا أَنْتُمْ - بَعْدَ ذَلِكَ - فَحَسَابِكُمْ عَلَيَّ مِنْ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ، وَ فِي هَذَا الْقَوْلِ تَهْدِيدٌ لَهُمْ، وَ تَخْوِيفٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

[١٩٠] فَكَذَّبُوهُ أُخِيرًا، وَ لَمْ يَنْجَحْ فِيهِمُ الْإِرْشَادُ وَ النَّصْحُ فَأَخَذَهُمْ جَزَاءُ لَتَكْذِيبِهِمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ جَلَّتْهُمْ سَحَابُهُ، وَ أَظْلَمَتْهُمْ، وَ فِي الْمَجْمَعِ: أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَ حَبَسَ عَنْهُمْ الرِّيحَ ثُمَّ غَشِيَتْهُمْ سَحَابُهُ فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَيْهَا طَلَبُوا لِلبَرْدِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ الَّذِي أَصَابَهُمْ، أَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا فَأَحْرَقَتْهُمْ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَيَّامِ فِي الدُّنْيَا عَذَابًا «١»، ذَلِكَ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وَصَفَ لِلْعَذَابِ، أَوْ لِلْيَوْمِ بِاعْتِبَارِ عِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ.

[١٩١] إِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ لَآيَةً لِكِفَارِ مَكَّةَ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ إِذْ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ، أَوْ أَنْ فِي بَلَاغِ شَعِيبِ كَانَ آيَةً وَ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ قَوْمِهِ مُؤْمِنِينَ بِهِ.

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص ٣٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٨

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٩١ الى ١٩٦]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ

(١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)

[١٩٢] وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ الْقَاهِرُ الْمُنْتَقِمُ مِنَ الْأَعْدَاءِ الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ.

[١٩٣] وَإِنَّهُ أَى أَنْ هَذَا الْقُرْآنَ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ.

[١٩٤] نَزَلَ بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ الرُّوحُ أَى جِبْرَائِيلُ، وَ لَعَلَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ رُوحًا، لِعَدَمِ وَجُودِ آثَارِ الْجِسْمِ فِيهِ الْأَمِينُ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالرُّوحِ.

[١٩٥] عَلَى قَلْبِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا جِيءَ بِهَذَا اللَّفْظِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ يَدْخُلُ الْقَلْبَ عَنْ طَرِيقِ الْحَوَاسِ لِتَكُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ جَمَلَةِ

الأنبياء المُنذِرِينَ للكفار والعصاة المنحرفين الذين لهم بأس الله وعذابه.

[١٩٦] وَقَدْ نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ أَى بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ هِيَ لُغَةُ الْجَزِيرَةِ مُبِينٍ أَى مُوَضَّحٍ لِلنَّاسِ الْمَعَارِفِ، أَوْ ظَاهِرٍ وَاضِحٍ، لَيْسَ فِيهِ عِجْمَةٌ وَغَلْطٌ.

[١٩٧] وَإِنَّهُ أَى ذَكَرَ الْقُرْآنَ النَّازِلَ عَلَيْكَ لَفِي زُبُرٍ جَمَعَ زُبُورًا، وَ هُوَ الْكِتَابُ، مِنْ «زُبُرٍ» بِمَعْنَى كِتَابِ الْأَوَّلِينَ أَى أَنَّ الْبَشَارَةَ بِالْقُرْآنِ

مذكورة في كتب الأنبياء السابقين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٧٩

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٧ الى ٢٠٠]

أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠)

[١٩٨] أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَى لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارِ آيَةٌ وَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ، مُتَّصِفَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ أَى يَعْلَمُ الْقُرْآنَ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ

أليس التبشير بالقرآن موجودا في كتب بنى إسرائيل حتى يعلموه و يصدقوا به؟ و في هذا تعريض بهم، أنهم كيف أنكروا و الحال أن

الأدلة موجودة في كتبهم، و هى تدل على صدق القرآن.

[١٩٩] ثُمَّ سَلَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ لَا يَعْتَمِدَ لِإِعْرَاضِ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ مَعَانِدُونَ حَتَّى لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ لَمْ

يُؤْمِنُوا، لَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْكِبَرِ وَالْعِنَادِ وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ أَى الْقُرْآنَ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ جَمَعَ أَعْجَمًا، وَ الْمُرَادُ بِهِ إِمَّا الْبَهِيمَةَ، لِأَنَّهَا تُسَمَّى

بالأعجم، و إما الرجل الأعجمي الذي لا يعرف التكلم بالعربية إطلاقًا.

[٢٠٠] فَقَرَأَهُ أَى قَرَأَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ مَعَ مَا فِي قِرَاءَةِ الْبَهِيمَةِ أَوْ الْأَعْجَمِيٍّ مِنْ دَلَالَةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى

أنه خارق، إن أناسا مثل هؤلاء معاندون، فلا يحزن الإنسان إذا رأى إعراضهم عن الحق.

[٢٠١] كَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ سَلَكْنَاهُ وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ الْعَاصِينَ حَتَّى تَمَّ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَ

لكنهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٠

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٠١ الى ٢٠٦]

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَلَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ

(٢٠٤) أَلَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥)

ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)

[٢٠٢] لا يُؤْمِنُونَ ولا يصدقون به بالقرآن حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الْمُؤَلَّمِ الموجه، بالموت، أو المراد عذاب الآخرة.
 [٢٠٣] فَيَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً فَجَاءَ فَلَاجِلٍ لَهُمْ لِلإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ لَا يَدْرِكُونَ وَقْتَ نَزُولِ الْعَذَابِ.
 [٢٠٤] فَيَقُولُوا حِينَئِذٍ فِي طَلَبِ وَاسْتِعْطَافِ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أَى مُؤَخَّرُونَ لِنُؤْمِنَ وَنَعْمَلِ صَالِحًا، لكنهم يجابون (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) «١».

[٢٠٥] وَ قَدْ كَانَ الْكُفَّارَ يَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ بِالْعَذَابِ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَيَأْتِيهِمُ الْاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِي بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَى كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ هَؤُلَاءِ عَذَابُنَا؟ أَمْ فَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعَذَابَ أَلِيمٌ شَدِيدٌ؟
 [٢٠٦] أَفَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا سِنِينَ أَى سِنِينَ مُتَعَدَّةً طَوِيلَةً.
 [٢٠٧] ثُمَّ جَاءَهُمْ لَدَى انْقِضَاءِ مَدَّتِهِمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مِنَ الْعَذَابِ.

(١) المؤمنون: ١٠١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨١

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٠٧ إلى ٢١١]

مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا نَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)

[٢٠٨] مَا أَغْنَى عَنْهُمْ أَى مَا أَفَادَهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ أَى مَدَّةَ مَتْعَتِهِمْ وَبَقَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وَفِي هَذَا تَنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ وَإِنْ أَخَّرَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ لَكِنْ إِذَا أَتَاهُمْ، لَمْ يَكُونُوا يَأْبَهُونَ بِمَا مَتَعُوا بِهِ فِي الْحَيَاةِ، فَإِنَّ النِّعَمَ إِذَا زَالَ، كَانَ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ، وَ لَمْ تَنْفَعِ تِلْكَ الْمَدَّةَ الطَّوِيلَةَ مِنَ التَّنْعَمِ فِي التَّخْفِيفِ مِنَ الْعَذَابِ.

[٢٠٩] وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ «مَنْ» لَزِيَادَةِ التَّعْمِيمِ إِلَّا وَ لَهَا مُنْذِرُونَ فَلِيُخَفَّ هَؤُلَاءِ أَنْ يَهْلِكَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، إِذْ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمُ النَّذْرُ فَلَمْ يُؤْمِنُوا.

[٢١٠] فَقَدْ أَرْسَلْنَا الْمُنْذِرِينَ ذِكْرِي أَى لِأَجْلِ تَذَكُّرِهِمْ بِفَسَادِ عَقِيدَتِهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ فَلَمَّا أَبَوْا الْإِطَاعَةَ أَهْلَكْنَاهُمْ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ لَهُمْ فِي عِقَابِهِمْ، بَلْ لَقُوا جَزَاءَ كُفْرِهِمْ وَظَلَمِهِمْ.

[٢١١] وَ قَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْعَلُونَ الْقُرْآنَ مِنْ قِسْمِ الْكُهَانَةِ الَّتِي تَنْزِلُ بِهَا الشَّيَاطِينُ، فَجَاءَتْ آيَةُ فِي مَقَامِ رَدِّهِمْ، إِذْ لَوْ كَانَتْ كِهَانَةً لَقَدَّرَ عَلَى مِثْلِهَا سَائِرُ الْكُهَانِ وَمَا نَنْزَلَتْ بِهِ أَى بِالْقُرْآنِ الشَّيَاطِينُ يُقَالُ تَنْزَلَ بِهِ إِذَا نَزَلَ مَعَهُ.

[٢١٢] وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَى إِنْزَالُ الْقُرْآنِ، إِذْ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُ بِالْفَسَادِ وَالْكَفْرِ وَالْمُنْكَرِ، فَلَا- يَلَائِمُهُ الْإِصْلَاحُ وَالْإِيمَانُ وَالْمَعْرُوفُ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ لِأَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَةِ الْمَخْلُوقِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَحْرُسُ الْإِعْجَازَ عَنْ قُدْرَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٢

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢١٢ إلى ٢١٤]

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُوْلُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)

غيره تعالى، نعم يتمكن الشيطان أن يأتي بالخارقة المفصوحة كونها ليست آية، كما تفل مسيلمه في بئر- لينبع الماء- فجفف.

[٢١٣] إِنَّهُمْ إِنْ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمْعِ أَى اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَ تَلْقِيهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَمَعْرُوْلُونَ فَلَا يَتِمَكَّنُونَ أَنْ يَتَلَقَوْهُ مِنَ اللَّهِ لِأَتَوْا بِهِ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَلِ الَّذِي يَسْمَعُهُ هُوَ جِبْرَائِيلُ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَسْمَعُ لَهُ بِاسْتِمَاعِ مَا فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، إِذْ يَرُودُ هُنَاكَ بِالشَّهْبِ، فَكَيْفَ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ تَلْقَى الْقُرْآنَ وَالْإِتْيَانَ بِهِ.

[٢١٤] وَ إِذْ قَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْحَقُّ فَلَا تَدْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ لَا بَدْعُ فِي تَوْجِهِ هَذَا الْكَلَامَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فَإِنَّ جَمِيعَ

الأوامر والنواهي متوجهة إليه بلا- إشكال و في جملتها هذا النهي مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ كما يفعله المشركون فَتَكُونَ مِنَ الْمَعِدِّينَ أى تعذب بهذا العمل، و تكون في جملة من عذبوا.

[٢١٥] وَأَنْذِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ إِلَيْكَ، و إنما خصوا بالذكر، لأجل لزوم الاهتمام بالعشيرة أكثر من سائر الناس، فإنهم إن آمنوا كانوا عوناً و مساعدين، و إن لم يؤمنوا كانوا أقوى الأعداء، و أشد الألداء،

و قد ورد أن هذه الآية نزلت بمكة فجمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بنى هاشم و هم أربعون رجلاً كل واحد منهم يأكل كثيراً و يشرب القربة فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدننى القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا باسم الله، فشربوا حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال هذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٣

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢١٥ الى ٢١٨]

وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّى بَرىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)

ما سحركم به الرجل فسكت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يومئذ و لم يتكلم ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك الطعام و الشراب، ثم أنذرهم رسول الله فقال: يا بنى عبد المطلب إنى نذير إليكم من الله عز و جل و البشير فأسلموا و أطيعونى تهتدوا، ثم قال: من يؤازرنى و يكون وصيى بعدى و خليفتى فى أهلى و يقضى دينى؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثاً؟ كل ذلك يسكت القوم، و يقول على عليه السلام أنا، فقال فى المرة الثالثة: أنت، فقام القوم و هم يقولون لأبى طالب أطع ابنك، فقد أمر عليك.

[٢١٦] وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ أَصْلَ خَفَضَ الْجَنَاحَ، أن يسفل الطائر جناحه أمام والديه تواضعا و استعظافاً. ثم استعمل بمعنى التواضع و اللين و حسن الخلق لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فتواضع لهم، و ألن جانبك نحوهم.

[٢١٧] فَإِنْ عَصَوْكَ أى خالفوك أقاربك و لم يؤمنوا فَقُلْ إِنَّى بَرىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ من عبادة الأصنام و إتيانكم لسائر المعاصى و الآثام.

[٢١٨] وَ تَوَكَّلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أى فوض أمرك عَلَى الْعَزِيزِ الْغَالِبِ بعزته على الكفار الرَّحِيمِ بالمؤمنين، فلا يهونك إعراض قومك و عشيرتك عن الإيمان.

[٢١٩] الَّذى يَرَاكَ أى يحيط علمه بك، أو ينظر إليك حِينَ تَقُومُ

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٣٨ ص ٢٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٤

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢١٩ الى ٢٢٢]

وَ تَقَلُّبِكَ فِى السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُبْتُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) بالدعوة و تصدع بالبلاغ، فإنك على عينه، و من رعته عين الله سبحانه لا بد و أن ينجح فى مرامه.

[٢٢٠] وَ يَرى تَقَلُّبِكَ فِى السَّاجِدِينَ أى تصرفك بالذهاب و المجيء، و التنظيم و التحريض و التعليم فى جماعة المؤمنين الذين يسجدون لله، و أتى بالسجود لأنه غاية الخضوع، و هو من سمات المؤمنين، و

قد روى فى تفسير هذه الآية عن الباقر عليه السلام

الذى يراك حتى تقوم بالنبوة و تقلبك فى الساجدين أى فى أصلاب النبيين

و

روى عن الباقر و الصادق عليهما السلام قالاً: فى أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام
«٢».

[٢٢١] إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكَ الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكَ فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ يَكْفِيكَ كُلَّ مَهْمَةٍ.

[٢٢٢] و حيث نفى سبحانه أن ينزل على الرسول الشيطان، أراد إثبات ذلك بالنسبة إلى الكفار المفترين عليه هَيْلٌ أُبْتِكُمْ أَى هَلْ أَخْبِرَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ لِلْوَسْوَسَةِ و إلقاء الباطل.

[٢٢٣] تَنْزَلُ أَصْلُهُ «تَنْزَلُ» حذفت إحدى تاءيه للقاعدة فى باب المضارع إذا اجتمع عليه تاءان على كُلِّ أَفَّاكٍ مَبَالِغَةٌ مِنَ الْإِفْكِ، و هو

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٢٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٩ ص ٢٠٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٥

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٢٣ الى ٢٢٥]

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَاكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَ الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)

الكذب، أى كل إنسان يكذب كثيراً أثم آثم بالمعصية.

[٢٢٤] يُلْقُونَ السَّمْعَ أى أن الشياطين يلقون ما يسمعون من هنا و هناك إلى الكهنة و الأفاكين و أَكْثَرُهُمْ أى أكثر الشياطين كاذبُونَ لأنهم يكذبون عمداً، بالإضافة إلى أنهم يتلقون كلما وصل إليهم من صدق الأخبار و كذبها، فمثلاً يسمع الشيطان من قصاص فى الروم قصة حول خلقه آدم، فيلقها على الكاهن، و هكذا.

[٢٢٥] و قد كان بعض الكفار يرمون الرسول بأنه شاعر، و لما أبطل السياق كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كاهناً- كما كان يقول بعض- جاء لإبطال كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ شاعراً و الرسول ليس بشاعر إذ الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ من غوى بمعنى ضل، أى أن المنحرفين هم الذين يتبعون الشعراء، و لا يتبع الرسول إلا كل مؤمن مهتدى، فكيف يمكن أن يقال عنه: إنه شاعر؟

و هذا أبلغ من أن يقال: إن الشعراء أهل الغواية و الفساد و الهوى، إذ تبعه الغاوى لأحد، يدل على شدة الغواية فى المتبوع.

[٢٢٦] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ كُلِّ مَنْ يَتَأْتَى مِنْهُ الرُّؤْيَا أَنَّهُمْ أَى الشُّعْرَاءُ فِي كُلِّ وَادٍ أَى فِي كُلِّ طَرِيقٍ مِنَ الضَّلَالِ وَ الْهَوَى وَ الْفَسْقِ وَ الْفَحْشِ يَهِيمُونَ أى يذهبون هائمين، كالهائم الحيران فى الصحراء الذى لا يعلم أين يذهب و ماذا يريد؟ و هكذا الشعراء، فمرة يمدحون، و مرة يذمون، و مرة يشبون، و مرة يكذبون فى بطولاتهم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٦

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ٢٢٦ الى ٢٢٧]

وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَ اتَّقَوْا مِنَ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

و فسقهم و مجونهم و هكذا.

[٢٢٧] وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ حَوْلَ بَطُولَاتٍ وَ فَسُوقٍ وَ تَرْغِيبٍ وَ تَحْرِيزٍ وَ تَنْقِيرٍ وَ إِذْذَارٍ مَا لَا يَفْعَلُونَ من تلك الأمور التى ينسبونها إلى أنفسهم، و الرسول بالعكس من ذلك كله فهو يمشى وفق منهج مستقيم ذى فضيلة و عدل و إحسان، و إنه لا يكذب و إنما يفعل ما يؤمر به، و ينتهى عما يجر عنه.

[٢٢٨] ثم استثنى سبحانه عن هذا العموم الشاعر الذي ليس كذلك، فإن الشعر ليس مذموما لذاته، وإنما هو مذموم لهذه الاعتبارات المذكورة في الآية السابقة، ولذا قال سبحانه **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا** حتى لم يشغلهم الشعر إلى نسيان الله سبحانه، حتى يكذبوا ويفعلوا ما لا يليق بالمؤمنين و**انْتَصَرُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**، للرسول والمؤمنين من بعد ما ظلموا أى ظلمهم الكفار بسبهم وهجائهم فى الشعر ونحوه و**سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا** عند الموت، أو فى القيامة أى مُنْقَلَبِ أى مرجع و يسمى المرجع والمصير المنقلب، لانقلاب الإنسان من حاله إلى ذلك المحل **يَنْقَلِبُونَ** و يصيرون إليه، وهذا تهديد لهم، ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام وكثير من أولاد المعصومين عليهم السلام يقولون الشعر، كما وردت بذلك متواتر الروايات.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٧

٢٧ سورة النمل مكية / آياتها (٩٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «النمل» وقصة منهم، وهى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و إذ كان موضوع القرآن، من أخريات مواضع سورة الشعراء، افتتحت هذه السورة بذكر القرآن.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أستعين، أو نستعين باسم الإله، و تخصيص «الله» بالذكر، بأنه علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، و ما أجدر أن يجعله الإنسان أول عمله، و أن يستعين به فى أموره، فإنه هو الرحمن الرحيم، المتفضل بالرحم، و قد ذكر أهل المعنى أن التكرار فى ذكر اسم من أسماء الله سبحانه، ليستعطف فضله فى توصفه الإنسان بذلك القبيل من الوصف، فالمكرر لاسم «الغنى» يثرى، و لاسم العطوف يعطف، و هكذا، و هذا صحيح فإن علم النفس يقر إن للتكرار إحياء على النفس.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٨

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)

[٢] طس «طاء» و «سين» و هما نموذج من حروف الهجاء تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ ف «طس» مبتدأ، و «تلك» خبره، و هذا أحد الأقوال فى المسألة، أو هى رموز بين الله و بين خاتم الأنبياء، كما ورد على قول آخر، أو غير ذلك مما تقدمت الإشارة إلى بعضها و كتاب مُبِينٍ أى واضح ظاهر لا غموض فيه و لا التواء، و إنما أتى بوصفين للدلالة على أنه يقرأ و يكتب، و لعلّه إشارة إلى لزوم الاحتفاء بالقرآن من جميع النواحي، فإنه للكتابة و القراءة.

[٣] هُدًى أى فى حال كونه هداية إلى طريق الحق و بُشْرَى أى بشارة بالثواب و السعادة لِلْمُؤْمِنِينَ به فإنهم هم الهادون المبشرون أما غيرهم فإنهم ضالون منذرون.

[٤] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بإتيانها فى أوقاتها مع شرائطها و آدابها و يداومون عليها و يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ يعطونها، و المراد الزكاة المستحبة أى الصلاة و الصدقات، لأن السورة مكية و لم تفرض هناك الزكاة، أو المراد الأعم باعتبار التشريع مستقبلا و هم بِالْآخِرَةِ أى بالنشأة الآخرة من سؤال القبر و البعث و الجزاء و غيرها هم يُوقِنُونَ أى لا يشكون، فهم معترفون بالمعاد، و تكرر «هم» لعلّه لإفادة أن غير مقيم الصلاة و مؤتى الزكاة لا يوقن بالآخرة، و إن اعترف لسانا بها.

[٥] إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ و أعرضوا عن قبول الإيمان، فإن الإيمان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٨٩

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥ الى ٦]

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

بالآخرة يلازم الإيمان بسائر أصول الاعتقاد زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ بأن جعلنا الإنسان بحيث إذا تكرر منه شيء زَيْن في نظره للملكة الحاصلة له من التكرار، فإنهم لما وقفوا في الصف المقابل للمؤمنين و عملوا بالكفر والمعاصي و تبادوا فيها، حصلت لهم ملكة حسب أعمالهم تدريجيا، حتى ترسخت الرغبة قلوبهم، و من المعلوم أن الله خلق البشر هكذا، فيصبح نسبة التزين إليه تعالى، باعتبار أنه الخالق و السبب الأول، أو باعتبار عدم الضرب على أيديهم، كما يقال أفسد الملك اللص الفلاني، بمعنى أنه لم يضرب على يده و لم ينتقم منه، و من المعلوم أن التزين لأعمالهم في نظرهم لا- ينافي أنهم يعلمون بطلان طريقتهم، كما نشاهد الفساق المنصفين يعترفون بأن أعمالهم باطلة، مع أن العمل مزين في نظرهم، حتى لا يتمكنون بسهولة من مفارقتها فهُمْ يَعْمَهُونَ العمه عمى القلب، أى يمشون في المعاصي، كما يمشى الإنسان الأعمى في الطريق، لا يهتدى سبيلا.

[٦] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآخِرَةِ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ أَى الْعَذَابِ السَّيِّئِ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ أَى فِي الدَّارِ الآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ إذ لم يربحوا شيئا و قد خسروا أنفسهم، حيث ألقوها في العذاب و النار الأبدية، و المراد بـ «الأخسر» إما التفضيل باعتبار أنهم أكثر خسارة من العصاة، و إما منسلخ عن معنى التفضيل في مقابل أهل الجنة، فالمعنى هم الخاسرون.

[٧] وَإِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لست كما يقولون إن قرآنك شعر أو كهانة، بل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٠

[سورة النمل (٢٧): آية ٧]

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧)

لَتَلْقَى الْقُرْآنَ أَى لتعطى القرآن، و التلقى الأخذ مِنْ لَدُنْ أَى من طرف إله حَكِيمٍ فى أمره يفعل الأشياء حسب المصالح و يضع الأمور فى مواضعها عَلِيمٍ عالم بالأشياء، و لا تلازم بين الوصفين خارجا، و لذا جىء بهما، إذ رب عالم لا حكمه له، أو رب حكيم لا علم له.

[٨] ثم يأتى السياق لينقل طرفا من قصة موسى عليه السَّلام تسلياً للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و تنبيها للكفار على عاقبة المجرمين، و قد تكررت هذه القصة فى القرآن الحكيم، لكن بمزايا و خصوصيات و ملامح مختلفة، فاذكر يا رسول الله إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ أَى زوجته بنت شعيب لما رجع من بلاده يقصد مصر، و قد كان وحيدا فى الصحراء فى ليلة مظلمة، و أخذ زوجته الطلق، و ضل الطريق إِنِّي آنستُ أَى أبصرت، ما يؤنس و يفرح فقد رأيت نارا فقد رأى من بعيد ما يشبه النار فى شجرة سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ فالزموا مكانكم، حتى أذهب و أجيء بخر النار هل يمكن الاستفادة منها أم لا؟ و إنها لمن؟ لعلنا نتمكن أن نذهب إلى أصحابها ليعاونونا فى مشكلتنا أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ أَى بشعلة منها، و الشهاب قطعة منها و قبس بمعنى الشيء الذى يؤخذ و يقبَس لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ و الاصطلاء الاستدفاء بالنار، من صَلَّى، و أصله «اصتلى» بالتاء، قلبت «طاء» على قاعدة باب التفعيل و إنما أتى بالضمائر جمعا، مع أن المراد زوجته فقط، إما تعظيما، أو لما سبق،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩١

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨ الى ٩]

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)

من أن كلا من الجمع و الجنس يقوم مقام الآخر، فيراد من الجمع الواحد فما فوق، و من الجنس، الجمع.

[٩] فَلَمَّا جَاءَهَا أَى جاء موسى عليه السَّلام نحو النار و وصل إليها نُودِيَ من قبل الله سبحانه، و المنادى إما هو الله سبحانه، بأن خلق صوتا سمعه موسى عليه السَّلام، أو بعض الملائكة بإذنه سبحانه أن بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا و لم يكن ما رآه موسى عليه السَّلام نارا، و إنما هو نور يتراءى كالنار، و الذين كانوا فيها هم الملائكة و الأرواح الطاهرة، و الذين كانوا حولها هم موسى و الملائكة الحافين بها و به عليه السَّلام، و المراد بالبركة هى الخير الكثير، و المعنى أن موسى و الملائكة أنعموا- بتفضيل الله لهم- و

منحوا الخير الكثير الدائم، و لعلّ ظهور النار لأجل الإشارة إلى الهداية، فكما يهدى الضياء الحائر إلى الطريق، كذلك تهدي الرسالة الناس إلى السعادة، و الظاهر أن قوله «أن بورك» دعاء بهذا اللفظ، و هو تبريك بالرسالة، كما يبارك الإنسان من يظفر بمنصب أو نعمة و سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سبحانه منصوب على تقدير فعل محذوف أى أسبح و أنزه الله تنزيها، و لعل الإتيان بهذه الجملة هنا، لإفادة أن أول الإيمان هو تنزيه الله من الشرك، أو لأجل دفع أن يتوهم أن الله جسم موجود فى تلك النار، و هو الذى يتكلم بفمه و لسانه.

[١٠] يا موسى إِنَّهُ أَى المتكلم أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فى سلطانه القاهر لأعدائه الْحَكِيمُ الذى يفعل كل شىء بالحكمة و الصلاح.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٢

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١٠ الى ١١]

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا و لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)

[١١] و ألقى أى اطرح من يدك عصاك فلقد كانت فى يده عليه السلام عصا، فألقاها فصارت حية فلما رآها موسى عليه السلام، و إتيان الضمير مؤنثا، لكون العصى مؤنث سماعى تهتز أى تتحرك بشدة، كأنها جان و هى الحية الصغيرة، و المراد أنها فى خفة حركتها- مع عظم جثتها- كالحية الصغيرة التى تتحرك بكل سرعة و خفة و لى موسى عليه السلام مُدْبِرًا فجعل يركض إلى الوراء خوفا منها و لَمْ يُعَقِّبْ أى لم يرجع و لم يلتفت، فكأن الرجوع و الملتفت يعقب الأمر السابق، بخلاف الماشى فى طريقه الذى لا يلتفت، و لعلّ إلقاء هذا الخوف فى قلب موسى عليه السلام كان لحكمة التدريب على تحمل المشاق فإن الإنسان ينضج بسبب المخاوف و الأتعاب، فيكون أصلح لإدارة دفة الحياة.

و هناك خوطب بقوله سبحانه يا موسى لَا تَخَفْ من هذه الحية إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ فإنهم بعين الله سبحانه، و معنى «لدى» لدى لطفى بهم و عنايتى لهم و هذا الكلام كان تمهيدا لتقوية قلب موسى حتى يلاقى المكذبين و المهتدين برباطة جأش و قلب قوى غير و جل.

[١٢] إِلَّا مَنْ ظَلَمَ استثناء منقطع، و قد ذكرنا أن مثل هذا الاستثناء إنما يؤتى به بملاحظة انسلاخ المستثنى منه عن القيد، فكأنه قال «إنى لا يخاف لدى أحد» «إلا من ظلم» «أما المرسلون فلا يخافون» ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ أى تاب- و هو حسن- بعد العصيان- و هو سوء-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٣

[سورة النمل (٢٧): آية ١٢]

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فى جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فى تَسْعِ آيَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فإنه يخاف أن لا يغفر ذنبه، و خصص الخوف بهؤلاء، لأن من لم يسهء، و من أساء و لم يتب، لا يخافان فإن الأول لا موجب لخوفه، و الثانى لا يعترف و إلا تاب، و غير المعترف لا يخاف، و فى الكلام انتقال من الخوف من الأسباب الخارجية- كالحية- إلى الخوف من عذاب الله و انتقامه و من تاب بعد العصيان فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ أغفر ذنبه، و أتفضل عليه و هو فوق الغفران، فإنك قد تغفر للمذنب ثم تعطيه فوق ذلك دينارا، و كان هذا الكلام «إلا من ظلم ... إلى آخره» تمهيد لحال الكفار و العصاة الذين يرسل إليهم موسى عليه السلام و تعليم لموسى بأن الله غفار لمن تاب.

[١٣] و أَدْخِلْ يا موسى يَدَكَ فى جَيْبِكَ و هو شق الثوب الأعلى طرف الحلق، فكان يدخل يده من الشق، و يجعلها تحت إبطه تَخْرُجُ اليد حين تخرجها بَيْضَاءَ مشرقة كالشمس مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أى من غير أن يكون البياض من أجل المرض و البرص، و هى آية أخرى زود بها موسى عليه السلام حجة على نبوته فى تَسْعِ آيَاتِ أى إنا أرسلناك فى تسع معجزات، و الإتيان ب «فى» لتشبيه الإنسان الحائر لها، بالذى فى وسط الشىء، لأنها تحيط بها و تحرسها و كأنها مشتملة عليه كما يقال جاء فلان فى جلاله إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ القبط

الكافرين بالله و باليوم الآخر إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ أى خارجين عن طاعة الله سبحانه، و أمره، من فسق بمعنى خرج.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٤

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١٣ الى ١٤]

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

[١٤] فذهب موسى إلى فرعون بتلك الآيات، و أظهرها له فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أى جاءت فرعون و قومه آياتنا معاجزنا التي زودنا بها موسى عليه السلام مُبْصِرَةً أى فى حال كون تلك الآيات تبصّر عن العمى، و تهدى السبيل قالوا هذا الذى جئت به يا موسى سِحْرٌ مُّبِينٌ واضح ظاهر، فليس ما جئت به إعجازا، و إنما هو سحر.

[١٥] وَ جَحَدُوا أى أنكر آل فرعون بها أى بالآيات و الباء فى «بها» من قبيل «الباء» فى (فَشَيْئُلٌ بِهِ خَبِيرًا) «١» كما تقدم فى تفسير الآية وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أى علموا أنها معاجز علم يقين أَنفُسِهِمْ فاعل استيقنتها أى تيقنت نفوسهم بالآيات، و إنما جىء بلفظ «أنفسهم» للدلالة على رسوخ اليقين و الاطمئنان فى النفوس، و إنما جحدوا بعد اليقين ظُلْمًا على أنفسهم بالكفر، و على بنى إسرائيل الذين اضطهدوهم وَ عُلوًّا أى طلبا للعلو و الرفع و تكبرا فَأَنْظُرْ يا رسول الله، أو كل من يتأتى منه الرؤية، و المراد رؤيته القلب كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ أى فرعون و قومه الذين أفسدوا بالكفر و العصيان فقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله سبحانه فى البحر، حتى لم تبق منهم باقية، و أورث أرض مصر بنى إسرائيل، و جعل كلمته هى العليا، و كلمه الذين كفروا السفلى.

(١) الفرقان: ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٥

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١٥ الى ١٦]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَ أَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

[١٦] ثم يأتى السياق لبيان قصة داود و سليمان و هما من أنبياء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام، و إذ شاهدنا بعض قصص موسى فلنشاهد بعض قصص هذين النبيين العظيمين، مع الارتباط لما ذكر هنا بموضوع العقيدة ارتباطا وثيقا وَ لَقَدْ آتَيْنَا أى أعطينا داودَ وَ سُلَيْمَانَ وَ هو ابن داود عليهما السلام عِلْمًا أى علما عظيما، و من جملة علومهم كان علم الحكومة و الفصل فى القضايا وَ قَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا بالرسالة و العلم و سائر الأمور عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ و إنما قالوا «على كثير» لأن جملة من عباد الله المؤمنين - هم جماعة من الأنبياء - مساوون لهما أو أفضل منهما.

[١٧] وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ فى الأمور المعنوية و المادية، و بهذه الآية استدلت الصديقة الطاهرة عليها السلام، على أن الأنبياء عليهم السلام يورثون فى مقابل

الحديث المختلف الذى نسبوه إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كذبا و زورا ب «إنا ٢ معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» وَ قَالَ سليمان عليه السلام على وجه الشكر و الاعلام يا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ أى نطقها، فإن الطيور تتكلم بعضها مع بعض، و قد منح الله سبحانه فهم نطقها لسليمان عليه السلام و المنطق مصدر ميمى بمعنى النطق وَ أَوْتَيْنَا أى أعطينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ما يحتاج إليه الأنبياء عليهم السلام و الملوك، من العلم و القدرة و المال و الجاه و غيرها إِنَّ هَذَا الَّذِي مَنْحَنَا اللهُ سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٦

[سورة النمل (٢٧): الآيات ١٧ الى ١٩]

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ الظاهر الذي تفضل علينا به.

[١٨] وَحُشِرَ أَي جُمِعَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي ذَاتِ يَوْمِ جُنُودُهُ فَقَدْ أَحْضَرَ الْجَمِيعَ بِخِدْمَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَقَدْ كَانَ الْجَمِيعَ مَسْخَرِينَ لَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَقُدْرَتِهِ فَهُمْ يُوزَعُونَ أَي يَمْنَعُونَ، وَيَجْبَسُ أَوْلَهُمْ عَنِ الْمَضَى لِيَلْحَقَهُ الْآخِرُ مِنَ الْجَيْشِ فَيَجْتَمِعُونَ، مِنْ وَزَعٍ بِمَعْنَى مَنَعَ، يُقَالُ لَيْسَ لِفُلَانٍ وَازِعٌ، أَي مَانِعٌ يَمْنَعُهُ عَنِ الْعَمَلِ الْفَاسِدِ.

[١٩] حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا سُلَيْمَانَ مَعَ الْجُنُودِ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ إِضَافَةٌ إِلَى النَّمْلِ لِكَثْرَتِهِ النَّمْلِ فِي ذَلِكَ الْوَادِي قَالَتْ نَمْلَةٌ وَالتَّاءُ لِلْوَحْدَةِ كَتَمْرَةٍ وَ تَمْرٍ، وَ شَجْرَةٍ وَ شَجَرٍ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ وَ جُحُورَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ التَّحْطِيمُ التَّكْسِيرُ وَ التَّهْشِيمُ أَي لَا يَكْسِرَنَّكُمْ وَ لَا يَدُوسُكُمْ بِالْأَقْدَامِ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى تَحْطِمِكُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبَالِي بِتَحْطِيمِ النَّمْلِ وَ صَغَارِ الْحَيَوَانَ، وَ يَظْهَرُ مِنْ هَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا رُكْبَانًا وَ مَشَاءً، لَا مَحْمُولِينَ عَلَى الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ.

[٢٠] وَ شَاءَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَسْمَعَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلَةِ فَتَبَسَّمَ سُلَيْمَانُ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا التَّبَسُّمُ هُوَ مَقْدَمَةُ الضَّحْكِ، فَإِنَّهُ ضَحَكَ خَفِيفًا، وَ الْإِتْيَانُ بِضَاحِكًا، لِإِفَادَةِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَحَكَ ضَحْكَ كَثِيرًا لَكِنَ عَلَى نَحْوِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٧

[سورة النمل (٢٧): آية ٢٠]

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)

التَّبَسُّمُ لَا عَلَى نَحْوِ الْقَهْقَهَةِ، وَ إِنَّمَا ضَحَكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَمِعَ أَوْ رَأَى مَا لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ أَخَذَهُ التَّعْجَبُ ثُمَّ الضَّحْكَ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ شَاكِرًا لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ بِتَعْرِيفِهِ مَنْطِقَ الْحَيَوَانَاتِ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَي أَلْهَمْنِي مِنْ وَزَعٍ بِمَعْنَى كَفَّ وَ الْمَعْنَى اجْعَلْنِي أَزْعَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ أَي أَكْفَهُ وَ أَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ عَنِّي فَلَا أَنْفَكَ عَنْهُ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ الْمُرَادُ بِالنِّعْمَةِ الْجِنْسُ فَإِنَّ سَمَاعَ كَلَامِ النَّمْلَةِ ذَكَرَهُ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَمَا إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى نِعْمَةً تَذَكَّرُ سَائِرَ النِّعَمِ وَ عَلَى وَالِإِتْدَى فَقَدْ أَكْرَمَتْ أَبِي بِالنَّبُوءَةِ وَ الْحِكْمَةِ وَ فَصَلَ الْخُطَابِ وَ أَنَّ الْحَدِيدَ كَانَ يَلَانُ فِي يَدِهِ وَ أَكْرَمَتْ أُمِّي بِأَنْ جَعَلْتَهَا زَوْجَةً نَبِيٍّ وَ الْوَالِدَةَ نَبِيٍّ بِمَا كَانَ لَهَا مِنَ الطَّهَارَةِ وَ النَّزَاهَةِ وَ الْهَمْنِي أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا أَي عَمَلًا صَالِحًا، وَ الْمُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ، نَحْوُ رَبَّنَا آتْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَ السَّرَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ الْمَفْرَدِ لَهُ جِهَتَانِ جِهَةُ الْمَادَّةِ وَ جِهَةُ الْأَفْرَادِ، فَقَدْ يَرَادُ الْأُولَى فَيَفِيدُ الْجِنْسَ، وَ قَدْ يَرَادُ الثَّانِيَةَ مَعَ الْأُولَى فَيَفِيدُ الْفَرْدَ تَرْضَاءً بِأَنْ يَكُونَ صَالِحًا مِنْ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي أَنْتَ تَرْضَاهُ، لَا صَالِحًا - بِنَظَرِ النَّاسِ - وَ لَكِنَّا لَا تَرْضَاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ يَا رَبِّ فِي عِبَادِكَ أَي فِي جَمَلَةِ الصَّالِحِينَ بِأَنْ أَكُونَ فِي جَمَلَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

[٢١] ثُمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ إِلَى قِصَّةٍ أُخْرَى مِنْ قِصَصِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فِي ذَاتِ يَوْمٍ تَفَقَّدَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الطَّيْرَ أَي تَعَرَّفَ عَلَى أَحْوَالِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٨

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢١ إلى ٢٢]

لَأَعْدَبْنَهُ عَدَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)

الطُّيُورُ لِيرَى أَيهَا حَاضِرٌ وَ أَيُّهَا مَفْقُودٌ، فَلَمْ يَجِدِ الْهُدْهَدَ مِنْ بَيْنِهَا فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَي مَا لِلْهُدْهَدِ لَا أَرَاهُ، وَ كَانَ هَذَا تَعْبِيرٌ مُؤَدَّبٌ، حَتَّى كَأَنَّ الْإِنْسَانَ أَصَابَهُ شَيْءٌ - كَغَفْلَةٍ أَوْ ذَهُولٍ أَوْ جَهْلِ - حَتَّى لَا يَرَى مَا يَطْلُبُهُ، وَ إِنْ كَانَ الْمَطْلُوبُ حَاضِرًا أَمْ كَانَ مِنْ

الغائبين فهو غائب حتى لم أراه، والمعنى أنى لا أراه مع حضوره، أم إنه غائب و لذا لا أراه؟

[٢٢] لَأَعِدُّنَّهُ أَيُّ أَعْدَبِنِ الْهَدَّهِدِ عَذَابًا شَدِيدًا كَتَفَ رِيشَهُ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ جِزَاءَ لَغِيْبَتِهِ بَدُونِ رِخْصَةٍ، فَيَعْتَبِرُ بِذَلِكَ أَبْنَاءَ جِنْسِهِ أَوْ لِيَأْتِيَنِي أَيُّ يَجِيءُ إِلَى بَشِيرِطَانٍ مُبِينٍ أَيُّ بِحِجَّةٍ وَاضِحَةٍ ظَاهِرَةٍ تَبَيَّنَ عِذْرُهُ فِي غِيْبَتِهِ بَدُونِ رِخْصَةٍ، وَ إِنَّمَا تَسْمَى الْحِجَّةُ، سُلْطَانًا، لِأَنَّهَا تَسِيْطِرُ عَلَى الْخِصْمِ فَلَا مَفْلِتَ لَهُ مِنْهَا.

[٢٣] فَمَكَثَ أَيُّ لَبَثَ سَلِيمَانَ مَكْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ فِي الْمَدَّةِ، أَيُّ انْتَظَرَ زَمَانًا يَسِيرًا قَلِيلًا، وَ قَدْ رَأَى الْهَدَّهِدَ رَاجِعًا، فَقَالَ لِسَلِيمَانَ أَحْطَتْ أَيُّ عَلِمْتُ، وَ يُقَالُ لِلْعَلْمِ إِحَاطَةٌ، لِأَنَّهُ يَحِيطُ بِالْمَعْلُومِ، وَ نِسْبَةُ الْإِحَاطَةِ إِلَى الشَّخْصِ مِنْ بَابِ عِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، إِذِ الْإِنْسَانُ وَعَاءُ الْعِلْمِ بِمَا لَمْ تَحِطْ بِهِ أَنْتَ يَا سَلِيمَانَ، وَ كَأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ يَبْدَى عِذْرُهُ فِي غِيْبَتِهِ وَ أَنَّهُ لَمْ يَشْتَغَلْ بِأَمْرِ نَفْسِهِ، وَ إِنَّمَا كَانَتْ غِيْبَتُهُ لِأَجْلِ الْفَحْصِ وَ الْبَحْثِ فِي أَطْرَافِ مَلِكِ سَلِيمَانَ، كَجَوْلَةِ اسْتِطْلَاعِيَةٍ يَرِيدُ بِهَا خَيْرَ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا خَيْرَ نَفْسِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٩٩

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)

وَ جِئْتِكَ مِنْ سَبَأٍ وَ هِيَ مَدِينَةٌ فِي الْيَمَنِ، سَمِيَتْ بِاسْمِ رَجُلٍ كَانَ يَسْمَى «سَبَأً» لِسُكُونِهِ أَوْلَادِهِ فِيهَا «بَنِيًا» أَيُّ بِخَيْرٍ- متعلق ب «جئتك» يَقِينٌ لَا كَذِبَ فِيهِ.

[٢٤] إِنِّي وَجَدْتُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ أَيُّ أَنَّهَا مَلِكَةٌ عَلَيْهِمْ، وَ مَرَادُهُ بِالْمَرْأَةِ «بَلْقِيسُ» وَ مَعْنَى تَمْلِكُهُمْ تَتَصَرَّفُ فِيهِمْ تَتَصَرَّفُ الْمَلَائِكَةُ فِي أَمْلَاقِهِمْ وَأُوتِيَتْ أَيُّ أُعْطِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَلُوكُ، مِنْ الْمَالِ وَ الْجَلَالِ وَ الْجَاهِ وَ نَفُوذِ الْكَلِمَةِ وَ مَا أَشْبَهَهَا وَ لَهَا عَرْشٌ أَيُّ كُرْسِيٌّ تَجْلِسُ عَلَيْهِ عَظِيمٌ وَ بَعْدَ مَا ذَكَرَ الْهَدَّهِدَ مَلِكَهَا بَيْنَ دِينِهَا.

[٢٥] قَالَ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا أَيُّ أَتْبَاعَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ إِنَّمَا سَجَدْتَهُمْ لِلشَّمْسِ وَ زَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ حَيْثُ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُوحِي وَ يُوسِسُ إِلَى الْكُفْرِ وَ الْعِصَاةِ بِكُفْرِهِمْ وَ عِصْيَانِهِمْ فَصَدَّدَهُمْ أَيُّ مَنَعَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ الْحَقِّ، وَ هُوَ سَبِيلُ الدِّينِ، وَ سَبِيلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى السَّبِيلِ حَيْثُ إِنَّ الشَّيْطَانَ مَنَعَهُمْ عَنْهُ.

[٢٦] فَقَدْ مَنَعَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ لَكِي أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ١٤٩

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظُرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)

أَيُّ الْمَخْفِي مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَإِنَّ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا مَخْفِيَةٌ فِي كِتْمِ الْعَدَمِ وَ إِنَّمَا يُخْرِجُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَى الْوُجُودِ، وَ لَعَلَّ تَوْصِيْفَ الْهَدَّهِدِ، اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا الْوَصْفِ، لِأَجْلِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ زَوْدُهُ بِنَظَرٍ حَادٍ يَرَى بِهِ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ كَمَا يَرَى الْإِنْسَانَ الْمَاءَ فِي الْقَارُورَةِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَ فِي أَسْرَارِكُمْ، وَ مِنْ مَخَابِيءِ فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُعْلِنُونَ مِنَ الْكَلَامِ وَ مِنْ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ.

[٢٧] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا شَرِيكَ لَهُ، مِنْ شَمْسٍ أَوْ غَيْرِهَا رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَيُّ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، الَّذِي وَسِعَ كُرْسِيَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، فَمَا ذَكَرْتَهُ مِنْ كَوْنِ عَرْشِ بَلْقِيسِ عَظِيمِ، إِنَّمَا هُوَ عَظِيمٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عُرُوشِ الدُّنْيَا، أَمَا الْعَرْشُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ عَرْشُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ قَدْ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ كَلَامِ سَلِيمَانَ، أَوْ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ.

[٢٨] و لما أخبر الهدهد سليمان عليه السلام بهذا الخبر قال سليمان سَنَنْظُرُ فِي قَوْلِكَ وَ نَبْحَثُ عَنْ خَبْرِكَ لِنَرَى أَوْ صَدَقْتَ فِي مَقَالِكَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَى فِي جَمَلَتِهِمْ وَ مِنْهُمْ.

[٢٩] ثم كتب سليمان عليه السلام كتابا يأمر فيه بلقيس بالإيمان و بأن تسافر إليه و أعطاه إلى الهدهد ليوصله إليها و قال له اذهب يا هدهد بكتابي هذا الذي كتبه فألقه أَى اطرحه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠١

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٢٩ إلى ٣٢]

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢)

إِلَيْهِمْ أَى إِلَى أَهْلِ سَبَأَ، وَ الْمُرَادُ إِلَى الْمَلِكَةِ وَ قَوْمِهَا ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ أَى أَعْرَضَ كَأَنَّكَ رَاجِعٌ، وَ اسْتَرَفَى فِي مَحَلِّ تَسْمَعُ كَلَامَهُمْ فَانظُرْ مَا ذَا يَرْجِعُونَ أَى مَاذَا يَرُدُّونَ فِي جَوَابِ الْكِتَابِ، وَ يَقُولُونَ بَيْنَهُمْ عَنْهُ؟

[٣٠] فمضى الهدهد بالكتاب و ألقاه في مجلس بلقيس، فأخذته و فضته و قرأته ثم قالت لمن حضرها من الوزراء و الأشراف يا أَيُّهَا الْمَلَأُ وَ يَسْمَى الْأَشْرَافُ مَلَأً لِأَنَّهُمْ يَمْلِئُونَ الْعْيُونَ جَلَالًا وَ الصُّدُورَ هَيْبَةً إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ أَى رَفِيعٌ، فَإِنَّ الْكِتَابَ الرَّفِيعَ يَكْرَمُ وَ يَحْتَرَمُ.

[٣١] إِنَّهُ أَى الْكِتَابِ مِنْ سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ وَ إِنَّهُ أَى الشَّيْءِ الْمَكْتُوبِ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[٣٢] أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ هَاتَانِ الْجَمَلَتَانِ كَانَتَا كُلُّمَا فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَرْسَلَهُ سُلَيْمَانُ إِلَى بَلْقَيْسَ، وَ مَعْنَاهَا، أَمْرُكُمْ أَنْ لَا تَظْهَرُوا الْكِبَرَ وَ الْعُلُوَّ عَلَيَّ، بَعْدَ إِطَاعَةِ أَمْرِي، وَ أَمْرُكُمْ أَنْ تَسِيرُوا- أَى الْمَلِكَةَ وَ مَنْ فِي حَاشِيَتِهَا- نَحْوِي فِي حَالِ كَوْنِكُمْ مُسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ لِي، أَوْ مُسْلِمِينَ لِلَّهِ تَعَالَى.

[٣٣] و لما قرأت بلقيس الكتاب عليهم قالت للأشراف و الوزراء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٢

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَ أَوْلُو بِيَاسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعْرَافَهُمْ أَهْلِيهَا أَذِلَّةً وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَى الْجَمَاعَةَ أَفْتُونِي أَى أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَمْرِي أَى الْأَمْرَ الْمُرْتَبِطَ بِى مِنَ التَّسْلِيمِ لِسُلَيْمَانَ أَوْ الْحَرْبِ مَعَهُ، وَ الْفَتْوَى الْحُكْمَ بِالصَّوَابِ أَى أَحْكَمُوا بِالصَّوَابِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مَا كُنْتُ أَنَا قَاطِعَةً أَمْرًا أَجْزَمُ فِيهِ بِرَأْيِي وَ حُدَى حَتَّى تَشْهَدُونَ أَى تَحْضُرُونَ وَ تَشِيرُونَ فَعَنْ رَأْيِكُمْ وَ مَشُورَتِكُمْ أَمْضِي فِي الْأَمْرِ.

[٣٤] قَالُوا فِي جَوَابِهَا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ أَى أَصْحَابُ قُوَّةٍ وَ قُدْرَةٍ وَ سِلَاحٍ وَ جَيْشٍ وَ أَوْلُو بَأْسٍ أَى شَجَاعَةٌ شَدِيدٌ لَا يَغَالِبُنَا أَحَدٌ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ لَا تَسْلَمِي حَارِبَنَا وَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْلَمِي صَالِحَنَا وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ أَى مَفُوضٌ إِلَيْكِ فِي الْقِتَالِ وَ عَدَمِهِ فَانظُرِي وَ فَكْرِي فِي أَمْرِكَ مَاذَا تَأْمُرِينَ أَى مَا الَّذِي تَأْمُرِينَا بِهِ لِنَمْتَلِئَ؟

[٣٥] قَالَتْ فِي جَوَابِهِمْ، إِنْ الْأَصْلَحُ أَنْ لَا نَحَارِبَهُمْ، فَإِنَّا إِذَا حَارَبْنَاهُمْ وَ غَلَبْنَا عَلَيْهِمْ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَى مَدِينَةً، وَ الْمُرَادُ دَخَلُوهَا بِالْعُنُودِ وَ الْغَلْبَةُ أَفْسَدُوهَا بِالْإِهْلَاكِ وَ التَّدْمِيرِ وَ السَّلْبِ وَ النَّهْبِ وَ جَعَلُوا أَعْرَافَهُمْ أَهْلِيهَا أَذِلَّةً أَى أَهَانُوا أَشْرَافَهَا وَ كِبْرَاءَهَا، لِأَنَّ الْأَشْرَافَ لَا يَخْضَعُونَ لَهُمْ، فَلَا بَدَّ لَهُمْ أَنْ يَذْلُوهُمْ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ الظَّاهِرُ إِنْ هَذَا مِنْ تَمَنُّهِ كَلَامِ بَلْقَيْسَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ غَالِبًا يُؤَكِّدُ الْكَلَامَ بِالتَّصْدِيقِ الْإِجْمَالِيِّ، فَإِنَّكَ بَعْدَ أَنْ تَقْصُ قِصَّةَ تَقُولُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٣

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)

«هكذا كان» و بعد أن تأمر أمرا «هكذا فأفعل».

وقد أراد بعض الذين بهرتهم الديمقراطية الغربية أن يطبق هذه الآية عليها، بتقريب أن اللازم أن يكون للرئيس مجلس يراجعهم في شؤون الدول، و هم يظهرون ما لديهم من قوة و مال و فكر و يكون المرجع الأخير هو الرئيس، و لكن لا ربط لهذه الآية بذلك، إذ إنما استشارت بلقيس الوزراء و الأشراف، و هذا هو المعتاد في كل حكومة ملكية و إن لم يكن لهم مجلس و برلمان بالإضافة إلى ذلك حكاية عن عمل جماعة من عبادة الشمس الكافرين، و لا يدل على تقرير الله لهم.

[٣٦] وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ أَي إِلَى سُلَيْمَانَ وَ قَوْمَهُ بِهَدِيَّةٍ لِأَصَانِعِهِمْ وَ أَلْتِنَ جَانِبَهُمْ حَتَّى لَا يَطْمَعُوا فِي مَلِكِي فَنَاظِرَةٌ أَي أَنْظِرْ وَ أَنْتَظِرْ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ أَي بِقَبُولِ أَوْ رَدِّ- مِنْ جَانِبِ سُلَيْمَانَ- يَرْجِعُونَ رَسُلِي الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ مَعَ الْهَدِيَّةِ.

[٣٧] ثُمَّ أَرْسَلْتُ رَسُولًا بِهَدِيَّةٍ فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ سُلَيْمَانَ لِلرَّسُولِ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي؟ فَإِنِّي لَا أَحْتَاجُ إِلَى مَالِكُمْ، وَ «تَمْدُون» جَمْعُ الْمُخَاطَبِ مِنْ فِعْلِ الْمُضَارَعِ، مِنْ بَابِ الْأَفْعَالِ وَ الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَ النُّونُ الثَّانِيَةُ لِلْوَقَايَةِ، وَ قَدْ حَذَفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ تَخْفِيفًا فَمَا آتَانِي اللَّهُ أَي أَعْطَانِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ النَّبُوَّةِ وَ الْمَلِكِ وَ الْجَاهِ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ أَي أَعْطَاكُمْ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا بَلْ أَنْتُمْ أَي مِنْ لَا حَظَّ لَهُ كَحَظِّي بِهَدِيَّتِكُمْ أَي هَدِيَّةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٤

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَدْلَلَّ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَئِيكُمُ يَا تَبِيئِي بَعْرَشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عَفْرِيَّتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩)

بعضكم إلى بعض تفرحون أما مثلي فلا يفرح بالهدية.

[٣٨] ارْجِعْ أَيُّهَا الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ إِلَى بَلْقَيْسِ وَ قَوْمِهَا فَقَلَّ لَهُمْ إِنْ لَمْ يَسْلَمُوا فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا أَي لَا طَاقَةَ لَهُمْ وَ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى دَفْعِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا مِنْ مَدِينَتِهِمْ، إِنْ بَقُوا مُصْرِينَ عَلَى الْكُفْرِ أَدْلَلَّ جَمْعُ ذَلِيلٍ، أَي فِي حَالِ كَوْنِهِمْ أَذْلَاءً وَ هُمْ صَاغِرُونَ أَي صَغِيرُوا الْقَدْرَ.

[٣٩] وَ رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى بَلْقَيْسِ يُخْبِرُهَا بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَدْ ذَكَرَ لَهَا عَلَائِمَ كَوْنِهِ نَبِيًّا، لَا مَلِكًا فَقَطْ وَ لِذَا تَجَهَّزَتْ بِبَلْقَيْسِ لِلْمَسِيرِ إِلَيْهِ حَسَبَ أَمْرِهِ «وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»، وَ أَخْبَرَ سُلَيْمَانَ بِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الْيَمَنِ مُسْتَعِدَّةً لِلسَّفَرِ إِلَيْهِ حِينَذَاكَ قَالَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا لِمَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ مِنَ الْأَشْرَافِ وَ الْعِظَمَاءِ أَئِيكُمُ يَا تَبِيئِي بَعْرَشَهَا أَي كَرَسَى بَلْقَيْسِ، فَلَقَدْ كَانَ لَهَا كَرَسَى عَظِيمٌ تَجَلَسَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي أَي تَأْتِي بَلْقَيْسِ وَ أَشْرَافُ قَوْمِهَا إِلَيَّ، لِأَنَّهَا سَافَرَتْ فِي عَدَّتِهَا مُسْلِمِينَ أَي فِي حَالِ كَوْنِهِمْ مُسْلِمِينَ، وَ لَعَلَّ وَجْهَ طَلَبِ سُلَيْمَانَ عَرَشَهَا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرِيهَا مَقْدَرَتَهُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْخَارِقِ، حَتَّى تَدْعُنَ بِنُبُوَّتِهِ، وَ تَصَدُقَ دَعْوَتَهُ، فَكَانَ مِنْ قَبِيلِ مَعَاجِزِ الْأَنْبِيَاءِ لِإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ.

[٤٠] قَالَ فِي جَوَابِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَفْرِيَّتُ أَي قَوِيٌّ مِنْ الْجِنِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٥

[سورة النمل (٢٧): آية ٤٠]

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

الذين كانوا بحضرة سليمان أنا آتيك به أي أجيء إليك بالعرش قبل أن تقوم من مقامك أي مجلسك، فإنه من الطبيعي أن يمتد جلوس الملوك إلى وقت الظهر ثم يقومون من محلهم للصلاة والراحة والغذاء - مثلاً -.

ولقد كان ذلك العفريت يريد أن يطير فيأتي بالعرش بالطريق العادي لدى الجن وإنني عليه أي على إتيان العرش لقوي قادر على حمله أمين آتيك به بدون خيانه.

[٤١] قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك قال آصف بن برخيا و كان وزير سليمان و ابن أخته و يعرف الاسم الأعظم لله سبحانه الذي إذا دعا به أجاب الذي عنده علم من الكتاب و المراد الكتاب المخزون المكنون عند الله سبحانه، الذي لا يطلع عليه إلا من شاء من الأنبياء و الأئمة و الصالحين أنا آتيك به بالطلب من الله سبحانه باسمه الأعظم قبل أن يوتد إليك طرفك ارتداد الطرف رجوعه بعد النظر إلى مكان ما، فإن الإنسان إذا نظر إلى مكان ثم أراد أن يأخذ نظره منه إلى أمام رجله، يقال ارتد إليه طرفه، لأن الطرف رجع إلى نفسه بعد أن كان إلى محل آخر، قال آصف هذا الكلام و دعا باسم الله الأعظم، و إذا يرى سليمان أن عرش بلقيس حاضر أمامه.

فلما رآه أي رأى سليمان العرش مستقرًا في حال استقرار و ثبات عنده بعد أن ارتد طرفه إلى قرب محله قال هذا الإحضار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٦

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَ هَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)

من فضل ربي و نعمه إلى حيث وهب لي خليفه كأصف يتمكن من هذا العمل العجيب و قد كان سليمان قادرا على أن يحضره هو بالذات، لكنه أراد إظهار فضل آصف على قومه، و قد فضلني بهذا ليبلوني البلاء الامتحان و الاختبار، أي ليمتحنني أ أشكر أم أكفر أي هل أشكره سبحانه على النعمة، أم أكفر نعمته و لا أشكره؟ فإن الله سبحانه إذا منح أحدا نعمة كان اختبارا ليظهر هل أنه يشكر أم يكفر بالنعمة - لا يعلم الله، فإنه عالم، بل - ليستحق المحسن الثواب و المسيء العقاب و من شكر الله تعالى فإنما يشكر لنفسه إذ فائدة الشكر تعود إليه بالذات و من كفر و لم يشكر النعمة فإن ربي غيبي عن شكر الشاكرين كريم متفضل على عباده شاكرهم و كافرهم.

[٤٢] قال سليمان عليه السلام نكروا لها عرشها أي غيروا سريرها إلى حاله تنكرها و لا تعرفها، إذا رآته، و قد قيل أنه عليه السلام أراد بذلك اختبار عقلها و إنها هل تعرف أم لا، ل ننظر أ تهتدي إلى معرفه عرشها بفطنتها أم تكون من الذين لا يهتدون قيل فنزع ما كان على العرش من الفصوص و الجواهر و غيرت ألوان مواضعه الملونة، فجعل ما كان أحمر أخضر و هكذا.

[٤٣] فلما جاءت بلقيس إلى محل سليمان قيل لها أ هكذا عرشك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٧

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

وَ صَيَّدَهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)

أي هل أن عرشك مثل هذا العرش الموضوع ها هنا؟ قالت و قد أدركت بفطنتها الحقيقة كأنه أي كأن هذا العرش الموضوع هو العرش الذي لي و خلفته ورائي جئتم به إلى هنا ثم قالت و أوتينا العلم بقدره الله سبحانه، و صحبه نبوه سليمان من قبلها أي من قبل هذه الخارقة التي نشاهدها بالنسبة إلى العرش و كنا مسلمين بسليمان، فلا نعجب من إتيان العرش إلى هنا.

[٤٤] ثم ذكر سبحانه، إنها إنما أسلمت بعد كتاب سليمان، و إلا فإنها كانت تعبد الشمس، كما قال «الهدهد» و صدها أي منعها -

سابقا - عن الإسلام ما كانت تعبد من دون الله أي عبادتها للشمس، و إنما عبادت الشمس ل إنها كانت من قوم كافرين أي نشأت

فيهم و كانت منهم، و لذا اعتقدت كما كان يعتقد قومها، فإن للمحيط أثرا قاهرا على النساء.

[٤٥] و قد أمر سليمان عليه السلام أن يبني لها «صرح» أى موضع منبسط من قوارير كالقصر، و قد أجرى الماء تحت أرض الصرح بحيث كان يبدو أنه ماء واقف على الأرض، و لعله أراد بذلك اختبار عقلها أيضا، هل تعرف إنه صرح أم تظن أنه ماء، و قيل أن الشياطين خافت أن يكون لها ولد منه، فنفروا سليمان منها، قائلين إن رجلها كرجل حمار، فأراد سليمان أن يعرف صدق ذلك، أقول: و إن صدق هذا، لم يكن فيه دليل على إن سليمان أو بعض الرجال نظروا إلى ساقها، فلعل سليمان كان قد أحضر نساء للنظر إلى ساقها، بدون أن يقلن لها اكشفي عن ساقك، كما أنه ليس دليل على إن قول الشياطين أثر في سليمان، إذ هو عليه السلام أعلم منهم، و إنما أراد الكشف للناس عن كذبهم بما تشهد به النساء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٨

[سورة النمل (٢٧): آية ٤٥]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)

و لما جاءت بلقيس قبل لها و القائل بعض الخدم ادخل الصرح و هو المحل المعد لاستقبالها فلما رآته أى رأت بلقيس الصرح حسبته أى ظنته لجة من الماء، و اللجة معظم الماء، فاستعدت لخوضها بأرجلها و كشفت عن ساقها أى رفعت ثوبها عن رجلها، لتدخل الماء، و لا يبيل ثوبها قال سليمان، أو بعض الخدم إنه أى ما ترين ليس ماء، و لعلهم أعلموا سليمان بأنها أخذت فى كشف قدميها لخوض الماء - بظنها - صيرح أى قصر ممرّد قد مرّد و ملّس، و منه يقال لمن لا شعر له، أى هو مملّس من قوارير جمع قارورة، و المراد بها الزجاج، و إذ دهشت الملكة من هذا الحادث جعلت تستغفر عن ذنبها، فإن من عادة الإنسان طلب الغفران حين يدهش و يصاب بكارثته، إذ يزول الكبرياء، حينذاك قالت مناجية، يا ربّ إنى ظلمت نفسى بعبادتي للشمس فى سالف الزمان و أسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين فالإسلام لله تعالى، لكنه مع سليمان النبى، و لعل الإتيان بهذه اللفظة، للاعتراف برسالته، و أرادت أن تبدي اعترافها بالمبدأ و الرسالة.

[٤٦] و بعد تمام قصة سليمان، يأتى السياق لبيان طرفا من قصص سائر الأنبياء و لقد أرسلنا إلى ثمود أى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب صالحا فقال لهم أن اعبدوا الله وحده لا شريك له فإذا هم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٠٩

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

أى ثمود فريقان يختصمون مؤمنون، و كافرون، و كل يخاصم الفريق الآخر يقول أنت على باطل و أنا على حق.

[٤٧] قال صالح عليه السلام لمن بقى فى الكفر يا قوم لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ لِصَالِحٍ عَجَلٌ عَلَيْنَا بِالْعَذَابِ الَّذِي وَعَدْتَنَا إِنْ بَقِينَا عَلَى الْكُفْرِ، - على وجه الاستهزاء - فقال لهم صالح لم تطلبون عجلة العذاب قبل الحسنه أى قبل التوبة، و سمي العذاب سيئه لأنه يسىء إلى الإنسان، و المراد ب «قبل الحسنه»، عوض طلبكم الحسنه، فإنه كثير ما يأتى قبل لا بمعنى الزمان، بل بمعنى العوض لو لا أى هلا تستغفرون الله تطلبون غفرانه بسبب الإيمان و العمل الصالح؟

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لكى ترحموا بسبب الاستغفار.

[٤٨] قالوا فى جواب صالح عليه السلام اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ أى تشأنا بك و بمن على دينك من المؤمنين فأنتم شؤم علينا تجلبون لنا الفقر و القحط و المشاكل، و أصل «اطير» تطير، أدغمت التاء فى الطاء، و جىء بهمهزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن قال لهم صالح طائرُكم عند الله أى أن الشؤم أتاكم من عند الله حيث كفرتم و للكفر نكبة و مشاكل كما قال سبحانه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» (١) و قد كانت الأمم تتشاءم بالطائر الخاص، كالبوم، و الغراب، لما كان عندهم

(١) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٠

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٤٨ إلى ٤٩]

وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُضْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)

مشهوراً أن الإنسان إذا وقع نظره على الطائر الفلاني عند حاجته له فإنها لا تقتضى تأثراً من ذلك الطائر، ثم سمي كل تشاؤم بالشر طائراً، و إن كان تشاؤماً من الشخص أو حيوان برى، و اشتق منه «التطير» يَلُ أُنْتَم قَوْمٌ تُفْتَنُونَ أى تختبرون بالخير و الشر، فإن الفتنة بمعنى الاختبار، كما قال تعالى (أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) «١» يعنى ليس هذا الذى يصيبكم من المشاكل بسببى و إنما هى فتنة و امتحان لكم.

[٤٩] وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ التى بها صالح، و هى «الحجر» تِسْعَةُ رَهْطٍ أى تسعة أشخاص يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بإلقاء الفتن و تدبير المكر وَ لَا يُضْلِحُونَ لعل الإتيان بهذه الجملة لإفادة أنه لم يكن فى عملهم إصلاح، و إنما فساد محض.

[٥٠] قَالُوا أى قال بعض هؤلاء الرهط المفسدون لبعضهم الآخر تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ أى ليحلف بعضهم لبعض، ف «تقاسموا» فعل أمر، من باب التفاعل لَنُبَيِّتَنَّهُ أى لنقتلن صالحاً و أهله بيانا أى بالليل ثُمَّ لَنَقُولَنَّ صباحاً إذا ظهر قتله و رمينا بذلك- و إنما قالوا هذا لأنهم كانوا معروفين بالفساد فإذا حدث حادث رموا به فلا- بد لهم من إحضار الجواب- لِوَلِيِّهِ أى ولى صالح الذى يطالب بدمه، و المراد إما الحكومة أو ذووا رحمه أو من أشبههما ما شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ

(١) الأنفال: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١١

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٠ إلى ٥٢]

وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنَا مَكْرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ وَ قَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢)

أى هلاك أهل صالح، و يطلق الأهل على العائلة حتى الرئيس، و مهلك مصدر ميمي، أو اسم زمان أى زمان هلاكهم أو اسم مكان أى مكان الهلاك وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ فيما نقول، هكذا دبروا حيلة أن يفعلوا الفعل ثم يقولوا لوليه هذه الجملة ليبرءوا ساحتهم من القتل.

[٥١] وَ مَكَرُوا هَؤُلَاءِ مَكْرًا بتدبير هذه الخطة وَ مَكَرْنَا مَكْرًا أى دبرنا تدبيراً خفياً بحيث لم يعلموا به- فإن المكر هو التدبير الخفى لإلقاء الخصم إلى الهلاك- فقد أمر الله سبحانه بعذاب ثمود وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ بمكر الله لهم،

فقد روى أنهم لما أرادوا قتل صالح وقعت عليهم قطعة من الجبل فهلكوا جميعاً و أنجى الله صالح من أيديهم

«١».

[٥٢] فَانظُرْ يا رسول الله أو كل من يتأتى منه النظر، و المراد اعلم و اعتبر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ فهل مكرهم نفذ أم رد إلى نحرهم؟ أَنَا دَمَرْنَا هُمْ أى أهلكناهم وَ قَوْمُهُمْ بأن صاح عليهم جبرائيل صيحة صاروا كهشيم المحتضر أَجْمَعِينَ حتى لم ينجح منهم أحد، و بقى صالح، و المؤمنون فى سلامة و عافية.

[٥٣] فَتِلْكَ التى يراها الرائي فى طريقه من الحجاز إلى الشام و قد مرّ بها النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فى غزوة تبوك بُيُوتُهُمْ وَ

آثارها الباقية خاويةً أى فى

(١) راجع مجمع البيان: ج ٧ ص ٣٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٢

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)

حال كونها خاوية، أى خالية منهدمة بما ظلموا أى بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر و العصيان إنَّ فى ذلك الإهلاك لآيةً على بأس الله سبحانه لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى يعلمون الأمور، أما الجهال فإنهم لا يدركون العبر و العظات.

[٥٤] أهلكننا الكفار وَ أَنْجَيْنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِصَالِحٍ وَ كَانُوا يَتَّقُونَ المعاصى و الآثام.

[٥٥] ثم أتى السياق لبيان قصة لوط و اذكر يا رسول الله لوطاً إذ قال لِقَوْمِهِ منكرًا عليهم العصيان أ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ المراد بها اللواط؟ أى كيف تلوطون، و الفاحشة، صفة لمقدر، أى الفعل الفاحشة و سميت فاحشة لأنها تفحش و تتجاوز الحد، من فحش بمعنى تجاوز الحد وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أى و الحال أنكم تعلمون أنها فاحشة.

[٥٦] أ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ أى تعملون مع الرجال شهوةً إما مفعول أو تمييز، و أصلها ما تشتهيهِ النفس مِنْ دُونِ النِّسَاءِ فقد تركوا نساءهم، و اشتغلوا بالرجال، إن ذلك ليس لقضاء الشهوة، و إلا كانت النساء أحسن بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ما فى هذا العمل من الإثم و العقاب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٣

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء العشرون من آية (٥٧) سورة النمل إلى آية (٤٦) سورة العنكبوت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٥

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ (٥٩)

[٥٧] فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ لِلُّوطِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أى قال بعضهم لبعض أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ أى لوط و آله - و قد مرَّ إن «آل فلان» يطلق عليه و على آله، تغليبا - مِنْ قَرْيَتِكُمْ أى مدينتكم إِنَّهُمْ أَنْأَسُ أى جماعة يتطهرون عن إتيان أعمالنا، و كان هذا على وجه السخرية.

[٥٨] فَأَنْجَيْنَاهُ أى أنجينا لوطاً وَ أَهْلَهُ بناته اللاتي كنَّ معه إِلَّا امْرَأَتَهُ التي كانت تساعد القوم على أعمالهم الفاسدة قَدَّرْنَا أى هكذا جرى تقديرنا بالنسبة إليها إنها مِنَ الْغَابِرِينَ أى الباقيات فى القرية لتعذب بعذابها.

[٥٩] وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ أى على أهل القرية مَطَرًا من الحجارة فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ أى بسئ المطر الذى أنذروا فلم ينفع فيهم الإنذار.

[٦٠] و بعد ذكر جملة من أحوال الأمم السالفة و كيف أن الله عذبهم لما تمردوا عن الأوامر يرجع السياق إلى الرسول و حاله مع قومه و كيفية تبليغهم قُلِ يا رسول الله الْحَمْدُ لِلَّهِ الذى وفقنا للإيمان، و نجاه المؤمنين و هلاك الكافرين وَ سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى أى تحية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٦

[سورة النمل (٢٧): آية ٦٠]

أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حِدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٠)

على الرسل المتقدمين الذين اصطفاهم الله سبحانه واختارهم لوحيه، ومعنى «السلام» أن يكونوا سالمين في تلك الدار من الأخطار، وإن غلب معنى التحية عليه، عند العرف آله خير هنا همزتان، أحدهما للاستفهام، والثانية همزة «أل» وإذا اجتمعت همزتان جاز أن تخفف أحدهما في صورة مدّ، أي: هل الله خير أمّا يُشركون أي الأصنام التي يشركونها بالله تعالى؟ وقد تقدم أن الله كيف نجى المؤمنين، وأهلك من كان يعبد الأصنام، وعلى هذا فالجواب - الطبيعي - بعد تلك المشاهدات: أن الله خير.

[٦١] أَمْنَ أَصْلُهُ «أَم» «من» فأدغمت إحدى اليمين في الثانية خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أي ما تشركون خير أم خالق السماوات والأرض وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ أي جهة العلو ماءً وهو المطر فَأَنْبَتْنَا بِهِ بِذَلِكَ الماء، وهذا من الالتفات من الغيبة إلى التكلم وهو فنون البلاغة حِدَائِقُ جمع حديقته، وهي مجتمع الورود والأشجار ذَاتَ بَهْجَةٍ أي منظر حسن يبتهج به من رآه ويسر ويفرح ما كَانَ لَكُمْ أيها الناس أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أي أنتم لا تتمكنون من إنبات أشجارها، لو لا أن الله أنبتها فلا يزعم زاعم أنه هو الذي ينبت حيث يحرق ويكذب ويسقى، إنه سبب ضعيف، وإنما الذي ينبت هو الله سبحانه أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ أي هل هنا لك في الكون إله آخر مع الله سبحانه؟ وهذا استفهام إنكارى، يأتي بعد الإلفات إلى صنع الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٧

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦١ إلى ٦٢]

أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦١)
أَمْنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَدْعُونَ (٦٢)

سبحانه بل ليس معه إله وإنما هؤلاء المشركون هم قومٌ يغدلون يجعلون غير الله عدلا لله تعالى.

[٦٢] أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا أي مستقرا لا تميل ولا تضطرب وتصلح للسكنى لما هبى فيها من الوسائل وَجَعَلَ خِلَالَهَا أي وسطها في مسالكها أَنْهَارًا من الماء تجرى لسقى الأرض والإنسان والحيوان وَجَعَلَ لَهَا أي للأرض رَوَاسِيَ جمع راسية، وهي الجبال التي حفظت الأرض من التفكك والاضطراب، فإن الأرض كرة تسبح في الجوى، ولو لا الجبال التي هي كالأوتاد الحافظة للخشبات المتعددة من التفكك، لتفككت الأرض وانتشرت في الفضاء وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ أي بحر الملح والمراد به بحار الدنيا، وبحر العذب المراد به المياه الجارية العذبة حاجزاً أي مانعا من شقوق الأرض حتى لا يختلط بعضها ببعض - كما تقدم في سورة الفرقان - أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ

صنع ذلك أو بعض ذلك، أم هو الله وحده؟ فلما ذا تشركون؟ بل ليس إله مع الله وإنما أكثرهم أي أكثر الناس لا يعلمون إنه ليس إله مع الله ولذا يشركون به.

[٦٣] أَمْنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ اضْطَرَّ فعل متعد، يقال اضطر زيد خالدا، فخالد مضطر بصيغته المفعول إذا دَعَاهُ وإنما جيء باسم «المضطر»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٨

[سورة النمل (٢٧): آية ٦٣]

أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُسَلِّ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٣)

مع إنه سبحانه يجيب كل من دعاه، لأن إجابة المضطر أوقع وألزم حيث إنه لا علاج له ولا ملجأ يلجأ إليه، والمراد إجابة دعائه وكشف ضره وحاجته وَيَكْشِفُ السُّوءَ النازل بالشخص من فقر ومرض وسجن وغيرها، ثم إما المراد كشف سوء المضطر، فيكون

كعطف بيان، أو كشف مطلق الأسوء، فيكون تأسيساً لا تأكيداً، و هنا نكتة لا بأس بالتنبيه عليها، و هي أن بعض الأخيار، سلخوا هذه الجملة من الآية سلك الختوم تفؤلاً، و اتباعاً لما ورد من «خذ القرآن ما شئت لما شئت»

فقراءتها من باب التعريض، لا- من باب الطلب، حتى يقال، إنها عدل لما يشركون، و لا دعائية لها، فليست مثل «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» (١) فهذا من قبيل ما لو قال أحد الكرماء: أنا الذى أطعم الجائع، فجاء جائع يريد إشباعه، فإنه يقول: «أنا الذى أطعم الجائع» يريد التعريض به حيث إن هذا الكلام صدر منه و يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَى تخلفون آباءكم فى ديارهم و أعمالهم، فمن غير الله سبحانه يهلك قرنا و يخلف قرنا آخر مكانه، و يفنى جيلا و يجعل جيلا آخر خلفا له؟ أ إله مَعَ اللَّهِ يفعل ذلك؟ كلا! و لكن قليلاً ما تَذَكَّرُونَ أى قليل تذكركم و اتعاطكم، لأنكم لا تتفكرون و لا تعتبرون، و «ما» زائدة، لتأكيد القلة.

[٦٤] أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ أَى يرشدكم إلى طرقكم و مقاصدكم فى ظلماتِ الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ حيث تقطعون الصحراء أو البحار فى الليالى المظلمة. إنه

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١١٩

[سورة النمل (٢٧): آية ٦٤]

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يُزُقُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أ إله مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)

هو الله الذى يهديكم بما جعل للطرق من علائم بالكواكب، و القمر، و مهب الرياح، و معالم الجبال، و غيرها، و إنما خصّ الظلمات بالذكر، مع أن الهادى فى النهار هو الله أيضاً، لشدة الحاجة فى الليل المظلم إلى الهادى، و هناك يدرك الإنسان حاجته إلى الاهتداء أكثر من إدراكه فى النهار وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ الْجَامِعَةَ لِلْسَّحَابِ وَ الْمَثِيرَةَ لَهُ مِنْ أَطْرَافِ السَّمَاءِ بُشْرًا أَى لأجل البشارة بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ أى أمام رحمته التى هى المطر؟ أ إله مَعَ اللَّهِ يفعل ذلك بالاستقلال أو بالإشراك؟

كلا! تَعَالَى اللَّهُ أى أن الله أعلى- و ليس فى الفعل معنى الماضوية، و إنما يفيد معنى المادة فقط- عَمَّا يُشْرِكُونَ أى عن الأصنام التى يشركونها بالله، أو تنزهه عن شركهم، على أن «ما» مصدرية.

[٦٥] أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ أى ينشأ الخلق و يوجد من كتم العدم ثم يميتة ثم يُعِيدُهُ حَيًّا يوم القيامة للحساب و الجزاء؟ و قسم من الكفار و إن لم يكونوا يعترفون بالإعادة، لكن قسماً آخر منهم كاليهود و النصارى يعترفون بذلك مع أنهم مشركون وَ مَنْ يُزُقُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ بِإِدْرَارِ الْمَطْرِ وَ الْأَرْضِ بِإِنْبَاتِ النَّبَاتِ؟ أ إله مَعَ اللَّهِ يفعل ذلك؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمَشْرِكِينَ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ أَى هَاتُوا حجتكم على الشرك، و إن هناك إلهاً مع الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٠

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ إِذْ أَرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)

فى دعوكم تعدد الآلهة و إن الأصنام شريكة لله سبحانه فى الألوهية.

[٦٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهؤلاء، إن كان هناك شريك مع الله لزم أن يعلم الغيب إذ لا يكون الإله جاهلاً، لكن لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْأَرْضِ مِنَ الْبَشَرِ الْغَيْبَ الذى غاب عن الحواسِ إِلَّا اللَّهُ وحده، و إنما يعلم الأنبياء و الأئمة و من إليهم بعض الغيب بإرادة الله و تعليم الله لهم، كما قال سبحانه (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (١) و لا- منافاة بين الأمرين بأن لا

يعلم الغيب أحد إلا- الله، و أن يعلم غير الله الغيب بدلالة الله، أو يقال: إن المراد بالغيب في الآية مطلق الغيب- كما هو مقتضى كون «الغيب» جنسا محلي باللام- وهذا لا يعلمه أحد و ما يَشْعُرُونَ هذه المعبودات أَيْانَ يُبْعَثُونَ أَى وقت بعثهم، فكيف يمكن أن يكون إليها ما لا يعلم الغيب، و ما لا يعلم وقت بعثه؟

[٦٧] و بمناسبة الحديث عن عدم شعور المعبودات بالآخرة و وقت بعثها يأتي الكلام حول إنكار الكفار لها، كما ينكرون التوحيد، و الرسالة بَلِ إضراب عن الكلام الماضى الذى كان يدور حول الشرك و تعدد الآلهة إلى كلام مستأنف حول القيامة أَدَارَكَ أصله «تدارك» من باب «التفاعل» أدغمت «التاء» فى «الدال» و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، و التدارك هو متابعة الشيء للشيء، يقال: تدارك

(١) الجن: ٢٧ و ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢١

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) القوم أى تلا-حقوا و جاء بعضهم إثر بعض، و المعنى تلاحق عِلْمُهُمْ و تتابع فى باب الآخرة فانتهى علو حدودها، و قصر عن الوصول إليها يقال هذا ما أدركه علمى أى بلغه و لم يلج فيه فهو منتهى العلم بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا أى من الآخرة، فكيف يعرفوا موعدها و خصوصياتها؟ بَلْ هُمْ مِنْهَا أى من الآخرة و معرفتها عَمُونَ جمع عمى، و هو أعمى القلب لتركه التدبر و النظر، و هذه مراتب ثلاث متدرجة فى الشدة، فالأولى أن لا يعلمها إطلاقا، و الثانية أن يشك فيها، و الثالثة أن يكون أعمى عنها حتى لا يكون قابلا لتعلمها، و حيث إن كل مرتبة أشد من سابقتها صحت الرتبة و الإضراب- و هذا هو الذى نستظهره من الآية، و الله العالم-.

[٦٨] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ إِذَا كُنَّا تُرَابًا بَأَن مَتْنَا وَتَحَوَّلْنَا إِلَى التُّرَابِ وَآبَاؤُنَا كَانُوا تُرَابًا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ مِنَ الْقُبُورِ للبعث و الحساب؟ قالوا ذلك على وجه التعجب و الإنكار، لأنهم أنكروا أن يتحول التراب إنسانا كما كان.

[٦٩] لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا أَي الْبَعْثِ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ فِيمَا مَضَى عَلَى لِسَانِكَ وَ لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ، و لم يظهر أثر لذلك إن هذا أى ما هذا الوعد و الإخبار بالبعث إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى إخباراتهم الخالية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٢

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٦٩ إلى ٧٢]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) عن الصحة، جمع أسطورة، و هى القصة الخيالية.

[٧٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ، إن تماديتم فى تكذيبكم و إنكاركم أصابكم مثل ما أصاب المكذوبون السابقون و سِيرُوا فِي الْأَرْضِ حتى تصلوا إلى بلاد الأقسام الذين أهلكوا بتكذبيهم الأنبياء فَانظُرُوا بأعينكم كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ الذين أجزموا و عصوا، فإنكم ستشاهدون آثارهم الدراسة و بلادهم الخبرة و لا ترون من نسلهم أحدا.

[٧١] وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَنَّهُمْ يَعْصُونَ حتى تكون النار مصيرهم وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ نَفْسِي مِمَّا يَمْكُرُونَ أى يدبرون فى أمرك، لإبطال دينك و قتلك، فإن مكرهم سيرد إلى نحورهم، و الحزن على المعاند مما لا ينبغى.

[٧٢] وَ يَقُولُونَ أَي هؤلاء الكفار المنكرون للبعث مَتَى هَذَا الْوَعْدُ أى فى أى زمان يكون العذاب أو بعث الأموات؟ إن كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْقَائِلُونَ بِهِ صَادِقِينَ بأنه يكون.

[٧٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَسَىٰ أَى لَعْلَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَعْدَ بِالْبَعثِ أَوْ الْعَذَابِ رَدْفَ لَكُمْ أَى وَرَاءَ كَمْ رَدِيفًا لَكُمْ يَلْحَقُكُمْ عَنْ قَرِيبٍ، مِنَ الرَّدِيفِ الَّذِى هُوَ الْإِنْسَانُ الرَّابِكُ عَلَى دَابَّةِ رَدْفِ الْآخَرِ وَخَلْفَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٣

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٧٣ الى ٧٦]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْبَعث.

[٧٤] وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَمِنْ فَضْلِهِ أَنَّهُ يُؤَخِّرُ عَذَابَ هَؤُلَاءِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيَنْدَمُونَ فَلَا يَلْقَاوُا الْعَذَابَ وَالْمَهَانَةَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَى أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ نِعْمَهُ وَفَضْلَهُ.

[٧٥] وَإِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ أَى مَا تَخْفِيهِ صُدُورُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَكْرِ وَالرَّذِيلَةِ وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِكِ وَالْمَعَاصِي، وَمَعَ ذَلِكَ يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ وَيَمَهِّلُهُمْ.

[٧٦] وَلَيْسَ عِلْمُهُ سَبْحَانَهُ خَاصًا بِمَا يَفْعَلُهُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ بَلْ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ أَى خَصْلَةٍ، أَوْ عَيْنٍ غَائِبَةٍ عَنِ الْحَوَاسِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ أَى كِتَابِ ظَاهِرِ لَدِينَا، فَإِنَّا نَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ.

[٧٧] ثُمَّ عَطَفَ السِّيَاقَ - بَعْدَ الْأَلُوْهِيَّةِ وَالْمَعَادِ - إِلَى ذِكْرِ الْقُرْآنِ فَقَالَ سَبْحَانَهُ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَخْصِيصَهُمْ بِالذِّكْرِ هُنَا، لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تَعْرَضَتْ إِلَى ذِكْرِ جَمَلَةٍ مِنْ قِصَصِهِمْ كَقِصَّةِ سَلِيمَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٤

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٧٧ الى ٧٩]

وَإِنَّهُ لَهْدِيٌّ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)

وَمُوسَىٰ وَدَاوُدَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَمَعْنَى الْقِصَّةِ نَقْلَ الْخَيْرِ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ مِنَ الْقِصَصِ وَالْأَحْكَامِ، فَقَدْ حَرَفَتْ كِتَابَهُمْ وَلِذَا اخْتَلَفُوا فِي الْقِصَصِ، وَالْقُرْآنُ يَبِينُ الْحَقَّ الْوَاقِعَ، وَلِذَا وَرَدَ فِي وَصْفِهِ قَوْلُهُ (وَمُهَيِّمِنًا عَلَيْهِ). «١» [٧٨] وَإِنَّهُ أَى الْقُرْآنَ لَهْدِيٌّ هِدَايَةٌ تَرشِدُ الطَّرِيقَ الَّذِي يُوْجِبُ سَعَادَةَ الْإِنْسَانِ فِي دُنْيَاهُ وَعَقْبَاهُ وَرَحْمَةٌ أَى سَبَبًا لِتَفَضُّلِ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ وَرَحْمَتُهُ بِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا خَصَّتْهُمْ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِهِ الْفَائِزُونَ بِجِزَاءِ عَمَلِهِ عَلَى طَبَقِهِ.

[٧٩] إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَقْضِي بَيْنَهُمْ أَى بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَجِهَاتِ الْمَبْدَأِ وَمَزَايَا الْمَعَادِ بِحُكْمِهِ أَى عَلَى طَبَقِ حُكْمِهِ الْوَاقِعِي، لِأَنَّ عَلَى مَا فِي كِتَابِهِ الْمَحْرَفَةَ، وَالْمَرَادُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَجْزَى كُلَّمَا حَسَبَ مَا عَمِلَ، كَمَا يَقُولُ الْحَاكِمُ: سَأَفْضِلُ بَيْنَكُمْ، يَرِيدُ الْفَصْلَ مَعَ الْجِزَاءِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ فَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ الْعَلِيمُ بِمَا فَعَلَ كُلُّ أَحَدٍ، فَيَكُونُ الْجِزَاءُ طَبَقَ الْعَمَلِ بِلا زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ.

[٨٠] وَإِذْ كَانَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَزِيزًا عَلِيمًا فَتَوَكَّلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ وَفُوضْ أُمُورَكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ غَالِبٌ

(١) المائدة: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٥

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٠ الى ٨١]

إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا

فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

عالم إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ أى الواضح، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، و تحت سيطرة إله غالب فلا يتمكن أحد من السوء بك، عالم فيجازيك بما لقيت من الأتعاب فى سبيل التبليغ.

[٨١] أما هؤلاء الذين يعاندون، فلا- تغتم لهم، و لا- يلقون اليأس فى نفسك، فإنهم كالأموات و كالأصم إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى أى سماعا نافعا، فإن الميت لا- يتحرك و لا- يتجه حسب ما وجهه الإنسان و هؤلاء المعاندون كالأموات فى عدم تأثير الكلام فيهم و «موتى» جمع ميت و لا- تُسْمِعُ الصُّمَّ جمع «أصم» و هو الفاقد لحاسة السمع الدُّعاء أى الدعوة و الكلام الذى تناديه به إذا وَلَّوْا أى أعرضوا عنك مُدْبِرِينَ أى بحيث كان دبرهم نحو الإنسان، و هذا للمبالغة فى عدم السماع، فإنه لا مطمع فى إفهام الأصم المدبر، و إن كان كل أصم لا يسمع الكلام و إنما لو كان وجهه مقابلا أمكن إفهامه و إلّا لم يمكن.

[٨٢] و ما أَنْتَ يا رسول الله بِهَادِي الْعُمَى أى لا يمكنك يا رسول الله أن تهدى الأعمى من هؤلاء و المراد المعاند الأعمى القلب، شبه بالأعمى بصرا الذى لا يهتدى إلى الطريق، إذ درك المعارف يتوقف على بصر القلب، كما أن درك الطريق يتوقف على بصر العين عَنْ ضَلَاتِهِمْ بَأَن تَصْرِفَهُمْ عَنْ ضَلَاتِهِمْ و انحرافهم إلى طريق الرشاد، إِنْ تُسْمِعُ أى ما تسمع سماعا مفيدا إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا أى ليس معاندا إذا سمع الحق قلبه فَهُمْ مُسْلِمُونَ أى يسلمون أنفسهم لله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٦

[سورة النمل (٢٧): آية ٨٢]

وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢)
و الدين و ينقادون لأوامرك.

[٨٣] و من علامات الساعة التى كان الكفار يكذبون بها إن الله سبحانه يظهر للناس «دابة» أى حيوانا مهولا يكلم الناس بلسان يفهمونه و لعل هذا من أهوال الساعة و إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أى وجب العذاب لهم، و ثبت وقت ما قلنا من أنهم يعذبون أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ و هل المراد بالإخراج أنها تخرج من الأرض كما يخرج النبات منها، أو المراد به ظهورها؟ و لفظه «من الأرض» فى مقابل من السماء، و قد ورد فى بعض الروايات، إن المراد بدابة الأرض حيوان مدهش «١»، كما ورد فى روايات أخرى إن المراد بها الإمام المرتضى عليه السلام «٢»- و الدابة تطلق على كل ما يدب على وجه الأرض - كما أن خروج الدابة فى بعض الروايات من أسرار الساعة، و فى بعضها من علائم ظهور المهدي عليه السلام «٣» و لا منافاة بين الأمرين، فى الموضوعين، لتعدد الدابة و كون كل واحدة مصداقا، و لكون ظهور المهدي «عجل الله فرجه الشريف» أيضا من أسرار الساعة، بل بعثة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، أيضا، من علائم الساعة تُكَلِّمُهُمْ أى تتكلم تلك الدابة مع الناس، و من كلامها معهم أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ أى بأدلتنا الدالة على وجودنا و سائر شؤوننا، و قد لاءمت هذه الآية جو السورة التى تعالج العقيدة، كما لاءمت مع تكلم الحيوانات و الجن مع البشر، فى قصة الهدهد،

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٦ ص ٣٠٠.

(٢) تأويل الآيات: ص ٣٩٩.

(٣) راجع تأويل الآيات: ص ٤٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٧

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٣ الى ٨٥]

وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُ قَالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَ لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَا ذَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)

و النملة، و عفريت الجن، و هاهنا دابة تتكلم.

[٨٤] و اذكر يا رسول الله لهؤلاء يَوْمَ نَحْشُرُ أَى نَجْمَعُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا، و إذ تقدم بعض علائم القيامة من خروج دابة الأرض، جاء السياق ليطم مشهد القيامة، و جاء ذكر المكذبين فقط لأنهم محل الكلام و محور البحث في تكذيب المعاد، فلننظر ماذا يكون مصيرهم؟ و قوله «ممن» بيان «فوجا» أى نجمع من كل أمة فوجا هم من الذين يكذبون بالآيات فَهُمْ يُوزَعُونَ أى يحبسون، حتى يجتمعوا جميعا من «وزع» بمعنى «حبس» فإن أول الفوج يحبسون لآخر الفوج، حتى يجتمع الجميع.

[٨٥] حَتَّى إِذَا جَاءُوا إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ أَمْ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَ الْحَالُ أَنْكُمْ لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا؟ أى كيف كذبتهم و ليس لكم علم بكذبها؟ و حيث إن المقام مقام أن يكذب الكفار قائلين لم نكذب بها، يأتي السياق ليقول لهم ثانيا- سادا عليهم طريق الإنكار- أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنْ لَمْ تَكُونُوا كَذَّبْتُمْ بِالْآيَاتِ فَمَا ذَا كَانَ عَمَلِكُمْ؟ لكنهم لا يقدرُونَ أن يقولوا كنا نعمل صالحا، و بهذا ينقطعوا عن الجواب، و لا يتمكنون من الإنكار.

[٨٦] وَ وَقَعَ الْقَوْلُ أَى ثَبِتَ الْقَوْلُ الَّذِي قُلْنَا: إِنَّهُمْ يَعَذَّبُونَ جَزَاءَ كَفْرِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالْعَذَابُ يَأْخُذُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَوَارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٨

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَةً كُنُوزًا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصَرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أُنْفُوسٍ دَاخِرِينَ (٨٧)

بِما ظَلَمُوا أَى بسبب ظلمهم فَهُمْ لَا- يَنْطِقُونَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ، و إن نطقوا في المواقف الأخر، و في جملة من الأحاديث تفسير «يوم نحشر»- إلى آخره- بزمان ظهور المهدي عليه السّلام، و ذلك من باب المصداق، فإن اللفظ عام مستعمل في الأمرين، القيامة، و ظهور الإمام عليه السّلام و إن لم نقل بالعموم و المصداق، نقول إنه من باب البطن، أو من باب استعمال اللفظ في أكثر من معنى و ذلك جائز لدى وجود القرينة، و القرينة هي الروايات المفسرة.

[٨٧] أَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرُونَ لِلْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ، آيَاتِنَا الدَّالَّةُ عَلَى وَجُودِنَا، وَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى إِلَهٍ عَليمٍ حَكِيمٍ، وَ تَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ، الَّتِي لَا- يَمْتَنِعُ لَدَيْهَا إِحْيَاءُ الْأَمْوَاتِ؟ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ أَى أَوْجَدْنَاهُ لَيْسَةً كُنُوزًا فِيهِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَ التَّعَبِ وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مُبْصَرًا أَى مَوْجِبًا لِبَصْرِ الْإِنْسَانِ، وَ هُوَ مِنَ الْمَجَازِ بِنِسْبَةِ مَا لِلْحَالِ إِلَى الزَّمَانِ، نَحْوُ «يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ»، كَمَا أَنَّ جَرَى النَّهْرِ، مِنْ نِسْبَةِ مَا لِلْحَالِ إِلَى الْمَكَانِ إِنْ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَسْتَدْلُونَ مِنْهَا عَلَى وَجُودِ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ، وَ الْاِخْتِصَاصِ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِي يَسْتَدْلُونَ، أَمَا غَيْرُهُمْ، فَإِنَّهُمْ مَعْزُوفُونَ غَافِلُونَ.

[٨٨] وَ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ هُوَ الْبُوقُ الَّذِي يَشْبَهُ قَرْنَ الْبَقَرِ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٢٩

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٨٨ الى ٨٩]

وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فَرْعٍ يُؤْمِنُونَ (٨٩)

فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَن فِي الْأَرْضِ أَى خَافُوا جَمِيعًا مِنْ هَوْلِ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يَفْزِعَ وَ هُمْ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ وَ بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ وَ كُلُّ مِنَ الْأَمْوَاتِ الَّذِينَ أَحْيَا مِنْ النَّفْخِ أُنْفُوسَهُمْ أَى يَأْتُونَ الْمَحْشَرِ، أَوْ يَأْتُونَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ- وَ الْمَرَادُ مِنْ إِيْتَانِ اللَّهِ الْإِيْتَانِ إِلَى الْمَوْضِعِ الْمَعْدِ لَهُمْ، نَحْوُ إِيْنِي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي- دَاخِرِينَ أَى أَذْلَاءَ صَاغِرِينَ، مِنْ دَخَرٍ بِمَعْنَى ذَل.

[٨٩] وَ تَرَى الْجِبَالَ أَيُّهَا الرَّائِي، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فِي حَالِ كَوْنِكَ تَحْسَبُهَا وَ تَنْظُرُهَا جَامِدَةً فِي مَكَانِهَا، كَالسَّابِقِ، وَاقِفَةٌ غَيْرَ مُتَحَرِّكَةٍ، وَ

الحال أنها وَهِيَ تَمُرُّ وَ تَسِيرُ مَرَّ السَّحَابِ أَى مثل مرور السحاب سيرا حثيثا سريعا، وَ قد صار الكل كالقطن المندوف، إن قلع الجبال وَ تسييرها إنما هو صُنْعُ اللَّهِ مَنْصُوبٌ عَلَى المَصْدَرِ أَى صنع الله ذلك صنعا الَّذِي أَتَقَنَّ كُذِّبَ شَيْءٌ فَأَتَقَنَّ أَهْوَالَ المعاد بقلع الجبال وَ تسييرها، كما أَحْيَى الأموات وَ جعلهم هائمين يسيرون فى فرع وَ خوفٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ أَى عالمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ فيجازيكم عليها.

[٩٠] مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ المَرَادُ بها الجنس وَ هو الإيمان وَ العمل الصالح، نحو «رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فى الآخِرَةِ حَسَنَةً» فإن المَرَادُ بهما الجنس أيضا فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا أَى يضاعف ثوابها عشرة أضعاف أو أكثر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٠

[سورة النمل (٢٧): الآيات ٩٠ إلى ٩٢]

وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَتْ وَ جُوهُهُمْ فى النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢)

وَ هُمْ أَى الذين جاءوا بالحسنة مِنْ فِرْعَوْنَ وَ خوفٍ يَوْمَئِذٍ أَى يوم القيامة آمِنُونَ فلا يفرح المؤمن حيث يفرح الناس.

[٩١] وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وَ المَرَادُ السَّيِّئَةُ الكاملة التى لا حسنة معها، وَ هى الكفر وَ المعاصى، حتى صَحَّ أَنْ يَقَالَ: إنه جاء بالسَّيِّئَةِ فَكَبَتْ الكِبُّ هو الإلقاء منكوسا وَ جُوهُهُمْ فى النَّارِ أَى ألقوا على وجوههم فى النار، وَ يقال لهم هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ استفهام فى معنى النفسى، أَى ليس هذا إلا جزاء أعمالكم من الكفر وَ العصيان.

[٩٢] قل يا رسول الله لهؤلاء الكفار بعد تهديدهم بالعذاب إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنَا بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ أَى رب مكة، لا الأصنام التى نحتّموها بأيديكم الَّذِي حَرَّمَهَا أَى الله الذى حرم هذه البلدة بأن جعلها محترمة لا يحل فيها القتال، أو الدخول بدون الإحرام، أو الإتيان ببعض الأعمال كتغير الصيد و قلع الشجر و نحوهما وَ لَهُ أَى الله كُلُّ شَيْءٍ بيده وَ أَمْرُهُ مِنْ قَبْلِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ هذا لا- يدل على عدم كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مسلما فيما قبل، إذ الأمر قد يكون للابتداء، وَ قد يكون للاستدامة نحو:

«أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ».

[٩٣] وَ أَمْرُهُ أَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَقْرَأَهُ عَلَى مَسَامِعِكُمْ وَ أَدْعُوكُمْ لِمَا فِيهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣١

[سورة النمل (٢٧): آية ٩٣]

وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَّرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

فَمَنْ اهْتَدَى إِلَى الحق وَ عمل بما فيه فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ فَإِنْ فَائِدَةُ هِدَايَتِهِ تَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ حيث تسعد فى الدنيا وَ الآخرة وَ مَنْ ضَلَّ عَنِ الْقُرْآنِ وَ انحرف عن أحكامه وَ أوامره فَقُلْ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ ضَلَلْتُكَ لَا يَعُودُ إِلَيَّ فِى إِذْنِ أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ الذين يخوفون من عذاب الله، وَ قد خوفتك، فعدم عملك إنما يعود سيئه عليك.

[٩٤] وَ قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانِى وَ جعلنى منذرا سَيَّرِيكُمْ أَيها الناس آيَاتِهِ بإفباتكم إليها، أو إيجادها لترونها فَتَعْرِفُونَهَا بِأَنَّهَا آيَاتُ اللَّهِ وَ الأدلة على وجوده وَ سائر شؤونه وَ مَا رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أَيها الناس، وَ فى هذا التفات من المخاطب إلى غيره من سائر الناس لأن «كاف» تعود إلى الرسول وَ «تعملون» إلى الناس.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٢

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على قصص موسى عليه السلام مع فرعون، و شعيب عليه السلام وقارون و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة و لما ختمت سورة النمل بتلاوة الرسول للقرآن، جاءت هذه السورة مفتحة بتلاوة بعض قصص القرآن، و هي قصة موسى و فرعون.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله الذي يستعان به في كل حاجة، و هو الرحمن المتفضل بالرحم، الرحيم الذي يرحم العباد، بل كل شيء، كما قال سبحانه (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) «١» فإن الرحم هو التفضل، و قد تفضل سبحانه على الأشياء حيث خلقها من غير استحقاق و إن كان فضله على الإنسان أكثر حيث إنه كلما زادت النعم زيد الفضل.

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٣

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)

[٢] طسم «طاء» و «سين» و «ميم».

[٣] تِلْكَ أى من هذه الحروف الهجائية التي تركيبون منها كلماتكم أيها العرب العاجزون عن الإتيان بمثل القرآن آيات الكتاب المبين أى الظاهر الواضح الذي لا غموض فيه، فإن الكتاب قد يكون سرياً، غير واضح، و قد يكون غامضاً غير ظاهر المعنى و المراد، و قد يكون غير معلوم الانتساب، و كل ذلك مفقود في القرآن الحكيم، و في مقطعات السور، و إعرابها أقوال آخر تقدم بعضها.

[٤] نَتْلُو أى نقرأ عَلَيْكَ يا رسول الله مِنْ نَبَأِ أى خبر مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ أى بعض أطراف خبرهما، و لذا دخلت «من» بِالْحَقِّ أى بالصدق، فإن خبر الله سبحانه عنهما حق لا كذب فيه لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى أن ما نتلو عليك إنما هو لقوم مؤمنين أما غيرهم فلا يعتبرون بالقرآن، و لا يصدقون ما فيه من القصص و الأحكام.

[٥] إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا أى ترفع و تكبر في الأرض و المراد بها أرض مصر وَ جَعَلَ أَهْلَهَا أهل أرض مصر شِيَعًا أى طوائف، جمع شيعه، و هي الطائفة التي تتبع مسلماً خاصاً، من شايعه إذا تابعه، و هذا دأب الطغاة دائماً، إذ لو لم يجعلوا الناس طوائف متناحرة، حتى يشتغل بعضهم ببعض، خافوا من أن يتحدوا ضدهم في حال كونه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٤

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥ الى ٦]

وَ نُريدُ أَنْ نُمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَ نُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

يَسْتَضَعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ و المراد بهم بنى إسرائيل، فقد كان بعضهم ضعيفاً في مصر، و لذا يؤذيهم و يسخرهم في الأعمال الشاقة، و يفعل بهم ما ذكره سبحانه يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ إنما جرى من باب التفعيل للدلالة على التكثير، فإن هذا الباب يدل على ذلك، فإن فرعون كان يكثر القتل في أبناء إسرائيل، حينما سمع بأن زوال ملكه على يد رجل منهم يولد في ملكه، فقد و كل بكل حامل إسرائيلية قابلة حتى إذا ولدت أخبرت الجلادين فيأتون و يقتلون الولد وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ أى يبيهن أحياء، كأنه يطلب حياتهن لاستخدامهن في البيوت إِنَّهُ أى فرعون كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ الذين يفسدون في الأرض بالكفر و المعاصي و الظلم.

[٦] إن فرعون كان يريد إهلاك بنى إسرائيل و إفنائهم وَ نُريدُ نحن بعكس ذلك، و جرى بفعل المضارع لأنه حكاية عن ذلك

الوقت أن نؤمن على الذين استضعفوا في الأرض أي بنى إسرائيل الذين استضعفهم فرعون ونجعلهم أئمة في الحق، بأن يكونوا مقتدى الناس و ملوكهم ونجعلهم الوارثين لفرعون بأن يرثوا الأرض، و يكونوا خلفا لهم.

[٧] وَتُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَي نَجْعَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٥

[سورة القصص (٢٨): آية ٧]

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) يتصرفوا في أرضي كيفما شاءوا وَ نُرِي فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ زَيْرَهُ وَ جُنُودَهُمَا مِنْ سَائِرِ الَّذِينَ تَعَاوَنُوا مَعَهُمَا عَلَىٰ إِبْدَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ أَي مِنْ طَرَفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ، مَا كَانُوا يَخَافُونَ مِنَ الْإِفْنَاءِ وَ الْإِبَادَةِ، وَ قَدْ أَصْدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ فَأَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا، وَ جَعَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُلُوكَ الدُّنْيَا وَ سَادَتَهَا، وَ بَعَثَ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ.

وقد ورد في جملة من الأحاديث تطبيق الآيتين الكريميتين على الشيعة و الأئمة عليهم السلام، و أعدائهم «١»، و هذا مما لا مجال للشك فيه، فإن آيات القرآن الحكيم دائما مدى الدهر، تجرى في اللاحقين كما جرت في السابقين، كما دل على ذلك العقل، و ورد به روايات كثيرة.

[٨] ثم بين سبحانه كيف نصر بنى إسرائيل و كيف أهلك فرعون و جنوده وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ وَ الْإِيحَاءَ هُوَ الْإِلْقَاءُ فِي الْقَلْبِ، وَ نَحْوَهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا) «٢» وَ قَوْلُهُ (وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخِيلِ) «٣» أَنْ أَرْضِعِيهِ أَي أَعْطَاهُ اللَّبَنَ فِي الْفَتْرَةِ الَّتِي لَمْ تَخَافِي عَلَىٰ مُوسَىٰ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ، وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ، الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنْ ذَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ الصَّوْتُ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ أَي اطْرَحِيهِ فِي الْبَحْرِ، بِجَعْلِهِ فِي

(١) مشكات الأنوار: ص ٩٥ فصل ٥.

(٢) المائدة: ٣٢.

(٣) النحل: ٦٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٦

[سورة القصص (٢٨): آية ٨]

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)

صندوق و إلقائه فيه وَ لَا تَخَافِي عَلَيْهِ الْغُرُقَ وَ الْهَلَكَ وَ لَا تَحْزَنِي لِمَفَارِقَتِهِ إِنَّا رَادُّوهُ أَي نَرُدُّ مُوسَىٰ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ أَي نَجْعَلُهُ فِيْمَا بَعْدَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: وَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرَانِ وَ نَهْيَانِ وَ خَيْرَانِ وَ بَشَارَتَانِ، وَ حَكَى إِنْ بَعْضُهُمْ سَمِعَ بِدْرِيَهُ تَنْشُدُ آيَاتًا فَقَالَ لَهَا مَا أَفْصَحَكَ؟ فَقَالَتْ الْفَصَاحَةُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَ ذَكَرَتْ هَذِهِ الْآيَةَ وَ مَا فِيهَا «١».

[٩] فولدت أم موسى بموسى عليه السلام، و جعلته في صندوق و ألقته في البحر، و قالت لأخت موسى اذهبي في أثره حتى ترين ماذا يصنع به، و جاء الصندوق تحمله الأمواج حتى ألقته في شط يمر بدار فرعون، فَالْتَقَطَهُ أَي أَخَذَهُ آلُ فِرْعَوْنَ أَي حَاشِيَتُهُ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا هَذِهِ «اللام» تسمى لام العاقبة، لأنها بمعنى «كى تكون العاقبة» و ليست للعلة، نحو قوله «للقتل ما ولدوا للنهب ما جمعوا» أى كانت عاقبة الالتقاط أن يكون موسى لهم عدوا، و موجبا للحزن، لما كان الكلام موهما تعدى موسى عليهم، قال سبحانه إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا الَّذِينَ تَصَافَقُوا عَلَىٰ إِذْلَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا خَاطِئِينَ قَدْ أَخْطَأُوا حَيْثُ اخْتَارُوا الْكُفْرَ وَ الْعِصْيَانَ، عَلَى الْإِطَاعَةِ وَ الْإِيمَانِ، وَ لِهَذِهِ الْخَطَأِ صَارَ مُوسَىٰ عَدُوًّا لَهُمْ، وَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص ٤١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٧

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٩ الى ١٠]

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)

[١٠] ولما جرى بموسى من الصندوق إلى فرعون و كان جالسا مع زوجته «آسية» أمر بفتح الصندوق، و إذ ما رأيا فيه غلاما ألقى الله محبته فى قلبهما، كما قال سبحانه (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) «١» ثم أراد فرعون قتله لأنه علم أنه إسرائيلى، و لكن «آسية» حالت دون ذلك و قالت امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ أيها الملك إنه قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ أى يوجب هذا الولد قرار عيوننا، فإن الإنسان المسرور تفر عينه فى مكانها، فلا- تطير هنا و هناك طالبة المفزع و الملجأ، بخلاف الإنسان الواله و الخائف، و لم يكن لهما ولد و لذا طمعت فى أن يكون موسى كالولد لهما. لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أى لعله ينفعنا فى المستقبل، بأن نستخدمه أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا أى نجعله بمنزلة ولدنا و هُم لَا يَشْعُرُونَ إن هلاكهم على يده، و

قد روى عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إنه لو أقر فرعون بأن يكون له قره عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها. [١١] فلنرجع إلى أم موسى كيف صنعت بعد ما أَلْقَتْ طفلها فى البحر و أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا أى خاليا من الاتزان كالإناء الفارغ الذى لا شىء فيه، لما دهمتهما من المصيبة و الغم بفقد ولدها، كيف أَلْقَتْ به فى اليم؟ و كيف صنعت به هذا الصنع العجيب؟ و هل الولد فى حزن الأم يخشى عليه، أما فى اليم فلا يخشى عليه؟ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ

(١) طه: ٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٨

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١١ الى ١٢]

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَيْلٌ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)

و «إن» مخففة، و اسمها محذوف، أى أنها- و المراد أم موسى- كادت و قربت أن تظهر للمجتمع قصة ابنها، كما هو شأن النساء، إذا فجعن بفقد عزيز ينقلن الأمر للناس، ليجدن من يساعدهن فى الغم و المصيبة لولا أن رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا بأن حفظناه حتى لا يظهر ما فيه من الهم و الألم، و لا- تنتقل القصة إلى اللسان لتذيعه فى الناس، و قد شبه قلبها بشىء لا يستقر، فإذا ربط عليه برباط، استقر و لم يتحرك لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فإن إخبارها كان خلاف تصديقها بوعده الله «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ» فربطنا على قلبها، لتكون من المصدقين بوعدها، فإن ربط القلب بالثبات و الصبر كان سببا لإيمانها، و إلا فلو اضطرب قلبها و أبدى ما فيه لم تكون مصدقة بالوعد.

[١٢] وَقَالَتْ الْأُمُّ لِأُخْتِهِ أى أخت موسى، و كانت صغيرة قُصِّيه أى اتبعى أثر موسى لئرى ماذا يصنع به البحر؟ من قص إذا اتبع الأثر، و منه سميت القصة قصة، لأنها تتبع المقصوص عنهم، و جاءت الأخت حتى دخلت دار فرعون، و كان كبلاط الملوك فى السابق يدخل فيها كل أحد فَبَصُرَتْ الْأَخْتُ بِهِ أى بموسى عَنْ جُنْبٍ أى عن بعد، فإنها لم تدن، لئلا- تعرف و هُم أى فرعون و أهله لا يَشْعُرُونَ بأنها أخت موسى، و جاءت لاستقاء الأخبار.

[١٣] و لما كان موسى طفلا، لم يصبر عن الثدي، و أخذ يطلب اللبن، فأمر فرعون بأن تُوَجَّر له مرضعة، و جاءت النساء لتحوز هذا الفخر و لكن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٣٩

[سورة القصص (٢٨): آية ١٣]

فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

موسى أبى أن يقبل ثدى امرأة إطلاقاً وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ جَمْعَ مَرْضَعَةٍ، أى منعنا موسى عن الارتضاع من ثديهن، فلم يكن يميل إليهن، بل تأبى نفسه من الارتضاع منهن مِنْ قَبْلُ أى من قبل أن يؤتى بهن، وذلك بجعل نفسه أبيه عنها.

فَقَالَتِ الْأَخْتُ وَكَانَتْ تَشَاهِدُ الْقِصَّةَ هَيْلٌ أَدُلُّكُمْ أُرْشِدَكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ عَائِلَتِهِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ يَقْبَلُونَ أَنْ يَرْضَعُوا مُوسَى وَيَقُومُوا بِخِدْمَاتِهِ لِأَجْلِكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ أى تلك العائلة ناصحة لموسى لا تدخر جهداً فى القيام بخدماته؟

[١٤] وقد قبل فرعون ذلك و ذهبت الأخت إلى الأم و حكّت لها القصة و جاءت الأم إلى بيت فرعون و لما أرضعت موسى قبل موسى الشدى بكل إصرار و شوق و سر فرعون و أهله بقبول موسى فَرَدَدْنَاهُ أى أرجعنا موسى إلى أمه حسب ما وعدناها «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ» كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا أى لأجل أن تسر و تفرح فتقر عينها عن الحركة و الاضطراب- كما تقدم- وَ لَا تَحْزَنَ عليه فى مقابل ما سبق منها حيث قال سبحانه «وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا» وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَقَدْ وَ فى سبحانه بوعدده حيث أرجع إليها ابنها وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أى أكثر الناس لا يَعْلَمُونَ أن وعد الله حق، و يظنون أن مواعيده تخلف، و ليس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٠

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١٤ الى ١٥]

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتِغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥)

هكذا، فإن الله سبحانه لا يخلف الميعاد.

[١٥] و كبر موسى عليه السلام فى بيت فرعون يخلف إلى أمه فتفرح به وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ قد ورد عن الصادق عليه السلام: إن المراد بلوغه ثمانية عشر سنة «١» وَ اسْتَوَىٰ أى اعتدل قوامه آتَيْنَاهُ أى أعطيناه حُكْمًا بأن يحكم الناس، فإن منصب الحكم خاص بالله سبحانه لا يجوز لأحد أن يستقل به إلا بإذنه سبحانه وَ عِلْمًا أى علمناه علم الأشياء مما يليق بمقام النبوة وَ كَذَلِكَ أى و كما جازينا موسى لصلاحه بهذا المنصب الخطير كذلك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى عقيدتهم و عملهم، بإعطائهم أجورهم.

[١٦] وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ أى مدينة من مدائن مصر عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا أى فى وقت غفلة الناس عن تتبع الأمور وَ قد ورد أنه كان بين المغرب و العشاء، فإن فى هذه الساعة حيث يسدل الظلام ستاره و الناس من حال إلى حال يكونون غافلين، غير ملتفتين إلى ما يقع فَوَجَدَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا أى فى تلك المدينة رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ أى يختصمان، و لعل المراد القسم الخاص من الاختصام، و هو ما يؤدى إلى القتل هذا أى أحدهما مِنْ شِيعَتِهِ شِيعَةُ مُوسَىٰ، وَ قد كان إسرائيلياً وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ أى من جملة أعدائه- و المراد بالعدو

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٢٨٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤١

[سورة القصص (٢٨): آية ١٦]

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)

الجنس- فإنه كان قبطياً فَاسْتِغَاثَهُ أى استغاث و استجار بموسى الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ وَ هو الإسرائيلي عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ بأن ينصره عليه و يعينه فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ أى دفع القبطى بالوكز و هو اللكم، بجمع الكف فَقَضَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ أى أهلكه و أماته، ثم قال موسى عليه السلام غاضبا على القبطى المقتول هذا الاختصام منه للإسرائيلى مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فإنه هو الذى أمره بالاختصام فيما لم يكن له الحق، حتى

يؤدي به إلى هذه الحالة إنه أي الشيطان عدو للإنسان مُضِلٌّ مُبِينٌ واضح العداء والإضلال، وقد أضل القبطى حتى سب له القتل. [١٧] ولما قتل القبطى خاف من مكر فرعون وأن يقتص منه، ولذا تضرع إلى الله سبحانه فى أن يستر له هذا الأمر حتى لا يؤخذ به عند فرعون قال موسى عليه السلام، مناجيا، يا رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي و الظلم هو وضع الشيء فى غير موضعه، ومنه يسمى التعدى ظلما، إذ هو أن يعمل الإنسان ما لا ينبغى، والمعنى إنى وضعت نفسى فى غير موضعها حيث جئت إلى هذه المدينة التى سببت لى هذه المشكلة فَأَغْفِرْ لى الغفران هو الستر، ومنه تسمى المغفرة مغفرة لأنها تستر الذنب، والمعنى فاسترنى من كيد فرعون فَعَفَّرَ اللهُ لَهُ بأن ستره عن كيد فرعون، وإن اطلع عليه، لكنه لم يتمكن أن يقتص منه إنه سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٢

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١٧ إلى ١٨]

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) هُوَ الْغَفُورُ السَّاتِرُ كَثِيرًا الرَّحِيمُ الَّذِي يَرْحَمُ النَّاسَ وَيُفَضِّلُ عَلَيْهِمُ.

[١٨] وهناك شكى موسى ربه وقال يا رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ أى بما تفضلت على من القوة حتى تمكنت من قتل بعض أعدائك فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا و ناصرًا لِلْمُجْرِمِينَ و إنما سمي الناصر ظهيرا لأنه يأخذ ظهره فى مقابل الأعداء والمعنى أنى أشكر نعمة قوتك لى بأن لا أصرفها فى مناصرة المجرمين.

[١٩] و شاع قتل موسى للقبطى فَأَصْبَحَ موسى فى الْمَدِينَةِ التى قتل فيها القبطى خائفاً من كيد فرعون يَتَرَقَّبُ أى ينتظر الأخبار حتى يعرف إلى أى مدى أثر هذا القتل، و ماذا يفعله القوم من عقاب موسى، و مرّ على مكان فى المدينة فإذا به يرى الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ أى الاسرائيلى الذى طلب نصره موسى بِالْأَمْسِ فى حين كان يختصم مع القبطى يَسْتَصْرِخُهُ أى يطلب من موسى أن ينصره على قبطى آخر تخاصم معه، والمعنى أن الاسرائيلى يختصم مع شخص آخر و يطلب من موسى أن ينصره على عدوه كما نصره بالأمس على ذلك القبطى المقتول قال له أى للاسرائيلى موسى عليه السلام محذرا له عن المخاصمة مع القبط الذين هم من الكثرة بمكان إِنَّكَ أَيُّهَا الاسرائيلى لَغَوِيٌّ أى ظاهر الغواية و الخسران إذ من يقاتل كل يوم قبطيا فى حكومتهم يخسر- بالآخرة- و يقع فى كيدهم، و الغواية كما تطلق على العاصى لأنه خسر الآخرة، كذلك تطلق على من يأتى بما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٣

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١٩ إلى ٢٠]

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَلَمْ تَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) لا يحمد عقباه، لأنه يخسر الدنيا مُبِينٌ أى ظاهر الغواية.

[٢٠] و استعد موسى لتبليه الطلب و أن ينصر الاسرائيلى على القبطى فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ موسى عليه السلام أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا أى بالقبطى الذى هو عدو لموسى و للاسرائيلى، ظن الاسرائيلى أن موسى يريد أن يبطش به، لا بالقبطى، حيث سبق منه أن قال «إنك لغوى» قال يا موسى أَلَمْ تَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ حيث قتلت ذلك القبطى؟ قاله على نحو الاستفهام الإنكارى، و من المحتمل إن هذا قول القبطى حيث اشتهر الخير و عرف أن موسى هو قاتل القبطى إِنْ تُرِيدُ أى ما تريد إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا و هو الظالم، و سمي جبارا، لأنه يجبر الناس على المكروه فى الْأَرْضِ كأن الإتيان بهذا اللفظ هنا لزيادة التشنيع، فليس جبارا فى مدينه، أو محل خاص، و إنما جبارا فى الأرض وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ يَا موسى مِنَ الْمُصْلِحِينَ الذين يصلحون بين الناس، و هذا تأكيد للجملة

السابقة، فتلك عقد إيجابي و هذا عقد سلبي.

[٢١] و إذ قد انتشر خبر قتل موسى رجلا من القبط اتمر فرعون برجاله و قرروا قتل موسى قصاصا لما فعل و جاء رجُلٌ قد ورد أنه كان خازن فرعون و كان مؤمنا بموسى يكتب إيمانه تقيهُ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٤

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢١ الى ٢٢]

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) أى آخرها يشيعى أى يسرع ليصل إلى موسى لئلا يلحقه القبض قبل إعلامه بالواقعة قال يا موسى إن المَلَأَ أى الأشراف، و هم فرعون و حاشيته يَأْتِمِرُونَ بِكَ أى يتشاورون فيك، و يأمر بعضهم بعضا لِيَقْتُلُوكَ قصاصا فَأَخْرَجَ من هذه المدينة إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ و كأن الله سبحانه شاء ذلك لموسى حتى ينضح، فإن الرئيس يحتاج إلى أكبر قدر من النضح حتى يتمكن من إدارة الأمة.

[٢٢] فَخَرَجَ موسى عليه السَّلام مِنْهَا من مصر خائفاً عن أن يلحقه الطلب يَتَرَقَّبُ خلفه هل يأتى ورائه أحد أم لا، من المراقبة و هى ملاحظته الأمر لثلاث- يقع ما يحذر الإنسان قال ضارعا إلى الله سبحانه يا رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان، و هم فرعون و آله.

[٢٣] وَ لَمَّا تَوَجَّهَ موسى عليه السَّلام تَلْقَاءَ أى حذاء و مقابل مَدْيَنَ أى صرف وجهه نحو «مدین» شعيب و هى مدينة سميت باسم أول من مدنها و هو «مدین بن إبراهيم» و لم تكن تلك المدينة تحت سلطان فرعون و كان بينها و بين مصر ثلاثة أيام- كما ورد- قال عَسَى رَبِّي أى لعل الله سبحانه أن يَهْدِيَنِي و يرشدنى سَوَاءَ السَّبِيلِ أى الطريق المستوى الموصل إلى المقصد، بأن لا أضل حيث المتاهة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٥

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَقِيمُونَ وَ وَجِدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرُّعَاءَ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) و الهلاك، و كان هذا دعاء منه بلفظ الخبر.

[٢٤] و طوى الليل و النهار حتى اقترب من المدينة وَ لَمَّا وَرَدَ وصل موسى عليه السلام ماء مَدْيَنَ بئر كانت لهم يستقون منها أنعامهم و مواشيهم وَجِدَ عَلَيْهِ أى على الماء أُمَّةٌ جماعةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَقِيمُونَ أنعامهم و مواشيهم، و حذف مفعول السقى لأنه لا حاجة إليه فى موضوع الكلام وَ وَجِدَ موسى عليه السَّلام مِنْ دُونِهِمْ أى من خلفهم امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ذاد بمعنى منع، أى تمنعان أغنامهما عن الورد على الحوض فقد كرهتا الاشتراك مع الرجال، و أن تختلط مواشيهما بمواشى القوم، فكانتا تنتظران أن يذهب القوم ثم تسقيان الأغنام قال موسى عليه السَّلام لهما ما خَطْبُكُمَا أى ما شأنكما و ما العلة فى عدم إسقاء أغنامكما مع القوم؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي عند المزاحمة مع الرجال حَتَّى يُصْدِرَ من أصدر إذا رجعت عن الماء ماشيتهم الرُّعَاءُ جمع راع، و هو الذى يرعى الماشية، أى ننتظر حتى يرجع الرعاة مواشيهم، فيبقى فضول الماء فى الحوض، فنسقى أغنامنا، ثم اعتذرتا عن إتيانهما و هما امرأتان قائلتين وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لا يطيق أن يخرج و يتولى السقى بنفسه، و لذا نحن نقوم مقامه.

[٢٥] فَسَقَى موسى عليه السلام الغنم لهما أى لأجلهما، بأن ساق الغنم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٦

[سورة القصص (٢٨): آية ٢٥]

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِخْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)

حتى شربت من الحوض، مع مواشى الناس ثُمَّ تَوَلَّى أَى أَعْرَضَ وَرَجَعَ إِلَى الظِّلِّ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، وَجَلَسَ تَحْتَهُ وَهُوَ مَتَعِبٌ جَائِعٌ فَقَالَ يَا رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ أَى إِنِّي فَاقِرٌ مَحْتَاجٌ لِمَا تَنْزَلُهُ إِلَيَّ مِنْ أَقْسَامِ الْخَيْرِ، الطَّعَامِ وَالمَأْوَى وَالكَنْفِ المَطْمَئِنِّ، فَقَوْلُهُ «لِمَا» مَتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ «فَقِيرٌ» وَ«مِنْ خَيْرٍ» لِلْعَمُومِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْغَرِيبَ الْفَقِيرَ الْخَائِفَ يَرِيدُ كُلَّ شَيْءٍ لِيَهْنَأَ وَيَسْتَرِيحَ.

[٢٦] وَقد كَانَتِ البَنَاتَانِ تَرْجِعَانِ كُلُّ يَوْمٍ بَعْدَ مَدَّةٍ، وَقد رَجَعَتَا الْيَوْمَ قَبْلَ المَوْعَدِ المَقْرَرِ، فَتَعَجَّبَ أَبُوهُمَا مِنْ ذَلِكَ وَ سَأَلَ السَّبَبَ؟ فَأَخْبَرَتَاهُ بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا عَلَيَّ بِهِ فَجَاءَتْهُ أَى جَاءَتْ إِلَى مُوسَى إِحْدَاهُمَا وَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّهَا الْكَبْرَى تَمْشِي عَلَى اسْتِخْيَاءٍ أَى مُسْتَحْيَةً كَمَا هِيَ عَادَةُ النِّسَاءِ الْخَفْرَاتِ إِذَا أُرْدِنَ الذَّهَابَ إِلَى رَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ لِلتَّكَلُّمِ مَعَهُ أَوْ مَعَامَلَتِهِ أَوْ نَحْوَهُمَا، وَ لَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مُوسَى قَالَتْ لَهُ إِنَّ أَبِي شَعِيبٌ يَدْعُوكَ أَنْ تَأْتِيَ إِلَيْهِ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا أَى لِيُعْطِيكَ جِزَاءَ سَقِيكَ لِأَغْنَامِنَا، وَ ذَهَبَ مُوسَى مَعَهُمَا فَلَمَّا جَاءَهُ أَى جَاءَ مُوسَى إِلَى شَعِيبٍ وَقَصَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ عَلَيْهِ أَى عَلَيَّ شَعِيبٌ الْقِصَصَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْ قَتْلِ القَبْطِيِّ وَ فِرَارِهِ مِنَ الْقَوْمِ لَمَّا أَرَادُوا قَتْلَهُ وَ سَائِرِ أَحْوَالِهِ فِي مِصْرَ قَالَ شَعِيبٌ لَهُ لَا تَخَفْ بَعْدَ هَذَا، فَقَدْ نَجَوْتَ وَ تَخَلَّصْتَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٧

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سَنَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، يَرِيدُ فِرْعَوْنَ وَ آلِهِ.

[٢٧] قَالَتْ إِحْدَاهُمَا أَى أَحْدَى البَنَاتَيْنِ، وَ

قد ورد إن اسمهما «صفوراء»

«١» يَا أَبَتِ التَّاءُ عَوْضٌ عَنِ الْيَاءِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

وَ فِي النِّدَاءِ أَبَتُ أُمَّتٍ عَرَضَ بَعْدَ النِّدَاءِ وَ مِنَ الْيَاءِ، التَّاءُ عَوْضٌ

اسْتَأْجِرْهُ أَى اتَّخَذْهُ أَجِيرًا، وَ لَعَلَّهَا أَرَادَتْ إِيجَارَهُ لِيَكْفِيَ عَنْهُمَا شَأْنَ السَّقْيِ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ أَى أَنْ خَيْرَ الْأَجْرَاءِ الَّذِي يَكُونُ قَوِيًّا يَتِمَكَّنُ مِنَ الْعَمَلِ، أَمِينًا لَا يَخُونُ الْمُسْتَأْجِرَ، وَ هَذَا تَعْرِيفُ بَأَنَّ مُوسَى قَوِيٌّ أَمِينٌ، كَقَوْلِكَ: قَبْلَ يَدِ زَيْدٍ إِنْ خَيْرٌ يَدِ تَقْبَلُ يَدَ الْعَالِمِ الْوَرَعِ، تَرِيدُ الْعَرِيفُ بَأَنَّ زَيْدًا عَالِمٌ وَرَعٌ،

قال الإمام الكاظم عليه السلام قال لها شعيب يا بني هذا قوی قد عرفته برفع الصخرة، و الأمين من أين عرفته؟ قالت: يا أبت إنني مشيت قدماه فقال: امشي من خلفي فإن ضللت فأرشدني إلى الطريق فإننا من قوم لا ننظر في أدبار النساء.

«٢».

[٢٨] قَالَ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا عَرَفَ مُوسَى إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ أَى أَزْوَجَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَيْتَ سَوَادَهُمَا عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٥٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٨

[سورة القصص (٢٨): آية ٢٨]

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيِّتُ فَلَا عُذْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

أى تكون أجيرى، فإن الأجير يؤجر نفسه للمستأجر فى مقابل ثمن يأخذه، و الثمن هنا كان تزويج البنت، فقد جعل شعيب عليه السلام مهر بنته عمل موسى عليه السلام له ثمانين حجاج جمع حجة، و هى العام أى تعمل لى ثمان سنوات، و ثمان حجج ظرف زمان، أى تكون أجيرى فى هذه المدة فإن أتممت عشرًا بأن عملت لى عشر سنوات، مقابل تزويجى لك ابنتى فمن عندك أى أن السنتين الزائدتين تفضل من عندك، لا واجب عليك، و إن كنت راغباً فى ذلك، و المعنى من عندك تفضلاً لا من عندى إلزاماً و ما أريد أن أشق عليك فى هذه السنوات الثمان، بأن أكلفك ما يشق عليك من الخدمة ستجدنى يا موسى لى معاشرتك لى إن شاء الله من الصالحين فى السيرة و المعاشرة، و قيل للصالح صالح، لأنه يصلح للدنيا و الآخرة، ثم إن الظاهر من الآية كون ذلك كان جائزاً فى شريعته شعيب، بأن يكون المهر للأب، و يحتمل أن يكون «على» بمعنى الشرط، و إنما كان المهر شيئاً آخر، و على أى حال فقد كان ذلك لموسى عليه السلام نعمه كبرى حيث يجد الزوجه، و الأهل و المأوى، و المعيشة، و قد ورد أن موسى و فى أبعد الأجلين، و إنها كانت هى التى ذهبت تدعوه إلى أبيها.

[٢٩] قال موسى عليه السلام فى جواب شعيب ذلك التزويج، بمقابل عشر

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٤٩

[سورة القصص (٢٨): آية ٢٩]

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَدُوءٍ مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)

سنوات بينى بأن أعمل أنا و بينك بأن تزوج أنت، و كأن هذه الجملة لإبرام العهد، بمعنى أنا لا نخرج عن ذلك الذى قلنا، إذ لو خرج أحدهما عن الشرط فكأنه لم يصير بين الطرفين، و إنما طرف مربوط بالموفى، و طرف آخر مقطوع لا يرتبط بأحد أيما الأجلين أى المدتين و هما ثمان، و عشر سنوات فصيت و عملت بطبقه فلا عُذْوَانَ عَلَيَّ أى ليس ظلم على بأن أكلف أكثر من ذلك الذى أريد، و لا- أطالب بالزيادة و الله على ما نقول و كيل أى نكله فى أن يشهد المعاهدة بيننا، حتى نعلم أنه وسط و شاهد، فمن أراد الخلف كان خلفاً مع الله، إذ هو الموكل فى الأمر، حسب توكيلنا له.

[٣٠] و تزوج موسى عليه السلام بالبنت، و خدم شعيب عشر سنوات فلما قضى موسى الأجل و وفى بما وعد من خدمته شعيب، هاجت به العاطفة نحو أمه التى خلفها فى مصر، فاستأذن شعبياً أن يزور أمه، فأذن له، فخرج من «مدين» و سار بأهله أى مع زوجته، و لعلهما كانا يسيران فى اختفاء لثلا يظفر بهما فرعون، و فى ذات ليلة إذ الهواء بارد، و الليلة مظلمة، أخذ زوجته الطلق، فاحتاج إلى الغذاء و التدفئة و حينذاك آنس أى رأى ما يوجب الأنا، و هو اطمئنان النفس و فرحها من جانب الطور و هو صحراء فى الشام ناراً تشتعل، فسر بذلك لأنه قصد أن يذهب إليها، ظاناً إن لها أهلاً، فيستعين بهم فى حل مشكلته قال موسى عليه السلام لأهله أى لزوجته امكثوا أى الزموا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ١٩٩

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٣٠ إلى ٣١]

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ

فَلَمَّا رَأَاهَا تَهَتَّرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)

مكانكم لا تسيروا منه، حتى إذا رجعت لا أضل محلکم، والإتيان بضمير الجمع لقصد الاحترام، كما هو الشائع في كلام المتأدبين. إِنِّي أَنشَأْتُ نَارًا أَرَى هُنَاكَ نَارًا تَشْتَعَلُ، أذهب إليها لعلِّي آتيتكم منها أي من النار بخبرٍ لنذهب إلى أهلها، ونستعين بهم في أمرنا، أو نسترشدهم الطريق أو آتيتكم بحدوة أي قطعة من النار إذا لم يمكن السير إليها، لمحدور كعدم حسن الطريق أو ما أشبه لعلكم تصطلون أي تستدفنون بها.

[٣١] فَلَمَّا أَتَاهَا أَي وصل موسى قرب النار نُودَى والمنادى هو الله سبحانه، بأن خلق الصوت فسمعه موسى عليه السلام من شاطئ أي جانب الواد الأيمن صفة للشاطئ، أي الجانب الأيمن من وادي سيناء في البقعة المباركة أي القطعة من الأرض التي بورت بنزل الوحي فيها من الشجرة التي كانت ثابتة هناك أن يا موسى بيان ل «نودي» أي كان النداء هو؛ يا موسى إِنِّي المتكلم معك أنا الله رَبُّ الْعَالَمِينَ أي خالقهم ومربيهم.

[٣٢] وَأَنْ أَلْتِي عَصَاكَ أَي اطرحها على الأرض من يدك، وقد ورد أن عصاه كانت من الجنة، وأعطاه شعيب له حينما أراد السفر، فألقاها موسى من يده، وإذا بها انقلبت حية عظيمة تسرع في الحركة والقفز

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥١

[سورة القصص (٢٨): آية ٣٢]

اسْمُكَ يَدُكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢)

فَلَمَّا رَأَاهَا موسى عليه السلام تَهَتَّرُ وتتحرك كأنها جانٌّ وهي الحية السريعة الحركة، وقد كان التشبيه بها- مع إنها كانت كبيرة- لأجل سرعة حركتها، فإن الحية الصغيرة أسرع حركة من الكبيرة- كما قالوا- ولَّى أي أعرض عن الحية، وأخذ يسرع في الهرب منها مُدْبِرًا فقد أعطاها قفاه ووجهه إلى جانب الصحراء، راکضا للفرار منها وَلَمْ يُعَقِّبْ لم يرجع إليها، ولم ينظر، كما هو شأن الخائف الفار، إنه لا يرجع ولا ينظر عقبه، لئلا يلحقه- في هذه الفترة- الطلب وحينذاك نودي يا موسى أَقْبِلْ إلى نحو الحية وَلَا تَخَفْ من ضررها إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ من شرها، فإنها معجزة لك وليست حية تؤذي.

[٣٣] ثم نودي ثانيا اسْمُكَ أَي أدخل يا موسى يَدُكَ فِي جَيْبِكَ أَي في شق ثوبك الأعلى من طرف النحر تَخْرُجُ اليد حين تخرجها بَيْضَاءَ مشرقة كالشمس من غير سوءٍ أَي بدون أن يكون ذلك البياض من قبيل بياض البرص، وإنما قيد بهذا القيد لاعتقاد أن بياض اليد، أو سائر الجسم إنما هو من البرص، وقد ورد إنه إذا أراد إرجاع الحية عصا، أخذها، وإذا أراد إرجاع اليد إلى حالتها السابقة، أدخلها ثانيا في جيبه، فإذا أخرجها صارت كالسابق وَأَضْمُمُ يا موسى إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ وقد أخذ يرتعد ويرتعش من خوف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٢

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٣٣ إلى ٣٤]

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَى حُ مِنْي لِسَانًا فَأَرَسَ لَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصِدُّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤)

الموقف، فنودي أن يضم يديه إلى نفسه كالطائر الذي يضم جناحيه، فإن ذلك موجب لشدة الأعصاب فلا يرتعش الإنسان فالمراد من «جناحك» يدك، ومعنى «من الرهب» لأجل الخوف الذي عرض عليك.

فَذَانِكَ أَي العصا، واليد البيضاء، وإنما جاء بالمذكر باعتبار المشار إليه، وهو «برهان» بُرْهَانَانِ اثنان، و خارقتان تدلان على نبوتك، والكاف في «ذانك» للخطاب من رَبِّكَ أَي من طرفه سبحانه إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ أَي جماعته إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ خارجين عن طاعة الله، ولذا احتيج إلى بعث الرسول إليهم، وترويده بالخارقة ليكون أقرب إلى التصديق.

[٣٤] قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا وَهُوَ الْقَبْطِيُّ الَّذِي قَتَلَهُ حِينَمَا تَخَاصَمُ مَعَ الْإِسْرَائِيلِيِّ فَأَخَافُ أَنْ ذَهَبَتْ إِلَيْهِمْ لِأَدْعُوهُمْ أَنْ يَقْتُلُونِ أَيْ يَقْتُلُونِي قِصَاصًا.

[٣٥] وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَقَدَ كَانَتْ فِي لِسَانِ مُوسَى عَقْدَةً، مِنْ جَرَاءِ أَنْ جَعَلَ الْجَمْرَ عَلَى لِسَانِهِ فِي صِغَرِهِ - فِي قِصَّةِ تَقَدُّمَتْ - وَ قَدْ دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَزِيلَهَا بِقَوْلِهِ: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي» فَأَزَالَهَا سَبْحَانَهُ فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رَسُولًا رَدُّهُ أَيْ مَعِينًا لِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٣

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٣٥ إلى ٣٦]

قَالَ سَيَسْتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (٣٦)

على تبليغ رسالتك، يقال فلان رء فلان، أى ظهره و معينه و ناصره يُصَيِّدُ قَيْدِي فِيمَا أُودِيَهُ مِنَ الرِّسَالَةِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أَيْ يَكْذِبُونِي فِيمَا أَدْعِيهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَ الْخَوْفُ يَطْلُقُ عَلَى الْمَقْطُوعِ، كَمَا يَطْلُقُ عَلَى الْمَشْكُوكِ وَ الْمَظْنُونِ.

[٣٦] قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، فِي جَوَابِ طَلْبِهِ سَيَسْتَشُدُّ عَضُدَكَ أَيْ نَقْوِيكَ بِأَخِيكَ فَنَجْعَلُهُ نَبِيًّا مَعَكَ، وَ هَذِهِ اسْتِعَارَةٌ تَشْبِيهُهَا بِشِدِّ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ إِلَى بَعْضِ الْمَوْجِبِ لِتَقْوِيَةِ الْجَمْعِ حَتَّى لَا يُؤَثِّرَ فِيهَا الْكَسْرُ، وَ نِسْبَةُ الشَّدِّ إِلَى الْعَضُدِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْمَلُ بِيَدِهِ، وَ الْعَضُدُ مَظْهَرُ الْقُوَّةِ فِي الْيَدِ، وَ لَوْ قِيلَ سَنَشُدُّ يَدَكَ، كَانَ بَعِيدًا عَنِ الذَّوْقِ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا أَيْ سُلْطَةً وَ سَيَطْرُقُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ، بِالْحُجَّةِ وَ الْبِرْهَانِ، فَلَا يَصِلُونَ أَيْ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِلَيْكُمَا بِالْإِيذَاءِ بِسَبَبِ مَا تَزُودَانِ بِهِ مِنْ آيَاتِنَا الْخَارِقَةِ كَالْعَصَا، وَ الْيَدِ، وَ غَيْرِهِمَا، وَ هَذَا فِي جَوَابِ قَوْلِ مُوسَى «فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» أَنْتُمْ يَا مُوسَى وَ هَارُونَ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْغَالِبُونَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَ أَتْبَاعِهِ.

[٣٧] وَ رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَهْلِهِ يَخْبِرُهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّارِ، وَ قَدْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُمُ الْأَمْرَ، حَتَّى سَارَا وَ وَصَلَا إِلَى مِصْرَ، وَ أَخْبَرَ هَارُونَ بِقُدُومِ مُوسَى، إِذْ كَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فِي مِصْرَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَ جَعَلَهُ نَبِيًّا، ثُمَّ جَاءَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَيْ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمَهُ مُوسَى وَ أَخُوهُ بِآيَاتِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٤

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٣٧ إلى ٣٨]

وَ قَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)

الدَّالَّةُ عَلَى نُبُوته بَيِّنَاتٍ أَيْ وَاضِحَاتٍ ظَاهِرَاتٍ قَالُوا عَنِ الْآيَاتِ مَا هَذَا الَّذِي آتَيْتَ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَارِقَةِ إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ أَيْ أَنْتَ اخْتَلَقْتَهُ وَ نِسْبَتُهُ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَهٌ أُعْطَاكَ هَذِهِ الْأُمُورَ وَ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي تَقُولُهُ مِنْ وَجُودِ الْإِلَهِ، وَ مَا أُعْطِيْتَهُ دَلِيلًا عَلَى نُبُوتِكَ فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ أَيْ لَمْ يَظْهَرْ فِيهِمْ بِمِثْلِ هَذَا، حَتَّى يَنْقَلُ إِلَيْنَا، وَ نَسْمَعُهُ، فَهُوَ أَمْرٌ جَدِيدٌ مُخْتَلَقٌ.

[٣٨] وَ قَالَ مُوسَى فِي جَوَابِ تَكْذِيبِهِمْ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ فَإِنَّ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَ لَيْسَ افْتِرَاءً، وَ هُوَ هِدَايَةٌ لَا سِحْرَ، وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَ لَوْ كَانَ افْتِرَاءً وَ ضَلَالًا حَالِ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ حَتَّى لَا أَكُونَ سَبِيًّا لِلْإِضْلَالِ وَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ وَ هَذَا تَعْرِيفٌ بِهِمْ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ الْحَسَنَةَ لَنَا لَا لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ أَيْ لَا يَفُوزُوا بِعَاقِبَةِ الدَّارِ، وَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ «وَمَنْ تَكُونُ» تَهْدِيدٌ، يَعْنِي إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا تَكُونُ عَاقِبَتُكُمْ سَيِّئَةً، وَ نِسْبَةُ الْعَاقِبَةِ إِلَى الدَّارِ مِنْ بَابِ النِّسْبَةِ إِلَى الْمَكَانِ مَجَازًا، وَ الْمُرَادُ عَاقِبَةُ الْإِنْسَانِ فِي الدَّارِ، أَوْ الْمُرَادُ آخِرُ الدَّارِ، فَالنِّسْبَةُ حَقِيقَةٌ.

[٣٩] وَ لَمَّا انْقَطَعَ فِرْعَوْنَ عَنِ الْاِحْتِجَاجِ مَعَ مُوسَى التَّفَتَّ إِلَى قَوْمِهِ يَحْفَظُهُمْ عَنِ السَّيْرِ مَعَ مُوسَى وَ يَقْوِيهِمْ لِيَتَّقُوا عَلَى بَاطِلِهِمْ وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٥

[سورة القصص (٢٨): آية ٣٩]

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ (٣٩)

الأشراف من قومي ما علمتُ لكم من إله غيري فلا إله إلا أنا، ثم توجه إلى وزيره هامان فقال فأوقد لي يا هامان على الطين أي أجمع النار و اصنع الآجر، فإن الطين سواء أو قد تحته أو فوقه طبخ و صار أقوى في البنيان فأجعل لي أي ابن لي صيرحاً أي قصرًا عظيمًا مشيدًا من الآجر، ليكون أقوى استحكامًا لعلّي اصعد عليه و أطلع أي أشرف من فوق القصر إلى إله موسى فقد أراد أن يلبس على العوام أن إله موسى في الأرض فإذا صعد الإنسان السطح العالي أشرف عليه حتى يراه و يعرف مزاياه و إنني لأظنه أي أظن موسى من الكاذبين في مقاله أن للكون إلهًا، و أنه رسوله، و الإتيان بلفظ «لأظنه»، للتليس على الناس بأنه منصف حتى أنه لا يقول الكلام الخشن، بل الكلام المنصف المرید العثور على الواقع.

[٤٠] وَاسْتَكْبَرَ هُوَ أَي فرعون و جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ أَي ترفعوا أنفسهم فوق مقدارها بغير الحق أي ترفعوا بالباطل، في مقابل ترفع الإنسان عن الدنيا، فإنه ترفع بالحق و ظنوا بأن لم يكونوا متيقنين بل ظانين أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ فِي الْحَشْرِ حَتَّى نحاسبهم على أعمالهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٦

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٤٠ إلى ٤١]

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١)

[٤١] فَأَخَذْنَاهُ تعظيم للعذاب، و تحقير له حتى كأنه يؤخذ باليد و جُنُودُهُ الذين ظاهروه على الكفر و الطغيان فَنَبَذْنَاهُمْ أَي طرحناهم - بكل مهانة كمن يأخذ جرادته و يطرحها في مهلكة - فِي الْيَمِّ أَي في البحر، و هو البحر الأحمر في مصر الموجود إلى الآن فَاَنْظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو كل من يتأتى منه النظر، و المراد بالنظر الاعتبار و العلم كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان، و هذا تصديق لقوله تعالى (مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) «١».

[٤٢] وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً جمع إمام، أي مقتدون للناس، و نسبة الجعل إليه سبحانه باعتبار أنه خلقهم و هيئ الأشياء و الأسباب لهم، و لم يمنعهم منعا تكوينيا عن أعمالهم يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى النَّارِ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي دَعْوَةٌ إِلَى النَّارِ، و هذا كما يقول الملك «جعلت فلانا مثالا للعصيان و محلا للمتمردين» يريد أنه لم يضرب على يده و لم يأخذه و يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ عن النار، فإنهم يدخلونها أذلاء، كما لم ينصروا هنا عن الغرق، بل أغرقوا في اليم، فليعلم أتباعهم إنهم معذبون في الدنيا و الآخرة.

(١) الأنعام: ١٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٧

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٤٢ إلى ٤٤]

وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبِيِّ إِذْ قَصَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤)

[٤٣] وَ أَتْبَعْنَاهُمْ أَي أردفنا بعقبهم فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً بِأَنَّ أَمْرَنَا الْمُؤْمِنِينَ بِلَعْنَتِهِمْ وَ الْبِرَاءَةَ مِنْهُمْ، و جعلناهم بعداء عن الخير و السعادة طرداء عن الرحمة و يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ فهنا لك لهم القبح و الخزي و العار و المقت و النار.

[٤٤] ثم يأتي السياق ليؤكد سنة الله في إهلاك الكافرين، كما أهلك فرعون و من قبله و لَقَدْ آتَيْنَا أَي أعطينا مُوسَى الْكِتَابَ أَي التوراة مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى حيث كذبوا أنبياءهم، مثل قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم و المراد بإتيان الكتاب: الإرسال، أي كان إرسال موسى بعد إهلاك المجموع المكذبين بَصَائِرَ لِلنَّاسِ أَي في حال كون الكتاب براهين تبصر الناس أمور دينهم و

دنياهم، و إنما أوتى بلفظ الجمع، باعتبار الجمل التي في الكتاب وَهَدَى يَهْدِي إلى الحق وَرَحْمَةً موجبا لرحمة الناس، فإن من عمل بالكتاب يرحمه الله سبحانه لَعَلَّهُمْ أى لعل قوم موسى يَتَذَكَّرُونَ ما أودع فيهم من الفطرة حول الأصول والآداب، فقد أودع في فطرة الإنسان المبدأ والمعاد والرسالة- إجمالاً- كما أودع فيه حسن الأشياء الحسنه و قبح الأشياء القبيحة.

[٤٥] و إنك يا رسول الله إنما تنقل هذه القصص بوحي من الله، و إلا لم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٨

[سورة القصص (٢٨): آية ٤٥]

وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥)

تكن حاضرا في تلك الأزمنة حتى تشاهدها بعينك، ثم تحكيها، و إنما هي دالة على أنك نبي، و إلا فمن أين يعلم من لم يقرأ و لم يكتب و لم يشهد وقت القصة، التفاصيل والمزايا؟ و ما كُنْتَ يا رسول الله بِجَانِبِ الْعَرَبِ أى بجانب الجبل الواقع في طرف الغرب و هو جبل طور الذي كلم الله فيه موسى و أعطاه التوراة إِذْ قَضَيْنَا أى أرسلنا و عهدنا إلى مُوسَى الأَمْرَ بإعطائه الكتاب و الشريعة و ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ الحاضرين في ذلك الزمان مع بنى إسرائيل لتعرف عن مشاهدة قضايا موسى عليه السلام التي تنقلها في القرآن.

[٤٦] و لكن إخبارك إنما هو عن الوحي، و إنما أوحينا إليك لأن الرسل قد انقطعوا، و رجعت الناس إلى الضلالة، فأرسلناك و أوحينا إليك بهذه الأخبار وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا و أجيالا جديدة بعد عهد النبوات السابقة فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أى ابتعد عنهم قضايا تلك الأزمنة السابقة، لأن تطاول عمر الأجيال يستلزم نسيان الأنبياء القديمة التي تدل على نصره الله للأنبياء و إهلاكه للظالمين، فقوله «تطاول» من باب إقامة السبب مقام المسبب، لأن المراد به «نسيان الأمور السابقة».

و حيث أن هذا الجيل المعاصر لك، لا يعلمون الأمور، و ينكرون الألوهية الصحيحة و المعاد و أرسلناك إليهم لتذكرهم، و تذكرتك عن الوحي، و إلا لم تكن أنت مع موسى، و لا مع قومه و ما كُنْتَ يا رسول الله ثَاوِيًّا أى مقيما في أَهْلِ مَدْيَنَ شعيب، حتى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٥٩

[سورة القصص (٢٨): آية ٤٦]

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

تَتْلُوا عَلَيْهِمْ على أهل مكة آياتنا التي سبقت في أهل مدين، حتى تكون أخبارك عن قضايا مدين لأنك شاهدتها بعينك و كنت مقيما في تلك المدينة في زمان شعيب وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ لك و بالوحي نعلمك تلك القضايا حتى تقرأها على قومك حجة على صدقك، و لقاتل أن يقول فمن أين يعلم أهل مكة صدق الرسول؟ و الجواب إنهم يعلمون ذلك باستحضار الأخبار من أهل الكتاب، كما قال (فَسَلُّوا أَهْلَ الذُّكْرِ) (١).

[٤٧] و ما كُنْتَ يا رسول الله بِجَانِبِ الطُّورِ الذى صار موسى فيه نبيا إِذْ نَادَيْنَا موسى فقد كان لموسى ميقاتان، الأول حين أرسل رسولا إلى فرعون و الثانى حين أرسل إليه الكتاب بعد إهلاك فرعون و خروجهم من مصر وَ لَكِن كَانَ إخبارك عن تلك الأحوال رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تفضل بها عليك حيث جعلك رسولا، و على أمتك حيث أرسلك إليهم لِتُنذِرَ قَوْمًا هم أهل مكة، تخوفهم من الكفر و المعاصى ما أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ فإن جيل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ لم يبعث فيهم نبي قبل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ما أودع فيهم من الفطرة فيرجعوا عن غيهم و ضلالهم، بسبب القرآن الهادى لهم إلى ما

(١) النحل: ٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٠

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَّكَافِرُونَ (٤٨)

أودع في فطرتهم.

[٤٨] ثم قال سبحانه إنه لو لا عدم إتمام الحجّة على هؤلاء من قومك لما أرسلناك إليهم، أما حيث إنهم ابتعدوا عن النبوات السابقة، وغمهم الجهل، أرسلناك إليهم ولو لا- أن تُصِيبَهُمْ أَى تصيب قومك مُصِيبَةٌ من العقاب بسبب ما قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ من الكفر والمعاصى فَيَقُولُوا محتجين على الله فى أن عاقبهم بدون إتمام الحجّة: يا رَبَّنَا لَوْلَا أَى هلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا يدعوننا إلى الحق حتى لا نعصى فنستحق العقاب فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ و ما أنزلت و أمرت و نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و جواب «لو لا» محذوف أَى لو لا عدم تمام الحجّة عليهم، لم نرسلك، أما و إنهم لم تتم الحجّة عليهم لبعدهم عن الأنبياء، فقد أرسلناك و ها هم يعاندون و لا يؤمنون، و هناك قول آخر بأن جواب «لو لا» «لجعلنا لهم العقاب» إنهم كانوا يقولون هكذا لو لم نرسل، و عذبتناهم، فها نحن قد أرسلنا، و لم يؤمنوا.

[٤٩] فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَى جاء أهل مكة الحَقُّ الذى هو الرسول و القرآن مِنْ عِنْدِنَا حيث أرسلنا الرسول و أنزلنا القرآن قَالُوا تبريرا لموقفهم ضد الرسول لَوْلَا أَى هلا أُوتِيَ محمد صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ لو كان هذا نبيا لأتى بمثل معجز موسى من فلق البحر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦١

[سورة القصص (٢٨): آية ٤٩]

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)

و العصا و اليد و غيرها.

فهل إننا لو أعطيناك مثل ما أعطينا موسى أ كانوا يقبلون؟ كلا! و الشاهد على ذلك إن الناس الذين هم من جنس هؤلاء كفروا بمعجز موسى أ و لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ من الخوارق و المعجز؟ مِنْ قَبْلِ أَى من قبل إرسالك قَالُوا سِحْرَانِ مبالغه فى كونهما ساحرين، مثل زيد عدل، أَى قَالُوا إن موسى و هارون ساحران تَظَاهَرَا صار أحدهما ظهر الآخر و عونته و قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ مِنْهُمَا كَافِرُونَ و لو فرض أن النبى جاء بمثل تلك المعجز قَالُوا فيها ما قَالُوا لموسى و هارون، بالإضافة إلى أنهم لم يدركوا أن المعجزة يجب أن تلائم أهل الزمان، و لذا جاء موسى بتلك المعجز حيث كثر فى زمانه السحر، و جاء عيسى بالإحياء و الإبراء، حيث كثر فى زمانه الطب، و جاء الرسول بالقرآن حيث كثر فى زمانه الفصاحة و البلاغة- كما ذكر مفصلا فى علم الكلام-.

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَلَاءِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَا يَقْبَلُونَ مِنْكَ الْقُرْآنَ وَ يَرِيدُونَ إِعْجَازًا مِثْلَ عَصَا مُوسَىٰ فَأْتُوا أَى هاتوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَى أكثر هداية من التوراة و القرآن حتى أَتَّبِعُهُ و آخذ بأحكامه إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فى أن القرآن لا يكفى للهداية، و إنما يجب أن يكون خارق حتى نهتدى بك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٢

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٠ الى ٥٢]

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

[٥١] فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا أَى هؤلاء الكفار لَكَ يا رسول الله، بأن لم يتمكنوا من إتيان كتاب هو أهدى من القرآن فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ فإنهم يكفرون بالقرآن عن هوى و ميل نفس لا عن حجة و برهان، فقد انسد عليهم باب البرهان وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ أَى لا أحد أكثر ضلالا منه، حيث يترك أحكام الإله و يتبع الهوى، و قوله «بغير هدى» تأكيد، فهو جانب السلب من

القصة و إذا أريد بالتأكيد جىء بالجانيين، فيقال: زيد يسمع كلام الشيطان و لا يسمع كلام الرحمن - مثلا- و اعلم: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي إِلَى الْإِيمَانِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الذين عاندوا الحق بعد ما رأوه، فإنه لا يطف بهم الألفاظ الخفية بل يتركهم و شأنهم.

[٥٢] وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ أَى جئنا بآية بعد أخرى، متصله الآيات لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ما أودع فيهم من الفطرة، فإن لدوام الوعظ و الإنذار أثرا فى التذكير و الإيقاظ.

[٥٣] الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ أَى أعطيناهم الْكِتَابَ إعطاء بسبب الأنبياء عليهم السلام، و قد أخذوه حق الأخذ مِنْ قَبْلِهِ أَى من قبل الرسول، أو من قبل القرآن هُمْ بِهِ أَى بالرسول أو بالقرآن يُؤْمِنُونَ لأنهم يعرفون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٣

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٣ الى ٥٤]

وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أَوْلَيْكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤)

الرسول، و قد تهيأت نفوسهم للإيمان حيث لا يتبعون الأهواء، أما من لا يؤمن من أهل الكتاب فكأنه لم يعط الكتاب، إذ غير العامل به و الذى لم يعط على حد سواء، و

قد ورد أن الآية نزلت فى جماعة من مؤمنى أهل الكتاب

«١».

[٥٤] وَ إِذَا يُتْلَى الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ أَى على أهل الكتاب المؤمنين قَالُوا آمَنَّا بِهِ أَى بالقرآن إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ليس باطلا اختلقه الرسول كما يقول المشركون إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ أَى قبل نزوله مُسْلِمِينَ حيث رأينا صفات النبى فى التوراة و الإنجيل.

[٥٥] أَوْلَيْكَ يُؤْتُونَ أَى يعطيهم الله أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ مرة لتمسكهم بدينهم حتى جاء الرسول، و مرة لإيمانهم بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بِمَا صَبَرُوا أَى بسبب صبرهم على الإيمان بالكتاب الأول، و بالقرآن وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أَى يدفعون بالأعمال الحسنه

السيئات، إن هذا فوق الصبر فإنهم إذا رأوا سيئته، لم يصبروا عليها فحسب، بل دفعوها بالحسنه، كما قال سبحانه (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) «٢» وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فى سبيل الله سبحانه، و الرزق أعم من المال و العلم و الجاه و سائر ما أعطى الله الإنسان- و إن كان المنصرف هو المال-.

(١) بحار الأنوار: ج ٦٤ ص ٢٦٤.

(٢) المؤمنون: ٩٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٤

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)

[٥٦] وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَى الهزاء و السفه من الكلام و اللغو الذى لا فائدة منه أَعْرَضُوا عَنْهُ أَى عن ذلك الكلام، و لم يقابلوه بالمثل، و لم يخوضوا مع اللاغين فى اللغو وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ دِينُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ دِينُكُمْ فكل منا يجازى على أعماله سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فأنتم فى سلام و أمن من ناحيتنا لا نقابلكم بالمثل و لا نقصد لكم سوء لا نبتغى الجاهلين أَى لا نطلب مجالستهم و معاونتهم و التخاصم معهم، و إنما هم فئة، و نحن فئة.

[٥٧] و بعد ما بين السياق إن أهل الكتاب يؤمنون بهذا القرآن، بين إن الكفار الذين لا يؤمنون ليس على الرسول حسابهم، حتى يجهد

نفسه لكي يهديهم، بل إنما عليه البلاغ إِنَّكَ يا رسول الله لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ أى لا تتمكن من هداية من تحب أن يهتدى من الناس، فإن الرسول كان يحب هداية عمه أبى لهب وغيره من أشرف قريش، بل الناس أجمعين، ولكنه لم يكن يتمكن من ذلك، والمراد بالهداية العمل الذى يجبرهم على الإسلام، لا مجرد إرائة الطريق، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بأن يلفظ به الألفاظ الخفية حيث يراه مستعدا للإيمان مهياً نفسه للإذعان، فأرائة الطريق من الله والرسول، عامة لكل أحد أما الألفاظ الخفية فالرسول لا يقدر عليها، والله قادر عليها لكنه إنما يلفظ بها على من أعد نفسه وأخذ يأتى فى الطريق. و ممن تنطبق هذه الآية الكريمة عليه هو «سيد قطب» صاحب كتاب «فى ظلال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٥

القرآن» الذى لم يهتد بنور الإيمان إذ ملأ قلبه بالحقد والغل للرسول وآله وذويه، فتراه فى عرض تفسير وطوله، ينتقص من الرسول وعمه و سائر ذوى قرابته، فى لفائف من الكلام المزيف، بالتقليد الأعمى عن الأمويين أعداء الله والرسول، والشجرة الملعونة فى القرآن، فقد أخذ يطبق هذه الآية الكريمة على أبى طالب، مع أنه قد ورد من طرق العامة والخاصة أن أبى طالب من أول المؤمنين بالرسول، وهو القائل:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ولو كان أبو طالب أباً لأحد كبيرائهم لأهالوه بمقام الملائكة المكرمين، لكن ذنبه الوحيد أنه أبو على أمير المؤمنين، وماذا يقال فى من يطبق آية «عيسى و تولى» على رسول الله، ليبرئ ساحة عثمان الذى وردت فيه الآية عن التولى؟ وهكذا و هلم جرا، و قد صدق الله سبحانه حيث يقول «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ» و هل من محمل لعمل من يخوض دقائق الأمور، فيعرف الشعرة فى الليل المظلم، ثم لا يرى الشمس الضاحية فى وسط السماء، إلا العناد، و انه استحق عليه كلمة العذاب؟. و قد كنت أريد أن أنزه هذا السفر عن مثل هذه الأمور لكن غلو «قطب» جرنى إلى ذلك فإنه أتى بكل ما لفقته الأموية النكراء، و لكن فى لفائف حريرية، و قفازات براقه، فيظن الغير أنه برئ عن العصية الجاهلية (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) «١» «٢» وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ أى القابلين للهداية، أو الذين

(١) الشعراء: ٢٢٨.

(٢) راجع كتاب «مؤمن قريش» للاستاذ الخنيزى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٦

[سورة القصص (٢٨): آية ٥٧]

وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧)

اهتدوا فيجازيهم حسب علمه.

[٥٨] ولقد كان من أعداء كفار مكة، فى عدم إيمانهم، أنهم إن آمنوا بالرسول، يسلب مقامهم، لأن القبائل المجاورة، لا تخضع لهم بعد ذلك، فيكونون مجبورين أن يخرجوا من هناك إلى حيث يتمكنون من العيش، وهذا هو الخطف، فإن الخاطف قد يكون إنسانا، وقد يكون تقديرا، كذا ذكر بعضهم، و ذكر بعض أنهم خافوا أن يختطفهم فارس و الروم إن علموا باختراع العرب دينا جديدا و منهجا جديدا، و

قد روى عن السجاد عليه السلام إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: و الذى نفسى بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض و الأسود و من على رؤوس الجبال، و لجج البحار و لأدعون إليه فارس و الروم، فتجبرت قريش و استكبرت و قالت لأبى طالب: أما تسمع إلى ابن أخيك ما يقول؟ و الله لو سمعت بهذا فارس و الروم لاختطفتنا من أرضنا و لقلعت الكعبة حجرا حجرا فأنزل الله تعالى هذه الآية

«١» وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَأْسٌ نَأْمَنُ بِكَ كَمَا تَقُولُ تُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَمْ نَسْتَلِبُ مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ، فَيَأْخُذُونَنَا النَّاسَ أَسْرَاءَ وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ أَمْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا؟

أى ألم نجعل لهم مكاناً آمناً هو الحرم، وهم كفرون، فمن يقدر على هذا يقدر على ان يأمنهم إذا أسلموا يُجيبى إليه أى يؤتى إليه و يجلب نحو محلهم ثمرات كل شئ من الفواكه، والصنائع، وأنواع الأقمشة، وغيرها، فإن مكة حيث كانت مطافاً للعرب، كانت تروج

(١) روضة الواعظين: ج ١ ص ٥٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٧

[سورة القصص (٢٨): آية ٥٨]

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلَكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُشَكَّنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)

أسواقها بثمرات الجزيرة، و ثمرات الشام و اليمن، التى كانت ثمارها أيضا تجبى - بدورها- من الهند و الصين و الروم و غيرها رزقا من لدنا نرزق به أهل مكة و لكن أكثرهم لا يعلمون أنا قدرنا لهم هذا التقدير بأن جعلنا محلهم آمنا، و رزقهم وفرا. فإذا آمنوا كانوا أحق بذلك، و قد صدق الله سبحانه، فقد دل التاريخ- و الذى نشاهده الآن- إن أهل مكة منذ أن آمنوا قويت مكانتهم أكثر و صار الأمن و الرزق فيهم أوفر.

[٥٩] أما إن بقوا على هذه الحالة ففى ذلك الوقت يختطفون بالهلاك و العذاب، و تقل أرزاقهم، كما كان كذلك القرى التى لم تؤمن، و انحرفت عن جادة الصواب و كم أهلكتنا من قومه أى أهل قريه، بعلاقه الحاله و المحل، و لأن إهلاك الأهل مستلزم لإهلاك نفس القريه بخرابها بطرت معيشتها البطر هو الطغيان عند النعمه، أى طغت فى المعيشه، فالمعيشه منصوبه بنزع الخفض و المعنى أعطيناهم المعيشه الواسعه، فجرتهم تلك إلى أن يكفروا من باب (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ) «١» فتلكت مساكينهم التى يمر عليها الماره فى طرف الشام، و طرف اليمن، كأراضى لوط، و شعيب، و صالح لم تشككن من بعدهم إلا قليلا فقد انقضوا بالهلاك، و باءت قراهم بالخراب، فلم يسكن فى بلادهم إلا نفر قليل من الناس الذين جاءوا من بعدهم

(١) العلق: ٧ و ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٨

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَأْتُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَ مَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)

و كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ لديارهم فلم يكن وارث يرث الأرض منهم، و لذا بقيت كسائر الأراضى لا مالك لها إلا الله سبحانه.

[٦٠] وَ مَا كَانَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُهْلِكَ الْقُرَى التى تكفر و تعصى الله حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ الْمُرْسَلِينَ لَهَا رَسُولًا يُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ يَأْتُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا الدالّة على المعارف و أصول الدين، فإذا أعرضوا عن الرسول، و لم يؤمنوا استحقوا الهلاك و النكال و ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى أصله «مهلكين» حذف النون للإضافة إلاً و أَهْلُهَا ظَالِمُونَ أنفسهم بالكفر و العصيان فالهلاك معلول لأمرين، الأول ظلم أهل القريه، و الثانى إتمام الحجّه عليهم ببعث الرسول.

[٦١] فلا تغتروا أيها الناس بالحياة الدنيا التى تصدكم عن الإيمان، لأجل المال و المنصب و التقليد و ما أشبه و ذلك لأن ما أُوْتِيتُمْ أى أعطيتكم من شئ من الزخارف فهو متاع الحياة الدنيا و زينتها أى هو شئ تتمتعون به فى هذه الحياة القريه و تتزينون به و ما عِنْدَ اللَّهِ أى الجنة، و المراد بكونها عند الله، إن الله هياها للصالحين خيّر من هذه النعم و أبقى أى هى أكثر بقاء أفلا- تَعْقِلُونَ ألا تتفكرون

بعقولكم حتى تميزوا بين الآخرة الباقية، و الدنيا الفانية؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٦٩

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٦١ الى ٦٣]

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعِيدًا وَحَسِبْنَا فَهُوَ لَاقِيَهُ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣)

[٦٢] أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعِيدًا وَحَسِبْنَا أَيُّ الذِي وَعَدْنَاهُ بِالْجَنَّةِ، وَ هُوَ الْمُؤْمِنُ فَهُوَ لَاقِيَهُ أَيُّ نَفَى لَهُ بِالْوَعْدِ، فَيَلْقَى الشَّيْءَ الْحَسَنَ الْمَوْعُودَ بِهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيُّ كَالذِي مَتَّعَ بِمَتَاعِ هَذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أَيُّ يَحْضُرُ لِلْعِقَابِ وَ الْجَزَاءِ، فَهَلْ هَذَا وَ ذَاكَ مُتَسَاوِيَانِ؟ فَكَمَا أَنَّ مَتَاعَ الْحَيَاةِ لَا تَتَسَاوَى مَعَ مَا عِنْدَ اللَّهِ كَذَلِكَ لَا يَتَسَاوَى الْمُؤْمِنُ الَّذِي وَعَدَ بِالْخَيْرِ، وَ غَيْرَهُ الَّذِي يَحْضُرُ لِأَجْلِ الْعَذَابِ، وَ إِنَّمَا يُطْلَقُ «الْمُحْضَر» عَلَى مَنْ حَالُهُ سَيِّئٌ إِذِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ حَالَهُ حَسَنٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِحْضَارِ، بَلْ يَحْضُرُ هُوَ بِنَفْسِهِ.

[٦٣] وَ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيُّ يَنَادِي اللَّهُ الْكُفَّارَ وَ الْمَرَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى نَحْوِ اسْتِفْهَامِ تَقْرِيعِي أَيْنَ شُرَكَائِيَ أَيُّ مَنْ جَعَلْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ لِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ إِنَّهُمْ شُرَكَاءَ لِي؟ لَقَدْ ذَهَبَ الشُّرَكَاءُ، فَلَا شَرِيكَ هُنَاكَ، وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَى الْقِيَوْمِ.

[٦٤] وَ إِذْ يَرَى قَادَةَ الْكُفَّارِ إِنْ ذَنْبَ أَتْبَاعِهِمْ يَلْقَى عَلَى عَوَاتِقِهِمْ، يَتَبَرَّءُونَ مِنْهُمْ، قَائِلِينَ إِنَّهُمْ لَمْ يَقْسُرُوهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَ إِنَّمَا هُمْ تَبَعُوهُمْ فِي الْغَوَايَةِ قَالَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أَيُّ ثَبَتَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَ الَّذِي وَعَدَ الْكُفَّارَ بِالنَّارِ، وَ الْمَرَادُ بـ «الَّذِينَ» الرُّؤْسَاءُ، يَا تَقْرِيبَ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٤، ص: ١٧٠

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)

رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَتْبَاعَنَا الَّذِينَ أَغْوَيْنَا هُمْ عَنِ الطَّرِيقِ وَ أَضَلَّلْنَاهُمْ أَغْوَيْنَاهُمْ لَا يَقْسِرُنَا، بَلْ كَمَا غَوَيْنَا نَحْنُ بَلَا قَسْرٍ أَحَدٌ فَلَيْسَ تَبَعُهُ أَعْمَالُهُمْ عَلَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مِنْهُمْ وَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا عِبَادًا لَنَا، وَ عَلَيْنَا تَبَعْتُهُمْ، بَلْ عَبَدُوا الشَّيَاطِينَ وَ أَطَاعُوهُمْ فَلَا قَسْرَ نَاهُمْ، وَ لَا عَبَدُونَا، وَ لِذَا لَا تَتَحَمَّلُ تَبَعُهُ أَعْمَالَهُمْ.

[٦٥] وَ قِيلَ وَ الْقَائِلُ مَنْ جَانِبَ اللَّهِ سُبْحَانَهِ ادْعُوا أَيُّهَا الْأَتْبَاعُ شُرَكَاءَكُمْ أَيُّ الْأَصْنَامِ وَ الْقَادَةُ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهِ شُرَكَاءَ، حَتَّى يَنْجُوَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَ إِنَّمَا أُضِيفَ الشُّرَكَاءُ إِلَيْهِمْ، لَمَّا تَقَرَّرَ مِنْ أَنَّهُ يَكْفَى فِي الْإِضَافَةِ أَدْنَى مَلَابَسَةٍ فَدَعَوْهُمْ وَ تَضَرَّعُوا إِلَيْهِمْ حَتَّى يَنْجُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا أَيُّ الْمَتَّبِعِينَ لَهُمْ أَيُّ لِلْأَتْبَاعِ وَ رَأَوْا الْعَذَابَ بَعْدَ مَا لَمْ يَجِدُوا نَاصِرًا وَ شَافِعًا لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَرَوْا الْعَذَابَ، أَوْ هُوَ حِكَايَةُ كَلَامِهِمْ هُنَاكَ، فَإِنَّ الْمُسْتَلْزِمَ مِنْ عَمَلٍ وَ قَدَاتِ الْأَوَانِ يَقُولُ: لَوْ إِنِّي فَعَلْتُ كَذَا، أَيُّ لَمْ أَقْعُ فِي هَذَا الْمَحْذُورِ.

[٦٦] وَ اذْكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيُّ يَنَادِي اللَّهُ الْكُفَّارَ فَيَقُولُ لَهُمْ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ أَيُّ مَا كَانَ جَوَابَكُمْ لِلَّذِينَ أَرْسَلُوا إِلَيْكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧١

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٦٦ الى ٦٨]

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمَلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨)

[٦٧] فَعَمِيَّتْ أَى اخْتَفَتْ كَالأَعْمَى الذى يَخْتَفَى عَلَيْهِ الطَّرِيقَ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ أَى الأَخْبَارُ، يعنى صارت الأَخْبَارُ كَالعَمِيَانِ الذِينَ لا يَهْتَدُونَ يَوْمَئِذٍ أَى يَوْمَ القِيَامَةِ، حتى أَنهَم لا يَدْرُونَ مَاذَا يَقُولُونَ فى جَوَابِهِ سَبْحَانَهُ إِنْ قَالُوا الصَّدَقَ عَوْقِبُوا، وَ إِنْ قَالُوا الكَذِبَ فَضَحُوا؟ فَهَمَّ لا يَتَسَاءَلُونَ أَى لا يَسْأَلُ بَعْضُهُم بَعْضًا عَنِ الجَوَابِ المُنْجَى، إِذِ الإِنْسَانُ المَحْسَنُ يَأْتِى بِالجَوَابِ، وَ الشَّاكُّ يَتَسَاءَلُ، أَمَا المَجْرَمُ الذِى يَعْلَمُ أَنَّ جَرْمَهُ لا يَخْفَى، وَ أَنَّ إِقْرَارَهُ فَضِيحَةٌ، فَهُوَ لا يَجِيبُ وَ لا يَتَسَاءَلُ عَنِ زَمَلَانِهِ كَيْفَ يَجِيبُ؟.

[٦٨] هَكَذَا حَالُ المَكْذِبِينَ، رُؤْسَاءُ وَ أَتْبَاعًا فَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَ مَن تَابَ عَنِ الكُفْرِ وَ العَصِيَانِ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا أَى عَمَلًا صَالِحًا، بِأَنَّ أَطَاعَ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ أَى لَعَلَّهُ يَكُونُ فَائِزًا، وَ إِنَّمَا جِئْتُ بِ «عَسَى» لِأَنَّ المُؤْمِنَ العَامِلَ بِالصَالِحَاتِ، لا يَدْرِى هَلْ يَبْقَى عَلَى الإِيمَانِ، أَمْ تَكُونُ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خَسْرًا.

[٦٩] وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الكُفْرَانَ كَانُوا يَقُولُونَ إِنْ تَبِعَ الهُدَى نَتَخَطَفُ مِنَ أَرْضِنَا، فَهَلْ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا طَرِيقَ الأَمْنِ وَ السَّعَادَةِ، فى الدُّنْيَا أَوْ فى الآخِرَةِ؟

كَلَّا! إِنْ الأَخْتِيَارَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلْكَفْرَانِ أَنْ يَخْتَارُوا قَادَةَ ضَلَالًا، فَإِنَّ الأَخْتِيَارَ القَادَةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَ بِأَمْرِهِ تَنْصَبُ الرُّؤْسَاءُ لِلدِّينِ وَ الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ جَمِيعَ النِّعَمِ مِنْهُ، فَهَلْ كُلِّ حَمْدٍ وَ رُبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هَذَا تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ وَ يَخْتَارُ فَإِنَّ مِنَ لَه الخَلْقِ هُوَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٢

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٦٩ الى ٧١]

وَ رُبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فى الأُولَى وَ الآخِرَةِ وَ لَهُ الحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَمْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)

الذى له الاختيار، إذ كيف يمكن أن يخلق و يملك شخص، و يكون الاختيار بيد غيره؟ ما كان لهم الخيرة أى ليس للكفار أن يختاروا لأنفسهم، كما كانوا يختارون الكفر خوفا من الاختطاف، و الخيرة، اسم من الاختيار، أقيم مقام المصدر سُبْحَانَ اللَّهِ أى أَنزَهُ اللَّهُ تَنْزِيحًا عَنْ أَنْ يَكُونَ أُعْطِيَ الأَخْتِيَارَ بِيَدِ النَّاسِ، حتى يعملوا كيفما يشاءون وَ تَعَالَى أَى تَرَفَعُ، وَ المعنى أَنَّهُ أَرْفَعُ عَمَّا يُشْرِكُونَ فليست الأصنام شركاء له سبحانه، و ليس لهم أن يختاروها آلهة.

[٧٠] وَ رُبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ فَهُوَ الخَالِقُ الذِى يَخْتَارُ العَالِمَ بِالصَّمَاتِ وَ مَا يُعْلِنُونَ أَى مَا يَخْفُونَ وَ مَا يَعْلَنُونَ. [٧١] وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فلا شريك له فى خلق أو اختيار أو علم بما فى الكون له الحَمْدُ أى أَنَّهُ هُوَ المَسْتَحَقُّ الوَحِيدُ للحمد، إِذْ جَمِيعُ النِّعَمِ مِنْهُ فى الأُولَى أَى الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ لِأَنَّ خَيْرَاتَهُمَا بِيَدِهِ لا بِيَدِ مَنْ سِوَاهُ فَيَسْتَحَقُّ بَعْضَ الحَمْدِ وَ لَهُ الحُكْمُ أَنْ يَحْكُمَ وَ يَشْرَعَ مَا يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ أَى إِلَى جِزَائِهِ تُرْجَعُونَ أَيُّهَا البَشَرُ، بَعْدَ المَوْتِ، فَكَيْفَ يَتَّخِذُ غَيْرَهُ مِمَّا لا مِيزَةَ مِنْ هَذِهِ المِيزَاتِ لَهُ إِلهَا يَعْبُدُ، وَ شَرِيكًا لَهُ فى الأُلُوهِيَّةِ؟.

[٧٢] ثم ألفت السياق إلى جملة من الآيات الكونية التى يدعن الكفار أنها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٣

[سورة القصص (٢٨): آية ٧٢]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ليست مربوطه بالأصنام، ليرهن بذلك لزوم التوحيد فى العبادة، و بطلان الشرك قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهؤلاء الكفار المشركين أَرَأَيْتُمْ أَى أَخْبَرُونِي إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا أَى دَائِمًا أَبَدًا، بِحَيْثُ لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ أَبَدًا إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ بِأَنَّ وَقْفَتِ الأَفلاكِ عَنِ الحَرَكَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ؟ أَى بنور يضىء لكم الأرض كضوء الشمس أَمْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ أَيُّهَا الكُفْرَانُ إِلَى هَذَا الأَمْرِ؟ وَ مَاذَا جَوَابِكُمْ؟ وَ بالطبع يقولون لا إله سواه يأتى بالنهار، فلما ذا يجعلون غيره شريكا له؟.

[٧٣] ثم قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَرَأَيْتُمْ أَى أَخْبَرُونِي إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا أَى باقيا دائما إلى يَوْمِ القِيَامَةِ بِأَنَّ بَقِيَتِ الشَّمْسُ

على أفقكم فلم تزل من إله غير الله يرأيكم بليل بأن يزحزح الشمس حتى يأتي الليل تشيكون فيه أي تستريحون فيه و تجعلونه وقتا لمنامكم و راحتكم أفلا تبصرون أيها الكفار المشركون إلى هذه الآية العظيمة، ليل و نهار و كلاهما بيد الله؟ و هل من شركائكم من يقدر على ذلك؟ و إذ كان الجواب الطبيعي عدم قدرة أحد على ذلك فلما إذا اتخذتم شركاء لله، و هم لا يقدر على شيء؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٤

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٣ الى ٧٥]

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

[٧٤] ثم من جعل الليل و النهار؟ و من رحمته تعالى، لا من أثر غيره من الآلهة الباطلة جعل لكم الليل و النهار بأن خلقهما، فإن الظلمة كسائر الأشياء مخلوقة، إلا أن يقال أنها عدم و العدم غير مخلوق، و إنما جعله بجعل ضده و هو النهار- بأن يكونا من باب العدم و الملكة- ليشيكونوا فيه أي في الليل و لبتغوا أي تطلبوا الرزق و المعاش من فضله تعالى، في النهار، أو أن «فيه» يرجع إليهما باعتبار كل واحد، و كذلك «لبتغوا»، فإن الإنسان ينام بعض النهار، كما يكتسب في بعض الليل و لعلكم تشكرون نعم الله سبحانه التي أعطاهم لكم منا و فضلا، و لا يخفى أن جعل الليل و النهار، غير تصريفهما بهذا الشكل المنظم، ففي الآية الأولى تذكير بالأمر الثاني، و في هذه تذكير بالأمر الأول.

[٧٥] و إذ ذكر السياق جملة من النعم التي لا مناص للكفار من الإذعان بأنها من الله وحده، رجع إلى الكلام السابق حول شركهم و اذكر يا رسول الله يوم يناديهم الله تعالى، و المراد به يوم القيامة فيقول لهم أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنهم شركاء معي؟ لكن الشركاء هناك لا أثر لهم و لا عين، و هذا الاستفهام إنما هو للتفريع و التبكيت.

[٧٦] و ليس لهم أن يقولوا إنا لم نكن نعلم وحدة الإله فهناك الشهداء- من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٥

[سورة القصص (٢٨): آية ٧٦]

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)

الأنبياء و الأئمة و المرشدين- الذين يشهدون عليهم بأنهم بلغوا لكنهم عصوا إلا الشرك و الكفر و نزعنا أي أخرجنا و أظهرنا من كل أمة من الأمم شهيداً يشهد عليكم بالتبليغ و الإرشاد فقلنا للكفار هاتوا برهانكم أي اثبتوا بحجتكم التي تدل على تعدد الآلهة فعملوا هناك أن الحق لله وحده لا لشركائهم، لكن حيث لم ينفعهم العلم و ضل عنهم أي ذهب و تاه ما كانوا يفترون من الكذب على الله حيث كانوا يقولون إن الله اتخذ لنفسه شريكا، إن آلهتهم بطلت، و لا برهان لهم، و الشهداء، شهدوا عليهم بالإنذار و علموا صحة قولهم، فما هو جزاؤهم؟ ليس إلا النار و الخزي، حيث لا منجى و لا مهرب.

[٧٧] و بعد إتمام قصة موسى مع فرعون، و تعقيب القصة بجملة من المشاهد في القيامة و بعض تعقبات القصة، يأتي السياق لينقل حلقة أخرى من حياة موسى عليه السلام، و هي حياته مع قارون الذي كان قريبا لموسى عليه السلام و كان عالما حافظا للتوراة كثير المال، لكنه لما ظلم لم ينفعه علمه و ماله و قرابته و حفظه للكتاب، و فيه تنبيه لأهل الكتاب، كما في الآيات السابقة و تنبيه للكفار كي يعتبروا بما أصاب فرعون حيث قابل موسى بالكفر إن قارون

و هو ابن خاله موسى عليه السلام، كما ورد عن الصادق عليه السلام

«١» كان من قوم موسى من بنى إسرائيل المؤمنين به

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص ٤٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٦

فَبَغَىٰ أَي اسْتَطَالَ وَ تَكْبَرُ عَلَيْهِمْ أَي عَلَى قَوْمِ مُوسَىٰ حَيْثُ اغْتَرَبَ بِمَالِهِ وَ كَمَالِهِ وَ قَرَابَتِهِ وَ آتَيْنَاهُ أَي أَعْطَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ جَمْعَ كَنْزٍ وَ هُوَ الْمَالُ الْمَدْخُورُ فِي خَابِيئِهِ أَوْ صَنْدُوقٍ أَوْ نَحْوَهُمَا مَا أَي مَقْدَارًا كَثِيرًا حَتَّىٰ إِنَّ مَفَاتِحَهُ جَمْعَ مَفْتَحٍ، بِمَعْنَى الْمَفْتَاخِ، يَعْنِي مَفَاتِيحَ بَيْوتِ أَمْوَالِهِ وَ صَنْدِيقِ ذَهَبِهِ وَ فَضْتَهُ لَتَنُوءًا أَي تَثْقُلُ بِالْعَصَبِيَّةِ أَي جَمَاعَةُ الرِّجَالِ أَوْلَى الْقُوَّةِ فَمَا كَانُوا يَتِمَكَّنُونَ أَنْ يَحْمِلُوهَا إِلَّا بِمَشَقَّةٍ، يُقَالُ: نَاءَ بِحَمَلِهِ إِذَا نَهَضَ بِهِ مَعَ ثِقَلِهِ، وَ

قد ورد أن العصبه ما بين العشرة إلى تسعة عشر

«١»، وَ كَانَ يَحْمَلُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَدِيدِينَ مِنَ الرِّجَالِ الْأَقْوِيَاءِ إِذَا أَرَادَ نَقْلَ الْمَفَاتِيحِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَ لَا بَعْدَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَفْتَاخَ غَالِبًا يَصْنَعُ مِنَ الْحَدِيدِ وَ لَوْ قَدَرْنَا أَنْ عَشْرَةَ مَفَاتِيحٍ تَعَادَلُ الـ «كَيْلُو» وَ إِنَّ عَشْرَةَ كَيْلَوَاتٍ تَثْقُلُ الْإِنْسَانَ، وَ إِنَّ الْأَمْوَالَ كَانَتْ فِي صَنْدُوقٍ ثُمَّ فِي غُرْفَةٍ، ثُمَّ فِي بَيْتٍ، وَ لِكُلِّ مَفْتَاخٍ خَاصٌ، لَمْ يَتَجَاوَزِ الْمَالُ مِنْ بَضْعِ مَلَائِينَ، وَ فِي عَصْرِنَا فِي الْعِرَاقِ مِنْ قَدْرِ مَالِهِ بـ «مَلَائِينَ الدَّنَانِيرِ» إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا تَفْرَحْ بِهَذَا الْمَالِ فَرِحًا يُؤَدِّي إِلَى الْبَطْرِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ جَمْعَ «فَرِحَ» وَ هُوَ الَّذِي يَفْرَحُ مِنَ الْبَطْرِ وَ الْكِبْرِيَاءِ، وَ الْمَرَادُ بِـ «لَا-يُحِبُّ» إِنَّهُ يَكْرَهُهُمْ، إِذَا لَاحَظَ سَاطِعَهُ بَيْنَ حُبِّ اللَّهِ وَ كِرَاهَتِهِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ طَائِعًا أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَ إِنْ كَانَ عَاصِيًا كَرَهُهُ،

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٧

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٧ إلى ٧٨]

وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِـ «لَا يُحِبُّ» لِلتَّأْدِبِ.

[٧٨] وَ ابْتَغِ أَي اطْلُبْ يَا قَارُونَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ أَي مَا أَعْطَاكَ مِنَ الْأَمْوَالِ الدَّارَ الْآخِرَةَ بَأَنَّ تَنْفِقَ مِنْهَا فِي الْخَيْرَاتِ وَ عَلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى تَشْتَرِيَ الْآخِرَةَ بِهَا وَ لَا- تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا بِمَعْنَى اطْلُبِ الدُّنْيَا بِمَالِكَ كَمَا تَطْلُبُ الْآخِرَةَ، وَ كَانَ ذَلِكَ نَهْيًا عَنْ بَدَلِ جَمِيعِ الْأَمْوَالِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) «١» أَوْ الْمَرَادُ لَاحَظَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ لِتَحْصَلَ بِهَا الْآخِرَةَ، فَتَكُونُ الْجَمْلَةُ تَأْكِيدًا لِلْجَمْلَةِ السَّابِقَةِ، وَ إِنَّمَا الْفَرْقُ أَنَّهَا لِلْجَانِبِ السَّلْبِيِّ، وَ الْجَمْلَةُ الْأُولَى لِلْجَانِبِ الْإِيجَابِيِّ وَ أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ، أَوْ إِلَى نَفْسِكَ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ بِإِعْطَاكَ الْمَالَ وَ الْجَاهَ وَ سَائِرَ النِّعَمِ وَ لَا تَبْغِ أَي لَا تَطْلُبِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِذَا بِمَنْعِ الْحَقُوقِ وَ الْإِنْفَاقِ، فَإِنَّهُ فَسَادٌ وَ مُوجِبٌ لِحَرَمَانِ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَ إِذَا بِصَرْفِ الْمَالِ فِي الْمَصَارِفِ الْمَحْرَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، بِمَنْعِ الْحَقُوقِ، أَوْ بِتَعَاطِيِ الْفُسَادِ.

[٧٩] قَالَ قَارُونَ فِي جَوَابِ نَصِيْحَةِ الْقَوْمِ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ أَي أَعْطَيْتَ هَذَا الْمَالَ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي فَمَا لِلنَّاسِ يَتَحَكَّمُونَ بِي فَأَنَا حَصَلْتَهُ

(١) الإسراء: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٨

بعلمي؟، وَ هُوَ إِذَا بِمَعْنَى إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي ذَلِكَ بِسَبَبِ عِلْمِي وَ فَضْلِي، وَ إِذَا بِمَعْنَى إِنَّ ذِكَايَ وَ فَطْنَتِي هُمَا وَرَثَانِي هَذَا الْمَالِ، فَلَا حَقَّ

لأحد فيه، وحيث إنني قد جمعته بفضل على فلي أن أعمل فيه بما أشاء، وإما بمعنى علمى بالكيمياء، كما قيل إنه كان يعلم بالكيمياء، و قد جمع ماله من تبادل الصفر ذهباً أو لم يعلم قارون أن الله قد أهلك من قبله من القرون وسمى القرن قرناً، لتقارن أعمار الأشخاص فيه بعضهم مع بعض من هو أشد منه أى من قارون قوة وأكثر جمعاً للمال، فليس المعيار أن يكون الإنسان جمع المال لعلمه وفضله وإنما المعيار كيفية التصرف فى المال، فإن تصرف الإنسان فى المال تصرفاً حسناً بقى له، وإن تصرف تصرفاً سيئاً، فنى المال وأهلكه معه. إن قارون كان ينبغي أن يعلم هذا، لا ما تكبر به حيث قال «أوتيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي».

فمن تكبر وعتى، و تصرف فى المال تصرفاً سيئاً، فإنه مجرم، مصيره الهلاك، و المجرم يؤخذ بغته ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون فلا- يقال لهم ماذا فعلتم؟ إذا أريد إهلاكهم فى الدنيا، و إن كان فى الآخرة يسألون عن ذنوبهم لزيادة التقرير و التأنيب كما قال سبحانه: (فَوَرَبُّكَ لَنَسُئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (١) و قال

(١) الحجر: ٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٧٩

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٩ إلى ٨٠]

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) (وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (١).

[٨٠] إن قارون لم ينفع فيه النصح، بل بقى على تطاوله و كبريائه فخرج ذات يوم على قومه مستعرضاً ماله و ترفه فى زينته و فى أبهه و جلال، يريد أن يرى بنى إسرائيل ثروته و عزته قال الذين يريدون الحياة الدنيا أى الحياة القريبة، من ضعفاء الإيمان- و هم كثيرون فى المؤمنين دائماً- يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون من الأموال و الثروة و الزينة إنه لذو حظ عظيم أى نصيب وافر من الدنيا، فقد تمنوا مثل ماله و منزلته.

[٨١] وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ علم الآخرة و ما أعد الله فيها من الثواب للمؤمنين المتقين ويلكم أيها المتمنون ثروة قارون و جلاله، و «ويل» كلمة تستعمل بمعنى الدعاء على المقصود به، يعنى «الهلاك لكم» أو «سوء الحال لكم» ثواب الله المعد للأخيار خير مما أوتى قارون لمن آمن و عمل عملاً صالحاً فلا تتمنوا مثل أمواله، كى تتلون بطغيانه و يفوتكم الثواب و لا يلقاها أى لا تعطى الجنة- المشار إليها بقوله «ثواب الله»- إلا الصابرون الذين

(١) الصفات: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٠

[سورة القصص (٢٨): آية ٨١]

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يُنصرونه من دون الله و ما كان من المنتصرين (٨١)

يصبرون فى الحياة الدنيا عن الثروة إذا لم يجدوها فلا يحصلون عليها من الحرام.

[٨٢] و قد صار مال قارون وبالا عليه فخسفنا به أى بقارون و بداره التى فيها الأموال الأرض أى انخسفت الأرض معهما، فذهب قارون هالكا، و ذهبت أمواله ضياعاً. قال القمى: و كان سبب هلاك قارون أنه لما أخرج موسى بنى إسرائيل من مصر و أنزلهم البادية أنزل الله عليهم المن و السلوى ففرض الله عليهم دخول مصر و حرما عليهم أربعين سنة و كانوا يقومون من أول الليل و يأخذون فى قراءة التوراة و الدعاء و البكاء و كان قارون منهم و كان يقرأ التوراة و لم يكن فيهم أحسن صوتاً منه و كان يسمى «المنون» لحسن قراءته و

كان يعمل الكيمياء، فلما طال الأمر على بنى إسرائيل فى التيه و التوبه و كان قارون قد امتنع من الدخول معهم فى التوبه و كان موسى عليه السلام يحبه فدخّل عليه موسى فقال له: يا قارون قومك فى التوبه و أنت قاعد هاهنا؟ ادخل معهم و إلا ينزل بك العذاب فاستهان به و استهزأ بقوله فخرج موسى من عنده مغتما فجلس فى فناء قصره و عليه جبّه شعر و فى رجله نعلان من جلد حمار شراكهما من خيوط شعر و بيده العصا فأمر قارون أن يصب عليه رماد قد خلط بالماء فصب عليه فغضب موسى غضبا شديدا و كان فى كتفه شعرات كان إذا غضب خرجت من ثيابه و قطر منها الدم فناجى موسى ربه فأوحى الله عز و جل إليه قد أمرت الأرض أن تعطيك فمرها بما شئت و قد كان قارون قد أمر أن يغلق باب القصر فأقبل موسى فأوماً إلى الأبواب فانفجرت و دخل عليه فلما نظر إليه قارون علم أنه قد أوتى بالعذاب فقال: يا موسى أسألك بالرحم الذى بينى و بينك فقال له موسى: يا بن لاوى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨١

[سورة القصص (٢٨): آية ٨٢]

وَ أَصِيحَّ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْمَأْمُسِ يَقُولُونَ وَيَكْفُرُونَ وَيَكْفُرُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكْفُرُونَ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

لا تردنى من كلامك. و قال عليه السلام: يا أرض خذيه فدخّل القصر بما فيه فى الأرض، و دخل قارون فى الأرض إلى ركبته فبكى و حلفه بالرحم فقال له موسى: يا بن لاوى لا تردنى من كلامك يا أرض خذيه فابتلعتة بقصره و خزائنه «١»، أقول: لقد كان موسى عليه السلام فى منتهى الحلم و الرقة و لكن انحرف بنى إسرائيل الشديد، كان يسبب له فى بعض الأحيان أن يغضب الله سبحانه، و الغضب لله تعالى من أفضل صفات الأنبياء، كما قال تعالى: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) «٢».

فَمَا كَانَ لَهُ أَى لِقَارُونَ مِنْ فِتْنَةٍ أَى جَمَاعَةٍ، و سميت الجماعة فتنه، لأن الإنسان يعود و يرجع إليها كلما دهمه أمر، من «فاء» بمعنى: رجع يَنْصُرُونَهُ أَى يَنْصُرُونَ قَارُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى سِوَى اللَّهِ، يعنى أن الله وحده كان قادرا على دفع العذاب عنه أما غيره فلا أحد كان يقدر على ذلك. و هذا من قبيل الاستثناء المنقطع الذى مرّ الكلام فى وجهه مكررا و ما كان قارون بنفسه مِنَ الْمُتَّصِرِينَ أَى يقدر على أن ينصر نفسه.

[٨٣] وَ أَصِيحَّ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْمَأْمُسِ حِينَ خَرَجَ عَلَيْهِمْ فِى زِينَتِهِ فَقَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ يَقُولُونَ متعجبين مما نزل بقارون من

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٢٥١.

(٢) الفتح: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٢

[سورة القصص (٢٨): آية ٨٣]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

العذاب وى اسم فعل بمعنى «عجب» وَيَكْفُرُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بَأَن يوسعه عليه وَيَقْدِرُ أَى يضيق الرزق على من يشاء من عباده، فإنهما تابعان لمصالح خفية لا لكرامة تقتضى البسط و لا لهوان يوجب النقص لو لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا حيث لم يوسع علينا حتى نطغى لَخَسَفَ الْأَرْضُ بِنَا كما خسف بقارون وى أعجب من هذه القصة كأنه لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ فلا يفوزوا بثواب الله و لا ينجوا من عقابه، فالحمد لله الذى لم يعطنا ما أعطاه حتى نبتلى بما ابتلى به. و قارون لم يظهر الكفر، و إنما قالوا ذلك لأن فعله كان فعل الكافرين و لذا جوزى بجزائهم، و الإتيان ب «كأن» تعبير عرفى لمن يريد أن يتراجع عن كلامه السابق، فإذا قلت: إن فلانا زيد، ثم أردت أن ترجع عن كلامك بعد ما تبينته فرأيتة عمروا تقول: كأنه عمرو، و ذلك للتدرج الحاصل للنفس من أحد الطرفين إلى

الطرف الآخر.

[٨٤] ثم بين سبحانه أن الآخرة إنما هي لمن لا يريد الاستكبار والفساد، في مقابل قارون الذي استكبر و طلب الفساد في الأرض، حتى يعلم المؤمن، أن الاستكبار والفساد يباينان الإيمان بالعالم الآخر تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ يَعْنِي الْجَنَّةَ نَجْعَلُهَا وَنَقْدِرُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أَى استكباراً و تجبراً و لا فساداً أَى لا يريدون عملاً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٣

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلِّ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) بالمعاصي و العاقبة الجميلة المحموده للمتقين الذين يتقون عقاب الله، فلا يعصونه.

[٨٥] مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أَى بالصفة الحسنه، من الإيمان، و العمل الصالح فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا عند الله، فإنه يعطى عشره أضعاف جزائه، فمثلاً من تصدق بدينار أعطى عشره دنانير و مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ و تسمى سيئه لأنها تسمى إلى الإنسان فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَى بمقدار السيئه لا أزيد منها، و إنما أعد العذاب الشديد للسيئات لأنه بقدر جزائها حسب العقل و المنطق كما يجزى الساب للملك - مثلاً - بالقتل.

[٨٦] و إذ انتهت قصص موسى مع فرعون و بنى إسرائيل و قارون، يتوجه السياق إلى الرسول، الذي كانت تلك القصص تسليه له، بقدر ما كانت تهديدا لكفار قريش فيقول إن الله الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَى أوجب عليك العمل بأحكامه لَرَأْدُكَ أَى يردك و يرجعك إلى مَعَادٍ أَى محل العود و المراد به مكه، فلا تشرد عن بلادك بدون أن ترجع إليها ظافراً منتصراً، كما رجع موسى إلى أرض مصر - التي خرج منها خائفا يترقب - ظافراً منتصراً، و قد قالوا: إنها نزلت حين خروج الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من مكة مهاجراً إلى المدينة، حينما أراد الكفار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٤

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٨٦ الى ٨٧]

وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا - رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَ لَا يَصُدُّدَنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعِيدٍ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)

قتله قُلِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَلَاءِ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مَنَا، و منكم، فقد كان الكفار يرون أنفسهم على حق و هدى، و يرون الرسول على باطل و مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إنه يعلم ذلك و سينصر الهادى، و يخذل الضال، و هذا كلام من يرى أن لا أثر فى الجدل مع المعاند يسلى نفسه و يهدد طرفه، بالعاقبة.

[٨٧] إنك لا بد و أن ترجع إلى مدينتك، و إنك لا بد و أن تنتصر على الكفار، فإن رحمة الله لم تزل معك، ألم يلقى إليك الكتاب، و ما كنت ترجو ذلك لو لا رحمته؟ فإن رحمته التي أوجبت إلقاء الكتاب عليك هي التي تنصرك و تردك إلى وطنك و مَا كُنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ يعنى إنه لم يكن رجاء لو لا الرحمة، و هذا صحيح، فلا يقال كيف لم يرج الرسول إلقاء الكتاب، و قد كان نبيا و آدم بين الماء و الطين؟ فَلَا تَكُونَنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ أَى معناهم، بل جانبهم و باعدهم و حاربهم، فإن الذى رحمك فى إلقاء الكتاب إليك، سيرحمك بنصرتك عليهم و إرجاعك إلى بلادك سيداً منتصراً.

[٨٨] وَ لَا يَصُدُّدَنَّكَ أَى لا يمنعنك الكفار عن آيات الله أى اتباع آيات الله، و إبلاغها للناس بَعِيدٍ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ لا يمنعنك عن

تنفيذ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٥

[سورة القصص (٢٨): آية ٨٨]

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

رسالتك خوفك منهم، فإن الله ناصرك و ادع إلى ربك بالإيمان به و اتباع أوامره و لا- تكونن من المشركين الذين يجعلون لله شريكا.

[٨٩] وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ «وَلَا تُكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وَ بَيْنَ هَذَا أَنْ الْأَوَّلَ نَهَى عَنِ مَجْرَدِ الشَّرْكِ وَ لَوْ الْقَلْبِي مِنْهُ، وَ الثَّانِي نَهَى عَنِ الدَّعْوَةِ وَ الدَّعَاءِ إِلَى إِلَهٍ آخَرَ، وَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَانَ مُنْتَهِيًا عَنِ ذَلِكَ بِدُونِ نَهْيٍ، وَ إِنَّمَا جِيءَ تَعْرِيفًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، كَمَا تَقُولُ لَوْلَدَكَ الْمَطِيحُ: بَنِي أُطْعَنِي، تَرِيدُ التَّعْرِيفُ بِخَادِمِكَ الَّذِي لَا يَطِيعُكَ إِلَّا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا- شَرِيكَ لَهُ، فَهُوَ الْإِلَهُ الْأَزَلِيُّ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ فَهُوَ الْإِلَهُ الْأَبَدِيُّ، وَ الْمَرَادُ بِالْوَجْهِ «الذات» يُقَالُ هَذَا وَجْهَ الرَّأْيِ أَوْ وَجْهَ الطَّرِيقِ، وَ يَرَادُ الرَّأْيِ وَ الطَّرِيقِ، وَ لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بِالْوَجْهِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى بَقَاءِ جِهَةِ الْإِتِّجَاهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَلْيَتَوَجَّهْ الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ تَعَالَى لِأَنَّ وَجْهَهُ بَاقٍ أَبَدِيٌّ، كَلَمَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَيْهِ وَ يَطْلُبُ مِنْهُ الْحَاجَةَ، قَابِلُهُ تَعَالَى بِوَجْهِهِ، وَ هَذَا مَجَازٌ، وَ إِلَّا فَلَيْسَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَجْهٌ وَ سَائِرَ الْأُمُورِ الْجَسْمِيَّةِ وَ الْعَرَضِيَّةِ، مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ لَهُ الْحُكْمُ فَهُوَ الْحَاكِمُ فِي الْكُونِ، وَ لَا يَصْدُرُ شَيْءٌ إِلَّا عَنْ حُكْمِهِ وَ إِرَادَتِهِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فِي الْقِيَامَةِ لِيَجْزَى كُلُّ إِنْسَانٍ بِمَا عَمِلَ مِنْ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ، فَهُوَ وَاحِدٌ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، بِيَدِهِ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٦

٢٩ سورة العنكبوت مكية أو مدنية / آياتها (٧٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «عنكبوت» و هي كسائر السور المكية تبين موضوع العقيدة الدائرة بين المبدأ و المعاد و الرسالة، و لما ختمت سورة القصص بالوعد و الوعيد، افتتحت هذه السورة بذكر الامتحان الذي من خرج منه ناجحا نال الوعد، و من خرج منه ساقطا نال الوعيد.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي هو بدأ التكوين و التشريع، فمن الجدير أن يجعل اسمه الكريم بدء كل حركة و سكون، و التوصيف له بالرحم- مكررا- للنيل من فيض رحمته الواسعة الموجبة للسعادة في الدنيا و الآخرة فلو لا رحمة الله سبحانه لهلك الإنسان جسدا و روحا، و بعد فإنه لو لا رحمته ابتداء لم يوجد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٧

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) أْحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

[٢] الم «ألف» و «لام» و «ميم» من أمثالها تركب سور القرآن، تركيبا يوجب الإعجاز حتى لا- يتمكن البشر من الإتيان بمثلها، أو التقدير:

هذه «الم» فهو خبر مبتدأ محذوف، و قد تقدم التلميح إلى بعض الأقوال في «مقطعات السور» معنى، و إعرابا.

[٣] أْحَسِبَ النَّاسُ أَي هَلْ ظَنَّ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا فِي أَمْنٍ وَ رَاحَةٍ، مَجْرَدُ أَنْ يَقُولُوا: آمَنَّا ثُمَّ تَدَرَّ عَلَيْهِمُ الْخَيْرَاتُ وَ الْبَرَكَاتُ وَ يَسْعَدُوا فِي الْآخِرَةِ وَ الْأُولَى وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ أَي لَا يَمْتَحَنُونَ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، فِي طَرِيقِ الْإِيمَانِ، حَتَّى يَمِيزَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَ الْكَاذِبِ، وَ الْمَجَاهِدِ وَ

القاعد؟ هل ظنوا ذلك؟ إنهم أخطئوا إن ظنوا إن مجرد التلفظ بالإيمان كاف في نيل السعادة.

[٤] وكيف يقتنع عنهم بمجرد التلفظ بالإيمان والحال إنا لَقَدْ فَتَنَّا و امتحنا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من المؤمنين الذين أظهروا الإيمان، في الأمم السابقة، امتحانهم بأنواع الشدائد و المحن، فكيف نترك هؤلاء بلا امتحان؟ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ أَي يمتحن ليعلم بالتأكيد الَّذِينَ صَدَقُوا في إيمانهم حتى أنه لا- يزول بالمصائب و المحن و لِيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ الذين كذبوا في دعوى الإيمان، بل كان لقلقه لسان، و المراد بالعلم تعلق العلم بالمعلوم بوقوعه في الخارج، فإنه يقال «علم» لمن جهل ثم علم، كما يقال: «علم» لمن علم و لكن لم يكن معلومه خارجيا ثم أوجد المعلوم في الخارج، فإن العلم الفعلي إنما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٨

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤ الى ٦]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦)
يتحقق بتحقيق المعلوم الفعلي.

[٥] لقد كان ذلك للمؤمنين، أما الكافرون، فإن موقفنا معهم أشدّ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ «أم» منقطعاً، أي: هل حسب و ظن العاملون بالمحرمات أن يَسْبِقُونَا أي يفوتونا، فلا نلحقهم تشبيه بمن يلحق المجرم الذي فرّ، و قد سبقه في الفرار حتى لم يلحق به، إن من أجرم بالنسبة إلى أوامر الله، لا يفوت الله، بل يدركه الطلب و إن فر إلى كهوف الجبال ساء ما يَحْكُمُونَ أي ساء الحكم حكمهم، الذي حكموا حسب ظنهم بأننا لا ندرکہم و لا نتقم منهم، فالله سبحانه يمتحن، و من رسب في الامتحان يدركه و ينتقم منه، فليخش الناس مؤمنهم و كافرهم، و برهم و فاجرهم من عقاب الله سبحانه.

[٦] أما من آمن و نجح في الامتحان فليطمئن بنصر الله مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ أَي يأمل ثوابه سبحانه، بأن آمن و عمل صالحاً، فإنه هو الذي يرجو، أما غيره فقوله أنا راج، كذب، لأنه من قبيل من لم يبذر و يقول أنا راج ريع زرعى فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ أَي الوقت الذي وقته الله للقاءه و ثوابه- و الإضافة لأدنى مناسبة- لَآتٍ أَي يأتي قطعاً، فلا خلف في وعده وَ هُوَ السَّمِيعُ لَأَقْوَالِ عِبَادِهِ الْعَلِيمُ بأعمالهم و نياتهم، فيكون جزائه عادلاً لا ظلم فيه.

[٧] وَ مَنْ جَاهَدَ الشَّيْطَانَ وَ نَفْسَهُ وَ الْأَعْدَاءَ، وَ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ «جَهْدٍ» بِمَعْنَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٨٩

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٧ الى ٨]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)
أتعب نفسه في دفاعه لأجل الإيمان فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إذ فائدة الجهاد تعود إليه إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ فهو لا يحتاج إلى جهاد المؤمنين، و إنما المؤمنون يحتاجون إلى الجهاد لنيل السعادة لأنفسهم.

[٨] وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْمَلَازِمَ لِعَدَمِ السَّيِّئَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ أَي نبتلن و نمحون عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمُ التي اقترفوها حتى يبقون بلا- سيئه و لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَي نعطيهم الجزاء ب أحسن الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ إما المراد أحسن جزاء أعمالهم، كأن يكون الجزاء مثلاً للعمل الفلاني درجة واحدة فنعطيهم درجتين، و إما المراد يعطون جزاء أحسن أعمالهم، أما الأعمال السيئة التي توجب النكال، و الأعمال التي توجب خفة الإنسان و نزول رتبته في أعين الناس، فلا نجزيهم عليها.

[٩] و حيث ذكر سبحانه جزاء من عمل الصالحات أشار إلى ما هو من أهم الأعمال الصالحة، الذي هو بر الوالدين فقال وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ أَي أمرناه أن يعاشر والديه حُسْنًا بإطاعتهم، و النزول عند رغبتهم.

وَإِنْ جَاهِدَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَالزُّمَّاكَ لِتُشْرِكَ بِي بِأَنْ تَجْعَلَ لِي شَرِيكًا، حَيْثُ كَانَا مُشْرِكِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ «مَا» مَفْعُولٌ
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٠

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٩ الى ١٠]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ
كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠)

«تشرک» أى تجعل شيئاً شريكاً لى، و ليس لك بذلك الشريك علم، من باب السالبة بانتفاء الموضوع، إذ تعلم إنه ليس لى شريك،
فلا- شريك حتى تعلمه، كما يقال: لا يعلم الله لنفسه شريكاً، يعنى إنه لا شريك له حتى يعلمه فلا تُطعهُما فى الإشراك بى إلى أى
إلى حسابى و جزائى مَزَجْعُكُمْ أى رجوعكم أيها البشر، و «مرجع» مصدر ميمى فلا- تخالفوا أوامره حتى تبتلوا بالعقاب و النكال
فَأُتْبِئْكُمْ أى أخبركم بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و المراد بالإخبار الجزاء على العمل، كما تقول لمن تريد وعده أو إيعاده: سأخبرك بعملك.

[١٠] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ رَجُوعٌ إِلَى مَا سَبَقَ لِيُرتب عليه قوله لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ أى فى
جملتهم و زمرتهم.

[١١] و إذ قد سبق امتحان الله للمؤمنين و لزوم الجهاد فى سبيله ذكر السياق من ليس كذلك ممن يظهر الإيمان و لا يجاهد و يرسب
عند الامتحان و مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ بِمَجْرَدِ قَوْلِهِ لِلْسَانَ فَإِذَا أُوذِيَ آذَاهُ الْكُفَّارِ فِي اللَّهِ أى فى جهة علاقته بالله و إيمانه به
جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ و يظن أنه إن ترك الإيمان لا يعذب بعذاب الله أكثر من هذا العذاب الذى يلقاه بواسطة إيمانه، و لذا
يفكر فى الرجوع عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩١

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١١ الى ١٢]

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ
خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)

الدين، لأنَّ عذاب الله آجل، و عذاب الناس له- المساوى فى زعمه لعذاب الله- عاجل، و لم يعذب نفسه عاجلاً خوفاً من عذاب
آجل؟

هذا هو مقدار إيمانه فى البلاء، فإنه لا يطيق و يسقط عند الامتحان، و إذ ذهب الإيذاء و جاء النصر، بسط ادعائه فى وجه المؤمنين
قائلاً أنه كان معهم فى ساعة الشدة ليجعل نفسه فى مقدمه القافلة فيحوز الجاه العريض، بعد تلك الانتكاسة و لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ
يا رسول الله، لك و للمؤمنين، و ذهب أذى الكفار لَيَقُولُنَّ ذلك الساقط فى الامتحان المتراجع عند الإيذاء إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ
فى ساعة العسرة أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ من الإيمان و النفاق، و ألم يعلم سبحانه أن هذا كيف انتكس عند البلاء؟
فهيهات أن يجعل كالصابرين القانتين الصامدين أمام الإغراء و الإيذاء.

[١٢] وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ فَدَخَلَ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى أَنْ الْاِفْتِتَانِ لَا- يصرفهم عن حقيقة إيمانهم و لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا ظَاهِرًا، فَإِذَا فَتِنَا جَعَلُوا فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ.

[١٣] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا فِي الْكُفْرِ وَ الطَّغْيَانِ وَ لَنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ فَنَحْنُ نَحْمِلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٢

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أُنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ (١٣) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١٤)

آثامكم عنكم، و مرادهم بذلك أن لا- إثم حقيقي في اتباع الكفر و العصيان، و إنما هو إثم خيالي، إذ لا بعث و لا نشور، ثم ردَّ الله سبحانه عليهم بقوله و ما هم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ إِنْ كَفَرُوا و كذبوا مِنْ شَيْءٍ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، فإن الله سبحانه لا يعذب أحداً بذنوبه، نعم إن على هؤلاء عقاب الإضلال، لكن ذلك لا يخفف من عقاب الأتباع شيئاً، بل للمضل عقاب إضلاله، و لمن ضل عقاب ضلاله إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

[١٤] و لِيَحْمِلْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَضَلُّوا أَثْقَالَهُمْ أَى أوزار أعمال أنفسهم و أَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ أَى أوزار إضلالهم للناس و لِيَسْتَلْزَمَنَّ اللَّهُ سبحانه يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ من أنه لا ذنب للكفر و العصيان كما يقولون للمؤمنين يريدون إغواءهم، و المراد بسؤالهم منهم أنهم يسألون مقدمه للعقاب، فإن المجرم يسأل عنه سؤال تقرير ليعذب حسب جوابه.

[١٥] ثم ينتقل السياق إلى بعض قصص الأنبياء لإنذار كفار مكة بأنهم إن لم يؤمنوا كان مصيرهم مصير الأقوام من قبلهم حيث كذبوا الرسل فأخذهم الله بعقاب كفرهم و عصيانهم و لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ و الطاعة فَلَبِثَ فِيهِمْ أَى مكث داعياً لهم إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٣

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٥ إلى ١٦]

فَأَنْجَيْنَاهُ و أَصْحَابَ السَّفِينَةِ و جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) و إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ و اتَّقُوهُ ذَلِكَم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)

الإيمان أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا أَى تسعمائة و خمسين سنة فلم يجيبوه، و لم يؤمن إلا نفر قليل منهم، و مثل هذا العمر ممكن فقد وصل العلم الحديث إلى إمكان تمديد العمر بواسطة الأغذية و الأدوية فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ و هو أن نزل من السماء المطر و تفجرت الأرض عيوناً، حتى علا الماء و أغرق الكل، و الطوفان الماء الكثير الغامر سمي طوفاناً لأنه يطوف- بكثرة- فى نواحي الأرض، أو فى النواحي التى يقع الكلام فيها و هم ظالمون قد ظلموا أنفسهم بالكفر و الطغيان.

[١٦] فَأَنْجَيْنَاهُ أَى خلصنا نوحاً منهم و من الطوفان و أَصْحَابَ السَّفِينَةِ فقد أمر نوح أن يصنع سفينة و يركبها هو و المؤمنون و ركبها و نجا من الغرق و جَعَلْنَاهَا أَى السفينة، أو هذه القصة بكاملها آيَةً دالة على التوحيد، أو على عذاب المكذبين لِلْعَالَمِينَ أَى الخلاق الذين يأتون بعد ذلك.

[١٧] و لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ و لا تعبدوا سائر الآلهة الباطلة و اتَّقُوا بِإِيتَانِ أَمْرِهِ و اجتناب نواهيهِ ذَلِكَم «ذلك» إشارة إلى ما ذكره من العبادة لله و التقوى و «كم» خطاب خَيْرٌ لَكُمْ من الكفر و العصيان، و التفصيل هنا منسوخ عن معنى الفضل، أو المراد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٤

[سورة العنكبوت (٢٩): آية ١٧]

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا و تَخْلُقُونَ إِفْكَاءً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ و اعْبُدُوهُ و اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧)

بالنسبة إلى الخير الذى هم فيه مع الكفر إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى إن كان لكم علم بالواقع لعلمتم أن الإيمان و التقوى خير.

[١٨] إِنَّمَا تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى من غير الله أَوْثَانًا جمع «وثن» و المراد به الصنم أَى أنكم تعبدون حجارة لا تضر و لا تنفع و تَخْلُقُونَ إِفْكَاءً أَى تقولون كذباً، فى قولكم إن هذه الأوثان آلهة، و الكذب يسمى خلقاً باعتبار أن الكاذب يخلقه و يأتى به من العدم إلى الوجود مع أنه لا حقيقة له، بخلاف الصدق الذى هو حكاية من الواقع و الخارج إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى الأصنام، و إنما أتى بضمير العاقل، جرياً على كلام القوم عند الحوار، كما قال الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخةً قلت اطبخوا لي جبةً و قميصاً

لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَلَيْسَ أَرْزَاقِكُمْ التِي تَرْزُقُونَهَا مَمْلُوكَةٌ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ حَتَّى تَقُولُوا إِنَّا نَعْبُدُهَا لِمَا تَهَيَّئُ لَنَا مِنَ الرِّزْقِ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا نَعْبُدُهَا لِتَنْدِرَ عَلَيْنَا الْأَرْزَاقَ فَابْتَغُوا واطلبوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لِلرِّزْقِ و المعطى له. و كم يقبح أن يتصرف الإنسان فى رزق الله، و يعبد غيره، و يطلب من لا يكون بيده الرزق و يترك الطلب ممن بيده الرزق؟ و اَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٥

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٨ الى ٢٠]

وَ إِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) عليكم، فهو الإله و هو المتعم إِيَّاهُ تَعَالَى تُرْجَعُونَ أَى إِلَى حَسَابِهِ وَ جَزَائِهِ مَرْجِعَكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ، فَهُوَ الْمَبْدِئُ، وَ هُوَ الْمَعِيدُ، وَ هُوَ الْمَعطى لَكُمْ الرزق الآن.

[١٩] ثم قال لهم إبراهيم عليه السلام وَ إِن تَكْذِبُوا قَوْلِي وَ لَمْ تَتُومِنُوا بِي فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنبياءهم، فلم يضر التكذيب الأنبياء و إنما ضرر المكذبين إذ ما عَلَى الرَّسُولِ أَى لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَى أَنْ يَبْلُغَ بِبَلَاغٍ ظَاهِرًا وَاضِحًا، فَإِذَا أَنْجَزَ عَمَلَهُ فَقَدْ تَرَى مِنْ عَهْدِهِ مَا كَلَّفَ وَ يَلْقَى جَزَائِهِ الْحَسَنَ.

[٢٠] أَوْ لَمْ يَرَوْا هَوْلَاءَ الْكُفَّارِ، وَ هَذَا إِمَّا مِنْ تَتَمُّةِ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ، أَوْ هَذِهِ الْآيَةُ وَ السَّابِقَةُ وَ الْوَاحِقُ، مَعْتَرِضَةٌ بَيْنَ أَثْنَاءِ الْكَلَامِ، جِيءَ بِهَا لِلإيقاظ و التنبيه كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ثُمَّ يُعِيدُهُ بَعْدَ الْإِمَاتَةِ، كَمَا أَنْشَأَهُ مِنَ الْعَدَمِ، فَإِنْ مِنْ يَقْدِرُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ إِنَّ ذَلِكَ الْإِرْجَاعُ وَ الْإِعَادَةُ بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ سَهْلٌ هَيِّنٌ، فَكَيْفَ يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ وَ هُمْ يَرُونَ النَّشْأَةَ الْأُولَى؟ كَمَا أَنَّهُمْ كَيْفَ يَنْكُرُونَ وَجُودَ اللَّهِ وَ هُمْ يَرُونَ آثَارَهُ؟ وَ كَيْفَ يَنْكُرُونَ الرِّسَالَةَ وَ قَدْ رَأَوْا الْمَكْذِبِينَ كَيْفَ أَهْلَكُوا؟.

[٢١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِلْكَفَّارِ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ بِالسَّفَرِ إِلَى الْبِلَادِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٦

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٢١ الى ٢٢]

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٢٢)

و المرور على الصحارى و القفار فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَأْلِفُ الْجَوَّ الَّذِي يَنْشَأُ فِيهِ وَ لَذَا يَتَفَتَحُ قَلْبُهُ إِلَى مَشَاهِدِ الْخَلْقَةِ الْخَارِجِيَّةِ التِي تَظْهَرُ فِي الْأَوْلَادِ إِذَا وُلِدُوا، وَ النَّبَاتِ إِذَا نَبَتِ، وَ هَكَذَا أَمَا إِذَا سَارَ لَفَتَ نَظْرَهُ إِلَى رُؤْيَةِ الْبِلَادِ، وَ تَقَلَّبَ الْأَحْوَالِ ثُمَّ اللَّهُ بَعْدَ إِهْلَاكِ النَّاسِ أَجْمَعٍ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ فَإِنَّهُ كَمَا أَنْشَأَهَا إِبْتِدَاءً يَنْشَأُهَا ثَانِيًا، وَ مَعْنَى الْإِنشَاءِ الْإِبْجَادِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ عَلَى الْإِنشَاءِ وَ الْإِفْنَاءِ وَ الْإِعَادَةِ قَادِرٌ، فَكَيْفَ يَنْكُرُ هَوْلَاءَ الْمَعَادِ؟.

[٢٢] إِنَّهُ يَعِيدُ الْخَلْقَ لِيَجْازِيَهُمْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ فَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ كَفَرَ وَ عَصَى، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ حَكِيمٌ لَا يَفْعَلُ عِبْثًا أَوْ خِلَافَ الْعَدْلِ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ آمَنَ وَ أَطَاعَ وَ إِلَيْهِ أَى إِلَى جَزَائِهِ وَ حَسَابِهِ تُقْلَبُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ، وَ مَعْنَى تَقْلِبُونَ: تَرْجَعُونَ، لِأَنَّ الرَّجُوعَ هُوَ انْقِلَابُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

[٢٣] وَ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْإِفْلَاتِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَحْتَ قُدْرَةِ اللَّهِ، يَقْلِبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ، سِوَاءَ كَانَ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّمَاءِ وَ مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ بِمُعْجِزِينَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ تَصْنَعُوا صَنْعًا يَمْنَعُ مِنْ أَخْذِكُمْ وَ الْعَذَابِ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، سِوَاءَ كُنْتُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ عَلَى تَقْدِيرِ إِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٧

[سورة العنكبوت (٢٩): آية ٢٣]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

تمكنتم من الذهاب إليها، كما

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

باتوا على قلل الأجمال تحرسهم* غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

«١» و ما لكم من دون الله أى سواه من ولي يلى أموركم ولا نصير ينصركم، فلا أحد يتولى شؤونكم، ولا أحد ينصركم، فما تظنون من أن الأصنام تنفع فهو ظن باطل، إذن فأنتم بذاتكم لا تتمكنون من إعجازه سبحانه، ولا ناصر لكم حتى يقف ذلك الناصر دون بأس الله.

[٢٤] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَنْ كَذَبُوا آيَاتِ اللَّهِ الْمَنْزَلَةَ بِأَنْ قَالُوا إِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِقَائِهِ فَقَالُوا أَنْ لَا- بَعث ولا- نشور، والمراد لقاء ثوابه و جزائه أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي فإنه لا عمل لهم حتى يستحقوا الثواب، فيكون لهم رجاء، والمعنى إنهم يائسون حقيقة، وإن كان فيهم من لا يأس له، وهذا كقوله «لا ريب فيه» حيث يراد فيه أنه ليس محلا للريب، وإن ارتاب فيه المبطلون، وهذا من تمته قوله «وَيَزَحْمُ مَنْ يَشَاءُ» حتى لا يزعم الكفار أنهم يدخلون فى زمرة من يرحمهم الله، كما قال ذلك الكافر:

(١) ديوان الإمام على عليه السلام: ص ٣٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٨

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥)

(وَلَتَنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجْدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) «١» وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه فى النار، وهذا بالتأكيد، فهو طرف الإيجاب، و يسوا، طرف السلب.

[٢٥] لقد كان إبراهيم عليه السلام يحتج على قوله بأنواع الاحتجاج، كما سبق بعضه فما كان جواب قومه أى قوم إبراهيم عليه السلام وهم نمرود و سائر الكفار المعاصرون له إلا أن قالوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ أى اقتلوا إبراهيم جزاء على دعوته إلى التوحيد و تعييبه الأصنام أو حرقوه بالنار و أخيرا استقر رأيهم على إحراقه، و ألقوه فى النار فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إذ قال سبحانه للنار: كوني بردا و سلاما على إبراهيم إن فى ذلك الذى ذكر من قصة إبراهيم: دعوته، و كيد الأعداء، و إنجائه لآيات داله على أنه كيف ينصر الله أوليائه، و يخذل أعدائه لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أن الله ينصر أوليائه، و يخذل أعداءه أما غيرهم فلا يعتبرون بهذه القصص، و لذا لا ينتفعون بهذه الآيات.

[٢٦] وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ، إِمَّا بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنَ النَّارِ، وَ إِمَّا قَبْلَ إِقْبَانِهِ فِي النَّارِ، وَ آخِرَ السِّيَاقِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ، لِاسْتِعْجَالِ الْمُخَاطَبِ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ صَارَتِ النَّتِيجَةُ- كَمَا هُوَ الطَّبِيعِيُّ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْقِصَصِ- إِنْمَّا اتَّخَذْتُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا أَيْ أَصْنَامًا، لِأَجْلِ

(١) الكهف: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ١٩٩

[سورة العنكبوت (٢٩): آية ٢٦]

فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)

مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْأَصْنَامَ كَانَتْ تَجْمَعُهُمْ عَلَى الْعَقِيدَةِ الْوَاحِدَةِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُم الْخُرُوجَ عَنْ عِبَادَتِهَا انْفَصَمَتْ مَوَدَّتَهُ عَنْ سَائِرِ أَقْرَبَائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ، وَلِذَا كَانَ يَحَافِظُ عَلَى هَذِهِ الْمَوَدَّةِ بِالِاسْتِمْرَارِ فِي عِبَادَتِهَا، فَاتَّخَذَكُمْ لِلْأَصْنَامِ لِلْمَجَامِلَةِ لَا لِلْعَقِيدَةِ، لَكِنْ هَذِهِ الْمَوَدَّةُ تَنْقَلِبُ عِدَاوَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أَيْ يَتَّبِعُ بَعْضُ الْكُفَّارِ مِنَ الْقَادَةِ مِنَ الْأَتْبَاعِ وَالْأَتْبَاعُ مِنَ الْقَادَةِ وَيَلْعَنُ وَيَسُبُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَيَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْقَادَةَ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ، وَيَلْعَنُ الْقَادَةُ الْأَتْبَاعَ لِثُمَّ يَحْمِلُوا إِثْمَ الْأَتْبَاعِ وَمَا أُوَكِّمُوا أَيْ مَرَجِعَكُمْ وَمَصِيرَكُمْ النَّارُ جِزَاءَ لَشْرِكِكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَكُمْ وَيُدْفَعُونَ الْعَذَابَ عَنْكُمْ.

[٢٧] إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّنَ لَهُ أَيْ لِإِبْرَاهِيمَ لُوطٌ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ إِبْرَاهِيمَ وَمَعْنَى آمَنَ أَنَّهُ صَدَقَهُ فِي دَعْوَتِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ أَيْضًا نَبِيًّا وَلَمَّا أَنْ رَأَى إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ فِيهِمُ الدَّعْوَةُ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ مِنْ بِلَادِكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِبَ الْكُوفَةِ إِلَى رَبِّي أَيْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ سُلْطَانَهُ، فَلَا يَذَلُّ مِنْ نَصْرِهِ الْحَكِيمُ الَّذِي يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ بِالْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ص ٢٤٩

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتونَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨)

[٢٨] وَوَهَبْنَا لَهُ أَيْ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ مِنْ سَارَةَ زَوْجَتِهِ الْعَقِيمَةِ، فَقَدْ كَانَ إِعْطَاهُ الْوَلَدَ مِنْهَا خَارِقًا، أَمَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَ مِنَ الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ وَيَعْقُوبَ ابْنَ إِسْحَاقَ، جَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ أَيْ فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ وَمَا مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ» إِلَّا- مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ أُعْطِيَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ وَآتَيْنَاهُ أَيْ أُعْطِينَا إِبْرَاهِيمَ أَجْرَهُ أَيْ جِزَاءَ بِلَاغِهِ وَصُمُودِهِ فِي الدَّعْوَةِ فِي الدُّنْيَا حَيْثُ رَفَعْنَا مَقَامَهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ الذِّكْرَ الْحَسَنَ، وَجَعَلْنَا السِّيَادَةَ وَالْمَلِكَةَ وَالنُّبُوَّةَ فِي أَوْلَادِهِ وَأَحْفَادِهِ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ بِأَنْ يَكُونَ فِي زَمْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ.

[٢٩] وَأَرْسَلْنَا لُوطًا إِلَى قَوْمِهِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ، وَادَّكَرَ لُوطًا حِينَ تَكَلَّمَهُ مَعَ قَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتونَ الْفَاحِشَةُ أَيْ لَتَعْمَلُونَ الْخَلَّةَ الْفَاحِشَةَ فِي الْإِثْمِ، فَإِنْ فَحِشَ بِمَعْنَى تَجَاوَزَ الْحَدَّ، وَاللُّوَاطُ إِذْ كَانَ كَبِيرَةً جَدًّا، يُسَمَّى بِالْفَاحِشَةِ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا أَيْ بِهَذِهِ الْفَاحِشَةِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ فَإِنَّكُمْ اخْتَرْتُمُوهَا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْبَادِيَّ فِي الْعَمَلِ الْقَبِيحِ أَظْلَمُ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْرَهُ وَيَمْهَدُ السَّبِيلَ لِغَيْرِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠١

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٩ الى ٣١]

أَإِنَّكُمْ لَأنتونَ الرُّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)

[٣٠] أَيْ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ لَأنتونَ الرُّجَالَ أَيْ تَفْعَلُونَ مَعَهُمْ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ فَقَدْ اشتهر عملهم الفاحش في القرى المجاورة، وإن من يمر بهم يفعلون به، ولذا ترك الناس المرور بمدنهم، خوف الفضيحة وتأتون في ناديتكم المنكر؟ النادي هو محل الاجتماع، مشتق من النداء، لأن بعض الناس ينادي بعضا آخر للاجتماع والذهاب إليه، فقد كانوا يتحابون في النادي بغير حشمة واحترام، ولعل أن نواديهم كانت مركزا لأنواع الفسوق، كما هو الطبيعي في مثل تلك الأمة، ونشاهد مثلها في زماننا هذا، ومن المعلوم أن الاستفهام إنكارى فما كان جواب قومه أي قوم لوط إلا أن قالوا ائتنا و جىء إلينا بعذاب الله الذي تعدنا على كفرنا ومنكرنا إن كنت من

الصَّادِقِينَ فِي دَعْوَاكَ وَمَا تَقُولُ بِأَنَّ الْبَقَاءَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعَصِيَانِ مُوجِبٌ لِلْعَذَابِ.

[٣١] عند ذاك قال لوط عليه السّلام مناجيا ربه، يَا رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ بتعذيبهم، و نجاتي منهم، و قد دعا بذلك بعد ما يأس من اهتدائهم.

[٣٢] و قد استجاب الله دعاء لوط، فأرسل جبرائيل و معه ملكين آخرين لتعذيب أهل القرية، و في طريقهم إلى بلاد لوط مرت الملائكة على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٢

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٣٢ إلى ٣٣]

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)

إبراهيم عليه السّلام و لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ جَلَسُوا عِنْدَهُ فِي زِيٍّ لَمْ يَعْرِفَهُمْ، ثُمَّ عَرَفَهُمْ، وَ زَفُوا إِلَيْهِ بِالْبَشْرَى أَى الْبَشَارَةَ بِإِسْحَاقَ، وَ إِنْ اللَّهُ يَرْزُقُهُ وَلِدًا مِنْ زَوْجَتِهِ «ساره» بعد ذلك قالوا أى الملائكة إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَى قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطَ، وَ قَدْ كَانَتْ قَرْيَةً مِنْ مَحَلِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ كَافِرِينَ مُرْتَكِبِينَ لِلْفَوَاحِشِ وَ الْمُنْكَرَاتِ.

[٣٣] قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلرَّسُلِ إِنَّ فِيهَا أَى فِي الْقَرْيَةِ لُوطًا وَ هُوَ عَبْدٌ صَالِحٌ، فَكَيْفَ تَهْلِكُونَ الْقَرْيَةَ وَ هُوَ فِيهَا؟ قَالُوا أَى قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ نَحْنُ أَعْلَمُ مِنْ غَيْرِنَا بِمَنْ فِيهَا فَلَا نُرِيدُ إِهْلَاكَ الْجَمِيعِ حَتَّى لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَنَنْجِيَنَّهُ أَى نَخْلُصَ لُوطَ وَ أَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْقَرْيَةِ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا تَبَقَى لِتُعَذَّبَ فَيَمُنَ يَعَذَّبُ لِأَنَّهَا فَاسِدَةٌ ظَالِمَةٌ كَسَائِرِ الْقَوْمِ كَانَتْ الْمَرْأَةُ مِنَ الْغَابِرِينَ أَى الْبَاقِينَ لِتُعَذَّبَ مَعَ الْقَوْمِ، مِنْ «غبر» بِمَعْنَى مَضَى، كَأَنَّهَا تَمَضَى فَيَمُنَ يَمَضَى.

[٣٤] وَ تَحَرَّكَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ قَاصِدِينَ قَرْيَةَ لُوطَ وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا أَى الْمَلَائِكَةُ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّئًا بِهِمْ أَى سَاءَ لُوطَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٣

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٣٤ إلى ٣٥]

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

مَجِيءِ الرِّسْلِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفَهُمْ ابْتِدَاءً وَ ظَنَّهُمْ ضِيُوفًا آدَمِيِّينَ، وَ قَدْ كَانُوا أَصْحَابَ جَمَالٍ، فَخَافَ لُوطٌ إِنْ أُطِيعَ الْقَوْمُ أَنْ يَعْمَلُوا مَعَهُمُ الْفَاحِشَةَ وَ ضَاقَ لُوطٌ بِهِمْ أَى بِسَبَبِ الرِّسْلِ ذُرْعًا هَذَا تَمَيِّزٌ لِ«ضَاقٍ» أَى ضَاقٌ مِنَ حَيْثُ الذَّرْعُ، وَ هُوَ الطَّاقَةُ، وَ قَدْ عَرَفَ الْقَوْمُ بِمَكَانِ الضِّيُوفِ، وَ جَاءُوا لِأَخْذِهِمْ وَ عَمِلَ الْفَاحِشَةَ، فَخَافَ لُوطٌ مِنَ الْفُضِيحَةِ، وَ هُنَاكَ أَظْهَرَ الرِّسْلَ حَقِيقَةً أَمْرَهُمْ وَ قَالُوا لِلُوطِ لَا تَخَفْ عَلَيْنَا وَ لَا عَلَى نَفْسِكَ وَ لَا تَحْزَنْ بِمَا نَفَعَلَهُ بِالْقَوْمِ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ لَا تَحْزَنْ عَلَيْنَا، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا وَ لَا إِلَيْكَ إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ أَى نُنْجِيكَ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَشْمَلُهُمْ إِلَّا امْرَأَتَكَ الْكَافِرَةَ فَإِنَّا لَا نُنْجِيهَا بَلْ نُنْذِرُهَا مَعَ الْقَوْمِ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ مِنْ جَمَلَةِ الْبَاقِينَ لِتُعَذَّبَ بِعَذَابِهِمْ.

[٣٥] إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الَّتِي أَنْتَ بِهَا، وَ هِيَ «سُدوم» رِجْزًا أَى عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أَى بِسَبَبِ فَسْقِهِمْ وَ خُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِالْكَفْرِ وَ الْعَصِيَانِ.

[٣٦] ثُمَّ خَرَجَ لُوطٌ وَ الْمُؤْمِنُونَ لَيْلًا، وَ نَزَلَ الْعَذَابُ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا أَى أَبْقَيْنَا مِنَ الْقَرْيَةِ آيَةً بَيِّنَةً أَى عَلَامَةً وَاضِحَةً، وَ هِيَ آثَارُ مَنَازِلِهِمُ الْخَرِبَةُ، وَ أَرْضُهُمُ الَّتِي لَا تَنْبَتُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٤

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٣٦ إلى ٣٨]

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُشْتَبِرِينَ (٣٨)

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فإذا ذهب الإنسان من الحجاز إلى الشام، أو رجع رأى أرضهم اليباب في الطريق.

[٣٧] وأرسلنا إلى مَدْيَنَ اسم قبيلة سميت باسم جدِّهم الأعلى «مدین» أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَإِنْ شَعِبَ كَانَ مِنْ نَفْسِ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فَقَالَ لَهُمْ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ أَيَّ اعْتَدُوا بِهِ، رَاجِعِينَ لِثَوَابِهِ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ طَلَبِهِ لَهُمْ - فَوْقَ الْإِعْتِقَادِ بِالْقِيَامَةِ - الْعَمَلُ الصَّالِحَ لِأَجْلِ لِقَائِهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ يُقَالُ «عَثَى» إِذَا أَفْسَدَ فَسَادًا كَثِيرًا، وَ لَعَلَّ التَّأَكِيدَ بِ«مُفْسِدِينَ» لِإِفَادَةِ أَنْ لَا يَكُونُ فَسَادُهُمْ عَنْ قَصْدٍ وَ تَعَمُّدٍ، أَيَّ لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ عَامِدِينَ.

[٣٨] فَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا لَهُ أَنْتَ تَكْذِبُ فِي وَحْدَةِ الْإِلَهَةِ، وَ وَجُودِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَ إِنَّكَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ صَاحِبَهُمْ جِبْرَائِيلَ صَيِّحَةً رَجَفَتْ وَ اضْطَرَبَتْ مِنْهَا أَجْسَامُهُمْ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ التِّي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا فِي أَمْنٍ وَ سَلَامٍ فِيهَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَصَابُ بِالْمَكْرُوهِ فِي الْأَسْفَارِ لَا فِي الدِّيَارِ جَاثِمِينَ مِنْ جِثْمٍ، بِمَعْنَى بَقِيَ بَدُونِ حَرَكَهٖ، وَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ مَوْتِهِمْ مِنْ تِلْكَ الصَّيْحَةِ.

[٣٩] وَأَهْلَكْنَا أَيْضًا عَادًا بَعْدَ مَا أَنْذَرَهُمُ النَّبِيُّ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يَقْبَلُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٥

[سورة العنكبوت (٢٩): آية ٣٩]

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩)

قوله وَثَمُودَ بَعْدَ مَا أَنْذَرَهُمُ النَّبِيُّ صَالِحٌ فَكَذَّبُوهُ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ يَا كَفَّارِ قَرِيشَ، بَعْضُ مَنْ مَسَاكِينِهِمُ الْبَاقِيَّةُ فِي أَطْرَافِ بِلَادِكُمْ، فَكَانَ «حَجْرًا» بِلَادِ ثَمُودَ فِي طَرَفِ الشَّامِ، وَ الْأَحْقَافُ بِالْقَرْبِ مِنْ حَضْرَمَوْتِ يَمَنِ بِلَادِ عَادَ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمُ الْعَصِيَانِيَّةُ مَزِينَةٌ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَ الْمَزِينُ هُوَ الشَّيْطَانُ، لِأَنَّهُ الَّذِي يُوسَسُ بِالْقَبَائِحِ إِلَى الْإِنْسَانِ فَصَدَّهُمْ أَيَّ مَنَعَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أَيَّ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كَانُوا مُشْتَبِرِينَ يَبْصُرُونَ الْأُمُورَ وَ يَمَيِّزُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ، وَ مَعَ ذَلِكَ ارْتَكَبُوا الْمَعَاصِيَ فَأَهْلَكُوا، وَ الْمَرَادُ بِهَذَا أَنَّهُمْ، قَدْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةُ.

[٤٠] وَأَهْلَكْنَا قَارُونَ الَّذِي كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى، وَ مَرَّتْ قِصَّتُهُ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ وَ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ يَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى وَ هَامَانَ وَ زَيْرَ فِرْعَوْنَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ أَيَّ جَاءَ إِلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مُوسَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَيِّنَاتِ أَيَّ بِالْحُجُجِ الْوَاضِحَاتِ مِنَ الْعَصَا وَ الْيَدِ، وَ فُلُقِ الْبَحْرِ وَ غَيْرِهَا فَاسْتَكْبَرُوا أَيَّ طَلَبُوا الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَ لَمْ يَخْضَعُوا لِأَمْرِ مُوسَى، لَمَّا قَدْ ظَنُّوا أَنَّ فِي ذَلِكَ مَنَافَةَ لِمَقَامِهِمْ وَ عِظَمَتِهِمْ وَ مَا كَانُوا سَابِقِينَ أَيَّ لَمْ يَفُوتْنَا، تَشْبِيهًُ بِمَنْ يَسْبِقُ الطَّالِبَ فِي الْفِرَارِ، فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ اللَّحَاقِ بِهِ لِيَعَاقِبَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٦

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٠ إلى ٤١]

فُكَلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)

[٤١] فُكَلًّا مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَامِ، وَ أَوْلِيَاكَ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ عَتَوْا عَنِ الْحَقِّ، وَ لَمْ يَطِيعُوا الْأَنْبِيَاءَ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ أَيَّ عَذَبْنَا حَسَبَ مَعْصِيَتِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَ هِيَ الْحِجَارَةُ، وَ هُمْ قَوْمُ لُوطَ الَّذِينَ أَمْطَرُوا بِالْحِجَارَةِ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ هُمْ ثَمُودُ، وَ أَهْلُ مَدْيَنَ، حَيْثُ صَاحِبَهُمْ جِبْرَائِيلَ فَأَهْلَكُوا مِنْ شِدَّةِ وَقْعِ الصَّيْحَةِ فِي قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ فَذَهَبَ فِي الْأَعْمَاقِ، وَ هُوَ قَارُونَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا فِي الْبَحْرِ، وَ هُوَ فِرْعَوْنُ وَ هَامَانُ وَ قَوْمُهُمَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ فِي تَعْذِيبِهِمْ بِهَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْعَذَابِ مِنْ غَيْرِ

ذنب، و بدون إتمام الحجة و لكن كانوا أنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ فقد ظلموا أنفسهم بالكفر و الطغيان فأرأوا جزء أعمالهم.

[٤٢] ألا- فليعتبر كفار قريش بهذه العبر، و إلا- أصابهم ما أصاب أولئك، و ماذا يتخذ الكفار من الآلهة؟ فهل هؤلاء الأولياء يقاسون بالله؟ كلا إنها أوهن من بيت العنكبوت، و مثل هؤلاء الذين يتخذون الأصنام آلهة كمثل العنكبوت التي تبقى و تحرز نفسها بالبيت الضعيف الذي صنعه من خيوط واهية لا بقاء له، و لا يقيها من شر الأعداء مثل الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ و هي الأصنام التي كان المشركون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٧

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)

يتولونها، و يجعلونها أولياء لهم عوض أن يتخذوا الله وليا كمثل العنكبوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا لِنَفْسِهَا لِتَأْوِي إِلَيْهِ، و يقيها الكوارث، فكما أن بيت العنكبوت لا يفيدها شيئا، كذلك أولياء هؤلاء لا يفيدونهم شيئا و لا يضرّونهم في الدنيا، و لا في الآخرة و إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ الَّتِي تَصْنَعُهَا الْحَيَوَانَاتُ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ فَإِنْ بَيْتُهَا يَطِيرُ بِنَفْحِ مَنْ وَهْنَهُ وَ ضَعْفِهِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَى لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْوَاقِعَ، لعلموا أن أولياءهم كبيت العنكبوت الذي لا يغني شيئا.

[٤٣] فليعملوا ما شاءوا، و ليتخذوا من شاءوا أولياء، فهم بعلم الله، و سيجزيهم بما اقترفوا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ أَى أنه يعلم ما يعبد هؤلاء الكفار من الأصنام، فهو يعلم دعوتهم، كما يعلم معبوداتهم، و هذا تهديد لهم، كما تقول: أنا أعلم من تجالس، تريد تهديده في هذه المجالسة وَ هُوَ الْعَزِيزُ سُلْطَانُهُ، فإذا أراد شيئا تمكن عليه الْحَكِيمُ لا يفعل شيئا إلا حسب المصلحة، فتأخير إهلاك هؤلاء، ليس عجزا، بل عن حكمه و صلاح.

[٤٤] وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ الْأَشْبَاهُ وَ النَّظَائِرُ الَّتِي نَشَبَهَا بِهَا بَعْضُ الْأُمُورِ، كتشبيه أولياء الكفار ببيت العنكبوت نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ أَى نذكرها لهم، و قد سبق أنه يسمى «ضربا» باعتبار أنه يوجد اصطداما في الذهن، مما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٨

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٤ إلى ٤٥]

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ائْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

يسبب تركيز المطلب و بقاءه و مَا يَعْقِلُهَا أَى ما يفهم الأمثال إِلَّا الْعَالِمُونَ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمُ الَّذِينَ تَهْزُ مَشَاعِرُهُمُ الْأَمْثَالَ، أما من سواهم، مما لا فكر له و لا تدبير، فيبقى جامدا لا حراك لذهنه.

[٤٥] إن كل ما يذكره سبحانه للحق لا للهو، و منه ضرب المثل، فقد خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ فلم يكن خلقهما لأجل اللعب و اللهو، فكيف من يخلق الأشياء بالحق يأتي بالمثل لعبا؟ إذ فعل الواحد بعضه يشبه بعضا؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ أَى فِي خَلْقِ الْكُونَ لَآيَةً دَالَّةٌ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمُ الْمُتَمَتِّعُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، و إن كان كونه علامة عامة لجميع العقلاء، فكيف يتخذ الكفار من دونه أولياء؟

[٤٦] ائْتَلُ أَى أَقْرَأُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ أَى الْقُرْآنِ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَى أَدِّهَا بِحُدُودِهَا وَ آدَابِهَا إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ الْفَحْشَاءِ صِفَةٌ لِلْمَعْصِيَةِ الْمَقْدَرَةِ، و هي أعظم من المنكر لا اعتبار كونها فاحشة في الحرمة متعدية للحدود تعديا كثيرا، من فحش بمعنى تعدى، و المنكر كل عصيان ينكره العقل و الشرع، و إنما كانت الصلاة ناهية عن المنكرات، لأنها- باستمرارها- تولد في الإنسان ملكة الخوف من الله الموجب لاجتناب المعاصي وَ لَذِكْرُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٠٩

اللَّهِ بَأَن يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَتَذَكَّرًا لِّسُبْحَانِهِ دَائِمًا الْأَوْقَاتِ، حَتَّى لَا يَصْدُرَ مِنْهُ عَصِيَانٌ إِطْلَاقًا، لَخَوْفِهِ مِنْهُ تَعَالَى أَكْبَرُ مِنَ الصَّلَاةِ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ مِنْ إِحْدَى مَصَادِيقِ الذِّكْرِ وَ لَوَازِمِهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصَيَّرْنَا مِنْهَا لِلْبَشَرِ، فَاعْمَلُوا الطَّاعَاتِ، وَ لَا تَعْمَلُوا الْمَعَاصِيَ، فَإِنَّكُمْ تَحْتَاطِعُوا عِلْمَهُ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَ لَعَلَّ الْمَرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، إِعْلَامَ النَّبِيِّ، بِأَنَّهُ يَسْتَمِرُّ فِي عَمَلِهِ وَ دَعْوَتِهِ، فَلَا يَهْتَمُّ بِمَا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ وَ الْعَصَاةُ، إِنَّهُ مَأْمُورٌ بِالسَّيْرِ فَمَنْ شَاءَ تَبِعَهُ، وَ مَنْ لَمْ يَشَأْ بَقِيَ فِي كُفْرِهِ وَ ضَلَالِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١١

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الحادى والعشرون من آية (٤٧) سورة العنكبوت إلى آية (٣١) سورة الأحزاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عَرَّتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٣

[سورة العنكبوت (٢٩): آية ٤٦]

وَ لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلَهُنَا وَ إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)

[٤٧] و لما ذكر سبحانه لزوم الدعوة إليه سبحانه، و تقدم قسم من الاحتجاجات مع المشركين، بين كيفية دعوة أهل الكتاب، و خصهم بالذكر لأنهم أكثر خطراً على الدعوة الإسلامية من المشركين، فإنهم إن ثارت حفيظتهم عملوا عملهم فى هدم الإسلام، فقال سبحانه وَ لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَيَّ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الطَّرِيقِ، بِأَنَّ تَكُونَ بَعِيدَةً عَنْ آثَارِ الْغَضَبِ، قَرِيبَةً إِلَى النِّصْفَةِ، قَوِيَّةً فِي الْحُجَّةِ، بَرَفَقٌ وَ لِينٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ بِالْإِعْتِدَاءِ فِي الْبَحْثِ وَ الْإِفْرَاطِ، فَإِنْ أَخَذَ طَرَفَ اللَّيْنِ، وَ جَانِبَ الرِّفْقِ، يَوْجِبُ تَقْوِيَةَ جَانِبِهِمْ، فَإِنَّهُ مَبَاحٌ أَنْ تَكُونَ الْمَجَادِلَةُ حَيْثُذُ بِالْمَثَلِ وَ قُولُوا لَهُمْ عِنْدَ الْجِدْلِ آمَنَّا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ هُوَ الْقُرْآنُ وَ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ هُوَ التَّوْرَةُ أَوْ الْإِنْجِيلُ - مثلاً - وَ إِلَهُنَا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ وَ إِلَهُكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَاحِدٌ فَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ لا تعبدونه وَ نَحْنُ لَهُ لَدَيْكَ الْإِلَهَ مُسْلِمُونَ قَدْ خَضَعْنَا وَ أَنْقَذْنَا، وَ إِذْ كَانَ لَنَا وَ لَكُمْ أُمُورٌ مَشْرُكَةٌ، فَلَنَجْتَمِعْ عَلَيْهَا، وَ نَدْعُ الْأُمُورَ الْمَفْرُقَةَ، كَكُونَ الْبَشَرِ الْفُلَانِي ابْنَ اللَّهِ، وَ نَحْوَ ذَلِكَ وَ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ) «١»

(١) آل عمران: ٦٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٤

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَ مَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخْطُ بِبِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)

[٤٨] وَ كَذَلِكَ أَيُّ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى مُوسَى وَ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ الْكِتَابَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ، فَالْكِتَابُ كُلُّهَا مَنزَلَةٌ مِنْ عِنْدِ إِلَهٍ وَاحِدٍ، لِغَايَةِ وَاحِدَةٍ، وَ إِنَّمَا التَّحْرِيفُ حَصَلَ مِنْ أَهْوَاءِ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا أَوْ أَضَلُّوا فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ أَيُّ أَعْطَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ بِأَنَّ كَانُوا حَقِيقَةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَ التَّعَصُّبِ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَيُّ بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ فِي مَكَّةَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أَيُّ بِالْقُرْآنِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا يَنْكُرُهَا، وَ لَا يَعْتَرِفُ بِهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَ لَا يَرِيدُونَ الْحَقَّ، سِوَاءَ كَانُوا فِي زِيٍّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَوْ فِي زِيٍّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ إِلَّا - فَالْأَدْلَةُ الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ هَذَا الْكِتَابِ مَتَوَفَّرَةٌ، فَمَا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، إِلَّا بِالْكَفْرِ وَ الْجُحُودِ؟

[٤٩] وقد حفظنا هذا القرآن عن كل شبهة، لمن أراد الحق والإنصاف، فقد جعلنا الرسول أمياً لم يختلف إلى معلم قط، فلم يكن القرآن محل شبهة أن يكون الرسول تعلم قبلاً ثم جاء به وما كُنْتَ يا رسول الله تَتْلُوْا و تَقْرَأُ مِنْ قَبْلِهِ أَي من قبل القرآن مِنْ كِتَابٍ فلم يكن الرسول قارئ حسب الموازين الاجتماعية، وإن كان يعرف القراءة بإلهام الله تعالى وَلَا تَخْطُ أَي لم تكن تكتب الكتاب بِمِثْلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٥

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)

أى بيدك، وإنما خصّ اليمين، لأنه الغالب في الكتابة إذاً أى لو كنت تقرأ أو تكتب لآرتاب المبتطلون أى لوجد المبتطلون طريقاً للتشكيك في القرآن، ولقالوا إنما جمعه مما تعلمه سابقاً، وإنما قال «المبتطلون» لأن الارتاب أيضاً في ذلك الوقت كان في غير محله إذ إن الكاتب القارئ، لا يتمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن.

[٥٠] إذن لم يكن القرآن مجموعاً من علوم سابقة تعلمها الرسول، ثم جاء بها بهذه الصورة بل هو أى القرآن آياتٌ بَيِّنَاتٌ واضحات في كونها خارقة من عند الله سبحانه، لا- من صنع بشر، وتأليف إنسان في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فمن كان عالماً، يعلم أن هذا القرآن، لا يمكن أن يأتي به بشر، فقلوه «في صدور» متعلق ب «بينات» أى أنها واضحة عند أهل العلم، أما الجهال، فإنهم لا يميزون بين المعجز، وبين المؤلف، كما لم يميزوا بين عصا موسى، وسحر السحرة، وبين إحياء عيسى وطب الأطباء وما يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا و ينكرها، بل يقول إنها مختلقة اختلقها الرسول إِلَّا الظَّالِمُونَ الذين ظلموا أنفسهم بالانحراف عن منهج الحق، فتمسكوا بالافتراء لإطفاء نور الإسلام.

[٥١] وَقَالُوا أَي الْكُفَّارِ لَوْ لَا أَي هَلَّا، ولماذا ما أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ خارقة، كخارقه العصا، واليد البيضاء؟ فإنه لو كان نبياً لآتى بمثل ما أتى موسى، فقد أعرضوا عن القرآن المعجز الباقي، إلى طلب معجزة مادية مؤقتة قُلْ يا رسول الله، فى جوابهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٦

[سورة العنكبوت (٢٩): آية ٥١]

أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)

إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْزَلْنَاهَا، وإن لم يشأ لم ينزلها، أما ما يكفى للحجة، فقد أتيتكم به، وأما للمعاند، فلا تكفى حتى تلك الآيات المادية وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أى منذر واضح إنى من قبل الله تعالى، أما كيفية المعجزة، فهو سبحانه أعلم بمصالح العباد، وقد كان هؤلاء معاندون، وإلا ألم يكفر الناس بموسى (قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ) «١» ثم إن الله خصّ كل نبي بآية تناسب زمانه، وزمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان زمن الفصاحة والبلاغة، كان المناسب له الإتيان بهذا الجنس من الإعجاز- كما قرر ذلك فى علم الكلام مفصلاً-

[٥٢] أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَي أَلَا- يكفى هؤلاء الكفار، دليلاً على صدقك ونبوتك أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ وَيَقْرَأُ لَدَيْهِمْ، فلا يتمكنون من الإتيان بأقصر سورة منه، مع أنهم فصحاء بلغاء؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِنزَالِ لِلْكِتَابِ لَرَحْمَةً حَيْثُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَنَاجِجَ السَّعَادَةِ لِلْبَشَرِ وَذِكْرَى تَذَكُّرَ الْبَشَرِ، بما أودع فيهم من الفطرة بالنسبة إلى المعارف والآداب، وأصول الاجتماع لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَإِنَّمَا خَصَّهِمْ، لأنهم هم المنتفعون بالقرآن، وإلا فالقرآن ذكرى لجميع البشر، و هل بعد هذا الكتاب العظيم، يطلب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٧

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعْتُهُ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ (٥٣)

منك الكفار أن تأتيهم بآية مادية، لا تقرر للحياة منهجا، ولا تذكر الإنسان تذكيرا؟

[٥٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الذين يناقشون في نبوتك و يطلبون الخوارق المادية للإيمان برسالتك كفى بالله أى كفى الله، وإنما جىء بالباء، لأنه بمعنى اكتفى فلان بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا فالنزاع الذى بينى و بينكم حول رسالتى، يشهد الله لى، و ذلك لأنه أجرى هذه الخارقة- و هو القرآن- على لسانى، و لو كنت كاذبا لتمكن كل فصيح أن يأتى بمثله، و لا مجال، لأن تقولوا إن الله لا يعلم بادعائك هذا، حتى يرد عليك و يمنعك، فإنه يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فكيف لا يعلم بى، و بادعائى وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ بأن عبدوا الأصنام، و جعلوها آلهة وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ بأن أنكروه أو أشركوا به أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الذين خسروا أنفسهم، فعوض أن يعطوا النفوس، ليحصلوا على الجنة، أعطوا النفوس فحصلوا على النار، حتى ابتليت نفوسهم، كالخاسر الذى يذهب رأس ماله، و حيث إن طرف كلام الرسول كان المشركين الذين ينكرون التوحيد، و الرسالة، و المعاد، جاءت الآيات معترضه لكل ذلك، فلا يقال أى ربط بإنكارهم للرسالة التى كان التعرض عليها فى أول الآيه، مع الذين آمنوا بالباطل؟

[٥٤] وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْعَذَابِ أى يطلبون عجله العذاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٨

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

لأنفسهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول، إن كان حقا، فادع ربك أن ينزل علينا العذاب- استهزاء- لأن يقولوا، حيث لم تقدر على إنزال العذاب، فأنت كاذب، لا اتصال لك بالله وَ لَوْ لَا أَجَلٌ وَ وَقْتُ قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُمْ مُّسَمًّى قد سمي ذلك الوقت فى اللوح المحفوظ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ الذى استحقوه، فإنه سبحانه قدر لهم أجلا، للامتحان، و لإيمان بعض الكافرين، لذا ترى أنه لو عجل على كفار مكة العقاب، فات إيمان جماعة منهم آمنوا بعد ذلك وَ لَا يَسْتَبْطِئُ الْكُفَّارَ الْعَذَابُ، فإنهم إن بقوا على كفرهم لَيَأْتِيَنَّهُمُ الْعَذَابُ بَعْتُهُ أى فجاء بدون سابق إنذار، و ذلك عند مamatهم، أو عند حرب الرسول لهم، و قتلهم و أسرهم، أو ما أشبهه، كما ابتلى جماعة منهم بأنواع الأمراض المهلكة وَ هُمْ لَا يَسْعُرُونَ بوقت إتيان العذاب حتى يأخذوا حذرهم.

[٥٥] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ أى إن هؤلاء، إنما يطلبونك يا رسول الله، بأن تجعل لهم العذاب فى الدنيا، فلنأخذ أنهم لم يعذبوا هنا- لبعض المصالح- فهل لهم إفلات عن عذاب جهنم؟ كلا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ مشتملة عليهم بحيث لا مفر لأحد منهم، منها، و سيلاقونها و يعذبون فيها بأنواع العذاب.

[٥٦] إن عذاب جهنم ليحيط بهم فى يوم يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ و يسترهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢١٩

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي آتِيكُمْ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا تُرْجَعُونَ (٥٧)

مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ فهم فى وسط النار المحيطة بهم وَ يَقُولُ اللَّهُ لَهُمْ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أى جزاء أعمالكم فقد أسند ما للمسبب إلى السبب، إذ العمل سبب العذاب.

الكذب إفكا، لأنه صرف الكلام عن الحقيقة نحو خلاف الواقع.

[٦٣] الله هو الخالق المسخر، وهو الرازق المقدر، فلما ذا يعبدون الأصنام؟ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ أى يوسع لمن يشاء من عباده، من عليه وَيَقْدِرُ لَهُ أى يضيق الرزق لمن يشاء من عباده، من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٢

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

وَلَيْئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)

«قدر» بمعنى ضيق، والظاهر أن لفظ «له» عائد إلى لفظ «من يشاء» لا إلى معناه حتى يستلزم التناقص، ويحتاج في جوابه إلى التزام تعدد الوقت إنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيعلم مصالح العباد، وطبق ذلك العلم الواسع يوسع في الرزق لبعض، ويضيق فيه لبعض. [٦٤] وَلَيْئِن سَأَلْتَهُمْ أى سألت الكفار العابدين للأصنام مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أى المطر فَأَحْيَا بِهِ أى بذلك الماء الْأَرْضَ بأن أوجد فيها حركة تقتضى إنبات النبات مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا حيث لا حركة لها ولا إنماء- أو إن الإحياء للنبات، ونسب إلى الأرض بعلاقة الحال والمحل- لَيَقُولُنَّ فى الجواب الله يحيى الأرض بعد موتها قُلِ يا رسول الله، بعد ما سمعت هذا الاعتراف منهم الْحَمْدُ لِلَّهِ فقد اعترفتم بأن الله هو الوحيد فى إدارة الكون، كما اعترفتم من قبل بأنه هو الوحيد فى الخلق و الرزق بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ توحيد الإله مع إقرارهم بأنه الخالق الرازق المصرف.

[٦٥] إنهم بعد أن اعترفوا بالإله، يلفتهم السياق إلى المعاد وما هذه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ موجبه لأن يلهو الإنسان، وينسى الحقائق والغرض الأصلي من الخلقه وَلَعِبٌ كلب الأطفال يشغل الإنسان مدة ثم يزول وينصرم وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ أى الحياة الحقيقية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٣

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيُكْفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

التي يصح أن يقال لها حياة، و حياة و حيوان، بمعنى واحد، يقال حياى حياة و حيوانا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أى لو علموا الفرق بين الحياتين لرغبوا فى تلك، وزهدوا فى هذه.

[٦٦] إن هؤلاء الذين يشركون بالله، قد دلت فطرتهم على وحدة الإله، حتى أنهم ليتوسلون فى المشاكل إليه وحده، أما إذا انحلت المشكله، رجعوا إلى كفرهم، جريا حسب المألوف عندهم، والتقليد فَإِذَا رَكِبُوا أى هؤلاء الكفار فى الْفُلْكِ أى السفينة، واضطربت بهم الأمواج دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى توسلوا إليه فى حال كونهم يخلصون له الطريقة و الدعوة، فلم يدعوا الشركاء لأنهم يعلمون أن لا منجى إلا الله سبحانه فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ بأن لم يهلكوا و أتوا إلى البر سالمين بفضل الله سبحانه إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ أى عادوا إلى شركهم، كما كانوا سابقا، و كان الإتيان بلفظة «إذا» لإفاده المبالغة، فإنه كان من التوقع منهم أن يبقوا موحدين بعد تلك الكارثة، فإذا بهم يفاجئون الناس بالشرك.

[٦٧] لِيُكْفَرُوا لعل اللام لام الأمر، جىء للتهديد نحو «افعل ما شئت» أى فليكفر هؤلاء بِمَا آتَيْنَاهُمْ أى أعطيناهم من الحياة، و الصحة و الغنى و سائر الخيرات وَلِيَتَمَتَّعُوا بمتاع الحياة من مأكلا و مشرب، و ملبس و منكب و مركب فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبه كفرهم، و هى النار و العذاب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٤

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالدِّينَ جَاهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

[٦٨] ومن عجيب أمر هؤلاء، أن الله قد أنعم عليهم، وهم يدلون نعمه الله كفرا، فقد أعطاهم حرما آمنا، ثم هم يجعلون الحرم مركزا للأصنام، فمن ترى جعل الحرم آمنا غير الله؟ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَيْ أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنَّا جَعَلْنَا لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يَحْتَرَمُ فِيهِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْغَارَةِ وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ يَخْتَفِطُهُمْ أَعْدَاءُهُمْ، فَالْقَبَائِلُ تَغْيِيرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَيَقْتُلُوا وَيَأْسُرُوا، أَلَيْسَ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ وَيُحَدِّدُوا؟ أَفَبِالْبَاطِلِ وَهِيَ الْأَصْنَامُ يُؤْمِنُونَ فَيَجْعَلُونَهَا آلِهَةً؟ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ يَكْفُرُونَ فَيَجْعَلُونَ الْحَرَمَ الَّذِي هُوَ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، مَحَلًّا لِلْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، فَإِنْ كَفَرْنَا النِّعْمَةَ أَنْ تَصْرَفَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

[٦٩] وَمَنْ أَظْلَمُ أَيْ لَا أَظْلَمُ مِنْ هَكَذَا إِنْسَانٍ - وَالْحَصْرُ إِضَافِي - مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا كَكُفَّارِ مَكَّةَ الَّذِينَ جَعَلُوا اللَّهَ شَرَكَاءَ افْتِرَاءً وَكُذْبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ أَيْ كَذَّبَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنَ لَمَّا جَاءَهُ يُرِيدُ إِرْشَادَهُ وَهُدَايَتَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى أَيْ مَحَلُّ نَوَى وَإِقَامَةً لِلْكَافِرِينَ فليعملوا ما يشاءون، فإن مصيرهم إلى النار، و هل هناك كفر أعظم من الشرك و تكذيب الرسل؟ [٧٠] إِنْ فِي وَسْطِ هَذَا الزَّحَامِ الْخَاطِقِ، وَ الْجَوْ الْكَافِرِ، مِنْ يَجَاهِدُ فِي اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٥

بالإيمان، و الأعمال الصالحة، فإنه يهتدى إلى طريق الحق، الموصل له إلى سعادة الدنيا والآخرة وَ الَّذِينَ جَاهِدُوا فِينَا أَيْ مِنْ أَجْلِنَا، وَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا وَ طَاعَتِنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا جَمْعُ سَبِيلٍ وَ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي قَرَرْنَا لِأَجْلِ الرِّشَادِ وَ الصَّلَاحِ وَ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ، وَ هَذَا عَامٌ، فَكُلُّ مَنْ جَاهَدَ فِي طَرِيقِ فَتْحِ أَمَامِهِ بَابِ الْحَقِّ وَ الصِّدْقِ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَحْسِنُونَ فِي نِيَاتِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَعَهُمُ بِالنِّصْرَةِ وَ الْغَلْبَةِ وَ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٦

٣٠ سورة الروم مكية / آياتها (٦١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الروم» و إشارة إلى قصة لهم مع الفرس، و هي كسائر السور المكية، تطرق طرفا من العقيدة و التوحيد و الرسالة و المعاد، قال في المجمع: أجمل في آخر العنكبوت ذكر المجاهدين، ثم فصل في هذه السورة، فقال. [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي إن ابتدأ به شيء، كان الشيء مطبوعا بطابع الإيمان، فله سمة المؤمنين في الظاهر، و عليه رعاية الله في الباطن، فإن من هتف باسم شخص جعله ظهيرا لنفسه، أليس أبدى إنه من جمعه و حزبه؟ و استمداد من الرحمة المطلقة و الفيض العميم الذي وسع كل شيء، لتشمله الرحمة الخاصة، و اللطف المخصوص.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٧

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ غَلِبَهُمْ سَيِّغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدِ وَ يَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)

[٢] الم رمز بين الله و رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ، أَوْ الْمَرَادُ، إِنْ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ جِنْسِ «أَلْف» «لَام» «مِيم» أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَالِغَةِ نِيْفًا وَ عَشْرِينَ، وَ هُوَ خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَيْ «هَذَا: الم» حَذَفَ خَيْرَهُ، أَيْ «الم: هذا الكتاب».

[٣] غَلِبَتِ الرُّومُ فقد كان بين الروم، وهم المسيحيون، و كانوا في طرف غرب الجزيرة، تقريبا، و بين الفرس، و هم المجوس، و كانوا في شرق الجزيرة، تقريبا حروب دامية على طول الخط، فتارة يغلب هؤلاء على هؤلاء، و أخرى بالعكس، و اتفقت إحدى حروبهم في بدء الإسلام حين الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان بمكة، فغلبت الفرس على الروم، حتى أخذت الفرس مركز المسيحيين «بيت المقدس» و فرح الكفار بذلك، لأن الفرس كانت مثلهم في عدم الاعتقاد بالإله، كما حزن المسلمون، لأن الروم كانت ذات دين و كتاب و اعتقاد، و كانت بينهم و بين المسلمين جهات مشتركة، و لذا سَلَّى اللهُ سبحانه المسلمين، بأن مغلوبية الروم لا تدوم، و إنما هم يغلبون بعد سنوات قلائل.

[٤] فِي أَدْنَى الْأَرْضِ أى أقرب أرضهم من أرض الجزيرة في بيت المقدس وَهُمْ أى الروم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ أى غلبه الفرس عليهم، في هذه الحادثة سَيَغْلِبُونَ و ينتصرون عليهم بإرجاع بلادهم منهم.

[٥] و إنما يغلب الروم الفرس فِي بَضْعِ سِنِينَ بضع القطعة من العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، يقال بضع و عشرون، أى أن فوق عشرين عدد، هو ما بين الثلاثة إلى العشرة، و هذا من أخبار القرآن الغيبية، و ما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٨

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥ إلى ٦]

بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَ عَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) أكثرها، فقد كان كذلك، إذ وقعت حرب أخرى بين الطرفين، فغلبت روم الفرس، و استردت ما أخذوا منها من البلاد لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدِ أى من قبل الغلب، و من بعد الغلب، فلا يقع شيء إلا بإذنه، و في هذا تسلية للمؤمنين، بأنه إن غلبت فارس، فليس ذلك موجبا لحزنهم، إذ الأمور بيد الله الذى هو وليهم و ناصرهم، كما تقول لابنك: إن رأيت غلبه بعض أعدائك، فلا يهملك، إنى أريد ذلك، و الحاصل أن غلبه الفرس، ليست انتصار للكفر على الإيمان، و إنما شيء مؤقت بقضاء الله و قدره، و الله لا يترك الإيمان حتى يغلبه الكفر وَ يَوْمَئِذٍ أى يوم غلبه الروم على الفرس يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ المعتقدون بالرسول.

[٦] بَنَصْرِ اللَّهِ لِلإيمان على الكفر- و إن كان نصر الله إنما هو للإيمان المسيحي- فإن كل مرتبة من مراتب الإيمان خير مما يقابلها من الكفر بَنَصْرُ اللَّهِ مَنْ يَشَاءُ فيمن توفرت فيه شروط النصر، كما أمر، و كما أجرى أسباب الكون وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ سلطانه، فلا يغلبه أحد الرِّحِيمُ بعباده المؤمنين، فلا يتركهم نهب الكفار يفعلون بهم ما يشاءون.

[٧] وَ عَدَّ اللَّهُ أى وعد الله ذلك وعدا، فهو مصدر تأكيدى لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ الذى وعد بغلبه الروم على الفرس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٢٩

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٧ إلى ٨]

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨)

وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، و لا يصدقون كلامه لَا يَعْلَمُونَ صحه وعد الله، و إنه لا خلف فيه، فإن الذى يخلف وعده إما لعجز أو لجهل أو لخبث، و الله سبحانه منزه عن ذلك كله.

[٨] إنهم لا يقدرُونَ الأشياء حق قدرها، فيزعمون أن لا قوة خارقة غيبية تسير الكون، بل يظنون أن كل الأمر كائن فيما يشاهد من القوى الظاهرة يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا من قواها و أسبابها و مسبباتها، و سائر الخصوصيات الظاهرة وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ و بهذه الغفلة تختل مقاييسهم للأمر، فلا يصدقون بوعد الله و لا يرقبون جزاءه، و لا يقدرُونَ قوته الغيبية، الخاضعة لها الأشياء، و كان إقامة هذه الجملة مقام «و هم عن الله غافلون» لأجل إفادة، أن منكر المعاد، منكر الله سبحانه، فهو من إقامة المسبب مقام السبب، فإن سبب الغفلة عن المعاد، هو الغفلة عن الله تعالى، و الإتيان بلفظ «هم» مكررا، للتأكيد في غفلة هؤلاء.

[٩] أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا أَى هَوْلَاءِ الْغَافِلُونَ عَنِ الْآخِرَةِ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى أَنْفُسِهِمْ أَى فِى حَالِهِمْ خَلُوتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا- جِدَالَ وَلَا- إِنْكَارَ- لَوْ ظَهَرَ الْحَقُّ- فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ نَفْسِهِ يَعْتَرِفُ، بِمَا لَا يَعْتَرِفُ بِهِ عِنْدَ الْمَلَأِ خَوْفًا، أَوْ اسْتِكْبَارًا مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ وَالْهَوَاءِ وَغَيْرِهَا إِلَّا بِالْحَقِّ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَهُ، كَمَا يَزْعُمُونَ، فَمَنْ يَا تَرَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٠

[سورة الروم (٣٠): آية ٩]

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)

خلق كل هذه الأمور؟ ومعنى «بالحق» إن الخلق لغاية و غرض، مما يدل على الإله العليم الحكيم القدير المريد و أجل مُسَمَّى أَى و لمدة محدودة، قد سميت تلك المدة عنده، فليست الأشياء بقاؤها اعتباطا، بل تبقى بمقدار قدر الله لها من المدة، فإن الإنسان إذا علم إن جملة من الأشياء، لغاية و مقصود علم بذلك إن سائر الأشياء كذلك، ألا ترى إنك إذا نظرت إلى «الساعة» فعلمت إن بعض آلاتها لماذا، تعتقد إن كل الآلات لها إنما حكمت و صنعت عن قصد، و إن كنت لا تعلم الحكمة فيها، و إما عرفان الأجل المسمى، فلما يرى الإنسان أن الأشياء تحدد بحدود معينة، حتى أن كل محاولة لنفيها قبل المدة عبث، كما أن كل محاولة لإبقائها بعد المدة لغو و مع ذلك إن كثيرًا من الناس يلقاء ربهم أَى لقاء جزائه و حسابه لكافرون غير معترفين، مع أن إحكام الصنع، يدل على أنه، لا بد أن يكون هناك حساب و جزاء، و إلا كان الخلق لغوا، و تمكين الظالم من الظلم خلاف الحكمة.

[١٠] أَوْ لَمْ يَسِيرُوا أَى هَوْلَاءِ الْمَكْذُوبِينَ فِى الْأَرْضِ فَإِنَّ السَّيْرَ يَجِبُ إِطْلَاعُ الْإِنْسَانِ عَلَى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، فَأَهْلَكُوا، كَمَدَائِنِ عَادَ وَ ثَمُودَ، وَ قَوْمِ لُوطَ، وَ قَوْمِ نُوحٍ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى يَعْلَمُوا ذَلِكَ بِالاسْتِخْبَارِ عَمَّنْ فِى أَطْرَافِ تِلْكَ الْبِلَادِ، فَإِنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَحْفَظُ أَطْرَافَ تِلْكَ الْبِلَادِ، وَ إِنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَحْفَظُ أَخْبَارَ أَسْلَافِهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣١

[سورة الروم (٣٠): آية ١٠]

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

كانوا أشد منهم قوة فقد وصلت حضارتهم إلى حدود مدهشة، كما يحدث التاريخ بذلك و آثارها الأرض من الإثارة بمعنى التقليل، لأجل الزرع و الإنبات و عمروها بالبيوت و ما أشبه أكثر مما عمروها هؤلاء، فقد كانت وسائلهم، أكثر، و لذا كانت عمارتهم أجمل و أكثر و جاءتهم رسلهم بالبينات أَى بالأدلة البينة الواضحة، فجدوا الرسل، و كذبوا بما قالوا، فأهلكهم الله سبحانه فما كان الله ليظلمهم حين أهلكهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون بالكفر و العصيان، فأخذهم وبال أعمالهم، و هؤلاء الكفار المعاصرون للرسول، إن كذبوا أهلكوا، فإنهم أقل قوة، و أقل عمارة و زراعة من أولئك.

[١١] ثُمَّ بَعْدَ تِلْكَ الْحَضَارَةِ وَ الْعِمَارَةِ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِالْكَفْرِ وَ الْعَصِيَانِ السُّوَاىَ اسْمِ كَانَ، أَى كَانَتِ الْخَلَةُ، وَ الْعَاقِبَةُ السُّوَاىَ- أَى السَّيْئَةُ- عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا، فَإِنَّهُمْ بِالْكَفْرِ، فَعُوقِبُوا بِمَا أَسَاءُوا مِنَ الْهَلَاكِ وَ الدَّمَارِ: عَلَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَمْ يَقْبَلُوهَا وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ وَ مِنْهَا يَضْحَكُونَ، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ «أَنْ كَذَّبُوا» اسْمُ «كَانَ» وَ مَعْنَى أَسَاءُوا السُّوَاىَ، عَمِلُوا السُّوَاىَ مِنْ بَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٢

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١١ إلى ١٣]

اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْبِئُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣)

المصدر التأكيدي، نحو ضرب الضرب، فيكون المعنى: كان التكذيب آيات الله عاقبة الذين عملوا بالمعاصي، فإن الإنسان يتدرج من المعاصي إلى الكفر، وعلى هذا المعنى، ف «ثم» للعطف لفظاً، لا معنى.

[١٢] وكيف يكذب الكافر آيات الله، و بالمعاد، و هو يرى أن الخلق كيف يبتدأ مما يدل على إله عليم قدير، قادر على الإعادة، كما قدر على الإنشاء اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ أَي يَخْلُقُهُمْ ابْتِدَاءً ثُمَّ يُعِيدُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ، ليحيى من جديد للحساب و الجزاء ثُمَّ إِلَيْهِ أَي إِلَى جَزَائِهِ وَ حِسَابِهِ تُرْجَعُونَ أَيهَا الْبَشَرُ.

[١٣] وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعِيَةُ أَي الْقِيَامَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ مِنْ بَلَسَ بِمَعْنَى يَتَسَمَّى مِنَ الْخَيْرِ، فَإِنَّهُمْ يَبْأَسُونَ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَ يَنْقَطِعُونَ مِنَ الْجَوَابِ.

[١٤] وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ أَي لَا يَشْفَعُ لَهُمُ الْأَصْنَامُ، الَّتِي جَعَلُوهَا شُرَكَاءَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ أَضِيفَ الشُّرَكَاءُ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ اخْتَرُوهَا وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ إِذْ يَظْهَرُ الْحَقُّ هُنَاكَ، وَ قَدْ كَانُوا عِبُدُوهَا فِي الدُّنْيَا قَاتِلِينَ (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى «١» وَ هُنَاكَ يَتَبَيَّنُ إِنَّهَا لَا تَنْقُذُ أَنْفُسَهَا، فَإِنَّهَا تَصْبِحُ حِصْبَ جَهَنَّمَ، فَكَيْفَ تَتِمَكَّنُ مِنْ شَفَاعَتِهِمْ.

(١) الزمر: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٣

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١٤ إلى ١٧]

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعِيَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)

[١٥] وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعِيَةُ وَ تَأْتِي الْقِيَامَةُ يَوْمَئِذٍ أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَفَرَّقُونَ أَي يَتَمَيِّزُ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْكُفَّارِ، فَالْمُؤْمِنُونَ وَاقِفُونَ فِي طَرَفِ الْيَمِينِ، بِالْبَشَرِ وَ السَّرُورِ، وَ الْكُفَّارُ فِي طَرَفِ الشَّمَالِ بِالْحَزَنِ وَ التَّقْطِيبِ.

[١٦] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الرِّسَالَةِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الْمَلَاظِمَ لِتَرْكِ السَّيِّئَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ وَ هِيَ الْجَنَّةُ يُحْبَرُونَ الْحَبْرَةُ الْمَسْرُةُ، أَي يَسْرُونَ سُرُورًا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى وَجْهِهِمْ، مِنَ النِّعَمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ.

[١٧] وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ وَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا أَي بَدَّلَانَا الَّتِي نَصَبْنَاهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَيْنَا، وَ عَلَى الرِّسَالَةِ وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ بِأَن يَنْكُرُوا الْبَعْثَ وَ الْمَعَادَ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ أَي يُحْضَرُونَ إِلَى الْعَذَابِ، كَالْمَجْرَمِ الَّذِي يُحْضَرُ إِلَى السِّجْنِ وَ التَّعْذِيبِ، وَ لَا يَأْتِي هُوَ بِرَجُلِهِ.

[١٨] ثُمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنَ الْعَالَمِ الْآخِرِ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ لِشَهَادَةِ الْإِنْسَانِ، دَلَائِلَ الْكُفُونِ، الَّتِي كَانَ الْكُفَّارُ بِهَا يَكْذِبُونَ حَتَّى صَارُوا إِلَى ذَلِكَ الْمَصِيرِ الْهَائِلِ فَسُبْحَانَ اللَّهِ مُصَدَّرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ مِنْ سَبَّحَ، أَي أَنْزَلَ اللَّهُ تَنْزِيلَهَا، وَ الْفَاءُ لِلتَّعْقِيبِ عَلَى تِلْكَ الْخَاتِمَةِ، أَي وَ إِذَا كَانَ اللَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٤

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١٨ إلى ١٩]

وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُعْجِي الْمَآرِضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

تلك الخاتمة أسبحة تسيحاً حين تمسحون أي تدخلون المساء، و هو الليل و حين تضيبحون أي تدخلون الصباح، فهو منزله دائم الأوقات، لا كالمملوك الذين لا يستحقون الحمد و الثناء، في بعض أحوالهم لعدم رعايتهم الأمور في تلك الأوقات.

[١٩] وَلَهُ الْحَمْدُ الشَّاءِ الْجَمِيلِ، لما عمله من الجميل في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المستحق للحمد في جميع الكون وَعَشِيًّا أى له الحمد في وقت العصر وَحِينَ تَطْهَرُونَ أى تدخلون في الظهيرة، و هى وقت الظهر، فإنه المحمود المنزه في جميع الأ-كوان، و كافة الأوقات، و هذا من بلاغة القرآن العجيب، حيث ذكر هذا الموضوع، في هذه الجملات الحية النديّة، التي تفتح الذهن، و تسير بالنفس إلى الآثار الكونية، و الأوقات الزمنية.

[٢٠] يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ كَالنَّبَاتِ مِنَ النُّوَاتِ الْمَيِّتَةِ، و الطير من البيضة الميتة، و الإنسان من الأرض الميتة، بواسطة النبات و يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ كَالفَضْلَاتِ الْمَيِّتَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ الْحَيَّ مِنَ الطَّيْرِ الْحَيِّ وَ هَكَذَا وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بِنَمُو النَّبْتِ بَعْدَ مَوْتِهَا حَيْثُ تَكُونُ غَيْرًا قَاحِلَةً لَا نَمُو فِيهَا وَ لَا نَبَاتٌ وَ كَذَلِكَ أَى تَحْيِي الْأَرْضَ تُخْرِجُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ قُبُورِكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٥

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

بعد الموت للحساب و الجزاء.

[٢١] وَ مِنْ آيَاتِهِ أَى أدلته الدالة على وجوده، و سائر صفاته أَنْ خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ تُرَابٍ فَالتُّرَابُ يَنْقَلِبُ نَبَاتًا، وَ حَيَوَانًا، يَأْكُلُهُمَا الْإِنْسَانُ، فَيَصِيرَانِ مَنِيًا، ثُمَّ جَنِينًا إِنْسَانًا ثُمَّ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ تُرَابًا إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ فِي الْأَرْضِ تَسِيرُونَ وَ تَتَجَرَّوْنَ، وَ تَعْمَلُونَ، وَ إِذَا لِلْمَفَاجَاتِ، فَكَيْفَ صَارَ التُّرَابُ الْيَابِسُ الرَّاكَدُ، بَشَرًا سَمِيحًا بَصِيرًا، يَنْتَشِرُ وَ يَتَصَرَّفُ فِي مَخْتَلَفِ الشُّؤُونِ؟

[٢٢] وَ مِنْ آيَاتِهِ أَى أدله الله سبحانه الدالة على وجوده، و سائر أوصافه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَى مِنْ هَذَا الْجِنْسِ أَزْوَاجًا لِلرِّجَالِ نِسَاءً، وَ لِلنِّسَاءِ رِجَالًا، فَإِنْ كَوْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ أَكْثَرُ هُنَاءً وَ لَطْفًا لِتَسْكُنُوا أَى لِتَطْمَئِنُّوا، وَ لِتَأَلَّفُوا إِلَيْهَا أَى إِلَى تِلْكَ الْأَزْوَاجِ- وَ هَذِهِ قَرِينَةٌ- عَلَى أَنْ الْمَرَادُ بِالْأَزْوَاجِ: الزَّوْجَاتِ.

وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ، أَى بَيْنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ مَوَدَّةً يُوَدُّ بِهَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَ يَحِبُّ أَحَدُكُمْ الْآخَرَ وَ رَحْمَةً فَيُرْحَمُ بِهَا أَحَدُكُمْ الْآخَرَ، مِمَّا يَهْنِئُ الْعَيْشَ وَ يَسْعِدُ الْحَيَاةَ إِنَّ فِي ذَلِكَ الْخَلْقَ لِلْأَزْوَاجِ، وَ جَعَلَ الْمَوَدَّةَ وَ الرِّقَّةَ لآيَاتٍ أَى أدله على وجود الله تعالى، و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، وَ إِنَّمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٦

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَ مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ ابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)

خصهم، لأنهم هم الذين يدركون هذه الآيات، و إلا فهي آيات لكل أحد، و قد يزعم البعض، إن الصفات النفسية، من قبيل المودة و الرحمة، و الشجاعة و الجبن و السخاء، و ما إليها، ليست أموراً مخلوقة، لكنها نظر سطحي، و إلا فمن أين هذه الظواهر؟ إنها ألوان للنفس، لا تدرك إلا بآثارها، و إلا فكيف هذا يكون مقداماً سخياً، و كيف ذاك الذي على شكله يكون جباناً بخيلاً؟ و قد ذكر في أول كتاب «البحار» جنود العقل و الجهل، و إنها مخلوقات له سبحانه.

[٢٣] وَ مِنْ آيَاتِهِ الدالة على وجوده، و سائر صفاته خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَمِنْ خَلْقِ الْمَدَارَاتِ وَ الْكَوَاكِبِ؟ وَ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ، وَ مَا فِيهَا؟ إِنَّ الْخَالِقَ هُوَ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الْحَكِيمُ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ جَمْعُ لِسَانٍ، وَ الْمَرَادُ بِهِ اللَّغَةُ فَإِنَّهُ تَعَالَى، لَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، مِنْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى مَنْحِ هَذَا الْاِخْتِلَافِ مِنْ عَرَبِيٍّ، وَ فَارَسِيٍّ، وَ تَرْكِيٍّ، وَ هِنْدِيٍّ، وَ غَيْرِهَا؟ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْاِخْتِلَافِ، فِي النِّعْمَةِ وَ الصَّوْتِ وَ الْخَشُونَةِ وَ النُّعْمَةِ وَ غَيْرِهَا وَ اخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ مِنْ أَبْيَضٍ وَ أَحْمَرَ وَ أَسْوَدَ، وَ بَنَى وَ حَنْطَى، وَ غَيْرِهَا، فَمِنْ يَأْتِي جَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ؟

بالإضافة إلى مزايا كل إنسان في لونه و شكله، حتى يعرف كل أحد من غيره إن في ذلك الاختلاف لآيات لأن كل لون، و كل نعمة آية للعالمين أي العلماء، فإنهم هم الذين يتدبرون في هذه الآيات، و ينشغلون منها، إلى من أوجدها و صنعها.

[٢٤] وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى تَوْحِيدِهِ، وَ سَائِرُ أَوْصَافِهِ تَعَالَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٧

[سورة الروم (٣٠): آية ٢٤]

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبُرُوقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)
مَنَامُكُمْ مصدر ميمي، بمعنى نومكم بالليل و النَّهَارِ فما هو النوم؟ و من خلفه؟ إنه من خلق الله سبحانه، سواء كان عدما ياخراج بعض الأرواح عن الإنسان مؤقتا، أم وجودا بإضافة شيء على بدنه يوجب له هذه الحالة و ائْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ فقد جعل فيكم صفات أوجبت، أن تطلبوا الرزق فمن يا ترى جعل هذه الصفات في الإنسان؟

إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَنَامِ وَ الْاِبْتِغَاءِ لآيَاتٍ أَى أدلته دالة على الله سبحانه، و سائر صفاته لِقَوْمٍ يَشْرِعُونَ و المراد أنهم يسمعون الآيات، فيتدبرونها، و يتفكرون فيها، لا- أن يعرضوا عنها، كما قال سبحانه (وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُمْرُونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) «١».

[٢٥] وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى وَجُودِهِ، وَ سَائِرُ صِفَاتِهِ، أَنْ يُرِيكُمُ الْبُرُوقَ فِي خِلَالَ السَّحَابِ، وَ هُوَ كَمَا قَالُوا: يَحْدُثُ مِنْ اصْطِطَاكِ السَّحْبِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَيَتَوَلَّدُ فِيهَا الْكَهْرِبَاءُ، وَ لَا يَنَافِي هَذَا كَوْنُهُ، صَوْتُ مَلِكٍ، كَمَا لَا يَخْفَى خَوْفًا مِنَ الصَّاعِقَةِ، وَ إِنْزَالُ الْمَطَرِ الْمَضْرُ وَ طَمَعًا فِي إِنْزَالِ الْمَطَرِ الْمَفِيدِ، وَ نَسْبِ هَذَيْنِ، بِتَقْدِيرِ اللَّامِ، أَى لِتَخَافُوا خَوْفًا، وَ لِتَطْمَعُوا طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ أَى جِهَةَ الْعُلُوِّ مَاءً هُوَ الْمَطَرُ فَيُخْجِي بِهِ أَى بِذَلِكَ الْمَاءِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(١) يوسف: ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٨

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلِّ لَهٌ قَانِتُونَ (٢٦)

بالجذب، و عدم النبات إن في ذلك المذكور سابقا لآيات لأن كل واحد من الأمور المذكورة، آية دالة على الله و على صفاته لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أَى يعملون عقولهم، فينتقلون من الأثر إلى المؤثر.

[٢٦] وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى وَجُودِهِ تَعَالَى، وَ سَائِرُ أَوْصَافِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ فَإِنْ بَقِيَ السَّمَاءُ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ الْمُنْظَمَةِ، وَ بَقِيَ الْأَرْضُ بِهَذَا التَّرْتِيبِ الْعَجِيبِ الدَّائِمِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِقُدْرَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ أَمْرِهِ التَّكْوِينِي، وَ إِلَّا- فَمَنْ يَدِيرُ الْكُونَ، بِهَذَا النُّحُو الْمُنْظَمِ الْمُدْهَشِ؟

ثم إن الله سبحانه الذي رأيت قدرته و آياته إذا متم ثم دعاكم دعوة و طلبكم طلبا من الأرض التي دفنتم فيها إذا أنتم تخرجون أحياء كما كنتم سابقا، و ذكر هذا للتركيز على المعاد، بعد بيان آياته الدالة على عمله و قدرته، و نفوذ إرادته، فمن يقدر على تلك، يقدر على هذا.

[٢٧] وَ لَهُ أَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْمَلَكِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعُقَلَاءِ، وَ غَيْرِهِمْ، وَ غَلْبِ الْعُقَلَاءِ، وَ لَذَا، جِيءَ بِ «مَنْ» كُلُّ لَهٌ قَانِتُونَ أَى خاضعون مطيعون، فهل يتمكن أعظم الملوك، أن يخالف أوامر الله التكوينية، بأن لا يموت، أو لا يشيب أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٣٩

[سورة الروم (٣٠): آية ٢٧]

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)

يبقى إلى أمد يحبه؟ كلا، نعم قد أعطى الله سبحانه، زمام الإرادة بيد الإنسان ليختبره، أما الأزمة التكوينية، حتى دورة الدم، في بدن الإنسان، و حركة الأجهزة الباطنية، و القوى الظاهرة، فهي كلها تحت قدرته و إرادته.

[٢٨] وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ بِنَشْأِهِ بَعْدَ الْعَدَمِ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِلَى الْحَيَاةِ - بَعْدَ الْمَوْتِ - لِلْجِزَاءِ وَالْحِسَابِ وَهُوَ أَيْ «أَنْ يُعِيدَ» أَهْوَنُ وَأَسْهَلُ فِي قِيَاسِ الْبَشَرِ عَلَيْهِ أَيْ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي مَقَابِلِهِ، يَرَى إِنْ إِعَادَةَ الشَّيْءِ، أَسْهَلَ مِنْ ابْتِدَائِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَظُنُّ، إِنْ إِعَادَةَ عَسِيرَةٍ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَ إِنَّمَا قَلْنَا «فِي قِيَاسِ الْبَشَرِ» لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كُلُّ شَيْءٍ لَدَيْهِ سَوَاءٌ ف (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) «١» لَا يَقَالُ: كَلَّا! إِنْ إِعَادَةُ لَيْسَتْ أَهْوَنَ، فَإِنَّ مِنْ يَصْنَعُ شَيْئًا، قَدْ يَكُونُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعَادَتِهِ إِذَا هَدَمَ، قَلْنَا: إِنْ عَدَمَ الْقُدْرَةَ مِنْهُ، لَعَدَمَ عِلْمِهِ، أَوْ لَتَعْبِهِ، أَوْ أَشْبَاهَ ذَلِكَ، أَمَا مِنْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ الشَّرُوطُ، فَالْإِعَادَةُ عَلَيْهِ أَيْسَرُ مِنْ جِهَةٍ أَنْ فِي ذَهْنِهِ مِثَالًا لِذَلِكَ الْمَصْنُوعِ، مِمَّا يَسْهَلُ صَنْعُهُ ثَانِيًا وَلَهُ سُبْحَانَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى الْمِثْلُ هُوَ الشَّيْبَةُ لِلشَّيْءِ الَّذِي يُؤْتِي بِهِ لِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَمِثِلُ لَهُ، فَلَا مِثْلَ لَهُ، مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، كَمَا قَالَ: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) «٢»، وَ إِنَّمَا قَدْ يَمِثِلُ لَهُ بِأَمْثَلِهِ تَقْرِيْبِيَّةً، لِاسْتِنْسَانِ

(١) يس: ٨٣.

(٢) النحل: ٧٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٠

[سورة الروم (٣٠): آية ٢٨]

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا - مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨)

الذهن، كما قال تعالى (مَثَلُ نُورِهِ) «١» و إذا أريد المثل، فله أعلى الأمثلة و أحسنها، كأن يمثّل لنوره بالمصباح التير، أو يمثّل بملكه بملك أعظم الملوك، و هكذا في السّموات و الأرض ففي كل مكان أريد أن يضرب له المثل، لا بد و أن يكون له المثل الأعلى، و ليس كالملك، في قطر خاص، الذي له أعلى الأمثلة في قطره، أما في خارج قطره، فليس له أعلى الأمثلة، ففي قطره يقال إن مثله، كمثل أعظم الناس ملكا، أما في خارج قطره يقال، إنه كمثل الملك الآخر، أو المالك الكذائي و هو العزيز الغالب على كل شيء لا يغلبه أحد الحكيم فكل ما يفعل، إنما هو بالحكمة و الصواب.

[٢٩] ثم ضرب سبحانه مثلا لعدم الشريك له، و ذلك بالاستفهام، عن هؤلاء المشركين، أنهم هل يقارنون بين السيد و العبد، و إذا قالوا: لا قبل لهم، فلم تقارنون - في الألوهية - بين الله، و بين الأصنام؟ مع أن البون بينهما أبعد من البون بين السادة و العبيد ضَرَبَ لَكُمْ أَيْهَا الْمُشْرِكُونَ، وَ الَّذِي ضَرَبَ الْمِثْلَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ لَكُمْ شَبْهًا فِي حَالِ كَوْنِهِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَلَيْسَ مِثَالًا، مِنْ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ الْجِنِّ، وَ النَّبَاتِ، وَ الْحَيَوَانَ، وَ الْجَمَادِ هَلْ لَكُمْ أَيْهَا الْمُشْرِكُونَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَيْ عبيدكم، و إيمانكم، و إنما نسبت الملكية إلى اليد، لأنها العاملة المحصلة للمال الذي به يشتري العبد

(١) النور: ٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤١

[سورة الروم (٣٠): آية ٢٩]

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩)

مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ بِأَنْ يَشْتَرِكَ الْعَبِيدَ مَعَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ الَّتِي هِيَ لَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ اللَّهُ إِيَّاهَا فَتَكُونُونَ أَنْتُمْ وَالْعَبِيدُ فِيهِ أَيَّ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ سِوَاءَ أَنْ تَكُونَ الْأَمْوَالُ لَكُمْ وَلَهُمْ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ تَخَافُونَهُمْ أَيَّ تَخَافُونَ عِبِيدَكُمْ، إِذَا أُرِدْتُمْ التَّصَرُّفَ فِي أَمْوَالِكُمْ، لِأَنَّكُمْ شَرَكَاؤُكُمْ، وَالشَّرِيكَ يَخَافُ مِنْ شَرِيكِهِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَقِلَّ فِي التَّصَرُّفِ بِالْمَالِ الْمَشْتَرَكِ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَيَّ كَمَا تَخَافُونَ سَائِرَ شَرَكَاؤُكُمْ الْأَحْرَارِ، هَلْ عِبِيدُكُمْ شَرَكَاؤُكُمْ لَكُمْ؟ وَإِذَا أَجْبْتُمْ بِالنَّفْسِ، وَإِنْ الْعَبِيدُ لَا يَشْتَرِكُونَ مَعَنَا فِي أَمْوَالِنَا، حَتَّى نَخَافَهُمْ خَوْفَ الْحَرِّ شَرِيكِهِ الْحَرِّ، قِيلَ لَكُمْ، فَكَيْفَ جَعَلْتُمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي هِيَ مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ، وَمَخْلُوقَةٌ لَهُ شَرَكَاءَ لِلَّهِ فِي الْأَلُوْهِةِ؟ كَذَلِكَ أَيَّ كَمَا بَيْنَا هَذَا الْمَثَلُ، لِأَنَّ يَرُدُّكُمْ عَنِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ نَفْصَلُ الْآيَاتِ نَذَرَهَا مَفْصَلَةٌ حَتَّى تَظْهَرَ، لَا مَجْمَلَةٌ حَتَّى تَكُونَ غَامِضَةٌ، لَا تَعْرِفُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أَيَّ يَعْمَلُونَ عَقْلَهُمْ، لِيَدْرِكُوا، وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِالْمَثَلِ وَالْآيَةِ، أَمَا مَنْ لَا يَعْنِي فَهُوَ لَا يَدْرِكُ، وَلَا يَعْلَمُ.

[٣٠] إِنْ إِيْرَاكُ هَؤُلَاءِ، لَيْسَ لِأَنَّكُمْ لَا- يَعْلَمُونَ بَلِّ لِأَنَّكُمْ يَتَّبِعُونَ الْهَوَىٰ وَإِنْ عَلِمُوا بِبَطْلَانِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَدْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِالشَّرِكِ بِاللَّهِ، وَآتَىٰ بِهَذَا الْوَصْفِ مَكَانَ الضَّمِيرِ، لِإِيَانِ أَنَّهُمْ بِشَرِكِهِمْ، قَدْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ التَّقْلِيدِيَّةَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلَيْسَ عَمَلُهُمْ مُسْتَنَدًا إِلَى الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى الْهَوَىٰ، وَلِذَا ابْتَعَدُوا عَنِ الْهَدَىٰ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٢

[سورة الروم (٣٠): آية ٣٠]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)

فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ أَيَّ تَرَكَهَ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ، بَعْدَ أَنْ رَأَى الْهَدَىٰ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا إِنْ نَسَبَةُ الْإِضْلَالِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، بِاعْتِبَارِ، أَنَّهُ تَرَكَهَ حَتَّى يَضِلَّ، وَ لَمْ يَلْطَفْ بِهِ اللَّطْفَ الْخَفِيَّ وَمَا لَهُمْ أَيَّ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الضَّالِّينَ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَ نَكَالِهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ هَذَا فِي مَقَابِلِ زَعْمِهِمْ إِنْ الْأَصْنَامُ تَنْصُرُهُمْ وَ تَشْفَعُ لَهُمْ.

[٣١] وَ إِذْ انْحَرَفَتْ نَفُوسٌ عَنْ هَذَا الدِّينِ فَأَقِمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ وَجْهَكَ وَ نَسَبَةَ الْإِقَامَةِ إِلَى الْوَجْهِ، لِأَنَّهُ الْعَضْوُ الَّذِي يَبِينُ اتِّجَاهَ الْإِنْسَانِ، وَ مِيلَةَ الْكَامِنِ فِي نَفْسِهِ لِلدِّينِ فَتُوجَّهَ نَحْوَ دِينِ الْإِسْلَامِ، لَا إِلَى سَائِرِ الْمَبَادِيِ وَالْأَدْيَانِ حَنِيفًا فِي حَالِ كَوْنِكَ مُسْتَقِيمًا، غَيْرَ مَائِلًا إِلَى هُنَا أَوْ هُنَاكَ، أَوْ فِي حَالِ كَوْنِ الدِّينِ مُسْتَقِيمًا، لَا يَزِيغُ نَحْوَ الْبَاطِلِ وَالْإِنْحِرَافِ، وَ اتَّبَعَ فِطْرَتَ اللَّهِ أَيَّ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ بِحَيْثُ لَا يَصِلُحُهُ، إِلَّا الدِّينَ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا أَيَّ خَلَقَ النَّاسَ عَلَى تِلْكَ الْفِطْرَةِ، فَالِدِّينِ، كَالْمَنْهَاجِ لِلبَشَرِ الَّذِينَ خَلَقُوا عَلَى نَحْوِ لَا تَسْتَقِيمُ أُمُورُهُمْ، إِلَّا إِذَا سَارُوا عَلَى هَذَا الْمَنْهَاجِ، وَ هَكَذَا كَمَا لَوْ صَنَعَ شَخْصٌ «جِهَازًا» ثُمَّ كَتَبَ «كِتَابًا» فِيهِ كَيْفِيَّةُ عَمَلِ الْجِهَازِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: اتَّبِعْ هَذَا الْكِتَابَ، فَإِنَّ الْجِهَازَ رَكَبٌ هَكَذَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ أَيَّ لَا يَتَغَيَّرُ الْخَلْقُ عَنْ تِلْكَ الْفِطْرَةِ، حَتَّى يَلْتَمِهُمُ مَنْهَاجٌ آخَرَ، غَيْرَ مَنْهَاجِ الْإِسْلَامِ وَ الدِّينِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٣

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٣١ إلى ٣٢]

مُنْبِيِّينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

إِنَّ الدِّينَ الَّذِي يَلْتَمِ الْفِطْرَةَ، هُوَ الدِّينُ صَاحِبُ الْقَوَامِ، الَّذِي بِهِ قَوَامُ الْبَشَرِ وَ سَعَادَتُهُمْ، أَمَا سَائِرُ الْأَدْيَانِ، فَإِنَّهَا لَا تَلْتَمِ الْفِطْرَةَ، مَثَلًا إِنْ الْإِنْسَانُ رَكَبَ بِحَيْثُ، إِذَا اغْتَسَلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، سَلِمَ بَدَنُهُ مِنَ الْأَمْرَاضِ، أَمَا إِذَا لَمْ يَغْتَسِلْ، ابْتَلَى بِمَخْتَلَفِ الْعَاهَاتِ، فَالِدِّينِ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ، هُوَ الدِّينُ الَّذِي بِهِ قَوَامُ الْإِنْسَانِ، وَ سِوَاهُ لَا- يَتِمَّكَنُ مِنَ التَّحْفِظِ عَلَى صِحَّةِ الْإِنْسَانِ، وَ هَكَذَا سَائِرُ التَّشْرِيعَاتِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ صِحَّةَ ذَلِكَ، وَ يَظُنُّونَ الدِّينَ، إِنَّمَا هُوَ مَنْهَجٌ مِنْ بَيْنِ مَثَلِ الْمَنْهَاجِ، فَأَيُّهَا اتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ، كَانَ كَافِيًا فِي إِقَامَةِ الْحَيَاةِ.

[٣٢] وَ حَيْثُ إِنْ قَوْلُهُ «أَقِم» عَامٌ لِكُلِّ الْمَكْلُوفِينَ، إِمَّا مِنْ بَابِ الْأَسْوَةِ بِالرَّسُولِ الْمُخَاطَبِ بـ «أَقِم» وَ إِمَّا مِنْ بَابِ كَوْنِ الْخُطَابِ عَامًا- ابْتِدَاءً- جَاءَ الْحَالُ لِفَاعِلِ «أَقِم» بِلَفْظِ الْجَمْعِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ مُنْبِيِّينَ أَنْابَ، بِمَعْنَى رَجَعِ، أَيَّ فِي حَالِ كَوْنِكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ رَاجِعِينَ إِلَيْهِ أَيَّ

إلى الله، عن الطرق التي كنتم تسيرون فيها، مما تخالف الدين و اتقوه أى خافوا عقابه و أقيموا الصلاة بالاستمرار فى إتقانها بآدابها و شرائطها، فإنها توجب التقوى و الاستقامة و لا تكونوا من المشركين الذى يجعلون الله سبحانه شريكا.

[٣٣] مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوا دِينَ وَاحِدًا، أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، بَلِ اتَّبَعَ كُلُّ فِتْنَةٍ دِينًا، وَ هَكَذَا تَكُونُ التَّفْرِقَةُ، إِذَا عَمِلَتِ الْأَهْوَاءُ فِي النَّاسِ وَ كَانُوا شَيْعًا جَمَعَ شَيْعُهُ، وَ هِيَ الْفِتْنَةُ التَّابِعَةُ لِمَسْلُوكِ خَاصًّا، أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٤

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيُكْفِرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤)

كان كل طائفة منهم، شيعه لمسلوك و مبدأ كل حزب و شيعه بما لمدىهم من الدين و المسلوك فرحون إذ يعتبرون دينهم، أحسن الأديان، و طريقتهم خير الطرق.

[٣٤] و من متناقضات المشركين ما بينه سبحانه بقوله و إذا مس الناس ضرر أى لامسهم و نزل بهم ضرر مالى أو جسمى، أو ما أشبه دعوا ربهم لكشف ذلك الضرر، و لا يدعون الشركاء، لأنهم يعلمون إن الكاشف للضرر، هو الله وحده دون شركائهم منيبين أى راجعين إليه وحده، بدون الرجوع إلى الشركاء معه ثم إذا لبي دعاءهم، و كشف ضررهم و أذقهم منه أى من قبله تعالى رحمة و فضلا كأن يغنيهم من فقرهم، أو يأمنهم من خوفهم، أو ما أشبه ذلك إذا فریق منهم أى جماعه من أولئك الذين مسهم الضرر، فأنابوا إلى ربهم، فأذقهم منه رحمة برّبهم يشركون فيجعلون له شريكا، و الإتيان ب «إذا» لبيان المفاجآت، و إن هذا الإشراك لم يكن مترقبا، بعد تلك الأمور.

[٣٥] فقد أشركوا بقصد الكفران نعم الله ليكفروا بما آتيناهم أى أعطيناهم من النعم، أو أن اللام للعاقبه، أى كانت عاقبه إذاقه هؤلاء الرحمة، كفرانهم، أو كفرهم فتتمتعوا أيها المشركون، و هذا أمر للتهديد، أى تلذذوا، و خذوا متع الحياه مدة سيره فسوف تعلمون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٥

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِن تَصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)

عاقبه كفرهم، و هذا تهديد لهم، بأنهم سيجازون بالعذاب، و النكال.

[٣٦] ثم يأتى السياق للتفهيم منهم استفهام عارف، ليعرفهم خطأهم، فهل كفر هؤلاء بلا حجه و برهان أم أنزلنا عليهم سلطاناً أى حجه، و دليل يدل على تعدد الآلهه؟ فهو أى فذلك البرهان يتكلم المراد يظهر و يبين ذلك البرهان بما كانوا به يشركون كلا: لم ينزل سلطان عليهم، و إنما كفروا و أشركوا، بلا حجه و برهان.

[٣٧] إن المؤمن لا يئأس عند الشده، و لا يبتر عند النعمه، أما الكافر، و من ضعف إيمانه، فإنه - لخبفه نفسه و عدم اتزان روحه - إن أعطى بطر، و إن منع يئس و إذا أذقنا الناس رحمة أى أتيناهم نعمه و فضلا فرحوا بها أى بتلك الرحمة بطروا و إن تصببهم سيئه أى بلاه و مصيبه، و سمي ذلك سيئه لأنها تسيء إلى الإنسان بما قدمت أيديهم أى بسبب بعض أعمالهم التي عملوها، و إنما نسب التقديم إلى اليد، لأنها الغالبه فى مزاوله الأعمال إذا هم يقنطون و يئأسون عن روح الله المفرج لهذه السيئه.

[٣٨] أَوْ لَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْطَرُونَ بِالنِّعْمَةِ، وَ يَقْنَطُونَ بِالسَّيِّئَةِ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ أَى يوسع له لمن يشاء مما اقتضت المصلحه توسعته وَ يَقْدِرُ أَى يضيق الرزق لمن يشاء من «قدر» بمعنى «ضيق» فليست

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٦

[سورة الروم (٣٠): آية ٣٨]

فَاتِذَا الْقُرْبَى حَقَّةً وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)

التوسعة دليلا على إكرام الله، حتى تسبب البطر، ولا التضيق دليلا على إذلال الله، حتى يسبب اليأس، كما أنهم إن وسع عليهم لزم أن يشكروا، وإن ضيق عليهم، وجب أن يصبروا، ويدعوا، لا- أن يقنطوا، ف (إِنَّهُ لَا- يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) «١» إِنَّ فِي ذَلِكَ الْبَسْطِ وَالتَّضْيِيقِ لآيَاتٍ دَلَالَاتٍ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ إِذ:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا.

[٣٩] و إذ تقدم الكلام، في أن توسعة الرزق منه سبحانه، كما أن تضيقه منه تعالى، فلينفق الإنسان حسب المستطاع، فإن الإنفاق لا يضر، كما أن الإمساك لا ينفع، كما قال:

إذا قبل الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل أن تتفقت

فلا الجود مفيها إذا هي أقبلت ولا البخل مبقيا إذا هي ولت

فَاتِ أَى أَعْطَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَا الْقُرْبَى أَى صَاحِبِ الْقِرَابَةِ حَقَّةً أَى حَقَّهُ الَّذِى قَرَّرَهُ اللَّهُ لَهُ، مِنَ الصَّلَةِ وَالْإِنْفَاقِ وَغَيْرِهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ، وَإِنْ كَانَتْ عَامَةً تَشْمَلُ إِعْطَاءَ كُلِّ أَحَدٍ قَرَابَتَهُ، مَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ حَقٍّ، إِمَّا بِأَنْ يَكُونَ «آت» خَطَابًا لِكُلِّ مُسْلِمٍ، أَوْ خَطَابًا لِلرَّسُولِ

(١) يوسف: ٨٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٧

[سورة الروم (٣٠): آية ٣٩]

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيُزْبِتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبِتُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)

وعمومه من باب الأسوة إلا أنه وردت روايات خاصة صحيحة في أنها نزلت بالنسبة إلى إعطاء فاطمة عليها السلام «فدكا» «١» و لا منافاة، فإن ذلك من باب المصداق و آتِ الْمَسْكِينِ وَهُوَ الْفَقِيرُ وَابْنَ السَّبِيلِ وَهُوَ الَّذِي سَافَرَ، ثُمَّ لَا نَفَقَةَ لَهُ لِمَصْرَفِهِ، أَوْ لِعُودِهِ، وَ ذَلِكَ بِأَنْ يُعْطِيَهُمَا الْإِنْسَانُ حَقَّهُمَا الْوَاجِبَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْخُمْسِ، أَوْ الْأَعْمَ حَتَّى يَشْمَلَ كُلَّ مُسَاعِدَةٍ لَهُمَا، وَ لَوْ مِنْ غَيْرِ الزَّكَاةِ وَالْخُمْسِ ذَلِكَ الْإِعْطَاءَ لَهُؤُلَاءِ حَقُّوهُمْ خَيْرٌ مِنْ عَدَمِ الْإِعْطَاءِ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ أَى يُعْطُونَ قَرْبَةً إِلَى اللَّهِ، لَا رِيَاءَ وَ سَمْعَةً، فَإِنَّ الْمَنْعَ يُؤْفِرُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْمَالَ، وَ الْإِعْطَاءَ يُؤْفِرُ عَلَى الْإِنْسَانِ السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ، وَ السَّعَادَةَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَالَ الْقَلِيلِ وَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُعْطُونَ هَذِهِ الْحَقُّوقَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ بِثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، فَإِنَّهُمْ يَقُومُونَ بِذَلِكَ الْاجْتِمَاعِ، وَ تَقْوِيَةَ الْاجْتِمَاعِ عَائِدَةٌ إِلَى تَقْوِيَةِ نَفْسِ الشَّخْصِ أَيْضًا، كَمَا أَنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لَجَزِيلِ الْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ.

[٤٠] وَ قَدْ كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْأَمْوَالِ يُعْطِي الْهَدِيَّةَ أَوْ نَحْوَهَا لِغَيْرِهِ، لِيَعْوِضَ عَنْهَا بِالْأَزِيدِ، فَيُنِى سُبْحَانَهُ، أَنَّ هَذِهِ الْكَيْفِيَّةُ لَا تَسْبَبُ الزِّيَادَةَ وَ النَّمُوَ، وَ إِنَّمَا تَسْبَبُ الزِّيَادَةَ وَ النَّمُوَ، الزَّكَاةَ وَ الصَّلَاةَ وَ مَا آتَيْتُمْ أَى أُعْطِيْتُمْ مِنْ رَبًّا «الرِّبَا» هُوَ الزِّيَادَةُ مِنْ «رَبِّي» بِمَعْنَى زَادَ، وَ مِنْهُ «الرِّبَايَةُ» بِمَعْنَى الْأَرْضِ الْعَالِيَةِ، وَ سُمِّيَ مَا يُعْطَى الْإِنْسَانَ «رَبًّا» لِأَنَّهُ زِيَادَةٌ فِي الْإِعْطَاءِ، وَ لَيْسَ حَقًّا وَاجِبًا لِيُزْبِتُوا ذَلِكَ الرَّبَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ

(١) راجع الكافي: ج ١ ص ٥٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٨

أى ينمو ذلك الذى أعطيتموه فى أموال المهدي إليهم، والمعنى يجعل عليه، ويرد إليكم، فكأنه زاد فى أموالهم، حيث إنه إنما ضعيف، حين اختلط بمالهم، وهذا النحو من الإعطاء ليس حراما، ولكنه لا أجر له فلا يزبوا عند الله ولا يعطى الله أجرا على هذه

الهدية المراد بها أن تزداد وترد، هكذا وردت الروايات في تفسير الآيه، وهناك احتمال آخر، وهو أن يكون هذا منعا لإعطاء المقترض الربا، والمعنى إن الربا الذي تعطونه بزعم إنه يزداد، في أموال المقترضين، إنما هو مجرد زعم، وإلا فالله سبحانه لا يجعله سببا للزيادة، من قبيل (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا) (١) وإنما توجه النهي نحو المقترض، لأنه إن أبي لم يجد المقرض وسيلة لاقتراف هذا الحرام، من قبيل

قوله عليه السلام لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرا

(٢)، وعلى هذا، فلام «ليربوا» لام العاقبة وما آتيتم أى أعطيتم من زكاة واجبه أو مندوبه، وإن كان الأنسب - بكون السورة مكية - إرادة المندوبه تريدون بإعطائها وجه الله لا الرياء والسمعة، وإنما قال «وجه الله» لأن إرضاء شخص يوجب أن يوجه وجهه إلى المرضى، فالمعنى من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، للتقريب إلى الذهن فأوليتك المزكون هم المضعفون أى الذين يضعفون أموالهم، كما قال سبحانه (وَيُرِي الصَّدَقَاتِ) (٣) وقد دل العلم، على أن إعطاء الصدقات،

(١) البقرة: ٢٧٧.

(٢) تحف العقول: ص ٧٦.

(٣) البقرة: ٢٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٤٩

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤١]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)
ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)
توجب زيادة المال، بالإضافة إلى دلالة العقل على ذلك.

[٤١] وبعد ذكر بعض الأمور المرتبطة بالإنفاق، وما إليه - بالمناسبة - يرتد السياق إلى ذكر ما صيغ لأجله الكلام، وهو نفى الشرك الله هو الذي خلقكم أوجدكم من عدم ثم رزقكم أعطاكم أنواع الرزق ثم يميتكم لدى انقضاء أجلكم ثم يحييكم لأجل الحساب والجزاء هل من شركائكم أيها المشركون أي الذين جعلتموهم شركاء لله من يفعل من ذلكم الأمور، و «كم» للخطاب من شيء؟ و طبعا يكون جوابهم بالنفى سبحانه أي أن الله منزه عن الشريك وتعالى أي أنه أرفع من أن يمكن أن يكون له شريك عما يشركون عن الأصنام التي يشركونها مع الله.

[٤٢] إن شرك هؤلاء لم يسبب انحرافا في عقيدتهم فحسب، بل انحرافا في جميع مرافق الحياة إذ إن الشرك لا يتخذ المنهج من الله سبحانه، وإنما يسير على نهج منحرف، وذلك يوجب الفساد ظهر الفساد من القتل، و هتك الأعراض، و نهب الأموال، و سائر المشاكل في البر و المراد به الأعم من البلد و الصحراء و البحر فإن السفن السائرة في البحر، يظهر عليها أثر الفساد، بالحروب فيما بينها و الخوف الناشئ من الاضطراب في البلاد إلى غير ذلك بما كسبت أيدي الناس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٢٩٩

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ (٤٣)

فليس ذلك ظلما منه سبحانه، بل تابعا لما عملته الناس بأنفسهم، و النسبة إلى اليد من باب علاقة الكل بالجزء، لأنها العنصر الفعال في

الحياة و الاكتساب، و إنما ترك الله سبحانه الناس حتى يظهر فيهم الفساد لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَى جزاء بعض أعمالهم، من باب علاقة السبب و المسبب، فإن الذى عملوا سبب للعقوبة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى لكى يرجعوا عن غيرهم و ضلالهم و يتخذوا، منهج الله سبحانه، الملازم للتوحيد، و عدم الشرك.

[٤٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مهتدا لهؤلاء المشركين، بأنهم إن بقوا على شركهم و انحرافهم، أصابهم مثل ما أصاب المشركين من قبل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ لتصلوا إلى بلاد الأمم الهالكه، التى ترون آثارها فى مسيركم إلى الشام، و إلى اليمن فأنظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْعِصَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ أى كانوا من قبلكم كان أكثرهم مُشْرِكِينَ فجوزوا على شركهم بالنكال و الدمار، فإن ذلك يسبب لهؤلاء الإقلاع عن الشرك و الانحراف.

[٤٤] و إذ تبين لك ما يسببه الشرك و الانحراف من المآسى، و الولايات فأقيم يا رسول الله، أو خطاب عام، إما لفظاً، أو للأسوء، بأن يكون من باب «إياك أعنى و اسمعى يا جاره» وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ فلا تنحرف عنه، و قد سبق معنى الآية

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥١

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)

مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا مَرَدَّ لَهُ المرد مصدر ميمى، أى لا رد له، و المراد بذلك اليوم و هو يوم نزول العذاب، أو الموت، أو القيامة، فإن الأمر بالاستقامة، إنما هو لأجل أن لا يقع الإنسان فى مشكلة لا دفع لها من الله إى إن ذلك اليوم، من قبل الله، أو إنه لا رد لما يكون فيه، مما يأتى من قبل الله تعالى يَوْمَئِذٍ فى ذلك يَصَّدَعُونَ أى يتفرقون، فالمؤمنون فى الجنة و الكفار فى النار، من «اصدع» أصله «تصدع» من باب «التفعل» أدغمت التاء فى الصاد، فجىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، و معنى الصدع، هو الكسر و التفريق، كما قال (لَرَأَيْتُهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا) (١).

[٤٥] و هل يضر كفر أحد إلما نفسه؟ فمن كفر ليعلم إنه يضر بذلك نفسه مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أى أن ضرر كفره، ليعود عليه، و لا يعاقب أحد بسبب كفره وَ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ من مهد، بمعنى وطئ منزله، ليكون مريحاً، أى أنهم يجعلون أنفسهم حسناً.

[٤٦] و إنما قرر سبحانه الجزاء الحسن للمؤمن، و الجزاء السيئ للكافر لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْأُصُولِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ فإِنَّمَا قرر للإنجاز، كما تقول: قررت ديناراً لزيد لأعطيه مِنْ فَضْلِهِ فليس الجزاء استحقاقاً، بل فضلاً و إحساناً، و إلا فما أعطاه الله

(١) الحشر: ٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٢

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذَيِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

للإنسان فى دار الدنيا هو أكثر من استحقاقه بسبب أعماله، و ل إنه لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ فقد قرر «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» و المراد بعدم الحب الكراهة، لأنه لا واسطة بينهما، بالنسبة إليه سبحانه، و يحتمل أن يكون، لام «ليجزى» للعاقبة، أى أن عاقبة الكفر عدم الحب و عاقبة الايمان الجزاء الحسن.

[٤٧] ثم يعطف السياق إلى الأدلة، الدالة على وجوده سبحانه، بعد ما أخذ شوطاً حول المعاد، و هكذا عادة القرآن، أن يفنن فى

الكلام، لثلا يورث الضجر و الكسل من المطلب الرتيب الواحد، و مِنْ آيَاتِهِ الدالَّة على وجوده و سائر صفاته أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ فَإِنَّ الرِّيحَ فِي مَوْسَمِ المَطَرِ، تَبْشُرُ بِالسَّحَابِ وَ المَطَرِ، لِأَنَّهَا تَجْمَعُ السَّحْبَ مِنْ هُنَا، وَ هُنَاكَ، حَتَّى إِذَا اغْتَمَّتِ السَّمَاءَ أَمْطَرَتْ وَ لِيُدَبِّقَنَّكُمْ اللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ فَإِنَّهُ يَرْسِلُ الرِّيحَ لِلْبَشَارَةِ وَ التَّفْضِيلِ وَ لِتَجْرِىَ الفُلُوكُ أَى السَّفِينَةُ فِي البَحَارِ بِسَبَبِ الرِّيحِ بِأَمْرِ تَعَالَى، فَإِنَّ جَرِيَانَ الفَلَكِ، يَحْتَاجُ إِلَى أَمْرِ اللهِ تَعَالَى، بِالإِضَافَةِ إِلَى الرِّيحِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بِالتَّجَارَةِ فِي السَّفِينِ وَ بِالزَّرَاعَةِ، وَ بِاسْتِعْمَالِ المِيَاهِ فِي الحَوَائِجِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى لِكى تَشْكُرُوا فَضْلَهُ عَلَيْكُمْ.

[٤٨] وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِالهُدَايَةِ وَ الإِرْشَادِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٣

[سورة الروم (٣٠): آية ٤٨]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كَيْفَ فَمَا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)

فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ إى الأدلة الواضحات الباهرات، و إذ لم يؤمن بهم المجرمون المعاندون فانتقمنا من الذين أجزموا بالبقاء على الكفر و العصيان، و المعنى عاقبتهم بتكذيبهم و كفرهم بالعذاب و النكال، و فيه تهديد لمعاصري الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بأنهم إن بقوا على إجرامهم كان مصيرهم مصير أولئك و كان حقا علينا نصر المؤمنين بدفع أعدائهم، و إعلاء كلمتهم.

[٤٩] و بمناسبة ما تقدم من إرسال الرياح، و إنزال المطر، يأتي السياق ليفصيل الأمر في صورة أخرى الله هو الذي يرسل الرياح و إرسالها، إما بخلقها، و إما بتحريكها من مكان إلى مكان، و قد ذكر علماء الفلك تفصيلا، في كيفية خلق الرياح فتثير أي تهيج الرياح سحابا المراد بالسحاب الجنس، فإن الرياح تأتي بالسحب، من هنا و هناك فيسببها أي ييسط الله السحاب في السماء أي جهة العلو كَيْفَ يَشَاءُ عَرْضًا وَ طُولًا- و ارتفاعا، و في أي موضع شاء، و يجعله يجعل الله السحاب كسيفا قطعاً متراكبة بعضها على بعض، حتى يغلظ، و يتخذ فتري الودق أي المطر، و الخطاب إما للرسول، و إما لكل من يرى يخرج من خلاله أي خلال السحاب و ثناياه فإذا أصاب الله به أي بالودق من يشاء من عباده بأن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٤

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٩ الى ٥١]

وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُتَسِّبِينَ (٤٩) فَمَا نُنْظِرُ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)

نزل المطر في أرضهم إذا هم يستبشرون يفرحون و يبشر بعضهم بعضا، حيث يوجب الرخص بكثرة النبات و تسمين الأنعام.

[٥٠] وَ إِنْ كَانُوا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَصَابَ المَطَرُ أَرْضَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ المَطَرُ عَلَيْهِمْ وَ عَلَى بِلَادِهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِلتَّأْكِيدِ، أَو المَرَادُ بِهِ، مِنْ قَبْلِ إِثَارَةِ الرِّيحِ لِلسَّحَابِ لَمُتَسِّبِينَ أَى قَانِطِينَ آيسِينَ مَتَحِيرِينَ، لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَصْنَعُونَ بِزَرْعِهِمْ وَ ضَرْعِهِمْ.

[٥١] فَمَا نُنْظِرُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَو أَيُّهَا النَّاطِرُ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ وَ المَرَادُ بِهَا النِّبَاتِ المَتَنوعِ، وَ الأَنْهَارِ الجَارِيَةِ، وَ الأشْجَارِ النَّظْرَةَ، الَّتِي غَسَلَهَا المَطَرُ، فَإِنَّهَا آثَارِ المَطَرِ الَّذِي هُوَ رَحْمَةُ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا أَى بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَوَاتَا يَابِسَةً، لَا حَرَكَةَ فِيهَا، وَ لَا نِبَاتٍ، وَ لَا مَاءٍ إِنْ ذَلِكَ اللهُ الَّذِي أَحْيَى الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لهُوَ مُحْيِي المَوْتِ يَحْيِيهِمْ، بَعْدَ أَنْ مَاتُوا، لِلسَّحَابِ وَ الجَزَاءِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَكَمَا قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ الأَرْضِ، يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الأَمْوَاتِ، وَ هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنكَرِ البَعْثِ، كَيْفَ يَنْكُرُونَ ذَلِكَ، وَ قَدْ رَأَوْا إِحْيَاءَ الأَرْضِ.

[٥٢] لَكِنْ هَلْ هَذَا الإِنْسَانَ الَّذِي يَسْتَبْشِرُ بِالرَّحْمَةِ، هُوَ مُؤْمِنٌ بِاللهِ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ، وَ رَاضٍ بِقَضَائِهِ حَتَّى أَنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى بِلَائِهِ كَمَا يَشْكُرُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٥

[سورة الروم (٣٠): آية ٥٢]

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢)

نعمائه؟ كلا! إنهم قد عبدوه على حرف، فإن أصابهم خيرا اطمئنوا به وإن أصابتهم فتنة، انقلبوا على أعقابهم وَلَئِن أَرْسَلْنَا عَوِضَ الرِّيحِ المِثْرَةَ للسحاب رِيحاً هوجاء فَرَأَوْهُ أَي رَأوا النبت مُضِيْفَرًا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ أَي بعد إرسال الرِّيح الهوجاء الموجبة لاصفرار النبات، و هلاكه يَكْفُرُونَ بقضاء الله وقدره، قائلين: لماذا فعل الله بزرعنا هذا؟

[٥٣] و ليس كون هؤلاء الناس، هكذا لا يصبرون عند البلاء، لعدم كمال البلاغ، وإنما لعدم لياقة أنفسهم فَإِنَّكَ يا رسول الله لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى فكما أن الميت، لا يسمع سماعاً مفيداً يرتب الأثر عليه كذلك، إن هؤلاء الذين هم بمنزلة الأموات، في عدم حصول الخير منهم، لا يسمعون العظة سماعاً مفيداً، حتى إذا رأوا بلاء صبروا و لم يكفروا وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ جمع أصم، و هو الفاقد لحاسة السمع الدُّعَاء أَي إذا ما دعوته ليقبل إليك إِذَا وَلَّوْا أولئك الصم، بأن كانوا مُدْبِرِينَ فَإِنَّ الْأَصْمَ، و إن كان لا يسمع، و إن كان وجهه في طرف الداعي، إلا أنه يفهم الإشارة، فيرتب الأثر، أما إذا أدبر، فلا يسمع، و لا يرتب الأثر، و هو للمبالغة، في عدم إمكان إفهامه، و هذا تشبيه إثر تشبيه لحال الكفار الذين لا يؤثر فيهم البلاغ و الإرشاد، و كأنه للترقى نزولاً عند رغبة المخاطب، إيهاماً بأن هناك مخاطباً، يستبعد أن يكونوا كالأموات فإنهم أحياء؟ فيأتي السياق ليقول: سلمنا إنهم ليسوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٦

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٣ إلى ٥٤]

وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

بأحداث، إلا أنهم كالأصم الذي ولى دبره، حيث لا ينتفع بالعظة و الإرشاد.

[٥٤] و مَا أَنْتَ يا رسول الله بِهَادِ الْعُمَى أَي بقادر على أن تهدي إلى الطريق الذين هم عميان البصيرة عَن ضَلَالَتِهِمْ متعلق ب «هادي» أي لا- تقدر على هدايتهم عن ضلالتهم، لأن مثلهم مثل الأعمى الذي كلما أراد الإنسان أن يريه الطريق، لا يهتدى و لا يعرف إِنْ تُسْمِعُ أَي ما تسمع إسماعاً مفيداً أحد من الناس إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا أَي بأدلتنا الدالة على وجودنا، و سائر صفاتنا، فإن من سلك طريق الهداية، سمع أقوالك سماعاً نافعا فَهُمْ مُسْلِمُونَ لك منقادون لأوامرك.

[٥٥] و كيف يكفر هؤلاء بالله، و قد علموا أنه هو الذي خلقهم، و يقبلهم من حال إلى حال اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ مِنْ نطف ضعيفة، أو أطفالاً- ضعافاً، و هذا من باب المجاز، إذ جعل ذو الضعف، و كأنه قطعاً من الضعف، مثل زيد عدل، و (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) «١» ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ كَانَ فِيكُمْ قُوَّةَ الْحَيَاةِ، و قُوَّةَ الشَّابِّ ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً حتى يرتد الإنسان إلى

(١) هود: ٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٧

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٥ إلى ٥٦]

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعِيَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعِيَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُونَ (٥٦)

حالته الأولى، و المراد الشيبه، حالة الشيخوخة يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنْ قَوِي و ضعيف، و قوه و ضعف، فهما خلقان من خلقه وَهُوَ الْعَلِيمُ عليم

بمصالح عبادته، و لذا يصرفهم من حال إلى حال القدير على ما يريد.

[٥٦] إن هذا الإتقان في الخلق و التقليل في الخلقة، من عليم قدير، لا بد و أن تكون له نهاية متقنة، و غرض مقصود، هي القيامة، فليستعد الإنسان لها، أما من أجرم، فيذهب عمره هباء، و كأنه لم يلبث في الدنيا، إلا يسيرا و يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَى الْقِيَامَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ يَحْلِفُونَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا فِي الدُّنْيَا بِأَنَّهُمْ مَا لَبُّوا و لم يبقوا في الدنيا غير ساعة واحدة، حيث يستصنلون أيام الدنيا، كما قال (لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) «١» كَذَلِكَ أَى كَمَا صَرَفُوا هُنَاكَ عَنِ الصَّدَقِ، فِي مَدَّةِ بَقَائِهِمْ كَذَلِكَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يُؤْفَكُونَ يَصْرِفُونَ عَنِ الصَّدَقِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأُلُوهِيَّةِ، وَ الرِّسَالَةِ وَ الْمَعَادِ.

[٥٧] و كان هذا الكلام من الكفار، إنما هو بحضور المؤمنين، فيقول لهم المؤمنون، و آية فائدة في هذا الكلام: هل طويل كان عمر الدنيا أم قصير، و إنما المقصود، كان العمل لأجل هذا اليوم، و قد فاتكم و قَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ أَى أَعْطُوا عِلْمًا بِالْمَعَارِفِ، وَ إِيْمَانًا

(١) المؤمنون: ١١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٨

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٧ إلى ٥٨]

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ (٥٨)

بالألوهية و الرسالة و المعاد- فهم كما كانوا في الدنيا علماء مؤمنين، لا يفارقهم هذان هناك- لَقَدْ لَبِئْتُمْ وَ بَقِيتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَى فِي عِلْمِ اللَّهِ وَ قَضَائِهِ، وَ مَا كَتَبَ لَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَ هَذَا كَمَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ لَمَنْ يِنَازِعُ فِي مَدَّةِ بَقَائِهِ فِي سَفَرِ سَافِرِهِ: إِنَّكَ فِي مَا سَجَلْتَ، أَنَا بَقِيتُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَقَاءُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، هُوَ الْمَهْمُ، أَمَا أَنَّهُ طَوِيلٌ أَوْ قَصِيرٌ، فَلَيْسَ بِمَهْمٍ، فَقَدْ أَبْقَاكُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ لَمْ تَعْمَلُوا فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ الَّذِي كُنْتُمْ تَنْكُرُونَهُ وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَ لَذَا وَقَعْتُمْ فِي الْعَذَابِ هُنَا.

[٥٨] فَيَوْمَئِذٍ أَى فِي الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ مَعْذِرَتُهُمْ أَى اعْتِذَارِهِمْ، بِمَا يَظْهَرُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُذْرِ، بِأَنَّهُمْ مَا عِلْمُوا، أَوْ أَضْلَمُوا الرُّؤْسَاءِ، أَوْ أَرْجَعُونَا نَعْمَلُ صَالِحًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أَى لَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ الْإِعْتَابَ وَ الرَّجُوعَ إِلَى الْحَقِّ، كَمَا كَانَ يَطْلُبُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا.

[٥٩] وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ يَنْفَعُ فِي إِيقَاطِ النَّاسِ عَنِ جَهْلِهِمْ وَ غِيهِمْ، كَتَمَثِيلِهِمْ بِالْأَمْوَاتِ، وَ الصِّمِّ، وَ تَمَثِيلِ آلِهَتِهِمْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِآيَةٍ لِإِرْشَادِهِمْ، مَشْتَمَلَةٌ عَلَى مَثَلٍ أَوْ غَيْرِ مَثَلٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٥٩

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٩ إلى ٦٠]

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَحْفِنُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَنْتُمْ أَى مَا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ أَى أَصْحَابِ أِبَاطِيلٍ، يُقَالُ أَبْطَلَ، إِذَا جَاءَ بِالْبَاطِلِ.

[٦٠] كَذَلِكَ أَى كَمَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، بَعْدَ أَنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ، وَ قَدْ سَبَقَ، أَنْ مَعْنَى الطَّبْعِ، هُوَ أَنْ يَتْرَكَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ حَتَّى يَنْحَرِفَ وَ يَقْسُو قَلْبَهُ، بَعْدَ أَنْ أُرْشِدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ فَلَمْ يَقْبَلْ، وَ إِنَّمَا نَسَبَ الطَّبْعَ إِلَيْهِ، كَمَا يَنْسَبُ الْإِفْسَادَ إِلَى الْوَالِدِ، فَيُقَالُ أَفْسَدَ فَلَانَ ابْنَهُ، إِذَا تَرَكَهُ «بَعْدَ أَنْ أُرْشِدَهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ» حَتَّى فَسَدَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ التَّوْحِيدَ وَ الرِّسَالَةَ وَ الْمَعَادَ، بِأَنْ تَرَكُوا التَّعْلَمَ حَتَّى جَهِلُواهَا.

[٦١] فَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَى أَدَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، وَ كَفْرِهِمْ وَ عِنَادِهِمْ، فَسَيَأْتِيكَ الْمَدَدُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَسَيَنْصَرِكُ وَ يَخْذَلُهُمْ وَ لَا

يَسْتَفْزِنُكَ أَي لَا يَسْتَفْزِنُكَ، يُقَالُ اسْتَفْزَنَ، إِذَا طَلَبَ خَفْتَهُ، بَأَن يَسْتَعْتِبُهُ لِنَفْسِهِ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، بَأَن تَتْرَكَ مَهْمَتَكَ، أَوْ تَدَاهَنَهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٠

٣١ سورة لقمان مكية / آياتها (٣٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على ذكر «لقمان» الحكيم، وبعض وصاياه، وهي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة بأصولها المختلفة، من توحيد، ورسالة، ومعاد، ولوازمها، وبعض الأمور الأخلاقية، ولما اختتمت سورة الروم، بذكر القرآن، ابتدأت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الله، ولا منافاة بين تقدير الابتداء والاستعانة معا، بإشراب أحد الفعلين معنى الفعل الآخر، كما إن الاستعانة باسم الإله، تنافى التعظيم، كما قال بعض متوهمي لزوم أن يكون اسم الإله آله من قبيل كتبت بالقلم، فقد قال سبحانه (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) «١» وهو الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحمة المكثرة، لمن استعان به، وطلب رحمته.

(١) يوسف: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦١

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

[٢] الم من جنس «ألف» و«لام» و«ميم» هذا القرآن المعجز الذي لا يتمكن الجن والإنس على الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو إنها رموز بين الله ورسوله، وفائدته لنا، إن الرسول يسر به إلى من يعلمه أهلا لذلك.

[٣] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ خبر لقوله «الم» وكون الكتاب حكيما، بمعنى أنه قرر منهاجا محكما، لا يدخله زيغ وفساد، فإن الحكمة، وضع الأشياء موضعها اللائق بها.

[٤] في حال كون هذا الكتاب هُدًى أي هداية وإرشادا وَرَحْمَةً موجبة للرحم والتفضل، فإن الله سبحانه، لم ينزل هذا القرآن، إلا لأن يرحم العباد لِلْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون في عقيدتهم و عملهم، وتخصيصهم بالذكر، لأنهم هم المنتفعون به، وإن كان في القرآن صلاحية الهداية والرحمة للجميع.

[٥] ثم وصف سبحانه المؤمنين بقوله الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ يأتيناها دائما حسب آدابها و شرائطها وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أي يعطون الأموال الموجبة لطهارة الأموال و تزكيتها، والظاهر أن المراد بها، الصدقة المستحبة، إذ لم تجب الزكاة المفروضة في مكة وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أي يعتقدون، والإتيان ب «هم» مكررا للتأكيد، وإفادة، إن المصلي المزكى، هو المعتقد بالآخرة، أما غيره ممن يدعى ذلك، ولا يقوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٢

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٥ الى ٦]

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦)

بهذين الأمرين، وإنما كلامه لقلقه لسان، لا خارج من أعماق الجنان.

[٦] أُولَئِكَ الْمُتَصَفُونَ بتلك الأوصاف على هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ كأنَّ الهدى جادة، و الضلال جادة، فمن عمل بما ذكر، كان سائرا على تلك الجادة المسماة بالهدى، و أن الهدى من ناحية إلههم و خالقهم و أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بخير الدنيا و الآخرة.

[٧] ثم ذكر سبحانه من يقابل طائفة المؤمنين، و هم طائفة الكفار و المنافقين و مِنَ النَّاسِ أَى بعضهم مَنْ يَشْتَرِي لَهُوَ الْحَدِيثِ فإنه ينفق عمره فى سبيل الأحاديث الملهية الباطلة، و هذا عام ليشمل كل الأحاديث الملهية و من جملة ذلك «الغناء» و لذا ورد تفسير الآية به لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَى يضل الناس عن طريق الهداية فإنه يحدثهم ليجمعهم حوله، فلا يجتمعوا حول الهدى، و قد ورد، أنها نزلت فى النضر بن حارث، كان يتجر فيخرج إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم، و يحدث بها قريشا، و يقول لهم: إن محمدا يحدثكم بحديث عاد و ثمود، و أنا أحدثكم بحديث رستم و اسفنديار، و أخبار الأكاسرة، فيستمعون حديثه، و يتركون استماع القرآن «١» بغير علم فإن العاصى جاهل، و إن كان عالما حسب الظاهر، إذ لو علم بحقيقة العلم ما يجره إلى نفسه من النار و النكال لم يقترب إلى المعصية أبدا، كما قال:

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٣

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٧ الى ٨]

وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَ لَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)

(مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ) «١» وَ يَتَّخِذَهَا أَى يتخذ سبيل الله- فإن السبيل مؤنث مجازى- هُزُوا آلَهُ استهزاء و سخرية، فإن الإنسان، إذا أراد الاستهزاء، جعل شيئا محور استهزائه أُولَئِكَ الَّذِينَ صَفْتَهُمْ ما تقدم لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ أَى يهينهم ذلك العذاب، و يذلهم فى مقابل ما كانوا يستكبرون و يتعاضمون فى الدنيا.

[٨] وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا أَى تقرأ عليه آيات القرآن الحكيم و لَّى و أَعْرَضَ مُسْتَكْبِرًا أَى فى حالة كبر و استعلاء يرى نفسه أكبر من أن يخضع لآيات القرآن كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا و إلا فالإنسان العاقل إذا سمع الهدى و الرشاد اتبعه و اقترب منه و خضع له كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا «الوقر» الحمل الثقيل، أَى كان فى مسامعه حمل ثقيل يمنعه عن الاستماع، حتى يهتدى فَبَشَّرَهُ يا رسول الله، و تسميته التخويف بشاره، استهزاء، كما كان يستهزأ بآيات القرآن بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مؤلم موجه فى القيامة.

[٩] و فى مقابلهم المؤمنون إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بما يجب الإيمان به من المعارف و الاعتقادات و عَمِلُوا الأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ بَأَن أتوا

(١) الأنعام: ٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٤

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٩ الى ١٠]

خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقَى فِي الأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠)

بالواجبات، و تركوا المحرمات، فإنه لا يقال، فلان يعمل صالحا، إلا إذا كان آتيا بالواجب تاركا للمحرم لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ أَى بساتين يتنعمون فيها فى الآخرة، فى مقابل العذاب الأليم الذى للكفار.

[١٠] فى حال كونهم خَالِدِينَ فِيهَا أى دائمين لا زوال لهم عنها وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا أى وعد الله ذلك وعدا حقا يتحقق فى الخارج، لا خلف

فيه وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، فما أَرَادَهُ، من تعذيب الكفار، و تنعيم المؤمنين عمله الْحَكِيمُ يفعل الأشياء بالحكمة و المصلحة. [١١] إن الكفار الذين لا يعترفون بالإله لينظروا إلى آثاره، و المشركون الذين يجعلون له شريكا، فليأتوا بدليل من الخلق، يدل على شريكهم خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ هِيَ مَدَارَاتِ الْكَوَاكِبِ، أو أجسام هنالك، لم يصل إليها العلم، و سير البشر المحدود في الفضاء بِغَيْرِ عَمَدٍ جمع عمود، أى لا عماد للسماوات تَرَوْنَهَا أى ترون أن لا عماد للسماوات، و إنما تدور الكواكب، و تسير بقدرته سبحانه، أو المراد، إن السماوات ثابتة بدون أعمدة مرئية، و إنما عمادها الجاذبية، التي خلقها الله فيها، مما لا يراها الإنسان وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَى جبالا راسية ثابتة تمنع الأرض عن التحرك و الاضطراب و التفكك، فهي كأوتاد الأخشاب، و إلا جذبتها جاذبية النيران، كما تجذب ماء البحار- فيحدث المد و الجزر- أو تفككت في سيرها السريع، و انتشرت في الفضاء، و إنما ألقى في الأرض رواسي: كراهة أن تَمِيدَ بِكُمْ من «ماد» بمعنى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٥

[سورة لقمان (٣١): آية ١١]

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)

اضطرب، أى لثلا تضطرب الأرض معكم أيها البشر وَ بَثَّ أَى نشر، و فرق فيها أى في الأرض مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ من جميع أنواع الدواب المختلفة الأشكال، و الألوان و الحجوم و المزايا وَ أَنْزَلْنَا على قاعدة الالتفات من الغيبة إلى التكلم الذي هو من أقسام البلاغة مِنَ السَّمَاءِ من جهة العلو ماءً هو المطر فَأَتَيْنَا فِيهَا فِي الْأَرْضِ بسبب ذلك الماء مِنْ كُلِّ زَوْجٍ أَى من كل صنف من أصناف النبات كَرِيمٍ أى مكرم محترم، لما فيه من الفوائد و الخواص.

[١٢] هذا الذي ذكر من صنوف الخلق خَلَقَ اللَّهُ فَإِنَّهُ سبحانه، هو الموجد لهذا كله فَأَرُونِي أيها المشركون القائلون بأن الله شريكا ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أى الآلهة الذين هم غير الله، و الإتيان ب «الذين» للمجاءة مع عِيَاد تلك الأصنام، في المكالمة و المخاطبة ليتناسق التعبير أخذًا و عطاء، و ليس لأحد من المشركين، أن ينسب بعض تلك المخلوقات إلى آلهتهم، كما نسب الثنوية المضار إلى إله الشر، إذ توحيد النظام، و التنسيق دال على توحيد الخالق، فإن النظام الواحد لا يصدر، إلا من المنظم الواحد، ثم ماذا يقيمون من الأدلة، على أن الشئ الفلاني من الله، و الشئ الفلاني من الشركاء؟ إلا الادعاء، و إن شئت قلت: إن هناك مخلوقات، تدل على خالق واحد، فمن يقول بالأكثر، فعليه الدليل بَلِ الظَّالِمُونَ الذين ظلموا أنفسهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٦

[سورة لقمان (٣١): آية ١٢]

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) بالكفر و الشرك و العصيان، لا دليل لهم على تعدد الآلهة، و إنما هم في ضلالٍ مُبِينٍ أى انحراف واضح.

[١٣] و إذ كان الكلام حول التوحيد و الشرك، ينتقل السياق إلى قصة «لقمان» الحكيم الذي كان يأمر بالتوحيد، و ينهى عن الشرك وَ لَقَدْ آتَيْنَا أَى أعطينا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ وَ هو معرفة مواضع الأشياء، و علم الارتباط بين الأسباب و المسببات، بحيث يعلم كيف ينهج الإنسان، حتى يسعد في الحياة،

عن الصادق عليه السلام إنه سئل عن لقمان و حكمته التي ذكرها الله عز و جل فقال: أما و الله، ما أوتى لقمان الحكمة بحسب و لا مال و لا أهل، و لا بسط في جسم، و لا جمال، و لكنه، كان رجلا قويا في أمر الله متورعا في الله ساكتا سَكِيْتًا عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغنى بالعبر، لم ينم نهارا قط، و لم يتك في مجلس قط، و لم يتفل في مجلس قط، و لم يعبث بشئ قط، و لم يره أحد من الناس على بول و لا غائط، و لا اغتسال لشدة تستره، و عمق نظره، و تحفظه في أمره، و لم يضحك من شئ قط، مخافة الإثم في دينه، و لم يغضب قط، و لم يمازح إنسانا قط، و لم يفرح بشئ، بما أتاه من الدين، إن أتاه من أمرها، و لا حزن منها على شئ قط، و

قد نكح من النساء، و ولد له الأولاد الكثير، و قدم أكثرهم إفراطاً، فما بكى على موت أحد منهم، و لم يمر برجلين يختصمان، أو يقتتلان إلا أصلح بينهما، و لم يمض عنهما حتى تحابا، و لم يسمع قولاً قط عن أحد استحسنته إلا سأله عن تفسيره، و عن من أخذه فكان يكثر مجالسة الفقهاء و الحكماء، و كان يغشى للقضاء و الملوك، و السلاطين، فيرثي القضاء مما ابتلوا به، و يرحم الملوك و السلاطين، لعزتهم بالله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٧

و طمأنينتهم في ذلك، فيعتبر و يتعلم ما يغلب به نفسه، و يجاهد به هواه، و يحترز به من الشيطان، و كان يداوى قلبه بالتفكير، و يداوى نفسه بالعبر، و كان لا يصغى إلا فيما ينفعه، و لا ينظر إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتى الحكمة، و منح العصمة - أى الاعتصام من الزل - و إن الله تبارك و تعالى، أمر طوائف من الملائكة، حين انتصف النهار، و هدأت العيون بالقائلة، فنادوا لقمان حيث يسمع، و لا يراهم، فقالوا: يا لقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض، تحكم بين الناس؟

فقال لقمان: إن أمرنى ربى بذلك، فالسمع و الطاعة، لأنه إن فعل بى ذلك، أعاننى عليه، و علمنى و عصمنى، و إن هو خيرنى قبلت العافية، فقالت الملائكة: يا لقمان لم قلت ذلك، قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل من الدين، و أكثر فتناً و بلاء ما يخذل، و لا يعان، و يغشاه الظلم من كل مكان، و صاحبه منه بين أمرين، إن أصاب فيه الحق، فبالحرى أن يسلم، و إن أخطأ أخطأه طريق الجنة، و من يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد، من أن يكون فيها حكماً سرياً شريفاً، و من اختار الدنيا على تلك الآخرة يخسرهما كليهما، تزول هذه، و لا يدرك تلك، قال: فعجبت الملائكة من حكمته، و استحسنت الرحمن منطقته، فلما أمسى، و أخذ مضجعه من الليل، أنزل الله عليه الحكمة، فغشاه بها من قرنه، إلى قدمه، و هو نائم، و غطاه بالحكمة غطاء فاستيقظ، و هو أحكم الناس فى زمانه، و خرج على الناس، ينطق بالحكمة و يبثها فيهم

«١»، و قلنا له أن اشكر لله فيما أعطاك، و الشكر هو صرف النعمة، فيما أمر الله سبحانه و من يشكر فإنما يشكر لنفسه

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٤٠٩ - ٤١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٨

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَ هُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَ فِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِيُؤَدِّكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)

فإن فائدة شكره تعود على نفسه، فإن الشكر يوجب الزيادة فى النعم و الثواب فى الآخرة و من كفر بأن لم يشكر، و صرف النعم فى معصية الله، كأن يصرف نفسه و ماله فى الكفر و الشرك و الفسوق و العصيان فإن الله غيى عن شكر الشاكرين، و التقدير، و من كفر فليعلم إنه لا يضر الله، لأنه سبحانه غنى حميد محمود على أفعاله، فإن ترك هذا الإنسان للحمد و الشكر، لا يخرج الله عن كونه محموداً فى السماوات و الأرض.

[١٤] ثم ذكر سبحانه جملة من حكمه لقمان، و ما كان يبثه بين الناس، من المواعظ و النصائح و أذكر يا رسول الله إذ قال لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ الحال إنه كان هُوَ يَعِظُهُ أى يؤدبه بالأخلاق الحسنه و يعلمه الخير و الرشد يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ أى لا تجعل له شريكاً ف إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ و هل هناك ظلم أعظم، من أن يربط الإنسان أعمال الإله، بمخلوق له، ما يسبب فساد دينه و دنياه، و فساد دنيا و دين من اتبعه؟

[١٥] و بهذه المناسبة، يأتى السياق لبيان جملة من كلام الله سبحانه حول الإنسان، من جهة أبويه، فإن احترام الوالدين فى طول إطاعة الله، فكما يجب امتثال أوامر الله، لأنه الخالق، كذلك يلزم الإحسان إليهما، لما تعباها فى تكوين الأولاد و تربيتهما وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ

بِوَالِدَيْهِ أَى أَمْرَاهُ، بِإِطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ وَشُكْرَهُمَا، وَ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٦٩

[سورة لقمان (٣١): آية ١٥]

وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)

ألمع السياق إلى بعض أسباب لزوم الاحترام للأُم، فقد حَمَلَتْهُ أَى حَمَلَتِ الْإِنْسَانَ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ أَى فِي حَالِ كَوْنِ الْإِنْسَانَ الْجَنِينِ، يُوجِبُ لَهَا ضَعْفًا فَوْقَ ضَعْفِ، فَلَمْ تَزَلْ تَضَعِفُ كُلَّ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنَ الضَّعْفِ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ، حَتَّى تَلِدَ، فَقَدْ أَطْلَقَ «وَهْنٌ» عَلَى «الْمَوْهِنِ» كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ، مِنْ قَبِيلِ «زَيْدٌ عَدْلٌ» وَفِصَالُهُ أَى أَنْ مَدَّةَ فِصَالِ الْإِنْسَانَ عَنِ الرِّضَاعِ، بَعْدَ الْوِلَادَةِ فِي عَامَتَيْنِ فَإِنَّ الرِّضَاعَ الْكَامِلَ، إِنَّمَا هُوَ عَامَانِ، وَ يَفْصَلُ عَنِ اللَّبَنِ عِنْدَ تَمَامِهَا، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ، (وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ) «١» أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدَيْكَ هَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ «و وَصِينَا» مَعَ الزِّيَادَةِ، وَ هُوَ لَفْظَةٌ «لِي» أَى كَانَتْ وَصِينَا لِلْإِنْسَانِ، أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ وَ لِوَالِدَيْهِ، وَ كَانَ الْإِتْيَانُ بِ «لِي» لِإِفَادَةِ كَوْنِ شُكْرِ الْوَالِدَيْنِ، فِي عَرْضِ شُكْرِهِ سَبْحَانَهُ إِلَيَّ الْمَصِيرُ فَمَنْ تَكَاسَلَ فِي الشُّكْرِ، عَوَّقَ بِالنِّكَالِ، كَمَا أَنْ مِنْ عَمَلٍ بِالْأَمْرِ جَوْزِي بِالْجَنَّةِ.

[١٦] وَإِنْ جَاهِدَاكَ أَى جَاهِدَاكَ مَعَكَ الْأَبْوَانِ، بِأَنْ أَتَعَبَا أَنْفُسَهُمَا مَعَ الْوَالِدِ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بِي بِأَنْ تَجْعَلَ لِي شَرِيكًا، فِيمَا كَانَ هُمَا مُشْرِكِينَ، وَ أَرَادَا جَزَّ الْأَوْلَادِ إِلَى دِينِهِمَا وَ طَرِيقَتَهُمَا مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أَى تَجْعَلَ الصَّنَمَ الَّذِي لَيْسَ لَكَ بِكَوْنِ ذَلِكَ الصَّنَمِ شَرِيكًا

(١) البقرة: ٢٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٠

[سورة لقمان (٣١): آية ١٦]

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)

لِي، وَ هَذَا لِأَجْلِ أَنْ مَا لَا يَكُونُ، لَا يَتَعَلَقُ بِهِ عِلْمٌ، وَ إِنْ تَعَلَّقَ بِهِ الْقَطْعُ، فَهُوَ جَهْلٌ مُرَكَّبٌ فَلَا تُطِعُهُمَا فِي الْإِشْرَاكِ بِي وَ لَكِنْ صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا أَى أَحْسَنَ إِلَيْهِمَا، وَ أَرْفَقَ بِهِمَا، فِي سَائِرِ الْأُمُورِ مَا دَامَتْ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ شُرُكَهُمَا لَا يَسَبِّبُ قَطْعَ الصَّلَاةِ عَنْهُمَا، وَ مَعْرُوفًا مَنصُوبٌ لِكُونِهِ صِفَةً، لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ، أَى مَصَاحِبَةٌ مَعْرُوفَةٌ، مُقَابِلُ الْمَصَاحِبَةِ الْمُنْكَرَةِ وَ أَمَا فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، فَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ أَى رَجِعْ إِلَيَّ بِالْإِطَاعَةِ وَ الْإِمْتِثَالِ، وَ إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِمْتِثَالُ إِنْابَةً، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْكُفْرَانَ قَدْ أَعْرَضُوا عَنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رَجِعْ جَمَاعَةً مِنْهُمْ، وَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْإِعْرَاضِ مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ آبَائِهِمْ ثُمَّ إِلَيَّ أَى إِلَى جَزَائِي وَ حِسَابِي مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا الْأَبْوَانِ الْمُشْرِكِينَ، وَ الْأَوْلَادِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ الْمَرْجِعُ مَصْدَرٌ مِيمِي، بِمَعْنَى الرَّجُوعِ فَأُنَبِّئُكُمْ أَى أَخْبِرْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، لِأَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَ الْإِخْبَارُ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّذْكِيرِ، حَيْثُ لَا يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ الْجِزَاءَ ظُلْمًا أَوْ عِبْتًا.

[١٧] ثُمَّ رَجِعْ السِّيَاقَ إِلَى كَلَامِ لِقْمَانَ مَعَ أَبِيهِ، وَ قَدْ كَانَ مِنْ دَابِّ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، أَنْ يَأْتِيَ بِالْجَمَلِ الْمَعْتَرِضِ، فِي أَوَاسِطِ الْكَلَامِ، مِمَّا لَهَا رِبْطٌ بِهِ، لِتَنْشِيطِ الذَّهْنِ بِالتَّفَنُّنِ فِي الْكَلَامِ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا أَى فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِهِ «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَى كَانَ ثَقُلَ النَّمْلُ فِي عَالَمِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، مِقْدَارِ ثَقُلِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ عَالَمِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧١

[سورة لقمان (٣١): آية ١٧]

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)

الماديات فَتَكُنْ تلك الخردلة، أو تلك الفعلُ في صِيخْرُهُ حيث إن الحبة المخفية في صخرة صماء صعب الاطلاع عليها و استخراجها من الصخرة أو في السَّمَاوَاتِ فإن الحبة إذا أضيفت في السماوات الوسيعة، لا يقدر على العثور عليها أحد لسعة السماوات أو في الأرض و هل توجد حبة ضاعت في الأرض، فهل يعلم أنها في أى مكان منها؟ يَأْتِ بِهَا اللهُ أى بتلك الفعل، وهذا لإيقاظ الإنسان، أن لا يترك خيرا صغيرا بعيدا عن الأنظار بزعم أنه لا يطلع عليه أحد، فلما ذا يعمل؟ أو يفعل شرا صغيرا بعيدا عن الأنظار، بزعم أنه لا يراه أحد، فيجتنب عنه؟ إن العمل مهما كان صغيرا، فى أرض كان أو سماء، أو فى كهف جبل، أو فى أعماق البحار، فإن الله مطلع عليه، و يأتى بحسابه يوم القيامة، أو يأتى بنفسه- إن قيل بتجسيم الأعمال- إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ فَيَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ اللَّطِيفَةُ الدَّقِيقَةُ خَيْرٌ عَالِمٌ بِالْأَشْيَاءِ، و اللطيف أخص من الخبير، و جىء به هنا للمناسبة مع كون العمل صغيرا مضاعفا فى السماوات أو الأرض، أو مخفيا فى جوف صخرة صماء.

[١٨] يَا بُنَىٰ هُوَ تَصْغِيرُ «ابن» وقد أضيف إلى ياء المتكلم، و جىء بالتصغير لطفًا و شفقة، لا- تحقيرا و إهانة أَقِمِ الصَّلَاةَ بآدابها و أركانها و أُمُرٌ بِالْمَعْرُوفِ و هو كل شىء حسن عقلا، أو شرعا، و سُمى معروفًا، لأنهم يعرفونه، و لا ينكرونه و أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ و هو كل قبيح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٢

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

يستقل به عقل أو شرع، و سُمى منكرا لأن الناس ينكرونه و اصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ من الأذى فى سبيل الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، أو كل ما أصابك من مكاره الدنيا، فلا- تجزع و لا- تخرج عن نطاق الأدب و الشريعة فى المكاره إِنَّ ذَلِكَ الصَّبْرُ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ، أو كل ما سبق مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ العزم، هو عقد القلب على شىء، أصله بمعنى القطع، كأن من نوى شيئا، فقد قطع هذا الطرف من الأمر ليسير عليه، و من يتصف، بأنه يتمكن أن يقطع الأمور، و يبنى على الطرف منها، فقد اتصف بصفه كبرى، حيث لم يعط للشك مجالاً لتهديم استقامته، و صبره و صموده فيما يريد.

[١٩] وَلَا تُصَيِّرْ مَنْ «صعر» بمعنى أمال خَدَّكَ أى صفحة وجهك لِلنَّاسِ بأن تتكبر عليهم، فتعرض عنهم بوجهك حين يطلبون منك حاجة، أو يواجهونك بكلام و لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا أى مشيا مرحا، و هو مشى الكبر و الخيلاء إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ من اختال بمعنى تكبر فخورٍ يفخر على الناس، و معنى لا يحب يكره، لما سبق من التلازم بين عدم حب الله لشىء، و كراهته له، و لعل التعبير ب «لا يحب» لإفادة أن مجرد عدم محبة الله، كاف فى ترك الإنسان لشىء، فكيف إذا كرهه؟.

[٢٠] وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ القصد فى كل شىء هو حد الوسط فيه بدون إفراط أو تفريط، أى ليكن مشيا متوسطا، لا بسرعة تذهب بالبهاء،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٣

[سورة لقمان (٣١): آية ٢٠]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ (٢٠)

و لا ببطء من الخيلاء، أو المراد من المشى الأعم من الحركة، يقال فلان حسن المشى، فيما كانت سيرته حسنة، فيكون المراد بالآية، القصد فى كل شىء من إنفاق، و مأكلا، و سيرة، و عشرة، و غيرها وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ أى اخفض بعض صوتك، بأن لا تظهر كل الصوت عند التكلم، بل تنقص بعضه، فإن الأدب فى التكلم، أن يتكلم الإنسان كلاما هادئا، بدون جهر شديد، و صياح، ثم استدل

لقمان لقبح الصوت الرفيع، بقوله إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ حين ينهق، فإن صوته يزعج السامع، و ليس ذلك إلا لأجل رفعه، و الجهر الشديد به، فإذا أزعج الإنسان صوت الحمار، فليتأدب عند إخراج صوت نفسه، كما روى إنه قيل لأحد الحكماء: ممن تعلمت الأدب؟ قال:

ممن لا أدب له، حيث رأيت قبح عمله، فتركته.

[٢١] ثم انتقل السياق للحوار مع المنكرين لله، و الجاعلين له شريكا، الذين من أجلهم سيق قصة لقمان أَلَمْ تَرَوْا أَيُّهَا الْمُنْكَرُونَ له، أو المعترفون به الجاعلون معه شريكا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، فإنها تسيير لمصالحكم، و منافعكم، و كذلك الهواء و الحساب و غيرها و مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالنَّبَاتِ، و المياه، و المعادن، و غيرها فقد جعلها تحت اختياركم، و لمنافعكم وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ أَي أوسع عليكم نِعْمَةً جمع نعمه كالغنى، و الصحة، و الأمن، و غيرها ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٤

[سورة لقمان (٣١): آية ٢١]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)

فالظاهرة كالخلق و الحياة، و ما ينتفع منها الإنسان، في حياته و عيشه، و الباطنة، ما وهب الله للإنسان من الإدراك، و العقل، الذي به يسيّر حياته حسب المصلحة و الخير، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ و من النعم الباطنة، الرسل، و الأئمة و الإسلام، و من الناس من ينسب كل هذه النعم إلى الصدفة أو الطبيعة، فلنسأل: هل لهاتين من عقل و تدبير؟ فإن قال: نعم، قلنا: ما تسميه الصدفة و الطبيعة مما له إدراك و تدبير، و تقدير، و علم، و حكمة- إلى غيرها مما يستلزمها هذه المخلوقات- هو ما نسميه نحن «الله» إذن فالنزاع في اللفظ، و إن قال: لا، قلنا من ذلك يلزم، ما لا عقل له عقل، فكيف لا يقدر جميع الأقياء من الأطباء أن يصنعوا عينا لأعمى، أو عقلا لمجنون، و الطبيعة الجاهلة العاجزة، تصنع ملايين العيون و العقول؟ و بعد هذه الأدلة القاطعة مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ أَي فِي أَصْلِ وجوده سبحانه، أو وحدته، بأن يعطل الكون عن الإله، أو يجعل له شريكا بغير علم فلا علم له قطعي بما يقول، و إنما هو ظن و تقليد و لا هُدًى أدلة قطعية عقلية و لا كتاب مُنِيرٍ أَي كتاب واضح، ظاهر يوجب تنوير الفكر بالبراهين، و الحجج، و الحاصل إنه لا دليل عقلي لهم، و لا دليل نقلي، و لا لهم علم، بما يقولون، و إنما ظنون و أهواء و تقاليد.

[٢٢] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَهَذَا كِتَابٌ مُنِيرٌ عَوِضَ الْعِلْمِ، و الدليل العقلي، الذين يفقدونهما في باب المبدأ و المعاد قَالُوا فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٥

[سورة لقمان (٣١): آية ٢٢]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢)

جواب ذلك بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا فَإِنَّا نَقْلُدُهُمْ، فيما كانوا يقولون من أمر المبدأ و الإله، و المعاد، و سائر هذه الشؤون الأصولية أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ بسبب هذا التقليد إلى عَذَابِ السَّعِيرِ الهمزة للاستفهام، و الواو للعطف، و الاستفهام إنكارى، أى إنهم يقلدون آبائهم، حتى إذا كان التقليد من دعوة الشيطان الموجبة، لأن يدخل الإنسان النار في خاتمة المطاف، و السعير اسم من أسامى جهنم، سميت به لاستعارها و اشتعالها.

[٢٣] هذا حال الكفار المجادلون المقلدون لآبائهم، أما وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ بَأَن يَخضع له، و نسبة التسليم إلى الوجه، باعتبار أن الإنسان الخاضع نفسه، يظهر آثار الخضوع على وجهه وَهُوَ مُحْسِنٌ في عمله، بأن كانت عقيدته، و عمله صحيحتين فَقَدِ اسْتَمْسَكَ أَي تمسك و أخذ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى فقد شبهت الحياة، بمحل مهول لا ينجو منه، إلا من تمسك بشيء، كالعروة، فمن الناس من يتمسك بعروة واهية تنقطع، و تنفصل، و منهم من تمسك بعروة وثقى- مؤث أو ثق- التي لا تنفصم، حتى ينجو الإنسان عن الأهوال وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ فهو في الحياة مستمسك بأقوى العرى، و مصيره إلى الله، الذي عمل لأجله، و حسب أمره في الحياة، و لا بد أن تكون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٦

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)

عاقبته حسنة، فأواخر الأمور وهي جزاؤها مربوطة بالله، فمن أحسن، جزاه بالخير، ومن أساء أخزاه بالشر، فكان كل أمر له ابتداء هو ما يعمله الإنسان، و انتهاء هو جزاءه الذي يحصله من جزاء عمله.

[٢٤] و إذ تبين الحق، فلا- يحزن الإنسان لمن عاند، حتى وصل إلى العذاب و مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُفْرُهُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحْزَنُ لِلْمَعَانِدِ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ أَى إِلَىٰ جَزَائِنَا رَجوعهم، و هناك فَنُنَبِّئُهُمْ أَى نخبرهم بِمَا عَمِلُوا من الكفر و العصيان، و معنى الإخبار، بيان ما عملوا، حتى يعرفوا، أنهم استحقوا العذاب، الذى يراد بهم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَى بما يجول فيها من الكفر و العصيان، فلا يفوته شىء، و يكون إخباره إخبار عالم، و جزائه جزاء عادل، لا ينقص من عذابهم شيئاً، و لا يزيد فيه شيئاً.

[٢٥] و إنما نهملهم فى الدنيا للاختبار و الامتحان نُمَتَّعُهُمْ أَى نعطيهم من متع الحياة الدنيا قَلِيلًا فَإِنَّ أَيَّامَ الدُّنْيَا قَلِيلَةٌ، و إن طالت عشرات السنوات، بالنسبة إلى الآخرة الباقية، التى لا فناء لها ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ أَى ندخلهم فى الآخرة بكره منهم و اضطرار، و اضطر فعل متعد، و لذا يأخذ المفعول بلا- واسطة، أصله «اضتر» من باب الافتعال، قلبت التاء «طاء» على القاعدة إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ أَى شديد، يغلظ عليهم و يصعب.

[٢٦] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أَى سَأَلْتَهُمْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٧

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)

الأصنام مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هل الله خلقها، أم الأصنام، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ خَلَقَهَا، إذ لا يتجرأ أحدهم، أن ينسب هذا الخلق العظيم، إلى أصنام من الطين و الحجارة، أو سائر المعادن و الأشجار قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إذا قالوا ذلك، و تمت عليهم الحجة، فى أصنام هى باطله الْحَمِيدُ لِلَّهِ إذ اعترفوا بوحده الخالق، و أقروا بما يلزم بطلان آلهتهم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إن اعترفهم بوحده الخالق، موجب لوحده الإله، إذ لو لم يكن لأصنامهم شراكة فى الخلق، فماذا أوجب أن تكون آلهة؟

[٢٧] و إذن فباعتراف الطرفين لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو المتفرد بالخلق و الملك، إذ الخالق هو المالك إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عما سواه من الشركاء، إذ له كل شىء إلى من ليس له شىء؟ الْحَمِيدُ المستحق للحمد، وحده بدون شريك، إذ من يعطى كل شىء، هو المستحق للحمد دون من لا يعطى.

[٢٨] و لا يظن ظان، أن ما فى السماوات و الأرض، أمور معدودة تحيط بها الكتابة و التسجيل، ليستدل بذلك على محدودية خلق الله، إن ما خلقه الله سبحانه، لا يحيط به كتاب، و إن كانت الأشجار أقلاماً، و البحار و أصنافها مداداً، و هذا هو الإله الحق، أما الأصنام، فمن المضحك أن يتفوه الإنسان، بأنها فى عداد الإله؟ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٨

[سورة لقمان (٣١): آية ٢٨]

مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)

على كثرتها المدهشة أَقْلَامٌ للكتابة، و البحار كلها مداد و حبر- لا هذه البحار فحسب- بل و الْبَحْرُ و المراد به الجنس يُمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

أى سواء سَبَّعَهُ أُبْحِرَ أُخْرَى، والإتيان بلفظ السبعة، لا للخصوصية، بل هذا العدد، كان كناية عن الكثرة، نحو «السبعين» كما قال (إِنْ تَسْتَعْفِفُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً) (١) ثم أخذ الكتاب، يكتبون بتلك الأقلام، وذلك المداد الهائلين - كثرة - نعم الله سبحانه و مخلوقاته ما نَقَدْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ أَى لم تخلص بحيث تحيط بها الكتابة، والكلمة تطلق على المخلوق، باعتبار، أنه يخرج، بالإرادة الأزلية من العدم إلى الوجود، كما يخرج اللفظ من الفم إلى الخارج، فإن الله سبحانه، حيث كان لا يتناهى، كانت مخلوقاته الطويلة أيضا، لا تتناهى، فلا يحيط ما يتناهى بما لا يتناهى، وهذا لا يدل على أن الكلمات المخلوقة فعلا، لا تتناهى، حتى يقال: قد دلت الأدلة على استحالة ما لا يتناهى فى عالم الماديات؟ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، يفعل ما يشاء حَكِيمٌ فكل ما يخلق، إنما هو حسب الحكمة و المصلحة.

[٢٩] و لا يظن ظان أن هذه الخلقه المدهشه، توجب تعبا على الخالق، فإن الله يخلق ملايين العوالم بالإرادة، و لا فرق لديه بين خلق شىء واحد و ملايين العوالم ما خَلَقَكُمْ أَيها البشر

(١) التوبة: ٨٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٧٩

[سورة لقمان (٣١): آية ٢٩]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)

و لا - بعثكم بعد الموت إلا كخلق و بعث نفس واحده فالأمران: خلق الواحد، أو الجميع، و بعثه، عنده سبحانه سيان إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَامِكُمْ بَصِيرٌ بنياتكم، فقد كانت قريش تقول: إن الله خلقنا أطوارا نطفة فعلقه فمضغه، فلحما، فكيف يعيدنا جميعا، فى ساعه واحده؟ و كانت هذه الآية تدمغهم.

[٣٠] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ كُلٌّ مِنْهُ الرَّؤْيِيَّةُ، قدرة الله العظيمة، فكيف يقول أناس: إنه لا يقدر على البعث، أو ينكرون وجوده؟ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ بِأَن يَنْقُصَ مِنَ النَّهَارِ، ليزيد على الليل، أو يدخل ليلة كل يوم نهارها، حتى إن غابت الشمس، توجه جند الليل من ناحية المشرق، ليغزوا النهار المنتشر فى السماء، و الإيلاج هو الإدخال و يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ على أحد المعنيين السابقين و سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذللهما حتى أنهما يسيران طوع أمره و إرادته كُلُّ يَجْرِي فى فلكه بصورة مستمرة دائمة لينتهى إلى أَجَلٍ و مدة مُّسَمًّى قد سمي ذلك عنده سبحانه، فليس سيرهما اعتبارا، بلا تحديد و تقدير و أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ و قد أدرج هذا الأمر المعنوى إلى ذينك الأمرين الحسينيين لإفادة من يخلق و يتصرف بما تقدم، لا بد و أن يعلم أعمال الخلاق، و لذا صح عطفه على قوله «أن»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٠

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٣٠ الى ٣١]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)

الله يولج» و على هذا، فالمراد بالرؤية المعنى الجامع بين البصر و البصيرة.

[٣١] ذَلِكَ الذى تقدم من التصرف فى الليل و النهار، و الشمس و القمر، و العلم بأعمال العباد، إنما كان من شأن الله بسبب أن الله هُوَ الإله الْحَقُّ و الإله الحق يتأتى منه كل ذلك و لازم كون الله حقا أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ الْبَاطِلُ فليست تلك بالهة و أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الرَّفِيعُ الْكَبِيرُ الْعَظِيمُ، و إن التصرفات الكونية، و العلم الشامل، إنما هى من شأن الإله العلى الكبير، فهل يتمكن أحد، أن ينسب إلى الأصنام هذه الصفات، أو تلك الأمور التكوينية؟

[٣٢] ثم ينتقل السياق إلى إلفات هؤلاء نحو خارقة كونيئة أخرى، لا محيص لهم عن الاعتراف، بأنها لله، لا لأصنامهم أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو لكل من يتأتى منه الرؤية أَنَّ الْفُلُكَ أَى السَّفِينَةَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ فَقَدْ أَنْعَمَ عَلَى الْبَشَرِ بِإِجْرَاءِ السَّفِينَةِ فِي الْبَحْرِ لِنَقْلِهِمْ مِنْ هُنَا إِلَى هُنَا، و تسهيل تجارتهم بسببها، و لِيُرِيَكُمْ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَسِيرِ مِنْ آيَاتِهِ أَى بعض آياته الدالة على عظم قدره، و جلالة شأنه، فإن في البحار عجائب صنع الله سبحانه، مما يراها من ركب البحر، و قوله «ليريكم» بيان لإحدى علل إجراء السفينة في البحر،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨١

[سورة لقمان (٣١): آية ٣٢]

وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)

فإن إجراءها للسفر و التجارة، و رؤية الآيات إن في ذلك الإجراء في البحر لآيات دالة على الله و صفاته لِكُلِّ صَيَّارٍ يَصْبِرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ شُكُورٍ يشكر عند الرخاء، و كان الإتيان بهاتين الصفتين هنا، لما يطرأ على الإنسان، من هاتين الحالتين، عند ركوب البحر من الأحوال المحتاجة إلى الصبر، و الإنجاء المحتاج إلى الشكر، فإن الصابر الشاكر - و هو المعترف بالله - هو الذي يدرك الآيات، أما الجاهل المضطرب النفس، فلا يدرك الآيات، و لا يعيها أهميئة.

[٣٣] و إذا ركب الناس السفينة و غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ فإن الموج أحيانا يركب على السفينة، كالظلة التي تلقى عليها، فيدخل فيها قسم من ماء الموج، و إنما جاء بالجمع في قوله «كالظلل» و هو جمع ظلة، لأن للموج طبقات، تعلق طبقة على طبقة دَعَوْا اللَّهَ أَى الركب، في حال خوفهم من الموج أن يغرق السفينة بمن فيها، في حال كونهم مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَى قد أخلصوا له الطريقة، بأن صار توجيههم إليه وحده، و انصرف المشركون من الراكبين عن آلهتهم فلَمَّا ذَهَبَ الْمَوْجُ، و أمنوا الخطر، و نَجَّاهُمْ اللَّهُ إِلَى الْبَرِّ بأن خرجوا من السفينة بسلام فَمِنْهُمْ أَى بعض أولئك الراكبين مُقْتَصِدٌ، أخذ طريق القصد و العدل، فيبقى على إيمانه بالله و منهم راجع إلى كفره و شركه، و مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا الدالة على وجودنا، و سائر صفاتنا، و من تلك الآيات الإنجاء، من أهوال البحر إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٢

[سورة لقمان (٣١): آية ٣٣]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ أَحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣)

من ختر، بمعنى غدر بالعهد كَفُورٍ لله سبحانه، في المجمع: قيل إن هذا كان سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل، و هو إخلاصهم الدعاء في البحر، فقد روى السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله، الناس، إلا- أربعة نفر، قال: اقتلوهم، و إن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل، و عبد الله بن أخطل، و قيس بن صبابه، و عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فأما عكرمة، فركب البحر، فأصابته ربح عاصفة، فقال أهل السفينة أخلصوا، فإن آلهتكم، لا تغني عنكم شيئا هاهنا، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر، إلا الإخلاص، ما ينجيني في البر غيره؟ اللهم إن لك على عهدا، إن أنت عافيتني مما أنا فيه، أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوا كريما، فجاء فأسلم «١» ... و قد قبل النبي إسلامه، و من طريف الأمر إن الإنسان كلما وقع في مشكلة، لا- بد و أن يعرف ما ينجيه، و ما لا ينجيه، ثم إذا ارتفعت المشكلة، رجع إلى تقاليد البالية، و ما يفرضه العرف و الاجتماع عليه.

[٣٤] و إذا أتم الاحتجاج مع الناس حول الألوهية و المعاد، جاء السياق لتخويفهم عاقبه أمرهم، بقوله يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ أَى خافوا عقابه وَ أَحْشَوْا يَوْمًا هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ أَى لا يغني أحد أحدا، حتى أن الأب الرؤوف بأولاده لا يتمكن من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٣

[سورة لقمان (٣١): آية ٣٤]

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

خلاصهم ولا مؤلود هو جاز عن والده شيئاً والابن لا يغني عن أباه، حتى الشيء القليل إنَّ وَعَدَ اللَّهُ بالبعث والجزاء حق آت لا ريب فيه فلا تُغَوِّنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بأن تصرفكم زهرتها عن الإيمان حتى تذوقوا العذاب يوم القيامة ولا يُغَوِّنُكُمْ بِاللَّهِ أَى لا يجبر أنكم على عصيان الله، الشيطان الغرور الذي يغر كثيراً.

[٣٥] إِنَّ اللَّهَ هو العالم القادر، هو عالم بما تعملون، وقادر على البعث والجزاء، ألا ترون إلى آثار علمه وقدرته عندكم، فإنه سبحانه عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ بمعنى، فى أى وقت تقوم القيامة وَيُنزِلُ الْغَيْثَ أى المطر الدال على كمال قدرته وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ أى أرحام النساء، من ذكر وأنثى، صحيح أو سقيم، جميل أو قبيح، وهكذا، ولو لم يعلم ذلك لم يتمكن من صنعه بهذه الدقة المدهشة، أما أنتم أيها البشر، فأسرعوا فى التوبة والرجوع، إلى هذا الإله العالم القادر، والعمل الصالح وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا من خير أو شر، فلا- تسوفوا التوبة والعمل لغد، فلعل ما أردتم فيه، لم تتمكنوا من إنجازه وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ فلعله مات فى نفس مكانه، لم يقدر على الجرى، ليصلح شأنه، إن سؤف التوبة، والعمل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٤

الصالح، فيبادر الإنسان فى زمانه، ومكانه إلى الرجوع إليه سبحانه، قبل أن يتحسر ويندم، ولات ساعة مندم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بأعمالكم وضمائركم خَبِيرٌ ولعل الفرق بين الوصفين، إن الثانى أدق من الأول، فى إفادة المراد، لدى اجتماعهما، فالخير، من يعلم كنه الأشياء، وجميع مزاياها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٥

٣٢ سورة السجدة مكية / آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتغالها على مادة السجدة، فى قوله «خروا سجدا» وهى كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة بشعبها المختلفة، قال فى المجمع: ختم الله سبحانه السورة التى قبلها بدلائل الربوبية، وافتتح هذه السورة أيضا بها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ باسم الإله الذى يرحم العباد، نبتدئ السورة، لكى نجعله عنوانا لنا، وشعارا لأمرنا، ونسترحم لطفه، وعنايته، بتذكر اسمه الرحمن الرحيم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٦

[سورة السجدة (٣٢): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)

[٢] الم «ألف» و «لام» و «ميم» جنس لحروف هذه السور، التى عجز البشر من الإتيان بمثلها، أو إنها رموز بين الله والرسول، أو لأن المشركين، كانوا يصيحون حين يبدأ الرسول بالقرآن، ليمنعوا الناس عن سماع صوته وإيقاعه فى الغلط، فكانت تنزل المقطعات لتوجب الدهشة فيهم فينصتوا استغرابا وهناك يلقنوا القرآن، أو غيرها من الأقوال.

[٣] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ خبر، ل «الم» و اللام فى «الكتاب» للعهد، أى أن «الم» أو هذه الآيات، تنزيل الكتاب الذى وعدتم به من قبل، على

لسان الأنبياء، أو لسان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد وضع المصدر، وهو «تنزيل» موضع المفعول، فهذه الآيات، هو الكتاب المنزل، أو «الم» هو الكتاب المنزل، كما وضع المصدر موضع الفاعل في «زيد عدل» أى عادل لا رَيْبَ فِيهِ أى ليس الكتاب محل ارتياب، وإن ارتاب فيه المبطلون، كما تقول: لا ريب فى أن وقت طلوع الشمس أو الصبح، يعنى ليس محل ارتياب، وإن كان هناك «سوفسطائون» ينكرون ذلك، أو يشكون فيه مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وإلا فلو لم يكن من رب العالمين، فلما ذا لا يتمكن البشر من الإتيان كمثلته.

[٤] أم يَقُولُونَ أى بل يقول هؤلاء الكفار افتراءً أى نسب الرسول القرآن إلى الله كذبا، وليس الأمر كما يقولون بَلْ هُوَ الْحَقُّ الْمَطْبُوقُ لِلْوَاقِعِ مِنْ رَبِّكَ أى من طرفه سبحانه، وليس مفترى على الله تعالى، كما زعموا، وقد أنزله سبحانه لِتُنذِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تقريبا القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٧

[سورة السجده (٣٢): آية ٤]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)

قَوْمًا بَأَنَّهُمْ إِنْ بقوا على الكفر، و عملوا بالمعاصى، كان مصيرهم إلى النار ما أتاهم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ فَإِنْ كفار مكة، لم يأتهم رسول يندرهم قبل بعثة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ أى لكي يهتدوا إلى طريق الله سبحانه.

[٥] ثم بين سبحانه «رب العالمين» بقوله أنه هو اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَاةِ وَالْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتِ، وَالْهَوَاءِ وَالْمَلَائِكَةَ، وَغَيْرَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَقَدْ جرت عاداته سبحانه على التدرج فى الخلق، كما نشاهد فى خلق الإنسان، والنبت، والحيوان، وعلى هذا الناموس العام، كان خلق الكون تدرجيا فى ستة أيام والسر فى هذا العدد الخاص، هو السر، فى أى عدد كان، وهو السر فى تسعة أشهر للحمل، والمدة الفلانية فى النبت، والحيوان، وهكذا، فهو أحد مصاديق التدرج، والظاهر، أن المراد مقدار ستة أيام، وإلا فقبل الشمس، لم يكن نهار و ليل ثُمَّ اسْتَوَى سبحانه عَلَى الْعَرْشِ أى استولى عليه، وهذا معنى كئيب، كما يقال:

استوى الملك على سرير الملك، يراد أنه، أخذ زمام السلطة بيده، وإن لم يكن هناك سرير، والإتيان بضم مع أنه سبحانه، كان قائما على كل شىء، لأنه لم يكن قبل خلق الكون شىء، حتى يقال: استولى عليه، فتحقق الاستيلاء، إنما هو بتحقيق المستولى عليه ما لَكُمْ أى ليس لكم أيها البشر مِنْ دُونِهِ أى سواه سبحانه مِنْ وَلِيٍّ يلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٨

[سورة السجده (٣٢): آية ٥]

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)

أموركم، ويقدر ويدبر شؤونكم، فإن الأصنام مخلوقة، لا تملك لنفسها شيئا، فكيف تملك لكم؟ وَلَا شَفِيعٍ فى إنجائكم من الهلكات الدنيوية، والأخروية، فإن الخلق، والولاية، والشفاعة، كلها له وحده، فإن أراد إنقاذ أحد أشار هو بشفاعته نبى أو عظيم ليشفع له، كما قال (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى «١» أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ أيها البشر، ما أودع فيكم من الفطرة الدالة على أن للكون إليها قويا يسيره، وليس ذلك لهذه الأصنام، أو ما أشبهها؟

[٦] وهو سبحانه يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أى جنس الأمر المرتبط بهذا العالم، فيأتى مِنَ السَّمَاءِ وإنما جعل سبحانه تدبير أمر الأرض فى السماء، حسب حكمته البالغة، كما قال (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) «٢» وإلا- لم يكن له حاجة إلى ذلك، ولأنه تعالى أقرب إلى السماء منه إلى الأرض، بل الجميع لدى عظمتهم سواء، ولا مكان له ولا جسمية، حتى يكون أقرب إلى بعض من بعض إلى الأرض أى تدبيرا ينتهى إلى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ أى يصعد الأمر إِلَيْهِ تعالى، والظاهر، أن التعبير، ب «يعرج» باعتبار ارتفاع مقام الله سبحانه، كما إذا سألت أحدا من أعضاء الحكومة أمرا، يقول: «أراجع فوقى» يريد فوجه فى الرتبة، لا فى المكان، ومعنى صعود الأمر

إليه، أن النتائج والآثار التي ظهرت من الأمر، يكون بنظره سبحانه، أو أن العروج،

(١) الأنبياء: ٢٩.

(٢) الذاريات: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٨٩

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٦ الى ٧]

ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)

و النزول، باعتبار، أن تقديرات الأرض تكون في السماء، ثم تصعد الآثار إلى السماء في يوم أي أن النزول و العروج منسوبان إلى يوم، فإن «في» بمعنى النسبة كان مقداره ألف سنه مما تعدون فهما في زمان يسير، لكن المسافة الحقيقية، هي تقطع في ألف سنه، خمسمائة سنه نزولاً، و خمسمائة سنه صعوداً، أو أن المراد، أن نتائج الأعمال، إنما ترفع إلى مقام جلال الله سبحانه، في يوم القيامة، الذي يعادل ألف سنه.

[٧] ذَلِكَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ عَالِمُ الْغَيْبِ أَي يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ وَ الشَّهَادَةُ الْأَشْيَاءِ، الَّتِي يَشَاهِدُهَا

الإنسان بإحدى حواسه العزیز الغالب في سلطانه الرحيم الذي يرحم الخلق، و يتفضل عليهم بأنواع النعم.

[٨] الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ بِأَن أْتَى بِأَحْسَنِ الْمَزَايَا وَ الْخُصُوصِيَّاتِ، الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ عَلَيْهَا، عَلَى نَحْوِ يَقْتَضِي الْحِكْمَةَ

و الصلاح، فحتى الإنسان الأعمى أحسن الله في خلقه غاية الإحسان، فإن العمى، و إن كان نقصاً في ذاته، إلا أنه جعله عبرة و عظة، و

ما أعد له من الثواب، إن صبر و عمل صالحاً، يردفه في جملة ما حسن خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين فإن آدم خلق من الطين، الذي

هو تراب مخلوط بالماء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٠

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٨ الى ١٠]

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) وَ

قَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)

[٩] ثُمَّ جَعَلَ اللهُ سبحانه نسله أي ولده و ذريته من سلالة أي صفة، قد سلّت من غيرها، و يسمى ماء الرجل سلالة، لانسلاله من صلبه

من ماء مهين أي حقير، من هان، بمعنى حقر، و المراد به «المنى» فإنه حقير مهان لرائحته و قذارته.

[١٠] ثُمَّ سَوَّاهُ أَي جعله بشراً سوياً، بإعطائه الآلات و الحواس و الأعضاء و نفخ فيه أي في ذلك الماء الذي سواه من روحه أي الروح

الذي خلقه، و الإضافة تشريفيّة، كإضافة البيت إلى الله سبحانه في قولنا «بيت الله» للكعبة و المسجد، و حيث أن الروح جوهر لطيف

عبر بالنفخ، كما ينفخ الهواء في الزق و جعل الله لكم أيها البشر السمع و الأبصار و الأفئدة جمع فؤاد، و هو القلب، و تخصيص هذه

الأعضاء بالذكر، لما يشاهد لها من الفوائد الجمّة، كما أن الإتيان بالسمع مفرداً مراداً به الجنس، بخلاف الأبصار و الأفئدة، جمعاً

للتفنن في الكلام، الذي هو من أبواب البلاغة قليلاً ما «ما» زائدة لتأكيد «قليلاً» تشكروا نعم الله سبحانه.

[١١] و بعد ذكر المبدأ، أتى السياق، لذكر المعاد و قالوا أي من أنكروا البعث إذا ضللنا في الأرض بأن صرنا تراباً، و تفرقت أجزاءنا،

بحيث لا يقدر على تميزها من غيرها، من أراد التمييز أإننا لفي خلق جديد؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩١

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١١ الى ١٢]

قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ

سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)

بأن نرجع إلى الحياة؟ إن هذا لا يمكن أبداً، فإن تمييز أجزاءنا عن غيرها، لا يمكن، فكيف بجمعها و صنعها إنساناً من جديد بل هم أي هؤلاء الكفار يلقاء ربهم أي لقاء جزائه و حسابه كافرين و إلا فلم يدل دليل على امتناع ذلك، و المعنى أن قولهم هذا ناشئ من كفرهم، لا عن دليل دلهم على استحالة الإعادة.

[١٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ يَتَوَفَّاكُمْ أَى يَمِيتُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ أَى الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِأَمَاتَةِ النَّاسِ، وَ هُوَ عِزْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي وَكَّلَ بِكُمْ وَكَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، لَوْفَاتِكُمْ، فَالْوَفَاءُ هَكَذَا، وَ لَيْسَتْ اعْتِبَاطًا، كَمَا يَزْعُمُ الْجَاهِلُونَ، فَإِنَّهُمْ حَيْثُ لَا يَرُونَ أَحَدًا يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الظَّاهِرَةَ، هِيَ الْعِلَّةُ التَّامَّةُ لِلْوَفَاءِ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ رَجوعكم.

[١٣] وَ هُنَاكَ يَأْتِي الْمَجْرُمُونَ نَادِمِينَ عَلَى مَا فَرَطُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ وَ لَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ كُلُّ مَنْ يَتَأْتِي مِنْهُ الرُّؤْيَا، وَ جَوَابُ «لَوْ» مَحذُوفٌ، وَ التَّقْدِيرُ «لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَطِيعًا» إِذِ الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ أَذْنَبُوا نَاكَسُوا رُؤُسَهُمْ قَدْ طَاطَؤُوا حَيَاءً وَ نَدَمًا، وَ ذَلَا عِنْدَ رَبِّهِمْ أَى فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَ هُوَ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَ عِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَبْصَرْنَا مَا كُنَّا نَعْمَى عَنْهُ، فِي دَارِ الدُّنْيَا وَ سَمِعْنَا مَا كُنَّا نَصْمُ عَنْهُ فِي الْحَيَاةِ فَارْجِعْنَا إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٢

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

الدنيا نعمل صالحاً كما تأمر إننا موقنون قد تيقنا صدق كلامك و وعدك، و لكن هل يرجعون؟ كلا! و هل يصدقون في أنهم لو رجعوا عملوا صالحاً؟ كلا! إنها كلمه هو قائلها.

[١٤] وَ لَوْ شِئْنَا أَنْ نَجْبِرَ النَّاسَ عَلَى الْهُدَايَةِ لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا أَى أَعْطَيْنَاهُمْ الْهُدَايَةَ بِالْجِبْرِ، بِأَنْ نَلْجَأَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ لَكِنْ ذَلِكَ يَبْطُلُ التَّكْلِيفُ، كَمَا يَبْطُلُ الثَّوَابُ وَ الْعِقَابُ، وَ يَكُونُ النَّاسُ حَيْثُذُ، كَالْحِجَارَةِ، الَّتِي لَا مَدْحَ لَهَا وَ لَا ذَمَّ، فَإِنَّمَا تَفْعَلُ، مَا تَفْعَلُ بِالطَّبْعِ وَ الْقِسْوَةِ لَا بِالِاخْتِيَارِ وَ الرِّغْبَةِ وَ لَكِنْ لِأَنْ شَاءَ ذَلِكَ، وَ قَدْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي أَى ثَبِتَ وَ لَزِمَ مَا قَلْتَهُ سَابِقًا، مِنْ إِعْطَاءِ الْإِخْتِيَارِ لِلنَّاسِ، حَتَّى يَذْهَبَ بَعْضُ إِلَى الْجَنَّةِ، مِمَّنْ أَطَاعَ وَ آمَنَ، وَ لَأَمْلَأَنَّ مِنْ مَلَأَ بِمَعْنَى الْإِكْتَارِ مِنَ الْمَظْرُوفِ حَتَّى يَمْتَلَى الظَّرْفُ، وَ لَا يَكُونُ لَهُ بَعْدَ مَجَالٍ لِأَخْذِ الزَّائِدِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ أَى الْجِنِّ وَ النَّاسِ الْكُفَّارِ وَ الْعِصَاءِ أَجْمَعِينَ وَ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الشَّقَّ، مِنْ شَقَى النَّاسِ وَ الْجَانِّ، لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْكَلَامِ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَجْرُمِينَ.

[١٥] وَ إِذْ يَدْخُلُ النَّارَ الْكُفَّارِ، مِنَ الصَّنْفِينَ يَخَاطَبُونَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ، وَ الْمَذُوقُ هُوَ الْإِدْرَاكُ بِحَاسَةِ اللِّسَانِ، أَوْ حَاسَةِ اللَّمْسِ، أَوْ مَطْلَقِ الْحَوَاسِ بِمَا نَسِيتُمْ أَى بِسَبَبِ نَسْيَانِكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٣

[سورة السجده (٣٢): آية ١٥]

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)

و التعبير بالنسيان، باعتبار جعل الإنذار مهملًا غير معتنى به، كالتناسى للشئ، و المراد باليوم القيامة إننا نسيناكم أي أهملناكم، و لم نعتن بكم، لننقذكم من العذاب، و إنما استعمل النسيان في الإهمال، لعلاقة المشابهة و ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ الَّذِي هُوَ خَالِدٌ، لَا زَوَالَ لَهُ بِسَبَبِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ.

[١٦] لَقَدْ رَأَيْنَا الْكُفَّارَ، وَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ، فَلْنَعْطِفَ النَّظْرَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ مُصِيرِهِمُ الْكَرِيمِ، فَمَنْ هُوَ الْمُؤْمِنُ، وَ مَا مُصِيرُهُ؟ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا يَصْدُقُ بِهَا، وَ يَتَفَكَّرُ فِيهَا، لِيَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَى الصَّانِعِ وَ صِفَاتِهِ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا بِأَنَّ ذَكَرَهُمُ الرَّسُولَ، أَوْ بَعْضُ

المؤمنين بتلك الآيات، بأن أروهم الآيات الكونية، أو الآيات القرآنية، ثارت فيهم غريزة الإيمان ف خَرُّوا سُجَّدًا جمع ساجد، أى ألقوا بأنفسهم على الأرض، فى هيئة الساجد بوضع جباههم على التراب تعظيمًا لله سبحانه، و شكرًا لنعمه و سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى نزهوه عن النقائص، بنحو الحمد و الثناء الجميل، فإن التنزيه، قد يؤدي بالنحو السلبي، كأن يقال: «فلان ليس بجبان»، و قد يؤدي بالنحو الإيجابي، كأن يقال: «فلان شجاع» فإنه تنزيه و حمد، و الأول، لا يلزم الثانى، بخلاف الثانى، فإنه حمد و تسييح و هُم لا يَسْتَكْبِرُونَ عن التواضع لله، عملاً بالسجود، و لسانًا بالحمد و الثناء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٤

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٦ الى ١٨]

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَغْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨)

[١٧] و من صفاتهم أنهم تتجافى من التجافى، و هو الابتعاد، أى تبتعد و ترتفع جُنُوبُهُمْ جمع جنب عَنِ الْمَضَاجِعِ جمع مضجع، و هو محل النوم، أى أنهم يقومون بالليل لأداء الصلاة يَدْعُونَ رَبَّهُمْ و يناجونه خَوْفًا أى لأجل الخوف من عذابه وَ طَمَعًا فى ثوابه وَ هُم مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فى سبيل الله، و «مما رزقنا» عام يشمل العلم، و المال، و الجاه، و غيرها. و هاتان الآيتان، مشتملتان على السجدة الواجبة، فإذا تلاهما الإنسان، أو سمعها، و جب أن يسجد.

[١٨] إن المؤمنين هم أولئك الذين ذكرت أوصافهم، فلننظر إلى مصيرهم فَلَا تَغْلَمُ نَفْسٌ مؤمنة بالله، عاملة للصالحات ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ أى ما خبأ الله لهم من النعيم، الذى يسبب قره أعينهم، الموجب لاستقرار العين، رضا و طمأنينة، فى مقابل الإنسان الخائف الذى تتحرك عينه هنا و هناك، ليجد ملجأ و ملاذا، و

قد ورد أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قال إن الله يقول أعددت لعبادى الصالحين، ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و إنما أخفى للمؤمنين هذا النعيم العظيم

جزاءً بما كانوا يَعْمَلُونَ من الإيمان بالأصول، و الصالحات فإن الإيمان أيضا عمل، أو على تغليب العمل على العقيدة، لأنه أكثر منها عددا.

[١٩] ثم بين سبحانه، إن التفاوت فى الجزاء، إنما هو للتفاوت بين الأعمال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٥

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٩ الى ٢٠]

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ و هذا استفهام للتقرير، أى ليس المؤمن كالفاسق، و المراد به أعم من الفسق فى العقيدة، أو فى العمل لا يَسْتَوُونَ أى لا يعادل أحدهما مع الآخر، و لذا اختلف جزاءهما.

[٢٠] أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بالله و برسوله، و بما جاء به وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ التى هى الإتيان بالفرائض، و اجتناب الرذائل فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى «و مأوى» اسم مكان من آوى، بمعنى اتخذ المنزل، و المسكن، و المراد الجنات، التى هى مسكن للمؤمنين نُزُلًا هو ما يعد للضيف، أو ينزلهم الله فيها نزلا بما كانوا يَعْمَلُونَ أى بسبب أعمالهم، التى عملوها فى دار الدنيا.

[٢١] وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا أى خرجوا عن طاعة الله، إما بالكفر أو العصيان فَمَأْوَاهُمُ أى مصيرهم، الذى يأوون إليه النَّارُ فى جهنم كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أى كلما هموا بالخروج من شدة العذاب و ألم النار أُعِيدُوا أى ردتهم الملائكة الموكلة بهم فيها فلا مخلص لهم من العذاب وَقِيلَ لَهُمْ إهانة و ازدراء بهم ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ فقد كانوا يكذبون بالنار تكذبا عقيدا

كالكفار،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٦

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٢١ إلى ٢٣]

وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمِنْ أَظْلَمٍ مِّمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) أو عمليا كالفساق.

[٢٢] وَلَنذِيقَنَّهُمْ أَى الْفَسَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى

و هو ضنك العيش فى الدنيا، و عذاب القبر، و من مصاديق العذاب الأذنى، ما يلاقيه المجرمون زمن ظهور الإمام الثانى عشر، كما ورد فى الحديث

«١» دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ أَى قَبْلَ أَنْ نَذِيقَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ فى الآخرة، و هى جهنم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَى لكى يرجعوا عن كفرهم و عصيانهم، فإن الإنسان، إذا رأى الأذى، و العذاب جاش فى نفسه حب الخير، و العمل الصالح.

[٢٣] وَمِنْ أَظْلَمٍ أَى أَى شَخْصٍ أَكْثَرَ ظَلَمًا مِّمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ أَى ذَكَرَهُ الْأَنْبِيَاءُ وَ الْأَوْصِيَاءُ وَ الْمُرْشِدُونَ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا وَ لَمْ يَقْبَلْهَا؟ و المعنى لا أحد أظلم من هذا الشخص - و ذلك إضافى، كما مر غير مرة- و لا يظن مثل هذا الشخص، إنه لا يرى وبال إعراضه، ف إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِالْكَفْرِ وَ الْعَصِيَانِ مُنتَقِمُونَ بِإِحْلَالِ الْعِقَابِ بِهِمْ.

[٢٤] ثُمَّ يَأْتَى السِّيَاقَ لِيَسْلَى الرَّسُولَ فِيمَا يَتَحَمَلُهُ مِنَ الْأَذَى، وَ يَسْلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ، فَإِنْ حَالَ الرَّسُولَ حَالَ مُوسَى -

(١) راجع مجمع البيان: ج ٨ ص ١١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٧

[سورة السجده (٣٢): آية ٢٤]

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ (٢٤)

فإنهما يتلاقيان فى الأصول و الفروع، إلا فى اختلافات، لا ترجع إلى جوهر الدين - و حال المؤمنين بالرسول، حال بنى إسرائيل، فكما نصرنا موسى عليه السلام و بنى إسرائيل على أعدائهم، نصر الرسول و المؤمنين به على أعدائهم و لقد آتينا أَى أعطينا موسى الكتاب أَى التوراة، و هذا كناية عن إرساله إلى القوم لهدايتهم فلا تَكُنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى مِرْيَةٍ أَى فى شكٍ مِنْ لِقَائِهِ أَى من الالتقاء بموسى فى العقيدة و الشريعة. و هذا كما يقال يتلاقى فلان و فلان فى العقيدة، و هذه الجملة كناية عن أول طريق الرسول طريق موسى، فمصيره كمصيره، فى النصر و الغلبة على الأعداء وَ جَعَلْنَاهُ أَى الكتاب هُدًى أَى هداية و إرشادا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُمْ اهْتَدَوْا بِالتَّوْرَةِ عن الضلالة و الانحراف.

[٢٥] وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَى من بنى إسرائيل أُمَّةً جَمَعَ إِمَامٌ، وَ هُوَ الْمَقْدَمُ فى الدين يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَ إِذْنَا لَهُمْ فى الهداية، فإنه لا يحق لأحد أن ينصب نفسه علما للهداية، إنما بإذن لَمَّا صَبَرُوا أَى أن جعلهم أئمة، بسبب صبرهم على المكاره و أذى الجهال، و صمودهم فى تطبيق أوامرنَا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ لا يشكون فيها، اللّازم لو أن يعملوا على طبقها، فإن صاحب اليقين يعمل صالحا، و يترك السيئ، و هذا تعريض بالمؤمنين بالرسول، بأنهم إن صبروا و جعلناهم أئمة، كما تقول لأحد ولدك: لقد أمرت ابنى فلانا بكذا، و أنت فى نفس طريقه،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٨

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوْ لَعْنٌ يَهْدِي لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)

و أعطيته المال و جعلت جماعة يتبعونه، تريد التعريض بهذا الولد المخاطب، بأن عاقبته كعاقبه ذلك الابن الأول.

[٢٦] و حيث ينتهي الكلام إلى هنا يختلج في ذهن السامع، أن يسأل، فما بال هؤلاء اليهود الذين نراهم ليسوا كذلك؟ و يأتي الجواب، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ أى بين بنى إسرائيل الصالحين منهم، و الطالحين يَوْمَ الْقِيَامَةِ فصلا يؤدي إلى إعطاء كل ما يستحق من النعيم أو الجحيم فيما كانوا فيه يَخْتَلِفُونَ فإن بعضهم غيروا شريعته موسى، و لعبت أهواؤهم بها، و بعضهم بقوا على الشريعة، بلا تغيير أو تحوير.

[٢٧] ثم يرجع السياق إلى قصة الكفار أَوْ لَعْنٌ يَهْدِي لَهُمْ استفهام إنكارى، أى كيف لم يبصرهم كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ و الأجيال، التى كانت تكذب بآيات الله، و تعصى أحكام الله يَمْشُونَ أى هؤلاء الكفار فى مَسَاكِينِهِمْ أى فى مساكن أولئك، فإنهم فى رحلتهم الشتائية، إلى اليمن، و الصيفية إلى الشام، كانوا يمرون بمساكن عاد و ثمود، و قوم لوط، و غيرهم إِنَّ فِي ذَلِكَ الْإِهْلَاكَ لأولئك الكفار لآيات دلالات دالة على وجود الله، و علمه و قدرته، و انتقامه من الظالمين أَفَلَا يَسْمَعُونَ أى ألا يسمع هؤلاء الكفار تلك الآيات سماعا يؤدي إلى رجوعهم، عن غيهم إلى الحق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٢٩٩

[سورة السجده (٣٢): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

أَوْ لَعْنٌ يَهْدِي لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)

[٢٨] و كيف يكفر هؤلاء الكفار بالله، مع أنهم يرون آياته، و آثاره؟ و حيث هددهم فى الآية السابقة بالعذاب، ذكر لهم نعم الله عليهم، لعلهم يشكرونه، فالعذاب و الرحمة، كلاهما ماثلان أمام أعينهم، ليؤمنوا رهبة أو رغبة أَوْ لَعْنٌ يَهْدِي لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ أى كيف لا يرون هذه النعمة، ليؤدوا شكرها؟ أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ نعم الله عليهم؟ ليشكرون.

[٢٩] وَيَقُولُونَ أى يقول الكفار متى هذا الْفَتْحُ الذى تقول يا محمد، أنت تفتح البلاد إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أيها المسلمون فى ادعائكم، إنكم ستفتحون البلاد؟ ففى أى وقت يكون؟ و لماذا لم يتحقق إلى الآن؟.

[٣٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ الذى نفتح فيه لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ بعد الفتح، و وقوعهم أسرى فى أيدي المسلمين، فإن ذلك لا يفك أسرهم، أو المراد بالفتح، يوم مدتهم، حيث يقولون للملائكة، أمهلونا، حتى تؤمن، فلا يمهلونهم، كما قال سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٣٤٩

[سورة السجده (٣٢): آية ٣٠]

فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِيْمَانَهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ «١» وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ أى يمهلون.

[٣١] فَأَعْرَضَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْهُمْ أتركهم و شأنهم بعد ما لم يؤثر النصح، و التهديد، و الترغيب فيهم و انتظر موعدهم الفتح إِيْمَانَهُمْ مُنْتَظِرُونَ و هذا تسلية للرسول و وعيد لهم، و المراد ينتظر الفريقان، حتى يرون الجميع لمن العاقبة الحسنة؟ و لمن العاقبة السيئة؟ و قد كان كما أخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، فقد انتصر المسلمون، و فتح الله لهم.

(١) النساء: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠١

٣٣ سورة الأحزاب مدنية / آياتها (٧٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتغالها على لفظة «الأحزاب» و طرفا من قصتهم، و هي كسائر السور المدنية، تشتمل على الأحكام و النظام، و الحرب، و غيرها، و إذا ختمت تلك السورة، بانتظار الرسول يوم الفتح، جاءت السورة مفتوحة لسير النبي في طريقه المرسوم له، بلا أن يحرفه الكفار و المنافقين، حتى يصل العاقبة المحمودة؟

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي إن ابتدأ به شيء باركه و أتمه، كما ورد كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بيسم الله، فهو أبتـر- المفهوم منه، إنه إن بدأ بالبسملة كان غير أبتـر- و هو الرحمن الرحيم، المتصف بالرحمة المتزائدة، فإن تكثير الوصف يوجب تكثير الصفة، كيف لا، و لو لم تدرك الرحمة الإنسان (ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَائِبَةٍ) «١»

(١) فاطر: ٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٢

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)

[٢] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ بِإِطَاعَةِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَرَسُولِهِ، إِنَّمَا كَانَ مُؤَدِّبًا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، الَّذِي مِنْهُ هَذَا الْأَمْرُ، فَلَا يُقَالُ إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُتَّقِيًا، فَكَانَ الْأَمْرُ لِعَوَا؟ وَبِالإِضَافَةِ إِلَى أَنْ مَعْنَى ذَلِكَ أَدَمَ عَلَى تَقْوَاكَ نَحْوَ إِهْدَانَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ الْإِيمَانَ، وَ يَبْطِنُ الْكُفْرَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِالْحَكْمِ وَ الْمَصَالِحِ حَكِيمًا فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالصَّالِحِ، وَ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ الضَّارِّ، فَإِنَّ بَيْنَ الْعِلْمِ وَ الْحِكْمَةِ عُمُومًا وَجَهًا، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، فَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَالَمُ غَيْرَ حَكِيمٍ، أَوْ الْحَكِيمُ غَيْرَ عَالِمٍ،

قال في مجمع البيان

إنها نزلت في أبي سفيان بن حرب، و عكرمة بن أبي جهل، و أبي الأعور السلمي، قدموا المدينة، فنزلوا على عبد الله بن أبي بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليكلموه، فقاموا، و قام معهم عبد الله ابن أبي، و عبد الله بن سعد بن أبي سرح، و طعمة بن أبيرق، فدخلوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقالوا يا محمد، أرفض ذكر آلتهنا، اللات، و العزى، و منات، و قل أن لها شفاعة لمن عبدها، و ندعك و ربك، فشق ذلك على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: إني أعطيتهم الأمان، و أصر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فأخرجوا من المدينة، و نزلت الآية، «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ» من أهل مكة، أبا سفيان، و أبا الأعور، و عكرمة، و المنافقين، ابن أبي، و ابن سعد، و طعمة «١»، و قيل: نزلت في أناس من ثقيف، قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فطلبوا

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٣

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢ الى ٤]

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)

منه أن يتمتعهم باللات، والعزى سنة، قالوا لتعلم قريش منزلتنا منك.

[٣] وَاتَّبِعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ أَيْ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، وَيَأْتِي خُطَابَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ بِالْجَمْعِ، بِاعْتِبَارِ أَتْبَاعِهِ مَعَهُ خَيْرًا فَيَعْلَمُ مِنْ اتِّبَاعِهِ أَمْرَهُ لِيَجَازِيَهُ عَلَيْهِ.

[٤] وَتَوَكَّلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ أَيْ فَوْضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، حَتَّى لَا يَتِمَّكَنَ الْأَعْدَاءُ مِنَ الْوَصُولِ إِلَيْكَ، وَلَا تَخَافُ أَحَدًا، وَلَا تَرْجُو أَحَدًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا فَإِنَّهُ قَائِمٌ بِأَمْرِكَ وَحِفْظِكَ، وَحَيْثُ إِنَّ مَعْنَى «كَفَىٰ» «اكتفى» جَاءَ مُتَعَدِيًا إِلَى الْفَاعِلِ بِالْبَاءِ.

[٥] وَبِمُنَاسَبَةِ لُزُومِ اتِّبَاعِ الْوَحْيِ، وَعَدَمِ اتِّبَاعِ الْكُفْرَانِ، يَأْتِي السِّيَاقُ لِيَقْرُرَ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ اتِّجَاهَانِ، فَلَيْسَ لَهُ قَلْبَانِ حَتَّى يَتَّجِهَ بِكُلِّ قَلْبٍ إِلَى وَجْهَةٍ مُضَادَّةٍ لِلْوَجْهَةِ الْأُخْرَى، وَلِهَذِهِ الْعِلَّةُ الَّتِي تَقْرُرُ عَدَمَ إِمْكَانِ اتِّجَاهَيْنِ يَقْرُرُ السِّيَاقُ، أَنَّ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِ امْرَأَةٍ زَوْجَةً وَأُمًّا، أَوْ كَوْنِ رَجُلٍ أَجْنَبِيًّا وَوَلَدًا، وَبِهَذَا يَبْطُلُ أَقْوَالُ وَعَادَاتُ جَاهِلِيَّةٍ، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: وَقَوْلُهُ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ» نَزَلَتْ فِي أَبِي مَعْمَرٍ جَمِيلِ بْنِ مَعْمَرِ بْنِ حَبِيبِ النَّهْرِيِّ، وَكَانَ لَبِيبًا حَافِظًا لِمَا يَسْمَعُ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ فِي جَوْفِي لِقَلْبَيْنِ، أَعْقَلَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ، وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَسْمِيهِ ذَا الْقَلْبَيْنِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ، وَفِيهِمْ أَبُو مَعْمَرٍ، وَتَلَقَاهُ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْثٍ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِهِ إِحْدَى نَعْلَيْهِ، وَالأُخْرَى فِي رِجْلِهِ، فَقَالَ لَهُ يَا أَبَا مَعْمَرِ: مَا حَالُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٤

الناس؟ قال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك، فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنها في رجلي، فعرفوا يومئذ أنه لم يكن له إلا قلب واحد، لما نسي نعله في يده «١» ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَهُ قَلْبٌ وَاحِدٌ، وَذَكَرَ الرَّجُلُ مِنْ بَابِ الْمَثَالِ، وَإِلَّا فَالْمَرْأَةُ وَالطِّفْلُ كَذَلِكَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْإِنْسَانِ اتِّجَاهَانِ، اتِّجَاهٌ نَحْوَ الْإِيمَانِ، وَاتِّجَاهٌ نَحْوَ الْكُفْرِ، فَيَطِيعُ الْكُفْرَانَ وَيَطِيعُ اللَّهَ فِي آنٍ وَاحِدٍ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي جَمَعَ الَّتِي، وَالمَرَادُ بِالْأَزْوَاجِ الزَّوْجَاتِ، فَإِنَّ زَوْجًا يَطْلُقُ عَلَى الرَّجُلِ، وَالمَرَأَةُ تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أَيْ يَقُولُونَ لَهَا «أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي» فَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَطْلُقُ نِسَاءَهَا بِهَذَا اللَّفْظِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَبْطَلَ الطَّلَاقَ بِهِ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ مُوجِبًا لِلْكَفَارَةِ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ أَنَّ الزَّوْجَةَ صَارَتْ كَالْأُمِّ، فَكَمَا تَحْرَمُ الْأُمُّ تَحْرَمُ الزَّوْجَةَ، الَّتِي قِيلَ لَهَا هَذَا اللَّفْظُ أُمَّهَاتِكُمْ فَالزَّوْجَةُ لَا تَكُونُ أُمًّا، وَإِنْ قِيلَ لَهَا أَلْفَ لَفْظٍ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ جَمَعَ دَعَى، وَهُوَ مَا كَانَ مَرْسُومًا عِنْدَ الْعَرَبِ، أَنْ يَتَّخِذَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ ابْنًا لَهُ فَكَانَ لَهُ مَا لِلْأَبِ وَالْإِبْنِ فِي جَمِيعِ الْمَزَايَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَبْنَاءَكُمْ فَإِنَّ التَّبْنِيَّ لَا يَجْعَلُ الْأَجْنَبِيَّ ابْنًا، وَإِنْ تَعَارَفَ الْاجْتِمَاعُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ أَبْطَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ عَادَتَيْنِ، كَانَتَا عِنْدَ الْعَرَبِ لَمْ يَرْضَ بِهِمَا الْإِسْلَامُ، فِي أَنْظَمَتِهِ

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٥

و تشريعاته،

قال في المجمع نزلت في زيد بن شراحيل الكلبي من بني عبد ود، تبناه النبي قبل الوحي، وكان قد وقع عليه السبي، فاشتراه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِسُوقِ عِكَازٍ، فَلَمَّا نَبِيٌّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَسْلَمَ وَقَدَّمَ أَبُو حَارِثَةَ مَكَّةَ، وَاتَى أَبَا طَالِبٍ، وَقَالَ سَلِّ ابْنَ أَخِيكَ، فِيمَا أَنْ يَبِيعَهُ، وَإِنَّمَا أَنْ يَعْتَقَهُ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ أَبُو طَالِبٍ، لِرَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: هُوَ حَرٌّ، فَلِيذْهَبْ

حيث شاء، فأبى زيد أن يفارق رسول الله، فقال حارثة: يا معشر قريش اشهدوا إنه ليس ابني، فقال رسول الله: اشهدوا إنه ابني فكان يدعى زيدا بن محمد، فلما تزوج النبي زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة، قالت اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، وهو ينهى الناس عنها؟ فقال رسول الله: ما جعل الله من تدعونه ولدا، وهو ثابت النسب من غيركم ولدا لكم.

«١» ذَلِكُمْ «كم» خطاب، و «ذلك» إما إشارة إلى كل واحد من الأمرين «الظهار» و «التبني» أو إلى الأمر الثاني فقط قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ فهو لفظ تقولونه، لا يوجب حقيقة واقعا وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ فِي أَنَّهُ لَا تَصِحُّ الزَّوْجَةُ أُمًّا، وَالْأَجْنَبِيُّ وَلَدًا بِمَجْرَدِ هَذَا اللَّفْظِ، وَلَمْ يَكُنْ تَبْنِي الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِزَيْدٍ بِمَعْنَاهِ الْجَاهِلِيُّ، حَتَّى يَقَالَ:

كيف يمكن أن يعمل الرسول شيئا غير ممضى من قبل الله سبحانه؟ بل للتشريف، كما

قال الإمام المرتضى «محمد ابني من صلب أبي بكر»

«٢» وهذا كان في مقابل طرد أبيه، و سلبه شرفه الانتسابي، فشرفه الرسول بالنسبة إلى نفسه من قبيل

«سلمان منا أهل البيت»

«٣» وَ هُوَ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٧٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١٦٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٣١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٦

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥ الى ٦]

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) سبحانه يَهْدِي السَّبِيلَ أَي يَرشِدُ إِلَى الطَّرِيقِ الْحَقِّ، وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

[٦] ادْعُوهُمْ أَي ادعوا الأولاد لِآبَائِهِمْ فقولوا «زيد بن حارثة» لا «زيد ابن محمد» هُوَ أَقْسَطُ أَي أَقْرَبُ إِلَى الْعَدْلِ، وَ أَفْعَلُ مَنْسَلَخٌ عَنِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ، وَ إِنَّمَا يَأْتِي بِهَذِهِ الصُّورَةِ، لِمَا يَزْعَمُ الْبَعْضُ مِنْ أَنَّ طَرَفَهُ الثَّانِي، عَدَلُ أَيْضًا عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ لَا قِسْطَ فِيهِ، أَوْ الْعَكْسُ هُوَ الْأَقْسَطُ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَي تَعْرِفُوا آبَاءَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ وَ أَسْمَائِهِمْ، حَتَّى تَنْسِبُوهُمْ إِلَيْهِمْ، فقولوا يَا أَخَ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ إِذِ الْآخِرَةُ هِيَ الْعَلَقَةُ الْحَاصِلَةُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، بِقَرَابَةٍ، أَوْ لِسَانٍ، أَوْ وَطَنِ، أَوْ دِينٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ مَوَالِيكُمْ أَي عبيدكم، إِذَا كَانُوا فِي الرَّقِّ، فقولوا يَا مَوْلَايَ، وَ هَذَا مَوْلَى فُلَانٍ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ وَ حَرَجٌ، إِذَا قُلْتُمْ «فُلَانُ ابْنِي» لِلدَّعَى فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ سَهْوًا وَ خَطَأً، بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ ذَلِكَ وَ لَكِنَّ الْجُنَاحَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ بِأَنْ قَصَدْتُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَصْدًا، بَعْدَ أَنْ نَهَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا لِمَنْ عَصَى، ثُمَّ نَدِمَ وَ تَابَ رَحِيمًا بِكُمْ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ بِالرَّحْمِ مُضَافًا إِلَى الْغَفْرَانِ.

[٧] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيَقْرُرَ الْوَلَايَةَ الْعَامَّةَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَ يَحِيطُ أَزْوَاجَهُ بِهَالِهِ مِنَ الْأُمُومَةِ الرُّوحِيَّةِ وَ مِنْ ثُمَّ يَقْرُرُ وَ لَايَةَ بَعْضِ الْأَقْرِبَاءِ لِبَعْضٍ، بِمُنَاسَبَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٧

ما تقدم من ذكر بعض الروابط الاجتماعية، التي كانت قبل الإسلام بالنسبة إلى نبوة الدعى، و أمومة المظاهر منها، فالدعى ليس ابنا، وإنما الأمة أبناء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و المظاهر منها ليست أمًا، وإنما زوجات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

أمهات النَّبِيِّ أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَا يَحِقُّ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي شُؤْنِ نَفْسِهِ الْمُبَاحَةِ، كَأَنْ يَبْقَى، وَيَذْهَبَ، وَيَعْمَلَ، وَغَيْرَهَا، كَذَلِكَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْحَقُّ، بَلْ أَنْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أُولَى إِذَا أَمَرَ الرَّسُولَ بِشَيْءٍ، وَأَرَادَ الإِنْسَانُ شَيْئًا آخَرَ لَزِمَ تَفْهِيمُ أَمْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ هَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ، اسْتَنْبَطَ الْفُقَهَاءُ الْقَاعِدَةَ الْفَقْهِيَّةَ «النَّاسُ مُسَلِّطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ فَمَا لِلأَمِّ مِنَ الْإِحْتِرَامِ وَالْإِكْرَامِ ثَابِتٌ لِزَوْجَاتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ تِلْكَ حَرَمَةُ نِكَاحِهِنَّ بَعْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ الشَّرَافَةَ تَتَّبِعُ طَاعَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذَا خَرَجَتْ بَعْضُهُنَّ إِلَى مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى لَمْ يَبْقَ لَهَا ذَلِكَ الشَّرْفُ، وَلِذَا

وَرَدَ إِنْ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا أَبَا الْحَسَنِ، إِنْ هَذَا الشَّرْفُ بَاقٍ مَا دَمِنَ عَلَى الطَّاعَةِ، فَأَيْتَهُنَّ عَصَتْ اللَّهُ بَعْدَى بِالْخُرُوجِ عَلَيْكَ، فَأَطْلَقَهَا فِي الأَزْوَاجِ، وَأَسْقَطَهَا مِنْ تَشْرِيفِ الأُمَّهَاتِ، وَمِنْ شَرَفِ أُمَمِهِ الْمُؤْمِنِينَ ..

ثُمَّ إِنْ مِنَ الْمَعْلُومِ، إِنْ ذَلِكَ شَرَفٌ خَاصٌّ، فَلَا يَتَعَدَّى إِلَى أَقْرَبَائِهِنَّ، حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ جَدُّ الْمُؤْمِنِينَ وَعَمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَالَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَالَهَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَكَذَا وَأَوْلُوا الأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أُولَى بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَيْ أَنْ فِيمَا كَتَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ أَصْحَابَ الرَّحِمِ، وَهَمُّ الأَقْرَبَاءِ بَعْضُهُمْ أُولَى بَعْضٍ، فِي الإِرْثِ وَالْوَلَايَةِ، وَسَائِرِ الأُمُورِ، فَلَا تَوَارِثَ، وَلَا وَلَايَةَ، إِلاَّ لِلأَرْحَامِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٨

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٧]

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧)

إلا- بقدر ما بينه الشارع، كولاية السادة، والإمام، وضامن الجريرة من المؤمنين والمهاجرين فلا ولاية غير النصر الإسلامية، بين المؤمنين، بأن يرث بعضهم بعضا، سواء كانوا مهاجرين أم لا، قال بعض المفسرين: إن المهاجرين لما ذهبوا إلى المدينة، كان بعضهم، إذا مات قسمت تركته بين سائر المؤمنين وهذه الآية جاءت لتمنع عن ذلك، أقول: لم يعلم أن ذلك كان من باب الإرث، بل يحتمل أنه كان من باب ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العامة، وإلا فلم يدل دليل، على أن الوارث المسلم، لم يكن يرث ليرث المهاجر المسلم، حتى تكون هذه الآية ناسخة قوله «من المؤمنين» والله العالم، إلا أن تفعلوا أيها المؤمنون إلى أوليائكم معروفاً وهذا استثناء منقطع، والمعنى، إن الولاية للأقرباء، إلا أن يفعل بعض المؤمنين بأصدقائه المؤمنين معروفاً، بأن يوصى لهم بشيء من ماله، أو يوصى إلى أحدهم بأيامه، فإنه تنفذ هذه الوصية في الحدود المقررة في الشريعة كان ذلك الحكم بأن أولى الأرحام، أولى إلا أن يفعل الإنسان إلى أوليائه معروفاً في الكتاب المحفوظ عند الله سبحانه مسطوراً قد كتب وقرر.

[٨] وبمناسبة ما كتب في الكتاب من حكم الولاية بين أولى الأرحام، يأتي ما سطر فيه من أخذ الميثاق عن النبيين، وعن المؤمنين، فإن هذا الحكم- وهو أولوية أولى الأرحام- من مصاديق ذلك الميثاق العام، فمن أعطى ذلك الميثاق العام، لزم عليه الوفاء بهذا الميثاق وأذكر يا رسول الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٠٩

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٨]

لِيَسْتَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَالْمَرَادُ بِهِ الْعَهْدُ الْأَكِيدُ بِالْقِيَامِ بِالذَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَبَعْدَ ذِكْرِ هَذَا الْعُمُومِ يَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِ الأنبياءِ الْمَعْرُوفِينَ وَمِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الأنبياء الذين بعثوا إلى شرق الأرض وغربها، وقد خصصوا بالذكر، ليعلم أنهم مع جلاله قدرهم وعظم شأنهم، قد أخذ منهم الميثاق في العمل بما يأمر الله سبحانه، وأخذ الميثاق، إنما كان قبل تحميلهم حمل الرسالة في عالم الدر وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً شديداً بالوفاء والقيام، وذلك لأهمية هذا المنصب الخطير، الذي لا يساويه منصب مهما عظم.

[٩] وقد فعل الله ذلك، ليكون الناس مقطوعى العذر، قد تمت عليهم الحجة، حتى يكون الصادق من الناس، معرضاً للثواب، و الكافر معرضاً للعقاب، وهذا كما تقول: قد أخذت من المعاون العهد الأكيد بالقيام على مهمة المدرسه، لأنجح الطلاب العاملين، و أطرده الخاملين منهم، تريد أن هذا العهد، إنما كان ليقوم المعاون بالمهمه، فتم الحجة على الطلاب ليشيئ الله الصادقين فى الإيمان و المنهج، فإن المؤمن صادق، و المطيع صادق إذ من يجعل مع الله شريكاً، أو يكفر به، فقد كذب فى عقيدته، و قوله، كما أن من يعصى، قد كذب فى عمله- فإن الكذب هو الخروج عن الحقيقة، فى قول أو عمل- عَنْ صِدْقِهِمْ أَى عَنْ عَقِيدَتِهِمْ، و قولهم و عملهم، فيجازيهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٠

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ١٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠)

بالجنات، فإن السؤال، إنما هو للجزاء و أعدد للكافرين بعد أن يسأل عنهم عذاباً أليماً أى مؤلماً موجعاً، و قد تفنن السياق، بذكر السؤال عن المؤمن و العقاب للكافر، و حذف فى الأول النتيجة، و فى الثانى السؤال.

[١٠] ثم يذكر الله سبحانه المؤمنين ببعض نعمه عليهم، مما يقوى فيهم روح الإيمان و يستمروا على الصدق يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إما خاص بمن كان فى الواقعة، و إما عام شامل لكل المؤمنين باعتبار، أن ذلك النصر عاد على الجميع بالخير اذكروا نعمة الله عليكم فى قصة غزوة الأحزاب إذ جاءكم أيها المؤمنون جنود من الكفار لتدميرهم فأرسلنا عليهم ريحاً هبت عليهم حتى أكفأت قدورهم، و نزعت فساطيطهم، و رمت بالرمل و الحصباء فى وجوههم و أرسلنا جنوداً من الملائكة لإلقاء الرعب فى قلوبهم لَمْ تَرَوْهَا بأعينكم وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا فإنه سبحانه أبصر أتعابكم و أعمالكم فى حفر الخندق، و تنظيم الجيش و العمل لأجل إنجاح المؤمنين، و غير ذلك.

[١١] و اذكروا إذ جأؤكم أى جاءكم جنود الكافرين مِنْ فَوْقِكُمْ أى فوق الوادى قبل المشرق، و هم قريظة و نضير و غطفان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١١

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ١١]

هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)

و مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ من قبل المغرب من ناحية مكة، أبو سفيان فى قريش، و من تبعه و إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ من المؤمنين خوفاً، و زيغ البصر ميله عن كل اتجاه نحو اتجاه العدو، فلا يكون كالبصر العادى يتحرك هنا و هناك و بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ جمع حنجرة، و هى منتهى الحلق، و ذلك لأن الإنسان الخائف تنفتح رثته فتضغط على قلبه، فيصعد قلبه نحو الحنجرة وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا أى الظنون السيئة، أو المراد الظنون المختلفة، فظن المؤمنون النصر، و المنافقون الهزيمة.

[١٢] هُنَالِكَ فى تلك الوقعة ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ امتحنوا و اختبروا ليظهر الصادق منهم من الكاذب، و الصابر و الجازع وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا أى حركوا بسبب الخوف تحريكاً عنيفاً، فى معتقدتهم و أقوالهم، و أعمالهم، فكما أن الزلزلة تحرك الأجسام، فالحوادث تحرك الأشخاص، و مختصر القصة «١»

فى غزوة الأحزاب و تسمى الخندق يئس المشركون و اليهود و القبائل من إمكان القضاء على الإسلام بانفرادهم فتفكروا فى تجميع قواهم لضرب الإسلام فتجمعت عشرة آلاف مقاتل من قريش، و بنى سليم و أسد، و فزاره، و أشجع، و غطفان، عدا يهود بنى قريظة، و لما علم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالأمر استشار أصحابه فى الأمر؟ فإن هذه القوة الهائلة، لا يمكن الصمود أمامها،

(١) قادة الإسلام للمؤلف. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٢

و أخيراً قرر الرسول عدم الخروج من المدينة - بإشارة سلمان الفارسي - بأن يحفر خندق حولها، و يجعل للخندق جهة خاصة للقتال، لثلاث- يحيط العسكر بالمسلمين، فيبيدوهم عن آخرهم، و قد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، عهد بحسن الجوار، مع بنى قريضة، و هم يهود قرب المدينة، لكن «الأحزاب» تمكنت من استماله بنى قريضة، لنقض العهد، و بذلك دخل فى قلوب المسلمين رعب عظيم، و بعد أن فرغ المسلمون من حفر الخندق، أتهم الجيوش كالسيل، كما وصفها الله سبحانه «إذ جاءوكم .. إلى آخره» و بعد ما تم حفر الخندق، خرج الرسول فى ثلاثة آلاف من المسلمين، ليواجهون الأحزاب و بينهما الخندق، و طال الأمر بين الطرفين بضعا و عشرين ليلة، لم يكن بينهما إلا الرمي، فإن الأحزاب لم يقدرُوا على العبور، و المسلمين لم يشاءوا ذلك و بعدها، جاء عمرو بن عبد ود، و عكرمة بن أبى جهل، و جماعة آخرون، من أقوى شجعان الأحزاب، فعبروا الخندق من مضيق كان فيه، ثم أخذوا يجولون، و يصلون، يطلبون المبارزة من المسلمين، لكن المسلمين قد أخذتهم الرهبة فلم يجرأ أحد منهم على الإقدام، فأنشأ عمرو بن عبد ود، و لقد بححت من النداء* بجمعكم هل من مبارز إلى آخر الأبيات، و هنا قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، يستأذن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لمبارزته، و لكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لا يأذن له ليمتحن بعض المسلمين، و أخيراً أذن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ للإمام، فخرج الإمام من معسكر المسلمين، يريد مبارزة عمرو و أنشد يقول فى جوابه:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٣

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز* ذو نية و بصيرة، و الصدق منجى كل فائر إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز* من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز و لما تقابل الإمام، و عمرو، قال له الإمام: إنك كنت تقول فى الجاهلية، لا يدعونى أحد إلى ثلاث، إلا- قبلت واحدة منها؟ قال عمرو: أجل، قال الإمام، فإنى أدعوك إلى الشهادتين، قال عمرو: يا ابن أخى أخر هذه عنى، قال الإمام: و الثانى، أن ترجع من حيث أتيت «أى تترك الحرب و ترجع إلى أهلك» قال عمرو: و لا تحدث قريش بهذا أبدا، قال الإمام: و الثالثة أن تنزل من على فرسك، فتقاتلنى، فقبل عمرو ذلك، لكن امتلأ عمرو رعبا من الإمام و تبادلوا السيف، فأصاب سيف عمرو رأس الإمام فشجه، فغضب الإمام، و ضرب عمرو ضربة أسقط رجله، فخر على الأرض، و علت الغبرة، و مد الطرفان أعناقهما، ليروا الغالب من المغلوب و لما انجلت الغبرة، رأوا الإمام جالسا على صدر عمرو، و كبر الإمام تكبيرة عالية، و بهذا المنظر و التكبير، قويت قلوب المسلمين، و تزلزلت قلوب الكافرين، ثم قطع الإمام رأس عمرو، و أقبل به إلى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، و قتل بعض آخر ممن اقتحم الخندق، و فرّ الباقون، و تشتت كلمه الأحزاب، و ألقى الرعب فى قلوبهم، و لم يطيقوا إدامه الحصار، و تخلت عنهم الأعراب، و بنو قريضة، و لذا تفرقوا من أطراف المدينة إلى مكه، و سائر محالهم، و قد كان قتلى المسلمين ستة، و قتلى الكفار دون العشرة، و مرّ الأمر بسلام، و زادت قوة المسلمين المعنوية، إلى حد هائل ممّا يش

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٤

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ١٢ إلى ١٣]

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣)

الكفار، من النيل منهم بعد ذلك.

[١٣] وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، وَ أَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرَادُ بِهِمْ ضِعَافُ الْإِيمَانِ، وَ إِنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَدِّ النِّفَاقِ، وَ الْمُرَادُ بِالْقُلُوبِ «النفوس» فَإِنَّ الْأَخْلَاقَ الْمُنْحَرِفَةَ، ضَعْفٌ وَ مَرَضٌ فِي الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ أَنْوَاعَ الْعَاهَاتِ ضَعْفٌ وَ مَرَضٌ فِي الْبَدَنِ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنَ النَّصْرَةِ عَلَى الْأَعْدَاءِ إِلَّا غُرُورًا مِنْ «غار» وَ إِنَّمَا سُمِّيَ غُرُورًا مَبَالِغَةً، كَأَنَّ الْوَعْدَ قِطْعَةً مِنَ الْغُرُورِ، مِنْ قَبِيلِ «زيد عدل»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا: يَعِدُنَا مُحَمَّدٌ أَنْ يَفْتَحَ مَدَائِنَ كَسْرَى وَ قَيْصَرَ، وَ نَحْنُ لَا نَأْمَنُ أَنْ نَذْهَبَ

إلى الخلاء هذا والله الغرور (١).

[١٤] و إذ قد اشتد الخوف بالمسلمين، قال عبد الله بن أبي المنافق لأصحابه: ليس لكم هنا محل، فقوموا نرجع إلى المدينة، و جاء بعضهم إلى الرسول يستأذنونهم معتذرين، بأن بيوتهم في المدينة، ليست بحريزة، فيخافون عليها اللصوص و إذ قالت طائفة أي جماعة منهم أي من المنافقين، و الذين في قلوبهم مرض يا أهل يثرب فقد كانت المدينة تسمى «يثربا» قبل هجرة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، ثم سميت بمدينة الرسول، ثم «المدينة» لا مقام لكم أي لا محل لإقامتكم هنا

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٥

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ١٤]

وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّتْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)

خارج المدينة بتوقع الظفر على الكفار فارجعوا إلى المدينة، حتى لا يصيبكم ما يصيب محمدا و المسلمين من الكفار، فقد زعموا أن الكفار يغلبون المسلمين لا محالة و يسهتأذن أي يطلب الإذن، في الرجوع إلى المدينة فريقت منهم أي من أولئك المنافقين النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و هم بنو حارثة، و بنو سلمة يقولون للرسول في عذرهم للانصراف إن بيوتنا عورة أي ليست حصينة، من عور إذا نقص، و منه الأعور، و يقول الله سبحانه في تكذيب عذرهم و ما هي بعورة أي كذبوا في عذرهم، إن بيوتهم لم تكن عورة يخشى عليها من اللصوص و الأعداء، فقد كانت حريزة حصينة إن يريدون أي ما يريد هؤلاء المستأذنون إلا فرارا من الحرب و هربا من القتال و أتعبه.

[١٥] ثم يمثل الله سبحانه نفسه هؤلاء المنافقين، بأنهم كانوا بحيث إذا دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من هؤلاء الشرك، و أن يكونوا معهم في صف واحد مقابل المسلمين، لأسرعوا في إجابتهم، فكيف لم تكن بيوتهم عورة، حينذاك، و بيوتهم عورة، حين كانوا مع المسلمين؟

وَلَوْ دَخَلَتْ الْمَدِينَةَ، أَوِ الْبُيُوتِ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَقْطَارِهَا أَى مِنْ جَوَانِبِهَا، بَأَن ظَفَرَ الْكُفَّارِ، وَ دَخَلُوا بُيُوتِ هَؤُلَاءِ مِنْ جَوَانِبِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ أَى سَأَلَ الْكُفَّارَ الْغَازِوْنَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، أَن يَشْرِكُوا وَ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي صَفِّ قِبَالِ الرَّسُولِ وَ أَصْحَابِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٦

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ١٥ إلى ١٦]

وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَمُّونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦)

لَأَتَوْهَا أَى لَأَعْطَوْا هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْكُفَّارَ مَا أَرَادُوا مِنَ الْفِتْنَةِ، وَ انْضَمُّوا تَحْتَ لَوَائِهِمْ وَ مَا تَلَبَّتْ بِهَا أَى مَا مَكْثُوا وَ تَرَيْتُوا فِي قَبُولِ الْفِتْنَةِ، كَأَنَّهُمْ بَاقُونَ فِيهَا، لَمْ يَرْفُضُوا وَ لَمْ يَقْبَلُوا كَالْإِنْسَانِ الْمَاكْتِ بِالْمَدِينَةِ، فِي مَقَابِلِ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْفِتْنَةِ بِالْجُزْمِ، إِمَّا بِالْقَبُولِ أَوِ الرَّفْضِ إِلَّا يَسِيرًا فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَرَدَّدُونَ فِي قَبُولِ الْفِتْنَةِ، إِلَّا فِي زَمَانٍ قَلِيلٍ، ثُمَّ يَفْتَنُونَ بِقَبُولِ الشَّرْكِ وَ الدَّخُولِ فِي صَفِّ الْأَحْزَابِ الْمَشْرُكَةِ.

[١٦] و كيف يولى هؤلاء الدبر، و يرون الفرار من الجهاد و الحال أنهم لقد كانوا عاهدوا الله من قبل أي من قبل الخندق لا يؤلُّون الأدبار فإنهم لما بايعوا النبي حلفوا أن ينصروه و أن يقفوا في صفه، و أن لا يسلموه لعدوه و كان عهده الله مسؤلاً أي يسأل عنه يوم القيامة، ماذا فعلوا بعهده، هل وفوا أم نقضوا؟

[١٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْفِرَارَ خَوْفَ الْقَتْلِ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ فِي تَأْخِيرِ آجَالِكُمْ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ بَأَن

خفتم الموت خوفاً أو القتل بأن يغلب الأعداء فيقتلوكم، فإن آجالكم إن حضرتم أخذتكم و لو في غير ساحة القتال، و إن لم تحضر لم يأخذكم الأجل، و لو في ساحة القتال و إذاً أى إذا فررتم من الموت أو القتل لا تمتعون فى الدنيا إلا قليلاً فإن مدة الحياة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٧

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ١٧ الى ١٨]

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨)

قليله تنقضى و تنصرم بسرعة.

[١٨] قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الذين يريدون الفرار إن فراركم غير مفيد، فإن أراد الله بكم سوءا جاءكم، و لو فى بيوتكم، و إن أراد بكم رحمة جاءكم الرحمة، و لو فى ساحة القتال، فما فائدة الفرار؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ أى يحفظكم من أمره و بأسه إن أراد بكم سوءاً موتاً أو قتلاً- أو عذاباً؟ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً مَنْ ذَا الَّذِي يَتِمُّكَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الرَّحْمَةِ، التى يريد بها الله بكم؟ فكل شيء من طرفه سبحانه، و لا يتمكن أحد من تغيير أمره و لا يجدون أى هؤلاء الذين يريدون الفرار لهم من دون الله أى سواه ولياً يلى أمورهم و يتولى شؤونهم و لا نصيراً ينصرهم، و يغلبهم على أعدائهم.

[١٩] ثم هدد الله سبحانه الذين يشطون غيرهم عن الجهاد بقوله قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ و قد، إما للتحقيق، قالوا فإنها تدخل - أحياناً - على المضارع، بمعنى التحقيق، لا التقليل الذى هو الأصل فيه، و إما للتقليل للإشارة إلى أن احتمال علم الله بتعويقهم كاف، فى أن ينتهوا، كما تقول لمن تريد تهديده: يمكن أن أعلم عملك، تريد أن الإمكان كاف فى انقلاعه عن عمله السيئ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ و المعوق هو المشط غيره عن الجهاد بتخويفه من الأعداء و القائلين لِإِخْوَانِهِمْ أَحْزَابِهِمْ من المنافقين هَلُمَّ إِلَيْنَا أى أقبلوا إلينا نتحنى عن القتال ناحية، و لا نوقع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٨

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ١٩]

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّبَنِةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)

أنفسنا فى النهلكة و لا- يَأْتُونَ الْبَأْسَ أى يحضرون القتال إلا قليلاً فيما إذا أجبروا و خافوا على سمعتهم، أو حضروه، رياء، بخلاف المؤمنين، فإنهم أسرع شيء إلى القتال، و كيف لا يحضرون، و هم يعلمون إن قتلوا أو قتلوا كان جزاءهم الجنة؟

[٢٠] و إن هؤلاء المنافقين الذين يعوقون الناس، و لا يحضرون الحرب، يكونون أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ أيها المؤمنون الصادقون، و أشحه جمع شحيح، بمعنى البخيل، أى أنهم بالنسبة إليكم بخلاء، لا يبذلون مالا و لا نفساً فإذا جاء الخوف بأن تجمعت الأعداء، و وجب الجهاد رَأَيْتَهُمْ أيها الرسول، أو أيها الرائي يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ أى تتقلب من هنا و هناك كما هى عادة الخائف، يدور بعينه ليجد ملجأ و ملاذاً، و إنما يكفى النظر إلى الرسول، أو إلى المؤمنين، ليرى ماذا يأمر، و يقولون: هل ما ينفعهم حتى يستريحوا؟ أم ما يزيد خوفهم؟

حتى يفكروا فى النجاة و الخلاص، فيكثرون النظر، لئلا يفوتهم شيء كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ و هو الذى قرب موته و غشيته أسبابه، فإنه يكثر النظر هنا و هناك يتطلب علاجاً و مناصاً فإذا ذَهَبَ الْخَوْفُ و جاء الأمن و الغنيمه سَلَقُوكُمْ أيها المؤمنون، و سلق، بمعنى صاح و رفع صوته بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أى أنهم تكلموا معكم حول جهادهم المزعوم، و حول حصتهم من الغنائم، و حديد ضد الكليل أى السنة ذرية بليغه، فى جهر و صياح و جراه، كأنهم كانوا كل شيء، و هكذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣١٩

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٢٠]

يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)

دائما الجبناء يعملون قليلا و يقولون كثيرا أَشَّحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أَى الْغَنِيمَةِ، فهم بخلاء غايه البخل، أن يذهب و يفوتهم شىء من الغنيمه، التى ما اشتركوا فيها أولئك الذين تلك صفاتهم، و هم المنافقون فى كل زمان لم يُؤْمِنُوا إيماناً من الأعماق، و إنما تظاهروا بالإيمان نفاقاً فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ أَى أَبطل ما عملوا من الأعمال الظاهرية، لأنها لم تصدر من الإيمان و كَانَ ذَلِكَ الْإِحْبَاطَ لأعمالهم عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا فإنه لا يجازيهم، لا يتمكن أحد منهم من معارضته، كما كانوا يتمكنون من معارضة المؤمنين فى الدنيا.

[٢١] إن هؤلاء المنافقين يَحْسِبُونَ أَى يظنون الْأَحْزَابَ التى جاءت لقتال المسلمين لم يَذْهَبُوا و لم يرجعوا، و قد ظنوا ذلك لجنهم، فإن الإنسان الجبان يخيل إليه أن الخوف بعد باق لم ينكشف و إن يَأْتِ الْأَحْزَابُ مرة ثانية، بأن يرجعوا إلى القتال يَوَدُّوا أَى هؤلاء المنافقون لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ أَى يكونون فى البادية مع الأعراب، و معنى «بادون» ظاهرون، فكأن الإنسان الذى فى المدينة مستور أما فى الصحراء، فهو ظاهر باد يَسْتُلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ أَى أخباركم هل غلب المؤمنون أم الكفار؟ و هكذا يكون الأناص الجبناء يحبون أن يكونوا بمعزل عن الحوادث، و إنما يجتروا بالأخبار، لقتل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢٠

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢١ الى ٢٢]

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)

الوقت، و إملاء فراغ حياتهم، بعكس الشجعان و العاملين الذين لا يحبون إلا المعارك و المقام و لو كانوا فيكم حين رجوع الأحزاب، و يكونون هم- حسب رغبتهم- فى البادية ما قاتلوا إِلَّا قَلِيلًا أَى قتالا قليلا لمجرد الرياء و السمعة، لا عن إيمان و عقيدة.

[٢٢] و اللازم على المؤمن أن يقتدى بالرسول، كيف يجاهد و يصبر فى المعارك لَقَدْ كَانَ لَكُمْ أَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَى فى سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ صَبْرِهِ وَ عُنَائِهِ فى اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ مقتدى صالحا، بحيث يراه الناس فيعملون كما يعمل، و الأسوة من الاتساء «كما أن القدوة من الاقتداء» بمعنى الاقتداء، و المتابعة لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ أَى يرجو ثواب الله و نعيمه، و يرجو أن يكون فى اليوم الآخر من الفائزين، و «لمن» بدل من «لكم» و الرسول أسوة حسنة لمطلق الناس، و إنما من كان يرجو الله يتأسى، فكان أسوة له، إذ الانتفاع بهذا المقتدى عائدا إليه وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا فَإِنْ مِنْ ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ تَرْسُخَ فى كيانه، الخوف من الله سبحانه، فيطبع أوامره، و يقتدى برسوله، فيما عمل و سار.

[٢٣] وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ الَّذِينَ تَحْزَبُوا لِقِتَالِ الرَّسُولِ، وَ إِبَادَةَ الْإِسْلَامِ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

فقد روى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢١

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٢٣]

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)

قال سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، و العاقبة لكم عليهم

«١»، و

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إنما سائرون إليكم بعد تسع أو عشر

، و لذا لما رأهم المؤمنون، قالوا: هذا ما وعدنا الله و رسوله وَ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فيما أخبرنا من المبدأ و العاقبة، و الإتيان باسم الله،

حرب الرسول، حتى نقضوا العهد، وجاءوا مع الأحزاب للقتال، مما أوسع المجال للرسول، أن يعاقبهم بعد الفراغ من غزوة الأحزاب، حيث ابتدءوا بالاعتداء على المؤمنين، في أخرج الساعات، وقصبتهم، كما في «قادة الإسلام» (١) إن هؤلاء اليهود غدروا بالمسلمين في أشد أحوالهم، في حال حرب الأحزاب، ولو فرض أن غدرهم كان ينجح، لكان معناه إبادة المسلمين جميعاً، ولذا نزل جبرائيل عليه السّلام على الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم قائلاً: وضعت السلاح، ولم يضعه أهل السماء؟ انهض إلى إخوانهم من أهل الكتاب، فوالله لأدقهم دق البيضة على الصخرة، فأمر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم أن لا يصلى الناس العصر، إلا عند بنى قريظة، وأعطى اللواء الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، ومعه المهاجرون، وانهالت قطعات الجيش الإسلامى صوب قريظة، حتى اكتملت ثلاثة آلاف، ولم يظلم ليل ذلك اليوم، إلا والمسلمون قد طوقوا الحصون، وانهارت أعصاب اليهود رعباً وخوفاً، فها هم المسلمون الذين انتصروا يوم أمس على الأحزاب بكثرة عددها و عددها، ولذا استشاروا فيما

(١) للمؤلف. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢٤

بينهم حول الأمر؟ قال قائل منهم: أسلموا، لكنهم أبوا، ولم يرضخوا للإسلام، فقالوا انزلوا للحرب، لكنهم خافوا بأس المسلمين مع توفر السلاح والعتاد والمال والطعام والماء لديهم، وأخيراً أرسلوا إلى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم يستأذنونهم الخروج، إلى «أذرع» الشام؟ لكن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم أبى، وبعد فكر واستشارة، وتداول رأى، أرسلوا إلى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم يطلبون منه أن يفوض أمرهم إلى «سعد» فما شاء فعل فيهم، وقبل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم، وقام «سعد» بالتحكيم، بعد ما أخذ اليهود على الجانبين، ثم أمر أن ينزل قريظة عن حصونهم، وأن يضعوا السلاح «١»...، ولما نزلوا، حكم بقتل رجالهم الذين تآمروا على سلافة الإسلام والمسلمين، جزاء وفاقا، وقسمت الغنائم بين المسلمين وأنزل الله الذين ظاهروهم أي اليهود الذين صاروا عوناً وظهراً للأحزاب من أهل الكتاب بيان الذين - وهم اليهود قبيلة بنى قريظة - من صياصة بهم أي من حصونهم، فقد أمر سعد أن ينزلوا من الحصون، والصياصى جمع «صيصية» وهو الحصن الممتنع وقذف أي ألقى في قلوبهم الرعب أي الخوف من الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم حتى لم يتمكنوا من المحاربة فريقتاً منهم تقتلون أنتم أيها المسلمون، وهم الرجال وتأسرون فريقتاً وهم الأطفال والنساء.

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١٥٩ - ١٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢٥

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٧ إلى ٢٨]

وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعُكُنَّ وَأَسْرَحُكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)

[٢٨] وَأُورِثَكُمْ أَي أعطاكم الله إرثاً أرضهم وديارهم أي حصونهم وأموالهم وأورثكم أرضاً لم تطؤها أي لم تأخذونها بالقتال، فإن الوطاء هو الذهب في الأرض، ولعلها كانت أرضاً لبنى قريظة خارج حصونهم، أو المراد أرض خيبر، أو مكة، أو غيرها، مما صارت بعد ذلك للمسلمين ولم يطأها بعد في هذا الحادث وكان الله على كل شيء قديراً وبقدرته أظفركم على هؤلاء اليهود بهذه السهولة واليسر.

[٢٩] وبمناسبة قصة الفتح والغنيمه يأتي السياق ليشير إلى قصة وقعت بعد فتح خيبر،

قالوا لما رجع رسول الله من غزوة خيبر، أصاب كثر آل أبي الحقيق، فقلن أزواجه: أعطينا ما أصبت، فقال لهن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: قسمه بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل، فغضبن من ذلك، وقالت بعضهن: لعلك ترى، إنك إن طلقتنا، أن لا نجد

الأكفاء من قومنا يتزوجونا؟ فلم يقع هذا الكلام من الرسول موقعا حسنا، فاعتزلهن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي مَشْرَبَةٍ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ تِسْعَةَ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ آيَةَ- وَهِيَ آيَةُ التَّخْيِيرِ
«١»-.

فقامت أم سلمة أول من قامت، فقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمين كلهن، وقلن كما قالت أم سلمة يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ١٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢٦

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

أى نساء ك إن كنتن تردن الله ورسوله ودار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً (٢٩) يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً (٣٠)

أى نساء ك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها أى سعة العيش، و كثر المال، و سائر زينة الدنيا فتعالين أى هلمن إلى، ل أمتعن و هى ما يعطى للمرأة عند طلاقها جبراً لكسر خاطرها بالطلاق و أسرحكن أى أطلقكن، فإن الطلاق تسريح للمرأة عن قيد الزواج سراحاً جميلاً و السراح الجميل، هو الطلاق من غير خصومة، و لا أكل حق لها.

[٣٠] وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ ثَوَابَ اللَّهِ وَتَرِدْنَ عَشْرَةَ رَسُولِهِ بَدُونَ إِرَادَتِكُنَّ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، زَائِدَةٌ عَلَى الْقَدْرِ اللَّائِقِ بِالرَّسُولِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ وَ إِرَادَتُهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ لِأَجْلِهَا فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ وَ إِنَّمَا جَاءَ بِهَذَا، لِأَنَّ مَجْرَدَ الْإِرَادَةِ، لَا تَكْفِي لِلثَّوَابِ، وَ إِنَّمَا تَحْتَاجُ إِلَى الْعَمَلِ أَجْرًا عَظِيمًا يَعْتَبَرُ لَكِنَّ فِي الْآخِرَةِ.

[٣١] يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ أَى مَعْصِيَةٍ ظَاهِرَةٍ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ ضِعْفَيْنِ ضَعْفٌ لِلْعَصِيانِ، وَ ضَعْفٌ لِأَنَّهَا أَسْوَأُ لِلنِّسَاءِ، وَ لِمَكَانِهَا مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَ الْمُرَادُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢٧

بِالضَّعْفِ الْمِثْلُ وَ كَانَ ذَلِكَ التَّعْذِيبُ ضَعْفَيْنِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا فَإِنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ، وَ يَفْعَلُ كَيْفَمَا يَشَاءُ مِمَّا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَ الصَّلَاحُ، وَ تَقْدِيمُ «الْفَاحِشَةُ» عَلَى «الْقَنُوتِ» لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ حَوْلَ مَعْصِيَتِهِنَّ، بِمَخَاشَنَةِ الْكَلَامِ مَعَ الرَّسُولِ، كَمَا أَنَّ الْإِتْيَانَ بِلَفْظِ «الْفَاحِشَةُ» الَّتِي هِيَ الْمَعْصِيَةُ الْمَجَاوِزَةُ لِلْحُدُودِ، وَ تَأْكِيدُهَا بِ«الْمُبَيَّنَةِ» بِمُنَاسَبَةِ الْمَوْضُوعِ، فَإِنَّ عَصِيَانَ النِّسَاءِ لِلرَّسُولِ، كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعَاصِي، وَ الْإِفْكَالُ مَعْصِيَةً، أَتَيْنَ بِهَا ظَاهِرَةً تَكُونُ كَذَلِكَ، أَمَا الْمَعْصِيَةُ الْخَفِيَّةُ، فَهَلْ عَذَابُهَا مُضَاعَفٌ أَمْ لَا، اِحْتِمَالَانِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٢٩

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثانى والعشرون من آية (٣٢) سورة الأحزاب إلى آية (٢٨) سورة يس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عَتَرَتِهِ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣١

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٣١ إلى ٣٢]

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢)

[٣٢] وَ مَنْ يَقْنُتْ وَ الْقَنُوتُ هُوَ الطَّاعَةُ وَ الْخُضُوعُ مِنْكُنَّ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ بِأَنْ تَطْعَ أَوْامِرَهُمَا وَ تَعْمَلَ صَالِحًا أَى تَأْتِي بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْعَمَلِ، وَ هُوَ الصَّالِحُ دُونَ الطَّالِحِ، وَ كَانَ الْقَنُوتُ مَقْدَمَةً عَلَى الْعَمَلِ، إِذْ هُوَ الْخُضُوعُ نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ مَرَّةً فِي الدُّنْيَا بِالْأَعْظَامِ وَ

الإكرام، و مرة بالآخرة بجنات النعيم، أو المراد نعطيتها أجرين و ثوابين في الآخرة بمقابلته «يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» وَ أَعْتَدْنَا أَى هَيْئًا فِي الْآخِرَةِ لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا نرزقها بإكرام و إعظام، و قيل الكريم ما سلم من كل آفة و نقص.

[٣٣] يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ أَى كسائر النساء، فإنكن أعظم شأنًا، و أعلى منزلة لمكانكن من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إِنْ كُنْتِن مَتَقِيَاتٍ خَائِفَاتٍ مِّنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا- تَخْضَعْنَ بِالنُّقُولِ أَى إِذَا أَرَدْتِنَ الْكَلَامَ فِي مُحَضَّرِ حَضْرِهِ الْأَجْنِبِي، فَلَا تَرْقُقْنَ الْكَلَامَ وَ لَا تَلْن فِي الْحَدِيثِ، وَ الْخُضُوعُ عِبَارَةٌ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ، وَ إِنْ كَانَ مَفْهُومَ الْآيَةِ شَامِلًا لِمَادَةِ الْكَلَامِ أَيْضًا، بَأَنَّ لَا يَكُونُ مِثْرًا مَهِيجًا فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ هُوَ مِّنَ انْحَرَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْجَادَةِ، حَتَّى إِذَا سَمِعَ الْكَلَامَ الرَّقِيقَ، هَاجَتْ نَفْسُهُ طَمَعًا، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ شَيْئًا وَ قَلْبًا قَوْلًا مَعْرُوفًا جَمِيلًا حَسَنًا، لَا غَزْلًا وَ تَشْيِيبًا، بَرِيئًا مِّنْ كُلِّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٢

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٣]

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لَا- تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتِينَ الزَّكَاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمُ تَطْهِيرًا (٣٣)

التواء و انحراف.

وَ لَا يَخْفَى أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ، حَيْثُ أَنَّهُنَّ كُنَّ أَسْوَأَ لِلنِّسَاءِ- أَسْوَأَ طَبِيعِيَّةً- كَانَتْ الْآيَاتُ مُوجِهَةً إِلَيْهِنَّ، وَ إِلَّا فَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ، عَامَةً لِكُلِّ النِّسَاءِ، وَ إِنْ كَانَ فِي حَقِّهِنَّ أَكْثَرُ إِلَّا مَا خَرَجَ بِالِدَلِيلِ كَكُونِ نِسَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أَمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَا قَوْلُهُ «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ» فَإِنَّمَا هُوَ لِلتَّرْغِيبِ وَ التَّحْرِيزِ، وَ بَيَانُ أَنَّ مَنَزَلَتَهُنَّ تَقْتَضِي التَّحْفِظَ بِهَذِهِ الْوَصَايَا أَكْثَرَ، كَمَا يَقُولُ الْعَالَمُ لَوْلَدِهِ: إِنَّكَ لَسْتَ كَسَائِرِ النَّاسِ، فَلَا تَقَامِرْ، وَ لَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ، وَ هَكَذَا.

[٣٤] وَ قَرْنَ أَى أَقْرَنِ وَ اسْتَقْرَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ أَى مَنَازِلِكُنَّ، فَلَا- تَخْرُجْنَ لِلْحَرْبِ وَ مَا أَشْبَهَهُ وَ لَا- تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى أَى لَا تَخْرُجْنَ مِنَ الْبُيُوتِ بِأَدْيَاتِ الزَّيْنَةِ، كَمَا كَانَتْ نِسَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ تَفْعَلُ، فَإِنَّ بَرَجَ، بِمَعْنَى ظَهْرٍ، وَ مِنْهُ تَسْمَى الْبَارِجَةُ، وَ بَرَجَ السُّورُ، وَ بَرُوجُ الْكَوَاكِبِ، لِبُرُوجِهَا أَى ظُهُورِهَا، وَ مِنْ مَصَادِيقِ التَّبَرُّجِ، إِلقاءُ الْمَرْأَةِ عِبَاءِهَا بَيْنَ الرِّجَالِ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ نِسَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ بِالْمُدَاوِمَةِ عَلَيْهَا بِأَدْبَابِهَا وَ شَرَائِظِهَا وَ آتِينَ الزَّكَاةَ أَى أَعْطَيْنَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، أَوْ مَطْلَقَ الصَّلَاةِ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ هَذَا مِنْ قَبِيلِ الْإِتِّفَاتِ الْمَذْكُورِ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، الَّذِي هُوَ مِنْ مُحَاسِنِ الْكَلَامِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِأَهْلِ الْبَيْتِ «الرَّسُولَ وَ عَلِيَّ وَ فَاطِمَةَ وَ الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ» عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٣

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٤]

وَ اذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

المنصفين من العامة و الخاصة، كما وردت بذلك روايات متواترة (١)، و قد مر بنا غير مرة، إن من فنون البلاغة في القرآن الكريم، أن يوسط كلاما جديدا، بين الجمل المتناسقة، اتقاء عن ملالة السامع من كلام رتيب، و المراد بأهل البيت عليهم السلام، بيت الرسول، و الذي يشهد أن المراد بالآية، ليست النساء، تغيير الأسلوب، فإن الخطاب كان بلفظ الجمع المؤنث «لستن» «اتقین» «لا تبرجن» و هكذا، و كذلك ما بعد الآية «و اذكرن» «في بيوتكن» حتى إذا وصل إلى هذا قال «عنكم» «يطهركم» و لا يخفى أن الأئمة عليهم السلام داخلون في أهل البيت بالنصوص المتواترة و يطهركم تطهيرا و معنى الإرادة، الإرادة التكوينية، و هي الموجبة للعصمة، و هي المراد بالطهارة، و إلا فالإرادة التشريعية عامة للجميع، كما أن الطهارة عن القذارة الظاهرية عامة لا تختص حتى المسلمين، و لذا استدل علماءنا بهذه الآية على عصمة الرسول و الصديقة و الأئمة الاثني عشر (صلوات الله عليهم أجمعين)، و معنى العصمة أن يكون في الإنسان- بلطف الله سبحانه- وازع يمنعه عن العصيان مطلقا بدون أن ينافي ذلك اختياره، كالأم الحنون التي فيها وازع يمنعه عن قتل

ولدها، وهذا الوازع من قبله سبحانه، ولا ينافي اختيارها و محل تفصيل الكلام في علم الكلام.

[٣٥] وَأَذْكُرَنَّ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ أَيُّ مَا يَقْرَأُ، وَالْقَارِئُ هُوَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْإِتْيَانُ بِلَفْظٍ فِي «بُيُوتِكُنَّ» لَعَلَّهُ لِلْحَثِّ وَالتَّحْرِيزِ، فَإِنَّ مَا يُتْلَى فِي بَيْتِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْقُرْآنِ يَزِيدُهُ شَرَفًا وَعِزًّا،

(١) بحار الأنوار: ج ١ ص ٤٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٤

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٥]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

فمن الجدير أن يستمسك بعزه وفخره من آيات الله أي القرآن وَالْحِكْمَةَ لعل المراد بها كلمات الرسول وحكمه، والمراد بالذكر، إما التحفظ والقراءة، وإما التذكر إن الله كَانَ لَطِيفًا ذَا فَضْلٍ وَمِنْ لَطْفِهِ وَفَضْلِهِ، خصكن بهذه الكرامة خبيراً يعلم ما تصنعن من الأمور، فيجازيكن على أعمالكن.

[٣٦] ثم ذكر الله سبحانه استواء الرجال والنساء في أحكام الإيمان - إلا ما خرج بالدليل.

روى في المجمع عن مقاتل بن حيان، أنه قال: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ومم ذلك؟ فقالت: لأنهن لا يذكرن بخير، كما يذكر الرجال، فانزل الله هذه الآية

«١» إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٥٨.

(٢) الحجرات: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٥

والقنوت، هو الخضوع لله سبحانه، فإن الخضوع رتبة فوق الإيمان أو المراد بالقنوت المداوم على الطاعة، أو الداعي وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصِدِّقِينَ وَالْمُتَصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

غفرانا لذنوبهم وَأَجْرًا عَظِيمًا وَ ثَوَابًا جَزِيلًا فِي الْآخِرَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٦

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٦]

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)

[٣٧] و إذ تقدمت قصة زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين أردن منه أموال خبير، و امتنع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن إعطائهن، جاء السياق ليذكر الناس عامه، بأنه ليس لأحد أن يحكم بخلاف حكم الرسول و ما كان للمؤمنين و لا للمؤمنات إذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا بِأَنْ أَمْرًا بِشَيْءٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أَى الاختيار مِنْ أَمْرِهِمْ أَى من جهة أمر أنفسهم، بعد أوامر الله و الرسول و مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِمُخَالَفَتِهِ أَوْ أَمْرِهِمَا، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا أَى انحرف عن طريق الهدى انحرافا واضحا، قال فى المجمع «نزلت فى زينب بنت جحش الأسيديه، و كانت أمها أيمه بنت عبد المطلب، عمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخطبها رسول الله على مولاه، زيد بن حارثه، و رأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد، أبت و أنكرت، و قالت: أنا ابنه عمته، فلم أكن لأفعل، و كذلك قال أخوها، عبد الله بن جحش، فنزل، و ما كان لمؤمن و لا مؤمنه ..

الآية، يعنى عبد الله بن جحش و أخته زينب، فلما نزلت الآية، قالت:

رضيت يا رسول الله، و جعلت أمرها بيد رسول الله، و كذلك أخوها، فأنكحها رسول الله زيدا، فدخل بها، و ساق إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرة دنانير و ستين درهما مهرا، و خمرا ملحفة، و درعا، و إزارا، و خمسين مدًا من الطعام، و ثلاثين صاعا من تمر»

«١»، أقول و قد هدم النبى صلى الله عليه وآله وسلم

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٧

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٧]

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)

بذلك، ما كان مرسوما فى الجاهلية من تكافؤ الدماء القبلى.

[٣٨] لقد تزوج زيد زينب، ثم أراد الله سبحانه، أن يزيل العقبة التى كانت بعد أمام المسلمين فى أمر التزوج بنساء أديعتهم، فقد كانوا يرون أن ذلك من قبيل نكاح الأب زوجة ابنه، و لذا لما طلق زيد زينبا- و لعله كان لما نقل أنها كانت حادة المزاج، فلم يتلاءم الزوجان- نكحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و سلم تتميما للتشريع الذى سبق فى أول السورة «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» و من غريب الأمر، أن جماعة من الناس اختلقوا حول هذه القصة روايات تنافى أصول الإسلام و العقيدة، حتى أن على بن إبراهيم القمى، على جلالته لم يسلم من الوقوع ضحية ذلك الاختلاف، كما لم يسلم من الوقوع ضحية قول المعاندين فى أن آية (إِنَّكَ لَا تَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ) «١» نزلت فى أبى طالب عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فسبحان من لم يخلق الإنسان معصوما إلا الأنبياء و الأئمة، و من إليهم و اذكر يا رسول الله إِذْ تَقُولُ لزيد بن حارثه الذى دعوته ابنا لك قبل نزول آية «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ وَ الْإِيمَانِ، وَ مُصَاحِبَةِ الرَّسُولِ وَ أَنْعَمْتَ أَنْتَ عَلَيْهِ بِالْكَفَايَةِ وَ التَّرْبِيَةِ وَ التَّحْرِيرِ وَ التَّعْلِيمِ، وَ تَرْوِجُهُ بِزَيْنَبِ الشَّرِيفَةِ

الهاشمية أُمِّكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ و لا تطلقها، فقد وقعت بينهما المشاجرة، فأراد زيد طلاقها- و قد تقدم أنها كانت ذات حدة في أخلاقها، كما ذكروا- و الإتيان بلفظ عليك، لما في الإمساك من الثقل، حتى كأنه

(١) القصص: ٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٨

حمل على الإنسان و اتق الله يا زيد في مفارقتها و مضارتها، و معاشرتها، فلا تعاشرها إلا حسنا جميلا و قد كان الله سبحانه أخبر الرسول أنه سيطلق زينا، و أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يتزوجها لرفع قاعدة «البنوة» الجاهلية، و لما كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يعلم ما يحدثه هذا العمل من الضجة، في ذلك المجتمع الجديد العهد بالإسلام، خشي إظهاره، و لذا قال سبحانه له صلى الله عليه و آله و سلم و تخفي في نفسك يا رسول الله، إرادتك زواجها بأمر الله بعد طلاقها ما الله مُبْدِيهِ أَى الشىء الذى يظهره الله بعد ذلك و تخشى الناس و قد قال بعض: كيف يخشى النبى الناس؟ فلنقل:

هل كان النبى يخشى من العقرب أن تلدغه، أو السبع أن يفترسه؟ فإن قالوا نعم، قلنا: ما الفرق حتى أجزتم تلك الخشية، و لم تجوزوا هذه الخشية، من كلام الناس و طعنهم؟ و إن قالوا: لا، قلنا: فأى دليل على أن الخشية من المضر أو المؤذى ينافى مقام العصمة، فإن ما ثبت، أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم معصوم، لا إنه مسلوب عنه صفات البشرية من خشية و اضطراب، و جوع و عطش، كما فى قصة موسى عليه السلام (إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا) «١» (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا) «٢»، و فى قصة يعقوب (وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ) «٣»، و أما قوله و الله أحمق أن تخشاه فهو من باب الجناس المليح، نحو قوله (وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) «٤» و قول الرضا عليه السلام «إن كنت باكيا لشيء، فابك للحسين عليه

(١) طه: ٤٦.

(٢) القصص: ٢٢.

(٣) يوسف: ١٤.

(٤) الروم ٥٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٣٩

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٨]

ما كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨)
السلام»

«١» فإن الإنسان إذا هاج به وصف نفسى، قيل له، وجه هذا الوصف إلى جهة أصلح، فمن هاجت به العاطفة نحو جاره، قلنا له: اعطف على ولدك، أو نقول: إن ولدك أحمق بالعطف، و لا نريد بذلك، أن العاطفة نحو الجار غير حسنة، و إنما نريد توجيهه نحو ما هو الأصلح بحاله فلما قضى زيد منها أى من زوجته زينب وطراً أى حاجة، بأن تم حاجته فيها، و طلقها، حيث لم يتلاءم زواجها أى أمرنا بتزويج زينب لكى لا- يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أَدْعِيائِهِمْ أى لتكون أنت أول من ينقض هذه العادة الجاهلية عملاً حتى لا يتحرج المؤمنون بعدك من الزواج بزوجة المتبنى لهم إذا قَضَوْا أولئك الأَدْعِيَاءَ مِنْهُنَّ أى من زوجاتهم وطراً أى حاجة، بأن طلقوهن، فإن الطلاق لا يكون إلا بعد عدم الرغبة، و الحاجة فى الزوجة و كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا أى أن الشىء الذى يريده الله، لا بد و أن يفعل و يؤتى فى الخارج، فتزوجها رسول الله و ضمها إلى نسائه.

[٣٩] و إذ أثار هذا الأمر ضجة كبرى بين الناس، جاء السياق ليردها، فقال سبحانه ما كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ أى عسر و ضيق و غضاضة فيما فرض الله له أى فى الحكم الذى أثبتته الله للنبى صلى الله عليه و آله و سلم،

(١) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٥٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٠

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٣٩]

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)

و الإتيان بلفظ «له» لأنه كان لنفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا مثل سائر الواجبات، التي هي «عليه» فيها مشقة و كلفه سنَّه الله منصوب على المصدر، أى سنَّ الله ذلك سنَّه، أى إن هذا التحليل، كان كسائر سنن الله فى الأنبياء عليهم السلام، و الأمم الماضين فى الَّذِينَ خَلَوْا أى مضوا من قَبْلُ قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان سبحانه، يرفع الحرج عنهم، و يحل لهم ما فيه الصلاح وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا أى بقدر و قضاء مَقْدُورًا قد قَدَّر و حكم به ان ينفذ، فليس اعتباطا و ارتجالا،

روى عن الإمام الباقر عليه السلام أن زينب مكثت عند زيد ما شاء الله، ثم أنهما تشاجرا فى شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستأذن زيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى طلاقها، و قال أن فيها كبرا، و أنها لتؤذيني بلسانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتق الله، و أمسك عليك زوجك، و أحسن إليها، ثم أن زيدا طلقها، و انقضت عدتها، فأنزل الله سبحانه نكاحها على رسوله»

«١».

[٤٠] و من هم الذين خلوا من قبل؟ هم الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ أى يؤدونها إلى الناس كاملة، و باعتبار أن كل حكم رساله، سميت الشريعة رسالات و يَخْشَوْنَهُ سبحانه، فيما أمر و نهى و لا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ أى لا يتركون حكما من أحكام الله خشية أحد، فإنهم لا يخشون إلا الله وحده، نعم من الممكن، أن يخشون الناس فى أمر

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٢١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤١

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٠ الى ٤١]

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١)

آخر، كما قال (وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً) «١» وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا أى حافظا لأعمال خلقه، و محاسبا و مجازيا عليها.

[٤١] و لما تزوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم زينب، جعلت الألسنة المنافقة تلوك، بأن الرسول تزوج زوجة ابنه، فقال سبحانه ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ فهو ليس أباً لزيد حتى يكون التزويج بزوجه تزويجا بزوجة الابن، و فى الآية أنه صلى الله عليه وآله وسلم، ليس أباً لرجالهم- و زيد من رجالهم- و ليس فيها أنه صلى الله عليه وآله وسلم ليس أباً لأحد، فإن القاسم و الطيب و الطاهر، و إبراهيم، كانوا أبناءه الصليبين، و الإمامين الحسن و الحسين عليهما السلام، كانوا أبناءه بواسطة سيده نساء العالمين و لكن كان صلى الله عليه وآله وسلم رَسُولَ اللَّهِ فَيَنْفَذُ ما أمره الله سبحانه وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ أى آخرهم، قد ختمت به النبوة، و لذا يلزم عليه أن يبطل كل ما يخالف الصلاح العام، و ليس كالأنبياء الذين تقدموا، إن لم يمكن لهم إبطال أمر، جاء بعدهم نبى آخر لبيطله، و لذا كانت شرائعهم تتناسخ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا لا- يخفى عليه المصالح و المفاسد، فلذا يأمر بالصالح، و لا يخفى عليه قول المنافقين فى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

[٤٢] و يأتى السياق بعد ذلك يربط القلوب بالله سبحانه، حتى لا يتخرجوا من حكم يفرضه مهما كان خلاف المؤلف لديهم يا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ

(١) الأنفال: ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٢

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٢ إلى ٤٤]

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

هو تذكرة عند الأعمال، حتى لا يزيغ الإنسان في قول، أو عمل، أو نيته، ذكراً كثيراً في مختلف أحوالكم و شؤونكم.

[٤٣] وَسَبِّحُوهُ وَالتَّسْبِيحُ هو التنزيه له سبحانه لفظاً أو قلباً أو عملاً بُكْرَةً صباحاً وَأَصِيلًا عصرًا، ولعل ذلك كناية عن دوام التسبيح و استمراره.

[٤٤] إن الله سبحانه يلفظ بكم و يهديكم السبيل، فمن اللازم أن تقابلوه بالمثل، تذكروه و تسبحوه هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ الصلاة في اللغة العطف و الميل، كما قال الشاعر «صلى على جسم الحسين سيوفهم» و من المعلوم، أن صلاته سبحانه، الرحمة بالناس، و المغفرة لهم وَ مَلَائِكَتُهُ أى تصلى ملائكته عليكم- و لا يكون ذلك إلا بإذنه- فالفضل يعود إليه تعالى أيضا، و صلاة الملائكة عطفهم نحو البشر بطلب المغفرة و الرحمة لهم و حفظهم عن الأخطار، بقدر ما يأذن الله لهم لِيُخْرِجَكُم اللهُ، أيها المؤمنون مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فإن دروب الحياة مظلمة لا يراها الإنسان حتى يسير فيها بسلام، و إنما يقع في المشاكل و الاضطرابات كالإنسان الذى يسير فى الظلمة يقع فى الحفيرة، و يصطدم بالجدران، و صلاته سبحانه، و صلاة ملائكته، توجب إنارة الطريق، لأنه يرحم و برحمته يحفظ الإنسان من الزلّة وَ كَانَ اللهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا يرحمهم و يلفظ بهم.

[٤٥] هذا للمؤمنين فى الدنيا أما تَحِيَّتُهُمْ إذ يحييهم الله سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٣

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٥ إلى ٤٧]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧)

يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ أى يلقون جزاءه و ثوابه، فهو سلامٌ لفظى إذ يسلم الملائكة عليهم، و يبعث الله من يقول للمؤمن، إن ربك يقرؤك السلام، و معنى فإن لهم السلامة من جميع الآفات و الأخطاء، إلى الأبد و أعدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا أى ثواباً جزيلاً يكرمهم.

[٤٦] ثم يخاطب القرآن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليُلفظ به فى مقابل ذلك العمل الشاق الذى قام به من زواج زينب يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ عَلَى النَّاسِ شَاهِدًا تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ، ماذا صنعوا، و ماذا يصنعون؟ فإن الإنسان المعتدل يمكن أن يكون شاهداً، لا الإنسان المنحرف و مُبَشِّرًا بالجنة و الثواب، لمن آمن و أطاع وَ نَذِيرًا بالنار و العقاب لمن كفر أو عصى.

[٤٧] وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فَأَنْتَ تَدْعُو إِلَى الإِذْعَانِ بِاللَّهِ، و إطاعته بِإِذْنِهِ فإن كل عمل يرتبط به سبحانه يحتاج إلى إذنه، حتى الدعوة إليه وَ سِرَاجًا أى مصباحاً مُنِيرًا يهتدى بك فى الحياة، كما يهتدى بالمصباح فى ظلمة الليل.

[٤٨] وَ بَشِّرِ يَا رَسُولَ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَطَاعُوا بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا فإنه يتفضل عليهم بفضل عظيم، هو إعطائهم خير الدنيا و سعادة الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٤

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٨ إلى ٤٩]

وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا- (٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

[٤٩] وَلَا تُطِيعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بَأَن تَسْمَعُ بَعْضَ كَلَامِهِمْ- الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ فِي صَالِحِكَ، أَوْ صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ- وَدَعِ أَذَاهُمْ أَى اتْرَكَ أَن تُوذِيَهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ ضَدَّكَ، فَإِن كِيدَهُمْ ضَعِيفٌ يَضْمَحِلُّ، أَوْ الْمَرَادُ لَا تَعْتَنِ بِأَذِيَّتِهِمْ لَكَ، فَإِن أَذَاهُمْ لَا يَضْرُكَ، فَلَا يَنْبَغِي أَن تَعِيرَ لَهُ أَهْمِيَّةً، وَ لَا يَخْفَى أَن هَذَا غَيْرُ الْقِتَالِ، فَإِن ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ، كَالْبَدْيِ مِنَ الْقَوْلِ، لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَنَاهِجِ وَالْخَطُوطِ وَالْأَنْظُمَةِ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ اجْعَلْهُ وَكِيلَكَ فِي الْأُمُورِ يَجْلِبُ إِلَيْكَ الْخَيْرُ، وَ يَدْفَعُ عَنْكَ الضَّرَّ وَالشَّرَّ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا أَى كَافِيًا وَتَكْفِلًا وَحَافِظًا، وَحَيْثُ أَنَّ الْأَصْلَ «اِكْتَفَى» جَاءَ الْبَاءُ فِي فَاعِلٍ «كَفَى».

[٥٠] وَبِمُنَاسَبَةِ قِصَّةِ نِكَاحِ زَيْنَبَ وَ طَلَاقِ زَيْدٍ لَهَا، يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ بَعْضَ أَحْكَامِ الطَّلَاقِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ أَى زَوْجَتُمُوهُنَّ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ أَى مِنْ قَبْلِ الدُّخُولِ بَهِنَّ، فَإِن الْمَسَّ كِنَايَةٌ عَنْ ذَلِكَ، لَا إِنَّهُ بِمَعْنَى الْإِحْسَاسِ فَمَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِنَّ أَى عَلَى تِلْكَ الْمَطْلُوقَاتِ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا أَى تَسْتَوْفُونَهَا بِالْعَدَدِ، فَإِذَا طَلَقْتَ الْمَرْأَةَ قَبْلَ الدُّخُولِ جَازَ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ سَاعَتِهَا، لِعَدَمِ وَجُودِ حِكْمَةِ الْعِدَّةِ فِيهَا، فَإِن الْحِكْمَةَ- كَمَا ذَكَرُوا-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٥

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٠]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِيَّاتِ آتَيْتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِيَّاتِ هَاجِرُونَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَنْسِفَ مِنْهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يُكَوَّنَ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

استبراء رحمها- وَ إِن كَانَ هَذَا حِكْمَةً، لَا عِلَّةَ تَامَةً- فَمَتَّعُوهُنَّ بِمَا لِهِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ، وَ مِنْهَا إِعْطَائُهَا الْمَتْعَةَ، فِيمَا إِذَا لَمْ يَفْرَضْ لَهَا فَرِيضَةٌ، وَ

قد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال في هذه الآية «فَمَتَّعُوهُنَّ» أَى جَمَلُوهُنَّ بِمَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرُوفٍ، فَإِنَّهُنَّ يَرْجِعْنَ بِكَآبَةِ وَحْشَةٍ، وَ هَمَّ عَظِيمٍ وَ شِمَاتَةٍ مِنْ أَعْدَائِهِنَّ، فَإِنَ اللَّهُ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي «أَى يَفْعَلُ فِعْلَ الْمُسْتَحْيِي» وَ يَحِبُّ أَهْلَ الْحَيَاءِ، إِنْ أَكْرَمَكُمُ، أَشَدَّكُمْ إِكْرَامًا لِحَالَتِهِ»

«١» وَ سَرَّحُوهُنَّ أَى أَطْلَقُوهُنَّ وَ أَخْرَجُوهُنَّ مِنْ حَبَالَتِكُمْ بَعْدَ الطَّلَاقِ سَرَاحًا جَمِيلًا بِلَا إِيْذَاءٍ، وَ ذَكَرَ مَعَايِبَ وَ إِهَانَةَ وَ مَنَعَ حَقًّا- مِمَّا يَعْتَادُهُ الْجَوَالُ- وَ قَدْ ذَكَرُوا، إِنْ رَجَلَا- أَرَادَ طَلَاقَ زَوْجَتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَاذَا، قَالَ: هِيَ زَوْجَتِي وَ إِنْ الرَّجُلُ لَا يَذْكَرُ مَعَايِبَ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ طَلَقَهَا، فَقِيلَ لَهُ: الْآنَ، قُلْ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْعَيْبِ، فَقَدْ خَرَجْتَ عَنْ زَوْجِيَّتِكَ، فَقَالَ: هِيَ أَجْنِبِيَّةٌ، وَ إِنْ الرَّجُلُ لَا يَذْكَرُ مَعَايِبَ النِّسَاءِ الْأَجْنِبِيَّاتِ.

[٥١] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِيَّاتِ جَمْعُ التِّيَّاتِ آتَيْتِ أَى أُعْطِيَتْ أَجُورَهُنَّ أَى مَهْرَهُنَّ، فَإِنَ الْمَهْرُ أُجْرٌ عَلَى الْبُضْعِ، وَ لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ أُعْطِيَ نِسَاءَهُ الْمَوْجُودَاتِ عِنْدَهُ وَقْتُ نَزُولِ الْآيَةِ، مَهْرَهُنَّ، فَلَيْسَ الْقَيْدُ احْتِرَازِيًّا، بَلْ تَوْضِيحِيًّا، وَ الْآيَةُ، فِي مَقَامِ بَيَانِ النِّسَاءِ الْمَحَلَّلَاتِ لِلرَّسُولِ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَحِلُّ لَكَ طَوَائِفُ مِنَ النِّسَاءِ، هُوَلاءِ النِّسَاءِ، الْمَوْجُودَاتِ عِنْدَكَ وَ الْوَصِيفَاتِ، وَ بَنَاتِ الْعَمِّ وَ الْعَمَّةِ،

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٥٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٦

و بنات الخال و الخالة، و المرأة التي تهب نفسها للنبي، ثم بين سبحانه أن للرسول الخيار في حفظ بعض زوجاته، و طلاقها، كما بين سبحانه، أن لا- يحل له أن يأخذ فوق هذا العدد الموجود عنده من سائر النساء، أو تبديل بعضها ببعض، بأن تطلق من زوجاته، ليأخذ

مكانها امرأة أخرى، وقد خصه الله سبحانه بجواز التسع، حين كف عنده، ونزلت آية (مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) «١» فتفضل الله سبحانه بإحلاله للرسول، إبقاء جميع النسوة وأحللنا لك ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ أى الأُمّة، وإنما سميت ملك اليمين، لأن اليد اليمنى هي أكثر الأعضاء اكتساباً، فيكون الثمن عليها و الملك لها- مجازاً- مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ أى أعطاك الله من الغنيمه والأنفال، و سمي فيثا لأنه يرجع إلى صاحبه الأصلي، و هو الرسول، و كأن المال في يد الكفار مغضوب، فإذا رجع بأمر الله إلى المؤمنين كان فيثا و رجوعاً إلى أصحابه الأصليين، و قد كانت زوجته النبي، مما ملكت يمينه ماريه القبطيه أم إبراهيم و بنات عمك و المراد مطلق الأعمام و بنات عماتك و الاختلاف بين العم و العمه بالإفراد و الجمع للفتن في الكلام، الذي هو من أبواب البلاغه و بنات خالك و بنات خالاتك في اختلاف اللفظين ما تقدم اللاتي هاجرن معك قال في المجمع: «إن المراد بنات العمه، نساء قريش، و بنات الخاله نساء بنى زهره» «٢»، و لعل التخصيص بهؤلاء النسوة،

(١) النساء: ٤.

(٢) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٧

لعدم وجود غيرهن عند الهجرة، حتى تحل، كما إن تخصيصهن يهاجرن معك، لإفاده تحريم غير المهاجرات- و لم يعلم أن الحكم نسخ بعد ذلك- و أحللنا لك امرأه مؤمنه إن وهبت نفسها للنبي بأن قالت، وهبت نفسي لك يا رسول الله، فإنه يجوز له نكاحها، و الحليه بلفظ الهبه، تخلص إن أراد النبي أن يشترط نكاحها خالصه لك يا رسول الله من دون سائر المؤمنين فلا يحل لهم النساء، بلفظ الهبه قد علمنا ما فرضنا عليهم في أمر أزواجهم فإن المفروض للمؤمنين أن لا يتزوجوا فوق الأربع، و لا أن ينكحوا بلفظ الهبه، تمشياً مع نظام الصالح العام، أما الرسول فقد استثنى له بعض الأحكام لظروف خاصه، أحاطت به، كما أنه وجب عليه أمور لتلك الظروف أيضاً و قد علمنا ما فرضنا في ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ حيث أبحنا لك الصفوه من الغنائم، إذا كانت جاريه، و لم تبحها للمؤمنين، و معنى قد علمنا، أن هذا الحكم ليس اعتباطاً، و إنما صادر عن علم و حكمه بالمصالح و المفسدات العامه و الخاصه، ثم بين ذلك بقوله لكيلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ و ضيق في أمر الأزواج، فإن الرسول أكثر شغلا من أن يحرج عليه بعض الأمور الخاصه، كما أنه يقع في ضيق، إن أمر بطلاق، أو فك بعض نسائه التسع و كَانَ اللَّهُ غَفُوراً لِمَن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٨

خالف الأوامر، ثم تاب، كما وقع العصيان من بعض الأزواج، في قصه غنائم خيبر رَجِيماً يتفضل بالرحم و النعمه على رسوله و المؤمنين،

روى عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم، و هو في منزل حفصه، و المرأة متلبسه متمشطه فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم، فقالت: يا رسول الله، إن المرأة لا تخطب الزوج، و أنا امرأة لا زوج لي منذ دهر، و لا ولد، فهل لك من حاجه؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك، إن قبلتني، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم: خيرا، و دعا لها، ثم قال: يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا، فقد نصرني رجالكم، و رغبت في نساؤكم، فقالت لها حفصه: ما أقل حياءك و أجرأك و أنهمك للرجال؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم: كفى عنها يا حفصه، فإنها خير منك، رغبت في رسول الله، فلمتيها و عبتيها، ثم قال صلى الله عليه وآله و سلم للمرأة: انصرفي رحمك الله، فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك في، و تعرضك لمحبتى و سرورى، و سيأتيك أمرى إن شاء الله، فأنزل الله عز و جل، (وَ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ)

«١» «٢»، و

عن الصادق عليه السلام، قال «تزوج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسَةِ عَشْرَ امْرَأَةً، وَدَخَلَ بِثَلَاثَةِ عَشْرَ مِنْهُنَّ، وَقَبِضَ عَنْ تِسْعٍ، فَأَمَّا اللَّتَانِ لَمْ يَدْخُلْ بِهِمَا، فَ «عَمْرَةَ» وَ «السَّنَاءُ» وَ أَمَّا الثَّلَاثَةُ عَشْرَ اللّوَاتِي دَخَلَ فِيهِنَّ، فَأُولَهُنَّ «خَدِيجَةُ» بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، ثُمَّ «سُودَةَ» بِنْتُ زَمْعَةَ، ثُمَّ «أُمُّ سَلْمَةَ» وَ اسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ، ثُمَّ «أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ» ثُمَّ «عَائِشَةُ» بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ «حَفْصَةُ» بِنْتُ عَمْرِ، ثُمَّ «زَيْنَبُ» بِنْتُ خَزِيمَةَ بْنِ

(١) الأحزاب: ٥١.

(٢) الكافي: ج ٥ ص ٥٦٨. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٤٩

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥١]

تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ مَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لَا يَخْزَنَ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

الحارث أم المساكين، ثم «زينب» بنت جحش، ثم «أم حبيب» أرملة بنت أبي سفيان، ثم «ميمونة» بنت الحارث، ثم «زينب» بنت عميس، ثم «جويرية» بنت الحارث، ثم «صفية» بنت حي بن أخطب، و التي وهبت نفسها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و «خويلدة» بنت حكيم السلمى، و كان له سريتان يقسم لهما مع أزواجه «مارية القبطية» و «ريحانة الخندقية»، و التسع اللواتي قبض عنهن، عائشة، و حفصة، و أم سلمة، و زينب بنت جحش، و ميمونة بنت الحارث، و أم حبيب بنت أبي سفيان، و صفية، و جويرية، و سودة، و أفضلهن خديجة بنت خويلد، ثم أم سلمة، ثم ميمونة»
(١).

[٥٢] تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ الْإِرْجَاءُ، هُوَ التَّأخِيرُ، وَ الْمَرَادُ تَبَعْدُ عَنْ نَفْسِكَ مِنْ تَشَاءُ مِنْ أَزْوَاجِكَ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ أَى تَجْعَلُ لَهَا الْإِيوَاءَ، بِأَنْ تَقْرِبَهَا إِلَى نَفْسِكَ، قَالُوا: «وَ قَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، إِثْرَ إِعْرَاضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْهُنَّ لِمَا طَالِبْنَ بَغْنَائِمَ خَيْرٍ، وَ أَغْلَظْنَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، فَقَدْ خِيَرَهُ اللهُ سَبْحَانَهُ، بَيْنَ الْإِبْتِعَادِ عَنْ بَعْضِهِنَّ وَ الْإِقْتِرَابِ مِنْهُنَّ» (٢) «وَ مَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ أَى إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُؤْوَى إِلَيْكَ امْرَأَةٌ مِمَّنْ عَزَلْتَهُنَّ - حَسَبَ اخْتِيَارِكَ - وَ تَضَمُّمَا إِلَيْكَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ ذَلِكَ التَّفْوِيضُ إِلَى مَشِيئَتِكَ فِي الْإِرْجَاءِ وَ الْإِيوَاءِ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ أَى يَفْرَحْنَ، فَإِنْ مِنْ فَرَحٍ، قَرَّتْ عَيْنُهُ،

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٠ ص ٢٤٤.

(٢) راجع مستدرک الوسائل: ج ١٥ ص ٣١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٣٩٩

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٢]

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعِيدٍ وَ لَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)

و لم تضطرب هنا و هناك، ليجد ملجأ و مستقرا و لا يخزن تأكيد لتقر أعينهن و يرضين بما آتيتهنَّ كُلُّهُنَّ أَى بالحكم الذى ساويت فيه جميعهن، لأنك إن رجحت بعضا على بعض، كان ذلك مثار سخط المرجوحة، أما إذا سويت بينهن كلهن، فى ذلك، و علمن أنك تنظر إليهن بنظرة واحدة راضين جميعهن وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ خطاب عام، لكنه يراد به هنا الرسول و أزواجه، إذا وقع بينهما غضاضة، يوسوس الشيطان فى قلوبهن وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ، لأنه يعلم كل شىء حليماً يحلم عنكم فيما تنوون و تعملون مما

لا يرضاه.

[٥٣] لا- يَحِلُّ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّسَاءُ مِنْ بَعِيدٍ هَذِهِ الْأَصْنَافُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمَةِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ أَى بِهِذِهِ النَّسَاءِ مِنْ أَزْوَاجٍ بَأَنْ تَطْلُقَ بَعْضَهُنَّ، وَتَأْخُذَ مَكَانَهَا امْرَأَةً أُخْرَى- كَمَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ، وَقَالَ الْمَفْسُورُونَ- وَوَرَدَتْ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَأْخُذَ مِمَّا حَرَّمَتْهُ الْآيَةُ فِي قَوْلِهِ (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ) «١» «٢» وَ عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ تَبْدِيلَ نَوْعِ الْمَحَلِّ بِنَوْعِ الْمَحْرَمِ، لَا تَبْدِيلَ الشَّخْصِ بِشَخْصٍ آخَرَ، وَ هُنَاكَ قَوْلٌ آخَرَ ذَكَرَهُ جَوَامِعُ الْجَامِعِ، قَالَ: قِيلَ أَنْ

(١) النساء: ٢٤.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١٤ ص ٣٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥١

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءً وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا- مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعِيدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)

التبديل المحرم، هو ما كان يفعل في الجاهلية، يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك، و بأدلك بامرأتي، فينزل كل واحد منهما عن امرأته لصاحبه، و

يحكى «أن عينه بن حصين، دخل على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و عنده عائشة من غير استئذان، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: يا عينه أين الاستئذان؟

قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل قط منذ أدركت، ثم قال:

من هذه الجميلة إلى جنبك، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: هذه عائشة بنت أبي بكر «و لعله قال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ذلك خوفاً، من أن يظن به الظنون» قال عينه: أ فلا أنزل لك من أحسن الخلق، فقال صلى الله عليه و آله و سلم: قد حرم ذلك، فلما خرج قالت عائشة: من هذا يا رسول الله؟ فقال أحقق مطاع، و إنه على ما ترين لسيد قومه»

«١! وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ بَأَنْ تُوصَفَ الْمَرْأَةُ لِلرَّسُولِ، فَتَقَعُ فِي قَلْبِهِ لِمَا وَصَفَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهَا، وَ هَذَا لَيْسَ غَرِيبًا، فَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ الْآبَاءِ، أَوْ مِنْ إِيَّاهُمْ، يَصِفُونَ بَنَاتَهُمْ أَمَامَ الْعِظَمَاءِ لِلْمَشَاوَرَةِ فِي أَمْرِ نِكَاحِهِنَّ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ بَأَنْ كَانَتْ أُمَةً، فَإِنَّهَا تَحِلُّ لَكَ، وَ لَعَلَّ إِيَّانَ هَذِهِ الْجَمْلَةَ، مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ مَذْكُورَةً سَابِقًا، لِثَلَا يَتَّوَهُمُ، أَنْ «لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ» قَدْ نَسَخَ ذَلِكَ الْحُكْمَ السَّابِقَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا مُرَاقِبًا، فَمَنْ خَالَفَ لَهُ أَمْرًا عَاقِبَهُ وَ جَازَاهُ بِمَا عَمِلَ.

[٥٤] و بمناسبة ذكر الرسول، و بعض أحكامه العائلية، يأتي السياق لبيان بعض الأحكام الخاصة به، و إن كان ذلك أدبا عاما بالنسبة إلى سائر

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٢٣٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٢

الناس يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ لَعَلَّ هَذَا كَانَ بِمُنَاسَبَةِ دُخُولِ عَيْنَةَ دَارِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَدُونَ الْاِسْتِئْذَانِ، وَ عَلَى أَى، فَدُخُولِ دَارِ الرَّسُولِ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ أَى

دخولا- لطعام أضافكم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَهُ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنْهُ يُقَالُ أَنْى الطَّعَامُ يَأْنَى إِذَا بَلَغَ النَّضْجَ فِي الطَّبْخِ، أَى غَيْرِ مُنْتَظَرِينَ نَضْجَهُ وَطَبَخَهُ، وَ الْمَعْنَى لَا تَدْخُلُوا بَيْتَ الرَّسُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَ قَبْلَ نَضْجِ الطَّعَامِ أَنْتَظَرُوا لِنَضْجِهِ، فَيَطُولُ لِبَثْكُمْ وَ مَقَامَكُمْ عِنْدَهُ وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فِي وَقْتِ الدَّعْوَةِ، لَا- قَبْلَ الْوَقْتِ، كَأَنْ يَذْهَبُوا مِنَ الصَّبَاحِ أَنْتَظَرُوا لَطَّعَامِ الظَّهْرِ فَإِذَا طَعِمْتُمْ أَى أَكَلْتُمْ الطَّعَامَ فَانْتَشِرُوا أَى أَخْرَجُوا وَ تَفَرَّقُوا، فَلَا تَبْقُوا بَعْدَ الطَّعَامِ فِي الْبَيْتِ اعْتِبَاطًا وَ لَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثِ عَطْفِ عَلَى «غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنْهُ» أَى فِي حَالِ كُونِكُمْ لَا تَبْقُونَ بَعْدَ الطَّعَامِ تَحْدُثُونَ لِيُؤْنَسَ بَعْضُكُمْ بِحَدِيثِهِ إِنَّ ذَلِكُمْ إِشَارَةٌ إِلَى مَا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، مِنَ الدَّخُولِ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، أَوْ الْإِسْرَاعِ فِي الذَّهَابِ قَبْلَ نَضْجِ الطَّعَامِ، وَ الْجُلُوسِ بَعْدَ ذَلِكَ مُتَحَدِّثِينَ، وَ «كَمْ» لِلْخَطَابِ كَأَنَّ يُؤْذَى النَّبَى لِأَنَّ لَهُ أَعْمَالًا تَنَافَى جُلُوسَكُمْ فَيَتَأَذَى بِجُلُوسِكُمْ، كَمَا يَتَأَذَى بِدُخُولِكُمْ دَارَهُ بِدُونِ الْإِذْنِ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ فِي أَنْ يَجَابِهَكُمْ بِالْإِخْرَاجِ، أَوْ الزَّجْرِ وَ النَّهْيِ وَ اللَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٣

لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ أَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَتْرُكُ إِظْهَارَ الْحَقِّ حَيَاءً،

نقل في المجمع في سبب نزول الآية: «أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بنى بزینب بنت جحش و أولم عليها، قال أنس: أو لم عليها بتمر و سويق، و ذبح شاتا، و بعث إلى أمى أم سليم بحيس في تور من حجارة، فأمرنى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن أدعوا أصحابه إلى الطعام، فدعوتهم فجعل القوم يجيئون و يأكلون و يخرجون، ثم يأتى القوم، فيأكلون و يخرجون، قلت: يا نبى الله قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقال ارفعوا طعامكم، فرفعوا طعامهم، و خرج القوم و بقى ثلاث نفر يتحدثون فى البيت، فأطالوا المكث، فقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و قمت معه لكى يخرجوا، فمشى حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع و رجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فنزلت الآية»

«١». أقول: و إن كانت الآية خاصة، إلا أنها عامة المفاد، إذ ما اشتملت عليه أدب رفيع، بالنسبة إلى عدم الدخول بلا استئذان، و عدم الدخول قبل الوقت، و عدم المكث بعد الطعام، و لذا قال بعض العلماء: هذا أدب أدب الله به الثقلاء و إذا سألتموهن أى سألتن نساء النبى متاعاً أى شيئاً تحتاجون إليه فسيئلهن من وراء حجاب بأن يكون فاصلاً بين الرجل، و بين المرأة المسؤولة، و هذه الآية تفيد و جوب الحجاب، لعدم الخصوصية لنساء النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و عدم الخصوصية فى سؤال المتاع ذلكم أى السؤال من وراء الحجاب أظهر لقلوبكم و قلوبهن إذ الرؤية مثار الخواطر الشيطانية

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٤

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٤]

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)

و الوسواس النفسية، و المراد الطهارة من الريبة و الشك و الوسوسة و ما كان لكم ايها المسلمون أن تؤذوا رسول الله أى لا يحق لكم أذاه بمخالفته أو امره، أو قصد سوء بالنسبة إلى نسائه بعد وفاته، و هذا توطئه و تمهيد لقوله تعالى و لا أن تنكحوا أزواجه أى زوجات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعْدِهِ أَى بَعْدَ وَفَاتِهِ أَبَدًا إِلَى آخِرِ الْعَمْرِ، فَلَسْنَ كَسَائِرِ النِّسَاءِ، إِذَا انْقَضَتِ الْعِدَّةُ جَازَ نِكَاحَهُنَّ إِنَّ ذَلِكُمْ أَى الْإِيذَاءِ وَ نِكَاحِ الْأَزْوَاجِ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا فِي الْإِثْمِ وَ الْعَصِيَانِ،

فقد ورد أنه لما نزل قوله تعالى (وَ أَرْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) «١» غضب طلحة، فقال يحرم محمد علينا نساءه، و يتزوج هو بنسائنا، لئن أمات الله محمدا لتركضن - أى نتحركن - بين خلاخيل نسائه، كما ركض بين خلاخيل نسائنا، فأنزل الله عز و جل «وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ».

[٥٥] إِنْ تُبَدُّوا أَى تظهروا أيها المسلمون شيئاً من هذه المنهيات على لسانكم، بأن تقولوا نتزوج نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ تُخَفُّوهُ بِأَن تَقْصِدُوهُ فِي صَدُورِكُمْ بِدُونِ إِظْهَارِ قِيَانِ اللهِ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً يَعْلَمُ ظَوَاهِرَكُمْ وَبِوَاطِنِكُمْ، وَ سَيَجَازِيكُمْ عَلَى مَا اقْتَرَفْتُمْ مِنَ الْآثَامِ، وَ قَدْ

(١) الأحزاب: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٥

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٥]

لَا- جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

روى أن حكم تحريم زوجات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، جرى بعده فيمن لم يمسه الرسول، ولم يدخل بها.

[٥٦] و لما نزل قوله تعالى، «إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسَيُؤْتِيَنَّكُمْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» قَالَ الْأَبَاءُ وَ الْأَبْنَاةُ وَ الْأَقْرَابُ، وَ نَحْنُ أَيْضاً نَكَلِمُهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ- يَا رَسُولَ اللَّهِ؟- فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ أَى لَا حَرَجَ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي عَدَمِ التَّسْتُرِ مِنْ آبَائِهِنَّ وَ لَا أَبْنَائِهِنَّ وَ يَشْمَلَانِ الْأَجْدَادَ وَ الْأَحْفَادَ وَ لَا إِخْوَانِهِنَّ وَ لَعَلَّهُ أَعْمَ مِنَ الْأَعْمَامِ وَ الْأَخْوَالِ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُ الْأَبَاءِ وَ الْأُمَّهَاتِ وَ لَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ فَلَا بَأْسَ لَهُنَّ أَنْ يَرَاهُنَّ هُوَ لِأَنَّ الرِّجَالَ، فِيمَا تَعَارَفَ رُؤْيَتَهُ وَ لَا نِسَائِهِنَّ أَى النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ، فِي قِبَالِ الْيَهُودِيَّةِ وَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَ الْمَجُوسِيَّةِ، وَ الْمَشْرُكَةِ، فَقَدْ قَالُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّكْشِيفُ لَدَيْهِنَّ، لِأَنَّهُنَّ يَصْنَفْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ وَ لَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَى الْوَصَائِفِ الْمَمْلُوكَاتِ لَهُنَّ، وَ إِنْ كُنَّ غَيْرَ مُسْلِمَاتٍ، فَإِنَّهُنَّ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ، وَ لَا مَجَالَ لَهُنَّ لِيَنْقَلْنَ لِلْكَفَّارِ مُحَاسِنِ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ اتَّقِينَ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ اللَّهُ بَرَكٌ مَعَاصِيهِ، وَ الْإِتْيَانُ بِطَاعَتِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً أَى شَاهِداً لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ، فَمَنْ أَطَاعَ أَوْ عَصَى عِلْمَ بِمَا فَعَلَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٦

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (٥٧)

[٥٧] و لما كان الكلام حول تعظيم النبي و توقيره، و بعض أحكامه يأتي السياق لبيان تعظيم الله سبحانه له و الذي هو فوق كل تعظيم إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ وَ الصَّلَاةُ بِمَعْنَى الْعَطْفِ وَ اللَّطْفِ، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ صَلَاةَ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ، رَحْمَتُهُ وَ لَطْفُهُ بِهِ، كَمَا أَنَّ صَلَاةَ الْمَلَائِكَةِ عَطْفًا وَ طَلَبَ رَحْمَتِهَا مِنَ اللَّهِ لَهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ بِاللَّفْظِ وَ الْعَمَلِ وَ سَلِّمُوا عَلَيْهِ تَسْلِيماً بِلَفْظِ السَّلَامِ، وَ التَّسْلِيمِ لِأَوَامِرِهِ،

سئل الكاظم عليه السَّلَامُ، مَا مَعْنَى صَلَاةِ اللَّهِ، وَ صَلَاةِ مَلَائِكَتِهِ، وَ صَلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّهِ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَ صَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ تَرْكِيَةٌ مِنْهُمْ لَهُ، وَ صَلَاةُ الْمُؤْمِنِينَ دَعَاءٌ مِنْهُمْ لَهُ»

«١»، وَ

سئل الصادق عليه السَّلَامُ كَيْفَ نَصَلَى عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ؟ قَالَ: «تَقُولُونَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ مَلَائِكَتِهِ وَ أَنْبِيَائِهِ وَ رَسَلِهِ وَ جَمِيعِ خَلْقِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ وَ السَّلَامِ عَلَيْهِ وَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتِهِ»

«٢»، أَقُولُ: وَ الظَّاهِرُ كِفَايَةُ الصَّبِيغِ الْمَعْهُودَةِ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِ مُحَمَّدٍ وَ سَلِّمْ عَلَيْهِمْ أَوْ صَلِّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَسَلَّمَ، أَوْ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ عَلَى آلِكَ الطَّاهِرِينَ، وَ أَمْثَالِهَا.

[٥٨] الناس مأمورون بالصلاة والسلام على الرسول، فما هو حال من يؤذى الرسول؟ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ بِتَرْكِ أَمْرِهِ، وَ السَّعْيِ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ، وَ هَدْمِ أَحْكَامِهِ، وَ إِيْذَاءِ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ مَنْزَهُ عَنْ أَنْ

(١) تأويل الآيات: ص ٤٥١.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٧ ص ١٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٧

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٨]

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَّا اكْتَسَبُوا فَكَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)

يؤذى و لكن هذا من باب التشبيه وَ رَسُولُهُ وَ أذِيَةُ الرَّسُولِ، إما في جهة التشريع، كما لو سعى شخص في إبطال أحكام الرسول، و إما في جهته الشخصية كما يؤذى بعض الناس بعضا لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ بِأَن بَعَدَهُمْ عَنِ الْخَيْرِ، وَ عَذَّبَهُمْ؛ أما في الدنيا فإنه (وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) «١» و أما في الآخرة، فإنه سبحانه يظهر لعنهم و البراءة منهم وَ أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا مُّهِينًا يهينه و يذله عوض ما كان يؤذى، و

قد ورد في علي و فاطمة عليهما السلام «إن من آذاهما فقد آذى الرسول، و من آذى الرسول، فقد آذى الله»
«٢».

[٥٩] وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ، كما قالوا في البلاغة: إذا قيل باع القوم أمتعتهم بالقوم أريد به أن كل واحد باع متاعه بواحد منهم، و الأذية أعم من اللسانية و العملية بَغْيٍ مَّا اكْتَسَبُوا أَي من غير أن يعمل المؤمنون و المؤمنات عملا يستحقون به الأذى، كما لو عملوا ما يستحق الجلد، أو الاغتيال، أو الإرداع فَكَدِ احْتَمَلُوا أَي الذين يؤذون بُهْتَانًا البهتان هو الكذب على الغير، و لعل تسمية الإيذاء بهتاناً باعتبار، أن الإيذاء يظهر منه

(١) طه: ١٢٥.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٨

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٥٩]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)

الاستحقاق لمن يؤذى، و الحال أنه غير مستحق و إِثْمًا مُّبِينًا أَي عصياناً ظاهراً، و من هذا يظهر أنه كان في المدينة من يفعل ذلك بالنسبة إلى المؤمنين، و هذا غالباً في كل أمة نامية، فإن هناك أفراد يتولون أذاهم منهم و من غيرهم.

[٦٠] و بمناسبة تقدم الحديث عن النساء و التنصيص على حجاب زوجات الرسول في قوله «وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلِّتُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» يأتي السياق لنص عام على وجوب التحجب على كل امرأة يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ أَي نساءك وَ بَنَاتِكَ فقد كانت للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فاطمة عليها السلام و لعل بعض بناته الأخرى، كانت في الحياة وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ جمع جلباب، و هو ما كانت المرأة تجعل على رأسها، فقد أمرن، بأن يقربن الجلبات نحو أنفسهن، و هو الوجه و الرقبة و الصدر، فإن الجلباب، يدني من هذه المواضع ذِكْرَكَ الإذناء للجلباب ليكون لهن زى خاص أَدْنَى أَي أقرب إلى أَنْ يُعْرَفْنَ بأنهن عفاف نجيات فَلَا يُؤْذِينَ فَإِنَّ عَادَةَ الْفَسَاقِ، دائماً، حتى في زماننا هذا أن يتعرضوا إلى المرأة المتبدلة بظهور وجهها و شعرها، أما إذا

كانت متستره عرفت بالستر و النجابه، و لم يتعرض لها الفساق و كَانَ اللَّهُ غَفُورًا يُغْفِرُ مَا يُصَدِّرُ مِنْهُمْ، بدون تعهد و قصد، فإن المرأة مهما كانت محجبه، لا بد و أن يظهر بعض مفاتها في نادر الأوقات رَجِيمًا يُتَفَضَّلُ بِالرَّحْمَةِ- فوق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٥٩

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٦٠]

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) الغفران- على المطيعات، و إنما قال «من جلابيهن» لأن المرأة ترخى بعض جلبابها، أقول: قد ذكر بعض المفسرين كلاما حول كون الآية، إنما هي بالنسبة إلى الحرائر، لا الإماء، لكن إطلاقها، و حكمه الإسلام في الحجاب، بأن لا تمازح المرأة مهما كانت، ينفيان هذا التفصيل الذي لم يعلم وجهه، ثم أن الظاهر من الآيات و الروايات، لزوم الحجاب بستر الوجه، و قد كانت سيره المسلمات، منذ زمانه صلى الله عليه و آله و سلم على هذا، و لذا استثنى وجه المرأة حالة الإحرام، إلى غير ذلك من الشواهد، حتى جاء الغربيون و انهزم أمامهم بعض المسلمين الأغراء، فقالوا: بأن الحجاب موجب لخلق المرأة، و عدم ازدهار الحياة، كل ذلك لإشباع الشهوات الدنيوية، و هناك وجدوا عملاء ينفذون الأوامر بالحديد و النار، حتى وقعت المرأة المسلمة ضحية هذه الأهواء، و لم تنج من هذه الكوارث، إلا زمرة قليلة من الصالحات، و الله غالب على أمره.

[٦١] ثم هدد سبحانه الذين يؤذون الرسول و المؤمنين، و الذين كانوا يتعرضون للمؤمنات بأنهم إن لم يتركوا أعمالهم، أمر الرسول بتأديبهم لئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ أَى لئِنْ لَمْ يَمْتَنِعِ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الْإِيذَاءِ وَ التَّعَرُّضِ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ هُوَ ضَعْفُ إِيمَانٍ، يسبب أن يخالف بعض الأوامر، و إن لم يكن منافقا، فمثلا قد يكون الشخص يشرب الخمر، لأنه منافق، لا يعتقد بالرسول إطلاقا، و قد يكون معتقدا بالرسول، لكنه يجد الشرب، فيشرب لا النفاق، بل لعدم مبالاة و الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ يُقَالُ أَرْجَفَ إِذَا دَبَّرَ الْمَكَائِدَ، و نشر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٠

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦١ الى ٦٢]

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

الأكاذيب، لأنه يوجب بعمله تزلزل الناس و رجفهم، و المرجف يمكن أن يكون غير الأولين، باعتبار أنه يحب نشر الأخبار، و تتبع الآثار، كما يشاهد الإنسان في كل مجتمع هذه الألوان الثلاثة من الناس لَنُغْرِبَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِهِمْ و الإغراء تسليط الشخص على غيره ليؤذيه و يهينه و يعاقبه، يقال أغرت الحكومة الشرطة على فلان و بفلان، إذا أمرتهم بمعاقبته و مطاردته، و المراد نسلطك يا رسول الله عليهم، و نأذن لك في عقابهم ثُمَّ إِذَا أَعْرَيْنَاكَ بِهِمْ، لم يطبقوا العقاب، و صاروا مضطرين للهروب من المدينة لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا أَى لا يبقون بجوارك في المدينة إِلَّا قَلِيلًا أَى زمانا قليلا.

[٦٢] ثم بين بعض أنواع الإغراء بقوله مَلْعُونِينَ أَى في حال كونهم يلعون و يطردون أَيْنَمَا ثُقِفُوا أَى في كل مكان وجدوا أُخِذُوا وَ قُتِلُوا تَقْتِيلًا فلا- يبقى أحد منهم سالما من الطرد و القتل، و الإتيان بباب التفصيل- الدال على التكثير- باعتبار قتلهم جميعا، و إبادتهم كل فرد فرد.

[٦٣] سُنَّةَ اللَّهِ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ أَى سن الله ذلك سنة، و المراد أن أخذ المنافقين المرجفين و أمثالهم من سنن الله و طرائقه في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أَى مضوا سابقا فقد كان سبحانه يأمر الأنبياء بمطاردة المنافقين و المرجفين و لَنْ تَجِدَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا فإنه سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦١

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٦٥]

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا

(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)

يسنّ الطريقة الصالحة للناس، ويستمر عليها فلا يغيرها، ولا يبدلها.

[٦٤] واذ بين سبحانه، ما أعد للكافرين والمنافقين، الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين في الدنيا من اللعنة والطرده والقتل، عطف السياق، نحو ما أعد لهم في الآخرة، مع ذكر ما يرتبط بذلك من وقت القيامة، فإنها لما كانت بعيدة عن الأذهان، كانوا يكثرون السؤال عنها، فقال سبحانه يَسْئَلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّ الْقِيَامَةِ؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا أَيَّ الْعِلْمِ بوقت وقوعها عِنْدَ اللَّهِ سبحانه، فهو وحده يعلم وقتها وما يُدِيرِكُ أَيَّ شَيْءٍ يَدِيرِكُ وَيَعْلَمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ وَقْتِ قِيَامِهَا، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ أَنْكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا فَإِنَّ الشَّيْءَ الْمَجْهُولَ وَقْتَهُ يَحْتَمِلُ قُرْبَهُ وَبَعْدَهُ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ تَهْدِيدٌ لِلْكَافِرِ.

[٦٥] إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَاْفِرِينَ أَيَّ بَعْدِهِمْ عَنِ الْخَيْرِ، فَإِنَّ اللَّعْنَ بِمَعْنَى الطَّرْدِ، وَالتَّبْعِيدُ عَنِ الْخَيْرِ وَأَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا نَارًا تَسْعُرُ وَتَلْتَهِبُ.

[٦٦] فِي حَالِ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيهَا أَيَّ فِي النَّارِ، فَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا، وَلَا تَزُولُ عَنْهُمْ أَيْدَاءُ دَائِمِ الزَّمَانِ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا يَلِي أُمُورَهُمْ حَتَّى يَخْلُصَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ عَلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَعَلَى عَذَابِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٢

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٦ إلى ٦٨]

يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨)

[٦٧] ذَلِكَ الْإِعْدَادُ وَالْخُلُودُ إِنَّمَا هُوَ، فِي يَوْمٍ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ التَّقْلِيْبُ، تَصْرِيْفُ الشَّيْءِ فِي الْجِهَاتِ، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَنْقَلِبُونَ وَجُوهُهُمْ فِي الْجِهَاتِ السَّتِ، تَخْلَصُوا مِنَ الْحَزِّ وَتَطَلَّبُوا لِلنَّجَاةِ، كَالَّذِي يَقَعُ فِي مَشْكَلَةٍ كَيْفَ يَقْلِبُ وَجْهَهُ هُنَا وَهُنَا لِيَجِدَ مَلَاذًا وَمَعَاذًا يَقُولُونَ بِتَأْسَفٍ وَتَمَنَّى يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ فِيمَا أَمَرْنَا وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى لَا نَبْتَلِيَ بِهَذَا الْعَذَابِ الْمَقِيمِ.

[٦٨] وَقَالُوا أَيُّ الْأَتْبَاعِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رُؤَسَاءَهُمُ الْكَاْفِرِينَ، يَا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا فِي الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ سَادَتَنَا جَمْعَ سَيْدٍ، وَهُوَ كَبِيرُ الْقَوْمِ وَكُبْرَاءَنَا جَمْعَ كَبِيرٍ، وَكَأَنَّ السَّيِّدَ أَجَلَ قَدْرًا مِنَ الْكَبِيرِ، أَوْ الْمَرَادُ بِالْكَبِيرِ، الْأَكْبَرُ سِنًا، وَبِالسَّيِّدِ الْأَعْلَى رَتْبَةً فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ أَيَّ حَزَفُوا بِنَا عَنِ الطَّرِيقِ.

[٦٩] رَبَّنَا آتِهِمْ أَيَّ اجْعَلْ لَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ أَيَّ نَصِيْبِينَ نَصِيْبًا لِضَلَالَتِهِمْ، وَنَصِيْبًا لِإِضْلَالِهِمْ إِيَّانَا، وَهُمْ يَرِيدُونَ بِذَلِكَ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ، حَيْثُ أَوْقَعُوهُمْ فِي هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْعَنُومُ لَعْنَا كَبِيرًا أَيَّ اطْرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِكَ طَرْدًا كَبِيرًا حَتَّى يَبْتَعِدُوا عَنِ رِضَاكَ بَعْدَ زَانِدًا، وَهَذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَذَابِ الرُّوحِيِّ، وَالْأَوَّلُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَذَابِ الْجَسْمِيِّ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٣

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٩ إلى ٧١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)

[٧٠] وَحَيْثُ تَقَدَّمَ أَدَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ لِلرَّسُولِ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ «إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَطْفَ السِّيَاقِ عَلَيْهِمْ نَاهِيًا وَمُؤَدِّبًا فِي مِثَالِ وَقِصَّةِ عَنِ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ، لِيَكُونَ أَدْخَلَ فِي الذِّهْنِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا فِي إِيْدَانِكُمْ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا أَيَّ أَظْهَرَ اللَّهُ بَرَاءَتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، مِمَّا قَالَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى وَجْهِ الْإِيْدَاءِ لَهُ وَكَانَ مُوسَى عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا أَيَّ ذَا جَاهٍ وَعَظْمَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ يَتْرَكُهُ نَهْبَ أَدَى بَنِي إِسْرَائِيلَ،

فقد ورد عن علي عليه السلام «أن موسى و هارون صعدا الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل أنت قتلتها، فأمر الله الملائكة فحملته، حتى مروا به علي بنى إسرائيل، و تكلمت الملائكة بموته، حتى عرفوا أنه قد مات، و برأه الله من ذلك»
 (١).

[٧١] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا عِقَابَهُ، وَ امْتَثِلُوا أَوْامِرَهُ وَ نَواهِيه وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا أَى تَكَلَّمُوا بِالصَّوَابِ، لا بِالإِيدَاءِ، وَ الإِفْسَادِ.
 [٧٢] فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ يُصْلِحْ لَكُمْ اللهُ أَعْمَالَكُمْ بِاللِّطْفِ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَقِيمُوا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا وَاظَبَ مَدَّةً عَلَى الطَّاعَةِ، وَ ضَبَطَ النِّفْسَ، اسْتَقَامَتِ أَعْمَالُهُ عَنِ الانْحِرَافِ وَ الزَّيغِ وَ الفِسادِ وَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

(١) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٤

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٧٢]

إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ الجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)
 السابقة، فإن الحسنات يذهبن السيئات و مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَ يَنْهَى عَنْهُ فَقَدْ فَاذَ فَوْزًا عَظِيمًا أَى أَفْلَحَ أَعْظَمَ أَقْسامِ الفلاح، فإنه يفوز بخير الدنيا و سعادة الآخرة.

[٧٣] إن الإيمان أمانة في عنق الإنسان، يجب عليه أن يردّ هذه الأمانة سالمة، بلا أن يشوبها، بخيانته الكفر و العصيان، و لقد كانت هذه الأمانة ثقيلة، بحيث أن أضخم المخلوقات لا تتحمل أن تقبلها، أما الإنسان الضعيف، فقد قبلها، لكنه يخون بها لظلمه و جهله إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ أمانة الإيمان عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَ الجِبَالِ لِيَقْبَلُوهَا، بأن توضع عندها أمانة الإيمان فيتحفظون عليها فَأَبَيْنَ هذه الأشياء و امتنعن أَنْ يَحْمِلْنَهَا أَى يَحْمِلنَ الأمانة و يقبلنها وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا أَى خفنَ إِنْ قَبِلوا الأمانة أَنْ يَخُونوا فِيها وَ حَمَلَهَا الإِنْسَانُ قبلها لما عرضت عليه لكنه هل يؤدي الأمانة كما قبل؟ كلا إِنَّهُ أَى أَنْ الإِنْسَانَ كَانَ ظَلُومًا كَثِيرَ الظلمِ جَهُولًا كَثِيرَ الجِهلِ، فتارة يخون فيها لجهله، و أخرى يخون فيها لعصيانه، و هذه الآية كناية عن صعوبة التحفظ على الإيمان، فقد اعتاد البلغاء أن يشبهوا الأشياء المعنوية بالأموال الحسية، للتقريب من الذهن،

قالت فاطمة عليها السلام

صبت على مصائب لو أنها* صبت على الأيام صرن لياليا

(١)

(١) بحار الأنوار: ج ٧٩ ص ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٥

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٧٣]

لِيَعْذَبَ اللَّهُ المُنَافِقِينَ وَ المُنَافِقَاتِ وَ المُشْرِكِينَ وَ المُشْرِكَاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَ المُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)
 و قال الشاعر:

و لو أن ما بى من شديد رزيه على جبل قد ساخ فى الأرض ذاهبا

و قال:

لو كان فى الجبل الأصم سروره رقصت له أحجاره البرش

و يحتمل بعيدا أن يكون الكلام على الحقيقة- لا المجاز- بأن عرضت الأمانة على هذه الأشياء، هل يقبلنها؟ فأبين، قال فى الصافى:

المراد بالأمانة التكليف، و بعرضها عليهن النظر إلى استعدادهن و بإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة و الاستعداد، و بحمل الإنسان قابليته و استعداده لها و كونه ظلوما جهولا، لما غلب عليه من القوة الغضبية و الشهوية، و هو وصف للجنس باعتبار الأغلب «١»، أقول: و على هذا المعنى، فما ورد في الأحاديث من كونها ولاية على عليه السلام، أو نحوها، فالمراد بيان بعض المصاديق.

[٧٤] و إنما عرض سبحانه على الإنسان ليقبلها- فإن حمل الإنسان لها- لم يكن إلا بعد العرض و القبول، و ليحجر الامتحان، و يصح الثواب و العقاب، كما يقول مدير المدرسة: إنما جعلت الامتحان لأرفع الناجحين و أطرده الراسبين لِيُعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ إِنَّمَا قَدِمَهُمْ عَلَى الْمَشْرِكِينَ، لَأَن الْكَلَامَ فِيهِمْ، حَيْث كَانُوا يُؤْذُونَ

(١) تفسير الصافي: ج ٤ ص ٢٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٦

الرسول و يرجفون وَ الْمَشْرِكِينَ وَ الْمَشْرِكَاتِ الَّذِينَ ضِعُوا الْأَمَانَةَ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ فَإِنَّهُمْ حِينَ كَانُوا كُفْرًا- قبل الإسلام- كان الله معرضا عنهم، فإذا قبلوا الإيمان، و قاموا بشرائطه تاب الله- أى رجع سبحانه بلطفه- عليهم وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا لِلذَّنُوبِ رَحِيمًا يَفْضَلُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِسَابِغِ نِعْمِهِ، عِلَاوَةً عَلَى غَفْرَانِهِ ذُنُوبَهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٧

٣٤ سورة سبأ مكية / آياتها (٥٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «سبأ» و قصة القوم الذين كانوا ساكنين فيها، و هى بلدة فى اليمن، و هى كسائر السور المكية- غالبا- مشتملة على أصول العقيدة، و بعض القصص التى تقوى هذا الجانب، و لما ختم الله سبحانه سورة الأحزاب بعاقبة الكافر و المؤمن، بدأ هذه السورة، بأن له تعالى، ما فى الكون ابتداء و إعادة.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الله سبحانه المتجمع لجميع الكمالات، فإن الله علم للذات الواجب وجوده المتجمع لجميع الكمالات، و هذا هو سر تخصيص اسم الله بالتقديم، و الاستعانة باسمه، لا به، تعظيما و تأدبا، كأن الله سبحانه أجل من أن يستعان به، بل اللازم أن يستعان باسمه، و ذكر صفة الرحمة لأنها أكثر الصفات احتياجا، كما قال سبحانه «و لذلك- أى للرحم- خلقهم».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٨

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

[٢] الْحَمْدُ لِلَّهِ أى أن جنس الحمد له سبحانه، إذ جميع المحامد راجعة إليه الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ «له» بالخلق، و الملك و التربية، و غيرها، و المراد الظرف و المظروف، و إنما يذكر أحدهما تغليبا و اختصارا و لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ كما له الحمد فى الأولى، و المعنى أنه يستحق الحمد هنا و هناك، لما يولى عباده من الجميل فى الدارين، و لذا يقول أهل الجنة «الحمد لله الذى هدانا لهذا» و «الحمد لله الذى صدقنا وعده» «١» وَ هُوَ الْحَكِيمُ فى جميع أفعاله، و الحكمة هى وضع الأشياء مواضعها اللاتقنه بها تكويننا و تشريعا، فمن يصنع عبثا أو يأمر عبثا لم يكن حكيما الْخَبِيرُ العالم المطلع على الأشياء، فكل ما يعمل إنما هو عن علم و حكمة.

[٣] يَعْلَمُ سبحانه ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ الولوج الدخول، أى يعلم ما يدخل فى الأرض، من مطر، أو كثر أو ميت، أو حبه، أو ماء، أو مانع، أو غيرها وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا من زرع، أو عين، أو نبات، أو جواهر، أو حيوان، أو غيرها وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ من مطر أو رزق، أو ملك أو

شيطان، أو جسم كالنيازك أو طير، أو غيرها و ما يَعْزُجُ أى يصعد فيها أى فى السماء من ملك، أو شيطان، أو طير، أو عمل، أو نحوها، فإن المراد بالسماء جهة العلو و هُوَ الرَّحِيمُ

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ١٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٦٩

[سورة سبأ (٣٤): آية ٣]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)

عباده، و سائر خلقه الْعُقُورُ يغفر ذنوبهم و يستر عيوبهم.

[٤] فالكون إذن كله بيده، و رهن إشارته، و بقدرته سبحانه، جعل المعاد، كما بقدرته خلق الخلق و مع ذلك يرى الناس من ابتداء الخلق قال الَّذِينَ كَفَرُوا و أنكروا البعث لا- تَأْتِينَا السَّاعَةُ من باب السالبة بانتفاء الموضوع، يعنى لا قيامه أصلا حتى تأتينا قُلْ لهم يا رسول الله بلى تأتكم و رَبِّي أى و حق الله الذى أوجدنى و خلقنى لَتَأْتِيَنَّكُمْ القيامة بكل تأكيد، و ليس الحاكم هناك كالحكام هنا أناسا لا- يعلمون ما صدر من المحكومين، بل الحاكم هناك عَالِمِ الْغَيْبِ يعلم كل ما غاب عن الحواس، فكيف بالأشياء الظاهرة البارزة؟

لا- يَعْزُبُ عَنْهُ الغروب، كالغروب لفظا و معنى، أى لا- يفوته مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أى ما كان فى الثقل بقدر الذرة، و هى الهباءة، التى ترى إذا دخلت الشمس فى مكان مظلم من كوة صغيرة فى السَّمَاوَاتِ و لا فى الْأَرْضِ فإنه عالم بكل ذلك و لا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ من مثقال ذرة و لا- أَكْبَرَ مِنْهُ إِلَّا فى كِتَابٍ مُّبِينٍ أى كتاب واضح لديه سبحانه، و هذا كناية عن علمه بذلك كله مع تفنن فى تعبير العلم ب- لا يغرب- مرة، و ب- فى كتاب- أخرى، و المراد بالكتاب إما اللوح، أو علمه سبحانه تشبيها، أو ما يكتبه الملائكة الحفظة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٠

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٤ الى ٦]

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

[٥] و إنما تأتى الساعة، و تقوم القيامة لِيَجْزِيَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بما يستحقونه من الإيمان بالله، و العمل الصالح حسب أمره أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم، و «مغفرة» مصدر ميمى بمعنى الغفران و رِزْقٌ كَرِيمٌ و المراد بالرزق كل نعمة ينعم الإنسان بها من جنه، و مأكلا و غيرها، و المراد بالكريم كونه خاليا عن الفساد، و الأذية، أو أنه مع كرامه و تعظيم.

[٦] و ليجزى الذين كفروا و عملوا السيئات بما يستحقونه من العذاب و الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا أى عملوا بجهدهم فى إبطال آياتنا و حججنا مُعَاجِزِينَ فى حال كونهم مریدين أن يعجزونا، فلا تتمكن من إظهار الدين و نشره فى الآفاق، و إنما جىء من باب المفاعلة، لأن كلا من الطرفين، يريد تعجيز الآخر عن تنفيذ مبدئه و مراده أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ و هو العذاب السيئ أَلِيمٌ مؤلم موجه.

[٧] إن الكفار يرون أن القرآن باطل و أن الرسول ليس بحق، و لذا يسعون لإحباط عمله و تعجيزه عن القيام بمهمته و يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أى أعطوا العلم بالله، و بالحقائق، و المراد العلماء الذين يدركون الأشياء الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مفعول «يرى» و المراد به «القرآن» مِنْ رَبِّكَ متعلق بالذى، و من تتمه المفعول الأول هُوَ الْحَقُّ مفعول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧١

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٧ الى ٨]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هِيلُ نَدَلِكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْتِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبُعِيدِ (٨)

ثان، ليرى أى أنهم يرون و يعلمون، أن القرآن حق من جانب الله سبحانه، و ليس مختلفا، كما يقول الكفار و يرون أنه يهذى و يرشد إلى صراطِ الله العزيزِ الغالبِ سلطانه الحَمِيدِ الذى هو محمود فى جميع أفعاله، فهو من قبل مالِكِ السماوات و الأرض، و إنه للصلاح و الرشاد، إذ منزله الله الحميد الذى يستحق الحمد بكل ما يفعل - لحسنه و كونه صلاحا-.

[٨] لقد أُلْمِعَ إلى التوحيد و الرسالة و القرآن، ثم جاء دور المعاد و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ أَنْكَرُوا الْمَعَادَ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ هَلْ نَدُلُّكُمْ وَ نُرْشِدُكُمْ وَ نُرِيكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَعْنُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يُبْتِئُكُمْ وَ يَخْبِرُكُمْ أَنَّهُ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أَى مَتَمَّ وَ صَرْتُمْ أَجْزَاءَ مُمَزَّقَةٍ مَقْطَعَةٌ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّمْزِيقِ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَى يَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَخْلُقُونَ بِهَذِهِ الصُّورَةَ مِنْ جَدِيدٍ، حَتَّى تَكُونُوا كَمَا كُنْتُمْ؟ وَ قَدْ كَانَ هَذَا اسْتِفْهَامًا اسْتِهْزَائِيًّا، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ اسْتِبْعَادَ الْأَمْرِ.

[٩] ثم أخذوا يرددون بين أنفسهم، و ينسبون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إلى هذه الأمور أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَى هل أنه فى كلامه هذا مفترى على الله، فالله سبحانه لم يبعثه، و لم يقل له ذلك، و إنما هو ينسب إلى الله ذلك كذبا؟ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ أَى جنون، و يسمى زوال العقل جنونا لأن المرض يستر العقل؟ و مرادهم أنه لا يخلو أن يكون إما عاقل كاذب، أو مجنون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٢

[سورة سبأ (٣٤): آية ٩]

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

لا- يشعر ما يقول، ثم رد الله سبحانه عليهم بأنه صادق عاقل، فليس الأمر كما قالوا بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الْمُتَعَجِّبُونَ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ فِي الْعَذَابِ هُنَاكَ وَ الضَّلَالِ الْبُعِيدِ هُنَا، فَقَدْ أَثْبَتَ لَهُمْ أَمْرَيْنِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَثْبَتُوا لِلرَّسُولِ أَحَدَ أَمْرَيْنِ، وَ الْمُرَادُ أَنَّ ضَلَالَهُمْ وَ انْحِرَافَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ بَعِيدًا جَدًّا، لَا كَالْعَاصِيِ الَّذِي هُوَ ضَالٌّ، وَ لَكِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَى الطَّرِيقِ.

[١٠] إنهم كيف يستبعدون المعاد، و هم يرون الخلق العظيم أمامهم من قدرة الله، و هم يعلمون أنه سبحانه إن يشأ أن يعذبهم لتمكن من ذلك؟ فمن له قدرة على ذلك، كيف لا يكون له اقتدار على إعادة الأجساد؟ أَلَمْ يَرَوْا هَوْلَاءَ الْكُفَّارِ، وَ الاسْتِفْهَامَ إِنكَارِيًّا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَى ما فى قدامهم وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ الْمُحِيطَةِ بِهِمْ، وَ الْإِتْيَانَ بِهَذِينَ الْجَانِبِينَ كِنَايَةً عَنِ الْإِحَاطَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا نَظَرَ أَمَامَهُ، أَوْ خَلْفَهُ رَأَى السَّمَاءَ الرَّفِيعَةَ، وَ الْأَرْضَ الْمُنْبَسِطَةَ إِنَّ نَسْأًا نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ بِأَنَّ تَفُورَ الْأَرْضِ، وَ هُمَ عَلَيْهَا فِي الْأَعْمَاقِ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا أَى قِطْعًا، جَمَعَ كَسَفَهُ بِمَعْنَى الْقِطْعَةِ، أَى نَسَقَطُ عَلَيْهِمْ قِطْعَاتٌ مِنَ السَّمَاءِ لِتَهْلِكَهُمْ، فَإِنَّ الْأَنْجَمَ أَرْضِيًّا كَبِيرَةً وَ سَبْعَةً رُبَّمَا بَلَغَتْ بَعْضُهَا أَكْثَرَ مِنْ مِليُونِ مَرَّةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٣

[سورة سبأ (٣٤): آية ١٠]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرُ وَ آتَيْنَاهُ الْحَدِيدَ (١٠)

كبرا من الأرض، فإذا شاء سبحانه أسقط على البشر قطعا منها حتى تهلكهم إِنَّ فِي ذَلِكَ الذى يرون من السماء و الأرض، و ما يعلمون من قدرتنا على إهلاكهم بالخسف أو الإسقاط لآيةً دليلاً واضحاً على قدرة الله سبحانه على بعث الإنسان بعد موته لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ قَدْ أَنْابَ - أَى رَجَعَ - إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ عَنْ كُفْرِهِ وَ عَصِيَانِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَفِيدُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، أَمَا الْكَافِرُ الْعَاصِي، فَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا، بَلْ يَزِيدُ عُنَادًا وَ عِتْوًا.

[١١] و كيف ينكر هؤلاء قدرتنا، و قد كان لبعض عبيدنا قدرة هائلة، فداود كان يتصرف فى الجبال و الحديد، و سليمان كان يتصرف

في الهواء و يسخر الجن؟ و لعل الأمر كان معروفا لدى كفار مكة، بواسطة إخبار أهل الكتاب لهم، فكان من الممكن الاستدلال لعظيم القدرة، بما يصدر من هؤلاء الأنبياء العظام و لقد آتينا أي أعطينا داود النبي عليه السلام منّا من طرفنا، لا بكسب كسبه أو علم يعلمه ففضلاً زيادة على سائر الناس من الإنعام و الإكرام، فقد قلنا للجبال يا جبال أوبي معهُ «آب» بمعنى رجع، أي ارجعي صوت التسييح مع داود، فكان إذا سبح عليه السلام، سبحت الجبال معه و الطير معه، و الوحوش، و إنما قال «أوبي» لأنها كانت كالطفل الذي يرجع الصوت بعد سماعه و ألنا من لأنه له الحديد أي كان الحديد لينا في يده كالشمع، فكان يعمل منه الدروع.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٤

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ١١ الى ١٢]

أَنْ أَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسَلِيمَانَ الرَّيْحَ عُذُوهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢)

[١٢] و قد قلنا لداود عليه السلام أن اعمل بالحديد دروعا سابغات جمع سابغة، بمعنى التامة الوسيعة، و منه سبوغ النعمة بمعنى وسعتها و قدّر في السرد أي عدّل في نسج الدروع، فإن السرد هو نسج الدرع مأخوذ من سرد في الكلام إذا تابع بعض جملة بعضا، و المراد بالتقدير جعل حلق الدرع متناسبة بقدر و شبه، فلا تكون بعضها وسيعة، و بعضها ضيقة،

روى عن الصادق عليه السلام «أن الله أوحى إلى داود، نعم العبد أنت، إلا أنك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحا، فألأن الله له الحديد، و كان يعمل كل يوم درعا، فيبيعه بألف درهم، فعمل ثلاثمائة و ستين درعا، فباعها بثلاثمائة و ستين ألفا، فاستغنى عن بيت المال»

«١» و اعملوا خطاب لداود و آله صالحاً أي عملا صالحا، و المراد به الجنس إنني بما تعملون بصير أرى أعمالكم فأجازيكم عليها.

[١٣] و سخرنا لسلیمان بن داود عليه السلام الریح فكان يجلس على بساط، فتحمله الریح، فإن الشئ إنما يسقط، لأن الهواء و الریح تنخرق من تحته، أما كبت الهواء بعضه في بعض كالهواء المكبوس في الزق، لم تنخرق حتى يسقط ما يعلوها عُذُوهَا أي حركة الریح في الغدوة، و هو الصباح شَهْرٌ فإذا تحركت بسلیمان صباحا، سارت به مقدار ما يسير الإنسان في مدة شهر هلالی و رَوَّاحُهَا شَهْرٌ أي

(١) تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٥

[سورة سبأ (٣٤): آية ١٣]

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)

و كانت تسير بسلیمان عصرا، مقدار شهر من الزمان، فكانت في كل يوم تسير مقدار شهرين و أسلنا من الإساءة بمعنى الإذابة، حتى يكون للشئ سيلان كالمائعات له أي لسلیمان عليه السلام عَيْنَ الْقِطْرِ أي أذنا له عين النحاس، و المراد بالعين معدنه حتى يتمكن من استعماله في الظروف و الأواني، و ما أشبه من الأشياء النحاسية و سخرنا لسلیمان عليه السلام من الجنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ كالعبد المطيع بِإِذْنِ رَبِّهِ فقد أمر الله سبحانه الجن، أن تكون مسخرة بأمر سليمان تعمل في حوائجه و مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ من زاع إذا انحرف و عصى، أي من كان يعصى من الجنّ عَنَّا أَمْرِنَا الذي أمرناهم به من إطاعة سليمان، فلم يكن يطيعه فيما يأمر نُذِقْهُ أي نذق ذلك الجن العاصي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ أي عذاب الدنيا، بأن كان سليمان يؤدبه، و سمي سعيرا تشبيها، أو من عذاب النار في الآخرة، و سمي سعيرا، لاستعارة النار و اشتعالها.

[١٤] يَعْمَلُونَ أي الجنّ له أي لسلیمان عليه السلام ما يَشَاءُ صنعه و عمله مِنْ مَحَارِبٍ جمع محراب، و لعل المراد بها المساجد، و إنما

سمى محرّاباً، لأنه محلّ المحاربة مع الشيطان و النفس و تماثيل جمع تمثال، و هو الشيء المصنوع، من معدن، أو طين، أو حجر، أو خشب، شبه شيء آخر، كتماثيل القصور و الأشجار و الأنهار و غيرها، قال الصادق عليه السلام «و الله ما هي تماثيل الرجال و النساء، و لكنها تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٦ الشجر و شبهه»

«١» و جفان جمع جفنة، و هي جفنة الطعام كالجواب أصله «الجوابي» جمع «جايبة» كالروابي جمع رابية، و المراد بها الحياض الكبار، و سمي الحوض جايبة لأنها تجمع فيها الماء، و منه يسمى الذي يجمع الضرائب و الأموال «جايبي» و إنما كانوا يصنعون له مثل هذه الظروف الكبار، حتى تصلح لطعام جيش سليمان عليه السلام، و قد قال بعض: أنه كان يجتمع حول كل جفنة ألف رجل يأكلون منها و قدور جمع قدر، و هو ما يطبخ فيه الطعام راسية جمع راسية بمعنى الثابتة في الأرض، فإن القدر الكبير، الذي يراد دوام الطبخ فيه، يبني في الأرض، حتى لا يزول، و لا يتحرك، و قلنا لسليمان، و سائر أهل بيته اعملوا آل داود أي يا آل داود شكراً فإن الشكر قد يكون بالقلب، و هو أن يعترف الإنسان في قلبه، بأن الإحسان من الله سبحانه، و قد يكون باللسان؛ كأن يقول «الشكر لله» و قد يكون بالعمل بأن يصلى و يصوم، و يأتي، بسائر الواجبات، و يترك سائر المحرمات، فإن الشكر هو المظهر للجميل الاختياري، الذي يأتي به أحد تجاه الإنسان و قليل من عبادي الشكور «الشكور» صفة مشبهة، بمعنى من تكرر منه الشكر، أي أن العباد الشاكرين لله، فيما أنعم عليهم قليلون، و كأن الإتيان بهذه الجملة لتأكيد أن يشكروا، فإن الإنسان إذا علم قلبه من على شاكلته في أمر قوي عزمه للعمل أكثر ممن يعلم كثرة أعوانه و أمثاله.

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٧

[سورة سبأ (٣٤): آية ١٤]

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)

[١٥] و قد استمر سليمان في ذلك الجلال و الملك، حتى جاءه الموت فلما قضينا أي حكمنا عليه أي على سليمان عليه السلام الموت كان قد اتكى على عصاه في قبته، و هو ينظر إلى الجن كيف يصنعون له، إذ حانت منه التفاتة، فإذا هو برجل معه في القبته، ففزع منه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرشا، و لا أهاب الملوكة، أنا ملك الموت، فقبض روحه، و هو متكئ على عصاه، فمكثت الجن، تدأب في العمل، و لما كانوا رأوا من سليمان العجائب، ظنوا أنه واقف، و لكنه لا يتحرك لحكمته و علته، حتى بعث الله عز و جل الأرضة، ف ما دلتهم أي أرشدهم و أعلمهم على موته أي موت سليمان عليه السلام إلا دابة الأرض أي الأرضة، فأخذت تأكل منسأته و تنخر فيها، فوقع سليمان على الأرض، و قد كان آصف وصيه يدبر أمر الملك في مدة موته و اتكائه فلما خَرَّ أي فلما سقط سليمان، بعد ما وهت عصاه، بفعل الأرضة فتكسرت، لثقل جسم سليمان عليها تبينت الجن أي علمت الأجنه، و إنما أوتى بالفعل مؤنثاً، باعتبار أن المراد ب «الجن» الجنس، فهي بمعنى الجماعة أن لو كانوا يعلمون الغيب أي ما غاب عن الحواس - فقد كانت الجن تزعم، أنها تعلم الغيب، لما كانت تعلم بعض ما لا يعلمه الإنس من الأشياء البعيدة الخفية - ما لبثوا و بقوا تلك المدة التي مات فيها سليمان متكئاً على عصاه في العذاب المهين أي في شدة العمل و تعب الذي يهينهم و يذلهم فإن العمل كان عذاباً عليهم، و شدة لهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٨

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ١٥ إلى ١٦]

لَقَدْ كَانَ لِسَيِّبٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦)

[١٦] و إذ تمت قصة داود و سليمان عليهما السلام أتى السياق، لبيان قصة قوم سبأ، و ما وصلت إليه حالتهم لأجل كفرانهم للنعمة، في مقابل ما سبق من قصة داود و سليمان، و آلهما، و ما وصلت إليه حالتهم لأجل شكرهم للنعمة لَقَدْ كَانَ لِسَيِّبٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ أى لتلك القبيلة المسماة باسم سبأ، التي كانت تسكن في جنوبى اليمن، كان لهم في محل سكنهم آية دالة على لطف الله و فضله، فقد ارتقى القوم، في مراقي الحضارة، حتى تمكنوا أن يصنعوا من بعض الجبال، خزانا كبيرا من الماء، بإقامه سد، يسمى «سد مأرب» أمام الماء، فكان يسقى أراضيهم، حتى أن المار إليهم، يرى في الطريق بساتين متصله، و قد فسر سبحانه «آية» بقوله جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ أى يمين الماء و شماله، و قيل لهم كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ الأمر للإباحة، أى أبحنا لكم هذا الرزق الطيب العميم و اشكروا له أى لله سبحانه، فبلدتكم بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ كثيرة الفواكه و الأرزاق طيبة الماء و الهواء وَ رَبٌّ غَفُورٌ أى أن إلهكم إله يغفر الذنوب، و يستر العيوب. [١٧] فَأَعْرَضُوا عن الدين، و انحرفوا في طرق الضلال فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ واحدهما عرمة مأخوذة من عرمة الماء، و هى ذهابه كل مذهب، أى السيل العظيم الشديد، و قد قال بعض المفسرين: «إن الماء كان يأتى أرض سبأ، من أودية اليمن، و كان هناك جبلان، يجتمع ماء المطر و السيول بينهما، فسدوا ما بين الجبلين، فإذا احتاجوا إلى الماء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٧٩

[سورة سبأ (٣٤): آية ١٧]

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)

نقبوا السد، بقدر الحاجة، فكانوا يسقون زروعهم و بساتينهم، فلما كذبوا رسلهم، و تركوا أمر الله، بعث الله جرذا نقب ذلك الردم، و فاض الماء عليهم، فأغرقهم» (١) وَ يَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ أى عوضا عن الخصب الذى كان لهم المكنى عنه بالجنتين عن اليمين و الشمال جَنَّتَيْنِ من شكل آخر، و هذا من باب الازدواج فى الكلام نحو، (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) «٢» ذَوَاتِي تشبيه ذات أُكُلٍ خَمْطٍ «أكل» اسم للثمرة مهما كانت، و «خمت» كل شجر له شوكة، و المراد مرّ بشع، و ذلك شجرة أم غيلان، التي تنبت فى الصحارى القاحلة وَ أَثَلٍ الطرفاء وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ هو النبق قَلِيلٍ فقد كان الخمت و الأثل، أكثر منه، و هذا دليل على عدم الماء و الزرع و الحضارة، حتى بقيت الصحارى يباسا، لا تنبت، إلا نباتات الصحراء، التي لا ينتفع بها إلا قليلا. [١٨] ذَلِكَ السيل العرم و التبديل جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا أى بسبب كفرهم وَ هَلْ نُجَازِي بِمِثْلِ هَذَا الْجَزَاءِ السَّيِّئِ إِلَّا الْكَفُورَ استفهام معناه النفى، أى لا نجازى بمثل هذا الجزاء إلا لمن كفر النعمة، و لم يشكر.

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ٢١٠.

(٢) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٠

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقَرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَ قَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيَّرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

[١٩] و قد كان من قصة قوم سبأ، قبل أن يكفروا النعم، أن جعلنا بينهم أى بين بلادهم فى اليمن وَ بَيْنَ الْقَرَى الَّتِي بَارَكْنَا أى الشام التي باركنا فيها مبعث الأنبياء عليهم السلام، و طيب الهواء و كثرة الزراعة و الفواكه قُرَى ظَاهِرَةً أى متظاهرة متواصلة فى عرض الطريق، فقد كان متجرهم من أرض اليمن إلى الشام، و كانوا يبيتون بقريه، و يقولون بأخرى، حتى يرجعوا فى أمن و دعة و سلام، و كانوا لا

يحتاجون إلى زاد من وادي سبأ إلى الشام، وكانت القرية ترى من القرية التي قبلها لظهور بعضها على بعض و قرب أحدها من الأخرى وَقَدَرْنَا فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ السَّيْرِ أَى جَعَلْنَاهُ مَقْدَرًا مُمْكِنًا لِلْأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ، وَ سَهْوَةَ الطَّرِيقِ، أَوِ الْمَعْنَى كَانَ بَيْنَ كُلِّ قَرْيَةٍ وَ قَرْيَةٍ بِقَدْرِ مَسِيرِ نِصْفِ يَوْمٍ، وَ قَلْنَا لَهُمْ سَيَّرُوا فِيهَا أَى فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ أَوِ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ لِيَالِي وَ أَيَّامًا فَلَا خَوْفٍ، وَ لَا صَعُوبَةَ سِوَاءِ سِرْتَمِ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا آمِنِينَ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ وَ نَصَبٍ، وَ جُوعٍ وَ عَطَشٍ.

[٢٠] وَ لَكِنِّهِمْ لَمْ يَشْكُرُوا هَذِهِ النِّعْمَ الْعَظِيمَةَ، وَ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ وَ أَمْرَهُ، بَلْ بَغُوا وَ بَطَرُوا فَقَالُوا يَا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا فَقَدْ مَلَلْنَا مِنَ الْأَسْفَارِ الْقَصِيرَةِ بَيْنَ الْقَرْيَةِ الْمُتَقَارِبَةِ الَّتِي لَا يَرَى فِيهَا الصَّحْرَاءَ، وَ لَا نَتَمَكَّنُ مِنْ رُكُوبِ الرِّوَا حِلِّ، وَ تَجْهِيْزِ الْقَوَافِلِ، فَإِنَّا نُرِيدُ الصَّحَارَى الْقَاحِلَةَ «لِنَلْتَذِ لَذَّةَ السَّفَرِ»، وَ هَذَا كَمَا بَطَرَتِ الْيَهُودُ النِّعْمَةَ فَقَالُوا:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨١

[سورة سبأ (٣٤): آية ٢٠]

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)

(يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قَنَائِهَا وَ فُومِهَا وَ عَدَسِهَا وَ بَصِيلِهَا) «١» وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بَارْتِكَابِ الْكُفْرِ وَ الْمَعَاصِي، فَأَخَذْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ بِأَمْرِهِمْ وَ شَأْنِهِمْ وَ يَضْرِبُونَ بِهِمُ الْمَثَلِ، فَيَقُولُونَ «تَفَرَّقُوا أَيَادِي سَبَأَ» إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَبِينُوا تَشْتَتِ جَمَاعَهُ أَكْبَرَ تَشْتَتِ وَ مَزَقْنَاهُمْ أَى فَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ كُلِّ تَفْرِيقٍ، وَ ذَلِكَ تَشْبِيهُهُ بِالثُّوبِ الَّذِي يَمْزُقُ فِي مُخْتَلَفِ جَوَانِبِهِ، فَقَدْ تَفَرَّقَ أَهْلُ سَبَأَ فِي مُخْتَلَفِ الْبِلَادِ، وَ ذَهَبَتْ نِعْمُهُمْ جَمِيعًا إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ قِصَّةِ قَوْمِ نِعْمَتِهِمْ وَ كُفْرِهِمْ وَ نَقْمَتِهِمْ لآيَاتٍ دَالَّةٌ عَلَى الْأَسْبَابِ وَ الْعِلَلِ، لِتَرْقَى الْأُمَّمُ وَ انْحِطَاطِهَا لِكُلِّ صِدْبَارٍ كَثِيرٍ الصَّبْرِ شَكُورٍ كَثِيرٍ الشُّكْرِ، فَإِنَّ مِنْ يَصْبِرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَ يَشْكُرُ عِنْدَ الرِّخَاءِ، يَعْرِفُ سَبَبَ النِّعْمَةِ وَ النِّقْمَةِ، وَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَعَالِجُ النِّعْمَ لِلْبَقَاءِ، وَ كَيْفَ يُوَاجِهُ بِالصَّبْرِ الْبَلَاءَ، أَمَا غَيْرُهُ، فَإِنَّهُ يَرَى الْآيَاتِ حَتَّى يَعْرِفَ الْمَسَبِّبَاتِ مِنَ الْأَسْبَابِ.

[٢١] وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى قَوْمِ سَبَأَ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ أَى جَعَلَهُمْ مُورِدًا لظنه، الَّذِي قَالَ (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) «٢» فَصَدَّقَ الظَّنَّ عَلَيْهِمْ، حَيْثُ أَغْوَاهُمْ وَ أَبْعَدَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ فَاتَّبَعُوهُ أَى اتَّبَعَ قَوْمِ سَبَأَ إِبْلِيسَ فِيمَا أَمَرَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «مِنْ» لِلتِّينِ أَى جَمَاعَهُ مِنْهُمْ فَقَطْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَ إِلَّا فَالْبَاقُونَ اتَّبَعُوا الشَّيْطَانَ.

(١) البقرة: ٦٢.

(٢) ص: ٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٢

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِيكِ وَ مَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَ الْحَالُ أَنَّ الشَّيْطَانَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى قَوْمِ سَبَأَ مِنْ سُلْطَانٍ أَى سُلْطَةً، وَ وِلَايَةً يَتِمَكَّنُ مِنْ جَبْرِهِمْ، وَ إِنَّمَا كَانَ يَلْقَى إِلَيْهِمْ، وَ يُوَسَّوْسُ فِي صُدُورِهِمْ، وَ بِهَذَا فَقَطْ بَاعُوا دِينَهُمْ وَ دُنْيَاهُمْ، وَ حَيْثُ أَنَّ هُنَا يَخْتَلِجُ سَوَالُ أَنَّهُ كَيْفَ مَكَّنَ اللَّهُ إِبْلِيسَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ سَبْحَانَهُ إِلَّا لِنَعْلَمَ أَى لَمْ يَكُنْ تَمَكِينُهُ مِنْهُمْ، إِلَّا لِأَجْلِ أَنْ يَقَعَ مَعْلُومُنَا فِي الْخَارِجِ، فَقَدْ سَبَقَ، أَنَّ الْعِلْمَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِكَمَالِهِ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَعْلُومٌ خَارِجِيٌّ، فَقَوْلُنَا: عِلْمُ اللَّهِ، بِمَعْنَى أَنْ مَعْلُومُهُ صَارَ خَارِجِيًّا، وَ إِنْ كَانَ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْأَزْلِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ عَبَّرَ عَنِ الْمُؤْمِنِ بِذَلِكَ، لِتَلَازِمِ بَيْنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ، وَ بَيْنِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا أَى مِنَ الْآخِرَةِ فِي شَكٍّ فَلَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ، وَ الْحَاصِلُ أَنَّ يَتِمَكَّنُ الشَّيْطَانَ مِنْهُمْ، كَانَ لِأَجْلِ الْإِخْتِبَارِ وَ الْإِمْتِحَانِ، لِيَسْتَحِقَّ الْمُؤْمِنُ الثَّوَابَ، وَ الْكَافِرُ الْعِقَابَ وَ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

حَفِيزٌ يَحْفِظُ مَا عَمَلُوا لِيَجْزِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

[٢٣] وَاذْ تَمَّتْ قِصَّةُ سَبَأَ، يَأْتِي السِّيَاقُ إِلَى الْمَقْصِدِ الَّذِي سَيَقْتِ لَهُ تِلْكَ الْقِصَصُ مِنَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ، وَجَاءَتْ الْقِصَصُ لِيَبَيِّنَ عَاقِبَةَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ادْعُوا الْأَصْنَامَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَانظُرُوا، هَلْ يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ، وَهَلْ يَكْشِفُونَ ضَرْكَكُمْ؟ كَلَّا: إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ أَى مَقْدَارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٣

[سورة سبأ (٣٤): آية ٢٣]

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

ثَقُلَ هَبَاءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا كَيْفَ يَتِمَكَّنُ أَنْ يَضُرَّ أَوْ يَنْفَعُ؟ وَالْإِيْتَانِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ الْعَاقِلِ، مِمَّا شَاءَ مَعَ الْقَوْمِ، وَتَوْحِيدًا لِلْسِّيَاقِ فِي الرَّدِّ وَالنَّقْضِ، إِذْ كَانَ الْكُفَّارُ يَعْتَبِرُونَ الْأَصْنَامَ عَاقِلَةً عَامِلَةً وَمَا لَهُمْ أَى لِلْأَصْنَامِ فِيهِمَا أَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ شِرْكَ أَى مِنْ اشْتِرَاكِ، بِأَنْ خَلَقَ اللَّهُ بَعْضَهُمَا، وَخَلَقْتَ الْأَصْنَامَ بَعْضَهُمَا وَمَا لَهُ أَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْهُمُ أَى مِنَ الْأَصْنَامِ مِنْ ظَهْرِ عَاوَنِهِ وَعَاوَدِهِ عَلَى أَمْرٍ، فَهِيَ لَيْسَتْ مَالِكَةٌ لِشَيْءٍ، وَلَا شَرِيكَةٌ فِي خَلْقٍ، وَلَا مَعَاوَنَةٌ فِي أَمْرٍ، وَمِنْ هَذَا شَأْنُهُ، كَيْفَ يَتِمَكَّنُ مِنْ دَفْعِ ضَرْ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ؟

[٢٤] وَأَمَّا مَا يَزْعَمُ هَؤُلَاءِ، بِأَنْ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامِ لَهُمْ، قَائِلِينَ (هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) «١» فَإِنَّهُ كَذِبٌ، وَوَهُمْ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ تَعَالَى إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ فَمَنْ أَذِنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، شَفَعٌ وَقَبِلَتْ شَفَاعَتَهُ، وَمَنْ لَمْ يَأْذِنْ لَهُ لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنَ الشَّفَاعَةِ أَصْلًا كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) «٢» فَالْأَصْنَامُ، لَا تَشْفَعُ، وَالْكَفَّارُ لَيْسُوا قَابِلِينَ لِأَنْ يَشْفَعَهُمْ أَحَدٌ، فَكَلَّا وَهُمْ الْمُشْرِكِينَ، فِي الشَّفَاعَةِ وَالْمَشْفُوعِ

(١) يونس: ١٩.

(٢) الأنبياء: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٤

[سورة سبأ (٣٤): آية ٢٤]

قُلْ مَنْ يَزُوقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)

لَهُ هَبَاءٌ بَاطِلٌ، وَقَدْ ظَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ، أَنَّ الشَّفَاعَةَ، وَمَوْقِفَ الْقِيَامَةِ، أَمْرٌ هَيِّنٌ، حَتَّى أَنْ الْأَصْنَامَ لِتَشْفَعُ، كَلَّا! إِنَّهُمْ يَحْشُرُونَ فِي مَوْقِفِ رَهِيْبٍ، وَيَأْخُذُ الْفَرْعَ مِنْهُمْ كُلَّ مَا خَذَ، حَتَّى إِذْ أَسْمَاعُهُمْ لَا تَسْمَعُ - كَمَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْخَوْفِ الرَّهِيْبِ - إِذْ تَعْطَلُ حَوَاسُهُ - وَكَلِّمَهُمْ مَنظُرُونَ لِإِصْدَارِ الْأَوَامِرِ حَتَّى يَعْرِفُوا مَاذَا مَصِيرُهُمْ؟ وَيَقُونَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ أَى كَشَفَ اللَّهُ الْفَرْعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى حَالَتِهِمُ الْأَوَّلِيَّةِ، مِنَ الْوَعَى وَالْإِدْرَاكِ «وَيَقَالُ فَرْعٌ عَنْهُ» أَى كَشَفَ عَنْهُ الْفَرْعَ، وَهَنَّاكَ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ حَوْلَ مَصِيرِ النَّاسِ، كَمَا يَتَسَاءَلُ بَعْضُ الْمُجْرِمِينَ مِنْ بَعْضِهِمُ الْآخَرَ عَنِ اقْتِرَارِ الْمَحْكَمَةِ فِي حَقِّهِمْ - إِذَا لَمْ يَفْهَمَهُمْ؟ - قَالُوا أَمَا الْمَلَائِكَةُ، أَوْ الْمَسْئُولُونَ مِنْ أَمْثَالِهِمُ الْحَقُّ فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا - يَنْطِقُ إِلَّا - بِالْحَقِّ، وَهَذَا - عَلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي - مِثْلُ مَا إِذَا سَأَلَ بَعْضٌ مِنْ بَعْضٍ عَنِ اقْتِرَارِ الْمَحْكَمَةِ، فَإِنَّهُ يَجِيبُ بِقَوْلِهِ «عَلَى طَبَقِ الْقَانُونِ» وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَى الرَّفِيعُ الْعَظِيمُ، لَا - يَنْزَاعُ فِيهَا قَوْلًا، وَهَذَا جَوَابُ يَأْسٍ يَسْتَسَلِمُ لِلْقَضَاءِ، فَإِنْ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ، هَكَذَا، فَكَيْفَ تَشْفَعُ الْأَصْنَامُ، فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْمَهُولِ الْمَدْهَشِ.

[٢٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ احْتِجَاجًا عَلَيْهِمْ لِإِبْطَالِ شِرْكِهِمْ مَنْ يَزُوقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَالْأَرْضِ بِإِنْبَاتِ النَّبَاتِ؟ فَهَلِ الرَّازِقُ هُوَ اللَّهُ، أَمْ آلِهَتِكُمْ؟ وَطَبِيعِي أَنْ يَسْكُتَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٥

[سورة سبأ (٣٤): آية ٢٥]

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)

المشركون عن الجواب إذ لو قالوا هو الله، كان حجة عليهم، ولا يملكون أن يقولوا هو الصنم، لوضوح كذب هذه المقالة و إذا فليرد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، الجواب قُلْ لهم إذا سكنوا الله هو الذي يرزقكم، لا الأصنام و إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ لَعَلَى هُدًى فِي طَرِيقَتِنَا أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أَى ضلال واضح، وهذا على وجه الإنصاف، وإلا فالرسول كان يعلم أنه على هدى، وإنهم على ضلاله، كما

قال الإمام عليه السلام في الأبيات المنسوبة إليه

قال المنجم والطبيب كلاهما* لن يحشر الأموات، قلت إلكما إن كان قولكما، فليست بخاسر* أو كان قولي، فالخسار عليكما «١» [٢٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لَا تُشِيرُونَ أَيُّهَا الْكُفَّارِ، أَنْتُمْ عَمَّا أَجْرَمْنَا أَى اقترنا من الذنوب- بنظركم- أو المراد مجموع المؤمنين، فلا ينافى عصمة الرسول وَلَا نُسْأَلُ نحن يوم القيامة عَمَّا تَعْمَلُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارِ، وهذا كقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ) «٢» فإن لم تقبلوا مقالى، فذنبكم عليكم، لا يرتبط بنا، و جىء بقوله «لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا» توطئة و تمهيدا.

(١) ديوان الإمام على عليه السلام: ص ٣٩٦.

(٢) الكافرون: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٦

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)

[٢٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا نحن و أنتم رَبُّنَا يوم القيامة لنحاسب، فيعلم من المحق، و من المبطل؟ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ أَى يحكم بيننا حكما حقا، و كأن الأمر مسدود بين الخصمين، و الحاكم يفتح بينهما، حين يعطى لكل حصته، لثلا يبقى الأمر بينهما مختلطا متصلا وَ هُوَ سَبْحَانَهُ الْفَتْاحُ كثير الفتح، و الحكم بين المتخاصمين الْعَلِيمُ الْعَالِمُ، بما صدر عن كل، و بما يستحق كل واحد، فيكون حكمه حقا عدلا.

[٢٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ أَرُونِى الْأَصْنَامَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ لَهُمْ بِهِ أَى بالله شُرَكَاءَ أَى فى حال كونهم شركاء لله، فى زعمكم؟ و هذا استفهام توضيحي، كما تقول لمن يساوى جاهلا بعالم: أرني من هو المساوى لهذا العالم، تريد أن تبين له أن من تزعم مساواته، لا- يتمكن الإنسان، حتى من التفوه بمساواته له، و إتيان اسمه عند ذكر اسم العالم كَلَّا ليس كما تزعمون فى كون الأصنام شركاء لله تعالى بَلْ الْإِلَهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ سُلْطَانَهُ الْحَكِيمُ الذى يفعل كل شىء بحكمة و صواب، فهل للأصنام سلطان؟ أم هل لها من حكمه؟

[٢٩] وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ أَى للناس عامة،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٧

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٢٩ الى ٣١]

وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْذِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَ لَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَ لَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَأَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)

و كان تقديم «كافه» لإفاده أن الغرض المسوق له الكلام، هو عموم الرسالة، و إنما كان كافه بمعنى عامه، لأنها إذا عمّتهم، فقد كفتهم- و صفتهم- أن يخرج منها أحد منهم بشيراً تبشر المؤمنين المطيعين بالجنه و الثواب و نذيراً تنذر الكفار و العصاة، بالنار و النكال و لكنّ أكثر النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ رسالتك لإعراضهم عن الحق.

[٣٠] و إذ تقدم الكلام عن التوحيد و الرسالة، جاء دور المعاد و يَقُولُونَ أى الكفار المنكرون للبعث متى هذا الوعد أى فى أى زمان تقوم القيامة التى تعدونا بها؟ إن كُنْتُمْ أيها المؤمنون صادقين فى دعواكم وجود القيامة، و حشر الأجساد بعد الموت؟

[٣١] قُلْ يا رسول الله فى جوابهم لكم أيها الكفار ميعادُ يَوْمِ أى ميقات يوم ينزل بكم ما وعدتم من العذاب و النكال، و المراد وقت وفاتهم، أو يوم القيامة عند بعثهم لا- تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً أى لا- تتأخرون عن ذلك اليوم مقدار ساعة- التى هى جزء الزمن- و لا تَسْتَفِدُّونَ أى لا تتقدمون عليه مقدار ساعة، و كان الإتيان من باب الاستفعال، لبيان، أن طلب التقديم و التأخير، لا ينفع فلكل أجل و كتاب.

[٣٢] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٨

[سورة سبأ (٣٤): آية ٣٢]

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢)

الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لا- بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى بالكتب التى أنزلت قبل القرآن، كالتوراه و الإنجيل، فإن أهل الكتاب، كانوا يصدقون، بتلك الكتب، أما الكفار، فإنهم كانوا يفكرون بكل شىء و لو ترى يا رسول الله، أو كل من يأتى منه الرؤية إذ الظالمون فى يوم القيامة موقوفون للحساب عند ربهم جزاء لإنكارهم، و كفرهم يزجج بعضهم إلى بغض القول إما المراد ما سيأتى من المحاوره بينهم، و إما أنهم، كالمجرمين فى الدنيا، إذا أحضروا للمحاكمه، فإن هذا يرد القول إلى ذاك، و ذاك إلى هذا، كل يريد أن يتخلص من تبعه الجواب، و يؤمن على نفسه فلا- يجيب، حتى و إن علم بالأمر يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أى طلب ضعفهم الرؤساء، فاستغلوهم لضعف أفكارهم، و ضعف إمكانياتهم للذين استكبروا من الأشراف و الكبار المستكبرين عن قبول الحق لو لا أنتم تذلونا عن السبيل لكاننا نحن الأتباع مؤمنين بالله و اليوم الآخر، فى دار الدنيا، و إنما أنتم أضللتونا عن طريق الهدايه و الإيمان.

[٣٣] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا فِي جَوَابِ الْمُسْتَضَعِفِينَ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ أَي هَلْ نَحْنُ مَنَعْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٨٩

[سورة سبأ (٣٤): آية ٣٣]

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ، على نحو الاستفهام الإنكارى، أى إنا لم نصدكم، و لم نمنعكم، إذ لم تكن سلطه لنا عليكم بل كُنْتُمْ أنتم بأنفسكم مجرمين بتون الباطل، و ترغبون عن الهدى و الحق، فليس علينا تبعه ذنبكم، و إنما على أنفسكم.

[٣٤] وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَي الْأَتْبَاعِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَي الْمَتَّبِعِينَ مِنَ الْأَشْرَافِ إِنَّا لَمْ نَكْ بِأَنْفُسِنَا، و إنما أنتم صددمونا عن الهدى بل مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أى ما كنتم تمكرونه، ليلا و نهارا هو الذى منعنا عن قبول الحق، أى تدبيراتكم الخفيه، و إلقاءاتكم علينا هى التى وقفت دون إيماننا إذ تأمرونا أن نكفر بالله و نجعل له أندادا جمع ندى، و هو المثل و الضد، أى كنتم تقولون لنا، اجعلوا الله شركاء و أسروا الندامة أى أخفوا ندمهم عن أعمالهم السابقه، فلم يظهروا أنهم نادمين خوف الفضيحة لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي حال الحزن الشديد، لا يتكلم، و إنما تظهر عليه ملامح الندم، ساعة مندم و بعد ذلك، يقدمون للعذاب، ف جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا بأن يغلون فى النيران، كما قال سبحانه (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) «١» و هنا يأتى الاستفهام لبيان أن

ذلك جزاء

(١) الحاقفة: ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٠

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٣٤ إلى ٣٦]

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)

أعمالهم، و ليس ظلما عليهم هل يُجزَوْنَ هؤلاء الكفار إلا ما كانوا يَعْمَلُونَ أى لا يجوزون إلا جزاء أعمالهم.

[٣٥] وقد كان الانحراف عن الهداية، عادة عامة لجميع الأشراف، لدى مواجهة الرسل، فإن شرفهم المزعوم، كان يصددهم عن قبول الحق، و انخراطهم فى سلك المؤمنين و ما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ينذر الناس من عاقبة أعمالهم، و وبال كفرهم و عصيانهم إلا قال مُتْرَفُوهَا أى الأغنياء المتعمون بالترف، و الرفاه إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ أيها الأنبياء كَافِرُونَ لا نصدق به، و لا نقبله.

[٣٦] وَقَالُوا لِلأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم السَّلَامِ على وجه الكبر و التجبر نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا نحن أكرم منكم على الله، إذ لو لا- كرامتنا لم يتفضل الله علينا، بهذا المال الكثير، و الأولاد العديدين و ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ يوم القيامة فإن الله سبحانه لا يعذبنا، كما تقولون أنتم الأنبياء، إن الله يعذب الكافر العاصي.

[٣٧] و هكذا كان يقول أشراف مكة فى مقابل الرسول قُلْ يا رسول الله فى جوابهم، إن كثرة الأموال و الأولاد، ليست دليلا على حب الله للشخص، و إنما التوسعة و التضيق حسب المصلحة و الحكمة، ف إِنَّ رَبِّي الذى خلقنى و أرسلنى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ من عبده

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩١

[سورة سبأ (٣٤): آية ٣٧]

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآتِي تَقَرُّبِكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)

وَيَقْدِرُ أى يضيق حسب ما يراه حكمه و صلاحا فالتوسعة على المؤمن للثواب و الجزاء، و على الكافر للإملاء و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ذلك، فيظنون أن كثرة المال و الأولاد، لكرامة الشخص على الله تعالى.

[٣٨] و ما أَمْوَالُكُمْ أيها البشر و لا أَوْلَادُكُمْ التى منحتها بالمكانة التى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ مصدر زلف بمعنى قرب، و هو منصوب على المصدرية أى تقربكم تقربا إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فإن الإيمان و العمل الصالح مقربا لله سبحانه، و الاستثناء منقطع، و الأصل لا تقرب إلا الإيمان، و العمل الصالح، لا الأموال و الأولاد- كما سبق، فى وجه الاستثناءات المنقطعة- فَأُولَٰئِكَ الذين آمنوا و عملوا الصالحات لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى إن جزاءهم مضاعف، فهو أضعاف أعمالهم، كما قال سبحانه (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ مَثَلًا) «١» بسبب ما عَمِلُوا من الإيمان و الصالحات و هُمْ فِي الْغُرُفَاتِ جمع غرفه و هى البيت فوق البناء، أى فى غرف الجنة آمِنُونَ من الأهوال، و الأحزان، و المصائب.

(١) الأنعام: ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٢

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٣٨ إلى ٣٩]

وَالَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

[٣٩] وَالَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ فِي آيَاتِنَا أَى لِإِبْطَالِ آيَاتِنَا وَ أَدْلَتِنَا مُعَاجِزِينَ يَرِيدُونَ تَعْجِيزَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِأَعْمَالِهِمْ، حَتَّى لَا يَتِمَّ كُنُوزُنَا مِنَ الْإِرْشَادِ وَ التَّبْلِيغِ، وَ الْإِتْيَانِ مِنْ بَابِ «الْمَفَاعَلَةُ» لِأَنَّ كَلَامًا مِنَ الطَّرْفَيْنِ يَرِيدُ تَعْجِيزَ الْآخَرِ عَنْ تَنْفِيزِ مَبْدِئِهِ وَ صَدِّ الْآخَرِ عَنْ التَّنْفِيزِ، فَالنَّبِيُّ يَرِيدُ عَجْزَ الْكُفَّارِ، وَ هُمْ يَرِيدُونَ عَجْزَ النَّبِيِّ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ أَى يَحْضَرُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْعَذَابِ، بِالْقُوَّةِ وَ الْقَهْرِ، كَمَا يَحْضَرُ الْمُجْرِمَ فِي السِّجْنِ.

[٤٠] وَ إِذْ كَانَ الرِّزْقُ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالَّذِي يَبْقَى مِنْهُ، هُوَ الْمَنْقُوعُ فِي سَبِيلِهِ، فَلَيْسَ سَعَةُ الرِّزْقِ دَلِيلٌ حُبَّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - كَمَا زَعَمَ الْكُفَّارُ - وَ إِنَّمَا الْإِنْفَاقُ مِنْهُ، مُوجِبٌ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَى يُعْطِيهِ الرِّزْقَ الْوَاسِعَ الْمَبْسُوطَ وَ يَقْدِرُ لَهُ أَى يَقْدِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، فَالضَّمِيرُ يَعُودُ، إِلَى لَفْظِ «مَنْ» لَا إِلَى مَعْنَاهُ، فَالْمَبْسُوطُ لَهُ غَيْرُ الْمَقْتَرِ عَلَيْهِ، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: «وَ إِنَّمَا كَرَّرَهُ سُبْحَانَهُ لِاخْتِلَافِ الْفَائِدَةِ، فَالْأَوَّلُ تَوْبِيخٌ لِلْكَافِرِينَ، وَ هُمُ الْمَخَاطَبُونَ بِهِ، وَ الثَّانِي، وَعِظٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» «١» وَ مَا أَنْفَقْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ شَيْءٍ قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ، مِنْ مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُخْلِفُهُ أَى يُعْطِيكُمْ خَلْفَهُ وَ عَوْضَهُ، فِي الدُّنْيَا بِزِيَادَةِ الرِّزْقِ، وَ فِي الْآخِرَةِ بِالْأَجْرِ وَ الثَّوَابِ

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ٢٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٣

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٤٠ إلى ٤١]

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَ لِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)

وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لِأَنَّهُ يُعْطِي بِلَا مَنْ، وَ لَا تَوْقِعَ جِزَاءً، وَ لَا لَغَايَةَ أُخْرَى، بِخِلَافِ سَائِرِ الرَّازِقِينَ مِنَ النَّاسِ، الَّذِينَ يَقْصِدُونَ بِإِنْفَاقِهِمْ غَايَةَ وَ مَقْصِدًا، أَمَا الشُّكْرُ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَطْلُبُهُ لِنَفْعِ الْخَلْقِ، لَا لِنَفْعِهِ.

[٤١] وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ أَى نَحْشُرُ الْكُفَّارَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ جَمِيعًا الْعَابِدِينَ وَ الْمُعْبُودِينَ، وَ الْمَرَادُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ بِقَصْدِ فَضْحِ الْعَابِدِينَ لَهُمْ أَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ وَ الْقَصْدُ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ تَبْرُؤُ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُمْ، حَتَّى يَبْقُوا بِلَا نَاصِرٍ حَتَّى مِنْ مَعْبُودِيهِمْ.

[٤٢] قَالُوا أَى قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ سُبْحَانَكَ أَى نَتَزَهَّكُ يَا رَبِّ تَتَزَيَّهَنَّ عَنِ الشَّرِيكِ، وَ سُبْحَانَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَى نَسْبِحُ سُبْحَانَ أَنْتَ وَ لِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ أَى مِنْ دُونِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا- وَ لِيَايَةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ بَلْ كَانُوا أَى كَانَ هَؤُلَاءِ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَى الشَّيَاطِينَ، حَيْثُ أَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ يُوحُونَ إِلَيْهِمْ بِعِبَادَةِ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنَّ) «١» أَكْثَرُهُمْ أَى أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ بِهِمْ أَى بِالْجِنِّ مُؤْمِنُونَ مُصَدِّقُونَ لِمَا

(١) الكهف: ٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٤

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

فَالْيَوْمَ لَا يَخْلُوكَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مُفْتَرٍ وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا

جاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)

يوسوسون إليهم، و كأن الملائكة يريدون بذلك التكثير من تبكيت الكفار بأن مرجع عبادتهم للملائكة كان إلى عبادتهم للشياطين، و الإتيان بلفظ «الجن» لتسمية الشيطان في الجاهلية، ب «الجن».

[٤٣] فَالْيَوْمَ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ ذَلِكَ الْمَشْهَدُ وَ الْحَوَارِ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَى لَا يَمْلِكُ الْمَعْبُودِينَ لِلْعَابِدِينَ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا لَا ثَوَابًا وَ لَا عِقَابًا، وَ إِنَّمَا الثَّوَابُ وَ الْعِقَابُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَ هَكَذَا يَخْسِرُ الْعَابِدُونَ، حَتَّى مِنْ نَصْرِ الْمَعْبُودِينَ وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا أَى بَتَلِكِ النَّارِ تُكذَّبُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حِينَ أَنْكُرْتُمْ الْبَعْثَ وَ النُّشُورَ.

[٤٤] ثُمَّ يَرْجِعُ السِّيَاقُ إِلَى حَالِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ يَبِينُ لَهُمْ، أَنَّ حَالَهُمْ هُنَاكَ الْخِزْيَ وَ الْعَذَابَ، أَنَّ تَمَادَوْا فِي ضَلَالِهِمْ وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ أَى يَقْرَأُ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الْكُفَّارِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، فِي حَالِ كَوْنِهَا وَاضِحَاتٍ قَالُوا أَى قَالَ الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا هَذَا الَّذِي يَدْعَى الرَّسَالَهَ، وَ يَأْتِي بِهَذِهِ الْآيَاتِ إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ أَى يَمْنَعُكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَ الْمَلَائِكَةُ، وَ الْجِنِّ، وَ غَيْرِهَا، فَقَدْ رَأَوْا أَنَّ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ هَدْمًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٥

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)

لتقاليدهم و قالوا بعضهم لبعض ما هذا القرآن إلا إفك كذب مفترى نسبة الرسول إلى الله افتراء، فإنه لم ينزل من عنده، و إنما اختلقه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و نسبه إليه سبحانه و قال الذين كفروا للحق أي للقرآن لما جاءهم لهدايتهم إن هذا أي ما هذا إلا سحر مبين واضح، إذ يؤثر في الناس، فيجلب الأتباع، و لا يمكن للفصحاء الإتيان، بمثله، فالرسول كاذب مفترى، و القرآن سحر - في منطق الكفار الأعوج -.

[٤٥] إِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَقُولُونَ، إِنْ الْقُرْآنَ كَذِبٌ وَ سِحْرٌ أَمْثُونَ، لَمْ يَأْتِيهِمْ قَبْلَ هَذَا كِتَابٌ وَ رَسُولٌ حَتَّى يَمَيِّزُوا بَيْنَ الْوَحْيِ وَ غَيْرِهِ، وَ بَيْنَ الرَّسُولِ وَ الْمَفْتَرِي، فَقَوْلُهُمْ حَوْلَ الْقُرْآنِ وَ الرَّسُولِ، قَوْلُ الْجَاهِلِ الْمَأْفُونِ وَ مَا آتَيْنَاهُمْ أَى أَعْطَيْنَاهُمْ، وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا أَى يَقْرَءُونَهَا دَرَسًا حَتَّى يَعْرِفُوا مَا هُوَ الْوَحْيُ؟ وَ يَمَيِّزُوا بَيْنَ الْمَنْزِلِ وَ الْمَفْتَرِي وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَى إِلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ قَبْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ نَذِيرٍ حَتَّى يَمَيِّزُوا بَيْنَ الرَّسُولِ وَ السَّاحِرِ، فَقَوْلُهُمْ، فَيْكَ وَ فِي كِتَابِكَ قَوْلُ جَاهِلٍ أَمِي، فَهَمْ مَعَانِدُونَ مُتَبِعُونَ لِلْهَوَى فِي أَقْوَالِهِمْ، لَا إِنْهَا عَن عِلْمٍ وَ دَرَايَةٍ وَ خَبْرَةٍ.

[٤٦] وَ كَذَّبَ الْأُمَمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى مِنْ قَبْلِ كُفَّارِ قَوْمِكَ، رَسَلَهُمْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٦

[سورة سبأ (٣٤): آية ٤٦]

قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَ فَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) وَ مَا أَتَاهُمْ اللَّهُ مِنَ الْكُتُبِ وَ مَا بَلَّغُوا أَى مَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ أَى مِعْشَارَ الْقُوَّةِ وَ الْمَالِ، وَ طُولِ الْعُمُرِ الَّتِي أَعْطَيْنَاهَا إِلَى تِلْكَ الْأُمَمِ، وَ مِعْشَارَ بِمَعْنَى عَشْرٍ فَكَذَّبُوا أَوْلَئِكَ الْأُمَمِ رُسُلِي الَّذِينَ أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ؟ أَى إِنْكَارِي وَ عَقُوبَتِي عَلَى الْمَكْذِبِينَ، فَقَدْ عَاقَبْتَهُمْ، بِأَشَدِّ الْعُقُوبَاتِ مَعَ تِلْكَ الْقُوَّةِ وَ الْمَالِ، فَلِيحْذَرِ هَؤُلَاءِ الضَّعْفَاءَ - مِنْ قَوْمِ الرَّسُولِ - عَقُوبَتِي إِنْ تَمَادَوْا فِي غَيْبِهِمْ وَ كَفَرَهُمْ؟.

[٤٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ الْوَعظَ هُوَ النَّصِيحَةُ بِوَاحِدَةٍ أَى أَنْصَحُكُمْ بِجَمَلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَ هِيَ أَنْ تَقُومُوا بِهَذَا الْعَمَلِ، لِ- مِنْ الْقِيَامِ مُقَابِلِ الْقُعُودِ لِلَّهِ بِأَنَّ كَانَ عَمَلِكُمْ لَهُ، خَالِصًا عَنِ التَّقْلِيدِ وَ الْعَصِييَةِ وَ الْأَهْوَاءِ مَثْنَى وَ فَرَادَى اثْنَيْنِ وَ وَاحِدًا وَاحِدًا،

فمن كان له قدرة في التفكير حول الرسول بنفسه بلا معين، فليفكر في نفسه، و من لا قدرة له في التفكير منفردا، فليتخذ صديقا ليداول معه الحديث حول الرسول، و القرآن و الإسلام ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ أَى لیس بالرسول الذى هو صاحبكم مِنْ جَنَّةِ أَى شَيْئًا و أثرا من الجنون فإنكم إذا فعلتم ذلك، و خرجتم عن ضوضاء الجماعات إلى الافراد و التثنية فى تفكير هادئ «الله» لعلمتم ذلك إن هُوَ أَى لیس الرسول إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ يَنْذِرُكُمْ عَنِ التَّمَادَى فى الكفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٧

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٤٧ الى ٤٩]

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنْ رَبِّي يَمْسُدُ بِالْحَقِّ عَلَامُ الْعُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ (٤٩)

و العصيان بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَإِنَّهُ يَأْتِي مِنْ وَرَائِهِ عَذَابُ الْقِيَامَةِ، إِنْ بَقِيتُمْ فى الكفر و الضلالة، فهو يريد إنقاذكم. [٤٨] قُلْ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَى كَلَّ أَجْرَ أَسْأَلُهُ مِنْكُمْ عَلَى أَدَائِي لِلرَّسَالَةِ فَهُوَ لَكُمْ وَ هَذَا تَعْبِيرٌ آخَرَ عَنْ عَدَمِ سْؤَالِهِ لِلْأَجْرِ، فَإِنْ تَزْعُمُونَ أَنِّي أَدْعَى الرَّسَالَةَ لِتَحْصِيلِ الْمَالِ، فَإِنِّي لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ الْمَالَ، وَقِيلَ إِنْ مَعْنَاهُ، أَنْ كَلَّ مَا سَأَلْتَهُ مِنْ أَجْرٍ - مِنْ الْمُوَدَّةِ فى الْقُرْبَى - فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَيْكُمْ، فَإِنْ قُرْبَاى يَرشُدُونَكُمْ إِلَى الْحَقِّ، فَهَذَا لَيْسَ عَائِدًا لى، بَلْ عَائِدٌ لَكُمْ، كَمَنْ يَجْمَعُ الْمَالَ مِنْ النَّاسِ، لِيُنْبِئَهُمْ لَهْمَ دَوْرًا وَ قِصُورًا، فَإِنْ مَا يَأْخُذُهُ يَعُودُ إِلَيْهِمْ إِنْ أَجْرِي أَى مَا أَجْرِي عَلَى الْبَلَاغِ وَ الرَّشَادِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فَهُوَ يُعْطِينِي جِزَاءَ عَمَلِي وَ أَتْعَابِي وَ هُوَ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ حَاضِرٌ، فَيَعْلَمُ مِقْدَارَ أَجْرِي، وَ يُعْطِينِي كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ. [٤٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ إِنْ رَبِّي يَمْسُدُ بِالْحَقِّ أَى يَلْقِيهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ، فَهَذَا الْإِسْلَامُ وَ الْقُرْآنُ حَقٌّ، قَذَفَهُ اللَّهُ إِلَيَّ، وَ لَيْسَ سِحْرًا أَوْ إِفْكَا، كَمَا تَزْعُمُونَ عَلَامُ الْعُيُوبِ أَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرَ الْعِلْمِ بِالْغَيْبِ، فَلَا يَلْقَى إِلَّا مَا يَعْلَمُ أَنَّهُ صَالِحٌ لِلْبَشَرِ، كَمَا لَا يَلْقَى إِلَّا إِلَى مَنْ يَصْلِحُ لِلْقِيَامِ بِهِ.

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارِ جَاءَ الْحَقُّ وَ هُوَ الْإِسْلَامُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٨

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٥٠ الى ٥١]

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَ إِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَ لَوْ تَرَى إِذِ فَرَعُوًّا فَلَا قُوَّةَ وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)

وَ مَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ أَى زَهَقَ الْبَاطِلُ، وَ ذَهَبَ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ فَلَا مَبْدِئَ لَهُ، وَ لَا مَعِيدَ، فَلَا يَأْتِي أَحَدٌ يَجْدُدُ الْبَاطِلَ مِنْ الْإِبْتِدَاءِ أَوْ يُعِيدُهُ بَعْدَ الْإِنْتِثَارِ، كَمَا لَوْ كَتَبَ إِنْسَانٌ كِتَابًا رَاقِيًا فى بَطْلَانِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، يَقُولُ لَا يَأْتِي أَحَدٌ يَسْتَدِلُّ بِصِحَّةِ عِبَادَةِ سَائِرِ الْمَعْبُودَاتِ الْبَاطِلَةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَ لَا أَحَدٌ يَسْتَدِلُّ بِصِحَّةِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَ الْمُرَادُ عَدَمُ وَجُودِ بَاطِلٍ يَتِمَكَّنُ أَنْ يَقُومَ مِقَابِلَ هَذَا الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ، سِوَاءِ كَانَتْ أَبَاطِيلٌ تَخْتَرَعُ جَدِيدَةً، أَوْ أَبَاطِيلٌ سَابِقَةً، يَرَادُ إِعَادَةَ جَدِثِهَا وَ رَوْنِقِهَا، وَ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى (لَا رَيْبَ فِيهِ) «١» [٥١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَنْكَ، إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ ضَلَّ عَنْ طَرِيقَةِ قَوْمِهِ إِنْ ضَلَلْتُ عَنْ الْحَقِّ كَمَا تَدْعُونَ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي أَى يَرْجِعُ وَ بِأَلِ ضَرَرِي عَلَيَّ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنِّي ضَالٌّ، فَلَا- تَوْمَنُوا بى، وَ لِمَاذَا تَتَعَرَّضُونَ لى بِالْمَنْعِ وَ الْإِيذَاءِ؟ وَ إِنْ اهْتَدَيْتُ إِلَى الْحَقِّ فَبِمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي أَى بِفَضْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، تَكُونُ هِدَايَتِي، حَيْثُ أَوْحَى إِلَيَّ، وَ أَرشُدْنِي إِلَى الطَّرِيقِ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ سَمِيعٌ لَأَقُولُنَا قَرِيبٌ مِنَّا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ الْمَحْقُوقُ مِنَ الْمَبْطُلِ.

[٥٢] وَ لَوْ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي إِذِ فَرَعُوًّا أَى خَافَ هُوْلَاءِ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ فَلَا قُوَّةَ أَى فَلَا يَفُوتُ مِنْ عَذَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٣٩٩

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٥٢ إلى ٥٣]

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

الله منهم أحد، و لا- ينجو من بأسه كافر و أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ و هو القبر، فمكانهم ليس بعيدا على الله يحتاج في أخذهم إلى صعوبة، و طول مدة، كما يكون كذلك بالنسبة إلى حكام العالم، حيث يتعد منهم المجرمون، فيكون في أخذهم لهم صعوبة و طول مدة، و جواب «لو» محذوف، أى لو رأيت ذلك لرأيت أمرا فظيحا مهولا.

[٥٣] وَقَالُوا أى قال الكفار حين ذاك آمَنَّا بِهِ أى آمنَّا بالله و الرسول و ما جاء به و أَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ أى من أين يكون لهم الانتفاع بإيمانهم هناك، و التناوش بمعنى التناول، أى لا يتمكنون من تناول الإيمان المفيد لحالهم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ فالدنيا قد ابتعدت عنهم، و الإيمان المفيد كان فى الدنيا لا- فى الآخرة، و من أين لهؤلاء أن يتناولوا الإيمان النافع الذى خلفوه وراءهم فى الدنيا؟ و هذا على ضرب من الاستعارة اللطيفة.

[٥٤] وَقَدْ كَفَرُوا أى هؤلاء الكفار به أى بالإسلام و الدين مِنْ قَبْلُ فى الدنيا و يَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ أى أنهم يقولون لا جنه و لا نار، و ذلك غيب بعيد، و إنما قولهم ظن، و المعنى أنهم يرجمون الظن بالمكان الغائب عن حواسهم، و هم بعيدون عنه- و المراد بذلك المكان الآخرة- فكما أن الحجارة إذا رجمت من البعيد فى مكان غائب لا يراه الراجم، لا تصيب الهدف، كذلك ظن هؤلاء بالنسبة إلى الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٠

[سورة سبأ (٣٤): آية ٥٤] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٤٤٩

[سورة سبأ (٣٤): آية ٥٤]

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

[٥٥] وَحِيلَ بَيْنَهُمْ أى فرق بين هؤلاء الكفار- يوم القيامة- وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ من النعيم و الكرامة، فلا يرون نعيما، و لا كرامة، بعد ذلك كَمَا فُعِلَ مثل ذلك بِأَشْيَاعِهِمْ أى بأفعالهم من الكفار السابقين، و الأشياء هم المقتدون، مقابل الأتباع مِنْ قَبْلُ أى من قبل هؤلاء إِنَّهُمْ إنما فعل ذلك بهم لأنهم كانوا فى الدنيا فى شَكٍّ من البعث و النشور مُرِيبٍ موجب للريب و الانعزال عن الحق، فإن الإنسان إذا شك، و لم يظهر أثرا، قيل له شك، فإذا أظهر أثر الشك، قيل له ريب و هذا إشارة إلى أنهم لم يكونوا يقطعون بعدم المعاد، و لكنهم كانوا شاكين، و إنما قادهم إلى الإنكار تقليدهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠١

٣٥ سورة فاطر مكية / آياتها (٤٦)

و تسمى بسورة الملائكة أيضا لاشتمالها على كلا اللفظين، و هى كسائر السور المكية- غالبا- تعالج قضايا العقيدة، و أصول الدين، و إذ ختمت سورة «سبأ» بالمحاوره مع الكفار و المنكرين للألوهية و المعاد، ابتدأت هذه السورة بشؤون الله تعالى، الداله على توحيده، و تصرفه فى الكون.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله، ليكون شعارا لفظيا للمسلم، فإن لكل أمة و اعية شعارات لفظية، عند القراءة و كتابية عند الكتابة، و إشارية عند الإشارة، و اسم الله، أعظم من جميع الشعارات المتصورة، فإنه اسم من يرتبط به الخلق و الأمر، و الإتيان بوصفى الرحمن الرحيم، للإشارة إلى أن ما اتخذناه شعارا متصف بالرحمة المكررة، و هو من أجلب الصفات للإنسان، فإن كل خير له مرتبط بالرحمة و الفضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٢

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

[٢] الْحَمْدُ لِلَّهِ أى أن جنس الحمد، راجع إلى الله سبحانه، إذ جميع النعم منه، حتى ما يصل إلى الإنسان بواسطة أحد، فإنه منه سبحانه ابتداء، وإنما يأتي بالواسطة فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أى خالقهما من «فطر» بمعنى خلق جاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا جمع رسول، وهو الآتى بالكلام من قبل شخص إلى غيره، فإن الملائكة يأتون بالرسالات من الله سبحانه إلى الأنبياء، فى حال كونهم أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ أى أصحاب أجنحة، كأجنحة الطير، ليتمكنوا بها من الهبوط والعروج، وإن كان جناحهم من شكل غير مدرَك- إلا إذا شاء الله ذلك- مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة أجنحة، وهذا صفة لأجنحة، معدولة عن اثنين اثنين، و ثلاثة ثلاثة، و أربعة أربعة يزيد الله سبحانه فى الْخَلْقِ ما يَشَاءُ أى أن الخلق بيد الله سبحانه، فلم يعجز تعالى عن خلق ما زاد عن السماوات والأرض والملائكة، بل إنه كلما شاء خلقا خلقه إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فلا يمتنع عليه شىء.

[٣] إن الله هو الخالق القادر، وإنه هو المعطى المانع ف ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا أى ما يفيضه عليهم من النعم والخير، لا أحد هناك يتمكن من المنع عنها، والإمساك لها حتى لا تصل إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٣

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣ إلى ٤]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هِيَ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ يَزُقُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا- هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)

الناس وَمَا يُمْسِكُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد الله سبحانه، فإنه إذا لم يرد إعطاء أحد شيئاً لم يكن هناك من يقدر على إعطائه وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ على أمره الْحَكِيمُ فى أفعاله يفعلها حسب الحكمة والصلاح، فكل شىء صنعه بحكمته ومصلحته، كما أن كل شىء أرادته صار لأنه العزيز القادر.

[٤] و إذ تقدم التذكير ببعض نعم الله على البشر، وبعض آثار عظمتته وجلاله، يتوجه السياق إلى المشركين ليوقظهم من غفلتهم يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ و كأن الإنسان يعلم فى باطنه نعم الله لكنه ينسى، فاللازم أن يتذكر هِيَ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ و الجواب كلا- لا- خالق إلا الله سبحانه، ثم هل من أحد غير الله يَزُقُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ الْمَطْرَ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْبِتُ النَّبَاتِ؟ والجواب كلا- فلا- رازق إلا الله لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ و إذ ثبت أن لا خالق ولا رازق إلا الله، ثبت أنه لا إله إلا هو فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى كيف تصرفون عن طريق الحق إلى الضلال؟ من أفك بمعنى انصرف، ومنه يسمى الإفك إفكاً، لأنه صرف للكلام عن الحقيقة إلى خلاف الواقع.

[٥] و إذ تقدم الكلام حول التوحيد، يأتى الكلام حول الرسالة وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ هُوَ الْكَافِرُ، يا رسول الله، فيقولون، لست أنت، بنبي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٤

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٥ إلى ٦]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)

فَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ هذا تسلياً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ليس الوحيد الذى كذبه قومه، وإنما الرسل هكذا، فإن أقوامهم يكذبونهم وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أى أمر تكذيب هؤلاء يعرض على الله سبحانه، فيجازيهم على تكذيبهم، وأمر ك يعرض

عليه، فيجازيك على صبرك، و صمودك.

[٦] ثم يأتي السياق لبيان المعاد- الذي هو الأصل الثالث من الأصول- يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعِيدَ اللَّهِ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ حَقٌّ لَا كَذِبَ فِيهِ، فكلكم تحشرون للجزاء فَلَا تُعْرَضَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِتْنَةً بِمَلَاذِمِهَا وَرِثَاسَتِهَا، فتعصون الله لأجلها حتى يكون مصيركم إلى النار وَلَا يُعْرَضَنَّكُمْ بِاللَّهِ أَى بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْعُرُورُ الشَّيْطَانِ الْكَثِيرِ الْخِدَاعِ، فترون سكوته سبحانه، و عدم تعجيله العقاب، فتمادون في الغي و الطغيان، فيأتيكم العذاب بغتة، و أنتم في غفلة.

[٧] إِنَّ الشَّيْطَانَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ عَدُوٌّ يُرِيدُ لَكُمْ الْهَلَاكَ وَالْعَذَابَ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا أَى اعملوا معه، عمل العدو مع عدوه، بأن لا تطيعوه و اجتنبوا عن مكره و خدعه إِنَّمَا يَدْعُوا الشَّيْطَانَ حِزْبَهُ أَى أَنْصَارَهُ وَأَعْوَانَهُ مِنَ الْعِصَاةِ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ أَى النَّارِ الْمُسْتَعْرَةِ الْمَلْتَهَبَةِ، فلا تتبعوه ليوردكم النار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٥

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٧ الى ٨]

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)
ذات اللهب و الاشتعال.

[٨] الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، لاتباع الشيطان، و امتثال أمره لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الْآخِرَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، و بما يجب الإيمان به و اعملوا الأعمال الصَّالِحَاتِ و ذلك يلازم ترك السيئات- كما سبق- لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَى غفران لذنوبهم، فإن «مغفرة» مصدر ميمي و أَجْرٌ كَبِيرٌ جزاء على إيمانهم و أعمالهم الصالحة.

[٩] أَفَمَنْ الهمزة للاستفهام الانكارى، و الفاء عاطفة، أى هل الذى زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ أَى زين الشيطان فى عينه عمله السيئ كالكفار و العصاة، الذين يبررون أعمالهم السيئة بألف مبرر موهوم فَرَآهُ حَسِينًا أَى رأى عمله السيئ حسنا و هذا بطبيعة الحال فى سطح الذهن، أما فى أعماقه، فإنه يعلم بقبح عمله، و لذا لو خلى بنفسه و تفكر، أو ذكره بعض الناس، و كان منصفاً، اعترف بقبح عمله، و قد حذف عدل الهمزة، أى أفمن كان كذلك، كمن ليس هكذا؟ و الجواب الطبيعى أنهما لا يتساويان، و إنما جىء بهذا العدل فقط لأن سوق الكلام كان حول الكفار، ثم يأتي السياق ليسلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يأسف على هؤلاء الذين انحرفوا عن علم و دراية فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ أُرْسِدَهُ لِلطَّرِيقِ، و بلغه فلم يقبل، فإنه سبحانه يتركه يضل و ينحرف، و لا يلفظ به الألفاظ الخفية، و هذا كما يقال أفسد الملك شعبه، إذا تركهم يفسدون، و لم يجبرهم على الاستقامة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٦

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٠]

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ (١٠)
و يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ قَبْلَ الْبَلَاغِ وَالرَّشَادِ، فإنه سبحانه يلفظ به الألفاظ الخفية فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و معنى ذهاب النفس هلاكها، أو شدة حزنها و غمها، حتى تكون كالهالكه عَلَيْهِمْ أَى على هؤلاء الكفار حَسِرَاتٍ منصوب على المصدر، أى لا تذهب نفسك تتحسر عليهم حسرات، و الحسرة شدة الحزن على ما فات، أو يفوت من الأمر المرغوب فيه إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ من الكفر و العصيان، و مثل هذا الإنسان المعاند، لا يستحق أن يتحسر الرسول عليه.

[١٠] ثم يرجع السياق إلى أدلة الألوهية و التوحيد، فى قبال الكفار و المشركين و الله هو الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بِخَلْقِهَا، أو تصريفها من هنا إلى هنا فَتُثِيرُ أَى تهيج الرياح سَحَابًا المراد به الجنس، لا الفرد فَسُقْنَاهُ أَى سقنا السحاب إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ مات زرعها، و جفت أنهارها

فَأَحْيَيْنَا بِهِ أَى بِسَبَبِ ذَلِكَ السَّحَابِ الْمَاطِرِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالْجَدْبِ، وَ عَدَمِ النَّبْتِ، بَأَن أُنْبِتْنَا فِيهَا الْكَلَأَ، بَعْدَ أَن لَمْ يُمْكِنَ كَذَلِكَ النَّشُورُ أَى كَمَا حَيَّيْتُ هَذِهِ الْأَرْضَ الْجَدْبَةَ الْمَيْتَةَ كَذَلِكَ نَشُورَ الْبَشَرِ وَ حَيَاتِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ الْقَادِرَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ، قَادِرٌ عَلَى بَعثِ الْإِنْسَانِ، وَ نَشُورِهِ بَعْدَ أَن مَاتَ.

[١١] إِنْ الْكُفَّارَ لَا- يُؤْمِنُونَ خَوْفًا مِنْ ذَهَابِ عَزْتِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، حَيْثُ يَطْرُدُهُمُ الْمَجْتَمَعُ الْكَافِرُ، لَكِنِ الْإِلْزَامُ أَنْ لَا يُمْنَعُ الْإِنْسَانُ هَذَا عَنِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ إِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ بِيَقَائِهِ عَلَى الْكُفْرِ، أَنْ تَسْمَعَ لَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٧

الْكَلِمَةَ، وَ يَقْبَلُ لَهُ الْعَمَلُ عِنْدَ أَصْدِقَائِهِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ الْإِسْلَامِيَّ، وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، يَقْبَلَانِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَجْتَمَعِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ الدُّنْيَوِيَّةَ، بَأَن يَكُونَ عَزِيْزًا عِنْدَ النَّاسِ، نَافِذًا الْكَلِمَةَ لَدَيْهِمْ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا أَى فَلْيَطْلُبْهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِزَّةِ لَهُ، حَتَّى أَنْ الْعِزَّةَ الْمَوْجُودَةَ لَدَى الْكُفَّارِ، هِيَ مَنَحَةُ اللَّهِ لَهُمْ، كَمَا مَنَحَهُمُ الرِّزْقَ وَ الْحَيَاةَ، وَ سَائِرَ الْخَيْرَاتِ لِلْإِيمَانِ وَ الْإِرْشَادِ وَ النَّصِيحَةِ وَ غَيْرِهَا، كُلِّهَا تَصْعَدُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، نَافِذَةٌ لَدَيْهِ، فَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ، كَانَ مَسْمُوعَ الْكَلِمَةِ لَدَيْهِ تَعَالَى، وَ هُوَ خَيْرٌ مِنْ كَوْنِهِ مَسْمُوعَ الْكَلِمَةِ عِنْدَ الْكُفَّارِ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي هُوَ الْخَيْرُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الشَّرِيعَةِ كَالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ، وَ صَلَوةِ الرَّحْمِ، وَ بَرِّ الْوَالِدِينَ، وَ غَيْرِهَا يَرْفَعُهُ سُبْحَانَهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَمَنْ يَرِيدُ الْكُفْرَ، لِيَكُونَ عَمَلُهُ مَقْبُولًا عِنْدَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ مَنْ آمَنَ، رَفَعَ عَمَلَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ خَالِقِ الْكُونِ، وَ هَلْ تَقَاسَ الْمَقْبُولِيَّةُ، عِنْدَ اللَّهِ بِالْمَقْبُولِيَّةِ عِنْدَ النَّاسِ؟ وَ الْمَرَادُ بِالصُّعُودِ وَ الرَّفْعِ الرَّتْبِيَّ، بِاعْتِبَارِ رَفْعِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ سَمُوهُ الْمَعْنَوِيَّ، أَوْ الْمَرَادُ الْخَارِجِيَّ، فَإِنَّ الْأَقْوَالَ وَ الْأَعْمَالَ تَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ، حَيْثُ مَحَلُّ الْمَلَائِكَةِ، وَ مَأْوَى أَرْوَاحِ الصَّالِحِينَ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ أَى يَدْبُرُونَ دَفْعَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي خَفِيئِهِ، فَإِنَّ الْمَجْرِمِينَ دَائِمًا يَدْبُرُونَ الْإِجْرَامَ وَ الْمَعَاصِيَ فِي اللَّيَالِي، وَ فِي بَعْدِ عَنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٨

[سورة فاطر (٣٥): آية ١١]

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

عِيُونَ النَّاسِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الْآخِرَةِ وَ مَكْرٌ أَوْلَيْتَكَ هُوَ يُبَوِّرُ مِنْ «بَار» إِذَا فَسَدَ، أَى أَنْ مَكْرَهُمْ يَفْسُدُ، وَ لَا يَنْفُذُ، فَنَهَايَةُ الْعَمَلِ وَ الْقَوْلِ الصَّالِحِينَ، الرَّفْعَةُ وَ الْعِزَّةُ، وَ نَهَايَةُ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ وَ مَكْرُهَا لِتَحْقِيقِ الْعِزَّةِ هِيَ الْبَوَارُ وَ الْهَلَاكُ.

[١٢] وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ تُرَابٍ فَإِنَّ التُّرَابَ يَنْقَلِبُ نَبَاتًا، وَ يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ، أَوْ يَأْكُلُ الْحَيْوَانَ الَّذِي تَكُونُ مِنَ النَّبَاتِ، فَيَصِيرُ مَبْدَأَ النُّطْفَةِ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ هِيَ الْقِطْعَةُ الْمَائِعَةُ مِنَ الْمَنَى، وَ أَوَّلُ النُّطْفَةِ الْمَاءُ الْقَلِيلُ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ذَكَرًا وَ أُنْثَى، أَوْ الْمَرَادُ أَصْنَافًا وَ أَشْكَالًا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى «مَنْ» زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْسِ، أَى لَا تَحْمِلُ أَى أَثْرًا وَ لَا تَضَعُ حَمْلَهَا إِلَّا بِعِلْمِهِ فَاللَّهُ خَالِقُ الْإِنْسَانِ، وَ الْعَالَمِ بِأَطْوَارِهِ، حِينَ حَمَلَهُ، وَ وَضَعَهُ وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ الْمَعْمَرُ- بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ- هُوَ الْإِنْسَانُ، الطَّوِيلُ الْعُمُرَ، أَى لَا يَمُدُّ فِي عُمُرِهِ وَاحِدًا، وَ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَعْمَرِ، بِاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ، مِنْ بَابِ

«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»

وَ لَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ أَى مِنْ عُمُرِ ذَلِكَ الْمَعْمَرِ، وَ الْمَرَادُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَ النُّقْصُ، إِنَّمَا هُوَ بِاعْتِبَارِ الْأَعْمَارِ الْعَادِيَّةِ، فَالْعُمُرُ الْعَادِي إِذَا كَانَ خَمْسِينَ سَنَةً، كَانَ الْمَوْتُ قَبْلَ ذَلِكَ تَنْقِيسًا بِالنَّظَرِ الْعَرْفِيِّ إِلَّا فِي كِتَابٍ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَقَدْ كَتَبَ كُلَّ ذَلِكَ، وَ قَدَرَ الْأَعْمَالَ، كَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٠٩

[سورة فاطر (٣٥): آية ١٢]

وَ مَا يَسْتَوِي الْبُحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيئَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى

الْفُلُكِ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

قدر سائر الأشياء، ولا يتصور الإنسان كيف يمكن أن يحيط كتاب بهذا القدر الكبير من الأعمار المختلفة للأفراد المشتتة في مشارق الأرض ومغاربها ف إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ هين، فهو محيط بجميع الأشياء، أو المراد ب «ذلك» كل ما تقدم من التقديرات، والعلم بها.

[١٣] ثم ينتقل السياق إلى بعض آخر من الآثار الكونية، الدالة على وجود الإله، وصفاته العظيمة وما يَشْتَوِي الْبُحْرَانِ بحر المياه المالحة، و بحر المياه العذبة، فإن الأنهر غالباً تتصل بعضها ببعض، حتى أنها لتكون تحت الأرض، و فوقها بحارا من المياه المتصلة، ثم أن المراد بالبحر الجنس، لا الشخص هذا أى أحدهما عَذْبٌ أى طيب فُرَاتٌ صافٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ إذا شربه الإنسان، لا يلتوى فى الحلق، و لا يؤذى اللهات و هذا الآخر مَلْسُحٌ كأنه من كثرة ملوحته، قطعة ملح، نحو زيد عدل أجاج من ينشب فى الحلق، فمن خلق هذين البحرين يا ترى؟ و مَنْ كَلِمٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ تَأْكُلُونَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ لَحْمًا طَرِيًّا جَدِيدًا، هو السمك، فمع اختلاف البحرين يأتيان بشيء مماثل لمنفعة الإنسان، و إنما سُمِيَ السَّمَكُ، لحما طريا، لما اعتادوا- فى زمن الجاهليين - من أكل القديد، بتجفيف لحوم الأنعام و تَشِيخِ جُجُونٍ أى تخرجون بالطلب و الغوص، من البحر حَلِيَّةً أى زينة، هى اللؤلؤ تَلْبَسُونَهَا للتزين و تَرَى أَيُّهَا الرَّائِي الْفُلُكُ بالضم على وزن أسد، جمع فلك على وزن قفل-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٠

[سورة فاطر (٣٥): آية ١٣]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)

فالمفرد و الجمع متساويان وزنا، مختلفان ميزانا- فيه أى فى البحر مَوَاحِرَ جمع ماخرة، يقال مخرت السفينة الماء إذا شقته لتسير، فمن يا ترى أقدر السفينة على ذلك، و جعل الماء سهلا، يقبل السير فيه؟ إنه هو الله تعالى، و إنما جعل ذلك لَتَبْتَغُوا أى لتطلبوا أنتم أيها البشر مِنْ فَضْلِهِ سبحانه بالتجارة، و الانتقال من هنا إلى هناك للاكتساب و لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نعمه عليكم فتسحتقون بذلك الثواب.

[١٤] يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ أى يدخل الليل فى النهار، إما بزيادة طول الليل و قصر طول النهار، حتى كأن الليل دخل فيه، و إما بإتيان الليل مكان النهار، فهو يدخل فى محل النهار، من طرف المشرق، و يطرده رويدا رويدا، حتى يأخذ مكانه و يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ بأحد المعنيين السابقين و سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فهما يجريان حسب تديره منظما، بلا تفاوت أو اختلال كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي باستمرار لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أى لوقت معلوم، هو يوم القيامة، كما قال سبحانه (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) «١» و قال (وَ خَسَفَ الْقَمَرُ) «٢» ذَلِكَمُ اللَّهُ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَيْهِ سبحانه، و «كم» خطاب، أى ذلك المتَّصِف بتلك الصفات، هو، أيها البشر رَبُّكُمْ الذى لا إله إلا

(١) التكوير: ٢

(٢) القيامة: ٩

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١١

[سورة فاطر (٣٥): آية ١٤]

إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُبْشِكُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

هو لهُ الْمُلْكُ فالمملكة الكونية كلها له بلا شريك و الأصنام الَّذِينَ تَدْعُونَ أى تدعونهم أيها المشركون مِنْ دُونِهِ أى من دون الله تعالى ما يَمْلِكُونَ من الكون مِنْ قِطْمِيرٍ هو قشر النواة، أى اللفافة التى فوقها، و المعنى أن الأصنام لا تملك من الكون، بهذا القدر،

فكيف تجعلونها شركاء الله؟

[١٥] إِنْ تَدْعُوهُمْ أَى تَدْعُونَ تِلْكَ الْأَصْنَامَ، وَ الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ، لِتَوْحِيدِ السِّيَاقِ، بَيْنَ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ وَ رَدِّهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُعْتَبَرُونَ الْأَصْنَامَ عَقْلَاءَ مُدْرِكِينَ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَ كُمْ فِي كَشْفِ ضُرِّ، أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، فَإِنْ قَالُوا: يَسْمَعُونَ، قُلْنَا: مَا الدَّلِيلُ؟ وَ لَوْ سَمِعُوا دُعَاءَ كُمْ عَلَى فَرْضِ مَحَالٍ مَرَا اسْتِجَابُوا لَكُمْ أَى لَا- يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَجْلُبُوا نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعُوا ضُرًّا، إِذْ لَا- يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَرْجُونَ شَفَاعَتَهُمْ لَكُمْ، حَيْثُ كَانُوا يَقُولُونَ (هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) «١» يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ أَى يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ، وَ مِنْ أَنْكُمْ اشْرَكْتُمُوهُمْ مَعَ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ، فَيَقُولُونَ لِمَ عِبَدْتُمُونَا؟ وَ نَحْنُ لَا نَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ؟ وَ ذَلِكَ بِإِنطَاقِ اللَّهِ تَعَالَى، لِلْأَصْنَامِ، لِأَنَّ يَفْضَحُوا عِبَادَتَهُمْ وَ لَا يُبَيِّنُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أَى لَا يُخْبِرُكَ أَيُّهَا الْمُسْتَفْهَمُ الْجَاهِلُ أَحَدٌ مِثْلُ مَا يُخْبِرُكَ

(١) يونس: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٢

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ١٥ الى ١٨]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ مَنْ تَرَكَى فَإِنَّمَا يَتَرَكَى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)

الخبير المطلاع، فالله مطلع على أحوال الأصنام، فهو خير من يخبركم عن أحوالها، فاقبلوا كلامه، و اتركوا عبادتها، لئلا تقعوا فى العذاب و النكال.

[١٦] يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ تَحْرَفُونَ عَنِ إِطَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ تَكْفُرُونَ بِهِ؟

وَ الْحَالُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ الْمَحْتَاجُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فِي جَمِيعِ شُؤُونِكُمْ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْكُمْ، وَ الَّذِى يُمْكِنُهُ أَنْ يَسُدَّ جَمِيعَ حَوَائِجِكُمْ الْحَمِيدُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ، بِمَا لَهُ مِنَ الْإِنْعَامِ وَ الْإِفْضَالِ، فَكَيْفَ تَتْرَكُونَ اللَّهَ، لِتَأْخُذُوا الْأَصْنَامَ الْفَقِيرَةَ الَّتِى لَا تَسْتَحِقُّ حَمْدًا وَ لَا شُكْرًا، إِذْ لَا شَيْءَ لَهَا إِطْلَاقًا؟

[١٧] وَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يِعَاقِبَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ- فَهُوَ الَّذِى بِيَدِهِ الْعَطِيَّةُ وَ الْعُقُوبَةُ، فَاعْبُدُوهُ رَغْبَةً أَوْ رَهْبَةً- إِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُذْهِبْكُمْ أَى يَفْنِيَكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ يَخْلُقُهُ مِنَ الْعَدَمِ، وَ يَأْتِى بِهِ إِلَى الْوُجُودِ، كَمَا خَلَقَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا.

[١٨] وَ مَا ذَلِكَ إِلَّا الْإِنْفَاءُ لَكُمْ، وَ الْإِتْيَانُ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِعَزِيزٍ أَى بِمَمْتَنٍ، بَلْ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، إِنْ شَاءَ شَيْئًا كَوْنَهُ وَ أَوْجَدَهُ.

[١٩] إِنْ الْإِنْسَانَ إِلَىٰ جَنْبِ فَقْرِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَ إِنَّهُ تَحْتَ سُلْطَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، حَامِلٌ لِتَبَعَةِ أَعْمَالِهِ بِنَفْسِهِ، فَلَا صَدِيقَ يَحْمِلُ مِنَ الْإِنْسَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٣

ذنبه، وَ لَا قَرِيبَ يَفِيدُ الْإِنْسَانَ قَرْبَهُ فِي التَّخْفِيفِ مِنْ آثَامِهِ، فَلْيَعْدِلِ الْإِنْسَانُ سُلُوكَهُ، نَحْوَ اللَّهِ، الَّذِى كَانَ الْإِنْسَانُ بِحَاجَةٍ دَائِمَةً إِلَيْهِ، وَ إِنْ عَصَى جَازَاهُ بِنَفْسِهِ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى أَى لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ حَامِلَةً إِثْمَ نَفْسٍ أُخْرَى، بَلْ كُلُّ امْرَأٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينًا، فَلَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ غَيْرِهِ، وَ لَا- يَلْقَى ذَنْبَ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ وَ إِنْ تَدْعُ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِالْآثَامِ، غَيْرَهَا إِلَى حِمْلِهَا أَى حَمَلِ آثَامِهَا، كَأَنَّ يَدْعُو الْعَاصِيَ صَدِيقَهُ، لِيَحْمِلَ بَعْضَ آثَامِهِ وَ خَطَايَاهُ لَا- يُحْمَلُ أَى لَا- يَحْمِلُ ذَلِكَ الْغَيْرُ مِنْهُ أَى مِنْ ذَلِكَ الْحَمْلِ شَيْءٌ قَلِيلٌ وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ الْمَدْعُو ذَا قُرْبَىٰ أَى صَاحِبَ قَرَابَةٍ مَعَ هَذَا الْعَاصِيَ الْحَامِلِ لِأَوْزَارِ نَفْسِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ الْأَبُ وَ الْأُمُّ، يَا بَنِي احْمِلْ عَنِّي، فَيَقُولُ حَسْبَىٰ عَمَلِي، وَ لَا تِيَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ عَدَمِ تَأْثِيرِ بَلَاعُكُ فِي هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ بَلَاعُكَ يُؤْثِرُ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَ ذَلِكَ كَافٍ لَكَ إِئْمَا

تَنْذِرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْإِنذَارَ الْمُؤَثِّرَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ أَيْ أَنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ غَائِبٌ عَنْ حَوَاسِهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ بِإِتْيَانِهَا كَامِلَةً بِشُرُوطِهَا وَأَدَابِهَا وَمَنْ تَزَكَّى أَيْ تَطَهَّرَ بِعَمَلِ الطَّاعَةِ، وَالْاجْتِنَابِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ أَيْ أَنَّ فَائِدَةَ طَهَارَتِهِ تَعُودُ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فَمَنْ آمَنَ وَتَزَكَّى، جَزَاهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٤

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ١٩ إلى ٢٢]

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢)

بجنات النعيم، و من كفر و تولى، عاقبه بالنار و الجحيم، و معنى إلى الله: إلى ثواب الله و عقابه، تشبيها للصيرورة المعنوية، بالصيرورة الحسية.

[٢٠] وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ فَالْكَافِرُ كَالْأَعْمَى لِأَنَّهُ تَعَامَى عَنِ الْحَقِّ، وَ الْمُؤْمِنُ كَالْبَصِيرِ، لِأَنَّهُ أَبْصَرَ، وَ رَأَى الْحَقَّ وَ الْحَقِيقَةَ.

[٢١] وَ لَمَّا يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَ لَا النُّورُ «لَا» زَائِدَةٌ لِلتَّكْيِيدِ، وَ الشَّرْكَ كَالظُّلْمَةِ، إِذْ لَا يَرَى الْإِنْسَانَ الَّذِي فِيهِ الْحَقَائِقُ وَ الْإِيمَانَ، كَالنُّورِ الَّذِي يَرَى فِيهِ الْإِنْسَانَ الْأَشْيَاءَ، وَ الْإِتْيَانَ بِظُلُمَاتٍ جَمْعًا، لِأَنَّ الشَّرْكَ مُسْتَلْزِمٌ لِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي، وَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ظِلْمَةٌ وَ حُلُوكٌ.

[٢٢] وَ لَا يَسْتَوِي الظُّلُّ الَّذِي يَسْتَرِيحُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَ لَا الْحَرُورُ وَ هِيَ الرِّيحُ الْحَارَةُ السَّامَةَ، الَّتِي تَهَبُ فِي الشَّمْسِ، وَ تُوْجِبُ الْهَلَاكَ، أَوْ الْمَرَضَ وَ الْأَذِيَّةَ، وَ هُمَا مِثْلُ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ، أَوْ الْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ.

[٢٣] وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ فَالْكَافِرُ كَالْمَيِّتِ، إِذْ لَا يَأْتِي مِنْهُ الْخَيْرُ، كَمَا لَا يَأْتِي مِنَ الْمَيِّتِ خَيْرٌ، وَ الْمُؤْمِنُ كَالْحَيِّ، إِذْ يَأْتِي مِنْهُ جَمِيعُ صَنُوفِ الْخَيْرِ لِنَفْسِهِ وَ لِغَيْرِهِ، وَ لَا- تَعْتَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَيْتَ إِعْرَاضَ الْكُفْرَارِ، فَإِنَّهُمْ، حَيْثُ أَعْرَضُوا عَنِ الْهُدَى، لَمْ يَلْطَفِ اللَّهُ بِهِمْ أَلْطَافَهُ الْخَفِيَّةَ، وَ لَذَا تَاهَوْا فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَ الضَّلَالَةِ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ أَيْ إِسْمَاعًا نَافِعًا، وَ إِنَّمَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ إِسْمَاعًا مِنْ إِذَا رَأَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٥

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٢٣ إلى ٢٤]

إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ إِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)

الحق تبعه، أما من إذا رأى الحق ابتعد عنه و أعرض، فلا يسمعه الله- فوق أصل الإبلاغ- شيئاً آخر من قبيل الألفاظ الخفية الموجبة للسعادة و ما أنت يا رسول الله بمُسْمِعٍ أى بقادر على أن تسمع إسماعاً نافعاً من فى القُبور فإن هؤلاء الكفار كالأموات فى المقابر، الذين لا- يتمكن الرسول من إسماعهم، فكما حال الموت بين أولئك، و بين السماع النافع، كذلك حال موت القلوب، و انحراف النفوس بين هؤلاء، و بين أن يسمعوا إنذار الرسول و إرشاده.

[٢٤] إِنَّ أَنْتَ أَيْ مَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا نَذِيرٌ تَنْذِرُ وَ قَدْ أَنْذَرْتَ هَؤُلَاءِ، أَمَا هَدَايَتَهُمْ، فَلَيْسَتْ عَلَيْكَ، فَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ.

[٢٥] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ أَيْ إِسْرَالًا بِالْحَقِّ، لَا بِالْبَاطِلِ، لِأَجْلِ اللَّهْوِ وَ اللَّعْبِ، وَ الْإِفْسَادِ، وَ مَا أَشْبَهَهُ، مِنَ الْإِرْسَالَاتِ الْبَاطِلَةِ، فَإِذَا أُرْسِلَ أَحَدٌ آخَرَ لِلْإِفْسَادِ، كَانَ إِسْرَالًا بِاطِلًا، وَ إِذَا أُرْسِلَ أَحَدٌ آخَرَ لِلْإِصْلَاحِ، كَانَ إِسْرَالًا بِالْحَقِّ، فِي حَالِ كَوْنِكَ بَشِيرًا تَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَطِيعِينَ بِالْجَنَّةِ وَ نَذِيرًا تَنْذِرُ الْكُفْرَانَ وَ الْعَاصِينَ بِالنَّيْرَانِ، فَشَأْنُكَ الْبَشَارَةُ وَ الْإِنذَارُ، وَ لَا يَرْتَبِطُ بِكَ، مِنْ آمَنَ، وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ وَ إِنَّ مِنْ أُمَّةٍ مَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ إِلَّا خَلَا- أَيْ مَضَى فِيهَا فِي تِلْكَ الْأُمَّةِ نَذِيرٌ يَنْذِرُهُمْ إِذَا كَفَرُوا وَ عَصَوْا، قَبِلُوا بِالْعِقَابِ وَ النِّكَالِ، فَأَنْتَ مِثْلُ أَوْلَئِكَ الْمُنذِرِينَ، وَ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَضُرَّهُمْ عَدَمُ اسْتِجَابَةِ الْأُمَّةِ كَذَلِكَ لَا يَضُرُّكَ عَدَمُ اسْتِجَابَةِ النَّاسِ لَكَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٦

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٢٥ إلى ٢٧]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)

[٢٦] وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هؤلاء الكفار، بأن يقولوا، أنت كاذب، لست من قبل الله سبحانه فليس شيئاً جديداً، إذ قد كَذَّبَ الْأُمَمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ، حين جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ جمع رسول، ويجوز الإتيان بالفعل، مذكراً ومؤنثاً، إذا كان الفاعل، جمع غير مذكر سالم، قال ابن مالك:

والتاء مع جمع سوى السالم مذكر كالتاء مع إحدى اللين

بِالْبَيِّنَاتِ أى الحجج الواضحة الدالة على كونهم مرسلين، كالمعجزات، والخوارق وِبِالزُّبُرِ كالكتب المتفرقة التى فيها الحكم والنصائح، كما جاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم، بالأحاديث القدسية، وقطعا من حكم موسى وعيسى عليهما السلام وِبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ أى التبر الذى فيه تعاليم السماء، كان الأنبياء يأتون إلى الأمم بكل ذلك، ومع ذلك كانت الأمم تكذبهم.

[٢٧] ثُمَّ أَخَذْتُ بِالْعَذَابِ وَالنكال الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَأَنْبِيَاءِهِ، بعد إتمام الحجّة فكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أى إنكارى، للمكذبين؟ وهذا استفهام استشفائي، فيه تسليّة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإنذار لكفار مكة.

[٢٨] ثم يرتد السياق ليذكر الكفار، بجملة من الآيات الكونية أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، والخطاب، وإن كان له لكن المراد به العموم، أو ألم تر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٧

[سورة فاطر (٣٥): آية ٢٨]

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) أيها الرائي أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً هُوَ الْمَطَرُ فَأَخْرَجْنَا عَلَى طَرِيقِ الْإِلْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى التَّكْلِمْ الَّذِي هُوَ فَنُّ مِنَ الْبَلَاغَةِ بِهِ أَى بِذَلِكَ الْمَطَرِ ثَمَرَاتٍ جَمْعُ ثَمْرَةٍ، وَهِيَ فَكْهَةُ الشَّجَرِ الَّتِي تَجْتَنِي مِنْهَا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا أَى أَلْوَانِ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ، فَأَحْمَرُ، وَأَخْضَرُ، وَأَبْيَضُ، وَأَصْفَرُ، وَأَزْرَقُ، وَغَيْرَهَا، مِنْ سَائِرِ الْأَلْوَانِ، وَذُو لَوْنَيْنِ، وَذُو أَلْوَانٍ، وَهَكَذَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِاللَّوْنِ الْأَعْمُ مِنْ جَمِيعِ مَا يَدْرِكُ بِسَائِرِ الْحَوَاسِ، مِنْ الْأَشْكَالِ وَالْحُجُومِ وَالطَّعُومِ، وَالرَّوَائِحِ وَغَيْرَهَا، فَإِنَّ اللَّوْنَ قَدْ يُطْلَقُ تَوْسِعًا عَلَى الْجَمِيعِ وَكَمَا أَنَّ الثَّمَارَ، مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ كَذَلِكَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ مَفْرَدًا جَدًّا، كَغَرْفٍ، وَغَرْفَةٍ، وَالْمَرَادُ بِهَا الطَّرِيقُ بَيْضٌ وَحُمْرٌ أَى طَرِيقُ الْجِبَالِ - إِمَّا الْمَرَادُ طَرِيقَ السَّيْرِ، وَإِمَّا الْإِمْتِدَادَاتِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى الْجَبَلَ فِيهِ قِطْعَةٌ مَمْتَدَةٌ حَمْرَاءَ، وَقِطْعَةٌ مَمْتَدَةٌ بَيْضَاءَ، وَسَمِيَتْ طَرِيقًا تَشْبِيهَا - وَبَيْضُ جَمْعُ أَيْضُ، كَمَا أَنَّ حَمْرَ جَمْعُ أَحْمَرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا أَى أَلْوَانِ تِلْكَ الطَّرِيقِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْجِبَالِ وَغَرَابِيبُ سُودٌ جَمْعُ غَرِيبٍ، وَهُوَ الشَّدِيدُ السَّوَادِ، الَّذِي يَشْبَهُ لَوْنَ الْغَرَابِيبِ، وَسُودٌ جَمْعُ أَسْوَدٍ، أَى وَمِنْ تِلْكَ الطَّرِيقِ مِثْلُ لَوْنِ الْغَرَابِيبِ أَسْوَدٍ، فَسُودٌ عَطْفٌ بَيَانٌ لَغَرَابِيبِ.

[٢٩] وَكَمَا أَنَّ الثَّمَارَ، وَالْجِبَالَ مُخْتَلِفَةَ أَلْوَانُهَا، كَذَلِكَ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ جَمْعُ دَابَّةٍ، وَهِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَدْبُ فِي الْأَرْضِ وَالأَنْعَامِ جَمْعُ نَعْمٍ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ، وَالْغَنَمُ، خَلَقَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٨

[سورة فاطر (٣٥): آية ٢٩]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ أى كالذى تقدم من الثمار والجبال، فهذا إنسان حبشى أسود، وهذا صيني أصفر، وهذا آسيوى أبيض وأحمر، وهذه هرة بيضاء، وهذه هرة سوداء، وهذه نعجة حمراء، وتلك صفراء، وهكذا، فمن يا ترى خلق هذه الألوان؟ ومن يا ترى خلط هذه الألوان، بأجسام هذه المخلوقات؟ وقد تقرر فى العلم الحديث، أن أقسام الألوان «ثلاثمائة ألف» إنه هو الله الخالق المبدع

المنشئ العظيم إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مَفْعُولٌ يَخْشَى مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ فاعل يَخْشَى، أى يَخْشَى من الله، العلماء من أقسام عبادته، فإن الإنسان، إنما يخاف من الأسد- مثلا- إذا عرفه، أما الجاهل بوجوده، أو ببأسه، فإنه لا يخاف منه، وكذلك الجاهل، بأصل وجود الله أو ببأسه و بطشه لا- يخشاه، و إنما العالم به و بعذابه، لمن عصاه يخشاه تعالى، و يخافه إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَالِبٌ فِي سُلْطَانِهِ، فاللزام أن يخشاه العصاة عَفُورٌ لِمَنْ آبَ وَأُنَابَ، فلا يبأس من عفوه، و غفرانه، العاصون.

[٣٠] إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ أَى يَقْرَءُونَ حَقَّ قِرَاءَتِهِ لِلْعَمَلِ وَ الْإِتْبَاعِ، وَ الْمِرَادُ بِكِتَابِ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ بَادِبَهَا، وَ شَرَاظِهَا، وَ الْإِهْتِمَامَ بِالصَّلَاةِ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، لِأَجْلِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَسِيلَةٌ لِتَرْكِيزِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، بِسَبَبِ اسْتِمْرَارِهَا، وَ إِحْيَائِهَا بِعِظْمَةِ اللَّهِ وَ ارْتِفَاعِهِ، فِي النُّفُوسِ، وَ لِذَا كَانَ الْمُصَلُّونَ أَقْلَ النَّاسِ شَرَا وَ إِثْمًا، وَ أَكْثَرَهُمْ رَحْمَةً، وَ خَيْرًا وَ نَزَاهَةً وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ عَامٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤١٩

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٠ الى ٣١]

لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)

الرزق، من مال و جاه، و غيرهما سِرًّا وَ عَلَانِيَةً أَى فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَلَا يَفْرُقُ عِنْدَهُمْ، السِّرُّ وَ الْعِلَانِيَةُ، فِي الْبَدْلِ وَ الْإِنْفَاقِ يَرْجُونَ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ أَى لَنْ تَفْسُدَ، وَ لَنْ تَهْلِكَ، وَ الْمِرَادُ بِالتِّجَارَةِ، نَتِيجَةُ التِّجَارَةِ، وَ هِيَ الثَّوَابُ الْعَائِدُ إِلَيْهِمْ مِنْ جِزَاءِ أَعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ، فَلَا يَرِيدُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الرِّيَاءَ وَ السَّمْعَةَ، وَ إِنَّمَا وَجَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَ ثَوَابَهُ.

[٣١] وَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ، وَ يَرْجُونَ الثَّوَابَ، لِأَنَّ يُوْفِيهِمُ اللَّهُ أَجُورَهُمْ كَمَا تَقُولُ عَمَلْتُ لَزِيدٍ، وَ رَجَوْتَهُ، لِيُعْطِنِي أَجْرِي، وَ مَعْنَى وَفَاءِ الْأَجْرِ، إِعْطَائُهَا كَامِلَةً، غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ وَ يَزِيدُهُمْ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ فَضْلِهِ وَ إِحْسَانِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى، (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) «١» ... وَ خَبِرَ «إِنَّ» مُحذُوفٌ، أَى إِنْ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ، لِلْأَجْرِ وَ الثَّوَابِ، يُعْطِيهِمُ اللَّهُ مَا يَتْرَقِبُونَهُ، وَ إِنَّمَا حُذِفَ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ عَلَيْهِ، فَمَنْ عَمِلَ ذَلِكَ، غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ، وَ شَكَرَ عَمَلَهُ، وَ شَكَرَ اللَّهُ لِلْعَمَلِ: إِعْطَاءَ جِزَائِهِ وَ ثَوَابَهُ لِمَنْ عَمِلَ.

[٣٢] وَ بِمُنَاسَبَةِ الْحَدِيثِ، عَنِ الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، يَأْتِي السِّيَاقُ، لِبَيَانِ حَالِ الْكِتَابِ وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْكِتَابِ أَى الْقُرْآنِ هُوَ الْحَقُّ الصَّحِيحُ لَا يَشُوبُهُ فَسَادٌ، وَ بَاطِلٌ، كَأَنَّ تَكُونَ قِصَصَهُ

(١) الأنعام: ١٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٠

[سورة فاطر (٣٥): آية ٣٢]

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)

كَاذِبَةٌ، أَوْ أَحْكَامُهُ مُوجِبَةٌ لِلْفَسَادِ، فِي حَالِ كَوْنِهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَى يَصْدُقُ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ، وَ غَيْرِهِمَا، مِنْ سَائِرِ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ، يَعْلَمُ مَا يَصْلِحُهُمْ، وَ مَا يَفْسُدُهُمْ، كَمَا يَعْلَمُ مَنْ يُؤْمِنُ، مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِصَبْرٍ نَاطِرٍ إِلَى أَعْمَالِهِمْ.

[٣٣] ثُمَّ بَعْدَ إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ أَى الْقُرْآنَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا أَى أَعْطَيْنَاهُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْإِرْثِ، وَ الْمِرَادُ بِالْإِرْثِ، انْتِقَالُهُ إِلَيْهِمْ، كَمَا يَنْتَقِلُ الْمَالُ مِنَ الْمَوْرَثِ إِلَى الْوَارِثِ، فَقَدْ انْتَقَلَ الْقُرْآنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَ قَدْ اصْطَفَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ، لِحَمْلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، كَمَا قَالَ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) «١» ثُمَّ بَيْنَ سُبْحَانَهُ، إِنْ هُوَ لَأَعْلَمُ

العباد، على ثلاثة أقسام فَمِنْهُمْ أى بعضهم، وهم الأغلب ظالمٌ لِنَفْسِهِ يرتكب بعض المعاصى، وهذا لا ينافى الاصطفاء، فإن المراد، اصطفاء المجموع، من حيث المجموع، فى مقابل الكفار و المشركين، و أهل الكتاب و مِنْهُمْ أى بعضهم، و هم الأقل مُقْتَصِدٌ متوسط، بين الطاعة و المعصية فليس من الظالمين، و لا- من الصالحاء الأخيار و مِنْهُمْ و هم الأقل سابقٌ بِالْخَيْرَاتِ أى ليسبق الناس فى عمل الأعمال

(١) آل عمران: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢١

[سورة فاطر (٣٥): آية ٣٣]

جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)
الخيرية يَأْذَنُ اللّهِ و مشيئته، و هذا من أظهر مصاديقه الأئمة الطاهرين، ثم الأصلح فالأصلح من الأمة، و لذا قال الباقر عليه السلام

«أما السابق بالخيرات، فعلى بن أبى طالب، و الحسن و الحسين عليهم السّلام و الشهيد منا، و أما المقصد فصائم بالنهار و قائم بالليل، و أما الظالم لنفسه، ففيه ما فى الناس، و هو مغفور له»

«١» ذلك التورث، للكتاب لهذه الأمة هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ إذ قد رآهم الله سبحانه، أهلا لحمل هذه الأمانة الرفيعة، و إبلاغها للناس.
[٣٤] و لهؤلاء جَنَّاتٌ عَدْنٍ عدن بالمكان، بمعنى أقام فيه، أى البساتين التى يخلو فيها من يدخل يَدْخُلُونَهَا أى يدخلون تلك الجنات «عبادنا» حتى الظالم منهم، بعد أن يكون من ورثه الكتاب بالإيمان الكامل، و إنما عصى جهلاء كسائر العصاة، الذين صحت عقيدتهم، و إنما خلطوا عملا صالحا، و آخر سيئا، أما من اختل إيمانه، فليس بمسلم مؤمن، حتى يشمل فى عموم «عبادنا» يُحَلَّوْنَ فِيهَا أى يلبسهم الله الحلو مِنْ أَسَاوِرَ جمع أسورة، و مفردها سوار، و هو ما يجعل فى اليد بين المرفق، و الزند مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا أى و يحلون فيها لؤلؤا، و قد كان مرسوم الملوك و الكبراء لبس الأساور و لِبَاسُهُمْ فِيهَا أى فى تلك الجنات حَرِيرٌ و هو الإبريسم المحض.

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٢١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٢

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَ الَّذِى كَفَّرْنَا لَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦)
[٣٥] و بالإضافة إلى هذه النعم الجسمية، ينتعم أهل الجنة بالنعم الروحية و قَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ الأحزان، التى تنتاب الإنسان فى الدنيا، فلا حزن هناك و لا غم، بل سرور و حبور إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ لذنوبنا و معاصينا شَكُورٌ لطاعاتنا و عبادتنا، و من شكره، أنه تفضل علينا بهذه النعم الجسم، فإن الشخص إنما يعطى العامل الجزاء، إذا شكر عمله، و قبله بقبول حسن.

[٣٦] الله الَّذِى أَحَلَّنَا أى أنزلنا دَارَ الْمُقَامَةِ أى دار الخلود، التى نقيم فيها إلى الأبد مِنْ فَضْلِهِ و كرمه، و إلا فليست أعمالنا بقدر تستحق به هذا الجزاء العظيم لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ أى لا يصيبنا فى دار المقامة عناء و مشقة و تعب و لا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ و هو المشقة فى طلب المعاش، أو نحو ذلك.

[٣٧] و فى مقابل هؤلاء، الكفار الذين لم يقبلوا هذا الكتاب، فلننظر ماذا لهم هناك؟ وَ الَّذِى كَفَّرْنَا بالله و رسوله، و اليوم الآخر، و ما يلزم الإيمان به لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ جزاء على كفرهم لا- يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ بالموت أى لا- يحكم الله عليهم بالموت فَيَمُوتُوا و يستريحوا من

العذاب وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا أَى لَا يَقِلُّ عَذَابُ جَهَنَّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٣

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٧ إلى ٣٨]

وَهُمْ يَصِطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)

كذلك الذى ذكرنا من تعذيب هؤلاء الكفار بالنار نَجْزَى كُلَّ كَفُورٍ كَثِيرٍ الكفر المستمر عليه.

[٣٨] وَهُمْ أَى الكفار يَصِطَرِحُونَ أى يتصايحون من شدة العذاب، أصله «صرخ» بمعنى صاح، وهذا من باب الافتعال، قلبت تائه طاء على القاعدة فيها أى فى جهنم، يقولون رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْ جَهَنَّمَ نَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، بعد إخراجنا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ من الكفر والمعاصى، لكن يأتيهم التوبيخ والتفريع أَوْ لَمْ نُعْمَرْكُمْ أى نعطيكم العمر الكثير فى الدنيا، بقدر ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ أى فى ذلك العمر مَنْ تَذَكَّرَ فلو كنتم تريدون التذكر والتوبة، كان لكم من العمر ما يكفى ذلك وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ وَهُوَ الرَسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ ومع ذلك لم تؤمنوا، ولم تطيعوا، وقد أخبر سبحانه فى آية أخرى بقوله (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١) فَذُوقُوا العذاب فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ينصرهم، ويدفع عنهم العذاب.

[٣٩] إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ، كما أنه

(١) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٤

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠)

خالقهما، عالم بما غاب عن الحواس، فى السماوات والأرض إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى بالأشياء، التى تدور فى صدور الناس، ولعل الإتيان بهذه الجملة هنا، باعتبار أنه يعلم ما فى صدور الكفار، من أنهم، لا ينوون الإقلاع، صدقا، إن رجعوا إلى الدنيا، كما هو شأن المعاند دائما، ولذا قال سبحانه «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

[٤٠] هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ أى خلفاء للسابقين فى الأرضِ تخلفونهم، فى مكانهم، لتعتبروا بهم، وأنهم حين عصوا أهلكوا فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أى أن عاقبه كفره السيئة على نفسه، فإنه يتضرر بجزاء كفره وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَهُوَ أَشَدُّ الغضب، فكلما بقوا فى الكفر إزداد غضب الله عليهم وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا خسارة لخير الدنيا، وسعادة الآخرة، فلهم عذاب نفسى، هو مقت الله لهم، وعذاب جسمى هو الخسارة.

[٤١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُوَالَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى أَخْبَرُونِي عَنْ هُوَالَاءِ الشُّرَكَاءِ أَرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ فَهَلْ خَلَقُوا بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْأَرْضِ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ هَلْ اشترَكوا فى خلق بعض الأمور

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٥

[سورة فاطر (٣٥): آية ٤١]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)

الكائنة في السماء؟ حتى تقولون أنهم شركاء لله سبحانه، في العبادة، لأنهم اشتركوا معه، في خلق بعض الأشياء، في الكون أم آتيناهم كتاباً أي أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً يصدق عقيدتهم، بأن ينصر ذلك الكتاب على وجود شركاء لله سبحانه فهم أي هؤلاء الكفار على بيئته أي على حجة ظاهرة منه أي من الشرك، فلهم حجة ظاهرة عليه، أو من ذلك الكتاب؟ لكن لم يكن مستند شركهم، لا- هذا، و لا- ذاك، و لا ذلك بل إن يعبد أي ما يعد الظالمون بعضهم لبعض أن طريقتنا أحسن و أن النصر لنا بالآخرة، و الغرور هو الذي يطمع فيه، و لكن لا حقيقة له.

[٤٢] إن السماوات و الأرض، كلها مخلوقة لله سبحانه، و كما خلقهما يحفظهما عن الزوال، و التفكك، و ليس لصنم شرك في خلقهما أو إبقائهما إن الله تعالى يمسك أي يحفظ السماوات و الأرض بمن فيهما أن تزولا أي كراهية أن تزولا عن مواضعهما، فلو انقطعت عناية الله عنهما، و عن هذا النظام، لاضطربت أوضاع الكون، فزالت المدارات و الأنجم من مواضعها، و هلك كثير من السكان، و اضطربت الأرض، كما أنه لو انقطعت العناية، عن أصل وجودهما عدمتا في اللحظة و الآن و لئن زالتا أي قدر زوالهما إن أمسكهما أي ما أمسكهما، و ما قدر على حفظهما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٦

[سورة فاطر (٣٥): الآيات ٤٢ الى ٤٣]

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)

من أحد من بعده أي من بعد الله سبحانه، فليس هناك أحد يتمكن أن يحفظ شيئاً منهما إن كان حليماً و من حلمه، لا يعجل بالعقوبة على الذين يجعلون الله شركاء غفوراً يغفر الذنب لمن أناب، و في هذا فتح التوبة على المشركين، كى لا يأسوا من روح الله، فإنه تعالى يقبلهم إن رجعوا عن شركهم.

[٤٣] إن الكفار بالإضافة إلى رذيلة الكفر، ارتكبوا رذيلة خلف الحلف و العهد و ذلك لأنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي بأيمان غليظة، حسب غاية قدرتهم و طاقتهم، و «جهد» مصدر، أي جهدوا في القسم جهداً، أو أقسموا هنا النوع من القسم لئن جاءهم نذير أي رسول ينذرهم ليكوننَّ أهدى أي أبل للهداية من إحدى الأمم الماضية، فقد كانوا يسمعون أبناء الأنبياء مع قومهم - من أهل الكتاب - فيقولون، إن جاءنا رسول، نقبل قوله فوراً، بلا معارضة، أو مناقشة، و يحلفون على ذلك بالأيمان المغلطة فلما جاءهم نذير هو الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ما زادهم مجيئه إلا نفوراً أي تباعداً عن الحق، فقد كان قلبهم، يلين للحق سابقاً، أما إذا رأوه فقد ابتعدوا عنه، ابتعاداً كبيراً.

[٤٤] و إنما نفروا نفوراً استكباراً في الأرض أي لأنهم استكبروا و تجبروا عن أن يكونوا تبعاً للرسول، فقد طلبوا الكبرياء في الأرض لأنفسهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٧

وَمَكْرَ السَّيِّئِ أَي قَصَدُوا أَن يَمْكُرُوا الْمَكْرَ السَّيِّئَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَكْرَ حَيْثُ كَانَ بِمَعْنَى التَّدْبِيرِ الْخَفِيِّ ضِدَّ الْعَدُوِّ، صَحَّ إِضَافَتُهُ إِلَى السَّيِّئِ، لِأَنَّ مِنَ الْمَكْرِ، مَا هُوَ حَسَنٌ، إِذَا كَانَ ضِدَّ عَدُوِّ الدِّينِ، كَمَا قَالَ «وَ مَكْرَ اللَّهِ» وَ لَكُنْهُمْ غَفَلُوا مِنْ أَنَّهُ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ صِفَةً مَكْرًا، وَ فِي مَا تَقَدَّمَ، كَانَ مِضَافًا إِلَى السَّيِّئِ، وَ الْمَعْنَى لَا يَحِيطُ جِزَاءَ الْمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ أَي بِأَهْلِ الْمَكْرِ، كَمَا قَالُوا: «مَنْ حَفَرَ بئراً لِأَخِيهِ، وَقَعَ فِيهِ» فَقَدْ قَرَّرَ سَبْحَانَهُ، أَنَّ يَرْجِعُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَى مَنْ مَكَّرَ، كَمَا قَالَ: (وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) «١» فَهَلْ يَنْظُرُونَ أَي هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمَاكِرِينَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ بِأَنَّ تَجْرِي فِيهِمْ، عَادَةُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَكْذِبُ أَنْبِيََاءَهَا عَلَيْهِمُ السَّلَامَ، وَ الْعَادَةُ هِيَ أَنَّ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِ يَهْلِكُهُمْ أَي هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ عِقَابَ اللَّهِ؟ وَ إِذَا فَلَمَّا ذَا لَا يُؤْمِنُونَ، بَعْدَ

أن رأوا الحق ظاهراً، فإن كانوا ينتظرون ذلك فلن تجد يا رسول الله لسننت الله تديلاً والمعنى، فسيأتيهم العذاب، إذ لا تبدل سنة الله، التي سنّها للمكذّبين، من أنه لما تمت عليهم الحجّة، ولم يردعوا عمهم بالعقاب، والنكال وكن تجد يا رسول الله لسننت الله تحويلاً فالتبديل مثل أن يكون جزاء المكذب المرض، فيبدله الله سبحانه، بأن

(١) الأنفال: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٨

[سورة فاطر (٣٥): آية ٤٤]

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)

يجعل جزاء المكذب الصحة، والتحويل مثل أن يكون جزاء المكذب المرض في الدنيا، فيحوّله إلى المرض في الآخرة، أو أن يكون المرض في المكذّبين، فيحوّله إلى المرض في المؤمنين، وإنما جيء بـ «ينظرون» مكان «ينتظرون» لأن المنتظر لشيء، ينظر ليرى، هل صار أم لا، وهذا لا يكون، إلا قرب وقت الشيء الذي ينتظره، فكأنه قرب العذاب إليهم، فهم ينظرون ليروه، بخلاف «ينتظرون» فإنه يلائم الأمر البعيد المرتقب.

[٤٥] أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَذَبُوا أَنْبِيَاءَهُمْ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْعِقَابِ وَ كَانُوا أَوْلَثِكَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ أَى مِنْ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ قُوَّةً فِي أَبْدَانِهِمْ، وَ فِي سَائِرِ مَرَاقِقِ حَيَاتِهِمْ وَ إِذْ صَارَ وَقْتُ هَلَاكِهِمْ، لَمْ يَقِفْ دُونَ إِرَادَةِ اللَّهِ قَوَاهِمُ الْكَثِيرَةِ، إِذْ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ بِأَنْ تَكُونَ الْقُوَّةُ سَبَبًا لِعَجْزِ اللَّهِ عَنِ تَنْفِيزِ إِرَادَتِهِ فِي هَلَاكِ الْقَوْمِ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ أَى لَيْسَ، فِي السَّمَاءِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ، شَيْءٌ يَقِفُ أَمَامَ إِرَادَةِ اللَّهِ، إِذْ قَدْ أَهْلَكَ أَوْلَثِكَ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْ هَوْلَاءِ الْقُوَّةِ، فَهَلْ يَتِمُّ هَوْلَاءِ الْأَضْعَفُونَ، إِنْ يَقِفُوا أَمَامَ الْعَذَابِ؟ إِنَّهُ تَعَالَى كَانَ عَلِيمًا بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُ كُلُّ إِنْسَانٍ قَدِيرًا بِأَنْ يَجَازِيَهُ حَسَبَ عَمَلِهِ، فَلْيَقْلَعْ هَوْلَاءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٢٩

[سورة فاطر (٣٥): آية ٤٥]

وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)

الكفار، عن غيهم وكفرهم، وإلا كان مصيرهم، مصير الأمم الماضية.

[٤٦] وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا أَى ظَهَرَ الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ تَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، إِذْ قَدْ خَلَقْتَ الْأَشْيَاءَ لِأَجْلِ الْإِنْسَانِ، فَإِذَا أَهْلَكَ الْإِنْسَانَ لِكُفْرِهِ وَ عِصْيَانِهِ لَزِمَ فَنَاءَ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، لِأَنَّهُ قَدْ فَنى مَا لِأَجْلِهِ خَلَقْتَ، أَوْ أَنْ الْمَرَادَ، أَنْ الْعَذَابَ، لَوْ نَزَلَ لَعَمَّ الْكُلَّ، فَلَا تَبْقَى دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مُجْرِمٌ، وَ بَعْضُهُمْ صَالِحٌ، وَ جَاءَ السَّبِيلُ لِأَخْذِ الْمُجْرِمِ، أَخَذَ الْبَرِيءَ مَعَهُ، وَ هَذَا لَا يَنَافِي الْعَدْلَ، إِذْ يَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِرَفْعِ دَرَجَاتِ الْبَرِيءِ - كَمَا قَرَّرَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ - بِأَنَّ الْأَفَاتِ إِذَا تَأَدَّبَتْ أَوْ لِلتَّعْذِيبِ، أَوْ لِرَفْعِ الدَّرَجَةِ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى أَى قَدْ سَمَاهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَقَدْ عَلَّمَ عَلَى مَدَّةِ بَقَاءِ زَيْدٍ بَسْنَةً كَذَا وَ لِبَقَاءِ عَمْرٍو بَسْنَةً كَذَا، وَ هَكَذَا، وَ الْاسْمُ فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى الْعِلْمِ، وَ مِنْهُ سَمِيَ عِلْمُ الْأَشْخَاصِ اسْمًا فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا عَارِفًا بِأَحْوَالِهِمْ، فَيَجَازِيهِمْ حَسَبَ مَا عَمَلُوا، كَمَا يَقُولُ الْحَاكِمُ، مَهْدِدًا لِلْمُجْرِمِينَ إِذَا جَاءَ يَوْمَ الْمَحَاكِمَةِ، أَنَا أَعْرِفُ النَّاسَ، أَى لَا أَشْتَبِهُ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْمُجْرِمِ بِالْعِقَابِ، وَ أَمِيزُهُ عَلَى الصَّالِحِ الْبَرِيءِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٠

٣٦ سورة يس مكينة / آياتها (٨٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لابتدائها، ب «يس» و هو كما ورد من أسماء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما لا ينافي في أن يكون «رمزا» أيضا، و ينطبق عليه بعض الأقوال الأخر، في المقطعات، و هي كسائر السور المكينة، تعالج قضية العقيدة، في أسلوب جذاب، و إذ كان في أواخر سورة فاطر، أنهم لم يؤمنوا بالرسول، بعد إذ جاءهم، افتتحت هذه السورة، بالحلف الأكيد، على كون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مرسلا من قبل الله سبحانه.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي من ابتداء باسمه في أعماله، كان العمل قريبا بالخير، و التمام، و إن لم يبتدأ به، كان أبعد عن الخير، و إن تم في الظاهر، فإن طابع الله سبحانه، إذا لم يوضع على شيء فنى فيما يفنى من زهرة الحياة الدنيا، و الإتيان بوصفى الرحمن و الرحيم، للتأكيد على هاتين الصفتين في الإله سبحانه، مقابل آلهة الكفار الذين يتصفون بالقساوة و الغلظة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣١

[سورة يس (٣٦): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِنُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦)

[٢] يس اسم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كما

ورد عن الباقر عليه السلام، قال «إن لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خمسة أسماء في القرآن، محمد، و أحمد، و عبد الله، و يس، و نون»

«١»، أو رمز بين الله و بين الرسول و الأئمة عليهم السلام، أو غير ذلك من الأقوال، و على الأول يكون «منادى» أى «يا رسول الله».

[٣] وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ حلف بالقرآن و إنما سمي القرآن حكيما، لما فيه من الأحكام الحكيمة، التي جاءت حسب الصلاح، و الحكمة هي وضع الأشياء مواضعها.

[٤] إِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ فلست كاذبا، كما يزعم هؤلاء بل قد أرسلك الله إلى الناس بشيرا و نذيرا.

[٥] في حال كونك على صراطٍ مستقيمٍ أى تسلك الطريق الذى لا انحراف له، فى العقيدة و العمل، و إنما جىء ب «على» تشبيها بمن كان يمشى على الطريق، لاستعلائه عليه.

[٦] فى حال كون القرآن تنزيل العزيز الرحيم العزيز فى سلطانه، فلا يريد شيئا، إلا عمله، الرحيم بعباده.

[٧] لِنُنذِرَ قَوْمًا وَ هُمْ كَفَّارٌ مَكَّةَ مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ أى لم يندر آبائهم، لأنهم كانوا، بلا أنبياء، فى زمن فترة بين المسيح و الرسول عليهما السلام، أو

(١) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٢

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧ الى ٨]

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨)

أن «ما» موصولة، أى تنذرهم، كما أنذر آبائهم، لكن ظاهر «الفاء» تفيد الأول فَهُمْ غَافِلُونَ عن الأصول و الآداب، و النظام، و إنما عبّر بالغلظة، لأن الإنسان يكمن فى نفسه الأصول و الآداب (فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) «١» و إنما يغفل عنها، بسبب الأهواء، و

الشهوات، و التقاليد.

[٨] لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ ثَبِتَ الْقَوْلَ بِالْعَذَابِ، عَلَى أَكْثَرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، لِعِنَادِهِمْ وَ لِحَاجَتِهِمْ فِي الْأَمْرِ، بَعْدَ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَ وَضُوحِ الْحِجَّةِ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ، أَنَّهُ تَبَيَّنَ الْقَوْلُ، بَعْدَمَ الْإِيمَانِ عَلَيْهِمْ، بِمَا عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ مِنَ الْعِنَادِ وَ اللَّجَاجِ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

[٩] إِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ فِي إِعْرَاضِهِمْ كَالْإِنْسَانِ الَّذِي غَلَّتْ يَدَايِهِ مَعَ عُنُقِهِ، وَ غَشَى عَلَى بَصَرِهِ، فَكَيْفَ أَنَّهُ لَا يَتِمَكَّنُ أَنْ يَشْرَبَ عُنُقَهُ لِيَرَى، وَ لَا أَنْ يَلْمَسَ بِيَدِهِ لِيَعْلَمَ، وَ لَا أَنْ يَنْظُرَ بِبَصَرِهِ لِيَرَى، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ الثَّلَاثَةَ تَتَعَاوَنُ فِي فَهْمِ الشَّيْءِ، وَ حَيْثُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ، يَرَى مِنْ إِنْسَانٍ الْإِعْرَاضَ عَنِ الْحَقِّ وَ اللَّجَاجِ، يَتْرُكُهُ حَتَّى يَضِلَّ وَ يَتِيَهُ فِي أَوْدِيَةِ الْعِمَايَةِ، فَكَأَنَّهُ أَضَلَّهُ لِأَنَّهُ تَرَكَهُ، كَمَا يَقَالُ: الْمَلِكُ أَفْسَدَ النَّاسَ إِذْ تَرَكَهُمْ حَتَّى فَسَدُوا إِنْآ جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَيِ أَعْنَاقِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمَعَانِدِينَ أَغْلَالًا جَمَعَ غَلٌّ، وَ هُوَ السَّلْسَلَةُ الَّتِي يَرْتَبِطُ بِهَا الْمَجْرِمُ فِي عُنُقِهِ أَوْ يَدِهِ أَوْ رِجْلِهِ فَهِيَ أَيِ تِلْكَ الْأَغْلَالِ إِلَى الْأَذْقَانِ بِأَنَّ

(١) الروم: ٣١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٣

[سورة يس (٣٦): آية ٩]

وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)

كَانَتْ كَبِيرَةً، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى أَذْقَانِهِمْ، لِيَرْفَعَهَا نَحْوَ الْفَوْقِ، فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ النَّظَرِ بَعْيُونَهُمْ أَمَامَهُمْ، فَإِنَّ رُؤُوسَهُمْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْأَغْلَالِ مَرْفُوعَةٌ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَ قِيلَ أَنَّ الْمُرَادَ أَيْدِيَهُمْ مَغْلُولَةٌ إِلَى الْأَعْنَاقِ، فَ «هِيَ» عَائِدَةٌ إِلَى الْأَيْدِيِ الْمَفْهُومَةِ مِنَ السِّيَاقِ، وَ أَذْقَانِ جَمَعَ ذَقْنٌ، وَ هُوَ النَّتْوُ وَسَطُ الْفَكِّ السُّفْلِيِّ فَهُمْ مُقَمَّحُونَ مِنْ قَمَحٍ، بِمَعْنَى رَفَعِ رَأْسِهِ إِلَى فَوْقِ، فَإِنَّ الْأَغْلَالِ، لَمَّا امْتَدَّتْ إِلَى تَحْتِ أَذْقَانِهِمْ، رَفَعَتْ رُؤُوسَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ النَّظَرِ أَمَامَهُمْ.

[١٠] وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا أَيِ أَمَامَهُمْ سَدًّا عَنِ قَبُولِ الْحَقِّ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي حَصَرَ بَيْنَ سَدَيْنِ، لَا يَتِمَكَّنُ مِنَ السَّيْرِ وَ الْحَرَكَةِ، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ السَّيْرِ مَعَ الْحَقِّ، وَ إِنَّمَا هُمْ جَامِدُونَ فِي مَكَانِهِمْ فَأَعْشَيْنَاهُمْ أَيِ جَعَلْنَا عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، تَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِبْصَارِ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ الْحَقِّ، وَ

قَدْ وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ، وَ نَفَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَ ذَلِكَ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، قَامَ يَصَلِّي، وَ قَدْ حَلَفَ أَبُو جَهْلٍ لِعَنَةِ اللَّهِ، لَئِنْ رَأَاهُ يَصَلِّي لِيَدْمِغَنَهُ فِجَاءَهُ وَ مَعَهُ حِجْرٌ وَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، قَائِمٌ يَصَلِّي، فَجَعَلَ كَلِمًا رَفَعَ الْحِجْرَ لِيَرِيهِ، أَثَبَتَ اللَّهُ عِزَّ وَ جَلَّ يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَ لَا يَدُورُ الْحِجْرُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، سَقَطَ الْحِجْرُ مِنْ يَدِهِ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرَ، وَ هُوَ مِنْ رَهْطِهِ أَيْضًا، فَقَالَ: أَنَا أَقْتَلُهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ جَعَلَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَأَرْعَبَ، وَ رَأَى كَأَنَّ فَحْلًا حَاتِلًا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فَجَعَلَ يَرْجِعُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ:

حَالِ بَيْنِي وَ بَيْنَهُ، كَهَيْئَةِ الْفَحْلِ يَخْطُرُ بَدْنَهُ - أَيِ يَحْرُكُ ذَنْبَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٤

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٠ الى ١٢]

وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ

(١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

غَضَبًا - فَخَفْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ

[١١] وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَوْ لَمْ تُنذِرْهُمْ عَنْ الْعِقَابِ وَالنَّارِ لَا يُؤْمِنُونَ إِذْ قَدْ عَانَدُوا الْحَقَّ، وَ الْمَعَانِدُ يَتَسَاوَى عِنْدَ الْإِنذَارِ وَ عَدَمِهِ.

[١٢] إِنَّمَا تُنذِرُ أَى يَنْفَعُ إِذْ ذَكَرَكَ، فَى مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ أَى الْقُرْآنَ، فَقَدْ أَنْذَرَ الرَّسُولَ الْجَمِيعَ لَكِنِ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ أَى فَى حَالِ كَوْنِ الرَّحْمَنِ غَائِبًا عَنِ الْحَوَاسِ، وَ الْمَعْنَى آمَنَ بِاللَّهِ، وَ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَبَشَّرَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِمَغْفِرَةٍ أَى غُفْرَانٍ لِدُنْبِهِ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ لَمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ إِنَّمَا كَانَ الْأَجْرُ الْكَرِيمَ، لِعَدَمِ شُوبِهِ بِمَا يَفْسُدُهُ وَ يَنْقُصُهُ، أَوْ لِأَنَّهُ يَقْدَمُ إِلَى الْمُؤْمِنِ مَعَ الْإِكْرَامِ وَ الْاحْتِرَامِ.

[١٣] ثَمَّ بَعْدَ الْكَلَامِ، حَوْلَ الْأُلُوهِيَّةِ وَ الرِّسَالَةِ، يَأْتِي دَوْرُ الْمَعَادِ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ إِنَّا نَحْنُ التَّكَرُّرَ لِلتَّكْيِيدِ وَ الْإِلْفَاتِ إِلَى أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ ذُو مَقَامٍ عَظِيمٍ نُخَيِّ الْمَوْتَى جَمْعَ مَيْتٍ، أَى لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِنَجَازِيهِمْ وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا أَى قَدَّمَ النَّاسَ لِآخِرَتِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَوْ

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٥

[سورة يس (٣٦): آية ١٣]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣)

الْفَاسِدَةُ وَ آثَارُهُمْ أَى الْأَعْمَالُ الَّتِي أَبْقَوْهَا بَعْدَهُمْ، كَمَنْ عَمَرَ مَسْجِدًا وَ مَحْمَرًا، فَإِنَّهُ يَكْتُبُ لَهُ الثَّوَابَ وَ الْعِقَابَ، وَ هُوَ فَى الْقَبْرِ وَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَ الطَّالِحَةِ، وَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ أَخَصَّيْنَاهُ مِنَ الْإِحْصَاءِ، وَ هُوَ التَّعْدَادُ بِالْإِثْبَاتِ وَ الْكِتَابَةِ فَى إِمَامٍ مُبِينٍ أَى كِتَابٍ ظَاهِرٍ، وَ إِنَّمَا سُمِّيَ الْكِتَابُ إِمَامًا، لِأَنَّهُ يَجْعَلُ مَصْدَرَ الْأَخْذِ، كَمَا أَنَّ الْإِمَامَ، مَصْدَرَ الْاِقْتِدَاءِ وَ الْأَخْذِ، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ،

وَ فَى جَمَلَةٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ، «أَنَّ الْإِمَامَ الْمُبِينِ، هُوَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»

عَلَيْهِ السَّلَامُ «١»، وَ ذَلِكَ، إِمَّا تَأْوِيلٌ أَوْ مَصْدَاقٌ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَعْرُضُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ الْأَثْمَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامِ، حَتَّى يَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَيْهَا، فَيَعْلَمُونَ أَعْمَالَ النَّاسِ، وَ لَا تَنَافَى، بَيْنَ أَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ كِتَابٌ صَامِتٌ، وَ كِتَابٌ نَاطِقٌ.

[١٤] وَ اضْرِبْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَثَلًا أَى يَبِينُ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ أَى قَرْيَةَ أَنْطَاكِيَّةَ،

رَوَى عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَأَلَ عَنِ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «بَعَثَ اللَّهُ رَجُلَيْنِ إِلَى أَهْلِ مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَّةَ، فَجَاءَهُمَا بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، فَغَلَطُوا عَلَيْهِمَا، فَأَخَذُوهُمَا وَ حَبَسُوهُمَا فَى بَيْتِ الْأَصْنَامِ، فَبَعَثَ اللَّهُ الثَّلَاثَ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَقَالَ: أُرْشِدُونِي إِلَى بَابِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الْبَابِ، قَالَ: أَنَا رَجُلٌ كُنْتُ أَتَعْبُدُ فَى فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَ قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْبُدَ إِلَهُ الْمَلِكِ، فَأَبْلِغُوا كَلَامَهُ الْمَلِكِ، فَقَالَ:

أَدْخَلُوهُ إِلَى بَيْتِ الْأَلْهَةِ، فَأَدْخَلُوهُ، فَمَكَثَ سَنَةً مَعَ صَاحِبِيهِ، فَقَالَ

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٢١٢. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٦

لَهُمَا: بِهَذَا يَنْقَلُ قَوْمٌ مِنَ دِينٍ إِلَى دِينٍ؟ بِالْخُرْقِ، أَوْ فَلَا رَفْقَتَهُمَا؟ ثَمَّ قَالَ لَهُمَا: لَا تَقْرَأَنَّ بِمَعْرِفَتِي، ثَمَّ أَدْخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ كُنْتَ تَعْبُدُ إِلَهِي، فَلَمْ أَزَلْ وَ أَنْتَ أَخِي؟ فَسَلَّنِي حَاجَتَكَ، فَقَالَ: مَا لِي مِنْ حَاجَةٍ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَ لَكِنِ رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ فَى بَيْتِ الْأَلْهَةِ فَمَا حَالَهُمَا؟ قَالَ الْمَلِكُ: هَذَانِ رَجُلَانِ أَتَيَانِي بِبَطْلَانِ دِينِي، وَ يَدْعَوَانِي إِلَى إِلَهٍ سَمَاوِيٍّ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، فَمَنْظَرَةٌ جَمِيلَةٌ، فَإِنَّ يَكُنُ الْحَقُّ لَهُمَا اتَّبَعْنَاهُمَا، وَ إِنْ يَكُنُ الْحَقُّ لَنَا دَخَلْنَا مَعًا فَى دِينِنَا، وَ كَانَ لَهُمَا مَا لَنَا وَ عَلَيْهِمَا مَا عَلَيْنَا؟ فَبَعَثَ الْمَلِكُ إِلَيْهِمَا، فَلَمَّا دَخَلَا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمَا صَاحِبُهُمَا: مَا الَّذِي جِئْتُمَا بِهِ؟ قَالَا: جِئْنَا نَدْعُوهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ يَخْلُقُ فَى الْأَرْحَامِ مَا يَشَاءُ، وَ يَصُورُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ أَنْبَتِ الْأَشْجَارَ وَ الثَّمَارَ، وَ أَنْزَلَ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ لَهُمَا:

إلهكما هذا الذي تدعوان إليه، و إلى عبادته، إن جئنا بأعمى أ يقدر أن يرده صحيحا؟ قالوا: إن سألناه أن يفعل فعل إن شاء، قال أيها الملك:

علّي بأعمى لم يبصر شيئا قط؟ فأتى به، فقال لهما: ادعوا إلهكما أن يرد بصر هذا، فقاما و صليا ركعتين، فإذا عيناه مفتوحتان، و هو ينظر إلى السماء، فقال: أيها الملك، علّي بأعمى آخر؟ فأتى به، فسجد سجدة، ثم رفع رأسه، فإذا الأعمى يبصر، فقال أيها الملك: حجة بحجة، علّي بمقعد، فأتى به، فقال لهما مثل ذلك، فصليا، و دعوا الله، فإذا المقعد، قد أطلقت رجلاه، و قام يمشى، فقال: أيها الملك على بمقعد آخر فأتى به فصنع به كما صنع أول مرة، فانطلق المقعد، فقال: أيها الملك قد أتيا بحجة آتينا بمثلها، و لكن بقي شيء واحد، فإن كانا هما فعلاهما دخلت معهما في دينهما؟ ثم قال أيها الملك بلغني أنه كان للملك ابن واحد، و مات، فإن أحياه إلهما، دخلت معهما في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٧

[سورة يس (٣٦): آية ١٤]

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤)

دينهما فقال له الملك: و أنا أيضا معك، ثم قال لهما: قد بقيت هذه الخصلة الواحدة، قد مات ابن الملك، فادعوا إلهكما أن يحييه، فخرأ ساجدين لله عز و جل، و أطالا السجود، ثم رفعوا رأسهما، و قالوا للملك: ابعث إلى قبر ابنك تجده، قد قام من قبره إن شاء الله، فخرج الناس ينظرون، فوجدوه، قد خرج من قبره ينفض رأسه من التراب، قال: فأتى به الملك، فعرف أنه ابنه، فقال له: ما حالك يا بنى، قال:

كنت ميتا، فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين، يسألانه أن يحييني، فأحياني قال: يا بنى تعرفهما إذا رأيتهما، قال: نعم، فأخرج الناس جملة إلى الصحراء، يمرّ عليه رجل رجل، فيقول له أبوه انظر، فيقول لا، ثم مروا عليه بأحدهما بعد جمع كثير، فقال هذا أحدهما، و أشار بيده إليه، ثم مروا أيضا بقوم كثيرين، حتى رأى صاحبه الآخر، فقال و هذا الآخر، فقال النبي صلّى الله عليه و آله و سلم، صاحب الرجلين: أما أنا فقد آمنت بإلهكما، و علمت أن ما جئتما به هو الحق، فقال الملك: و أنا أيضا آمنت بإلهكما، و آمن أهل مملكته كلهم»

«١»

و فى بعض الروايات «أن عيسى عليه السلام، كان هو الذى بعث بالرسولين، أولا ثم بعث وصيه شمعون ثانيا» «٢» ، كأنّ الإتيان بهذا المثل للدلالة على قدرة الله على الإحياء، إرشادا للمنكرين للبعث إذ جاءها أى جاء إلى أهل تلك القرية المرسلون الذين أرسلوا من قبلنا بتوسط عيسى المسيح عليه السلام.

[١٥] إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ أَى إِلَى أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ اثْنَيْنِ أَى رَسُولَيْنِ

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٤٠.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٨

[سورة يس (٣٦): الآيات ١٥ إلى ١٨]

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَنَحْمِسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)

فَكَذَّبُوهُمَا أَهْلُ الْقَرْيَةِ، وَقَالُوا لَسْتُمْ أَنْتُمْ رَسُولًا مِنْ قَبْلِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا رَجُلَيْنِ كَاذِبَيْنِ فَعَزَّزْنَا أَى قَوَيْنَاهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ هُوَ شَمْعُونُ

فَقَالُوا جميعاً لأهل القرية إِنَّا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ مُرْسَلُونَ فَقَدْ كَانُوا هُمْ أَنْبِيَاءَ بِأَنْفُسِهِمْ وَرَسُلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[١٦] قَالُوا لَهُمْ أَهْلَ الْقَرْيَةِ مَا أَنْتُمْ أَيُّ لَسْتُمْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَلَا تَصْلِحُونَ لِلرَّسَالَةِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، كَمَا لَسْنَا نَحْنُ رَسَلًا، فَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الرَّسُولَ يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ بَشَرًا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ إِنْ أَنْتُمْ أَيُّ مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَدْعُونَ لِلرَّسَالَةِ إِلَّا تَكْذِبُونَ أَيُّ كَاذِبُونَ، فِيمَا تَدْعُونَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى.

[١٧] قَالُوا أَيُّ قَالَتِ الرَّسُلُ الثَّلَاثَةُ فِي جَوَابِ الْقَوْمِ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ رَبَّنَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَجْرَى الْخَوَارِقِ عَلَى أَيْدِينَا.

[١٨] وَمَا عَلَيْنَا أَيُّ لَا يَجِبُ عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ أَيُّ إِبْلَاحُ الدِّينِ الْمُبِينُ بِأَنْ نَبْلُغَكُمْ بِكُلِّ جَلَاءٍ وَوَضُوحٍ، بَلَا اخْتِفَاءٍ وَالتَّوَاءِ، فَإِنْ آمَنْتُمْ نَفَعَكُمْ إِيْمَانُكُمْ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ضَرَكُمْ، أَمَا نَحْنُ، فَقَدْ أَدِينَا الْأَمَانَةَ، وَبَلَّغْنَا الرَّسَالَةَ.

[١٩] قَالُوا أَيُّ قَالَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِلرَّسُلِ - بَعْدَ أَنْ لَمْ يَتِمَّ كُنُوهَا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٣٩

[سورة يس (٣٦): آية ١٩]

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ (١٩)

رَدَّ حُجَّتَهُمْ - إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ أَيُّ تَشَاءُ مِنَّا بِوَسْطَتِكُمْ، فَنَخَافُ أَنْ يَصِيْبَنَا شَوْمُكُمْ، فَنَقْعُ فِي الْبَلَاءِ مِنْ طَالَعِكُمُ السَّيِّئِ لِيَنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْ دَعْوَتِكُمْ هَذِهِ لَنْزُجْمَتِكُمْ مِنَ الرَّجْمِ، وَهُوَ الرَّمْيُ بِالْحِجَارَةِ، أَيُّ نَرْمِيكُمْ بِالْحِجَارَةِ، حَتَّى نَقْتَلِكُمْ، فَقَدْ كَانَ الرَّجْمُ، مِنْ أْبْشَعِ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ، يَعْاقِبُونَ بِهِ أْخْطَرَ أَنْوَاعِ الْمَجْرِمِينَ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا أَيُّ مِنْ طَرْفِنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ مُؤَلَّمٌ مَوْجِعٌ.

[٢٠] قَالُوا أَيُّ قَالَتِ الرَّسُلُ، فِي جَوَابِ الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدِهِمْ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيُّ إِنْ شَوْمُكُمْ مَعَكُمْ، حَيْثُ أَقَمْتُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعَصِيَانِ، وَ الْإِقَامَةُ عَلَى الْكُفْرِ، مُوجِبٌ لِلشَّوْمِ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) «١» فَلَيْسَ بِبَلَاءُكُمْ مِنَّا، بَلْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أِنْ دُكِّرْتُمْ أَيُّ هَلْ تَذَكِّرُنَا لَكُمْ بِاللَّهِ، وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، مُوجِبٌ لِهَذَا الْقَوْلِ لَنَا؟ وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ هَدَدَكَ، حَيْثُ نَصَحْتَهُ: هَلْ نَصِيحَتِي تَوْجِبُ التَّهْدِيدَ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ فَلَا تَهْدِدُونَا، لِأَنَّكُمْ وَجَدْتُمُونَا كَاذِبِينَ، وَ أَسْبَابُ شَوْمٍ وَ بَلَاءٍ، بَلْ لِأَنَّكُمْ قَوْمٌ تَجَاوَزُونَ الْحَقَّ تَجَاوُزًا كَثِيرًا، وَ لَذَا مَعَ عِلْمِكُمْ بِصِدْقِنَا، وَ إِنَّا أَسْبَابُ خَيْرٍ وَ يَمُنُ تَقُولُونَ لَنَا هَذِهِ الْأَقْوَالُ، وَ تَهْدِدُونَا بِالرَّجْمِ وَ الْعَذَابِ.

(١) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٠

[سورة يس (٣٦): الآيات ٢٠ إلى ٢٢]

وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)

[٢١] وَ قَدْ كَانَ رَجُلٌ يُسَمَّى حَبِيبَ النَّجَارِ آمَنَ بِالرَّسُلِ عِنْدَ وُرُودِهِمُ الْمَدِينَةَ، وَ كَانَ لَهُ بَيْتٌ فِي آخِرِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِمَحَاوَرَةِ الْقَوْمِ مَعَ الرَّسُلِ، أَتَى إِلَى الْقَوْمِ لِيُنصَحَهُمْ وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ أَيُّ آخِرِهَا رَجُلٌ يَسْعَى أَيُّ يَرْكُضُ وَ يَسْرِعُ فِي الْمَشْيِ، لِثَلَا- يَفُوتَهُ الْمَوْقِفُ، وَ قَدْ قِيلَ إِنْ الْقَوْمُ أَرَادُوا قَتْلَ الرَّسُلِ، فَجَاءَ حَبِيبٌ لِإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْمَجْتَمَعِ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ لِهَدَايَتِكُمْ وَ إِنْقَاذِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعَصِيَانِ.

[٢٢] اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلُكُمْ أَجْرًا فَهَمْ، لَا يَرِيدُونَ جَزَاءً وَ ثَمَنًا عَلَى تَبْلِيغِهِمْ، وَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ الثَّوَابَ، عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّبِعُونَ النَّاصِحِينَ الَّذِينَ يَنْصَحُونَ، بَلَا ثَمَنٍ وَ جَزَاءٍ؟ وَ هُمْ فِي كَلَامِهِمْ مُهْتَدُونَ قَدْ هَدَاهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، فَلَيْسُوا ضَلَالًا، وَ لَا كَاذِبِينَ، وَ لَا

طالبين للأجر.

[٢٣] ثم التفت حبيب من الخطاب إلى التكلم، فقال وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي أَى شَىء لى فى عدم عبادتى لله الذى خلقنى؟ فإن «فطر» بمعنى خلق، و كان هذا الكلام للقوم، بصورة مؤدبة لا تثيرهم، و لا ترعجهم و إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أيها القوم، فى يوم القيامة، فهو المبدئ و المعيد، فكونه خالقا موجب للشكر و العبادة و كونه مرجعا موجب للخوف و العبادة، فإن الإنسان إنما يطيع أحدا، إذا تفضل عليه، أو خاف عقابه، و الأمران مجتمعان فيه سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤١

[سورة يس (٣٦): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنْى إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنْى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)

[٢٤] أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ أَى من دون الله آلِهَةً بأن أعبد الأصنام، عوض عبادة الله تعالى؟ و هذا استفهام إنكارى، أراد التعريض بالقوم، كيف يعصون الخالق، و يعبدون الأصنام؟ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ أَصله «يردنى»، فعل مضارع من «أراد» و النون للوقاية، و ياء التكلم، محذوف، لدلالة الكلام عليه، أَى إن إرادة الله أن يضرنى لا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ أَى شفاعته الأصنام- الآلهة- شَيْئاً فَإِنها لا تشفع، و لو شفعت لم تفد شفاعتها، أو المعنى لا شفاعه لهم، فتغنى و تفيد، على طريق السالبة بانتفاء الموضوع و لَا يُنْقِذُونِ أَى لا ينقذوننى عن الضر الذى أراد الله بى، و قد أراد بهذا تنبيه القوم على ما هم كانوا يعترفون به فى قرارة أنفسهم، من أن الأصنام، لا شأن لها إطلاقا، حتى إن أقل شىء لا يصدر منها، و الإتيان بالجمع العاقل للأصنام، لملاحظة وحده السياق، مع كلام القوم، و اعتقادهم بأنها تسمع و تعقل.

[٢٥] إِنْى إِذَا أَى إذا عبت الأصنام، مع أنها لا تنفع لى ضلالٍ مُّبِينٍ أَى انحراف واضح لا شك فيه.

[٢٦] إِنْى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ أيها الرسل، أو أيها القوم فَاسْمَعُونِ سماعا يفيدكم، بأن تفعلوا مثل فعلى، أو المراد، فاشهدوا لى بهذه الشهادة، فإنى مؤمن بربكم الذى أوجدكم من العدم، لا الأصنام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٢

[سورة يس (٣٦): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

[٢٧] قالوا، فاجتمع القوم، و قتلوا حبيبا، فنودى، حين أن قتل من قبله تعالى، و قيل له ادْخُلِ الْجَنَّةَ المعدة لك بسبب إيمانك قال و هو ميت بعد استشهاده، كما ورد يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ

[٢٨] بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي أَى بغفران ذنوبى، ليرغبوا فى ثوابه، و يدخلوا فى الدين، بترك الكفر و العصيان وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ الذين أكرمهم، بالإضافة إلى الغفران بالثواب و الجنة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٣

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثالث و العشرون من آية (٢٩) سورة يس إلى آية (٣٢) سورة الزمر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٥

[سورة يس (٣٦): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةَ

عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٣٠)

[٢٩] ثم إن الكفار يجب أن يعلموا أن الله سبحانه إذا أراد إهلاكهم، لا يرسل إليهم جنوداً حتى يقاتلونهم، فيرجون احتمال غلبهم على جنود الله، حتى يقولوا إذا جاءت الجنود نهياً لها، بل إن الله إذا أراد الإهلاك، أرسل إليهم ملكاً يصيح بهم صيحة واحدة تدمرهم، حتى إنه ليس لهم مجال لحركة أو عمل، فليعتبروا من قوم حبيب النجار، فإن جماعة منهم بقوا على الكفر، بعد إيمان الملك و حاشيته، و أرسلنا عليهم جبرئيل، أو ملكاً آخر صاح بهم صيحة واحدة أو خلقنا صيحة في الفضاء، أهلكتهم جميعاً، حتى لم يبق منهم حيٌّ و ما أنزلنا على قومِهِ أى قوم الرجل الذى جاء، من أقصى المدينة يسعى مِنْ بَعْدِهِ أى بعد قتلهم له مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الملائكة، يحاربونهم، حتى تكون لهم فرصة المقاتلة، و احتمال الغلبة و ما كُنَّا مُنْزِلِينَ أى ليس شأننا، إنزال الجند، إذا أردنا إهلاك قوم، أو كما نزل فيما سبق، لا نزل في المستقبل - و هذا تهديد لكفار مكة -.

[٣٠] إِنْ كَانَتْ أى ما كانت كيفية إهلاك أولئك القومِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً صاح بهم الملك، أو بخلق الصيحة في الفضاء فإذا هم خامدون أى ساكنون، قد ماتوا، من الخمود ضد الاشتعال، كأنهم قد أطفئوا في أثر الصيحة.

[٣١] يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ الحسرة هي الندامة، فالمعنى أيتها الندامة على العباد، احضري فهذا وقتك، كما قالوا في مثل «يا ويله» و «يا عجباً» أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٦

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣١ إلى ٣٣]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ (٣٢) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)

المعنى، يا قوم أتحسروا حسرة، و من المعلوم إن الله سبحانه لا يتحسر بمعناها في البشر، و إنما المراد نتيجة الحسرة، كما في سائر الصفات، كالغضب و الرضى، و ما أشبهه، و لذا قالوا خذ الغايات، و اترك المبادئ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ «من» «لتعميم» النفى إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ يضحكون منه، و يجعلونه محلاً للسخرية، و حيث كان الكلام في السابق، حول مواجهة الأقسام للأنبياء، بالأذى و التكذيب، جاء السياق لبيان عموم الأذى، و إنه كان من شعبة السخرية.

[٣٢] أَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُعَاصِرِينَ لِلرَّسُولِ، و معنى الرؤية العلم، على نحو الاستفهام التقريرى، أى ألم يصل علمهم كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ أى قبل هؤلاءِ مِنَ الْقُرُونِ كعاد و ثمود، و قوم لوط، و القرن يسمى الجيل و الأمة، باعتبار تقارن أعمارهم أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ أى أن تلك القرون إلى هؤلاءِ لَا يَرْجِعُونَ فقد أخذهم العذاب، فلم تبق منهم باقية؟ فليعتبروا بأولئك، و ليعلموا أن مصير هؤلاءِ إن بقوا على كفرهم و تكذيبهم مصير أولئك.

[٣٣] وَإِنْ كُلُّ أى ما كل تلك الأقسام لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ «لما» بمعنى إلما، أى إلا - أن الجميع يحضرون لدينا يوم القيامة للحساب و الجزاء، و لعل «كل» باعتبار كل قوم، و «جميع» باعتبار كل فرد من كل قوم.

[٣٤] ثم كيف يكفر هؤلاءِ بالله سبحانه، و أمام أعينهم، آثاره الظاهرة،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٧

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣٤ إلى ٣٥]

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)

و أعلامه الباهرة؟ و آيَةٌ أى علامة دالة على وجود الله لَهُمْ أى لهؤلاء المنكرين وجود الله سبحانه الأرضُ الْمَيْتَةُ التى لا نبات فيها، و لا حركة أَحْيَيْنَاهَا بالإنبات بواسطة المطر، أو سائر المياه و أَخْرَجْنَا مِنْهَا من تلك الأرض الحبوب، فإن حَبًّا يراد به الجنس، و الحب، كالحنطة، و الشعير، و الأرز، و غيرها فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ أى من ذلك الحب، و المراد بعضه، لأن بعضه الآخر، يكون نصيب الحيوانات و

الطيور.

[٣٥] وَجَعَلْنَا فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ جَنَّاتٍ أَى بساتين مِنْ نَخِيلٍ جمع نخل، و هو ما يعطى التمر و أعنابٍ جمع عنب، و أطلق العنب على شجرته باعتبار السبب و المسبب، و إنما خصّياً بالذكر لكثرة أفساهما خصوصا فى تلك البلاد و فَجَرْنَا أَى أخرجنا فيها فى تلك الأرض الميتة، أو فى تلك الجنات مِنْ الْعُيُونِ جمع عين، و هى محل خروج الماء العذب من الأرض.

[٣٦] و إنما فعلنا ذلك لِيَأْكُلُوا أَى لياكل البشر مِنْ ثَمَرِهِ أَى من ثمر النخل و ما أشبهه، و توحيد الضمير باعتبار كل واحد واحد و ما عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ أَى لم تعمل كل عمل، من تلك الأعمال أيدى هؤلاء، فإنهم، و إن عملوا، و لكنهم أسباب ضعيفه ظاهريه، و إنما الخالق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٨

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) المكون هو الله تعالى أ فلا يشكرون الله، بإعطائهم هذه النعم المتواترة؟

[٣٧] سُبْحَانَ الَّذِي مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرِ أَى أَنزَهَهُ تَزْيِيهَا، و أسبحة تسيحاً خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا المراد بالأزواج الأصناف، أَى أن من خلق هذه الأصناف الكثيرة الموجودة فى العالم، منزه عن الشريك و النقص، بل هو الواحد الذى لا- نقص فيه مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ بيان «الأزواج» أَى خلق أزواج النبات و أصنافه و مِنْ أَنْفُسِهِمْ خلق الأزواج، ذكرا و أنثى و مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ من الجن و الملائكة، و ما فى بطون الأرض، و قعر البحر، و أجواء السماء، و أصناف النجوم و غيرها.

و ستأتى الإشارة إلى خلق الأنعام، و لعله لذا لم يذكر هنا.

[٣٨] وَ آيَةٌ لَهُمْ أَى دلالة على وجود الله، و سائر صفاته، لهؤلاء المنكرين لله سبحانه اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فكأنَّ النهار كان جلدا على جسم الليل، فإذا جاء الليل، كأنه سلخ النهار من الليل، حتى يبدو الليل، كما يسليخ جلد الشاة منها، فيبدو جسمها، فهو كقولنا «لحم الشاة نسلخ منه الجلد» فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ داخلون فى الظلام.

[٣٩] وَ الشَّمْسُ تَجْرِي كل يوم، لأن يأتيهم بالنهار لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٤٩

[سورة يس (٣٦): الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَ الْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا- الشَّمْسُ يَتَّبِعِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

إلى محل قرار لها- عند الناس- و هو تحت الأرض، أو إلى وقت قرار لها، و هو يوم القيامة ذَلِكَ الإجراء تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ فى سلطانه، فما أراد كان الْعَلِيمُ بالمصالح، فيعمل ما فيه صلاح البشر و الكون.

[٤٠] وَ الْقَمَرَ قَدَرْنَا أَى قدرنا له مَنَازِلَ فى كل يوم فى منزل، فإن للقمر ثمانية عشر منزلا، كما ذكر علماء الفلك، أو المراد المنازل المريئة من هلال و قمر و بدر، فى أحوالها المختلفة زيادة و نقصه حَتَّىٰ عَادَ القمر فى آخر الشهر كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ العرجون هو العذق اليابس المقوس، فإن القمر فى آخر الشهر يعود كما بدأ هلالا ضعيفا مقوسا.

[٤١] لا الشَّمْسُ يَتَّبِعِي لَهَا أَى لا تتمكن أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ فى سيرها فإن الشمس تقطع دورة الفلك فى سنة كاملة، و التى يقطعها فى شهر، أو أن حركاتهما فى أفلاكهما نَظْمًا بحيث لا يصطدم أحدهما بالآخر، و هذا بيان لحكمة الله سبحانه، فى أنه نظمهما، بحيث لا يتلاقيان، و يسببا فساد الأنظمة الكونية وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ بأن يأتى الليل قبل تقضى وقت النهار، كالإنسان الذى يسبق الآخر الذى

يأتي حتى يلحقه، ثم يترادفان في المسير حتى يتقدم ذلك المتأخر، فإن الليل لا يزاحم النهار في أفق واحد، حتى يرى الإنسان ليلاً و نهاراً في حال واحد، ثم يتقدم الليل، و يتأخر النهار، و هذا كناية عن دقة التنظيم الذي لا يتزلزل و كل من الشمس و القمر في فلك و مدار خاص يَسْبَحُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤، ص: ٤٩٩

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤١ إلى ٤٣]

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِن نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣)

كالذي يسبح في الماء بكل سهولة و يسر، و الإتيان بضمير العاقل، إما من باب أن لهما عقلاً- و ذلك غير بعيد- و يؤيده ما ورد في الدعاء من خطاب القمر، ب «أيها الخلق المطيع»

و إما من جهة أنه حيث نسب إليهما السباحة، و هي من فعل العاقل، ناسب الإتيان بضمير العاقل.

[٤٢] وَ آيَةٌ أَي دَلَالَةٌ دَالَةٌ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ سَائِرُ صِفَاتِهِ لَهُمْ أَي لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، أَوِ الْبَشَرِ عَامَةً أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ أَي نَسَلَهُمْ، وَ لَعَلَّ نَسَبَهُ الْحَمَلِ إِلَى الذَّرِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الْحَمَلَ عَامٌ لِلآبَاءِ وَ الْأَبْنَاءِ، إِنْ الذَّرِيَّةُ أَحْوَجُ إِلَى الْحَمَلِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْكَبِيرَ، يُمْكِنُ أَنْ يَعْبُرَ مَضَائِقَ الْبَحَارِ بِالسَّبَاحَةِ، وَ مَا أَشْبَهَهُ، أَمَا الذَّرِيَّةُ فَلَا عِلَاجَ لَسِيرِهِمْ إِلَّا بِالسَّفِينَةِ فِي الْفُلِكِ أَي السَّفِينَةِ الْمَشْحُونِ مِنْ «شَحْنٍ» إِذَا مَلَأَ، بِمَعْنَى السَّفِينَةِ الْمَلِيئَةِ بِالنَّاسِ وَ الْأَثَاثِ، وَ مَعْنَى «حَمَلْنَا» جَعَلْنَا الْمَاءَ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَحْمَلَ عَلَيْهِ، بِمَثَلِ السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ، فَمَنْ جَعَلَ ذَلِكَ يَا تَرَى؟ إِنَّهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَيَنْمِئُ الْقِطْعَةُ الصَّغِيرَةَ مِنَ الْحَجَرِ تَعُومُ فِي الْمَاءِ، لِتَسِيرَ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ الْمَحْمَلَةِ بِالْأَثْقَالِ.

[٤٣] وَ خَلَقْنَا لَهُمْ أَي لِلبَشَرِ، أَوِ لِلذَّرِيَّةِ مِنْ مِثْلِهِ أَي مِنْ مِثْلِ الْفُلِكِ مَا يَرْكَبُونَ عَلَيْهِ فِي الْبَرِّ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي تَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ.

[٤٤] وَ إِن نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فِي الْبَحْرِ، حِينَ كَانُوا رَاكِبِينَ فِي السَّفِينَةِ، وَ ذَلِكَ بِتَهْيِيجِ الرِّيَاحِ وَ الْعَوَاصِفِ، أَوْ مَا أَشْبَهَهُ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ أَي فَلَا أَحَدَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥١

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤٤ إلى ٤٦]

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)

يغيثهم، إن أردنا إغراقهم و لا هم يُنْقَذُونَ أَي لا يخلصون من الغرق، إذا أردناه، و لعل الفرق بين الأمرين، أن الصريح أعم من المنقذ، فالصريح من يترحم عليهم، سواء قدر على إنقاذهم أم لا.

[٤٥] إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا أَي لَا مَنقذَ لَهُمْ، إِلَّا رَحْمَنَا بِهِمْ وَ فَضْلَنَا عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي بِنَجِيهِمْ مِنْ مَخَاطِرِ الْبَحْرِ وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ أَي وَ لِأَجْلِ أَنْ يَبْقُوا أَحْيَاءَ مَدَّةَ عُمُرِهِمْ حَسَبَ تَقْدِيرِنَا، إِلَى حِينٍ يُوَافِيهِمُ الْأَجَلَ، أَي أَنْقَذْنَاهُمْ رَحْمَةً وَ إِمْتَاعًا.

[٤٦] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَشَاهِدُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى قُدْرَتِنَا، وَ سَائِرِ صِفَاتِنَا اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَي مَا أَمَامَكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، فَلَا تَعْصُوا حَتَّى يَحِلَّ عَلَيْكُمْ عَذَابُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ مَا خَلْفَكُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاصِيَ يَعَاقِبُ فِي الدُّنْيَا فِي مَسْتَقْبَلِ عُمُرِهِ بِالْعَيْشِ الضَّنْكَ، كَمَا قَدْ يَبْتَلِي أَوْلَادَهُ بِمَا صَنَعَ، وَ هَذَا هُوَ «مَا خَلْفَ الْإِنْسَانَ» لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَخْلِفُ الدُّنْيَا وَرَاءَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَي لِكِي يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا يُوَازِحُكُمْ بِسَيِّئَاتِ أَعْمَالِكُمْ، وَ جَوَابُ «إِذَا» مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ «أَعْرَضُوا» وَ لَمْ يَقْبَلُوا، وَ قَدْ اسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ.

[٤٧] وَ مَا تَأْتِيهِمْ أَى تَأْتَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ كَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، وَ الْآيَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي الْكُوفِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٢

[سورة يس (٣٦): الآيات ٤٧ إلى ٤٩]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)

وَ كَالآيَاتِ الْمُنزَلَةِ بِقِصْدِ التَّشْرِيعِ، وَ مَا أَشْبَهَ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ يَعْرِضُونَ عَنْ تَدْبِيرِهَا، وَ الْعَمَلُ بِمُوجِبِهَا، وَ إِنَّمَا هُمْ قَدْ رَكِبُوا أَهْوَاءَهُمْ، وَ عَمِلُوا بِمَا تَوَحَّى إِلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ تَقَالِيدُهُمْ، وَ بِهَذَا يَخْسِرُونَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ، وَ يَلْقَوْنَ فِي الْعَذَابِ.

[٤٨] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَى لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ مِنَ الْمَالِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ أَنْ نُنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِسْتِنكَارِي، أَى لِمَاذَا نَطْعَمُ مَنْ لَا يَشَاءُ اللَّهُ إِطْعَامَهُ، إِذْ لَوْ شَاءَ إِطْعَامَهُ، تَمَكَّنَ مِنْ إِطْعَامِهِ؟ وَ قَدْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْفِرَارَ، عَنْ بَدَلِ بَعْضِ أَمْوَالِهِمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ مُسْتَهْزِئِينَ إِنْ أَنْتُمْ أَى مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَى انْحِرَافٍ وَاضِحٍ، حَيْثُ تَأْمُرُونَا بِالْإِنْفَاقِ لِمَنْ لَا يَرِيدُ اللَّهُ إِطْعَامَهُ.

[٤٩] وَ قَدْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَنْذِرُونَ الْكُفَّارَ، بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، عَاقِبَهُمُ اللَّهُ إِمَّا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ وَ لَذَا كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ مُنْكَرِينَ

قَوْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي تَعْدُونَا بِهِ مِنْ نَزُولِ الْعَذَابِ بِنَا إِنْ بَقِينَا عَلَى الْكُفْرِ إِنْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ صَادِقِينَ فِيمَا تَقُولُونَ؟

[٥٠] مَا يَنْظُرُونَ أَى مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَصَاح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٣

[سورة يس (٣٦): الآيات ٥٠ إلى ٥١]

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١)

بِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ، كَمَا صِيحَتْ بِالْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ تَأْخُذُهُمْ وَ تَهْلِكُهُمْ، فَهَلْ يَرِيدُ هَؤُلَاءِ تِلْكَ الصَّيْحَةَ؟ وَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ بَابِ الْإِهَانَةِ لَهُمْ، وَ بَيَانَ أَنَّ أَمْرَهُمْ يَسِيرٌ جَدًّا، حَتَّى أَنْ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَكْفِي لِإِبَادَتِهِمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ أَى تَأْخُذُهُمُ الصَّيْحَةُ فِي حَالِ كُوفِهِمْ، يَخْتَصِمُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَتَأْخُذُهُمْ عَلَى غَرَّةٍ وَ غَفْلَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، مِنْ «خَصِمَ» أَصْلُهُ «اِخْتَصَمَ».

[٥١] فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً فَإِذَا أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بَغْتَةً، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِيصَاءِ وَ لَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ إِذَا أَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ خَارِجَ بِيوتِهِمْ، فَإِنْ اِخْتَصَمَهُمْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ، وَ فِي مَحَلِّ أَعْمَالِهِمْ وَ أَشْغَالِهِمْ، وَ يَحْتَمِلُ، أَنْ يَرَادُ بِ«الصَّيْحَةِ» النَّفِخَةُ الْأُولَى، فَإِنْ إِسْرَافِيلُ يَنْفِخُ فِي الصُّورِ، فَيَهْلِكُ جَمِيعَ الْبَشَرِ، دَفْعَةً وَاحِدَةً، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ، أَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، حَتَّى تَأْخُذَهُمُ الصَّيْحَةُ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي.

[٥٢] وَ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، يَأْتِي السِّيَاقُ، لِبَيَانِ بَعْثِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، فَقَدْ رَأَيْنَا، كَيْفَ مَاتُوا، بِصَيْحَةٍ خَارِقَةٍ، أَوْ بِقُبْضِ رُوحِهِمْ، بِوِاسِطَةِ عِزْرَائِيلَ،

الَّذِي هُوَ شَبِيهُ بِالصَّيْحَةِ، أَوْ بِنْفِخِ إِسْرَافِيلَ، فَلِنَظَرِ إِلَى حَشْرِهِمْ وَ نَفِخِ فِي الصُّورِ هُوَ شَبِيهُ بِالْبُوقِ، يَنْفِخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ، حِينَ يَرِيدُ اللَّهُ إِحْيَاءَ النَّاسِ لِلْقِيَامَةِ وَ الْمَعَادِ فَإِذَا هُمْ أَى إِذَا بِالْكَفَّارِ بَغْتَةً وَ فِجَاءً مِنَ الْأَجْدَاثِ جَمْعُ جَدَثٍ، وَ هُوَ الْقَبْرِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ وَ الْمَرَادُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٤

[سورة يس (٣٦): الآيات ٥٢ إلى ٥٤]

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدُنَا مُخْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

الْمَوْضِعَ الَّذِي قَرَّرَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِلْحَشْرِ وَ الْحِسَابِ، وَ إِلَّا فَلَا مَكَانَ لَهُ سَبْحَانَهُ، فَهُوَ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، لِتَقْرِيْبِ الذَّهْنِ، وَ مَعْنَى يَنْسِلُونَ، يَخْرُجُونَ سَرَعًا إِلَى الْمَوْقِفِ، فَإِنَّ النُّسُولَ هُوَ الْإِسْرَاعُ فِي الْخُرُوجِ.

[٥٣] قالوا لما رأوا أهوال القيامة يا وئيلنا يا هلاكنا، احضر فهذا وقتك، أو يا قوم، ندعو على أنفسنا بالويل من بعثنا أى أقامنا من مرقدنا محل رقدتنا، و الرقدة هي النوم، و المراد من قبورنا، ثم يقولون هذا البعث هو ما وعد الرحمن فى دار الدنيا، فلم نك نصدقه و صدق المرسلون أى الأنبياء عليهم السلام، الذين أخبروا بذلك، فلم نك نصدقهم، فالآن نشاهد صدقهم، و هم فى القبر، لم يكونوا نياما، و إنما قالوا ذلك، باعتبار، أن قبرهم قد خلس، و صاروا إلى حال آخر، إذ حيا كما كانوا فى الدنيا.

[٥٤] و ليس أمر البعث صعبا على الله سبحانه إن كانت أى ما كانت بعثتهم إلا صيحة واحدة صاح بها إسرائيل فى الصور النفخة الثانية فإذا هم جميع لدينا مخضرون ترد أرواحهم إلى أجسادهم، و يحضرون فى موقف الحشر للحساب و الجزاء.

[٥٥] فاليوم أى يوم القيامة لا تظلم نفس شيئا بأن يزداد فى سيئاته،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٥

[سورة يس (٣٦): الآيات ٥٥ الى ٥٨]

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨)

أو ينقص من حسناته و لا تجزون أيها البشر إلا ما كنتم تعملون فجزاء كل حسب عمله، أو المراد إن الأعمال تجسم فكل يرى عمله. [٥٦] قد رأينا أحوال أصحاب النار، و أنهم يدعون بالويل، فلننظر إلى أحوال أهل الجنة إن أصحاب الجنة الذين صدقوا بالله، و بالرسول، و بالمعاد اليوم أى فى ذلك اليوم فى شغل فاكهون قد شغلهم النعيم، الذى لا عين رأت مثله، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، و معنى فاكهون، فرحون، ناعمون، متعممون.

[٥٧] هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ من حور العين، أو حلائلهم الدنيوية، أو أشكالهم من سائر صنوف المؤمنين فى ظلال هى ظلال أشجار الجنة و قصورها على الأرائك جمع أريكة، و هى السرير الذى يصنع للعروس متكون فهم فى كمال راحة، فإن الاتكاء أفضل أحوال الجالس.

[٥٨] لَهُمْ فِيهَا أى فى الجنة فاكهة هى ثمر أشجار الجنة و لَهُمْ مَا يَدْعُونَ أى يتمنون و يشتهون، يقال ادع على ما شئت أى تمن.

[٥٩] و لهم بالإضافة إلى كل ذلك النعيم الجسمانى نعيم روحى، و هو سلام قولاً من رب رحيم أى يقول الرب الرحيم لهم قولاً، هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٦

[سورة يس (٣٦): الآيات ٥٩ الى ٦٢]

وَ امْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)

سلام، فإنه سبحانه يحييهم بالسلام.

[٦٠] و فى القيامة يقال للكفار امتأزوا أى انفصلوا عن جماعة المؤمنين اليوم أى فى هذا اليوم أيها المجرمون فكونوا على حدة، و ذلك لإهانتهم، فإن المجرم إذا كان بين أناس آخرين لا تزديه العيون، بخلاف ما إذا انفصل عنهم.

[٦١] ثم يقال لهم من قبله سبحانه أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أى ألم أمركم و أعاهدكم على لسان الأنبياء أن لا تعبُدوا الشيطان أى لا تطيعوه فيما يأمركم إنَّه أى الشيطان لكم عدو مبين ظاهر العداوة، فلما ذا عبدتموه، و أطعتموه، حتى تردوا هذا المورد؟.

[٦٢] و ألم أقل لكم أن اعبدونى وحدى هذا أى عبادتى صراط مستقيم لا انحرف فيه، و لا عوج، يوصلكم إلى خير الدنيا و سعادة الآخرة، فلما ذا تركتم عبادتى؟.

[٦٣] و لقد رأيتم فى الدنيا، أن الشيطان قد أضل منكم جبلاً أى خلقا كثيراً دعاهم إلى الضلالة، فقبلوا منه و انحرفوا فلم تكونوا تعقلون إن الشيطان يضلكم إن اتبعتموه، كما أضل جماعات كثيرة من جنسكم؟ و هذا استفهام إنكارى، يعنى أنكم بعد ما رأيتم إضلال الشيطان، لجماعات منكم، كيف اتبعتموه؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٧

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٣ إلى ٦٦]

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اضْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)

[٦٤] و إذ قد انحرقتم، و لم تسمعوا العظة، و النصيحة، ف هذه التي تشاهدونها جهنم التي كنتم توعدون في الدنيا، فلم تكونوا تصدقون بها.

[٦٥] اضلوا أي ادخلوها، لا زمين لها، من صلى، بمعنى لزم الشيء اليوم أي في هذا اليوم بما كنتم تكفرون أي بسبب كفركم.

[٦٦] و هناك يشرع الكفار في الجدل و الكذب ظانين أن ذلك ينجيهم، كما كانوا يفعلون في الدنيا، فيحلفون بالله كذبا، قائلين (و الله ربنا ما كنا مشركين) «١» و لكن كذبهم لا ينطلي هناك اليوم نختم على أفواههم أي نضع الختم على فمهم، لئلا يتمكنون من النطق و تكلمنا أيديهم بأن نقدر أيديهم على الكلام، فتشهد الأيدي بأعمالها التي اقترفتها جرما و عصيانا و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون أي بما كان يعمل هؤلاء المجرمون، فمثلا تقول اليد «إني سرقت»، و تقول الرجل «إني مشيت إلى الزنى» و هكذا يفضحون هناك، حيث لا مخلص لهم، عن مثل هذه الشهادة الدامغة، و في آية أخرى (و قالوا للجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) «٢».

[٦٧] و لا يظن هؤلاء الكفار، أنا لا نتمكن من النكال بهم في الدنيا، فإنا

(١) الأنعام: ٢٤.

(٢) فصلت: ٢٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٨

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٧ إلى ٦٨]

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)

إنما نمهلهم هنا، و إلا فنقدر على مسخهم، و إنزال مختلف صنوف العقاب بهم جزاء على أعمالهم و لو نشاء لطمسنا على أعينهم أي لأعميانهم، يقال طمس على عينه إذا محاهها حتى لم يبق منها أثر فاستبقوا الصراط تسابقوا على الصراط، أي الطريق، فإن العميان حين يتسابقون لسلوك الطريق، يرى الإنسان منظرا مضحكا فأنى يبصرون أي كيف يبصرون الطريق بعد العمى، حتى لا يصطدم بعضهم ببعض، و لا يسقط بعضهم بعضا؟

[٦٨] و لو نشاء لمسخناهم و المسخ تبديل الإنسان حيوانا، كما مسخ اليهود قرده على مكانتهم التي هم فيها، في ذلك الطريق الذي تسابقوا فيه فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا أي يمضون إلى مقصدهم و لا يرجعون أي لا يتمكنون من الرجوع، فهم في قبضتنا، حتى إننا نتمكن أن نعيمهم أو نمسخهم في لحظة، و مع ذلك لا نفعل ذلك رحمة و إمهالا لهم لعلمهم يرجعون.

[٦٩] و هل يظن هؤلاء أننا لا نقدر على مسخهم، أو طمس عيونهم؟ فلينظروا إلى الشباب كيف تبدلهم إلى شيوخ لا يقدر على شيء، بعد القوة و النضارة، فمن يقدر على ذلك، و هم يرونه كل يوم يقدر على المسخ و الطمس و مَنْ نُعَمِّرْهُ أي نعطيهم عمرا كثيرا نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٥٩

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٩ إلى ٧٠]

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)

نكس قواه و خلقته، فيصير بعد القوة ضعيفا، و بعد العقل خرفا، و بعد النضارة ذابلا، و بعد العلم جاهلا، و هكذا، فهو راجع إلى حالة الطفولة أ فلا يَعْلَمُونَ هؤلاء الكفار إن من يقدر على هذا التنكيس، قادر على ذلك التنكيس، بالطمس و المسخ؟

[٧٠] و قد كان الكفار يقولون، إن محمدا شاعر، و إن القرآن شعر، فرجع السياق إلى ما بدأ: حيث قال «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» قائلا و ما عَلَّمْنَاهُ أَى ما علمنا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الشُّعْرَ فليس القرآن شعرا و ما يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَقُولَ الشُّعْرَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، ثم ينسبه إلى الله سبحانه، و

قد رووا إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان لا ينشد الشعر إطلاقا، حتى أنه إذا أراد أن يقرأ شعرا، بدله حتى يخرج عن كونه شعرا، فقال ذات يوم بدل «كفى الشيب و الإسلام للمرء ناهيا» ب «كفى الإسلام و الشيب للمرء ناهيا»

أما ما

ورد من أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، قال «أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب»

«١»، فلم يثبت أنه قرأه على طريقة الشعر، فلعله لم يقف على «كذب» إِنْ هُوَ أَى هذا الذى يقرأه من قبله تعالى إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ واضح، و ليس بشعر، و المراد بالذكر، إنه يذكر الناس خالقهم الذى نسوه، بعد ما أودع فى فطرتهم، و لعل الإتيان، ب «الذكر» لأن الشعر كان فى الغالب لهوا و تشييبا، فالذكر مقابل له.

[٧١] لِيُنذِرَ اللهُ بِوَسْطِهِ، أَوْ لِيُنذِرَ الرَّسُولَ، أَوْ لِيُنذِرَ الْقُرْآنَ مَنْ كَانَ حَيًّا

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٤٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٠

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧١ إلى ٧٣]

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبٌ أَ فَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)

فى أنه يسمع و يعقل، مقابل الإنسان الميت، الذى لا ينفعه الإنذار، و إنما شبه بالميت، لأنه و الميت سواء، فى عدم الاجتناب عن الشىء المخوف و يَحِقُّ الْقَوْلُ أَى يثبت القول بالعذاب عَلَى الْكَافِرِينَ بأن يتم عليهم الحجة، ففائدة القرآن، هداية العقلاء، و إتمام الحجة على الكفار.

[٧٢] أ وَ لَمْ يَرَوْا أَى هؤلاء الكفار المنكرون لله تعالى أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ أَى لمنافعهم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا كناية عن تفرده سبحانه بالخلق، و النسبة إلى «اليد» للتشبيه بالمحسوس تأكيداً لعدم الاشتراك فى خلقها أنعاماً جمع نعم، و هى الإبل و البقر و الغنم فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ فهم أنها ملكوها، بفضلنا و إحساننا؟ فمن يا ترى خلق لهم هذه الأنعام غيرنا؟

[٧٣] وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ أَى سخرناها لهم، حتى صارت منقادة ذليلة طيعهم، فلو كانت الأنعام، كسائر السباع، أو الحشرات - حتى مثل الفأر - فمن يا ترى كان يمكنه تسخيرها و تذليلها؟ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ أَى من تلك الأنعام لفائدة الركوب كالإبل و منها يَأْكُلُونَ أَى و منها لفائدة الأكل، كالبقر و الغنم.

[٧٤] وَ لَهُمْ لِلْبَشْرِ فِيهَا فى تلك الأنعام مَنَافِعُ كلبس أصوافها و أوبارها، و إشعال فضلاتها، و ما أشبه ذلك وَ مَشَارِبٌ جمع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦١

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧٤ إلى ٧٥]

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ (٧٥)

مشرب، و هو مصدر ميمى، و المراد لبنها أ فلا يَشْكُرُونَ هذه النعم، التى منحناها لهم، بترك الكفر، و الدخول فى زمرة المؤمنين و

المطيعين.

[٧٥] إنهم بعد أن علموا بجزيل إحساننا، وفضلنا عليهم، اتبعوا طريق الكفر والعصيان وَاَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً المراد الجنس، فيشمل الواحد أيضاً، فإن الجنس والجمع يقومان مقام الآخر لَعَلَّهُمْ يُنْصِرُونَ أى لكى تنصرهم تلك الآلهة، من بأس الله سبحانه، كما قالوا (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (١) وقالوا (هُؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (٢).

[٧٦] ولكنهم أخطئوا فى انتظار النصره من الآلهة لا يَسْتَطِيعُونَ أى تلك الآلهة، والإتيان بضمير العاقل، لتوحيد السياق فى الحوار، بين المؤمنين، والكفار، فإن الكفار كانوا يعبرون عن الأصنام، بألفاظ العقلاء زعما منهم، إنها تعقل و تدرك نَصِرَهُمْ أن تنصر هؤلاء الكفار وَهُمْ أى الكفار لَهُمْ أى لتلك الآلهة جُنْدٌ كالجند، لأن الأتباع، كالجند مُخَضَّرُونَ جميعا فى النار، أو المراد إن هؤلاء هم جنود الآلهة المحامون عنها، فكيف يمكن أن تكون الآلهة هى المحامية عنهم؟

(١) الزمر: ٤.

(٢) يونس: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٢

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧٦ إلى ٧٨]

فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)

[٧٧] فَلَا يَخْرُجُكَ يا رسول الله قَوْلُهُمْ قول هؤلاء الكفار فيك، إنك شاعر، أو ما أشبه ذلك إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ فى ضمائرهم، و بينهم فى مجالسهم الخاصة وَمَا يُعْلِنُونَ فى الملاء حولك، و حول رسالتك، من الوقعة فيك، و نسبتك إلى الجنون و الكهانة و السحر، و ما أشبه.

[٧٨] و إذ ذكر السياق جملة حول الرسالة، رجع إلى الكلام حول المعاد، و قد كان من بلاغة القرآن الحكيم، إنه لا يأتى بكلام واحد فى تفصيل، و إنما يقطع الكلام المختلف تقطيعا، و يذكر بعض نوع فى خلال نوع آخر، حذرا من الإسهاب، و ملالة السامع أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ المنكر للمعاد أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ أى قطرة من المنى؟ و المراد بالرؤية العلم فَإِذَا هُوَ إنسان كبير خَصِيمٌ لنا، أى يخاصمنا فى أوامرنا و أخبارنا مُبِينٌ ظاهر الخصومة، فإنه يخاصم فى قدرتنا على البعث، و قد رأى كيف قدرنا على أن نصنع إنسانا، من قطرة منى؟ [٧٩] وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا أى ضرب مثلا لإنكاره المعاد بالعظم البالى وَنَسِيَ خَلْقَهُ أى ترك النظر فى خلق نفسه، حيث إن تصيير المنى إنسانا، أصعب فى نظر العامة، من تصيير العظم البالى إنسانا قَالَ وَ هَذَا هُوَ مِثْلُهُ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ أى بالية؟ و الاستفهام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٣

[سورة يس (٣٦): الآيات ٧٩ إلى ٨٠]

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) إنكارى تعجيبى، أى لا يمكن أن تحيى العظام البالية،

فقد ذكروا إن أبى بن خلف، أو العاص بن وائل، جاء إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بعظم بال متفتت، و قال: يا محمد أ تزعّم أن الله يبعث هذا؟ فقال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم:

نعم، و نزلت الآية

«١».

[٨٠] قُلْ يا رسول الله، فى جوابه يُحْيِيهَا أى العظام الَّذِي أَنْشَأَهَا و أبدعها و خلقها أَوَّلَ مَرَّةٍ أى فى ابتداء الأمر، فمن كان قادرا على

الإيجاد، فهو قادر على الإعادة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ فليس لأحد أن يقول: هناك فرق بين الإيجاد و الإعادة، فإن الإعادة بالإضافة إلى احتياجها إلى القدرة، تحتاج إلى علم واسع، لكي يعلم الشخص إن أجزاء الميت الفلاني أين تفرقت و تناثرت، حتى يجمعها بأعيانها، ليكون المعاد، هو الأول، لا غيره؟ فإن الجواب، إن الله سبحانه، كما هو قادر على كل شيء، عالم بكل شيء.

[٨١] ثم بين سبحانه، بعض آثار قدرته، دليلاً على قدرته على إحياء الأموات الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ أَى الرطب، غير اليابس، و إنما يسمى الرطب بالأخضر، لأن الماء إذا كان داخلاً في الأعواد، كان لون الشجر أخضر، فإذا يبس، مال لونه إلى السواد و الغبرة ناراً، ف «المرخ» و «العفار» شجرتان، إذا اصطكت بعض أحدهما ببعض الآخر، خرج النار من بينهما، فمن قدر على إخراج النار من الشجر الرطب المضاد للحرارة، قادر على إيجاد الحياة

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٤

[سورة يس (٣٦): الآيات ٨١ إلى ٨٣]

أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

في العظم البالي فإذا أنتم أيها البشر منه أي من ذلك الشجر المخرج للنار تَوَقَّدُونَ أي تشعلون الحطب، فمن يا ترى جعل النار في الشجر الريان بالماء؟ و من يا ترى جعل الشجر، بحيث يختزن من شعاع الشمس، مقدار يخرج و يتفقد بمجرد الحك و لذلك؟ إنه هو الله القادر على كل شيء.

[٨٢] ثم أ و لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ هَذِينَ المخلوقين العظيمين بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ أَنْ يَصِبَ أجزاءهم البالية في القالب، حتى يخرج إنسان مثل الإنسان الأول؟ بلى قادر على ذلك وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إذ هذه العملية، تحتاج إلى قدرة و علم، و كلاهما متوفران لديه سبحانه.

[٨٣] إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ و بمجرد هذه اللفظة، أو معناها- و هي الإرادة- يبدع ذلك الشيء، المراد فَيَكُونُ أمراً موجوداً في الخارج، فلا يحتاج سبحانه، إلى آلات و أسباب و زمان، حتى يوجد شيئاً، و قد ذكرنا سابقاً إن «كن» إما حقيقة بأن يخلق سبحانه صوتاً، أو إشارة إلى إرادته تعالى حدوث ذلك الشيء.

[٨٤] فَسُبْحَانَ مَنْصُوبٍ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ، أَى أَسْبَحَ سُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ المعنى أنزهه تعالى عن عدم القدرة، أو عدم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٥

العلم، و المعنى إن تمت قدرته ملك كل شيء، فهو قادر على الإيجاد و الإعادة، فإن «ملكوت» هو الملك، و زيد فيه التاء للعظمة، نحو «جبروت» و ملكوت كل شيء ما يقوم به ذلك الشيء، و لفظه «بيده» للكناية، فإن اليد هي الآخذة بالمملوكات، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، و إلا فليس لله سبحانه يد كأيدينا، فإنه سبحانه منزه عن الجسمية، و عوارضها و إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أى تردون إلى جزائه و حسابه، حيث لا يملك أحد شيئاً، إلا هو وحده فيجازيكم حسب أعمالكم الكافر و العاصي بالعقاب، و المؤمن و المطيع بالثواب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٦

٣٧ سورة الصافات مكية / آياتها (١٨٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه اللفظة في قوله «و الصافات» و هي كغالب السور المكية، تعالج قضايا العقيدة، بأصولها

الثلاث، التوحيد و الرسالة و المعاد، في أسلوب قصصى رائع، و لما ختمت سورة «يس» بشؤون الإله سبحانه، ابتدأت هذه السورة بتلك، مع فصل آيات سيقت للحلف على ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله الواحد، الذى له كل شىء جميل، و هو منزه عن كل شىء قبيح، فإن لفظ «الله» بما هو علم للذات المستجمع لجميع الكمالات، يوحى إلى هذا المعنى، و الرحمن الرحيم، وصفان مشتقان من الرحمه، يوحى مبدأ اشتقاقهما بالفضل و الرحم، و تكرارهما، بقوة هذه الصفة فى ذاته سبحانه، و الرحمن صفة الفعل، و ليس صفة الذات، فالمعنى أنه سبحانه يفعل ما يفعله الرحيم، لا إن له حالة نفسه، توجب ذلك و لذا قالوا فى مثل هذه الصفات «خذ الغايات و اترك المبادئ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٧

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الصَّافَاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)

[٢] وَ الصَّافَاتِ صَفًّا «الصفات» جمع صافه، و هى الملائكة التى تصف أقدامها للصلاة و الإطاعة، أو أجنحتها حال الصعود و الهبوط و «صفا» تأكيد له، أى قسما بالملائكة الصفات، الذين يصطفون صفا، و إنما جىء بالجمع المؤنث، باعتبار الجماعة.

[٣] فَالزَّاجِرَاتِ أى ثم قسما بالملائكة التى تزجر الكفار حين قبض أرواحهم، أو تزجر من أمر الله، بزجره زَجْرًا مصدر تأكيدى لفعل محذوف.

[٤] فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا أى ثم قسما بالملائكة التى تتلو القرآن، أو سائر الكتب المنزلة، و حيث إن معنى التاليات يلازم الذكر جىء تأكيد بلفظ «ذكر».

[٥] قسما بهؤلاء الطوائف من الملائكة إِنَّ إِلَهَكُمْ أَيها الناس لَوَاحِدٌ لا شريك له، و قد نرى فى القرآن الحكيم القسم من الله سبحانه، بأصناف و أنواع مختلفة من الخلق، دلالة لعظمتها فى أنفسها، و إن لا يصح لنا أن نحلف إلا باسمه الكريم، كما قال النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من كان حالفا، فليحلف بالله، أو ليسكت (١).

[٦] رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ خالقهما و مربيهما وَ مَا بَيْنَهُمَا من الهواء، و الإنسان و الملائكة، و غيرها وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ جمع مشرق،

(١) متشابه القرآن: ج ٢ ص ١٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٨

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٦ الى ٨]

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨)

و هو موضع طلوع الشمس، فإن الشمس فى كل يوم تطلع من موضع جديد، فلمن هذا الموضع فى كل يوم؟ إنه لله سبحانه.

[٧] إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا أى السماء القريبة إلى الأرض، مؤنث «أدنى» و إنما خصها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة، و لعل المراد بالسماء الدنيا مدار الأرض - كما يقوله العلم الحديث - بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ فإن الكواكب تزين الأرض، و الإضافة للنوع، أى بهذا النوع من الزينة، فإن السماء بجمالها تمتع الإنسان، مع ما فيها من الفوائد الأخر.

[٨] وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ متجرد خبيث خال من الخير، فقد يظهر من الأحاديث، أن فى أعالي الجو، يقدر أمور الأرض، و كأنها مراكز للملائكة المدبرة للأمور - بإذن الله سبحانه - فالشياطين تريد الصعود إلى تلك المراكز،

لاستراق بعض الكلمات، لتعلم ماذا يحدث في الأرض، لكن السماء محفوظة عن وصول الشياطين و «مارد» مشتق من «مرد» و هو المنجرد، و منه يسمى بالأجرد، من لا شعر له، فكان الشيطان مجرد عن الخير لا يتأتى منه عمل حسن.

[٩] لا يَسْمَعُونَ من أسمع أصله من باب الافتعال «استمع» ثم قلبت التاء سينا، على القاعدة، أى إنما حفظنا السماء من كل شيطان لكى لا يستمعون إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى و هم أشرف الملائكة الذين و كل إليهم بعض أمور الأرض و لهم مراكز فى تلك الطبقات الرفيعة فى الفضاء و يُقَدِّفُونَ أى يقذف الشيطان الذى تجرأ و ذهب إلى هناك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٦٩

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٩ الى ١١]

دُحُورًا و لَهُمْ عَذَابٌ وَاِصْبُ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)

للاستماع مِنْ كُلِّ جَانِبٍ من جوانب السماء بالشهب، كاللص الذى يرميه الإنسان، إذ رآه يريد سرقة، فقد جعل الله سبحانه الكواكب محاللت للإرصاد، فهناك ملائكة ينظرون إلى الملائكة الأعلى، فمهما اقترب منه شيطان رموه بالشهب- و هى النيازك- ينحونه عن الاقتراب، و هذا لا- ينافى فى تعليل النيازك، بعلة ظاهرة، فإنه سبحانه جعل للأشياء عللا ظاهرة، و عللا خفية، كالميت الذى إنما يموت بالسلم ظاهرا، و يقبض ملك الموت لروحه باطنا، و كالكسوف الذى هو لكثرة المعاصى باطنا، و لحيلولة القمر بين الأرض و الشمس ظاهرا.

[١٠] دُحُورًا أى دفعا لهم بالعنف، و طردا، يقال دحره، إذا طرده بالعنف و لَهُمْ أى لأولئك الشياطين عَذَابٌ وَاِصْبُ أى عذاب دائم ثابت إلى يوم القيامة.

[١١] إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ الخطف هو سلب الشىء خلسة بسرعة، و المعنى إن الشياطين لا يسمعون إلى الملائكة، إلا من اقترب خفية، فاختلس بعض الكلمات، التى تدار بين الملائكة، بأن لقفها بسرعة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ أى لحقته و أصابته جمره من نار مضيئة تثقب و تحرق الشيطان من حرارتها و حداثها، و هذه هى النيازك التى نراها فى الليالى، و ذلك لا ينافى ما يعلله علم الفلك لها من أنها قذائف جوية.

[١٢] و بعد تذكير هؤلاء بما خلقنا من السماوات و الكواكب، و غيرها من المخلوقات العظيمة فَاسْتَفْتِهِمْ أى أسألهم يا رسول الله أَمْ مَنْ خَلَقْنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٠

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٢ الى ١٥]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أى أحكم صنعا، و أصعب فى نظرهم أَمْ مَنْ خَلَقْنَا من الملائكة و السماوات و الأجرام؟ فكيف أن هؤلاء مع ضحالتهم يتكبرون عن الانقياد، بينما إن ما هو أشد منهم خلقا خاضعون منقادون؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ أى طين يلصق باليد، و هو الطين الصافى، و هذا بالنسبة إلى كل أحد أحد، فإن أصل كل فرد هو الطين- كما تقدم- فكيف أنهم مع و هن أصلهم يستكبرون؟

[١٣] بَلْ عَجِبْتَ يا رسول الله من كفر هؤلاء، و شدة إنكارهم، مع وضوح الأمر و يَسْتَسْخِرُونَ بينما أنت- مع عظمتك- تعجب، كيف غفلوا و تمردوا؟ و هؤلاء يسخرون بك، و بما تقول من الحقائق الواضحة الظاهرة للعيان.

[١٤] وَإِذَا دُكِّرُوا بآيات الله، أى ذكرتهم بالله و المعاد، مما هو كامن فى فطره كل أحد لا يَذْكُرُونَ أى لا ينتفعون بالتذكير، فقد أقيم عدم السبب مقام عدم المسبب، إذ التذكير علة الانتفاع، فهم حيث لم ينتفعوا كأنهم لم يذكروا.

[١٥] وَإِذَا رَأَوْا آيَةً دَالَةً عَلَى وجود الله، و سائر صفاته، أو على رسالتك، و صدق ما تقول يَسْتَسْخِرُونَ أى يستهزئون بتلك الآية

قائلين: إنها سحر، والآتى بها ساحر، وجعلوا يضحكون منك و منها.

[١٦] وَقَالُوا لَتلك الآيه إن هذا أى ما هذا الذى عمله الرسول من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧١

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٦ الى ٢٠]

أ إِذَا مِننا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَماً أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أ وَ آبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنما هِىَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يا وَيَلنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) الإِعجازُ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ واضح ظاهر.

[١٧] ثم أخذوا يظهرن التعجب من قولك بأنهم يبعثون يوم القيامة قائلين أ إِذَا مِننا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَماً بأن صارت لحومنا تراباً، و بقيت عظامنا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أى محيون بعد الموت؟

[١٨] أ وَ يبعث آباؤنا الْأَوْلُونَ الذين ماتوا، و صاروا تراباً، و الهمزة للاستفهام، و الواو عاطفة.

[١٩] قُلْ يا رسول الله، فى جواب استفهامهم الإنكارى نَعَمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ تبعثون وَ الحال أَنْتُمْ داخِرُونَ أى صاغرون أذلاء، من دخر، بمعنى صغر و ذل.

[٢٠] وَ ليس بعثكم أمرا مشكلا فَإِنما هِىَ أى بعثتكم بعد الممات زَجْرَةٌ أى صيحة واحِدَةٌ، هِىَ نفخة إسرائيل فى الصور، و إنما سُمى النفخ زجرا لأنهم قد زجروا عن الحالة التى هم عليها إلى الحشر فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ إلى القيامة التى كذبوا بها.

[٢١] وَقَالُوا حين يرون القيامة يا قوم وَيَلنا أو يا ويلنا احضر، فهذا وقتك، و ويل كلمة يقولها الإنسان عند توجه مصيبة إليه، كأنه يتمنى الهلاك فرارا عن تلك المصيبة هذا يَوْمُ الدِّينِ أى يوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٢

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٢١ الى ٢٤]

هذا يَوْمُ الْفِضْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ (٢١) احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أزواجَهُمْ وَ ما كانوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إلى صِراطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) الحساب الذى كذبنا به.

[٢٢] فیردّ عليهم من قبل الله سبحانه، أو الملائكة، أو المؤمنين، ب هذا يَوْمُ الْفِضْلِ الذى يفصل فيه بين المؤمن و الكافر، و المبطل و المحق الذى كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ فتقولون- و أنتم فى الدنيا- لا حساب و لا جزاء.

[٢٣] ثم يقال من قبل الله تعالى احشُرُوا أى اجمعوا من ساحة المحشر الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أزواجَهُمْ أى نساءهم الظالمات، أو المراد أشكالهم، فإن الزوج بمعنى الشكل، و كأنَّ «الذين ظلموا» مراد به كبراء الظالمين، و يراد ب «أزواجهم» أشباههم من صغار الظالمين وَ ما كانوا يَعْبُدُونَ أى الأصنام التى كانوا يعبدونها.

[٢٤] مِنْ دُونِ اللَّهِ أى سوى الله سبحانه، و إنما الاستثناء باعتبار أن المشركين، كانوا يعبدون الله و الأصنام، فالاستثناء لتخصيص الأمر حتى فى الصورة و اللفظ- بالأصنام فَاهْدُوهُمْ أى أرشدوهم و أروهم- بعد جمعهم جميعا- إلى صِراطِ الْجَحِيمِ أى الطريق التى تنتهى إلى النار، و إنما جِءَ بلفظ الهداية لشباهة إراءتهم لطريق النار بإراءة المؤمنين طريق الجنة.

[٢٥] وَ قِفُوهُمْ من «وقف» أى أوقفوا هؤلاء الكفار، قبل إلقاءهم فى النار إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ أى يلزم أن يسأل عنهم، عما فعلوا لزيادة التقرير،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٣

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)

ثم يلقون في النار، وقد ورد في بعض الأحاديث سؤالهم عن ولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «١»، وذلك من باب بعض المصاديق لما يسأل عنه هناك.

[٢٦] ثم يقال لهم تفرعاً و تبكيتاً ما لكم أيها الكفار لا تناصرون أي لا ينصر بعضكم بعضاً، لإنجائكم من أهوال القيامة؟ أصله «تناصر» حذف إحدى تائي للقاعدة.

[٢٧] بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ منقادون، لما يفعل بهم، حيث لا يتمكنون من المعارضة، وليس هناك كالدنيا، التي كان بعضهم ينصر بعضاً- فيها- ضد الحق، وإخماد نوره.

[٢٨] وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَي بَعْضُ أَوْلِيكَ الْكُفَّارِ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ فَإِنَّ الْأَتْبَاعَ يَسْأَلُونَ الْقَادَةَ عَنْ سَبَبِ إِضْلَالِهِمْ؟ وَيَلْقُونَ عَلَيْهِمْ تَبَعَهُ ضَلَالِهِمْ.

[٢٩] قَالُوا أَي قَالَتِ الْأَتْبَاعُ لِلْقَادَةِ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ أَي عَنْ طَرِيقِ الْيَمَنِ وَ الْبُرْكَهْ، فَتَقُولُونَ لَنَا إِنْ كَفَرْتُمْ، وَ لَمْ تَوْمِنُوا بِقِيَّتِ لَكُمْ الْبُرْكَهْ وَ السَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَلَمْ كُنْتُمْ تَغْوُونَا بِهَذِهِ الْغَوَايَةِ حَتَّى نَلْقَى هَذَا الْمَصِيرَ السَّيِّئَ؟ أَو الْمَرَادُ كُنْتُمْ تَأْتُونَ عَنْ طَرَفِ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٤ ص ٢٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٤

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٢٩ إلى ٣٣]

قَالُوا يَلِ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ يَلِ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَمَذَابِقُونَ (٣١) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)

يميننا للإسرار في آذاننا، فإن الذي يريد أن يناجى، يسر في الأذن اليمنى، لأنها أكثر احتراماً و استماعاً، لأنها في طرف القلب.

[٣٠] قَالُوا أَي الْقَادَةُ لِلْأَتْبَاعِ، يَرِيدُونَ بِذَلِكَ تَبَرُّهُ سَاحَتِهِمْ عَنْ تَبَعِهِ كَفَرَ الْأَتْبَاعُ بَلِ لَمْ تَكُونُوا أَنْتُمْ بِالذَّاتِ مُؤْمِنِينَ فَإِنَّكُمْ مَعْرُضِينَ عَنِ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ، وَ إِنَّا لَمْ نَسْبِ ضَلَالِكُمْ، حَتَّى تَكُونَ التَّبَعَةُ عَلَيْنَا.

[٣١] وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأَتْبَاعُ مِنْ سُلْطَانٍ أَي سُلْطَةً وَ قَهْرٍ نَجْبِرُكُمْ عَلَى الْكُفْرِ، لَوْ لَا- أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْبُونَ الْكُفْرَ يَلِ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْأَتْبَاعِ، فِي أَنْفُسِكُمْ، وَ بَدُونَ إِغْوَانًا قَوْمًا طَاغِينَ قَدْ طَغَيْتُمْ، وَ تَجَاوَزْتُمْ حُدُودَ الْإِيمَانِ فَتَبَعْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، لَا نَحْنُ مَعَاشِرُ الْقَادَةَ.

[٣٢] فَحَقَّ عَلَيْنَا جَمِيعًا التَّابِعِ وَ الْمَتَّبِعِ قَوْلُ رَبِّنَا بِأَنَا مَعْدَبُونَ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ: إِنْ مِنْ كُفْرٍ، سَيَعَذَّبُ، وَ قَدْ ثَبَتَ، وَ انْطَبَقَ عَلَيْنَا هَذَا الْقَوْلُ، فِ إِنَّا لَمَذَابِقُونَ عَذَابَنَا عَلَى الْكُفْرِ.

[٣٣] وَ إِذْ قَدْ ثَبَتَ عَلَيْنَا وَ انْطَبَقَ الْعَذَابُ فَأَعْوَيْنَاكُمْ حَسَبَ اسْتِعْدَادِكُمُ الذَّاتِي، حَيْثُ انْزَلْتُمْ مَعْنَا فِي حَضِيضِ الْكُفْرِ إِنَّا كُنَّا بِأَنْفُسِنَا غَاوِينَ وَ الطُّيُورَ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ.

[٣٤] ثم يحكى سبحانه حالتهم جميعاً، بقوله فَأَنَّهُمْ الْقَادَةُ وَ الْأَتْبَاعُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٥

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٣٤ إلى ٣٧]

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَ يَقُولُونَ أ إِنَّا لَتَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)

يَوْمَئِذٍ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ لكونهم جميعاً، كانوا كفاراً مشتركين في الضلال- في الدنيا- فاشتركوا في العذاب، هناك.

[٣٥] إِنَّا كَذَلِكَ أَي كَمَا فَعَلْنَا بِهِؤَلَاءَ مِنَ التَّعْذِيبِ نَفْعَلُ بِسَائِرِ الْمَجْرِمِينَ فَمَنْ مَعَذِبُونَ بِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَكَأَنَّ الْآيَةَ ذَكَرَتْ سَابِقًا جَمَاعَةً خَاصَّةً، دَارَ حَوْلِهِمُ الْكَلَامُ- وَهُمْ الْمَشْرُكُونَ- ثُمَّ أَرَادَتْ تَعْمِيمَ الْأَمْرِ عَلَى سَائِرِ مَنْ يَجْرِمُ.

[٣٦] ثُمَّ بَيْنَ سُبْحَانِهِ عَلَيْهِ تَعْذِيبُهُمْ بِقَوْلِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا إِذَا قِيلَ لَهُمْ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاتْرَكُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ يَسْتَكْبِرُونَ أَي يَطْلُبُونَ الْكِبْرِيَاءَ، وَيُرُونَ أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ هَذَا الْاعْتِرَافِ، أَلَيْسَ هُمْ أَكْبَرَ قَدْرًا مِنْ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟ بِزَعْمِهِمْ.

[٣٧] وَ يَقُولُونَ أَي يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أِنَّا لَنَارِكُوكُمْ آلِهَةً أَي هَلْ إِنَّا نَتْرِكُ الْأَصْنَامَ لِقَوْلِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ يَعْنُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنكَارِي، أَي لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ.

[٣٨] فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ، إِنْ الرَّسُولَ لَيْسَ شَاعِرًا وَ لَا مَجْنُونًا بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ، وَ سَائِرِ الشُّؤْنِ الْأَصُولِيَّةِ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ، وَ هَلْ يُقَالُ لِمَثَلِهِ شَاعِرًا، أَوْ يُقَالُ لَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٦

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٣٨ إلى ٤٣]

إِنَّكُمْ لَمَذَانِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَ مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا- مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) أَوْلَيْتَكَ لَهُمْ رِزْقًا مَعْلُومًا (٤١) فَوَاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢)

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)

مجنون؟ فهذا كلامه، ليس بشعر، وهذه حركاته ليست بحركات ذى جنون.

[٣٩] إِنَّكُمْ أَيهَا الْكُفَّارُ لَمَذَانِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ أَي الْمَوْلُومِ الْمَوْجِعِ، فَإِنْ اسْتَمَرَّكُمْ فِي الْكُفْرِ لَا يَنْتَهِجُ إِلَّا ذَاكَ.

[٤٠] وَ مَا تُجْزَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَي عَلَى قَدْرِ إِجْرَامِكُمْ، أَوْ نَفْسِ جِرَائِمِكُمْ- بِنَاءٍ عَلَى تَجْسِيمِ الْأَعْمَالِ-

[٤١] وَ لَمَّا كَانَ الْخُطَابُ، فِي «إِنَّكُمْ» يُوهِمُ الْعَمُومَ لِكُلِّ النَّاسِ، اسْتَشْنَى سُبْحَانَهُ عَنِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، فَلَا يَعْمَلُونَ، إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَإِنْ هُوَ لَا بِمَعْزَلٍ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

[٤٢] أَوْلَيْتَكَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ رِزْقًا مَعْلُومًا قَدْ عَلِمَ وَ قَدَّرَ جِزَاءَ لِأَعْمَالِهِمْ، وَ الْحِصَّةَ الْمَعْلُومَةَ، أَمْرًا لِلْعَيْنِ مِنَ الْحِصَّةِ الْمَجْهُولَةِ، الَّتِي لَا يَدْرِي مِقْدَارَهَا.

[٤٣] ثُمَّ بَيْنَ سُبْحَانِهِ بَعْضَ ذَلِكَ الرِّزْقِ الْمَعْلُومِ، بِقَوْلِهِ فَوَاكِهُ جَمْعُ فَاكِهَةٍ، وَ هِيَ ثَمَرَةُ الْأَشْجَارِ، يَتَفَكَّهُونَ بِهَا وَ يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا وَ هُمْ مُكْرَمُونَ فَلَهُمُ النِّعْمَةُ الرُّوحِيَّةُ،- بِالْإِكْرَامِ- إِضَافَةً عَلَى النِّعْمَةِ الْجَسْمِيَّةِ بِالْجَنَّةِ وَ الْفَوَاكِهِ.

[٤٤] وَ ذَلِكَ الْإِكْرَامُ وَ الْفَوَاكِهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَي الْبَسَاتِينِ الَّتِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٧

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٤٤ إلى ٤٨]

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْنَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَ لَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨)

يتنعم فيها الإنسان.

[٤٥] وَ الْمُؤْمِنُونَ هُنَاكَ عَلَى سُرُرٍ جَمْعُ سُرِيرٍ مُتَقَابِلِينَ حَالٌ عَنِ أَوْلَيْتِكَ، أَي فِي حَالِ كَوْنِ بَعْضِهِمْ فِي مِقَابِلِ بَعْضٍ لِيَتِمَّ السَّرُورُ عَلَيْهِمْ بِالتَّعَمُّقِ فِي الْمَجَالِسِ مَعَ الْأَصْدِقَاءِ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

[٤٦] يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ وَ هِيَ الْإِنَاءُ الَّذِي فِيهِ الْمَائِعُ اللَّذِيزُ، وَ مَعْنَى يُطَافُ إِنْ الْحُورِ وَ الْوُلْدَانَ، يَدُورُونَ عَلَيْهِمْ بِالْكَأْسِ الْمَمْلُوءَةِ مِنْ

مَعِينٍ و المَعِينِ الماءِ الجَارِي، النَابِعِ مِنَ الْعَيْنِ.

[٤٧] بَيِّضَاءٌ و مِنْ ذَلِكَ يَعْرِفُ، إِنْ مَا فِي الْكَأْسِ «خَمْرٌ» لَوْصَفَهُ بِالْمُؤْنِثِ، وَ بِمَا سَيَأْتِي لَمَذَّةً لِلشَّارِبِينَ فَكَأَنَّمَا مِنْ كَثْرَةِ اللَّذَّةِ قِطْعَةٌ مِنْهَا، نَحْوُ زَيْدٍ عَدَلٍ.

[٤٨] لَا- فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْخَمْرِ عَوَّلٌ هُوَ فَسَادٌ يَلْحَقُ الشَّيْءَ، يَعْنِي لَيْسَ فِي ذَلِكَ الْخَمْرِ فَسَادٌ وَلَا هُمْ أَى الشَّارِبِينَ عَنْهَا أَى عَنْ تِلْكَ الْخَمْرِ يُتْرَفُونَ أَى يَسْكُرُونَ، فَلَيْسَ فِي خَمْرِ الْجَنَّةِ سُكْرٌ، مِنْ نَزْفٍ إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ، أَوْ بِمَعْنَى يَطْرُدُونَ مِنْ نَزْفٍ بِمَعْنَى طَرْدٍ، فَالشَّرْبُ لَهُمْ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ مَهْمَا أَرَادُوا.

[٤٩] وَ عِنْدَهُمْ زَوْجَاتٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ «الطَّرْفِ» الْعَيْنِ، وَ الْمَعْنَى قَصْرْنَ أَعْيُنَهُمْ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا- يَرِغْبْنَ فِي غَيْرِهِمْ عَيْنٌ جَمْعُ «عَيْنَاءٍ» وَ هِيَ الْمَرْأَةُ وَاسِعَةُ الْعَيْنِ- مِمَّا يَزِيدُهَا جَمَالًا وَ رَوْقًا- يَعْنِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٨

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٤٩ إلى ٥٣]

كَأَنَّهُنَّ بَيِّضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)

إنهن واسعات العيون.

[٥٠] كَأَنَّهُنَّ أَى كَأَنَّ أَجْسَامَ تِلْكَ الزَّوْجَاتِ مِنَ الْبَيَاضِ بَيِّضٌ مَكْنُونٌ بَيِّضٌ قَدْ حَفِظَ فِي مَكَانٍ، فَلَمْ يَذْهَبْ بِيَاضُهُ، بِوَسْطَةِ الْوَسْخِ وَ الْغُبَارِ.

[٥١] وَ هُنَاكَ لَمَّا يَسْتَقْرُونَ وَ يَتَعَمَّونَ، بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ يَذْهَبُ بِهِمُ الْفِكْرُ إِلَى أَحْوَالِ الدُّنْيَا، وَ مَا كَانُوا فِيهَا، ثُمَّ يَتَذَكَّرُونَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ، حَيْثُ إِنَّهُمْ يَصَدِّقُونَ بِالْمَعَادِ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَى بَعْضُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَحْوَالِهِمُ السَّابِقَةَ، فَقَدْ التَّقُوا هُنَاكَ، وَ كَثِيرًا مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِهِمْ مَعْرِفَةٌ بِالْآخِرِ.

[٥٢] قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَى مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِبَعْضِ أَصْدِقَائِهِ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ أَى شَخْصٌ مَقَارَنٌ مَعِي فِي دَارِ الدُّنْيَا، بِالْجَوَارِ أَوْ النِّسْبِ أَوْ الصَّدَاقَةِ.

[٥٣] يَقُولُ لِي عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ وَ الِاسْتِهْزَاءِ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَى مِنْ جَمَلَةِ الَّذِينَ يَصَدِّقُونَ بِالْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ؟

[٥٤] ثُمَّ يَسْتَهْزِئُ قَرِينُهُ بِمَا اعْتَقَدَهُ قَائِلًا أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا لِحُومِنَا وَ عِظَامًا أ إِنَّا لَمَدِينُونَ أَى مَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِنَا مِنْ دَانِهِ، بِمَعْنَى حَاسِبِهِ وَ جَزَاةِ، أَى كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَجْزَى تُرَابٌ وَ عِظَامٌ؟ فَإِنْ هَذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٧٩

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٥٤ إلى ٥٨]

قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أ فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨)

[٥٥] قَالَ هَذَا الْمَتَسَائِلِ- بَعْدَ أَنْ يَحْكِي قَوْلَ قَرِينِهِ- هَيْلٌ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْجُلُوسَاءُ مُطَّلِعُونَ أَى تَحْبُونَ الْإِطْلَاعَ، وَ الْإِشْرَافَ عَلَى النَّارِ، لِتُرُونَ ذَلِكَ الْقَرِينَ الْمَكْذِبَ؟

[٥٦] فَيَقُولُونَ نَعَمْ نَحْبُ الْإِطْلَاعِ، فَانظُرِ أَنْتِ لِتَعْرِفِ مَكَانَهُ، حَتَّى تَرِينَا، فَإِنَّا لَا نَعْرِفُهُ فَاطَّلَعَ هُوَ بِنَفْسِهِ، وَ أَشْرَفَ عَلَى النَّارِ فَرَآهُ أَى رَأَى قَرِينَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ أَى فِي وَسْطِ النَّارِ، فَإِنْ «سَوَاءِ الشَّيْءِ» وَ سَطَّهُ، وَ طَبِيعِي أَنَّهُ حِينَ رَأَاهُ، أَرَاهُ إِخْوَانَهُ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ».

[٥٧] وَ إِذْ قَدْ رَأَى قَرِينَهُ الْكَافِرَ فِي النَّارِ، يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِالتَّكْلِمْ مَعَهُ قَالَ لَهُ الْمُؤْمِنُ تَاللَّهِ التَّاءُ لِلْقِسْمِ، وَ تَأْتِي غَالِبًا لِأَمْرِ غَرِيبٍ، أَوْ نَحْوِهِ إِنْ

كِدَتْ أَى قَد اقْتَرَبْتَ، لَتُرْدِينَ أَى تَرْدِينِي وَ تَهْلِكُنِي بوسوستك، و حذف «باء» المتكلم تخفيفاً.

[٥٨] وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي وَ فَضْلُهُ بِي، حَيْثُ عَصَمَنِي مِنْ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامِكَ، فَأَصِيرُ كَمَا صَرْتُ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ الَّذِينَ أَحْضَرُوا إِلَى الْحَشْرِ وَ الْحِسَابِ بِالْقَهْرِ - لَا بِالرِّضَا - لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا بِمَصِيرِهِمْ السَّيِّئِ، وَ لَذَا كَرِهُوا الْحَضْرَ، حَتَّى أُجْبِرُوا عَلَيْهِ.

[٥٩] ثُمَّ يَرُدُّ الْمُؤْمِنَ، مَا كَانَ يَقُولُهُ الْكَافِرُ فِي الدُّنْيَا، تَرْدِيدًا يَنْكَارُ وَ تَفْرِيعٌ أَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ أَى كُنْتَ تَقُولُ فِي الدُّنْيَا، مَا نَحْنُ نَمُوتُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٠

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٥٩ إلى ٦٢]

إِلَّا - مَوْتَنَا الْأُولَى وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أ ذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٢)

[٦٠] إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى فَلَيْسَ مَوْتُ بَعْدَ الْحَيَاةِ فِي الْقَبْرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حُوسِبَ فِي الْقَبْرِ مَاتَ ثَانِيًا، ثُمَّ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ) «١» وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَمْ تَكُنْ تَقُولُ ذَلِكَ؟ فَهَلْ كَانَ صَحِيحًا؟ أَوْ إِنْ الْكَافِرَ كَانُوا يَقُولُونَ «مَا وَرَاءَنَا إِلَّا مَوْتُهُ وَاحِدَةٌ، فَلَا عَذَابَ» وَ حِينَئِذٍ مَعْنَى «الْأُولَى» الْمَتَعَارَفَةُ، لَا فِي مَقَابِلِ الْمَوْتِ الثَّانِيَةِ.

[٦١] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ فَوْزَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - بَعْدَ إِسْدَالِ السُّتَارِ عَلَى قِصَّةِ تِلْكَ الْمَحَاوِرَةِ - إِنَّ هَذَا الَّذِي يَنْعَمُ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا فَوْزَ وَ لَا فَلَاحَ أَعْظَمَ مِنْهُ.

[٦٢] لِمِثْلِ هَذَا الْفَوْزِ وَ الثَّوَابِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ أَى الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْعَمَلَ، فَإِنَّهُ أَحْسَنُ نَتِيجَةٌ يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْعَامِلُ.

[٦٣] وَ بَعْدَ أَنْ تَقْدِمَ شَطْرَ مَنْ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ، يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُقَابِلَ بِهِمْ أَحْوَالَ الْكَافِرِ أ ذَلِكَ الثَّوَابُ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ نَزْلًا «النَّزْلُ» هُوَ مَا يَعْدُ لِلضَّيْفِ، وَ نَصَبُهُ لِكُونِهِ تَمِيِزًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ الَّتِي أَعْدَتْ نَزْلًا لِلْكَافِرِ؟ قَالُوا، وَ هِيَ شَجَرَةٌ صَغِيرَةٌ الْوَرَقُ زَفْرَةٌ مَرَّةً تَكُونُ بِتَهَامَةٍ، شَبِهَتْ بِهَا الشَّجَرَةُ الَّتِي تَنْبَتُ فِي النَّارِ لِتَكُونَ ثَمَرَتِهَا قُوْتًا لِأَهْلِ النَّارِ.

(١) غافر: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨١

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٦٣ إلى ٦٧]

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤْسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَكَالُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧)

[٦٤] إِنَّا جَعَلْنَاهَا أَى جَعَلْنَا تِلْكَ الشَّجَرَةَ فِتْنَةً أَى مَحْنَةً وَ عَذَابًا لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ فِي الدُّنْيَا فَابْتَلَوْا بِأَكْلِهَا.

[٦٥] إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ أَى تَنْبَتُ مِنْ هُنَاكَ، وَ تَعْلُوا أَوْرَاقَهَا وَ أَغْصَانَهَا إِلَى سَائِرِ الدَّرَكَاتِ.

[٦٦] طَلْعُهَا أَى ثَمَرُهَا وَ حَمَلُهَا، وَ يُقَالُ لِلثَّمْرِ الطَّلْعُ، لِأَنَّهُ يَطْلُعُ وَ يَظْهَرُ كَأَنَّهُ رُؤْسُ الشَّيَاطِينِ فِي بَشَاعَةِ الْمَنْظَرِ، فَإِنَّهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى طَعْمِهَا السَّيِّئِ لَهَا مَنَظَرٌ مَهُولٌ، وَ الْإِنْسَانُ، وَ إِنْ لَمْ يَرِ الشَّيْطَانَ، وَ رَأْسَهُ، إِلَّا أَنْ تَصَوِّرَهُ جَسْمًا مَهُولًا بِشَعَا كَافٍ فِي التَّشْبِيهِ، أَوْ لِأَنَّهَا ثَمَرَةٌ تَسْمَى بِذَلِكَ.

[٦٧] فَإِنَّهُمْ أَى الظَّالِمِينَ لَمَا كَلُوا مِنْهَا أَى مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، اضْطَرَّارًا مِنْ جَوْعِهِمُ الشَّدِيدِ الَّذِي لَا يَطَاقُ فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا أَى مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ الْبُطُونَ أَى بَطُونِهِمْ، وَ «الْلَامُ» عَوْضُ الضَّمِيرِ.

[٦٨] ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا أَى بَعْدَ أَكْلِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ لَشَوْبًا أَى شَرَابًا مَشُوبًا، لَيْسَ بِصَافِيٍّ مِنْ حَمِيمٍ أَى الْمَاءِ الْحَارِّ، وَ هَذَا كَمَا يُقَالُ:

شرب الماء على الطعام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٢

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٦٨ إلى ٧٣]

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (٧٣)

[٦٩] ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ أَى مَاوَاهُمْ وَمَصِيرَهُمْ، بَعْدَ أَكْلِ الزَّقُومِ، وَ شَرَبِ الْحَمِيمِ لِإِلَى الْجَحِيمِ وَ كَأَنَّ مَحَلَّ طَعَامِهِمْ وَ شَرَابِهِمْ، بَعِيدٌ عَنِ الْجَحِيمِ فَإِذَا أَكَلُوا وَ شَرَبُوا رَجَعُوا إِلَى مَحَلِّهِمْ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ حَمِيمِ آن) «١».

[٧٠] إِنَّهُمْ أَى هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ، إِنَّمَا يَصْرُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَ الْفَسَادِ تَقْلِيدًا فَقَطْ، بِلَا حِجَّةٍ أَوْ دَلِيلٍ، فَقَدْ أَلْفَوْا أَى وَجَدُوا، مِنْ أَلْفَى يَلْفَى بِمَعْنَى وَجَدَ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَقَدْ رَأَوْهُمْ مُنْحَرِفِينَ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ.

[٧١] فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ أَى يَسْرَعُونَ فِي تَقْلِيدِهِمْ، فَإِنَّ الْإِهْرَاعَ الْإِسْرَاعُ.

[٧٢] وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَى قَبْلَ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ أَكْثَرُ الْأُولَئِينَ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ.

[٧٣] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ أَى فِي أَوْلَائِكَ الْأُولِينَ مُنذِرِينَ أَنْبِيَاءَ يَنْذِرُونَهُمْ مِنَ الضَّلَالِ وَ الْكُفْرِ.

[٧٤] فَانظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا النَّاطِرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ

(١) الرحمن: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٣

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٧٤ إلى ٧٨]

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (٧٧) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨)

حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، أَهْلَكَهُمْ بِعَذَابِهِ لَمَّا انْحَرَفُوا، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ إِنْ انْحَرَفُوا، أَخَذَهُمُ الْعَذَابُ، كَمَا أَخَذَ السَّابِقِينَ.

[٧٥] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ بِصَيْغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ، أَى الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، فَكَانُوا يَعْمَلُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، لَا لِغَيْرِهِ، وَ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنَ «الْمُنذِرِينَ» يَعْنِي إِنْ الْمُنذِرِينَ أَهْلَكُوا إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ مِنْهُمْ.

[٧٦] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ طَرَفًا مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَّمِ وَ أَنْبِيَائِهِمْ تَنْبِيهًا وَ إِيقَاطًا وَ تَبْيَانًا لِقَوْلِهِ «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا» وَ لَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ بَعْدَ مَا يَثْسُ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِ، لِتَنْصِرَهُ عَلَيْهِمْ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ نَحْنُ لِنُوحٍ، فَلَقَدْ أَجْبَاهُ لَمَّا سَأَلَ مِنْ إِجْبَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ.

[٧٧] وَ نَجَّيْنَاهُ أَى خَلَصْنَاهُ وَ أَهْلَهُ عَائِلَتَهُ - إِلَّا وَلَدَهُ - مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، بِأَنَّ حَمَلْنَاهُ فِي السَّفِينَةِ، وَ أَهْلَكْنَا الْكُفَّارَ.

[٧٨] وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ أَوْلَادَهُ وَ أَحْفَادَهُ هُمْ الْبَاقِينَ فِي الْأَرْضِ، فَالْنَّاسُ كُلُّهُمْ - بَعْدَ نُوحٍ - مِنْ وَلَدِهِ، إِذْ هَلَكَ سَائِرُ النَّاسِ بِالْغُرُقِ.

[٧٩] وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ أَى أَبْقَيْنَا لَهُ ذِكْرًا جَمِيلًا فِي الْآخِرِينَ أَى الْأُمَّمِ الْآخِرِينَ الَّذِي جَاءُوا بَعْدَهُ، وَ هَكَذَا عَاقِبَةُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، نَجَاءً، وَ بَقَاءً الذَّرِيَّةِ، وَ ذِكْرًا جَمِيلًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٤

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٧٩ إلى ٨٤]

سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (٨٢) وَ إِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِبِرَاهِيمَ (٨٣)

إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)

[٨٠] سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إما جملة مستأنفة، تحية لنوح من الله سبحانه، و معنى هذا إنه سالم فى جميع العوالم، سالم الذكر، سالم الشخص، سالم المبدأ، أو إنه من تنمة الكلام السابق، أى تركنا عليه أن يسلم الناس عليه إلى يوم القيامة، فكل جيل من الأجيال عالم يحيى نوحا بالسلام.

[٨١] إِنَّا كَذَلِكْ أَى كَمَا أَنْجَيْنَا نُوحًا نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ بِإِنجَائِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ.

[٨٢] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ و فى هذه الآية مدح للمؤمنين حيث جعل نوح عليه السلام منهم.

[٨٣] ثُمَّ بَعْدَ إِجْنَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي السَّفِينَةِ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ أَى الْكُفَّارِ.

[٨٤] وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ أَى شَيْعَةَ نُوحٍ لِإِبْرَاهِيمَ وَ الشَّيْعَةُ مِنَ الْمَشَايِعَةِ، بِمَعْنَى الْمَتَابِعَةِ، أَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مِنَ الَّذِينَ شَايَعُوا نُوحًا فِي مَنَاجِيهِ وَ دَعْوَتِهِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَ الشَّرِيعَةِ، وَ الْإِذْعَانِ بِالْمَعَادِ، وَ الْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٨٥] إِذْ جَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ سَالِمٌ مِنَ الشَّرِكِ وَ الْعَصِيانِ وَ الرِّذَالِ، وَ مَعْنَى «جَاءَ» تَوَجُّهُهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، مَعَ قَلْبٍ طَاهِرٍ نَظِيفٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٥

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٨٥ إلى ٨٩]

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَوْ إِنْكَارًا لِلَّهِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَظَنَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)

[٨٦] إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ آزَرَ، وَ الْمُرَادُ عَمَهُ، فَإِنَّ الْإِصْطِلَاحَ عَلَى تَسْمِيَةِ الْعَمِّ، أَبًا، إِحْتِرَامًا وَ قَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَى أَيْ شَيْءٍ تَعْبُدُونَهُ.

[٨٧] أَوْ إِنْكَارًا لِلْإِفْكَ هُوَ الْكُذْبُ آلِهَةً بَدَلَ مِنْ إِنْكَارِ دُونَ اللَّهِ أَى غَيْرِ اللَّهِ تُرِيدُونَ قَالَ ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ، أَى كَيْفَ تَعْبُدُونَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ بِالْكَذْبِ وَ الْإِفْكَ؟

[٨٨] فَمَا ظَنُّكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ أَى مَا تَظُنُّونَ أَنْ يَفْعَلَ بِكُمْ إِذَا أَشْرَكْتُمْ؟ وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ دُونَ اللَّهِ.

[٨٩] وَ لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّ الْكَلَامَ لَا يُوَثِّرُ فِيهِمْ عِزْمَ عَلَى أَنْ يَحْطُمَ الْأَصْنَامَ، لِيُحَدِّثَ فِيهِمْ ضِجَّةً، وَ دَائِمًا فِي الضَّجَّةِ، تَظْهَرُ الْقُلُوبُ النَّقِيَّةُ، وَ تَصْطَدِمُ التَّقَالِيدُ، فَيُولَدُ فِي النَّاسِ حُبُّ الْإِسْتِطْلَاحِ وَ الرَّجُوعُ إِلَى مَنَاجِيهِمْ لِيُرُوا أَيُّهَا الصَّحِيحَا، وَ أَيُّهَا الْفَاسِدَا، وَ قَدْ كَانَ لِلْقَوْمِ عِيدٌ يَخْرُجُونَ فِيهِ إِلَى الصَّحْرَاءِ، وَ يَضَعُونَ الطَّعَامَ أَمَامَ الْأَصْنَامِ، لِتَبَارَكَ عَلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا رَجَعُوا أَخَذُوهُ لِلتَّبَرُّكِ وَ الْإِسْتِشْفَاءِ، وَ لَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ، قَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ، هَلْ مَعْنَا إِلَى الْعِيدِ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ وَ لَعَلَّ نَظْرَهُ إِلَيْهَا، كَانَ لِأَجْلِ التَّفَكُّرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْكَرَ - سَرِيعًا - صَرَفَ نَظْرَهُ عَمَّنْ يَقَابِلُهُ، إِلَى مَحَلِّ آخَرَ، لِثَلَا يَشْغَلُهُ الْمَخَاطَبُ، فَيَفْكَرُ فِي أَمْرِهِ.

[٩٠] فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَقَدْ كَانَ قَلْبُهُ حَزِينًا عَلَى إِصْرَارِ الْقَوْمِ عَلَى الْكُفْرِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٦

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٩٠ إلى ٩٤]

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا - تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (٩٤)

وَ السَّقَمُ كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الْمَرَضِ الْجَسَدِيِّ، يُطْلَقُ عَلَى ضَجْرِ النَّفْسِ وَ عَدَمِ خُلُوقِهَا مِنَ الْهَمِّ وَ الْمَعْنَى لَا حَالَةَ لِي عَلَى الْخُرُوجِ مَعَكُمْ، فَإِنَّ مَشْغُولَ الْقَلْبِ بِالْهَمِّ، لَا حَالَةَ لَهُ عَلَى التَّنَزُّهِ وَ التَّفَرُّجِ.

[٩١] وَ لَمَّا عَرَفَ الْقَوْمُ، بِأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مَعَهُمْ تَرَكَوهُ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ أَى أَعْرَضُوا عَنْ مَصَاحِبَتِهِ لِلْعِيدِ مُدْبِرِينَ أَى وَلَوْهُ الدَّبْرُ ذَاهِبِينَ إِلَى الْعِيدِ.

[٩٢] فَرَاغَ أَي مَالِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى آلِهِتِهِمْ أَي الْأَصْنَامِ، فَإِنَّهُ حِينَ رَأَى خَلُوَ الْمَعْبَدَ مِنَ الْعِبَادِ، مَالَ نَحْوِ الْأَصْنَامِ فَقَالَ لَهَا أَلَا تَأْكُلُونَ وَ قَدْ كَانَ هَذَا سُؤَالَ الْعَارِفِ يَرِيدُ أَنْ يَسْمَعَ غَيْرَهُ، لِتَتِمَّ عَلَيْهِ الْحِجَّةُ، وَ الْمُرَادُ بِالْأَكْلِ وَجُودَ الْحَسِّ وَ الْحَيَاةِ، وَ إِلَّا فَالَهُ الْحَقُّ أَيْضًا لَا يَأْكُلُ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَمَامَ الْأَلْهَةِ كَانَتْ أَطْعَمَةٌ لِلْقَوْمِ.

[٩٣] مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْأَصْنَامُ لَا تَنْطِقُونَ وَ لَا تَتَكَلَّمُونَ؟ وَ الْإِتْيَانُ بِالضَّمَائِرِ عَلَى غَرَارِ الْعَاقِلِ، تَوْحِيدًا مَعَ سِيَاقِ كَلَامِ الْقَوْمِ.

[٩٤] فَرَاغَ أَي مَالِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ أَي عَلَى الْأَصْنَامِ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَقَدْ أَخَذَ فَأَسَا بِيَمِينِهِ، وَ شَرَعَ يَحْطِمُهُمْ وَ يَكْسِرُهُمْ، وَ إِنَّمَا أَخَذَ بِالْيَمِينِ، لِأَنَّهَا أَقْوَى فِي الْعَمَلِ.

[٩٥] وَ لَمَّا رَجَعَ الْقَوْمُ مِنَ الْعِيدِ، وَ دَخَلُوا بَيْتَ الْأَصْنَامِ رَأَوْهَا مُحَطَّمَةً مَكْسُورَةً، وَ عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَقِيَ فِي الْمَدِينَةِ، وَ إِنَّهُ كَانَ مُخَالَفًا لِلْأَصْنَامِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ أَي إِلَى إِبْرَاهِيمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٧

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٩٥ إلى ٩٨]

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)

يَزِفُونَ أَي يَسْرِعُونَ فِي الْمَشْيِ، فَإِنَّ «زَفَ» بِمَعْنَى الْإِسْرَاعِ فِي الْمَشْيِ لِنَيْلِ مَطْلُوبٍ، أَوْ الْإِنْتِقَامِ مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ مَا أَشْبَهَ.

[٩٦] وَ أَخَذُوا إِبْرَاهِيمَ، وَ أَثْبَتُوا التَّحْطِيمَ عَلَيْهِ، فَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَعْبُدُونَ أَيُّهَا الْقَوْمُ مَا تَنْحِتُونَ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي، أَي كَيْفَ تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، الَّتِي تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْأَحْجَارِ بِأَيْدِيكُمْ، وَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ مُصْنُوعًا لِلْإِنْسَانِ؟

[٩٧] وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ وَ مَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ، فَإِنَّ أَصْنَامَكُمْ الَّتِي تَعْمَلُونَهَا وَ تَنْحِتُونَهَا مَخْلُوقَةٌ لَهُ سَبْحَانَهُ.

[٩٨] وَ لَمَّا لَمْ يَتِمَّكَ الْقَوْمُ مِنْ رَدِّ حِجَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَ تَفَكَّرُوا فِي التَّخْلِصِ مِنْهُ قَالُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ابْنُوا لَهُ لِإِبْرَاهِيمَ بُنْيَانًا مَحَلًّا لِيَلْقَى فِيهِ الْحَطْبَ، فَيَسْجَلُ، ثُمَّ يَقْذِفُ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ لِيَحْتَرِقَ، وَ احْتِرَاقُ الْإِنْسَانِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، وَ إِنَّمَا أَرَادَ الْقَوْمُ إِظْهَارَ حَقْدِهِمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِذَلِكَ فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ أَي النَّارِ، وَ كُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ، تَسْمَى جَحِيمًا.

[٩٩] وَ صَنَعُوا الْبُنْيَانَ، وَ جَمَعُوا الْحَطْبَ، وَ أَشْعَلُوهُ، وَ قَذَفُوا فِيهِ إِبْرَاهِيمَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْتَرِقْ فَأَرَادُوا أَي الْقَوْمُ بِهِ بِإِبْرَاهِيمَ كَيْدًا حِيلَةً لِلْخِلَاصِ مِنْهُ فَلَمْ يَنْجِحُوا بَلْ جَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَ أَعْلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ، إِذْ (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) «١».

(١) الأنبياء: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٨

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ٩٩ إلى ١٠٢]

وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)

[١٠٠] وَ إِذْ خَرَجَ إِبْرَاهِيمُ مِنَ النَّارِ ظَافِرًا، وَ رَأَى أَنَّ الْقَوْمَ لَا يُوَثِّرُ فِيهِمُ الْكَلَامُ، وَ إِنَّمَا هُمْ مُصْرُونَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَرَادَ هَجْرَ تِلْكَ الدِّيَارِ، إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، لَعَلَّهُ يَجِدُ آذَانًا وَاعِيَةً وَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي أَي إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي إِلَى الدِّيَارِ الْمُقَدَّسَةِ، وَ هَذَا كَمَا يَسْمَى مِنْ يَذْهَبُ إِلَى الْحَجِّ، إِنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى اللَّهِ سَيَهْدِينِ أَي يَهْدِينِي رَبِّي - فِيمَا بَعْدَ - إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَخْتَارُهُ لِي، فَإِنِّي مُهَاجِرٌ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ، مُنْتَظِرٌ أَمْرَ رَبِّي لِاخْتِيَارِ الْمَكَانِ الَّذِي أَقْطُنُ فِيهِ.

[١٠١] ثُمَّ دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا، لِيَكُونَ خَلْفَهُ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ، فَقَالَ يَا رَبِّ هَبْ لِي وَلَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ بَأَنَّ يَكُونَ مِنْ جَمَلَتِهِمْ.

[١٠٢] فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ أَي وَلَدٍ حَلِيمٍ ذُو حِلْمٍ وَ أَنَاءَةٍ، وَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الْمُصْلِحِينَ، إِذْ الْإِصْلَاحُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّحَلُّمِ مِنَ الْجَهَالِ، وَ

تلقى أذاهم بصبر و أناة، و المراد بالغلام «إسماعيل» جد نبينا عليهما السلام.

[١٠٣] و أعطاه الله سبحانه الولد، و بقى معه حتى شب و كبر فلما بلغ الغلام معه السعى أن يسعى مع إبراهيم فى أعماله، فإن الولد ما دام طفلا لا- يتمكن أن يشارك الأب فى مهامه، فإذا كبر و شب، يبلغ مبلغا يتمكن أن يسعى مع أبيه فى حوائجه قال إبراهيم عليه السلام له يا بُنَيَّ إِنِّي أرى فى المنام أى رأيت فى النوم أَنى أَذْبَحُكَ و قد كان نومه و حيا من الله سبحانه، و كان هذا امتحانا آخر لإبراهيم عليه السلام، بعد تلك المصاعب و الأحزان، و الطرد من الوطن، و إسكان الأهل فى واد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٨٩

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٠٣ الى ١٠٥]

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبراهيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)

غير ذى زرع فأنظر يا بنى ما ذا ترى أى ما رأيك فى هذا الأمر؟ فهل تقبل أن أذبحك أم لا؟ قال إسماعيل عليه السلام يا أبت أصله «أبى» و التاء عوض عن الياء أفعل ما تؤمر من ذبحى، فإنى مستعد لذلك سيجدنى عند الذبح إن شاء الله من الصابرين أصبر على ألم الذبح، و مفارقة الحياة.

[١٠٤] فَلَمَّا أَسْلَمَا أى استسلم إبراهيم لذبح ولده، و إسماعيل لأن يذبح و تله أى أضجعه، فإن التل هو الصرع، و منه يسمى تل التراب تلا، لأن التراب يصرع و يجمع هناك للجبين الجبين، ما عن يمين الجبهة و شمالها، أى أنام إبراهيم ولده إسماعيل على جنبه ليقتله.

[١٠٥] أظهرنا له ما كنا نقصده من عدم الذبح- و إنما الامتحان- و نأدبناهُ أَنْ يَا إِبراهيمُ فإتيان «الواو» هنا للإشارة إلى وجهة فى الكلام، و ذلك من فنون البلاغة.

[١٠٦] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا أى أتيت بما يصدقها، و التصديق كما يكون بالعمل، كذلك يكون بالتهيو القريب مع النية الجازمة إِنَّا كما جازينا إبراهيم بالعفو عن ذبح ولده، و إعطائه أجر الذبح كذلك نجزي المحسنين الذين يحسنون فى عملهم تجاه الله سبحانه بإطاعة أوامره، و اجتناب نواهيه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٠

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَ قَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)

[١٠٧] إِنَّ هَذَا الذى امتحن به إبراهيم من ذبح ولده لَهُوَ الْبَلَاءُ الامتحان المبين الظاهر، فإن تهيو الإنسان لذبح ولده بعد كبره و شدة علاقته معه، لمن أعظم الامتحانات.

[١٠٨] وَ قَدَيْنَاهُ أى جعلنا عوض ذبح إسماعيل، فإن الفدية هو العوض عن شىء و جب على الإنسان بذبح عظيم الذبح هو المذبح، فقد جاء جبرئيل من الجنة بكبش ذبح عوض إسماعيل، و من المعلوم أن ذبح كبش الجنة فدية أعظم أقسام الذبح قربة إلى الله تعالى، أو المراد إنه كان عظيما، حيث أمر الناس بالقتداء به، و السير خلفه، و إلى هذا اليوم يذبحون الأغنام، فى الأضحية تجديدا لتلك الذكرى، و قد ورد إن كل ما يذبح بمنى، فهو فدية لإسماعيل إلى يوم القيامة.

فى حديث عن الباقر و الصادق عليهما السلام، يذكر قصة حج إبراهيم، قال ثم أفاض إلى المزدلفة، فسميت المزدلفة، لأنه ازدلف إليها، ثم قام على المشعر الحرام، فأمره الله أن يذبح ابنه، و قد رأى فيه شمائله و أخلاقه و آنس مما كان إليه، فلما أصبح أفاض من المشعر إلى منى، فقال لأمه: زورى البيت أنت، و احتبس الغلام، فقال يا بنى هات الحمار و السكين؟ حتى أقرب القربان، سأل الراوى: ما أراد بالحمار و السكين؟ قال: أراد أن يذبحه ثم يحمله، فيجهزه و يدفنه، قال: فجاء الغلام بالحمار و السكين، فقال: يا أبت أين القربان؟ قال: ربك يعلم أين هو، يا بنى أنت و الله هو، إن الله قد أمرنى بذبحك، فانظر ما ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، قال: فلما عزم على الذبح، قال: يا أبت خمر وجهى، و شد وثاقى، قال: يا بنى الوثاق مع الذبح؟ و الله لا

أجمعهما عليك اليوم، قال

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩١

الباقر عليه السلام: فطرح له قرطان «برذعة» الحمار، ثم أضجعه عليه، وأخذ المديئة فوضعها على حلقه، قال فأقبل شيخ، فقال: ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه، فقال: سبحان الله، غلام لم يعص الله طرفه عين تذبحه؟ فقال: نعم إن الله قد أمرني بذبحه، فقال: بل ربك ينهاك عن ذبحه، وإنما أمرك بهذا الشيطان في منامك، قال:

ويلك الكلام الذي سمعت، هو الذي بلغ بي ما ترى، لا- والله لا أكلمك، ثم عزم على الذبح، فقال الشيخ: يا إبراهيم إنك إمام يقتدى بك، فإن ذبحت ولدك، ذبح الناس أولادهم فمهلا، فأبى أن يكلمه، ثم قال عليه السلام: فأضجعه عند الجمرة الوسطى، ثم أخذ المديئة فوضعها على حلقه، ثم رفع رأسه إلى السماء، ثم انتحى عليه المديئة، فقلبها جبرئيل عليه السلام عن حلقه، فنظر إبراهيم، فإذا هي مقلوبة، فقلبها إبراهيم عليه السلام على حدها، وقلبها جبرئيل عليه السلام على قفاها، ففعل ذلك مرارا، ثم نودي من ميسرة مسجد الخيف، يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، واجترأ الغلام من تحته، و تناول جبرئيل الكبش من قلته ثبير، فوضعه تحته، و خرج الشيخ الخبيث، حتى لحق بالعجوز حين نظرت إلى البيت، و البيت في وسط الوادي، فقال: ما شيخ رأيته بمنى فنعت نعت إبراهيم عليه السلام، قالت: ذاك بعلي، قال: فما وصيف رأيته معه؟

و نعت نعتي، فقالت: ذاك ابني، قال: فإني رأيته أضجعه، و أخذ المديئة، ليذبحه؟ قالت: كلا ما رأيته، إبراهيم إلّا أرحم الناس، و كيف رأيته يذبح ابنه؟ قال: و رب السماء و الأرض، و رب هذه البنية، لقد رأيته أضجعه؟ و أخذ المديئة ليذبحه، قالت: لم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذبحه، قالت: فحق له أن يطيع ربه «الحديث»
١١.

(١) الكافي: ج ٤ ص ٢٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٢

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٠٨ إلى ١١٣]

و تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)

و بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَىٰ إِسْحَاقَ وَ مَن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

[١٠٩] وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ أَي عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَا جَمِيلًا- فِي الْآخِرِينَ فِي الْأَمَمِ الَّتِي أَتَتْ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِنْ جَمِيعَ الْأُمَمِ، يَمْدَحُونَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، جِزَاءَ لُجْهَادِهِ، وَ إِطَاعَتِهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

[١١٠] سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ إِمَّا جَمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَي سَلَامَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فِي دُنْيَاهُ بِالذِّكْرِ الْجَمِيلِ، وَ فِي آخِرَتِهِ بِالْجَنَّةِ وَ النِّعَمِ، أَوْ مِنْ تَتَمُّةٍ «و تَرَكْنَا» أَي أَبْقَيْنَا لَهُ تَسْلِيمَ النَّاسِ لَهُ وَ تَحِيَّتَهُمْ إِيَّاهُ.

[١١١] كَذَلِكَ الَّذِي جَزَيْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ كُلِّ مِنْ أَحْسَنَ عَقِيدَةً وَ عَمَلًا.

[١١٢] إِنَّهُ أَي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِنَا، وَ فِي هَذَا تَلْمِيحٌ إِلَى رَفْعِهِ دَرَجَةً الْإِيمَانَ.

[١١٣] وَ بَشَّرْنَاهُ أَي بَشَّرْنَا إِبْرَاهِيمَ، جِزَاءَ لُخْدَمَاتِهِ وَ أَتْعَابِهِ بِإِسْحَاقَ فَقَدْ كَانَتْ زَوْجَتُهُ «سَارَةَ» لَا تَلِدُ، لَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ شَاءَ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمَا بِالْوَلَدِ فَوَلَدَتْ لَهُ إِسْحَاقُ فِي حَالِ كَوْنِهِ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ أَي مِنْ جَمَلَتِهِمْ، وَ فِي جَمَاعَتِهِمْ، وَ هَذَا تَرْغِيبٌ فِي الصَّلَاحِ، وَ حَيْثُ إِنَّ النَّبِيَّ مَعَ عَظَمِ دَرَجَتِهِ يَعَدُّ مِنْهُمْ.

[١١٤] وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ أَي عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ عَلَىٰ إِسْحَاقَ بِأَنْ جَعَلْنَا فِيهِمَا الْبَرَكَهَ وَ الزِّيَادَةَ: زِيَادَةَ النَّسْلِ، وَ زِيَادَةَ الذِّكْرِ، وَ زِيَادَةَ الْخَيْرِ إِلَى

غير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٣

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ إلى ١١٦]

وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦)

ذلك، و يحتمل بعيدا أن يكون ضمير «عليه» راجعا إلى «إسماعيل» المفهوم من قوله «بنى» و قد صدق سبحانه، فإن من نسل إسحاق «اليهود» و من نسل إسماعيل كثرة من المسلمين، و قد بعث فيهم كثرة من الأنبياء، و بقوا إلى هذا اليوم و من ذُرِّيَّتِهِمَا أى ذرية إبراهيم- و بالطبع يرجع ذلك إلى إسماعيل- و ذرية إسحاق مُحْسِنٌ بالإيمان و الطاعة وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بالكفر أو العصيان مُبِينٌ صفة لكلا الأمرين، باعتبار كل واحد منهما، و كانت هذه الجملة، للتعريض بالظالم كيف يظلم، و آباءه هؤلاء الأنبياء العظام المحسنون؟

[١١٥] و بعد تمام قصة إبراهيم يعطف السياق إلى قصة موسى و هارون الذين هما من نسل إبراهيم عليه السلام وَ لَقَدْ مَتَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ أى أنعمنا عليهما بنعم كثيرة لطفًا و مَنَّةً، لا استحقاقًا، فقد جعلناهما، نبين عظيمين، و ملكناهما الأرض إلى غير ذلك من النعم، التى تفضل الله بها عليهما.

[١١٦] وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا أى خلصناهما و بنى إسرائيل مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ و هو إسار فرعون الذى كان يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم.

[١١٧] وَ نَصَرْنَاهُمْ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ بِإِعْرَاقِهِ مَعَ جَيْشِهِ، وَ غَلَبَهُ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا هُمُ أَيُّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ، وَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْغَالِبِينَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٤

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١١٧ إلى ١٢٣]

وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١)

إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَ إِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)

[١١٨] وَ آتَيْنَاهُمَا أى أعطينا موسى و هارون الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ يقال استبان الأمر إذا أظهر ظهورا جليا، و المراد بالكتاب «التوراة» التى كانت ظاهرة جلية.

[١١٩] وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ أى دللناهما الطريق الذى يوصل إلى المطلوب بأقصر مسافة.

[١٢٠] وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا أى أبقينا على موسى و هارون الذكر الجميل فى الأقسام الْآخِرِينَ بأن عرّفناهما للناس، حتى يشنون عليهما.

[١٢١] سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إما جملة مستأنفة، و إما من تنمة «تركنا» كما تقدم.

[١٢٢] إِنَّا كَذَلِكَ أى كما جزيناها نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى العقيدة و العمل.

[١٢٣] إِنَّهُمَا مِنْ جَمَلَةِ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ و فيه إشارة إلى مدح الإيمان، حتى أن موسى و هارون يستحقان، آيتين عليهما بكونهما مؤمنين.

[١٢٤] و إذ فرغ السياق من ذكر موسى و هارون، يأتى لذكر «إيَّاس» النبى عليه السلام وَ إِنَّ إِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ فى المجمع، قالوا:

إنه بعث بعد حزقيل، لما عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، و كان يوشع لما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٥

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٢٤ إلى ١٢٨]

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ

لْمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٢٨)

فتح الشام، بوأها بنى إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطا منهم ببعلبك وهم سبط إيلياص، فبعث فيهم نبيا إليهم، فأجابه الملك، ثم إن امرأته حملته على أن ارتد وخالف إيلياص، وطلبه ليقتله، فهرب إلى الجبال والبراري، إلى أن قال: وسلط الله على الملك وقومه عدوا لهم، فقتل الملك وامرأته.

[١٢٥] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ المعاصي و تخافون الله؟ على وجه الاستفهام الإنكارى، أى لماذا لا تتقون.

[١٢٦] أَتَدْعُونَ بَغْلًا اسم صنم لهم، أى كيف تدعون بالألوهية «بعلا» وَتَذَرُونَ أى تتركون أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ أى الله فلا تتخذونه إلهًا؟
[١٢٧] تَذَرُونَ اللَّهَ رَبَّكُمْ بدل من «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوْلِيَيْنِ فإنه هو الخالق لكم جميعا، فكيف يترك الإنسان خالقه ليأخذ غيره؟

[١٢٨] فَكَذَّبُوهُ فى دعوته و لم يؤمنوا به، بل قالوا إنك تكذب فى ادعائك بوجود الله، و أنك رسوله، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ يحضرون فى القيامة بالعنف، و الكره منهم، حيث يعلمون شدة الحساب عليهم، و سوء الجزاء، بخلاف المؤمنين الذين يحضرون الموقف رغبة منهم، إذ يعلمون الجزاء الحسن.

[١٢٩] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ من قوم «إيلياص» فإنهم ليسوا بمحضرين،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٦

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٢٩ الى ١٣٢]

وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فى الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)
أو استثناء منقطع، حيث إن المراد، إن كل إنسان محضر، إلا- من أخلصه الله سبحانه لنفسه، من الصالحين- و قد ذكرنا سابقا وجه الاستثناء المنقطع-

[١٣٠] وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ أى على إيلياص، ذكرا جميلا فى الأقسام الْآخِرِينَ فإنهم يعظمونه.

[١٣١] سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ إما جملة مستأنفة، بأن يكون السلام من الله عليه، أو مرتبطة بما قبلها، أى تركنا عليه تسليم الأقسام عليه بالإضافة إلى الذكر الجميل، و «آل ياسين» لغة «فى إيلياص» أو باعتبار ما قالوا:

من أن الكلمة إذا كانت عجمية، جاز التصرف فيها بكل وجه، و لذا جاز فى «جبرئيل» لغات، و ما ورد من أن المراد «آل ياسين» يعنى آل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم «١»، فذاك من باب التأويل، أو باعتبار استعمال اللفظ فى أكثر من معنى- على المختار من جوازه بالقرينة-

[١٣٢] إِنَّا كَمَا جِزَيْنَا إيلياص كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون فى العقيدة و العمل.

[١٣٣] إِنَّهُ أى إن إيلياص مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ المصدقين بنا و بشريعتنا، و من المعلوم إن منتهى مفخرة الأنبياء، إنهم من المؤمنين، و لذا قال (وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) «٢» و قال تعالى:

(١) تأويل الآيات: ٤٨٩.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٧

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٣٨]

وَ إِن لَّوَطَّا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا- عَجُوزًا فى الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخِرِينَ (١٣٦) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)

وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

(آمَنَ الرَّسُولُ) «١».

[١٣٤] و بعد تمام قصه إياس، يأتي السياق للإشارة إلى قصة لوط وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الذين أرسلهم الله إلى قومهم.

[١٣٥] فقد جاء ليرشد قومه في ترك الكفر، و اجتناب الفاحشه، التي كانوا يرتكبونها، لكن وعظه لم ينفذ في قومه، و أخيرا قدر الله سبحانه الهلاك على القوم، و إنجاء لوط من براثنهم إِذْ نَجَّيْنَاهُ أَي لُوط وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ من تلك القرية التي كانت تعمل الخبائث، بأن أمرناهم بالخروج منها ليلا.

[١٣٦] إِلَّا عَجُوزًا هِيَ زَوْجَةُ لُوطِ الْمُنَافِقَةِ فِي الْغَابِرِينَ أَي كَانَتْ فِي الْبَاقِينَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا.

[١٣٧] ثُمَّ بَعْدَ خُرُوجِ لُوطٍ وَ أَهْلِهِ مِنَ الْقَرْيَةِ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ التدمير هو الإهلاك، أَي أَهْلَكْنَا الْقَوْمَ بِتَقْلِيدِ أَرْضِهِمْ ظَهْرًا لِبَطْنِ، وَ رَجْمِهِمْ بِالْحِجَارَةِ.

[١٣٨] وَ إِنَّا كُنَّا يَا أَهْلَ مَكَّةَ لَمُتْرُونَ عَلَيْهِمْ أَي عَلَى أَرْضِي قَوْمِ لُوطِ مُصْبِحِينَ أَي صَبَاحًا، مِنْ أَصْبَحَ، بِمَعْنَى دَخَلَ فِي الصَّبَاحِ.

[١٣٩] وَ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ كَانُوا إِذَا سَافَرُوا إِلَى الشَّامِ، مَرُّوا بِأَرْضِي

(١) البقرة: ٢٨٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٨

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٣٩ إلى ١٤١]

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)

قوم لوط المدمرة، و رأوا أماكنهم أفلا- تَعْقِلُونَ أَي أليس لكم عقل حتى تعتبروا بأولئك القوم، و تعلموا أن من تهادى في الكفر و الطغيان، كان مصيره، مثل مصير أولئك؟

[١٤٠] ثم أتى السياق للإشارة إلى قصة يونس عليه السلام وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ الذين أرسلوا إلى أقوامهم لإرشادهم.

[١٤١] فقد جاء إلى قومه، و كانوا كفارا عصاتا، و عددهم مائة ألف، أو يزيدون، فدعاهم إلى الله مدة مديدة، لكنهم لم يستجيبوا له، فضايق بهم ذرعا و دعا عليهم بالعذاب، لكن دعائه عليهم، كان خلاف الأولى، و لذا شاءت إرادة الله سبحانه، أن ينهه على ذلك إِذْ أَبَقَ أَي فَرَّ مِنْ قَوْمِهِ تَضَجْرًا، لثلا يحضر وقت نزول العذاب بهم إِلَى الْفُلْكِ أَي السَّفِينَةِ الْمَشْحُونِ أَي المملوء بالناس و الأحمال، من شحنه إذا ملأه.

[١٤٢] فَسَاهَمَ أَي قَارَعَ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ حُوتًا أَخَذَ طَرِيقَ السَّفِينَةِ، فَاسْتَقَرَّ رَأَى الْقَوْمَ عَلَى أَنْ يَقْرَعُوا بِاسْمِ الْأَشْخَاصِ الرَّاكِبِينَ، فَمِنْ خَرَجَ اسْمُهُ فِي الْقَرْعَةِ، أَلْقَوْهُ لِلْحُوتِ لِأَكْلِهِ، فَيَفْتَحُ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، وَ إِنَّمَا قَالَ «سَاهَمَ» لِأَنَّ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ، وَ مِنْهُمْ يُونُسُ، قَبِلُوا الْقَرْعَةَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى السَّبَبِ فَكَانَ يُونُسُ مِنَ الْمُدْحَضِينَ يُقَالُ أَدْحَضَهُ إِذَا أَسْقَطَهُ، أَي مِنْ السَّاقِطِينَ فِي الْبَحْرِ، فَقَدْ أَسْقَطَهُ الْقَوْمُ حَسَبَ خُرُوجِ اسْمِهِ عَلَى الْقَرْعَةِ، وَ الْإِتْيَانِ بِالْجَمْعِ «المدحضين» باعتبار السياق، و توهم كَلَّى لَهُ أَفْرَادٌ فِي سَائِرِ السَّفِينِ، وَ تِلْكَ السَّفِينَةُ، فَلَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٤٩٩

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٤٢ إلى ١٤٤]

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)

ينافي ذلك، إن لم يكن أحد مدحضا سواه.

[١٤٣] فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ أَي ابتلعه الحوت الذي كان سادا طريق السفينة، و قد أمره الله سبحانه أن لا يؤذى يونس، كما أوقف أجهزة هضمه عن هضم يونس، فكان عليه السلام في بطنه حيا، و إن كان في صعوبة و مشقة وَ هُوَ مُلِيمٌ أَي مستحق للوم، يقال ألام الرجل،

بمعنى أتى بما يلام عليه، فهو مليم، أو المراد أنه كان يلوم نفسه، لإتيانه بذاك المخالف للأولى، ومعناه الشيء الذي يكون تركه أولى، فإذا أضفت إنسانا، كان الأولى أن تحضر له ماء غسل اليد قبل الطعام مثلا فإن لم تحضر له، كان ذلك خلاف الأولى، فتلوم نفسك لم ما أحضرت؟ وقد ثبت عقلا- ونقلا- إن الأنبياء منزهون عن العصيان، فما يرى من هذا القبيل، يكون من باب «ترك الأولى» كما حقق في علم الكلام.

[١٤٤] فَلَوْلَا - أَنَّهُ أَي يونس كَانَ مِنَ الْمُسَيَّبِينَ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَقُولُ فِي بطن الحوت (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) «١».

[١٤٥] لَلْبَيْتِ فِي بطنِهِ أَي يبقَى فِي بطن الحوت إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا نَجَّاهُ مِنْ بطن الحوت لِتَسْبِيحِهِ وَتَنْزِيهِهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَيْسَ بِدَعَا مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَنْ يَبْقَى الْإِنْسَانُ حَيًّا، فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وَ مَا يَقَالُ: إِنْ عَمِلَ يونس، كَانَ تَرْكًا لِلأُولَى، وَ تَرْكُ الأُولَى، لَا عِقَابَ لَهُ، فَكَيْفَ عَوَّقَ يونس بِحَبْسِهِ فِي بطن الحوت؟ فَالجواب إِنْ مَقَامَ يونس

(١) الأنبياء: ٨٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٥٤٩

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٤٥ إلى ١٤٧]

فَتَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) الرفيع، يقتضى أن يكون ترك الأولى منه كالعصيان من سائر الناس، ألا ترى إن رئيس الوزراء، لو أتى عند الملك بما ينافى الآداب، عدّ عاصيا- بلحاظ مقامه- و إن كان الأكبر من مثل ذلك العمل، لا يعدّ عصيانا من سائر الناس، و من هاهنا قيل «حسنت الأبرار سيئات المقربين».

[١٤٦] و بعد زمان من مكث يونس فى بطن الحوت فَتَبَدَّلْنَا أَي أَمَرْنَا الحوت بِطرحه بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ الْمَكَانُ الْخَالِي مِنَ الشَّجَرِ وَ هُوَ سَقِيمٌ ذُو عُلَّةٍ مِنْ تَعَبِ بطن الحوت.

[١٤٧] وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ لظلاله شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَ هُوَ الْقَرْعُ، فَكَانَ يَمصُهُ، وَ يَسْتَظِلُّ بِهِ وَ بورقه، وَ قد كان تساقط شعره عليه السَّلام، وَرَقَّ جِلْدُهُ.

[١٤٨] وَ أَرْسَلْنَاهُ إِمَّا بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا رَوَى إِنْهُ رَجَعَ إِلَى أَهْلِ نِينوى بَعْدَ خروجه مِنَ الْبَحْرِ، أَوْ حكايةً لِمَا قَبْلَ ذهابه عَنْهُمْ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ إِمَّا أَنْ «أَوْ» بِمَعْنَى الْوَاوِ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

و ربما عاقبت الواو إذالم يلف ذو النطق للبت منفذا

أو بمعنى التردد، لأجل عدم الاهتمام بالخصوصية، و

قد روى عن الصادق عليه السَّلام إنهم زادوا ثلاثين ألفا

«١»، و يمكن أن يكون التردد باعتبارين، فباعتبار المدينة، كانوا مائة ألف، و باعتبار أطرافها كانوا يزيدون.

(١) الكافي: ج ١ ص ١٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠١

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٤٨ إلى ١٥١]

فَأَمَّنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) فَاسْتَفْتَاهُمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ

مِنْ إِيَّاهُمْ لَيَقُولُونَ (١٥١)

[١٤٩] فَأَمَّنُوا بِهِ إِمَّا الْمَرَادُ أَنْ الْقَوْمَ الْجَدِيدَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ آمَنُوا بِهِ، أَوِ الْمَرَادُ الْقَوْمَ الْأَوَّلَ، وَقَدْ كَانُوا حِينَ ذَهَبَ يُونُسَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمَا قَالَهُ يُونُسَ حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ،

فقد ورد عن الباقر عليه السلام إن يونس جاءه الوحي من قبله سبحانه، يقول: إن أهل نينوى قد آمنوا و اتقوا، فارجع إليهم «١» فَمَتَّعْنَاهُمْ أَي رَفَعْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَأَبْقَيْنَاهُمْ يَمْتَعُونَ بِالْحَيَاةِ إِلَى حِينِ الْمَوْتِ، حَيْثُ مَا تَوَا بِأَجَالِهِمْ الْمَقْدَرَةَ لَهُمْ.

[١٥٠] وَبَعْدَ نَقْلِ هَذِهِ الْقِصَصِ، يَعُودُ السِّيَاقُ مَعَ كِفَارِ مَكَّةَ، لِيُوقِظَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ، وَيُنَبِّهَهُمْ عَلَى خِرَافَاتِهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَي سَلَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِرَّبُّكَ الْبَنَاتُ أَي هَلْ لِلَّهِ أَوْلَادٌ إِنْثَاءً وَ لَهُمُ الْبَنُونَ

فقد كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فكانوا يخصصون البنات - وهم يكرهونها - بالله، أما البنون فلهم وحدهم.

[١٥١] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْثَاءً أَي هَلْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ نِسَاءً؟ وَ هُمْ شَاهِدُونَ أَي حَاضِرُونَ وَقَدْ خَلَقْنَا لَهُمْ، حَتَّى رَأَوْا أَنَّهُمْ نِسَاءً، وَ هَذَا عَلَى وَجْهِ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ.

[١٥٢] أَلَا فَلْيَتَنَبَّهُ السَّمَاعُ إِنَّهُمْ أَي الْكُفَّارَ مِنْ إِيَّاهُمْ وَ كَذِبَهُمْ، وَ «مَنْ» نَشِئُهُ، أَي مَنْ مَنَشَأَ الْكُذْبَ لَيَقُولُونَ

(١) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٢

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٥٢ إلى ١٥٨]

وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)

فَأَتَوْا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨)

[١٥٣] وَلَدَ اللَّهُ حِينَ زَعَمُوا إِنْ الْمَلَائِكَةَ أَوْلَادَ اللَّهِ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ، إِنْ لِلَّهِ أَوْلَادٌ، وَ إِنْ الْمَلَائِكَةُ إِنْثَاءً.

[١٥٤] أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ أَصْلُهُ «أَصْطَفَى» بِهَمْزَيْنِ، أَحَدُهُمَا لِلْوَصْلِ، وَ الثَّانِيَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ، فَحَذَفَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ تَخْفِيفًا، أَي هَلْ اخْتَارَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ، حِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ جَعَلَ مَلَائِكَتَهُ نِسَاءً؟ وَ الْمَعْنَى الْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ فِي أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ، الْأَدْنَى - بِنَظَرِهِمْ - عَلَى الْأَعْلَى، وَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

[١٥٥] مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ بِهَذَا الْحُكْمِ الْبَاطِلِ؟

وَ أَصْلُ «مَالِكٌ» أَي شَيْءٌ لَكُمْ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي الْإِنْكَارِ.

[١٥٦] أَفَلَا تَذَكَّرُونَ تَتَعَطَّوْنَ وَ تَرْجِعُونَ عَنْ غَفْلَتِكُمْ.

[١٥٧] أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ أَي هَلْ تَحْكُمُونَ بِذَلِكَ اعْتِبَابًا بِدُونِ دَلِيلٍ، أَمْ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ؟ فَإِنَّ السُّلْطَانَ بِمَعْنَى الدَّلِيلِ، لِأَنَّهُ يَسْلُطُ الْإِنْسَانَ عَلَى خَصْمِهِ الْخَالِي مِنَ الدَّلِيلِ.

[١٥٨] فَإِنْ تَزْعُمُونَ إِنْ لَكُمْ دَلِيلًا عَلَى قَوْلِكُمْ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ الَّذِي فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَى أَنْ الْمَلَائِكَةُ إِنْثَاءٌ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ.

[١٥٩] وَ أَعْرَبَ مِنْ هَذَا، أَنْ جَعَلُوا أَي الْكُفَّارَ بَيْنَهُ تَعَالَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٣

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٥٩ إلى ١٦١]

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (١٦١)

وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا إِمَّا هُوَ حِكَايَةُ، لَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ لِلَّهِ تَرْوِجُ امْرَأَةٌ مِنَ الْجِنِّ فَوُلِدَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ لَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ لِلَّهِ أَخ

لإبليس- وهو من الجن- فالله خالق الخير وإبليس خالق الشر، والله أعلم بمراده ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون أى يحضرون بالكره لموقف القيامة، ولو كانت الجنة قريبة في النسب لله سبحانه، كان تعالى يكرمهم، وهذا كقوله (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) «١»؟ والمعنى أن هؤلاء يزعمون إن الجن نسيب مع الله، والحال إن الجن هم يعلمون إنهم عباد له يحضروهم للحساب والجزاء كسائر العبيد.

[١٦٠] سُبْحَانَ اللَّهِ أى أنزه الله تنزيها عمّا يصفون أى عن الشىء يصفون الله به من كونه صاحب الأولاد أو البنات، وإنه نسيب الجنة.
[١٦١] و إذ كان فى قوله سبحانه (إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ لَيَقُولُونَ) «٢» عموم لفظى، استثنى من «إنهم» المؤمنين بالرسول المنزهين عن هذه الأقوال إِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ الذين أخلصهم الله لنفسه، فهم لا يقولون بهذه الأقوال الفارغة والخرافات.
[١٦٢] ثم بين سبحانه إن هؤلاء الكفار لا يتمكنون من إضلال كل أحد، إلا الذين هم منحرفون ذاتا، وكأنه تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وللمؤمنين، بأن لا يخافوا على الدعوة أن تذهب سدى فإِنَّكُمْ أَيهَا الْكُفَارَ وَمَا تَعْبُدُونَ

(١) المائدة: ١٩.

(٢) الصافات: ١٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٤

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٦٢ إلى ١٦٥]

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥)
أى الأصنام التى تعبدونها، أو المراد مطلق المعبودات حتى الملائكة.

[١٦٣] مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أى على الله سبحانه بِفَاتِنِينَ يقال فتنه إذا أضله وحرّفه عن الطريق، أى أنكم لا تتمكنون من إضلال الناس، على خلاف الله سبحانه.

[١٦٤] إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ وإنما تتمكنون على إضلال جماعة خاصة، هم يصلون الجحيم، و يلازمونها، فإن «صلى» بمعنى دخل النار ملازما لها، فمن سبق فى علمه سبحانه أنه منحرف، يصلى النار لا محالة، هو الذى يضل بإضلالكم، لا كل أحد، فلاستثناء من المقدر، أى «بفاتنين الناس، إلا..».

[١٦٥] ثم جاء السياق ليحكى جملة من خطاب الملائكة للكفار، فى رد قولهم، إن الملائكة بنات الله، وإنها آلهة شركاء لله- فقد كان بعض الكفار يعبد الملائكة- وقيل: إن كلام الملائكة يبتدأ من قوله «فإنكم» وما مِنَّا معاشر الملائكة، وما ورد من إرادة أهل البيت عليهم السلام، بذلك، فإنه من باب التأويل، أو استعمال اللفظ المشترك فى أكثر من معنى، أو نحو ذلك، إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ لا يتمكن أن يتعدى ذلك المقام، فكيف يمكن أن يكون من بهذه الصفة إلهها يعبد؟ فإن الإله لا حد له، ولا محل خاص يكتفه.

[١٦٦] وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ صفوفًا فى الصلاة، أو المصطفون كالخدم، ننتظر الأوامر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٥

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٦٦ إلى ١٧١]

وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١)

[١٦٧] وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ المنزهون لله عن الشريك، وعن النقائص، فكيف يمكن أن يكون من هذا وصفه إلهها، يعبد من دون الله؟

[١٦٨] وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ «إن» مخففة من الثقيلة، أى أن الكفار، كانوا يقولون قبل بعثه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

[١٦٩] لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولَىٰ أَي كِتَابًا، مِنْ كِتَابِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، بِأَنَّ كَانَ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، كَمَا أَرْسَلَ إِلَىٰ تِلْكَ الْأُمَّةِ.
 [١٧٠] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ أَي كُنَّا مِنَ الَّذِينَ يَخْلُصُهُمُ اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ، بِأَنَّ كُنَّا مُطِيعِينَ لَهُ غَايَةَ الْإِطَاعَةِ، فَإِنَّ كُفْرَانَ مَكَّةَ، حَيْثُ كَانُوا يَرُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ مُنْحَرِفِينَ، وَ يَسْمَعُونَ قِصَصَ أَسْلَافِهِمْ، كَانُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ انْحِرَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا لَكُنَّا مُطِيعِينَ لِلَّهِ، مُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ الرَّسُولُ، صَارُوا مِثْلَ تِلْكَ الْأُمَّةِ فِي إِذَاءِ الرَّسُولِ وَ تَكْذِيبِهِ.
 [١٧١] فَلَمَّا جَاءَهُمُ الرَّسُولُ أَوْ الْكِتَابَ فَكَفَرُوا بِهِ وَ لَمْ يَقْبَلُوهُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْعِقَابِ وَ النَّكَالِ.
 [١٧٢] وَ لَكِنْ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ لَا يَضُرُّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا بِالنَّصْرِ، أَي إِنَّا قَبْلَ أَنْ نَبْعَثَ الْأَنْبِيَاءَ، كُنَّا نَقُولُ- وَ الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ:

التقدير- إنهم سينتصرون على أعدائهم لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِنَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٦

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٦]

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦)

[١٧٣] إِنَّهُمْ أَي الْأَنْبِيَاءِ- وَ هَذَا تَفْسِيرٌ «كَلِمَتُنَا»- لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ أَي الْغَالِبُونَ عَلَى الْكُفْرَانِ، فَإِنَّا نَنْصُرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَ الْإِتْيَانِ، بِ «لَهُمْ» لِلتَّأْكِيدِ، كَمَا أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ «وَ إِنَّا لَنَحْنُ» فِي قِصَّةِ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَخْلَفْ وَعْدَهُ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ انْتَصَرُوا فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، وَ سَادَتِ مَنَاجِهِمُ الْحَيَاةُ، وَ الْإِنْتِصَارُ هُوَ هَذَا، وَ إِنَّ عَذَبُوا وَ قَتَلُوا، أَلَا تَرَىٰ إِنَّا نَقُولُ: انْتَصَرَتِ الدَّوْلَةُ الْفُلَانِيَّةُ، إِذَا غَلَبَتْ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، وَ إِنَّ قَتَلَ أَكْثَرَ شَبَابِهَا، وَ خَرِبَتْ دِيَارَهَا.

[١٧٤] وَإِنَّ جُنْدَنَا أَي الْمُؤْمِنِينَ لَهُمُ الْغَالِبُونَ عَلَى سَائِرِ الْأَعْدَاءِ، وَ كُونَهُمْ جُنْدَ اللَّهِ، بِاعْتِبَارِ نَصْرِهِمْ لَدِينِهِ.

[١٧٥] فَتَوَلَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ الْمَعْنَى: أَعْرَضَ عَنْهُمْ عَنْ هَؤُلَاءِ، بِأَنَّ لَا تَقَابِلُهُمْ بِالْأَذَى حَتَّىٰ حِينٍ نَأْمُرُكَ بِقِتَالِهِمْ، فَقَدْ كَانَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ، أَنَّ تَشْمَلَ الدَّعْوَةَ بِالسَّلَامِ التَّامِ، حَتَّىٰ تَنْمُو وَ تَقْوَىٰ، ثُمَّ تَصُولَ بِالْقُوَّةِ، كَمَا هُوَ طَرِيقَةُ الْعُقْلَاءِ.

[١٧٦] وَأَبْصُرْهُمْ أَي أَنْظِرْهُمْ بِدُونِ أَنْ تَحَارِبَهُمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي تَقَعُ عَلَيْهِ الْكَوَارِثُ، قَدْ يَقُومُ بِالْمَدَافَعَةِ، وَ قَدْ يَجْلِسُ يَنْتَظِرُ وَ يَنْظُرُ، فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ حِينَ تُؤْمَرُ بِالْجِهَادِ، كَيْفَ يَتَضَاعَفُونَ أَمَامَ الْحَقِّ، وَ حِينَ يُؤْخَذُونَ لِلْعَذَابِ، كَيْفَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ وَ لَا نَاصِرٍ؟

[١٧٧] إِنَّهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ يَقُولُونَ: لَوْ كُنْتُ يَا مُحَمَّدُ صَادِقًا، أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْعَذَابَ، وَ هَذَا مُسْتَعْرَبٌ جَدًّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٧

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٧٧ الى ١٨١]

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)

أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَي كَيْفَ يَطْلُبُ هَؤُلَاءِ الْعَذَابَ؟ أَمَا يَخَافُونَ مِنْهُ؟

[١٧٨] وَ سَيَأْتِي يَوْمَ الْعَذَابِ فَإِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِسَاحَتِهِمْ أَي بِأَفْنِيَّةِ دَوْرِهِمْ فَسَاءَ الصَّبَاحُ وَ قَدْ ذَاكَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ بِصِيغَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ، أَي صَبَاحُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْذَرَهُمُ الرَّسُولُ، فَلَمْ يَنْفَعَهُمُ الْإِنذَارُ.

[١٧٩] وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ أَي أَعْرَضَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ هَؤُلَاءِ بَعْدَ أَنْ دَعَوْتَهُمْ، فَلَمْ تَنْفَعَهُمُ الدَّعْوَةُ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْأَمْرَ بِقِتَالِهِمْ.

[١٨٠] وَأَبْصُرْهُمْ أَي مَا يَصْنَعُونَ فَقَطْ لِتَكُونَ شَاهِدًا عَلَيْهِمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ إِنَّمَا كَرَّرَ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِأَحَدِهِمَا عَذَابَ الدُّنْيَا وَ بِالْآخِرِ عَذَابَ الْآخِرَةِ.

[١٨١] وَ أُخِيرَ نَزُّهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ نَفْسَهُ، عَمَّا يَنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ وَ الْوَلَدِ وَ الشَّرِيكِ، وَ سَائِرِ الْخِرَافَاتِ سُبْحَانَ رَبِّكَ «سَبَّحَانَ» مَنْصُوبٌ

بفعل مقدر، أى أسبح ربك تسيحاً، والمعنى أنزهه عما لا يليق به رَبِّ الْعِزَّةِ أى مالك العزة وخالقها، و من لوازم العزة المطلقة، أن لا يكون له ولد و شريك، و زوجة ليشاركوه العزة عَمَّا يَصِفُونَ هؤلاء، أى يصفون الله به.

[١٨٢] وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ تحية عليهم منا، أو سلامة و أمان لهم، من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٨

[سورة الصافات (٣٧): آية ١٨٢]

وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)

أن ينصر عليهم أعدائهم.

[١٨٣] وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فجنس الحمد لله، إذ جميع المحامد منه، و هو رب العوالم، خالقها و مربيها، و العوالم باعتبار عالم الإنسان، و عالم الحيوان، و عالم الجن و الشياطين، و عالم الملائكة، و عالم الدنيا، و عالم الآخرة، إلى غير ذلك، فإن الله سبحانه، هو رب الكل لا شريك له فيها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٠٩

٣٨ سورة ص مكية / آياتها (٨٩)

سميت السورة بهذا الاسم لابتدائها بهذه اللفظة «ص» و هى كسائر السور المكية تبين العقيدة بأصولها الثلاثة، فى أساليب قصصية رائعة، للتقريب إلى الذهن، و التركيز على الحقائق، و إذ ختمت سورة الصافات، بذكر المكذبين للرسول، و للكافرين بالله، و الجاحدين للقرآن، ابتدأت هذه السورة بمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ باسم الإله الرحمن الرحيم نبدأ السورة إعلاناً على الصبغة العامة للمسلم، بأنه مربوط بالله، و ذكر الله الذى لا ينسى من ذكره، و يبارك كل شىء ابتداءً به، و استمطاراً لشآبيب رحمته، ليغمر القارئ بالفضل و الرحم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٠

[سورة ص (٣٨): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)

[٢] ص فيه أقوال: منها إنه رمز بين الله و الرسول، و منها أن المراد، إن القرآن الذى لا تتمكنون - أيها الكفار - من الإتيان بأقصر سورة منه، من جنس حروف الهجاء، ل «ص» و غيره،

و منها إنه: اسم لعين تنبع من تحت العرش، كما ورد عن الصادق عليه السلام

، و منها إنه اسم من أسماء الله تعالى إشارة إلى اسم لكونه إشارة إلى «الصابر» أو «الصادق» إلى غيرها من الأقوال، و فى إعرابه أيضاً خلاف تبع الخلاف الأول وَ الْقُرْآنِ أى قسماً بهذا القرآن الذى هو ذِي الذِّكْرِ أى صاحب الشرف، كما يقال: لفلان ذكر أى شرف بسببه يذكر فى المجامع، أو المراد أنه صاحب التذكير بالله و اليوم الآخر، و لا ينافى أن يكون هو ذكر - باعتبار بعض آياته - و أن يكون صاحب الذكر - باعتبار مجموعة و جواب القسم محذوف: أى أنه لحق، دلّ عليه قوله «بل الذين».

[٣] فليس فى القرآن نقص، يوجب عدم إيمانهم، فإنه حق ظاهر لا مريه فيه بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بالله و اليوم الآخر فى عِزَّةٍ أى تكبر عن قبول الحق، فإن الإنسان العزيز يعرض عن الرضوخ لغيره - سواء كانت عزة واقعية، أو عزة مزعومة - وَ شِقَاقٍ أى مخالفة للرسول، و العدو مهما يرى الحق فى جانب خصمه، لا يرضخ له، و لا يقبل منه، مشتق من شق، كأنه فى شق و طرف، و الخصم فى شق آخر.

[٤] و لكن هل يبقون هؤلاء كذلك معرضين عن الحق، أعداء للرسول؟

كلا، فليعتبروا بالأمم المكذبة، التي سبقتهم، ف كَمْ أَهْلَكْنَا «كم» للخبر يراد به الكثير مِنْ قَبْلِهِمْ أى قبل هؤلاء الكفار مِنْ قَرْنٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١١

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤ إلى ٥]

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)
أى من أمة، و تسمى الأمة قرنا، باعتبار تقارن أعمار أفرادها فَنَادَوْا عند إتيانهم العذاب بالاستغاثة و الضراعة، لكن لم يفيدهم النداء، فى نجاتهم من العذاب و لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ أصل «لات» «لا» زیدت علیه التاء، بمعنى «ليس» و «مناص» من «النوص» و هو التأخر يقال: ناص ينوص إذا تأخر، و قد حذف خبر «لات» أى ليس الوقت الذى استغاثوا فيه، وقت التأخر للعذاب و النجاة لهم، فقد كانوا فى مهلة، ما دام أجلهم باق، أما إذا حقت عليهم كلمة العذاب، فلا تفيدهم الضراعة و الاستغاثة.

[٥] وَعَجِبُوا أى الكفار أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ أى رسول من قبل الله سبحانه لإنذارهم و تخويفهم عن بأس الله، بأنهم إن تمادوا على الكفر و العصيان، أخذهم العذاب، و أرجعوا إلى النار مِنْهُمْ أى من جنسهم، فقد كانوا يقولون: لو لا- يكون الرسول علينا ملائكة و قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا الرَسُولُ سَاحِرٌ كَذَّابٌ فإنه يسحرنا، حين لا نتمكن من الإتيان، بمثل القرآن، حين يأتى بخوارق، و هو يكذب على الله، بأنه رسوله، و إن الله إله واحد لا شريك له، و لا صاحبه، و لا ولد.

[٦] ثم جعلوا يستفهمون مستنكرين بقولهم أَجْعَلُ أى هل جعل هذا الرسول الْآلِهَةَ المتعددة التى نقول بها إِلَهًا وَاحِدًا؟ أى كيف

يقول، أن لا إله إلا إله واحد، و الحال أن لنا آلهة متعددة؟ إِنَّ هَذَا الذى يقوله محمد من وحدة الإله لَشَيْءٌ عُجَابٌ أى لأمر عجيب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٢

[سورة ص (٣٨): آية ٦]

وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَ اضْبُرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦)

مفرط فى العجب،

قال بعض إن قبيلة، كانت لها آلهة متعددة، تبعا لتنازع كان يقع بينهم، و قد كانوا يقولون: إن هذه الكثرة من الآلهة، لا تكفيها، فيجب صنع آلهة جديدة، فلما قال لهم الرسل أن الإله واحد، قالوا، إنا لم نكنف بهذا العدد العديد من الآلهة، فهو يدعونا إلى إله واحد؟ و هناك ظريفة تحكى، هى أن الكفار اجتمعوا، و قالوا إن فى القرآن كلمات غير فصيحة، و ظنوها مأخذا على الرسول، و جمعوا تلك الكلمات فى ثلاث، هى «كبار» و «يستهنى» و «عجاب» و أتوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، ناقدين للقرآن فقال الرسول: اثنوني بأفصحكم، فذهبوا، و جاءوا بشيخ كبير، قالوا: إنه أفصحهم، و لما حضر بين يدي الرسول أراد الجلوس، فقام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، فأخذ فى القيام، فجلس الرسول، فأخذ الشيخ فى الجلوس، فقام الرسول، فاستشاط الشيخ غضبا من هذا العمل، و قال: يا محمد أ تستهنى بى، و أنا شيخ كبار، هذا أمر عجاب؟ و هناك نظر بعض القوم إلى بعض، و قد أبطل الشيخ دعواهم فى جملة واحدة و انصرفوا خائبين، و نقل إن المشركين، اجتمعوا حول الرسول، ليفاوضوه فى ترك الدعوة؟ فقال لهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: أ تعطون كلمة واحدة تملكون بها العرب و العجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك و عشرة أمثالها؟ فقال: قولوا لا إله إلا الله، فقاموا و قالوا: أ جعل الآلهة إلها واحدا؟ فنزلت هذه الآيات

«١».

[٧] وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ المراد بالانطلاق، انطلاق الألسنة بالكلام، فقد قال الأشراف- و هم الملاء- بعضهم لبعض، و لأنبأهم أن امشوا

[سورة ص (٣٨): الآيات ٧ الى ٨]

ما سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (٨) أى سيروا فى طريقكم التقليدى الذى يقول: بتعدد الآلهة، و لا- تعيروا كلام محمد بالا واصبروا على آلهتكم المتعددة، و تحملوا المشاق فى سبيلها، لئلا يغلبكم محمد إن هذا البقاء على ديننا، و الصبر على المشاق، فى سبيل الآلهة لشيء يُرادُ منا، فنحن مطلوبون عند العرف الاجتماعى بالحماية عن الشرك.

[٨] ما سَمِعْنَا بِهَذَا الذى يقوله الرسول من وحدة الإله، و عدم الشرك فى المِلَّةِ الْآخِرَةِ أى مله أهل الكتاب، التى هى خير الملل، بعد الوثنية، و ما أشبههما، و كأنهم أرادوا بذلك التمويه على العوام، بأن أهل الكتاب أيضا، لا يقولون بوحدة الإله، فكيف يدعى محمد، إنه مثل موسى و عيسى، يدعى ما لا يقول به إن هذا الذى يقوله الرسول من التوحيد إلاً اخْتِلَاقٌ أى الكذب، فقد خلقه و صنعه محمد، و لا- نصيب له من الواقع و قد رأى الكفار أهل الكتاب، الذين انحرفوا عن منهج التوحيد، فجعلوهم حجة فى مقابل الرسول، و إلا فالأنبياء جميعا لم يقولوا إلا بالتوحيد، و هكذا أكد التوراة و الإنجيل على ذلك.

[٩] ثم جعلوا يستغربون، عن أن الرسول يكون موحى إليه من بينهم؟ ظانين إنهم مثل الرسول فى المؤهلات، إن لم يكونوا أفضل منه، فاللازم أن يوحى إليهم دونه، أو إليهم و إليه على حد سواء أُنزِلَ عَلَيْهِ أى على الرسول الذِّكْرُ أى القرآن مِنْ بَيْنِنَا؟ كيف ذلك يكون، و فينا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٤

[سورة ص (٣٨): آية ٩]

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)

من هو أكبر منه سنا، و مالا و جاها، و أولادا؟ لكنهم غفلوا، من أن مؤهلات الرسالة، غير مؤهلات العرف و العادة، و الرسول منفرد فيها، فليس قولهم هذا لنقص رأوه فى الرسالة و الرسول بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي الذى أنزلته على الرسول، و لم يكن الشك بحق، فإنهم، لو تفكروا علموا بصدق الرسول، و إنما شك المقلد الجاهل، الذى يرى الحق فى طرف، و التقليد فى طرف آخر بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ أى عذابي، حذف «ياء المتكلم» تخفيفا، و هذا تهديد لهم، بمعنى أنهم، إنما يقولون ما يقولون لا لعدم صحة الرسالة و الدعوة، بل لأنهم منحرفون محتاجون إلى التأديب، و سيدوقون العذاب.

[١٠] أميا ما يقولون من أن اللازم نزول الذكر عليهم، دون الرسول، و قولهم (لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ) «١» فالجواب: إن ذلك فضل الله يعطيه من يشاء أم عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ حتى يفتحون خزائن الرسالة، فيهبونها لمن شاءوا، دون من يريد الله سبحانه؟ العَزِيزِ فى سلطانه، يفعل ما يشاء الْوَهَّابِ العطايا لمن يشاء، و من المعلوم، إن الله سبحانه لا- يهب، إلا- حسب المصلحة و الحكمة، فإنما ينزل الرسالة لمن يؤهلها، كما قال سبحانه (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) «٢» و قال (وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) «٣».

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) الأنعام: ١٢٥.

(٣) الدخان: ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٥

[سورة ص (٣٨): الآيات ١٠ الى ١٢]

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)

[١١] أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا حَتَّى إِذَا شَاءُوا، أَنْ لَا يَكُونَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، رَسُولًا، سَدَّوْا أَبْوَابَ الْوَحْيِ عَلَى وَجْهِهِ، لِأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ طَرُقَ الْوُصُولِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ؟ وَإِذَا قَالُوا: إِنَّهُمْ يَمْلِكُونَ ذَلِكَ فَلْيَتَنَبَّأُوا أَى يَصْعَدُوا فِي الْأَشْبَابِ الْمَوْصَلَةَ لَهُمْ إِلَى السَّمَاوَاتِ، لِيَمْنَعُوا مَسَالِكَ الرِّسَالَةِ، لِثَلَا يُوْحَى بِالْقُرْآنِ إِلَى الرَّسُولِ.

[١٢] إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَالِكِي خَزَائِنِ اللَّهِ، وَلَا لَهُمْ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِنَّمَا جَمَاعَةٌ مَنبُذَةٌ تَجْمَعُ مِنْ لَفِيفِ جُنُودِ اللَّبَابِلِ، فِي ابْتِعَادٍ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي الشُّؤْنِ الْكُونِيَّةِ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مَا نَكَرَهُ غَيْرَ مَرْبُوطِينَ بِشَأْنِ مِنَ الشُّؤْنِ هُنَالِكَ مَنبُذَةٌ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْعَالَمِ، لَا يَرْتَبِطُ بِأَمْرِ مِنْ أُمُورِ الْكُونِ مَهْزُومٌ هَزْمَهُمُ الْمَنْطِقُ وَالْحَقُّ مِنَ الْأَحْزَابِ مُلْتَفَةٌ مِنْ أَحْزَابٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَمَذَاهِبٍ مُتَشَتَّتَةٍ، فَلَمْ يَجْمَعْهُمْ الْحَقُّ، وَإِنَّمَا الْحَسَدُ وَالْعِنَاءُ وَالْكِبْرُ، وَإِلَّا فَمَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْيَهُودِيِّ وَالْمَسِيحِيِّ، وَالْمَشْرِكِ تَحْتَ قِيَادَةِ أَبِي سَفِيَانَ لِمَحَارِبَةِ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَظْمَى؟ وَ«جند» مبتدأ، و«هنا لك» خبره، و«مهزوم» صفة جند.

[١٣] إِنْ مَصِيرٌ هُوَ لَاءٌ، هُوَ مَصِيرٌ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، حَيْثُ كَذَبُوا الْأَنْبِيَاءَ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، بِمَا كَذَبُوا، وَإِنْ بَقِيَ هُوَ لَاءٌ فِي كُفْرِهِمْ وَغِيهِمْ، سَيَلَقُونَ ذَلِكَ الْمَصِيرَ الْمَهْلِكُ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أَى قَبْلَ هُوَ لَاءِ الْكُفَّارِ قَوْمٌ نُوحٍ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَادٌ كَذَبَتْ هُودَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنُ كَذَبَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُو الْأَوْتَادِ صَفَةُ فِرْعَوْنَ، وَ

قد سئل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٦

[سورة ص (٣٨): الآيات ١٣ الى ١٥]

وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُفِّلُوا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هُوَ لَاءٌ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥)

الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَى شَىءٍ سَمِيَ فِرْعَوْنَ ذَا الْأَوْتَادِ؟ فَقَالَ: لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا عَذِبَ رَجُلًا، بَسَطَهُ عَلَى الْأَرْضِ عَلَى وَجْهِهِ، وَمَدَّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَأَوْتَدَوْهَا بِأَرْبَعَةِ أَوْتَادٍ فِي الْأَرْضِ وَرَبَّمَا بَسَطَهُ عَلَى خَشَبٍ مَنبَسُطٍ، فَوْتَدَ رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ بِأَرْبَعَةِ أَوْتَادٍ، ثُمَّ تَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ حَتَّى يَمُوتَ

«١».

[١٤] وَكَذَّبَتْ تَمُودٌ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمٌ لُوطٍ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَهُمْ قَوْمٌ شَعِيبٍ، وَقَدْ كَانَتْ إِلَى جَنْبِهِمْ غِيضَةٌ ذَاتُ أَشْجَارٍ، وَهِيَ الْأَيْكَةُ، كَذَبُوا شَعِيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ الَّذِينَ كَذَبُوا الرُّسُلَ، وَكَانَ قَوْمُكَ حَزْبٌ مِنْ تَلْكَ، فَمَا كَانَ مَصِيرُهُمْ؟

[١٥] إِنْ كُلُّ أَى مَا كُلُّ مَنْ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمْ فَحَقَّ أَى ثَبِتٌ وَلَزِمَ عَلَيْهِمْ عِقَابُ أَى عِقَابِي، وَحُذِفَ الْبَاءُ تَخْفِيفًا، وَالْمَرَادُ بِالْعِقَابِ أَخْذُهُمْ بِأَنْوَاعِ عَذَابِ الْاسْتِئْصَالِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ.

[١٦] وَإِذْ قَدْ عَرَفَ قَوْمُكَ مَصِيرَ أُولَئِكَ الْمَكْذِبِينَ، فَمَا بَقَاؤُهُمْ فِي الْكُذْبِ وَالْكَفْرِ، إِلَّا أَنْتَظَرَا لِتَلْكَ الْعَاقِبَةُ السَّيِّئَةُ مَا يَنْظُرُ هُوَ لَاءٌ أَى كُفَّارِ مَكَّةَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً يَصِيحُ بِهِمْ جَبْرَائِيلُ، أَوْ مَلِكٌ آخَرَ، حَتَّى يَهْلِكَهُمْ جَمِيعًا، كَمَا حَدَّثَ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، أَوْ الْمَرَادُ النَّفْخَةُ الْأُولَى مَا لَهَا أَى لَيْسَ لِتَلْكَ الصَّيْحَةُ مِنْ فَوَاقٍ أَى إِفَاقَهُ، بِأَنَّ

(١) راجع مجمع البيان: ج ٨ ص ٣٤٧ ..

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٧

[سورة ص (٣٨): الآيات ١٦ الى ١٧]

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اضْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)

تنقطع قبل هلاك القوم، فيرجعوا عن غيرهم، و ضلالهم، يقال: أفاق من مرضه إذا طاب، و فواق الناقه، هي المدة بين الحبستين، لأن فيها يعود اللبن إلى الضرع.

[١٧] و إذ كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، يهدد الكفار بالعذاب، كانوا يقولون: - مستهزئين له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ - عجل لنا بالعذاب! وَقَالُوا أَى الكفار رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا أَى قدم لنا نصيباً من العذاب قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ وَ «القط» هو النصيب، من «قط» بمعنى قطع، لأن النصيب، يقطع و يعين فى مقدار خاص.

[١٨] قال الله سبحانه فى جوابهم تسلياً للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، اضْبِرْ يا رسول الله عَلَى مَا يَقُولُونَ أَى ما يقوله هؤلاء الكفار فى تكذيبك، و الاستهزاء بك وَ اذْكُرْ جماعة من الأنبياء عليهم السّلام الذين آذوهم قومهم، فصبروا، أو كانت لهم القوة الدنيوية، بالإضافة إلى الإيمان الذى هو قوة معنوية تقوية لقلوب المؤمنين، و لثلاث يقول المرجفون:

إن الإيمان، لا يلائم الحياة الدنيا، فاذا ذكر يا رسول الله عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ أَى صاحب القوة، فإن «أيد» جمع يد، ثم استعملت فى النعمة و القوة، لأن اليد من أسبابهما إِنَّهُ عَلَيْهِ السّلام، مع كونه، ذا قوة عظيمة دنيوية أَوَّابٌ أَى تواب يستغفر ربه فى دائم الأحوال، من آب يئوب إذا رجع، و كأن الانشغال بأمر الدنيا، كان انصرافاً عن الله سبحانه - و لو انصرفاً مباحاً - فكان يرجع إليه تعالى، بصرفه نفسه كلها إليه كل صباح و مساء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٨

[سورة ص (٣٨): الآيات ١٨ الى ٢١]

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فُضِّلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)

[١٩] إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ أَى جعلناها مسخرة مع داود فى كونها يُسَبِّحُنَ بتسبيح داود بِالْعَشِيِّ أَى العصر وَ الْإِشْرَاقِ أَى عند شروق الشمس، فإن داود كان إذا سبح الله تعالى فى هذين الوقتين، كانت الجبال تردد معه التسبيح، و قوله «يسبحن» بلفظ العاقل، لأن صدور محل العقلاء من الجبال يدخلها فى جملتهم.

[٢٠] وَ سَخَّرْنَا لداود عليه السّلام الطَّيْرَ المراد به الجنس أَى كل الطيور، فى حال كونها مَحْشُورَةً أَى مجموعة له كُلٌّ من الجبال و الطير لَهُ أَى لداود أَوَّابٌ أَى رجاع فكانت الطيور تردّد معه التسبيح، كما تردد الجبال، و قيل إنها كانت تطيعه، فيما يأمر به.

[٢١] وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ أَى قوينا ملك داود بالحرس و المال، و كثرة العدة و العدة وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ المراد بها، إما النبوة، أو أن يكون بحيث يعرف مواضع الأشياء، فإن الحكمة هى عبارة عن علم وضع الشئ فى موضعه اللائق به وَ فُضِّلَ الْخِطَابِ أَى الخطاب الفاصل بين الحق و الباطل، و المراد به علم القضاء، فإنه كان يعرف كيفية الحكم بين الناس و معرفته تمييز المحق من المبطل، و قد كان من ذلك قاعدة «البينة على المدعى، و اليمين على من أنكر».

[٢٢] ثم ينتقل السياق لينقل قصة امتحن الله بها داود عليه السّلام، فقد جاء خصمان إلى داود فى شكوى، و لما سمع داود من المدعى كلامه حكم له، بدون أن يستمع من المنكر، و كان هذا الاستعجال تركاً للأولى،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥١٩

بالنسبة إليه، ثم توجه و أناب إلى الله سبحانه، و قد كان أمثال هذه المخالفات - المسماء بترك الأولى - تصدر من الأنبياء أحياناً لإثارة النشاط فى نفوسهم، لتقوى اتصالاتهم بالله سبحانه، و هى لم تكن معصية، كما لا يخفى، كما أن نقلها فى القرآن لعلها، بسبب أن لا يعتقد الناس فيهم الألوهية، فإن من عادة الناس، أن يرفعوا الإنسان النزيه فوق مرتبته، كما رفعوا المسيح و على بن أبى طالب عليهما السّلام إلى مقام الألوهية، أما إذا علموا بصدور ترك الأولى منهم، كان ذلك حاجزاً دون الغلو، و من غريب الأمر إن جماعة اختلقوا

حول هذه القصة أكاذيب استنادا إلى «العهدين» المحرّف، فذكروا قصة «أوريا» كما نسبوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أسطورة قصة «زينب»، و

قد روى في المجالس عن الصادق عليه السلام، أنه قال رضى الناس لا يملك، و ألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوا إلى داود، إنه تبع الطير، حتى نظر إلى امرأة «أوريا» فهوهاها، و إنه قدم زوجها أمام التابوت، حتى قتل، ثم تزوج بها «١»، و

قد روى عن الإمام المرتضى عليه السلام، إنه قال: لا أوتى برجل يزعم، إن داود تزوج امرأة أوريا، إلا جلده حدان للنبوة، و حدا للإسلام «٢»

و هَيْلُ أَتَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و هذا للتشويق نحو القصة، التي ستذكر نَبَأَ الْخَصْمِ أى خبر الخصمين، و المراد «بالخصم» الجنس، و لذا يشمل النفرين، أى هل بلغك خبر الخصمين إِذِ تَسَوَّرُوا أى صعّدوا على السور لينزلوا المِحْرَابَ محل عبادة داود عليه السّلام؟ فقد كان فى المِحْرَابِ، إِذْ رَأَى نَفْرَيْنِ نَزَلَا مِنْ سَور

(١) الأمالى للصدوق: ص ١٠٢ المجلس ٢٢.

(٢) تنزيه الأنبياء: ص ٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٠

[سورة ص (٣٨): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِيمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَآخَظْنَا بِأَلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَ أَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعَجَةً وَ لِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)

المِحْرَابِ، أى جداره، فهاله أمرهم، إذ لم يدخلوا من الباب، و إنما جيء بلفظ الجمع، فقال «تسوروا» لأن الخصم جنس، و الجنس عام، و يتحمل أن يكونوا أكثر من اثنين، بأن أتياه مع بعض متعلقهم، كما هو العادة فى المنازعات.

[٢٣] إِذْ دَخَلُوا الْخُصُومَ عَلَى دَاوُدَ مِنَ السُّورِ فَفَزِعَ وَ خَافَ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا مِنْ غَيْرِ الْبَابِ، وَ بَدُونَ الْإِذْنَ، وَ فِى غَيْرِ الْأَوَانِ قَالُوا لِدَاوُدَ لَا تَخَفْ فَلَسْنَا نَرِيدُ إِيْذَاءَكَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ اعْتَادَ أَنْ يَخَافَ مِنَ الْمَفَاجِئِ، لِأَنَّهُ يَظُنُّ كَوْنَ الْمَجِئِ لِلْإِيْذَاءِ، وَ إِلا كَانَ يَأْتِى عَلَى نَحْوِ الْمَعْتَادِ، لِأَنَّ فَجَاءَهُ... إِنَّمَا نَحْنُ خَصِيمَانِ أَيْ نَفْرَانِ، أَوْ طَرَفَانِ بَغَى وَ ظَلَمَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَجِئْنَا إِلَيْكَ لِتُحْكَمَ بَيْنَنَا فَآخَظْنَا بِأَلْحَقِّ وَ الْعَدْلِ وَ لَا تُشْطِطْ مِنَ الشُّطُطِ، بِمَعْنَى الْمِيلِ عَنِ الْحَقِّ وَ الْكُذْبِ، وَ الْإِتِّوَاءِ، وَ هَذَا الْقَوْلُ لَمْ يَكُنْ لِأَجْلِ احْتِمَالِهِمْ، إِنَّ دَاوُدَ يَكْذِبُ وَ يَجُورُ، بَلْ هَكَذَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ الْمَخَاصِمَ، لِيَرَى طَرَفَهُ وَ السَّامِعِينَ، إِنَّهُ وَاضِحٌ لِلْحَقِّ مَائِلٌ إِلَيْهِ، لَا يَرِيدُ جُورًا وَ ظُلْمًا وَ تَعْدِيًا وَ أَهْدِنَا أَيْ أَرشَدْنَا فِى قَضِيَّتِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ أَيْ وَسْطِ الطَّرِيقِ، الَّذِى لَا جُورَ فِيهِ، وَ لَا انْحِرَافَ.

[٢٤] ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ هَذَا الْخَصْمَ أَخِي فِى النَّسَبِ، أَوْ مِنْ بَابِ الشَّفَقَةِ وَ اللَّيْنِ فِى الْخِطَابِ لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعَجَةً أَنْتِى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢١

[سورة ص (٣٨): آية ٢٤]

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ (٢٤)

الشّاءَ وَ لِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطَّ فَقَالَ أَخِي لِي، يَرِيدُ سَلْبَ شَاتِي، لِتُكْمَلُ لَهُ مَائَةٌ شَاهَ أَكْفَلْنِيهَا أَيْ ضَمَّ شَاتِكَ إِلَى نَعَاجِي، وَ اجْعَلْنِي كَفِيلَهَا حَتَّى تَكُونَ لِي وَ عَزَّنِي فِى الْخِطَابِ أَيْ غَلَبْنِي فِى الْكَلَامِ وَ مَخَاطَبَتِهِ مَعِي، بِأَنَّ خَاشِنِي فِى الْكَلَامِ بِقَصْدٍ أَنْ يَقْهَرَنِي وَ يَأْخُذَ

شاتي.

[٢٥] و بمجرد أن سمع داود كلام المدعى، بدون أن يطلب من خصمه الردّ قال لَقَدْ ظَلَمَكَ أُخُوكَ، و جار عليك في طلبه بنعجتك بِسْؤَالِ نَعَجَتِكَ لِيُضْمَهَا إِلَيَّ نِعَاجِهِ ثُمَّ بَيْنَ دَاوُدَ، أَنَّ الظلم من عادة بعض الشركاء على بعض و إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ جَمَعَ خَلِيطًا، و هو الشريك، لأنه يخالط الإنسان، لأجل اشتراك أموالهما لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَيْثُ إِنَّ الْأَقْوَى مِنْهُمْ يَرِيدُ أَكْلَ الْأَضْعَفِ، ثم استثنى من هذا العموم المؤمنين بقوله إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بَأْنَ كَانُوا مُسْتَقِيمِينَ عَقِيدَةً و عملا، فإنهم لا يظلمون أحدا، و لم يكن حاجة إلى هذا الاستثناء، لأنه نص أولا بقوله «كثيرا» و إنما جيء بالاستثناء، لثلا يوهم، إن الكثير من المؤمنين، للتنصيص على إن أحدا من المؤمنين ليس بداخل في ذلك الكثير و قَلِيلٌ مَا هُمْ «ما» لزيادة التقليل، فإن المؤمن المستقيم في جميع شؤونه، قليل جدا، و إذ حكم داود بهذا الحكم قبل أن يستفسر من المدعى عليه الحال، تنبه إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٢

[سورة ص (٣٨): الآيات ٢٥ إلى ٢٦]

فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ و إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى و حُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ و لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)

استعجاله الذي كان خلاف الأولى و ظن حينذاك داود أنما فتناه أي امتحناه بهذه الحكومة، و يظهر من لفظ «ظن» إنه لم يتيقن، و إنما ترجح في نظره ذلك فَاشْتَتَعَفَرَ رَبَّهُ أَي طلب منه غفرانه، فإن ترك الأولى موجب للتنقيص من الثواب، فاستزادته بحاجة إلى الستر و الغفران، و فرض أنه لم يكن و خَرَّ أَي سقط داود لوجهه راجعا معظما له سبحانه، فإن الركوع يطلق على مطلق التعظيم، و لو بنحو السجود، كما يدل عليه «خر» و هو الأنسب بمثل هذا المقام و أَنَابَ أَي رجع إلى ربه، بعد الانشغال بتلك القضية، و قد ورد في بعض الأحاديث إن الخصمين كانا ملكين.

[٢٦] فَعَفَرْنَا لَهُ أَي لداود ذللك الترك للأولى و إِنَّ لَهُ أَي لداود عِنْدَنَا أَي في المحل المعد المكرم بكرامتنا- تشبيها للمعقول بالمحسوس- لَزُلْفَى أَي قربي و كرامته، من زلف بمعنى اقترب و حُسْنَ مَآبٍ أَي المرجع الحسن في الآخرة.

[٢٧] ثم خاطبه الله سبحانه بقوله يا داود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ الخليفة هو الذي يجلس مكان غيره خلفا له، و الأنبياء خلفاء الله سبحانه، حيث إنه قررهم للقيام بأمره، و إنفاذ حكمه في الأرض، و كأن الإتيان، بقوله «في الأرض» لإفادة العموم، فليس خليفته له في بلدة أو قطر فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ المطابق للواقع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٣

[سورة ص (٣٨): آية ٢٧]

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ و الْأَرْضَ و مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)

و لا- تَتَّبِعِ الْهَوَى الذي يأمر بالانحراف، حسب العواطف و الميول فَيُضِلَّكَ اتِّبَاعِ الْهَوَى عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و طريقه، و هذا ليس معناه، إن داود كان محتمل الانحراف، و إنما الأوامر الصارمة، توجه إلى الأنبياء، كما توجه إلى غيرهم، كما قال سبحانه (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ و إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) «١» إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَي ينحرفون عن طريق الله، بالحكم أو الفتوى أو الدعوة إلى الباطل لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ أَي بسبب نسيانهم، و المراد بالنسيان تركهم أحكام الله، و حيث إن النسيان غالبا سبب لترك الأوامر، كان الإتيان بالنسيان، و إرادة الترك مجازا من علاقة السبب و المسبب، و يوم الحساب، إما متعلق، ب «بما نسوا» أي بسبب نسيانهم ليوم الحساب، أو متعلق ل «عذاب شديد» أي لهم عذاب شديد، يوم الحساب بسبب نسيانهم أوامر الله.

[٢٨] و إذ وصلت القصبة إلى هذا الموضوع، ألفت السياق الأذهان إلى حقيقة كبرى، هي إن العالم لم يخلق باطلا، حتى يلائمه الحكم

فى القضايا بالباطل، بل العالم خلق بالحق و للحق، فاللازم أن تكون الأمور العمليّة من حكم و فتوى، و غيرهما على الحق، و إلا كانت العاقبة الانهيار و الدمار و ما خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُمَا من البشر

(١) الزمر: ٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٤

[سورة ص (٣٨): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)

و الملك و الهواء، و غيرها باطلاً عبثاً و اعتباراً، بلا غاية، أو غرض، حتى يكون الباطل من القول و العمل و الحكم، ملائماً للخلق، و لا يكون له مصير مؤلم ذلك أى كون الخلق باطلاً ظنّ الذين كفروا بالله و جحدوا حكمه، و إنما قال «ظن» لأنهم يرجحون ذلك، و لا يستيقنونه فويل للذين كفروا من النار التي تحرقهم لكفرهم، و ظنهم، أن الخلق عبث باطل.

[٢٩] ثم توجه السياق إلى تنبيه الكفار، بأنهم ليسوا سواء و المؤمنين، لا فى الدنيا، و لا فى الآخرة، بل المؤمنون فوقهم مقاما و منزلة أم نجعل الذين آمنوا أى هل من الممكن أن نجعل المؤمنين و عمِلُوا الصَّالِحَاتِ اللازم منه عدم العمل بالمعاصى كالمفسدين فى الأرض فإن كل كافر و عاصى مفسد، أى عامل بالفساد مفسد لنفسه، أو غيره؟ كلا! لا نجعل المؤمن كالمفسد أم نجعل المتقين الذين اتقوا معاصى الله بعد الإيمان كالفجار الذين عصوا و فجروا؟ من الفجر، و هو الشق، كأن الفاجر يشق ستر الهدى، و ينفذ نحو الباطل، و لعل المراد بالسؤال الثانى، بيان عدم استواء المطيع و العاصى من المؤمنين، بعد بيان عدم استواء المؤمن و الكافر.

[٣٠] و من ثم ياتى الكلام حول القرآن الحكيم، ليلفت بعد بيان القصص و الآداب، إلى أنه كتاب عظيم، حيث اشتمل على مثل هذه الحقائق الرائعة، و قد ذكر فى علم القرآن إلقاء المطلب فى الذهن، بعد الإتيان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٥

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٣١]

وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١)

بأمر معجب أنفذ من الإلقاء فى الذهن الخالى غير المتحرك، ألا ترى إن الإنسان إذا رق قلبه لأمر كان أسرع إلى العمل من أجله؟ و هذا كتاب أنزلناه إليك يا رسول الله مبارك ذو بركة و زيادة و نماء كثير نفعه و خيره، لأنه يهدى و يرسم الخطط الموجبة، للزيادة و الخير ليذبوا آياته أى يتفكروا فيها و يتعظوا بها و ليتذكروا مما أودع فيهم من الحقائق بالفطرة أولوا الألباب أى أصحاب العقول، فإن اللب بمعنى العقل، أما غيرهم فإنهم لا يتذكرون و لا يتدبرون.

[٣١] و إذ تمت قصة داود، يأتى السياق لبيان قصة سليمان و وهبنا لداود سليمان و معنى الهبة العطية المجانية، و الأولاد هبات للآباء، و لذا قال سبحانه (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) «١» إنه نعم العبد إذ كان كأبيه يعمل بأوامرنا إنه أواب أى كثير الرجوع إلى الله سبحانه فى جميع أموره، و قد سبق أن الإنسان إذا صرف إلى ضروريات حياته، فكأنه ابتعد عن الله سبحانه، إذ لم يكن بجميع سرائره مشغولاً نحوه تعالى، و لذا كان الالتفات إليه بعد ذلك أوبا و رجوعاً.

[٣٢] اذكر يا رسول الله إذ عرض عليه أى على سليمان بالعشي أى فى آخر النهار الصافنات جمع صافنه، و هى الخيل الواقفة على

(١) الشورى: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٦

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

ثلاث قوائم الواضعة السنبك الرابع على الأرض. يقال صفت الخيل إذا وقفت كذلك، و هي من علامة الجودة الجياد جمع جيد و هي الفرس الأصيلة النجيبة، و نجابة الفرس بعرفانها صاحبها، و سرعه سيرها، و الاهتمام بخلاص راكبها من المشكله التي يقع فيها.

[٣٣] فاشتغل سليمان بتلك الأفراس، حتى فاتت صلاة مندوبه، كان يصلها في ذلك الوقت، حتى غابت الشمس، و مضى وقت صلاته المندوبه، و هناك تأثر سليمان من ذلك، و أمر أصحابه برّد الأفراس إليه، ليوقفها في سبيل الله، كفارة لفوت صلاته المندوبه، أو يذبحها ليطعمها الناس كفارة، و هذا المعنى، قد استفدناه من بعض الأخبار، مع التحفظ على ظاهر الآية، و ما ثبت من عصمه الأنبياء عليهم السلام، و إن كان الواقع في القصة لا يعلمه إلا الله، و الراسخون في العلم، و لما نظر سليمان إلى غروب الشمس، و ذهاب وقت نافلته فقال إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ أَي أَحْبَبْتُ الْخَيْرِ حُبًّا، و الخير هو الفرس، و كل مال هو خير، كما قال سبحانه (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) «١» عَنْ ذِكْرِ رَبِّي أَي آثرت الاشتغال بعرض الأفراس عن ذكر الله حَتَّى تَوَارَتْ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ كأنها عروس تستر نفسها بالحجاب حين تغيب و تستتر تحت الأفق، فلم أصل نافلتى.

[٣٤] ثم قال سليمان لأصحابه رُدُّوْهَا أَي ردوا الصافنات عَلَيَّ

(١) البقرة: ١٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٧

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)

فردوها إليه فَطَفِقَ أَي شرع سليمان يمسح مَسِحًا بِالسُّوقِ أَي سوق الأفراس جمع ساق و الْأَعْنَاقِ أَي و يمسح أعناقها، و «اللام» عوض عن الضمير و المعنى يمسح سوقها و أعناقها تسبيلا في سبيل الله، و وقفا لها على جهات الخير، أو ضربا بالسيف ليطعمها الفقراء، كل ذلك، لتكون كفارة عن فوت نافلته، بسبب اشتغاله بها.

[٣٥] وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ أَي امتحناه، و ذلك بأنه ولد له مولود، فخاف عليه من إيذاء الشياطين، و جعله في السحاب، ليكبر هناك - و قد كان السحاب مسخرا له - و لكن ذلك، كان خلاف التوكل من مثله عليه السلام، و لذا مات الولد، و ألقى على كرسى حكمه، فلما رآه عرف أنه ترك الأولى في إيداع الولد السحاب و أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ أَي سرير حكمه جسداً لولده الميت ثُمَّ أَنَابَ أَي رجع عن تركه للأولى.

[٣٦] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي اعتمادي على السحاب في إبقاء ولدي، و عدم أذى الشياطين له وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي لعله أراد نوعا من الملك، يكون ذو إعجاز لا يتمكن أحد من الإتيان مثله، كما إن عصا موسى، و إحياء عيسى، و قرآن الرسول، كانت بحيث لا ينبغى لأحد من بعدهم، فلم يرد سليمان البخل، و تخصيص رحمة الله بنفسه بل أراد الإعجاز، و الذي يؤيد ذلك، إن الملك الذي وهب له كان معجزة، إذ هو تسخير الريح، و عبارة «لا ينبغى لأحد» يراد به الناس، لا حتى الأنبياء عليهم السلام، فإن مثل هذا التعبير شائع،

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٨

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ (٣٧) وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)
«ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء على ذى لهجة، أصدق من أبى ذر»

«١» ولم يرد صلى الله عليه وآله وسلم ترجيحه على الأئمة، كما أن قوله سبحانه فى القرآن الحكيم (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) «٢» أريد به ممن آمن وعصى، لا من كل أحد، وهكذا، ومثله تعبير عرفى شائع إِنَّكَ يَا رَبُّ أَنْتَ الْوَهَّابُ الكثير الهبة، فتفضل على بذلك.

[٣٧] فَسَخَّرْنَا أَي ذَلَّلْنَا بِأَمْرِهِ لَهُ أَي لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الَّتِي كَانَتْ تَحْمَلُ بَسَاطَهُ وَ تَسِيرُ بِهِ إِلَى حَيْثُ شَاءَ تَجْرِي الرِّيحُ بِأَمْرِهِ أَي أَمْرَ سُلَيْمَانَ رُخَاءً أَي لِينَةً بَدُونَ عَنَفٍ حَيْثُ أَصَابَ أَي إِلَى كُلِّ مَكَانٍ أَرَادَ الذَّهَابَ إِلَيْهِ، وَ الْإِصَابَةُ هِيَ الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ، وَ كَأَنَّ الْمَعْنَى حَيْثُ أَصَابَ نَظَرَهُ وَ إِرَادَتَهُ.

[٣٨] وَ سَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ أَي الْأَجْنَةَ، وَ قَدْ سَبَقَ أَنَّ الشَّيْطَانَ قِسْمٌ مِنَ الْجِنِّ، وَ إِنْ كَانَ لَهُ نَوْعَانِ، نَوْعٌ يُسَمَّى جِنًّا، وَ نَوْعٌ يُسَمَّى شَيْطَانًا كُلُّ بِنَاءٍ يُبْنَى لَهُ الْقَصْرُ وَ الدَّارُ، وَ مَا أَشْبَهَهُ، فِي الْمَدَنِ وَ الصَّحَارَى وَ غَوَاصٍ فِي الْبَحْرِ يَذْهَبُ فِي الْمَاءِ لِيَأْتِيَ لَهُ بِالْجَوَاهِرِ وَ اللِّثَالِي، وَ «كُلٌّ» بَدَلٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ، بَدَلٌ بَعْضٌ مِنَ الْكُلِّ.

[٣٩] وَ سَخَّرْنَا لَهُ شَيْاطِينَ آخِرِينَ غَيْرَ الْبِنَاءِ وَ الْغَوَاصِ فِي حَالِ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٤٢٦.

(٢) السجدة: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٢٩

[سورة ص (٣٨): الآيات ٣٩ إلى ٤١]

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (٤٠) وَ اذْكُرْ عِبْدَنَا أُيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ (٤١)

كُونَهُمْ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ جمع صَفْدٍ، وَ هُوَ الْغُلُّ، فَقَدْ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ بَعْضِ الشَّيَاطِينِ مَعَ بَعْضٍ فِي السَّلْسَلَةِ تَعْذِيبًا لَهُمْ عَلَى تَمَرْدِهِمْ، أَوْ لِثَلَا يَفِرُّ الْمَتَمَرِدُ مِنْهُمْ أَوْ كَانَ يَغْلُ الْمَتَمَرِدَ يَدِيهِ وَ رِجْلِيهِ، وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنِ إِعْطَاءِ زَمَامِهِمْ بِيَدِهِ، حَتَّى أَنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنَ اسْتِخْدَامِهِمْ وَ عِقَابِ الْمَجْرِمِينَ مِنْهُمْ.

[٤٠] وَ بَعْدَ هَذَا الْمَلِكِ الْوَسِيعِ الْخَارِقِ، قَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِسُلَيْمَانَ - زِيَادَةٌ لَا كِرَامَةٌ - هَذَا الْمَلِكُ عَطَاؤُنَا لَكَ فَامْنُنْ عَلَى مَنْ شِئْتَ بِإِعْطَائِهِ مَا تَشَاءُ أَوْ أَمْسِكْ عَمَّنْ شِئْتَ، بَأَنَّ لَا تَعْطِيهِ شَيْئًا فِي حَالِ كَوْنِكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَي أَنَّكَ لَا تَحَاسِبُ عَمَّا تَفْعَلُ، أَوْ أَعْطِ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَ تَعْدَادٍ مِنْ شِئْتَ، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِ«أَمْنُنْ».

[٤١] وَ إِنَّ لَهُ أَي لِسُلَيْمَانَ عِنْدَنَا لَدِينَا لَزُلْفَى قَرِيبًا مِمَّا فَإِنَّهُ ذُو جَاهٍ وَ مَنزَلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَ حُسْنَ مَآبٍ أَي مَرْجَعًا حَسَنًا فِي الْآخِرَةِ.

[٤٢] وَ اذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عِبْدَنَا أُيُوبَ كَيْفَ صَبَرَ عَلَى الْبَلَاءِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَهَبَ مَالُهُ وَ أَهْلُهُ وَ أَوْلَادُهُ، وَ تَمَرَضَ فِي جَسَدِهِ، بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْمَرَضِ، وَ لَمْ يَزَلْ يَذْكُرُ اللَّهَ وَ يَشْكُرُهُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْأَمْرَ مِنْتَهَاءَهُ، وَ أَرَادَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَهُ الشِّفَاءَ، بَعْدَ أَنْ أَحْسَنَ الصَّبْرَ وَ نَجَّحَ فِي الْإِمْتِحَانِ إِذْ نَادَى رَبَّهُ تَعَالَى قَائِلًا يَا رَبُّ أَنِّي مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٠

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤٢ إلى ٤٣]

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ (٤٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣)

فإن الشيطان هو الذى صار سببا لبلاء أيوب، و قد مكَّنه الله سبحانه منه، بأن لم يصدّه عن إيدائه، كما لم يصدّه عن الوسوسة لآدم عليه

السَّلام، امتحانا لأيوب، و ليرتفع بذلك مقامه، و «النصب» هو البلاء، و «العذاب» هو الألم، و لعله أراد باللفظين الألم الجسمي و الروحي، أو ألمه في أهله و ماله و أولاده، و ألمه في نفسه.

[٤٣] و بعد أن دعا أيوب ربه، لينجيه من البلاء خوطب من قبله سبحانه اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ أى ادفع برجلك الأرض، فإن الركض، هو الدفع بالرجل على جهة الإسراع، و منه يسمى المشى السريع ركضاً، فركض عليه السَّلام برجله الأرض، فظهرت عين ماء، فقيل له هذا الذى تراه مُتَغَسِّلٌ أى موضع يغتسل فيه، و قد أريد بذلك، تنبيهه على الاغتسال فى ذلك الماء بارِدُ الإتيان بهذا الوصف للترويح عن النفس المريضة الملتهبة التى تطلب الماء البارد و شَرَابٌ يشرب منه، و قد اغتسل أيوب فى ذلك الماء، و شرب منه، فصح جسمه كأن لم يكن به مرض أبداً.

[٤٤] وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْبَلَاءِ، بأن أحياهم الله سبحانه و مَثَلُهُمْ مَعَهُمْ إما بأن ولد له أولاد آخرين على عدد أولئك الأولاد، حتى صار له من الأولاد ضعف أولاده قبل البلاء، و إما بأن المراد إعطاء أهله الذين ماتوا قبل البلاء، و الذين ماتوا فى البلاء، و ذلك لأنه استحق الذين ماتوا فى البلاء، لا الذين ماتوا قبله بأجالهم الطبيعية، و إنما فعلنا ذلك رَحْمَةً مِنَّا له و تفضلاً عليه، فليس أحد يستحق على الله شيئاً و ذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ أى، و ليتذكر أصحاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣١

[سورة ص (٣٨): آية ٤٤]

وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا بِهِ وَ لَا تَحْنَتْ إِيَّانَا وَ جَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)

العقول، بأن الله سبحانه، إذا أخذ من أحد شيئاً، فلا يفعل ذلك اعتباطاً و عبثاً، و إنما ليعطيه ذلك الشئ مع الزيادة- إذا كان أخذه، لم يصدر عن عقاب و تأديب- و هذا هو شأنه سبحانه فى جميع ما يأخذ، كما قال فى باب الإنفاق (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا) «١».

[٤٥] وَ خُذْ يَا أَيُّوبَ بِيَدِكَ ضِغْتًا وَ هُوَ مَلَأَ الْكَفَّ مِنَ الشَّمَارِيخِ لِلتَّمْرِ فَاصْرَبْ بِهِ أى بذلك الضغث امرأتك و لَا تَحْنَتْ حلفك، فقد رأى أيوب من زوجته قولاً، أو عملاً ساءه ذلك، فحلف أن يضربها عدداً من السوط، أو نحو ذلك- مما سكتت عنه الآية، و لما أن عوفى خفف الله سبحانه ذلك، بأن يضربها بالشماريخ ضربة واحدة، لا تؤذى كثيراً، بأن يجعل لكل مرة شمراخاً، و قد كان حلف أيوب على ضربها مشروعاً، إذ لعلها كانت عاصية فى قولها أو عملها الذى ساء أيوب و للزوج حق تأديب الزوجة، و لذا وجب الوفاء بها، كما أن عدم الحنث بذلك تخفيف من الله سبحانه، مع أنه عليه السَّلام، أتى بما يشبه المحلوف، فلا يقال: كيف قال تعالى «لا تحنث» و الحال أن المحلوف غير هذا؟ إِيَّانَا وَ جَدْنَاهُ أى وجدنا أيوب صابراً على البلاء الذى ابتلى به نِعْمَ الْعَبْدُ أيوب إِنَّهُ أَوَّابٌ أى كثير الرجوع إلى الله سبحانه من آب بمعنى رجع، و قد ذكرنا معنى رجوع الأنبياء عليهم السَّلام، و أنه من اشتغالهم بالأمر الدنيوية.

(١) البقرة: ٢٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٢

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤٥ الى ٤٨]

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ (٤٥) إِيَّانَا أَخْلَصْنَا لَهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)

[٤٦] وَ اذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ وَ يَعْقُوبَ ابْنَ إِسْحَاقَ أُولَى الْأَيْدِي أى أصحاب القوة و التمكن، فقد كان هؤلاء الأنبياء عليهم السَّلام أصحاب ثروة و نعمة و جاه و الأبصار يبصرون أمور دينهم، فقد جمعوا بين الدنيا و الآخرة، و إنما أمر الرسول بذكرهم ليقنتدى بهم الناس فى دينهم و دنياهم، فلا يتركوا أحدهما للآخر، كما قال تعالى (وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (١).

[٤٧] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ أَي جَعَلْنَاهُمْ لَنَا خَالصِينَ، فَلَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا إِلَّا لِأَجْلِنا بِخَالِصَةٍ أَي بِخَلْصَةٍ، وَصِفَةُ خَالِصَةٍ لَا شُوبَ فِيهَا: هِيَ ذِكْرَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَقَدْ كَانُوا دَائِمِي التَّذَكُّرِ لَهَا، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ، أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ دَائِمًا التَّذَكُّرَ لِلْآخِرَةِ، لَا تَزُلُّ لَهُ قَدَمٌ، وَقَوْلُهُ «ذِكْرَى» بَدَلٌ مِنْ «بِخَالِصَةٍ».

[٤٨] وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ جَمْعُ مُصْطَفَى أَي اصْطَفَيْنَاهُمْ، وَ اخْتَرْنَاهُمْ لِلنَّبُوَّةِ، وَ مَعْنَى عِنْدَنَا، فِي حِسَابِنَا، وَ مَا كَتَبْنَاهُ، لَهُمْ لِيَجْزُونَ عَلَيْهِ الْأَخْيَارَ جَمْعُ خَيْرٍ، كَأَمْوَاتٍ جَمْعُ مَيْتٍ، وَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ الْكَثِيرَةَ الْحَسَنَةَ.

[٤٩] وَ أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ كَأَنَّهُ لَذَكَرَهُ

(١) البقرة: ٢٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٣

[سورة ص (٣٨): الآيات ٤٩ إلى ٥١]

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (٥١) هُنَا، لَمْ يَذْكَرْ هُنَاكَ مَعَ أَبِيهِ وَ أُخِيهِ وَ الْيَسَعَ قَالَ بَعْضُهُمْ كَانَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ ذَا الْكِفْلِ هُوَ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ، وَصَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَ كُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَخْيَارِ الْخَيْرِينَ.

[٥٠] هَذَا الَّذِي سَمِينَاهُمْ هُنَا فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لَهُمْ، وَ شَرَفٌ فِي الدُّنْيَا، بَاقٍ بَقَاءَ الْأَبَدِ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَوْلَيْتُكَ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ سَادَاتِهِمْ لِحُسْنِ مَآبٍ أَي مَآبٍ حَسَنٍ، وَ الْمَآبُ هُوَ الْمَرْجِعُ، مِنْ آبٍ بِمَعْنَى رَجَعٍ.

[٥١] ثُمَّ بَيْنَ سَبْحَانِهِ الْمُرَادَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يُقَالُ عَدَنٌ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ فِيهِ، وَ الْجَنَّةُ هِيَ الْبَسْتَانُ، سُمِّيَ بِهَا لِأَنَّ الْأَشْجَارَ تَجَنُّ وَ تَسْتَرُ أَرْضَهَا، أَي جَنَّاتٍ إِقَامَةٌ لَا زَوَالَ لِأَحَدٍ عَنْهَا، فِي حَالِ كَوْنِهَا مُفْتَتِحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ وَ الْإِتْيَانُ مِنْ بَابِ التَّفْعِيلِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَثْرَةِ الْأَبْوَابِ الْمَفْتُوحَةِ لَهُمْ، لِأَنَّ مِنْ مَعَانِي بَابِ التَّفْعِيلِ التَّكْثِيرُ، وَ فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عَظَمِ رَتْبَتِهِمْ، حَيْثُ إِنْ كَلَّ الْأَبْوَابَ تَفْتَحُ فِي وَجْهِهِمْ، حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا مِنْ حَيْثُ شَاءُوا.

[٥٢] فِي حَالِ كَوْنِهِمْ مُتَّكِنِينَ فِيهَا أَي مُسْتَنْدِينَ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِلَى الْمَسَانِدِ، وَ ذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ رَاحَتِهِمْ الْجَسَدِيَّةِ وَ الرُّوحِيَّةِ يَدْعُونَ فِيهَا أَي يَطْلُبُونَ فِي تِلْكَ الْجَنَّاتِ بِفَاكِهَةٍ هِيَ ثَمَرَةُ الْأَشْجَارِ كَثِيرَةٍ حَسَبَ مَا أَرَادُوا وَ شَرَابٍ بِقَدْرِ مَا اشْتَهَوْا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٤

[سورة ص (٣٨): الآيات ٥٢ إلى ٥٦]

وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) مِنْ خَمْرٍ وَ مِنْ عَسَلٍ وَ مِنْ لَبَنٍ وَ غَيْرِهَا.

[٥٣] وَ عِنْدَهُمْ زَوْجَاتٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ قَدْ قَصُرَتْ عَيُونُهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَسْنَ كَبَعْضِ نِسَاءِ الدُّنْيَا اللَّاتِي يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ، مِنْ حَيْثُ إِنْهَن يَرُونَ غَيْرَهُمْ أَعْلَى جَاهَا، أَوْ مَالًا أَوْ جَمَالَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ أَتْرَابٌ جَمْعُ تَرَبٍّ، وَ هِيَ الَّتِي بَسَنَ الزَّوْجَ، فَلَيْسَ أَعْمَارُهُنَّ أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ، حَتَّى يَكُونَ مَخْتَلَفِي الْجِسْمِ أَوْ الْعَقْلِ.

[٥٤] هَذَا الَّذِي تَقْدَمُ فِي وَصْفِ الْجَنَانِ وَ نَعِيمِهَا مَا تُوعَدُونَ أَيُّهَا النَّاسُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِذَا أَحْسَنْتُمْ اسْتَحَقْتُمْ كُلَّ ذَلِكَ.

[٥٥] ثُمَّ إِنَّهُ لَا- انْقِطَاعَ لِنَعِيمِ الْجَنَّةِ، بَلْ يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ إِنَّ هَذَا الَّذِي تَرُونَ مِنَ النِّعَمِ لَرِزْقُنَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا لَهُ أَيُّ لَيْسَ لِهَذَا الرِّزْقِ مِنْ نَفَادٍ أَي فَنَاءٍ وَ انْقِطَاعٍ بَلْ بَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ.

[٥٦] هذا ما يقدم للمتقين، فلننظر الكفار وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ الَّذِينَ طغوا على الله سبحانه و تجاوزوا الحد بالكفر و العصيان لَشَرِّ مَآبٍ أَى مَآبٍ شرير في مقابل «حسن المآب» للمتقين.

[٥٧] جَهَنَّمَ تفسير لشر مآب يَصْلَوْنَهَا من صلى الشيء إذا لازمه، أى يدخلونها ملازمين لها فَبَيَّسَ الْمِهَادُ أَى بئست جهنم مسكننا لهم، و المهاد هو المحل الذى يمهده الإنسان، و يهيئه لنفسه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٥

[سورة ص (٣٨): الآيات ٥٧ الى ٦٠]

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ (٥٧) وَ آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا- مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَيَّسَ الْقَرَارُ (٦٠)

[٥٨] أما شرابهم هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ أى هذا حميم و غساق، فليذوقوا كل واحد منهما، و الحميم هو الماء الحار، و غساق، ما يغسق أى يسيل من صديد أهل النار و تحميمهم.

[٥٩] وَ آخِرُ أَى و لهم ضرب آخر من الطعام و الشراب مِنْ شَكْلِهِ من شكل الحميم و الغساق أَزْوَاجٌ ألوان و أنواع متشابهة فى الشدة، و صعوبة المذاق.

[٦٠] تلك دارهم، و ذاك طعامهم و شرابهم، و لهم صنوف أخرى من العذاب، من جملة تلك ضيق المكان، حتى أنهم فى جهنم من الضيق، كالوتد دق فى الحائط- كما ورد- و ذلك إن القادة يدخلون النار أولاً فيجدون ضيقاً و إرهاقاً، ثم يؤتى بالأتباع، و إذا يراهم القادة، يقولون: لا- مكان هنا لهؤلاء، فيقول مالك النار هذا الجمع الذى تشاهدونهم فَوْجٌ أى جماعة مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ من الاقتحام، و الدخول فى الشيء بشدة، و صعوبة، أى داخلون فى ثناياكم و خلالكم لا مَرْحَبًا بِهِمْ أى لا رحبت عليهم الأرض، و لا اتسعت لهم أماكنهم، و هذا حكاية لقول القادة، الذين هم فى النار، يقولون لأتباعهم ذلك، و هو عكس التحية إِنْهُمْ صَالُوا النَّارِ أى يدخلونها ملازمين لها.

[٦١] و إذ يسمع الأتباع هذا الترحيب المعكوس من قادتهم قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٦

[سورة ص (٣٨): الآيات ٦١ الى ٦٣]

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعْبُدُهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاكُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣)

أىها القادة لا مَرْحَبًا بِكُمْ أى لا اتسع بكم المكان، و لا حبيتم إلا بالسوء أَنْتُمْ قَدْ مَتَّمْتُمُوهُ أى قدمتم هذا العذاب لنا حيث حملتمونا على الكفر و العصيان فَبَيَّسَ الْقَرَارُ و المقر الذى نستقر عليه.

[٦٢] و كان القادة يجيبون بأننا لم نقدم لكم هذا العذاب، و إنما أنتم كنتم منحرفين عن الجادة، كما سبق شبه هذا الحوار بين السادة و الأتباع فى بعض السور السابقة، و لذا يلتجئ الأتباع إلى الله لينتقم لهم من القادة الذين غرّوهم ثم لا يقبلون حتى أن يسمعوا ذلك الكلام من أتباعهم قَالُوا أَى قالت الأتباع يا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا العذاب و هياه، لأن ندخله فَرِدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا لضعفنا بنفسه و عذاباً لإضلاله لنا فى النَّارِ و إلى هنا ينتهى الحوار بين القادة و الأتباع.

[٦٣] ثم إن الكفار فى النار يفتقدون المؤمنين، الذين سخروا منهم فى الدنيا، و كذبوا كلامهم حول الوعيد، فيتساءل بعضهم عن بعض حولهم وَ قَالُوا مَا لَنَا لَا- نَرَى رِجَالًا مُؤْمِنِينَ كُنَّا نَعْبُدُهُمْ فى دار الدنيا مِنَ الْأَشْرَارِ؟ جمع شر، فقد كان الكفار فى الدنيا يقولون، إن المؤمنين أشرار، حيث يرونهم يأمرهم بالمعروف، و ينهون عن المنكر، و يسبون الأصنام.

[٦٤] أَتَّخَذْنَاكُمْ سِخْرِيًّا أَى هل إن عدم رؤيتنا لهم فى النار، لأجل أن سخرينا بهم- فى الدنيا- كان خطأ، فذهبوا إلى النعيم، و لذا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٧

[سورة ص (٣٨): الآيات ٦٤ إلى ٦٧]

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)

لا- تراهم، أم أن سخریتنا كانت صحيحة، فهم معنا في الجحيم، و لكن زاعغ أي مالت و انحرفت عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ أي أبصارنا، فعدم رؤيتنا لهم، لأن أبصارنا عدلت عنهم، فلا تراهم، و إن كانوا معنا في الجحيم؟

[٦٥] إِنَّ ذَٰلِكَ التَّخَاصُّمِ بَيْنَ الْقَادَةِ وَ الْأَتْبَاعِ الْمُنْجَزِ إِلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ حَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ لَحَقُّ كَائِنٍ لَا مُحَالَةَ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ بَدَلٍ عَنِ ذَلِكَ، أَي أَنَّ ذَلِكَ التَّخَاصُّمِ بَيْنَ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِيهِ.

[٦٦] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ مَخُوفٌ لَكُمْ، إِنْ بَقِيتُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، لِتَلَاقُونَ هَذَا الْيَوْمَ الْعَصِيبَ الَّذِي سَبَقَ الْحَدِيثَ عَنْهُ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ يَحِقُّ لَهُ الْعِبَادَةُ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ الْقَهَّارُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ يَقْهَرُهُمْ عَلَى مَا يَرِيدُ بِهِمْ مِنَ الْأُمُورِ التَّكْوِينِيَّةِ، فَلَا يَعْزُ الْإِنْسَانَ، مَا يَرَى مِنْ إِسْلَاسِ الْقِيَادِ لَهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، لِلْإِخْتِبَارِ وَ الْإِمْتِحَانِ.

[٦٧] رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلِكِ وَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ وَ غَيْرِهَا الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ، فَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ شَيْءٌ الْعَفَّارُ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، فَمَنْ نَدِمَ وَ تَابَ، غُفِرَ ذَنْبُهُ، وَ قَبِلَ تَوْبَتَهُ.

[٦٨] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ هُوَ أَيُّ مَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ عَنِ الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرِ الْأُمُورِ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَي خَبَرٌ ذُو عَظْمَةٍ، تَكُونُ سَعَادَةً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٨

[سورة ص (٣٨): الآيات ٦٨ إلى ٧١]

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١)

الإنسان، و شقوته تابعة لتصديقه، أو تكذيبه.

[٦٩] أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ عَنْهُ أَيُّ عَنِ هَذَا النَّبَأِ مُعْرِضُونَ لَا تَعِيرُونَهُ اِهْتِمَامًا، كَأَنَّهُ لَيْسَ بِمِهِم.

[٧٠] إِنَّهُ لَيْسَ كِهَانَةً أَوْ سِحْرًا أَوْ شِعْرًا، كَمَا كَانُوا يَذْكُرُونَ، وَ إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ، وَ إِلَّا-فَمَنْ أَيْنَ أُدْرَى أَنَا، مَاذَا جَرَتْ بَيْنَ اللَّهِ وَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، مِنْ مُحَادَثَاتٍ حَوْلَ أَصْلِ الْخَلْقَةِ، فَإِنَّهُ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ إِذْ يَخْتَصِمُونَ يُقَالُ لِكُلِّ تَخَالَفٍ فِي الرَّأْيِ اِخْتِصَامًا، وَ قَدْ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقَةِ أَمْرُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ طَرَفًا، وَ فِكْرَةُ الْمَلَائِكَةِ طَرَفًا آخَرَ، أَوْ إِنْ الْمُرَادُ اِخْتِصَامَ الشَّيْطَانِ مَعَ اللَّهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

[٧١] إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَيُّ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا لَأَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَلَوْ لَمْ أَكُنْ نَبِيًّا مُنذِرًا مِنْ أَيْنَ كُنْتُ أَعْلَمُ بِمَاذَا جَرَى فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَ إِنَّمَا أَعْلَمُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيَّ حَيْثُ أُنِي نَذِيرٌ ظَاهِرٌ، وَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، فَلَيْسَ النَّبَأُ أَمْرًا هِينًا، كَمَا تَزْعُمُونَ أَنْتُمْ مِنْ أَنَّهُ نِزَاعٌ بَيْنَ «مُحَمَّدٍ» وَ «الْكَفَّارِ» فَحَسَبَ، وَ إِنَّمَا أَمْرٌ مِهْمٌ جَدًّا هُوَ أَمْرُ الْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ إِلَى الْأَرْضِ، لِتَقْرِيرِ الْمَنْهَجِ الْعَامِّ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

[٧٢] ثُمَّ بَيْنَ السِّيَاقِ قِصَّةَ اِخْتِصَامِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، الَّذِي كَانَ إِخْبَارَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، لَهُ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَ قَدْ كَانَ أَمْثَالَ هَذِهِ الْعُلُومِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ خَاصًّا بِرُؤَسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، حَتَّى أَنْ أَحَدًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ تِلْكَ شَيْئًا- حَتَّى بِالْمَقْدَارِ الْخُرَافِيِّ الْمَحْرَفِ الَّذِي كَانَ مَدْرَجًا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ- فَإِذَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي صُورَةٍ صَحِيحَةٍ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٣٩

[سورة ص (٣٨): الآيات ٧٢ إلى ٧٤]

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)

رجل أمي، كان دليلاً على اتصاله بالوحي، كما لو أخبر في هذا اليوم، رجل أمي عن أسرار الذرة، و غوامض علم الفلك بصورة صحيحة، لم يصل إليها بعد أعظم علماء الفيزياء والفلك إذ قال رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقُ أَيُّ أَرِيدُ أَنْ أُخْلُقَ، فاسم الفاعل بمعنى المستقبل بَشْرًا مِنْ طِينٍ يعني آدم عليه السلام.

[٧٣] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ أَي سويت خلق هذا البشر و تمت أعضاؤه وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي أَي أَحْيَيْتُهُ، و جعلت فيه الروح المضاف إلى تشريفا، و معنى النفخ، أن يخلق سبحانه روحا، ثم يدخله في آدم على طريقة النفخ فَقَعُوا الْفَاءَ عَاطِفَةً، و «قَعُوا» أمر من وقع يقع لَهُ سَاجِدِينَ أَي اسقطوا على الأرض، للسجود لآدم.

[٧٤] ثم إن الله سبحانه خلق آدم، و نفخ فيه الروح فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ لآدم عليه السلام حسب أمر الله سبحانه، و الإتيان بتأكيدين، لرفع استبعاد أن يكون الملايين من الملائكة المتفرقين في مختلف الفضاء الواسع المدهش، قد سجدوا لآدم و لزيادة التقرير على إبليس حيث أبى السجود، مع سجد الجميع.

[٧٥] إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ أَي جعل نفسه أكبر و أعظم من أن يسجد لآدم وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ «كان» لمجرد الربط، أو بمعنى صار، أو باعتبار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٠

[سورة ص (٣٨): الآيات ٧٥ إلى ٧٨]

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)

إنه في علم الله، كان كافرا في ضميره، فظهر ما كان كامنا.

[٧٦] قَالَ اللَّهُ سبحانه لإبليس يا إبليس ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي هذا سؤال للتوبيخ و التقرير، أي ما هو سبب امتناعك من السجود لمثل الإنسان الشريف، الذي كرمه الله سبحانه، بأن خلقه بلا واسطة؟ و قوله «بيدي» إضافة تشريفية، كناية عن وساطة سببت في خلقه، ثم قال له سبحانه أَسْتَكْبَرْتَ أَي هل استكبرت عن السجود، بلا- حق أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ بأن كنت في الحقيقة و الواقع، أعلى رتبة من آدم، و لذا لم تسجد؟.

[٧٧] قَالَ إبليس في جواب الله سبحانه، بل كنت أعلى رتبة من آدم، إذ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ أَي أشرف من آدم، و ذلك لأنك يا رب خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ فَإِنَّ أَصْلِي النَّارُ وَ خَلَقْتَهُ أَي خلقت آدم مِنْ طِينٍ و النار أشرف من التراب.

[٧٨] قَالَ اللَّهُ سبحانه للشيطان، إذ رأى كبره و غروره و تمرده فَأَخْرِجْ مِنْهَا أَي من الجنة، فقد كان الجميع في الجنة فَإِنَّكَ رَجِيمٌ مطرود مبعث، يقال رجمه أي طرده.

[٧٩] وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي طردى و غضبى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤١

[سورة ص (٣٨): الآيات ٧٩ إلى ٨٤]

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ (٨٤)

أي يوم القيامة، حيث تحاسب هناك و تلقى في النار.

[٨٠] قَالَ إبليس عند ذلك، يا رَبِّ أَى رِبِّى، و حذف ياء المتكلم تخفيفاً فَأَنْظِرْنِى أَى امهلنى، بأن أبقى حيا إلى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ أَى يوم القيامة الذى يبعث و يحشر و يحيى فيه الناس؟

[٨١] قَالَ الله تعالى فى جوابه فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ أَى من جملة الذين يبقون إلى النفخة الأولى.

[٨٢] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ الوقت المعلوم، هو النفخة الأولى التى يموت فيه كل حى، فلم يمهل الله سبحانه إلى يوم القيامة، بل إلى النفخة الأولى، و ما ورد فى بعض الأحاديث، من أنه عند ظهور الإمام عليه السلام، فهو ببعض الاعتبارات، كما سبق.

[٨٣] قَالَ الشيطان، إذ علم بالمهلة فِعِزَّتْكَ حلفى يا رب، أَى أقسم بقدرتك لأَغْوِيَنَّهُمْ أَى لأضلن بنى آدم أَجْمَعِينَ

[٨٤] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ الذين أخلصتهم لنفسك، فلا أقدر على أولئك، و معنى إغوائه لهم دعوته إلى الغواية.

[٨٥] قَالَ الله سبحانه فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ جملة معترضه، أَى قولى حق، دائما ثابت لا كذب فيه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٢

[سورة ص (٣٨): الآيات ٨٥ إلى ٨٨]

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

[٨٦] و «الحق» مبتدأ خبره قوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ أَى حقا إملأء النار منك و المراد به هو و ذريته و مِمَّنْ تَبِعَكَ أَى اتبع كلامك مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «منهم» بيان «من تبعك» و الضمير يعود إلى بنى آدم، المفهوم من السياق، و «أجمعين» تأكيد لمن تبع، أَى كل متتابع، بحيث لا أدع متابعا لك خارج جهنم.

[٨٧] و أخيرا قُلْ يا رسول الله للناس ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَى تبليغ الوحي و القرآن مِنْ أَجْرٍ أَى مال تعطونه لى فى مقابل أتعابى و ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ للقرآن من تلقاء نفسى، فليس القرآن كذبا، تكلفته أنا، و لا وسيلة، لأخذى مالا منكم.

[٨٨] إِنَّ هُوَ أَى ما هو إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ يذكرهم بما كمن فى فطرتهم من التوحيد و المعاد و الآداب، و ما أشبهه، و المراد بالعالمين، الأجيال، لأن كل دور من أدوار الدنيا، عالم مستقل، و إن اتصلت الحلقات بعضها ببعض.

[٨٩] وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ أَى خبر القرآن و صدقه بَعْدَ حِينٍ فى الدنيا، حيث ترون غلبته على الكفر و الكفار، و فى الآخرة، حيث ترون صدقه فى ما أخبر به من الجنان و أهلها، و النيران و أصحابها، و قد علم الكفار، و سائر الناس، صدق أنبائه بالنسبة إلى مستقبل الدنيا، و سنرى صدق أنبائه بالنسبة إلى الآخرة، جعلنا الله من أهل الجنة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٣

٣٩ سورة الزمر مكية / آياتها (٧٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه اللفظة «زمر» و هى كسائر السور المكية باستثناء آيات، قالوا إنها مدنية، تعالج قضايا العقيدة فى أصولها، و لما ختمت سورة «ص» بذكر القرآن، فتحت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الله، الذى لا يخيب من استعان به، و هو خير مستعان يستعين به الإنسان فى مختلف حوائجه، و التوصيف بالرحمن و الرحيم، التماس للرحمة، التى وسعت كل شىء، كى ينال الإنسان المستعين من ذلك المعين الذى لا ينضب فضلا و رحمة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٤

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالدِّينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)

[٢] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ أى نزول هذا الكتاب، إنما هو مِنَ اللَّهِ فهذا خبر لتنزيل الكتاب الْعَزِيزِ الْغَالِبِ فى سلطانه الْحَكِيمِ الذى يحكم بما يريد وفق المصلحة، و يفعل ما يشاء على طبق الصلاح، فبحكمته أحكم الكتاب، و بعزته أنزله للهداية و الإرشاد، و ليس سحرا أو تقولا أو كهانة كما يقول المشركون.

[٣] إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكِتَابَ أى القرآن بِالْحَقِّ فليس إنزاله لأجل الباطل أو اللعب، أو ما أشبهه، كما لو كتب رئيس إلى نائبه، أن اقتل الناس، فإنه إرسال بالباطل، و الإتيان بمادة «نزل» فى الآيتين، إما لعلو مقام المنزل، فنزل العلو رتبة منزله العلو حسا، و إما حقيقة باعتبار، إن القرآن جاء من السماء إلى الأرض فَاعْبُدِ اللَّهَ وحده لا شريك له، كما أمرنا فى الكتاب مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أى فى حال كونك تخلص له الدين- و هو الطريقة، فى العقيدة و العمل- و لا تجعل له ندا أو شريكا، كما يفعل المشركون.

[٤] أَلَا فَلْيَتَّبِعِ السَّمْعَ لِلَّهِ الدِّينَ الْخَالِصُ يعنى إن الطريقة الناصعة الخالصة من الانحراف و الالتواء، و كل سوء هى لله سبحانه، أما سائر الطرق، فإنها ليست خالصة، بل فى كل منها التواء و كذب و غش، و المراد بالدين الخالص هو الإسلام وَ الدِّينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أى من دون الله أَوْلِيَاءَ أى أصناما يوالونهم، يقولون:- فى سبب الاتخاذ-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٥

ما نَعْبُدُهُمْ أى إنا لا نعبد الأصنام- و الإتيان بضمير العاقل، باعتبار إن الكفار كانوا يعتبرون الأصنام عقلاء- إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى اسم مصدر زلف بمعنى قرب، فهو مفعول مطلق، ب «يقربونا» أى يقربونا تقريبا، فقد كانوا يعتقدون إن الأصنام توجب القرب من الله سبحانه، لكنهم كاذبون فى هذا الزعم، و إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فى ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمور الدين، فقد كان المشركون على اختلاف كبير بين الطوائف و العقائد، أو أن ضمير «بينهم» يعود إلى الناس عامة، مؤمنهم و كافرهم، و المراد بالحكم القضاء، و بيان أيهم مبطل، و أيهم محق، أو بيان أيهم مغرق فى الباطل، و أيهم ليس بتلك المثابة، و إن كان الكل على باطل- و هذا بناء على رجوع ضمير بينهم إلى الكفار فقط- إِنَّ اللَّهَ بعد بيان الطريق، و انحراف البعض لا يَهْدِي بِالْأَطْفَانِ الْخَفِيَّةِ، بالنسبة إلى من انحرف، و هو الذى عبر عنه بقوله سبحانه مَنْ هُوَ كَاذِبٌ عَلَى اللَّهِ و على رسوله كَفَّارٌ أى كثير الكفر، فكلما رأى حقا كفر به، بخلاف من آمن، فإن الله يهديه، بأن يلطف به الأطفاف الخفية الزائدة على أصل الهداية، ليزداد هدى، كما قال تعالى (زَادَهُمْ هُدًى) «١» و (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) «٢».

(١) محمد: ١٨.

(٢) الكهف: ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٦

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤ الى ٥]

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

[٥] لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا كما يزعم هؤلاء الكفار من أن لله ولدا لَاصْطَفَى أى لاختر هو بنفسه مِمَّا يَخْلُقُ من الإنسان و الملك ما يَشَاءُ فكان ينتخب الأليق به، لا- أن يترك الأمر إلى الكفار، حتى يضيفوا إليه من شاءوا من الأولاد، كما أضاف اليهود عزيرا إليه، و النصرى المسيح، و المشركون الملائكة، فمثلا كان يختار موسى ابنا، و محمدا ابنا سُبْحَانَهُ أى أسبغه سبحانه، فهو منزّه عن الأولاد،

ولاده و تبنيا، و هؤلاء كاذبون في إضافة الأبناء إليه، فإنه هُوَ اللّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، و لا صاحبه و لا ولد القَهَّارُ الَّذِي يَقْهَرُ الْكَوْنَ طَبَقَ إِرَادَتِهِ، و لو كان له ولد، شاركه في الألوهية، فلم يكن واحدا، و لا قادرا على قهره.

[٦] خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ فَلَا بَاطِلَ فِي شَأْنِهِ، حَتَّى يَتَّخِذَ وَلَدًا بِالتَّبْنِيِّ، و لا شريك له حتى يكون له ولد صلبى، إذ لو كان له ولد لشاركه في الخلق بمقتضى كونه إلهًا يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ تَشْبِيهًا بِمَنْ يَلْفُ شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ كَانَ، كَأَنَّهُ لَفَّ عَلَى النَّهَارِ حَتَّى سَتَرَهُ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ فَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ، كَانَ كَأَنَّهُ لَفَّ أَيْضًا عَلَى الظلمة حتى سترها وَ سَيَخْرُ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِأَنَّ ذَلَهُمَا وَ أَجْرَاهُمَا حَسَبَ الصَّلَاحِ وَ الْحِكْمَةِ كُلُّ مَنَّهُمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٧

[سورة الزمر (٣٩): آية ٦]

خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَى تُصْرَفُونَ (٦)

يَجْرِي فِي مَدَارِهِ لِأَجْلِ مُسَيِّمَى أَى إِلَى غَايَةِ مَحْدُودَةٍ، يَوْمَ يَقْفَانِ عَنِ السَّيْرِ، وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا فَلْيَتَّبِعِ السَّمْعَ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ الْغَفَّارُ فَمَنْ تَابَ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ، وَ إِنَّمَا أَتَى بِهَذَا الْوَصْفِ، لِإِلْقَاءِ الرَّجَاءِ فِي قُلُوبِ مَنْ لَازَتْ قُلُوبُهُمْ نَحْوَ الْحَقِّ، فَلَا يَأْسُوا مِنْ سَالِفِ أَعْمَالِهِمْ، أَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ.

[٧] خَلَقْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ، بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ هِيَ نَفْسُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعْنَى أَنْ أَصْلَ خَلْقِكُمْ مِنْ شَخْصٍ وَاحِدٍ، كُلُّ النَّاسِ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ لِلتَّرَاخِي فِي الْكَلَامِ، لَا التَّرَاخِي فِي الْخَارِجِ، كَقَوْلِهِ «إِنْ مِنْ سَادِ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ، ثُمَّ قَدْ سَادَ بَعْدَ ذَلِكَ جَدُّهُ» فَإِنَّ سِيَادَةَ الْأَبِّ قَبْلَ الْابْنِ خَارِجًا، وَ إِنَّمَا أَتَى، بِ «ثُمَّ» لِلتَّرَاخِي فِي التَّكَلُّمِ، وَ بَيَانَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ بِإِثْرِ ذَلِكَ الْكَلَامِ جَعَلَ مِنْهَا أَى مِنْ تِلْكَ النَّفْسِ زَوْجَهَا إِمَّا أَنْ يَرَادَ كَوْنُ حَوَاءَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، مِنْ فَاضِلِ طِينَةِ آدَمَ، أَوْ أَنَّهَا مِنْ نَفْسِ ذَلِكَ الْجِنْسِ، فَلَيْسَتْ زَوْجَةُ آدَمَ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ الْجِنِّ، وَ هَذَا فَضْلٌ مِنْهُ سَبْحَانَهُ، لِأَنَّ «كُلَّ جِنْسٍ لِحْنَسِهِ يَلْفُ» وَ أَنْزَلَ أَى بِسَبَبِ مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْمَطَرِ أَنْشَأَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنَ الْأَنْعَامِ وَ هِيَ الْإِبِلُ وَ الْبَقَرُ وَ الضَّأْنُ وَ الْمَعَزُ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى يَخْلُقْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٨

[سورة الزمر (٣٩): آية ٧]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

فَنظْفُهُ فَعَلَقَهُ فَمَضَعَهُ، فِعْظَامٌ فَإِنْسَانٌ سَوَى، فِحْيَاءٌ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ظَلَمَةُ الْبَطْنِ، وَ ظَلَمَةُ الرَّحْمِ، وَ ظَلَمَةُ الْمَشِيمَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَغْلَفَةُ الثَّلَاثَةُ مُحِيطَةٌ بِالْوَلَدِ حَالِ تَكْوِينِهِ ذَلِكُمْ «ذَا» إِشَارَةٌ، وَ «كَمْ» خِطَابُ اللَّهِ رَبُّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ إِلَى حَالِ الْوُجُودِ، بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْمَدْهَشَةِ لَهُ الْمُلْكُ كَمَا أَنَّ لَهُ الْخَلْقَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنْ صَنْمٍ أَوْ وَثْنٍ، أَوْ غَيْرِهِمَا فَآتَى تُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ، أَى إِلَى أَيْنَ يَصْرِفُكُمُ الشَّيْطَانُ وَ الْكُفْرَارُ؟ حَتَّى تَقُولُوا بِالشَّرِيكَ لَلَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٨] إِنْ تَكْفُرُوا أَيُّهَا الْبَشَرُ، فَهُوَ يَضُرُّكُمْ، وَ لَا يَضُرُّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَيْكُمْ، حَتَّى يَضُرَّهُ كُفْرُكُمْ وَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ، وَ هَذَا لِنَقْضِ قَوْلِ الْكُفْرَارِ، حَيْثُ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ اللَّهُ أَمَرْنَا بِهَذَا وَ إِنْ تَشْكُرُوا أَيُّهَا الْبَشَرُ وَ رَأْسَ الشُّكْرِ، أَنْ تَوْحِدُوهُ يَرْضَهُ أَى يَرْضَى الشُّكْرَ لَكُمْ وَ يُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ جِزَاءً حَسَنًا وَ لِيَعْلَمَ الْكَافِرُ أَنَّ الْقَادَةَ لَا يَحْمِلُونَ تَبِعَةَ كُفْرِهِمْ، كَمَا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ قَالُوا (اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) «١» وَ لَا تَزِرُ أَى لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ وَازِرَةٌ أَى حَامِلَةٌ وَازِرَةَ أُخْرَى أَى ذَنْبَ

الشخص

(١) العنكبوت: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٤٩

[سورة الزمر (٣٩): آية ٨]

وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)

الآخر، بأن تخفف نفس ذنب شخص آخر، نعم إن الضال يحمل وزرين، وزر ضلاله، و وزر إضلاله ثم بعد الدنيا، أيها البشر إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ مصدر ميمي، أي رجوعكم فَيَبْتُكُم يخبركم بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يجازيكم على أعمالكم، فإن الإخبار مقدمة الجزاء، كما يقول الحاكم للمجرم: سأخبرك بما عملت إِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أي بالأشياء التي تدور فيها، فعلمه شامل لكل شيء، فلا يظن البشر أنه يتمكن من الإخفاء منه.

[٩] و عجيب أمر هذا الإنسان الذي يكفر بالله، بعد أن يعتقد في باطنه به وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ من مرض، أو فقر أو بلاء دَعَا رَبَّهُ وَ توجه إلى الله تعالى مُنِيبًا إِلَيْهِ من أناب بمعنى رجع، أي راجعا إلى الله وحده راجيا إياه دون سواه ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ أي أعطاه الله نِعْمَةً مِنْهُ أي من قبله نَسِيَ ما كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل هذه النعمة، و معنى النسيان ترك التوحيد و الشكر، و يستعمل النسيان في الترك، لأنه من أسبابه، بعلاقة السبب و المسبب، كما قال (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) «١»، أو باعتبار أن الشرك غالبا يجر إلى النسيان وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا جمع ند و هو المثل و الضد،

(١) التوبة: ٦٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٠

[سورة الزمر (٣٩): آية ٩] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٥٩٩

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَائِمًا يُخَذِرُ الْآخِرَةَ وَ يُزْجُوا رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩)

و المراد بها الأوثان لِيُضِلَّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِهِ أو يضل نفسه عن سبيل الله، و اللام للعاقبة، إذ جميع الكفار لا يريدون بالشرك إضلال الناس، أو ضلال أنفسهم، و إنما عاقبة الشرك الضلال و الإضلال قُلْ يا رسول الله، لمثل هذا الشخص تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا الأمر للتهديد، أي تنعم بنعمة الدنيا، التي جرها إليك كفرك، فكأنه تنعم بالكفر، و الباء سببية، نحو تنعم بالعلم أو بالمال إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الملازمين لها كملازمة الصاحب لصاحبه.

[١٠] فهل هذا الإنسان الذي يكفر و يكون مصيره النار خير أَمْ مَنْ يُؤْمِنُ، و يعمل الصالحات، حتى يصير إلى الجنة؟ ف هُوَ قَانِتٌ من القنوت بمعنى الخضوع لله تعالى آتَاءَ اللَّيْلِ جمع «أنى» بمعنى ساعات الليل، و إنما خص الليل بالذكر، لأن القيام في ساعاتها للعبادة، أدل على قوة الإيمان من الطاعة في ساعات النهار، في حال كونه ساجداً مرة وَ قَائِمًا في الصلاة و التلاوة، أخرى يُخَذِرُ الْآخِرَةَ أي يخاف من عذابها وَ يُزْجُوا رَحْمَةً رَبِّهِ و الجنة قُلْ يا رسول الله في صدد المقارنات بين الكافر و المؤمن هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ و من الواضح، أنهما لا يستويان، و إذا لا يستوي المؤمن العالم بالله و اليوم الآخر، و الكافر الذي لا يعلم بالمبدأ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥١

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٠ الى ١١]

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ

(١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١)

و المعادِ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ بِهِذِهِ الموعظ و الإرشادات أولوا الألبابِ أى أصحاب العقول الذين يعملون عقولهم، لاستفادة الحق، أما غيرهم، فهم فى غفلة من هذا.

[١١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا عِبَادِ يَا أَصْلَهُ يَا عِبَادَى الَّذِينَ آمَنُوا فَعَلْ مَا ضَى اتَّقُوا أَيَهَا النَّاسَ رَبُّكُمْ أَي خَافُوا عِقَابَهُ، فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ، فَإِنَّهُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً الْمَرَادُ بِهَا الْجِنْسُ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ مَنَاجِحِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، يُوْجِبُ الْغِنَى، وَالصَّحَّةَ، وَالْأَمْنَ، وَالْعِلْمَ، وَالْفَضِيلَةَ، وَ سَائِرَ الْخَيْرَاتِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ وَ التَّجَارِبُ وَ إِذَا رَأَيْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تَتِمُّونَ مِنَ الْإِتْيَانِ بِالطَّاعَةِ فِي مَكَانٍ فَهَاجِرُوا، فَ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَتُهُ إِلَى حَيْثُ تَتِمُّونَ مِنْ أَنْ تَحْسِنُوا هُنَاكَ، وَ حَيْثُ إِنَّ الْهَجْرَةَ تُوْجِبُ أَنْعَابًا جَمَّةً، قَالَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُؤَفِّي وَ يُعْطِي وَافِيَا الصَّابِرُونَ فِي الشَّدَائِدِ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَإِنَّهُ لَكَثْرَتِهِ، لَا يَتِمُّكَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَدَّةٍ، وَ إِنْ كَانَ بِقَدْرِ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[١٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَي أَخْلَصَ لَهُ فِي طَرِيقَتِي، فَلَا أَخْذُ عَقِيدَةَ أَوْ عَمَلًا، إِلَّا مِنْ طَرَفِهِ وَحْدَهُ، لَا أَعْتَقِدُ بغيره وَ لَا أَعْبُدُ سِوَاهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٢

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٢ الى ١٥]

وَ أُمِرْتُ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) [١٣] وَ أُمِرْتُ مِنْ قَبْلِهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَسْلَمُونَ لِأَمْرِهِ، وَ إِنَّمَا أَكُونَ أَوْلَهُمْ، لِأَدْرَكَ الْفَضْلَ فِي السَّبْقِ إِلَى الطَّاعَةِ، فَإِنَّ مِنْ سَبْقِ إِلَى خَيْرِ جَمْعِ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ.

[١٤] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِالْكَفْرِ أَوْ الْإِثْمِ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِي لَا مَنجِي وَ لَا مَفْرَمَةَ، وَ عَذَابُهُ فِي غَايَةِ الشَّدَةِ، وَ الْخَوْفُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْقَطْعِ بِالضَّارِ كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الشُّكِّ وَ الظَّنِّ وَ الْوَهْمِ.

[١٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ اللَّهُ أَعْبُدُ لَا غَيْرَهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي أَي أَخْلَصَ لَهُ طَرِيقَتِي، فَلَا أَعْبُدُ أَحَدًا مَعَهُ، وَ هَذَا تَكَرَّرَ لَمَّا سَبَقَ لِلتَّأَكِيدِ وَ تَفْرِيعِ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ.

[١٦] فَاعْبُدُوا أَنْتُمْ أَيَهَا الْكُفَّارُ مَا شِئْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَ الْبَشَرِ مِنْ دُونِهِ أَي مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَ هَذَا الْأَمْرُ لِلتَّهْدِيدِ، أَي أَفْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَسَتَلْقَوْنَ جَزَاءَهُ، وَ لِذَا قَالَ تَعَالَى قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ خَاسِرُونَ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ ذَهَبَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَى النَّارِ، وَ تَفَرَّقَتْ عَنْهُمْ أَهْلِيهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ، وَ الْخَاسِرُ هُوَ الَّذِي يَذْهَبُ رَأْسُ مَالِهِ، بِخِلَافِ الرَّابِحِ الَّذِي يَبْقَى أَصْلُ مَالِهِ وَ يَزَادُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ بَقِيَ نَفْسُهُ فِي رَاحَةٍ وَ أَهْلُهُ مَعَهُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٣

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٦ الى ١٧]

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧)

ثم ربح النعيم، أما الكافر، فإنه لم يحصل شيئاً، و بالإضافة إلى ذلك، أتلف نفسه و أهله ألاً ذلك الذى ذكر من خسارة النفس و المال هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا خِسَارَةَ فَوْقَهُ.

[١٧] لَهُمْ أَي لِلْخَاسِرِينَ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ «ضلل» جمع «ظلة» و هى السترة العالیه، يعنى فوقهم أطباق النار و مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ أَي فَرَشٌ، وَ تَسْمِيَةُ مَا تَحْتَهُمْ «ظلل» إما باعتبار المشاكلة اللفظية، من قبيل قوله تعالى (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ) «١» و إما من جهة،

أن ما تحت كل طائفة سقوف لمن في الدرك والأسفل منه، إذ النار دركات و أطباق بعضها فوق بعض ذلك الذي تقدم من العذاب يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ حَتَّى لَا يَعْصُوهُ فَيَلْقُونَ فِيهِ يَا عِبَادِ حَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ تَخْفِيفًا فَاتَّقُونَ أَي اتَّقُونِي فَلَا تَعْصُونِي، فَقَدْ أَلْزَمْتُ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ، وَ أُرْشَدْتُمْ إِلَى السَّبِيلِ.

[١٨] وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ الْمُرَادَ بِهَ الشَّيْطَانَ، أَوْ كُلَّ قَائِدٍ ضَالٍّ شَدِيدِ الطَّغْيَانِ، وَيَطْلُقُ عَلَى الْأَوْثَانِ تَشْبِيهًا، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ الْأَوْثَانُ تَطْغَى وَ تَجَاوِزُ الْحَدَّ أَنْ يَعْْبُدُوهَا بِدَلِّ اشْتِمَالٍ لِلطَّاغُوتِ، أَي اجْتَنَبُوا عِبَادَتَهَا، وَأَنَابُوا أَي رَجَعُوا عَنِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ إِلَى اللَّهِ بِأَنْ

(١) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٤

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ١٨ إلى ١٩]

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَمْ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩)

آمَنُوا وَ أَطَاعُوا، وَ الرَّجُوعُ، إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ كَانَ كَافِرًا عَاصِيًا، وَ يَدْخُلُ غَيْرُهُ فِي الْعُمُومِ بِالْمَلَائِكِ لَهُمُ الْبُشْرَى أَي الْبَشَارَةَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ فَبَشَّرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عِبَادِ أَصْلَهُ عِبَادِي حَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ تَخْفِيفًا.

[١٩] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ وَصِفَ لِلْعِبَادِ، أَي إِذَا سَمِعُوا مِنَ الْمَجْتَمَعِ قَوْلًا، يَتْرَكُونَ مُنْحَرِفَةً فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ، بَلْ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أَي أَوْلَاهُ بِالِاتِّبَاعِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَمِعُ فِي الْمَجْتَمَعِ الْكُفْرَ وَ الْإِيمَانَ، وَ الطَّاعَةَ وَ الْعِصْيَانَ وَ الْفَضِيلَةَ وَ الرَّذِيلَةَ، فَالْإِنْسَانُ الْخَيْرُ يَتَّبِعُ الْأَحْسَنَ مِمَّا يَسْتَمِعُ، وَ الْإِنْسَانُ الشَّرِيرُ يَتَّبِعُ الْأَسْوَأَ مِمَّا يَسْتَمِعُ، وَ الْأَحْسَنُ مَنْسَلَخٌ عَنِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ، أَوْ يَرَادُ بِهِ الْأَحْسَنُ عَرَفًا، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي طَرَفٍ مُقَابِلَهُ حَسَنٌ حَقِيقَةٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ أَي أَنْ مِنْ صِفَتِهِ اتِّبَاعُ الْأَحْسَنِ، هُوَ الَّذِي تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ، وَ الْمُرَادُ بِهَا اللَّطْفُ الْخَفِيُّ، أَمَّا الْهُدَايَةُ بِمَعْنَاهَا الْعَامَّةُ، فَهِيَ لِكُلِّ بَرٍّ وَ فَاجِرٍ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ أَي أَصْحَابُ الْعُقُولِ، فَإِنَّ اللَّبَّ بِمَعْنَى الْعَقْلِ، نَقَلَ فِي الْمَجْمَعِ عَنِ بَعْضِ مَنْ قَالَ: إِنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، نَزَلَتْ فِي «زَيْدٍ» وَ «أَبِي ذَرٍّ» وَ «سَلْمَانَ» حَيْثُ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِالتَّوْحِيدِ فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ «١».

[٢٠] ثُمَّ يَسْأَلِي اللَّهُ رَسُولَهُ فِي عَدَمِ إِيْمَانِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُعَانِدِينَ، فَلَا يَهْتَمُّ

(١) مجمع البيان: ج ٨ ص ٣٩٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٥

[سورة الزمر (٣٩): آية ٢٠]

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) لَهُمْ أَمْ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَي ثَبَتَتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فِي شَأْنِهِ، بِأَنْ عَلِمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَى الْأَبَدِ، فَأَثْبَتَ فِي شَأْنِهِ الْعَذَابَ، وَ قَالَ فِيهِ «إِنَّهُ مُعَذَّبٌ» أَفَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُنْفِذُ مَنْ فِي النَّارِ بِأَنْ تَهْدِيَهُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ النَّارَ، وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عِبَارَةٌ عَنِ «تَتَمَكَّنُ مِنْ إِنْقَاذِهِ» عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي، أَي أَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَتَمَكَّنُ مِنْ إِنْقَاذِ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ النَّاسِ، وَ إِنَّمَا أَتَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ، فِي قَالِبِ الْإِسْتِفْهَامِ، لِزِيَادَةِ الْإِنْكَارِ، وَ قَوْلُهُ «مَنْ فِي النَّارِ» بِاعْتِبَارِ الْأَوَّلِ، نَحْوِ، «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» «١»، وَ كَمَا نَقَوْلُ «السُّلْطَنَةُ سَاقِطَةٌ» حَيْثُ نَرَى فِيهَا آثَارَ السَّقُوطِ.

[٢١] لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ بِأَنْ خَافُوا عِقَابَهُ، فَأَطَاعُوهُ لَهُمْ غُرْفٌ جَمْعُ غُرْفَةٍ، وَ هِيَ الْبَيْتُ فَوْقَ الدَّارِ، وَ تِلْكَ أَحْسَنُ مِنَ التَّحْتِ لِقُرْبَاهَا مِنَ الشَّمْسِ، وَ دَخُولِ الْهَوَاءِ فِيهَا، وَ إِشْرَافِهَا وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ، فَهِيَ فِي قِصُورِ ذَاتِ طَبَقَاتٍ، كَمَا أَنَّ مَنْ فِي النَّارِ فِي

عذاب ذى أطباق، من فوقهم ظلل، و من تحتهم ظلل مبيته أى قد بنيت تلك الغرف، و الإتيان بهذا الوصف، لامتداد البشارة، فإن الإنسان كما أطال وصف المطلوب، امتدت في نفسه البشائر تجرى من تحتها أى من تحت تلك الغرف الأنهار فهم ينظرون إلى الأنهار و الأشجار، من فوق مما يزيد في سرورهم، فإن الإشراف على المحبوب من الأعلى يشع في النفس بهجة و حورا و وعد الله أى

(١) التوبة: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٦

[سورة الزمر (٣٩): آية ٢١]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُضِيغًا مُضِيغًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١)

وعددهم الله بذلك وعدا، فهو مفعول مطلق لفعل مقدر، و لا يُخْلِيفُ اللهُ الميعاد الذى يعده، لأن الخلف ناشئ، إما من الجهل أو العجز أو الخبث، و الله سبحانه منزه من ذلك كله.

[٢٢] و بعد أن ذكر سبحانه قسما من التوحيد و المعاد و الرسالة، ذكر بعض أدلة التوحيد أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً و هو المطر فَسَلَكَهُ أى أدخل ذلك الماء في يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ جمع ينبوع، و هو محل اختزان الماء، و تجمعه كالعيون و القنوات و الأنهار، و ما أشبهها ثُمَّ يُخْرِجُ اللهُ بِهِ أى بسبب ذلك الماء زَرْعًا أى نباتا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ من أخضر و أحمر و أزرق و أصفر و أبيض، و غيرها، أو المراد بالألوان جميع الصفات من طعوم و روائح، و حجوم، و أشكال و غيرها، فإن اللون له إطلاقان: إطلاق بمعنى ما يدرك بالبصر فقط، و إطلاق بمعنى ما يدرك بجميع الحواس، بل أعم من ذلك، كالخواص و الفوائد ثُمَّ يَهِيْجُ أى يجف الزرع و يبس، من هاج أى ثار، فكأن النبات يثور عن حالته الأولى فَتَرَاهُ مُضِيغًا بعد ما كان ذا لون آخر ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا رفاتا منكسرا متفتتا، فإن الحطم هو الكسر للشئ اليابس إِنَّ فِي ذَلِكَ الذى تقدم من إنزال الماء، و إنبات النبات مع تلك الأوصاف المذكورة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٧

[سورة الزمر (٣٩): آية ٢٢]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢)

لذكري أى تذكير بما كمن في النفوس من التوحيد لأولى الألباب أى أصحاب العقول، فإن لب كل شئ أحسنه، و لب الإنسان عقله. [٢٣] و إذا كانت الآيات الكونية تدل على ما يقوله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و كان الذى أعرض قاسيا، لا يدخل النور قلبه، و كان الذى يقبل و يسلم رحب الصدر قابلا لأن يدخل فيه الإسلام، كالظرف الواسع القابل لأخذ الشئ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ و إنما نسب الشرح إلى الله، لأنه لطف به الألفاظ الخفية، بعد أن كان هو بصدد الإيمان، مقابل الكافر الذى لا يشرح الله صدره، بأن يعرض الله عنه، إذا رآه بصدد التعامى عن الحق، و إنما نسب الشرح إلى الصدر، لأنه مركز القلب الذى هو مصدر قبول الإيمان، أو رفضه، فهو من باب سبك مجاز من مجاز، أو باعتبار أن المعرض تشتد فيه حرارة القلب، فتنتفخ الرئة كثيرا لتجذب الهواء الكثير لتبريد القلب، فتكون آخذة موضعا وسيعا من الصدر، و لذا يحس الإنسان بضيق صدره، لضيق مجارى الدم و ما أشبهه، بسبب ضغط الرئة، و بالعكس من ذلك الذى يهدأ و يسر بالإسلام، فإن حرارته تخف، فلا تحتاج الرئة إلا إلى حركة يسيرة، حتى يبقى أكثر مواضع الصدر فارغا، فلا ضغط من الرئة على الأوردة و الشرايين، و بذلك يحس الإنسان بسعة صدره فَهُوَ عَلَى نُورٍ كأنه فى طرق الحياة، على قطعة نور، يبصر به طريقه جيدا، فلا يقع فى مشاكل الحياة مِنْ رَبِّهِ «من» نشوية أى نور ناشئ من قبل الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٨

[سورة الزمر (٣٩): آية ٢٣]

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)

تعالى، وقد حذف عدل الاستفهام، أى أفمن شرح الله صدره، كمن ليس كذلك؟ و حذفه لنكنه هى، إن من ليس كذلك غير قابل حتى للذكر، وكأنه لا شىء، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ أى الهلاك و السوء، للذى قسى قلبه، حتى لم يجد الإيمان محلا له فيه مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أى قساوة من هذا النوع، و إن كان رقيق القلب من جهات أخرى أَوْلَيْكَ القاسية قلوبهم فى ضلالٍ مُبينٍ أى انحراف واضح بين.

[٢٤] و إذ تقدم الحديث عن الإسلام، يأتى السياق ليصف القرآن الحكيم، الذى هو مصدر أحكام الإسلام و إرشاداته اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ المراد بالحديث الجنس، أى أحسن نوع من هذا الجنس، و الحديث هو الخبر، سُمى حديثا، لأنه يحدث و يتجدد بعد أن لم يكن، فإن المخبر يجده و يذكره، و إنما سُمى القرآن حديثا، لأنه كلام الله و إخباراته و إن كان فيه بعض الإنشاء، فإنه بصورة عامة، حديث من باب التغليب كِتَابًا بدل من أحسن الحديث، أو حال أى فى حال كونه مكتوبا لا ملفوظا فقط مُتَشَابِهًا يشبه بعضه بعضا، فلا تفاوت فى ألفاظه فصاحة و إعجازا، و لا فى معانيه و أحكامه، إحكاما و إرشادا، فلا اختلاف فيه، و لا تناقض مَثَانِيَ جمع مثنى، أى أن قصص هذا الكتاب، و إخباراته، و أحكامه، تذكر مثنى مثنى، فى قوالب مختلفة للتركيز فى الأذهان، و يكون أبلغ فى التحدى و الإعجاز، و وصف الكتاب بالمثانى - جمعا - باعتبار سوره و آياته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٥٩

[سورة الزمر (٣٩): آية ٢٤]

أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)

و فصوله تَقْشَعِرُّ أى ترتجف منه من هذا الكتاب جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ فتأخذهم قشعريرة خوفا من وعيده و رهبة و جلالا ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ بعد الانكماش بالقشعريرة وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ وَعُودَهُ سُبْحَانَهُ وَ الطمأنينة، كما قال تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ) «١» و من عادة الإنسان، أنه إذ ذكر الوعيد تفكر، فيذكر الوعد، و هناك الاطمئنان للقلب الوجيف، و الجلد المقشعر ذَلِكَ أى القرآن هُدَى اللَّهِ الذى هدى بسببه الناس إلى طريق الحق و الرشاد يَهْدِي بِهِ أى بالقرآن مَنْ يَشَاءُ و ليست مشيئته سبحانه اعتبارية، بل لمن سلك الطريق الحق و كان فى صدد الهدى، و المراد بالهداية هنا، الألفاظ الخاصة، و إلّا فالهداية عامة لكل مؤمن و كافر وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ بَأَن يتركه حتى ينحرف بعد أن لم يقبل الهدى فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ إذ اللطف منه سبحانه، فإذا أعرض الإنسان عن السلوك فى الطريق، لم يكن له من يطف به، حتى يهتدى.

[٢٥] أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِ سُوءِ الْعَذَابِ بَأَن يكون وجهه فى مقابل لفتح النار و لهبها يَوْمَ الْقِيَامَةِ خير أم من يأتى آمنة يوم القيامة، لا يرى النار

(١) التغابن: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٠

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

أبدا؟ و واضح أن الجواب من يأتى آمنة خير، و إنما قال «الوجه» لأنه أشرف الأعضاء، فيكون عذابه أكثر إيلا ما من عذاب سائر الأعضاء وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بالكفر و العصيان ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ فى الدنيا بناء على تجسيم الأعمال، أو المراد

ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون، بعلاقة السبب و المسبب، فإن الكسب علة الجزاء، وإنما حذف.

[٢٦] و يعتبر هؤلاء الكفار بمن سبقهم حيث إنهم لما كذبوا عوقبوا و أهلكوا كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى قَبْلَهُمْ هُوَ لاء الكفار من الأمم الماضية فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ أَى جاءهم عذاب الله فى الدنيا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَى لا يعرفون، فقد كانوا آمنين فى بلادهم، و إذا بهم يرون عذاب الاستئصال من صيحة أو خسف أو قذف، أو ما أشبه يعمهم.

[٢٧] فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ أَى أذاق أولئك الأمم المكذبة الخزي و الهوان فى الحياه الدنيا بأن عذبهم و أهلكهم و لَعَذَابُ الْآخِرَةِ الذى أعد لهم لتكذيبهم و كفرهم أكبر من عذاب الدنيا لو كانوا يَعْلَمُونَ أَى لو علموا بالعذاب المهيب لهم، لعلموا أن ذلك أكبر من عذاب الدنيا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦١

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

و لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذى عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فىهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ و رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

[٢٨] و لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ يَفِيدهم و يهديهم إلى الطريق، كما مثلنا هنا لهم بأحوال المكذبين السابقين لَعَلَّهُمْ أَى لكى يَتَذَكَّرُونَ ما أودع فيهم من الفطرة الدالة على أن من أساء، فإنه يرى السوء، و إن من أحسن يرى الحسنى.

[٢٩] لقد بينا الأمثلة فى هذا القرآن فى حال كونه قُرْآنًا عَرَبِيًّا يفهمون معناه، فهو بلغتهم غَيْرِ ذى عِوَجٍ أَى ليس صاحب اعوجاج، و ميل عن الحق، فهو لفظا بلغتهم، و معنى لا انحراف فى أحكامه لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَى لكى يتقوا الكفر و العصيان، فلا يأتيهم العذاب.

[٣٠] ثم بين سبحانه، مثلا للموحد و المشرك، فالموحد كالعبد الذى هو لإنسان واحد، و المشرك كالعبد الذى هو لعدة سادة يتنازعون ما بينهم، فى الأمور، فيجر كل واحد العبد إلى جانبه، أيها خير؟ و من الطبيعى إن العبد الذى لسيد واحد خير، من ذلك العبد المشترك بين سادة كثيرين ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا للموحد و المشرك، فللمشرك رَجُلًا فىهِ شُرَكَاءُ أَى جماعة سادة مشتركون مُتَشَاكِسُونَ من شكس بمعنى خاصم، فالمتشاكسون بمعنى المتنازعون المتخاصمون فيما بينهم، فهل هذا العبد أحسن حالا؟ أم العبد الذى هو لسيد واحد و رَجُلًا و هو مثال الموحد سَلَمًا لِرَجُلٍ أَى خالصا لسيد واحد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٢

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّكَ مَيِّتٌ و إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)

يطيع أوامره، و ينتهى عن زواجه هَلْ يَسْتَوِيَانِ أَى العبدان مثلا أَى من حيث المثل، و إذ كان الجواب العدم، فاللازم أن يعرف المشرك، أن له أسوأ المثل، فليقلع عن غيه الْحَمْدُ لِلَّهِ فلا شريك له يستحق الحمد، بل جميع المحامد راجعة إليه، و لذا يستحق كل حمد بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إن الإله واحد، و لذا يعبدون آلهة متعددة، و كما إن العبد لسيد واحد، ينعم براحة البال، كذلك الموحد ينعم بالراحة و الاطمئنان، و كما إن العبد لعدة شركاء موزع القلب لا يدرى ماذا يصنع، قلق الضمير، كذلك المشرك قلق لا يدرى، هل يرضى الله أم الشركاء، فهو مكلوم الفؤاد.

[٣١] إن الدنيا تنقضى، و إن الرسول و المشركين، سيموتون، و هناك تشكل محكمة كبرى، أمام الله سبحانه، و يظهر من المحق و من المبطل؟

و هذا تهديد لهم بأنكم إن بقيتم على غيركم، ستلاقون يوما عسيرا، حين يخاصمكم الرسول يوم القيامة إِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَيِّتٌ بعد مدة و إِنَّهُمْ أَعْدَاؤُكَ و خصماؤك المشركون مَيِّتُونَ جمع ميت.

[٣٢] ثُمَّ إِنَّكُمْ بعد انقضاء مدة البرزخ بين الدنيا و الآخرة يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَى المحل الذى أعده للحساب، و إلا فليس لله

سبحانه، مكان تَخْتَصِمُونَ فيظهر من المحق و من المبطل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٣

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الرابع والعشرون من آية (٣٣) سورة الزمر إلى آية (٤٧) سورة فصلت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٥

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٢ الى ٣٤]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤)

[٣٣] ثم بين سبحانه حال الفريقين الموحدين والمشركين فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ بأن ادعى أن له ولدا أو شريكا وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ وهو الرسول والقرآن إِذْ جَاءَهُ والمعنى لا أظلم من مثل هذا الشخص، وقد سبق، أن هذا الاستفهام، وكون من ذكر أظلم الناس، إنما هو إضافي لا حقيقي، ثم بين سبحانه مصير هؤلاء بقوله أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى أى منزلا، من ثوى بمعنى اتخذ المنزل، و محل السكنى لِلْكَافِرِينَ والمعنى أن مَثْوًى هؤلاء هو جهنم.

[٣٤] وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ أى بالأمر الذى هو صدق، كالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذى جاء بالقرآن صدقا، وجاء بشريعة هى صادقة وَالَّذِي صَدَّقَ بِهِ أى صدق بمن جاء بالصدق، كالمؤمنين الذين صدقوا بالرسول أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ الذين اتقوا عذاب الله و نكاله، بأن أطاعوه فيما أمر ونهى.

[٣٥] لَهُمْ أى لهؤلاء الرسول والمؤمنين مَا يَشَاؤُونَ من أنواع النعيم والملذات الجسمية والروحية عِنْدَ رَبِّهِمْ أى فى الجنة، وقد سبق، أن كونه عند الله، من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فهناك موضع اختاره الله سبحانه، فقريب من رضاه وفضله ذَلِكَ الذى أن يكون لهم ما يشاءون جزاء الْمُحْسِنِينَ الذين أحسنوا فى العقيدة والعمل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٦

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)

[٣٦] و إنما «لهم ما يشاءون» لأن الله سبحانه يريد أن يحقق لهم فضلا وكرامة لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أى عن هؤلاء المحسنين أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا المراد كل سيئة، فإنها أسوأ من حسناتهم، إما بتجريد من معنى التفضيل، أو بالمقايضة العرفية، يقال، الزنى أسوأ من النكاح، يراد أحد الأمرين، إما بمعنى أن الزنى يسىء دون النكاح، أو بمعنى أن العرف يرى، أن الزنى، أسوأ من النكاح - فيما يرى كليهما شيئا - ومعنى «التكفير» الحبط والمحو وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ أى بمقابل أحسن الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ والمراد ب «الذى» الجنس، أى أحسن الأعمال التى كانوا يعملونها، وهذا كالسابق أيضا، فالمراد جزاؤهم بكل حسنة، و فى الأحسن، الاحتمالان، فالله سبحانه يجزى المحسنين، بما يشاءون لتحقيق تكفير خطاياهم و جزاؤهم بحسناتهم.

[٣٧] وقد كان المشركون يخوفون الرسول، بأنه إن استمر فى دعوته أصابه منهم و من آلهتهم المكروه، فرد الله عليهم بقوله أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ استفهام للإنكار، أى أن الله يكفى عبده، كل ما أهمه، فلا يمكن الأعداء من الوصول إليه وَيُخَوِّفُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أى بالأصنام، و عبدتها الذين هم دون الله، فقد كانوا يقولون للرسول، إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا لأنك تعيها وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ بَأْسٌ يَبْلُغُ لَطْفَهُ الْخَاصَّ عَنْهُ، بعد أن أراه الطريق، فانحرف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٧

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٧ إلى ٣٨]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يَهْدِيهِ سَبِيلَ الرَّشَادِ، إِذِ الْهَدَايَةُ خَاصَةٌ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَهِيَ هِدَايَتَانِ ظَاهِرَةٌ، وَقَدْ أَعْرَضُوا عَنْهَا، وَخَفِيَةٌ، وَاللَّهُ مَنَعَهُمْ إِيَّاهَا، حَيْثُ رَأَى إِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْهَدَايَةِ الْعَامَّةِ.

[٣٨] وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ بَأَنْ لَطْفٍ بِهِ أَلَطَافُهُ الْخَاصَّةُ، بَعْدَ أَنْ جَاءَ فِي الطَّرِيقِ بِمَجْرَدِ الْهَدَايَةِ الْعَامَّةِ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَيْ لَا أَحَدٌ يَتِمَكَّنُ مِنْ إِضْلَالِهِ، لِأَنَّ لَطْفَ اللَّهِ يَرَعَاهُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ يَعِزُّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُ فَلَا يَقْوَى أَحَدٌ عَلَى إِضْلَالِهِ بَعْدَ أَخْذِ اللَّهِ بِيَدِهِ ذِي انْتِقَامٍ مِمَّنْ انْحَرَفَ عَنِ الْجَادَةِ، وَانْتِقَامُهُ مِنْهُ أَنْ يَتْرَكَهُ فِي الدُّنْيَا ضَالًّا لَا يَعْتَنِي بِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَذِيقُهُ مِنَ النَّارِ، وَالِاسْتِفْهَامَ لِلانْتِكَارِ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُنْتَقِمٌ.

[٣٩] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقَ لِعِدَّةِ مَبَاحِثَاتٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ حَوْلَ شُرْكَهِمْ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أَيْ سَأَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ هَلِ اللَّهُ أَمْ شُرَكَاءُكُمْ؟ لَيَقُولُنَّ فِي الْجَوَابِ اللَّهُ خَلَقَهُمَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَجَرَّءُونَ أَنْ يَقُولُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ خَلَقْتَهُمَا قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ، بَعْدَ أَنْ اعْتَرَفُوا بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَفَرَأَيْتُمْ أَيْ أَخْبِرُونِي هَلِ إِنْ اللَّهُ إِذَا أَضَرَّ أَوْ نَفَعَهُ الْأَصْنَامَ تَقْدِرُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ؟ وَطَبِيعِي أَنْ الْجَوَابُ: لَا، إِذَا فَمَا شَأْنُ الْأَصْنَامِ فِي الْكُونِ، أَوْ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى يَتَّخِذَهَا الْإِنْسَانُ آلِهَةً؟ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيْ الْأَصْنَامَ الَّتِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٨

[سورة الزمر (٣٩): آية ٣٩]

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩)

تَدْعُونَهَا، سِوَى اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ أَيْ قَصَدَ اللَّهُ إِضْرَارِي، بِمَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ بَلَاءٍ هَيْلٌ هُنَّ أَيْ الْأَصْنَامُ، وَالِإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ، لِتَوْحِيدِ السِّيَاقِ بَيْنَ كَلَامِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا، أَنَّ الْأَصْنَامَ عَقْلَاءَ، وَبَيْنَ كَلَامِ الْقُرْآنِ فِي الْمُنَاقَشَةِ مَعَهُمْ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَيْ دَافِعَاتُ اللَّضْرِ الَّذِي جَاءَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى؟ أَوْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْ غَنَى أَوْ صِحَّةٍ، أَوْ أَمْنٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ نَحْوِهَا هَلْ هُنَّ أَيْ الْأَصْنَامُ مُمَسِّكَاتُ رَحْمَتِهِ بِأَنَّ تَقْدِيرَ عَلَى أَنْ تَمَانَعَ اللَّهُ حَتَّى لَا يَتِمَكَّنَ سُبْحَانَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ؟ وَإِذَا أَجَابَ الْكُفَّارَ بِالنَّفْيِ، كَانَ الْمَجَالُ لِأَنَّ يُقَالُ لَهُمْ، إِذَا فَمَا فَائِدَةُ الْأَصْنَامِ حَتَّى يَعْبُدَهَا الْإِنْسَانُ؟

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَنْ، حَسْبِيَ اللَّهُ أَيْ يَكْفِينِي اللَّهُ عَنِ غَيْرِهِ مِنَ الْآلِهَةِ، فَلَا أَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ عَلَيْهِ أَيْ عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ أَيْ أَنْ اللَّزَامَ، أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ مِنْ يَرِيدُ التَّوَكُّلَ، وَ يَفُوضُ أَمْرَهُ إِلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ.

[٤٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ يَا قَوْمِ إِذَا لَمْ تَقْبَلُوا عَطْيِي، فَاعْمَلُوا أَنْتُمْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ أَيْ حَالِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ، كَمَا تَقُولُ لِلْمَجْرِمِ، اْعْمَلْ مَا شِئْتَ، وَ الْمَرَادُ سَتْرِي جَزَائِكَ السَّيِّئِ إِنِّي عَامِلٌ عَلَى مَكَانَتِي فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ فِي الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٦٩

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤٠ إلى ٤٢]

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

[٤١] مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ أَى يذله و يهينه؟ هل هو أنا أم أنتم؟ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ فِي الآخِرَةِ، و لعل المراد، ب «عذاب يخزيه» عذاب الدنيا.

[٤٢] إِنْ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِ يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَ ضَلَالِ الْكَافِرِ يَعُودُ ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَا يَهْمُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ ضَلِّ بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ أَى الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ أَى لِهَدَايَةِ النَّاسِ بِالْحَقِّ أَى إِنْزَالًا بِالْبَاطِلِ، أَوْ لِأَجْلِ الْبَاطِلِ، فَمَنْ أَهْتَدَى بِالْقُرْآنِ فَلِنَفْسِهِ أَى تَعُودُ فَائِدَةُ هِدَايَتِهِ إِلَى شَخْصِهِ وَ مَنْ ضَلَّ وَ انْحَرَفَ عَنِ الطَّرِيقِ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أَى عَلَى ضَرَرِ نَفْسِهِ، إِذْ تَعُودُ عَقُوبَةُ الضَّلَالِ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى النَّاسِ، أَوْ عَلَى مَنْ ضَلَّ بِوَكِيلٍ حَتَّى تَكُونَ مَسْئُولًا، عَمَّنْ لَمْ يَقْبَلِ الْهَدَايَةَ، وَ إِنَّمَا أَنْتَ مَبْلُغٌ وَ مَنْذِرٌ.

[٤٣] إِنْ الْخَلْقُ بِيَدِ اللَّهِ، وَ إِصْطِلَ الضَّرَرُ وَ النِّفْعُ مِنْهُ - كَمَا مَرَّ - وَ الْإِمَاتَةُ بِأَذْنِهِ، فَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ شَأْنَ الْأَصْنَامِ، الَّتِي يَعْبُدُونَهَا هَؤُلَاءِ؟ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ أَى يَمِيتُهَا، وَ «توفى» متعد، و لذا، فالتوفى بصيغة الفاعل هو الله، و المتوفى بصيغة المفعول هو الإنسان حين موتها أَى حِينَ الْمَوْتِ الْمَقْدَرِ لَهَا، وَ انْقِضَاءِ أَجْلِهَا، وَ الْمَرَادُ بِالْأَنْفُسِ، هِيَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٠

[سورة الزمر (٣٩): آية ٤٣]

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣)

الإنسان، لا نفس الإنسان - بمعنى روحه - حتى يقال، إن الروح لا تموت و التي أَى النفس لم تمت في منامها بأن كان الإنسان نائما، و لم يخرج روحه الذي به الحياة بعد، فإنه في قبضة الله، فإذا شاء أماته، بأن لا يرسل روحه الذي أخذه، و إن شاء أرسله حتى يستيقظ، و من المعلوم، أن الروح الذي أخذه سبحانه عند المنام، هو ما به من الحس و العقل، فإذا شاء موته، أخذ بقیة الروح أيضا، و إن شاء عدم موته، أرسل المقدر الذي أخذه فتمسك التي أَى النفس التي قضى الله و حكم عليها الموت فلا يعيدها إلى البدن و يرسل الله النفس الأخرى التي لم يقض عليها الموت لأن تبقى في البدن إلى أجل مسمى أَى مدة محددة، قد سميت في اللوح المحفوظ إن في ذلك الذي ذكر من الإماتة للإنسان اليقظ، و الإماتة للإنسان النائم، و إرجاع الروح إلى بعض النائمين ليبقى حيا إلى مدة محددة مقدره لآيات دلالات على وجود الله لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و إلا فمن أمات الإنسان في اليقظة؟ و من أمات بعض النائمين؟ و من أعاد الروح لبعض النائمين حتى يقوم؟ و قوله «و التي لم تمت» عطف على «الأنفس» من باب عطف الخاص على العام، و إنما جاء بهذا العطف تمهيدا للتفضيل الذي ذكره بعد.

[٤٤] فَلْأَصْنَامِ، إِذْ لَا شَأْنَ لَهَا فِي الْكُونِ، بَقِيَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقُولُوا، أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهَا، لِأَجْلِ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧١

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)

أَى قَالُوا بِأَنَّهَا شَفَعَاءُ هُمْ، وَ مَعْنَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ مُسَلَّمَةٌ، فَهَمَّ إِنَّمَا اتَّخَذُوا غَيْرَهُ شَفِيعًا قُلُوبًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِي رَدِّ هَذِهِ الْحُجَّةِ أَوْ لَوْ كَانُوا أَى الْأَصْنَامِ لَا - يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الشَّفَاعَةِ وَلَا - يَعْقِلُونَ يَعْنِي حَتَّى فِي هَذِهِ الصُّورَةِ تَعْتَبِرُونَ الْأَصْنَامَ شَفَعَاءَ؟ وَ الْإِنْيَانِ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ لِلْأَصْنَامِ، لِتَوْحِيدِ السِّيَاقِ، مَعَ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ.

[٤٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا فَأَمْرًا بِيَدِهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَشْفَعَ لِأَحَدٍ أَوْ إِمَامًا أَوْ صَالِحًا أَنْ يَشْفَعَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مِنْ جَمَلِهِ أَمَلَاكُهُ لِمَلِكِهِ لِلشَّفَاعَةِ، فَلَا يَغْتَرُّ الْقَوْمُ، بِأَنْ يَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ بِزَعْمِ الشَّفَاعَةِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ، فَهوَ

المبدئ، و هو المعيد، و هو بيده الشفاعة وحده، حتى إن الأنبياء، و من إليهم (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴿١﴾).

[٤٦] وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخِيدَهُ بَأْن لَمْ يَأْتِ الذَّاكِرَ بِذِكْرِ غَيْرِهِ، مِنَ الْأَصْنَامِ اشْمَأَزَّتْ الْاَشْمِئِزَاتُ الْاِنْقِبَاضُ وَ النُّفُورُ عَنِ الشَّيْءِ، أَى نَفَرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَ جَعَلُوا لَهُ

(١) الأنبياء: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٢

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) شركاء، و إنما أتى بهذا الوصف للتلازم بين عدم الإيمان بالتوحيد و عدم الإيمان بالآخرة و إذا ذُكِرَ الأصنام الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أَى من دون الله إذا هُم يَشْتَبِهُونَ أى يفرحون، فإذا قال قائل «الله» نفروا، و إذا قال «اللات» فرحوا، و هذا عجيب إذ إنهم، كانوا يعبدون الله و الشركاء- فى زعمهم- فما الذى أوجب اشمئزازهم من «الله» و لم يوجب إلا فرحهم من «اللات» مثلاً؟.

[٤٧] قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ يَا اللَّهُ، وَ الميم عوض عن ياء النداء، يَا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَى يَا خَالِقَهُمَا وَ مَبْدِعَهُمَا، مِنْ فِطْرٍ بِمَعْنَى خَلَقَ، يَا عَالِمِ الْغَيْبِ الَّذِى غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ، سِوَاكَ كَانَ مَوْجُودًا غَيْرَ مَحْسُوسٍ، أَوْ مِمَّا سِوَجِدَ وَالشَّهَادَةَ أَى الشَّيْءِ الْمَشْهُودِ الْحَاضِرِ، الَّذِى يَحْسُ بِالْحَوَاسِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الشَّرْكِ، وَ سَائِرِ الْأُمُورِ، فَبِيَدِكَ الْخَلْقُ وَ الْمَعَادِ، وَ أَنْتَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَ فِي هَذَا تَعْرِيفٌ بِالْأَلْهَةِ الْبَاطِلَةِ، الَّتِى لَا خَلْقَ لَهَا وَ لَا عِلْمَ، وَ لَا تَمْلِكُ مِنَ الْإِعَادَةِ شَيْئًا.

[٤٨] وَ هُنَاكَ فِي الْقِيَامَةِ لَا يَنْفَعُ الْكُفَّارَ شَيْءٌ، فَلْيَتَّهَبُوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ هَا هُنَا قَبْلَ أَنْ يَبْلِسُوا وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ

العصيان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٣

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوْلَانُهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)

مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الْمَعَادِنِ وَ الثَّرَاوَاتِ جَمِيعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَثَالِ، وَ إِلَّا فَعِشْرَةٌ أضعافه أيضا بذلك الحكم لافْتَدَوْا بِهِ أَى جَعَلُوا مَالَهُمْ بَدَلًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَفْكَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَ يَخْلُصُوا مِنَ الْعِقَابِ، وَ لَكِنْ لَوْ فَضِرْ ذَلِكَ؟ هَلْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ؟ كَلَّا وَ يَدَا لَهُمْ أَى ظَهَرَ لَهُمْ هُنَاكَ مِنْ طَرَفِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ أَى صَنُوفًا مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَكُونُوا يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لَهُمْ، مِنْ كَثْرَتِهَا، وَ شِدَّةِ أَلْمَهَا وَ وَقَعَهَا.

[٤٩] وَ بَدَأَ لَهُمْ أَى ظَهَرَ لَهُمْ هُنَاكَ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا أَى جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الَّتِى كَسَبُوهَا، فَكَأَنَّ الْجَزَاءَ سَيِّئُهُ لَمَّا عَمِلَ الْإِنْسَانُ وَ حَاقَ بِهِمْ أَى حَلَّ وَ أَحَاطَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَقَدْ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْعَذَابِ، وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابُ، الَّذِى اسْتَهْزِئُوا بِهِ وَ ضَحِكُوا مِنْهُ.

[٥٠] وَ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ اللَّهَ عِنْدَ الشَّدَةِ، فَإِذَا تَفَضَّلَ عَلَيْهِمُ بِالرِّخَاءِ نَسُوهُ، وَ نَسَبُوا الْفَضْلَ إِلَى ذَكَائِهِمُ

الشَّخْصِ وَ عِلْمِهِمْ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ فَقْرٍ، أَوْ بَلَاءٍ، أَوْ عَدُوٍّ، أَوْ مَا أَشْبَهَ دَعَانَا اسْتَعَاثَ بِنَا لِكَشْفِهِ وَ إِنْقَاذِهِ مِنْهُ ثُمَّ إِذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٤

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٠ الى ٥١]

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١)

استجبنا دعاءه و حَوَّلْنَاهُ أَي أَعْطَيْنَاهُ نِعْمَةً مِمَّا أَي مِنْ طَرَفِنَا بِأَنْ بَدَلْنَا مَرَضَهُ صِحَّةً، وَ فَقَرَهُ غِنًى، وَ هَكَذَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ أَي أَعْطَيْتُ هَذَا الشَّيْءَ الْمَخُولَ إِلَى، وَ الْمُرَادُ بِهِ النِّعْمَةُ عَلَى عِلْمٍ مِنِّي، وَ لَا يَرْتَبِطُ بِالتَّقْدِيرِ، وَ إِعْطَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَقَدْ أَدَّتْ فَطْنَتِي وَ عَمَلِي إِلَى الْحَصُولِ عَلَى هَذَا بَلِّ هِيَ أَي هَذِهِ النِّعْمَةُ فَتَنَةٌ امْتِحَانٌ وَ اخْتِبَارٌ، لِيَعْرِفَ بِذَلِكَ قَدْرَ شُكْرِهِ، فَلَيْسَ حَصُولُهُ بِعَلْمِهِ، وَ إِنَّمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيَمْتَحِنَهُ، هَلْ يَبْقَى عَلَى عَهْدِهِ الَّذِي دَعَا اللَّهُ فِيهِ أَمْ لَا-؟ فَيَجَازِيهِ حَسَبَ عَمَلِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ أَي أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ النِّعْمَ مِنَ اللَّهِ- لَا مِنْ فَطْنَتِهِمْ- وَ أَنَّهَا لِلْاِخْتِبَارِ، لَا مَجْرَدِ نِعْمَةٍ فَحَسَبَ.

[٥١] قَدْ قَالَهَا أَي قَالَ مِثْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَ هِيَ «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ» كَمَا سَبَقَ مِنْ كَلَامِ قَارُونَ الَّذِي مِنْ قَبْلِهِمْ أَي مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ، فَكُلُّ ضَعِيفِ الْإِيمَانِ، إِذَا رَأَى النِّعْمَةَ ظَنَّهَا مِنْ فَطْنَتِهِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَي أَنَّ كَسْبَهُمْ لَمْ يَغْنِ عَنْهُمْ، وَ لَمْ يَفِدْهُمْ فِي دَفْعِ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

[٥٢] وَ إِذْ بَطَرُوا عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَ لَمْ يُوَدِّدُوا حَقَّهَا وَ شَكَرُهَا فَأَصَابَهُمْ أَي أَوْلَتْكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا أَي وَصَلَ إِلَيْهِمْ عِقَابُ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فِإِضَافَةِ «سَيِّئَاتٍ» إِلَى «مَا» مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٥

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْسِدُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)

الموصوف، أو أن المراد من «السيئات» العقاب، سمي سيئته، لمشاكلته للسيئته، مثل (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) «١» وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَعَاصِرِينَ لِلرَّسُولِ سَيَصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا كَمَا أَصَابَ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامَ وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَي أَنَّهُمْ لَا يَتِمَكُونُ مِنْ إِعْجَازِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، حَتَّى لَا يَتِمَكَّنَ مِنْ أَخْذِهِمْ وَ عِقَابِهِمْ، لِفِرَارِهِمْ مِنْ مَلِكِهِ، أَوْ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ نَفُوزِ إِرَادَتِهِ فِيهِمْ.

[٥٣] إِنْ هَؤُلَاءِ يَظُنُّونَ أَنَّ النِّعْمَةَ، إِنَّمَا أَتَتْهُمْ مِنْ عِلْمِهِمْ وَ فَطْنَتِهِمْ أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ أَي يُوَسِّعُهُ عَلَيْهِ وَ يَقْسِدُ أَي يُضَيِّقُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَلَيْسَ لِعِلْمِهِمْ مَدْخَلٌ فِي تَوْسِعَةِ الرِّزْقِ، وَ لِذَا نَرَى أَنَا سَا كَثِيرِينَ لَهُمْ فَوْقَ فَطْنَةِ أَوْلِيكَ، وَ ذِكَايَهُمْ، وَ مَعَ ذَلِكَ رِزْقَهُمْ ضَيِّقٌ لَا- وَ سَعُهُ فِيهِ، كَمَا نَرَى أَنَا سَا دُونَ فَطْنَتِهِمْ وَ عِلْمِهِمْ، وَ رِزْقَهُمْ أَوْسَعُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ الْبَسْطُ وَ الضَّيِّقُ لَآيَاتٍ أَي دَلَالَاتٍ دَالَّةٌ عَلَى وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَ إِنَّمَا خَصَّهُمْ لِأَنَّهُمْ الْمُتَمَتِّعُونَ بِالْآيَاتِ.

[٥٤] وَ إِذْ تَبَيَّنَ خَطَأُ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ الْبَابَ أَمَامَهُمْ مَفْتُوحٌ إِذَا أَرَادُوا الدِّخُولَ، وَ لَيْسَ الْعَاصِي آيسَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّائِبَ مَهْمَا كَانَ

(١) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٦

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

وَ أَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥)

عصيانه قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْعَصَاةِ، تَحْكِي لَهُمْ كَلَامِي الَّذِي وَجَّهْتُهُ إِلَيْهِمْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَارْتِكَابِ الْكُفْرِ وَ الْآثَامِ، وَ

الإسراف هو التعدي عن الحدود، فإن الكافر والعاصي يتعديان عن حدود العبودية، أمام الله سبحانه لا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَي لا تيأسوا من غفرانه وفضله، ف إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً لمن جاءه نادماً تائباً إِنَّهُ سبحانه هُوَ الْعَفُورُ لذنوب عباده الرَّحِيمُ بهم يتفضل عليهم بالرحمة فوق غفران ذنبهم.

[٥٥] وَ أَنْبِئُوا الْإِنَابَةَ، هي الرجوع عن الذنب، أي أيها العصاة، توبوا إلى الله رَبُّكُمْ وارجعوا إليه وَ أَسْلِمُوا لَهُ أَي انقادوا إليه بالطاعة، فيما يأمركم وينهاكم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا بِالْهَلَاكِ، أو في الآخرة في القبر، أو يوم القيامة ثُمَّ إِذَا جَاءَ الْعَذَابُ لَا تُنصِرُونَ أَي لا ينصركم أحد من الأصنام، أو أصدقاكم العصاة.

[٥٦] وَ اتَّبِعُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فمثلاً أنزل الله إباحة المنام، واستحباب العبادة في الليل، فاتبعوا الأحسن، هو العبادة- في المثال- وهذا على سبيل الترغيب، لا الإلزام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٧

[سورة الزمر (٣٩): آية ٥٦]

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ (٥٦)

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً أَي فجأة بدون إنذار سابق وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ به و بوقته، فإذا ترون أنفسكم فيه حيث لا مناص ولا خلاص، و عدم اتباع الأحسن لا يوجب ذلك، وإنما الموجب العصيان، فهذا مربوط بالآية السابقة، و إنما كرر «العذاب» لترتيب أمرين عليه، الأول أنهم لا يضررون، و الثاني إتيانه بغتة حين لا يشعرون.

[٥٧] أَنْبِئُوا إِلَى اللَّهِ وَ أَسْلَمُوا قَبْلَ إِيْتَانِ الْعَذَابِ، حتى لا تتحسروا- إن بقيتم على الكفر و العصيان- ل أَنْ لَا تَقُولَ نَفْسٌ أَي شخص، أو كراهة، أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي أَي يا قوم لي الحسرة، أو يا حسرتي احضري، فهذا وقتك، و التحسر، هو التأسف على ما فات، و الالف بدل من ياء المتكلم، قال ابن مالك:

و اجعل منادى صح، أن يصف لياكعبد عبدى عبد عبد عبد

عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ أَي على تفريطي و تقصيري في إطاعة أمر الله سبحانه، و الحال قد كنت عند الله سبحانه، و هذا كما يقول أحدنا: كنت إلى جنب العالم، و لم أتعلم منه، و الله سبحانه منزّه عن الجنب، و لكن قرب أحكام الدين و المرشدين إلى الإنسان، نزل منزلة القرب من الله تعالى تشبيها للمعقول بالمحسوس، لتقريب الذهن، و هذا هو المراد مما ورد عن الباقر عليه السلام، أنه قال «نحن جنب الله»
«١».

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص ١٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٨

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٧ إلى ٥٩]

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)

وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ «إن» مخففة من الثقيلة، أي يا حسرتي عليّ، إني كنت من المستهزئين بالرسول، و بأحكام الله.

[٥٨] أَوْ تَقُولَ نَفْسٌ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فِي الدُّنْيَا وَ أَرشَدَنِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ فقد أراكم الله الطريق، حتى لا- يكون لكم هذا العذر هناك.

[٥٩] أَوْ تَقُولَ نَفْسٌ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ الَّذِي يَحِيطُ بِهَا لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً أَي ليت لي رجوعاً إلى الدنيا فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ حتى إذا مت

ثانية، لا أرى العذاب، فإننا ننصحكم، بأن تنيبوا و تسلموا قبل أن تقولوا هذا القول، حيث لا ينفعكم، و يقال لكم (إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) (١).

[٦٠] و حينذاك يقال لهذا المتحسر و المتمنى بلى أى ليس كما قلت، فإن «بلى» تأتى غالبا لنفى ما تقدم، نحو (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى «٢» فإنك، لا- ترجع بعد أن ظهرت سيئاتك، حين ما أتاك الدليل و الحجة فلم تقبل قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأُمَمِ، فقد أوضحو لك الحجج و الأدلة فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ لَمْ تَقْبَلْهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ بِأَنْ اسْتَعْلَيْتَ

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) الأعراف: ١٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٧٩

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٠ الى ٦٢]

وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)

على أن تقبلها وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بالله و بما أنزل.

[٦١] وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ فزعوا أن له شريكا أو ولدا، أو أنه ليس بعادل، أو لم يرسل رسولا، أو ما أشبه وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ شديدة السواد، فقد تكبروا هنا- و مظهر الكبر هو الوجه- و هناك يعاقب الوجه بهذا العقاب الظاهر، لكل رأس يذل صاحبه و يهينه أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى أى محل ثوى، و هو المنزل، من ثوى، إذ اتخذ المنزل و المسكن لِلْمُتَكَبِّرِينَ استفهام يريد به الإنكار، أى أن جهنم مثاهم.

[٦٢] وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى خافوا، فلم يكفروا، و لم يعصوا بِمَفَازَتِهِمْ المفازة مصدر ميمي، أى بسبب فوزهم، حيث أنهم قد فازوا فى الدنيا بالإيمان و العمل الصالح، و يكون لهم فى الآخرة النجاة و الفلاح من النار و العذاب لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ أى العذاب الشدة وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما يراد بهم، إذ لا حزن لهم.

[٦٣] اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فِلا- شريك له فى خلق أو تكوين وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أى حفيظ حارس، فكما أن الوكيل يعمل للموكل،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٠

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٣ الى ٦٥]

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَ لَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)

و يحفظ ما يتعلق به، كذلك الله سبحانه يربى كل شىء و يكلؤه، بحراسته و حفظه، فليس للأصنام خلق و لا حفظ.

[٦٤] لَهُ مَقَالِيدُ جمع مقلاد، و هو المفتاح السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فمفتاح كل شىء بيده، مثلا: مفتاح المطر الريح، و مفتاح النبات المطر، و مفتاح المرض السموم، و هكذا، فإن كل شىء بيده مفتاحه، و هذا كناية عن أن الأمور الكونية، كلها بيده، و ليس للأصنام شىء وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ دلائله و حججه، بأن أنكروه، أو جعلوا له شريكا أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الذين يخسرون دنياهم و آخرتهم، أما الدنيا، فإن لهم فيها معيشة ضنكا، و أما الآخرة، فإن لهم فيها النار.

[٦٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهؤلاء الذين يعيرون عليك توحيدك لله سبحانه أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أصله «تأمروننى» ثم أدغمت نون الوقاية فى نون الجمع أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ فأنتم تريدون، أن أشرك بالله، كما أشركتم، و هذا جهل بالحقيقة، فإن الله لا شريك له، و

الأصنام جهل بالحقيقة، فإن الله لا شريك له، و الأصنام ليست بشيء؛ فإن مستواها أنزل من مستوى نبتة صغيرة، فكيف تجعلونها شريكه الله.

[٦٦] ثم أكد الله سبحانه شأن التوحيد، حتى أن كل أحد أشرك حبط عمله، و لو كان نبيا، و قد تقرر في الأدب و المنطق، أن صدق الشرطية بصدق التلازم، و إن استحال خارجية أحد الطرفين، كما لو قلت: لو جمع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨١

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٦٦ إلى ٦٧]

بَلِ اللَّهِ فَاغْبُذْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

النقيضان تغير وجه العالم، فإن كلا من جمع النقيضين، و تغير وجه العالم، هكذا، مستحيل، إلا أن القضية صادقة للتلازم، و من هذا الباب قوله سبحانه وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الرُّسُلِ لَئِنْ أَشْرَكْتَ بِاللَّهِ وَ دَعَوْتَ مَعَهُ غَيْرَهُ لَيَجْبُطَنَّ عَمَلُكَ وَ حَبَطَ الْعَمَلُ بَطْلَانَهُ، بأن لا يكون له ثواب، أى لم يكن لك أجر على أعمالك الحسنة وَ لَتَكُونَنَّ حِينَ أَشْرَكْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيَهُمْ، دنياهم و آخرتهم، و توجه الخطاب إلى الرسول، و سائر الرسل، لتنبه الناس، بأن الأمر هكذا، حتى بالنسبة إلى أعظم الناس.

[٦٧] بَلِ اللَّهِ وَحْدَهُ فَاغْبُذْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِنِعْمَائِهِ.

[٦٨] وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ أَى الْكُفَّارِ حَقَّ قَدْرِهِ أَى مَا عَظَمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، حيث جعلوا له شريكا، و أنكروا قدرته على البعث، و الحال أنه قادر على كل شيء وَ الْأَرْضُ جَمِيعًا بِجَمِيعِهَا، و جميع ما فيها قَبْضَتُهُ وَ الْقَبْضَةُ هِيَ مَا قَبْضَتْ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ كَفْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَى أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، كالشيء الذى فى قبضة الإنسان وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ أَى ملفوفات بعضها حول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٢

[سورة الزمر (٣٩): آية ٦٨]

وَ نُفِّخْ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخْ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)

بعض، و كلها فى يده اليمنى، و إنما قال «بيمينه» لأن اليمين أقدر على القبض، و هذا من باب التشبيه، يعنى أن الكون كله تحت قدرته القوية، حتى أن السماوات بالنسبة إليه، كالثوب المطوى، فى يد أحد أفراد الإنسان، و أن الأرض بالنسبة إليه، كالشيء المقبوض فى الكف، و هذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس للتقريب إلى الذهن، كما يقال: أن المملكة خاتم فى إصبع فلان، يراد قدرته الزائدة على إدارتها، كقدرة الشخص على إدارة خاتمه، و إنما قال «يوم القيامة» مع أن السماوات و الأرض، هكذا، بالنسبة إليه، قبل ذلك؟ لأن الكلام حول قدرة الله سبحانه، على إعادة الأرواح إلى الأجساد، فى ذلك اليوم، فالآية بصدد أن قدرته تعالى فى ذلك اليوم، بهذا القدر الهائل، فكيف لا يقدر على بعث الناس، و قد فهم- بالتلازم- بطلان الشركاء، إذ الكون كله تحت قدرته وحده بلا شريك و لا ظهير سُبْحَانَهُ أَى أسبحه سبحانه، و أنزهه تنزيها وَ تَعَالَى أَى أنه رفيع، فإن الفعل منسلخ عن معنى الماضى، كما فى سائر صفات الذات عَمَّا يُشْرِكُونَ أَى عن الأصنام، التى يشركونه بها.

[٦٩] وَ نُفِّخْ فِي الصُّورِ قَدْ تَقَرَّرَ فِي الْبَلَاغَةِ، أن المضارع المتحقق وقوعه، يؤتى بصيغة الماضى، لإفادة أنه لمعلومية وقوعه، كأنه قد وقع و انقضى، و الصور بوق ينفخ فيه إسرافيل مرتين، مرة علامة لانقضاء العالم، و رحيل الجميع منه إلى الآخرة، و بذلك يموت الناس كلهم، و مرة علامة، لابتداء عالم الآخرة، و بذلك يحيى الناس كلهم، و هذا كالذى يصنعه أمير القافلة، حين إرادة الرحيل، و إرادة النزول، من النفخ فى البوق، و المراد بهذا النفخ هنا هو الأول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٣

[سورة الزمر (٣٩): آية ٦٩]

وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشَّهَدَاءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩)

فَصَيِّعَقُ أَي مَاتَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ غَيْرِهِمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِ وَ غَيْرِهِمْ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ كَالْمَلَائِكَةِ الْأَرْبَعَةِ، جِبْرَائِيلَ، وَ مِيكَائِيلَ، وَ إِسْرَافِيلَ، وَ عِزْرَائِيلَ، وَ غَيْرِهِمْ، وَ التَّفْصِيلُ فِي كِتَابِ «الْبَحَارِ» ثُمَّ تُفَوِّحُ فِيهِ أَي فِي الصُّورِ نَفْخَهُ أُخْرَى حِينَ إِرَادَةِ ابْتِدَاءِ الْقِيَامَةِ، وَ الشَّرُوعِ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ فَإِذَا هُمْ أَي الْبَشَرُ وَ الْمَلَائِكَةُ، وَ غَيْرِهِمْ قِيَامًا أَي قَائِمُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَ هُوَ جَمْعُ «قَائِمٍ» يُنْظَرُونَ إِلَى الْمَحْشَرِ، مُنْتَظِرِينَ مَاذَا يَفْعَلُ بِهِمْ؟ وَ قَوْلُهُ «فَإِذَا هُمْ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى سُرْعَةِ قِيَامِهِمْ عَقِبَ النِّفْخَةِ، فَإِنَّ الْإِحْيَاءَ فَجَائِي.

[٧٠] وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا أَي بَعْدَلَهُ سُبْحَانَهُ، كَمَا يَقَالُ: أَشْرَقَ الْبَلَدُ بِنُورِ فُلَانٍ إِذَا أَخَذَ بِالزَّمَامِ، حَيْثُ أَنَّهُ يَعْدَلُ وَ يَحْسَنُ فِي مَقَابِلِ سَالِفِ الْأَيَّامِ، الَّتِي كَانَتِ الْأَرْضُ مَظْلَمَةً، بِظُلْمِ الظَّالِمِينَ وَ وُضِعَ الْكِتَابُ أَي وَضِعُوا الْكِتَابَ فِي الْوَسْطِ، وَ هُوَ كِتَابُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، وَ كَأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي زَاوِيَةٍ بَعِيدَةٍ، ثُمَّ أَتَى بِهِ لِلْمَحَاسِبَةِ، وَ هَذَا كَمَا يَقَالُ لِلْمَحَاسِبِ: ضَعِ الدَّفْطَرَ حَتَّى نَحَاسِبَ، وَ الْكِتَابُ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ كِتَابَ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ وَ جِيءَ فِي سَاحَةِ الْمَحَاكِمَةِ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشَّهَدَاءِ جَاءَ بِهِمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، لِيَحَاكِمُوا الْأُمَّمَ، وَ يَشْهَدُوا عَلَيْهِمَ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٤

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧٠ الى ٧١]

وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَ لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)

فَالْمُرَادُ بِالشَّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْعِبَادِ بِمَا عَمِلُوا، وَ هُمْ صَالِحُوا كُلِّ أُمَّةٍ، إِذْ كَانُوا فِي وَسْطِ الْأُمَّةِ نَازِلِينَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، فَيَشْهَدُ الصَّالِحُ الْفُلَانِي، بِأَنَّ الْقَوْمَ، كَانُوا يَضِلُّونَ، وَ الصَّالِحُ الْفُلَانِي، بِأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَشْرِبُونَ الْخَمْرَ، وَ هَكَذَا وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ أَي حَكَمَ اللَّهُ، وَ مَنْ جَعَلَهُ حَاكِمًا هُنَاكَ «بَيْنَهُمْ» أَي بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ الْعَدْلِ بِإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، بِإِحْيَاءِ وَ لَا جُورَ وَ هُمْ أَي الْخَلْقُ لَا يُظْلَمُونَ فِي الْحُكْمِ بِأَنَّ يَنْقُصَ مِنْ حَقِّ، أَوْ يَزَادَ اعْتِبَاطًا.

[٧١] وَ وُفِّيَتْ أَي أُعْطِيَتْ وَافِيًا كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ أَي يُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ وَافِيًا، فَالْمَحْسَنُ يُوفَّى بِالْإِحْسَانِ، وَ الْمَسِيئُ بِالنِّكَالِ وَ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ فِي الدُّنْيَا، فَيَجَازِيهِمْ حَسَبَ مَا عَمِلُوا، بِإِحْيَاءِ أَوْ زِيَادَةٍ وَ نَقِيصَةٍ.

[٧٢] وَ بَعْدَ تَمَامِ الْحِسَابِ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا سَاقِهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْجَبْرِ وَ الْعَنْفِ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا جَمْعُ زَمْرَةٍ، وَ هِيَ الْفُوجُ، أَي يَسَاقُونَ زَمْرَةً فِزْمَرَةً، وَ فُوجًا فُوجًا، كُلُّ فُوجٍ مُشْتَمِلٌ عَلَى مُتَشَابِهِي الْأَعْمَالِ، كَالزَّنَانَةِ وَ الْمُقَامَرِينَ، وَ هَكَذَا حَتَّى إِذَا جَاؤَهَا أَي وَصَلُوا إِلَى جَهَنَّمَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا لَهُمْ، وَ هِيَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، حَتَّى يَدْخُلَ كُلُّ فُوجٍ مِنَ الْبَابِ، الْمُنَاسِبِ بِحَالِهِمْ وَ الْمَقْرَرِ لَهُمْ وَ قَالَ لَهُمْ أَي لِأَوْلَئِكَ الْكُفَّارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٥

[سورة الزمر (٣٩): آية ٧٢]

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

خَزَنَتُهَا جَمْعُ خَازِنٍ، وَ هُوَ الْمُوَكَّلُ بِالشَّيْءِ، أَي الْمُوَكَّلُونَ بِجَهَنَّمَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَيِهَا الْمَجْرَمُونَ رُسُلٌ مِنْكُمْ أَي مِنْ جِنْسِكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ أَي يَقْرَأُونَ عَلَى مَسَامِعِكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ أَدْلَتَهُ وَ حُجْجَهُ وَ يُنذِرُونَكُمْ أَي يُخَوِّفُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا أَي مِنْ مَشَاهِدَةِ هَذَا الْيَوْمِ وَ عَذَابِهِ، وَ هَذَا الِاسْتِفْهَامُ مِنْهُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَ التَّبْكِيتِ، وَ إِلا فَالْخَزَنَةُ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ قَالُوا أَي قَالَ الْكُفَّارُ فِي جَوَابِ الْخَزَنَةِ بَلَى قَدْ جَاءَ تَنَا رَسُلَ رَبِّنَا، وَ خَوْفُونَا مِنْ هَذَا الْيَوْمِ وَ لَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ فَإِنَّا قَدْ كَفَرْنَا، فَثَبَّتْ فِي حَقِّنَا مَا قَالَهُ سُبْحَانَهُ، بِأَنَّ مِنْ كُفْرِ يَعَاقِبُ بِالنَّارِ، وَ هَذَا، كَمَا يَقُولُ أَحَدُنَا «هَكَذَا مُصِيرِي» فِي يَأْسٍ وَ انْقِطَاعٍ، وَ إِنَّمَا لَمْ يَقُولُوا «عَلَيْنَا» مَكَانَ «عَلَى الْكَافِرِينَ»

لإفادة، أن سبب عذابهم، هو كفرهم، فهو حكم مع ذكر العلة.

[٧٣] وحينذاك قيلَ و القائل الخزنة اذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ أى ادخلوها من أبوابها خالدينَ فيها أى فى حال كونهم باقين فيها أبد الأبدين فَبُئْسَ هذا المحل - فى جهنم - مَثْوَى أى محل إقامة الْمُتَكَبِّرِينَ الذين تكبروا فى الدنيا عن الحق، حتى صاروا إلى هذا المكان. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٦

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧٣ إلى ٧٤]

وَ سَيَقِى الدِّينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)

[٧٤] وَ سَيَقِى الدِّينَ اتَّقُوا رَبَّهُمْ أى خافوا فى الدنيا عذابه، فأطاعوه، فيما أمر و نهى، و إنما يساقون بإكرام و إعظام إلى الْجَنَّةِ زُمَرًا زمرة زمرة، كل فوج فى أشكالهم، فالمصلون صلاة الليل زمرة، و التالون للقرآن زمرة، و هكذا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا أى وصلوا إليها وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ليدخل كل فوج من الباب المناسب لعمله المعد له، و للجنة ثمانية أبواب و الإتيان بالواو فى «و فتحت» دون «فتحت» فى الآية السابقة للتفنن الذى هو نوع من البلاغة وَ قَالَ لَهُمْ أى لأهل الجنة خَزَنَتُهَا جمع خازن، و هو الموكل بالشىء سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إما بقصد التحية، و إما بمعنى، أن السلامة من الآفات و البليات عليكم، تظللكم دائماً، و لذا لم يقل «لكم» فإن «على» تفيد معنى الإحاطة و الشمول طُبْتُمْ أى صرتم طبيين هنا بسبب أعمالكم الطيبة فى دار الدنيا فَادْخُلُوهَا أى ادخلوا الجنة، من أبوابها خالدينَ أى فى حال كونكم، دائمين فيها أبد الأبدين، لا- خروج لكم عنها، و كان الإتيان بواو العطف فى الجملتين، لإيجاد فراغ فى الذهن، حتى يبقى منتظرا لأصناف الكرامة، و ألوان اللذة، فليس الأمر ينتهى بقول الخزنة، و إنما، ل «حتى» جواب طويل عريض باق مدى الأبد.

[٧٥] وَ قَالُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ بَعْدَ دُخُولِهَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقْنَا وَعَدَّهُ أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٧

[سورة الزمر (٣٩): آية ٧٥]

وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) صدق فى وعده لنا بأننا إن عملنا صالحا أدخلنا الجنة وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ أى أرض الجنة، نقلها إلينا، كالميراث الذى ينقل إلى الوارث، و لعل التعبير بلفظ الأرض، لبيان أنهم جازوا أرض الجنة، و غرفها، حيث قالوا بعد ذلك نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ أى نأخذ المنزل من قصورها، أى محل شئنا فما هو مقدر لنا- و فى ذلك إشارة إلى سعة قصورهم، و أرض الجنة لكل إنسان- و «نتبوا» من «تبوا» بمعنى اتخذ المنزل، أصله «باء» إذا رجع، إذ المنزل مرجع الإنسان، كلما خرج عاد إليه فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ بالخيرات، الجنة.

[٧٦] وَ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ قد أحاطوا بعرش الله سبحانه، و العرش هو موضع جعله الله سبحانه محلا تشريفيا، أحاطه بعنايته و لطفه، و جعله مصدر أمره و نهيه، كما أن البيت الحرام فى الدنيا محل تشريفى له سبحانه، ذاك بالنسبة إلى الملائكة، و هذا بالنسبة إلى البشر، و يلتذ المؤمنون بهذه الرؤية، كمن يلتذ إذا نظر إلى قصر الملك المحاط بالجيش، و رجال التشريفات، فإن الإنسان يتقوى روحيا إذا نظر إلى محل القوة و العزة، و هم يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى ينزهونه عما لا يليق به بسبب الحمد، فإذا قال الإنسان «سبحان الله» كان تنزيها فقط، أما إذا قال «الحمد لله» كان تحميذا و تنزيها، فإن وصف الممدوح بالجميل، حمد و تنزيه له عن القبيح، بخلاف التنزيه عن القبيح، فإنه ليس حمدا-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٨

كما مر- وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين الناس بِالْحَقِّ و هذا كموجز لما تقدم للتركيز عليه وَ قِيلَ و القائل كل من هنالك الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ و هذا هو منتهى أهل التقوى فى الدنيا، و أكرم به من عاقبه جميلة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٨٩

٤٠ سورة غافر مكية / آياتها (٨٦)

وتسمى أيضا بسورة «المؤمن» لاشتغالها على لفظي «غافر» و «مؤمن»، وهي كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث، الألوهية، والرسالة، والمعاد، ولما ختمت سورة «الزمر» بالحمد لله رب العالمين، ابتدأت هذه السورة بذكر صفاته سبحانه، التي بها استحق الحمد.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله، المستجمع لجميع صفات الكمال، شعارا للمؤمن في مقابل شعار الكفار الذين كانوا يبتدئون «باسم اللات» ونحوه، و شعار النصارى الذين يبتدئون باسم «الأب و الابن و روح القدس» وهكذا سائر الكفار و المنحرفين، و قد اعتادوا في زماننا أن يقولوا «باسم الشعب» في الحكومات الديمقراطية ..

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصفان من مادة واحدة، إفادة لقوة الرحمة، في ذاته سبحانه، كما قال (وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) «١».

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٠

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلْوِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يُغْرَزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤)

[٢] حم «حاء» و «ميم» و جنسهما من سائر حروف الهجاء، هي مادة هذا القرآن الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله، أو هو رمز بين الله و رسوله، أو أن معناه، الحميد المجيد، فهو ابتداء بعد البسملة، باسمين من أسمائه سبحانه، على طريق الرمز، أو غير ذلك.

[٣] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ أى هذا هو إنزال القرآن من قبل الله العزیز الغالب سلطانه العليم الذى يعلم كل شىء، فيعلم الصالح من غيره، أو أن «تنزيل الكتاب» مبتدأ «من الله» خبره.

[٤] غَافِرِ الذَّنْبِ صفته، ل «الله» أى أنه سبحانه يغفر ذنوب عباده، و هذا على نحو القضية الطبيعية، لا أن معناه أنه سبحانه، يغفر كل ذنب و قَابِلِ التَّوْبِ جمع توبة، كدوم جمع دومة، أو مصدر من تاب يتوب توبا، و المعنى إن من تاب و رجع إليه سبحانه، قبل توبته، و لم يرد عن بابه خائبا شديد العقاب لمن كفر و عصى ذى الطلؤل الطول هو الإنعام الذى تطول مدته لا إِلَهَ إِلا هُوَ فلا شريك له إِلَهِي الْمَصِيرُ أى المرجع فى المعاد، فهو إله واحد له الفضل، يغفر لمن استغفره، و يعاقب من عصاه، و بيده العاقبة.

[٥] و إذ كان الإله واضحا وجوده و صفاته، من الآيات الكونية، فإنه ما يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ الدالّة على وجوده و صفاته إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩١

[سورة غافر (٤٠): آية ٥]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥)

فإنهم يخاصمون حول أصل وجود الإله، أو صفاته، و إلا فالمصنف لا بد و أن يستدل من الآيات الكونية على وجوده سبحانه فلا يُغْرَزُكَ يا رسول الله تَقَلُّبُهُمْ أى تقلب الكفار و تصرفهم فى البلاد بالعهز و التجارة، بأن يوجب هذا التصرف للمشاهد شكاً فى أنه لو كان هناك إله لأخذهم أخذ مقتدر، و ضيق عليهم المسالك، فهو يغتر، و يخدع- عن الحقيقة- بهذا التقلب و التصرف، فالخطاب، و

إن كان حسب الظاهر متوجها إلى الرسول، إلا- أنه في الحقيقة لإيقاظ الناس عامة، أو أن المخاطب هو العام، أي «لا يغررك أيها الناظر إلى الكفار».

[٦] فإنهم إنما يتقبلون بمهله الله لهم حتى يستنفدوا كل أمرهم، و تظهر ضمائرهم، و هناك الأخذ الشديد، كما كان يفعل سبحانه بالأمم السابقة، فقد كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أَى قَبْلَ كَفَارِ مَكَّةَ قَوْمُ نُوحٍ رَسُولِهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَذَّبَتْ الْأَحْزَابُ أَى الْأُمَمَ الَّذِينَ تَحْزَبُوا عَلَى الرِّسْلِ، رَسَلَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ أَى مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ، كَعَادَ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ لُوطٍ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ، وَ غَيْرِهِمْ وَ هَمَّتْ أَى قَصَدَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ بِرَسُولِهِمْ قَصْدَ سُوءٍ لِيَأْخُذُوهُ أَى يَأْخُذُوا الرِّسُولَ، لِلْحَبْسِ أَوِ الْقَتْلِ أَوِ النَّفْيِ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ أَى خَاصَمُوا رَسَلَهُمْ بِمَجَادَلَاتٍ وَ مَحَاوِرَاتٍ بَاطِلَةٍ، حَوْلِ الْأُلُوهِيَةِ وَ الرِّسَالَةِ وَ الْمَعَادِ لِيُدْحِضُوا أَى يَبْطَلُوا بِهِ أَى بِسَبَبِ الْجِدَالِ الْبَاطِلِ الْحَقَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٢

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦ الى ٧]

وَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَآغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) الذى أتى به الأنبياء فأخذتْهم أَى أخذت تلك الأمم بالعقاب، بعد أن لم يبق رجاء فى هدايتهم فكيف كان عقاب أى عقابى لهم؟ و حذف ضمير المتكلم تخفيفا، و هذا تهديد لكفار مكة، بأنهم، إن تمادوا فى غيهم، كان مصيرهم، كمصير أولئك الأقوام، و الاستفهام تقريرى للإيقاظ و الإلفات.

[٧] و كما ثبتت كلمة العذاب على أولئك الأمم الذين كذبوا الرسل كذلك حقت كلمة ربك أى ثبتت كلمة ربك بالعذاب، بأن قال «سأعذبهم» و ستنطبق هذه الكلمة عليهم على الذين كفروا من أهل مكة، يا رسول الله أنهم أصحاب النار إما بمعنى، لأنهم أصحاب النار، فلذا ثبت فى حقهم عذاب الدنيا، أو «أنهم» تأكيد «حقت» فيكون التشبيه فى «كذلك» من حيث أصل العذاب، و إن كان المراد بالعذاب فى الأمم السابقة عذاب الدنيا و الآخرة، و فى هذه الأمة فى الآخرة فقط.

[٨] إن أقرب الملائكة إلى الله سبحانه منزله هم مؤمنون بالله، فكيف لا- يؤمن هؤلاء؟ و أنهم يستغفرون للمؤمنين، فمن آمن فاز باستغفارهم، فليستبشر المؤمنون الذين يحملون العرش و هم جماعة من الملائكة، خلقهم الله سبحانه، واضعين العرش على أكتافهم، زيادة فى الهيبة و الجلال، كما لو شاهد الإنسان سرير ملك محمولا على جماعة من الأشراف، و من الواضح أن الملائكة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٣

لا- يتأذون بذلك، كما أن العرش إنما هو محل شرفه الله سبحانه، لا أنه محله؛ فإنه منزله عن المكان و من حوله أى حول العرش من الملائكة يسبِّحون بحمْدِ رَبِّهِمْ أَى يَنْزَهُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، تَنْزِيهَا بِالْمَدْحِ، فَإِنْ مِنْ قَالَ زَيْدٌ- مِثْلًا- شَجَاعٌ كَانَ حَامِدًا لَهُ وَ مَنْزَهَا لَهُ عَنِ الْجَبَنِ، بِخِلَافٍ مِنْ قَالَ أَنَّهُ لَيْسَ بِجَبَانٍ، فَإِنَّهُ تَنْزِيهِهُ فَقَطْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَى بِرَبِّهِمْ مُعْتَرِفِينَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ، وَ لَعَلَّ تَأْخِيرَ الْإِيمَانِ، عَنِ التَّسْبِيحِ لِأَجْلِ أَنْ فِيهِمْ أَظْهَرُ، فَإِذَا رَأَوْهُمْ أَحَدٌ، سَمِعَ مِنْهُمْ التَّسْبِيحَ، أَمَا الْإِيمَانُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ بِالْمَلَاذِمَةِ وَ يَسْتَتَغْفِرُونَ أَى يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ الْغُفْرَانَ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، بِأَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ زَلَاتِهِمْ، وَ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، وَ يَقُولُونَ، إِذْ يَرِيدُونَ الْاسْتِغْفَارَ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً أَى وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ كُلَّ شَيْءٍ، فَارْحَمْ الْمُؤْمِنِينَ وَ اغْفِرْ لَهُمْ وَ عِلْمًا فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَطِيعُونَ، وَ إِنَّمَا يَزِلُّهُمْ الشَّيْطَانُ، أَوِ الْمَرَادُ، نَطْلُبُ مِنْكَ الْغُفْرَانَ عَلَى عِلْمِكَ بِزَلَاتِهِمْ، كَمَا يَقَالُ «عَلَى عِلْمِكَ فَاعْفُ» يَعْنِي مَعَ أَنَّكَ عَالِمٌ نَطْلُبُ الْعَفْوِ، فِي مَقَابِلِ طَلْبِ الْعَفْوِ مِنَ الَّذِي لَا- يَعْلَمُ، فَإِنَّهُ أَسْرَعُ عَفْوًا، إِذْ لَا يَعْلَمُ بِالتَّفَاصِيلِ فَآغْفِرْ يَا اللَّهُ لِلَّذِينَ تَابُوا عَنِ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ أَى طَرِيقَكَ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ وَ قِهِمْ أَى وَ احْفَظْهُمْ، مِنْ «وَقَى» «يَقَى» وَ الْأَمْرُ «قَى» فَالْوَاوُ عَاطِفَةٌ عَذَابَ الْجَحِيمِ حَتَّى لَا يَعَذَّبُوا بِهَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٤

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٨ الى ٩]

رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

[٩] يَا رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ أَي ادخل المؤمنين جَنَّاتٍ عَدْنٍ أَي بساتين إقامة، من «عدن» إذا أقام الَّتِي وَعَدْتَهُمْ عَلَى ألسنة الأنبياء، ولعل هذا الدعاء بمعنى أثبتهم على الإيمان حتى يدخلوا الجنان، وإلا فالله سبحانه، يفى بوعده حتما، فلا حاجة إلى الطلب، أو أنه على طريق الضراعة والانتقطاع وادخل الجنات مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ أَي نسلهم، ليكمل أنسهم بذلك، فإن الإنسان، عند أحبائه آنس، ومعنى من صلح، من آمن وعمل صالحا إِنَّكَ يَا رَبُّ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ عَلَى مَا تَشَاءُ الْحَكِيمُ فِي أفعالِكَ تفاعلها، حسب الصلاح والحكمة، ولقد كان من الصلاح، أن وعدتهم بالجنة، فأكمل ذلك لهم، بإدخالهم فيها.

[١٠] وَقِهِمُ أَي احفظهم، يا رب من السَّيِّئَاتِ حتى لا- يعملوا في الدنيا ما يوجب سخطك، وعلى هذا فجملة وَمَنْ تَقِ مستأنفة للمشابهة، أو المراد قهم جزاء السيئات، أو أنواع العذاب التي هي سيئات، وعلى هذا فجملة «و من تق» تتمه وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ أَي تحفظه من جزاء المعاصي يَوْمَئِذٍ أَي فِي الآخرة فَقَدْ رَحِمْتَهُ رَحْمَةً عَظِيمَةً وَذَلِكَ أَي حفظهم من العذاب هناك هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي لا فوز مثله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٥

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٠ الى ١١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذِ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأَخْيَبْنَا اثْنَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١)

[١١] وَإِذْ يرون الكفار النار، و جزاء أعمالهم في الآخرة، يغضبون على أنفسهم، لم فعلوا ما يستحقون به هذه النار والنكال؟ فيناديهم الملائكة أن غضب الله عليكم بسبب أعمالكم أشد من غضبكم على أنفسكم! وهذا لتأليمهم روحيا، فإن الإنسان إذا علم غضب الملك العظيم عليه يتألم كثيرا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ من قبل الملائكة يوم القيامة لَمَقْتُ اللَّهِ أَي غضب الله عليكم أَكْبَرُ أَي أشد وأكثر مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ أَي من غضبكم على أنفسكم، وذلك المقت إِذِ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ أَي إن هذين المقتين، إنما كانا من وقت دعيتم إلى الإيمان فكفرتم.

[١٢] قَالُوا وَهُمْ مَعْتَرِفُونَ أَذْلاء، قد رفع عن أعينهم الغشاء، يَا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ موتا حين كنا ترابا، وموتا بعد الحياة الدنيوية، أي جعلنا ميتا مرتين، والإماتة بالنسبة إلى الموت الترابي، وإن كان خلاف المنصرف، إلا أنه غير بعيد، بالنسبة إلى ما ورد في أحوال الإنسان، حيث لا- موت جديد، بعد الموت الدنيوي، وما ورد أنه بالنسبة إلى الرجعة، فالظاهر أنه من باب المصادق، وإلا فالكفار كلهم لا يجبون الرجعة، و ظاهر الآية أنه بالنسبة إلى الكلى وَأَخْيَبْنَا اثْنَيْنِ أَي حياتين، حياة بالتولد في الدنيا، وحياة بعد الموت في القيامة، وإنما يقول الكفار ذلك خضوعا وتخشعا، كالمجرم الذي يعترف بذنبه تخشعا، ويريدون بذلك اعترافهم، بأن أزمه الأمور بأيدي الله سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٦

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٢ الى ١٣]

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخِدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣)

فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا، حيث كفرنا بك وعصينا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ من حالة القيامة والنار، إلى الدنيا لنعمل صالحا مِنْ سَبِيلٍ وهذا طلب بتأدب خوفا ووجلا من الطلب الصريح.

[١٣] لكن لا- مجال لهم فى الخروج، و يقال: (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) «١» (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) «٢» ثم يقال لهم ذلكم العذاب الذى حل بكم، و «كم» خطاب بإنه إذا دُعِيَ اللَّهُ وَخِيْدَهُ و إنه لا إله إلا هو، كما كان يدعو المؤمنون كَفَرْتُمْ و أنكرتم أن يكون واحدا و إن يُشْرِكُ بِهِ أى بالله تُؤْمِنُوا بِالْأَلْهَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ كما كان يفعل المشركون فَالْحُكْمُ أى فصل هذه القضية، و الحكم عليكم فى الآخرة بالنار و العذاب لِلَّهِ الْعَلِيِّ الرَّفِيعِ الذى لا- شريك له، فهو أرفع من كل شىء الكبير الذى لا أكبر منه، فى ذاته و صفاته.

[١٤] ثم يأتى السياق لبيان بعض آياته سبحانه الدالة على وجوده، و سائر صفاته هُوَ الَّذِى بُرِيكُم آيَاتِهِ أى أدلته الكونية، الدالة على ذاته و صفاته، و معنى الإرائة إيجادها، كالليل و النهار و المطر، أو إلفاتكم إليها، و إن كانت مستقرة ثابتة و يُنَزَّلُ لَكُمْ أىها البشر من السَّمَاءِ رِزْقًا

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) الأنعام: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٧

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٤ الى ١٥]

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥)

و هو المطر الموجب لكل رزق، أو المراد أنه سبحانه يقدر فى السماء أرزاقكم، فينزل الأمر به من هناك و ما يَتَذَكَّرُ أى يلتفت إلا من يُنَبِّئُ أى يتوب، فإن التذکر المفيد، إنما هو تذکر التائب دون غيره.

[١٥] فَادْعُوا أَيُّهَا الْبَشَرُ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى فى حال كونكم توجهون عبادتكم إليه، و تجعلون دينكم له دون غيره و لَوْ كَرِهَ إِخْلَاصَكُمْ وَ تَوْحِيدَكُمْ لِلَّهِ الْكَافِرُونَ فلا تبالوا بهم.

[١٦] إنه سبحانه رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ أى يرفع درجات الناس فى الجنة، فيده الملك و الملكوت، و مثله يحق أن يعبد دون سواه، أو إن المعنى أنه سبحانه صاحب درجات رفيعة، و المراد بالدرجات الصفات، فهو ذو العلم الرفيع و الإحسان الرفيع، و الحلم الرفيع، و هكذا، فلا- يبلغ شأنه شىء من الأصنام، أو غيرها، حتى يجعل شريكا له، و هذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ذُو الْعَرْشِ فله عرش السلطة، و حده بلا شريك و منازع يُلْقِي الرُّوحَ أى الحياة للبشرية، التى هى الوحي، فقد شبه الوحي بالروح، تشبيها بالروح الذى به حياة الإنسان، و فى الوحي حياته الواقعية من العمى و الضلالة، أو المراد الروح لنبوة الشخص من أمره أى أن الإلقاء صار من أمره لا جبر له فيه، إذ قد يلقي الإنسان شيئا مجبورا من أمر غيره عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، و مشيئته سبحانه باعتبار صلاحية النبي لذلك،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٨

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٦ الى ١٧]

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ يَوْمَ ذَلِكَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)

لمؤهلاته النفسية لِيُنذِرَ اللَّهُ بسبب الإلقاء، أو ينذر الرسول يَوْمَ التَّلَاقِ أصله «التلقى» حذف الياء تخفيفا، حيث يلتقى فيه أهل السماء بأهل الأرض، كما عن الصادق عليه السلام «١».

[١٧] يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ أى ظاهرون من قبورهم لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ أى من الناس شىء فكل شىء منهم من الأجساد، و الأعمال، و

النوايا، منكشفة لديه سبحانه، و يقول الله سبحانه، حينذاك لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ تقريرا للذين اغتصبوا الملك في الدنيا، و لمن أشركوا بالله بزعم أن الله شريكا في الملك، و يأتي الجواب من قبله أو قبل صلحاء الناس و الملائكة لِلَّهِ الْوَاحِدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ الْقَهَّارِ الَّذِي يَقهر الكون حسب ما يشاء.

[١٨] الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ فالمحسن يجزى بالإحسان، و المسىء بالإساءة لا ظلم على أحد اليوم فلا ينقص من ثواب المحسن و لا- يزداد على عقاب المجرم إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ يعنى إن الآخرة قريبة، أو إن حساب الخلائق فى ذلك اليوم، يكون سريعا، فلا مجال للّف و الدوران، كما فى الدنيا، حتى يحتمل المجرم التملص.

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٥٩٩

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ١٩]

وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)

[١٩] وَ أَنْذَرَهُمْ يا رسول الله، أى خوّفهم من العذاب يَوْمَ الْآزِفَةِ من أزف بمعنى دنى، و يسمى يوم القيامة، بالآزفة لدنوها، و الآزفة ليست رفعة لليوم- فى المقام- و إنما مضاف إليها، نحو يوم القيامة إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ فإن الإنسان إذا خاف كثيرا حدثت فيه الحرارة الزائدة، و لذا تنتفخ الرئة، و تكبر لجلب الهواء الكثير لتبريد القلب، فتضغط على القلب، و ترفعه عن موضعه، فيأتى قريب الحنجرة كاطمين أى فى حال كونهم امتلأوا غما و غيضا، لكنهم كظموه و أخفوه، فلم ينطقوا بشىء خوفا و رعبا، يقال: كظم فلان غيظه إذا أخفاه ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان من صديق هناك، إذ أصدقاؤهم فى الدنيا يفرون منهم و لا شَفِيعٍ يُطَاعُ فإن هناك لا شفاعه إلا لمن أذن له الرحمن، و الإتيان ب «يطاع» لبيان النتيجة، أى لا خلاص لهم، و إلا فهناك لا شفيع لهم إطلاقا.

[٢٠] و قد علم سبحانه جميع أعمالهم و نياتهم، فيجازيهم حسب الأعمال يَعْلَمُ تعالى خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ أى خيانه العين، بأن تنظر إلى ما حرمه الله تعالى، و إنما سمي خيانه، لأنها تنظر بسرقة و خيانه، لثلا يعرف الناس أنه نظر إلى الشىء الفلانى و يعلم ما تُخْفِي الصُّدُورُ و تنويه فهو مطلع على النيات، و إنما نسب الاختفاء إلى الصدور، لأن القلب فى الصدر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٠

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٠ الى ٢١]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٦٤٩

وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوْ لَمْ يَسْتَعِزُّوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١)

[٢١] و اللَّهُ يَفْضِي و يحكم فى يوم القيامة بِالْحَقِّ فهو القاضى الوحيد هناك و الأصنام الَّذِينَ يَدْعُونَ أى يدعوهم المشركون آلهة مِنْ دُونِهِ من دون الله لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إذ لا حكم لهم هناك، لا بحق، و لا بباطل، و الإتيان، للأصنام بضمير العقلاء، لتوحيد السياق بين كلام أصحابها، و كلام الله و المؤمنين إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الَّذِي يسمع كل شىء البصير الذى يرى كل مرئى، أما الأصنام فهى جمادات، لا تسمع و لا تبصر، فكيف تتمكن أن تحكم؟

[٢٢] أَوْ لَمْ يَسْتَعِزُّوا أى يذهبوا و يسافروا، هؤلاء الكفار فى الأرض هنا و هناك فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم السابقة، الذين كذبوا أنبياءهم، كقوم هود و صالح و لوط و غيرهم، مما بقيت آثارهم الخربة فى البلاد و الصحارى كانوا هم

أى أولئك الأقوام أشدّ مِنْهُمْ أى من هؤلاء الكفار قُوَّةً فى أبدانهم و أكثر آثاراً فى الأرض أى عماره و بناء و زراعه و صناعه، جمع أثر و هو الذى يبقى بعد الإنسان أثرا له، و علامه منه فلما كفروا، لم تفدهم قوتهم و آثارهم، بل فأخذهم الله أى عاقبهم، و أنزل عليهم العذاب بسبب ذنوبهم كفرهم و عصيانهم و ما كان لهم أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠١

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)

لأولئك الأقوام من الله من واق «الواق» أصله «واقى» من وقى، بمعنى حفظ، أى لم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأس الله و عذابه، و هؤلاء إن تمادوا فى كفرهم و عصيانهم كان مصيرهم مصير أولئك.

[٢٣] ذَلِكَ الْعَذَابِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ كُفْرِهِمْ وَ تَمَادِيهِمْ فِي الْعَصِيانِ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَيْ الْوَاضِحَاتِ، وَ الْمَعَاجِزِ الظَّاهِرَاتِ الْبَاهِرَاتِ فَكَفَرُوا وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، بِأَنَّ عَذَابَهُمْ وَ أَهْلَكَهُمْ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ قَوِيٌّ يَقْوَى عَلَى مَا يَرِيدُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذَا عَاقَبَ أَحَدًا تَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ، وَ عِقَابُهُ شَدِيدًا أَلِيمًا.

[٢٤] ثُمَّ مِثْلُ سَبْحَانَهُ لِبَعْضِ أَوْلِيَاءِ الْأُمَّمِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ سَبْحَانَهُ، بِنَقْلِ قِصَّةِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَيْ مَعَ آيَاتِنَا وَ أَدَلَّتْنَا، كَالْعَصَا، وَ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ، وَ غَيْرِهِمَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ أَيْ دَلِيلٍ وَاضِحٍ، فَقَدْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَزُودًا بِحُجَّةٍ قَوِيَّةٍ يَحْتَجُّ وَ يَسْتَدِلُّ لِلأُلُوْهِيَّةِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَلَهُمْ مَعَاجِزُ، وَ لَهُمْ أَدَلَّةٌ مَنْطِقِيَّةٌ عَلَى إِرْشَادَاتِهِمْ.

[٢٥] إِلَى فِرْعَوْنَ الْمَلِكِ وَ هَامَانَ وَ زَيْرِهِ وَ قَارُونَ الطَّاعِيِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ انْحَرَفَ، وَ إِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا رُؤَسَاءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٢

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)

الكفار و المنافقين فقالوا عوض الإيمان ساحر كذاب إنه يسحر فى خوارقه، كذاب كثير الكذب، فى ادعاءاته بوجود الإله، و أنه رسوله، و أن هناك دارا آخرة.

[٢٦] فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَقِّ أَيْ مَعَ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ وَ الْمَعَادُ وَ الشَّرِيعَةُ مِنْ عِنْدِنَا أَيْ كَانَ مِنْ طَرَفِنَا، فَإِنِ الْآتَى بِالْحَقِّ، قَدْ يَكُونُ غَيْرَ مَرْسَلٍ، كَالصَّلْحَاءِ وَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَرشُدُونَ النَّاسَ قَالُوا أَيْ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ، وَ أَشْرَافِ الْقَبْطِ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ هُمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ فَقَدْ أَمَرَ فِرْعَوْنَ، قَبْلَ وِلَادَةِ مُوسَى بِقَتْلِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَيْثُ أَخْبَرَهُ مَنجَمٌ، بِأَنَّهُ يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَدٌ يَكُونُ عَلَى يَدِهِ ذَهَابٌ مَلِكُهُ، وَ أَمْرٌ بَعْدَ نَبُوَّةِ مُوسَى بِذَلِكَ، حَيْثُ أَرَادَ عَدَمَ كَثْرَتِهِمْ لِيَقْوَى الصِّفِّ الْمَخَالِفِ، كَمَا كَانَ يَبْقَى النِّسَاءُ أَحْيَاءَ لِاسْتِخْدَامِهِنَّ وَ إِذْلالَهُنَّ، لَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَنَعَ عَنْ ذَلِكَ بِإِرْسَالِ الضَّفَادِعِ وَ الْجِرَادِ وَ الْقَمْلِ وَ الدَّمِ - كَمَا سَبَقَ - وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ أَيْ أَنْ مَا يَكِيدُونَ يَضِلُّ وَ يَضِيعُ فَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَثَرٌ مَقْصُودٌ.

[٢٧] وَ قَالَ فِرْعَوْنُ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَشْرَافِ ذَرُونِي أَيْ اتْرُكُونِي، وَ لَا تَشِيرُوا عَلَيَّ بِالْخِلَافِ أَقْتُلْ مُوسَى لِأَسْتَرِيحَ مِنْهُ، وَ قَدْ قَالَ ذَلِكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٣

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

وَ قَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنَّ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنَّ يَكُ صَادِقًا يُصِصْ بِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ

اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)

إظهارا لسلطوته، وإلا فقد أراد غير مرة، قتل موسى، فلم يتمكن ولْيَدْعُ رَبَّهُ بما شاء، فقد كان يخاف من دعوة موسى لله سبحانه، بإنزال العذاب عليهم، كما شاهد من قبل، وهذا كما يقول أحدنا، أفعَلْ ذَلِكَ، كائنا ما كان، وقوله «ليدع» أمر يراد به الخبر، أى وإن دعا ربه على، وإنما أريد قتل موسى ل إني أخاف أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ بأن يمنعكم عن عبادتي، وعبادة الأصنام، إلى عبادة الله أو أن يُظَهِّرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ بأن يجهز الجيوش للحرب والقتال، فقتله يريحا من إفساده في ديننا أو دنيانا.

[٢٨] وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَأَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا سَمِعَ بِإِرَادَةِ فِرْعَوْنَ قَتْلَهُ - إِنِّي عُذْتُ مِنْ عَاذِ، بِمَعْنَى لَجَأُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ أَيُّهَا الْقَبِطُ، إِنْ كَانَ خُطَابُهُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ كَفِرْعَوْنَ الَّذِي تَكْبَرُ وَلَا يَخَافُ الْمَعَادَ.

[٢٩] وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِمُوسَى مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَى مِنْ ذَوِيهِ، وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَمِّهِ، كَمَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَكَانَ اسْمُهُ حَزْقِيلُ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٤

أى كيف تقتلون موسى، وهو يقول أمرا لا يضركم؟ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَى بِالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ، وَهَذَا الْكَلَامُ لَا يَنَافِي كِتْمَانِ إِيمَانِهِ، فَإِنَّ الْخُصُومَ دَائِمًا يَظْهَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَقَائِقُ خُصُومِهِمْ، وَيَعْتَرِفُونَ بِمَزَايَاهِمَ وَفَضَائِلِهِمْ مِنْ رَبِّكُمْ أَى مِنْ طَرَفِ الْهَكْمِ وَخَالِقِكُمْ، وَكَانَ حَتَّى فِرْعَوْنَ يَعْتَرِفُ بِالْإِلَهِ فِي خُلُوتِهِ، وَلِذَا تَضَرَّعَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ وَقَدْ انْقَطَعَ النَّيْلُ وَإِنْ يَكُ مُوسَى كَاذِبًا فِي دَعْوَاهِ النَّبُوَّةَ فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ أَى أَنْ ضَرَّرَ كَذِبُهُ يَعُودُ إِلَيْهِ، لَا إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ الْكَاذِبَ يَتَضَرَّرُ مِنْ كَذِبِهِ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا فِيمَا يَقُولُ يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ فَإِنَّ مُوسَى كَانَ يَعِدُهُم بِالْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ إِنْ بَقُوا فِي كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، وَإِنَّمَا قَالَ «بَعْضُ» تَلَطُّفًا فِي الْخُطَابِ، وَتَوَسُّعًا فِي الْكَلَامِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ، أَقَلُّ مَا فِي الْأَمْرِ، أَنَّهُ يَصِيبُكُمْ بَعْضُ مَا يَقُولُهُ مُوسَى مِنْ نِكَالِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، وَمَعْنَى «يَصِيبُكُمْ» يَصِلُ إِلَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي بِاللُّطْفِ الْخَفِيَّةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْسَعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ أَى مُتَجَاوِزٌ فِي الْعَصِيَانِ حَدَّ الْمَتَعَارِفِ، أَوْ مُتَجَاوِزٌ حُدُودَ الشَّرِيعَةِ كَثِيرَ الْكُذْبِ، وَقَدْ أَرَادَ بِهَذَا، إِمَّا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِمَعْنَى أَنْكُمْ إِذَا قَتَلْتُمْ مُوسَى، كُنْتُمْ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَاذِبِينَ، الْكَثِيرِينَ التَّكْذِيبَ لَمَّا يَقُولُهُ مُوسَى مِنَ الْأُمُورِ الْمَرْبُوطَةِ بِالْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ وَالشَّرِيعَةِ، وَإِمَّا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ مُوسَى مُسْرِفًا كَاذِبًا، لَمْ يَهْدِهِ رَبُّهُ، وَقَدْ قَالَ ذَلِكَ تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ «وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٥

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠)

[٣٠] يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ وَالسَّلْطَةُ فِي هَذَا الْيَوْمِ فِي حَالِ كَوْنِكُمْ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ أَى غَالِبِينَ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ صَاحِبَ السَّلْطَةِ يَكُونُ ظَاهِرًا لِلنَّاسِ يَعْرِفُوهُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ مَنْ يَمْنَعُنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِنْ جَاءَنَا عِنْدَ قَتْلِ مُوسَى، فَإِنَّ هَذَا الْمَلِكُ يَذْهَبُ، وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ الْعَذَابُ، وَإِنَّمَا قَالَ «لَكُمْ الْمُلْكُ» إِمَّا تَذْكِيرًا بِالنَّعِيمِ، فِي مَقَابِلِ التَّخْوِيفِ بِالْعَذَابِ، وَإِمَّا لِبَيَانِ أَنَّ أَصْحَابَ السَّلْطَةِ دَائِمًا أَقْرَبُ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَنِكَالِهِ، حَيْثُ أَنَّهُمْ يَعْصُونَ كَثِيرًا، فَإِذَا تَجَمَّعَتْ حُلُّ بِهِمِ الْعَذَابِ، بِخِلَافِ غَيْرِ أَصْحَابِ السَّلْطَةِ، الَّذِينَ هُمْ بِمَعْزَلٍ عَنِ الْعَصِيَانِ، فَيَكُونُ احْتِمَالُ عِقَابِهِمْ أَبْعَدَ، وَبَعْدَ هَذَا النَّصْحِ كُلِّهِ قَالَ فِرْعَوْنُ الْقَاسِي الْمَظْلَمِ الْقَلْبَ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى أَى مَا أَشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَرَاهُ صَوَابًا فِي رَأْيِي وَفِكْرِي، فَقَتَلَ مُوسَى صَوَابًا فِي نَظْرِي وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ أَى مَا أُرشدكم إِلَّا الطَّرِيقَ الَّذِي هُوَ صَاحِبُهُ، وَفِيهِ الرُّشْدُ وَالْهُدَايَةُ.

[٣١] وَقَالَ الَّذِي آمَنَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ حَزْقِيلُ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْقَوْمُ إِنْ تَقَدَّمْتُمْ إِلَى قَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ أَى الْأَحْزَابِ الَّتِي عَارَضَتْ الرِّسْلَ وَكَفَرَتْ، وَلكل حزب يوم، وإنما جمعهم المؤمن، لبيان أن كل حزب،

خالف

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٦

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٣١ الى ٣٣]

مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مِدْبَرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)

الرسول، حقت عليه كلمة العذاب، ثم فصل ذلك بقوله.

[٣٢] مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ الدَابُّ العادة، و معنى ذلك، أخاف عليكم، مثل سنة الله فى قوم نوح، حيث أغرقهم سبحانه و عادٍ قوم هود النبى عليه السّلام و ثمود قوم صالح عليه السّلام و الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ من الأمم التى كذبت الأنبياء عليهم السّلام و مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ فلا تفعلوا ما تستحقون الظلم بأنفسكم.

[٣٣] وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ أصله «التنادى» مصدر باب التفاعل، و إنما حذف الياء تخفيفاً، و المراد به، إما يوم نزول العذاب، فإن فيه ينادى كل إنسان، صاحبه بالفرار و الحذر، و إما يوم القيامة، حيث ينادى أهل النار أهل الجنة (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا) «١» و ينادى أهل الجنة أهل النار (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ) «٢»؟

[٣٤] يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ عن العذاب، فأين منه مِدْبَرِينَ بزعم أن الفرار ينجى من عذاب الله ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ أى لا يحفظكم من بأس الله أحد، فإذا جاء العذاب، لا يتمكن أن يمنع عنه مانع و مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ بَأْن تَرَكَه فى الظلمات، حتى يفعل ما يشاء، و قطع عنه الألفاظ

(١) الأعراف: ٥١.

(٢) المدثر: ٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٧

[سورة غافر (٤٠): آية ٣٤]

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤)

الخفية، بعد أن أرشده إلى الطريق، فلم يقبل فما له من هادٍ أى ليس له أحد يهديه، بأن يفيض عليه من أطفاه الخاصة، فاحذروا أن تكونوا من أولئك الزمرة.

[٣٥] وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السّلام مِنْ قَبْلِ أى قبل موسى عليه السّلام بِالْبَيِّنَاتِ أى بالأدلة الواضحة، فقد كان يوسف رسولا إلى أهل مصر، بالإضافة إلى كونه ملكا، و بعد يوسف، امتدت السلطات الخيرة، ثم المتوسطة، ثم الشريرة، حتى وصلت النبوة إلى فرعون، حيث قال «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى فَمَا زِلْتُمْ و المراد، لم يزل آباؤهم فى شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ من التوحيد، فقد كان أهل مصر يعبدون الأصنام، فى ذلك الزمان، و لذا قال يوسف، لأهل السجن:

(يا صاحِبِ السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ) «١»؟ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أى مات يوسف، و هلك يستعمل فى مطلق الموت، كما قال سبحانه (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) «٢» و إن كان يتبادر منه - أحيانا - موت السىء قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كأنكم استرحتم من موت يوسف، كما يستريح المجرم من موت السلطان، إذ يتمكن من إبداء إجرامه، فأنتم - أيها القوم - مسرفون فى الكفر و الضلال، قديما و حديثا، فلم هذا الكفر، و لم هذا الضلال؟ كَذَلِكَ أى كما ترك

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) القصص: ٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٨

[سورة غافر (٤٠): آية ٣٥]

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)

الله سبحانه أسلافكم ضللاً غير معتن بشأنهم، لما لم يؤثر فيهم إرسال الرسول، وإقامة الحجج يضل الله بترك لطفه عن من هو مُشْرِفٌ في الكفر والضللال مُرتابٌ أى شاك في الله والمعاد والشريعة، من ارتاب، بمعنى شك.

[٣٦] ثم بين لهم كيف يقطع الله لطفه عن بعض الناس، حتى يتيهون في الضلال والانحراف الَّذِينَ يُجَادِلُونَ أى يعاندون في البحث، حول آياتِ اللَّهِ أى أدلته الدالة على وجوده و سائر صفاته بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أى حجة أتاهم ذلك السلطان، من عقل أو نقل، فجادلهم عن الهوى، لا- عن الدليل والبرهان كَبْرَ ذَلِكَ الجدل مَقْتًا أى من حيث المقت، فإن الغضب على ذلك المجادل كبير عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا فالله يلعن المجادل، والمؤمنون يبغضونه كَذَلِكَ أى بهذا النحو من الطبع، وهو ختم القلب على الكفر بعد أن جاء الهدى، فجادل بدون الدليل يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ فكبره عن الحق وتجره في الأرض، أورث، أن ختم الله على قلبه، و قد سبق أن القلب قابل لكل شيء، فإذا أعرض الإنسان عن الحق إلى الباطل، يستمر إيهاء الباطل على قلبه في كل مناسبة، حتى يكون الباطل ملكة له، فلا يقبل الهدى أبداً، لا بالاضطرار، وإنما بالاختيار والنفرة عن الحق عنادا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٠٩

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُنْبِغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)

[٣٧] وَقَالَ فِرْعَوْنُ بعد أن سمع مواعظ حزقيل، و كأن هناك كان مجلس حوار بين حزقيل، و بين القوم يا هامان و هو وزير فرعون ابن لِي صِرْحًا أى قصراً مشيداً عالياً لَعَلِّي أُنْبِغُ الْأَسْبَابَ بأن أصعد عليه، و أنظر هناك في ملكوت السماوات.

[٣٨] ثم فسر «الأسباب» بقوله أسباب السماوات أى أسباب الاطلاع على السماوات، و ما فيها! فكما أن أسباب العز «السيارة» و أمثالها، كذلك أسباب الاطلاع على السماوات «المرتقى العالى» و «المجهر» و ما أشبه، فإذا بنى بعضه كان الرجاء أن يبلغ فَاطَّلَعَ بالنصب لأنه جواب بالفاء، أى إذا بلغت اطلعت إلى إِلِهِ مُوسَى و قد قصد بهذا الترمويه على الناس العوام، بأنه إن كان موسى صادقا، فى أن له إلهها خلق السماوات، فإنى قادر على الاطلاع عليه و محاربتة و إِنِّي لَأَظُنُّهُ أى أظن موسى كاذباً و قد أراد بهذا الخداع للناس، فى أنه منصف مع موسى، حتى يتورع أن يقال أنه علم كذبه، بل يريد الاستطلاع هل صدق موسى أم كذب؟ و إن كان ظنه أنه كاذب.

ثم قال سبحانه وَكَذَلِكَ أى كما زُيِّنَ لهؤلاء الكفار أعمالهم السيئة، أو كما ذكر من حكاية أعمال فرعون و أقواله زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ و المزين هو نفسه، أو الشيطان سُوءَ عَمَلِهِ أى رأى عمله السىء حسناً وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ أى منع عن طريق الهداية و المانع له هو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٠

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

الشيطان، أو نفسه الأمارة بالسوء و ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ و مكره الذى عمله لإطفاء نور موسى إِيَّا فِي تَبَابٍ أى هلاك و خسارة و اضمحلال، من «تَبَّ» بمعنى هلك و خسر، فلم ينفع كيده، لإطفاء نور موسى عليه السلام.

[٣٩] و لما رأى حزقيل إصرار القوم على ضلالهم، ألقى عليهم نصيحته الأخيرة وَقَالَ الَّذِي آمَنَ من قوم فرعون، و كان يكتنم إيمانه يا

قَوْمٍ اتَّبَعُونَ حَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ تَخْفِيفًا، وَبَقِيَتْ الْكُسْرَةُ، دَلِيلًا عَلَيْهِ أَهْدِيكُمْ جَزْمَ الْفِعْلِ، لِأَنَّهُ فِي جَوَابِ الْأَمْرِ، أَيْ إِنْ تَتَّبَعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، أَيْ طَرِيقَ الرَّشْدِ، وَ الْمُرَادُ اتَّبَعُوا كَلَامِي، فَإِنَّ فِيهِ الْهَدَايَةَ وَ الرَّشْدَ.

[٤٠] يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا أَى الْحَيَاةَ الْقَرِيبَةَ، وَ «دُنْيَا» مُؤَنَّثٌ «أَدْنَى» مُتَّاعٌ أَى مُورِدٌ انْتِفَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ يَزُولُ عَنِ الْقَرِيبِ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَائِرَةُ الْقَرَارِ الَّتِي يَسْتَقِرُّ فِيهَا الْإِنْسَانُ، أَبَدَ الْأَبْدِينَ، فَلَا تَتَّبَعُوا آخِرَتَكُمْ بِدُنْيَاكُمْ، لِتَزُولَ الدُّنْيَا عَنِ أَيْدِيكُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ، وَ تَخْسُرُوا الْآخِرَةَ.

[٤١] مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا أَى مِثْلُ تِلْكَ السَّيِّئَةِ، بِإِزْدَادٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١١

[سورة غافر (٤٠): آية ٤١]

وَ يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١)

عَلَيْهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِاللَّهِ وَ رَسَلِهِ، وَ الْيَوْمَ الْآخِرِ، بِأَنَّ صَحْتِ عَقِيدَتِهِ وَ عَمَلِهِ فَأَوْلِيكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ جِزَاءً لِإِيمَانِهِمْ وَ تَصَدِيقِهِمْ، وَ عَمَلِهِمُ الصَّالِحِ يُزْرَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ فَلَا يَعَدُّ مَا يَعْطُونَ مِنَ الْأَجْرِ وَ الثَّوَابِ، وَ إِنْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِحِسَابٍ وَ عَدٍّ، لَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، فَآمَنُوا وَ اعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، أَيُّهَا الْقَوْمُ، حَتَّى تَنَالُوا ذَلِكَ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، وَ لَا تَكْفُرُوا حَتَّى تَدْخُلُوا فِي النَّارِ- وَ قَوْلُهُ، فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، لِيَبَانَ لَطْفُهُ سَبْحَانَهُ، وَ لِلْمُقَابَلَةِ، وَ إِلَّا فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةُ فِي مَعْرُضِ الْكَلَامِ-

[٤٢] وَ يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ؟ «مَا لِي» كَانَ فِي الْأَصْلِ اسْتِفْهَامًا عَنِ النِّفْعِ الْعَائِدِ إِلَى الشَّخْصِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ اسْتِفْهَامٍ بِعِلَاقَةِ الْجِزْئِي وَ الْكَلْبِي، كَمَا يَقَالُ: مَا لِي أَرَاكَ حَزِينًا؟ أَى لِمَاذَا تَحْزَنُ، وَ الْمَعْنَى، أَخْبَرُونِي كَيْفَ صَرْتُمْ هَكَذَا حَتَّى إِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى مَا فِيهِ نَجَاتِكُمْ مِنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ بِأَنَّ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَ أَعْصَى حَتَّى اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَ كَانَ الْمُؤْمِنُ خَرَجَ هُنَا مِنْ كِتْمِ الْإِيمَانِ، وَ جَعَلَ يَحَاوِرُهُمْ بِصِفَتِهِ مُؤْمِنًا، وَ لَذَا قَالَ سَبْحَانَهُ «فَوْقَاهُ اللَّهُ» كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا قَتْلَهُ لِمَا عَلَّمُوا إِيْمَانَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٢

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسِيرِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)

[٤٣] ثُمَّ بَيْنَ دَعْوَتِهِمْ لَهُ بِقَوْلِهِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ بِأَنَّ لَا أَعْتَقِدُ بُوْحْدَانِيَّتَهُ وَ أَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أَى أَجْعَلُ الصَّنَمَ-الَّذِي لَا عِلْمَ لِي بِكَوْنِهِ إِلَهًا-شَرِيكًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَ قَوْلُهُ «مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» مِنْ بَابِ السَّالِبَةِ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ، فَإِنَّ مِنْ عِلْمٍ أَنْ شَيْئًا لَيْسَ بِإِلَهِ، فَإِنَّهُ لَا-يَعْلَمُ أَلُوْهِيَّتَهُ، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ، لِعَدَمِ جَرَحِ عَوَاطِفِهِمْ، حَتَّى يَتَأَلَّبُونَ عَلَيْهِ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَالِبِ فِي سُلْطَانِهِ، لَا كَالصَّنَمِ الَّذِي لَا حَوْلَ لَهُ وَ لَا قُوَّةَ الْغَفَّارِ فَإِنَّكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ بِهِ غَفَرَ ذُنُوبَكُمْ.

[٤٤] لَا جَرَمَ «جَرَمٌ» بِمَعْنَى قَطْعٍ، وَ يَسْتَعْمَلُ مَعَ «لَا» بِمَعْنَى حَقًّا، لِأَنَّ الْحَقَّ لَا قَطْعَ فِيهِ عَنِ الْوَاقِعِ، كَالْكَذْبِ الَّذِي فِيهِ قَطْعٌ عَنِ الْوَاقِعِ إِلَى الْخِيَالِ وَ الْوَهْمِ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنَ الْأَصْنَامِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهَا لَا تَدْعُو أَحَدًا فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ بَلِ اللَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَى عِبَادَتِهِ وَ طَاعَتِهِ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي، لَا فِي الدُّنْيَا، وَ لَا فِي الْآخِرَةِ، فَأَى نَفْعٌ فِي عِبَادَتِهِ وَ أَنَّ مَرَدَّنَا أَى رَجُوعَنَا، مِنْ «رَدٍّ» بِمَعْنَى رَجَعُ إِلَى اللَّهِ فَكَيْفَ نَتْرَكَ طَاعَتَهُ وَ رَجُوعَنَا إِلَيْهِ؟ وَ أَنَّ الْمُسِيرِينَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا فِي الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، وَ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا.

[٤٥] ثُمَّ هَدَدْتَهُمْ، بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَقْبَلُوا كَلَامَهُ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ يَذْكُرُونَ فِيهِ مَقَالَتَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٣

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)

حيث لا ينفعهم التذكر فَيَتَذَكَّرُونَ أيها القوم ما أقول لكم من النصائح يوم يأخذكم العذاب، أو يوم القيامة و أما أنا، ف أفوض أمري إلى الله أي أكل أموري إليه حتى لا يمسنى السوء منكم إن الله بصير بالعباد فهو يبصرني و يتمكن على نجاتي.

[٤٦] و قد أراد القوم به سوء، إذ هم فرعون بقتله، لكن الرجل، فر من بين أيديهم إلى جبل فَوَقَاهُ اللَّهُ أي حفظه الله من سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا فإن مكرهم، كان يشتمل على نتائج سيئه من قتله و ما يلزم القتل من الإيذاء و الإهانة و ما أشبه و حاق أي أحاط و حل بال فرعون و المراد هو و آله، فقد ذكرنا سابقا، أنه قد يقال «آل- فلان» و يراد هو و آله سُوءُ الْعَذَابِ بالغرق في البحر في الدنيا.

[٤٧] و ما في البرزخ، ف النَّارُ يُعْرَضُونَ أي آل فرعون عَلَيْهَا على النار غُدُوًّا صَبَاحًا وَ عَشِيًّا عَصْرًا، بأن يعذبون كل يوم مرتين، مقابل المؤمنين، الذين لهم رزقهم بكرة و عشيا، و هذا عذاب برزخهم وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أي إذا قامت القيامة، يقال للملائكة الموكلين بهم أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أي هو و آله أَشَدَّ أنواع العذاب لكفرهم و طغيانهم، فقد نتج تمردهم تعذيبهم في العوالم الثلاثة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٤

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٤٧ إلى ٤٩]

وَ إِذِ يَتَحَابُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَ قَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩)

[٤٨] و بمناسبة الحديث، عن عمل فرعون و اتباع قومه له، بدون تبصر و اهتداء، يأتي السياق لنقل جملة من حوار أهل النار و اذكر يا رسول الله إذ يتحاجون أي يتخاصم الرؤساء و الأتباع في النار في الآخرة فيقول الضعفاء عقيدة و إمكانية، و هم الأتباع للذين استكبروا من القادة و الرؤساء، أي تكبروا عن قبول الحق إِنَّا كُنَّا لَكُمْ معاشر الرؤساء تَبَعًا جمع تابع، كخدم جمع خادم، أو مصدر من قبيل «زيد عدل»، فقد كنا نسمع أوامرهم، ضد الدين و الشريعة فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا أي دافعون عنا نَصِيحًا و قسما مِنَ النَّارِ التي أحاطت بنا؟

[٤٩] قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا في جواب الضعفاء إِنَّا كُلٌّ أي كل واحد منا و منكم فيها أي في النار، فلسنا خالين من العذاب، حتى نتحمل بعض عذابكم إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ بأن يتحمل كل جزاء ما عمله من شرك و عصيان.

[٥٠] ثم إنهم يتوجهون إلى الملائكة الذين هم موكلون بالنار و قَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ بصورة عامة، من الأتباع و المتبوعين لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

جمع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٥

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٠ إلى ٥١]

قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)

خازن، و هو الحافظ، و المراد بهم الملائكة، الذين يتولون أمور أهل جهنم ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ حتى نستريح، و لو قليلا، و إنما يقولون ذلك لأنهم لا يطمعون في انقطاع العذاب.

[٥١] قَالُوا أي قال الخزنة في جوابهم أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أي بالحجج الفاطعة الواضحة، ثم عاندتم و لم تقبلوا قَالُوا أهل النار في الجواب بلى جاءونا، فلم نقبل قَالُوا أي قالت الخزنة لهم بعد هذا الاعتراف فَادْعُوا أَنْتُمْ، حتى يخفف الله عنكم، فَإِنَّا لَا ندعو و ذلك لعلم الخزنة، بأن الدعاء لا يفيد و مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ أي ضياع و بطلان، فلا تفيد دعوتهم شيئا.

[٥٢] ثم يرجع السياق إلى قصة الرسل، و من يعاندهم إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كما نصر سبحانه، حيث نرى، أن الدين واضح ظاهر، بينما معاندوا الأديان، ليس لهم إلا الخسران، و قد نصر سبحانه، عيسى، و موسى، و محمدا، و إبراهيم، و غيرهم،

من الرسل عليهم السلام بالاتباع الكثيرين، وعلو الاسم والاحترام، ففي دنيا اليوم، و نفوسها «ثلاثة آلاف مليون و خمسة عشر مليونا»
 (١) أكثر من

(١) كان ذلك في وقت كتابه الكتاب أما الآن فنفس العالم أكثر من ذلك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٦

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللِّغْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣)

ثلثي العالم متدينون، و هل النصره فوق هذا؟ و هل كان مقصد الرسل و المؤمنين بهم أكثر من هذا؟، أما من يتصور أن النصره معناها، أن لا يقتل الرسول- أو المؤمنون به في ساحه حرب، و أن لا يهان، فقد اشتبهه، ألا ترى أنه يقال: انتصرت الدوله الفلانيه على الدوله الفلانيه، و إن ذهب شبابها ضحايا، و أموالها نهبا، حين لم تسقط، و لم يستول عليها الأجنبي، و لم تمنح عن الخارطه؟ و يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ جمع شاهد، كأصحاب و صاحب، و المراد يوم القيامه، و هم الذين يشهدون على الناس، بالإيمان و الكفر و الإطاعه و العصيان.

[٥٣] ثم بين وصفا لذلك اليوم، يناسب حال الكفار- الذين كان الكلام حولهم- يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ أى أن اعتذارهم من الكفر و العصيان، لا يفيدهم في دفع العذاب عنهم، و ليس كالدنيا حيث ينفع المعتذر عذره و لَهُمُ اللِّغْنَةُ أى البعد و الطرد عن رحمه الله و فضله و لَهُمُ سُوءُ الدَّارِ أى الدار السيئه، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

[٥٤] وَلَقَدْ آتَيْنَا أى أعطينا مُوسَى الْهُدَى أى الهدايه، التى بها يهدى الناس إلى الحق- و هذا رجوع إلى قصه موسى عليه السلام، التى سبقت، و تسليه للمؤمنين بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ أى أعطينا التوراه إرثا لهم، باعتبار الكتب السابقه، فكأن كتاب الله الذى فيه شريعته شىء واحد، يتوارثه المؤمنون جيلا- بعد جيل، و إن كان ذا قوالب متعدده، كالتوراه و الإنجيل و القرآن.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٧

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٤ الى ٥٥]

هُدًى وَ ذِكْرٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٥٥)

[٥٥] هُدًى أى لأجل هدايتهم إلى الحق و إرشادهم طريق السعاده و ذِكْرٍ أى و لأن يكون مذكرا بالله و برسله و بالمعاد- مما يكمن في فطره كل إنسان، بصورة إجمالية- لِأُولَى الْأَلْبَابِ أى أصحاب العقول جمع لب، و هو العقل.

[٥٦] فَاصْبِرْ يا رسول الله على أذى قومك، فإن مصيرك و مصير المؤمنين، كمصير موسى، الذى غلب على فرعون، و مصير بنى إسرائيل، الذين علا كعبهم على أعدائهم إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِنَصْرَتِكَ، و إهلاك الكفار حَقٌّ مطابق للواقع، لا كذب فيه، وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ فإن الأنبياء كانوا يعدون اشتغالهم بالأمر الدنيويه الضروريه ذنبا، ألا ترى، أن من أصابه وجع الرجل، حتى لا يتمكن من جمعها، إذا اضطر إلى أن يبسطها في مجلس أمام أناس محترمين، اعتذر منهم، و طلب عفوهم؟ مع أن عمله ذاك ضرورى ليس باختياره، و هكذا أشغال الأنبياء الدنيويه، أمام الله سبحانه، و إن كانوا مضطرين إليها كل اضطرار تقويما للبدن، فإنه بنظرهم ذنب، أمام الله الذى ينبغى أن لا يشغل عنه الإنسان، و لو طرفه عين، و هناك قول، بأن الآيه على طريقه «إياك أعنى و اسمعى يا جاره» وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى نزهه بالحمد، فإن الإنسان إذا أثنى على الله بالعلم مثلا، كان حمدا و تنزيها عن الجهل، فى آن واحد بِالْعَشِيِّ و هو من زوال الشمس إلى الليل و الْإِبْكَارِ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، و المراد الاستمرار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٨

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) على الاستغفار والتسبيح.

[٥٧] إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَي يخاصمون الرسول و المؤمنين في إبطال آيات الله و أدلته الكونية، و خوارق الأنبياء بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَي بغير دليل أَتَاهُمْ من عقل، أو شرع، و إنما يجادلون عبثا و اعتباطا بعد ما تم عليهم الحجة إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ أَي ليس احتجاجهم، و خصامهم، إلا- لأجل أن في صدورهم، تكبرا عن قبول الحق، و لكن ما هُمْ بِبَالِغِيهِ أَي لا يبلغون ما يريدون من العظمة التي تمنعهم عن قبول الحق، فإن الله سبحانه يذلهم، حتى لا يبلغوا كبرياءهم، و من غريب الأمر، أن الإنسان يرى كل متكبر عن الحق هكذا أنه يظن إن هو قبل الحق بهان، و يجرح كبرياءه، فلا يقبل، بل يتكبر، زعما بأنه، إن فعل ذلك يصل إلى عظمة، و ارتفاع في المجتمع، و الأمر دائما خلاف ذلك، فالحق يعلو، و المتكبر يذل فَاسْتَعِذْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُتَكَبِّرِينَ، أو من الابتلاء، بمثل هذا النحو من الكبر الصادف عن الحق إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ السَّمِيعُ لِقَوْلِكَ و استعذتك الْبَصِيرُ بما يجول في خاطرك، و ما أنت عليه من الخضوع للحق، و القبول له.

[٥٨] و كيف يتكبر هؤلاء الكفار، و هم يرون حولهم السماوات و الأرض، و خلقهما، أكبر من خلقهم؟ و الإنسان العاقل، إذ رأى نفسه وسط هذا الكون الفسيح، لا بد و أن يتضاءل، و يعترف بصغر نفسه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦١٩

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)

لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا فِيهِمَا مِنْ عَجِيبِ الصَّنْعِ، و صفوف الخلق أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ و لعل التعبير بأكبر، لأن خلق الإنسان أدق، و لذا لما خلق الله الإنسان، قال: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) «١» وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ذلك لأنهم لا يتفكرون، و الإنسان إذا لم يتفكر في الكون يعتر بنفسه و يتكبر.

[٥٩] إِنَّ الْكُفَّارَ كَالْأَعْمَى، حيث أغلقوا بصائرهم عن الإدراك، و التفكير، و المؤمنين كالبصير، لأنهم فتحوا منافذ عقولهم، فأدركوا الحقائق وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ كما هو واضح لكل ذي عقل وَ لَا يَسْتَوِي الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، و ما يلزم الإيمان به وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَي الأعمال الصالحة وَ لَا الْمُسِيءُ الذي أساء بالكفر و العصيان قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ «ما» مصدرية، أي قليل تذكروهم لهذه الحقيقة، و هي عدم استواء الكافر و المؤمن، و المحسن و المسيء، أو أن «ما» مصدرية، أي قليل تذكروهم لهذه الحقيقة، و هي عدم استواء الكافر و المؤمن، و المحسن و المسيء، أو أن «ما» تأكيدية.

[٦٠] إِنَّ السَّاعَةَ أَي الْقِيَامَةَ لَأْتِيَةٌ تَأْتِي قَطْعًا لَا رَيْبَ فِيهَا أَي

(١) المؤمنون: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٠

[سورة غافر (٤٠): آية ٦٠]

وَ قَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)

ليست محل ارتياب، و إن ارتاب فيها المبطلون، و هذا كما نقول «لا شك أن هذه شمس» و إن شك فيها السوفسطائيون وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ يَا تَيَانُ السَّاعَةِ لِكُفْرِهِمْ، أَوْ عَدَمِ رَسُوخِ الْإِيمَانِ فِي أَعْمَاقِهِمْ.

[٦١] و إذ جرى حديث الإيمان و المتكبرين عن قبوله، يأتي السياق لتوجيه الناس إلى الله سبحانه بالدعاء و الضراعة إليه، و أن من تكبر عنه، فجزاؤه النار، فالإيمان و الدعاء، كلاهما توجه إلى الله، و الاستكبار عن الإيمان و عن الدعاء كلاهما ابتعاد عنه، و هنا مناسبة أخرى، أن لا ييأس الكافر و العاصي، فإن أبواب الدعاء بطلب التوبة و نحوه مفتوحة و قَالَ رَبُّكُمْ أَيُّهَا النَّاسِ ادْعُونِي أطلبوا حوائجكم، صغيرها و كبيرها أَسْتَجِبْ لَكُمْ «استجب» مجزوم جواباً للأمر، أي إن تدعوني، أستجب لكم إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي و من جملتهم من يستكبر عن الدعاء، إذ الدعاء قسم من العبادة، فإن العبادة اعتراف الإنسان بسيادة الله، و العمل طبقه، و الدعاء قسم منه سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ، و لذا جيء، ب «السين» داخرياً من دخر، بمعنى ذل و صغر، و هم صاغرون، في مقابل تكبرهم، في الدنيا عن الدعاء، و لا يقال: كيف قال سبحانه «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» و إننا نرى أن كثيراً من الأدعية لا تستجاب؟ فإن الجواب، أن القضية طبيعية، أي أن من طبيعة الدعاء أن يستجاب، كسائر القضايا، فلو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢١

[سورة غافر (٤٠): آية ٦١]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١)

قلنا: الشمس مشرقة أو النار محرقة، أو العقار الفلاني مقوى، أو ما أشبه، لم يناف مع عدم إشراق الشمس وقت الكسوف، أو عدم إحراق النار إذا لم يشأ الله، كنار إبراهيم، أو عدم تقوية العقار في بدن بلغ من الضعف إلى حيث لا يتمكن من هضم العقار، و هكذا في سائر القضايا، فإن الملحوظ، في أمثالها الطبيعية، لا كل فرد، و الطبيعة قد يمنع عنها مانع، أو عدم تامة المقتضى، و قد قال سبحانه (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ) «١»، فمن لم يف بعهد سبحانه، بأن ارتكب الكفر و العصيان، لم يكن عليه سبحانه، أن يفى بما عهد، و كذا قال تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «٢» فمن لم يتق، لم يكن لدعائه، قبول و استجابة .. و لا يقال: إننا لا نرى الفرق البين بين الداعي و غيره، فلكل منهما مشاكل و لكل منهما سعادة؟ إذ الجواب أنه منقوض بمن يقول: إننا لا نرى فرقا بين من يراجع الطبيب، و بين من لا يراجع، فإن لكليهما صحة حيناً و مرض حيناً آخر، و الحل: إننا نرى الفرق شاسعا، فالداعون، أسعد هناء عيشا، و أقل مشكلة من غيرهم، و هذا يعلم، عند المقايسة الدقيقة، كما هو الجواب عن مثال مراجع الطبيب و غيره.

[٦٢] ثم بين سبحانه جملة من الآيات الكونية، الملفتة إلى وجوده تعالى، و سائر صفاته الله وحده، هو الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مَعَاشِرَ الْبَشَرِ اللَّيْلَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، أَوْ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ لِتَسْكُنُوا و تستريحوا، من الأتعاب فيه بالنوم و الراحة

(١) البقرة: ٤١.

(٢) المائدة: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٢

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٢ إلى ٦٣]

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُؤْفِكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)

و جعل لكم النهار مبصراً أي موجبا، لأن تبصرون فيه حوائجكم و سبلكم، فتشتغلوا و تسيروا إلى مآربكم إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ يتفضل عليهم بأنواع النعم، بدون استحقاق منهم و لكنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ نعمه و فضله، بل يجحدون بها و يكفرون به.

[٦٣] ذَلِكُمْ ذَا إِشَارَةٍ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، جاعل تلك الآيات المذكورة، و «كم» خطاب للسامعين الله رَبُّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فهو بالإضافة إلى جعله تلك الأمور، و كونه ربا لكم، خالق لكل شيء موجود في الكون لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فلا شريك له من صنم، أو بشر أو ملك أو غيرها، فَآَنِي تُؤْفِكُونَ أي إلى أين تصرفون أيها المشركون حيث تتخذون مع الله شريكا له؟ من أفكك بمعنى انصرف و

قَلْبَ الأَمْرِ، و لَذَا يَسْمَى الكَذْبَ إِفْكَاً.

[٦٤] كَذَلِكَ أَى كَمَا أَفْكَ هَؤُلَاءِ بِالشَّرْكَ بالله، بَعْدَ رُؤْيَةِ الآيَاتِ يُؤْفَكُ وَيَصْرَفُ عَنِ الحَقِّ الذِّينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَكُلُّ جَا حِدٍ لِلآيَاتِ الكُونِيَّةِ، لَا بَدَّ وَأَنْ يَصْرَفُ عَنِ التَّوْحِيدِ إِلَى الشَّرْكَ، وَ الذِّى يَأْفَكُ هَؤُلَاءِ نَفُوسَهُمُ الأَمَارَةَ، وَ رُؤْسَاؤُهُمُ الكَافِرُونَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٣

[سورة غافر (٤٠): آية ٦٤]

اللّهُ الذِّى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ صَوَّرَكُمُ فَمَا حَسَنَ صُورَكُمُ وَ رَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ العَالَمِينَ (٦٤)

[٦٥] اللّهُ وَحْدَهُ، هُوَ الذِّى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا أَى تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا وَ جَعَلَ السَّمَاءَ بِنَاءً أَى بَنَاهَا بِنَاءً، وَ المَرَادُ بِالسَّمَاءِ الأَفْلَاقَ وَ الهَوَاءَ، الَّتِي قَدْ أَحْكَمْتَ إِحْكَامًا دَقِيقًا، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ جِسْمًا مَلْمُوسًا، حَتَّى إِنْ هَذَا الإِحْكَامُ لَوْ أَزِيلَ، لَأَخْتَلَّتِ الحَيَاةُ، وَ اضْطَرَبَتِ الأَرْضُ وَ الكُونُ وَ صَوَّرَكُمُ أَى أَعْطَاكُمْ اللّهُ الصُّورَ أَيُّهَا البَشَرُ فَمَا حَسَنَ صُورَكُمُ أَى أَجْمَلَهَا وَ زِينَهَا، وَ المَرَادُ بِالصُّورَةِ هُنَا أَعْمٌ مِنَ الشَّكْلِ وَ اللُّونِ وَ الحِجْمِ، فَإِنَّ الصُّورَةَ تَطْلُقُ عَلَى ذَلِكِ، كَمَا تَطْلُقُ عَلَى اللُّونِ فَقَطْ، أَوِ الشَّكْلِ فَقَطْ، أَوِ الحِجْمِ وَ الكَيْفِيَّةِ فَقَطْ وَ رَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ، وَ أَثْمَارَ شَهِيَّةٍ وَ أَلْبَانَ وَ عَسَلٍ وَ سَائِرِ المَطَاعِمِ، بِلِ وَ المَشَارِبِ وَ المَسَاكِنِ وَ المَنَاقِحِ وَ العُلُومِ وَ غَيْرِهَا، فَإِنَّ الجَمِيعَ دَاخِلَهُ فِي الرِّزْقِ، وَ المَرَادُ بِهَاتَيْنِ القَضِيَّتَيْنِ، كغَالِبِ القَضَايَا الطَّبِيعِيَّةِ، فَلَا يَنَافَى ذَلِكِ عَدَمَ حَسَنِ صُورَةِ بَعْضِ الأَفْرَادِ، أَوْ عَدَمَ رِزْقِهِمُ الطَّيِّبِ طِيلَةً عَمَرَهُمْ ذَلِكُمْ «ذَا» إِشَارَةٌ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ الذِّى فَعَلَ مَا تَقَدَّمَ وَ «كَمْ» خَطَابٌ لِلبَشَرِ اللّهُ رَبُّكُمُ أَيُّهَا البَشَرُ، وَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكِ فَتَبَارَكَ اللّهُ أَى جَلَّ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ الدَّائِمُ الذِّى يَنْمَى الأَشْيَاءَ، وَ يَجْعَلُ فِيهَا الخَيْرَ وَ البَرَكَةَ- وَ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى تَبَارَكَ- رَبُّ العَالَمِينَ عَالَمِ الإِنْسَانِ وَ المَلَائِكَةِ وَ الحَيَوَانَ وَ الجِنِّ وَ غَيْرِهِمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٤

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٥ إلى ٦٦]

هُوَ الحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذِّينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَمَّا جَاءَنِي البَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ العَالَمِينَ (٦٦)

[٦٦] إِنْ الذِّى أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعْمِ هُوَ الحَيُّ المَطْلُوقِ الذِّى لَا مَوْتَ لَهُ لَا- إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا- شَرِيكَ لَهُ وَ لَا- ظَهِيرَ فَادْعُوهُ أَيُّهَا البَشَرُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أَى دَعُوهُ بِإِخْلَاصٍ فِي دِينِكُمْ وَ طَرِيقَتِكُمْ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ فَإِنَّ لَهُ الحَمْدَ وَحْدَهُ، حَيْثُ أَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَحْمُودٍ مِنْهُ، لَا يَشْرِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَ اللَّامُ فِي الحَمْدِ لِلجِنْسِ، أَى أَنْ جِنْسَ الحَمْدِ لَهُ، أَمَا مِنْ جَعْلِ اللَّامِ لِلإِسْتِغْرَاقِ، فَقَدْ ابْتَعَدَ عَنِ سِيَاقِ الكَلَامِ. [٦٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللّهِ، لَهَؤُلَاءِ الكُفَّارِ إِنِّي نُهِيتُ نَهَانِي اللّهُ سَبْحَانَهُ أَنْ أَعْبُدَ الذِّينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَى الأَصْنَامِ الَّتِي تَدْعُونَهَا آلِهَةً وَ هِيَ سِوَى اللّهِ سَبْحَانَهُ لَمَّا جَاءَنِي البَيِّنَاتُ الأَدْلَةُ الوَاضِحَاتُ عَلَى التَّوْحِيدِ، أَى حِينَ أَتَانِي الحِجْجَ وَ البَرَاهِينَ مِنْ رَبِّي أَى مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ، وَ ذَلِكِ الحِينِ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، كَمَا

قال صَلَّى الله عليه و آله و سلم «كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين»

«١» فلا تدل هذه الآية على أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان قبل نزول القرآن، غير عارف ببعض المعارف و أمُرْتُ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى أَنْ أُسَلِّمَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِي وَ عَقَائِدِي لِربِّ العَالَمِينَ الذِّى يَمْلِكُ العَوَالِمَ كُلِّهَا، وَ هُوَ المَدْبِرُ وَ المَرِيئُ الوَحِيدُ لَهَا، وَ الإِسْلَامُ هُوَ

(١) مفتاح الفلاح: ص ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٥

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٧ الى ٦٨]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)

الاستسلام والانتقاد.

[٦٨] هُوَ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ تُرَابٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَرَابٌ، ثُمَّ يَكُونُ نَبَاتًا، وَالنَّبَاتُ يَأْكُلُهُ الْحَيَوَانَ، فَيَكُونُ لِحْمًا وَ قِشْمًا مِنَ اللَّحْمِ وَ قِشْمًا مِنَ التُّرَابِ يَأْكُلُهُ مَعَ الْإِنْسَانَ، فَيَكُونُ دِمًا فِي جِسْمِهِ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِنَّ الدَّمَّ يَنْقَلِبُ مَنِيًّا، وَ هُوَ النُّطْفَةُ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ وَ هُوَ الْمَنَى الْمَتَحَوَّلُ إِلَى عَلَقَةٍ مِنَ الدَّمِّ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ طِفْلاً وَ الْمَرَادُ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ طِفْلاً، فَلَا تَنَافَى بَيْنَ الْإِتْيَانِ، ب «كَمْ» جَمْعًا، وَ ب «طِفْلاً» مَفْرَدًا ثُمَّ يَبْقِيَكُمْ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ هُوَ حَالُ اسْتِكْمَالِ الْقُوَّةِ وَ الشَّبَابِ ثُمَّ يَبْقِيَكُمْ لِتَكُونُوا شُيُوخًا جَمْعَ شَيْخٍ، وَ هُوَ الْكَبِيرُ السِّنِّ، الْبَالِغُ عُمُرِ الشَّيْخُوخَةِ وَ الضَّعْفِ وَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ أَنْ يَبْلُغَ سِنَّ الشَّبَابِ أَوْ الشَّيْخِ وَ يَمُوتُ بَعْضُكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ذَلِكَ بِكُمْ لِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى أَيَّ الْمَدَّةِ الَّتِي سَمِيَتْ فِي اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ، قَدَرَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَجْلاً مَحْدُودًا لَا يَتَجَاوَزُهُ وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أَيَّ وَ لِكِي تَتَفَكَّرُوا وَ تَعْقِلُوا أَمْرَ دِينِكُمْ، فَإِنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ، وَ إِبْلَاغَهُ الْأَجَلَ الْمَسْمُومَ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعْقِلِ وَ التَّفَكُّرِ.

[٦٩] وَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي يُحْيِي النَّاسَ مِنَ التُّرَابِ، ثُمَّ يَحْيِيهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٦

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٦٩ الى ٧١]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضِرُّونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)

ليوم القيامة وَ يُمِيتُ الْإِنْسَانَ بَعْدَ حَيَاتِهِ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا أَيَّ أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ لَفْظًا، أَوْ إِرَادَةَ فَيَكُونُ وَ يَوْجَدُ فِي الْخَارِجِ، وَ هَذَا لِدَفْعِ اسْتِعَادِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ الَّذِي تَمَكَّنَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، يَتَمَكَّنُ مِنْ إِعَادَتِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

[٧٠] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَيَّ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ إِبْطَالَ الْآيَاتِ وَ الْحَجَجِ الدَّالَّةِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ، وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنِّي يُضِرُّونَ أَيَّ إِلَى أَيْنَ مِنَ الضَّلَالِ، يَصْرِفُهُمُ الشَّيْطَانُ وَ أَنْفُسُهُمُ الْكَافِرَةُ.

[٧١] الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ بِأَن لَمْ يَأْمَنُوا بِالْقُرْآنِ، وَ نَسَبُوهُ إِلَى الْكُذْبِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا مِنَ الشَّرَائِعِ وَ الْأَحْكَامِ، بِأَن لَمْ يَقْبَلُوا مَا جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْأَصُولِ وَ الْأَحْكَامِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ فِي الْقِيَامَةِ، عَاقِبَةُ تَكْذِيبِهِمْ بِالْكِتَابِ، وَ بِالشَّرِيعَةِ.

[٧٢] إِذِ ظَرْفُ ل «يَعْلَمُونَ» أَيَّ يَعْلَمُونَ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ حِينَ تَكُونُ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ كَمَا يَغْلُ الْمَجْرِمُ فِي الدُّنْيَا، وَ الْغُلُّ فِي الْعُنُقِ، إِذَا لِلْإِهَانَةِ وَ الْأَلْمِ، وَ إِذَا لِلرِّبْطِ وَ السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ يُسْحَبُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٧

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٢ الى ٧٤]

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤)

أَيَّ يَجْرُونَ، وَ الْأَغْلَالُ جَمْعُ غُلٍّ، وَ هُوَ طَوْقٌ يَدْخُلُ فِي الْعُنُقِ، وَ السَّلَاسِلُ جَمْعُ سَلْسَلَةٍ، وَ هِيَ حَلْقٌ حَدِيدِيَّةٌ مُتَشَابِكَةٌ يَرْبِطُ بِهَا الْمَجْرِمَ.

[٧٣] فِي الْحَمِيمِ مُتَعَلِّقٌ ب «يَسْحَبُونَ» أَيَّ يَجْرُونَ فِي الْمَحَلِّ الْحَارِّ الْمُنْتَهَى حَرَارَتُهُ غَايَتُهَا ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ مِنْ سَجْرِ التَّنُورِ، إِذَا أَوْقَدَهُ، وَ لَعْلُ الْمَعْنَى يَكُونُونَ وَقُودًا فِي النَّارِ، حَتَّى تَشْعَلَ النَّارُ بِهِمْ، كَمَا قَالَ سَبَّحَانَهُ (وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ) «١».

[٧٤] ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلَةُ بِالنَّارِ، عَلَى وَجْهِ الْإِهَانَةِ وَ الْإِذْلَالِ أَيْنَ ذَهَبَتْ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ أَيَّ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ أَيَّ

تجعلونها شريكة لله سبحانه؟

[٧٥] مِنْ دُونِ اللَّهِ مَتَعَلِقِ ب «تَشْرِكُونَ» فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، اسْتَشْنَى «اللَّهُ» سَبْحَانَهُ قَالُوا أَى الْمُشْرِكُونَ فِى الْجَوَابِ ضَلُّوا عَنَّا أَى ضَاعُوا عَنَا، وَ لَا نَجِدُهُمْ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ فِى الدُّنْيَا شَيْئًا، وَ هَذَا إِذَا يَقُولُونَ إِنْكَارًا، لَعَلَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ بِهَذَا الْإِنْكَارِ، مِنْ تَبَعَةِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، كَمَا فِى آيَةِ أُخْرَى يَقُولُونَ (وَ اللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) «٢» وَ إِذَا أَنْ مَرَادُهُمْ، أَنْ مَا كُنَّا نَدْعُوا

(١) البقرة: ٢٥.

(٢) الأنعام: ٢٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٨

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٥ إلى ٧٦]

ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) اذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فِى الدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ، نَحْوُ «يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَ لَا رِجَالٍ»

فقد نفوا الذات مردين نفى الصفة كذلك أى كما أبطل الله سبحانه عبادة هؤلاء للأصنام يُضِلُّ اللَّهُ سَائِرَ الْكَافِرِينَ فلا يهديهم طريق الجنة، و يبطل عبادتهم و أعمالهم، أو المعنى يضلهم فى الدنيا، بأن يتركهم و شأنهم، حين رآهم لم يقبلوا الهدى، فلا يطف بهم الألفاظ الخفية، حتى يعملوا ما ينتفعون به فى الآخرة.

[٧٦] ذَلِكُمْ «ذَا» إِشَارَةٌ إِلَى الْعَذَابِ الَّذِى يَحِيطُ بِهِمْ، وَ «كَمْ» خِطَابٌ بِسَبَبِ مَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَنْ كُنتُمْ تَبْطَرُونَ وَ تَتَكَبَّرُونَ بِالْأَعْمَالِ الْإِجْرَامِيَّةِ وَ بِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ مِنْ مَرْحٍ، وَ هُوَ الْفَرَحُ بِالْبَاطِلِ بِتَوْسِعٍ فَهُوَ أَحْصَى مِنَ الْفَرَحِ، وَ هَكَذَا يَكُونُ الْمَجْرُمُونَ دَائِمًا، إِنْ فَرَحَهُمْ بِالْبَاطِلِ، وَ هُمْ يَوْسَعُونَ فِى الْفَرَحِ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ فَرَحَهُمْ بِالْحَقِّ، وَ هُمْ يَفْرَحُونَ بِقَدْرِ، حَيْثُ يَعْلَمُونَ أَنَّ وِرَاءَهُمْ يَوْمًا مَهُولًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) «١».

[٧٧] اذْخُلُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ أَى مِنْ أَبْوَابِهَا السَّبْعَةِ، كُلِّ فَوْجٍ، حَسَبَ بَابِهِ وَ أَعْمَالِهِ فِى حَالِ كُونِكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَى الْأَبَدِ، لَا انْقِطَاعَ لِعَذَابِهَا، وَ لَا خِلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا فَبئسَ مَثْوًى مِنْ «ثَوًى»

(١) القصص: ٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٢٩

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٧٧ إلى ٧٨]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعِصِّ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

بمعنى اتخذ المحل، أى المنزل المُتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ، وَ الظاهر أن هذا الكلام تأكيد للكلام السابق، و هو «يسحبون فى الحميم، ثم فى النار يسحبون» لا إن ذلك، كان قبل دخولهم جهنم، و إن كان محتملا، بأن يكون هناك أنهر من المياه الحارة، و الأودية النارية، فيسحبون أولا، فى تلك المياه، و يعذبون بتلك النار، ثم يدخلون فى النار.

[٧٨] ثم يرجع السياق إلى الرسول ليصبره عما يلقى من الأذى فى سبيل البلاغ فاصبر يا رسول الله إنَّ وَعْدَ اللَّهِ لَكَ بِالنَّصْرِ وَ الْأَجْرِ وَ أَوْلَئِكَ بِالْعَذَابِ وَ الْإِذْلَالِ وَ الْإِنْهَاءِ حَقٌّ لَا خِلْفَ فِيهِ فَإِمَّا أَصْلَهُ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ، وَ «مَا» الزَّائِدَةُ تُرَبِّيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِعِصِّ الَّذِى نَعِدُهُمْ

فإن الله وعدهم عذاب الدنيا والآخرة، والمراد بالبعض عذاب الدنيا أو تَتَوَفَّيَنَّكَ بأن نقبض روحك قبل تعذيبهم فَأَلَيْنَا يُزَجُّونَ فى الآخرة، لنعذبهم العذاب الشديد، وليس من المهم عذابهم هنا، حتى يحتم أن تراه، وإنما المهم أنهم لا يفوتونا، ومعنى «إلينا» إلى حكمنا و عقابنا.

[٧٩] وقد كان الكفار يطلبون من الرسول، أن يأتيهم بالخورق، كعصا موسى، وإحياء عيسى، فيأتى السياق، لرد هذا الطلب، فقد أتى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالقرآن الذى هو أعظم الخورق حجةً و دليلاً، فمن كفر بعد ذلك، فهو معاند، أما الإتيان، بسائر الآيات، فذلك حسب إرادة الله، إن شاء جاء بها وإن لم يشأ لم يأت - بعد أن تمت الحجة - أما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٠

[سورة غافر (٤٠): آية ٧٩]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩)

الخورق لإثبات وجود الله سبحانه، فهى الآيات الكونية المثبته، فى كل جهة من جهات الكون و لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ أَحْوَالَهُمْ، كإبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى، ولوط، ويونس، وغيرهم وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ أَحْوَالَهُمْ، كسائر الأنبياء عليهم السلام، بل الأكثر منهم، لم تقص أحوالهم فى القرآن - وليس المهم القصة - وإنما المهم أنه ما كان لِرَسُولٍ أَى لَمْ يَكُنْ حَسْبَ مَقْدُورِهِ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ أَى بِمَعْجَزَةٍ خَارِقَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِلرَّسُولِ حَتَّى يَتِمَّ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ لِلَّهِ بِهَلَاكِ الْقَوْمِ، بعد أن أتاهم الرسول بالخارقة، ولم يؤمنوا فُضِّتِ عَلَيْهِمُ بِالْهَلَاكِ وَ الدمار بِالْحَقِّ بسبب أنهم عاندوا فاستحقوا العقاب وَ حَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ خسروا دينهم و دنياهم، و فى هذا تلميح، بأنه إنما لا يؤذن للرسول بالخارقة، لأنه إن جاءهم بالخارقة و لم يقبلوا استحقوا العقاب، و الله سبحانه لا يشاء عقاب هؤلاء بهذه العجالة.

[٨٠] ثم يأتى السياق، ليذكر جملة من الآيات الكونية، الدالة على وجوده تعالى و صفاته، و التى هى أحسن من الخارقة الموقته، ألا ترى أنه لو صنع إنسان صنعا، هل يحتاج بعد ذلك أن يأتى بدليل على وجوده،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣١

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٨٠ الى ٨١]

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تَحْمُلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أو علمه، بمجىء خارق؟ الله وحده هو الذى جعل لكم الأنعام أى خلقها لكم، والمراد بالأنعام، الإبل و البقر و الغنم لِتَرْكَبُوا مِنْهَا أَى بعضها و هى الإبل و منها أى من جميعها تَأْكُلُونَ لبنا و لحما.

[٨١] و لكم أيها الناس فيها منافع من جهة الصوف و الشعر و الوبر، و حمل الأثقال، و غير ذلك و لَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ بأن تركبوها لمقاصد بعيدة، و الوصول إليها حاجة فى صدوركم، و هذا أخص من الركوب، الذى سبق فى الآية المتقدمة، فإن الركوب أعم من ذلك، و أهمية هذا القسم من الركوب، هى التى أوجبت تخصيصها بالذكر، و قوله «لتبلغوا» عطف على «لتركبوا» وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تَحْمُلُونَ الأنعام للبر، و الفلك، و هى «السفينة» للبحر، و تكرر «عليها» تمهيد ل «على الفلك» فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ و هل يحتاج الإنسان بعد ذلك إلى خارقة للبرهنة على وجود الله، أو صفاته؟

[٨٢] وَ يُرِيكُمْ اللهُ سَائِرَ آيَاتِهِ وَ أدلته الدالة على وجوده، و سائر صفاته، من الآيات الآفاقية و الأنفسية، إما بخلق جديد، أو بإفادتكم إلى المخلوق السابق فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ أيها البشر، تنكرون وجودها، أو دلالتها على الله المتصف بالعلم و القدرة، و سائر الصفات؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٢

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٨٢ الى ٨٣]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)

[٨٣] و بعد الاحتجاج على الكفار بصنوف الاستدلال لتهديدهم، إن تمادوا في الغي والضلال، و إنه يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، لما تمادوا في الكفر والطغيان أفلح يسيروا أى يسافروا هؤلاء الكافرين فى الأرض إلى الشام و إلى اليمن فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم المكذبة، و النظر إنما هو بالنظر إلى أراضيهم و طلالهم، و السؤال عن أحوالهم، من الساكنين هناك كانوا أولئك الأمم أكثر منهم عددا و أشد قوة بدنية و علمية و غيرها و أكثر آثاراً فى الأرض بالزراعة و العمارة و الصناعة، و نحوها فما أغنى عنهم أى ما أفادهم فى دفع العذاب عنهم ما كانوا يكسبون أى ما كسبوه من البنيان و العمارة و الأموال و القوى، و غيرها.

[٨٤] فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ أى بالأدلة البينة الواضحة، الدالة على وجود الله، و سائر صفاته فرحوا بما عندهم من العلم أى فرح الكفار بعلمهم الوراثة التقليدى حول الأصول، و استحقروا علم الرسل و استهزءوا بما أتت به الرسل، ف حاق أى حل و أحاط بهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب، فقد كان الكفار يستهزءون بما يعدمهم الرسل من العذاب، و أخيرا وقعوا فيه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٣

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٨٤ إلى ٨٥]

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

[٨٥] فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا أى عذابنا النازل بهم قالوا آمنا بالله و وحدته لا شريك، كما قال الرسل و كفرنا بما كنا به مشركين أى بالأصنام التى كنا نشركها بالله.

[٨٦] فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا وَ عَذَابَنَا، كما قال سبحانه (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) «١» سُنَّتَ اللَّهُ أى سن الله عدم قبول إيمان من نزل به العذاب سنته التى قد خلت و سبقت و استمرت فى عبادته الكفار، و ذلك لأن العذاب لا ينزل إلا بعد أن يظهر عناد الكفار، بحيث يعلم أنهم لا يؤمنون باختيارهم أبدا، و هذا و إن كان معلوما لله سبحانه من الأزل إلا أن مظهره ذلك و خسر هنالك عند نزول العذاب الكافرون بأن ذهب دنياهم و آخرتهم، فلم يفوزوا بما أعد الله للصالحين من الثواب و الجنان.

(١) النساء: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٤

٤١ سورة فصلت مكية / آياتها (٥٥)

سميت هذه السورة، ب «فصلت» لاشتغالها على هذه الكلمة، و سميت ب «حم السجدة» لابتدائها، ب «حم» و وجود السجدة الواجبة فيها، فأضيف «حم» إلى السجدة، لتميزها عن غيرها من «الحواميم» و هى كسائر السور المكية، تحوم حول العقيدة بأصولها الثلاث، و لما ختم سبحانه سورة المؤمن «غافر» بذكر الذين يتكبرون عن آيات الله سبحانه، و الإيمان به، ابتداء فى أوائل هذه السورة، بذكرهم، و ما كانوا يقولون حول الإيمان.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، ذى الرحمة الموكدة التى وسعت كل شىء، و ذكر الله بصفة خاصة، يستمطر من تلك الصفة على الذاكر، فمن أكثر ذكر، الغنى، يغنى، و من أكثر ذكر، العظيم، يعظم، و من أكثر ذكر المؤمن يقوى إيمانه، فالإكثار من ذكر «الرحمن الرحيم» يوجب اتصاف الذاكر بالرحم، هذا بالإضافة إلى إيجابه أن يرحمه الله سبحانه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٥

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)

[٢] حم أى هذا حم، أو «حاء» و «ميم» «تنزيل» وقد تقدم فى فواتح السور بعض التى منها أنها رموز بين الله و الرسول، و منها أنها للإشارة، إلى أن القرآن المعجز من جنس هذه الحروف التى تتلفظون بها ليل نهار، و قال بعض: أن الكفار تباؤنا أن يصفقوا و يلفظوا عند قراءة الرسول، استهزاء و منعا للناس عن الاستماع، فكان كلما وجد مثل هذا المجال، افتتحت السورة بالمقطعات، لأنهم كانوا ينصتون لها لما قد دهشهم، فيلقى الوحي الموقظ.

[٣] تَنْزِيلٌ أى أن القرآن تنزيل من الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ذى الرحمة المكررة، فإنه يرحم العباد فى الدنيا و الآخرة، و يرحمهم بالحياة، و سائر اللوازم، إلى غيرهما من الأقوال فى وجه التكرار- و قد تقدم بعضها-.

[٤] هو كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أى بَيَّنَّتْ آيَاتُهُ تَبْيَانًا تامًا، بحيث، لم تجمل و لم تدمج، بل أوضحت، كما يقال، فصلت الأمر لزيد، حيث أوضحه له و ذلك، لأن التفصيل و التوضيح متلازمان غالبًا، و هذا لا ينافى إجمال بعض الآيات لحكمته، لأن القضية طبيعية، أى أن طبيعة القرآن، تفصيل آياته و توضيحه فى حال كونه قُرْآنًا عَرَبِيًّا بهذه اللغة التى يفهمها أهل الجزيرة و القرآن، من قرأ، بمعنى جمع بعضه إلى بعض، و أنه يقرأ، كما أنه يسمى كتابًا لأنه يكتب لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى أنزل هذا القرآن، لأهل العلم، و إنما خصوا بذلك- مع أنه عام- لأنهم هم المستفيدون منه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٦

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٤ إلى ٥]

بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَدْمُونَ (٥)

[٥] فى حال كون هذا القرآن بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِ وَ الْمُحْسِنِ، بِالْجَنَّةِ وَ الثَّوَابِ وَ نَذِيرًا لِلْكَافِرِ وَ الْعَاصِي، بِالنَّارِ وَ الْعِقَابِ، وَ ذَلِكَ بما اشتمل عليه من آيات الوعد و الوعيد فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ أى أكثر المخاطبين به- إلى حين نزول هذه السورة- و المراد بهم أهل مكة فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ القرآن، استماع تفكر و تعقل و فائدة.

[٦] وَقَالُوا أى الكفار المعرضون قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ أى فى أغطيته، فإن «أكنة» جمع «كن» و هو الغطاء مِمَّا تَدْعُونَا يَا مُحَمَّدُ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ الْمَعَادِ، وَ سَائِرِ الْأَصُولِ وَ الْفُرُوعِ، فلا نفقه ما تقول، كالشئ الذى عليه غطاء، حيث لا ينفذ فيه البصر و السمع لحيلولة الغطاء بينه و بين الإبصار و الاستماع، و كانوا يقولون هذا القول استهزاء بالرسول و القرآن وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ أى حمل ثقيل، فلا نسمع ما تلفظ منه، من آى القرآن وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنَكَ يَا مُحَمَّدُ حِجَابٌ لا نراك و لا ترانا فقلبنا و سمعنا و بصرنا، غير مستعدة لك و لكلماتك، و كما كان قوم نوح يفعلون ذلك (وَ اسْتَعْشَرُوا ثِيَابَهُمْ) «١» فقوم الرسول، كانوا يقولونه قولاً- فَاغْمَلْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى طَبَقِ وَحْيِكَ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى طَبَقِ تَقَالِيدِنَا، و هذا يشبه الاستهزاء أو التهديد، قريب من قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ) «٢».

(١) نوح: ٨.

(٢) الكافرون: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٧

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٦ إلى ٧]

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا- يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)

[٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي جَوَابِ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ، إِنِّي لَسْتُ شَخْصًا عَجِيبًا، حَتَّى أَسْتَحِقَّ، كُلَّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْفَارِغَةِ بَلْ أَنَا بَشَرٌ يُوحَى اللَّهُ إِلَيَّ لِإِرْشَادِكُمْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَيْ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، فَلَا- أَدْعَى لِنَفْسِي مَقَامًا فَوْقَ هَذَا، مَنتهى الأمر، أَنَّهُ يُوحَى إِلَيَّ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ أَيُّهَا الْكُفَّارُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا تَزْعُمُونَ فَاسْتَقِيمُوا فِي عَقِيدَتِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ إِلَيْهِ اسْتِقَامَةٌ مَنتهى إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ دُونَ انْحِرَافٍ إِلَى الْيَمِينِ أَوْ الشَّمَالِ وَاسْتَغْفِرُوهُ أَيْ اطْلُبُوا غَفْرَانَهُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ مَعَاصِيكُمْ وَوَيْلٌ أَيْ الْهَلَاكُ وَالنَّكَالُ، فَإِنْ «وَيْلٌ» كَلِمَةٌ تَطْلُقُ لِلأَمْرِ السَّيِّئِ أَيَّامًا مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٨] ثُمَّ بَيْنَ سُبْحَانَهُ أَظْهَرَ صِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ الَّذِينَ لَا- يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أَيْ لَا يُعْطُونَهَا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّكَاةِ مُطْلَقَ الْإِنْفَاقِ، لَا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ وَجِبَتْ فِي مَكَّةَ، وَالسُّورَةُ كَمَا عَرَفْتَ مَكِّيَّةً، وَهَذَا لِأَجْلِ أَنَّ الْمُشْرِكَ لَا يُعْتَقَدُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، حَتَّى يَنْفَقَ، فَالذَّمُّ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ الْإِعْتِقَادِ، لَا إِلَى عَدَمِ الْإِعْطَاءِ، حَتَّى يُقَالَ، لَوْ كَانَتْ الزَّكَاةُ مَنْدُوبَةً، لَمْ يَكُنْ وَجْهٌ لِلْوَيْلِ؟ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِنَّمَا كَرَّرَ «هُمْ» تَأْكِيدًا، وَبَيَانًا لِلتَّلَازُمِ بَيْنَ الْكُفْرِ وَبَيْنَ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٨

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٨ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَيْنَ كُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّسَائِلِينَ (١٠)

[٩] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِمَا يَجِبُ الْإِيمَانَ بِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْمَلَازِمَ لِعَدَمِ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أَيْ جَزَاءٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ غَيْرُ مَقْطُوعٍ، فَإِنَّ «مَمْنُونٍ» مِنْ «مَنَّ» بِمَعْنَى «قَطَعَ» أَوْ مِنْ «الْمَنَّ» بِمَعْنَى الْأَذَى الَّذِي يَكْدُرُ الْإِحْسَانَ، أَيْ غَيْرُ مَكْدُرٍ بِالْمَنْ.

[١٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْكَرًا عَلَى الْكُفَّارِ أَيْنَ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ أَيْ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِهَذَا الْإِلَهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي خَلَقَ أَرْضَكُمْ الْوَسِيعَةَ- هَذِهِ- فِي مَدَّةِ يَوْمَيْنِ فَقَطْ؟

وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا أَيْ أَضْدَادًا، أَوْ أَمْثَالَ، مِنَ الْأَصْنَامِ، تَعْبُدُونَهَا مَعَهُ، ذَلِكَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَلَيْسَ دُونَهُ إِلَهٌ وَلَا شَرِيكَ لَهُ.

[١١] وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ جَمْعُ رَاسِيَةٍ، أَيْ الْجِبَالِ الثَّابِتَاتِ، مِنْ «رَسَى» بِمَعْنَى ثَبَتَ مِنْ فَوْقِهَا أَيْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، حَتَّى أَنْتُمْ تَشَاهِدُونَهَا وَبَارَكَ فِيهَا أَيْ جَعَلَ فِي الْأَرْضِ الْبَرَكَةَ وَالنَّمُوَ، فَلَيْسَ مَا فِي الْأَرْضِ جَامِدًا لَا يَنْمُو، إِنَّمَا فِيهَا الثَّمَارُ وَالْحَيَوَانَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرَاتِ وَقَدَّرَ فِيهَا أَيْ فِي الْأَرْضِ أَقْوَاتَهَا جَمْعُ قُوْتٍ، وَهُوَ الرِّزْقُ، بِأَنَّ قَدَّرَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانَ رِزْقَهُ وَمَأْكَلَهُ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أَيْ فِي تَمْتَةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، فَيُؤْمِنُ لِلخَلْقِ، وَيُؤْمِنُ لِلتَّقْدِيرِ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٣٩

[سورة فصلت (٤١): آية ١١]

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)

خَرَجَتْ مِنَ الْبَصْرَةِ إِلَى بَغْدَادٍ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ، وَ إِلَى الْكُوفَةِ فِي خَمْسَةِ عَشْرِ يَوْمًا يَرَادُ فِي خَمْسَةِ، حَتَّى تَمَّتِ السَّفَرَةَ فِي خَمْسَةِ عَشْرِ سَوَاءً أَيْ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مَسْتَوِيَّةً، كَامِلَةٌ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَنَقْصَانٍ لِلنَّسَائِلِينَ عَنْ مَدَّةِ خَلْقِ الْأَرْضِ، وَ تَقْدِيرِ الْأَقْوَاتِ فِيهَا، وَ قَدْ أَوْصَلَ بَعْضُ انْهَزَامِيَّتِهِمُ الْغَرِيبَةَ عَلَى أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي الْآيَةِ وَيَطْبِقُهَا عَلَى الْعِلْمِ الْحَدِيثِ، فَيَقُولُ بِأَنَّ «يَوْمَيْنِ» يَعْنِي «أَلْفِي مَلْيُونِ سَنَةٍ» إِلَى آخِرِ أَمْثَالِ هَذِهِ الثَّرَاةِ الْفَارِغَةِ، وَ مِنْ غَرِيبِ الْأَمْرِ أَنْ نَرَى أَنَا سَا يَهْتَلِبُونَ كُلَّ كَلِمَةٍ غَرِيبَةٍ وَإِنْ قَالَهَا رَجُلٌ فِي كِتَابٍ، وَ يَتَرَكُونَ ظَوَاهِرَ الْكِتَابِ وَ السَّنَةِ، وَ لَمْ؟ لِأَرْضَاءِ الْغَرْبِ وَ الْمُتَغَرِّبِينَ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَهُ (وَ لَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) «١» وَ رَفَعَ

اليد عن الظاهر، لا يكون إلا بدليل قاطع من عقل أو نقل، وإلا، حصل التزلزل في جميع أصول الإسلام و فروعه، ثم ما المانع في أن يكون الخلق في مقدار يومين من أيامنا، كما هو الظاهر؟

[١٢] ثُمَّ اشْتَوَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِلَى السَّمَاءِ أَى قَصَدَ نَحْوَ خَلْقِهَا، يُقَالُ:

استوى إلى مكان كذا، بمعنى توجه إليه توجهها، لا يلفته شيء، و الإتيان ب «ثم» للفتاوت بين الخلقين، لا للتراخي بين الزمانين و هِيَ دُخَانٌ أما المراد هو الدخان المتعارف، بأن خلق سبحانه أولا دخانا، ثم جعله سماء، أو المراد الهواء المتخلخل بالماء، الذى صعد من ضرب الماء بعضه ببعض، و سمي دخانا لشباهته به، فإن الدخان هواء متخلخل بالرماد، و كلاهما يرى فى النظر على نحو واحد، و هل هناك

(١) البقرة: ١٢١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٠

[سورة فصلت (٤١): آية ١٢]

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)
فى المدارات، ما أصله الدخان، مما يشبه هوائنا المجاور للأرض، أو المراد من خلق السماء خلق الكواكب من الدخان؟ أو غير ذلك؟ احتمالات فقال الله سبحانه لها أى للسماء- فإنها مؤنثة سماعية- و لِلْأَرْضِ اثْنِيَا وَأَقْبَلَا السَّيْرَ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ تَطَلُّبِ الْحَرَكَةِ مِنْهُمَا، كَمَا يَطَلُّبُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَاقِلِ شَيْئًا قَالَتْ أُنْتِنَا وَ انْقَدْنَا لِلْأَمْرِ طَائِعِينَ جَمْعُ طَائِعٍ، وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ خُضُوعِهَا التَّكْوِينِي، لَمَّا أَجْرَى اللَّهُ فِيهِمَا مِنَ السَّنَةِ، كَمَا يُقَالُ: قَلْتُ لِدَارِي لَا تَهْدُمِي، فَامْتَلَتْ، يَرَادُ أَنَّهَا لَمْ يَحْنُ بَعْدَ وَقْتِ انْهَادِمَاهَا، وَ يَحْتَمَلُ بَعِيدًا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خُطَابٌ حَقِيقِي، وَ جَوَابٌ حَقِيقِي، فَإِنْ ظَاهِرٌ (وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ) «١» إِنْ لِلْأَشْيَاءِ مَرْتَبَةٌ مِنَ الْإِدْرَاكِ وَ التَّجَارِبِ، وَ إِنَّمَا قَالَ «طَائِعِينَ» لِأَنَّ الْجَمْعَ قَدْ يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْجِنْسِ، أَوْ بِاعْتِبَارِ تَغْلِبِ الْعُقْلَاءِ الَّذِينَ فِيهِمَا.

[١٣] فَقَضَاهُنَّ أَى صَنَعَ السَّمَاوَاتِ، وَ أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ مَدَارَاتٍ لِلْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ- كَمَا قَالُوا- أَوْ هُنَاكَ طَبَقَاتٌ تَسْمَى كُلُّ طَبَقَةٍ سَمَاءً، وَ لَا حِجَّةَ فِي قَوْلِ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ عَلَى النَّفْيِ، إِذِ الْفَضَاءُ وَسِعَ مَدْهَشًا، وَ لَمْ يَدْرِكِ الْإِنْسَانَ حَسَبَ اعْتِرَافِهِمْ إِلَّا شَيْئًا ضَمِيلًا فِي الْفَلَكِ، نَسَبَهُ إِلَى مَا لَمْ يَدْرِكِ كَنَسَبَةِ الذَّرَّةِ إِلَى الصَّحْرَاءِ الْوَسِيعَةِ فِي يَوْمَيْنِ أَى مَقْدَارِهِمَا- كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ- وَ أَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا بِأَنْ دَبَّرَ

(١) الإسراء: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤١

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ١٤]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤)

أمرها، فإن الوحي يطلق على التيسير حسب الصلاح و الحكمة، نحو (وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) «١» أو المراد أوحى إلى الملائكة الذين فيها، بأمور السماء و تنظيم شؤونها و زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا أَى السَّمَاءَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْأَرْضِ بِمَصَابِيحَ أَى النُّجُومِ، فَإِنْ جَعَلَ الْفَضَاءَ الْمَلَاصِقَ لِلْأَرْضِ، بَحِيثٍ يَخْرِقُهُ النُّورُ، حَتَّى يَرَاهُ الْإِنْسَانُ قَدْ تَرَى لَه، وَ إِنَّمَا سَمِيَ الْكَوَاكِبُ مَصَابِيحَ، لِأَنَّهَا كَالْمَصَابِيحِ تَضِيءُ وَ حِفْظًا أَى لِأَجْلِ الْحِفْظِ، فَإِنَّ الْكَوَاكِبَ مَرَاكِزَ لِرَجْمِ الشَّيَاطِينِ، الَّذِينَ يَرِيدُونَ اخْتِلَاسَ الْكَلِمَاتِ، الَّتِي تَدَارُ هُنَاكَ حَوْلَ الْأَرْضِ، فَإِنَّهُمْ يَرْتَمُونَ مِنَ الْكَوَاكِبِ بِالشَّهْبِ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ فِي سُلْطَانِهِ الْغَالِبِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ الْعَلِيمِ بِالْمَصَالِحِ.

[١٤] فَإِنْ أَعْرَضُوا أَى أَعْرَضَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ عَنِ الْإِيمَانِ فَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَنْذَرْتُكُمْ أَى أَخَوْفِكُمْ صَاعِقَةٌ أَى عَذَابًا، وَ إِنَّمَا سُمِّيَ الْعَذَابُ صَاعِقَةً، لِأَنَّهُ يَصْعَقُ الْإِنْسَانَ وَ يَهْلِكُهُ، وَ التَّائِيثُ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا وَصْفٌ لِلنَّارِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، فِي الْعَذَابِ غَالِبًا مِثْلَ صَاعِقَةٍ عَادٍ وَ تَمُودٍ أَى كَعَذَابِ قَوْمِ هُودٍ وَ صَالِحٍ، حَيْثُ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَهْلَكُوا.

[١٥] إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ أَى نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ حِينَ أَتَتْهُمْ رِسْلُ اللَّهِ

(١) النحل: ٦٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٢

[سورة فصلت (٤١): آية ١٥]

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥)

مِنْ بَيِّنٍ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَى مِنْ كُلِّ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِهِمْ قَبْلَهُمْ وَ بَعْدَهُمْ، حَتَّى يَحِيطُوا بِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ- وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنِ إِصْرَارِ الرِّسْلِ عَلَيْهِمُ بِالْإِيمَانِ، أَوْ الْمَرَادِ أَنْذَرَهُمْ مِنْ جِهَةِ دُنْيَاهُمْ وَ آخِرَتِهِمْ، إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، قَائِلِينَ لَهُمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ فَلَا تَشْرِكُوا بِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، لَكِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ لَمْ يَنْفَعَهُمُ الْإِنذَارُ، بَلْ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَحْدَهُ، وَ لَا نَشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَ لَا نَفْعُ الْمَعَاصِي - كَمَا تَقُولُونَ - لَأَنْزَلَنَّ مَلَائِكَةً لَدَعْوَتِنَا إِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ إِذْ لَا نَعْتَقِدُ بِأَنَّكُمْ رِسْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

[١٦] فَأَمَّا عَادٌ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَكْبَرُوا وَ تَجَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ حِينَ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ حَقِيقَتِهِمْ، بَلْ رَأَوْهَا أَعْظَمَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ اتَّبَعَ رِسْلَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَلَمْ يَكُنْ تَرْفِيعُهُمْ نَفْسَهُمْ بِالْحَقِّ لِعِلْمِ أَوْ إِيْمَانِ، أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، بَلْ لِمَجْرَدِ الظُّلْمِ وَ الطُّغْيَانِ وَ قَالُوا مَغْتَرِينَ بِقَوَاهِمِ الْبَدَنِیَّةِ وَ الْمَالِیَّةِ، وَ مَا أَشْبَهَهُ مِنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْ تَعْدِينِنَا، فَقَدْ هَدَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ بِالْعَذَابِ، إِنْ تَمَادَوْا فِي الطُّغْيَانِ، فَقَالُوا نَحْنُ نَقْدِرُ دَفْعَهُ، إِذْ لَا أَقْوَى مِنَّا، حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْ تَعْدِينِنَا، وَ قَدْ رَدَّهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً فَلَوْ شَاءَ أَهْلَكَهُمْ، وَ لَمْ يَتِمَّكَنُوا مِنْ دَفْعِ عَذَابِهِ بِقَوَاهِمِ، التِّي هِيَ مِنْ قَبْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٣

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٦ الى ١٧]

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِيرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُدِّيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصِرُونَ (١٦) وَ أَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)

اللَّهُ أَيْضًا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا أَى أَدَلَّتْنَا الدَّالَّةَ عَلَى وَجُودِنَا، وَ سَائِرِ صِفَاتِنَا يَجْحَدُونَ أَى يَنْكُرُونَ وَ لَا يَعْتَرِفُونَ.

[١٧] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِيرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ الرِّيحِ الصَّرْصِرِ، هِيَ الرِّيحُ الْبَارِدَةُ مِنَ الصَّرِّ بِمَعْنَى الْبَرْدِ، أَوْ هِيَ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ، ذَاتُ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ، وَ الصَّيْحَةُ الْمَزْعُجَةُ، وَ نَحْسَاتٍ، جَمْعُ نَحْسٍ، وَ هِيَ الْأَيَّامُ الْمَشْهُومَةُ الْمُنْحَوَسَةُ، وَ إِنَّمَا كَانَتِ الْأَيَّامُ نَحْسَاتٍ، لَمَّا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ، وَ النِّكَالِ، وَ إِنَّمَا أَرْسَلْنَا هَذِهِ الرِّيحَ عَلَيْهِمْ لِنُدِّيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ أَى الْعَذَابِ الَّذِي يَخْزِيهِمْ وَ يَذِلُّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَى فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْقَرِيبَةِ قَبْلَ حَيَاةِ الْآخِرَةِ وَ لَعَذَابِ الْآخِرَةِ الْمَعْدَّةِ لَهُمْ أَخْزَى أَكْثَرَ إِذْلَالًا لَهُمْ وَ هُمْ لَا يُنصِرُونَ أَى لَا يَنْصِرُهُمْ أَحَدٌ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ تَعَالَى.

[١٨] وَ أَمَّا تَمُودُ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَدَيْنَاهُمْ أَى بَيَّنَّا لَهُمْ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَ الشَّرِّ وَ الْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى أَى اخْتَارُوا التَّعَامَى عَنِ الْحَقِّ عَلَى الْهَدَايَةِ، وَ سَلُوكَ طَرِيقَ الدِّينِ، وَ مَعْنَى اسْتَحَبَّ طَلَبَ حُبِّ الشَّيْءِ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ أَى الْعَذَابِ ذُو الذَّلِّ وَ الْهُونِ، صَعَقَهُمْ وَ أَهْلَكَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ تَكْذِيبِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٤

[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٨ الى ٢٠]

وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)
صالح و عقر الناقة- كما مرت قصتهم سابقا-

[١٩] وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ وَ كَانُوا يَتَّقُونَ المعاصي، فلم يصيبهم العذاب.

[٢٠] وَ اذكر يا رسول الله يَوْمَ يُحْشَرُ أَي يجمع أَعْدَاءُ اللَّهِ وَ هم الكفار و العصاة إِلَى النَّارِ أَي منتهين إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ أَي يحبس أولهم ليلحق بهم آخرهم، من وزع، بمعنى حبس، و منع و المعنى إذا حشروا حبسوا هناك على حافة النار قبيل دخولها، و فيه زيادة إهانة و إرهاب.

[٢١] حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤَهَا أَي وصلوا إِلَى النار، و «ما» زائدة جىء بها، لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور- كما فى الصافى- شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ بالاستماع إِلَى المحارم وَ أَبْصَارُهُمْ بالنظر إِلَى المحرمات وَ جُلُودُهُمْ بلمس الحرام، من أخذ، و مشى عليه، و زنا، و ما أشبه بما كَانُوا يَعْمَلُونَ من أنواع المعاصي، كما قال سبحانه (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تَكَلَّمُوا بِأَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) «١» فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ، يجعل فيها حاسة النطق و التكلم، كما جعل فى اللسان.

(١) يس: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٥

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٢١ الى ٢٢]

وَ قَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ
أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَا أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)

[٢٢] وَ قَالُوا أَي قال أعداء الله لَجُلُودِهِمْ و الظاهر أن المراد تغليب الجلود، لا- أن خطابهم خاص بها لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ حتى نبلى بالعقاب، و تتم الحجة علينا، يقولون ذلك معاتيين قَالُوا أَي قالت الجلود فى جوابهم، و إنما جىء بلفظ العاقل، لأنهم حيث أخذوا فى التكلم، صاروا كأنهم عقلاء أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ من الأشياء الناطقة، و إنما جىء ب «كل شىء» لأن الجلود من الأشياء، و ليست من الأشخاص، فقد ردت ردف «اللسان» فى الإنسان، و الطيور الناطقة و نحوهما وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ الظاهر أنه جملة مستأنفة خطاب من الله للكفار فى الدنيا، أى كيف تنكرونه، و هو خالقكم؟

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فى الآخرة، و الرجوع إنما هو إلى حكمه و حسابه و جزائه، و يحتمل أن يكون هذا من تتمه كلام الجلود- و لكن بتأول-

[٢٣] ثم رجع السياق إلى كلام الجلود مع الكفار يوم القيامة، إذ تقول لهم «ما سترتم المعاصي خوف شهادتنا عليكم، بل كان ستركم لها ظنكم بعدم علم الله إن سترتم» و تريد الأعضاء أن تثبت بهذا الكلام، رذيلة أخرى على الكفار- فوق ارتكابهم العصيان- و هى أنهم كانوا يظنون عدم علم الله تعالى بأحوالهم و اطلاعه على عصيانهم، و هذا كما لو قال الشاهد للمجرم: إنك لم تخف منى، و لذا لم يكن سترك من خوفى، و إنما كان سترك للجريمة، لأنك لا تعتقد بعقاب الحاكم لك و ما كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ المعاصي بإتيانها فى السر مخافة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٦

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

وَ ذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْجِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْجَبِينَ

(٢٤)

أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ فَإِنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا تَخَافُونَ مِنْهَا، حَتَّى يَكُونَ سِتْرُكُمْ لِلْعَصِيَانِ خَوْفًا مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ وَ لَكِنْ كَانَ سِتْرُكُمْ حَيْثُ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ فَكُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ السَّرَائِرَ، وَ إِنَّمَا يَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ فَقَطْ، فَأَسْرَرْتُمُ الْمَعَاصِيَ، حَتَّى لَا يَعْلَمَ بِهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

[٢٤] وَ ذَلِكَمْ «ذَا» إِشَارَةٌ وَ «كُمْ» خِطَابُ ظُنُكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَادَكُمْ أَيْ أَهْلَكُمْ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ ظَنُوكُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ سِرَّكُمْ، هُوَ الَّذِي أَوْجِبَ هَلَاكَكُمْ، إِذْ نَزَلَتْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، دُونَ مَنْزِلَتِهِ، وَ أَنْكَرْتُمْ عِلْمَهُ الشَّامِلَ، حَتَّى هَانَتْ لَدَيْكُمْ الْمَعَاصِيَ، فَأَدَى إِلَى الْكُفْرِ، وَ فِي الْإِعْرَابِ «ذَلِكَ» مُبْتَدَأٌ، وَ «ظَنُوكُمْ» بَدَلٌ مِنْهُ، وَ «أَرَادَكُمْ» خَبَرٌ فَاصْبَحْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسَرُوا دُنْيَاهُمْ وَ آخِرَاهُمْ، رَوَى عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ، أَنْ يَخَافَ اللَّهَ خَوْفًا، كَأَنَّهُ يَشْرَفُ عَلَى النَّارِ، وَ يَرْجُوهُ رَجَاءً، كَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ «وَ ذَلِكَ ظُنُوكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ... الْآيَةُ» ثُمَّ قَالَ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَ إِنَّ شَرًّا فَشَرًّا. «١»

[٢٥] وَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ، فَحَقُّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ النَّارَ فَإِنْ يَصْبِرُوا عَلَى مَا يَلْقَوْنَ

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٣١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٧

[سورة فصلت (٤١): آية ٢٥]

وَ قَيِّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)

مِنَ النَّيْرَانِ وَ الْهُوَانِ فَالْتَّارُ مَثْوَى لَهُمْ أَيْ مَنْزِلُ لَهُمْ مِنْ «ثَوَى» بِمَعْنَى اتَّخَذَ الْمَنْزِلَ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ صَبْرَهُمْ لَا يَنْفَعُهُمْ، كَمَا كَانَ يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّ يَسْتَعْثِبُوا أَيْ لِيَطْلُبُوا الْعَثْبَةَ، وَ هِيَ بِمَعْنَى «الرِّضَا» أَيْ يَطْلُبُوا رِضَا سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَنْجِيَهُمْ مِمَّا فِيهِ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ بِصِفَةِ اسْمِ الْمَفْعُولِ - أَيْ مِمَّنْ يَرْضَى عَنْهُ، فَإِنَّ الْمَعْتَبَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ عِتَابَهُ، وَ يَجَابُ إِلَى مَا سَأَلَ.

[٢٦] وَ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ فِي الْكُونَ، أَنَّ الْإِنْسَانَ، إِذَا عَاشَرَ الْأَخْيَارَ، يَقُودُونَهُ إِلَى الْخَيْرِ، وَ إِذَا عَاشَرَ الْأَشْرَارَ، يَقُودُونَهُ إِلَى الشَّرِّ، وَ إِذَا انْحَرَفَ الْإِنْسَانُ لَمَّا رَأَى الْهُدَى، لَا بَدَّ وَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِقَافِلَةِ الْأَشْرَارِ، وَ هَذَا مَعْنَى تَهْيِئَةِ اللَّهِ لِرَفَقَاءِ السُّوءِ، فَإِنَّهُ حَيْثُ جَرَتْ سُنَّتُهُ الْكُونِيَّةُ عَلَى ذَلِكَ نَسَبَتْ التَّهْيِئَةَ، لِقَرِينِ السُّوءِ إِلَيْهِ وَ قَيِّضْنَا أَيْ هَيَّأْنَا لَهُمْ أَيْ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ قُرْنَاءَ جَمْعُ قَرِينٍ، وَ هُوَ الصَّدِيقُ الْمَقَارِنُ لِلْإِنْسَانِ فَزَيَّنُوا أَوْلِيَّكَ الْقُرْنَاءَ لَهُمْ أَيْ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْحَاضِرَةِ، بِأَنَّ زَيْنُوا لَهُمُ الْكُفْرَ وَ الْعَصِيَانَ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْآتِيَةِ، كِتَابُ سَبَبِ الْفُسُوقِ وَ الْعَصِيَانِ، كَالْبَدْعِ الْبَاقِيَةِ، وَ بِنَاءِ مَحَلَّاتِ الْفُسَادِ، وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَ لَعَلَّ الْعَمُومَ شَامِلٌ لِلشَّيَاطِينِ أَيْضًا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) «١»

(١) الزخرف: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٨

[سورة فصلت (٤١): آية ٢٦]

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦)

وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ أَيْ ثَبِتَ فِي حَقِّهِمُ الْعَذَابُ، فَقَدْ صَارُوا فِي قَطِيعِ الْكَافِرِينَ، وَ أَهْلِ النَّارِ، فَهَمُ دَاخِلُونَ فِي أُمَّةٍ كَافِرَةٍ كَانَتْ قَدْ خَلَتْ وَ مَضَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ أَيْ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ فَهَؤُلَاءِ دَاخِلُونَ فِي زَمْرَةِ أَوْلِيَّكَ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ حَيْثُ خَسَرُوا

سعادة الدنيا والآخرة.

[٢٧] ثم يأتي السياق لبيان حال الكفار، أمام القرآن و صنعهم لإبطاله، و عدم وصوله إلى الناس و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بعضهم لبعض لا تشيئتموه لهذا القرآن الذي يقرأه الرسول، لئلا تتأثروا به، و يجذبكم إلى الإيمان و العوا فيه أى عارضوه باللغو الباطل لعلكم تغلبون الرسول، فقد كان بعض الكفار، إذا قرأ الرسول القرآن، جاءوا، و رفعوا أصواتهم بالكلام الهدر، ليخلطوا على الرسول، فلا- يتمكن من القرآن، و لئلا يسمع الناس الذين يستمعون إلى كلام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حتى يؤثر فيهم القرآن، و فوق ذلك، إن بعض الكفار، كان يقف على باب المسجد الحرام، فإذا أراد أحد الدخول، فى المسجد للطواف- و الرسول جالس قرب الكعبة يتلو- ملاً أذنه قطناً، و يحذره من سماع القرآن، قائلاً أن فيه سحراً يؤثر، كما فعلوا ذلك بالوفد الذى أتى من المدينة، للإصلاح بين الأوس و الخزرج.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٤٩

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)

[٢٨] فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا فى الدنيا بالقتل و الأسر و الضنك، و غيرها، و فى الآخرة بالنار و الهوان و لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ أى نجازيهم بأقبح أعمالهم، أما أعمالهم الحسنة، فإنها تحبط، أو نجازيهم بأقبح جزاء فى مقابل العصاة المعادين الذين لا يجازون إلا بالقبيح.

[٢٩] ذَلِكَ الذى تقدم من «أشوأ الذى كانوا يعملون» جزاء أعداء الله «ذلك» مبتدأ، و «جزاء» خبره، و النار بدل من «جزاء» أى ذلك الذى ذكرنا هو النار لهم فيها دار الخلد فهم مخلصون فى النار أبداً الأبدية جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون أى ينكرون الآيات الدالة على وجودنا، و سائر صفاتنا، من الآيات التكوينية و التشريعية، كالقرآن الحكيم.

[٣٠] و إذ دخل الكفار النار، أرادوا الانتقام من الذين أضلوهم فى الدنيا، و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ و المراد بالجن الشيطان، و المراد الطائفتين لا الشخصين، فهم يريدون الانتقام من الشياطين الموسوسين لهم، و البشر المضلين إياهم، لكى نجعلهما تحت أقدامنا فى النار، لنسحقهم، أو ليقونوا أشد عذاباً،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٠

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٠ الى ٣١]

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٤ ٦٦٠

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١)

إذ طبقت النار كلما سفلت ازدادت حرارة و نكالا ليكونا من الأسفلين أى من جملتهم، حتى يكون عذابهم أكثر من عذابنا، و هنا لا يأتي الجواب، و قد مر فى آية أخرى، أنه سبحانه يقول (لِكُلِّ ضِعْفٍ) «١».

[٣١] فى مقابل أهل النار أهل الجنة الذين آمنوا و عملوا الصالحات إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ أى اعتقدوا ذلك، لا مجرد لقلقة لسان ثم استقاموا فى العمل و السلوك بالإيمان، بما يلزم الإيمان به و العمل الصالح تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إما دائم الأوقات،

فإن الملائكة تنزل على الأخيار، و إن لم يروها «٢» أو عند الموت- كما روى عن الصادق عليه السلام

«٣» و يؤيده ظاهر الآية- قائلين لهم أَلَّا تَخَافُوا من أهوال الآخرة و لَا تَحْزَنُوا و هو بعد الخوف، فإن الإنسان، إذا علم بالمكروه، أو

وصل إليه حزن و أبشروا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها في الدنيا.

[٣٢] ثم يقولون لهم على وجه التبشير نَحْنُ معاشر الملائكة أَوْلِيَاؤُكُمْ أَحْبَابُكُمْ و نلى أموركم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فإنا معكم لا

(١) الأعراف: ٣٩.

(٢) راجع تأويل الآيات: ص ٥٢٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٥٦ ص ١٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥١

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٢ إلى ٣٣]

تُزَلَّ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)

يصيبكم مكروه ما دتمتم في الحياة- وهذا لا- ينافى كون التنزل عند الموت، إذ يراد به حينئذ هذه الساعات القلائل التي بقيت من أعمارهم في الدنيا- وَ فِي الْآخِرَةِ حيث نهديكم الطريق إلى أن تصلوا إلى الجنة، فإن الإنسان من أحوج ما يكون إلى المرشد و الصديق في محلات الأحوال و الأزمات و لَكُمْ فِيهَا أى فى الآخرة ما تشتهي أنفسكم من أنواع الملذات و الكرامات و لَكُمْ فِيهَا أى فى الآخرة ما تدعون أنه لكم، من «ادعى» «يدعى».

[٣٣] ثم يرونهم، بأنها من إحسان الله إليهم، حتى تهج نفوسهم بالكرامة، كما بهجت بالملذة نُزُلًا أى فى حال كون هذا الإنعام، بما تشتهي الأنفس إنزالاً مِنْ غَفُورٍ لذنوبكم رَحِيمٍ بكم، و الإنزال إنما هو باعتبار علو مرتبة المعطى، لا الرفع المكانية.

[٣٤] ثم يأتى السياق توجيه الناس إلى دعوة الرسول، و أنها ليست إلا- إلى الخير، و للخير، فلما ذا يفر منها الكفار و العصاة؟ وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا استفهام يراد به النفي، أى لا- أحد أحسن قولاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ الذى هو خالق البشر و مالك كل شىء و عَمِلَ صَالِحًا الملازم لعدم السيئ و قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ الذين أسلموا لله تعالى، فى كل أمر و نهى، و ممن أرشد و دعا، فهو مسلم، عامل للصالحات، داع إلى الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٢

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٤ إلى ٣٥]

وَ لَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)

تعالى، و هل هناك أحسن منه؟

[٣٥] و إذ جرى حديث الدعوة، لا بد و أن يسير السياق إلى واجب الداعى أمام الأتعاب و المصاعب التى يواجهها الدعاة إلى الله و لَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ المأمور بها الداعى فى مقابل الجهال، خير من السيئة، التى هى مقتضى تقابل السيئة بمثلها، و هذه الجملة كمقدمة لقوله ادْفَعِ يا رسول الله، أو أيها الذى تواجه بالسيئة بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أى ادفع أذى الكفار و كيدهم بالطريقة التى هى أحسن الطرق فى دفع الأذى و الكيد، و

قد جمع الإمام السجاد عليه السّلام، ذلك فى قطعه من «دعاء مكارم الأخلاق» هى «سدّنى لأن أعارض من غشنى بالنصح و أجرى من هجرنى بالبر، و أثيب من حرمنى بالبذل، و أكافئ من قطعنى بالصلة، و أخالف من اغتابنى إلى حسن الذكر و أن أشكر الحسنه، و أغضى عن السيئة»

«١» فَإِذَا فعلت ذلك كان الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ وَ غَضَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ أى موال لك حَمِيمٌ كثير المودة و المحبة.

[٣٦] وَ مَا يُلْقَاهَا أى ما يلقي هذه الفضيلة و الصفة التى هى الدفع بالتي هى أحسن إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا فى مقابلة الجهال، بأن لم تثر أقوال

الأعداء و حرکاتهم و ما يُلقَّها أى هذه الخصلة المذكورة إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

(١) الصحيفة السجادية: ص ٩٢ و من دعائه عليه السلام فى مكارم الأخلاق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٣

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَإِذَا يَتَزَعَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)

أى نصيب وافر من العقل، و الرأى، و الحكمة، فإن الإنسان يقابل السىء بالأسوأ، ثم بالمثل و آخر طاقته أن يسكت فى مقابل السيئة، أما أن يفعل الحسن، بل الأحسن، فإنه بحاجة إلى حظ عظيم و عظيم جدا.

[٣٧] وَإِذَا يَتَزَعَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ، بِأَنْ تَدْفَعِ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الشَّيْطَانِ أَى مِنْ طَرَفِهِ نَزْغُ التَّرْغِ هُوَ النُّخْسُ بِمَا يَدْعُو إِلَى الْفَسَادِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْخَسُ الْإِنْسَانَ، وَيَهْجِهَ لِلْبَاطِلِ خُصُوصًا عِنْدَ الْخِصَامِ، وَفِي الْمَعْرَكَةِ- وَهَذَا مِنْ تَتْمَةِ الْأَمْرِ بِالْدَّفْعِ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ- فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ أَى اطْلُبِ الْعُودَ وَ الْإِجَارَةَ وَ الْحِفْظَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، «مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» الطَّرِيدِ، الْمَرْجُومِ بِاللَّعْنِ وَ الشَّهْبِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا) «١» وَ هَذَا بِخِلَافِ غَيْرِ الْمُتَّقَى الَّذِي يَسْتَمِرُّ فِي خِصَامِهِ وَ لِحَاجِهِ،

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فإن لم يندم فجنونه مستحکم»

«٢» ف إِنَّهُ أَى اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ يَسْمَعُ مَا تَقُولُونَ وَ هُوَ الْعَلِيمُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ.

[٣٨] ثم رجع السياق ليحاج المشركين بإتيان الأدلة على الله الواحد الأحد الذى لا شريك له و مِنْ آيَاتِهِ أَى آيات الله الدالة على وجوده و سائر

(١) الأعراف: ٢٠٢.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٨١- الباب الثالث فى المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام الرقم ٢٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٤

[سورة فصلت (٤١): آية ٣٨]

فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨)

صفاته اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فَمَنْ يَأْتِي بِأَبْدَعِهَا وَ خَلَقَهَا، هَلْ هِيَ الْأَصْنَامُ الْجَاهِلَةُ الْعَاجِزَةُ الْجَامِدَةُ؟ أَمْ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ؟ لَا تَسْجُدُوا أَيُّهَا النَّاسُ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ فَإِنَّهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ لَيْسَا بِأَيْلَهُ يَسْجُدُ لَهُ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ أَى خَلَقَ الشَّمْسَ وَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ، وَ الْإِتْيَانُ بِجَمْعِ الْعَاقِلِ، لِتَوْحِيدِ السِّيَاقِ مَعَ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْعُقَلَاءِ، حَيْثُ اتَّخَذُوا آلِهَةً إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أَى إِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَ لَا تَشْرِكُوا بِهِ، وَ هَذَا كَمَا يَقُولُ «إِنْ كُنْتَ تَرِيدُنِي فَاسْمَعْ كَلَامِي، وَ لَا تَسْمَعْ كَلَامَ غَيْرِي» تَرِيدُ أَنْ سَمَاعَ كَلَامِكَ، وَ كَلَامَ غَيْرِكَ عِنْدَكَ، بِمَنْزِلَةِ عَدَمِ سَمَاعِ كَلَامِكَ أَصْلًا.

[٣٩] فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا أَى تَكْبَرُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ عَنْ قَبُولِ كَلَامِكَ وَ اتِّبَاعِكَ فِي التَّوْحِيدِ، بَلْ عَبَدُوا الشَّرَكَاءَ مَعَ اللَّهِ، فَلَيْسَ بِمِهِمْ، إِذْ هُنَاكَ مِنْهُ أَعْلَى مِنْهُمْ، وَ أَرْفَعُ رَتْبَهُ، يَخْضَعُ لِلَّهِ وَ يَسْجُدُ لَهُ وَحْدَهُ، وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ لِمَنْ عَصَاكَ «إِنْ تَعْصَى، فَإِنْ عِنْدِي مِنْهُ أَحْسَنُ مِنْكَ يَطِيعُنِي» تَرِيدُ الْاسْتِهَانَةَ بِشَأْنِهِ، وَ أَنْكَ لَا يَهْمُكَ عِصْيَانُهُ، فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ أَى الْمَلَائِكَةُ، وَ الْمَرَادُ عِنْدَهُ رَتْبَهُ وَ مَنْزِلَتَهُ، لَا مَكَانًا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَنْزَهُ عَنِ الْمَكَانِ وَ الْمَكَانِيَّاتِ يُسَبِّحُونَ لَهُ أَى يَزْهَوْنَ عَنِ الشَّرَكَاءِ وَ النِّقَائِصِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٥

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)
إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠)

بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي دَائِمِ الْأَوْقَاتِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ مِنْ سَأَمٍ بِمَعْنَى تَعَبٍ، أَيْ لَا يَتَعَبُونَ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ.

[٤٠] وَمِنْ آيَاتِهِ الْكُونِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى وَحْدَتِهِ، وَسَائِرُ صِفَاتِهِ وَعَلَى الْمَعَادِ أَنْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً وَخَشوعَهَا اغْبَارَهَا، وَعَدَمَ وَجُودِ النَّبَاتَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ فِيهَا، بِوِاسِطَةِ الْجَدْبِ، فَحَالُهَا حَالُ الْإِنْسَانِ الْخَاشِعِ، الَّذِي لَا حَرَكَاتَ لَهُ، وَهُوَ مُغْبِرٌ غَيْرُ نَظَرٍ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ مِنَ الْمَطَرِ اهْتَزَّتْ أَيْ تَحَرَّكَتْ، فَإِنَّ الْمَاءَ يَنْشِطُ الْأَرْضَ وَيَحْرِكُهَا بِالْإِنْتِفَاحِ وَتَعْلِيَةِ الْأَمْلَاحِ وَرَبَّتْ أَيْ ارْتَفَعَتْ لِدُخُولِ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ خِلَالِهَا إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا أَيْ أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْخَشُوعَ لِمُحْيِي الْمَوْتِ فَكَمَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَكَيْفَ يَنْكُرُ الْكَافِرُ قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَةِ الْأَمْوَاتِ، وَهُوَ يَرَى هَذِهِ الْقُدْرَةَ الْبَاهِرَةَ كُلَّ يَوْمٍ؟
[٤١] إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا أَيْ يَمِيلُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِنَا، مِنْ «الْحَدِّ»، بِمَعْنَى، مَالٍ، فَيَنْكُرُونَ قُدْرَتَنَا، وَسَائِرَ صِفَاتِنَا، فَإِنَّهُمْ حَيْثُ انْحَرَفُوا عَنِ الْإِيمَانِ، كَانُوا بِمَنْزِلَةٍ مِنْ انْحِرَافٍ عَنِ الدَّلِيلِ الدَّالِّ عَلَيْهِ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا فَإِنَّهُمْ تَحْتَ سَمْعِنَا وَبَصْرِنَا، نَرَى أَعْمَالَهُمْ وَنَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ، حَتَّى نَجَازِيَهُمْ عَلَى مَا اقْتَرَفُوا مِنَ الْمِيلِ وَالْإِنْحِرَافِ، وَيَكُونُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٦

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٤١ إلى ٤٢]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)
مَصِيرُهُمُ النَّارَ، بِخِلَافِ مَصِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ وَهُمْ الْمُلْحِدُونَ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَصِيرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ؟ ثُمَّ يَتَوَجَّهُ الْخُطَابُ إِلَى النَّاسِ مَبِينًا لَهُمْ، أَنْ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ سَيَجَازُونَ عَلَيْهِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ إِنَّهُ تَعَالَى بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بَصِيرٌ عَالِمٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَسْتَحَاسِبُونَ عَلَيْهِ وَتَعْطُونَ جَزَاءَهُ، فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ مَا شِئْتُمْ.

[٤٢] ثُمَّ هَدَدَ سَبْحَانَهُ الْكَافِرِينَ بِالْقُرْآنِ، بَعْدَ أَنْ هَدَدَ الْكَافِرِينَ بِهِ، أَوْ بِالْمَعَادِ، بِقَوْلِهِ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، بِأَنْ جَحَدُوهُ، وَقَالُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحَالُ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ذُو عِزَّةٍ وَرَفْعَةٍ، لَا يَتِمَكَّنُ الْبَشَرُ أَنْ يَأْتِيَهُ لِفَصَاحَتِهِ وَبَلَغَتِهِ وَاشْتِمَالِهِ عَلَى الْأَنْظُمَةِ الْبَدِيعَةِ وَالْخَوَارِقِ، وَقَدْ حَذَفَ خَبْرَ إِنَّ لِأَجْلِ التَّهْوِيلِ، فَالتَّقْدِيرُ مِثْلًا لِيَلِاقُوا جَزَاءَهُمُ الْأَلِيمِ عَلَى هَذَا التَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ، أَنَّ حَذْفَ الْخَبْرِ، وَمَا أَشْبَهَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ يَفِيدُ التَّهْوِيلَ، كَمَا تَقُولُ لِلْمَجْرَمِ: إِنْ اقْتَرَفْتَ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ، تَرِيدُ تَهْوِيلَهُ مِنَ الْجَزَاءِ الَّذِي يَحِلُّ بِهِ.

[٤٣] ثُمَّ وَصَفَهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِأَنْ يَأْتِي فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٧

[سورة فصلت (٤١): آية ٤٣]

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)

زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا يَمِثَلُهُ فِي فَصَاحَتِهِ أَوْ نِظَامِهِ، أَوْ أَخْبَارِهِ، كَأَنْ يَأْتِي أَفْصَحَ مِنْهُ، أَوْ أَجْمَلَ نِظَامًا، أَوْ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَخْبَارَهُ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ أَوْ الْوَالِدَةِ، أَوْ حَوْلِ الْأَصُولِ بَاطِلَةٌ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ بِأَنْ يَأْتِي بَعْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مِنْ يَبْدَى بَطْلَانِهِ فِي إِحْدَى تِلْكَ الْأُمُورِ، وَرَوَى فِي الْمَجْمَعِ عَنِ الْبَاقِرِ وَالصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ مَعْنَاهُ لَيْسَ فِي أَخْبَارِهِ عَمَّا مَضَى

باطل ولا في أخباره عما يكون في المستقبل باطل، بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها «١»، أقول: وكان هذا بيان لمصدق من مصاديق الكلى الذى ذكرناه، وهو الظاهر من عموم الآية تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ فى أفعاله، فإنه سبحانه، أنزل القرآن حسب الحكمة و الصلاح، و لذا لا يتطرق إليه الباطل حَمِيدٍ محمود فى كل شىء، و لذا لا يأتى بما لا يحمد مما هو قابل للبطلان.

[٤٤] ثم ربط سبحانه بين الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و سائر الرسل، و بين القرآن، و سائر الكتب السابقة بقوله ما يُقَالُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَى لا يوحى إليك إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ بأن أوحى إليهم إِنَّ رَبَّكَ لَمَدُو مَغْفِرَةٌ أَى غفران للمذنبين إذا تابوا و ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ مؤلم لهم إذا بقوا فى كفرهم و عصيانهم، فليختاروا ما شاءوا من المغفرة التابعة للإيمان، أو العقاب التابع للعصيان.

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٨

[سورة فصلت (٤١): آية ٤٤]

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءً وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)

[٤٥] ثم عطف السياق نحو القرآن بقوله و لَوْ جَعَلْنَاهُ أَى جعلنا هذا القرآن قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا بغير لغة العرب لَقَالُوا أَى لقات العرب لَوْ لَا أَى هَلَا فَصَّلَتْ و بينت بلغتنا آياته حتى نفهمه، فتؤمن به، و قالوا تبريرا لعدم إيمانهم أَعْجَمِيٌّ القرآن و عَرَبِيٌّ من خوطب به: كيف يكون هذا؟ و جعلوا ذلك وسيلة لعدم الإيمان، أما و القرآن عربى، و الرسول منهم (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) «١» فما عذرهم؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَرَبِيًّا، حتى يقطع عذرهم، فهو لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى من الضلالة و شِفَاءً من أمراض القلب كالحسد و الغل و القلق، و سائر الأوجاع النفسية، أو الأعم منها، و من الأوجاع البدنية و الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ لَيْسَ مِنْ جِهَةِ نَقْصِ الْقُرْآنِ، بل من جهة أنهم فى آذَانِهِمْ وَقْرٌ أَى حمل ثقيل مانع عن استماعه، و هذا كناية عن إعراضهم عن الحق، فهم كالأصم الذى فى أذنه ثقل لا- يسمع، فلا يسمع حتى يعلم- بعلاقة المشابهة- وَ هُوَ أَى الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ أَى على الذين لا يؤمنون عَمًى إذ أن القرآن يوجب أن ينصرفوا عن الحق، انصرف الأعمى عن الطريق، فكأنه يولد فيهم العمى، و الإنسان يرى بعض الناس، يقرون بالحق نوعا ما، فإذا جاءهم الحق واضحا، تعاملوا حتى عما

(١) الجمعة: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٥٩

[سورة فصلت (٤١): آية ٤٥]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)

كانوا يعترفون به، عنادا و حسدا، أو المراد أنهم كالأصم و الأعمى، لا يبصرون الحق، و لا يسمعون الصدق أُولَئِكَ الكفار كالذين يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ حيث لا يسمعون و لا يفهمون، كمن إذا نودى من البعد، لا يسمع و لا يفهم، فهذا من باب تشبيه حالهم فى الإعراض، بمن ينادى من بعيد.

[٤٦] و لا غرر فى ذلك، فإن الأمم قد اعتادت تكذيب الأنبياء و لَقَدْ آتَيْنَا أَى أعطينا ل موسى الْكِتَابَ أَى التوراة فَاخْتَلَفَ فِيهِ اختلف فيه الناس، فبعضهم آمنوا به، و بعضهم لم يؤمنوا، كما اختلفوا فى القرآن، و هذا تسلية للرسول صلى الله عليه و آله و سلم و لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بتأخير العذاب عن قومك، لأنك فيما بينهم (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ) «١» لَقَضَى بَيْنَهُمْ أَى لحكم الله بين المؤمن و الكافر، بإبقاء المؤمن و إهلاك الكافر، بإتزال العذاب عليهم، كما أهلك القبط بالغرق، حين كفروا

بموسى وَإِنَّهُمْ أَى قومك لَفَى شَكٌّ مِنْهُ أَى من القرآن مُرِيبٌ أَى موجب للريب و الاضطراب، فَإِن الشك إِذَا لم يظهر أثره لا يسمى مريباً، و هذا كفضلكة للكلام، أو المراد، أنهم فى شك من قولنا «لو لا كلمة .. إلى آخره» أَى لا يصدقون، بأن الكلمة أخرجت عذابهم إلى يوم القيامة، بل يظنون أنك

(١) الأنفال: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٤، ص: ٦٦٠

[سورة فصلت (٤١): آية ٤٦]

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦)

تكذب، و لذا لا أثر لكلامك و تهديدك.

[٤٧] و أخيراً مَنْ عَمِلَ صَالِحًا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الْإِيتِيَانِ بِأَمْرِهِ فَلِنَفْسِهِ عَمَلٌ إِذْ هُوَ يَرَى جَزَاءَهُ الْحَسَنَ، وَ ثَوَابَهُ الْعَاجِلَ وَ الْآجِلَ وَمَنْ أَسَاءَ

عقيدة أو عملاً فعليها أَى كان ضرره على نفسه و ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ أَى بذى ظلم، فَإِن «فعال» من صيغ النسبة، كما قال ابن مالك:

و مع فاعل و فعال فعل فى نسب أغنى عن اليا فقبل

أو يراد به المبالغة، و ذلك لأن كل صنعة جازت فى الله، بلغت إلى أقصى حد، فَإِن جاز فيه الخلق كان خلاقاً، أو الرزق كان رزاقاً، و

هكذا، فنفى المبالغة، موجب لنفى الصفة للعبيد جمع عبد، فما يرى الإنسان من سوء فى الدنيا أو الآخرة، فإنما هو جزاؤه العادل بما

عمل من الكفر و العصيان.

الجزء الخامس

تتمة سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٤٧ إلى ٤٨]

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ (٤٨)

[٤٨] و بمناسبة ما تقدم من أوصافه سبحانه، و ذكر المعاد، يأتى السياق يؤكد ذلك، حتى يعرف الناس، أن ما يعملون، إنما هو

باطلاعه سبحانه، ثم يجازيهم عنه إِلَيْهِ سبحانه يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعِيَةِ التى هى القيامة، و المعنى أنه، إذا سئل عن وقت القيامة، رد علمه إلى

الله، و قيل الله عالم، إذ لا يعلمه سواه و ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا أَى لا تخرج ثمرة من وعائها و غلافها، إلا بعلمه سبحانه، و

أكمام جمع كم، و هو الغلاف، يقال تكمم الرجل بثوبه إذا تلفف به و ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ إِنْسَانًا كان أو حيواناً و لا تَضَعُ مولودها إِلَّا

بِعِلْمِهِ تعالى، و حيث إن القيامة عبارة عن ظهور عالم جديد، ناسب ذلك الإتيان بظهور الثمرة، و ظهور الحمل، و ظهور الولد، فعلمه

سبحانه عام لكل شىء و اذكر يا رسول الله يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَى ينادى الله سبحانه المشركين، قائلًا لهم أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين زعمتم أنهم

مشركون معى فى صفة الألوهية؟ و هذا الاستفهام للتفريع قالوا أَى المشركين أَدْنَاكَ أَى أعلمناك، و المعنى نعلمك و نعترف لك

بأنه ما مِنَّا أَى ليس منا جماعة المشركين مِنْ شَهِيدٍ يشهد بأن لك شريكا، يريدون بذلك التبرؤ من أعمالهم الإشراكية.

[٤٩] وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ أَى ضَاع عَنْهُمْ الآلهة، التي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

لا- يَسْأَلُ الْإِنْسَانَ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْسَ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَدْقَانَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنُتَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)

كانوا يعبدونها قبل يوم القيامة، في دار الدنيا، فلم يجدوها في المحشر وظنوا بأنهم ما لهم من مَحِيصٍ أى ملجأ ومهرب وإنما قال ظنوا حكاية عنهم، فإن الإنسان لا- يقر نفسيا بما يؤلمه، وإن كان في قرارة نفسه يعلم بوصول المكروه إليه، أو إنهم ظنوا حقيقة لاحتمالهم النجاة.

[٥٠] ثم يأتي السياق ليصف حال الكفار في الدنيا، بعد أن أرى جانباً من حالهم في الآخرة، ليبين وجه إصلاحتهم النار في الآخرة، إنه لانحرافهم في الدنيا، فبالإضافة إلى كفرهم، إنهم منسلخون عن الفضيلة لا يسأل الإنسان أى لا يمل ولا يكمل من دُعَاءِ الْخَيْرِ ويطلبه، فهو يدعو الخير ويطلبه لنفسه دائماً أبداً لا قناعة له ولا رضى في نفسه، مما حصل عليه بقدر الكفاية وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ مجرد إحساس، من فقر ومرض وخوف وما أشبه فَيُؤْسَ أى شديد اليأس من الفرج قَنُوطٌ من رحمة الله تعالى.

[٥١] وَلَئِنْ أَدْقَانَاهُ أى أعطينا هذا الإنسان المتصف بتلك الصفة رَحْمَةً مِنَّا أى فرجا من كربه، بالصحة والغنى بعد المرض والفقر، أو ما أشبه ذلك مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ أى وصلت إليه لَيَقُولَنَّ منكراً فضل الله وإحسانه في كشف كربه هذا الخير الذى جاءنى لى فأنا فاعله، والآتى به، عوض أن يشكر ربه، ويعرف أنه من إحسانه وفضله وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ أى القيامة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩

[سورة فصلت (٤١): آية ٥١]

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)

قَائِمَةً أى سوف تكون، فإن الإنسان إذا وجد نعمة بطر ونسى ربه ومياعده، فلا يشكر، ولا يصرف النعمة في حقها، فيعرض مياعده، بل يقول إن النعمة لى، ويصرفها في الشر قائلًا، لا قيامه، حتى أعمل صالحاً بالنعمة، ثم فوق ذلك يظن أنه مكرم عند الله- كما هو تمنى الجهال- فيقول وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي بَأَن صَدَقَ قَوْلَ النَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ بِوُجُودِ الْمِيْعَادِ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى أى المنزلة الحسنى، و هى الجنة، فكما أعطانى فى الدنيا، يعطينى فى الآخرة، وهنا يأتى السياق ليبين مصير هذا الإنسان فَلَنُتَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أى لنخبرن هؤلاء الكفار بِمَا عَمِلُوا فى الدنيا من الكفر والعصيان، والإخبار إنما هو لأجل التقرير، وإفصاحهم أمام الملائكة العام وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ هو النار والنكال، لما عملوا من الأعمال السيئة.

[٥٢] وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ والمراد به الإنسان المنحرف، كما سبق فى الآية السابقة أَعْرَضَ عن الله سبحانه ونأى بِجَانِبِهِ أى بعد بجانبه عن الاعتراف بالله وشكره، تشبيهه بالإنسان المعرض عن شىء، حيث يبعد نفسه منه بعداً حسياً وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ من مرض وفقر وخوف وما شابه فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ يكثر الإلحاح والطلب منا لرفع ضره، و «العريض» أبلغ من «الطويل»، إذ العريض لا يكون إلا طويلاً،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٥٢ الى ٥٣]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)

و إلا لا يسمى عريضاً، بخلاف الطويل، فإنه لا يلازم العريض.

[٥٣] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهؤلاء الكفار المنكرين، لكون القرآن من عند الله تعالى أَرَأَيْتُمْ أى أخبرونى إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَأَن

أنزله على لا كما تقولون من أنه افتراء مخلوق ثم كَفَرْتُمْ بِهِ و جحدتموه مَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ؟ أى من يكون- حينذاك- أكثر ضلالاً منكم؟ و إنما أتى بهذا الوصف، تقريباً. و رهانا، لكونهم أضل، إذ هم فى شقاق بعيد عن الحق، فهم شق و الحق فى شق، و بينهما تباعد كثير.

[٥٤] سَيَرِيهِمْ آيَاتِنَا الدالّة على وجودنا، و سائر صفاتنا فى الأفاق جمع أفق، و هو أطراف الكون، لأن كل طرف أفق، من سماء و أرض، و شمس، و قمر، و نجوم، و جبال، و شجر، و حيوان، و بحار، و غيرها و فى أَنفُسِهِمْ و ما فيها من لطائف الصنع، و عجائب التراكيب، التى تدل على وجود الله و علمه، و قدرته، و إرادته، و سائر صفاته، و معنى الإرائة، إلفاتهم إلى الآيات، بواسطة التوجيهات فى القرآن، و كلمات الرسول و الأئمة، و الإلقاء فى قلوبهم حَتَّى يَتَبَيَّنَ أى يظهر لَهُمْ أى لهؤلاء الكفار أَنَّهُ أى الله سبحانه، أو الرسول، أو القرآن الْحَقُّ فَإِنَّ الأدلة الكونية ترشد إلى كل ذلك- و إن كان الأول أقرب- أ و لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ يا رسول الله، و الباء فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١

[سورة فصلت (٤١): آية ٥٤]

أَلَا إِنَّهُمْ فى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

«بربك» زائدة دخلت على الفاعل، إذ الأصل فى المعنى «أو لم تكف بربك» أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أى حاضر، و هذا برهان على أنه الإله الحق، إذ الإله يحضر و يشهد كل شىء بخلاف سائر الأشياء، فإنها لا تشهد «الله» إذ الإله سابق عليها، و الشاهد يلزم أن يكون حاضرا من البدء إلى الختم، و ليس لأحد أن يقول: من أين نعلم، أن الله شاهد على كل شىء؟ إذ الجواب هل هناك شىء أول شهد كل شىء، أم لا؟

فإن قال نعم قلنا ذلك هو الله، و ثبت المطلوب، و إن قال لا، قلنا هذا خلاف الضرورى، إذ لا يعقل أن لا يكون هناك شىء أول، و إن قال، بل يمكن أن يكون الأول متعددًا، فلا وحدة فى الأول قلنا اعترفت بالواحد، فعليك الدليل على الأكثر، ثم لا يمكن تعدد الأول، لما ثبت فى علم الكلام، من أن التعدد فى الأزلى غير معقول، إذ يلزم من التعدد التركب، و من التركب، عدم الأولوية- فهو خلف-

[٥٥] أَلَا- إِنَّهُمْ أى الكفار فى مِرْيَةٍ و شك مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أى لقاء حسابه و جزائه- على سبيل تشبيه المعقول بالمحسوس- و هذا على سبيل التسفيه لعقيدتهم، فكيف يمكن أن يكون الخلق عبثًا، لا حساب لهم و لا جزاء؟ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ إحاطة علم و قدره، فهو عالم بهم، و لا- يخرجون عن قبضته، فسيأتى يوم يحاسبهم بما علم، و يعطيهم جزاء كفرهم و إنكارهم، فلا مفر لهم منه، و لا مجال للإنكار، لما اقترفه من الكفر و الآثام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢

٢٢ سورة الشورى مكية- مدنية / آياتها (٥٤)

و تسمى ب «حمعسق» أيضا لاشتمالها على كلمة «الشورى» و «حمعسق»، و هى كسائر السور المكية، تعالج قضايا العقيدة، قالوا و نزلت بعض آياتها فى المدينة، كآية «القربى» و حيث ختمت سورة فصلت، بذكر إنكار الكفار للأصول، ابتدأت هذه السورة، بتقريرها، و تأكدها، فقال سبحانه:

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شروع فى السورة، باسم الله، و الإتيان، ب «الاسم» دون أن يقال «بالله» للتحليل و التصريح، إذ قوله «بالله» أيضا تؤول إلى «باسم الله» و للمعارضه لما يقوله أهل سائر الأديان، و الطرق كقول المسيحي «باسم الأب و الابن و الروح القدس» و التأكيد على صفتى «الرحمن الرحيم» للتوجيه إلى أهم الصفات التى تنفع الناس فى دنياهم و آخرتهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤)

[٢-٣] حم* عسق أى أن هذا القرآن مؤلف من حروف الهجاء، التى منها «حاء» «ميم» «عين» «سين» «قاف»- على قول- أو رمز بين الله و الرسول- على آخر- أو هو إشارة إلى أسامى لله تعالى، فمعناه الحليم الميثب العالم السميع القادر- على رواية عن الصادق عليه السلام «١» - أو غير ذلك من الأقوال الكثيرة، فى فواتح السور.

[٤] كَذَلِكَ أى كهذا الذى ذكرها من «حم عسق» أو كالوحي الذى تقدم من سائر سور القرآن يُوحَىٰ إِلَيْكَ يا رسول الله وَإِلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ فاعل يوحى العَزِيزُ فى سلطانه، فلا- غالب عليه الْحَكِيمُ فى تكوينه و تشريعده، فإنه يخلق الأشياء حسب الحكمة و الصلاح، و يأمر و يشرع، حسب الحكمة و الصلاح، فإنزال الوحي عليك، و على الأنبياء السابقين، تابع للحكمة، لا عبث فيه، و لا اعتبار، و لا محاباة.

[٥] لَهُ تعالى بالخلق و الملك و التدبير ما فى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ المراد الظرف و المظروف، فإن أحدهما يطلق، و يراد به الآخر- فى كثير من الأحيان- إيجاز فى الكلام وَهُوَ الْعَلِيُّ أى الرفيع الذى لا أرفع منه، و المراد رفعة المنزلة لا رفعة المكان، فإنه تعالى منزه عن المكان و المكانية الْعَظِيمُ الذى هو أعظم من كل شىء

(١) بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٣٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤

[سورة الشورى (٤٢): آية ٥]

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرُونَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥)

علما و قدرة، و من حيث سائر الصفات.

[٦] ثم بين سبحانه بعض عظمته فى الكون التى أوجبت أن تقترب السماوات إلى الإنفطار و الانشقاق خوفا و روعه، و أوجبت تنزيه الملائكة، و طلب غفرانهم لأهل الأرض العصاة، كما نرى من اعتذار الوزير من الملك، عمّن عصاه، لما يرى شدة بطشه، و لما يخاف من أن تحل نقمته- تكادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرُونَ أى يتشققن من فَوْقِهِنَّ أى جهة أعلاهن، لأن الأعلى، أقرب إلى ما ارتكز فى الذهن من علوه سبحانه، و إن كان العلوان مختلفان، فعلوه سبحانه معنوى و علوها حسى، و المعنى أن عظمته سبحانه، بحيث تؤثر فى السماوات، حتى أنها تقترب من الانشقاق، و هذا كقوله سبحانه وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ «١» و قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ) «٢» وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى ينزهونه بذكر محامده، فإن من قال فلان شجاع، كان حمدا و تنزيها عن الجبن، بخلاف ما لو قال إنه ليس بجبان، فإنه لا- يلزم أن يكون شجاعا و يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ بأن يغفر الله لهم، أما مؤمنهم، فيغفر له عصيانه، و أما كافرهم فبأن يهبى سبحانه مغفرته بالإيمان، حتى لا يحل بهم العذاب مما يرهب منه، حتى الملائكة، و إن كان تعديبا لغيرهم، فإن الشخص يرهب العذاب، حتى إذا نزل بغيره ألا فيتنبه البشر إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ

(١) الرعد: ٣٢.

(٢) الأحزاب: ٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٦ إلى ٧]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)

لذنوب عباده الرَّحِيمُ بهم يتفضل عليهم بالإحسان فوق الغفران.

[٧] وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَى من دون الله أَوْلِيَاءَ أَى الأصنام بأن عبدها الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ أَى أنه يحفظهم، فالأصنام موهومات، لا حقيقة لألوهيتها، وإنما الله هو الحافظ لهم، وهكذا كما يقول الرئيس: إن فلانا الذى يحاربني، يأكل رزقى و عطائي، و ما أَنْتَ يَا رسول الله عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ فإنك غير مسئول عن كفرهم، وإنما أنت مسئول عن تبليغهم، و قد فعلت ذلك.

[٨] وَكَذَلِكَ أَى كما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَو المعنى، «هكذا أوحينا إليك» و إنما جىء ب «ذلك» لتنزيل رفعة القرآن معنى، منزلة بعده حسا- كما ذكروا فى علم البلاغة- قُرْآنًا عَرَبِيًّا فإنه بلغه العرب ليفقهوا ما فيه لِتُنذِرَ يَا رسول الله أُمَّ الْقُرَى و هى مكة، و المراد أهلها و مَنْ حَوْلَهَا أَى حول مكة من سائر القرى فى العالم، فإنها حيث صارت أما صارت كل قرية حولها، فإن البنات حول الأم، و إنما سميت أم القرى، لأن الأرض دحيت من تحتها، كالأولاد الذين يخرجون من الأم بالولادة، و كأن هذا الإنذار، بالنسبة إلى الأمور الدنيوية، فإن من أعرض عن ذكره تكون معيشته ضنكا و تُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ هو يوم القيامة، الذى يجمع فيه الخلائق، بأن من كفر أو عصى، عذب بالنار و النكال لا رَيْبَ فِيهِ و إن ارتاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٨ إلى ٩]

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩)

فيه كثيرون، إذ المعنى، إنه ليس محلاً للريب، كما قال سبحانه، بالنسبة إلى القرآن (لا رَيْبَ فِيهِ) «١» و كما تقول «لا-ريب فى نور الشمس» و إن أنكره السوفسطائيون فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ و هم المؤمنون المطيعون و فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ أَى النار المستعرة الملتهبة، و هم الكفار و العصاة، فتندرهم، بأن لا يتمادوا فى الكفر و العصيان، حتى يكونوا من أصحاب السعير.

[٩] و لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يجبر الناس على دين واحد لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً و لكن هذا نقض للغرض، فإن الغرض من الخلقة التكليف، حتى يترتب عليه الثواب و العقاب، و لو كان الناس مجبورين، لكانوا كالأحجار و النبات فى الفعل و لَكِنْ خَيْرِهِمْ، و أعطى الزمام بأيديهم، ل يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ ممن آمن و عمل صالحا فى رَحْمَتِهِ بالسعادة فى الدنيا، و الجنة فى الآخرة و الظَّالِمُونَ الذين اختاروا الكفر و العصيان ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ يوالِيهم و يلى أمورهم و لا نَصِيرٍ ينصرهم.

[١٠] أَمْ مَنقُطَةٌ، بمعنى «بل» أَى أن الكفار ضربوا عن عبادة الله و ولايته، و اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ هى الأصنام التى والها الكفار فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ و إنما الأصنام أحجار لا تضر و لا تنفع، فهى

(١) البقرة: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٠ إلى ١١]

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)

لا توالى أحدا ولا تنفع ولا يئىء الناس لها وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى فمبعث الخلق بيده، لا بيد غيره، و يلزم من ذلك، أن يخاف الناس عقابه، حيث إن بيده الحكم وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ من الإحياء و الإماتة و الرزق، و غيرها، بخلاف الأصنام، التي لا تقدر على شىء، و اتخاذ القادر وليا أولى من اتخاذ العاجز.

[١١] أما هذه الاختلافات التي حدثت بين الناس، فالحكم الوحيد فيها هو الله تعالى، إذ هو المطلع على الصدق و الكذب و الحقيقة و الزيف و مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ الضمير عائد إلى «ما» أى كل شىء اختلفتم فيه فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ و هو الحكم العالم الذى يحق له الحكم، أما من سواه، فبين جاهل، و بين ما لا يحق له الحكم، و إن كان عالما، إذ الفصل فى القضايا و نفوذها أمر يحتاج إلى السلطة، و لا-سلطة إلى له سبحانه ذلُكُم «ذا» إشارها، و «كم» خطاب الله رَبِّي أى أن الذى يحكم بين المختلفين هو ربي، لا الأصنام العابرة الجاهلة عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فى مهمامى و إِلَيْهِ أُنِيبُ أى أرجع فى جميع أمورى، أو المعنى، أتوب إليه.

[١٢] ثم وصف سبحانه بأنه فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أى خالقهما و مبدعهما، من فطر بمعنى خلق، و هو الذى جَعَلَ لَكُمْ أيها البشر تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨

[سورة الشورى (٤٢): آية ١٢]

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

مِنْ أَنْفُسِكُمْ أى من جنس نفوسكم أزواجاً ليسكن الإنسان إليها، فإن «كل جنس لجنسه يألف» و لا يقال فكيف تكون فى الآخرة زوجة الإنسان حورية؟ إذ هناك يلفظ الإنسان، حتى يكون كالملك فيتجانسان و جعل مِنَ الْأَنْعَامِ الْإِبِلَ وَ الْبَقَرَ وَ الْغَنَمَ أَزْوَاجاً ذَكَرَا و أنثى، لتكميل المنافع و النتاج، لبقاء النسل، فمن يا ترى جعل كل ذلك؟ يَذُرُّكُمْ ذُرًّا، بمعنى أوجد، أى يخلقكم- أنتم و الأنعام- فيه أى فى هذا الجعل، فإن امتداد نسل الإنسان و الحيوان، إنما هو بجعل الأزواج، و لذا ينقطع من لا زوج له لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ من الأصنام و غيرها من سائر المعبودات، و الكاف إما زائدة لتأكيد النفى- كما هو شأن الزوائد غالباً- أى ليس مثله شىء، قطعاً، أو هذا مبالغه، فإن الشىء إذا لم يكن لما يشابهه مثل، لم يكن له مثل بطريق أولى، مع أنه سبحانه لا يشابه أحداً، فهو غير منقطع عن خلقه وَ هُوَ السَّمِيعُ الْمَسْمُوعَاتِ الْبَصِيرُ لِلْمَبْصِرَاتِ، فهو غير منقطع عن خلقه، فقد أحاطهم علما و إدراكا.

[١٣] لَهُ سبحانه مَقَالِيدُ جمع مقلاد و هو المفتاح السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فإن مفتاح الصحة و المرض، و الغنى و الفقر، و الحياة و الموت، و الإيجاد و الإعدام، و غيرها ... بيده، و هذا من باب التشبيه، فإن من بيده المفتاح يكون مسيطراً على الخزينه التى منها العطاء و المنح يَبْسُطُ الرِّزْقَ أى يوسع له لِمَنْ يَشَاءُ من عباده

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩

[سورة الشورى (٤٢): آية ١٣]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)

وَ يَقْدِرُ أى يضيق الرزق لمن يشاء، حسب حكمته فى التوسعة و التضيق، و ليس معنى هذا، أن لا مدخلية للطلب، إذ الطلب من جملة الأشياء التى قررها سبحانه للرزق، كما أن الزواج من جملة الأسباب التى قررها سبحانه للولد، و إن كان الولد من خلقه تعالى إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و من علمه جعل بعض الناس أغنياء، بأن وسع عليهم، و جعل بعضهم فقراء، بأن ضيق عليهم.

[١٤] ثم أن هذا الخالق العظيم، الذى بيده كل شىء، و هو سميع بصير بكل شىء، هو الذى شرع الدين لرفاه البشر، و نظامه أفضل الأديان و الأنظمة، إذ يعرف ما يلائم حياة الإنسان، و ما لا يلائم، ثم إن نظامه خال من الأغراض، و الأهواء و الميول شَرَعَ لَكُمْ أيها المسلمون مِنَ الدِّينِ أى الإسلام، و معنى الشرع، جعل النهج و النظام و أصله من الظهور، و منه الشريعة لظهور محل أخذ الماء على الشاطئ، أو من الشروع بمعنى الابتداء ما وَصَّى بِهِ نُوحًا فالإسلام دين الأنبياء، من شيخ المرسلين نوح الذى كان بدء العالم الجديد وَ

هو الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى فَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّمَا بَشَرُوا بَدِينٍ وَاحِدًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١﴾ و قد ذكرنا في بعض

(١) آل عمران: ٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠

المؤلفات، إن الدين ينقسم إلى أصول وفروع وأخلاق، والكُل غير قادر للتبدل، فالأصول: التوحيد، والعدل، والنبوة، والوصاية، والمعاد، وهل هذا قابل للاختلاف؟ والفروع: خضوع يسمى الصلاة، وإنفاق يسمى الزكاة، وإمساك يسمى الصيام، وذهاب إلى محل يذكر الله يسمى الحج، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وهل هذا قابل للنسخ؟ ثم بيع وشراء وإجارة وإرث، وما أشبهه، و رذائل محرمة، كالخمر والقمار، وفصائل لازمة، كالصلة وبر الوالدين، وهل يمكن تحريف شيء منها؟ والأخلاق شجاعه وغيره و بذل و معونه و عفه، و ما أشبهه، و هل يمكن أن تنقلب الشجاعه رذيله، و الجبن فضيله، و هكذا؟

نعم اختلاف في الحدود، والقيد، والآداب، لا في الجوهر والأصل أن أقيموا الدين متعلق، ب «وصي» أي أوصيناهم بإقامة الدين، بأن يكون قائما غير دارس ولا تفرقوا أيها الأنبياء عليهم السلام أو أيها الناس - بأن يكون من باب الالتفات - فيه أي في الدين ثم ذكر الله سبحانه، إن الكفار يستعظمون دعوتك إلى التوحيد، لأنهم عباد أصنام قد توارثوها عن الآباء كبر على المشركين بالله ما تدعوهم من التوحيد والإخلاص إليه أو المراد كبر عليهم دعوتك إلى نفسك بالرسالة، إذ قالوا، كيف صار رسولا من بيننا لو لا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم ﴿١﴾؟ وهذا المعنى أقرب إلى الجملة التالية الله يجتبي إليه من يشاء أي أن الله سبحانه يختار من يشاء للرسالة،

(١) الزخرف: ٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١

[سورة الشورى (٤٢): آية ١٤]

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّتْ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)

ولفظ «إليه» إنما هو لأن المختار ينضم وينتهي إلى من اختاره واجتباها، ولا يختار الله إلا من هو قابل للرسالة، فليس اعتبارا و جزافا، أو تابعا للمال و الشرف الظاهري و يهدي إليه بالألطف الخفية من ينبئ أي من يتوب إليه، و يرجع عن كفره و عصيانه، فإنه إذا هدى شخصا و أرشده الطريق، فأنا و تاب، لطف به بألطفه الخفية.

[١٥] و ما تفرقوا أي لم يختلف أهل الكتاب فيما بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم بوحده الدين، و حقيقة جميع الأنبياء، فقد أرشدهم سبحانه، فلم ينيوا و لم يرجعوا، و لذا تركهم سبحانه و لم يلطف بهم بالألطف الخفية، و لم يزد لهم هدى، و إنما تفرقوا بغيا أي حسدا و ظلما بينهم بأن بغى بعضهم على بعض حسد بعضهم بعضا، و المراد ظلم أهل الكتاب بعضهم بعضا، و كان الإتيان بلفظ «بينهم» لإفادته أنهم لم يظلموا الأجانب عن الإيمان بل حسدوا و ظلموا من هم على شاكلتهم في الدين و الإذعان و لو لا كلمة سبقت من ربك بأن يمهلهم إلى أجل مسمي قد سمي ذلك الأجل و الأمد في اللوح المحفوظ لقضى بينهم أي قضى الله سبحانه بينهم، بتقوية الحق، و إهلاك المبطل، لكن الله سبحانه، حيث حكم ببقائهم مدة معينة - لمصلحة رآها في ذلك - أخر العذاب عنهم و إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم بأن صاروا من أهل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢

[سورة الشورى (٤٢): آية ١٥]

فَلْتَدْلِكْ فَاذْعُ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

الكتاب، بعد أولئك الأنبياء، أو بعد آبائهم المختلفين لفي شك منه أي من هذا القرآن أو من الدين مريب موجب للتشكيك والريب، فهؤلاء كأبائهم في الاختلاف والتفرق، أو المعنى، أن أخلاف أهل الكتاب، لفي شك من كتابهم، إذ التفرق والاختلاف، يوجب الشك والريب في أن ما بيد الإنسان، هل هو صحيح أم لا؟

[١٦] فَلْتَدْلِكْ أَي لاختلاف هؤلاء في الدين بحيث لم يبق الدين واضحاً قائماً فاذع يا رسول الله إلى الله سبحانه واستقم في الدعوة، ولا تبالى بما تلاقى من أنواع الأذى و صنوف المكروه كما أمرت أي كما أمرك الله سبحانه بالدعوة والاستقامة ولا تتبع يا رسول الله أهواءهم أي أهواء أهل الكتاب الذين حرفوا الدين، و زادوا فيه، وأنقصوا منه وقُلْ يا رسول الله معلنا وحده الأديان والكتب والرسالات آمنت بما أنزل الله من كتاب فكل الكتب للهداية، والتبشير من جانب الله تعالى وأمرت لأعدل بينكم فمن طبيعة دين الله العدل بين جميع الناس، فلا يحابي أحداً، ولا ينقص أحداً قدره الله ربنا وربكم أيها الناس، فلا إله سواه لنا أعمالنا ولكم أعمالكم فكل امرئ مجزى بأعماله، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فكفر الكافر لا يضر إلا نفسه، كما أن إيمان المؤمن لا ينفع إلا نفسه، وقد ظهر الحق ف لا حجة بيننا وبينكم فقد تم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣

[سورة الشورى (٤٢): آية ١٦]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

الاحتجاج، و ظهر الحق، واضحاً جلياً، إذ الاحتجاج إنما يكون قبل ظهور الحق، أما بعده، فلا فائدة فيه الله يجمع بيننا للحساب يوم القيامة، حتى يظهر هناك، من المحق، و من المبطل وإليه المصير أي إلى ثوابه و عقابه، فالمؤمنون مصيرهم نعيم الله سبحانه و جنانه و الكافرون مصيرهم سخط الله و نيرانه.

[١٧] وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ فِي ذَاتِهِ، أَوْ صِفَاتِهِ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَ قَدْ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ اسْتِجَابَ لِلدَّعْوَةِ الزَّمْرَةِ الْمُؤْمِنَةِ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ أَي باطله زائفة، إذ الاحتجاج بعد تمام الدليل، و التفات المؤمنين حول الدعوة لا قيمة له، نعم لو لم تثبت الحجة، أو لم يكن هناك جماعة مستجيبة، يأوى إليها الإنسان من شر الخصوم و العدا، لكان لهم بعض الحق، في الجدل و الخصومة، أما و قد بان الطريق، و سلكه الناس، فلا حجة، لمن لا يسلك عند ربهم و إن كان بعض الناس يعطيهم الحق في بقائهم على الكفر، و لكن عند الله سبحانه، و في حسابه لا- حق لهم، و لا- مفهوم لقوله «من بعد ما استجيب له» بل ذلك بيان لشدة ضلال هؤلاء، حتى أنه بعد الاستجابة، يقون على كفرهم و ضلالهم و عَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ أَعْمَ مِنْهُ، و من الدنيا، و حيث إن الله سبحانه، ليس غضبه، بمعنى ما فينا- مما هو ملازم للنفس - كان معناه نتيجة الغضب، و هو الانتقام، و ذلك أعم من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٧ الى ١٨]

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)

العذاب الشديد، فلا يقال بأنه موجب للتكرار.

[١٨] اللَّهُ الَّذِي يُحَاجُّونَ فِيهِ، هُوَ مَنْ أَنْزَلَ الشَّرِيعَةَ وَ بَيَّنَّهَا بِالْمَعَادِ، وَ هَلْ يَحَاجُّ الْإِنْسَانَ فِي جَاعِلِ النِّظَامِ، وَ إِلَيْهِ مَصِيرُ الْأَنَامِ؟ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ أَي الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ أَي أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ، وَ لِأَجْلِ إِقَامَةِ الْحَقِّ، فَلَا الْإِنزَالَ بِالْبَاطِلِ، كَأَنْزَالِ الشَّيَاطِينِ عَلَى الْكُهَنَةِ، وَ لَا

المنزل باطل، كما لو أمر صاحب الدار بخراب داره، فإن له الحق في الإنزال، لأنه صاحب السلطة، لكن ليس له حق في الأمر المنزل، و هو خراب الدار و أنزل الميزان الذى يوزن به بين الحق و الباطل فى العقائد، و الأعمال و الأقوال و ما يُدْرِكُك يا رسول الله، أى من أين تدرى- و هذا للتحويل- أو المراد، ما يدريك أيها المخاطب لعلّ الساعية قريب أي القيامة، فلا يغر الإنسان، ما يراه من الأمن و السلامة، ففعل محكمته قربت، فاللازم أن يكون الإنسان على خوف و وجل منها.

[١٩] يَسْتَعْجِلُ بِهَا أَي يَطْلُبُونَ عَجْلَهُ السَّاعَةِ، بَأَن تَأْتِيهِمْ عَاجِلًا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا و إنما استعجالهم على وجه الاستهزاء و السخرية، كما يسخر غير المؤمن بالساعة إذا ذكّر بها و الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ و رسوله و المعاد مُشْفِقُونَ أى خائفون منها أى من الساعة، لما يعلمون من أهوالها، و لخوفهم، بَأَن يكونوا قد قصروا، فيسألهم عقابها و نكالها و يَعْلَمُونَ أَنَّهَا أى الساعة الحَقُّ الذى لا كذب فيه مقابل تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ١٩ الى ٢٠]

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

الكفار، الذين يظنون أنها باطله، لا- حقيقة لها ألا فليتنبه السامع إنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ أى يجادلون من المراء، و هو الجدل فى الساعية ليثبتوا بطلانها، منكرين لوجودها لئفى ضلال و ابتعاد عن الصواب بعيد كالإنسان الذى يضل عن الجادة كثيرا، و مقابل العصاة، الذين هم فى ضلال، و لكن ليس بذلك البعد، فإنهم أقرب إلى الجادة، من منكر المعاد.

[٢٠] إن الله سبحانه خلق الدنيا للامتحان، و لذا يرزق المؤمن و الكافر فيها، لتهيئة وسيلة السعادة، أما الآخرة، فليس رزقها، إلا لمن آمن و عمل صالحا، و هذا لتنبية الكفار، بَأَن الآخرة، التى يوعدونها ليست بمثابة الدنيا يرزق فيها كل صالح و طالح، و إنما مقياس تلك غير مقياس هذه الدار الله لطيف بعباده يلطف بهم ليسعدهم، فيهيئ لهم وسائل السعادة، سواء كانوا صالحين أم طالحين يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ كيف يشاء فى سعة أو ضيق و هُوَ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ عَلَى الْإِعْطَاءِ و المنع و التوسعة و التضيق العزير الغالب فى سلطانه، فلا يتمكن أحد من معارضته، [٢١] و إذا كان الله رازقا هنا، فليعلم العباد أن من طلب رزق الدنيا يؤتیه بقدر، و لا نصيب له فى الآخرة، و من طلب رزق الآخرة- بالإيمان و العمل الصالح- يعطى أكثر من كسبه مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ حَرْثَ الْآخِرَةِ أى زرعه، فكأن العمل هنا بذر يعطى هناك ثماره نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِهِ إذ يعطيه الله سبحانه من عشرة أضعاف إلى ما فوق سبعمائة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاؤْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)

ضعف و مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا بَأَن عمل و كد و اجتهد للدنيا فقط، بدون لحاظ للآخرة فى عمله نُؤْتِهِ أى ذلك المرید منها أى من الدنيا و ما له فى الآخرة مَنْ نَصِيبٌ لأنه لم يزرع حتى يحصد.

[٢٢] لقد تقدم، أن الدين شرع الله سبحانه الذى بشر به الأنبياء جميعا، أما طريقه هؤلاء الكفار، فمن ذا الذى شرعها لهم، بعد أن لم يأذن بها الله سبحانه؟ أم لهم شُرَكَاءُ شَرَعُوا أى هل لهؤلاء الكفار أصنام شرعوا و نهجوا تلك المنهاج لهم من الدين و الطريقة فى العقيدة، و العمل ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ و هذا سؤال استنكارى، أى كيف يحق لهم أن ينهجوا نهجا لم يأذن الله سبحانه به؟ و لَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ أى الكلمة التى قالها الله سبحانه، فى شأن تأخير العذاب عن هؤلاء و التى هى فاصلة بين حياتهم، و بين عذابهم لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى حكم عاجلا، فيما بين هؤلاء الكفار، و بين المؤمنين، بإنزال العقوبة على هؤلاء، لانحرافهم عن الطريق و إِنَّ الظَّالِمِينَ الذين ظلموا

أنفسهم بالكفر والعصيان لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يؤلمهم جزاء على كفرهم وعصيانهم.

[٢٣] تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ أَيْهَا الرَّائِي الطَّالِمِينَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧

[سورة الشورى (٤٢): آية ٢٣]

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسِبَهُ نَزْدًا لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

مُشْفِقِينَ أَيْ خَائِفِينَ مِمَّا كَسَبُوا إِذْ يَتَجَلَّى هُنَاكَ لَهُمْ، أَنْ أَعْمَالَهُمْ أَثْمَرَتِ النَّبْرَانَ وَالنَّكَالَ وَهُوَ أَيْ مَا كَسَبُوا- وَالْمَرَادُ جَزَائِهِ، إِلَّا أَنْ يُقَالُ بِتَجْسِيمِ الْأَعْمَالِ- وَقَعَّ بِهِنَّ قَطْعًا فَلَا مَفْرَ لَهُمْ مِنْهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَيْ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ فَصَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ وَعَمَلُهُمْ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ الرَّوْضَةُ هِيَ الْأَرْضُ الْخَضْرَاءُ، بِحَسَنِ النَّبَاتِ، وَالْجَنَّةُ الْأَرْضُ الَّتِي يَحْفَهَا الشَّجَرُ، وَيَجْنَهَا عَنِ الشَّمْسِ وَالْأَبْصَارِ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَاذِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَلَهُمْ شَرَفُ الْقُرْبِ الْمَعْنَوِيِّ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، كَمَا أَنَّ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الْمَلذَّاتِ الْجَسْمِيَّةِ ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي يَنْعَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ بِهِ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الَّذِي تَفْضِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ، وَإِلَّا فَالْإِنْسَانُ مَهْمَا كَانَ عَمَلُهُ، لَا يَسْتَحِقُّ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ شَيْئًا.

[٢٤] ذَلِكَ الثَّوَابُ وَالْفَضْلُ الْكَبِيرُ، هُوَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلْيَرْغَبْ فِيهِ النَّاسُ، وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لَا يَطْلُبُ عَوْضَ هَذِهِ الْبَشْرَى، وَهَذِهِ الْهَدَايَةُ الْمُنْتَهِيَّةُ إِلَى تِلْكَ النِّعَمِ، وَذَلِكَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ مَا لَا- وَأَجْرًا، وَإِنَّمَا يَرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَالُوا أَقْرَبَاءَهُ، فَاطْمَئِنُّوا وَالْأَنْثَمَةُ الْأَطْهَارُ، وَذَلِكَ لَيْسَ لَهُ أَيْضًا، وَإِنَّمَا لَهُمْ، إِذْ إِنَّ الْأَنْثَمَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨

يُرْشِدُونَ النَّاسَ إِلَى الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ، وَيَهْدُونَهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَالصَّدَقَ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَوْلَاءِ الَّذِينَ بَشَّرْتَهُمْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَيْ عَلَى مَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الْهَدَايَةِ وَالْبَشْرَى أَجْرًا وَثَمَنًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ أَيْ الْوُدَّ وَالْحُبَّ فِي الْقُرْبَى أَيْ فِي أَقْرَبَائِي، وَمِنَ الْوَاضِحِ، أَنَّ الْمَوَدَّةَ الْوَاجِبَةَ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فَاطِمَةَ وَالْأَنْثَمَةَ، صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، أَمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ ذُرِّيَةِ الرَّسُولِ- غَيْرِ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ- فَالْمَوَدَّةُ مُسْتَحَبَّةٌ، وَ

قَدْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «أَكْرَمُوا ذُرِّيَّتِي الصَّالِحِينَ لِلَّهِ وَالطَّالِحِينَ لِي»

و،

قال «المرء يحفظ في ولده»

«١» و ينسب إلى الشافعي، أنه قال:

يَا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حَبْكُمُ فَرَضَ مِنَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ أَنْزَلَهُ كِفَاكُمُ مِنْ عَظِيمِ الْفَخْرِ أَنْكُمُ مَنْ لَمْ يَصِلْ عَلَيْكُمْ لَا صَلَاةَ لَهُ وَقَدْ وَرَدَ إِنْ الْمَشْرِكِينَ تَسْأَلُوا، هَلْ يَرِيدُ مُحَمَّدٌ مِنْ رِسَالَتِهِ أَجْرًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَمَنْ يَقْتَرِفْ أَيْ يَعْمَلُ حَسِبَهُ مِنْ عَقِيدَةٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مَوَدَّةٍ لَأَلِ الْبَيْتِ نَزْدًا لَهُ فِيهَا أَيْ فِي تِلْكَ الْحَسَنَةِ حُسَيْنًا بِأَنْ نَجْعَلَ لَهُ ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ فَالْتَّصَدَّقُ- مَثَلًا- حَسَنٌ فِي الدُّنْيَا، فَمَنْ تَصَدَّقَ نَزِيدَ صَدَقَتِهِ حَسَنَةً، بِجَعْلِ ثَوَابِ لَهَا فِي الْآخِرَةِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) الاحتجاج: ج ١ ص ١٠٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩

[سورة الشورى (٤٢): آية ٢٤]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)
 للسيئات، فلا ييأس المذنب من عفوه و غفرانه- و هذا بمناسبة ذكر الكفار و الظالمين- .شُكُورٌ يشكر حسنات العباد، و شكره سبحانه، بإعطائه الزيادة هنا، و الأجر هناك- و هذا بمناسبة ذكر المؤمنين العاملين للصلحاحات-.

[٢٥] إن هؤلاء الكفار يصمون عن الحق، و لا ينظرون في الأدلة أم أي بل يَقُولُونَ افْتَرَى مُحَمَّدٌ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا حيث نسب القرآن إليه كذبا، و هو من كلامه، و لكن هذا الكلام منهم كذب، إذ ليس الله سبحانه يدع أحدا يدعى النبوة، و يأتي بالخارقة، ثم يذره فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ حين يراك كاذبا- كما زعموا- يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ فلا تتمكن من تلاوة القرآن، كالظرف المختوم الذي لا يخرج منه شيء مما فيه و لا يهملك يا رسول الله هذا الافتراء منهم، فإنه يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ من أقوالهم و يزيله، فلا يتعلق به أحد، و لا يرى كلامهم صوابا و يُحِقُّ الْحَقَّ أى يظهر كونه حقا، إذ معنى «أحق» أثبت بكلماته أى يظهر حقيته الرسول، بما ينزله من القرآن الذي لا يتمكن أحد من الإتيان بمثله، فيبطل دعواهم، إذ لو كان الأمر، كما قالوا لتمكن فصحاؤهم من الإتيان بمثله إِنَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ أى عالم بذاتِ الصُّدُورِ أى بالأمور التي تدور في صدورهم حولك لإبطال أمرك، فلا يترك مؤامراتهم و أفكارهم تنفذ فيك، و تطبق عليك، بل يحبطها و يبطلها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِّلُ بَقْدَرًا مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)

[٢٦] و لا- ييأس هؤلاء الكفار عن رحمة الله و فضله و عفوه، فإن تابوا مما هم فيه، تاب عليهم و هو الله الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ فمن تاب و رجع إليه قبل توبته و يَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ أى المعاصي، و هذا في مقابل أن يقبل التوبة، و يضم التائب إلى جماعته، لكنه ينتقم منه لما فعل سابقا و يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ أيها البشر من عصيان و طاعة و إدبار و توبة فلا يظن أحد أنه مختف عليه سبحانه، لا يرى سيئته، فيعاقبه، أو حسنته فيجازيه بالثواب.

[٢٧] و هو الذي يَسْتَجِيبُ أى يجيب الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فهو يعطى طلباتهم إن رأى ذلك صلاحا، و إلا أخرها إلى القيامة، كما ورد بذلك الأحاديث و يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ فليس إجابة الدعاء فحسب، بل إثابة على الدعاء، فمن طلب من الله ولدا أعطاه، و تفضل عليه بالثواب حيث دعاه، أو المراد أنه يزيد على الطلب لطفًا و كرمًا، فمن طلب ولدا أعطاه ولدين - مثلا- و الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ في مقابل المؤمنين لهم الإجابة و الفضل.

[٢٨] و إذ تقدم أنه سبحانه، يستجيب للمؤمنين، و يزيدهم من فضله، يأتي سؤال أنه، لماذا نرى حاجة كثير من المؤمنين و فقرهم، و إنهم يدعون ليل نهار؟ و الجواب و لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ بَأْنِ وَسِعَ عَلَيْهِمْ فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١

[سورة الشورى (٤٢): آية ٢٨]

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)

دار الدنيا، كما يريدون لَبَغَوْا فِي الْمَأْرُضِ ف إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي أَنْ رَأَاهُ اسْتِغْنَى «١»، و لذا يضيق عليهم، حتى يحفظهم من البغي و التعدي و قد حكى: إن معدما سأل موسى أن يطلب من الله- في مناجاته- أن يتفضل عليه، فلما سأل موسى، أجابه الله بذلك، و أعلمه أن التوسعة على هذا، لم يكن صلاحا، و إنما أجاب الدعاء، و حين رجع موسى من «الطور» رأى المعدم، و هو يؤخذ للقضاء، فقالوا: إنه أثرى فشرب الخمر و سكر، و قتل إنسانا فهو يؤخذ للقصاص و لَكِنْ يُنَزِّلُ اللَّهُ الرِّزْقَ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ مما يراه صلاحا، و إن قيل، فلما ذا يفقر بعض الصالحين، كالأنبياء، و يثرى بعض الفاسدين كالفرعنة؟ فالجواب، أن الفقر هناك، لترفع الدرجات، و هنا

لازهاق أرواح هؤلاء بالمال، حيث تظهر منهم بعض السيئات، فيستحقون التوسعة للنكال والعذاب إِنَّهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ جَمْعَ عَبْدِ خَبِيرٍ مُطَّلِعٍ عَلَى أحوالهم بِصِيرٍ يَرَاهُم، فهم تحت علمه الشامل، ورؤيته النافذة، ولذا يدبرهم على نحو الصلاح والحكمة.

[٢٩] وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ أَى المَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا أَى بَعْدَ أَنْ يَشُوا عَنِ المَطَرِ، وَجَدَبَتْ أَرْضِيهِمْ، وَقَحَلَتْ وَتَنْشُرُ رَحْمَتَهُ بِإِخْرَاجِ النِّبَاتِ وَالثَّمَرِ، وَتَنْمِيَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ، فَيَرَى الْإِنْسَانَ نِعْمَةً سَبَّحَانَهُ، مَتَشَرَّةً فِي سَهُولِ الْأَرْضِ وَجِبَالِهَا وَهُوَ الْوَلِيُّ الَّذِي يَلِي شُؤْنَ عِبَادِهِ الْحَمِيدُ الْمُحْمَدُ فِي أَفْعَالِهِ، فَمَا يَتَفَضَّلُ بِهِ يَسْتَحِقُّ بِهِ

(١) العلق: ٧ و ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)

الحمد والشكر.

[٣٠] وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى وجوده، و سائر صفاته خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَمِنْ خَلْقِهِمَا وَأَوْجَدَهُمَا، إِنَّهُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا أَى نَشَرَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ تَدْبُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، أَوْ تَطِيرُ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ الْجَمْعَ قَدِيرٌ وَالمَرَادُ بِالْجَمْعِ، إِمَّا الحَشْرَ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ «١» - وَإِمَّا أَنْ يَجْمَعُهُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا لِإِلْقَاءِ ظَلِّ قُوَى مِنَ القُدْرَةِ الواسِعَةِ، فِي ذَهْنِ المَخَاطَبِ، حَتَّى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ، يَتِمَكَّنُ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الكَثْرَةِ الهائلة المتشعبة من صنوف الحيوان.

[٣١] أَرَأَيْتُمْ فَضْلَ اللَّهِ وَقُدْرَتَهُ؟ فَاعْلَمُوا أَنَّ انحرافكم عن منهاجه، يوجب التضيق على أنفسكم، فما يصيبكم من الأذى، إنما هو من أعمالكم، وإلا فضله سبحانه عام، كما أنكم لا تقدرُونَ على الفرار من بأسه، إِذَا شَاءَ بِكُمْ الأَذَى، فَإِنَّهُ صَاحِبُ القُدْرَةِ الواسِعَةِ وَمَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ مُصِيبَةٍ مَالِيَةٍ أَوْ بَدَنِيَّةٍ، أَوْ غَيْرِهَا فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنَ الكُفْرِ وَالعُصْيَانِ، وَالنَّسْبَةِ إِلَى اليَدِ لِأَنَّهَا الآلَةُ العَامِلَةُ فِي تحصيل الكثير من الآثام، كالسرقة والضرب، والنهب والقتل، وما أشبه، ولا يخفى أن هذا العام مخصص بمن لم يكن له كسب سيء، فإن ما أصابه، إنما هو لزيادة الأجر والمنزلة، كما هو معلوم عقلا ونقلا وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ فَلَيْسَ يَعاقِبُ عَلَيْهَا.

(١) التكوير: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣١ الى ٣٣]

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْمَأْرُضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ (٣٢) إِنَّ يَشَأُ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)

[٣٢] وَمَا أَنْتُمْ أَيُّهَا البَشَرُ بِمُعْجِزِينَ فِي الْمَأْرُضِ أَى لَا - تَتِمَكَّنُونَ مِنْ تعجيز الله سبحانه، بأن تفرون منه، فلا يقدر على عقوبتكم التي استحققتموها، ولعل الإتيان ب «في الأرض» للتعميم، فإن بعض المجرمين أيضا، لا يتمكنون من تعجيز سلطاتهم في البلاد التي هم مسيطرون عليها، أما عدم التعجيز في الأرض كلها، فذلك خاص به سبحانه وما لكم أي ليس لكم أيها البشر من دون الله أي سواه من ولي يلى أموركم، ويدبر شؤونكم، ويدفع العذاب عنكم ولا نصير ينصركم من بأس الله سبحانه، وهذا لتنبية الكفار على أن معاصيهم، لا بد من الجزاء عليها، فلا يظنوا أنهم يتمكنون من الفرار، أو أن أولياءهم، يتمكنون من دفع العذاب عنهم، أو أن أنصارهم يقدرُونَ على التغلب على إرادة الله سبحانه.

[٣٣] وَمِنْ آيَاتِهِ أَى آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الدَّالَّةُ عَلَى وجوده و سائر صفاته الْجَوَارِ جمع جارية، و هى السفينة، سميت بها لجريها فى الماء فى الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ جمع علم، و هو الجبل الطويل، فمن جعل الماء بحيث يحملها، و من سخر الهواء، بحيث تجريها إلى حيث تشاء؟

[٣٤] إِنَّ يَشَأُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُسَكِّنُ الرِّيحَ بَأَن لا تتحرك فَيُظَلِّلَنَّ أَى تلك السفن، و الإتيان بضمير العاقل، لعله باعتبار من فيها رَوَاكِدَ جمع راكدة، و هى الواقفة فى محلها على ظَهْرِهِ أَى ظهر الماء،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

أَوْ يُؤَبِّقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)

لا تتحرك من أماكنها، و هذا بالنسبة إلى السفن الهوائية لا البخارية إِنَّ فِى ذَلِكَ الذى ذكر من تسخير الماء و الهواء، لتسيير السفن لآياتٍ دلالات متعددة من البحر و الريح و السير، و غيرها لِكُلِّ صَبَّارٍ يصبر عند البلاء شُكُورٍ يشكر عند النعماء، فإن مثل هذا الإنسان، الذى نضح عقله، حتى أنه صار صبارا شكورا، هو الذى يلتفت إلى هذه النعمة العظيمة، و يراها الدالة على وجود الله سبحانه، و سائر صفاته.

[٣٥] أَوْ إِنْ يَشَأُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ يُؤَبِّقَهُنَّ أَى يهلك السفن، بَأَن يجعل الريح عاصفه حتى تغرقها بما كَسَبُوا أَى كسب أهلها من الكفر و العصيان وَيَعْفُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ كَثِيرٍ فإذا أهلكهم، فبعض ذنوبهم لا بكلها، و إلا كان الكل مقتضيا، لإهلاك العاصي قبل ذلك، و إن رحمهم، فبعضه عن جميع الذنوب، بمعنى عدم معالجه بعقوبتها.

[٣٦] وَ هُنَاكَ، إِذَا وَقَفَتِ الرِّيحُ أَوْ عَصَفَتِ يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِنَا أَى يجادلون لإبطال آياتنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ أَى لا نجاه لهم من تلك التهلكة، و إنما خصهم، لأنهم هناك يعترفون، أما غيرهم، و هم المؤمنون، فاعترفهم دائم الأوقات.

[٣٧] وَ إِذْ بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَعْضُ نِعْمِهِ عَلَى الْبَشَرِ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ، أَلْفَتِ النَّاسَ إِلَى أَن كل هذه فى جنب نعيم الآخرة، هين يسير فَمَا أُوتِيتُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)

أى أعطيتم أيها البشر من شئ من هذه النعم فهى متاع الحياة الدنيا أى تتمتعون بها فى الحياة القريبة الزائلة و ما عِنْدَ اللَّهِ و المراد عند رتبته، بل شرفها، و أعلى رتبته عن رتبة ما فى الدنيا، و إلا فليس لله تعالى مكان خَيْرٌ من متع هذه الحياة و أَبْقَى أَى أكثر بقاء، لأنها تبقى دائم الأبد، و أنها لِلَّذِينَ آمَنُوا بَأَن صحت عقيدتهم و عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فى أمورهم، و ذلك دليل الإيمان، حيث يرون الله سبحانه، مالك كل شئ، و بيده أزمة كل شئ.

[٣٨] وَ الَّذِينَ عَظِفَ عَلَى «لِلَّذِينَ» و المعنى أن ما عند الله سبحانه، إنما هو لمن اتصف بهذه الصفات يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ مثل الزنى و القمار و الربا، و ترك الصلاة، و الزكاة، و ما أشبهه، و إنما قال «كَبَائِرَ الْإِثْمِ» لأن الصغائر تقع من غير المعصوم، لا محالة وَ الْفَوَاحِشَ و هى المعصية الفاحشة التى تتجاوز الحد كثيرا، و كأن هذا أعظم من الكبائر، أو المراد التى تسمى فى العرف فاحشة، كالزنى و اللواط و السحق و ما أشبهه وَ إِذَا مَا غَضِبُوا «ما» زائدة للتأكيد أو مصدرية، أى حين الغضب هُمْ يَغْفِرُونَ ذنب الذى أوجب غضبهم، بَأَن أزدادوا على الحلم، عن المغضب غفران ذنبه.

[٣٩] وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ بَأَن أجابوه سبحانه فى كل ما دعاهم إليه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦

من أمور الدين وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ خَصَّصَهَا بالذكر لأهميتها، ولصعوبتها على الإنسان ولأنها إذا استقامت، نهت عن الفحشاء والمنكر بطبعها وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ يتشاورون في أمورهم، هي «فعلى» من المشاورة، وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحق، والمراد بالأمور، هي جميع شؤونهم، التي لم يجعل لها الله حدا خاصا، وذلك من المستحب، في الزواج، والبيع، والإجارة، والتعلم، والاكْتِسَاب، وغيرها، وقد تمسك بعض ممن تأثرت أفكارهم بأنظمة الغرب، بهذه الآيَّة، لتصحيح الديمقراطية الغربية، من أحزاب، وبرلمان، ومجلس الشيوخ، وانتخابات، وما أشبه، وهذا بالإضافة إلى أنه غلط في نفسه، وإن وقع فيه كثير من بلاد الغرب، كما التلث «في الدين المسيحي» غلط وقعت فيه جماعات كثيرة، مخالفة للإسلام، ولم يطبقه المسلمون في يوم من الأيام، وذلك دليل عدم فهمهم من الآيَّة ذلك ولم يفسرها الرسول أو الأئمة عليهم السَّلام بذلك، فلنأخذ أهل السنة أنهم قالوا، بأن الرسول مات بلا تعيين، فأبو بكر خليفة بالقوة- كما يظهر ذلك لمن راجع تاريخ السقيفة- وعمر بالوصاية من أبي بكر فقط، وعثمان بجعل من عمر في ستة فقط- وإن سماه شوري، وهل نصب الملوك لشخص في مشاورة سداسية تعتبر انتخابات على ما يريدون هؤلاء؟ وعلى عليه السَّلام بانتخاب الثوار وجماعة من أهل المدينة، وإن كثرت الأصوات له بالنسبة إلى سابقه نوعا ما، ومجىء على إلى الحكم، لأنه عرف نفسه أحق، لا لأنه انتخب، ولذا

قال في خطبة الشقشقية «و هو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحي» و «أرى تراثي نها»

، والحسن عليه السَّلام بالوصاية، أو انتخاب جماعة من أهل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧

الكوفة، و معاوية بالسيف و يزيد بالوصاية، وهكذا دامت السيف و الوصاية إلى آخر خليفة عثمانى، و عمر بن عبد العزيز جاء بالوصاية، ثم بانتخاب أهل المسجد فقط- خوفا من السلطان، كما هو معلوم في مثل هذه الأحوال، قديما و حديثا- فأين من هذا «الديمقراطية» و إن طورها أحزاب اليوم ألف تطوير، لإلصاقها بالإسلام، و يظنون أنه فتح للإسلام، فبينما هو هدم لأقوى دعائمه، ثم لنأخذ الشيعة: فنعتقد نحن أن الله كما عين الرسول، عين الأئمة الاثني عشر، ثم عين الأئمة الفقهاء الجامعين للشرائط، و كل ملك شيعي كان فقيها جامعاً للشرائط، أو كان مأذونا من فقيه جامع للشرائط فهو بحق أصالة أو وكالة، و كل من فقد هذين الوصفين، فهو باطل، و نرى في تاريخ ملوك الشيعة الأقسام الثلاثة، بدون أن يكون فيهم اسم انتخاب و لو في يوم واحد إلى آخر ملوك القاجار في إيران .. ثم إن الانتخابات بجميع صورها باطلة ليست من الإسلام، أما انتخابات هذا اليوم فهي أشنع و أبشع، و لذا أفتى علماء حول مجلس إيران، بأنه ضلال و انحراف، و أرادوا تحريره، فقتل «الشيخ فضل الله النوري» و «السيد عبد الله البهبهاني» و «الشيخ الآخوند المولى محمد كاظم الخراساني» فقد كان قصدهم من «المشروطة» التي أقدموا عليها، أن يكون للملك جماعة من العلماء العدول، أقلهم خمسة، و بعض الناضجين حين ما يريد إنفاذ حكم من أحكام الإسلام، و تطبيقه على الأمة، و أرادوا بذلك إحياء سنة الرسول، و سيرة الخلفاء و الملوك الأقدمين حيث كانت مجالسهم لا تخلو من علماء لإرشادهم سبيل الدين، و ناضجين لإرشادهم سبيل الدنيا- بالنسبة إلى غير النبي و الوصي- أما هما فاستشارتهم، كانت لجلب الخواطر، و لإفهم أغنى عن ذلك ... و أفتى علماء العراق حول

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)

مجلس الأمة، حين أراد «فيصل» فتحه بأمر الإنكليز، لهدم الإسلام، بأن «المنتخب و المنتخب كلاهما في النار» و قد لقوا جزاء فتيانهم تشريدا و تسميما و إهانة و هتكاً، فمن أراد اليوم إعادة «المجلس» أو «الانتخاب» أو «الديمقراطية» أو «الأحزاب» أو ما شابه ذلك، بزعم أنه خدمة للإسلام و خلاص للمسلمين، فليعلم- إن كان مخلصا- أنه يبني من جديد لهدم الإسلام، في لباس الإسلام، و سيرى

في الدنيا انقلاب الأمر عليه، وفي الآخرة الخسارة و النكال، فإن هذا أساس غربي بحث لا يمت إلى الإسلام بصله أصلاً، و من كان شاكا فليدرس الإسلام من جديد، لا على ضوء الأنظمة الغربية، و ما ارتكز في ذهنه من سموم الأجواء التي نشرها الغرب و عملائه، بل على ضوء الكتاب و السنة، و فتوى الفقهاء، الذين هم أعرف الناس بالإسلام و بنظمه و ممّا رَزَقْنَاهُمْ من المال و العلم و الجاه، و غيرها- حسب عموم الآية- و إن كان المنصرف خصوص المال يُنْفِقُونَ في سبيل الله.

[٤٠] وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ أَي الظلم، بأن ظلمهم أحدُهُمْ يَنْتَصِرُونَ بأن ينتقموا ممن تعدى عليهم، لئلا يصيبهم الذل، و لئلا يجرأ الظالم على التمادى في غيه، إن رأى الباب أمامه مفتوحاً، و غير خاف أن هذا لا ينافي قوله «إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» فلكل شىء مجاله.

[٤١] ثم بين سبحانه حد الانتصار لئلا يتجاوز المظلوم على مقدار ما ظلم انتقاماً و تشفياً و جزاءً سَيِّئَةً يوردها الظالم سَيِّئَةً مِثْلَهَا يوردها المظلوم، و سميت سيئة، من باب المزوجة، لكون الرد شبيه التعدى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَلَمَنْ أَتَتْكُمْ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)

في الشكل، و منه قوله تعالى فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ «١» و قوله تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ «٢» فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ بِأَنْ عَفَا عَنْ الْمُعْتَدِي فِيمَا كَانَ ذَلِكَ ثَوَاباً، لا عقاباً، بأن أذل نفسه، و جرأ المعتدى على التمادى في العدوان، و أصلح فيما بينه و بين الله، بأن كان عفوه لله سبحانه، لا- لغايه دنيوية، أو أصلح بين عدوه و نفسه فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فإنه يثبه جزاء عفوه و إصلاحه إِنَّهُ لَا- يُحِبُّ الظَّالِمِينَ فليس ترغيبه في العفو، لأنه أخذ جانب الظالم، بل لأجل، أن بعض الناس يصلحهم العفو أكثر مما تصلحهم العقوبة، و لأنه موجب لعظيم مثوبة المظلوم.

[٤٢] وَلَمَنْ أَتَتْكُمْ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ أى بعد أن ظلمه الظالم فأُولَئِكَ المنتصرون، و إنما جىء بالجمع، باعتبار معنى «من» و قد تقرر في الأدب أنه يجوز فى من و ما مراعاة اللفظ، و المعنى ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ أى من إثم و عقاب فى الآخرة، لأنه أخذ حقه و لم يتعد.

[٤٣] إِنَّمَا السَّبِيلُ فى عقاب الدنيا بواسطة السلطان و عقاب الآخرة عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ابتداءً وَيَبْغُونَ فى الْأَرْضِ أى

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) المائدة: ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

وَلَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤)

يفسدون فى الأرض، و إنما جىء، ب «فى الأرض» لبيان أن كل بغى، إنما يظهر أثره فى الأرض، و أن ظنه الظالم صغيراً موضعياً «١» بِغَيْرِ الْحَقِّ فإن كل بغى بغير الحق و إنما جىء بهذا الوصف، لإظهار البشاعة، و تعليل «إنما السبيل» أُولَئِكَ الباغون لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم موجه فى الدنيا بالحد و التعزيز، و فى الآخرة بالنار و النكال.

[٤٤] وَلَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَذَى وَ غَفَرَ أى عفى عن المؤذى- فيما كان الغفران خيراً- إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ أى الأمور التى تحتاج

إلى عزيمة قوية في النفس، و ليس من الأمور التي تأتي عفويا، حسب إرادة عادية، فإن ذلك بحاجة إلى شجاعة نفسية فائقة. [٤٥] و بعد استعراض صورة للمؤمنين في دنياهم و آخرتهم، يأتي السياق لنقل حال الكافرين في النشأتين و مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ بَأَن يتركه و شأنه، بعد أن أراه الطريق فلم يسلكه، و هذا هو معنى الإضلال، كما سبق فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ يَلِيُّ أُمُورَهُ، و يأخذ بيده مِنْ بَعْدِهِ أى من بعد الله سبحانه، إذ لا- هادى إلا-الله تعالى وَ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ أَى رد إلى الدنيا، فإن

(١) العدالة الإسلامية للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١

[سورة الشورى (٤٢): آية ٤٥]

وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥)

«مرد» مصدر ميمي مِنْ سَبِيلٍ تمنيا منهم للرجوع إلى الدنيا، حتى يعملوا صالحا- بظنهم-.

[٤٦] وَ تَرَاهُمْ أَى ترى الظالمين يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا أَى النار، و المعنى تعرض النار عليها، و إنما جىء هكذا، لأنهم يذهب بهم من عند النار أو من باب «القلب» كقوله «كما طينت بالفدن السباعا» خاشعين أى متواضعين مِنَ الذُّلِّ الذى أخذهم حيث وجدوا مرارة النكال و الحكم، عليهم بالعذاب و الهوان يَنْظُرُونَ إذا أرادوا النظر إلى شىء مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الذى لم يجرم ينظر إلى الإنسان و الأشياء بكل عينه، أما المجرم فإنه يختلس النظر بخفاء، لئلا يراه أحد فيشتمه أو يؤذيه، أو يخجل منه، فإن الحياة غالية في العين و قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا تعريضا بهم و جوابا لما قال الظالمون لهم، فى الحياة، بأنهم يخسرون بسبب الإيمان سعادتهم و مستقبلهم إِنَّ الْخَاسِرِينَ هم الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ حيث عذبوها و أوقعوها فى النار وَ أَهْلِيهِمْ حيث فارقوهم، سواء كانوا من أهل الجنة، أو من أهل النار يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ هَذَا هو الخسارة الكبرى، لا ذهاب بعض المنافع الدنيوية، كما كان يقول الكفار للمؤمنين، فى دار الدنيا أَلَا فليتبته السامع إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ لا يتحول عنهم أبدا، و المراد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧)

بالظالمين المعاندين من الكفار، فإنهم هم المخلدون.

[٤٧] وَ مَا كَانَ لَهُمْ أَى للظالمين مِنْ أَوْلِيَاءٍ جمع ولى، أى أصدقاء و أحماء يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى من عذاب الله، بأن يدفعوا عنهم عذابه و نكاله، أو أن «من دون الله» متعلق ب «أولياء» أى لا ولى غير الله، ينصر و مَنْ يُضِلُّ اللَّهُ بَأَن يتركه و شأنه، بعد أن أراه الطريق، فلم يهتد فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ يوصله إلى المقصد، و هو السعادة، إذ السبيل الوحيد، هو سبيل الله، فإذا تركه الإنسان، لم يكن هناك سبيل آخر يوجب النجاة و الخلاص.

[٤٨] اسْتَجِيبُوا أَيُّهَا النَّاسُ، و لعل الإتيان من باب «الاستفعال» لفرض بيان أن الإجابة يلزم أن تكون من القلب بطلب و إرادة، لا مجرد إجابة لفظية، و عمل سطحي لِرَبِّكُمْ بالإيمان به، و إطاعة أوامره مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا هو يوم القيامة لا مَرَدَّ لَهُ أى لا رجوع لذلك اليوم، بأن يتأخر عن مواعده، حتى يجد العصاة فرصة لاستئناف العمل مِنَ اللَّهِ إما بمعنى، إن الله لا يردده، أو أنه لا يرد على الله، بأنه يرده أحد خلافا لإرادة الله ما لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ تلجئون إليه، و تقون أنفسكم بسببه عن عذاب ذلك اليوم وَ مَا لَكُمْ مِنْ

نكبر أي منكر ينصركم، أو إنكار: بمعنى أنكم لا تقدرُونَ على الاستنكار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣

[سورة الشورى (٤٢): آية ٤٨]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨)

لشدة الهول و الفزع، أو لما ترون من عدم الفائدة في إنكاره.

[٤٩] فَإِنْ أَعْرَضُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، و لم يؤمنوا فلا يهتمك أمرهم، و لا تذهب نفسك عليهم حسرات، إذ ما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا أَي مأمورا بحفظهم حتى يكون خروجهم خلاف مسئوليتك، و ما كلفت به إِنْ عَلَيْكَ أَي ما عليك يا رسول الله إِلَّا الْبَلَاغُ فَأنت مأمور بالتبليغ و الإرشاد، و قد فعلت ذلك و هؤلاء بعداء عن الإيمان، لما جلبوا عليه من البطر حالة الرخاء و الكفر حالة البلاء و كيف هؤلاء يخالفون حتى يبتلوا بالنار- مع هذا الطبع الرقيق الذى لا يتحمل نعمة و لا شدة-؟ ف إِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ و المراد به هؤلاء، لا كل إنسان، و إنما جرى باللفظ العام، لأن ذلك هو الطبع الغالب مِنَّا رَحْمَةً أَي أوصلنا إليه من طرفنا رحمة فَرِحَ بِهَا أَي بطر و تجاوز الحد، كما قال له قومه لا تَفْرَحْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ «١» و إِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ أَي صفه تسؤهم كالقفر و المرض و الخوف، و ما أشبه بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ أَي كانت تلك السيئة جزء لبعض أعمالهم، و النسبة إلى «اليد» لأنها العضو الغالب فى الإتيان بالأفعال، و إلا فالمراد كل معصية فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ يجزع من البلاء، و ينسى النعماء.

(١) القصص: ٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٤٩ الى ٥١]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥١)

[٥٠] و النعم كلها من الله سبحانه، حتى أعظم النعم التى توجب امتداد الإنسان- و هى الذرية- فلم يبتعد الإنسان عن الله، و هو المنعم و المتفضل عليه؟ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فهو خالقهما و مالكهما، و المراد الظرف و المظروف معا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فله الملك، و بيده الخلق، و منه الإعطاء، و المنع يَهَبُ أَي يعطى على وجه الهبة المجانية لِمَنْ يَشَاءُ من الناس إناثاً جمع أنثى، أى البنات، و المراد بالجمع الجنس- و قد سبق، أن كلا من الجمع و الجنس، يخلف الآخر فى المعنى- وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ جمع ذكر، أى البنين.

[٥١] أَوْ يُزَوِّجُهُمْ أَي يجمع لهم، يقول العرب: زوجت إبلى، أى جمعت بين كبارها و صغارها ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا فيعطيهم من الجنسين، إما فى بطن واحد، أو بطون متعددة وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ من الرجال أو النساء عَقِيمًا لا يصير له ولد، إما بضعف منى الرجل، أو ضعف رحم المرأة إِنَّهُ سبحانه عَلِيمٌ بالمصالح قَدِيرٌ لما يشاء.

[٥٢] و إذ تقدم جملة من شؤون المعاد، و الألوهية، جاء السياق لبيان بعض شؤون الرسالة، كما هى العادة فى السور المكية، تبين من كل هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥

[سورة الشورى (٤٢): آية ٥٢]

وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ

لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)

الأصول نتفا وأطرافا، وقد كان الكفار يطلبون من الرسول أن يروا الله يكلمهم وجها لوجه، حتى يصدقوا كما قالوا لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ «١» فجاء الجواب وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ وَجْهًا لَوْجًا، فإنه سبحانه لا يمكن رؤيته، إذ ليس جسما، ولا- جسمانيا، حتى يرى إلَّا وَخِيًّا بِأَنْ يَلْقَى فِي قَلْبِهِ إِلْقَاءً، فإن أصل الوحي، هو الإلقاء الخفي بحيث لا- يعرفه غير المخاطب أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ بِأَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ، ولا يراه تعالى، فكان حجابا فاصل بينهما، وهذا كناية عن عدم الرؤية أَوْ يُرْسَلَ سبحانه رَسُولًا أَى مَلَكًا، ليكلم الإنسان عن الله سبحانه فَيُوحِي بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ الْمَلِكِ أَوْ يُوْحِي الْمَلِكِ، و يلقى في قلب الرسول بِإِذْنِهِ أَى بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ، وَالْإِتْيَانِ بِلَفْظِ «بِإِذْنِهِ» لِإِفَادَةِ، أَنْ كَلَّمَ مِنْ مَجِيءِ الْمَلِكِ، وَتَكَلَّمَ مَعَ الرَّسُولِ، بِحَاجَةٍ إِلَى الْإِذْنِ وَالْأَمْرِ إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ عَلَيَّ أَى رَفِيعٍ عَنِ إِدْرَاكِ الْبَشَرِ، فَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ حَكِيمٌ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ فَلَا يَكَلِّمُ أَحَدًا إِلَّا الرَّسُولَ، أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، أَمَا أَنْ يَكَلِّمَ كُلَّ أَحَدٍ، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِعَدَمِ قَابِلِيَةِ مَطْلُوقِ الْبَشَرِ لِكَلَامِ اللَّهِ مُبَاشَرَةً.

[٥٣] وَكَذَلِكَ أَى كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، أَوْ بِمَعْنَى هَكَذَا-

(١) البقرة: ١١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦

على تقريب تقدم بيانه- أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رُوحًا وَالْمَرَادُ بِهِ الشَّرِيعَةُ، إِذْ هِيَ رُوحُ الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِدُونِ الشَّرِيعَةِ، كَالْمَيْتِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ، وَلَا يَشْعُرُ، وَلَا يَبْصُرُ، وَلَا يَسْمَعُ، إِذْ هُوَ خَالٍ عَنِ الْحَقَائِقِ الْكُونِيَّةِ، ضَالٌّ عَنِ طَرِيقِ الرُّشْدِ مِنْ أَمْرِنَا أَى نَاشِئًا تِلْكَ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِنَا وَإِرَادَتِنَا، فَهُوَ صَادِرٌ عَنَّا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ، قَدْ يُعْطَى مِنْ نَفْسِهِ، وَقَدْ يُعْطَى مِنْ غَيْرِهِ، وَمَا يُعْطَى مِنَ النَّفْسِ، أَكْثَرَ خَيْرًا وَتَكْرَمَةً، وَلَعَلَّ الْإِتْيَانَ، ب «مِنْ أَمْرِنَا» لِبَيَانِ ذَلِكَ مَا كُنْتَ تَدْرِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْكِتَابُ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْكَ وَكَأَلَيْمَانَ قَبْلَ أَنْ تَتَلَقَّنَهُ، وَمِنْ الْبَدِيهِ أَنْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ إِقْلَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ الْكِتَابِ وَالْإِيمَانَ، لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُمَا، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي أَنْ الْآيَةَ سَاكِنَةٌ عَنِ وَقْتِ ذَلِكَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَبْلَ خَلْقِ الْعَالَمِ، فَهُوَ حِكَايَةٌ عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الرَّسُولِ فِي الْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ، كَمَا وَرَدَ «كُنْتَ نَبِيًّا، وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»

«١» وَ لَكِنْ نَحْنُ الَّذِينَ أَعْلَمْنَاكَ جَعَلْنَا أَى جَعَلْنَا الْكِتَابَ وَالْإِيمَانَ- بِاعْتِبَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا- نُورًا لِدُرُوبِ الْحَيَاةِ الْمَظْلَمَةِ نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنَ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الدَّعْوَةَ، فَالْمَرَادُ بِالْهَدَايَةِ: الْأَلْطَافُ الْخَاصَّةُ، أَمَا إِرْشَادُ الطَّرِيقِ، فَهُوَ عَامٌ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِنَا جَمْعَ عَبْدٍ وَ إِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَتَهْدِي وَ تَرشُد

(١) مفتاح الفلاح: ص ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧

[سورة الشورى (٤٢): آية ٥٣]

صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

الناس إلى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ لا التواء فيه، ولا انحراف، فكتابتك نور، وأنت هاد، والدرب الذي تهدي إليه، صراط مستقيم موصل إلى السعادة.

[٥٤] صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي قَرَّرَهُ وَجَعَلَهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَلَهُ التَّكْوِينُ وَ لَهُ التَّشْرِيعُ وَ الْمَبْدَعُ الْمَكُونُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُحُ مِمَّا يَفْسُدُ، وَ لَذَا فَإِنَّ نِظَامَهُ أَفْضَلُ الْأَنْظُمَةِ، وَ أَصْلَحُهَا لِلْبَشَرِ أَلَّا فَلْيَتَّبِعِ السَّمْعَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ فَمِنْهُ الْبَدْءُ، وَ إِلَيْهِ الْخِتَامُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨

٤٣ سورة الزخرف مكية / آياتها (٩٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «زخرف» وهى كسائر السور المكية بصدد بيان العقيدة، والاستدلال عليها وحيث ختمت سورة الشورى بذكر القرآن، ابتدأت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله، تيمنا، فإن الشعار يؤثر فى الشىء تأثيرا خارجيا، لأن الإنسان يعامل بشعاره، و واقعا فإن لكل من الرحمن و الشيطان جنودا، فإذا ذكرت الله وحده فرّت جنود الشياطين منهزمين، و الرحمن الرحيم و صفان جىء بهما لأجل استمطار شآبيب الرحمة من ساحة القدس، فمن ذكر الله بوصف طالبا منه تعالى أن يتفضل عليه أعطاه كما قال وَ قَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ «١».

(١) غافر: ٦١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (٤)
أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥)

[٢] حم «حاء» و «ميم» و ما أشبههما من سائر حروف الهجاء مادة هذا القرآن المعجز الذى لا يتمكن البشر من الإتيان بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو رمز بين الله و الرسول، أو غيرهما من سائر الأقوال.

[٣] وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ أى قسما بهذا القرآن الواضح الذى يظهر الحق و يبينه.

[٤] إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا أى بلغه العرب، حين اختار منهم من يحمل هذه الرسالة، و اختار محلهم منبثقا لهذا الوحي الثمين لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و هذا هو المقسم به، أى أن الغاية من إنزال القرآن عربيا تعقلكم و تفهمكم للحقائق، يا معشر العرب.

[٥] وَإِنَّهُ هذا القرآن فى أُمِّ الْكِتَابِ و هو اللوح المحفوظ، و إنما سمي بذلك لأنه أصل الكتب السماوية و غيرها، حيث إن كل شىء مدروج فيه على نحو الصواب و الحكمة، فهو المرجع الوحيد الصحيح، كالأم التى هى أصل الإنسان، و منها جاء و إليها يأوى لَدَيْنَا أى الذى عندنا لَعَلِيَّ أى رفيع ذو قيمة و رتبة حَكِيمٌ قد وضع الأشياء موضعها اللائق بها من تشريع و أخبار و بيان و غيرها، فإن الحكمة وضع الأشياء مواضعها اللائقة بها، و يسمى الكتاب حكيما باعتبار اشتماله على الأشياء الحكيمة.

[٦] و إذا كان هذا القرآن بهذه المثابة، فهل ترفع اليد عنه بمجرد أن جماعته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٩٩

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦ الى ٨]

وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨)

كذبوا به و أسرفوا فى الابتعاد عنه؟ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ يا معشر الناس الذِّكْرَ أى القرآن صِفْحًا أى أترك الوحي؟ و أصله من ضرب الحيوان على صفحة وجهه ليميل عن طريقه إلى ما يراه به، ثم استعمل فى كل تحريف لشىء عن الطريق أن كُنتُمْ أى لأجل أنكم كنتم قَوْمًا مُّسْرِفِينَ تسرفون و تجاوزون فى الكفر و العصيان؟ كلالا لا يكون هذا، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لَا فَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ «١» بالإضافة إلى أنه إتمام الحجة، و توضيح للمحجة.

[٧] و ليس هذا الأمر غريباً من هؤلاء فقد كانت عادة الأمم تكذيب الأنبياء وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَ «كم» خبرية للتكثير.

[٨] وَ مَا يَأْتِيهِمْ أَى الْأَوَّلِينَ مِنْ نَبِيِّ مِنْ: لتعميم النفي إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَإِنَّ الْجَهَالَ إِذَا انْقَطَعُوا عَنِ الْحُجَّةِ اسْتَهْزَءُوا وَ تَمَسَّخَرُوا حَتَّى يَغْلِبُوا خَصْمَهُمْ بِسَبَبِ انْهِيَارِ أَعْصَابِهِ أَمَامِ اسْتَهْزَاءِ، فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْ مَوَاصِلِهِ الْاِحْتِجَاجِ.

[٩] فَأَهْلَكْنَا بِسَبَبِ اسْتَهْزَاءِ وَ عَدَمِ الْإِيمَانِ أَشَدَّ مِنْهُمْ أَى مِنْ هُوَ

(١) الأنعام: ٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٩ الى ١٠]

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)

أشد من هؤلاء القوم بطشاً أى قوة و منعه، فلا يغتر هؤلاء المشركون بالقوة و العدة، فإنها أمام إرادة الله سبحانه لا مجال لها و مضى مثلُ الْأَوَّلِينَ أى قد سلف في القرآن أمثال أولئك الأقوام الذين أهلكتناهم، و قصصهم، فقد سبق شابهة أولئك الكفار السابقين بهؤلاء الكفار من قومك.

[١٠] و إذ قدم بعض الكلام حول الرسالة و القرآن يأتي الكلام حول التوحيد وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أَى سَأَلْتِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ هَلْ هُوَ اللَّهُ أَمْ الْأَصْنَامُ؟ لَمْ يَجِدُوا بَدًّا مِنَ الْاِعْتِرَافِ بِالْحَقِيقَةِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ سَبِيلًا إِلَّا الْقَوْلَ بِكَوْنِ الْخَلْقِ لِلْأَصْنَامِ فَيَقُولُونَ خَلَقَهُنَّ وَ الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْعَاقِلِ، أَمَا مِنْ جِهَةٍ تَغْلِيْبِ مِنْ فِيهَا عَلَيْهَا، أَوْ لَمَّا قَالُوا مِنْ جَوَازِ الْأَمْرَيْنِ - مِنْ «هَنْ» وَ «هَآ» فِي غَيْرِ الْعَاقِلِ - الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّ هَذَا الْخَلْقَ الْمُدْهَشَ لَا يُمْكِنُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ صَنْعِ قَادِرِ عَالِمٍ، وَ الْأَصْنَامِ عَاجِزَةٍ جَاهِلَةٍ.

[١١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا أَى مَحَلًّا لِلسَّكْنَى، فَتَسْتَقْرُونَ فِيهَا- وَ هَذَا مِنْ بَابِ الْاِلْتِفَاتِ الْمَذْكُورِ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ- وَ جَعَلَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِيهَا أَى فِي الْأَرْضِ سُبُلًا جَمْعَ سَبِيلٍ وَ هُوَ الطَّرِيقُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١١ الى ١٣]

وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَيْسَ تَتَوَوَّنَ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)

ليتمكن الإنسان من السير و السفر لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إِلَى خَالِقِكُمْ حَيْثُ تَرُونَ هَذِهِ الْآثَارَ الْبَاهِرَةَ الدَّالَّةَ عَلَى عَالَمِ قَدِيرِ حَكِيمٍ.

[١٢] وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً أَى الْمَطْرَ، وَ الْمَرَادُ بِالسَّمَاءِ جِهَةُ الْعُلُوِّ بِقَدَرٍ فَلَيْسَ الْمَطْرُ - عَلَى مَا يَزْعَمُهُ الْغَافِلُ - يَكُونُ بِكَثْرَةٍ لَا قَدْرَ لَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَسَبَ ذَلِكَ حَسَابًا دَقِيقًا، وَ أَنْزَلَهُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ لَا زَائِدًا وَ لَا نَاقِصًا فَأَنْشَرْنَا بِهِ أَى أَحْيَيْنَا بِسَبَبِ الْمَطْرِ بَلْدَةً مَيْتًا أَى جَافَةً يَابِسَةً لَا- حَرَكَةَ فِيهَا، كَالْمَيْتِ الَّذِي لَا حَرَكَاتَ لَهُ، وَ الْإِحْيَاءُ إِنَّمَا هُوَ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَ الثَّمَارِ، وَ الْمَرَادُ أَرْضَ الْبَلْدَةِ الَّتِي فِي أَطْرَافِهَا، وَ إِنَّمَا أُضِيفَ الْإِحْيَاءُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا الْمَنْتَفَعَةُ بِالْمَطْرِ كَذَلِكَ أَى رَأَيْتُمْ مِنْ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا تُخْرَجُونَ أَنْتُمْ مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلنَّشْرِ وَ الْقِيَامَةِ.

[١٣] وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا أَى الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى مِنَ الْإِنْسَانِ وَ الْحَيَوَانَ وَ النَّبَاتِ وَ الْمَعْدِنِ وَ غَيْرِهَا، أَوْ الْمَرَادُ بِالْأَزْوَاجِ الْأَصْنَافِ وَ

جَعَلَ لَكُمْ أَى لِمَنَافِعِكُمْ مِنَ الْفُلْكِ أَى السَّفَنِ وَالْأَنْعَامِ الْإِبِلَ مَا تَرْكَبُونَ عَلَيْهِ فِى الْبَحْرِ وَ الْبَرِّ، وَ إِنَّمَا قَالَ مِنَ «الْفُلْكِ» لِأَنَّ بَعْضَ السَّفَنِ لَيْسَتْ صَالِحَةً لِلرُّكُوبِ كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْأَنْعَامِ كَالْغَنَمِ مِثْلًا كَذَلِكَ.

[١٤] لَتَشْتَوُوا أَى تَرَكَبُوا بِاسْتِوَاءِ بِلَا صَعُوبَةٍ التَّمَايِلِ وَ الْإِنْحِرَافِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١٤ إلى ١٥]

وَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)

عَلَى ظُهُورِهِ أَى ظَهَرَ مَا جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعَامِ، وَ يُسَمَّى مَحَلَّ الرُّكُوبِ ظَهْرًا، بِاعْتِبَارِ بَاطِنِ السَّفِينَةِ وَ الْحَيَوَانَ، الَّذِى هُوَ دَاخِلٌ فِيهِمَا لَا- يُمْكِنُ وَ لَوْجُهُ أَوْ الْاسْتِقْرَارُ فِيهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا أَى تَتَذَكَّرُوا وَ يَأْتِى إِلَى ذَهْنِكُمْ نِعْمَةً رَبِّكُمْ الَّتِى أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ إِذَا اسْتَيْوَيْتُمْ عَلَيْهِ فَتَشْكُرُوهُ عَلَى تِلْكَ النِّعْمَةِ وَ تَقُولُوا فِى ذِكْرِكُمْ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا أَى أَنْزَهَهُ عَنِ الْمِثْلِ وَ الشَّرِيكَ وَ الْقَبَائِحِ، «هَذَا» يَعْنِى الْمَرْكَبَ سَفِينَةً كَانَتْ أَمْ حَيَوَانًا وَ مَا كُنَّا لَهُ أَى لِهَذَا الْمَرْكَبِ مُقَرَّنِينَ أَى مُطِيقِينَ مُقَارِنِينَ لَهُ، فَلَوْ لَا تَسْخِيرَ اللَّهِ إِيَّاهُ لَنَا، لَمْ نَتِمَكَّنْ مِنْ رُكُوبِهِ، فَإِنَّ الْإِقْرَانَ الْإِطَاقَةَ يُقَالُ أَقْرَنْتَ لِهَذَا الْبَعِيرِ أَى أَطَقْتَهُ.

[١٥] وَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ أَى رَاجِعُونَ، مِنْ انْقِلَابٍ، بِمَعْنَى تَغْيِيرِ حَالِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَ هَذَا مِنْ بَابِ تَذَكَّرَ الْجِنَازَةَ وَ سَفَرَ الْآخِرَةَ، مِنَ الْمَرْكَبِ وَ سَفَرِ الدُّنْيَا- وَ ذَلِكَ مِنْ تِمَتِّهِ الدُّعَاءِ الَّذِى يُقَالُ عِنْدَ رُكُوبِ الْمَرْكَبِ-.

[١٦] وَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ جَعَلُوا أَى جَعَلَ الْكُفَّارَ لَهُ تَعَالَى مِنْ عِبَادِهِ وَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ وَ الْمَسِيحُ وَ عَزِيزٌ جُزْءًا فَقَالُوا إِنَّهُمْ أَوْلَادُ اللَّهِ، فَإِنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الْوَالِدِ، لِأَنَّهُ خَلَقَ مِنْ دَمِهِ السَّائِلَ فِى عُرُوقِهِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ أَى كَثِيرُ الْكُفْرِ، فَيُكْفَرُ بِاللَّهِ تَعَالَى فِى كُلِّ أَمْرٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١٦ إلى ١٧]

أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧)

فِى ذَاتِهِ، فِى صِفَاتِهِ، فِى تَوْحِيدِهِ فِى الرِّسَالَةِ، فِى الْمَعَادِ مُبِينٌ أَى يَبِينُ الْكُفْرَ ظَاهِرًا.

[١٧] ثُمَّ إِنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ فَيَأْتِى السِّيَاقُ لِاسْتِنكَارِ قَوْلِهِمْ هَذَا، بِالْإِضَافَةِ إِلَى اسْتِنكَارِ أَصْلِ اتِّخَاذِهِ- سَبْحَانَهُ- وَ لِدَا أُمَّ اتَّخَذَ أَى هَلْ اتَّخَذَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِمَّا يَخْلُقُ مِنْ صُنُوفِ الْخَلْقِ بَنَاتٍ بِأَنَّ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتًا لَهُ وَ أَصْفَاكُم أَى أَخْلَصَكُم بِالْبَنِينَ فَلَوْ كَانَتْ الْبَنَاتُ مَكْرُوهَةً- كَمَا فِى عَرَفِكُمْ- كَيْفَ تَنْسَبُونَ الْمَكْرُوهَ إِلَيْهِ، وَ تَقُولُونَ إِنَّا مَخْتَصُونَ بِالذِّكْرِ؟ وَ هَلْ هَذَا إِلَّا تَنْزِيلٌ لِقَدْرِ اللَّهِ دُونَ مَرْتَبَتِكُمْ.

[١٨] وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ أَى أَحَدٌ هُوَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا أَى بِمَا جَعَلَ شَبِيهَا لِلَّهِ، فَإِنَّ وَ لِدَ كُلِّ شَيْءٍ شَبِيهُهُ وَ نَظِيرُهُ، وَ الْمَرَادُ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِأَنَّ وَ لِدَتِ زَوْجَتَهُ بِنْتًا لَهُ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا أَى انْقَلَبَ وَجْهُهُ إِلَى السَّوَادِ لِكَثْرَةِ الْغَمِّ الَّذِى يَصِيبُهُ مِنْ هَذِهِ الْبَشَارَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اغْتَاظَ، تَوَجَّهَ الدَّمُ إِلَى وَجْهِهِ، وَ حَيْثُ إِنَّ الدَّمَ يُضْرَبُ إِلَى السَّوَادِ يَظْهَرُ مِنْ تَرَاكُمِهِ لَوْنُ السَّوَادِ، وَ لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بِ«ظَلَّ» لِبَيَانِ دَوَامِ السَّوَادِ فِى وَجْهِهِ مَدَّةَ أَيَّامٍ، لِكَثْرَةِ الْحَنْقِ وَ الْغَيْظِ وَ هُوَ كَظِيمٌ أَى مَمْلُوءٌ غَضَبًا، كَاظِمًا نَفْسَهُ، لِئَلَّا يَبْدُو مِنْهُ مَا يَنَافِى شَأْنَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ١٨ إلى ١٩]

أَوْ مَرِيْنٌ يَنْشَأُ فِى الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِى الْخِصَامِ غَيْرٌ مُبِينٌ (١٨) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَيُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)

[١٩] فَكَيْفَ يَجْعَلُ هُوَ الْكُفَّارِ الْبَنَاتِ الَّتِى يَكْرَهُنَّ بِهَذَا النُّحُوِّ مِنَ الْكُرْهِ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ؟ أَوْ الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ أَى هَلْ

هؤلاء الكفار يجعلون لله مَنْ يُشْئُوا فِي الْحَلِيَّةِ أَي يكبر و يتربى في الزينة، و هي البنت فإنها تزين بالملابس و الذهب و الفضة من صغرها حتى تكبر و هو في الخصام أي في المخاصمة و الاحتجاج غير مبيّن غير متمكن من إظهار حجتها و دليلها، فإن المرأة حيث يغلب عليها جانب العاطفة لا تتمكن أن تقاوم الرجل الذي غلب عليه جانب العقل و الاتزان، و إنما جرىء بالضمائر مذكرا باعتبار «من» و قد جاز في «من» و «ما» مراعاة اللفظ و المعنى، و الحاصل أنه كيف يجعل هؤلاء لله البنات الناعمة جسدا، العاجزة حجة، و يجعلون لأنفسهم البنين العاملين الأقوياء في الحجاج، و هل هذا إلا انتخاب الشيء الحقيق - بنظرهم - لله تعالى، و اختيار الرفيع لأنفسهم؟

[٢٠] ثم صرح سبحانه بذلك بقوله و جَعَلُوا أَي هؤلاء الكفار الملائكة الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ كسائر العبيد إناثاً بأن زعموا أنهم بنات الله أَ شْهَدُوا خَلْقَهُمْ أَي هل حضر هؤلاء الكفار خلق الملائكة حتى رأوا بأنهم إناث؟ سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ بهذا الكذب الشائن، و لعل الإتيان ب «السين» لما ورد من تأخير كتابة العصيان مدة، رجاء أن يتوب الإنسان، فلا تكتب السيئة في ديوانه و يُشْتَمَلُونَ عن هذه الشهادة يوم القيامة من أين قالوها؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٠ إلى ٢٣]

و قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)

[٢١] و قد كان الكفار يعبدون الملائكة و قالوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ بأن يمنعا عن عبادتهم، و قالوا ذلك في جواب المؤمنين الذين اعترضوا عليهم و كيف تعبدون الملائكة؟ ما لَهُمْ بِذَلِكَ بأن الله شاء عبادة الملائكة مِنْ عِلْمٍ فمن أين لهم أن يثبتوا أن الله شاء عبادتهم للملائكة؟ إِنْ هُمْ أَي ما هم إِلَّا يَخْرُصُونَ أي يكذبون في نسبة المشيئة إليه سبحانه.

[٢٢] أَمْ آتَيْنَاهُمْ أَي هل أعطينا و أرسلنا إلى هؤلاء عباد الملائكة كِتَابًا فيه أن اعبدوهم - بأن لم يعلموا المشيئة عقلا و إنما علموها نقلا- مِنْ قَبْلِهِ أَي من قبل هذا القرآن الناهي لهم عن ذلك فَهُمْ بِهِ أَي بذلك الكتاب مُسْتَمْسِكُونَ متمسكون آخذون به تبريرا لعبادتهم للملائكة؟

[٢٣] كلا! لا علم لهم و لا كتاب بلْ قَالُوا للتبرير موقفهم إنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ أَي على طريقة هي عبادة الملائكة و إنا عَلَىٰ آثَارِهِمْ و ما بقي من تقليدهم و عاداتهم مُهْتَدُونَ فالأمر لا يخرج عن تقليد صرف.

[٢٤] و ليس التقليد للآباء في الضلال و الانحراف خاصا بهؤلاء الكفار بل الكفار السابقون يقولون بمثل هذا القول في مقابل الأنبياء و كَذَلِكَ أَي كحال هؤلاء ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٤ إلى ٢٥]

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ (٢٥)

فِي قَرْيَةٍ مِنْ الْقُرَى، و المراد بها المدينة مِنْ نَذِيرٍ أَي رسول ينذرهم من الكفر و المعاصي إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا أَي المتنعمون فيها، من أترف بمعنى تنعم، و المراد به الرؤساء و الكبراء، لأنهم دائما يقابلون المصلحين بالإنكار و التخاصم إنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ أَي على طريقة و ملة و إنا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ نفتدى بهم، فلا- نخالفهم في الطريقة باتباعكم أيها الأنبياء، و ذلك لأن في اتباعهم إبقاء لكيانهم، بالإضافة إلى أن الألفة توجب تزين الأليف في النظر دون الجديد.

[٢٥] قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ أَ تَبْقُونَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ آبَائِكُمْ وَ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ كَمْ يَعْنِي لَوْ كَانَ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ أَكْثَرَ

رشدا و هداية من طريقه الآباء؟ قالوا في الجواب إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ وَ الشَّرِيعَةِ كَافِرُونَ سواء كان أهدي أم غيره.

[٢٦] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ أَى من أولئك الذين تمردوا على طاعة الأنبياء عليه السلام و تمسكوا بالتقاليد البالية فَانظُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا النَّاطِرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ لِلأنبياء؟ و فى هذا تهديد لكفار مكة إن لم يؤمنوا كانت عاقبتهم كعاقبة أولئك، و المراد بالنظر: العلم و التفكير فى أمرهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ إلى ٢٨]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)

[٢٧] ثم يأتى السياق لنقل قطعة من قصة إبراهيم عليه السلام لشباهتها لقصة محمد صلى الله عليه و آله و سلم فى أن قومه كانوا يعبدون الأصنام فأظهر التبرؤ منهم و اذكر يا رسول الله إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزر، و كان عمه، و إنما اسم أبيه «تارخ» و أطلق عليه لفظ «الأب» احتراماً فإن الناس يسمون العم «أبا» و الخالة «أما» كما فى قصة يوسف عليه السلام «و رفع أبويه» على ما ذكره جماعة، من أن المرأة كانت خالته لا أمه و كما قال لأبيه قال ل قَوْمِهِ حين كانوا يعبدون الأصنام و الكواكب إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ عَلَى الْمفرد و الثنية و الجمع مذكراً و مؤنثاً بلفظ واحد، فهو من قبيل «زيد عدل» و إلا فالأصل «ذو براء» مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنَ الأصنام.

[٢٨] و حيث إن العام شامل حتى الله سبحانه استثنى بقوله إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى أَى خلقنى و أوجدنى من العدم فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أصله سيهدينى حذف ضمير المتكلم تخفيفاً و تنسيقاً، و حيث إن الهداية شىء يحتاج إليها الإنسان فى كل خطوة من خطوات الحياة، صح الإتيان بالفعل المستقبل، و لا ينافى ذلك وجودها فى الإنسان سابقاً، و من ذلك «اهدنا الصراط المستقيم».

[٢٩] وَ جَعَلَهَا أَى جعل إبراهيم كلمة التوحيد- الاستفادة من قوله «إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى»- كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ أَى فى نسله و ذريته بأن وصاهم بالتزامه و التمسك بها، كما قال سبحانه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ كلما انصرفوا عن الطريق، بأن يتذكروا الوصية فيرجعوا إلى التوحيد فإن الإنسان- حسب المحيط- ينحرف فإذا تذكر وصية جده رجع و تاب.

[٣٠] بَلْ لَنُدْعَ حَدِيثَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الكفار المعاصرين للرسول، الذين جاءهم الحق عياناً فقالوا إنه سحر- فإننا لم نكتف بالنسبة إليهم بكلمة إبراهيم فى إرشادهم، بل أرسلنا إليهم رسولا آخر، و مع ذلك انصرفوا- مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ أَى أنعمت عليهم بالصحة و النعمة و طول العمر و آباءهم إذ كل جيل يلقى الجيل السابق حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ هو القرآن أو الشريعة وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ أَى ظاهر مبين للنهج، و هو محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

[٣١] وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ أَى القرآن أو الشريعة أو الرسول قَالُوا هَذَا سِحْرٌ ظاهر الآية يناسب كون المراد بالحق القرآن لأن غيره يحتاج إلى التأويل وَ إِنَّا بِهِ كَافِرُونَ فليس من عند الله تعالى، و إنما الذى جاء به ساحر يريد السيطرة و الاستعلاء بسحره، و قد بين فى هذه الآيات مختلف صنوف النعم و الإرشاد على هؤلاء: تمتيعهم لأنفسهم، و إبقاء آباءهم، و وصية إبراهيم عليه السلام، و مجيء الرسول،

[سورة الزخرف (٤٣): آية ٣١]

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)

و مع ذلك لم يؤمنوا.

[٣٢] وَقَالُوا لَوْلَا- أى هلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ أى رجل من هذه القرية أو رجل من تلك عَظِيمٍ صفة رجل، أى رجل عظيم من مكة أو الطائف.

فى تفسير الإمام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش «إلى أن قال: قال له عبد الله بن أبى أمية: لو أراد الله أن يبعث لنا رسولا لبعث أجل من فى ما بيننا مالا وأحسنه حالا؟ فهلا نزل هذا القرآن الذى تزعم أن الله أنزله عليك وأبعثك به رسولا، على رجل من القريتين عظيم، إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفى بالطائف؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وأما قولك لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فإن الله ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت ولا خطر له عنده كما له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة، لما سقى كافرا به مخالفا له شربة ماء، وليس قسمة الله إليك بل الله القاسم للرحمات والفاعل لما يشاء فى عبيده وإمائه، وليس هو عز وجل ممن يخاف أحدا كما تخافه أنت لماله وحاله، فعرفته بالنبوة لذلك، ولا ممن يطمع فى أحد فى ماله أو فى حاله كما تطمع فىخصه بالنبوة لذلك، ولا ممن يحب أحدا محبة الهوى كما تحب أنت فتقدم من لا يستحق التقديم وإنما معاملته بالعدل، فلا يؤثر لأفضل مراتب الدين و جلاله إلا الأفضل فى طاعته والأجد فى خدمته وكذلك لا يؤخر فى مراتب الدين والجلالة إلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١

[سورة الزخرف (٤٣): آية ٣٢]

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)

أشدهم تطرا عن طاعته، وإذا كانت هذه صفته لم ينظر إلى مال ولا إلى حال بل هذا المال والحال من تفضله وليس لأحد من عباده عليه ضربة لازب، فلا- يقال له إذا تفضلت بالمال على عبد فلا بد أن تتفضل عليه بالنبوة أيضا؟ لأنه ليس لأحد إكراهه على خلاف مراده ولا- إلزامه تفضلا، لأنه تفضل قبله بنعمه، ألا ترى يا عبد الله كيف أغنى واحدا و قبيح صورته؟ وكيف حسن صورة واحد و أفقره؟ وكيف شرف واحد و أفقره؟ وكيف أغنى واحدا و وضعه؟ ثم ليس لهذا الغنى أن يقول هلا أضيف إلى يسرى جمال فلان؟ ولا للجميل أن يقول هلا أضيف إلى جمالى مال فلان؟ ولا للشريف أن يقول هلا أضيف إلى شرفى مال فلان؟ ولا للوضيع أن يقول هلا- أضيف إلى صفتى شرف فلان؟ ولكن الحكم لله يقسم كيف يشاء ويفعل كما يشاء وهو حكيم فى أفعاله، محمود فى أعماله

«١».

[٣٣] وَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ أى النبوة، أى هل تقسيم النبوات بيد هؤلاء حتى ينتخبوا فلانا للنبوة دون محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ كلا! فإن الله سبحانه لم يجعل بأيديهم قسمة أرزاقهم فكيف يعطى مقاليد النبوة بأيديهم؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ وهو ما يستعيشون به فى الحياة الدنيا أى فى هذه الحياة القريبة على حسب المصلحة والحكمة ورفعنا بعضهم فوق بعض هؤلاء فَوْقَ بَعْضٍ رزقا و جاها و قوّة و فى سائر الشؤون دَرَجَاتٍ فلم نفوض

(١) تفسير الإمام العسكرى: ص ٥٠٦.

إليهم أمور أنفسهم مع عدم أهميتها فكيف نفوض إليهم أعظم الأمور و هي النبوة؟ لِيَتَّخِذَ أَي إِنَّمَا جَعَلْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ لَّأَن يَسْتَعْمِدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا شَيْخَرِيًّا وَ هُوَ الَّذِي يَسْخَرُ فِي الْحَوَائِجِ وَ يَسْتَعْمِدُ فِي الْمَهَامِ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَتِمُّ نِظَامُ الْعَالَمِ وَ يَسْتَقِيمُ، إِذْ لَوْ كَانَ الْكُلُّ سَادَةً مِنْ كَانَ يَعْمَلُ؟ وَ لَوْ كَانَ الْكُلُّ أَقْوِيَاءَ كَثُرَ التَّنَازُعُ وَ الْفَنَاءُ، وَ لَوْ كَانَ الْكُلُّ فَقَرَاءَ مِنْ كَانَ يَجْلِبُ الطَّعَامُ وَ الْحَوَائِجُ لِيَبِيعَهَا فِي وَقْتِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ؟

وَ لَوْ كَانَ الْكُلُّ أَغْنِيَاءَ مِنْ كَانَ يَنْكَسُ وَ يَطْبُخُ وَ يَخْبِزُ وَ يَدِيرُ الْأُمُورَ الصَّغِيرَةَ كَالْفَلَاحَةَ وَ الْبِنَاءَ وَ مَا أَشْبَهَ؟ وَ قَدْ أَرَادَ بَعْضُ السَّخْفَاءِ كِ «مَارِكْس» الْيَهُودِيَّ وَ أَضْرَابَهُ، أَن يَهْدِمُوا نِظَامَ الْغِنَى وَ الْفَقْرِ، فَلَمْ يَتِمَّ كُنُوزُهُمْ وَ غَايَةُ مَا صَنَعُوا أَنَّهُمْ أَضَافُوا إِلَى الْأَغْنِيَاءِ مَعَ غَنَائِهِمُ السَّلَاحَ، فَجَعَلُوا النَّاسَ فَقَرَاءَ، وَ الْأَغْنِيَاءَ بِيَدِهِمُ الْحَكْمَ، لَكِي يَتِمَّ كُنُوزُهُمْ مِنْ امْتِصَاصِ دِمَاءِ الْفُقَرَاءِ بِالْمَالِ وَ الْقُوَّةِ مَعًا، بَعْدَ مَا كَانَ كُلُّ مَنْ هَذَا مِنَ الْعَامِلِينَ لِلِاسْتِعْلَاءِ وَ التَّرْفَعِ فِي فِتْنَةٍ، فَكَانَ الْفُقَرَاءُ يَجِدُونَ مَنَاصِبًا مِنْ طُغْيَانِ كُلِّ بِالِاتِّجَاعِ إِلَى الْآخِرِ، وَ لَقَدْ كَانَ نِظَامُهُمْ مَغْلُوطًا إِلَى أْبَعْدِ الْحُدُودِ، وَ لَذَا نَرَى الْيَوْمَ - وَ بَعْدَ نِصْفِ قَرْنٍ مِنْ قِيَامِ دَوْلَتِهِمْ فِي الشَّرْقِ - يَسْتَجِدُونَ الْحِنْطَةَ وَ الرِّزْقَ مِنْ بِلَادِ الرُّأْسَمَالِيِّينَ كُلِّ عَامٍ ... وَ لَقَدْ مَنَعَ الْإِسْلَامُ عَنِ كُلِّ مَنْ الرُّأْسَمَالِيَّةَ بِالْمَعْنَى الْغَرْبِيَّةَ وَ الشُّيُوعِيَّةَ وَ الْإِسْتِرَاكِيَّةَ، وَ إِنَّمَا نَظَمَ الْأُمُورَ خَيْرَ تَنْظِيمٍ، مِمَّا لَا مَجَالَ هُنَا لِتَفْصِيلِهِ «١» وَ رَحِمَتْ رَبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ

(١) راجع الاقتصاد للشهيد السيد حسن الشيرازي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٣ الى ٣٥]

وَلَوْ لَا - أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهُمْ سِيفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِيُثْبِتَهُمْ أَبْوَابًا وَ سُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ (٣٤) وَ زُخْرَفًا وَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)

يترك الله الخير - بيدهم - و الحال أنه لم يترك ما يجمعون بأيديهم؟ أو المراد أن النبوة خير من الأموال، فما عندك خير مما عند رجل من القريتين عظيم، الذين يرون تفضيلهما عليك.

[٣٤] إذ قيمة المال و الزخرف في نظر الله سبحانه تافه جدا حتى أنه لو لم تكن مخافة انحياز الناس إلى الكفار لأسبل الله على الكفار الأموال و الزخارف بكل ألوانها، فهل هذا المال الذي هكذا شأنه يكون ميزانا لإعطاء النبوة و إرسال الرسول حتى يقول الكفار أنه «لَوْ لَا - نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ؟» وَ لَوْ لَا - أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أَي لَوْ لَا - مَخَافَةُ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى الْكُفْرِ فَيَكُونُوا جَمِيعًا كُفَرَاءَ، حَيْثُ يَرُونَ أَنَّ الدُّنْيَا لِلْكَفَّارِ وَ الْمُؤْمِنِينَ صَفَرُ الْيَدِ مِنْهَا لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهُمْ سِيفًا جَمَعَ سَقْفَ مِنْ فِضَّةٍ بَأَنَّ أَكْثَرَنَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْفِضَّةِ حَتَّى يَصْنَعُوا السَّقُوفَ مِنْهَا وَ مَعَارِجَ مِنْ فِضَّةٍ، وَ هُوَ جَمَعَ مَعَارِجَ أَي السَّلَمِ، أَي كَانَتْ سَلَالِمَ بِيُوتِهِمْ فِضَّةً عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ أَي عَلَى تِلْكَ الْمَعَارِجِ يَصْعَدُونَ وَ يعلون، فَإِنَّ الصَّاعِدَ يَظْهَرُ بِمَا لَا يَظْهَرُ الَّذِي فِي الْبَيْتِ.

[٣٥] وَ لِيُثْبِتَهُمْ أَبْوَابًا مِنْ فِضَّةٍ وَ لِأَنْفُسِهِمْ سُرُرًا جَمَعَ سَرِيرًا، مِنْ فِضَّةٍ عَلَيْهَا يَتَكُونَ عِنْدَ الْجُلُوسِ.

[٣٦] وَ زُخْرَفًا أَي جَعَلْنَا لَهُمْ فِي السَّقْفِ وَ الْمَعَارِجِ وَ الْأَبْوَابِ وَ السَّرْرِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيَصْذُوقُونَ مِنَ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧)

الزخرف، و هو الذهب، و المعنى أغرقناهم في الذهب و الفضة حتى يكون كل شيء لهم منهما و إنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِنَ الْفِضَّةِ وَ الذَّهَبِ وَ الدَّرِّ وَ سَائِرِ أَنْوَاعِ التَّجْمَلِ وَ الزَّيْنَةِ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا «أَنَّ» نَافِيَةٌ وَ «لَمَّا» بِمَعْنَى إِلَّا، أَي مَا كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَي الْحَيَاةِ الْقَرِيبَةِ، الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي أَيَّامِ قَلَاتِلِهَا وَ الْآخِرَةُ الَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ قَرِيبًا شَرَفِيًّا، لَا - مَكَانِيًا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَطَاعُوا، فَمَنْ

الضرورى أن يحصل الإنسان على الآخرة لا على الدنيا الفانية التي لا قيمة لها.

[٣٧] و إذ تبين أن لا قيمة للماديات، فالكافر لا أهمية له بنظره سبحانه و إن كان ذا رئاسة أو مال، بل إن مستواه المعنوى لمنحط جدا حتى أنه دائم الملازمة للشيطان الذى يغويه، فهل مثل هذا صالح للنبوّة؟ و مَنْ يَعِشْ أَى يَعْزُضْ أَى يَعْرِضْ و يتعامى عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ أَصْلَهُ مِنَ «العشو» و هو ضعف البصر، فكأن الكافر ضعيف البصر، بالنسبة إلى الشريعة و الدين نُقِضَ أَى نُرْسِلَ لَهُ لِذَلِكَ الْإِنْسَانَ شَيْطَانًا يوسوس إليه و يؤذيه و يصدّه عَنِ الْحَقِّ فَهُوَ أَى الشَّيْطَانُ لَهُ لِذَلِكَ الْإِنْسَانَ قَرِينٌ أَى ملازم، و ذلك لأنه لما أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ خَلَى سَبْحَانَهُ بَيْنَهُ و بَيْنَ الشَّيَاطِينِ يَفْعَلُونَ بِهِ مَا يَشَاءُونَ، و هذا معنى «التقيض».

[٣٨] وَ إِنْتَهُمْ أَى الشَّيَاطِينِ الْقِرْنَاءَ مَعَ الْكُفَّارِ، و إنما جىء بالجمع، لأن المراد بـ «شيطانا» الجنس، لا الواحد لِيَصِيدُوا وَنَهُمْ أَى يَمْنَعُونَ هَؤُلَاءِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩)

الكفار عَنِ السَّبِيلِ طَرِيقِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ بِالْوَسْوَسَةِ و إلقاء الشبهة و يَحْسَبُونَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ أَى أنهم فى سبيل الحق، حيث زين لهم كفرهم و عصيانهم، حتى زعموا أنهم على هدى، و أن المؤمنين على ضلاله، كما قال سبحانه و إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿١﴾.

[٣٩] و يبقى الشيطان مع هذا الكافر حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ف إِذَا جَاءَنَا أَى حضر للحساب و الجزاء فى يوم المحشر و ظهر له جزاءه السيء قَالَ مُخَاطَبًا لِلشَّيْطَانِ الَّذِى كَانَ يَغْوِيهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، و يمنعه عن الاهتداء يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيها الشيطان، بعدا مثل بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ أَى المشرق و المغرب، و غلب المشرق، لقاعدة تغليب الأشرف، أو الأقرب إلى القصد، و لذا يقال للشمس و القمر «شمسان» و «قمران» فَبِئْسَ الْقَرِينُ كُنْتُ لِي فِي الدُّنْيَا حَيْثُ أَوْصَلْتَنِي إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، و هذا العقاب الأليم.

[٤٠] و إذا كان المقام محل توهم أن يخفف الشيطان المقارن للكافر- فى الآخرة- بعض عذابه، كما هو المعتاد فى الدنيا أن يخفف أحد القرينين بعض آلام الآخر، جاء الخطاب للكافر بقوله وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ أَيها الكفار و الشياطين القرناء لهم الْيَوْمَ أَى يوم القيامة إِذْ ظَلَمْتُمْ

(١) المطففين: ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤٠ الى ٤٢]

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَ مَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَمَا نَا نَدْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢)

أنفسكم فى الدنيا بالكفر و العصيان أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ هَذَا فاعل «لن ينفعكم» أَى لا يفيدكم اشتراككم فى العذاب لتخفيفه عنكم بل لكل عذاب نفسه، بدون أن يحمل قرينه بعض عذابه.

[٤١] ثم جاء السياق ليسلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالنسبة إلى هؤلاء الكفار الذين لا يسمعون وعظه و إرشاده ببيان أن التقصير ليس منك، و إنما من الكافر نفسه حيث عاند حتى صار كالأصم الأعمى لا يسمع و لا يبصر أَفَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و الاستفهام للإنكار تُسْمِعُ الصُّمَّ أَى تقدر على إسماع من به صمم فى أذنه، و «صم» جمع أصم أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ أَى تقدر على إرشاد الأعمى

بالكلام هو و الأصم سواء من لا- ينتفع بما يرى هو و الأعمى سواء و مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ أَى ضلال ظاهر بين، و هذا فى قبال أولئك فإن من ضل قلبه عن الحق و عاند يكون غير قابل للهداية، فهؤلاء لا ينتفعون بأبصارهم و أسماعهم و قلوبهم.

[٤٢] و لا بد أن ننتقم من هؤلاء الكفار سواء انتقمنا فى حياتك أو بعد موتك فإمّا أصله «إن» الشرطية و «ما» الزائدة للتأكيد نَذَهَبَنَّ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَى نَمِيتَكَ قَبْلَ تَعْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ بعدك.

[٤٣] أَوْ إِنْ أَرَدْنَا أَنْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَ النِّكَالِ، بَأَن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ (٤٥)

نعذبهم فى حياتك فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فإنهم لا يتمكنون من الفرار أو الانتصار علينا.

[٤٤] فما عليك يا رسول الله أمر هؤلاء، و إنما أنت منتدب إلى البلاغ باستمرار سواء قبل الناس أم لم يقبلوا فَاسْتَمْسِكْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَى تَمْسِكْ بِشِدَّةِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَ الشَّرِيعَةِ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يوصل إلى السعادة بأقرب الخطوط.

[٤٥] وَ إِنَّهُ أَى الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَ الشَّرِيعَةِ لَمَذِكْرٌ لَكَ أَى مَذَكْرٌ لَكَ مَا أودع فى فطرتك من الأصول وَ لِقَوْمِكَ أَى الْعَرَبِ، أَوْ مِنْ بَعَثَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْبَشَرِ، وَ لَذَا

كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»

«١» حين كان يؤذيه الكفار و لو كانوا غير قومه، و يحتمل أن يكون المراد بالذكر «الشرف» أَى أَنَّهُ شَرَفَ بَاقٍ لَكُمْ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ عنه يوم القيامة هل عملتم بما فى هذا الذكر أم لا؟.

[٤٦] وَ سئَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا كَنُوحَ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ غَيْرِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ هَذَا مَجَازٌ يَرَادُ بِهِ الْفَحْصُ عَنْ مَقَالَتِهِمْ، كَمَا يَقَالُ سَلُّ الْأَطْبَاءِ عَنْ هَذَا الْمَرَضِ، أَى رَاجِعَ كَتَبِهِمْ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١١٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٤٧]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) أ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ أَى سِوَاهِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ أَى هَلْ قَرَرْنَا عِبَادَةَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَ هَذَا الْكَلَامُ لِتَقْرِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَ مَعَ ذَلِكَ كَانُوا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ زَاعِمِينَ أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لَهُمُ الشِّرْكَ وَ قَالُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَدَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا «١» وَ قَالُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أ تَسْتَبْتُونَ «٢» وَ هَذَا لَا يَنَافَى مَا رَوَى مِنْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمَعُوا لِلرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَ خُوطِبَ بِهَذَا الْخُطَابِ هُنَاكَ.

[٤٧] ثم يأتى السياق ليدكر نتفا من قصة موسى عليه السّلام، تسليّة للرّسول، حيث قابله القبط بما قابل المشركون الرّسول صلى الله عليه و آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَى مَعَ آيَاتِنَا، وَ هِيَ الْمَعْجَزَاتُ الْبَاهِرَةُ، مِنْ عَصَا، وَ يَدٍ، وَ جِرَادٍ، وَ دَمٍ، وَ غَيْرِهَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أَى الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِهِ، وَ تَسْمَى الْأَشْرَافُ مَلَأً لِأَنَّهُمْ يَمْلِئُونَ الصُّدُورَ رَهْبَةً وَ الْعْيُونَ هَيْبَةً، وَ ذَكَرَ الْمَلَأُ يَغْنَى عَنْ ذَكَرِ سَائِرِ الْقَبْطِ، لِأَنَّهُمْ تَابِعُونَ دَائِمًا، فَلَا يَحْسَبُ حَسَابَهُمْ فَقَالَ مُوسَى لَهُمْ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَيْكُمْ.

[٤٨] فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِآيَاتِنَا أَى مَعَ الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي أُعْطِيْنَاهَا لِتَشْيِيبِ نَبُوْتِهِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ أَى يَسْتَهْزِئُونَ بِالْآيَاتِ، وَ

هذه

(١) النحل: ٣٦.

(٢) يونس: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٤٨ إلى ٥٠]

وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَا لَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)

حيلة العاجز يتخذها وسيلة لإخماد صوت خصمه القوى حيث لا يتمكن من إبطال حجته.

[٤٩] وَا مَا نُزِيهِمْ أَي مَا أُرِينَاهُمْ، وَإِنَّمَا جِيءَ بِالْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّهُ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ مِنْ آيَةٍ أَي خَارِقَةٌ مِنَ الْخَوَارِقِ التَّسْعِ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا فَمَا تَرَادَفَ عَلَيْهِمْ كَانَ الثَّانِي أَكْبَرَ مِنَ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثُ أَكْبَرَ مِنَ الثَّانِي وَهَكَذَا فِي الْبَاقِي أَوْ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَرَفِيَّةٌ لِيَبَانَ كِبَرُ جَمِيعِ الْآيَاتِ، وَلِذَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِي أَوْلَادٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَحْسَنُ مِنَ الْآخِرِ - يَرِيدُ وَصُولَ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَتْنِهِ دَرَجَةُ الْحَسَنِ - وَأَخَذْنَا لَهُمْ بِالْعَذَابِ فَقَدْ كَانَتْ بَعْضُ تِلْكَ الْآيَاتِ عَذَابًا لَهُمْ، كَالدَّمِ وَالْقَمَلِ وَالضَّفَادِعِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ.

[٥٠] وَقَالُوا أَيُّ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ لِمُوسَى، عِنْدَ مَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا أَيُّ لَأَجْلِ رَفْعِ عَذَابِنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ فَقَدْ عَاهَدَ اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنَّهُمْ إِنْ أُرْسِلُوا مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَن أُرْسِلُوا سَرَّاحَهُمْ مِنَ السَّجُونِ وَالتَّسْخِيرِ يَكْشِفُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ، كَمَا سَبَقَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ، أَوْ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَاقَ بِهِمُ الْخَنَاقُ وَعَدُوا أَن يَأْمَنُوا إِذَا كَشَفَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ إِلَى الْإِيمَانِ أَوْ إِطْلَاقِهِمْ.

[٥١] وَعَلَى أَيُّ فَقَدْ دَعَا مُوسَى رَبَّهُ وَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ كَأَنَّ الْعَذَابَ سَتَرَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رَفَعَهُ، كَشَفَ عَنْهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥١ إلى ٥٣]

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)

ليظهروا من تحته غير معذبين إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ أَي يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ وَيَبْقُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ، أَوْ يَبْقُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى إِسْرَارِهِمْ كَالسَّابِقِ.

[٥٢] وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ حِينَ رَأَى أَنَّ أَمْرَ مُوسَى أَخَذَ فِي الْعُلُوِّ وَالظُّهُورِ، فَأَرَادَ الْحَطَّ مِنْ قَدْرِ مُوسَى وَإِظْهَارَ نَفْسِهِ قَوِيًا عَظِيمًا لَدَى أَهْلِ مِصْرَ، لِنَلَا يَمِيلُوا إِلَى مُوسَى فَجَمَعَهُمْ وَخَطَبَهُمْ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟ عَلَى نَحْوِ الْإِسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ، أَي أَنَّ لِي هَذَا الْمُلْكُ الْوَسِيعَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ كَالنَّيْلِ وَنَحْوَهُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَي مِنْ تَحْتِ أَمْرِي وَسُلْطَتِي، فَلَئِي أَرْضٌ وَمَاءٌ أَفَلَا تُبْصِرُونَ هَذَا الْمُلْكُ الْعَظِيمُ؟.

[٥٣] أَمْ تَبْصِرُونَ وَتَعْلَمُونَ أَنَّا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ يَرِيدُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالمَرَادُ بِالْمَهِينِ الذَّلِيلَ الْحَقِيرَ، مِنْ هَانَ بِمَعْنَى ذَلِّ وَسَهْلِ أَمْرِهِ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ أَي لَا يَكَادُ يَفْصَحُ بِكَلَامِهِ، فَقَدْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ يَعْقِدُ لِسَانَهُ إِذَا أَرَادَ الْكَلَامَ، وَلِذَا قَالَ فِي دَعَائِهِ «وَإِخْلُلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي» وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ فَكَانَ فَصِيحًا، لَكِنْ فِرْعَوْنُ اسْتَغْلَجَ جَهْلَ النَّاسِ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ عَاهَدُوا قَبْلَ النُّبُوَّةِ غَيْرَ مَفْصُحٍ، وَلِذَا خَدَعَهُمْ بِأَنَّهُ بَعْدَ بَاقٍ عَلَى حَالَتِهِ السَّابِقَةِ.

[٥٤] فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَيُّ عَلَى مُوسَى أَسْوِرَةٌ جَمَعَ سِوَارًا وَهُوَ الْحَلِيَّةُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٤ الى ٥٦]

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦)

التي تلبس في اليد بين المرفق و الزند من ذهبٍ أى إن كان صادقاً فلما ذا لا يلقي عليه ربه مقداراً من الذهب يثرى و يغنى أو جاء معه الملائكة مُقْتَرِنِينَ أى متتابعين يعينونه على أمره؟ و إذ لا ذهب يبقى و لا ملائكة معه فهو كاذب، و أى ربط بين النبوة و إلقاء الأسورة؟ أم أى حاجة إلى نزول الملائكة بعد تلك الآيات؟ و إنما أراد فرعون خداع الجماهير بهذه التلفيقات الباطلة.

[٥٥] فَاسْتَخَفَّ فرعون قَوْمَهُ بأن حسبهم خفيفى العقول يتمكن من إنهاضهم لنصره بمجرد خطاب و مغالطة، كما هى عادة الطغاة دائماً أمام الجماهير فَاطَاعُوهُ فيما دعاهم إليه من رفض الإسلام و اتباع موسى، و البقاء على الكفر و العصيان إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ أى خارجين عن طاعة الله تعالى، و لذا اتبعوا فرعون.

[٥٦] فَلَمَّا آسَفُونَا أى أغضبونا ببقائهم فى الكفر و العناد، و الله سبحانه لا يغضب - كما يغضب الإنسان - بل المراد وصلوا فى كفرهم و عصيانهم إلى حد من شأنه أن يغضب انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ جزاء كفرهم و إثمهم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فى البحر أَجْمَعِينَ و لم يبق واحدا منهم سالماً. [٥٧] فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا أى متقدمين إلى النار و على سائر الكفار وَمَثَلًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢

[سورة الزخرف (٤٣): آية ٥٧]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧)

أى عبرة و موعظة يمثل بهم لأجل العظة و التذكير لِلْآخِرِينَ الذين يجيئون بعدهم.

[٥٨] و بمناسبة الحديث عن قصة موسى عليه السلام يقدم على ذلك مقدمه

و هى ما ذكره بعض المفسرين من أنه لما نزل قوله تعالى إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ «١» فرح بعض المشركين بأنهم وجدوا مأخذاً على الرسول، فجاء ابن الزبيرى و هو القائل:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء و لا وحى نزل و قال للرسول ألم يعبد المسيح و عزيز و الملائكة؟ فقال الرسول بلى قد عبدوا، فقال:

فكيف يكون هؤلاء «حصب جهنم» كما ذكرت و أنت تشنى عليهم؟ و إذا جعلتهم من أهل النار فنحن نرضى بأن نكون كالمسيح،

فقال له النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ويلك! ما أجهلك بلسان قومك؟ «ما» لما لا يعقل، فأقحم ابن الزبيرى و ارتد خائباً

، و فى قول آخر إن الرسول انتظر الوحى، فنزل إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ «٢» و قد أراد الله سبحانه من

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ «٣» الأصنام، لأن الخطاب موجه إلى المشركين، فكان قولهم للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مغالطة و جدلاً، و

لذا أوضحت الآية ذلك، و هناك روايات أخرى لا يهمنى التعرض لها وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا أى لما ضرب ابن الزبيرى المثل

بعيسى و أراد أن يجعله مثلاً لقوله «و ما

(١) الأنبياء: ٩٩.

(٢) الأنبياء: ١٠٢.

(٣) الأنبياء: ٩٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جِدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلاَّ عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ

(٥٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠)

تعبدون» إذا قَوْمِيكَ يا رسول الله، و المراد بهم الكفار منه أى من هذا المثل يَصِدُّونَ أى يضجون ضجيج المجادلة، لظنهم أنهم غلبوك و أبطلوا أمرك.

[٥٩] وَقَالُوا فِي جَدَالِهِمْ مَعَكَ أَلْهَيْتُنَا خَيْرٌ مِنْ عِيسَى أَمْ هُوَ خَيْرٌ؟

فإذا كان عيسى فى النار- كما تقول أنت يا محمد- فلتكن آلهتنا فى النار أيضا، فإننا راضون بمقام عيسى ما ضربوه أى لم يضرب هذا المثل ابن الزبعرى لكك يا رسول الله إلا جِدَلًا فهم يريدون الجدل لا الحقيقة، كسائر المعاندين بل هُمْ قَوْمٌ خَصَمُونَ أى يريدون الخصومة و الجدل لدفع الحق بالباطل.

[٦٠] ثم يأتى السياق لبيان حال عيسى، بقول وسط بين إفراط النصارى و تفريط اليهود إن هُوَ أى ما عيسى إلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بالنبوة، فليس إلهًا، و لا لغير رشده كاذبا وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أى مثلا للدين و الفضيلة، فإن القدوة يكون مثلا به، ألا ترى أنك تمثل للرسالة بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم، و للزهد بالمقدس الأردبيلى، و بالشقاوة ببن ملجم فإن الفرد الكامل فى صفته يجعل مثلا، و إنما كان مثلا لبني إسرائيل لأنه عليه السلام بعث فيهم.

[٦١] وَ لَوْ نَشَاءُ أَيُّهَا النَّاسُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ أَى بدلا منكم معاشر بني آدم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦١ إلى ٦٢]

وَ إِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلشَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢)

مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ فَإِنْ إِيَّاهُمْ كَم وَ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ مَكَانَكُمْ يَخْلُقُونَ وَ يَكُونُونَ خَلْفَكُمْ فِي الْأَرْضِ، أمر يسير علينا، فلا يظن الكفار أن الله غير قادر على إفنائهم أو أنه لا يجد أفضل منهم، و لذا يبقوهم.

[٦٢] وَ إِنَّهُ أَى أن عيسى ابن مريم عليه السلام لَعَلَّمَ لِلشَّاعَةِ أى علامته لقرب القيامة، فقد ورد فى عدة أحاديث إن عيسى عليه السلام ينزل من السماء عند ظهور الحجة عليه السلام و يصلى به و كونه موجبا للعلم باقتراب الساعة ليس معناه أنه عليه السلام ينزل قرب الساعة حقيقة، بل هو من قبيل كون رسولنا صلى الله عليه و آله و سلم من علائم الساعة، و يحتمل أن يرجع ضمير «إنه» إلى نزول الملائكة، أى أن النزول وقت قيامه القيامة كما قال سبحانه وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا «١» وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا «٢» و الآية بعد- عندى- من المتشابهات، كما أنه لم يظهر لى الربط التام بين آية (٦٠) و ما قبلها و الله العالم فلا تَمْتَرْنَ بِهَا لا تشكون فى الساعة، فإنها آتية لا محالة وَ اتَّبِعُونِ فيما أمر و أنهى، و حذف «ياء» المتكلم للتخفيف هذا أى اتباعى و سلوكك دينى صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ موصل إلى السعادة الأبدية بأقصر خط و أسهل سلوك.

[٦٣] وَ لَا يَصُدَّنَّكُمْ أَى لا يصرفنكم الشيطان بوساوسه عن طريق

(١) الحاقفة: ١٨.

(٢) الفرقان: ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦٣ إلى ٦٤]

وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)

الله، و صراطه المستقيم إِنَّهُ أَى الشيطان لَكُمْ أيها البشر عَدُوٌّ مُبِينٌ ظاهر العداوة.

[٦٤] وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى إِلَى الْيَهُودِ بِالْبَيِّنَاتِ أَى الأدلة الخارقة الواضحة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص قَالَ لَهُمْ قَدْ جِئْتُكُمْ مرسلا إليكم بِالْحِكْمَةِ أَى بالنبوة التى هى عرفان الشريعة و سائر الأمور المرتبطة بدين الناس و دنياهم، فإن الرسول وحده يعلم موضع كل شىء و يتمكن من وضع كل شىء موضعه، و قد سبق أن الحكمة عبارة عن وضع كل شىء فى موضعه اللائق به و لأببين لكم بَعْضَ الَّذِي تَحْتَلِفُونَ فِيهِ فقد اختلف اليهود فى كثير من شريعة موسى عليه السلام فجاء عيسى مبينا لهم الحق فى بعض تلك الاختلافات، و إنما قال «بعض» لأن كل الاختلافات الجزئية لا- يسهل إعلام أهلها بالحق فيها و هذا يظهر إذا قاس الإنسان ذلك بالاختلافات فى ذات نفسه، فإن الخطوط العامة للاختلافات يمكن بسهولة بيان الحق فيها أما الاختلافات بين كل فردين منتشرين هنا و هناك فى بعض الأمور الدينية، فلا يسهل استيعابها، و لا يهم الداعى و المرشد بيان الحق فيها فَأَتَقُوا اللَّهَ أَيها اليهود، و خافوا عقابه فى العصيان و أَطِيعُونِ فيما أمركم و أنهاكم، و حذف «الياء» للتخفيف و التنسيق.

[٦٥] إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي فَلَسْتُ إِلَهَا وَ رَبُّكُمْ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فقد كانت الوثنية تتحكم فى بعض طوائف اليهود فَأَعْبُدُوهُ وحده لا شريك له تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٦

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦٥ الى ٦٦]

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) هذا الذى ذكرته من لزوم توحيد الله، و اتقائه و إطاعة رسله صراطاً مُسْتَقِيمًا يوصلكم إلى السعادة الأبدية، بلا انحراف أو تحوير.

[٦٦] و هل بقيت أمه عيسى على صفاء التوحيد كما أمر عيسى، و صرح به فى كلامه؟ و هل بقوا أوفياء فيما حملهم من الشريعة؟ كلا! فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ أَى الفئات التى اتبعت عيسى عليه السلام مِنْ بَيْنِهِمْ أَى من بين أولئك الذين أرشدهم عيسى و هداهم، فهناك من بقى يهوديا، و من انحرف عن التوحيد فقال إن عيسى ثالث ثلاثة، و من أدخل فى الشريعة ما ليس منها أو أنقص منها، و من حرّف الإنجيل كما شاء إلى غيرهم من الأحزاب المختلفة فَوَيْلٌ كلمة تقال لبيان سوء الحال للذين ظَلَمُوا بالكفر و العصيان من هؤلاء مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ أَى عذب يوم القيامة، المؤلم الموجه.

[٦٧] و إذ تقدم الكلام حول التوحيد، و حول الرسالة، يأتي السياق لبيان نتف حول المعاد- كما هى القاعدة فى بيان الأحوال الثلاثة، فى القرآن الحكيم- هَلْ يَنْظُرُونَ أَى هل ينتظر هؤلاء الكفار إِلَّا السَّاعَةَ؟ بمعنى ماذا ينتظرون بعد قيام الحجّة عليهم، إلا أن تقوم عليهم القيامة، فيعذبون بكفرهم؟ و هذا تهديد لهم، كما تقول لمن أمرته فعصى: هل تنتظر إلا العقوبة؟ يعنى أنك بعصيانك يكون حالك كحال من ينتظر العقاب، و إلا فلما ذا تعصى؟، و الإتيان بلفظ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٧

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٦٧ الى ٦٩]

الْأَخِلَاءِ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩)

«ينظرون» لنكته هى أن المنتظر يأخذ فى النظر إلى المحل المترقب، إذا قرب وقت المجيء، فكأن كل شىء تم بالنسبة إلى هؤلاء الكفار، و قد قرب وقت العذاب، فهم ينظرون إلى محلّه متى يأتيهم أن تأتيهم بَغْتَةً أَى فجأة بلا سابق إنذار وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ وقت مجيئه حتى يتوبوا و يستعدوا له.

[٦٨] الْمَأْخِلَاءُ جمع خليل، و هو الصديق، يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ لما يرى كل واحد منهم من العذاب لأجل تلك المصادفة إِلَّا الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا و اتقوا الكفر و المعاصى، فإنهم لا يتعادون هناك، إذ لم يترتب على صداقتهم عذاب أو نكال، بل بالعكس من ذلك فإن التصديق فى الله يوجب الثواب و الأجر.

[٦٩] و يخاطب الله المتقين فى ذلك بقوله يَا عِبَادِ جمع عبد، و حذف الياء للتخفيف لا- خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ من العقاب وَ لَا أَنْتُمْ

تَحْزَنُونَ لِقَوَاتِ الثَّوَابِ مِنْ أَيْدِيكُمْ.

[٧٠] ثم وصف العباد، ليعلم من هم؟ بقوله الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا يَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ بَيَاتِنًا أَى بِحُجُجِنَا وَأَدَلَّتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ لِأَوَامِرِنَا، بِأَن صَحَّتْ عَقِيدَتُهُمْ، وَحَسُنَ عَمَلُهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٨

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧٠ الى ٧٣]

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَزُوجُكُمْ تُخْبِرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)

[٧١] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَزُوجُكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ تُخْبِرُونَ أَى تَسْرُونَ فِيهَا سُرُورًا يَظْهَرُ عَلَى وَجْهِكُمْ أَثْرُهُ، فَإِنَّ الْحُبُورَ هُوَ السُّرُورُ الَّذِي يَظْهَرُ أَثْرُهُ فِي الْوَجْهِ.

[٧٢] يُطَافُ عَلَيْهِمْ أَى يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوَالِدَانُ الْمُخْلَدُونَ وَمَعْنَى الطُّوْفِ أَنْ يَدُورَ فِيهِمْ لِإِسْقَائِهِمْ وَإِطْعَامِهِمْ، كَمَا يَدُورُ السَّاقِي بِصِحَافٍ جَمَعَ صَحْفَةً وَهِيَ الْجَامُ الَّذِي يُؤْكَلُ فِيهِ الطَّعَامُ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا أَنْوَاعُ الْأَطْعَمَةِ وَأَكْوَابٍ جَمَعَ كُوبٍ وَهُوَ ظَرْفٌ يَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ وَفِيهَا أَى فِي الْجَنَّةِ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلذَّاتِ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ بِأَقْوَانِ أَبَدِ الْآبِدِينَ بِلَا زَوَالٍ أَوْ تَنْقَلٍ.

[٧٣] وَتِلْكَ الَّتِي وَصَفْنَاهَا هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَى انْتَقَلَتْ إِلَيْكُمْ، كَالْإِثْرِ الَّذِي يَنْقَلُ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَإِنَّمَا أُورِثُوا الْجَنَّةَ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا كَلَامٌ يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ لَهُمْ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ «تِلْكَ» لِلْبَعِيدِ دُونَ «هَذِهِ» تَنْزِيلًا لِلرَّفِيعِ مَنزَلَةً، الْبَعِيدَ حَسًّا- كَمَا قَالُوا: فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ-

[٧٤] لَكُمْ فِيهَا الْمَتَّقُونَ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا أَى فِي الْجَنَّةِ فَاكِهَةٌ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٩

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧٤ الى ٧٨]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) ثَمْرَةٌ كَثِيرَةٌ بِلَا انْقِطَاعٍ أَوْ قَلِيلَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ لِأَنَّهَا لِكثرتها لَا تُؤْكَلُ كُلُّهَا، وَإِنَّمَا يُؤْكَلُ «مِنْهَا» أَى بَعْضُهَا.

[٧٥] وَفِي مَقَابِلِ هَؤُلَاءِ، الْكُفَّارِ وَالْعِصَاةِ الَّذِينَ أُجْرِمُوا فِي الْحَيَاةِ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ وَهَذَا لِمَنْ عَانَدَ الْحَقَّ، وَأَمَّا الْعَاصِي الَّذِي تَدْرِكُهُ الشَّفَاعَةُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ لَا كَالْمُعَانِدِ الَّذِي يَنْتَهَى أَمْرُهُ.

[٧٦] لَا- يُفْتَرُ مِنَ الْفُتُورِ، بِمَعْنَى التَّخْفِيفِ، لَا- يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَهُمْ فِيهِ أَى فِي الْعَذَابِ مُبْلِسُونَ أَى آيسُونَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ، إِذِ الرَّاجِي لَهُ رَاحَةُ الْقَلْبِ- نَوْعًا مَا- بَيْنَمَا أَنَّ الْآيسَ مُنْقَطِعٌ، لَا يَرَى إِلَّا دَوَامَ الْعَذَابِ، مِمَّا يَزِيدُهُ أَلْمًا وَحُزْنًا.

[٧٧] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِتَعْذِيبِهِمْ فِي النَّارِ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لِأَنفُسِهِمْ حَيْثُ عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا مَا اسْتَحَقُّوا بِهِ الْعِقَابَ.

[٧٨] وَنَادَوْا أَى أَهْلُ النَّارِ يَا مَالِكُ وَهُوَ خَازِنُ جَهَنَّمَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ أَى اسْأَلْ رَبَّكَ أَنْ يَمِيتَنَا نَتَخَلَّصَ وَنَسْتَرِيحَ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ قَالَ مَالِكُ فِي جَوَابِهِمْ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ أَى بِأَقْوَانِ فِي النَّارِ فَلَا مَوْتَ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا.

[٧٩] ثُمَّ يَذْكُرُهُمْ سُبْحَانَهُ- فِي الدُّنْيَا- بِأَنَّهُ أَرْشَدَهُمْ وَلَكِنْ لَمْ يَقْبَلُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٠

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٧٩ الى ٨١]

أَمْ أَبْرَأُوا أَفْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا

أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)

لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ أَي أُرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مَا هُوَ حَقٌّ مِنْ أَمْرِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ وَالشَّرَائِعِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ مَعَاشِرَ النَّاسِ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ لِمَا أَلْفَمْتُمْ مِنَ الْبَاطِلِ فَصَعِبَ عَلَيْكُمْ مَفَارِقَتَهُ إِلَى الْعَمَلِ بِالْحَقِّ وَ اتِّبَاعِهِ.

[٨٠] أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا؟ أَي بَلْ إِنْ هُوَ لَأَعْوَضُ عَنْ اتِّبَاعِهِمْ لِلْحَقِّ جَعَلُوا يَحْيِيكَونَ الْمُؤَامِرَاتِ ضِدَّ الْحَقِّ، مِنْ الْإِبْرَامِ، وَ هُوَ الْإِحْكَامُ فِي الْعَمَلِ، وَ الْقَتْلُ فَإِنَّا مُبْرَمُونَ أَي إِنَّا مُحْكَمُونَ أَمْرَنَا فِي إِعْلَاءِ كَلِمَتِنَا وَ مَجَازَاتِ هَؤُلَاءِ.

[٨١] أَمْ يَحْسَبُونَ أَي بَلْ يَظُنُّ هَؤُلَاءِ - حِينَ يَدْبُرُونَ الْمَكْرَ وَ الْمُؤَامِرَةَ - أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ مَا يَضْمُرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَتَنَاجَى بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ بَلَى نَسْمَعُ السِّرَّ وَ النَّجْوَى، وَ إِطْلَاقُ السَّمَاعِ عَلَى السِّرِّ - الْمَضْمَرُ فِي الْقَلْبِ - بِاعْتِبَارِ الْجَوَارِ لِلنَّجْوَى، وَ إِلَّا فَالسِّرُّ يَعْلَمُ، لَا أَنَّهُ يَسْمَعُ وَ رُسُلُنَا أَي الْمَلَائِكَةُ الْحَفِظَةُ لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ مَا يَسْرُونَ وَ يَتَنَاجُونَ.

[٨٢] وَ لَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ بِمَخْتَلَفِ أَشْكَالِهِمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا، أَمَا الْمَسِيحُ أَوْ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ عَزِيزُ فِجَاءِ السِّيَاقِ لِنَفْيِ الْوَلَدِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤُلَاءِ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لَدَلِّكَ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ جِزءٌ مِنَ الْإِلَهِ، فَهُوَ إِلَهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَ إِنَّمَا قَالَ «أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» لِأَنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨١

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨٢ إلى ٨٤]

سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)

الرَّسُولِ حَيْثُ إِنَّهُ أَعْرَفَ النَّاسَ بِاللَّهِ وَ شَأُونَهُ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَكُونَ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ وَلَدِ اللَّهِ، لَا يَخْفَى أَنْ الْجُمْلَةَ الشَّرْطِيَّةَ لَا تَنَافَى اسْتِحَالَةَ الطَّرْفَيْنِ - كَمَا ذَكَرُوا -.

[٨٣] سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَي أَنْزَلَ اللَّهُ تَنْزِيهَا عَنْ هَذَا الْقَوْلِ، فَسُبْحَانَ مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مَقْدَرٍ أَي أَسْبَحَ سُبْحَانَ رَبِّ الْعَرْشِ جِيءَ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عَظَمَةِ مَقَامِهِ سُبْحَانَهُ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا عَمَّا يَصِفُونَ أَي يَصِفُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِهِ فَيَقُولُونَ «لَهُ وَلَدٌ».

[٨٤] فَذَرَهُمْ أَي دَعَاهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَخُوضُوا فِي بَاطِلِهِمْ، وَ أَصْلُ الْخَوْضِ هُوَ الْارْتِمَاسُ فِي الْمَاءِ، وَ يُسَمَّى الْمَحْدَثُ الَّذِي غَرِقَ فِي الْحَدِيثِ خَائِضًا - تَشْبِيهَا - وَ يَلْعَبُوا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ أَعْمَالَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ لَعِبٌ - إِذْ هِيَ مِثْلُهُ فِي عَدَمِ الْفَائِدَةِ وَ الْفَنَاءِ بِسُرْعَةٍ - حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ فِيهِ بَعْدَابُ الْأَبَدِ، وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ.

[٨٥] وَ هَيَّوْ وَ حُدَّهُ إِلَهُ الْكُونَ كُلَّهُ لَا - إِلَهُ سِوَاهُ وَلَدًا كَانَ أَوْ شَرِيكًا فَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ هُوَ إِلَهُ بِلَا - شَرِيكٍ وَ فِي الْأَرْضِ هُوَ إِلَهُ بِلَا شَرِيكٍ، وَ هُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ، بِمَعْنَى أَنْ كُلًّا مِنْ خَلْقِهِ وَ تَشْرِيْعِهِ حَسَبَ الْحِكْمَةِ وَ الصَّلَاحِ الْعَلِيمِ بِمُصَالِحِ عِبَادِهِ، وَ قَدْ سَبَقَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٢

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨٥ إلى ٨٦]

وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعِيَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)

أَنَّ الْعِلْمَ وَ الْحِكْمَةَ أَمْرَانِ فَرَبِّ عَالَمٍ غَيْرِ حَكِيمٍ وَ رَبِّ حَكِيمٍ غَيْرِ عَالِمٍ، إِذْ الْحِكْمَةُ مُلْكُهُ وَضَعُ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا وَ تَلْكَ تَجْتَمِعُ مَعَ الْعِلْمِ كَمَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجِدَ بَدُونَهُ.

[٨٦] وَ تَبَارَكَ أَي دَامَتْ بَرَكَتُهُ، وَ إِيمَانُهُ لِلْخَيْرَاتِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ مُلْكٍ وَ إِنْسَانٍ وَ هَوَاءٍ وَ غَيْرِهَا، فَلَا مَنَازِعَ لَهُ، وَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ لَا وَلَدٌ وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعِيَةِ فَهُوَ وَحْدَهُ يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِ الْقِيَامَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَي إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ تَرْجَعُونَ

أنتم أيها البشر بعد الموت.

[٨٧] فهو وحده إله مالك خالق، لا شأن للأصنام في خلق أو ملك، أما من يعبدها بزعم أنها تشفع له فهو في غلط و ذلك لأنه لا يملك الأصنام الذين يدعون هؤلاء الكفار لهم من دونه أي من دون الله - وإنما جاء الاستثناء لأنهم كانوا يدعون الله أيضا - الشفاعة وإنما جرى بضمير العاقل للأصنام لتنسيق الكلام بين الكفار وبين جوابهم فهم يعتبرون الأصنام عقلاء إلا من شهد بالحق وهم عيسى و عزيز و الملائكة، فإن الكفار كانوا يعبدونهم، و لهم الشفاعة في الآخرة، أنهم يشهدون بالحق، و أنهم ليسوا بالهة، وإنما أنبياء و ملائكة و هم يعلمون أنهم ليسوا بالهة، و هؤلاء لا يشفعون من جحد الحق و كفر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٣

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٨٧ إلى ٨٩]

وَلَيْن سَاءَ لَتُهُمْ مَن خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنى يُؤَفِّكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

به، فلا ينتظر الكفار شفاعة الآلهة التي يعبدونها، فأصنامهم لا تشفع إطلاقا، و الأنبياء و الملائكة يشفعون لغيرهم، لا لهم.

[٨٨] و من عجيب الأمر أنهم يعبدون غير الله، مع أنهم معترفون بأن الله وحده خالقهم و لئن ساءلتهم أى سألت هؤلاء الكفار - يا رسول الله - من خلقهم و أخرجهم من العدم إلى الوجود ليقولن في جوابك الله خلقنا فأنى يؤفكون أى إلى أين يصرفون بعد هذا الاعتراف؟ و المعنى فكيف ينصرفون من عبادة الله إلى عبادة الأصنام؟.

[٨٩] و لا يجد الرسول أمام عناد هؤلاء إلا أن يشكو ربه منهم و قيله أى قول الرسول يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون بعد أن بلغتهم و أذرتهم و قمت بواجب الإرشاد.

[٩٠] فَاصْفَحْ عَنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أى أعرض عنهم، فإن المعرض يعطى صفحة وجهه للطرف بعد ما كان مقبلا عليه بمقدم وجهه و قل لهم سلام أصله أن الذهاب يدعو لمن بقى بالسلامة، ثم استعمل فى كل معرض و مودة، تشبيها، و إن لم يكن قصده سلامتهم فسوف يعلمون فى الدنيا حين ضحك عيشهم، أو عند الموت، أو فى القيامة، بأنهم كانوا على خطأ، حين لم يقبلوا منك، و استمروا فى كفرهم و عنادهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٤

٤٤ سورة الدخان مكية / آياتها (٦٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الدخان» و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، بالنسبة إلى التوحيد و الرسالة و المعاد، و لما ختمت سورة الزخرف بالوعيد للكفار، ابتدأت هذه السورة - فى أوائلها - بالعذاب.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شروع باسم الإله الذى له كل شىء، و يملك كل أمر، فلا أحق منه بالابتداء و جعله شعارا، الرحمن الرحيم لعباده فى الدنيا، و يرحم المؤمنين خاصة فى الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٥

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) و الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)

[٢] حم «حاء» و «ميم» جنس هذا الكتاب المعجز الذى عجز الجن و الإنس أن يأتوا بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو رمز بين الله و بين الرسول، و هل ذلك تكرار لما سبق من مثل هذه اللفظة، أو لمدلولات مختلفة، و إن تماثلت الرموز؟ احتمالات، إلى غير

ذلك من الأقوال فى فواتح السور.

[٣] وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ أى قسما بهذا الكتاب- و هو القرآن- الظاهر، و قد مرّ أن الله سبحانه يحلف بمختلف صنوف خلقه، دلالة لعظمة كل خلق، و إن كان فى النظر أمرا هينا، نحو «و التين و الزيتون».

[٤] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ أى أنزلنا الكتاب الذى هو القرآن فى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ذات بركة و نماء، و المراد بها ليلة القدر، و محتمل ليلة القدر أربع، التاسع عشر و الواحدة و العشرين و الثالث و العشرين من شهر رمضان المبارك و ليلة النصف من شعبان، فقد نزل القرآن فى ليلة القدر- جملة واحدة- إلى البيت المعمور فى السماء، ثم نزل منجما إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، مبتدأ بالسابع و العشرين من رجب يوم مبعث الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حين نزلت سورة «اقرأ» إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ للكفار و العصاة، بأنهم إن استمروا على كفرهم و عصيانهم عوقبوا فى الآخرة بالعذاب و النار، و قوله «إنا...» هو المقسم به، لقوله «وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

[٥] فِيهَا أى فى الليلة المباركة يُفَرَّقُ أى يبين و يميز و يفصل كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أى كل أمر مقدر محكم مرتبط بهذا العالم، فإن التقديرات من العام إلى العام تجرى فى ليلة القدر من كل سنة، و قد ورد متواتر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٦

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٥ الى ٨]

أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٨)

الأحاديث أن الملائكة ينزلون بتقديرات العام، إلى الإمام الموجود بعد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم «١» فى دورنا هذا تنزل الملائكة فى ليلة القدر على الإمام المهدي عليه السلام بتقديرات كل إنسان و كل أمة من العام إلى العام.

[٦] نأمر بذلك أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا فإننا نصدر الأوامر بالتقديرات إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ للرسول إلى الأمم، و لذا أرسلنا محمدا صلى الله عليه و آله و سلم إلى هذه الأمة، و زودناه بالكتاب المبين الذى أنزل فى ليلة مباركة.

[٧] و إنما نرسل الرسل رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أى نرحم الناس رحمة بالإرسال، إذ الرسل يبينون للناس ما يصلحهم فى دنياهم و آخراهم إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ السَّمِيعُ لما يتكلم به الناس و لكل صوت الْعَلِيمُ بما يفعلون، فهو يعلم سر الناس و نجواهم، فليحذر الناس الذين أرسل إليهم أن يخالفوا الله سبحانه.

[٨] رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أى خالقها و مربيها و ما بَيْنَهُمَا من الإنسان و الملك و الجن و الأشجار و غيرها إِنْ كُنْتُمْ أيها الناس مُوقِنِينَ أى ذوى يقين و علم، لعلمتم بصحة هذا الخبر، و هذا فى قبال من لا- يبالى و لا يتبع الأمر ليقين، و الحاصل إن أردتم العلم برب الكون لعلمتم أن ربه هو الله.

[٩] لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وحده لا شريك له يُحْيِي الأموات، كما يحيى

(١) بحار الأنوار: ج ٩٤ ص ١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٧

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ١٢]

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)

الأرض و غيرها و يُمِيتُ الأحياء من إنسان و حيوان و نبات، و من ظن أنه يميت أحدا بواسطة القتل فقد اشتبهه، فإنه إنما يهيبى السبب كما يهيبى الزرع و الوالد سبب الزرع و الولد، أما الزرع و الولد فمن الله سبحانه، هو رَبُّكُمْ خالقكم و مربيكم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ

الذين سبقوكم، فهل يتمكن أحد أن يدعى أن المسيح أو الملائكة أو عزيز أو الأصنام خلقوه؟ كلا! [١٠] بَلْ هُمْ أَى هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ فِى شَكِّكَ مِنَ التَّوْحِيدِ يَلْعَبُونَ بِالشَّرِيعَةِ وَالدِّينِ، وَ الْمَرَادُ يَفْعَلُونَ فِعْلَ اللَّاعِبِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَرُونَ لِلدِّينِ قِيَمَةً وَ لَا يَدْرِكُونَ أَنَّهُ مَرْتَبَطٌ بِمَصِيرِهِمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ.

[١١] فَارْتَقِبْ أَى أَنْتَظِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ فَإِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَشْمَلَ الْعَالَمَ دُخَانٌ مَظْلَمٌ يَمَكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ إِنْ لَعَبُوا مَقَابِلَ هَذَا الْجَدِّ، وَ شَكُّوا مَقَابِلَ هَذَا الْأَمْرِ الْمُتَيَقِّنِ، فَدَعَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ، فِى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[١٢] يَغْشَى أَى يَحِيطُ ذَلِكَ الدُّخَانُ بِ النَّاسِ وَ هُوَ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الدِّينُ تَرُونَ وَ تَرْتَقِبُونَ عَذَابَ أَلِيمٍ مُؤَلَّمٍ وَ مَوْجِعٍ لِمَنْ كَفَرَ وَ عَصَى.

[١٣] وَ هُنَاكَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ أَى ارْفَعْ عَذَابَ الدُّخَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٨

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٣ الى ١٥]

أَنى لَهُمُ الذُّكْرَى وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) وَ سَائِرُ مَا يَتَرَقَّبُونَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِنَّا مُؤْمِنُونَ بِمَا أَرْسَلْتُ وَ بِمَنْ أَرْسَلْتُ.

[١٤] أَنى لَهُمُ الذُّكْرَى أَى كَيْفَ يَمَكُنُ أَنْ يَقْبَلَ هُنَاكَ - فِى الْقِيَامَةِ - تَذَكُّرُهُمْ وَ اعْتِرَافَهُمْ وَ إِيمَانَهُمْ؟ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ وَقْتُ كَانُوا فِى الدُّنْيَا قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ظَاهِرُ الصِّدْقِ، وَ الْمَرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[١٥] ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَ بِمَا يَقُولُ وَ قَالُوا فِى شَأْنِهِ مُعَلَّمٌ يَعْلَمُهُ الْقُرْآنُ بَعْضُ الْأَعْجَمِيِّينَ مَجْنُونٌ فَلَيْسَ نَبِيًّا بَلْ مَجْنُونٌ قَدْ عَلَّمَهُ بَعْضُ النَّاسِ هَذَا الْقُرْآنَ، فِيرُدُّهُ لَا - شَعُورِيًّا لِأَطْمَاعٍ وَ غَايَاتٍ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَفِيدُ هُنَاكَ إِيمَانَهُمْ وَ قَدْ فَاتَ أَوَانَ الْإِيمَانِ حِينَ كَانُوا فِى الدُّنْيَا.

[١٦] أَلَسْنَا ذَكَرْنَا أَحْوَالَ هَوْلَاءِ فِى الْآخِرَةِ؟ وَ أَلَمْ يَطْلُبُوا كَشْفَ الْعَذَابِ؟ فَإِنَّا نَمُهَلِّهِمْ فِى الدُّنْيَا قَلِيلًا، لَنَرَى مَاذَا يَصْنَعُونَ؟ وَ سَمَى كَشْفًا لِلْعَذَابِ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَعَذَّبُوا بَعْدَ، لِلتَّشَابُهِ لَفْظًا، كَقَوْلِهِ:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جنبه و قميصاً إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ الدُّخَانِ وَ غَيْرِهِ، وَ الْمَرَادُ بِالْكَشْفِ: عَدَمُ تَعْذِيبِكُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ قَلِيلًا فِى الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ مَا دُمْتُمْ فِى الدُّنْيَا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، فَكَيْفَ قَلْتُمْ: إِنَّا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٨٩

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٦ الى ١٨]

يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدَّوْا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِنى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨)

مؤمنون، وَ هَا نَحْنُ نَرَاكُمْ عَائِدُونَ فِى الْكُفْرِ؟ وَ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ أَسَالِيبِ الْإِلْتِفَاتِ الْمَذْكُورِ فِى عِلْمِ الْبَلَاغَةِ فَكَأَنَّهُ صَارَ مَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ مِنَ الدُّخَانِ، ثُمَّ طَلَبُوا فَأَجِيبُوا، وَ هَا هُمْ عَائِدُونَ إِلَى الْكُفْرِ، وَ مِنْ قَبِيلِهِ مَا يَحْكَى عَنْ بَعْضِ الزُّهَادِ - عَمَلًا - أَنَّهُ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى الْمَقَابِرِ، فَيَسْتَلْقَى فِى قَبْرِ كَأَنَّهُ مَيِّتٌ، ثُمَّ يَفْكَرُ بِالْمَحَاسِبِ وَ الْعَذَابِ وَ الْأَهْوَالِ، فَيَقُولُ «رَبِّ ارْجِعُونى» ثُمَّ يَجِيبُ - كَأَنَّهُ نِدَاءٌ يَأْتِيهِ مِنَ الْأَعْلَى - أَرْجِعْنَاكَ إِلَى الْحَيَاةِ، فَيَقُومُ وَ يَرْجِعُ أَهْلُهُ شَاكِرًا أَنْ اسْتَجِيبَ لَهُ، لِأَنَّهُ يَدْرِكُ مَا فَاتَ مِنْهُ.

[١٧] وَ لِيَتَذَكَّرَ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى أَصْلُ الْبَطْشِ الْأَخْذُ الشَّدِيدُ بِالْيَدِ لِلتَّعْذِيبِ، وَ الْمَرَادُ نَأْخُذُ النَّاسَ لِتَعْذِيبِهِمْ، وَ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى، هِىَ الْأَخْذُ فِى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّا مُنتَقِمُونَ نَنْتَقِمُ مِنْ كُلِّ كَافِرٍ وَ فَاسِقٍ، وَ «يَوْمٌ» مَنْصُوبٌ بِالْمَقْدَرِ، أَوْ بِ «مُنْتَقِمُونَ».

[١٨] وَ لَقَدْ فَتَنَّا أَى امْتَحَنَّا، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ بِمَعْنَى الْإِمْتِحَانِ قَبْلَهُمْ أَى قَبْلَ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ، فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يُطْلَقُ «قَوْمُ فُلَانٍ» أَوْ «آلُ فُلَانٍ» أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، وَ يَرَادُ بِهِ هُوَ وَ قَوْمُهُ وَ آلُهُ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ذُو كِرَامَةٍ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ

السلام.

[١٩] فقال لهم أن أدوا أى أعطوا، من الأداء، كما يقال «أد الأمانة» إِلَى عِبَادِ اللَّهِ أى أطلقوا سراح بنى إسرائيل الذين هم فى أسرهم، فقد كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٠

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ١٩ الى ٢٢]

وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُنُودٌ بَرِّيٌّ وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءِ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ (٢٢)

بنو إسرائيل معذبين فى سجون فرعون، و تحت اضطهاده، فقال له موسى أطلق سراحهم، و هذا كقوله فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ «١» إِنِّي لَكُمْ يَا آلَ فِرْعَوْنَ رَسُولٌ أَمِينٌ مؤتمن فيما أؤديه لا أخونكم و لا أخون الوحي، فما أقوله كله وحي بلا زيادة أو نقصان. [٢٠] وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ أى لا تتجبروا على الله بترك طاعته، فكأن الكافر و العاصى يرى نفسه فوق رتبة الله، و لذا لا يستعد أن يتبعه و يطيع أمره إِنِّي آتِيكُمْ يَا آلَ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أى حجة واضحة و دليل ظاهر و هى الأدلة التى أقامها على وجود الله و سائر صفاته و الخوارق التى كان مزودا بها.

[٢١] و لما دعاهم موسى عليه السلام توعدوه بالقتل و الرجم- كما هى عادة الطغاة أمام المصلحين- فقال لهم موسى وَإِنِّي عُنُودٌ أى استجرت و لذت بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ بِخَالِقِي وَ خَالِقِكُمْ أَنْ تَرْجُمُونَ أى ترجمونى بالحجارة، و حذف ياء المتكلم تخفيفا و تنسيقا.

[٢٢] وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي أى لم تصدقونى فيما جئتكم به فَاعْتَرِلُونِ أى اتركونى لى و لا على.

[٢٣] و لما رأى موسى أن القوم مصرّون على الكفر و الضلال فدعا رَبَّهُ

(١) الأعراف: ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩١

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَ اتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ (٢٥) أى ناجى ربه قائلًا يا رب أن هُوَ لَاءِ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ مصرّون على الاجرام لا ينفع فيهم البلاغ.

[٢٤] فاستجاب الله دعائه فى خلاصه من فرعون و قومه فأوحى إليه أسر يا موسى، و الإسراء هو السير ليلا بِعِبَادِي أى بنى إسرائيل لَيْلًا و إنما أمروا بالخروج لئلا يعلم فرعون بهم فيأخذهم عاجلا قبل الهروب و الفرار إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ أى أن فرعون سيتبعكم، و هذا إما تعليل قوله «ليلا» أو مقدمة لبيان غرق فرعون و بشرى لهم، أو حث لهم على الإسراع، حتى لا يدركهم الطلب.

[٢٥] وَ اتْرِكِ يَا مُوسَى الْبَحْرَ الَّذِي تَعْبُرُونَ مِنْهُ رَهْوًا أى ساكنا على حاله بعد أن خرجتم منه، بأن يبقى على حاله ذى طرق و جواد، حتى يطمع فرعون فى عبوره فيغرق. و ذلك لأن ضربه بالعصى بقصد إرجاعه إلى ما كان، كان بيد موسى، فأمره سبحانه أن لا يفعل ذلك إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ أى أن فرعون و قومه الذين يتبعونكم محكوم عليهم بالغرق جزاء لكفرهم و عصيانهم.

[٢٦] و سار موسى و اتبعه فرعون فى البحر بجنوده- كما فصل سابقا- فيأتى السياق- بعد ذلك- لبيان كيف أن غرقهم لم يؤثر شيئا لا فى الأرض و لا فى السماء كَمْ تَرَكَوا أى خلف فرعون و قومه، بعدهم مِنْ جَنَاتٍ جمع جنه و هى البستان، تسمى جنه لستر أرضها بالأشجار و النخيل وَ عُيُونٍ جارية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٢

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٢٦ الى ٢٩]

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)

[٢٧] وَزُرُوعٍ جمع زرع وهو ما لا ساق له كالحنطة والشعير ومقام كريم أى مجالس و منازل فاخرة، ذات كرامة و رفعة فى الأنظار.
[٢٨] وَنِعْمَةٍ بفتح النون، والغالب لغير العارف، أن يقرأها بكسر النون كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ متنعمين متلذذين، كما يتنعم آكل الفاكهة.
[٢٩] كَذَلِكَ أخرجناهم وأهلكناهم و بقيت دورهم و نعمهم بعدهم وَأَوْرَثْنَاهَا تلك النعم قَوْمًا آخِرِينَ هم بنوا إسرائيل، حيث رجعوا إلى مصر و صاروا فيها ملوكا و سادة.

[٣٠] فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ أى على آل فرعون السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ و هذا كناية عن أنه لم يتغير شىء فى الكون بهلاكهم، و قد ورد أن السماء و الأرض تبكيان لموت النبى و الإمام و العالم و المؤمن «١»، و بطبيعة الحال أن البكاء من جنسهما المناسب بهما، و إن كان يحتمل البكاء حقيقة- و ما ذلك على الله بعزير- و ما كَانُوا مُنْظَرِينَ أى لما حكم عليهم بالعذاب، لم يمهلوا حتى يتوبوا، فلا يظن الكافر أنه إذا جاء العذاب يتمكن من التوبة و الاستمهال ليصلح ما فات منه.

(١) هناك روايات حول بكاء السماء و الأرض على النبى و الإمام و المؤمن،
عن أبى عبد الله عليه السَّلام فى قوله تعالى: فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ قال لم تبك السماء على أحد منذ قتل يحيى بن زكريا عليه السَّلام حتى قتل الحسين عليه السَّلام فبكت عليه «كامل الزيارات: ص ٨٩»
و ،

ورد فى مجمع البيان: ج ٩ ص ١٠٩ عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بكاءهما على المؤمن. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٣

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٠ الى ٣٤]

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلْؤًا مُبِينٌ (٣٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤)
[٣١] وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُوسَى مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ عذاب فرعون الذى كان يهينهم و يذلهم، من قتل الأبناء و استحياء النساء.

[٣٢] مِنْ فِرْعَوْنَ الذى كان يأمر بتعذيبهم إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا أى متجبرا متكبرا مِنَ الْمُسْرِفِينَ يسرف و يتجاوز الحد فى الظلم و التعذيب.
[٣٣] وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ أى اخترنا بنى إسرائيل على عِلْمٍ أى على بصيرة منا باستحقاقهم، لا- اختيارا اعتباطيا عَلَى الْعَالَمِينَ أى عوالم زمانهم، فإنهم كانوا مختارين على سائر الكفار فى زمانهم، لأنهم كانوا مؤمنين، و غيرهم كانوا كفارا، و هذا كما يقول: الشريف الفلانى أكبر أشراف العالم، يريد أشراف زمانه لا كل شريف كان أو سيكون.

[٣٤] وَآتَيْنَاهُمْ أى أعطيناهم، و النسبة إليهم باعتبار إعطاء موسى عليه السَّلام، كما يقول الملك: أعطيت القبيلة الفلانية كذا و كذا، فيما إذا أعطى رئيسها مِنَ الْآيَاتِ الخارقة ما فِيهِ بَلْؤًا مُبِينٌ أى امتحان ظاهر، حتى يكون المؤمن على بصيرة، و الكافر عن عاد يستحق العقاب الأليم، و هى مثل العصا و اليد و فلق البحر، و تضليل الغمام، و المن و السلوى و غيرها.

[٣٥] و بعد التكلم عن التوحيد و الرسالة- فى بعض جوانبها- يأتى السياق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٤

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٥ الى ٣٧]

إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ

إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)

لذكر المعاد إن هؤلاء الكفار المعاصرون لك يا رسول الله ليقولون منكرين للمعاد.

[٣٦] إن هي أي ما العاقبة و نهاية الأمر إلا موتتنا الأولى التي تزيل حياتنا و ما نحن بمنشرين أي بمبعوثين، فليس للإنسان موتان و حياتان، كما تقولون أنتم أيها المؤمنون، و إنما قالوا «الأولى» مع أنهم لا يعتقدون بموته أخرى، لتوحيد السياق مع كلام المؤمنين الذين كانوا يحاجوهم.

[٣٧] فأتوا أيها المؤمنون المدعون للبعث بآبائنا الذين ماتوا من قبلنا إن كنتم صادقين في مقالكم أن الإنسان يبعث بعد الموت، و لكن كلامهم تافه إلى أبعد الحدود، إن المؤمنين لم يدعوا أنهم يعيدون الأموات و إنما ادعوا إعادة الله لهم عند القيامة، فأى ربط بين الكلامين؟ و لذا لم يأت السياق لجوابه، فإن جواب المعاند السكوت.

[٣٨] أ هم خيبر أي هل هؤلاء الكفار خير من حيث كثرة الأموال و الجيوش و القوة أم قوم تبع و قد كان تبع ملكا مؤمنا، و قومه كافرين، و كانوا كثيرى الأموال و القوى و الذين من قبلهم كعاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم؟ و الجواب مقدر، أى أن أولئك كانوا خيرا من هؤلاء، و مع ذلك أهلكناهم لما كفروا بالله و عصوا رسله ل إنهم كانوا مجرمين و هذا تهديد لهؤلاء بأن مصيرهم مصير أولئك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٥

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٨ إلى ٤١]

و ما خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما ليعين (٣٨) ما خلقناهما إلا بالحق و لكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩) إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين (٤٠) يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا و لا هم ينصرون (٤١)

إن تمادوا في الكفر و الطغيان.

[٣٩] و ما خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما من صنوف الخلق ليعين أى بلا غرض و غاية كما يفعل اللاعب، حتى نترك هؤلاء يلعبون، كما سبق بل هم في شك يلعبون (١).

[٤٠] ما خلقناهما إلا بالحق لأجل غاية هي إطاعة البشر، كما

قال تعالى في الحديث «خلقت الخلق لأجلك و خلقتك لأجلي»

و في القرآن الحكيم و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون (٢) و لكن أكثرهم أى أكثر الناس و هم الكفار لا- يعلمون أن الخلق بالحق، بل يظنون أنه صدفة فلا غاية و لا غرض، و لكل امرئ ما يشاء أن يعمل.

[٤١] و إذا كان الخلق بالحق، قرر هناك يوم للحساب و الجزاء- كما أن لأجل ذلك أيضا نزلت الكتب و شرعت الشرائع- إن يوم الفصل و هو يوم القيامة الذى يفصل فيه بين المحق و المبطل، و بين أهل الجنة و أهل النار ميقاتهم أى وقت حساب الناس أجمعين بلا تخلف أحد منهم عن ذلك الموعد.

[٤٢] ثم وصف ذلك اليوم بأنه يوم عجب لا يفيد فيه إلا رحم الله سبحانه التابع للإيمان و العمل الصالح يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا

(١) الدخان: ١٠.

(٢) الذاريات: ٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٦

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٤٢ إلى ٤٧]

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧)

المراد بالمولى هنا الصاحب، سمي به لأنه يتولى شؤون صاحبه أى لا ينفع صاحب لصاحبه، أصلا ولا هم أى الناس يُنصِرُونَ بأن ينصرهم أحد لإنقاذهم من عذاب الله، فيما استحقوا العذاب.

[٤٣] إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ أى تفضل عليه سبحانه بغفران ذنبه، وإدراكه الشفاعة، بعد أن كان قابلا لذلك، بالإيمان الصحيح إنه سبحانه هُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ فلا يرد بأسه عن أحد استحققه الرَّحِيمُ بِالْمُؤْمِنِينَ.

[٤٤] ثم بين سبحانه مقام كل من الفريقين هناك، فقال إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ وهى شجرة تعطى ثمارا بشعة مرة.

[٤٥] طَعَامُ الْأَثِيمِ أى من كثرت آثامه ومعاصيه، فإن «أثيم» فعيل من «الإثم».

[٤٦] كَالْمُهْلِ وَهُوَ النِّحَاسُ الْمَذَابُ - أو ما أشبه يَغْلِي فِي الْبُطُونِ أى إذا أكله الأثيم غلى وفار فى بطنه من شدة الحرارة.

[٤٧] كَغَلِي الْحَمِيمِ أى مثل غلى الماء الحار الشديد الحرارة.

[٤٨] ثم يقال للزبانية الموكلين بالنار خُذُوهُ أى خذوا هذا الأثيم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٧

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٤٨ الى ٥١]

ثُمَّ صُيُّبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١)

فَاعْتَلُوهُ يُقَالُ «عَتَلَهُ» إِذَا دَفَعَهُ بِشِدَّةٍ وَعَنْفٍ، أَيْ فَادْفَعُوهُ مِنْ أَطْرَافِ النَّارِ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ أَيْ فِي وَسْطِ النَّارِ، حَيْثُ الْعَذَابُ وَالْأَلَمُ أَكْثَرُ، وَسُمِّيَ وَسْطُ الشَّيْءِ سَوَاءً، لِاسْتَوَاءِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَطْرَافِهِ الْمَحِيطَةِ بِهِ.

[٤٩] ثُمَّ صُيُّبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ لِلتَّعْذِيبِ وَالْإِهَانَةِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ أَيْ الْمَاءِ الْحَارِّ الشَّدِيدِ الْحَرَارَةِ، فَهُوَ فِي وَسْطِ النَّارِ، وَفِي بَطْنِهِ زُقُومٌ يَغْلِي، وَ عَلَى رَأْسِهِ يَصْبُ الْمَاءُ الْحَارُّ.

[٥٠] وَيُقَالُ لَهُ لِإِذْلَالِهِ فِي مَقَابِلِ كِبْرِيَائِهِ فِي الدُّنْيَا ذُقْ هَذَا الْعَذَابِ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ فَإِنَّ الْكُفَّارَ يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا، بِلِسَانِ حَالِهِمْ، أَوْ لِفِظًا، إِنَّا أَعْزَاءُ كَرَمَاءُ فَكَيْفَ نَتَّبِعُ الدِّينَ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ السَّخِرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، وَ

قَدْ وَرَدَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَا بَيْنَ جَبَلِيهَا أَعَزُّ وَلا أَكْرَمُ مِنِّي، فَتَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ.

[٥١] ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ وَالْجَزَاءَ مَا كُنْتُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ بِهِ تَمْتَرُونَ أَيْ تَشْكُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَذُوقُوا الْآنَ جَزَاءَ لَشَكْكُمْ وَإِصْرَارِكُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ.

[٥٢] وَ لِنَظَرٍ إِلَى مَقَامِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَرَعِينَ هُنَاكَ إِنَّ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ فِي دَارِ الدُّنْيَا فِي مَقَامٍ أَمِينٍ أَيْ فِي مَحَلِّ مَأْمُونٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٨

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٥٢ الى ٥٦]

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)

من العذاب والآلام.

[٥٣] فِي جَنَّاتٍ أَيْ بَسَاتِينَ وَعُيُونٍ أَيْ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِيُونٍ صَافِيَةٍ، وَمَعْنَى «فِي» إِنَّهُمْ فِي مَحَلِّ فِيهِ «عِيُونٌ» وَ «أَشْجَارٌ».

[٥٤] يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَهُوَ الْحَرِيرُ الرَّقِيقُ وَإِسْتَبْرَقٍ هُوَ الْحَرِيرُ الْخَشَنُ، وَ لِكُلِّ فَضْلٍ، فَالْأُولَى أَلَيْنَ مَسَا، وَ الثَّانِي أَكْثَرَ جَمَالًا - فِي

العين، في حال كونهم مُتَقَابِلِينَ يقابل بعضهم بعضا في مجالسهم، يتحدثون هناك، ولا تأخذهم وحشة الانفراد.

[٥٥] كَذَلِكَ حَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَزَوْجَانَهُمْ بِحُورٍ جَمِيعٍ «حوراء» وهي المرأة البيضاء الملائكية الجميلة عِينٍ جمع عِيناء، وهي من وسعت حدقتها، وذلك مما يزيد من جمال المرأة.

[٥٦] يَدْعُونَ فِيهَا أَي يَطْلُبُونَ فِي الْجَنَاتِ بِكُلِّ قِسْمٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَي الثَّمَرَةِ آمِنِينَ أَي فِي حَالِ كَوْنِهِمْ لَا يَخَافُونَ نَفَادَهَا أَوْ ضَرَرَهَا، أَوْ الْمَرَادِ مَطْلُوقِ الْأَمَانِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ لِأَهْمِيَّتِهِ.

[٥٧] لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ فَهْمُ خَالِدُونَ فِي ذَلِكَ النَّعِيمِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَقَدْ شَبِهَ الْمَوْتَ بِالْمَعْلُومَاتِ، وَلِذَا نَسَبَ إِلَيْهِ الذُّوقَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا، إِذِ الْمَوْتَةُ الْأُولَى إِنَّمَا هِيَ فِي دَارِ الدُّنْيَا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٩٩

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٥٧ إلى ٥٩]

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهٗ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

والمعنى أن هؤلاء لا يلاقون الموت إلا في الدنيا، أما في الآخرة فلا موت لهم، وقد سبق وجه الاستثناءات المنقطعة عموماً، وأن الكلام المتقدم يفرض خالياً عن القيد، وذلك لتكثير الفائدة، فتنحل الجملتان إلى ثلاث جمل وقاهم أي حفظهم الله سبحانه عذاب الجحيم فليس عدم موتهم من قبيل عدم موت أهل النار، الذي يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت «١».

[٥٨] فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ أَي يَنْفَضَّلُ سَبْحَانَهُ بِهَذِهِ النَّعْمِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَضْلًا، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا ذَلِكَ الْفَضْلُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أَي الْفَلَاحُ وَالظَّفَرُ بِالْمَطْلُوبِ الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ.

[٥٩] فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهٗ أَي سَهَّلْنَا الْقُرْآنَ بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ، يَا رَسُولَ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ مَا أَوْدَعُوا فِي فِطْرَتِهِمْ مِنَ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ لِيَفُوزُوا بِذَلِكَ الثَّوَابِ وَيَنْجُوا مِنْ تِلْكَ النَّارِ وَالْعِقَابِ.

[٦٠] فَارْتَقِبْ أَي انْتَظِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْوَعْدَ إِنَّهُمْ أَي الْكُفَّارَ مُرْتَقِبُونَ أَي مُنْتَظَرُونَ، فَإِنْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمِينَ يَنْتَظِرُ مَا يَحِلُّ بِالْخَصْمِ الْآخَرَ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، بِأَنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ تَرِيدُ تَهْدِيدَهُ، «انْتَظِرْ فَإِنِّي مُنْتَظَرٌ مَعَكَ» أَي سَتَرِي مَا يَحِلُّ بِكَ.

(١) إبراهيم: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٠

٤٥ سورة الجاثية مكية آياتها / (٣٨)

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ١٤٩

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «جاثية» وهي كباقي السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة بأصولها الثلاث ولما ختمت سورة الدخان بذكر القرآن، وإنه ميسر بلسان الرسول، افتتحت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين بالله في أمورنا كلها، فالظرف متعلق بـ «نستعين» على بعض الأقوال، فإن الإنسان يحتاج إلى العون في كل خطوة من خطى الحياة، واسم الله أحق شيء يستعان به، الرحمن الرحيم، الذي له الرحمة المكررة ولعل التكرار، لإفادة أنه يرحم، ثم يرحم، بخلاف سائر الناس الذين إذا وجدوا أن من رحموه ليس أهلاً قطعوا الرحمة منه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠١

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)

[٢] حم «حاء» و «ميم» و أشباههما من سائر حروف الهجاء هو مادة القرآن التي يتركب منها، و هي مادة لإلفاتكم معاصر العرب، فعدم إمكانكم الإتيان بمثله دليل قاطع على أنه تنزيل الله سبحانه، أو رمز بين الله و الرسول، أو غيرهما من الأقوال.

[٣] تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ أى أن إنزال هذا الكتاب و هو القرآن إنما هو من الله لا من غيره، كما كان المشركون يفترون بنسبه القرآن إلى الرسول أو بعض الأعجميين، أو الشيطان- حيث يقولون أنه كهانة- العزير في سلطانه فهو قادر على ما يشاء الحكيم يفعل الأشياء على وفق الصلاح فأنزل القرآن على طبق الصلاح و الحكمة.

[٤] إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ دَالَّةٌ عَلَى وجود الله و سائر صفاته لِلْمُؤْمِنِينَ الذين يؤمنون بالله و إنما خصهم مع أن الآيات أعم، لأنهم هم المنتفعون بها، و أما غيرهم فهم معرضون، كما قال سبحانه وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ «١».

[٥] وَ فِي خَلْقِكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ وَ مَا يَبُتُّ اللَّهُ أى ينشر من دابته بيان «ما» و هي كل حيوان، و إن كان الأصل فيها خاصا، بما يدب على وجه الأرض آيات أى دلالات دالة على وجود الله و علمه و قدرته

(١) يوسف: ١٠٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٢

[سورة الجاثية (٤٥): آية ٥]

وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى يريدون العلم و اليقين، فإن الفعل يستعمل بمعنى الإرادة، كما أن الإرادة تستعمل بمعنى الفعل، و خصت الآيات بهم، لأنهم هم المنتفعون بها، و إنما قال في الموضوعين «آيات» مما ظاهره وجود بعض الآيات، مع أن كل شىء آية، لأن المراد آيات عظام، و من المعلوم أن العظام من الآيات بعضها.

[٦] وَ فِي اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ بِمَجْئِءِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ بَدُونِ خَلَلٍ وَ اٰخْتِلَافِ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ إِمَّا الْمَرَادُ مَطْلُقَ الْأَرْزَاقِ وَ كَوْنُهَا مِنَ السَّمَاءِ، لأن تقديرها يكون هناك، أو المراد المطر الذى هو سبب الإنبات، و منه يأتى الرزق، و هذا هو الأقرب بالنسبة إلى ما يأتى- و إن أمكن الاستخدام- و تسمية الماء رزقا بعلاقة السبب و المسبب، مثل قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيانها و إن كانوا غضابا فأخيا به أى سبب ذلك الرزق الذى هو الماء الأراض بعيد موتها جمودها و اغبرارها، لا حراك فيها و لا نشاط و فى تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ بصرفها من هنا إلى هناك، شمالا و جنوبا، شرقا و غربا آيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ أى دلالات لأهل العقل، أما غيرهم فإنهم يعملون عقولهم حتى يدركوا هذه الآيات الدالة على وجود الله و قدرته و سائر صفاته.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٣

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٦ الى ٨]

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزَلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بَعْدَ بِلِيمِ (٨)

[٧] تِلْكَ التى تقدمت آيات الله أى دلالاته التى نصبها برهاننا على وجوده و سائر صفاته تَنْزَلُهَا أى نقرأها، و المراد الإيحاء بها، و تلاوة الملك للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ فليس ذلك بالباطل فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَ حَدِيثِ اللَّهِ الذى

هو القرآن و آياته الدالة على وجوده و سائر صفاته يُؤْمِنُونَ أى أنهم إن لم يؤمنوا بآيات الله الكونية و الشرعية، فبماذا يؤمنون؟ و المعنى أنه ليس شىء بهذا الوضوح و الجلاء، فإن كان الإنسان يؤمن بشىء، كان اللازم أن يؤمن بالله و آياته.

[٨] وَيَلُّ كَلِمَةً تَقَالُ عِنْدَ إِرَادَةِ بَيَانِ سُوءِ الْحَالِ لِكُلِّ أَفَّاكٍ صَیْغَةً مَبَالِغَةً، بِمَعْنَى كَثِيرِ الْإِفْكَ أَى الْكُذْبِ أَثِيمٍ أَى كَثِيرِ الْعَصِيَانِ، وَ هُوَ الَّذِي يَكْذِبُ بِكُلِّ شَىءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَ الْقُرْآنَ.

[٩] ثم يبين المراد من الأفاك الأثيم بقوله تعالى يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ أَى آيَاتِ الْقُرْآنِ تُتْلَى عَلَيْهِ وَ تَقْرَأُ عِنْدَهُ بِقَصْدِ هِدَايَتِهِ وَ إِرْشَادِهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا أَى يَقِيمُ عَلَى كُفْرِهِ وَ تَكْبَرِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَ الْإِتْيَانِ ب «ثم» لبيان استبعاد الإصرار بعد سماع الآيات فقد كان الكبير بعيدا بعد تلاوة الآيات كأن لم يَسْمَعْهَا أَى لم يسمع الآيات إذ لم يقبلها و بقى على ما كان سابقا فَبَشَّرَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مؤلم موجه، و الإتيان بلفظ البشرى للاستهزاء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٤

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٩ الى ١٢]

وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أَوْلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُعْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

[١٠] وَ إِذَا عَلِمَ ذَلِكَ الْأَفَّاكُ مِنْ آيَاتِنَا أَى أَدَلَّتْنَا وَ حَجَجْنَا الدَّالَّةَ عَلَى وَجُودِنَا وَ سَائِرِ صِفَاتِنَا شَيْئًا أَى بَعْضًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أَى يَسْتَهْزِئُ بِهَا، كَأَنَّ الْآيَةَ آلَةٌ سَخِرِيَّةٌ لَهُ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ تَلَكَّ صِفَاتِهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ يَهِينُهُمْ وَ يَذَلُّهُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْأَلَمِ الَّذِي فِيهِ.

[١١] مِنْ وَرَائِهِمْ أَى عَقِبَ هَؤُلَاءِ، فِي الْآخِرَةِ جَهَنَّمُ الَّتِي هِيَ مَقْرَهُمْ وَ لَا يُعْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا أَى لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، كَكَسْبِهِمْ لِلْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ الْجَاهِ، شَيْئًا، بَأَنَّ يَخْفَفُ عَنْهُمْ بَعْضَ الْعَذَابِ وَ لَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ أَى لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ بَعْضَ الْعَذَابِ آلِهَتِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي النَّارِ.

[١٢] هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ، وَ الْآيَاتِ الَّتِي أَوْضَحْنَا هُدًى يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ أَى أَدَلَّتْهُ الَّتِي أَقَامَهَا عَلَى تَوْحِيدِهِ وَ سَائِرِ صِفَاتِهِ، بَعْدَ مَجِيءِ الْهَدَايَةِ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ وَ هُوَ أَشَدُّ الْعَذَابِ أَى مِنْ هَذَا الْقِسْمِ مِنْهُ أَلِيمٌ مُؤَلَّمٌ مَوْجَعٌ.

[١٣] ثم أخذ السياق فى وصف بعض آيات الله سبحانه الله الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ أَى ذَلَّلَهُ لَكُمْ لِيَصْلَحَ لِرُكُوبِكُمْ عَلَيْهِ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٥

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

السفن فيه أَى فى البحر بِأَمْرِهِ تَعَالَى، فَتَسْخِرُ الْبَحْرَ شَيْءًا، وَ إِجْرَاءَ الْفُلُكِ شَيْءًا آخَرَ، وَ لَذَا قَالَ «بِأَمْرِهِ» وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أَى إِنْ جَرِيَانِ الْفُلُكِ لِأَسْفَارِكُمْ وَ لَطَلْبِكُمْ التَّجَارَةَ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَ لَكِي تَشْكُرُوا نِعْمَةَ سَبْحَانَهُ، فَالْتَسْخِيرُ لَغَايَاتِ ثَلَاثٌ.

[١٤] وَ سَخَّرَ لَكُمْ أَيَّهَا الْبَشَرِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُمَا تَسِيرَانِ وَ تَعْمَلَانِ لَيْلَ نَهَارٍ لِنَفْعِ الْبَشَرِ، وَ مِنْ جَعَلَهُمَا كَذَلِكَ غَيْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ؟ جَمِيعًا صِفَةً «مَا» أَى سَخَّرَ كُلَّ شَيْءٍ جَمِيعًا مِنْهُ أَى مِنْ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا شَرِيكَ لَهُ وَ لَا صَانِعَ غَيْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّسْخِيرَ لِمَا فِيهَا لِأَجْلِ نَفْعِ الْبَشَرِ لِآيَاتٍ لِأَنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةً وَ دَلَالَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى أَوْضَاعِ الْكُونِ، وَ تَخْصِيصِهِمْ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهِمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ دُونَ غَيْرِهِمْ فَكَأَنَّهَا خَلَقَتْ لَهُمْ فَقَطْ.

[١٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَالِكُم مِّنَ الْكُفَّارِ أَدَّى اغْفِرُوا لَهُمْ لِيَعْفُرُوا وَيَصْفَحُوا لِلَّذِينَ لَا يَزُجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ أَيَّامَ اللَّهِ هِيَ الْأَيَّامُ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا عِقَابُهُ أَوْ نِعْمَانُهُ، فَإِنَّ الْكُفَّارَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِاللَّهِ، حَتَّى يَرِجُونَ أَيَّامَهُ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ فِي صَدَدِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُؤْذِنُهُمْ، وَذَلِكَ خَطْئٌ أَخْلَاقِيٌّ سِيَاسِيٌّ فَإِنَّ الْمَظْلُومَ تَهَوَّاهُ الْأَنْفُسُ فَتَرْجَحُ كَفْتَهُ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ رِبِحَ الْمَعْرَكَةَ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٦

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١٥ إلى ١٦]

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦)

ولذا ينقل عن «غاندى» محرر الهند قوله «تعلمت من الحسين عليه السلام أن أكون مظلوما لأنتصر»، والحاصل يتركوا مجازاتهم ليتولى الله ذلك عنهم ليجزى الله قوماً أى الكفار بما كانوا يكسبون فمعنى الغفران إيكال الجزاء إليه سبحانه كما يقول الحاكم للمظلوم اترك عقاب ظالمك لأجازيه أنا.

[١٦] ثم يبين سبحانه أن كل عامل يجرى بما عمل فالمؤمنون يجزون جزاء إيمانهم والكافرون يجزون جزاء كفرهم مَنْ عَمِلَ صَالِحًا الْمُرَادُ بِهِ كَلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلِنَفْسِهِ إِذْ فَائِدَتُهُ تَرْجَعُ نَحْوَهُ وَمَنْ أَسَاءَ بِأَنْ عَمِلَ السَّيِّئِ فَعَلَيْهَا أَى فَضُرَّ ذَلِكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ بَعْدَ الْجَزَاءِ فِي الدُّنْيَا، هُنَاكَ جَزَاءٌ آخَرَ فِي الْآخِرَةِ، عِنْدَ رَجُوعِ النَّاسِ إِلَىٰ حِسَابِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ.

[١٧] ثم يأتي السياق لبيان أنه كيف يجرى من كفر بالنعمة فى الدنيا، وأنه كيف يسلب عن الظالم النعمة لتعطى غيره مع بيان أن القيادة الإلهية انتقلت من بنى إسرائيل إلى المسلمين، ليقودها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حسب شرعه السماء ولقد آتينا أى أعطينا بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة، والحكم أى الحكومة فإن منصب الحكومة والسلطة على الناس خاص بالله سبحانه، ومن بعده لأنبيائه والأئمة حسب ما قرره تعالى، ومن بعدهم لنوابهم ووكلائهم والتبوء فكان فيهم الملوك والأنبياء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٧

[سورة الجاثية (٤٥): آية ١٧]

وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَن بَعِيدٍ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)

وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ حَيْثُ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِمْ بِبَرَكَاتِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ أَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ، فَإِنَّ كُلَّ جِيلٍ عَالَمٌ، وَكُلُّ قَرْنٍ عَالَمٌ، وَهَذَا هُوَ الْمَتَبَادِرُ مِنْ هَذِهِ الْجَمْلَةِ - كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا - لِأَجْمِيعِ الْعَوَالِمِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَلَوْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ الدَّوْلَةَ الْفُلَانِيَّةَ أَقْوَى الدَّوْلِ، كَانَ الْمَتَبَادِرُ مِنْهُ، الدَّوْلَةُ الْمَعَاصِرَةُ لَهَا لَا دَوْلَ الْمُلُوكِ مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا إِلَى الْأَبَدِ.

[١٨] وَآتَيْنَاهُمْ أَى عَطَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ أَى دَلَالَاتٍ وَبَرَاهِينَ وَاضِحَاتٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَإِنَّ الدِّينَ وَالدُّنْيَا يَحْتَاجَانِ إِلَىٰ مَبِينٍ وَمَوْضِحٍ لِمَسَالِكِهِمَا، وَالْأَنْبِيَاءُ دَائِمًا يَأْتُونَ بِذَلِكَ، مِثْلًا يَبِينُونَ أَنَّ الصَّوْمَ جَنَّةٌ مِنَ النَّارِ، أَنَّ الْحِجَامَةَ وَقَايَةُ مِنَ الْأَمْرَاضِ فَاخْتَلَفُوا، وَقَابَلُوا الْإِحْسَانَ بِالْكَفْرَانِ، وَقَدْ كَانُوا هُمُ الْأُمَّةُ الْوَحِيدَةُ الْمَوْجِهَةُ لِلْعَالَمِ الَّتِي بِيَدِهَا قِيَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا - حَتَّىٰ أَنْ عَيْسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ شَارِحًا وَمَوْضِحًا، لَا نَاسِخًا - وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِأَنَّ عِلْمَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَمَعَ ذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِيهِ بَغْيًا أَى حَسَدًا وَظُلْمًا بَيْنَهُمْ فَحَسَدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَتَرَكَوا الْحَقَّ إِلَىٰ الْبَاطِلِ انْتِقَامًا لِذَلِكَ التَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ - كَمَا نَرَىٰ شَبِيهَهُ فِي زَمَانِنَا هَذَا - إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَقْضِي بَيْنَهُمْ أَى بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فَمِثْلًا آمَنَ بَعْضُهُمْ بِعَيْسَىٰ وَلَمْ يُؤْمَرْ بَعْضُهُمْ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٨

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ١٨ الى ٢٠]

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

و صاد بعض في السبت، و لم يصد بعض و هكذا و إذ خرجت بنو إسرائيل عن صلاحية القيادة بسبب كفرهم و اختلافهم انتهت القيادة إلى الرسول و المسلمين.

[١٩] ثم من بعد أولئك جعلناك يا رسول الله على شريعة أي على طريقه من الأمر أي أمر الدين و الدنيا، بأن بينا لك طريقه خاصة لسعادة الإنسان في دنياه و آخرته فاتبعها أي اتبع يا رسول الله تلك الشريعة و لا تتبع أهواء الذين لا يعلمون الحق، فإن الناس يريدون من القائد ان يتبع آراءهم، و هنا يأتي النهي عن ذلك، فإن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ليس كسائر القادة، وإنما له منهاج خاص من قبل الله سبحانه، يلزم عليه ان يطبقه و يعلنه للناس، و هذا ينافي اتباع آراء الأشخاص.

[٢٠] إنهم أي الذين لا- يعلمون لن يغنوا عنك يا رسول الله من الله شيئاً أي لا- يفيدونك في دفع ما يريد الله بك- إن اتبعت أهواءهم- و إن الظالمين بعضهم أولياء بعض أي أن الكفار بعضهم يوالى بعض و ينصر الآخريين في معاداتك، فلا ينبغي لك أن تعتمد عليهم و تتبع أهواءهم و الله ولي المتقين يلى أمورهم، فحسبك الله، عن هؤلاء.

[٢١] هذا القرآن الذى أنزل إليك بصائر للناس جمع بصيرة، فكما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٠٩

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)

أن البصيرة في الإنسان كاشفه له طريق الفلاح، كذلك القرآن كاشف طريق السعادة، أي بينات تبصرهم أمورهم، فلا يحتاج الإنسان بعد القرآن إلى اتباع الأهواء و هدى أي هداية إلى الطريق و رحمة أي فضل و ترحم، يرحمهم الله به إذ يريهم السعادة الأبدية لقوم يوقنون به و يعلمون انه الحق، و إنما خصهم، لأنهم المنتفعون أما غيرهم، فهم في ضلال و نقمة.

[٢٢] هنالك ظالمون يتبعون الأهواء، و متقون يتبعون الشريعة، فهل هما متساويان؟ كلا، فإن البون بينهما شاسع أم حسب أي هل حسب و ظن الذين اجترحوا السيئات أي اقترفوها و ارتكبوها، و الاجتراح الاكتساب أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات «أم» منقطعة فيها معنى الاستفهام الإنكارى، أي ليس كذلك سواء محياهم و مماتهم أي تستوى حياتهم و موتهم، و المحيى و الممات مصدران ميمان ساء ما يحكمون بأن الطائفتين متساويتان، فحياة المؤمنين فى سعة و راحة و اطمئنان، و حياة الكافرين ضنك و تعب و قلق، و ممات المؤمنين إلى الجنة و الرضوان، و ممات الكافرين إلى السخط و النيران.

[٢٣] و كيف يتساوى حال المؤمن و الكافر و الحال أنه خلق الله السماوات و الأرض بالحق و من مقتضيات الحق أن يكون لكل عامل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٠

[سورة الجاثية (٤٥): آية ٢٣]

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَىٰ بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

أجره، لا أن يتساوى المصلح و المفسد فى الأجر؟ و لتجزي أي خلقهما لأن تجزي كل نفس بما كسبت من خير و شر و لو تساوى لم يترتب هذا الثمر على الخلق، بل لم يشب المحسن بالإحسان، و لم يجاز الكافر بالعصيان و هم لا يظلمون فلا ينقص من أجر المحسن شىء، و لا يزداد على عقاب المسمى شىء.

ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ لِلشُّورِ، مِنَ الْقُبُورِ، مُنْتَهِينَ فِي السَّيْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَ يَحَاسِبُ الْخَلَائِقَ لَا رَيْبَ فِيهِ أَي لَيْسَ مَحَلًّا لِلرَّيْبِ، وَإِنْ أَرْتَابَ فِيهِ الْمَبْطُولُونَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِأَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ التَّعَلُّمِ، فَإِنَّ الْمَعَادَ فِيهِ جَهَتَانِ، الْإِمْكَانَ، وَالْوَقُوعَ، أَمَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٣

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُولُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)

الإمكان فمن قدر على الابتداء يقدر على الإعادة بالضرورة... و أما الوقوع، فقد أخبر الصادق بوقوعه، فلا بد أن يقع.

[٢٨] وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَحْتَ قَدْرَتِهِ، وَ لَا تَنْظُرُوا إِمْكَانَ الْفِرَارِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَي الْقِيَامَةُ يَوْمَئِذٍ يُحْسِرُ الْمَبْطُولُونَ أَي الْفَاعِلُونَ لِلْبَاطِلِ، وَ مَعْنَى خَسَارَتِهِمْ هَلَاكِهِمْ.

[٢٩] وَ تَرَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي، فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلِّ أُمَّةٍ جَائِيَةً مِنَ الْجَنَّةِ وَ هُوَ التَّهْيُؤُ لِلْقِيَامِ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْخَائِفَ لَا يَجْلِسُ جَلْسَةَ الْإِطْمِنَانِ بَلْ يَرْفَعُ أَلْيِيهِ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى إِذَا نَوَدَى أَوْ جَاءَ الْفِرْعَ قَامَ فُورًا بِلَا اسْتِبْطَاءٍ، وَ هُنَاكَ كُلُّ أُمَّةٍ مُنْحَازَةٌ عَنِ أُمَّةٍ أُخْرَى، جَائِيَةٌ عَلَى رَكْبَتَيْهَا، أَوْ الْمَرَادُ جُثُومَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ الْحُكَّامِ، كَمَا يَجْتَوِ الْمَتْرَافِعَانَ عِنْدَ الْقَاضِي، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْمَنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهَا، لِئَكُونَ الْكِتَابُ حَكْمًا بَيْنَهُمْ، هَلْ عَمِلُوا عَلَى طَبَقِهِ أَمْ لَا وَ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُ أَحَدُ الْمُتَخَاصِمِينَ لِلْآخِرِ: أَدْعُوكَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أَي نَفْسِ الْأَعْمَالِ - بِنَاءٍ عَلَى تَجْسِيمِهَا - أَوْ جَزَائِهَا.

[٣٠] هَذَا كِتَابُنَا أَي اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، أَوْ دِيْوَانُ الْحَفِظَةِ الَّذِي سَجَّلَ فِيهِ أَعْمَالَكُمْ يُنطِقُ عَلَيْكُمْ أَي يَبِينُ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ سَمِيَ الْبَيَانَ نَطْقًا، لِلْمَشَابَهَةِ فِي إِبْدَاءِ الْمَخْفِي مِنَ الْعَمَلِ، كَمَا أَنَّ النَّطْقَ يَبْدَى الْمَخْفِي فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٤

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٣٠ الى ٣٢]

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَأَرْبَبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُشْتَقِقِينَ (٣٢)

القلب بِالْحَقِّ فَلَا يَبِينُ الْبَاطِلَ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ أَي نَكْتُبُ، وَ الْاسْتِنْسَاخُ هُوَ الْأَمْرُ بِالنَّسْخِ، أَي نَأْمُرُ الْكُتُبَةَ بِنَسْخِ أَعْمَالِكُمْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

[٣١] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَي الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ أَي جَنَّتِهِ وَ ثَوَابِهِ وَ فَضْلَهُ ذَلِكَ الْإِدْخَالَ فِي الرَّحْمَةِ هُوَ الْفَوْزُ أَي الْفَلَاحُ الْمُبِينُ الظَّاهِرُ.

[٣٢] وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقَالُ لَهُمْ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ يَقْرُؤُهَا عَلَيْكُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَ الْمُرْشِدُونَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ أَي تَعَاظَمْتُمْ عَنِ قَبُولِ الْحَقِّ وَ كُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ تَعْمَلُونَ بِالْإِجْرَامِ، كَفَرُوا وَ عَصَيْنَا؟ وَ هَذَا سُؤَالٌ تَوْبِيخٌ وَ تَقْرِيعٌ.

[٣٣] وَ كُنتُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا إِذَا قِيلَ لَكُمْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَالْبَعْثُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ وَ السَّاعَةُ أَي الْقِيَامَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا أَي لَيْسَتْ مَحَلًّا لِلرَّيْبِ وَ الشُّكِّ قُلْتُمْ فِي جَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أَي لَا نَعْلَمُ مَا هِيَ، تَقُولُونَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِهْزَاءِ إِنَّ نَظْنَ أَي مَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٥

نَظْنَ بِهَا إِلَّا ظَنًّا فَلَيْسَ لَنَا عِلْمٌ بِهَا، وَ «الظن» فِي الْأَوَّلِ اسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْنَى الْأَعْمَى، وَ فِي الثَّانِي بِمَعْنَاهِ الرَّاجِحِ الْمَقَابِلِ لِلْوَهْمِ وَ مَا نَحْنُ بِمُشْتَقِقِينَ أَي لَا يَقِينُ وَ لَا عِلْمٌ لَنَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٧

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء السادس و العشرون من آية (٣٤) سورة الجاثية إلى آية (٣١) سورة الذاريات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٨

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١١٩

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٣٣ الى ٣٥]

وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَأْوَاكُمْ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) [٣٤] وَ هُنَاكَ بَدَأَ أَي ظَهَرَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا أَي الْجَزَاءَ الَّذِي رَتَبَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَ حَاقَ أَي حَلَّ وَ أَحَاطَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا هَدَدُوا بِالْعَذَابِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، اسْتَهْزَءُوا بِهِ، وَ هُنَاكَ يَحِلُّ ذَلِكَ بِهِمْ.

[٣٥] وَ قِيلَ لَهُمْ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ أَي نَتْرَكُكُمْ هَمَلًا كَالْمَنْسَى، تَلَاقُونَ الْعِقَابَ وَ الْعَذَابَ كَمَا نَسَيْتُمْ وَ تَرَكْتُمْ الْعَمَلَ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا فَكَمَا تَرَكْتُمْ الْاِسْتِعْدَادَ لِهَذَا الْيَوْمِ نَتْرَكُكُمْ فِي الْعَذَابِ، وَ الْإِتْيَانِ بِلَفْظِ نَسَى لِأَنَّ الْمَهْمَلَ إِذَا طَالَ أَمَدَ إِهْمَالِهِ صَارَ نَسِيًا مَنْسِيًا، فَالْمَعْنَى نَتْرَكُكُمْ إِلَى أَنْ تَكُونُوا مَنْسِينَ وَ مَأْوَاكُمْ أَي مَحَلِّكُمْ وَ مَتْرَكُكُمْ النَّارُ فَكَمَا أَحْرَقُوا أَعْمَارَهُمْ وَ طَاقَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا سَوْفَ يَحْرَقُونَ بِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ النِّيرَانَ الْمَعْنَوِيَّةَ صَارَتْ نِيرَانًا مَادِيَّةً وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَخْلُصُونَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَكَمَا لَمْ يَنْفَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا الَّذِينَ كَانُوا يَرِيدُونَ خَلَاصَهُمْ مِنَ نِيرَانِ عَقَائِدِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ، كَذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ هُنَاكَ أَي نَاصِرٌ لِأَنَّ الْآخِرَةَ تَبِعَ لِلدُّنْيَا، وَ هِيَ ثَمَرَةٌ لِلْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا، فَكَمَا أَنَّ بَذْرَةَ التَّفَاحِ تَعْطَى التَّفَاحَ، وَ بَذْرَةَ الْحَنْظَلِ تَعْطَى الْحَنْظَلَ، كَذَلِكَ الْعَقَائِدُ وَ الْأَعْمَالُ وَ الصِّفَاتُ فِي الدُّنْيَا تَعْطَى ثَمَرَهَا فِي الْآخِرَةِ.

[٣٦] أَمَا أَنَّهُمْ كَيْفَ سَلَكُوا فِي الدُّنْيَا هَذَا الْمَسْلَكَ الَّذِي أَدَّى بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَى النَّارِ فَ ذَلِكَ مَسْلَكَ الدُّنْيَا، إِنَّمَا كَانَ أَيُّهَا الْكُفَّارُ الْمَخَاطَبُونَ- فَإِنَّ «كَم» خَطَابٌ- بِسَبَبِ أَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٠

اللَّهِ الْآيَاتِ الْبَشَرِيَّةَ، كَالْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَنْمَةِ وَ الْمُرْشِدِينَ، وَ الْآيَاتِ الْعَقَائِدِيَّةَ، كَالْعَقِيدَةَ بِأَصُولِ الدِّينِ، وَ الْآيَاتِ الْإِحْكَامِيَّةَ، كَأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهَا كُلُّهَا آيَاتٌ، وَ عِلَامَاتُ اللَّهِ، عِلَامَاتُ تَكْوِينِيَّةٌ، وَ عِلَامَاتُ تَشْرِيْعِيَّةٌ.

هُزُوعًا أَيْ اسْتَهْزَاءً، فَكُنْتُمْ تَضْحَكُونَ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَ عَلَى أَحْكَامِهِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْإِنْسَانِ الْجَاهِلِ وَ الْمَتَّجَاهِلِ، وَ بِذَلِكَ لَمْ يَرْضَحُوا لِأَنْبِيَائِهِ وَ أَوْلِيَائِهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَا- لِأَحْكَامِهِ تَعَالَى وَ غَرَّتْكُمْ خَدَعَتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْقَرِيبَةَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّ لَا حَيَاةَ سِوَاهَا، وَ لَذَا انْسَقَمْتُمْ مَعَ الْأَهْوَاءِ وَ الْمَشْتَهَاتِ الَّتِي أَضْرَتْكُمْ، نَتِيجَةً عِنَادِكُمْ لِلْحَقِّ فَالْيَوْمَ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْيَوْمَ يُطْلَقُ عَلَى النَّهَارِ وَحْدَهُ، وَ عَلَى النَّهَارِ وَ اللَّيْلِ، وَ عَلَى الْقِطْعَةِ مِنَ الزَّمَانِ وَ لَوْ كَانَتْ طَوِيلَةً جَدًّا، وَ لَذَا يُقَالُ:

الدَّهْرُ يَوْمَانِ يَوْمٍ لَكَ وَ يَوْمٍ عَلَيْكَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا لَا مَخْرَجَ لَهُمْ، لِبَيَانِ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْخُرُوجِ، فَالْخُرُوجُ إِنْ كَانَ فَهوَ بِوَسْطَةِ الْغَيْرِ، وَ لَا غَيْرَ يَخْرُجُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْتَبُوا رَبَّهُمْ أَي يَرْضَوْهُ، بِالْاِسْتِغْفَارِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، لِأَنَّ الْوَقْتَ قَدْ فَاتَ، فَإِنَّ وَقْتَ إِرْضَاءِ اللَّهِ هُوَ دَارُ الدُّنْيَا، وَ سَبَبُ أَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ مَحَلَّ الْإِرْضَاءِ: أَنَّ الْعَقَائِدَ وَ الْأَعْمَالَ فِي الدُّنْيَا أَحَالَتْ الْإِنْسَانَ إِلَى قِطْعَةٍ خَبَثٍ، كَمَا تَسْتَحَالُ الْبَيْضَةُ إِلَى فَرْخٍ، فَكَمَا لَا يُمَكِّنُ إِرْجَاعَ الْفَرْخِ بَيْضَهُ، كَذَلِكَ لَا يُمَكِّنُ إِرْجَاعَ مَا اسْتَحَالَ خَبِيثًا إِلَى الْحَالَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُ بِهَا أَنْ يَعْمَلَ صَالِحًا وَ يَعْتَقِدَ صَاحِحًا، فَإِنَّ فِي الدُّنْيَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢١

[سورة الجاثية (٤٥): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

الاستفراخ، وهذا لا ينافي قدرة الله على ذلك، إذ الله يخلق كل شيء ممكن، وهذا شيء ممكن خلقه سبحانه، وتفصيل المسألة في كتب الفلسفة.

[٣٧] وإذ بينا لكم مصير المطيع والعاصي فاصرفوا كل طاقاتكم في سبيل الإطاعة، والاجتناب عن المعصية، إذ الله وحده الحمد لأن كل خير منه، حتى أن الإنسان إذا عمل الخير، فإنه سبقه جعل الله له القدرة على الخير، فإنه هو ربّ السماوات ما في الجهات العليا و ربّ الأرض ما في الجهة السفلى، وإنما جعلت السماوات جمعا والأرض مفردا، لأن ما نسكنها أرض، وكل ما سوى ذلك فهو سماوات لأنها أعلى من هذه الأرض، أما جمع الأرض في الأدعية، وفي قوله سبحانه وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١) فلما حظت النسبة ربّ العالمين كل عالم، عالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الإنسان، وعالم الحيوان، إلى غيرها، وحيث التداخل بين العوالم وبين السماوات والأرض، لم يأت بالواو في «رب العالمين» و جىء بالجمع العاقل باعتبار تغليب العاقل على غيره لأن العاقل أشرف.

[٣٨] إنه «الله» الذات المستجمع لجميع الكمالات و «رب» ويربى و ينمى الأكوان و لَهُ الْكِبْرِيَاءُ لأنه أكبر من كل شيء، كبرا معنويا، أكبر من أن يوصف في السماوات والأرض فهو القاهر الذي ليس لشيء

(١) الطلاق: ١٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٢

كبر وقهر مستقل، إن ما استفاده منه، فهو يستحق الحمد، لأنه الله، ولأنه رب، ولأن له الكبرياء وهو يستحق الحمد، لأنه كامل، ولأنه رب، ولأنه الكبير القاهر المشرف على كل شيء وهو العزيز الوحيد الذي غيره ذليل أمام عظمته (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) (١) الْحَكِيمُ وضع كل شيء حسب الحكمة في موضعه اللائق به.

(١) طه: ١١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٣

٤٦ سورة الأحقاف مكية / آياتها (٣٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «الأحقاف» وهي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة الوهية ورسالة و معادا.

ولما ختمت سورة «الجاثية» بصفات الله سبحانه ابتدأت هذه السورة، بأن القرآن من تنزيل هذا الإله العظيم، ليكون الناس أقرب إلى قبوله لأنه منزل من عند الله سبحانه.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ باسم الله نبدأ، ليطلق ابتداءنا في اللفظ، الابتداء في الخلق، فكما أن الله سبحانه أول كل شيء، كذلك اسمه أول كل كلام، وهو مكرر الرحمة، يرحم بدء و ختاماً بمختلف أشكال الرحمة، ولعله لذا جىء بلفظي الرحمن والرحيم، فإن اختلاف اللفظ دليل على اختلاف المعنى، فالرحمن إشارة إلى نوع من الرحم، والرحيم إشارة إلى نوع آخر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٤

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣)

[٢] حم رمز بين الله و الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الراسخين في العلم، و لعله يأتي زمان يدرك الناس هذا الكنز المعنوي، كما انه لا يمر زمان إلا و يدرك الناس كنوزا كونيّة، فإن العلوم كلها قوانين وضعها الله في الكون، مثل قانون جاذبية الأرض و قانون أرخميدس في الماء و قانون الأطياف في النور و غيرها، و إذا كان رمزا لم يلزم أن يعرفه الكل، فإن الرموز بين رؤساء الحكومات و كبار أعضاء الدولة في صلاح الناس، و إن كان كل الناس لا يعرفونها.

[٣] إن هذا القرآن هو تَنْزِيلُ الْكِتَابِ و إنما قال «تنزيل» لأنه أنزل من فوق أى الفوق المعنوي لأن الله سبحانه أرفع من الكل، كما يقال في العرف أن الأمر صدر من الجهات العليا، يريدون جهة السلطان، و إن كان بيت السلطان تحت الجبل، و الأمور فوق الجبل مثلا، إذ السلطان أعلى رتبة من السوقة و المأمورين مِنَ اللَّهِ لا من الجن، بالكهانة، و لا من لسان أعجمي، و لا من نفس محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كما كانوا يرمون القرآن بكل ذلك العزير فيبعثه أرسل رسولا و أنزل دستوراً، إذ لو لا العزة لم يكن له ذلك الحُكِيمِ الحكمة وضع الأشياء موضعها؛ فإنزاله الكتاب إنما هو حسب الحكمة، لإصلاح الدين و الدنيا، و قد كان الله قادرا على أن يخلق الكون مثل ما ينتهي إليه في آخر نقطة من الكمال، إلا أن هذا اللون من الخلق كان يتطلب بلسان الحال إفاضة الوجود و الله فياض مطلق لا بخل فيه، و لذا خلق هذا اللون المتدرج في الصعود أيضا.

[٤] ما خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ تَقْدِمَ فِي آخِرِ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ وَ جِهَ جَمْعِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٥

السموات و أفراد الأرض وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي كُلِّ خَلَلٍ وَ فَرْجٍ مِنْهُمَا، كالإنسان و الملك و نحوهما، فالمخلوقات فيهما باعتبار، و بينهما باعتبار آخر إِلَّا بِالْحَقِّ لَا هَزْوًا وَ لَا لَعَابًا، و المراد بالحق المطابق للصلاح، خلافا للهزو الذي ليس مطابقا للصلاح، لا يقال قدر من اللعب أيضا مطابق للصلاح، و لذا أجاز يعقوب عليه السّلام أن يلعب أولاده، لأنه يقال ذلك يصلح للإنسان المخلوق بهذه الكيفية الخاصة، الذي لا يقدر من العمل الجدّي المستمر فيحتاج إلى الترفيه، لا بالنسبة إلى الله الذي لا يتعب و لا يمسه لغوب و إلا إلى أَجَلٍ زمان مُسَمًّى سُمِيَ عِنْدَنَا إِذَا انْتَهَى ذَلِكَ الْأَجَلُ هَلَكَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا بَيْنَهُمَا كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ «١» فليس الخلق فوضى في المدة، كما يزعمه الجاهلون ثم إن الأجل له إطلاقات «القطعة من الزمان» مثل إن أجل زيد خمسون سنة، و «آخر الزمان» مثل إن أجل زيد إلى سنة ألف و أربعمائه من الهجرة و كلاهما محتمل في الآية الكريمة وَ مَعَ ذَلِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مِنَ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا لِمَخَالَفِ قَوَانِينِ اللَّهِ، فكل من لم يعمل بالشريعة وجد ضنك العيش وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا «٢» و من العقاب في الآخرة بالنار و الجحيم مُعْرَضُونَ فلا يعملون بالأوامر، مع أن الخلق بالحق، و إن المدة قصيرة ذات أجل، و قد كان مقتضى العقل أن يعمل الذين كفروا بالإنذار، بعد ما يشاهدون من حقيقة الخلق و بعد ما

(١) القصص: ٨٩.

(٢) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٦

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٤]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتَّبُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)

علموا من عدم البقاء السرمد، و إنما لكل شيء أجل.

[٥] ثم إنكم أيها الكفار، لا حجة لكم في كفركم ف قل لهم يا رسول الله أَرَأَيْتُمْ أَي أَخْبَرُونِي أَيُّهَا الْكَافِرُونَ عَنْ حَالِ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ، سواء كان، شمسا، أو قمرا، أو بشرا، أو حجرا، أو غير ذلك أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ فَهَلْ خَلَقُوا نَبَاتًا أَوْ

حيوانا أو بحرا أو برا، أو غير ذلك، ولا يحق لهم أن يقولوا أن فرعون مثلا خلق تلك المدينة إذ فرعون لم يخلق، وإنما فرعون جاء بالمعدات أى حركة عضلاته فقط، وإنما مادة البناء و صورته كلاهما لله سبحانه و لذا قال سبحانه وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ «١» أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ شراكة في خلق السموات و حيث رأيتم إنهم شركاء الله في خلق الأرض و السماوات فاتخذتموهم شركاء لله و كفرتم بوحدانيته و إذ ادعيتهم الشراكة في الخلق اثبوني بكتاب من قبل هذا القرآن يؤيد اشتراك الأصنام في الخلق، إن كنتم تدعون أنكم على دين، كما كان بعضهم يدعى أنه على دين إبراهيم عليه السلام، أو دين عيسى عليه السلام، أو دين موسى عليه السلام، و مع ذلك كانوا يجعلون الأصنام أو المسيح، أو عزيرا، شركاء لله أو آثاره بقيه من علم بأن يدل المنطق على صحة اعتقادكم بالآلهة الباطلة إن كنتم صادقين في دعواكم أن الأصنام

(١) الفرقان: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٧

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٥]

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)

و غيرها شركاء لله سبحانه، و إذ لا دليل لكم من كتاب سابق، و لا من علم و برهان، فتركوا الأصنام و سائر المعبودات، و اعبدوا إليها واحدا فقط، و إنما قال سبحانه «أثارة من علم» لأنهم كانوا جهالا و هم أيضا ما كانوا يدعون أنهم علماء، و لكن الجاهل قد يبقى له بعض العلم و المنطق عن أسلافه.

[٦] و هؤلاء الكفار الذين يتركون الله سبحانه و يدعون غير الله من الأوثان، سواء تركوا الله إطلاقا، أو تركوا الله في الجملة، بأن أشركوا معه غيره، لا- أحد أكثر ضلالا منهم إذ من أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له فهو قد ترك السميع المجيب القادر على قضاء حوائجه و اتخذ إلهه صنما لا يجيبه إلى يوم القيامة و لو دعاه طول حياة الدنيا، و جعل يوم القيامة غاية مع أن الأصنام لا تجيبهم إلى الأبد و حتى بعد يوم القيامة، إنما هو لأجل أن هؤلاء يعترفون في يوم القيامة بضلال أنفسهم، ففي يوم القيامة لا دعوة من باب السالبة بانتفاء الموضوع، فلا دعوة للكفار حتى يطرح الكلام في أنه هل تجيبهم الأصنام أم لا، مثل قولهم لا كلمتك إلى أن تموت، فليس المراد أكلمك بعد الموت، بل المراد أن موضوع الكلام ينتفى و هم أى تلك الآلهة البشرية أو الحجرية أو الشمس و القمر و نحوها، و إنما جرى بلفظ العاقل، لأن بعض المعبودات عقلاء، أو لأن الكفار لما أنزلوها منزلة العقلاء بعبادتهم لها، جرى الكلام على منطقتهم عن دعائهم أى دعاء الناس لتلك الأصنام غافلون لأنها جمادات فلا تشعر طلب الكفار منها، أو عباد مشغولون بأحوال أنفسهم، فالغفلة كناية عن عدم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٨

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٦ الى ٧]

وَ إِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَ إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)

قضاء حاجة عبادها، فإذا قضوا حاجة لهم، فإنما في الحقيقة، ليست مرد الحاجة لتلك الأفراد بل لله سبحانه.

[٧] و إذا حشِرَ النَّاسُ أى جمعوا يوم القيامة كانوا تلك الأصنام لهم للبشر الذين يعبدونها أعداء لأن الأصنام تضر عبادها، بإدخالهم النار، كما يفعل العدو بعدوه و كانوا تلك الأصنام بعبادتهم أى عبادة البشر لها كافرين فإن الله ينطق الأصنام ليظهروا تبريهم من عبادها، أو كناية عن أنه لو كان لتلك الأصنام لسان لكفرت بعبادها، و قد قال الله تعالى في آية أخرى إن تدعوهم لا يستمعوا دعاءكم و لو سمعوا ما استجابوا لكم و يوم القيامة يكفرون بشرككم «١» و لا- مانع من نطق الجماد بقدره الله تعالى، و في الآيات و

الأخبار دلالة على ذلك كقوله سبحانه قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢﴾ وقوله سبحانه فَأَيِّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴿٣﴾ وقوله عز من قال فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٤﴾ وقوله سبحانه يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٥﴾ إلى غير ذلك ... وحاصل الآيتين الكریمتین أنه لا فائدة في عبادة هذه الأصنام وإنما تضر في الآخرة، عوض أن تنفع.

[٨] وهؤلاء الكفار اتخذوا الباطل، و تركوا الحق و عاندوه، أما اتخاذهم الباطل فلما سبق من عبادتهم الأصنام، و أما تركهم الحق فلأنهم

(١) فاطر: ١٥.

(٢) فصلت: ١٢.

(٣) الأحزاب: ٧٣.

(٤) النازعات: ١٥.

(٥) الزلزلة: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٢٩

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٨]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)

إذا تُلِّيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا الدالَّة على التوحيد و الرسالة و المعاد، في حال كونها بَيِّنَاتٍ واضحة يفهمها كل عاقل قال الَّذِينَ كَفَرُوا قَالُوا لِلْحَقِّ الَّذِي بَيْنَا لَهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ وَاضِحًا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَى واضح كونه سحرا، فجعلوا الحق الواضح، سحرا واضحا، بسبب عنادهم، ثم إن الفرق بين السحر و المعجز: أولا: أن العقل يميز بينهما، فهل أن للكون إليها عالما قادرا سحرا؟ و هل أن الصنم و البشر إله خالق؟ و ثانيا: إن الإعجاز بدون أدوات، و السحر يأتي بأدوات. و ثالثا:

إن الساحر لا يقدر على كل شيء بل على أشياء خاصة، بينما صاحب الإعجاز على كل شيء مقدور في ذاته.

[٩] إنهم كانوا يقولون أن الآيات سحر، و كانوا يقولون أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم مفتر على الله، لأنه يدعى أنه نبي من قبل الله، و الحال أنه ليس نبي أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ «أم» بمعنى «بل» كأنه تعجب من دعواهم أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مفتر قُلْ في جوابهم يا رسول الله لا يمكن أن يفترى البشر على الله، إذ اللازم على الله أن يفضحه، فإن العقلاء يحتجون على المفترين بما لا يتمكن من رده ف إِنْ افْتَرَيْتُهُ افتريت القرآن فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يقال «يملك الوزير من الأمير» أَى أن الأمير إذا أراد شيئا و لم يرد الوزير يتمكن الوزير أن يصرف الأمير عن إرادته، لكن الإنسان لا يملك أن يصرف الله عن إرادته، و قد أراد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٠

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٩]

قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)

سبحانه فضح مدعى النبوة كذبا، لأنه سبحانه نصب الأدلة العقلية على خلافه، كما نصب الأدلة العقلية على فضح مدعى الطب كذبا، و مدعى الهندسة كذبا، لأن الأول لا يقدر على شفاء المرضى، و الثاني لا يقدر على جعل الهندسة لبناء دار و نحوها، و الرسول إن كان كاذبا فهل كان يقدر على جواب كل سؤال و حل كل مشكلة؟ فلو كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كاذبا، لا يملك أحد أن يصرف الله عن إرادته في فضح الكاذب ... ثم هددهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بقوله هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ تَدْفَعُونَ فِيهِ مِنَ الشَّرْكِ وَ تَكْذِيبِ آيَاتِهِ وَ الْاِفْتِرَاءِ عَلَى رَسُولِهِ، و سيجازيكم عليه كَفَىٰ بِهِ أَى بالله شَهِيدًا شاهدا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يشهد لى بالصدق، لأنه

لم يفضحني، بالأدلة العقلية و يشهدكم بالانحراف بما قد نصب من الأدلة العقلية المبينة لبطلان المبطل و لا بأس لكم فإن تبتم تاب الله عليكم لأنه هو الغفور لعواده الثائبين الرحيم بهم يتفضل عليهم من رحمته زيادة على غفران ذنوبهم.

[١٠] وقد كان كفار مكة يستدلون على عدم رسالة الرسول بأنه لو كان رسولا لزم أن يأتيهم بكل آية يقترحونها من الإعجاز، عنادا فيهم و تضليلا للسذج ف قل يا رسول الله في جوابهم ما كنتُ بدعاً جديداً بديعاً من الرُّسلِ حتى أتاكم بكل ما تقترحونه من الآيات، فهل كانت الرسل تأتي بكل آية تقترحها عليهم أمهم؟ حتى يأتيكم بمثل أولئك الرسل، كلما تقترحون من الآيات، فإن كانت الحجّة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣١

كافية، فقد أتيتكم بالقرآن و بمعجزات أخر تكفي في إثبات النبوة، و إن كانت الحجّة غير كافية، فالإتيان بالمعجزة أيضا غير مفيدة لإقناعكم، أ رأيت لو عالج الطبيب أعصى الأمراض، و تحدى الأطباء، فهل للأطباء أن يقولوا أنت لست بطبيب، و إلا فعالج مرضى آخرين؟ و إذا قالوا ذلك ألم يحمل كلامهم على العناد؟ و كذلك الكفار كانوا يقولون للرسول إن كنت رسولا فقل لنا ما هو مصيرنا في الدنيا و ما هو مصيرك؟ و أجابهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ما أدري ما يفعلُ بي و لا بكم فإن علم الغيب تفصيلا خاص بالله تعالى إن أتبع إلا ما يوحى إليّ «إن» نافية أى ما أتبع في المعجزة بالآيات، و في الإخبار عن المغيبات، إلا كما يوحى إلى، و ليس من الصلاح إجابة كل معاند بما يقترح، و إلا كان مهزلة، و كرروا قولهم أنه سحر، فما ذا يفعل الرسول لمن يرد العناد؟ و قبل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم جاءهم موسى بكل آية فقالوا سحران تظاهرا «١» كما انه ليس من الصلاح أن يخبرهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بكل ما يريدون من المغيبات لأنه إن كان لإقناع المصنف فقد اقتنع بما رآه من إعجاز القرآن و غيره، و إن كان لإقناع المعاند، فالمعاند لا يقتنع و لو جاءهم الرسول بكل آية، أليس عيسى عليه السلام أخبرهم بما يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم و مع ذلك كفروا به؟ و ما أنا إلا نذيرٌ منذرٌ بأن من لم يسمع كلامي له حياة سيئة في الدنيا و في الآخرة

(١) القصص: ٤٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٢

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ١٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى «١» مُبَيَّنٌ واضح كوني منذرا و رسولا، فاللازم أن آتى إليكم بالقدر الذي يثبت أنى منذر و رسول، لا أن آتى بالمقترحات العنادية لكم.

[١١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِي شَاهِدَانِ عَلَىٰ صَدَقِي، فَكَيْفَ تَكْفُرُونَ أَنْتُمْ، مِمَّا يَسْبَبُ لَكُمْ أَشَدَّ الْوَبَالِ. الأول: الإعجاز. الثاني: تصديق أهل الكتاب الذين هم أهل خبرة لى، و ذلك كما ادعى إنسان أنه طبيب ثم عالج الأمراض، و صدقه الأطباء، فهل يبقى هناك شك في كونه طبيبا؟

و من أنكر كونه طبيبا أليس يكون معاندا؟ أ رأيتكم أخبروني إن كان القرآن من عند الله دليل أنكم عاجزون عن الإتيان بمثله و الحال أنكم كفرتُم به أليس ذلك يسبب الوبال لكم؟ و أ رأيتم إن كان شهد شاهدٌ من بني إسرائيل الذين هم أهل كتاب و خبرة كعبد الله بن سلام الذى كان من علماء بنى إسرائيل و آمن برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على مثله أى مثل قولى أنه من عند الله فأمن و استكبرتم أنتم، أليس ذلك يسبب لكم الوبال؟ و قد حذف الجواب «لأنه كان من عند الله...» للتهويل، مثل قولك مهديا لولدك، إن شربت الخمر؟ تريد أنه يلقى عقوبة بسبب شربه- كما ذكروا في علم البلاغة- ثم ألمع سبحانه إلى الجواب بقوله إن الله

لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ

(١) طه: ١٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٣

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ١١]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ (١١)

ظلموا أنفسهم بالعناد، الله لا يوصلهم إلى مطلبهم، لأن الهداية قد تكون بمعنى إراءة الطريق نحو و أما ثمود فهديناهم فاستحسبوا العمى على الهدى «١» أى أريناهم الطريق، وقد تكون بمعنى الإيصال إلى المطلوب نحو إنك لا تهدي من أحببت «٢» أى لا توصلهم إلى المطلوب، وإلا فالهداية بإراءة الطريق كانت من شأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ...

و إذا لم يوصلهم الله إلى مطلبهم خسرو الدنيا والآخرة.

[١٢] ثم إن هؤلاء الكفار بالإضافة إلى كفرهم بالله، وبالرسول، وبالقرآن، أخذوا يستهزئون بالمؤمنين وذلك بأن قال الذين كفروا للذين آمنوا أى قالوا عنهم، وكأنه جاء «باللام» مرة دلالة على أنهم قالوا فى حضور المؤمنين و ب «سبقوا» غائبا، مرة دلالة على أنهم قالوا فى غيبة المؤمنين، للدلالة على أن الكفار كانوا يقولون ذلك فى كل حال لو كان الإيمان و القرآن خيرا ما سبقونا أى لم يسبقنا المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، إليه إلى الإيمان و القرآن، وذلك لأننا أكثر عقلا منهم، فلو كان خيرا لكننا نحن السابقين و سبب قولهم هذا هو أنهم إذ لم يهتدوا به و لم يسلكوا سبيل الهداية فسيتقولون للترفيه عن أنفسهم إنه ليس بخير بل هذا القرآن و ما جاءه الرسول إفك كذب قديم كما فى آية أخرى و قالوا أساطير الأولين اكتسبها «٣» فهم لم يقبلوا عنادا، و استهزءوا بالمؤمنين، و قالوا إنه ليس بخير،

(١) فصلت: ١٨.

(٢) القصص: ٥٧.

(٣) الفرقان: ٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٤

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٢ الى ١٣]

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣)

و إنما هو كذب سابق، و كل قولهم و عملهم هراء و بدون حجة، و إنما هو كلام المستكبرين و المعاندين، فإن رمى كل حق بأنه ليس بخير، و أن المؤمنين به لا عقل لهم، و إنه إفك قديم، سهل، لكن الإتيان بالدليل على ذلك غير ممكن، و لذا قالوا فى المثل «ما أسهل كيل التهم و أصعب إقامة الأدلة عليها».

[١٣] و كيف يكون هذا إفك و الحال أن من قبله قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام التوراة تشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن، فى حال كونه إماماً يقتدى به الناس، فهل من يقتدى بكتاب موسى عليه السلام لا عقل له؟ و رحمة لرحم البشر، و الكذب ضد الرحم، فقولهم «ليس بخير» و «إفك» جوابهم أنه ككتاب موسى عليه السلام فهو «إمام» و «رحمة» و هذا القرآن كتاب مُصَدِّقٌ لما فى كتاب موسى عليه السلام من أصول الدين و الأخلاق، و نحوهما و لكن مع فارق، فالتوراة كان لسانا عبريا، و القرآن لسانا عربيا و إنما أنزل لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنْذَارًا بخسران دينهم و دنياهم و ليكون بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ للذين أحسنوا بالإيمان به و باتباعه، بأن لهم خير

الدنيا والآخرة، أما أن القرآن لم نزل على لغة العرب؟ فيرده أنه بآية لغة نزلت كان موضع هذا التساؤل؟ و لو قيل لماذا لم ينزل بكل لغة؟ فجوابه أن كونه بلغة واحدة أحسن لأنها تصبح لغة واحدة لكل البشر يتفاهمون بها بالإضافة إلى لغاتهم الخاصة بهم.

[١٤] و حيث عرفتم أيها المؤمنون خير ما تمسكنم به، و عرفتم بطلان حجج الكفار، فلا يستغفركم أذاهم و استهزائهم لكم، و كونوا مستقيمين فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٥

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٤ الى ١٥]

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمْلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنًا قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)

دينكم حتى تنالوا جزاء الاستقامة ف إن الذين قالوا ربنا الله و تركوا الأصنام، بأن صحت عقيدتهم ثم استقاموا فى اتباع أوامره سبحانه فلا خوف عليهم من مكروه آت ولا هم يحزنون لمكروه سابق، فإن الخوف من المكروه المرتقب، و الحزن من المكروه الوارد الكائن الآن، أو الماضى، و ذلك ليس بمعنى أن المؤمنين لا يصيبهم حزن و خوف، بل بمعنى «النسيه» فخوفهم و حزنهم، بالنسبة إلى خوف الكفار و حزنهم، قليلا. جدا بحيث يمكن سلب كونه خوفا أو حزنا، لأنهما قليلا مؤقتان، و مقترنان بالبخارة بالأجر و الثواب، بخلاف خوف الكفار و حزنهم.

[١٥] و إنما كان خوفهم و حزنهم مؤقتا لأن أولئك المؤمنين أصحاب الجنة فى الآخرة، فما يلاقونه من الأتعاب فى الدنيا ينقضى بسرعة خالدين فيها أبدا جزاء بما كانوا يعملون و الاعتقاد نوع من العمل أيضا، لأنه عمل القلب، فلا يقال: لماذا لم يقل سبحانه: ... بما كانوا يعتقدون و يعملون؟.

[١٦] و كما أننا وصينا الإنسان بعدم الشرك و عبادة الله الذى هو منعم حقيقى عليه كذلك وصينا الإنسان بالديه اللذان هما سبب وجوده فكل واحد منهما منعم مجازى على الإنسان، و الوصية قول مؤكد سواء كان فى الحياة أو بعد الممات إحصانا أى أن يعمل الحسن، و قوله سبحانه «إحصانا» من باب المبالغة مثل «زيد عدل»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٦

فيقدم لهما قطعة من الحسن، أى أحسن الأعمال، حتى كأن العمل ذات الحسن و اللازم أن يخص الأم بزيادة الإحصان لزيادة أتعابها فى سبيله حملته أمه كرهاً كارهة الحمل لمشقتها فى أغلب أوقات الحمل، بل و كثيرا ما فى أوله أيضا حيث الاضطرابات التى تطرأ على المرأة عند الحمل، و حيث الحزن النفسى من أتعاب الحمل و الطلق و غير ذلك و وضعته حين الولادة كرهاً لمشقات الولادة فهى كارهة و حملته و فصاله ثلاثون شهراً فإن الحمل ستة أشهر على الأقل، و الإرضاع سنتان فالمجموع ثلاثون شهراً، تعانى فيها الأم مشاكل جمه من جهة الولد، هذا بالإضافة إلى المشاكل فى المستقبل التى تعانىها بسبب رعاية الولد و عنايتها به، أليس بعد هذه الأتعاب تستحق الأم الإحصان إليها من جانب الأولاد، و هنا ينقسم الأولاد إلى قسمين قسم يعمل بوصيتنا له فى الإحصان إلى أبويه، و قسم لا- يعمل، كما انقسم الناس أمام الله سبحانه إلى قسمين قسم مؤمن، و قسم كافر، فالقسم المطيع يكون حاله حتى إذا بلغ أشده استحکم قوته البدنية و العقلية، كأن يشد من التبعر، و بهذا البلوغ يتمكن عقله من الفهم على وجوب الإحصان إليهما، و يتمكن بدنه من القيام بخدمتهما و هذه الحالة تمتد حتى بلغ أربعين سنة حيث القوة البدنية تأخذ بالضعف، و حيث أن الغالب موت الأبوين قبل بلوغ الولد ذلك، فلا حاجة لهما إلى خدمة الولد قال الإنسان يا رب أوزعنى ألهمنى و خذ أمامى حتى لا أنحرف عن الجادة، فإن معنى وزعه: منعه أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٧

أَشَكَرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ فَإِنَّ قُوَّةَ الشَّبَابِ ذَهَبَتْ أَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ أَكْثَرَ فِي التَّوْفِيقِ لِلشُّكْرِ، وَ لِأَنَّ حَالَةَ الْحُدَّةِ تَأْخُذُ مَجْرَاهَا إِلَى الْإِنْسَانَ فَهُوَ يَكُونُ أَعْبَدُ مِنَ الشُّكْرِ، لِأَنَّ مَشْكَلاتِ الْحَيَاةِ تَسْتَفِزُهُ فَيَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرَانِ، وَ الشُّكْرِ لِلنِّعْمَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْوَالِدَيْنِ، نَوْعُ إِطَاعَةِ اللَّهِ وَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهَا وَ أَوْزَعْنِي أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ فَأُرِيدُ مِنْكَ يَا رَبُّ أَنْ تُوَجِّهَ قَلْبِي وَ لِسَانِي بِالشُّكْرِ، وَ جَوَارِحِي بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ يَا رَبُّ أَدْعُوكَ أَنْ أَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي اجْعَلْهُمْ صَالِحِينَ، وَ «فِي» بِاعْتِبَارِ أَنَّ الصَّلَاحَ يَقَعُ فِيهِمْ، وَ «لِي» بِاعْتِبَارِ أَنَّ صَّلَاحَ الذَّرِيَّةِ عَائِدٌ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، سَمِعُهُ وَ ثَوَابًا، وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِحْسَانَ إِلَى الْآبُوَيْنِ يُوَثِّرُ فِي إِحْسَانِ الذَّرِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ، فَصَّلَاحُ الْإِنْسَانِ يَسَبِّبُ صَّلَاحَ الذَّرِيَّةِ، أَمَا مَا سَلَفَ مِنِّي مِنَ الْمَخَالَفَةِ فِإِنِّي تُبِّتُ إِلَيْكَ يَا رَبُّ وَ أَسْتَغْفِرُكَ عَنْ ذَلِكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَكَ أَعْتَرَفُ بِذَلِكَ، لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ أَقْرَبَ إِلَى التَّوَضُّعِ، فَالْإِنْسَانُ الْحَسَنُ هُوَ الَّذِي عَبَدَ اللَّهَ وَ لَمْ يَشْرِكْ بِهِ، وَ أَحْسَنَ إِلَى وَالِدَيْهِ مِنْ حِينِ بُلُوغِ أَشَدِّهِ إِلَى حِينِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَ حَيْثُ فَقَدَ الْوَالِدَيْنِ بِلُغُ الْأَرْبَعِينَ دَعَا لَهُمَا، وَ اعْتَرَفَ بِفَضْلِهِمَا، وَ طَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَعِينَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ «حَالَهُ ضَعْفَهُ» أَنْ يَشْكُرَهُ كَمَا كَانَ يَشْكُرُهُ سَابِقًا، وَ طَلَبَ مِنْهُ إِصْلَاحَ ذَرِيَّتِهِ .. وَ قَدْ صَبَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي هَذَا الْقَالِبِ الْبَلَاغِي الرَّائِعِ الَّذِي يَمْشِي بِالْإِنْسَانِ مِنْ حِينِ حَمَلِ الْأُمِّ لَهُ إِلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٨

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٦ إلى ١٧]

أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَ عَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَ الَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْتِيهِ أَفُّ لَكُمْ أَ تَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَتَعِيثَانِ اللَّهَ وَ يَلْعَنُكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧)

حِينَ بُلُوغِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَ إِنَّمَا لَمْ تَخْتَمِ الْآيَةُ الْإِنْسَانَ، إِلَى حِينِ الْمَوْتِ لِبَقَاءِ فَجْوَةٍ فِي النَّفْسِ، كَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الْأَلْوَابِ الْجَمِيلَةِ، لِيَذْهَبَ الْخِيَالُ كُلُّ مَذْهَبٍ.

[١٧] أُولَئِكَ الْفُرَادِ الَّذِينَ هَذِهِ صَنَعْتَهُمْ مِنَ الْعِبَادَةِ وَ الشُّكْرِ وَ الدُّعَاءِ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا أَيْ بِقَبُولِ أَحْسَنِ، لَا- أَنْ أَعْمَالَهُمْ الْأَحْسَنَ فَقَطِّ تَقْبِيلًا، فَهُوَ مِنْ بَابِ «الْقَلْبِ» مِثْلُ: عَرَضَتْ النَّاقَةُ عَلَى الْحَوْضِ وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَلَا يَجَازُونَ بِهَا، فَهَمُّ يَكُونُونَ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَ قَدْ وَعَدْنَا بِذَلِكَ وَ عَدَّ الصَّدَقِ لَا خَلْفَ فِيهِ بَلْ صَادِقٌ مُطَابِقٌ لِلْوَقْعِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ «الَّذِي» صِفَةُ «وَعْدٍ» فَهَؤُلَاءِ حَسَنَاتِهِمْ مَقْبُولَةٌ وَ سَيِّئَاتِهِمْ مَغْفُورَةٌ، وَ مَقْرَهُمُ الْجَنَّةِ.

[١٨] وَ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الشَّاكِرِ لِلَّهِ وَ لُوَالِدَيْهِ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَالَ لَوْلَا دَيْتِيهِ لَمَا كَبُرَ وَ عَقَلَ أَفُّ لَكُمْ فَهُوَ كَافِرٌ بِهَمَا، وَ كَافِرٌ بِعَقِيدَتَيْهِمَا الَّتِي هِيَ التَّوْحِيدُ، فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الْكُفْرَيْنِ، وَ «أَفُّ» كَلِمَةٌ «تَضَجْرُ» وَ «إِهَانَةٌ لِلْمَخَاطَبِ» أَ تَعِدَانِي مِنَ الْوَعْدِ- أَنْ أُخْرَجَ بَعْدَ الْمَوْتِ، مِنْ قَبْرِىَ لِلْحِسَابِ وَ الْحَالِ أَنَّهُ قَدْ خَلَّتْ مَضَتْ الْقُرُونُ وَ السَّنَوَاتُ الْكَثِيرَةُ مِنْ قَبْلِي فَلَمْ يَرْجِعْ أَحَدٌ مِنَ الْأَمْوَاتِ، وَ إِنكَارِ الْبَعْثِ مُسْتَلْزِمٌ لِإِنكَارِ الْأَلُوْهِةِ وَ إِنكَارِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٣٩

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ١٨ إلى ١٩]

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظَلِّمُونَ (١٩)

الرِّسَالَةَ وَ هُمَا يَسْتَتَعِيثَانِ اللَّهَ يَطْلُبَانِ مِنَ اللَّهِ هِدَايَتَهُ وَ يَقُولَانِ لَهُ وَ يَلْعَنُكَ السُّوءِ لَكَ إِذَا بَقِيَتْ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ آمِنْ بِاللَّهِ، فَهَمَا يَدْعُونَ لِإِيمَانِهِ، وَ يَطْلُبَانِ مِنْهُ الْإِيمَانَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْبَعْثِ حَقٌّ فَلَا تَكْفُرْ بِهِ، وَ مَجْرَدُ الْإِسْتِعَادِ وَ أَنَّهُ لِمَاذَا لَمْ يَحْشُرِ السَّابِقُونَ، لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الْعَدَمِ فَيَقُولُ مَا هَذَا الَّذِي تَقُولَانَهُ مِنَ الْبَعْثِ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ، وَ هِيَ الْخُرَافَةُ، الَّتِي قَالَهَا السَّابِقُونَ بِدُونِ بَرَهَانٍ وَ دَلِيلٍ.

[١٩] أُولَئِكَ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِالْبَعْثِ، وَ لَمْ يَشْكُرُوا وَ الْوَالِدَيْهِمْ فَلَمْ يَطِيعُونَهُمَا الَّذِينَ حَقَّ ثَبْتُ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الَّذِي قُلْنَا وَ

وعدنا به بأن من لم يؤمن جزاء جهنم، فهم داخلون في أمم جماعات كافرة قد خلت مضت من السابقين قبلهم من كفره الجن والانس ولعل ذكر الجن لأجل التهويل إنهم كانوا خاسرين خسروا دنياهم و آخرتهم، و «إنهم» إما جملة مستأنفة تحسريه، وإما عطف بيان ل «القول» فمعناه ثبت عليهم أنهم خاسرون.

[٢٠] و كما أن القسم المؤمن من الناس نوفيهم أعمالهم بإدخالهم الجنة كذلك هؤلاء الكافرين نوفيهم أعمالهم ف لكل من القسمين درجاة مما عملوا إذ الأشد إيماناً والأحسن عملاً درجته فوق ذي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٠

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٢٠]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

الإيمان العادي والعمل الصالح العادي، وكذلك بالنسبة إلى الكافر والكافر والأعصى والعاصي ولئوفيهم الله أعمالهم التي منها عقائدهم، لأن العقيدة عمل العقل، ومعنى التوفية، إرجاعه إليهم وافيًا، بدون زيادة أو نقيصة، ثم هل الجزاء نفس العمل أخذ صورة الآخرة، كما أن الدجاجة نفس البيضة، والشجرة نفس النواة، والولد نفس المنى، ولذا قال سبحانه «أعمالهم»- أو إن الجزاء جزاء العمل، مثل «دينار» يعطيه الإنسان أجرة للبناء؟ احتمالان، وإن كان ظاهر الأدلة والمؤيدات النقلية والعقلية الأول وهم لا يظلمون فلا ينقص من حسنة المؤمن، ولا يزداد في سيئة الكافر.

[٢١] ثم إن القرآن مشى بالفريقين «عقيدتهم وعملهم» في الدنيا حتى أوصلهما إلى الآخرة، وقد رأينا المؤمن كيف أنه دخل الجنة فلننظر إلى الكافر وحاله يوم القيامة لنرى ويوم يعرض الذين كفروا على النار في حال كونهم واقفين على شفيرها، في ذل وهول عظيمين، فيقرأ عليهم وثيقة الاجرام، فيقال لهم أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا إن البدن والعقل والطاقت و سائر ما للإنسان مما يتمكن من التصرف فيه، طيب منحها الله له، لأجل إبعاده، لكن الكفار يصرفونها لأجل شقائهم، كمن أعطى ولده مالا لأجل أن يكتسب به لتأمين مستقبله فصرفه في شرب الخمر والزنى والقمار مما أوجب أمراضه الجسدية والعقلية واستمتعتم بها بتلك الطيبات حتى نفذت ولذا ليس عندكم الآن شيء لراحتكم وسعادتكم، بل حصلتم بتلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤١

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٢١]

وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

الطيبات، هذه النار والعذاب لأنفسكم، إذن فالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ يؤلم جسدكم بالنار، وأنفسكم بالإهانة، لأنكم صرفتم جسدكم وأنفسكم في الملذات الضارة بسبب ما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق فالهوان لذلك الاستكبار وبسبب ما كنتم تفسقون وتأتون بالمعاصي، فالنار لأجل تلك المعاصي الجسدية، والسر أن كل طاقة قابلة لأن تصرف في الفساد وقابلة لأن تصرف في الصلاح، فاللفظ يمكن أن يصرف في طبخ الطعام، وفي إحراق الدار والأثاث، والماء يمكن أن يصرف في الزراعة والشرب والنظافة وفي غرق الإنسان به في بحر أو نهر أو نحوهما، إلى غير ذلك، والطاقت التي منحها الله للإنسان كذلك صالحة لصرفها في شراء الجنة والعزة الأبدية، وصالحة لصرفها في شراء النار والهوان الأبدية، وحيث صرفها الكافر في غير المصرف الصحيح كان جزاءه عذاب الهون، ولعل قوله سبحانه «بغير الحق» لأن إرادة الكبر قد تكون لأجل إصلاح الناس ومنع المفسدين عن الفساد، ولذا فالقيد إخراجي، لا توضيحي.

[٢٢] وليعتبر هؤلاء الكفار بقصص التاريخ، حتى يعلموا أن جزاء تكذيب أنبياء الله، والانحراف عن منهجه سبحانه يوجب خسران

الدنيا، أيضا، بالإضافة إلى خسران الآخرة، التي ذكر في الآية المتقدمة ف اذْكَرْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخَا قَبِيلَةٍ عَادِ الْقَبِيلَةَ الْكَافِرَةَ بِاللَّهِ وَ
اليوم الآخر و أخوهم هو «هود» النبي عليه السلام إذْ أَنْذَرَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٢

قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ جمع حقف، و هو رمل مستطيل مرتفع عن الأرض فيه انحناء، و كانت قبيلة عاد يسكنون في «اليمن» في أراض رملية،
و كانت لهم مدن في تلك الأراضى و قد خَلَّتْ أَى مَضَتْ و سبقت التذُرُ جمع نذير، أَى الأنبيا من بَيْنِ يَدَيْهِ قبل هود عليه السّلام و
من خَلْفِهِ بعد هود عليه السّلام- هذه جملة معترضة- لإفادة أن النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم ليس جديدا بل الأنبياء كانوا
مستمرين، قبل هود و بعد هود، و كان هود أيضا نبيا، و كلهم و صوا أممهم أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ فَإِنْ لَمْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، أو عبدتم غير الله ف
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ في هوله، يأخذكم ذلك العذاب في الدنيا قبل الآخرة، و هنا سؤال هو أنه لماذا عبادة غير الله، أو
عدم عبادة الله، توجب العذاب، فهل الله يحتاج إلى العبادة حتى يعذب غير العابد؟

و الجواب أن الله ليس محتاج، و إنما طبيعته عبادة غير الله تنتهي إلى العذاب، كطبيعته الحنظل التي تنتهي إلى المرارة، و طبيعته بيضة
الحية التي تنتهي إلى السم، و هنا سؤال آخر: هو أنه هل هذه الطبيعة يجعل الله، أو خارجه عن إرادة الله، فإن كانت يجعله سبحانه
فلما ذا جعلوا هكذا؟ و إن كانت خارجه عن إرادته، فذلك مما دل العقل على بطلانه، إذ الله قادر على كل شىء؟ و الجواب: هى
بجعل الله، و إنما جعل سبحانه هكذا، لأن الماهيات تتطلب الفيض، و عدم الفيض بخل لا يليق بمقامه سبحانه، و تفصيل المسألة في
الكتب الفلسفية الإسلامية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٣

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتُفَكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ
قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)
[٢٣] قَالُوا أَجِئْنَا يَا هود لتأفكنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا فإننا لا نؤمن بك، فجوابهم لهود عليه السّلام لم يكن تقليدا بحتا، و ضلالا،
بدون حجة و برهان- كما هو شأن كل جاهل معاند- فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا من العذاب على الشرك إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى كلامك و قد
قالوا ذلك له على سبيل الاستهزاء.

[٢٤] قَالَ هود عليه السّلام إِنَّمَا الْعِلْمُ فى وقت عذابكم عِنْدَ اللَّهِ فليس الأمر بيدي حتى أطلب الآن العذاب و أما أنا فشأنى أن أُبَلِّغُكُمْ ما
أُرْسِلْتُ بِهِ و قد فعلت ذلك و لَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ لأنكم تتركون الحجة التي أتيت بها إليكم و تأخذون بالعناد، و لا بد أن يأتى
يوم ينزل عليكم العذاب حيث لا ينفع الندم.

[٢٥] حتى إذا بلغوا كل مبلغ من العتو و أخبرهم هود بوقت عذاب الله، و كانت بلادهم خصبة فأصابهم القحط، و لم ينفعهم ذلك
أيضا فى رجوعهم، فلا الحجة أفادت، و لا أرضاهم الذى من الله به عليهم، و لا القحط الذى أصابهم، فاستحقوا العقاب فلَمَّا رَأَوْهُ رَأَوْا
العذاب و كان ريحا سوداء لاحت لهم من الأفق عارضا أى شيئا كالسحاب ذى المطر عرض فى أفق السماء مُسْتَقْبِلَ متوجهة أَوْدِيَّتِهِمْ
جمع وادى، الصحراء التي تسيل فيها السيول قالوا جهلا منهم بحقيقته

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٤

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا
لَهُمْ سَمِيعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْتِدَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمِيعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْتِدَّتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَاقَ بِهِمْ ما
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦)

العارض هذا عارضٌ سحاب مُمِطٌنا فنخرج من القحط و أجابهم هود عليه السلام كلاً بل هو ما العذاب الذى اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ طلبتموه و قلتم: فأتنا بما تعدنا، هى رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ مؤلم و لعل رياح نخوتهم تبدلت إلى رياح العذاب، كما أن أنهار فرعون التى كان يفتخر بها فى قوله «و هذه الأنهار تجرى من تحتى» و صارت سبباً لادعائه الألوهية، تجمعت فصارت سبباً لغرقه و هلاكه، فإن العذاب من جنس العصيان.

[٢٦] تَدْمَرُ تَهْلِكُ هذه الرياح كُلُّ شَيْءٍ من المباني و الأشجار و الإنسان و الحيوان بِأَمْرِ رَبِّهَا فلا يمكن أن يقف أمامها شىء فجاءتهم و أهلكتهم و أصبحوا لا يرى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ أما فى المساكن و من فى المساكن فقد هلكت، فإذا حضر إنسان تلك البلاد لم ير إلا آثار بيوتهم، و إنما بقيت للعبرة كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ و هل العذاب كان خارقاً أو كان عادياً؟ احتمالان: و على أى حال فالعذاب عذاب كيفما كان قال سبحانه قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ «١».

[٢٧] وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ أَى قوم هود عليه السلام فيما إن قد مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ من

(١) الأنعام: ٦٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٥

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٢٧]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)

القوى البدنية و العقلية، و الإمكانيات الكونية، فأنتم و إياهم سواء فى إعطاء الله سبحانه نعمه و جعلنا لَهُمْ سَمْعًا يَسْمَعُونَ به آيات الله و أَبْصَارًا يرون بها آثار الله و أَفْتِدَةً يعرفون بها المعقولات و يميزون بها بين الحق و الباطل، و قدم السمع، لأن السمع غالباً أكثر دركا من البصر إنه يسمع الأخبار من الأزمنة و الأمكنة البعيدة بخلاف البصر الذى لا يرى إلا فى شعاع محدود، و الأفتدة تتأخر فى الإدراك عن السمع و البصر، لأنهما بابان إلى الفؤاد فما أغنى عَنْهُمْ ما أفاد فى الدفاع عنهم سَمْعُهُمْ و لا أَبْصَارُهُمْ و لا أَفْتِدَتُهُمْ لأنهم لم يستعملوها فيما يفيدهم، و إنما لم تنفعهم فى إنقاذهم من العذاب مِنْ شَيْءٍ من الإغناء أى و لو إغناء قليلاً إذ كانوا يَجْحَدُونَ ينكرون بما يرونه و يسمعونه و يفهمونه من آيات الله اللطيفة، و الكونية و حاق نزل بِهِمْ ما كانوا به يَشْتَهَرُونَ أى استهزأهم، فإن استهزاءهم صار عذاباً منزل بهم، و قد سبق أن عمل الإنسان كالبذر ينمو و ينمو و ينمو حتى يصل إلى ثمرة، فاحذروا أيها الناس أن ينزل بكم العذاب كما نزل بهم، فإنه بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و إن لم يكن عذاب خارق، لكن لا شك أنه تكون عذابات متناسبة و الأعمال، فإن لكل انحراف آثار سيئه، كما هو واضح عقلاً و دل عليه الدليل الشرعى.

[٢٨] و اعلموا يا أيها البشر أن العذاب لم يكن خاصاً بقوم هود بل كل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٦

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٢٨]

فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

مخالف لا بد و أن ينال عذابه و لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ ما فى أطرافكم يا أهل مكة مِنَ الْقُرَى كقرى قوم هود، و قوم صالح، و قوم لوط، و غيرها و قد صِرَفْنَا آيَاتِنَا التى تنبههم من الرخاء و البلاء و الإعجاز، و التصريف جعل الشىء من حاله إلى حاله، فسبب التنبيه لهم صار عدة مرات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لكنهم لم يرجعوا عن غيهم فأخذهم العذاب، حتى يروا جزاء أعمالهم، و حتى يعتبر بهم البشر الآتون بعدهم إنهم إذا خالفوا كان مصيرهم مصير أولئك.

[٢٩] فلو كانت تلك الأصنام آلهة، كما كان يزعم قوم هود عليه السلام فَلَوْ لَا لِمَاذَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ أَى الأصنام، و جىء لهم بضمير

العاقل، لأن عبادها كانوا يزعمون أن تلك الأصنام عقلاء اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا أَي يتقربون بهم إلى الله، حيث كان الكفار يقولون «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» آلهة مفعول «اتخذوا» بَلْ ضَلُّوا و غابوا تلك الأصنام عَنْهُمْ عن نصره أولئك القوم و لذا لم ينصروهم ساعة نزول عذاب الله وَ ذَلِكَ الأثر أى العذاب، عاقبة إفكهم و كذبهم، فإن الأصنام لم ينصروهم، بل هى تلك الأصنام صارت سبب بلائهم و عذابهم وَ ذلك سبب افتراءهم و قوله سبحانه ما كانوا يفترون يؤول بالمصدر، أى افتراءهم، ف «إفكهم» أى عدولهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٧

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)

عن الحق، و «افتراءهم» أى لجوءهم إلى الباطل فإن كل مبطل له عملان انصرافه عن الحق، و اتخاذه الباطل، لا يقال كل مؤمن يقتل كالأنبياء و الحسين عليهم السلام و غيرهم، أيضا لا ينصرهم الله تعالى لإنقاذهم من أيدى الظلمة، لأنه يقال أولئك عذبوا بالعذاب السماوى و لو كانت آلهتهم مربوطة بالسماء لم يعذبوا، بخلاف الصالحين فإنهم قتلوا بأيدي الأشرار.

[٣٠] وَ كَيْفَ يَكْفُرُ أَهْلُ مَكَّةَ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ قَدْ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةُ، وَ إِنَّهُمْ عَلِمُوا بِإِيمَانِ الْجِنِّ بِكَ، وَ قَدْ عَلِمَ الْكُفْرَانُ بِإِيمَانِ الْجِنِّ، بِوَاسِطَةِ كَهْنَتِهِمْ، وَ هَذِهِ حِجَّةٌ أُخْرَى عَلَيْهِمْ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا وَجَهْنَا إِلَيْكَ جَمَاعَةً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ حَضَرُوا قِرَاءَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِلْقُرْآنِ قَالُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَنصتُوا اسكتوا حتى نفهم القرآن فهما كاملا فلما قُضِيَ انتهى الرسول من قراءته وَلَّوْا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ لهم بأنهم إن لم يؤمنوا بالقرآن حاق بهم العذاب.

[٣١] قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ لَعَلَّ أَوْلَئِكَ الْجِنِّ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ بَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنَّ فِي الْجِنِّ، كَمَا فِي الْإِنْسَانِ أَدْيَانَ وَ مَذَاهِبَ، أَوْ لِأَنَّ كِتَابَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَتَمَّ لِكِتَابِ مُوسَى أَوْ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَيَتِمُّ الْكُفْرَانُ مِنَ الْإِسْتِفْسَارِ مِنْهُمْ هَلْ هُنَاكَ جِنٌّ مُؤْمِنُونَ، فَذَكَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٨

[سورة الأحقاف (٤٦): الآيات ٣١ الى ٣٢]

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أَوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)

حال كون ذلك الكتاب مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لما قبله من الكتب المنزلة يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ الحق هو المطابقة للواقع وَ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنَّ الْوَصُولَ إِلَى الْهَدَفِ «الحق» قد يكون بطريق مستقيم، و قد يكون بطريق غير مستقيم.

[٣٢] يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ الذى هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ الْإِضَافَةُ تَشْرِيفِيَّةٌ وَ آمِنُوا بِهِ الْإِجَابَةُ أَنْ يَذْهَبَ الْإِنْسَانُ لِيَسْمَعَ كَلَامَ الْمُنَادِي، وَ الْإِيمَانُ هُوَ قَبُولُ كَلَامِهِ، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ بَعْضُهَا، لِأَنَّ حَقُوقَ النَّاسِ لَا تَسْقُطُ بِالْإِيمَانِ، إِلَّا بِقَدْرِ خَاصِّ مَذْكَورٍ فِي الْفِقْهِ، فَإِذَا كَانَ الْكَافِرُ مَدِينًا لَزِيدٍ فِي شَرَاءِ دَارٍ وَ أَنْكَرَ ذَلِكَ، وَ آمَنَ لَمْ يَجِبْهُ الْإِسْلَامُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَ يَجْزِكُمْ يَحْفَظْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ مؤلم، فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ إِذْ خِلَافٌ أَوْامِرِ اللَّهِ يَوْجِبُ آلَامَ الدُّنْيَا أَيْضًا.

[٣٣] وَ لَّا يَظُنُّ ظَانَ أَنَّهُ يَمْكُنُ الْهَرَبَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ لَا يَعْجِزُ اللَّهُ بِأَنْ يَهْرَبَ مِنْهُ، وَ لَا يَتِمُّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَمْكُنُ الْفِرَارَ مِنْ حُكُومَتِهِ فِي الْأَرْضِ أَي مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ كَانَ شَمَلَهُ سُلْطَانُ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمَجْرِمَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحُكُومَةِ لَا يَعْجِزُهَا فِي مَدِينَةِ الْحُكُومَةِ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٤٩

[سورة الأحقاف (٤٦): آية ٣٣]

سميت بهذا الاسم وب «القتال» لاشتمالها على كلا الاسمين، وهى كسائر السور المدنية تعالج قضايا الشريعة. ولما ختمت سورة الأحقاف بتهديد الكفار بعذاب الآخرة، افتتحت هذه السورة بتهديدهم بعذاب الدنيا و ضلال أعمالهم، فلا تنفعهم فى نجاتهم من أيدي المؤمنين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدئ باسمه تعالى، ليبارك لنا فى أمورنا، فإن اسم الله بركه، توجب الثبات و الدوام، فإنه وحده هو الدائم، فكلمنا ارتبط به كان له نسيب الدوام «الرحمن الرحيم» فإن الرحم إعطاء بدون استحقاق، و الله يعطى الإنسان خلقه و وجوده بدون استحقاق، ثم يعطيه حوائجه بدون استحقاق أيضا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٣

[سورة محمد (٤٧): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَضَلَّحَ بِالْهَمِّ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)

[٢] الَّذِينَ كَفَرُوا بِانكار الله أو التشريك معه و إنكار أنبيائه و أوصيائهم و إنكار المعاد وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عَنْ طريقه بمنع الناس عن الهداية، فهم أجمروا مرة بكفرهم و مرة بمنع الآخرين عن الإيمان أَضَلَّ اللَّهُ أَى أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ التى كانوا يظنون أنها تنفعهم كالصدقة و إقراء الضيف و نحوهما.

[٣] وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الصفات الصالحة، فإن الإيمان بدون العمل الصالح لا ينجى كما أن العمل الصالح بدون الإيمان لا ينفع و حيث انه كان مورد توهم أن يقول أهل الكتاب نحن أيضا مؤمنون عاملون بالصالحات، خصص تعالى بقوله وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و من الواضح أن الإيمان بالقرآن يلزم الإيمان برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نفسه وَ هُوَ أَى مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْحَقُّ النَّازِلُ مِنْ رَبِّهِمْ مِنْ رَبِّ الْمُؤْمِنِينَ كَفَرَ اللَّهُ، أى ستر و أبطل عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ السابقة على إيمانهم وَ أَضَلَّحَ اللَّهُ بِالْهَمِّ أى حالهم و شأنهم بأن وفقهم و هداهم لأن ينظموا أمورهم بحيث يكون حالهم فى الدنيا و الآخرة حسنا، فإن العمل بمنهاج الإسلام يصلح شؤون الإنسان.

[٤] ذَلِكَ الذى تقدم من ضلال أعمال الكفار، و كفران سيئات المؤمنين و إصلاح أمرهم بسبب أن الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ الْبَاطِلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٤

[سورة محمد (٤٧): آية ٤]

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمْهُمُ فَشُدُّوا الوثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لَكِن لِيَبْلُوَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤)

كالمرض يبطل أثر الأطعمة الطيبة و يفسد الأعضاء الصحيحة وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ، و أن المؤمنين اتبعوا الحق يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ أى الأمثال النافعة لهم، فالحق مثل المؤمن و الباطل مثل الكافر.

[٥] و إذ ظهر أن الكفار معاندون فَإِذَا لَقِيتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا فى حالة الحرب فَضَرْبِ الرِّقَابِ اضربوا رقابهم ضربا و اقتلوهم حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمْهُمُ أى أكثرتم من قتلهم و الجرح فيهم، حتى استسلموا، يقال فلان مشخن أى ثقيل للحمل الذى عليه، و جماعة

الكفار إذا كثر فيهم القتل والجرح، يكونون كالإنسان الثقيل الذي لا يتمكن من الحركة و القتال فَشُدُّوا الوَثَاقَ الوَثَاقَ ما يوثق به من الحبل ونحوه أى شدوهم بالوثاق، كناية عن أسرهم، و بعد ذلك فإمَّا تمنون عليهم منَّا بَعْدُ بإطلاق سراحهم بدون أخذ الفدية وإمَّا تفدون و تأخذون منهم فداءً مقابل إطلاق سراحهم، و إنما تفعلون ذلك حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أوزارها الوزر الثقل، أى أثنالها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٥

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٥ الى ٧]

سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلِّحُ بِهِمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) فإن للحرب أثقالا كالسلاح ونحوها، وإضافتها إلى الحرب مجازية، و ظاهر الآية أن المراد بالإثخان و شد الوثاق إنما هو لأجل انتهاء الحرب، و كأنه جواب سؤال مقدر هو لماذا قتل الناس و لماذا أسرهم؟ و الجواب حتى لا تكون حربا ذلك الذى ذكرناه هو التكليف و لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصِرَ مِنْهُمْ لَغلب المسلمين على الكفار بدون القتال، لأنه سبحانه قادر على كل شىء و لكن لم يستأصل الكفار و لم ييدهم لِيُثَلِّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا يمتحن المؤمنين بقتالهم فيسيهم الجنة، و الكافرين بقتالهم للمؤمنين فيجزئهم بالنار و الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَا تظنوا أنه تلف و ذهب، كما هو ظن الذين لا يعتقدون باليوم الآخر، و لذا يفرون من الجهاد فَلَنْ يُضِلَّ اللَّهُ، و لن يضع أعمالهم الصالحة، فهم أحياء و يرون جزاء أعمالهم الحسنه.

[٦] سَيَهْدِيهِمُ اللَّهُ، إلى الجنة، و إنما جاء «بالسين» لأن الجنة بعد البرزخ و يُضِلِّحُ بِهِمْ أى شأنهم فى البرزخ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

[٧] وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ فى حال كونه سبحانه عَرَفَهَا لَهُمْ قبل ذلك، و من المعلوم أن ترقب الخير يوجب سرور النفس.

[٨] و لا يظن المؤمنون أنهم إذا حضروا القتال بالأهبة و الاستعداد يتركهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٦

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٨ الى ١٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)

الله، حتى يتغلب عليهم الكفار بل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ بِنصره دينه و نبيه و نصره ما جاء به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يَنْصُرْكُمْ اللهُ على عدوكم و يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ كالإنسان الواقف على أرض صلبة، لا إن الله ينصركم أولاً، ثم يترككم و شأنكم بل يبقى معكم يرشدكم فى سبيل الحياة، و لا يخفى أن «نصره الله» غيبى، و بالأسباب الظاهرة أيضا و هى أن الإنسان إذا علم أنه مع الله استبسلى فى القتال و ارتفعت معنوياته، مما توجب نصرته على الكفار الفاقدين للمعنويات.

[٩] و الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا انْحطاطا لَهُمْ أى فينحطون انْحطاطا، فى الدنيا بالمغلوبيه و فى الآخرة بأنه سبحانه أَضَلَّ أَعْمَالَهُمُ الصالحة، فلا يثابون عليها.

[١٠] و ذَلِكَ التَعَسُّ بِسبب أنهم الكافرين كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تكبرا و عنادا بعد أن تبين لهم أنه الحق فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَبطل أَعْمَالَهُمُ الصالحة، فلا لهم دنيا سعيدة و التى تعبوا لأجلها، و لا لهم آخرة مريحة حيث كفروا بها.

[١١] ثم اللانزم على هؤلاء الكفار، إن لم يقبلوا بالحجة و الدليل، أن يخافوا سوء العاقبة كما عاقبنا الكفار من الأمم السابقة أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يَسَافِرُوا إلى اليمن و إلى الشام و إلى غيرها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٧

[سورة محمد (٤٧): الآيات ١١ الى ١٢]

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكُافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢)

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ كَذَبُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَدْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَادَهُمْ وَأَفْنَاهُمْ، وَآثَارَهُمْ موجودة، كما في اليمن من آثار قوم عاد، و في قرب الشام من آثار قوم لوط، إلى غيرهما من سائر الآثار للأمم البائدة، و لو لم يكونوا بائدين، لبقيت مدنهم و أحفادهم، لكنهم سادوا، فعصوا، فبادوا و للكافرين بك يا رسول الله أمثالها أمثال تلك العقابات التي أنزلت بالأمم السابقة.

[١٢] و إنما نصر الله المؤمنين و أباد الكافرين ذلكك بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَلِيَهُمْ وَأَنَّ الْكُافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ حَتَّى يَدْفَعَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ، بل المولى الحقيقى لهم و هو الله عدوهم و معذبهم.

[١٣] و حيث إنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ الْجَنَّةِ الْحَدِيقَةِ سَمِيَتْ جَنَّةً لِاسْتِتَارِ أَرْضِهَا بِالْأَشْجَارِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَى مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا، و هذا جزاء إيمانهم و عملهم الصالح و أما الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا عَقِيدَةَ لَهُمْ وَ لَا عَمَلَ صَالِحٍ بَلْ يَتَمَتَّعُونَ فِي الدُّنْيَا بِمَا مَلَاحِظَةُ الْهَدَفِ وَ بِدُونِ جَعْلِ دُنْيَاهُمْ وَسِيلَةً أَخْرَجَتْهُمْ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَزَوَّدُ وَ الْكَافِرَ يَتَمَتَّعُ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ بِمَا مَلَاحِظَةُ قَبْلِ الْأَكْلِ وَ لَا مَلَاحِظَةَ بَعْدَ الْأَكْلِ، فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مَا يَحْصُلُونَهُ مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ وَ لَا يَلْحَظُونَ فِي أَكْلِهِمْ هَدَفَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٨

[سورة محمد (٤٧): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤)

الطاعة و العبادة، تشبيها بالأنعام التي لا تلاحظ شيئا بخلاف العاقل الذي يلاحظ ألا يكون المال سرقة و نحوها قبلا و ألا يكون ضارا بعد الأكل و حيث أنهم لم يلاحظوا الهدف ف النار مَثْوًى لَهُمْ أى مرجعهم و منزلهم.

[١٤] و إذا ترى يا رسول الله أن أهل مكة أخرجوك بأن أجبروك على الهروب فلا تحزن فإننا سننتقم منهم إذ كَأَيِّنْ أَى كثير من قَرْيَةٍ مَدِينَةٍ، فَإِنَّ الْقَرْيَةَ تَطْلُقُ عَلَى كُلِّ مَدِينَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ مِنْ حَيْثُ الْمَالُ وَ السِّلَاحُ وَ الرِّجَالُ وَ الْعِمْرَانُ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ لَمَّا أَخْرَجُوا أَنْبِيَاءَهُمْ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِنَا فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ حِينَ أَخْرَجُوا أَنْبِيَاءَهُمْ، حَتَّى يَدْفَعَهُمْ عَنِ الْعَذَابِ.

[١٥] كما أن اللازم ألا يعتم المؤمنين الذين أخرجهم أهل مكة فإنهم على بينة من ربهم و هذا أكبر تسلى لهم أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ حِجَّةً وَاضِحَةً فِي عَقِيدَتِهِ وَ فِي سُلُوكِهِ مِنْ رَبِّهِ فَإِنَّ الْحِجَّةَ إِذَا كَانَتْ مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ كَانَتْ قَطْعِيَّةَ الْفَائِدَةِ وَ الصَّحَّةَ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ زَيْنَ الشَّيْطَانِ وَ الْهَوَى لَهُ، وَ إِنْ كَانَ عَقْلُهُ يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِهِ مِثْلَ كِفَارِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ لَيْسَ يَتَسَاوَى هَذَا بِذَاكَ فَلَا يَحْزَنُ الْمُؤْمِنُونَ لَمَّا أَصَابَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَ أَنَّ أَعْدَائَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٥٩

[سورة محمد (٤٧): آية ١٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)

[١٦] إنهم أخرجوا الرسول و المؤمنين من مكة، لكن الله أعد لهم المدينة المنورة في الدنيا، و الجنة في الآخرة و الجنة خير من منازلهم في مكة مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ مِثْلَ مَدِينَةٍ لَيْسَتْ أَمْثَالَ مَدَنِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَدَنَ الدُّنْيَا لَا يُوْجَدُ فِيهَا الشَّيْءُ الْمَطْلُوبُ، وَ إِنْ وَجَدَ فِيهَا فَهُوَ قَلِيلٌ أَوْ فَاسِدٌ أَمَا الْجَنَّةُ فَإِنَّ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ غَيْرِ مُتَغَيِّرِ الطَّعْمِ وَ الرِّيحِ، وَ فِيهِ تَعْرِضُ بِمَكَّةَ حَيْثُ أَنَّ مِيَاهَهَا قَلِيلَةٌ وَ آسِنَةٌ لِأَنَّهَا تَبْقَى فِي الْحَبَابِ وَ الْأَحْوَاضِ فَتَتَغَيَّرُ! وَ هَذَا وَ مَا بَعْدَهُ شَبَهٌ تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ مَكَّةَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ

يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ بخلاف لبن الدنيا فإنه إذا بقى تغير طعمه و أَنَهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَهْدَةٌ لذيذَةٌ لِلشَّارِبِينَ لا فيها سوء مذاق و لا فيها سكر بحيث تنغص لذة الشارب بخلاف خمر الدنيا.

وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَيِّمٍ لا يخالطه الشمع و فضلات النحل و لَهُمْ للمؤمنين فيها فى الجنة مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ لا كمكة لا ثمار فيها، و حيث أن المؤمنين حرموا من ما كان عندهم فى مكة من الماء و الشراب، و العسل و اللبن و الثمار القليلة، و لم يحرموا من زوجاتهم بل كن معهم، لم يذكر فى الآية الكريمة الحور و ما ذكر مما لهم فى الجنة بدل عما حرموه، ثم أن المؤمنين حرموا عطف و حنان الكفار الذين كانوا يعطفون عليهم قبل الإسلام، إذ صاروا لهم أعداء، عوض الله لهم عن ذلك برضاه و عطفه فقال سبحانه مبشرا لهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٠

[سورة محمد (٤٧): آية ١٦]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)

مَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ و هذه لذة معنوية حيث يعلمون أن الله غفر لهم و رضى عنهم، فهل هذه النعم التى حصل عليها المؤمنون تتساوى مع ما حصل عليها الكفار من النار و الماء الحار؟ و هل هؤلاء المؤمنون كمن هو خالد فى النار لهم حرق النار، و حزن أنهم يعلمون أنهم خالدون و إذا عطشوا و طلبوا الماء شقوا ماء حميماً أى حاراً ففقط ذلك الماء من فرط الحرارة أمعاءهم و الآية، و إن كان مساقها فى المؤمنين و الكافرين من أهل مكة، كما ذكرنا، إلى أنها عامة لكل مؤمن و كافر - كما هو واضح -.

[١٧] و إذا تبين أهوال الكفار فى الآخرة فليعلم المنافقون الذين ظاهرهم معك يا رسول الله و باطنهم على خلافك، أنهم أيضا لهم مصير الكفار، و علامتهم أنهم لا يعون كلامك و لا يهتمون بأمرك فإن منهم مَنْ يَشْتَمِعُ إِلَيْكَ بعد أن يحضر مجلسك فى ضمن المؤمنين، لكن ليس قلبه عندك حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من المؤمنين، حيث أن المؤمنين وعوا كلامك و تعلموا أوامرهم ما إذا قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم آنفاً أى قبل قليل فى أول وقت يقرب منا، من استأنف الشيء إذا ابتدأ به، كأنه عند أنفه أُولَئِكَ المنافقون الذين هذه صفتهم هم الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فإنهم بعنادهم حصلوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦١

[سورة محمد (٤٧): الآيات ١٧ الى ١٨]

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)

على حالة فى قلوبهم، تمنعهم عن وعى كلام الرسول، فصارت ملكة لهم، و النسبة إلى الله، لأن الله سبحانه جعل هذه الملكة عقيب تكرر اللامبالاة، كما جعل العدالة عقيب تكرر الكف عن المحرمات و اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فى الباطل و لم يتبعوا الحق، فهؤلاء المنافقون حالهم حال الكفار الذين تقدم أنهم اتبعوا أهوائهم فهم مثلهم فى العقاب، و إيمانهم الظاهرى لا ينفعهم.

[١٨] و بالعكس من المنافقين الذين يزدادون غيا، إذ كل مرة ينصرفون عن كلام الرسول و أوامره تزداد غشاوة قلوبهم سمكا، كما فى سائر الملكات التى تتقوى بالتكرار و الممارسة الَّذِينَ اهْتَدَوْا حقيقته من المؤمنين زادهم الله هدى بكلمات الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إذ تتقوى ملكة الإيمان فى قلوبهم و آتَاهُمْ أعطاهم الله تقواهم اللاتفة بهم، إذ ترفع درجات التقوى فى نفس الإنسان المؤمن حتى تصل إلى غايتها الممكنة.

[١٩] فليرجع المنافقون عن غيهم قبل مجىء يوم القيامة و إلا ندموا على ما فعلوا إذا رأوا العذاب فَهَلْ يَنْظُرُونَ أى المنافقون إلى شىء إِلَّا السَّاعَةَ كناية عن أنهم لا يؤمنون حقيقة و لو جاءهم كل آية أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أى فجأة بدون استعداد سابق، لكن إذا كان المنافقون ينتظرون الساعة، فليعلموا أنها قريبة إذ قد جاء أَشْرَاطُهَا علاماتها التى منها بعثه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و انشقاق القمر،

فالمدة من زمان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٢

[سورة محمد (٤٧): آية ١٩]

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّمًا (١٩)

إلى الساعة، أقرب من المدة بين آدم عليه السَّلام و الساعة، أو موسى عليه السَّلام و الساعة و هكذا فَأَنَّى لَهُمُ الْمُنَافِقِينَ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ أَي ما ذكروا به، والمراد بذكرهم الساعة، وقوله سبحانه «فأني» جواب «فهل» أي إن كان ينظر المنافقون إلى الساعة حتى يؤمنوا:

فأولاً: جاءتهم علاماتها فاللزام أن يؤمنوا:

فأولاً: جاءتهم علاماتها فاللزام أن تؤمنوا و ثانياً: ما هي فائدة مجيء الساعة إذ حين ذاك لا يقبل الإيمان، وقوله سبحانه «فأني» للامتناع، أي ليس لهم حين قيام الساعة، أن يؤمنوا.

[٢٠] و إذا علمت يا رسول الله سعادة المؤمنين و شقاوة الكافرين و المنافقين فاعلم أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أثبت على علمك، لأن العلم فياض إلى الإنسان آنا بعد آن، كما أن النور فياض من الشمس آنا بعد آن، فيامكان الإنسان أن يبقى على علمه و بإمكانه أن يترك علمه و يعمل عمل غير العالم و اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ أكمل النفس بالاستغفار فإن العلائق المادية الضرورية، حيث لا يمكن رفعها، كان لا بد من التواضع أمام الله، بالاستغفار، حتى يحوز على الكمال الممكن، مثلا ان العارى الذى لا ملابس له، إذا جاءه إنسان اعتذر من عريه و الاعتذار ليس لأنه فعل خطأ بل لأجل التواضع أمام ذلك الإنسان و هذا النحو من التواضع يزدده جاها عند الزائر، و هذا هو سبب استغفار الأنبياء و الأئمة عليهم السلام.

أما العبادات الخاصة في كلام الإمامين أمير المؤمنين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٣

[سورة محمد (٤٧): آية ٢٠]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ (٢٠)

و السجادة عليه السلام و غيرهما عليهم السلام فإنها كنايةات و مجازات تشبها للنواقص الضرورية بالنواقص الحقيقية و استغفر للمؤمنين و المؤمنات بطلب غفران الله لهم و الله يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ و متوَكِّمًا حين ترجعون إلى بيوتكم للنمام و الاستراحة، فاللزام أن تخشوه و تستغفروه لأنه معكم دائما، فهو سبحانه جدير بأن تعتقدوا به، كما في «و اعلم...» و أن تستغفروه كما في «و استغفر...».

[٢١] و إذ تبين أن الله هو الإله الوحيد الواجب إنفاذ أمره و طلب الغفران منه، فاللزام إطاعته في الذهاب إلى الجهاد، بالإضافة إلى أن المؤمنين هم طلبوا من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الجهاد و وعدوا أن يجاهدوا إذا أمروا به و قد كان يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا أَي هلا- «تحريض و طلب» نَزَّلَتْ سُورَةٌ تأمرنا بالجهاد فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ مبينة لا لبس و لا تشابه فيها- فلا تكون محلا للعدر بالتأويل- و ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ بأن كان فيها أمرا بالحرب رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ من المنافقين و مرض القلب هنا انطباعه على خلاف الأوامر و الفرار من الطاعة يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ يا رسول الله نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ فَإِنْ من غشى عليه من جهة قرب الموت إليه تدور عينه في حالة بهت، ثم يشخص بصره إلى ناحية لا يتمكن من حركتها، و هكذا حال الجبناء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٤

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٢١ إلى ٢٢]

طَاعِيَةً وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَمْ يُدْفِعُوا اللَّهَ لَكَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)

عند شدة الخوف و مثل هؤلاء فالموت أولى لهم من الحياة، و هذا دعاء عليهم بالهلاك.

[٢٢] إن المنافقين قالوا قبل نزول سورة القتال طاعة أى نحن مطيعون و قولٌ معروفٌ أى كان قولهم قولاً معروفاً، حول الجهاد فإذا عزم الأمر أى صار الجهاد عزمًا و جدًّا بنزول السورة فى شأنه، انسحب المنافقون عن الميدان، فعصوا عوض الطاعة، و أخذوا يتكلمون بما لا يليق بإنسان مؤمن أن يتكلم بمثله عوض «قول معروف» كانوا يتكلمون به سابقا، و هذه الآية تفسير للآية السابقة «وَيَقُولُ الَّذِينَ...» «فإذا نزلت...» فَلَوْ صَدَّقُوا اللَّهَ فيما زعموا من الحرص على الجهاد، بأن أطاعوا عند نزول حكم القتال لَكَانَ الصَّدَقُ خَيْرًا لَهُمْ فى دينهم و دنياهم.

[٢٣] و حيث أنهم هربوا من القتال، أخذوا يعييون أنفسهم فى القرى و غيرها لئلا يكونوا بحضور المؤمنين و أخذوا يفسدون بالطعن فى الرسول و فى أرحامهم المؤمنين الملتفين حوله ليبرروا موقفهم فى الابتعاد عن الرسول و عن المؤمنين، كما هو شأن كل منافق يبتعد عن القيادة و يخالف الإطاعة فَهَلْ عَسَيْتُمْ هل يتوقع منكم إلا هذا، فإن «عسى» بمعنى الاحتمال القريب الوقوع إِنْ تَوَلَّيْتُمْ عن الجهاد أَنْ تُفْسِدُوا فى الْأَرْضِ بالطعن فى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المؤمنين وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ الذين التفوا حول الرسول و أطاعوا أوامره،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٥

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنْ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥)

و هذه الصفة تنطبق على كل من يتولى عن القيادة الإسلامية الصحيحة فى كل زمان و مكان.

[٢٤] أُولَئِكَ الَّذِينَ تلك صفاتهم- و إن كانوا مؤمنين حسب الظاهر- هم الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فأبعدهم عن كل خير، بسبب انحرافهم عن جادة الإيمان فَأَصَمَّهُمُ اللَّهُ عن استماع الحق وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ عن رؤية الحق و نسبة الفعلين إلى الله، بينما أنه بأنفسهم صموا أسمعهم و غمضوا أعينهم عن الحق، من جهة أن الله تركهم و شأنهم، كما يقال أفسد الوالد ولده، إذ تركه و شأنه حتى فسد.

[٢٥] أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ هؤلاء المنافقون الْقُرْآنَ ليفهموا أن الله جازى المخالفين من الأمم السابقة بعقاب الدنيا و عذاب الآخرة، لعلمهم يردعون عن غيهم أَمْ عَلَى قُلُوبٍ قُلُوبِهِمْ أَقْفَالُهَا فلا يمكنهم التدبر؟ أى يقدرون فلا يتدبرون، أَمْ لا يقدرون؟ و هذه عبارة بلاغية تقال فى مورد كناية عن أن الطرف معاند لا ينفع معه الوعظ و الإرشاد، كما يقال «لمن سقط فى البئر» هل غمضت عينيك أَمْ أنت أعمى؟ و لعل تنكير القلوب لأجل إفادة ابتعادها حتى كأنها نكرة، و إضافة الأفعال إليها، لبيان أن للقلوب أقفال خاصة، هى التعامى و العناد، مما يسبب عدم نفاذ العلم و الفضيلة فيها.

[٢٦] و ليعلم هؤلاء المنافقون الذين يفرون من القتال، أن الشيطان صار قائدهم، بعد أن كانوا تحت سلطان الله الخالق العظيم، فهم انساقوا وراء عدوهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٦

[سورة محمد (٤٧): آية ٢٦]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فى بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا رَجَعُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ بدل أن يسيروا إلى الأمام، رجعوا قهقرى من طرف الدبر إلى الخلف مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ ظَهْرَ لَهُمْ الْهُدَىٰ و عرفوا الحق الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ سهل لهم ركوب الآثام، من السؤل بمعنى الاسترخاء وَ أَمْلَىٰ لَهُمْ أى قرر عليهم، كالذى يملى

على الآخر الشيء ليكتبه، فالشيطان أولاً جعلهم رخوا، ثم قرر لهم أن يخرجوا عن الطاعة.

[٢٧] وإنما تمكن الشيطان من الأخذ بقيادتهم، لأنهم انحرفوا عن طاعة الرسول إلى طاعة الكفار وحيث بدلوا قيادة الله إلى قيادة الشيطان تمكن الشيطان منهم ذلكَ التمكّن من الشيطان من قيادتهم بسبب أنهم قالوا للكفار للذين كرهوا ما نزل الله إذ الكفار كرهوا القرآن والرسول سيُطيعكم في بعض الأمر كما هو شأن المنافقين دائماً، إنهم يميلون قليلاً إلى جانب الأعداء، وهذا الميل القليل ينتهي بهم إلى الميل الكثير، ثم تبديل القيادة من الإيمان إلى الكفر، وفي هذا تنبيه على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يميل قليلاً، وإلا انحرفوا، كما قال الله سبحانه ثم كان عاقبة الذين أساؤا السواى أن كذبوا بآيات الله «١» والله يعلم إسرارهم السر الذي ناجوا به

(١) الروم: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٧

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٢٧ إلى ٢٩]

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩)

الكفار أولاً- حتى حصل الانحراف أخيراً، وفي هذا تهديدهم وتنبه للآخرين أن لا يتخذوا الكفار أولياء، إذ الكافر بالآخرة يحزف المسلم.

[٢٨] هذا حالهم في الدنيا فضيحة وانحراف فكيف بهم في الآخرة إذا توفتتهم الملائكة آخذين أرواحهم في حال كون الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ ضرب الوجه لتوجههم إلى الكفار وضرب الدبر لاستدبارهم الحق والمؤمنين.

[٢٩] وإنما صار ذلكَ حالهم عند الموت بسبب أنهم اتبعوا ما أسخط الله من ترك أوامره وكرهوا رضوانه كرهوا رضى الله فأحبط أفعالهم الصالحة والتسلسل الطبيعي، أنهم اتبعوا ما أسخط الله فذهبوا إلى المنافقين، فارتدوا، فخرت دنياهم وآخرتهم، وأسلوب القرآن، كأسلوب الكون في جمع المختلف، حيث كان القصد جمال الكون، فمأ إلى جنب شجر، إلى جنب حيوان إلى آخره، وكذلك فعل الله سبحانه في كتابه التكويني وذلك لشحذ الذهن، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتاب «حول القرآن الحكيم».

[٣٠] ثم ليعلم هؤلاء المنافقون أن نفاقهم لحفظ ماء وجههم عند كلا الجانبين يعود عليهم بأكبر الضرر حيث إن الكفار لا يعتمدون عليهم،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٨

[سورة محمد (٤٧): آية ٣٠]

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَالْعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)

كما هو واضح، والمؤمنون يعرفون ضمايرهم فيسلبون اعتمادهم أيضاً، فيبقون مكروهين من الجانبين أم حسب بل زعم الذين في قلوبهم مرض مرض النفاق أن لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ أحقادهم، نحو الرسول ونحو المؤمنين، كلا ليس كذلك بل تظهر أحقادهم، كما

قال الإمام على عليه السلام «ما نوى امرء شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه و صفحات وجهه»

«١».

[٣١] وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ رُؤْيَا الْعَيْنِ بَأَن يَنْزِلَ جِبْرَائِيلُ وَيَقُولُ إِنَّهُمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، لكن الله على الأغلب يترك الأمور مع الأنبياء على طبيعة الحياة، من دون إعجاز، ليتخذهم الناس أسوء، لثلا- يقول الناس أنهم قدروا على إدارة الأمور من جهة الوحي والغيب، ولا

نتمكن نحن مثلهم فيتقاعسوا عن العمل فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّمَاهُمْ سيما الإنسان ملامح وجهه، لكننا لا نشاء ذلك، لما تقدم ثم ابتدأ سبحانه بقوله وَكَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ أَي أَنْ فلتات ألسنتهم تدلّك عليهم و اللحن هو الإمالة، فإن المنافق يميل بكلامه، حيث إن قلبه لا يرضى أن يتكلم حسب موازين الإيمان وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ أعمال المؤمنين و المنافقين فاللازم مراقبته سبحانه، و هذا تهديد للمنافق بأنه بالإضافة إلى أنه يفضح في الدنيا، فهو يجزى بالجزاء في الآخرة، لأن الله يعلم عمله.

(١) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٢٠٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٦٩

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَكَتَبُوا لَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبِّطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢)

[٣٢] ثم لا يظن المؤمنون أنهم بمعزل عن الاختبار، و إن الاختبار أسقط المنافقين، و أظهر طيب جوهر المؤمنين، و انتهى كل شيء - كما يزعم ذلك من نجاح في الامتحان الأول غالباً- وَكَتَبُوا لَكُمْ أَي نمتحنكم أيها المؤمنون حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ من غير المجاهدين، إذ لا- يكفي الامتحان الأول بالإيمان في ترك الإنسان و شأنه، و قوله «حتى نعلم» أي يقع علمنا على الخارج، أي يصل العلم إلى مرتبة الفعلية بعد أن كان الله عالم لكل ذلك من قبل وَالصَّابِرِينَ إذ من الممكن الشروع في الجهاد، لكن لا يصبر عليه المجاهد وَ حَتَّى نَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ أَي نمتحن أخباركم، فإنه كما يمتحن الإنسان بالجهاد و نحوه، يمتحن خبره هل أن من يصل إليه خبر المجاهد و غير المجاهد، يتبع المجاهد أو غير المجاهد، و امتحان الخبر كناية عن امتحان من يصل إليه الخبر، مجازاً.

[٣٣] ثم إن الكفار و المنافقين يظنون أنهم يضررون الله و ينفعون أنفسهم، و الحال أنهم لا يضررون بل يضررون أنفسهم بحبط أعمالهم إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، أَوْ بَاطِنًا فَقَطْ كَالْمَنَافِقِ وَصَدُّوا مَنَعُوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْ جَعَلُوا النَّاسَ فِي الطَّرِيقِ الْمُنْحَرِفَةِ، حَيْثُ النَّاسُ - إِذَا كَانُوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ - مَشَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ هُمْ فِي شِقِّ «أَي طرف» و الرسول في شِقِّ مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ظَهَرَ الْهُدَىٰ إِذْ قَبْلَ إِتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَا يَحِبُّطُ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٠

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)

لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا بِكُفْرِهِمْ وَ صَدَّهُمْ وَ سَيُحِبِّطُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ يبطئها فلا يعطيهم جزاء حسناً لصدقتهم و عقبتهم و إقرائهم الضيف و نحو ذلك، فهم ضروا أنفسهم و لم يضرروا الله، بينما كانوا يزعمون أنهم ينفعون أنفسهم و يضررون الله.

[٣٤] ف يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الْمَخَالَفَةَ تَعُودُ بِالضَّرَرِ عَلَى الْمَخَالَفِ أَطِيعُوا اللَّهَ فِي أَوْامِرِ الْقُرْآنِ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِيمَا يَأْمُرُ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ الصَّالِحَةَ بسبب العصيان فإن العصيان يحبط العمل الصالح.

[٣٥] و ليعلم الكفار أن باب التوبة لهم مفتوح، فإذا رجعوا إلى الإيمان و الطاعة، غفر الله لهم إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ آمَنُوا وَ عَمِلُوا صَالِحًا أُعْطُوا جِزَاءَ إِيمَانِهِمْ وَ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ سَبِقَ إِيمَانِهِمْ أَوْ لِحَقِّهِ، أما إذا ماتوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانَ وَ النَّدَمَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَ قَدْ ذَكَرْنَا سَابِقًا أَنَّ الْعِنَادَ عَلَى الْكُفْرِ يُوْجِبُ تَبَدُّلَ الْجَوْهَرِ إِلَى النَّارِ الَّذِي لَا يَبْدُلُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى الْجَوْهَرِ النُّورِيِّ، وَ لِذَا لَا غُفْرَانَ لِمَنْ مَاتَ بِكُفْرٍ، أَوْ رَأَى الْمَوْتَ بَعِينَهُ، كَمَا ذَكَرَهُ سَبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ (وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ). «١»

(١) النساء: ١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧١

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٥ الى ٣٦]

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْمَأْعَلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَّزِكُمَ أَعْمَالُكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦)

[٣٦] و إذا علمتم أيها المؤمنون أن الله معكم، و ضد الكافرين فلا تهنؤوا لا تضعفوا عن القتال و لا تدعوا إلى السلم المسالمة مع الكفار خوفا منهم، بخلاف ما إذا كانت الدعوة إلى السلم لمصلحة قلة المسلمين أو نحو ذلك أو كما قال سبحانه و إن جنحوا للسلم فاجنح لها و الحال أنتم المأعلون جمع أعلى، فإن المسلم أعلى حجة، و أعلى قوة، لأن إيمانه يجعله أعلى من جهة المعنويات و هي مهمة جدا في الانتصار و الله معكم ينصركم و يثبت أقدامكم و لن يتزكم أي لن يضع منكم أعمالكم فأنتم أعلى منطلقا و نفسا، و الله معكم، و ترجون جزاء حسنا، و بهذه الجهات الثلاث لا ضعف في المسلمين و يجب أن يعلموها حتى لا يهنؤوا و لا يدعوا إلى السلم.

[٣٧] و إن كان الفرار من الجهاد، لأجل حب الحياة فاعلموا إنما الحياة الدنيا لعب لا حقيقة لها كما لا حقيقة للعب فإن الشيء الذي يلعب به الصبيان شبيه بالأمر الواقعية، و كذلك الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة و لهو يلهي الإنسان و يصرفه عن الأهداف الحقيقية، التي هي رضى الله و الجنة و إن تؤمنوا بالله و تتقوا بترك اللهو و اللعب يؤنكم الله أجوركم اللاتقة بكم، فإن الأجر اللائق بعمل الإنسان، هو رضى الله و الجنة و لا تخافوا من الإيمان و التقوى، حيث يزعم بعض الناس أنه لو آمن يجب عليه أن يدفع ماله في سبيل الله، كلا ليس كذلك لا يسئلكم الله أموالكم كلها،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٢

[سورة محمد (٤٧): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

إِنْ يَسْئَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هُوَ لَاءِ تَدْعُونَ لِنُفُوقَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

بل شيئا يسيرا منها كالخمس و الزكاة و هي لمنفعتكم أيضا.

[٣٨] و إنما لا- يسأل الله كل أموالكم «أى غير الضرورية لكم» مع أن سؤال كل الأموال أولى لما فيه من توسعة رقعة الإسلام و من إنقاذ الناس من براثن المستكبرين؟ لأنه إن يسئلكموها أى كل الأموال فيخفكم فيبالغ في الطلب، فإن الإحفاء بمعنى المبالغة تبخلوا عن عطاء الكل و يخرج الطلب أضغانكم أحقاد صدوركم، و ليس المراد أن الضغن كامن فيظهر، بل هو من قبيل إخراج النبات أى أوجده، و الحاصل أن طلب كل المال، و إن كانت فيه مصلحة إلا أنه تركه سبحانه، لأن أضراره أكثر من منافعه فهو من قبيل «لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك».

[٣٩] و إذ مهد الجوب، بذكر أن الحياة زائلة فلا ينبغي للإنسان أن يتعلق بها، و أن الله لا يريد كل أموالكم صار المجال لإظهار وجوب دفع بعض المال، و ليس ذلك لأمر شخصي، بل لإقامة حكم الله و فى سبيل الله ها للتنبية أنتم أيها المؤمنون هؤلاء أى هم الذين - و الإتيان بهذه العبارة لجلب الانتباه أكثر فأكثر- تدعون يدعوكم الله، و لعل الإتيان بالمجهول، لئلا يكون رده من البخلاء ردا على الله مباشرة؟ إذ قال «يدعوكم الله» لتنفقوا فى سبيل الله للغزو و لمصالح المسلمين و لسد عوز المحتاجين فمنكم من يبخل فلا يعطى أو يعطى أقل من الحق الواجب عليه و أعلموا أن من يبخل فإنما يبخل عن نفسه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٣

لأن ضرر البخل عائد عليه، فكان البخل عن النفس من قبيل «منع عن نفسه الخير» و إنما يعود ضرر البخل إلى الإنسان نفسه، لأن مجتمع البخلاء لا ينمو و إذا لم ينمو المجتمع تضرر الجميع، بما فيهم البخيل نفسه و لا يزعم أحد أن الله إنما يطلب المال لأنه فقير، و

أن الذين يطلب منهم أغنياء؟ ف الله هو الغني إنه يملك كل الكون، و يملك ان يخلق كل شىء بإرادته، فهل مثله فقير؟ وأنتم الفقراء حتى أنكم تحتاجون فى استمرار حياتكم إليه تعالى، و هل مثل هذا الإنسان يسمى غنيا؟ بل إنما يطلب منكم المال ليمتحنكم، و ليعود نفعه إليكم و إن تولوا فلا- تنفقون يشيدل الله بكم قوماً غيركم يقيمهم مقامكم، فإن الخير يلتف حوله الناس، و إنما المهم أن يكون الإنسان من أهل الخير ثم لا- يكونوا أمثالكم فى المخالفة لأوامره سبحانه، و من الطبيعى أن تأتى الأجيال اللاحقة لتعتبر بنواقص الأجيال السابقة فيكملوها فلا يكونوا أمثال أولئك السابقين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٤

٤٨ سورة الفتح مدنية: آياتها (٣٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الفتح» و هى كسائر السور المدنية مشتملة على أحكام الشريعة و لما ختمت سورة محمد صلى الله عليه و آله و سلم بقضايا الجهاد بالنفس و المال، افتتحت هذه السورة بثمره تلك المجاهدات، حيث فتح الله على نبيه مكة المكرمة، ببركة جهاده و جهاد المجاهدين من أصحابه.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الذى يمنح كل خير، و الذى منه فتح مكة «الرحمن الرحيم» بعباده، و لذا يمنحهم ما فيه صلاحهم برحمته الواسعة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٥

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢)

[٢] إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتْحًا مُّبِينًا و اضحا، قالوا نزلت بعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من الحديدية، و المراد أنه سيفتح له، فنزل المضارع المحقق الوقوع منزلة الماضى، لأنه فى كونه يقينا مثل المستقبل، أو المراد أن الحديدية فتح، لأنها كانت سبب الفتح و مفتحته.

[٣] و إنما فتحنا لك ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك على الفتح و ما تأخر أى أن الفتح سبب لغفران كل الذنوب، و المراد به، إما ذنوبه صلى الله عليه و آله و سلم عند الكفار، فإنه كان عاقا قاطعا للرحم عندهم و قد قتل رجالهم و سب آلهم قبل الفتح و بعد الفتح، فإذا سلط عليهم، غمضوا عن ذنوبه، كما هى العادة أن الإنسان إذا تسلط غفر الناس ما يزعمون له من ذنوب، و إما المراد بالذنوب، ما ذكروا من ذنوب الأنبياء، من أنها تعد ذنوبا بالنظر إلى الكمال الواقعى يمنعه الاضطرار إلى المأكل و المشرب و ما أشبهه، فهو نوع من التواضع، يرفع النقص الذى ألجئ إليه اضطرارا، و إما المراد ذنوب الأمة فإن ذنب الأتباع يعد ذنب الرئيس - عرفا- فالجهاد تكميل للمضطر إليه، أو سبب غفران ذنب الأمة و ل يتم نعمة عليك بإعلاء الإسلام و ضم السيطرة إلى النبوة و ل يهديك صراطا مستقيما فإن الهداية تتلاحق آنا بعد آن، و فى حالة بعد حالة، مثلها مثل الحياة، و مثل ماء النهر، فكل خطوة بعدها إما هداية أو ضلال، لأنه إن مشى مستقيما- بعد تلك الخطوة- فهو هداية و إلا كان ضلالا، و الفتح سبب الهداية، لأنه صلى الله عليه و آله و سلم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٦

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٣ الى ٤]

وَ يُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)

يمشى فى البلد المفتوح بسيرة حسنة و هى هداية جديدة.

[٤] وَلَ يُضَيَّرَكَ اللَّهُ فَإِنِ الْفَتْحُ سَبَبُ النَّصْرَةِ «وإن كان نفس الفتح أيضا نصرة» نُصِرًا عَزِيزًا فِيهِ عِزَّةٌ وَمَنْعُهُ فَالْفَتْحُ صَارَ سَبَبًا لِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ، غَفْرَانِ الذَّنْبِ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ، وَالهِدَايَةِ الْجَدِيدَةِ، وَالنَّصْرَةِ الْعَزِيزَةِ.

[٥] وَلِيَشْكُرَ الْمُؤْمِنُونَ نِعْمَةَ الْفَتْحِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ الصِّفَةَ الْمَوْجِبَةَ لِلسَّكُونِ وَالطَّمَأِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ تَهْيِئَةَ الْإِنْسَانِ لِلْمَقْدَمَاتِ تَوْجِبُ إِفَاضَةَ اللَّهِ لِلتَّنَائِجِ، كَمَا أَنَّ تَهْيِئَةَ الزَّارِعِ لِلزَّرْعِ تَوْجِبُ إِفَاضَةَ اللَّهِ لِلنَّبَاتِ، وَلَمَّا اسْتَعَدَّ الْمُؤْمِنُونَ لِلإِطَاعَةِ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ، ذَهَبَ مِنْهُمْ الْخَوْفُ وَالاضْطْرَابُ وَصَارَتْ لَهُمُ الطَّمَأِينَةُ، مِمَّا أُوجِبَتْ فَتَحَهُمُ السَّرِيعُ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا جَدِيدًا مَعَ إِيمَانِهِمُ الْقَدِيمِ، فَإِنَّ سَكُونَ الْقَلْبِ يُوجِبُ التَّفَكُّرَ حَسَنًا وَرُؤْيَةَ الْأَشْيَاءِ كَمَا هِيَ الْوَاقِعُ، فَيُرُونَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَبِذَلِكَ يَزْدَادُونَ إِيمَانًا وَلَا يَزْعَمُ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّهُمْ، بَدُونَ فَضْلِ اللَّهِ تَمَكَّنُوا مِنَ الْفَتْحِ، بَلْ كَانَ مَعَهُمْ جُنْدُ اللَّهِ، مِثْلَ إِقَاءِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، وَإِنْزَالِ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْجُنُودِ الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا يَعْلَمُ كَيْفَ يَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ حَكِيمًا يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوْضِعَهَا فَلَمَّا أَنَّ هَيْئًا الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْقِتَالِ، كَانَتْ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي نَصْرَتَهُمْ، كَمَا أَنَّ الْأَبَّ الْحَكِيمَ يَمُدُّ وَلَدَهُ بِالْمَالِ كُلَّمَا رَأَى حَسَنَ طَاعَتِهِ لَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٧

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٥ إلى ٦]

لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦)

[٦] وَإِنَّمَا فَعَلَ سَبْحَانَهُ مَا فَعَلَ مِنَ النَّصْرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ أَنْ أَطَاعُوا أَمْرَهُ لِيَزِيدَ ثَوَابَهُمْ فَيَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لِأَنَّهُنَّ أَيْضًا كُنَّ مُجَاهِدَاتٍ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيْ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَيْ يَغْطِيهَا وَيُزِيلُهَا، فَإِنَّ الْجِهَادَ سَبَبَ غَفْرَانِ الذَّنْبِ، كَمَا هُوَ سَبَبُ رَفْعِ الدَّرَجَةِ فِي الْجَنَّةِ، فَالمراد بِإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ فِي أَثَرِ الْجِهَادِ، الْجَنَّةَ الرَّفِيعَةَ الَّتِي لَوْ لَا الْجِهَادَ لَمْ يَسْتَحِقُّوْهَا وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا لِأَنَّهُ مَبْتَهَى رَغْبَةِ الْإِنْسَانِ، أَنْ يَكُونَ فِي لَذَّةٍ دَائِمَةٍ، وَ لَعَلَّ ذِكْرَ «عِنْدَ اللَّهِ» لِلإِفَادَةِ بِأَنَّهُمْ فِي نِعْمَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ أَيْضًا، لِأَنَّهُمْ يَلْتَنِدُونَ بِأَنَّهُمْ قَرِبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، قَرِيبًا مَعْنَوِيًّا.

[٧] وَيُعَذِّبُ عَطْفَ عَلَى «يَدْخُلُ» أَيْ أَنَّ اللَّهَ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَمْرَيْنِ:

الأول: لِأَجْلِ رَفْعِهِ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ. وَالثَّانِي: لِيَزِيدَ عَذَابَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ لِأَنَّهُمْ بِنِفَاقِهِمْ فِي بَابِ هَذِهِ النَّصْرَةِ زَادَ عَذَابَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ لِأَنَّهُمْ بِبِقَائِهِمْ عَلَى الشَّرْكِ وَمَحَارَبَتِهِمْ لِلرَّسُولِ زَادَ عَذَابَهُمُ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ حَيْثُ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّهُ كَذَبَ سَبْحَانَهُ مَعَ رَسُولِهِ فِي مَا وَعَدَهُ مِنَ النَّصْرَةِ عَلَيْهِمْ عَلَى أَوْلَثِكَ الْمُنَافِقِينَ وَالكُفَّارِ دَائِرَةُ السُّوءِ أَيْ مَا كَانُوا يَظُنُّونَهُ مِنْ عَدَمِ النَّصْرَةِ، حَتَّى يَسُوءَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٨

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٧ إلى ٨]

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨)

المؤمنون، دائر عليهم و حائق بهم، و سميت دائرة، من دوران الفلك، فقد دارت دائرة سيئه بالنسبة إليهم، و قوله سبحانه «عليهم...» إما إخبار أو ادعاء عليهم و غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَطَعَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ وَ لَعَنَهُمْ أَبْعَدَهُمْ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَغَيَّرُ حَالُهُ، وَ لَا يَعْرِوهُ غَضَبٌ وَ نَحْوَهُ كَمَا قَرَّرَ فِي عِلْمِ أَصُولِ الدِّينِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا أَيْ أَنَّ جَهَنَّمَ مَوْضِعُ سُوءِ بَصِيرَتِهِمْ إِلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

[٨] وَ يُؤَكِّدُ سَبْحَانَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَجُوبَ إِقْدَامِهِمْ فِي الْحُرُوبِ لِأَجْلِ الْإِسْلَامِ، كَرَّرَ سَبْحَانَهُ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَالْحَرُّ وَ الْبَرْدُ وَ

المطر والرياح من جنوده في السماء، والرعب في القلب والتشتت للشمل ونحوهما من جنوده في الأرض، إلى غيرهما من جنوده الكثيرة وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُ لِعِزَّتِهِ حَكِيمًا يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، فَإِذَا نَصَرَ الْمُؤْمِنُونَ دِينَهُ، نَصَرَهُمْ.

[٩] ولما ذكر شيء من صفاته سبحانه، ذكر بعض صفات رسوله، القائد للمؤمنين ليعلم المؤمنون أن قائدهم صالح لقيادتهم إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَاهِدًا عَلَى النَّاسِ لِتَشْهَدَ عَلَى الْمُؤْمِنِ بِالْإِيمَانِ وَعَلَى الْكَافِرِ بِالْكَفْرِ وَعَلَى الْمُنَافِقِ بِالْمُنَافِقِ وَمُبَشِّرًا تَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنَذِيرًا تَنْذِرُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِشَرِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٧٩

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٩ إلى ١٠]

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

[١٠] وإنما أرسلنا الرسول لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لِأَنَّهُ الدَّلَالُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ تَقْوَاهُ بِالنَّصْرَةِ وَذَلِكَ بِتَقْوِيَةِ دِينِهِ وَنَصْرَهُ أَحْكَامَهُ وَتُوَقِّرُوهُ تَعْظُمُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ تَزْهَوُهُ عَنِ الشَّرِيكِ وَعَنِ الْمُنَاقِصِ بُكْرَةً صَبَاحًا وَأَصِيلًا عَصْرًا.

[١١] و إذ عرف المسلمون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ فَالِلَّازِمِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنْ يَبْعَثَهُمْ لَهُ لَازِمُهُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ بَيْعَتَهُ بَيْعَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا نَكَثَ الْإِنْسَانُ بَيْعَتَهُ، فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، كَانَ ضَارًا لِنَفْسِهِ، إِذْ فَائِدَةُ الْبَيْعَةِ تَعُودُ إِلَى نَفْسِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ إِذْ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِمثَلُ اللَّهِ تَعَالَى يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَقَدْ كَانَ أَسْلُوبُ الْبَيْعَةِ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُ يَدَهُ مَمْدُودَةً بَاطِنَهَا إِلَى الْأَرْضِ وَظَاهَرَهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَأْتِي الْمُبَايِعَ فِيمر بَاطِنِ كَفِّهِ بِكَفِّ الرَّسُولِ مَبْتَدَأً مِنْ رَأْسِ الْخَنْصَرِ مَنْتَهِيًا إِلَى رَأْسِ الْإِبْهَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، هَذِهِ هِيَ كَيْفِيَةُ الْبَيْعَةِ، وَهِيَ رَمَزٌ أَنَّ الْبَائِعَ قَدْ بَاعَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ مِنْ نَفْسٍ وَمَالٍ وَغَيْرِهِمَا، لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَبْحَانَهُ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ «١» وَإِتْيَانُ الصِّيغَةِ بِيَابِ الْمَفَاعَلَةِ، لِأَنَّهُ بَاعَ مَا عِنْدَهُ لِيَأْخُذَ بِقَدْرِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، فَالْبَيْعُ مِنَ الطَّرْفَيْنِ، وَإِذَا أَرَادَ شَخْصٌ نَقْضَ الْبَيْعَةِ مَعَ أَمِيرٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، كَانَ يَمْرُ بِيَدِهِ مِنْ رَأْسِ الْإِبْهَامِ

(١) التوبة: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٠

[سورة الفتح (٤٨): آية ١١]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١)

إلى رأس الخنصر، و كما يستفاد من روايتين ذكرهما الفيض «رحمه الله» في الصافي، و يد الله كناية، مثل بيت الله و ناقة الله فَمَنْ نَكَثَ نَقَضَ الْبَيْعَةَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ بِمَا يَعُودُ ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَّبِعْ سَبِيلَ اللَّهِ اتَّبَعَ السَّبِيلَ الْمُنْحَرِفَةَ الَّتِي فِي سَلُوكِهَا الضَّلَالُ وَالْعَذَابُ وَمَنْ أَوْفَى أَى وَفَى، كِلَاهِمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ «١» وَ هَلْ فَائِدَةُ بَابِ الْأَفْعَالِ الدَّلَالَةُ عَلَى كَمَالِ الْوَفَاءِ تَأْكِيدًا لَهُ بِمَا أَى بِالذِّى عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَجْرًا عَظِيمًا وَالسَّيْنُ لِأَجْلِ أَنَّ الْحَصُولَ عَلَى الْفَوَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا، وَ

قد ورد أن هذه الآية نزلت في بيعه الرضوان عام الحديبية، و قد كان تخلف عن رسول الله في سفره إليها قبائل أسلم و جهينة و مزينة و غفار و غيرهم فإنهم بعد أن استنفرهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اعْتَلَوْا بِالشَّغْلِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ

«٢».

[١٢] سَيَقُولُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُخَلَّفُونَ كَأَن ضَعْفَ إِيمَانِهِمْ سَبَبُ مَخَالَفَتِهِمْ، وَ لَذَا جِئَ بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ، مِثْلَ «أَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ» بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ مِنَ الْأَعْرَابِ وَ هُم أَهْلُ الْبَادِيَةِ، وَ لَا يُسَمَّى أَهْلُ

(١) المائة: ٢.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٩ ص ١٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨١

المدن أعراباً، و إنما يسمون عرباً شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا عَنِ السَّفَرِ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاسْتَغْفِرْنَا لَنَا اطَّلَبِ الْغُفْرَانَ مِنَ اللَّهِ عَلَى تَخْلُفِنَا، فَإِنَّهُمْ تَخَلَّفُوا خَوْفًا، وَ لَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مُنْتَصِرًا نَدَمُوا وَ جَاءُوا يَعْتَدِرُونَ، لَكِن كَلَامُهُمْ فِي اعْتِدَارِهِمْ، أَوْلَا، وَ فِي طَلَبِ اسْتِغْفَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَهُمْ ثَانِيًا، كَانَ كَذِبًا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ فَعَدِمَ نَفَرُهُمْ أَوْلَا: كَانَ خَوْفًا، وَ طَلَبِ اسْتِغْفَارِهِمْ ثَانِيًا: كَانَ لِأَجْلِ أَنْ يَمْحُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَ صَمَّةَ الْعَارِ الثِّيِّ لِحَقَّتْ بِهِمْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ قُلُوبًا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَهُمْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هَلْ هُنَاكَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مَنَعِ نَفُوزِ قِضَاءِ اللَّهِ فِيكُمْ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرْبًا بِالْقَتْلِ وَ إِغَارَةَ قَبِيلَةَ عَلَى قَبِيلَةٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَأَنْتُمْ كَانُوا فَرَارِكُمْ خَوْفًا، بَيْنَمَا لَا يَنْفَعُ الْفِرَارُ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ كَانَ مُقَدَّرًا أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا وَ الْآنَ أَنْتُمْ جِئْتُمْ مُعْتَذِرِينَ لِتَحْصُلُوا مِنْ اعْتِدَارِكُمْ عَلَى نَفْعِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْجَاهِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْغَنِيمَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، بَيْنَمَا النِّفْعُ بِيَدِ اللَّهِ، لَا أَنْ اعْتِدَارَكُمْ يَجْرِي إِلَيْكُمْ نَفْعًا، وَ الْحَاصِلُ أَنَّكُمْ كَانْتُمْ أَعْمَالُهُمْ وَ عَدَمَ نَفَرِهِمْ، وَ اعْتِدَارِهِمْ، تَابِعَةٌ لِحُوفِهِمْ وَ رَجَائِهِمْ، بَيْنَمَا الضَّرْرُ وَ النِّفْعُ بِيَدِ اللَّهِ، لَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا فَعَلِمَ سَبَبَ تَخْلُفِكُمْ وَ سَبَبَ اعْتِدَارِكُمْ «عَلَى خِلَافِ مَا أَظْهَرْتُمْ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٢

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٢ إلى ١٤]

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤)

[١٣] ثم بين الله سبحانه كذبهم في دعواهم «شغلنا أموالنا و أهلونا» بقوله بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا لِأَنَّ كِفَارَ مَكَّةَ يَقْتُلُونَهُمْ وَ زَيَّنَ ذَلِكَ الظَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَرْتَابُ أَوْلَا ثُمَّ يَشْكُ ثُمَّ يظنُّ، ثُمَّ يَقْوَى ظَنَّهُ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ الَّذِي يَزِينُ لَهُ فَيَصْرِفُهُ عَنِ الْعَمَلِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَ قَدْ كَانَ الظَّنُّ بَاطِلًا إِذْ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ لَمْ يَكُنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَزِينُ فِي قُلُوبِكُمْ، إِذْ مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ خِطِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْحِكْمَةَ، وَ مِنْ نَصْرَةِ اللَّهِ لَهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَكُمْ عَنْ ظَنِّكُمْ وَ كُنْتُمْ بَانِصِرَافِكُمْ عَنِ النَّصْرِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قَوْمًا بُورًا جَمْعُ بَاثِرٍ، أَي هَالِكِينَ، هَلَكْتَ دُنْيَاكُمْ لِأَنَّكُمْ فَضَحْتُمْ، وَ آخَرْتُمْ لَمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْعِقَابِ.

[١٤] لقد كنتم قوما بورا في الدنيا كما وضح ذلك للجميع و أما أنكم بور في الآخرة فلوضوح أن من لم يؤمن بالله و رسوله كما ظهر ذلك من تخلفكم عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في الساعة الحرجة فإننا أعتدنا هيئنا للكافرين سعيراً نارا تستعر.

[١٥] و الله سبحانه قادر على عذابهم إذ لله ملك السماوات و الأرض لا يتمكن الحروب عن إرادته و لكن إذا رجع هؤلاء إلى التوبة و الطاعة فلعله سبحانه يغفر لهم إذ هو تعالى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٣

[سورة الفتح (٤٨): آية ١٥]

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ و ليست مشيئته اعتبارية بل تابعة لعمل الإنسان فيشاء غفران التائب و عذاب المصّر و كان الله عفورا يستر ذنب التائب رحيماً يرحمه بأن يبدل سيئاته حسنات.

[١٦] و إذ بين سبحانه أن عذرهم كان كذبا، أراد أن يبين أن طلبهم للتوبة و الاستغفار أيضا كذب سيقول المخلّفون الذين تخلفوا عن النصر مع الرسول إلى الحديبية إذا أنطلقتم إلى حرب جديد مما فيه مغنم جمع مغنم بمعنى الغنيمه لتأخذوها ذرونا أي دعونا تنبعكم فحيث كان الخوف من أهل مكة لم يسافروا مع الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، أما حيث حرب طفيفه، يريدون الكون معكم ليحصلوا على الغنائم يريدون أن يبدلوا كلام الله فإن المسلمين استعدوا لقتال أهل مكة في الحديبية ليعلوا الإسلام، لكن كان رأيهم خطأ، إذ ما كان بالإمكان فتح مكة، مع علم أهلها أن الرسول يريد محاربتهم، بل أراد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فتحها في حالة غفلتهم لثلا- تراق دماء، و كان كما أراد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من الصلح، و لما ثقل على المسلمين، حيث لم يحاربوا و لم يحصلوا على مغنم من أهل مكة، وعدهم الله أن يعوضهم عن مغنم مكة بمغنم خبير، فكانت مغنم خبير لأهل الحديبية- حسب وعد الله سبحانه- فإذا تبع المخلّفون المسلمين في فتح خبير كان ذلك تبديلا لكلام الله تعالى، و لذا ف قل يا رسول الله للمخلّفين لئن تبتّعونا إنشاء في صورة إخبار، لبيان أنه محقق

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٤

[سورة الفتح (٤٨): آية ١٦]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتُّدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِّ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)

الوقوع كذلككم أي هكذا و «كم» أداة خطاب قال الله من قبل أي من قبل أن نهياً لخبير، و هو في الحديبية فسيقولون أي المخلّفون بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم، و هذا نفى لكلام المؤمنين حيث قالوا للمخلّفين «إن الله وعد الغنائم لأهل حديبية» بل ليس كما يقول المخلّفون إذ أنهم كانوا لا يفقهون إلا قليلاً فهم لا يفهموا حتى موازين الدنيا، فإن من عليه الغرم فله الغنم، لا أن يكون الخوف و الصعوبة للمؤمنين، ثم يشاركهم المخلّفون في الغنائم.

[١٧] قل يا رسول الله للمخلفين من الأعراب كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في ذمهم و إشعارا بشناعه تخلفهم ستدعون إلى قتال قوم أولى بأس شديد حيث يكون فيه الخوف و الغنم معاً، فإنكم حيث لم تتحملوا خوف الحديبية لا- تأخذون من غنائم خبير. أما في المستقبل لنا حرب مع قوم أولى بأس شديد، كأهل مكة «حين نريد فتحها» و «كحرب حنين» و «كحرب الطائف» و غيرها، فلکم أن تأتوا معنا لتنالوا قسطكم من صعوبة الحرب، و قسطكم من غنائمها تقاتلونهم أو يسلمون فإما القتال حتى النصر، أو أن يسلموا بدون قتال، و لعله إشارة إلى أن أهل مكة استسلموا بدون قتال، و أن أهل حنين قوتلوا إلى أن انتصر المسلمون فإن تطيعوا باستجابة الذهاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٥

[سورة الفتح (٤٨): آية ١٧]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

مع المسلمين إلى قتال هؤلاء يؤتكم الله أجراً حسناً بتوسعه التجارة مع أهل مكة، و بالغنائم في حنين بالإضافة إلى ثواب الله في الآخرة و إن تتولوا و لم تحضروا القتال كما توليتهم من قبل في الحديبية يعذبكم عذاباً أليماً مؤلماً لتضاعف جرمكم، بإصراركم على مخالفة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

[١٨] نعم لا يجب حضور الجهاد على الكل فالمتخلف في الحديبية و في غير الحديبية لا يشمل التهديد و الوعيد ف ليس على الأعْمى

حَرَجَ أَي لا- نشدت عليه بإلزامه حضور الحرب وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ لِأَنَّهُ لا يَتِمَكَّنُ مِنَ اللَّحَاقِ بِالْمُجَاهِدِينَ الْمَاشِينَ، وَ لا يَقْدِرُ عَلَى رُكُوبِ الْفَرَسِ، لَعَدَمِ وَصُولِ رِجْلِهِ إِلَى الرُّكَّابِ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ إِذَا كَانَ مَرَضُهُ يَمْنَعُهُ مِنَ السَّيْرِ وَ إِذَا أُطْعِمَ أَيُّهَا الْمَخْلُفُونَ، فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِذَا دَعَاكُمْ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَى الْحَرْبِ فَإِنَّ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَلَا يَذُوقُ حَرَّ الصَّحْرَاءِ، لِأَنَّهُ فِي جَنَّةٍ، وَ لا عَطَشَ شَحَّ الْمَاءِ، لِأَنَّهُ عِنْدَ الْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ مِنْكُمْ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمًا، وَ قَدْ كَرَّرَ سَبْحَانَهُ التَّهْدِيدَ لِيَكُونَ أَبْلَغُ فِي التَّخْوِيفِ وَ لِيَهَيِّئَ نَفْسَهُمْ لِقَبُولِ الْأَمْرِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٦

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ١٨ إلى ١٩]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ آثَابَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا (١٨) وَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

[١٩] ثم جاء الكلام لينقل قصة الحديبية لتكون بشارة للمؤمنين الذين شهدوا الحديبية، و تعريضا بالمتخلفين لزيادة تحذيرهم عن التخلف ثانية فقال سبحانه لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ كَانَتْ فِي الْحَدِيبَةِ شَجْرَةٌ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تَحْتَهَا، وَ أَخَذَ الْبَيْعَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ لِمَحَارَبَةِ قُرَيْشٍ، حِينَ أَشْبَحَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا رَسُولَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَيْهِمْ، وَ هَذِهِ الْبَيْعَةُ سَمِيَتْ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ» وَ الْمَرَادُ بِرِضَى زِيَادَةِ الرِّضَا، لِأَنَّ اللَّهَ كَانَ رَاضِيًا عَنْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ رِضَاهُ بِبَيْعَتِهِمْ فَعَلِمَ اللَّهُ بِسَبَبِ بَيْعَتِهِمْ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْإِخْلَاصِ، وَ الْمَرَادُ رَفْعَ عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ عَلَى الْمَعْلُومِ حِينَ وَجَدَ الْمَعْلُومَ فِي الْخَارِجِ، فَالْمَرَادُ ظَهَرَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَ هَذَا الظُّهُورُ كَانَ مَعْلُومًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَ عَلَى هَذَا «فَالْفَاءُ» فِي فَعَلِمَ، لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ لَا التَّرْتِيبِ الْخَارِجِي فَانزَلَ اللَّهُ جَزَاءً لِبَيْعَتِهِمُ السَّكِينَةَ سَكُونِ النَّفْسِ عَلَيْهِمْ وَ آثَابَهُمْ وَ أَعْطَاهُمْ ثَوَابًا لِذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا هُوَ فَتَحُهُمْ لَخَيْبَرَ بَعْدَ انصِرَافِهِمْ مِنَ الْحَدِيبَةِ.

[٢٠] وَ آثَابَهُمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا مِنْ خَيْبَرَ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا غَالِبًا عَلَى أَمْرِهِ حَكِيمًا يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ حَسَبَ الْمَصْلَحَةِ وَ الْحِكْمَةِ، فَحَرَكَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَى الْحَدِيبَةِ، أَفَادَتْ طَغَى الْقَبَائِلَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ حَيْثُ مَنَعُوا عَنِ الْحَرَمِ، كَمَا فَتَحَتْ الطَّرِيقَ أَمَامَ فَتْحِ مَكَّةَ حَيْثُ أَنْقَضَ الْمُشْرِكِينَ لِلْعَهْدِ أَعْطَى الزَّمَامَ بِيَدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِيَهَاجِمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٧

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٠ إلى ٢١]

وَ عَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لَتَكُونَ آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١)

مَكَّةَ دِفَاعًا، وَ كَذَلِكَ كَرَسَ - مَنَعَهُمْ عَنِ الْحَجِّ - نَفْسَهُمْ إِلَى التَّصْمِيمِ عَلَى فَتْحِ خَيْبَرَ.

[٢١] وَ عَدَّكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا وَ هِيَ الْمَغَانِمُ الَّتِي حَصَلَ وَ يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْذُ الْحَدِيبَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ مَغَانِمَ خَيْبَرَ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ أَيُّهَا أَهْلُ خَيْبَرَ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى مُحَارَبَتِكُمْ، إِذْ أَنَّهُمْ ذَهَلُوا وَ سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ فَلَمْ يَحَارِبُوا بِقُدْرَتِهِمْ الْوَاقِعِيَّةِ وَ لَتَكُونَ هَذِهِ الْغَنَائِمُ، وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فَظَهَرَ صِدْقُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَيْثُ أَخْبَرَهُمْ قَبْلَ خَيْبَرَ أَنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ وَ يَغْنَمُونَ غَنَائِمَ كَثِيرَةً، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ «لَتَكُونَ» عَطَفَ عَلَى مُقَدَّرِ يَفْهَمُ مِنَ الْكَلَامِ السَّابِقِ فَكَأَنَّهُ قَالَ «عَجَّلَ الْغَنِيمَةَ وَ كَفَّ الْأَعْدَاءَ» لِتَنْتَفِعُوا مَادِيًا، وَ لَتَكُونَ آيَةٌ لِتَنْتَفِعُوا مَعْنَوِيًا وَ يَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا عَطَفَ عَلَى «لَتَكُونَ» إِذِ الْمَعْنَوِيَّةُ الْمَادِيَّةُ وَ الْمَعْنَوِيَّةُ تَزِيدُ الْإِنْسَانَ صَلَابَةً لِلِاسْتِقَامَةِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ خَطْوَةٍ فِي الْحَيَاةِ، إِمَّا مُسْتَقِيمَةٌ أَوْ مَنحَرَفَةٌ.

[٢٢] وَ أُخْرَى عَطَفَ عَلَى «هَذِهِ» أَي عَجَلَ لَكُمْ غَنَائِمَ خَيْبَرَ وَ ادْخَرَ لَكُمْ غَنَائِمَ أُخْرَى هِيَ غَنَائِمُ هَوَازِنَ لَمْ تَقْدِرُوا بَعْدَ عَلَيْهَا لِأَنَّهُ لَمْ تَقَعِ

حرب هوازن بعد قد أحاط الله بها أي استولى عليها بالعلم والقدرة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٨

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٢ إلى ٢٣]

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّهَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) مثل الدائرة المحيطة بالشيء حيث لا يقدر ذلك الشيء التخلص من تلك الدائرة و كان الله على كل شيء قديرًا فسيرشدكم على كيفية التسلط على تلك الغنائم، وهذا إما إخبار بالغيب أو أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يعرفه بتجسس تجمع المشركين للقضاء على المسلمين، فإن للحرب أرسادا في الغالب.

[٢٣] إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صالح في الحديبية، وحارب مع أهل خيبر، وقد اجتمع لمناصرة خيبر حلفاؤهم، لكنهم لما رأوا قوة الرسول انهزموا و لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ حَلْفَاءِ خَيْبَرَ لَوْلُوا الْأَذْبَارَ وَ انْهَزَمُوا وَ انْكَسَرُوا فِي الْقِتَالِ، وَ ذَلِكَ لَوْضُوحٌ أَنَّهُ لَوْ انْهَزَمَتِ الْقُوَّةُ الْأَقْوَى لَانْهَزَمَتِ الْقُوَّةُ الْأَضْعَفُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ أَوْلِيَاءَ وَ لَوْلَا يَلِي أُمُورَهُمْ بِالتَّوَسُّطِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ إعطائهم المعلومات ونحوها كما يفعل أولياء كل جماعة بهم و لَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ فِي حَرْبِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ.

[٢٤] هذه هي سنة الله طريقته حيث ينصر أوليائه على أعدائه، و يعطى الأولياء غنائم الأعداء الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ إِن قَلتْ فَكَيْفَ كَانَ يَقْتُلُ الْكُفَّارَ الْأَنْبِيَاءَ، قَلتْ كَانُوا يَتَسَلَطُونَ عَلَيْهِمْ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِلنَّبِيِّ جَمَاعَةٌ مَدَافِعَةٌ، أَمَا إِذَا كَانَتْ فَسُنَّةُ اللَّهِ نَصْرَهُ الْأَنْبِيَاءَ، لَا يَقَالُ إِذَا لَا فَرْقَ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ بَيْنَ غَيْرِهِمْ، لِأَنَّهُ يَقَالُ الْفَرْقُ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَنْتَصِرُونَ وَ لَوْ بَدُونَ مَكَافَأَتَهُ الْقَوَى بِخِلَافِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٨٩

[سورة الفتح (٤٨): الآيات ٢٤ إلى ٢٥]

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْيَهْدَى مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْلَا - رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)

غير الأنبياء عليهم السلام. إن قلت و كذلك بعض الأمم الضعيفة تغلب على الأمم القوية قلت: إذا أخذت الغلبة بالمعنى المادى أى تبديل أناس فى الحكم بأناس آخرين فقط بدون تغيير النظام فهى موجودة فى أى فئة قليلة مصممة تغلب فئة كثيرة غير مصممة، أما إذا أخذت بالمعنى المادى والمعنوى فتلك خاصة بأهل الله تعالى و لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا إِذْ إِنَّ قَوَانِينَ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ لَا تَتَغَيَّرُ، فَهِيَ جَارِيَةٌ إِلَى زَوَالِ الْحَيَاةِ عَنِ الْأَرْضِ.

[٢٥] ثم بين سبحانه فلسفة الصلح فى الحديبية، و لتوضيح أن النصره كانت هناك للمؤمنين - حسب سنة الله - و إنما يقاتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا - لخوف الانهزام بل لمصلحه أخرى و هو الله سبحانه الذى كَفَّ مَنعَ أَيْدِيَهُمْ أَيْدِيَ الْكُفَّارِ عَنْكُمْ فَلَمْ يَتَجَرَّعُوا عَلَى قِتَالِكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ فقبلتم الصلح و تركتم الحرب بِبَطْنِ مَكَّةَ مَرَكِزَ الْعَدَاوَةِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَلَمْ تَقَعِ الْحَرْبُ فِي بَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ فبعد أن كانوا يغزونكم فى المدينة طلبوا منكم الصلح فى الحديبية و هذا ظفر معنوى و كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا حَيْثُ أَطْعَمَ الرَّسُولَ بَعْدَ الْحَرْبِ، مَعَ أَنَّ رَأْيَكُمْ كَانَ الْحَرْبِ، وَ كُنْتُمْ تَرَوْنَ عَدَمَ الْحَرْبِ انْهَزَامًا.

[٢٦] و قد كان أهل مكة مستحقين للحرب لأنهم هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٠

و رسوله و صَدُّوكُمْ مَنعُوكُمْ عَنِ زِيَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَيْثُ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرِيدُونَ الْعِمْرَةَ وَ مَنَعُوا عَنِ الْيَهْدَى الْإِبِلَ الَّتِي سَاقَهَا الْمُسْلِمُونَ لِعِمْرَتِهِمْ مَعْكُوفًا مِنْ عَكْفٍ إِذَا حَبَسَ لِأَنَّ الْإِبِلَ كَانَ مَحْبُوسًا عَلَى الْيَهْدَى لِيَنْحَرَّ بَعْدَ قِضَاءِ الْعِمْرَةِ، فَقَدْ مَنَعَ الْمَشْرُكَونَ أَنْ

يَبْلُغُ الْهَدَى مَجَلَّةَ الْمَكَانِ الَّذِي يَنْحَرِفُ فِيهِ بِمَكَّةَ، وَ بِهَذَا قَدْ اسْتَحَقُّوا الْقِتَالَ مَرَّةً لِكُفْرِهِمْ، وَ مَرَّةً لَصُدُّهِمْ عَنِ الْمَسْجِدِ، وَ مَرَّةً لِمَنْعِهِمْ الْهَدَى، وَ مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَفَّ اللَّهُ تَعَالَى أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ وَ لَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ فِي مَكَّةَ مَخْتَلِطِينَ بِالْكَفَّارِ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ بِأَشْخَاصِهِمْ، لِتَتَجَنَّبُوا قِتَالَهُمْ عِنْدَ قِتَالِكُمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ تَطَّوُّهُمْ بِدَلِّ اسْتِمَالٍ مِنْ «رِجَالٍ مُؤْمِنُونَ...» أَيْ لَوْ لَا خَوْفٌ سَحَقَكُمْ «وَ وَطَّكُمْ» فِي حَالِهِ حَرْبِ الْمُشْرِكِينَ، لِرِجَالٍ وَ نِسَاءٍ مُسْلِمِينَ فَإِذَا وَطَّاتْمُوهُمْ تَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ جِهَةِ أَوْلِيَّتِكُمُ الْمَسْحُوقِينَ مَعْرَةً أَيْ مَكْرُوهَ إِذْ يَحْزَنُ الْمُسْلِمُ أَنْ يَقْتُلَ الْمُسْلِمَ، إِذَا وَقَعَ الْقِتْلُ اسْتِبَاہَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَعْيِيرِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا حَتَّى إِخْوَانَهُمْ فِي الدِّينِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْكُمْ الْمُسْلِمُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَوْلُهُ «لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» لِيَبَانَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَوْلِيَّتِكُمُ الْمُسْلِمِينَ، وَ قَوْلُهُ «بِغَيْرِ عِلْمٍ» لِيَبَانَ أَنَّ سَحَقَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَلَا تَكَرَّرَ، وَ جَوَابُ «لَوْ لَا» مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، أَيْ لَوْ لَا خَوْفٌ سَحَقَكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَجْهُولِينَ، لَمَا كَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَ إِنَّمَا كُنَّا نَجِيزُ لَكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩١

[سورة الفتح (٤٨): آية ٢٦]

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَ كَانِ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)

فِي حَرْبِ أَهْلِ مَكَّةَ لَوْ لَا خَوْفٌ سَحَقَ الْمُؤْمِنِينَ لِيُدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الَّذِينَ يَحَارِبُونَ، فَظَاهِرٌ «لِيُدْخَلَ» أَنَّهُ تَعْلِيلٌ لِلْجَوَابِ الْمَحْذُوفِ، فِي الْآيَةِ مَعْلُولَانِ «الْحَرْبِ» وَ «الْكَفِّ» وَ عَلَتَانِ «الإِدْخَالُ فِي الرَّحْمَةِ لِلأَوَّلِ» وَ «خَوْفُ السَّحَقِ لِلثَّانِي» لَكِنْ لَمَّا كَانَ الثَّانِي أَهْمًا، رَجَحَهُ سَبْحَانَهُ عَلَى الْأَوَّلِ، ثُمَّ أَكَّدَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْكَفَّ عَنِ الْحَرْبِ كَانَ لَخَوْفِ سَحَقِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ لَوْ تَزَيَّلُوا تَفَرَّقُوا وَ تَمَيَّزَ الْمُسْلِمُ عَنِ الْكَافِرِ- فِي أَهْلِ مَكَّةَ- لَعَيَّدْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ- فِي قِبَالِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ- عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمًا، بِالْقِتْلِ وَ الْأَسْرِ وَ غَنِيمَةِ الْأَمْوَالِ.

[٢٧] وَ قَدْ كَانَ كَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ وَ حَتَّى لَا تَقَعَ الْحَرْبُ إِذْ فِي زَمَانِ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ أَيْ الْكِبْرَ وَ الْأَنْفَةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّ «الْحَمِيَّةَ» مُشْتَقَّةُ الْحَمَى، وَ قَدْ تَسْتَعْمَلُ لِحَمِيَّةِ الْخَيْرِ، وَ قَدْ تَسْتَعْمَلُ لِحَمِيَّةِ الشَّرِّ، وَ لِذَا بَيْنَهُ سَبْحَانَهُ، بِأَنَّهَا كَانَتْ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، إِذِ الْجَاهِلُ يَحْمِي عَنِ الْبَاطِلِ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَقَرَّرَ الصَّلْحُ بَيْنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ بَيْنَ رَسُولِ الْمُشْرِكِينَ

«فِي الْحَدِيثِ» قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا صَالِحٌ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أَهْلُ مَكَّةَ ... فَقَالَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرِ «رَسُولُ الْمُشْرِكِينَ» بَلْ اكْتُبْ «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»- وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ اسْمَ الرَّحْمَنِ لِجَهْلِهِمْ- وَ لَا تَكْتُبْ رَسُولُ اللَّهِ، لِأَنَّ لَوْ عَرَفَنَاهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٢

[سورة الفتح (٤٨): آية ٢٧]

لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسِكُمْ وَ مَقْصُرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)

رَسُولًا مَا حَارِبَنَاهُ ... فَأَمَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا قَالَ سَهِيلٌ، وَ لَوْ لَا مَسَامِحَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَاشْتَعَلَتْ نَارُ الْحَرْبِ

«١» فَقَدْ جَعَلَ رَسُولُ الْمُشْرِكِينَ فِي قَلْبِهِ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ لَكِنْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ سَكُونَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يَصْرُوا عَلَى كَيْفِيَّةِ كِتَابَةِ الْكِتَابِ الصَّلْحِ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى فَجَنَحُوا إِلَى الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ فِي أَنْ لَا- يَنْسَاقُوا وَرَاءَ الْكِبْرِ فَتَقَعَ الْحَرْبُ، وَ يَسْحَقُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَجْهُولُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ، وَ «السَّكِينَةُ» هِيَ حِلْمُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنُونَ، فِي حَالِ قَدْرَتِهِمْ عَلَى

الحرب و المراد بالكلمة «الشعار» فإن المؤمنين جعلوا شعارهم التقوى، فكلما وقعت مشكلة، التفوا حول هذا الشعار و كانوا الرسول و المؤمنون أحق بها من المشركين، لأن المؤمن أحق بتجنيب المزالق من غير المؤمن و كانوا أهلها أهل التقوى، من قبيل قولنا: أهل الرجل أحق باتباع الرجل و كان الله بكل شئ عليمًا يعلم ما يفعله المؤمنون من جهة تقواهم، فيثيبهم عليه، كما يعلم ما يفعله الكفار من جهة حميتهم فيعاقبهم عليه.

[٢٨] كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم قبل خروجه إلى الحديبية رأى في المنام أنه و المؤمنين معه دخلوا المسجد الحرام، فنقل رؤياه للمؤمنين، و لما

(١) راجع وقعة صفين: ص ٥٠٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٣

قبل صلى الله عليه و آله و سلم الصلح في الحديبية و لم يدخل المسجد الحرام، تساءل المؤمنون عن مدى صحة الرؤيا، و هل كانت أضغاث أحلام؟ و إذا كانت صادقة فلما ذا لم تتحقق؟ و أجاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن الرؤيا صحيحة و أنهم يدخلون المسجد، و لكن ما ظنه المسلمون من أن تحقق الرؤيا يكون في هذه السنة «سنة الحديبية» كان غير صحيح ف لقد صدق الله رسوله الرؤيا فكان ما أراه الله في المنام صدق بالحق الصدق هو مطابقة الخبر للواقع، و الحق هو مطابقة الواقع للخبر، و قد يجتمعان للتأكيد، أو المراد أن ما أراه تعالى له صلى الله عليه و آله و سلم كان صدقا «يقع في المستقبل» متلبسا «بالحق» أى بالغرض الصحيح و الحكمة البالغة، فأنتم أيها المؤمنون لتدخلن المسجد الحرام مؤكدا «باللام» و «نون الثقيلة» إن شاء الله إن شاء الله إما كلمة تبرك، فليس لها معنى الشرط، أو هي مثل لفظ «لعل» الذى يستعمله القرآن الحكيم المراد به أن الكلام محل «لعل» أو محل «إن شاء الله» و إن كان سبحانه لا يرجو شيئا و لا شك له حتى يعلق على المشيئة، فهو كاستعمال الأمر بقصد التهديد أو ما أشبهه، و كذلك فى كل إنشاء و إخبار، قد يستعملان بقصد آخر، فى حال كونهم آمنين عن محاربة الكفار لكم، و فى حال كونكم مخلقين رؤسكم و مقصيرين من أظفاركم و غيرهما، و الظاهر أن المراد أن قسما محلق و قسما مقصر لا تخافون بعد ذلك، فالأمن حين الدخول، و عدم الخوف بعد ذلك فلمجرد الترتيب فى الكلام علم الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٤

[سورة الفتح (٤٨): آية ٢٨]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨)

ما لم تعلموا من كون المصلحة تأخير دخول المسجد الحرام، و قد تقدم أن المصلحة ظهرت بعد ذلك فجعل من دون ذلك من قبل دخولكم المسجد الحرام فتحاً قريباً هو فتح خبير، و بذلك قوى الإسلام و اطمأن المسلمون بالنصر و الغنائم، إلى أن تيسر وقت فتح مكة، تصديقا لرؤيا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

[٢٩] و كيف زعم بعض المسلمين فى الحديبية أنهم انهزموا، حتى قال قائلهم ما شككت فى نبوة محمد صلى الله عليه و آله و سلم مثل شكى يوم الحديبية و الحال أن الله هو الذى أرسل رسوله بالهدى يصحبه الهدى، لهداية الناس إلى الحياة السعيدة فى الدنيا و الآخرة و دین الحق الدين هى الطريقة، و الحق هو الواقع «لأن لكل شئ واقعا صحيحا» فالدين الحق هو الطريقة، و الهدى عبارة عن الهداية إليه، كما يقال هديته إلى الطريق، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم جاء بأن يهدى الناس، و كأن معه خريطة دين الحق، و إنما أرسله الله سبحانه ليظهره ليغلبه على الدين كله كل الأديان، سواء كانت سماوية منسوخة أو غير سماوية و كفى بالله شهيدا فالله يشهد بأنه رسوله و أن ما أتى به هو الدين الحق، و شهادته سبحانه عبارة عن جعله تعالى الفطرة البشرية موافقة له، و جعل الحج له، أو المراد جعل المعجزة المصدقة للرسول صلى الله عليه و آله و سلم معه، ثم إنه كما يحق لمخترع الطائرة أن يقول ستعم الطائرة كل

البلاد، و سينسخ السفر بالدواب «لأنه يعلم ذلك بالمقايسة بين المركوبين، و بفهم طبيعة البشر المائلة إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٥

[سورة الفتح (٤٨): آية ٢٩]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

الراحة» كذلك ظهور الإسلام على الأديان كلها، شىء موافق للمنطق، بعد فهم طبيعة الإنسان المائلة إلى الأخذ بالمنهج الصحيح، و فهم طبيعة الإسلام و مقايسته بسائر الأديان ليظهر أنه الألام بطبيعة الإنسان.

[٣٠] و إذ تقدم الكلام عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و عن المؤمنين به و عن المنافقين ذكر الله تعالى صفاتهم الظاهرة ليعرف بها المؤمن عن المنافق مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ظاهر الآية أنه مبتدأ و خبر و الَّذِينَ مَعَهُ من المؤمنين أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ لأن الكافر مبدأه فاسد مفسد فإذا لم يؤخذ بالشدة لإيقافه عند حده فسد و أفسد، لكن المراد بالشدة العقلانية «كما هو المتبادر منه» لا الشدة بمعنى المساواة و الإفراط رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ يرحم بعضهم بعضا، فإن أرواحهم تتلاقى بالإيمان، مما يوجب رحم بعضهم بعضا تَرَاهُمْ أيها الرائي رُكَّعًا سُجَّدًا لكثرة صلاتهم يَبْتَغُونَ أى يلتمسون بكثرة الصلاة فَضْلًا و زيادة مِنَ اللَّهِ ثوابا و رِضْوَانًا يطلبون مرضاته فهؤلاء سِيَّمَاهُمْ علامة إيمانهم فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ كالسمة التي تحدث في جباههم من كثرة سجودهم، فهذه ثلاث صفات لهم، صفة مع الأعداء، و صفة مع المؤمنين، و صفة مع الله ذلك الوصف الذي ذكر لهم مَثَلُهُمْ أى وصفهم فِي التَّوْرَةِ المنزلة على موسى عليه السَّلام و مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ المنزلة على عيسى عليه السَّلام فقد وصف المؤمنون في الكتابين، بالأوصاف الثلاثة المتقدمة، ثم بين سبحانه حالة نومهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٦

و تكاثرهم، من جراء تلك الأوصاف الثلاثة السابقة، فهم كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ أى فراخه فَآزَرَهُ فقواه، أى قوى الزرع فراخه، إذ الفراخ يقوى قليلا قليلا فَاسْتَغْلَظَ ذلك الزرع أى صار من الدقة إلى الغلظة فَاسْتَوَى و استقام ذلك الزرع بعد الغلظة عَلَى سُوقِهِ جمع ساق، فإنه كان فى بدو أمره، بدون فراخ، و بدون غلظة الساق، و بدون الاستقامة، فإذا هبت به ريح أمالته و ربما قلعتة يُعْجِبُ ذلك الزرع الزُّرَّاعَ من منظره و فراخه و غلظته و قوته و كذلك بدأ المؤمنون قليلين، ثم أفرخوا فألحقوا بأنفسهم أناسا آخرين، فهم كالفرخ بالنسبة إلى المؤمنين الأولين، و بذلك حصل مؤازرة السابقين للاحقين، و بذلك صار الأولون أقوىاء كأنهم استغلظوا، لأن من وجد الأعوان يقوى، و حينذاك قاموا بأنفسهم أشداء، لا تخوفهم رياح الكفر، و لا يمثل بهم أعاصير الباطل لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ اللام للعاقبة، مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا و حزنا، أى كان عاقبة كونهم كالزرع الكذائى غيظ الكفار، و لعل الإتيان بهذه الصفة «غيظ الكافرين» لأجل بيان أنهم لغيظهم يكيدون للمؤمنين، مما يعطى المؤمنين تبرير قتالهم و استئصال شأفتهم، و بذلك «يظهره على الدين كله» وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ إشارة إلى أن كل هذه الكثرة التي التفت حول الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مما هم كالزرع، ليسوا من أصحاب الجنة بل المؤمنون منهم فقط كذلك مَغْفِرَةً غفرانا لذنوبهم وَّ أَجْرًا عَظِيمًا فى الآخرة، فدنيا المؤمنين كزرع كذا، و آخرتهم غفران و أجر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٧

٤٩ سورة الحجرات مدنية / آياتها (١٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الحجرات» و هى كباقي السور المدنية مشتملة على قضايا الشريعة. و لما ختمت سورة

الفتح بصفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالمؤمنين معه ابتدأت هذه السورة ببعض وظائف المؤمنين اتجاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[١] بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ نستعين في أمورنا كلها بالله، ليكون الله عوناً لنا و ليكون اسمه شعارنا، و لنوحى إلى أنفسنا أن نلتفت حوله سبحانه، لينقذنا من مشاكلنا، و ليمنح لنا ما نحتاجه في ديننا و دنيانا و آخرتنا، فهو الرحمن الرحيم في الدنيا و الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٨

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَیْمِجٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)

[٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا أَى لَا تَقَدَّمُوا، كما يقال مقدمة الجيش لمن تقدم منهم و لعل المجيء من باب التفعيل، من باب أن النفس تقدم الإنسان، و لذا يأتي أحياناً بصيغة المجهول- في مثل هذه الأفعال- قال تعالى فَأَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدِينَ «١» لأن أنفسهم أجبرتهم على ألسجود بين يدي الله وَرَسُولِهِ كناية عن عدم سبق الإنسان بأن يحكم بحكم قبل أن يكون الله أنزله و قبل أن يكون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بينه، و إلا فليس لله سبحانه يد، و إنما هو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، و لا يبعد أن يكون لفظ «لا تقدموا» يشمل حتى في تقدم المشى أمام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ خَافُوا مِنْهُ فَلَا تَخَالَفُوا أَوَامِرَهُ وَ نَوَاهِيَهُ إِنَّ اللَّهَ شَیْمِجٌ لَأَقْوَالِكُمْ عَلِيمٌ بِأَعْمَالِكُمْ، و

عن تفسير القمى أن وفد بنى تميم إذا قدموا على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقفوا على باب حجرته فنادوا يا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أخرج إلينا و كانوا إذا خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تقدموه في المشى و كانوا إذا كلموه رفعوا أصواتهم فوق صوته، يقولون يا محمد ما تقول في كذا؟ كما يكلم بعضهم بعضاً فأنزل هذه الآيات.

«٢».

[٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ فَلَا تَكُنْ

(١) الشعراء: ٤٧.

(٢) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ١٩٩

[سورة الحجرات (٤٩): آية ٣]

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

درجة رفع صوتكم أكثر من درجة رفع النبي صوته، مثلاً يصل صوت النبي إلى ذراع و يصل صوتكم إلى ذراعين بل اللازم أن يكون صوتكم أخفض من صوته أو مساوياً له وَ لَا تَجْهَرُوا لَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ كَأَنَّهُ جِءَ بِهِ «له» لبيان أن إجهارهم كان لأجله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى يسمع كلامهم- بزعمهم- بِالْقَوْلِ عِنْدَ التَّكْلِمْ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ مَا يَكْلَمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَإِذَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سَاكِتًا فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَكْلَمُوهُ تَكَلَّمُوا بِأَدَبٍ وَ خُضُوعٍ وَ خَفْضِ صَوْتٍ، لا كما يكلم بعضهم بعضاً من الجهر و رفع الصوت الخارجين عن أدب التكلم مع الكبار، و إنما لا تفعلوا ذلك ل أن لا تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ فَإِنَّ سَوْءَ الْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ يَوْجِبُ حَبْطَ الْعَمَلِ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنَّهَا مَحْبُطَةٌ.

[٤] إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ يَخْفِضُونَهَا وَ لَا يَرْفَعُونَهَا، بقدر صوت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و لا- أكثر من صوته،

سواء كان صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في حال التكلم، أو كان ساكتاً عِنْدَ رَسُولِ اللهِ سِوَاءِ تَكَلَّمُوا مَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ مَعَ إِنْسَانٍ آخَرَ مِنَ الَّذِينَ عِنْدَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى جَزَبَهَا لَهَا وَمَرَّنَهَا عَلَيْهَا، أَيْ ظَهَرَتْ تَقْوَى قُلُوبِهِمْ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ تَابِعَةٌ لِلْقَلْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ غَفْرَانٍ لِدُنُوبِهِمْ لِتَأْدِيبِهِمْ بِهَذَا الْأَدَبِ الرَّفِيعِ عِنْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ثَوَابٍ جَزِيلٍ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ص ٢٤٨

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ٤ الى ٥]

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) فلهم جزاء ان محو الذنب ورفع الدرجة.

[٥] إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ مِنْ خَلْفِ حِجْرَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ كَانَ لِكُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا حِجْرَةٌ خَاصَةٌ بِهَا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ إِذِ الْعَقْلُ يَقْتَضِي حَسْنَ الْأَدَبِ فَلَا يِنَادِي الشَّخْصَ الْإِنْسَانَ الْكَبِيرَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرَةِ، بَلْ إِذَا مَا يَدُقُّ الْبَابَ دَقًّا خَفِيفًا، أَوْ أَنْ يَشِيرَ بِكَلَامٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَاضِرٌ لِحَاجَتِهِ، أَوْ أَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يَخْرُجَ الْإِنْسَانُ الرَّفِيعُ بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا قَالَ «أَكْثَرُهُمْ» مَعَ أَنْ كُلِّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَا يَعْقِلُ، تَأْدِيبًا، حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ يَزْعَمَ أَنْ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ دَاخِلًا فِي «أَكْثَرِهِمْ» فَلَا يَتَأَذَى، وَهَذَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْبَلَاغَةِ، حَيْثُ يَفْهَمُ الْمُتَكَلِّمُ، مِنْ فِعْلِ السَّيِّئِ، قَبْحَ فِعْلِهِ، مَعَ تَجَنُّبِ أَنْ يُؤْذِيَهُ.

[٦] وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الْاسْتِعْجَالِ وَالنِّدَاءِ وَاللَّهُ غَفُورٌ لِمَنْ تَأَدَّبَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسَمِعَ الْأَمْرَ رَاجِعًا يَعطى للمتأدب الأجر والثواب، وهذه الآيات لم ينته فحواها، بل الأدب يقتضى كل ذلك مع الكبار، فإن كل آيات القرآن تنفع الإنسان عبرة أو حكما، حتى آية النجوى التى نسخت فى زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أفادت طبيعة الإنسان و أنها بخيلة لا تصرف المال و إن فاته الخير بسبب صرف المال، حتى يعلم الإنسان أن اللازم عليه محاربه شحه، إلى غير ذلك من الآيات التى يظهر منها ابتداء أنها خاصة، ثم إن الجهر عند الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والإنسان الرفيع الشأن لا يكون مذموما إذا كان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠١

[سورة الحجرات (٤٩): آية ٦]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) بأمره، كما إذا أمر بالمناداة، وهكذا إذا أمر بنحو المناداة كما

ورد أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمرهم برفع أصواتهم فى تلبية الحج، حين أمره جبرائيل عليه السلام «بالعج و الشج» أى رفع الصوت، و ذبح الهدى
«١».

[٧] وَحَيْثُ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَدَبَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ تَكْلِيفَ بَعْضِهِمْ اتِّجَاهَ بَعْضٍ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا فَتَعْرِفُوا وَتَفْحَصُوا هَلْ صَدَقَ فِي خَبْرِهِ أَمْ لَا، فَإِنْ ظَهَرَ أَنَّهُ كَانَ صَادِقًا رَتَبُوا الْأَثْرَ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَاتْرَكُوا خَبْرَهُ، وَإِنَّمَا أَمَرْنَا بِالتَّبَيُّنِ لِإِنَّ لَا تُصَيِّبُوا قَوْمًا بِمَكْرُوهِ مِنْ جَرَاءِ خَبْرِ ذَلِكَ الْفَاسِقِ بِجَهَالَتِهِ بِجَهْلٍ مِنْكُمْ بِالْوَقْعِ، اعْتِمَادًا عَلَى خَبْرِ ذَلِكَ الْفَاسِقِ فَتُصْبِحُوا تَكُونُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ مِنَ الْأَخْذِ بِخَبْرِ ذَلِكَ الْفَاسِقِ وَتَرْتِيبِ الْأَثْرِ عَلَيْهِ نَادِمِينَ

فإن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعث وليد بن عقبه لجمع صدقات بنى المصطلق و كان بينه و بينهم عداوة، فلما سمعوا بمجيئه استقبلوه، فظن أنهم يريدون قتاله، و لم يتحقق فى الأمر، و إنما رجع إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و قال إنهم ارتدوا و منعوا الزكاة، فأظهر الرسول الاهتمام بقتالهم، فنزلت الآية الكريمة

، هكذا في بعض الروايات غير النقية السند، و في بعض الروايات الأخر، أنها نزلت في بعض أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين اتهمت ماريًا بالزنى، و الظاهر أنه لا منافاة بين الأمرين، لأن الآية عامة تشمل كل ما كان كذلك، فهما مصداقان، و يمكن نزولها مرتين، كما في بعض الآيات حيث نزلت مرتين، حالها

(١) وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٣٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٢

[سورة الحجرات (٤٩): آية ٧]

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)

حال ما إذا رأيت إنسانا يظلم فتقول له «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ...» و إذا رأيت آخر يظلم، تقرأ له نفس الآية، ثم لا يقال كيف أرسل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الفاسق لجمع الصدقات؟ ثم كيف هم بقتالهم مع أن العقلاء لا يعتمدوا على خبر الفاسق، و الجواب أن فسقه لم يكن ظاهرا قبل ذلك، بل أظهره القرآن، و الرسول أظهر إرادة القتال، لا إنه أراد أن يقاتل واقعا و كثيرا ما كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يظهر شيئا لمصلحة، و إن كان لا يريد واقعا، و قد كان إظهار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأن بعض الصحابة أشار إليه بحرب بنى المصطلق كما ورد في التفاسير (١).

[٨] و لذا قال سبحانه وَاَعْلَمُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَلَا تَسِيئُوا الْأَدْبَ مَعَهُ، بالكذب عليه، كما كذب الوليد، و لا تشيروا عليه بما تشتهون، كما أشرت إليه بحرب بنى المصطلق، فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَشِيرُونَ عَلَيْهِ بِهَا، ف «الأمر» اسم جنس لَعَنِتُّمْ لوقعت في العنت، لأن كل أحد يأتي إليه، و يقول له ما يرى هو من نظراته الخاصة، بينما الرسول لا يعمل إلا بما يصلح العموم، كما هو شأن الكبراء حيث يلاحظون المصلحة العامة، و إلا فهذا يقول ضد ذلك، و ذلك يقول ضد هذا، و كل يريد تنفيذ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما يشير به إليه، و من المعلوم أن ذلك يوجب مشقة المسلمين، لأن معنى سماع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كلامهم، أن يطرد هذا و يعاقب هذا، و هلم جرا، ثم بين سبحانه، أن ترك إطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

(١) راجع مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٣

[سورة الحجرات (٤٩): آية ٨]

فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

للمؤمنين الذين يشيرون إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأرائهم، لا يسبب لأولئك المؤمنين كراهية للإيمان أو للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فإن العادة عند الناس أن كبراءهم إذا لم يقضوا حوائجهم كرهوهم، بل أحيانا صاروا ضد أولئك الكبراء، لكن المؤمنين ليسوا كذلك، فليس التفافكم أيها المؤمنون حول الرسول، لإطاعته لكم و لأخذه بأقوالكم و لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَصَرَّحَ بِتُحِبُّونَ الْإِيمَانَ حَتَّىٰ صَرَّحَ بِتُحِبُّونَ الرَّسُولَ، و إن لم يأخذ بنصائحكم و إرشاداتكم و زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ قد يكون الشيء محبوبا لكنه غير مزين، كولد الإنسان القبيح المنظر، و قد يكون محبوبا و جميلا، كولده الجميل، و هكذا الإيمان محبوب و جميل، و ذلك حيث خلق الله فطره الإنسان، بحيث يحب المحبوب و يرى جمال الجميل، و لذا نسب الفعلان «حب ... و زين» إلى نفسه تعالى و كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ جَعَلَهُ مَكْرُوهًا وَالْفُسُوقَ أَي الكذب، و قرينه «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ» و أصل الفسوق الخروج، و يسمى الفاسق فاسقا لخروجه عن

الطاعة وَالْعَصِيَّانَ كُلَّ مَعْصِيَةٍ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَجِبُونَ الْإِيمَانَ وَيَكْرَهُونَ الْكُفْرَ وَالْعَصِيَّانَ هُمُ الرَّاشِدُونَ لَهُمْ رِشْدٌ عَقْلِيٌّ، حَيْثُ يَجِبُونَ الْجَمِيلَ، وَيَكْرَهُونَ الْقَبِيحَ.

[٩] حَبَّ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ، وَكَرِهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْعَصِيَّانَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ زِيَادَةً عَلَى أَسْأَلِ خَلْقَتِهِمْ وَإِعْطَائِهِمُ النِّعَمَ الْمَادِيَّةَ، وَإِنَّمَا تَفَضَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، دُونَ الْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةِ، لِأَنَّهُمْ تَهَيَّؤُوا لِاسْتِمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٤

[سورة الحجرات (٤٩): آية ٩]

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)

وَسَلَكُوا طَرِيقَ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَنِعْمَةَ الْإِعْطَاءِ فَضْلًا، وَالْمَعْطَى - بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ - نِعْمَةٌ، تَسَبَّبَ أَنْ يَنْعَمَ بِالْإِنْسَانِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَحْوَالِ الْمُتَلَفِّينَ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلِذَا جَعَلَ بَعْضُهُمْ بِحَيْثُ حَبَّ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَكَرِهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْعَصِيَّانَ حَكِيمٌ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ.

[١٠] وَحَيْثُ كَانَ الْإِنْسِيَاقُ وَرَاءَ قَوْلِ الْوَلِيدِ يَجِبُ اقْتِتَالُ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، لَكِنْ اللَّهُ عَصَمَ رَسُولَهُ، فَلَمْ تَقْعَ مِثْلُ هَذِهِ الْحَرْبِ، كَأَنَّ الْكَلَامَ مَحَلَّ سَوْأَلٍ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْحَرْبِ فَمَاذَا هُوَ التَّكْلِيفُ؟

وَكَانَ أَجَابَ الْقُرْآنَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى، فَإِنْ كَلَّ طَائِفَةٌ تَتَكَوَّنُ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَفْرَادِ فَاصْلِحُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَعْرَكَةِ بَيْنَهُمَا بِالنَّصِيحَةِ وَالِدَعْوَةَ إِلَى الْكُفْرِ عَنِ الْقِتَالِ وَالنِّصَالِحِ فِيمَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ لَمْ تَقْبَلْ إِحْدَاهُمَا النَّصِيحَةَ بَلَّ بَعَثَ مِنَ الْبَغْيِ بِمَعْنَى الظُّلْمِ وَالتَّعَدَّى إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ أَنْ تَكُونَ إِحْدَاهُمَا بَاغِيَةً ظَالِمَةً، فَإِنْ قَوْلُهُ «إِنْ بَغَتْ» لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَوَّلِ النَّزَاعِ بَاطِلٌ وَحَقٌّ، إِذْ لَا يَعْقِلُ حَقَّانِ مُتَقَاتِلَانِ، بَلَّ الْجَاهِلُ مِنْهُمَا بِبَطْلَانِهِ، يَظْهَرُ لَهُ جَهْلُهُ فِي الْأَثْنَاءِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ بَاغٍ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ تَرْجِعَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ بِالْكَفْرِ عَنِ الْقِتَالِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَإِنْ فَاءَتْ وَتَرَكْتَ الْقِتَالَ وَاسْتَعَدْتِ لِأَنْ تَقْبَلِ حَكْمَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٥

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٠ الى ١١]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

الْإِسْلَامَ فِي الْعِدَاءِ الَّذِي وَقَعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى فَاصْلِحُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَعْرَكَةِ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِالْجَوْرِ، بَأَنَّ تَقْبَلَ الطَّائِفَةُ الْأَضْعَفُ بِمَا يَجِبُ هُضْمُ بَعْضِ حَقِّهَا وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالْقِسْطِ وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قِتَالِ حَدَثِ بَيْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِالسَّعْفِ وَالنِّعَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأُصْلِحَ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ «١»، وَلا يَخْفَى أَنَّ مَا وَرَدَ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ بِقِتَالِ الْإِمَامِ فِي الْبَصْرَةِ، لَا يَدُلُّ عَلَى إِيْمَانٍ مِنْ حَارِبِهِ، إِلَّا بِالْمَعْنَى الْعَامِ لِلإِيمَانِ، إِذْ كَثِيرٌ مَا يُطْلَقُ الْإِيمَانُ عَلَى الظَّاهِرِيِّ مِنْهُ.

[١١] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فِي الْإِيمَانِ فَكَمَا أَنَّ الْأَخَّ النَّسَبِيَّ يَحْنُو عَلَى أَخِيهِ كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَحْنُو عَلَى الْمُؤْمِنِ فَاصْلِحُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بَيْنَ أَخْوِيكُمْ إِذَا حَدَثَ بَيْنَهُمَا شِقَاقٌ وَشَجَارٌ وَاتَّقُوا اللَّهَ خَافُوهُ فَلَا تَنَازَعُوا، وَإِنْ تَنَازَعُوا مِنْكُمْ فَلَا تَتْرَكُوهُمَا أَعْدَاءَ بَلَّ أَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَإِنَّ الْمُتَّقِيَّ لَا يَعْلَمُ هَلْ يَمُوتُ عَلَى التَّقْوَى وَهَلْ يَبْقَى عَلَى التَّقْوَى فِي مُسْتَقْبَلِ عَمْرِهِ، فَكَوْنُهُ مَرْحُومًا لَيْسَ مَقْطُوعًا بِهِ، بَلَّ لَعَلَّهُ يَرْحَمُ.

[١٢] و إذ كان المؤمنون إخوة، فاللزام عليهم أن لا يفعل البعض ما يسىء

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٦

إلى البعض الآخر يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ رَجَالَ مِنْ رَجَالَ عَسَى أَنْ يَكُونُوا أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ سَخَرْتَهُمْ مِنْهُمْ مِنَ السَّخَرِينَ، وَعَسَى بِمَعْنَى لَعَلَّ، وَهَذِهِ الْعَلَّةُ لِتَأْكِيدِ النَّهْيِ، وَإِلَّا فَالسَّخَرِيَّةُ مُحْرَمَةٌ عَقْلًا وَشَرْعًا، حَتَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسَاوِي وَالْأَدْوَانِ وَ لَا تَسْخَرِ نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى لَعَلَّ أَنْ يَكُنَّ تِلْكَ الْمَسْخَرِ مِنْهُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ مِنَ السَّخَرَاتِ وَ فِي الصَّافِي عَنِ الْقَمِيِّ أَنَّهُمَا نَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَ حَفْصَةَ حَيْثُ كَانَتَا تَسْخَرَانِ مِنَ صَفِيَّةَ وَ تَقُولَانِ لَهَا يَا بِنْتَ الْيَهُودِيَّةِ فَشَكَتَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ لَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: قَوْلِي لِهَاتِي هَارُونَ نَبِيَّ اللَّهِ وَ عَمِي مُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ وَ زَوْجِي مُحَمَّدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ، وَ لَمَّا قَالَتْ لِهَاتِي ذَلِكَ، قَالَتْ: عَلِمْتُكَ هَذَا رَسُولَ اللَّهِ «١» وَ لَا تَلْمِزُوا لَّا تَعْبُوا بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْإِشَارَةِ أَنْفُسَكُمْ لِأَنَّ عَيْبَ الْآخِرِينَ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْبَ عَلَى النَّفْسِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ «٢» وَ لَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ التَّنَابُزُ بَابُ الْمَفَاعَلَةِ مِنَ النَّبِزِ بِمَعْنَى أَنْ يَجْعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ لِقَابًا سِيئًا، وَ النَّبِزُ حَرَامٌ، وَ إِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ التَّنَابُزِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ النَّبِزَ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُنَابَزَةِ بِشَسِّ الْأَسْمَاءِ لِأَنَّ مَشْتَقًا مِنَ الْوَسْمِ الْفُسُوقُ الْخُرُوجُ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، بِأَنَّ كَانَتْ عَلَامَةُ الْمُؤْمِنِ الْفُسُوقُ

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣٢١.

(٢) النساء: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٧

[سورة الحجرات (٤٩): آية ١٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا زُنُّوا بِهِمْ وَإِنْ زُنُّوا بِكُمْ فَمَنْ زُنَّ بِكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لَئِنْ بَغَضَ الظَّنُّ إِنْ بَغَضَ الظَّنُّ إِنَّكُمْ وَ لَا تَجَسَّسُوا وَ لَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَلْيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

بَعْدَ الْإِيمَانِ بَعْدَ أَنْ آمَنَ وَ صَارَ شِعَارَهُ وَ اسْمُهُ «الْمُؤْمِنُ» ثُمَّ يَصْبِحُ شِعَارَهُ وَ اسْمُهُ «الْفَاسِقُ» لِأَنَّ فِعْلَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَ مَنْ لَمْ يُتَّبِعْ عَنِ مَا ارْتَكَبَهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لِأَنفُسِهِمْ حَيْثُ أَنَّهُمْ عَصَوْا ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا، أَمَا مِنْ تَابَ بَعْدَ عَصِيَانِهِ فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى ظَالِمًا.

[١٣] وَ بَعْدَ أَنْ نَهَى الْمُسْلِمُونَ مِنَ التَّقَاتِلِ، نَهَى عَنِ الْاسْتِهْزَاءِ وَ اللَّمَزِ وَ النَّبِزِ، وَ مِنَ الْوَأَضَحِّ أَنْ كُلَّ مَرْتَبَةٍ مُتَأَخَّرَةٌ أَنْزَلَ مِنَ الْمَرْتَبَةِ السَّابِقَةِ، وَ لِذَا جَاءَ السِّيَاقُ لِيَنْهَى عَنِ الْأَنْزَالِ مِنْ تِلْكَ أَيْضًا وَ هُوَ سُوءُ الظَّنِّ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا زُنُّوا بِهِمْ أَيْ الظَّنِّ السَّيِّئِ وَ إِنَّمَا قَالَ كَثِيرًا لِأَنَّه لَا بَدَّ وَ أَنْ يَوْجَدَ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الظَّنِّ السَّيِّئِ الظَّنِّ الْمَحْرَمِ، بِخِلَافِ قَلِيلِ الظَّنِّ فَإِنَّهُ بِمَا لَا يَكُونُ فِيهِ الْمَحْرَمِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنْ قَلِيلِ الظَّنِّ لَيْسَ تَحْتَ اخْتِيَارِ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ حَالُهُ نَفْسِيَّةٌ قَدْ تَأْتِي بِدُونِ الْاِخْتِيَارِ فَلَا يُمْكِنُ النَّهْيُ عَنْهُ، أَمَا كَثِيرِ الظَّنِّ فَإِنَّهُ تَحْتَ الْاِخْتِيَارِ إِذْ الْكَثْرَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالتَّبَعِ وَ الْاِنْسِيَاقِ وَرَاءَ الْإِنْكَارِ، وَ إِنَّمَا نَقُولُ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ لِإِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ قَدْ قَرَّرَ فِي عِلْمِ أَصُولِ الْفِقْهِ وَجُوبَ الْاجْتِنَابِ مِنْ أَطْرَافِ الشَّبْهَةِ الْمَحْصُورَةِ فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمًا وَجِبَ الْاجْتِنَابُ مِنَ الْأَطْرَافِ الْمَحْتَمَلَةِ لِذَلِكَ، وَ الظَّنِّ السَّيِّئِ إِمَّا حَرَامٌ بِنَفْسِهِ، وَ إِمَّا حَرَمٌ لِأَنَّهُ مُقَدِّمَةٌ لِلْعَمَلِ الْمَحْرَمِ، إِذْ الَّذِي يَظُنُّ سُوءَ غَالِبًا مَا يَرْتَبِ الْأَثَرِ الْعَمَلِيَّ عَلَى ظَنِّهِ السَّيِّئِ وَ لَا تَجَسَّسُوا لَّا تَبْحَثُوا عَنِ عَوْرَاتِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٨

[سورة الحجرات (٤٩): آية ١٣]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

المسلمين وأمورهم الخفية ولا يعتب بعضكم بعضاً والغيبه هي ذكرك أخاك بما يكره، و لو بالإشارة أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فالغيبه بمنزله أكل لحم الأخ الميت في شدة قبحه و كراهته، و لعل التشبيه من باب أن للأخ ذاتا و ذكرا فكما أن قطع قطعه من لحمه و لو كها في الفم قبيح كذلك قطع قطعه من ذكره «عرضه» و لو كها في الفم كذلك، و قد جعل كونه غائبا مثل كونه ميتا في عدم شعور كليهما بما يصنع بلحمه و بذكره فكبرهتموه فكما كرهتم أكل لحمه أكرهوا أكل عرضه و اتقوا الله خافوه في عصيانه، و إذا اتقيتم الله و تبتم عما سلف منكم ف إن الله تواب كثير قبول التوبه رحيم يرحم العباد فلا يعاقبهم بعد توبتهم.

[١٤] و حيث أن المعاصي السابقة الذكر تنشأ من رؤية الإنسان نفسه أرفع من غيره، بين سبحانه أن لا-رفعه لأحد على أحد إلا بالتقوى، و إذا حصلت التقوى امتنع الإنسان عن تلك المعاصي يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ حواء عليهما السلام أو أب و أم كل فرد، فلا تفاضل في أصل الخلقه و جعلناكم شعوباً تجتمعون تحت عنوان واحد، كاللغة و المدنيه و اللون و نحوها و قبائل تجتمعون في أب تتشعب القبيلة و تنحدر منه، و هذان أيضا لا يوجبان التفاضل، و إنما جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا لأجل أن يتعرف بعضكم على

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٠٩

[سورة الحجرات (٤٩): آية ١٤]

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)

بعض بسبب القبيلة، أو بسبب أنه من الشعب الفلاني إن أكرمكم عند الله أتقاكم أكثركم تقوى فمن أراد الرفعه عند الله فليجد في أن يكون أكثر تقوى من الآخرين، و كلما زاد الإنسان تقوى زاد كفاءه، منتهى الأمر أن الكفاءه عند أهل الدنيا، عبارة عن الكفاءات الدنيويه فقط، و عند الله هي الكفاءات الدنيويه بالإضافة إلى الكفاءات الأخرويّه، لأن الإسلام دنيا و آخره إن الله عليم بكل أموركم خبير و الخبير فوق العليم، لأنه عبارة عن العلم و التجربة، فالذي تعلم الطب و لم يجرب لا يسمى خبيراً، بخلاف ما إذا جرب، و المراد به في الله سبحانه أنه في غاية العلم و الإدراك، فمن أطاعه علم ذلك و جزاه و من عصاه علم ذلك و أخزاه.

[١٥] و إذ تقدم شرائط الإيمان، بالانتهاء عن كل معاصي الله تعالى، حتى من مثل الظن الباطني، ذكر سبحانه أن الذي لم يشتمل على هذه الشرائط لا يحق له أن يقول آمنت قالت الأعراب هم أهل البادية- كما تقدم الكلام في ذلك- آمنا بك يا رسول الله و بما جئت به قل لم تؤمنوا لعدم توفر شرائط الإيمان فيكم و لكن قولوا أسلمنا فإن الإسلام هو الانقياد و الدخول في السلم و إظهار الشهادتين، و هذه كانت موجودة في الأعراب و لمّا و بعد لم يدخل الإيمان في قلوبكم لأنه إذا دخل القلب حصلت الطاعة بجميع أوامر الإسلام، و لا يخفى أنه قد يطلق الإيمان و يراد به

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٠

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٥ الى ١٦]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أ تَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)

الإسلام، و قد يطلق على الأخص من الإسلام و إن تطيعوا الله و رسوله في كل أمر و نهى لا يلتكم لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً بل يعطى أجوركم كاملة إن الله غفور لسابق الذنوب رحيم بعباده يتفضل عليهم زيادة على غفران ذنوبهم، و قوله «لا-يلتكم» تشويق للأعراب أن يؤمنوا زيادة على إسلامهم.

[١٦] و إنما لم يدخل الإيمان في قلوب الأعراب بعد، لأن المؤمن الصادق هو الذى كانت له صفات خاصة مما لا تتوفر في هؤلاء الأعراب ف إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إيماناً من عمق قلوبهم ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا لَمْ يَشْكُوا في صدق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَ لِإِنْقَازِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ بَرَاثِنِ الْمُسْتَكْرِبِينَ، وَ كَانَ الْإِنْقَازَ لِأَجْلِ أَمْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ هُمُ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ، وَ إِنَّمَا قَالَ سُبْحَانَهُ «ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا» لِأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ أَسْلَمُوا كَانُوا يَشْكُونَ حِينَ مَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ يَأْمُرُهُمْ بِأَمْرٍ لَا يَلْتَمِمْ أَذْوَابَهُمْ.

[١٧] وَ إِذَا كَانَ لَكُمْ إِيْمَانٌ صَادِقٌ فَاللَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، بَدُونَ أَنْ تَقُولُوا بِأَفْوَاهِكُمْ آمَنْتُمْ فَلَا حَاجَةَ إِلَى قَوْلِكُمْ، بَلِ الْإِيمَانُ وَقَعَ الْإِيمَانُ قُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ أَى تَخْبِرُونَهُ بِقَوْلِكُمْ: آمَنَّا؟ وَ هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١١

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١٧ إلى ١٨]

يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

استفهام إنكارى وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فَهَلْ مِنْ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ يَخْفَى عَلَيْهِ إِيْمَانَكُمْ - إِنْ كَانَ لَكُمْ إِيْمَانٌ - حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى إِخْبَارِكُمْ بِأَنَّكُمْ آمَنْتُمْ؟ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَ هَذَا أَعْمَمٌ مِنْ «يَعْلَمُ...» لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَشْمَلُ الْمَوْجُودَاتِ فَقَطْ، وَ هَذَا يَشْمَلُ حَتَّى غَيْرَ الْمَوْجُودَاتِ، قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الْمَتَقَدِّمَةُ جَاءُوا وَ حَلَفُوا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مَعْتَقِدُونَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (١).

[١٨] وَ إِذَا كَانَ الْإِلْتِمَامُ أَنْ لَا يَتَفَوَّهَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ بَلِ هُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَمِنْ الْإِلْتِمَامِ الْمَوْكُودُ أَنْ لَا يَمُنَّ الْإِنْسَانُ بِإِيْمَانِهِ يُمْنُونَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أَسْلَمُوا فَيَعْدُونَ إِسْلَامَهُمْ عَلَيْكَ مِنْهُ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ فَانْتُمْ الَّذِينَ انْتَفَعْتُمْ بِإِسْلَامِكُمْ، لَا أَنَا بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ إِعْطَاءٍ مِنَ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِ حَيْثُ يَبْصُرُ بِسَبَبِهِ طَرِيقَهُ فِي الدُّنْيَا وَ يَسْعَدُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَ مَعْنَى الْمَنْعَةِ أَنَّهُ أَحْسَنُ إِلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي ادِّعَاءِ الْإِيمَانِ، وَ إِذَا فَعَدَمَ مِنْهُ اللَّهُ، مِنْ بَابِ السَّالِبَةِ بِانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ.

[١٩] إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ فِيهِمَا

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٢

فكيف يخفى عليه إيمانكم؟ وكيف يخفى عليه صدقكم و كذبكم في الإيمان؟ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ فَهُوَ يَرَى قُلُوبَكُمْ الَّتِي فِيهَا الْإِيمَانُ وَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا الْإِيمَانُ، وَ يَرَى أَعْمَالَ جَوَارِحِكُمْ الَّتِي تَأْتُونَ بِهَا حَسَبَ إِيْمَانِكُمْ أَوْ حَسَبَ عَدَمِ إِيْمَانِكُمْ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ سِرْكُمْ وَ لَا عَلْنِكُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٣

٥٠ سورة (ق) مكية / آياتها (٤٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذا اللفظ: «ق» و هي كباقي السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة و لما ختمت سورة الحجرات بأحوال المنافقين و أشباههم، افتتحت هذه السورة بأحوال الكافرين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي مِنْ تَمَسُّكِهِ بِه كَانَ مِنَ النَّاجِينَ وَ مِنْ انْحِرَافِهِ عَنْهُ بِكُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ كَانَ مِنَ الْهَالِكِينَ «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» الَّذِي يَرْحَمُ تَفَضُّلاً فِي إِيجَادِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ يَرْحَمُ فِي إِعْطَائِهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمَادِيَةِ وَ الْمَعْنَوِيَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٤

[سورة ق (٥٠): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)
[٢] ق

ورد عن الصادق عليه السلام أن «ق» هو الجبل المحيط بالأرض و خضرة السماء منه و به يمسك الله الأرض أن تמיד بأهلها
«١». أقول:

إن الأمواج المحيطة بالأرض مما يشملها الهواء، سميت بالجبل، لأنها مثله في الارتفاع و الشموخ، و من المعلوم أن تراكم الذرات في هذا الجو السيال يسبب لونا خاصا، هو لون السماء، و لو لا- هذا الغلاف الجوى لهلك الإنسان، لما تكون الأرض معرضا لتساقط الأحجار، ملايين الأحجار من الجو- كما ثبت في العلم الحديث- و قد تقدم الكلام في فواتح السور و في إعرابها و القرآن قسما بالقرآن المجد ذى المجد أى العظمة و الشرف، و جواب القسم محذوف أى قسما بالقرآن المجد، أنه حق، بقرينه ما بعده- و هناك احتمالات أخر مذكورة في التفاسير.

[٣] بَلْ عَجِبُوا الْكُفَّارُ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ هُوَ الرُّسُولُ الَّذِي يَنْذِرُهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ كُفْرِهِمْ مِنْهُمْ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ وَ الْجِنِّ، وَ الْمُرَادُ بِالْمُنْذِرِ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا كَوْنُ النَّبِيِّ مُنْذِرًا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ عَجِيبٌ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي لَمْ يَأْلَفْهُ الْإِنْسَانُ وَ لَمْ يَتَوَقَّعْهُ.

[٤] وَ حَيْثُ كَانَ أَنْذِرُهُمْ بِالْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ الْكُفَّارُ- بَصَدَدٍ بَيَانٍ تَعْجِبُهُمْ- أِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا لِأَنَّ الْمَيِّتَ بَعْدَ زَمَانٍ مِنْ مَوْتِهِ يَتَحَوَّلُ إِلَى تُرَابٍ، أَنْ رَجَعَ أَحْيَاءً، كَمَا يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ؟ وَ قَدْ حُذِفَ جَوَابُ

(١) بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٣٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٥

[سورة ق (٥٠): الآيات ٤ إلى ٥]

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

«إذا» لوضوح ذلك الذى يقوله محمد صلى الله عليه و آله و سلم، من الرجوع أحياء رَجْعٌ بَعِيدٌ يبعد فى نظرنا أن يكون له حقيقة.

[٥] و لماذا بعيد هل لأننا لا نقدر على الإعادة؟ و جوابه: أن الذى يقدر على الابتداء يقدر على الإعادة أو لأن أجزاءه تنتشر فى الأرض، و لا- نتعرف أين سقطت تلك الأجزاء؟ و جوابه قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ما تأكل من أجسادهم إذا ماتوا، فإذا علمنا ما تأكل الأرض من لحومهم و عظامهم و سائر أجزائهم، مع أن أكل الأرض شىء لا يراه حتى من ينظر، فكيف لا نعرف أجزاءهم المبعثرة بعد تحولها إلى تراب و عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ يحفظ كل شىء، و هو اللوح المحفوظ، و من المعلوم أنه سبحانه لا يحتاج إلى الكتاب، و إنما ذكر ذلك لتقريب أذهان الكفار، و فى ذلك الكتاب يحفظ خصوصيات الإنسان الحى، و الأجزاء المبعثرة من الميت فإذا أريد بعث الميت أعيد بدون زيادة و لا نقيصة، بتلك الخصوصيات و المزايا التى كان له حال الحياة.

[٦] بَلْ إِنَّهُمْ زَادُوا عَلَى التَّعْجِبِ، بِأَن كَذَّبُوا بِالْحَقِّ، فَلَمْ يَقِفُوا عَلَى الشُّكِّ وَ التَّرَدُّدِ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي هَذَا التَّكْذِيبِ لِأَنَّهُمْ فِي أَمْرٍ مُضْطَرَبٍ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ وَ هُوَ الرَّسُولُ وَ الْقُرْآنُ، وَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْعَقِيدَةِ وَ الشَّرِيعَةِ، وَ تَكْذِيبِهِمْ بِدُونِ دَلِيلٍ أَفْطَعُ مِنْ تَعْجِبِهِمُ السَّابِقِ- وَ لَذَا قَالَ سَبْحَانَهُ «بَلْ» فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ مُضْطَرَبٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٦

[سورة ق (٥٠): الآيات ٦ الى ٨]

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)

فتارة يقولون أنه صلى الله عليه وآله وسلم شاعر، وتارة كاهن وتارة مسحور، وتارة ساحر، وتارة يعلمه بشر، وذلك يدل على أنهم لا يستندون إلى حجة.

[٧] أَلَمْ يَنْظُرُوا حِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وَبِقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْإِلَهِ الْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ؟ وَهَلْ مِنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ أَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْبَعْثِ؟ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا؟ فَإِنْ نِظَامَ تَسْيِيرِ الْكَوَاكِبِ الدَّقِيقِ مِنْ أَغْرَبِ الْبِنَاءَاتِ وَزَيَّنَّاهَا بِالْكَوَاكِبِ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ فَرَجَةٌ خَالِيَةٌ عَنِ النَّظَامِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى عَدَمِ الْفَرْجَةِ، أَنَّ الْكَوَاكِبَ تَسِيرُ بِانْتِظَامٍ مُعَيَّنٍ عَلَى طَوْلِ الزَّمَانِ، وَ لَوْ كَانَ مَكَانٌ فِي السَّمَاءِ بَدُونَ نِظَامِ كَانَ الْكَوْكَبُ إِذَا وَصَلَ إِلَيْهِ سَبَبٌ اضْطْرَابِهِ، وَلَكِنْ هَذَا مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ.

[٨] وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا بِسَطْنَاهَا، فَهِيَ مَدَوْرَةٌ لَا مِثْلَ الْإِبْرَةِ وَالْهَرَمِ وَمَا أَشْبَهَ مَا لَيْسَ قَابِلًا لِلسَّكْنِ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ جَمْعَ رَاسِيَةٍ، وَ هِيَ الْجِبَالُ، أَى الْجِبَالُ الثَّابِتَةُ، وَالْإِلْقَاءُ بِمَعْنَى الْخَلْقِ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِمْ «ضَيْقُ فَمِ الرِّكِيَّةِ» فَلَيْسَ الْمُرَادُ الْإِلْقَاءُ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ، وَ لَوْ لَا الْجِبَالُ لَنَفَّتِ الْأَرْضُ فِي دَوْرَانِهَا السَّرِيعِ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ بَهِيجٍ يَبْتَهَجُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَفْرَحُ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، لِحَسَنِهِ وَجَمَالِهِ.

[٩] وَإِنَّمَا فَعَلْنَا كُلَّ ذَلِكَ تَبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا بِهِ وَذِكْرَى وَ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ عَنِ غَفْلَتِهِ مَفْكَرٍ فِي بَدَائِعِ خَلْقِهِ، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٧

[سورة ق (٥٠): الآيات ٩ الى ١١]

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

التبصرة والتذكرة، أن الأولى لمن لا يعرف فيكون ما خلق سبب عرفانه، والثانية لمن عرف ونسى فيكون ما خلق سبب تذكرته.

[١٠] وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الْمَطَرُ مُبَارَكًا كَثِيرَ الْبَرَكَاتِ، وَ الْبَرَكَاتُ مِنْ «بَرَكَ» بِمَعْنَى ثَبَتَ وَ دَامَ فَإِنَّ مَاءَ السَّمَاءِ دَائِمٌ لِأَنَّهُ يَخْتَرِنُ فِي فِجَاجِ الْأَرْضِ فَيَكُونُ عَيُونًا وَ أَنْهَارًا، فَيَنْتَفِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ طَوْلَ حَيَاتِهِ فَأَنْبَتْنَا بِهِ بِمَاءِ السَّمَاءِ جَنَّاتٍ بِسَاتِينَ لِلْجَمَالِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِمَخْتَلَفِ الْإِنْتِفَاعَاتِ وَ حَبِّ الْحَصِيدِ حَبُّ الزَّرْعِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْصَدَ، كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَ غَيْرِهِمَا.

[١١] وَأَنْبَتْنَا بِهِ النَّخْلَ بِاسِقَاتٍ أَى طَوَالًا، وَ الْمُرَادُ بِالنَّخْلِ جِنْسُهُ، وَ لَذَا جَاءَتْ صِفَتُهُ جَمْعًا لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ مَنْصُودٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَ الطَّلْعُ وَعَاءُ الشَّمْرِ.

[١٢] أَنْبَتْنَا رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ الرِّزْقُ يَشْمَلُ الرُّؤْيَةَ أَيْضًا، لِأَنَّ كُلَّ مَا يُعْطِيهِ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ مِمَّا يَتَمَتَّعُ بِمَنْظَرِهِ أَوْ بِشَمِّهِ أَوْ بِأَكْلِهِ أَوْ بِبَلْبَسِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ رِزْقٌ، وَ الْمُرَادُ بِالْعِبَادِ أَعْمٌ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ الْحَيْوَانِ، لِأَنَّ كُلَّ ذِي رُوحٍ عَبْدٌ لِلَّهِ وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بِذَلِكَ الْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ بَلَدَةً مَيِّتَةً أَرْضًا مَيِّتَةً لَا زَرْعَ فِيهَا وَ لَا مَا يَتَّبَعُ الزَّرْعَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ الْحَيْوَانِ، وَ حَيَاةُ الْأَرْضِ تَحْرُكُهَا وَ التَّحْرُكُ عَلَيْهَا، وَ سَمِيَ الْأَرْضُ بِلَدَةٍ، مَجَازًا بِالمُشَارَفَةِ لِأَنَّ الْمَاءَ يُجْعَلُ الْأَرْضَ بِلَدًا كَذَلِكَ كَمَا أَخْرَجْنَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ وَ مِنَ الْأَرْضِ الْبُيُوتَ الْخُرُوجُ تَخْرُجُونَ أَنْتُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ عِنْدَ بَعْثِكُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٨

[سورة ق (٥٠): الآيات ١٢ الى ١٥]

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ بُعِثَ كُلٌّ كَذَّبَ

الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

[١٣] و إن كذبك هؤلاء الكفار، يا رسول الله، فلا تغتم، فإننا سوف نجازي المكذبين كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَبْلَ كَفَارِ مَكَّةَ قَوْمٌ نُوْحٍ وَأَصْحَابُ الرُّسُلِ الَّذِينَ رَسَوْا نَبِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَقْبَرُوهُ حَيًّا، و كانت مدنهم بين إيران و روسيا، و كانوا على نهر يسمى إلى اليوم بنهر «أرس» و تفصيل القصة مذكورة في قصص الأنبياء و في التفاسير كتفسير الصافي في سورة الفرقان «١» وَ تَمُودُ قَوْمٌ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. [١٤] وَ عَادٌ هُمْ قَوْمٌ هود عليه السَّلام و قوم فِرْعَوْنُ فإنه قد يطلق اسم الكبير على كل قومه و إِخْوَانٌ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام و لعل التعبير بالإخوان لأجل التنفن البلاغى، كما أن الظاهر أنه لأجله، اختلف التعبير بقوم و أصحاب، و ذكر فرعون، إلى غير ذلك. [١٥] وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْغِيضَةِ و هم قوم شعيب عليه السَّلام و قَوْمٌ تُبَّعٍ و حيث سبق تفاصيل قصص هؤلاء لم نكرها كُلُّ كَلِّ هَؤُلَاءِ كَذَّبَ الرُّسُلَ الْمُرْسَلَةَ إِلَيْهِمْ فَحَقَّ قَسَمَاتُ وَ حَلِّ وَعِيدٍ و عِيدٍ عَلَيْهِم بِالْعَذَابِ، و في هذا تسلية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و تهديد لهم.

[١٦] أَفَعَيْنَا هَلْ عَجَزْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ أَى هَلْ أَصَابْنَا الْعِجْزَ بَعْدَ أَنْ خَلَقْنَا الْخَلْقَ أَوَّلًا، و في بعض التفاسير أ فعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟ «٢» لكن المتبادر من الآية ما ذكرناه بَلْ هُمْ لَا يَنْكُرُونَ

(١) تفسير القمى: ج ٤ ص ١٣.

(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٣٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢١٩

[سورة ق (٥٠): الآيات ١٦ إلى ١٧]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعَلَّمْ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧)

أنا لم نعجز عن الخلق الأول و إنما ينكرون البعث لأنهم في لَبْسٍ و اشتباه و التباس مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ فليس إنكارا للسابق و إنما شكاً بالنسبة إلى اللاحق، و يحتمل أن يراد ب «لبس» أى لباس، لأن خلايا الإنسان تتبدل كل آن فهم على طول الزمان فى خلق جديد فمن يعرف كونه يبعث كل آن كيف ينكر البعث فى الآخرة.

[١٧] إننا نعلم أن الإنسان ينساق وراء وساوس نفسه فى البعث، مع أن اللازم أن ينساق وراء الدليل و البرهان وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فمنا البدء و منا الإعادة وَ نَعَلَّمْ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ إنكار البعث و غيره وَ كَيْفَ لَا نَعْلَمُ وَ سَاوَسَ نَفْسَهُ وَ الْحَالُ أَنَا نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ الوريدان هما العرقان المكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمه، و إضافته الحبل إليه لليبان، أى الحبل الذى هو وريد، و معنى قربه سبحانه وقربه علما و اطلاعا، فإن الله لا مكان له، و لعل ذكر حبل الوريد، لأنه مربوط بالقلب و بالمخ فهو وسط بينهما، و لا أقرب منه إلى الإنسان، الذى إنسانيته بمخه و قلبه.

[١٨] نحن أقرب إذ فى الزمان الذى يَتَلَقَّى يأخذ و يسجل الْمُتَلَقِّينَ الملكان الموكلان بالإنسان لحفظ أعماله و أفكاره، فالمراد أنه غنى عن الملكين لأنه أقرب إلى الإنسان منهما، إلا أنه تعالى حيث جعل الدنيا دار الأسباب، جعلها سببا لحفظ الأعمال، كما جعل عزرائيل سببا لقبض الأرواح عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٠

[سورة ق (٥٠): الآيات ١٨ إلى ٢٠]

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جَاءَتْ سَيِّكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠)

فإن أحدهما في طرف اليمين و الآخر في طرف الشمال، ملازم للإنسان كالقاعد إلى جنبه.

[١٩] ما يَلْفِظُ الإنسان مِنْ قَوْلٍ و ذكر اللفظ من باب المثال، و إلا فكل عمل للإنسان بل و كل فكر له مراقب، إِلا لَمَدِيهِ رَقِيبٌ يراقبه و يحفظه، و هو الملكان، و حيث أنه أراد جنس الرقيب لم يأت بصيغته الثنية عَتِيدٌ مهياً حاضر لا يشتهه.

[٢٠] و هكذا تستمر رقابته الملكين للإنسان إلى أن جاءت سَيَكْرُهُ الْمَوْتِ إليه فإن للموت سكرة تغطي عقله كالسكران بِالْحَقِّ بالذى قاله الأنبياء من حقائق الآخرة، و التى كان ينكرها الكفار، فيرونها معاينة عند موتهم، و يقال لهم حينذاك و ذَلِكَ المَجِيء ما كُنْتُ أيها الإنسان مِنْهُ تَحِيدٌ تَفِيء، فالآن قد وصلت إليك حيث لا ينفعك الندم و التوبة.

[٢١] و بعد ذلك وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ فكما أنه إذا أريد جمع الناس نفخوا في الأبواق إعلاما لهم حتى يجتمعوا كذلك إذا أراد جمع الخلائق و إحيائهم للبعث، و لعله سمي صورا لخروج صور الناس منه، كما ورد في الحديث، أن للصور تقبا بعدد الخلائق، فتخرج النفوس منها عند البعث ذَلِكَ اليوم يَوْمٌ تحقّق الوَعِيدِ الذى وعدناه في الدنيا، فقد كنا وعدنا المؤمن بالثواب و الكافر بالعقاب، و فى هذا اليوم يرون ذلك.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢١

[سورة ق (٥٠): الآيات ٢١ الى ٢٤]

وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَ قَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤)

[٢٢] وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ يسوقها إلى محشرها وَ شَهِيدٌ يشهد عليها بما عملت فى الدنيا، و الظاهر أن المراد جنس الشهيد، فيشمل «المتلقيان» الذى سبق.

[٢٣] و يقال له حينذاك لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ فعدم الاستعداد الكامل لهذا اليوم جهلا أو عنادا غفلة مِنْ هَذَا اليوم فلم تستعد له فَكَشَفْنَا الآن عَنْكَ غِطَاءَكَ الذى كان مانعا عن رؤيته الآخرة و الاعتقاد بها فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ نافذ إلى الآخرة يراها بعد أن كان عليه غطاء يمنع عن رؤيتها، و لا- يبعد أن تكون الدنيا و الآخرة متداخلتين تداخل العطر و الماء فى الورد لا- يحس بالآخرة المنهمك فى المحسوسات، و قد ذكرنا ذلك فى كتاب «حول القرآن الحكيم».

[٢٤] وَ قَالَ حينذاك قَرِينُهُ الملك الشاهد عليه الذى كان قرينه فى دار الدنيا و شاهدا على أعماله هذا دفتر عمله ما لَدَيَّ مما سجلته عليه عَتِيدٌ مهياً لا يحتاج إلى حساب جديد، مثل دفاتر التجار التى لا تحتاج إلى جمع الأرقام و الأجناس، بل مهياً حاضر.

[٢٥] ثم يخاطب السائق و الشهيد، من قبل الله تعالى و يمكن أن يكون المراد من «قرينه» الشيطان المقترن معه، يقول هذا الكافر الذى عندى مهياً للنار، يقوله على سبيل الاستهزاء به و هذا المعنى أنسب إلى السياق فى ما يأتى من حكم «قرينه» كما أن المعنى الأول أنسب إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٢

[سورة ق (٥٠): الآيات ٢٥ الى ٢٦]

مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَالْقَبِيءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)

ظاهر الآية مع الغض عما يأتى و الله العالم، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ «إنما أتى بصيغته المبالغة» و لم يقل كافر، دلالة على أن كل كافر كفار، لأن استمراره فى الكفر أوجب شدة كفره عَتِيدٌ معاند للحق، لأن غير المعاند الذى كفر عن جهل ليس مقامه جهنم، و فى دعاء الكميل «أن تخلد فيها المعاندين» و إلا فلو كان غير معاند يمتحن يوم القيامة، كما ورد فى جملة من الروايات الواردة فى من كان فى الفترة بين الرسل و طفل الكافر و المجنون إلى غير ذلك.

[٢٦] مَنَعَ لِلْخَيْرِ كما هى صفة الكفار العنيد، يمنع عن إسلام أحد و عن أن يوصل أحد إلى المسلمين بخير، و الخير جنس شامل لكل

خير مُعْتَدٍ متعَدِّ عن حدِّه، وهي صفةٌ ثانيةٌ ملازمةٌ للكفار العنيدِ مُرِيبٍ كثير الريب والشك و هذه صفةٌ ثالثةٌ له إذ المعاند دائما في ريب و وسواس، كما يظهر ذلك لمن راقب أحوال المعاندين، فإن كبرياء المعاند الذي يلازمه يجعله يشك دائما في أصدقائه و أصحابه لئلا يميلوا إلى الحق، وهكذا هو شأن كل مستكبر و مستعلى.

[٢٧] الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ بَيِّنًا لِلْكَفَّارِ، وَ يَشْمَلُ مَا إِذَا كَانَ مَلْحَدًا لَا يَعْتَرِفُ بِاللَّهِ، لِأَنَّ مَعْبُودَهُ مَهْمَا كَانَ «حَتَّى إِذَا كَانَ هَوَاهُ» فَهُوَ إِلَيْهِ مَجْعُولٌ مَعَ اللَّهِ وَ مَا إِذَا كَانَ مُشْرِكًا، لِأَنَّهُ أَشْرَكَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ فَالْقِيَاءُ أَيُّهَا الشَّاهِدُ وَ السَّائِقُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ شَدَّتْهُ، لِأَجْلِ شِدَّةِ كُفْرِهِ وَ عُنَادِهِ، وَ تَكَرَّرَ «الْقِيَاءُ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ، حَتَّى لَا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٣

[سورة ق (٥٠): الآيات ٢٧ إلى ٢٩]

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَ لَكِنِ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّْ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّْ وَ مَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)

أنه ليس بمستحق، كما تقول زيدا أضرب زيداً أضربه، فإن الثاني لإفادة قطعياً استحقاقه.

[٢٨] وَ هُنَا يَأْخُذُ الْكَافِرَ وَ الشَّيْطَانَ الْقَرِينَ لَه فِي التَّنَازُعِ الْكَافِرُ يَقُولُ لِلشَّيْطَانِ أَنْتَ كُنْتَ سَبَبَ ضَلَالِي وَ الشَّيْطَانُ يَرُدُّ عَلَيْهِ بِأَنَّكَ كُنْتَ ضَالًّا- بِنَفْسِكَ وَ إِنَّمَا أَنَا أَعْتَنُكَ فَقَطْ قَالَ قَرِينُهُ الشَّيْطَانُ الْمَقْتَرَنُ مَعَهُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ «١» لَوْضُوحٌ أَنَّ الْجِنْسَ يَمِيلُ مَعَ جِنْسِهِ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ أَنَّهُ مَا سَبَّبَ طَغْيَانَهُ، فَلَا تَعَذَّبْنِي عَذَابٍ مِنْ أَضَلِّ غَيْرِهِ وَ لَكِنِ كَانَ الْكَافِرُ بِنَفْسِهِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ أَى بَعِيدٍ عَنِ الْحَقِّ، لِأَنَّ الضَّالَّ إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْجَادَةِ رَجَى أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْهَا، أَمَا الضَّالُّ الْبَعِيدُ عَنِ الْجَادَةِ، فَلَا يَرْجَى هِدَايَتَهُ، فَهَنَّاكَ مَخَاصِمُهُ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَ الْكَافِرِ كُلِّ يَلْقَى اللَّوْمَ عَلَى الْآخَرِ.

[٢٩] وَ يَجِيبُهُمُ اللَّهُ، بِأَنَّهُ لَا تَنْفَعُ الْخُصُومَةُ، وَ إِنَّمَا لِكُلِّ قَسَطَةٍ مِنَ الْعَذَابِ قَالَ اللَّهُ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّْ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، فَإِنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهَا وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ فِي كِتَابِي الْمَنْزِلَةَ وَ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِي الْمُرْسَلِينَ بِالْوَعِيدِ وَ أَنْ مِنْ عَصِي كَانَ جَزَاءَهُ جَهَنَّمَ، وَ كَلَّا كَمَا عَاصِيَانِ، وَ لَا حِجَّةَ لَكُمْ.

[٣٠] مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّْ فَلَا يَقَعُ الْخَلْفُ فِي وَعِيدِي بِإِدْخَالِ الْكَافِرِ

(١) الزخرف: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٤

[سورة ق (٥٠): آية ٣٠]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

المعانَد النار، و كذلك بإدخال الشيطان الذي أغواه، أما إدخال المذنب من المؤمنين الجنة بالشفاعة و نحوها، فليس من تبديل القول، لأن عذابه مشروط بعدم الشفاعة و نحوها، فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط و ما أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ فليس عذابي إياكما ظلما و إنما قال «ظلام» لأن العذاب إذا كان ظلما كان ظلما فظيلا لكثرة العذاب و استمراره، و يمكن أن تكون الصيغة للنسبة، لا للمبالغة، كما قال ابن مالك:

و مع فاعل و فعال فعل في نسب أغنى عن اليا فقبل.

[٣١] كل هذه الكلمات مع الملك و مع الشيطان و بين الشيطان و الكافر يكون يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ الظاهر أن السؤال حقيقي، فإن لكل شيء حالة تعقل و إدراك مع الله، كما يظهر من متواتر الآيات و الروايات، و أيده العلم الحديث، و إن كانت إدراكاتها تتفاوت، و يكون إدراك الإنسان فوق كل إدراك فلا يقال أن العقل خاص بالإنسان، إذ ينقض ذلك بالحيوان الذي لا

إدراك ولا عقل له، و الظاهر أن سؤال جهنم، إنما هو لبيان جوابها الموجب لهول الكفار أكثر فأكثر، فإنه فرق بين أن تقول للمجرمين لى «حية» تلدغكم جميعا، و أن تسأل الحية، و تجيب هى، فإنه أشد هولاً للمجرم و تقول هل من مزيد؟ «مزيد» مصدر ميمى بمعنى الزيادة، أى أن لى متسعا يتسع لكل زيادة، و هذا لأجل التهويل، فإنه فرق بين أن تلقى المجرم فى نار مساحتها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٥

[سورة ق (٥٠): الآيات ٣١ الى ٣٣]

وَ أُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) عشرة أذرع، أو فى نار مساحتها ألف ذراع فإن الكثرة تلقى فى النفس رهبة، و إن كانت نتيجة الاحتراق واحدة «و يحتمل فى الآية معنى آخر مذكور فى التفاسير».

[٣٢] و حيث عرفنا أحوال الكافر و عاقبته فى دخوله النار، فلنعرف أحوال المؤمنين و دخولهم الجنة و أُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ قربت إليهم، إما من باب «القرب» أى قربوا إلى الجنة، أو أنه حقيقة يؤتى بالجنة إلى قرب المحشر للمُتَّقِينَ فى قبال إلقاء الكفار فى النار، فى حال كونها غَيْرَ بَعِيدٍ و حيث أن الإنسان لا يذهب إلى العذاب فإنه يلقى فيه أما النعيم فإن الإنسان يذهب إليه و لذا لم يقل «دخل الجنة» بل جاء بما ظاهره التدرج إلى دخولها.

[٣٣] و يقال للمتقين بعد ما يرون الجنة هذا ما تُوعَدُونَ ما كنتم وعدتم به فى دار الدنيا لِكُلِّ أَوَّابٍ من آب بمعنى رجع، أى كثير الرجوع إلى الله بالتوبة و التذكر، فإنه لحظة غفلة عن الله- و لو بالاشتغال بالمباحات- بعد عن قربه سبحانه حَفِيظٍ يحفظ حدود الله سبحانه، فجهنم للكافر العنيد، و الجنة للأواب الحفيظ.

[٣٤] و الأواب الحفيظ هو مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فمع أنه يعلم أن الله رحمن مع ذلك يخشاه، و إن كان المؤمنون الذين يأمرن بالمعروف و ينهون عن المنكر غائبين عنه، فلا- يترك العصيان خوفا من الإنسان، و إنما خوفا من الله الغائب عنه و جاء إلى المحشر بِقَلْبٍ مُنِيبٍ من أناب بمعنى تاب، و ليس «منيب» و «خشى» تكرارا، إذ قد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٦

[سورة ق (٥٠): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ (٣٦)

يخشى الإنسان من شىء لكنه لا يرعوى و لا يترك ما يخشى منه، فهو «يخشى» و قلبه «منيب» و «يحفظ» حدود الله، و «كثير التوبة»: أواب» فهى أربع صفات فى قبال «الكافر العنيد المناع المريب».

[٣٥] فإذا جاءوها قيل لهم ادخلوها ادخلوا الجنة بِسَلَامٍ مع سلامة، إذ ربما يدخل الإنسان المكان الحسن لكن مع صعوبة و عذاب، أو المراد «سلموا إذا دخلتموها» أو المراد سلام الملائكة لهم ذَلِكَ اليوم يَوْمُ الْخُلُودِ بخلاف أيام الدنيا فإنها ليست للخلود، أما الجنة فإن الإنسان إذا دخلها خلد إلى الأبد.

[٣٦] لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا من أنواع النعم، و لا يشتهى الإنسان هناك القبائح، فلا يقال هل تكون هناك حرب أو نحوها مما قد يشتهىها الإنسان فى الجنة و لَدَيْنَا مَزِيدٌ زيادة على ما يشتهون، مما لا يخطر ببالهم و قد ورد أن فى الجنة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

[٣٧] و إذ قد علم أن للكفار النار و للمتقين الجنة، فليعلم هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بك يا رسول الله أن لهم عقابا فى الدنيا أيضا، فقد عاقبنا الكفار السابقين الذين كذبوا أنبياءهم وَ كَمْ لِلتَّكْثِيرِ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ قبل هؤلاء الكفار مِنْ قَوْمٍ أهل قرن، و القرن جزء خاص من الزمان، و أطلق على أهل القرن بعلاقة الحال و المحل، مثل «وَ سَيَلِّ الْقَوِيَّةُ» هُمْ أولئك القرون أَشَدُّ مِنْهُمْ من قومك يا رسول الله

بَطْشًا قُوَّةً وَ إِفْسَادًا، لِأَنَّ الْبَطْشَ الْأَخْذَ بِشِدَّةٍ مِثْلَ قَوْمِ عَادَ وَ ثَمُودَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٧

[سورة ق (٥٠): الآيات ٣٧ الى ٣٨]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

و غيرهما، و حيث كانوا أكثر بطشا و قوة فَتَقَبُّوا فِي الْبِلَادِ كَأَنَّ دَخُولَهُمْ فِي الْبِلَادِ تَنْقِيبٌ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْحَصُونَ عَنِ مَوَاضِعِ الثَّرْوَةِ وَ النِّزْهَةِ، كَالْمَنْقَبِ الَّذِي يَخْرُقُ وَ يَنْقَبُ الْأَرْضَ طَلْبًا لِلْمَالِ وَ الْكَنْزِ، فَإِنَّ قُوَّتَهُمْ وَ بَطْشَهُمْ صَارَ سَبَابًا لِذَلِكَ وَ لِذَلِكَ جَاءَ «بِالْفَاءِ» فَ هَلْ كَانَ لَهُمْ مَعَ شِدَّةِ الْبَطْشِ وَ التَّنْقِيبِ فِي الْبِلَادِ مِنْ مَحِيصٍ مَهْرَبٍ وَ خِلَاصٍ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ حِينَ أَرَادَ إِهْلَاكَهُمْ.

[٣٨] إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّخْوِيفِ بِعَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لِمَنْ كَفَرَ لِدِكْرِي تَذَكُّرَةً، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِفَطْرَتِهِ يَعْلَمُ كُلَّ ذَلِكَ، وَ إِنَّمَا يَكُونُ بَيَانُ الْقُرْآنِ تَذَكُّرَةً لِمَنْ نَسِيَهُ أَوْ تَنَاسَى عَنْهُ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ قَلْبٌ أَيْ قَلْبٌ وَاعٍ، فَإِنَّ مَنْ لَا وَعَى لِقَلْبِهِ، مِثْلَ مَنْ لَا قَلْبَ لَهُ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ أَيْ اسْتَمَعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ حَاضِرُ الذَّهْنِ لِيَفْهَمَ مَا يُقَالُ لَهُ وَ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، فَقَدْ يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ قَلْبٌ مَهْيَأٌ، وَ قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ قَلْبٌ مَهْيَأٌ لَكِنِّهَ يَسْتَمِعُ بِانْتِبَاهٍ وَ بِذَلِكَ يَهَيِّئُ قَلْبَهُ، وَ فِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ، يَكُونُ مَا ذَكَرْنَاهُ تَذَكُّرَةً لَهُ، فَقَدْ تَكُونُ الْأَرْضُ بِنَفْسِهَا صَالِحَةً لِلزَّرْعِ، وَ قَدْ لَا تَكُونُ لَكِنِّهَا تَقْبَلُ الْإِصْلَاحَ، فَتُصْلِحُ ثُمَّ تَزْرَعُ، فَ «لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» كَالأول و «أَوْ أَلْقَى ...» كَالثاني.

[٣٩] أَمَا وَ كَيْفَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ وَ هُمْ يَرُونَ خَلْقَنَا السَّابِقَ، وَ يَعْلَمُونَ أَنَّا لَمْ نَتَّعِبْ لِأَجْلِهِ، وَ دَلِيلُ عَدَمِ التَّعَبِ اسْتِمْرَارُنَا فِي الْخَلْقِ وَ فِي إِدَارَةِ الْكُونِ وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٨

[سورة ق (٥٠): آية ٣٩]

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلِ الْغُرُوبِ (٣٩)

صنوف الخلائق فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ الْيَوْمَ قِطْعَةً مِنَ الزَّمَانِ، وَ إِن كَانَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (١) وَ قَدْ دَلَّتْ بَعْضُ التَّجَارِبِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى أَنَّ اكْتِمَالَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الْحَالِيَّةِ، اسْتَوْعَبَ سِتَّةَ مِلياراتٍ «كُلِّ مِليارٍ أَلْفَ مِليونٍ» مِنَ السَّنَوَاتِ «سَنَةً بِتَقْدِيرِنَا الْحَاضِرِ» وَ الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا مَسَّنَا حَتَّى مَجْرَدِ الْمَسِّ «وَ هُوَ مَا لَا يَدْخُلُ فِي الْأَعْمَاقِ» مِنْ لُغُوبٍ مِنَ تَعَبٍ وَ إِعْيَاءٍ، وَ قَدْ زَعَمَ الْيَهُودُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ الْخَلْقَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَ انْتَهَى فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَ اسْتَرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ وَ اسْتَلْقَى عَلَى الْعَرْشِ.

[٤٠] فَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَا يَقُولُونَ مِنَ التَّكْذِيبِ بِالتَّوْحِيدِ وَ بِالرِّسَالَةِ وَ بِالْبَعْثِ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نَزَهَ اللَّهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ، مُصَاحِبًا تَنْزِيهَكَ بِتَحْمِيدِهِ مِمَّا يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ، فَالْحَمْدُ ذِكْرُ الْحَسَنِ، وَ التَّسْبِيحُ التَّنْزِيهِ عَنِ الشَّيْءِ، وَ «الْبَاءُ» لِلْمُصَاحَبَةِ، وَ تَقْدِيمُ التَّنْزِيهِ، لِوَضُوحِ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَزْرَعُ إِلَّا بَعْدَ تَنْظِيفِهَا وَ الْقَلْبَ لَا يَكُونُ مَبْعُوثًا خَيْرًا، إِلَّا بَعْدَ تَنْزِيهِهِ عَنِ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ، وَ كَذَلِكَ جَاءَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فَأَوْلَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَ النَّفْيُ الشَّرْكَ ثُمَّ «إِلَّا اللَّهُ» وَ السَّرُّ أَنَّ الْعَدَمَ مُقَدِّمٌ عَلَى الْوُجُودِ دَائِمًا، وَ عَلَى هَذَا جَرَى قَوْلُهُ «وَ سَبِّحْ ...» قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ حَيْثُ يَبْتَدِئُ يَوْمٌ جَدِيدٌ بِنِعْمَةٍ جَدِيدَةٍ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ حَيْثُ انْتَهَى الْيَوْمُ بِسَلَامٍ

(١) المعارج: ٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٢٩

[سورة ق (٥٠): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ

(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)

و رحمته و ذلك ما يستحق الشكر.

[٤١] وَ مِنَ اللَّيْلِ بَعْضَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ شُكْرًا لِمَجِيءِ اللَّيْلِ الْمَوْجِبِ لِرَاحَةِ الْإِنْسَانِ وَ سَبِّحْهُ أَذْبَارَ السُّجُودِ بَعْدَ كُلِّ صَلَاةٍ شُكْرًا لِأَنَّ وَفْقَكَ لَطَاعَتَهُ وَ عِبَادَتَهُ، وَ قَدْ تَفَسَّرَ الْإِتْيَانُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَصْدَاقِ.

[٤٢] ثُمَّ رَجَعَ السِّيَاقُ إِلَى قِصَّةِ الْبَعْثِ، حَيْثُ أَنَّ الْكَلَامَ كَانَ فِيهَا وَ اسْتَمَعَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ لِلْبَعْثِ فَإِنَّ إِسْرَافِيلَ يَنْفِخُ فِي الصُّورِ فَيَبْعَثُ الْأَمْوَاتَ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ بِحَيْثُ يَصِلُ نِدَاءُهُ إِلَى الْكُلِّ عَلَى حُدِّ سَوَاءٍ، فَلَيْسَ النِّدَاءُ قَرِيبًا إِلَى بَعْضٍ بَعِيدًا عَنْ بَعْضٍ، كَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الدُّنْيَا حَيْثُ أَنَّ النِّدَاءَ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى بَعْضٍ وَ بَعِيدٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى آخَرِينَ.

[٤٣] يَوْمَ يَشْفَعُونَ الصَّيْحَةَ يَسْمَعُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرُونَ كَمَا يَسْمَعُهُ سَائِرُ النَّاسِ بِالْحَقِّ فَإِنَّ الصَّيْحَةَ مُقْتَرَنَةٌ بِالْحَقِّ، وَ لَيْسَتْ دَعْوَةً بَاطِلَةٌ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ لِلْبَعْثِ، فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنْتَ تَسْمَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ فِي الثَّانِيَةِ هُمْ يَسْمَعُونَ، فَيُظْهِرُ صِدْقَكَ، وَ يَظْهَرُ خَسْرَانَهُمْ، وَ فِيهِمَا بَشَارَةٌ لِلدَّاعِي وَ إِذَارَةٌ لِلْمَدْعُوعِ.

[٤٤] أَ فَلَا يَرُونَ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ فَلِمَاذَا يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ؟ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ مُصَدَّرٌ، أَيُّ الصِّيْرُورَةِ وَ الرَّجُوعِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٠

[سورة ق (٥٠): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ (٤٥)

[٤٥] وَ ذَلِكَ الْمَصِيرُ يَكُونُ فِي يَوْمِ تَشَقُّقِ الْأَرْضِ عَنْهُمْ تَشَقُّقُ قُبُورِهِمْ فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا سِرَاعًا أَيُّ مُسْرِعِينَ لِمَا يَصِيْبُهُمْ مِنَ الْهَوْلِ وَ الْوَحْشَةِ ذَلِكَ الْإِخْرَاجُ حَشْرٌ جَمَعَ لِلنَّاسِ لِلْبَعْثِ عَلَيْنَا يَسِيرٌ سَهْلٌ.

[٤٦] نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ مِنْ تَكْذِيبِكَ فَلَا تَهْتَمُ لِقَوْلِهِمْ فَإِنَّا سَنَجَازِيهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ تَجْبِرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، فَإِنَّمَا أَنْتَ دَاعٍ تَدْعُوهُمْ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا فَلَكَ أَجْرُكَ بِدَعْوَتِهِمْ، وَ عَلَيْهِمْ وَزْرُهُمْ بِعَدَمِ الْإِجَابَةِ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ فَالْقُرْآنُ آيَةُ التَّذْكِيرِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ أَمَا مَنْ لَا يَخَافُ مِنَ الْوَعِيدِ، فَإِنَّهُ وَ إِنْ وَجِبَ تَذْكِيرُهُ، لَكِنَّهُ حَيْثُ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَذْكَرْ أَصْلًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣١

٥١ سورة الذاريات مكية / آياتها (٦١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على كلمة «الذاريات» و هي كباقي السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة بأصولها الثلاثة و لما ختمت سورة «ق» بذكر الآخرة و البعث افتتحت هذه السورة بذلك، بعد القسم بعهدة أمور.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِاسْمِ الْإِلَهِ نَبْدَأُ السُّورَةَ، لِإِفَادَةِ أَنَا تَحْتَ هَذَا الْاسْمِ نَعْمَلُ أَعْمَالَنَا، وَ نَكْرُرُ اسْمَهُ الْمَشْتَقَّ مِنْ مَادَّةِ «رَحِم» لِيَكْرُرَ رَحْمَتُهُ عَلَيْنَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٢

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤)

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَ إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)

[٢] وَ الذَّارِيَاتِ الْوَاوِ لِلْقِسْمِ أَيُّ قِسْمًا بِالذَّارِيَاتِ، وَ هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَذَرُ التُّرَابَ وَ غَيْرَهُ ذُرُوءًا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِلتَّأْكِيدِ.

[٣] فلمجرد الترتيب الكلامي أو لأن الحاملات الأشياء التي تحمل وقرأ أي حملاً ثقيلاً سواء كانت تلك الحاملات التي تحمل الأمطار أو السفن التي تحمل الإنسان وغيره أو نحوهما، تسير بسبب الذاريات.

[٤] فالسفن أو السحب الجاريات التي تجرى في الماء أو الهواء يُسراً يسر وسهولة.

[٥] فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْراً قسماً بالملائكة التي خلقها الله وجعلها تقسم أمور الكون فتجري أمور الكون تحت نظرها.

[٦] إِنَّمَا تُوعَدُونَ مِنَ الْبَعثِ بعد الموت لَصَادِقٌ وضع اسم الفاعل موضع المصدر أي صدق، لا بد من وقوعه، وهذا هو جواب القسم، والمناسبة هو أن من خلق الرياح، والمياه، وقرر لكل شيء قانوناً صالحاً له، كتقرير قانون سير الأشياء المحملة بالأثقال بكل يسر، ومن خلق الملائكة، وجعل بأيديهم تقسيم أمور الكون على نحو الصلاح والحكمة، لقادر على إعادة الأموات إلى الحياة، «فإن الأشياء تعرف بأمثالها».

[٧] وَإِنَّ الدِّينَ الْجَزَاءَ لَوَاقِعٌ قطعاً فيجزى كل إنسان بما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٣

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٧ الى ١١]

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أْفِكَ (٩) قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) [٨] وَالسَّمَاءِ أَى قسماً بالسماء ذاتِ الْحُبُوبِ جمع حباك على نحو:

مثل جمع مثال، وهو الطريق الحسن فإن في السماء طرقاً، للنيازك وللملائكة وللمسير الشمس والقمر والكواكب ونزول المطر إلى غير ذلك، والحلف هكذا لمناسبة قوله تعالى.

[٩] إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ واختلاف قولهم واضح، وإنما احتيج إلى الحلف لبيان أنهم إنما يصدرون في حكمهم على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه شاعر وكاهن ومجنون وغير ذلك، لا عن دليل وبرهان بل عن الهوى، وإلا لم يختلفوا فيه، فهو على حد أن يقول «قسماً بالسماء أنتم لستم على شيء في تكذيب الرسول».

[١٠] يُؤَفِّكُ يَصْرِفُ عَنْهُ أَى عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَ أْفِكَ أَى من صرف عن الحق، أو أن الضمير في «عنه» عائد إلى «الدين» أَى عن البعث والجزاء.

[١١] قَتَلَ دَعَاءَ عَلَيْهِم بِالْقَتْلِ، أَى أن يقتلهم اللهُ الْخَرَّاصُونَ الخراص الذي يختم بدون علم، كناية عن أن المنكر للرسول، أو القيامة، خراصون لا علم لهم بالنفي وإنما يخمنون تخميناً.

[١٢] الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ فِي ضَلَالٍ وَجَهْلٍ يَغْمِرُهُمْ، كالماء الذي يغمر الإنسان ويستوعبه، كأن الجهل والضلال شملهم من رأسهم إلى أرجلهم سَاهُونَ غافلون عما أمروا به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٤

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ١٢ الى ١٧]

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)

[١٣] يَسْأَلُونَ عَلَى سبِيلِ الْإِنكَارِ أَيَّانَ وَقْتِ وَزَمَانِ يَوْمِ الدِّينِ أَى يوم الجزاء؟

[١٤] وَالْجَوَابُ عَنْ سُؤْلِهِمْ، أَنَّهُ يَكُونُ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ يحرقون ويعذبون.

[١٥] وَيَقَالُ لَهُمْ هُنَاكَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ عَذَابِكُمُ الَّذِي هِيَ أَمْوَةٌ لَأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا بِإِنْكَارِكُمْ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ وَالْبَعثِ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ فَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَقُولُونَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ عَذَابٌ فَاتْتَنَا بِهِ يَا مُحَمَّدُ، وَهَذِهِ آيَةٌ تَهْدِدُهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيَصِلُونَ إِلَيْهِ.

[١٦] هذا حال المكذبين، أما حال المصدقين إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ فَإِنَّهُمْ يَدْهَبُونَ فِي الْعُيُونِ لِلْسَّيَاحَةِ مُقَابِلَ أَوْلِيائِهِمُ الَّذِينَ كَذَبُوا حَيْثُ أَنَّهُمْ فِي النَّارِ وَالْعَذَابِ.

[١٧] آخِذِينَ قَابِلِينَ مَا آتَاهُمْ أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ الْعَطَاءِ وَالنَّعِيمِ، بِكُلِّ رِضَى وَسُرُورٍ، فِي مُقَابِلِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَصُبُّ فَوْقَهُمُ الْعَذَابُ بِكُلِّ كَرِهٍ مِنْهُمْ، لَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مُحْسِنِينَ زَرَعُوا فِي الدُّنْيَا الْإِحْسَانَ فَأَخَذُوا ثَمَارَهُ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةِ.

[١٨] وَكَانَ مِنْ وَصْفِهِمْ فِي الدِّينِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٥

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ١٨ الى ٢١]

وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)

الهبجوع النوم، أى قليلا من الليل ينامون، ف «ما» زائدة، أو المراد قليلا من الليل لا ينامون، ف «ما» نافية.

[١٩] وَبِالْأَشْحَارِ أَى فِي الْأَشْحَارِ، وَالسَّحَرُ هُوَ الثَّلَاثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ يُطَلَّبُونَ الْغَفْرَانَ مِنَ اللَّهِ، وَ لَفْظُ «هُمْ» لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ، أَى أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ حَقِيقَةً، دُونَ سِوَاهُمْ، فَإِنَّ اسْتِغْفَارَهُ صَوْرَى لَا يَخْرُجُ عَنْ عَمَقِ الْقَلْبِ.

[٢٠] وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ نَصِيبٌ حَقٌّ عَلَيْهِمْ وَ ثَبِتَ لِّلْسَائِلِ الَّذِى يُسْأَلُ وَالْمَحْرُومِ الَّذِى لَا يُسْأَلُ، فَإِنَّ سَأَلَ السَّائِلِ أَعْطَاهُ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ الْمَحْرُومِ ابْتَدَأُوا بِإِعْطَائِهِ.

[٢١] ثُمَّ رَجَعَ السِّيَاقُ إِلَى مَا كَانَ بِصَدَدِهِ مِنَ الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ الْأَلُوْهِيَّةِ وَ الرِّسَالَةِ وَ الْمَعَادِ، وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ السَّابِقَ حَوْلَ الْمَعَادِ، وَ الِاسْتِدْلَالَ لَهُ جَاءَ الْكَلَامُ الْآنَ حَوْلَ الْأَلُوْهِيَّةِ وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ دَلَالَاتٌ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ.

وَ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقَ الْإِسْتِدْلَالِ «الْيَقِينِ» لَا الَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقَ الْأَهْوَاءِ وَ الظُّنُونِ.

[٢٢] وَفِي أَنْفُسِكُمْ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى وَجُودِهِ وَ صِفَاتِهِ تَعَالَى فَإِنَّ كُلَّ جِزْءٍ مِنَ أَجْزَاءِ الْجَسْمِ، وَ كُلِّ صِفَةٍ مِنَ صِفَاتِ النَّفْسِ دَلِيلٌ سَاطِعٌ عَلَى وَجُودِهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٦

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوْعَدُونَ (٢٢) فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)

اللَّهِ وَ عِلْمُهُ وَ قُدْرَتُهُ وَ غَيْرَ ذَلِكَ أَفَلَا تُبْصِرُونَ هَذِهِ الْآيَاتُ؟ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ وَ تَعْتَرِفُوا بِهِ وَ بِصِفَاتِهِ؟

[٢٣] ثُمَّ إِنْ رِزْقِكُمْ وَ مَقْدَرَاتِكُمْ أَيْضًا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ إِنْ الْمَطَرُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ يَسَبِّ لَكُمْ الرِّزْقَ مِنَ الْحُبُوبِ وَ لَحُومِ الْبَهَائِمِ وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَ تَلْبَسُونَ وَ غَيْرَهُمَا أَوْ فَلَيسَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ؟ وَ إِنْ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَهُ فَمَنْ ذَا الَّذِى أَنْزَلَ الْمَطَرَ؟ وَ فِي السَّمَاءِ مَا تُوْعَدُونَ فَإِنَّ كُلَّ مَا يَصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ صِحَّةٍ وَ مَرَضٍ وَ غَيْرِهِمَا خَارِجٌ عَنْ إِرَادَتِهِ أَلَيْسَ ذَلِكَ دَلِيلًا- عَلَى أَنَّهُ يَأْتِي مِنْ جِهَةِ اللَّهِ؟ وَ الْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ جِهَةُ الْعُلُوِّ، وَ الْإِنْسَانُ وَعَدَ بِمَقْدَرَاتِهِ إِمَّا لَفْظًا عَلَى لِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَ إِمَّا عَرَفَهُ فَطَرَةً، وَ كِلَاهُمَا وَعَدَ لَهُ.

[٢٤] ثُمَّ لِتَأْكِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَعَادِ وَ الْأَلُوْهِيَّةِ- بَعْدَ الْإِسْتِدْلَالِ لِهَمَا بِمَا ذَكَرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ- حَلْفَ سَبْحَانَهُ فَقَالَ وَ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَا ذَكَرْنَاهُ لَحَقٌّ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ أَى مِثْلَ نَطْقِكُمْ فَكَمَا لَا شَكَّ لَكُمْ فِي أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَشْكُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَلُوْهِيَّةِ وَ الْمَعَادِ وَ لَعَلَّ الْمَجْيءَ «بِالنَّطْقِ» لِأَنَّكُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ إِبْطَالَ الْحَقِّ بِنَطْقِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمْ، فَجَابَلْتَهُمُ الْآيَةَ «بِالنَّطْقِ» لِلْإِثْبَاتِ، وَ الْمَقَابَلَةُ اللَّفْظِيَّةُ نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ.

[٢٥] ثم ذكر سبحانه هلاك قوم لوط عليه السلام إنذارا لكفار قريش، بأنهم إن لم يؤمنوا أصابهم العذاب، و ذكر مقدمه ذلك مجيء الرسل الذين كانوا مكلفين بعذابهم، إلى قري لوط من طريق مرورهم على إبراهيم عليه السلام

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٧

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٥ إلى ٢٧]

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) هَلْ أَتَاكَ جَاءُكَ وَ أَخْبَرْتَ بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِيثٌ قِصَّةٌ ضَعِيفٌ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَلَائِكَةً وَ لَذَا كَانُوا مُكْرَمِينَ، كما قال تعالى بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١﴾.

[٢٦] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَارِهِ فَقَالُوا لَهُ سَلَامًا أَى نَسَلِمَ عَلَيْكَ سَلَامًا قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي جَوَابِهِمْ سَلَامٌ لَعَلَّ عَدُولَهُ إِلَى الرَّفْعِ لِقَصْدِ الثَّبَاتِ - حَيْثُ أَنَّ الْجُمْلَةَ اسْمِيَّةٌ - وَ هِيَ تَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ، حَتَّى تَكُونَ تَحِيَّتَهُ أَكْثَرَ مِنْ تَحِيَّتِهِمْ، وَ قَالَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ لَمَّا أَرَى الْمَلَائِكَةَ قَوْمٌ مُّكْرَمُونَ لِأَنَّهُ مَا كَانَ رَأَاهُمْ فِي بَلَدِهِ قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ يَرِيدُ بِهِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنفُسَهُمْ فَهُوَ مِثْلُ «مَنْ أَنْتُمْ؟».

[٢٧] فَرَاغَ ذَهَبَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَهْلِهِ بِتَسْلُلٍ وَ خَفِيَّةٍ لِيَحْضُرَ لَهُمْ طَعَامًا فَإِنَّ مِنْ أَدَبِ الضَّيْفَةِ أَنْ يَتَسَلَّلَ الضَّيْفُ لِاحْتِضَارِ الطَّعَامِ، وَ التَّسَلُّلُ لِأَجْلِ أَنْ لَا يَمْنَعَهُ الضَّيْفُ عَنِ الْإِحْضَارِ فَجَاءَ إِلَيْهِمْ بِعِجْلٍ سَمِينٍ مَطْبُوحٍ، وَ اخْتَارَ السَّمِينِ مِنْ بَقْرِهِ لِأَنَّهُ أَدَبٌ أَنْ يَحْسَنَ الْإِنْسَانُ الضَّيْفَةَ.

[٢٨] فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ لِيَأْكُلُوا لَكِنَّهُمْ أَبَوْا عَنِ الْأَكْلِ فَ قَالَ لَهُمْ أَلَا تَأْكُلُونَ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَأْكُلُوا أَيْضًا.

(١) الأنبياء: ٢٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٨

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٨ إلى ٣٠]

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَيَّ كَتْ وَ جَهَّهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)

[٢٩] فَأَوْجَسَ أَضْمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ مِنْهُمْ مِنْ عَدَمِ أَكْلِهِمْ خِيفَةً لِظَنِّهِ أَنَّهُمْ جَاءُوا لِشَرِّ، فَإِنَّ الضَّيْفَ إِذَا لَمْ يَأْكُلْ ظَهَرَ مِنْهُ قِصْدُ الشَّرِّ عَرَفَا قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا مَلَائِكَةٌ، وَ الْمَلَائِكَةُ لَا تَأْكُلُ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ تَلَدَهُ زَوْجَتُهُ سَارَةَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَقِيمًا لَا تَلِدُ وَ قَدْ كَبُرَتْ بِمَا لَمْ يَعْتَدِ وَ لَادَةً مِثْلَهَا عَلِيمٌ مِنْ صِفَتِهِ الذِّكَاةِ وَ الْعِلْمِ.

[٣٠] وَ لَمَّا سَمِعَتْ سَارَةَ بَخِيرَ الْوِلَادَةَ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فِي صِيَاحٍ مِنَ الصَّرِيرِ بِمَعْنَى الصَّوْتِ فَصَيَّ كَتْ أَى لَطَمَتْ وَ جَهَّهَا فَعَلَّ الْمَتَعَجَّبِ، لِتَعْجَبِهَا بِأَنَّهَا كَيْفَ تَلِدُ وَ قَالَتْ هَلْ تَلِدُ عَجُوزٌ عَقِيمٌ حَتَّى تَبْشُرُونِي بِغُلَامٍ.

[٣١] قَالُوا الْمَلَائِكَةُ كَذَلِكَ كَمَا قُلْنَا قَالَ رَبُّكَ وَ «كَ» خَطَابٌ لَهَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ فَيَكُونُ قَوْلُهُ حَقًّا وَ فَعَلَهُ مُحْكَمًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٣٩

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء السابع والعشرون من آية (٣٢) سورة الذاريات إلى آية (٣٠) سورة الحديد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَ عَرَّتَهُ الطَّاهِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤١

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣١ إلى ٣٦]

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُشْرِكِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥)

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)

[٣٢] قال إبراهيم عليه السلام للملائكة فما خطبكم أي فما شأنكم وما طلبكم ولماذا جئتم أيها المرسلون فإن الملائكة رسل الله تعالى.

[٣٣] قالوا إِنَّا أُرْسِلْنَا أُرْسِلْنَا اللهُ تعالى إلى قوم مجرمين يعنون قوم لوط.

[٣٤] لأجل أن نرسل عليهم حجارة من طين يطبخ حتى يكون في صلابه الحصاة، و يسمى بالسجيل معرب «سنگ كل».

[٣٥] مُّسَوِّمَةً معلّمة عند ربك فكما يهين رئيس الدولة لكل نوع من الأجرام نوعا من العقوبة كذلك الله هيا لكل نوع جريمة نوع عقاب في الدنيا وفي الآخرة، والعذاب من جنس العمل كما أن الدجاجة من جنس البيضة للمُشْرِكِينَ الذين أسرفوا في العصيان، وقد ذكرنا في كتاب «حول القرآن الحكيم» مناسبة بعض العقوبات لبعض الإجماعات، المذكورة في القرآن الحكيم، ثم جاء القرآن بأسلوب الالتفات، فقال:

[٣٦] فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا فِي قري قوم لوط من المؤمنين بالله و رسله و أحكامه.

[٣٧] فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا فِي تلك القرى غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هو بيت

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٢

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٣٧ الى ٤٠]

وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَ فِي مُوسَى إِذِ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (٤٠)

لوط عليه السلام، وقد كانت زوجته أيضا مع الكفار، ولما خرج لوط و أهل بيته إلا زوجته، و ابتعدوا عن المدينة، نزل على القرى العذاب.

[٣٨] وَ تَرَكْنَا فِيهَا فِي قري لوط التي دمرت آية علامة و هي الآثار الباقية التي يراها الناس حين يمرون بتلك الأرض، و البحر الميت قرب الأردن- إلى الآن- من آثار تلك القرى للذين يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ المؤلم و حيث إن الذي يخاف يعتبر دون غيره، خصص سبحانه الآية «لِلَّذِينَ يَخَافُونَ» و إلا فكونه آية يراها الكل.

[٣٩] وَ فِي مُوسَى عطف على «وَ فِي الْمَرْضِ آيَاتٌ» أي أن في موسى عليه السلام آيات، و الظرف على سبيل المجاز، إذ الآيات في مجموع القصة إذ أُرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ بحجة واضحة تدل على صدقه في دعواه النبوة، و المراد بها معاجزه عليه السلام.

[٤٠] فَتَوَلَّى فَأعرض فرعون برُكْنِهِ كأن إعراضه بسبب ما كان يتقوى به من جنوده و ملكه، فموسى عليه السلام اعتمد على الحجة، و فرعون اعتمد على القوة و قال فرعون إن موسى عليه السلام ساحر إن كان عاقلا فيما يفعل أو مَجْنُونٌ إن كان لا يعقل، فإن قسما من المجانين الذين دخلت فيهم الأرواح الشريرة يفعلون الخوارق.

[٤١] فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ الَّذِينَ كَانُوا معتمد فرعون في تكذيبه لموسى عليه السلام فَتَبَذْنَاهُمْ طرحناهم طرح إهانة في اليم في البحر فغرقوا جميعا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٣

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَ فِي عَادٍ إِذِ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَ فِي ثَمُودَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤)

وَهُوَ مُلِيمٌ آتِ بِمَا يَلَامُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ تَكْذِيبُهُ لِمُوسَى لِبَقَاءِ سُلْطَنِهِ وَ سَمْعَتِهِ، وَ الْغُرْقُ ذَهَبٌ بِالسُّلْطَنَةِ، وَ انْفِصَاحُهُ ذَهَبٌ بِالسَّمْعَةِ فَصَارَ النَّاسُ يَلُومُونَهُ وَ يَلْعَنُونَهُ.

[٤٢] وَ فِي عَادٍ عَطْفٌ عَلَى «وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ» أَى آيَاتٍ فِي قَوْمِ عَادٍ، الَّذِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ سَمِيَتْ عَقِيمًا، لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَلِدُ خَيْرًا، كَمَا هِيَ عَادَةُ الرِّيحِ إِذْ هِيَ تُولِدُ السَّحَابَ وَ الْمَطَرَ وَ تَنْقُلُ مَا تَلْقَحُ الثَّمَارَ وَ الْأَزْهَارَ، بَلْ وُلِدَتْ شَرًّا.

[٤٣] مَا تَذَرُ مَا تَتْرَكَ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الرِّيحُ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ الرَّمِيمِ مَا تَفْتَتِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَ إِنَّمَا كَانَتْ آيَاتٌ، لِأَنَّ كُلَّ أَثَرٍ مِنْ تِلْكَ الرِّيحِ آيَةٌ وَ عَلَامَةٌ لِمُصَدِّقِ رِسَالَةِ اللَّهِ، وَ عِقَابٌ مِنْ خَالَفِ الرِّسَالَ.

[٤٤] وَ فِي ثَمُودَ عَطْفٌ عَلَى «وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ» وَ ثَمُودٌ هُمْ قَوْمٌ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ قِيلَ لَهُمْ قَالُوا لَكُمْ نَبِيٌّ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَمَتَّعُوا بِقُوتِهَا فِي دَوْرِكُمْ حَتَّى حِينٍ حَتَّى زَمَانَ مُقَرَّرٍ وَ هُوَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، أَمَّهُلَهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ.

[٤٥] لَكِنَّهُمْ لَمْ يَتُوبُوا مَعَ أَنَّهُمْ رَأَوْا آثَارَ الْعَذَابِ فَعَتَوْا اسْتَكْبَرُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ بِالْإِيمَانِ وَ الْهَدَايَةِ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ - كَمَا تَقْرِبُ الْقُرْآنُ إِلَى الْأَذْهَانِ، ج ٥، ص: ٢٤٤

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

فَمَا اسْتِطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُتَنْصِرِينَ (٤٥) وَ قَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَ السَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)

وَ عَدَّهُمْ نَبِيَّهُمْ - وَ الصَّاعِقَةُ هِيَ مَا تَصْعَقُ الْإِنْسَانَ وَ تَمِيْتُهُ فَجَاءَهُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ وَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهَا، وَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ «وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» دَلَالَةٌ عَلَى ضَعْفِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ وَ بِسَبَبِ هَذَا الظَّنِّ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ، وَ دَلَالَةٌ عَلَى تَأْلَمِهِمْ إِذْ لَوْ كَانَتْ أَخَذَتْهُمْ فِي حَالَةِ النَّوْمِ مِثْلًا لَمْ يَتَأْلَمُوا مِثْلَ هَذَا التَّأْلَمِ.

[٤٦] فَمَا اسْتِطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ أَنْ يَقُومُوا مِنْ كِبُوتِهِمْ، فَلَمْ يَكُونُوا كَالْمَرْضَى الَّذِينَ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ شِفَاءِ أَنْفُسِهِمْ، وَ فِي هَذَا تَنْبِيهِ إِلَى أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلَاجٌ، إِلَّا بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَ مَا كَانُوا مُتَنْصِرِينَ لَمْ يَنْصِرْهُمْ أَحَدٌ، فَلَا يَقُومُ أَمَامَ أَمْرِ اللَّهِ، لَا قُوَّةَ ذَاتِيَّةً، وَ لَا نَصْرَةَ خَارِجِيَّةً.

[٤٧] وَ أَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ وَ إِنَّمَا لَمْ يَعْطَفْهُ، لِتَلْفِظِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى الْبَلَاغَةِ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرُوا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ لِذَا أَغْرَقْنَاهُمْ بِالطُّوفَانِ أَلَيْسَ فِي كُلِّ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ دَلَالَةٌ لِكِفَارِ قَرِيْشٍ عَلَى سُوءِ مَصِيرِ الْمَكْدَبِ؟

[٤٨] ثُمَّ أَلَا - يَسْتَدِلُّ هَؤُلَاءِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَ عِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ بِمَا يَشَاهِدُونَ مِنْ آثَارِ عِظَمَتِهِ؟ وَ السَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا فَإِنْ جَعَلَ الْأَنْجَمَ وَ جَعَلَ النِّظَامَ فِي الْكُونِ، مِنْ أَجْلِ الْأَنْبِيَاءِ - لَوْضُوحٌ أَنَّ الْبِنَاءَ لَيْسَ خَاصًا بِالْبِنَاءِ الْحَجْرِيِّ وَ نَحْوِهِ - بِأَيْدٍ بِقُوَّةٍ مِنْ آدٍ، يَشِيدُ، فَإِنَّ قُوَّةَ الْمَبْنِيِّ وَ إِتْقَانَهُ تَدُلُّ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٥

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

وَ الْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) قُوَّةَ الْبَانِي، وَ قُوَّةَ بِنَائِهِ، ثُمَّ إِنَّا لَمْ نَسْتَنْفِدْ قُوَانَا فِي بِنَاءِ مَا يَشَاهِدُونَ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ السَّمَاءَ، وَ قَدْ دَلَّ عِلْمُ الْفَلَكِ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْكُونِ فِي تَوْسِعٍ دَائِمٍ.

[٤٩] وَ الْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا جَعَلْنَاهَا فَرَاشًا لِتَسْتَقِرُّوا عَلَيْهَا وَ تَتَنَفَّعُوا بِهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ نَحْنُ الَّذِينَ مَهَدْنَا لَكُمْ الْأَرْضَ.

[٥٠] وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَ وَ أَصْنَافِ النَّبَاتِ وَ حَتَّى أَصْنَافِ الْمَاءِ حَلْوٍ وَ مَالِحٍ وَ شَبِهُهُ كَالسَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَعَلْنَا كُلَّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ الْأَزْوَاجِ لِأَجْلِ أَنْ تَتَذَكَّرُوا فَتَعْرِفُوا الْخَالِقَ وَ

تعبده، ثم إنه لا- منافاة بين تعدد الغاية فالخلق لأجل تطلبها الفيض و الله فياض مطلق و لأجل تذكّر الإنسان كما إذا سافر الإنسان لأجل صحته مزاجه و لأجل تنزهه.

[٥١] و إذ عرفتم الله و علمتم أنه يثيب المطيع و يعاقب العاصي فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ فِكَمَا أَنْ مِنْ يَطَارِدُهُ الْأَسَدُ يُفِرُّ، كذلك من طارده الذنوب لزم عليه أن يفر بالأعمال الصالحة، و سرعة الإتيان بها بمثابة الفرار، إلى ثواب الله و طاعته إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ أَى مِنْ قَبْلِ اللَّهِ نَذِيرٌ أَنْذَرَكُمْ إِنْ بَقِيتُمْ فِي الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ تَلْحَقَكُمْ نَتَائِجُ سَيِّئَاتِكُمْ مُبِينٌ وَاضِحٌ لَوْضُوحِ الْأَدْلَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى نُبُوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٦

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أ تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)

[٥٢] وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ نَذِيرٌ مُبِينٌ فَالْإِلازِمُ أَمْرَانِ: الأول:

توحيد الإله. و الثانى: عدم عصيانه، و لعل وجه تقديم الثانى، فى الآيتين إن الاشتغال بالمعاصى يحجب الإنسان عن الإيمان بالوحدانية، كما قال تعالى ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ «١» كما أن وجه تكرار آخر الآية بشكل واحد لعله للتنبيه على أن الإنذار على المعاصى مثل الإنذار على المشرك، كما قال تعالى لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا «٢».

[٥٣] إِنْهُمْ مَعَ إِنْذَارِكَ لَهُمْ إِنْذَارًا وَاضِحًا يَنْسُبُونَكَ إِلَى أَنْكَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ وَ كَذَلِكَ أَى أَنْ الْأَمْرُ مِثْلُ ذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأَمَمِ مِنْ رَسُولٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ بَعْضُهُمْ قَالُوا سَاحِرٌ وَ بَعْضُهُمْ قَالُوا مَجْنُونٌ، أَوْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ «وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ».

[٥٤] أ تَوَاصَوْا بِهِ أَى أَنْ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ الَّذِينَ رَمَى كُلَّهُمْ أَنْبِيَاءُهُمْ بِالسَّحْرِ وَ الْجِنُونِ هَلْ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَنْ يَنْسُبُوا الْأَنْبِيَاءَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ النَّسْبَةِ؟ كَلَّا، إِذْ لَا رِبْطَ بَيْنَ الْأَمَمِ مَعَ اخْتِلَافِ زَمَانِهِمْ وَ تَبَاعَدِ

(١) الروم: ١١.

(٢) الأنعام: ١٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٧

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥٤ الى ٥٧]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ (٥٧)

بلادهم يَلْ هُمْ الْأَوْلُونَ وَ الْآخِرُونَ الْكَافِرُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ قَوْمٌ طَاغُونَ فمشاركتهم فى الطغيان أوجبت أن يرموا الأنبياء بما يكون مقتضى الطغيان و العتو على الله سبحانه، بعد أن فقدوا الحجّة فى رد برهان الأنبياء.

[٥٥] فَتَوَلَّ فاعرض عَنْهُمْ وَ لَا تَجَادَلْهُمْ بعد أن كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا العناد فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ على إعراضك بعد أن جهدت فى البلاغ فلم يَنْفَعْ معهم.

[٥٦] وَ لَكِنْ خَذْ طَرِيقَكَ فِي الْإِرْشَادِ الْعَامِ فِ ذِكْرِ النَّاسِ حَسْبَ قَدْرَتِكَ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ يَزِدَادُونَ بِهَا بَصِيرَةً، أَوْ الْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ نَفْسٌ طَيِّبَةٌ تَقْبَلُ الْحَقَّ، فَاسْتَعْمَلِ «الْمُؤْمِنِ» فِيمَنْ لَهُ طَبِيعَةٌ إِيْمَانِيَّةٌ.

[٥٧] وَإِذَا نَفَعَتِ الذِّكْرَى الْمُؤْمِنِينَ عَمَلُوا بِمَا هُوَ غَايَةُ الْخَلْقَةِ إِذْ مَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ وَيَطِيعُونَ، وَإِذَا أَطَاعُوا كَمَلُوا هُمْ، لَا أَنْ اللَّهُ اسْتَفَادَ مِنْهُمْ شَيْئًا.

[٥٨] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ مِنْ مَالٍ كَمَا يَرِيدُ السَّادَةُ مِنَ الْعَبِيدِ أَنْ يَعْمَلُوا لِأَجْلِ جَلْبِ الْمَالِ لِلْسَّادَةِ حَتَّى يَرْتَقِيَ بِهِ السَّيِّدُ فِي اشْتِرَاءِ دَارٍ وَلِبَاسٍ وَمَرْكَبٍ وَ مَا أَشْبَهَ «فَإِنْ كُلَّ ذَلِكَ رِزْقٌ» وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٨

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥٨ الى ٦٠]

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

يطعمونى يهينوا الى طعاما، كما يفعله الطباخ للسيد.

[٥٩] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ لِكُلِّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى الرِّزْقِ مِنْ بَشَرٍ وَ حَيَوَانَ وَ غَيْرِهِمَا، فَكَيْفَ يَخْلُقُهُمْ لِأَنْ يَرْزُقُوهُ؟ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ الشَّدِيدُ، لَا مِثْلَ قَوْلِ الْمَلُوكِ لَا مِتَانَةَ لَهَا وَ لِذَا تُؤَوَّلُ إِلَى الضَّعْفِ وَ الْإِنْحِلَالِ وَ الْعَدَمِ، وَ إِذَا كَانَ سَبْحَانَهُ لَهُ الْقُوَّةُ الْمَتِينَةُ فَلَا حَاجَةَ لَهُ فِي الطَّعَامِ كَى يَتَّقَى بِهِ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ كَذَلِكَ يَتَّقَى بِالطَّعَامِ.

[٦٠] وَإِذَا أَبْلَغْتَ فِي الْإِنذَارِ وَ لَمْ يَقْبَلُوا فَلَا تَغْتَمِ إِذْ إِنَّا سَوْفَ نَعَاقِبُهُمْ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِالتَّكْذِيبِ لَكَ ذُنُوبًا نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ مِثْلَ نَصِيبِ نَظَائِرِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، وَ هَذَا تَشْبِيهِهِ حَيْثُ إِنَّ أَصْلَ «الذُّنُوبِ» الدُّلُوعُ الْعَظِيمُ الْمَمْلُوءُ مَاءً، وَ جِئَ بِهِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لِأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ لَا مُحَالَةً.

[٦١] فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَوْءَ لَهُمْ مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ «مِنْ» أَي مِنْ نَاحِيَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٤٩

٥٢ سورة الطور مكية / آياتها (٥٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «الطور» و هي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة بأصولها الثلاث و لما ختمت سورة الذاريات بعذاب الكفار ابتدأت هذه السورة بذلك، بعد تأكيد عذابهم، بجملة من الأيمان.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شرع في السورة مصاحبا باسم الله، لكي نتعلم أن كل شروع لا بد و أن يقترن باسمه، لأنه شكر للنعمة أن يتذكر الإنسان خالقه و رازقه عند كل ابتداء، إذ لو لا لطفه، لم يكن الإنسان قادرا على العمل «الرحمن الرحيم» الذي يرحم كل شيء يعطيه الوجود، ثم يرحمه بتربيته و السير به في مراحل الكمال فهو سبحانه يرحمه إيجادا و يرحمه إبقاء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٢٩٩

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ الطُّورِ (١) وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦)

[٢] وَ الطُّورِ قِسْمًا بِطُورِ سَيْنَاءِ الَّذِي تَكَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعِ رَبِّهِ مِنْ فَوْقِهِ، قَالَ جَمَعَ مِنَ الْمَفْسَرِينَ أَنَّهُ جَبَلٌ بِمَدِينِ.

[٣] وَ قِسْمًا بِ كِتَابٍ مَسْطُورٍ إِذَا الْمَرَادُ أَي كِتَابٌ، فَالطُّورُ مَرْفُوعٌ مَكَانًا، وَ الْكِتَابُ مَرْفُوعٌ مَعْنَى، فَالمراد القسم بكل رفيع، مادي أو معنوي، أو المراد كتاب خاص، مثل التوراة و الإنجيل و القرآن، و لا- يبعد إرادة الإنجيل باعتبار أنه سبحانه و تعالى حلف بشيء

لموسى عليه السلام، و بشىء لعيسى عليه السلام و بشىء لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم «و هو البيت المعمور».

[٤] ذلك الكتاب فى رَقِ أى جلد رقيق منشورٍ نشر لقراءته، و لعل القصد من الصفات إفادةً ووضوحه، فالكتابة مسطوره، لا مندمجة بعضها فى بعض، و هى فى ورق قد نشر، يقرأه كل إنسان، فالكتابة جمعت بين الارتفاع معنى الظهور، كما أن الطور جمع بين الارتفاع مادة الظهور.

[٥] و قسما ب البيتِ المَعْمُورِ الكعبة المعظمة، أو الضراح فى السماء الرابعة أو السابعة.

[٦] و قسما ب السَّقْفِ المَرْفُوعِ السماء، لأنه سقف يمنع وصول أحجار النيازك إلى الأرض، و المراد به بعض طبقات السماء.

[٧] و قسما ب البَحْرِ المَسْجُورِ الذى له أمواج كشعل النيران، أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥١

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٧ الى ١٣]

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١)

الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (١٣)

المراد به حين ينقلب نيرانا، كما فى أهوال القيامة.

[٨] إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ عَلَى الْكَافِرِ لَوَاقِعٌ قطعاً.

[٩] مَا لَهُ لَيْسَ لِلْعَذَابِ مِنْ دَافِعٍ يدفعه عن الكفار، فكأن الإنسان يسرح بخياله إلى السماء، و الجبل، و البحر، و بيت مرتفع فى وسطها،

و كتاب نشر فى أحوال الكون، «كتاب تكوينى إلى جانبه كتاب تشريعى» ألا يدل كل ذلك على عظيم القدرة؟ إذا فلا بد و أن يذوقوا العذاب.

[١٠] و إنما يقع العذاب يَوْمَ تَمُورُ تضطرب السماء مَوْرًا لأن النظام الكونى ينهدم فتضطرب الكواكب.

[١١] وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ كَالسَّحَابِ السَّائِرِ سَيْرًا مفعول مطلق للتأكيد.

[١٢] فَوَيْلٌ و سوء يَوْمَئِذٍ فى هذا اليوم لِلْمُكَذِّبِينَ بالله و برسوله و بالمعاد.

[١٣] الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يخوضون فى الكفر و العصيان يَلْعَبُونَ فإن عمل من لا يفكر فى العاقبة لعب إذ لا هدف حقيقى له، و إن تصور أن له هدفاً.

[١٤] و ذلك فى يَوْمٍ يَدْعُونَ الدَّعِ الدفيع العنيف إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٢

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١٤ الى ١٧]

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اضِلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا إِنْ مَا تُجْرُونَ مَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (١٧)

مفعول مطلق لتأكيد العنف فى سوقهم إلى جهنم.

[١٥] و يقال لهم هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ و كنتم تقولون أن ما جاء به محمد صلى الله عليه و آله و سلم سحر لا أصل له.

[١٦] أَفَسِحْرٌ هَذَا الذى ترونه فى النار؟ يقال لهم ذلك تبكيتم أم أنتم لا تبصرون أن هذه نار؟ كما كنتم تقولون فى الدنيا، إنا لا نراك و من بيننا و بينك حجابٌ «١».

[١٧] اضِلُّوْهَا ذوقوا النار فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا بأن تجزعوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أى الصبر و عدمه، فأيهما لا يخفف من عذابكم إِنْ مَا تُجْرُونَ مَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ظاهره نفس عملكم إذ قد ذكرنا فى بعض السور أن نفس العمل صار جزءاً كما أن نفس البيضة و النواة تصير فرخاً و شجرة، و من الواضح أن فى مثل هذا المقام لا فرق بين الصبر و الجزع و لعل هذا الكلام للكفار، جزاء لما كانوا يقولونه للأنبياء إنهم

لا يقبلون كلامهم في كل الأحوال، فجزاؤهم النار في كل الأحوال.

[١٨] و في مقابل هؤلاء المكذبين المصدقون ف إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ النعمة الباطنية «الجنة الظاهرية» كما أن الكفار في ألم النار

(١) فصلت: ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٣

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١٨ الى ٢١]

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ (٢١)

و ألم التويخ والاستهزاء، كما في «أفسحرو؟ فاصبروا...».

[١٩] فَاكِهِينَ متلذذين بما آتاهم أعطاهم ربُّهم من النعم و وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ أى حفظهم من ذلك العذاب، إشارة إلى أنهم و إن استحقوا العذاب لبعض معاصيهم إلا أن الله يغفر لهم و يحفظهم من ذلك العذاب لطفًا و تفضلاً.

[٢٠] و يقال لهم كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا الهنىء الذى لا تنغيص فيه لا من جهة الفم و لا من جهة الحلق عند الازدراء و لا من جهة العاقبة فلا أثر سيئ له بسبب ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ من العقيدة الصحيحة، و الأعمال الصحيحة، فإن العقيدة نوع عمل للقلب حيث بنى على شىء معين.

[٢١] فى حال كونهم مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ جمع سرير مَصْفُوفَةٍ قد اصطفت فيه جمال للمنظر بالإضافة إلى كونه راحة للجسم و زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ جمع حوراء واسعة العين و بيضاء الجسم فظافة فى الأبدان و الأخلاق، و عيناها واسعة العين بما يزيدا جمالا، و قد وردت فى الروايات تزويج النساء أيضا برجال الدنيا، و لعل عدم ذكر النساء و زواجهن من باب البلاغة، لأنه من غير المستحسن لدى العرف أن يقال للمرأة تزوجك، بخلاف أن يقال للرجل.

[٢٢] ثم إن أولاد المؤمنين الذين لا يستحقون بأعمالهم مراتب آبائهم فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٤

[سورة الطور (٥٢): آية ٢٢]

وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)

الجنة، يلحقون بأبائهم لتقدير إيمان الآباء و الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ بأن لم يكونوا كفره أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ حتى ينعم الآباء بمؤانسة الأولاد، فمرة يشتغلون بالحوار العين، و تارة بالذرية، و فى ذلك قره أعينهم و ما أَلَتْنَاهُمْ أى ما نقصنا الآباء مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ فلم نعطي للأبناء من حق الآباء بل أعطينا الأبناء زيادة على حق الآباء كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ كأن نفس الإنسان مرهونة بالعمل الصالح فإذا أعطى الله العامل استرجع نفسه فصار حرا، و إلا-بقى أسيرا فى جهنم، لأنه لم يقدم ما يفكك به نفسه، كما أن صاحب الدار الذى رهنها لأنه لم يقدم مال المرتهن لم يتمكن من استرداد داره، و لعل قوله سبحانه «كُلُّ امْرِئٍ...» لدفع توهم أنه إذا أعطى الذرية ما لا يستحقون فقد حصلوا الثواب بغير عمل؟ و الجواب كلا، إن الذرية كانوا مؤمنين فاستحقوا الجنة بذلك، و لكن الله تفضل عليهم بالمزيد جزاء للآباء فدرجتهم بين جزاء لهم و جزاء لآبائهم، أو يقال إن كلا من الآباء و الذرية استحق نفس الدرجة الرفيعة و استحق الجمع بينها، فالآية إخبار عن الواقع، و لا إعطاء لما لا يستحق و لو إعطاء تفضلاً.

[٢٣] وَأَمَدَدْنَاهُمْ استمرنا فى إمدادهم، فليس كالضيافات، فى الدنيا التى يؤتى إلى الضيف بالمأكل و المشروب أول ما يجيء فقط،

فإذا جلس ساعة مثلاً، لا يؤتى إليه مرة أخرى بهما بفأكهه ولحم مما يشتؤون

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٥

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٢٣ إلى ٢٧]

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوٍ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)

واللحم شامل للطير والسمك و سائر اللحوم.

[٢٤] يَتَنَازَعُونَ عَلَى سَبِيلِ الْمَزَاحِ وَالْمِفَاكِهِ فِيهَا فِي الْجَنَّةِ كَأَسًا فِيهَا خَمْرٌ لَا لَعْوٍ فِيهَا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِذَا شَرِبُوا بِاللَّغْوِ وَلَا تَأْتِيمٌ مِنْ مَا يَفْعَلُهُ شَارِبُوا الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا مِنَ السُّبِّ وَالضَّرْبِ وَالْجُرْحِ وَأَحْيَانًا التَّعَدِي عَلَى الْأَعْرَاضِ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّهُ لَا فُسَادَ فِي الْآخِرَةِ.

[٢٥] وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ يَمْرُؤٌ مَرُورًا مُتَوَاصِلًا، لِإِعْطَائِهِمُ الْكَأْسَ وَالْفَاكِهِةَ وَقَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ غِلْمَانٌ جَمَعَ غِلَامٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ فِي بِيَاضِهِمْ وَجَمَالِهِمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ مَحْفُوظٌ فِي مَكَانٍ نَظِيفٍ بَحِيثٍ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا حَتَّى يَغْيِرَ بَرِيقَهُ الْهَوَاءُ وَالْوَسْخُ.

[٢٦] وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ هَذَا يَسْأَلُ ذَاكَ وَذَاكَ يَسْأَلُ هَذَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا اسْتَحَقُّوا بِهِ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ؟

[٢٧] قَالُوا الْمَسْئُولُونَ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا حَيْثُ كُنَّا فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ خَائِفِينَ مِنَ الْعَذَابِ، إِذْ مِنْ لَا خَوْفَ لَهُ لَا يَعْمَلُ صَالِحًا - إِلَّا فِي الْأَنْدَرِ مِنَ النَّادِرِ -.

[٢٨] فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بَغْرَانِ ذُنُوبِنَا وَوَقَانَا حَفْظَنَا عَذَابَ السَّمُومِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٦

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٢٨ إلى ٣١]

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكَرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبِ الْمُؤْمِنِينَ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)

النار النافذة في المسام و ثقب الجسد.

[٢٩] إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا نَدْعُوهُ نَدْعُوهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَلَا نَدْعُوهُ غَيْرَهُ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْبَرُّ الْمَحْسَنُ الرَّحِيمُ وَلِذَا أَحْسَنَ إِلَيْنَا وَرَحْمَنَا، رَحْمَانًا فَلَمْ يَعِذْبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا بِإِعْطَائِنَا أَزِيدَ مِنْ اسْتِحْقَاقِنَا.

[٣٠] فَذَكَرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسَ بِالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ وَ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْاسْتِمْرَارِ فِي التَّذْكِيرِ سَبْهُمُ لَكَ وَ اتِّهَامُهُمْ إِيَّاكَ بِأَنَّكَ كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِسَبِّبِ إِعْطَاكَ تَعَالَى بِكَاهِنٍ مُتَّصِلٍ بِالْجَنِّ يَخْبِرُهُ بَعْضُ الْأَخْبَارِ الْغَائِبَةِ عَنِ الْحَوَاسِ وَ لَا مَجْنُونٍ دَخَلَ فِيهِ الْجَانُ فَأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بِبَعْضِ الْمَغْيِبَاتِ - كَمَا كَانُوا يَتَهَمُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ -.

[٣١] أَمْ يَقُولُونَ بَلْ يَقُولُونَ أَنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ شَاعِرٌ إِذَا رَأَوْا عَدَمَ قَبُولِ النَّاسِ افْتِرَائِهِمُ الْأُولَى «إِنَّهُ كَاهِنٌ أَوْ مَجْنُونٌ». نَتَرَبَّصُّ بِهِ أَي نَصْبِرُ وَ نَنْتَظِرُ رَبِّبِ الْمُؤْمِنِينَ أَي مَا يَلْقَى النُّفُوسَ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ، فَإِذَا احْتَفَتْ بِهِ الْمَشَاكِلُ انْقَلَعَ عَنْ دَعْوَاهِ النَّبُوَّةِ، أَوْ الْمَرَادُ بِالْمُنُونِ الْمَوْتِ.

[٣٢] قُلْ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرَبَّصُوا انْتَظَرُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٧

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٣٢ إلى ٣٥]

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)

فكما أنكم تنتظرون هلاكى و عدم نجاحى، فإنى أنتظر نجاحى و تقدم دعوتى، أو أنتظر موتكم، و سوف نرى العاقبة لمن؟.

[٣٣] أم تَأْمُرُهُمْ أَخْلَاصُهُمْ عَقُولَهُمْ بِهَذَا التَّنَاقُضِ فِي أَقْوَالِهِمْ فَمَرَّةً يَقُولُونَ شَاعِرًا، وَ أُخْرَى كَاهِنًا وَ ثَالِثَةً مَجْنُونًا، فَهَلْ أَمْثَالُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ تَصْدُرُ مِنَ الْعُقَلَاءِ؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَ إِنَّمَا يَقُولُونَ الْبَاطِلَ لَطِغْيَانِهِمْ عَلَى الْحَقِّ، وَ عِنَادِهِمْ فِي الْأَمْرِ.

[٣٤] أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلَهُ أَى اخْتَلَقَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ الْقُرْآنَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ بَدُونَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ وَحَى بَلْ هُمْ يَعْلَمُونَ وَ إِنَّمَا لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ يَرْمُونَ الْقُرْآنَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ حَتَّى يَجْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ عِذْرًا فِي عَدَمِ إِيمَانِهِمْ.

[٣٥] وَ إِذَا كَانَ تَقْوَلُ مِنَ الرَّسُولِ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ شَيْءٍ جَدِيدٍ مِثْلِهِ مِثْلَ الْقُرْآنِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ «تَقَوْلُهُ» إِذْ لَوْ كَانَ الْقُرْآنَ كَلَامَ الْبَشَرِ لَتَمَكَّنَ بَلَاغَتُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَعَدَمَ تَمَكُّنِهِمْ بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ دَلِيلَ عَدَمِ كَوْنِ الْقُرْآنِ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ.

[٣٦] أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ خَالِقٍ لَهُمْ وَ لَذَا لَا يَدْعُونَ بِالْخَالِقِ وَ لَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؟ وَ حَيْثُ لَا هَذَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٨

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ يَلَّ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصَيِّطُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَيْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨)

و لا هذا كان لا بد من إزعاجهم للخالق، فلما ذا يكفرون به و يجعلون له شريكا؟

[٣٧] أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فَهَمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ، وَ الشَّرِيكَ لَا يَخْضَعُ لِشَرِيكِهِ، بَلْ لَيْسَ كُلُّ ذَلِكَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عِبِيدُ مَرْبُوبُونَ وَ إِنَّمَا لَا يُوقِنُونَ فَإِنَّ الْأَنْسِيَّاقَ وَرَاءَ الْبِرْهَانِ - دُونَ الْأَهْوَاءِ وَ التَّقَالِيدِ - لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ التَّيَقُّنَ، فَنفى الإيقان عنهم باعتبار نفى آثاره، كما يقال: لا عين لفلان إذ لم يستعمل عينه حتى سقط في بئر، و يقال لا عقل له، إذا لم يستعمل عقله.

[٣٨] أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ فَلَا يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى اللَّهِ، وَ لَذَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ لَا بِرَسُولِهِ وَ لَا بِكِتَابِهِ؟ أَمْ هُمْ الْمُصَيِّطُونَ عَلَى الْخَزَائِنِ، وَ إِنْ تَكُنْ لَهُمْ فَسَيُطْرَقُ عَلَى الْخَزَائِنِ تَوْجِبُ أَنْ يَزْعُمُوا غَنَائِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ؟

[٣٩] أَمْ لَهُمْ سُلَيْمٌ مَرْقَاهُ يَصْعَدُونَ بِسَبَبِهَا إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ إِلَى الْوَحْيِ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِأَنَّهُمْ كَالرَّسُولِ يَعْرِفُونَ أُمُورَ السَّمَاءِ فِإِذْ زَعَمُوا ذَلِكَ، وَ قَالُوهُ عِنَادًا فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ مِنْ أَدْعَى الْإِسْتِمَاعِ بِسُلْطَانٍ حُجَّةً مُبِينًا وَاضِحَةً عَلَى صِدْقِهِ، كَأَنْ يَخْبِرَ عَنِ الْآتِي، كَمَا يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِأَخْبَارِ الْغَيْبِ، وَ لَا يَخْفَى أَنْ فِي هَذَا احْتِجَاجٌ عَلَى مَنْكَرِ اللَّهِ، وَ عَلَى مَنْ جَعَلَ لَهُ شَرِيكًا، وَ عَلَى مَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٥٩

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٣٩ الى ٤٢]

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَ لَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ (٤٢)

أنكر الرسول أو القرآن، و على من أنكر البعث، بأسلوب بلاغى رائع، و باحتجاجات عقلية، و عريفية يفهمها كل إنسان و إن لم يكن من أهل الخبرة و الدقة.

[٤٠] أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ فَقَدْ كَانَ جَمْعٌ مِنْ كَفَّارٍ قَرِيشٍ يَقُولُونَ إِنْ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَ لَكُمْ الْبَنُونَ الْبَنُونَ خَاصٌ بِكُمْ؟ وَ بِأَى دَلِيلٍ تَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلُ؟.

[٤١] أَمْ تَسْأَلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرًا عَلَى الرِّسَالَةِ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ التَّرَامِ غَرَمٍ مُثْقَلُونَ يَحْمِلُونَ الثَّقْلَ، وَ لَذَا لَا يُؤْمِنُونَ بِكَ فَرَارًا مِنْ إِعْطَاءِ الْمَالِ، وَ حَيْثُ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا وَ الدَّلِيلُ مَعَكَ فَلَمَّا ذَا لَا يُؤْمِنُونَ؟

[٤٢] أَمْ عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُمْ يَكْتُمُونَ مَا أَخَذُوهُ عَنِ الْغَيْبِ وَ بِذَلِكَ عَلِمُوا كَذِبَكَ وَ لَذَا لَا يُؤْمِنُونَ بِكَ؟

[٤٣] أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا بِكَ، لا حجة لهم، و لا عندهم الغيب، و إنما يكيدون بك ليتخلصوا منك حتى لا تدعوهم إلى الهدى، استئقلا عن الحق، لكن فليعلموا أنهم لا يقدرّون على الكيد بك، و إنما كيدهم على أنفسهم فالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ يعود و بال كيدهم عليهم، كما قال وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ «١».

(١) آل عمران: ٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٠

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٤٣ الى ٤٦]

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَ إِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦)

[٤٤] أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ و لذا يشركون مع الله إلهها غيره؟ سُبْحَانَ اللَّهِ منزه عَمَّا يُشْرِكُونَ إذ لا- شريك له، كما دلّ على ذلك العقل، بالإضافة إلى أنهم لا- دليل لهم على الشرك، و في هذه الآيات تنفيذ لمزاعم الكفار، و الجامع بينها إنها كانت مزاعم باطلة رائجة بينهم.

[٤٥] و قد كان الكفار يتحدثون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بأنه إن كان صادقاً، فليسقط عليهم قطعة من السماء لإهلاكهم، مثل تحدى كل جاهل معاند، و قد أجابهم القرآن بأنهم حتى إن رأوا ذلك عاندوا الحق، كما هو شأن كل معاند و إِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ كَأَحْجَارٍ جَوْ، أو ما يزعمه سماء، سَاقِطًا يَقُولُوا من فرط عنادهم و طغيانهم، هذا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ تراكم و تجمع بعضه على بعض، فلا فائدة في إتيانك يا رسول الله بهذه المعجزة.

[٤٦] فَذَرَهُمْ فَاتَرَكَهُمْ بعد ما رأيت من عنادهم حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يموتون بأيديكم، أو موته طبيعياً، حتى يروا جزاءهم هناك.

[٤٧] يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا في رد العذاب فإن عذاب الآخرة ليس كمشاكل الدنيا يمكن ردها بالكيد و الأساليب الدنيوية وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ كما ينصر بعضهم البعض في الدنيا، فإن الآخرة ليس فيها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦١

[سورة الطور (٥٢): الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَ إِنَّا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِذْ بَارَ النُّجُومِ (٤٩)

ناصر ينصر من أراد الله عذابه.

[٤٨] وَ إِنَّا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من هؤلاء الكفار، جيء بهذا اللفظ، للدلالة على اقتران الكفر بالظلم غالباً، بل الكفر من أعظم الظلم بنفس الكافر عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ قبل عذاب الآخرة، و هو ما يشاهدونه في الدنيا من ثمرات أعمالهم، فإن الظلم لا يثمر إلا العذاب وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذلك، و الحاصل أن كفرهم يعود عليهم بعذاب الدنيا و عذاب الآخرة.

[٤٩] وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ الذي أعطاك، فإن الرسول كان حاكماً من قبل الله فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا أى تحت حفظنا و رعايتنا، و الإتيان بجمع العين، لبيان أنهم إن كانوا جماعة ضدك، فإن أعينا أيضاً تراقبك لحفظك و لئلا يمسوك بسوء وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ نزهه مع إثبات صفات الكمال له- كما تقدم مثله- حِينَ تَقُومُ في أول النهار و اشكره على أن مضى ليلتك بسلام.

[٥٠] وَ سَبِّحْ مِنَ اللَّيْلِ بعض الليل حين يدخل الليل على أن مضى نهارك بسلام وَ سَبِّحْ إِذْ بَارَ النُّجُومِ إذا أدبرت النجوم، بعد منتصف الليل حين تأخذ النجوم في النزول من نصف السماء، فإن الإنسان يستيقظ عند ذاك، غالباً و يفكر في عظمة الله، و يلقي

سكون الليل في نفسه رهبةً و خشوعاً أمام خالق الكون و جاعل الظلمات و النور.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٢

٥٣ سورة النجم مكية - مدنية / آياتها (٦٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «النجم» و هي كسائر السور المكية مشتملة على قضايا العقيدة، كما أن بعض آياتها التي نزلت بالمدينة تعالج قضايا العمل - على ما يظهر من نفس السورة من أنها مكية مدنية، و على ما قاله جمع من المفسرين - و لما اختتمت سورة الطور بما يفيد تكذيب الكفار لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، ابتدأت هذه السورة بتفنيد مزاعمهم في كذبه صلى الله عليه و آله و سلم، و إنه صلى الله عليه و آله و سلم صادق و ليس بكاذب و لا ضال.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَشْرَعُ بِاسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّ الذَّاتَ الشَّرِيفَةَ تُوَثَّرُ فِي شِرَافِهِ إِمداداتها، كما أن الذات غير الشريفة تؤثر في عدم شرافة إمداداتها، لذا يحب الإنسان حتى أسم محبوبه و يكره حتى أسم مكروهه، الله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن بعباده بدءاً، و الرحيم بهم استمراراً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٣

[سورة النجم (٥٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)

[٢] وَ النَّجْمِ قسماً بالنجم، و المنصرف جنس النجم إِذَا هَوَىٰ نحو المغيب، من وسط السماء، أو من الأفق.

[٣] مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ما عدل هو عن الطريق المستقيم، و لعل وجه القسم بالنجم، أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم نجم معنوي في كل أحواله، كما أن النجم نجم حتى في حال هويته، و ما غوى الناس في دعوته إلى الله، بل هو مهتد في نفسه و دعوته للناس دعوة إلى الرشده.

[٤] وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ عن هوى النفس و ميوله الشخصية كما كان الكافرون يقولون «تقول».

[٥] إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عن الله تعالى إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ إليه من جانب الله و هل الوحي وقتي، أو مستمر و إنما جهاز الاستقبال وقتي مثله مثل نور الشمس المستمرة منذ أن خلقت، و إنما إذا وجدت زجاجة مقعرة أخذته و أحرقت به ما ينعكس إليه النور منها، فحالة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الخاصة تأخذ الوحي المناسب في الوقت المناسب، احتمالان: و إن كان ظاهر الأدلة الأول.

[٦] عَلَّمَهُ أَى علم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالوحي شَدِيدُ الْقُوَىٰ جبرئيل، فإن للملك قوى كما للإنسان قوى، و قوى الملك شديدة، مثلاً علمه كثير، و لا ينسى، و قدرته كثيرة و لا تضعف إلى غير ذلك، و ظاهر الآية بسياق الآيات الآتية أن المراد به جبرئيل عليه السلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٤

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٦ الى ١٠]

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَ هُوَ بِالْأَفْئِقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)

[٧] ذُو مِرَّةٍ ذو قوة، و أصل المرة خلط في العروق، كالصفراء و السوداء، و سمى مرة لقوة البدن به، ثم استعملت في أصل القوة، فكانه قال مرة «قواه شديدة» و مرة «قوى بمجموعة» أو المراد بذى مرة حصانه في عقله و رأيه فالأول: لقواه المادية. و الثاني: لقوته العقلية،

فلما أراد أن ينزل الوحي على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَوَى اسْتَوَى عَلَى الْأَرْضِ لِإِتْيَانِ الْوَحْيِ.

[٨] وَهُوَ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى مَكَانَهُ فِي أَعَالَى السَّمَاوَاتِ.

[٩] ثُمَّ دَنَا جَبْرَائِيلُ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَتَدَلَّى فِي الْهَوَاءِ، تَدَلَّى الدُّلُو فِي الْبَثْرِ، وَأَصَلَ التَّدَلِّي اسْتِرْسَالًا مَعَ تَعْلُقٍ، وَ

لَعَلَّ هَذَا التَّعْبِيرَ بِاعْتِبَارِ تَعْلُقِ جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَعْلَى تَعْلُقًا.

[١٠] فَكَانَ جَبْرَائِيلُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَابَ قَوْسَيْنِ فَإِنْ قَوَسِينَ إِذَا تَصَقَّتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى يَكُونُ عَرْضُهُمَا مَقْدَارَ

ذِرَاعَيْنِ لِأَنَّ «قَابَ» كُلُّ قَوْسٍ مَقْدَارُ ذِرَاعٍ تَقْرِيبًا، وَ«الْقَابُ» عِبَارَةٌ عَنِ الْفَاصِلِ بَيْنَ رَأْسِي الْقَوْسِ الْوَاحِدِ، وَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ - حَسَبِ

الظَّاهِرِ - إِنْ قَرَّبَ جَبْرَائِيلُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ بِقَدْرِ ذِرَاعَيْنِ أَوْ أَذْنَى وَ لَعَلَّهُ كَانَ يَقْتَرِبُ وَ يَتَّعَدُّ، كَمَا هِيَ

عَادَةٌ كُلِّ مُتَكَلِّمِينَ.

[١١] فَأَوْحَى اللَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِلَى عَبْدِهِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا أَوْحَى مَا أَرَادَ وَحِيهِ، أَوْ الْمُرَادُ، بِ «أَوْحَى» جَبْرَائِيلُ،

مِثْلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٥

[سورة النجم (٥٣): الآيات ١١ إلى ١٥]

مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى

(١٥)

قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ «١» أَمَا الضَّمِيرُ فِي عَبْدِهِ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ذَكَرَ مُصَادِقٌ وَ تَأْوِيلَاتٌ لَا تَنَافَى ظَاهِرًا

الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.

[١٢] مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ فُؤَادَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَى مِنْ جَبْرَائِيلَ وَ سَمِعَ مِنَ الْوَحْيِ، إِذْ قَدْ يَكْذِبُ الْفُؤَادُ الْحَوَاسِ،

كَأَنَّ يَرَى الْإِنْسَانَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ صَغِيرِينَ، أَوْ مَاءَ الْبَحْرِ أَسْوَدًا، لَكِنَّ الْقَلْبَ يَقُولُ لَيْسَ كَمَا رَأَيْتَ، فَالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ

سَلَّمَ رَأَى جَبْرَائِيلَ بَعِينَهُ وَ عَرَفَ صَدَقَ رُؤْيِيَهُ بِقَلْبِهِ.

[١٣] أَفْتَمَارُونَهُ أَيُّ أَيُّهَا الْكُفَّارُ هَلْ تَجَادَلُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا يَرَى مَا رَأَهُ فَتَقُولُونَ لَهُ: قَدْ اشْتَبَهْتَ وَ لَمْ يَكُنْ

جَبْرَائِيلَ؟ وَ لَعَلَّ الْإِتْيَانَ بِ «يَرَى» بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ، لِاسْتِمْرَارِ عِلْمِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى وَقْتِ الْكَلَامِ، بِأَنَّ مَا رَأَهُ كَانَ

صَدَقًا، لَا خِيَالًا.

[١٤] وَ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ اشْتَبَهَ وَ الْحَالُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ رَأَهُ رَأَى

جَبْرَائِيلَ نَزْلَةً أُخْرَى حِينَ نَزَلَ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَ الْاشْتِبَاهُ لَا يُمْكِنُ مَرَّتَيْنِ.

[١٥] وَ كَانَتْ رُؤْيِيَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الثَّانِيَةَ لِجَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى «الْمُنْتَهَى» مُضَافٌ إِلَيْهِ، لَعَلَّ الْمُرَادَ انْتِهَاءَ

عَالَمِ الدُّنْيَا إِلَى هُنَاكَ بِقَرِينَتِهِ.

[١٦] عِنْدَهَا أَيُّ عِنْدَ تِلْكَ السِّدْرَةِ جَنَّةُ الْمَأْوَى الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا

(١) السجدة: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٦

[سورة النجم (٥٣): الآيات ١٦ إلى ١٩]

إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى (١٩)

الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ.

[١٧] إِذِ يَغْشَى السُّدْرَةَ غَشِيَهُ بِمَعْنَى أَحَاطَ بِهِ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ مَا يَغْشَى مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَ لَعَلَّهَا بِاعْتِبَارِ كَوْنِهَا الْحَدَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ عَالَمِ الدُّنْيَا وَعَالَمِ الْآخِرَةِ، يَكُونُ مَهْبَطَ الْأَمْلاَكِ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَ مَصْعَدَ أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةِ الصَّاعِدَةِ مِنَ الْأَرْضِينَ وَ السَّمَاوَاتِ إِلَى طَرَفِ الْجَنَّةِ.

[١٨] وَ لَا يَقُولُ الْكُفَّارُ لَعَلَّهُ اشْتَبَهَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَيْضًا، لِأَنَّهُ مَا زَاغَ لَمْ يَمَلِ الْبَصِيرُ بِصِرِّ رَسُولِ اللَّهِ، بِأَن رَأَى غَيْرَ جَبْرَائِيلَ فَرَعَمَ وَ مَا طَعَى بِأَن لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فَيَزِعُهُ شَيْئًا كَمَا فِي مَنْ يَرَى السَّرَابَ فَيَزِعُهُ شَيْئًا وَ هُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، ثُمَّ لَا يَخْفَى أَنَّ رُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِجَبْرَائِيلَ مَرَّتَيْنِ، إِنَّمَا يَرَادُ بِهِ أَنَّهُ رَأَاهُ بِصُورَتِهِ الْوَاقِعِيَّةِ، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ النَّصِّ وَ التَّفَاسِيرِ «١»، وَ إِمَّا بِغَيْرِ صُورَتِهِ الْوَاقِعِيَّةِ، كَصُورَةِ «دَحِيَّةٍ» فَقَدْ رَأَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَرَاتٍ عَدِيدَةً.

[١٩] وَ لَقَدْ رَأَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى أَى الْآيَاتِ الْعِظَامِ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَ شَجَرَةِ السِدْرَةِ.

[٢٠] هَلِ اللَّهُ وَ مَا شَاهَدَهُ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، يُقَاسُ بِمَا أَنْتُمْ عَاكِفُونَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ فَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ هُمَا صِنْمَانِ كَانِ

(١) الاحتجاج: ج ١ ص ٢٤٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٧

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٠ إلى ٢٣]

وَ مَنَاءَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى (٢٠) أَلْكُمْ الذَّكَرَ وَ لَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) يعبدهما قريش.

[٢١] وَ مَنَاءَ الصَّنَمِ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى وَ لَعَلَّهَا أُخْرَى فِي الْمَرْتَبَةِ عِنْدَهُمْ؟

أقول: وَ حَذَفَ الْجَوَابَ لَزِيَادَةِ الْاسْتَهْجَانِ، فَهُوَ كَمَا يُقَالُ «لزيد مليون دينار» ثُمَّ يُقَالُ أَرَأَيْتُمْ كَمْ لِعَمْرٍو مِنَ الدنانير؟ «فِيمَا كَانَ لَهُ ثَلَاثَةٌ دنانير مثلاً» فَإِنْ قَوْلُهُ: أَرَأَيْتَ، يَرَادُ بِهِ الْاسْتَهْجَانُ، وَ بَيَانَ عَدَمِ الْمَقَاسَةِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ.

[٢٢] ثُمَّ اسْتَهْجَنَ الْقُرْآنُ كَلَامًا أُخْرًا لِلْمُشْرِكِينَ، وَ هُوَ قَوْلُهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ فَقَالَ أَلْكُمْ الذَّكَرَ وَ لَهُ سَبْحَانَهُ الْأُنْثَى فَقَدْ كَانُوا يَزْعُمُونَ بِأَنَّهُمْ مَخْصُصُونَ بِالْأَوْلَادِ الذَّكَورِ، وَ لَا وَ لِدَ ذَكَرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ يَحْتَمِلُ أَنَّ يَرَادُ أَنَّكُمْ تَكْرَهُونَ الْإِنَاثَ، فَكَيْفَ جَعَلْتُمُ الْأَصْنَامَ الثَّلَاثَةَ «وَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ» شُرَكَاءَ اللَّهِ تَعَالَى.

[٢٣] تِلْكَ الْقِسْمَةُ بَيْنَكُمْ فِ «لَكُمْ الذَّكَرُ» وَ بَيْنَ اللَّهِ «وَ لَهُ الْأُنْثَى» إِذَا إِذَا كَانَ كَمَا زَعَمْتُمْ قِسْمَةً ضِيزَى جَائِرَةً، مِنْ ضَاوِزٍ يَضِيرُ، إِذَا جَارَ.

[٢٤] إِنَّ هِيَ مَا تِلْكَ الْأَصْنَامِ الثَّلَاثَةُ إِلَّا أَسْمَاءُ أَى تَسْمِيَّتُهَا بِالْأَلُوْهِيَّةِ اسْمٌ مَجْرَدٌ لَا حَقِيقَةَ تَحْتِ هَذَا الْاسْمِ فِ «هِيَ» مَحَلٌّ، أَطْلُقُ، وَ أُرِيدُ بِهِ «الْحَالُ» لِأَنَّ «الاسْمَ» حَالٌ، وَ «الصَّنَمُ» مَحَلٌّ سَمَّيْتُمُوهَا مَجْرَدٌ تَسْمِيَّةٌ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مِنْ قَبْلِ، وَ إِذَا فَهَلِ الْأَصْنَامُ آلِهَةٌ؟ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ حُجَّةٍ وَ بَرَهَانٍ، وَ إِنَّمَا هُوَ أَنْفُسُهُمْ مَعَ تِلْكَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٨

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٤ إلى ٢٦]

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولَى (٢٥) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَى (٢٦)

الأصنام ثم ظنوا أنها آلهة، فلا- دليل من العقل ولا من الشرع عليها إن ما يتبعون إلا الظن بأنها آلهة و ما تهوى الأنفس ما تشتهيه

أنفسهم وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى الرَّسُولُ وَالْكِتَابَ الْمُنِيرَ لِلْعُقُلِ وَالْفِطْرَةَ فَبَرَكُوهَا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَ هَمِّ الْبَاطِلَةِ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ.

[٢٥] أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى اسْتَفْهَامُ إنكارى أى ليس للإنسان ما يتمناه، فهؤلاء يتمنون صحة عقيدتهم و يتمنون أن تشفع الأصنام لهم، لكن هذا التمنى لا يتحقق.

[٢٦] فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ الْإِلَهُ وَهُوَ الشَّفِيعُ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً «١».

[٢٧] إنهم يرجون الشفاعة من الأصنام بينما الملائكة لا تقدر على الشفاعة إلا بعد إذن الله وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ فَهُوَ مَعَكُمْ كونه ملكا، و مع كونه فى السماوات قريبا من رحمة الله لا تُغْنِي لا تفيد شفاعتهم شَيْئاً أى أنهم على تقدير أن يشفعوا لا تفيد شفاعتهم و «كم» لا- مفهوم له، حتى يكون هناك «ملك» تغنى شفاعته، و لعل الإتيان به لإفادة أنه إذا كان كثير من الملائكة كذلك، فكيف بالأصنام؟ و لا حاجة فى إسقاط الأصنام

(١) الزمر: ٤٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٦٩

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٢٧ الى ٢٩]

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩)

عن الشفاعة القول بأن «كل الملائكة كذلك» إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ فِي الشَّفَاعَةِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَشْفَعَ وَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ وَيَرْضَى وَيَرَاهُ أَهْلًا لِلذَّكَاءِ: شافعا و مشفوعا، و الرضا و إن كان قبل الإذن إلا أن ملاحظة رؤوس الآي أورت تأخيرها، [٢٨] إِنْ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا- يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ ذَلِكَ يُلْزِمُ عَدَمَ إِيْمَانِهِمْ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ لَيْسَ الْمُؤْمِنُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى فَإِنَّهُمْ حَيْثُ قَالُوا الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ سَمَوْا كُلَّ مَلَكٍ بِنْتًا.

[٢٩] وَالْحَالُ مَا لَهُمْ بِهِ بِمَا يَقُولُونَ مِنْ عِلْمٍ أَى لا علم لهم بأن الملائكة أنثى إِنْ مَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ فَإِنَّهُمْ يظنون أن الملائكة بنات وَ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي لا يفيد مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِذْ لَا بُرْهَانَ لِلظَّنِّ، و ما لا برهان له ليس مطابقا للواقع، فإن كل مطابق للواقع له برهان.

[٣٠] فَأَعْرِضْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا إِذْ لَا- يفيد معه التذكير! لأنه معاند و لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فكل سعيه و عمله للدينا،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٠

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٣٠ الى ٣٢]

ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَبُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمُغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى (٣٢)

و لا يعتقد بالآخرة حتى يعمل لها، فهو منكر للتوحيد، و منكر للمعاد.

[٣١] ذَلِكَ انحصار فكرهم فى الدنيا، من دون نفوذ علمهم إلى المبدأ و لا إلى المعاد مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ قدر بلوغ علمهم فهو علم ضيق محدود منحرف، فلا تتعب نفسك يا رسول الله مع هؤلاء فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ وَ سَوْفَ يَجْزِيهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ أَى أنفذ علما فيعلم خصوصياتهم و كل دقائقهم وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى فيجازى كلا حسب عقيدته و عمله.

[٣٢] وَلِلَّهِ مَا أَى الذى فى السماوات و ما أَى الذى فى الأرض أَى كل شىء فيهما ملكا و خلقا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا

العمل يشمل عمل القلب أيضا لأن الاعتقاد عقد القلب على شيء خاص، و «اللام» للعاقبة، لا للعلّة، مثله، مثل لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا «١» وَ يَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَثُوبَةِ الْحَسَنَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٣٣] و من هم الذين أحسنوا؟ هم الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ الْكَبِيرَةِ وَ التى منها الكفر و الشرك و عدم الإيمان بالرسول و بما جاء به الرسول و عدم الإيمان بالمعاد وَ الْفَوَاحِشَ التى إثمها يتعدى إلى

(١) القصص: ٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧١

[سورة النجم (٥٣): آية ٣٣]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣)

الآخرين، من فحش إذا تعدى عمله الآثم إلى الآخرين إِلَّا اللَّمَمَ أى الذى يلتم بالإنسان و يرد عليه مما لا علاج من وروده غالبا، و هى الصغائر و هى الصغائر مثل كلمة نايبة، أو ضحكة غير جائزة أو نظرة محرمة أو ما شابه ذلك، و الاستثناء منقطع لدفع توهم أن كل عصيان كبير، حيث إنها معصية لاله عظيم إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ فيغفر للتم قطعاً، بعد أن كان يغفر لكثير من الكبائر لمن يشاء هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ حتى من أنفسكم فمن عمل صالحا يعرفه و من عمل فاسدا يعرفه إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ لِمَا تَكُونُونَ مِنَ الْأَرْضِ حيث إن الإنسان تراب ثم ينقلب، نباتا، ثم ينقلب حيوانا ثم النبات و الحيوان ينقلب إلى طعام يأكله الأوبان فيصير دما ثم ميتا وَ إِذْ أَنْتُمْ أُمَّهَاتُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ وَ هذه أول مرحلة إنسانية، فيعلم بكم من ذلك الحين إلى اليوم فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ لَا يَغْرَنُكُمْ أَعْمَالُكُمْ الصَّالِحَةَ، كما يقع فيه بعض المؤمنين غير المتأدبين، فيزكى نفسه إنه صام و صلى و أنفق و فعل الخير، فإنه غرور يوجب سقوط النفس عن الرفعة عند الله و عند الناس هُوَ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى فَعَلَى الْمُؤْمِنِ، لا يكون مفترطاً بعمل الفواحش، و لا مفترطاً يزكى نفسه، فإن التزكية للنفس قبيح، و لله أقيح لأنه أعلم بالإنسان من حال كونه ترابا إلى حال تقيا، حتى من نفسه.

[٣٤] و إذا عرفنا أحوال المتقين الذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٢

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٣٤ إلى ٣٧]

وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)

اللمم فلنعرف أحوال غيرهم أَفَرَأَيْتَ فى قبال ذلك المتقى الَّذِي تَوَلَّى عن الحق و أعرض عنه و إن آمن به.

[٣٥] وَ أَعْطَى مَالًا- قَلِيلًا كما هو شأن كثير من الناس حيث يظهرون الإيمان لكنهم لا يلتزمون بموازينه، و بالأخص لا يدفعون المال المفروض عليهم إطلاقاً أو يعطون شيئاً قليلاً وَ أَكْدَى أى قطع العطاء و أمسك يده عن الإنفاق، لغلبة حالة البخل عليه، و من طبيعة أمثال هؤلاء الناس، أنهم يلقون تبعه ذنوبهم على غيرهم، فإذا قلت له لماذا تعصى؟ قال ذنب المبلغين الذين لا يبلغون كاملاً، ثم أن الله يغفر لى، و ما أشبهه من الكلمات المتعارفة عند البخلاء و العصاة، و فى التفاسير أن الآيات نزلت فى عثمان فى قصة «١»، و من المعلوم أنه من باب المصدق.

[٣٧] أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فيعلم أن إنفاقه قد كفاه فى حصول منزله له عند الله، و يعلم أن غيره يتحمل إثم أعماله؟ فَهُوَ يَرَى الْغَيْبَ وَ يَعْلَمُ بِهِ؟

[٣٧] أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ أَلَمْ يَخْبُرْ بِمَا فى صُحُفِ مُوسَى

[٣٨] وَ بما فى صحف إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى كان وفيما بكل ما تعهد من قبل الله سبحانه، و «وفى» بالتشديد مبالغة فى الوفاء «و فيه تعريض أن هذا المؤمن الذى أعطى قليلاً ... إلى آخره» لم يوفى بما شرط على

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٣

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٣٨ إلى ٤٣]

أَلَّا تَرَىٰ وَاِزْرَهُ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَ أَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَ أَبْكَى (٤٣)

نفسه من الإطاعة في كل الأوامر.

[٣٩] أَلَّا تَرَىٰ لَا- تحمل وازرة نفس حامله وزر حمل نفس أخرى فكل إنسان ذنبه على نفسه، لا كما زعم هذا البخيل من أن ذنبه على غيره.

[٤٠] وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ فلم يزعم أن إعطائه القليل كاف عن الإعطاء الذي أمر به فكما لا يؤخذ أحد بذنب الغير كذلك لا يثاب أحد بأكثر مما عمل.

[٤١] وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَىٰ يراه بنفسه بدار الدنيا جزاء بالمدح أو بغير ذلك، فإن الدنيا قبل الآخرة دار المكافآت «و لا يجتنى الجاني من الشوك العنب».

[٤٢] ثُمَّ يُجْزَاهُ أَي يجزي العبد سعيه الجزاء الأوفى الأوفر وذلك في الآخرة.

[٤٣] وَ ليعلم الناس أن الله هو مبدأ الأشياء و كل الأشياء تنتهي إليه و كل الأمور بيده، و لذا يجب عليهم شكره، و طاعته، كما يجب عليهم أن يخافوا من عقابه و عذابه وَ أَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ انتهاء كل شيء، و معنى «إلى» إلى جزائه و ثوابه و عقابه.

[٤٤] وَ أَنَّهُ هُوَ سَبَّحَانَهُ أَضْحَكَكَ وَ أَبْكَى فقد خلق في الإنسان قوتها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٤

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٤٤ إلى ٤٩]

وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَ أَحْيَا (٤٤) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَ أَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ (٤٨)

وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ (٤٩)

كما خلق و قدر ما يسبب البكاء و الضحك، و الضحك و البكاء ليس خاصا بالإنسان بل كل شيء له ضحك و بكاء، قال الشاعر:
إن فصل الربيع فصل جميل تضحك الأرض من بكاء السماء ذهب حيثما ذهبنا و درّ حيث درنا و فضة في الفضاء [٤٥] وَ أَنَّهُ هُوَ سَبَّحَانَهُ أَمَاتٌ وَ أَحْيَا حتى أنه إذا قتل الإنسان إنسانا فإن روحه بيد الله، و لذا لا يموت الإنسان في جهنم.

[٤٦] وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ كُلِّ شَيْءٍ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ و عدم ذكر الخنثى إما لشذوذه، أو لأنه في الحقيقة إما ذكر أو أنثى.

[٤٧] خَلَقَهُمَا مِنْ نُطْفَةٍ هِيَ الْمَاءُ الْقَلِيلُ إِذَا تُمْنَىٰ تدفق في الرحم.

[٤٨] وَ أَنْ عَلَيْهِ سَبَّحَانَهُ النَّشْأَةُ الْآخِرَىٰ فكما بدأ يقدر على الإعادة.

[٤٩] وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ الْأَغْنِيَاءَ بِخَلْقِ وَسَائِلِ الْغِنَىٰ وَ أَقْنَىٰ الْمَالَ الَّذِي يَدْخُرُ لِلْقَنِيَةِ أَي الْإِبْقَاءِ، فالمال المتحرك الموجب للغنى، و المال الثابت كلاهما من عنده تعالى.

[٥٠] وَ أَنَّهُ هُوَ تَعَالَىٰ رَبُّ الشُّعْرَىٰ نجم في السماء يطلع آخر الليل،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٥

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٥٠ الى ٥٥]

وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَ ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى (٥٢) وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥)

كان جماعة من العرب يعبدونه.

[٥١] وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا أَى قَبِيلَهُ عَادِ الْأُولَى قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ هُنَاكَ عَادٌ ثَانِيَةٌ عَادِ إِرْمِ ذَاتِ الْعِمَادِ.

[٥٢] وَ أَهْلَكَ ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ فَمَا أَبْقَى أَحَدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، حَيْثُ عَصَوْا وَ عَتَوْا وَ كَانُوا جَزَاءَهُمُ الْعَذَابِ.

[٥٣] وَ أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ قَبْلَ عَادٍ وَ ثَمُودٍ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ أَكْثَرَ ظُلْمًا وَ أَطْغَى أَكْثَرَ طَغْيَانًا فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُضْرَبُونَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَبْقَى لَيْسَ بِهِ حِرَاكٌ، فَهَمُ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ طَاغُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَ قَدْ دَعَاهُمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ.

[٥٤] وَ الْمُؤْتَفِكَةَ وَ هِيَ قَرَى قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي اتَّفَكَتْ بِأَهْلِهَا أَى انْقَلَبَتْ أَهْوَى بِهَا وَ قَلْبُهَا بَعْدَ أَنْ رَفَعَهَا.

[٥٥] فَغَشَّاهَا أَحَاطَ بِتِلْكَ الْقَرَى مِنَ الْعَذَابِ مَا غَشَّى الشَّيْءَ الَّذِي غَشَّاهَا مِنْ أَصْنَافِ الْعَذَابِ الَّذِي لَا يُوصَفُ.

[٥٦] وَ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْعَذَابَاتِ الَّتِي تَعَلَّمَ بِهَا، مِمَّا أَصَابَ الْعَصَاةَ فَبِأَيِّ آلَاءِ نِعَمِ رَبِّكَ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ تَتَمَارَى تَتَشَكَّكُ، أَلَيْسَ وَجُودَ الْأَنْبِيَاءِ نِعْمَةً؟ أَلَيْسَ إِنْزَالُ الْكُتُبِ نِعْمَةً، أَلَيْسَ إِرْشَادُ الْعَقْلِ إِلَى الصَّحِيحِ وَ الْبَاطِلِ نِعْمَةً؟ وَ هَلْ شَكَّ فِي هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي مِنْ أَخْذِ بِمُقْتَضَاهَا سَعْدٌ، وَ مِنْ تَرْكِ مُقْتَضَاهَا شَقِيٌّ وَ عَذْبٌ، حَتَّى إِنَّكَ تَشَكُّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٦

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَرْزَفَتِ الْأَرْزَفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَمْ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَ تَعْصَى وَ تَتْرَكَ الْأَمْرَ.

[٥٧] هَذَا الْقُرْآنُ نَذِيرٌ يَنْذِرُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لِمَنْ عَصَى مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى مِنْ جِنْسِ الْإِنْذَارَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي بَعَثْنَا بِهَا إِلَى الْأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَ مِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَهُوَ نَذِيرٌ مِنْ جِنْسِ الْمُنذَرِينَ «الرَّسُلِ» السَّابِقِينَ.

[٥٨] لَقَدْ أَرْزَفَتِ قُرْبَتِ الْأَرْزَفَةَ الْقِيَامَةَ الَّتِي هِيَ قَرِيبَةٌ إِلَى كُلِّ مَنْ جَاءَ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ جِسْمَهُ الَّذِي هُوَ مِنَ التُّرَابِ، قَبْلَ مِائَةِ الْأَلُوفِ مِنَ السَّنَوَاتِ، وَ قَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ بِأَلْفَى عَامٍ، فَإِذَا جَاءَ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا فَقَدْ قَرِبَ مَوْتُهُ، وَ إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ قَامَتِ قِيَامَتُهُ، أَوِ الْمُرَادُ الْقِيَامَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، لِأَنَّ أَكْثَرَ عُمُرِ الدُّنْيَا قَدْ انْقَضَى - كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآثَارُ وَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ -.

[٥٩] لَيْسَ لَهَا لِلْآرْزَفَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ كَاشِفَةٌ نَفْسَ قَادِرَةٌ عَلَى كَشْفِهَا وَ الْإِتْيَانِ بِهَا، فَإِنَّ الْقِيَامَةَ شَيْءٌ مَخْفَى، فَإِذَا أَقَامَهَا اللَّهُ سَبَّحَانَهُ فَقَدْ كَشَفَهَا، وَ الْمُرَادُ الْكُنْيَاةُ عَنْ أَنَّ الْقِيَامَةَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى.

[٦٠] إِذْنٌ فَالْإِذْنُ عَلَى هَؤُلَاءِ مِنْ خَوْفِ عِقَابِ الدُّنْيَا - كَمَا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ - وَ مِنْ خَوْفِ عِقَابِ الْآخِرَةِ - كَمَا فِي هَاتَيْنِ الْآيَاتِينَ - أَنْ يُؤْمِنُوا وَ يَخَافُوا وَ يَعْمَلُوا صَالِحًا، وَ لَكِنِّهِمْ سَادِرُونَ فِي غِيهِمْ أَمْ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ حَدِيثِ التَّوْحِيدِ وَ النَّبُوَّةِ وَ الْمَعَادِ مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تَعْجَبُونَ وَ قَدْ كَانَ الْإِذْنُ أَنْ لَا تَعْجَبُوا، لِأَنَّهُ قَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٧

[سورة النجم (٥٣): الآيات ٦٠ الى ٦٢]

وَ تَصْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ (٦٠) وَ أَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (٦٢)

[٦١] وَ تَصْحَكُونَ اسْتَهْزَاءً وَ لَا تَبْكُونَ نَدْمًا وَ حَزْنًا عَلَى مَا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْإِثْمِ، وَ حَزْنًا عَلَى مَا يَأْتِي مِنَ عِقَابِ الدُّنْيَا وَ

الآخرة.

[٦٢] وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ لَاهُونَ وَهَذِهِ الِاسْتَفْهَامَاتُ اسْتِنكَارِيَّةٌ.

[٦٣] فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا اخضعوا له بالسجود والعبادة إن كنتم أردتم الخلاص والنجاة، وهذه السجدة واجبة، ولعله فلسفة وجوبها كوجوب السجدة الثلاث الأخرى واستحباب غيرها من السجدة تلوين الطاعة، كما لو ن سائر الطاعات من صلاة وصيام وحج واعتكاف فكل واحد بشكل، ولكل واحد أجزاء بأشكال، وذلك طبقا للكون الذي هو أشكال وألوان والله العالم بحقائق أوامره وأحكامه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٨

٥٤ سورة القمر مكية / آياتها (٥٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على كلمة «القمر» وهي كسائر السور المكية تتعرض لقضايا العقيدة بأصولها الثلاثة. وحيث تقدم في آخر سورة النجم «أزفت الآزفة» ابتدأت هذه السورة بذلك أيضا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبدأ باسم الله ليكون اسمه الكريم عوناً لنا على الإتمام، إذ التوفيق للإتمام لا يكون إلا بيده سبحانه، وهو الرحمن الذي يرحمنا بالتوفيق الرحيم الذي يرحمنا مرة أخرى بإدامته التوفيق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٧٩

[سورة القمر (٥٤): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)

[٢] اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ الْقِيَامَةُ، وفيها احتمالان كما تقدم في آخر السورة السابقة في «أزفت الآزفة» أو المراد أنه ليس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا الساعة، فقد انتهت نبوات السماء به صلى الله عليه وآله وسلم وانشق القمر الذي هو من علامات اقتراب الساعة، وقد كان ذلك معجزة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قصة طويلة، وقد نقل كتاب «الإسلام يتحدى» ذكر بعض التواريخ الغابرة رؤية الناس لهذا الانشقاق، كما ذكرت بعض الجرائد الكويتية- بعد نزول الغربيين على القمر- رؤيتهم مكان الانشقاق كأنه صار نصفين ثم التحم- مع أنهم مسيحيون لا يؤمنون بنبوته محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

[٣] وَإِنْ يَرَوْا هَوْلًا الْكُفَّارِ الْمَعَانِدُونَ آيَةً مُّعْجَزَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُعْرِضُوا عَنْهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَيَقُولُوا إِنْ مَا يَأْتِي بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْآيَاتِ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ فَهُوَ يَأْتِي بِالسَّحْرِ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِمْرَارِ.

[٤] وَكَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ مَا قَرَّرَ عَلَيْهِمُ الْهَوَى وَالْمِيلَ الْفَسَانِي، لا ما قرره عليهم عقولهم وكل أمر مستقر وكل أمر لا بد وأن ينتهي إلى محل استقراره، وهذا تهديد لهم، أي أن تكذيبهم لا بد وأن ينتهي إلى عاقبة سيئة لهم.

[٥] وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ أَى الْأَخْبَارِ بِاللَّهِ وَالْآخِرَةِ، وجزء المحسن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٠

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٥ إلى ٨]

حِكْمَةٌ بِاللَّغَةِ فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ (٥) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاْفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)

حسنا والمسيء سيئا ما فيه كفاية ومزدجر ازدجار، مصدر ميمي، فلو أنهم كانوا من أهل العقل والحكمة لكفاهم ما ذكرنا لهم من

الوعيد ازدجارا.

[٦] ذلك الذى قلناه لهم من الأنباء حَكِيمَةٌ بِالرَّعَّةِ بَلَّغْتَهُمْ، و قد كانت حكمته بوضع الشىء فى موضعه و لكن فَمَا تُغْنِ ما تُفِيدُ النُّذُرُ الإِنذارات، بالنسبة إلى من يتعمى عنها.

[٧] فَبَقُولَ أَعْرَضَ يا رسول الله عَنْهُمْ من بعد أن أبلغت و أنذرت، و لم يقبلوا، لأن الإِنذار لا يَنفَعُ فيهم فما أهول ما ينتظرهم من العذاب فى يَوْمٍ يَدْعُ الدَّاعِ الداعى الذى يدعوهم عند البعث، ليقوموا للحساب إلى شَيْءٍ نُكْرٍ منكر فظيع، و إنما كان منكرًا، لأن الإنسان لم يألفه و لم يشاهده.

[٨] خُشَعًا جمع خاشع بمعنى الذليل أَبْصَارُهُمْ فإن خشوع النفس يظهر من خشوع العين يَخْرُجُونَ فى أثر النداء مِنَ الْأَعْيَادِ جمع جدث، بمعنى القبور كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُتَشَبِّهَةٌ فى الكثرة و التموج و عدم النظام و انتشارهم فى كل مكان.

[٩] مُهْطِعِينَ مسرعين إِلَى الدَّاعِ إلى الذى يدعوهم إلى الحساب-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨١

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٩ الى ١٣]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسِّرِ (١٣) و يوم ذلك كلهم مطيعون- يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ أَى عسير صعب.

[١٠] و هؤلاء الكفار بالإضافة إلى أنه ينتظرهم عذاب الآخرة، كذلك مثلهم مثل الأقسام السابقة الذين كفروا بالأنبياء و بما جاءوا به فأخذهم عذاب الدنيا فقد كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قبل قومك يا رسول الله قَوْمُ نُوحٍ فقد بغوا و طغوا و كذبوا عَبْدَنَا نوحا عليه السَّلام و قالوا إنه مَجْنُونٌ كما يقول الكفار بالنسبة لك يا رسول الله و اَزْدُجِرَ زجر نوح عليه السَّلام عن التبليغ بأنواع الأذى، لكن نوحا عليه السَّلام استقام و لم ينصرف عن تبليغ الرسالة.

[١١] فَدَعَا نوح عليه السَّلام رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ قد غلب على الكفار بقوتهم المادية فَانْتَصِرَ فانصرنى يا رب عليهم.

[١٢] و قد استجبنا دعاءه فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ مواضع نزول المطر بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ انهمر و تساقط بكثرة، كأنه أفواه القرب.

[١٣] وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا حتى كأنها لها عيون فَالْتَقَى الْمَاءُ ماء السماء و ماء الأرض على أمرٍ هو إغراق قوم نوح عليه السَّلام قَدْ قُدِرَ قَدَرَهُ اللهُ سبحانه و حكم به.

[١٤] وَحَمَلْنَا أَرْكَبًا نوحا عليه السَّلام و من معه من المؤمنين على سفينة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٢

[سورة القمر (٥٤): الآيات ١٤ الى ١٨]

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرٍ (١٦) وَ لَقَدْ يَسْرُونَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرٍ (١٨)

ذاتِ الْأَوْحِ أخشاب عريضة، جمع «لوح» وَ دُسِّرِ المسامير، فإنه جمع «دسار» بمعنى المسمار.

[١٥] تَجْرِي السفينة بالمياه المحيطة بالأرض بِأَعْيُنِنَا تحت نظرنا و رعايتنا، و الجمع باعتبار أن كل حركة تحتاج إلى عين ترعاها من الغرق و الهلاك، و قد فعلنا ذلك بنوح عليه السَّلام جزاء حسننا منا لِمَنْ كَانَ كُفِرَ لِنوح الذى كفر به قومه.

[١٦] وَ لَقَدْ تَرَكْنَا أَبْقِيَا خبر نوح و قومه آيَةً علامة يعتبر بها العقلاء فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ هل هناك من يعتبر بالقصة؟ المبلغ يعتبر به فلا يهمله تكذيب الناس، و الناس يعتبرون فلا يكذبون المبلغين لأن عاقبتهم تكون سيئة.

[١٧] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي للمكذبين وَ نُذْرٍ إنداراتى لهم، ألم تكن عاقبة المكذبين العذاب كما وعدتهم؟

[١٨] و هل يريدون أوضح بيانا من هذا الذى ذكرناه و خوفناهم به؟ و لَقَدْ يَسْرَنَّا سَهْلَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ النَّاسُ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ من يتذكر و يتعظ؟ استفهام تحريضي، و «مدكر» من «أذكر» أصله «تذكر».

[١٩] و بعد قوم نوح عليه السلام كَذَّبَتْ عَادٌ قَبِيلَهُ عَادٌ وَ هُمْ قَوْمٌ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعذبناهم بتكذيبهم فكيف كان عذابي و نُذِرٍ؟ أليس فى تكرار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٣

[سورة القمر (٥٤): الآيات ١٩ إلى ٢٢]

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي (٢١) وَ لَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ (٢٢)

العذاب لكل قوم كذبوا، و عطا لكفار قريش؟ فليس لهم أن يقولوا أن عذاب قوم نوح كان من القضايا الاتفاقية.

[٢٠] إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ عَلَى عَادٍ رِيحًا صَرْصِرًا بَارِدَةً شَدِيدَةً الْبَرْدِ فِي يَوْمٍ نَحْسٍ شَوْمٍ عَلَيْهِمْ مُسْتَمِرٌّ استمر العذاب عليهم فى ذلك اليوم حتى أهلكهم.

[٢١] تَنْزِعُ تَقْلَعُ تَلْعُكَ الرِّيحِ النَّاسَ قَوْمِ عَادٍ، من أماكنهم فى الغرف و غيرها و كانت تفتح الأبواب و تخرج الناس إلى الساحات و ترفعهم عن الأرض ثم تضربهم بها، و كانت تقلع رؤوسهم عن أجسادهم فبقيت أجسادهم كأعجاز نخل منقعة منقعة عن مغارسه، و لعلهم كانوا يلوون على أنفسهم من شدة الألم و لأن يجمعوا أنفسهم فى قبال الريح، و لذا شبهوا بأعجاز النخل.

[٢٢] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذْرِي؟ لعل وجه التكرار لأجل أن مثل هذا العذاب لا يمكن أن يحمل على أنه طبعى، و إن أمكن ذلك فى الغرق.

[٢٣] وَ لَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فلم نجعله كالكتب الفلسفية التى لا يفهمها الإنسان إلا بصعوبة بالغه فهل من مدكر؟ من يتذكر فلا يعصى حتى لا يعذب كما عذب الأمم السابقة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٤

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٢٣ إلى ٢٧]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذْ لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٢٤) أَأَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعُوهمْ وَ اصْطَبِرُوا (٢٧)

[٢٤] كَذَّبَتْ قَبِيلَهُ ثَمُودُ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنُّذْرِ جمع نذير أى الأنبياء إذ تكذيب نبي واحد هو تكذيب لكل الأنبياء.

[٢٥] فَقَالُوا أَبَشْرًا مِنَّا من جنسنا أو من قبيلتنا، لأن صالح كان من قبيلتهم و أحدا لا تبع له نبتة و نقبل كلامه؟ هذا لا يكون إننا إذا إذا اتبعنا بشرا و أحدا لَفِي ضَلَالٍ عن طريقه آباءنا و سُعْرٍ جمع سعير، أى نحرق بناره، كما يقال فلان أحرق نفسه أى سبب ضياع نفسه و ماله و مستقبله، إنهم ما كانوا يقتنعون بالبرهان، بل كانوا يريدون أن يكون الهادى لهم من جنس أعلى كالملائكة لا «منا» أو لهم جماعة و سطوة و شوكة مثل أن يكون ملكا أو رئيس عشيرة.

[٢٦] أَأَلْقَى الذُّكْرَ الْكِتَابَ وَ الْوَحْيَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ فلما ذا لم يلق الوحي إلى من هو أكثر منه مالا- أو شخصيه؟ بَلْ هُوَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَّابٌ كَثِيرُ الْكُذْبِ فى نسبة الوحي إلى نفسه أشد حمله بطره على الترفع علينا بادعائه النبوة، فإن المترفعين لما يعتادون الإشارة إلى الناس بالاستهزاء و السوء، اشتق من مادة الإشارة، الأشر بهذا المعنى.

[٢٧] سَيَعْلَمُونَ غَدًا حين ينزل عليهم العذاب من هو الكذاب الأشد هل هم الذين أكثروا من الكذب أم صالح النبي عليه السلام؟

[٢٨] إِنَّا أَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُرْسِلُوا النَّاقَةَ مخرجوها من الجبل و باعثوها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٥

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٢٨ الى ٣١]

وَتَبَّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابي ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١)
إليهم معجزة لصالح عليه السلام فتنة اختبارا و امتحانا لهم هل يؤمنون بالإعجاز أم لا؟ فازتقنهم أى انتظرهم و راقبهم هل يؤمنون أم لا؟

وَاضْطَرُّ عَلَيْهِم بِالاستمرار فى التبليغ و عدم الدعاء عليهم مع إيدائهم لك.

[٢٩] وَتَبَّئُهُمْ أَخبرهم أَنَّ الْمَاءَ الذى كان يجرى نهرا عندهم قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ مقسوم للناقة يوم و لهم يوم، فإذا شربت الناقة فى يومها كل ماء النهر أعطتهم عوضه حليبا كُلُّ شِرْبٍ شرب الحصة من الماء مُحْتَضَرٌ يحضره صاحبه و لا حق لأحدهما فى الماء فى يوم الآخر.
[٣٠] فَنادوا ثمود صاحبهم و هو قدار الذى كان من شرارهم فتعاطى أخذ الناقة، و لعل باب التفاعل من جهة أن قدار و جماعة منهم أخذوا زمام الناقة حتى ألجؤوها إلى مكان يمكن عقرها فعقر قدار الناقة أى جرحها و قتلها.

[٣١] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرِي؟ هل تركت عذابهم لما خالفوا و كذبوا أم أخذتهم بالعذاب؟

[٣٢] إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة صاح بهم جبرائيل عليه السلام فانخلعت بذلك قلوبهم فكانوا كهشيم المحتظر كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الماشية فى الشتاء فى حظيرته، و لعل وجه التشبيه، أنه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٦

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٣٢ الى ٣٦]

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمٌ لوطٍ بِالنَّذْرِ (٣٣) إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر (٣٥) و لقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦)

تقطعت أيديهم و أرجلهم و تكومت الأبدان و الأيدي و الأرجل فى مكان، كما يتكوم الهشيم المتكسر المجتمع.

[٣٣] وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ لا يقال فى القرآن متشابهات، لأنه يقال عامة القرآن ميسره و بعض الآيات المتشابهات لا يضر بالعموم من حيث العموم.

[٣٤] كَذَّبَتْ قَوْمٌ لوطٍ بِالنَّذْرِ فلم يقبلوا إنذار لوط عليه السلام و تكذيب لوط تكذيب لسائر الأنبياء.

[٣٥] إنا جزاء لتكذيبهم أرسلنا عليهم حاصبا ريجا ترميهم بالحجارة يقال حصبه أى رماه بالحجارة إلا آل لوط لوط و أهل بيته المؤمنين «باستثناء زوجته فإنها أصابها ما أصاب القوم لأنها كانت كافرة مثلهم» نجيناهم بسحر فى آخر الليل.

[٣٦] و إنما نجيناهم نعمة لهم من عندنا إذ كان من الممكن إماتتهم فى ذلك الحال، بدون عذاب، كما يموت كل خير فى زمان ما كذلك هكذا، كما جزينا آل لوط عليه السلام نجزي من شكر نعمتنا عليه، بالإيمان و الطاعة، و المراد الشكر القلبي و الشكر العملى.

[٣٧] و قد قدم سبحانه عذابهم على ذكر بلاغ لوط لهم، لبيان أن العذاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٧

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِي (٣٩)
ياخذ المعتدين بسرعته حتى كأن بقاءهم فى الحياة لمحاه عين و لقد أنذرهم لوط عليه السلام بطشتنا أخذنا الشديد بالعذاب لمن خالف أوامرنا فتماروا فتشككوا من المماراة أى المجادلة بالنذر و أخذوا يجادلون بالباطل حول صدق لوط.

[٣٨] و لم يقتنعوا بتكذيبه و الاستمرار فى فحشائهم، بل أضافوا على ذلك أنهم لقد رآووه عن صيفه المرادة، الروح و المعجىء، فقد جاء آل لوط ضيوف، فأراد قومه أن يلطوا بهم، و كان أولئك الضيوف هم الملائكة فطمسنا أعينهم فمسحناها و سويتها بسائر الوجه

حتى عميت عيونهم و شوهدت خلقتهم فقلنا لهم فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذِرْ أَي ذُوقُوا عَاقِبَةَ إِذْكَارِي لَكُمْ، أو المراد كأن لسان الحال يقول لهم «ذوقوا...».

[٣٩] وَ لَقَدْ صَيَّبْنَاهُمْ بُكَرَةً عَذَابٌ دَخَلَ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، وَ الْبَكْرَةُ أَوَّلُ الصَّبَاحِ، وَ دَخُولُ الْعَذَابِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْكَرُ، لِأَنَّهُمْ يَرْجُونَ خَيْرَ النَّهَارِ إِذَا بِهِمْ يَجِدُونَ انْهَادَ الْأَمَالِ بِالْعَذَابِ مُسْتَقَرًّا فَلَمْ يَكُنْ عَذَابًا عَابِرًا، بَلْ عَذَابٌ اسْتَقَرَّ بِهِمْ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ.

[٤٠] فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذِرْ وَ فَائِدَةُ التَّكْرَارِ تَكَرُّرُ التَّذْكَيرِ وَ مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ قَدْ يُوْثِرُ التَّكْرَارُ مَا لَا يُوْثِرُ غَيْرَهُ، وَ ذَلِكَ لِاسْتِعَابِ الذَّهْنِ لَهُ، وَ لِذَا إِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَحْفَظَ شَيْئًا كَرَّرَهُ مَرَاتٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٨

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

وَ لَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٤٠) وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَمْ كَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)

[٤١] وَ لَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ لَا يُقَالُ غَيْرُ الْعَرَبِ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ يُقَالُ، قَصِدَ الْإِسْلَامَ تَوْحِيدَ لُغَةِ النَّاسِ، لِأَجْلِ تَفَاهُمِ عَامٍ وَ لِأَجْلِ إِرسَاءِ دَعَائِمِ حُكُومِهِ وَاحِدَةً- بِمَا فِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ الْجَمَّةِ- وَ مِثْلَ ذَلِكَ يُوجِبُ يَسْرَ الْقُرْآنِ لِلْكَلِّ.

[٤٢] وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ آلَ فِرْعَوْنَ فَلَانِ يَسْتَعْمَلُ لَهُ وَ لِآلِهِ، أَي فِرْعَوْنَ وَ آلَهُ النُّذُرُ الْمُنذَرُونَ مِثْلَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَ لَعَلَّ أَنْبِيَاءَ آخَرِينَ أَيْضًا كَانُوا، لَمَّا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَجَّ مَعَ سَبْعِينَ نَبِيًّا.

[٤٣] كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْكَثِيرَةِ كُلِّهَا كَالْيَدِ وَ الْعَصَا وَ الْقَمَلِ وَ الضَّفَادِعِ وَ الدَّمِ وَ غَيْرِهَا، وَ لَعَلَّ الْمَجِيءَ بِدُونِ «الْوَاوِ» لِإِفَادَةِ فُورِيَّةِ التَّكْذِيبِ بِمَا تَرَوْنَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْغَرَقِ أَخْذَ عَزِيزٍ لَهُ الْعِزَّةُ وَ الْعَلْبَةُ مُقْتَدِرٍ لَهُ الْقُدْرَةُ، لِأَنَّ الْقُدْرَةَ قَدْ تَكُونُ مَعَ الذَّلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ، وَ قَدْ تَكُونُ مَعَ الْعِزَّةِ.

[٤٤] أَمْ كَفَّارُكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيئِكُمْ مِنْ أَوْلِيئِكُمُ الْكُفَّارِ لِلْأَمَمِ السَّابِقَةِ حَتَّى نَتَرَكْكُمْ مَعَ تَكْذِيبِكُمْ، وَ قَدْ سَمِعْتُمْ كَيْفَ أَخَذْنَا أَوْلِيئِكَ الْكُفَّارِ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ فِي الْكُتُبِ، بِأَنَّ كُنَّا أَعْطَيْنَاكُمْ عَهْدًا فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ لَا نَهْلِكْكُمْ؟ وَ إِذْ لَا ذَاكَ، وَ لَا هَذَا، فَالْإِجْرَامُ أَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٨٩

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٤٤ الى ٤٨]

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُؤَلُّونَ الدُّبُرُ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَذْهَى وَ أَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَ سَعْرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)

تخافوا من بطشنا و أن نفعل بكم ما فعلنا بتلك الأمم الكافرة.

[٤٥] أَمْ يَقُولُونَ هُوَ الْكُفَّارِ نَحْنُ جَمِيعٌ مُجْتَمِعٌ مُنْتَصِرُونَ نَتَصَرُّ وَ نَتَغَلَّبُ عَلَى مَنْ أَرَادَ بِنَا هَلَاكًا؟ وَ هَلْ يُمْكِنُ التَّغْلِبُ عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ؟.

[٤٦] سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ سَيَهْزَمُونَ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ وَ لَا يَفِيدُهُمْ جَمْعُهُمْ وَ يُؤَلُّونَ الدُّبُرَ فَلَا يَقِفُونَ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامِ الْعَذَابِ، بَلْ يَعْطُونَ الْعَذَابَ قِفَاهُمْ وَ يَفِرُونَ، فَلَا يَفِيدُهُمْ جَمْعُهُمْ.

[٤٧] هَذَا إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا بَلِ السَّاعَةُ الْقِيَامَةُ مَوْعِدُهُمْ مَوْعِدَ عَقُوبَتِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ وَ عَذَابُهُمُ الْأَصْلِيُّ وَ السَّاعَةُ أَذْهَى أَشَدَّ عَذَابًا لَهُمْ مِنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَ أَمْرٌ أَكْثَرَ مَرَارَةً فِي مَذَاقِهِمْ، وَ الدَّاهِيَةُ الْأَمْرُ الْمُنْكَرُ الَّذِي لَا يَهْتَدِي الْإِنْسَانُ لِدَوَائِهِ.

[٤٨] إِنَّ الْمُجْرِمِينَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، هُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ، وَ هَذَا مَا يُولَدُ لَهُمْ نَوْعًا مِنَ الْمَشَاكِلِ الْمَادِيَّةِ، لِأَنَّ غَيْرَ طَرِيقِ الْحَقِّ فِيهِ مَشَاكِلٌ وَ أَعْتَابٌ وَ سِيَّجَرٌ جَمْعٌ سَعِيرٌ، لِأَنَّهُمْ يَسْتَعْرُونَ نَفْسِيًّا بِمَا يَرْتَمُونَ فِيهِ مِنَ الْمَشَاكِلِ فَهَمْ فِي قَلْقِ نَفْسِيٍّ وَ اضْطِرَابٍ وَ عَدَمِ سَكِينَةٍ، فَإِنَّ الْإِطْمِئْنَانَ النَّفْسِيَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَطْ، أَوْ الْمَرَادُ ضَلَالُ الدُّنْيَا وَ سَعِيرُ الْآخِرَةِ.

[٤٩] يَوْمَ بَيَانِ لِمَوْعِدِهِمْ فِي السَّاعَةِ، أَوْ مَا بَيْنَهُ بِقَوْلِهِ «سَعْرٌ»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٠

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٤٩ إلى ٥١]

إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٥١) يُسِيحِبُونَ يَجْرُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ تَخْضَعْ وَجُوهُهُمْ لِلْحَقِّ، جُوزُوا بِإِذْلَالٍ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، وَيُقَالُ لَهُمْ زِيَادَةٌ فِي إِهَانَتِهِمْ مِنْ جِهَةِ الشَّمَاتَةِ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرٍ مَسَّهُ، أَيْ أَصَابَهُ، وَسَقَرٌ عِلْمٌ عَلَى جَهَنَّمَ.

[٥٠] وحيث إن الكفار كانوا يقولون: اثنتا بعداب الله إن كنت صادقاً، أجاوبهم القرآن إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ أَيْ جَعَلْنَاهُ بِقَدَرٍ بتقدير خاص، فيوم القيامة، و عذاب هؤلاء، يأتي في الوقت المقدر لهما، ولا نقدم العذاب حسب طلبهم فكما أن كل بذرة تعطى ثمراً، فلثمره بين زرعها وبين إثمارها زمان مقدر، كذلك كل عمل إلى أن يعطى ثمره و جزاءه له وقت مقدر خاص.

[٥١] لكن إذا حان الوقت المقدر، فلا تراجع فيه ولا بطء فيه و ما أَمْرُنَا بِعَذَابِهِمْ أَوْ بغير ذلك إِلَّا وَاحِدَةٌ فلا حاجة للتكرار في الأمر، كما لا تراجع منه إذا أمرنا و هو كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ حركة البصر، في السرعة فلا يحتاج إلى مقدمات فيجب أن يعرف هؤلاء الكفار أنه إذا حان عذابهم لا تراجع فيه، كما أنه لا يأخذهم تدريجياً ليفكروا في الخلاص بل يأخذهم بغتة.

[٥٢] وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ أَشْبَاهَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ كَيْفَ لَمْ تَرَجِعْ حِينَ أَرَدْنَا عَذَابَهُمْ وَ كَيْفَ لَمْ تَنْدِرْجْ فِي عَذَابِهِمْ بَلْ أَخَذْنَاهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩١

[سورة القمر (٥٤): الآيات ٥٢ إلى ٥٥]

وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

دفعه واحده فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ مَدَكِّرٌ يَتَذَكَّرُ، حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ غِيهِ؟.

[٥٣] و لم ننس حتى أصغر شيء فعلوه فعاقبناهم بكل ما ارتكبوا من جرائم وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ مَكْتُوبٌ فِي الزُّبُرِ كَتَبَهُ الْحَفِظَةُ.

[٥٤] وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا هُوَ كَذَلِكَ فِي كُلِّ أَعْمَالِ الْبَشَرِ مُسْتَطَرٌّ مَسْطُورٌ مَكْتُوبٌ.

[٥٥] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ جَمْعُ نَهْرٍ بِسُكُونِ الْهَاءِ، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَسْبَحُونَ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، وَ الظَّرْفُ مُجَازٌ.

[٥٦] فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ فِي مَكَانٍ لَا كَذِبَ فِيهِ، بِخِلَافِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَكَانَ الدُّنْيَا بِاعْتِبَارِ أَنَّ ظَاهِرَهُ الرَّاحَةُ وَ وَقَعَهُ النَّعْبُ، كَذِبٌ عِنْدَ مَلِيكٍ مُلْكٍ، وَ مَلِيكٍ أَكْثَرُ دَلَالَةٍ عَلَى اسْتِقْرَارِ مُلْكِهِ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ كَشْرِيفٍ مُقْتَدِرٍ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى تَنْفِيزِ مَا وَعَدَ مِنَ عَذَابِ الْعَاصِينَ وَ نَعِيمِ الْمَطِيعِينَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٢

٥٥ سورة الرحمن مكية أو مدنية / آياتها (٧٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على كلمة «الرحمن» وقد اختلفوا في كونها مكية أو مدنية لكنها أشبه بالسور المدنية لمعالجتها قضايا العقيدة، لا الشريعة. ولما ختمت سورة القمر بذكر الله سبحانه نعمه للإنسان في الآخرة، ابتدأت هذه السورة بذكره سبحانه، و نعمه للإنسان في الدنيا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نقرن أعمالنا بذكر اسمه تعالى، شعاراً لنا بأننا من أتباع الله و المطيعين لأوامره، كما نرجو أن يرحمنا في مستقبل دنيا و آخرتنا، كما في ماضى أمرنا بالخلق أولاً، و إعطائنا سائر النعم ثانياً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٣

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)

[٢] الرَّحْمَنُ لَأَنَّهُ رَحِمَنٌ «فإن تعليق الأمر على الصفة يفيد العلية».

[٣] عَلَّمَ الْقُرْآنَ إذ لو لا رحمه لم يعلم القرآن و ترك البشر في دياجير الظلام.

[٤] خَلَقَ الْإِنْسَانَ أآخر الخلق، عن التعليم مع أنه مقدم على التعليم زمانا، للدلالة على جلاله العلم حتى أنه لو لا العلم لكان خلق الإنسان قليل الفائدة.

[٥] عَلَّمَهُ الْبَيَانَ بأن يتكلم و يظهر ما في ضميره.

[٦] و إذ ذكر القرآن الإنسان بالنعمة التي تدل على علم الله و قدرته و دقة حكمه، جاء الدور للتنبيه على أنه لا مكان للعبثية و الاعتبار في الخلق الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ قد خلقا و يجريان بحساب معلوم مقدر بلا زيادة و لا نقصا.

[٧] وَالنَّجْمُ الموجود في السماء، و الذي ينجم أى يظهر في الأفق و الشَّجَرُ الذى ينجم أى يظهر من الأرض يَسْجُدَانِ خاضعان لله سبحانه، و يسجد ليس بمعنى المستقبل، بل بمعنى الحال أى دائما، أو المراد سجودهما، إذ لكل شىء معرفة بالله و نوع خضوع له، و

في جملة من التفاسير، إن المراد بالنجم النبات الذى لا ساق له، في مقابل الشجر الذى له ساق.

[٨] وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا اللهُ سبحانه، سواء أريد به المدارات أو الجزئيات،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٤

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٨ الى ١٢]

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ

(١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)

أو الأنجم و وَضَعَ أى جعل و إنما أتى بهذا اللفظ، ليجعل المقابلة بين الرفع و الوضع الميزان ليوفى كل ذى حق حقه، ففي القضايا التكوينية عدل و حساب دقيق، و كذلك جعل سبحانه للتعامل بين الناس عدلا و حسابا.

[٩] و إنما وضع الميزان ل- أَلَّا تَطْغَوْا و تجوروا في الميزان في وزن الأشياء إذ لو لم يكن الميزان الذى به توزن الأشياء لحصل الجور في وزن الأشياء.

[١٠] لكن قسما من الناس أيضا يجورون مع وجود الميزان، بالاحتياى و التطفيف و لذا قال الله سبحانه و أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ بالعدل و لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ أى لا تنقصوه، و المراد ما فى الميزان بعلاقة الحال و المحل.

[١١] و إذا تقدم ذكر السماء فلندكر ما يقابل نعمة السماء من نعمة الأرض فإن الأرض وَضَعَهَا اللهُ لِلْأَنَامِ لفائدتهم أحياء و أمواتا.

[١٢] فِيهَا فَاكِهَةٌ إما الثمار أو كل ما يتفكه به و النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ الكم و عاء التمر، و «ذات» باعتبار جنس النخل.

[١٣] وَالْحَبُّ كالحنطة و الشعير ذُو الْعَصْفِ ورق الزرع، سمي به

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٥

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١٣ الى ١٧]

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

(١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)

لأنه يعصف به أى يتحرك، و منه «العاصفة» بمعنى الريح الشديدة و الرَّيْحَانُ ما يستشم به من الأوراد و نحوها.

[١٤] فَبِأَيِّ آلَاءِ جَمَعَ «إلى» بمعنى النعمة رَبُّكُمَا أَيُّهَا الْجِنُّ وَالْإِنْسُ، بِقَرِينِهِ «لِلْأَنَامِ» وَ «أَيُّهَا الثَّقَلَانِ» تُكذِّبَانِ فَإِنَّ تَكْذِيبَهُمْ بِرَبِّ النِّعْمَةِ وَ إنكارهم له، كفران للنعمة، و تكذيب لربط النعمة برب النعمة، و تكرار التذكير بهذه الآية «فَبِأَيِّ آلَاءِ...» فى مقابل كثرة تكذيبهم برب النعمة.

[١٥] خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالِ الطِّينِ الْيَابِسِ الَّذِى لَهُ صَلْصَلُهُ، أَى صَوْتِ كَالْفَخَّارِ الْخَزْفِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ التُّرَابَ طِينًا وَ لَمَّا بَقِيَ مَدَّةٌ صَارَ كَالْحَمِ الْمَسْنُونِ، ثُمَّ يَبَسَ وَ صَارَ صَلْصَالًا، كَمَا فِى آيَاتٍ مُتَعَدَّةً.

[١٦] وَ خَلَقَ الْجَانَّ أَبَا الْجِنِّ، أَوْ كُلَّ جِنِّ، فَكَمَا أَنَّ أَصْلَ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ التُّرَابِ، كَذَلِكَ أَصْلُ كُلِّ جِنِّ النَّارِ مِنْ مَارِجٍ صَافٍ مِنَ الدِّخَانِ مِنْ نَارِ أَى نَارِ مَارِجَةٍ، وَ يُسَمَّى مَارِجًا مِنْ مَرَجٍ بِمَعْنَى اضْطِرَبَ.

[١٧] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ هَلْ تَكْذِبُونَ بِنِعْمَةِ الْخَلْقِ؟ وَ مَنْ خَلَقَكُمْ إِذْنَ؟.

[١٨] اللَّهُ هُوَ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ مَشْرِقِ الصَّيْفِ وَ مَشْرِقِ الشِّتَاءِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٦

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ١٨ الى ٢٣]

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَ الْمَرْجَانُ (٢٢)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ (٢٣)

مغربهما.

[١٩] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ وَ هَلْ هُنَاكَ رَبٌّ آخَرَ جَعَلَ الْمَشْرِقَ وَ الْمَغْرِبَ؟ وَ مَنْ هُوَ إِذْنَ؟

[٢٠] مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ خَلط بين بحر عذب و بحر مالح يلتقيان فإن تحت الأرض قطعة من الماء المالح فى البحار، و العذب فى العيون و المخازن الخلقية، و هما متجاوران، و هذا فى بطن ذاك و بالعكس.

[٢١] بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ حَاجِزٌ لَا يَبْغِيَانِ فَلَا الْعَذْبُ يَدْخُلُ فِى الْمَالِحِ، وَ لَا الْعَكْسُ، وَ ذَلِكَ لِقَانُونِ خَلْقِهِ اللَّهُ فِى الْمَائِنِ، مِمَّا لَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا الْاِخْتِلَاطَ بِالْآخَرِ، وَ إِنَّمَا كُلُّ مَاءٍ يَجْذِبُ إِلَى نَفْسِهِ أَجْزَاءَ مَا مِنْ جِنْسِهِ، وَ قَدْ ذَكَرُوا تَفْصِيلَ ذَلِكَ فِى عِلْمِ الْفِيزِيَاءِ.

[٢٢] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ فَهَلْ خَلَقَ الْمَائِنِ غَيْرَ اللَّهِ؟ وَ هَلْ جَعَلَ هَذَا الْقَانُونِ فِيهِمَا غَيْرَ اللَّهِ؟

[٢٣] يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ الدَّر الَّذِى فِى الصِّدْفِ وَ الْمَرْجَانُ شَجَرَةٌ تَنْبَتُ تَحْتَ الْمَاءِ.

[٢٤] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ فَهَلْ خَلَقَ اللَّوْؤُ وَ الْمَرْجَانُ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى؟ وَ مَنْ هُوَ إِذَا؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٧

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٢٤ الى ٢٨]

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ (٢٨)

[٢٥] وَ لَهُ سَبْحَانَةُ الْجَوَارِ جَمْعٌ جَارِيَةٌ أَى السَّفِينَةُ، وَ كَوْنُهَا لَهُ لِأَنَّهُ خَلَقَ مَوَارِدَهَا، وَ وَهَبَ الْإِنْسَانَ عَقْلًا لِصَنْعِهَا وَ جَعَلَ فِى الْمَاءِ قَانُونًا «كَشَفَهُ أَرْخَمِيدَسٌ» لِأَجْلِ أَنْ لَا تَغْرُقَ فِى الْمَاءِ الْمُنشَآتُ الَّتِى أَنْشَأَهَا وَ أَوْجَدَهَا الْإِنْسَانَ بِفِكْرِ وَهَبِهِ اللَّهُ لَهُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ جَمْعُ عِلْمٍ وَ هُوَ الْجِبَلُ الطَّوِيلُ، فَكَيْفَ أَنْهَا لَا تَغْرُقُ فِى الْمَاءِ؟.

[٢٦] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبُّكُمَا تُكذِّبَانِ هَلْ خَلَقَ الْمَوَادَّ، وَ إِعْطَاةَ الْإِنْسَانَ قَدْرَةَ الْإِنشَاءِ، أَوْ جَعَلَ قَانُونِ أَرْخَمِيدَسِ فِى الْمَاءِ، لِغَيْرِ اللَّهِ؟، وَ مَنْ يَجْرَأُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ؟

[٢٧] هَكَذَا أَنْشَأْنَاكُمْ، وَ هِيَآئِنَا مَصَالِحُكُمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّ مَنْ عَلَيْهَا أَى عَلَى الْأَرْضِ فَإِنَّ يَفْنَى وَ يَهْلِكُ.

[٢٨] وَ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذَاتِ رُبُكٍ، و الإنسان يقال له وجهه، فيقال «نحتاج إلى وجوه جديدة» أو «فلان وجه كريم» و ذلك، لأنه محل التوجه، فيطلق على الكل من باب إطلاق الجزء على الكل، كما ذكره في أقسام المجاز ذو الجلال فهو أجل من أن يفنى و الأكرام الذى أكرم بالخلق ثم يكرم بالإعادة. و الأول: صفة جلال. و الثانى: صفة جمال.

[٢٩] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فهل تكذبون بأن الله يفنى زيدا و عمروا و بكرا؟ و كل واحد من فناءاته نعمه، نعمه على المؤمن لأنه ينجيه إلى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٨

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)
دار كرامته، و على غير المؤمن لأنه لا يزداد عصيانا ببقائه فى دار الدنيا.

[٣٠] فهو الخالق، و هو مهى كل نعمه، و هو المغنى، ثم هو المسؤول لكل حاجة، فى كل الكون يَسْئَلُهُ يطلب الحوائج منه مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الملائكة و غيرهم وَ الْأَرْضِ مِنَ الإنسان و الجن و غيرهما، و ليس الله كالإنسان الذى يجعل القانون ثم لا يغيره و لا يبدله، فلا- شأْن له فى التصرف بعد وضعه القانون بل كُلُّ يَوْمٍ هُوَ سَبْحَانَهُ فى شَأْنٍ فإذا قدر الفقر ثم سأله إنسان أن يغنيه أغناه، و هكذا، فهو يتصرف فى الكون فى كل آن، لا- يقال ما هى الحاجة إلى ذلك و قد كان بقدرته سبحانه أن يكون كصاحب معمل يشغل معمله لحظة، ثم يتركه طيلة حركته، فيخلق الله الكون لحظة، ثم لا يعمل شيئاً؟ لأنه يقال المحال لا يقع تحت قدرة الله تعالى فإن الأشياء عدم بدون استمرار عناية الله بها مثل أن النور عدم بدون إفاضة الشمس دائما له، و مثال المعمل غير صحيح، لأن صاحب المعمل لا- يأتى إلا بالمعد أى بحركة أعضائه و جوارحه فى اللحظة الأولى أما دوران المعمل فهو حسب قانون جعله الله فى الكون فالله قائم على دوران المعمل لا إنه يدوره بنفسه كما أن من يضغظ على جهاز الكهرباء أتى بالمعد و انتهى فالإنارة المستمرة إنما هى حسب قانون الله فى جريان تيار الكهرباء، و هذا بحث طويل مربوط بالفلسفة.

[٣١] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ أليس الله يستمر فى إعطاء الكون الحياة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٢٩٩

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣١ الى ٣٣]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَنَنْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)

و البقاء الجديد؟ و أليس كل ذلك آلاء و نعماء.

[٣٢] سَنَفْرُغُ لَكُمْ سنتجرد عن شؤون الدنيا لأجل حسابكم يوم القيامة- إذ لا- دنيا حينئذ- أَيُّهَ الثَّقَلَانِ الجن و الإنس، و الظاهر أنه تهديد، و كناية على أنه لا عمل إلا حسابكم، فيكون الحساب دقيقاً جداً، فهو مثل قول الرجل لمن يريد تهديده، سأفرغ لك، أى لا يكون لى شغل إلا الإيقاع بك.

[٣٣] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لا تكذبوا بآلاء الله حتى لا تقعوا فى العذاب يوم القيامة و أهوالها.

[٣٤] إن ذلك التفرغ لشأنكم إنما يكون فى يوم لا مفر لأحد من سلطان الله، فيقال للثقلين يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ يا أيتها الجماعة إنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا أَنْ تَهْرَبُوا مِنْ ثَقْبِ الْكُونِ مِنْ أَقْطَارِ جَمْعِ قَطْرٍ بمعنى الناحية السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لِأَنَّ أَقْطَارَهَا فى ذلك اليوم مسدودة فَنَنْفُذُوا و هربوا لكن هيات أن تتمكنوا من ذلك لا تَنْفُذُونَ لا تقدرتون من النفوذ و الهرب إِلَّا بِسُلْطَانٍ بحجة واضحة تأتون بها على أنكم عملتم فى الدنيا حسناً، فيعطى لكم جواز التخلص من الحساب إلى سعة الجنة.

أقول: ربما فسر هذه الآية بعض العلماء بعدم إمكان الذهاب إلى أجواء السماء و أعماق الأرض إلا بسلطان العلم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٣٤٩

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣٤ إلى ٣٨]

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسًا فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)

[٣٥] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فكما أن الدنيا نعمة، كذلك الحساب نعمة، فإن مثله مثل الامتحان الذي يعطى كل ذي حق حقه، فهل تكذبان بنعم الحساب التي توجب وصول كل ذي حق إلى حقه؟

[٣٦] في ذلك اليوم يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْجِنُّ وَالْإِنْسُ شَوَاطِئَ اللَّهَبِ الْخَالِصِ، أو ذرأت النار المتطايرة مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسًا مذاب حتى يتأذى بهما الكفرة و العصاة فَلَا تَنْتَصِرَانِ لا أحد ينصركم من بأس الله، فآمنوا و اعملوا حتى لا يصيبكم مثل هذا العذاب.

[٣٧] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لا تكذبوا بالآلاء حتى لا يشملكم مثل هذا العذاب.

[٣٨] فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ بَأْنَ كَانَ فِي نَظَرِ النَّاطِقِ كَأَنَّ فِيهَا خَلَلَ وَ فَرَجٌ، كما أن يوم الحساب ينظر الناس إلى السماء كأن فيها فرج من أثر وجود الغيم في بعضها و عدم وجوده في بعضها فَكَانَتْ السَّمَاءُ وَرْدَةً يظهر في فرجها أثار العذاب الأحمر، لأن النار حمراء كالدِّهَانِ كالدهن أى عذاب سيال كالدهن أحمر كالنار، و جواب «إذا» لا يسأل، كما يأتي.

[٣٩] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لا تكذبا حتى لا تبتليا بأهوال هذا اليوم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠١

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٣٩ إلى ٤٢]

فَيَوْمَئِذٍ لَا- يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢)

[٤٠] فَيَوْمَئِذٍ تكرر لقوله سبحانه «إذا» للتأكيد لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ عن ذنب أحد، إلا نفسه، و جرى بضمير مفرد، لإفادة أن كل إنسان هو المسؤول عن نفسه فلا يتوهم أنه يمكنه الفرار و إلقاء الأجر على عاتق الغير، كما أن الكبراء في الدنيا يفعلون كذلك، يلقون أجوبه الأسئلة المحرجة على عاتق غيرهم إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فكل إنس يجيب عن نفسه و كل جنى يجيب عن نفسه.

[٤١] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هل تكذبان؟ و تخلفان هذه المشكلة التي لا مفر منها وراء ظهوركم.

[٤٢] إنه بالإضافة إلى أنهم يسألون في موطن من موطن القيامة عن أعمالهم، إنهم يعرفون من ألوانهم يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّئَاتِهِمْ و وجوههم السود و أجسامهم الزرق، فإن أجسامهم تكون كجسم من لفحة برد شديد، و كآبتهم الظاهرة يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ «١» «زرقاء» وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسْتِرَّةٍ «٢» و إنما لم يذكر الصالحون، لأن المقام لتهديد الكفار و العصاة فَيُؤْخَذُ كُلُّ مُجْرِمٍ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ ظاهر الآية أنهم يجمع الملائكة بين ناصيتهم و أقدامهم لإلقاءهم في جهنم.

[٤٣] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لا تكذبوا حتى لا تقعوا في أمثال هذا العذاب الجسمي و الإهانة النفسية.

(١) آل عمران: ١٠٧.

(٢) القيامة: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٢

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٤٣ إلى ٤٧]

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آناً (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)

[٤٤] و يقال لهم حينذاك هذه جهنم التي كان يُكذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ في دار الدنيا فكانوا يقولون لا جنه و لا نار، أرايتم كيف وصلتكم إليها، و لم ينفعكم تكذيبكم بها في الخلاص منها.

[٤٥] و المجرمون في حركة دائمة فيها بين شدة العذاب و العطش و بين شرب الماء الذي هو في غاية الحرارة يَطُوفُونَ المجرمون، و الطواف هو الذهاب و المجيء بين نيرانها و بين ماء حميم حار آن من شدة الحرارة قد انتهى حره إلى آخر درجة.

[٤٦] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فهل لكم طاقة بهذا العذاب حتى تكفروا، و تبتلوا به؟.

[٤٧] هذا حال المجرمين و المكذبين و لَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ مَوْفِقَ رَبِّهِ، أى يوم الحساب و إضافة «مقام» إلى «الرب» لبيان اختصاص الحكم هناك لله سبحانه، لا إن المراد «قيام الله» كما ربما توهم، أى خاف الله في الدنيا فآمن و عمل صالحاً جَنَّاتٍ جنه لجزاء عمله، و أخرى زيادة و تفضلاً، كما قال تعالى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ «١» و قوله كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلُ «٢».

[٤٨] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لا تكذبوا بالآلاء حتى تنالوا هذا

(١) يونس: ٢٧.

(٢) الحديد: ٢٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٣

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٤٨ الى ٥٤]

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)
الثواب العظيم.

[٤٩] ذَوَاتَا أَفْنَانٍ كل جنه ذات ألوان من النعيم و الثمار و الحور و القصور.

[٥٠] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لا تكذبوا حتى تنالوا هذا النعيم ذا الأفنان.

[٥١] فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ في كل جنه عين، لها صفاء العين، و جمالها، و منظر النهر الجارى.

[٥٢] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بينما كان ينبغي أن يكون وراء كل مخوف و كل نعمة تصديق، هؤلاء يكذبون، و سيجزون جزاء تكذيبهم.

[٥٣] فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ صنفان شتوي و صيفي أو غريب و مألوف، أو كبير و صغير، أو رطب و يابس، إلى غير ذلك، كل ذلك للتعفن و مزيد النعمة.

[٥٤] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بنعمة الظاهرة أو بنعمة الباطنة؟ و هل نعمة قابلة للتكذيب؟

[٥٥] و هؤلاء أصحاب هذا النعيم تراهم في حال كونهم مُتَّكِنِينَ بحاله راحه و استرخاء على فُرْشٍ جمع فراش بَطَائِنُهَا البطانه مقابل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٤

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٥٥ الى ٦٠]

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا- حِيَانٌ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)

الظهاره من إشتتيرق من ديباج ثخين، يسبب الراحة، فليس فراش ظاهر فقط، حتى لا يستريح الإنسان عليه وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ أى الذى يجنى منهما و هو الثمر دان متهدل على رؤوسهم يتمكن القاعد و النائم أن يناله بسهولة.

[٥٦] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هل تكذبان بآلائه فى الآخرة.

[٥٧] فِيهِنَّ فى تلك الفرش نساء قاصرات الطَّرفِ مقصورة أبصارهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لَمْ يَطْمِئِنَّ لَمْ يمسهن، لا بالجماع و لا بغير الجماع إِنْسَ قَبْلَهُمْ قبل أهل الجنة و لا جَانُ فزوجة الإنس لم يمسها إنس و زوجة الجن لم يمسها جن.

[٥٨] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ بآلائه التى تؤكل و تشرب أم بآلائه من جنس الزواج و الاستمتاع.

[٥٩] كَأَنَّهُنَّ كَأَنَّ تِلْكَ النِّسَاءِ اليَقُوتُ فى حمرة الشفاه و الوجنات و المَرْجَانُ فى بياض الجسم و البشرة.

[٦٠] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فمن خلق مثل هذا الجمال الذى رأيتموه فى الدنيا، فى الجملة، و سيراه المؤمنون فى الآخرة فى كماله الرائع؟.

[٦١] ثم أن كل هذا الجزاء لمن أحسن فى الدنيا بالإيمان و العمل الصالح

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٥

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٦١ الى ٦٦]

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ (٦٦)

و هل جزاء الإحسان أى إحسان المؤمنين إلَّا الإحسان إليهم فى الآخرة بالثواب و النعيم؟ فإن البذرة تثمر الثمرة التى هى من جنسها.

[٦٢] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فهل هناك تكذيب بأن الإحسان يولد الإحسان؟.

[٦٣] النعم التى ذكرناها إنما هى للسابقين المقربين و مِنْ دُونِهِمَا أدون و أنزل من الجنتين المذكورتين جَنَّتَانِ و الظاهر أنهما لمن دون المقربين فى الأعمال، أى باقى المؤمنين.

[٦٤] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فهل يتساوى الأكثر طاعة و الأقل طاعة؟

الأكثر طاعة فى جنتين رفيفتين، و الأقل طاعة فى جنتين أقل درجة، فهل يكذب الإنسان بمثل هذا؟

[٦٥] مُدْهَامَتَانِ من «دهم» بمعنى السواد أى أن الجنتين خضراوتان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، فلا يبس لهما.

[٦٦] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هل تكذب بجمال و نضارة ما يمنحه الله للمطيعين الذين أكرمهم بإسكانهم دار كرامته؟

[٦٧] فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ فوارتان، لا كمثل الجنتين السابقتين حيث العيون الجارية التى هى أجمل من مجرد النضاحة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٦

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٦٧ الى ٧٣]

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)

حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فى الخيام (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)

[٦٨] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ أليس فى قدره الله أن يجعل العين تنضخ؟

[٦٩] فِيهِمَا فَاكِهَةٌ من بعض أقسام الفواكه و نَخْلٌ للتمر و رُمَّانٌ و هذا أقل مما فى الجنتين السابقتين حيث فيهما من كل فاكهة زوجين.

[٧٠] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ألا يقدر سبحانه أن يعطى المؤمن أمثال هذا النعيم.

[٧١] فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ نساء هن خير من كل ناحية مثل «زيد عدل» «حسان» الوجوه و هن أقل من الحور القاصرات الطرف، فالسابقات كأنهن اللؤلؤ و المرجان.

[٧٢] فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ الْمَرْأَةَ خَيْرًا مِّمَّا حَضَا وَحَسَنَةُ الْوَجْهِ.

[٧٣] حُورٌ جَمْعٌ حَوْرَاءَ، كَمَا تَقْدُمُ وَهِيَ الْبَيْضَاوَاتُ جَسْمًا مَقْصُورَاتٌ مَحْفُوظَاتٌ مَخْدِرَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَأَهْلُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ لَيْسَ لَهُمْ قُصُورٌ مِثْلَ أَصْحَابِ الْجَنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ بَلْ لَهُمْ خِيَامٌ كَخِيَامِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ.

[٧٤] فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ أَلَيْسَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَشْكُرَ عَلَيْهَا، عَوْضٌ أَنْ يَكْفُرَ بِهَا الْمَكْذِبُونَ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٧

[سورة الرحمن (٥٥): الآيات ٧٤ إلى ٧٨]

لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرِفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

[٧٥] لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ لَمْ يَجَامِعْنَهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَهِنَّ بَاكَرَاتٌ.

[٧٦] فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَادِرٍ عَلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ.

[٧٧] فِي حَالِ كَوْنِ أَصْحَابِ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ مُتَّكِبِينَ عَلَى رَفْرِفٍ جَمْعٌ رَفْرَفَةٌ وَهِيَ الْوَسَادَةُ خُضِرٍ خَضِرَاوَاتٌ وَعَبْقَرِيٍّ كُلُّ ثَوْبٍ مَوْشَى يُقَالُ لَهُ عَبْقَرِيٌّ، وَلَعَلَّ عَلَىٰ تِلْكَ الْوَسَائِلِ أَثْوَابٌ جَمِيلَةٌ مَوْشَاءٌ حِسَانٍ تِلْكَ الرَّفْرِفُ وَالْعَبْقَرِيُّ كُلُّهَا حَسَنَاوَاتٌ وَهَذِهِ أَقْلٌ مَرْتَبَةٌ مِنْ فَرْشٍ بَطَانَتِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ.

[٧٨] فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ أَلَيْسَ مِثْلُ هَذَا جِزَاءَ الصَّالِحِينَ وَإِنْ كَانُوا بِدَرَجَةٍ ثَانِيَةٍ مِنَ الصَّلَاحِ؟

[٧٩] تَبَارَكَ مِنْ بَرَكَ بِمَعْنَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ اسْمُ رَبِّكَ وَدَوَامُ الْأَسْمِ كَاشِفٌ عَنِ الدَّوَامِ الْمَسْمُومِ، وَفِيهِ تَلْمِيحٌ بِالْعِظْمَةِ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ «تَبَارَكَ رَبُّكَ» ذِي الْجَلَالِ أَجَلٌ مِنَ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِهِ وَالْإِكْرَامِ فَلَيْسَ اللَّهُ جَلِيلًا وَجَمِيلًا لِنَفْسِهِ بَلْ يَكْرَمُ غَيْرَهُ، وَفِيهِ تَلْمِيحٌ إِلَى صِفَاتِ الْكَمَالِ، إِذْ فَاقَدَ الشَّيْءُ لَا يُعْطِيهِ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَرِيمًا لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْ إِكْرَامِ غَيْرِهِ، وَالْإِكْرَامُ بِأَصْلِ الْخَلْقِ وَالْإِيْجَادِ، ثُمَّ بِالْقِيَامِ بِشُؤْنِ الْخَلْقِ، ثُمَّ بِجَزَائِهِمْ جِزَاءً حَسَنًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٨

٥٦ سورة الواقعة مكية / آياتها (٩٧)

سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَذَا الْأَسْمِ لِأَسْتِمَالِهَا عَلَى كَلِمَةِ «الْوَاقِعَةُ» وَهِيَ كَسَائِرُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ تَعَالَجُ قَضَايَا الْعَقِيدَةِ، وَرَبْمَا يُقَالُ إِنْ بَعْضُ آيَاتِهَا مَدْنِيَّةٌ. وَلَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي آخِرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ عَنِ «الْمَبْدَأِ» ابْتَدَأَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِذِكْرِ «الْمَعَادِ» وَهِيَ أَسَاسَانِ مِنَ الْأَسْسِ الثَّلَاثِ لِلْعَقِيدَةِ «بِإِضَافَةِ الرِّسَالَةِ».

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَبْدَأُ بِاسْمِ الْإِلَهِ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ كَانَ فِيهِمَا اقْتِرَانٌ بِهِ بِرُكْنَةٍ وَثَبَاتٌ وَدَوَامٌ، فَهُوَ الْذَاتُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا اِضْمِحَالٌ، الرَّحْمَنُ بِخَلْقِهِ كُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ، الرَّحِيمُ الَّذِي يَرْحَمُ خَلْقَهُ بِالْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ، وَلَيْسَ كَمَنْ يَبْدَأُ بِالْخَيْرِ ثُمَّ يَقْطَعُ خَيْرَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٠٩

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١ إلى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤)

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨)

[٢] إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ إِذَا حَدَثَتِ الْقِيَامَةُ وَجَاءَتْ وَسُمِّيَتِ بِالْوَاقِعَةِ لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهَا.

[٣] لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا نَفْسٌ كَاذِبَةٌ فَكُلٌّ يَصْدُقُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ صَحْتَهُ، وَإِنْ كَانَ جَمَاعُهُ يَنْكُرُونَهُ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ إِذَا وَقَعَتْ فِي السِّجْنِ تَصْدُقُ كَلَامِي بِأَنْ مَا تَعْمَلُهُ الْآنَ لَيْسَ مِنْ صِلَاحِكَ.

[٤] وَهَذِهِ الْوَاقِعَةُ خَافِضَةٌ تُخْفِضُ وَتَنْزِلُ بِالْكَفَّارِ وَالْعِصَاةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا، بِنَظَرِ النَّاسِ فِي رَفْعِهِ وَسَمُو رَافِعَةً تُرْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَطِيعِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا، بِنَظَرِ النَّاسِ فِي ذَلِّ وَهَوَانِ.

[٥] وَيَكُونُ ذَلِكَ فِيمَا إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا تَحْرَكَتْ تَحْرَكَ شَدِيدًا بِالزَّلَازِلِ الَّتِي هِيَ مِنْ عِلَاطِ السَّاعَةِ.

[٦] وَبَسَّتِ الْجِبَالُ فَتَّتَتْ وَتَحْرَكَتْ بَسًّا مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِبَيَانِ شِدَّةِ التَّفْتَتِ وَالْحَرَكَةِ.

[٧] فَكَانَتْ هَبَاءً الْهَبَاءِ الَّذِي يَرَى مِنَ الذَّرَاتِ فِي شِعَاعِ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ الشِّعَاعُ فِي كَوْهٍ فِي غُرْفَةٍ مَظْلَمَةٍ مُتَبِّثًا مُنْتَشِرًا.

[٨] وَكُنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ أَزْوَاجًا أَصْنَافًا ثَلَاثَةً الْمَقْرِبُونَ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ، وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ.

[٩] فَصَنَّفَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ أَصْحَابُ الْيَمَنِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٠

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٩ إلى ١١]

وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١)

ما أعظم حالهم إذ هم في خير سعادة وبركة.

[١٠] وَصَنَّفَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ أَصْحَابُ الشُّؤْمِ وَهُمْ أَهْلُ النَّارِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَعْظَمَ حَالَهُمْ فِي الْعَذَابِ، مِثْلَ فَعَشِيَهُمْ مِنَ النَّارِ مَا غَشِيَهُمْ (١١).

[١١] وَصَنَّفَ السَّابِقُونَ وَلا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِ التَّهْوِيلِ فِي حَالِهِمْ، كَالصَّنْفَيْنِ السَّابِقِينَ فَإِنَّهُمْ مَعْرُوفُونَ بِأَنَّهُمْ السَّابِقُونَ يَسْبِقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

[١٢] أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، مِمَّا لَمْ يَلْحَقْهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ.

لا يقال إن صفاء جوهر الأنبياء والأوصياء سبب إطاعتهم، فأية فضيلة لهم ولو كان غيرهم خلق صافي الجوهر لكان كذلك؟ لأنه يقال بالإضافة إلى أن خلق عدم صافي الجوهر يوجب نقصا في الخلق، وبخلافه عن الفيض، وكلاهما تمتنع على الله، أنهم إنما صافي جوهرهم لأنهم أجابوا بالطاعة في عالم الدر، بما لم يجب غيرهم بمثلهم فلو فرض تساويهم مع غيرهم، لكنهم أجابوا بالطاعة، فصافي جوهرهم، فكان ذلك جزاء العمل لا اعتباطا، ولذا

ورد في دعاء الندبة «بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها فشرطوا ذلك وعلمت منهم الوفاء، فقبلتهم

(١) طه: ٧٩. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١١

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١٢ إلى ١٧]

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧)

وقربتهم»

«١» و البحث طويل مكانه كتب الفلسفة الإسلامية.

[١٣] و المقربون في جنات النعيم التي ملأت نعمه وفيرة بحيث لا مكان للشرف فيها.

[١٤] ثلثة أى جماعة كثيرة من الأولين الأمم السابقة من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأن

الأنبياء و الأوصياء كانوا فى هذه الفترة.

[١٥] وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ كَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَ مِنْ إِلَيْهِمْ وَ هُمْ أَقَلُّ عِدْدًا مِنَ السَّابِقِينَ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

[١٦] وَ هُمْ عَلَى سُورٍ جَمَعَ سُرِيرٌ مَوْضُوعَةٌ أَى مَنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ وَ اللَّوْزِ.

[١٧] مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا فِى حَالِهِ رَاحَةٌ وَ اسْتِرْحَاءٌ مُتَقَابِلِينَ بَعْضُهُمْ مَقَابِلَ بَعْضٍ لِلتَّحَدُّثِ وَ مَزِيدِ السَّرُورِ.

[١٨] يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الطَّوَافُ الذَّهَابِ وَ المَجِىءِ، وَ لَذَا يُقَالُ طَافَ بِالْبَيْتِ، وَ لَا يَلْزَمُ الدَّوْرَ وَ لَذَا يُقَالُ طَافَ بِالصَّفَا وَ المَرُوءِ وَ لَذَا أَوْلَادٌ

كَالْخَدَمِ، فَالْحُورِ خَادِمَاتٍ، وَ الْوَلْدَانَ خَدَمٌ مُخَلَّدُونَ بِاقْوَانِ دَائِمًا عَلَى هَيْئَتِهِمْ لَا يَهْرَمُونَ وَ لَا يَمُوتُونَ.

(١) مفاتيح الجنان: ث ٦٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٢

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ١٨ الى ٢٥]

بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَ لَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَ فَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَ لَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَ حُورٍ عِينٍ (٢٢)

كَأَمْثَالِ اللَّوْزِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيماً (٢٥)

[١٩] بِأَكْوَابٍ جَمَعَ كُوبٍ إِنَاءٍ لَا- عَرُوءٌ لَهُ وَ لَا- خَرْطُومٌ وَ أَبَارِيقٌ جَمَعَ إِبْرِيقٍ مَا لَهُ عَرُوءٌ وَ إِبْرِيقٌ وَ كَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ المَاءِ المَعِينِ وَ هُوَ الزَّلَالُ العَذْبُ الطَّعْمِ، وَ لَعْلُ المَرَادِ بِهِ الخَمْرُ بِقَرِينَةِ الآيَةِ الآتِيَةِ.

[٢٠] لَا- يُصَيِّدُونَ عَنْهَا لَا- يَأْخُذُهُمُ الصَّدَاعُ، وَ هُوَ وَجَعُ الرَأْسِ كَمَا أَنَّ مِنْ يَشْرَبُ الخَمْرَ فِى الدُّنْيَا يَأْخُذُهُ الصَّدَاعُ وَ لَا- يُنْزِفُونَ لَا يَسْكُرُونَ، لِأَنَّ مِنْ سَكَّرَ فَقَدْ «نَزَفَ» أَى سَالَ عَقْلَهُ وَ خَرَجَ مِنْ رَأْسِهِ.

[٢١] وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْوَلْدَانُ بِ فَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ يَخْتَارُونَ.

[٢٢] وَ بَ لَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَرِيدُونَ.

[٢٣] وَ حُورٍ عِينٍ عَطْفٌ عَلَى «وَلْدَانٍ» أَى يَطُوفُ عَلَيْهِمْ حُورٌ عِينٌ، وَ كَانَ ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ تَهْيِئَةِ الفَرَّاشِ لَهُمْ فِى كُلِّ وَقْتٍ.

[٢٤] وَ هُنَّ كَأَمْثَالِ اللَّوْزِ الْمَكْنُونِ فِى الصَّفَاءِ وَ النُّضَارَةِ فَإِنَّ اللَّوْزَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَ لَمْ يَحْفَظْ قَلْبُ صَفَاؤُهُ.

[٢٥] يُعْطَى أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلِّ ذَلِكَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَعْمَالَهُمُ الَّتِى عَمَلُوهَا فِى الدُّنْيَا.

[٢٦] لَا- يَسْمَعُونَ فِيهَا فِى الْجَنَّةِ لَغْوًا أَى كَلَامًا لَغْوًا وَ لَا- تَأْتِيماً نَسَبُهُ إِلَى الإِثْمِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ الْأَوْلِيَاءَ كَانُوا فِى الدُّنْيَا

يَسْمَعُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٣

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٢٦ الى ٣٢]

إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَنضُودٍ (٢٩) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠)

وَ مَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢)

اللُّغُو مِنْ أَقْوَامِهِمْ وَ يَنْسَبُونَ لَهُمْ إِلَى الإِثْمِ يُقَالُ لَهُمْ، إِنَّهُمْ آثِمُونَ لِتَرْكِهِمْ أَدْيَانَ قَوْمِهِمْ وَ اتِّخَاذِهِمْ دِينًا جَدِيدًا، لَكِنْ فِى الْجَنَّةِ لَا شَيْءَ مِنْ هَذِينَ فَقَدْ ذَهَبَ الْأَتْعَابُ وَ صَارُوا فِى رَاحَةٍ وَ رِفَاهٍ.

[٢٧] إِلَّا اسْتِنَاءً مَنْقُوعًا قِيلاً قَوْلًا سَلَامًا سَلَامًا هَذَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَ يَسْلَمُ، وَ ذَاكَ يَدْخُلُ وَيَسْلَمُ، وَ هَكَذَا.

[٢٨] وَ الصَّنْفُ الثَّانِي أَصْحَابُ الْيَمِينِ الَّذِينَ هُمْ دُونَ المَقْرِبِينَ مَرْتَبَةً، وَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ لَا يَتَكَلَّمُ حَوْلَهُمْ مِنْ

السَّعَادَةِ وَ الرِّفَاهِ الَّذِينَ هُمْ فِيهِمَا.

[٢٩] هم يعيشون في جنان نضرة في سدرِ النبق مَخْضُودٍ قد خضد شوكة فلا شوكة فيه.

[٣٠] وَ طَلْحِ شَجَرِ الْمَوْزِ مَنْضُودٍ قد نضد و رتب ثمره بعضه فوق بعض.

[٣١] وَ ظِلِّ لَا شَمْسٍ فِيهَا تُؤْذِيهِمْ مَمْدُودٍ لَا يَزُولُ كَمَا يَزُولُ ظِلُّ الدُّنْيَا وَ تَنْسَخُهُ الشَّمْسُ.

[٣٢] وَ مَاءٍ مَسْكُوبٍ دَائِمِ السَّكْبِ، لَا يَنْقَطِعُ حَتَّى يَحْتَاجُونَ إِلَى عَنَاءِ تَحْصِيلِهِ.

[٣٣] وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَافِرَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٤

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٣٣ الى ٤٠]

لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَ فُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (٣٩) وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)

[٣٤] لا- مَقْطُوعَةٍ كما في فواكه الدنيا حيث تكون في فصل دون فصل وَ لَا مَمْنُوعَةٍ لا يمنع عن أخذها أحد، فهي مباحة لكل أهل الجنة.

[٣٥] وَ فُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ نساء مرفوعات في الأخلاق و الجمال كما يقال فلان إنسان رفيع، و عبر عن النساء الحوريات بالفراش لافتراض الأزواج لهن.

[٣٦] إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً بدون ولادة، كما في نساء الدنيا.

[٣٧] فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا دائمات البكارة ليتلذذ الأزواج بهن أكثر، و كذلك هن يتلذذن أكثر، لأنه لا وجع لهن، و لا صعوبة لأزواجهن في افتضاضهن.

[٣٨] غُرُبًا جمع عروب بمعنى المحبة للزوج أتراباً جمع ترب بمعنى المتساويات مع أزواجهن في السن، لا الصغيرة التي يرى الزوج منها عنتا و لا الكبيرة التي يكرهها زوجها لكبر سنها.

[٣٩] كل ذلك النعيم لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة و هم المؤمنون من الأمم.

[٤٠] ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى جماعة كثيرة من الأمم السابقة.

[٤١] وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ من أمه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٥

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٤١ الى ٤٧]

وَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (٤٢) وَ ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لا- بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥)

وَ كَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْحَنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)

[٤٢] وَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ و هم الصنف الثالث من البشر و الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ما أَصْحَابُ الشَّمَالِ فهم في أهوال كثيرة، حتى لا يمكن أن يتصور أحوالهم.

[٤٣] فِي سَمُومٍ نيران تنفذ إلى مسام الجلد وَ حَمِيمٍ ماء متناه في الحرارة.

[٤٤] وَ ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ دخان أسود فهم في النار ذات دخان لا يرون مكانا.

[٤٥] لا بَارِدٍ كسائر الظلال وَ لَا كَرِيمٍ و لا نافع كما في دخان الدنيا إذ قد يمنع الدخان حر الشمس و نحوها.

[٤٦] و لماذا يذوقون هذا العذاب المؤلم؟ ل إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي دَارِ الدُّنْيَا مُتْرَفِينَ يعيشون في الترف و هو الانهماك في الملذات و الشهوات.

[٤٧] وَكَانُوا يُصَيِّرُونَ عَلَى الْحِنثِ لِعَهْدِ اللَّهِ أَى نَقْضِهِ الْعَظِيمِ وَهُوَ الشَّرْكَ، لِأَنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ كُلِّ الْبَشَرِ بِأَن يُؤْمِنُوا بِهِ، ثُمَّ هُوَ لَاءَ حَنَثُوا عَهْدَ اللَّهِ.

[٤٨] وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى إِنْكَارِهِمُ الْمَبْدَأَ وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٦

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٤٨ الى ٥٤]

أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكذَّبُونَ (٥١) لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢)

فَمَا لَوْ أَنَّ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤)

الإِنكَارِ مِثْنًا وَكُنَّا تَرَابًا لِحَوْمِنَا وَعِظَامًا ظَهَرَتْ عِظَامُنَا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ فَأَنكَرُوا الْمَعَادَ أَيْضًا.

[٤٩] أَوْ وَهَلْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ صَارُوا تَرَابًا يَبْعَثُونَ؟ «فَالهَمْزَةُ» لِلِاسْتِفْهَامِ وَ«الْوَاوُ» لِلْعَطْفِ عَلَى ضَمِيرِ «مَبْعُوثُونَ».

[٥٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ نِعْمَ يَبْعَثُ الْجَمِيعَ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ كُلَّهُمْ أَجْمَعٌ.

[٥١] لَمَجْمُوعُونَ تَحْتَ التَّرَابِ إِلَى مِيقَاتِ وَقْتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَبْعَثُ كُلَّهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً.

[٥٢] ثُمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ عَنْ طَرِيقِ الثَّوَابِ الْمُكذَّبُونَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِالْمَعَادِ.

[٥٣] لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ وَهُوَ شَيْءٌ فِي غَايَةِ الْمَرَارَةِ.

[٥٤] فَمَا لَوْ أَنَّ تَمَلُّونَ مِنْهَا مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَةِ الْمَرَّةَ الْبُطُونَ فَإِنَّهُمْ لَشَدِيدُ جُوعِهِمْ يَأْكُلُونَ مِنْهَا إِلَى حُدِّ الْإِمْتِلَاءِ.

[٥٥] ثُمَّ يَعْطِشُونَ أَشَدَّ الْعَطَشِ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ عَلَى الزُّقُومِ مِنَ الْمَاءِ الْحَمِيمِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ فِي الْحَرَارَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٧

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٥٥ الى ٦٠]

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَمْ قَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَمْ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩)

نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)

[٥٦] فَشَارِبُونَ تَكَرَّرَ الْفَاءُ لِبَيَانِ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ وَيَشْرَبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ مِثْلَ شُرْبِ الْإِبِلِ الْعَطْشَانَ الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْعَطَشِ فَإِنَّ الْإِبِلَ الَّذِي بِهِ «الْهَيْمُ» وَهُوَ دَاءُ الْإِسْتِسْقَاءِ، يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الشَّيْءِ الْكَثِيرِ جَدًّا، وَهَيْمٌ جَمْعُ أَهِيمٍ وَهَيْمَاءٌ.

[٥٧] هَذَا نُزُلُهُمْ لَنْزَلِ مَا يَعْدُ لِلضَّيْفِ يَوْمَ الدِّينِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

[٥٨] وَهَذَا جِزَاءُ تَكْذِيبِكُمْ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ فَلَمَّا ذَا لَمْ تُصَدِّقُوا بِمَنْ خَلَقَكُمْ، وَلَا بِرَسُولِهِ، وَلَا بِمَا أَخْبَرَ مِنْ بَعْثِهِ؟.

[٥٩] وَكَيْفَ تَكْذِبُونَ بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ مَا حَوْلَكُمْ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ؟

أَمْ قَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ مَا تَقْدِفُونَهُ فِي الْأَرْحَامِ مِنَ النُّطْفِ.

[٦٠] أَمْ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ تَجْعَلُونَهُ بَشَرًا سِوَا أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ وَإِذَا اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّكُمْ لَا تَخْلُقُونَهُ فَلَمْ تَكْذِبُوا بِخَالِقِهِ؟.

[٦١] ثُمَّ الْمَوْتُ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مِنْكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ سَبَبُ الْمَوْتِ أَوْ اللَّهُ؟

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ الْمَقْدِرُ لِلْمَوْتِ فَلَمَّا ذَا تَكْفُرُونَ بِهِ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَمُوتُ حَسْبَ تَقْدِيرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ بِمَغْلُوبِينَ تَشْبِيهِهَ بِأَن يَسْبِقَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فَلَا يَقْدِرُ الْمَسْبُوقُ لِلْحَاقِّ بِالسَّابِقِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٨

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٦١ الى ٦٥]

عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَمْ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)

[٦٢] عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالَكُمْ بِأَنْ نَذِيبَكُمْ بِكُمْ وَ نَأْتِي بِكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ - مِنْ مِثْلِكُمْ - مَكَانِكُمْ وَ نُنشِئُكُمْ نَخْلِقُكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا فِي مَا أَيْ فِي صُورَةٍ لَا تَعْلَمُونَ لَا تَعْلَمُونَهَا كَأَنْ نَجْعَلَكُمْ قَرْدَةً أَوْ خَنَازِيرَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

[٦٣] وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ كَيْفَ أَنْشَأْنَاكُمْ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ فَلَمَّا ذَا لَا تَتَذَكَّرُونَ أَنْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ الْإِنشَاءِ أَوْلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الْإِنشَاءِ ثَانِيًا؟

فكيف تنكرون البعث؟.

[٦٤] ثُمَّ لَيْسَ خَلْقُكُمْ أَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ فَقَطْ بَلْ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ تَبْذِرُونَ حَبَّةً لِأَجْلِ الزَّرْعَةِ وَ الثَّمَرِ.

[٦٥] أَمْ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ تَبْتُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ وَ لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ هُوَ الزَّارِعُ لِلنَّبَاتِ كَمَا أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ الزَّارِعَ لَهُ هُوَ الطَّبِيعَةُ، فَهَلِ الطَّبِيعَةُ الْجَاهِلَةُ الْعَاجِزَةُ تَقْدِرُ عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا الشَّيْءِ، وَ إِذَا صَدَّقَ الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الزَّارِعُ الَّذِي يَجْعَلُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ نَبَاتًا حَيًّا، سَهْلٌ عِنْدَهُ أَنْ يَصَدَّقَ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعَادَةِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ.

[٦٦] لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا هَشِيمًا مَتَحَطَّمًا عَوْضَ أَنْ نَنْمِيَ النَّبَاتَ حَتَّىٰ نَجْعَلَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ثَمَرَةٍ فَإِذَا فَعَلْنَاهُ هَشِيمًا لَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣١٩

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٦٦ إلى ٧٢]

إِنَّا لَمُعْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَمْ فَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)

أَمْ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَمْ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)

تَتَكَلَّمُونَ فِي مَجَالِسِكُمْ، مِنْ جِهَةِ التَّعْجِبِ وَ النَّدَمِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِ الزَّرْعِ، وَ الْمُرَادُ أَنْكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ بِجَعْلِهِ النَّبَاتَ هَشِيمًا إِلَّا التَّكَلَّمَ فَقَطْ.

[٦٧] إِنَّا لَمُعْرَمُونَ مَلْزَمُونَ بِغَرَامِهِ مَا أَنْفَقْنَا.

[٦٨] بَلْ تَقُولُونَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ غَرَامِهِ مَا أَنْفَقْنَا نَحْنُ قَوْمٌ مَحْرُومُونَ حَرَمْنَا مِنْ رِزْقِنَا.

[٦٩] أَمْ فَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ هُوَ مَاءٌ عَذْبٌ صَالِحٌ لِلشَّرْبِ.

[٧٠] أَمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ مِنَ السَّحَابِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ بِقُدْرَتِنَا؟

وَ هَلِ هُنَاكَ أَحَدٌ يَقُولُ أَنَا أَنْزَلْتُ الْمَاءَ؟.

[٧١] لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا مَالِحًا يَمِجُّ الطَّبَعُ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَمْثَالَ هَذِهِ النِّعْمِ الَّتِي هِيَ ضَرُورِيَّةٌ لِحَيَاتِكُمْ، وَ لَوْ إِنَّا مَا أَعْطَيْنَاهَا لَكُمْ، لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عِلَاجٌ فِي تَحْصِيلِهَا، إِلَّا التَّفَكُّرُ وَ التَّحَسُّرُ.

[٧٢] أَمْ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ تَخْرُجُونَهَا مِنَ الخَشْبِ وَ نَحْوِهِ.

[٧٣] أَمْ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا خَلَقْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ وَ هَلِ هُنَاكَ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ أَنْشَأَ شَجَرَتَهَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٠

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧٣ إلى ٧٦]

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَ مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)

[٧٤] نَحْنُ جَعَلْنَاهَا النَّارَ تَذَكُّرًا تَذَكَّرُكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَ بِنَارِ الْآخِرَةِ، حَتَّىٰ تَشْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَ تَخَافُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ

القيامه و متاعاً منفعه يتمتع بها الإنسان في طبخه و تدفئته و قضاء سائر حوائجه المحتاجه إلى النار للمُقْوِينَ يقال أقوى منذ أيام أى لم أكل طعاماً فالمقوين هم الذين يحتاجون إلى الطعام، و لعله من حمل الضد على الضد، حيث إن خالى البطن لا يقوى فحمل على من «يقوى» بأكله الطعام.

[٧٥] و إذ عرفت كثرة نعم الله عليك فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ نزهه عما لا يليق به، و الباء فى «باسم» مثل اللام فى «سبح لله» لتقوية العَظِيمِ صفة الرب.

[٧٦] و حيث فرغ عن إثبات الألوهية جاء دور إثبات الرسالة، و ذلك بسبب بيان أن القرآن من عند الله سبحانه فلا أقسم هذا صيغته تشير إلى الحلف، ليكون للكلام قوة الحلف، مع عدم الحلف احتراماً للمحلف به، ف «لا» نافية بمواقع النجوم إذ القوة الهائلة التى تحفظ النجوم الكبار، و التى بعضها ستون مليون مرة أكبر من الشمس، الشمس التى هى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة، إن تلك القوة من العظمة مما ينبغى أن يحلف بها.

[٧٧] وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ لَعَلَمْتُمْ أنه عَظِيمٌ بل خارج عظمته من

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢١

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٧٧ الى ٨١]

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فى كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١)

طوق فهم البشر و إدراكهم.

[٧٨] إِنَّهُ الشىء المنزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ له كرامه الوحي و هو يكفى لإصلاح المعاش و المعاد.

[٧٩] فى كِتَابٍ مَكْنُونٍ مكتوب فى لوح محفوظ عند الله أنزله الله على رسوله لهداية البشر إلى يوم القيامة.

[٨٠] لا- يَمَسُّهُ لا- يمس ذلك الكتاب المكنون إلا الْمُطَهَّرُونَ من الملائكة فإذا كان شأنه هناك فى العالم الأعلى مثل هذا الشأن، فاللازم تقديره حق قدره فى هذا العالم، و هذا حسب ظاهر الآية، و ما ورد فى تفسيرها بطون أو تأويل أو ما أشبه «١»، و لا منافاة بين الجميع، كما ذكرناه فى كتاب «حول القرآن الحكيم» «٢».

[٨١] و هو تَنْزِيلٌ أى منزل، فهو من قبيل «زيد عدل» مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أنزله لصالح الكون إلى الأبد.

[٨٢] أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ الشىء الحادث الذى هو القرآن أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ متهاونون؟ كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه تهاونا، و أصله استعمال الدهن للين الجسم.

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٢٥٥.

(٢) موسوعة الفقه: ج ٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٢

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٨٢ الى ٨٦]

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا- إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦)

[٨٣] وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أى سبب رزقكم، أطلق عليها الرزق بعلاقة السبب و المسبب أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ تكذيبكم لهذا القرآن الموصوف بالصفات السابقة، لأنهم كانوا يرون أن استمرار رزقهم إنما هو بالتجافى عن القرآن و التكذيب له، كما يقال «جعل فلان رزقه الزنى» أى جعله ممر رزقه.

[٨٤] نعم سترون جزاء تكذيبكم عند ما يأتيكم الموت ولا علاج لكم في دفعه فلو لا فهلا إذا بلغت النفس الحلقوم لأن النفس تخرج من الرجل إلى الحلقوم، ثم إلى الرأس، و ذكر الحلقوم من جهة شعور الإنسان بالموت مع بقاء مشاعره في الرأس مدركا لهول الموت.

[٨٥] وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْحَاضِرُونَ حَوْلَ الْمُحْتَضِرِ حِينَ وَصَلَتْ رُوحُهُ إِلَى الْحَلْقُومِ تَنْظُرُونَ وَهُوَ وَأَنْتُمْ فِي غَايَةِ إِعْدَمِ مَوْتِهِ، وَرُجُوعِهِ إِلَى الْحَيَاةِ.

[٨٦] وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ لِأَنَّ عَلْمَنَا وَقُدْرَتَنَا نَافِذَتَانِ إِلَى أَعْمَاقِهِ، وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ كَذَلِكَ وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ أَنْتُمْ قَرِيبًا.

[٨٧] فَلَوْ لَا تَكَرَّرَ، لِأَجْلِ ارْتِبَاطِ الْجَوَابِ بِ «لَوْ لَا إِذَا بَلَغَتْ...» إِنَّ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ غَيْرَ مَرِيْبِينَ مِنْ دَانَ السُّلْطَانَ الرَّعِيَّةِ إِذَا سَاسَهُمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٣

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٨٧ إلى ٩٢]

تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ

(٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)

[٨٨] تَرْجِعُونَهَا تَرْجِعُونَ النَّفْسَ إِلَى كُلِّ الْجَسَدِ، كَمَا كَانَ سَابِقًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي إِنْكَارِكُمْ لِلَّهِ وَقُدْرَتِهِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَهُ - كَمَا زَعَمْتُمْ - وَلَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْكُونِ بِيَدِهِ، فَلَمَّا ذَا لَ - تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ عَلَى إِنْجَازِ أَحَبِّ شَيْءٍ إِلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِرْجَاعِ الرُّوحِ إِلَى مَيْتِكُمْ الْعَزِيزِ، أَلَيْسَ كُلُّ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى وَجُودِ إِلَهٍ قَدِيرٍ بِيَدِهِ كُلِّ شَيْءٍ.

[٨٩] ثُمَّ يَبِينُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَصِيرَ هَذَا الْمُحْتَضِرِ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مِنْ «الْأَزْوَاجِ الثَّلَاثَةِ» الْمَذْكُورِينَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

[٩٠] فَرَوْحٌ فَلَهُ رَاحَةٌ وَرِيحَانٌ الرَّيْحَانُ الْمَشْمُومُ كُنَايَةٌ عَنْ حُضُورِ مَشْتَهَاتِهِ الطَّيِّبَةِ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ جَنَّةٌ ذَاتُ نَعْمَةٍ.

[٩١] وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُوَ الْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَكِنَّمَا دُونَ الْمُقَرَّبِينَ.

[٩٢] فَسَلَامٌ لَكَ يَا صَاحِبَ الْيَمِينِ، سَلَامَةٌ لَكَ فِي آخِرَتِكَ وَأَنْتَ تَكُونُ مِنْ جَمَلَةِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ كَمَا يُقَالُ «السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهِيدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فَإِنَّ «مِنْ» بَيَانٌ ل «كَافٍ» الْخَطَابِ.

[٩٣] وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمُحْتَضِرُ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمَعَادِ الضَّالِّينَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ، «هُمْ أَصْحَابُ الشَّمَالِ» فَهُوَ ضَالٌّ فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٤

[سورة الواقعة (٥٦): الآيات ٩٣ إلى ٩٦]

فَنَزَّلُ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصَلِيَةً جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)

نفسه مكذب للحق.

[٩٤] فَنَزَّلُ هُوَ مَا يَعْدُ لِلضَّيْفِ مِنْ حَمِيمٍ مِنْ مَاءٍ حَارٍّ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ.

[٩٥] وَتَصَلِيَةٌ يُقَالُ صَلَاةٌ إِذَا أَوْصَلَهُ جَحِيمٌ هِيَ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ.

[٩٦] إِنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ جِزَاءِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الْحَقُّ الْمَطَابِقُ لِلْوَاقِعِ، الَّذِي هُوَ يَقِينِي أَيْ مِنْ شَأْنِهِ ذَلِكَ وَإِنْ أَنْكَرَهُ كَثِيرٌ، مِثْلُ «لَا رَيْبَ فِيهِ» أَيْ لَيْسَ هُوَ مَحَلُّ الرَيْبِ وَإِنْ ارْتَابَ فِيهِ الْكَثِيرُ، وَهَذَا أَحَدُ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يَنْقَسِمُ الْيَقِينُ إِلَيْهَا.

فالأول: علم اليقين، كما إذا علمت بأن النار حارة.

والثاني: حق اليقين، كما إذا رأيت النار.

والثالث: عين اليقين، كما إذا أدخلت يدك في النار وذقت حرارتها.

[٩٧] وإذا علمت بما تقدم فَيَسَّخِرُ يا رسول الله بِاسْمِ رَبِّكَ نزهه عما لا يليق به العَظِيمِ صفةُ الرب، وقد تقدم بعض الكلام فيه في آية شبيهة بها، فباعتبار أن التسييح للذات يأتي بلا حرف جر، و باعتبار أن التسييح ملصق بالاسم يتعدى بالباء، و باعتبار أن التسييح لله يتعدى باللام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٥

٥٧ سورة الحديد مدنية / آياتها (٣٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على كلمة «الحديد» و هي كسائر السور المدنية مشتملة على قضايا الشريعة. و لما ختمت سورة الواقعة بتسييح الله ابتدأت هذه السور بذلك أيضا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبدأ باسم الله فإنه المبدأ حقيقة، و نبدأ باسمه لطابق الكلام الواقع و هو الرحمن بالكل يخلقهم من العدم إلى الوجود برحمته، و رحيم بالكل يعطى كل مخلوق حسب ما يستحق مما ينميهِ و يكمله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٦

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

[٢] سَبَّحَ لِلَّهِ نزهه عما لا يليق به، و قد تقدم في آخر الواقعة، و جه تعدى التسييح باللام ما في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قد سبق و جه جمع السماوات و أفراد الأرض، و تسييح كل شيء إما بلسانه، و إن كنا لا نفهم ألسنة غير الإنسان من المخلوقات، و إما بدلالته على علم الله و قدرته و صفاته و غير ذلك، إذ حتى الشعرة الواحدة دليل على الذات و على كل الصفات العقلية الثابتة عقلا له سبحانه و هو تعالى العَزِيزُ له العزة و الرفعة و عزة ما سواه إنما تكون به تعالى الْحَكِيمُ يضع الأشياء موضعها، و لحكمته خلق الكون، و لعزته سبح له كل ما في الكون.

[٣] لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بل هو وحده المالك الحقيقي، أما سواه فملكه استعارة و مجاز يُحْيِي التراب إلى النبات و الحيوان و الإنسان، كما يحيى الإنسان و الحيوان بعد موتهما و يُمِيتُ الثلاثة بعد حياتها في دار الدنيا، كما يميت الحيوانات على الأكثر في الآخرة، حتى أن الكافر إذا رأى ذلك قال: يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً «١» وَهُوَ سبحانه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ بشرط أن يكون لذلك الشيء أهلية تعليق القدرة، كما بحث حول ذلك في كتب الفلسفة الإسلامية.

[٤] هُوَ الْأَوَّلُ قبل كل شيء و الْآخِرُ بعد كل شيء، و لا منافاة لعدم انتهاء الجنة و النار إذ يصدق البعدية بالنسبة إلى الحال الحاضرة، فإن الكل يهلك إلى وجهه و الظاهر بآثاره لدى كل ذى عقل و الْبَاطِنُ

(١) النبأ: ٤١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٧

[سورة الحديد (٥٧): آية ٤]

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)

الخفي بحقيقته لا يعلم حقيقته إلا هو تعالى وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم كل شيء، كما أنه يقدر على كل شيء - كما تقدم في الآية

السابقة-.

[٥] هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ الْيَوْمَ قَطَعَهُ مِنَ الزَّمَانِ وَ لَعَلَّ الْمَرَادَ سِتَّةَ مِلياراتٍ مِنَ السَّنَوَاتِ فَقَدْ ثَبَتَ فِي بَعْضِ تَحْقِيقَاتِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ خَلْقَهُمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوْلَى عَلَى عَرْشِ الْإِرَادَةِ إِذْ قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ مِنْ بَابِ السَّالِبَةِ بَانْتِفَاءِ الْمَوْضُوعِ، فَالاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ كِنَايَةٌ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي الْكُونِ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

رَأَيْتَ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مَبَارِكًا شَدِيدًا بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلَهُ هَذَا «الاسْتِوَاءُ» مِنْ نَاحِيَةِ الْقُدْرَةِ أَمَا مِنْ نَاحِيَةِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ يَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ كَالْبَذْرِ وَالْمَيْتِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا كَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ الَّذِي يَخْلُقُ تَحْتَ الْأَرْضِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كَالْمَطَرِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا كَالدُّخَانِ وَالْأَبْخَرَةِ وَهُوَ مَعَكُمْ عِلْمًا وَقُدْرَةً إِذْ عَلِمَهُ نَافِذًا فِينَا وَقُدْرَتَهُ مَحِيطَةً بِنَا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فِي نُورٍ أَمْ ظِلَامٍ فِي عِرَاءٍ أَوْ بِنَاءٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يَرَاكُمْ، وَ الْبَصَرُ غَيْرُ الْعِلْمِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فَإِنْ عَلِمْنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٨

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٥ الى ٧]

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)

بالشئى و لا نراه، غير أن نعلم به و نراه، أما كيفية رؤية الله فهي مجهولة مثل كيفية علمه و سائر الأمور المرتبطة بذاته تعالى.

[٦] لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعَادَ ذَكَرَهُ لِأَنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ كَانَتْ كَالِاسْتِدْلَالِ لِذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا ذَكَرَهُ سَبَّحَانَهُ أَوَّلًا، حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ اسْتِدْلَالٌ- فِي هَذِهِ السُّورَةِ- وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا فَإِنْ قُدْرَتُهُ سَبَّحَانَهُ صَارَ وَإِلَّا لَمْ يَصِرْ كَمَا أَنَّ الْمَوْضُوعِينَ إِذَا أَرَادُوا شَيْئًا أَرْجَعُوا إِلَى الرَّئِيسِ إِنْ قَبْلَهُ صَارَ وَإِلَّا لَمْ يَصِرْ، وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنِ الْإِرَادَةِ النَّهَائِيَّةِ لَهُ تَعَالَى.

[٧] يُوَلِّجُ يَدْخُلُ اللَّهُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ أَى يَأْخُذُ اللَّيْلَ مَكَانَ النَّهَارِ، إِذَا طَالَ اللَّيْلُ، أَو الْمَرَادُ أَنَّ عَمُودًا مِنَ الظَّلَامِ يَدْخُلُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ ثُمَّ يَنْتَشِرُ الظَّلَامُ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ الْأَفْقَ، فَإِنْ مِنْ يَلْحَظُ الْكُرَّةَ الْأَرْضِيَّةَ وَالشَّمْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ظِلَّ الْأَرْضِ كَالْعَامُودِ الَّذِي يَخْتَرِقُ نُورَ الشَّمْسِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ فِيهِ الْإِحْتِمَالَانِ السَّابِقَانِ، وَ لَذَا يَرَى نُورَ النَّهَارِ أَوَّلَ الْفَجْرِ كَالخَيْطِ فِي طَرَفِ الْمَشْرِقِ، ثُمَّ يَتَوَسَّعُ حَتَّى يَشْمَلَ النُّورَ الْأَفْقَ وَهُوَ سَبَّحَانَهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «الذات» الْحَقِيقَةُ، وَ كَأَنَّهُ كِنَايَةٌ عَمَّا فِي الصُّدُورِ، لَا بَدَّ وَ أَنْ يَكُونَ مَحِيطًا بِهِ عَالِمًا بِمَا فِيهِ.

[٨] آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَيُّهَا الْكُفَّارُ، أَوْ عَمَّقُوا إِيمَانَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ اسْتَخْلَفَكُمْ وَ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ لِمَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٢٩

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٨ الى ٩]

وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٩)

قَبْلَكُمْ فِيهِ فِي ذَلِكَ الْمَالِ، إِذْ كَانَ الْمَالُ لغيرنا ثم صار لنا و هكذا جيلًا بعد جيل كل جيل خليفته سابقه، كِنَايَةٌ عَنِ الْمَالِ لَيْسَ لَكُمْ، وَ إِنَّمَا كَانَ لغيركم ثم يكون من بعدكم لغيركم أيضًا فَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ فِي الدُّنْيَا بِالرَّفَاهِ وَ السَّعَادَةِ وَ فِي الْآخِرَةِ بِجَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ.

[٩] وَ مَا لَكُمْ أَى شَيْءٌ لَكُمْ إِذْنٌ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَهَلْ لَكُمْ فَائِدَةٌ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِكُمْ وَ الْحَالُ إِنْ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ يَقِيمُ لَكُمْ الْحُجُجَ وَ الْآيَاتِ وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَكُمْ عَهْدَكُمْ الْغَلِيظَ فِي عَالَمِ الذَّرِّ، وَ أَوْدَعَ فِيكُمْ الْفِطْرَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ إِذْ يَجِدُ كُلُّ إِنْسَانٍ فِي نَفْسِهِ قَبُولَ الْحَقِّ وَ لَيْسَ هَذَا إِلَّا أَنْ شَيْئًا مَوْدَعٌ فِيهِ يَلْجِئُهُ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِاطْنًا سِوَاءِ اعْتِرَافِ ظَاهِرًا أَمْ لَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ لِشَيْءٍ مَا، فَإِنَّ تَنْبِيهِ الرَّسُولِ وَ دَلَالَةَ الْعَقُولِ مِنْ أَقْوَى مَوْجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَ هَذَا مِثْلُ مَا يَقَالُ «إِنْ كُنْتَ تَفْهَمُ فَافْهَمْ أَنْ الشَّيْءُ الْفَلَائِي يَنْفَعُكَ».

[١٠] وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وَالجَهْلِ إِلَى النُّورِ نور الإيمان والعلم، فإن الكفر والجهل يسببان عدم رؤية الإنسان للحقائق، كما أن الظلام يسبب عدم رؤية الإنسان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٠

[سورة الحديد (٥٧): آية ١٠]

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أنْفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)

للأشياء وَإِنَّ اللَّهَ الْوَاقِعُ لِلْحَالِ، أَوْ الْعَطْفُ بِكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ لَرُؤْفٍ الرَّافِعُ يُقَالُ لِلْعَطْفِ قَبْلَ ظَهْرِهِ أَوْ دَقَّةُ الرَّحْمَةِ رَحِيمٌ عَطْفٌ يَظْهَرُ أَثَرُهُ أَوْ مُطْلَقُ الرَّحْمَةِ.

[١١] وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ مِنْ عَدَمِ إِنْفَاقِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي طَرِيقِهِ الْمُؤَدِيَّةِ إِلَى رِضْوَانِهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا لَمْ تُنْفِقُوا يَبْقَى الْمَالُ وَتَمُوتُونَ، وَلَمْ تَسْتَفِيدُوا مِنْهُ فِي تَحْصِيلِ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ يَمُوتُونَ وَتَبْقَى أَمْوَالُهُمْ وَمَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ وَقَاتَلَ قَبْلَ الْفَتْحِ، حَيْثُ الْإِسْلَامُ غَرِيبٌ وَبِحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى الْمُقَاتِلِينَ وَإِلَى الْمَالِ، وَمَنْ أنْفَقَ وَقَاتَلَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ حَيْثُ أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَذَهَبَ الْخَوْفُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَثُرَتِ الْغَنَائِمُ، وَحُذِفَ هَذَا الشَّقُّ لَوْضُوحِهِ أُولَئِكَ الْمُنْفِقُونَ الْمُقَاتِلُونَ قَبْلَ الْفَتْحِ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أنْفَقُوا مِن بَعْدُ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا بَعْدَ الْفَتْحِ وَكُلًّا مِنَ الْمُنْفِقِ وَالْمُقَاتِلِ قَبْلًا، وَبَعْدًا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ أَيُّ الْمَثُوبَةِ الْحَسَنَىٰ وَهَذَا الْكَلَامُ لَمَّا يَزْعَمُ تَسَاوِيَهُمَا لَا لِيَبَانَ تَبَرِيرُ الْمُنْفِقِ قَبْلًا، إِذِ الْمُنْفِقُ لَهُ زَرٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣١

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١١ إلى ١٢]

مِنَ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)

فِيجَازِيكُمْ حَسَبَ أَعْمَالِكُمْ.

[١٢] ثُمَّ إِنَّ الَّذِي يُعْطَى مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ قَرْضٌ يَسْتَرْجِعُ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي دُنْيَاهِ وَآخِرَتِهِ، أَمَا الْآخِرَةُ فَالْمَثُوبَةُ، وَأَمَا الدُّنْيَا فَلَأَنَّ الْإِنْفَاقَ يُوجِبُ تَقَدُّمَ الْجَمَاعَةِ، وَالْإِجْتِمَاعَ الْمَتَقَدِّمَ يَرْتَفِعُ أَفْرَادُهُ أَكْثَرَ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ مَالُهُمْ أَكْثَرَ، وَلِذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَيُرَبِّي الصَّدَقَاتِ «١» مَنْ ذَا الشَّخْصِ الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا مُقَابِلَ الْقَرْضِ السَّيِّئِ الَّذِي لَا إِخْلَاصَ لَهُ أَوْ كَانَ لِأَجْلِ تَحْصِيلِ الرِّبَا بِالزِّيَادَةِ فَيُضَاعِفُهُ اللَّهُ لَهُ لِأَنَّ اللَّهَ يُجْعَلُ كُلَّ حَسَنَةٍ أَضْعَافًا ثُمَّ يَرُدُّهَا عَلَى صَاحِبِهَا وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ فَإِنَّ الْأَجْرَ لِأَصْلِ الْقَرْضِ «بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا يُضَافُ إِلَيْهِ مِنَ الزِّيَادَةِ» كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ يَرْجِعُ إِلَى صَاحِبِهِ مَعَ الْإِكْرَامِ لَهُ.

[١٣] وَتِلْكَ الْمَضَاعِفَةُ وَالْأَجْرُ إِنَّمَا هُوَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ مِثْلًا نُورِهِمْ عَمُودًا لَهُ أَمْتِدَادٌ مِثْلُهَا، فَإِذَا تَحَرَّكَوا تَحَرَّكَ النُّورُ، فَكَأَنَّهُ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ فَإِنَّ لَهُمْ نُورًا مِنْ هَذَيْنِ الْجَانِبَيْنِ، وَلَعَلَّ مَا كَانَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ لِلْمُقَرَّبِينَ، وَمَا كَانَ بِأَيْمَانِهِمْ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ، لِيَكُونَ عَلَامَةً لِمَنْزِلَتِهِمْ، أَوْ لِأَنَّ صِحَافَهُمْ تُعْطَى مِنْ طَرَفِ الْيَمِينِ مِنَ الْأَمَامِ، وَيُقَالُ لَهُمْ بُشْرَاكُمُ بَشَارَةٌ لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ

(١) البقرة: ٢٧٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٢

[سورة الحديد (٥٧): آية ١٣]

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)

تحت أشجارها، في حال كونهم خالدين فيها أبدا ذلك هو الفوز النجاح العظيم الذي ليس مثله فوز.

[١٤] و ذلك في يومٍ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا وهم يعيشون في ظلام شديد انظرونا انظروا إلينا حيث يتوجه عمود نوركم إلى جانبنا ل نقتبس من نوركم حتى نرى طريقنا و نعرف إلى أوضاع بدننا، لأن الإنسان في الظلام لا يرى طريقه، و لا يتعرف على أوضاع جسده، و إنما ذكرت الآية المنافقين، و لم تذكر الكفار، لأن الكفار في مكان آخر، و إنما يحشر جميع من كان ظاهره الإيمان في مكان واحد، ثم يميزون قيل لهم في جوابهم ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوا فحصى لهموا هناك نوراً كناية عن أن النور إنما يحصل في الدنيا لا في الآخرة.

فضرب بينهم بين المؤمنين و المنافقين بسورٍ بحائط يكون فاصلاً بينهما له بابٌ لمرور الملائكة أو لأجل أن يميز المؤمن من المنافق، حيث كانا قبلاً مختلطين فمن كان في طرف المؤمنين من المنافقين أخرج من الباب إلى المنافقين، و بالعكس باطنه حيث المؤمنون فيه الرحمة و سمي باطنا لأنه المكان الأحسن المحفوظ كباطن حائط الدار و ظاهره طرف المنافقين من قبله من جهته العذاب

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٣

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٤ الى ١٥]

يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمْ الْآمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٥)

[١٥] و حين ذاك يُنادونهم ينادى المنافقون المؤمنين أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ في دار الدنيا نعمل الأعمال الصالحة معا فكيف صرتم أنتم في رحمة و نحن في العذاب؟ قالوا المؤمنون بلى كنتم معنا في الظاهر و لكنكم فتنتم أنفسكم أي حرفتم أنفسكم عن الحق بسبب نفاقكم و عصيانكم و ترَبَّصْتُمْ في إطاعة أوامر الله، فلم تسارعوا إليها كما سارع المؤمنون فإن من عادة المنافق أن لا يدخل في جهاد و لا خير، و إنما يقول: دعنا نرى ماذا تكون العاقبة و ارتبتم شككتكم في الدين و غرَّتكم خدعتكم الأمانى جمع أمنيّة، مثل «أغانى جمع أغنية» فإن المنافق لا يجاهد رجاء أن لا يصادف بأذى، و لا ينفق رجاء أن يزيد تجارته، و لا يحضر الخير رجاء أن يقدم عمله الدنيوى و هكذا حتّى جاء أمر الله تقدم دينه و لم يكن لكم نصيب في ذلك و غرَّكم بالله خدعكم بالاستهانة بأمر الله الغرور الشيطان الذى هو كثير الخدعة.

[١٦] فَالْيَوْمَ في يوم الحساب لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ فداء في مقابل أن تخلصوا من نار جهنم و لا من الذين كفروا إذ في الآخرة لا ينفع إلا الإيمان و العمل الصالح مَأْوَاكُمُ النَّارُ محللكم الذى تأوون إليه نار جهنم هى مَوْلَاكُمْ أولى بكم و بئسَ الْمَصِيرُ إنه مصير سىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٤

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ١٧]

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ مَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)

[١٧] و إذا عرف الفرق بين المؤمن حقيقته و المؤمن صورة «المنافق واقعا» ف أَلَمْ يَأْنِ أَلَمْ يصل الآن أى الوقت للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله فتكون قلوبهم مصدقة لما لفظوا بألسنتهم من الشهاداتين و ل ما نزل من الحق فيقبلوا قلبا كلما جاء به الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، ثم إذا آمنتم أيها المنافقون قلبا، و أنتم أيها المؤمنون ظاهرا و باطنا، اعلموا إن من شرط الإيمان المنجى البقاء على الإيمان و عدم الانحراف و لا يكونوا أولئك المؤمنون كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ كتاب موسى عليه السلام و غيره من الأنبياء

فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ الزَّمَنُ فَفَسَّتْ قُلُوبُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهَا شَفَافِيَةٌ وَ لِيْنَ قُلُوبِ الْمَعَاصِرِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ، فِي عَصْرِ الرِّسَالَةِ، حَيْثُ كَانُوا يَخْضَعُونَ لِأَوْامِرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، لِمَا لَهُمْ مِنْ لِيْنٍ وَ طَهَارَةٍ وَ شَفَافِيَةٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَقْوَوْا خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ، فَالْبَاقِي مِنْهُمْ قَسَى قَلْبَهُ، وَ غَيْرِ الْبَاقِي خَرَجَ عَنِ الطَّرِيقِ.

[١٨] لَكِنَّ اللَّهَ لَا- يَتْرِكُ دِينَهُ بَيْنَ ذَاكَ وَ هَذَا بَلْ إِنَّهُ كَمَا يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ الْيَابِسِ يَحْيِي الدِّينَ بَعْدَ الْإِنْدِرَاسِ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِسَبَبِ الْمَطَرِ، وَ كَيْفِيَّةَ تَحْدِيدِ اللَّهِ لِلْأَمَمِ، أَنَّ الْأُمَّةَ السَّابِقَةَ تَأْخُذُهَا النُّخُوعُ وَ الْغُرُورُ فَلَا تَعْمَلُ صَاحِحًا بَلْ تَأْخُذُ فِي عَمَلِ الْبَاطِلِ، وَ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ صَفَتْ أَذْهَانَهَا عَنِ الرُّوَاسِبِ وَ الْأَنْبِيَاتِ تَأْخُذُ فِي الْعَمَلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٥

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٨ الى ١٩]

إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ وَ أَفْرَضُوا اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)

وَ لَذَا تَأْخُذُ مَكَانَ الْأُمَّةِ السَّابِقَةَ، وَ قَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامَ الشُّرَى فِي الْحُكْمِ وَ كَوْنَ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ الْمَجْتَهِدِ الْعَادِلِ الْمَخَالِفِ لِهَوَاهِ الْمَطْبِعِ لِأَمْرِ مَوْلَاهُ ضَامِنًا لِبَقَاءِ الْإِسْلَامِ غَضْنَا طَرِيقًا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ عَلَى صِحَّةِ مَا نَقُولُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فَتَفْهَمُونَ مَا نَقُولُ وَ تَعْمَلُونَ بِمُوجِبِهِ.

[١٩] وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ قَبْلًا فِي إِعْطَاءِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ رَجَعَ الْكَلَامُ إِلَيْهِ فَقَالَ سَبْحَانَهُ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ أَصْلَهُ «تَصَدَّقْ» أَى أَعْطَى الصَّدَقَةَ وَ الَّذِينَ أَفْرَضُوا اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا وَ إِنَّمَا سَمِيَتِ الصَّدَقَةُ صَدَقَةً، لِأَنَّهَا تَصْدِيقٌ لِلَّهِ فِي مَا يَقُولُ فَالْمَعْنَى إِنْ الَّذِي صَدَقَ اللَّهُ فِي إِعْطَاءِ الْمَالِ، وَ قَدْ جَعَلَهُ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ عِنْدَ رَدِّ مَا أَعْطَوْا وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّكْرَارِ.

[٢٠] نَعَمْ إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ مَجْرَدَ إِعْطَاءِ الصَّدَقَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ كَامِلَ الْإِيمَانِ وَ لَذَا قَالَ سَبْحَانَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ فَشَرَطَ الْقَبُولَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَ الرُّسُولِ وَ إِعْطَاءَ الصَّدَقَةَ قَرْضًا حَسَنًا بِإِخْلَاصٍ وَ بَدُونَ رَبًّا أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ كَثْرَةُ تَصْدِيقِهِمْ لِأَنَّهُمْ صَدَقُوا بِاللَّهِ وَ بِكُلِّ أَنْبِيَاءِهِ وَ بِمَا وَعَدَ مِنْ إِعْطَائِهِمُ الْمَالِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى غَيْرِهِمْ، فِي الْآخِرَةِ، إِذِ الْإِنْسَانُ الْعَادِلُ الْمَعْتَدِلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٦

[سورة الحديد (٥٧): آية ٢٠]

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ (٢٠)

فِي سُلُوكِهِ يَكُونُ شَاهِدًا عَلَى غَيْرِهِ لَهُمْ لِهَوْلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَصْدِقِينَ أَجْرُهُمْ أَجْرُ الصَّادِقِينَ وَ نُورُهُمْ وَ نَوْرُ الصَّادِقِينَ وَ بِالْعَكْسِ مِنْهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَ لَمْ يَعْمَلُوا صَالِحًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ لَا أَجْرَ حَسَنٍ لَهُمْ، وَ لَا نُورَ لَهُمْ، بَلْ يَعِيشُونَ فِي حَرِّ النَّارِ وَ ظِلَامِ الدِّخَانِ.

[٢١] اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ فَهِيَ صُورَةٌ لِلْآخِرَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، مِثْلُ مَلَاعِبِ الْأَطْفَالِ الَّتِي هِيَ صُورَةٌ لِلْأَشْيَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي الدُّنْيَا وَ لَهْوٌ تَلْهَى الْإِنْسَانَ عَنِ الْوَاقِعِ الَّذِي هُوَ الْآخِرَةُ وَ زِينَةٌ مَظْهَرٌ لَا وَاقِعَ لَهُ كَمَا يَتَرْتَبِئُ الْإِنْسَانُ بِبَعْضِ الْمَظَاهِرِ الَّتِي لَا تَغْيِرُ مِنَ الْوَاقِعِ شَيْئًا وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ يَفْتَخِرُ الْإِنْسَانُ عَلَى إِنْسَانٍ ثَانٍ وَ بِالْعَكْسِ وَ هِيَ حَالَةٌ بَدَائِيَّةٌ يَتَصَفَّ بِهَا الْأَطْفَالُ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ حَيْثُ كُلُّ مَا يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْآخَرِ مَالًا- وَ وُلْدًا بَيْنَمَا لَا يَفِيدُ أَيُّهُمَا لَهُ فَائِدَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، ثُمَّ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى الزَّوَالِ وَ الْفَنَاءِ كَمَثَلِ غَيْثٍ مَطَرٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ الزَّرَاعَ نَبَاتُهُ قَدْ أَعْجَبُوا بِهَا وَ فَرَحُوا بِهَا لَا دَوَامَ لَهُ وَ لَا بَقَاءَ ثُمَّ يَهِيْجُ هِيْجَانًا إِلَى الْفَسَادِ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا قَدْ ذَهَبَ رَوْنَقُهُ وَ جَمَالُهُ ثُمَّ

يَكُونُ حُطَامًا يَابَسًا مَتَكْسِرًا فَالِدُنْيَا فِي نَضَارَتِهَا الْخَلَابَةُ ثُمَّ سُرْعَةُ زَوَالِهَا مِثْلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٧

[سورة الحديد (٥٧): آية ٢١]

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)

النبات السريع الزوال هذا حال زينة الدنيا، في الدنيا وفي الآخرة عذاب شديد وفي قبال أهل الدنيا المغترين بها، الذين مثل دنياهم ما تقدم أهل الآخرة الذين لهم مغفرة من الله ورضوان غفران لذنوبهم ورضى الله لهم الذي هو أعظم شيء لأنه نعمة روحية، و النعمة الروحية أفضل من النعمة الجسدية وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور لمن أقبل إليها ولم يطلب بها الآخرة الباقية، فإنها تغر الإنسان عن منافعه الواقعية.

[٢٢] وإذا عرف الإنسان حال الدنيا و حال الآخرة فليسرع إلى تحصيل الآخرة سابقوا من المسابقة تحريض لطلب الآخرة بكل سرعة ممكنة، كما يفعل المسابق في الدنيا إلى مغفرة من ربكم أسباب الغفران و جنة عرضها كعرض السماء والأرض كسعتهما و الفضاء وسيع جدا حتى أن كل السماء والأرض في جنبه كحبة أرز في صحراء غير متناهية أعدت هيأت تلك الجنة للذين آمنوا بالله و رسله فليتشوق إليها كل عاقل ذلك إعطاء الجنة للمؤمنين فضل الله لأنه ليس بواجب عليه سبحانه إعطاء الجنة للمطيع يؤتيه من يشاء و مشيئته تابعة للصلاح الذي لا يكون إلا للمؤمن العامل بالصلوات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٨

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٢ إلى ٢٣]

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَدَى فَضْلِهِ وَسَعَةَ رَحْمَتِهِ إِلَّا هُوَ.

[٢٣] و حيث ذكر سبحانه وجوب القتال و الإنفاق و شوق المطيعين بالجنان و أنذر المخالفين بالعقاب جاء دور بيان أن ما يصيب الإنسان عامة «و التي منها ما يصيبه حال الحرب من الموت و الجرح و ما أشبهه» مثبت عند الله و لا يضيع أجره ما أصاب من مصيبة في الأرض كالجرب و أكل الجراد المزراع و لا حرف عطف في أنفسكم كالمرض و الجرح إلا مكتوبة في كتاب ثابتة في علمنا، و لعل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ من قبيل أن نبرأها برأه بمعنى خلقه إن ذلك كناية في كتاب من قبل تكونه على الله يسير لأنه سبحانه عالم بما كان و بما يكون و بما هو كائن إلى الأبد، و الإشكال بأنه إذا كان سبحانه عالما لا يمكن تخلفه، واضح الجواب: لأن العلم ليس بعلة، كما أنك إذا علمت بطلوع الشمس غدا لا تكون علة لطلوعها.

[٢٤] و قد ذكرنا ذلك لكم بأنه ثابت في الكتاب لِكَيْلَا تَأْسَوْا لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا، و قد ذكر سبحانه تبعا لذلك «و إن لم يكن الكلام منصبا عليه» قوله و لكي لا تفرحوا بما آتاكم أعطاكم من نعيم، فإن من علم أن كل شيء يصيبه من خير و شر مقدر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٣٩

[سورة الحديد (٥٧): آية ٢٤]

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

كائن، لا يحزن حزنا متزايدا و لا يفرح فرحا متزايدا، لأن شدة الحزن و الفرح، لمحزن و لمفرح فجائي، و العلم يرفع الفجائية ألا ترى أن من يعلم أن غدا يموت ولده لا يحزن مثل حزن من لا يعلم بذلك بل يفاجأ به، إلى غير ذلك ثم المراد «عدم الحزن المخرج

للإنسان إلى الجزع» و«عدم الفرح المخرج للإنسان إلى البطر» وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ مِنْ اخْتَالٍ بِمَعْنَى تَكْبُرِ فَخُورٍ كَثِيرِ الْفَخْرِ، فَإِنْ مِنْ فَرَحٍ فَرِحًا مَتَزَايِدًا بِالنَّعْمَةِ، وَ لَمْ يَخْفِ عَوَاقِبَهَا أَخَذَ فِي الْكِبَرِ وَالِافْتِخَارِ عَلَى النَّاسِ.

[٢٥] و من هو المختال الفخور؟ هم الَّذِينَ يَبْخُلُونَ عَنِ الْإِنْفَاقِ فَإِنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ الْفَرَحَ الْمَطْغَى مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ الْمَالَ جَاءَهُ بِكَتَابَةِ مِنَ اللَّهِ، وَ إِنَّهُ زَائِلٌ وَ لَهُ حِسَابٌ دَقِيقٌ «للتلازم بين العلم بالكتابة و بين التواضع و الإنفاق، كالتلازم بين عدم هذا العلم و بين التكبر و البخل».

وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ إِذِ الْبُخْلَاءُ يَرِيدُونَ بِخْلِ النَّاسِ حَتَّى لَا تَقَعَ اللَّائِمَةُ عَلَيْهِمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا يَنْفِقُ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَمْرٌ بِالْإِنْفَاقِ لِمَصْلَحَتِهِ هُوَ لَا لِأَنَّ اللَّهَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَالِ وَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ إِذْ غَنَى مَا سِوَى اللَّهِ مَجَازِي الْحَمِيدِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْفَاقِ لِيَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَحْمَدُوهُ، فَإِنَّهُ الْمَحْمُودُ بِالذَّاتِ سِوَاءَ حَمْدِهِ أَحَدٌ أَوْ لَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٠

[سورة الحديد (٥٧): آية ٢٥]

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

[٢٦] و من كونه غنيا حميدا يتبين أن إرساله الرسل و الأحكام ليس لأجل حاجته و إنما لأجل الناس أنفسهم لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ بِالْأَدْلَةِ الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ جِنْسَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَأَنْزَلْنَا الْمِيزَانَ وَ مَعْنَى إِنْزَالِهِ تَقْرِيرُهُ، وَ حَيْثُ إِنَّهُ مِنْ مَكَانٍ رَفِيعٍ مَعْنَى، صَحَّ «أَنْزَلْنَا» كَمَا يَقَالُ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ فَوْقَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الرَّئِيسِ، وَ الْمُرَادُ كُلُّ مِيزَانٍ لِلْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ، سِوَاءَ كَانَتْ مَوَازِينٍ لِلْأَخْلَاقِ أَوْ الْمَعَامَلَاتِ أَوْ الْمَعَاشِرَاتِ أَوْ الْمَوَازِينِ الْحَدِيدِيَّةِ وَ نَحْوَهَا، لِأَنَّ كُلَّ الْمَوَازِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَ الْعَمَلِيَّةِ إِنَّمَا قَرَّرَهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ أَى بِالْعَدْلِ، فَلَا يَظْلَمُ أَحَدٌ أَحَدًا، فَالْكِتَابُ لِبَيَانِ الْحُكْمِ، وَ الْمِيزَانُ لِتَطْبِيقِ ذَلِكَ الْحُكْمِ عَلَى الْمَجْتَمَعِ، وَ مَنْ يَخَالِفُ؟ فَلَهُ الْحَدِيدُ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ إِنْزَالَهُ بِاعْتِبَارِ تَقْدِيرِهِ فِي السَّمَاءِ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ بِالْقَتْلِ وَ الْقِصَاصِ وَ نَحْوَهُمَا وَ فِيهِ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْحَاجَاتِ تَكُونُ بِسَبَبِ الْحَدِيدِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ عَطْفَ عَلَيْهِ فِيهِ بَأْسٌ، أَى أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ لِلْبَأْسِ وَ الْمَنْفَعَةِ وَ الْامْتِحَانِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ يَنْصُرُ رُسُلَهُ إِذْ اسْتَعْمَالَ الْأَسْلِحَةَ الْحَدِيدِيَّةَ فِي مَجَاهِدَةِ الْكُفَّارِ نَصْرَهُ لِلَّهِ وَ لِرُسُلِهِ بِالْغَيْبِ فِي حَالِ كَوْنِ اللَّهِ، أَوْ الرَّسُولِ غَائِبًا عَنْهُمْ إِذْ النَّاسُ لَا يَرُونَ اللَّهَ، وَ كَثِيرًا لَا يَرُونَ الرَّسُولَ، وَ مَعَ ذَلِكَ يَجَاهِدُونَ، وَ مَعْنَى «لِيَعْلَمَ اللَّهُ» أَى لِتَحَقُّقِ عِلْمِهِ فِي الْخَارِجِ، لَكِنْ لَيْسَ طَلَبُ اللَّهِ لِلنَّصْرَةِ عَنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤١

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٦ إلى ٢٧]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)

احتياج ف إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَلَى إِهْلَاكِ مَنْ يَرِيدُ عَزِيزٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، وَ إِنَّمَا أَمْرٌ بِالْجِهَادِ لِيَنْتَفِعَ النَّاسُ بِالْجِهَادِ فِي دُنْيَاهُمْ وَ آخِرَتِهِمْ. [٢٧] ثم ذكر سبحانه بعض أفراد الرسل وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ فَقَدْ كَانَ بَعْضُ ذُرِّيَّتِهِمَا أَنْبِيَاءَ وَ الْكِتَابَ أَعْطَيْنَا بَعْضَهُمْ كِتَابًا جَدِيدَةً فَمِنْهُمْ مَنْ ذُرِّيَّتُهُمَا مُهْتَدٍ اهْتَدَى بِالْأَنْبِيَاءِ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَى مِنْ أَوْلَادِكَ الذَّرِيَّةِ فَاسِقُونَ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٢٨] ثم بعد نوح و إبراهيم عليهما السلام قَفَّيْنَا أَتْبَعْنَا عَلَى آثَارِهِمْ آثَارَ ذَيْنِكَ النَّبِيِّينَ وَ ذُرِّيَّتَهُمَا بِرُسُلِنَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا بَعْدَ رَسُولٍ وَ قَفَّيْنَا أَتْبَعْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولًا أَيْضًا وَ لَعَلَّ عَدَمَ ذِكْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْأَوَّلِ وَ الْوَسْطِ وَ الْآخِرِ فَنُوحٍ أَوَّلُ «نَبِيٌّ» وَ إِبْرَاهِيمَ وَ وَسْطٌ كَذَلِكَ، وَ عِيسَى آخِرُ قَبْلِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ آتَيْنَاهُ أَعْطَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فَلَمَّا ذَا يَنْكُرُ النَّصَارَى الرَّسُولَ وَ

قرآنه أليس أرسل لهم رسولا و أعطوا كتابا؟ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ اتِّبَاعًا حَقِيقًا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٢

لا- من حَزَف دينه و غير كتابه رَأْفَةً صَفَهُ داخل القلب وَ رَحْمَةً صَفَهُ داخل القلب إذا ظهرت في الخارج وَ رَهْبَانِيَّةً مشتقة من رهبة بمعنى ما يظهر من العبادة على الجوارح من آثار رهبة القلب، و رهبان جمع راهب ابتدعوها بدعة حسنة أى طبقوا أمر الله بالرهبة على كيفية خاصة فإن للإنسان أن يطبق الكلى على بعض أفراد، مثل أن يطبق قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ «الوقوف على حسب ما وقفها أهلها»

على بناء المدرسة الدينية، فهي مجعولة باعتبار جعل الله الكلى، و مبتدعة باعتبار الفرد، و لذا لا منافاة بين قوله تعالى «جعلنا» و بين قوله «ابتدعوها» ما كتبتها الرهبانية عَلَيْهِم بالصيغة الخاصة إِلَّا ائْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا ابْتَدَعُوهَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم بالصيغة الخاصة لأجل طلب رضى الله، فهي مجعولة بالكلية، مبتدعة بالصيغة الخاصة، مكتوبة بعد ذلك لأجل رضى الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا لِأَنَّ الرُّؤُوفَ الرَّحِيمَ الرَّاهِبَ يَجِبُ عَلَيْهِ التَّصَدِيقُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، وَ بِاخْتِلَافِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَ جَعَلَهُمُ الْإِلَهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ، وَ بِتَحْرِيفِهِمُ الْإِنْجِيلَ، وَ بِغَشْوَتِهِمْ عَلَى النَّاسِ، تَرَكَوْا رِعَايَةَ تِلْكَ الْأَوْصَافِ فَآتَيْنَا أُعْتَابِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَى بَقُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ، لِأَنَّ لِلْإِنْسَانَ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِيْمَانًا جَدِيدًا أَجْرَهُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِ بَقَائِهِمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٣

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) [٢٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إِيْمَانًا صَادِقًا لَا يَشُوبُهُ النِّفَاقَ، إِذَا آمَنْتُمْ بِالرَّسُولِ إِيْمَانًا صَادِقًا يُؤْتِكُمْ يَعطكم الله كِفْلَيْنِ أَى نَصِيْبَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ نَصِيْبًا لِأَجْلِ إِيْمَانِكُمْ بِاللَّهِ، وَ نَصِيْبًا لِأَجْلِ إِيْمَانِكُمْ بِرَسُولِهِ وَ الْمَرَادُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بَعِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فَيُعْطِيكُمْ اللهُ رَحْمَةً لِأَجْلِ إِيْمَانِكُمْ بَعِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ وَ رَحْمَةً لِأَجْلِ إِيْمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَحْكَمَ عَقْلَهُ وَ الْمَتَّبِعَ لِلَّهِ وَ رَسُولَهُ يَكُونُ لَهُ نُورٌ يَعْرِفُ بِهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَيَحْكُمُهُ النَّاسُ فِي أُمُورِهِمْ وَ يَسْتَشِيرُونَ مِنْهُ فِي أَعْمَالِهِمْ كَمَنْ عِنْدَهُ الْمَصْبَاحُ فِي اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ حَيْثُ يَسْتَنِيرُ النَّاسُ بِنُورِ مَصْبَاحِهِ وَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ كَثِيرُ الْغَفْرَانِ رَحِيمٌ بَعَادَهُ فَيَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَ يُعْطِيهِمُ الْجَنَّةَ مِنْ رَحْمَتِهِ.

[٣٠] يُقَالُ فِي الْعَرَفِ «إِنَّ الْمَطْلَبَ كَذَا، حَتَّى لَا يَعْلَمَ زَيْدٌ» أَى أَتْرَكَهُ حَتَّى لَا يَعْلَمَ، إِذَا كَانَ إِنْسَانًا مُعَانِدًا لَا يُرِيدُ الْعِلْمَ، وَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ هَذَا، أَى أَنَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ لَهُ كِفْلَانِ وَ نُورٌ وَ غَفْرَانٌ لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَى أَتْرَكَهُمْ حَتَّى لَا يَعْلَمُوا، وَ إِنَّمَا يَتْرَكُونَ لِأَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ، فَيَبْتَدِئُ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٤

اللَّهِ أَنْ مَخْفَفَهُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ اسْمُهُ ضَمِيرٌ مَحْذُوفٌ، أَى أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِعْطَاءِ أَوْ مَنَعِ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَنَعِ فَضْلِهِ «بِالْكَفِيلَيْنِ وَ النُّورِ وَ الْغَفْرَانِ» عَنِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَنَعِ مِثْلِ هَذَا الْفَضْلِ لِأَنْفُسِهِمْ وَ «أَنَّ لَا يَقْدِرُونَ» عَطْفٌ عَلَى «لِيَلَّا يَعْلَمَ» أَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى صَرْفِ الْأَجْرِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ وَ هَذَا تَأْكِيدٌ لِيَبَيِّنَ أَنَّهُمْ «لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» يُؤْتِيهِ يَعطى الله ذلك الفضل ل مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ اتَّبَعَ أَمْرَهُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَمْنَحَنَا مِنْ ذَلِكَ الْفَضْلِ وَ هُوَ الْمُسْتَعَانُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٥

تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء الثامن والعشرون من آية (١) سورة المجادلة إلى آية (١٣) سورة التحريم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى وعترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٧

٥٨ سورة المجادلة مدنية / آياتها (٢٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على فعل هذا الباب. وهو قوله «تجادلك» وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام إلى جنب بيان العقيدة وحيث ختمت سورة الحديد ببيان فضله سبحانه افتتحت هذه السورة بذكر مصداق من مصاديق فضله، وذلك تلبية لله لرغبة المرأة التي جاءت الرسول تجادل في زوجها، بأن جعل لها مخرجا من تلك المشكله التي وقعت فيها، ببيان حكم الظهار.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدئ باسم الإله المستحق لجميع المحامد وأنواع التعظيم، ففي الابتداء باسمه أداء لحقه في التقديم، وإتيان بمقتضى عظمته، الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم على كل شىء، وعلى كل أحد، فهو «يعطى من سأل»

و

«يعطى من لم يسأله و من لم يعرفه، تحننا منه و رحمة».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٨

[سورة المجادلة (٥٨): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)

[٢] قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْمَرْأَةِ الَّتِي تُجَادِلُكَ أَى تَرَاوُجُكَ وَتَتَكَلَّمُ مَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي أَمْرِ زَوْجِهَا وَاسْمِ الْمَرْأَةِ «خَوْلَةٌ» وَاسْمَ زَوْجِهَا «أَوْسٌ» وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ حَالِهَا وَ مَا نَزَلَ مِنَ الْمَكْرُوهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا أَى تَخَاوُجَكُمَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَ يَا أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يَسْمَعُ الْكَلَامَ بَصِيرٌ يَبْصُرُ الْأَحْوَالَ، فَأَنْتَ بِاطْلَاعِهِ سَبْحَانَهُ اسْتِمَاعًا وَ إِبْصَارًا، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ - بْتَلْخِيصٍ :-

نزلت الآيات في امرأة من الأنصار من خزرج. و اسمها «خولة» و زوجها «أوس» و ذلك أنها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة في صلاتها، فلما انصرفت أرادها، فأبت عليه، فغضب عليها، و كان امرءا فيه سرعة و لمم، فقال لها: أنت على كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، و كان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا و قد حرمت علي، فقالت:

لا تقل ذلك و أت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فاسأله؟

فقال: إني أجد أنى أستحي من أن أسأله عن هذا. قالت: فدعنى أسأله؟ فقال: سليه فأتت النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني و أنا شابة غنية ذات مال و أهل حتى إذا أكل مالي و أفنى شبابي، و تفرق أهلي و كبر سني ظاهر مني، و قد ندم فهل من شىء يجمعني و إياه فتعشني به؟ فقال: ما أراك إلا حرمت عليه - أراد صلى الله عليه و آله و سلم الحرمة الموقته التي تحل بالكفارة - فقالت: يا رسول الله و الذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا، و أنه أبو ولدى و أحب الناس إلي؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم: ما أراك إلا حرمت عليه، و لم أوامر في شأنك بشىء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٤٩

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٢]

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ (٢)

فجعلت تراجع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم، وإذا قال لها رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم حرمت عليه هتفت وقالت: اشكوا إلى الله فاقتي وحاجتي وشدة حالي، اللهم فأترزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام. وقالت: انظر في أمرى جعلني الله فداك.

فترزل على الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلم والوحى، ثم قال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: ادعى زوجك فتلا عليه رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم «قد سمع الله» إلى تمام الآيات، فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ قال: إذا يذهب مالي كله والرقبة غالية وأنى قليل المال فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله يا رسول الله إنى إذا لم أكل ثلاث مرات كل بصرى وخشيت أن تعشى عيني، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟ قال: لا- والله إلا- أن تعيننى على ذلك يا رسول الله، فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: إنى معينك بخمسة عشر صاعا وإنى داع لك بالبركة، فأعانه صَلَّى الله عليه وآله وسلم بذلك.

«١»

[٣] ثم بين سبحانه ذم «الظهار» بقوله الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ أيها المؤمنون مِنْ نِسَائِهِمْ أى يقولون لهن: «أنت كظهر أمى» فإن هذا اللفظ كان طلاقاً فى الجاهلية، ومعناه: أنه كما يحرم على ظهر الأم، كذلك تحرمين أيتها الزوجة على، وقد أقر الإسلام كون هذا اللفظ محرماً للزوجة، إذا اجتمع فيه شروط الطلاق، من كونه بمحضر العدلين وما أشبهه، إلا أنه حرم الطلاق بهذا النحو وجعل الرجوع فيه الكفارة ما هُنَّ أى لسن الزوجات، المقول فيهن هذا القول أُمَّهَاتِهِمْ فإن مجرد اللفظ لا يجعل من الزوجة أمًا إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٤٠٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ص ٣٩٩

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٣]

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣)

أى أمهات هؤلاء المظاهرين إِيَّا النساء اللَّائِي جمع التى وَلَدْنَهُمْ فلا أمومه حقيقه بين المظاهر والمظاهر منها وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ فَإِنَّ تشبيه الزوجه بالأم قول منكر، فلا شرعية لهذا القول، وكل شىء لا يكون له حقيقه ولا شرعية فهو باطل وزوراً أى كذبا، فإن المظاهر إذا جعل ظهر امرأته كظهر أمه، ولم يكن بحقيقه كان كذبا، لكن لا يئأس القائل من عفو الله وفضله فإن أبواب التوبة مفتوحة وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ كثير العفو عن العصاة غُفُورٌ لذنوبهم. وأما الفرق أن العفو هو عدم العقاب، وذلك لا يلزم الستر بحيث لا يكون ذنبه ظاهرا، كما نرى أن الحكومات قد تعفوا عن مجرم لكن جرمه مذكور ثابت فى الدفتر، أما الغفران فهو الستر للمعصية، حتى تمحى عن ديوانه سبحانه.

[٤] ثم جاء السياق لبيان حكم الظهار وما يترتب عليه وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ المظاهرة مشتقة من «الظهر» والإتيان ب «من» لأن الظهر يبتدأ من جانب المرأة ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا بأن يريدون الرجوع إلى النساء ونقض كلامهم السابق المقتضى للتحريم فاللازم عليهم لحلية الوطى ورجوع الزوجه كما كانت فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ أى يجعل عبدا مملوكا حرا بالعتق، وإنما قيل له رقبة بعلاقة الجزء والكل مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا أى يمس أحد الزوجين الآخر، وهو كناية عن الجماع، فإن الجماع لا يحل قبل التحرير

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥١

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٤]

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَّةَ يَوْمٍ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَأَطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

ذَلِكَمُ ذَا إِشَارَةٍ إِلَى التَّحْرِيرِ وَ «كَمْ» خُطَابٍ، أَيْ أَنْ وَجُوبَ التَّحْرِيرِ عَلَيْكُمْ مِمَّا تُوعِظُونَ بِهِ وَ الْوَعْظُ هُوَ التَّحْرِيرُ عَنِ عَمَلٍ يُوْجِبُ الْعِقَابَ، فَإِنْ تَرَكَ التَّحْرِيرَ وَ الْمَمَاسَةَ مُوجِبًا لِلْعِقَابِ لِأَنَّهُ عَصِيَانٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْمَمَاسَةِ بِدُونِ الْكُفَّارَةِ أَوْ بَعْدَهَا خَبِيرٌ عَالِمٌ مُطَّلِعٌ، فَلَا تَفْعَلُوا مَا يُوْجِبُ عَلَيْكُمْ عِقَابًا.

[٥] فَمَنْ ظَاهِرٌ مِنْ زَوْجَتِهِ وَ أَرَادَ الْعُودَ وَ لَمْ يَجِدْ أَيْ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ عَتَقِ رَقَبَةٍ إِمَّا لِعَدَمِ وَجُودِ الْمَالِ لِاسْتِرَائِهِ، أَوْ لِعَدَمِ وَجُودِ أَصْلِ الْعَبْدِ- كَمَا فِي زَمَانِنَا- فَكُفَّارَتُهُ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ التَّابِعِ هُوَ التَّوَالِي وَ مَجِيءُ الْوَاحِدِ بَعْقَبِ الْآخِرِ، أَيْ أَنْ يَصُومَ شَهْرَيْنِ بِلَا فِصْلِ إِفْطَارٍ يَوْمٍ بَيْنَ أَيَّامِ الشَّهْرَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا أَيْ يَجَامِعَا الرَّجُلَ وَ الْمَرْأَةَ فَمَنْ ظَاهِرٌ وَ لَمْ يَسْتَطِعْ الْعَتَقَ وَ لَا الصِّيَامَ وَ أَرَادَ الرَّجُوعَ فَعَلَيْهِ إِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا أَيْ فَقِيرًا بَأَنْ يَشْبَعُ بَطْنُهُمْ أَوْ يُعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعٍ مِنَ الْحِنْطَةِ- مِثْلًا- ذَلِكَ الْحُكْمُ بِالْكَفَّارَةِ لِلْمُظَاهِرِ الْمُرِيدِ لِلْعُودِ إِنَّمَا شَرَعَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أَيْ لِيُرسَخَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ فَإِنْ رَسُوخَ الْإِيمَانِ إِنَّمَا هُوَ بِتَتَابُعِ الْأَعْمَالِ وَ التَّكْلِيفِ، فَإِنْ التَّكْلِيفُ تَوْقُظُ الْقَلْبِ وَ تَقْوَى الْمَلَكَةِ فِيهِ، وَ حَيْثُ إِنْ الْإِيمَانَ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ شَيْءٌ تَدْرِيغِي يَحْدُثُ أَنَا بَعْدَ أَنْ، صَحَّ الْإِتْيَانُ بِالْفِعْلِ بِاعْتِبَارِ الْمُسْتَقْبَلِ، كَقَوْلِهِ «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ» وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ وَ تِلْكَ الْكُفَّارَاتُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٢

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٥ الى ٦]

إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

حُدُودُ اللَّهِ أَيْ هِيَ الْحُدُودُ لِلْإِيمَانِ الَّتِي قَرَّرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَلَا يُسْمَحُ لِلْمُؤْمِنِ الْخُرُوجَ مِنْهَا، بِالْعَصِيَانِ، كَمَا لَا يُسْمَحُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ حُدُودِ الْمَدِينَةِ نَحْوَ الْأَعْدَاءِ وَ لِلْكَافِرِينَ بِحُدُودِ اللَّهِ الْمُنْكَرِينَ لَهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ مُؤَلَّمٌ مُوجِعٌ.

[٦] إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ حَادَهُ بِمَعْنَى خَالَفَهُ وَ رَسُولَهُ بَأَنْ لَا يُمْتَثِلُونَ أَوْامِرَهُمَا كُتِبُوا أَيْ أَذَلُّوا وَ أَخْزَوْا، مِنَ الْكِبْتِ بِمَعْنَى الْإِذْلَالِ كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ الْمُشْرِكِينَ، وَ إِذْلَالُهُمْ بِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَ عَذَابُهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ أَيْ عَلَائِمَ وَ أَدْلَةً بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ ظَاهِرَاتٍ، عَلَى أَصُولِ الْعَقِيدَةِ، وَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، فَلَا عِذْرَ لِلشَّخْصِ أَنْ يَقُولَ لَمْ أَعْرِفْ وَ لَمْ أَدْرَ وَ لِلْكَافِرِينَ بِالْآيَاتِ عَذَابٌ مُهِينٌ يَهِينُهُمْ وَ يَذْلَهُمْ.

[٧] وَ الْعَذَابُ الْمُهِينُ إِنَّمَا هُوَ فِي يَوْمٍ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ أَيْ يَحْيِيهِمْ وَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا فَلَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَ لَا مَفْرَ لِأَحَدٍ مِنْ بَأْسِهِ سُبْحَانَهُ فَيُنَبِّئُهُمْ أَيْ يُخْبِرُهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا إِخْبَارًا لِأَجْلِ الْعَذَابِ، فَإِنَّ الْمَجْرِمَ يَعْدُ جَرْمَهُ أَوْلَا ثُمَّ يَعَاقَبُ لِثَلَا يَقُولُ عَذَبْتُ ظَلَمًا أَحْصَاهُ اللَّهُ أَيْ عَدَدَهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ وَ حَفِظَهُ وَ نَسُوهُ فَإِنَّ الْغَالِبَ إِنْ الْإِنْسَانَ يَنْسَى أَعْمَالَهُ الَّتِي عَمِلَ بِهَا وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٣

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٧]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَ لَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَ لَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)

أَيْ شَاهِدٌ حَاضِرٌ، فَيَعْرِفُ كُلَّ مَا يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَ يَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِتَشْيِئِهِ، لِيَجَازِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٨] أَلَمْ تَرَ أَيْ أَلَمْ تَدْرِكْ، فَإِنَّ الرُّؤْيَةَ قَدْ تَكُونُ بِالْعَيْنِ، وَ قَدْ تَكُونُ بِالْقَلْبِ، وَ الْمُخَاطَبُ هُوَ الرَّسُولُ أَوْ كُلُّ مَنْ يَتَأْتِي مِنْهُ الْعِلْمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ؟

فكيف لا يعلم أعمال الجاحدين و الكافرين؟ و الاستفهام تقريرى، و هو بمثابة الدليل لقوله «يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا» و «اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» ثم أكد عموم علمه سبحانه بأنه شامل حتى للأسرار التى يفضى بها الإنسان إلى إنسان سراً و فى إخفات ما يكون من نجوى «من» زائدة لعموم النفى، و «النجوى» هو الحديث السرى يدور بين اثنين أو أكثر فى منأى من الناس ثلاثة أى ثلاثة أشخاص إلا هو سبحانه رابعهم يسمع ما يقولون.

و لا نجوى خمسيه أشخاص إلا هو سادسهم يسمع كلامهم و لا أدنى من ذلك بأن يكون المتناجين اثنين و لا أكثر بأن يكونوا أكثر من خمسة إلا هو سبحانه معهم بالعلم و الاطلاع أين ما كانوا من بقاع الأرض، و غيرها ثم يُنَبِّئُهُمْ أى يخبرهم بما عملوا فى الدنيا يوم القيامة ليجازيهم عليه فإن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٤

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٨]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)

الثواب و العقاب بعد الإخبار تكريماً للمثاب، و إهانة للمعاقب، إنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم الأشياء كلها فلا يخفى عليه شىء.

[٩] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى

قال ابن عباس

إنها نزلت فى اليهود و المنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم و ينظرون إلى المؤمنين و يتغامزون بأعينهم فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا و قد بلغهم عن أقربائنا و إخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو مصيبة أو هزيمة، فكان ذلك يحزنهم فشكوا إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فنهى الرسول عن النجوى فلم ينتهوا عن ذلك، فأنزل سبحانه هذه الآية «١» ثُمَّ يُعْوَدُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ غير مبالين بالنهى.

و يتناجون فيما بينهم بالأيم فيكن بعضهم لبعض آثامه و العُدوان أى التعدى على الناس و التعدى عن الحق و معصية الرسول بأن كان بعضهم يوصى بعضاً بعصيان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و إذا جاؤك هؤلاء المتناجون بالباطل حَيَّوْكَ يا رسول الله بما لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ أى تحية ظاهرها مליح و باطنها قبيح،

فقد كان اليهود يقولون للرسول عوض التحية «السام عليك» و السام هو الموت، يخفون ذلك موهمين أنهم قالوا «السلام عليك» و قد كان فريق آخر يقول فى تحيته «أنعم صباحاً، و أنعم مساء» و هى تحية أهل الجاهلية،

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٤١٣. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٥

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبُرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)

فنهاهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك و قال «قد أبدلنا الله بخير من ذلك تحية أهل الجنة السلام عليكم

» و الاستفهام فى قوله «ألم تر» للإنكار، أى لماذا يفعل هؤلاء هكذا و يقولون هؤلاء اليهود و المنافقون فى أنفسهم أى بعضهم لبعض أو خلجانا فى صدورهم لولا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ أى لو كان محمد صلى الله عليه و آله و سلم نبيا حقا، فهلا ينزل الله علينا العذاب؟ أليس ذلك دليل على أنه ليس بنبي؟ و يأتى الجواب لاستفهامهم التعنتى هذا حَسْبُهُمْ أى كافيهم عقوبه جَهَنَّمُ التى يَصِلُونَهَا أى يدخلونها يوم القيامة فَبِئْسَ الْمَصِيرُ أى المرجع و المحل لسكناهم، أما عدم تعذيب الله فلأنه لا يعذب الله فى الدنيا كل عاص، و إلا ما ترك على ظهرها من دابة.

[١٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ بَعْضُكُمْ مَعَ بَعْضٍ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ أَى لَا تَفْعَلُوا كَفَعَلِ الْمُنَافِقِينَ وَ الْيَهُودِ - كما سبق - وَ تَنَاجَوْا بِاللِّبِّ أَى بِأَفْعَالِ الْخَيْرِ، كَأَن يَنَاجِي أَحَدُهُم الْآخَرَ بِأَن يَنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ التَّقْوَى كَأَن يَنَاجِيهِ فِي تَرْكِ مَعْصِيَةِ أَوْ فَعَلِ طَاعَةِ مَا يَتَّقَى بِهِ عَن عَذَابِ اللَّهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ أَى خَافُوا عِقَابَهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أَى إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ تَنْتَقِلُونَ بَعْدَ الْمَبْعَثِ وَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٦

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٠ الى ١١]

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا فَيَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

[١١] إِنَّمَا النَّجْوَى الَّذِي يَتَعَاطَاهُ الْكُفَّارُ وَ الْمُنَافِقُونَ مِنْ أَعْمَالِ الشَّيْطَانِ وَ إِحْيَاءِ تَنَاجِيهِ، وَ إِنَّمَا يُوْحَى إِلَى أَوْلِيَائِهِ بِذَلِكَ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَن يَظُنُّوا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَنْقَلِبُونَ فِيهِمْ بَيْنَهُمْ خَبراً مَحْزِناً، أَوْ يَدْبُرُونَ مَوَاطِنَهُ، أَوْ يَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ لَيْسَ نَجْوَاهُمْ بِضَارِّهِمْ أَى لَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئاً فَان النَّجْوَى لَيْسَ إِلَّا - عملاً - باطلاً - لغواً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ مَطَّلِعٌ عَلَى نَجْوَاهُمْ، فَإِنَّ اقْتَضَتْ حُكْمَهُ أَنْ لَا يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا دَبَرُوا مِنَ الْمَكْرِ، كَأَن يَضُرَّهُمْ، أَمَا إِذَا لَمْ يَرِدِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ضَرَرَ الْمُؤْمِنِينَ حَالِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَدْبُرُونَ بِالنَّجْوَى، فَالْإِذْنُ أَنْ يَتَوَجَّهَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى اللَّهِ بِالضَّرَاعَةِ لِيُدْفَعَ كَيْدُ الْكُفَّارِ وَ الْمُنَافِقِينَ عَنْهُمْ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بِأَن يَكُلُوا أَمْرَهُمْ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ نَعَمُ الْحَفِيفُ.

[١٢] وَ إِذَا فَرِغَ السِّيَاقُ مِنْ بَيَانِ أَدَبِ مَنْ آدَابِ الْمَجَالِسِ، بِذِكْرِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالنَّجْوَى، بِمُنَاسَبَةِ تَحَدُّثِ الْمَرْأَةِ مَعَ الرَّسُولِ حَوْلِ الظَّهَارِ، الَّذِي كَانَ حِوَاراً فِي الْمَجْلِسِ وَ مِمَّا يَحْدُثُ فِي الْمَجَالِسِ، جَاءَ السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ أَدَباً آخَرَ مِنْ آدَابِ الْمَجَالِسِ فَقَالَ سَبْحَانَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ وَ الْقَائِلُ أَى شَخْصٌ كَانَ تَفَسَّحُوا أَى اتَّسَعُوا فِي الْمَجَالِسِ بِأَن تَجْمَعُوا أَنْفُسَكُمْ فِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٧

الجلوس، حتى يتسع المكان لشخص آخر فافسحوا و وسعوا المكان يفسح الله لكم أي يوسع الله لكم الأمر، أو يوسع الله لكم منازلكم في الجنة، فقد ورد أن المسلمين كانوا يتنافسون على المجلس في محضر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنوا بمجلسهم عند رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يفسح بعضهم لبعض و إذا قيل لكم انشروا أي قوموا عن أماكنكم ليجلس غيركم، من «نشز» بمعنى ارتفع فانشروا أي قوموا،

قالوا و كان سبب نزول هذا أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كان يكرم أهل بدر، و ذات يوم و الناس آخذون مكانهم حول الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ورد بعض أهل بدر فلم يفسح الجالسون لهم مكان، فقال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لبعض الجالسين قوموا حتى يجلس أهل بدر، فقاموا لكن الكراهية بدت في وجوههم و استغل المنافقون ذلك فقالوا لمن أقيم: أ هكذا عدل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حيث يقيمكم ليجلس غيركم ذلك المكان؟ فنزل ذلك

«١».

يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ إِيمَانًا صَاحِحًا مِنَ الْأَعْمَاقِ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْجَنَّةِ، فَهَذَا الْإِمْتِثَالُ لِلرَّسُولِ بِالْقِيَامِ حَسَبِ أَمْرِهِ مَوْجِبٍ لِرَفْعَتِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، وَ فِيهِ تَنَاسُبٌ حَسَنٌ بَيْنَ قِيَامِهِمْ مِنَ الْمَجَالِسِ، وَ رَفْعَةِ دَرَجَتِهِمْ، وَ الدَّرَجَاتُ إِنَّمَا هِيَ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ وَ الْعِلْمِ، وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٨

[سورة المجادلة (٥٨): آية ١٢]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدْتُمَا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطَهْرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)
أى عالم مطلع فيجازيكم حسب أعمالكم.

[١٣] وبعد ذلك جاء السياق لبيان أدب آخر من آداب مجلس الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وفيه تلميح إلى أن ذلك أدب عام، فقد سبق منا أن أمثال هذه الآيات إنما أتى بها للإلماع إلى الخطوط العامة في الأحكام والآداب، وإن لم يكن لها مصاديق خارجية بعد موت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن يرتبط بتلك الآيات مباشرة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ أى أردتم الإسرار فى أذنه، فإن الفعل يأتى بمعنى الإرادة كهذه الآية، كما أن الإرادة تأتى بمعنى الفعل كقوله إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «١» وَيُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ «٢» وما أشبه ذلك فَقَدْتُمَا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ أى أمام النجوى صَدَقَةٌ فقد كان الأشراف- فى زعمهم- يأتون إلى الرسول يناجونه بالثرهات، إظهاراً لفضلهم- كما جرت عادة أمثالهم إلى هذا اليوم- يريدون إراءة الناس ان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يسمع لقولهم ويرعاهم فجاءت هذه الآية رادعة لهم، وفيه الأمر بتعظيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وإنفاق الفقراء، والنهي عن الإفراط فى السؤال، والميز بين المخلص والمنافق، ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا، فلما سمعوا بهذه الآية انتهوا، باستثناء الإمام أمير المؤمنين عليه السَّلام، فصرف ديناراً عشرة دراهم، وأخذ يعطى درهما للفقير ويناجى، ودرهما آخر ويناجى، وهكذا حتى أنفق العشرة «٣».

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) راجع بحار الأنوار: ج ٣٥ ص ٣٧٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٥٩

[سورة المجادلة (٥٨): آية ١٣]

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

ذَلِكَ أى إعطاء الصدقة قبل النجوى خَيْرٌ لَكُمْ لأن فيه تحصيل الثواب، وأداء الواجب، والدلالة على السخاء، وتعظيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأطهروا لأن الصدقة تطهر النفس من الرذيلة والشح فإن لَمْ تَجِدُوا ما تتصدقون به قبل النجوى فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ يستر عليكم ترك ذلك رَحِيمٌ بكم فلا يكلفكم التصدق بل يجوز لكم النجوى بدون الصدقة، وستره سبحانه إنما هو بعدم إيجابه التصدق، حتى يَأْتِمُ المناجى بدون التصدق، فلا يقال: لا مجال لقوله «غفور» فى المقام، إذ الغفران عن الذنب ولا ذنب فى المقام؟ و لما نزلت هذه الآية لم يتقدم أحد من النجوى إلا الإمام كما سبق، فأنزل الله سبحانه رفع الحكم بقوله:

[١٤] أَأَشْفَقْتُمْ أى هل خفتم من الفقر أيها المسلمون أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَدَقَاتٍ و كان الإتيان بالجمع باعتبار كون «النجوى» جنساً شاملاً لأفراد متعددة، فلكل فرد صدقة، وهذا استفهام توبيخى، بأنه كيف تركتم هذه الفضيلة للخوف من الفقر مع العلم أن الصدقة لم تكن محددة، فكان يكفى القليل منها فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا أى لم تتصدقوا، و تركتم النجوى بخلاف من الإنفاق وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بأن عفى تقصيركم فى هذه الفضيلة فاعملوا بسائر أحكام الإسلام فقد رفع عنكم هذا الحكم فلا مانع بعد ذلك من النجوى بدون الصدقة فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ بالإتيان بها بحدودها وَ آتُوا الزَّكَاةَ أى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٠

[سورة المجادلة (٥٨): آية ١٤]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)
أعطوها واطيعوا الله ورسوله في سائر أوامرهما والله خبير بما تعملون فأنتم بعينه و تحت اطلاعه، فلا تعملوا ما يخالف أوامره حتى تستحقوا العقاب.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى «يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول» كان لى دينار فبعته بعشرة دراهم فكلما أردت أن أناجى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدم درهما «١»، أقول: قوله «ءأشفقتم» لا ينافى عدم وجود النسخ فى القرآن، لأن الظاهر كون الأمر بتقديم الصدقة فى الآية السابقة، كان امتحاننا من قبيل رؤيا إبراهيم عليه السلام، و لإظهار فضيلة الإمام عليه السلام- كذا يقول المنكرون للنسخ.

[١٥] و بمناسبة ما تقدم من النجوى، أتى السياق لبيان احترام السر و أنه لا يجوز إظهاره للأعداء أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي إلى الذين تَوَلَّوْا بالصدقة و الوداد قَوْمًا من الكفار غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قال فى المجمع: و المراد به قوم من المنافقين كانوا يوالون اليهود و يفشون إليهم أسرار المؤمنين «٢» ما هُمْ أى ليس هؤلاء المنافقين مِنْكُمْ أيها المؤمنون و لَا مِنْهُمْ أى من الكفار، بل

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ٤١٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦١

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٥ إلى ١٧]

أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧)
مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء و إذا قيل لهم لم تنافقوا يَخْلِفُونَ لتبرئه ساحة أنفسهم على الكذب بأنا لا نساير الكفار و لا نناق و هُمْ يَعْلَمُونَ أنهم كاذبون فى قولهم و أنهم منافقون.

[١٦] أَعِدَّ اللَّهُ أى هيا الله لهم أى لهؤلاء المنافقين عَذَابًا شَدِيدًا فى الدنيا بالخزى و الفضيحة و فى الآخرة بالنار و النكال إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من النفاق و موالاة أعداء الله تعالى.

[١٧] اتَّخَذُوا هؤلاء المنافقون الذين حلفوا لكم أَيْمَانَهُمْ جمع يمين و هى الحلف جُنَّةً أى ستره و ترسا يدفعون بها عن نفوسهم التهمة و الظنة إذا ظهر منهم النفاق فَصَدُّوا أنفسهم، و الناس الضعاف الإيمان عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أى الطريق الموصل إلى مرضاته فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ يذلهم و يهينهم جزاء على نفاقهم.

[١٨] لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أى لا تفيد هؤلاء المنافقين فى دفع عذاب الله عنهم أَمْوَالُهُمْ التى جمعوها و لا أَوْلَادُهُمْ الذين خلفوهم مِنَ اللَّهِ أى من بأس الله و نكاله شَيْئًا فلا تدفعان عنهم و لو بعض العذاب أُولَئِكَ المنافقون أَصْحَابُ النَّارِ الملازمون لها، كالصاحب الذى يلازم صاحبه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٢

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٨ إلى ١٩]

يَوْمَ يَعْثُورُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا- إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إلى الأبد، و

قد روى أن الآيات نزلت في منافق كان يجالس اليهود و يأخذ عنهم نفاقاً، فلما اطلع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على أمره نهاه، فقال للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه يأخذ عنهم صفة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الموجودة في التوراة، و حلف على ذلك كذباً و تغطيةً لأمره، لكن الوحي فضحه و فشى أمره.

[١٩] هم أصحاب النار في يَوْمٍ يَنْعَثُهُمُ اللهُ أَي هؤلاء المنافقين يحييهم بعد الممات للحساب و الجزاء جميعاً بغير أن يترك منهم أحداً و هذا التأكيد لثلاثاً يحتمل أحد أنه يترك، كما هو الشأن في الدنيا إذ يترك بعض القوم - جهلاً أو نسياناً - في الدعوات العامة و ما أشبهها فَيَخْلِفُونَ لَهُ أَي اللهُ سبحانه، بأنهم كانوا مؤمنين في دار الدنيا كما يَخْلِفُونَ لَكُمْ في الحال ظانين أن الله لا يعلم أمرهم، و ينطلي عليه كذبهم بمجرد الحلف و يَحْسَبُونَ أَي يظنون أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ بَأْنِ أَيْمَانِهِمُ الكاذبة تروج هنا، كما كانت تروج في الدنيا لدى المؤمنين أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذِبُونَ في كلامهم و يمينهم فلا تروج الأيمان المكذوبة هناك، بل يعرفون بالكذب و الدجل.

[٢٠] اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ عَلَى هؤلاء المنافقين الشَّيْطَانُ أَي استولى عليهم، و الاستحواذ هو الاستيلاء، من «حاذ» بمعنى «حاز» كالذي يحوز شيئاً لنفسه و يختاره لشخصه فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ حَتَّى أَنَّهُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٣

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٢٠ الى ٢١]

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)

لا يذكرونه سبحانه حتى يخافوا منه، فينقلعوا عن النفاق و العصيان أُولَئِكَ المنافقون حِزْبُ الشَّيْطَانِ جماعته و أتباعه أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ الذين خسروا دنياهم و آخرتهم، فإن الدنيا تزول، و لهم في الآخرة النار.

[٢١] ثم انتقل السياق من المنافقين، إلى كل مخالف لله و رسوله إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ أَي يتجاوزون حدوده بالمخالفة و رَسُولَهُ فيما جاء من الأحكام أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ فلا أحد أذل منهم في الدنيا و الآخرة، و كأن الأذلون فرقة سابقة على الإسلام، فهؤلاء المحادون في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو بعده داخلون في أُولَئِكَ، و كأن هؤلاء أكثر ذللاً و هواناً من العصاة من المؤمنين، و بهذا الاعتبار عبر عنهم بالأذل، أو أنهم أذل من الكافر غير المحاد.

[٢٢] و هل يظن هؤلاء المحادون أن عملهم يثمر لهم نجاحاً، أو للإسلام هبوطاً؟ كلا! فقد كَتَبَ اللهُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ وَ قَرَّرَ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي عَلَى كُلِّ مِحَادٍ و مخالف، و قد جرب العالم صدق هذه المقالة، فالآخذون بزمام العالم حتى في هذا اليوم المظلم هم الرسل كموسى عليه السَّلام و عيسى عليه السَّلام و محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و لهم من الأتباع أكثر من نصف أهل العالم، و مناهجهم سارية - قليلاً أو كثيراً - في كل العالم إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَلَى نَصْرِ أَنْبِيَائِهِ عَزِيزٌ غَالِبٌ فِي سُلْطَانِهِ، فلا يتمكن أحد على أن يغلبه أو يغلب رسله، و

قد روى أن المسلمين لما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٤

[سورة المجادلة (٥٨): آية ٢٢]

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

رأوا ما يفتح الله عليهم من القرى قالوا: ليفتحن الله علينا الروم و فارس فقال المنافقون: أ تظنون أن فارساً و الروم كبعض القرى التي غلبتم عليها؟ فأنزل الله هذه الآية

[٢٣] ثم جاء السياق لبيان وظيفة المسلم أمام الكافر، و أنه يلزم عليه أن لا يواد الكافر مهما كان، خلافاً لأولئك المنافقين الذين كانوا يوادون الكافرين لا تجدُ يا رسول الله، أو أيها المسلم قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر إيماناً صحيحاً يوادون المواده المحابه، من باب «المفاعله» من خياد الله أي خالف الله و رسوله بترك أوامرهما و الكفر بهما، و المعنى: إنه لا تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان، فمن والاهم فليس بمؤمن، و ان أظهر الإيمان و لو كانوا أي كان الذين يحادون الله و رسوله آباءهم أو أبناء المؤمنين أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشييرتهم بأن قربت قرابتهم، فإن الكفر يقطع قرابة المؤمن بالكفار و إن بقي رجحان بعض أقسام الصلوة، إذا كان الكافر أبا أو أما أو ما أشبهه، كما قال سبحانه، و إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما و صاحبهما في الدنيا معروفاً «٢» أولئك الذين لا يوادون الكفار كتب الله أي أثبت في قلوبهم الإيمان

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٤٢١.

(٢) لقمان: ١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٥

بالألطاف الخفية بهم حيث رآهم في طريق الحق.

و أيدهم أي قواهم الله سبحانه برؤح منه أي بروح من عنده تعالى، فإن المؤمن الصامد توجد فيه روح قوية توجب التزام أحكام الله سبحانه، حتى أن أقوى أسباب الكفر لا تتمكن من زحزحته و يدخلهم الله في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها و قصورها الأنهار من عسل و خمر و لبن و ماء حال كونهم خالدين أي دائمين باقين فيها أي في تلك الجنات رضي الله عنهم حيث علم فيهم الإيمان الراسخ و العمل الصالح و رضوا عنه بما منحهم من الفضل و الإيمان في الدنيا و الجنان في الآخرة أولئك المتصفون بتلك الصفات حزب الله جماعته و أتباعه- في مقابل حزب الشيطان- ألا فليتنبه السامع إن حزب الله هم المفلحون الذين فازوا و ظفروا بخير الدنيا و سعادة الآخرة، قالوا نزلت هذه الآية في «حاطب» حيث كاتب أهل مكة يخبرهم بإقبال الرسول صلى الله عليه و آله و سلم نحوهم للفتح، بعد ما كان الرسول صلى الله عليه و آله و سلم نهى أصحابه أن يفشوا الخبر، فلما عوتب في ذلك، اعتذر بأن أهله في مكة فأراد أن يكون له يد على أهلها، حتى لو كانت الدائرة على المسلمين راعى أهل مكة يده عندهم، فلا يؤذوا زوجته و أهله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٦

٥٩ سورة الحشر مدنية / آياتها (٢٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «الحشر» و هي كسائر السور المدنية تشتمل على النظام بالإضافة إلى قضايا العقيدة و حيث ختمت سورة المجادلة بذكر حزبي الرحمن و الشيطان افتتحت هذه السورة بذكر غلبه حزب الرحمن على حزب الشيطان.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ باسم الإله نبتدئ السورة، لتكون معلمة بعلامة الإيمان و يكون تعليماً للمسلمين: بلزوم أن يبدؤوا أعمالهم باسمه سبحانه، الرحمن الرحيم الذي خلقه، بالخلق أولاً، و اللطف و التربية و العناية ثانياً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٧

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ

بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢)

[٢] سَيِّحَ لِلَّهِ أَى نَزَهه سبحانه عن النقائص، و يجوز فى سبح تعديه بلا واسطه نحو «سبحه» و تعديه مع الواسطه نحو «سبح له» باعتبار أن التسييح له لا لغيره ما فى السَّمَاوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ و المراد الظرف و المظروف، و المراد بالتسييح إما التكويني بأن كل شىء يدل على وجود الإله و سائر صفاته، دلالة الأثر على المؤثر، أو التسييح بألستها التى لا نفقهاها، كما قال: كل شىء فى الكون يشعر لكن منع الناس عن شعور المشاعر وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فى سلطانه الْحَكِيمُ يفعل الأشياء حسب الحكمة و الصلاح.

[٣] هُوَ اللَّهُ سبحانه الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كل أهل الكتاب كفار، لكن منهم من آمن بالرسول، فخرج عن الكفر، و منهم من لم يؤمن فيقال له «كفر» إما باعتبار استمراره فى الكفر من قبيل «اهدنا»، أو باعتبار أنه كان إلى قبل بعثه الرسول مؤمناً- إذ كان تكليفه هو دينه- فإذا جاء الرسول و لم يؤمن صار كافراً و المراد بهم هنا يهود «بنى النضير» مِنْ دِيَارِهِمْ بأن سلب المؤمنين عليهم و أيدهم، حتى يتمكنوا من إخراجهم لِأَوَّلِ الْحَشْرِ الْحَشْرُ هو الجمع من مكان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٨

إلى مكان آخر- و لعل المراد لأول مرة فى إخراج اليهود من المدينة بصورة جماعية- ثم بعد ذلك أخرج غيرهم، حتى لا يبقى فى جزيرة العرب اليهود إطلاقاً، فإنهم أهل مؤامرة و دسائس، فأراد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إخلاء البلاد منهم و من كيدهم، لئلا يدبروا المؤامرات على الدين الجديد.

مَا ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَسْلُومُونَ أَنْ يُخْرِجُوا أَى الْيَهُودِ بهذه السرعة لما كنتم تعلمون من شدة بطشهم و شوكتهم وَظَنُّوا أَى الْيَهُودِ أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ أَى تمنعهم من المسلمين حُصُونُهُمْ جمع حصن و هى القلعة التى يتحصن فيها الإنسان خوفاً من العدو المهاجم مِنْ بَأْسِ اللَّهِ بأنه سبحانه إذا أراد بهم شيئاً وقفت حصونهم أمام إرادته فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَى جاءهم أمر الله بالخراب لقلاعهم، و التشريد لهم مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا أَى لم يظنوا أنهم يمكن أن يؤتوا من تلك الجهة بأن ألقى الرعب فى قلوبهم و أرخى قواهم، و كسر شوكتهم و منعهم وَ قَدَفَ أَى ألقى الله سبحانه فى قلوبهم الرُّعْبَ أَى الخوف، فإنهم لما رأوا كثرة شوكة المسلمين انهارت قواهم، و أول الهزيمة هو: الرعب و خور القوى و انهيار الأعصاب يُخْرِبُونَ أَى أولئك اليهود بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ فقد كانوا يهدمون بيوتهم لئلا ينتفع بها المؤمنون وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فقد كان المؤمنون يخربون بيوتهم ليصلوا إليهم و يهزموهم فَاعْتَبِرُوا و اتعظوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٦٩

يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ أَى أصحاب العقول، بأن الله سبحانه إذا حاده جماعة كيف يهزمهم و يغلب عليهم، حتى أنهم بأنفسهم يهدمون بيوتهم التى هى أعز ما يكون لديهم، و المراد بالاعتبار النظر فى الأمور ليرى الإنسان بها أموراً آخر لها ارتباط و ثيق بها. و قد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى «بنى النضير» و تفصيل قصتهم على ما فى «قادة الإسلام» (١): قتل أحد أصحاب الرسول نفرين ممن كانا فى عهد الإسلام، و كان قتله لهما اشتباهاً، فأراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يستقرض ديتهما من بنى النضير، و هم يهود قرب المدينة، عددهم زهاء الألف، فأظهروا قبول إقراض الديء، و دعوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى داخل الحصن.

لكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أبى و اتكأ على جدار الحصن، و هناك نزل عليه جبرئيل و أخبره بأنهم عازمون على الغدر به، و تبين الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك من حركاتهم، حيث إنهم تأمروا بينهم أن يذهب أحدهم على سطح الجدار الذى كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ متكئاً عليه فيلقى على رأس الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حجراً حتى يقضى على حياته الشريفة.

قفل الرسول راجعاً إلى المدينة، قبل أن يأخذ القرض، و أرسل رسولا إلى بنى النضير إذ نقضتم ميثاقكم و أردتم الغدر، فاخرجوا من

بلادى و لقد أمهلتكم عشرة أيام، و حينذاك لم يجدوا مناصا عن الخروج إلا- أن بعض المنافقين، و عددهم النصر، و نهاهم عن الخروج، فلم يخرجوا، و أخبروا النبي صلى الله عليه و آله و سلم إنهم لن يخرجوا فليفعل

(١) للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٠

[سورة الحشر (٥٩): آية ٣]

وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣)

الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ما بدا له و عزموا على القتال، فخرج الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مع جمع من أصحابه، و رايته بيد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و حاصروا حصونهم و أخذوا يحتلون بيوتهم، فكانت اليهود تنسحب من دار إلى دار، و كلما انسحبت هدمت البناء الذى فى معرض الاحتلال و استماتوا، فأراد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم قطع آمالهم عن أراضيهم، فأمر بقطع نخيلهم. ينس اليهود عن النجدة، و أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم يطلبون منه أن يسمح لهم بالخروج جميعا، فأذن لهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، بشرط أن لا يحملوا أكثر مما تحمله إبلهم فقط، لكنهم لم يقبلوا، و بقوا مستميتين، و لما ضيق عليهم الحصار قبلوا شرط الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، لكن الرسول جزاهم عن عنادهم، فلم يسمح لهم بحمل شىء من أموالهم، و إنما أذن لهم بالخروج بدون حمل أبقالهم، فقبلوا الشرط و خرجوا و حدهم، و خلوا أموالهم كلها للإسلام، فقسم الأموال بين المهاجرين الأولين، و أعطى منها لنفرين من الأنصار، و بجلاء بنى النصير استراح المسلمون من عدو لدود لهم، كان يكيد لاجتثاث الإسلام من جذوره.

[٤] و لو لا- أن كَتَبَ اللَّهُ أى حكم الله عَلَيْهِمُ أى على بنى النصير الجلاء أى الانتقال من ديارهم، و الجلاء عن أوطانهم لَعَذَّبْتُهُمْ فى الدنيا بأن أمر الرسول بقتلهم و إهلاكهم كما أنه سبحانه فعل ذلك ببنى قريظة و لَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ لما تماردوا فى كفرهم و عصيانهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧١

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ٤ الى ٦]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينِهِ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)

[٥] ذلِكَ الإخراج لهم عن ديارهم، و إعداد النار لهم فى الآخرة بسبب أنهم شَاقُّوا اللَّهَ أى عادوه و حاربوا رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ بالمخالفة و المحاربة فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ أى فليستعد للعقاب الشديد، لأنه تعالى «أرحم الراحمين فى موضع العفو و الرحمة، و أشد المعاقبين فى موضع النكال و النقمة».

[٦] مَا قَطَعْتُمْ أى المسلمون مِنْ لِينِهِ أى نخلة كريمة من أنواع النخيل، و إنما سمى لينه للين ثمره، و تقبل سعفه للتصنيع أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا أى جذوعها بأن لم تقطعوها- فقد قطع المسلمون بعض النخيل لبنى النصير و تركوا بعضها قائمة- فَبِإِذْنِ اللَّهِ فقد تخرج المسلمون عن هذا العمل، بأنه إن لزم القطع فكان ما أبقوا غير جائز، و إن لزم الإبقاء كان ما قطعوا غير جائز، و لذا جاء البيان ليبرر موقفهم و يطمئن قلوبهم، فإن ما احتيج إلى قطعه فى الحرب و التنكيل قطع، و ما لم يحتج إلى قطعه أبقى، و لِيُخْزِيَ أى يذل الله الْفَاسِقِينَ أى أولئك اليهود بهذا القطع و الإبقاء، فما قطع أورث فيهم حسرة كيف قطع المسلمون ما غرسوه و ربوه، و ما أبقى أورث فيهم حسرة كيف أبقى حتى ينتفع المسلمون به؟

[٧] ثم يأتي السياق لبيان أحكام الغنيمه التي غنموها في إجلاء بنى النضير، بأنها خاصه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأقربائه لأن المسلمين لم يتعبوا لأجلها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٢

و ذلك بخلاف الغنيمه التي تعب المسلمون في تحصيلها، فإنها تقسم خمساً أقسام أربعة منها للمسلمين، و واحدة منها للرسول و أقربائه، و إنما خصص القسم الأول بالرسول و آله، لأنهم لما منعوا من الزكاه احتاجوا إلى سد نفقاتهم و ذلك إنما هو بالفىء و الخمس، و لأنه لا بد و أن يكون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم حصه زائده ليمكن من إدارة شؤون المسلمين المرتبطه بأموال الدوله- كما تخصص لرؤساء الحكومات- اليوم- حصه معينه من الخزينه لسد نفقاتهم المرتبطه بالشؤون العامه- و ما أفاء الله الفىء هو الغنيمه، و أصله بمعنى الرجوع، و إنما سميت الغنيمه فيثا، لبيان أنها كانت بيد الكفار غصبا، فرجعت إلى أصحابها الشرعيين و هم المؤمنون الذين خلق الله لهم كل شىء على رسوله منهم أى من بنى النضير فما أوجفتم أيها المسلمون، و «ما» نافية، و الإيجاف تسيير الخيل و الركاب من وجف يجف، بمعنى تحرك باضطراب، إذ الفتح بالقهر يلازم الاضطراب فى الحركة علية أى على ذلك الفىء من خيل هي الفرس و لا ركاب هي الإبل، أى أنكم لم تحصلوا على تلك الغنيمه بسبب الفتح بخيل أو إبل حتى يكون لكم ذلك الفىء.

وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ يَأْخِذُ الرِّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ يَفْتَحَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَدَنَهُمْ بِلَا حَرْبٍ وَ لَا تَعَبٍ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَيَتِمُّكَنْ مِنْ تَسْلِيْطِ الرَّسْلِ عَلَى الْكُفَّارِ بِلَا حَرْبٍ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٣

[سورة الحشر (٥٩): آية ٧]

ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى لله و للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل كئى لا يكون دوله بين الأغنياء منكم و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا و اتقوا الله إن الله شديد العقاب (٧)

[٨] و إذا تمهدت هذه المقدمة- و هي أن المسلمين إن لم يتعبوا على هذا الفىء- جاء السياق ليذكر حكمه، و انه ليس لهم، و إنما هو للرسول و آله ما أفاء الله أى ما أرجع الله سبحانه على رسوله من أموال أهل القرى الكافرة التي حصل الرسول عليها بدون حرب لله تعالى- تشريفا للرسول- و إلا فكل شىء له سبحانه و للرسول بتمليك الله إياه و لذى القربى أى أهل بيت رسول الله و قرابته، و المراد بهم الأئمة الطاهرون عليهم السلام.

وَ الْيَتَامَىٰ جَمْعٌ يَتِيمٌ وَ هُوَ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ وَ الْمَسَاكِينُ جَمْعٌ مَسْكِينٌ وَ هُوَ الْفَقِيرُ الَّذِى أَسْكَنَهُ الْفَقْرُ مِنَ الْحَرَكَةِ وَ ابْنُ السَّبِيلِ وَ هُوَ الْمَنْقُوعُ فِي سَفَرِهِ الَّذِى لَا يَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ، وَ لَذَا يَنْسَبُ إِلَى الطَّرِيقِ. وَ قَدْ ثَبِتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَؤُلَاءِ السَّادَةِ مِنْ آلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ الْحِكْمَةَ فِي جَعْلِ الْفَيْءِ هَكَذَا بِقَوْلِهِ: كَيْ لَا يَكُونَ الْفَيْءُ دَوْلَةً وَ هِيَ اسْمٌ لِلشَّيْءِ الَّذِى يَتَدَاوَلُهُ الْقَوْمُ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَكُونُ لِهَذَا مَرَّةً وَ لِهَذَا مَرَّةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ حَتَّى لَا يَعْمَلَ فِي الْفَيْءِ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَدْ كَانَ إِذَا وَقَعَ غَزْوٌ أَخَذَ الرَّؤَسَاءُ الْأَمْوَالَ، وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّؤَسَاءَ يَتَدَاوَلُونَ الْمَالَ بَيْنَهُمْ بِالضِّيَافَةِ وَ الزَّوْجِ لِأَبْنَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَنَاتِ بَعْضٍ، وَ اسْتِقْبَالَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَ هَكَذَا مِمَّا يَجِبُ نَقْلُ الْمَالَ مِنْ هَذَا الرَّئِيسِ إِلَى ذَاكَ الرَّئِيسِ فَيَقْبَلُ الْفُقَرَاءُ مَحْرُومُونَ، وَ هَذِهِ الْعَلَّةُ أَيْ قَوْلُهُ «لَكِي» مَعَ الْعَلَّةِ السَّابِقَةِ وَ هِيَ «فَمَا أَوْجَفْتُمْ» يَتَمَّان

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٤

[سورة الحشر (٥٩): آية ٨]

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يُنصِرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

المطلوب، إذ لا- يخلو أمر الفىء بين أن يكون للرؤساء، كالجاهلية، أو للمسلمين كالغنائم، أو للرسول و آله، و إذ قد نفى الأول لأنه يوجب احتكار المال بين الأغنياء، و الثانى لأن المسلمين لم يتعبوا فى تحصيله حتى يستحقوا شيئاً، لم يبق إلّا الثالث. ثم لما كان هذا الحكم شاقاً عليهم نزل قوله: وَ مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ أَىْ أَعْطَاكُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ فَخُذُوهُ أَىْ تَمَسَّكُوا بِهِ وَ اعْمَلُوا بِفَحْوَاهِ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ وَ بَيْنَ لَكُمْ حَرَمَتُهُ فَانْتَهُوا عَنْهُ وَ لَا تَرْتَكِبُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ أَىْ خَافُوا عِقَابَهُ فَلَا تَخَالَفُوهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ تَرَكَ أَمْرَهُ وَ خَالَفَهُ.

قال فى المجمع- ناقلا- إن الآية نزلت فى رؤساء المسلمين قالوا له: يا رسول الله خذ صفيك و الربع و دعنا و الباقي فهكذا كنا نفعل فى الجاهلية و أنشدوه لك المربع منها و الصفايا و حكمك و النسيطة و الفضول فنزلت الآية فقالت الصحابة سمعا و طاعة لأمر الله و أمر رسوله
(١).

[٩] ثم بين سبحانه وصف الطوائف الأربع من آل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الذين خصص بهم الفىء- الذى لم يوجف عليه بخيل و لا ركاب- و ليس ما يأتى من الوصف إلا كحكمة للتشريع حال نزول الآيات لا إنها أوصاف مشروطة دائما.

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٤٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٥

[سورة الحشر (٥٩): آية ٩]

وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)

للفقراء بدل لقوله «لِذِي الْقُرْبَى...» أو «وَالْيَتَامَى...» و هذا هو الأوفق بما ثبت من أن الإمام الذى يأخذ الفىء لا يشترط فيه الفقر- إلا أن يكون حكمه حال النزول، كما ذكرنا- فلا تخصيص المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ أُخْرِجَهُمُ الْكُفَّارَ ظُلْمًا وَ عَدْوَانًا وَ أَمْوَالِهِمْ إِذْ خَلَفُوا أَمْوَالَهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ يَتَّبِعُونَ أَىْ يَطْلُبُونَ هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ بِأَنْ يَتَّضِلَّ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ عَوْضَ مَا خَلَفُوهُ وَرَاءَهُمْ مِنَ الدِّيَارِ وَ الْأَمْوَالِ وَ رِضْوَانًا بِأَنْ يَرْضَى عَنْهُمْ وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ أَىْ يَنْصُرُونَ دِينَهُ سَبْحَانَهُ وَ رَسُولَهُ بِالْجِهَادِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ أُولَئِكَ الْمُتَصِفُونَ بتلك الصفات هُمُ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيْمَانِهِمْ حَيْثُ أُتُوا بِمَقْتَضِيَاتِ الْإِيْمَانِ.

[١٠] و إذ جرى مدح المهاجرين، جاء السياق ليمدح الأنصار، بقوله وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ يَعْنِي الْمَدِينَةَ، و هى دار الهجرة، و معنى «تبوؤا» اتخذوها منزلا، و مبيءا، من «باء» بمعنى رجع و يسمى المنزل مبيءا لأن الإنسان كلما خرج رجع إليه وَ الْإِيْمَانَ أَىْ تَبَوَّأُوا الْإِيْمَانَ، فهو كالمَنْزِلِ الذى يتخذهُ الإنسان محل استراحة و رجوع، فكلما نزل به أمر رجع إلى الإيْمَانِ يستلهمه العلاج و الخلاص، أو أن التقدير «آثروا الإيْمَانَ» مِنْ قَبْلِهِمْ أَىْ قَبْلَ هِجْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ آمَنُوا قَبْلَ هِجْرَةِ الْمُهَاجِرِينَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٦

[سورة الحشر (٥٩): آية ١٠]

وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ وَ سَائِرِ الْقُرَى الْكُافِرَةَ- وَ هَذَا هُوَ خَبَرُ «الَّذِينَ»- وَ الْمَعْنَى كَمَا أَنَّ لِلْمُهَاجِرِينَ الْمَدْحَ بِمَا تَقَدَّمَ، لِلْأَنْصَارِ الْمَدْحَ بِأَنَّهُمْ يَحِبُّونَ الْمُهَاجِرِينَ وَ لَا يَجِدُونَ أَىْ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارِ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا أَىْ لَا يَحْسُدُونَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ جِهَةِ مَا

آتاهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَنَائِمِ بَنِي النَّضِيرِ، وَ يُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَى يَقْدَمُونَ الْمُهَاجِرِينَ فِي الْإِسْكَانِ وَ الْإِحْسَانِ، عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ أَى بِهِؤْلَاءِ الْأَنْصَارِ خَصَاصَةً أَى اِحْتِيَاجَ وَ فَقْرَ، فَإِنَّهُمْ يَرْجِحُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى حَاجَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَ مِثْلَ هَذَا الْإِنْسَانَ أَعْظَمَ ثَوَابًا مِمَّنْ يَنْفِقُ وَ هُوَ غَنَى.

وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ أَى مَنْ يَحْفَظُ بِلُطْفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، مِنْ بَخْلِ النَّفْسِ، بَأَنْ لَا تَغْلِبَهُ نَفْسُهُ فَتَبْخُلَ فَأَوْلِيكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ أَى الْفَائِزُونَ بِالدرجات الرفيعة.

[١١] وَ إِذْ فَرَّغَ السِّيَاقَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ، جَاءَ لِيَمْدَحَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ بَأَنْ أَسْلَمُوا مِنْ بَعْدِ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ، قَوْلُهُمْ هَذَا- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى رِسْوَخِ الْإِيمَانِ فِيهِمْ- رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ اغْفِرْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٧

[سورة الحشر (٥٩): آية ١١]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَ إِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)

لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ غَيْرِهِمْ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا أَى حَقْدًا وَ غِشًّا وَ عِدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ مَضَى مِنْهُمْ أَوْ مِنْ عَاصِرِنَا هُمْ وَ إِنَّمَا قَالَ «لَا تَجْعَلْ» لِيَبَيِّنَ أَنَّ اللَّطْفَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَلْطَفْ بِإِنْسَانٍ كَانَ مَعْرُضًا لِلْغُلِّ، وَ الْمَعْنَى لَا- تَرَكْنَا عَلَى أَحْوَالِنَا، حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَيْنَا الشَّيْطَانُ وَ النَّفْسُ، فَتَكُونَ أَنْفُسُنَا مَعْرُضًا لِلْغُلِّ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ بَعْبَادِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ، وَ هَذَا تَعْلِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا اتِّجَاهَ مِنْ سَبَقِهِمْ، وَ تَجَاهَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَعَاصِرِينَ لَهُمْ.

[١٢] وَ إِذَا سَبَقَ مَدْحَ الْمُؤْمِنِينَ وَ بَيَانَ صِفَاتِهِمْ، جَاءَ السِّيَاقَ لِيُظْهِرَ طَرَفًا مِنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ: أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي، وَ الْاسْتِفْهَامَ لِلتَّعْجِبِ وَ الْاسْتِنْكَارِ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا بَأَنْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَ أَبْطَنُوا الْكُفْرَ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ فِي الْكُفْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَى كَفَرُوا بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَ الْمَرَادُ بِهِمْ يَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ أَى أُخْرِجَكُمُ الرَّسُولُ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ بِلَادِكُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ مُوَافِقَةً لَكُمْ، فَلَا نَبْقَى فِي بِلَادِنَا، وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَى فِي أَمْرِ قِتَالِكُمْ أَحَدًا يَعْنُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَبَدًا فَإِذَا أَمَرْنَا بِقِتَالِكُمْ لَا نَقَاتِلُكُمْ وَ إِن قُوتِلْتُمْ بَأَنْ قَاتِلَكُمُ الرَّسُولُ وَ الْمُسْلِمُونَ لَنَنْصُرَنَّكُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٨

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١٢ الى ١٣]

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣)

أَى نَكُونُ فِي جِهَتِكُمْ ضِدَّ الرَّسُولِ وَ الْمُسْلِمِينَ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ أَى هؤْلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ، فَلَا يَخْرُجُونَ مَعَ بَنِي النَّضِيرِ وَ لَا يَقَاتِلُونَ مَعَهُمْ فَقَدْ قَالُوا: إِنْ عَبَدَ اللَّهُ بَنِي أَبِي كَانَ يَحْرُسُ الْيَهُودَ عَلَى الْاسْتِمَانَةِ وَ قِتَالَ الرَّسُولِ وَ يَمْنِيهِمْ بِهَذِهِ الْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ، وَ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ كَذِبَ حِينَ أَتَى وَقْتُ الْعَمَلِ.

[١٣] لَئِنْ أُخْرِجُوا أَى أُخْرِجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَنِي النَّضِيرِ لَا يَخْرُجُونَ أَى هؤْلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مَعَهُمْ تَشَارِكًا مَعَهُمْ فِي الْفِرَارِ وَ التَّخْلِصِ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا أَى قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَنْصُرُونَهُمْ كَمَا زَعَمُوا وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ عَلَى فِرَاضِ مُسْتَحِيلٍ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ أَى يَنْهَضُونَ عَنِ مَقَابِلَةِ الرَّسُولِ وَ الْمُسْلِمِينَ وَ يَسْلَمُونَ بَنِي النَّضِيرِ طَعْمَةً سَائِغَةً لِحِرَابِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ الْيَهُودَ لَا يُنصَرُونَ عَلَى فِرَاضِ أَنَّهُمْ بِقَوَا مَعَهُمْ وَ لَمْ يُولُوا الْأَدْبَارَ، لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَذَلُّ مِنْ أَنْ يَتِمَّكَونَا مِنَ الْمَقَاوِمَةِ أَمَامَ الرَّسُولِ وَ كِتَابِ الْمُسْلِمِينَ الْمَجَاهِدَةِ.

[١٤] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقَ لِيَبَيِّنَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ خَائِفُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَشَدَّ الْخَوْفِ فَكَيْفَ يَتِمَّكَونَا مِنْ نَصْرَةِ الْيَهُودِ فِي قِبَالِ الْمُسْلِمِينَ؟ لَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَشَدُّ رَهْبَةً أَى خَوْفًا فِي صُدُورِهِمْ أَى صُدُورِ هؤْلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، أَوْ الْيَهُودِ، وَ إِنَّمَا قَالَ «فِي صُدُورِهِمْ» لِأَنَّ الصُّدُورَ مَكَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٧٩

[سورة الحشر (٥٩): آية ١٤]

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)

القلب و القلب مبعث النفس التي تحمل الخوف و الاطمئنان من الله فهم لا يخافون من الله قدر ما يخافون منكم، لأنهم يرونكم و لا يرون الله سبحانه، و لم يتمكن الإيمان في قلوبهم حتى يخافونه، ذلك أي شدة خوفهم منكم بسبب أنهم قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ أي لا يعقلون و لا يعرفون عظمتة سبحانه، و من لم يعرف الملك لم يهبه.

[١٥] ثم بين سبحانه أن قتال اليهود للمسلمين ليس مثل سائر الحروب، فإنهم لشدة خوفهم من المسلمين و اختلاف الكلمة فيما بينهم لا- جرأه لهم على المقاتلة السافرة، و ذلك مما يشجع المسلمين على القتال لا يُقَاتِلُونَكُمْ أيها المسلمون، هؤلاء اليهود جميعاً أي في حال اجتماعهم- و ذلك لبيان شدة ضعفهم حتى أن جميعهم لا يتمكنون من القتال إلا بالكيفية الآتية- أو المراد بضمير الفاعل: اليهود و المنافقون، و جميعاً لتأكيد ذلك إلا في قُرَى مُحَصَّنَةٍ أي لا يبرزون لحربكم إلا و هم متحصنون بالقرى ذات الحصون و الامتناع أو مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ جمع جدار، يرمونكم بالنبل و الحجارة و ما أشبه.

بَأْسِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ يعني أن عداوة بعضهم لبعض شديدة، فلا- ائتلاف بينهم و لا اتحاد، حتى تتفق قلوبهم و يشجعوا في مقاتلتكم تَحْسِبُهُمْ أي تظنهم يا رسول الله، أو أيها الرائي جميعاً أي متفقين متراسين و الحال ليسوا كذلك بل قُلُوبُهُمْ شَتَّى جمع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٠

[سورة الحشر (٥٩): آية ١٥]

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)

شئت كمرضى و مريض، و الشئت هو المتفرق، أي أن قلوبهم متفرقة ذلك الذي ذكر في وصفهم بسبب أنهم قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ما فيه الرشد مما فيه الغي، و من لا يعقل يكون بما ذكر له من الصفة، و هذه الصفات في اليهود إنما تولدت من منهجين يهجون عليهما الأول:- زعمهم بأنهم شعب الله المختار. و الثاني: تكالبهم على المادة، فإن الاتفاق و سائر الفضائل إنما تولد من التواضع و تحكيم الروحيات في الأمور، فإذا زعم كل إنسان أنه فاضل لم يرضخ لغيره مما يسبب التشيت، و إذا اتجه الإنسان نحو المادة لم تهذب نفسه حتى ينبع منها الخير و الفضيلة، و لذا نرى عبر التاريخ، اليهود بين معتد، و بين مطاردي، إن صار لهم شيء اعتدوا ثم جاء من يطاردهم، و هكذا دواليك، و قد رأينا في عصرنا قصة اعتدائهم في «ألمانيا» و مطاردة «هتلر» لهم ... ثم اعتدائهم في المسلمين، و أخذت السحب تتجمع هنا و هناك لمطاردتهم.

[١٦] و مثل بنى النضير كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا و هم بنو قينقاع الذين نقضوا عهد الرسول فأمرهم صلى الله عليه و آله و سلم بالخروج ذاقوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ أي عاقبه عملهم السيئه، و لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أي مؤلم موجه في الآخرة، و قد كان عبد الله بن أبي المنافق و عدهم النصر، فلم ينصرهم، كما غر بنى النضير و خذلهم حين التحموا بجيش المسلمين.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨١

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١٦ الى ١٨]

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

[١٧] فكان مثله كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ فِي تَغْيِيرِهِ ثُمَّ خَذَلَانَهُ وَ تَسْلِيمِهِ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ بَأْنِ وَسُوسِ إِلَيْهِ وَ زِينِ الْكُفْرِ فِي

نظره حتى أطاعه فكفر فلما كفر وخالف الله سبحانه بما استحق به عذابه قال الشيطان إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ أَيُّهَا الْكَافِرُ لَا أَنْصُرُكَ وَلَا أَخْلَصُكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَ هَلِ الْخَائِفُ يَتِمَكَّنُ مِنْ نَصْرِهِ غَيْرُهُ؟ وَ كَذَلِكَ ابْنُ أَبِي غَزَرٍ بَنَى النُّصَيْرِ وَ بَنَى قَيْنِقَاعٍ حَتَّى حَارَبَا الرَّسُولَ، فَلَمْ يَنْصُرْهُمَا بَلْ خَذَلَهُمَا.

[١٨] فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَى عَاقِبَةُ الشَّيْطَانِ وَ الْإِنْسَانِ الَّذِي غَرَّهُ فَكْفَرُ، أَتَهُمَا فِي النَّارِ حَالِ كَوْنِهِمَا خَالِدَيْنِ فِيهَا أَى اسْتَحَقَّا النَّارَ وَ لِقِيَ الْعَذَابَ، ذَاكَ بِإِغْرَائِهِ، وَ هَذَا بِكْفَرِهِ وَ ذَلِكَ الْعِقَابُ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ إِغْتِرَارًا بِكَلَامِ الشَّيْطَانِ.

[١٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أَى خَافُوا عِقَابَهُ، فَلَا تَتْرَكُوا أَمْرَهُ، وَ تَخْصِيصُ الْخُطَابِ بِالْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمُ الْمُتَتَّقُونَ بِهِ وَ إِلَّا فَالْتَقُوا تَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَ لَتَنْظُرَنَّ نَفْسٌ أَى لِيَنْظُرَ كُلُّ إِنْسَانٍ وَ يَفْكَرُ فِي مَا قَدَّمَتْ لِعَدِيدِ أَى لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، هَلِ أَنَّهُ قَدِمَ الصَّالِحِ أَوِ الْفَاسِدِ، الثَّوَابِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٢

[سورة الحشر (٥٩): الآيات ١٩ الى ٢١]

وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) أَوِ الْعِقَابِ بِمَعْنَى لَزُومِ تَقْدِيمِ الشَّيْءِ الْحَسَنِ وَ إِنْ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّمَا يَرَاهُ غَدَاً وَ اتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَ زَوَاجِرَهُ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ مَطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ فَيَجَازِيكُمْ غَدَاً عَلَيْهَا.

[٢٠] وَ لَا تَكُونُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ بِأَن آمَنُوا ثُمَّ نَسُوا اللَّهَ فَخَالَفُوهُ، كَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَ لَيْسَ الْمُرَادُ نَسْيَانَهُمْ لَهُ حَقِيقَةً، بَلْ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ وَ مِمَّنْ تَرَكَ الْأَمْرَ، فَإِنَّ الْعَالَمَ التَّارِكُ كَالنَّاسِي فِي عَدَمِ الْإِمْتِنَانِ فَأَنْسَاهُمْ اللَّهُ أَنْفُسَهُمْ أَى جَعَلَهُمُ اللَّهُ نَاسِيَةً حَتَّى أَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا لِنَجَاتِهِمْ وَ خَلَّصَهَا كَالْإِنْسَانِ الَّذِي يَنْسَى نَفْسَهُ فَلَا يَهْتَمُّ بِشَأْنِهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ تِلْكَ صِفَتُهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

[٢١] وَ هَلِ يَتَسَاوَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ جِزَاءً لِكْفَرِهِمْ وَ عَصْيَانِهِمْ مَعَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ جِزَاءً لِإِيمَانِهِمْ وَ عَمَلِهِمُ الصَّالِحِ؟ كَلَّا لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ الْمُلَازِمُونَ لَهَا وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الدَّائِمُونَ فِيهَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ الَّذِينَ فَازُوا بِالثَّوَابِ وَ النِّجَاةِ.

[٢٢] وَ كَيْفَ لَا يَخْشَعُ الْكُفَّارُ لِلْقُرْآنِ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ، وَ الْحَالُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَوْ نَزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَخْشَعُ؟ فَمَا يَخْشَعُ لَهُ الْجَبَلُ الْجَامِدُ، كَيْفَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٣

[سورة الحشر (٥٩): آية ٢٢]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)

لَا يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ الْقَاسِي فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً «١» لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ بَأَنَّ كَانَ الْجَبَلَ هُوَ الْمُخَاطَبُ بِالْقُرْآنِ الْمُؤَمَّلِ لِلْعَمَلِ بِهِ لَرَأَيْنَاهُ أَى رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي، ذَلِكَ الْجَبَلُ خَاشِعًا خَاضِعًا خَائِفًا مُتَصَدِّعًا أَى مُنْشَقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ خَوْفِهِ، وَ هَذَا إِمَّا عَلَى نَحْوِ الْحَقِيقَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْجَمَادَ إِدْرَاكَ وَ إِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُ كَيْفِيَّةَ إِدْرَاكِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ «٢» وَ قَالَ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ «٣» وَ قَالَ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ «٤» وَ قَالَ وَ أَشْفَقْنَا مِنْهَا «٥» وَ إِمَّا عَلَى الْمَجَازِ كِنَايَةً عَنْ قُوَّةِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ النُّفُوذِ وَ الْمَضَى حَتَّى إِنْ الْجَبَلَ - مَعَ عَظَمَتِهِ - لَوْ عَقَلَ لَخْشَعُ وَ تَصَدَّعُ، فَكَيْفَ لَا يَخْشَعُ الْإِنْسَانُ؟ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ أَى هَذَا الْمَثَلُ وَ مَا أَشْبَهَهُ نَبِيْنَهَا لِلنَّاسِ، وَ هَذَا مِثْلٌ لَشِدَّةِ نَفُوذِ الْقُرْآنِ وَ مَضِيهِ، لِتَقْرِيبِ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَذْهَانِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ أَى لِكَيْ يَتَفَكَّرُوا فِيمَا ضَرَبَ لَهُ الْمَثَلُ، فَإِنَّ الْمَثَلَ يَقْرَبُ الذِّهْنَ إِلَى الْمَثَلِ لَهُ، فَيَكُونُ مَجَالُ التَّفَكِيرِ فِيهِ أَوْسَعُ.

[٢٣] ثُمَّ أَتَى السِّيَاقَ لِبَيَانِ جَمَلَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لِبَيَانِ خُضُوعِ الْوُجُودِ كُلِّهِ لِعَالِي كَمَا أَنَّ الْجَبَلَ يَخْضَعُ لِكَلَامِهِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) البقرة: ٧٥.

(٢) سبأ: ١١.

(٣) فصلت: ١٢.

(٤) الإسراء: ٤٥.

(٥) الأحزاب: ٧٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٤

[سورة الحشر (٥٩): آية ٢٣]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)
 أى لا- متصرف فى الكون ولا- معبود بالحق إلا- هو وحده بلا- شريك عالم الغيب والشهادة فيعلم كل شىء سواء كان غائبا عن الحواس كالملك والجن وما أشبههما، أو تشهده الحاسة وتدركه كالمرييات والمسموعات وما إليهما. أو

عن الباقر عليه السلام انه قال الغيب ما لم يكن والشهادة ما كان

هُوَ الرَّحْمَنُ الْمَتَّضِلُّ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ الرَّحِيمُ الْمَتَّضِلُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَاطْلَاعُهُ اِطْلَاعَ رَحْمَنِ رَحِيمٍ لَا اِطْلَاعَ قَسَى غَلِيظٍ شَدِيدٍ.
 [٢٤] هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالتَّكْرَارُ يَفِيدُ التَّرْكِيزُ فِي مَقَابِلِ عِبَادِ الْأَوْثَانِ وَالتَّطَبُّعِينَ وَ مِنْ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ السَّيِّدُ الْمُطَاعُ الْمَالِكُ لِلْكَوْنِ الْقُدُّوسُ الْمَنْزَهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَ عَيْبٍ وَ آفَةٍ وَ قَبِيحٍ، مِنْ الْقُدْسِ وَ هُوَ الطَّهَارَةُ وَ النَّزَاهَةُ السَّلَامُ الَّذِي سَلَّمَ الْكَوْنُ مِنْهُ تَعَالَى، فَلَيْسَ كَالْمَلُوكِ الْمَفْسُودِينَ لِلْعِبَادِ وَ الْبِلَادِ، أَوْ الْمَعْنَى أَنَّهُ السَّلَامُ مِنَ الْآفَاتِ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ السَّلَامِ مِنْ بَابِ «زَيْدٌ عَدْلٌ».
 الْمُؤْمِنُ الَّذِي سَلَّمَ خَلْقَهُ مِنْ ظَلَمِهِ، أَوْ وَاهَبَ الْإِيمَانَ، أَوْ بِمَعْنَى أَنْ لَهُ تَعْلُقًا بِالْخَلْقِ كَمَا أَنَّ لِلْمُؤْمِنِ تَعْلُقًا بِالْخَالِقِ، فَإِنَّ أَصْلَ الْإِيمَانِ التَّعْلُقُ بِشَيْءٍ الْمُهَيَّمِنُ الْمَسِيْطِرُ عَلَى الْكَوْنِ، مِنْ الْهَيْمَنَةِ بِمَعْنَى السَّيْطِرَةِ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ أَوْ هُوَ مَا قَلَّ وَجُودُهُ وَ كَثُرَ نَفْعُهُ، وَ اللَّهُ أَظْهَرَ الْمَصَادِقَ لِذَلِكَ، لِتَفْرُدِهِ وَ اِحْتِيَاجِ الْكَوْنِ إِلَيْهِ الْجَبَّارُ الَّذِي يَجْبِرُ الْكَسْرَ، أَوْ الَّذِي يَقْهَرُ غَيْرَهُ، فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٥

[سورة الحشر (٥٩): آية ٢٤]

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)
 مقهور له مسير يارادته المتكبر الذى تكبر و تعالى عن كل ما يوجب نقصا و حاجة سبحانه الله أنزهه تنزيها عما يشركون عما يشرك به المشركون من الأصنام والأوثان.

[٢٥] هُوَ اللَّهُ الْمَسْتَجْمَعُ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ- لِأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ لِدَاكِ الْذَاتِ الْمَسْتَجْمَعِ- الْخَالِقُ الَّذِي قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ الْبَارِئُ الَّذِي نَفَذَ التَّقْدِيرَ بِالْإِبْدَاعِ الْمُصَوِّرُ الَّذِي صَوَّرَ كُلَّ مَوْجُودٍ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ، فَإِنَّ الشَّيْءَ يَحْتَاجُ إِلَى التَّقْدِيرِ وَ التَّصْمِيمِ قَبْلَ الْإِبْدَاعِ- وَ هُوَ الْخَلْقُ- ثُمَّ إِلَى إِخْرَاجِ ذَلِكَ الْمَقْدَرِ إِلَى الْوُجُودِ- وَ هُوَ الْبَرُّ- ثُمَّ إِلَى تَصْوِيرِ ذَلِكَ الْمَوْجُودِ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ- وَ هُوَ التَّصْوِيرُ- لَهُ تَعَالَى الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَهُوَ الْعَالِمُ، لَا الْجَاهِلُ الْقَادِرُ لَا الْعَاجِزُ الْكَرِيمُ لَا الْبَخِيلُ، وَ هَكَذَا فَلَهُ كُلُّ اسْمٍ حَسَنٍ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْزِعُهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ النَّقَائِصِ وَ الْقَبَائِحِ، تَنْزِيهَا تَكْوِينِيًّا، أَوْ حَسَبِ إِدْرَاكِهَا- كَمَا تَقَدَّمَ- وَ هُوَ الْعَزِيزُ فِي سُلْطَانِهِ الْحَكِيمُ فِي أَعْمَالِهِ فَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبْثًا، بَلْ حَسَبَ الْحِكْمَةِ وَ الصَّلَاحِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٦

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على فعل من هذه المادة وهو قوله «فامتحنوهن». وهي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام بالإضافة إلى قضايا العقيدة والإيمان. وإذ ختمت سورة الحشر بصفاته سبحانه الموجبة لأن لا يتخذ الإنسان غيره تعالى ملكاً وإلهاً و سيداً، ابتدأت هذه السورة بتحريم اتخاذ أعداء الله، أولياء. و

قد نزلت هذه الآيات في «حاطب ابن أبي بلتعة» و كان سبب ذلك أن «حاطباً» كان قد أسلم و هاجر إلى المدينة و كان عياله بمكة؛ فكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فصاروا إلى عيال حاطب و سألوهم أن يكتبوا إلى حاطب يسألوه خبر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا إلى حاطب يسألوه عن ذلك؟ فكتب إليهم حاطب أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يريد ذلك- و ذلك حين عزم الرسول على فتح مكة- و دفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية، فوضعتها في قرونها، و ذهبت نحو مكة، فنزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أخبره بذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أمير المؤمنين عليه السلام و الزبير بن العوام في طلبها، فلحقها، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي شيء، ففتشوها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٧

فلم يجدوا معها شيئاً، فقال الزبير: ما نرى معها شيئاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: و الله ما كذبنا على رسول الله، و لا كذب رسول الله على جبرائيل، و لا كذب جبرائيل على الله جل ثناؤه.

و الله إن لم تظهرى الكتاب، لأذهبن برأسك إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: تنح يا على عنى حتى أخرجته- حيث علمت أن الإمام يفعل ذلك لو لم تعطه الكتاب- فأخرجت الكتاب من قرونها فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام و جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال رسول الله: يا حاطب ما هذا؟ فقال حاطب: و الله يا رسول الله ما ناققت و لا غيرت و لا بدلت و إنى أشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله حقا، و لكن أهلى و عيالى كتبوا إلى بحسن صنع قريش إليهم فأحببت أن أجازى قريشا بحسن معاشرتهم، فقام عمر و أراد أن يضرب عنق حاطب مستأذنا رسول الله فى ذلك، لكن حاطباً توجه إلى الرسول يستصرخه، فعفا عنه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أمر عمر بالكف عنه فنزلت الآيات

«١»، تحذيرا للمسلمين أن يكرر منهم مثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدى باسم الإله الذى له ما فى الكون المستحق لجميع المحامد- فإن الله علم على هذا الذات- و هل هناك أحق بتقديم اسمه من اسم الله تعالى؟ و ذكر الاسم دون أن يقال «بالله» للاحترام حتى أن اللازم أن يشرع بذكر الاسم، لا بذكر نفس الذات، الرحمن الرحيم الذى رحمته وسعت كل شيء، و له رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قالوا فى لفظ «الرحيم» أنه خاص بعباده المؤمنين.

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ١١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٨

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)

[٢] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّيَ الَّذِي يُعَادِينِي بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ وَعَدُوِّكُمْ الَّذِي يُعَادِيكُمْ بِالْإِسْتِهْزَاءِ وَالْمُحَارَبَةِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِدَاوَةِ أَوْلِيَاءَ تَوَالُونَهِمْ وَتَنْصُرُونَهُمْ، جَمَعَ «وَلِيٌّ» فِي حَالِ كَوْنِكُمْ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أَيْ تَبْذُلُونَ لَهُمْ وَدَكُمْ وَحِكْمَكُمْ، عَمَلُ الْمُحِبِّ لِمُحِبِّهِ، كَمَا فَعَلَ «حَاطِبٌ» بِأَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَأَعْدَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَفَرُوا أَوْلَثَكُمْ الْأَعْدَاءَ بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ، وَهَمْ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ - كَمَا فَعَلَ كُفَّارُ مَكَّةَ - وَالْإِخْرَاجُ إِنَّمَا كَانَ لِأَنْ تُؤْمِنُوا أَيْ لِإِيمَانِكُمْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ وَهَلْ يُوَالِي الْإِنْسَانَ مِثْلَ هَذَا الْعَدُوِّ؟

إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بِلَادِكُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي أَيْ لِأَجْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي أَيْ طَلْبًا لِرِضَايَ وَالْمَعْنَى أَنْ غَرَضَكُمْ مِنَ الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ الْجِهَادِ وَطَلْبِ رِضَا اللَّهِ، فَلَا تَوَادُّوا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ - أَهْلَ مَكَّةَ - تُسَيِّرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أَيْ تَعْلَمُونَهُمْ فِي السَّرِّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَحُبًّا وَهَلْ يَخْفَى عَمَلِكُمْ هَذَا عَلَى اللَّهِ؟ كَلَّا فَاأَنَا أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ أَيْ بِخَفَايَا أُمُورِكُمْ وَظَوَاهِرِهَا فَلَا يَغِيبُ عَلَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٨٩

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٢ إلى ٣]

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

شَيْءٌ، وَسَاجَازِيكُمْ عَلَيْهَا وَمَنْ يَفْعَلْهُ أَيْ يَفْعَلِ الْإِسْرَارَ بِالْمَوَدَّةِ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ أَيْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى الْمَهْلِكَةِ، وَسَوَاءَ الطَّرِيقِ: وَسَطُهُ.

[٣] إِنْ يَثْقَفُوكُمْ أَيْ إِنْ يَصَادِفُ كُفَّارَ مَكَّةَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الْحَرْبِ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً يَبَادِرُونَكُمْ بِالْمُحَارَبَةِ، فَعَلَ الْعَدُوَّ بَعْدُوهُ، وَهَذَا لِنَفْيِ مَا زَعَمَهُ حَاطِبٌ مِنْ أَنَّهُمْ أَحْبَاؤُهُ، فَتَأْتِي الْآيَةُ لِتُبَيِّنَ إِنْ إِظْهَارِ جِهَمِ لَهُ وَلِعَائِلَتِهِ إِظْهَارِ مَكْذُوبٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَيْدِيَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْقَتْلِ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسَّبِّ وَالْقَذْفِ بِالسُّوءِ أَيْ بِمَا يَسِيئُوكُمْ، فَلَا يَتْرُكُونَ وَسِيلَهُ مِنْ وَسَائِلِ الْإِسَاءَةِ إِلَّا عَمَلُوهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكُمْ وَوَدُّوا أَيْ أَحَبُّ هَوْلَاءَ الْكُفَّارِ لَوْ تَكْفُرُونَ أَنْتُمْ بِاللَّهِ كَمَا كَفَرُوا هُمْ، فَلَا يَسَبُّ إِهْلَاكِكُمْ مَوَدَّةَ أَمْثَالِ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ فَإِنَّهُ:

[٤] لَنْ تَنْفَعَكُم أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَرْحَامُكُمْ أَيْ قَرَابَاتِكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ وَالْمَعْنَى لَا يَحْمِلُنَاكَ التَّحْفِظُ عَلَى الْقَرَابَةِ وَالْأَوْلَادِ عَلَى مَخَالَفَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَمَوَادَّةِ الْكُفَّارِ، كَمَا فَعَلَ حَاطِبٌ حَيْثُ أَرَادَ التَّحْفِظَ عَلَى أَهْلِهِ بِمَكَّةَ فَخَالَفَ الرَّسُولَ بِأَنْ كَتَبَ إِلَى الْكُفَّارِ، يَعْلَمُهُمْ بِقَصْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَتَحَ مَكَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ اللَّهُ بَيْنَكُمْ فَيَدْخُلُ أَهْلُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٠

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ٤]

فَدَّ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَعْفِفَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنَكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)

الْإِيمَانَ الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ النَّارَ، فَلَا تَفْعَلُوا مَا تَسْتَحِقُونَ بِهِ النَّيْرَانَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يَبْصُرُكُمْ وَيَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَلَا تَفْعَلُوا مَا تَسْتَحِقُونَ بِهِ سَخَطَهُ وَعِقَابَهُ.

[٥] فَدَّ كَانَتْ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أَيْ اقْتِدَاءٌ حَسَنٌ، الْأُسْوَةُ هِيَ الْقِدْوَةُ وَهُوَ اسْمٌ لِمَا يُؤْتَسَى وَيُقْتَدَى بِهِ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَيْ فَاقْتَدُوا بِهِمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي مَقَاتِعِ الْكُفَّارِ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ الْكَافِرِينَ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ جَمَعَ بَرِيءٌ، فَلَا نُوَالِيكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيْ وَمِنْ أَصْنَامِكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، وَالْمَعْنَى لَا عِلَاقَةَ لَنَا بِهَا، بَلْ نَظَرْنَا بِهَا بَاطِلَةٌ لَيْسَتْ بِأَلْهَةٍ،

فعل العدو بعدوه، و إن لم تكن معاداة حقيقية بين الإنسان و بين الجماد كَفَرْنَا بِكُمْ أى قالوا قومهم جحدنا طريقتم، أو خطاب للأصنام، و الإتيان بلفظ العاقل لتوحيد سياق كلام المؤمنين مع كلام الكافرين فإنهم كانوا يزعمون العقل و الإدراك للأصنام و بدأ أى ظهر بيننا و بينكم أيها القوم الكافرين العداوة و البغضاء و هو أشد العداوة الموجبة لكون العداة فى الباطن، من «بغض» أبداً أى إلى الأبد ما دمتم أنتم على الكفر حتى تؤمنوا بالله و خديده و تخلعوا عبادة الأصنام إلاً قول إبراهيم أى اقتدوا بإبراهيم، إلا فى هذا القول-

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩١

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ٥]

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

الذى قال لأبيه و ذلك كان قبل نهى الله سبحانه- لأبيه أى عمه آزر لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ أى أطلب غفران الله لك، و كان ذلك لموعده و عده إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فلا ينبغي للمسلم أن يقتدى بذلك، بأن يستغفر للكافر و يحتمل أن الاستثناء من قوله «إنا برآء منكم» أى قالوا للكفار إنا أعداء لكم، إلا إبراهيم وعد عمه بالاستغفار قبل أن يتبين أنه عدو لله، ثم قال إبراهيم لعمه و ما أملكك لك يا عم من الله من شئ إذا أراد بك شيئا لم أملك أن أرد العقاب عنك، ثم قال إبراهيم و المؤمنون به ربنا عليك توكلنا فقد وكلنا أمورنا إليك و إليك أنبأ الإنابة هى الرجوع أى رجعا إليك فى أمورنا، فإن الإنسان باعتبار أنه مخلوق لله تعالى كأنه جاء من عنده، فهو إذا أطاع كان بمنزلة الراجع إليه سبحانه، تشبيها للمعقول بالمحسوس و إليك المصير أى ان منتهى أمورنا إليك، و نعود فى يوم القيامة إلى حسابك و جزائك.

[٦] رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا أى لا تجعلنا امتحانا لهم فإن الكافر يمتحن بالكفر و بإيذاء المؤمنين و بالعصيان، و إذا وقع المؤمن مورد امتحان الكافر، أو ذى و قد لا- يطيق ذلك، أو المراد لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحملة و اغفر لنا أى استر علينا و امح سيئاتنا ربنا إنك أنت العزيز الذى لا يغلب القاهر فى سلطانه الحكيم الذى يفعل كل شئ حسب الصلاح و الحكمة، و لعل حكاية هذه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٢

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٦ الى ٧]

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧)

الجميل لتعليم المسلمين كيف يدعون الله سبحانه.

[٧] لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ «فى» بمعنى النسبة، أى بالنسبة إلى إبراهيم و من آمن معه اقتداء حسن، فهم خير مقتدى لكم فى أعمالكم، و مقاطعتهم للكفار و إنما كرر ذلك لما رتب عليه بقوله لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ أى أن هذه الأسوة و الاقتداء إنما هى للذى يرجو ثواب الله سبحانه «ليعتقد بالجزاء و الحساب فى الآخرة» أما المنكر لذلك فلا معنى لاقتدائه بمن اعتقد بالله و هذا للإشارة إلى التلازم بين الإيمان و بين الاقتداء و مَنْ يَتَوَلَّ أى يعرض عن هذا الاقتداء، فلم يقتد بإبراهيم، بل اتخذ من الكفار أولياء فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ المحمود بذاته فلا يحتاج إلى طاعة المطيع و حمد الحامد، و المعنى: أن الذى يعرض يضر نفسه، و لا يضر الله سبحانه لغناه المطلق.

[٨] و إذا تريدون أيها المؤمنون موادة أهل مكة لما بينكم من الصلات النسبية و السوابق فلعله سبحانه يهيب و سائل هدايتهم حتى لا يكون محظور فى موادتهم عسى الله أى لعله سبحانه أن يجعل بينكم أيها المؤمنون و بين الذين عاديتهم أى اتخذتموهم أعداء منهم أى من أهل مكة مودة بسبب الإسلام و الله قدير على ذلك

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٣

[سورة الممتحنة (٦٠): الآيات ٨ إلى ٩]

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)
إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (٩)

وَاللَّهُ غَفُورٌ لِمَا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنْ مَوَادَّتِهِمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ رَجِيمٌ يَتَفَضَّلُ عَلَيْكُمْ بِالرَّحْمَةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْغَفْرَانِ وَالْعَفْوِ.

[٩] و إذا كان المفهوم من الآيات السابقة ما يشمل تحريم مادة كل كافر استثنى السياق من ذلك بقوله لا ينهاكم أيها المؤمنون الله عن مادة الذين لم يقاتلوكم في أمر الدين أي من جهة أنكم متدينون بالإسلام ولم يخرجوكم من دياركم بأن كان كافرا مسالما أن تبرؤهم بدل اشتغال عن قوله «عن الذين» أي لا ينهاكم الله عن بر هؤلاء وتقسطوا إليهم أي تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأن تبادلوا الحب و الوداد قيل ان المسلمين استأمروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أن يبروا أقباءهم من المشركين «١» وقيل ان قتيلته بنت عبد العزيز قدمت مشركة على بنتها أسماء بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت هذه الآية إن الله يحب المقسطين أي الذين يعدلون في أمورهم.

[١٠] إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ عَنِ مَوَادَّةِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ فَقَاتِلُوهُمْ مِنْ جِهَةِ أَنْكُمْ مُتَدِينُونَ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ مَنَازِلِكُمْ، فِي مَكَّةَ وَغَيْرِهَا وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَي تَعَاوَنَ

(١) مجمع البيان: ج ٩ ص ٤٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٤

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ١٠]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَا تَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)

بعضهم مع بعض في تشريدكم من بلادكم أن تولوهم أي ينهاكم الله عن توليهم واتخاذهم أولياء وهذا بدل اشتغال عن قوله: «الذين قاتلوكم» ومن يتولاهم أي يتخذهم أولياء وأحباء فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان لله والرسول.

[١١] و بمناسبة الحديث عن مادة الكفار يأتي السياق لذكر بعض أحكام النساء مما له رابطة بالكلام يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام فامتحنوهن أي اختبروهن حتى تعرفوا صدق إيمانهن وهجرتهن. في الصافي عن القمي قال: إذا لحقت امرأة من المشركين بالمسلمين تمتحن بأن تحلف بالله أنه لم يحملها على اللقوق بالمسلمين بغض لزوجها الكافر ولا حب لأحد من المسلمين وإنما حملها على ذلك الإسلام، فإذا حلفت على ذلك قبل إسلامها «١».

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ مِنْكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ إِلا الإِيمَانُ وَالْعَمَلُ حَسَبَ ذَلِكَ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ أَي صَادِقَاتٍ فِي إِيمَانِهِنَّ مِنَ الْحَلْفِ وَ سَائِرِ الْعَلَامَاتِ وَ الإِمَارَاتِ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ أَي إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ لَا هُنَّ أَي الْمُؤْمِنَاتُ

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٣٦٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٥

حَلٌّ أَي حِلَالٌ لَهُمْ فَإِنَّ الْكُفَّارَ لَا يَحِقُّ لَهُ مَسُّ الْمُسْلِمَةِ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ فَإِنَّهُمْ يَصْبِحُونَ كَالْأَجَانِبِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنَاتِ وَ آتُوهُنَّ

أى أعطوا الكفار- الأزواج- أيها المؤمنون، حين حبستم نساءهم عن الرجوع إليهم ما أنفقوا على المرأة من المهر فإن الزوجة ترد على زوجها صداقها الذى أعطها ثم يتزوجها المسلم ولا جناح عليكم أى لا حرج عليكم أيها المؤمنون أن تنكحوهن فإن إسلامهن أبطل عقدهن السابق بالكفار- على تفصيل مذكور فى الفقه-

إذا أتيتنوهن أجورهن أى أعطيتن النساء مهورهن، بمعنى أن الحلية متوقفة على العقد والمهر ولا- تُمسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ أى لا تعقدوا أيها المسلمون على الكافرة، فإن الإمساك هو الأخذ، وعصم جمع عصمة وسمى العقد عصمة لأنه به يعصم كل من الزوجين عن الفجور، والكوافر جمع كافرة، وكما لا يجوز الابتداء على عقد الكافرة كذلك لا يجوز البقاء على العقد فيما لو أسلم الرجل، و بقيت المرأة كافرة- على تفصيل مذكور فى الفقه «١»- وجاءت هذه الجملة بمناسبة نكاح المسلمة بالكافر، يعنى كما لا يجوز نكاح المسلمة للكافر كذلك لا يجوز نكاح المسلم للكافرة

(١) موسوعة الفقه: ج ٦٥، كتاب النكاح جزء ٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٦

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ١١]

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) وإذا لحقت منكم- أيها المسلمون- امرأة بدار الكفر، بأن كفرت وارتدت وذهبت إلى الكفار شيئا أو طلبوا من الكفار ما أنفقتم عليها من المهر و شيئا أو أي الكفار ما أنفقوا من المهر على امرأة كافرة أسلمت و التحقت بكم- لقاعدة التقابل بين الفئتين- فهم يطالبون مهر نسايتهم إذا أسلمن و التحقن بكم و أنتم تطالبون مهر نسايتكم إذا كفرن و التحقن بهم.

ذليكم «ذا» إشارة إلى ما تقدم من الأحكام و «كم» خطاب للمؤمنين حاكم الله الذى قرره يحكم بينكم أيها المسلمون و الكافرون و الله عليهم بالأحكام و ما يصلح للبشر حكيما فيما يأمر و ينهى فليست هذه الأحكام إلا حسب الصلاح و الحكمة، قالوا و قد كان من بنود صلح الحديبية أن الرجال يردون كل إلى المحل الذى فر منه، فإذا جاء رجل من الكفار إلى المسلمين ردوه، و كذا بالعكس و لم يكن ذكر للنساء فى بنود الصلح و إذ تم الصلح و كتبوا الكتاب جاءت «سبيعة بنت الحرث» مسلمة إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فجاء زوجها فى طلبها و كان كافرا فقال يا محمد صلى الله عليه و آله و سلم اردد على امرأتى فنزلت هذه الآية «١».

[١٢] وَإِن فَاتَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ أَوْ أَحَدٌ مِنْ نِسَائِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ بَأَنَّ لِحَقْنَ بِهِمْ مَرْتِدَاتٍ فَعَاقِبْتُمْ أَوْ غَزَوْتُمْ

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٣٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٧

و أصبتم من الكفار عقبي- و هى الغنيمه- و امتنع الكافر أن يعطيكم مهر زوجتكم التى لحقت بهم فأتوا أى أعطوا أيها المؤمنون الذين ذهبوا أزواجهم أى المؤمنين ارتدت زوجاتهم و فرت إلى الكفار ميثلا ما أنفقوا من المهور عليهن. و الحاصل أن الزوجة إذا فرت و لم يقبل الكفار أن يدفعوا مهرها إلى زوجها المسلم أعطى الإمام مهرها لزوجها من الغنيمه التى حصلت من المعاقبة و اتقوا الله أى خافوا عقابه فلا تخالفوا أمره بأن تمنعوا الزوج المسلم عن المهر إذا فرت زوجته و لم يبذل الكفار مهرها الذى أنتم به مؤمنون فإن من مقتضيات الإيمان التقوى.

روى فى الجوامع أنه لما نزلت الآية المتقدمة أدى المؤمنون ما أمروا به من نفقات المشركين على نسايتهم و أبى المشركون أن يردوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين فنزلت هذه الآية

قال القمى: و كان سبب ذلك أن عمر بن الخطاب كانت عنده فاطمة بنت أبى أمية بن المغيرة فكرهت الهجرة معه و أقامت مع المشركين فنكحها معاوية بن أبى سفيان فأمر الله رسوله أن يعطى عمر مثل صداقها «٢». و روى عن الصادق و الباقر عليهما السلام أنهما سئلا ما معنى العقوبة ها هنا؟ قالوا: إن الذى ذهبت امرأته فعاقبت على امرأة أخرى غيرها يعنى تزوجها فإذا هو تزوج امرأة أخرى غيرها فعلى الإمام أن

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٣٣٩.

(٢) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣٦٣. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٨

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ١٢]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

يعطى له مهر امرأته الذاهبة

«١». أقول: فعلى هذا فمعنى «عاقبتهم» تزوجتم بأخرى عقيها، كما أنه لا يبعد أن يكون القيد سواء كان بالمعنى السابق أو هذا المعنى من باب القيد الغالب لا أن له خصوصية فإن على الإمام إعطاء المهر للمسلم الفارة زوجته سواء أراد التزويج أم لا و سواء غنموا أم لا. و الله أعلم.

[١٣] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ أَيُّ النِّسَاءِ اللَّائِي يَرِدْنَ الْإِيمَانَ فَهُنَّ مِنْ بَابِ مَجَازِ الْمَشَارَفَةِ نَحْوِ «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»

يُبَايِعَنَّكَ أَيُّ يَرِدْنَ بِيَعْتُكَ وَ قَدْ كَانَ تَرْتِيبُ بَيْعَةِ النِّسَاءِ أَنْ يَضَعَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَدَهُ فِي ظَرْفٍ مِنَ الْمَاءِ فَيُخْرِجُهَا ثُمَّ تَأْتِي النِّسَاءُ فَيَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فِي ذَلِكَ وَ مَعْنَى الْبَيْعَةِ أَنْ الْمَبَايِعَ يَبِيعُ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ «٢» عَلَى شَرْطِ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ بِأَنْ يُوْحِدَنَّهُ وَ لَا يَتَّخِذْنَ مَعَهُ شَرِيكًا شَيْئًا أَيُّ أَيُّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِيكِ كَانَ وَ لَا- يَسْرِقْنَ لَا مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ وَ لَا مِنْ غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ وَ لَا يَزْنِينَ بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ سِوَاءِ كَنِّ ذَوَاتِ بَعْلِ أُمَّ لَا وَ لَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ لَا بِالْإِسْقَاطِ وَ لَا بِالْوَادِ وَ لَا بِسَائِرِ أَقْسَامِ الْقَتْلِ وَ لَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ أَيُّ بِكَذِبٍ يَكْذِبُهُ فِي مَوْلُودٍ يَوْجَدُ لَدَيْهِنَّ

(١) تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ٣١٣.

(٢) التوبة: ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٣٩٩

بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ أَيُّ لَا يَلْحَقْنَ بِأَزْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَادِهِمْ بِأَنْ يَزْنِينَ فَيَلْدْنَ مِنَ الزَّوْنِيِّ ثُمَّ يَنْسِبُهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ! فَإِنَّ الْمَوْلُودَ إِنَّمَا يَلِدُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ وَ يَرْتَضِعُ بَيْنَ الْيَدَيْنِ، وَ هَذَا غَيْرُ النَّهْيِ عَنِ الزَّوْنِيِّ - الَّذِي سَبَقَ -.

و قال بعض: إن المرأة فى الجاهلية كانت تلتقط المولود ثم تنسبه إلى الزوج فنهين عن ذلك «١» و لا- يَعْصِيَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي مَعْرُوفٍ

قال الإمام الصادق عليه السلام هو ما فرض الله عليهن من الصلاة و الزكاة و ما أمرهن به من خير

«٢»، أقول: و كان الإتيان بقوله:

«فى معروف» مع أن الرسول لا- يأمر إلا- بالمعروف، التنبيه على أن الرسول شأنه الأمر بالمعروف ترغيباً لهن للعمل بأوامره فبايعهن أى اقبل بيعتهن و لهن الجنة و الثواب على مثل هذه البيعة و استغفرو لهن الله أى اطلب من الله غفران ذنوبهن السالفات إن الله غفور يغفر

الذنب رَجِيمٌ يُفَضَّلُ بِالْإِضَافَةِ عَلَى الْغَفْرَانِ، بِالرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ.

روى إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بايعهن و كان على الصفا، و كان عمر أسفل منه و هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان متتعبة متكررة مع النساء خوفا من أن يعرفها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا، فقالت هند: إنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال، و ذلك أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بايع الرجال يؤمئذ على الإسلام و الجهاد فقط .. فقال: و لا تسرقن فقالت هند: إن أبا سفيان رجل ممسك و إنى

(١) بحار الأنوار: ج ٢١ ص ٩٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٩ ص ٧٦. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٠

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ١٣] تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٤٤٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

أصبت من ماله هناك فلا أدري أي محل لى أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالى فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال فضحك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و عرفها.

فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: و لا- تقتلن أولادكن فقالت هند: ربيناهم صغارا و قتلتموهم كبارا و أنتم و هم أعلم، و كان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتله على بن أبى طالب عليه السلام يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى و تبسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لما قال: لا- تأتين ببهتان، فقالت هند: و الله إن البهتان قبيح و ما تأمرنا إلا بالرشد و مكارم الأخلاق، و لما قال و لا يعصينك فى معروف فقالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا و فى أنفسنا أن نعصيك فى كل شيء

«١».

[١٤] و أخيرا يأتى السياق ليعود إلى ما استبدئ به من تحريم مواد الكفار الذى لأجله نزلت السورة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا من الكفار غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

فقد روى أنها نزلت فى بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم

، و معنى التولى المودة و المحابة و اتخاذهم أولياء قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ فَإِنَّهُمْ منكرون لها كما يئس الكفار من أصحاب القبور بأن يرجعوا إلى الدنيا، فهم و الكفار سواء فى عدم الاعتقاد بالآخرة، و ان أظهر أولئك الاعتقاد بها كذبا و تدليسا.

(١) مستدرک الوسائل: ج ١٤ ص ٢٧٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠١

٦١ سورة الصف مدنية / آياتها (١٥)

سميت بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «الصف» و هى كسائر السور المدنية مشتملة على النظام كاشتمالها على العقيدة.

و لما ختمت سورة الممتحنة بقطع مودة الكفار ابتدأت هذه السورة بلزوم قتالهم.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله الذى له ما فى السموات و الأرض، و هل هناك أحق بالاستعانة منه؟ إنه «الله» الذى بيده كل شيء، الذى يعين من استعان به، الرحمن الرحيم، الذى يتفضل بالرحمة و تكميل الناقص، فهو خير من يستعان به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٢

[سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٤]

أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)

الزيف إليه سبحانه، لأنه إذا ترك الإنسان جذبته الأهواء الموجبة للزيف وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ فمن خرج عن طاعة الله بعد الدليل والبرهان تركه سبحانه وشأنه ولم يلفظ به الألفاظ الخفية.

[٧] وهكذا فعل اليهود بعيسى بن مريم عليه السلام آذوه بعد ما جاءهم بالبينات وَاذْكَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَالْإِصْرَارَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى إِضَافَةِ عِيسَى بِمَرِيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لِنَفْيِ كَوْنِهِ ابْنِ اللَّهِ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْيَهُودَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بَعَثَنِي لَهْدَايَتِكُمْ وَإِرْشَادِكُمْ فِي حَالِ كَوْنِي مُصِِّدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ أَيَّ مَا تَقْدُمْنِي، فَإِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي أَمَامَ الْإِنْسَانِ هُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ - مجازاً - مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ أَيْ أَبْشَرَكَم بِرَسُولٍ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَشِيْمُهُ أَحْمَدُ يَعْنِي نَبِيْنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وقد ذكر الشيخ محمد صادق فخر الإسلام، في كتابه أنيس الأعلام - وهو ممن كان مسيحياً فأسلم - قصة طويلة حول هذا الأمر وأن اسم الرسول «فارقليط» المفسر بأحمد وهي في كتابهم - وهذه هي عادة الأنبياء عليهم السلام يصدقون السابقين و يبشرون باللاحقين لأنهم أخوة من عند الله لبيان منهج واحد، وإنما الفروق في المزايا والخصوصيات التابعة للظروف فلما جاءهم عيسى، أو لما جاءهم الرسول - أحمد - بِالْبَيِّنَاتِ أَي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٥

[سورة الصف (٦١): الآيات ٧ إلى ٨]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)

الأدلة الواضحات قالوا هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَي سحر ظاهر ولم يؤمنوا، فإن كان الضمير راجعاً إلى عيسى، كان ردفاً لتكذيب اليهود لموسى، وإن كان راجعاً إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانت الآيات في صدد بيان الرسالات الثلاث، وإن أهل الملتين السابقتين كيف استقبلوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المبشر به لديهم.

[٨] وَمَنْ أَظْلَمُ أَي أَيِّ شَخْصٍ أَكْثَرَ ظُلْمًا مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ أَي اخْتَلَقَ الْكُذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَقَالَ لِكَلَامِهِ إِنَّهُ سِحْرٌ وَلِرَسُولِهِ إِنَّهُ سَاحِرٌ كَاذِبٌ، وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي بِالْأَلْفَافِ الْخَفِيَّةِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ بَعْدَ مَا رَأَوْا النُّورَ وَالْهُدَى، وَدَلَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ فَلَمْ يَسْلُكُوهُ.

[٩] يُرِيدُونَ هَوْلَاءَ الْكَفَّارِ الْمُعَاصِرِينَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ وَهُوَ رَسُولُهُ وَمَنْهَاجُهُ بِأَفْوَاهِهِمْ وَإِنَّمَا سُمِّيَ نُورًا لِأَنَّهُ يَنْبُرُ دُرُوبَ الْحَيَاةِ الْمُظْلَمَةَ بِمَنْهَاجِ سَبَبِ السَّعَادَةِ وَالْوَصُولِ إِلَى الْهَدْيِ، كَمَنْ مَعَهُ الْمَصْبَاحُ فِي اللَّيْلِ الْمُظْلَمَةِ حَيْثُ لَا يَصْطَدِمُ بِشَيْءٍ بَلْ يَسْلُكُ السَّبِيلَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَإِنَّمَا قَالَ «بِأَفْوَاهِهِمْ» لِأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ إِطْفَاءِ نُورِ الْإِسْلَامِ، بِالتَّكْذِيبِ وَالتَّهْرِيجِ.

وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ أَي مظهر دينه، فَإِنَّ النُّورَ إِذَا أَطْفِئَ لَمْ يَتَمَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٦

[سورة الصف (٦١): الآيات ٩ إلى ١٠]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)

امتداده في الزمان، أمّا إذا لم يطفأ استمر وامتد وتم وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ مِنْ بَقَاءِ نُورِ اللَّهِ وَإِضَاءَتِهِ لِلْعَالَمِ.

[١٠] هُوَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْهُدَى أَي مَعِ الْهُدَايَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ وَبِ دِينِ الْحَقِّ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ لِيُظْهِرَهُ أَي أَنْ الْإِسْرَارَ كَانَ لِأَجْلِ إِظْهَارِ هَذَا الدِّينِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ أَي عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ، فَإِنَّ «الدِّينَ»

جنس و لذا جىء له ب «كله» فإن الإسلام يغلب الأديان كلها على نحوين: الأول بالحجة و الدليل، و هذا موجود منذ زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و الثانى بالغلبة و السيطرة و هذه تكون فى زمن الإمام الحجة عليه السلام.

فقد سئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية و أنه هل ظهر الإسلام؟ قال عليه السلام: كلا فو الذى نفسى بيده حتى لا تبقى قريته إلا و ينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرة و عشيا

«١» و لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ، فإنه يعلو على رغم أنوفهم.

[١١] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَطَابِ، مع أنه أعم، لأنهم المنتفعون بالخطاب العاملون به دون سواهم هل أدلُّكم أى هل تريدون أن أهديكم و أرشدكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليمٍ على نحو الاستفهام الطلبى.

(١) تأويل الآيات: ص ٦٦٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٧

[سورة الصف (٦١): الآيات ١١ الى ١٢]

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)

[١٢] ثم بين تلك التجارة، التى لها أرباح الأثمان، و هل شىء أنفع من نجاه الإنسان من عذاب مؤلم موجه؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ بأن تعتقدوا به إلهها واحدا و رَسُولِهِ بأن تصدقوه فيما جاء به، و المراد إيمانا باقيا راسخا- فلا ينافى ذلك كونهم مؤمنين، كقوله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا «١»- وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى تتبعون أنفسكم بالمشاق التى منها الحرب لأجل إعلاء كلمة الله بِأَمْوَالِكُمْ بأن تبدلوها لأجله تعالى وَ أَنْفُسِكُمْ بأن ترخصوها فى أوامره، حتى إذا استلزمت إزهاق أنفسكم و قتلكم فى سبيله ذَلِكَ «ذا» إشارة و «كم» خطاب، أى ما ذكر من الإيمان و الجهاد- باعتبار كل واحد- خَيْرٌ لَكُمْ من الشرك الذى مصيره النار و العقاب إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ و المعنى إِنْ كُنْتُمْ عالمين لعلمتم أن الإيمان و الجهاد خير و أنفع من الكفر و الكسالة.

[١٣] و إذا فعلتم ذلك يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ السالفة و يُدْخِلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أى من تحت قصورها و أشجارها الْأَنْهَارُ من عسل و ماء و لبن و خمر و يدخلكم فى تلك الجنات مَسَاكِنَ طَيِّبَةً جمع مسكن و هو المنزل، سمي بذلك لأنه محل سكون الإنسان فى جَنَّاتٍ عَدْنٍ يقال عدن بالمكان إذا أقام فيه، أى

(١) النساء: ١٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٨

[سورة الصف (٦١): الآيات ١٣ الى ١٤]

وَ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَضِيرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

فى جنات أنتم دائمون فيها خالدين لا خروج لكم عنها ذَلِكَ الغفران للذنوب و الدخول فى الجنات الْفَوْزُ و الظفر بالمطلوب و السعادة الْعَظِيمُ الذى ليس فوّه سعادة و فلاح.

[١٤] و لكم مضافا إلى نعمة الفوز بالجنان، نعمة أُخْرَى إذا آمنتم و جاهدتم تُحِبُّونَهَا و هى نعمة دنيوية نَضِيرٌ لكم على الكفار من طرف الله سبحانه، لأنه ينصركم على الأعداء، و إن كانت قواكم المادية أقل منهم وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ لبلادهم، و قد كان كما أقام سبحانه

فقد فتحوا مكة و فارس و الروم و كثير من أماكن المشركين و الكفار في مدة و وجيزة و بَشْرٍ يا رسول الله الْمُؤْمِنِينَ بهذين الثوابين، إن صدقوا في الإيمان و قاموا بواجب الجهاد.

[١٥] يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ أَي أَعوانه الملازمين لخدمته بإقامة دينه، في مقابل المؤمن الذي لا يهيب نفسه للنصرة، و إنما يعمل ببعض الأمور الدينية كما قال عيسى ابن مريم أي أنصروه نصره مثل ما طلب المسيح من تلامذته لِلْحَوَارِيِّينَ و هم أصفياءه و تلاميذه مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ أَي في السير إلى رضوان الله و ثوابه، سيرا مستقيما، يكون معي في تعاليمي؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ و الخطاب إما كان خاصا لهم و أجاب الجميع بالموافقة، أو كان عاما،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٠٩

و إنما قال «للحواريين» باعتبار أنهم الفئة الموجهة في خطابه عليه السلام للجماهير فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إيمانا صحيحا و هم الحواريون و من إليهم و كَفَرَتْ طَائِفَةٌ بِأَن لَمْ تَوْمَنَ بِعِيسَى أُو آمنت ثم انحرفت كالمثلثة و نحوهم فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أَي قويناهم على عِدْوِهِمُ الكافرين فَأَصْبَحُوا أَي المؤمنون به ظاهرين غالبين بالحجة على الكافرين، أو غالبين بالعدد و القوة على أولئك، و كما أيدنا النصرى الحقيقيين على اليهود و المزيين من النصرى كذلك تؤيد الإسلام الصحيح على الأديان الأخرى، و الإسلام المنحرف، و إنما يسمى الغالب ظاهرا لأنه يظهر و غيره يخفى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٠

٤٢ سورة الجمعة مدنية / آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «الجمعة» و هي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام بالإضافة إلى اشتغالها على العقيدة، و لما ختمت سورة الصف بتأييد المؤمنين بعيسى عليه السلام افتتحت هذه السورة بالإرسال في الأميين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي له كل شيء، و إنما يبدأ باسم من له كل شيء استحقاقا و استعطافا، فمن له كل شيء هو الأحق بالتنويه، و من بيده كل شيء هو الأحق والأولى بالاستعطاف.

الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بالفضل، فإن الرحمة هي الفضل على من فيه نقص بتكميل ذلك النقص.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١١

[سورة الجمعة (٤٢): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبُحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)

[٢] يُسَبِّحُ لِلَّهِ أَي ينزه الله من النقائص، تنزيها إما تكوينيا، لأن في كل شيء له آية دالة على أنه خالق عالم قدير، و إما بلسان تفقهه ما في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهَا، و الأرض و ما فيها فإن الظرف قد يطلق على الإثنين، كما أن المظروف قد يطلق على الإثنين الْمَلِكِ السُّلْطَانِ عَلَى الْكُونِ بقول مطلق، فإن سلطه ما عداه تعالى مجازية الْقُدُّوسِ المنزه عن كل نقص، من قدس بمعنى تنزه الْعَزِيزِ الغالب في سلطانه الْحَكِيمِ الذي يفعل الأشياء بالحكمة و الصلاح.

[٣] هُوَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي بَعَثَ أَي أرسل في الْأُمَمِينَ الْأُمَى منسوب إلى الأم و المراد بهم العرب، سموا بذلك إما لأنهم من أهل «أم القرى» أي مكة المكرمة- المسماة بذلك لأذن القرى دحيت من تحتها- و إما لأن الغالب منهم لم يكونوا يعرفون القراءة و الكتابة فهم- في جهلهم- كالذي خلق من الأم لا- يعرف شيئا، و البعث في الأميين لا- يلانزم أن يكون لهم و حدهم، حتى تدل الآية على خصوص نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رَسُولًا لِأَجْلِ هَدَايَتِهِمْ مِنْهُمْ أَي من أنفسهم و من أهل بلدهم.

يَتْلُوا أَى يَقْرَأ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى أَوْلَيْكَ الْأَمِينِ آيَاتِهِ أَدَلَّتْهُ، أَوْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَ يُزَكِّيهِمْ أَى يَطْهَرُهُمْ تَطْهِيْرًا عِلْمِيًّا، فَإِنِ الْمَعْلَمُ الرَّقِيبُ يَطْهَرُ تَلَامِيذَهُ مِنْ أَدْرَانِ الْقُلُوبِ وَ الْجَوَارِحِ بِحَفْظِهِمْ عَنِ الرِّذَالِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٢

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٣ الى ٤]

وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)
وَ الْأَعْمَالِ الْمُنْكَرَةِ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ أَحْكَامَهُ وَ شَرَائِعَهُ وَ الْحِكْمَةَ بِأَنْ يَعْرِفُوا وَضْعَ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا، فَإِنِ الْحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ وَ إِنْ كَانُوا هَؤُلَاءِ الْأَمِيونَ مِنْ قَبْلُ أَى قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الرَّسُولُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَى فِي انْحِرَافٍ ظَاهِرٍ، فَلَا عَقَائِدَ صَحِيحَةَ وَ لَا أَعْمَالَ صَالِحَةَ وَ لَا عَادَاتٍ طَيِّبَةَ، وَ لَا أَخْلَاقَ فَاضِلَةَ، يَعْنَى أَنَّهُ يُوصلُهُمْ إِلَى أَرْقَى مَرَاقِي الْكَمَالِ، وَ إِنْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي أْبْعَدِ مَتَاهَاتِ الضَّلَالَةِ.

[٤] وَ يَعْلَمُ آخَرِينَ مِنْهُمْ أَى مِنْ أَوْلَيْكَ الْأَمِينِ، مِمَّنْ يَأْتَى بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ كُونَهُمْ مِنْهُمْ إِمَّا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِهِمْ أَوْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ بِالْإِيمَانِ يَكُونُونَ مِنْ جِنْسِ أَوْلَيْكَ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ «لَمَّا» لَمَّا لَمْ يَقْعُ وَ يَنْتَظِرُ وَقُوعَهُ، أَى لَمْ يَلْحَقُوا- بَعْد- بِهِمْ، مَعَ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ لِحُوقِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ فَيَتِمَكَّنُ مِنَ الْهَدَايَةِ لِلْآخَرِينَ الْحَكِيمُ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا.

[٥] ذَلِكَ أَى الْإِرْسَالِ، بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُرْسَلِ بِأَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا، أَوْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ بِأَنْ شَرَفَهُمْ بِأَنْ هَدَاهُمْ فَضْلُ اللَّهِ لَطْفَهُ وَ رَحْمَتَهُ يُؤْتِيهِ أَى يَعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَكِنِ الْمَعْلُومُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْطَى شَيْئًا إِلَّا حَسَبَ الْحِكْمَةِ، بِمَنْ كَانَ صَالِحًا لِلْإِعْطَاءِ، وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الَّذِي فَضَلَهُ أَعْظَمَ مِنْ فَضْلِ كُلِّ - ذَى فَضْلٍ، وَ إِعْطَاءِ كُلِّ مَعْطَى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٣

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٥ الى ٦]

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦)

[٦] ثُمَّ نَبَهَ السِّيَاقَ الْمُسْلِمِينَ بِوَجُوبِ التَّمَسُّكِ بِالشَّرِيعَةِ حَتَّى لَا يَكُونُوا كَالْيَهُودِ الَّذِينَ تَرَكَوا الْعَمَلَ بِالتَّوْرَةِ، بَعْدَ مَا تَمَسَّكُوا بِهَا فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ أَى حَمَلَهُمُ اللَّهُ التَّوْرَةَ، وَ كَأَنَّ الْوَجْهَ فِي التَّعْبِيرِ بـ «حَمَلُوا» إِفَادَةُ أَنَّهُمْ إِنَّمَا تَمَسَّكُوا بِهَا بِكُلِّ صَعُوبَةٍ وَ تَحْمِيلٍ لَـ. بِالطَّوْعِ وَ الرَّغْبَةِ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا بِأَنْ تَرَكَوا الْعَمَلَ بِهَا بِاخْتِيَارٍ، وَ لَذَا جَاءَ الْفِعْلُ هُنَا مِنْ بَابِ الْمَجْرَدِ، وَ الْمُرَادُ بِ «لَمْ يَحْمِلُوهَا» رَفْضُوهَا وَ تَرَكَوا أَحْكَامَهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا جَمْعُ سَفَرٍ وَ هُوَ الْكِتَابُ، وَ الْحِمَارُ الَّذِي يَحْمِلُ الْكُتُبَ عَلَى ظَهْرِهِ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا، وَ الْيَهُودُ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ مَعَ كَوْنِ التَّوْرَةِ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا وَ لَا يَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهَا فَمَنْ تَمَسَّكَ بِالْقُرْآنِ ظَاهِرًا وَ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ كَانَ مِثْلَهُ كَذَلِكَ، بِئْسَ الْمِثْلُ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ الْمُرَادُ بِهِمُ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالتَّوْرَةِ- تَكْذِيبًا عَمَلِيًّا- أَوْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ، وَ الْمَعْنَى بِئْسَ الْقَوْمَ قَوْمٌ هَذَا مِثْلَهُمْ، فَإِنَّ الْمِثْلَ السَّيِّئَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلشَّخْصِ السَّيِّئِ، وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي بِالْأَلْطَافِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ فَلَمْ يَسْلُكُوهُ.

[٧] وَ قَدْ كَانَ الْيَهُودُ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ- بَعْدَ تَرَكَهِمُ الْعَمَلَ بِالتَّوْرَةِ- وَ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيَفْهَمَ زَعْمَهُمْ هَذَا قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهْؤُلَاءِ الْيَهُودِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا أَى سَمَّوْا يَهُودًا، وَ تَهَوَّدُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٤

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ٧ الى ٨]

وَ لَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ وَ أَنْكُمْ شَعْبُ اللَّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ دُونِ النَّاسِ وَ أَنْ سَائِرَ النَّاسِ لَا يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، وَ لَيْسُوا بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ، فَإِنَّ الْوَلِيَّ لَا يَخَافُ مِنَ الْمَوْتِ، إِذْ يَعْلَمُ بَعْلُو حَالَهُ هُنَاكَ.

[٨] وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَى لَا يَتَمَنَّى الْيَهُودُ الْمَوْتَ أَبَدًا أَى إِلَى الْأَبَدِ بِسَبَبِ مَا عَمَلُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَ عَصِيَانِهِمْ وَ أَنْ أحوالهم فِي الْآخِرَةِ سَيِّئَةٌ مِنْ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ نِسْبَةُ التَّقْدِيمِ إِلَى الْيَدِ بِاعتبار أن الْيَدِ هِيَ الْأَكْثَرُ عَمَلًا، مِنْ بَابِ علاقهُ الجزء وَ الكل وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ عَالِمٌ بِأحوالهم وَ سيجازيهم على ظلمهم، وَ هَذَا تهديد لليهود.

[٩] وَ هَلْ يَنْفَعُ عَدَمَ تَمَنِّيهِمُ الْمَوْتَ وَ فِرَارِهِمْ مِنْهُ؟ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفَرُّونَ مِنْهُ بِتَوْفِيرِ أسبابِ الصَّحَّةِ لِأَنْفُسِكُمْ، وَ عَدَمَ حُضُورِكُمْ فِي مَوَاضِعِ الْخَطَرِ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ يَلْقَاكُمْ وَ يَنْزِلُ بِكُمْ لَا مُحَالَةً ثُمَّ بَعْدَ الْمَوْتِ تُرَدُّونَ أَى تَرْجِعُونَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَيْثُ صَدَرَ عَنْ إِرَادَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، كَانَ ذَهَابَهُ إِلَى حِسَابِهِ وَ جَزَائِهِ، شَبِيهَا بِالرَّدِّ وَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ أَى مَا غَابَ عَنِ الْحَوَاسِ وَ الشَّهَادَةِ أَى مَا ظَهَرَ لِلْحَوَاسِ وَ شَهِدَهَا، أَى حَضَرَهَا الشَّخْصَ، وَ الْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ السِّرَّ وَ الْعَلَانِيَةَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٥

[سورة الجمعة (٦٢): آية ٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَيُبَيِّنُكُمْ أَى يُخَبِّرُكُمْ - إخبار الذي يريد الجزاء - بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ أَوِ الْقَبِيحَةِ.

[١٠] وَ إِذَا تَبَيَّنَ لَزُومُ الْعَمَلِ بِالشَّرِيعَةِ حَتَّى لَا يَكُونَ الْمُسْلِمُ، كَمَثَلِ الْيَهُودِ فِي تَرْكِهِمُ الْعَمَلَ بِالتَّوْرَةِ، جَاءَ السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ شَرِيعَةَ عَظِيمَةً هِيَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ، وَ هَذِهِ الصَّلَاةُ وَاجِبَةٌ فِي زَمَنِ الْحُضُورِ، أَمَا زَمَنُ الْغَيْبَةِ فَلَعَلَّمَانَا فِيهَا خِلَافًا، وَ الَّذِي اسْتَضَهَّرْتَهُ أَنْ وَجُوبَهَا خَاصٌ بِالْإِمَامِ أَوْ مَأْدُونِهِ فِي زَمَانِ بَسْطِ يَدِ الْإِمَامِ، وَ لِذَا لَمْ يَرِدْ قِيَامُ الْأئِمَّةِ مِنْ بَعْدِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ بِهَا، وَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِأَجْلِ التَّقِيَّةِ، وَ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي اشْتِهَارِ تَرْكِهَا بَيْنَ فَهَائِنَا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ وَ قَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِذَا جَلَسَ عَلَى الْمَنبَرِ لِخُطْبَةِ الْجُمُعَةِ أَذَّنَ بِلَالٍ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، وَ كَذَا جَرَى أَبُو بَكْرٍ وَ عَمْرٌ بَعْدَهُ حَتَّى جَاءَ عَثْمَانُ، فَكَانَ يُؤذِنُ عَلَى سَطْحِ دَارِهِ أَوْ لَا ثُمَّ إِذَا جَلَسَ عَلَى الْمَنبَرِ أَذَّنَ ثَانِيًا - وَ هَذَا هُوَ الْأَذَانُ الثَّلَاثُ الَّذِي قَالُوا عَنْهُ أَنَّهُ بَدْعُهُ، وَ كَوْنُهُ ثَالِثًا بِاعتبار الأذان الإعلامي، وَ الْأَذَانُ عَلَى الْمَنبَرِ، الْمَشْرُوعِينَ - أَمَا الْأَذَانُ عَلَى سَطْحِ الدَّارِ فَهُوَ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَى بَعْضُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَ هُوَ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَ سُمِّيَ جُمُعَةً لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا لِلصَّلَاةِ، وَ قَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمَ عِيدًا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ قَرَّرَهُ الْإِسْلَامُ، كَمَا أَنَّ النِّيروزَ كَانَ عِيدًا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ قَرَّرَهُ الْإِسْلَامُ.

فَاسْعَوْا السَّعَى هُوَ الْمَضَى بِسُرْعَةٍ وَ عَجَلَةٍ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٦

[سورة الجمعة (٦٢): الآيات ١٠ إلى ١١]

فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

الصَّلَاةُ الْجُمُعَةُ وَ ذَرُّوا الْبَيْعَ أَى دَعُوا الْمَعَامِلَةَ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ «الْبَيْعَ» مِنْ بَابِ الْمَثَالِ الْغَالِبِ، وَ إِذَا الْمُرَادُ كُلُّ عَمَلٍ يَنَافِي الذَّهَابَ إِلَى الصَّلَاةِ ذَلِكُمْ أَى السَّعَى إِلَى الذِّكْرِ، وَ تَرْكُ الْمَعَامِلَةِ خَيْرٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي دِينِكُمْ وَ دُنْيَاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَى إِنْ عَلِمْتُمْ الْأَشْيَاءَ لَعَلَّمْتُمْ أَنَّ السَّعَى خَيْرٌ لَكُمْ.

[١١] فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ أَى أُدِيَتْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ فَانْتَشِرُوا أَى تَفَرَّقُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الْأَرْضِ بِأَنْ يَذْهَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى عَمَلِهِ الْمَوْجِبِ لِلانْتِشَارِ وَ التَّفَرُّقِ وَ ابْتَغُوا أَى اطْلُبُوا بِالْكَسْبِ وَ مَا أَشْبَهَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ رِزْقَهُ وَ لَطْفَهُ، وَ هَذَا أَمْرٌ لِلإِبَاحَةِ، لِأَنَّهُ بَعْدَ الْحِظْرِ، نَحْوُ قَوْلِهِ وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا «١» وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا بِأَنْ تَكُونُوا مُتَذَكِّرِينَ لَهُ لِسَانًا وَ قَلْبًا، حَالِ الْإِبْتِغَاءِ وَ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ مَجْلَى الْقُلُوبِ عَنْ صَدَأِ الْغَفْلَةِ وَ

المعاصي لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى لكي تفوزوا برضاه وإحسانه.

[١٢]

قال جابر: أقبلت غير و نحن نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانفض الناس إليها فما بقى غير اثني عشر رجلا أنا فيهم فنزلت هذه الآية، و فى رواية إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: و الذى نفسى بيده لو تابعتهم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادى نارا

«٢» و إذا رأوا هؤلاء الذين حضروا

(١) المائدة: ٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٥٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٧

لصلاة الجمعة تجارةً مقبله، فقد كانت تجارتهم تأتي من أطراف البلاد فى مواسم معينه، فمن لم يسرع للاشتراء فاتته السلعة، و لزم عليه الانتظار إلى الموسم الآخر لسد حاجاته بالاشترى أو لهواً و كان من عادة العير التجارية إذا جاءت أن يدق الطبل إعلاماً لأهل المدينة بمجيئها و هذا هو اللهو الذى يلهى عن ذكر الله و يشغل عن الانصراف إلى الصلاة أنفصوا أى أسرعوا إليها إلى تلك التجارة و اللهو- باعتبار كل واحد منهما- و الانفصاض هو التفرق بسرعة و تَرَكُوكَ يا رسول الله قائماً تخطب خطبة الجمعة، بأن لم يبالوا بشأنك تقديماً لأمر الدنيا على أمر الآخرة قُلْ يا رسول الله لهم ما عند الله خَيْرٌ مِنَ اللّهِ فثوابه على البقاء مستمعا خطبة الجمعة أفضل من اللهو و خير لكم و مِنَ التَّجَارَةِ و لعل تقديم التجارة هناك و تأخيرها هنا، لأن هناك شروع من الأقوى يعنى أنهم يذهبون للتجارة بل لما دون التجارة و هو اللهو ... و هنا شروع من الأضعف يعنى أن ما عند الله خير من اللهو و ما فوق اللهو و هو التجارة و الله خَيْرٌ الرَّازِقِينَ فلا يزعم أحد أنه لو ترك الاشتراء من العير لبقى بلا رزق، بل الله يرزقه من واسع فضله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٨

٤٣ سورة المنافقون مدنية / آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لأنها مشتملة على لفظة «المنافقون» و هى كسائر السور المدنية تشتمل على النظام، بالإضافة إلى قضايا العقيدة، و لما ختمت سورة الجمعة بترك الرسول قائماً، الذى هو من أشباه أعمال المنافقين ابتدأت هذه السورة بقصة من قصص المنافقين التى وقعت فى إحدى غزوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

و

قد ورد أن هذه السورة نزلت فى غزوة «بنى المصطلق» فى سنة خمس من الهجرة، و كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج إليها، فلما رجع منها نزل على بئر، و كان الماء قليلاً فيها و كان الأنس بن سيار حليف الأنصار و كان جهجاه بن سعيد الغفارى أجيراً لعمر، فاجتمعوا على البئر، فتعلق دلو سيار بدلو جهجاه فقال سيار دلوى و قال جهجاه دلوى؟ فضرب جهجاه وجه سيار فسال منه الدم، فنادى سيار بالخزرج و نادى جهجاه بقريش، فأخذ الناس السلاح، و كادت أن تقع الفتنة فسمع عبد الله ابن أبى النداء فقال ما هذا؟ فأخبروه بالخبر، فغضب غضباً شديداً، ثم قال قد كنت كارها لهذا المسير، ما ظننت أنى أبقى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤١٩

إلى أن أسمع مثل هذا فلا يكن عندى تغيير ثم أقبل على أصحابه و قال هذا عملكم! أنزلتموهم منازلكم و واسيتموهم بأموالكم و قيتموهم بأنفسكم و أبرزتم نحوركم للقتل فأرمل نساءكم و أيتم صبيانكم و لو أخرجتموهم لكانوا عيالاً على غيركم.

ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل- وأراد بالأعز هو وأمثاله، وبالأذل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين- وكان في القوم زيد بن أرقم وكان غلاماً وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ظل شجرة في وقت الهجرة و عنده قوم من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبي، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لعلك وهمت يا غلام؟ قال لا والله ما وهمت فقال: لعلك غضبت عليه؟ قال: لا والله ما غضبت عليه. قال: فلعله سفه عليك؟ قال لا والله، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لشقران مولاه أن يقدم راحلته وركب وتسامع الناس بذلك فقالوا ما كان رسول الله ليرحل في مثل هذا الوقت؟ فرحل الناس ولحقه سعد بن عبادة فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ما كنت لترحل في مثل هذا الوقت؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أو ما سمعت قولاً قاله صاحبكم؟ قالوا وأى صاحب لنا غيرك يا رسول الله قال: عبد الله بن أبي زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال: يا رسول الله فأنت وأصحابك الأعز وهو وأصحابه الأذل فسار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يومه كله لا يكلمه أحد، فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبي تلومه فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئاً من ذلك فقالوا: فقم بنا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى نعتذر إليه، فلوى عنقه فلما جن الليل سار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليله كله، والنهار، فلم ينزلوا إلا للصلاة، فلما كان من الغد نزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ونزل أصحابه وقد انهدهم الأرض من السهر الذي أصابهم، فجاء عبد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٠

الله بن أبي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فحلف عبد الله أنه لم يقل ذلك وأنه ليشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله وأن زيدا قد كذب على.

فقبل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منه- أى أظهر السكوت- وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ويقولون كذب على عبد الله سيدنا، فلما رحل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان زيد معه يقول اللهم إنك لتعلم أنى لم أكذب على عبد الله بن أبي، فما سار إلا قليلاً حتى أخذ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما كان يأخذه من الحالة عند نزول الوحي عليه فثقل حتى كادت ناقته أن تبرك من ثقل الوحي، فسرى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو يسكب العرق عن جبهته، ثم أخذ بأذن زيد بن أرقم فرفعه عن الرحل ثم قال: يا غلام صدقت ووعى قلبك وأنزل الله فيما قلت قرآناً، فلما نزل جمع أصحابه وقرأ عليهم سورة المنافقين ففضح الله عبد الله بن أبي ثم جاء ولد عبد الله بن أبي إلى رسول الله وقال: يا رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرنى أن أكون أنا الذى أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الأوس والخزرج أنى أبرهم ولداً بوالدى، فإنى أخاف أن تأمر غيرى فيقتله فلا تطيب نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله: بل نحسن لك صحابته ما دام معنا. (١)

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله، ليكون عوناً لنا فى حوائجنا، الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء ليلطف علينا بالرحمة فيحل مشاكلنا الدنيوية والأخروية.

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٢٨٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢١

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)

[٢] إذا جاءك يا رسول الله المنافقون والمراد به عبد الله بن أبي، وقد تقدم أن الجمع قد يستعمل بمعنى الجنس، ويراد به الفرد، وإنما يعبر بالجمع لإفادة أن من هذا وصفه فحكمه حكم ذلك الفرد الصادر منه الفعل كما أن الفرد قد يأتي بمعنى الجنس، حيث تسليخ منه الفردية، وتبقى الجنسية التي في ضمن الفرد، والمنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام قالوا في محضرك نشهد أنك لرَسُولُ اللَّهِ بأن هذا هو اعتقادنا القلبي، لا- إظهارنا اللفظي فقط وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وهذه جملة جاء بها القرآن تمهيدا للجملة التالية، لئلا تنصرف إلى إنكار الله سبحانه رسالته حيث يكذب المنافقين وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ في ادعائهم أنهم يعتقدون برسالة الرسول من أعماق قلوبهم، فإنهم إنما آمنوا باللسان وقلوبهم باق على الكفر والجحود.

[٣] اتَّخَذُوا أَي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَيْمَانَهُمْ جَمْعٌ يَمِينٌ وَ هِيَ الْقِسْمُ أَي حَلْفُهُمْ جُنَّةٌ أَي وَقَايَةُ يَتَسْتَرُونَ بِهَا حَتَّى لَا- يَصِيبُهُمْ أَدَى مِنَ الرَّسُولِ وَ الْمُسْلِمِينَ فَصَيَّدُوا أَي مَنَعُوا بِسَبَبِ حِفْظِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بَاطِنًا- بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ- عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ أَي طَرِيقِ دِينِهِ وَ ثَوَابِهِ لِأَنَّهُمْ بِنِفَاقِهِمْ يَحْفَظُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي زَمْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ يَشَاغِبُونَ خَفِيَّةً، وَ يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ إِنَّهُمْ أَي الْمُنَافِقِينَ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٢

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٣ الى ٤]

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)

أى بشئ العمل عملهم حيث يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر صدا عن سبيل الله.

[٤] ذلِكَ النِّفَاقِ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ ثُمَّ كَفَرُوا بِقُلُوبِهِمْ، فَإِنَّ الْمُنْحَرِفَ الطَّبْعَ إِذَا رَأَى خَيْرًا أَسْرَعَ إِلَيْهِ مُخْلِصًا وَإِذَا رَأَى التَّصَادُمَ مَعَ مَصَالِحِهِ بَقِيَ فِي ظَاهِرِ الْمَوَافَقَةِ- حَزَنًا- وَ يَتَرَجَّعُ فِي الْبَاطِنِ تَرْجِيحًا لِمَصَالِحِهِ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ تَمَرَّنَا عَلَى الْكُفْرِ وَ التَّمَادَى فِي صِفَةِ يَوْجِبُ تَطْبِيعَ النَّفْسِ بِهَا إِذْ تَكُونُ مَلَكَةً لِلتَّمَادَى، وَ الطَّابِعُ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ هَكَذَا، وَ إِنْ كَانَ الطَّبْعُ بِسَبَبِ نِفَاقِهِمْ، وَ الْمَرَادُ بِالْقُلُوبِ الْأَنْفُسَ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ أَي لَا يَفْهَمُونَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَ التَّقْوَى لِأَنَّ نَفْسَهُمْ انْحَرَفَتْ، وَ إِذَا انْحَرَفَتْ النَّفْسُ رَأَى الْجَمِيلَ قَبِيحًا وَ الْقَبِيحَ جَمِيلًا.

[٥] وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ أَي نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ أَيُّهَا الرَّائِي تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ بِحَسَنِ مَنَظَرِهِمْ وَ تَمَامِ خَلْقَتِهِمْ وَ جَمَالِ صُورِهِمْ وَإِنْ يَقُولُوا أَي يَتَكَلَّمُوا فِي أَي شَأْنٍ مِنَ الشُّؤْنِ تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ أَي أَصْغَيْتِ إِلَى كَلَامِهِمْ لَجَمِيلِ بَيَانِهِمْ وَ فَصَاحَةِ مَنَظَرِهِمْ، فَهُمْ مَعَ حَسَنِ الْمَنَظَرِ وَ عَذُوبَةِ الْبَيَانِ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدٌ فَارْعُونَ عَنِ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَ الْفَضَائِلِ، كَالْخَشْبَةِ الْفَارِغَةِ الَّتِي لَا تَتِمَّكُنْ أَنْ تَقِفَ بِنَفْسِهَا فَتَسْتَدُ لِحَائِطٍ وَ نَحْوَهُ لِتَقِفَ وَ تَسْتَقِيمَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٣

[سورة المنافقون (٦٣): آية ٥]

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَعْفِفْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ أَوْ رَأَيْتَهُمْ يُصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥)

فالخشبة التي أكلت جوفها الأرضة ظاهرها جميل و باطنها فارغ لا تتمكن أن تقف هي لركاكتها و هؤلاء كذلك لهم ظاهر من غير باطن يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ وَ كُلِّ نَازِلَةٍ عَلَيْهِمْ لَجَنَبِهِمْ وَ فَرَاغِ قُلُوبِهِمْ عَنِ فَضِيلَةِ الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ ثَابِتَ الْقَلْبِ رَابِطَ الْجَاشِ أَمَّا الْمُنَافِقُ فَإِنَّهُ خَائِفٌ دَائِمًا أَنْ يَظْهَرَ بَاطِنُهُ فَيُفْضَحَ، وَ لِذَا كَلِمَا حَدِثَ شَيْءٌ خَافَ وَ جَبَنَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ وَ يَفْضَحَ بَاطِنَهُ، وَ الْفَاجِعَةُ وَ النَّازِلَةُ تَسْمَى صَيِّحَةً لِأَرْتِفَاعِ الصِّيَاحِ فِيهَا مِنْ بَابِ عِلَاقَةِ السَّبَبِ وَ الْمَسْبَبِ هُمُ الْعَدُوُّ أَي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ هُمْ أَعْدَاؤُكَ الْوَحِيدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكَامِلُونَ فِي الْعَدَاوَةِ إِذْ الْكُفْرَارُ لظهورهم يؤمن شرهم، أما المنافق فهو يخفي في الجماعة المؤمنة بإظهار الإيمان حيث لا يرى و لا يعرف حتى يفسد و يسبب المشاكل.

فَاحْذَرُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ أَنْ يَخْتَلَطُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَيَطَّلِعُوا عَلَى أَسْرَارِهِمْ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا بِمَنَاطِقِ الْعِزَّةِ وَنِقَاطِ الضَّعْفِ، فَهَمُّ أَقْدَرِ مِنَ الْعَدُوِّ الْخَارِجِ عَلَى الْإِفْسَادِ وَالْمُؤَامَرَةِ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ دَعَاءَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يِقْتَلَهُمُ اللَّهُ لِيَسْتَرِيحَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ شَرِّهِمْ أَنِّي يُؤَفِّكُونَ أَى كَيْفَ يَصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَعَ الْأَدْلَةِ الْوَاضِحَةِ؟

[٦] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا أَى هَلُمُوا وَآتُوا يَسْتَعْغِرُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَى يَطْلُبُ لَكُمْ غَفْرَانَ اللَّهِ لَمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الذَّنْبِ لَوْوَا رُؤُسَهُمْ أَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٤

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٦ الى ٧]

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُسُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧)

حركوها حركة المعرض، و عطفوها نحوها إلى جانب يخالف جانب القائل تكبرا وإعراضا ورأيتهم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو أيها الرائي يصدون أي يمنعون عن سبيل الحق وهم مستكبرون يظهرون كبرهم وأنهم لا حاجة لهم إلى استغفار الرسول. [٧] و إذ كان أولئك منافقين ف سواء عليهم في عدم الانتفاع و عدم غفران الله لهم أستغفرت لهم يا رسول الله أم لم تستغفر لهم فإن الاستغفار إنما ينفع المؤمن دون المنافق لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ أَبَدًا لِأَنَّهُمْ يَبْطِنُونَ الْكُفْرَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي بِالْأَلْطَافِ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ بِالنِّفَاقِ وَالشَّقَاقِ.

[٨] هُمُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَصْحَابِ الْحَاجَةِ حَتَّى يَنْفُسُوا أَى يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَيَأْتِي التَّعْلِيقُ عَلَى كَلَامِهِمْ هَذَا بِقَوْلِهِ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي يَبْذُلُ مِنْهَا لِمَنْ حَوَالَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ ظَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ خَزَائِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَمْوَالِ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى إِذَا قَطَعُوا الْأَمْوَالَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يَتَفَرَّقُونَ، وَجَهِلُوا أَنَّ الشَّمْسَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٥

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٨ الى ٩]

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩)

والأرض والماء والهواء التي هي خزائن الأموال والأرزاق كلها بيد الله تعالى فيبذل منها على المسلمين بالزراعة والاكْتِسَابِ وما أشبهه، فليس منع أولئك سببا لتفرق هؤلاء المؤمنين من حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولكن المنافقين لا يفقهون أي لا يفهمون أن الخزائن بيد الله تعالى.

[٩] يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصَلِّقِ لَيُخْرِجَنَّ الْمَاعِزُ يَرِيدُونَ الْمُنَافِقِينَ أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا أَى مِنَ الْمَدِينَةِ الْأَذَلَّ يَرِيدُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ، وَيَأْتِي الرَّدُّ عَلَيْهِمْ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَهُوَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِرَسُولِهِ بِاعْتِزَالِ اللَّهِ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِتَمَسُّكِهِمُ بِالْإِسْلَامِ الْمَوْجِبِ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَعِزَّتِهِمَا وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ فَيُظَنُّونَ أَنَّ الْعِزَّةَ لَهُمْ حَيْثُ يَجِدُونَ أَعْوَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَمَقْدَارًا يَسِيرًا مِنَ الْمَالِ، وَقَدْ دَلَّتِ التَّجْرِبَةُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ جَاءَ الْأَذَلُّ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي - إِلَى الْأَعَزِّ - وَهُوَ الرَّسُولُ، يُعْطَى الْبِرَاءَةَ عَمَّا اقْتَرَفَهُ.

[١٠] وَإِذَا تَقَدَّمَ ذِكْرُ النِّفَاقِ الَّذِي هُوَ إِطْطَانُ الْكُفْرِ وَإِظْهَارُ الْإِيمَانِ جَاءَ السِّيَاقُ لِيَذَكِّرَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ لَا يَفْعَلُوا مَا هُوَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ وَرَاءَ ظَهْرِهِمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَى لَا تَشْغَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٦

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ١٠ الى ١١]

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠)
وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)

بأن تشتغلوا بها فلا تراعوا حق الله فيها ولا تحضروا للصلاة وغيرها من سائر الفرائض اشتغالا بالمال والولد.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ اشْتَغَالَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَأَوْلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ إِذْ لَا نَجَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ.

[١١] وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ فِيمَا أَمَرْنَا مِنَ الْخَمْسِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَسَائِرِ الْحَقُوقِ- ولعله عام يشمل الإنفاق من العلم والجاه والقوة بالإضافة إلى الإنفاق من المال- مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ أَي يحضره الموت، بأن تأتي أسبابه وعلائمه فَيَقُولَ يَا رَبِّ لَوْلَا أَي هَلَّا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ بِأَنْ أَبْقَى فِي الدُّنْيَا وَلَوْ مَدَّةً قَلِيلَةً لِأَصْلِحَ شَأْنِي فَأَصَّدَّقَ أَي أَتَصَدَّقَ وَأَزْكِي مَالِي وَأَنْفِقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ أَصْلَى وَأَصُومَ وَأَحْجَ وَأَبْذَلَ نَفْسِي فِي سَبِيلِكَ وَحَسَبَ أَوْامِرَكَ.

[١٢] وَ هَلْ يَنْفَعُ هَذَا الطَّلَبُ؟ كَلَا وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا يَبْقَاةً فِي الدُّنْيَا زِيَادَةً عَلَى الْمَدَّةِ الْمَقْدَرَةِ لَهَا إِذَا جَاءَ وَ حَضَرَ أَجَلُهَا فَلَا يَتِمَّكَنُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِيَدِنِهِ وَ الْإِنْفَاقِ مِنْ مَالِهِ وَ اللَّهِ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ أَيهَا الْبَشَرُ فَلَا تَفْعَلُوا مَا يُوْجِبُ الْعِقَابَ وَ النِّكَالَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٧

٦٤ سورة التغابن مدنية / آياتها (١٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «التغابن» وهي كسائر السور المدنية تعالج النظام إلى جنب بيان العقيدة، ولما ختمت سورة المنافقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، افتتحت هذه السورة بذكر المطيع والعاصي.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدئ باسم الله الجامع لجميع صفات الكمال، و هل هناك أحق بالابتداء ممن هو الأول والآخر، و من كان قبل كل شيء ثم كَوْن كل شيء؟ الرحمن الرحيم الذي يرحم كل شيء و الرحمة في الإنسان حالة في القلب، و لكن فيه سبحانه يراد بها فعل يترتب على الرحمة من الفضل و الإنعام إذ لا مجال فيه سبحانه لمثل هذه الصفات، و لذا قالوا «خذ الغايات و اترك المبادئ».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٨

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)

[٢] يُسَبِّحُ لَعَلَّ التَّعْبِيرَ بِالْمَاضِي فِي بَعْضِ السُّورِ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى التَّسْبِيحِ، وَ بِالْمُضَارِعِ فِي الْبَعْضِ بِاعْتِبَارِ الْحَالِ وَ الْاسْتِقْبَالَ لِلَّهِ أَي يَنْزِعُهُ عَنِ النَّقَائِصِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ ظَرْفًا وَ مَظْرُوفًا- كَمَا سَبَقَ- لَهُ الْمُلْكُ فَهُوَ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ الْحَقِيقِيُّ، وَ سَائِرُ الْمَالِكِينَ مُلْكُهُمْ مَحْدُودٌ، وَ إِضَافِي لِاخْتِصَاصِ الشَّيْءِ بِتَخْصِيصِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ حَقِيقِيُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ، إِذْ الْمَحَامِدُ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْحَمْدَ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى الْجَمِيلِ الْاِخْتِيَارِي، وَ فَاعِلُ كُلِّ جَمِيلٍ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، أَمَا سَائِرُ مَنْ يَحْمَدُ فَهُوَ مَحْمُودٌ حَمْدًا مَقِيدًا إِضَافِيًا وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَقْدِرُ عَلَى الْإِبْجَادِ وَ الْإِعْدَامِ وَ التَّصَرُّفِ كَيْفَمَا شَاءَ.

[٣] هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَيهَا الْبَشَرُ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ بِاللَّهِ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ وَ ظُهُورِ الْمَحْجَةِ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُلُ، وَ هَذَا التَّفْرِيعُ لِيَبَانَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الْكُفْرَ بَعْدَ كَوْنِ الْمَلِكِ وَ الْخَلْقِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَ بَعْدَ تَسْبِيحِ الْكَوْنِ لِعَظَمَتِهِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ أَنْتُمْ

أيها البشر بصيرٌ يرى الأشياء، ثم يجازيكم عليها.

[٤] خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ظَرْفًا وَمَظْرُوفًا بِالْحَقِّ فَلَمْ يَكُنْ الْخَلْقَ عَثَاً وَ لَغْوًا، كَمَا يَفْعَلُ الْإِطْفَالُ، مِنْ صَنْعِ التَّمَاثِيلِ مِنْ طَيْرٍ وَ نَحْوِهِ لِلْهَوَى، فَإِنْ خَلَقَهَا كَانَ لِحِكْمَةٍ وَ غَايَةٍ وَ مَقْصِدٍ وَ صَوَّرَكُمْ بِأَنْ جَعَلَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٢٩

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ٤ الى ٥]

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْتَرُونَ وَ مَا تُعْلَنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)

لكم الصور الظاهرة من الحواس و الكيفيات و الصور الباطنة بأن جعل لكم العقل و الملكات فأحسن صوركم بصورة عامة، و إن كان في البشر من ليس حسن الصورة، فإن الأحكام يراد بها النوع لا- كل فرد- كما قرر في علمي البلاغة و الأصول- و إليه المصير أي تصيرون إلى حسابه و جزائه بعد الموت، أو في القيامة.

[٥] يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِمَّا يَحْدُثُ وَ مَا يَئْتِيهِمْ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمَعَاصِرِينَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَيْثُ إِعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ أَي عَذَبَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ حَتَّى ذَاقُوا عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَي مُؤَلِّمٌ مُوجِعٌ خِلَافَ الْأَصْلِ-

[٦] وَ إِذْ بَيْنَ السِّيَاقِ آيَاتٌ حَوْلَ الْأُلُوهِيَّةِ، جَاءَ لِيَهْدِدَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ اللَّهِ وَ الْإِيمَانَ بِهِ بِقَوْلِهِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ نَبَأُ أَيُّ خَيْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمَعَاصِرِينَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَيْثُ إِعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ أَي عَذَبَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ حَتَّى ذَاقُوا عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَي مُؤَلِّمٌ مُوجِعٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٠

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ٦ الى ٧]

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَعْجَلُوا اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَبِيعْتُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فِي الْآخِرَةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْعَذَابِ الَّذِي ذَاقُوهُ فِي الدُّنْيَا.

[٧] ذَلِكَ الْعَذَابُ إِنَّمَا شَمَلَهُمْ وَ أَخَذَهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِالْبَيِّنَاتِ أَي بِالْأَدْلَةِ الظَّاهِرَةِ وَ الْحُجْجِ وَ الْمَعَاجِزِ فَقَالُوا أَوْلَيْتُكَ الْكُفَّارِ، فِي رَدِّ دَعْوَةِ الرَّسْلِ أَوْ بَشَرٌ يَهْدُونَنَا أَي كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ الَّذِي هُوَ بَشَرٌ مِثْلَنَا يَهْدِينَا؟ وَ «بَشَرٌ» جِنْسٌ وَ لَذَا جِيءَ لَهُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ «يَهْدُونَنَا» فَكَفَرُوا بِالرَّسْلِ وَ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا أَي أَعْرَضُوا عَنِ قَبُولِ الْحَقِّ وَ اسْتَعْجَلُوا اللَّهُ أَي فَعَلَ فَعَلُ الْمُسْتَعْجِلِ عَنِ الشَّيْءِ وَ هُوَ تَرَكَهُ وَ شَأْنَهُ، وَ هَذَا بَعْدَ أَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ الْهَدَايَةَ وَ الرَّشَادَ فَلَمْ يَقْبَلُوا، وَ إِنَّمَا جِيءَ مِنْ بَابِ «الاستفعال» الظاهر في الطلب، لِأَنَّ الْغِنَاءَ فِي الْمَتَعَارِفِ إِنَّمَا يَأْتِي بِعَقْبِ الطَّلَبِ فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ بِالْمَحْسُوسِ، وَ إِذْ كَانَ الْكَلَامُ مُوَهِّمًا لِاحْتِيَاجِ اللَّهِ بِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ جَاءَ السِّيَاقُ لِيُدْفَعَ هَذَا التَّوَهُمَ بِقَوْلِهِ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ وَ لَا أَحَدٌ حَمِيدٌ بِأَفْعَالِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَحْمَدَ وَ لَا يَنْقُصَ عَنْ كَوْنِهِ مَحْمُودًا بِالذَّاتِ عَدَمِ حَمْدِ النَّاسِ لَهُ.

[٨] إِنْ الْكُفَّارِ تَوَلَّوْا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّسْلِ، وَ كَذَلِكَ تَوَلَّوْا عَنِ الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَيْقِنًا بَلْ زَعَمًا وَ ظَنًّا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ لَنْ يَحْيُوا لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَدًّا لَزَعْمِهِمْ بَلَى لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣١

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ٨ الى ٩]

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)

وَ حَقَّ رَبِّيَ اللَّهُ، بل لَتُبْعَنَّ أَي لتحشرن أحياء بعد الموت ثُمَّ لَتُنْبِتُونَ أَي تخبرن- على صيغة المجهول- و المخبر هو الله و الملائكة و الأنبياء و من يعينونه للحساب و الإخبار بما عمِلْتُمْ من الكفر و المعاصي، فإن المجرم يخبر بعمله ثم يعاقب وَ ذَلِكَ الْبَعثُ و الإخبار عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسِيرٌ سهل هين، فإن من خلق الخلق ابتداء قادر على أن يعيدهم.

[٩] و إذا تحقق البعث و الحساب و تحقق الجزاء فَأَمِنُوا أَيها البشر بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ بالإذعان بهما و اتباع أوامرهما وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَ هو القرآن إذ هو ينير سبيل الحياة المظلمة ليرى الإنسان طريقه نحو السعادة و من المعلوم أن الأئمة عليهم السلام من مصاديق ذلك النور- كما ورد «١»- وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ أَيها البشر خَبِيرٌ عالم مطلع، فإذا آمَنْتُمْ جزاكم بالثواب و الأجر و لا يذهب إيمانكم هدر.

[١٠] و ذلك البعث و الجزاء إنما يكون في يَوْمٍ يَجْمَعُكُمْ اللَّهُ لِيَوْمٍ يسمي بيوم الجَمْعِ لاجتماع الخلائق فيه للحساب ذَلِكَ الْيَوْمِ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَ هو تفاعل من الغبن بأن يغبن كل الآخر، فإن أهل الجنة يغبنون أهل النار باتخاذ منازلهم في الجنة- فإن لكل إنسان منزل في الجنة و منزل في النار- و بالعكس يغبن أهل النار أهل الجنة باتخاذ

(١) التحصين لابن طاووس: ص ٥٨٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٢

[سورة التغابن (٦٤): آية ١٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

منازلهم في النار- و تسمية هذا الطرف: غبنا من باب الجناس، من قبيل فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ «١»- وَ مَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ بَأْن يعتقد به و ينزهه عما لا يليق به وَ يَعْمَلْ صَالِحًا أَي عملا صالحا، و المراد به جنس العمل الصالح، لا عملا واحدا يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ أَي يمحي عن ديوانه ما أسلف من الذنوب و المعاصي، فإن التكفير بمعنى الستر و المحو وَ يُدْخِلْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَي من تحت قصورها و أشجارها الْأَنْهَارُ من عسل و خمر و لبن و ماء، في حال كونهم خَالِدِينَ فِيهَا أَي دائمين في تلك الجنات أَيْدًا لا زوال لهم عنها إلى غير النهاية ذَلِكَ الدخول في الجنة خالدا، هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و الفلاح الذي ليس وراءه فلاح.

[١١] وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَي بحججنا و أدلتنا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ الْمَلَاذِمُونَ لها، فإن صاحب الشيء هو الملازم له في حال كونهم خَالِدِينَ فِيهَا أَي باقون فيها أبدا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ أَي بئس النار مرجعا و مآلا للإنسان.

(١) البقرة: ١٩٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٣

[سورة التغابن (٦٤): آية ١١]

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)

[١٢] و إذ دعا سبحانه إلى الإيمان بين بعض ثمار الإيمان الطيبة التي ينالها الإنسان في هذه الدنيا قبل الفوز بالجنان في الآخرة، و قدم لذلك مقدمة بقوله ما أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ أَي لا تصيب الإنسان مصيبة و لا يقع الإنسان في مشكلة إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَاللَّهُ سبحانه هو الذي يقدر الأشياء فلو لا تقديره لم يقع شيء في الكون، فإن الله سبحانه قادر على أن يسكن الكوارث حتى لا تنزل بالإنسان، و إنما قرر سبحانه المصائب لتنزل بالإنسان للامتحان و الاختبار، و ليس معنى ذلك أن المصائب السيئة ينزلها الله سبحانه، بل معناه أنه تعالى لا

يأخذ أمامها حتى لا تنزل، فمن يقتل ظلما- ياذن الله- أى لا يمنع الله القاتل- منعا تكوينيا بأن تشل يده- حتى لا يتمكن من القتل و إنما ياذن و لا يأخذ بيد القاتل لكون الدنيا دار اختبار، فلو كان سبحانه يجبر على ترك القبيح لكان الإنسان بمنزلة الحجر و الجماد فى أفعاله الاضطرارية و يبطل الثواب و العقاب.

و إذ قدم السياق هذه المقدمة، أتى إلى ثمره الإيمان بقوله و مَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ إِيمَانًا صَاحِحًا رَاسِخًا يَهْدِي اللَّهُ قَلْبَهُ حَتَّى يَطْمَئِنَّ بِأَنَّ مَا يَصِيْبُهُ إِنَّمَا هُوَ بِعِلْمِ اللَّهِ، و أنه يجازيه بالثواب و الأجر على ما أصابه، و إذا علم الإنسان أن ما أصابه من الضرر يتدارك بأضعاف الخير، اطمأن قلبه و لم تصدمه المصيبة كثيرا و الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيجازى كل امرء بما عمل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٤

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٢ الى ١٤]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِن تَعَفَوْا وَ تَصَفَّحُوا وَ تَعَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) [١٣] وَ أَطِيعُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِى مَا أَمَرَكُم وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ أَى أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْإِطَاعَةِ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَى أَن يَبْلَغَكُمْ بِلَاغًا ظَاهِرًا، وَ قَدْ بَلَغَ فَلَيسَ عَلَيْهِ شَىْءٌ وَ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَ بِالْإِعَابَةِ إِلَيْكُمْ حَيْثُ أَعْرَضْتُمْ بَعْدَ الْبَلَاغِ. [١٤] اللَّهُ الَّذِى تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ هُوَ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا شَرِيكَ لَهُ وَ لَا نَظِيرَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بِأَن يَكْلُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ، وَ يَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ.

[١٥] و إذ دعا السياق الناس إلى الإيمان، جاء ليبين بعض أعداء المؤمن الذين يثبونه عن الإيمان ليتخذ منهم حذره يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ أَى نَسَائِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ أَى بَعْضِهِمْ، و لذا جىء ب «من» عِدُوًّا لَكُمْ لِأَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ وَ هُمْ كَافِرُونَ أَوْ مُنَافِقُونَ فَاحْذَرُوهُمْ أَن لَا يَصُدُّوكُم عَنِ الْحَقِّ وَ الْهُدَى وَ إِذَا آذَوْكُمْ بِسَبَبِ إِيمَانِكُمْ فِى إِن تَعَفَّوْا عَنْهُمْ دُونَ الْإِنْتِقَامِ وَ تَصَفَّحُوا وَ هُوَ أَن يَعْرِضَ الْإِنْسَانُ وَ يَبْدَى صَفْحَهُ وَجْهَهُ أَمَامَ الْمَكْرُوهِ وَ تَعَفَّرُوا بِأَن تَسْتَرُوا ذُنُوبَهُمْ فَلَا تَنْتَقِمُوا مِنْهُمْ، وَ كَانَ لِلْأَمْرِ ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ: سِتْرُ الذَّنْبِ، وَ عَدَمُ الْمَقَابَلَةِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٥

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ وَ اسْمِعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَن يُوَقِّعْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) حتى بالكلام، و عدم الانتقام.

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِّذُنُوبِكُمْ، أَوْ لِدُنُوبِهِمْ- إِذَا تَابُوا- رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ، فعلى المؤمن أن يتعلم الغفران و الرحمة منه سبحانه، و هذا بالإضافة إلى الثواب، خطة حكيمة فى جلب الناس إلى الإيمان، فإن السلم فى مقابل العدو، يخفف من حدته و يلقي فى نفسه حب مبدأ المسالم حتى ينجذب إليه.

[١٦] إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ أَى امْتِحَانٌ لَكُمْ، كى يتبين من يطيع الله فيهما و من يعصيه و هذا من باب المثال، و إلا فأقرباء الإنسان و زوجه أيضا فتنة و امتحان و الله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَ ثَوَابٌ كَبِيرٌ لِمَن أَطَاعَهُ وَ لَم يَخَالَفْهُ لِأَجْلِ أَهْلِهِ وَ مَالِهِ.

قال الإمام الباقر عليه السلام إن الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تعلق به ابنه و امرأته و قالوا نشدك الله أن تذهب عنا و تدعنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم فحذرهم الله أبناءهم و نساءهم و نهاهم عن طاعتهم و منهم من يرمى و يذرهم و يقول: أما و الله لئن لم تهاجروا معى ثم يجمع الله بينى و بينكم فى دار الهجرة لا أنفعكم بشىء أبدا، فلما جمع الله بينه و بينهم أمره الله أن يحسن إليهم و يصلحهم فقال «و إن تعفوا و تصفحوا و تغفروا فإن الله غفور رحيم»

«١».

[١٧] فَاتَّقُوا اللَّهَ أَي خافوا عقابه، بامثال أوامره مَا اسْتَطَعْتُمْ أَي بقدر

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٦

[سورة التغاين (٦٤): آية ١٧]

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)

استطاعتكم فإنه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها وَأَشِيمَعُوا من الرسول ما يأمركم وَأَطِيعُوا بعد ما سمعتم، و كأن المراد من السماع أن يستمعوا للعمل وَأَنْفِقُوا من أموالكم في سبيل الله خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ أَي إنفاقا خيرا، فإنه عائد لأنفسكم إذ تعطون بدله في الدنيا والآخرة وَمَنْ يُوقِ أَي يحفظ شَحَّ نَفْسِهِ أَي بخلها، بأن يحفظه الله سبحانه من البخل، فينفق كما أمر الله سبحانه فَأَوْلِيكَ المتصفون بتلك الصفات أو من وقى شح نفسه هُم الْمُفْلِحُونَ الفائزون، من أفلح بمعنى فاز و ظفر بالسعادة.

[١٨] ثم أن هذا المال الذي ينفقه الإنسان لا يذهب ضياعا بلا عوض بل هو بمنزلة قرض يقرضه الإنسان لله سبحانه، فيرده عليه أضعافا مضاعفة إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا بِأَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ لِلَّهِ وَ فِي سَبِيلِهِ بِلَا- مِّنْ وَ لَا- رِبَاءَ وَ لَا سَمْعَةَ وَ لَا حَبَّ الْمَدْحِ وَ مَا أَشْبَهَ مِنْ مَفْسَدَاتِ الْعَمَلِ يُضَاعِفُهُ اللَّهُ لَكُمْ أَي يعطى بدله أضعافا، حتى أن الواحد يصل عوضه إلى سبعمائة و أكثر وَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ بسبب ذلك الإنفاق وَ اللَّهُ شَكُورٌ أَي فاعل الشكر، فإن الإنسان الشاكر يثنى المشكور و يبذل له عوض عمله، و هكذا الله سبحانه يمدح المعطى و يبذل له عوضه حَلِيمٌ فلا يعاجل العاصي بالعقوبة، فهو شاكر للمطيع، حلیم عن العاصي.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٧

[سورة التغاين (٦٤): آية ١٨]

عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٨)

[١٩] و هو يعلم كل إنفاق و عمل صالح، فلا يضيع الحسن عنده، فإنه عالم الغيب ما غاب عن الحواس وَ الشَّهَادَةِ ما ظهر، أي السر و العلانية و المحسوس و غير المحسوس الْعَزِيزُ الغالب في سلطانه فيقدر على كل شيء الْحَكِيمُ الذي يفعل الأشياء حسب الحكمة و الصلاح.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٨

٦٥ سورة الطلاق مدنية / آياتها (١٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه المادة «طلقتم» و غيره، و هي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام إلى جنب العقيدة، و حيث ختمت سورة التغاين بالتحذير من بعض النساء، ابتدأت هذه السورة ببعض أحكامهن.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله ليكون عوننا لنا في مهامنا، فإنه خير مستعان إذ له العلم و القدرة و الحكمة، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة و لو كان الإنسان عاصيا له غير مطيع لأوامره، فهو يتفضل فوق الاستحقاق و يعين و إن لم يستحق المستعين الإعانة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٣٩

[سورة الطلاق (٦٥): آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)

[٢] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحيث أن خطاب العظيم يراد به هو ومن معه جاء السياق بلفظ الجمع في قوله إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ أى أردتم طلاق النساء، فإن الفعل يستعمل بمعنى الإرادة، كما أن الإرادة تستعمل بمعنى الفعل - كما سبق - فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ أى وقت عدتهن، وهى كونهن فى طهر غير المواقعة، فإن «العدة» بمعنى التعداد، و«العدد»، و«لام» لعدتهن، للتعدية، أى كون الطلاق فى العدة التى هى أيام الطهر وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ أى أحسبوا أيام عدة المرأة التى إذا مرت خرجت من حباله الزوج الأول و جاز أن تنكح رجلا جديدا وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فلا تخالفوا أمره بالطلاق فى حال الحيض، أو عدم إحصاء العدة حتى تبقى المطلقة تنتظر الانقضاء، لتكوين بيت جديد، ولا تعرف ذلك.

لا- تُخْرِجُوهُنَّ المطلقات مِنْ بُيُوتِهِنَّ أى مساكنهن وقت الطلاق حتى تنقضى العدة، فإن سكنها ما دامت فى العدة على الزوج ولا يَخْرُجْنَ هن من البيوت مدة العدة فإن خرجت بلا ضرورة أثمت إلاً أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ معصية فاحشة أى متجاوزة فى الإثم مُبَيَّنَةٍ أى ظاهرة كالزنى، كما روى عن الصادق عليه السلام «١»، فإذا زنت أخرجت عن البيت ليقام عليها الحد، وفى بعض الروايات تفسيرها بأن

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٤٩٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٠

[سورة الطلاق (٦٥): آية ٢]

فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)

تؤدى أهل البيت بلسانها فإنها تخرج إلى محل آخر وذلك لإيذائها «١» وَتَلَمَّكَ الأحكام التى ذكرت للطلاق حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ بأن يخالف أحكامه فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ أى عرضها للعقاب والنكال، ثم بين سبحانه بعض الحكمة فى الأحكام المتقدمة بقوله لا تَدْرِي النفس لَعَلَّ اللَّهَ سبحانه يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ العزم على الطلاق، أو بعد ذلك الطلاق، أَمْرًا فَإِنْ تَأَخَّرَ الطَّلَاقُ إِلَى الطَّهْرِ الذى لم يواقع فيه ربما يغير من رأى الزوج، فلا يطلق وجعل العدة وعدم الإخراج من البيت ربما أوجب نزولهما عن الغضب الموجب للطلاق فيترجعا عما قصدا من الطلاق.

[٣] فَإِذَا بَلَغَ النِّسَاءَ الْمَطْلُوقَاتِ أَجَلَهُنَّ أى وصلن إلى رأس المدّة- قبل انقضاء العدة- بأن بقيت من العدة شىء، تخبر الرجل بين أن يرجع إليهن، أو يذرهن حتى تنقضى العدة فَأَمْسِكُوهُنَّ إن أردتم الرجوع بِمَعْرُوفٍ أن تعاشرهن كما أمر الله سبحانه بالحسنى أو فَارِقُوهُنَّ بأن تدعوهم على حالهن حتى تنقضى العدة بِمَعْرُوفٍ بدون إيذاء لها، وأخذ بعض أثاثها، أو إثارة قلاقل حولها كما هو من فعل الجهال. وَأَشْهِدُوا إِذَا أَرَدْتُمْ الطَّلَاقَ ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ أى

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٢ ص ٢٢٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤١

[سورة الطلاق (٦٥): آية ٣]

وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)

نفرين عادلين من المسلمين حتى يشهدان على الطلاق، والعدالة عبارة عن ملكة فى النفس تبعث على الإتيان بالواجبات والترك

للمحرمات خوفاً من الله سبحانه، و المعنى أنه يلزم حضور شاهدين عادلين عند إجراء صيغة الطلاق «و ذوى» جمع أريد به الاثنان فما فوق، كما فسر في الأحاديث، و أقيّموا أيها الشهود الشّهادة إذا احتاج أحد الطرفين إلى الإِشهاد لله فلا تحرفوا فيها، فإن الأمر إذا جاء به الإنسان لله، راقبه سبحانه، كى لا يزيد ولا ينقص ذلكم «ذا» إشارة و «كم» خطاب، أى ذلك الذى تقدم من إقامة الشّهادة لله، يُوعظُ به مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فإنه هو الذى يخاف الله و يقيم الشّهادة لله، أما غيره فلا يهتم بالحقيقة و هذا كناية عن أن الانحراف فى الشّهادة كاشف عن عدم الإتيان و مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ أى يخافه سبحانه، فيعمل حسب أوامره يجعل له مخرجاً من مشاكله.

[٤] فلا يظن الإنسان أنه إذا شهد بالحق وقع فى المشكله حيث يغضب عليه المبطل الذى يريد منه الشّهادة بالباطل كما لا يزعم أنه يوجب قطع رزقه حيث أن المبطل ربما كان هو السبب فى رزقه أو أن له القدرة فى أن يسبب إلى ولى رزقه أن يمنعه عنه و يوزقه الله مَنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ أى من مكان لا يظن أن يأتى من ذلك المكان الرزق، و لصدق هذا الكلام شواهد كثيرة عند المجريين، و من الأمثلة البارزة الآن أمامى رجل قتل فاحشه طمعا فى مالها و ألقاها فى النهر، ثم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٢

[سورة الطلاق (٦٥): آية ٤]

وَ اللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)

أعطى مرتزقة الشركاء معه فى الإثم أموالاً لثلاث شهور عند القاضى و هددهم إن شهدوا، و انتشر الخبر و جاء القاضى يحلف الشهود بالقرآن الكريم، فحلف الكل بالإنكار إلا واحد منهم كان صاحباً لهذا المجرم، فإنه قال لا أحلف بالقرآن كاذباً، و شهد بالحق و فر من المجرم بعد «و من الغريب» أن القاضى حكم على المجرم بهذا الشاهد الواحد، و ابتلى الكل، إلا هذا الصادق فإنه تاب من أعماله السابقة و هو إلى اليوم فى الحياة يمدحه من يعرفه، بينما أن أولئك سجنوا و غرموا، و مات بعضهم فى شبابه.

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ أى من يكل أموره إلى الله يكفيه كل مخوف و مشكله و ينجيه من كل هلكه إن الله بالغ أمره أى يبلغ ما يريد و لا يفوته شىء من إرادته، فلا يزعم الزاعم أن وعده سبحانه يمكن فيه الخلف قد جعل الله لكل شىء قدراً أى مقداراً و تقديراً و تسير أموره حسب ذلك فإذا جعل تقدير المتقى الكفاية و الرزق لا بد و أن يكون كما أراد بلا خلف.

[٥] ثم بين سبحانه مقدار العدة التى إذا انقضت حل للزوجة أن تنكح زوجاً جديداً و اللأئى جمع التى أى النساء المطلقات اللأئى يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ أى ينسن من الحيض فلا- يحضن من نساءكم إن ارتبتم أى شكتم فى أمرهن فلا- تدرن أن انقطاع الحيض لكبرهن و يأسهن أى بلوغهن سن اليأس، و هو خمسون فى غير القرشية و النبطية،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٣

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٥ الى ٦]

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أَتَمَّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْزَعٌ لَهُ أُخْرَى (٦)

و ستون فيهما أم لعارض فعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ فإذا أكملن الثلاثة خرجن من العدة، أما اليأسه فلا عدة لها إذ يجوز لها الزواج بزواج جديد بمجرد الطلاق و اللأئى لَمْ يَحْضَنْ بعد لصغر السن، أو لمرض و غيره، كذلك عدتهن ثلاثة أشهر و أولاتُ الأحمالِ أى النساء الحاملات إذا طلقن أَجَلُهُنَّ أى مدة انتظار عدتهن أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فإذا وضعن حملهن فقد انقضت العدة سواء طال الزمان بين الطلاق و الولادة أم قصر و مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فلا يخالف أوامره يجعل له مَنْ أَمْرِهِ يُسْرًا أى يسهل أموره حتى لا يقع فى المشاكل، و حيث إن هذه الأحكام توجب كبت الغرائز بالنسبة إلى الرجل الذى يريد نكاحهن، و بالنسبة إليهن لفقها السياق بلفائف من التقوى تذكيراً و

عظهُ، لئلا يزلق قدم المرأة أو الرجل المرید للنكاح في مهاوى المخالفة.

[٦] ذلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ أَحْكَامِ الطَّلَاقِ أَمْرُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ لِمَصَالِحِكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ أَيْ يَخَافُهُ فَلَا يَخَالِفُهُ يُكْفِّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ أَيْ يَغْفِرُ لَهُ ذُنُوبَهُ، فَإِنَّ التَّكْفِيرَ هُوَ التَّغْطِيَةُ وَالسُّتْرُ وَيُعْظَمُ لَهُ أَجْرًا أَيْ يَعْطِيهِ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ وَالثَّوَابَ الْجَسِيمَ فِي الْآخِرَةِ.

[٧] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ حَالِ الْمَطْلُوقَةِ فِي النِّفْقَةِ وَالسُّكْنَى، مَدَّةَ الْعِدَّةِ فَقَالَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٤

أَسِيْرِكُنَّ هُنَّ أَيْ النِّسَاءُ الْمَطْلُوقَاتُ فِي بِيُوتِكُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ أَيْ مَكَانًا مِنْ سَكْنَاكُمْ وَمَحَلِّكُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ أَيْ مِنْ مَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، مِنْ وَجْدٍ بِمَعْنَى قَدْرٍ وَتَمَكَّنَ، أَيْ مِنْ سَعْتِكُمْ وَلَا تُضَاوِرُوهُنَّ أَيْ لَا تَسْبِيْبُوا ضَرَرًا عَلَيْهِنَّ فِي السُّكْنَى لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ أَيْ طَالِبِينَ بِالْإِصْرَارِ التَّضْيِيقَ عَلَيْهِنَّ لِإِزْعَاجِهِنَّ حَتَّى يَضْطُرُّوا إِلَى الزَّوْجِ.

وَإِنْ كُنَّ تِلْكَ الْمَطْلُوقَاتُ أَوْلَادًا حَمْلًا أَيْ حَامِلَاتٍ فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ بِالْكَسْوَةِ وَالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَ مَا أَشْبَهَ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنَّ انْقِضَاءَ عِدَّتِهِنَّ بِالْوَضْعِ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ بَعْدَ الْوَضْعِ فَاتُّوهُنَّ أَيْ أَعْطُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ أَيْ أَجْرَةَ الْإِرْضَاعِ إِذِ الْوَاجِبُ عَلَى الْوَالِدِ نِفْقَةُ وَلَدِهِ وَأَتَمُّوا أَيَّهَا الْأَبْوَانُ وَالْمَتَعَلِّقُونَ بِهِمَا بَيْنَكُمُ بَعْضُكُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي أَمْرِ إِرْضَاعِ الْوَالِدِ بِمَا هُوَ الْأَصْلَحُ بِحَالِ الْجَمِيعِ لئلا يَتَضَرَّرَ أَحَدٌ مِنَ الْأَطْرَافِ الثَّلَاثَةِ الْأَبَ وَالْأُمَّ وَالْوَالِدَ، وَالِاتِّمَارُ قَبُولُ الْأَمْرِ وَمَلَاقَاتُهُ بِالتَّحْقِيلِ بِمَعْرُوفٍ مُقَابِلِ الْمُنْكَرِ، فَلَا يَكُونُ التَّشَاوُرُ بِقَصْدِ الْإِضْرَارِ وَإِثَارَةِ الْأَحْقَادِ وَالْكَوَامِنِ، بَلْ بِقَصْدِ الْإِحْسَانِ وَالْعَدَالَةِ وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ أَيَّهَا الْمُتَشَاوِرُونَ فِي أَمْرِ إِرْضَاعِ الْوَالِدِ، بَأَنَّ اخْتَلَفْتُمْ فِي أَمْرِ الْأُمِّ الْمَرْضِعَةِ وَمَقْدَارِ الْأَجْرَةِ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أَيْ لِلْوَالِدِ امْرَأَةً أُخْرَى غَيْرَ الْأُمِّ، وَ الْمَعْنَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٥

[سورة الطلاق (٦٥): آية ٧]

لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

فلتسترضع الولد امرأة غير الأم، و لعل فيه إشارة إلى معاتبه الأم بأنها لا ينبغي لها المعاسرة.

[٨] ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْمُنْدُوبَ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى الْمَطْلُوقَةِ الْمَرْضِعَةِ، إِنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ، فِي الْمَالِ مِنْ سَعَتِهِ بِأَنْ يُوَسِّعَ عَلَى الْمَرْضِعَةِ فِي الْأَجْرَةِ، أَلَمْ تَكُنْ زَوْجَتَهُ، وَ أُمُّ وَلَدِهِ، وَ مَرْضِعَتَهُ؟ وَمَنْ قُدِرَ أَيْ ضَيِّقَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ بِأَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْأَبِ سَعَةٌ فَلْيُنْفِقْ عَلَى الْمَرْضِعَةِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ بِقَدْرِ التَّمَكُّنِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ فَلَا يَطْلُبُ مِنْ مِثْلِ هَذَا الشَّخْصِ الزِّيَادَةَ عَلَى أَجْرَةِ الْمِثْلِ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا أَيْ أَحَدًا إِلَّا مَا آتَاهَا أَيْ بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُ مِنَ الطَّاقَةِ الْمَالِيَّةِ، كَمَا لَا يَكَلِّفُ إِلَّا بِقَدْرِ الطَّاقَةِ الْجَسَدِيَّةِ وَ سَائِرِ الطَّاقَاتِ، وَ لَا يَغْتَمُّ الْمَمْلُوقُ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ، كَمَا يَكُونُ الْأَبُ الْمَمْلُوقُ كَثِيرًا مَا يَتَحَسَّرُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِدُ الزَّائِدَ حَتَّى يَبْذُلَ لِمَرْبِيئِهِ وَلَدَهُ وَ مَرْضِعَتَهُ، فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ اللَّهُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْإِمْلَاقِ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا بَعْدَ فَقْرٍ غَنِيٍّ - وَ بَعْدَ ذَلَّةٍ عَزَّةٍ - وَ بَعْدَ انْحِطَاطٍ وَ رَفْعَةٍ وَ هَكَذَا فِي سَائِرِ الْأُمُورِ.

فإن الدهر مختلفا يدور فلا حزن يدوم ولا سرور وقد بنت الملوك به قصورا فما بقي الملوك ولا القصور

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٦

[سورة الطلاق (٦٥): الآيات ٨ إلى ١٠]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَا بِمَا جَسَبْنَا بِهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠)

[٩] وَ إِذْ بَيْنَ الْأَحْكَامِ، جَاءَ السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ، أَنَّ الْعَاتِي الْعَاصِي لِهَذِهِ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا، مُصِيرُهُ مُصِيرُ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ أَهْلَكُوا بِسَبَبِ طَغْيَانِهِمْ وَ عَتَوْهُمْ وَ كَأَيِّنْ بِمَعْنَى - كَمْ - الْخَبْرِيَّةُ الْمَفِيدَةُ لِلتَّكْثِيرِ مِنْ قَوِيَّةٍ مِنَ اللَّتْبِينِ وَ الْمَرَادُ الْبَلْدَةُ عَتَتْ أَيْ طَغَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا فَلَمْ تَطِعْ أَوْامِرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ الْمَرَادُ أَهْلَ الْقَرِيَّةِ، بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ وَ رُسُلِهِ أَيْ عَنْ أَمْرِ رُسُلِهِ، بِأَنَّ لَمْ يَطِيعُوا رُسُلَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَحَاسِبْنَا بِمَا جَسَبْنَا بِهَا حِسَابًا شَدِيدًا مُقَابِلَ السَّمَاحِ فِي الْحِسَابِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ الْعَامِلَ بِالصَّالِحَاتِ يَعْفَى عَنْ جَرَائِمِهِ وَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا، جَزَاءً عَلَى

إيمانه و عمله، أما العاتى الطاغى، فإنه يحاسب على كل عمل عمله و عَدْبُنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا أى عذاباً منكرًا أليماً، و المراد بالمحاسبة فى الملاء الأعلى حولهم لا محاسبتهم بالذات إذ الحساب إنما هو بعد الموت، و السياق يفيد كون حساب أولئك قبل عذابهم فى الدنيا.

[١٠] فَذَاقَتْ تِلْكَ الْقَرْيَةَ وَبَالَ أَمْرِهَا أى عاقبه صنيعها الشر و كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا أى خسرت الدنيا و خسرت الآخرة.

[١١] ذَلِكَ فى الدنيا و قد أَعَدَّ اللَّهُ أى بقى لَهُمْ أى لأهل القرية، عَذَابًا شَدِيدًا فى الآخرة فَاتَّقُوا اللَّهَ أى خافوا عقابه يا أولى الألباب أى أصحاب العقول، فإن ألباب جمع لب، و هو العقل اتقوه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٧

[سورة الطلاق (٦٥): آية ١١]

رَسُولًا- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١)

سبحانه حتى لا- ينزل بكم مثل ما نزل بأولئك الأمم الذين آمنوا وصف لأولى الألباب، و إنما وصفهم بذلك لأنهم هم المتنفعون بالتحذير قد أنزل الله إليكم ذكراً أى مذكراً يذكركم بأس الله و عذابه، و الانحراف بعد التذكير أقبح.

[١٢] ثم بين سبحانه الذكر المنزل بقوله رسولاً أى محمداً صلى الله عليه و آله و سلم و كونه منزلاً، باعتبار أنه مبعوث من طرف الله سبحانه تشبيهاً للنزول المعنوى الحسى يتلوا أى يقرأ هذا الرسول عليكم أيها الناس آيات الله أدلته و حججه التكوينية، فى حال كونها مبينات أى فى حال الآيات تبين و توضح الأمر و إنما يتلو ليخرج الذين آمنوا بالله و رسوله و ما جاء به و عملوا الصالحات من الظلمات أى ظلمات الكفر و العصيان إلى النور أى نور الإيمان و العمل الصالح، و إنما شبه الإيمان بالنور، لأنه ينير الإنسان ليدرك الحقيقة- فى العقيدة و العمل- فمن زعم أنه لا إله أو لإله شريك فهو فى ظلمة عن الحقيقة كالإنسان الذى فى ظلمة الليل لا يدرك ما أمامه من الأشياء، و كذلك بالنسبة إلى من يشرب الخمر، يزعم أنها لا تضر، فإنه فى ظلمة من الحقيقة، و قس على ذلك سائر الاعتقادات و الأعمال.

و قوله «الذين آمنوا» يراد بهم ذواتهم قبل الإيمان، و إنما جىء الوصف للإشارة بهم لا أن المراد إخراجهم بعد الإيمان و العمل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٨

[سورة الطلاق (٦٥): آية ١٢]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

الصالح، لأنهم مخرجون بعد ذلك حين الاتصاف- كما لا يخفى- و مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إيماناً صحيحاً و يعمل عملاً صالحاً الملازم لعدم العمل الفاسد يدخله الله فى الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها و قصورها الأنهار من خمر و عسل و لبن و ماء فى حال كونهم خالدين أى دائمين فيها فى تلك الجنات أيداً بلا نهاية و قد أحسن الله له أى لهذا الإنسان المؤمن العامل بالصالحات رزقاً إذ يعطى من ثمار الجنة و مياها و أزواجها و سائر لوازم العيش الراقية.

[١٣] ثم بين سبحانه وصفه- ليخاف العاصى- و يطمئن المؤمن لوعده بقوله الله الذى خلق سبع سماوات لعل المراد بها مدارات الكواكب السيارة، أو ما أشبه و من الأرض مثلهن سبعة، و

قد قال الإمام الرضا عليه السلام أرض تحيط بها سماؤها، ثم أرض تحيط بها سماؤها، إلى أن عد سبعة

، و تفصيل الكلام فى كتاب- الهيئة و الإسلام-. «١» و ضمير «هن» تأتى للعاقل و غير العاقل كما سبق يتنزل الأمر بينهن أى أن أمر الله سبحانه ينزل من كل سماء إلى أرضها، و هكذا حتى يصل الأرض الأخيرة، و إنما خلق سبحانه ما خلق، مما يشاهده

(١) للعلامة الشهرستاني.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٤٩

الإنسان لَتَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ قادر على العقاب و الثواب، كما قدر على خلق الأفلاك و الأرضين و أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا فَإِنَّ الخلق يدل على العلم، إذ لو لا العلم لم يمكن الخلق، كما أن سير الكون المشار إليه بقوله «يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» دال على العلم، إذ التفسير محتاج إلى العلم الدقيق.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٠

٤٦ سورة التحريم مدنية / آياتها (١٣)

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٤٩٩

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على هذه المادة و هي قوله «لم تحرم» و هذه السورة كسائر السور المدنية، مشتملة على النظام إلى جنب العقيدة و حيث ذكرت في سورة الطلاق أحكام النساء، جاءت هذه السورة لبيان بعض الأمور التي ترتبط بهن.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله الذي هو خير معين لمن استعان به، و هل أحق بالاستعانة منه، إنه المالك لكل شيء الرحمن الرحيم الذي يتفضل باللطف و الإحسان، القادر لكل ما أراد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥١

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ١ إلى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)

[٢] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ أي لماذا تحلف لتحرم على نفسك بعض ما أحل الله لك، و قد كان التحريم للحلال بالحلف جائزا، لكن الله سبحانه بين للرسول أن حلفه حول هذا الموضوع محلولة- بهذا التعبير- تأنيبا لعائشة و حفصة اللتين آذتا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حتى حلف ما حلف.

فقد روى البخارى- صاحب الصحيح عند العامة- عن عائشة قالت كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش و يمكث عندها، فتوطأت أنا و حفصة على زينب إذ دخل عليها فلنقل له أكلت مغاير و هو صمغ حلو الطعم كرية الرائحة، إني أجد منك ريح مغاير، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: لا و لكن كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له، و قد حلفت لا تخبرى بذلك أحدا

«١» تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ أي تطلب بالتحريم رضى زوجاتك، و قد سبق في بعض الآيات أن الأغراض قد تأتي لا للمخاطب بل تبرع الغير و اللَّهُ غَفُورٌ يستر على عباده، فإن تحلة اليمين، تحتاج إلى التحلة حتى لا يقال كيف خالف الرسول حلفه، و حنث رَحِيمٌ يتفضل بالرحم، علاوة على الغفران.

[٣] قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ الظاهر كون الخطاب للرسول، و إنما أتى بصيغة الجمع احتراماً، و قد تقدم سابقاً، أن الجمع و المفرد يتناوبان

في حمل

(١) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ج ١ ص ٢٩٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٢

[سورة التحريم (٦٦): آية ٣]

وَإِذْ أَسْرَى النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)

أحدهما على الآخر، لكنته بلاغية، أى أوجب عليكم تحله أيمانكم بأن تحلوها فلا تتبعون مفادها، والمراد أن يشرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم العسل فهو له حلال، وإن الله قد أحل حلفه التى حلفها أنه لا يشرب العسل طلباً لرضى بعض نساءه والله مؤلأكم فإذا حل اليمين فقد انحلت كما أن للمولى الحق فى أن يحل يمين العبد وهو العليم بمصالحكم الحكيم فيما يأمر وينهى، فإذا عرف الصلاح فى شىء كان كما أمر فشرب العسل حلالاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفى الحكمة والصلاح.

[٤] ثم يأتى السياق ليشير إلى طرف من القصة بقوله سبحانه: واذكر يا رسول الله، ولعل ذلك لإفادة أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كيف كان يؤذى من قبل أزواجه كما كان يؤذى من قبل أناس آخرين تفضيحا لهن فى إيدائهن للرسول، إذ أسرى النبي إلى بعض أزواجه حديثاً أى حدثها سرا لتحريم العسل على نفسه- والمراد ببعض الأزواج- عائشة- أو حفصة- ولعل إسرار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان لأجل أن لا يقول الناس إنه يحرم شيئاً على نفسه لمجرد رضى زوجته فلما نبتت به أى أخبرت تلك الزوجة امرأة أخرى بذلك الحديث السرى، فقد ورد عن طريق العامة إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخبر عائشة بحلفه وأمرها بالإسرار لكنها خالفت وأخبرت حفصة وأظهره الله عليه أى أطلع الله نبيه على ما جرى منها فى إفشاء سره عرف الرسول «عائشة» بَعْضَهُ أى بعض ما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٣

[سورة التحريم (٦٦): آية ٤]

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

ذكرت «لحفصة» أراد بذلك بيان أنها خالفت فى إفشاء سره وأعرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن بعض فإن من محامد الأخلاق أن لا يذكر الإنسان جميع جريمة المجرم وإنما يلمح إليها تلميحا تأديبا فإن التغافل من خلق الكرام.

فلما نبتاها أى أخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عائشة به أى بما أعلمه الله سبحانه له من إفشائها سره عند «حفصة» قالت «عائشة» متعجبة من علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإفشائها سره من أنبأك هذا أى من أخبرك بأنى أفشيت سرى يا رسول الله قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى جوابها نبتانى أى أخبرنى العليم بجميع الأمور الخبير بدقائقها، فإن الخبير غالباً ما يطلق على العالم النحرير المطلع على دقائق الأمور.

[٥] ثم توجه الخطاب إلى «عائشة» و«حفصة» اللتين دبرتا هذه المؤامرة مهدياً لهما بقوله إن توبتا أيتها المرأتان إلى الله بأن تستغفرا مما سلف منكما من إبداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والتظاهر ضده والافتراء عليه فقد صغت قلوبكما أى مالت إلى الإثم والباطل، من «صغى» بمعنى مال وقد جرت القاعدة على أن التثنية إذا أضيفت إلى التثنية جاز فى المضاف الجمع- نحو قلوبكما- وهو الأفضل والإفراد، وهو الأوسط، والتثنية وهو الأدون.

وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ أى تتظاهرا، حذفت إحدى تائيه للقاعدة فى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٤

[سورة التحريم (٦٦): آية ٥]

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ تَيَّيَّاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

باب المضارع إذا اجتمع فى أوله تاءان، والتظاهر هو أن يقوى بعض ظهر بعض بالتوحيد بينهم لمطالبة أمر، أو لمضادة أمر فإن الله هو مؤلأه أى ناصر الرسول يتولى حفظه وحياطته حتى لا يؤثر فيه المكر والمكيده وجبريل معين للرسول، بإخباره عن قبل الله بما يراد

ضده وصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ أى خيار المؤمنين، و المراد ب «صالح» الجنس، يعنى أنهم ينصرون الرسول ضد المؤامرات و المظاهرات و سائر الملائكةُ بَعِيدَ ذَلِكَ أى بعد ما تقدم من نصره الله و جبرئيل و المؤمنين ظهير للرسول يقوون ظهره، و الإتيان بالمفرد، و صفا للجمع باعتبار كل واحد واحد، نحو فأنظر إلى طعامك و شرابك لم يتسنه «١» و وحسن أوليك رفيقا «٢» و قد تقدم أن كلا من المفرد و الجمع يقوم مقام الآخر، باعتبار بلاغى.

و قد حذف جواب الشرطين، و التقدير «أن تتوبا إلى الله كانت التوبة فى موقعها إذ قد صغت» «و إن تظاهرا عليه، لا يضره التظاهر، إذ الله مولاة».

[٦] ثم جاء السياق ليقول من أهميتهما، فإن للرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يطلقهما، حتى تبوءا بعار المؤامرة و الطلاق و لا يبقى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بلا-زوجة فإن الله يزوجه بمن هى خير منهما عسى ربُّه أى لعل الله سبحانه و لعل ليس للرجاء، بل بمعنى الاحتمال الراجح إن طلقك المراد إما

(١) البقرة: ٢٤٠.

(٢) النساء: ٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٥

[سورة التحريم (٦٦): آية ٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)

الاثنان، أو الكل، أو من اشتركت فى المؤامرة فإن الحديث تفشى فى غيرهما أيضا أن يُبدله أى يعوض للرسول صلى الله عليه و آله و سلم أزواجا خيرا منكم فى الإيمان، و فى مراعاة حقوق الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ثم وصف تلك أزواجا بما فيه تعريض بهن مُسَلِّماتٍ كاملات الإسلام مُؤْمِنَاتٍ مصدقات بالله و الرسول، و الإسلام هو الاستسلام، فالإيمان أخص منه، كما قال قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ «١». قَاتِنَاتٍ مطيعات لله، خاضعات للرسول تائبات عن المعاصى التى تصدر منهن أحيانا، فلا إصرار لهن على الذنب عبادات يعبدن الله سبحانه فوق القدر اللازم المفروض من العبادة سائحات أى صائحات- كما

ورد:

سياحة أمتى الصوم

«٢»- أو ماضيات فى أمر الله و الرسول كالسائح الذى يضرب فى الأرض تيباتٍ قد رأين الزوج قبل الرسول و أبكاراً أى عذارى لم يكن لهن أزواج- كما أنتن حين دخلتن بيت الرسول كنتن على قسمين-.

[٧] ثم توجه السياق إلى الناس موجبا لهم تأديب نساءهم، قالوا و قد تدرجت الفريضة فى البلاغ من النفس إلى العموم حسب الإمكان فى خمس آيات و هى النفس أولا بقوله: عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ «٣» و الأهل ثانيا بقوله: آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا «٤»

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ١٦ ص ٥٤.

(٣) المائدة: ١٠٦.

(٤) التحريم: ٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٦

والعشيرة ثالثا بقوله: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١) و أهل البلدة رابعا بقوله «وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ» (٢) و أهل العالم أجمع خامسا بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» (٣) و الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أسوة، و بقوله: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ» (٤).

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أمر للجمع المذكور، من «وقى» بمعنى حفظ، أى احفظوا أنفسكم و أهليكم و هو عائلة الإنسان من أولاده و زوجته و أخوته و من شابههم نارا عن نار جهنم التي هي بهذه الصفة و قودها أى حطبها الموجب لإيقادها و إشعالها الناس و الحجارة و هما يزيدان فى قوة النار لدسومه الأول و صلابه الثانى عليهما أى المأمورون على تلك النار ملائكة جمع ملك و أصله من الألوكة، بمعنى الرسالة لأن الملائكة رسل من قبله سبحانه إلى الأنبياء غلاظ جمع غليظ و كأن المراد غليظ القلب فلا يرحم أحدا شداذ جمع شديد، و كأن المراد شديد البنية و القوة، فما أراد تمكن منه لا يعصون الله ما أمرهم من عذاب أهل النار، فلا يرتشون و لا يميلون نحو الكفار مخالفه لله سبحانه و يفعلون ما يؤمرون من قبل الله سبحانه، و هذا تأكيد لما سبق بأنهم لا يعصون.

(١) الشعراء: ٢١٥.

(٢) التوبة: ١٢٢.

(٣) سبأ: ٢٩.

(٤) آل عمران: ١٠٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٧

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ٧ الى ٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)

[٨] و إذ دخل الكفار النار، أخذوا يعتذرون على سالف أعمالهم فيقال لهم يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فى الدنيا لا تعتذروا اليوم و أنتم فى النار إنما تجزون ما كنتم تعملون فهذه النار جزاء أعمالكم السالفة، و لا يفيد الاعتذار.

[٩] و إذ قد سمعتم أيها المؤمنون بكيفية النار، فاللازم أن تتوبوا- و أنتم فى الدنيا- عن معاصيكم لئلا تدخلوها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ من معاصيه و ارجعوا إلى طاعته، و تخصيص الخطاب بهم لأنهم المنتفعون به.

تَوْبَةً نَصُوحًا أى خالصة لوجه الله سبحانه، بمعنى بالغة فى النصح و هو صفة التائب لأنه ينصح نفسه بالتوبة و إسناده إلى التوبة مجاز، فإن الإنسان نصوح فى التوبة، و التوبة النصوح هى عبارة عن أن يندم الإنسان أشد الندم على المعصية و يعزم أقوى العزم على ترك مثلها فى المستقبل، و يأتى بلوازم التوبة من القضاء و الكفارة و رد الحقوق و ما أشبه عسى رَبُّكُمْ أى لعل الله سبحانه إذا تبتم أن يكفر عنكم أى يستر و يمحي سيئاتكم أى معاصيكم، و سمي العصيان سيئة لأنها تسيء إلى الإنسان و يُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أى تحت قصورها و أشجارها الأنهار من عسل و خمر و لبن و ماء،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٨

[سورة التحريم (٦٦): آية ٩]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ (٩)

و يكون إدخال التائب الجنة في يوم لا- يُخزى الله النبي و الذين آمنوا معه أى لا- يذلهم بدخول النار، و كان الإتيان بهذه الجملة للترغيب فى إدخال الإنسان نفسه فى هذه الزمرة المفضلة.

نورهم يشع بآيديهم و بإيمانهم فإن وجوههم و أيديهم اليمنى- التى تحمل الكتاب- تشع نورا يخرق ظلمات المحشر، فإذا تحرك المؤمن كان النور يسبقه من أمامه و من طرفه الأيمن يقولون مخاطبين لله سبحانه ربنا أتمم لنا نورنا بأن يضاعف و يكثر، أو يستمر حتى آخر القيامة فلا يطفأ، أو هو دعاء منهم فى الدنيا، بأن يوفقهم لما يكثر نورهم، و يقيه فلا يزول عنهم بالكفر و العصيان و اغفر لنا معاصينا إنك على كل شئ قدير من إتمام نورنا و غفران ذنوبنا، و سائر ما تريده و هذا مدح له سبحانه فى ضمن الدعاء، فإن الدعاء المتضمن على الثناء أقرب إلى القبول.

[١٠] يا أيها النبي جاهد الكفار بالقتال و المحاربة و المنافقين بالزجر و الردع و اغلظ عليهم أى اشدد عليهم فى الجهاد و الزجر، فإن اللين إنما هو للمستقيم المعتدل، أما المنحرف فاللازم معه الشدة حتى يستقيم و مأواهم جهنم أى مصيرهم، من «آوى» بمعنى اتخذ المنزل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٥٩

[سورة التحريم (٦٦): آية ١٠]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)

و بئس المصير أى بئس المأوى جهنم لهم، لما فيها من العذاب و النكال.

[١١] ثم جاء السياق ليضرب مثلاً لأزواج الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مبينا أن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة إذا كانت منحرفة، كما أن فساد الزوج لا يضر الزوجة إذا كانت مستقيمة، منقادة، على طاعة الرسول و عدم الهوى فى مهوى العصيان و المخالفة ضرب الله مثلاً للذين كفروا مبينا لهم أن صلاح أصحابهم و ذويهم لا ينفعهم امرات نوح و امرات لوط فقد كانتا تحت إدارة و عيلولة عبدين من عبادنا هما نوح و لوط صالحين فهما رسولان من قبل الله سبحانه و أى صلاح أشد من ذلك فخانتاهما خيانة فى الدين، إذ كانتا تنافقان و تؤذيان زوجيهما.

فلم يغنيا أى لم ينفع نوح و لوط عنهما أى عن الزوجتين من عذاب الله شيئاً بأن يخفف عنهما، و لو بعض العذاب و قيل للزوجتين حين ماتتا ادخلا النار مع الداخلين فيها، فهما معدبتان مع كونهما زوجتا نبيين، و فى هذا تعريض بعائشه و حفصة اللتين آذتا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٠

[سورة التحريم (٦٦): الآيات ١١ الى ١٢]

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِنِينَ (١٢) [١٢] وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا بَيَانًا لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَ إِنْ كَانَ امْرَأَةً تَحْتَ أَكْفَرِ النَّاسِ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ أَسِيَهُ بِنْتِ مِرْحَمِ الَّتِي آمَنَتْ بِمُوسَى وَ كَانَ زَوْجُهَا يَدْعَى الرَّبوبيَّةَ، وَ يَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى إِذْ قَالَتْ فِي مَنَاجَاتِهَا لِلَّهِ تَعَالَى يَا رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ فَإِنِّي لَا أَرُغِبُ فِي بَيْتِ الدُّنْيَا وَ لَا أَعْمَلُ لَهَا وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ فَإِنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أَتباع فرعون و حاشيته، فاستجاب الله دعاءها، فقبضها و أدخلها الجنة، و لم يكن يضرها عمل زوجها.

[١٣] كما مثل سبحانه للمؤمنين بامرأة أخرى لم يضرها قول الناس فيها، بعد أن كانت طاهرة و نقيه دلالة على أن عمل الغير و قوله السىء لا يؤثر فى المؤمن شيئاً بعد أن كان هو بنفسه مؤمناً صالحاً و ضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها

أى حفظته من البغاء، و فيه تكذيب أعداء الله اليهود إذ قالوا فيها ما هم أحق به و أخرى.

فَنَفَخْنَا فِيهِ أَى فى فرجها مِنْ رُوحِنَا أَى الروح المضاف إلينا- تشريفا- و ذلك كإضافة البيت إليه سبحانه، فى قولنا «بيت الله» و المراد به المسيح عليه السلام و كون النفخ فيه باعتبار خروج الولد منه، أو

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦١

الضمير عائد إلى «الجسم» أى فى جسمها أو «الجيب» أى فى جيبها، المعلوم من الخارج، و قد كان النفخ فيه جبرئيل عليه السلام بأمره سبحانه و صَدَقَتْ مريم بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا أَى بما تكلم الله به و أوحاه إلى أنبيائه من الأصول و الفروع و كُتِبَ النازلة على الرسل و كَانَتْ مِنْ جَمَلَةِ الْقَانِتِينَ الخاضعين لله سبحانه، فإنها كانت فى بيت المقدس فى جملة العباد و الزهاد و لذلك قال «القانتين» و لم يقل القانتات.

فعلى المرأة إن كانت ذات زوج أن تقتدى بامرأة فرعون، و إن لم تكن ذات زوج أن تقتدى بمريم الصديقة عليهم السلام.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٣

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء التاسع و العشرون من آية (١) سورة الملك إلى آية (٥١) سورة المرسلات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين محمد المصطفى و عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٥

٦٧ سورة الملك مكية / آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الملك»، و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أصولها الثلاث، و حيث ختمت سورة التحريم بكون الصلوة لا تنفع و لا تضر و إنما النافع و الضار العمل، افتتحت هذه السورة بأن الإنسان فى معرض الامتحان ليظهر المطيع من العاصى.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدى باسم الله الذى هو الأول فى الكون، الخالق لكل شىء، ليطبق الابتداء باسمه كونه المبدأ و الأول الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد فى الدنيا و فى الآخرة بتكميل نواقصهم و غفران ذنبيهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٦

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣)

[٢] تَبَارَكَ من «برك» أى دام فى خير و مصدر خير، و منه البركة الذى يبيده الملك فهو المالك المطلق لكل شىء فى الكون و ملك ما عداه إنما هى بتملكه إياه، و قوله «بيده» من باب تشبيه المعقول بالمحسوس و هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ قادر على إيجاد و إفنائه و التصرف فيه كيف يشاء.

[٣] الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ فإن الموت إما أمر وجودى، أو عدم ملكة، و كلاهما مخلوق، فإن عدم الملكة له حظ من الوجود كما تقرر فى علم الكلام، و إنما خلق الموت و الحياة لِيُبْلُوَكُمْ من «بلاه» بمعنى اختبره، أى ليختبركم أيها البشر أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا من الآخر، و الله سبحانه عالم بالإنسان، و إنما الامتحان لتطبيق علمه على الخارج، و إلا فهو غنى عن الاختبار، و تعليل الحياة و الموت للاختبار باعتبار أن الموت داع إلى حسن العمل و موجب لعدم الوثوق بالدنيا و لذاتها الفانية و الحياة توجب قدرة الإنسان على

الأعمال الصالحة وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ فِي سُلْطَانِهِ الْعُفُورُ الَّذِي يَغْفِرُ لِمَنْ أَذْنَبَ إِذَا تَابَ، فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ فِي قَبْضَتِهِ بِمَقْتَضَى كَوْنِهِ «عزيراً»، فاستغفروه يغفر لكم بمقتضى كونه «غفوراً».

[٤] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقاً وَاحِدَةً فَوْقَ الْأُخْرَى مُطَابِقَةً لَهَا، بِلَا تَفَاوُتٍ وَأَعْوَجَاجٍ مَا تَرَى أَيُّهَا الرَّائِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٧

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٤ الى ٥]

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ وَاخْتِلَافٍ، مِنْ جِهَةٍ أَنْ الْجَمِيعَ مَخْلُوقُهُ بِدَقَّةٍ وَإِتْقَانٍ وَكَمَالٍ لَائِقٍ بِهِ فَارْجِعِ الْبَصَرَ أَي رُدَّهُ إِلَى الْكُونِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَابِقاً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ كَانَ نَظَرًا بِلَا التَّفَاتِ إِلَى هَذِهِ الْجِهَةِ، فَقِيلَ لَهُ رَدِّ بَصْرِكَ بِقَصْدِ التَّفْحُصِ وَالْبَحْثِ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟ أَي شَقُوقٍ وَفَوْقَ كَالْبِنَاءِ الَّذِي يَنْفَطِرُ لِحَلَلٍ فِيهِ، فَهَلْ فِي الْكُونِ خَلَلٌ يَدُلُّ عَلَى الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ أَمْ كُلُّ شَيْءٍ وَضِعَ فِي مَحَلِّهِ اللَّائِقِ بِهِ حَسَبَ الْحِكْمَةِ وَالصَّلَاحِ؟

[٥] ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ أَي كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ وَالمَرَادُ مَكْرَرًا إِذْ لَعَلَّ الْبَصَرَ اشْتَبَهَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَلَمْ يَرَفْتَقَا- فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَرَّرَ النَّظَرَ إِلَى شَيْءٍ أَدْرَكَ خَلْلَهُ- فَانظُرْ إِلَى الْكُونِ مَرَّةً أُخْرَى فَاحْصَا عَنِ الْخَلَلِ، لَكِنْ لَا تَجِدُهُ بَلْ يَنْقَلِبُ أَي يَرْجِعُ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْبَصِيرُ الَّذِي سَرَحْتَهُ فِي الْكُونِ خَاسِئاً قَدْ خَسَأَ وَطُرِدَ وَعَجَزَ عَمَّا طَلَبَهُ- مِنَ الْفِتْقِ- وَهُوَ حَسِيرٌ قَدْ حَسِرَ، أَي كَلَّ وَعَيَّ وَ لَمْ يَجِدْ خَللاً وَوَهناً وَ مَا يَوْجَدُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَ مَا أَشْبَهَ إِنَّمَا هُوَ لِلْمَتَحَانِ وَ الْعِبْرَةِ لَا لِنَقْصِ فِي الْخَلْقِ.

[٦] وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا أَي جَمَلْنَا السَّمَاءَ الْقَرِيبَةَ مِنَ الْأَرْضِ- وَ هَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ تَزْيِينِ سَائِرِ السَّمَاوَاتِ، إِذْ لَا مَفْهُومَ لِلْقَبِّ وَ إِنَّمَا التَّخْصِيسُ لِأَنَّهُ الْمَدْرَكُ الْمَشَاهِدُ- بِمَصَابِيحَ جَمْعُ مَصْبَاحٍ، وَ الْمَرَادُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٨

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٦ الى ٨]

وَاللَّذِينَ كَفَرُوا يَرْبِّهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَ بئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَ هِيَ تَفُورٌ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨)

بِهِ الْكَوَاكِبِ وَ جَعَلْنَاهَا أَي جَعَلْنَا تِلْكَ الْمَصَابِيحَ رُجُوماً مَرَاكِزَ لِلرَّجْمِ لِلشَّيَاطِينِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا اقْتَرَبَ مِنْ مَرَاكِزِ الْمَلَائِكَةِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى لِيَسْتَرْقِ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ رَجْمَ بِالشَّهْبِ مِنَ النُّجُومِ، فَإِنَّ النُّجُومَ مَرَاكِزَ يَنْظُرُ مِنْهَا إِلَى الشَّيَاطِينِ حَتَّى إِذَا اقْتَرَبُوا رَجَمُوا، كَمَا سَبَقَ فِي بَعْضِ السُّورِ وَ أَعْتَدْنَا أَي هَيَّأْنَا لَهُمْ أَي لِلشَّيَاطِينِ الْمَسْتَرْقِينَ لِلسَّمْعِ عَذَابَ السَّعِيرِ أَي عَذَابَ النَّارِ الْمَسْتَعْرَةَ الْمَلْتَهَبَةَ، إِمَّا بِالرَّجْمِ، وَ إِمَّا فِي الْآخِرَةِ فِي النَّارِ.

[٧] وَ كَمَا هِيَ الْعَذَابُ لِلشَّيَاطِينِ كَذَلِكَ هِيَ لِلْكَفَّارِ وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَرْبِّهُمْ أَنْ أَنْكَرُوهُ أَوْ وَصَفُوهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ عَذَابٌ جَهَنَّمُ مَبْتَدَأً، خَبْرَهُ «لِلَّذِينَ» وَ بئْسَ الْمَصِيرُ أَي الْمَالُ وَ الْمَرْجِعُ، اسْمُ مَكَانٍ مِنْ «صَار».

[٨] إِذَا أُلْقُوا أَي الْكَفَّارِ، أَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِيهَا أَي فِي جَهَنَّمَ سَمِعُوا لَهَا أَي لَجَهَنَّمَ شَهيقاً أَي صَوْتًا فَضِيحاً كَصَوْتِ الْحِمَارِ وَ إِنَّمَا تَشْهَقُ لِتَدْخُلَ فِي قُلُوبِ الْكَفَّارِ الْهَوْلَ وَ الرَّعْبَ وَ هِيَ تَفُورٌ فُورَانٍ الْقَدْرُ إِذَا غَلَى، وَ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهَا هَوْلًا.

[٩] تَكَادُ أَي تَقْرُبُ جَهَنَّمَ تَمَيِّزٌ أَي تَتَقَطَّعُ مِنَ الْغَيْظِ أَي شِدَّةِ الْغَضَبِ وَ كَثْرَةِ الْهَبِّ وَ الْفُورَانِ، وَ هَذَا تَمَثِيلٌ لِشِدَّةِ اشْتِعَالِهَا، فَإِنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٦٩

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٩ الى ١١]

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي

أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)

الإنسان إذا غضب يكاد ينفجر و يتشقق بعض جلده، و كذلك النار تكاد تتفرك لشدة استعارها كلما ألقى فيها أى فى جهنم فَوْج أى جماعة من الكفار و العصاة سَاءَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أى الملائكة الموكلون بالنار، جمع «خازن» أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ نَذِيرٌ يَنْذِرُكُمْ و يخوفكم من هذه النار؟ و الاستفهام للتبكي و التقرع.

[١٠] قَالُوا أى أهل النار فى جواب الخزنه بلى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ رَسُولٌ أَوْ مَبْلَغٌ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَكَذَّبْنَا هَذَا الْيَوْمَ و ما قاله النذير و قلنا ما نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ كِتَابٍ أَوْ تَشْرِيحٍ إِنْ أَنْتُمْ أَيُّ مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُنْذَرُونَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ حَيْثُ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ رَسَلِ اللَّهُ، و إنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْحُكْمَ وَ التَّشْرِيحَ.

[١١] ثم يعترف أهل النار بأنهم لم يعملوا عقولهم فى الدنيا، حتى ابتلوا بهذا العذاب و قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ كَلَامَ الْمُنْذِرِينَ أَوْ نَعْقِلُ أى نعمل عقولنا لنميز بين الحق و الباطل بالإسماع، فإنَّ الإنسان إذا عمل عقله لا بد و أن يدرك الحق فى الجملة و لو لم يسمع شيئاً ما كُنَّا فى هَذَا الْيَوْمِ فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ اسْمٌ لَجَهَنَّمَ لِاسْتِعَارِ نَارِهَا.

[١٢] فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ الَّذِى أَدْخَلَهُمُ النَّارَ، فى الوقت الذى لا ينعف الإقرار فسُحِقًا أى بعدا، و هذا دعاء عليهم أى أبعدهم الله بعدا عن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٠

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٢ الى ١٤]

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)

النجاة لأصحاب السعير الملازمين لها.

[١٣] أما المؤمن الذى عمل صالحا فهو فى خير و سعادة إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ يَخَافُونَهُ فَلَا يَعْصُونَ بِالْغَيْبِ فى حاله كونه سبحانه غائبا عن حواسهم لَهُمْ مَغْفِرَةٌ أى غفران لذنوبهم التى صدرت منهم و أَجْرٌ كَبِيرٌ ثَوَابٌ جَزِيلٌ.

[١٤] ثم يأتى السياق ليبين علم الله سبحانه بكل ما يصدر من الإنسان من قول سواء كان جهرا أو سرا و أَسْرُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلَكُمْ الَّذِى يدور فى صدوركم، بأن تقولونه سرا أو اجْهَرُوا بِهِ ف إِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى عَالَمِ الْأَلْفَاظِ، إذ هو عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أى بالأشياء التى تدور فى صدر الإنسان، و إنما قال «الصدور» لأنَّ القول فى القلب و القلب فى الصدر، فمن يعلم ما فى الصدر لا يعلم اللفظ؟

[١٥] أَلَا يَعْلَمُ الْخَفَايَا وَ الظَّوَاهِرَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ؟ و هذا استفهام إنكارى، أى كيف لا يعلم الله الأشياء و هو الخالق وَهُوَ اللَّطِيفُ أى العالم بما لطف و دق، و الشىء اللطيف هو الذى ينفذ فى الأشياء بسهولة و يسر، و توصيفه سبحانه به باعتبار نفوذ علمه و قدرته الْخَبِيرُ الْمُطَّلِعُ عَلَى الْأَشْيَاءِ، و هو أدق معنى من «العالم».

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧١

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٥ الى ١٦]

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ تُنْشَرُونَ (١٥) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورٌ (١٦)

روى إن المشركين كانوا يقولون عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم الأقوال السيئة و كان جبرئيل عليه السلام يخبره بما قالوا، فإذا أراد أحدهم التحدث حوله صلى الله عليه و آله و سلم قال بعضهم لبعض: أسروا قولكم لئلا يطلع محمد، فنزلت هذه الآيات.

[١٦] هُوَ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ الْأَرْضَ ذُلُولًا أى سهله مسخرة، للبناء و الزرع و دفن الأموات و السير و إجراء الأنهر و القنوات،

و غيرها، من «ذل» بمعنى خضع و لان فأمشوا أيها البشر في مناكبها جمع منكب و المراد به الطريق و كلوا من رزقه الذي حصلتكم عليه بالزرع و نحوه و إليه التثبور أي إن بعثكم إليه سبحانه، فهو المبدأ و المآل، و معنى «إليه» إلى حسابه و جزائه.

[١٧] ثم بعد التذكير بنعم الله ليشكر البشر، جاء السياق للتهديد بأنهم إن بقوا في الكفر و العصيان كانوا مظنة للعذاب و النكال- و السائق للناس إلى الخير إما النعمة أو النعمة- أ أمئتم أي هل أمتم أيها البشر من من في السماء من الملائكة الموكلين بأموركم من قبله سبحانه أن يخسف فاعله «من في السماء» بكم الأرض حتى تنهار الأرض في الأعماق معكم، كما فعل بقارون و قوم لوط. و يحتمل أن يراد

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٢

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٧ إلى ١٩]

أَمْ أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)

ب «من في السماء» الله سبحانه، و كونه في السماء باعتبار أن أمره إلى الأرض يصدر من هناك، كما قال سبحانه و هو الذي في السماء إله و في الأرض إله «١» و قال و في السماء رزقكم و ما توعدون «٢» فإذا هي أي تفاجئون بأن الأرض تمور أي تضطرب و تتحرك، من «مار» بمعنى تحرك و اضطرب.

[١٨] أَمْ أَمِئْتُمْ أيها البشر، من من في السماء على أحد المعنيين أن يرسل عليكم إن تماديتم في الكفر و العصيان حاصباً أي ديماً ذات حجارة، تحصبكم كما حوصب قوم لوط، و تذكير «حاصب» باعتبار تقدير «شيئاً» فسيتعلمون حين ذاك كيف نذير أي كيف كان إنذارى بالعذاب صدقاً.

[١٩] و ليس ذلك ببعيد من الكفار، ألم يعرفوا أن الأمم السابقة حيث كذبوا ابتلوا بمثل هذا العذاب و لقد كذب الذين من قبيلهم بآيات الله و رسله فكيف كان نكير؟ أي إنكارى عليهم حيث عذبوا بأنواع العذاب، من غرق و خسف و حصب و غيرها.

[٢٠] و كيف ينكر هؤلاء وجود الله أو قدرته و هم يرون الآيات الكونية بأعينهم؟ أ و لم يروا هؤلاء الكفار إلى الطير فوقهم في السماء

(١) الزخرف: ٨٥.

(٢) الذاريات: ٢٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٣

[سورة الملك (٦٧): آية ٢٠]

أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)

صافآت تصف أجنحتها فوق رؤوسهم في حال الطيران و يقبضن أجنحتهن بعد البسط، فذات مرة صافات، و ذات مرة يقبضن و هو الديف، و الطير جنس و لذا جىء وصفه بالجمع، كما أن الجمع بالنون يأتي للعاقل و غيره كما مر سابقاً.

ما يُمسكهن أي يحفظهن في الهواء في صفيق أو ديف إلا الرحمن الذي يتفضل بالرحم لكل شيء، فمن يا ترى أعطى الطير هذه القدرة، و أعطى الهواء قابلية الحمل غير الله سبحانه؟ إنه سبحانه بكل شيء بصير فيعرف المناسب لكل شيء و الصالح لكل شيء فيعطى حسب الصلاح و الحكمة، و حسب بصيرته سبحانه أعطى الطير هذه القدرة و السماء هذه القابلية، و «بصير» هنا بمعنى الخبرة في الأمور لا بمعنى النظر.

[٢١] أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ «أم» منقطعة و «من» استفهام مبتدأ، و «هذا» مبتدأ ثان، و «الذي» خبره، و «هو جند لكم» مبتدأ و خبر، و المجموع صلة الذي يُنْصِرُّكُمْ صفة «جند» و الاستفهام إنكاري، و المعنى من هو الذي تزعمونه جندا لكم ينصركم يوم القيامة من عذاب الله؟ ... و المراد أنه لا جند لكم هذه صفته مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ و كأنه يقال للكفار بأى قوة تعصون الله؟ أ لكم جند يدفع عذاب الله، حتى تعتمدون عليه فى عصيانه؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٤

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٢١ الى ٢٣]

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١) أَ فَمَنْ يَمَسُّ مِكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣)

ثم يأتي السياق ليبين أنه لا جند للكفار، و إنما غرتهم الحياة الدنيا إن الكافرين أى ليس الكافرون إلَّا فى عُزُورٍ قد غرهم الشيطان بأنه لا عذاب و لا نكال، فاعتمدوا عليه فى الكفر و العصيان.

[٢٢] أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ فهل هناك أحد يعطيكم الرزق إن أَمْسَكَ اللهُ رِزْقَهُ حتى يقوم ذلك الرازق مقام الله فى الإعطاء و إذ لا رازق غيره فكيف تعصون الله و لا- تخافون أن يقطع رزقكم فتبقون بلا رزق و لا طعام بل إنهم يعلمون أن لا رازق غيره، و إنما لَجُّوا أى استمروا فى اللجاج و المخالفة فى عُتُوٍّ أى تعد عن الحق، من «عتى» و نُفُورٍ أى تنفر عن الإسلام و الحق.

[٢٣] أَ فَمَنْ يَمَسُّ مِكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى بَأَن يَكُونُ وَجْهَهُ وَ بطنه على الأرض يمشى بكل صعوبته، هل هذا الشخص أحسن و أعلم بالطريق أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا مستويا مستقيما، على رجلية، و هو على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أى طريق موصل إلى السعادة فى أقصر مسافة، فالكافر كمن يمشى مكبا على وجهه، إذ طريقه وعر صعب لا- يعرف الخلاص من المشاكل و المكاره، بخلاف المؤمن الذى يرى طريقه و يسهل عليه المشى و يصل إلى الغاية المتوخاة فى أقرب وقت.

[٢٤] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ الْجَاهِدِينَ لِلَّهِ، وَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٥

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٤ الى ٢٦]

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦)

شريكا هو الله وحده الذى أنشأكم أى خلقكم أيها البشر وَ جَعَلَ لَكُمْ أى لمنفعتكم السَّمْعَ أريد به الجنس وَ الْأَبْصَارَ أى العيون وَ الْأَفْئِدَةَ جمع «فؤاد» و هو القلب، و كأن توحيد السمع و تجميع الأبصار و الأفئدة للتفنن فى التعبير قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ «ما» مصدرية، أى قليلا لشكركم، بعد إعطائه سبحانه لكم هذه النعم العظام.

[٢٥] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤْلَاءِ هُوَ اللَّهُ وَ وحده الذى ذَرَأَكُمْ أى خلقكم بالتناسل و التوالد فى الأَرْضِ وَ أسكنكم إياها وَ إِلَيْهِ أى إلى حساب الله و جناته تُحْشَرُونَ أى تبعثون و تجمعون فى يوم القيامة فمنه المبدأ و إليه المعاد.

[٢٦] وَ يَقُولُونَ أى الكفار المنكرون للمعاد مَتَى هَذَا الْوَعْدُ أى فى أى زمان يكون البعث إِنْ كُنْتُمْ أيها المؤمنون صادقين فى أن هناك حشرا و جزاء؟

[٢٧] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى جواب هؤلاء السائلين عن وقت المعاد إِنَّمَا الْعِلْمُ بوقت القيامة عِنْدَ اللَّهِ فهو العالم به وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أنذركم و أخوفكم عن مجيئه حيث تعذبون إن بقيتم على الكفر و العصيان مُبِينٌ واضح ظاهر، أنذركم بكل وضوح و جلاء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٦

[سورة الملك (٦٧): الآيات ٢٧ الى ٢٨]

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيزُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨)

[٢٨] فَلَمَّا رَأَوْهُ أَي رَأُوا العذابَ زُلْفَةً أَي قريبا، من «زلف» بمعنى قرب، والمراد من «رأوا» المستقبل، وإنما نزل منزلة الماضي لتحقيق وقوعه، نحو وَنُفِخَ فِي الصُّورِ «١» سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَي علت وجوههم الكآبة، وظهرت عليها آثار الخوف والحزن من «ساء» وَقِيلَ للكَفَّارِ، والقائل الملائكة والرسل والمؤمنون حين يرى الكفار العذاب هذا هو العذاب الذي كُنْتُمْ أَيها الكفار به تَدْعُونَ أَي تطلبون وتستعجلون من الدعاء، قالوا «تدعون» و«تدعون» بمعنى، فقد كان الكفار يقولون «متى هذا الوعد»؟ و يطلبون عجلة العذاب استهزاء.

[٢٩] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الكفار أَرَأَيْتُمْ أَي أَخْبَرُونِي إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ أَي أماتني وَمَنْ مَعِيَ من المؤمنين قبل تعذيبكم أَوْ رَحِمْنَا بتأخير الموت عنا لنرى عذابكم فَمَنْ يُجِيزُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ أَي أن موتي لا ينفعكم في عدم نزول العذاب بكم، فقد كانوا يتمنون موت الرسول والمؤمنين ليستريحوا إلى كفرهم وأصنامهم، فجاء السياق ليبين أن موت الرسول لا يفيدهم في إجاتهم من عذاب الله الذي استحقوه بسبب الكفر والآثام.

(١) الكهف: ١٠٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٧

[سورة الملك (٤٧): الآيات ٢٩ إلى ٣٠]

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

[٣٠] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الكفار هُوَ الرَّحْمَنُ الذي ندعو إليه آمناً به و صدقنا وجوده و صفاته و أوامره و وعوده و عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا في أمورنا و فوضنا إليه حوائجنا فَسَتَعْلَمُونَ أَيها الكفار في يوم القيامة مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ و انحراف مُبِينٍ واضح؟ هل نحن أم أنتم؟

[٣١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهؤلاء الكفار، و كيف تكفرون بالله، و الحال أن «ماءكم» الذي به حياتكم تحت أمره و تصرفه حتى لو شاء قطعه عنكم لهلكتم عطشا؟ أَرَأَيْتُمْ أَي أَخْبَرُونِي إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا أَي غائرا في الأرض بحيث لا- تتمكنون من إخراجها فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ أَي ظاهر للعيون، أو بمعنى جار سهل التناول؟ فهل هناك أحد غير الله يأتيكم بالماء؟ و إذ لا أحد إلا الله لذلك فكيف تعرضون عنه و تكفرون به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٨

٤٨ سورة القلم مكية / آياتها (٥٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظ «القلم»، و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أصولها الثلاث: الألوهية و الرسالة و المعاد، و إذا ختمت سورة «الملك» بذكر الكفار و تكذيبهم، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله، فقد أجلّ القارئ «الله» سبحانه من أن يستعين به و إنما استعان باسمه، نحو «لاذ الفقراء بجنابك» فان «جناب» هو العتبة، كأنه سبحانه أجلّ من أن يلوذ به الفقراء، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لكل شيء، و لكل أحد، فقد وسعت رحمته كل شيء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٧٩

[سورة القلم (٤٨): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)
[٢] ن من جنس هذا الحرف- و هي حروف التهجي- يتركب القرآن المعجز الذى لو اجتمعت الجن و الإنس على أن يأتوا بمثله لا يقدرن أو رمز بين الله و بين الرسول، و

فى رواية أنها نهر فى الجنة حمد فصار مدادا، و به و بالقلم كتب على اللوح المحفوظ ما كان و ما هو كائن إلى يوم القيامة
«١».

وَالْقَلَمِ أى قسما بالقلم الذى يكتب الناس به، و إنما أقسم به لما تقدم من أن كل خلق من خلق الله جليل عظيم، و الله يحلف بمختلف صنوف خلقه، إشارة إلى العظمة الكامنة فيه، أو المراد القلم الذى كتب فى اللوح المحفوظ و مَا يَسْطُرُونَ أى قسما بما يكتب الناس، أو الملائكة، من «سطر» بمعنى كتب.

[٣] مَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أى بسبب نعمه الله عليك بالرسالة بِمَجْنُونٍ كما يزعم الكفار، فإنهم كانوا يرمونه صلى الله عليه و آله و سلم بالجنون بسبب أن الله أنعم عليه بالرسالة.

[٤] وَإِنَّ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَجْرًا و جزاء على قيامك بمهمة البلاغ غَيْرَ مَمْنُونٍ أى غير مقطوع، فَإِنَّ «مَنْ» بمعنى قطع.

[٥] وَإِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ إذ تحتمل المشاق و المتاعب فى سبيل التبليغ بكل رحابة صدر، و قد أودى صلى الله عليه و آله و سلم حتى قال «ما أودى نبي مثل ما أوديت».

(١) بحار الأنوار: ج ٥٤ ص ٣٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٠

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٥ الى ٩]

فَسْتَبْصِرْ وَ يُبْصِرُونَ (٥) بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)

[٦] فَسْتَبْصِرْ أى سترى أنت يا رسول الله وَ يُبْصِرُونَ أى يرون هؤلاء الكفار الذين يرمونك بالجنون.

[٧] بِأَيُّكُمْ أَنْتَ أم هم الْمَفْتُونُ أى المجنون، أى هل حل الجنون بك أم حل بهم حتى أعرضوا عن الحق فهل المجنون الذى يترك نفعه و يأخذ ضاراه؟ و المفتون مصدر أو اسم مفعول تشبيها بأن شخصا مفتونا حل فيه- و هذا من بديع البلاغة.

[٨] إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ هل هو أنت- كما يقولون- أم هم- كما هو الواقع؟ و معنى الضلال عن سبيله الانحراف عن الطريقة التى قررها سبحانه للوصول إلى سعادة الدنيا و الآخرة وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ الذين اهدوا إلى السبيل الصحيح و هو سبيل الإسلام.

[٩] و إذ قد تبين لك الطريق الواضح فَلَا تُطِعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمُكَذِّبِينَ بتوحيدك و بشريعتك، بل ذرهم و شأنهم.

[١٠] وَدُّوا أى أحب هؤلاء الكفار لَوْ تُدْهِنُ أى تجامل الكفار و تلين لهم، فكأن المجامل يستعمل الدهن ليتلائم مع الطرف المقابل، كما يستعمل الدهن لتلائم الشئيين الخشنيين حتى لا يصطدما و لا يصطكا بعنف فَيُدْهِنُونَ أى فيجاملونك و بذلك يخففوا من وقع التبليغ على أنفسهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨١

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١٠ الى ١٣]

وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) [١١] وَلَا تُطْعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى «فَلَا-طَع» كَقَوْلِ حَلَّافٍ أَيْ كَثِيرِ الْحَلْفِ بِالْبَاطِلِ لِقَلْبِهِ مَبَالِغَةٌ مَهِينٍ أَيْ ذَلِيلٍ مِنْ «هَانَ» بِمَعْنَى ذَلَّ. وَهَذَانِ مِنْ صِفَاتِ الْكُفَّارِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا لَا يَجِدُونَ سَبِيلًا إِلَى إِثْبَاتِ بَاطِلِهِمْ يَتَمَسَّكُونَ بِالْحَلْفِ، وَمِثْلُ هَذَا الْإِنْسَانِ يَشْعُرُ فِي نَفْسِهِ بِذَلِكَ الْمَغْلُوبِيَّةِ، وَإِنْ هَرَجَ وَتَشَدَّقَ وَصَاحَ وَحَلَفَ.

[١٢] هَمَّازٍ كَثِيرِ الْهَمْزِ لِلنَّاسِ، وَالْهَمْزُ هُوَ الطَّعْنُ فِي الْغَيْرِ بِشِدَّةٍ مَشَّاءٍ كَثِيرِ الْمَشْيِ بَيْنَ النَّاسِ بِنَمِيمٍ أَيْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْفِتْنَةِ وَالْإِفْسَادِ لِيَضْرِبَ بَعْضُ النَّاسِ بَعْضًا، وَالنَّمِيمُ وَالنَّمِيمَةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

[١٣] مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ كَثِيرِ الْمَنْعِ لِلْخَيْرِ فَكَلَّمَا رَأَى إِرَادَةَ الْإِنْسَانِ لِلْخَيْرِ مَنَعَهُ، لِذِنَاءَةِ نَفْسِهِ مُعْتَدٍ أَيْ مَجَاوِزٍ عَنِ الْحَقِّ، مَنْ أَعْتَدَى بِمَعْنَى تَجَاوَزَ وَظَلَمَ أَثِيمٌ أَيْ كَثِيرُ الْإِثْمِ وَالْعَصِيَانِ.

[١٤] عُتْلٌ جَافٌ غَلِيظٌ بَعْدَ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ زَنِيمٌ أَيْ دَعَى مَلْصَقٌ إِلَى قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ بِالنَّسَبِ. قَالُوا: وَالْمَعْنَى بِذَلِكَ «الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ» (١) وَهَذِهِ غَالِبَةٌ فِي الْأَشْرَارِ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَحْضُرُونَ كُلَّ شَرٍّ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ فِي عَصْرِنَا، إِبَانُ الْمَدِّ الْأَحْمَرِ- وَكَأَنَّ النَّفْسَ إِذَا انْحَرَفَتْ عَنِ جَادَةِ الْهُدَى تَجَمَّعَتْ فِيهَا كُلُّ تِلْكَ الصِّفَاتِ.

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٨٩.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٢

[سورة القلم (٤٨): الآيات ١٤ إلى ١٧]

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُلْتَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧)

[١٥] أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ أَيْ لِأَنَّا أَعْطَيْنَاهُ الْمَالَ وَالْبَنِينَ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا جَزَاءً لِلإِحْسَانِ بِالْإِسَاءَةِ، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا يَأْتِي فِي قَوْلِهِ «قَالَ أَسَاطِيرُ».

[١٦] إِذَا تُلْتَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا تَقْرَأُ عَلَيْهِ آيَاتِ الْقُرْآنِ قَالَ فِي شَأْنِهَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَيْ أَحَادِيثُ الْأَقْوَامِ السَّابِقِينَ الَّتِي سَطَرَتْ بَلَا أَنْ يَكُونَ لَهَا أَصْلٌ، وَ«أَسَاطِيرُ» جَمْعُ أُسْطُورَةٍ، وَهِيَ الْقِصَّةُ الْخَيَالِيَّةُ الْوَهْمِيَّةُ بَلَا أَنْ يَكُونَ لَهَا حَقِيقَةٌ. وَ مِنَ الْغَرِيبِ شَبَاهَةُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ مَكْذُوبِي عَصْرِ الرَّسُولِ بِمَا يَقُولُهُ الْمَكْذُوبُونَ فِي عَصْرِنَا، مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ رَجِيعَةٌ وَارْتِجَاعٌ.

[١٧] سَنَسِمُهُ أَيْ سَنَعْلَمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَلَامَةٍ يَعْرِفُ بِهَا أَنَّهُ مُجْرِمٌ، فَالْسِّنُ لِلإِسْتِقْبَالِ، وَ«نَسَمٌ» مُضَارَعٌ مِنْ «وَسَمٌ» بِمَعْنَى نَعْلَمُهُ بِعَلَامَةٍ عَلَى الْخُرُطُومِ أَيْ عَلَى أَنْفِهِ، وَ سَمِيَ خُرْطُومًا تَشْبِيهًُا بِخُرْطُومِ الْفِيلِ تَحْقِيرًا لَهُ، كَمَا أَنَّ الْوَسْمَ عَلَى الْخُرْطُومِ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ الْأَنْفَ مَظْهَرُ الْكِبَرِ وَالْإِعْرَاضِ.

[١٨] إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ أَيْ اخْتَبَرْنَا أَهْلَ مَكَّةَ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَيْ أَصْحَابَ الْبَسْتَانِ الَّذِي كَانَ قَرِبَ صَنْعَاءِ.

فَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ ابْتَلَوْا بِالْجُوعِ كَمَا ابْتَلَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

- وَ هِيَ جَنَّةٌ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا وَ كَانَتْ بِالْيَمَنِ يُقَالُ لَهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٣

«الرِّضْوَانُ» عَلَى تِسْعَةِ أَمْيَالٍ مِنْ صَنْعَاءِ (١)، وَقِصَّةُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ كَمَا رَوَاهَا الْقَمِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ شَيْخٌ لَهُ جَنَّةٌ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ بَيْتَهُ ثَمْرَةٌ مِنْهَا وَلَا إِلَى مَنْزِلِهِ حَتَّى يُعْطَى كُلُّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، فَلَمَّا قَبِضَ الشَّيْخُ وَرِثَهُ بَنُوهُ وَكَانَ لَهُ خَمْسَةٌ مِنَ الْبَنِينَ، فَحَمَلَتْ جَنَّتَهُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ الَّتِي هَلَكَ فِيهَا أَبُوهُمْ حَمَلًا لَمْ يَكُنْ حَمَلًا لَمْ يَكُنْ حَمَلًا قَبْلَ ذَلِكَ، فَارْحُوا الْفَتِيَّةَ إِلَى جَنَّتِهِمْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَأَشْرَفُوا عَلَى ثَمَرِ وَرِزْقِ فَاضِلٍ لَمْ يَعِينُوا مِثْلَهُ فِي حَيَاةِ آبَائِهِمْ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى الْفَضْلِ طَغَوْا وَبَغَوْا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ أَبَانَا كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ذَهَبَ

عقله و خرف فهلماوا نتعاقد عهدا فيما بيننا أن لا نعطي أحدا من فقراء المسلمين «أى مسلمى زمانهم» فى عامنا هذا شيئا حتى نستغنى و تكثر أموالنا، ثم نستأنف الصنعة فيما يستقبل من السنين المقبلة.

فرضى بذلك أربعة و سخط الخامس، و هو الذى قال الله فيه «قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبحون» .. فقال لهم أوسطهم اتقوا الله و كونوا على منهاج أبيكم تسلموا و تغنموا، فبطشوا به و ضربوه ضربا مبرحا، فلما أيقن الأخ أنهم يريدون قتله دخل معهم فى مشورتهم كارها لأمرهم غير طائع، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله أن يصرموا إذا أصبحوا و لم يقولوا «إن شاء الله»، فابتلاههم الله بذلك الذنب، و حال بينهم و بين ذلك الرزق الذى كانوا أشرفوا عليه، فأخبر عنهم فى الكتاب فقال «إنا بلوناهم» إلى آخر القصة- كما يأتى- و لعل تشبيه كفار مكة بأولئك الأخوة من حيث إنهم كفروا نعمة الله سبحانه،

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣٨٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٤

[سورة القلم (٦٨): الآيات ١٨ الى ٢١]

وَلَا يَسْتَنْتُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١)

فابتلاههم بالقطح و الجذب، كما أن الأخوة لما أرادوا منع الفقراء خلافا لأمره سبحانه ابتلاههم الله بالنار التى أحرقت جنتهم «١». إذ أقسموا أى حلفوا بالله ليضيرمئها أى يقطعون ثمرها من «الصرم» بمعنى القطع مُصْبِحِينَ أى فى حال كونهم داخلين فى الصباح قبل أن يجلو النهار، ليخفوا الأمر على الفقراء و المساكين.

[١٩] وَلَا يَسْتَنْتُونَ أى لم يستثنوا عند الحلف بإتيان كلمه إن شاء الله، و إنما يقال لهذه الكلمة: الاستثناء، لأن القائل يقول أفعل كذا إلا أن يشاء الله منعى، و فى معنى ذلك إن شاء الله، و بعدم الاستثناء كانوا قد أسأوا أو لا بنىة المنع عن الفقراء، و ثانيا بعدم الاستثناء بالنسبة إلى ما عزموا عليه فى المستقبل.

[٢٠] فَطَافَ عَلَيْهَا أى على الجنة طائِفٌ أى شىء من العذاب طاف على البستان من قبل رَبِّكَ يا رسول الله وَهُمْ نَائِمُونَ بعد فى فراشهم، قالوا بعث الله نارا على البستان فأحرقت.

[٢١] فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ أى كالمقطوع ثماره، من «صرم» بمعنى قطع، أو كالليل المظلم، و يقال الليل و النهار صريمان لانصرام أحدهما عن الآخر.

[٢٢] فَتَنَادُوا أى الأخوة أصحاب الجنة، نادى بعضهم بعضا

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣٨١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٥

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٢٢ الى ٢٧]

أَنْ اغْدُوا عَلَى حَزْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلِقُوا وَهُمْ يَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَ غَدُوا عَلَى حَزْبٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)

مُصْبِحِينَ أى حال كونهم داخلين فى الصباح.

[٢٣] و كان النداء من بعضهم لبعض أن اغدوا أيها الأخوة، أى أسرعوا غدوة على حَزْبِكُمْ أى زرعكم و ثمركم إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ من «صرم» بمعنى قطع، أى إن تريدون قطع الثمار.

[٢٤] فَأَنْطَلَقُوا مَضُوا إِلَى الْبِسْتَانِ وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَى يَتَسَارُونَ بَيْنَهُمْ، وَ أَسْلَهُ مِنْ خَفْتِ فُلَانِ نَفْسَهُ، إِذَا أَخْفَى نَفْسَهُ لثَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ، وَ مِنْهُ يَسْمَى مِقَابِلَ الْجَهْرِ إِخْفَاتَا.

[٢٥] وَ كَانَ التَّخَافُتِ بِسَبَبِ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَى الْجَنَّةِ الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ أَى فِي يَوْمِ الصَّرْمِ وَ قَطَعَ الثَّمَرِ مِسْكِينٌ فَاعِلٌ يَدْخُلُ.

[٢٦] وَ هَكَذَا ذَهَبُوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ غَدَوْا أَى أَصْبَحُوا عَلَى حَرْدٍ بِمَعْنَى الْمَنْعِ يُقَالُ حَارَدَتِ السَّنَةُ: إِذَا مَنَعَتْ قَطْرَهَا قَادِرِينَ أَى قَدَرُوا عَلَى الْمَنْعِ عَنِ الثَّمَرِ لَا عَلَى الثَّمَرِ، وَ هَذَا كَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ امْتَلَأَتْ كَفَّهُ مِنَ الْهَوَاءِ عَوْضَ امْتِلَائِهَا مِنَ الْمَالِ، يَعْنَى أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الثَّمَرِ، فَقَدَرُوا عَلَى الْحَرْدِ وَ الْحَرْمَانِ لَا عَلَى الثَّمَارِ وَ الْأَعْنَابِ.

[٢٧] فَلَمَّا رَأَوْهَا أَى رَأَوْا الْجَنَّةَ عَلَى تِلْكَ الصَّفَةِ قَالُوا أَى قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّا لَصَالُونَ أَى ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ جَنَّتَنَا.

[٢٨] وَ لَمَّا تَأَمَّلُوا وَ رَأَوْا أَنَّهَا جَنَّتُهُمْ بَعِينَهَا، أَضْرَبُوا عَنْ كَلَامِهِمُ الْأَوَّلِ وَ قَالُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٦

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٢٨ الى ٣٢]

قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبُحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ عَنِ الثَّمَارِ وَ عَنِ خَيْرِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ احْتَرَقَتْ.

[٢٩] قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ أَى أَعْقَلَهُمْ، وَ يُقَالُ لِلْأَعْقَلِ أَوْسَطٌ، لِأَنَّهُ لَا إِفْرَاطَ فِي أَمْرِهِ وَ لَا تَفْرِيطَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ حِينَمَا أَرَدْتُمْ مَنَعَ الْفُقَرَاءَ لَوْ لَا أَى هَلَا تَسْبُحُونَ وَ تَتَزَهَوْنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ؟ فَقَدَرُوا لَهُمْ حِينَ مَا تَوَاطَأُوا عَلَى مَنَعَ الْفُقَرَاءِ: أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ اذْكُرُوا اللَّهَ وَ نَزَهُوهُ عَنِ الْقَبِيحِ فَإِنَّهُ مَنَزَهُ عَنْ أَنْ يُعْطَى الْأَغْنِيَاءَ وَ يَحْرَمَ الْفُقَرَاءَ، لَكِنِّكُمْ رَكِبْتُمْ رُؤُوسَكُمْ وَ أَعْرَضْتُمْ عَنِ النَّصِيحِ، فَهَذَا جَزَاءُ نِيَّتِكُمُ السَّيِّئَةِ.

[٣٠] وَ بَعْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ شَيْءٍ قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا فَإِنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ ظَالِمًا فِي إِحْرَاقِ بَسْتَانِنَا، بَلْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ حَيْثُ قَصَدْنَا مَنَعَ الْحَقُوقِ عَنِ الْفُقَرَاءِ.

[٣١] فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَى بَعْضَ الْأَخُوَّةِ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ أَى يُلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ النِّيَّةِ السَّيِّئَةِ.

[٣٢] قَالُوا يَا وَيْلَنَا أَى يَا قَوْمِ وَيْلَنَا، أَوْ يَا وَيْلَنَا أَحْضَرُ فَهَذَا وَقْتُكَ، وَ الْوَيْلُ هِيَ الْحَالَةُ السَّيِّئَةُ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ فِي عَزْمِنَا عَلَى مَنَعَ الْفُقَرَاءِ حَقُوقِهِمْ، وَ الطَّغْيَانُ هُوَ الظُّلْمُ الْمُتَجَاوِزُ حُدُودَهُ.

[٣٣] عَسَى رَبُّنَا أَى لَعَلَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا أَى خَيْرًا مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٧

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٣٣ الى ٣٧]

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَمْ فَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧)

هَذِهِ الْجَنَّةُ، بَأَنَّ يُتَّفَضَّلَ عَلَيْنَا بِبَدْلِهَا وَ عَوْضُهَا، فَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ نَرْغَبُ إِلَيْهِ وَ نَطْلُبُ غَفْرَانَهُ وَ نَسْأَلُهُ أَنْ يَعْوِضَنَا بِدَلِّ الْجَنَّةِ.

[٣٤] كَذَلِكَ الْعَذَابُ أَى كَعَذَابِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، يَكُونُ عَذَابُ الْعَاصِينَ فِي الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَى لَوْ عَلِمُوا مِقْدَارَ عَذَابِ الْآخِرَةِ، لَعَلِمُوا أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا.

[٣٥] وَ فِي مِقَابِلِ هَؤُلَاءِ الْمُتَّقِينَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْكُفْرَ وَ الْمَعَاصِيَ، بَأَنَّ خَافُوا عِقَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ أَى فِي الْآخِرَةِ وَ كَوْنَهُ عِنْدَ اللَّهِ بِاعْتِبَارِ الْقُرْبِ إِلَى رِضَاهِ لَا الْقُرْبِ الْمَكَانِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَى بِسَاتِينَ يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا.

[٣٦] أَمْ فَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ كَالْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَذْنَبُوا وَ عَصَوْا اللَّهَ سُبْحَانَهُ؟ وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَى كَيْفَ نَجْعَلُ الْمُسْلِمَ وَ الْمَجْرِمَ - فِي الْآخِرَةِ - سِوَاءَ؟ وَ قَدْ كَانَ الْكُفْرَ يَقُولُونَ: إِنْ كَانَ بَعْثٌ وَ جَزَاءٌ لِكَانَ حَالِنَا فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنْ أَحْوَالِ

محمد و أصحابه.

[٣٧] ما لَكُمْ أيها الكفار؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ حكما جائرا في أن المجرم كالمسلم عند الله تعالى؟ و هل يعقل هذا الحكم؟

[٣٨] أم أي هل أن حكمكم بذلك ليس اعتباطا، بل لَكُمْ كِتَابٌ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٨

[سورة القلم (٤٨): الآيات ٣٨ الى ٤١]

إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَهَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَيَلْمُهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)

سماوى نزل على الأنبياء السابقين فِيهِ تَدْرُسُونَ و تَقْرُونَ مساواة المجرم و المسلم؟

[٣٩] تدرسون ب إِنْ لَكُمْ أنتم الكفار فِيهِ أى فى ذلك الكتاب لَمَا تَخَيَّرُونَ أى للشىء الذى تختارونه من الثواب فى الآخرة، و جملة

«إن لكم ...» أول الكلام على سبيل الاستهزاء، و لذا كسرت همزة إن، و إن كان فى الحقيقة من متعلقات «تدرسون» كما فسرنا.

[٤٠] أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا أى عهود و موثيق علينا بأن أخذتم منا عهدا بِالْعَهَّةِ تلك العهود إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ تكون هى لكم جيلا بعد

جيل إِنْ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ أى أن تلك العهود هى أن لكم أتمت كلما حكمتم من تساوى المؤمنين بكم، و إدخالكم الجنة؟

[٤١] سَيَلْمُهُمْ يا رسول الله، أصله «سأل» حذفت الهمزة تخفيفا أَيُّهُمْ بِذَلِكَ الذى ذكروا من أن لهم مثل ما للمسلمين زَعِيمٌ كفيلا؟ فمن

الكفيل بأن يكون لهم مثل ما للمسلمين؟ و إذ لا كتاب و لا إيمان، و لا كفيلا فليعرفوا أن كلامهم فارغ خال من كل حجة و دليل.

[٤٢] أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ أى آلهة أخرى هم يعطون هؤلاء الكفار فى الآخرة مثل ما يعطى الله المؤمنين؟ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ فى يوم القيامة

ليأخذوا منهم- و هذا استهزاء بهم- إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فى كلامهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٨٩

[سورة القلم (٤٨): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتِطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ

سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)

إن لهم مثل ما للمؤمنين.

[٤٣] فليأتوا بشركائهم فى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الذى تظهر فيه الأهوال و الشدائد حتى أنه يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فإن الخوف إذا كان شديدا كشف

الإنسان عن ساقه، بأن رفع ثوبه ليكون أسهل فى الهرب، فلا يأخذ فاضل ثوبه رجله، و هذا كناية عن الهول- كما إن «كثير الرماد»

كناية الجود و يُدْعَوْنَ هؤلاء الكفار فى ذلك اليوم إلى السُّجُودِ فيقال لهم على سبيل التوبيخ «اسجدوا» فَلَا يَسْتِطِيعُونَ لأن

فقار ظهرهم تتداخل و تصلب حتى لا يتمكنون من الانحناء للسجود كما يظهر من الأحاديث.

[٤٤] خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ لا يرفعون نظرهم من الأرض ذُلٌّ و مهانة و وجلا تَرْهَقُهُمْ أى تغشاهم ذُلٌّ فإنها تظهر من حركاتهم و سكناتهم و

وجناتهم وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ هؤلاء الكفار- فى دار الدنيا- إلى السُّجُودِ و الخضوع لله سبحانه وَهُمْ سَالِمُونَ فلا يسجدون، و لذا جوزوا

بتلك الذل، و بعدم تمكنهم من السجود يوم القيامة.

[٤٥] فَذَرْنِي أى دعنى يا رسول الله وَمَنْ أى مع الكافر الذى يُكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ أى بحديث التوحيد و الرسالة و المعاد و هذا

تهديد، معناه انى سأجازيهم، كما يقول القائل «دعنى و إياه» أى اتركه فإننى سوف أحاسبه سَنَسْتَدْرِجُهُمْ الاستدراج هو طلب الشىء

درجة

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٠

[سورة القلم (٤٨): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤٧)

درجة حتى يصل إلى النهاية المقصودة، أي نوجب على هؤلاء العقوبة بإعطائهم الحياة و المال حتى يتدرجوا في الكفر و العصيان، و يستحقوا بذلك أشد العذاب مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ إنه استدراج إلى العذاب و العقاب، بل يظنون إنها نعمة و صحة و مال و جاه. [٤٦] وَأُمْلِي لَهُمْ أى أمهلهم، فإن الإملاء و الإمهال بمعنى واحد إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أى ما أدبره لعذاب الأشقياء متين مستحکم لا ينفصم و لا يدخله النقص و الخلل.

[٤٧] ثم عطف على قوله «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ» قوله: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أى تسأل يا رسول الله من هؤلاء الكفار أَجْرًا على أداء الرسالة و الدعاء إلى الإسلام فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ أى من لزوم تلك الغرامة، و المال الذى تطلبه منهم مُثْقَلُونَ قد أثقلهم ذلك المطلوب، و لذا يريدون الفرار من تلك الغرامة، فعدم إيمانهم هل لأنهم يقولون لا فائدة فى الإيمان، لأنهم مطمئنون، من كتاب قرءوه أنهم فى الجنان مثل المسلمين- أم لأنهم يعرفون الفائدة فى الإيمان، و أن الجنة تتوقف عليه، و لكن فى الإيمان غرامة و هم يفرون من تلك الغرامة؟ [٤٨] أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أى أن الوحي ينزل عليهم بأن ما هم فيه من الكفر و العصيان هو الصحيح فَهُمْ يَكْتُمُونَ ذلك الغيب و يعملون به، و لذا لا يرضخون للإسلام، لأن عندهم مثل ما عندك من الوحي و الكتاب؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩١

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)

[٤٩] و إذ ترى يا رسول الله من الكفار الإعراض بلا حجة أو دليل فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فى إبلاغ الرسالة، و تحمل المشاق فى سبيله و لا تَكُنْ يا رسول الله كَصَاحِبِ الْحُوتِ أى يونس عليه السلام الذى طلب العذاب لقومه، و خرج من بينهم، لما رأى عدم الفائدة فى دعوتهم فقد كان عمله ذلك ترك الأولى بمثل مقام الرسالة إِذْ نَادَى اللهُ سبحانه بإنزال العذاب على قومه وَهُوَ مَكْظُومٌ قد كظم غيظه على القوم فهو مكظوم الغيظ، يقال كظم غيظه: إذا حبسه، أو المعنى نادى فى بطن الحوت لا- إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «١» و هو محبوس فى بطن الحوت، لكن المعنى الأول أقرب إلى قوله «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ».

[٥٠] لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ بقبول توبته و استغفاره فان التوبة نعمة من الله سبحانه على العبد لَنُبِذَ يونس، أى طرح من بطن الحوت بِالْعَرَاءِ أى الأرض الجرداء الخالية عن الشجر و السقف حتى يهلك من الحر و البرد و الجوع وَهُوَ مَذْمُومٌ لما ارتكبه من الدعاء على قومه، فقد كان ذلك تركا للأولى، و ذلك- و إن لم يكن عصيانا- إلا أنه ليس مناسباً لمقام الأنبياء، و لذا يحتاجون إلى التوبة و التطهير من ذلك.

[٥١] و إذا تداركته نعمة من ربه فاستغفر و تاب فَاجْتَبَاهُ أى اصطفاه

(١) الأنبياء: ٨٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٢

[سورة القلم (٦٨): الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

و اختاره رَبُّهُ بأن قبل توبته و أرجعه إلى مكانه الأول فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين يصلحون لأداء رسالته سبحانه.

[٥٢] فاصبر يا رسول الله لحكم ربك، و لا- تكن كيونس، و اعلم بأن الكفار يريدون إزالتك عن دعوتك و إن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ «إن» مخففة من الثقيلة، أى أنه يقرب الكفار من أن يزلقوك، و «زلق» بمعنى لم يتماسك على الأرض بل وقع لتمايل

رجله، أى يريد الكفار أن يوقعوك فلا تقوم للتبليغ، وهذا للتشبيه، فإن الذى يترك القيام بالبلاغ كالإنسان الذى وقع فلا وقوف له على رجليه بأبصارهم أى بأعينهم، فقد كانوا ينظرون إلى الرسول شزرا، والنظر العدائى يوجب انقطاع الإنسان عما قام به، فإن الشخص إذ رأى الأزدراء من السامع لم يتقدم بالكلام لَمَّا سَجِعُوا أَوْلَيْكَ الْكُفَّارَ الذُّكْرَ أَى الْقُرْآنَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ أَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَجْنُونٌ قد خلط عقله وزال، فكلامه باطل لغو.

[٥٣] وما هو والحال أنه ليس هذا القرآن إلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ يذكُرهم ما أودع فى فطرتهم من التوحيد والمعاد وما أشبه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٣

٦٩ سورة الحاقه مكيه / آياتها (٥٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «الحاقه»، وهى كسائر السور المكيه تشتمل على معالجه قضايا العقيدة، وحيث تعرضت سورة «القلم» فى أواخرها بقضايا القيامة ووعيد الكفار بها ابتدأت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَشْرَعُ بِاسْمِ إِلَهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي الْكُونِ، فَاسْمُهُ الْكَرِيمُ أَفْضَلُ شَيْءٍ يَشْرَعُ بِهِ فِي الْأُمُورِ، إِنَّهُ يَبَارِكُ عَلَى مَا ابْتَدَى فِيهِ بِاسْمِهِ، كَمَا

ورد «كل أمر ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر»،

الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحمة لمن سأله و لمن لم يسأله، و إن كان من سأله مورد عنايته و أطفاه الخاصه، بالإضافة إلى رحمته التى وسعت كل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٤

[سورة الحاقه (٦٩): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤)

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)

[٢] الْحَاقَّةُ هِيَ مِنْ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمَحْشَرُ بِهَا لِأَنَّهَا سَاعَةٌ تَحْقُقُ وَتَحْتَقِقُ، مِنْ «حَقَّ» بِمَعْنَى ثَبَتَ وَصَدَقَ وَوَجِبَ، وَهِيَ فِي الْإِعْرَابِ مَبْتَدَأُ خَبْرِهِ:

[٣] مَا الْحَاقَّةُ؟ كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ مَا زَيْدٌ؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّفْخِيمُ، أَى أَى شَيْءٍ هِيَ؟ وَمَا أَكْثَرَ أَهْوَالِهَا وَشِدَائِدِهَا.

[٤] وَمَا أَدْرَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا الْحَاقَّةُ أَى شَيْءٌ هِيَ، فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَعَايِنِهَا لَمْ تَعْلَمْ شِدَائِدِهَا، وَهَذَا لَيْسَ نَفِيًا بِعِلْمِ الرَّسُولِ - لَوْ كَانَ الْخَطَابُ مَوْجَهًا إِلَيْهِ - بَلْ كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّتِهَا.

[٥] ثُمَّ جَاءَ السِّيَاقُ لِيُبَيِّنَ أَحْوَالَ جَمَلَةٍ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقِيَامَةِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَاهْلَكَهُمْ كَذَّبَتْ ثَمُودُ أَى قَبِيلَهُ ثَمُودَ، وَهُمْ قَوْمٌ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَبِيلَةٌ عَادٌ قَوْمٌ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْقَارِعَةِ أَى بِالْقِيَامَةِ، وَتَسْمَى «قَارِعَةً» لِأَنَّهَا تَقْرَعُ الْأَشْيَاءَ وَتَدَكُّهَا وَتَقْرَعُ الْقُلُوبَ وَتَخْفِيفُهَا.

[٦] فَأَمَّا ثَمُودُ فَقَدْ جُوزُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ أَى بِالصَّيْحَةِ الطَّاغِيَةِ الَّتِي طَغَتْ عَلَيْهِمْ فَخَلَعَتْ قُلُوبَهُمْ وَاهْلَكَتْهُمْ.

[٧] وَأَمَّا عَادٌ فَقَدْ جُوزُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ أَى بَارِدَةٍ شَدِيدَةٍ الْعُصُوفِ عَاتِيَةٍ قَدْ عَتَتْ عِنْدَ حُدُودِهَا الْمَأْلُوفِ، وَالرِّيحُ مَوْثٌ سَمَاعِيٌّ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٥

[سورة الحاقه (٦٩): الآيات ٧ الى ٩]

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صِرَعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩)

[٨] سَخَّرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ كَانَتْ مَرْسَلُهُ نَحْوَهُمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ فَكَانَتْ تَهْلِكُهُمْ بِيَرْدِهَا وَصَرِيرِهَا حُسُومًا أَيْ فِي حَالِ كَوْنِ تِلْكَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ وَوَلَاءِ مَتَابَعِهِ، مَأْخُذٌ مِنْ «حَسْمِ الدَّاءِ بِمَتَابَعَةِ الْكِي»، أَوْ بِمَعْنَى أَنَّهَا حَسَمْتَهُمْ أَيْ قَطَعَتْ نَسْلَهُمْ بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَتَرَى أَيُّهَا الرَّائِي الْقَوْمَ أَيْ قَبِيلَهُ عَادَ فِيهَا أَيْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ صِرَعَى مَصْرُوعِينَ، جَمْعُ صَرِيْعٍ، وَهُوَ الشَّخْصُ الْوَاقِعُ مِثْلًا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ أَيْ أَصُولُ نَخْلٍ بِالْيَةِ، فَإِنَّ أَعْجَازَ جَمْعُ عَجْزٍ وَهُوَ أَصْلُ النَّخْلِ وَالْخَاوِيُ الْخَالِي الَّذِي لَا شَيْءَ فِي جَوْفِهِ، وَشَبَّهُوا بِذَلِكَ لِأَنَّ اسْتِطَالَه جَسْمَهُمْ وَبَقَائِهِمْ فِي الْأَرْضِ يَشْبَهُ ذَلِكَ.

[٩] فَهَلْ تَرَى أَيُّهَا الرَّائِي لَهُمْ أَيْ لِأَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ الْمَكْذِبِينَ مِنْ بَاقِيَةٍ أَيْ مِنْ نَفْسٍ بَاقِيَةٍ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ لِلإِيقَاطِ، أَيْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أُمَّةٍ كَذَبَتْ لَا بَدَ لَهُمْ مِنَ الْفَنَاءِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ.

[١٠] وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَوَمَنُ الْعَاصُونَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْوَهُمْ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ أَيْ قَرَى لُوطِ النَّبِيِّ قَلْبًا - مِنْ «اتَّفَكَ» أَيْ انْقَلَبَ - وَالْمَرَادُ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرَى بِالْخَاطِئَةِ أَيْ بِالْخَطَا، فَإِنَّهَا مَصْدَرٌ «خَطَأٌ» أَوْ الْمَرَادُ بِالْخَصْلَةِ الْخَاطِئَةُ نَسَبَتْ الْخَطَا إِلَيْهَا مَجَازًا بَعْدَ مَا كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى الْقَوْمِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٦

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٠ إلى ١٤]

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَإِعْيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)

[١١] فَعَصَوْا أَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ رَسُولَ رَبِّهِمْ أَيْ كُلِّ قَوْمٍ رَسُولَهُ، وَالْمَرَادُ بِالرَّسُولِ الْجِنْسُ لَا الْوَاحِدَ - كَمَا تَقَدَّمَ وَجْهَهُ سَابِقًا - فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْعُقُوبَةِ أَخَذَةً رَابِيَةً أَيْ زَائِدَةً فِي الشَّدَةِ مِنْ «رَبِي» بِمَعْنَى زَادَ وَطَغَى.

[١٢] لَقَدْ أَخَذْنَا الْأَقْوَامَ الْمَكْذِبِينَ وَأَنْجَيْنَا الْمُصْذِقِينَ، كَمَا إِنَّا أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ بَنِي نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ الَّذِينَ هُمْ أَجْدَادُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ أَيْ جَاوَزَ الْحَدَّ الْمَأْلُوفَ حَتَّى أَغْرَقَ الْأَرْضَ كُلَّهَا حَمَلْنَاكُمْ إِنَّمَا نَسَبَ الْحَمْلَ إِلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ أَنََّّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ مَنْ حَمَلُوا فِي الْجَارِيَةِ أَيْ فِي السَّفِينَةِ الَّتِي كَانَتْ تَجْرِي فِي تِلْكَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ.

[١٣] لِنَجْعَلَهَا أَيْ نَجْعَلُ تِلْكَ الْفِعْلَةَ الَّتِي فَعَلْنَا بِكُمْ حِينَ آمَنْتُمْ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَذْكِرَةً تَتَذَكَّرُونَ بِهَا نَعْمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعِيهَا مِنْ «وَعَى» بِمَعْنَى أَدْرَكَ، أَيْ تَحْفَظُهَا وَتَدْرِكُهَا أذُنٌ وَإِعْيَةٌ أَيْ أذُنٌ تَعَى الْمَوَاعِظَ وَتَسْتَمِعُ لِلْعِبَرِ بِقَصْدِ التَّفْهَمِ وَالْعَمَلِ.

[١٤] وَإِذَا رَأَيْتُمْ عَاقِبَةَ الْمَكْذِبِينَ وَعَاقِبَةَ الْمُصْذِقِينَ فِي الدُّنْيَا فَاسْمَعُوا عَاقِبَتَهُمَا فِي الْآخِرَةِ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ أَيْ نَفِخَ إِسْرَافِيلُ فِي الْبُوقِ لِأَجْلِ إِحْيَاءِ الْبَشَرِ نَفْحَتَهُ الثَّانِيَةَ نَفْحَةً وَاحِدَةً بِلَا زِيَادَةٍ عَلَيْهَا إِذْ لَا حَاجَةَ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهَا، فَإِنَّ الْبَشَرَ يَحْيُونَ بِمَجْرَدِ النَّفْحَةِ.

[١٥] وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ أَمَا حَمَلُ الْأَرْضِ فَبِاعْتِبَارِ رَفْعِ مَنْحَدَاتِهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٧

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٥ إلى ١٧]

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً (١٧)

حَتَّى تَسْتَوِيَ مَعَ سَائِرِ بَقَاعِهَا، وَ أَمَا رَفْعُ الْجِبَالِ فَبِاعْتِبَارِ أَنَّهَا تَنْسِفُ حَتَّى تَكُونَ كَالْهَبَاءِ لِتَسْتَوِيَ ظَهْرُ الْأَرْضِ كُلِّهَا بِلَا رَفْعٍ وَلَا خَفْضٍ، وَ تَكُونُ سَاحَةَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا فَدُكَّتَا أَيْ كَسَرْتَا وَ دَكَّ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ دَكَّةً وَاحِدَةً فَإِنَّ «الدَّكَّ» يَشْمَلُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَا تَدْرِيحًا.

[١٦] فَيَوْمَئِذٍ أَى فى ذلك اليوم وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ أَى القيامة، و سميت «واقعة» لأنها تقع قطعاً.

[١٧] وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ بمعنى انفرجت حتى ينظر الإنسان إليها فيراها متفطرةً كأنفطار الجدار و نحوه فَهِيَ أَى السماء يَوْمَئِذٍ أَى فى يوم القيامة واهيئةً من «وهى» بمعنى ضعف، لأن نظامها يختل، و مداراتها تتداخل و تخرب.

[١٨] وَ يَرَى الْمَلَائِكَةَ النَّاظِلَةَ لِلْحِسَابِ و سائر الأعمال عَلَى أَرْجَائِهَا أَى على أطراف السماء و نواحيها، و «أرجاء» جمع «رجاء» بمعنى الطرف و الناحية وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، و هو محل سمي بالعرش يصدر منه أوامر الله سبحانه، كما أن البيت الحرام محل مضاف إليه سبحانه تشريفاً فَوْقَهُمْ أَى فوق أكتافهم يَوْمَئِذٍ أَى فى يوم القيامة ثَمَائِيَّةً من الملائكة العظام، و كل ذلك لتكثير الهول، و التناسب مع مدارك الإنسان الذى يرى العظمة و يشعر الخوف من هذه الأمور.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٨

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ١٨ الى ٢١]

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُومٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١)

[١٩] يَوْمَئِذٍ أَى فى هذا اليوم تُعْرَضُونَ أنتم أيها البشر فى ذلك العرض الهائل الرهيب لَا تَخْفَى مِنْكُمْ نفس خَافِيَةٌ فليس أحد هناك مخفياً لأنه لَا محل للاختفاء، بل كلهم بارزون يراهم الناس معهم أعمالهم إن خيراً فخير و إن شراً فشر.

[٢٠] و هناك ينقسم الخلق إلى قسمين: فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ أَى صحيفته أعماله التى أدرج فيها الملائكة كل ما عمل فى دار الدنيا بِيَمِينِهِ أَى بيده اليمنى، و ذلك علامة الفلاح و النجاة فَيَقُولُ لِأهل القيامة- فى فرح و سرور- هَٰؤُومٌ أَى تعالوا و خذوا، اسم فعل أمر بصيغة الجمع، مفردة «ها» أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ و انظروا ما فيه من الحسنات، و الهاء فى «كتابه» و نحوه للسكت، يقرأ فى الوقف و لا يقرأ فى الوصل، و كأنه جىء به للتنفس بأن لا يحبس النفس على الياء.

[٢١] إِنِّي ظَنَنْتُ فى الدنيا أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ فى الآخرة، و لذا عملت صالحاً حتى حصلت على هذه المرتبة الرفيعة من الفلاح و النجاة و الإتيان ب «ظننت» لعله لإفادة أن مجرد الظن كاف فى العمل الصالح إذ رفع الضرر المظنون واجب بحكم العقل.

[٢٢] فَهُوَ أَى صاحب الكتاب الذى أعطى كتابه بيمينه فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ نسبة الرضا إلى العيش مجاز، فإن صاحب العيش هو الراضى أو أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول- كما قالوا فى أن هذين يأتى كل واحد منهما

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٤٩٩

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٢٢ الى ٢٧]

فى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَ أَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ (٢٥) وَ لَمْ أُدرِ مَا حِسَابِيَةَ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧)

فى مكان الآخر، ف حجاباً مَشْتُوراً «١» بمعنى ساتراً كما تقدم-.

[٢٣] فى جَنَّةٍ أَى بستان عَالِيَةٍ رفيعة القدر و المكان.

[٢٤] قُطُوفُهَا جمع «قطف» و هو ما يجتنى بسرعة، أى ثمارها الناضجة أو أن القطف و القطف دَانِيَةٌ أَى قريبة إلى الشخص، حتى لا يحتاج فى قطفها إلى التجشم و التعب، فإذا أرادها قربت من يده ليقطعها.

[٢٥] و يقال لهم- على وجه التكريم و الإجلال- كُلُوا من ثمار الجنة و لحومها و سائر مأكولاتها وَ اشْرَبُوا من أنهارها هَنِيئًا لكم أى تهنتون هنيئاً، بلا داء و لا علة يوجبها الأكل و الشرب بسبب ما أَسْلَفْتُمْ أى قدمتم من أعمالكم الصالحة فى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ أى الماضية، و المراد بها أيام الدنيا التى خلت و مضت.

[٢٦] و إذ رأينا أحوال أهل الجنة فلننظر إلى أحوال أهل النار و أمّا مَنْ أُوتِيَ أى أعطى كتابه أى كتاب أعماله التى أدرجها الملائكة فيه بِشماله أى بيساره، و ذلك علامة أهل النار فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ أى لم أعط كتابي حتى أرى ما يسوؤنى فيه.
 [٢٧] و لَمْ أَدْرَ أى يا ليتنى لم أعرف ما حسابي أى شئ حسابي.
 [٢٨] يا لَيْتَهَا أى ليت الموتة التى متها فى الدنيا كانت الْقَاضِيَةَ تقضى

(١) الإسراء: ٤٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٥٤٩

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٢٨ الى ٣٣]

ما أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)

إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣)

على حياتى إلى الأبد فلم أبعث بعدها لأرى سيئات أعمالى و أبتلى بالخزى و العذاب.

[٢٩] ما أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ أى ما دفع عنى مالى من عذاب الله شيئا.

[٣٠] هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ و سلطنتى و جاهى ذهبتا، فلا مال ينفع و لا سلطان ينجع - مما كرت حياتى و جهودى لهما-.

[٣١] ثم يأتى الخطاب من المصدر الأعلى للملائكة الموكلين بهذا المجرم خُذُوهُ فلا تتركوه يفر و يهرب فَغُلُّوهُ أى أوثقه بالغل، و هو الحديد الذى يربط أعضاء الإنسان بعضها ببعض لئلا يتمكن من الفرار.

[٣٢] ثُمَّ الْجَحِيمَ بعد إغلاله بالغل صَلُّوهُ أى أدخلوه فيها و الجحيم هى النار العظيمة.

[٣٣] ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا أى طولها بالذراع سَبْعُونَ ذِرَاعًا و الطول لتشديد العذاب و الغم عليه فَاسْلُكُوهُ أى اربطوه بها، و قيل تدخل من حلقه و تخرج من دبره، و هذا هو سلكه فيها.

[٣٤] ثم يأتى السياق ليبين علة هذه الأنواع من العذاب إِنَّهُ أى هذا المجرم كَانَ فى الدنيا لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مع عظمته سبحانه، كان يعاند و لا يؤمن.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠١

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٣٤ الى ٣٩]

وَلَا يَخْضُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ (٣٦) - لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨)

وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩)

[٣٥] و لَا يَخْضُّ أى لا يحث الناس - من باب الأمر بالمعروف - أو هو كناية عن منعه بنفسه، لأن المانع لا يحث، فأتى بالمسبب و أريد

السبب على طعام المسكين أى إطعام الفقراء، الذين يجب الحض على إطعامهم لأنهم فى معرض الهلكة.

[٣٦] فَلَيْسَ لَهُ هذا الكافر الْيَوْمَ أى فى يوم القيامة هَاهُنَا فى المحشر حَمِيمٌ صديق ينفعه.

[٣٧] و لَا لَهُ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ و هو صديد قيح أهل النار، أى غسلتهم.

[٣٨] لَا يَأْكُلُهُ أى لا يأكل الغسلين إِلَّا الْخَاطِئُونَ الذين اخطأوا فى الدنيا بالكفر و العصيان.

[٣٩] و بعد استعراض أحوال المؤمنين و الكافرين فى الآخرة يأتى السياق، ليستدل على الرسالة و ينفى مزاعم القوم حول الرسول صلى

الله عليه وآله وسلم فلا أقسم بما تبصرون أيها البشر.

[٤٠] وب ما لا تبصرون أي بالمشاهدات والمغيبات، والإتيان ب «لا» للليفة، هي الحلف، وإفادة أن الحلف لعظيم، فإذا أردت أن تحلف، وأردت أن تبين أن الحلف عظيم تقول «لا- أقسم بحياتك إن الأمر كذا» فأنت لم تحلف مع الإلماح إلى الحلف، وعلى هذا ف «لا» للنفي، لا أنها زائدة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٢

[سورة الحاقه (٦٩): الآيات ٤٠ الى ٤٥]

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)

[٤١] ثم بين متعلق الحلف بقوله: إِنَّهُ أَى إِنْ الْقُرْآنَ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ مِنْ قَبْلِهِ، إِذِ الرَّسُولُ لَا يَقُولُ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ سُبْحَانَهُ.

[٤٢] وَمَا هُوَ أَى لَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِ شَاعِرٍ فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ وَالْقُرْآنُ شِعْرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ أَى قَلِيلٌ إِيمَانِكُمْ، أَوْ يُؤْمِنُ مِنْكُمْ بِالرَّسُولِ أَشْخَاصٌ قَلِيلُونَ، وَهَذَا لِلْاِسْتِنْكَارِ وَالتَّقْرِيعِ، أَى لَمْ تَكُونُوا هَكَذَا؟

[٤٣] وَلَا الْقُرْآنُ بِقَوْلِ كَاهِنٍ فَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنْ الرَّسُولُ كَاهِنٌ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كِهَانَةٌ، وَالْكَاهِنُ مَنْ لَهُ اتِّصَالٌ بِالشَّيَاطِينِ فَيَأْتُونَ إِلَيْهِ بِأَخْبَارٍ مَلْفُوقَةٍ مَسْجُوعَةٍ بَاطِلِهَا أَكْثَرُ مِنْ حَقِّهَا قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ فَلَا- تَتَذَكَّرُونَ الْحَقَّ الْمَوْدُوعَ فِي فِطْرَتِكُمْ إِلَّا قَلِيلًا، أَوْ قَلِيلٌ مِنْكُمْ يَتَذَكَّرُونَ الْحَقَّ.

[٤٤] إِنَّهُ تَنْزِيلٌ أَى مَنْزِلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[٤٥] وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا أَى افترى الرسول علينا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ الْمَكْذُوبَةِ، وَالتَّقَوُّلُ اخْتِلَاقُ الْقَوْلِ وَنَسْبَتُهُ إِلَى مَنْ لَيْسَ مِنْهُ.

[٤٦] لَأَخَذْنَا مِنْهُ أَى مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْيَمِينِ أَى بِيَمِينِهِ بِأَنَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٣

[سورة الحاقه (٦٩): الآيات ٤٦ الى ٤٩]

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذَكَّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) قَطَعْنَاهَا، لِأَنَّ مِنْ يَفْسُدُ فِي الْأَرْضِ جَزَاؤُهُ أَنْ تَقْطَعَ يَدُهُ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لِلْاِسْتِنْكَارِ عَلَى الْكُفَّارِ، لِأَنَّهُ يَمَسُّ سَاحَةَ قُدْسِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يُجْرُهُ إِلَيْهِ «١» كَمَا سَبَقَ الْكَلَامَ فِيهِ.

[٤٧] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ أَى مِنَ الرَّسُولِ الْوَتِينَ أَى قَطَعْنَا عِرْقَ قَلْبِهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ إِهْلَاكِهِ، أَوْ الْمَعْنَى لِأَخْذِنَا يَدَهُ الْيَمْنَى لِنَقْتُلَهُ كَمَا يَفْعَلُ الْجَلَادُ بِالْمَجْرَمِ يَأْخُذُ يَدَهُ لِيَسْهَلَ قَتْلُهُ.

[٤٨] وَلَوْ كَانَ كَاذِبًا، وَفَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ فَمَا مِنْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ أَحَدٍ «مَنْ» زِيَادَةٌ لِتَعْمِيمِ النَّفْيِ عَنْهُ أَى عَنِ الرَّسُولِ حَاجِزِينَ أَى لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَدْفَعَنَا وَيَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرَّسُولِ حَتَّى لَا تَحُلَّ بِهِ عَقُوبَتُنَا.

[٤٩] وَإِنَّهُ أَى الْقُرْآنَ لَتِيذْكَرَةٌ مَذْكَرٌ لَمَّا أُوْدِعَ فِي فِطْرَتِهِمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَسَائِرِ الْأَصُولِ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الْآثَامَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَحَافِظَ لِلْحُدُودِ الَّذِي يَتَّقَى وَيَخَافُ الزَّلَّةَ يَتَذَكَّرُ بِالْقُرْآنِ، وَالتَّخْصِيصُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِالْقُرْآنِ دُونَ سِوَاهُمْ.

[٥٠] وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مُكَذِّبِينَ يَكْذِبُونَ بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ، وَبِالْمَعَادِ، وَبِالْقُرْآنِ. وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَحَاسِبُونَ وَيُعَذَّبُونَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ.

(١) الأعراف: ١٥١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٤

[سورة الحاقة (٦٩): الآيات ٥٠ إلى ٥٢]

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

[٥١] وَإِنَّهُ أَى الْقُرْآنِ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يوجب الحسرة عليهم يوم القيامة حيث لم يعملوا به مع أنه فى تناول أيديهم.

[٥٢] وَإِنَّهُ أَى الْقُرْآنِ لَحَقُّ الْيَقِينِ أَى هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْيَقِينِ وَهُوَ الْيَقِينُ الْبَالِغُ دَرَجَةً رَاقِيَةً لِمَطَابَقَتِهِ لِلْوَاقِعِ، فَإِنَّ هُنَاكَ عِلْمَ الْيَقِينِ وَهُوَ

مَا يَعْلَمُ بِغَيْرِ أَنْ يَشَاهِدَ، وَحَقُّ الْيَقِينِ وَهُوَ مَا يَعْلَمُ وَيَشَاهِدُ- وَوَقَدْ سَبَقَ الْمَثَالُ بِالنَّارِ لِذَلِكَ-.

[٥٣] فَسَبِّحْ أَى نَزَّهَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ أَى سَبَّحَ اللَّهُ بِذِكْرِ اسْمِهِ، وَ لَا تَعْرِ لِلْكَفَّارِ بِالْأَى، بَلْ امْضِ فِى مَسْئُولِيَتِكَ، وَ التَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِ سَبْحَانَهُ

عَلَى نَحْوِ التَّنْزِيهِ عَنِ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ وَ الشُّرَكَاءِ- مِمَّا يَزْعَمُهَا الْكُفَّارُ وَ الْمُشْرِكُونَ-.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٥

٧٠ سورة المعارج مكية / آياتها (٤٥)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «المعارج»، وهى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، إلاً مفتحتها فإنها مدنية و

حيث ختمت سورة «الحاقة» بوعيد الكفار، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

وقد كان سبب نزول مفتتح السورة على ما

روى عن الصادق عليه السلام أنه قال لما نصب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً يوم غدیر خم و قال «من كنت مولاه فعلى

مولاه» طار ذلك فى البلاد، فقدم على النبى صلى الله عليه وآله وسلم النعمان بن الحرث الفهرى فقال: يا رسول الله أمرتنا عن الله

أن نشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله و أمرتنا بالجهاد و الحج و الصوم و الصلاة و الزكاة فقبلناها، ثم لم ترض حتى نصبت هذا

الغلام- أى علياً عليه السلام- فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شىء منك أو أمر من عند الله؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله و

آله و سلم: و الله الذى لا إله إلا هو إن هذا من الله. فولى النعمان بن الحرث و هو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر

علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله فأنزله الله «سأل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٦

سائلٌ بعذابٍ واقعٍ»

«١».

أقول: و إلى هذا أشير بقوله سبحانه و إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم

«٢».

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله ليكون شروعاً مباركاً موصولاً بالخير، الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم بإصلاح

النواقص دينا و دنيا و آخرة، فإن الرحمة فى غيره سبحانه معنى فى القلب يعث على الخير، و فيه سبحانه إعطاء الخير.

(١) شواهد التنزيل: ج ٢ ص ٣٨١.

(٢) الأنفال: ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٧

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مَنِ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)

[٢] سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقِيعٍ يعنى استدعى مستدع و طلب العذاب، وقد عرفت أنه «الفهري»، و من المحتمل أن المراد به أعم منه ليشمل الكفار الذين كانوا يستعجلون بالعذاب - استهزاء -.

[٣] لِلْكَافِرِينَ أى أن ذلك العذاب للكافرين، فهو واقع بهم سواء طلبوه أم لم يطلبوه لَيْسَ لَهُ أى لذلك العذاب دافع يدفعه.

[٤] مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ الْعَذَابَ مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ ذِي الْمَعَارِجِ جمع «معراج» و هو محل العروج و الصعود، و لعل المراد بها السماوات التى هى معارج للملائكة و لأرواح المؤمنين، و هذا كناية عن علو شأنه سبحانه، فإذا أراد شيئاً لا بد و أن يقع.

[٥] ثم بين مقدار ارتفاع المعارج، حتى لا يتوهم أن مقدار ارتفاعها كالمألوف فى الأذهان من الارتفاعات القليلة تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ الذى هو أعظم الملائكة، أو المراد أرواح المؤمنين إِلَيْهِ أى إلى المحل الذى جعله سبحانه مصدراً لأمره و محلاً لتشريفه، كالبيت الحرام الذى جعله محلاً لعنائه - فإنه سبحانه منزه عن المكان - فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أى مقدار ذلك اليوم خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فطول ذلك اليوم - إذا سير فيه بالسير العادى - خمسون ألف سنة من سنى الدنيا، و بمعرفة طول ذلك اليوم يعرف مقدار بعد محل تشريفاته سبحانه من الأرض.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٨

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٥ الى ١١]

فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَ تَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَ لَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بَنِيهِ (١١)

و يحتمل فى العبارة معنى آخر، و هو أن العروج إلى محل تشريفاته إنما هو فى يوم القيامة الذى مقداره خمسين ألف سنة، فهو إما لبيان مقدار بعد محل التشريفات عن الأرض و إما لبيان مقدار ذلك اليوم، و فى الأحاديث كلا المعنيين.

[٦] فَاصْبِرْ يا رسول الله صَبْرًا جَمِيلًا لا جزع فيه و لا شكوى مما تقاسيه من الأتعاب و تكذيب الكفار.

[٧] إِنَّهُمْ أى الكفار يَرَوْنَهُ أى ذلك اليوم و هو يوم القيامة - بناء على المعنى الثانى - أو العذاب بَعِيدًا و لذا يعملون بالكفر و المعاصى.

[٨] وَ تَرَاهُ أى نعلمه نحن قَرِيبًا فإن كل آت قريب، و إن طال الأمد فى مقاييس الناس.

[٩] ثم بين السياق وقت العذاب، أو وقت ذلك اليوم يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ أى الصفر المذاب، و كأنه للصب على الناس المجرمين.

[١٠] وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ كالصوف المنفوش، فإنها تطير فى الجو هباء، كما يطير الصوف.

[١١] وَ لَا يَسْئَلُ فى ذلك اليوم حَمِيمٌ أى صديق حَمِيمًا أى عن صديقه لشغل كل إنسان بنفسه.

[١٢] يُبْصِرُونَهُمْ أى يرى بعض الأصدقاء بعضاً و لكن لا يسألون عنهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٠٩

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٢ الى ١٦]

وَ صَاحِبَتِهِ وَ أُخِيهِ (١٢) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوْىِ (١٦)

كيف أنتم؟ و الفعل مجهول من باب التفعيل، كأنه يحصل منهم الإبصار قهراً، إشارة إلى أنهم لا يريدون أن يبصروا أصدقاءهم، و إنما تقع عينهم عليهم بدون إرادة يَوْمَ الْمُجْرِمِ أى يتمنى و يحب العاصى لَوْ يَفْتَدِي أى يعطى الفدية عن نفسه لينجىها مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ أى يوم القيامة بَنِيهِ بأن يدفع عوضه أولاده الذين هم أعز الناس عنده فينزل بهم العذاب دونه.

[١٣] وَبِصَاحِبِيَّتِهِ أَي يُعْطَى زَوْجَتَهُ لِلْعَذَابِ لِيَنْجُو بِنَفْسِهِ وَبِأَخِيهِ حَتَّى يَنْجُو.

[١٤] وَيَفْتَدِي بِفَضِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ أَي عَشِيرَتِهِ- الَّتِي انْفَصَلَ مِنْهُمْ بِالْوِلَادَةِ- الَّتِي كَانَتْ تُؤْوِي، أَي تُعْطَى الْمَأْوَى لِهَذَا الْإِنْسَانَ فِي الشَّدَائِدِ.

[١٥] وَيَفْتَدِي بِ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أَي يُعْطَى بِدَلِهِ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ ثُمَّ يُنْجِيهِ ذَلِكَ الْفِدَاءَ عَنِ الْعَذَابِ.

[١٦] وَهَلْ يَفِيدُ الْفِدَاءَ- وَ لَوْ فَارَضْنَا أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ-؟ كَلَّا لَا يَنْجِيهِ شَيْءٌ وَلَا يَفِيدُهُ الْفِدَاءُ إِنَّهَا أَي نَارُ جَهَنَّمَ لَطَى أَي لَهَبُ خَالِصٍ، وَ الْمَعْنَى لِلْمَجْرَمِ اللَّهَبُ فَلَا يَفِيدُهُ الْفِدَاءُ.

[١٧] فِي حَالِ كَوْنِهَا نَزَاعِيَةً لِلشَّوَى أَي تَنْزِعُ كَثِيرَ الْأَطْرَافِ فَلَا تَتْرَكَ جِلْدًا وَلَا لَحْمًا. «وَشَوَى» الْأَكَارِعُ وَالْأَطْرَافُ، وَ تَسْمِيَتُهَا بِالشَّوَى لِأَنَّهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٠

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٧ الى ٢٣]

تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)

تشوى بالنار.

[١٨] تَدْعُوا النَّارَ إِلَى نَفْسِهَا، بِاللْتِهَابِ وَ الْإِلْتِهَامِ مَنْ أَدْبَرَ عَنِ الْحَقِّ، أَي أَعْطَاهُ دَبْرَهُ لِيَعْرُضَ عَنْهُ وَ تَوَلَّى أَي أَعْرَضَ عَنِ الدِّينِ.

[١٩] وَ جَمَعَ الْمَالَ فَأَوْعَى أَي أَمْسَكَهُ فِي الْوَعَاءِ- كَالصَّنْدُوقِ وَ نَحْوِهِ- فَلَمْ يَنْفِقْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

[٢٠] إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا أَي شَدِيدَ الْحَرَصِ، مِنْ «الْهَلْعِ» وَ هُوَ الْحَرَصُ.

[٢١] ثُمَّ بَيْنَ سُبْحَانِهِ مَعْنَى الْهَلُوعِ بِقَوْلِهِ: إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ أَي لَامَسَهُ وَ نَزَلَ بِهِ شَرٌّ مِنْ فَقْرٍ وَ مَرَضٍ وَ خَوْفٍ وَ مَا أَشْبَهَ جَزُوعًا أَي كَانَ كَثِيرَ الْجَزَعِ، بِدُونِ أَنْ يَصْبِرَ وَ يَنْتَظِرَ الْفَرَجَ.

[٢٢] وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ أَي لَامَسَهُ وَ نَزَلَ بِهِ كَالْغَنَى وَ الصِّحَّةُ وَ الْأَمْنُ وَ الْجَاهُ مَنُوعًا أَي كَانَ كَثِيرَ الْمَنْعِ لِخَيْرِهِ عَنِ النَّاسِ وَ لَا يَقُومُ بِوَأْجِبِ الشُّكْرِ مِنْ بَدَلِ مَالِهِ وَ جَاهِهِ، وَ الْقِيَامُ فِي الْخِدْمَاتِ بِصِحَّتِهِ وَ أَمْنِهِ.

[٢٣] إِنَّ ذَلِكَ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ وَ فِطْرَتُهُ الَّتِي رَكِبَتْ فِيهِ إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ اتَّصَلُوا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ ارْتَفَعُوا عَنِ مَهَاوِي النَّفْسِ، بِالصَّلَاةِ- وَ الْإِيْتِيَانِ بِهَا لِأَنَّهَا تَلْزِمُ الْإِيمَانَ وَ سَائِرَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ.-

[٢٤] الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ يَقِيمُونَهَا بِاسْتِمْرَارٍ، فَإِنْ إِقَامَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١١

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٢٤ الى ٢٨]

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (٢٥) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨)

الصَّلَاةَ بِصُورَةٍ مُسْتَمْرَةٍ تُوْحَى إِلَى النَّفْسِ مَعَانِي الْخَيْرِ، لَمَّا يَحْصُلُ مِنَ الْإِيمَانِ الْمَكْرَرِ الْمَوْجِبِ لِتَهْذِيبِ النَّفْسِ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «١».

[٢٥] وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ وَ هُوَ مَقْدَارٌ مِنْهُ يُعْطِيهِ لِلْفُقَرَاءِ، وَ قَدْ وَرَدَ أَنَّ الْحَقَّ الْمَعْلُومَ يَرَادُ بِهِ غَيْرَ الزَّكَاةِ مِمَّا يَفْرُضُهُ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَخْرِجُهُ مِنْ مَالِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ جَمْعَةٍ.

[٢٦] لِلسَّائِلِ الَّذِي يَسْأَلُ لِإِفْتِقَارِهِ وَ مَسْكَنَتِهِ وَ الْمَحْرُومِ وَ هُوَ الْفَقِيرُ الَّذِي حُرِمَ مِنَ الثَّرْوَةِ وَ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ لِعَفْتِهِ.

[٢٧] وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ أَي يُؤْمِنُونَ بِالْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ- إِذِ الدِّينُ بِمَعْنَى الْجَزَاءِ، كَمَا قَالَ «وَلَا- أَنْتَ دِيَّانِي

فتخزوني»- و لعل الإتيان من باب التفعيل لإفادة كثرة تصديقهم بكل ما يقع في ذلك اليوم.

[٢٨] وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ مُشْفِقُونَ أَي خائفون، من «أشفق» بمعنى خاف.

[٢٩] وَإِنَّمَا يَخَافُونَ فِإِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ بِالْكَفَارِ وَالْعَاصِينَ غَيْرُ مَأْمُونٍ أَي لَا يُؤْمِنُ حُلُولَهُ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَأْمَنَ مِنْهُ فَيَتِمَادَى فِي الْكُفْرِ

(١) المؤمنون: ١٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٢

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٢٩ إلى ٣٣]

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) والعصيان اغترارا.

[٣٠] وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ جَمْعُ «فَرْجٍ» وَهُوَ الْقَبْلُ وَالدَّبْرُ وَسُمِيَ بِذَلِكَ لِانْفِرَاجِ وَانْشِقَاقِ فِيهِمَا حَافِظُونَ فَلَا- يَسْتَحِلُّونَهَا فِي الْمَعَاصِي.

[٣١] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَي زَوَاجَتِهِمْ وَيَعْرِفُ الْعَكْسُ بِالتَّلَازُمِ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ أَي إِمَائِهِمْ، وَنَسَبُ الْمَلِكِ إِلَى الْيَمِينِ لِأَنَّهَا آلَةٌ اكْتِسَابَ الْمَالِ الْمَوْجِبَةَ لِشِرَاءِ الْإِمَاءِ، وَالْمَتْعَةُ وَالتَّحْلِيلُ دَاخِلَانِ فِي الْأَزْوَاجِ أَوْ التَّانِي دَاخِلٌ فِي مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ لَا يَلَامُونَ عَلَى اسْتِعْمَالِ فُرُوجِهِمْ فِي هَذَا النَّوعِ الْخَاصِ مِنَ اللَّذَّةِ.

[٣٢] فَمَنْ ابْتَغَىٰ أَي طَلَبَ اللَّذَّةَ فِي وَرَاءَ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ فِي الْحَرَامِ فِي زِنَى وَلُوطٍ وَسُحْقٍ وَاسْتِمْنَاءٍ فَأُولَٰئِكَ الْمَبْتَغُونَ هُمُ الْعَادُونَ الَّذِينَ تَعَدَّوْا الْحَقَّ وَحُدُودَ الشَّرِيعَةِ، الْمَسْتَحِقُونَ بِذَلِكَ النِّكَالِ وَالْعَذَابِ.

[٣٣] وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ الَّتِي تَوَدَّعَ عِنْدَهُمْ وَعَهْدِهِمْ مَعَ مَنْ عَاهَدُوا رَاعُونَ فَلَا يَخُونُونَ الْأَمَانَاتِ، وَ لَا يَنْقُضُونَ الْعَهْدِ.

[٣٤] وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ أَي يَقُومُونَ بِالشَّهَادَةِ الَّتِي تَحْمَلُوهَا، فَإِذَا صَارَ مَوْقِعٌ أَنْ يَشْهَدُوا شَهِدُوا بِالْحَقِّ لَا بِالْبَاطِلِ، وَ لَا يَهْرَبُونَ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٣

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٣٤ إلى ٣٨]

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهُطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِيزِينَ (٣٧) أَيْطَمُّعُ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيمًا (٣٨) الشهادة لخوف أو طمع.

[٣٥] وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَكَأَنَّ الْمَحَافِظَةَ أَدَاؤَهَا بِحُدُودِهَا وَآدَابِهَا، «دَائِمُونَ» الْاسْتِمْرَارُ عَلَيْهَا، أَوْ

الآية السابقة في النوافل و هذه في الفرائض، كما روى عن الإمام الباقر عليه السلام.

[٣٦] أُولَٰئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَصَفُّونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ فِي جَنَّاتٍ أَي بَسَاتِينِ تَجْنِهَا الْأَشْجَارُ وَالْقُصُورُ مُكْرَمُونَ أَي يَكْرِمُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَ الْمَلَائِكَةُ، فَهَمُ فِي نِعْمَةٍ مَادِيَةٍ وَ مَعْنَوِيَةٍ.

[٣٧] وَبَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَي أَيُّ شَيْءٍ لَهُمْ وَ مَا حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلُوا؟ مُهُطِعِينَ مِنْ «أَهْطَعَ» إِذَا نَظَرَ بِبَصَرِهِ إِلَى الشَّيْءِ لَا يَزِيلُهُ عَنْهُ، وَ يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ حُبِّ أَوْ عَدَاوَةٍ، وَ الْمُرَادُ هُنَا التَّانِي، أَي مَا لَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ شِزْرًا نَظَرَ عَدَاوَةٍ وَ شَتَانًا؟

[٣٨] عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ أَى مِنْ طَرَفِ يَمِينِكَ وَ طَرَفِ شِمَالِكَ عَزِينَ جَمْع «عزّة» أَى جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقِينَ عَصَبُهُ عَصَبُهُ، فَإِنَّ «عزّة» بِمَعْنَى الْجَمَاعَةِ، وَ هَذَا هُوَ الْغَالِبُ فِي النَّاسِ إِذَا ظَهَرَ فِيهِمْ مَصْطَلَحٌ أَوْ مَبْدَعٌ، فَإِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ جَمَاعَاتٍ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ إِذَا كَانَ فِي مَحَلٍّ أَوْ مَرِّ مَحَلٍّ.

[٣٩] أَيْ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٤

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٣٩ إلى ٤٢]

كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْنَاهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢)

فما هذا الطمع السخيف بعد كفرهم و عنادهم؟ فكأنهم إذا أبغضوا الرسول و نظروا إليه نظرا شزرا توقعوا بذلك نيل رضى الله سبحانه و دخول جنته.

[٤٠] كَلَّا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، ف إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ مِنْ نَظْفَةِ قَدْرَةٍ، وَ هَلْ مِنْ أَصْلِهِ نَظْفَةُ صَالِحٍ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ بِدُونِ الْإِيمَانِ وَ

العمل الصالح؟ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا بَأْصَلَهُ أَوْ بَعْمَلَهُ، وَ هَؤُلَاءِ أَصْلَهُمْ نَظْفَةُ قَدْرَةٍ، وَ عَمَلُهُمْ كُفْرٌ وَ عَصِيَانٌ، فَلَا صَلَاحَ لَهُمْ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ.

[٤١] فَلَا أُقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ «لا» لِلنَّفْيِ، وَ هَذَا إِلْمَاعُ إِلَى حَلْفٍ، فِي صُورَةِ عَدَمِ الْحَلْفِ - كَمَا سَبَقَ - وَ الْمَشَارِقُ بِاعْتِبَارِ

شُرُوقِ الشَّمْسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ نَقْطَةِ الْفَلَكَ، وَ كَذَا الْمَغَارِبُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غُرُوبِهَا إِنَّا لَقَادِرُونَ

[٤٢] عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ أَى أَنْ نَهْلِكَهُمْ وَ نَأْتِيَ بِدَلِيلِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ أَنَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ بِأَنْ يَسْبِقَنَا الْكُفَّارُ

فِي الْهَرَبِ، حَتَّى نَبْقَى وَرَاءَهُمْ لَا - نَلْحَقُ بِهِمْ فَلَا - نَتِمَكَّنُ مِنْ تَعْدِيهِمْ كَالْحَاكِمِ الَّذِي يَبْقَى وَ يَهْرَبُ مِنْهُ الْمَجْرِمُ فَلَا - يَتِمَكَّنُ مِنْ إِنْزَالِ الْعِقَابِ بِهِ.

[٤٣] فَذَرْنَاهُمْ أَى دَعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ يَخُوضُوا فِي بَاطِلِهِمْ، وَ أَصْلُ الْخُوضِ الْارْتِمَاسُ فِي الْمَاءِ، وَ شَبَّهَ بِهِ الْإِنْسَانَ الَّذِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٥

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٤٣ إلى ٤٤]

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) يتكلم و يعمل بالباطل، كَأَنَّهُ خَائِضٌ فِيهِ وَ يَلْعَبُوا أَى يَفْعَلُوا فِعْلَ اللَّاعِبِ الَّذِي لَا يَرِيدُ غَايَةَ مِنْ عَمَلِهِ وَ إِنَّمَا يَقْضَى الْوَقْتَ بِذَلِكَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

[٤٤] ثُمَّ بَيْنَ سَبْحَانَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِقَوْلِهِ: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ جَمْعُ جَدَثٍ وَ هُوَ الْقَبْرِ سِرَاعًا أَى مُسْرِعِينَ، لِشِدَّةِ هَوْلِهِمْ فَإِنَّ الْخَائِفَ

يَسْرَعُ فِي الْمَشْيِ لِيَجِدَ مَأْمَنًا قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ الْعَذَابُ كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ جَمْعُ نَصْبٍ كَسَقْفٍ جَمْعُ سَقْفٍ، وَ هُوَ الصَّنَمُ يُوفِضُونَ أَى

يَسْرَعُونَ، فَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْرَعُونَ إِلَى أَصْنَامِهِمْ فِي مَوَاسِمِ شُرْكَهِمْ وَ هُنَاكَ كَذَلِكَ يَسْرَعُونَ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقَبْرِ.

[٤٥] فِي حَالِ كَوْنِهِمْ خَاشِعَةً أَى خَاضِعَةً ذَلِيلَةً أَبْصَارُهُمْ فَإِنَّ أَثَرَ الذَّلِيلَةِ يَظْهَرُ فِي الْعَيْنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَدَّ بَصَرِهِمْ خَوْفًا وَ فِرْعَا تَرْهَقُهُمْ أَى

تَغْشَاهُمْ وَ تَحِيطُ بِهِمْ ذِلَّةٌ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا جُرْمَهُمْ وَ أَنَّهُمْ مُحْكَمُونَ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا فَيَنْكُرُونَهُ وَ

الآن قد وصلوا إليه و وجدوا عذابه و هوله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٦

٧١ سورة نوح مكية / آياتها (٢٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «نوح» و قصته و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أسلوب قصصى . و

حيث ختمت سورة المعارج بوعيد الكفار، افتتحت هذه السورة بذكر نوح عليه السلام و ما لاقى من تكذيب قومه - تسلياً للرسول و تخويفاً للكفار -.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله، ليكون عوناً لنا في مهام الأمور، و في هذا الأمر الذي نشرع فيه - بصورة خاصة - الرحمن الرحيم، الذي يتفضل بالرحم على من طلب منه الرحم و تسهيل الأمر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٧

[سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقَوْهُ وَ أَطِيعُوا (٣) يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا (٥)

[٢] إِنَّا أَرْسَلْنَا أَيْ بَعَثْنَا نُوحًا رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ بِأَنَّهُمْ إِنْ تَمَادَوْا فِي الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ ابْتَلَوْا بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَ عَذَابِ الْآخِرَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَيْ مَوْجِعٌ مُؤْلِمٌ.

[٣] فامتثل نوح عليه السلام و قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ أَنْذِرْكُمْ وَ أَخُوفِكُمْ مُّبِينٌ أَيْ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ.

[٤] أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَلَا تَكْفُرُوا بِهِ وَ اتَّقَوْهُ فَلَا تَعْصُوهُ وَ أَطِيعُوا فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَ أَصْلُهُ «أَطِيعُونِي» حَذَفَ الْبَاءَ تَخْفِيفًا وَ تَنْسِيقًا.

[٥] فَإِنَّكُمْ إِنْ عَبَدْتُمُوهُ وَ اتَّقَيْتُمْ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أَيْ جَنَسَ ذُنُوبَكُمْ، فَ «مِنْ» لِلْجَنَسِ وَ يُؤَخِّرُكُمْ فَلَا يَهْلِكُكُمْ عَاجِلًا - إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى أَيْ مَدَّةً قَدْ سَمِيتَ فِي كِتَابِهِ، فِي مَقَابِلِ الْكَافِرِ الَّذِي يَعْذِبُهُ بِعَذَابِ الْإِسْتِئْصَالِ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ أَيْ الْأَجَلَ الَّذِي عَيْنَهُ اللَّهُ إِذَا جَاءَ وَقْتَهُ لَا يُؤَخَّرُ فَبَادَرُوا بِالْإِيمَانِ وَ التَّوْبَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيْ لَوْ كُنْتُمْ عَامِلِينَ بِالْأُمُورِ لَعَلِمْتُمْ بِذَلِكَ.

[٦] وَ دَعَا نُوحٌ قَوْمَهُ مَدَّةً مَدِيدَةً بِمِثْلِ تِلْكَ الْإِرْشَادَاتِ وَ النَّصَائِحِ، لَكِنْ دَعَا لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُ فِيهِمْ، فَتَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ دَاعِيًا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٨

[سورة نوح (٧١): الآيات ٦ الى ٩]

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا - فِرَارًا (٦) وَ إِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَ أَصْرُؤُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي إِلَىٰ الْإِيمَانِ لَيْلًا وَ نَهَارًا أَيْ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ.

[٧] فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا فَإِنَّ دَعْوَتِي صَارَتْ سَبَبًا لِأَنْ يَرِصَ الْكُفْرَارُ صَفُوفَهُمْ، وَ يَجَاهَرُوا بِالْكَفْرِ وَ الطَّغْيَانِ وَ الْفِرَارِ مِنَ الْحَقِّ.

[٨] وَ إِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَ الطَّاعَةِ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ إِنْ آمَنُوا وَ أَطَاعُوا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلَامِي وَ اسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ أَيْ غَطَّوْا بِهَا وُجُوهَهُمْ وَ رُؤُوسَهُمْ لِئَلَّا يَرُونِي وَ أَصْرُؤُوا أَيْ دَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَ طَغْيَانِهِمْ وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا أَيْ تَكَبَّرُوا وَ أَنْفَوْا عَنِ قَبُولِ الْحَقِّ، وَ كَأَنَّ الْإِتْيَانَ بِصَيْغَةِ الْإِسْتِفْعَالِ لِإِفَادَةِ أَنَّهُمْ طَلَبُوا الْكِبْرَ، وَ إِنْ لَمْ يَكُونُوا كِبْرَاءَ حَقِيقَةً.

[٩] ثُمَّ لَتَرْتِيبِ الْكَلَامِ لَا لَتَرْتِيبِ الْمَطْلَبِ فِي الْخَارِجِ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا أَيْ جَهْرًا بِأَعْلَى صَوْتِي.

[١٠] ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ إِعْلَانًا بِالْدَعْوَةِ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا أَيْ عَلَانِيَةً وَ سِرًّا، وَ الْمُرَادُ الدَّعْوَةُ بِكُلِّ وَجْهٍ مُحْتَمَلٍ، وَ الْجَهْرُ قِسْمٌ مِنَ الْإِعْلَانِ - فَلَيْسَ فِي ذِكْرِ الْإِعْلَانِ بَعْدَ الْإِجْهَارِ تَكَرُّرًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥١٩

[سورة نوح (٧١): الآيات ١٠ الى ١٤]

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤)

[١١] فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ رَبَّكُمْ أَيُّ اطْلُبُوا غفرانه بالإيمان والطاعة إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً كثير المغفرة لمن استغفر.

[١٢] فَإِنِ اسْتَغْفَرْتُمْ يُزِيلِ اللَّهُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً أَيُّ كثيرة الدور بالمر، قيل إن الغيث قد منع عنهم حتى ابتلوا بالقحط ولذا رغبهم نوح عليه السلام في ذلك.

[١٣] وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ أَيُّ يكثر أموالكم وأولادكم الذكور وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ أَيُّ بساتين، بسبب المطر والأموال وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً تسقون جناتكم، فَإِنِ المطر إذا كثر اخترن في الأرض ثم تفجر من العيون وجرى منها.

[١٤] مَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْكُفَّارِ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً أَيُّ لا تعظمون الله تعالى، فَإِنِ «الوقار» بمعنى العظمة، والرجاء هو الطمع في شيء مرغوب، فَإِنِ من لا يعرف عظمة شخص لا يرحوه، فكأنه قال: ما لكم لا ترجون الله، إذ لا تعترفون له بالوقار والعظمة؟

[١٥] وَالْحَالِ أَنْكُمْ تَرُونَ آثَارَ عِظْمَتِهِ فِي أَنْفُسِكُمْ، إِذْ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً جمع «طور» فقد انتقلتم من حال إلى حال حتى وصلتكم إلى هذا الحال الذي أنتم فيه، أو المراد خلقكم مختلفين، فكل واحد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٠

[سورة نوح (٧١): الآيات ١٥ الى ١٩]

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطاً (١٩)

يختلف عن الآخر مما يدل على كمال القدرة.

[١٦] إِنْ آثَارَ عِظْمَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ كَمَا هِيَ ظَاهِرَةٌ فِي أَنْفُسِكُمْ كَذَلِكَ هِيَ ظَاهِرَةٌ فِي الْكُونَ أَلَمْ تَرَوْا أَيُّهَا الْكُفَّارُ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فَإِنَّ عِلْمَ الْفَلَكِ مَعْتَرَفٌ بِوُجُودِ سَبْعِ مَدَارَاتٍ لِلْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ طِبَاقاً أَيُّ بعضها فوق الآخر؟

[١٧] وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ أَيُّ في تلك السماوات، ويجوز الإتيان بضمير غير العاقل مفرداً وجمعاً نُوراً ينير الظلام بأشعته وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجاً أَيُّ مصباحاً يشع ضياءها حتى تنير الأكوان.

[١٨] وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبِتُ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا أَنَّ النَّبَاتَ يَنْبِتُ مِنْهَا، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ هُوَ أَنَّ الْأَرْضَ تَحُولُ إِلَى النَّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ يَأْكُلُهُ الْإِنْسَانُ فَيَصِيرُ مِثْلَ الْإِنْسَانِ وَالنَّبَاتُ يَنْبِتُ ابْتِدَاءً، وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ نَبَاتُ الْأَرْضِ الْمُتَحَرِّكِ، كَمَا أَنَّ النَّبَاتَ نَبَاتُهَا السَّاكِنِ.

[١٩] ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا أَيُّ فِي الْأَرْضِ، فَالْمِيتُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَبْلَى وَيَكُونَ تَرَاباً كَمَا كَانَ سَابِقاً وَيُخْرِجُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لَدَى الْبَعْثِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِخْرَاجاً وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمَصْدَرَ تَأْكِيداً لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ.

[٢٠] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطاً مَبْسُوطَةً لِتَمْكُنُوا مِنَ الْمَشْيِ عَلَيْهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢١

[سورة نوح (٧١): الآيات ٢٠ الى ٢٢]

لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجاً (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّاراً (٢٢) وَالْبِنَاءُ فَوْقَهَا، وَتَقَضُوا سَائِرَ مَآرِبِكُمْ عَلَيْهَا.

[٢١] ثُمَّ أَشَارَ السِّيَاقَ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي هِيَ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ الْمُنْبَسِطَةِ لِتَسْلُكُوا يَقَالُ سَلَكْتُ فِي الطَّرِيقِ إِذَا مَشَى فِيهِ وَ سَرَى مِنْهَا أَيُّ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمُرَادُ فِي بَعْضِ الْأَرْضِ سُبُلًا أَيُّ طَرِيقًا، جَمْعُ «سَبِيلٍ» فِجَاجاً «الْفِجَاجُ» هِيَ الطَّرِيقُ الْمَتَّسِعَةُ الْمُتَفَرِّقَةُ، وَاحِدُهَا

«فج» يعنى حتى تتمكنوا من السير فى طرق الأرض المختلفه إلى حاجاتكم هنا و هنالك.

[٢٢] و بعد كل هذه التذكيرات و الإلفات إلى هذه النعم العظام، لم يستجب القوم لدعوة نوح عليه السلام، فتوجه نوح إلى ربه قال نُوحُ يَا رَبِّ إِنَّهُمْ أَى الْقَوْمِ عَصِيٌّ فُلْمَ يُؤْمِنُوا بِكَ، و لم يطيعوا أمرى و اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا أَى اتبعوا كبراء قومهم الذين هم رأس الفساد، فكلما ازدادوا مالا- صرفوه فى الشر و كلما ازدادوا ولدا حرفوه عن سنن الحق، فمالهم و ولدهم لا يزيدهم إلا خساره و ضرا، مما يوجب كثرة عقوبتهم و زيادة عذابهم.

[٢٣] و مَكَرُوا فى قبال نوح مَكْرًا كَبِيرًا أَى كبيرا للغايه فإن إطفاء سنن الرسول يحتاج إلى التدابير الكثيرة، و إلا- فالناس بطبيعتهم الساذجه يتبعون الحق. و فاعل المكر إما الكبار المشار إليهم ب «من» أو المراد القوم- فى الجملة-.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٢

[سورة نوح (٧١): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتِكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَ لَا سُوعَاءً وَ لَا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسِيرًا (٢٣) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبْنَا بِهِمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥)

[٢٤] و قالوا أى الماكرون، لسائر الناس لا تَذَرُنَّ أى لا تترك آلِهَتِكُمْ الأصنام التى تعبدونها إطاعه لنوح فى عباده إله واحد، ثم خصوا جماعه من الآلهه كانت الأصنام الكبيره لديهم وَ لَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَ لَا سُوعَاءً وَ لَا يَغُوثَ وَ لَا يَعُوقَ وَ لَا نَسِيرًا و يعوق غير منصرفين للعجمه و العلميه، أو للعلميه و التأنيث كما أن عدم إتيان «لا» على البعض للتفنن فى الكلام الذى هو من فنون البلاغه، و هذه كانت أسامى أصنام لهم يعبدونها من دون الله سبحانه. و ذكر بعض أن هذه أسماء كانت لرجال صالحين، فلما ماتوا مثلوا لهم تمثالا يعظمونها باعتبار أنها رموز لأولئك الصالحين، ثم عبدوها- بإغواء الشيطان-.

[٢٥] وَ قَدْ أَضَلُّوا هذه الأصنام، يا رب كَثِيرًا من الناس و نسبة الضلال إلى الأصنام باعتبار أنها الوسيله فى الإضلال، و الإتيان بضمير العاقل تماشيا لوحده السياق بين كلام المؤمنين و الكافرين وَ لَا تَزِدِ يا رب الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر و العصيان و غيرهم بالإضلال و الإفساد إِلَّا ضَلَالًا جزاء على عنادهم، و إزاده ضلالهم بمنع الألفاظ الخفيه عنهم، أو المعنى «لا تزد هذه الأصنام إلا ضلالا لهم» فعلى الأول نهى، و على الثانى نفى.

[٢٦] ثم أتى السياق إلى بيان عاقبه هؤلاء الكفار بقوله: مِمَّا خَطَبْنَا بِهِمْ أى من جهه خطيبه هؤلاء الكفار، و «ما» زائده و الزيادة هنا لأجل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٣

[سورة نوح (٧١): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِيُؤْتِي مُمْسِكًا وَ لِيُؤْتِي مُمْسِكًا وَ لِيُؤْتِي مُمْسِكًا وَ لِيُؤْتِي مُمْسِكًا وَ لِيُؤْتِي مُمْسِكًا (٢٨)

تزيين الكلام أُعْرِقُوا بالماء فى الدنيا فَأَذْخَلُوا نَارًا فى الآخرة، فقد عوقبوا بعقوبتين متضادتين فَلَمْ يَجِدُوا أولئك الكفار لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى غير الله سبحانه أَنْصَارًا فلم يكن هناك من يمنع عنهم عذاب الله تعالى، فقد ضل عنهم من كان يعدهم النصر.

[٢٧] وَ قَالَ نُوحٌ قبل أن يغرقوا- فى دعائه عليهم- و إنما آخر ذلك عن الغرق، فى الكلام، لتعجيل توصيل العقاب بالانحراف، حتى كأنه انحراف و عقاب بلا فاصله، يا رَبِّ لَا تَذَرْ أى لا تدع و لا تبق سالما عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا أى أحدا يعمر الديار، أو ينزل الدار، بل عمم عقابك على جميعهم.

[٢٨] ثم بين عليه السلام عله هذا الدعاء بقوله: إِنَّكَ إِِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ من نسل المؤمنين وَ لَا يَلِدُوا هم بأنفسهم إِلَّا فَاجِرًا يفجر و يعصى كَفَّارًا كثير الكفر، يعنى أن أولادهم فاسد و العقيدة و العمل، فلا- خير فيهم، و قد علم نوح عليه السلام ذلك من طريق

الوحي.

[٢٩] يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي و قد سبق أن استغفار الأنبياء والأئمة لما يصدر منهم من المباحات الضرورية، فإنهم يرون ذلك خلافا للأدب أمام الله الملك العظيم، كما أن من مدّ رجله - لمرض أو نحوه - أمام الملك رآه سوء أدب و إن كان مضطرا إليه، واعتذر من فعله ذلك و لَوَالِدَيَّ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٤

بغفران ذنوبهما و لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا و كأن الدخول في البيت كناية عن الدخول في حوزته و أنصاره، فقد آمن به عليه السلام عدة قليلة بين سبعين و ثمانين - على ما ذكروا - و اغفر للمؤمنين و المؤمنات من سائر الأمم السابقين و اللاحقين و لا تزد الظالمين إلا تباراً أى هلاكاً و خساراً، و ذلك بمنع الألفاظ عنهم، حتى يكون بقاؤهم موجبا لزيادة عذابهم و خسارتهم جزاء لعنادهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٥

٧٢ سورة الجن مكية / آياتها (٢٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الجن» و قصه منهم، كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة في أسلوب قصصي طريف جديد، و لما ختمت سورة نوح بالدعاء للمؤمنين و الهلاك للكافرين، ابتدأت هذه السورة بما يماثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الخالق المالك لكل شيء، و الابتداء باسمه أولى من الابتداء بأى شيء آخر، فإن الكفار كانوا يتدثون باسم الأصنام، و المسيحيين باسم «الأب و الابن و روح القدس»، و الديمقراطيون في زماننا يتدثون باسم الشعب و الملكيون باسم جلاله الملك، و الله أحق من الكل بالابتداء باسمه، الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد فى الدنيا و الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٦

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)

[٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ للناس أَوْحَى إِلَيَّ و الوحي هو الإلهام إلى الرسول من قبله سبحانه بواسطة ملك أو إلقاء فى القلب بلا واسطة، و يستعمل أيضا بمعنى مطلق الإلهام، كقوله و أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (١) و قوله و أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى (٢) أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أى استمع إلى القرآن طائفة من الجن - فإن نفر بمعنى الطائفة - و الجن مخلوقه من النار رقاق الأجسام كالهواء، و لها أن تتشكل فى أبدان غليظة كأبدان الإنسان فقالوا بعضهم لبعض إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا أى ما يدعو إلى التعجب، لأنه بأسلوب غريب فى لفظه و معناه، و قد سبقت قصتهم فى سورة الأحقاف.

[٣] يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أى يدل على الهدى الذى من سلكه رشد فآمنا نحن الجن به أى بذلك القرآن و لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا أى لم نجعل له شريكا.

[٤] وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا «الجد» هو الحظ، و المراد به هنا العظمة، أى تعالت و ارتفعت عظمته، من أن يكون له شريك أو زوجة أو أولاد ما اتَّخَذَ أى لم يتخذ الله سبحانه صاحبة أى زوجة و لا وَلَدًا فقد كان بعض الكفار يقولون أنه سبحانه اتخذ زوجة من الجن، كما قال

(٢) القصص: ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٧

[سورة الجن (٧٢): الآيات ٤ إلى ٦]

وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)

سبحانه وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا (١)، فنفت الجن هذا الكلام.

[٥] وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا أى جاهلنا، و المراد به جنس الجهال منهم عَلَى اللَّهِ شَطَطًا أى كذبا و بعدا عن الحق، و كأن المراد بذلك ما شاع بينهم من أنه تزوج بالجنية، أو المراد «بسفيه منا» إبليس - لأنه من الجن - و المراد أقواله حول الله سبحانه، من نسبة الشريك إليه و ما أشبهه.

[٦] وَ أَنَا ظَهَرَ لَنَا الْآدَنُ كَذِبَ ذَلِكَ السفيه بعد ما كنا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ الْإِتْيَانُ بالفعل مؤثنا باعتبار «الجماعة» عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فقد كنا نحسب أن ما يقولون من أن له سبحانه صاحبه و شريكا و ولدا صدق، و الآن تبين لنا كذبه.

[٧] وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ أى يعتصمون و يستجرون، و كان الرجل من العرب إذا نزل الوادى فى سفره ليلا قال «أعوذ بعزير هذا الوادى من شر سفهاء قومه» و

قد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال فى هذه الآية «كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذى يوحى إليه الشيطان فيقول قل لشيطانك فلان قد عاذ بك»

«٢» فَزَادُوهُمْ أى زاد الجن الإنس العائدين بهم رَهَقًا أى طغيانا

(١) الصفات: ١٥٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٠ ص ٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٨

[سورة الجن (٧٢): الآيات ٧ إلى ٩]

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَ أَنَّا لَمَسِينَا السَّمَاءَ فَوَحَّيْنَاهَا مُلْتَثَّاتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهَبًا (٨) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (٩)

حيث إنهم رأوا الجن ظهيرا لهم، أو زاد الإنس الجن طغيانا حيث إنهم ظنوا أن لهم مدخلا فى الأمور الكونية حتى استعاض بهم الإنس، و أصل الرهق اللقوق، و منه غلام مراهق، فكأن الإثم و الطغيان يلحق الإنسان، و لذا قيل له رهق.

[٨] وَ أَنَّهُمْ أى الإنس ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أنتم معاشر الجن أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا رسولا، و هذا من تتمه كلام الجن الذين آمنوا بالرسول.

[٩] وَ أَنَّا معاشر الجن لَمَسِينَا السَّمَاءَ أى مسسناها بإرادة الصعود فى طبقات الجو فَوَحَّيْنَاهَا أى ألقينا السماء مُلْتَثَّاتٍ حَرَسًا شَدِيدًا أى حفظة من الملائكة شدادا، «و حرس» جمع حارس و هو الحافظ، و شديد باعتبار كل واحد من الحفظة وَ شُهَبًا جمع «شهاب» و هو نور يمتد فى السماء حتى يطفأ، أنها هيأت لرجم من يريد استراق السمع من الشياطين.

[١٠] وَ أَنَّا معاشر الجن كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا أى من السماء مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ أى محلات قريبة من مراكز الملائكة لنستمع ما يدار بينهم من أخبار الأرض لنعلم الأخبار و نأتى بها إلى الكهنة، و هذا إلى قبل ميلاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أو بعثته فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ منا إلى كلام الملائكة يَجِدْ لَهُ أى لنفسه شُهَابًا رَصَدًا يرمى به و يرصد له، ففى النجوم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٢٩

[سورة الجن (٧٢): آية ١٠]

وَ أَنَّا لَا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)

عَيْن مواضع لحراسة السماء من الجن و الشياطين، فمن يتقدم منهم ليسترق الكلام قذف بالشهاب حتى يحترق أو يطرد.

و

قد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال- في حديث يذكر فيه سبب إخبار الكاهن-: و أما أخبار السماء فإن الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، و هي لا- تحجب و لا- ترحم بالنجوم و إنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب يشاكل الوحي من خبر السماء و يلبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله لإثبات الحجّة و نفى الشبهة، و كان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه فيختطفها ثم يهبط بها إلى الأرض فيقذفها إلى الكاهن، فإذا زاد كلمات من عنده يختلط الحق بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبر مما كان يخبر به فهو ما أدها إليه شيطانه مما سمعه، و ما أخطأ فيه فهو من باطل ما زاد فيه، فمذ منعت الشياطين من استراق السمع انقطعت الكهانة (١).

[١١] وَ أَنَّا لَا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ حَيْث يَرْجُمُ الشَّيَاطِينُ، حَتَّى تَقْطَعَ الْأَخْبَارَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَابِهِمْ، فَيَفَاجِئُونَ بِالْعَذَابِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا بَأَن يَبْعَثَ فِيهِمْ نَبِيًّا؟ وَ الْحَاصِلُ أَنَّ رَجْمَ الشَّيَاطِينِ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ إِمَّا لِشَرٍّ أَوْ لِخَيْرٍ؟ وَ هَذَا يُؤَيِّدُ كَوْنَ الْمَرَادِ مِنَ الرَّجْمِ وَقْتُ وِلَادَةِ الرَّسُولِ، وَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنَ الْجِنِّ حِكَايَةٌ حَالٍ مَاضِيَةٍ، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَرَفُوا النَّبَأَ بَعْدَ فِتْرَةٍ وَ خُصُوصًا عِنْدَ وُصُولِهِمْ إِلَى خِدْمَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

(١) بحار الأنوار: ج ٦٠ ص ٧٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٠

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١١ إلى ١٣]

وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَ أَنَّا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَ لَا رَهَقًا (١٣)

[١٢] وَ أَنَّا مَعَاشِرُ الْجِنِّ مِنَّا أَى بَعْضُنَا الصَّالِحُونَ بِالْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ الصَّلَاحِ، وَ إِنَّمَا عَبَّرَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ لِشَمْلِ الْفَرْقِ الْمَخْتَلَفَةِ كُنَّا فِي السَّابِقِ طَرَائِقَ قَدَدًا أَى عَلَى طَرَائِقَ مَخْتَلَفَةٍ «وَ قَدَدٌ» جَمْعُ قَدَةٍ وَ هِيَ الْقِطْعَةُ، كَأَنَّ لِكُلِّ مَذْهَبٍ لُونًا مَخْتَلَفًا، فَهَمَّ قِطْعَةٌ مَخَالَفَةٌ لِقِطْعَةٍ أُخْرَى، وَ كَأَنَّ هَذِهِ التَّفْصِيلَاتِ الْمَنْقُولَةَ مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ لِيَبَانَ حَقِيقَتَهُمْ، وَ تَوْضِيحُ مَا يَرْتَبِطُ بِهِمْ مِنَ الْمَزَايَا وَ الْأَحْوَالِ.

[١٣] وَ أَنَّا مَعَاشِرُ الْجِنِّ ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ بَأَن نَجْمَعُ جَمُوعًا وَ نَهَيئُ قُوَى حَتَّى يَعْجِزَ سَبْحَانَهُ مِنَ التَّنَصُّرِ فِينَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَ إِنَّمَا جَاءَ بِلَفْظِ الظَّنِّ، إِمَّا لِأَنَّهَمْ ظَنُّوا ذَلِكَ وَ لَمْ يَتَيَقَّنُوا، أَوْ لِإِبْرَاهِيمَ أَنَّ الظَّنَّ كَافٍ فِي عَدَمِ إِرَادَةِ الْمَخَالَفَةِ مَعَهُ سَبْحَانَهُ وَ لَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا أَى لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْجِزَهُ بِهَرَبِنَا مِنْ قُدْرَتِهِ، فَإِنَّ قُدْرَتَهُ شَامِلَةٌ مَنْبَسُطَةٌ لَا يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْهَا.

[١٤] وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى حَيْثُ سَمِعْنَا قُرْآنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ آمَنَّا بِهِ أَى بِالْهُدَى وَ هُوَ الْإِسْلَامُ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا فَإِنَّهُ لَا يَخَافُ بَخْسًا أَى تَنْقِيسًا لِحَقِّهِ فِي الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَا رَهَقًا أَى ظُلْمًا وَ طَغْيَانًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ عَادِلٌ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، أَمَا غَيْرُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣١

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١٤ إلى ١٧]

وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَ أَنَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا

عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)

المؤمن فإنه يخاف البخس، إذ حسناته تمحى بسبب سيئاته، و يخاف الرهق بمعنى تبعه الإثم - كما سبق في معنى الرهق.

[١٥] وَأَنَا مِّنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ مِنْ «قسط» بمعنى جار، أى الجائرون الحائدون عن طريق الحق فَمَنْ أَسْلَمَ أَى دخل فى الإسلام فَأَوْلَيْكَ تَحَرَّوْا أَى طلبوا و التمسوا رَشَدًا أَى هداية و حقا فيه الرشد و العقل، و التحرى هو التطلب و التماس الشىء.

[١٦] وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ الْعَادِلُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ فَكَانُوا أَى يكونون - أو كان: لمجرد الربط - لِيَجْهَنَّمَ حَطْبًا يَلْقَوْنَ فِيهَا فَيوقدونها كما يوقد الحطب النار، كما قال سبحانه وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْجِبَارَةُ «١».

[١٧] وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا هُوَءَ الْقَاسِطُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَقَّةِ بَأَن لَمْ يَحِيدُوا عَنْهَا لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا يَقَالُ مَاءً غَدَقًا: أَى كثير و هذا كناية عن الإفضال عليهم، و هذا ابتداء من كلام الله سبحانه.

[١٨] لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ أَى كنا نسقيهم الماء الكثير لامتحانهم فى ذلك السقى، فإن النعم للامتحان، كما أن النقم للاختبار، و ليس المقصود من

(١) البقرة: ٢٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٢

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١٨ الى ٢٠]

وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)

الامتحان إلا ظهور السرائر، لتبيين مقادير الاستحقاق فى الآخرة، أو أنه تعليل لمجىء الهدى، أى أنا إنما أرسلنا الرسول و أنزلنا الهدى للامتحان وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ بَأَن اتخذ طريقه الكفر و العصيان يَسْلُكْهُ أَى يدخله الله سبحانه عَذَابًا صَعَدًا أَى عذابا يصعد عليه و يعلوه، بحيث يشمل جميع جسمه من قرنه إلى قدمه، أو عذابا غليظا صعبا.

[١٩] و إذ بين كون الهدى إنما هو للامتحان، جاء السياق ليبين أنه لا- يحق لأحد أن يخضع لغير الله سبحانه وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ جَمْع «مسجد» و هو مواضع السجود من الوجه و الكفين و غيرهما لِلَّهِ فَإِنَّهَا مخلوقه له مملوكة لذاته المقدسة فَلَا تَدْعُوا أَيها الإنسان مَعَ اللَّهِ أَحَدًا و كيف تدعو غيره بعبادته هو له؟ و يحتمل أن يكون المساجد أعم مما تقدم و من المساجد المبنية، و فيه نهى عن الدعاء لغيره سبحانه فيها، كما كان المشركون يدعون الأصنام فى بيت الله تعالى.

[٢٠] وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ أَى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ يَدْعُوهُ يدعو الله سبحانه وحده كَادُوا أَى الكفار يَكُونُونَ عَلَيْهِ عَلَى الرسول لِيَدًا أَى متكاثرين عليه ليمنعوه عن الدعوة، و الظاهر أن هذه الجملة كلها من كلام الجن، و أن قوله «لنفتنهم» معترضة.

[٢١] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ كَادُوا يَكُونُونَ لِيَدًا عَلَيْكَ:

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٣

[سورة الجن (٧٢): الآيات ٢١ الى ٢٣]

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٢) إِلَّا- بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَ رِسَالَاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)

إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وحده لا شريك له وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَى برى أحداً فليس ذلك بدعا جديدا يوجب تكاثركم على و إرادتكم منى منه.

[٢٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَهُؤَلَاءِ الْكُفَّارُ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا بَأَن أضركم وَ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ رَشَدًا بَأَن أرشدكم، و إنما الضرر و الإرشاد

بيد الله، و أنه هو الذى أمرنى بإرشادكم، فإن لم تقبلوا فهو الذى ينزل الضر بكم، وهذا لبيان أنى رسول الله فقط لا شىء بيدى سوى الهداية و الإرشاد.

[٢٣] حتى أنا فليس ضرى و خيرى بيدى قُلْ يا رسول الله لهؤلاء: إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي أَى لَنْ يَحْفَظُنِي مِنْ تَقْدِيرِ اللَّهِ أَحَدٌ إِذَا أَرَادَ سُبْحَانَهُ بى ضُرراً وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ سُبْحَانَهُ مُلْتَحِداً أَى مُلجأً أَلجأً إليه، من التحد بمعنى مال، و الإنسان الخائف دائماً يطلب الملجأ فى منعطفات الطريق.

[٢٤] إني لا- أملك شيئاً إلاً بلاغاً أى تبليغاً من قبل الله سبحانه بأن أبلغكم آياته و رسالاته و هذا استثناء منقطع من «لا أملك» و ما بعده، و قد سبق أن الاستثناء المنقطع ينحل إلى ثلاث جمل، ففى المقام هكذا «لا أملك شيئاً» «إلا بلاغاً» «و لا أملك لكم أو لى ضراً أو خيراً» و كأنه قال «لا أملك كذا» و «أملك كذا»، و حق البلاغ منه

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٤

[سورة الجن (٧٢): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ ناصِراً وَ أَقْلَ عَدَداً (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) سبحانه حق لا يكون لكل أحد، كما أن رسالاته سبحانه شىء و الرسول يملك ذلك الحق كما يعرف الرسالات، فهما شيئان لا شىء واحد حتى يقال: إن العطف للبيان.

وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ بِعَدَمِ إطاعة أوامره وَ رَسُوْلَهُ بِعَدَمِ امتثاله فيما يأمر و ينهى فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ جزاء لعصيانه خالدين فيها أى فى حال كونهم دائمين فى النار أبداً و توحيد الضمير فى «له» باعتبار لفظ «من» و تجميعه فى «خالدين» باعتبار معناه، و قد قالوا يجوز فى ضمير «من و ما» مراعاة اللفظ و المعنى.

[٢٥] لكن الكفار لا يبالون اليوم بالنار حتى إذا رأوا هؤلاء الكفار ما يُوعَدُونَ أى العذاب الذى وعدوا به فى الدنيا فسَيَعْلَمُونَ إذا رأوا مَنْ أَضَعَفُ ناصِراً هل ناصر الرسول أضعف أم ناصرهم و أَقْلَ عَدَداً فهل جيش الرسول و أعوانه أقل أم جيشهم و أعوانهم، فقد كان الكفار يفتخرون على الرسول بكثرة جموعهم و ضعف أصحابه صلى الله عليه و آله و سلم فأتى السياق لبيان أن فى الآخرة تنقلب الكفة، و أنه يتبدد عددهم و يضعف ناصرهم، فلا يقوى من إنجائهم من عذاب الله سبحانه.

[٢٦] و قد كان الكفار يستعجلون الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى إنزال العذاب بهم- استهزاء به صلى الله عليه و آله و سلم- فجاء السياق لردهم بقوله: قُلْ يا رسول الله لهؤلاء الكفار المستعجلين: إِنْ أَدْرِي أَى ما أدرى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٥

[سورة الجن (٧٢): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُوْلٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصِداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالَتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)

أَقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أى هل قريب العذاب الذى وعدتم به لكفركم و عصيانكم أَمْ يَجْعَلُ لَهُ أَى ل «ما توعدون» رَبِّي أَمَداً أى مدة، فهو بعيد عنكم؟ فإن عذاب القيامة مجهول الوقت إلا عنده سبحانه، فعنده علم الساعة.

[٢٧] فإنه وحده عالم الغيب يعلم ما غاب عن الحواس فلا يُظْهِرُ أى لا يعلم على غيبه أى الغيب الذى يعلمه هو أحيداً من عباده، فإن علم الغيب خاص به.

[٢٨] إِلَّا مَنْ ارْتَضَى أى اختاره للاطلاع على الغيب مِنْ رَسُوْلٍ أى المعنى إلا من ارتضاه للرسالة من أفراد الرسل، فإنه تعالى يظهره على قدر من الغيب- حسب الحكمة و الصلاح- و التى يخبر الإمام أو سائر الناس بقدر ما أذن له فى الإخبار، و إذ أعلمه الله سبحانه بالغيب أحاطه بجملة من الحفظه حتى يكونوا مراقبين عليه فى البلاغ، مع أنه مأمون فى نفسه، و أن الله عالم به، و لكن هذا

للتشريفات، كما و كل بالعباد حفظه مع أنه عالم بما يصدر منهم.

فَبِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَسْئَلُكَ أَىٰ يَجْعَلُ فِي الطَّرِيقِ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَىٰ مِنْ أَمَامِ الرَّسُولِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَىٰ وَرَائِهِ رَصِيدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُرْصَدُونَ فِي أَعْمَالِهِ، تشريفا للغيب و الوحي الذي أعلم الرسول به.

[٢٩] و إنما يرصد ليُعَلِّمَ الله سبحانه، و المراد ليقع متعلق علمه في

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٦

الخارج، كقوله حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ «١» إلى غير ذلك أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا أَوْلِيَّكَ الرَّسُلَ الَّذِينَ أَطَّلَعَهُمْ عَلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ رِسَالَاتٍ رَبِّهِمْ فَكُلِّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْهِ رِسَالَةٌ، و مجموع الوحي رسالات و ذلك ليس لأنه لا يعلم- بل للتشريفات، كما ذكرنا- إذ قد أحاط الله سبحانه بما لَدَيْهِمْ أَىٰ بِمَا يَفْعَلُهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ تَبْلِيغِ الرَّسَالَةِ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا فَعَلِمَ أَعْدَادَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، فإحاطته بما لدى الأنبياء من مصاديق إحصائه سبحانه عدد كل شيء من الخلائق و الأعمال و الأحوال.

هذا هو المعنى الذي استظهرته من الآيات المباركة حسب ما يظهر من السياق، و هناك قول آخر في معانيها ليس بهذا القرب إلى الظاهر، و الله سبحانه أعلم بمراده.

(١) محمد: ٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٧

٧٣ سورة المزمل مكية - مدنية / آياتها (٢١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «المزمل»، و هي كسائر السور المدنية مشتملة على النظام و العقيدة، و قيل هي مختلطة من المكية و المدنية. و حيث ختمت سورة الجن بذكر الرسل، ابتدأت هذه السورة بذكر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدئ في السورة باسم الإله، أى ملابسا مع هذا الاسم الكريم، الذى بيد مسماه الكون كله، الرحمن الرحيم الذى يرحم كل شيء خلقا و تربية، حتى يصل كل شيء إلى كماله اللائق به، و يرحم عبيده المؤمنين فى الآخرة بالثواب و الفضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٨

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)

[٢] يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ المراد به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، أصله «المتزمل» من باب التفعيل، ثم أدغمت التاء فى الزاء، و جىء بهمة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، و معنى «تزمّل» تلفف فى ثوب و نحوه، فقد كان الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يتزمل بثوبه و ينام، فخطب بهذا الخطاب لمناسبة الحالة للأمر المتوجه إليه فى قيام الليل.

[٣] قُمْ فى اللَّيْلِ لأداء صلاة الليل إِلَّا قَلِيلًا منه فلك أن تنام فيه.

[٤] ثم بين سبحانه مقدار القليل الذى سمح للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بالنوم فيه بقوله:

نِصْفَهُ أَىٰ نَمَ فى مقدار نصف الليل أَوْ انْقُصْ مِنْهُ أَىٰ مِنَ النِّصْفِ قَلِيلًا بِأَن تَضِيفَ عَلَى سَهْرِكَ، فىكون نومك أقل من النصف.

[٥] أَوْ زِدْ عَلَيْهِ أَىٰ عَلَى النِّصْفِ، بِأَن تَضِيفَ عَلَى نَوْمِكَ فىكون نومك أكثر من النصف، و الحاصل أن المأمور به السهر بمقدار نصف الليل، أو أكثر من النصف، أو أقل من النصف- و المحور النصف- وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ أَىٰ اقْرَأْهُ قِرَاءَةً مُتَوَسِّطَةً لَا بِسُرْعَةٍ وَ لَا ببطءٍ

زائد تزتيلاً تأكيداً لـ «رتل».

وقد سئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية فقال: بينه بيانا ولا تهذه هذو الشعر «أى لا تسرعون فى قراءته كما تسرعون فى قراءه الشعر» و لا- تثره نثر الرمل «أى لا تفرقوا بعضه عن بعض كثير الرمل» و لكن أفرعوا قلوبكم القاسية، و لا يكن هم أحدكم آخر السورة
«١».

(١) الكافى: ج ٢ ص ٦١٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٣٩

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ٥ الى ٨]

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)

[٦] إِنَّا سَنُلْقِي أَي سَنُوحِي عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْلًا ثَقِيلًا أَي كَلَامًا يَثْقُلُ عَلَيْكَ الْقِيَامُ بِهِ، وَ الْمُرَادُ بِهِ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ يَثْقُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْعَمَلُ بِهِ، أَوْ الرِّسَالَةُ فَإِنَّهُ يَثْقُلُ أَدَاؤُهَا، أَوْ الْقِيَامُ بِاللَّيْلِ.

[٧] كَمَا فَسَّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ أَي سَاعَاتُ اللَّيْلِ لِأَنَّهَا تَنْشَأُ بَعْدَ سَاعَةٍ وَ الْمَقْصُودُ الْعَمَلُ فِيهَا أَوْ الْمُرَادُ الْعِبَادَةُ الَّتِي تَنْشَأُ فِي اللَّيْلِ. هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا أَي أَكْثَرُ ثَقْلًا وَ كَلْفَةً، لِصُعُوبَةِ الْقِيَامِ لَيْلًا شِتَاءً لِبُرْدِ الْهَوَاءِ، وَ صَيْفًا لِقِصْرِ اللَّيَالِي، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ كَوْنَهَا أَشَدَّ مِنْ نَاشِئَةِ النَّهَارِ وَ أَقْوَمُ قِيلًا أَي قَوْلُ اللَّيْلِ وَ عِبَادَتُهُ أَكْثَرُ قَوَامًا وَ اسْتِمْسَاكَ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي بِحُضُورِ الْقَلْبِ وَ تَوَجُّهِ الذَّهْنِ، وَ لِأَنَّ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا.

[٨] إِنَّ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي النَّهَارِ سَبْحًا «السَّبْحُ» التَّقَلُّبُ وَ مِنْهُ يُسَمَّى الْمُتَقَلِّبُ فِي الْمَاءِ سَابِحًا: أَي تَقَلَّبَا فِي أَشْغَالِكَ طَوِيلًا مِنْ إِرَاءَةِ الطَّرِيقِ، وَ الْإِرْشَادِ، وَ سَائِرِ الْأَعْمَالِ فَلَا يَتَأْتِي مِنْكَ أَنْ تَعْبُدَ كَمَا يَنْبَغِي، وَ لِذَا جَعَلَ اللَّيْلَ لِلْعِبَادَةِ.

وَ قَدْ رَوَى إِنْ الْإِمَامَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَعْمَلُ طُولَ النَّهَارِ، وَ يَعْبُدُ طُولَ اللَّيْلِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَهْتَدُ؟ قَالَ: إِذَا هَدَأَتِ النَّهَارُ كَانَ فِيهِ ضِيَاعُ الْأُمَمِ، وَ إِذَا هَدَأَتِ اللَّيْلُ كَانَ فِيهِ ضِيَاعُ نَفْسِي.

[٩] وَادْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْمَ رَبِّكَ بِأَنْ تَعْبُدَهُ وَ تَخْضَعُ لَهُ وَ تَبْتَلَّ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا «التَّبْتَلُّ» هُوَ الْإِنْقِطَاعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لَهُ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٠

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ٩ الى ١٢]

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهْلُومَهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَ جَحِيمًا (١٢)

من «بتل» بمعنى قطع، و إنما قال «إليه» لأن الانقطاع عن الخلق إليه، لا كون الانقطاع عنه.

[١٠] ثم بين «ربك» بقوله: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ هُوَ كُنْيَاةُ عَنِ الْكُؤْنِ، لِأَنَّ مِنْ بِيَدِهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ كَانَ بِيَدِهِ الْعَالَمُ كُلُّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَلَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَ لِذَا لَا يَحِقُّ الْعِبَادَةُ لِغَيْرِهِ فَاتَّخِذْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكِيلًا أَي حَفِيظًا لِلْقِيَامِ بِأَمْرِكَ وَ فَوْضَ إِلَيْهِ أَمْرِكَ.

[١١] وَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي تَوْحِيدِكَ وَ نَبْذِ الْأَصْنَامَ عَلَى مَا يَقُولُونَ أَي الْكُفْرَانَ حَوْلَكَ مِنْ أَنْكَ سَاحِرٍ أَوْ كَاهِنٍ أَوْ مَجْنُونٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ وَاهْجُرْهُمْ أَي ابْتَعِدْ عَنْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا بِأَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى فِي عَيْنِ حَالَةِ الْهَجْرِ، بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ الْمَجَادَلَةَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

[١٢] وَذَرْنِي أَى دَعْنِي لَهُمْ فَأَنَا أَكْفِيكَ شَرْهَمَ وَ الْمَكْدُذِينَ بِرَسَالَتِكَ وَ مَا جِئْتُ بِهِ أَوْلَى النَّعْمَةِ أَى أَصْحَابِ الثَّرْوَةِ وَ غَيْرَهَا مِنْ سَائِرِ النَّعْمِ، فَكُلْ جِزَاءَهُمْ أَلَى وَ مَهْلَهُمْ قَلِيلًا أَى إِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ سَيَقْعُونَ فِي الْعَذَابِ، عَذَابِ الدُّنْيَا فِي قِصَّةِ بَدْرٍ، وَ عَذَابِ الْآخِرَةِ. وَ قَوْلُهُ «مَهْلَهُمْ» كِنَايَةٌ عَنِ الصَّبْرِ مَعَهُمْ، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لِلْكَفَّارِ.

[١٣] إِنَّ لَدَيْنَا فِي الْآخِرَةِ، وَ الْمَرَادُ بِ «لَدَيْنَا» لَدَى حِسَابِنَا وَ جَزَائِنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤١

[سورة المزمّل (٧٣): الآيات ١٣ إلى ١٥]

وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥)

أَنْكَالًا جَمَعَ «نَكَل»، وَ هِيَ الْقِيُودُ وَ الْأَغْلَالُ وَ جَحِيمًا أَى نَارًا كَثِيرَةً، فَإِنَّ جَحِيمَ بِمَعْنَى ذَلِكَ، وَ هِيَ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ.

[١٤] وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ «الغصة» تَرَدَّدَ اللَّقْمَةُ فِي الْحَلْقِ بَحِثٌ لَا يَتِمَّكَنُ الْإِنْسَانُ مِنْ إِسَاغَتِهَا، أَى أَنْ أَطْعَمَهُ النَّارَ الْمَهِيئَةَ لَهُمْ ذَاتَ غُصَّةٍ فَلَا يَتِمَّكَنُ الْمَجْرَمُ مِنْ إِسَاغَتِهَا إِلَّا بَعْدَ عِلَاجٍ وَ صَعُوبَةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا مَوْلَمَا مَوْجَعًا.

[١٥] إِنَّ هَذِهِ الْأَلْوَانَ مِنَ الْعَذَابِ إِنَّمَا هِيَ فِي يَوْمِ تَرْجُفُ الْأَرْضُ أَى تَتَحَرَّكُ وَ تَضْطَرِبُ، فَإِنَّ الزَّلْزَالَ مِنْ عِلَائِمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ «١» وَ الْجِبَالُ لِتَكْثِيرِ الْهَوْلِ وَ كَانَتِ الْجِبَالُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَثِيرًا مَهِيلًا «الكثيب» الرَّمْلُ الْمَجْتَمِعُ الْكَثِيرُ «و المهيل» هُوَ السَّائِلُ الْمَتَنَاثِرُ، مِنْ هَالٍ: إِذَا حَرَّكَ أَسْفَلَهُ فَتَحَرَّكَ وَ سَالَ أَعْلَاهُ، أَى تَكُونُ الْجِبَالُ هَكَذَا سَائِلَةً فِي الْأَرْضِ.

[١٦] إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْكَفَّارُ رَسُولًا يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَ الْعَمَلِ، الصَّحِيحِ أَوْ الْفَاسِدِ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا وَ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) الحج: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٢

[سورة المزمّل (٧٣): الآيات ١٦ إلى ١٩]

فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مَنفُطْرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

[١٧] فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ بِأَنْ لَمْ يَطْعُ أَمْرَهُ، بَلْ خَالَفَهُ وَ عَانَدَهُ فَأَخَذْنَاهُ أَى أَخَذْنَا فِرْعَوْنَ أَخْذًا وَبِيلاً أَى شَدِيدًا ثَقِيلًا بِإِعْرَاقِهِ فِي الْبَحْرِ، وَ هَكَذَا أَنْتُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَخَذْنَاكُمْ بِصُنُوفِ الْعَذَابِ.

[١٨] فَكَيْفَ تَتَّقُونَ أَيُّهَا الْكَفَّارُ، أَى تَجْتَنِبُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ فِي الدُّنْيَا يَوْمًا أَى مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ - وَ هُوَ مَفْعُولٌ «تَتَّقُونَ» يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ جَمَعَ وَلَدٍ شِيبًا جَمَعَ أَشْيَبَ، وَ هُوَ الْبَالِغُ سِنِ الشَّيْبِ وَ الشَّيْخُوخَةُ فَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَشَدَّةُ أَهْوَالِهَا يَجْعَلُ الْأَوْلَادَ فِي صُورَةِ الشَّيْخِ بِيَاضِ الشَّعْرِ وَ نَحْوِهِ، أَى هَلْ تَتِمَّكَنُونَ مِنَ الْإِتْقَانِ عَنِ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ وَ إِذْ لَا تَتِمَّكَنُونَ فَكَيْفَ تَكْفُرُونَ حَتَّى تَتَبَلَّوْا بِهِ؟

[١٩] السَّمَاءُ مَنفُطْرٌ بِهِ أَى بِذَلِكَ الْيَوْمِ، أَى أَنَّ السَّمَاءَ تَنْفَطِرُ بِسَبَبِ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَ السَّمَاءُ يَجُوزُ فِيهَا التَّذْكَيرُ وَ التَّأْنِيثُ، وَ لَذَا قَالَ فِي مَقَامٍ آخَرَ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ «١» وَ الْإِنْفِطَارُ هُوَ الْإِنشِقَاقُ، بِأَنْ يَرَى السَّمَاءَ كَالشَّيْءِ الْمَنْشُوقِ، لِإِخْتِلَالِ نِظَامِ الْمَدَارَاتِ، وَ لَوْنِ الْهَوَاءِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ كَانَ وَعْدُهُ سُبْحَانَهُ بِمَجْبَىءِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَفْعُولًا أَى كَأَنَّهُ لَا خَلْفَ فِيهِ وَ لَا تَبْدِيلَ.

[٢٠] إِنَّ هَذِهِ أَى صِفَةُ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا لِأَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَذْكَرَةٌ

(١) الإنفطار: ٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٣

[سورة المزمل (٧٣): آية ٢٠]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنَضِيفَهُ وَتُلْتَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

و موعظة لكم أيها البشر فمن شاء اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا أى سلك سبيلا يؤدي إلى رضوانه، و هو سبيل الدين و الإسلام.

[٢١] ثم عطف السياق نحو قيام الليل الذى ابتدأ به الكلام فقال إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ أى فى الوقت الذى هو أقرب مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنَضِيفَهُ وَتُلْتَهُ ففى بعض الليالى كان الرسول يقوم قبل ثلثى الليل بأن كان الباقى إلى الفجر ثلثان، و فى بعض الليالى قبل النصف، و فى بعض الليالى قبل الثلث وَتقوم طائفة مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ من المؤمنين كالإمام المرتضى عليه السلام و الصديقة الطاهرة عليهم السلام و سائر الخواص.

وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أى أن مقدار الليل و النهار بيده، فهو المقدر لها، و المقدر يعلم الأمور المرتبطة بما قدره، و لذا عَلِمَ اللَّهُ سبحانه أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ أى لا تتمكنون من إحصاء الليل كله، بأن تقوموا فيه من أوله إلى آخره فى العبادة و الطاعة فَتَابَ عَلَيْكُمْ بأن لم يفرض القيام فى الليل عليكم عطا و تفضلا، مع أن المقتضى للإيجاب كان موجودا فَاقْرَؤُوا فى الليل ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ أى من الشىء الذى يقرأ، و المراد به الصلاة و الدعاء و نحوهما، و المعنى أنه حيث لا تقدرون على القراءة كل الليل فاقْرَؤُوا ما سهل عليكم و تيسر عندهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٤

ثم بين سبحانه حكمه التسهيل بقوله: عَلِمَ اللَّهُ تعالى أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى جمع «مريض»، و المريض لا- يقدر على قيام الليل وَ آخَرُونَ مِنْكُمْ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ أى يسافرون يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أى يطلبون الفضل و التجارة وَ آخَرُونَ مِنْكُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمته و سبيل دينه، و المسافر و المحارب حيث تعبوا فى النهار لا يسهل عليهما قيام الليل، و لذا خفف سبحانه عنكم و لم يلزمكم بالقيام، أو بمقدار خاص كالنصف و الثلث و الثلثين فَاقْرَؤُوا ما تَيَسَّرَ و سهل منه أى من القرآن، و المراد به الصلاة و الدعاء و القرآن الحكيم فإن القرآن مطلق ما يقرأ، فإن هذه العلل الخاصة أوجبت تخفيفا عاما- على نحو الحكمة- وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ فى أوقاتها كما فرض سبحانه وَ آتُوا الزَّكَاةَ أى أعطوها واجبها و مندوبها وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يانفاق المال فى مرضيه، بلا من أو رياء أو سمعة أو عجب، و كونه إقراضا باعتبار أنه سبحانه يردده على الإنسان فى الدنيا و الآخرة أضعافا مضاعفة.

وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ إِلَىٰ الْآخِرَةِ مِنْ خَيْرٍ أى طاعة و عبادة فإن ما يعمل الإنسان من الخير يقدم له إلى الجنة حتى إذا ذهب إليها وجد فيها ثواب ما عمل تجِدُوهُ أى ذلك الخير عِنْدَ اللَّهِ فى دار

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٥

كرامته هُوَ أى تجدوه هو- بعينه بلا نقصان أو اختلاف- خَيْرًا أى فى حال كونه خيرا، أو بحذف «تجدوا» أى تجدوا خيرا، أو أنه بيان لهاء «تجدوه»، و فى حال كونه أَعْظَمُ أَجْرًا أى ثوابا مما كان هو، فتوابه فى الآخرة أعظم من نفسه فى الدنيا، إذا كان فى الدنيا يساوى عشرة، فتجدون فى الآخرة ثوابه مائة- مثلا- أو أعظم أجرا من الذى يبقى فى الدنيا وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ اطلبوا غفرانه إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِلذُّنُوبِ رَحِيمٌ يتفضل بالرحمة فوق غفران الذنوب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٦

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «المدثر»، وهى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أصولها، و حيث ختمت سورة المزمل بالصلاة و القرآن و سائر أنواع الخير، افتتحت هذه السور بذكر بعض أنواعها الأخر من القيام بالتبليغ، و التكبير، و التطهير.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله، ليكون لنا عوناً فى أمورنا، الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم و الفضل على العباد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٧

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)

وَ الرُّجُزَ فَاهْجُرْ (٥) وَ لَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ (٦)

[٢] يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ المراد به الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و المدثر أصله من «تدثر» باب التفعّل، أدغمت التاء فى الدال، و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن، و المدثر هو لابس الدثار، و الدثار هو ما يلبسه الإنسان فوق الثوب الملاصق لجسده لأجل التدفئة، و فى مقابلة الشعار و هو الثوب اللاصق بالبدن، يسمى به لأنه لاصق بشعر الإنسان.

و قد روى أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم لما أوحى إليه أخذته الرعدة من الهيبة فقال لخديجه عليها السلام: دثرينى، فدثرته، فجاء النداء «يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ».

[٣] قُمْ من استراحتك فَأَنْذِرْ الناس و خوفهم من العقاب إن تمادوا فى الكفر و العصيان.

[٤] وَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ أى كبر الله و عظمه - وحده دون الأصنام -.

[٥] وَ ثِيَابَكَ فَطَهِّرْ فإن المسلم يجب عليه تطهير قلبه عن أدران الشرك بتكبير الله وحده، و تطهير ثيابه عن الأوساخ بتقصير ذيله حتى لا يتسخ، و تنظيفه من النجاسات. و قد روى فى معنى الآية التطهير من النجاسة و التطهير بالتقصير - و ذلك لأن المراد هو الأعم منهما -

و فى الحديث «قصر ثوبك يكون أتقى و أنقى و أبقى».

[٦] وَ الرُّجُزَ أى القذارة بأقسامها الشاملة للأصنام و للنجاسات الظاهرية، و للردائل فَاهْجُرْ أى ابتعد عنها.

[٧] وَ لَا تَمُنُّنَّ فى العطاء تَسْتَكْبِرُ أى تطلب الكثير بعدم المنّة، فإن ما يراد به وجه الله يضاعف، أو

المعنى لا تعط العطية تلمس أكثر منها -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٨

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٧ الى ١٣]

وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فى النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذُرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١)

وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَ بَيْنَ شُهُوداً (١٣)

كما عن الباقر عليه السلام «١»

- أو لا تمنن بعبثك، على الناس مستكثراً ما أعطيته.

[٨] وَ لِرَبِّكَ أى لأجله سبحانه فَاصْبِرْ على أذى الكفار و المشركين.

[٩] فإنه سيأتى يومهم الذى ينتقم فيه منهم فَإِذَا نُقِرَ فى النَّاقُورِ أى نفخ فى الصور، و النقر هو الضرب فى الشىء، و منه نقر الغراب، «و الناقور» فاعول، بمعنى البوق، لأنه ينقر فيه، فإن النفخ كالنقر.

[١٠] فَذَلِكَ النِّقْرُ يَوْمَئِذٍ أَي يَنْقِرُ يَوْمَ عَسِيرٍ صَعْبٍ شَدِيدٍ.

[١١] عَلَى الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ غَيْرُ يَسِيرٍ أَي غَيْرِ سَهْلٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَعَذِّبُ الْكَافِرَ. وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ لِلتَّكْيِيدِ، وَ إِفَادَةُ أَنَّ عَسَرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِنَّمَا هُوَ لِلْكَافِرِ، لَا لِلْمُؤْمِنِ التَّقِي.

[١٢] ذَرْنِي أَي دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً أَي فِي حَالِ كَوْنِهِ وَحِيداً لَا مَالَ لَهُ وَ لَا أَوْلَادَ، وَ الْمَعْنَى أَنَا أَكْفِيكَ شَرَّهُ، وَ أَنْتَقِمُ مِنْهُ جَزَاءً لِتَكْذِيبِهِ.

[١٣] وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً أَي ذَا مَدٍّ وَ طَوْلٍ، فَقَدْ كَانَ «وَلِيداً» الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتُ صَاحِبَ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ.

[١٤] وَ جَعَلْتُ لَهُ بَيِّنَ أَي أَوْلَاداً شُهُوداً أَي حُضُوراً عِنْدَهُ،

(١) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٤٩

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١٤ إلى ١٧]

وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأَرْهَقُهُ صُعُوداً (١٧)

وَ هَذِهِ نِعْمَةٌ أُخْرَى بِأَنَّ يَكُونُ أَوْلَادَ الْإِنْسَانِ عِنْدَهُ لَا يَغْيِبُونَ عَنْهُ.

[١٥] وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً أَي هَيَّأْتُ لَهُ الْأُمُورَ تَمْهِيداً، بِأَنَّ صَارَ ذَاتَ جَاهٍ فِي قَوْمِهِ، وَ مَكَانَةً فِي الْبَلَدِ، وَ هَيَّأْتُ لَهُ الْأَسْبَابَ.

[١٦] ثُمَّ يَطْمَعُ هَذَا الشَّخْصُ أَنْ أَزِيدَ مَالَهُ وَ أَوْلَادَهُ.

[١٧] كَلَّا لَا أَزِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئاً لَهُ، فَقَدْ كَفَرَ بِي، وَ أَبْدَلَ مَكَانَ الشُّكْرِ كُفْرَاناً إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً أَي مَعَانِدًا لِأَدْلَتِنَا وَ حُجْجِنَا لَا يُؤْمِنُ بِهَا عِنَادًا وَ مَضَادَةً.

[١٨] سَأَرْهَقُهُ صِعُوداً أَي سَأُكَلِّفُهُ مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَا، وَ الصُّعُودُ هِيَ الْعَقْبَةُ الشَّاقَّةُ الْمَصْعَدُ، فَإِنَّ مِنْ يَكْلِفُ صُعُودَهَا يَشْقُ عَلَيْهِ، فَقَدْ شَبَّهَ الْعَذَابَ بِذَلِكَ لِالتَّقْرِيْبِ إِلَى الذَّهْنِ.

وَ قَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَ مَا بَعْدَهَا مَا ذَكَرَهُ الْقَمِي قَالَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، وَ كَانَ شَيْخًا مَجْرِبًا مِنْ دِهَاءِ الْعَرَبِ وَ كَانَ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَقْعُدُ فِي الْحَجْرِ وَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَاجْتَمَعَتْ قَرِيْشٌ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، فَقَالُوا:

يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ مَا هَذَا الَّذِي يَقُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَشْعَرُ هُوَ أَمْ كَهَانَةٌ أَمْ خُطْبٌ؟ فَقَالَ: دَعُونِي أَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَدَنِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ قَالَ:

يَا مُحَمَّدُ أَنْشَدْنِي مِنْ شِعْرِكَ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: مَا هُوَ شِعْرِي، وَ لَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي ارْتَضَتْهُ مَلَائِكَتُهُ وَ أَنْبِيَآؤُهُ وَ رَسَلَهُ. فَقَالَ: اتْلُ عَلَيَّ مِنْهُ شَيْئاً، فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ حَمَّ السَّجْدَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٥٩٩

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١٨ إلى ١٩]

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (١٨) فَفُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩)

فَإِنَّ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ «١» قَالَ: فَاقْشَعَرَ الْوَلِيدُ وَ قَامَتْ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي رَأْسِهِ وَ لِحْيَتِهِ، وَ مَرَّ إِلَى بَيْتِهِ وَ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَرِيْشٍ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ. فَمَشُوا إِلَى أَبِي جَهْلٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَكَمِ إِنَّ أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ صَبَأَ «أَي مَالَ إِلَى دِينِ مُحَمَّدٍ» أَمَا تَرَاهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْنَا؟ فَعَدَا أَبُو جَهْلٍ إِلَى الْوَلِيدِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمَّ نَكَسْتَ رُؤُوسَنَا وَ فَضَحْتَنَا وَ أَشْمَتَ بِنَا عَدُونَا وَ صَبَوْتَ إِلَى دِينِ مُحَمَّدٍ؟ فَقَالَ:

ما صبوت إلى دينه و لكن سمعت منه كلاما صعبا تقشعر منه الجلود، فقال له أبو جهل: أخطب هو؟ قال:

لا، إن الخطب كلام متصل و هذا كلام منثور و لا يشبه بعضه بعضا.

قال: أفشعر هو؟ قال: لا أما إنى لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها و رملها و رجزها و ما هو بشعر. قال: فما هو؟ قال: دعنى أفكر فيه فلما كان من الغد قالوا له: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس، فأنزل الله على رسوله فى ذلك «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا» و إنما سمي وحيدا لأنه قال لقريش: أنا أتوحد بكسوة البيت سنه و عليكم فى جماعتكم سنه، و كان له مال كثير و حدائق و كان له عشرة بنين بمكة، و كانت له عشرة عبيد عند كل عبد ألف دينار يتجر بها.

[١٩] إِنَّهُ أَى الْوَلِيدِ فَكَرَّ حَوْلَ الْقُرْآنِ وَ قَدَّرَ الْقَوْلَ فِى نَفْسِهِ.

[٢٠] فَقَتِلَ دَعَاءَ عَلَيْهِ، أَى قَتَلَهُ اللَّهُ كَيْفَ قَدَّرَ؟ تَقْدِيرًا يُوَافِقُ أَهْوَاءَ الْمَكْذِبِينَ وَ أَذْهَانَ الْعَامَّةِ، فَإِنِ النَّاسُ يَسْرِعُونَ إِلَى نَسْبَةِ السِّحْرِ إِلَى كَلِّ

(١) فصلت: ١٤.

(٢) تفسير القمى: ج ٢ ص ٣٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥١

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ (٢٦)

ما خرج عن طورهم، و هذا تعجب من تفكيره و تقديره.

[٢١] ثُمَّ لِلتَّرَاخَى فِى الْكَلَامِ لَا فِى الْخَارِجِ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ تَكْرِيرًا لِشِدَّةِ التَّعْجَبِ مِنْهُ، وَ إِعَادَةَ الدَّعَاءِ عَلَيْهِ.

[٢٢] ثُمَّ نَظَرَ فِى طَلَبِ مَا يَدْفَعُ بِهِ الْقُرْآنَ، وَ النَّظَرَ هُنَا التَّفَكُّرَ.

[٢٣] ثُمَّ عَبَسَ أَى قَطَبَ وَجْهَهُ وَ كَلَحَهُ، وَ بَسَرَ الْبُسُورَ بَدَوِ التَّكْرَهُ فِى الْوَجْهِ.

[٢٤] ثُمَّ أَدْبَرَ أَى أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ، وَ أَنْ يَقُولَ فِى الْقُرْآنِ مَا عَلَّمَهُ مِنْهُ وَ اسْتَكْبَرَ فَقَدْ مَنَعَهُ كِبَرُهُ عَنِ الْقَوْلِ بِالْحَقِّ.

[٢٥] فَقَالَ إِنَّ هَذَا أَى مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْتَرُ أَى يَرُوى عَنِ السِّحْرِ.

[٢٦] إِنَّ هَذَا أَى مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ فَلَيْسَ وَحِيًّا مَنزَلًا مِنَ السَّمَاءِ.

[٢٧] ثُمَّ جَاءَ السِّيَاقُ لِيَهْدِيَهُ لِهَذَا الْكَلَامِ الْمَكْذُوبِ الَّذِى افْتَرَاهُ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ سِحْرًا لَقَدَّرَ السِّحْرَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَ لَقَدَّرَ الْمَشْرُوعُونَ فِى الْعَالَمِ أَنْ يَضْعُوا قَوَانِينَ شَبِيهَةً بِهِ، لَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَ قَدْ عَلِمُوا بِهِ وَ إِنَّمَا مَنَعَهُمْ عَنِ ذَلِكَ كِبَرُهُمْ وَ تَمَرْدُهُمْ سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ أَى سَادَخَلَهُ جَهَنَّمَ، وَ أَلْزَمَهُ إِيَّاهَا، فَإِنَّ «الإِصْلَاءَ» إِلْزَامَ مَوْضِعِ النَّارِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٢

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٢٧ الى ٣١]

وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَ لَا تَنْدَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ يَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَ لَا يَزُتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا - كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَ مَا هِىَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١)

[٢٨] وما أدراك أيها السامع ما سَقَرُ أى أنت لا تدري ما هى لشدة عذابها، حتى كأن الإنسان لا يمكن أن يعرفها على حقيقتها.

[٢٩] لا- تُبْقَى شيئاً مما يطرح فيها، بل تأكل اللحم و تحرق الجلد و العظم و لا تَدْرُ إما تأكيداً أو بمعنى أنها لا تدعهم يفنون حتى ينجوا من العذاب، بل تحرق و تعيد، و هكذا دواليك.

[٣٠] لَوَاحَةٌ من التلويح بمعنى تغيير اللون بواسطة الشمس و نحوها لِلْبَشْرِ أى أنها تغير الجلود، و «البشر» جمع بشرة، و هى ظاهر الجلد.
[٣١] عَلَيْهَا أى الملائكة الموكلون عليها تَشِيَعُهُ عَشْرَ و هذا أحد الأعداد الممكنة، و لا مجال لأن يقال: لماذا ليسوا أكثر و لا أقل؟ فإن أى عدد كان محل هذا السؤال، كما أن فى سائر الأعداد أيضاً لا إشكال، كثمانية أبواب للجنة، و سبعة للنار، و سبع سماوات طباقاً و هكذا.

[٣٢] و ما جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ أى الموكلون بها إِلَّا مَلَائِكَةً لَأَنَّهُمْ أَقْوَى، و لعدم رقهم لأهل النار، بخلاف ما لو كانوا آدميين و ما جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ أى تعدادهم بكونهم تسعة عشر إِلَّا فِتْنَةً و امتحاناً لِلَّذِينَ كَفَرُوا حتى يتبين هل هم يؤمنون أم يضحكون من هذا العدد قائلين لا يكفى هذا العدد القليل لتعذيب الكثرة من الكفار و العصاة فإن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٣

مخلوقاته سبحانه موجبة للفتنة و الامتحان سواء كانت نعماً أو نقماً فى الدنيا أو فى الآخرة، و سواء كان أصل الشيء أو خصوصياته و مزياه.

و قد ذكرنا عدد الملائكة فى القرآن لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أى اليهود و النصارى بأن الرسول حق، حيث يرون أنه صلى الله عليه و آله و سلم أخبر بما هو فى كتبهم مما لا- يعلمه أحد إلا هم فقط، فإخبار إنسان لا يطلع على كتبهم و لم يسمع منهم بذلك يوجب تعيينهم بأنه حق و إنما تعلم ذلك بالوحى و يَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ إيماناً حيث يرون تصديق أهل الكتاب- الذين هم أهل الفن- للرسول صلى الله عليه و آله و سلم فيوجب ذلك زيادة إيمانهم و لا يَزْتَابَ أى لا يشك الذين أُوتُوا الْكِتَابَ و الْمُؤْمِنُونَ فى نبوة النبي صلى الله عليه و آله و سلم. و هذا تأكيد للجملته السابقة، فإن المؤمن قلباً من أهل الكتاب، و المؤمن ظاهراً من سائر الناس بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم، فى معرض الشك و الزوال، كما هو الشأن فى كل ملكة إذا لم تقو، فإذا وجد هذا الشاهد تقوت الملكة، و لم يكن الإنسان معرضاً للريب.

و لِيَقُولَ اللام للعاقبة، أى أن الغاية من تعريف عدد خزنة النار أمران: الأول زيادة إيمان المؤمنين، و حصول العلم لأهل الكتاب بصدق الرسول. الثانى شدة نفاق المنافق، و كفر الكافر، فيقول الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ من المنافقين و الْكَافِرُونَ بالرسول:

ما ذا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ فَكَأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ الْخَاصَّ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٤

[سورة المدثر (٧٤): آية ٣٢]

كَلَّا وَ الْقَمَرِ (٣٢)

باب المثل، لا أنه حقيقة مطابق لعدد الموكلين بالنار، فأخذوا يستفسرون عن قصد هذا المثل، فشأن المعاند حيث يستفسر حول كل كلمة من كلمات خصمه لأن التواء قلبه يوجب أن يرى كل شىء متساوياً.

ثم يأتى السياق لبيان جواب هؤلاء السائلين بقوله: كَذَلِكَ أى ببيان الحقائق، كما بين عدد ملائكة النار يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ فإنه إذا ذكر الحقيقة نفر عنها أناس، فذلك إضلال لهم و يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إذ يتعلق بالإيمان أناس آخرون و ذلك هداية لهم، فإن إضلاله و هدايته ليسا بمعنى الجبر، بل بمعنى إنزال آية أو بيان حكم يوجب الضلال و الهدى ليمتحن الناس.

و بمناسبة بيان عدد جنوده الموكلين، بالنار جاء السياق ليقرر حقيقة عامة بقوله: و ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ الموكلين بكل شىء، المحافظين لكل خلق إِلَّا هُوَ سبحانه وحده، إلا إذا أعلم ذلك لبعض، فليس لأحد أن يقول: أن جند كذا أكثر أو أقل مما يخبر الله سبحانه و ما

هِيَ أَى سَقَرِ التى تَقْدَم الكَلَام حَوْلَهَا إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ أَى تَذَكْرَهُ لَهُمْ، بِمَعْنَى أَن ذَكَرَهَا يَذَكُرُهُم بِالْعَذَابِ فَيَقْلَعُوا عَنِ الْمَعَاصَى، أَوْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ تَذَكُرُهُ لَهُمْ.

[٣٣] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تُوهِمُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنْ أَنَّهُ لَا حِسَابَ وَ لَا جَزَاءَ وَ الْقَمَرِ أَى قَسَمًا بِالْقَمَرِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٥

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٣ الى ٣٨]

وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةً (٣٨)

[٣٤] وَ قَسَمًا بِاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَلى وَ ذَهَبَ لِأْتَى مَكَانَهُ النَّهَارِ.

[٣٥] وَ قَسَمًا بِالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ أَى إِذَا أَضَاءَ وَ جَاءَ.

[٣٦] إِنَّهَا أَى «سقر» التى تَقْدَم الكَلَام حَوْلَهَا لِإِحْدَى الْآيَاتِ الْكُبَرِ جَمْعُ كَبْرَى، أَى إِحْدَى آيَاتِ اللَّهِ الْعَظْمَى، فَإِنَّ مِنْ قَدْرِ عَلَى خَلْقِ تِلْكَ الْآيَاتِ مِنَ الْقَمَرِ وَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ، لِقَادَرِ عَلَى خَلْقِ النَّارِ وَ سَقَرِ لِعَذَابِ الْكُفَّارِ وَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ لَعَلَّ اخْتِيَارَ الْحَلْفِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ لِإِحْوَالِهَا بِالظُّلْمَةِ الْمُخْتَلِطَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الضِّيَاءِ، كَالنَّارِ التى هى كَذَلِكَ، كَمَا أَنَّ سَكُونَ هَذِهِ الْأُمُورِ يُوحى بِسَكُونِ أَهْلِ النَّارِ الشَّبِيهِ بِالْمَوْتِ بِخِلَافِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ هُمُ أَحْيَاءُ.

[٣٧] فى حال كونها نَذِيرًا لِلْبَشَرِ تَنْذِرُهُمْ بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ابْتَلَوْا بِهَا، كَمَا تَقُولُ: هَذِهِ السَّلَاسِلُ تَنْذِرُ الْمُجْرِمِينَ.

[٣٨] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْخَيْرِ لِيَنْجُو أَوْ يَتَأَخَّرَ بِالْعَصِيَانِ حَتَّى يَبْتَلَى، فَلِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَخْتَارَ مَصِيرَهُ «إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ وَ إِمَّا إِلَى النَّارِ».

[٣٩] كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ مِنَ الطَّاعَةِ أَوْ الْمَعْصِيَةِ رَهينَةً كَالرَّهْنِ الَّذى هُوَ مَحْبُوسٌ فى مِقَابِلِ الدِّينِ؛ فَإِنَّ وَ فى الدِّينِ فَكٌّ وَ إِلا لَمْ يَفَكَّ، وَ كَذَلِكَ إِذَا وَ فى الْإِنْسَانِ بِمَا عَلَيْهِ - مِنَ الْإِيمَانِ وَ الطَّاعَةِ - فَكٌّ وَ حِطَى بِالثَّوَابِ، وَ إِلا كَانَ مَصِيرُهُ النَّارَ وَ الْبَقَاءَ فى حَبْسِ الْأَبَدِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٦

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٩ الى ٤٥]

إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فى جَنَاتٍ يَنْسَاءُ لُونٌ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فى سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَ كُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥)

[٤٠] إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ الَّذِينَ يُعْطَى كِتَابُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، وَ يُؤْخَذُ بِهِمْ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ - ذَاتِ الْيَمِينِ نَحْوَ الْجَنَانِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ فَكُّوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الرَّهْنِ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ.

[٤١] فَإِنَّهُمْ فى جَنَاتٍ يَنْسَاءُ لُونٌ أَى يُسَأَلُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ مِنْ نَفْسِ الْمُجْرِمِينَ.

[٤٢] عَنِ الْمُجْرِمِينَ وَ عَلَى الْأُولَى، يَلْتَفِتُونَ بَعْدَ السُّؤَالِ إِلَى الْمُجْرِمِينَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ إِنِّى كَانَ لى قَرِينٌ .. إِلَى قَوْلِهِ: فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فى سِوَاءِ الْجَحِيمِ* قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ «١» وَ عَلَى الثَّالِثِ يَكُونُ الْمَسْئُولُ ابْتِدَاءً هُوَ الْمُجْرِمُ.

[٤٣] فيقولون لهم: ما سَلَكَكُمْ أَى مَا أَدْخَلَكُمْ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فى سَقَرٍ فى هَذِهِ النَّارِ الْعَظِيمَةِ؟

[٤٤] قَالُوا أَى الْمُجْرِمُونَ فى جَوَابِهِمْ لَمْ نَكُ نَحْنُ فى الدُّنْيَا مِنَ الْمُصَلِّينَ أَى مَا كُنَّا نَصَلِّى الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةَ.

[٤٥] وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ إِطْعَامًا وَاجِبًا، بِإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ وَ نَحْوِهَا.

[٤٦] وَ كُنَّا نَحْوُضُ فى الْبَاطِلِ مَعَ الْخَائِضِينَ أَى مَعَ الَّذِينَ يَخْوِضُونَ فى الْبَاطِلِ، وَ أَصْلُ «الْحَوْضِ» الدُّخُولُ فى الشَّيْءِ بِجَمِيعِ الْجِسْمِ

فَكَانَ

(١) الصفات: ٥٢-٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٧

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٤٦ الى ٥١]

وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠)

فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)

الباطل شيء يخاض فيه.

[٤٧] وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ «الدين» هو الجزاء، أى لا نعترف بيوم القيامة، بل نقول أنه كذب لا يكون.

[٤٨] حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ أى الموت، بأن لم تنب قبل أن نموت و سمي الموت يقينا لأنه سبب لانكشاف ذلك العالم لدى الإنسان، حتى يتيقن بما هناك.

[٤٩] و إذا كانوا كذلك فى الدنيا فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ أى الذين يشفعون للمذنبين، من الأنبياء و الملائكة و العلماء و من أشبههم، إذ ذنبهم فوق حد الشفاعة، و هذا من باب السالبة بانتفاء الموضوع، إذ لا يشفع لهم أحد حتى تنفع.

[٥٠] ثم يأتى السياق ليستغرب من عنادهم فى الباطل فَمَا لَهُمْ أى ما لهؤلاء الكفار عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ أى لم أعرضوا عن القرآن الذى يذكرهم بالحقائق و بما فيه نفعهم؟ و أى خير لهم فى هذا الإعراض؟

[٥١] كَانَتْهُمْ حُمْرٌ جمع «حمار» مُسْتَنْفِرَةٌ أى وحشية نافرة «و استنفر» بمعنى نفر، كأنها طلبت من نفسها الفرار، لما شاهدت من الخوف، و تشبيههم بالحمار لعدم إدراكهم و بلادتهم.

[٥٢] فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أى الأسد، فإن الحمار إذا شاهد الأسد فر منه، و كذلك الكفار يفرون من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٨

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٥٢ الى ٥٦]

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صِخْرَفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا- بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (٥٦)

[٥٣] بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ أى يعطى فى يوم القيامة صِخْرَفًا مُنَشَّرَةً بأن يوحى إليه و ينزل عليه الكتاب من الله سبحانه كما قال سبحانه لَوْ لَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ «١»؟ أو المراد أنهم مع هذا الإعراض عن الحق يريد أن يعطى كتابه يوم القيامة منشورا فيه الحسنات، إذ الكتاب إذا كان فيه سيئات يطوى لثلا يطلع عليه أحد، أما إذا كان فيه الحسنات ينشر على رؤوس الأشهاد للافتخار و المباهاة، و كأن الإتيان ب «بل» لإفادة أنهم مع الكفر يتوقعون هذا.

[٥٤] كَلَّا لَا يعطون كتابا منشورا، فإنهم لم يعملوا ما يستحقون به ذلك بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ حتى يدخلوا فى زمرة المؤمنين الموجب لإعطاء كتاب منشور بأيديهم، أو المراد أنهم حيث لا يخافون الآخرة أعرضوا عن التذكرة.

[٥٥] كَلَّا ليس الأمر على ما توهموا من أن إعراضهم خير لهم إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ أى القرآن يذكرهم.

[٥٦] فَمَنْ شَاءَ التذكرة و الاهتداء و الخير ذَكَرَهُ أى اتعظ به، و من لم يشأ فهو و شأنه.

[٥٧] وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ فَإِنَّ التذکر له طرفان: إرادة الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٥٩

سبحانه بإرسال الرسول و إرشاد الناس، و تقبل الإنسان، فتذكرهم مرتبط بإرادة الله، و قد أراد سبحانه، و أرشد فبقى عليهم أن يقبلوا هو سبحانه أهل التَّقْوَى أى أهل لأن يتقى منه، إذ الإنسان إنما يتقى من العالم القادر الذى إذا خالفه الإنسان علم بالمخالفة و عاقب، و كل ذلك موجود فيه سبحانه و أهل الْمُغْفِرَةِ أى أهل لأن يغفر الذنب لمن اتقاه و جاء إلى الطريق، فاتقوه أيها الناس حتى يغفر لكم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٠

٧٥ سورة القيامة مكية / آياتها (٤١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «القيامة»، و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أصولها الثلاث، و حيث ختمت سورة «المدثر» بما يرتبط بالقيامة ابتدأت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله الذى هو الإله بالحق، و لا إله غيره، الرحمن الرحيم الذى يتفضل على العباد بالرحم و الفضل فى الدنيا و الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦١

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَ لَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ (٣) بلى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)
[٢] لا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ «لا» للنفى، و قد سبق أن الإتيان بها لنكتة مليحة، هى أن الحالف يريد أن يبين و يؤكد المطلوب غير حالف مع الإيماء إلى الحلف، كما تقول «لا أقسم بحياتك إلا أن الأمر كذا» تريد أن لا تحلف به- لأمر- مع الإلماع إلى الحلف لتحصل فائدة التأكيد.

[٣] وَ لَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ و هى النفس اليقظة التى تلوم صاحبها عن التقصير فى خدمة الله سبحانه، و إن كان الإنسان فى أرقى درجات الطاعة. و قيل أن جهة نفي القسم أن الكفار لم يكونوا يقرّون بالمقسمين، فكانه قيل لا أحلف بهما لأنكم لا تقرون بذلك.
[٤] أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَى هل يظن أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ بعد الموت لأن يحشر؟ و المعنى أ يظن أنه لا قيامة و لا معاد؟.

[٥] و قد كان زعم الإنسان بعدم الجمع، من جهة حسبانته انه تعالى غير قادر على ذلك، و لذا جاء السياق لدفع هذا الزعم الباطل بقوله: بلى نجمعه عظامه فإننا نكون قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ أى رؤوس أصابعه، و هذا فى غاية القدرة، لأن خطوط أصابع الناس يختلف بعضها مع بعض و إن كان البشر عشرات الآلاف من الملايين، و من يقدر على صنع و إعادة أدق أجزاء الإنسان قادر على إعادة غير ذلك من سائر أجزائه: قالوا: و أعجب ما فى الإنسان أربعة: اختلاف الأصوات، و الوجوه، و خطوط البنان، و ذبذبات الخطوط حتى أن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٢

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٥ الى ١٠]

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ (٧) وَ حَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (٩)
يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠)

إنسانين لو خطا كان من المستحيل عادة أن يتساوى خطهما، و إنما يعرف الاختلاف بالمجاهر و الآلات الحديثة:

[٦] إن الإنسان لا يكفر بالمعاد، لأنه ينكر فى قلبه قدرة الله سبحانه على البعث بل إنما ينكر لأنه يريد الإنسان لِيَفْجُرَ أى يعصى أمامه أى فى مستقبل عمره، و حيث إن الاعتراف بالآخرة يمنع عن فجوره، ينكر حتى يكون الطريق مفتوحا لفجوره، و إذ خوف من الآخرة

أنكرها ليسكت المنكر له:

[٧] ف يَسْتَلُّ سؤَالَ منكر أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ أَي متى يكون، بمعنى أنه لا يكون، وإلا فأين هو؟

[٨] ثم يأتى السياق لبيان وقت يوم القيامة فإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ أَي شخص عند معاينة الأهوال، أو تقلب البرق، أو خرج منه البرق، فإن الإنسان لدى الاصطدام يخرج من عينه مثل البرق.

[٩] وَخَسَفَ الْقَمَرُ أَي ذهب نوره، فظهر جرماً كمدا بلا نور.

[١٠] وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بَأَن يَحْتَلِ نظامهما الفلكى فيرى كل واحد منهما بجنب الآخر.

[١١] يَقُولُ الْإِنْسَانُ الْمَكْذِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَئِذٍ أَي فى هذا اليوم أَيَّنَ الْمَفْرُ أَي إلى أين يمكن الفرار من هذه الأهوال؟ وهذا استفهام للإنكار، والتحسر، بأنه لا يمكن الفرار.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٣

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١١ الى ١٦]

كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥)

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦)

[١٢] كَلَّا فإنه لا يمكن الفرار لا وَزَرَ و هو ما يتحصن به الإنسان من جبل و نحوه، أى لا ملجأ للفرار و الهرب.

[١٣] إِلَى حساب رَبِّكَ أَيها الإنسان يَوْمَئِذٍ أَي فى هذا اليوم الْمُسْتَقَرُّ أَي المنتهى، فالصالحون إلى جنته، و الطالحون إلى ناره.

[١٤] يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ أَي يخبر الإنسان، و المخبر هو الله سبحانه بواسطة الأنبياء و الشهداء يَوْمَئِذٍ أَي فى يوم القيامة بِمَا قَدَّمَ إلى الآخرة فى حياته، من الأعمال الصالحة و ما أَخَّرَ كما لو أوقف وقفا و مات فجرت الصدقة بعد مماته، و إنما يخبر بذلك للجزاء و الثواب، أو النكال فإن المحسن أو المجرم، يقرأ أولاً ما عمل ثم يجازى.

[١٥] و مهما اعتذر الإنسان بشتى الأعذار، فإنه مما لا تقبل منه بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ و ما عمل فى الدنيا بَصِيرَةٌ التاء للمبالغة، أى كامل العلم و العرفان، أو التاء للتأنيث، أى حجة بصيرة، فإن الأعضاء تشهد بما صدر منه.

[١٦] وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ أَي و لو اعتذر لم ينفعه عذره، أو يعلم ما صنع و إن اعتذر فى ظاهر لفظه، فإن الإلقاء بمعنى الإعطاء، كما يقال فلان ألقى بحجته، «و معاذير» جمع معذرة، أو معذار.

[١٧] ثم يأتى السياق لتوجيه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى كيفية تحمل القرآن إذا ما يوحى إليه، و لعل المناسبة الربط بين أحوال القيامة و بين العمل الذى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٤

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١٧ الى ٢٠]

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠)

يوجه إليه القرآن. قال ابن عباس: كان النبى إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه و حرصه على أخذه و ضبطه مخافة أن ينساه، و نحوه نقل عن سعيد بن جبیر، أقول: و لعل هذا العمل كان منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أثناء هذه السورة، و لذا جاء هذا التوجيه فى الأثناء لا تُحَرِّكْ يا رسول الله به أى بالقرآن لسانك بأن تقرأه كلمة كلمة بمجرد قراءة جبرئيل قبل أن يتم الوحي لِتَعْجَلَ بِهِ أى لتأخذه على عجلة مخافة أن تنساه.

[١٨] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ أَنْ نجمعه و نؤلفه وَقُرْآنَهُ أَي أن نقرأه عليك.

[١٩] فَإِذَا قَرَأْنَاهُ وَ ذَلِكَ بقراءة جبرئيل لك فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ أَي قراءته.

[٢٠] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ أَيِ إِضَاحِهِ وَ تَفْسِيرِهِ فِي مَجْمَلَاتِهِ وَ مُتَشَابِهَاتِهِ فَعَلِينَا الْجَمْعَ وَ الْقِرَاءَةَ وَ الْبَيَانَ، وَ عَلَيْكَ الرِّسَالَةُ وَ التَّبْلِيغُ. وَ فِي الْحَقِيقَةِ الْأَمْرَ مِنَ الْمَدْهَشَاتِ لَوْ لَا الرِّسَالَةُ، فَإِنَّهُ كَيْفَ يَتَسَنَّى لِلشَّخْصِ أَنْ يَحْفَظَ هَذَا الْمَقْدَارَ الْكَبِيرَ مِنَ الْكَلَامِ بِدُونَ تَكَرَّرِ فِي الْقِرَاءَةِ عَنِ كِتَابٍ. أَلَا تَرَى أَنْ أَبْلَغَ الْخُطْبَاءُ وَ أَذْكَرَهُمْ إِذَا صَعِدَ الْمَنْبِرَ وَ قَرَأَ مَقْدَارَ صَفْحَتَيْنِ، وَ كَانَ عَرَفَهُ عَلَى حَفْظِهِ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْ قِرَاءَتِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً كَمَا قَرَأَ أَوَّلًا، لَكِنْ وَعَدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِلرَّسُولِ بِقَوْلِهِ «فَلَا تَنْسَى» هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ حَفْظَهُ بِمَجْرَدِ قِرَاءَةِ جَبْرِئِيلَ، وَ لَوْ كَانَ الرَّسُولُ غَيْرَ صَادِقٍ فِي دَعْوَاهُ - كَمَا زَعَمَ الْكُفَّارُ - كَيْفَ تَسَنَّى لَهُ هَذَا الْحَفْظَ الْمَدْهَشَ.

[٢١] ثُمَّ رَجَعَ السِّيَاقُ إِلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ بِقَوْلِهِ: كَلَّا لَا تَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٥

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢١ الى ٢٦]

وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَ جُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَ جُودُهُ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ (٢٤) تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي (٢٦)

وَ لَا تَتَفَكَّرُونَ فِي الْمَعَادِ «إِرَادَةُ لِأَنَّ تَفَجَّرُوا أَمَامَكُمْ» بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ أَيِ الدُّنْيَا الْحَاضِرَةَ.

[٢٢] وَ تَذَرُونَ أَيِ تَتْرَكُونَ الْآخِرَةَ فَلَا تَعْمَلُونَ لَهَا.

[٢٣] فَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْ عَمَلٍ هُنَا لِلْآخِرَةِ كَانَ حَالُهُ هُنَاكَ حَسَنًا، وَ مِنْ لَمْ يَعْمَلْ كَانَ حَالُهُ سَيِّئًا وَ جُودُهُ يَوْمَئِذٍ أَيِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ نَاصِرَةٌ أَيِ نَاعِمَةٌ بِهَيْجَةِ حَسَنَةٍ وَ هِيَ وَجْهُ الْمُؤْمِنِينَ.

[٢٤] إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ أَيِ إِلَى رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ وَ فَضْلِهِ وَ لَطْفِهِ، وَ هَذَا كَمَا تَقُولُ «أَنْظِرْ إِلَى فُلَانٍ» وَ هُوَ بَعِيدٌ عَنكَ، تَرِيدُ إِلَى فَضْلِهِ وَ رَحْمَتِهِ، أَوْ إِلَى حَرَكَاتِهِ وَ أَعْمَالِهِ.

[٢٥] وَ جُودُهُ يَوْمَئِذٍ أَيِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِاسِرَةٍ شَدِيدَةُ الْعُبُوسِ وَ التَّقْطِيبِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمَحْزُونَ الْخَائِفَ يَسِرُ وَجْهَهُ، وَ هِيَ وَجْهُ الْكَافِرِينَ وَ الْعَصَاةَ.

[٢٦] تَنْظُنُّ أَصْحَابَ تِلْكَ الْوُجُوهِ، وَ نَسْبَةُ الظَّنِّ إِلَى الْوُجُوهِ مَجَازٌ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ أَيِ دَاهِيَةٌ تَكْسِرُ فَقَارَ الظَّهْرِ مِنْ شِدَّتِهَا، وَ إِنَّمَا قَالَ «تَنْظُنُّ» لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا رَأَى الْعَذَابَ قَرِيبًا لَا يَسْتَعِدُّ لِأَنَّ يَعْتَرِفُ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِ رَجَاءً أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ، فَهُوَ ظَانَ بِالْعَذَابِ لَا مَتَيْقِنًا.

[٢٧] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تُوهِمُ الْكُفَّارَ مِنْ أَنَّهَا دُنْيَا بَلَا آخِرَةٍ، فَإِنَّهُ سَيُظْهِرُ لَهُمْ كَذِبَ هَذَا الزَّعْمِ إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحَ التَّرَاقِيَّ جَمْعَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٦

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٢٧ الى ٣٣]

وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَ اتَّفَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَ لَا صَلَّى (٣١) وَ لَكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣)

«تَرْقُوه»، وَ هِيَ الْعِظَامُ الْمَكْتَنَفَةُ بِالْحَلْقِ، وَ هَذَا كُنْيَاةٌ عَنِ الْإِشْرَافِ عَلَى الْمَوْتِ.

[٢٨] وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ لَعَلَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْأَلُ بَعْضُهَا بَعْضًا مِنْ يَرْقَى بَرُوحَ هَذَا الشَّخْصِ هَلْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ؟

[٢٩] وَ ظَنَّ الْمَحْتَضِرُ أَوْ مَنْ حَضَرَهُ أَنَّهُ الْفِرَاقُ أَيِ أَنَّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ هُوَ فِرَاقُهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَ ابْتِعَادُهُ عَنِ الْأَحْبَةِ.

[٣٠] وَ اتَّفَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ هَذَا كُنْيَاةٌ عَنِ عَدَمِ الْحِيلَةِ فِي إِرْجَاعِهِ إِلَى الدُّنْيَا، وَ شَفَائِهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي تَلْتَفَّ رَجْلِيهِ، لَا يَتِمَّكَنْ مِنَ الْهَرَبِ وَ الْفِرَارِ عَنِ الْمَكْرُوهِ.

[٣١] إِلَى رَبِّكَ أَيِهَا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيِ فِي يَوْمِ الْإِحْتِضَارِ الْمَسَاقُ أَيِ السُّوقِ، فَلَا عِلَاجَ إِلَّا الذَّهَابَ إِلَيْهِ، وَ قَدْ تَمَّ عَمْرُكَ فِي الدُّنْيَا.

[٣٢] فَهَلْ عَمَلٌ هَذَا الْإِنْسَانِ الْكَافِرِ عَمَلًا يَنْجِيهِ هُنَاكَ؟ كَلَّا فَلَا صَدَقَ مَا يَجِبُ التَّصَدِيقَ بِهِ وَ لَا صَلَّى لِلَّهِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ.

[٣٣] وَ لَكِنْ عَوْضَ ذَلِكَ كَذَّبَ بِاللَّهِ وَ مَا يَجِبُ الْإِيمَانَ بِهِ وَ تَوَلَّى أَيِ أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ.

[٣٤] ثُمَّ لَتَرْتِيبَ الْكَلَامِ، لَا- لَتَرْتِيبَ الْمَطْلَبِ فِي الْخَارِجِ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَى يَتَكَبَّرُ افْتِخَارًا بِتَكْذِيبِهِ، مِنْ الْمَطِّ وَ هُوَ التَّمَدُّدُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٧

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٣٤ الى ٣٧]

أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣٤) ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣٥) أَيْ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧)

المتبختر يمدد بدنه، و لعل المراد ب «ذهب إلى أهله» أن المتبختر إنما يظهر معظم كبره لأهله حين يرجع إليهم من خارج البيت.
[٣٥] أُولَى لَمْكَ الْحَالَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِطَاعَةِ، وَالْإِتْيَانِ بِ «لَكَ» بِمَعْنَى أَنَّ الْمَتَكَبِّرَ الطَّاعِيَ أُولَى لَهُ حَالَتِهِ السَّيِّئَةُ مِنَ الْأَمْرِ الْحَسَنِ الَّذِي يَدْعَى إِلَيْهِ، لِأَنَّهَا تَجَانَسَتْ لَا الْحَسَنَ فَأُولَى أَى أَيْضًا نَقُولُ أُولَى لَكَ تَأْكِيدًا لِعَدَمِ قَابِلِيَّتِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْهُدَايَةِ.
[٣٦] ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى لِلتَّأْكِيدِ.

و قد روى أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أَخَذَ ذَاتَ مَرَّةٍ بِيَدِ أَبِي جَهْلٍ وَ قَالَ لَهُ «أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: بِأَى شَيْءٍ تَهْدِدُنِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَ لَا رَبُّكَ أَنْ تَفْعَلَ بِي شَيْئًا وَ إِنِّي لِأَعَزُّ أَهْلَ هَذَا الْوَادِي، فَأَنْزَلَ اللهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ (١).

أقول: و قد تمكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ رَبِّهِ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ، فَقَدْ قَتَلَ أَبُو جَهْلٍ فِي بَدْرٍ، وَ التَّحَقَّ بِالسَّعِيرِ. وَ لَفْظَةُ «أُولَى لَكَ» تَهْدِيدٌ، أَى إِنَّكَ سَتَرَى عَاقِبَةَ مَا اخْتَرْتَ مِنَ الْإِنْحِرَافِ.

[٣٧] أَيْ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَى هَلْ يَظُنُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أَى مَهْمَلًا- بَلَا أَمْرٍ وَ لَا نَهْيٍ وَ لَا حِسَابٍ وَ لَا جَزَاءٍ؟ فَإِنَّ «سُدَى» بِمَعْنَى «مَهْمَل».

[٣٨] أَلَمْ يَكُنْ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى أَى يَصُبُّ وَ يَرِاقُ أَلَا- يَسْتَدَلُّ بِذَلِكَ وَ بِمَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَطْوَارِ أَنَّ اللهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَهُ.

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٦٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٨

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)

[٣٩] ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً وَ هِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الدَّمِ الْمَنْعَقِدِ، فَإِنَّ النُّطْفَةَ تَتَبَدَّلُ إِلَى تِلْكَ فَخَلَقَ اللهُ مِنْهَا بَشَرًا سَوِيًّا فَسَوَّى أَى سَوَّى خَلْقَهُ بِإِعْطَائِهِ الْأَلَاتِ وَ الْأَجْزَاءَ وَ الْمَشَاعِرَ وَ غَيْرَ ذَلِكَ.

[٤٠] فَجَعَلَ مِنْهُ أَى مِنَ الْإِنْسَانِ الزَّوْجَيْنِ أَى الصَّنْفَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى فَمَنْ يَأْتِي بِصَنْعِ كُلِّ ذَلِكَ غَيْرَهُ سَبْحَانَهُ؟

[٤١] أَلَيْسَ ذَلِكَ اللهُ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى

فمن قدر على الابتداء قدر على الإعادة، فكيف ينكر الكافر قدرته سبحانه على البعث و النشور؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٦٩

٧٦ سورة الإنسان مدنية / آياتها (٣٢)

و تسمى بسورة الدهر، سميت السورة بهذين الاسمين لاشتغالها على لفظي «الإنسان» و «الدهر»، و هي كسائر السور المدنية مشتملة على ما يرتبط بالنظام إلى جنب معالجتها لقضايا العقيدة، و حيث ختمت سورة القيامة بذكر أحوال الإنسان من حين كونه نطفة إلى

حين البعث، افتتحت هذه السورة بذكر ابتداء الإنسان، ليرتب عليه معاده و نشره.

نزلت هذه السورة في الخامس والعشرين من ذى الحجة في على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام و جارية لهم تسمى فضة، و ذلك أنه مرض الحسن و الحسين عليهما السلام فأعادهما الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و جماعة من الصحابة، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا، فنذر صوم ثلاثة أيام إن شفاهما الله سبحانه. و نذرت فاطمة و كذلك فضة، فبرآ و ليس عندهم شيء، فاستقرض على ثلاثة أصوع من شعير من يهودى فطحنت الزهراء عليها السلام صاعا منها فاخبزته، و صلى على المغرب و قربته إليهم، فأتاهم مسكين يدعو لهم و سألهم فأعطوه أقراصهم

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٠

جميعا و لم يفطروا إلا بالماء، فلما كان اليوم الثانى صاموا جميعا، و أخذت فاطمة عليها السلام صاعا فطحنته و اخبزته، و لما كان المغرب قدمته للإفطار فإذا يتيم على الباب يستطعم، فأعطوه و لم يذوقوا إلا الماء فى إفطارهم، فلما كان اليوم الثالث عمدت فاطمة عليها السلام إلى الصاع الثالث فطحنته و اخبزته، و لما كان المغرب و أرادوا أن يفطروا فإذا أسير بالباب يستطعم، فأعطوه أقراصهم الخمسة و لم يفطروا إلا بالماء، فلما كان اليوم الرابع و قد قضوا نذورهم أتى على و معه الحسن و الحسين إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بهما ضعف، فبكى رسول الله مما رأى فيهما من الضعف، فنزل جبرئيل بسورة «هل أتى» (١).

و

فى بعض الأحاديث أن الله سبحانه أنزل عليهم مائدة من السماء (٢).

قالوا: و من غريب أمر هذه السورة أنها وصفت نعيم الجنة كله باستثناء ذكر «الحر» تكريما لفاطمة عليها السلام.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذى هو أول كل شيء، فمن حسن الابتداء أن يبدأ باسمه الكريم فى كل أمر، الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم لكل ناقص، فيكمل نقصه و من تكميل النقص غفران الزلل حتى يكون الإنسان و كأنه لم يذنب.

(١) تأويل الآيات الظاهرة: ص ٧٢٤.

(٢) الطوائف فى معرفة مذاهب الطوائف: ج ١ ص ١٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧١

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَ أَعْلَالاً وَ سَعيراً (٤)

[٢] هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ استفهام للتقرير حتى يقر الإنسان بهذه الحقيقة، فيرتب عليه أنه إذا لم يكن ثم كان، كان مكونه قادرا على أن يعيده بعد أن يفنى و يهلك حين من الدهر أى زمان طويل من الأزمنة السالفة لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً أى شيئاً يذكر، بأن كان معدوما لا أثر له؟ و الجواب: أنه نعم كان كذلك، و هل لأحد أن ينكر هذه الحقيقة.

[٣] إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ هى المنى أمشاج جمع «مشيج» من مشجت بمعنى خلطت، أى النطفة أخلاط مختلفة من ماء الرجل و ماء المرأة، و من الأجزاء المتجمعة من المأكولات المختلفة، و إنما خلقناه ل نَبْتَلِيهِ أى نمتحنه بما نكلفه من الأعمال، هل يحسن أم يسيء؟

فَجَعَلْنَاهُ أى الإنسان سَمِيعاً بَصِيراً يسمع و يبصر ليم عليه التكليف.

[٤] إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ أى الطريق إلى الحق ببعث الأنبياء و إرسال الكتب، ف إِمَّا يَكُونُ شَاكِراً لأنعم الله سبحانه بالإيمان و الإطاعة، وَ

إِذَا يَكُونُ كُفُورًا كَثِيرًا كَافِرًا، فَإِنَّ كُلَّ كَافِرٍ هُوَ كُفُورٌ بِاعْتِبَارِ مُخْتَلَفِ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَحْوَالِ.

[٥] إِنَّا أَعْتَدْنَا أَيُّ هَيَأُنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ لِأَن يَجْرُوا بِهَا جَمْعَ سَلْسَلَةٍ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٢

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٥ إلى ٦]

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)

وهي قطعات الحديد المتداخلة، وهي غير منصرفة، لأنها على وزن «مفاعل» وأغلاً لجمع غل لأن يقيدوا بها وسعيراً أي ناراً مستعرة، أي ذات لهب و اتقاد، والمراد تهيو ذلك لهم في الآخرة.

[٦] إِنَّ الْأَبْرَارَ جَمْعُ بَرٍّ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ وَهِيَ الْقَدَحُ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ الْخَمْرُ، أَوْ سَائِرِ أَقْسَامِ الْمَشْرُوبَاتِ وَ لَعَلَّ تَقْدِيمَ الشَّرَابِ لِمُنَاسَبَتِهِ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ «السَّعِيرِ» الْمَوْجِبَةَ لَطَلْبِ الْإِنْسَانِ الْمَاءَ - مَنَاسِبَةَ الضَّدِّ لِلضَّدِّ - كَانَ مِزَاجُهَا أَيُّ مَا يَمِزُجُ بِشَرَابِهَا كَافُورًا لِبرودته و عذوبته و طيب عرفة، و إتيان الضمير مؤنثاً لأن الكأس مؤنث سماعي.

و قد كانت العرب تمزج الخمر بالكافور حيناً و بالزنجبيل حيناً، و لذا ذكروا أن خمر الجنة كذلك، تماشياً مع مداركهم، و إن كان هناك ما لا يشبه أطعمته الدنيا و أشربتها، لذة و فضلاً.

[٧] عَيْنًا أَيُّ أَنَّ تِلْكَ الْكَأْسُ تَمَلَأُ مِنَ الْعَيْنِ، وَ كَأْنِهَا مَنْصُوبَةٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْفِعْلِ، أَيُّ نَبَشْرِكُمْ أَوْ نَهْنَتْكُمْ يَشْرَبُ بِهَا أَيُّ مِنْهَا - وَ الْإِنْيَانِ بِالْبَاءِ لِنَكْتِهِ بِلَاغِيَّةٍ - عِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ عَبَدُوا اللَّهَ وَ أَطَاعُوهُ حَقَّ طَاعَتِهِ يُفَجِّرُونَهَا أَيُّ يَجْرُونَهَا وَ يَخْرُجُونَهَا حَيْثُ شَاؤُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَ قُصُورِهِمْ تَفْجِيرًا وَ مِنَ الْمَتَعَةِ أَنَّ يَكُونُ الْمَنْزِلُ بَحِيثًا يُمْكِنُ تَفْجِيرُ الْعَيْنِ فِيهِ، فَإِنَّهُ تَلْهَى وَ تَلْذُذُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٣

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٧ إلى ٩]

يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُورًا (٩)

[٨] ثم وصف عباد الله بقوله: يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ أَيُّ كَانُوا فِي الدُّنْيَا بَحِيثًا إِذَا نَذَرُوا نَذْرًا وَ فَوَّاهَ بِهِ وَ لَمْ يَغْشَوْا، وَ النَّذْرُ هُوَ أَنَّ يَلْتَزِمَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ خَيْرًا لِأَجْلِ سَبْحَانِهِ، كَأَنَّ يَنْذِرُ الصِّيَامَ أَوْ الصَّدَقَةَ أَوْ مَا أَشْبَهَ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا أَيُّ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا أَيُّ مَنْتَشِرًا فِي كُلِّ جِهَةٍ، حَتَّى يَشْمَلَ كُلَّ كَافِرٍ وَ آثِمٍ، وَ لَيْسَ كَشُرُورِ الدُّنْيَا الَّتِي تَكُونُ خَاصَّةً بِأَرْضٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ مَحَلٍّ.

[٩] وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ أَيُّ لِأَجْلِ اللَّهِ سَبْحَانِهِ، وَ عَلَى حُبِّهِ تَعَالَى، أَوْ بِمَعْنَى عَلَى أَنَّهُمْ يَجِبُونَ الطَّعَامَ لِجُوعِهِمْ مَشَكِينًا وَ هُوَ الْفَقِيرُ الَّذِي أَسْكَنَ الْفَقْرَ حَرَكَاتِهِ، فَإِنَّ الْغَنَى يَتَحَرَّكُ هُنَا وَ هُنَاكَ أَمَا الْفَقِيرُ فَإِنَّهُ يَسْكُنُ لِعَدَمِ مَالٍ لَهُ يَصْرَفُهُ فِي أُمُورِهِ وَ يَتِيمًا وَ هُوَ الطِّفْلُ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ، أَوْ أَبَوَاهُ، وَ قَدْ يَطْلُقُ عَلَى مَنْ مَاتَتِ أُمُّهُ وَ أَسِيرًا الَّذِي أُسْرَ فِي الْحَرْبِ، وَ قَدْ كَانَ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ فَوَّاهَ بِالنَّذْرِ وَ أَطْعَمُوا الثَّلَاثَةَ - كَمَا تَقَدَّمَ -.

[١٠] وَ قَصَدَهُمْ حِينَ الْإِطْعَامِ هُوَ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ أَيُّهَا الْفُقَرَاءُ لِوَجْهِ اللَّهِ أَيُّ لِذَاتِهِ سَبْحَانِهِ وَ إِنَّمَا جِيءَ بِ «الوجه» كِنَايَةً عَنِ الْإِتِّجَاهِ وَ الْقَصْدِ، تَشْبِيهًا بِوَجْهِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَوَجَّهُ الْإِنْسَانُ إِلَيْهِ حِينَ طَلَبَ مَرْضَاتِهِ لِأَنَّهُ يُرِيدُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْفُقَرَاءُ جَزَاءً لَنَا، كَأَنَّ تَعْمَلُوا بَعْضَ أَعْمَالِنَا جَزَاءً تَصَدَّقْنَا لَكُمْ وَ لَا شُكُورًا بِأَنَّ تَشْكُرُونَا وَ لَوْ بِاللِّسَانِ - وَ إِنَّمَا الصَّدَقَةُ خَالِصَةٌ لِلَّهِ سَبْحَانِهِ، لِلتَّقَرُّبِ مِنْ رِضْوَانِهِ -.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٤

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١٠ إلى ١٤]

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا (١٢) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَدْلِيلًا (١٤)

[١١] إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا لَوْ عَصَيْنَاهُ أَنْ لَمْ نَفِ بِالنَّذْرِ، أَوْ لَمْ نَطْعَمْ الْمَسْكِينَ لَوْجَهَهُ يَوْمًا عُبُوسًا أَى مَكْفَهْرًا تَعْبَسُ فِيهِ الْوَجُوهُ. وَ نَسْبَةُ الْعُبُوسِ إِلَى الْيَوْمِ مِنْ بَابِ عِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ، مِنْ قَبِيلِ «يَا سَارِقَ اللَّيْلَةَ» فَمَطْرِبِرًا أَى صَعْبًا شَدِيدًا.

[١٢] فَوَقَاهُمْ اللَّهُ أَى حَفِظَهُمْ وَ كَفَاهُمْ شَرَّ ذَلِكِ الْيَوْمِ أَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ لَقَاهُمْ أَى اسْتَقْبَلَهُمْ وَ أَعْطَاهُمْ نَصْرَةً فِي الْوَجُوهِ، وَ هِيَ الْبَهْجَةُ وَ الْحَسَنُ وَ سُرُورًا فِي الْقُلُوبِ.

[١٣] وَ جَزَاهُمْ أَى كَفَاهُمْ وَ أَعْطَاهُمْ جِزَاءً بِمَا صَبَرُوا أَى بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ جَنَّةً وَ حَرِيرًا مَكَانًا لِلسَّكْنَى، وَ لِبَاسًا وَ أَثَاثًا.

[١٤] فِي حَالِ كَوْنِهِمْ مُتَّكِنِينَ أَى مُسْتَرِيحِينَ فِيهَا أَى فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْأَرَائِكِ جَمْعُ أَرِيكَةٍ، وَ هِيَ سَرِيرُ الْعُرُوسِ فِي الْحَجَلَةِ لَا يَرُونَ فِيهَا أَى فِي تِلْكَ الْجَنَّةِ شَمْسًا تَحْرِقُهُمْ وَ لَا زَمَهْرِيرًا أَى بَرْدًا يُؤْذِيهِمْ.

[١٥] وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا يَعْنَى أَنْ ظَلَّ أَشْجَارُ الْجَنَّةِ قَرِيبَةً مِنْهُمْ فَإِنَّ الضِّيَاءَ الْمَوْجُودَ هُنَاكَ وَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَرَارَةِ مَحْجُوبٌ بِالأَشْجَارِ وَ حَيْطَانِ الْقُصُورِ وَ السَّقُوفِ، وَ يَكُونُ الْهَوَاءُ فِي ظِلَالِهَا أَهْنَأَ وَ أَطْيَبَ، وَ إِنَّمَا جَعَلَ كَذَلِكَ لِتَطْلُبِ الْإِنْسَانَ تَغْيِيرَ الْهَوَاءِ مِنَ الظِّلِّ إِلَى الْحَرِّ،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٥

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١٥ إلى ١٧]

وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧)

وَ بِالْعَكْسِ، وَ «دَانِيَةً» حَالِ عَطْفٍ عَلَى «مُتَّكِنِينَ» وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا جَمْعُ قُطْفٍ وَ هُوَ الثَّمَرَةُ تَدْلِيلًا أَى سَهْلَةً أَخَذَ ثَمَارَهَا بِالْيَدِ، لِقَرْبِهَا وَ نَضَجَهَا فَتَقَطَفَ بِسُرْعَةٍ.

[١٦] وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَ الطَّائِفُ هُمُ الْوَالِدَانُ الْمَخْلُودُونَ بِآنِيَةٍ أَى ظَرْفِ كَأْنِهَا الْإِبْرِيْقُ وَ نَحْوَهُ مِمَّا فِيهِ الْمَاءُ مِنْ فِضَّةٍ لَعَلَّ فِيهَا الشَّرَابُ وَ أَكْوَابٍ جَمْعُ كُوبٍ، وَ هُوَ الْقَدْحُ الصَّغِيرُ، وَ ذَلِكَ لِصَبِّ الشَّرَابِ مِنَ الْآنِيَةِ فِي الْأَكْوَابِ لِتَنَاوُلِ النَّاسِ الْأَبْرَارِ كَانَتْ تِلْكَ الْأَكْوَابُ قَوَارِيرًا أَى زَجَاجَاتٍ.

[١٧] قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ فَهِيَ مِنْ زَجَاجَةٍ بِلَوْنِ الْفِضَّةِ لِتَجَمُّعِ بَيْنِ اللَّذَتَيْنِ فِي الْمَشَاهِدَةِ.

قال الصادق عليه السلام ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ الزجاج

«١». أقول: فهي جامعة بين صفاء الزجاج و شفيفها و بياض الفضة و لينها قَدَّرُوهَا أَى قَدَرُوا تِلْكَ الْأَكْوَابَ تَقْدِيرًا كَأْنِهَا صَنَعَتْ بِ «الْمَاكِنَةِ» فِي تَوْحِيدِ أَشْكَالِهَا وَ مِزَايَاها، لَا كَالْأَوَانِي الْمَصْنُوعَةِ بِالْيَدِ الَّتِي يَرَاهَا الْإِنْسَانُ مُخْتَلِفَةً تَنْبُو عَنْهَا الْعَيْنُ لِاخْتِلَافِهَا.

[١٨] وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا أَى فِي الْجَنَّةِ، وَ الْفَاعِلُ هُمُ الْأَبْرَارُ الْمَقْدَمُ ذَكَرَهُمْ كَأْسًا أَى شَرَابًا فِي الْكَأْسِ - بِعِلَاقَةِ الْحَالِ وَ الْمَحَلِّ - كَانَ مِزَاجُهَا

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ١١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٦

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١٨ إلى ٢١]

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)

أَى مِزَجَ بِشَرَابِهَا زَنْجَبِيلًا أَى مَا يَشْبَهُ الزَنْجَبِيلَ فِي الطَّعْمِ وَ هُوَ عَقَارٌ مَعْرُوفٌ كَانُوا يَخْلُطُونَهُ بِالشَّرَابِ - كَمَا تَقْدَمُ -.

[١٩] عَيْنًا بَدَلَ مِنْ زَنْجَبِيلٍ، أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ الْفِعْلِ كَمَا ذَكَرَ سَابِقًا فِيهَا أَى فِي الْجَنَّةِ تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا فَالشَّرَابُ الْمَمْزُوجُ بِالزَنْجَبِيلِ يُؤْخَذُ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ، وَ سَمِيَتْ «سَلْسَبِيلًا» لِسَيْلَانِهِ فِي الْأَنْهَارِ عَذْبًا صَافِيًا رَقْرَاقًا، أَوْ لِأَنَّهُ سَائِعٌ فِي الْخَلْقِ لِصَفَائِهِ وَ خَفْتِهِ، فَلَا يَتَوَهَّمُ أَنْ

الزنجبيل يوجب لذعا و حرقة.

[٢٠] وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُءْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ معنى الطواف هو الذهاب من عند هذا إلى ذاك إلى ذلك، و هكذا حتى يرجع إلى الأول، و «الولدان» جمع ولد، و معنى مخلدون باقون فى الجنة إلى الأبد، و هم قسيم للهور، فهم أولاد و تلكم بنات إذا رَأَيْتَهُمْ أيها الإنسان حَسِبْتَهُمْ أى ظننتهم لؤلؤاً مَنثوراً لصفاء ألوانهم و بريقها، و تفرقهم هنا و هناك يشبههم باللؤلؤ غير المنظوم، لا تتشارهم فى الخدمة.

[٢١] وَإِذَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الرَّائى تَمَّ أَى الجنة، فَإِنَّ تَمَّ بمعنى هنا لك رَأَيْتَ نَعِيماً و مُلْكاً كَبِيراً أى وسيعاً، فإنه يعطى لأقل أهل الجنة منزلة من القصور و الجنان ما يكفى لأن يضيف الثقلين فى ضيافته واحدة.

[٢٢] عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ أَى يعلوهم، و المراد يلبسون ثيابا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٧

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٢ الى ٢٤]

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُوراً (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)

سندسا، و هو الحرير الأخضر الرقيق، و اِسْتَبْرَقٌ و هو الحرير الخشن و الرقيق أنعم للبدن، و الخشن أجمل فى المنظر و حُلُوا أى يحلون بالزينة أساور من فضة جمع سوار، و هو ما يلبس فى اليد من الحلى، و الفضة هنا أئمن من الذهب - كما قالوا- و قد كانت العادة فى الملوكة و الكبراء لبس السوار و سقاهم رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا فليس كشراب الدنيا نجسا أو موجبا للرديلة من السكر و نحوه.

[٢٣] و يقال لهم: إِنَّ هَذَا النعيم الذى أنتم فيه كان لَكُمْ جَزَاءً على إيمانكم و أعمالكم الصالحة، «و كان» لمجرد الربط و كَانَ سَعْيِكُمْ و تعبكم فى الدنيا مَشْكُورًا شكره الله سبحانه و قدره، و لذا جزاكم بهذا الثواب.

[٢٤] ثم يأتى السياق ليسلى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عملا يلاقيه من الأذى فى سبيل الدعوة إلى مثل هذه الجنات، بعد ما بين جزاء العالمين إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا و التأكيد ب «نحن» لدفع كلمات الكفار حول القرآن، بأنه كهانه أو شعر أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك.

[٢٥] فَاصْبِرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فى تبليغ القرآن لِحُكْمِ رَبِّكَ بأن تبلغ رسالاته فى وسط هذا الموج العاتى من الإنكار و الإيذاء و الاستهزاء

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٨

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَ اذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٢٥) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هُوَ لِأَعْيُنِ الْمُعْجَلِينَ وَ يَذَرُونَ وَ رَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧)

وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ أَى من هؤلاء آثِمًا أى عاصيا أَوْ كَفُورًا أى كافرا، يعنى لا تطع الآثم فى إثمه و لا الكفور فى كفره، بأن لا تبلغ الأصول أو الفروع إطاعة لها و جلبا لرضاها فقد ورد أن أبا جهل نهى الرسول عن الصلاة، كما أن عتبة و الوليد قالوا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: ارجع عن هذا الأمر و نحن نرضيك بالمال و التزويج «١». و الآية عامة تشمل كل كافر يأمر بالكفر و آثم يأمر بالإثم.

[٢٦] وَ اذْكُرْ يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْمَ رَبِّكَ بالذكر و الدعاء و الصلاة بُكْرَةً أى صباحا وَ أَصِيلاً أى عصرا، يعنى استمر على شأنك و الدعاء إليه فى طرفى النهار.

[٢٧] وَ مِنَ اللَّيْلِ أى بعض الليل فَاسْجُدْ لَهُ أى لله سبحانه و المراد بالسجود الصلوة و العبادة، أى اخضع لله سبحانه وَ سَبِّحْهُ أى سبح الله و نزهه عما لا يليق به لَيْلًا طَوِيلًا فإن الليل ربيع العباد يتخذون طوله وسيلة للضراعة و الاستكانة، فإن الخواطر الكامنة لا تحيش إلا بطول الضراعة و الابتهاال. و قد ورد أن «بكرة» لصلاة الصبح و «أصيل» للظهرين و «اسجد له» للعشائين و «سبحه» لصلاة الليل.

[٢٨] إِنَّ هُوَ لِأَعْيُنِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ مَعْرُضِينَ عَنِ اللَّهِ مَقْبَلِينَ على شهواتهم يُجِئُونَ الْعَاجِلَةَ أى الدنيا و الشهوات العاجلة وَ يَذَرُونَ

(١) عين العبرة: ص ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٧٩

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٨ إلى ٣٠]

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)

أى يتكون وراءهم فى مستقبلهم يوماً ثقیلاً هو يوم القيامة الذى يثقل على الإنسان لما فيه من الأهوال و الشدائد، فلا يعملون لذلك اليوم.

[٢٩] إنهم يكفرون بالله الذى خلقهم و أعناقهم بيده نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ من العدم وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ أى أحكمتنا خلقهم، بتنظيم الأجهزة، فإن «الأسر» أصله الشد، و منه سُمى الأسير أسيراً، لأنه يشد بالحبال، فالمعنى أحكمتنا شدتهم فى الخلق، بحيث لا ينفصم جزء من جزء، بل الأجزاء كلها متماسكة مترابطة و إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ مَكَانَهُمْ تَبْدِيلًا بَأَن أَهْلَكْنَا هَوْلًا و جئنا بدلهم مكانهم.

[٣٠] إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ، أو هذه العظمت و العبر المذكورة فى القرآن تَذْكَرَةٌ تذكر الناس بما أودع فى فطرتهم، و إلفات لهم نحو الكون و آياته فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا أى مضى فى طريق مرضاته سبحانه، بعد ما رأى الحق، و ميز بين الصدق و الكذب.

[٣١] وَمَا تَشَاؤُنَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ الْإِيمَانَ وَ الْهُدَايَةَ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ بَأَن يرسل الرسول و يوضح الطريق، إذ الهداية لها طرفان: طرف من جانبه بنصب الأدلة، و طرف من جانبكم بالاتباع و الاهتداء إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِمُصَالِحِكُمْ حَكِيمًا فيما يفعل، فإن الحكمة وضع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٠

[سورة الإنسان (٧٦): آية ٣١]

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

الأشياء موضعها، و الله لا يفعل شيئاً إلا بالحكمة و المصلحة.

[٣٢] يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ أى فى سعادة الدنيا و الآخرة و ليس الإدخال اعتباراً بل إنما يدخل سبحانه عباده الصالحين وَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ أَوْ الْعِصْيَانِ أَعَدَّ أَى هِيَ سبحانه لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أى مؤلماً موجعاً، فى الدنيا يعيشه ضنك و فى الآخرة بالنار و النكال.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨١

٧٧ سورة المرسلات مكية / آياتها (٥١)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «المرسلات»، و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أصولها، و حيث ختمت سورة «الإنسان» بذكر القيامة، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نشرع فى السورة باسم الله الذى هو الإله بالحق، و ما دونه باطل، الرحمن الرحيم الذى يعطى كل شىء خلقه، و يهديه إلى مصالحة، و يهيب له المستقبل الحسن، فإن «الرحمن» و ما من قبيله من الصفات لا بد و أن يراد بها نتائج هذه الصفات لاستحالة أمثالها فى حقه تعالى بمعناها الجارى فى حقنا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٢

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١ إلى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤)

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُدْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ لَوَاقِعٍ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨)

[٢] وَالْمُرْسَلَاتِ أى قسما بالملائكة التى أرسلت إرسالاً- إلى الأرض- عُرْفًا أى فى حال كونهم كعرف الفرس فى تواليه و تتابعه، و هو شعرها النابت على رقبتها.

[٣] فَالْعَاصِفَاتِ أى ثم قسما بالملائكة التى تعصف عصف الرياح فى امتثال أمره سبحانه عَصْفًا مصدر تأكيدى.

[٤] وَقَسَمَابِ النَّاشِرَاتِ أى الملائكة التى تنشر الكتب و تبسطها، أو تنشر الآجال و الأزاق و ما أمر الله بنشره نَشْرًا مصدر تأكيدى، و أن الإتيان بـ «الواو» للتفنن الذى هو من أنواع البلاغة.

[٥] فَالْفَارِقَاتِ أى قسما بالملائكة التى تفرق بين الأشياء بأمر الله سبحانه فَرَقًا مصدر تأكيدى.

[٦] فَقسما بالملائكة الملقيات ذِكْرًا أى تلقى الذكر إلى الأنبياء عليهم السلام من قبل الله سبحانه.

[٧] عُدْرًا أَوْ نُذْرًا أى لأجل إعدار الله سبحانه، و إنذاره للبشر على كفرهم و عصيانهم.

[٨] قسما بهؤلاء الطوائف من الملائكة إِنْ ما تُوَعَّدُونَ من أحوال القيامة و الجنة و النار لَوَاقِعٍ أى يقع لا محالة فلا خلف فيه.

[٩] ثم بين علامة القيامة بقوله: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ أى ذهب نورها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٣

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٩ الى ١٥]

وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفُضْلِ (١٣)

وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضْلِ (١٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)

حتى صارت بلا ضياء أو نور.

[١٠] وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ أى شقت و صدعت فصار فيها فروج و شقوق، لاختلال نظام المدارات.

[١١] وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ أى قلعت من أماكنها، و صارت كالهباء سائرة فى الفضاء.

[١٢] وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ أى جمعت لوقتها فى القيامة لتشهد على الأمم، و هو من الوقت، و إنما تبدل الواو همزة لكرهه ضم الواو-

كما قالوا- [١٣] لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ هذا حكاية عن الحال، أى أن الحالة تقتضى أن يقال فيها: لأى يوم أجلت و أخرت الرسل؟ و لماذا يراد جمعهم و هذا تعظيم لليوم و تعجب من هوله.

[١٤] و يأتى الجواب لِيَوْمِ الْفُضْلِ الذى يفصل فيه بين أهل النار و أهل الجنة، و السعداء و الأشقياء.

[١٥] وَ مَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أو يا رسول الله ما يَوْمُ الْفُضْلِ أى لا- تدرى أنت حقيقة هذا اليوم الهائل، و هذا تعبير للتحويل و الاستعظام.

[١٦] وَيَلَّ وَ هى كلمة تقال عند الهول و الشدة المتوجهة على أحد يَوْمَئِذٍ أى فى يوم القيامة لِلْمُكَذِّبِينَ الذين يكذبون بالله و رسوله و المعاد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٤

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٢٢]

أَلَمْ نُهَدِكْكَ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ

مَهِينٍ (٢٠)

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢)

[١٧] ثم يأتى السياق لإنذار المكذبين بأنهم فى معرض العذاب فى الدنيا قبل الآخرة أَلَمْ نُهَدِكْكَ الْأَوَّلِينَ الذى كذبوا أنبياءهم؟

[١٨] ثُمَّ نُنَبِّئُهُمْ أَي أَتَبَعْنَا الْأُولِينَ بِالْآخِرِينَ فَأَهْلَكْنَا الْأُمَمَ الْآخِرِينَ أَيضًا لَمَا كَذَبُوا الرِّسْلَ؟ وَ الْأُولُونَ كَقَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ، وَ الْآخِرُونَ كَقَوْمِ لُوطٍ وَ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ.

[١٩] وَ كَذَلِكَ أَي إِهْلَاكَ إِهْلَاكَ أَوْلَيْكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا بِالْكَفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ بِهِمْ، وَ هَذَا تَهْدِيدٌ لِكْفَارِ مَكَّةَ.

[٢٠] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِلْمُكْذِبِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ سَائِرِ الْأَصُولِ.

[٢١] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِبَيَانِ جَمَلِهِ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ لِيَشْكُرُوهُ، بَعْدَ مَا هَدَدَهُمْ لِيَخَافُوا مِنْهُ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ أَي النُّطْفَةِ الَّتِي هِيَ «مَهِينٌ» أَي حَقِيرٌ ذَلِيلٌ، مِنْ هَانَ بِمَعْنَى ذَلٌّ؟

[٢٢] فَجَعَلْنَاهُ أَي جَعَلْنَا ذَلِكَ الْمَاءَ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ فِي قَرَارٍ أَي مُسْتَقَرٍّ مَكِينٍ أَي مُسْتَحْكَمٍ، وَ الْمُرَادُ بِهِ الرَّحْمَ.

[٢٣] إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ أَي مَقْدَارٍ مِنَ الزَّمَانِ مُعَيَّنٍ، وَ هُوَ مَدَّةُ الْحَمْلِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٥

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٢٣ إلى ٢٩]

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءَ وَ أَمْوَاتًا (٢٦) وَ جَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ وَ أَشْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧)

وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ (٢٩)

[٢٤] فَجَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ نَحْنُ إِذْ نَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَ بَعْدَ هَذَا هَلْ يَنْكُرُ الْكَافِرُ قَدْرَتَنَا عَلَى الْبَعْثِ وَ إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ مَمَاتِهَا؟

[٢٥] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِلْمُكْذِبِينَ وَ تَكَرَّرَ هَذِهِ الْجَمَلَةُ لِلتَّرْكِيزِ وَ الْإِيحَاءِ كَمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ «الرَّحْمَنِ» وَ غَيْرِهَا.

[٢٦] أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا يُقَالُ كَفَتَ الشَّيْءُ: إِذَا ضَمَّهُ، أَي ضَامَهُ لِلْعِبَادِ تَكْفِيتُهُمْ وَ تَشْمَلُ عَلَيْهِمْ.

[٢٧] أَحْيَاءَ وَ أَمْوَاتًا فَتَشْمَلُ أَحْيَاءَهُمْ بِالْبِنَاءِ وَ الزَّرْعِ وَ سَائِرِ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ، وَ تَشْمَلُ أَمْوَاتَهُمْ فِي بَطْنِهَا.

[٢٨] وَ جَعَلْنَا فِيهَا أَي فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيَّ جَمْعَ رَاسِيَةٍ، وَ هِيَ الْجِبَلُ الشَّامِخَةُ شَامِخَاتٍ أَي عَالِيَاتُ مَرْتَفَعَاتٍ تَحْفَظُ الْأَرْضَ عَنِ التَّصَدُّعِ وَ الْإِنْهِيَارِ وَ التَّفَرُّقِ فِي الْهَوَاءِ وَ أَشْقَيْنَاكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ مَاءً فُرَاتًا أَي عَذَابًا سَائِغًا؟ أَلَيْسَتْ كُلُّ هَذِهِ النِّعْمِ شَاهِدَةً عَلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ عَالِمٍ قَدِيرٍ؟

وَ أَلَيْسَتْ هَذِهِ النِّعْمُ مُوجِبَةٌ لِإِيْمَانِكُمْ بِاللَّهِ وَ تَصْدِيقِكُمْ لِرَسُولِهِ؟

[٢٩] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَي فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِلْمُكْذِبِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، فَإِنَّهُمْ يَلْقَوْنَ عَذَابًا وَ نَكَالًا.

[٣٠] وَ إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ يُقَالُ لِلْمُكْذِبِينَ: انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٦

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٣٠ إلى ٣٤]

انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا- ظَلِيلٍ وَ لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكْذِبِينَ (٣٤)

أَي إِلَى النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهَا، وَ تَقُولُونَ أَنَّهَا غَيْرُ كَائِنَةٍ.

[٣١] انْطَلِقُوا أَي اذْهَبُوا أَيُّهَا الْكَافِرُ إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَعَلَّ الْمُرَادَ بِالظِّلِّ النَّارَ الَّتِي فَوْقَهَا الدِّخَانُ، وَ كَوْنُهُ عَلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ لِأَنَّهَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَطُوفُونَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَ الْإِيْمَانِ وَ النِّفَاقِ، وَ قِيلَ: شُعْبَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَ شُعْبَةٌ مِنْ يَمِينِهِمْ، وَ شُعْبَةٌ مِنْ يَسَارِهِمْ.

[٣٢] لَا- ظَلِيلٍ أَي لَا- يَظِلُّ صَاحِبُهُ مِنَ الْحَرِّ وَ لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ أَي مِنَ لَهَبِ النَّارِ، وَ هُوَ مَا يَلْعُوها بِاخْتِلَاطِ الْهَوَاءِ أَحْمَرَ أَوْ أَصْفَرَ أَوْ أَزْرَقَ، فَإِنَّ هَذَا الظِّلَّ لَيْسَ كَظِلِّ السَّقُوفِ يَمْنَعُ الْهَوَاءَ الْحَارَّ وَ لَهَبِ النَّارِ، كَمَا أَنَّهَا كَانُوا يَعِيشُونَ فِي الدُّنْيَا فِي ظِلِّ الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ.

[٣٣] إِنَّهَا أَى النَّارِ- التى فهمت من قوله سبحانه ما كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ «١»- تَزْمِي أَى تَطْرَح و تطير بِشَرِّ كَالْقَصْرِ الشَّرُّ هُو ما يتطير من النار لشدة الحرارة، و خفة ذلك الشرر، و القصر هو البيت الجميل من الحجارة، أو أصل الشجر، و الأول أظهر، و الثانى أنسب.

[٣٤] كَأَنَّهُ أَى الشَّرِّ المرمى جِمالَتْ صِيْفُرْ أَى أن الشرارة كالجمل الأصفر فى لونه، بعد ما كان بقدر القصر فى حجمه، و التشبيه بالجمالة لتتابعها و تطايرها كالجملات التى ترتع هنا و هناك، و نارهن شررها كيف يكون أصلها و محلها؟

[٣٥] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَى يوم القيامة لِلْمُكذِّبِينَ الذين يكذبون بهذه الأمور

(١) المرسلات: ٣٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٧

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٣٥ الى ٤٠]

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ (٤٠)

كيف يلقون فى النار، و يقاسون العذاب و النكال؟

[٣٦] هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ أَى المجرمون من شدة الهول و الفرع.

[٣٧] وَلَا- يُؤذَنُ لَهُمْ فى الكلام فَيَعْتَذِرُونَ عن سالف أعمالهم و هذا إنما يكون فى موقف من مواقف القيامة، و فى موقف آخر يتكلمون و يعتذرون،

فللقيامة خمسون موقفا كل موقف يطول ألف سنة- كما ورد

«١».

[٣٨] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَى فى هذا اليوم لِلْمُكذِّبِينَ الذين كذبوا بالله و بما أرسل.

[٣٩] ثم يقال لهم: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الذى يفصل فيه بين المحسنين و المجرمين، و يدخل كل إلى محله الذى هياه لنفسه جَمَعْنَاكُمْ أيها الكفار وَالْأُولَى أى مع المكذبين الأولين السابقين عليكم من سائر الأمم.

[٤٠] فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فى خلاصكم من العقاب فَكِيدُوا أى احتالوا و كيدوا لإنجاء أنفسكم، و هذا استهزاء بهم و تفرغ لهم، فقد كانوا يكيدون للمؤمنين فى الدنيا، فليكيدوا هنا إن كان لهم كيد و حيلة.

[٤١] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَى فى يوم القيامة، و أصله يوم إذ كان كذا، حذف

(١) مستدرک وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ١٥٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٨

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٤١ الى ٤٦]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلَالٍ وَ عِيُونَ (٤١) وَ فَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ (٤٥)

كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦)

الجملة و قام التنوين مقامها لِلْمُكذِّبِينَ بهذا اليوم و بسائر ما جاء به الرسل.

[٤٢] و إذا رأينا مقام الكفار، فلننظر إلى مقام الأخيار إِنَّ الْمُتَّقِينَ الذين اتقوا الكفر و المعاصى فى ظلالٍ من أشجار الجنة، و ظلال

قصورها وَ عُيُونٍ أَى أَنهْم فى أرض بين العيون، أو المراد أَنهْم يسبحون و يستحمون فى نفس العيون.
 [٤٣] وَ فى فَوَاكِهَ جمع فاكهه، وَ هى الثمرة أَى أَن الثمار تحيط من كل جوانبهم مِمَّا يَشْتَهُونَ أَى من الأجناس التى يميلون إليها.
 [٤٤] وَ يقال لهم: كُلُوا من الثمار وَ اشْرَبُوا من العيون، وَ المراد بالأمر الإباحه، من قبيل وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا «١» هَنِئًا أَى أَكَلًا وَ شَرِبًا خاليا من الأذى، فَإِن الهنىء هو النفع الخالص من شائب الأذى بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أَى بمقابل أعمالكم الصالحه فى الدنيا.
 [٤٥] إِنَّا كَذَلِكَ أَى كالذى ذكرنا من الإنعام وَ الإفضال نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الذين أحسنوا بالإيمان وَ العمل الصالح.
 [٤٦] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ كيف يرون أَن هذه النعم أفلتت من أيديهم بسبب أعمالهم الفاسده فى الدنيا، وَ كم يتحسرون لذلك.
 [٤٧] ثم يأتى السياق ليخاطب المجرمين - فى الدنيا - كُلُّوا أَيها الكفار

(١) المائدة: ٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٨٩

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ٤٧ الى ٥٠]

وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكِعُوا لآ يَزْكِعُونَ (٤٨) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)
 وَ تَمَتَّعُوا بمتاع الحياة الدنيا قَلِيلًا فَإِن أمد الدنيا قصير إِنْكُمْ مُجْرِمُونَ وَ هل من فائدة للأكل وَ التمتع القليل لمن وراؤه عذاب شديد؟
 [٤٨] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَى فى يوم القيامة لِلْمُكَذِّبِينَ الذين كذبوا بالله وَ بما جاء من عنده.
 [٤٩] وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَى للمكذبين ازْكِعُوا وَ اخضعوا لله سبحانه، فَإِن المراد بالركوع إما مطلق الخضوع، أو الركوع كناية عن الصلاة لا يَزْكِعُونَ عنادا وَ استكبارا.

روى أَنها نزلت فى وفد ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وَ آله وَ سلم بالصلاة فقالوا: لا نحنى فَإِن ذلك مسبه علينا، فقال صلى الله عليه وَ آله وَ سلم: لا خير فى دين ليس فيه ركوع وَ سجود
 «١». أقول: المراد ب «لا نحنى» أَى لا نعطف ظهورنا، فقد استقبحوا رفع عجيزتهم.

[٥٠] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الذين كذبوا بالأحكام، وَ لم يصدقوا بالركوع وَ سائر العبادات، فإنهم يلاقون جزاء ذلك.
 [٥١] فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَهُ أَى بعد القرآن يُؤْمِنُونَ فإنهم إِذَا لا يؤمنون بالقرآن الذى هو أحسن الحديث من جميع النواحي، فهل هناك رجاء لإيمانهم بشىء آخر؟ كَلَّا إِنَّه الشقاء الأبدى الذى يشملهم إِنْ لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم.

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩١

تقريب القرآن الى الأذهان الجزء الثلاثون من آية (١) سورة النبأ إلى آية (٧) سورة الناس

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وَ الصلاة وَ السلام على أشرف الأنبياء وَ المرسلين محمد المصطفى وَ عترته الطاهرين

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩٣

٧٨ سورة النبأ مكية / آياتها (٤١)

سميت هذه السورة بسورة النبأ وَ عم لاشتمالها على لفظه «النبأ» وَ «عم» وَ حيث ختمت سورة المرسلات بذكر القيامة وَ وعيد الكفار بذلك، افتتحت هذه السورة بذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله، الذي هو الأول قبل كل شيء، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بإعطائهم ما يكملهم و يغفران ذنوبهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩٤

[سورة النبا (٧٨): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)

[٢] عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ أصله «عن ما» مركبة من «عن» الجارة و «ما» الاستفهامية، ثم أدغمت النون في الميم لقرب مخرجهما، و حذف الألف من «ما» على ما هي القاعدة من حذفها مطلقا إذا دخل على «ما» حرف الجر، فيقال «بم، و لم، و عم» وهكذا. والمعنى عما إذا يتساءل الكفار بعضهم عن بعض،

فقد قال في المجمع قالوا: لما بعث رسول الله و أخبرهم بتوحيد الله تعالى و بالبعث بعد الموت و تلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم- أى يسأل بعضهم بعضا على طريق الإنكار و التعجب- فيقولون: ماذا جاء به محمد صلى الله عليه و آله و سلم و ما الذى أتى به؟ فأنزل الله تعالى «عم يتساءلون»

«١».

أقول: و المراد بالاستفهام التفخيم، كما تقول: أية قصة هذه؟ إذا أردت تفخيمها، و ورد فى جملة من الأحاديث: أن المراد بالنبيا العظيم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «٢»، و هذا من باب المصداق- إن أريد بالآية الأعم، و من باب البطون إن أريد بها القيامة فقط.

[٣] ثم جاء الجواب عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ أى الخبر المهم، و هو ما يتعلق بالمبدأ و المعاد.

[٤] الَّذِي أى النبأ الذى هُمْ أى هؤلاء الكفار فيه أى فى ذلك النبأ مُخْتَلِفُونَ فمن مصدق له باعتبار كونه من أهل الكتاب أو من أشبههم، و من مكذب له.

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٢٣٩.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٠٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩٥

[سورة النبا (٧٨): الآيات ٤ الى ٩]

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)

[٥] كَلَّا ليس الأمر كما قالوا و زعموا، حيث أنكروا التوحيد و الرسالة و المعاد سَيَعْلَمُونَ عاقبة تكذيبهم و صدق الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

[٦] ثُمَّ لترتيب الكلام كَلَّا ليس الأمر كما زعموا سَيَعْلَمُونَ عند موتهم أو فى يوم القيامة: إن الأمر كان كما أخبر الرسول، و إنهم كانوا فى ضلال و انحراف، و هذا تهديد بعقب تهديد.

[٧] ثم جاء السياق ليذكر طرفا من نعمه سبحانه الدالة على وجوده و سائر صفاته، حجة على المنكرين: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا؟ أى وطاء و قرارا مهيا للتصرف، كالمهد الذى يستقر فيه الطفل من غير أذية.

[٨] وَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْجِبَالَ أَوْتَادًا جمع «وتد» و هو «المسمار» أى مسامير للأرض حتى لا تتشقق و لا تتبعثر فى الهواء من جراء الحركة و

الجاذبيات، كالوتد الذي يربط بعض ألواح الخشب ببعض حتى لا تنفصم.

[٩] وَخَلَقْنَاكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ أَزْوَاجًا جَمْعَ «زَوْجٍ»، وَهُوَ الصَّنْفُ، أَيُّ أَصْنَافٍ وَأَشْكَالًا، بِاخْتِلَافِ أَلْوَانِكُمْ، وَالْأَسْنَتِكُمْ، وَمَدَارِكِكُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْاِخْتِلَافَاتِ.

[١٠] وَجَعَلْنَا نُؤْمُكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ سُبَاتًا أَيُّ قَاطِعًا لِلْعَمَلِ لِأَجْلِ الْاِسْتِرَاحَةِ، وَمِنْهُ سَبَتَ أَنْفَهُ: إِذَا قَطَعَهُ، فَمَنْ يَأْتِرِي جَعَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ غَيْرَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ!؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩٦

[سورة النبا (٧٨): الآيات ١٠ الى ١٤]

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَبَّاجًا (١٤)

[١١] وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا أَيُّ غِطَاءٍ وَسِتْرَةٍ يَسْتَرُ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا يَسْتَرُ اللَّبَاسُ الْبَدْنَ، وَذَلِكَ لِحِكْمَةِ الْاِسْتِرَاحَةِ وَالْاِنْصِرَافِ عَنِ الْعَمَلِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ لَوْ كَانَ مِثْلَ النَّهَارِ لَمْ يَهْدَأِ الْإِنْسَانَ وَ لَمْ يَهْنَأْ بِالرَّاحَةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ تَسَاعِدُ عَلَى الرَّاحَةِ وَالنَّوْمِ- كَمَا قَالَتِ الْأَطْبَاءُ-.

[١٢] وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا الْمَعَاشُ هُوَ الْعَيْشُ، أَيُّ وَقْتُ الْعَيْشِ تَتَقَلَّبُونَ فِيهِ لِتَحْصِيلِ أَسْبَابِ الْعَيْشِ وَالْبَقَاءِ، وَهَذَا مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، فَإِنَّ النَّهَارَ زَمَانَ الْعَيْشِ لَا نَفْسَهُ.

[١٣] وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ أَيُّ خَلَقْنَا وَصَنَعْنَا فَوْقَكُمْ أَيُّهَا الْبَشَرُ سَبْعًا أَيُّ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَالْمَرَادُ بِهَا مَدَارَاتِ الْكَوَاكِبِ السِّيَارَةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ شِدَادًا جَمْعَ «شَدِيدٍ» أَيُّ مُحْكَمَةَ الصَّنْعِ مُتَقَنَةَ الْأَسْلُوبِ وَالنِّظَامِ.

[١٤] وَجَعَلْنَا فِي السَّمَاوَاتِ سِرَاجًا أَيُّ مِصْبَاحًا، وَالْمَرَادُ بِهِ الشَّمْسُ وَهَاجًا أَيُّ وَقَادًا مُتَلَأَلًا بِالنُّورِ، مِنْ «وَهَجَ» بِمَعْنَى أَنْارَ وَأَضَاءَ.

[١٥] وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ بِصَيْغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، وَالْمَرَادُ بِهَا السَّحَابُ، فَإِنَّهَا تَعْصِرُ نَفْسَهَا، بِمَا أُوْدِعَ فِيهَا مِنَ الطَّاقَاتِ الْعَاصِرَةِ حَتَّى تَمْطُرَ، كَالْغَسَالَةِ الَّتِي تَعْصِرُ الثَّوْبَ حَتَّى تَخْرُجَ قَطْرَاتُ الْمَاءِ مِنْهُ. أَوْ الْمَرَادُ بِالْمَعْصِرَاتِ الرِّيَّاحُ الَّتِي تَعْصِرُ السَّحَابَ، وَمَعْنَى «مِنْ» نَشْوِيَّةٌ مَاءً نَبَّاجًا أَيُّ صَبَابًا دَفَاعًا فِي الصَّبَابَةِ، مِنْ «نَجَّ» بِمَعْنَى انْصَبَ بِكَثْرَةٍ، وَالْمَرَادُ الْمَطْرَ الْكَثِيرَ الْاِنْصِبَابَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٥٩٧

[سورة النبا (٧٨): الآيات ١٥ الى ١٩]

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)

[١٦] وَإِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَطْرَ لِنُخْرِجَ بِهِ أَيُّ بِوَسْطَةِ مَاءِ الْمَطْرِ حَبًّا كَالْحِنْطَةِ وَنَحْوَهَا وَنَبَاتًا كُلَّ مَا يَنْبِتُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَزْرُوعَاتِ.

[١٧] وَنَخْرَجَ بِهِ جَنَاتٍ أَيُّ بَسَاتِينَ أَلْفَافًا أَيُّ مَلْتَفَةً الشَّجَرِ، وَهُوَ جَمْعُ «لَفٍ» يَرَادُ بِهِ الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيُسَمَّى الْبَسْتَانَ «جَنَّةً» لِتَسْتَرِهَا بِالْأَشْجَارِ.

[١٨] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِبَيَانِ الْمَعَادِ، بَعْدَ مَا ذَكَرَ جَمْلَةً مِنْ أَدْلَةِ الْأُلُوهِيَّةِ إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ الَّذِي يَفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، لِيَجْزِيَ كُلَّ إِنْسَانَ بِمَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَانَ مِيقَاتًا أَيُّ وَقْتًا وَزَمَانًا لَمَّا وَعَدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ، فَإِنَّ «الْمِيقَاتِ» يَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الزَّمَانِ وَبِمَعْنَى الْمَكَانِ- كَمَوَاقِيتِ الْحَجِّ-.

[١٩] ثُمَّ بَيْنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: يَوْمَ بَدَلَ مِنْ «يَوْمِ الْفُضْلِ» يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أَيُّ الْبُوقِ، يَنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ لِحُشْرِ الْخَلَائِقِ وَحَيَاتِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، كَمَا يَنْفَخُ النَّافِخُ فِي الْبُوقِ لِحَرَكَةِ الْقَافِلَةِ أَوْ الْجَيْشِ أَوْ مِنْ أَشْبَهٍ، وَهَذِهِ هِيَ النِّفْحَةُ الثَّانِيَّةُ فَتَأْتُونَ أَيُّهَا الْبَشَرُ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءُ أَفْوَاجًا جَمْعَ «فَوْجٍ»، أَيُّ جَمَاعَاتِ جَمَاعَاتٍ، كَأَنَّ كُلَّ جَمَاعَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى الْمَشَاكِلِ فِي الْعَمَلِ.

(١) معاني الأخبار: ص ٢٢٠.

(٢) الحج: ٤٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٦٥١

[سورة النبا (٧٨): الآيات ٢٩ إلى ٣٣]

وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) [٣٠] وهل زعم هؤلاء أن أعمالهم الباطلة لا تأخذهم؟ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ أَي جميع ما عملوه جمعناه و عددناه و بيناه، كِتَابًا أَي إحصاء في الكتاب لا بالقول فقط.

[٣١] وهناك يقال لهم: فَذُوقُوا هذا العذاب و النكال جزاء على أعمالكم الباطلة فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا فليس الأمر محتمل النقص و الانقطاع، بل تزدادون عذابا و نكالا كل يوم و ساعة، و ذلك باعتبار أن كل يوم يضاف عذاب ذلك اليوم على الأيام السابقة- و إن كان بقدره في الكيفية-.

[٣٢] و إذا عرفنا أحوال المجرمين في الآخرة فلنتعرف بالمؤمنين إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا مصدر ميمي، أَي أن لهم فوزا و فلاحا «و المتقى» هو المؤمن الذي يتقى الله فلا يذنب.

[٣٣] حَدَائِقَ بدل من «مفاز» جمع حديقة و هي البستان الصغير المنظم، أو هي الجنة المحوطة بالسور و إن كانت كبيرة، من «حديق» بمعنى أحاط و أعنابًا جمع «عنب» خصّ بالذكر مثلا، و لكثرة الالتذاذ به.

[٣٤] وَكَوَاعِبَ جمع «كاعبة»، و هي المرأة التي استدار ثديها لكونها في أول زمان رشدها أترابًا جمع «ترب»، عمر الواحدة بعمر الأخرى كأنهم أتراب بعضهم لبعض، أو بعضهم مع أزواجهن، فليس عمر إحداهن أقل من عمر الزوج أو أكثر، ليرى العنت و الصعوبة في معاشرتها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠١

[سورة النبا (٧٨): الآيات ٣٤ إلى ٣٨]

وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) [٣٥] وَكَأْسًا و هو إناء الشراب دِهَاقًا أَي مملوءة، من «الدهق» بمعنى شدة الضغط، كأنه لا مجال فيها للماء أو الشراب بعد ذلك.

[٣٦] لَا يَسْمَعُونَ أَي المتقون فيها أَي في الجنة كلاما لَغْوًا لَا فائدة فيه و لَا كِذَابًا أَي تكديبا من بعضهم لبعض.

[٣٧] و إنما يكون المتقون في هذا النعيم الأبدى جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لهم، على أعمالهم الحسنة في الدنيا، في حال كون ذلك الجزاء عَطَاءً حِسَابًا أَي عطاء بالحساب، فليس الأمر اعتبارا.

[٣٨] ثم بين ربك بما يدل على عظمته سبحانه بقوله: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فكل شيء له خلقا و تربية الرَّحْمَنِ و جىء بهذا الوصف للدلالة على أنه سبحانه رحيم بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة و الرحمة، و أنهم إنما استحقوا الثواب برحمته لا بأعمالهم لا يَمْلِكُونَ أَي البشر منه تعالى خِطَابًا فلا يقدر أحد أن يكلم الله سبحانه أو يشفع لأحد إلا بإذنه، فهو رحيم ذو هيبة و جلال، و ليس كرحيم الدنيا الذي إذا عطف قلبه على أحد يمكن التسلط عليه للين قلبه.

[٣٩] ثم بين معنى «لا- يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا» بقوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ و هو ملك عظيم كما ورد في الأحاديث «١» و الْمَلَائِكَةُ صَفًّا كما يصطف

(١) راجع مجمع البيان: ج ١٠ ص ٢٤٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٢

[سورة النبا (٧٨): الآيات ٣٩ إلى ٤٠]

ذَلِكَ الْيَوْمِ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَأً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

الجيش أمام الملك، و ذلك مما يزيد القيامة هيبه و هولاً لا يتكلمون أى أولئك الملائكة و الروح، أو أى متكلم إلا من أذن له الرّحمن بالكلام، فى أى شأن من الشؤون و قال صواباً و كأن هذا فى بعض المواقف، و فى بعض المواقف الأخر يتكلم كل أحد بما يريد من صدق و كذب كما قال سبحانه: انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ «١» أو المراد بالتكلم - الشفاعة -.

[٤٠] ذَلِكَ الْيَوْمِ الذى وصف هو اليوم الحَقُّ الكائن لا محاله، فلا كذب فى الإخبار به. قالوا: إذا طابق الخبر الواقع فباعبار كونه مطابقاً للواقع يسمى صدقاً، و باعتبار مطابقتها الواقع له يسمى حقاً فَمَنْ شَاءَ منكم أيها الناس اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ أى إلى رضاه و ثوابه مآباً، بالإيمان و الطاعة، كأن المؤمن اتخذ إلى ربه مآباً، و الكافر اتخذ إلى ربه غيره مآباً، حيث يتعد عن لطفه و رحمته بسبب الكفر و العصيان فليس مآبه إليه.

[٤١] إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ أيها الناس عَذَابًا قَرِيبًا فَإِنَّ الآخرة قريبه و إن ظنها الناس بعيدة، كما قال سبحانه: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا* وَ نَرَاهُ قَرِيبًا «٢».

ثم بين وقت ذلك العذاب بقوله: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

(١) الأنعام: ٢٥.

(٢) المعارج: ٧ و ٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٣

أى يرى جزاء أعماله و يلاقيه. و نسبة التقديم إلى اليد لكونها العضو الفعال فى الأمور المرتبطة بالإنسان و يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا لهول ما يرى من العذاب، فإنه يتمنى أن كان فى الدنيا تراباً، و لم يكن إنساناً حتى يكفر فيبتلى بذلك العذاب العظيم. لكن تمنيه هناك لا ينفع، كما لا ينفع تمنى كل مجرم إذا وقع فى مخالف الجزاء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٤

٧٩ سورة النازعات مكيّة / آياتها (٤٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «النازعات»، و هى كسائر السور المكيّة تعالج قضايا العقيدة، ألوهية، و رسالة، و معادا. و لما ختمت سورة النبا بذكر أحوال القيامة افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الله المالك لكل شىء و المتصرف الوحيد فى الكون، الرحمن الرحيم الذى يتفضل على العباد بالرحمة المكررة فى الدنيا و الآخرة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٥

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١ إلى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦)

[٢] وَ النَّازِعَاتِ أَى قَسْمَا بِالنَّازِعَاتِ، وَ هِىَ الْمَلَائِكَةُ الَّتِى تَنْزِعُ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ عَن أَبْدَانِهِمْ بِشِدَّةِ غَرْقًا أَى إِغْرَاقًا فِى النَّزْعِ، كَمَا يَغْرَقُ النَّازِعُ فِى الْقَوْسِ فَيَبْلُغُ بِهِ غَايَةَ مَدِّ الْوَتْرِ.

[٣] وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا أَى قَسْمَا بِالْمَلَائِكَةِ النَّاشِطَاتِ الَّتِى تَنْشِطُ فِى قَبْضِ أَرْوَاحِ الْكُفَّارِ نَشَاطًا، أَوْ تَنْشِطُ فِى الذَّهَابِ بِأَرْوَاحِهِمْ نَحْوَ الْهَآوِيَةِ بَعْدَ نَزْعِهَا.

[٤] وَ السَّابِحَاتِ أَى قَسْمَا بِالْمَلَائِكَةِ الَّتِى تَسْبِحُ فِى الْفَضَاءِ بَعْدَ قَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَ «السَّبْحُ» هِىَ الْحَرَكَةُ بِسَهُولَةٍ كَحَرَكَةِ السَّابِحِ فِى الْمَاءِ سَبِيحًا مُصَدَّرًا تَأْكِيدِيًّا.

وَ رَوَى: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّتِى تَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْلُونَهَا سَلًّا رَقِيقًا.

[٥] فَالْمَدْبُرَاتِ سَبِيحًا أَى قَسْمَا بِالْمَلَائِكَةِ الَّتِى تَسْبِقُ بِالْأَرْوَاحِ - أَوْ بِأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ - نَحْوَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَ الْإِتْيَانِ بِالْفَاءِ هُنَا وَ بِالْوَاوِ قَبْلَهُ لِلتَّفَنُّنِ فِى الْكَلَامِ الَّذِى هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ.

[٦] فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا أَى قَسْمَا بِالْمَلَائِكَةِ الَّتِى تَدْبِرُ الْأُمُورَ بِإِذْنِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٧] قَسْمَا بِأَوْلِيَّتِكَ الطَّوَائِفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ مَا يَأْتِي مِنَ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَ أَخْبَارِ الْجَنَّةِ وَ النَّارِ صَدَقَ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ. وَ قَدْ حَذَفَ هَذَا فِى الْكَلَامِ لِدَلَالَةِ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ عَلَيْهِ، أَذْكَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمَ تَرْجُفُ أَى تَتَحَرَّكُ وَ تَضْطَرِبُ الرَّاجِفَةُ أَى الْأَرْضُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٦

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٧ الى ١١]

تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ «١».

[٨] تَتَّبِعُهَا أَى تَتَّبِعُ رَجْفَةَ الْأَرْضِ الرَّادِفَةُ أَى الَّتِى تَرْدِفُ وَ تَتَّبِعُ الْأَرْضُ فِى اخْتِلَالِ النَّظَامِ وَ الْاضْطِرَابِ، وَ هِىَ السَّمَاءُ، أَوْ الْمُرَادُ بِالرَّاجِفَةِ النَّفْخَةُ الْأُولَى، وَ بِالرَّادِفَةِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ.

[٩] قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ أَى فِى هَذَا الْيَوْمِ، وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَاجِفَةٌ أَى شَدِيدَةُ الْاضْطِرَابِ.

[١٠] أَبْصَارُهَا أَى الْأَبْصَارُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى تِلْكَ الْقُلُوبِ، أَوْ أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا خَاشِعَةٌ أَى ذَلِيلَةٌ، لَا تَنْظُرُ إِلَّا مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ خَشِيئَةٍ وَ رَهْبَةٍ وَ خَوْفًا وَ خَجَلًا.

[١١] يَقُولُونَ أَصْحَابُ تِلْكَ الْقُلُوبِ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَى الطَّرِيقَةَ الَّتِى جَنُنَّا فِيهَا، فَإِنَّ «الْحَافِرَةَ» هِىَ الطَّرِيقَةُ الَّتِى مَرَّ فِيهَا الْإِنْسَانُ، تَسْمَى بِذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ حَفَرَهَا بِتَأْثِيرِ أَقْدَامِهِ فِيهَا. وَ هَذَا حِكَايَةٌ عَن أَوْلِيَّتِكَ، حَالِ كَوْنِهِمْ فِى الدُّنْيَا حَيْثُ يَتَسَاءَلُونَ: هَلْ نَحْنُ

نَرْجِعُ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ حَتَّى نَكُونَ كَالسَّابِقِ؟ وَ هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ مِنْهُمْ لِلْمَعَادِ.

[١٢] إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً أَى وَقْتُ كُنَّا عِظَامًا بِالْيَةِ، مِنْ «نَخَرَ»: إِذَا

(١) المزمّل: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٧

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١٢ الى ١٥]

قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّهَ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) بلى. أَى كَيْفَ نَرْجِعُ إِلَى حَالَتِنَا الْأُولَى بَعْدَ أَنْ مَتْنَا وَ صَرْنَا عِظَامًا؟

[١٣] قَالُوا هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرُونَ لِلْمَعَادِ تِلْكَ أَى تِلْكَ الرَّجْعَةُ الَّتِى تَقُولُونَ بِهَا أَنْتُمْ الْمُؤْمِنُونَ إِذَا أَى إِذَا كَانَتْ كَمَا تَقُولُونَ كَرَّةً أَى رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا خَاسِرَةً فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خَاسِرٌ فِى تِلْكَ الْكِرَّةِ، وَ إِنَّمَا أَسْنَدَتِ الْخُسَارَةَ إِلَى الْكِرَّةِ مَجَازًا، بِعِلَاقَةِ الطَّرْفِ وَ الْمَظْرُوفِ. وَ قَدْ قَالَ

الكفار ذلك على وجه الاستهزاء، لأنهم لم يكونوا يرضون بذلك.

[١٤] وجاء الرد عليهم بقوله: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ أَي أن الكفرة ليست صعبة على الله سبحانه، وإنما الكفرة هي صيحة واحدة يصيح بها إسرافيل في الصور- في النفخة الثانية- وسميت الصيحة «زجرة» لأنها تترج و تردع المخاطب عن سيره الأول إلى نحو السير الثاني. [١٥] فَإِذَا هُمْ أَي البشر كلهم بِالسَّاهِرَةِ أَي راجعون عن بطون الأرض إلى ظاهرها، فإن «الساهرة» هي وجه الأرض، وإنما سميت بذلك لأن الإنسان يسهر عليها ولا ينام- إذا كان في صحراء- خوفا من العدو والسبع- بعلاقة الحال والمحل، فإن الإنسان يسهر في الأرض، لكن السهر نسب إلى المحل. وفيه إشارة إلى أن المحشر يكون في أرض مستوية كالفلات لا اعوجاج فيها ولا بناء ولا شجر.

[١٦] ثم يأتي السياق ليبين طرفا من قصة موسى و فرعون ليعتبر الكفار كيف عوقب فرعون لما لم يؤمن هل أتاك أي هل جاءك و هل سمعت حديث موسى أي قصته.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٨

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١٦ الى ٢٢]

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَيْلَ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢)

[١٧] إِذْ أَي في حين ناداهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ أُول ما أوحى سبحانه إليه عند مرجعه من «مدين» شعيب إلى أرض مصر طُوًى اسم للوادي الذي كلم الله فيه موسى، و أوحى إليه بالنبوة.

[١٨] قَائِلاً له أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ الملك الطاغى إِنَّهُ طَغَى أَي تجاوز الحد في الكفر والعصيان.

[١٩] فَقُلْ يا موسى له هَلْ لَكَ طلب بصورة الاستفهام تأديبا إلى أَنْ تَزَكَّى أَي هل لك رغبة في أن تسلم، و تطهر نفسك عن الكفر و العصيان؟

[٢٠] وَ هَلْ لَكَ أن أَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ أَي أدلك عليه، فإن الإنسان لا يعرف مزاياه سبحانه إلا بعد الإرشاد و الهداية فَتَخْشَى أَي تخشاه باجتناب الكفر و العصيان، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة.

[٢١] فَأَرَاهُ أَي أرى موسى عليه السلام فرعون الآية أَي المعجزة الكبرى و هي العصا، أو المراد جنس الآية من جميع آياته التسع.

[٢٢] فَكَذَّبَ فرعون بالآيات و عصى موسى فلم يتمثل أمره في الإذعان لله سبحانه.

[٢٣] ثُمَّ أَذْبَرَ فرعون، أَي ولى الدبر يسعى و يجتهد ليطلب ما يكسر

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٠٩

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٢٣ الى ٢٧]

فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧)

به حجة موسى، و يبطل به نبوته.

[٢٤] فَحَشَرَ فرعون، أَي جمع حاشيته و جنوده فنادى و خطب فيهم.

[٢٥] فَقَالَ لهم: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فإن الأصنام تحت ألوهيتي، و إنما الرب الأعلى- الذي لا رب فوقه- هو أنا، لا كما يزعم موسى بأن لي إلهها فوقى.

[٢٦] فَأَخَذَهُ اللَّهُ بالعذاب، و هو إغراقه و جنوده في البحر و إدخاله النار نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى «النكال» هو العقوبة، و هو مصدر

تأكيدى، لأن معنى «أخذ» نكل به، أى عاقبه سبحانه عقوبه الآخرة فى النار، و عقوبه الأولى بالغرق، أى عذبه بالصنفين من العذاب. [٢٧] إِنَّ فِي ذَلِكَ النِّكَالَ الَّذِي حَلَّ بَفِرْعَوْنَ لَعِبْرَةً أَيْ لَعِظَةً وَاعْتِبَارًا لِمَنْ يَخْشَى النِّكَالَ وَالعِقَابَ، كى يعتبر به و يعلم أن الكفر عاقبته العقاب و النكال.

[٢٨] و بعد ما أتم قصه فرعون- فى سرعه موقظه- يأتى السياق ليحدد من اعتزاز الكفار بقوتهم أمام أمر الله سبحانه، مبينا أنهم لا شىء قبال خلق الله سبحانه، فكيف بهم فى قبال أمره سبحانه؟ أ أنتم أيها البشر، أو يا كفار مكة أشد خلقاً و أقوى استحكاماً أم السماء و لا شك أن الجواب: كون السماء أشد. و هذا لا ينافى كون الإنسان ألطف و أدق و أجمل خلقاً، لأن الكلام فى الشدة لا فى الجمال و الدقة بناها الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٠

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٢٨ الى ٣٢]

رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَ أَعْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا (٣١) وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)

سبحانه، و بانى السماء لا يصعب عليه شىء، و لا تعادل قوته قوة.

[٢٩] رَفَعَ اللَّهُ سَمَكُهَا أَيْ سَقَفَهَا، فَإِنَّ السَّمَكَ هُوَ الارتفاع أى أنه سبحانه رفع كثيرا السماوات فى جهة الطول فَسَوَّاهَا أى عدلها بلا شقوق و لا فطور و لا فساد و خلل.

[٣٠] وَ أَعْطَشَ لَيْلَهَا أَيْ أَظْلَمَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا أَيْ أَظْهَرَ ضِيَاءَهَا.

و إنما نسب الأمران إلى السماء لأنها مصدرهما، بطول الشمس و غروبها.

[٣١] وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ أَيْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ تَنْظِيمِ أُمُورِهَا دَحَاهَا أَيْ بَسَطَهَا، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَوْ لَا خَلْقِ الْأَرْضِ غَيْرَ مَدْحُوَّةٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ، وَ «الدحو» هُوَ البسط، وَ قَدْ اسْتَدَلَّ عُلَمَاءُ الْفَلَكِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى حَرَكَةِ الْأَرْضِ، لِأَنَّ الدَّحْوَ هُوَ الرَّمْيُ الْمَسْتَلْزِمُ لِلْحَرَكَةِ، وَ لِذَا يُقَالُ لِلْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «داحى الباب» كَذَا اسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا «١» مِنْ كَفَتِ الطَّيْرِ: إِذْ طَارَ وَ اللَّهُ الْعَالِمُ.

[٣٢] أَخْرَجَ مِنْهَا أَيْ مِنَ الْأَرْضِ مَاءَهَا بِأَنْ فَجَّرَ الْعَيُونَ وَ فَلَقَ الْبِحَارَ وَ مَرْعَاهَا أَيْ مَرُوجَهَا الَّتِي هِيَ مَحَلُّ رَعَى الْحَيَوَانَاتِ وَ الْبَهَائِمِ وَ ذَلِكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ خَلَقَ فِيهَا الْأَعْشَابَ وَ النَّبَاتَ.

[٣٣] وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا أَيْ أَثْبَتَهَا فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ لئلا تتزلزل

(١) المرسلات: ٢٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١١

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٣٣ الى ٣٨]

مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَ بَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧)

وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨)

الأرض و تضطرب.

[٣٤] و إنما فعل كل ذلك متاعاً لكم وَ لِأَنْعَامِكُمْ أى لأجل تمتعكم و منفعتكم أنتم البشر، و تمتع أنعامكم بالسكون فى الأرض، و تحصيلكم المعاش و رعى البهائم، «و أنعام» جمع نعم، و هى الإبل و البقر و الغنم.

[٣٥] فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ هِيَ الْقِيَامَةُ، سُمِّيتَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطْمُ أَي تَعْلُو وَتَغْلِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، يُقَالُ «طَمَّ الطَّائِرُ الشَّجْرَةَ» أَي عَلَاهَا وَتَسْمَى الدَّاهِيَةُ «طَامَةً» لِأَنَّهَا تَعْلُو الشَّيْءَ وَتَغْلِبُهُ الْكُبْرَى لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ دَاهِيَةٍ هَائِلَةٍ.

[٣٦] وَذَلِكَ يَوْمٌ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى أَي مَا عَمَلَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَذَكَّرُ كُلَّ عَمَلٍ عَمَلَهُ إِمَّا ذَكَرًا فِي الْخَاطِرِ، وَ إِمَّا ذَكَرًا مِنْ مَطَالَعَةِ كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ الْمَلِكُ الْمَوَكَّلَانِ بِهِ.

[٣٧] وَ يَوْمٌ بُرِّزَتِ أَي أَظْهَرَتْ، وَ الْمَظْهَرُ لَهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْجَحِيمُ هِيَ جَهَنَّمُ لِمَنْ يَرَى أَي لِكُلِّ مَنْ تَأْتِي مِنْهُ الرَّؤْيَةُ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَهَا ظَاهِرَةً مَكْشُوفَةً، وَ جَوَابُ «إِذَا» مَحْذُوفٌ، أَي كَانَ النَّاسُ قَسْمِينَ، وَ إِنَّمَا حَذَفَ لِدَلَالَةٍ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ.

[٣٨] فَأَمَّا مَنْ طَعَى أَي تَكَبَّرَ وَ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي كَفْرِهِ وَ عَصِيَانِهِ.

[٣٩] وَ أَثَرَ أَي اخْتَارَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، بِأَنَّ كَانَتْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٢

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٣٩ إلى ٤٣]

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)

أعماله للدنيا و لم يعمل شيئا للآخرة.

[٤٠] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى له، «و المأوى» من آوى، بمعنى اتخذ المنزل، أى أن مصيره إلى النار الكثيرة- فإن الجحيم بمعنى ذلك.

[٤١] وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ أَي الْمَقَامَ الْمَرْبُوطَ بِالرَّبِّ تَعَالَى وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَ الْإِضَافَةُ تَشْرِيْفِيَّةٌ، مِنْ قَبِيلِ «بَيْتَ اللَّهِ» بِمَعْنَى خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى أَي نَهَى نَفْسَهُ وَ حَفَظَهَا مِنْ أَنْ يَتَّبِعَ هَوَاهَا وَ مَشْتَهَاتِهَا فِي ارْتِكَابِ الْمَحْرَمَاتِ وَ تَرَكَ

الواجبات.

[٤٢] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى له، فإنه يصير إليها.

[٤٣] وَ حَيْثُ كَانَ الْكَلَامُ فِي الْقِيَامَةِ أَتَى السِّيَاقَ لَجَوَابِ سُؤَالِ النَّاسِ عَنِ وَقْتِ الْقِيَامَةِ يَسْأَلُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ السَّاعَةِ أَي الْقِيَامَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا أَي مَتَى يَكُونُ قِيَامُهَا، مِنْ «الْإِرْسَاءِ» وَ هُوَ الثَّبُوتُ وَ الْاسْتِقْرَارُ.

[٤٤] فِيمَ أَنْتَ أَي فِيمَا ذَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ ذِكْرَاهَا أَي مِنْ تَذَكُّرِ السَّاعَةِ فَإِنَّكَ لَا تَعْلَمُ وَقْتَ قِيَامِهَا، كَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ دَاخِلًا فِي شَيْءٍ عِلْمَ مَزَايَاهُ، أَمَا إِذَا كَانَ خَارِجًا لَا يَعْلَمُ خُصُوصِيَّاتِهِ، وَ «فِيمَ أَنْتَ» لِلْإِنْكَارِ، أَي لَسْتُ مِنْ ذِكْرَاهَا فِي شَيْءٍ حَتَّى تَعْلَمَهَا فَإِنَّمَا عِلْمُهَا خَاصٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٣

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٤٤ إلى ٤٦]

إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

[٤٥] إِلَى رَبِّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُنْتَهَاهَا أَي انْتِهَاءُ عِلْمِ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا سئِلَ شَخْصٌ عَنِ السَّاعَةِ حَوْلَهُ الْمَسْئُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَ غَيْرِهِ إِلَى آخِرٍ، وَ هَكَذَا حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَالِمُ بَوَاقِيهَا، وَ الْمُنْتَهَى أَضْيَفُ إِلَى السَّاعَةِ، وَ الْمَرَادُ بِهَا وَقْتُهَا- بِعِلَاقَةِ الْمَلَابَسَةِ-

[٤٦] وَ لَيْسَ عِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ مَرْبُوطًا بِكَ، فَ إِنَّمَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا أَي شَأْنُكَ الْإِنْدَارُ لِمَنْ يَخْشَى مِنَ السَّاعَةِ، وَ إِنَّمَا خَصَّ الْإِنْدَارَ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِالْإِنْدَارِ دُونَ سِوَاهُمْ.

[٤٧] ثُمَّ جَاءَ السِّيَاقَ لِيُنْذِرَ النَّاسَ وَ يَذْكُرَهُمْ بِأَنَّ لِبَثِّهِمْ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ حَتَّى كَأَنَّهُمْ أَي النَّاسُ يَوْمَ يَرَوْنَهَا أَي يَرُونَ السَّاعَةَ، فِيمَا إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ لَمْ يَلْبِثُوا أَي لَمْ يَمُكِّثُوا وَ لَمْ يَبْقُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا عَشِيَّةً أَي مَقْدَارَ عَصْرِ يَوْمٍ أَوْ ضُحَاهَا أَوْ صَبْحَ تِلْكَ الْعَشِيَّةِ، وَ الْمَعْنَى يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ

لم يكونوا في الدنيا إلا نصف يوم صباحاً أو مساءً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٤

٨٠ سورة عبس مكية / آياتها (٤٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «عبس»، و هي كسائر السور المكية مشتملة على معالجة قضايا العقيدة، و حيث ختمت سورة «النازعات» بإنذار من يخشى، افتتحت هذه السورة بإنذار شخص خاص. «عبس و تولى» و قد نزلت هذه السورة في «عثمان بن عفان»، حيث كان عند الرسول مع جملة من أصحابه، فجاء أعمى و جلس قرب عثمان، فعبس عثمان وجهه و تولى عنه و جمع ثيابه، و أقبل على بعض الجالسين الآخرين الذين كان لهم ثراء، فنزلت الآيات «١». و من غريب الأمر أن بعض بنى أمية المبغضين للرسول صلى الله عليه و آله و سلم نسب هذا الأمر إلى الرسول لتبرئة ساحه قريتهم «عثمان» و قال: إن الرسول هو الذى عبس و تولى، مخالفاً بذلك نص القرآن العظيم و إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ «٢» و عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ «٣» و غيرها.

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٨٥.

(٢) القلم: ٥.

(٣) التوبة: ١٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٥

ثم جاء جماعة من الوهابيين فأخذوا يلحسون قصاع الأمويين فى نسبة هذه السببه إلى الرسول، بتزويقات و زخارف من القول، و قد صار ذلك حرابا فى أيدي الصليبيين فى الهجوم على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم حتى أن بعض كراريسهم كتبت: أيهما خير المسيح أو محمد، فإن الأول كان يبرى الأعمى - بنص كتابكم و أُبْرِي الأَكْمَهَ و الأَبْرَصَ «١» و الثانى كان يعبس و يتولى إذا جاءه الأعمى بنص كتابكم؟

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذى له ما فى السماوات و الأرض، فهو أحق بالابتداء باسمه من غيره، إذ هو المبدأ الذى بيده كل شىء، الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد، و يتفضل عليهم بما يكمل نقصهم.

(١) آل عمران: ٥٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٦

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦)

[٢] عَبَسَ عثمان بن عفان، أى قطب وجهه و تَوَلَّى أى أعرض.

[٣] أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى أى بسبب أن جاءه شخص أعمى. قالوا و كان الأعمى ابن أم مكتوم.

[٤] ثم أخذ السياق لتأنيب عثمان بما فعله موجه الخطاب معه، كما هو دأب القرآن فى توجيه الخطاب إلى الناس، نحو أ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا «١» وَ مَا يُدْرِيكَ أَيُّهَا الْعَابِسُ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى أى لعل الأعمى يتطهر بالعمل الصالح؟ فيكون الإعراض عنه إثما، حيث إنه إعراض عن الزاكي الطاهر.

- [٥] أَوْ يَذَّكَّرُ أَي يَتَذَكَّرُ بسبب الوعظ و الإرشاد، أصله «تذكر» ثم أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجهما، فجاء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن فَتَنَفَعَهُ الذُّكْرَى و الفرق بين الآيتين أن الأولى «زكاة» من نفسه، و الثانية «زكاة» بواسطة التذكير.
- [٦] أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى أَي كَانَ غَنِيًا بِالْمَالِ، و الإتيان من باب الاستفعال، من جهة أن الشخص يطلب الغنى.
- [٧] فَأَنْتَ يَا عَبَسَ لَهُ تَصَدَّى أَي تَعَرَّضَ، أصله «تصدى» حذف إحدى تائيه على القاعدة، أى تقبل عليه و تحاوره.

(١) النازعات: ٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٧

[سورة عبس (٨٠): الآيات ٧ الى ١٤]

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤)

[٨] و مَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى أَي لَا تَبَالِي هَلْ هُوَ زَكِيٌّ أَمْ لَا؟ فَإِنَّ الْمَالَ هُوَ الَّذِي يَعْظُمُ فِي نَفْسِكَ لَا الدِّينَ، و لذا لا تبالى بالدين إذا كان الشخص ذا مال.

[٩] وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى سَاعِيًا لِأَجْلِ الْخَيْرِ و الرشد كابن أم مكتوم.

[١٠] وَهُوَ يَخْشَى اللَّهَ عِزًّا وَجَلًّا.

[١١] فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَابِسُ عَنْهُ عَنِ ذَلِكَ السَّاعِي تَلَهَّى أَي تَلَهَّى - عَلَى غَرَارٍ تَصَدَّى - أَي تَتَغَاوَلُ وَ تَتَشَغَلُ بغيره، لأنه فقير معدوم.

[١٢] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا زَعَمْتَ: مِنْ أَنَّ الْمَالَ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ إِنَّهَا أَي هَذِهِ الْآيَاتُ تَذْكِرَةٌ مُذَكِّرَةٌ بِالْحَسَنِ و القبيح الكامن في النفس و الفطرة.

[١٣] فَمَنْ شَاءَ الْخَيْرِ و السعادة ذَكَرْهُ أَي ذَكَرَ مَا أَوْدَعَ فِي نَفْسِهِ و فطرته، بأن عمل بالوعظ و الإرشاد.

[١٤] إِنَّ هَذِهِ التَّذْكِرَةُ هِيَ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، و المراد «بالصحف» اللوح المحفوظ و سائر الألواح الموجودة في الملائ الأعلی.

[١٥] مَرْفُوعَةٍ فِي السَّمَاءِ - حَسَا - أَوْ مَعْظَمُهُ مَجْلَلَةٌ - مَعْنَى - مُطَهَّرَةٌ أَي مَنْزَهُةٌ مِنَ الْخَطَا و النقائص و ما أشبهها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٨

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١٥ الى ٢٠]

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)

[١٦] بِأَيْدِي سَفَرَةٍ أَي إِنَّ تِلْكَ الصُّحُفَ إِنَّمَا هِيَ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ، فَإِنَّ «سفرة» جمع «سافر» و هو الكاتب، أو السفير.

[١٧] كِرَامٍ جمع كريم، أى ذوى مقامات رفيعة بَرَرَةٍ جمع «بار»، و هو المحسن.

[١٨] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِيَتَعَجَّبَ مِنَ الْكَافِرِ كَيْفَ يَكْفُرُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، الْمَنْزَلُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي هُوَ الْخَالِقُ وَ بِيَدِهِ أَرْزَمَةُ كُلِّ شَيْءٍ قَتَلَ الْإِنْسَانَ دَعَاءَ عَلَيْهِ، أَي اللَّهُمَّ أَقْتَلْهُ، و المراد به الجنس المنحرف بدلالة القرائن الآتية ما أَكْفَرَهُ تعجب من كفره و ضلاله بعد وضوح الحجج و تمام المحجج.

[١٩] مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى؟ أَي أَلَا - يَنْظُرُ إِلَى أَسْلِ خَلْقِهِ كَيْفَ خَلَقَهُ تَعَالَى مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، حَتَّى جَعَلَهُ إِنْسَانًا بِهَذِهِ الْغَرَابَةِ فِي الدِّقَّةِ و الأجهزة و الآلات؟

[٢٠] مِنْ نُطْفَةٍ أَي قَطْرَةٍ مِنَ الْمَنَى خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ أَي قَدَرَ مَزَايَاهُ و خصوصياته من حواسه و مشاعره و آلاته و أجهزته و كمه و كيفه و

طوله و عرضه و غير ذلك.

[٢١] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ أَي يَسِّرُهُ وَ سَهَّلَ لَهُ سَبِيلَ الْحَيَاةِ، بِأَن هِيَ لَهُ الْأَسْبَابُ وَ الْوَسَائِلُ وَ أَرْشَدَهُ إِلَى خَيْرِهِ وَ سَعَادَتِهِ، وَ الْأَصْلُ يَسِرُ لَهُ السَّبِيلُ ثُمَّ حَذَفَ الْجُرْ - عَلَى قَاعِدَةِ الْقَطْعِ وَ التَّوَصِيلِ - .

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦١٩

[سورة عبس (٨٠): الآيات ٢١ إلى ٢٨]

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨)

[٢٢] ثُمَّ بَعْدَ أَنْ انْتَهَى أَمَدُهُ فِي الْحَيَاةِ أَمَاتَهُ بِأَن قَبِضَ رُوحَهُ فَأَقْبَرَهُ أَي أَدْخَلَهُ الْقَبْرَ، وَ هُوَ الْمَحَلُّ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى جِسْمِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ إِنْ كَانَ الْبَحْرُ أَوْ نَحْوُهُ، أَوْ مِنْ بَابِ الْغَلْبَةِ.

[٢٣] ثُمَّ إِذَا شَاءَ وَ أَرَادَ سُبْحَانَهُ قِيَامَ الْقِيَامَةِ أَنْشَرَهُ أَي بَعَثَهُ حَيًّا سَوِيًّا.

[٢٤] فَهَلْ تَرَاهُ تَهَيًّا لِلنُّشُورِ وَ اسْتَعَدَّ لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِالْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؟ كَلَّا إِنَّهُ فِي غَفْلَةٍ وَ سَبَاتٍ وَ لَمَّا يَقْضِ أَي لَمَّا يَأْتِ بَعْدَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

[٢٥] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِتَذْكِيرِ الْإِنْسَانِ بِجَمْلَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ تَدْلِيلًا عَلَى وَجُودِهِ سُبْحَانَهُ بِالْآيَاتِ الْآفَاقِيَّةِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُ الْآيَاتِ الْأَنْفُسِيَّةِ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ الَّذِي يَأْكُلُهُ، لِتَذْكَرَ أَصْلَ الْخَلْقَةِ، وَ مِنْ خَلْقِهَا، لِيَرْعَى عَنْ غِيهِ وَ ضَلَالِهِ.

[٢٦] أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ الْمَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ صَبًّا أَي إِنْزَالًا.

[٢٧] ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنْهَا شَقًّا حَتَّى أَنْ النَّبَاتَ الضَّعِيفَ خَرَجَ مِنَ الْأَرْضِ الصَّلْبَةِ.

[٢٨] فَأَنْبَتْنَا فِيهَا أَي فِي الْأَرْضِ حَبًّا أَي جِنْسَ الْحَبُوبِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَ الشَّعِيرِ وَ أَمْثَلِهِمَا.

[٢٩] وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا عَيْنًا خَصَّ بِالذِّكْرِ لِكَثْرَتِهِ وَ لَذْتِهِ وَ عَظْمَ فَائِدَتِهِ وَ قَضْبًا وَ هُوَ الْقَتُّ الرَّطْبُ الَّذِي يَقْضَبُ وَ يَقْطَعُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى لِعَلْفِ الدَّوَابِّ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٠

[سورة عبس (٨٠): الآيات ٢٩ إلى ٣٤]

وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلًا (٢٩) وَ حَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)

[٣٠] وَ زَيْتُونًا وَ هُوَ مَا يَعْصَرُ مِنْهُ الزَّيْتُ وَ نَخْلًا وَ هُوَ الشَّجَرَةُ الَّتِي تَعْطَى التَّمْرَ.

[٣١] وَ حَدَائِقَ جَمْعُ «حَدِيقَةٍ»، وَ هِيَ الْبَسْتَانُ الْمَحْوُوطُ بِالسُّورِ أَوْ الْبَسْتَانُ الصَّغِيرُ ذُو الْأَشْجَارِ وَ الْأُورَادِ غُلْبًا جَمْعُ «غَلْبَاءٍ» وَ هِيَ الْحَدِيقَةُ الْعَظِيمَةُ الْمَلْتَفَةُ الْأَشْجَارَ، كَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ التَّغَالِبِ، لِتَغَالِبِ أَشْجَارِهَا فِي الِارْتِفَاعِ لِلِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْهَوَاءِ وَ الضِّيَاءِ.

[٣٢] وَ فَاكِهَةً أَي سَائِرَ أَلْوَانِ الْفَوَاكِهِ وَ أَبًّا وَ هُوَ الْمَرْعَى مِنَ الْحَشِيشِ وَ غَيْرِهِ الَّذِي يَرْعَاهُ الْحَيْوَانُ.

[٣٣] وَ إِنَّمَا أَنْبَتْنَا كُلَّ ذَلِكَ مَتَاعًا لَكُمْ أَي لِأَجْلِ مَتَاعِكُمْ وَ عَيْشِكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ أَي بِهَائِمِكُمْ. قَالُوا: الْفَاكِهَةُ لَكُمْ، وَ الْأَبُّ لِأَنْعَامِكُمْ.

[٣٤] ثُمَّ يَنْتَقِلُ السِّيَاقُ مِنَ الْمَبْدَأِ إِلَى الْمَعَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ وَ هِيَ مِنْ أَسَامِي الْقِيَامَةِ، بِمَعْنَى الصَّاعِكَ، لِأَنَّهَا تَصْكَ الْأَسْمَاعَ، أَي تَبَالِغُ فِي إِسْمَاعِهَا، مِنْ أَصْوَاتِهَا الشَّدِيدَةِ، كَصَوْتِ النَّفْخَةِ، وَ صَوْتِ النَّارِ، وَ أَصْوَاتِ الْمَلَائِكَةِ، وَ مَا أَشْبَهَ. وَ الْجَوَابُ مَحذُوفٌ، أَي يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَسَمِينَ، وَ قَدْ دَلَّ عَلَى الْجَوَابِ مَا يَأْتِي فِي قَوْلِهِ «وَجْوه».

[٣٥] ثُمَّ بَيْنَ وَقْتِ مَجِيئِهَا بِقَوْلِهِ: وَ ذَلِكَ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ أَي كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أَخِيهِ خَوْفًا بِأَن يَبْتَلِيَ بِهِ، بِأَن يُطَلَبُ مِنْهُ شَيْئًا، أَوْ يَلْقَى عَلَيْهِ بَعْضُ تَبَعْتِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢١

[سورة عبس (٨٠): الآيات ٣٥ إلى ٤١]

وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ (٤٠) تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ (٤١)

[٣٦] وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ حذرا من أن يكون قصر في حقهما، أو يطالبانه بشيء.

[٣٧] وَصَاحِبَتِهِ أى زوجته، و هو من باب المثال، و إلا فالزوجه أيضا تفر من زوجها وَبَنِيهِ أى أولاده، و المراد إنه يفر من أعز أقربائه و عشرائه.

[٣٨] لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أى من هؤلاء الفارين، أو كل من حضر فى القيامة يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ أى أمر عظيم يُغْنِيهِ عن شؤون غيره لأنه مبتلى بحساب نفسه يشغله عن الاهتمام بالآخرين.

[٣٩] وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ أى يوم القيامة، و هى وجوه المؤمنين مُّشْفِرَةٌ أى مشرقه مضيئه، «من أسفر» بمعنى ظهر فإنها تظهر عليها آثار الفرح و السرور.

[٤٠] ضَاحِكَةٌ من السرور مُّسْتَبْشِرَةٌ استبشرت بالخير و الثواب أى فرحت و تهللت.

[٤١] وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ أى يوم القيامة، و المراد بها وجوه الكفار و العصاة عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ أى سواد و كآبة و حزن، مشتق من الغبار و هو التراب المتصاعد الذى يعلو الأشياء.

[٤٢] تَرَهَّقُهَا أى تعلق تلك الوجوه و تغشاها قَتْرَةٌ و هى ظلمة الدخان، فالغبار و الدخان و عبوس النفس كلها تظهر على وجوههم، و لا يجليها رضوان الله و رحمته، كما يجلى وجوه المؤمنين، لو فرض

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٢

[سورة عبس (٨٠): آية ٤٢]

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢)

مرورها من محلات القيامة المغبرة.

[٤٣] أُولَئِكَ الَّذِينَ وصفوا بتلك الأوصاف السيئة هُمُ الْكَافِرَةُ جمع كافر الْفَجْرَةُ جمع فاجر أى العاصى، يعنى أن الكفار و الفجار هم الذين تكون على وجوههم غبرة و قتره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٣

٨١ سورة التكوير مكية / آياتها (٣٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على الفعل من هذا المصدر، و هو قوله «كورت» و هى كسائر السور المكية تبين قضايا العقيدة فى أصولها الثلاث، و حيث ختمت سورة «عبس» بذكر القيامة، افتتحت هذه السورة بذكر علاماتها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله الذى هو المبدأ لكل شىء، فمنه سبحانه جاء الكون، و إليه مصير الخلق، الرحمن الرحيم بكل شىء خلقا و تربية و لطفًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٤

[سورة التكوير (٨١): الآيات ١ إلى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)

[٢] إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ أى ذهب نورها فأظلمت، و التكوير هو اللف، كأن المراد لف ضوءها، فذهب انبساطها فى الآفاق، فتصير سوداء مظلمة.

[٣] وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ بأن يذهب نورها و ضياؤها، من الكدره.

[٤] وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ قلعها الله عن مكانها، و سيرها كالهباء فى الفضاء.

[٥] وَإِذَا الْعِشَارُ وَ هى النوق الحوامل، جمع «عشراء» و هى الناقه الحامل، و الناقه التى وضعت لتمام عطلت أى تركت هملا بلا راع و لا محافظ، و ذلك كناية عن أن أهوال ذلك اليوم بحيث توجب أن يذهل الإنسان عن أعز ماله.

[٦] وَإِذَا الْوُحُوشُ جَمَعَ وحش، و هو الحيوان البرى الذى لا- يأنس، أو مطلق الحيوان حُشِرَتْ أى جمعت فى ذلك اليوم ليقص للمظلوم منها من الظالم.

[٧] وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ أى حولت إلى النيران، و منه تسجير التنور، بإيقاد النار فيه.

[٨] وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ بأن قرنت كل نفس إلى من يشاكلها فالمؤمن مع المؤمن، و الكافر مع الكافر، أو زوجت نفوس المؤمنين بحور العين و نفوس الكافرين بالشياطين، أو زوجت النفوس بالأحباء، بعد

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٥

[سورة التكوير (٨١): الآيات ٨ الى ١٤]

وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُتِيَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَبِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ (١٤)

مفارقتها عنها فى حال الموت.

[٩] وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ من وئد بمعنى دفن الشئ حيا، فقد كانت العرب تئد البنات خوف الفقر و العار سُئِلَتْ أى يسأل عنها.

[١٠] بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ يسأل عن الذين و أدوا بناتهم: بأى ذنب صدر منهن قتلتموهن، و هن بريئات لا ذنب لهن؟

[١١] وَإِذَا الصُّحُفُ نُتِيَتْ أى صحائف أعمال الناس تنشر ليقراها أصحابها و يطلعوا على ما فيها من خير و شر حتى يجازون بما عملوا.

[١٢] وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ الكشط هو القلع عن شدة، كأن السماء جلد يكشط و يقلع عن الكون، و ذلك كناية عن تبدل الأنظمة العلوية حتى يرى الإنسان السماء غير السماء كما يرى البدن المكشوط جلده بغير شكله السابق.

[١٣] وَإِذَا الْجَبِيمُ أى النار سُعِّرَتْ أى أوقدت، بأن ترتفع نارها و لهيبها لتشتد و تزداد حرارة و هولاً.

[١٤] وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ أى قربت، كأنها فى محل بعيد فى الفضاء ثم تدنى إلى الأرض التى هى المحشر و الموقف، أو المراد قربت إلى المؤمنين قرباً زمانياً.

[١٥] إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ أى عرفت أعمالها

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٦

[سورة التكوير (٨١): الآيات ١٥ الى ١٩]

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَشْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩)

التي عملتها فى دار الدنيا من خير و شر و سعادة و شقاء و التي أحضرتها ليوم القيامة، فإنها تعرف بأعمالها لتجازى عليها.

[١٦] ثم جاء السياق لتثبيت أمر الرسالة و بيان أن القرآن ليس كلام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم- كما يزعم الكفار- فلا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ قد سبق أن «لا» للنفى، و إنما يؤتى بها لنتكته هى إرادة تعظيم القسم و الإشعار به مع عدم الحلف واقعا. كما تقوم لرجل عظيم

«لا- أقسم بحياتك لكن الأمر كذا». و «الخنس» جمع الخانس، و هو الذى يستتر و يرجع، و المراد بها الكواكب، أى لا- أقسم بالكواكب التى تستتر عند مغيبها فى المغرب، أو لضياء النهار.

[١٧] الجوار جمع جاريه، لأن الكواكب تجرى و تسير فى السماء الكُنُس جمع «كانس» و هو الذى يستتر فى محله، كالضبى الذى يأوى إلى كناسه أى منزله، و كأن المعنى لا أقسم بالكواكب السيارة التى ترجع فى دورتها الفلكية و تجرى و تختفى فى أماكنها، فإن أول الليل يرى الإنسان الكواكب رجعت عن مغيبها، ثم يرى جريانها ثم اختفاءها عند المغرب أو عند إضاءة الصباح.

[١٨] و قَسَمَ بِاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ أى أقبل، أو بمعنى أدبر.

[١٩] و قَسَمَ بِالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ أى أسفر و أضاء.

[٢٠] ثم جاء متعلق الحلف بقوله: إِنَّهُ أى إن هذا القرآن لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ المراد به جبرئيل عليه السّلام، فى مقابل أن يكون من مخترعات

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٧

[سورة التكوير (٨١): الآيات ٢٠ الى ٢٥]

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٍ (٢١) وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)

وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)

الرسول- كما زعم الكفار- و كونه قول جبرئيل يراد به حكايته لذلك عن الله سبحانه، لا إنه قوله الاستقلالى- كما لا يخفى-.

[٢١] ذِي قُوَّةٍ جسيده و عقليه، فيتمكن من النزول من السماء إلى الأرض، و يبلغ رساله الله إلى الرسول كامله بلا زياده أو نقصان عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ أى له مكان عظيم عند الله سبحانه- الذى هو صاحب العرش، المالك للكون كله، كما يقال للملك «صاحب العرش» كناية عن كونه ملكا- و «مكين» بمعنى متمكن.

[٢٢] و هو مُطَاعٌ للملائكة، أى يطيعونه الملائكة لكبر مقامه ثُمَّ أى هناك فى الملاء الأعلى أَمِينٍ على الوحي فلا يزيد فيه و لا ينقص.

[٢٣] فالقرآن إذا كلام الله تعالى، أما الرسول و ما صَاحِبُكُمْ أيها الكفار- و المراد به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الذى صحبهم- بِمَجْنُونٍ قد خلط عقله كما تقولون عليه.

[٢٤] وَ لَقَدْ رَأَاهُ أى رأى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ جبرئيل بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ فى ناحيه المشرق عند الأفق الواضح، فلم يكن وهما أو إلقاء من الشياطين أو ما أشبه- كما تزعمون-.

[٢٥] وَ مَا هُوَ أى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عَلَى الْغَيْبِ أى وحي الله سبحانه له بِضَنِينٍ بمتهم، من «الضنه» بمعنى التهمه، أو ببخيل.

[٢٦] وَ مَا هُوَ أى ليس القرآن بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ مرجوم أى مطرود

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٨

[سورة التكوير (٨١): الآيات ٢٦ الى ٢٩]

فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

باللعن، كسائر الكهانات التى هى أقوال الشياطين تلقى على الكهنه.

[٢٧] فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ أيها الكفار؟ و كيف لا تؤمنون و القرآن شاهد صدق على نفسه، بأنه ليس كلام مجنون، و لا كلام شيطان، و لا ما زيد فيه أو نقص لبخل الرسول بإعطاء الوحي كاملا، فإنه من طرف المنزل، و هو الله، و من طرف المنزل إليه و هو الرسول، أحسن كتاب للهداية.

[٢٨] إِنَّ هُوَ أَى لَيْسَ الْقُرْآنُ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ أَى لْجَمِيعِ الْأَجْيَالِ وَ الْعَوَالِمِ، عَالَمِ الْإِنْسِ وَ عَالَمِ الْجِنِّ، يَذْكُرُهُمْ بِمَا أَوْدَعَ فِي فِطْرَتِهِمْ مِنْ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْأَلُوهِيَّةِ وَ الرِّسَالَةِ وَ الْمَعَادِ، وَ الْأَخْلَاقِ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

[٢٩] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمَكْلُفُونَ أَنْ يَشْتَقِيَهُمْ فِي عَقِيدَتِهِ وَ عَمَلِهِ، بِأَنْ لَا- يَنْحَرِفَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا، وَ إِنَّمَا خَصَّهُمْ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِالذِّكْرِ، كَمَا تَقُولُ «هَذَا مَعْلَمٌ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَلَمَّذَ عِنْدَهُ» تَعْنَى أَنَّ الْمُرِيدَ هُوَ الْمُسْتَفِيدُ مِنْهُ، وَ إِنْ كَانَ هُوَ مُسْتَعِدًّا لِتَعْلِيمِ كُلِّ فَرْدٍ.

[٣٠] وَ مَا تَشَاوَرْنَا أَنْتُمْ الْإِسْتِقَامَةَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتِمَكَّنُ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ إِلَّا بَعْدَ مَشِيئَةِ اللَّهِ بِنَصْبِ الْأَدْلَةِ وَ قَدْ شَاءَ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ، وَ أَرْسَلَ الرَّسُولَ، وَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَشِيئَةُ الْبَشَرِ أَنْ يَقْبَلُوا الْهُدَى وَ يَتَّبِعُوا السَّبِيلَ. وَ فِي هَذَا تَحْرِيزُ الْعِبَادِ عَلَى الْمَشِيئَةِ إِذْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدْ شَاءَ، فَهَلْ يَحِقُّ لِلْبَشَرِ أَنْ لَا يَشَاءَ؟

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٢٩

٨٢ سورة الانفطار مكية / آياتها (٢٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على فعل المصدر و هو قوله «انفطرت»، و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أصولها، و حيث كانت سورة «التكوير» لبيان أهوال القيامة، جاءت هذه السورة مؤكدة لتلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَشْرَعُ فِي السُّورَةِ بِاسْمِ الْإِلَهِ الَّذِي لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عِلْمُ اللَّذَاتِ الْمُسْتَجْمَعِ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرْحَمُ الْعِبَادَ وَ يَنْفَضِلُ عَلَيْهِمْ بِتَكْمِيلِ نَوَاقِصِهِمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٠

[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكُورُوكُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)

[٢] إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ أَى انشقت و ظهر فيها أثر الانفطار حتى إذا شاهدها الإنسان رآها كالحائط المنفطر.

[٣] وَإِذَا الْكُورُوكُ انْتَثَرَتْ أَى تهافتت و اختلفت أمكنتها و بطل نظامها الحالى، من النثر و هو التبعر.

[٤] وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ كَمَا تَنْفَجِرُ الْعْيُونَ، بِأَنَّ أَخَذَتْ تَغْلَى بِالْمَاءِ أَوْ بِاللَّهَبِ.

[٥] وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ أَى قلب ترابها لخروج الأموات منها، و الشىء المبعثر هو المتفرق.

[٦] إِذَا صَارَ كُلُّ ذَلِكَ، فَقَدْ قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَ عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ وَ الْمَرَادُ بِالنَّفْسِ الْجِنْسُ، وَ لَذَا أَدْخَلْنَا عَلَيْهَا «كُلٌّ» مَا قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ أَى يَعْرِفُ كُلُّ إِنْسَانٍ- بِالنَّظَرِ إِلَى صَحِيفَةِ عَمَلِهِ- مَا قَدَّمَ إِلَى الْآخِرَةِ فِي حَالِ كَوْنِهِ فِي الدُّنْيَا وَ مَا أَخَّرَ إِلَى الْآخِرَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، بِمَا خَلْفَ مِنْ صَدَقَاتٍ جَارِيَةٍ وَ كُتُبِ عِلْمٍ وَ دِينٍ أَوْ أَشْيَاءَ ضَارَةٍ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَعْرِفُ بِكُلِّ ذَلِكَ لِيَجْزَى حَسَبَ مَا عَمِلَ إِنْ حَسَنًا فَحَسَنًا، وَ إِنْ سَيِّئًا فَسَيِّئًا.

[٧] ثُمَّ يَأْتِي السِّيَاقُ لِإِيْقَاطِ الْإِنْسَانِ مِنْ نَوْمِهِ، بِقَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ أَى أَى شَيْءٍ خَدَعَكَ بِرَبِّكَ حَتَّى صَرْتَ تَعْصِيَهُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣١

[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ٧ الى ١٠]

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠)

و تخالفه، آمننا من عذابه و عقابه؟ و هل كان من العدل أن تقابل كرمه بالعصيان؟ و هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟-

و في حديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لما تلا هذه الآية قال: غره جهله
«١».

[٨] الَّذِي خَلَقَكَ بِأَنْ أَوْجَدَكَ مَنِيًّا فَسَوَّاكَ جَعَلَ أَجْهَزَتَكَ سَلِيمَةً مَعْدَةً لِمَنَافِعِهَا فَعَيْدَكَ أَي جَعَلَ بَعْضَ أَعْضَائِكَ عَدَلَ بَعْضَ كَعِينِينَ وَ يَدِينَ وَ رَجُلِينَ وَ مَا أَشْبَهَ بِحَيْثُ يَتَنَاسَبُ أَحَدُهُمَا مَعَ الْآخَرِ دُونَ كَبَرٍ فِي بَعْضٍ وَ صَغُرَ فِي بَعْضٍ.
[٩] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ «مَا» زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ اخْتِلَافِ الصُّورِ رَكَّبَكَ أَي رَكَّبَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الصُّورِ الْحَسَنَةِ وَ الْقَبِيحَةِ وَ الْمَلِيحَةِ أَوْ غَيْرِهَا وَ هَكَذَا، فَإِنَّ بَسَائِطَ الْجِسْمِ مِنْ لَحْمٍ وَ عَظْمٍ وَ شَحْمٍ وَ دَمٍ وَ غَيْرِهَا رَكَّبَ سَبْحَانَهُ مِنْهَا صُورَةً كُلِّ إِنْسَانٍ بِشَكْلِ خَاصٍ.
[١٠] فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَنْكُرُونَ وَجُودَ اللَّهِ، أَوْ قَدْرَتَهُ عَلَى الْبَعْثِ كُلِّهَا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَزْعُمُونَ بَلْ تُكْذِبُونَ بِالذِّينِ أَي بِالْجِزَاءِ لَا تُؤْمِنُونَ، بَلْ تُكْذِبُونَ.
[١١] وَ تَظُنُّونَ أَنْ لَا حِسَابَ وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لِحَافِظِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ بِكُتَابَتِهَا فِي دَوَابِّ لَتَجْزُونَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ «حَافِظِينَ» اسْمٌ «إِنَّ».

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٩٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٢

[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١١ إلى ١٨]

كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨)
[١٢] كِرَامًا أَي مَلَائِكَةً كِرَامًا ذَوِي رَفْعَةٍ وَ مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ كَاتِبِينَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ بَنِي آدَمِ.

[١٣] وَ لَا يَسْقُطُ مِنْ حِسَابِهِمْ شَيْءٌ، بَلْ يَعْلَمُونَ كُلَّ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ طَاعَةٍ وَ مَعْصِيَةٍ وَ خَيْرٍ وَ شَرِّ.

[١٤] ثُمَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَجَازَى كُلُّ حَسَبٍ مَا عَمِلَ إِنَّ الْأَبْرَارَ جَمْعُ «بِرٍّ» وَ هُوَ الْمُحْسِنُ فِي الْعَقِيدَةِ وَ الْعَمَلِ لَفِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَ رِفَاهِهَا وَ خَيْرِهَا.

[١٥] وَ إِنَّ الْفُجَّارَ جَمْعُ «فَاجِرٍ» وَ هُوَ الْعَامِلُ بِالْمَعَاصِي، كَفَرَا كَانَ أَوْ غَيْرِهِ لَفِي جَحِيمٍ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، وَ هِيَ النَّارُ الْكَثِيرَةُ.

[١٦] يَصْلَوْنَهَا أَي يَدْخُلُونَهَا مَلَازِمِينَ لَهَا يَوْمَ الدِّينِ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[١٧] وَ مَا هُمْ أَي الْفُجَّارُ عَنْهَا أَي عَنِ الْجَحِيمِ بِغَائِبِينَ بِأَنْ يَغْيَبُوا عَنِ النَّارِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، بَلْ إِنَّهُمْ مُؤَبَّدُونَ فِيهَا بِلَا انْقِطَاعٍ.

[١٨] وَ إِذَا تَقَدَّمَ ذِكْرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ جَاءَ السِّيَاقُ لِتَهْوِيلِ شَأْنِهِ وَ مَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا يَوْمَ الدِّينِ أَي أَيُّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَإِنَّ أَهْوَالَهَا لَا تَدْرِكُ، حَتَّى يَرَاهَا الْإِنْسَانُ رَأَى الْعَيْنِ.

[١٩] ثُمَّ لِتَرْتِيبِ الْكَلَامِ وَ تَكْثِيرِ التَّهْوِيلِ مَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٣

[سورة الانفطار (٨٢): آية ١٩]

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

مَا يَوْمَ الدِّينِ أَي مَا هُوَ الْجِزَاءُ.

[٢٠] إِنَّهُ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ الدِّفَاعِ عَنْ غَيْرِهِ، أَوْ إِنْقَاذِهِ بِسَائِرِ الْوَسَائِلِ وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَ لَا يَنْفَعُ لِلنَّجَاةِ إِلَّا الْعَمَلُ الصَّادِرُ لِلَّهِ تَعَالَى.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٤

٨٣ سورة المطففين مكيّة - مدنيّة / آياتها (٣٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «المطففين»، ولعل السورة مركبة من المدنيّة و المكيّة لاشتمالها على ما يشبه النظام إلى جنب قضايا العقيدة، و حيث ختمت سورة الانفطار بذكر القيامة و أحوال الناس فيها، ذكر في هذه السورة ذلك أيضا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي له الملك و هو الأول لكل شىء، فما أجدر أن يتبدأ باسم الكريم، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحم على العباد و يكمل نقص كل إنسان.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٥

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ إلى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا- يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)

[٢] وَيْلٌ وَ هى كلمة تقال بمعنى سوء الحال، أى أن سوء الحال لِلْمُطَفِّفِينَ و «التطفيف» هو نقص الكيل و الميزان.

[٣] ثم فسره سبحانه بقوله: الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ أى كالوا ما على الناس ليأخذوه لأنفسهم، كما لو دفعوا مالا لا اشتراء من من الحنطة، فإذا كالوها يَسْتَوْفُونَ أى يأخذون بمقدار حقهم وافيًا، و لما كان الكيل و الوزن من جنس واحد اكتفى بأحدهما عن ذكر الآخر.

[٤] وَإِذَا كَالُوهُمْ أى كالوا لهم أَوْ وَزَنُوهُمْ أى وزنوا لهم، بأن أرادوا بيع من من الحنطة مثلا للناس و قبض الثمن لأنفسهم يُخْسِرُونَ أى ينقصون فيما يعطون، فمثلا- ينقصون من المنّ حقّه. و لا- يخفى أن العمل الأول ليس محرما، و إنما يكون بشعا إذا قيس بالعمل الثانى، كما أن إطراء الناس فى وجههم ليس محرما، و لكن إذا ضم إلى ذمهم فى قفاهم صار بشعا، و سمي الفاعل لذلك ذا لسانين، و كان له يوم القيامة لسانان من نار- كما ورد-

[٥] ثم يأتى السياق ليهددهم بقوله: أَلَا- يَظُنُّ و الإتيان بلفظ الظن لإفادة أن مجرد الظن كاف فى الانقطاع، فكيف بالعلم أُولَئِكَ المطففون أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ أى يبعثون.

[٦] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ فى يوم القيامة الذى يحاسب فيه كل إنسان بما عمل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٦

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٦ إلى ١١]

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠)

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١)

[٧] وَ هُوَ يَوْمٌ يَقُومُ النَّاسُ من قبورهم لِرَبِّ الْعَالَمِينَ أى لحسابه و جزائه.

[٨] كَلَّا ليس الأمر على ما زعمتم من أنه لا حساب و لا جزاء، بل هناك يجازى كل إنسان بما عمل، ف إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ جمع فاجر، و هو العاصى لله سبحانه، سواء كان بالكفر أو الإثم، و المراد بكتابهم ما أدرج فيه أسماءهم و خصوصياتهم لَفِي سَجِّينٍ و هو السجل على جهة التخليد فيه، يعنى أنه قرر لهم السجن الأبدى، و هكذا سجل أسماءهم بأنهم فى سجين، كما تقول:

«كتاب فلان فى المجرمين» أى أنه كتب مجرما فى ضمن سائر المجرمين.

- [٩] ثم جاء السياق لتحويل أمر سجين بقوله: وَمَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أَوْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا سَجَّيْتُ فَمَا أَعْلَمُكَ بِهِ، بل أنتم لا تدرّون به.
- [١٠] إنما هو كِتَابٌ مَرْقُومٌ قد رقم و كتب و فرغ منه، فلا يمكن تبديله و تغييره، بأن يمحي اسم الفاجر منه، ليُدْرَج في كتاب الأبرار.
- [١١] وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ أَي في يوم القيامة لِلْمُكْذِبِينَ
- [١٢] ثم حدد معنى المكذبين، و المراد بهم بقوله: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ أَي بيوم القيامة، فإن الدين بمعنى الجزاء، و التكذيب بيوم القيامة يلازم التكذيب بسائر الأصول.
- تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٧
- [سورة المطففين (٨٣): الآيات ١٢ الى ١٥]
- وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ (١٣) كَلَّا- بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥)
- [١٣] وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ أَي بيوم القيامة إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ يَعْتَدِي و يظلم و يتجاوز عن الحد أَثِيمٌ يَأْتُم و يعصى في كثرة و يبالح في الاعتداء.
- [١٤] إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ أَي تقرأ على ذلك المعتدي آياتنا الدالة على الألوهية و التوحيد و سائر الأصول، أو المراد بها القرآن قَالَ هذه التي تتلونها هي أساطير الأولين حكاياتهم و كلماتهم الخرافية، جمع «أسطورة» و هي القصة الخيالية التي لا حقيقة لها، و في هذا اليوم يسمون الدين «رجعية» عبارة أخرى عن «أساطير الأولين».
- [١٥] كَلَّا لَيْسَتِ الْآيَاتُ أَسَاطِيرَ يَلُّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ «الرين» في الأصل بمعنى الغلبة، أي غلب عليها ما كانوا يكفرون من الذنوب و الآثام، حتى أن عصيانهم سبب تحجر قلبهم، فلا يرون الحق إلا باطلا، و الآيات إلا أساطير.
- قال الصادق عليه السلام يصدأ القلب، فإذا ذكرته بالله انجلى
- «١».

[١٦] كَلَّا لَا يَبْقَى هُوَاءٌ فِي خَيْرٍ وَ نَعِيمٍ إِلَى الْأَبَدِ، كما يظن الكفار بأنهم هناك أيضا يحظون بكرامه الله و إحسانه قائلين وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا «٢» إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ أَي عن لطفه و رحمته يَوْمَئِذٍ أَي في يوم القيامة لَمَحْجُوبُونَ ممنوعون، و هذا كما

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٢٩٣.

(٢) الكهف: ٣٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٨

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١٦ الى ٢١]

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)

تقول «حجبنى فلان عن الملك» أي منع لطفه عنى.

[١٧] ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ حَجَبُوا عَنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ لُطْفِهِ لَصَالُوا الْجَحِيمِ أَي داخلون فيها ملازمون لها.

[١٨] ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا الْجَحِيمِ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَ التَّوْبِيخِ هَذَا الَّذِي ذَقْتُمُوهُ مِنَ الْعَذَابِ وَ النِّكَالِ كُنْتُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا تُكَذِّبُونَ وَ تقولون: لا جنه، و لا نار، و لا حساب، و لا جزاء.

[١٩] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ مِنْ أَنْكُمْ أَهْلُ كَرَامَةِ اللَّهِ، إن الكرامة ليست لكم، و إنما هي للأبرار إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ أَي الكتاب الذي أدرج فيه أسماؤهم و عين فيه مقاماتهم، و «أبرار» جمع برّ و هو المحسن عقيدة و عملا لَفِي عِلِّيِّينَ أَي مراتب عالية، فإنهم مكتوبون في

سجلهم أن مقامهم هناك.

[٢٠] ثم جاء السياق لتعظيم مقامهم بقوله: وَمَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أَوْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هِيَ عَلَيُّونَ

[٢١] إنه كِتَابٌ مَرْقُومٌ قد رقم و سجل فلا يمحي عنه أسماء الأبرار.

[٢٢] يَشْهَدُهُ أى يعرفه و يعلم مزاياه الْمُقَرَّبُونَ أى الملائكة المقربون، و فى ذلك كرامه أخرى للأبرار، لأن الإنسان يجب أن يطلع الناس و غيرهم على أعماله الحسنه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٣٩

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٢٢ الى ٢٦]

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنْظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُشِيقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكَ وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)

[٢٣] ثم جاء القياس يعين مكان الأبرار الذى كتب فى كتابهم أنهم فى عليين إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ فى الملاذ و المشتهيات.

[٢٤] و هم جالسون عَلَى الْأَرَائِكِ جمع أريكه، و هى كرسى العروس الذى تجلس عليه يُنْظَرُونَ إلى هنا و هناك ليلتذوا بالنظر كما التذوا بسائر أنواع الحواس.

[٢٥] تَعْرِفُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، إذا نظرت إلى أولئك الأبرار فى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ أى بريقه و حسنه و جماله، فإن الإنسان الذى فى نعمه و راحه يظهر على وجهه بريق و لمعان و نضاره.

[٢٦] يُشِيقُونَ و الساقى هم الملائكة بأمره سبحانه مِنْ رَحِيقٍ هو الشراب الخالص من كل كدوره و فساد مَخْتُومٍ قد ختم على آنيته بعد أن سد رأسه، لئلا يصيبه الأذى من الخارج، كالمربيات و الأشربة التى تففل و تختم فى العلب فى الدنيا.

[٢٧] خِتَامُهُ مِسْكَ فَإِنَّ الْمَدَادَ الذى يختم به على أوانى الرحيق من المسك المذاب، و فى ذلك تشويق و أناقه و دلالة على النعيم و كثرة الرفاه و فى ذَلِكَ النعيم فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ أى فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله سبحانه، و أصل التنافس التزاحم على الشىء، إن نعيم الجنة هو القابل لأن يتزاحم فيه الناس، و ذلك بأن يبادر إلى كل الأعمال الصالحة لينالها، لا أن يتنازعا فى ملذات الدنيا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٠

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٢٧ الى ٣٠]

وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ (٣٠)

فإنها زائلة فانية.

[٢٨] وَمِرَاجُهُ أى الشىء الذى مزج بذلك الرحيق مِنْ عَيْنٍ تسمى بال تَسْنِيمٍ و هى عين جيدة، سميت بالتسنييم لارتفاعها، من سنم بمعنى ارتفع.

[٢٩] فى حال كون ذلك التسنييم عَيْنًا أو منصوب على المدح يَشْرَبُ بِهَا أى منها الْمُقَرَّبُونَ الذين قربوا إلى رضوان الله تعالى بأعمالهم الصالحة.

[٣٠] ثم يأتى ليبين أن ما يراه المجرم و المحسن هناك إنما هو جزاء أعمالهم إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا أى فعلوا الجرائم و الآثام فى دار الدنيا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ على وجه السخرية بهم و الاستهزاء لهم، و «من» ابتدائية، كأن ضحكهم كان يبتدىء و ينشأ من طرف المؤمنين، و هذا حكاية عن أحوالهم و هم فى الدنيا و كأن الحكاية فى الآخرة حين يعاتب المجرمين و يثاب المحسنون.

[٣١] وَإِذَا مَرُّوا أى المؤمنون بِهِمْ أى بالمجرمين يَتَغَامَرُونَ بأن يشير بعضهم إلى بعض بالعين و الحاجب استهزاء بالمؤمنين، و من

المعلوم أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان ممن يتغامز به المنافقون و لذا ورد في بعض الروايات تفسير الآية بذلك «١»، و هو من باب المصداق.

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٧٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤١

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٣١ إلى ٣٦]

وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَ مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

[٣٢] وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ رَجْعِ أَوْلِيائِهِمْ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَىٰ إِلَىٰ بِيوتِهِمْ انْقَلَبُوا وَ رَجَعُوا فِي حَالِ كُونِهِمْ فَكِهِينَ الفكه هو المرح الأشر، أَىٰ متلذزين بالسخرية منهم، كما هو شأن الجهلاء دائما.

[٣٣] وَ إِذَا رَأَوْهُمْ أَىٰ رَأَى الْمَجْرَمُونَ، الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا أَىٰ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَضَالُّونَ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ حَيْثُ تَرَكَوْا نَعِيمَ الدُّنْيَا، بَزَعِ نَعِيمِ الْآخِرَةِ «و هل عاقل باع الوجود بدین»؟

[٣٤] وَ الْحَالُ أَنَّ الْكُفَّارَ مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ أَىٰ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَافِظِينَ أَعْمَالِهِمْ وَ يَشْهَدُونَ بِرَشْدِهِمْ وَ ضَلَالِهِمْ.

[٣٥] فَالْيَوْمَ أَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ جَزَاءً وَفَاقًا كَمَا ضَحِكَ الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ بَعْضَ الْأَحْوَالِ السَّيِّئَةِ لِشَخْصٍ يَوْجِبُ ضَحْكَ الطَّرْفِ الْمَقَابِلِ.

[٣٦] عَلَى الْأَرَائِكِ جَمْعُ أَرِيكَةٍ وَ هُوَ الْكُرْسِيُّ الْمَعْدُ لِجُلُوسِ الْعُرُوسِ يَنْظُرُونَ أَىٰ يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْكُفَّارِ، وَ هُمْ فِي النَّارِ يَتَقَلَّبُونَ.

[٣٧] ثُمَّ يَأْتِي بِالْمُسْتَهْزِئِينَ جَزَاءً اسْتَهْزَأْتَهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ أَىٰ أَثَبُوا وَ جَوَزُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الدُّنْيَا؟ نَعَمْ أَثَبُوا وَ هَا هُمْ فِي النَّارِ يَتَقَلَّبُونَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٢

٨٤ سورة الانشقاق مكية / آياتها (٢٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على الفعل من هذا المصدر، و هو «انشقت»، و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و حيث ختمت سورة المطففين بذكر القيامة، ابتدأت هذه السورة بذكر أهوالها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَسْتَعِينُ بِاسْمِ اللَّهِ، لِيَكُونَ سُبْحَانَهُ عَوْنًا لَنَا فِي أُمُورِنَا، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي يُتَفَضَّلُ بِالرَّحْمِ عَلَى الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَمَا قَالَ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ «١»، وَ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ بِالشَّيْءِ مَا يَخْرُجُهُ مِنَ النِّقْصِ إِلَى الْكَمَالِ.

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٣

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١ إلى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حَقَّتْ (٢) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (٤)

وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حَقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦)

[٢] إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ أى تصدّعت وانفجرت، كما ينشق الحائط فيظهر للعين في السماء لون الانفطار والانشقاق، و تتناثر النجوم لاختلال النظام.

[٣] وَأَذْنَتْ السَّمَاءَ لِرَبِّهَا أى خالقها، والمراد انقادت لله سبحانه، وأصل الإذن الاستماع، يقال «أذن فلان لأمرى» أى استمع، واستعمل مجازاً بمعنى الانقياد بعلاقة السبب والمسبب وَحَقَّتْ أى وحق لها أن تأذن و تنقاد، وإنما جيء بالمجهول لأن المعنى أنها جعلت حقيقة بالانقياد، بأن خلقت بكيفية تنقاد و تطيع الأمر.

[٤] وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ أى بسطت باندكاك جبالها حتى تصير كالصحيفة الملساء فتوسع لأنه لا عوج فيها و لا أمت.

[٥] وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا أى أخرجت ما فى جوفها من الكنوز و المعادن و الأموات وَتَخَلَّتْ أى خلت فلم يبق فى بطنها شىء.

[٦] وَأَذْنَتْ أى انقادت الأرض لِرَبِّهَا الله سبحانه وَحَقَّتْ لها أن تأذن بالإطاعة و الانقياد، و الجواب ل «إذا» محذوف، أى انقسم الناس إلى قسمين ناج و هالك، يدل على ذلك قوله «فأما من» الآتية.

[٧] ثم توجه الخطاب إلى الإنسان ليستعد لهذا اليوم المهول يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا «الكدح» هو السعى الشديد فى الأمر، أى سعى إلى ربّه- أى إلى جزائه و حساب- سعياً شديداً، فإن

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٤

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ٧ الى ١٢]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١)

وَ يَصْلى سَعِيرًا (١٢)

الإنسان لا- يزال يسعى فى الأرض بجهد و شدة- إذ الدنيا دار تعب و عناء- حتى ينتهى إلى حساب الله سبحانه فَمَلَأِيهِ أى تلاقى كدحك- بمعنى جزاء عملك- عند ما صرت إلى حساب ربك.

[٨] فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ أى أعطى كِتَابَهُ الذى كتبه الملكان، المدروج فيه أعماله بِيَمِينِهِ أى بيده اليمنى، و ذلك دليل السعادة و الفلاح.

[٩] فَسَوْفَ بعده بمدّة يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا سهلاً بلا أتعاب و نقاش، و لعل المدّة بين إعطاء الكتاب و بين الحساب طويل و لذا جيء ب «سوف».

[١٠] وَ يَنْقَلِبُ أى يرجع من محل المحاسبة إلى أَهْلِهِ الذين حوسبوا قبله و انتظروا مقدمه، أو المراد حور العين التى أعدت له مَسْرُورًا فرحاً.

[١١] وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ بأن يأخذ الملائكة بيده اليسرى إلى وراء ظهره ثم يعطى كتابه هناك، تكثيراً للخزي و الفضاحة و إيذاناً بأنه من أهل النار و العذاب.

[١٢] فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا أى هلاكاً، إذا قرأ كتابه فيقول «وا ثبورا» أى يا هلاك احضر فهذا وقتك.

[١٣] وَ يَصْلى سَعِيرًا أى يدخل النار المستعرة الملتهبة، ملازماً لها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٥

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١٣ الى ١٩]

إِنَّه كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّه ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بلى إِنَّ رَبَّه كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ (١٧) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبِقِ (١٩)

[١٤] إِنَّه أى هذا المجرم كَانَ فِي أَهْلِهِ فى الدنيا مَسْرُورًا بما أوتى من أمور الدنيا فلا يهتم بأمر الآخرة، بخلاف من يهتم بأمر الآخرة فإنه حزين لأنه لا يدرى ماذا يصنع به، و ما تكون عاقبته.

[١٥] إِنَّهُ ظَنَّ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَنْ يَحُورَ أَي لَنْ يَرْجِعَ إِلَى حَالِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، مِنْ حَارٍ: بِمَعْنَى رَجَعٍ.

[١٦] بَلَى يَرْجِعُ، وَظَنَّهُ فَاسِدٌ إِنْ رَآهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا يَرَى أَعْمَالَهُ فَيَجَازِيهِ عَلَيْهَا وَلا يَتْرُكُهُ سُدًى هَمَلًا.

[١٧] فَلَا أَقْسِمُ أَي أَقْسِمُ، أَوْ أَنْ «لَا» لِلنَّفْيِ كَمَا اخْتَرْنَا سَابِقًا بِالشَّفَقِ وَهِيَ الْحَمْرُةُ الَّتِي تَبْقَى فِي الْأَفْقِ عِنْدَ الْغُرُوبِ.

[١٨] وَلا أَقْسِمُ بِاللَّيْلِ وَما وَسَقَ أَي ما جَمَعَ وَضَمَّ مِمَّا كَانَ مَتَشَرًّا بِالنَّهَارِ مِنْ أَقْسَامِ الْحَيَوَانِ، وَأَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، يُقَالُ وَسَقَهُ: إِذَا جَمَعَهُ.

[١٩] وَلا أَقْسِمُ بِالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أَي إِذَا تَكَامَلَ بَدْرًا فَإِنَّهُ يَجْتَمِعُ حِينَئِذٍ، افْتِعَالَ مِنْ «وَسَقَ».

[٢٠] لَتَرْكَبُنَّ أَي لِتَشَاهِدُنَّ، وَتَعَانُونَ طَبَقًا أَي حَالًا عَن طَبَقٍ أَي بَعْدَ حَالٍ سَابِقَةٍ، مِمَّا قَدَّرَ لَكُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَالْإِتْيَانِ بِ«عَنْ» لِأَنَّهَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٦

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)

للتجاوز، أى تركب حلالاً مجاوزين عن حال سابقه، وإنما سمي الحال طبقاً لأنه يطابق الإنسان، والمعنى أنكم تسرون فى أحوالكم المختلفة سيرا حتى تنتهون إلى يوم القيامة، كما قال فى أول السورة «إنك كادح» وهذا هو جواب «لا أقسم»، وكان هذه الجملة للتنبية على تغير أحوال الدنيا، فلا يغتر الإنسان بحالها الحسن وينسى الآخرة حتى تفوته دنياه و آخرته.

[٢١] وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا مَعْرُضَ زَوَالٍ وَفَنَاءٍ، وَأَحْوَالُهَا مَعْرُضٌ تَبَدُّلٍ وَانْقِلَابٍ فَمَا لَهُمْ أَي لِهَوْلَاءِ الْكُفَّارِ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَتَّى يَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ؟

[٢٢] وَمَا لَهُمْ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا- يَسْجُدُونَ أَي لَا يَخْضَعُونَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، بَعْدَ أَنْ تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ، وَتَمَّ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ؟

[٢٣] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا عَوْضَ أَنْ يَخْضَعُوا يُكذِّبُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ.

[٢٤] وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَتَّى مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا يُوعُونَ هَوْلَاءِ الْمَكذِبِينَ، وَالمَعْنَى بِمَا يَضْمُرُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالنَّوَايَا السَّيئَةِ، مِنْ «وَعَى» بِمَعْنَى تَقْبَلُ وَجَمَعَ، يُقَالُ «فُلَانٌ يَعَى الْكَلَامَ» أَي يَتَقَبَّلُهُ وَيَحْفَظُهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٧

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

[٢٥] فَبَشِّرْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْإِتْيَانِ بِلَفْظِ الْبَشَارَةِ لِلْإِسْتِهْزَاءِ بِهِمْ- بِعِلَاقَةِ الضَّد- بِعَذَابٍ أَلِيمٍ مَوْلَمٌ مَوْجَعٌ لَهُمْ.

[٢٦] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْمَلَازِمَ لِعَدَمِ الْإِتْيَانِ بِالسَّيئَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أَي غَيْرُ مَقْطُوعٍ، لِأَنَّ نَعِيمَ الْآخِرَةِ دَائِمٌ لَا نَفَادَ لَهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْتِهْزَاءَ مَقْطُوعٌ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الْإِسْتِهْزَاءِ الْمَقْطُوعِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٨

٨٥ سورة البروج مكية / آياتها (٢٣)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «البروج»، وهى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و حيث ختمت سورة الانشقاق بذكر المؤمنين، ابتدأت هذه السورة بذكرهم.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذى هو المبدأ لكل شىء، و لا أحق بالابتداء منه، ليطابق الابتداء فى الكلام للابتداء فى

الخارج، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بإعطائهم ما يحتاجون، و يتفضل عليهم بغفران ذنوبهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٤٩

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤)

[٢] وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ أى قسما بالسماء التى هى صاحبة البروج، جمع برج و هو القطعة من السماء، سميت برجا لظهوره، من برج: إذا ظهر، و البروج هى الحمل و الثور و الجوزاء و السرطان و الأسد و السنبله و الميزان و العقرب و القوس و الجدى و الدلو و الحوت، و القمر فى سيره النفسى يقطع كل برج فى ظرف يومين و نصف، و الشمس تقطعه فى ظرف شهر.

[٣] وَقَسَمَ بِالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ و هو يوم القيامة، الذى وعد به الخلق.

[٤] وَقَسَمَ بِشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ فى ذلك اليوم، أو كل شاهد و مشهود.

و هذا الأقرب بالعموم، و إن أورد فى التفسير معانى مختلفة لهما.

[٥] قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ هو الشق العظيم فى الأرض، أى قتل الله أصحاب الأخدود الكفار الذين حفروا الأخاديد فى الأرض لتعذيب المؤمنين، و هذا دعاء على أولئك الكفار، و كان من قصتهم على ما نقله القمى: إن الذى هيج الحبشة على غزو اليمن ذو نواس، و هو آخر من ملك من حمير تهود و اجتمعت معه حمير على اليهودية، و سمي نفسه يوسف، و أقام على ذلك حينما من الدهر، ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية و كانوا على دين عيسى و على حكم الإنجيل، و رأس ذلك الدين عبد الله بن برياس، فحملة أهل دينه على أن يسير إليهم و يحملهم على اليهودية و يدخلهم فيها فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية و الدخول فيه فأبوا عليه، فجادلهم و عرض عليهم و حرص الحرص كله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٠

[سورة البروج (٨٥): الآيات ٥ الى ٨]

النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)

فأبوا عليه و امتنعوا من اليهودية و الدخول فيها و اختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدودا و جمع فيه من الحطب و أشعل فيه النار، فمنهم من أحرق بالنار و منهم من قتل بالسيف و مثل بهم كل مثله فبلغ عدد من قتل و أحرق بالنار عشرين ألفا و أفلت رجل منهم يدعى «دوس».

«١».

[٦] النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ أى أصحاب النار ذات الوقود الكثير، إشارة إلى عظم تلك النار، و الوقود: هو الحطب الذى توقد به النار.

[٧] إِذْ هُمْ أى أولئك الكفار عليها أى على حوالى النار قُعُودٌ جمع قاعد، أى كان الكفار قاعدين أطراف النار يشاهدون ما يفعل بالمؤمنين من رميهم فيها.

[٨] وَهُمْ الملك الكافر و أصحابه على ما يَفْعَلُونَ جلاوزتهم بِالْمُؤْمِنِينَ من إلقاءهم فى النار شُهُودٌ جمع شاهد، أى حاضرون مشاهدون، و هذا ذم لهم كيف رضوا و سمحت لهم أنفسهم بأن يشاهدوا هذا النحو من التعذيب البشع.

[٩] وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ أى ما كره الملك و أصحابه من المؤمنين إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ و يتركوا دين الملك الباطل الْعَزِيزِ الْغَالِبِ فى سلطانه الْحَمِيدِ المجرد فى أفعاله، إشارة إلى أن الغلب كان للمؤمنين،

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥١

[سورة البروج (٨٥): الآيات ٩ إلى ١١]

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)

وإن صال الملك و جال أياما، كما أن ما فعل بالمؤمنين كان لحكمه و صلاح لهم لعلو درجاتهم.

[١٠] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ لهما وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أى حاضر عالم، فلم يغب عنه ما فعلوا بالمؤمنين فسينتقم منهم.

[١١] إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أى عذبوهم و أحرقوهم بنار الأخدود، من أصحاب ذلك الملك الطاغى ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا بعد ذلك بالإيمان و الطاعة فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ فى الآخرة بكفرهم و لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ بما أحرقوا المؤمنين، و كأن المراد بعذاب جهنم سائر أنواع عذابها من لدغ السمات و أكل الزقوم، و شرب الغسلين و ما أشبهه، و «حريق» اسم النار، و لذا أضيف إليه «عذاب».

[١٢] و فى مقابل أولئك المؤمنون إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ و رسوله و اليوم الآخر و عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ أى بساتين، و سميت جنه لتستر أرضها بالأشجار و القصور تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أى من تحت قصورها و أشجارها الْأَنْهَارُ من عسل و لبن و خمر و ماء و غيرها ذَلِكَ التَّعْنَمُ بتلك الجنات الْفَوْزُ و الفلاح الْكَبِيرُ الذى ليس فوّه فوز. و لعل المراد ب «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا»، و

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٢

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٦٩٨

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١٢ إلى ١٧]

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧)

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا»، مطلق الكفار و المؤمنين، لا خصوص الكافر و المؤمن من أصحاب الأخدود، أو أصحاب الرسول و معاصريه.

[١٣] إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ يا رسول الله، أى أخذه للكافرين و انتقامه منهم لَشَدِيدٌ فانه إذا بطش بأحد يغشاه العذاب، بمختلف ألوانه و صنوفه، فليحذر الكفار و العصاة بطشه.

[١٤] إِنَّهُ سبحانه هُوَ يُبْدِئُ الخلق، بأن يعطيهم الحياة من العدم أولا و يُعِيدُ للخلق بعد الممات أحياء.

[١٥] وَهُوَ الْغَفُورُ لمن تاب و آمن، أى كثير المغفرة الْوَدُودُ الذى يحب الناس فلا يريد تعذيبهم إلا إذا تبادوا فى الكفر و العصيان.

[١٦] ذُو الْعَرْشِ و هو كناية عن أن له الملك، يقال للملك «صاحب العرش» كناية عن سلطانه، و إن لم يكن له كرسى يجلس عليه الْمَجِيدُ الموصوف بالمجد و العظمة.

[١٧] فَعَالَ أى كثير الفعل لِمَا يُرِيدُ فكل شىء أرادته فعله لا يمتنع عليه شىء، و هذه الآيات للإلماع إلى وجوب رجاء البشر إياه، و خوفهم منه، لأن له الملك و العظمة و أنه يفعل ما يشاء فعله.

[١٨] ثم جاء السياق لبيان شاهد على ما تقدم من أنه سبحانه يفعل ما يريد، ليرجوه المؤمن و يخافه الكافر هَلْ أَتَاكَ يا رسول الله أو أيها السامع حَدِيثُ الْجُنُودِ أى هل بلغك خبر الذين تجندوا على خلاف الله

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٣

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١٨ إلى ٢٢]

فِرْعَوْنُ وَ ثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فى تَكْذِيبِ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

و محاربة أنبيائه، لتعرف كيف صنع الله بهم؟

[١٩] فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ، الَّذِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَمُودَ الَّذِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَذَبُوا الْأَنْبِيَاءَ عَذِبَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَهَكَذَا عَادَةُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَعَ الْمَكْذِبِينَ.

[٢٠] إِنْ كَفَرَ مَكَّةُ لَا يَرْعَوْنَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَعَصِيَانَتِهِمْ بِهَذِهِ الْأَمْثَالِ وَالْقِصَصِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي تَكْذِيبِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ، أَيْ مَشْغُولُونَ عَنْهُ، وَمَعْرُضُونَ عَنِ الْحَقِّ.

[٢١] وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ أَيْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ مُحِيطٌ كَأَنَّهُمْ فِي دَائِرَةِ عِلْمِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ الشَّامِلِ، وَقُدْرَتِهِ الْوَاسِعَةُ فَيَعْلَمُ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وَهُمْ فِي قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ، يَقُولُ الْمَلِكُ «أَنَا مُحِيطٌ بِفُلَانٍ» يَرِيدُ إِحَاطَةَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ لَا إِحَاطَةَ الْجِسْمِ.

[٢٢] وَلَيْسَ كَمَا ذَكَرَ الْكُفَّارُ إِنْ الْقُرْآنَ شِعْرًا أَوْ كِهَانَةً أَوْ مَا أَشْبَهَ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، ذُو مَجْدٍ وَعِظْمَةٍ لِأَنَّهُ مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ.

[٢٣] فِي لَوْحٍ مَخْفُوظٍ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، فَهُوَ مَحْفُوظٌ بَاقٍ وَإِنْ اجْتَهَدَ الْكُفَّارُ لِمَحْوِهِ وَإِبْطَالِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٤

٨٦ سورة الطارق مكيّة / آياتها (١٨)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الطارق»، وهي كسائر السور المكيّة مشتملة على قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة البروج بتهديد المكذبين، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله المستجمع لجميع صفات الكمال، فهو شعار للمسلم الذي يصفه أول كل حركة وسكون له ليصبغ بهذه الصبغة، الرحمن الرحيم، إعلاماً لكونه إلهاً رحيماً، لا قاسياً غليظاً، كما كانت بعض آلهة الكفار توصف بالقسوة والخشونة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٥

[سورة الطارق (٨٦): الآيات ١ إلى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦)

[٢] وَالسَّمَاءِ أَيْ قِسْمًا بِالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ أَيْ قِسْمًا بِالطَّارِقِ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي لَيْلًا، سُمِّي طَارِقًا لِأَنَّهُ يَطْرُقُ الْبَابَ، أَمَا فِي النَّهَارِ فَقَدْ كَانَتِ الْعَادَةُ الْجَارِيَةَ لَدَيْهِمْ أَنْ تَفْتَحَ الْأَبْوَابَ، فَإِذَا جَاءَ أَحَدُ اسْتَأْذِنَ وَدَخَلَ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا النَّجْمُ الَّذِي يَطْلُعُ لَيْلًا.

[٣] وَمَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أَوْ أَيُّهَا الرَّسُولُ مَا هُوَ الطَّارِقُ

وذلك لتعظيم شأنه.

[٤] هُوَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ الَّذِي يَثْقُبُ السَّمَاوَاتِ بِنُورِهِ، وَمَنْ يَعْرِفُ عِظَمَ النُّجُومِ وَكَثْرَةَ بَعْدَهَا حَتَّى أَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى سَنَوَاتٍ ضَوْئِيَّةٍ حَتَّى تَوْصَلَ نُورُهَا إِلَى الْأَرْضِ يَعْرِفُ عِظَمَ هَذَا الْقِسْمِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّجْمِ الْجِنْسَ لَا خُصُوصَ نَجْمٍ وَاحِدٍ، وَمَا ذَكَرَ لَهُ فِي التَّفْسِيرِ مِنَ الْمَصْدَاقِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْمَثَالِ.

[٥] إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ أَيْ مَا كُلُّ إِنْسَانٍ لَمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ أَيْ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ الْبَشَرَ مِنَ الْمَهَالِكِ كَمَا يَحْفَظُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَهَذَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْقِسْمِ.

[٦] وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي شَكٍّ مِنَ الْإِلَهِ فَلْيَفَكِّرْ فِي أَصْلِهِ وَنَشْأَتِهِ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانَ أَيْ لِيَفَكِّرْ وَيَتَدَبَّرَ مِمَّ خُلِقَ أَيْ مِمَّا ذَا خُلِقَ؟ وَمَا هُوَ أَصْلُهُ؟

[٧] خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ أَيْ مَاءٍ يَدْفُقُ، وَالدَّفْقُ هُوَ الصَّبُّ الَّذِي فِيهِ دَفْعٌ وَقُوَّةٌ، فَإِنَّ الْمُنَى يَخْرُجُ هَكَذَا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٦

[سورة الطارق (٨٦): الآيات ٧ إلى ١٢]

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجُوعِ (١١)

وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)

[٨] يَخْرُجُ ذَلِكَ الْمَاءُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ لِلرَّجْلِ، وَ هُوَ الْعِظْمُ الَّذِي فِي ظَهْرِهِ مَرْكَزُ الْمَنِيِّ وَ التَّرَائِبِ نَوَاحِي الصَّدْرِ، وَاحِدَتَهَا تَرْيِبَةٌ، فَإِنَّ مَنِي الْمَرْأَةِ مَرْكَزُهُ هُنَاكَ.

[٩] إِنْ اللَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ أَيْ إِرْجَاعِهِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ لَقَادِرٌ كَمَا قَدَرَ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ حِينَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا.

[١٠] قَادِرٌ عَلَى رَجْعِهِ فِي يَوْمِ تُبْلَى السَّرَائِرِ أَيْ تَخْتَبِرُ الضَّمَائِرَ، فَإِنَّ «سَرَائِرَ» جَمْعُ سَرِيرَةٍ، وَ هِيَ الْمَحَلُّ الْكَامِنُ فِي الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَظْهَرُ بَوَاطِنُ النَّاسِ وَ مَا انْطَوَّأَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَ شَرٍّ.

[١١] فَمَا لَهُ أَيْ لِلْإِنْسَانِ مِنْ قُوَّةٍ يَدْفَعُ بِهَا الْعَذَابَ وَ لَا نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَالِ، فليخش و ليحذر أن يخالف الله سبحانه حتى لا يبطل بالعباد.

[١٢] وَ السَّمَاءِ أَيْ قِسْمًا بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجُوعِ الَّتِي تَرْجِعُ فِي كُلِّ دَوْرَةٍ إِلَى مَكَانِهَا الْأَوَّلِ، أَوْ ذَاتِ الْمَطَرِ، وَ سُمِّيَ الْمَطَرُ رَجْعًا لِأَنَّهُ يَرْجِعُ كُلُّ نَفْسِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ بَعْدَ التَّصَاعُدِ مِنْهَا بِالْأَبْخَرَةِ.

[١٣] وَ الْأَرْضِ أَيْ قِسْمًا بِالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ الَّتِي تَتَصَدَّعُ وَ تَتَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا النَّبَاتُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٧

[سورة الطارق (٨٦): الآيات ١٣ إلى ١٧]

إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ (١٣) وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

[١٤] إِنَّهُ أَيْ الْقُرْآنَ، أَوْ مَا ذَكَرَهُ مِنْ رَجُوعِ الْخَلْقِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَ تَشَقُّقِ الْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَ هَذَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لَقَوْلِ فَضْلٍ يَفْصَلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ.

[١٥] وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ أَيْ اللَّعِبِ، فَإِنَّهُ كَلَامٌ وَاقِعِي لَا أَنَّهُ قِيلَ عَلَى وَجْهِ اللَّعْبِ وَ الْهَزْلِ.

[١٦] إِنَّهُمْ أَيْ الْكَافِرُونَ يَكِيدُونَ وَ يَحْتَالُونَ لِإِبْطَالِ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ فَضْلٍ كَيْدًا بِقَوْلِهِمْ إِنَّهُ شِعْرٌ وَ سِحْرٌ وَ كِهَانَةٌ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

[١٧] وَ أَكِيدُ أَيْ أُرِيدُ أَمْرًا آخَرَ ضِدَّ مَا يَرِيدُونَ، وَ سُمِّيَ كَيْدًا لِلْمَشَابَهَةِ كَيْدًا كَمَا أَنَّهُمْ يَكِيدُونَ.

[١٨] فَمَهْلٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكَافِرِينَ أَيْ انْتَظِرْ بِهِمْ قَلِيلًا فَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِهِمْ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا أَيْ زَمَانًا قَلِيلًا حَتَّى تَرَى بِأَسِ اللَّهِ فِيهِمْ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٨

٨٧ سورة الأعلى مكية / آياتها (٢٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الأعلى»، و هي كسائر السور المكية بصدد بيان العقيدة في أصولها، و إذ ختمت سورة «الطارق» بكيد الله سبحانه للكافرين افتتحت هذه السورة بأنه تعالى «أعلى» تأكيداً لما ذكر.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي له الخلق و الأمر، و هو الأول و الآخر، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على كل شيء بالرحمة، فضلاً منه و امتناناً، و ذكره تعالى بهذه الصفة يدر الرحمة على الذاكر، فإنه شاكر لمن شكره، و ذاكر لمن ذكره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٥٩

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

[٢] سَبَّحَ أى نزهه يا رسول الله، أو أيها المخاطب اسْمَ رَبِّكَ عما لا يليق به من الشرك و الولد، فلا تنسب إليه شيئاً ينافى مقام الألوهية و ذكر «اسم» للتعظيم، فمن يجب أن يسبح اسمه يجب أن يسبح هو بالأولى الأعلى أى الأرفع من كل شيء، فلا شيء أرفع منه فى العلم أو القدرة أو الخلق أو الرزق أو غير ذلك من سائر صفات الذات و صفات الفعل.

[٣] الَّذِي خَلَقَ الخلق كلهم فَسَوَّى بينهم فى الإحكام و الإتقان و الدقة، فليس بعض الخلق متقناً و بعضه غير متقن، كما سَوَّى خلق كل شيء فأعطاه ما يصل به إلى الكمال اللائق به من الأجهزة و الآلات.

[٤] وَالَّذِي قَدَّرَ و التقدير هو التخطيط، كما يقدر المهندس البناء ثم يبينه فَهَدَى كل ذى روح إلى مصالحه، فهو خلق، و إعطاء أجهزة، و تقدير للحياة، و هداية.

[٥] وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى أى أنبت الحشيش الذى ترعاه الحيوانات من الأرض.

[٦] فَجَعَلَهُ أى المرعى بعد الخضرة غُثَاءً أى هشيماً جافاً كالغثاء الذى تراه فوق السيل، بمعنى المجتمع من هنا و هناك بلا علاقة و ارتباط و مشابهة أَحْوَى أى أسود بعد الخضرة، فإن الحوة بمعنى السواد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٠

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ٦ الى ٨]

سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى (٧) وَ نُنَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨)
[٧] وَ من هدايته سبحانه أنه أنزل القرآن على الرسول،

و قد قال ابن عباس

كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذا أنزل عليه جبرئيل بالوحي يقرأه مخافةً أن ينساه، فكان لا يفرغ جبرئيل من آخر الوحي حتى يشرع الرسول فى القراءة.

فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية

«١» سَنُقَرِّئُكَ القرآن، أى نتلو عليك لتقرأه فَلَا تَنْسَى منه شيئاً، فقد شاءت إرادته سبحانه أن يكون النبى صلى الله عليه و آله و سلم منزهاً عن النسيان، و كذلك سائر الأنبياء عليهم السلام. أما قوله «تسى» فهو من قبيل «إِنَّا نَسِينَاكُمْ» (٢)، و لعل العمل كان تعليماً للمسلمين فيما بعد بأن يحرصوا على القرآن مثل هذا الحرص.

[٨] إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أن تنساه، و فيه دلالة على أن عدم نسيانه إنما هو من الله سبحانه، حتى أنه إذا شاء غيره قدر عليه، قالوا: و دخول المشيئة فى هذه الآية للدلالة على أن النبى مهما بلغ من العظمة فإن جميع أموره بيده تعالى إِنَّهُ سبحانه يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ مَا يَخْفَى كالسر و النجوى، فكل ذلك من الإقراء و عدم النسيان إلا بمشيئته تابع لعلمه الواسع الذى يشمل كل شيء، و بما علمه من الصلاح جعل النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحيث لا ينسى، و إلا فلو كان ينسى لم يؤمن على التبليغ، لتطرق احتمال النسيان فى كل شيء من أقواله و أفعاله.

[٩] وَ نُنَسِّرُكَ يا رسول الله، أى نوفقك لليسرى أى الطريقة اليسرى

(٢) السجدة: ١٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦١

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ٩ إلى ١٤]

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذُّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)

في جميع الأمور، فإن أحكامه سبحانه توصل إلى السعادة بأيسر الطرق و أسهلها.

[١٠] فَذَكِّرْ يا رسول الله الناس بما أودع فيهم من الفطرة الدالة على الألوهية والمعاد وما أشبه إن نَفَعَتِ الذُّكْرَى أى إن كان الذكر فى معرض النفع ولو إتمام الحجّة، أما إذا علم الرسول أن ذكره لا ينفَعُ إطلاقاً فى الهداية لليأس، و لا فى إتمام الحجّة لتمام الحجّة على المخاطبين سابقاً، فلا لزوم للتذكير. و قيل «إن» بمعنى «قد» أى قد نفعت الذكرى، بمعنى قد تنفع.

[١١] سَيَذَكِّرُ أصله «يتذكر» أدغمت التاء فى الذال و جىء بهمزة الوصل لتعذر الابتداء بالساكن مَنْ يَخْشَى أى سيتعظ بالقرآن و بكلامك من يخشى عقاب الله سبحانه.

[١٢] وَيَتَجَبَّبَهَا أى يتعد عن الموعظة و الذكرى الْأَشْقَى أى الأكثر شقوة، فإن الكافر المجتنب للذكرى أكثر شقاء من العاصى.

[١٣] الَّذِي يَصْلَى أى يدخل و يلزم النَّارَ الْكُبْرَى و هى نار جهنم.

[١٤] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فيها أى فى تلك النار ليستريح و لا يَحْيَى حياة هادئة مريحة.

[١٥] قَدْ أَفْلَحَ أى فاز و نجح مَنْ تَزَكَّى أى تطهر باجتنب الرذائل، و التحلى بالفضائل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٢

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١٥ إلى ١٩]

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)

[١٦] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ أى تذكر الله سبحانه بقلبه، و الإتيان ب «اسم» للتعظيم فَصَلَّى لله، أى خضع و خشع، أو أتى بالصلاة فإنها دليل خشوع الإنسان و تذكره لله تعالى. و فى بعض الروايات أن المراد بها زكاة الفطرة و صلاة العيد، و الظاهر أنها من باب المصداق، و انطباق الكلى على مصاديقه يمكن أن يكون بعد مدة- عند وجود المصداق فلا يقال: كيف يصح و السورة مكية و لم يكن هناك زكاة فطرة و لا صلاة عيد؟

[١٧] بَلْ أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ، و إنما تُؤَثِّرُونَ أى تختارون الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أى الحياة القريبة، تختارونها على الآخرة فتصرفون أموالكم و أوقاتكم فى ملاذها، لا فى الزكاة و الصلاة.

[١٨] وَالْآخِرَةُ أى الجنة خَيْرٌ من الدنيا، لأن نعيمها أكثر و لا يشوبها كدر و أَبْقَى لأنها دائمة مستمرة، بخلاف الدنيا فإنها فانية زائلة.

[١٩] إِنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ فَلَاحِ الْمُتَزَكِّيِ الْمُصَلِّيِ، أو سائر ما ذكر فى هذه السورة لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى فكل كتب الله المنزلة تحرض على الزكاة و الصلاة و سائر الخيرات، و ليس هذا بدعا من القرآن.

[٢٠] صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى و ذكر هذين النبيين من باب المثال، و إلا فكل الأنبياء كانوا يدعون إلى التزكى و التطهر و الصلاة و الزكاة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٣

٨٨ سورة الغاشية مكية / آياتها (٢٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «الغاشية»، و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و حيث تضمنت سورة الأعلى انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين، جاءت هذه السورة لمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله المالك لكل شيء فهو أفضل شيء يتبدأ به، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة على كل العباد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٤

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١ إلى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِي نَارًا حَامِيَةً (٤)

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ (٦)

[٢] هَلْ أَتَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أو يا رسول الله حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ أَيُّ خَيْرِ الْقِيَامَةِ؟ و تسمى بالغاشية لأنها تغشى الناس بأهوالها، و الاستفهام للإلفات و الإيقاظ.

[٣] وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ أَيُّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ خَاشِعَةٌ ذَلِيلَةٌ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِثْمِ، و إنما نسب الخشوع إلى الوجوه لظهوره فيها.

[٤] عَامِلَةٌ قَدِ عَمِلَتْ فِي النَّارِ وَ كَدَتْ نَاصِبَةً وَ تَعَبَتْ، فَإِنَّ النَّصْبَ بِمَعْنَى التَّعَبِ، و لكنها لم تنتفع بأعمالها و أتعابها، بل بالعكس صارت دنياه سببا للعذاب و العقاب.

[٥] تَصَلِي نَارًا أَيُّ تَدْخُلُ تِلْكَ الْوُجُوهُ النَّارَ وَ تَلَازِمُهَا حَامِيَةً قَدِ حَمَيْتُ حَتَّى تَنَاهَتْ فِي الْحَزِّ.

[٦] تُسْقَى أَيُّ أَصْحَابِ تِلْكَ الْوُجُوهِ، وَ قَدْ أُطْلِقَ الْوُجُوهُ عَلَى أَصْحَابِهَا بِعِلَاقَةِ الْجُزْءِ وَ الْكُلِّ، مِنْ قَبِيلِ إِطْلَاقِ «الرَّقَبَةُ» عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ قَدِ بَلَغَتْ حَرَارَتَهَا وَ أَنَاهَا إِلَى مَنْتَهَى الدَّرَجَةِ، فَإِنَّ آتِيَةً بِمَعْنَى الْبَالِغَةِ أَشَدَّ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ.

[٧] ذَاكَ شَرَابِهِمْ، فَمَا هُوَ طَعَامُهُمْ؟ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ وَ هُوَ نَبْتٌ يَضُرُّ وَ لَا يَنْفَعُ.

و فِي حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِنَّهُ شَيْءٌ يَكُونُ فِي النَّارِ يَشْبَهُ الشُّوكَ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ وَ أَنْتَنٌ مِنَ الْجَيْفَةِ وَ أَشَدُّ حَرًّا مِنَ النَّارِ

«١».

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٣٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٥

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ٧ إلى ١٤]

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْنِيَةٍ (١١)

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤)

[٨] لَا يُسْمِنُ أَكَلَهُ وَ لَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ فَآكَلَهُ يَحْسُ بِالْجُوعِ بَعْدَ أَكَلِهِ كَمَا يَحْسُ بِالْجُوعِ قَبْلَ أَكَلِهِ.

[٩] ذَلِكَ أَحْوَالُ الْعَصَاةِ فَلننظر إلى أحوال المتقين وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ أَيُّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ نَاعِمَةٌ مِنْعَمَةٌ فِي أَنْوَاعِ اللَّذَاتِ ظَاهِرٌ عَلَيْهَا أَثَرُ النِّعْمَةِ وَ السَّرُورِ.

[١٠] لِسْعِيهَا فِي الدُّنْيَا وَ مَا عَمِلَتْ سَابِقًا رَاضِيَةٌ حَيْثُ قَدِ حَصَلَتْ عَلَى الْجَنَّةِ بِسَبَبِهَا.

[١١] فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةُ الْمَكَانِ وَ الْقَدْرِ، فَإِنَّ قُصُورَهَا وَ مَكَانَهَا فِي أَعَالَى الْجُودِ.

[١٢] لا تَسْمَعُ أولئك الأشخاص أصحاب الوجوه الناعمة فيها في الجنة لا غِيَةَ أى كلمة ساقطة لا فائدة فيها.

[١٣] فيها أى في تلك الجنة عَيْنٌ جَارِيَةٌ تجرى حتى يتناول الماء كل إنسان يمر بها، و الماء الجارى أطيّب ذوقا و أجمل فى النظر.

[١٤] فيها أى في تلك الجنة سُرُرٌ جمع سرير، و هو الكرسي مَرْفُوعَةٌ فى المكان، و فى القيمة، و فى القدر.

[١٥] و أَكْوَابٌ جمع كوب، و هو قَدَحٌ صغير جميل مَوْضُوعَةٌ على حافات الأنهر للاستقاء و الشرب، و فى تقابل «موضوعه» ل «مرفوعة»

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٦

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١٥ الى ١٩]

وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زُرَابِيٌّ مَبْتُوثَةٌ (١٦) أَ فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

بلاغة بديعه.

[١٦] وَ نَمَارِقُ جمع نمرقة، و هى الوسادة التى يتكأ عليها مَصْفُوفَةٌ قد صف بعضها إلى جانب البعض.

[١٧] وَ زُرَابِيٌّ جمع زربى، و هو البساط مَبْتُوثَةٌ أى منتشرة مفروشة للجلوس عليها.

[١٨] و إذ ذكر سبحانه بعض أحوال الجنة و النار عطف السياق نحو الأدلة الدالة على الألوهية، تبعته للناس نحو السعادة الأبدية أ فلا يَنْظُرُونَ هؤلاء المنكرون للخالق إلى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ فى إحكام و تدقيق، و ليس لأى حيوان بالذات خصوصية، فى التذكير بالله سبحانه و الدلالة عليه، إذ كل حيوان آية دالة على وجود الله و سائر صفاته، و إنما ذكر الإبل لأنها إحدى الآيات الأليفة للعرب، مع مناسبة لها بسائر ما ذكر فى الآيات التالية فإن السماء المرفوعة و الأرض المسطوحة الوسيعة و الجبال المرفوعة إنما تلائمها الإبل السائرة عبر الصحارى حيث لا شىء إلا الأرض و الجبال و السماء.

[١٩] وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ و المراد بها الكواكب، أو المدارات، أو ما يرى من الهواء الملون.

[٢٠] وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ على الأرض كالأوتاد لئلا تزول و تتحرك و تضطرب؟.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٧

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيَعَذَّبُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

[٢١] وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ أى بسطت لتصلح طرائق للناس، و المراد أ فلا يتفكرون فى هذه المخلوقات حتى يستدلوا بها على وجوده سبحانه و سائر صفاته؟ و الاستفهام للتوبيخ و التقرير.

[٢٢] فَذَكِّرْ يا رسول الله الناس بهذه الآيات إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ تبين لهم الحقائق ليتذكروا ما أودع فى فطرتهم من الألوهية و المعاد و ما أشبه.

[٢٣] لَسْتَ عَلَيْهِمْ أى على هؤلاء القوم بِمُصَيِّرٍ أى بمسلط، حتى تكون مسئولاً عن انحرافهم، و إنما شأن الأنبياء التذكير و الوعظ، فمن شاء اهتدى و من شاء انحرف.

[٢٤] فَذَكِّرْ، فإن الذكرى تنفع إلا فى مَنْ تَوَلَّى أى من أعرض عن الحق وَ كَفَرَ بالله و اليوم الآخر، و ذلك لا- يفلت من قبضة الله سبحانه.

[٢٥] فَيَعَذَّبُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ و هو عذاب الآخرة.

[٢٦] إِنَّ إِلَيْنَا أَى إِلَى جزائنا و حسابنا إِيَابُهُمْ أَى رجوعهم بعد الموت، من «آب» بمعنى رجوع.
 [٢٧] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بعد الإياب حسابُهُمْ فيحاسب كل بما عمل، و يعطى جزاؤه إن شرافش و إن خيرا فخير.
 تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٨

٨٩ سورة الفجر مكية / آياتها (٣١)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «الفجر»، و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة فى أصولها، و لما ختمت سورة الغاشية بذكر عذاب «من تولى» فى الآخرة ابتدأت هذه السورة بذكر تعذيبهم فى الدنيا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الله الذى بيده كل شىء، و هو المبدأ و المعاد، و هل شىء أولى بالابتداء من اسم الله تعالى؟

الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحمة على العباد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٦٩

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَ لِيَالِ عَشْرِ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الوَثْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)

[٢] وَ الْفَجْرِ أَى قسما بالفجر، و هو انفجار الصبح قبل طلوع الشمس، فإن النور يظهر ممتدا فى جانب المشرق قبل ساعة و نصف من الطلوع.

[٣] وَ لِيَالِ عَشْرِ أَى قسما بالليالى العشر من ذى الحجة- على ما ذكروا- و كأن الحلف هنا بما ينشأ منه الخير، فإن الفجر ينشأ منه الضياء، و هذه الليالى محل الأعمال و الطاعات.

[٤] وَ قسما ب الشَّفْعِ ركعتا صلاة الليل وَ الوَثْرِ الركعة الأخيرة منها، أو الشفع يوم ترويه، و الوتر يوم عرفه- كما روى-

[٥] وَ قسما ب اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ أَى يمضى، كقوله: وَ اللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ «١» و أصله «يسرى» حذف الياء للسياق، و المقسم له محذوف، تقديره لنعاقب الكفار، دل عليه قوله «ألم تر ..».

[٦] هَلْ فِي ذَلِكَ الذى تقدم من الأيمان قَسَمٌ يكن لِذِي حِجْرٍ أَى ذى عقل؟ فإن «الحجر» من أسماء العقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عن الإتيان بما لا يليق به، و الاستفهام للتأنيب، بمعنى كيف لا تصدقون بما نقول بعد هذه الأيمان؟.

[٧] أَلَمْ تَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها السامع، و المراد بالرؤية العلم، أى ألم تعلم كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ أَى بقبيله عاد؟

[٨] إِرْمَ عطف بيان ل «عاد»، و هى اسم أرض بنت عاد عليها أبنية فخمه

(١) المدثر: ٣٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٠

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ٨ الى ١٠]

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَ تَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَ فِرْعَوْنَ ذَى الْأَوْتَادِ (١٠)

جميلة، و إنما مع أن تكون «إرم» عطف بيان، لأن «عادا» اسم لقبيلتين «عاد» الأولى و «عاد» الثانية، فالأولى كانت صاحبة «إرم» و التقدير «عاد إرم»، و هذا كما تقول «مرت بنى هاشم، المدينة المنورة» ذات العِمَادِ جمعه عمد، أى أبنية إرم التى كانت لها أعمدة، و

يستعمل العماد في القوة و الشرف، يقال «فلان رفيع العماد».

فقد قالوا إن «شداد» من أبناء «عاد» توسع سلطانه، و عظم أمره، و كان كافرا بالله، فسمع بالجنه و أوصافها، فقال نبني في الأرض مثلها، فبناها في «إرم» و سميت بهذا الاسم، و كانت عظيمه فخمه جميله ذات قصور و حدائق و أثاث و رياض، فلما أن أراد هو و قومه و جيشه دخولها أهلكهم الله سبحانه، بأن بعث عليهم صيحه عظيمه فهلكوا جميعا.

[٩] الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا أَى مِثْلَ قَبِيلَةِ عَادٍ - فِي الْقُوَّةِ وَ الثَّرْوَةِ وَ مَا أَشْبَهَ - أَوْ مِثْلَ «إِرْمٍ» فِي الْفَخَامَةِ وَ الضَّخَامَةِ وَ الْجَمَالِ فِي الْبِلَادِ وَ الظَّاهِرِ أَنَّ الْمُرَادَ عَدَمَ خَلْقِ مِثْلِهَا فِي تِلْكَ الْأَزْمَنَةِ، لَا مُطْلَقًا.

[١٠] وَ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِ تَمُودَ قَوْمِ صَالِحِ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ أَى قَطَعُوا الصَّخْرَ مِنَ الْجِبَالِ، وَ جَاءُوا بِهَا بِالْوَادِ أَى قَرَى، وَ هُوَ مَسْكَنُهُمْ فَبَنَوْا بِهَا الْبُيُوتَ الصَّخْرِيَّةَ؟

[١١] وَ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِ فِرْعَوْنَ ذِي الْأُوتَادِ جَمَعَ «وَتَد» الَّذِي كَانَ يَدُقُّ فِي جِسْمِ مَخَالَفِيهِ الْوَتَدَ، وَ يَذَرُهُ حَتَّى يَمُوتَ - كَمَا قِيلَ -

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧١

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١١ الى ١٥]

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الْمُرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)

و المراد به فرعون موسى عليه السلام و قد مثل الله سبحانه بأقوى الأمم في زمانهم، ليبين أنهم حيث عتوا و خالفوا أوامر الله سبحانه أهلكهم سبحانه و لم تنفعهم قوتهم شيئا و مصير هؤلاء الكفار- الذين هم أضعف من أولئك- مصير أولئك لو تبادوا في الكفر و الطغيان.

[١٢] الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ أَى تَجَبَرُوا عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَ عَمِلُوا بِالْكَفْرِ وَ الْمَعَاصِي.

[١٣] فَأَكْثَرُوا فِيهَا أَى فِي الْبِلَادِ الْفَسَادَ بِالْقَتْلِ وَ الْفُجُورِ وَ غَيْرِهِمَا.

[١٤] فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ وَ إِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْعَذَابِ بِالسُّوْطِ لِشِدَّةِ إِيْلَامِهِ، وَ نَسَبَ إِلَيْهِ الصَّبَّ لِأَنَّ السُّوْطَ حَيْثُ فِيهِ لِينٌ يَأْتِي إِلَى الْجِسْمِ تَدْرِيجًا مُشَابِهًا لِلصَّبِّ، الَّذِي يَأْتِي عَلَى الْجِسْمِ بِتَدْرِيجٍ - وَ فِي هَذَا التَّعْبِيرِ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا لَا يَخْفَى -.

[١٥] إِنَّ رَبَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَبَلِ الْمُرْصَادِ هُوَ الْمَحَلُّ الَّذِي يَجْلِسُ الْإِنْسَانُ لِيُرْصِدَ وَ يَرِاقِبَ أَحْوَالَ غَيْرِهِ - مِنْ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ - وَ هَذَا كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى النَّاسِ، فَمَنْ كَفَرَ وَ أَسَاءَ مَرِاقِبَ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى، لَا يَفُوتُهُ.

[١٦] وَ هَكَذَا يَطْعَى الْإِنْسَانُ - لِيَكُونَ لَهُ ذَلِكَ الْمَصِيرُ - إِذَا لَمْ يَسْتَرْشِدْ بِإِرْشَادَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَمَّا الْإِنْسَانُ وَ الْمُرَادُ بِهِ الَّذِي لَمْ يَهْتَدِ بِنُورِ الْإِيمَانِ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ أَى امْتَحَنَهُ وَ اخْتَبَرَهُ، وَ «مَا» مَزِيدَةٌ حَيْثُ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٢

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٦ الى ١٧]

وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْبَيْتِيمَ (١٧)

للتأكيد، و لعل النكتة في زيادتها الإلماح إلى أن «ابتلاء» ليس بابتلاء حقيقة، و إنما هو شيء طفيف يصيبه و مع ذلك لا ينجح في الامتحان فأكرمه و نعمة بأن جعل له مكانا كريما ذا شرافة، و نعمة وافر، ليختبره هل يعمل بوظيفته في الثروة و الجاه أم لا؟ فيفرح بذلك و يظنه ثوابا له و جزاء على عمله، و أنه باستحقاق أوتي ما أوتي و يقول رَبِّي أَكْرَمَنِ حذفت الياء تخفيفا، أَى أن هذا لكرامتي على الله، و لا يعتبره امتحانا.

[١٧] وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ أَى امْتَحَنَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ بِالْفَقْرِ وَ الضُّعْفِ فَقَدَرَ أَى ضَيَّقَ عَلَيْهِ أَى عَلَى الْإِنْسَانِ رِزْقَهُ فَجَعَلَهُ فَقِيرًا مَمْلُوقًا فَيَحْزَنُ

لذلك و يظن أن ذلك هوان من الله عليه، و يقول رَبِّي أَهَانَنِي أَى أَهَانَنِي، و لا يعتبر ذلك ابتلاء، و هذا بخلاف الإنسان المؤمن الذى يرى كل شىء يصيبه اختبارا و امتحانا، فيخاف من النعمة لئلا يعصى الله فيها فلا يشكره، و لا يحزن من الفقر لأنه يعتبره امتحانا له إن صبر كان رفعا لدرجته.

[١٨] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَ هَذَا الْإِنْسَانُ، فَإِنَّ التَّنْعِيمَ لَيْسَ لِكِرَامَةٍ، وَ الْإِفْقَارَ لَيْسَ لِأَهَانَةٍ بَلْ كُلُّ ذَلِكَ مُخْتَلَفٌ، وَ الْمَجْمُوعُ لِلْإِبْتِلَاءِ وَ الْإِخْتِبَارِ بَلْ إِنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ حِكْمَةِ الْإِعْطَاءِ وَ الْمَنْعِ، ذَاهِلُونَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لِلْإِبْتِلَاءِ، وَ لِذَا لَا يَقُومُونَ بِوَأَجِبِ الْعَطَاءِ- وَ لَمْ يَذْكُرِ الْقِيَامَ بِوَأَجِبِ الْفَقْرِ مِنَ الصَّبْرِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ مُوجَّهًا نَحْوَ الْأَغْنِيَاءِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ مِثْلَ لَهُمْ بِمِصَارِعِ عَادٍ وَ ثَمُودٍ وَ فِرْعَوْنَ- فِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٣

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١٨ الى ٢١]

وَ لَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١)

لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ الَّذِي مَاتَ أَبُوَاهُ، يَاوِيَاهُ وَ إِعْطَاهُ.

[١٩] وَ لَا تَحَاضُّونَ مِنَ الْحِضِّ- وَ هُوَ الْحِثُّ- أَى لَا يَحِثُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ أَى الْفَقِيرِ الَّذِي أَسْكَنَهُ فَقْرُهُ عَنِ الْحَرَكَةِ فِي الْأُمُورِ.

[٢٠] وَ تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَى الْمِيرَاثَ أَكْلًا لَمًّا شَدِيدًا تَلْمُونَ جَمِيعَهُ فِي الْأَكْلِ، بَلَا إِعْطَاءِ حَقُوقِ الْمَيْتِ، وَ حَقُوقِ اللَّهِ، وَ حَقُوقِ سَائِرِ ذَوَى الْمِيرَاثِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَحْرَمُونَ النِّسَاءَ وَ الصِّبْيَانَ وَ الضَّعْفَاءَ مِنَ الْوَرِثَةِ، فَلَا يُعْطَوْنَهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا، وَ هَذَا دَلِيلُ الشَّرِّهِ نَحْوَ الْمَالِ وَ إِنَّهُمْ لَا يُجْعَلُونَ الْمَالَ دَلِيلًا لِلْإِبْتِلَاءِ، بَلْ دَلِيلًا لِتَكْرِيمِ اللَّهِ لَهُمْ.

[٢١] وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا أَى حُبًّا كَثِيرًا شَدِيدًا، حَتَّى أَنَّهُمْ لَا يَنْفِقُونَهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَسْتَحِبُّ إِئْفَاقَهُ، كَمَا هُوَ شَأْنٌ مِنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَ لَا يُجْعَلُ الْمَالَ دَلِيلًا لِلْإِبْتِلَاءِ لِيَعْمَلَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ يَخْشَى مَغْبِتَهُ.

[٢٢] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ بِأَنَّهُ لَا- عَوَاقِبُ وَ خِيْمَةٌ لِأَعْمَالِكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ مِنْ يَظُنُّ تَكْرِيمَ اللَّهِ لَهُ يَسْهَلُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْوِظَائِفِ فِي أُمُورِهِ وَ شَأُونِهِ فِ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ أَى كَسَرَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى ظَهْرِهَا دَكًّا دَكًّا كَسَرًا كَسْرًا، مِنْ جِبَالٍ وَ مَرْتَفَعَاتٍ وَ أَنْصَبَةٍ وَ أَشْبَاهِهَا، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَسْوِي حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِهَا عِوَجٌ وَ لَا أَمْتٌ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٤

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ٢٢ الى ٢٥]

وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أَنَّى لَهُ الذُّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥)

[٢٣] وَ جَاءَ رَبُّكَ أَى أَمْرُ رَبِّكَ، كَمَا يَظْهَرُ مَلُوكِ الدُّنْيَا فِي هَيْبَةٍ وَ جَلَالٍ، فَإِنَّ الْهَيْبَةَ وَ الْجَلَالَ الَّتِي تَظْهَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ تَكُونُ بِمِثَابَةِ مَجِيءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لَكِنَّهُ حَيْثُ كَانَ مَنزَاجُهَا عَنِ الْجِسْمِ وَ لَوَازِمِهِ، يَجِيءُ آثَارُ جَلَالِهِ وَ جَاءَ الْمَلَكُ الْمُرْبُطُونَ بِذَلِكَ الْيَوْمِ فِي حَالِ كَوْنِهِمْ صَفًّا صَفًّا أَى مُصْطَفِينَ صَفُوفًا مُتَعَدَّةً.

[٢٤] وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ أَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجَهَنَّمَ بِأَنَّ تَمْتَدَّ نِيرَانُهَا إِلَى الْمَحْشَرِ بَعْدَ مَا كَانَتْ مَبْتَعَدَةً مُسْتَعَدَّةً لِالْتِهَامِ الْكُفَّارِ وَ الْعَاصِينَ يَوْمَئِذٍ أَى فِي هَذَا الْيَوْمِ- وَ أَصْلُهُ يَوْمٌ إِذْ كَانَ كَذَا- يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أَى يَتَعَطَّى وَ يَخَافُ وَ يَهْتَدِي وَ لَكِنْ أَنَّى لَهُ الذُّكْرَى أَى مِنْ أَيْنَ يَنْفَعُهُ التَّذَكُّرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَدْ مَضَى وَقْتُ نَفْعِ التَّذَكُّرِ، وَ إِنَّمَا هُنَاكَ جِزَاءٌ فَقَطْ لَا عَمَلٌ.

[٢٥] يَقُولُ الْإِنْسَانُ الْعَاصِي، يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ عَمَلًا صَالِحًا لِحَيَاتِي هَذِهِ الَّتِي تَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ، وَ لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُ التَّمَنَّى، كَمَا يَقُولُ الْمِثْلُ «نَدَمٌ زَيْدٌ وَ لَمَّا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ».

[٢٦] فَيَوْمَئِذٍ أَي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يُعَذَّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ أَي لَا يَعَذَّبُ مِثْلَ عَذَابِ اللَّهِ أَحَدٌ، فَإِنَّ عَذَابَهُ لَيْسَ كَسَائِرِ أَنْوَاعِ عَذَابِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا هُوَ عَذَابٌ غَرِيبٌ عَجِيبٌ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٥

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ٢٦ إلى ٣٠]

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

[٢٧] وَ يَوْمَئِذٍ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَي مِثْلَ وَثَاقِهِ سَبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ أَحَدٌ وَ الْوِثَاقُ هُوَ الشَّدُّ، يُقَالُ أَوْثَقْتَهُ أَي شَدَدْتَهُ.

[٢٨] ثُمَّ يَخَاطَبُ الْمُؤْمِنُونَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ مِنْ أَهْوَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَمَّا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْإِطَاعَةِ.

[٢٩] ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ أَي إِلَىٰ ثَوَابِهِ وَ جَزَائِهِ فِي حَالِ كَوْنِكَ رَاضِيَةً عَنْ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَرْضِيَّةً لَهُ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ رَاضٍ عَنْكَ بِسَبَبِ إِيْمَانِكَ وَ أَعْمَالِكَ.

[٣٠] فَادْخُلِي فِي زَمْرَةِ عِبَادِي الصَّالِحِينَ.

[٣١] وَادْخُلِي جَنَّتِي فَأَنْتِ فِي رِضَايَ وَ فِي جَنَّتِي، وَ كَأَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّفْسِ لَزِيَادَةِ التَّكْرِيمِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَحْمَلُ أَتْعَابَ الْجَسَدِ، فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تَكُونَ هِيَ صَاحِبَةُ الثَّوْبَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٦

٩٠ سورة البلد مكية / آياتها (٢١)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «بلد»، و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة و تحتج عليها، و حيث كانت السورة السابقة لتقسيم الناس إلى صالحين و طالحين جاءت هذه السورة لتبين ذلك بوجه آخر.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدئ باسم الله، و إنما جاء بالاسم لأنه هو المبدوء به لا- الذات، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بتكميل نواقصهم و إبلاغهم الكمال الممكن فيهم تكويننا و إرشادنا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٧

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١ إلى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَ أَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَ الْوَالِدِ وَ مَا وَلَدٌ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)
أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥)

[٢] لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَ الْمُرَادُ بِهِ مَكَّةُ، وَ «لَا» إِذَا لُفِّيَ جِئَ بِهَا لِلتَّلْوِيحِ إِلَى الْقِسْمِ مَعَ تَعْظِيمِ الْمَقْسَمِ بِهِ، وَ إِذَا زَائِدَةٌ، فَالْمَعْنَى أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ تَنَاسَبُ الْأَمْرَيْنِ بِاعْتِبَارَيْنِ.

[٣] وَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَلٌّ أَي مُقِيمٌ قَدْ حَلَلْتَ بِهَذَا الْبَلَدِ فَإِنَّهُ قَدْ تَشْرَفَ بِكَ، فَإِنَّ شَرَفَ الْمَنْزِلِ بِشَرَفِ النَّازِلِ، وَ «الْحَلُّ» بِمَعْنَى الْحَالِ، وَ كِلَاهُمَا بِمَعْنَى السَّاكِنِ، فَهَذَا الْبَلَدُ إِذَا يَقْسَمُ بِهِ لَشَرَفِهِ بِكَ أَوْ يَعْظَمُ فَلَا يَقْسَمُ بِهِ لَشَرَفِهِ بِكَ.

[٤] وَ قَسَمَ بِالْوَالِدِ وَ مَا وَلَدٌ أَي كُلِّ وَالِدٍ وَ كُلِّ وَلَدٍ، أَوِ الْمُرَادُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ أَوْلَادِهِ، فَإِنَّ كُلَّ خَلْقِ اللَّهِ عَظِيمٌ يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ فِي مَعْرِضِ الْقِسْمِ. نَعَمْ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَحْلِفَ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَمَّا

ورد من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ

«مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لَيْسَكَ»

(١).

[٥] و جواب القسم قوله: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ أى فى تعب و مشقة، فإنه يكابد الشدائد و المصائب و المتاعب، فإن «الكبد» لغة بمعنى شدة الأمر، و المعنى أنه لا يزال يكابد الأتعاب- بما قدر الله له و للكون من الأنظمة- و لذا قال تعالى فى حديث قدسى «إني ما جعلت الراحة فى الدنيا و الناس يطلبونها فيها فلا يجدوها».

[٦] إن الإنسان الذى خلق فى عناء و مشقة، ليدل ذلك على ضعفه و عجزه إذا رأى بعض القوة فى ذاته عتا و تكبر و زعم أنه لا قادر عليه

(١) متشابه القرآن و مختلفه: ج ٢ ص ١٩٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٨

[سورة البلد (٩٠): الآيات ٦ الى ٩]

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْ حَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ (٩) أَيْ حَسَبُ أَى هل يظن و يزعم الإنسان أن لن يُقَدَّرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بسلبه القوة و الثروة و الحياة و ما أشبه؟

[٧] و إذا قيل له: ابتغ مرضاه الله ببذل الأموال فى سبيله لأنك عبد عاجز ضعيف له سبحانه، و هو قادر على تقليبك كيف يشاء يُقُولُ فى الجواب: أَهْلَكْتُ فى الإنفاق مَالًا لُبَدًا أى كثيرا، مأخوذ من تلبد الشيء إذا تراكم بعضه على بعضه، و حسبى ما أنفقت- كما أن هذا هو منطق الأثرياء غالبا-.

[٨] أَيْ حَسَبُ أَى يزعم أن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ حيث أنفق؟ بل إن الله رآه و عرف قدر إنفاقه و لم يكن ما أنفق كثيرا بالنسبة إلى أمواله و بالنسبة إلى مقابلته بالثواب المرجو فى الآخرة للمنفقين. قيل: إنها نزلت فى الحرث، و ذلك أنه أذنب ذنبا فاستفتى رسول الله؟ فأمره أن يكفر، فقال: لقد ذهب مالى فى الكفارات و النفقات منذ دخلت فى دين محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

[٩] إنه يبخل عن بذل بعض ماله فى سبيل الله الذى أودع فيه القوى التى لا تتمن بثمر فلم يؤد شكرها، و لم يبصر بسببها طريق الرشاد أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ليصير بهما و يرى طريقه؟

[١٠] وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ لينطق به و يتجمل بالشفة لعدم قبح منظره بغير الفم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٧٩

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١٠ الى ١٥]

وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)

[١١] وَ هَدَيْنَاهُ أى أرشدناه النَّجْدَيْنِ أى سبيل الخير و سبيل الشر، و أصل «النجد» هو العلو، و كأن الطريق موجب لارتفاع الإنسان ارتفاعا معنويا بوصوله إلى حاجته، أو لظهور الطريق سمي نجدا تشبيها بالمرتفع من الأرض.

[١٢] فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ «الاقتحام» هو الدخول فى الشيء بشدة، و «عقبه» هى الطريق الصعب فى الجبل، أى أن الإنسان لم يشكر تلك النعم التى أعطيناها إياه باقتحام الأمور الحسنه و العمل بها، و سميت عقبه لشدة أمرها على الإنسان.

[١٣] وَ مَا أَدْرَاكَ أَيها السامع مَا الْعَقَبَةُ أى ما هى العقبة؟ و هذا التعبير لتعظيم أمرها و الإجلال لها، ثم فسرت العقبة بأنه عتق العبد و الإطعام.

[١٤] الْعَقَبَةُ هى فَكُّ رَقَبَةٍ أى تحرير العبد من إسهار الرق، و إنما أطلق على الإنسان «الرقبة» بعلاقة الجزء و الكل - كما قرر فى البلاغة.

[١٥] أَوْ إِطْعَامٌ «أو» بمعنى الواو، يعنى أن من أفراد «العقبه» إطعام الناس فى يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ «السغب» هو الجوع، و المسغبة المجاعة.

[١٦] يَتِيمًا مَفْعُولٌ «إِطْعَامٌ» أَي لِيُطْعَمَ الطِّفْلَ الَّذِي مَاتَ أَبُوهُ ذَا مَقْرَبَةٍ أَي ذَا قَرَابَةٍ مِنَ الْمَطْعَمِ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ إِلَى الْأَقْرَبَاءِ أَفْضَلُ مِنَ الْإِحْسَانِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٠

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١٦ إلى ١٨]

أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) إِلَى غَيْرِهِمْ، كَمَا

قال عليه السلام «لا صدقة و ذو رحم كاشح»

«١».

[١٧] أَوْ مَسْكِينًا وَهُوَ الْفَقِيرُ الَّذِي أَسْكَنَهُ الْفَقْرُ، فَإِنَّ الْأَغْنِيَاءَ يَتَحَرَّكُونَ فِي مُخْتَلَفِ حَوَائِجِهِمْ، أَمَّا الْفُقَرَاءُ فَإِنَّهُمْ حَيْثُ لَا مَالَ لَهُمْ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الشُّؤْنِ ذَا مَتْرَبَةٍ بِمَعْنَى الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ «تَرَبُّ الرَّجُلِ» إِذَا افْتَقَرَ، وَأَصْلُهُ مِنَ التَّرَابِ، لِأَنَّ الْفَقْرَ يَلْزِمُ التَّرَابَ، لِعَدَمِ فَرَّاشٍ لَهُ لِيَقِيَهُ مِنْهُ، فَالْمَعْنَى قَدْ لَصِقَ بِالتَّرَابِ مِنْ شِدَّةِ فَقْرِهِ.

[١٨] ثُمَّ لَتَرْتِيبِ الْكَلِمَةِ لَا تَرْتِيبِ الْمَطْلَبِ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَمْ يَقْتَحِمِ الْعَقْبَةَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ مَا جَاءَ بِهِ، وَ هَذَا عَطْفٌ عَلَى النَّفْسِ، أَي لَمْ يَقْتَحِمِ الْعَقْبَةَ مَعَ كَوْنِهِ مُؤْمِنًا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ أَي أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَنْ يَصْبِرَ عَلَى الشَّدَائِدِ، طَاعَةٌ كَانَتْ أَوْ مَعْصِيَةٌ أَوْ مَعْصِيَةٌ، بِأَنْ يَعْمَلَ الْأَوَّلَ، وَ يَتْرَكَ الثَّانِي، وَ لَا يَجْزَعُ فِي الثَّلَاثِ وَ تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أَي بِرَحْمِ النَّاسِ وَ الْعَطْفِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ «مَرْحَمَةً» مُصَدَّرٌ مِمَّا بِمَعْنَى الرَّحْمِ.

[١٩] أُولَئِكَ الْمُتَصَفُّونَ بِفِكَ الرِّقَابِ وَ إِطْعَامِ الطَّعَامِ وَ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ وَ الْمَرْحَمَةِ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ يُؤْخَذُ بِهِمْ - فِي الْقِيَامَةِ - نَاحِيَةُ الْيَمِينِ نَحْوَ الْجَنَانِ، وَ يَعْطُونَ كِتَابَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، أَوْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ يَمَنِ وَ بَرَكَةٌ.

(١) راجع من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٦٨، وردت كلمة محتاج بدل كاشح في الحديث.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨١

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١٩ إلى ٢٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

[٢٠] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا حَجَّجْنَا الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ سَائِرِ الْأَصُولِ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَصْحَابَ شُؤْمٍ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

[٢١] عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ أَي أَنَّ أَبْوَابَ النَّارِ عَلَيْهِمْ مَسْدُودَةٌ مُطْبَقَةٌ، مِنْ أَوْصَدَ الْبَابَ: إِذَا سَدَّهُ وَ غَلَقَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٢

٩١ سورة الشمس مكية / آياتها (١٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «الشمس»، و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و هي مثل السورة السابقة تصنف الناس صنفين: صنفا للنار، و صنفا للجنة.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَسْتَعِينُ بِاسْمِ الْإِلَهِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مَعِينٍ لِمَنْ اسْتَعَانَ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الَّذِي يُتَّفَضَّلُ بِالرَّحْمَةِ وَ الْعَطْفِ لِكُلِّ خَلْقٍ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ «١».

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٣

[سورة الشمس (٩١): الآيات ١ إلى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)

[٢] وَالشَّمْسِ أَى قسما بالشمس و قسما ب ضحاها أى انبساط ضوءها فى الآفاق.

[٣] وَقسما ب الْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا أَى تبع الشمس، فأخذ من ضوءها و سار فى عقبها.

[٤] وَقسما ب النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا أَى جلى الشمس و أظهرها و فيه لطف حيث أسند تجليهُ الشمس إلى النهار من باب «القلب»، فكأن

النهار لشده ضوءه يوضح الشمس و يظهرها، كما قال أهل البلاغة فى قوله «كما طينت بالفدن السباعا».

[٥] وَقسما ب اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا أَى يغشى الشمس فيغطيها عن الأبصار و يخفيها.

[٦] وَقسما ب السَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا أَى «و قسما بمن بنى السماء» و المراد به الله تعالى، أو «ما» مصدرية، أى و بنائها المحكم المتقن.

[٧] وَقسما ب الْمَآرِضِ وَمَا طَحَّاهَا «الطحو» بمعنى البسط، أى و من بسطها و هو الله، أو طحوها، على أن تكون «ما» مصدرية- كما

سبق-.

[٨] وَنَفْسٍ أَى قسما بكل نفس، و الإتيان بها نكرة للتفنن و البلاغة وَمَا سَوَّاهَا أَى الذى صنعها، و كون «ما» موصولة- هنا- أقرب،

بقريته الآية التالية.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٤

[سورة الشمس (٩١): الآيات ٨ إلى ١٢]

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢)

[٩] فَأَلْهَمَهَا أَى عزفها بطريق الإلقاء فى القلب فُجُورَهَا أى عصيانها وَتَقْوَاهَا أى إطاعتها، فإن كل إنسان يميز بين الخير و الشر و الطاعة

و العصيان، و هذه الأقسام فى هذه السورة و غيرها إنما تلفت الأنظار إلى هذه الآيات و المعارف، بالإضافة إلى كونها حلفا، فلا يقال:

أية حاجة لهذه الأيمان؟

[١٠] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا هذا هو المقسم له، أى فاز من زكى نفسه و طهرها من الآثام و الكفر.

[١١] وَقَدْ خَابَ أَى خسر مَنْ دَسَّاهَا أى أحملها و أخفى محلها بالكفر و العصيان، فإن «دس» نقيض «زكى».

[١٢] ثم جاء السياق ليهدد الذين يدسون أنفسهم بأن مصيرهم مصير أولئك الأتوام المكذبين من قبلهم كَذَّبَتْ ثَمُودُ أَى قبيلة ثمود و

هم قوم صالح عليه السلام بِطَغْوَاهَا أى بسبب طغيانها، فإن الطغيان يوجب التكذيب و الكفر كما قال سبحانه ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا

السُّوَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ «١». و «طغوى» و «طغيان» بمعنى واحد، و هو مجاوزة الحد فى العصيان.

[١٣] إِذِ انبَعَثَ فقد بعثه الأشقياء لارتكاب هذه الجناية، فانبعث أشقاهها أى أشقى ثمود، بمعنى الفرد الذى هو أكثر شقوة من غيره

(١) الروم: ١١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٥

[سورة الشمس (٩١): الآيات ١٣ إلى ١٥]

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

من أفراد القبيلة، و هو «قدار»، و هو الذى عقر الناقة.

[١٤] فَقَالَ لَهُمْ تَفْرِيعَ عَلِيٍّ «كَذَبْتَ» لَا عَلِيٍّ «أَنْبَعَثَ»، وَ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ رَسُولُ اللَّهِ وَ الْمُرَادُ بِهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَحْذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ بِأَنْ تَمْسُوهَا بِسُوءٍ وَ أَحْذَرُوا سُقْيَاهَا أَى شَرِبَهَا مِنْ الْمَاءِ فَلَا تَزْجُرُوهَا فِي شَرِبِهَا، فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ نَهْرٌ، وَ قَرَّرَ صَالِحٌ أَنْ يَكُونَ مَاءُ النَّهْرِ يَوْمًا لِلنَّاقَةِ وَ تَعْطَى بِعُوضِ اللَّبَنِ بِقَدْرِ احتِياجِ القَبِيلَةِ، وَ يَوْمًا لِلنَّاسِ، وَ قَالَ لَهُمْ: إِنْ مَسَسْتُمُ النَّاقَةَ بِسُوءٍ أَخَذَكُمُ الْعَذَابُ - كَمَا تَقْدَمُ تَفْصِيلُ القِصَّةِ -.

[١٥] فَكَذَّبُوهُ أَى كَذَبَ أَهْلُ قَبِيلَةِ ثَمُودَ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْمُتَقَدِّمُ بِاسْمِ «رَسُولِ اللَّهِ» - فَعَفَّرُوهَا أَى نَحَرُوا النَّاقَةَ وَ ضَرَبُوا يَدَيْهَا وَ رَجَلَيْهَا بِالسَّيْفِ، وَ الْعَاقِرُ كَانَ وَاحِدًا لَكِنْ تَأْمَرُهُمْ عَلَيٌّ ذَلِكَ وَ رِضَاهُمْ بِهِ أَوْجِبَ إِسْنَادَ الفِعْلِ إِلَى جَمِيعِهِمْ فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَى دَمَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّ الدَّمْدَمَةَ تَرْدِيدُ الحَالِ المُسْتَكْرَه بِمُضَاعَفَتِهِ مَا فِيهِ المُشَقَّةُ بِذَنبِهِمْ أَى بِسَبَبِ ذَنبِهِمْ بَعَثَ النَّاقَةَ فَسَوَّاهَا أَى سَوَّى اللَّهُ الدَّمْدَمَةَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ بِحَيْثُ لَمْ يَفْلِتْ مِنْهَا أَحَدٌ، أَوْ سَوَّى اللَّهُ أَرْضَهُمْ بِحَيْثُ اسْتَوَتْ فَلَا شَيْءَ فِيهَا.

[١٦] وَ لَا يَخَافُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عُقْبَاهَا أَى عَاقِبَةُ الدَّمْدَمَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ السُّلْطَانُ المُطْلَقُ الَّذِي لَا مَعْقِبَ لِأَمْرِهِ، وَ لَيْسَ كَأَفْرَادِ البَشَرِ - الَّذِينَ يَخَافُونَ عَاقِبَةَ بَعْضِ أَعْمَالِهِمْ - وَ إِنْ بَلَّغُوا مَا بَلَّغُوا مِنَ السُّلْطَةِ وَ الشُّوْكَةِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٦

٩٢ سورة الليل مكية / آياتها (٢٢)

سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَذَا الاسْمِ لِاسْتِمَالِهَا عَلَيَّ لِفِظَةِ «الليل»، وَ هِيَ كَسَائِرُ السُّورِ المَكِّيَّةِ تُشْتَمِلُ عَلَيَّ قِضَايَا العَقِيدَةِ، وَ يَظْهَرُ مِنَ القِصَّةِ الآتِيَةِ أَنَّهَا مَدِينِيَّةٌ أَوْ بَعْضُهَا، وَ هَذِهِ السُّورَةُ كَالسُّورَةِ السَّابِقَةِ بِصَدَدِ تَصْنِيفِ النَّاسِ إِلَى صَنَفَيْنِ.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله الذي هو أول كل شيء، و كما هو الأول في الكون كان من الجدير أن يبدأ به في أول كل أمر، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد بسد خللهم و غفران زللهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٧

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى (٥) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)

[٢] وَ اللَّيْلِ أَى قَسَمًا بِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى أَى يَحِيطُ بِظُلْمَتِهِ عَلَيَّ الأَشْيَاءِ، وَ تَخْصِيصُ بَعْضِ الأَقْسَامِ بِأُمُورٍ خَاصَّةٍ، مِنْ بَابِ التَّفَنُّنِ فِي البَلَاغَةِ.

[٣] وَ قَسَمًا بِ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى أَى ظَهَرَ وَ بَانَ وَ أَضَاءَ.

[٤] وَ قَسَمًا بِ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى «مَا» إِمَّا مُوَصَّوْلَةً، أَى الَّذِي خَلَقَ، وَ الْمُرَادُ بِهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ إِنَّمَا جِيءَ بِ «مَا» دُونَ «مَنْ» لِأَنَّ

«مَنْ» فِي الغَالِبِ يَسْتَعْمَلُ لِلبَشَرِ وَ نَحْوِهِمْ، وَ إِمَّا مُصَدَّرِيَّةٌ أَى قَسَمًا يَخْلُقُ الصَّنْفَيْنِ.

[٥] إِنَّ سَعْيَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، فِي الأُمُورِ، وَ تَطْلُبُكُمْ لِالأَشْيَاءِ لَشَتَّى جَمْعُ شَتَّى كَمُرْضَى جَمْعُ مَرِيضٍ، أَى أَنَّهُ مُخْتَلَفٌ، فَمَنْ طَالَبَ دُنْيَا وَ

مَنْ طَالَبَ آخِرَةَ، وَ الحَلْفُ عَلَيَّ ذَلِكَ بِاعتبار ما يعقبه من النتائج، أو لتبديد أوهام الزاعمين بأن السعي ليس إلا للدنيا فحسب، إذ ليس

هناك آخرة.

[٦] فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى المال في سبيل الله و اتقى الكفر و المعاصي.

[٧] وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى أَى بِالكَلِمَةِ الحَسَنَى، وَ هِيَ الشَّهَادَتَانِ، وَ حَيْثُ إِنَّ المَقَامَ كَانَ فِي الإِعْطَاءِ تَقْدَمُ، ثُمَّ ذَكَرَ التَّقْوَى لِأَنَّهُ مِنْ أَقْسَامِ

الإعطاء، ثم جاء دور العقيدة بعد ذين الأمرين.

[٨] فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَى أَى سَنَهَوْنَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَةَ اليُسْرَى، وَ هِيَ طَرِيقَةُ الطَّاعَةِ، أَوْ نَيْسِرَهُ لِلحَيَاةِ اليُسْرَى، أَى الأَسْهَلِ، فَإِنَّ مِنْ تَبَعِ نَهْجِ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٨

[سورة الليل (٩٢): الآيات ٨ إلى ١١]

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَيُسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)

الإسلام سهلت عليه الأمور لما في الإسلام من المناهج السهلة الموجبة للسعادة و الرفاه يقال «يسره» إذا سهل عليه، و «يسرى» مؤنث «أيسر» بمعنى الأسهل.

[٩] وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ بِمَالِهِ فَلَمْ يَنْفِقْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاسْتَغْنَى أَي طَلَبَ الْغِنَى بِجَمْعِ الْمَالِ وَ الْبَخْلَ مِنْ إِنْفَاقِهِ.

[١٠] وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى أَي بِالْكَلِمَةِ الْحَسَنَةِ، وَ هِيَ كَلِمَةُ الشَّهَادَتَيْنِ أَوْ الْمَرَادِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ «العدة الحسنى» وَ هِيَ الثَّوَابُ وَ الْجَنَّةُ.

[١١] فَسَيُسِّرُهُ لِّلْعُسْرَى أَي سَنُهَوِّنُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَةَ الْأَعْسَرَ وَ هِيَ طَرِيقَةُ الْكُفْرِ، وَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمَزَاجَةِ فِي الْكَلَامِ - مِنْ قَبِيلِ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ «١»، إِذِ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ لَا يَسْهَلُ عَلَى أَحَدٍ سَبِيلَ الْعُسْرِ، وَ إِنَّمَا الْمَرَادُ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَخْلِي بَيْنَهُ وَ بَيْنَ مَا يَعْمَلُ -.

[١٢] وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ أَي لَا يَفِيدُهُ مَالُهُ الَّذِي يَخْلُ بِهِ إِذَا تَرَدَّى أَي هَلَكَ وَ سَقَطَ فِي الْهَآوِيَةِ.

روى أن رجلا كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذى عيال و كان الرجل إذا جاء فدخل الدار و سعد النخلة ليأخذ منها التمر فربما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها في فم أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أخبره بما يلقي من صاحب النخلة، فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: اذهب، و لقي رسول الله

(١) البقرة: ١٩٥. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٨٩

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١٢ إلى ١٣]

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣)

صاحب النخلة فقال: تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان و لك بها نخلة في الجنة؟ فقال له الرجل: إن لى نخلا كثيرا و ما فيه نخلة أعجب إليّ تمره منها. قال: ثم ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله - و قيل اسمه أبو دحداح -: يا رسول الله أ تعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل و لقي صاحب النخلة فساومها منه، فقال له:

أشعرت أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم أعطاني بها نخلة في الجنة فقلت له يعجبني تمرها و إن لى نخلا كثيرا فما فيه نخلة أعجب إليّ تمره منها. فقال له الآخر أ تريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أعطى ما لا أظنه أعطى؟ قال: فما هناك؟ قال: أربعون نخلة، فقال الرجل: جئت بعظيم تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة، ثم سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة، فقال له: اشهد إن كنت صادقا، فمر إلى أناس، فدعاهم فأشهد له بأربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: يا رسول الله إن النخلة قد صارت في ملكي، فهي لك. فذهب رسول الله إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك و لعيالك، فأنزل الله تعالى «و الليل» فمن أعطى «أبو دحداح» و من بخل «صاحب النخلة»

«١».

[١٣] إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى أَي أَنَّ اللَّامِزَ عَلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ - بِقَاعِدَةِ اللَّطْفِ - أَنَّ يَنْصَبُ الْأَدْلَةَ وَ يَرْسِلُ الرَّسْلَ، أَمَا الْإِتْبَاعُ وَ الْإِهْتِدَاءُ فَعَلَى النَّاسِ مِنْ شَاءَ اهْتَدَى وَ مِنْ شَاءَ بَقِيَ عَلَى ضَلَالِهِ.

[١٤] وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى أَي الدُّنْيَا، فَمَنْ اهْتَدَى مِنْحَاهُ السَّعَادَةُ فِي

(١) بحار الأنوار: ج ٢٢ ص ٦٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٠

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١٤ الى ١٩]

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْتَظِي (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيَجْجِبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩)

الدارين، و من بقى على كفره حرم من خير الدنيا و سعادة الآخرة.

[١٥] فَأَنْذَرْتُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ نَارًا تَلْتَظِي أَي تَلْتَظِي - حذفت إحدى تائيه لقاعدة اجتماع التائين على رأس المضارع - و معنى التلظي المتلهب و المتوقد و هذه النار عذابها أشد.

[١٦] لَا يَصْلَاهَا أَي لَا يَدْخُلُهَا مِلَّا لَهَا إِلَّا الْأَشْقَى أَي الْأَكْثَرُ شَقْوَةً، وَهُوَ الْكَافِرُ، مُقَابِلُ الْعَاصِي الَّذِي هُوَ أَقْلُ شَقْوَةً فَإِنَّهُ وَإِنْ دَخَلَ النَّارَ لَكِنَّهُ لَا يَلْزَمُهَا.

[١٧] الَّذِي كَذَّبَ بآيات الله تعالى، و كفر به وَتَوَلَّى أَي أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ.

[١٨] وَسَيَجْجِبُهَا أَي سَيَجْبُ النَّارَ، وَيَجْعَلُ مِنْهَا عَلَى جَانِبٍ، وَدُخُولُ «السَّيْنِ» لِكُونَ الْقِيَامَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْأَتْقَى أَي الْأَكْثَرُ تَقْوَى وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الْمَطِيعُ، وَآمَّا الْمُؤْمِنُ غَيْرُ الْمَطِيعِ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا وَإِنْ خَرَجَ بَعْدَ مَدَّةٍ.

[١٩] الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ أَي يَنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى يَتَزَكَّى أَي يَطْلُبُ الزَّكَاةَ وَ الطَّهَارَةَ بِإِعْطَاءِ مَالِهِ، فَإِنَّ الْإِنْفَاقَ يَطْهَرُ الْقَلْبَ مِنَ الرِّذَالِ.

[٢٠] وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى أَي لَا يُعْطَى الْأَتْقَى مَالَهُ لِأَنَّ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ إِحْسَانًا، يُرِيدُ بِهَذَا الْإِنْفَاقَ جِزَاءَ ذَلِكَ الْمُحْسِنِ، وَ«مَنْ» لِنَفْسِي

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩١

[سورة الليل (٩٢): الآيات ٢٠ الى ٢١]

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَكَسُوفَ يَرْضَى (٢١)

الجنس ... و المراد أنه لا يعطى جزاء لإحسان، و إنما عطاؤه لوجه الله سبحانه.

[٢١] إِلَّا ابْتِغَاءَ أَي طَلَبَ رَضَى وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى أَي رِضَاهُ سَبْحَانَهُ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى «وَجْهِ» لِأَنَّهُ الَّذِي يُظْهِرُ عَلَيْهِ أَثَرَ الرِّضَا فِي الْإِنْسَانِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ تَشْبِيهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ، وَالِاسْتِثْنَاءِ مَنْقُوعٍ، وَالتَّقْدِيرُ لَا يُعْطَى مَالَهُ جِزَاءً، بَلْ إِنَّمَا يُعْطَى قَرْبَةً إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

[٢٢] وَكَسُوفَ فِي الْآخِرَةِ، يُعْطِيهِ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَ الْأَجْرِ مَا بِهِ يَرْضَى فَقَدْ وَرَدَ مَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعْطَى فِي الْجَنَّةِ بِمَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِهِ كَمَا وَ كَيْفًا.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٢

٩٣ سورة الضحى مكية / آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «الضحى»، و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، مع تركيز خاص بأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و حيث ختمت سورة الليل بأن الأتقى يعطى حتى يرضى، جاءت هذه السورة تبين ترضية الله سبحانه لنيبه بما يعطيه من الأجر و الثواب.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذى هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذى يرحم العباد بتكميل نواقصهم و غفران معاصيهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٣

[سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ إلى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦)

[٢] وَالضُّحَى أى قسما بالضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس فى كبد السماء بحيث يعم نورها، والواو فى مثل هذه المواضع استثنائية لتلميح الكلام و توحيد السياق.

[٣] وَاللَّيْلُ أى قسما بالليل إذا سَجَى أى سكن و استقر ظلامه، فإن «السجو» بمعنى السكون.

[٤] مَا وَدَّعَكَ يا رسول الله رَبُّكَ أى ما ترك عنك الوحي توديعا لك، بأن يكون كالمفارق الذى يودع صديقه وَمَا قَلَى أى ما قلاك، بمعنى ما أبغضك، فإن القلى بمعنى المبغض.

روى عن الإمام الباقر عليه السلام إن جبرئيل أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه كانت أول سورة نزلت «أقرأ باسم ربك الذى خلق» ثم أبطأ عليه، فقالت خديجة: لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك؟ فأنزل الله تبارك وتعالى «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى»

«١».

[٥] وَاللَّآخِرَةُ «اللام» للتأكيد خَيْرٌ لَكَ يا رسول الله مِنَ الْأُولَى أى الدنيا، فقد أعد لك الخير هناك، فكيف يتركك و يقلاك فى منتصف الطريق؟

[٦] وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ يا رسول الله، فى الآخرة رَبُّكَ بما تشاء فَتَرْضَى من كثرة فضله وإحسانه، و من جملة ما يعطى صلى الله عليه وآله وسلم الشفاعة - كما لا يخفى.

[٧] ثم أخذ السياق يعدد بعض نعم الله سبحانه عليه سابقا ليؤكد أنه صلى الله عليه وآله وسلم

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٤٢٨.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٤

[سورة الضحى (٩٣): الآيات ٧ إلى ١١]

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

(١١)

الآن فى وسط الطريق بين نعمته سبقت و نعمته أتى فكيف يقلاه بعد ذلك؟ أَلَمْ يَجِدْكَ اللَّهُ يَتِيمًا قد مات أبوك فَآوَى أى آواك، و أعطاك مأوى و منزلا و عشيرة تأوى إليهم، فى حين أن اليتيم كان ذليلا مهانا لدى أهل الجاهلية؟

[٨] وَوَجَدَكَ يا رسول الله ضَالًّا قد تفردت فى أناس جاهليين كالشئ الثمين الذى يضل فى صحراء مقفرة فهدى الناس إليك فأخرجك عن الوحشة و التفرد حيث لا يهتدى الناس؟

[٩] وَوَجَدَكَ اللَّهُ عَائِلًا أى فقيرا لا مال لك فَأَغْنَى أغناك بالمال، كمال خديجة عليها السلام و غيره.

[١٠] و إذ قد ذاق الرسول مرارة اليتيم و الضلال و الفقر، فليحن على البائسين و يعطف على المنكوبين فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ أى لا تقهره يا رسول الله، بأن ترعجه و تظلمه. و الرسول و إن كان منزها عن ذلك لكن الأوامر و النواهي شاملة له كشمولها لغيره من سائر المكلفين.

[١١] وَأَمَّا السَّائِلَ الَّذِي يسأل المال، و هو الفقير و من أشبهه فَلَا تَنْهَرْ أَى لا تطرده خائبا، بل أعطه شيئا، أورده ردا جميلا.
 [١٢] وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ التى أنعمها عليك، و المراد بها جنس النعمة- و من أعظمها الهداية- فَحَدِّثْ للناس، حتى تظهر فضله سبحانه فإنه بالإضافة إلى كونه شكرا، فهو تعليم للناس بأن لا- يستروا النعم، كما جرت عادة الكثيرين، بأن يذكروا نواقص حياتهم، و لا يذكرون فضائله سبحانه عليهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٥

٩٤ سورة الشرح مكية / آياتها (٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «نشرح» كما تسمى سورة «ألم نشرح» و «الانشراح» أيضا، و هى كسائر السور المكية بصدد الأمور المرتبطة بالعقيدة مع تركيز خاص بأمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كالسورة السابقة، و حيث كانت سورة «الضحى» بصدد الأمر المتعلق بالرسول، جاءت هذه السورة معقبة لتلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شروع باسم الإله الذى هو خير شعار للمعتقد به سبحانه، و هل شىء أحسن من جعله تعالى شعارا فى أول كل أمر؟ الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحم على كل شىء، كما قال تعالى وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (١).

(١) الأعراف: ١٥٧.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٦

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)

[٢] أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ يا رسول الله صَدْرَكَ و شرح الصدر توسعته بالأخلاق الفاضلة، فكأن صدر من لم يكن حليما أو سخيا أو عالما- أو ما أشبهه- ضيق كالإناء الضيق الذى لا- يحتوى إلا على شىء قليل، و النسبة إلى الصدر لأن القلب الذى هو محل الفضائل فى الصدر، و لعل وجه ذلك أن الإنسان إذا ضاق بأمر حمى قلبه، فيحتاج إلى هواء أكثر لتبريد القلب، فتنتفخ الرئة انتفاخا كثيرا مما يضيق الصدر حسا، ثم أن فى الاستفهام حلاوة ليس فى الإخبار.

[٣] وَوَضَعْنَا أى حططنا عَنكَ يا رسول الله وِزْرَكَ أى حملك الثقيل، فإن «الوزر» هو الحمل، و ذلك بشرح صدرك حتى لا يتقل عليك حمل التبليغ، و هذا ما يحسه كل إنسان مرشد، فإنه فى أول أمره يرى حملا ثقيلًا عليه من جراء الإرشاد، ثم يتسع صدره- بفضل سببانه- و يحس كأنه وضع عنه الثقل، حتى يشعر أحيانا بأنه لا حمل إطلاقا.

[٤] الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ من ثقله، و «أنقض» بمعنى أسمع الصوت فإن الإنسان إذا حمل حملا- ثقيلًا سمع لظهره فرقة، و هذا هو الإنقاض- و ذلك من باب التشبيه للمعقول بالمحسوس-.

[٥] وَرَفَعْنَا لَكَ يا رسول الله ذِكْرَكَ حتى يعرفك كل أحد بالصدق و الأمانة و ما أشبه ذلك، هذا بالإضافة إلى ما رفعه سبحانه- بعد ذلك- من ذكره فى المآذن و غيرها.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٧

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ٥ الى ٦]

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)

[٦] و إذ تقدم بيان أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم صار فى اليسر بعد ما كان فى العسر، جاء السياق يؤكد هذه الحقيقة فى

مختلف أدوار الحياة لكل إنسان فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا فَإِذَا عَسِرَ الْأَمْرُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَاشْتَدَّ كَانَ لَا بَدَ وَ أَنْ يَأْتِيَ بَعْدَهُ يَسْرٌ وَ سَهْوَةٌ. [٧] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا هَذَا لِلتَّأْكِيدِ، مَعَ أَنْ فِيهِ تَأْسِيسًا، وَ هُوَ كَوْنُ «يَسْرٍ» الثَّانِي غَيْرِ «يَسْرٍ» الْأَوَّلِ لِأَنَّهُ مُنْكَرٌ، بِخِلَافِ «العسر» فِي الْمَوْضِعِينَ فَإِنَّهُ وَاحِدٌ، لَكُونِ اللَّامِ- سِوَاءِ كَانِ لِلْعَهْدِ أَوْ الْجِنْسِ- تَوْجِبُ الْإِشَارَةَ إِلَى الْحِصَّةِ الْمَعْهُودَةِ، وَ لِذَا لَوْ قُلْتَ «اشْتَرَيْتَ فِرْسًا ثُمَّ بَعْتَ الْفِرْسَ» فَهَمَّ أَنْ الْمَبِيعُ هُوَ الْمَشْتَرَى وَ لَوْ قُلْتَ «اشْتَرَيْتَ فِرْسًا ثُمَّ بَعْتَ فِرْسًا» فَهَمَّ أَنْ الْمَبِيعُ غَيْرُ الْمَشْتَرَى.

وَ قَدْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ خَرَجَ مَسْرُورًا فَرِحًا وَ هُوَ يَضْحَكُ وَ يَقُولُ:

لَنْ يَغْلِبَ عَسْرُ يَسْرِينَ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يَسْرًا، إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يَسْرًا

«١».

أقول: وَ قَدْ نَظَّمَ الشَّاعِرُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الدُّنْيَا تَفَكَّرْ فِي أَلَمِ نَشْرَحِ تَجِدُ يَسْرِينَ مَعَ عُسْرِ إِذَا ذَكَرْتَهَا تَفْرَحُ

(١) مجمع البيان: ج ١ ص ٣٩٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٨

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ٧ الى ٨]

فَإِذَا فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ (٧) وَ إِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

[٨] فَإِذَا فَرَعْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أُمُورِكَ الْخَاصَّةِ فَمَنْصَبْ فِي الدُّعَاءِ وَ الْعِبَادَةِ، مِنْ «النَّصَبِ» بِمَعْنَى التَّعَبِ، أَيْ أَتَعَبَ نَفْسَكَ فِي الْإِشْتَغَالِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ.

[٩] وَ إِلَى رَبِّكَ وَحْدَهُ فَارْغَبْ أَيْ اجْعَلْ رَغْبَتَكَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي سَهَّلَ عَلَيْكَ الْأَمْرَ، وَ يَسِّرَ الْحَمْلَ الثَّقِيلَ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٦٩٩

٩٥ سورة التين مكية / آياتها (٩)

سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِذَلِكَ، لِأَشْتِمَالِهَا عَلَى لَفْظَةِ «التين»، وَ هِيَ كَسَائِرُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ بِصَدَدِ بَيَانِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْعَقِيدَةِ، وَ حَيْثُ خَتَمَتْ سُورَةُ «الإنشراح» بِالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ جَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَ أَنْ بِيَدِهِ الْأُمُورُ، فَالرَّغْبَةُ إِلَيْهِ تَوْجِبُ حَسْنَ الْجَزَاءِ.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابْتِدَاءً بِاسْمِ «اللَّهِ» الَّذِي هُوَ عِلْمٌ لِلذَّاتِ الْمُسْتَجْمَعِ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَتَفَضَّلُ بِالرَّحْمَةِ لِكُلِّ عِبَادِهِ، تَرْغِيْبًا لَهُمْ فِي أَنْ يَطْلُبُوا مِنْ وَاسِعِ فَضْلِهِ وَ رَحْمَتِهِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٠

تقريب القرآن إلى الأذهان ج ٥ ٧٦٣

[سورة التين (٩٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (١) وَ طُورِ سِينِينَ (٢) وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥)

[٢] وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ أَيْ قَسَمًا بِهَاتَيْنِ الْفَاكِهَتَيْنِ، وَ إِنَّمَا جَاءَ الْحَلْفُ بِهِمَا لِكَثْرَتِهِمَا فِي الشَّامِ وَ حَوَالِيهَا الْمُبَارَكَةِ- الَّتِي يَرَادُ التَّلْمِيحَ إِلَيْهَا لِكُونِهَا مَبْعَثَ الْأَنْبِيَاءِ وَ مَهْبَطَ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ-.

[٣] وَ قَسَمَ بِ طُورِ سَيِّئِينَ يَعْنِي الْجَبَلَ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى وَ «سَيْنِينَ» وَ «سِينَاء» لَغْتَانِ فِيهِ فَالْقِسْمُ بِرِزْقِ اللَّهِ الْمَادِي الْفَوَاحِشَ، وَ فَضْلُهُ الْمَعْنَوِي الرَّسَالَاتِ.

[٤] وَ قَسَمَ بِ هَذَا الْبَلَدِ وَ هُوَ مَكَّةُ الْأَمِينِ الَّذِي يَأْمَنُ فِيهِ الْخَائِفُ، فَكَأَنَّهُ لَا يَخُونُ وَارِدَهُ بِإِهْلَاكِهِ وَ إِيْذَاءِهِ.

[٥] لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ هَذَا جَوَابُ الْقِسْمِ، وَ التَّقْوِيمُ بِمَعْنَى تَصْيِيرِ الشَّيْءِ عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ التَّأْلِيفِ وَ التَّعْدِيلِ يَعْنِي الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ فِي أَحْسَنِ طَرَاظٍ مِنْ جِهَةِ حَوَاسِهِ وَ ظَوَاهِرِهِ، وَ مِنْ جِهَةِ مَشَاعِرِهِ وَ أَجْزَائِهِ، وَ هَذَا يَنْسَبُ الْقِسْمُ، لِأَنَّ الْكُلَّ إِحْسَانٌ وَ إِفْضَالٌ فَفَاحِشُهُ، وَ وَحْيٌ، وَ إِنْسَانٌ يَنْتَفِعُ بِهِمَا فِي مَادِيَاتِهِ وَ مَعْنَوِيَاتِهِ.

[٦] ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَي أَرْجَعْنَا الْإِنْسَانَ أَسْفَلَ سَافِلِينَ أَي تَرَكْنَاهُ وَ لَمْ نَلْطَفْ بِهِ الْأَلْطَافَ الْخَفِيَّةَ حَتَّى تَرْدِي فِي أْبَعْدِ مَهْوَى، وَ صَارَ فِي أَسْفَلَ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ شَأْنِيَّةٌ هَذَا النِّحْوُ مِنَ التَّرْدِي إِذَا أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ وَ الْهُدَى وَ اتَّبَعَ الْأَهْوَاءَ وَ الشَّهَوَاتِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠١

[سورة التين (٩٥): الآيات ٦ الى ٨]

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨)
[٧] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الْمُلَازِمَةَ لِاجْتِنَابِ السَّيِّئَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَ ثَوَابٌ فِي الْآخِرَةِ غَيْرُ مَمْنُونٍ أَي غَيْرُ مَقْطُوعٍ بَلْ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ إِلَى الْأَبَدِ، مِنْ «مَنْ» بِمَعْنَى قَطْعٍ.

[٨] فَمَا يُكَذِّبُكَ أَيهَا الْإِنْسَانَ بَعْدُ أَي بَعْدَ هَذِهِ الْحُجُجِ وَ الْآيَاتِ وَ بَيَانِ طَرَفِي الْإِنْسَانَ صَعُودًا وَ هَبُوطًا بِالذِّينِ أَي بِالْجِزَاءِ، وَ الْمَعْنَى مَا الَّذِي يَسَبِّبُ أَنْ تَكْذِبَ بِالْجِزَاءِ بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ الرَّفْعَةَ وَ الْانْحِطَاطَ فِي الْإِنْسَانِ، كَمَا لَوْ بَيَّنَّ الْأَسْتَاذُ مَضْرَبَةَ الرَّسُوبِ وَ مَنْفَعَةَ النَّجَاحِ يَتَسَاءَلُ مَا الَّذِي يُوْجِبُ لِلتَّلْمِيذِ أَنْ يَتْرَكَ دَرْسَهُ؟

[٩] أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ أَي أَحْسَنَ حَكْمًا مِنْ كُلِّ حَاكِمٍ، حَيْثُ قَرَّرَ لِلْإِنْسَانِ هَذَيْنِ النُّوعَيْنِ مِنَ الْجِزَاءِ، فَمَنْ أَحْسَنَ لَهُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ وَ مِنْ أَسَاءَ فَهُوَ يَتْرَدِي فِي مَهَاوِي الْانْحِطَاطِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٢

٩٦ سورة العلق مكية / آياتها (٢٠)

وَ هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِمَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَ سَمِيَتْ بِهَذَا الْاسْمِ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى لَفْظَةِ «عَلَقٌ»، وَ هِيَ كَسَائِرُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ بِصَدَدِ الْأُمُورِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْعَقِيدَةِ وَ مَا إِلَيْهَا، وَ إِذْ تَقَدَّمَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ ذِكْرُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، جَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مُؤَكِّدَةً لِذَلِكَ.

وَ لَا- يَخْفَى أَنَّ تَرْتِيبَ السُّورِ- كَمَا وَرَدَ- إِنَّمَا كَانَ بِأَمْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَمَا أَنَّ إِدْخَالَ كُلِّ آيَةٍ فِي سُورَةٍ خَاصَّةٍ كَانَ كَذَلِكَ، وَ تَسْمِيَتُهَا بِأَسْمَائِ خَاصَّةٍ أَيْضًا بِأَمْرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ هَذَا لَا يَنَافِي النَّزُولَ عَلَى غَيْرِ هَذَا التَّرْتِيبِ.

وَ أَمَّا مَا صَنَعَهُ «أَبُو بَكْرٍ» وَ «عُثْمَانُ» حَتَّى اشْتَهَرَ بِأَنَّهُمَا جَمَعَا الْقُرْآنَ، فَإِنَّمَا كَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ كَتَبَ بَعْضَ الْقُرْآنِ فِي زَمَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِمَقْدَارِ مَا سَمِعَ، فَهَمَا رَدَا الْجَمِيعَ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ هُوَ الْمُنْظَمُ الْمُرْتَبَّ عَلَى تَرْتِيبِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، كَمَا لَوْ فَارَضْنَا أَنَّ كِتَابَ أَحَدِ الْمُؤَلِّفِينَ قَسَمَ إِلَى أَجْزَاءٍ وَ بِيَدِ كُلِّ شَخْصٍ جِزَاءٌ، ثُمَّ جَاءَ شَخْصٌ، وَ جَمَعَ الْكُلَّ عَلَى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٣

نَسَقِ كِتَابِهِ، وَ جَاءَ بَعْدَهُ آخِرُ فَاحْرَقَ النَّاقِصَاتِ وَ أَمْرٌ بِلِزُومِ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ الْمَتَدَاوِلَ بِلا زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ- وَ لِلْكَلامِ تَفْصِيلَ ذِكْرِنَاهُ فِي بَعْضِ مَا كَتَبْنَاهُ-.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابْتِدَاءً بِاسْمِ اللَّهِ، الَّذِي لَا أَحَقَّ بِالْابْتِدَاءِ مِنْهُ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْابْتِدَاءَ وَ الْانْتِهَاءَ، وَ هُوَ الْمَبْدِئُ وَ الْمَعْيَدُ، الرَّحْمَنُ

الرحيم الذى يتفضل بالرحمة لكل إنسان و لكل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٤

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى (٦)

[٢] أَقْرَأْ يا رسول الله، القرآن مصاحبا قراءتك باسم ربك الذى خلق فإذا قرأ كل إنسان ما يقرأ بدون اسم الله، فأنت اقرأ مع اسم الله، و فى الحديث أن جبرئيل نزل على الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى جبل «حراء» بمكة.

فقال: «اقرأ» قال صلى الله عليه و آله و سلم: أقرأ و لست أنا بقارئ فقال عليه السلام:

«اقرأ...»

«١».

[٣] خَلَقَ الْإِنْسَانَ تخصيص بعد التعميم، فإن «خلق» الأول حيث حذف متعلقه أفاد العموم من علق و العلق هو الدم المنجمد الذى ينقلب المنى إليه، بعد استقراره فى الرحم، و هذا هو بدء الإنسان.

[٤] أَقْرَأْ للتأكيد فى القراءة و رَبُّكَ يا رسول الله هو الْأَكْرَمُ من كل كريم، و من كرمه خلق الإنسان من تلك العلقة القدرية، و أوصله إلى المقامات الرفيعة.

[٥] الَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ المعارف أو العلوم بسبب القلم فلو لا- خلقه للقلم و تعليمه للإنسان الكتابة لبقى الإنسان فى دياجير الجهل و الرذيلة، فمنه سبحانه «القراءة» ف «اقرأ...» و منه الكتابة فعلم «بالقلم» و منه البدء «من علق» و منه الإيصال إلى الكمال.

[٦] عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ من أنواع العلوم و المعارف.

[٧] و هل يشكر الإنسان هذا الفضل العظيم لله سبحانه، حيث أوجده من

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٧٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٥

[سورة العلق (٩٦): الآيات ٧ الى ١٠]

أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)

العدم إلى أن أبلغه إلى غاية الكمال الجسدى، و قد كان جاهلا ضالا فأبلغه رتبة العلم و الهدى؟ كَلَّا لا يشكر الإنسان، ف إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَطْغَى يتجاوز حدوده و يتكبر على ربه.

[٨] لَأَنْ رَأَاهُ أى حين رأى نفسه اسْتَغْنَى فى جسمه و ماله و يظن أنه غنى بعد ذلك فلا يحتاج إلى ربه.

[٩] إِنَّ إِلَى رَبِّكَ يا رسول الله الرَّجْعَى مصدر «رجع»، أى رجوع الخلق، و يرجع إليه تعالى- أى إلى جزائه و حسابه- فيمن يرجع هذا الطاغى الذى طغى على الله سبحانه.

[١٠] أَرَأَيْتَ يا رسول الله الَّذِي طغى على الله، حتى أنه يَنْهَى

[١١] عَبْدًا إِذَا صَلَّى فإنه لم يكتف بطغيانه على الله فى تركه الصلوة- بنفسه- حتى أصبح ينهى سائر العباد إذا قاموا للصلوة؟ أَرَأَيْتَ هذا الإنسان يا رسول الله؟ و هذا استفهام لتوبيخ ذلك الشخص الناهى و تهديده.

قال القمى: كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصلوة و أن يطاع الله و رسوله، فنزلت هذه الآية «١».

و في رواية أخرى أن أبا جهل قال: هل يغير محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فقيل: ما هو ذلك يصلي، فانطلق ليطأ على رقبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبيه و يتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال:

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٣٠. تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٦

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١١ إلى ١٥]

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)

رأيت بيني وبينه خندقا من نار و هولاء و أجنحة، و قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

و الذي نفسى بيده لو دنى مني لا لاخطفته الملائكة عضوا عضوا «١»، فأنزل سبحانه «أ رأيت ...»

و كأن التقدير أ رأيت المانع عن الصلاة؟

و هل علمت ماذا يكون جزاؤه؟ لبيان عظمه هذا العمل من حيث الإثم.

[١٢] أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ الْعَبْدُ الَّذِي صَلَّى - وَهُوَ الرَّسُولُ - عَلَى الْهُدَى وَ كَانَتْ صَلَاتُهُ حَسْبَ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟

[١٣] أَوْ أَمَرَ ذَلِكَ الْعَبْدَ بِالتَّقْوَى وَ الْمَخَافَةَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ؟ مَاذَا كَانَ مَصِيرَ ذَلِكَ لَهُ؟ أَلَيْسَ مَصِيرُهُ إِلَى الْعَذَابِ وَ النَّكَالِ؟

[١٤] أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَذَّبَ ذَلِكَ النَّاهِي - وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ أَوْ الْوَلِيدُ - بِآيَاتِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَوَلَّى أَى أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ، مَا هِيَ عَاقِبَتُهُ؟

[١٥] أَلَمْ يَعْلَمَ ذَلِكَ النَّاهِي بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى عَمَلَهُ وَ نَهْيَهُ عَنِ الصَّلَاةِ وَ كَذِبَهُ وَ تَوَلِيهِ؟ وَ لَمْ يَعْلَمْ جَزَاءَ هَذِهِ السَّيِّئَاتِ؟ فَإِنَّهُ كَيْفَ يَنْهَى وَ يَكْفُرُ وَ يَعْصَى، وَ جَزَاءَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ النَّارَ وَ النَّكَالَ؟

[١٦] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَوْهَمُ مِنْ أَنَّهُ لَا جَزَاءَ عَلَى أَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ هَذَا النَّاهِي عَنْ أَعْمَالِهِ وَ سَيِّئَاتِهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ أَى لَنَجْرَتُهُ بِنَاصِيَتِهِ إِلَى النَّارِ، مِنْ «سَفَع» بِمَعْنَى جَذَبَ الشَّيْءَ جَذْبًا شَدِيدًا، «وَ النَّاصِيَةُ» هِيَ شَعْرٌ مُقَدَّمُ الرَّأْسِ، فَإِنَّهُ أَسْهَلُ لِلْأَخْذِ وَ أَوْجِبُ لِلنَّقِيَادِ الْمَأْخُوذِ.

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ١٧٠.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٧

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١٦ إلى ١٩]

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرَبْ (١٩)

[١٧] نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ نَسْبَةُ الْكُذْبِ وَ الْخَطَا إِلَى النَّاصِيَةِ مَجَازٌ بِاعْتِبَارِ عِلَاقَةِ الْجِزْءِ وَ الْكُلِّ، كَمَا أَنَّ نَسْبَةَ الْإِيمَانِ إِلَى الرَّقْبَةِ فِي قَوْلِهِ رَقَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ «١» كَذَلِكَ وَ الْمُرَادُ أَنَّ صَاحِبَ النَّاصِيَةِ كَاذِبٌ فِي أَقْوَالِهِ خَاطِئٌ فِي أَعْمَالِهِ.

[١٨] فَلْيَدْعُ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ النَّاهِي نَادِيَهُ أَى أَهْلَ مَجْلِسِهِ وَ أَصْدِقَائِهِ، فَإِنَّ «النَّادِي» هُوَ مَحَلُّ الْجَمَاعَةِ، الَّذِي يَنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهِ، وَ نَسْبَةُ النَّدَاءِ إِلَيْهِ مَجَازٌ مِنْ بَابِ «أَسْأَلَ الْقَرْيَةَ» يَعْنِي يَدْعُوهُمْ لِخُلُوصِهِ فَهَلْ يَتِمَكَّنُونَ إِنْقَاذَهُ مِنْ بَطْشِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؟

قال ابن عباس لما أتى أبو جهل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ انتهره الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو جهل: أ تنتهرني يا محمد فو الله لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني؟ فأنزل الله هذه الآية.

[١٩] سَنَدُعُ الزَّبَانِيَةَ يعني إنا ندعو الملائكة الموكلين بالنار لقبض ذلك الشخص الناهي، و ليدع هو ناديه، حتى يظهر أينا يغلب الآخر. وهذا تهديد له بأنه لا- منقذ له من بطشه سبحانه، و «الزبانية» جمع «زبينة» و هي النفس التي تدفع، من «الزبن» بمعنى الدفع، فإن الملائكة يدفعون المجرمين إلى النار دفعا.

[٢٠] كَلَّا ليس الأمر كما زعم هذا الناهي، ف لا تُطَعَّهُ يا رسول الله في ترك الصلوة التي ينهى عنها و اشجُد لله سبحانه، أو بمعنى أخضع له بالصلوة و نحوها و اقترَب من رضوان الله بطاعته و عبادته من «القرب». و سورة اقرأ إحدى «العزائم» الأربع، و هذه هي آية السجدة.

(١) النساء: ٩٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٨

٩٧ سورة القدر مكية أو مدنية / آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «القدر»، و هي إما مكية- كما يظهر من سياقها- أو مدنية، و على أى حال ترتبط بقضايا العقيدة و إذ ختمت سورة «العلق» بذكر الاقتراب منه سبحانه، بينت في هذه السورة إن الاقتراب إليه في ليلة القدر أفضل من الاقتراب إليه سبحانه في سائر الأوقات.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الإله، ليكون عوناً لنا في أمورنا، الرحمن الرحيم الذي يرحم العباد و يتفضل عليهم بما يستر زللهم و يسد خللهم.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٠٩

[سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢)

[٢] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ أَي الْقُرْآن- المعلوم من السياق- و الإتيان بلفظ الجمع في «إِنَّا» و «أَنْزَلْنَا» باعتبار التعظيم، فقد كان المتعارف أن يتكلم كل رئيس عن نفسه و عن أتباعه، ثم أستعير «الجمع» في كل تعظيم في لَيْلَةِ الْقَدْرِ و هي «التاسعة عشرة» أو «الواحدة و العشرون» أو «الثالثة و العشرون» من شهر رمضان المبارك، فقد نزل القرآن بجملته إلى البيت المعمور- في السماء الرابعة- في إحدى هذه الليالي الثلاث، ثم نزل منجماً على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في ظرف ثلاث و عشرين سنة، أو المراد أن إنزاله على قلب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كان في هذه الليلة، و إنما إتيان جبرئيل به أقساطاً من السماء- بمناسبات- كان في ظرف ثلاث و عشرين سنة، و سميت الليلة ب «القدر» لتقدير أعمال العباد في هذه الليلة.

و قد ورد في الأحاديث ان في هذه الليلة من كل سنة تنزل أفواج من الملائكة بالتقديرات لتلك السنة، إلى الإمام الحى من الأئمة الإثنى عشر عليهم السّلام بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فيعلم الإمام بما قدر الله سبحانه للخلائق من الآجال و الأرزاق و الأعمال و سائر الأمور المرتبطة بهم «١»، و هذا لا يعنى أنهم كالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في نزول الوحي، فقد نزل جبرئيل على مريم و ليست رسولا- بل هو تشریف من الله سبحانه للإمام الذى هو خليفة في أرضه بعد الرسول، و فى دورنا تنزل الملائكة بالتقديرات- فى ليلة القدر- على الإمام المهدي المنتظر «عجل الله فرجه».

[٣] وَ مَا أَدْرَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا السَّمْعُ مَا هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟

و هذا لتعظيم شأنها.

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٨٢ ص ٥٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٠

[سورة القدر (٩٧): الآيات ٣ الى ٥]

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

[٤] لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ يعنى أن الأعمال الصالحة في ليلة القدر خير من العمل الصالح في ألف شهر- التي هي أكثر من ثمانين سنة- فإن الأزمان إنما تفضل بعضها على بعض بما يقع فيها من الأعمال أو المعنى أن تلك الليلة التي نزل فيها القرآن، خير من ألف شهر لما حدث فيه من أمر عظيم هو نزول القرآن.

[٥] تَنْزَلُ أوصله «تنزل» حذفت إحدى تائيه على القاعدة- كما سبق- الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ وهو ملك عظيم، أو جبرئيل عليه السّلام فيها أى في تلك الليلة بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فإن الله يأذن لهم فى النزول على الرسول و الإمام لبيان مقدرات العباد فى تلك السنة مِنْ كُلِّ أَمْرٍ فقد جاء جبرئيل و سائر الملائكة إلى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى تلك الليلة و معهم كل أمر مربوط بالأرض من الهداية و الإرشاد، و التنظيم و التقنين و السعادة و الخير؟ و كذلك يأتون فى كل سنة إلى الإمام الحى بذلك كله.

[٦] سَلَامٌ هِيَ أى تلك الليلة، فقد قدر فيها منهاج السّلام العام للعالم، سلامة الروح عن الأوضار، و سلامة الجسم عن الأمراض، و سلامة المجتمع عن المفساد، و سلامة العقل عن الخرافة. أو المعنى أن الليلة هي سلام، بمعنى كونها سالمة عن البلايا و الآفات، فلا يقدر فيها إلا-السّلام حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ فإذا طلع الفجر انتهى تنزل الملائكة، و يتم الأمر، كما حين طلع الفجر من ليلة نزول القرآن انتهى تنزل الملائكة و قدر الأمر. و من المستحب الدعاء و الضراعة فى هذه الليلة، تذكر لابتداء الوحي، و طلبا لأن يقدر فيها الخير، بالنسبة إلى السنة المقبلة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١١

٩٨ سورة البينة مدنية أو مكية / آياتها (٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «البينة» و هي كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و هناك قول آخر بأنها مدنية، و فيها بعض إماراتها. و حيث بينت سورة القدر أن القرآن نزل فى ليلة القدر، جاءت هذه السورة تبين أن الكفار لم يزالوا على كفرهم و ضلالهم، حتى أتاهم القرآن، فاهتدى بعضهم به.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم «الله» الذى هو الذات المستحق لكل تجلئ و إعظام، الرحمن الرحيم، الذى يرحم كل شىء بإعطائه خلقه ثم هدايته إلى طريق حياته، و يرحم الإنسان بصورة خاصة بإرشاده و غفران خطأه إن تاب و أناب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٢

[سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣)

[٢] لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يعنى اليهود و النصارى و المجوس، و الوصف ليس للتصنيف بل للبيان، فإن كل أهل الكتاب قد كفروا بنسبتهم إلى الله الولد و الشريك و توصيفهم له بما لا يليق بجلال شأنه و من الْمُشْرِكِينَ الذين أشركوا بالله و عبدوا الأصنام معه مُنْفَكِينَ أى منتهين عن كفرهم، من «انفك» بمعنى زال عنه، و ابتعد حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ أى الحجة الظاهرة- و هو القرآن

الكريم، و الرسول العظيم- إذ لا مجال لهم في عرفان الحقائق بعد ما حرّفوا كتبهم و بدلوا دينهم.

[٣] ثم بين المراد بالبينه بقوله: رَسُوْلٌ مِّنَ اللّٰهِ اى من طرفه سبحانه يَتْلُوْا و يقرأ عليهم صِيْحْفًا مُّطَهَّرَةً هى صحائف القرآن الحكيم التى طهرت عن الكفر و الشرك و نسبة ما لا يليق إلى الله و إلى أنبيائه، فإن النبى و إن كان يتلو عن ظهر القلب لكنه كان يقرأ عن اللوح المحفوظ عكس كتاب العهدين.

[٤] فيها أى فى تلك الصحف كُتِبَ قِيَمَةٌ «الكتاب» يستعمل بمعنى الموضوع، كما يقال: كتاب الصلاة، و كتاب الحج، يراد موضوعهما- و لذا نرى كتاب الصلاة، مثلا- فى ضمن كتاب «شرائع الإسلام للمحقق»، أو أن الكتاب بمعنى المكتوب، و هو فى الصحيفة، يعنى أن تلك الصحف تشتمل على موضوعات ذات قيمة و ثمن، أو بمعنى

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٣

[سورة البينة (٩٨): الآيات ٤ الى ٦]

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَا مَأْمُرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللّٰهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ذات استقامته، فإن القيمة بمعنى المستمرة فى جهة الصواب.

[٥] وَا مَأْمُرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللّٰهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ أى أعطوا الكتاب السماوى إلّا من بعد ما جاءتهم البيئته أى الحجّة الواضحة، و المعنى أن أهل الكتاب إنما اختلفوا- فى أمر الرسول أو أمر دينهم السابق بأن صار لكل فئه مذهب و طريقة- بعد أن تمت عليهم الحجّة و عرفوا الصواب، و إنما اختلفوا بغيا و حسدا.

[٦] وَا مَأْمُرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللّٰهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى يخلصون الطريقة لله سبحانه، بلا- زيادة أو نقصان، أو شرك أو انحراف، فى حال كونهم حُنَفَاءَ جمع حنيف، أى مائلين عن الأديان الباطلة و الطرائق الزائفة، من «حنف» بمعنى مال و يُقِيمُوا الصَّلَاةَ أى يداوموا على إقامة الصلاة و يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أى يعطوها، و المراد بها إما مطلق الإعطاء، أو الزكاة المفروضة. فقد فرضت الزكاة فى الأديان السابقة- و ذَلِكَ الدين المشتمل على هذه الأمور المذكورة دِينُ الْقِيَمَةِ أى دين الكتب القيمة- التى تقدم ذكرها- بمعنى أنه الدين المذكور فى تلك الكتب.

[٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ اسْتَمَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٤

[سورة البينة (٩٨): الآيات ٧ الى ٨]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

بالرسول صلى الله عليه و آله و سلم و من المُشْرِكِينَ بأن استمروا فى شركهم يكونون فى نارِ جَهَنَّمَ فى الآخرة حال كونهم خَالِدِينَ فيها أى فى النار إلى الأبد أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ أى شر الخلق، فإن البرية هى الخليفة، من برأ بمعنى خلق و أنشأ.

[٨] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُوْلِهِ وَ يَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أى الأعمال الصالحة، الملازمة لعدم الإتيان بالأعمال الفاسدة أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أى الأفضل من جميع الخلق، و فى مقابلهم من آمن و عصى، فإنه ليس بذلك الشر و لا بذلك الخير.

[٩] جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى المحل الذى أعده للحساب و الجزاء فإنه سبحانه لا مكان له جَنَّاتٌ عَدْنٍ أى بساتين إقامة، من «عدن» بالمكان إذا أقم فيه تجرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أى من تحت أشجارها و قصورها، أنهار من عسل و خمر و لبن و ماء خَالِدِينَ فِيهَا أى فى تلك الجنات أَيْدًا دَائِمًا لا- يزولون عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حيث عبدوه و أطاعوه وَ رَضُوا عَنْهُ حيث أكرمهم و تفضل عليهم بالخير و السعادة ذَلِكَ الثواب و الفضل لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ أى خافه فلم يعصه و لم يرتكب ما يخالف أوامره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٥

٩٩ سورة الزلزلة مدنية أو مكية / آياتها (٩)

و تسمى سورة «الزلزال» أيضا، لاشتمالها على كلمة «زلزلت»، و في كونها مدنية أو مكية خلاف لكنها تعالج قضايا العقيدة، و هي التي تؤكد كونها مكية، و حيث ختمت سورة «البينة» بجزء المطيعين في الجنان، و العاصين بالنيران، افتتحت هذه السورة بذكر أشرار الساعة، و علائم القيامة، التي هي يوم الفصل و الجزاء.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله الذي هو الأول، فلا شيء قبله و معه، تطابقا للشروع في الشيء مع الخارج، بجعل اسم الله سبحانه شعارا، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة لمن استرحمه، و لمن لم يسترحمه، و إن كان فرق بينهما في زيادة التفضل و المثوبة و ما أشبه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٦

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ إلى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَ قَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤)
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦)

[٢] إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا أى حركت تحركها الشديد، و اضطربت اضطرابا عظيما.

[٣] وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا كل ما فيها من الأشياء الثقيلة، من معادن و دوائن و أموات و أشباه ذلك، فإنها تلقيها على ظهرها عند قيام الساعة.

[٤] وَ قَالَ الْإِنْسَانُ متعجبا من هذه الحوادث: ما لَهَا أى ما للأرض تتزلزل و تضطرب و تخرج ما فى بطنها؟! [٥] يَوْمَئِذٍ أى فى ذلك اليوم- و هو يوم القيامة- تُحَدِّثُ الْأَرْضُ أَخْبَارَهَا

ورد عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال أ تدرّون ما أخبارها؟ قالوا:
الله و رسوله أعلم. قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد بما عمل على ظهرها.

[٦] كل ذلك الزلزال و الإخراج و الحديث يصدر من الأرض بسبب أن رَبَّكَ يا رسول الله أَوْحَى لَهَا أى للأرض بأن تعمل ذلك، و السماء و الأرض مطيعتان لله سبحانه فيما يأمر، كما قال سبحانه (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) «١».

[٧] يَوْمَئِذٍ أى فى ذلك اليوم يَصُدُّرُ النَّاسُ أى يرجع الناس من قبورهم إلى المحشر أَشْتَاتًا جمع «شتيت» أى متفرقين، بعضهم

(١) فصلت: ١٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٧

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ٧ إلى ٨]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

لعاقبه حسنة و بعضهم لعاقبه سيئة لِيُرَوْا- على البناء للمفعول- أى حتى يريهم الله أعمالهم التي عملوها و يجازى كل على عمله.

[٨] فَمَنْ يَعْمَلْ فى الدنيا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ أى بقدر ثقل ذرة- و هى الهباءة التي ترى فى الشمس إذا دخلت من الكوة فى المحل المظلم- خَيْرًا يَرَهُ أى يرى جزاء ذلك الخير، فى ذلك اليوم.

[٩] وَ مَنْ يَعْمَلْ فى الدنيا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا من الكفر و العصيان يَرَهُ فى ذلك اليوم، و لا يظلم أحد شيئا، إلا أن يدرك عامل الشر

شفاعة، إن كان من أهلها، أو عامل الخير إحباطاً، لأنه أتى بسيئته تحبط أعماله.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٨

١٠٠ سورة العاديات مدنية أو مكية / آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظ «العاديات»، وهي كسائر السور المدنية تلمح إلى الأمور المرتبطة بالنظام إلى جنب العقيدة، وهذه السورة نظير السورة السابقة في ذكر الجزاء.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نَشْرَعُ بِاسْمِ اللَّهِ، ليكون شروعاً مبارکاً، فإنه لا يبدأ شيء باسم الله إلا كان الخير قريناً بلطفه وفضله، الرحمن الرحيم، الذي يرحم العباد و يتفضل عليهم بالسعادة والإحسان.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧١٩

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥)

[٢] وَالْعَادِيَاتِ أى قسماً بالأفراس التى تعدو فى سبيل الله للجهاد ضَبْحًا أى تضح ضبحاً، «و الضبح» هو صوت الجوف الذى يسمع من الخيل حين تعدو.

[٣] فَالْمُورِيَاتِ أى قسماً بالموريات، و الفاء للترتيب فى الكلام أى الخيل التى تورى النار و تظهرها، بوطء حوافرها على الأحجار قَدْحًا مثل نار الزناد إذا قدح، تقدح قدحاً أى تضرب ضرباً يقال أورى القادح النار: إذا أظهرها.

[٤] فقسماً بالمغيرات أى الأفراس التى أغارت على العدو صُبْحًا بعد أن سار المجاهدون ليلاً، حتى إذا أصبحوا أغاروا.

[٥] فَأَثَرْنَ تلك الأفراس به أى بذلك المكان- المعلوم من السياق- نَقْعًا أى غباراً، يعنى أن تلك الخيل أثارت بذلك المكان الغبار الكثير لمطاردتها الأعداء، و «نون» جمع المؤنث يأتى للعاقلة و غير العاقلة- كما سبق-

[٦] فَوَسَطْنَ تلك الأفراس به أى بذلك المكان جمعاً أى صرن فى وسط ذلك المكان، حتى فتحوا على العدو، إذ حصلوا فى وسطهم و أحدثوا الفوضى و الاضطراب فيهم على حين غرة، و هذه الآيات نزلت فى «غزوة ذات السلاسل». و هى كما فى كتاب «قادة الإسلام» «١» اشتركت قبائل من «لخم» و «جذام» و «بلقين» و «بهر» و

(١) للمؤلف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٠

«بلى» و «طى» و «عذرة» و غيرها فى حرب «مؤتة» و ساعدت الكفار على المسلمين، و بعد وقعة «مؤتة» تجمعت قوى هؤلاء لمحاربة المسلمين و كان عددها اثنى عشر ألف مقاتل، فأراد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أن يؤدبهم و يأخذ بثأر المسلمين الذين استشهدوا فى «مؤتة»، فجهز جيشاً من أربعة آلاف نفر، برئاسة «أبى بكر» و أمرهم بالذهاب إلى الكفار و مقاتلتهم، و توجه أبو بكر إلى تلك المنطقة، فلما رأوه خرجوا إليه و حذروه من محاربتهم، فخاف أبو بكر و رجع، و اغتاض الرسول صلى الله عليه و آله و سلم من رجوعه، ثم أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم «عمر» على الجيش فأرسلهم و حذرهم من الجبن، لكن عمر جبن كأخيه من قبل، «و أب بخفى حين» ثم أمر الرسول «عمر و بن العاص» و أرسلهم لكنهم أيضاً رجعوا حينئذ عقد الرسول صلى الله عليه و آله و سلم اللواء بقيادة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و وصاه بما أوصى به أولئك ثم

قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ لَا بَدَّ وَ أَنْ يَفْتَحَ اللهُ عَلَيَّ يَدَيْكَ ... جَاءَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَرَبِ مَعْسَكِ الْكُفَّارِ بَحَيْثُ يَرُونَهُ وَ يَرَاهُمْ، فَانْحَازَ مِنْ مَعْسَكِهِمْ مَائَتَا رَجُلٍ، وَ كَلَّمُوا الْإِمَامَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، لَكِنْهُمْ أَبَوَا وَ قَالُوا: إِنَّا لَنَقْتَلُكُمْ جَمِيعًا وَ ضَرَبُوا الْمَوْعِدَ يَوْمَ غَدٍ، وَ انصَرَفُوا إِلَى مَعْسَكِهِمْ يَنْتَظِرُونَ غَدًا.

أَمَرَ الْإِمَامُ جَيْشَهُ أَنْ يَسْتَعِدُّوا، فَأَخَذُوا كَامِلَ اسْتِعْدَادِهِمْ فِي اللَّيْلِ فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَصَلُوا صَلَاةَ الصُّبْحِ، أَمَرَ الْإِمَامُ الْجَيْشَ بِالْهَجُومِ عَلَى الْقَوْمِ، فَهَجَمَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ يَقْدِمُهُمُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْكُفَّارِ وَ هُمْ نَائِمُونَ إِلَّا- قَلِيلًا- مِنْهُمْ، وَ أَوْلَتْكَ الْقَلِيلُ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَعِدِينَ لِلْقِتَالِ فَانْهَزَمُوا أَمَامَ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ، وَ قَدْ أَكْثَرَ فِيهِمُ الْجَيْشُ مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢١

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ٦ الى ١٠]

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَشَهِيدٌ (٧) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)

القتل و الأسر، و لم تطلع الشمس إلا و الجيش الإسلامي يحملون الأسرى و الغنائم، ليعودوا إلى المدينة منتصرين، و استقبل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المسلمون الإمام عليه السلام و جيشه، و هنا نزلت سورة العاديات (١).

[٧] قسما بتلك الأقسام المتقدمة إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ أى لكفور، و منه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، و الأصل فيه منع الحق.
[٨] وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَشَهِيدٌ أى يشهد بذلك، فإن الإنسان يعلم ما له و ما عليه، و إن لم يعترف بما عليه، أو المعنى أنه يشهد بذلك يوم القيامة، حيث يختم على أفواههم و تكلمنا أيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون.
[٩] وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَشَهِيدٌ فإنه شديد في حب كل خير لنفسه، هذا طبع الإنسان، لو لم يخرج الإيمان.
[١٠] أَفَلَا يَعْلَمُ الْإِنْسَانَ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ أى بعث الموتى و أخرجوا من قبورهم، منتشرين مبغثرين هنا و هناك؟
[١١] وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ بأن ظهرت نوايا الناس و ما أضمره من خير و شر؟ ليجازى كل حسب ما نواه و أضمره و عمله و أتى به. ألا

(١) تفسير فرات الكوفي: ص ٥٩١.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٢

[سورة العاديات (١٠٠): آية ١١]

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

يعلم ماذا يكون مصيره يومذاك؟ فكيف يعصى و يكند؟ كما تقول لمن يعصى: ألا تعترف بالحساب؟ تريد بذلك تهديده.

[١٢] إِنَّ رَبَّهُمْ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَشَهِيدٌ أى بالناس يَوْمَئِذٍ أى في يوم القيامة لَخَبِيرٌ عالم مطلع، فيجازى كل إنسان حسب عمله و نيته، و قوله «يومئذ» من جهة أن الجزء في ذلك اليوم، و إلا فكونه سبحانه خبيراً عام لكل الأزمان.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٣

١٠١ سورة القارعة مكية أو مدنية / آياتها (١٢)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «القارعة»، و هى كسائر السور المكية تعالج قضايا العقيدة، و حيث ختمت سورة «العاديات» بتهديد العصاة، جاءت هذه السورة لتبين علائم القيامة، موعد التهديد.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبتدئ باسم «الله» الذى هو المستجمع لجميع صفات الكمال، لنجعله شعارا لنا فى أعمالنا و أمورنا، إذ لا شىء أفضل منه فى أن يكون شعارا لمعترف بربه، الرحمن الرحيم، الذى يتفضل على العباد بالرحمة و الغفران.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٤

[سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)

وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦)

[٢] الْقَارِعَةُ هى من أسماء القيامة، لأنها تفرع القلوب بالخوف و تفرع الناس بالعذاب، و تفرع الجبال فتجعلها دكا دكا.

[٣] مَا الْقَارِعَةُ أى ما هى القارعة؟ و ذلك لتفخيم شأنها و تعظيم أمرها، و «القارعة» الأولى مبتدأ، و «ما» مبتدأ ثان، و «القارعة» الثانية خبر «ما»، و الجملة خبر «قارعة» الأولى.

[٤] وَ مَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَوْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا الْقَارِعَةُ؟ هذه الجملة لتفخيم شأنها، يعنى أنها من الهول بحيث لا تعلمها و لا تدركها، إلا بعد أن تراها.

[٥] يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ وَ هُوَ الْغَوْغَاءُ مِنَ الْجِرَادِ الَّذِى يَنْفَرُشُ وَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضِ الْمَبْثُوثِ أى المنتشر، فإن الناس يكونون مثل الفراش فى الكثرة و الاضطراب و الانتشار.

[٦] وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ أى الصوف الملون المُنْفُوشِ أى المندوف، فإنها تقلع عن أماكنها و تحطم حتى تكون كالصوف ذى الألوان الخفيف اليسير، و ألوانها، لاختلاف ألوان الجبال فإنها بيض و حمر و سود و غيرها.

[٧] فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ أى رجحت حسناته و كثرت و الإتيان بالجمع

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٥

[سورة القارعة (١٠١): الآيات ٧ الى ١١]

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

لأن لكل عمل حسن ميزان فميزان للصلاة، و ميزان لبر الوالدين، و هكذا. و هل المراد بالميزان هو المعهود فى الدنيا- كما هو الظاهر- أو غيره احتمالان؟

[٨] فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ أى عيشة ذات رضى يرضاها صاحبها و نسبة الرضى إليها- مع كون الرضى هو الذى يعيش- مجاز.

[٩] وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ بَأَنَّ قَلَّتْ حَسَنَاتُهُ، وَ كَثُرَتْ سَيِّئَاتُهُ.

[١٠] فَأُمُّهُ أى مأواه هَاوِيَةٌ أى جهنم، و المعنى أن محله النار، فكما أن الولد يأوى إلى أمه كذلك يأوى العاصى إلى جهنم، و إنما سميت بالهاوية لهوى الشخص فيها.

[١١] وَ مَا أَدْرَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا هِيَ هَذَا تَفْخِيمٌ لِعَذَابِ النَّارِ، حَتَّى أَنْ الرَّسُولِ- أَوْ السَّامِعِ- لَا يَدْرِكُ حَقِيقَتَهَا وَ تَفْصِيلَهَا لِهَوْلِهَا، وَ الْهَاءُ لِلسَّكْتِ.

[١٢] إِنَّهَا نَارٌ حَامِيَةٌ قَدْ بَلَغَتْ آخِرَ شِدَّتِهَا فِي الْحَرَارَةِ وَ الْإِلْتِهَابِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٦

١٠٢ سورة التكاثر مكية / آياتها (٩)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «التكاثر»، و فى كونها مكية أو مدنية خلاف، و هى تعالج قضايا العقيدة، و حيث

اختتمت سورة «القارعة» بذكر النار، افتتحت هذه السورة بغفلة الناس عنها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذى له كل شىء ولا أحق بالابتداء منه، الرحمن الرحيم، الذى يتفضل على العباد بالرحمة تفضلاً وامتناناً.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٧

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)

[٢] أَلْهَاكُمُ أى أشغلكم عن طاعة الله وعبادته، أيها الناس التكاثر بالأموال والأولاد والأموال المرتبطة بالدنيا، والتفاخر بكثرتها يقال تكاثر إذا تباهى بالكثرة.

[٣] حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ أى ذهبتم إلى القبور لزيارتها، فإن هناك ينتبه الإنسان إلى فناء الدنيا، وعدم الفائدة في التباهى والتفاخر بكثرة الأمور المرتبطة بها، أو المعنى حتى أدركتم الموت، وكنى عن ذلك زيارة المقابر دلالة على عدم بقاء الإنسان فيها أيضاً، فإنه ينتقل منها إلى الدار الآخرة.

[٤] كَلَّا ليس الأمر كما أنتم عليه من التكاثر سَوْفَ تَعْلَمُونَ عاقبة الاشتغال بالدنيا، والغفلة عن الآخرة، وهذا تهديد لهم.

[٥] ثُمَّ لترتب الكلام كَلَّا ليس الأمر على ما أنتم عليه سَوْفَ تَعْلَمُونَ كثر للتكرير والإيحاء بالارتداد عن التكاثر لو خامه عاقبته.

[٦] كَلَّا ليس الأمر كما زعمتم لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أى علماً يقينياً، بحيث تتيقنون بالآخرة- لا علماً استدلالياً فقط- أى لو تعلمون لعلمتم أن التباهى والتكاثر لا ينبغي، وإنما الاشتغال بالآخرة هو الأمر اللازم.

[٧] لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ رؤية بالقلوب، حتى كأنكم تشاهدونها، فتخافون من الاشتغال عن أمرها، بما لا فائدة فيه من التباهى والتفاخر.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٨

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ٧ الى ٨]

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

[٨] ثُمَّ بعد كثرة التفكير فى الجحيم ورؤيتها بالقلب لَتَرَوُنَّهَا أى الجحيم عَيْنَ الْيَقِينِ الذى هو كالمعانيه، كما

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون»

فأولى المراتب العلم الاستدلالي، ثم ذوق القلب باليقين الصادق ثم استيلاء اليقين على القلب حتى كأن الإنسان يشاهد الشىء المعلوم.

[٩] ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ أى الناس يَوْمَئِذٍ يوم زاد يقينكم حتى صار عين اليقين عَنِ النَّعِيمِ فإن الإنسان إذا زاد يقينه أخذ يبحث فى أموره حتى لا يكون فيها حرام أو مشتبه، فيسأل من أين جاء بهذا المال والولد؟

و من أين له هذا الجاه والمقام؟ أمن حل أو من حرام؟ وما أشبه ذلك، فهو كالمسؤول الذى تسأله نفسه عن تلك الأمور، ويحتمل

أن يراد كون السؤال هناك فى الآخرة، وكذلك رؤية الجحيم- كما فى بعض الأحاديث.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٢٩

١٠٣ سورة العصر مكية / آياتها (٤)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظ «العصر»، وهى كسائر السور المكية بصدد بيان قضية العقيدة، و حيث ختمت سورة «التكاثر» بوعيد من ألهاه التكاثر، افتتحت هذه السورة بمثل ذلك.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم الله الذى له كل شىء و يقدر على جميع أنواع الإعانة، الرحمن الرحيم الذى يرحم كل شىء بخلقه و تكميله، و يرحم الإنسان بغفران ذنبه و جبر كسره.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٠

[سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

[٢] وَالْعَصْرِ قسماً بالعصر، أى عصر النبوة، أو عصر الدهر، أو عصر الحجّة عليه السّلام، أو العصر مقابل الصبح، كما حلف سبحانه ب «الضحى» و ما أشبهه- و قد سبق الوجه فى هذه الأقسام-

[٣] إِنَّ الْإِنْسَانَ بطبيعته لَفِي خُسْرٍ أى خساره مستمره، إذ يتدرج نحو الفناء، كما تتدرج أخلاقه فى الانحطاط، فإن الإنسان كلما دخل فى الدنيا أكثر، زاد تكالبه و رذائله، بالإضافة إلى أن كل ساعه تذهب و لم يعمل الإنسان فيها صالحا كان خاسرا، إذ ذهب من رأس ماله- الذى تمكن به من تحصيل أرقى الدرجات- هباء هدرًا، و لو لم يحصل على المعصية فى تلك الساعه فرضا.

[٤] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ و رسوله و ما جاء به و عَمِلُوا الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ التى لا يشوبها السيئات و تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ بأن أوصى بعضهم بعضًا، بأن يلازم الحق و يعمل به و تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ بأن يصبروا على مكاره الدنيا، و ذلك بالصبر على الطاعة، و الصبر على المعصية، و الصبر فى الرزیه. و خصص السياق هذين الأمرين، بعد دخولهما فى مطلق الأعمال الصالحة، لشدة الاحتياج إليهما، فى تلازم العمل الصالح فإنهما عمادان له.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣١

١٠٤ سورة الهمة مكية / آياتها (١٠)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «الهمة»، و هى كسائر السور المكية بصدد بيان قضايا العقيدة و ما إليها، و حيث ذكر فى السورة السابقة كون الإنسان فى الخسر، أتت هذه السورة لتبين بعض أسبابها.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذى هو الأول قبل كل شىء، الرحمن الرحيم، ذو الرحمة المكررة المؤكدة التى وسعت كل شىء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٢

[سورة الهمة (١٠٤): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥)

[٢] وَيْلٌ هى كلمه تقال لبيان سوء حال المقوله فيه لِكُلِّ هُمَزَةٍ هو الكثير الطعن على الناس بغير حق العائب لهم، و أصل الهمز الكسر، فكأن العائب يكسر الشخص و يهدم شوخته لُمَزَةً هو المغتاب للناس، و هما وصفان بمعنى «همّاز» و «لمّاز».

[٣] الَّذِي جَمَعَ مَالًا من هنا و هناك وَ عَدَّدَهُ أى أحصاه، ليرى كم زاد، و هذه صورة للإنسان الشره المنحط النفس الذى يدأب فى جمع المال، و يعيب الناس كلهم بلا استثناء.

[٤] يَحْسَبُ أى يظن أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ أى يقيه فى الدنيا و يمنعه من الحوادث، فإن كل حادث ينوبه يدفع بالمال رشوة، أو إنفاقا لدفع جريمة عملها، أو مرض جاء إليه، أو ما أشبهه. و المراد أن فعله فعل من يحسب ذلك و إن كان كل إنسان يعلم بالموت، و يدري أنه

لا مفر له منه.

[٥] كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَىٰ مَا تَوْهَمُ، مِنْ أَنَّهُ ذُو مَالٍ مَرِحٌ إِلَى الْأَبَدِ، وَ أَنَّهُ خَالِدٌ بِمَالِهِ لِيُتَبَدَّلَ أَي يَطْرَحَنَّ هَذَا الْهَمْزَةَ اللَّمَزَةَ طَرَحًا بَدُونَ مَبَالَاةٍ وَ اعْتِنَاءٍ فِي الْحُطْمَةِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، سَمِيَتْ بِهَا لِأَنَّهَا تَحْطُمُ كُلَّ شَيْءٍ وَ تَكْسِرُهُ فَتَحْطُمُ النَّارُ كِيَانَهُ وَ كِبْرِيَاءَهُ.

[٦] وَ مَا أَدْرَاكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، أَوْ أَيُّهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَا الْحُطْمَةُ؟ وَ هَذِهِ لِتَفْخِيمِ شَأْنِهَا وَ أَنَّهَا لَا تَدْرِكُ إِلَّا إِذَا شَاهَدَهَا الْإِنْسَانُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٣

[سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ٦ الى ٩]

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

[٧] ثم جاء البيان لها بقوله: هي نارُ اللهِ المُوقَدَةُ و كم يقدر الإنسان عظمة النار التي يوقدها و يؤججها اللهُ سبحانه الذي هو أقدر القادرين للنكال و العقاب.

[٨] الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ جمع فؤاد، أى تشرف على القلوب لتحرق مكان انبعث السخرية و حب المال و تعداده بلا إنفاقه فى سبيل الله و فى وجوه الخير.

[٩] إِنَّهَا أَي الْحُطْمَةُ عَلَيْهِمْ أَي عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ مُّوَصَّدَةٌ فَتَغْلِقُ أَبْوَابَهَا عَلَيْهِمْ لِيَسْئُوا مِنَ الْخُرُوجِ، مِنْ أَوْصَدِ الْبَابِ: بِمَعْنَى أَغْلَقَهُ.

[١٠] فِي عَمَدٍ جَمْعُ عَمُودٍ مُّوَصَّدَةٌ أَي مَوْثِقِينَ فِي أَعْمَدَةٍ مَمْدُودَةٍ، فَقَدْ اعْتَادَ الْمُلُوكُ السَّابِقُونَ أَنْ يَرْبِطُوا رِجْلَ الْمَجْرِمِ بِعَمُودٍ مَمْدُودَةٍ مَبْنِي فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الْحَائِطِ لثَلَاثِ يَفْرٍ، وَ هَذَا لِزِيَادَةِ النَّكَالِ وَ الْعَذَابِ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٤

١٠٥ سورة الفيل مكية / آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الفيل»، و هى كسائر السور المكية لمعالجة قضية العقيدة، و حيث تقدمت فى السورة السابقة نكال الله بالكافرين فى الآخرة، ذكر فى هذه السورة نكاله بهم فى الدنيا.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذى يتفضل بالرحمة لكل أحد.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٥

[سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

[٢] أَلَمْ تَرَ أَي أَلَمْ تَسْمَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ أَيُّهَا السَّمَاعُ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ مِنَ الْعَذَابِ وَ النَّكَالِ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ الَّذِينَ جَاؤُوا بِهِ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ؟

[٣] أَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ كَيْدَهُمُ الَّذِي كَادُوا لِهَدْمِ الْبَيْتِ وَ احْتَالُوا لِإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ فِي تَضَلِيلِ أَي فِي تَضْيِيعِ وَ إِبْطَالِ، فَكَأَن كَيْدَهُمْ عَوْضُ أَنْ يَهْدَى إِلَى مَقْصَدِهِمْ أَضْلَهُمْ وَ أَوْرَثَ هَلَاكَهُمْ وَ دِمَارَهُمْ.

[٤] وَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا يُسَمَّى أَبَابِيلَ وَ هُوَ الْخَطَافُ أَوْ بِمَعْنَى جَمَاعَاتٍ، فَإِنَّ أَبَابِيلَ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى جَمَاعَاتٍ فِي تَفْرِقَةِ أَي جَمَاعَةٍ جَمَاعَةً.

[٥] تَرْمِيهِمْ تلك الأسراب من الطير- فإن المراد بالطير الجنس بِحِجَارِهِ مِنْ سَجَّيلٍ أى تقذفهم بأحجار صغار صلبة هي من طين متحجر، و هو معرّب «سك كل»، و ذلك أشد و أصلب و أوجع إذا أصاب الإنسان.

[٦] فَجَعَلَهُمْ أى جعل الله أولئك الأصحاب كَعَصْفٍ أى زرع مَأْكُولٍ قد أكل ثمره فبقى خاليا خاويا، فقد كان الحجر إذا أصاب أحدهم، جعله خاليا، كأنه تبين بلا حب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٦

و كان الأصل فى ذلك أن فئته من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشى، فساروا حتى دنوا من ساحل البحر، و فى حقف من أحقادها بيعه من بيع النصارى تسميها قريش «الهيكل»، فنزل القوم فجمعوا حطبا ثم أجبوا نارا و شوا لحما، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي فى يوم عاصف، فذهبت الرياح بالنار فاضطرم الهيكل نارا، فغضب النجاشى لذلك فبعث أبرهه لهدم الكعبة، فجاء أبرهه بالفيل مع الجيش، فلما أدنوه من باب المسجد قال له عبد المطلب: أ تدرى يا فيل أين يؤم بك؟ قال برأسه: لا. قال: أتوا بك لتهدم كعبة الله أ تفعل ذلك؟ فقال برأسه: لا، فجهدت به الجند ليدخل المسجد فامتنع، فحملوا عليه بالسيوف و قطعوه فأرسل الله إليهم طيرا أبابيل بعضها إثر بعض، ترميهم، فكان مع كل طير ثلاثة أحجار، حجر فى منقاره، و حجران فى مخالبه، و كانت ترفرف على رؤوسهم و ترمى الحجر بدماعهم، فدخل الحجر فى أدمغتهم و يخرج من أذبارهم فتنتفض أبدانهم «١».

(١) بحار الأنوار: ج ١٥ ص ٦٣٢.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٧

١٠٦ سورة قريش مكية / آياتها (٥)

سميت ب «الإيلاف» أيضا، لاشتغالها على اللفظتين، و هي كسائر السور المكية بصدد معالجة قضية العقيدة، و لما ذكر سبحانه دفعه الأعداء عنهم، ألحق بذلك لطفه عليهم بإطعامهم و تهيئته أسباب العيش لهم.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الأول قبل كل شىء، ليكون شعارا للمسلم المعترف بذلك، الرحمن الرحيم، الذى يتفضل بالرحمة المتكررة فى الدنيا و الآخرة على عباده.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٨

[سورة قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

[٢] لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ من «آلف» نقيض «أوحش» يعنى من أجل أن جعل الله الحرم و طرقة آمننا حتى ألف قريش أن يذهب إلى الشام و إلى اليمن، فى أمن و دعة، بلا استيحاش و خوف.

[٣] إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ أى رواحهم فى الشتاء إلى اليمن لأجل التجارة و الصَّيْفِ أى رواحهم فى الصيف إلى الشام لأجل التجارة، و هذا توضيح لقوله «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ».

[٤] فَلْيَعْبُدُوا هَذَا متعلق «لِإِيلَافِ» أى ليعبد قريش ربَّ هَذَا الْبَيْتِ إله الحرم لأجل ما صنع لهم من الألفة و الأمن، حتى ألقوا السفر فى كل سنة بلا خوف و لا وحشة، فقوله «لِإِيلَافِ» متعلق بقوله «فليعبدوا».

[٥] ثم بين بعض أوصافه سبحانه مما تخصم بقوله: الرب الذى أطعمهم أى طعم من جوع بما سبب لهم من الأرزاق فى رحلتى الشتاء و الصيف وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ بما هيا لهم حرما آمنا، لا يلقون فيه إلا الأمن حيث يختطف الناس من حولهم، و معنى «من»: بعد، أى

أطعمهم بعد الجوع، و آمنهم بعد الخوف، أو بمعنى «من حيث» أى من هاتين الناحيتين- وهذا أقرب بالنسبة إلى الموضوع- قال القمى: نزلت فى قريش، لأنه كان معاشهم من الرحلتين رحلة فى الشتاء إلى اليمن و رحلة فى الصيف إلى الشام، و كانوا يحملون من مكة الأدم و اللب و ما يقع من ناحية البحر من الفلفل

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٣٩

و غيره، فيشترون من الشام الثياب و الدرهمك «و هو دقيق الحبوب» و الحبوب، و كانوا يتألفون فى طريقهم و يبتنون فى الخروج فى كل خرجة رئيسا من رؤساء قريش، و كان معاشهم من ذلك، فلما بعث الله نبيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم استغنوا عن ذلك، لأن الناس وفدوا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و حجوا إلى البيت «١».

(١) تفسير القمى: ج ٢ ص ٤٤٤.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٠

١٠٧ سورة الماعون مكيّة أو مدنيّة / آياتها (٨)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظه «الماعون»، و فى كونها مكيّة أو مدنيّة خلاف، و على كل فهى بصدد بيان العقيدة و ما إليها، و إذ تقدم فى السورة السابقة نعمه الله على قريش، جاءت هذه السور لتردعهم عن الكفر و العصيان. بعد إسباغ تلك النعم الجليلة عليهم.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نستعين باسم «الله» ليكون سبحانه عوناً لنا فى مهام الحياة، و فى ما بعد الممات، ذى الرحمة الشاملة التى وسعت كل شىء، فتعم الأشياء عامة، و المؤمنين خاصة.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤١

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤)
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)

[٢] أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أو أيها الرائي الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ أى بيوم القيامة. فإن «الدين» بمعنى الجزاء، أو المراد بدين الإسلام و هذا استفهام تعجيبى. يعنى كيف أنه يكذب مع كثرة الآيات الدالة على صحة الدين و وقوعه.

[٣] فَذَلِكَ الْإِنْسَانَ الْمَكْذِبَ بِالذِّينِ، هو الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ «الدع» هو الدفع بشدة، أى يدفع اليتيم فلا يحسن إليه، فإن التكذيب بالدين يلازم الأعمال البشعة القاسية.

[٤] وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ أى لا يحث الناس على إطعام الفقراء الذين أسكنهم الفقر عن الحركة و العمل، و «الحض» و إن لم يكن واجباً- فى غير مورد الأمر بالمعروف و ما أشبهه- إلا أن ذلك دليل القساوة و نضوب معين الفضيلة من القلب، مما لا يكون إلا من ملازمات الكفر، و قد ورد إن بعض كفار قريش كان كذلك إذا جاءه يتيم يطلب رفته بقساوة، و هكذا كان بالنسبة إلى المساكين.

[٥] و إذا كان «دع اليتيم» و «عدم الحض على طعام المساكين» موجبا للذم و التوبيخ، فمن يعمل باسم الإسلام و هو بعيد عنه كان أولى بالذم و التوبيخ، إذ المناق أسوأ حالا من الكافر فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ

[٦] الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ أى غافلون غير مباليين بها إذ عدم المبالاة يلازم السهو.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٢

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ٦ إلى ٧]

الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُنَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

[٧] الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُنَ فإذا صلوا للرب لا لله سبحانه. وقال بعض: إن المعنى أنهم إن لم يكن أحد لم يصلوا، وإن كان أحد صلوا ليرأوه.

[٨] وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ وهو كل ما فيه منفعة للناس، أي يمنعون خيرهم ورفدهم - وذلك مما يلزم عدم الإيمان الراسخ في القلب.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٣

١٠٨ سورة الكوثر مكية أو مدنية / آياتها (٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الكوثر»، وفي كونها مكية أو مدنية خلاف و هي موجهة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولعل المناسبة بين السورتين التحدث عن «الماعون» و «الكوثر»، فهم يمنعون الماعون والله سبحانه يعطي الخير الكثير، أو المناسبة أنهم يسهون عن الصلاة، و يمنعون الخير، و الرسول مأمور بالصلاة و الخير.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله الذي ما ابتدأ به شيء إلا بورك فيه، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة والغفران.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٤

[سورة الكوثر (١٠٨): الآيات ١ إلى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

[٢] إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْكَوْثَرَ مشتق من الكثرة، بمعنى الخير الكثير. قالوا: إن السورة نزلت في العاص بن وائل السهمي، و ذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بنى سهم و تحدث مع الرسول، و صناديد قريش جالسون، فلما أن دخل قالوا له مع من كنت تتحدث؟ قال: مع الأبتري - يعني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - و قد كانت قريش تسمى من لا - ولد له «أبتري» من البتر بمعنى القطع، كأنه مقطوع ليس له ولد حتى يبقى ذكره، و قد كان مات «عبد الله» ابن رسول الله من خديجة عليها السلام، فنزلت هذه السورة «١»، و لذا كان من جملة الأقوال في معنى كوثر أن المراد بها «فاطمة» عليها السلام التي سببت كثرة النسل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، و حيث إن «الكوثر» بمعنى الخير الكثير، و هو عام، كان شاملا للنبوة و العلم، و النسل، و حوض الكوثر في الآخرة، و غيرها من سائر المعاني التي يشملها لفظ «الكوثر» بعمومه.

[٣] فَصَلِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِرَبِّكَ شُكْرًا عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظْمَى.

وَ انْحَرْ الْإِبِلَ لِإِطْعَامِ النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَحِبُّ إِطْعَامَ الطَّعَامِ، أَوْ الْمَرَادُ أَرْفَعُ يَدَيْكَ إِلَى نَحْرِكَ عِنْدَ التَّكْبِيرِ - كما ورد «٢» - فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خُضُوعًا لِلَّهِ سَبَّحَانَهُ، يَلْتَمِسُ الشُّكْرَ عَلَى نِعْمَتِهِ بِإِعْطَائِهِ الْكَوْثَرَ.

[٤] إِنَّ شَانِئَكَ أَي مَبْغُضَكَ الَّذِي يَنْسَبُكَ إِلَى «الْبَتْرِ» هُوَ الْأَبْتَرُ الْمُقْطُوعُ عَنِ الْخَيْرِ، الْخَامِلُ الذَّكَرُ، لَا أَنْتَ كَمَا نَسَبَ إِلَيْكَ - و هذه السورة على صغرها إحدى معجزات الرسول، و أدلة معجزية القرآن الحكيم.

(١) بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٠٣.

(٢) راجع من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٣٠٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٥

١٠٩ سورة الكافرون مكية أو مدنية / آياتها (٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظة «الكافرون»، وحيث إن «الكافرون» علم لها لا يتغير في الإعراب، كما يقال «دعاء أبو حمزة»، وفي كون السورة مكية أو مدنية خلاف، و على كل فإنها تعالج قضايا العقيدة، وحيث ختمت سورة «الكوثر» بذكر شاني الرسول، جاءت هذه السورة لتبين مباينة الرسول معهم في الطريقة، فلا أنه يتبعهم، و لا أنهم يتبعونه - كفرا و عنادا-. و قد ورد إن جماعة من قريش قالوا للرسول صلى الله عليه و آله و سلم هلم يا محمد فلنعبد ما تعبد، و تعبد ما نعبد، فنشترك نحن و أنت في الأمر، فإن يكن الذي نحن عليه الحق فقد أخذت بحظك منه، و إن يكن الذي أنت عليه الحق فقد أخذنا بحظنا منه فنزلت السورة

«١».

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٣٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٦

و في حديث عن الصادق عليه السلام أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه و آله و سلم: تعبد إلها سنة و نعبد إلهك سنة، و تعبد إلها سنة، و نعبد إلهك سنة. فأجابهم الله بمثل ما قالوا- أي مكررا

«١»-.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شروع في السورة مصاحبا باسم الله ليكون شعارا للشارع، و عونا في مهمات الحياة، الرحمن الرحيم الذي يتلطف بالرحمة الخاصة على من يشاء من عباده، و رحمته العامة وسعت كل شيء.

(١) بحار الأنوار: ج ٩ ص ٢٥٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٧

[سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ (٦)

[٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مخاطبا للكافرين يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ النزول و إن كان خاصا لكن المراد عام لكل كافر معاند لا يترشح عن كفره و طغيانه.

[٣] لَا أَعْبُدُ أَنَا مَا تَعْبُدُونَ أنتم من الأصنام و الأوثان، و المعنى لا أعبد في الحال ما تعبدونه الآن.

[٤] وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ أي تعبدون ما أعبد إذ عاندم و كابرتم الحق، و هذا إخبار عن الواقع، و إن كانوا مأمورين بالعبادة حسب الشرع و العقل.

[٥] وَلَا أَنَا عَابِدٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا عَبَدْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ.

[٦] وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا أَعْبُدُ أَنَا، وحيث إن الجملة الاسمية تدل على الدوام و الثبوت فسرنا الآيتين ب «المستقبل»، بخلاف الجملة الأولى حيث كانت فعلا و ظاهر الفعل «الحال» و عطفنا عليه الجملة الثانية سياقاً.

[٧] لَكُمْ دِينُكُمْ فالزموه حتى ترون جزاءه السيء و لِي دِينِ و هذا إجمال لما فصل أولا، و الأصل «ديني» حذف ياء المتكلم للتخفيف

و دلالة الكسرة عليه.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٨

١١٠ سورة النصر مدنية / آياتها (٤)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظه «النصر»، و هي كسائر السور المدنية تبين الفتح المرتبط بالنظام و الدولة، و إذ كان ختم سورة «الكافرون» ذكر الدين، جاءت هذه السورة لظهور الدين.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم «الله» الذي هو الأول في الكون، فيبدأ باسمه في أول كل شيء، الرحمن الرحيم الذي يتفضل بالرحمة خاصة و عامة لعباده المؤمنين، الذين يبدعون باسمه و يؤمنون به.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٤٩

[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

[٢]

لقد نزلت هذه السورة بعد حجة الوداع حين أخذت القبائل تدخل في الدين أفواجا حيث رأوا سلطان الإسلام يعم الجزيرة، فلما نزلت قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: نعتت إلی نفسي «١».

قالوا: و ذلك لأنها دلت على تمام مهمة الرسول إذا جاء يا رسول الله نَصِيرُ اللَّهِ لِدِينِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، و للمسلمين على الكفار وَ الْفَتْحُ أى جاء فتح مكة، بأن فتحت عاصمته الوثنية و الشرك في الجزيرة، مما أخضع الجزيرة فتحها.

[٣] وَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ النَّاسَ الْقِبَائِلَ وَغَيْرَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ الْإِسْلَامَ أَفْوَاجًا أى فوجا بعد فوج، و جماعة بعد جماعة.

[٤] فَسَبِّحْ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِحَمْدِ رَبِّكَ أى نزهه عن النقائص بذكر الحمد، فإن الحمد تنزيه و تحميد، لأن ذكر الجميل مدح مطابق و تنزيه التزامى - كما سبق -، و التسبيح و التحميد إنما ذلك للشكر على النصر و الفتح وَ اسْتَغْفِرْهُ هُضْمًا لِلنَّفْسِ، حتى لا تتعالى و تظن أن النصر إنما هو بالأتعاب، و الرسول و إن كان منزها عن ذلك، و إنما هو تعليم، بالإضافة إلى ما تقدم: من أن الأعمال الضرورية المباحة لدى الكاملين العارفين بالله مما يعدونها ابتعادا عن ساحة قربه سبحانه، فتوجب الاستغفار إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ كَانَ تَوَّابًا أى كثير الرجوع من «تاب» إذا رجع، بمعنى أن العبد مهما أذنب ثم تاب تاب الله عليه.

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١١٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٠

١١١ سورة المسد مكية / آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم، لاشتمالها على لفظه «مسد»، كما أنها تسمى بسورة «أبى لهب» و هي كسائر السور المكية ترتبط بقضية العقيدة، و إذ تقدم في سورة النصر نصر الله للرسول جاءت هذه السورة لبيان ما كفاه سبحانه من أمر أعدائه.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحم و الفضل.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥١

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)

[٢] لقد كان أبو لهب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جملة من يرمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالحجارة و يؤذيه، وكانت زوجته أم جميل تحمل الشوك في الليل فتنشره في طريق الرسول، حتى إذا أراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الخروج من منزله نغزت الأشواك رجله الكريمة، فنزلت تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ أي خسرت يداه، وهذا من جهة أن ما ارتكبه من الإثم كان بيديه، كما

قال الرسول لعروة «بارك الله في صفقة يمينك»

حين كان البيع بيده، وَتَبَّ الثاني تأكيد للأول، أي خسرت يداه وخسرت.

[٣] مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ أَي عَنْ أَبِي لَهَبٍ مَالُهُ أَي مَا نَفَعَهُ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُ وَمَا كَسَبَ أَي مَا عَمِلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِثْمِ وَإِيذَاءِ الرَّسُولِ، وَ «مَا» مَوْصُولَةٌ عَائِدَةٌ مَحذُوفٌ، أَي مَا كَسَبَهَا.

[٤] سَيَصْلَىٰ فِي الْآخِرَةِ، أَي يَدْخُلُ النَّارَ مَلَاذِمًا لَهَا نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ أَي اشْتَعَالَ وَتَوَقَّدَ، كَمَا كَانَ هُوَ «أَبَا لَهَبٍ»، بِاعْتِبَارِ أَنَّ وَجْتِيهِ مَحْمَرَتَانِ كَأَنَّهُمَا مَلْتَهَبَتَانِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرِيقِ.

[٥] وَامْرَأَتُهُ أَي تَبَّتْ وَخَسِرَتْ امْرَأَتُهُ، أَعْنَى حَمَّالَةَ الْحَطَبِ وَسَمِيَتْ بِهَذَا الْاسْمِ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الشُّوكَ كَمَا تَقْدَمُ، وَنَسَبَ «حَمَّالَةَ» عَلَى الذَّمِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

وَاقْطَعْ أَوْ اتَّبِعْ إِنْ يَكُنْ مَعِينًا بَدُونِهَا أَوْ بَعْضُهَا اقْطَعْ مَعَلْنَا

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٢

[سورة المسد (١١١): آية ٥]

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ (٥)

وَارْفَعْ أَوْ انْصَبْ إِنْ قَطَعْتَ مَضْمَرًا مُبْتَدَأً أَوْ نَاصِبًا لِنِ يَظْهَرُ [٦] فِي جِيدِهَا أَي جِيدَ امْرَأَتِهِ أُمِّ جَمِيلٍ، وَكَانَتْ أُخْتُ «أَبِي سَفِيَانَ» الْمَعْرُوفِ حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ هُوَ «الليف»، فَقَدْ كَانَتْ تَعْلُقُ الْحَبْلَ الْمَشْدُودَ عَلَى الْأَشْوَاكِ بَعْنَقَهَا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ «وَأَمْرَاتُهُ» مُبْتَدَأً وَ«فِي جِيدِهَا» خَبْرَهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٣

١١٢ سورة الإخلاص مكية أو مدنية / آياتها (٥)

و تسمى بسورة «التوحيد»، سميت ب «الإخلاص» لأن فيها إخلاص المبدأ من الشريك، و سميت ب «التوحيد» لاشتمالها على توحيد الله سبحانه، في قوله «الله أحد»، و في كونها مكية أو مدنية خلاف، و على أي حال فإنها ترتبط بقضايا العقيدة، و حيث كانت السورة السابقة مرتبطة بالرسول، جاءت هذه السورة مرتبطة بالمرسل.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الإله الذي له ما في السماوات والأرض، و هو الواحد المنفرد في الكون بالألوهية، الرحمن الرحيم الذي يتفضل على العباد بالرحم واللطف.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٤

[سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ إلى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)
 [٢]

ورد إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألوا منه ما نسبة ربك؟
 فأنزل الله سبحانه هذه السورة

«١» قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ رَبِّي الَّذِي أَدْعُو إِلَيْهِ اللَّهُ أَحَدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا جُزْءَ.

[٣] اللَّهُ الصَّمَدُ «الصمد» لغة: بمعنى السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه، يعنى أنه السيد المطلق الذي بيده كل شيء، فلا يقع أمر في الكون إلا بإذنه وأمره.

[٤] لَمْ يَلِدْ أَحَدًا، فليست الملائكة بناته - كما زعم الكفار - ولا المسيح وعزير واليهود والنصارى أبناؤه - كما زعم أهل الكتاب - وَ لَمْ يُولَدْ مِنْ أَحَدٍ، فلا أب له ولا أم.

[٥] وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا خَيْرٌ كَانَ، أى مثلا ونظيرا أَحَدٌ اسم كان، أى ليس أحد كفوه بمعنى نظيره ومثله، فهو المتفرد الذي لا شبيه له ولا نظير.

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٨٥.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٥

١١٣ سورة الفلق مدنية / آياتها (٦)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة «الفلق»، و السورة مدنية، وإن كانت بصدد بعض الأمور المرتبطة بالإنسان حين يصد بمكروه، و حيث كانت سورة الإخلاص إقرارا بالآله الواحد، كانت هذه السورة استعاذة به.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم الله المستجمع لجميع صفات الكمال، الرحمن الرحيم، الذى يتفضل بالرحمة واللطف على جميع الخلق ابتداء و تربية، و تكميلا للنواقص و النقائص.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٦

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)
 وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

[٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعُوذُ أَى أَعْتَصِمُ وَ أَسْتَجِيرُ مِنَ الْمَكَارِهِ بِرَبِّ الْفَلَقِ «الفلق» هو الصبح، و أصله الشق، لأن الظلمة تنشق عنه.

[٣] مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ أَى شَرِّ كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الْمُؤَذِيَاتِ، إنسانا كان أو جنا أو حيوانا أو جمادا كالسيل و العواصف.

[٤] وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ أَى اللَّيْلِ، من «العسق» بمعنى الظلمة إذا وَقَبَ أى إذا دخل، فإن كثيرا من الشرور يتوجه إلى الإنسان فى الليل و فى ظلامه، حيث العيون نائمة، و الظلام مخيم.

[٥] وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ جمع «نفاثة» و هى المرأة الساحرة التى تنفث - أى تنفخ - فى الشئ الذى عقد السحر به، و «عقد» جمع عقدة، فإن الساحرة تعقد الخيط بقصد عقد حظ أحد، أو عقده عن زوجته، ثم تنفث فى تلك العقدة بسحرها و أورادها، و السحر له أثر، كما ثبت فى علم النفس، و دلت على ذلك التجربة.

[٦] وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَسَدَ غَيْرَهُ أَوْرَثَهُ حَسَدَهُ عَلَى أَنْ يُؤْذِيَهُ بِلِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَ لَعَلَّ مَعْنَى إِذَا حَسَدَ: إِذَا ظَهَرَ حَسَدَهُ، وَ عَمِلَ بِمَقْتَضَاهُ.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٧

١١٤ سورة الناس مدنيّة / آياتها (٧)

سميت السورة بهذا الاسم لاشتغالها على لفظه «الناس»، و هي مدنيّة، و تعالج بعض الأمور المرتبطة بالإنسان، و هي نظير السورة السابقة في الاستعاذة بالله، من بعض أقسام الشرور.

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ابتداء باسم «الله» الذي هو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال، و هل هناك أحق بالابتداء منه، الرحمن الرحيم، الذي يتفضل على العباد بالرحم و الفضل، فقد وسعت رحمته كل شيء.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٨

[سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)
الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)

[٢] قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعُوذُ أَى أَسْتَجِيرُ وَ أَعْتَصِمُ مِنَ الشَّرِّ بِرَبِّ النَّاسِ خَالِقِهِمْ وَ مَرِيئِهِمْ.

[٣] مَلِكِ النَّاسِ فَهُوَ الْمَالِكُ الْمَطْلُوقُ لَهُمْ، لَا مَلِكَ غَيْرِهِ وَ سَائِرِ الْمُلُوكِ إِنَّمَا هُمْ صُورِيُونَ، لَا حَقِيقَةَ لِمَلُوكِيَّتِهِمْ إِلَّا الْإِعْتِبَارُ.

[٤] إِلَهِ النَّاسِ الَّذِي هُوَ إِلَهُهُمْ، فَلَيْسَتْ الْأَصْنَامُ آلِهَةً كَمَا يَزْعُمُ الْكُفَّارُ، فَهُوَ «رَبٌّ» وَ «مَلِكٌ» وَ «إِلَهٌ» فَتَرْبِيَةُ النَّاسِ مِنْهُ، وَ سَيِّدُهُمُ الْمَالِكُ لَهُمْ هُوَ، وَ مَعْبُودُهُمُ الَّذِي لَا مَعْبُودَ سِوَاهُ هُوَ سُبْحَانَهُ.

[٥] مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ أَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْءِ الَّذِي يُوسْوِسُ لِلْإِنْسَانِ، لِيَلْقِيَهُ فِي الْكُفْرِ وَ الْعِصْيَانِ، وَ أَصْلُهُ مِنَ «الْوَسْوَسَةِ» وَ هِيَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، فَإِنَّ مِنْ يَرِيدُ الْإِغْوَاءَ مِنْ إِنْسٍ أَوْ شَيْطَانٍ يَخْفَى الصَّوْتُ فِي أُذُنِ الشَّخْصِ أَوْ صَدْرِهِ، حَتَّى يَضِلَّهُ وَ يَلْقِيَهُ فِي الْمَعْصِيَةِ الْخَنَّاسِ مِنْ «خَنَّاسٍ» بِمَعْنَى اخْتَفَى، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ يَرِيدُ الْإِضْلَالَ كَثِيرٌ الْإِخْتِفَاءِ، أَمَا الشَّيْطَانُ فَوَاضِحٌ، وَ أَمَا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ الْإِضْلَالَ يَخْفَى نَفْسَهُ لِثَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ فَيَحْبِطُ وَ سَوْسَتَهُ، وَ تَظْهَرُ مَكِيدَتُهُ لِلنَّاسِ فَيُزِدُونَهُ وَ يَطْرُدُونَهُ.

[٦] الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ أَمَا وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ فِي الصَّوْتِ فَوَاضِحٌ، وَ كَوْنُهُ فِي الصَّوْتِ لِأَنَّ الْوَسْوَسَةَ فِي الْقَلْبِ وَ الْقَلْبُ فِي الصَّوْتِ، وَ أَمَا وَسْوَسَةُ الْإِنْسَانِ فِيهِ فَلِأَنَّهُ يَلْقَى الْكَلَامَ إِلَى الْقَلْبِ - مِنْ

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٥٩

[سورة الناس (١١٤): آية ٦]

مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (٦)

الأذن - و القلب في الصدر.

[٧] مَتَنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ بَيَانٌ لِلْوَسْوَاسِ، أَى الْوَسْوَاسِ الَّذِي هُوَ مِنْ جِنْسِ الْجِنِّ - أَى الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ قَسَمٌ مِنَ الْأَجْنَةِ - أَوْ مِنْ جِنْسِ الْإِنْسِ.

وقانا الله جميعا من شر كل شر بمحمد و آله الطاهرين سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ* وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ* وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١» وَ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّيِّبِينَ الْمَيَامِينِ.

تم على يد مؤلفه محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي سنة ١٣٨٤ هجرية بكرة بلاء المقدسة

(١) الصفات: ١٨١-١٨٣.

تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٦١

المصادر و المراجع

- ١- الاحتجاج، أبو منصور، أحمد بن علي الطبرسي، نشر المرتضى - مشهد، ١٤٠٣ هـ. ق.
 - ٢- الاقتصاد. الشهيد السيد حسن الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، لبنان، ١٩٨٠ م.
 - ٣- الإسلام يتحدى.
 - ٤- الأمالي، الشيخ الطوسي، دار الثقافة للنشر- قم، ١٤١٤ هـ. ق.
 - ٥- الأمالي، الشيخ الصدوق، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٤ هـ. ق.
 - ٦- أنيس الأعلام، الشيخ محمد صادق فخر الإسلام.
 - ٧- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ١٤٠٤ هـ. ق.
 - ٨- بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، مكتبة آية الله المرعشي - قم، ١٤٠٤ هـ. ق.
 - ٩- تأويل الآيات الظاهرة، السيد شرف الدين الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ١٤٠٩ هـ. ق.
 - ١٠- التحصين، السيد علي بن طاوس الحلبي، مؤسسة دار الكتاب - قم، ١٤١٣ هـ. ق.
 - ١١- تفسير الإمام العسكري، المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي - قم، ١٤٠٩ هـ. ق.
 - ١٢- تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي، المطبعة العلمية - طهران،
- تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٦٢
- ١٣٨٠ هـ. ق.
- ١٣- تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم الكوفي، مؤسسة الطبع و النشر، ١٤١٠ هـ. ق.
 - ١٤- تفسير القمي، علي بن إبراهيم بن هاشم القمي، دار الكتاب - قم، ١٤٠٤ هـ. ق.
 - ١٥- التهذيب، الشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥ هـ. ش.
 - ١٦- تنزيه الأنبياء، السيد المرتضى علم الهدى، دار الشريف الرضي - قم ١٧- ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، دار الرضي للنشر - قم، ١٤٠٦ هـ. ق.
 - ١٨- جواهر الكلام، محمد حسن النجفي.
 - ١٩- حرية الفكر، سلامة موسى ٢٠- الخصال، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، ١٤٠٣ هـ. ق.
 - ٢١- دائرة المعارف، وجدى.
 - ٢٢- دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري، دار الذخائر للمطبوعات - قم ٢٣- ديوان الإمام علي، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، دار نداء الإسلام للنشر - قم، ١٤١١ هـ. ق.
 - ٢٤- رسول الله في المدينة (سلسلة قادة الإسلام)، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.
 - ٢٥- روضة الواعظين، محمد بن الحسن الفتال، دار الرضي - قم ٢٦- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، مكتبة آية الله المرعشي - قم، ١٤٠٤ هـ. ق.
 - ٢٧- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، مؤسسة الطبع و النشر، ١٤١١ هـ. ق.

- ٢٨- الطرائف، السيد على بن طاووس الحلبي، مطبعة الخيام- قم، ١٤٠٠ هـ. ق.
- ٢٩- عبادات الإسلام، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الفكر
تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٦٣
الإسلامي، لبنان بيروت، ١٩٩٣ م.
- ٣٠- العدالة الإسلامية، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، مطبعة الغري، النجف الأشرف، ١٣٨٠ هـ. ق.
- ٣١- عدة الداعي، أحمد بن فهد الحلبي، دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٧ هـ. ق.
- ٣٢- على حافة العالم، الاثري ٣٣- عوالي اللالكئي، ابن أبي جمهور الأحسائي، دار سيد الشهداء قم، ١٤٠٥ هـ. ق.
- ٣٤- عين العبرة، أحمد بن موسى بن طاووس الحلبي، دار الشهاب- قم ٣٥- الفلسفة و الكلام ٣٦- الفقه حول القرآن الكريم، الإمام
السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم، لبنان، ١٩٨٧ م ٣٧- فقه القرآن، قطب الدين الراوندي، مكتبة آية الله المرعشي- قم،
١٤٠٥ هـ. ق.
- ٣٨- الفقه (الموسوعة الاستدلالية)، الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم، لبنان، ١٩٨٧ م.
- ٣٩- قصص الأنبياء، قطب الدين الراوندي، مؤسسة البحوث الإسلامية- مشهد، ١٤٠٩ هـ. ق.
- ٤٠- قصص الأنبياء، السيد نعمه الله الجزائري، مكتبة آية الله المرعشي- قم، ١٤٠٤ هـ. ق.
- ٤١- الكافي، ثقة الإسلام الكليني، دار الكتب الإسلامية- طهران، ١٣٦٥ هـ. ش.
- ٤٢- كامل الزيارات، ابن قولويه القمي، دار المرتضوية- النجف الأشرف، ١٣٥٦ هـ. ق.
- ٤٣- كنز العمال، للمتقي.
- تقريب القرآن إلى الأذهان، ج ٥، ص: ٧٦٤
- ٤٤- اللهوف، السيد على بن طاووس الحلبي، دار العالم (جهان)- طهران، ١٣٤٨ هـ. ش.
- ٤٥- متشابه القرآن، ابن شهر آشوب المازندراني، دار بيدار للنشر، ١٣٦٩ هـ. ق.
- ٤٦- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، لبنان، ٢٠٠٠ م.
- ٤٧- مستدرك الوسائل، المحدث النوري، مؤسسة آل البيت- قم، ١٤٠٨ هـ. ق.
- ٤٨- المس الروحي، عبد الرزق نوفل ٤٩- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي- قم، ١٤٠٣ هـ. ق.
- ٥٠- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دار العلوم، لبنان، ٢٠٠٣ م ٥١- مفتاح الفلاح، الشيخ البهائي، دار الأضواء- بيروت، ١٤٠٥ هـ.
ق.
- ٥٢- مناقب آل أبي طالب، محمد بن شهر آشوب المازندراني، مؤسسة العلامة للنشر، قم، ١٣٧٩ هـ، ش.
- ٥٣- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي- قم، ١٤١٣ هـ. ق.
- ٥٤- نهج البلاغة، الإمام على بن أبي طالب عليه السلام، دار الهجرة للنشر- قم.
- ٥٥- الهيئة و الإسلام، للعلامة الشهرستاني.
- ٥٦- وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت- قم، ١٤٠٩ هـ. ق.
- ٥٧- الوسيلة، ابن حمزة الطوسي، مكتبة آية الله المرعشي- قم، ١٤٠٨ هـ. ق.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهايز هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافتهم الثقليين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافتهم القراءة و إغناء أوقات فراغهم هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبة، نشره شهرية، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كمشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" و "مفتوح" و فاني/ "بناية" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزانية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكوميته، و غير ربحيته، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحاليه و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله اعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ان يوفق الكل توفيقاً متزائداً ليعانثهم - فى حد التمكّن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

